ملتقى الخطباء
www.KHUTABAA.com

٢١٤
البيان
مركز البيان للبحوث والدراسات
Al-Bayan Center for Research and Studies

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

المجموعة الثانية

مركز البيان للبحوث والدراسات
Al-Bayan Center for Research and Studies

ملتقى الخطباء
www.KHUTABAA.com

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء السادس

المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٦)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢ _ ٠٥٠٢٢١٩٢٠ _ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ _ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ _ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦



تقديم

الحمد لله رب العالمين، ونصلي ونسلم علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن مؤسسة ملتقىٰ الخطباء تأسست لتحمل علىٰ عاتقها رسالة تجديد خطبة الجمعة وتفعيل أثرها في حياة المسلمين، وأطلقت من أجل ذلك شبكة ملتقىٰ الخطباء؛ مستهدفة توحيد الجهود الخادمة لخُطْبَة الجمعة، والارْتِقَاء بالخطاب الدعوي والإصلاحي، وتطوير مستوىٰ الخطباء علميًّا ومهاريًّا. وقد بلغت خدمات هذه الشبكة خطباء العالم في أكثر من مائة وثنتين وثمانين دولة حول العالم، ولكنْ بقي للكتاب المطبوع جمهوره، وللتعامل مع الورق مريدوه، فلا زالت الطلبات تتوالىٰ علينا وعلىٰ مشايخنا الذين ينشرون عندنا راغبة في طباعة بعض الخطب، أو بعض الموضوعات.

واستجابة لهذه الطلبات، وحرصًا منا علىٰ زيادة تبليغ العلم والخير، ورغبة في إبراز النماذج الناجحة في الخطب المتكاملة، تطلق المؤسسة باكورة مشروعها العلمي الكبير لطباعة الخطب المتميزة.

وقد اخترنا للبداية خطب فضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الحقيل -حفظه الله-؛ وذلك لِمَا له من دور فاعِل علىٰ موقع المؤسسة ومنتداها، وما حظيت به خُطَبُه من قبول واسع من الخطباء في العالم الإسلامي من أقصاه إلىٰ أدناه.

وقد اقتصر دور المؤسسة علىٰ جمع تلك الخطب بين دفتي كتاب واحد، بعد مراجعتها، وضبطها كاملةً بالشكل، وإضافة الحواشي التي أضافها المؤلف.

وإنا نحمد الله تعالىٰ الذي يسر إخراج هذه المجموعة من الخطب بهذه الصورة، ثم نشكر فضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الحقيل علىٰ هذا الإنجاز، وندعو له بالتوفيق والسداد، والثبات والقبول، كما نشكر الإخوة الفضلاء أعضاء الفريق العلمي في المؤسسة علىٰ ما بذلوه من مجهود، وما قاموا به من عمل لإخراج هذا الكتاب.

وستستمر المؤسسة -إن شاء الله تعالىٰ- في طباعة الخطب المميزة المنشورة في ركن الخطب وفق خطة مرسومة، وترحب بالراغبين في التواصل والتعاون وإبداء المرئيات والمقترحات.

موقع الشبكة علىٰ الإنترنت: www.khutabaa.com

البريد الإلكتروني: info@khutabaa.com

نسأل الله تعالىٰ أن يحظىٰ هذا المشروع بتوفيق الله تعالىٰ، ثم بقبول القارئ الكريم، وأن يتقبل منا ومن خطبائنا الكرام جهدهم المتواصل في نصرة دين الله تعالىٰ، وإصلاح ما ضعف من أخلاقيات المجتمع، ونشر العقيدة الصحيحة، ودحر البدع والخرافات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

المدير العام

د. ماجد بن عبد الرحمن آل فريان

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كَمَا يُحِبّ ويَرْضىٰ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّم علىٰ خير خلقه، وخاتم رسله محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فهذه هي المجموعة الثانية مِنَ الخطب المسماة **(المفيد في خطب الجمعة والعيد)** وهي في خمس مجلدات، أربعة منها للخطب، والخامس كشافات خادمة للخطيب والباحث والقارئ، علىٰ غرار المجموعة الأولىٰ التي صدرت في خمس مجلدات عام ١٤٢٦هـ، ولاقت -ولله الحمد- قبولًا واستحسانًا من الخطباء وطلبة العلم، حتىٰ نفدت كميتها، وسنعيد طباعتها إن شاء الله تعالىٰ مَشْكُولة كما هو الحال في هذه المجموعة التي تُمَثِّل المجلدات (٦-٧-٨-٩-١٠)، ويليها إن شاء الله تعالىٰ المجموعة الثالثة، وتمثل المجلدات (١١-١٢-١٣-١٤-١٥)، وسأستمر علىٰ هذه الطريقة؛ فإذا اجتمع من الخطب ما يكفي لأربع مجلدات أخرجتها دفعة واحدة، ويكون الخامس منها كشافًا خادمًا للمجموعة.

هذا؛ وقد قدمت لهذه المجموعة بستة موضوعات تخدم الخطيب، فيما يتعلق بالاستدلال بالكتاب والسُّنَّة، وتخصيص خطبة بآية أو سورة أو بحديث أو بقصة قرآنية أو بقصة نبوية، مع تكميل لموضوع سابق نشر في المجموعة الأولىٰ وهو (الإشارة في الخطبة).

ومنهجي في هذه المجموعة لم يحِدْ عن منهجي في المجموعة الأولىٰ؛ ولذا فلن أعيده هنا حتىٰ لا أطيل، ويمكن مراجعته في المجموعة الأولىٰ، لَكِنِّي

زِدْتُ في هذه المجموعة كشافًا للخطب مرتبًا علىٰ تواريخها، وهو لم يكن في المجموعة الأولىٰ، ومن فوائده أنه يكشف للباحث والناقد اهْتِمَامات الخطيب، وانحيازه لبعض الموضوعات دون بعض؛ ولذلك أسباب عدة من أهمها: النوازل التي تنزل بالناس، وغفلة الخطيب عن بعض الموضوعات، بسبب أنه لا يَسِيرُ علىٰ خطة في الموضوعات التي يتَنَاوَلها، ولا يتفقَّد خطبه بين حين وآخر؛ ليتبين له النقص في الموضوعات التي فيها نقص، وخاصة حينما تكثر الخُطَب عنده.

وإني لأعتذر للخطباء وقراء هذه المجموعة عن التأخر في طباعتها؛ إذ كان من المفترض أن تُطْبَع قبل سِتِّ سنوات علىٰ الأقل، أي في عام ١٤٢٩هـ، ولكن حال دون ذلك انشغالي برسالة الدكتوراه، وضياع كثير من الخُطَب؛ ولهذا السبب الأخير قِصَّة مؤلمة؛ فإني انتقلت من الكتابة باليد إلىٰ أزرار الحاسب في عام ١٤٢٦هـ، وكوني مبتدئًا في ذلك ما كنت أدرك أهمية تعدّد نسخ الخطبة، ووضعها في أكثر مِنْ جِهَاز، فكنت أخزنها في خانة (دي) من جهاز الحاسب، وعندي النسخ الورقية التي أخطب بها أخرج الأحاديث وأوثق النقول عليها، وأحيانًا يطلبها أحد الناس مني فأدفعها إليه ليصورها ثم لا يعيدها وأنسىٰ، وأنا مطمئن لوجودها في الجهاز، وذات مرة تعَطَّل الجهاز، فذهبت به للصيانة فنَظَّفُوه من كل ما فيه، وضاع ما يقرب من سبعين خُطْبة، ومقالات وبحوث عدة لا أعرف عددها، لكن أتذَكَّر أن بعضها أفنَيْتُ فيه وقتًا وجهدًا كبيرين، والحمد لله علىٰ كل حال.

فمكثت قرابة سنة أبحث عن النسخ المفقودة من الخطب، ولا أعرف موضوعاتها ولا عناوينها؛ لأني نسيتها، ولم أضع فهرسًا لها أحتفظ به لنفسي.

فجمعت النسخ الورقية للخطب في الأعوام الأربعة (١٤٢٥-١٤٢٦-١٤٢٧-١٤٢٨) فتبين لي النقص الكبير، فضجرت جدًّا، وعصفت ذاكرتي لأجد طريقة أصل إلىٰ ما ضاع مني، فتذكرت أني أثناء التصحيح لا أرمي المسودات ولو تعَدَّدَتْ إلىٰ عشر مسودات للموضوع الواحد ما لم يطبع الكتاب فأتلفها بعد طباعته، فأخرجتها من مخزنها وكانت كمًّا كبيرًا جدًّا، وجلست أسابيع عليها، فظفرت -بحمد الله تعالىٰ- بقرابة ثلاثين خطبة مما ضاع، وأعدت صَفَّها وتَخْرِيجها من جديد.

ثم تذكرت أن عددًا من الإخوة المشايخ كانوا يأخذونها مني نسخًا ورقية، فهرعت إلىٰ الاتصال بهم، وكانوا ثلاثة، فأحدهم قال: كلها كان عندي علىٰ ورق من عام ١٤٢١، إلىٰ الآن، ولكن مع الأسف أتلفتها قبل شهر؛ لأنها كثرت وضايقتني. والثاني أيضًا أتلفها قبل أشهر. والثالث أحضر ما عنده فكان ما عنده بعد تواريخ النقص لا قبلها، إلا ثلاث خطب ظفرت بها. وبحثت في أجهزة محمولة قديمة عندي؛ لأني ظننت أني قد أكون كتبت بعضها في السفر، ووجدت عددًا منها أيضًا، لكنه ليس كثيرًا.

ثم تَذَكَّرْتُ أن بعض المصلين كان يسجلها صوتيًّا لخاصة نفسه فاتصلت بهم، وظفرت بعدد قليل، وأَفْرَغْتُهَا مِنَ الصَّوْتِ علَىٰ الوَرَقِ وخرجتها، حتىٰ قلصت الفارق إلىٰ عشر خطب أو قريبًا منها، فلم أعثر عليها.

وكان عندي خطب قديمة من عام ١٤١٤هـ وما جاوره من الأعوام، ولم أدخلها في المجموعة الأولىٰ لما أخرجتها؛ لأن بعضها كان مفقودًا آنذاك، ثم عثرت عليها أثناء بحثي عما ضاع في المجموعة الثانية. وما كان موجودًا منها لم أخرجه ولم أوثقه، ورأيت أنها لا تستحق أن أضمها إلىٰ المجموعة

الأولىٰ، وكِدْتُ أن أتلفها لَوْلَا أن الله تعالىٰ رَدَّنِي عن ذلك، فله الحمد والشكر، ثم نشطت لتخريج بعضها وتوثيق ما استطعت، وضممته إلىٰ هذه المجموعة، وتواريخها مثبتة فيها، وهي تحمل الأرقام التالية (٢٥٥، ٢٦٤، ٢٨٩، ٢٩١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٠).

والله تعالىٰ أسأل أن يَتَقَبَّلَ هذه المجموعة بقبول حسن، وأن ينفع بها المسلمين، وأن يجعلها ذخرًا لي يوم القيامة، وأن يرزقني الإخلاص فيها وفي غيرها من الأعمال الصالحة.

ويشرفني تعقب المتعقبين، وتصويب المصوّبين؛ فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

والله تعالىٰ المستعان في كل الأعمال والأحوال، والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن محمد الحقيل

ليلة الثلاثاء: ٢٢ جمادىٰ الآخرة ١٤٣٥هـ

Hogail22@gmail.com

تمهيد

٤- تكميل موضوع الإشارة في الخطبة.

٥- استدلال الخطيب بالقرآن.

٦- استدلال الخطيب بالسنة.

٧- الخطبة بسورة أو بآيات أو بآية.

٨- الخطبة بحديث من السنة.

٩- قصص القرآن في خطبة الجمعة.

١٠- قصص السنة في خطبة الجمعة.

٤- تكميل موضوع الإشارة في الخطبة[1]

لما كتبت موضوع (الإشارة في الخطبة)، ونشرته في المجموعة الأولىٰ من المفيد في خطب الجمعة والعيد (١/ ٥٧)، ذكّرني بعض الإخوة المشايخ بحديث يناسب أن يكون في موضوع الإشارة، وكنت قد ذهلت عن هذا الحديث، رغم أنني قرأته من قبل، أو أنني رأيت وقتها أنه لا يدخل في باب الإشارة.

وهذا الحديث هو ما جاء عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبد الرَّحْمَنِ، قَالَ: رَأَيْتُ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ، يَوْمَ جُمُعَةٍ يَرْفَعُ يَدَيْهِ، فَقَالَ: عُمَارَةُ بْنُ رُؤَيْبَةَ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ»[2].

فقول الراوي: «رافعًا يديه» يدل علىٰ أن ذلك كان في الدعاء، وأن الهَدْيَ النبوي في الدعاء في الخطبة الإشارة بالمسبحة دون رفع اليدين.

وقد اختلف شارحو الحديث في معنىٰ ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن المقصود به النهي عن رفع اليدين حال الدعاء في الخطبة، وهو ما يدل عليه ظاهر الحديث، ويتأيَّد برواية ابن خزيمة، وفيها: سَمِعْتُ

---

(١) نشرت في المجموعة الأولىٰ من (المفيد في خطب الجمعة والعيد) أربعة موضوعات، وهي: (١- كيف تختار موضوع الخطبة)، و(٢- كيف تعد خطبة الجمعة)، و(٣- الصوت في الخطابة)، و(٤- الإشارة في الخطبة)، وهذا الموضوع تكملة لموضوع الإشارة، وما يتلوه من موضوعات تكملة لهذه السلسلة في إعداد الخطيب وتكوينه وتدريبه.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٤).

عُمَارَةَ بْنَ رُوَيْبَةَ الثَّقَفِيَّ قَالَ: خَطَبَ بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ يَدْعُو، فَقَالَ عُمَارَةُ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ . . .» الحديث[٣].

وبرواية أحمد: عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبد الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: كُنْتُ إِلَىٰ جَنْبِ عمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ وَبِشْرٌ يَخْطُبُنَا، فَلَمَّا دَعَا، رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ عمَارَةُ -يَعْنِي-: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، أَوْ هَاتَيْنِ الْيُدَيَّتَيْنِ؛ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ إِذَا دَعَا يَقُولُ هَكَذَا، وَرَفَعَ السَّبَّابَةَ وَحْدَهَا»[٤].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «فيه أن السُّنَّةَ أن لا يرفع اليد في الخطبة، وهو قول مالك وأصحابنا وغيرهم، وحَكَىٰ القاضي عن بعض السلف وبعض المالكية إباحته؛ لأن النبي ﷺ رفع يديه في خطبة الجمعة حين استسقىٰ، وأجاب الأولون بأن هذا الرفع كان لعارض» اهـ[٥].

القول الثاني: أن المقصود به النهي عن تحريك اليدين لإفهام السامعين، وأن السنة أن يكتفي الخطيب بالإشارة بأصبعه المسبحة كفعل النبي ﷺ.

قال شرف الحق العظيم آبادي في غاية المقصود: «قلت: وهل المراد في حديث عمارة بالرفع المذكور رفع اليدين عند الدعاء علىٰ المنبر، أو المراد رفع اليدين لا وقت الدعاء بل عند التكلم، كما هو دأب الوعاظ والقصاص أنهم يحركون أيديهم يمينًا وشمالًا ينبهون السامعين علىٰ الاستماع؟! فحديث عمارة يدور إسناده علىٰ حصين بن عبد الرحمن، ورواته اختلفوا عليه؛ فرواية عبد الله ابن إدريس وأبي عوانة وسفيان كلهم عن حصين تَدُلّ علىٰ المعنىٰ الثاني؛ ولذا بوب النسائي: باب الإشارة في الخطبة، وبوب ابن أبي شيبة: الرجل يخطب

(٣) صحيح ابن خزيمة (١٧٩٣).
(٤) مسند أحمد، ط الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين (١٧٢٢٤).
(٥) شرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ١٦٢)، وشرح العيني علىٰ أبي داود (٤/ ٤٤٥).

يشير بيده، وهكذا فهم الطيبي.

ورواية هشيم وزائدة وابن فضيل كلهم عن حصين تدل علىٰ المعنىٰ الأول، وهكذا فهم النووي، وأما ترجمة المؤلف -يعني أبا داود- وكذا الترمذي فمُحْتَمل لمعنيين، وعندي للمعنىٰ الثاني ترجيح من وجهين:

الأول: أن أبا عوانة الوضاح وسفيان الثوري وعبد الله بن إدريس أوثق وأثبت من هشيم بن بشير ومحمد بن فضيل، وإن كان زائدة بن قدامة مثل هؤلاء الثلاثة في الحفظ، فتعارض رواية هؤلاء الثلاثة الحفاظ برواية زائدة بن قدامة، والعدد الكثير أولىٰ بالحفظ.

والثاني: أن قوله الآتي: لَقَدْ رأيت رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر ما يَزِيدُ علىٰ هذه، يعني: السبابة التي تَلِي الإبهام، يؤيد هذا المعنىٰ الأخير؛ لأن رفع اليدين في الدعاء ليس مأثورًا بهذه الصفة، بل أراد الراوي أنَّ رَفْع اليدين كلتيهما لتخاطب السامعين ليس من دأب النبي ﷺ، بل إنما يشير النبي ﷺ بأصبعه السبابة» انتهىٰ مختصرًا من غاية المقصود(٦).

قلت: هذا الذي رجحه مرجوح من أوجه:

الوجه الأول: أنه قد نُصَّ في بعض الروايات علىٰ أن بشرًا رَفَعَ يَدَيْه في الدعاء، حتىٰ في الروايات الثلاث التي احتج بها شرف الحق آبادي علىٰ أن الحديث فيه نَهْي عن الإشارة لإفهام السامع، وهي كما يلي:

١- رواية أبي عوانة الوضاح: قال النسائي: أخبرنا قتيبة بن سعيد، ثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن قال: «رأيت بشر بن مروان يوم الجمعة يرفع يديه، فقال: يا عمارة بن رويبة قبح الله هاتين اليدين، لَقَدْ رَأَيْت

---

(٦) عون المعبود (٣/ ٣١٩).

رسول الله ﷺ ما يزيد علىٰ هذا، وأشار أبو عوانة»[٧].

٢- رواية سفيان الثوري: قال النسائي: أخبرنا محمود بن غيلان، قال: حَدَّثَنَا وكيع، قال: حدثنا سفيان، عن حصين، أن بشر بن مروان، رفع يديه يوم الجمعة علىٰ المنبر، فَسَبَّهُ عمارة بن رويبة الثقفي، وقال: «ما زاد رسول الله ﷺ علىٰ هذا»، وأشار بإصبعه السبابة[٨].

٣- رواية عبد الله بن إدريس: قال ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ، رَأَىٰ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ: هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ»[٩].

فهذه الروايات الثلاث كلها دالة علىٰ أن بشرًا رَفَعَ يَدَيْهِ في الدعاء، ولم يشر بِهِمَا للإفهام كما ظنه الطيبي وشرف الحق آبادي، وبيان ذلك من وَجْهَيْنِ:

١- قوله: «رفع يديه يوم الجمعة علىٰ المنبر» فكيف حمله علىٰ الإشارة، وهو صريح في الرفع.

٢- قوله: «وأَشَار بأصبعه»، يعني في الدعاء. وهذا ينقض دعوىٰ النهي عن الإشارة في الخطبة، وأن للداعي علىٰ المنبر أن يشير بأصبعه.

وأما تبويب النسائي وابن أبي شيبة فلا يُفْهَم منه منع الإشارة، كما هو ظاهر استدلال شرف الحق، بل يُفْهم منه مشْرُوعِيَّة الإشارة دون الرفع في الدعاء.

ففهم الطيبي وشرف الحق آبادي للحديث غلط، قال الطيبي: «قوله: يقول،

(٧) كتاب الجمعة للنسائي، تحقيق: أبي هاجر محمد زغلول، رقم (٦٦).
(٨) سنن النسائي، كتاب الجمعة: باب الإشارة في الخطبة (٣/ ١٠٨).
(٩) المصنف ط: الرشد (١/ ٤٥١).

أي: يشير عند التكلم في الخطبة بإصبعه يخاطب الناس، وينبههم على الاستماع»[١٠].

والصواب أنه عليه الصلاة والسلام إنَّمَا أشار بأصبعه في الدعاء لا لتنبيه السامعين.

وقد بوب البيهقي في سننه على الحديث فقال: «باب ما يستدل به على أنه يدعو في خطبته»، وساق الحديث، ثم قال: «والقصد من الحديثين: إثبات الدعاء في الخطبة، ثم فيه: من السنة أن لا يرفع يديه في حال الدعاء في الخطبة، ويقتصر على أن يشير بأصبعه»[١١].

الوجه الثاني: أن أكثر ما يقع من الإشارة للإيضاح يكون باليد الواحدة لا باليدين، والحديث نص على اليدين، وذلك موضعه الدعاء.

الوجه الثالث: أن ألفاظ الحديث في الروايات كلها نصت على رفع اليدين، ولو كان مقصوده الإشارة لقال: يشير بيديه؛ لأن رفع اليدين يكون في الدعاء، والمشير إن أشار بهما فإنه يحركهما، وهذا لا يسمى رفعًا.

الوجه الرابع: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ ما يُعَارِض هذا الفهم للحديث؛ إذ استخدم النبي عليه الصلاة والسلام الإشارة بيديه كلتيهما، وبيد واحدة، وبأصبعه في خطبه، ومن الأحاديث الدالة على ذلك:

١- في الإشارة بيديه كلتيهما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صلى لنا النبي ﷺ، ثم رَقِيَ المِنْبَر فأشار بيديه قبل قبلة المسجد، ثم قال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ الْآنَ مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمُ الصَّلَاةَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مُمَثَّلَتَيْنِ فِي قِبْلَةِ هَذَا الجِدَارِ، فَلَمْ أَرَ**

(١٠) مرقاة المفاتيح (٣/ ١٠٤٩).

(١١) السنن الكبرى (٣/ ٢١٠).

كَالْيَوْمِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ ثَلَاثًا»[١٢].

وهذا كان في خطبة الكسوف، وقد يتعقب عليه أنه ليس في خطبة الجمعة، والجواب: إثبات أصل الإشارة في الخطبة للتنبيه والإيضاح، ولا دليل يدل علىٰ المنع إلا فهمًا غير صحيح لحديث إنكار عمارة بن رويبة علىٰ بشر بن مروان.

٢- وفي الإشارة بيد واحدة، حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «**فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عبد مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**» وأشار بيده يقللها[١٣]. وفي رواية: «فأشار إلينا كيف أشار النَّبي ﷺ فألصق أصابعه بعضها إلىٰ بعض، وحناها شيئًا، ثم قبضها ولم يبسطها»[١٤].

٣- وفي إشارته بالأصبع، حديث جابر الطويل في صفة حجته عليه الصلاة والسلام، وفيه: قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة، يرفعها إلىٰ السماء وينكتها إلىٰ الناس: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[١٥].

وفي إثبات الإشارة للإفهام أيضًا: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قام النبي ﷺ خطيبًا، فأشار نحو مسكن عائشة، فقال: «**هُنَا الْفِتْنَةُ -ثَلَاثًا- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**»، وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «**أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا** -يُشِيرُ إِلَىٰ

(١٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب رفع البصر إلىٰ الإمام في الصلاة (٧١٦).

(١٣) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الساعة التي في الجمعة (٩٣٥)، ومسلم في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

(١٤) هذه الرواية لعبد الرزاق في المصنف (٥٥٧٢).

(١٥) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

المَشْرِقِ- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»(١٦).

وحديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَم، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللَّهُ** ﷻ **سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا الْمَلِكُ**» حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟(١٧).

فتحصل مما سبق ما يلي:

١- جواز استخدام الإشارة في الخطبة للإفهام بيديه كلتيهما، أو بواحدة، أو بأصبعه، حسب ما تقتضيه حاجة الإفهام أو التنبيه، وقد دلت السنة علىٰ ذلك كله.

٢- أن المنع من ذلك مبنيٌّ علىٰ فهْم غلط لحديث عمارة بن رؤيبة رضي الله عنه في إنكاره علىٰ بشر بن مروان.

٣- أن السنة في الدعاء علىٰ المنبر أن لا يرفع يديه، وإنما يشير بأصبعه المسبحة، إلا إذا دعا مستسقيًا فيرفع يديه، وهي الصورة المستثناة في رفع اليدين للدعاء أثناء الخطبة.



---

(١٦) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ، وما نسب من البيوت إليهن (٣١٠٤)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان (٢٩٠٥). والرواية الأولىٰ للبخاري والثانية لمسلم.

(١٧) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

٥- استدلال الخطيب بالقرآن(١)

صلاة الجمعة مِنْ أعْظَمِ الطَّاعَات التي تقرب إلىٰ الله تعالىٰ، والمسلمون في مَشَارِق الأرض ومغاربها يحرصون علىٰ أدائها أكثر من غيرها، ولا يفرطون فيها، وإن كان كثير منهم يقصرون في الصلوات الخمس الأخرىٰ، حتىٰ الأعاجم من المسلمين في البلاد العربية يحضرونها في المساجد، وإن لم يفهموا إلا قليلًا مما يقوله الخطباء.

والمسلمون في البلاد الكافرة من غربية وشرقية يقيمونها في مراكزهم الإسلامية، ومن عجزوا عن إنشاء مسجد أو مركز، أقاموها في دور بعضهم أو في الحدائق العامة أو غيرها، ولكنهم لا يتركونها -في الغالب- بحجة العجز عن مكان يجمعهم.

وما يكاد الخطيب يدعوهم عقب الصلاة للتبرع بشيء من المال لشراء موقع المسجد أو توسيعه أو سداد إيجاره إلا انصرفت أيديهم إلىٰ جيوبهم للمساعدة علىٰ ذلك، والمراكز الإسلامية في البلاد الكافرة لا تكاد تنفك عن طلب التبرع

---

(١) أود التنبيه علىٰ أمرين:

الأول: أن هذا الموضوع وما سيتلوه في هذا الباب لا يختص بالخطيب وحده، وإن خوطب به، بل يشترك معه الداعية والمحاضر والواعظ، وكل من تصدىٰ لدعوة الناس، وأراد تحضير موضوع من الموضوعات لخطبته أو محاضرته أو موعظته أو بحثه أو مقالته.

الثاني: أنني ما جمعت مادة هذه الموضوعات من كتب متخصصة في الخطابة والدعوة وغيرها؛ لأنني لم أجد فيها ما أريد، وعليه فلا مراجع عندي لهذه الموضوعات، ولا ما يليها في هذا الباب، وإنما هي تجارب وممارسات خلال السنوات الماضية، أردت أن أكتبها لإخواني، فالنقص والزلل محتمل فيها، والله الموفق.

في كل جمعة، ومع ذلك ما ضجر المسلمون من كثرة ذلك فتركوا حضورها، ولا أمسكوا أيديهم عن البذل عقب صلاة الجمعة؛ لتشييد مساجد لإقامتها.

وكثيرًا ما عجب الغربيون من الجاليات المسلمة حين يُقتر أفرادها علىٰ أنفسهم وأولادهم لسداد إيجار المركز أو المسجد، أو شرائه، كما يعجبون أيضًا من تنامي المراكز والمساجد في بلاد الغرب، وكثرتها واتساعها شيئًا فشيئًا، ويعجبون أكثر حين يرون الزحام الشديد علىٰ هذه المراكز يوم الجمعة، مع خلو الكنائس يوم الأحد إلا من عدد قليل. وكل هذه دلائل علىٰ أهمية صلاة الجمعة في دين الإسلام، وعظيم مكانتها في قلوب المسلمين.

والخطيب حين يَعْتَلِي درجات المنبر ليلقي خطبته يمسك المصلون عن الصلاة وقراءة القرآن وسائر أنواع الذكر والقربات، ويتوجهون بأبصارهم وقلوبهم إلىٰ خطيبهم، ويصغون إليه بأسماعهم، وينتبهون لما يقول. فإن استطاع الخطيب أن يشدهم إليه باستهلاله البارع، ومقدماته الضافية واصلوا الاستماع إليه، وتأثروا بمقوله لهم، وإلا ملّوه وضجروا من ضَعْفِهِ وأسلوبه، وانصرفت قلوبهم إلىٰ أودية أخرىٰ.

والخطيب يُلْقِي علىٰ الناس أفكارًا، ويحاول إقناعهم بها، فيستدل لها بالمنقول وبالمعقول أو بأحدهما، وهو يأمرهم وينهاهم، والنفوس البشرية لا تحب الأمر والنهي، ولكنها قد تتخذه دينًا إذا علمت أن ذلك حكم الله تعالىٰ وحكم رسوله ﷺ، فتحبه وتدين به رَغْم ما فيه من تكليف بواجبات فيها مشقة، أو حبس عن شهوات محبوبة.

• أهمية الاستدلال بالقرآن:

القرآن مُعَظَّم عند المسلمين، لا يتَطَرَّق إليه الشك لَدَىٰ المصلين، وهو أَقْوَىٰ

ما يستدل به أي متحدث في المجتمعات المسلمة ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: ٤٢].

وَأَوْصاف القرآن المنثورة فيما يتلىٰ من الآيات تجبذ النفوس إليه، وتحبب القلوب فيه، فلا يملك قارئ آياته إلا الإذعان والانقياد:

١- فهو الهدىٰ وما عارضه ضلال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهدايته تكون إلىٰ ما هو أحسن وأفضل وأقوم في كل الأمور التي تهم الناس في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٢- وهو النور وما عارضه ظلمات، ويُخرج المنقادين له من جميع أنواع الظلمات -ظلمات الكفر والنفاق والبدعة والجهل والظلم وغيرها- إلىٰ النور ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وفي آية أخرىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وفي ثالثة: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الطّلاق: ١١].

٣- وهو شفاء القلوب وطبها من أدواء الكفر والنفاق والبدع والضلال وأنواع الشبهات والشهوات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وفي أخرىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي ثالثة:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصّلت: ٤٤].

٤- وهو السعادة فلا يشقىٰ به قارئه ولا المنقاد له العامل به ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]، وفي أخرىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

كما أن هجره والإعراض عنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

٥- وهو من أعظم أسباب صلاح القلب، وخشوعه لله تعالىٰ، وخشيته منه، ومحبته له ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

كل هذه الأصاف العظيمة للقرآن -وغيرها كثير- يقرؤها المسلم ويسمعها بين حين وآخر حتىٰ عَظُم القرآن في قلبه. ويَكْفِيه عظمة عند المؤمن أنه كلام الله تعالىٰ؛ ولذلك لا يسمح أي مُؤْمِن في أبواب المجادلة والنقاش لأي شخص كان أن يطعن في صدق كلام الله تعالىٰ أو يسخر منه، أو يدعوه إلىٰ عدم الإيمان به، وإلا لخسره في دعوته؛ لما للقرآن الكريم من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين.

ولأجل ذلك يلجأ الكفار والمنافقون والزنادقة وأشباههم حين يريدون صرف المسلمين عن القرآن إلىٰ تحريف معاني الآيات، ويتركون تكذيبهم لكلام الله

تعالىٰ أو التشكيك فيه أو الطعن في آياته، مع أنهم في باطنهم لا يؤمنون به. وما ذاك إلا لما يعلمونه من مكانة هذا الكتاب العزيز في قلوب المسلمين حتىٰ استولىٰ عليها محبة له، وقناعة به، وتعبدًا بقراءته والاستماع إلىٰ آياته تتلىٰ.

وإذا كان الأمر كذلك فَحَرِيّ بالخطباء أن يولوا الكتاب العزيز أهمية بالغة، فيكون هو المصدر الأول للخطبة، كما كان هو المصدر الأول في جميع علوم الشريعة الإسلامية وفروعها.

أقسام الآيات في الاستدلال من حيث الكثرة والقلة:

لا تخلو الآيات التي جمعها الخطيب لإعداد خطبته من حالات ثلاث:

الأولىٰ: أن تكون كافية في الاستدلال، متناسبة مع الخطبة، فلا هي كثيرة تطول الخطبة بها، ولا قليلة تؤدي إلىٰ قصر مخل.

الثانية: أن تكون الآيات في موضوعه المختار قليلة.

الثالثة: أن تكون الآيات كثيرة جدًّا لا يمكنه حشدها كلها في خطبته.

فالحالة الأولىٰ لا إشكال فيها.

وأما الثانية وهي: أن تكون قليلة، بل قد لا يجد في موضوعه إلا آية أو آيتين، فبإمكانه تغيير الموضوع إلىٰ آخر فيه من النصوص ما يخدم خطبته ويقويها.

فإن كان موضوعه مهما كنازلة حاضرة لا يسوغ إهمالها، فبإمكانه معالجة ذلك بخيارات عدة:

الخيار الأول: أن يجعل لموضوعه مدخلًا مناسبًا، تكون النصوص فيه متوافرة.

مثال ذلك: لو وقع زلزال مدمر، وأراد الخطيب أن يعرض لموضوع الزلازل

فسيجد أن الزلازل لم يأت ذكرها في القرآن إلا في موضعين: أول سورة الحج ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وفي سورة الزلزلة، وهما في زلزلة يوم القيامة، لا في زلازل الدنيا، وجاء ذكر الزلزلة في موضعين آخرين علىٰ الاستعمال المعنَويّ لا الحسي، في البقرة: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

ففي هذا المثال يستطيع الخطيب الحديث عن موضوعات عدة لها صلة بالزلازل، منها:

١- زلزلة القيامة، والآثار الناجمة عنها؛ مستدلًّا بهذين الموضعين، ومستحضرًا لآثار تلك الزلزلة العظيمة بأوصافها المذكورة في سور الواقعة والتكوير والانفطار والانشقاق والقارعة، ثم يقارن بين ما خلفته الزلزلة التي شاهدها الناس من دمار جزئي في الأرض، وما ستخلفه زلزلة القيامة من دمار عام في الكون.

٢- الجبال وفائدتها، وكونها أوتادًا تثبت الأرض، ويجمع الآيات في ذلك، وهي كثيرة.

٣- قدرة الله تعالىٰ علىٰ الخلق، وأنهم مهما بلغوا من القوة لا يستطيعون أن يردوا عذاب الله ﷻ، مستحضرًا ما وقع من هلاك المكذبين السابقين بأنواع العقوبات، مما حكاه القرآن من قصصهم.

٤- آثار الذنوب والمعاصي، وأنها سبب للعذاب والدمار في الأرض، والآيات فيها كثيرة.

الخيار الثاني: أن يقتصر علىٰ ما في موضوعه من آيات ولو كانت قليلة،

ويؤيد خطبته بالأحاديث والآثار، وهذا حسن إن وجد في موضوعه نصوصًا في ذلك.

الخيار الثالث: أن يعوض النقص في ذلك بكلامه هو، ويطيل في الوصف والعرض بكلام إنشائي خال من النصوص، ولست أحبذ هذه الطريقة، وإن سلكها كثير من الخطباء لما يلي:

١- أنها تحول الخطبة إلىٰ ما يشبه كلام الإعلاميين والإخباريين.

٢- أن علىٰ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نورًا إذا كسا به الخطيب خطبته كانت مباركة، وإذا خلت الخطبة من نصوصهما نزعت البركة منها.

٣- أن تكثيفه للنصوص يجعل خطبته مفيدة في كل زمان ومكان، ولو من النصوص التي جمعها، وإن تغيرت الصياغة والأفكار في ذلك.

وقد ينازع بعض المتخصصين في الخطابة وأساليبها وأبوابها محتجين بأن شخصية الخطيب تذوب في النصوص. وهذا غير صحيح؛ لأن قدرة الخطيب علىٰ جمع النصوص، وحسن ترتيبها وعرضها في خطبته، وقوته في الاستدلال بها، وانتزاع ما يفيده منها، إن لم يكن أعلىٰ من جودة الأسلوب في الدلالة علىٰ براعة الخطيب فليس بأقل منها.

وتصح المنازعة في ذلك لو كان الخطيب ضعيفًا في الاستنباط والاستدلال بحيث يضع النصوص في غير مواضعها، أو يتعسف في الاستنباط منها، ولا يحسن التعامل معها، أو يهمل قريب الدلالة ويورد بعيدها، ومن كان هذا حاله فالعلة فيه لا في نصوص الوحيين.

هذا وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام خطب بسورة (ق) كما في حديث أم هشام بِنْت حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «مَا حَفِظْتُ ق، إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ»(٢)، وكفىٰ بها موعظة بليغة لمن ألقىٰ لها السمع وهو شهيد، وقد أفردت موضوعًا مستقلًا في الخطبة بآية أو آيات أو سورة.

وجاء في حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: «كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيُذَكِّرُ النَّاسَ»(٣)، واستنادًا إلىٰ ذلك فإن من الأئمة من يشترط لصحة الخطبة قراءة ولو آية فيها.

والخطبة خطاب شرعي محض، له أحكامه التوقيفية، فلا يقاس بالأعمال الأدبية التي يتوسع فيها، ويظهر الكاتب شيئًا من بلاغته وفنه.

• موضوعات لا نصوص فيها أو هي قليلة:

قد تكون بعض الموضوعات ملجئة للخطيب إلىٰ عدم الإكثار من النصوص؛ كحديثه عن سير الأعلام، وقصص التاريخ، والمغازي، ونحوها، وهذه الموضوعات ونحوها بإمكان الخطيب أن يجد لها من النصوص ما يناسبها، سواء في ثنايا القصة أو الغزوة أو في الدروس المستفادة منها.

كذلك بعض القضايا المعاصرة قد تلجئ الخطيب إلىٰ التقليل من النصوص، بسبب تناول الخطيب للموضوع من جانب تاريخي أو عقلي يرىٰ أنه مهم؛ كالحديث عن تاريخ بيت المقدس أو تاريخ بعض الفرق، أو بعض المصطلحات الحادثة ونحو ذلك، ومثل هذه الموضوعات يُعْذَر فيها الخطيب، ولا سيما إذا دعت الحاجة إليها لنازلة فرضتها واقعًا، والناس يتحدثون فيها، وينتظرون تحريرًا شرعيًّا لها من الخطباء.

ولكن الخطيب يعاتب ويؤاخذ إذا كانت السّمَة الغالبة لخطبه فيها إعراضٌ عن

---

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٣).

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة، باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة (٨٦٢).

النصوص، أو يقلل منها لحساب إنشائه وبيانه وبلاغته، أو لحساب ما يعرضه من قصص أو أقوال أو حجج عقلية أو غير ذلك. ويشتد العتب عليه إذا كان الموضوع الذي يختاره مملوءًا بالنصوص القرآنية والنبوية فيعرض عنها إلىٰ ما هو أدنىٰ منها من حجج وقصص وأقوال ونُقُول.

وليعلم الخطيب أن من أهم مهماته التي يرتقي درجات المنبر لأجلها: تربية الناس علىٰ تعظيم نصوص الوحيين، وتقديمها في الاستدلال علىٰ غيرها، والإذعان لها، والتسليم بها، وعدم منازعتها بما هو دونها من حجج أو قصص أو أقاويل أو نقول ونحوها.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف يقبل الناس دعوة خطيب إلىٰ تعظيم الكتاب والسنة، والتسليم بهما، وهم يرونه قليل الاستدلال بهما، مستبدلًا بهما غيرهما؟!

وأحسب أن هذه اللوثة المستهينة بنصوص الكتاب والسنة تسربت إلىٰ الخطباء من المناهج العقلانية التي تعنىٰ بحجج العقل علىٰ حساب النص، أو من الاتجاهات الأدبية التي تُعْلي من شأن الإنشاء والأساليب البلاغية واللغوية وتُقَدّمها علىٰ النصوص. كما أن انتشار لغة الصحفيين والإعلاميين في الآفاق أثَّر سلبًا علىٰ بعض الخطباء فصاروا يحاكونهم في أساليبهم ويستخدمون ما أحدثوه من مصطلحات ومفردات وعبارات بلا نَظَر في صحتها اللغوية، أو عدم مخالفتها الشرعية.

ولا ينبغي أن يفهم من تقرير ذلك أن نصوص الكتاب والسنة تعارض الحجج العقلية أو الأساليب البلاغية؛ فالقرآن مملوء بتقرير ما يوافق العقول الصريحة، ويحوي كثيرًا من الآيات التي تعنىٰ بمفردات العقل والبرهان والآية والدليل ونحوها، وهكذا السنة.

وكلام الله تعالىٰ هو أبلغ الكلام، وكثير من قوانين اللغة، وقواعد البلاغة إنما أخذت منه، ويستدل به لها أو عليها، وما عارضه من كلام بعض اللغويين أو البلاغيين فليس بشيء، ولا يحتج به.

والنبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وهو أفصح البشر وأبلغهم، وأحاديثه الجامعة للمعاني الكبيرة الغزيرة في كلمات قليلة تدل علىٰ ذلك.

بيد أن بعض الخطباء يتأثر بالمناهج الفلسفية الكلامية في الاستدلال، أو يجنح إلىٰ أساليب أهل البلاغة والبيان علىٰ حساب نصوص الكتاب والسنة.

وأما الحال الثالثة وهي: أن تكون الآيات كثيرة جدًّا لا يمكنه حشدها كلها، كالخطبة عن التقوىٰ فإنها جاءت ومشتقاتها في أكثر من أربعين ومئتي موضع من القرآن، والصبر جاء ذكره فيما يزيد علىٰ مئة آية، هذا عدا موضوعات التوحيد والترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار وغيرها.

وفي هذه الحالة للخطيب خياران:

الخيار الأول: أن يرتب ما يناسب للاستدلال من هذه الآيات علىٰ وحدات موضوعية، يضم الآية فيها مع نظيرتها، مثل: جمعه للآيات الآمرة بالتقوىٰ، ويجمع آيات ثمرات التقوىٰ، وآيات صفات المتقين . . .، وهذه الطريقة وإن كان فيها مشقة فإنها تمكن الخطيب من صنع خطب عدة في الموضوع الواحد ليس فيها تكرار، وتزيد من قوته العلمية واستحضاره للآيات، ومعرفته لطريقة القرآن في عرض الموضوعات.

الخيار الثاني: أن يختار من هذا الكم الكبير من الآيات ما يراه مناسبًا لخطبته.

وثمة أمر مهم وهو أن كثيرًا من الخطباء لا يطلعون علىٰ كل الآيات في

الموضوع الذي سيخطبون به، وفي هذا شيء من القصور، وقد يؤدي إلىٰ ترك الاستدلال بآيات هي أقوىٰ في الدلالة علىٰ موضوعاتهم من الآيات التي اختاروها.

ما يراعىٰ في الاستدلال بالآيات:

في الاستدلال بالآيات القرآنية أرىٰ أنه ينبغي للخطيب مراعاة أمور:

أولها: التأكد من كون الآية أو موضع الشاهد منها قد كتبه بشكل صحيح لا خطأ فيه؛ وذلك يكون بمراجعة المصحف، وعدم اعتماده علىٰ حفظه مهما كان قويًّا؛ لأن بعض الآيات تشتبه بالأخرىٰ، وقد يكون فيها زيادة كلمة أو حرف لا ينتبه له فيقع في الخطأ، أو في القلب بالتقديم والتأخير، أو إسقاط شيء منها؛ ولأن استحضار آية واحدة أو جزء منها أكثر احتمالًا للخطأ من القراءة المستمرة للسورة كلها أو جزء كبير منها.

وأرىٰ أن الخطيب لا يعذر بخطئه في الآيات؛ لإمكانية عدم الوقوع في ذلك إذا وجد الحرص والاهتمام، وقد يترتب علىٰ ذلك مفاسد كالخطب التي تسجل، أو التي تنقل علىٰ الهواء مباشرة في القنوات الفضائية، أو مواقع الشبكة العالمية، فتنتقل إلىٰ الناس، وتنتشر في الآفاق بالخطأ الذي في بعض الآيات، ويكون ذلك أخطر إذا ترتب علىٰ الخطأ فساد المعنىٰ.

ويعذر الخطيب في ذلك إذا كان يرتجل الخطبة؛ لأن الإنسان يسهو ويغفل ويخطئ، وتشتبه عليه النصوص في بعض الأحيان، ولكن إذا كثر ذلك منه حال ارتجاله بسبب ارتباكه أو ضعف حفظه فيجب عليه كتابة هذه النصوص، وقراءتها من الورقة.

ثانيها: التأكد من صحة استدلاله بالآية.

والخطأ في الاستدلال يكون من أوجه:

أ- فقد يسوق الآية لمعنىٰ يريده وهي لا تفيد ذلك المعنىٰ، وسبب ذلك اعتماده علىٰ فهمه لظاهر الآية، وعدم مراجعته كتب التفسير.

ب- أو يكون في الآية أقوال عدة يختار أحدها - وقد يكون قولًا ضعيفًا أو شاذًّا- فيحمل الآية عليه.

ت- أو يكون في الآية أقوال أخرىٰ متساوية، أو بعضها أقوىٰ من بعض، أو هي من قبيل اختلاف التنوع، فيحصر معنىٰ الآية في القول الذي اختاره وهي تدل علىٰ المعاني الأخرىٰ أو الآية تحتملها.

ثالثها: التركيز علىٰ موضع الشاهد من الآية؛ فمن شأن ذكر كل الآية، والشاهد جزء قليل منها أن يشوش علىٰ المستمع، وقد يضيع منه موضع الاستشهاد ولا سيما إذا كانت الآية طويلة.

رابعها: أرىٰ أن لا يرتل الآية أو موضع الشاهد منها، أو يميزه عن سائر كلامه، كما هي طريقة بعض الدعاة والوعاظ والخطباء؛ لأنه ليس في محل القراءة والتعبد بها حتىٰ يرتل الآيات، وإنما هو في موضع الاستشهاد وإثبات ما يقول بآيات القرآن، وللاستشهاد محله وطريقته، كما أن للتلاوة محلها وطريقتها، ولا يحسن الخلط في ذلك. وكما أنه لا يسوغ لمن يقرأ القرآن إلا أن يرتله، ولا يقرأ بعض الآيات كما يقرأ كلامًا آخر غير القرآن، فكذلك لا يسوغ لمن يستشهد بالقرآن أن يسوقه مساق الترتيل.

خامسها: ينبغي له أن يرتب الآيات التي يستشهد بها حسب ترتيب سورها في القرآن؛ لأن الإجماع منعقد علىٰ أن ترتيب الآيات توقيفي، وأما ترتيب السور فقال قوم: إنه توقيفي، وقال آخرون: إنه اجتهادي، ولو قيل: إنه من اجتهاد

الصحابة ﷺ؛ فإن الأمة أجمعت علىٰ مصحف عثمان ﷺ، وعلىٰ ترتيب سوره. فإن كان ترتيب سوره توقيفيًّا فأُحب للخطيب أن يلتزم به، ولا يخالفه، وإن كان من اجتهاد الصحابة ﷺ فاجتهادهم خير من اجتهادنا، ثم إن انعقاد الإجماع علىٰ هذا الترتيب يجعله حجة.

وأرىٰ أنه يحسن بالخطيب أن لا يخل بترتيب الآيات في الاستشهاد عن ترتيب آيات المصحف وسوره إلا لمعنىً يقتضي عدم الترتيب، كأن تكون الآية التي يقدمها نصًّا فيما يريد، والآيات الأخرىٰ تفيد المعنىٰ ذاته، وآيات أخرىٰ يستأنس بها. فيقدم ما يكون نَصًّا في قضيته علىٰ غيرها من الآيات لقوة دلالتها علىٰ ما يريد، ثم يتبعها بالآيات الموافقة لها في المعنىٰ، ثم الآيات التي يستأنس بها.

سادسها: إذا كان عنده عدد من الآيات التي يستشهد بها، وبعض هذه الآيات واضح الدلالة للمستمع، وبعضها بعيد المنزع عما يريد، أو يتطرق إليه الاحتمال؛ فالأولىٰ أن يقتصر علىٰ الآيات الواضحة دون غيرها؛ لئلا يحدث بذكر الآيات المحتملة تشويشًا علىٰ المستمع، وتضعف في ذهنه القضية التي استدل لها الخطيب بهذا الدليل المحتمل، أو بعيد الدلالة.

وإذا كانت القضية محل نزاع في المجتمع، وتتجاذبها أطراف شتىٰ، كالحجاب والسفور، والاختلاط وعدمه، وخروج المرأة وقرارها في البيت، وقضايا الحرية والديمقراطية والانتخابات، فكل هذه القضايا ومثيلاتها محل نزاع بين التيارات العلمانية من جهة، والتيارات الإسلامية من جهة أخرىٰ، وصوت الدعاة والعلماء فيها يكون في المساجد وعلىٰ المنابر وعبر وسائل إعلام محدودة، وصوت العلمانيين فيها يكون في الصحف وأكثر المجلات

والقنوات الفضائية والإذاعية، والناس يشهدون هذه المعارك الفكرية، ويعيشونها كل يوم، فأرىٰ أن لا يكون استدلال الخطباء علىٰ ما يرونه حقًّا في تلك القضايا إلا بالأدلة الواضحة التي لا ينازع فيها إلا مكابر؛ لأن من شأن الاستدلال بالأدلة المشتبهة أو المحتملة أو ضعيفة الدلالة أن يقضي علىٰ قضيته في أذهان الناس، ولو جاء بالأدلة الواضحة معها لما يلي:

أولًا: أن الأدلة الواضحة علىٰ المعنىٰ الذي يريده تفي بالمقصود، وهو يخاطب مسلمين مستسلمين -في أغلبهم- للنصوص الشرعية، ويكفيهم منها دليل واحد واضح للقبول والانقياد عن عشرة أدلة ليست واضحة، أو في الاستدلال بها عسف وتكلف.

ثانيًا: أن الأدلة المحتملة قد تنسي المصلين الأدلة الواضحة، وقد ينشغلون بالتفكير في مدىٰ صحة الاستدلال بها، أو الإيرادات التي ترد عليها عن الاستماع إلىٰ الخطيب، فيصرفهم أو بعضهم عنه، وهو يريد منهم الاستماع إليه.

ثالثًا: أن الخصوم يتعلقون بضعيف الدلالة ويجعلونه أصلًا في المناقشة، فتُنقل القضية من أصلها إلىٰ مناقشة دليل محتمل أو ضعيف، فيحشر الخطيب في زاوية الدفاع عن استدلاله، وتنسىٰ القضية الأصل، وللمنحرفين مكرٌ كُبَّار في ذلك، وبراعة في التشويش علىٰ العوام من هذا الباب، ولا سيما أن أكثرهم ممن إذا خاصم فجر.

وحتىٰ لو لم تجر مناقشة ذلك مع الخطيب في حينه، فليفترض الخطيب أن المصلين عقب الجمعة يناقشون في مجالسهم ما قاله الخطيب، وفي الغالب أن مجالس الناس تجمع التيارين أو المتعاطفين مع أحدهما، فإذا أثبت المخاصم للناس ضعف استدلال الخطيب بدليل واحد من عشرة أدلة في

قضيته التي ساقها فإنه يكسب بذلك أمرين:

أ- صرف نظر الناس عن موضوع الخطبة وأدلتها الأخرىٰ إلىٰ هذا الدليل الضعيف أو المحتمل.

ب- التشكيك في كل ما ذكره الخطيب من القضايا الأخرىٰ، بل التشكيك فيما سيلقيه مستقبلًا، ونزع ثقة الناس فيه.

سابعها: إذا أنهىٰ الخطيب صلاته، ثم سئل عن معنىٰ في آية استشهد بها، أو أورد أحد المصلين عليه إشكالًا في استدلاله، أو دليلًا آخر ينقض ما قرره في خطبته، فلا يخلو الخطيب من حالين:

الأولىٰ: أن يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ويعلم ما قد يورد علىٰ استدلالاته من أدلة أخرىٰ، ولديه أجوبة لها -ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بالتحضير الجيد- فليزل تلك الإشكالات، ويُجِبْ عنها بما آتاه الله تعالىٰ من علم وفقه وتحضير جيد لموضوعه.

الثانية: أن لا يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ولا يعلم بالأدلة التي أوردت عليه، فلا يجوز له حينئذ أن يُخلِّص نفسه من هذا المأزق بالكذب، أو بنفي ما لا يعلم مع احتمال ثبوته، ولا يَحِلُّ له أن يُصِرَّ علىٰ رأيه وهو غير متأكد مما أُورد عليه، وسأورد مثالًا علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ من السنة في موضوع مستقل بعنوان (استدلال الخطيب بالسنة).

ثم إن المناقشين لما في الخطبة من معلومات علىٰ أضرب ثلاثة:

الأول: أهل العلم والفقه والفضل ممن يوقن الخطيب أو يغلب علىٰ ظنه صوابهم وخطؤه، وهؤلاء يجب عليه أن يخضع لهم، ويستفيد من علمهم، ويشكرهم علىٰ تعقباتهم له.

الثاني: المسترشدون، وهم غالبًا ناصحون محبون للخير، متأثرون بالخطبة، ويريدون التطبيق والعمل، فيسألون عن بعض التفصيلات، أو انقدحت عندهم إشكالات مما ذكره الخطيب؛ لوجود مقررات سابقة لديهم، أو نصوص تعارض ما قاله خطيبهم.

وهؤلاء يجب علىٰ الخطيب العناية بهم، والتلطف معهم، وإزالة ما لديهم من إشكالات. فإن قدر الخطيب علىٰ ذلك ساعة سؤاله فذاك، وإلا طلب منهم إمهاله حتىٰ يبحث مسائلهم فيجيبهم عنها، وبحثه لها يفيده هو أكثر مما يفيدهم هم.

الثالث: المكابرون المتصيدون، وهم غالبًا لا يكونون علىٰ وفاق مع منهج الخطيب وأفكاره، أو في قلوبهم ضغينة عليه، أو حسد له، فيريدون إسقاطه وإحراجه.

وأرىٰ في تعامل الخطيب مع هؤلاء أن يدرأهم عنه قدر الإمكان، ويداريهم في الحق ما استطاع، ويجتنب جدالهم ومناقشتهم؛ لأنهم ليسوا طلاب حق. والمجادلة معهم تحقق غرضهم، وقد تصل بالخطيب إلىٰ حد المماراة التي نهي عنها، والإعراض عنهم خير من مواجهتهم.



٦- استدلال الخطيب بالسُّنَّة

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، وأدلة وجوب الأخذ بها كثيرة جدًّا من الكتاب ومن السنة.

● **فمن الكتاب:**

١- قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

٢- قوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

٣- قوله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

● **ومن السنة:**

١- قول النبي عليه الصلاة والسلام في الموعظة التي حكاها العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفيها: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

٢- حديث المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا**

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، والدارمي (٩٥).

الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»(٢).

وأجمع المسلمون علىٰ ذلك.

والسنة تبين ما أجمل في القرآن، وتفصل ما اختصر، وتعين ما أبهم، وقد خاطب الله تعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا المعنىٰ في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

والسنة النبوية بالنسبة إلىٰ ما وَرَدَ في القرآن علىٰ أنواع ثلاثة:

١- مؤكدة لما جاء في القرآن، فيكون الكتاب مثبتًا والسنة مؤيدة.

٢- مبينة لما جاء في القرآن بتفصيل مجمله، وتقييد مطلقه، وتخصيص عامه.

٣- مشرعة لأحكام لم ترد في القرآن، كتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها أو خالتها.

وللسنة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين لمحبتهم للنبي ﷺ، وشغفهم باتباعه لنيل رضوان الله تعالىٰ ومحبته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولا يجمل بالخطيب أو الداعية أو الواعظ أن تكون خطبته أو موعظته خالية من هدايات النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته.

والملاحظ أن الانفتاح الإعلامي، وانتشار كثير من الحوارات والمناظرات علىٰ الفضائيات قد أثر كثيرًا في بعض الخطباء والدعاة، فصاروا يتقمصون

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠).

شخصيات من يسمون بالمثقفين والمفكرين في كثرة الاستدلالات العقلية علىٰ حساب النصوص من الكتاب والسنة، وبعضهم صار يستبدل بنصوص الوحي أقوال الفلاسفة والمفكرين والكُتَّاب الغَرْبيين لما يلي:

١- إرضاء جمهوره من الحضور أو المستمعين الذين يستمعون له.

٢- كسب ود الوسيلة الإعلامية التي أبرزته للناس، وخصته ببرنامج فيها دون غيره.

٣- مجاراة ما يُلقىٰ علىٰ أسماع الناس عبر وسائل الإعلام المختلفة من ألفاظ ومصطلحات وأفكار لم تكن من قبل في معاجم الدعاة والمصلحين، ولا تجري علىٰ ألسنتهم؛ وذلك مثل مصطلحات: الأنا، والآخر، والرأي، والتعايش السلمي، والحوار، وغير ذلك.

٤- محاولة إظهار نفسه أمام المستمعين بمظهر الخطيب المثقف الذي يُلم بأدوات العصر ومصطلحاته. ولو كان ممحصًا لها، وناقدًا لخللها لكان ذلك محمودًا، ولكن يغلب علىٰ هذا الصنف استخدامها والموافَقة عليها والقناعة بها، وربما ترويجها والدفاع عنها. وقد تجتمع هذه الأسباب أو بعضها في الواحد من الخطباء.

ولا يجوز للخطيب أن يطوع حديث رسول الله ﷺ لضغوط العصر ومصطلحاته، أو يعرض عنه لأجلها؛ بل الواجب عليه أن يرد الناس إلىٰ الجادة، ويربيهم علىٰ تعظيم حديث رسول الله ﷺ وإجلاله والاستدلال به والتسليم له.

قال سفيان الثوري -رحمه الله تعالىٰ-: «إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»(٣).

(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٢).

وذَكَر الشافعي -رحمه الله تعالىٰ- حديثًا فقال له رجل: تأخذُ به يا أبا عبد الله؟ فقال: «أفي الكنيسة أنا؟! أو ترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟! نعم أقول به، وكل ما بلغني عن النبي ﷺ قلت به»(٤).

وقال إبراهيم الحربي -رحمه الله تعالىٰ-: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به»(٥).

- **الموازنة بين أحاديث مَوْضُوعِهِ وبين خطبته:**

أغلب الموضوعات التي يتناولها الخطباء هي موضوعات شرعية تتعَلَّق بالمعتقدات أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو غيرها، وتتفاوَتُ هذه الموضوعات من جِهَةِ وَفْرَة النصوص النبوية فيها وكثرتها من قلتها، وعليه فلا تَخْلو الأحاديث التي جمعها الخطيب لموضوع خطبته من حالات ثلاث:

الأولىٰ: أن تكون في عددها ومساحتها مناسبة لخطبته، فلا هي كثيرة تطول الخطبة بها، ولا هي قليلة تقصر بها عن المطلوب، وهذه لا إشكال فيها.

الثانية: أن تكون كثيرة لا يمكن استيعابها في خطبة واحدة، وهذه يعمل معها ما ذكرته سابقًا في الآيات الكثيرة بتقسيمها علىٰ موضوعات لعمل خطب عدة منها، ويمكن مراجعة ما ذكرته في تقسيم الآيات لتتضح الصورة أكثر(٦).

الثالثة: أن تكون قليلة بحيث تقصر بها الخطبة قصرًا مخلًّا، فيكملها بالآيات والآثار عن الصحابة والتابعين والأئمة وأقوال العلماء المتبوعين، ويمكن

---

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/١٠٦).
(٥) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٢).
(٦) انظر استدلال الخطيب بالقرآن، ص (٢١).

مراجعة ما ذكرته في فقرة الآيات القليلة في الموضوع، وكيف يتعامل الخطيب معها لتكون الصورة أوضح.

• ما يراعىٰ في الاستدلال بالسنة:

في الاستدلال بالأحاديث النبوية أرىٰ أنه ينبغي للخطيب مراعاة ما يلي:

أولًا: التأكد من صحة الحديث الذي يستدل به؛ فإن كان متواترًا أو في الصحيحين أو أحدهما فلا إشكال، ولا يحتاج إلىٰ مراجعة؛ لتلقي الأمة لهما بالقبول، ولإجماع العلماء علىٰ الاحتجاج بأحاديثهما في الجملة.

وهنا يحسن التنبيه علىٰ أن الخطيب قد ينقل الحديث ممن نقل عن الصحيحين أو أحدهما، وعزاه مؤلفه إلىٰ الصحيح، فالأولىٰ أن يتأكد من ذلك بمراجعة الصحيح؛ لما يلي:

أ- قد يكون مؤلف الكتاب الذي نقل منه واهمًا في عزوه للصحيح، أو أخطأ في ذلك، أو حصل خلل في الحواشي فنُقلت تخريجات أحاديث لأخرىٰ، وهذا محتمل، بل يقع في كثير من الأحيان.

ب- قد يكون أصل الحديث في الصحيح، والمؤلف ساقه بتمامه وألحق به زيادات أو ألفاظًا ليست في الصحيح، ثم عزا الحديث للصحيح يريد أصل الحديث الذي ساقه بتمامه دون الزيادات أو الروايات الأخرىٰ، ويكون استدلال الخطيب بجزء من الحديث، ويكون هذا الجزء من الزيادات لا مِنْ أصل الحديث، أو يكون من الألفاظ الأخرىٰ التي ليست من ألفاظ الصحيح، فيعزوه للصحيح تبعًا للمؤلف، مع أن اللفظ أو الزيادة التي ذكرها ليست في الصحيح.

ج- قد يكون الحديث في الصحيح موقوفًا أو معلقًا، والمؤلف رفعه أو وصله

باعتبار طرق أخرىٰ رفعته أو وصلته وهي ليست في الصحيح، فينسب للصحيح ما ليس منه لمجرد أنه اطلع علىٰ حديث فيه كلام طويل أو تخريج كثير فانتزع منه (أخرجه البخاري أو مسلم) دون أن يقرأ بقية الحاشية ليعلم أن ما في الصحيح موقوف أو معلق.

ومراجعة الصحيح للتأكد لا تضر الخطيب، بل تنفعه بتعظيم حديث رسول الله ﷺ، والعناية به، واكتساب معرفة جديدة مع كل مراجعة يطالع فيها الصحيحين، وقد يقع بصره علىٰ حديث ما كان يعرفه من قبل، ويناسب هذا الحديث أن يكون موضوع خطبة أخرىٰ، أو هو محتاج إليه في خطبته تلك، وهو بجوار حديثه الذي أراد التأكد من ثبوته ولفظه، وقد وقع ذلك لي كثيرًا.

أما إن كان الحديث في غير الصحيحين فلا يخلو الخطيب من حالات ثلاث:

١- أن يكون صاحب حديث عالمًا بتخريجه ورجاله والبحث فيهم والحكم عليه، فهذا خطيب محدث، وليس مثلي من يرشد مثله.

٢- أن لا يكون عنده أي معرفة بمراجعة كتب الحديث ومصادره، ولا يحسن بالخطيب أن يكون كذلك، ولا بد أن يتعلم ذلك ويمارسه حتىٰ يعرف ما يخدم به خطبته.

وبإمكان المبتدئ أن يعتمد علىٰ كتب الشيخ الألباني -رحمه الله تعالىٰ-، ولاسيما صحيح الجامع وضعيفه؛ لسهولة تناول كتب الشيخ، وحسن فهرستها وترتيبها علىٰ الحروف الهجائية.

وبإمكانه أيضًا أن يسأل المختصين أو طلاب العلم عن الأحاديث التي أشكلت عليه ولا يدري ثبوتها من عدمه، ويوجد مواقع علىٰ الشبكة العالمية تخدم السائلين في ذلك، أو يسأل بالهاتف أو غير ذلك، والحريص لن تعوزه

الوسيلة في زمن ليس لمحتاج إلىٰ علم فيه عذر أبدًا.

وكم هو جميل أن تتوثق الصلات بين الخطباء والوعاظ والدعاة وبين علماء الحديث؛ للاستفادة منهم في علم الحديث، ولتوثيق ما يلقونه علىٰ الناس من خطب ومواعظ، فواجب علىٰ الخطباء والدعاة الاتصال بأهل الحديث، وواجب علىٰ أهل الحديث التعاون معهم، وتقديمهم بالرعاية والاهتمام علىٰ غيرهم من سائر طلاب العلم؛ وذلك لأن خطاب الخطباء والدعاة عام في الجوامع، وربما في وسائل الإعلام الأخرىٰ من إذاعات وفضائيات وإنترنت، ويصل إلىٰ جموع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وتوثيقه بالصحيح من الأدلة والمعلومات أمر واجب، وفيه نفع عام. بخلاف الدروس التي لا يحضرها إلا القليل من الطلاب، وهم ممن لا يخشىٰ عليهم في الغالب.

وقد فعل ذلك أسلافنا من قبل؛ إذ كان رئيس الخطباء في القرن الخامس قد تقدم إلىٰ الخطباء والوعاظ أن لا يرووا حديثًا حتىٰ يعرضوه علىٰ الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالىٰ- فما صححه أوردوه وما رده لم يذكروه(٧).

٣- أن يكون ملمًّا بتخريج الحديث مِنْ مَصَادِرِه الأصلية، ولكنه لا يستطيع الحكم عليه ولا معرفة رجاله، وهذا يَتَّكِئ في ذلك علىٰ علماء الحديث:

أ- فيبدأ بالمتقدمين المشهورين كعلي بن المديني وأحمد بن حنبل وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين والبخاري ونحوهم. وقد ينقل العلماء تصحيحاتهم لبعض الأحاديث، كما ينقل الترمذي أحكام شيخه البخاري علىٰ بعض الأحاديث في سننه(٨).

---

(٧) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٨٠)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ٤٣٥).

(٨) انظر علىٰ سبيل المثال هذه الأحاديث في الترمذي: فحديث رقم (١٢٨) نقل فيه تصحيح =

ب- ينظر إلىٰ أحكام من بعدهم من أهل الحديث كالترمذي وابن خزيمة وابن حبان ونحوهم.

ت- ينظر في أحكام المتأخرين من الحفاظ كالذهبي وابن حجر والعراقي والهيثمي والسيوطي.

ث- ينظر في أحكام المعاصرين من أمثال أحمد شاكر والألباني والأرناؤوط وغيرهم.

وكل كتب هؤلاء العلماء موجودة ومتداولة ومتوافرة في المكتبات العامة، وأكثرها -إن لم يكن كلها- موجود علىٰ الموسوعات الالكترونية والشبكة العالمية، وبإمكان الخطيب مراجعتها والاستفادة منها.

وأحسب أن السنة من جهة الرواية قد خدمت خدمة عظيمة علىٰ أيدي علماء الحديث علىٰ مر العصور، واللاحق من العلماء يكمل ما بدأه السابق، ويبدأ شيئًا جديدًا يكمله من بعده حتىٰ وصلت إلىٰ ما وَصَلَتْ إليه في عصرنا بحمد الله تعالىٰ.

ثانيًا: إن رأىٰ أن العلماء قد اختلفوا في الحديث تصحيحًا وتضعيفًا، وعنده من الصحيح ما يغني عنه فيعرض عن هذا المختلف فيه، وإن اتَّحَد معنىٰ الحديثين فجعل الصحيح شاهدًا لهذا المختلف فيه فأورده من هذا القبيل فتلك هي طريقة أهل الحديث في الضعيف المنجبر.

ثالثًا: إن كان الحديث مختلفًا فيه وهو محتاج إليه ويمثل أصلًا في خطبته،

= أحمد والبخاري لحديث حمنة بنت جحش فيما تفعل المستحاضة، وحديث (٦١٤) نقل فيه استغراب البخاري لحديث كعب بن عجرة رضي الله عنه في الأمراء، وحديث (٦٢٠) نقل فيه تصحيح البخاري لحديث في الصدقة عن علي رضي الله عنه، وينظر أيضًا: (٦٤٤ و٦٨٣ و٧٥٨ و١٠١٦ و١١٧٧ و١١٧٨ و١٤٦١ و١٣٦٦ و١٧٧٦ و١٨٤١ و٢٦٩٧).

وليس عنده ما يغني عنه؛ فيزيد من البحث والتأمل حتىٰ يصل إلىٰ نتيجة، ويستعين في ذلك بأهل التخصص وطلاب العلم المتمكنين في الحديث، فلعل أَحَدَهُمْ بحثه ووصل فيه إلىٰ نتيجة فيفيده بها.

رابعًا: يحسن التنبيه علىٰ أنه لا يجوز للخطيب أن يعتمد شهرة الحديث وتداول الناس له علىٰ الألسنة، فيظن بذلك صحته فيورده في خطبته دون التأكد من ثبوته؛ فإن ما يتداوله الناس من أحاديث فيه الصحيح والضعيف والموضوع، وفيه ما ليس بحديث مما هو من الأمثال أو أقوال السلف أو أقوال الحكماء أو غيرهم، سرت هذه الأقوال بين العوام علىٰ أنها أحاديث وليست كذلك.

وقد كثر ذلك في الأزمان المتأخرة، فكتب العلماء فيه كتبًا؛ فالحافظ ابن حجر كتب كتابه «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»، ثم ألف السيوطي كتابه «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، وألف السخاوي كتابًا عنوانه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة»، ثم جاء تلميذه عبد الرحمن بن الديبع فاختصره في كتابه «تمييز الطَّيِّب من الخبيث فيما يدور علىٰ ألسنة الناس من الحديث»، ثم كتب العجلوني -رحمه الله تعالىٰ- كتابًا سماه: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس».

وما كانت هذه العناية من العلماء حتىٰ أفردوا كتبًا في ذلك إلا حماية لجناب السنة، وحرصًا علىٰ الناس من الضلال، وتنقية لما يتناقلونه من أقوال، وبيانَ ما هو حديث منها وما ليس بحديث، فلا يجوز للخطيب أن ينقل ما يجري علىٰ الألسنة في خطبته لمجرد شهرته وسريانه في الناس.

ويلحق بذلك ما هو من محفوظات الخطيب، مما لم يتيقن أنه حديث؛ فقد

يكون الخطيب قد حفظ في صباه حديثًا أو مقولة علىٰ أنها حديث من أبيه أو جده أو معلمه أو خطيب مسجدهم أو غيرهم، ورسخ في ذهنه أنه حديث، ولم يراجعه في كبره، فلا يجدر به أن ينقله في خطبته حتىٰ يتأكد من ثبوته.

وكثيرًا ما سمعنا بعض الخطباء والوعاظ يستدلون بأحاديث مشهورة ولكنها لا تثبت، وقد يكون منها ما هو موضوع، وينسبه إلىٰ النبي ﷺ.

ومما ذكره المؤلفون في الموضوعات من دواعي وضع الأحاديث واختلاقها: القص علىٰ الناس وتذكيرهم وموعظتهم.

ومرة سمعت واعظًا في إحدىٰ المساجد الكبرىٰ يعظ الناس علىٰ إثر ريح شديدة أصابتهم، فبدأ موعظته يأمر الناس أن يقولوا: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحا» وردد ذلك عليهم، وكرر الدعاء به، مستدلًّا بالحديث المشهور في ذلك، وهو لا يثبت، ومبينًا لهم أن الرياح في كل آيات القرآن رحمة، وأن الريح عذاب، ولم تأت مفردة في سياق الرحمة أبدًا. وفي هذا الإطلاق ذهول منه عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

بل إنه يجمل بالخطيب وإن كان حافظًا للحديث عارفًا بدرجته أن يراجعه حال التحضير لخطبته؛ لاحتمال الوهم، أو اختلاطه عليه بحديث آخر، وليستفيد رسوخه في ذهنه، وهو بمثابة المراجعة لحفظه.

خامسًا: أرىٰ أنه ينبغي للخطيب أن يذكر صحابي الحديث ومن أخرجه في خطبته باختصار؛ فإن ذلك أدْعَىٰ للثقة فيما ينقل لدىٰ المستمعين، ثم إنه قد يكون من المصلين معه من يستفيد من ذلك بترسيخ محفوظاته من الحديث النبوي.

سادسًا: التأكد من مفردات الحديث وجمله؛ فإن التصحيف والتحريف قد يقعان أثناء النسخ أو الطباعة، وقد يرويه الراوي علىٰ الخطأ؛ ولذلك اعتنىٰ العلماء قديمًا وحديثًا بضبط ألفاظ الحديث، وإصلاح ما به من التحريف والتصحيف.

وخصوا هذا الموضوع بكتب أفردوها فيه ككتاب تصحيفات المحدثين، وكتاب شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، كلاهما لأبي أحمد العسكري، وكتاب إصلاح غلط المحدثين للخطابي، وكتاب تصحيح التصحيف وتحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي، ونبهوا فيها علىٰ ما وقع لبعض الرواة أو النساخ من تصحيف وتحريف.

ومِنْ أمثلة ذلك: ما وقع لشيخ يعرف بمحمش أجلس للتحديث بعد وفاة محمد بن يحيىٰ الذهلي -رحمه الله تعالىٰ- فحدث بحديث «يا أبا عُمَيْر ما فعل النغير» فصحفه إلىٰ: (يا أبا عَمير ما فعل البعير)، وحدث بحديث «لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس» فصحفه إلىٰ (خرس)(٩)، وأخطأ ابن لهيعة في حديث: «أن النبي ﷺ احتجر في المسجد» فحَرَّفَهُ إلىٰ (احتجم في المسجد).

قال الإمام مسلم -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذه رواية فاسدة من كل جهة، فاحش خطؤها في المتن والإسناد جميعا، وابن لهيعة المصحف في متنه المغفل في إسناده، وإنما الحديث: أن النبي ﷺ احتجر في المسجد بخوصة أو حصير يصلي فيها»(١٠).

ومع كثرة الناشرين للكتب في هذا العصر، وازدهار سوق الطباعة، وتحول

---

(٩) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم ص١٤٦، وفتح المغيث (٣/ ٧٤).

(١٠) التمييز، ص١٨٧.

هذا العمل الجليل تدريجيًّا من قصد خدمة تراث المسلمين، وإخراجه للناس إلىٰ تجارة بحتة، حتىٰ صار بعض النصارىٰ الموارنة في لبنان يشتغلون في كتب المسلمين ويطبعونها، وهكذا الأقباط في مصر، وبعض أتباع الفرق الضالة ينشرون كتب أهل السنة، وكثير من ملاك دور النشر والقائمين عليها هم من أجهل الناس بالكتب وقيمتها؛ وأيضًا تصدىٰ لتحقيق الكتب وتخريجها في كثير من الأحيان أناس ليسوا من أهل الصنعة، ولا علم لديهم بأصول الفنون التي يُحَقِّقُون الكتب فيها تارة بأسمائهم، وتارة أخرىٰ بأسماء اللجان العلمية للدار، فإن الأخطاء الفاحشة، والتحريفات الكثيرة قد أصابت كثيرًا من كتب التراث المطبوعة؛ مما يوجب علىٰ المستفيد منها من الخطباء وغيرهم أخذ الحيطة والحذر، والتأكد من صحة النصوص المنقولة فيها، ولا سيما حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك يكون وفق الخطوات التالية:

١- علىٰ الخطيب أن يحرص علىٰ اقتناء الطبعات الجيدة لمكتبته، المحققة تحقيقًا علميًّا ممن يوثق بعلمهم وورعهم، وخاصة فيما يتعلق بنص حديث رسول الله ﷺ من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم وغيرها، وكذلك الكتب الناقلة عنها من كتب الترغيب والترهيب والآداب والمواعظ والزهد وأدلة الأحكام ونحوها؛ فإنها وإن غلا ثمنها -بسبب حقوق المحققين الذين أمضوا سنوات طويلة في تحقيقها- فإن قيمتها فيها، وهي خير من الطبعات التجارية الرخيصة في قيمتها وفي تحقيقها.

وهذا يريح الخطيب والباحث علىٰ مدىٰ الزمن، بطمأنينته إلىٰ أكثر كتبه التي يملكها، ووثوقه فيها، ويوفر عليه وقتًا طويلًا قد يقضيه بسبب أغلاط في حديث حولت معناه أو أوجدت فيه إشكالات يستنزف وقته وجهده في حلها، ولربما

رجع إلىٰ كتب الشروح والغريب واللغة ثم يتبين له بعد جهد جهيد، ووقت طويل أن في متن الحديث خطأ في الطباعة!!

٢- إذا كان الكتاب الذي سيأخذ منه الحديث لم يخدم كما ينبغي، ولا يوجد له طبعة جيدة -وهذا مع الأسف كثير في كتب التراث- أو هو لا يملك طبعة جيدة، فأرىٰ أن يأخذ الحديث من طبعته السقيمة، ولكن يراجع كتبًا أخرىٰ مساعدة يغلب علىٰ ظنه أن الحديث فيها، مثل كتب الزوائد والشروح، والكتب المصنفة في موضوعات معينة، وهذا الحديث من ضمن موضوعاتها.

وكثيرًا ما تتوارد نسخ عدة، وكتب متنوعة علىٰ الخطأ؛ لأن الخطأ في المصدر المنقول عنه، وقد يكون الخطأ في أصل المخطوط، ويكون اللفظ محتملًا وليس فيه ما يستنكر، وقد يعذر الخطيب في هذه الحالة. لكن زيادة الاستيثاق، وحرص الخطيب علىٰ إدراك معنىٰ الحديث يوصله إلىٰ الصواب، ويقلل احتمال وقوع الخطأ بإذن الله تعالىٰ، ولأهمية المثال العَمَلِي في توضيح الصورة للخطيب أسوق هذا المثال:

لو كان عند الخطيب حديث في مسند أحمد، والطبعة التي عنده للمسند رديئة، فيراجع طبعة جيدة ولو في مكتبة عامة، فإن لم يتوفر له ذلك، وكان الحديث في أحد الكتب الستة راجعه فيه -ويستعين في بحثه بجامع الأصول وفيه الموطأ وباقي الستة إلا ابن ماجه- فإن لم يكن في أحدها فيراجع مجمع الزوائد للهيثمي، وبإمكانه أن يراجع ترتيب المسند وشرحه للساعاتي المسمىٰ (الفتح الرباني ومعه بلوغ الأماني).

فإن كان الحديث في موضوع من موضوعات الترغيب أو الترهيب أمكنه مراجعة كتاب المنذري، وإن كان الحديث قولًا للنبي ﷺ أمكنه مراجعة الجامع

الصغير للسيوطي، وزياداته للمناوي، وصحيحه وضعيفه للألباني. وهكذا . . . . ولن يعدم طريقة من الطرق يجد بواسطتها الحديث في مصادر أخرىٰ.

ويستفيد من مراجعته لهذه الكتب المتنوعة فوائد كثيرة منها:

أ- الاطمئنان إلىٰ لفظ الحديث، وتوثيقه قدر المستطاع.

ب- زيادة خبرته في التعامل مع كتب التراث، ومعرفة مناهج مصنفيها فيها، ومع كثرة المراجعة والممارسة يمتلك دربة في ذلك تمكنه من الوصول إلىٰ المعلومة التي يريدها في أسرع وقت وأقل جهد؛ إذ إن هذه المراجعات تشبه دورات تعليمية سريعة في هذه الكتب العظيمة.

ت- قد يجد أحاديث أخرىٰ تخدمه في موضوعه الذي يكتبه، وربما كانت هذه الأحاديث بالنسبة لموضوعه أهم من الحديث الذي قصده؛ مما يثري موضوعه ويقويه بالنصوص ويوسعه.

فمراجعته لمجمع الزوائد تمكنه من معرفة أحاديث أخرىٰ في موضوعه أو قريبة منه في مسند أحمد أو مسند أبي يعلىٰ أو مسند البزار أو في معاجم الطبراني.

ومراجعته للترغيب والترهيب تكسبه أحاديث أخرىٰ في موضوعه أو قريبة منه، وقد يكون منها ما هو أقوىٰ من حديثه أو في الصحيح، وقد غفل عن هذه الأحاديث أو لا يعلمها قبل مراجعته لهذا الكتاب.

ومراجعته لبلوغ الأماني تكسبه أحاديث أخرىٰ وآثارًا عن الصحابة والتابعين؛ لأن الساعاتي -رحمه الله تعالىٰ- يعقد بابًا في نهاية كل باب من ترتيبه لأحاديث المسند يجعله لزوائد الباب وأحكامه، يسوق فيه أحاديث وآثارًا وأحكامًا يكثر فيها النقل من كتب الشروح، وقراءة الخطيب لذلك تجعله أكثر إلمامًا

بموضوعه، وتمكنًا فيه، وتفتح له أبوابًا عظيمة من العلم والمعرفة.

وإذا كان لديه كتاب ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزياداته علىٰ الأبواب الفقهية لعوني الشريف، أمكنه الاطلاع علىٰ أحاديث قولية أخرىٰ في موضوعه الذي يريده أو قريبة منه.

ث- أنه يطلع علىٰ تخريج الحديث، فالمنذري والهيثمي والساعاتي يخرجون الأحاديث.

ج- أنه يطلع علىٰ حكم علىٰ الحديث أو حكم علىٰ رجاله؛ فالمنذري والهيثمي يحكمان أحيانًا علىٰ الحديث بالصحة أو بالحسن أو بالضعف أو النكارة، ويحكمان أكثر علىٰ رجاله بعبارات: ورجاله رجال الصحيح، ورجاله ثقات، أو موثوقون، أو فيه فلان مختلف فيه، أولم يوثقه إلا ابن حبان، أو ضعيف، أو منكر الحديث أو كذاب . . .

فإن كان الحديث لا يحتج به أسقط ذلك عن الخطيب عناء كبيرًا من البحث في درجة الحديث. وكانت مراجعته تلك عونًا له في السلامة من الاستدلال بحديث لا يحل الاستدلال به، ولا نسبته للنبي ﷺ.

وإن كان الحديث مما حكما علىٰ رجاله بالتوثيق احتاج إلىٰ التأكد من اتصال السند وعدم العلة المانعة من الاحتجاج بالحديث؛ لأنه لا يلزم من توثيق الرجال، أو كونهم من رجال الصحيح صحة الحديث؛ لاحتمال الانقطاع أو علة أخرىٰ خفية.

وكذلك الساعاتي يحكم أحيانًا علىٰ الأحاديث أو ينقل حكم مَنْ قَبْلَه عليها.

والسيوطي والألباني يحكمان أيضًا علىٰ الأحاديث.

سابعًا: الاستيثاق من قراءته للحديث وإعرابه بشكل صحيح؛ فإن بعض

الكلمات والجمل أو أسماء الرواة قد تكون عالقة في ذهنه علىٰ الخطأ، إما لأنه حفظه هكذا في صغره، أو سمعه من متحدث علىٰ الخطأ فرسخ في ذهنه، أو هو يقرأه ابتداء علىٰ الخطأ، ويكون استيثاقه بما يلي:

أ- أن يراجع الحديث في طبعة محققة موثوقة مضبوطة بالشكل ويقرأه منها بتمعن، ويضبط في كتابته ما يحتاج إلىٰ ضبط.

ب- أن لا يملك طبعة مشكولة، وفي هذه الحالة يراجع كتب الشروح، والشارحون غالبًا ما يضبطون الكلمات المشكلة، ويذكرون الأوجه أو الخلاف إن كان ثمة خلاف، أو كان للكلمة أكثر من وجه.

ومما يحضرني من الأمثلة حديث (تعرض الفتن علىٰ القلوب عرض الحصير عودًا عودًا) فكلمة (عودًا) اختلفوا في ضبطها علىٰ أقوال ثلاثة:

١- عَوْذًا عوذًا -بفتح العين والذال المُعْجَمَة- ومعناه: الاستعاذة بالله تعالىٰ منها.

٢- عَوْدًا عودًا -بفتح العين، وبالدال- علىٰ معنىٰ أن الفتنة كلما زالت عادت مرة أخرىٰ.

٣- عُودًا عودًا -بضم العين، وبالدال- علىٰ معنىٰ أن الفتن تتوالىٰ علىٰ القلب، كما يتوالىٰ العود بإزاء العود في نسج الحصير. وَقَدْ تَوَارَدَ شراح صحيح مسلم القاضي عياض والقرطبي والنووي والأبي علىٰ ذكر هذه المعاني والترجيح بينها.

والمعنىٰ الأخير هو الأَشْهَر والأَظْهَر، لكن معرفة الخطيب للمعاني الأخرىٰ يفيده جدًّا، وقد يكون أحد المصلين حَفِظَه علىٰ المعنىٰ الآخر فيحتج عليه به، فيكون ملمًّا بتلك المعاني، وهذا يُكسبه ثقة الناس فيه، وطمأنينتهم إلىٰ ما يلقي عليهم.

وأحيانًا يتصرف الرواة في الكلمة فيغيرون لفظها -بناء علىٰ جواز الرواية بالمعنىٰ إذا لم يخل به- بزيادة حروف أو إبدالها بمرادف، لكن المعنىٰ يكون متقاربًا، ومن لا علم له بذلك قد يظنه خطأ في الحديث، مع أن كل الألفاظ صحيحة لتقارب معانيها.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في حديث أبي رزين العقيلي لما سأل عن البعث وكيفيته فقال النبي ﷺ: «**أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟ ...**» الحديث.

فكلمة (مَحْلا) هكذا جاءت في المسند، ومعناها: مجدبًا، من أمحلت الأرض إذا أجدبت، وجاء في الرواية الأخرىٰ للمسند وعند الطيالسي (مُمْحِلا) وهي بمعنىٰ الأولىٰ، ومثلها حديث النواس رضي الله عنه في شأن الدجال، وفيه: «**فيصبحون مُمْحلين**»، وجاء في رواية الطبراني: (قَحْلا)، وقحل الناس: يبسوا من شدة القحط. فهذا اختلاف في الروايات، لكن المعنىٰ واحد.

ت- بإمكانه مراجعة كتب غريب الحديث إن كانت الكلمة غريبة -أي يقل استعمالها- أو كانت مشتركة مع غيرها في المعنىٰ؛ فالمصنفون في الغريب يعتنون ببيان الفروق المعنوية بين المشتركات في الألفاظ، وأحيانًا يوردون أحاديث أخرىٰ فيها ذات الكلمة أو قريبة منها في المعنىٰ فيستفيد الخطيب بمراجعتها نصوصًا أخرىٰ، واتساعًا في علم معاني الحديث.

والكتب في الغريب كثيرة ومتداولة ومن أشهرها: كتب الخطابي والحربي وابن الأثير.

ث- يمكنه أيضًا أن يراجع كتب أهل اللغة كالقاموس والصحاح واللسان ونحوها؛ فإن أهل اللغة يأتون بجذر الكلمة ويذكرون ما فيها من استعمالات، ويستدلون لما يوردون من المعاني بالقرآن والسنة وأشعار العرب وأمثالهم.

ثامنًا: التأكد من أن استدلاله بالحديث صحيح، فقد يكون معنىٰ الحديث أو الشاهد منه علىٰ غير الوجه الذي أراده الخطيب؛ إما لفهمه علىٰ الخطأ، أو سمعه من أحد خطأ، أو يكون المعنىٰ الذي قصده شاذًّا أو مرجوحًا، وقد يحكيه علىٰ أنه المعنىٰ الوحيد للحديث مع كونه مرجوحًا.

وتلافي الخطأ في ذلك يكون بمراجعة كتب الشروح، ويستفيد من مراجعتها بعض النصوص الأخرىٰ غير حديثه المشروح، وقد يجد آثارًا وأقوالًا للعلماء تنفعه في موضوعه.

فإن كان حديثه في الكتب الستة فقد شرحت شروحًا كثيرة، وإن كان الحديث في كتاب لم يطبع له شرح، أو هو لا يملكه، فلن يعدم حيلة يجد فيها الحديث:

فقد يجده في شروحات عمدة الأحكام، أو المنتقىٰ، أو بلوغ المرام إن كان الحديث في الأحكام.

وإن كان الحديث قولًا وجده في شروح الجامع الصغير؛ كفيض القدير للمناوي.

وربما وجده في شروحات مشكاة المصابيح، أو رياض الصالحين، أو شرح السنة للبغوي، أو غيرها من كتب المجاميع والشروح.

تاسعًا: ينبغي للخطيب أن لا يشير إلىٰ الأحاديث إشارة لا يفهمها إلا من كان حافظًا للحديث، مستحضرًا له، فليس كل المصلين يحفظون الأحاديث، وليس كل من يحفظها يستحضرها في الحال، ولا سيما إذا كان الحديث لا يطرق الأسماع كثيرًا.

عاشرًا: إذا كان في الحديث إشارة توضيحية من النبي عليه الصلاة والسلام، فأرىٰ أن يطبقها الخطيب وهو يقرأ الحديث؛ تأسيًا بالنبي عليه الصلاة والسلام،

ولإفهام المصلين كيف فعل النبي ﷺ، فالوصف وحده قد لا يفهمه كل المصلين، والفعل أبلغ من الوصف.

وكثيرًا ما جاء في الأحاديث: وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، وخنس الإبهام، فبسط يديه أو قبضهما، وأشار بيده هكذا، أو قبل المشرق، يقول هكذا بأصبعه، وقبض أصابعه . . .

وأحيانًا قد لا يجد الخطيب وصفًا دقيقًا في الرواية كيف فعل النبي عليه الصلاة والسلام، إما لاختصارها أو بدا للراوي أنها معروفة فلم يوضحها، وعلىٰ الخطيب في مثل ذلك أن يجمع الروايات، ويطلع علىٰ شرح الحديث؛ ليتبين له الوصف كاملًا إما من رواياته الأخرىٰ وإما من كلام الشراح.

وذلك مثل حديث ابن عمر في أن الله تعالىٰ يطوي السماوات والأرضين بيديه، قال ابن عمر يحكي فعل النبي ﷺ وهو يحدث بهذا: «ويقبض أصابعه ويبسطها» هكذا في رواية مسلم، والحديث في الصحيحين. وزاد ذلك إيضاحًا رواية للنسائي وفيها: «وجعل باطنها إلىٰ السماء»(١١).

الحادي عشر: إذا أنهىٰ الخطيب صلاته، ثم سئل عن معنىٰ في حديث استشهد به، أو أورد أحد المصلين عليه إشكالًا في استدلاله، أو دليلًا آخر ينقض ما قرره في خطبته، فلا يخلو الخطيب من حالين:

الأولىٰ: أن يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ويعلم ما قد يورد علىٰ استدلالاته من أدلة أخرىٰ، ولديه أجوبة لها -ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بالتحضير الجيد- فليزل تلك الإشكالات، ويُجِبْ عنها بما آتاه الله تعالىٰ من علم وفقه وتحضير جيد لموضوعه.

---

(١١) السنن الكبرىٰ (٧٦٩٥).

الثانية: أن لا يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ولا يعلم بالأدلة التي أوردت عليه، فلا يجوز له حينئذ أن يخلص نفسه من هذا المأزق بالكذب، أو بنفي ما لا يعلم مع احتمال ثبوته، ولا يحل له أن يصر علىٰ رأيه وهو غير متأكد مما أورد عليه.

مثال ذلك: لو تحدث الخطيب عن فوائد الأمراض وما يحصل فيها من الأجر والثواب، وساق الآيات والأحاديث في فضل الصبر علىٰ المصائب، ثم أورد ما جاء في المسند وغيره من أن أبي بن كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- قد دعا علىٰ نفسه بالحمىٰ، فلازمته حتىٰ إن حرها ليوجد من وراء اللحاف، واستشهد الخطيب بفعل أبي رضي الله عنه علىٰ جواز أن يدعو الإنسان علىٰ نفسه بالمرض ابتغاء الأجر، ولا سيما أن أُبَيًّا رضي الله عنه من فقهاء الصحابة وعلمائهم.

ثم أورد معترض علىٰ الخطيب الأحاديث التي فيها الأمر بسؤال الله تعالىٰ العفو والعافية، والأخرىٰ التي فيها النهي عن الدعاء علىٰ الأنفس أو الأولاد أو الأموال، وذكر قصة الرجل الذي دعا علىٰ نفسه فزاره النبي ﷺ وقد أكله المرض، فأنكر عليه الصلاة والسلام عليه دعاءه علىٰ نفسه، وقصته مخرجة في صحيح مسلم.

ولا شك في أن الخطيب في مثل هذه الحالة مخطئ، ولا يحل له المكابرة والإصرار علىٰ الخطأ، وفعل أبي رضي الله عنه اجتهاد منه يؤجر عليه إن شاء الله تعالىٰ، ولكن لا يقضىٰ باجتهاده رضي الله عنه علىٰ النصوص الصحيحة الصريحة في هذا الباب، ولا يوافق عليه بحجة أنه من علماء الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه وإن كان كذلك فهو غير معصوم من الخطأ، وقد تخفىٰ عليه بعض النصوص، ولا عصمة إلا للرسل عليهم السلام.

والواجب الشرعي، ثم الشجاعة الأدبية يقضيان علىٰ الخطيب بأن يراجع الحق، ويعترف بخطئه، وأن يشكر من تعقبه فيه، وبينه له، وأن يسعىٰ إلىٰ تصحيحه في خطبة تالية سواء صرح بخطئه، وذكر لهم أنه راجع عنه، وهذا أحسن.

فإن عجز عن ذلك قرر الصواب الذي يعارض ما قرره من خطأ سابقًا، ويؤكد عليه مستشهدًا بما علمه من أدلة كان من قبل يجهلها، فإن نوقش عقب الصلاة بقوله السابق بين أنه أخطأ فيه، وأنه صححه في هذه الجمعة.

وقد يظن بعض الخطباء أن مثل هذا الاعتراف يقلل من ثقة المصلين في الخطيب، وهذا خطأ، بل الاعتراف بالخطأ يزيد من طمأنينة المصلين وثقتهم في خطيبهم؛ لأنهم سيتيقنون أو يغلب علىٰ ظنهم أن ما لم يعتذر خطيبهم عنه فهو صحيح، فهو قد عودهم علىٰ الاعتذار مما يخطئ فيه.

وقد بينت في موضوع سابق أنواع المناقشين للخطيب، وكيفية التعامل مع كل نوع منهم[(١٢)].



(١٢) ينظر: استدلال الخطيب بالقرآن، ص(٢١).

٧- الخطبة بسورة أو بآيات أو بآية

كتبت موضوعًا سابقًا بعنوان: استدلال الخطيب بالقرآن[١]، ذكرت فيه أهمية الاستدلال بالآيات القرآنية في الخطبة، وطريقة ذلك، وما يلزم له، فيمكن أن يستفاد من فقراتها في هذا الموضوع حتىٰ لا أكرر ما ذكرته قبل.

بيد أن تناول الخطيب للآيات القرآنية علىٰ أضرب ثلاثة:

الأول: الاستدلال بها، ويدخل فيه الاستئناس إذا كانت الدلالة ليست قاطعة ولا ظاهرة.

الثاني: القراءة بها، كقراءة النبي عليه الصلاة والسلام آية أو سورة علىٰ المنبر، والظاهر أن الغرض من هذه القراءة التذكير والموعظة.

الثالث: تخصيص الخطبة كلها في الحديث عن آية أو سورة، وهو موضوع مقالتي هذه.

والضرب الأول سبق إفراده بالكتابة المشار إليها آنفًا.

وأما الثاني: فإن بعض الفقهاء جعلوا قراءة شيء من القرآن شرطًا لصحة الخطبة، وهو مذهب الشافعية والحنابلة؛ للأحاديث والآثار الواردة في قراءة النبي ﷺ في خطبته، وقراءة بعض خلفائه رضي الله عنهم، ومما ورد في ذلك:

١- حديث أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها في قراءة النبي ﷺ لسورة (ق) علىٰ المنبر، وسيأتي الكلام عليه لاحقًا.

٢- حديث يَعْلَىٰ بن أمية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يَقْرَأُ علىٰ الْمِنْبَرِ ﴿وَنَادَوْا

---

(١) ص(٢١).

يَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرف: ٧٧](٢).

٣- حديث أُبَيِّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَرَأَ يوم الْجُمُعَةِ تَبَارَكَ وهو قَائِمٌ فَذَكَّرَنَا بِأَيَّامِ الله . . .»(٣).

ووردت أحاديث أخرىٰ ضعيفة أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ علىٰ المنبر آخر سورة (الزمر)، وفي أخرىٰ قرأ سورتي (الكافرون والإخلاص)، وجاءت آثار عن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أنهم قرءوا آيات أو سورًا علىٰ المنبر يوم الجمعة(٤).

قال الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: «فَلَا تَتِمُّ الْخُطْبَتَانِ إِلَّا بِأَنْ يَقْرَأَ في إِحْدَاهُمَا آيَةً فَأَكْثَرَ، وَالَّذِي أُحِبُّ أَنْ يَقْرَأَ بـ(ق) في الْخُطْبَةِ الْأُولَىٰ، كما روي عن رَسُولِ الله ﷺ لا يُقَصِّرُ عنها ومَا قَرَأَ أَجْزَأَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ»(٥).

وقال الترمذي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد اخْتَارَ قَوْمٌ من أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَقْرَأَ الْإِمَامُ في الْخُطْبَةِ آيًا من الْقُرْآنِ، قال الشَّافِعِيُّ: وإذا خَطَبَ الْإِمَامُ فلم يَقْرَأْ في خُطْبَتِهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ أَعَادَ الْخُطْبَةَ»(٦).

---

(٢) رواه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (٨٧١).

(٣) رواه ابن ماجه (١١١١)، وأحمد إلا أن فيه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ (براءة) (٥/ ١٤٣)، وهذا اضطراب، قال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وأصله في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١/ ١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.
لكن قال الشوكاني: هو من رواية عطاء بن يسار عن أبي ولم يدركه. نيل الأوطار (٣/ ٣٢٨)، ووهن ابن عبد البر هذه القصة في التمهيد (١٩/ ٣٦)، والذي في الصحيحين منه ما يتعلق بالنهي عن اللغو يوم الجمعة.

(٤) انظر: الأم (١/ ٢٠١)، ومعرفة السنن والآثار (٢/ ٤٩٣)، وسنن البيهقي (٣/ ٢١١).

(٥) الأم (١/ ٢٠١).

(٦) جامع الترمذي (٢/ ٣٨٢).

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «فيه القراءة في الخطبة، وهي مشروعة بلا خلاف، واختلفوا في وجوبها، والصحيح عندنا وجوبها وأقلها آية»(٧).

وفي مذهب الحنابلة: قال المرداوي -رحمه الله تعالىٰ-: «الصحيح من المذهب أنه يشترط لصحة الخطبتين قراءة آية مطلقًا في كل خطبة نص عليه، وعليه أكثر الأصحاب؛ لأنها بدل من ركعتين»(٨).

وأما الأحناف والمالكية فالقراءة عندهم من سنن الخطبة، وتَصِحّ الخطبة بلا قراءة، ونص ابن نجيم علىٰ أَنَّ مَنْ تَرَكَ القراءة فهو مسيء(٩).

وفي اختيارات السعدي أن القراءة من كمال الخطبة وليست واجبة، قال -رحمه الله تعالىٰ-: «من كمال الخطبة: الثناء فيها علىٰ الله وعلىٰ رسوله، وأن تَشْتَمِلَ علىٰ قراءة شيء من كتاب الله تعالىٰ، وأما كون هذه الأمور شرطًا لا تَصِحّ إلا بها سواء تركها عمدًا أو خطأ أو سهوًا فَفِيه نظر ظاهر . . .» اهـ(١٠).

وقال ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: «والدليل علىٰ اشتراط قراءة الآية أن النبي ﷺ كان يقرأ يوم الجمعة بـ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١] يخطب بها؛ ولكن هذا ليس بدليل؛ لأن لدينا قاعدة في أصول الفقه وهي: أن الفعل المجرد لا يدل علىٰ الوجوب»(١١).

قلت: ولعل ما اعتاده الخطباء من ختم الخطبة الأولىٰ بآية يبدءونها

---

(٧) شرح مسلم (٦/ ١٦٠).

(٨) الإنصاف (٢/ ٣٨٧).

(٩) انظر: البحر الرائق (٢/ ١٥٩)، والفتاوىٰ التاتارخانية (٢/ ٤٩)، والفتاوىٰ العالمكرية (١/ ١٦٢)، والخلاصة الفقهية للقروي ص٩٢.

(١٠) المختارات الجلية ص٥١.

(١١) الشرح الممتع (٥/ ٧١).

بالاستعاذة هو من باب قصد القراءة؛ أخذًا بما اشترطه الشافعية والحنابلة، واستحبه الأحناف والمالكية من القراءة في الخطبة، ومعلوم أن القراءة غير الاستدلال، فيستعيذون للقراءة، ولا يستعيذون في الاستدلال، ومما يؤيد ذلك أن غالب الآيات التي يختارونها هي في الترغيب والترهيب.

وفي الفتاوىٰ التاتارخانية: «إذا أراد أن يقرأ سورة تامة يتعوذ في أولها ويسمي، وأكثرهم قالوا يتعوذ ولا يسمي؛ ولهذا تعارف الخطباء ترك التسمية أحيانًا، والإتيان بالتعوذ علىٰ كل حال . . . وأصل الاختلاف القراءة في غير الخطبة إذا أراد أن يقرأ سورة يتعوذ ويسمي، وإذا أراد أن يقرأ آية هل يسمي؟ فعلىٰ الاختلاف» اهـ(١٢).

وأما عدم الترتيل أو التَّغَنّي بهذه الآيات فلا يشترط ذلك في قراءة الآيات التي تكون في الخطبة، والنبي عليه الصلاة والسلام نُقل عنه قراءة آيات وسور في الخطبة ولم يذكر الرواة أنه تغنىٰ في قراءتها أو رتلها، ولا أعلم أنه نُقل عن الصحابة أو التابعين أنهم كانوا يتغنون في قراءة الآيات التي في الخطبة أو يرتلونها.

وعليه فلا أرىٰ أي وجه لإنكار الاستعاذة في آية يقرءوها الخطيب في الخطبة دون غيرها من الآيات التي يستدل بها؛ لأن القراءة غير الاستدلال.

وإذا اعتُرِض علىٰ التزامه في آخر الخطبة الأولىٰ، فجوابه: أنه إذا ثبت استحباب القراءة في الخطبة أو اشتراطها أو مشروعيتها علىٰ الخلاف في ذلك، وثبتت مشروعية الاستعاذة للقراءة أو وجوبها علىٰ الخلاف في ذلك؛ جاز للخطيب أن يجعل قراءته حيث شاء من خطبته، بما يناسب الحال، ولا يقطع

---

(١٢) الفتاوىٰ التاتارخانية (٢/ ٤٩-٥٠).

معاني الخطبة، ومن أنسب مواضعها آخر الخطبة الأولىٰ، والله تعالىٰ أعلم(١٣).

- **جعل موضوع الخطبة في سورة أو آية أو آيات:**

قد يبدو للخطيب أن يجعل خطبته في سورة من سور القرآن، أو آية من آياته، أو بضع آيات تعالج موضوعًا من الموضوعات، وهذا مِنْ فقه الخطيب، ودليل علىٰ تعظيمه لكتاب الله تعالىٰ، ومحاولة نفع الناس به، كما يدل علىٰ تأسّيهِ بالنبي عليه الصلاة والسلام.

والأصل في جعل الخطبة في سورة أو آية حديث أم هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بن النُّعْمَانِ رضي الله عنها قالت: «لقد كان تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ الله ﷺ وَاحِدًا سَنَتَيْنِ، أَوْ سَنَةً

(١٣) ذكر الشيخ سعود الشريم -حفظه الله تعالىٰ- أن ختم الخطباء الخطبة بآية يستعيذ فيها دون غيرها من الآيات لا وجه له لأمور ثلاثة:
١- أن هذا ليس بقراءة، وإنما هو استشهاد بآية.
٢- أن النبي ﷺ لم يكن يستعيذ بالله تعالىٰ في الاستشهاد بالآيات.
٣- أن فعل الخطباء هذا تخصيص دون مخصص. انتهىٰ ملخصا من كتابه النفيس (الشامل في فقه الخطيب والخطبة) ص٣٤٥-٣٤٦.
قلت: ظاهر صنيع الخطباء أنهم يقصدون القراءة في الآية التي يوردونها في آخر الخطبة الأولىٰ؛ عملًا بالنصوص، وأخذًا بقول الفقهاء بالقراءة في الخطبة وجوبًا أو استحبابًا، فيستعيذون لقراءتهم بخصوصها، دون الآيات الأخرىٰ التي هي محل استشهاد، وكل هذه الأوجه الثلاثة تنتقض إذا قيل: إنها قراءة وليست استشهادًا كما لا يخفىٰ.
والشيخ حفظه الله تعالىٰ وسدده قد فرق بين القراءة والاستشهاد في موضع آخر من كتابه المذكور آنفًا ص٣١٠-٣١٤ حين أنكر التغني بالآيات التي يستشهد بها الخطيب، مع إجازته للتغني إذا قصد القراءة، فكذلك الحال في تخصيص القراءة بالاستعاذة دون الاستشهاد، فكان تخصيصًا بمخصص، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والله تعالىٰ أعلم.

وَبَعْضَ سَنَةٍ، وما أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لِسَانِ رسول الله ﷺ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ علىٰ الْمِنْبَرِ إذا خَطَبَ الناس»(١٤).

وفي هذا الحديث مما له تعلق بموضوعنا مسائل ثلاث:

الأولىٰ: هل تلزم هذه السورة (ق) عينها؟

والثانية: هل كان يكتفي بقراءتها عن الوعظ والتذكير؟

والثالثة: هل كان يقرؤها كاملة في كل خطبة أم يقرأ بعضها، فحفظت كل السورة في عدد من الخطب؟

أما الأولىٰ: فلا تلزم قراءة سورة (ق)؛ لإطلاق أحاديث أخرىٰ في القراءة؛ ولثبوت قراءة النبي عليه الصلاة والسلام غيرها.

قال الصنعاني -رحمه الله تعالىٰ-: «قد قام الإجماع علىٰ عدم وجوب قراءة السورة المذكورة ولا بعضها في الخطبة، وكانت محافظته علىٰ هذه السورة اختيارًا منه لما هو الأحسن في الوعظ والتذكير» اهـ(١٥).

وأما الثانية: فالظاهر أنه يَقْرِن القراءة بالثناء علىٰ الله تعالىٰ والوعظ والتذكير، ولا يقتصر علىٰ القراءة وحدها؛ لما يلي:

١- حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: «كانت لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُذَكِّرُ الناسَ»(١٦).

٢- حديث جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كانت خُطْبَةُ النبي ﷺ يوم الْجُمُعَةِ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عليه»(١٧).

---

(١٤) رواه مسلم (٨٧٣) واللفظ له، وأبو داود (١١٠٠)، والنسائي (٣/ ١٠٧).

(١٥) سبل السلام (٣/ ١٧٠-١٧١).

(١٦) رواه مسلم (٨٦٢).

(١٧) رواه مسلم (٨٦٧).

فالجابران رضي الله عنهما يحكيان هدي النبي ﷺ في الخطبة، وكان مِنْ هَدْيِهِ أَنَّه يحمد الله تعالىٰ ويثني عليه ويُذَكِّر الناس، وهذا غير القراءة.

وليس في حديث أم هشام رضي الله عنها ما يفيد حصر خطبته في قراءة (ق)، بل فيه ما يدل علىٰ أنه يقرؤها في الخطبة، ولا مانع أنه ضم إلىٰ القراءة حمدًا وموعظة، وهو الأقرب إلىٰ هديه عليه الصلاة والسلام، وعليه فلا دليل فيه لمن أجاز الاكتفاء بالقراءة عن الحمد والموعظة.

قال الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: «وَأُحِبُّ أَنْ يُقَدِّمَ الْكَلَامَ ثُمَّ يَقْرَأَ الْآيَةَ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَنَا ذلك وَإِنْ قَدَّمَ الْقِرَاءَةَ ثُمَّ تَكَلَّمَ فلا بَأْسَ» اهـ[١٨].

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقوله: (يقرأ القرآن ويذكر الناس) فيه دليل للشافعي في أنه يشترط في الخطبة الوعظ والقرآن» اهـ[١٩].

وأما الثالثة: فمحل خلاف بين شرَّاح الحديث:

قال الطيبي -رحمه الله تعالىٰ-: «إن المراد أول السورة لا جميعها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ جميعها في الخطبة»اهـ، وتعقبه ابن حجر المكي فقال: «يقرؤها كلها، وحَمْلُها علىٰ أول السورة صرف للنص عن ظاهره»[٢٠] اهـ.

وقال القاري -رحمه الله تعالىٰ-: «وفيه أنه لم يحفظ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ أوّلها في كل جمعة، وإلا لكانت قراءتها واجبةً أو سنةً مؤكدةً، بل الظاهر أنه كان يقرأ في كل جمعة بعضها فحفظت الكل في الكل، والله أعلم، ثم رأيت ابن حجر قال قوله: (يقرؤها) أي: كلها، وحملها علىٰ

(١٨) الأم (١/ ٢٠١).
(١٩) شرح مسلم (٦/ ١٥٠).
(٢٠) انظر: عون المعبود (٣/ ٤٤٩)، وبذل المجهود (٦/ ١٠٠).

أوّل السورة صرف للنص عن ظاهره. اهـ، وفيه أن الظاهر مع الطيبي، لكن نحن نصرفه عن ظاهره بحمل كلها علىٰ الخطب المتعددة؛ إذ الحمل علىٰ كل السورة في كل خطبةٍ مستبعد جدًّا» اهـ[٢١].

ومن فقه الخطيب أن يحسن الاختيار من السور والآيات؛ فإن القرآن الكريم -وإن كان كله كلام الله تعالىٰ، وفيه الهدىٰ والرشاد- قد فضَّل الله تعالىٰ بعضه علىٰ بعض بالنسبة للبشر وما يصلحهم وينفعهم، كتفضيل الفاتحة علىٰ سائر السور، وآية الكرسي علىٰ سواها من الآيات.

وثمة سور وآيات تشتد حاجة الناس إليها في مكان دون مكان، أو زمان دون زمان، أو عند قوم بخصوصهم، ولا بد أن يراعي الخطيب ذلك.

وبيان ذلك كما يلي:

أولًا: لو رأىٰ الخطيب بعض الناس في بلده منغمسين في الربا، لا يتورعون عنه، ولا يخافون عاقبته، فيختار الآيات الزاجرة عن الربا في البقرة، ويفسرها للناس، ولا سيما إذا لم يستطع أن يخص الربا بخطبة؛ لغلبة المرابين وتمكنهم؛ فإن خطبته بهذه الآيات تفي بمقصوده، ويخرجه من الصدام معهم.

وهكذا لو رآهم متكالبين علىٰ الدنيا، متكثرين من متعها، معرضين عن طاعة الله تعالىٰ، فخطب فيهم بسورة التكاثر، أو بالآيات التي فيها تمثيل الدنيا بالأرض الخضرة التي تصفر وتزول خضرتها، في سور يونس، والكهف، والحديد. أو غير ذلك من الآيات التي تزهد في الدنيا، وتظهر حقارتها وزوالها، وتعظم أمر الآخرة والحساب والجزاء علىٰ الأعمال.

فيختار من السور والآيات ما تشتد حاجة الناس إليه، كما كان النبي عليه

(٢١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٤٥٤).

الصلاة والسلام يذكر أصحابه بما يناسب أحوالهم، ويصلح معاشهم ومآلهم.

ثانيًا: قد تكون الحاجة ملحة إلىٰ الخطبة بسور أو آيات معينة في مكان حصلت فيه حادثة جعلت من المناسب أن يتحدث الخطيب عن تلك الآيات ويبينها للناس، كما لو ابتلي أناس في بلد من البلدان بزلزال رأوا آثاره، وشاهدوا دماره، فأراد الخطيب أن يذكر الناجين منه بزلزلة أعظم مما رأوا وأحسوا، فجعل خطبته في سورة الزلزلة، أو في الآيتين الأوليين من سورة الحج، أو في جميع ذلك.

ثالثًا: هناك آيات معينة تكون الحاجة إلىٰ الحديث عنها في زمان دون زمان مثل: اختيار آيات الصيام في رمضان، أو آيات الحج قرب الحج، أو نحو ذلك.

• أقسام السور والآيات بالنسبة لتكرارها أو فضلها:

بعض السور والآيات يحتاج الناس إلىٰ العلم بفضلها ومعرفة معانيها؛ لتكرارها كل يوم مرة، أو مرات عدة، أو كل أسبوع، أو كل حول، أو لورود فضل فيها بخصوصها، أو لكلا هذين الأمرين، وقد لا يتهيأ لهم معرفة ذلك لكسلهم أو جهلهم أو عدم مبالاتهم، فيوصل الخطيب إليهم ما ورد فيها من فضل، ويبين لهم شيئًا من معانيها العظيمة علىٰ المنبر يوم الجمعة، مما يحفزهم إلىٰ المحافظة علىٰ قراءتها في أوقاتها المسنونة لها، مع تدبرها وفهم معانيها.

وهذه السور والآيات علىٰ أنواع أربعة:

الأول: سور وآيات أُمروا بقراءتها في اليوم والليلة، فهي تتكرر معهم كل يوم، فلا يحسن بهم عدم معرفة فضلها، وفهم معانيها.

وتقصير كثير من الناس في إدراك ذلك واقع في هذا العصر الذي كثر فيه

الانشغال بالدنيا، والإعراض عن تعلم كثير من أمور الدين، فالخطيب منقذ لهم حين يجعلها من موضوعات خطبته.

فالفاتحة يقرأها المسلم في كل ركعة من صلاته، فمجموع تكرارها في يومه وليلته سبع عشرة مرة على الأقل، عدا صلوات الراتبة وقيام الليل والوتر والضحى وتحية المسجد والنفل المطلق.

وسورتا الكافرون والإخلاص تقرآن في راتبتي الفجر والمغرب، والشفع والوتر، وركعتي الطواف.

وسور الإخلاص والمعوذتين تقرأ عقب كل صلاة مرة، وعقب الفجر والمغرب ثلاث مرات.

وكذا آية الكرسي تقرأ عقب كل صلاة مرة، وعند النوم مرة.

والآيتان الأخريان من سورة البقرة تقرأ كل ليلة.

فسورة الإخلاص يقرأها من التزم أذكار الصلوات والصباح والمساء والنوم عشر مرات، غير راتبتي الفجر والمغرب، فتكون بهما ثنتي عشرة مرة، ويقرأ المعوذتين ثنتي عشرة مرة، ويقرأ آية الكرسي ست مرات.

الثاني: سور تتكرر مع المصلين أسبوعيًّا أو حوليًّا، وهي السور التي يقرأ بها في المجامع الكبار أو في أيامها، وهي سور: ق والقمر في العيدين الكبيرين، والجمعة والمنافقون والأعلى والغاشية في الجمعة، والسجدة والإنسان في فجر الجمعة، وقراءة الكهف في يوم الجمعة؛ فالمصلون محتاجون إلى معرفة المعاني العظيمة التي حوتها هذه السور، ولماذا يسمعون أكثرها، ويقرءون بعضها كل أسبوع؟! كما أنهم محتاجون إلى معرفة فضلها؛ لتكون لهم نية حسنة في قراءتها؛ امتثالًا للسنة، وطلبًا للمثوبة.

ومعرفتهم لذلك مما يعينهم علىٰ التزامها والمحافظة عليها، والفضل يعود في ذلك -بعد الله تعالىٰ- للخطيب الذي أولىٰ هذا الجانب المتكرر عنايته واهتمامه.

الثالث: سور نُقِل قراءة النبي عليه الصلاة والسلام لها في صلاته بالناس، وبعض أئمة المساجد يقرءونها؛ تأسيًا بالنبي عليه الصلاة والسلام، فيستمع المصلون ذلك منهم، ولا يعرفون لماذا يكررها الأئمة، مع ما فيها من المعاني العظيمة، مثل المرسلات والطور.

الرابع: سور ورد في فضلها أحاديث، لكن لم يوقت الشارع الحكيم لها وقتًا أو صلاة تقرأ فيها، مثل سور: البقرة وآل عمران والإسراء والفتح والملك والزلزلة وغيرها.

- **أقسام السور والآيات من جهة ما ورد فيها:**

تنقسم الآيات والسور القرآنية من جهة ما ورد فيها من الفضل إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: سور وآيات لم يصح بخصوصها شيء عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الثاني: سور وآيات جاء في فضلها أحاديث قليلة وربما حديث واحد فقط، مثل سورة الفتح والآيتين الأخريين من سورة البقرة.

الثالث: سور وآيات جاء في فضلها أحاديث كثيرة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وآثار عن الصحابة ﷺ، مثل سور: الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، ومثل: آية الكرسي.

ويلاحظ أن سور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي قد جمعت بين كثرة ما ورد فيها من الفضل، وتخصيصها بأوقات أو صلوات تقرأ فيها، وهي أكثر ما يكرره المسلم من القرآن في يومه وليلته. ولو قيل: إنها من أكثر ما يكرره المسلم في حياته كلها لما كان ذلك بعيدًا.

وهذا يدل علىٰ فضل هذه السور والآيات، وعظيم مكانتها في حياة المسلم وفي يومه وليلته.

فالقسمان الأول والثاني لا إشكال فيهما؛ إذ تكون الخطبة في المعاني التي تحويها هذه السور والآيات، والدروس المستفادة منها، وإذا كان في فضلها بعض الأحاديث والآثار، أو فيها ما يفيد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في صلوات مخصوصة فللخطيب أن يفتتح خطبته بهذه الأحاديث، أو يختمها بها بعد أن يبين معاني السورة أو الآية، وهي لن تأخذ حيزًا كبيرًا من خطبته.

أما القسم الثالث وهو في السور والآيات التي كثرت الأحاديث في فضلها فقد لا يتأتىٰ للخطيب أن يعرض لفضل السورة أو الآية، مع بيان معانيها في خطبة واحدة، لما يلي:

١- أن بعضها قد كثرت الأحاديث والآثار في فضلها كثرة ربما استوعبت الخطبة كلها أو أكثرها.

٢- أن هذه السور والآيات تحوي معاني غزيرة جدًّا، ولو كانت آياتها قليلة.

ولفضلها ومكانتها في الإسلام، وتكرارها في حياة المسلم أولاها المفسرون عناية خاصة، فاجتهدوا في استخرج فوائدها ولطائفها، واجتمع من ذلك علم غزير، ونكت كثيرة.

والذي أراه في مثل هذه السور والآيات أن يَفصل الخطيب فضلها عن معانيها، فيخص كل واحد منهما بجمعة مستقلة، ويشير في كل خطبة إشارات عابرة إلىٰ ما أهمله:

فلو اختار الخطيب أن يخطب عن فضل الفاتحة، واستوعب النصوص الواردة فيها، فإنه يشير إلىٰ عظمة ما حوته من المعاني، وما تضمنته من العلوم والمعارف، ولو جعل فضائلها مستوعبة بنصوصها في خطبته الأولىٰ، وفي الثانية أشار إلىٰ تلك المعاني لكان ذلك حسنًا.

فإذا اختار في خطبة أخرىٰ الحديث عن معاني سورة الفاتحة عكس القضية، فاستوعب المعاني بما يسمح به المقام، وأشار إلىٰ فضل السورة إشارات تأتي علىٰ معاني الأحاديث الواردة فيها ولو لم ينص عليها.

وبعض السور تشترك في الفضل وفي كثير من المعاني كالمعوذتين، فيجمع بينها في خطبة واحدة، وإن خشي الإطالة أو عدم الاستيعاب أفرد فضل السورتين في جمعة، وجعل معانيهما في خطبة أخرىٰ، ويشير في كل خطبة إلىٰ ما أهمله مما هو في الأخرىٰ كما فعل في الفاتحة.

• أقسام السور من حيث طولها وقصرها:

تنقسم السور المذكورة آنفًا وهي التي ورد فيها فضل أو خصت بصلوات أو أيام أو أوقات تقرأ فيها من حيث طولها وقصرها إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: سور طويلة جدًّا كالبقرة وآل عمران، وسور أقصر منها لكنها أيضًا طويلة لا يتسع الوقت لأنْ تُقرأ علىٰ المنبر فضلًا عن أن يُؤتىٰ علىٰ بعض معانيها كسورة الكهف.

الثاني: سور متوسطة في طولها، وبالإمكان أن تُقرأ علىٰ المنبر، ويؤتىٰ علىٰ

معانيها الإجمالية، مثل: ق والقمر، وأقل منها: الجمعة والمنافقون، ولو قسمها الخطيب علىٰ جمعتين لاستوفىٰ الكلام علىٰ معانيها وفوائدها.

الثالث: سور قصيرة يستطيع الخطيب أن يتوسع في معانيها، وتعداد فوائدها ولطائفها، وهي: الفاتحة والأعلىٰ والغاشية وقصار المفصل، إضافة إلىٰ آية الكرسي والآيتين الأخريين من سورة البقرة.

وأما القسم الأول فلا قدرة للخطيب في الكلام عنها إلا وفق ما يلي:

١- أن يذكر فضل السورة، ثم يأتي علىٰ أهميتها من جهة الموضوعات التي تناولتها بإجمال وإيجاز، مستشهدًا ببعض الآيات في بعض المواضع التي يراها مهمة، بحيث يعرف المصلون موضوعات هذه السورة ومقاصدها وأهميتها، دون الخوض في المعاني التي يطول بها المقام، وتلك طريقة حسنة إن استطاع الخطيب أن يركز خطبته، ويستوعب المعالم العامة للسورة، ولا يطيل علىٰ الناس، وله أن يجعل ذلك في أكثر من خطبة إن خشي الإطالة.

٢- أن يختار موضوعًا من الموضوعات التي عالجتها السورة، ولا يكون طويلًا، فيجعله موضوع خطبته، مع ذكر ما ورد في السورة من الفضل، وفي هذه الحالة يكون الخطيب قد رجع إلىٰ اختيار آيات في موضوع محدد، وخرج عن كونه قد اختار السورة عينها.

٣- أن يبدأ بالسورة من أولها، وفي كل جمعة يأخذ ما تيسر من آياتها، فيبين معانيها، ويذكر فوائدها، ثم يكمل في الجمعة الأخرىٰ، وهكذا حتىٰ ينهيها.

وأعرف خطيبًا كان يفعل ذلك فلا يخرج عن التفسير أبدًا، ولما نوقش احتج بأن القرآن هداية للناس، وأنهم في هذا الزمن قد أعرضوا عنه، ومن لم يتعظ بالقرآن فليس له واعظ.

والذي يظهر لي أن تلك الطريقة خطأ، وقد عرضت لأوجه خطئها في موضوع سابق مما يغني عن إعادته هنا.

وأضيف هنا علىٰ ما سبق ذكره: أن مثل سورة البقرة تتضمن أحكامًا فقهية كثيرة في النكاح والطلاق والعدة والخلع والرجعة وغيرها، وكلام المفسرين فيها طويل جدًّا، ولا سيما من لهم عناية بآيات الأحكام، فكيف سيتعامل الخطيب مع الخلاف في كثير من تلك المسائل، ولا يحسن به أن يحول خطبته إلىٰ ما يشبه الدروس الفقهية المتخصصة التي يُعرَض فيها الخلاف والأقوال، وقد يكون في ذلك فتنة للعامة، كما أن هذه الموضوعات لا تقع إلا للقليل من المصلين معه علىٰ حساب الأكثرية، ومحلها دور الإفتاء، وأروقة المحاكم لا منابر الجمعة.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يأتي في خطبته بما تشتد حاجة الناس إليه، فكيف يترك الخطيب ذلك إلىٰ موضوعات متخصصة لا يحتاجها إلا الأقل من الناس، وليس مكانها خطبة الجمعة؟!

• السور والآيات التي وقع خلاف في تصحيح أحاديثها:

بعض السور والآيات فيها أحاديث اختلف العلماء في ثبوتها وهذه ينبغي للخطيب أن يتثبت فيها لما يلي:

١- تسامح كثير من العلماء في أحاديث فضائل السور والآيات، علىٰ اعتبار أنها من الفضائل، ولا سيما أهل التفسير، فتمتلئ كتب بعضهم بالضعيف منها، وربما المنكر والموضوع، وقد يرد في فضلها شيء من الإسرائيليات.

٢- كثرة الوضع في فضائل القرآن وسوره وآياته، وكان من أهداف بعض الكذابين وضع أحاديث في فضائل سور القرآن لغرض الترغيب فيه، ومن ذلك:

أ- روىٰ ابن الجوزي بسنده عن ابن مهدي -رحمه الله تعالىٰ- أنه قال لميسرة بن عبد ربه: «من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعتها أرغب الناس فيها»(٢٢).

ب- وروىٰ بسنده عن أبي عمار المروزي قال: «قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي بن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة»(٢٣).

وأحيل القارئ هنا علىٰ ما كتبته سابقًا بعنوان: (استدلال الخطيب بالسنة) لمعرفة كيفية التعامل مع الأحاديث الواردة في فضائل السور أو معانيها(٢٤).

• الجمل والكلمات التي وقع خلاف في معانيها:

سيجد الخطيب كثرة الأقوال المختلفة في تفسير الكلمات القرآنية، وأقل من ذلك في تفسير الجمل أو الآيات، لكنه خلاف موجود، وينبغي أن لا يكون هذا الخلاف وكثرة الأقوال التي يجدها الخطيب في كتب التفسير صارفة له عن الخطبة ببعض سور القرآن أو آياته؛ لأن أكثره من خلاف التنوع لا من خلاف التضاد، وعليه فإن للخطيب مع ما يجده من كثرة أقوال واختلاف في التفسير حالين:

١- أن يكون الخلاف من باب التنوع لا التعارض، فيورد هذه المعاني علىٰ

(٢٢) الموضوعات (١/ ١٧).
(٢٣) الموضوعات (١/ ١٨).
(٢٤) ص (٣٧).

أن الآية تحتملها، لا علىٰ أنها أقوال لمفسرين اختلفوا فيها؛ فإن العامة لا يفرقون بين احتمال الآية للمعاني التي ذكرها المفسرون وبين اختلاف التعارض.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] جاء في الزور أقوال كثيرة منها: الشرك وعبادة الأصنام، أو الكذب، أو الفسق، أو الكفر، أو اللغو والباطل، أو الغناء، أو أعياد المشركين، أو مجالس السوء والخنا، أو شرب الخمر، أو مجالسه، أو شهادة الزور(٢٥).

ومن نظر إلىٰ كل هذه الأفراد المذكورة في تفسير الزور وجد أنها من الزور، وكل واحدة منها لا تنفي غيرها، فإن كان الخطيب قد اختار هذه الآيات من سورة الفرقان موضوعًا لخطبته، فينبغي أن لا يحصر معنىٰ الزور في أحد هذه المعاني دون غيره، بل يأتي بعبارة تدل علىٰ أن هذه من أفراد الزور.

وأحسن من ذلك أن يأتي بعبارة موجزة جامعة تجمع هذه الأفراد وغيرها مما تحتمله الآية؛ كما فعل السعدي -رحمه الله تعالىٰ- في إتيانه بجملة جامعة في تفسيره لهذه الآية فقال: «أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة علىٰ الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة»(٢٦).

ومن المفيد للناس أن يذكر الخطيب بعد ذكره للجملة الجامعة في معنىٰ (الزور) أهم ما تشتمل عليه كثير من المجالس في هذا العصر من الزور؛ للتمثيل علىٰ الزور، وللتنبيه علىٰ أهمية هذه الأفراد منه، وغفلة من يحضرونها عنها.

---

(٢٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢٦) تفسير السعدي ص٥٨٧.

وهكذا يفعل الخطيب في كل الآيات التي فيها أقوال هي من باب التنوع: يختار من المعاني ما يناسب الزمان والمكان وأحوال الناس دون نفي المعاني الأخرىٰ، أو حصر الآية في المعاني التي اختارها دون غيرها.

٢- أن يكون الخلاف خلاف تعارض، ولا بد من حمل الآية علىٰ أحد القولين، وحينئذ لا يخلو الأمر من حالين:

أ- أن لا يتوقف معنىٰ الآية علىٰ تحرير الخلاف في الكلمة أو الجملة، ولا إشكال حينئذ من تجاوز الخلاف، وعدم التعرض له، وذكر المعنىٰ إجمالًا.

ب- أن يتوقف معنىٰ الآية علىٰ تحرير الخلاف في الكلمة أو الجملة، فعلىٰ الخطيب أن يرجح بين القولين بمرجحات أخرىٰ، ويقتصر علىٰ الراجح منهما.

فإن كان الخلاف قويًا ولا مرجح لديه؛ ذكر القولين سواء بنسبة كل قول لقائله، أو يقول: معنىٰ هذه الجملة كذا أو معناها كذا، وهذا أحسن من التشويش علىٰ الناس بذكر الأقوال. وأنبه علىٰ أنه ينبغي للخطيب أن يكون حصيفًا في اختياره للسور والآيات التي يجعلها موضوع خطبته، فيختار ما يناسب الناس ويعالج مشكلاتهم؛ فإن ذلك أنفع لهم، ويجانب ما أشكل تفسيره، وعليه أن يركز خطبته علىٰ المعاني، وما يستفاد من الآيات، دون الخلافات وأوجه التفسير.

- **الخلاف في معنىٰ الحديث الوارد في فضل السورة أو الآية:**

قد يجد الخطيب خلافًا في معنىٰ الحديث الوارد في فضل السورة أو الآية، وحينئذ علىٰ الخطيب أن يقرأ أقوال شارحي الحديث ليعلم المعنىٰ الراجح من أقوالهم، فإن كان الحديث يحتمل المعاني المذكورة ولها وجه منه، أو دلت عليها أدلة أو قرائن ذكرها كلها، وإن ترجح له أحدها ذكر الراجح منها.

مثال ذلك: حديث أبي مَسْعُودٍ الأنصاري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**من قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ من آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»(٢٧).

اختلف شارحو الحديث في (كفتاه) علىٰ أقوال كثيرة، ساق الحافظ ابن حجر منها سبعة أقوال(٢٨)، وأشهر هذه الأقوال قولان: كفتاه كل سوء، أو كفتاه من قيام الليل.

وقد ذكر القرطبي والنووي بعضها، فلم يرجح القرطبي، وذكر النووي احتمال شمول كفايتها عن قيام الليل ومن الشيطان ومن الآفات(٢٩).

وقال الحافظ ابن حجر: «يجوز أن يراد جميع ما تقدم» اهـ(٣٠).

وأما ابن القيم فرجح المعنىٰ الأول وضعف الثاني فقال: «الصحيح أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه من قيام الليل، وليس بشيء» اهـ(٣١).

والخطيب مطالب أن يجتهد في تحري الصواب ما استطاع، ويستنير في ذلك بأهل العلم المبرزين، ومن اجتهد وصدق في نيته أعانه الله تعالىٰ، وألهمه الصواب.

- **إذا كانت السورة أو الآية التي اختارها فيها سجدة:**

قد يختار الخطيب سورة أو آيات فيها سجدة، وسجود القرآن سنة عند جمهور العلماء، وقد ورد ما يدل علىٰ أن الخطيب يسجد، ويسجد الناس تبعا له، وإن ترك السجود فلا بأس، وكل ذلك جاءت به السنة، ومما ورد فيه:

---

(٢٧) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٨٠٧).

(٢٨) فتح الباري (٩/ ٥٦).

(٢٩) المفهم (٢/ ٤٣٥)، وشرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ٩١-٩٢).

(٣٠) الفتح (٩/ ٥٦).

(٣١) الوابل الصيب ص١٣٢.

١- حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ (ص) فلما بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا فلما بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَزَّنَ الناس لِلسُّجُودِ، فقال النبي ﷺ: **إنما هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ لِلسُّجُودِ فَنَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدُوا**»(٣٢).

٢- حديث عُمَرَ بن الْخَطَّابِ ﷺ: «أنه قَرَأَ يوم الْجُمُعَةِ علىٰ الْمِنْبَرِ بِسُورَةِ النَّحْلِ حتىٰ إذا جاء السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ الناس، حتىٰ إذا كانت الْجُمُعَةُ الْقَابِلَةُ قَرَأَ بها حتىٰ إذا جاء السَّجْدَةَ قال: يَا أَيُّهَا الناس إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ وَمَنْ لم يَسْجُدْ فلا إِثْمَ عليه، ولم يَسْجُدْ عُمَرُ ﷺ» وزاد نَافِعٌ عن ابن عُمَرَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لم يَفْرِضْ السُّجُودَ إلا أَنْ نَشَاءَ»(٣٣).

فإن استطاع السجود علىٰ المنبر استقبل القبلة وسجد وسجد الناس خلفه، وإن كان المنبر ضيقًا أو غير مهيأ لسجوده نزل فسجد وسجد الناس خلفه، ولا يقطع سجوده ولا نزوله من المنبر خطبته، بل هو منها.

قال ابن قدامة -رحمه الله تعالىٰ-: «وإن قرأ السجدة في أثناء الخطبة فإن شاء نزل فسجد، وإن أمكن السجود علىٰ المنبر سجد عليه، وإن ترك السجود فلا حرج فعله عمر وترك»(٣٤).

وقال الشَّافِعِيُّ -رحمه الله تعالىٰ-: «وإذا سَجَدَ أَخَذَ من حَيْثُ بَلَغَ من الْكَلَامِ، وَإِنْ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَحَسَنٌ»(٣٥).

---

(٣٢) رواه أبو داود (١٤١٠)، والدارمي (١٤٦٦)، وصححه ابن خزيمة (١٤٥٥)، وابن حبان (٢٧٦٥)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٩)، ومعنىٰ: تشزن الناس للسجود، أي: تهيئوا للسجود.

(٣٣) رواه البخاري (١٠٢٧).

(٣٤) المغني (٢/ ٧٨).

(٣٥) الأم (١/ ٢٠١).

٨- الخطبة بحديث من السنة

من عظيم نعمة الله تعالىٰ علىٰ الإنسان أنه يعرب عما في نفسه باللسان، فينطق بما يريد، قال الله تعالىٰ مذكرًا بهذه النعمة العظيمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرَّحمن: ١-٤] أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله تعالىٰ به الآدمي علىٰ غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه[١].

وفي مقام آخر بيَّن الله تعالىٰ عظيم هذه النعمة علىٰ الإنسان، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠].

قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: «نعم الله متظاهرة يقررك بها كيما تشكر»[٢].

وإذا كان الله تعالىٰ قد علم الإنسان البيان فأولىٰ الناس بالبيان عما في نفوسهم رسل الله تعالىٰ؛ لأنهم يبلغون عن الله تعالىٰ دينه، قال الله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، وفي خصوص النبي محمد ﷺ أخبرنا الله تعالىٰ أنه معلم لنا فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وأمره بالبلاغ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما أمره بالإنذار فقال ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وكل من الإنذار والبلاغ والتعليم يحتاج إلىٰ بيان.

---

(١) تفسير السعدي ص٨٢٨.

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٤٨٩).

وأمره ﷺ أن يقول لهم قولًا بليغا فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]؛ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم(٣).

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد تكلم العلماء في حد البلاغة فقال بعضهم: البلاغة إيصال المعنىٰ إلىٰ القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنىٰ، وقيل: البلاغة الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضجار»(٤).

النبي ﷺ وجوامع الكلم:

إن كبرىٰ معجزات النبي ﷺ هي القرآن، وأعظم إعجاز فيه وأكبره وأشهره هو الإعجاز البياني البلاغي، وكان العرب أهل بلاغة فتحداهم الله تعالىٰ أن يأتوا بمثله، وكان من المعجزات الربانية التي اختص الله تعالىٰ بها رسوله محمدًا ﷺ ما آتاه من الفصاحة والبلاغة، فجمع له عظيم المعاني في الكلمات اليسيرة، والجمل القصيرة، وفي بعض الأحيان لا تتجاوز كلمتين أو ثلاثًا فتكتب فيها عشرات الصفحات، وهذا كثير في سنته ﷺ.

وكون فصاحته وبلاغته عليه الصلاة والسلام مما اختصه الله تعالىٰ به من المعجزات دون غيره من الناس ثابتًا بالسنة من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**» متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «**فُضِّلْتُ علىٰ الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** . . . الحديث»(٥)، قال البخاري -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن رواه: «وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ أَنَّ اللهَ

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).
(٤) زاد المسير (٢/ ١٢٢).
(٥) رواه البخاري (٦٦١١)، ومسلم (٥٢٣).

يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ التي كانت تُكْتَبُ في الْكُتُبِ قَبْلَهُ في الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ أو نحو ذلك»(٦).

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «هي الألفاظ اليسيرة لجمع المعاني الكثيرة» اهـ(٧).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «هي الألفاظ الكلية العامة المتناولة لأفرادها» اهـ(٨).

---

(٦) الجامع الصحيح (٦/ ٢٥٧٣). وبعض العلماء يرىٰ أن المقصود بجوامع الكلم القرآن الكريم دون غيره، ونسب للزهري وفهم من طريقة البخاري في إيراد حديث: «إنما كان الذي أوتيته وحيا» عقبه، وقال به ابن بطال في شرحه للبخاري (٥/ ١٥٧)، ومال إليه البيهقي في الشعب فقال: «والظاهر أنه أراد به القرآن، وعلىٰ ذلك يدل سياق الحديث الذي عن عمر في ذلك، وقد حمله الحليمي -رَحِمَهُ اللَّهُ- علىٰ كلام النبي ﷺ وكلاهما محتمل» اهـ (٢/ ١٦٠).
والصواب أن جوامع الكلم التي أعطيها النبي ﷺ تشمل القرآن ولا خلاف فيه، وتشمل السنة؛ لإطباق العلماء علىٰ أن كلامه عليه الصلاة والسلام ليس ككلام غيره، وألفوا كتبا في كلماته اليسيرة الجامعة لمعان عظيمة، يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-:
«جوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان:
أحدهما: ما هو في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠].
قال الحسن: لم تترك هذه الآية خيرا إلا أمرت به، ولا شرا إلا نهت عنه.
والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه ﷺ، وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعا من كلماته ﷺ الجامعة» اهـ من جامع العلوم والحكم (٥)، وينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ٥)، وفتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٤٨).
(٧) غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ١٧١).
(٨) إعلام الموقعين (١/ ٢٦١).

- **وصف الصحابة رضي الله عنهم لكلامه ﷺ:**

قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لم يَكُنْ يَسْرُدُ الحديث كَسَرْدِكُمْ»(٩).

وفي رواية: «أَنَّ النبي ﷺ كان يحدث حَدِيثًا لو عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ»(١٠).

وفي رواية قالت: «كان كَلَامُ رسول الله ﷺ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ من سَمِعَهُ»(١١).

وفي رواية قالت: «إنما كان حديث رسول الله ﷺ فَصْلًا تفْهَمُهُ الْقُلُوبُ»(١٢).

وقولها: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم: أي يتابع الحديث استعجالًا بعضه إثر بعض؛ لئلا يلتبس علىٰ المستمع»(١٣).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله ﷺ»(١٤).

ولاختياره عليه الصلاة والسلام أفصح الألفاظ وأليقها وأحسنها وأكملها، مع جمال أدائها، وحسن عرضها كان ﷺ أحسن الناس تعليمًا كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ لم يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»(١٥).

وفي وصف حسن تعليمه ﷺ قال مُعَاوِيَةُ بن الْحَكَمِ السُّلَمِيُّ رضي الله عنه: «فَبِأَبِي هو

---

(٩) رواه البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (٢٤٩٣).

(١٠) هذه الرواية للبخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٤٩٣).

(١١) هذه الرواية لأبي داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩)، وأحمد (٦/ ١٣٨)، وحسنها الترمذي ثم الألباني.

(١٢) هذه الرواية لأبي يعلىٰ (٤٣٩٣).

(١٣) فتح الباري (٦/ ٥٧٨).

(١٤) صفة الصفوة (١/ ٢٠٢).

(١٥) رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه (١٤٧٨).

وَأُمِّي ما رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منه»(١٦).

هذا؛ ولم يكن اختصاره الكلام عن عجز عن الإطالة، ولكنْ فصاحة وبلاغة، واختصار للمعاني الفخمة الكبيرة في كلمات موجزة قليلة، صارت بعد ذلك من قواعد الدين العظيمة، وإلا فإنه ﷺ إذا احتاج إلىٰ الإطالة أطال، ولم يكن طول حديثه مملًّا، ولا منقصًا لفصاحته وبيانه، وقد خطب في أصحابه ﷺ خطبًا طويلة ذكر فيها المبدأ والمعاد وما بينهما وما ملوا خطبته، ولا ضجروا من طول حديثه؛ كما روىٰ عَمْرَو بن أَخْطَبَ رضي الله عنه قال: «صلىٰ بِنَا رسول الله ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ غَرَبَتْ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كان وَبِمَا هو كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»(١٧)، وعن عُمَرَ رضي الله عنه قال: «قام فِينَا النبي ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عن بَدْءِ الْخَلْقِ حتىٰ دخل أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذلك من حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ من نَسِيَهُ»(١٨).

وكما كان عليه الصلاة والسلام خطيب الناس في الدنيا ومعلمهم، فهو كذلك خطيبهم يوم القيامة، والمحامي عنهم الشافع لهم؛ كما روىٰ أُبَيّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه عَنِ النبي ﷺ قال: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غير فَخْرٍ»**(١٩).

---

(١٦) رواه مسلم (٥٣٧).

(١٧) رواه مسلم (٢٨٩٢).

(١٨) رواه البخاري(٣٠٢٠)، ورواه مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه (٢٨٩١)، ورواه الترمذي من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح (٢١٩١)، وأحمد من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٤/ ٢٥٤).

(١٩) رواه الترمذي وحسنه (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤)، وأحمد (٥/ ١٣٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

وروىٰ أَنَسٌ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا**»[٢٠].

قال المناوي -رحمه الله تعالىٰ-: «خطيبهم بما يفتح الله عليه من المحامد التي لم يحمده بها أحد قبله، فهو المتكلم بين الناس إذا سكتوا عن الاعتذار، فيعتذر لهم عند ربهم، فيطلق اللسان بالثناء علىٰ الله بما هو أهله، ولم يؤذن لأحد في التكلم غيره» اهـ[٢١].

- **وصف الجاحظ لكلامه ﷺ:**

لقد شهد أمراء البيان، ورؤساء البلاغة، وأساطين العربية قديمًا وحديثًا للنبي ﷺ بأن حديثه قد بلغ المنتهىٰ في الفصاحة والبلاغة والبيان:

قال الجاحظ: «وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه عجمي، ولم يُدّعَ لأحد، ولا ادعاه أحد؛ مما صار مستعملًا، ومثلًا سائرًا، فمن ذلك: قوله: «**يا خيل الله اركبي**»، ومن ذلك قوله: «**ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ**»، ومن ذلك قوله: «**لا ينْتَطِحُ فيه عَنزانِ**»، ومن ذلك قوله: «**الآن حَمِيَ الوَطِيسُ**»»[٢٢].

وذكر الجاحظ جملة من جوامع كلم النبي ﷺ ثم قال: «وأنا أذكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالىٰ: (قل) يا محمد

---

(٢٠) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (٣٦١٠)، والدارمي (٤٨).

(٢١) فيض القدير (١/ ٤٢٧).

(٢٢) البيان والتبيين (٢/ ١٥) من ط عبد السلام هارون -رحمه الله تعالىٰ-، ويلاحظ في الطبعات الأخرىٰ اختلاف عنها في بعض الكلمات بسبب اختلاف المخطوطات، وبسبب التصحيف والتحريف والأخطاء المطبعية.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص: ٨٦]. فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورَغِب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقىٰ الله عليه المحبة، وغَشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلىٰ معاودته. لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذُّ الخطب الطِّوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يَعْجَل، ولا يسهب ولا يَحْصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معنىٰ، ولا أبين في فحوىٰ من كلامه ﷺ كثيرًا» اهـ(٢٣).

• وصف القاضي عياض لكلامه ﷺ:

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما فصاحة اللسان، وبلاغة

(٢٣) البيان والتبيين (٢/ ١٦-١٨)، وفيه نقل الجاحظ عن محمد بن سلام قال: «قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ» اهـ (٢/ ١٨).
فتعقبه السهيلي قائلا بعد نقله: «وغلط في هذا الحديث، ونسب إلىٰ التصحيف، وإنما قال القائل: ما بلغنا عن البتي يريد عثمان البتي فصحفه الجاحظ، والنبي ﷺ أجل من أن يخلط مع غيره من الفصحاء حتىٰ يقال: ما بلغنا عنه من الفصاحة أكثر من الذي بلغنا عن غيره، كلامه أجل من ذلك صلوات الله عليه وسلامه» اهـ من الروض الأنف (٧/ ٢٠٠).

القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعُلِّم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتىٰ كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه، وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن» اهـ(٢٤).

وذكر القاضي عياض أمثلة من مخاطبته عليه الصلاة والسلام للقبائل بألسنتها ولهجاتها، ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، وفيها ما لا يوازَىٰ فصاحة، ولا يبارَىٰ بلاغة . . . . ثم مضىٰ القاضي عياض في سرد أمثلة كثيرة من السنة علىٰ جوامع الكلم في حديث النبي ﷺ»(٢٥).

ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: «إلىٰ ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقًا لا يُقدر قدره. وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يُفرِغ في قالبه عليها كقوله . . .

(٢٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (١/ ٧٠-٧١).
(٢٥) الشفا (١/ ٧٧).

وذكر بعض الأمثلة التي أوردتها آنفًا من كلام الجاحظ»[٢٦].

ثم قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «فَجُمِع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلىٰ التأييد الإلهي الذي مَدده الوَحْي الذي لا يحيط بعلمه بشري. قالت أم معبد في وصفها له: حلو المنطق، فصل لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأن منطقه خرزات نظمن. وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ» اهـ[٢٧].

• كراهته ﷺ التكلف في الكلام:

الفصيح من الناس يكره التكلف والمتكلفين في الكلام، المتقعرين فيه، المتشدقين به، ولما كان النبي ﷺ أفصح الناس فإنه كره التكلف في الكلام، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إن أَحَبَّكُمْ إليَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ: مَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ: مَسَاوِيكُمْ أَخْلاَقًا، الثَّرْثَارُونَ، المُتَفَيْهِقُونَ، المُتَشَدِّقُونَ»**[٢٨]، وفي حديث آخر قال ﷺ: **«ألا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ فقال: هُمُ الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ، ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا»**[٢٩].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «الثرثار: هو كثير الكلام تكلفًا، والمتشدق: المتطاول علىٰ الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام

(٢٦) الشفا (١/ ٨٠).

(٢٧) الشفا (١/ ٨٠-٨١).

(٢٨) رواه من حديث أبي ثعلبة الخشني ﷺ: الترمذي وقال: حسن غريب (٢٠١٨)، وأحمد (٤/ ١٩٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٠).

(٢٩) رواه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٦٩).

ويتوسع فيه ويغرب به تكبرًا وارتفاعًا وإظهارًا للفضيلة علىٰ غيره» اهـ(٣٠).

• إفراد خطبة بحديث نبوي:

ما ذكرته آنفًا وأطلت فيه، وأكثرت فيه من النقول في وصف حديث رسول الله ﷺ هو من باب دعوة إخواني الخطباء والدعاة للعناية بحديث المصطفىٰ ﷺ في زمن نسمع فيه دعوات فجة للإعراض عنه، والتقليل من قيمته، والتشكيك في أهميته.

ومن المستحسن أن يخص الخطيب خطبته بين الحين والآخر بحديث يختاره فيشرح معانيه، ويذكر فوائده ولطائفه؛ ليُعَظِّم السنة في قلوب الناس، ويعود آذانهم علىٰ سماع حديث رسول الله ﷺ، مع ما يفيدهم به من علم غزير، ودروس نافعة، وفوائد جامعة في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والرقاق وغيرها.

وينبغي للخطيب في اختياره للحديث الذي يكون موضوع خطبته أن يراعي أمورًا منها:

أولًا: التأكد من صحة الحديث، وقد سبق أن أشبعت هذه القضية في موضوع (استدلال الخطيب بالسنة)(٣١) مما لا داعي لتكراره هنا.

لكن أزيد هنا علىٰ ما ذكرته في المقالة المذكورة فأقول: إذا كان من الخطورة بمكان أن يستدل الخطيب بحديث لا يثبت، فإن الخطر يكون أكبر إذا كان مبنىٰ الخطبة كلها علىٰ حديث ضعيف يصول فيه الخطيب ويجول، ويستخرج منه النكات والفوائد والدروس، ثم في النهاية يقال له: هذا حديث لا يثبت!!

(٣٠) رياض الصالحين ص ١٣٦.
(٣١) ص (٣٧).

ويخشىٰ عليه من الإثم العظيم في تربيته الناس علىٰ ما لا يصح، وإذا كان الخطيب يلام في إيراد حديث واحد لا يثبت مستشهدًا به، فأين ذلك الاستدلال ممن بنىٰ جميع خطبته علىٰ ما لا يثبت؛ ولذا فإنه يجب علىٰ الخطيب في مرحلة اختياره الحديث لخطبته أن يستوثق من صحته استيثاقًا يطمئن القلب إليه، ولا يحل له أن يقصر في ذلك، أو يتساهل فيه.

ولو اقتصر علىٰ ما في الصحيحين أو أحدهما لكان حسنًا، لكن سيفوته أحاديث صحيحة جامعة نافعة في غيرهما، وهي كثيرة جدًّا، والبخاري ومسلم -عليهما رحمة الله تعالىٰ- لم يدعيا أنهما استوعبا في كتابيهما كل الأحاديث الصحيحة، ولا ادعاه العلماء لهما.

ثانيًا: نقل الحديث من المصدر الأصلي له، وعدم الاعتماد علىٰ المصادر التي نقلت عن الأصل؛ لزيادة التوثيق، والسلامة من الخطأ والتحريف والتصحيف.

ثم إن بعض الناقلين عن الأصل قد يتصرفون في الحديث بالاختصار، أو الاقتصار علىٰ الشاهد منه دون بقية الحديث، والخطيب قد اختار هذا الحديث موضوعًا لخطبته، فكيف يقتصر علىٰ بعضه فقط؟!

بل قد يقع في بعض الأحاديث المهمة التي هي مظنة موضوع خطبة أو محاضرة حذف من الناقل عن المصدر الأصلي، ومما يحضرني في ذلك أن النووي -رحمه الله تعالىٰ- في رياض الصالحين لما أورد حديث: «**مَنْ عَادَىٰ لِي وليًّا** . . .» في موضعين حذف منه فيهما كليهما آخر الحديث، وهو قول الله تعالىٰ: «**وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ**

وأنا أَكْرَهُ مسَاءَتَهُ»(٣٢)، وفعل ذلك أيضًا في الأربعين التي اختارها واشتهرت بالأربعين النووية(٣٣).

فالنووي -رحمه الله تعالىٰ- قد أخطأ بهذا الحذف، ونسب للبخاري بل للنبي ﷺ حديثًا ناقصًا، ولو كان في موضع استشهاد لاعتذر له بالاقتصار علىٰ موضع الشاهد، ولكنه في رياض الصالحين وفي الأربعين يسوق الأحاديث التي انتقاها لهما كاملة، ثم إنه لم يُشر إلىٰ ما حذفه إشارة يبين بها تصرفه في الحديث؛ ولذا فات علىٰ كثير من شارحي رياض الصالحين ومحققيه وشارحي الأربعين النووية التنبيه علىٰ هذا النقص في هذا الحديث(٣٤).

ولا يعتذر للنووي إلا بأن تكون نسخة البخاري التي نقل عنها في الأربعين ورياض الصالحين قد سقط منها هذا القدر من الحديث، وهو اعتذار فيه بعد؛ لأن النووي -رحمه الله تعالىٰ- حافظ عالم بالسنة شارح لها، وصحيح البخاري مشهور متداول، فلا يخفىٰ عليه مثل هذا، ويُخشىٰ أن حذفه كان

---

(٣٢) صحيح البخاري (٦١٣٧).

(٣٣) رياض الصالحين، برقمي (٩٥ و٣٨٦) وكذا في الأربعين، الحديث الثامن والثلاثون منها.

(٣٤) لأهمية هذا الموضوع فإني حاولت استقصاء الكتب التي شرحت رياض الصالحين والأربعين النووية وطبعات رياض الصالحين المحققة أو المخرجة؛ لمعرفة من تنبه لهذا الحذف، ومن فات عليه من الشارحين والمحققين؛ ليبين للقارئ تتابع الناس علىٰ الخطأ وقلة من ينتبه له بالنسبة لمن يفوت عليه، فكانت نتيجة ما توصلت إليه كما يلي:

أولًا: رجعت إلىٰ ثمانية عشر شرحا للأربعين النووية، انتبه لهذه الحذف منهم ستة فقط، وفات علىٰ اثني عشر شارحًا.

ثانيًا: رجعت إلىٰ ستة شروح لرياض الصالحين، انتبه للحذف ثلاثة منهم، وفات علىٰ ثلاثة، مع أن الشارح في شرحه لا بد أن يراجع شروح البخاري والمحذوف فيه.

ثالثًا: رجعت إلىٰ أحد عشر تحقيقا لرياض الصالحين، لم ينتبه للحذف منهم إلا واحد فقط، هو الألباني -رحمه الله تعالىٰ- وفات علىٰ عشرة.

لمعتقد لا يوافقه، وهو إثبات التردد لله تعالىٰ علىٰ ما يليق به سبحانه كما دل عليه الحديث(٣٥).

---

(٣٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد رد هذا الكلام طائفة وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور والله أعلم بالعواقب. وربما قال بعضهم: إن الله يعامل معاملة المتردد. والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانا منه. فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس؛ وأجهلهم وأسوئهم أدبا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم هذا باطل؛ فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه ويكره من وجه. كما قيل:

الشيب كره وكره أن أفارقه ... فاعجب لشيء علىٰ البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح «**حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره**»، وقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية. ومن هذا الباب يظهر معنىٰ التردد المذكور في هذا الحديث فإنه قال: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه**». فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبا للحق محبا له، يتقرب إليه أولا بالفرائض يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها، فأتىٰ بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق؛ فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله ﷻ قد قضىٰ بالموت فكل ما قضىٰ به فهو يريده ولا بد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده؛ وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه، مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد وهو: أن يكون الشيء الواحد مرادا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت؛ =

فهذا مثال واضح في حديث مشهور، وفي كتابين للنووي هما أشهر كتبه وأكثرها انتشارًا، وأكثر الناس يعتمد عليهما -خاصة رياض الصالحين- في مطالعة الأحاديث وتخريجها، فكيف بما دونهما من الكتب شهرة وعناية وتخريجًا، ولعله بهذا المثال الواضح يتبين للخطيب أهمية مراجعة الأصول -الكتب المسندة- في نقل الأحاديث وتخريجها، ولا سيما ما كان منها أصلًا لخطبته.

ثالثًا: جمع روايات الحديث سواء عن الصحابي نفسه أو عن غيره، فقد يكون فيها زيادات مهمة تزيد في المعنىٰ وتنفع السامع، وتلك هي طريقة العلماء في شرح الأحاديث، كابن عبد البر في التمهيد، وابن رجب في جامع العلوم والحكم أو في الأجزاء التي أفردها لشرح بعض الأحاديث، وابن حجر في الفتح، وغيرهم.

ومعلوم أن الخطيب هنا لا يستشهد بالحديث فتكفيه رواية واحدة، أو جزء منه، وإنما جعل خطبته كلها في هذا الحديث، فمن حق المستمع عليه أن يعلم كل ما هو مهم ومفيد فيه حسب علمه واستطاعته، وأهم شيء في ذلك ما في الروايات الأخرىٰ من زيادات وإيضاح.

ويجب علىٰ الخطيب كما استوثق من ثبوت الحديث الأصل أن يستوثق من

= لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته . . . ومن هذا الباب ما يقع في الوجود من الكفر والفسوق والعصيان؛ فإن الله تعالىٰ يبغض ذلك ويسخطه ويكرهه، وينهىٰ عنه، وهو سبحانه قد قدره وقضاه وشاءه بإرادته الكونية، وإن لم يرده بإرادة دينية. هذا هو فصل الخطاب فيما تنازع فيه الناس: من أنه سبحانه هل يأمر بما لا يريده» مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ١٢٩-١٣١).

ثبوت الروايات الأخرىٰ، ولا يتساهل فيها؛ لأنه ليست كل زيادة صحيحة، بل قد تكون شاذة أو ضعيفة أو منكرة.

رابعًا: يختار من الروايات أصَحَّهَا وأتمَّهَا، فإن وجدت عنده رواية اتفق الحُفَّاظ أو الشيخان عليها، وواحدة انفرد بها أحد الحفاظ دون غيره، أو خرجها أحد الشيخين، فليعتمد الرواية التي عليها أكثر الحفاظ أو المتفق عليها؛ لأنها أقوىٰ وأبعد عن الغلط.

فإن كانت الرواية الأصح مختصرة، والأقل صحة أتم منها، فلا شك أن اعتماد الرواية الأتم فيه فائدة أكثر، لكن بشرط أن تكون صحيحة ولا تخالف الرواية المختصرة فتكون شاذة، ولو جمع بينهما فجعل الرواية الأقوىٰ هي الأصل، ثم أعقبها بالرواية الأتم منها لكان محققًا للغايتين؛ إذ يعلم الناس أن الرواية المختصرة هي الأقوىٰ، والثانية هي الأتم.

وسياقه للرواية الأتم يريحه أثناء إضافته للزيادات الصحيحة عليها من الروايات الأخرىٰ؛ إذ في الغالب أن الزيادات تكون قليلة لتمام الرواية التي ساقها، وهذا يكون أشدَّ بناء للحديث، وأَنْظَمَ لسياقه، وأقل تشويشًا علىٰ السامع فينسجم مع الخطيب وحديثه.

ويتأكد اختياره للرواية الأصح في الأحاديث القصيرة الجامعة التي هي قواعد كبرىٰ لما يلي:

١- أنها أدلُّ شيء علىٰ أن النبي ﷺ قد أعطي جوامع الكلم.

٢- أن الإخلال بألفاظها قد يختل به المعنىٰ والناقل لم ينتبه لذلك.

٣- أن بعض علماء الأصول شدَّدوا في جواز رواية مثل هذه الأحاديث بالمعنىٰ، فقد نقل السرخسي -رحمه الله تعالىٰ- قول المجيزين لرواية مثل هذه

الأحاديث الجامعة بالمعنىٰ، ثم قال: «والأصح عندي أنه لا يجوز ذلك؛ لأن النبي ﷺ كان مخصوصًا بهذا النظم علىٰ ما روي أنه قال: «**أوتيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» أي: خصصت بذلك، فلا يقدر أحد بعده علىٰ ما كان هو مخصوصًا به، ولكن كل مكلف بما في وسعه، وفي وسعه نقل ذلك اللفظ ليكون مؤديًا إلىٰ غيره ما سمعه منه بيقين، وإذا نقله إلىٰ عبارته لم يؤمن القصور في المعنىٰ المطلوب به، ويتيقن بالقصور في النظم الذي هو من جوامع الكلم، وكان هذا النوع هو مراد رسول الله ﷺ بقوله: «**ثُمَّ أَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»» اهـ(٣٦).

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: «وشرط بعضهم -أي: في الرواية بالمعنىٰ- أن لا يكون الخبر من جوامع الكلم، فإن كان من جوامع الكلم . . . لم تجز روايته بالمعنىٰ» اهـ(٣٧).

• أقسام الأحاديث من حيث طولها وقصرها:

يمكن تقسيم الأحاديث من جهة طولها وقصرها إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: أحاديث طويلة، وغالبها -إن لم يكن كلها- قصص، وبعضها طويل جدًّا، مثل حديث الإفك، وقصة الثلاثة المتخلفين عن تبوك، وبعضها أقْصَر لكنه يبقىٰ في قسم الطويل مثل: قصة الأعمىٰ والأقرع والأبرص، وقصة الغلام والساحر والراهب.

الثاني: أحاديث متوسطة، وهي كثيرة جدًّا، مثل: «**إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ** . . .» وبعضها أمثال ضربها النبي ﷺ لأمته، مثل حديث: «**مثلُ مَا بعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَىٰ**»، وحديث: «**مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا** . . .».

---

(٣٦) أصول السرخسي (١/ ٣٥٧).

(٣٧) إرشاد الفحول ص١٠٧-١٠٨.

الثالث: أحاديث قصيرة، ومنها ما هو قصير جدًّا، ولكنها تمثل قواعد كبرىٰ في العبادات مثل: «**إنما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ . . .**»(٣٨)، أو في المعاملات مثل: «**كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ في كتابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ**»، أو في القضاء مثل: «**البَيِّنَةُ عَلَىٰ المُدَّعِي . . .**»، أو في الأخلاق والسلوك مثل: «**مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**»، أو في الصحة مثل: «**ما مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ**»، أو في حياطة الشريعة وحماية العبد من الزيادة مثل: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، أو في تخفيف التكليف مثل: «**إذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، أو غيرها، وهذا كثير في حديث النبي ﷺ، وهذه الأحاديث مِنْ أَبْيَنِ ما يَدُلّ علىٰ أن النبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم.

فأما القسم الأول، وهي الأحاديث الطويلة فيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالىٰ في موضوع مفرد بعنوان: (قصص السنة في خطبة الجمعة) أُفصِّل فيها تعامل الخطيب معها.

وأما القسم الثاني، وهي الأحاديث المتوسطة فإن أحاديثها تناسب أن تفرد في خطبة كاملة، تكون الأولىٰ في سياق الحديث ورواياته ومعانيه وما يستنبط منه، ثم في الخطبة الثانية ينزل الخطيب الحديث علىٰ واقع الناس مبينًا مِقْدَار قربهم مما دل عليه أو بعدهم عنه، كاشفًا مواضع الخلل التي نأت بهم عن العمل بهذا الحديث، مستنهضًا هممهم للأوبة والتوبة من تقصيرهم فيه، مركزًا

---

(٣٨) يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ-: «قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» مما خصه الله تعالىٰ به من جوامع الكلم كما قال: «**بعثت بجوامع الكلم**»، وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بعث بها؛ فإن كل عمل يعمله عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه. فإن قصد بعمله مقصودًا حسنًا كان له ذلك المقصود الحسن، وإن قصد به مقصودًا سيئًا كان له ما نواه» اهـ مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٥٤).

قوله علىٰ أهمية التأسِّي بالنبي ﷺ وطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وهذا الحديث إما أن يكون في أمر قصروا فيه، أو نهي ارتكبوه، أو في كليهما.

ولو أيد قوله ببعض تطبيقات السلف والعلماء والصالحين لما ورد في الحديث لكان أكثر وقعًا علىٰ القلب، وأشد إزراء بالنفس المقصرة التي تأمر بالسوء وتتثاقل عن الطاعة.

وأما القسم الثالث فإن غالب هذه الكلمات الجامعة -وإن قلَّت حروفها- قد أسس العلماء عليها قواعد كبرىٰ، تنتظم الكثير من الجزئيات والمسائل في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو الأسرة أو السياسة الشرعية أو غيرها، فينتقي من هذا الكم الهائل مما دل عليه الحديث من قواعد ومسائل وأمثلة ما تشتد إليه حاجة الناس مما غفلوا عن فضله فتركوه، أو جهلوا إثمه فاجترحوه.

فمثلا حديث: «**إنما الأعمال بالنيات** . . .» يستطيع الخطيب أن ينطلق منه للاحتساب في كل شيء حتىٰ في العادات فتتحول إلىٰ عبادات، كاحتساب الأكل والشرب والنوم للتقوّي علىٰ طاعة الله تعالىٰ، وللمحافظة علىٰ بدنه الذي هو أمانة عنده فلا يتصرف فيه إلا بأمر الله تعالىٰ، واحتساب الوظيفة لنفع الناس وخدمتهم وتوفير اللقمة الحلال، واحتساب النفقة علىٰ الأهل والعيال لإعفافهم وإغنائهم عن السؤال، وللقيام بالواجب الشرعي المنوط به تجاههم . . . وهكذا دواليك؛ فإن كل الناس يأكلون ويشربون ويعملون في الوظائف، وينفقون علىٰ أولادهم، حتىٰ الكفار يفعلون ذلك، فإذا رسَّخ الخطيب هذا المعنىٰ في الناس منطلقًا من هذا الحديث العظيم نقلهم إلىٰ ذكر الله تعالىٰ في كل شئونهم، والاحتساب له في كل أعمالهم وأحوالهم، فكان لهم باحتسابهم أجور عظيمة فاتت كثيرًا منهم من قبل، وكان للخطيب من الأجر مثل أجورهم؛ لأنه هو الذي

دلهم علىٰ هذا الباب العظيم من الخير.

وهكذا يفعل الخطيب في كل الأحاديث الأخرىٰ التي تمثِّل قواعد كبرىٰ، ويُستخرج منها جزئيات كثيرة؛ إذ لا انفكاك عن حاجة الناس إليها في شئونهم وأحوالهم.

- **أقسام الأحاديث من جهة وحدتها الموضوعية:**

يمكن تقسيم الأحاديث من جهة وحدتها الموضوعية إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: أحاديث وردت في موضوع واحد. مثل حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» فلا إشكال فيها؛ لأنه لَنْ ينتقل من موضوع إلىٰ آخر.

فإن كان الحديث طويلًا أو فوائده كثيرة جدًّا قسم فوائده علىٰ خطبتين أو أكثر، وفي كل مرة يأتي بالحديث، ويُجمل في كل خطبة منها ما فَصَّلَهُ في الخطبة الأخرىٰ.

وفي الغالب أن مثل هذه الأحاديث تكفيها خطبة واحدة إذا ركَّز الخطيب خطبته، ولم يتشعب إلىٰ موضوعات فيها بُعْدٌ عن الحديث، ولم يكثر من الدقائق والتفصيلات التي لا يحتاج الناس إليها.

الثاني: أحاديث وردت في أكثر من موضوع، ولكن بين موضوعاتها ارتباط ظاهر. وذلك مثل حديث السبع الموبقات، فإن الرابط بين هذه السبع كونها من الموبقات.

وهذه إما أن يتحدث في خطبته عن جميعها بإيجاز مبينًا خطر كل واحدة منها حتىٰ صارت من الموبقات دون التفصيل فيها؛ لأن مقصوده تعليل كونها من الموبقات، وهذا هو المطلوب، ويصدق عليه حينئذ أنه ركَّز خطبته في هذا الحديث.

وإما أن يُفرد كل واحدة من السبع الواردة في الحديث بخطبة مستقلة، فيكون قد خرج عن كونه جعل خطبته في حديث إلىٰ الموضوع الذي اختاره من هذه السبع.

الثالث: أحاديث وردت في أكثر من موضوع وليس بين موضوعاتها ارتباط ظاهر، وغالبًا ما تكون إجابة علىٰ أسئلة، مثل حديث جبريل الطويل في الإسلام والإيمان والإحسان وأمارات الساعة، وحديث أنس في سؤالهم النبي ﷺ حتىٰ أحفوه في المسألة.

وعلىٰ الخطيب أن يبتعد عن التفصيلات التي لا تفيد الناس أو التي قد تثير إشكالات عندهم، مثل المسائل الخلافية، أو المسائل المشكلة، أو الإيرادات التي قد ترد علىٰ الحديث، وهذه محلها الدروس ومجالس العلم، ولا تُلقىٰ علىٰ العامة فتحدث فتنة فيهم.

• الربط بين جمل الحديث:

أغلب الأحاديث يوجد ارتباط وثيق بين جملها وإن بدا لقارئها أنها في موضوعات مختلفة، إلا القليل من الأحاديث التي لا يظهر بين جملها ارتباط، وهي التي تكون أجوبة علىٰ أسئلة، فهي بحسب أسئلة السائل، وهنا ينبغي أن تظهر براعة الخطيب في الربط بين جمل الحديث، ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بشيئين:

أولهما: قراءة ما أمكن من شروح الحديث وكلام العلماء عليه، سواء كانت شروحًا مطولة، أم مختصرة، أم مجرد تعليقات قليلة؛ فقد يكون في بعض التعليقات القصيرة من الفائدة ما يغني عن صفحات كثيرة[٣٩].

---

(٣٩) وذلك مثل تعليقات السندي -رحمه الله تعالىٰ- علىٰ السنن والمسند فيها فوائد غزيرة في كلمات قليلة، وهكذا تعليقات الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- في دروسه؛ فإنه كان =

ثانيًا: التأمل كثيرًا في الحديث، وعلاقة كل جملة منه بالأخرىٰ، وحصر كل الموضوعات التي يمكن أن تندرج تحتها، ثم النظر في المشترك بين موضوعات هذه الجمل، ومع كثرة التأمل والتفكير، وذكر الله تعالىٰ وتسبيحه واستغفاره ودعائه وإخلاص النية له سبحانه ستفتح له فتوحات عجيبة.

ويحضرني في هذا ما ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- من مناسبة تحذير النبي ﷺ من الزنا في خطبة الكسوف فقال: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سرٌّ بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة . . . وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله ﷻ، ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة» اهـ(٤٠).

وقال في مقام آخر: «وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سر بديع قد نبهنا عليه في باب غض البصر، وأنه يورث نورًا في القلب؛ ولهذا جمع الله ﷻ بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلق أحدهما بالآخر، فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزنا، وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس وذكر أحدهما مع الآخر» اهـ(٤١).

= لا يكثر من الشرح، ولكن إذا علق كان تعليقه فصلا في المسائل الخلافية، وحلا لما يتبادر من مشكلات، وهي تعليقات مختصرة لكنها مركزة عظيمة النفع ما خرجت إلا بعد تأمل وبحث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، قال الدارقطني -رحمه الله تعالىٰ-: «كان أبو القاسم بن منيع -رحمه الله تعالىٰ- قلما يتكلم علىٰ الحديث، فإذا تكلم كان كلامه كالمسمار في الساج» رواه الخطيب في تاريخه (١٠/ ١١٦).

(٤٠) الداء والدواء ص١١٤.

(٤١) روضة المحبين ص٢٩٥.

فهذا ربط عجيب موفق من ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- ومن أعلىٰ مراتب العلم ما يُوفق له العبد من الاستنباطات البديعة، والفتوحات العجيبة، وذلك فضل الله تعالىٰ يؤتيه من يشاء، ولا يحقر العبد نفسه فقد يفتح الله تعالىٰ له بابًا في ذلك حُجب عن غيره، فليكثر من التأمل في النصوص، ويجتهد في الاستنباط، ويستعين بالله تعالىٰ.

وعلىٰ الخطيب إن توصل إلىٰ معنىٰ لم يُسبق إليه أن يعضده بالاستدلال نصًّا ومعنىٰ، ويشاور فيه أهل العلم الراسخين بعد أن يستكمله، فلعله كان مخطئًا، أو لعل أحدًا قال به قبله فيُرشد إليه فيكون ذلك من التوفيق، ومن التوافق في الاستنباط والتفكير، أو لعل أحدًا يورد إيرادات عليه تمنعه من الجزم بما توصل إليه، أو يكون مستعدًّا للإجابة عن هذه الإيرادات.

من أمثلة الأحاديث التي لآخرها تعلق بأولها: حديث «**إنَّ الحَلالَ بَيِّن** . . .» ففي آخره: «**أَلَا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ** . . .» كأن الرابط -والله أعلم- أن صلاح القلب سبب للتورع عن الحرام والمتشابه، كما أن فساده سبب للوقوع في الحرام، وبقدر ما في القلب من صلاح وفساد يقترب صاحبه من الحرام أو يبتعد عنه، فكان مناسبًا أن يُذيل الكلام علىٰ الحرام والحلال والمتشابه بما يكون سببًا للوقوع في الحرام والمتشابه وهو فساد القلب، أو التورع عنهما بصلاح القلب.

- **تنزيل الحديث علىٰ واقع الناس:**

حين اختار الخطيب حديثًا معينًا ليجعله موضوع خطبته، فإنه إنما فعل ذلك ظنًّا منه أن الناس محتاجون إليه، وأنهم سينتفعون بما فيه من علم، فأفرده بخطبة دون غيره من الأحاديث؛ ولذا فإنه يجدر بالخطيب أن يعتني بتنزيل الحديث

علىٰ واقع الناس حتىٰ تكمل فائدتهم به:

فإن كان الحديث في التنبيه علىٰ فريضة قصر الناس فيها ذكر لهم نماذج من تقصيرهم، وقارنها بأمور دنيوية يهتمون بها، ودعاهم إلىٰ المحافظة عليها مبينا لهم مكانتها عند الله تعالىٰ ومنزلتها من الشريعة.

وإن كان الحديث متعلقًا بسنة مهجورة بين لهم فضلها، وهجر الناس لها، وحفز هممهم إلىٰ إحيائها وإشهارها.

وإن كان الحديث في محرم قد وقع كثير من الناس فيه بين خطورته وحجم انتهاكهم له، وحذرهم منه.

وإن كان الحديث في ذم الدنيا ذكر لهم مقدار تكالب الناس عليها في هذا الزمن، وعقد مقارنة بين ما تكالبوا عليه من قليل الدنيا وما فرطوا فيه من كثير العمل الصالح.



٩- قصص القرآن في خطبة الجمعة

للقصة تأثير كبير في النفس البشرية، فقارئها ومستمعها يعيش بكليته مع أحداثها، وتؤثر في نفسه إيجابًا أو سلبًا حسب هدف كاتبها منها، والرسالة التي يريد إيصالها للقارئ أو المستمع عن طريقها؛ ولذلك كثرت القصص والروايات، وازدهرت سوق كُتَّابها، وتنوَّعَتْ تنوُّعًا كبيرًا؛ فقصص للأطفال، وأخرىٰ لمن هم فوقهم، وقصص للمراهقين، وروايات للكبار، ومنها العاطفي ومنها البوليسي ومنها المرعب، بل منها قصص السحر والشعوذة والخرافة؛ ليسبح قارئها ومستمعها في خيالها، وينبتَّ عن واقعه حال عيشه معها، ومع الانفتاح الإعلامي عُرفت كثير من الروايات الغربية، وأصبح الوصول إليها سهلًا فور إصدارها، ومن تابع الضجة الإعلامية التي صاحبت صدور الأجزاء الأخيرة من رواية (هاري بوتر) التي كانت مبيعاتها بمئات الملايين من النسخ، وتُرجمت إلىٰ ما يقارب سبعين لغة؛ أدرك أثر الرواية والقصة في نفوس البشر، ولو كانت خرافية، بل لا يجعل لها مثل هذا الصيت إلا كونها خرافية.

ولا غرابة في أن نرىٰ مثل هذه الروايات والقصص التي أكثرها يعارض ديننا وأخلاقنا وأعرافنا تتسلل إلىٰ بيوتنا، وتفسد دين نسائنا وأولادنا وأخلاقهم، ومع تطور الصنعة الإعلامية صورت القصص والروايات المكتوبة في أفلام ومسلسلات ورسوم متحركة وغيرها، ولا تسل عن الإقبال عليها.

وهذا يبرز لنا أهمية القصة وأثرها العظيم، ووجوب العناية بقصص القرآن والسنة، وتقديمها للناس، والخطبة من أهم المنابر التي يمكن أن تكون مجالًا لعرض قصص القرآن والسنة؛ للاستفادة منها، والاهتداء بها.

• الغرض من القصص في القرآن:

قارئ القرآن الكريم يلحظ كثرة القصص فيه، وتنوعها في موضوعاتها التي تعالجها، وفي شخصياتها التي تحكي أدوارها وأعمالها، وفي طولها وقصرها، وفي تكرار بعضها بأساليب مختلفة، ولهذه القصص أغراض عدة منها:

أولًا: التذكرة والاعتبار؛ وذلك كقصص الظالمين ونهاياتهم، والمستكبرين ومآلاتهم؛ للتحذير من سلوك مسلكهم، ومنها قصص: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون والنمرود بن كنعان، وبلعام، وصاحب الجنتين.

وجاء في بعض هذه القصص النص علىٰ أن من أغراضها التفكر والاعتبار، كما في قصة بلعام الذي أنعم الله تعالىٰ عليه بآياته فانسلخ منها، واتبع هواه؛ إذ ختمها الله سبحانه بقوله ﷻ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ولما قص سبحانه في الأعراف قصص آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ذيل ذلك بقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي قصة حشر بني النضير -حصارهم- قال الله تعالىٰ فيها: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وفي الإشارة إلىٰ غزوة بدر في أوائل آل عمران قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وختم الله تعالىٰ قصة يوسف عليه السلام بقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ويدخل في ذلك قصة إبليس اللعين مع أبينا آدم عليه السلام؛ لنحذر من إغوائه لنا، ونعتبر بما حصل لأبينا عليه السلام لما أطاع إبليس، فلا نطيعه، بل نتخذه عدوًّا ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ثانيًا: التسلية والتثبيت، وهي قصص الابتلاء كابتلاء الأنبياء وأتباعهم بالمكذبين والظالمين، وابتلاء بني إسرائيل بفرعون وما جرىٰ لهم علىٰ يديه من الذل والهوان، وابتلاء يوسف عليه السلام، وقد ذكر الله تعالىٰ قصص جملة من رسله عليهم السلام في سورة هود ثم ختم ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وختم سبحانه وتعالى قصة نوح وما جرىٰ له مع قومه بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ﷻ في فاتحة قصة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وختمها بقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ثالثًا: الاقتداء والتأسي؛ كقصص الأنبياء والصالحين في ثباتهم علىٰ الحق، وصبرهم علىٰ الدعوة، وتحمل أذىٰ المؤذين في ذات الله تبارك وتعالىٰ، وهكذا التأسي بهم في توكلهم ويقينهم، وثقتهم بربهم ﷻ، وكذلك اتباع هديهم في

عباداتهم ومعاملاتهم وزهدهم وأخلاقهم، وقد ذكر الله تعالىٰ في الأنعام قصة إبراهيم عليه السلام ومباهلته لقومه، وأعقبها بالثناء علىٰ جملة من الأنبياء عليهم السلام، ثم ختمها ﷺ بالأمر بالتأسي بهم فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال سبحانه في قصة أهل الكهف: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣].

رابعًا: رفع الخلاف في مسائل كبيرة اختلف الناس فيها قبل إنزال القرآن، فجلَّاها الرب جل جلاله لعباده بما يزيل الخلاف، ومن ذلك قصة خلق عيسىٰ عليه السلام، وولادته بلا أب، وطهارة أمه العذراء عليها السلام، ورفعه إلىٰ الله تعالىٰ حيًّا في الدنيا، ونزوله في آخر الزمان حاكمًا بشريعة أخيه نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام.

وقصة مريم وعيسىٰ عليهما السلام مما وقع فيه خلاف كبير بين طائفتي بني إسرائيل: اليهود والنصارىٰ؛ ولذلك ختم الله تعالىٰ هذه القصة العظيمة في آل عمران بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٢]. وقال سبحانه في شأن قصة مريم عليها السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فمن أكبر أغراض سياق قصة مريم وعيسىٰ عليهما السلام: بيان الحق من الباطل فيما نسجه أهل الكتاب حولهما من القصص والأخبار، وقد قال الله تعالىٰ في

موضع آخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ولو تأملنا في أحوال الناس وحاجاتهم لوجدنا أن الخطيب محتاج إلىٰ كل هذه الأغراض الهادفة من قصص القرآن، وأن من شأنها إصلاح أحوال الناس، والخطيب إنما يريد من الناس أن يعتبروا ويتعظوا، وفي ذكر مآل المكذبين، وعاقبة الظالمين أبلغ عظة وعبرة.

والخطيب محتاج إلىٰ تثبيت الناس علىٰ إيمانهم مع كثرة فتن السراء والضراء التي لا يكاد يسلم منها أحد في زمننا هذا، وفي ذكر قصص ثبات الأنبياء وأتباعهم تثبيت لقلوب المؤمنين.

والخطيب يريد هداية من يستمعون إليه، وتأسيهم بالصالحين من البشر، وفي ذكر قصص الأنبياء وأتباعهم حث علىٰ الاقتداء بهم.

والخطيب لا يعرض في خطبته إلا ما يعتقد أنه صدق وحق، ويجب أن يربي الناس علىٰ تلمس الصدق واتباع الحق، وقصص القرآن قد جلَّت لنا الحقائق، وبينت الكذب والغبش في قصص السابقين.

• تعامل الخطيب مع قصص القرآن:

المتأمل للقصص القرآني يجد أنها من حيث من تتناوله القصة علىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول: قصص الأنبياء عليهم السلام، ومنها قصص تكررت في أكثر من موضع، وهي غالب قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، إضافة إلىٰ قصة آدم عليه السلام مع إبليس، ومنها ما لم يتكرر بل جاء في موضع واحد من القرآن، سواء كانت القصة طويلة كقصة يوسف عليه السلام، أم كانت قصيرة كقصة إلياس عليه السلام.

القسم الثاني: قصص السابقين من غير الأنبياء ﷺ، مثل: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وذي القرنين، وأصحاب الجنة في سورة القلم، وقصة مريم ﷺ في سورتي آل عمران ومريم.

القسم الثالث: قصص للنبي عليه الصلاة والسلام، مثل غزواته: بدر في الأنفال، وأحد في آل عمران، والخندق وقريظة في الأحزاب، وبني النضير في الحشر، والحديبية في الفتح، وتبوك في التوبة، وإيلائه من نسائه في التحريم، وقصة زواجه من زينب في الأحزاب.

أما من جهة طول هذه القصص وقصرها فهي علىٰ أقسام ثلاثة أيضًا:

القسم الأول: قصص قصيرة وهي قليلة مثل: قصة إلياس ﷺ في سورة الصافات، وقصة يونس ﷺ في سور يونس والأنبياء والصافات، وقصة أيوب ﷺ في سورتي الأنبياء وص، وقصة أصحاب الأخدود في البروج، وقصة الذي انسلخ من آيات الله تعالىٰ في الأعراف، فهذه القصص وأمثالها يكفي الواحدة منها خطبة واحدة بدروسها وفوائدها، وإن قصرت عن ذلك فلا تخلو من حالين:

الأولىٰ: أن يجد الخطيب لها في السنة والآثار ما يزيدها بحيث تصلح خطبة كاملة.

الثانية: أن لا يجد الخطيب في السنة والآثار شيئًا، وحينئذ لا بد أن يضع الخطيب مدخلًا مناسبًا لخطبته يغطي النقص الذي عنده.

مثال ذلك: يصدر الخطيب خطبته بالحديث عن منزلة الأنبياء عند الله تعالىٰ، وفضلهم علىٰ البشرية، وسيجد نصوصًا كثيرة في ذلك، ثم يأتي علىٰ قصة النبي الذي اختاره.

فإن اختار أن يخطب عن قصة أيوب عليه السلام صدر خطبته بالحديث عن ابتلاء الله تعالىٰ لأنبيائه وعباده الصالحين، أو عن فوائد الأمراض، ويجعل قصة أيوب عليه السلام وصبره مع شدة ما أصابه من البلاء مثالًا لذلك.

وهكذا في قصة يونس عليه السلام يتكلم عن الابتلاء والصبر، أو الكرب ودعاء المكروب.

وما من قصة إلا سيجد الخطيب لها مدخلًا يناسبها بحيث لا تقصر عن أن تكون خطبة كاملة.

القسم الثاني: قصص متوسطة، وهي الأكثر في القرآن، مثل قصص هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، فهي وإن تكررت في الأعراف وهود والشعراء، وغيرها فإنها ليست طويلة في كل المواضع التي تكررت فيها، بحيث لو جمع الخطيب ما يتعلق بها من تفصيلات في كل موضع من القرآن لناسب أن يجتمع منها خطبة واحدة، فإن طالت فخطبتان.

وقريب منها قصص أصحاب الكهف وصاحب الجنتين وذي القرنين وأصحاب الجنة في سورة القلم.

القسم الثالث: قصص طويلة جدًا، لا يمكن للخطيب أن يعرضها في خطبة واحدة، وإلا لأطال علىٰ الناس كثيرًا، وذلك مثل قصص آدم ونوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، وأطول منها قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون، فقد أبدأ فيها القرآن وأعاد، وكررها مطولة في الأعراف، وطه، والشعراء، والقصص، وغافر، وجاءت أقل من ذلك في يونس، والنمل، وجاءت مختصرة في هود، والإسراء، والذاريات، والنازعات.

والمتأمل في هذه القصة العظيمة يلاحظ أن تكرارها لا يخلو من فوائد

وتفصيلات يكمل بعضها بعضًا:

ففي سور: طه والقصص تفصيل لولادة موسىٰ عليه السلام ونشأته في بيت فرعون وكيف كان ذلك.

وفي الأعراف ويونس وطه والشعراء مناظرة موسىٰ عليه السلام لفرعون، وقصة السحرة، وانتهاء أمرهم إلىٰ الإيمان، وقيام حجة موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون.

وفي سورة غافر قصة الرجل المؤمن الناصح الذي آزر موسىٰ عليه السلام، ودعا فرعون إلىٰ الإيمان، ومناظرته له في ذلك.

وهناك قصص أخرىٰ لموسىٰ عليه السلام مع بني إسرائيل ومعالجته لعنادهم وعنتهم، وصبره عليه السلام عليهم، وقد جاء تفصيل ذلك مطولًا في البقرة والأعراف وطه، وأيضًا قصته عليه السلام مع الخضر -رحمه الله تعالىٰ- في سورة الكهف.

فهذه القصص المكررة الطويلة لا يحسن بالخطيب أن يعرض عنها كلية لما فيها من الطول، ولا أن يعرضها بطولها فيثقل علىٰ الناس، وسيكون ذلك علىٰ حساب الدروس والفوائد المستخرجة منها؛ ذلك أن الغرض الأكبر من عرض هذه القصص علىٰ الناس استخلاص العبر والدروس للعبرة والاقتداء.

وقد يعمد بعض الخطباء إلىٰ اختيار موضع واحد من القرآن وردت فيه القصة، فيسوقها كما وردت فيه، مع استخلاص العبر والدروس من ذلك الموضع، وهذا حسن، إلا أنه لا يتأتىٰ في المواضع التي جاءت فيها القصة مطولة، مثل الأعراف وطه والشعراء والقصص وإلا لأطال علىٰ الناس، كما أن فيه إهمالًا لتفصيلات كاشفة لأمور مهمة من القصة جاءت في مواضع أخرىٰ مع الحاجة إلىٰ ذكرها.

والذي أراه مناسبًا في مثل هذه القصص الطويلة العظيمة أن يتبع الخطيب الخطوات التالية:

أولًا: أن يجتهد الخطيب في جمع كل ما يتعلق بالقصة من آيات في كل المواضع التي وردت فيها، ولو كانت طويلة جدًّا.

ثانيًا: يضم إليها ما صح من الأحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام مما له تعلق بالقصة أو بعض أجزائها.

ثالثًا: يراجع كتب التفسير، وشروح الحديث، وكتب التاريخ، وقصص الأنبياء، فيجمع منها ما زاد علىٰ ما وجده في الآيات والأحاديث من كلام الصحابة أو التابعين مما هو كاشف لبعض المواضع التي فيها غموض، أو فيه جمع لما ظاهره التعارض.

رابعًا: عليه أن يجتنب الإسرائيليات في ذلك؛ لأنها ستطيل بحثه بلا طائل، ولأن التفصيلات الموجودة فيها -وإن هفت النفوس إليها- لا دليل عليها، ولا يحل للخطيب أن يفتن العامة بها، فكثير من الناس لا يفرقون بينها وبين ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام، وليس لهم دراية في التعامل مع أخبار بني إسرائيل، وبمجرد سماعهم لها من الخطيب سيحملونها علىٰ محمل التصديق والتسليم.

وهناك كتب حذرت من بعض ما جاء في الإسرائيليات من تفصيلات، وبينت ما فيها من معارضة للقرآن والسنة، وكتب أخرىٰ عنيت بما صح من تفصيلات هذه القصص، ورد ما لم يصح منها، وهذه الكتب مما يعين الخطيب في بحثه، ويزيد من علمه بقصص القرآن، ويقوي ملكة النقد لديه.

خامسًا: أرىٰ أن يتأمل الخطيب في نصوص القصة، ويحاول استنباط

الدروس والفوائد منها، ويقيد ذلك قبل أن يراجع كتب التفسير والشروح وقصص القرآن؛ وذلك لتنمية ملكة الاستنباط لديه، ولينظر ما وافق هو فيه غيره، وقد يفتح الله تعالىٰ عليه بفوائد لم يسبق إليها، بخلاف ما إذا بدأ يجمع فوائد القصة ودروسها من الكتب التي سبقته فإنه يكون قد رهن عقله لها، فلا ينشط في التفكير والاستنباط.

سادسًا: يجمع الدروس والفوائد المستفادة من هذه القصص، ومظنتها كتب التفسير وشروح الأحاديث، إضافة إلىٰ كثير من الكتب التي عنيت بقصص الأنبياء، أو بالقصص القرآني، وبعضها عام في كل القصص، وبعضها مخصوص في قصة بعينها، وغالبًا ما يركز أصحاب هذه الكتب -وبالأخص المعاصرة منها- علىٰ الدروس المستفادة من القصة.

سابعًا: أن يحذر من كتابة القصة أو بعض أجزائها علىٰ فهمه هو للآيات دون مراجعة كتب التفسير، ولو كتابًا واحدًا موثوقًا؛ فقد يقع في الخطأ وهو لا يعلم فيأتي بمعنىٰ في القصة أو الآية ليس بصحيح، وقد يأتي بمعنىٰ مرجوح يرسخه في أذهان الناس ويهمل الراجح، وكونه يعلم المعنىٰ الآخر في القصة أو الآية -سواء كان مرجوحًا أو مساويًا للمعنىٰ الذي اختاره- مما يفيده في الإلمام بالمعاني، ويخلصه من حرج المناقشين والمتعقبين عليه.

ومن الأمثلة التي وقعت لي في ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقد تكرر معنىٰ هذه الآية في سورة الأعراف آية (١٤١)، وفي سورة إبراهيم آية (٦)، وكنت آخذ الآية علىٰ ظاهرها فيما بدا لي فأجعل البلاء: الابتلاء بهذا التعذيب من تقتيل الأبناء واستحياء البنات،

ولا سيما أنه موصوف بأنه عظيم، حتىٰ نبهني أحد الإخوة من طلبة العلم إلىٰ أن الطبري يرىٰ أن البلاء هنا بمعنىٰ النعمة، وأنه يعود علىٰ الإنجاء من فرعون وظلمه، فراجعت ما قال لي فوجدت هذا المعنىٰ منقولًا عن ابن عباس ومجاهد وأبي العالية وأبي مالك والسدي وغيرهم، ورجحه ابن جرير وقال: « أكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء» والقول الثاني في الآية أن المعنىٰ البلاء بفرعون وتقتيله لبني إسرائيل، وحكاه القرطبي عن الجمهور(١).

ثامنًا: بعد اكتمال مادة الجمع عنده سيجد أن القصة تحتاج إلىٰ خطب كثيرة ليغطي الموضوع بأكمله، فيقسم القصة إلىٰ وحدات متنوعة يجعل كل واحدة منها موضوعًا لخطبة مستقلة، ويكون تقسيمه لها علىٰ وجهين:

الأول: أن يقسمها بحسب الزمان، وتسلسل الأحداث فيه.

مثال ذلك: يقسم قصة موسىٰ عليه السلام علىٰ الزمن الذي عاشه، ويسوق الأحداث بالنسبة لذلك الزمن، فيتحصل عنده مجموعة من الخطب علىٰ النحو التالي:

١- أحوال بني إسرائيل تحت حكم فرعون وجنده قبل ولادة موسىٰ عليه السلام، ويجمل فيها الكلام عن موسىٰ عليه السلام، وأنه كان نعمة من الله تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل وخلاصًا لهم.

٢- قصة حمل أم موسىٰ به وولادته، ونشأته في منزل فرعون.

٣- هجرة موسىٰ إلىٰ مدين وقصة بعثه وتكليمه.

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٨٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٩١-٩٢).

٤- دعوته لفرعون ومناظراته إياه في الربوبية والعبودية.

٥- تكذيب فرعون واستعانته بالسحرة وإيمانهم بموسىٰ عليه السلام.

٦- مطاردة فرعون وجنده لموسىٰ ومن معه، وهلاك فرعون ونجاة موسىٰ.

الثاني: أن يقسمها بحسب الموضوع، ولا يهمه سرد القصة وأحداثها وترتيبها.

مثال ذلك: أن يقسم قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون علىٰ موضوعات لا يراعي فيها الزمن بقدر ما يراعىٰ الأحداث والصفات المتعلقة بموضوعه، أشبه ما يكون بطريقة التفسير الموضوعي، وذلك كما يلي:

١- مظاهر طغيان فرعون من خلال قصته في كل السور التي وردت فيها.

٢- حاجة الظلمة إلىٰ أعوان، وصفات هؤلاء الأعوان، وذلك من خلال ما قص الله تعالىٰ عن الملأ من قوم فرعون، وخاصة هامان، وأعماله التي ساند فيها فرعون.

٣- وصف الأذىٰ الذي لحق ببني إسرائيل قبل مبعث موسىٰ عليه السلام وبعده.

٤- ضعف بني إسرائيل وهوانهم، واستكانتهم لظلم الظالمين، ومظاهر ذلك من الآيات القرآنية.

٥- اصطفاء موسىٰ عليه السلام مخلصًا لبني إسرائيل، وتربيته في بيت عدوه.

٦- فضائل موسىٰ عليه السلام من خلال إيمانه بالله تعالىٰ وثقته به، وتوكله عليه، وقوته في الحق، وصبره علىٰ الأذىٰ فيه.

٧- عاقبة المؤمنين النصر، ونهاية المستكبرين العذاب، وجعل قصة موسىٰ وفرعون أنموذجًا لذلك، بوصف أعمال الفريقين، وبيان عاقبتهما.

فهذه موضوعات سبعة بدت لي ابتداء، وقد تزيد مع جمع مادة القصة من مصادرها.

إضافة إلىٰ أن لموسىٰ عليه السلام قصصًا أخرىٰ مع بني إسرائيل بعد هلاك فرعون يتحصل منها عدد من الخطب ليس بالقليل، سواء تناولها الخطيب بحسب زمنها أو تناولها بحسب موضوعاتها، وهكذا قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام.

ولست هنا أدعو الخطيب إلىٰ أن يجعل هذه الخطب مسلسلة، في كل جمعة يخطب بواحدة حتىٰ ينهيها، بل الذي أراه أن يجعل كل خطبة مستقلة عن الأخرىٰ، ويخطب بها بين الحين والآخر حسب الحاجة حتىٰ ينتهي منها.

ولو رأىٰ أن يسلسل قصة من القصص حتىٰ ينهيها فالأمر واسع، والخطب يسير، وهو محل اجتهاد بما يحقق المصلحة، وقد يناسب ذلك في بعض المساجد دون غيرها، لكني أرىٰ أنه من غير المستحسن أن يبدأ في قصص القرآن فلا يخرج منها إلىٰ غيرها حتىٰ ينتهي منها كلها؛ لأن ذلك سيطول وقد يستغرق سنوات، ويكون علىٰ حساب موضوعات أخرىٰ مهمة، وقد سبق أن بينت مفاسد جمود الخطيب علىٰ فن من الفنون يخطب فيه ولا يتعداه.

تاسعًا: سيجد الخطيب أثناء الجمع تعليقات علىٰ بعض مواضع القصة مؤثرة جدًّا عن الصحابة أو التابعين أو الأئمة بعدهم، فعليه أن يعتني بها، ويؤكد عليها، ويضعها في مواضعها اللائقة بها، فإن ناسب أن يذكرها في موضعها من القصة فذاك، وإن رأىٰ أنَّ إيرادها في سياق القصة سيقطعها، ويشوش علىٰ المستمعين، ولا ينتفعون بها فليجعلها في الدروس ولا يهملها. ومما يحضرني في ذلك:

١- في قول الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، وقوله سبحانه عن موسىٰ أنه قال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٠-٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] قال

بعض السلف: «ليس أحد أعظم مِنَّةً علىٰ أخيه من موسىٰ علىٰ هارون عليه السلام، فإنه شفع فيه حتىٰ جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلىٰ فرعون وملئه، ولهذا قال تعالىٰ في حق موسىٰ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]»(٢).

٢- في قصة بناء الخليل عليه السلام للبيت، عن وهيب بن الورد -رحمه الله تعالىٰ-: «أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فجعل يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يقبل منك؟!»(٣).

٣- في قصة موسىٰ عليه السلام، وقول الله تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] قال يزيد الرقاشي -رحمه الله تعالىٰ-: «يا من يتحبب إلىٰ من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه»(٤)، وقُرئت عند يحيىٰ بن معاذ فبكىٰ، وقال: «إلهي، هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله؟!»(٥).

٤- في دعاء الخليل عليه السلام حين قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالىٰ-: «من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام كما عبدها أبي وقومي»(٦).

• **إيرادات والجواب عنها:**

الإيراد الأول: أن هذه الطريقة المقترحة لتعامل الخطيب مع القصص القرآني تحتاج إلىٰ وقت طويل، والخطبة متكررة كل جمعة، فأنىٰ للخطيب أن يجد

---

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٤).

(٥) تفسير الألوسي (١٦/ ١٩٥).

(٦) تفسير القرطبي (٩/ ٣٦٨).

الوقت لمثل هذا العمل الكبير، ولديه أعمال أخرىٰ؟!

وجواب ذلك كما يلي:

١- أن مثل هذا البحث وإن أخذ جزءًا ثمينًا من وقته فإنه يريحه أيضًا جمعات كثيرة يكون عنده لها رصيد من الموضوعات قد أَعَدَّهُ وَجَمَع مادته، ولم يبق إلا الصياغة، وذلك يُوَفِّرُ عَلَيْهِ وقتًا طويلًا فيما لو أراد إعداد خطبة لكل جمعة.

ولو أن الخطيب فعل مثل ذلك في كل الموضوعات الطويلة سواء كانت في القصص أو العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو السيرة أو القضايا المعاصرة أو غيرها لتحصل له كَمّ كبير من الموضوعات الجاهزة التي لا تحتاج منه إلا إلىٰ صياغة فقط، وهذا يريحه كثيرًا في اختيار موضوع خطبته وفي كتابتها، فلا تستنزف منه وقتًا طويلًا.

٢- قد يضيق الوقت علىٰ الخطيب في بعض الجمع لظرف طارئ لم يحسب حسابه فلا يتمكن من جمع مادة خطبته، فتكون هذه المواد المجموعة سابقًا مُعِينَة له علىٰ الالتزام بكتابة خطبة جديدة وجيدة رغم ما عرض له من مشاغل وعوائق. بخلاف ما لو لم يكن عنده مادة محضرة فسيضطر للإعادة، ولو كتب خطبة جديدة دون تحضير وجمع فستكون خطبة ضعيفة.

الإيراد الثاني: قد ينازع بعض الناس فيقول: إن الخطبة مجرد موعظة وتذكير بما يفتح الله تعالىٰ علىٰ الخطيب، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب بما يحتاج الناس إليه.

وجواب ذلك من وجهين:

١- أن من أبلغ المواعظ والتذكير الموعظة بقصص القرآن، وتكرارها في القرآن، وطولها في بعض السور يدل علىٰ أهميتها في الوعظ والتذكير، وأن لها

أثرًا كبيرًا في نفس قارئها وسامعها، ومن لم يتعظ بالقرآن وآياته وقصصه فلا واعظ له.

٢- أن الخطبة بقصص القرآن مما يحتاج الناس إليه؛ لما فيها من الفوائد الكثيرة؛ ولتشوف نفوس السامعين إلىٰ القصص، ومحبتهم لها، وتأثر قلوبهم بها.

الإيراد الثالث: قد يرىٰ بعض الناس أن الخطبة ليست بحثًا فلا تحتاج إلىٰ كل هذا الجمع، ويكفي الخطيب أن يعرض لظاهر القصة ويختار منها ما يراه مناسبًا، ولا يحتاج إلىٰ صنع أكثر من خطبة في القصة الواحدة.

وجواب ذلك من أوجه:

١- أن الاقتصار في الموضوعات الطويلة -ومنها بعض قصص القرآن- علىٰ خطبة واحدة سيلجئه إلىٰ إطالتها بما يشق علىٰ المصلين، أو سيهمل ما هو مهم فيها وهذا قصور.

٢- أن من فعل ذلك سيكتفي بالعمومات، والاقتصار علىٰ العمومات أقل فائدة وتأثيرًا علىٰ المصلين من الغوص في أعماق الموضوع، واستخراج النكت والفوائد والدروس منه، والعمومات يفهمها أكثر المصلين، وربما كان إدراكهم لبعض التفصيلات أكثر من إدراك الخطيب.

٣- أن الخطيب هو أول المستفيدين من بحوثه التي يجمعها للخطبة، فذلك مما يزيد في معلوماته، ويرسخ الموضوعات التي بحثها في ذهنه بدقائقها ونكتها ومسائلها. والذي أراه أن البحث هو أقوىٰ وسيلة لتحصيل العلم وترسيخه، وتقوية ملكة النظر والنقد والترجيح والاجتهاد، فعلام يحرم الخطيب نفسه هذه الثمرات العظيمة ببعض جهد يبذله في شعيرة هي من أعظم الشعائر، فينفع نفسه وينفع إخوانه المسلمين؟

٤- أن أي خطبة لم تكتب إلا بعد جمع وبحث ونظر ستحوي فوائد ونكتًا لا توجد في غيرها، وهذا مما يخلدها، ويجعل الناس يتناقلونها علىٰ أوسع نطاق، وربما وقعت في أيدي خطباء فخطبوا بها لفائدتها ونفاستها، وقد يستفيد من بعض ما فيها عالم كبير، أو طالب علم مبرز، أو داعية مشهور، أو كاتب مرموق، والفضل في ذلك -بعد الله تعالىٰ- يعود لمن كتبها.

وواجب علىٰ الخطيب أن لا يحتقر عقول المصلين معه ولو كانوا من العوام؛ فإن أغلبهم يميزون جيد الكلام من رديئه، ويدركون أكثر ما يخاطبون به. كيف وما من جامع إلا وفيه متعلمون ودارسون حتىٰ جوامع القرىٰ والهجر، بما منَّ الله تعالىٰ علىٰ الناس من نهضة التعليم والدراسة في هذا العصر؟!

ويبدو لي أن من أهم أسباب ضعف الخطبة في هذا العصر، وقلة تأثيرها في نفوس المستمعين هو عدم التحضير الجيد لها، والاكتفاء بعمومات الموضوع الذي يختاره الخطيب، حتىٰ بلغ الأمر ببعض الخطباء أنك تستمع إلىٰ خطبته فلا تجد موضوعًا واحدًا لها، وإنما يتشعب في أودية كثيرة، ويتكلم عن موضوعات عدة في آن واحد، بل ربما جاوز الموضوع ثم عاد إليه مرة أخرىٰ في نفس خطبته، ولست أدري كيف كتبها؟!



١٠- قصص السنة في خطبة الجمعة

أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام أن يقص القصص علىٰ قومه، وأن يتلو عليهم أخبار من سبقوا؛ ليعتبروا ويتعظوا فيؤمنوا، وتكرر ذلك في القرآن، وما ذاك إلا لتأثير القصة في النفوس البشرية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ ... الآيات [المائدة: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ ... الآيات [الأعراف: ١٧٥]، وفي آخرها قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ ... الآيات [يونس: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ... الآيات [الشعراء: ٦٩].

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: «أمره ﷺ أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين ويخوفهم العذاب الأليم علىٰ كفرهم» اهـ[(١)].

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: «وشأن القصص المفتتحة بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ ويحصل من ذلك تعليم ...» اهـ[(٢)].

وقد امتثل النبي ﷺ أمر الله تعالىٰ فبلغ القرآن للأمة، وفيه من قصص السابقين شيء كثير، كما قصَّ عليه الصلاة والسلام علىٰ أصحابه ﷺ قصصًا كثيرة مما علمه الله تعالىٰ ليست في القرآن، فكان في ذلك أبلغ عبرة، وأحسن موعظة لمن انتفع بها. فيحسن بالخطيب أن يأتي بهذه القصص من السنة النبوية

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٣٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٣).

بين حين وآخر؛ لأخذ الدروس والعبر منها، ونفع المصلين وإطرابهم بها؛ فإن القصص النبوي من أجمل القصص وأحسنها، وأكثرها تأثيرًا في سامعها.

وأئمة الحديث والأثر علموا ما للقصة من تأثير في النفس البشرية فترجموا بها في كتبهم، وجعلوها عناوين أبوابها، ومن تراجم أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: باب قصة يأجوج ومأجوج، باب قصة إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، باب قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه، باب قصة خزاعة، باب قصة زمزم، باب قصة الحبش، باب قصة البيعة والاتفاق علىٰ عثمان رضي الله عنه، باب قصة أبي طالب ... إلخ[٣].

● وللقصة تأثير كبير في نفس سامعها لأسباب أهمها:

١- ولع الإنسان بالقصص وميله لها. حتىٰ إن النبي ﷺ قال في قصة الخضر مع موسىٰ عليه السلام: **«وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا»**[٤].

٢- أن القصة أقوىٰ في التأثير من التوجيه المباشر. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنىٰ ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنىٰ المراد، ومزكية له»[٥].

---

(٣) ينظر: صحيح البخاري نسخة مصطفىٰ البغا: (٣/ ١٢٢٠-١٢٣٤-١٢٩٤-١٢٩٧-١٢٩٨-١٣٥٢-١٤٠٨)، وينظر أيضًا أبوابًا أخرىٰ فيه: (٤/ ١٤٥٤-١٥٣٥-١٥٩١-١٥٩٢-١٥٩٣-١٥٩٦).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٨٣).

٣- أن القارئ يستوعب معانيها؛ لأنه يعيش بكليته معها فتؤثر فيه.

٤- أنها أداة سهلة للفهم وتحظىٰ بالقبول من العامة(٦).

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: «ما أحوج الناس إلىٰ قاص صادق!»(٧).

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام متفاعلًا مع قصص القرآن متأثرا بها، وظهر انفعاله وتأثره بها في مواقف كثيرة، منها:

١- تأثره بقصة عيسىٰ عليه السلام، وما أحدثه النصارىٰ فيه من القول ببنوته لله تعالىٰ، والقول بالتثليث، وغلوهم في المسيح وأمه، فظهر تأثره عليه الصلاة والسلام بتربية أصحابه علىٰ عدم الغلو فيه فقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْد اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»(٨).

٢- تأثره ﷺ بأذية بني إسرائيل لموسىٰ عليه السلام، فصبر علىٰ أذىٰ قومه وقال: «**رَحِمَ اللهُ مُوسَىٰ قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(٩).

٣- تأثره ﷺ بما نزل من العذاب بالمعذبين، قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ إِذَا رَأَىٰ غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**»(١٠).

---

(٦) ينظر: مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية د. طلعت محمد عفيفي سالم، الزهراء للإعلام العربي القاهرة الأولىٰ ١٤٠٨، ص: ٢٠-٢٦.

(٧) إحياء علوم الدين، نشرة: دار المعرفة، بيروت (١/ ٣٥).

(٨) رواه من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم: البخاري (٣٤٤٥).

(٩) رواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري (٣١٥٠).

(١٠) رواه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم واللفظ له (٨٩٩).

- **ميزات القصص النبوي:**

فضل الوحي علىٰ سائر الكلام كفضل الله تعالىٰ علىٰ خلقه، وما القصص النبوي إلا غيب كشفه الله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام، فأداه النبي ﷺ كما تحمله، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجم: ٤]؛ ولذا امتاز القصص النبوي بميزات كثيرة لم تجتمع في غيره من قصص المتقدمين والمتأخرين، ومن تلك الميزات:

١- صدق أحداثها ووقوعها وواقعيتها، فهي وحي من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ، وليست من أفكار الخيال التي ينسجها القاص لقرائه ومستمعيه؛ فكانت منهاج عمل لضبط الحياة للراغبين في اقتفاء أثر مدارج السالكين للوصول إلىٰ جنات النعيم[١١].

وكما أنها قصص لا تجنح إلىٰ الخيال الشارد الجموح فإنها لا تميل للتعمق المفلسف الغامض، ولا للسطحية الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة، وليست هي القصة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشروط، ولكن هي القصة التي تقوم علىٰ سلامة فطرة القاص، وتكفي كل الكفاية في تقرير الغرض، وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث ولباقة الحوار وتصوير الأشخاص[١٢].

إنها القصة الواقعية الصادقة في أحداثها فلا تهويل فيها ولا تهوين، بخلاف

---

(١١) ينظر: موسوعة القصص النبوي، د.شاهر ذيب أبو شريح، دار صفاء، الأردن، الأولىٰ، ٢٠٠٣، ص٧.

(١٢) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، دار اقرأ، بيروت، الأولىٰ ١٤٠٤، ص ٤٥٩.

قصص بني إسرائيل المختلقة، وقصص القصاص الوضاعين؛ ففيها من الغرائب والأخبار المنكرة ما لا تقبله العقول السوية، ويكون أحيانًا فيها تناقض كثير.

نقل السيوطي عن ابن الجوزي قوله: «معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص؛ لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق والصحاح تقل في هذا»(١٣).

٢- العناية بموضوع القصة وأهدافها دون الاهتمام بأشخاصها أو تحديد زمانها؛ ولذا تأتي بأساليب نحو: كان رجل ممن كانوا قبلكم، كان رجل من بني إسرائيل، ومثله أيضًا: حديث الثلاثة المبتلين الأبرص والأقرع والأعمىٰ، وحديث الثلاثة الذين باتوا في الغار، وحديث غلام الأخدود.

وفي هذا استيعاب للحياة كلها مع تخطي الزمان والمكان(١٤).

٣- انتقاء الأسلوب، فليس أسلوبها متكلفًا متقعرًا ولا مبتذلًا رخيصًا، والملاحظ أن أئمة المساجد يقرؤونها علىٰ العوام فيفهمونها، ويتأثرون بها، وهي تطرب كبار الأدباء والبلغاء، فهي قد جمعت بين سهولة العبارة وسرعة الفهم مع جزالة الأسلوب، وبراعة التركيب، وترابط القصة. بل حتىٰ القصص التي حكاها الصحابة -مما وقع لهم- فيها براعة قصصية تأخذ بالألباب، كحديث عائشة رضي الله عنها عن الإفك، وحديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك.

٤- النزاهة والعفة، والتعريض في المواضع الخاصة دون التصريح، نحو: **«اتَّقِ اللهَ ولا تفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعدَ الرَّجُلِ مِن امْرَأَتِهِ»**.

---

(١٣) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، تحقيق: د. محمد الصباغ، نشرة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص ١٥٥.

(١٤) ينظر: أقباس من قصص السنة، د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، مكتبة الدار العربية، القاهرة، الأولىٰ ١٤٢٠، ص ١٨.

وبهذا نعلم قذارة الرواية الغربية، ومقلدتها الليبرالية العربية حين تمتلئ بالمشاهد الجنسية الفاضحة، وتصفها وصفًا دقيقًا لتهييج الغرائز، وسحب قارئها إلىٰ الشهوة، وكأن هذه الإثارة الرخيصة مقصودة لستر ضعف البنية القصصية في تلك الروايات الساقطة.

٥- عدم الوقوف طويلا عند مواقف الضعف والهبوط البشري فيمر بها سريعًا؛ لأنها ليست الأصل في المؤمن المحب للخير والعفة، وليست الهدف من القصة، وحالات الضعف هي استثناءات في هؤلاء الضعفة من المؤمنين، وعارض عرض لهم.

٦- الإسراع في القصة إلىٰ لحظة الإفاقة والتركيز عليها والإشادة بها؛ لأنها اللحظة اللائقة بالمؤمن.

• **تقسيمها من جهة الطول والقصر:**

من قصص السنة النبوية ما هو طويل كقصة الإفك[١٥]، وتوبة كعب بن مالك[١٦]، وقصة بدء الوحي[١٧]، وقصة إبراهيم وهاجر[١٨]، ونحوها.

ومنها ما هو متوسط، كقصة الثلاثة المبتلين[١٩]، والثلاثة أصحاب الغار[٢٠]، والبقرة التي تكلمت[٢١]، ونحوها.

(١٥) رواها البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(١٦) رواها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).
(١٧) رواها البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).
(١٨) رواها البخاري (٣٣٦٤-٣٣٦٥).
(١٩) رواها البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).
(٢٠) رواها البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٣٧٤٣).
(٢١) رواها البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

ومنها ما هو قصير كقصة الرجل الذي أوصىٰ بأن يحرق ويذر رماده(٢٢)، وقصة الذي اشترىٰ عقارًا فوجد في أرضه ذهبًا(٢٣)، وقصة عيسىٰ عليه السلام مع السارق(٢٤) ونحوها.

والقصص الطويلة من المستحسن أن يستوعب بها الخطيب الخطبة الأولىٰ كاملة، ويختصر في مقدمة الخطبة حتىٰ لا يطيل علىٰ الناس، وفي الخطبة الثانية يأتي علىٰ أهم ما في القصة مما يحتاج الناس إليه، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال؛ فمثلًا لو خطب بحديث الإفك؛ لأن بعض أهل البدع وقع في عرض عائشة رضي الله عنها، فهو في الخطبة الثانية سيبين أن رمي عائشة رضي الله عنها كفر؛ لأن فيه تكذيبًا للقرآن الكريم، ومن كذب بالقرآن فقد كفر، أو يتناول حال المنافقين في القديم والحديث، أو يذكر فضل عائشة رضي الله عنها بتبرئة الله تعالىٰ لها، وقد يتحدث عن كل ذلك باختصار.

وقد يسوق القصة لغرض بيان شدة القذف، وخطر الشائعة، وهنا سيكون تركيزه في الخطبة الثانية علىٰ الأضرار التي تسببت لبيت النبوة بسبب هذه الشائعة الخطيرة.

وقد يسوق القصة لأغراض تربوية، فيستخلص منها المواقف التربوية للنبي ﷺ في هذه الحادثة، ولعائشة وأبويها وبعض الصحابة المذكورين في القصة رضي الله عنهم.

وعلىٰ الخطيب أن يحدد الغرض الذي ساق القصة من أجله، حتىٰ يمكنه التركيز عليه وإبرازه في الخطبة الثانية. ومن الخطأ أن يظن أنه سيأتي علىٰ فوائد القصة كلها؛ لأن ذلك سيطول جدًّا، ويشتت السامعين.

---

(٢٢) رواها البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (١٧٥٦).

(٢٣) رواها البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١).

(٢٤) رواها البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨).

ولا مانع من أن يعيد ذكر القصة بعد زمن، وفي كل مرة يبرز في الخطبة الثانية جانبًا مهمًّا مما يستفاد منها مما تمس الحاجة إليه، فتكون الخطبة الأولىٰ مكرورة، والثانية مختلفة.

وإذا كان للقصة أكثر من رواية طويلة أورد في كل مرة رواية من رواياتها حتىٰ يأتي علىٰ جميعها كما هو فعل حذاق المحدثين كالبخاري رحمه الله تعالىٰ.

وأما القصص المتوسطة في طولها ففيها سعة بإبراز فوائدها وعبرها ودروسها، وللخطباء في ذلك طريقان:

١- أن يذكر فوائد القصة ودروسها أثناء سرد القصة، وهذا يحتاج إلىٰ براعة في الصياغة وفي انتقاء الدروس والعبر؛ لئلا يشتت ذهن السامع فينسىٰ القصة. وميزة هذه الطريقة أنها أكثر اختصارًا للخطبة، وتدل السامع علىٰ موضع الشاهد من القصة لكل فائدة استخلصها الخطيب. وهذه الطريقة تشبه شرح القصة أو الحديث وتفكيك عباراته، لكن علىٰ من ينزع إلىٰ هذه الطريقة أن ينتبه؛ لئلا يحول الخطبة إلىٰ درس أو شرح، ويبقي علىٰ أسلوبها الخطابي .. وقليل من الخطباء من يبرع في ذلك.

٢- أن يسرد القصة أولًا، ثم يأتي علىٰ دروسها وفوائدها مذكرًا بالشاهد منها في كل فائدة، وميزة هذه الطريقة أنها تعطي السامع القصة كاملة بلا تدخل من الخطيب، وهذا أجمع لقلبه، وأكثر تأثيرًا عليه، وهي أسلم للخطيب الذي لا يتقن إدخال الفوائد والمسائل في داخل القصة دون أن يشوش علىٰ السامع أو يصيبه بالملل لانقطاع القصة، ولكن هذه الطريقة فيها شيء من التكرار؛ لأن الخطيب يسوق القصة كاملة، ثم يعيدها أو جزءًا منها في الفوائد حين يذكر الشواهد علىٰ كل فائدة.

وأما النوع الثالث وهو القصص القصيرة، فهي علىٰ نوعين:

١- أن يكون فيها من الفوائد ما يغطي الخطبة، فيفردها بخطبة.

٢- أن تكون قصيرة جدًّا وفوائدها ليست كثيرة، وهذه لا بد أن يعضدها بمثيلاتها من القصص أو النصوص؛ لأنه لو اعتمدها كما هي فسيضطر لإطالة المقدمة والخاتمة ليغطي قصر الخطبة، أو يكثر من الكلام الإنشائي الذي لا فائدة منه، أو يعمد إلىٰ التكرار واللت والعجن في الخطبة، وكل هذه مفسدات للخطبة، وتصيب السامع بالملل والامتعاض.

- **أقسام القصة من جهة من عرضت له:**

الأول: قصصه ﷺ عن الأمم السابقة، وخاصة قصص بني إسرائيل؛ لأنها الأكثر في حديثه ﷺ، ومنها: قصة الخضر(٢٥)، وقصة البغي أو الرجل الذي سقىٰ الكلب(٢٦)، وقصة جريج العابد(٢٧)، وغيرها كثير في السنة النبوية.

ولعل سبب كثرة حكاية النبي ﷺ قصص بني إسرائيل: قربهم من البعثة النبوية زمانًا ومكانًا؛ فاليهود كانوا في المدينة، والنصارىٰ كانوا في الجزيرة ومن بعض القبائل العربية وفي الشام، والنبي ﷺ بُعث علىٰ حين فترة من الرسل، وبُعث قبله جملة من أنبياء بني إسرائيل؛ ولأن بني إسرائيل حفظوا بعض كتبهم فإذا حدثهم بقصص يعرفونها دل ذلك علىٰ صدق النبي ﷺ؛ ولما في حكايتها من تأليف بني إسرائيل علىٰ الإسلام؛ فإنه عليه الصلاة والسلام إذا حدث بقصص سابقيهم كان ذلك أدعىٰ لقبولهم الإسلام لولا الحسد الذي امتلأت به قلوب

---

(٢٥) رواها البخاري (٧٤).

(٢٦) رواها البخاري (١٧٣-٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٤-٢٢٤٥).

(٢٧) رواها البخاري (١٢٦٠)، ومسلم (٢٥٥٠).

أحبارهم ورهبانهم، فأضلوا بحسدهم العامة منهم.

الثاني: قصص وقعت للنبي ﷺ، وهي علىٰ نوعين:

١- ما وقع قبل البعثة؛ كحادثة شق الصدر، وإرضاعه في بني سعد، وتحكيمه في بناء الكعبة، ونحوها. وفيها أحوال طفولته وصباه عليه الصلاة والسلام والكرامات التي يراها الناس منه، مع عفته وأمانته وأخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام.

٢- قصصه بعد البعثة، وهي كثيرة جدًّا، سواء قصصه الخاصة به كقصة فتور الوحي، وحادثة الإسراء والمعراج، أو قصصه مع آل بيته رضي الله عنهم، كقصصه مع نسائه -رضي الله عنهن-، ومنها حديث الإفك، وخبر إيلائه من نسائه، وأيضًا خبر تخييرهن بينه وبين الدنيا، أو مع أصحابه كقصة هجرته، وقصته مع أبي بكر في الغار، وقصة جوعه يوم الخندق واستضافة جابر رضي الله عنه له.

وقصصه مع المشركين واليهود والمنافقين، وهي كثيرة جدًّا.

الثالث: قصص وقعت في العصر النبوي للصحابة رضي الله عنهم كقصة كعب بن مالك في تبوك، وقصة تميم الداري مع الدجال، ونحوها.

الرابع: قصص المنام: كحديث: «**رأيتُ رَبِّي . . .**»[٢٨]، وحديث: «**هَلْ رأَىٰ أحَدٌ منْكُمْ مِنْ رُؤْيَا**»[٢٩].

الخامس: القصص التمثيلية: ومنها «**مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللَّهِ والوَاقِعِ فِيهَا . . .**»[٣٠]، وحديث: «**إنَّما مَثلُكُمْ ومَثَلُ اليَهُودِ والنَّصارىٰ كَرَجُلٍ اسْتَأْجَرَ**

(٢٨) رواه الدارمي (٢١٩٥)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٢٩) رواه البخاري (٧٠٤٧).

(٣٠) رواه البخاري (٢٤٩٣).

عُمَّالًا . . .»[٣١]، وحديث: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ مِنَ الهُدَىٰ . . .**»[٣٢].

السادس: قصص المستقبل، مثل أخبار الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج والملاحم، وقصص يوم القيامة، وآخر من يدخل الجنة.

وينبغي للخطيب في اختياره لقصة من القصص النبوي لتكون موضوع خطبته مراعاة ما يلي:

أولًا: التأكد من صحة القصة المختارة، وقد سبق أن أشبعت هذه القضية في موضوع (استدلال الخطيب بالسنة)، وموضوع (الخطبة بحديث من السنة) فليراجعهما من أراد الاستزادة.

ثانيًا: نقل القصة من المصدر الأصلي لها، وعدم الاعتماد علىٰ المصادر التي نقلت عن الأصل؛ لزيادة التوثيق، والسلامة من الخطأ والتحريف والتصحيف.

ثالثًا: جمع روايات القصة، سواء عن الصحابي نفسه أو عن غيره من الصحابة، فقد يكون فيها زيادات مهمة تزيد القصة وضوحًا، وتشبعها معنىٰ وأثرًا.

ويجب علىٰ الخطيب كما استوثق من ثبوت أصل القصة أن يستوثق من ثبوت الروايات الأخرىٰ للقصة؛ لأنه ليست كل زيادة صحيحة، بل قد تكون شاذة أو ضعيفة أو منكرة، وقد تعارض القصة الأصل مما يؤدي إلىٰ التناقض والتشويش علىٰ الناس.

رابعًا: يختار من روايات القصة أصحها وأتمَّها، فإن وجدت عنده رواية اتفق

---

(٣١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٣٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

الحُفَّاظ أو الشيخان عليها، وواحدة انفرد بها أحد الحفاظ دون غيره، أو خرجها أحد الشيخين، فليعتمد الرواية التي عليها أكثر الحفاظ أو المتفق عليها؛ لأنها أقوىٰ وأبعد عن الغلط.

فإن كانت الرواية الأصح مختصرة، والأقل صحة أتم منها، فلا شك أن اعتماد الرواية الأتم فيه فائدة أكثر، لكن بشرط أن تكون صحيحة ولا تخالف الرواية المختصرة فتكون شاذة، ولو جمع بينهما فجعل الرواية الأقوىٰ هي الأصل، ثم أعقبها بالرواية الأتم منها لكان محققًا للغايتين؛ إذ يعلم الناس أن الرواية المختصرة هي الأقوىٰ، والثانية هي الأتم.

وسياقه للرواية التامة للقصة يريحه أثناء إضافته للزيادات الصحيحة عليها من الروايات الأخرىٰ؛ إذ في الغالب أن الزيادات تكون قليلة لتمام الرواية التي ساقها، وهذا يكون أشدَّ بناء للقصة، وأَنْظَمَ لسياقها، وأقل تشويشًا علىٰ السامع فينسجم مع القصة النبوية.



العقيدة

٢٠٣- حقوق النبي ﷺ علينا (١) وجوب محبته

١٣/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ هَدَانَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِبَعْثَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَشْكُرُهُ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَمِلْءَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَنْصَحُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَأَتْقَاهُمْ للَّهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ، الأَنْصَارِ مِنْهُمْ وَالمُهَاجِرِينَ، وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاسْتَمْسِكُوا بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ رَاجِعُونَ، وَعَلَىٰ أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ الحِسَابِ، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ المِيزَانِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَفْضَلَ رُسُلِهِ، وَاخْتَارَ لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الحَمْدِ وَالثَّنَاءِ، فَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا، فَهُوَ ﷺ مَحْمُودٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مَحْمُودٌ عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ، مَحْمُودٌ عِنْدَ إِخْوَانِهِ المُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَحْمُودٌ عِنْدَ أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، وَإِنْ كَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ

كُلِّ ذِي عَقلٍ وَإِنْ كَابَرَ وَجَحَدَ؛ فَصَدَقَ عَلَيْهِ وَصْفُهُ نَفْسَهُ حِينَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ، تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ**» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ(١).

أَغَاثَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ البَشَرِيَّةَ المُتَخَبِّطَةَ فِي ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالجَهْلِ وَالخُرَافَةِ، فَكَشَفَ بِهِ الظُّلْمَةَ، وَأَذْهَبَ الغُمَّةَ، وَأَصْلَحَ الأُمَّةَ، فَهُوَ الإِمَامُ المُطْلَقُ فِي الهُدَىٰ لِأَوَّلِ بَنِي آدَمَ وَآخِرِهِمْ.

هَدَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الجَهَالَةِ، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الغَوَايَةِ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَكَثَّرَ بِهِ بَعْدَ القِلَّةِ، وَأَعَزَّ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَأَغْنَىٰ بِهِ بَعْدَ العَيْلَةِ. عَرَّفَ النَّاسَ رَبَّهُمْ وَمَعْبُودَهُمْ غَايَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَنَالَهُ قُوَاهُمْ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ لِأُمَّتِهِ حَاجَةً فِي هَذَا التَّعْرِيفِ، لَا إِلَىٰ مَنْ قَبْلَهُ، وَلَا إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُ، بَلْ كَفَاهُمْ وَشَفَاهُمْ، وَأَغْنَاهُمْ عَنْ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا البَابِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وَعَرَّفَهُمُ الطَّرِيقَ المُوصِلَةَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانِهِ، وَدَارِ كَرَامَتِهِ، وَلَمْ يَدَعْ ﷺ حَسَنًا إِلَّا أَمَرَ بِهِ، وَلَا قَبِيحًا إِلَّا نَهَىٰ عَنْهُ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أبو يعلىٰ (٧٤٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٩٣)، والضياء في المختارة (٤٢٨)، وصححه ابن حبان (٦٤٧٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ١٠٠-١٠١)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٤)، وله شواهد منها:

أ- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: مسلم (٢٢٧٨).

ب- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨).

ج- حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: أبي يعلىٰ (٢٣٢٨).

(٢) بتصرف يسير من حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، إصدار: المنتدىٰ الإسلامي (٦١-٦٢).

وَعَرَّفَهُمْ حَالَهُمْ بَعْدَ القُدُومِ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَتَّم تَعْرِيفٍ؛ فَكَشَفَ الأَمْرَ وَأَوْضَحَهُ، وَلَمْ يَدَعْ بَابًا مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ لِلْعِبَادِ المُقَرِّبِ لَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا فَتَحَهُ، وَلَا مُشْكِلًا إِلَّا بَيَّنَهُ وَشَرَحَهُ، حَتَّىٰ هَدَىٰ بِهِ القُلُوبَ مِنْ ضَلَالِهَا، وَشَفَاهَا بِهِ مِنْ أَسْقَامِهَا، وَأَغَاثَهَا بِهِ مِنْ جَهْلِهَا، فَأَيُّ بَشَرٍ أَحَقُّ بِأَنْ يُحَبَّ؟ جَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنْ أُمَّتِهِ أَجْمَعِينَ أَفْضَلَ الجَزَاءِ(٣).

مَحَبَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ إِذْ هِيَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ تَعَالَىٰ وَهُوَ لَا يُحِبُّ خَلِيلَهُ وَصَفِيَّهُ مِنَ العَالَمِينَ: مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَأَكْبَرِ أُصُولِهِ، وَأَجَلِّ قَوَاعِدِهِ، بَلْ هِيَ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ، كَمَا أَنَّ التَّصْدِيقَ أَصْلُ كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ(٤).

دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فَالآيَةُ نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ يَجِبُ أَنْ تُقَدَّمَ عَلَىٰ كُلِّ مَحْبُوبٍ مَهْمَا كَانَ(٥).

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَفَىٰ بِهَذَا حَضًّا وَتَنْبِيهًا، وَدَلَالَةً وَحُجَّةً عَلَىٰ إِلْزَامِ مَحَبَّتِهِ، وَوُجُوبِ فَرْضِهَا، وَعِظَمِ خَطَرِهَا، وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا ﷺ؛

(٣) المصدر السابق (٦٢).
(٤) ينظر: التحفة العراقية لشيخ الإسلام (٥٩)، ومجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٨-٤٩).
(٥) ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ٩٥)، وحقوق النبي ﷺ علىٰ أمته في ضوء الكتاب والسنة للدكتور: محمد بن خليفه التميمي (٢٤٦).

إِذْ قَرَّعَ اللهُ مَنْ كَانَ مَالُهُ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثُمَّ فَسَّقَهُمْ بِتَمَامِ الآيَةِ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ مِمَّنْ ضَلَّ وَلَمْ يَهْدِهِ اللهُ تَعَالَىٰ»(٦).

وَهَذِهِ المَحَبَّةُ العَظِيمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَازِمُهَا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَهْمَا كَانَ قُرْبُهُ مِنْهُ وَمَحَبَّتُهُ لَهُ، بَلْ هُوَ ﷺ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا أَعْظَمَ المَحَبَّةِ، وَيُقَدِّمُهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾**»(٧).

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ**»(٨).

إِنَّ المَحَبَّةَ الكَامِلَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي يَنْجُو بِهَا العَبْدُ مِنَ العَذَابِ، وَيَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا النَّعِيمَ؛ يَجِبُ أَنْ تَتَجَاوَزَ مَحَبَّةَ المُؤْمِنِ لِنَفْسِهِ، وَتَتَخَطَّىٰ مَحَبَّتَهُ لِوَالِدَيْهِ وَأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ.

فَفِي شَأْنِ تَقْدِيمِ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَىٰ مَحَبَّةِ الأُمِّ وَالأَبِ، وَالزَّوْجَةِ وَالوَلَدِ، وَكُلِّ

---

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (٢/ ٥٦٣)

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] (٤٥٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، والبيهقي (٦/ ٢٣٨).

(٨) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أرزاق الذرية (٢٩٥٦)، والنسائي في الجنائز، باب الصلاة علىٰ من عليه دين (٤/ ٦٥)، وأحمد (٣/ ٢٩٦)، وعبد بن حميد (١٠٨)، وأبو يعلىٰ (٢١١١).
وجاء نحوه عن أبي هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم والمقدام الكندي رضي الله عنهم.

مَحْبُوبٍ سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ: حَدِيثُ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٩).

وَفِي شَأْنِ تَقْدِيمِ مَحَبَّتِهِ عَلَىٰ مَحَبَّةِ النَّفْسِ: رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ هِشَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **الآنَ يَا عُمَرُ**»(١٠) أَيِ: الآنَ عَرَفْتَ فَنَطَقْتَ بِمَا يَجِبُ(١١).

وَإِذَا حَقَّقَ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ المَحَبَّةَ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتَوْلَتْ مَحَبَّتُهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ فَقَدَّمَهُ عَلَىٰ كُلِّ مَحْبُوبٍ؛ قَطَفَ ثَمَرَةَ ذَلِكَ بِحَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَأُنْسٍ كَبِيرٍ يَجْتَاحُ نَفْسَهُ، لَا يَنَالُهُ بِجَاهٍ، وَلَا يَشْتَرِيهِ بِمَالٍ، وَلَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ العَبْدُ إِلَّا بِاسْتِيلَاءِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ**

(٩) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين (٤٤)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٧٤٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان (٦٧)، والدارمي (٢٧٤١)، وأحمد (٣/ ١٧٧)، وأبو يعلىٰ (٣٠٤٩).

(١٠) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧)، وأحمد (٤/ ٢٣٣)، والبزار (٣٤٥٩)، ووهم الحاكم فاستدركه (٣/ ٥١٦).

(١١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٢٨).

إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَبِهَذِهِ المَحَبَّةِ الخَالِصَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ يَنَالُ العَبْدُ شَفَاعَتَهُ، وَيُحْشَرُ فِي زُمْرَتِهِ، وَيُرَافِقُهُ فِي الجَنَّةِ؛ كَمَا رَوَىٰ أَنَسٌ رضي الله عنه فَقَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: **وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟** قَالَ: حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: **فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»، قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١٣).

وَلَا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أَنَّ هَذِهِ المَحَبَّةَ لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، أَوْ أَهْلُ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، فَيَيْأَسُ مِنْ تَحْقِيقِهَا، وَيُقَصِّرُ فِي تَحْصِيلِهَا؛ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي أَهْلِ الصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنَ الإِسْلَامِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ أَفْرَادًا مِنْ مُتَأَخِّرِي هَذِهِ الأُمَّةِ يُحَقِّقُونَهَا، وَيُقَدِّمُونَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَىٰ كُلِّ مَحَبَّةٍ، وَوَدُّوا لَوْ فَدَوُا النَّبِيَّ ﷺ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رُؤْيَتَهُ بِأَهْلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ أَعْطَىٰ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَنَّهُ رَآنِي**»(١٤).

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(١٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك (٥٨١٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩) واللفظ لمسلم.

(١٤) أخرجه مسلم واللفظ له، في الجنة ونعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله =

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَنْ يَمْلَأَ قُلُوبَنَا مَحَبَّةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ قُرْبَةٌ وَعِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا المُؤْمِنُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالعِبَادَةُ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَيُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا مِنَ العَبْدِ هِيَ مَا ابْتُغِيَ بِهِ

= وماله (٢٨٣٢)، وأحمد (٢/ ٤١٧)، وابن حبان (٧٢٣١)، ووهم الحاكم فاستدركه (٤/ ٩٥). والرواية الثانية لأحمد من حديث أبي ذر ﷺ (٥/ ١٥٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٨٤٣).

قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٩): «يعني: يتمنىٰ أحدهم أن يكون مفديا بأهله لو اتفقت رؤيتهم إياه، ووصولهم إليه»، ثم نقل عن الطيبي قوله: «(لو) هنا كما في قوله تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لا بد لقوله: (يود) من مفعول، فـ(لو) مع ما بعده نزل منزلته، كأنه قيل: يود أحدهم ويحب ما لا يلزم، قوله: لو رآني بأهله؛ أي: يفديني بأهله وماله ليراني» اهـ

وَجْهُهُ ﷻ، وَكَانَتْ عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي شَرَعَهَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ؛ فَعِمَادُهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ.

فَأَمَّا الإِخْلَاصُ فِي الأَعْمَالِ، وَابْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ بِهَا فَهُوَ مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ ﷻ(١٥).

وَأَمَّا مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَهِيَ مُقْتَضَىٰ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِهَا؛ إِذْ مَعْنَىٰ الشَّهَادَةِ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا: «طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَّا بِمَا شَرَعَ ﷺ»(١٦). فَمَنْ حَقَّقَ ذَلِكَ فَقَدْ حَقَّقَ كَمَالَ المَحَبَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَمَالَ تَعْظِيمِهِ، وَغَايَةَ تَوْقِيرِهِ. وَأَيُّ تَعْظِيمٍ أَوْ تَوْقِيرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَدَىٰ مَنْ شَكَّ فِي خَبَرِهِ، أَوِ اسْتَنْكَفَ عَنْ طَاعَتِهِ، أَوِ ارْتَكَبَ مُخَالَفَتَهُ، أَوِ ابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، وَعَبَدَ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهِ؟!

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ ضَلُّوا فِي هَذَا البَابِ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْ حُبِّهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنَ الِاحْتِفَالِ بِالمُنَاسَبَاتِ النَّبَوِيَّةِ: المَوْلِدِ، وَالإِسْرَاءِ، وَالهِجْرَةِ، وَنَحْوِهَا، وَجَعْلِ الأَيَّامِ المُوَافِقَةِ لَهَا مِنْ كُلِّ عَامٍ مَوْسِمًا وَعِيدًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِتَذَاكُرِ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتِلَاوَةِ سِيرَتِهِ، وَإِلْقَاءِ القَصَائِدِ فِي مَدِيحِهِ وَإِطْرَائِهِ، عَلَىٰ نَحْوٍ يُخَالِفُ سُنَّتَهُ الَّتِي جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**

---

(١٥) حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال (٦٩).

(١٦) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/ ١٩٠).

فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١٧).

وَقَدْ أَمَرَنَا ﷺ بِلُزُومِ سُنَّتِهِ، وَاتِّخَاذِ طَرِيقَتِهِ وَطَرِيقَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْصَانَا بِذَلِكَ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَلَا يَشُكُّ كُلُّ مُطَّلِعٍ عَلَىٰ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَارِئٍ لِسِيرَتِهِ، وَسِيرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ .. لَا يَشُكُّ فِي أَنَّ هَذِهِ الاِحْتِفَالَاتِ بِمَوْلِدِهِ أَوْ إِسْرَائِهِ أَوْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ مُحْدَثَةٌ بَعْدَ زَمَنِهِ وَزَمَنِ خُلَفَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ، وَفِيهَا مِنَ المُخَالَفَةِ لِسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ مَا فِيهَا، وَإِنْ رَأَىٰ أَصْحَابُهَا خِلَافَ ذَلِكَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَوْ هَوًىٰ، وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ حَقِيقَةً فَإِنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ فِي تَعْبِيرِهِمْ عَنْ هَذِهِ المَحَبَّةِ، وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ ﷺ، وَاجْتِنَابُ مَا أَحْدَثَهُ النَّاسُ عَنْ جَهْلٍ أَوْ هَوًىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ . . .

---

(١٧) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٢٦١)، والدارمي (٢٧٨٤)، وأحمد (١/ ٢٣)، وأبو يعلى (١٥٣)، وابن حبان (٤١٤)، والطيالسي (٢٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١٨) أخرجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: أبو داود في السنة باب لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم باب (١٦)، وقال: حسن صحيح (٢٦٧٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٣)، والدارمي (٩٥)، وأحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧).

٢٠٤- حقوق النبي ﷺ علينا (٢) وجوب نصرته

٢٧/ ١٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ أَفْضَلَ كُتُبِهِ، وَشَرَّعَ لَنَا خَيْرَ الشَّرَائِعِ، وَكَلَّفَنَا بِأَيْسَرِ التَّكَالِيفِ؛ فَضْلًا مِنْهُ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الْحَجِّ: ٧٥-٧٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، فَفَتَحَ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَأَحَبُّوهُ وَعَظَّمُوهُ، وَبَذَلُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ نَفْسٍ وَنَفِيسٍ فِدَاءً لَهُ وَلِدِينِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَاتَّقُوهُ يَدْرَأْ عَنْكُمْ تَسَلُّطَ أَعْدَائِكُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ عَلَىٰ الْبَشَرِ عَظِيمٌ، وَحَقُّهُمْ عَلَيْهِم كَبِيرٌ، إِذْ هُمُ الْمِنَّةُ الْكُبْرَىٰ، وَالْهِدَايَةُ الْعُظْمَىٰ الَّتِي بِهَا عَرَفُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَاسْتَبَانُوا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، وَكُلُّ سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ كُتِبَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ فَهُمْ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهَا. دَعَوْا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ سِرًّا وَجِهَارًا، وَنَصَحُوا لِلْعِبَادِ لَيْلًا وَنَهَارًا. بَشَّرُوا، وَأَنْذَرُوا، وَرَغَّبُوا

وَرَهَّبُوا، وَصَبَرُوا عَلَىٰ اسْتِكْبَارِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَصُدُودِ الْمُمْتَنِعِينَ، وَاسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَأَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. مَا وَطِئَ الْأَرْضَ أَقْدَامٌ خَيْرٌ مِنْ أَقْدَامِهِمْ، وَلَا كَانَ فِي الْخَلْقِ أَحَدٌ أَنْصَحَ لِلْبَشَرِ مِنْهُمْ، هُمُ الرَّحْمَةُ الَّتِي رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا الْعِبَادَ فَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَىٰ الْعِزِّ، وَمِنَ الشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فَكَانَ حَقًّا عَلَىٰ الْبَشَرِ مَحَبَّتُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاتِّبَاعُهُمْ وَتَوْقِيرُهُمْ وَنُصْرَتُهُمْ، وَالِاعْتِرَافُ بِفَضْلِهِمْ، وَحِفْظُ مَكَانَتِهِمْ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، فَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْأَطْهَارُ، الْمُصْطَفَوْنَ الْأَخْيَارُ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِهِمْ. وَالْكُفْرُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ كُفْرٌ بِهِمْ كُلِّهِمْ، لِأَنَّ مُرْسِلَهُمْ وَاحِدٌ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَدِينَهُمْ كَذَلِكَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَأَتْبَاعُهُمْ لَيْسُوا مَنِ انْتَسَبُوا إِلَيْهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ بِبَعْضِ مَا جَاءُوا بِهِ، كَمَا كَفَرَ الْيَهُودُ بِبَعْضِ دِينِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَكَمَا كَفَرَ النَّصَارَىٰ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ عليه السلام، وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ عز وجل بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَسَمَّاهُمْ كُفَّارًا رَغْمَ أَنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ لِمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عليهما السلام، فَقَالَ فِيهِمْ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وَلَكِنَّ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ هُمْ مَنْ آمَنُوا بِهِمْ، وَدَانُوا بِدِينِهِمْ، وَعَمِلُوا بِشَرَائِعِهِمْ، وَلَمْ

يَنْتَقُوا مَا يَهْوَوْنَ، أَوْ يُنْكِرُوا مَا لَا يَشْتَهُونَ، بَلْ قَالُوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٥]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٤] فَأَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِإِيمَانِهِمْ، وَبِاتِّبَاعِهِمْ لِرُسُلِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٥٢].

وَلَا يُوجَدُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِنُبُوَّتِهِمْ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ أُمَمِ الْأَرْضِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ فَكُفَّارٌ بِكُلِّ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَلَوْ كَانُوا هُمْ أَهْلَ الْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقُوَّةَ لَا تَدُلَّانِ عَلَىٰ الْحَقِّ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الْأَنْعَام: ١١٦].

وَكَانَ أَكْثَرُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ضُعَفَاءَ النَّاسِ وَمَسَاكِينَهُمْ، كَمَا قَالَ هِرَقْلُ الرُّومِ فِي أَسْئِلَتِهِ لِأَبِي سُفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ...، قَالَ هِرَقْلُ: وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ»[1]، فَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَوْلَىٰ بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ كُلِّ أُمَمِ الْأَرْضِ الَّتِي تُكَذِّبُهُمْ وَتَكْفُرُ بِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ.

وَإِذَا انْتُهِكَ عِرْضُ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ سَخِرَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِهِ وَجَبَ عَلَىٰ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ -وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ- أَنْ يَنْتَصِرُوا لَهُ، وَأَنْ يَذُبُّوا عَنْ عِرْضِهِ، وَأَنْ يَدْفَعُوا قَالَةَ السُّوءِ فِيهِ، وَأَنْ يُعَاقِبُوا الْمُعْتَدِيَ أَشَدَّ الْعِقَابِ؛ لِأَنَّ

(١) أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ (٧).

ذَلِكَ مِنْ مُحَتِّمَاتِ إِيمَانِهِمْ، وَوَاجِبَاتِ دِينِهِمْ، وَلَا يُرْتَجَىٰ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَنْتَصِرَ لِرُسُلِ اللَّهِ ﷺ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ وَالطَّعْنُ قَدْ طَالَتْ أَفْضَلَ الْبَشَرِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدًا ﷺ، عَلَىٰ يَدِ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ فِي رُسُومٍ سَاخِرَةٍ، وَمَقَالَاتٍ كَاذِبَةٍ مُتَنَقِّصَةٍ، تَفْتَرِي عَلَىٰ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَتَطْعَنُ فِي أَفْضَلِ الرُّسُلِ(٢)، وَلَهُ عَلَيْنَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ مَا لَا نُحْصِيهِ، فَمَا عَسَانَا أَنْ نَفْعَلَ

---

(٢) هذا إشارة لما فعلته صحيفة (بيو لاندز بوستن) الدانماركية؛ إذ أراد مؤلف كتب أطفال دانماركي أن يضع على غلاف كتابه صورة للرسول ﷺ، ورفض رسام الكاريكاتير المكلف بإعداد الغلاف رسم هذه الصورة، فقرر المؤلف إقامة مسابقة لرسم الرسول ﷺ، فتقدم لها (١٢) رسامًا كاريكاتيريًا أرسلوا (١٢) صورة مسيئة للرسول ﷺ، ومن ثم قامت الصحيفة المذكورة آنفًا -وهي تابعة للحزب الحاكم- بنشرها يوم الثلاثاء ٢٦ شعبان ١٤٢٦هـ/ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥، وحاول المسلمون في الدانمارك والبالغ عددهم (٢٠٠) ألف الاحتجاج على هذه الإساءة، وذلك عن طريق رفع مذكرة إلى الحكومة الدانماركية، إلا أن الجواب كان هو الرفض، وإصرار الحكومة على دعم حملة الهجوم تحت مسمى (حرية التعبير)، بل كان الموقف الحكومي الدانماركي أكثر شراسة برفض المدعي العام تلبية طلب الجالية الإسلامية برفع دعوى قضائية ضد الصحيفة بتهمة انتهاك مشاعر أكثر من مليار مسلم في العالم، وقال المدعي العام الدانماركي: إن القانون الذي يستخدم لتوجيه تهم بسبب انتهاك حرمة الأديان لا يمكن استخدامه ضد الصحيفة، والعداء للإسلام والمسلمين في الدانمرك بدأ يعلن به ويظهر؛ وذلك بتعبئة الناس ضد الإسلام على كافة المستويات بدءًا بتصريح ملكة الدانمرك (مارجريت الثانية) الذي قالت فيه: (إن الإسلام يمثل تهديدًا على المستويين العالمي والمحلي)، وحثت حكومتها على (عدم إظهار التسامح تجاه الأقلية المسلمة)، ومرورًا بمواقع الإنترنت التي يطلقها دانماركيون أفرادًا ومؤسسات خاصة، تحذر من السائقين المسلمين، بدعوى أنهم: إرهابيون وقتلة، وانتهاء بالحملة العامة في الصحف ومحطة التلفاز العامة التي أعلنت الحرب ضد الإسلام والمسلمين رغم ثقل المسلمين هناك؛ إذ الإسلام هو الديانة الثانية في الدانمارك بعد النصرانية البروتستانتية.

وانتقلت عدوى الاستهزاء بالنبي ﷺ إلى النرويج؛ إذ انبرت مجلة نرويجية هذه المرة لإعادة نفس الإساءة، بدعوى ما أسمته حرية التعبير.

إذ اختارت المجلة المسيحية «ماغازينت» إعادة نشر الرسوم الآنف ذكرها المزعومة =

وَنَحْنُ نَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٧] فَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ بِالنُّصْرَةِ فَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ فَلَيْسَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ. وَإِذَا كَانَتْ نُصْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبَةً بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الْأَنْفَال: ٧٢]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فَكَيْفَ بِنُصْرَةِ أَفْضَلِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِي هَدَانَا اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجَنَا بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ؟!

وَهَكَذَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ، فَدَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَجْسَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ حَيًّا، وَذَبُّوا عَنْ عِرْضِهِ مَيِّتًا، وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ غَزِيرَةٌ.

هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يَنَامُ لَيْلَةَ الْهِجْرَةِ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَآمَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ قَتْلِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَيُخَاطِرُ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِنَفْسِهِ دُونَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٣).

وَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ انْبَرَىٰ فَتَيَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ لِلِانْتِقَامِ مِنْ أَبِي جَهْلٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُؤْذِيهِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه: «يَا عَمِّ

= للنبي محمد عليه الصلاة والسلام في أول أيام عيد الأضحى المبارك، في توقيت مقصود لإهانة المسلمين في أكبر أعيادهم الشرعية.

ووجدت هذه المجلة النصرانية كامل الدعم والتأييد من أمين عام رابطة الصحفيين النرويجيين (بيرادغار كوكفولد) الذي رأى أن إعادة نشر الرسومات يعد مؤشرًا صحيًّا على مبدأ حرية التعبير في البلاد، ويرفع من سقف الحريات العامة.

ورأت شريحة من مسلمي النرويج أن تصرف المجلة ينطوي على محاولة للحصول على السمعة والشهرة، كما أكد رئيس العلاقات الخارجية بالرابطة الإسلامية في النرويج (باسم غزلان) أن هدف الصحيفة هو الشهرة؛ لأنها غير معروفة وتوزع أعدادًا ضئيلة جدًّا في العاصمة (أوسلو) وتفتقر إلى القراء والمشتركين.

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨)، والمنتظم (٣/ ٤٧)، والبداية والنهاية (٣/ ١٧٧).

هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ . . . فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَىٰ أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي. فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّىٰ قَتَلَاهُ»(٤).

وَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لَمَّا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ انْحَنَىٰ أَبُو دُجَانَةَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ مِنْ ظَهْرِهِ تُرْسًا يَحْمِي بِهِ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ نِبَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ امْتَلَأَ ظَهْرُهُ سِهَامًا(٥)! لَا مَسَّتِ النَّارُ ظَهْرَهُ.

وَهَذَا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ رضي الله عنه أَسَرَهُ الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْحَرَمِ لِقَتْلِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قُدِّمَ لِيُقْتَلَ: «أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ عِنْدَنَا مَكَانَكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ وَإِنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَإِنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا»(٦).

وَرَجُلٌ أَعْمَىٰ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَنْتَصِرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَيَقْتُلُ أُمَّ أَوْلَادِهِ بِسَبَبِ وُقُوعِهَا فِيهِ، وَشَتْمِهَا لَهُ، كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ أَعْمَىٰ كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا

---

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلا فله سلبه من غير أن يخمس، وحكم الإمام فيه (٣١٤١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

(٥) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣/ ١١٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٤).

(٦) أخرجه ابن هشام في السيرة (٤/ ١٢٦)، والطبري في تاريخه (٢/ ٧٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٩٩٩)، وهو في البداية والنهاية (٤/ ٦٥).

كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعلَتْ تَقعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ، فَلَطَخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: **أَنْشُدُ اللهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ**. فَقَامَ الْأَعْمَىٰ يَتَخَطَّىٰ النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّىٰ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَتِ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ قَتَلْتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

وَإِذَا تَجَاوَزْنَا عَصْرَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَإِنَّنَا نَجِدُ الْمُسْلِمِينَ قَدِ انْتَصَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ عَبْرَ الْقُرُونِ، وَدَرَأُوا عَنْهُ أَذَىٰ الْمُؤْذِينَ، وَطَعْنَ الطَّاعِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ، وَالْحَوَادِثُ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ.

وَفِي الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ أَسَرَ المَلِكُ الصَّلِيبِيُّ أَرْنَاط جَمْعًا مِنَ الْحُجَّاجِ وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَآذَاهُمْ وَسَلَبَهُمْ وَتَنَقَّصَ الرَّسُولَ ﷺ، وَقَدَّمَهُمْ لِلْقَتْلِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ مُحَمَّدُكُمْ؟ دَعُوهُ يَنْصُرْكُمْ! فَبَلَغَ ذَلِكَ صَلاحَ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَىٰ- فَغَضِبَ لِذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ لَيَقْتُلَنَّ المَلِكَ أَرْنَاط بِيَدِهِ لِتَنَقُّصِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلِغَدْرِهِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ الْأَسْبَابَ لِلْبِرِّ بِقَسَمِهِ، فَكَانَ هَذَا المَلِكُ الْمُسْتَكْبِرُ مِنْ ضِمْنِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ أَسَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ

(٧) أخرجه أبو داود في الحدود، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ (٤٣٦١)، والنسائي في تحريم الدم، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ (٧/ ١٠٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٥١) رقم (١١٩٨٤)، والدارقطني (٣٩/ ١١٢)، والبيهقي (١٠/ ١٣١)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٤/ ٣٩٤).

فِي مَوْقِعَةِ حِطِّينَ، فَأَمَّنَ صَلَاحُ الدِّينِ سَائِرَ الْمُلُوكِ سِوَاهُ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ أَرْنَاط حَتَّىٰ أَقَامُوهُ أَمَامَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَدَعَاهُ لِلْإِسْلَامِ فَامْتَنَعَ، فَذَكَّرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِشَتْمِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَا أَنَا أَنْتَصِرُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْكَ، فَقَتَلَهُ(٨).

وَفِي عَصْرِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- وَقَعَ نَصْرَانِيٌّ يُدْعَىٰ عَسَّافًا فِي عِرْضِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَتَمَهُ، فَأَرَادَ النَّاسُ الِانْتِصَارَ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَجَارَ عَسَّافٌ هَذَا بِأَحَدِ شُيُوخِ الْأَعْرَابِ، فَأَجَارَهُ وَحَمَاهُ مِنَ النَّاسِ، فَسَارَ الشَّيْخَانِ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَزَيْنُ الدِّينِ الْفَارِقِيُّ إِلَىٰ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ أَيْبَكَ الْحَمَوِيِّ نَائِبِ السَّلْطَنَةِ فَكَلَّمَاهُ فِي أَمْرِهِ، فَأَرْسَلَ لِيُحْضِرَهُ، فَخَرَجَ الشَّيْخَانِ مِنْ عِنْدِهِ وَمَعَهُمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَرَأَوْا عَسَّافًا حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي أَجَارَهُ، فَلَمْ يُطِيقُوا أَنْ يَرَوْا شَاتِمَ نَبِيِّهِمْ ﷺ فَسَبُّوهُ وَشَتَمُوهُ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ، يَعْنِي: النَّصْرَانِيَّ، فَرَجَمَهُمَا النَّاسُ بِالْحِجَارَةِ، فَأَصَابَتْ عَسَّافًا إِصَابَةً بَالِغَةً، فَأَرْسَلَ الْأَمِيرُ إِلَىٰ الشَّيْخَيْنِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَالْفَارِقِيِّ فَضَرَبَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَجَنَهُمَا، وَأَحْضَرَ النَّصْرَانِيَّ فَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَزَعَمَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّهُودِ عَدَاوَةً فَحَقَنَ دَمَهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَهَرَبَ النَّصْرَانِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الشَّامِ إِلَىٰ الْحِجَازِ، فَلَحِقَ بِهِ ابْنُ خِيهِ وَقَتَلَهُ قَرِيبًا مِنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِسَبَبِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ صَنَّفَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ: «الصَّارِمُ الْمَسْلُولُ عَلَىٰ شَاتِمِ الرَّسُولِ»(٩)، وَقَرَّرَ فِيهِ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ قَتْلِ مَنْ تَنَقَّصَ الرَّسُولَ ﷺ(١٠).

---

(٨) انظر خبر ذلك في: الروضتين في أخبار الدولتين (٣/ ٢٩٧)، والأنس الجليل (١/ ٣٢٢)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٤).

(٩) انظر خبر ذلك في: البداية والنهاية (١٣/ ٣٣٥-٣٣٦)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٧٣)

(١٠) قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٩-١٠): «من سب النبي ﷺ من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله. هذا مذهب عليه عامة أهل العلم، قال ابن المنذر: «أجمع عوام أهل =

. . . .

= العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل» وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي، قال: «وحكي عن النعمان: لا يقتل» يعني الذي هم عليه من الشرك أعظم، وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من يسب النبي ﷺ القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد، وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين، أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي ﷺ يجب قتله إذا كان مسلمًا، وكذلك قيده القاضي عياض فقال: «أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه»، وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: «أجمع المسلمون على أن من سب الله أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا مما أنزل الله ﷻ، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله ﷺ أنه كافر بذلك، وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله»، قال الخطابي: «لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله»، وقال محمد بن سحنون: «أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر».

وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلما فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد تقدم ممن حكى الإجماع على ذلك إسحاق بن راهويه وغيره. وإن كان ذميا فإنه يقتل أيضا في مذهب مالك وأهل المدينة، وسيأتي حكاية ألفاظهم، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث. وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة قال حنبل: «سمعت أبا عبد الله يقول: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلمًا كان أو كافرًا فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب»، قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: «كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثا مثل هذا رأيت عليه القتل ليس على هذا أعطوا العهد والذمة»، وكذلك قال أبو الصفراء: «سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ماذا عليه؟ قال: إذا قامت عليه البينة يقتل من شتم النبي ﷺ مسلمًا كان أو كافرًا» رواهما الخلال.

وقال القاضي عياض: «جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له والإزراء عليه أو البغض منه والعيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب: يقتل ولا نستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد، ولا تمتر فيه تصريحًا كان أو تلويحًا، وكذلك من لعنه أو تمنى مضرة له أو دعا عليه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق =

وَنُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَوْلُهُ: «مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ تَنَقَّصَهُ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ»(١١).

ثُمَّ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَمَّا سَبُّ الرَّسُولِ وَالطَّعْنُ فِي الدِّينِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهُوَ مِمَّا يَضُرُّ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرًا يَفُوقُ ضَرَرَ قَتْلِ النَّفْسِ وَأَخْذِ الْمَالِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّهُ لَا أَبْلَغَ فِي إِسْفَالِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِذْلَالِ كِتَابِ اللَّهِ، وَإِهَانَةِ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُظْهِرَ الْكَافِرُ الْمُعَاهَدُ السَّبَّ وَالشَّتْمَ لِمَنْ جَاءَ بِالْكِتَابِ»(١٢).

هَكَذَا كَانَ حَالُ أَسْلَافِنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ نُصْرَةً لَهُ وَدِفَاعًا عَنْهُ، وَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ سَارُوا سِيرَةَ أَسْلَافِهِمْ؛ فَانْتَفَضُوا لَمَّا تَنَقَّصَ بَعْضُ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَظَهَرَ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِوَسَائِلَ شَتَّىٰ مِنَ الِاعْتِرَاضِ وَالِاسْتِنْكَارِ، وَاسْتِدْعَاءِ السُّفَرَاءِ، وَتَخْصِيصِ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ لِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ مُقَاطَعَةِ بَضَائِعِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْمُلْحِدَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُثِيبَ كُلَّ مَنْ غَضِبَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ لَمَّا انْتُهِكَتْ حُرْمَةُ

= الذم أو عيبه في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور، أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه قال: هذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه، وهلم جرا» الشفاء (٢/ ١٨٨)، وعنه ابن تيمية في الصارم المسلول (٥٢٦).

وقال شيخ الإسلام: «وقد أجمع العلماء كما حكاه من يرجع إليه على أن كل مسلم صدر منه سب الرسول أو تنقيصه وجب قتله ويحكم بكفره وردته عن دين الإسلام، على ذلك دلت نصوص من السنة والكتاب وحكم جماعة من المتقدمين من: أنه يقتل من غير استتابة كما نص العلماء أيضًا أن التعريض بسبه أو تنقيصه كالصريح» الرد على البكري (٢/ ٦٨٣)

(١١) أخرجه الخلال في أحكام أهل الملل (٧٢٤).

(١٢) الصارم المسلول (٢٤٩).

رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَحْشُرَهُمْ فِي زُمْرَتِهِ، وَأَنْ يُورِدَهُمْ حَوْضَهُ، وَأَنْ يَسْقِيَهُمْ مِنْهُ شَرْبَةً لَا ظَمَأَ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ مَعَهُ. آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

كَمَا أَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَنْتَقِمَ مِمَّنْ تَنَقَّصَ خَاتَمَ رُسُلِهِ، أَوْ أَعَانَ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَوْ رَضِيَهُ، أَوْ دَافَعَ عَمَّنْ فَعَلَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ خَلْفَهُمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

رَضِينَا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَنُشْهِدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله (٢٨٣٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: حُقُوقُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْنَا عَظِيمَةٌ، وَمَهْمَا عَمِلْنَا لِنُصْرَتِهِ فَإِنَّنَا لَا نُوَفِّيهِ حَقَّهُ، وَلَنْ نَرُدَّ بِذَلِكَ إِلَّا بَعْضَ مَا لَهُ عَلَيْنَا، فَهُوَ الَّذِي بِهِ عَرَفْنَا رَبَّنَا، وَتَعَلَّمْنَا أُمُورَ دِينِنَا، وَمَا مِنْ خَيْرٍ نَفْعَلُهُ إِلَّا وَهُوَ مَنْ دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا مِنْ شَرٍّ نَحْذَرُهُ إِلَّا وَهُوَ مَنْ حَذَّرَنَا مِنْهُ، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ الْجَنَّةَ وَأَنْجَاهُ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَنُجِّيَ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِ ﷺ. فَهَلْ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ يَجْزِيهِ جَزَاءَهُ، أَوْ يَفِيهِ حَقَّهُ مَهْمَا قَدَّمَ لِأَجْلِهِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟** وَيَقُولُونَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»(١٤).

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٥).

فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَلْنَعْلَمْ أَنَّنَا مَهْمَا قَدَّمْنَا لِنُصْرَتِهِ مِنْ مَقَالَةٍ نَكْتُبُهَا، أَوْ حَقِيقَةٍ نُبْرِزُهَا، أَوْ سِيرَةٍ نَتْلُوهَا أَوْ نُتَرْجِمُهَا،

---

(١٤) أخرجه من حديث عبدالله بن زيد ﷺ: البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف (٤٠٦٩)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (١٠٦١).

(١٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم في الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٤).

أَوْ دَعْوَىٰ نُبْطِلُهَا، أَوْ رِسَالَةٍ نُرْسِلُهَا، أَوْ بِضَاعَةٍ نُقَاطِعُهَا فَهِيَ أَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا نُصْرَةً لِنَبِيِّنَا ﷺ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ المَلَاحِدَةُ الَّذِينَ طَعَنُوا فِيهِ فَهُمْ فِي سُفُولٍ وَخُسْرَانٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا، فَمَا انْتَقَصَ أَحَدٌ رَسُولَهُ ﷺ ثُمَّ سَلِمَ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أَنَّ هَذَا الْحَدَثَ فَرْدِيٌّ أَوْ أَنَّهُ قَلَمُ عَابِثٍ، أَوْ فِعْلُ سَاخِرٍ؛ بَلْ -وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ- إِنَّهُ لَبَعْضُ الْبَغْضَاءِ الَّتِي بَدَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ.

إِنَّ الَّذِي أَغَاظَ الْأَعْدَاءَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَىٰ وَمَلَاحِدَةٍ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُقَدَّسٌ دِينِيٌّ لَا يَخْضَعُ لِلنَّقْدِ وَالْأَخْذِ وَالرَّدِّ عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فَعِنْدَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَوْقَ كُلِّ نَقْدٍ، وَلِذَا فَهُمْ يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ لِتَحْطِيمِ هَذَا الْمُقَدَّسِ وَرُمُوزِهِ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ إِفْسَادِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلْمَنَتِهِمْ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ عَائِقٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ صَرَّحَ بِهَا رَئِيسُ تَحْرِيرِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي أَسَاءَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ اسْتَغْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْحُرْمَةِ وَالْقُدْسِيَّةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَتَمَ قَوْلَهُ بِأَنَّهُ يَسْعَدُ لَوْ أَزَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ! وَسَيَبْقَىٰ لِعَدُوِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا يَسُوءُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَاللهُ تَعَالَىٰ حَافِظٌ دِينَهُ، مُعْلٍ كَلِمَتَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

وَقَدْ دَنَّسَ إِخْوَانُهُ مِنْ قَبْلُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَوَصَفُوا رَسُولَهُ ﷺ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، وَمِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْتَمِرَّ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ مِنَ الْهَجَمَاتِ عَلَىٰ مُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا سِيَّمَا إِذَا اخْتَبَرُوا رُدُودَ الْأَفْعَالِ فَرَأَوْهَا ضَعِيفَةً، وَلِذَا لَا بُدَّ مِنْ إِصْرَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ حِمَايَةِ مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَعَدَمِ السَّمَاحِ بِالْمَسَاسِ بِهَا مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ؛ لِيَرْتَدِعَ الْمَلَاحِدَةُ وَالْمُشْرِكُونَ؛ وَلِيَخْبُوَا صَوْتُ الْمُنَافِقِينَ وَالْجَاهِلِينَ

الَّذِينَ أَزْعَجُوا المُسْلِمِينَ بِكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِ، وَزَعَمُوا أَنَّنَا لَا نَفْهَمُهُ، وَنَدَّعِي عَدَاوَتَهُ، فَإِذَا هَذَا الْآخَرُ يَصْفَعُهُمْ بِهَذِهِ الطَّامَّةِ الْكُبْرَىٰ كَمَا صَفَعَهُمْ بِعَظَائِمَ قَبْلَهَا؛ فَلْتُكْسَرْ أَقْلَامُهُمْ، وَلْتَخْرَسْ أَلْسِنَتُهُمْ، وَلْيَعُودُوا إِلَىٰ إِيمَانِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ.

وَالْيَهُودُ قَدْ جَعَلُوا مِنَ المُحَرَّمَاتِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ المَسَاسُ بِهَا: مُعَادَاةَ السَّامِيَّةِ، أَوْ نَفْيَ المَحَارِقِ النَّازِيَّةِ، وَلَسْنَا بِأَقَلَّ مِنَ الْيَهُودِ، وَلَا ابْتِزَازُهُمْ لِلْعَالَمِ بِأَكْرَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَنَا.

إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ يُرِيدُونَ أَنْ يَصِيرَ حَالُ المُسْلِمِينَ حَالَ هَؤُلَاءِ المَلَاحِدَةِ فِي قَوَانِينِهِمْ وَأَنْظِمَتِهِمْ، يَطْعَنُونَ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَفِي مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ عليهم السلام فَلَا يُحَاكَمُونَ؛ لِأَنَّ الْقَانُونَ الطَّاغُوتِيَّ يَحْمِي حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ، فَهَلْ مَنْ يَدْعُونَ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ ذَلِكَ، أَمْ هُمْ جَاهِلُونَ لَا يَعْرِفُونَ لَوَازِمَ دَعَوَاتِهِمْ وَمَآلَاتِهَا؟

وَلْنَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الْكَلِمَةِ وَإِفْلَاتِهَا مِنَ القُيُودِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّمَا هُوَ يُعَبِّدُ الطَّرِيقَ لِلطَّاعِنِينَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَفِي كُلِّ مُعَظَّمٍ فِي نُفُوسِ المُسْلِمِينَ، مُقَدَّسٍ عِنْدَهُمْ، فَهُوَ الْعَدُوُّ الَّذِي يَجِبُ الْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ، وَالْأَخْذُ عَلَىٰ يَدِهِ؛ لِئَلَّا يُعْتَدَىٰ بِسَبَبِهِ عَلَىٰ رَبِّنَا وَدِينِنَا وَقُرْآنِنَا وَرَسُولِنَا ﷺ.

حَفِظَ اللهُ تَعَالَىٰ المُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ، وَكَفَاهُمْ شَرَّ أَعْدَائِهِمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ....

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ...



٢٠٥- حقوق النبي ﷺ علينا (٣) وجوب طاعته

٤/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ هِدَايَةً لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ، وَإِلَهٍ عَظِيمٍ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَبَ الْأَدِلَّةَ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَأَعْذَرَ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ عِبَادِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَاهِرَةُ فِي خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَمَدَّهُ بِجُنْدِهِ، وَأَظْهَرَهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَآوَوْهُ، وَفَدَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَالْجَئُوا إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَسِيرٍ، وَلُوذُوا بِهِ فِي كُلِّ عَظِيمٍ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِالْمُكَلَّفِينَ: أَنْ دَلَّهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَوْجَبَ عَلَىٰ الْعِبَادِ طَاعَتَهُمْ؛ فَهُمْ وَسَائِطُ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَيَتَلَقَّوْنَ وَحْيَهُ، وَيُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْأَلُونَ عَنْ بَلَاغِهِمْ، وَيُسْأَلُ الْعِبَادُ عَنْ إِجَابَتِهِمْ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ [المَائِدَة: ١٠٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ

إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وَسَتَشْهَدُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهَا الرِّسَالَاتِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِمْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ، ثُمَّ** قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ **قَالَ: عَدْلًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»**، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ وَابْنِ مَاجَهْ: **«يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا»**(١).

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ وَطَاعَتُهُمْ، وَاتِّبَاعُ دِينِهِمْ، وَالْتِزَامُ شَرَائِعِهِمْ هُوَ الْغَايَةُ مِنْ إِرْسَالِهِمْ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٦٤] وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نُوح: ٣].

وَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ آخِرَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَهُمْ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَجَبَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ أَنْ يُصَدِّقَهَا، وَيَتَّبِعَهُ فِيهَا، وَإِلَّا كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِأَنْبِيَائِهِ كُلِّهِمْ وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ كَمَا هُوَ حَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٦٩١٧)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٠٠٧)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٤٨).

وَلِذَا سُمُّوا كُفَّارًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عليهما السلام مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُرِنُوا فِي الْقُرْآنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَوُصِفُوا بِأَنَّهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ، وَكَانَتِ النَّارُ مَأْوَاهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ وَاجِبًا، وَطَاعَتُهُ فَرْضًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٤]، فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَحْيًا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ، أَوْ فِعْلًا فَعَلَهُ فَأَقَرَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فَكَانَ وَحْيًا، وَلَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ كَانَ خِطَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونُس: ١٥]، وَتَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا التَّأْكِيدُ عَلَىٰ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٤٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ [سَبَأ: ٥٠].

وَتَضَافَرَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ عَلَىٰ إِيجَابِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُخَالَفَتِهِ، وَجَعْلِ طَاعَتِهِ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، وَمُبَايَعَتِهِ مُبَايَعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الْفَتْح: ١٠]، وَقَرَنَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ اسْمِهِ وَاسْمِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التَّوْبَة: ٢٤]، وَفِي الطَّاعَةِ:

---

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام (١٥٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [الْفَتْح: ١٧]، وَفِي الْمَعْصِيَةِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الْجِنّ: ٢٣]، وَفِي الرِّضَا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التَّوْبَة: ٦٢]، وَفِي الْإِيذَاءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٧](٣).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ فَوَجَدْتُ طَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا ثُمَّ جَعَلَ يَتْلُو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا وَيَقُولُ: وَمَا الْفِتْنَةُ؟ ثُمَّ يُجِيبُ فَيَقُولُ: الْكُفْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩١] فَيَدَعُونَ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَغْلِبُهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ إِلَىٰ الرَّأْيِ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ، فَيَزِيغَ قَلْبُهُ فَيُهْلِكَهُ» اهـ(٤).

وَالْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي الْقُرْآنِ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَبِصِيَغٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَعَلَىٰ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَتَارَةً يُقْرَنُ بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ وَفِعْلٍ وَاحِدٍ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الْأَنْفَال: ٢٠]، فَعَطَفَ طَاعَةَ الرَّسُولِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَلَمْ يُكَرِّرِ الْفِعْلَ؛ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَتَارَةً أُخْرَىٰ يَأْمُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فَيُكَرِّرُ الْأَمْرَ وَالْفِعْلَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، وَفِي الْمَائِدَةِ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ [الْمَائِدَة: ٩٢]،

(٣) ينظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١/ ٦٨).

(٤) ينظر: الصارم المسلول (٢/ ١١٦)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٤٨٣).

وَفِي النُّورِ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النُّور: ٥٤]، وَفِي الْقِتَالِ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣٣]، وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثِلَتُهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا، فَلَوْ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَمْرٍ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ وَجَبَ طَاعَتُهُ فِيهِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ فِي مَنْزِلَةِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَوُجُوبِ الْأَخْذِ بِهِ، كَيْفَ؟ وَهُوَ الْقَائِلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٥).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَأَمَرَ تَعَالَىٰ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ؛ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرْضِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَىٰ الْكِتَابِ، بَلْ إِذَا أَمَرَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» اهـ(٦).

وَلَا أَدَلُّ عَلَىٰ تَقْرِيرِ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ اسْتِقْلَالًا؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: ٥٦]، وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَثِيلَاتِهَا رَدٌّ عَلَىٰ مَنِ اسْتَهَانَ بِسُنَّتِهِ، فَقَدَّمَ عَلَيْهَا أَقْوَالَ الْبَشَرِ، أَوْ رَدَّ شَيْئًا مِنْهَا بِدَعْوَىٰ عَدَمِ إِشَارَةِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ؛

(٥) أخرجه من حديث المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٤٠)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٣) رقم (٦٧٠)، وفي مسند الشاميين (١٠٦١)، ومحمد بن نصر في السنة (٢٤٤-٤٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٢٢٩).

(٦) إعلام الموقعين (١/ ٤٨).

كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ يَقُولُهُ مِمَّنْ تَشَرَّبُوا الْفِتْنَةَ، وَقَضَوْا بِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ عَلَىٰ السُّنَّةِ، فَزَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ تَعَالَىٰ قُلُوبَهُمْ.

وَتَارَةً ثَالِثَةً: يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّأَسِّي بِهِ، وَالْأَخْذِ عَنْهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١]، وَفِي الْأَحْزَابِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١]، وَفِي الْحَشْرِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الْحَشْر: ٧]، وَتَارَةً رَابِعَةً: يَأْمُرُ سُبْحَانَهُ بِالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ، وَقَبُولِ حُكْمِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥]. وَفِي النُّورِ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النُّور: ٥١]. وَفِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٦](٧).

فَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَرَادَ نُصْرَتَهُ؛ فَلْيَمْتَثِلْ أَمْرَهُ، وَلْيَجْتَنِبْ نَهْيَهُ، وَلْيَلْتَزِمْ سُنَّتَهُ، وَلْيَرْضَ بِالتَّحَاكُمِ إِلَىٰ شَرِيعَتِهِ وَلَوْ كَانَ الْحُكْمُ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ كَامِلَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

---

(٧) ينظر: حقوق النبي ﷺ علىٰ أمته في ضوء الكتاب والسنه (١٤٥-١٥٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ طَلَبًا لِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَنَسْأَلُهُ طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَبِيرٌ فِي ذَاتِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْنَؤُهُ إِلَّا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ، جُمِعَ الْكَمَالُ الْبَشَرِيُّ فِي شَخْصِهِ، وَبَهَرَ الْعَالِمِينَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَالْتَزِمُوا سُنَّةَ نَبِيِّهِ وَاتَّبِعُوهُ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْتِدَاءَاتُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَىٰ مَنْ يَدِينُونَ بِدِينِهِ قَدِيمَةٌ قِدَمَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَبَلَاغِ سَيِّدِ الْأَنَامِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَتَظَلُّ حَمَلَاتُهُمْ شَدِيدَةَ الْأُوَارِ، عَظِيمَةَ الِاضْطِرَامِ، إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ، تَخْبُو تَارَةً لِعَجْزِ الْأَعْدَاءِ أَوْ ضَعْفِهِمْ أَوِ انْشِغَالِهِمْ بِحُرُوبٍ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّهَا لَا تَلْبَثُ إِلَّا وَتَعُودُ كَرَّةً أُخْرَىٰ أَشَدَّ مَا تَكُونُ.

وَإِنَّ أَعْظَمَ نُصْرَةٍ يُقَدِّمُهَا الْمُسْلِمُ لِرَبِّهِ ﷻ، وَلِدِينِهِ، وَلِنَبِيِّهِ ﷺ هِيَ مَزِيدٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَإِظْهَارِ مَعَالِمِهِ، وَإِبْرَازِ مَحَاسِنِهِ.

إِنَّ الْأَعْدَاءَ مَا شَرِقُوا بِالْإِسْلَامِ، وَلَا نَالُوا مِنْ سَيِّدِ الْأَنَامِ، وَلَا جَيَّشُوا الْجُيُوشَ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَلَا حَشَدُوا الْأَبْوَاقَ الْإِعْلَامِيَّةَ، فَدَمَّرُوا مَا دَمَّرُوا، وَاحْتَلُّوا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا احْتَلُّوا، وَنَشَرُوا الشَّهَوَاتِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَذَفُوا الشُّبُهَاتِ بَيْنَهُمْ، وَدَنَّسُوا قُرْآنَهُمْ، وَشَتَمُوا نَبِيَّهُمْ، وَحَاوَلُوا تَزْوِيرَ دِينِهِمْ، وَانْتَدَبُوا

الْمُحَرِّفِينَ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، وَأَعَانُوا كُلَّ ضَالٍّ وَمُبْتَدِعٍ، وَأَيَّدُوا كُلَّ مُنَافِقٍ وَزِنْدِيقٍ، فَبَاءُوا بِفَشَلٍ بَعْدَ فَشَلٍ .. إِنَّهُمْ مَا فَعَلُوا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا لِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَقِيَ كَمَا هُوَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا نَزَلَ مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا.

لَقَدْ غَزَوُا الْمُسْلِمِينَ بِالتَّنْصِيرِ وَالْإِلْحَادِ، وَرَفَعُوا مِنْ شَأْنِ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ فَمَا أَفْلَحُوا، وَنَشَرُوا أَفْكَارَ مَارْكِس وَلِينِينَ وَسَارْتَرَ وَنِيتْشَهْ وَدِيوِي وَرِيكَارْدَ وَمَالْتُوسْ وَمِيلْ وَعَشَرَاتٍ غَيْرِهِمْ، فَكَانَ لِأَفْكَارِهِمْ بَرِيقٌ اغْتَرَّ بِهِ شَبَابُ الْمُسْلِمِينَ رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ حَتَّىٰ اطْمَأَنَّ الْأَعْدَاءُ أَنَّ مَوْجَةَ الْإِلْحَادِ قَدْ شَقَّتْ طَرِيقَهَا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ مَآلَهَا مَآلُ الْغَرْبِ الْمُلْحِدِ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَنَوَاتٌ قَلَائِلُ حَتَّىٰ مَاتَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ، وَظَهَرَ دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ جَدِيدٍ، وَصَارَ يُهَدِّدُ إِلْحَادَ الْغَرْبِ بِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ، وَلَيْسَتِ النَّصْرَانِيَّةُ الْمُحَرَّفَةُ قَادِرَةً عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ بَدِيلًا صَالِحًا لِلْإِسْلَامِ، رَغْمَ مَا يُنْفَقُ عَلَىٰ التَّنْصِيرِ مِنْ أَمْوَالٍ ضَخْمَةٍ.

وَإِذْ ذَاكَ ظَهَرَ الْوَجْهُ الْحَقِيقِيُّ لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَالْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يَتَشَدَّقُ بِهَا الْغَرْبُ، وَيَصِيحُ بِهَا الْمَفْتُونُونَ بِهِ وَبِشِعَارَاتِهِ الزَّائِفَةِ، فَمَنَعُوا الْحِجَابَ، وَشَوَّهُوا الْإِسْلَامَ، وَوَصَمُوهُ بِالْإِرْهَابِ، وَضَيَّقُوا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَاتَّهَمُوهُمْ بِالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ، وَمَا زَادَ هَذَا الْإِرْهَابُ الْغَرْبِيُّ الْإِسْلَامَ إِلَّا قُوَّةً وَانْتِشَارًا.

إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الْوَحِيدُ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ الَّذِي اسْتَعْصَىٰ عَلَىٰ مُحَاوَلَاتِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، وَالْمَسْخِ وَالتَّحْرِيفِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَمْ يَقْبَلِ الْمُمَاحَكَاتِ وَالْمُسَاوَمَاتِ عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ مُنْذُ أَنْ رَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ مُسَاوَمَاتِ الْمُشْرِكِينَ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ: أَنْ يَبْقَىٰ الْإِسْلَامُ إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ، رَغْمَ أُنُوفِ الْحَاقِدِينَ وَالْكَارِهِينَ.

وَالإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَكُونُ أَقْوَىٰ مَا يَكُونُ حِينَ يَكُونُ أَتْبَاعُهُ أَضْعَفَ مَا يَكُونُونَ، وَمَنْ رَأَىٰ فِي هَذَا الْعَصْرِ قُوَّةَ الْأَعْدَاءِ وَضَعْفَ الْمُسْلِمِينَ، وَاجْتِمَاعَهُمْ وَتَفَرُّقَ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ نَظَرِهِ لِانْتِشَارِ الإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَكَانٍ اسْتَبَانَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ؛ وَلِذَلِكَ أَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ مَعَ الْإِسْلَامِ.

وَالإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يُحْيِي أَتْبَاعَهُ نَيْلُ الْأَعْدَاءِ مِنْهُ أَوْ مِنْ شَعَائِرِهِ أَوْ رُمُوزِهِ الْعِظَامِ، وَكَمْ دُنِّسَتْ أَدْيَانٌ وَأَفْكَارٌ أُخْرَىٰ فَمَا رَفَعَ أَتْبَاعُهَا بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ مُسْتَضَامِينَ، وَحِينَ غَزَا أَبْرَهَةُ الْكَعْبَةَ قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ: «أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ»[٨]، وَتَبَدَّلَ الْحَالُ بِالْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُنَالُ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا انْتَفَضَ الْمُسْلِمُونَ لِذَلِكَ، وَقَلَبُوا حِسَابَاتِ الْأَعْدَاءِ رَأْسًا عَلَىٰ عَقِبٍ، أَفَنَعْجَبُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِنْ طَفَحَ الْغَيْظُ مِنْ صُدُورِهِمْ فَفَعَلُوا مَا فَعَلُوا؟!

وَإِنَّ أَعْظَمَ شَيْءٍ يُغِيظُهُمْ: إِظْهَارُ سُنَّةِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ؛ مِنْ إِعْفَاءِ اللِّحَىٰ، وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَالْتِزَامِ الْمَرْأَةِ بِالْحِجَابِ، وَتَتَبُّعِ السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ وَتَطْبِيقِهَا، وَالْإِعْلَانِ بِهَا، وَاتِّخَاذِهَا شِعَارًا؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِغَاظَةً لِأَعْدَائِهِ، وَإِنَّ إِغَاظَتَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبِتَطْبِيقِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مِنْ أَوْثَقِ عُرَىٰ الْإِسْلَامِ، فَهُبُّوا يَا أَنْصَارَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِنُصْرَتِهِ بِتَطْبِيقِ سُنَّتِهِ، وَاجْتِنَابِ مُخَالَفَتِهِ؛ فَتِلْكَ وَاللَّهِ أَعْظَمُ وَسَائِلِ النُّصْرَةِ.

وَمَنْ لَاحَظَ رُسُومَاتِهِمُ الْفَاجِرَةَ بَانَ لَهُ أَنَّهَا تَرْتَكِزُ عَلَىٰ الِاسْتِهْزَاءِ بِتِلْكَ السُّنَنِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاتَّخَذَهَا الْمُمْتَثِلُونَ لِسُنَّتِهِ شِعَارًا لَهُمْ،

---

(٨) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦٨)، وتاريخ الطبري (١/ ٤٤١).

وَهَكَذَا يَفْعَلُ إِخْوَانُهُمُ المُنَافِقُونَ مِنَ الاِسْتِهْزَاءِ بِالسُّنَنِ الظَّاهِرَةِ، فَإِغَاظَتُهُمْ وَهَزِيمَتُهُمْ تَكُونُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيهَا؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَحَبَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ(٩).

وَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي انْتَدَبَكُمْ إِلَيْهَا، وَحَضَّكُمْ عَلَيْهَا: صِيَامَ الْعَاشِرِ مِنْ مُحَرَّمٍ، وَمُخَالَفَةَ الْيَهُودِ بِصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَىٰ الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: **مَا هَذَا؟** قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّىٰ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَىٰ، قَالَ: **فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ**. فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**»(١٠)، وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ صِيَامَهُ مُكَفِّرٌ لِلذُّنُوبِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

فَصُومُوهُ رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِثَالًا لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَطَلَبًا لِلْأَجْرِ والمَثُوبَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . . .

---

(٩) الرسوم التي تضمنت الإساءة للنبي ﷺ ركز راسمها علىٰ السخرية باللحية وحجاب المرأة.

(١٠) رواه البخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠)، والرواية الثانية لمسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤).

(١١) رواه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

٢٠٦- حقوق النبي ﷺ علينا (٤) وِلاية أتباعه والبراءة من أعدائه

١١/١/١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادِهِ أَنِ ابْتَلَىٰ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ؟ وَيُحَاسِبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وَلَمَّا زَاغَ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَكَذَّبُوا الْمُرْسَلِينَ؛ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِسَبَبِ فِتْنَتِهِمْ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِالصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَكَوْنِهِمْ مِنْ ضَعَفَةِ النَّاسِ وَلَيْسُوا مِنْ أَشْرَافِهِمْ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وَهَكَذَا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالاسْتِكْبَارِ لَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْحَقِّ بِصَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ حَالِ أَتْبَاعِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالِاسْتِكَانَةِ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرَدِّهِ وَعَدَمِ قَبُولِهِ. إِنَّهُمْ يُحَاكِمُونَ الْحَقَّ بِمَقَايِيسِهِمُ الْفَاسِدَةِ مِنَ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ وَالْقُوَّةِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ اللهَ ﷻ يَصْطَفِي رُسُلًا وَأَتْبَاعًا لَهُمْ بِمُوجَبِ هَذَا الْقَانُونِ الْفَاسِدِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [سورة ص: ٨]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وَأَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَلَوْ شَاءَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ لَسَخَّرَ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ لِعِبَادَتِهِ كَمَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وَكَمَا كَانُوا أَيْضًا ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَجَعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ ابْتِلَاءَ الرُّسُلِ بِالْعِبَادِ، وَابْتِلَاءَ الْعِبَادِ بِالرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ مُخَاطِبًا خَاتَمَ رُسُلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

إِذَا كَانَتْ تِلْكَ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادِهِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَىٰ فَرِيقَيْنِ: عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، يَدِينُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْحَقِّ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ، وَيَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، وَيَلْقَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَالْفَرِيقِ الآخَرِ: عَبِيدٌ لِأَهْوَائِهِمْ وَشَيَاطِينِهِمْ، لَا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ،

(١) رواه من حديث عياض بن حمار ﵁: مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ الصِّدَامُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَا الْتِقَاءَ بَيْنَهُمَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ الْمُوَاءَمَةُ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَيَسْتَحِيلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا مُؤَاخَاةَ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ﷺ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، بَلْ هِيَ عَدَاوَةٌ ثَابِتَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الْمُقْتَضِي لِلسُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَيَنْسَلِخُ مِنْ دِينِهِ، وَلَنْ يُغَيِّرَ مِنَ الْحَقِيقَةِ شَيْئًا ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وَلِذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ دَاعِيَةً إِلَىٰ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَحَبَّتِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُوَالَاتِهِ، وَمُوَالَاةِ مَنْ وَالَاهُ، وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ أَوْ دِينٍ سِوَىٰ دِينِهِ.

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْنَا أَنْ نُوَالِيَ أَوْلِيَاءَهُ، وَنُعَادِيَ أَعْدَاءَهُ، فَمَنْ وَالَاهُ فَهُوَ وَلِيُّنَا، وَمَنْ عَادَاهُ فَهُوَ عَدُوُّنَا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

وَمُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَبْدَأَ فِيهَا الْقُرْآنُ وَأَعَادَ، وَأَكَّدَ وُجُوبَهَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ حَقَّ الْمُؤْمِنِ عَلَىٰ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُوَالِيَهُ، فَكَيْفَ بِحَقِّ أَفْضَلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فَمَحَبَّتُهُ وَنُصْرَتُهُ، وَتَوَلِّيهِ وَالْوَلَاءُ فِيهِ فَرْضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وَمِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّوَلِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ: مُعَادَاةُ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ عَدُوٌّ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ، لَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ عَدُوَّ سِلْمٍ؛ كَمَنْ كَفَّ

أَذَاهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَكُون حَرْبًا عَلَيْهِمْ.

وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ أَعْدَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِرُسُلِهِ عليهم السلام، وَمَنْ حَارَبَ مِنْهُمْ حُورِبَ، وَمَنْ سَالَمَ وَخَضَعَ لِسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ صَالَحَهُمْ قُبِلَ مِنْهُ حَسَبَ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَنْتَفِي عَدَاوَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوَالِيَهُ الْمُسْلِمُونَ مَا دَامَ عَلَىٰ الْكُفْرِ، هَذَا هُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا حُكْمُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَإِنْ شَرِقَ بِهِ مَنْ شَرِقَ، وَأَغْضَبَ مَنْ أَغْضَبَ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي المائدة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وَفِي التَّوْبَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وَفِي الْمُمْتَحَنَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ سَبَبَ النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْعَظِيمَةَ جَاءَتِ الْمُفَاصَلَةُ فِيهَا بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ؛ فَالْأُخُوَّةُ فِي الدِّينِ أَعْظَمُ وَأَوْلَىٰ بِالْمُرَاعَاةِ مِنَ الْأُخُوَّةِ فِي النَّسَبِ؛ فَضْلًا عَنِ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْوَطَنِ وَالْعُرُوبَةِ الَّتِي أُرِيدَ لَها أَنْ تَحْتَلَّ مَكَانَ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ

إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَبِمَا قَرَّرَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ عَمِلَ الصَّحَابَةُ ﷺ؛ فَعَادَوْا آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ، وَانْخَلَعُوا مِنْ عَصَبَاتِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ؛ مُوَالَاةً لِلرَّسُولِ ﷺ، وَقَدَّمُوا عَلَىٰ قَرَابَتِهِمُ الْعَبِيدَ وَالمَوَالِي، فَوَالَوْا سَلْمَانَ وَبِلَالًا وَصُهَيْبًا وَعَمَّارًا؛ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ وَالَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

بَلْ إِنَّهُمْ رَفَعُوا سُيُوفَهُمْ فِي وُجُوهِ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْعَشِيرَةِ حَتَّىٰ أَظْهَرَ اللهُ الْحَقَّ وَأَزْهَقَ الْبَاطِلَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ ﷺ قَتَلَ أَبَاهُ عَلَىٰ الشِّرْكِ فِي بَدْرٍ(٢)، وَجَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ ﷺ أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ فِيهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ؛ فَلَا تَدَعْنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَىٰ قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»(٣).

---

(٢) عن عبدالله بن شوذب قال: «جعل أبو أبي عبيدة يتصدىٰ لأبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله ﷻ فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]» رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٥٤) برقم (٣٦٠)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٧٩)، وابن عساكر في تاريخه (٢٥/ ٤٤٦)، وقال ابن حجر في الإصابة: أخرج الطبراني بسند جيد ...، فذكره (٣/ ٥٨٧).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة، كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٦٢).

وَلمَّا شَاعَتْ مَقَالَةُ أَبِيهِ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَفَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَىٰ بَابِ المَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَاءَكَ! فَقَالَ: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَجُوزُ مِنْ هَا هُنَا حَتَّىٰ يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الذَّلِيلُ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ أَجْبَرَ أَبَاهُ عَلَىٰ أَنْ يَنْطِقَ بِأَنَّهُ هُوَ الذَّلِيلُ، وَبِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَزِيزُ(٥).

وَقَالَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي»(٦).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-: «وَاللَّهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ»(٧).

وَلمَّا قَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ المَدِينَةَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ لِيَزِيدَ فِي هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ دَخَلَ عَلَىٰ

---

(٤) رواه ابن شبة في أخبار المدينة (٧٣٤)، وينظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١١٣)، وجوامع السيرة (٢٠٤)، والدرر في اختصار المغازي والسير (١٩٠)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٠٢).

(٥) رواه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المنافقين، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣١٥).

(٦) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله ﷺ إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ (٤٠٣٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» (١٧٥٩).

(٧) رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن إسحاق في السيرة كما في سيرة ابن هشام (٥/ ٥٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩) رقم (٧٢٦٤)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٤١).

ابْنَتِهِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ ﵂، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَىٰ فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ طَوَتْهُ دُونَهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ أَرَغِبْتِ بِهَذَا الْفِرَاشِ عَنِّي أَمْ بِي عَنْهُ؟ قَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ امْرُؤٌ نَجِسٌ مُشْرِكٌ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي شَرٌّ(٨).

هَكَذَا أَخْلَصَ الصَّحَابَةُ ﵃ دِينَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَجَرَّدُوا وَلَاءَهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِدِينِهِ، وَلِمَنْ دَانَ بِدِينِهِ، وَأَعْلَنُوا الْبَرَاءَةَ مِنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، وَبَارَزُوهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَأَسِّينَ فِي ذَلِكَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ ﵇ وَبِأَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِرِسَالَتِهِ؛ إِذْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أُسْوَةً فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وَإِبْرَاهِيمُ ﵇ هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ الْعَدَاوَةَ لَهُمْ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وَتَأَسَّىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ نَابَذَ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا يَعْبُدُونَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢].

وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ التَّأَسِّي بِالْخَلِيلَيْنِ: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي اتِّخَاذِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ وَالْكَافِرِينَ أَعْدَاءً.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَوْلِيَاءِ رُسُلِهِ، وَأَنْ يَكْفِينَا شَرَّ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ رُسُلِهِ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

---

(٨) رواه ابن سعد (٨/ ١٠٠)، وابن عساكر (٦٩/ ١٥٠)، وابن الجوزي في المنتظم (٥/ ٢١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَوَالُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ؛ فَإِنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ تُنَالُ بِذَلِكَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وَأَعْظَمُ وِلَايَةٍ يَجِبُ أَنْ تُصْرَفَ لِرُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَهِيَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْإِنْسَانُ مَفْطُورٌ عَلَىٰ وِلَايَةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِإِيصَالِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ؛ وَلِذَا فَهُوَ يُوَالِي وَالِدَيْهِ وَإِخْوَانَهُ وَعَشِيرَتَهُ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُمْ. وَأَعْظَمُ إِحْسَانٍ حَازَهُ الْمُسْلِمُ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ أَعْظَمَ نَفْعٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَدَفَعَ عَنْهُ أَعْظَمَ ضَرَرٍ وَهُوَ الْكُفْرُ؛ فَكَانَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْمَحَبَّةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْوِلَايَةِ مَا لَيْسَ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾» رَوَاهُ الشَّيخَانِ(٩).

وَفِي السُّنَنِ قَالَ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، فَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيْعَةً**

---

(٩) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في التفسير، باب ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] (٤٧٨١)، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته (١٦١٩).

فَإِلَيَّ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَأَنَا مَوْلَىٰ مَنْ لَا مَوْلَىٰ لَهُ؛ أَرِثُ مَالَهُ وَأَفُكُّ عَانَهُ»(١٠) أَيْ: أَسِيرَهُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَالْعَوَامُّ تَقُولُ: (عَدُوُّ أَبِيكَ عَدُوُّكَ) وَلَا زَالَ النَّاسُ يُعَادُونَ أَعْدَاءَ آبَائِهِمْ، وَيُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ وَالَىٰ أَعْدَاءَ أَبِيهِ، وَيَعُدُّونَهُ عُقُوقًا وَظُلْمًا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ عَادَىٰ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي هُوَ الْأَبُ الْحَقِيقِيُّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَحَقُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ سَائِرِ الْحُقُوقِ بَعْدَ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟!

إِنَّهُ يَجِبُ إِحْيَاءُ الْوَلَاءِ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي الْقُلُوبِ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَمِنْ دِينِهِ، وَيُكَذِّبُونَ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ؛ فَهُمُ الْأَعْدَاءُ وَإِنْ أَظْهَرُوا النُّصْحَ، وَتَظَاهَرُوا بِالصَّدَاقَةِ.

وَهُمُ الْأَعْدَاءُ وَلَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ مِنْ أَهْلِ السِّيَاسَةِ وَالصَّحَافَةِ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَوْ أَظْهَرُوهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ مَا وَصَفَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، فَكَذَبُوا وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَدِيثًا؟!

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِدَخَائِلِ النُّفُوسِ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَكْنُونِ الصُّدُورِ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا أَعْدَاءَنَا مِنْ إِخْوَانِنَا، وَفَصَّلَ لَنَا أَحْوَالَ أَعْدَائِنَا

---

(١٠) رواه من حديث المقدام الكندي رضي الله عنه: أبو داود في الفرائض، باب في ميراث ذوي الأرحام (٢٩٠٠)، وابن ماجه في الفرائض، باب ذوي الأرحام (٢٧٣٨)، وأحمد (١٧٢٠٠)، وصححه ابن حبان (٦٠٣٦).

(١١) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨)، والنسائي في الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث (١/ ٣٨)، وأحمد (٧٤٠٩)، وصححه ابن حبان (١٤٣١).

وَأَنْوَاعَهُمْ مِنْ مُشْرِكِينَ وَمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ كِتَابٍ، وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ حَسَدِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لَنَا:

فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨-١٠]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وَخَاطَبَ رَسُولَهُ ﷺ فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ سَاعُونَ فِي إِضْلَالِنَا: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وَبَيَّنَ ﷻ أَنَّنَا إِنْ أَطَعْنَاهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَ، وَوَافَقْنَا عَلَىٰ مَشَارِيعِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ خَرَجْنَا مِنْ دِينِنَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ وَعَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ وُصُولَ الْخَيْرِ لَنَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

أَفَبَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي حَقِيقَةِ أَعْدَائِنَا يَشُكُّ بَعْضُ النَّاسِ فِي عَدَاوَتِهِمْ؛ لِأَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْجَهَلَةِ وَالْمُنَافِقِينَ يُصَوِّرُونَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ حَقِيقَتِهِمْ، وَيُظْهِرُونَهُمْ بِغَيْرِ مَظْهَرِهِمْ؛ تَلْبِيسًا عَلَىٰ النَّاسِ، وَمُخَادَعَةً لَهُمْ؟! أَيَتْرُكُ النَّاسُ كَلَامَ مَنْ خَلَقَهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إِلَىٰ كَلَامِ جَهَلَةٍ وَمُنَافِقِينَ؟! كَيْفَ؟ وَاللهُ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُنَا فَيَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ عَلِيمًا: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]؟!

وَمَا هَذَا التَّأَلُّبُ الْغَرْبِيُّ عَقِبَ هَذِهِ الرُّسُومِ الْفَاجِرَةِ، وَإِعَادَةِ نَشْرِهَا مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ، وَالتَّلْوِيحُ بِإِعَادَةِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا دَلَائِلُ وَاقِعِيَّةٌ تَدْحَضُ أَقْوَالَ الْجَهَلَةِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِين خَدَعُوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِتَحْسِينِ صُورَةِ الْأَعْدَاءِ فِي نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ كَانَ مَا كَانَ، وَلَعَلَّ مَنْ كَانَ نَائِمًا أَنْ يُفِيقَ، وَمَنْ كَانَ جَاهِلًا أَنْ يَعْلَمَ، وَمَنْ كَانَ مُغَرَّرًا بِهِ مِنْ قِبَلِ الْإِعْلَامِ الْمُضَلِّلِ أَنْ يَتَبَصَّرَ؛ فَمَا بَعْدَ هَذَا الْوُضُوحِ مِنْ وُضُوحٍ، وَلَا عَدَاوَةَ أَشَدُّ مِنْ تِلْكَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي يُعْتَدَىٰ فِيهَا عَلَىٰ مَنْ مَحَبَّتُهُ فِي قُلُوبِنَا فَاقَتْ مَحَبَّةَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ، بِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا ﷺ.

وَالْمُؤْمِنُ لَا يَحْتَاجُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقَائِعِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْأَعْدَاءِ، وَيُوقِنَ بِعَدَاوَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ لَنَا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرْشِدُ فِي ذَلِكَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي بَيَّنَ حَقِيقَتَهُمْ أَبْلَغَ بَيَانٍ، وَفَصَّلَهَا أَحْسَنَ تَفْصِيلٍ، وَرُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٌ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ فَلَعَلَّ هَذِهِ النَّازِلَةَ الْعَظِيمَةَ تَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا إِلَىٰ إِيمَانِهِمْ، وَتَقْطَعُ الرِّيبَةَ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ شَكٌّ وَرِيبَةٌ، وَتَفْضَحُ الْمُنَافِقَ الَّذِي يَلْتَمِسُ الْمَعَاذِيرَ، أَوْ يُفَلْسِفُ الْقَضِيَّةَ مُحَاوِلًا احْتِوَاءَهَا وَالتَّقْلِيلَ مِنْ آثَارِهَا.

وَلَا يَقْضِي اللهُ تَعَالَىٰ قَضَاءً إِلَّا كَانَ فِيهِ خَيْرٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَاحْمَدُوا اللهَ

تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا حَقِيقَةَ أَعْدَائِكُمْ، وَاصْرِفُوا وَلَاءَكُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَوَلُّوا رُسُلَهُ وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَبَرَّأُوا مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَرَبُّوا أَوْلَادَكُمْ عَلَىٰ عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ؛ فَإِنَّهَا مِمَّا يَحْفَظُ عَلَىٰ الْمَرْءِ دِينَهُ وَعَقِيدَتَهُ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ إِغَاظَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . . .



٢٠٧- حقوق النبي ﷺ علينا (٥) وجوب الإيمان به

١٢/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؛ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْتِزَامَ شَرِيعَتِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ رُسُلَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَهِدَايَةِ خَلْقِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ هِدَايَتَهُ، وَالْتَزَمَ شَرِيعَتَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ هَادِيًا وَمُعَلِّمًا، وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ خَيْرِ صَحْبٍ لِخَيْرِ نَبِيٍّ، تَرَضَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَذَكَرَ مَنَاقِبَهُمْ، وَمَدَحَ صِفَاتِهِمْ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَحَبَّهُمْ مِمَّنْ جَاءُوا بَعْدَهُمْ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وَعَلَىٰ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبَقَائِكُمْ، وَلَا هِيَ مُنْتَهَىٰ آمَالِكُمْ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُكُمْ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ فِيهَا آبَاؤُكُمْ وَلَا أَبْنَاؤُكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ إِيمَانُكُمْ وَتَقْوَاكُمْ، فَتَزَوَّدُوا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ

جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ هِدَايَتُهُمْ وَتَعْلِيمُهُمْ، وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالُ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ الْحَقِّ لَهُمْ، فَمِنَ الْعِبَادِ مِنْ قَبِلَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَهِدَايَتَهُ، فَاتَّبَعَ رُسُلَهُ، وَصَدَّقَ كُتُبَهُ، وَالْتَزَمَ شَرِيعَتَهُ؛ فَلَهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَفَوْزُ الْآخِرَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَىٰ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَعَارَضَ رُسُلَهُ، وَكَذَّبَ كُتُبَهُ، وَاسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ؛ فَلَهُ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ.

وَرَسُولُنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ الْمُكَلَّفِينَ مُنْذُ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ؛ فَلَا دِينَ يُوصِلُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا دِينُهُ، وَلَا شَرِيعَةَ يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهَا لِعِبَادِهِ إِلَّا شَرِيعَتُهُ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَجَاءَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ آمِرَةً أُمَّتَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ [النساء: ١٧٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

وَتَوَعَّدَ اللهُ ﷻ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ سُبْحَانَهُ وَبِرَسُولِهِ ﷺ بِنَارِ جَهَنَّمَ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

وَالْإِيمَانُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ التَّصْدِيقُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ، وَالْقَبُولَ بِهِ، وَالِانْقِيَادَ لَهُ، وَالْإِذْعَانَ لِدِينِهِ، وَالِاسْتِسْلَامَ لِشَرِيعَتِهِ.

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أُرْسِلَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا يَقْتَضِي بِأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولًا إِلَىٰ أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، أَوْ إِلَىٰ جِنْسٍ دُونَ جِنْسٍ، أَوْ رَسُولًا فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْعَالَمِينَ مُنْذُ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ بِذَلِكَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْذَارَ بِهِ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**» رَوَاهُ الشَّيخَانِ(١).

وَلَوَازِمُ هَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا؛ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: البخاري في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا (٤٢٧)، ومسلم في فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

وَمِنْ أُصُولِ الْإِقْرَارِ بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الِاعْتِقَادُ بِأَنَّهُ آخِرُ الرُّسُلِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ؛ فَمَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ، أَوِ ادَّعَىٰ أَنَّ لَهُ مَا لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ التَّشْرِيعِ بِاسْمِ الْوِلَايَةِ أَوْ غَيْرِهَا فَهُوَ كَاذِبٌ كَذَلِكَ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ الْعَبْدُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ، وَقَاضِيًا عَلَىٰ كُلِّ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، فَنَاسِخٌ لِبَعْضِهَا، وَمُكَمِّلٌ لِأَكْثَرِهَا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وَهَذَا يَقْتَضِي طَاعَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالِاسْتِسْلَامَ لِشَرِيعَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْهِدَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

وَلَا يَسَعُ مُؤْمِنًا الْخُرُوجُ عَنْ طَاعَتِهِ، أَوِ التَّحَاكُمُ إِلَىٰ غَيْرِ شَرِيعَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِهِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ أَقْسَامٍ:

فَقِسْمٌ مِنْهُمْ كَذَّبُوهُ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُرْسِلْهُ إِلَىٰ النَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا،

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٨)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٢).

مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ عَلَىٰ صِدْقِهِ وَنُصْحِهِ لِأُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذَا الْقِسْمُ هُمْ أَكْثَرُ أُمَمِ الْأَرْضِ فِي المَاضِي وَفِي الْحَاضِرِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَثَنِيِّينَ وَالْمُلْحِدِينَ، وَمِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَقِسْمٌ آخَرُ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَهُ، وَلَكِنَّهُمْ جعَلُوهُ نَبِيًّا لِأُمَّةِ الْعَرَبِ فَحَسْبُ، وَبَعْضُهُمْ يَحْصُرُونَ نُبُوَّتَهُ فِي زَمَنِ بَعْثَتِهِ وَحَيَاتِهِ دُونَ الْقُرُونِ الَّتِي بَعْدَهُ، أَوْ يَحْصُرُونَهَا فِيمَنْ هُمْ فِي مَكَّةَ أَوْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ مُتَنَاقِضُونَ، فَإِنْ آمَنُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ لَزِمَهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوا مَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقُرْآنِ وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَفِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُرْسَلٌ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَرَسُولُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ فَإِنْ آمَنُوا بِنُبُوَّتِهِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُ خَبَرِهِ هَذَا وَإِلَّا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ.

وَقِسْمٌ ثَالِثٌ أَظْهَرُوا تَصْدِيقَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الطُّرُقَ كُلَّهَا مُوَصِّلَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا مَرْضِيَّةٌ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ، وَهُمْ مِنْ يُسَمَّوْنَ بِالرُّوحَانِيِّينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَخُصُّونَ ذَلِكَ بِمَا يُسَمُّونَهُ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ أَوِ الْأَدْيَانَ الْإِبْرَاهِيمِيَّةَ؛ لِيُدْخِلُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ فِي الدِّينِ الصَّحِيحِ. وَهَؤُلَاءِ إِنْ كَانُوا يُصَدِّقُونَ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَزِمَهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوا بِخَبَرِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّ مَنِ ابْتَغَىٰ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَمِمَّا جَاءَ بِهِ إِبْطَالُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ سِوَىٰ دِينِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَلَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي ذَلِكَ وَاتِّبَاعُهُ، أَوْ تَكْذِيبُهُ، وَإِلَّا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ.

وَقِسْمٌ رَابِعٌ أَظْهَرُوا إِيمَانَهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ لِشَرِيعَتِهِ بَاطِنًا

وَظَاهِرًا، وَأَنَّ بَاطِنَ شَرِيعَتِهِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا هُمْ وَمَشَايِخُهُمْ، فَخَرَجُوا عَلَىٰ ظَاهِرِ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الْبَاطِنِ الَّذِي اخْتَرَعُوهُ، وَزَعَمُوا اخْتِصَاصَهُمْ بِهِ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَكُلُّ الْفِرَقِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أَبْطَلَتْ دِينَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدَحَتْ فِي أَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، وَغَالَتْ فِي رُؤُوسِهَا وَمَشَايِخِهَا هُمْ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ، وَإِيمَانُهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ مَنْقُوضٌ بِإِبْطَالِهِمْ شَرِيعَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِحْدَاثِهِمْ دِينًا آخَرَ زَعَمُوا أَنَّهُ بَاطِنُ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقِسْمٌ خَامِسٌ أَظْهَرُوا تَصْدِيقَهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَيَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ بِهِ وَتَعْظِيمَهُ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ إِذَا ذُكِرَ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَوْ يَظُنُّونَ أَنَّ بِوُسْعِهِمُ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ يَخْتَصُّ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَنَحْوِهَا دُونَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِلنَّاسِ. وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الِاتِّجَاهَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ هُمْ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ، وَهُمْ مُتَنَاقِضُونَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ لَزِمَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا أَخْبَارَهُ، وَيُذْعِنُوا لِأَحْكَامِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ وَلَا فَرْقَ، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مُسْتَسْلِمِينَ لِشَرِيعَتِهِ. وَعَدَمُ اسْتِسْلَامِهِمْ لِشَرِيعَتِهِ قَادِحٌ فِي إِيمَانِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَلْجَأُ فِي تَنَصُّلِهِ مِنْ أَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ إِلَىٰ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ؛ فَمَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ يَزْعُمُونَ خُصُوصِيَّتَهُ بِزَمَنِ الرِّسَالَةِ دُونَ هَذَا الزَّمَنِ، أَوْ يَدَّعُونَ أَنَّهُ كَانَ لِظُرُوفٍ خَاصَّةٍ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الْعَادَاتِ الْمَتْرُوكَةِ لِلنَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مُتَعَلِّقًا بِالْحُرِّيَّةِ أَوِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، أَوْ لَهُ صِلَةٌ بِمَا يَدَّعُونَهُ حُقُوقًا لِلْإِنْسَانِ أَوْ لِلْمَرْأَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. وَسَبَبُ ضَلَالِهِمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ إِيمَانًا مُطْلَقًا، ثُمَّ حَاكَمُوا شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهَا، فَإِنْ وَافَقَتْهَا الشَّرِيعَةُ

الْمُحَمَّدِيَّةُ انْقَلَبُوا إِلَىٰ عُلَمَاءَ وَوُعَّاظٍ وَخُطَبَاءَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ لَهَا، وَإِنْ عَارَضَتْهَا الشَّرِيعَةُ رَفَضُوهَا أَوْ تَأَوَّلُوهَا أَوْ حَرَّفُوهَا أَوْ كَذَّبُوهَا، وَمَنْ رَفَضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ نَقَضَ إِيمَانَهُ بِهِ.

وَمَعَ التَّجْيِيشِ الْإِعْلَامِيِّ لِلْمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالدِّعَايَةِ لَهَا، وَإِظْهَارِ مَحَاسِنِهَا؛ قَدْ يَجِدُ بَعْضُ النَّاسِ حَرَجًا فِي قَلْبِهِ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ عَدَمَ انْقِيَادٍ لَهَا، أَوْ تَمَنَّىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْتِ بِهَا، وَهَذَا الضِّيقُ وَالْحَرَجُ وَالتَّمَنِّي مِمَّا يَقْدَحُ فِي الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ التَّسْلِيمِ الْمُطْلَقِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِنَّ النَّتِيجَةَ الْحَتْمِيَّةَ لِلْإِيمَانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالرِّضَا بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا التَّسْلِيمُ الْمُطْلَقُ فِيمَا جَاءَ بِهِ، أَوْ أَخْبَرَ عَنْهُ، وَتَصْدِيقُهُ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ، مِنْ غَيْرِ ضِيقٍ أَوْ حَرَجٍ أَوْ تَعْقِيبٍ أَوْ جِدَالٍ أَوْ مُنَاقَشَةٍ، أَوْ أَخْذِ الْبَعْضِ وَتَرْكِ الْبَعْضِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ التَّنَاقُضِ أَنْ يَزْعُمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَتَمَرَّدَ عَلَىٰ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ، أَوْ يُنَازِعَهُ فِيهِ، أَوْ لَا يَرْضَىٰ بِهِ، أَوْ يُنَصِّبَ نَفْسَهُ مُعَقِّبًا عَلَيْهِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَنْقُضُ الْإِيمَانَ بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَسْلِمُوا لَهُ قُلُوبَكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاسْتَسْلِمُوا لِشَرِيعَةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِذَلِكَ.

وَاحْذَرُوا مَنَاهِجَ الْمُنْحَرِفِينَ وَلَوْ كَثُرُوا، وَلَوْ زَخْرَفُوا كَلَامَهُمْ بِلَحْنِ الْقَوْلِ، وَحُسْنِ الْبَيَانِ، وَلَوْ مَلَكُوا نَوَاصِيَ الْإِعْلَامِ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُهُمْ عَالِيَةً وَمُنْتَشِرَةً؛ فَإِنَّ الْبَاطِلَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَثُرَ أَتْبَاعُهُ وَعَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ، وَإِنَّ الْحَقَّ حَقٌّ وَلَوْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ وَضَعُفَتْ أَصْوَاتُهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهِدَايَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَكَانَ مِنْ قَبُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الْإِيمَانُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَبُولُ شَرِيعَتِهِ، وَالْتِزَامُ سُنَّتِهِ. كَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُ أَوْ رَفْضُ شَرِيعَتِهِ رَفْضًا لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَلِذَا كَانَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مَنْ قَبِلُوا رَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ هُمْ مَنْ لَمْ يَقْبَلُوا رَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ ﷺ.

وَمَا طَعْنُ الطَّاعِنِينَ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ فِي رِسَالَتِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ أَوْ سِيرَتِهِ مِنْ قِبَلِ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ، أَوْ مِنْ زَنَادِقَةِ الْعَرَبِ إِلَّا طَعْنٌ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَفْضٌ لِرَحْمَتِهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ رَسُولُهُ ﷺ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ.

وَيْلَهُمْ! كَيْفَ يَطْعَنُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَيُكَذِّبُونَهُ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَرْفُضُونَ شَرِيعَتَهُ، وَهُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَلْ تَعَدَّتِ الرَّحْمَةُ بِهِ إِلَىٰ الْعَجْمَاوَاتِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ، بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي حَفِظَ الْحُقُوقَ، وَأَوْفَىٰ الْعُهُودَ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَكَانَ رَحْمَةً لِمَنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟!

لَقَدْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَنَالُونَهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ.

وَرَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْكُفَّارَ بِمَا حَفِظَ لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ(٤)، وَأَوْفَىٰ لَهُمْ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَا يُكْرَهُونَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُغْدَرُ بِهِمْ لِكُفْرِهِمْ، وَمَنْ دَخَلَ فِي عَهْدِ ذِمَّةٍ أَوْ أَمَانٍ كَانَ لَهُ الْأَمَانُ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، لَا يُتَعَدَّىٰ عَلَيْهِ وَلَا يُظْلَمُ مَا دَامَ مُلْتَزِمًا عَهْدَهُ، وَمَنْ خَانَهُ خَانَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥).

بَلْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُحَارِبِينَ لِلْإِسْلَامِ بِمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنْ حُقُوقٍ وَهُمْ مُحَارِبُونَ، مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَتَخْيِيرِهِمْ قَبْلَ الْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِزْيَةِ،

---

(٤) انظر خطبتين في ذلك بعنوان: الخلال النبوية (١-٢).

(٥) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: البخاري في الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم (٣١٦٦).

وَرَحِمَ بِهِ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ وَشُيُوخَهُمْ فَلَا يُقْتَلُونَ فِي الْحَرْبِ إِلَّا إِذَا شَارَكُوا فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَتِ الرَّحْمَةُ بِالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَمِّمَةً لِلرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِينَ، فَلَا يَجُوزُ تَعْذِيبُهَا وَلَا تَجْوِيعُهَا وَلَا تَكْلِيفُهَا مَا لَا تُطِيقُ، وَلَا اتِّخَاذُهَا هَدَفًا يُرْمَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا ذَبْحُهَا إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَقُّهَا أَنْ يَأْكُلَهَا وَلَا يَرْمِيهَا، وَقَدْ دَخَلَ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَطْلَقَتْهَا، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ بَغِيٌّ فِي كَلْبٍ سَقَتْهُ فَشَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا فَغَفَرَ لَهَا.

فَاعْرِفُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْكُمْ بِبَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاحْمَدُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ بِبَعْثَتِهِ إِلَيْكُمْ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَاشْكُرُوهُ عَلَىٰ أَنْ هَدَاكُمْ لِدِينِهِ، وَاعْرِفُوا لَوَازِمَ الْإِيمَانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاتَّبِعُوا سُنَّتَهُ، وَالْتَزِمُوا هَدْيَهُ، وَاقْبَلُوا حُكْمَهُ، وَلَا تَجِدُوا فِي صُدُورِكُمْ حَرَجًا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ جَاءَكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَهُوَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ وَزْنُ قَائِلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ....



٢٠٨- تكفير المسلمين (١)
خطره وضرره

٩/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِسْلَامِ قُلُوبَهُمْ، وَجَمَعَ كَلِمَتَهُمْ، وَلَمَّ شَتَاتَهُمْ، وَأَزَالَ ضَغَائِنَهُمْ؛ فَكَانُوا كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٦٣]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَاجْتَمِعُوا، وَلَا تَعْصُوهُ فَتَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ، وَإِنَّ الْمَعَاصِيَ أَبْوَابُ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢-١٠٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ الْإِسْلَامَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَضِيَهُ لِعِبَادِهِ دِينًا يَدِينُونَ بِهِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ، بَلْ إِنَّ كُلَّ دِينٍ غَيْرَ الْإِسْلَامِ، وَكُلَّ طَرِيقٍ غَيْرَ طَرِيقِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا إِثْمٌ وَضَلَالٌ لَا تَزِيدُ أَصْحَابَهَا إِلَّا بُعْدًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٥].

هَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَوْجَبَهُ عَلَىٰ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ؛ لَهُ مَعَالِمُ وَحُدُودٌ، وَوَاجِبَاتٌ وَفُرُوضٌ، وَمُحَرَّمَاتٌ وَقُيُودٌ، لَا يَجُوزُ لِمَنِ اخْتَارَ الدُّخُولَ فِيهِ، وَدَانَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بِهِ؛ أَنْ يَتَعَدَّىٰ مَعَالِمَهُ وَحُدُودَهُ، وَلَا أَنْ يُضَيِّعَ وَاجِبَاتِهِ وَفُرُوضَهُ، وَلَا أَنْ يَنْتَهِكَ مُحَرَّمَاتِهِ وَقُيُودَهُ؛ وَإِلَّا كَانَ الْعَبْدُ عَبْدًا لِهَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ، مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ.

وَهَذِهِ الْحُدُودُ وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي مِنْهَا الْحَتْمُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يَسَعُ مُسْلِمًا التَّفْرِيطُ فِيهِ، وَمِنْهَا الْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا، وَكُلُّ دِينٍ لَيْسَ لَهُ حُدُودٌ، وَلَا وَاجِبَاتٌ، وَلَا فِيهِ مُبَاحَاتٌ وَمُحَرَّمَاتٌ فَلَيْسَ بِدِينٍ، وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ أَوِ الْمُحْدَثَةِ، لَا يَعْرِفُ أَصْحَابُهَا مِنْهَا إِلَّا تَوْصِيَاتٍ وَتَوْجِيهَاتٍ، تُعْرَضُ وَلَا تُفْرَضُ، وَيُدْعَىٰ إِلَيْهَا، وَلَا عِقَابَ عَلَيْهَا.

وَالْإِسْلَامُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ فِيهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٧]، وَفِيهِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٩]، وَفِيهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ﴾ [الطَّلَاق: ١].

وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ فَحَسْبُ؛ بَلْ رَتَّبَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ عُقُوبَاتٍ دُنْيَوِيَّةً تُقَامُ عَلَىٰ مَنْ تَعَدَّىٰ هَذِهِ الْحُدُودَ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﷻ، فَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ، وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ، وَالسَّارِقُ يُقْطَعُ، وَالزَّانِي يُجْلَدُ أَوْ يُرْجَمُ؛ وَالْمُحَارِبُ يُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ، أَوْ تُقْطَعُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَىٰ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمُفْتَرِي وَشَارِبُ الْخَمْرِ يُجْلَدَانِ، وَالْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ تُقَاتَلُ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ٩]،

«**وَمَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ[١]، وَمَنْ عَمِلَ جُرْمًا مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ؛ عُوقِبَ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ جُرْمَهُ، وَتَرْدَعُ غَيْرَهُ، وَلَا حُرِّيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ؛ بَلْ هُوَ دِينُ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِشَرِيعَتِهِ.

وَمَنْ شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ؛ دَخَلَ حَظِيرَةَ الْإِسْلَامِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا بِنَاقِضٍ يَنْقُضُهَا، وَلَوْ أَتَىٰ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمَ الْمُوبِقَاتِ، فَلَا يَكْفُرُ بِذَلِكَ، إِلَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِلًّا لَهَا، أَوْ كَانَتْ كُفْرًا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ.

وَقَدْ يَقَعُ الْمُسْلِمُ فِي الْكُفْرِ قَوْلًا كَانَ أَمْ فِعْلًا أَمِ اعْتِقَادًا وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ، أَوْ مُتَأَوِّلٌ، أَوْ مُكْرَهٌ. فَإِذَا أُزِيلَ عُذْرُهُ، وَأُقِيمَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَبَانَتْ لَهُ الْمَحَجَّةُ وَلَا يَزَالُ مُصِرًّا عَلَىٰ مَا بِهِ يَكْفُرُ، فَلَا يَجُوزُ الْحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ وَقَدْ نَقَضَهُ، وَإِلَّا كَانَ الْإِسْلَامُ مُسْتَبَاحَ الْحُدُودِ، مُنْتَهَكَ الْحُرُمَاتِ.

إِنَّ مَسْأَلَةَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ، أَخْطَأَتْ فِيهَا أَفْهَامٌ، وَزَلَّتْ فِيهَا أَقْدَامٌ، وَتَجَاذَبَ خَطَأَهَا فِرْقَتَانِ: فِرْقَةٌ أَدْخَلَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَفِرْقَةٌ أَخْرَجَتِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

فَالْمُرْجِئَةُ الْوَعْدِيَّةُ سَوَّغُوا لِلنَّاسِ الْحُرُمَاتِ، وَأَبَاحُوا لَهُمُ الشَّهَوَاتِ، وَاكْتَفَوْا مِنْهُمْ بِقَوْلِ اللِّسَانِ؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ نُصُوصِ الْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ، الْمَبْثُوثَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (٦٥٢٤)، وأبو داود في الحدود، باب الحكم فيمن ارتد (٤٣٥١)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في المرتد (١٤٥٨)، والنسائي في تحريم الدم، باب الحكم في المرتد (٧/ ١٠٤-١٠٥)، وابن ماجه في الحدود، باب المرتد عن دينه (٢٥٣٥)، وأحمد (١/ ٢١٧).

وَالْخَوَارِجُ الْوَعِيدِيَّةُ حَجَّرُوا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَاسِعًا، وَكَفَّرُوهُمْ بِالذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ نُصُوصِ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ وَالنَّارِ.

وَلَا تُوجَدُ طَائِفَةٌ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الضَّالَّتَيْنِ فِي عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ، أَوْ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ؛ إِلَّا كَانَتِ الْأُخْرَىٰ مُقَابِلَةً لَهَا، فَحَيْثُ يُوجَدُ الْإِرْجَاءُ يُوجَدُ التَّكْفِيرُ، وَإِذَا وُجِدَ التَّكْفِيرُ وُجِدَ الْإِرْجَاءُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْبِدْعَتَيْنِ إِلَّا بِسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّمَسُّكِ بِأَهْدَابِ الدِّينِ، وَإِعْمَالِ النُّصُوصِ كُلِّهَا، بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

إِنَّ إِخْرَاجَ الْمُسْلِمِ مِنْ إِسْلَامِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ خَطِيرٌ عَلَىٰ دِينِ مَنْ فَعَلَهُ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ حَاكِمًا عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِغَيْرِ شَرْعِهِ، بَلْ بِمَا اشْتَهَاهُ؛ وَلِذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَأَخْبَرَ ﷺ: «**أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَفِي لَفْظٍ لأَبِي عَوَانَةَ: «**إِنْ قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ وَجَبَ الْكُفْرُ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا**»(٢)، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(٣)، وَمَعْنَىٰ حَارَ عَلَيْهِ، أَيْ: عَادَ عَلَيْهِ.

بَلْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُفِيدُ أَنَّ تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِ كَقَتْلِهِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ؛ لِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ تَكْفِيرِهِ مُقَاتَلَتَهُ؛ إِذِ الْمُرْتَدُّ يُقْتَلُ، فَكَانَ حُكْمُهُ فِيهِ بِالْكُفْرِ

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٤)، وأحمد (٢/ ١٨)، والبخاري في الآداب، باب من أكفر أخاه بلا تأويل فهو كما قال (٥٧٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (٦٠)، وأبو عوانة (٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦١).

كَالْقَتْلِ لَهُ، رَوَىٰ ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَإِذَا كَانَ تَكْفِيرُ الْمُعَيَّنِ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّتْمِ كَقَتْلِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَكْفِيرُهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الِاعْتِقَادِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ»(٥) اهـ.

وَمَنْ كَفَّرَ مُسْلِمًا فَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَلْعَنَهُ؛ لِأَنَّ لَعْنَ الْمُسْلِمِ لَا يَجُوزُ، فَإِذَا لَعَنَهُ وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ عَادَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَىٰ الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَىٰ قَائِلِهَا**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَنْهَيَانِ عَنْ تَفْسِيقِ الْمُسْلِمِ وَتَكْفِيرِهِ بِبَيَانٍ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا مَدْفَعَ لَهُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ عَقْدُ الْإِسْلَامِ فِي وَقْتٍ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، أَوْ تَأَوَّلَ تَأْوِيلًا، فَاخْتَلَفُوا بَعْدُ فِي خُرُوجِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ لَمْ يَكُنْ

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣)، والبخاري في الآداب، باب ما ينهىٰ من السباب واللعن (٥٧٠٠)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل النفس (١١٠) واللفظ للبخاري.

(٥) الاستقامة (٢/ ١٦٥-١٦٦).

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في اللعن (٤٩٠٥)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٧٤٧)، والبيهقي في الشعب (٥١٦٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٨١)، وجود إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٣٦٧)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢٠٦٩) ثم الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٢) وفي السلسلة الصحيحة (١٢٦٩). وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه عند أحمد (١/ ٤٠٨-٤٢٥) بإسناد جيد.

لِاخْتِلَافِهِمْ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ مَعْنًىٰ يُوجِبُ حُجَّةً، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ آخَرَ، أَوْ سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ لَا مُعَارِضَ لَهَا.

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -وَهُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ - عَلَىٰ أَنَّ أَحَدًا لَا يُخْرِجُهُ ذَنْبُهُ وَإِنْ عَظُمَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَخَالَفَهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ، فَالْوَاجِبُ فِي النَّظَرِ أَنْ لَا يُكَفَّرَ إِلَّا إِنِ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ تَكْفِيرِهِ، أَوْ قَامَ عَلَىٰ تَكْفِيرِهِ دَلِيلٌ لَا مَدْفَعَ لَهُ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ»(٧) اهـ.

وَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ أَخْطَأَ وَغَلِطَ، حَتَّىٰ تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَتُبَيَّنَ لَهُ الْمَحَجَّةُ، وَمَنْ ثَبَتَ إِسْلَامُهُ بِيَقِينٍ، لَمْ يَزَلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ، بَلْ لَا يَزُولُ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ»(٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَنْ يُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨]، بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٧) التمهيد (١٧/ ٢١-٢٢).

(٨) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٤٦٦).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: التَّكْفِيرُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مَرَدُّهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكَمَا أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ وَالْإِيجَابَ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكَذَلِكَ التَّكْفِيرُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا وُصِفَ بِالْكُفْرِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَكُونُ كُفْرًا أَكْبَرَ مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ.

وَلَمَّا كَانَ مَرَدُّ حُكْمِ التَّكْفِيرِ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُكَفَّرَ إِلَّا مَنَّ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَىٰ كُفْرِهِ دَلَالَةً صَرِيحَةً، فَلَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ مُجَرَّدُ الشُّبْهَةِ وَالظَّنِّ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْخَطِيرَةِ؛ وَإِذَا كَانَتِ الْحُدُودُ تُدْرَأُ بِالشُّبُهَاتِ -مَعَ أَنَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا أَقَلُّ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ التَّكْفِيرِ- فَالتَّكْفِيرُ أَوْلَىٰ أَنْ يُدْرَأَ بِالشُّبُهَاتِ(٩).

إِنَّ فُشُوَّ التَّكْفِيرِ أَوِ التَّفْسِيقِ أَوِ التَّبْدِيعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبٌ لِلِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ الِاحْتِرَابُ وَالِاقْتِتَالُ، وَسَفْكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَاخْتِلَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَفَرُّقُ كَلِمَتِهِمْ؛ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفَشَلِ وَالْهَزِيمَةِ، وَتَمْكِينِ الْأَعْدَاءِ، كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ.

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ نَاصِرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَعْنُ الْمُسْلِمِ الْمُعَيَّنِ حَرَامٌ، وَأَشَدُّ مِنْهُ رَمْيُهُ بِالْكُفْرِ، وَخُرُوجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفِي ذَلِكَ أُمُورٌ غَيْرُ مُرْضِيَةٍ مِنْهَا: إِشْمَاتُ الْأَعْدَاءِ بِأَهْلِ هَذِهِ الْمِلَّةِ الزَّكِيَّةِ، وَتَمْكِينُهُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْقَدْحِ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتِضْعَافُهُمْ لِشَرَائِعِ هَذَا الدِّينِ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ رُبَّمَا يُقْتَدَىٰ بِالرَّامِي فِيمَا رَمَىٰ فَيَتَضَاعَفُ وِزْرُهُ بِعَدَدِ مَنْ تَبِعَهُ مَأْثَمًا، وَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ مَنْ رَمَىٰ بِالْكُفْرِ مُسْلِمًا، وَقَدْ رُوِّينَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ: مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ إِلَّا

---

(٩) هذا مقطع من بيان مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة المنعقد في الطائف، في دورته التاسعة والأربعين، برئاسة الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- في ٢/ ٤/ ١٤١٩هـ.

وَبَيْنَهُمَا سِتْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمَا لِأَخِيهِ كَلِمَةَ هَجْرٍ خَرَقَ سِتْرَ اللَّهِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَلَا قَالَ أَحَدُهُمَا: أَنْتَ كَافِرٌ؛ إِلَّا كَفَرَ أَحَدُهُمَا(١٠). فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْوَعِيدِ مِنْ مَزِيدٍ فِي التَّهْدِيدِ؟!

وَلَعَلَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُ لِمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَرَمَىٰ بِالْكُفْرِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ أَخَاهُ، أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ بِحَقٍّ وَرَمَاهُ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، لَا يَسَعُهُ السُّكُوتُ عَنِ الْقَلِيلِ، فَكَيْفَ بِالْجَلِيلِ؟ . . . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! إِنَّ فِي مَجَالِ الْكَلَامِ فِي الرِّجَالِ عَقَبَاتٍ مُرْتَقِيهَا عَلَىٰ خَطَرٍ، وَمُرْتَقِبُهَا هَوًىٰ، لَا مَنْجَىٰ لَهُ مِنَ الْإِثْمِ وَلَا وَزَرَ، فَلَوْ حَاسَبَ نَفْسَهُ الرَّامِي أَخَاهُ مَا السَّبَبُ الَّذِي هَاجَ ذَلِكَ؟ لَتَحَقَّقَ أَنَّهُ الْهَوَىٰ الَّذِي صَاحِبُهُ هَالِكٌ» اهـ(١١).

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُحْتَاجُونَ أَشَدَّ الْحَاجَةِ إِلَىٰ اجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَرَأْبِ صَدْعِهِمْ؛ لِمُوَاجَهَةِ الْأَخْطَارِ الْمُحْدِقَةِ بِهِمْ، وَإِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَرْمِيهِمْ بِالْكُفْرِ أَوِ الْفُسُوقِ أَوِ الْبِدْعَةِ بِلَا بُرْهَانٍ صَحِيحٍ، وَلَا دَلِيلٍ صَرِيحٍ؛ كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ تَفَرُّقٍ وَاخْتِلَافٍ، وَتَحَزُّبٍ وَاحْتِرَابٍ؛ يَخْسَرُ مِنْ جَرَّائِهِ الْمُسْلِمُونَ كَثِيرًا، وَيَرْبَحُ الْأَعْدَاءُ رِبْحًا وَفِيرًا.

وَالْمُسْلِمُونَ كَذَلِكَ مُحْتَاجُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَىٰ عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَسْدِيدِهِ وَحِفْظِهِ وَنَصْرِهِ، وَلَاسِيَّمَا مَعَ تَكَالُبِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ

(١٠) أخرجه موقوفًا علىٰ ابن مسعود ﷺ: البخاري في الأدب المفرد (٤٣٥)، والبيهقي في الشعب (٥٠١٦)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢١٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد ضعيف، وبه ضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد وقال: «لكن الجملة الأخيرة صحيحة عن غير ما واحد من الصحابة منهم أبو ذر ﷺ» (٦٥)، قلت: حديث أبي ذر ﷺ الذي أشار إليه الشيخ مرفوع وهو في صحيح مسلم، ينظر تخريجه في حاشية (٢).

(١١) الرد الوافر (١١-١٣).

يُمَيِّعُ دِينَهُمْ، وَيُبَدِّلُ شَرِيعَتَهُمْ، وَيُحَرِّفُ نُصُوصَهُمْ؛ لِمُجَارَاةِ الْأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةِ الْأَحْدَاثِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَغَضَبِهِ؛ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا فِي رَفْعِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَاخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا الضَّلَالِ الْمُتَرَاكِمِ، وَالْإِثْمِ الْمُتَزَايِدِ، وَمِنْ نَتَائِجِهِ الْخَطِيرَةِ إِلَّا تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَالْأَخْذِ بِالنُّصُوصِ كُلِّهَا، دُونَ تَجْزِئَةٍ وَلَا انْتِقَائِيَّةٍ؛ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحَ آنِيَةٍ أَوْ ذَاتِيَّةٍ؛ وَإِلَّا كَانَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ كَحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؛ فَلَعَنَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَكَتَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ.

وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ، وَاتِّخَاذِ طَرِيقَتِهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٥]، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الْحَدِيد: ١٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



٢٠٩- تكفير المسلمين (٢)
موانع التكفير

٢/ ٦/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَكَلَّفَهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فَهَدَاهُمْ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُجَازِيهِمْ، أَحْمَدُهُ عَلَىٰ تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَقَامَ الحُجَّةَ، وَأَوْضَحَ المَحَجَّةَ، وَنَصَحَ لِلْأُمَّةِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ؛ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ العُدَّةُ لِيَوْمٍ تَسْتَحْكِمُ فِيهِ الشِّدَّةُ، وَتَشْتَدُّ المِحْنَةُ، وَتَعْظُمُ الكُرْبَةُ، حِينَ يُلْجِمُ النَّاسَ عَرَقُهُمْ؛ فَاتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلنَّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَطٌ بَيْنَ إِفْرَاطِ المُفْرِطِينَ، وَتَفْرِيطِ المُفَرِّطِينَ، وَسَطٌ بَيْنَ غُلُوِّ الغَالِينَ، وَجَفَاءِ الجَافِينَ، وَهِيَ الدِّينُ الحَقُّ الَّذِي هُوَ دِينُ الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلَا يُقْبَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الأَدْيَانِ سِوَاهُ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَمَنِ اخْتَارَ الإِسْلَامَ دِينًا لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الحُكْمُ بِكُفْرِهِ إِلَّا بِنَاقِضٍ يَنْقُضُ إِسْلَامَهُ، بَعْدَ أَنْ تُبَيَّنَ لَهُ الحُجَّةُ، وَتُزَالَ عَنْهُ الشُّبْهَةُ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا بِسَبَبِهِ يَكْفُرُ فَلَا يَجُوزُ الحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ دِينُ الإِسْلَامِ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي السُّفَهَاءِ وَالمُحَرِّفِينَ، كَمَا هُوَ حَالُ الأَدْيَانِ المُحَرَّفَةِ أَوِ المَوْضُوعَةِ.

إِنَّ المُسْلِمَ لَا يَكْفُرُ إِلَّا إِذَا أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، أَوِ اعْتَقَدَ اعْتِقَادًا، أَوْ قَالَ قَوْلًا، أَوْ فَعَلَ فِعْلًا، قَدِ انْعَقَدَ الإِجْمَاعُ، أَوْ دَلَّ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ الصَّرِيحُ عَلَىٰ أَنَّهُ كُفْرٌ نَاقِلٌ عَنِ المِلَّةِ، وَلَا يَكْفُرُ بِارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ وَالمُوبِقَاتِ، وَلَوْ جَاءَتِ النُّصُوصُ بِلَعْنِ صَاحِبِهَا أَوْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، أَوْ جَاءَ فِيهَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ بِالْعَذَابِ وَالنَّارِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَحِلَّهَا فَيَكْفُرَ بِالِاسْتِحْلَالِ لَا بِمُجَرَّدِ الفِعْلِ.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُقُوعِ المُسْلِمِ فِي مُكَفِّرٍ مِنَ المُكَفِّرَاتِ الْوَاضِحَةِ الحُكْمُ بِكُفْرِهِ ابْتِدَاءً حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ عُذْرُهُ بِتَوَافُرِ الشُّرُوطِ، وَارْتِفَاعِ المَوَانِعِ مِنَ الجَهْلِ وَالتَّأْوِيلِ وَالإِكْرَاهِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ دَلَّتْ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ سَلَفِ الأُمَّةِ، خِلَافًا لِلْفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي هَذَا البَابِ.

أَمَّا الإِكْرَاهُ فَقَدْ رَخَّصَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ غَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِ أَنَّهُ يُقْتَلُ أَوْ يُعَذَّبُ أَنْ يَقُولَ الكُفْرَ أَوْ يَفْعَلَهُ مَعَ سَلَامَةِ قَلْبِهِ مِنْهُ، وَطُمَأْنِينَتِهِ بِالإِيمَانِ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ عَذَّبَهُ المُشْرِكُونَ، وَمَا تَرَكُوهُ حَتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّىٰ

سَبَبْتُكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: **كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟** قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ، فَقَالَ: **إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»(١).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلِهَذَا اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ المُكْرَهَ عَلَىٰ الكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ»(٢).

وَهَذِهِ الرُّخْصَةُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ، فَمَا كُلُّ النَّاسِ يُطِيقُ العَذَابَ، وَيُوَاجِهُ المَوْتَ فِي سَبِيلِ دِينِهِ، وَمَنْ ثَبَتَ عَلَىٰ دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَعْذِيبِهِ وَقَتْلِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا ثَبَتَ بِلَالٌ رضي الله عنه، وَأَغَاظَ المُشْرِكِينَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الأَفَاعِيلَ؛ حَتَّىٰ كَانُوا يَضَعُونَ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ عَلَىٰ صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الحَرِّ وَيَأْمُرُونَهُ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ فَيَأْبَىٰ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ(٣)، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ(٤).

وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ مُسَيْلِمَةُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا أَسْمَعُ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ(٥).

وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ إِلَّا أَنْ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٤٩)، والبيهقي (٨/ ٢٠٨)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٨٩)، والطبري في تفسيره (١٤/ ١٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: ابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٥٠)، وأحمد (١/ ٤٠٤)، وصححه ابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم (٨/ ٣٢٠).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

يَخَافُوهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيُصَانِعُوهُمْ؛ دَرْءًا لِشَرِّهِمْ، وَرَدًّا لِخَطَرِهِمْ، مَعَ بُغْضِهِمْ لَهُمْ، وَمَعُونَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيْ: إِلَّا أَنْ تَخَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فِي إِبْدَاءِ الْعَدَاوَةِ لِلْكَافِرِينَ، فَلَكُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ الرُّخْصَةُ فِي الْمُسَالَمَةِ وَالْمُهَادَنَةِ، لَا فِي التَّوَلِّي الَّذِي هُوَ مَحَبَّةُ الْقَلْبِ الَّذِي تَتْبَعُهُ النُّصْرَةُ(٦).

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيْ: إِلَّا مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ وَالأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَنِيَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّا لَنُكَشِّرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ» اهـ(٧).

وَالجَهْلُ مَانِعٌ مِنْ وَصْفِ الْمُسْلِمِ بِالْكُفْرِ، إِذَا كَانَ مِثْلُهُ يَجْهَلُ الْكُفْرَ الَّذِي قَالَهُ أَوْ فَعَلَهُ، وَلَوْ أَتَىٰ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلَامِ؛ حَتَّىٰ يُرْفَعَ جَهْلُهُ بِالعِلْمِ، وَتُقَامَ عَلَيْهِ الحُجَّةُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللهُ مَالًا** -أَيْ: كَثَّرَ مَالَهُ أَوْ جَعَلَ لَهُ أَصْلًا مِنْ مَالٍ- **فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ عز وجل، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«فَجَمَعَهُ اللهُ، فَقَالَ: لِمَ**

(٦) تفسير السعدي (١٢٧).

(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨)، وأثر أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه البخاري معلقًا بصيغة التمريض في الآداب، باب المداراة مع الناس (٥/ ٢٢٧١)، ووصله هناد في الزهد (١٢٥٠)، والبيهقي في الشعب (٨١٠٣)، وابن أبي الدنيا في الحلم (١٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٢)، وينظر: تغليق التعليق (٥/ ١٠٢-١٠٣).

فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ لَهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٨].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ، أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ»**[٩].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَهَذَا الرَّجُلُ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ جَمْعِهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ شَكَّ، وَأَنَّهُ لَا يَبْعَثُهُ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الِاعْتِقَادَيْنِ كُفْرٌ يَكْفُرُ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ؛ لَكِنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ العِلْمُ بِمَا يَرُدُّهُ عَنْ جَهْلِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَخَافَ مِنْ عِقَابِهِ؛ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ بِخَشْيَتِهِ، فَمَنْ أَخْطَأَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لَمْ يَكُنْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَيَغْفِرُ اللهُ تَعَالَىٰ خَطَأَهُ أَوْ يُعَذِّبُهُ إِنْ كَانَ مِنْهُ تَفْرِيطٌ فِي اتِّبَاعِ الحَقِّ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، وَأَمَّا تَكْفِيرُ شَخْصٍ عُلِمَ إِيمَانُهُ بِمُجَرَّدِ الغَلَطِ فِي ذَلِكَ فَعَظِيمٌ»اهـ[١٠].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ وَرَحِمَهُ لِجَهْلِهِ؛

---

(٨) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ (حديث الغار) (٣٢٩١)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٧)، والرواية الثانيه للبخاري (٣٢٩٢).

(٩) هذه الرواية للبخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٧٥٦).

(١٠) الاستقامه (١/ ١٦٣-١٦٤).

إِذْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَهُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَجْحَدْ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ عِنَادًا أَوْ تَكْذِيبًا»اهـ(١١).

وَالمُسْلِمُ قَدْ تَعْرِضُ لَهُ شُبْهَةٌ فَتُوقِعُهُ فِي الغَلَطِ، فَيَفْهَمُ النُّصُوصَ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهَا، فَيَقُولُ كُفْرًا أَوْ يَفْعَلُهُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالكُفْرِ حَتَّىٰ يُزِيلَ شُبْهَتَهُ، وَيُصَحِّحَ غَلَطَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا بِهِ كُفِّرَ كُفْرًا ظَاهِرًا وَأُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّ الرِّدَّةِ، وَسَرِيرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ وَقَعَ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَعْمَلَ قُدَامَةَ بنَ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ البَحْرَيْنِ فَقَدِمَ الجَارُودُ سَيِّدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ قُدَامَةَ شَرِبَ فَسَكِرَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ شَهِدَ مَعَكَ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَعَا عُمَرُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَشَهِدَ عَلَيْهِ عِنْدَ عُمَرَ، ثُمَّ كَتَبَ عُمَرُ إِلَىٰ قُدَامَةَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَاسْتَشْهَدَ عُمَرُ زَوْجَةَ قُدَامَةَ فَأَقَامَتِ الشَّهَادَةَ عَلَىٰ زَوْجِهَا، فَقَالَ عُمَرُ لِقُدَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي حَادُّكَ، فَقَالَ: لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ مَا كَانَ لَكُمْ لِتَجْلِدُونِي، فَقَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَ؟ قَالَ قُدَامَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ . . . [المائدة: ٩٣]، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخْطَأْتَ التَّأْوِيلَ، إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْكَ، فَجَلَدَهُ عُمَرُ حَدَّ الخَمْرِ»(١٢).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ظَنَّ أَنَّ الخَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَىٰ العَامَّةِ دُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَشَرِبَهَا

(١١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

(١٢) أخرجه عبد الرزاق (٩/ ٢٤٠) رقم (١٧٠٧)، والبيهقي (٨/ ٣١٥)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢٧٧-١٢٧٨).

مُتَأَوِّلًا، فَأَحْضَرَهُ عُمَرُ، وَاتَّفَقَ هُوَ وَأَئِمَّةُ الصَّحَابَةِ كَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ إِنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ اسْتِحْلَالِهَا كَفَرُوا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِالتَّحْرِيمِ جُلِدُوا، فَأَقَرُّوا بِالتَّحْرِيمِ، ثُمَّ حَصَلَ لِذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ اليَأْسِ وَالقُنُوطِ لِمَا فَعَلَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]، وَأَظُنُّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ: اسْتِحْلَالُكَ الرِّجْسَ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟! وَهَذَا مِنْ عِلْمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَدْلِهِ؛ فَإِنَّ الفَقِيهَ كُلَّ الفَقِيهِ لَا يُؤَيِّسُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يُجَرِّئُهُمْ عَلَىٰ مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاسْتِحْلَالُ المُحَرَّمَاتِ كُفْرٌ، وَاليَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ كُفْرٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُرْجِئَةِ»اهـ(١٣).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَىٰ الحَقِّ المُبِينِ، وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَإِخْوَانَنَا المُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ وَالأَهْوَاءِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ قَضَىٰ بِالحَقِّ، وَأَمَرَ بِالعَدْلِ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

(١٣) الاستقامة (٢/ ١٩٠).

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: قَضِيَّةُ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ مِنْ أَخْطَرِ الْقَضَايَا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ ضَلَّ فِيهَا طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْصَارِ وَالأَزْمَانِ، وَاحْتَارَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ الِاخْتِلَافِ فِيهَا بَيْنَ الْمُفْرِطِينَ وَالْمُفَرِّطِينَ؛ فَأَقْوَامٌ عَرَضَتْ لَهُمْ بَعْضُ الشُّبُهَاتِ فِي إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ فَكَفَّرُوهُمْ ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ بِنَاءً عَلَىٰ تَكْفِيرِهِمْ لَهُمْ، وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ مِنْ إِيقَاعِ الْكُفْرِ عَلَىٰ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، ثُمَّ الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، وَاسْتِبَاحَةِ دَمِهِ وَمَالِهِ؛ وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، أَوْ زَنَىٰ بَعْدَ إِحْصَانِهِ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**»(١٤).

وَمِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ فِي هَذَا الْبَابِ: الْقَوْلُ بِالإِرْجَاءِ، وَنَفْيُ الْكُفْرِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْكُفَّارِ الأَصْلِيِّينَ؛ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالْوَثَنِيِّينَ، أَوِ الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ رَفْضَهُمْ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتِبَانَةِ الْمَحَجَّةِ لَهُمْ، بِحُجَّةِ أَنَّ وَصْفَهُمْ بِالْكُفْرِ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَقَبُولِ الرَّأْيِ الآخَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُجَجِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي تُلْغَىٰ بِهَا شَرِيعَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ إِرْضَاءً لِلْكَافِرِينَ

---

(١٤) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في الديات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] (٦٤٨٤)، ومسلم في المحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

وَالمُنَافِقِينَ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالجَاهِلِينَ.

بَلْ إِنَّ بَعْضَ مَنْ ضَلُّوا فِي هَذَا البَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الحَقَّ خَفِيٌّ، أَوْ أَنَّ الأَدْيَانَ كُلَّهَا مُوَصِّلَةٌ لِرِضَا رَبِّ العَالَمِينَ، فَلَا يَجُوزُ الاخْتِلَافُ بِسَبَبِهَا، وَكُلُّ هَذِهِ الأَقَاوِيلِ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَضَلَالٌ كَبِيرٌ، مَنْ قَالَ بِهَا فَهُوَ يُلْغِي الإِسْلَامَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَقَدْ كَفَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَنِ اسْتَحَقَّ الكُفْرَ مِنْ عِبَادِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وَكَثُرَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لَعْنُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَالحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِالنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا مَا دَامُوا عَلَىٰ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١٥).

فَالحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَدِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَطٌ بَيْنَ الغَالِينَ وَالجَافِينَ، وَلَنْ يَضُرَّهُ ضَلَالُ الضَّالِّينَ، وَلَا تَحْرِيفُ المُحَرِّفِينَ، وَلَا تَخْذِيلُ المُخَذِّلِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ مُهِمَّاتِهِمْ تَحْرِيفَ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَصْدِيرَ الفَتَاوَىٰ الشَّاذَّةِ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا سَلَفٌ، وَهِيَ مُصَادِمَةٌ لِلنُّصُوصِ القَطْعِيَّةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِيَشْتَرُوا بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا، وَلِيَنَالُوا عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، كَمَا فَعَلَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ، وَرُهْبَانِ النَّصَارَىٰ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ

(١٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ أَقْوَالُ المُخَذِّلِينَ، وَتَشْكِيكُ المُشَكِّكِينَ، وَتَلَاعُبُ المُتَلَاعِبِينَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَنْ يَضُرُّوا اللهَ تَعَالَىٰ وَلَا شَرِيعَتَهُ شَيْئًا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....



٢١٠- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١) أثرها على الصحابة والتابعين

١٦/ ٤/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا تَمُوجُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَيَكْثُرُ الْجَدَلُ، وَيَلْتَبِسُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْعَبْدِ أَنْ يَثْبُتَ عَلَىٰ الْجَادَّةِ، وَيَلْزَمَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَيَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ سَلِيمُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ .. قَدْ سَلِمَ قَلْبُهُ مِنَ الشُّبُهَاتِ؛ فَمَا أُشْرِبَهَا، وَسَلِمَ مِنَ الْفِتْنَةِ؛ فَمَا مَالَ إِلَيْهَا، وَسَلِمَ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَمْ يَحْمِلْ فِي قَلْبِهِ غِشًّا وَلَا ضَغِينَةً بِسَبَبِ دُنْيَا مُنِعَ مِنْهَا وَأُعْطِيَتْ لِغَيْرِهِ، وَسَلِمَ قَلْبُهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فَامْتَلَأَ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَوَلَاءً لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِدِينِهِ

وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ سَلَامَةَ قَلْبٍ؛ فَإِنَّ جَوَارِحَهُ سَتَكُونُ نَظِيفَةً سَلِيمَةً، فَلَا تَتَلَطَّخُ يَدُهُ بِدِمَاءٍ مُحَرَّمَةٍ، وَلَا يَقَعُ لِسَانُهُ فِي أَعْرَاضِ إِخْوَانِهِ، وَلَنْ يَكُونَ شَرِيكًا فِي تَأْجِيجِ فِتْنَةٍ . . وَإِذَا مَا اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ فِي حَالِ ضَعْفٍ وَغَفْلَةٍ هَرِعَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَاسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ، وَاعْتَنَىٰ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَسَلَامَةِ جَوَارِحِهِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَالْفِتَنُ لَا تَبْدَأُ عَظِيمَةً كَبِيرَةً، وَلَا تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا مُلْتَبِسَةً مُحَيِّرَةً، وَلَكِنَّهَا تَكْبُرُ شَيْئًا شَيْئًا؛ فَمَنْ سَارَعَ فِيهَا مَلَكَتْهُ وَلَمْ يَمْلِكْهَا، وَسَيَّرَتْهُ وَلَمْ يُسَيِّرْهَا، وَأَوْقَعَتْهُ فِيمَا يُسَبِّبُ خَسَارَتَهُ، وَيُوجِبُ نَدَمَهُ، حِينَهَا يَتَمَنَّىٰ الْمُتَشَرِّبُ بِالْفِتَنِ عَوْدَةَ الزَّمَنِ إِلَىٰ بِدَايَتِهِ؛ لِكَيْلَا يَسِيرَ فِي رِكَابِهَا، وَلَا يَرْكَبَ أَمْوَاجَهَا؛ وَلَكِنْ فَاتَ وَقْتُ التَّمَنِّي، وَحَقَّتْ آثَارُ الْفِتْنَةِ وَنَتَائِجُهَا.

وَالْبَابُ الْمُوصَدُ دُونَ الْفِتَنِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه[(١)]، فَلَمَّا كُسِرَ الْبَابُ بِقَتْلِهِ انْطَلَقَتِ الْفِتَنُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تَقِفُ إِلَّا بِقَتْلِ الدَّجَّالِ، ثُمَّ هَلَاكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ. قَالَ أَعْلَمُ الصَّحَابَةِ بِالْفِتَنِ، وَأَمِينُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «أَوَّلُ الْفِتَنِ قَتْلُ عُثْمَانَ، وَآخِرُ الْفِتَنِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ حُبِّ قَتْلِ عُثْمَانَ إِلَّا تَبِعَ الدَّجَّالَ إِنْ أَدْرَكَهُ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ آمَنَ بِهِ فِي قَبْرِهِ»[(٢)].

(١) دل علىٰ ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه وفيه: أن حذيفة قال لعمر رضي الله عنهما لما سأله عن الفتنة التي تموج موج البحر: «ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: لا بل يكسر، قال عمر: إذا لا يغلق أبدًا» أخرجه البخاري في الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر (٦٦٨٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر (١٤٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٤٧)، ونقله عنه ابن كثير في البداية =

لَقَدْ كَانَ الْخُرُوجُ عَلَىٰ عُثْمَانَ رضي الله عنه وَقَتْلُهُ أَعْظَمَ فِتْنَةٍ ابْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَرَغْمَ أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلُ مِنْ عُثْمَانَ وَهُوَ مَقْتُولٌ أَيْضًا؛ فَإِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ كَانَ أَشَدَّ وَطْأَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا-؛ فَقَاتِلُ عُمَرَ رضي الله عنه فَرْدٌ مَجُوسِيٌّ كَافِرٌ، أَكَلَهُ الْحِقْدُ، وَأَعْمَاهُ الْحَسَدُ، وَمَا ادَّعَىٰ بِقَتْلِ عُمَرَ إِصْلَاحًا .. أَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ فَمُسْلِمُونَ دَاخَلَتْهُمُ الشُّبُهَاتُ، وَتَشَرَّبَتْهُمُ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ، فِي جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الرَّعَاعِ وَالدَّهْمَاءِ، زَعَمُوا بِالْخُرُوجِ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ وَقَتْلِهِ صَلَاحَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ الْفَسَادُ عَيْنُهُ!!

لَقَدْ طَاشَتْ عُقُولُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَعَظُمَ ذَلِكَ فِي نُفُوسِهِمْ، وَضَاقَتْ حِيلَتُهُمْ؛ مِنْ شِدَّةِ الْفِتْنَةِ، وَأَلَمِ الْمُصِيبَةِ، وَهَوْلِ الْفَاجِعَةِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه دَخَلَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَهُوَ مَقْتُولٌ فَوَقَعَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَبْكِي، فَظَنُّوا أَنَّهُ سَيَلْحَقُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ مَا أَلَمَّ بِهِ!![٣].

وَرَغْمَ مَا مَرَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه مِنْ مَصَائِبَ وَحُرُوبٍ وَفِتَنٍ؛ فَإِنَّهُ مَا نَسِيَ مَقْتَلَ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَتَذَكَّرَهُ وَهُوَ يُقَابِلُ أَعْدَاءَهُ فِي مَوْقِعَةِ الْجَمَلِ لِقِتَالِهِمْ، قَالَ قَيْسُ بْنُ عَبَّادٍ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه يَوْمَ الْجَمَلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَقَدْ طَاشَ عَقْلِي يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ، وَأَنْكَرْتُ نَفْسِي، وَجَاءُونِي لِلْبَيْعَةِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُبَايِعَ قَوْمًا قَتَلُوا رَجُلًا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلَا أَسْتَحْيِي مِمَّنْ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟** وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ

= والنهاية (٧/ ١٥٤)، وهو في تاريخ الخلفاء للسيوطي(١٦٢).

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال: «أول الفتن قتل عثمان، وآخرها الدجال» (٧/ ٢٦٤)، وأخرجه عمر بن شبة في أخبار المدينة (٢٢٠٩-٢٢١٠)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٨٨).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٥).

أَنْ أُبَايِعَ وَعُثْمَانُ قَتِيلٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، فَانْصَرَفُوا، فَلَمَّا دُفِنَ رَجَعَ النَّاسُ فَسَأَلُونِي الْبَيْعَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أُقْدِمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَتْ عَزِيمَةٌ فَبَايَعْتُ؛ فَلَقَدْ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ خُذْ مِنِّي لِعُثْمَانَ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ[٤].

كَانَ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ- وَقْتَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ عَائِدَاتٍ مِنَ الْحَجِّ، فَلَمَّا بَلَغَهُنَّ الْخَبَرُ رَجَعْنَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَأَقَمْنَ بِهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِلَىٰ أَنْ خَفَّ أَلَمُ الْمُصِيبَةِ[٥].

وَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ لِيُفَجَّعُوا بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ هَذِهِ الْفَجِيعَةَ الْعَظِيمَةَ لَوْلَا عِلْمُهُمْ أَنَّ لِهَذَا الْحَدَثِ مَا بَعْدَهُ، فَمَا كَانَ لِأُمَّةٍ أَنْ تَخْرُجَ عَلَىٰ سُلْطَانِهَا، وَتَقْتُلَ خَلِيفَتَهَا، ثُمَّ تَأْمَنَ بَعْدَ ذَلِكَ!! لَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ -رَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ- حَجْمَ هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَعَلِمُوا مِقْدَارَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ؛ فَكَانَتْ فَجِيعَتُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ الْحَدَثِ، وَوَصْفُهُمْ لِآثَارِهِ وَقَعَ كَمَا ظَنُّوا.

قَالَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ مَنَافِرَهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَتَأَلَّفُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٦].

(٤) أخرجه الحاكم وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٩٥).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٩٠-٤٩١)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).
وزيد بن صوحان هو ابن حجر بن الحارث بن الهجرس العبدي أسلم في عهد النبي ﷺ، واختلف في صحبته، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٥٥-٥٥٦): «لا أعلم له عن النبي ﷺ رواية وإنما يروي عن عمر وعلي» ثم نقل ابن عبد البر عن محمد بن السائب الكلبي أن زيدا أدرك النبي ﷺ وصحبه، قال ابن عبد البر «ولا أعلم له صحبة ولكنه ممن أدرك النبي ﷺ بسنة مسلما» اهـ. =

وَسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ: «قُتِلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَلَمْ يَنْتَطِحْ فِيهِ عَنْزَانِ، فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ ﷺ: أَجَلْ، إِنَّ الْبَقَرَ وَالمَعْزَ لَا تَنْتَطِحُ فِي قَتْلِ الْخَلِيفَةِ، وَلَكِنْ يَنْتَطِحُ فِيهِ الرِّجَالُ بِالسِّلَاحِ، وَاللَّهِ لَتُقْتَلَنَّ بِهِ أَقْوَامٌ إِنَّهُمْ لَفِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ مَا وُلِدُوا بَعْدُ»(٧).

وَوَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

وَكَانَ حُذَيْفَةُ ﷺ إِذْ ذَاكَ مَرِيضًا مَرَضَهُ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِالْأَمْرِ، فَسَمِعَ رَجُلًا يُنَاجِي امْرَأَتَهُ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَسَأَلَهُمَا: «مَاذَا تَقُولَانِ؟ فَقَالَا: خَيْرًا، فَقَالَ: إِنَّ شَيْئًا تُسِرَّانِهِ دُونِي مَا هُوَ بِخَيْرٍ! قَالَ: قُتِلَ الرَّجُلُ -يَعْنِي عُثْمَانَ- قَالَ: فَاسْتَرْجَعَ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ بِمَعْزِلٍ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ لِمَنْ حَضَرَهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهُوَ لِمَنْ حَضَرَهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، الْيَوْمَ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ بِأَنْفَارِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَبَقَ بِيَ الْفِتَنَ قَادَتَهَا وَعُلُوجَهَا، الْحَظِيُّ مَنْ تَرَدَّىٰ بَعِيرُهُ، فَشَبِعَ شَحْمًا وَقَلَّ عَمَلُهُ»(٨).

= وذكره ابن حبان في مشاهير التابعين بالكوفة في كتابه: مشاهير علماء الأمصار (٧٤٥).
وقال الذهبي في السير (٣/ ٥٢٥): «ذكروه في كتب معرفة الصحابة، ولا صحبة له لكنه أسلم في حياة النبي ﷺ . .» اهـ.
وذكر ابن عساكر في تاريخه وفدا جاءوا إلىٰ النبي ﷺ معهم زيد بن صوحان وأثنىٰ عليهم النبي ﷺ (١٩/ ٤٧٣)، قال الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢٥) بعد أن أورد ذلك: «وعلىٰ هذا فهو صحابي لا محالة».
قلت: المشهور أنه أسلم في وقت النبي ﷺ ولم يره.

(٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٨١)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).
وروىٰ ابن أبي شيبة بسنده إلىٰ محمد بن سيرين قال: «لما قتل عثمان قال عدي بن حاتم: لا تنتطح فيه عنزان، فلما كان يوم صفين فقئت عينه، فقيل: لا تنتطح في قتل عثمان عنزان؟ قال: بلىٰ، وتفقأ فيه عيون كثيرة» (٧/ ٥٢٥) برقم (٣٧٧١٤).

(٨) أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٧٩)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٤). =

وَلمَّا رَأَىٰ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْوَفْدَ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ سَأَلَهُمْ فَقَالَ: «أَمَا مَرَرْتُمْ بِبِلَادِ ثَمُودَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكُمْ مِثْلُهُمْ؛ لَخَلِيفَةُ اللَّهِ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْ نَاقَتِهِ»(٩).

وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه: «لَوْ كَانَ قَتْلُ عُثْمَانَ هُدًىٰ لَاحْتَلَبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ لَبَنًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ ضَلَالًا فَاحْتَلَبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ دَمًا»(١٠).

إِنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْمُتَضَافِرَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ فِي فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ لَتَدُلُّ عَلَىٰ فَهْمِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ لِلْوَاقِعِ مَعَ فِقْهِهِمْ لِلنُّصُوصِ، وَتُثْبِتُ أَنَّهُمْ رضي الله عنهم كَانُوا يُدْرِكُونَ حَجْمَ الْفِتْنَةِ، وَآثَارَهَا السَّيِّئَةَ فِي الْأُمَّةِ، وَأَنَّ دَمَ عُثْمَانَ رضي الله عنه الَّذِي أُهْرِيقَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا سَتَتْبَعُهُ دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ لَنْ يَتَوَقَّفَ نَزِيفُهَا إِلَّا بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ؛ فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَمُنْذُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه وَفِتَنُ الدِّمَاءِ يَأْخُذُ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

وَأَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ نَدِمُوا أَشَدَّ النَّدَمِ، وَمَا ظَنُّوا أَنَّ الْأُمُورَ سَتَبْلُغُ مَا بَلَغَتْ، وَلَكِنْ مَا نَفْعُ نَدَمٍ بَعْدَ سَفْكِ دَمٍ وَإِشْعَالِ نَارِ فِتْنَةٍ، لَا يَمْلِكُ مَنْ أَشْعَلَهَا إِطْفَاءَهَا؟!

وَلمَّا بَلَغَ عَلِيًّا رضي الله عنه أَنَّ قَتَلَةَ عُثْمَانَ نَدِمُوا تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ

= والمعنىٰ فيما يظهر لي: أي: ضعف بعيره عن المسير وعجز عن ذلك بسبب الشحم، كناية عن عدم سيره في الفتنة، واستعجاله إليها، والله أعلم.

(٩) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

(١٠) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣٦٩)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٨٠)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٦٦٠٥).
وجاء مثله عن الحسن البصري: أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٩١)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٥٧).

إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْحَشْر: ١٦][١١].

وَتَلَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ فِي حَقِّهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الْكَهْف: ١٠٢-١٠٣][١٢].

نَعَمْ وَاللَّهِ! إِنَّهُمْ قَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْسَنُوا صُنْعًا بِقَتْلِهِ، وَقَدْ أَسَاءُوا أَعْظَمَ الْإِسَاءَةِ، وَدَعَا سَعْدٌ عَلَيْهِمْ - وَهُوَ مُجَابُ الدَّعْوَةِ - فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ ثُمَّ خُذْهُمْ»[١٣].

فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَ سَعْدٍ، فَمَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَّا مَقْتُولًا؛ كَمَا أَقْسَمَ عَلَىٰ ذَلِكَ بَعْضُ السَّلَفِ[١٤]، وَبَعْضُهُمْ قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ بَعْدَ أَنْ طُورِدُوا وَعُذِّبُوا وَمُثِّلَ بِبَعْضِهِمْ.

نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَنَوَازِعِ الْهَوَىٰ، وَالْتِبَاسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ

---

(١١) أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٤٠)، وهو في مقتل الشهيد عثمان للجاحظ (١٤٩)، والبداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

(١٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

(١٣) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٦)، وابن عساكر(٣٩/ ٤٤٠)، وهو في مقتل الشهيد عثمان للجاحظ (١٤٩).

(١٤) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنَا لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، اللَّهُمَّ احْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَرُدَّ كَيْدَ الْكَائِدِينَ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ لِي وَلَكُمْ؛ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَمْحُو الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي الظُّلَمِ، وَالْوَحْيَ سَبِيلٌ يَهْدِي الْعِبَادَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَا يَحْصُلُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنِ اخْتِلَافٍ وَفُرْقَةٍ، وَتَنَازُعٍ فِي الْأَقْوَالِ، وَتَرَاشُقٍ بِالتُّهَمِ، وَانْتِشَارٍ لِلْأَهْوَاءِ، وَازْدِيَادِ الْفِتَنِ فِي وَقْتٍ عَصِيبٍ عَسِيرٍ لَيَسْتَدْعِي التَّوْبَةَ الْجَمَاعِيَّةَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالتَّجَرُّدَ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَالْتِزَامَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالنُّصْحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ، وَالسَّعْيَ الْحَثِيثَ إِلَىٰ مَا يَجْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَيَرْأَبُ الصَّدْعَ، مَعَ الِاسْتِفَادَةِ مِنَ التَّجَارِبِ

السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُوَاجَهَةِ الْمِحَنِ، وَمُعَالَجَةِ الْفِتَنِ، وَاجْتِنَابِ أَخْطَائِهَا، وَالْتِزَامِ صَوَابِهَا.

وَلَوْ نَظَرْنَا فِي فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﵁ لَوَجَدْنَا أَنَّ بِدَايَتَهَا كَانَتْ مُجَرَّدَ آرَاءٍ فِي الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ سِيَاسَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ تَفَاقَمَتْ بِفِعْلِ أَعْدَاءٍ مَلَأَ الْحِقْدُ قُلُوبَهُمْ، فَانْدَسُّوا فِي صُفُوفِ الدَّهْمَاءِ وَالرَّعَاعِ، يُؤَلِّبُونَهُمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَىٰ الْخُرُوجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﵁ كَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ: ابْنُ السَّوْدَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ، الَّذِي لُقِّبَ بِالْمَوْتِ الْأَسْوَدِ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ طَلَائِعِ الْخَارِجِينَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، يَنْفُخُ فِي نَارِ الْفِتْنَةِ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَىٰ أَيِّ مُبَادَرَةٍ لِرَدِّ الْعُدْوَانِ عَنْ عُثْمَانَ ﵁ وَيُحَرِّضُ عَامَّةَ النَّاسِ، وَيُضَخِّمُ الْأَخْطَاءَ، وَيَتَّخِذُ الْكَذِبَ وَالْأَبَاطِيلَ وَالْإِشَاعَاتِ سَبِيلًا إِلَىٰ مَا يُرِيدُ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ مَا تَمَنَّىٰ، وَكَانَ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ جُمْلَةِ مَنِ اقْتَحَمُوا الدَّارَ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﵁ وَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا(١٥).

وَسَبَبٌ آخَرُ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ السَّبَبِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَانَ مِنْ خَاصَّةِ عُثْمَانَ ﵁، وَأَقَامَ مَعَهُ فِي الدَّارِ، وَلَمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ فِي بِدَايَاتِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ عُثْمَانَ وَالْخَارِجِينَ عَلَيْهِ بِأَنْ يُلَبِّيَ بَعْضَ مَطَالِبِهِمْ، وَكَتَبَ كِتَابًا بِذَلِكَ؛ إِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ، وَحَقْنًا لِلدِّمَاءِ؛ اجْتَهَدَ مَرْوَانُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَافْتَاتَ عَلَىٰ وَلِيِّ أَمْرِهِ، فَكَتَبَ كِتَابًا خَتَمَهُ بِخَاتَمِ عُثْمَانَ، وَوَجَّهَهُ إِلَىٰ أَمِيرِ مِصْرَ يَأْمُرُهُ بِقَتْلِ الْخَوَارِجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَصَلْبِهِمْ، وَتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، فَاطَّلَعَ الْخَارِجُونَ عَلَىٰ عُثْمَانَ عَلَىٰ هَذَا الْكِتَابِ فَثَارَتْ ثَائِرَتُهُمْ، وَعَادُوا مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ أَنْ سَكَنُوا وَتَمَّ الصُّلْحُ، فَحَلَفَ عُثْمَانُ ﵁ أَنَّهُ مَا كَتَبَ كِتَابًا وَلَا رَضِيَهُ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُسَلِّمَ

---

(١٥) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٠) برقم (٣٧٦٩٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٧١)، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧٢)، ومقتل الشهيد عثمان (٢٣٢).

مَرْوَانَ فَأَبَىٰ عُثْمَانُ ﷺ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَقْتُلُوهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَرَأَىٰ عُثْمَانُ أَنَّ اجْتِهَادَ مَرْوَانَ خَاطِئٌ وَلَكِنَّهُ لَا يُوجِبُ قَتْلَهُ، وَلَوِ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ فَذَلِكَ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ وَلَيْسَ لِلْخَوَارِجِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ مَا كَانَ(١٦).

(١٦) قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «وفي رواية أنهم طلبوا منه أن يعزل نوابه عن الأمصار ويولي عليهم من يريدون هم، وإن لم يعزل نفسه أن يسلم لهم مروان بن الحكم فيعاقبوه كما زور علىٰ عثمان كتابه إلىٰ مصر، فخشي عثمان إن سلمه إليهم أن يقتلوه فيكون سببا في قتل امرئ مسلم، وما فعل من الأمر ما يستحق بسببه القتل» اهـ. من البداية والنهاية (٧/ ١٤٥).

وقال في موضع آخر: «وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده: أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلىٰ أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم علىٰ لسان عثمان؛ متأولا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا علىٰ أمير المؤمنين عثمان ﷺ من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات علىٰ عثمان، ويكتب علىٰ لسانه بغير علمه، ويزور علىٰ خطه وخاتمه، ويبعث غلامه علىٰ بعيره بعد ما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين علىٰ تأمير محمد بن أبي بكر علىٰ مصر بخلاف ذلك كله؛ ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب علىٰ خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان؛ أعظموا ذلك مع ما هم مشتملون عليه من الشر، فرجعوا إلىٰ المدينة فطافوا به علىٰ رؤوس الصحابة، وأعانهم علىٰ ذلك قوم آخرون، حتىٰ ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر عثمان ﷺ، فلما قيل لعثمان ﷺ في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين حلف بالله العظيم -وهو الصادق البار الراشد- أنه لم يكتب هذا الكتاب، ولا أملاه علىٰ من كتبه، ولا علم به، فقالوا: إن عليه خاتمك، فقال: إن الرجل قد يزور علىٰ خطه وخاتمه، قالوا: فإنه مع غلامك وعلىٰ جملك، فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك ..» اهـ. من البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).
وينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٥)، وتاريخ خليفة (١٦٩)، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧١)، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (١/ ٨١).

وَكَمَا افْتَاتَ مَرْوَانُ عَلَىٰ عُثْمَانَ رضي الله عنه؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُثَقَّفِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالْإِعْلَامِيِّينَ يَفْتَاتُونَ عَلَىٰ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَيُذْكُونَ نَارَ الْفِتْنَةِ بِالطَّعْنِ فِي الدِّينِ، وَاتِّهَامِ الْبُرَآءِ، وَاخْتِلَاقِ أَسْبَابٍ لِلْإِرْهَابِ لَيْسَتْ صَحِيحَةً، وَالتَّغَافُلِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ.

إِنَّ أَيَّةَ فِتْنَةٍ لَا تَسْتَعِرُ إِلَّا بِأَبْوَاقٍ حَاقِدَةٍ تُؤَلِّبُ النَّاسَ، وَتَدْفَعُ الرَّعَاعَ لِيَكُونُوا حَطَبَهَا، وَفِي الْأَزَمَاتِ وَالْفِتَنِ يَبْرُزُ ذَوُو الْمَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْمَطَامِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالْأَحْقَادِ، وَيَتَّخِذُونَ مِنَ الْفِتْنَةِ مَجَالًا لِلْكَسْبِ الْمَادِّيِّ، أَوْ لِتَصْفِيَةِ حِسَابَاتٍ شَخْصِيَّةٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ حِسَابِ دِمَاءِ النَّاسِ وَآلَامِهِمْ، وَلِوَسَائِلِ الِاتِّصَالِ الْحَدِيثِ مِنْ شَبَكَةٍ عَالَمِيَّةٍ، وَقَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةٍ، وَصُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ نَصِيبٌ كَبِيرٌ فِي ذَلِكَ.

إِنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُتَحَدِّثٍ وَكَاتِبٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ عز وجل فِي قَلَمِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَلَا يُرَوِّجُ الْإِشَاعَاتِ، وَلَا يَخْتَلِقُ الْأَكَاذِيبَ، وَلَا يَرْمِي الْبُرَآءَ بِتُهَمٍ بَاطِلَةٍ؛ لِإِثْبَاتِ رَأْيِهِ، أَوْ نَيْلِ مُرَادِهِ مِنْ كَسْبٍ مَادِّيٍّ، أَوْ تَصْفِيَةِ حِسَابَاتٍ شَخْصِيَّةٍ. وَلْيَكُنْ صَادِقًا فِي مُعَالَجَتِهِ، مُخْلِصًا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ وَالنُّصْحَ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ إِنْ وَقَعَ عَصَفَ بِالْجَمِيعِ.

وَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَصْدُقَ فِي النُّصْحِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ، وَلَا يَفْتَاتُ عَلَىٰ وُلَاةِ أَمْرِهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَظُنُّ فِيهِ صَلَاحًا وَهُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالِاسْتِشَارَةِ.

وَمَا يَقَعُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنِ اسْتِحْلَالٍ لِلدِّمَاءِ الْمُحَرَّمَةِ، وَقَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ، وَبِوَجْهٍ أَخَصَّ فِي مَنْبَعِ الرِّسَالَةِ، وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ، يَنْتَفِعُ بِهِ الْحَاقِدُونَ الْمَوْتُورُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُعْجِبُهُمُ اخْتِلَاطُ الْأَمْرِ، وَاشْتِعَالُ الْفِتَنِ فِي بِلَادِ

المُسْلِمِينَ، وَقَدِ اتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ سِخْرِيًّا بِالطَّعْنِ فِي شَرِيعَتِهِ، وَاتِّهَامِ أَهْلِهِ بِأَنَّهُمْ مُتَعَطِّشُونَ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَانْتِهَاكِ الْحُرُمَاتِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ اللُّطْفَ وَالثَّبَاتَ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَشَرِّ الْحَاسِدِينَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِكُلِّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، اللَّهُمَّ أَبْطِلْ كَيْدَهُمْ، وَأَحْبِطْ عَمَلَهُمْ، وَاكْشِفْ أَمْرَهُمْ، وَاهْتِكْ سِتْرَهُمْ، اللَّهُمَّ مَنْ قَصَدَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ وَالْفَسَادِ فَاكْفِ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ نَحْرِهِ، وَاجْعَلْهُ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

اللَّهُمَّ آمِنَّا فِي أَوْطَانِنَا، وَأَصْلِحْ وُلَاةَ أَمْرِنَا، وَرُدَّ كَيْدَ أَعْدَائِنَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَسَائِرِ الْمُفْسِدِينَ؛ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . .



٢١١- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٢) مدافعة الفتنة وحسن الاختيار

٢٠/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الْمِحَنِ وَالْبَلَايَا، وَالْفِتَنِ وَالرَّزَايَا مَعْرِفَةُ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَهْرِهَا، وَذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَكَسْرِهَا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٥٦]، اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَىٰ حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا مَفَرَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ[1].

وَالْمُؤْمِنُ يُبْتَلَىٰ بِالشَّرِّ كَمَا يُبْتَلَىٰ بِالْخَيْرِ، وَتُصِيبُهُ الضَّرَّاءُ كَمَا تُصِيبُهُ السَّرَّاءُ؛

---

(١) فوائد البلوىٰ والمحن، للعز بن عبد السلام (٩).

فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ. وَإِذَا انْقَشَعَتْ سَحَابَةُ الْمِحَنِ، وَسَكَنَتْ عَاصِفَةُ الْفِتَنِ كَانَ فِي النَّاسِ مَأْجُورٌ وَمَوْزُورٌ، وَسَالِمٌ وَمَوْتُورٌ، وَأَعْظَمُ الْوَتْرِ الْوَتْرُ فِي الدِّينِ، ثُمَّ الْوَتْرُ فِي النَّفْسِ، ثُمَّ فِي الْأَهْلِ وَالمَالِ.

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﵁ وُتِرَ فِي نَفْسِهِ، وَوُتِرَ بِهِ أَهْلُهُ بَعْدَ شِدَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَمِحْنَةٍ عَظِيمَةٍ، وَبَلْوَىٰ كَبِيرَةٍ، أَخْبَرَهُ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ أَصْحَابَهُ ﵃، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ إِخْبَارِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٢).

رَوَىٰ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ ﵁: «أَنَّ عُثْمَانَ ﵁ اسْتَأْذَنَ بِالدُّخُولِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأَبِي مُوسَىٰ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ عَلَىٰ بَلْوَىٰ تُصِيبُهُ**»، قَالَ أَبُو مُوسَىٰ: فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَىٰ بَلْوَىٰ تُصِيبُكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالَ أَبُو مُوسَىٰ: فَذَهَبْتُ فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، قَالَ: فَفَتَحْتُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: وَقُلْتُ الَّذِي قَالَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَبْرًا، أَوِ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: أَنَّ عُثْمَانَ ﵁ حَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ ثُمَّ قَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ(٣).

---

(٢) وذلك أن راوي الحديث أبو موسىٰ الأشعري ﵁، وهو بواب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم، والأشعريون قدموا المدينة عام خيبر سنة سبع، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال هذا الحديث بين العامين السابع والحادي عشر، وعثمان قتل سنة خمس وثلاثين، فوقع إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعد ثمان وعشرين سنة، أو بعد أربع وعشرين سنة أو بينهما.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب عثمان ﵁ (٣٤٩٢)، ومسلم في فضائل الصحابة ﵃، باب من فضائل عثمان ﵁ (٢٤٠٣).
والرواية الثانية لمسلم، وأحمد (٤/ ٣٩٣)، وعبد بن حميد (٥٥٥)، وابن حبان (٦٩١٢).
والرواية الثالثة للبخاري في المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب ﵁ (٣٤٩٠).

وَهَذِهِ الْبَلْوَىٰ الَّتِي أَخْبَرَهُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أَصَابَتْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ رضي الله عنه، وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَتَحَمَّلَ مِنْ أُمُورِ الْأُمَّةِ مَا تَحَمَّلَ؛ فَقَابَلَ بَلْوَاهُ بِثَبَاتٍ عَجِيبٍ، وَصَبْرٍ جَمِيلٍ؛ فَلَمْ يَتَزَحْزَحْ عَنْ إِيمَانِهِ، وَلَا جَزِعَ مِنْ مُصَابِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ.

كَانَتْ بِدَايَةُ هَذِهِ الْبَلْوَىٰ الْعَظِيمَةِ لِهَذَا الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ بِفِتْنَةٍ مُنْكَرَةٍ، أَطَلَّتْ بِرَأْسِهَا فِي آخِرِ خِلَافَتِهِ، أَشْعَلَ نَارَهَا الْمُنَافِقُونَ، وَجَعَلُوا حَطَبَهَا الْجَهَلَةَ وَالرَّعَاعَ مِنْ نُزَّاعِ الْقَبَائِلِ، وَسَفَلَةِ الْأَطْرَافِ وَالْأَرَاذِلِ، قَدِ امْتَلَأَتْ بِالْفِتْنَةِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَاصَوْا بِالشَّرِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَتَرَاسَلُوا وَتَكَاتَبُوا يَسُبُّونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَمْلَئُونَ صُدُورَ الْعَامَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وُلَاتِهِ؛ جَرَّاءَ سِيَاسَاتٍ انْتَقَدُوهَا، وَأَفْعَالٍ نَقِمُوهَا، كَانَ الْحَقُّ فِيهَا مَعَ عُثْمَانَ رضي الله عنه وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَسْتَعْجِلُونَ، وَأَوْبَاشٌ إِلَىٰ الْفِتْنَةِ يُسَارِعُونَ[٤].

فَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ، وَاسْتَطَارَ شَرُّهُمْ، فَمَا عَادَتْ تَكْفِيهِمُ الْمُرَاسَلَاتُ وَالْمُكَاتَبَاتُ، وَلَا أَشْبَعَتْ قُلُوبَهُمُ الْمَفْتُونَةَ الْأَقْوَالُ وَالْمُشَاتَمَاتُ، فَانْتَقَلُوا إِلَىٰ التَّجَمُّعَاتِ وَالْخُرُوجِ الْمُسَلَّحِ؛ فَسَارَ الْمَفْتُونُونَ، يَقُودُهُمُ الْمُنَافِقُونَ، سَارُوا مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ، وَمَوْطِنِ الْخَلِيفَةِ. فَوَصَلُوهَا وَقَدْ أَضْمَرَتْ رُؤُوسُهُمُ الشَّرَّ، وَتَشَرَّبَ أَتْبَاعُهُمُ الْفِتْنَةَ، فَوَقَعَتْ أُمُورٌ عَظَائِمُ، وَكَثُرَتِ الْأَقَاوِيلُ وَالشَّتَائِمُ الَّتِي أُوذِيَ فِيهَا عُثْمَانُ رضي الله عنه إِيذَاءً شَدِيدًا، حَتَّىٰ وَقَفُوا عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَىٰ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَاطَعُوهُ فِي خُطْبَتِهِ بِالسَّبِّ

---

(٤) كان مبتدأ ذلك من الكوفة ثم امتد إلىٰ البصرة حتىٰ وصل إلىٰ مصر، ينظر تفصيل ذلك في: تاريخ الطبري (٤/ ٢٥١)، وتاريخ خليفة (١٥٧)، والكامل (٣/ ٨٢)، وعبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام، للدكتور سليمان بن حمد العودة (١٣٣-١٤٢) وفيه نقولات مهمة، وتحليلات جيدة في هذا الموضوع.

وَالشَّتِيمَةِ، ثُمَّ حَصَبُوهُ بِالْحَصَىٰ فَشَجُّوهُ وَأَدْمَوْهُ، وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ﷺ، وَحُمِلَ إِلَىٰ بَيْتِهِ، وَهُوَ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِهِ(٥).

فَطَمِعَ فِيهِ الْخَوَارِجُ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ ﷺ كَانُوا فِي الْحَجِّ وَفِي الثُّغُورِ، وَالْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَا تَكْفِي لِرَدِّ عُدْوَانِ الْخَوَارِجِ(٦).

---

(٥) ينظر: تاريخ الطبري (٤/ ٣٥١)، والبداية والنهاية (٧/ ١٤١-١٤٢)، وسير أعلام النبلاء، سير الخلفاء الراشدين (١٩٣).

(٦) قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «إن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان ﷺ بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة ﷺ؟ فجوابه من وجوه:

أحدها: أن كثيرا منهم، بل أكثرهم أو كلهم، لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلىٰ قتله، فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عينا، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة؛ إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلىٰ الناس مروان، أو أن يعزل نفسه ويستريح من هذه الضائقة الشديدة. وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع، ولا أن هؤلاء يجترئون عليه إلىٰ ما هذا حده، حتىٰ وقع ما وقع. والله أعلم.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد عزم عثمان علىٰ الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا، فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج لما اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لما اقترب مجيئهم، انتهزوا فرصتهم، قبحهم الله، وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبا من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة؛ لأن الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة وفي الحج. ومع هذا كان كثير من الصحابة قد اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف يضعه علىٰ حبوته إذا احتبىٰ، والخوارج محدقون بدار عثمان ﷺ وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكن ذلك. ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلىٰ الدار يجاحفون عن عثمان ﷺ لكي تقدم الجيوش من الأمصار =

فَحَاصَرُوا عُثْمَانَ ﵁ فِي بَيْتِهِ، وَمَنَعُوا عَنْهُ المَاءَ الْحُلْوَ، فَشَرِبَ المَاءَ المَالِحَ فِي حِصَارِهِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ، وَهُوَ إِمَامُ المُسْلِمِينَ!! أَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِعُثْمَانَ ﵁ وَهُوَ المُبَشَّرُ بِالْجَنَّةِ، وَقَدْ زَوَّجَهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتَيْهِ الْوَاحِدَةَ تِلْوَ الْأُخْرَىٰ، وَجَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»(٧)؟!

لَقَدْ مَنَعُوهُ المَاءَ وَالصَّلَاةَ فِي المَسْجِدِ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ، وَهُوَ إِمَامُهُمْ وَوَلِيُّ أَمْرِهِمْ، وَلَهُ عَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَفْتُونُونَ، قَدْ

= لنصرته، فما فجأ الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها، وأحرقوا بابها، وتسوروا عليه حتىٰ قتلوه.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان ﵁ بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر؛ كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق، وغيرهم.

ولقد أحسن بعض السلف حيث يقول وقد سئل عن عثمان: هو أمير البررة، وقتيل الفجرة، مخذول من خذله، منصور من نصره.

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في آخر ترجمة عثمان وفضائله، بعد حكايته هذا الكلام: «قلت: الذين قتلوه أو ألبوا عليه قتلوا إلىٰ عفو الله ورحمته، والذين خذلوه خذلوا وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبه معاوية وابنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته، استطالوا حياته وملوه مع فضله وسوابقه، فتملك عليهم من هو من بني عمه بضعا وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير. وهذا لفظه بحروفه» البداية والنهاية ط هجر (١٠/ ٣٤٤-٣٤٦)، ولم أقف علىٰ كلام الذهبي هذا في كتبه.

(٧) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﵁: أحمد في المسند (٥/ ٦٣)، وفي فضائل الصحابة (٧٣٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁ وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٧٠١)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢٧٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١١٠).

وجاء بنحوه عن ابن عمر ﵄ عند: أحمد في فضائل الصحابة (٨٥٤).

أَعْمَتِ الْفِتْنَةُ أَبْصَارَهُمْ، وَرَانَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ رَعَاعٍ وَإِمَامٍ، وَلَا عَرَفُوا لِلصَّحَابَةِ فَضْلَهُمْ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، بَلْ مِنْ أَوَائِلِهِمْ إِسْلَامًا وَهِجْرَةً، وَجِهَادًا وَدَعْوَةً!! أَطَلَّ عَلَيْهِمْ ﷺ مِنْ دَارِهِ وَهُوَ مَحْصُورٌ، وَقَدْ أَحَاطُوا بِهِ شَاهِرِينَ أَسْلِحَتَهُمْ، مُتَرَبِّصِينَ بِهِ، فَنَاقَشَهُمْ وَجَادَلَهُمْ، وَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ ضَاقَ المَسْجِدُ بِأَهْلِهِ فَقَالَ: **مَنْ يَشْتَرِي هَذِهِ الْبُقْعَةَ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ فَيَكُونُ فِيهَا كَالْمُسْلِمِينَ وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ**؛ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي فَجَعَلْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ؟! ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِئْرٌ يُسْتَعْذَبُ مِنْهُ إِلَّا رُومَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِيهَا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟**» فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا؟!»[(٨)].

فَأَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ مَا اسْتَجَابُوا وَلَا سَمِعُوا!! طَالَ حِصَارُهُ ﷺ حَتَّىٰ قَارَبَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَعَلِمَ الْخَوَارِجُ أَنَّ الصَّحَابَةَ عَائِدُونَ مِنَ الْحَجِّ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ قَدْ بَلَغَهُمْ مَا يَجْرِي فِي الْمَدِينَةِ، فَسَيَّرُوا الْجُيُوشَ لِنُصْرَةِ الْخَلِيفَةِ،

(٨) أخرج البخاري جزءًا منه معلقًا مجزومًا به فقال: «وقال عثمان: قال النبي ﷺ: «**من يشتري بئر رومة، فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين**» فاشتراها عثمان ﷺ» في المساقاة، باب في الشرب، ومن رأىٰ صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوما كان أو غير مقسوم (٢/ ٨٢٩).

ووصله بتمامه من حديث ثمامة بن حزن القشيري: الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان ﷺ، وقال: حديث حسن (٣٧٠٣)، والنسائي في الأحباس، باب وقف المساجد (٦/ ٢٣٥)، وأحمد (١/ ٧٤).

وجاء بنحوه من حديث أبي عبد الرحمن السلمي: عند الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب (٣٦٩٩)، والنسائي (٦/ ٢٣٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٩١)، وابن حبان (٦٩١٦).

ومن حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عند: النسائي (٦/ ٢٣٦).

فَاسْتَعْجَلُوا قَتْلَهُ ﷺ قَبْلَ قُدُومِ الْحُجَّاجِ، وَوُصُولِ الْجُيُوشِ مِنَ الْأَمْصَارِ(٩).

وَفِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ عُمْرِهِ ﷺ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ إِنْ قَاتَلَهُمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَبْنَائِهِمْ فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَإِنْ تَرَكَهُمْ قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَاخْتَارَ الْقُدُومَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لِمَنْ كَانُوا يَحْمُونَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ: «أُقْسِمُ عَلَىٰ مَنْ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ أَنْ يَكُفَّ يَدَهُ، وَأَنْ يَنْطَلِقَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ» ثُمَّ قَالَ لِرَقِيقِهِ: «مَنْ أَغْمَدَ مِنْكُمْ سَيْفَهُ فَهُوَ حُرٌّ»(١٠).

وَعَنْ أَبِي الصَّلْتِ قَالَ: أَغْفَىٰ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ فَاسْتَيْقَظَ فَقَالَ: «لَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ تَمَنَّىٰ عُثْمَانُ أُمْنِيَةً لَحَدَّثْتُكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللهُ، حَدِّثْنَا فَلَسْنَا نَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَامِي هَذَا، فَقَالَ: إِنَّكَ شَاهِدٌ مَعَنَا الْجُمْعَةَ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١١).

وَرُوِيَ عَنْ مُسْلِمٍ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ: «أَنَّ عُثْمَانَ أَعْتَقَ عِشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ فَشَدَّهَا لَمْ يَلْبَسْهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لِي: اصْبِرْ فَإِنَّكَ

---

(٩) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥٠).
وعن أبي عون مولىٰ المسور بن مخرمة قال: ما زال المصريون كافين عن دمه وعن القتال حتىٰ قدمت أمداد العراق من الكوفة ومن البصرة ومن الشام، فلما جاءوا وشجع القوم حين بلغهم أن البعوث قد فصلت من العراق من عند ابن عامر، ومن مصر من عند عبد الله بن سعد، فقالوا: نعالجه قبل أن تقدم الأمداد. رواه ابن سعد (٣/ ٧١)، والبلاذري (٢/ ٢٩٦)، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٨)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٣٩٩).

(١٠) البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٨)، وشذرات الذهب (١/ ٤٠)، قال ابن العماد: والصحيح أنه لم يتعين قاتله وكانوا أربعة آلاف.

(١١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٧٤)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ٤٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١٠٦).

تُفْطِرُ عِنْدَنَا الْقَابِلَةَ. ثُمَّ دَعَا بِمُصْحَفٍ فَنَشَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ»(١٢).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّمَا لَبِسَ السَّرَاوِيلَ ﷺ فِي هَذَا الْيَوْمِ لِئَلَّا تَبْدُوَ عَوْرَتُهُ إِذَا قُتِلَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، كَانَتْ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؛ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمُصْحَفَ يَتْلُو فِيهِ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ ﷻ، وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الْقِتَالِ، وَأَمَرَ النَّاسَ وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُقَاتِلُوا دُونَهُ، وَلَوْلَا عَزِيمَتُهُ عَلَيْهِمْ لَنَصَرُوهُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَلَكِنْ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»(١٣).

وَثَبَتَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ: أَنَّ أَوَّلَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ سَقَطَتْ عَلَىٰ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٧] وَيُرْوَىٰ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهَا فِي تِلَاوَتِهِ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ الْأَشْقِيَاءُ(١٤).

وَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّهُ لَمَّا طُعِنَ ﷺ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ، وَإِذَا الدَّمُ يَسِيلُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، فَقَطَرَ وَالْمُصْحَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاتَّكَأَ عَلَىٰ شِقِّهِ الْأَيْسَرِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقْرَأُ الْمُصْحَفَ، وَالدَّمُ يَسِيلُ عَلَىٰ الْمُصْحَفِ حَتَّىٰ وَقَفَ الدَّمُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة:١٣٧] وَأَطْبَقَ الْمُصْحَفَ وَضَرَبُوهُ جَمِيعًا ضَرْبَةً وَاحِدَةً»(١٥).

---

(١٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٧٢)، وفي فضائل الصحابة (٩٠٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٥٢٦). لكن ضعفه محققو المسند (ط الرسالة) فقالوا: إسناده ضعيف، يونس ابن أبي يعفور -وإن خرج له مسلم- كثير الخطأ، وصفه بذلك الحافظ في «التقريب»، وضعفه ابن معين والنسائي والساجي وأحمد، وقال الدارقطني: ثقة، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن عدي: هو عندي ممن يكتب حديثه، يعني للمتابعات والشواهد، وقال ابن حبان في «الضعفاء»: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات (٥٢٦).

(١٣) البداية والنهاية (١٠/ ٣٠٣).

(١٤) أخرجه خليفة في تاريخه (١٩٠)، وابن سعد (٣/ ٧٣).

(١٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٧٤)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٣).

وَقَدْ أَقْسَمَ بَعْضُ السَّلَفِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ: «أَنَّهُ مَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَّا مَقْتُولًا، أَصَابَتْهُمْ دَعْوَةُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ -وَهُوَ مُجَابُ الدَّعْوَةِ- فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ ثُمَّ خُذْهُمْ»(١٦).

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- «أَنَّ عَامَّةَ الرَّكْبِ الَّذِينَ سَارُوا إِلَىٰ عُثْمَانَ جُنُّوا»(١٧).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «كُنْتُ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَغْفِرَ لِي! فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَقُولُ مَا تَقُولُ، قَالَ: كُنْتُ أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْدًا إِنْ قَدَرْتُ أَنْ أَلْطِمَ وَجْهَ عُثْمَانَ إِلَّا لَطَمْتُهُ، فَلَمَّا قُتِلَ وُضِعَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ فِي الْبَيْتِ، وَالنَّاسُ يَجِيئُونَ فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، فَدَخَلْتُ كَأَنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُ خَلْوَةً، فَرَفَعْتُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ فَلَطَمْتُهُ وَسَجَّيْتُهُ، وَقَدْ يَبِسَتْ يَمِينِي». قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «فَرَأَيْتُهَا يَابِسَةً كَأَنَّهَا عُودٌ»(١٨).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَنَسْأَلُه تَعَالَىٰ أَنْ يَعْصِمَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الدِّمَاءِ الْمُحَرَّمَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



(١٦) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٦)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٠).

(١٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٤٥) رقم (١٣٤)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وإسناده حسن (٩/ ٩٤).

(١٨) أخرجه اللالكائي في السنة (٢٣٦٣)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٦).

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَىٰ أَثَرَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَسَلُوهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٩).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: هَدْيُ الصَّحَابَةِ ﷺ خَيْرُ الْهَدْيِ، وَهُمْ أَصْلَحُ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَفِقْهًا، فَمَنْ رَامَ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الْحَقِّ؛ فَلْيَسْلُكْ مَسْلَكَهُمْ، وَلْيَسْتَمْسِكْ بِهَدْيِهِمْ، وَلْيَنْهَلْ مِنْ فِقْهِهِمْ وَعِلْمِهِمْ.

وَفِي حَادِثَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ، وَمَوْقِفِهِ مِنْ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْعَمْيَاءِ: مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ﷺ كَانَ مِنْ كِبَارِ فُقَهَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ أَشَدِّهِمْ تَأَسِّيًا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّتِهِ، وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ، وَلَمْ تُفْقِدْهُ الْفِتْنَةُ صَوَابَهُ، وَلَا خَرَجَ عَنِ الِاتِّبَاعِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، رَغْمَ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ شِدَّةٍ وَمِحْنَةٍ. وَيَتَجَلَّىٰ ذَلِكَ أَكْثَرَ مَا يَتَجَلَّىٰ فِي اسْتِسْلَامِهِ لِقَضَاءِ

---

(١٩) كما في حديث معاذ بن رفاعة، عن أبيه، قال: قام أبو بكر الصديق علىٰ المنبر ثم بكىٰ فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول علىٰ المنبر ثم بكىٰ فقال: «**اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية**» أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (١١٨)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه عن أبي بكر (٣٥٥٨)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٧١٨)، وابن ماجه في الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩)، وأحمد (١/ ٣-٥-٧-٩)، وصححه ابن حبان (موارد: ٢٤٢١)، والحاكم (١/ ٧١١)، وأحمد شاكر (٥-٦-١٠).

اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَحَقْنِهِ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَقْدِيم مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ الْخَاصَّةِ؛ بِالِاكْتِفَاءِ بِسَفْكِ دَمِهِ دُونَ دَمِ غَيْرِهِ، مَعَ وُجُودِ مَنْ سَيُدَافِعُ عَنْهُ، وَيَقِيهِ بِدَمِهِ؛ لَكِنَّهُ رَأَىٰ أَنْ لَا فَائِدَةَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ؛ فَكَانَ شُجَاعًا، وَاجَهَ الْأَمْرَ وَحْدَهُ، وَأَعْفَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَبِعَةِ ذَلِكَ، فَحَقَنَ بِفِعْلِهِ هَذَا دِمَاءً كَثِيرَةً.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِقْهًا وَعِلْمًا أَنَّهُ رَفَضَ التَّنَازُلَ عَنِ الْخِلَافَةِ تَلْبِيَةً لِمَطَالِبِ الْخَوَارِجِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ ذَهَابُ نَفْسِهِ؛ إِعْمَالًا لِلنُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي اسْتَحْضَرَهَا فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ، وَعَلِمَ مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ رَغْمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْمِحْنَةِ؛ فَمَنْ يَثْبُتُ عَقْلُهُ كَمَا ثَبَتَ عَقْلُ عُثْمَانَ فِي فِتْنَةٍ تَجْعَلُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ؟!

رَوَىٰ أَبُو سَهْلَةَ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ أَنَّ عُثْمَانَ قَالَ يَوْمَ الدَّارِ حِينَ حُصِرَ: «إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، فَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ، قَالَ قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: فَكَانُوا يَرَوْنَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٢٠).

وَرَوَتْ عَائِشَةُ ﷺ فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا عُثْمَانُ، لَعَلَّ اللهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَىٰ خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّىٰ يَخْلَعُوهُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَفِي لَفْظٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «**إِنَّ اللهَ لَعَلَّهُ يُقَمِّصُكَ**

(٢٠) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ وقال: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث إسماعيل بن أبي خالد (٣٧١١)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١١٣)، وأحمد (١/ ٥٧-٦٩)، وصححه ابن حبان (٦٩١٨)، وأحمد شاكر ونبه علىٰ أن الحاكم روىٰ هذا الحديث وحديث عائشة في مقتل عثمان فجعلهما حديثًا واحدًا في المستدرك (٣/ ٩٩)، قال: والصواب أنهما حديثان منفصلان، وأن الخطأ من بعض الرواة. انتهىٰ من شرح المسند (٤٠٧).

قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ أَحَدٌ عَلَىٰ خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَ كُنْتِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ أُنْسِيتُهُ[٢١]. فَرَضِيَ اللهُ عَنْ عَائِشَةَ؛ نَسِيَتْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ تَذَكَّرَتْهُ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ عُثْمَانَ مَا نَسِيَهُ رَغْمَ المُصِيبَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثَبَاتِ عُثْمَانَ، وَشِدَّةِ امْتِثَالِهِ لِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ.

وَرَوَتْ عَائِشَةُ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا عُثْمَانَ يَوْمًا فَتَنَحَّىٰ بِهِ، فَجَعَلَ يُسَارُّهُ، وَلَوْنُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الدَّارِ وَحُصِرَ فِيهَا قُلْنَا: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَلَا تُقَاتِلُ؟ قَالَ: لَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢٢].

لَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ ﵁ مُسَدَّدًا فِي رَأْيِهِ، مُوَفَّقًا فِي اخْتِيَارِهِ، وَتَجَاوَزَ الْفِتْنَةَ بِأَقَلِّ الْخَسَائِرِ، وَأَكْبَرِ المَكَاسِبِ، فَلَقِيَ اللهَ ﷻ وَقَدْ حَفِظَ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَصِيَّتَهُ، وَلَمْ تَتَلَطَّخْ يَدَاهُ بِدِمَاءٍ مَعْصُومَةٍ مُحَرَّمَةٍ، بَلْ لَمْ يَسْفِكْ حَتَّىٰ دِمَاءَ أَعْدَائِهِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وَقُتِلَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَيَجِدُ عُقْبَىٰ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ اسْتِمْسَاكَهُ ﵁ بِالْخِلَافَةِ حَتَّىٰ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، مَعَ عَدَمِ الْقِتَالِ عَلَيْهَا كَانَ الْخِيَارَ الْحَسَنَ بَيْنَ شَرَّيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ فَلَوْ قَاتَلَ عَلَيْهَا لَسُفِكَتْ دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنْ ضِمْنِهَا دَمُهُ، فَكَانَتِ الْخَسَائِرُ أَكْبَرَ، وَلَوْ تَنَحَّىٰ عَنِ الْخِلَافَةِ لَمَا وَفَىٰ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ، وَفِي تَنَحِّيهِ عَنْهَا فَتْحٌ لِبَابِ شَرٍّ كَبِيرٍ عَلَىٰ الْأُمَّةِ؛ إِذْ يَتَوَلَّىٰ

---

(٢١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁، وقال: حديث حسن غريب (٣٧٠٥)، والطبراني في مسند الشاميين (١٩٣٤)، وصححه ابن حبان (٦٩١٥).

(٢٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١١٣)، وأحمد (٦/ ٥١-٢١٤)، وأبو يعلىٰ (٤٨٠٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١٠٦).

شُؤُونَهَا الرَّعَاعُ وَالدَّهْمَاءُ، يَقُودُهُمْ أَصْحَابُ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ، فَيَعْزِلُونَ مَنْ شَاءُوا، وَيُوَلُّونَ مَنْ شَاءُوا حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، وَمَنْصِبُ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَىٰ لَيْسَ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي السُّفَهَاءِ وَالدَّهْمَاءِ، بَلْ هُوَ شَأْنُ كُبَرَاءِ الْأُمَّةِ وَعُقَلَائِهَا وَعُلَمَائِهَا مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ. وَلَا يَفْتَاتُ عَلَىٰ هَذَا الْحَقِّ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أُشْرِبَ الْفِتْنَةَ، كَمَا أُشْرِبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، وَلَا يَطْعَنُ فِيهِ لِأَجْلِ دُنْيَا لَمْ يُصِبْهَا إِلَّا طُلَّابُ الدُّنْيَا، وَعُبَّادُ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ الَّذِينَ إِنْ أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ فَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ.

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ هُدَاةً مُهْتَدِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، وَهَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَصْلَحَ لَنَا أَحْوَالَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



٢١٢- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٣) من أسبابها: الانفتاح على الدنيا

٢٦/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُبْدِي وَيُعِيدُ، وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُعَدُّ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هُوَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَاخْتَصَّهُ بِأَعْلَىٰ الْمَقَامِ وَالْمَكَانَةِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنَصَرُوهُ وَعَزَّرُوهُ، وَآوَوْهُ وَأَكْرَمُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ. لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُ النَّاسِ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَمَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ. وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ عز وجل؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَىٰ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعِبَادَ مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ تَقْوَىٰ رَبِّهِمْ فِي عُسْرِهِمْ وَيُسْرِهِمْ، وَمَنْشَطِهِمْ وَمَكْرَهِهِمْ، وَمُفْتَقِرُونَ إِلَىٰ هِدَايَةِ رَبِّهِمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ. وَالتَّقْوَىٰ سَبِيلٌ لِلْهِدَايَةِ وَالنَّجَاةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَثْرَةُ النِّعَمِ عِنْدَ النَّاسِ، وَتَدَفُّقُ الْخَيْرَاتِ عَلَيْهِمْ، وَحُصُولُ الْفَرَاغِ

لَدَيْهِمْ؛ سِلَاحٌ ذُو حَدَّيْنِ؛ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ يُحَقِّقُ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الرَّفَاهِيَةِ، وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ كَثِيرَةٍ؛ لِضَمَانِ قُوتِهِمْ، وَكَثْرَةِ فَرَاغِهِمْ، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بَسْطَةً فِي المَالِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ؛ تَيَسَّرَ لَهُ الْإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَنَفْعِ النَّاسِ، وَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ بِالْأُجُورِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النِّعَمِ سَبَبٌ لِلْأَشَرِ وَالْبَطَرِ، وَانْفِتَاحِ أَبْوَابِ الْفِتَنِ، وَضَعْفِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَكَثْرَةِ السُّخْطِ وَالتَّشَكِّي؛ فَلَا الْفَقِيرُ يَصْبِرُ، وَلَا المَسْتُورُ يَقْنَعُ، وَلَا الْغَنِيُّ يَرْضَىٰ.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ: كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ، وَاتِّسَاعُ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَفَرَاغُهُمْ بَعْدَ أَنْ فُتِحَتِ الْأَقَالِيمُ، وَغَنِمُوا وَاطْمَأَنُّوا، فَأَخَذُوا يَنْقِمُونَ عَلَىٰ خَلِيفَتِهِمْ؛ إِذْ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ.

وَقَدْ نَقَلَ المُؤَرِّخُونَ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ قَوْلَ حَكِيمِ بنِ عَبَّادِ ابْنِ حُنَيْفٍ: «إِنَّ أَوَّلَ مُنْكَرٍ ظَهَرَ بِالمَدِينَةِ حِينَ فَاضَتِ الدُّنْيَا، وَانْتَهَىٰ سِمَنُ النَّاسِ»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ ذَكَرَ: «لَهْوَ النَّاسِ بِالْحَمَامِ، وَالرَّمْيَ عَلَىٰ الْجُلَاهِقَاتِ» وَهِيَ قَوْسُ الْبُنْدُقِ كَانَتْ تُتَّخَذُ لِلَّهْوِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ عُثْمَانَ ﷺ قَصَّ الطُّيُورَ، وَكَسَرَ الْجُلَاهِقَاتِ(٢).

كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ عُمَرَ ﷺ: حَبْسُ النَّاسِ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَزْهِيدُهُمْ فِيهَا، وَتَقْلِيلُ حَظِّهِمْ مِنْهَا، وَإِشْغَالُهُمْ عَنْهَا بِالْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَدَأَ بِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَعَسَفَ رَعِيَّتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَمَا اسْتَطَاعَ عُثْمَانُ لَمَّا جَاءَ بَعْدَهُ أَنْ يَسِيرَ سِيرَتَهُ، وَيَعْمَلَ بِسِيَاسَتِهِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الرَّهَقِ وَالمَشَقَّةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨٠)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٢٢٨).

(٢) الكامل لابن الأثير (٣/ ٧٠).

وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ لَمَّا تَوَلَّىٰ أَمْرَ الشُّورَىٰ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ عُمَرُ ﷺ: عَزْلُ نَفْسِهِ مِنَ الْخِلَافَةِ؛ فَإِنَّهُ ﷺ خَطَبَ فِي النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَانْظُرْ فِي أُمُورِ النَّاسِ -يَقْصِدُ أَنْ يَتَوَلَّىٰ الْخِلَافَةَ- فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! إِنَّهُ لَنْ يَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ بَعْدَ عُمَرَ إِلَّا لَامَهُ النَّاسُ»(٣).

وَقَدْ وَصَفَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْأَحْوَالَ آنَذَاكَ وَصْفًا دَقِيقًا، أَثْبَتَ فِيهِ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ: انْفِتَاحَ النَّاسِ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَخَاصَّةً الْأَكَابِرَ مِنْهُمْ -وَهُمْ قُرَيْشٌ-؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَتْبَعُونَ هَدْيَهُمْ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمْ يَمُتْ عُمَرُ حَتَّىٰ مَلَّتْهُ قُرَيْشٌ، وَقَدْ كَانَ حَصَرَهُمْ بِالمَدِينَةِ فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ انْتِشَارُكُمْ فِي الْبِلَادِ؛ فَإِنْ جَاءَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي الْغَزْوِ قَالَ لَهُ: قَدْ كَانَ لَكَ فِي غَزْوِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يُبَلِّغُكَ، وَخَيْرٌ لَكَ مِنْ غَزْوِكَ الْيَوْمَ أَلَّا تَرَىٰ الدُّنْيَا وَلَا تَرَاكَ، وَكَانَ يَفْعَلُ هَذَا بِالمُهَاجِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّ الإِمَامَةَ فِيهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ ﷺ خَلَّىٰ عَنْهُمْ، فَانْتَشَرُوا فِي الْبِلَادِ، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ»(٤).

وَكَانَ عُثْمَانُ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ عُمَرَ ﷺ أَتْعَبَ وَاللَّهِ مَنْ تَبِعَ أَثَرَهُ»(٥).

وَلَمْ تَمْضِ سَنَةٌ مِنْ إِمَارَةِ عُثْمَانَ ﷺ حَتَّىٰ اتَّخَذَ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ الْأَمْوَالَ فِي

---

(٣) أخرجه اللالكائي في السنة (٢٥٥٠)، وابن عساكر (٣٥/ ٢٩٢)، وذكره الذهبي في السير (١/ ٨٧).

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٩)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٢-٣٠٣)، ونقله ابن الأثير في الكامل (٣/ ٧٠)، وما بين الحاصرتين ليس من كلام الشعبي، وإنما هو إيضاح مني.

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨١).

الْأَمْصَارِ، وَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهُمْ، وَثَبَتُوا سَبْعَ سِنِينَ عَلَىٰ حَالِهِمْ هَذِهِ، ثُمَّ أَفْسَدَتِ الدُّنْيَا أَبْنَاءَهُمْ(٦)، فَسَأَلُوا عُثْمَانَ الْإِمَارَةَ فَلَمْ يَرَهُمْ أَكْفَاءَ لَهَا، فَنَقَمُوا عَلَيْهِ، فَاسْتَغَلَّهُمْ رُؤُوسُ الْفِتْنَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ، وَأَلَّبُوهُمْ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ، فَكَانُوا مِنَ الْخَوَارِجِ عَلَيْهِ؛ نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

كَانَ مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي نَفِسَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ(٧)، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ الَّذِي وُلِدَ فِي الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ(٨).

---

(٦) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٧٩)، والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان للمالقىٰ الأندلسي (٩١).

(٧) أخرجه مرسلا من حديث سعيد بن المسيب: أن أسماء بنت عميس نفست بمحمد بن أبي بكر الصديق بذي الحليفة وهم يريدون حجة الوداع ... : ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٨٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٥٧)، والبيهقي (٥/ ٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٤١) برقم (٣٧٤) وصححه مرسلا: الضياء في المختارة (٥٣).
ورواه مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه: عن أسماء، وفي إسناد آخر: عن أبيه أن أسماء، وفي إسناد ثالث: عن أبيه عن عائشة، قال الدارقطني في العلل (١/ ٢٧٠) بعد أن ذكرها كلها: «وأصحها عندي قول مالك ومن تابعه».
وأخرجه النسائي في مناسك الحج، باب الغسل للإهلال (٥/ ١٢٧-١٢٨)، وابن ماجه في المناسك، باب النفساء والحائض تهل بالحج (٩٧٢)، والبزار (٧٨) من حديث يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن القاسم بن محمد عن أبيه عن أبي بكر ﷺ قال: «أمر رسول الله ﷺ أسماء بنت عميس حين نفست بمحمد بن أبي بكر أن تغتسل وتهل» قال البزار: «وهذا الحديث هكذا رواه يحيىٰ بن سعيد عن القاسم بن محمد عن أبيه عن جده، ورواه عبد الله بن عمر عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة، وقد روي عن القاسم عن أسماء، ومحمد بن أبي بكر كان صغيرا حين توفي أبو بكر ﷺ إنما كان له أقل من ثلاث سنين» اهـ من مسند البزار (١/ ١٥٦).
وثبت ذلك من حديث جابر بن عبد الله ﷺ في ذكر قصة حجة النبي ﷺ وفيه قال جابر: «حتىٰ أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر ...» أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٢٦٩)، وذكره الذهبي في السير (٣/ ٤٨٠). =

وَكِلَا الِاثْنَيْنِ مَا أُتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ الدُّنْيَا، وَلَا حَرَّضَهُمَا مَنْ حَرَّضَهُمَا عَلَىٰ عُثْمَانَ رضي الله عنه إِلَّا بِهَا؛ إِذْ طَلَبَا الْإِمَارَةَ فَلَمَّا لَمْ يُمَكَّنَا مِنْهَا؛ نَكَثَا الْبَيْعَةَ، وَنَازَعَا السُّلْطَانَ، فَهَاجَ مَعَهُمَا أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ:

أَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجَ عَلَىٰ عُثْمَانَ يَطْلُبُ وِلَايَةَ مِصْرَ(٩)، فَوَلَّاهُ عَلَيْهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ؛ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ، وَتَسْكِينًا لِلدَّهْمَاءِ، وَإِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ(١٠).

وَلَكِنَّ مَنْ خَرَجُوا مَعَهُ مَا أَرَادُوا إِلَّا دَمَ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَكَانَ مُحَمَّدٌ فِيمَنْ دَخَلَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَقْتَ مَقْتَلِهِ، فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَا ابْنَ أَخِي، مَا كَانَ أَبُوكَ لِيَأْخُذَ بِلِحْيَتِي»(١١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَقَدْ أَخَذْتَ بِلِحْيَةٍ كَانَ أَبُوكَ يُكْرِمُهَا»(١٢).

= وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس علىٰ حربه -أي: عثمان- والإنكار عليه، وكان عظم ذلك مسندا إلىٰ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة؛ حتىٰ استنفرا نحوا من ست مئة راكب يذهبون إلىٰ المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب؛ لينكروا علىٰ عثمان فساروا إليه تحت أربع أرفاق ... وأقبل معهم محمد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء» اهـ من البداية (٧/ ١٣٧) أحداث سنة (٣٥).

(٩) سئل سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن محمد بن أبي بكر: «ما دعاه إلىٰ ركوب عثمان؟ فقال: الغضب والطمع، قيل: ما الغضب والطمع؟ قال: كان من الإسلام بالمكان الذي هو به، وغره أقوام فطمع، وكانت له دالة فلزمه حق، فأخذه عثمان من ظهره ولم يداهن، فاجتمع هذا إلىٰ هذا، فصار مذمما بعد أن كان محمدا» أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨١)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٥).

(١٠) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٥).

(١١) أخرجه من حديث الشعبي -رحمه الله تعالىٰ-: عمر بن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٢٩١) برقم (٢٣٣٠).

(١٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٤٩)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٣٠) وفيه: «وكان أول من دخل عليه الدار محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته، فقال: له دعها يا ابن أخي، فوالله لقد كان =

فَاسْتَحْيَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ، وَظَهَرَ لَهُ خَطَؤُهُ، فَتَذَمَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَغَطَّىٰ وَجْهَهُ حَيَاءً، وَرَجَعَ وَحَاجَزَ دُونَ عُثْمَانَ يَحْمِيهِ فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَتَمَكُّنِ أَهْلِ الْفِتْنَةِ وَالْأَهْوَاءِ(١٣)، ثُمَّ إِنَّهُ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ هُوَ سَبَبًا فِي إِشْعَالِهَا، وَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ بِمَا نَالَهُ مِنْ أَذًىٰ وَقَتْلٍ، وَبِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ نَدَمٍ وَرُجُوعٍ إِلَىٰ الْحَقِّ(١٤).

وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ فَقَدْ كَانَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ عُثْمَانَ، وَكَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه وَالِيَ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَمُحْتَمِلًا كَلَّهُمْ، وَقَيِّمًا عَلَيْهِمْ، فَسَأَلَ عُثْمَانَ أَنْ يُؤَمِّرَهُ فَاعْتَذَرَ عُثْمَانُ مِنْهُ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ يَطْلُبُ الْإِمَارَةَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَا بُنَيَّ، لَوْ كُنْتَ رِضًا لَاسْتَعْمَلْتُكَ، قَالَ: فَأْذَنْ لِي فَأَخْرُجَ فَأَطْلُبَ الرِّزْقَ، قَالَ: اذْهَبْ حَيْثُ

= أبوك يكرمها، فاستحيا وخرج» اهـ وينظر أيضًا: تاريخ الطبري (٢/ ٦٦٥).
وروىٰ أبو سعيد مولىٰ أبي أسيد الأنصاري: «أن محمد بن أبي بكر دخل عليه فأخذ بلحيته قال: فقال له: قد أخذت مني مأخذا، وقعدت مني مقعدا ما كان أبو بكر ليقعده أو ليأخذه، قال: فخرج وتركه» اهـ من تاريخ الطبري (٢/ ٦٧١)، ورواه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٢) برقم (٧٦٥)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٢٨٦) (٢٣٢٩) عن الحسن.
وروىٰ الشعبي: «أن محمد بن أبي بكر دخل علىٰ عثمان فأخذ بلحيته فقال: أرسل لحيتي فلم يكن أبوك ليتناولها فأرسلها» أخرجه الطبري (٢/ ٦٧٧)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٠).
وروىٰ سعيد بن المسيب: «أن محمد أبي بكر دخل علىٰ عثمان فأخذ بلحيته، فقال له عثمان رضي الله عنه: أما والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني، فتراخت يده» أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٣٠٠) برقم (٢٣٦٣)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٨).
(١٣) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).
(١٤) ذكر الذهبي في العبر (١/ ٤٤): «أن محمد بن أبي بكر هزم من جيش معاوية بن حديج الكندي فاختفىٰ في بيت لامرأة فدلت عليه، فقال: احفظوني في أبي بكر، فقال معاوية بن حديج: قتلت ثمانية من قومي في دم عثمان وأتركك، فقتله وصيره في بطن حمار وأحرقه»، ونحوه في السير (٣/ ٤٨٢).

شِئْتَ، وَجَهَّزَهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَحَمَلَهُ وَأَعْطَاهُ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ، فَذَهَبَ إِلَىٰ مِصْرَ، وَتَغَيَّرَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَىٰ الْفِتْنَةِ؛ لِأَنَّ عُثْمَانَ مَنَعَهُ الْوِلَايَةَ»(١٥).

وَيُرْوَىٰ أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ نَصَحَهُ فَمَا انْتَصَحَ؛ فَقَدْ رَكِبَ مَعَهُ السَّفِينَةَ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ: «يَا كَعْبُ، كَيْفَ تَجِدُ نَعْتَ سَفِينَتِنَا هَذِهِ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ كَعْبٌ: لَسْتُ أَجِدُ نَعْتَ هَذِهِ السَّفِينَةِ، وَلَكِنِّي أَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ يَنْزُو فِي الْفِتْنَةِ رَجُلٌ يُدْعَىٰ فَرْخَ قُرَيْشٍ لَهُ سِنٌّ شَاغِيَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ»(١٦).

وَقَدْ قُتِلَ أَيْضًا فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي كَانَ أَحَدَ مُشْعِلِيهَا عَفَا اللهُ عَنَّا وَعَنْهُ، وَرَحِمَنَا وَإِيَّاهُ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- بَعْدَ أَنْ عَرَضَ سِيرَتَهُ: «عَامَّةُ مَنْ سَعَىٰ فِي دَمِ عُثْمَانَ قُتِلُوا، وَعَسَىٰ الْقَتْلُ خَيْرًا لَهُمْ وَتَمْحِيصًا»(١٧).

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ(١٨) أَنَّ الدُّنْيَا لَمَّا انْفَتَحَتْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ، وَوَسَّعَ

---

(١٥) ذكر ذلك سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- فيما رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨٠)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٣)، وذكره ابن الأثير في الكامل (٣/ ٧١)، والمالقي في التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان (٩٣).

(١٦) أخرجه أبو عبيد بن سلام في غريب الحديث (٤/ ٣٤٧)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ١٩٢) برقم (١٩٥٠)، ونقله الذهبي في السير (٣/ ٤٨١).
والسن الشاغية هي الزائدة علىٰ الأسنان، يقال: رجل أشغىٰ، وامرأة شغواء، والجمع: شغو. اهـ من الغريب لابن سلام، وينظر: الغريب لابن الجوزي (١/ ٥٤٩) وقال بعد أن نقل قول أبي عبيد: «وقال غيره: الشغا خروج الثنيتين من الشفة وارتفاعهما». وقال الزمخشري: «شغىٰ، الشاغية: التي تخالف نبتتها نبتة غيرها من الأسنان» اهـ من الفائق (٢/ ٢٥٤)، ونقل ابن الأثير قولًا ثالثًا فقال: «وقيل: هو الذي تقع أسنانه العليا تحت رؤوس السفلىٰ» قال: والأول أصح، يعني: قول أبي عبيد، ينظر: النهاية (٢/ ٤٨٤).

(١٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨١).

(١٨) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٧٩)، والتمهيد والبيان (٩١).

عَلَيْهِم عُثْمَانُ بَعْدَ أَنْ زَهَّدَهُمْ عُمَرُ ﷺ؛ اتَّخَذُوا الضِّيَاعَ، وَمَالُوا إِلَىٰ الْجَاهِ وَالْمَالِ؛ فَاسْتَطَالُوا عُمْرَ عُثْمَانَ، وَسَعَوْا فِي الْفِتْنَةِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ عَوَاقِبَهَا، فَمَا سَلِمَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا الَّتِي أَثَارُوا الْفِتْنَةَ مِنْ أَجْلِهَا، وَأَضَرُّوا بِدِينِهِمْ ضَرَرًا كَبِيرًا، يَلْقَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ يَوْمَ لِقَائِهِ بِدَمِ خَلِيفَةٍ رَاشِدٍ، زَوَّجَهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتَيْهِ، وَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ، وَشَهِدَ لَهُ بِهَا، وَزَكَّاهُ أَعْظَمَ تَزْكِيَةٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»(١٩).

وَصَدَقَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدُّنْيَا، وَاسْتِشْرَافَهَا، وَمَحَبَّتَهَا، وَالْخُضُوعَ لَهَا، وَخَافَهَا عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْخَوْفِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا، فَتُفْسِدَ دِينَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ بِهَا؛ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ بِهَا سَبَبٌ لِلتَّنَافُسِ عَلَيْهَا، ثُمَّ الِاقْتِتَالِ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ فِتَنٍ عَظِيمَةٍ، يُرْفَعُ فِيهَا الْأَمْنُ، وَيَعْظُمُ الْخَوْفُ، وَيَكْثُرُ الْجُوعُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا أَمِنُوا شَبِعُوا، وَإِذَا خَافُوا جَاعُوا.

---

(١٩) أخرجه من حديث عبدالرحمن بن سمرة: الترمذي وقال: حسن غريب (٣٧٠١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٧٩)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢٧٤)، والحاكم وصححه (٣/ ١١٠).

(٢٠) أخرجه من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ: البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٨٨)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والرواية الثانية للبخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم (٢٩٦١).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالمُعَافَاةَ الدَّائِمَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَكْفِيَنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتَهَا، وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِهِ، وَشُرُورَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ فِتَنٍ كَثِيرَةٍ: الْفِتْنَةُ بِالدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ مُفْسِدًا لِقُلُوبِ الْعِبَادِ كَالْفِتْنَةِ بِهَا؛ فَمَنْ فُتِنَ بِهَا بَدَّلَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَرَّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَمْ يَتَوَرَّعْ عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ الْمُحَرَّمَةَ، وَيَنْتَهِبُ الْأَمْوَالَ الْمُحْتَرَمَةَ، وَيَنْتَهِكُ الْأَعْرَاضَ الْمَصُونَةَ، بِتَأْوِيلَاتٍ خَاطِئَةٍ. وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ(٢١)؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ

---

(٢١) جاء ذلك من كلام جندب بن عبد الله ﵁؛ كما عند البيهقي في الشعب (١٠٥٠١)، =

. . . .

= وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٠٠) بعد أن أورده من كلام جندب رضي الله عنه: «وروي مرفوعا، وروي عن الحسن مرسلا» اهـ.

وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤١٢): «رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلىٰ الحسن البصري رفعه مرسلا، وذكره الديلمي في الفردوس، وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف، ورواه البيهقي أيضا في الزهد، وأبو نعيم من قول عيسىٰ بن مريم، وفي رواية لولد أحمد بلفظ: رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر. ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسىٰ بن مريم .. فذكره».

وقال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٢٨٧): «حديث: حب الدنيا رأس كل خطيئة، إما من كلام مالك بن دينار، كما رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان بإسناده إليه، أو من كلام عيسىٰ ابن مريم ﷺ كما رواه البيهقي في الزهد، ولا أصل له من حديث النبي ﷺ، إلا من مراسيل الحسن البصري كما رواه البيهقي في شعب الإيمان، ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح، وقال شيخ الإسلام -يعني ابن حجر-: إسناده إلىٰ الحسن حسن، ومراسيله أثنىٰ عليها أبو زرعة وابن المديني، فلا دليل علىٰ وضعه والأمر كما قال».

وقال السخاوي في فتح المغيث (١/ ٢٦٥): «حديث: حب الدنيا رأس كل خطيئة. رواه البيهقي في الزهد، وأبو نعيم في ترجمة الثوري من الحلية من قول عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي رضي الله عنه، وأورده ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان له من قول مالك بن دينار، وابن يونس في ترجمة سعد بن مسعود التجيبي في تاريخ مصر له من قول سعد هذا، ولكن قد أخرجه البيهقي أيضا في الحادي والسبعين من الشعب بسند حسن إلىٰ الحسن البصري رفعه مرسلا، وأورده الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا إسناد عن علي بن أبي طالب رفعه أيضا، ولا دليل للحكم عليه بالوضع مع وجود هذا».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- عن معنىٰ قول من يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فهل هي من جهة المعاصي، أو من جهة جمع المال؟

فأجاب: ليس هذا محفوظا عن النبي ﷺ، ولكن هو معروف عن جندب بن عبد الله البجلي من الصحابة، ويذكر عن المسيح بن مريم عليه السلام، وأكثر ما يغلو في هذا اللفظ: المتفلسفة، ومن حذا حذوهم من الصوفية، علىٰ أصلهم في تعلق النفس إلىٰ أمور ليس هذا موضوع بسطها. وأما حكم الإسلام في ذلك فالذي يعاقب الرجل عليه الحب الذي يستلزم =

لِلْهَوَىٰ، وَالْهَوَىٰ لَا ضَابِطَ لَهُ، وَلَا قَيْدَ يُقَيِّدُهُ، فَصَاحِبُهُ يَسْتَحِلُّ مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَرْفُضُ شَرِيعَتَهُ؛ لِأَنَّهَا تُخَالِفُ هَوَاهُ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الْهَوَىٰ

= المعاصي، فإنه يستلزم الظلم، والكذب، والفواحش، ولا ريب أن الحرص علىٰ المال والرئاسة يوجب هذا، كما في الصحيحين أنه قال: «**إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»، وعن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**» قال الترمذي: حديث حسن، فحرص الرجل علىٰ المال والشرف يوجب فساد الدين، فأما مجرد الحب الذي في القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمره الله به، ويترك ما نهىٰ الله عنه، ويخاف مقام ربه، وينهىٰ النفس عن الهوىٰ؛ فإن الله لا يعاقبه علىٰ مثل هذا إذا لم يكن معه عمل، وجمع المال إذا قام بالواجبات فيه، ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج فضول المال، والاقتصار علىٰ الكفاية أفضل وأسلم، وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع في الدنيا والآخرة، وقال النبي ﷺ: «**من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة**» اهـ من مجموع الفتاوىٰ (١١/١٠٧-١٠٨).

وقال أيضا (١٨/١٢٣): «وما يروونه: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي، وأما عن النبي ﷺ فليس له إسناد معروف».

وقال المناوي في فيض القدير (٣/٣٦٨): «حب الدنيا رأس كل خطيئة، بشاهد التجربة والمشاهدة؛ فإن حبها يدعو إلىٰ كل خطيئة ظاهرة وباطنة، سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع في الشبهات، ثم في المكروه، ثم في المحرم، وطالما أوقع في الكفر؛ بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم علىٰ كفرهم حب الدنيا؛ فإن الرسل لما نهوا عن المعاصي التي كانوا يلتمسون بها حب الدنيا حملهم حبها علىٰ تكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها: حب الدنيا، ولا تنس خطيئة الأبوين، فإن سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنس خطيئة إبليس فإن سببها حب الرياسة التي هي شر من حب الدنيا، وكفر فرعون وهامان وجنودهما، فحبها هو الذي عمر النار بأهلها، وبغضها هو الذي عمر الجنة بأهلها، ومن ثم قيل: الدنيا خمر الشيطان فمن شرب منها لم يفق من سكرتها إلا في عسكر الموتىٰ خاسرا نادما» اهـ.

إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٣].

وَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ سَعَةَ الدُّنْيَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ضِيقِهَا؛ وَلِذَلِكَ يَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَىٰ سَعَةَ الرِّزْقِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّونَ؛ فَكَمْ مِنْ عَبْدٍ حَمَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الدُّنْيَا فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ(٢٢)، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ بَسَطَ لَهُ مِنْهَا مَا بَسَطَ فَفُتِنَ بِهَا، فَكَانَ هَلَاكُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ!

وَمِنْ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ انْفِتَاحَ الدُّنْيَا سَيَكُونُ سَبَبًا لِفِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِتَالِهِمْ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟** قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٣).

---

(٢٢) كما في حديث قتادة بن النعمان -رضيٰ الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء**» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب (٢٠٣٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٥٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٢) برقم (١٧)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٠).
وجاء مرسلا عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ عند: ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٤٣)، وقد بين ذلك الترمذي في جامعه (٤/ ٣٨١).
وجاء أيضا عن محمود بن لبيد عن عقبة بن رافع رضي الله عنه عند: أبي يعلىٰ (٦٨٦٥).
وجاء أيضا عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج رضي الله عنه عند: القضاعي في مسند الشهاب (١٣٩٧)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٢) برقم (٤٢٩٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٦١) برقم (٤٨٠٩)، والهيثمي في الزوائد (١٠/ ٢٨٥).

(٢٣) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٢)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة المال (٣٩٩٦).

وَالسَّلَامَةُ مِنَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ زَهْرَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَأَوْزَارِهَا وَفِتْنَتِهَا، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا مِنَ التَّنَافُسِ وَالتَّقَاطُعِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ الْفِتْنَةِ وَالتَّقَاتُلِ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَىٰ لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَىٰ، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ، نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَىٰ الْمُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(٢٤).

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ بَسْطَ الدُّنْيَا عَلَىٰ النَّاسِ يَكُونُ سَبَبًا فِي فِتْنَتِهِمْ بِهَا، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ نَتِيجَةُ ذَلِكَ: الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَ وَالظُّلْمَ وَالْأَثَرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٧].

عِبَادَ اللَّهِ: يَحِلُّ بِكُمْ قَرِيبًا عَشْرٌ مُبَارَكَةٌ، هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ** -يَعْنِي الْعَشْرَ- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ**

(٢٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: حديث حسن (٢٤٧٦)، وهناد في الزهد (٧٥٨)، وأبو يعلىٰ (٥٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤٢٩٣).

وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ(٢٥).

وَقَدْ شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي خَاتِمَتِهَا: الْأُضْحِيَّةَ، وَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرَبِ وَأَعْظَمِهَا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(٢٦).

فَاجْتَهِدُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُقَرِّبُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



(٢٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود في الصوم، باب صوم العشر (٢٤٣٨).

(٢٦) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره، أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧).

٢١٣- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٤) الشبهات وردها

٢٩/٢/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلْقُلُوبِ أَمْرَاضٌ كَمَا أَنَّ لِلْأَبْدَانِ أَمْرَاضًا، وَأَمْرَاضُ الْقُلُوبِ أَعْصَىٰ مِنْ أَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ، وَهِيَ أَشَدُّ فَتْكًا بِالْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِدِينِهِ، وَتُحَدِّدُ مَصِيرَهُ فِي آخِرَتِهِ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضَ الْقَلْبِ فَزَادَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَرَضًا إِلَىٰ مَرَضِهِ بِسَبَبِ صَدِّهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: ٥].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ الَّتِي تُورِدُ أَصْحَابَهَا المَهَالِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الشُّبُهَاتُ الَّتِي تَعْلَقُ بِالْقُلُوبِ حَتَّىٰ يَظُنَّ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ عَلَىٰ هُدًىٰ وَهُمْ عَلَىٰ ضَلَالٍ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَهُمْ مُخْطِئُونَ، وَمَا وَقَعَ فِي الْبِدْعَةِ مَنْ وَقَعَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَهْوَاءِ؛ بَلْ إِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ وَقَعَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ نَتَجَتْ عَنْ شُبُهَاتٍ دَاخَلَتْ قُلُوبَ أَصْحَابِهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ المَهَالِكَ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا فِي رِقَابِهِمْ دَمَ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِعَاقِبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

لَقَدْ نَقَمُوا عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ مَا نَقَمُوا، فَرَكِبَهُمْ أَهْلُ السُّوءِ وَالنِّفَاقِ، وَمُبْتَغُو الْفِتْنَةِ وَالشِّقَاقِ، يُلْقُونَ إِلَيْهِمْ قَالَتَهُمْ، وَيُسَيِّرُونَهُمْ بِشَائِعَتِهِمْ، وَيَقْذِفُونَ فِي قُلُوبِهِمْ شُبُهَاتِهِمْ؛ حَتَّىٰ مَكَّنُوا مِنْ قُلُوبِهِمْ شُبُهَاتٍ مَا رَدُّوهَا مِنْ بِدَايَتِهَا، وَلَا اسْتَفْتَوْا فِيهَا الْعُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ، بَلِ اسْتَسْلَمُوا لَهَا، فَتَشَرَّبَتْهَا قُلُوبُهُمْ، وَعَظُمَتْ بِهَا نُفُوسُهُمْ، حَتَّىٰ تَهَيَّئُوا لِلشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ فَخَرَجَ بِهِمُ الرُّؤُوسُ الظَّالِمُونَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ، يُظْهِرُونَ لَهُمُ الْإِصْلَاحَ، وَيَهْتِفُونَ فِيهِمْ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِمْ وَمَا أَحْسَنُوا، وَظَنُّوا السُّوءَ بِخَلِيفَتِهِمْ وَبِئْسَ مَا ظَنُّوا، فَكَانُوا أَهْلَ الْمُنْكَرِ وَالْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ.

لَقَدْ حَسِبُوا أَنَّهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا لِلْإِسْلَامِ يَنْصُرُونَ، وَفِي الْبِلَادِ يُصْلِحُونَ، وَلِلَّهِ تَعَالَىٰ يَتَقَرَّبُونَ، وَهُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

لَمَّا وَصَلُوا المَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَأَعْلَنُوا خُرُوجَهُمْ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ، وَأَخَذُوا يُشَغِّبُونَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِشُبُهَاتِهِمْ، وَيَبُثُّونَ فِيهِمْ شَائِعَاتِهِمْ؛ نَصَحَ لَهُمْ عُثْمَانُ ﷺ وَهُوَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِحُ لِرَعِيَّتِهِ، وَعَرَضَ شُبُهَاتِهِمْ وَأَجَابَ عَنْهَا،

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَعَنْ غَيِّهِمْ يَرْجِعُونَ.

قَامَ عُثْمَانُ ﵁ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَقَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: «إِنَّ هَؤُلَاءِ ذَكَرُوا أُمُورًا قَدْ عَلِمُوا مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي عَلِمْتُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُذَاكِرُونِيهَا لِيُوجِبُوهَا عَلَيَّ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، وَقَالُوا: أَتَمَّ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ وَكَانَتْ لَا تُتَمُّ، أَلَا وَإِنِّي قَدِمْتُ بَلَدًا فِيهِ أَهْلِي فَأَتْمَمْتُ لِهَذَيْنَ الْأَمْرَيْنِ أَوَ كَذَلِكَ؟

قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: وَحَمَيْتَ حِمًى، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا حَمَيْتُ إِلَّا مَا حُمِيَ قَبْلِي -يَعْنِي: مَا حَمَاهُ قَبْلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لِإِبِلِ الصَّدَقَةِ- وَاللَّهِ مَا حَمَوْا شَيْئًا لِأَحَدٍ، مَا حَمَوْا إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعُوا مِنْ رَعْيِهِ أَحَدًا، وَاقْتَصَرُوا لِصَدَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَحْمُونَهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ بَيْنَ مَنْ يَلِيهَا وَبَيْنَ أَحَدٍ تَنَازُعٌ، ثُمَّ مَا مَنَعُوا وَلَا نَحَّوْا مِنْهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ سَاقَ دِرْهَمًا، وَمَا لِي مِنْ بَعِيرٍ غَيْرَ رَاحِلَتَيْنِ، وَمَا لِي ثَاغِيَةٌ وَلَا رَاغِيَةٌ، وَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ وَأَنَا أَكْثَرُ الْعَرَبِ بَعِيرًا وَشَاءً، فَمَا لِيَ الْيَوْمَ شَاةٌ وَلَا بَعِيرٌ غَيْرَ بَعِيرَيْنِ لِحَجِّي، أَكَذَلِكَ؟ قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: كَانَ الْقُرْآنُ كُتُبًا فَتَرَكْتَهَا إِلَّا وَاحِدًا -يَعْنُونَ جَمْعَ عُثْمَانَ الْمَصَاحِفَ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ- أَلَا وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَاحِدٌ، جَاءَ مِنْ عِنْدِ إِلَهٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا أَنَا فِي ذَلِكَ تَابِعٌ لِهَؤُلَاءِ، أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ».

وَعِنْدَمَا أَجَابَ ﵁ عَنْ شُبُهَاتِهِمْ بِهَذِهِ الْأَجْوِبَةِ الْمُفْحِمَةِ لَهُمْ سَأَلُوهُ أَنْ يُقِيلَهُمْ مِنْ بَقِيَّةِ شُبُهَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُ ﵁ أَرَادَ أَنْ يُوَضِّحَ لِلنَّاسِ حَقِيقَتَهُمْ، وَيَكْشِفَ لَهُمْ خَطِيئَتَهُمْ، وَيُزِيلَ الشُّبُهَاتِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَمَضَىٰ يُجِيبُهُمْ وَقَالَ: «وَقَالُوا إِنِّي رَدَدْتُ الْحَكَمَ -يَعْنِي: ابْنَ أَبِي الْعَاصِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَفَاهُ إِلَىٰ الطَّائِفِ ثُمَّ أَرْجَعَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ- وَقَدْ سَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَالْحَكَمُ مَكِّيٌّ سَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ

الطَّائِفِ ثُمَّ رَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَرَسُولُ اللَّهِ سَيَّرَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ رَدَّهُ، أَكَذَلِكَ؟ قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: اسْتَعْمَلْتَ الْأَحْدَاثَ، فَلَمْ أَسْتَعْمِلْ إِلَّا مُجْتَمَعًا مُحْتَمَلًا مَرْضِيًّا، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ عَمَلِهِمْ فَسَلُوهُمْ عَنْهُ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَلَدِهِ، وَلَقَدْ وَلَّىٰ مَنْ قَبْلِي أَحْدَثَ مِنْهُمْ، وَقِيلَ فِي ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ أَشَدَّ مِمَّا قِيلَ لِي فِي اسْتِعْمَالِهِ أُسَامَةَ، أَكَذَاكَ؟

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ يَعِيبُونَ لِلنَّاسِ مَا لَا يُفَسِّرُونَ.

وَقَالُوا: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنَ أَبِي سَرْحٍ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنِّي إِنَّمَا نَفَّلْتُهُ خُمْسَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُمْسِ لَمَّا فَتَحَ إِفْرِيقِيَّةَ، فَكَانَ مِائَةَ أَلْفٍ، وَقَدْ أَنْفَذَ مِثْلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﵄، وَمَعَ ذَلِكَ زَعَمَ الْجُنْدُ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ فَرَدَدْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ ذَاكَ لَهُمْ، أَكَذَاكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

وَقَالُوا: إِنِّي أُحِبُّ أَهْلَ بَيْتِي وَأُعْطِيهِمْ، فَأَمَّا حُبِّي لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْنِي عَلَىٰ جَوْرٍ، بَلْ أَحْمِلُ الْحُقُوقَ عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا إِعْطَاؤُهُمْ؛ فَإِنِّي مَا أُعْطِيهِمْ إِلَّا مِنْ مَالِي، وَلَا أَسْتَحِلُّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لِنَفْسِي وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُعْطِي الْعَطِيَّةَ الْكَبِيرَةَ الرَّغِيبَةَ مِنْ صُلْبِ مَالِي أَزْمَانَ رَسُولِ الله وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﵄ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ شَحِيحٌ حَرِيصٌ أَفَحِينَ أَتَيْتُ عَلَىٰ أَسْنَانِ أَهْلِ بَيْتِي، وَفَنِيَ عُمْرِي، وَوَدَّعْتُ الَّذِي لِي فِي أَهْلِي؛ قَالَ الْمُلْحِدُونَ مَا قَالُوا!! إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ مِنْ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ مَالًا وَلَا فَضْلًا فَيَجُوزُ ذَلِكَ لِمَنْ قَالَهُ، وَلَقَدْ رَدَدْتُ عَلَىٰ تِلْكَ الْأَمْصَارِ الْأَمْوَالَ وَلَمْ يُحْضِرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ إِلَّا الْأَخْمَاسَ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَلَا يَحِلُّ لِي مِنْهَا شَيْءٌ، فَوُلِّيَ الْمُسْلِمُونَ وَضْعَهَا فِي أَهْلِهَا دُونِي، وَلَا تَبَلَّغْتُ مِنْ مَالِ اللَّهِ ﷻ بِفَلْسٍ فَمَا فَوْقَهُ، وَلَا أَتَبَلَّغُ بِهِ، مَا آكُلُ إِلَّا فِي مَالِي.

وَقَالُوا: أَعْطَيْتَ الْأَرْضَ رِجَالًا، وَإِنَّ هَذِهِ الْأَرَضِينَ شَارَكَهُمْ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ

وَالْأَنْصَارُ أَيَّامَ افْتُتِحَتْ؛ فَمَنْ أَقَامَ بِمَكَانِهِ مِنْ هَذِهِ الْفُتُوحِ فَهُوَ أُسْوَةُ أَهْلِهِ، وَمَنْ رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ لَمْ يَذْهَبْ ذَلِكَ مَا حَوَىٰ اللهُ ﷻ، فَنَظَرْتُ فِي الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَبِعْتُهُ لَهُمْ بِأَمْرِهِمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ عَقَارٍ بِبِلَادِ الْعَرَبِ، فَنَقَلْتُ إِلَيْهِمْ نَصِيبَهُمْ فَهُوَ فِي أَيْدِيهِمْ دُونِي . . .»[(١)].

فَلَمَّا أَزَالَ عُثْمَانُ ﷺ شُبُهَاتِهِمْ لَانَ لَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، حَتَّىٰ مِمَّنْ خَرَجُوا عَلَيْهِ، وَأَبَىٰ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا قَتْلَ الْخَوَارِجِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ ﷺ كَانَ رَحِيمًا بِرَعِيَّتِهِ، صَبُورًا عَلَىٰ أَذِيَّةِ الْمُؤْذِينَ مِنْهُمْ، فَأَبَىٰ ﷺ إِلَّا الْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَتَرَكَهُمْ يَرْتَحِلُونَ غَيْرَ مَأْخُوذِينَ وَلَا مُحَاسَبِينَ عَلَىٰ فِعْلَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ.

وَلَكِنَّ عَفْوَهُ عَنْهُمْ مَا زَادَ رُؤُوسَهُمْ إِلَّا عُتُوًّا وَنُفُورًا، فَرَجَعُوا إِلَىٰ بِلَادِهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَغْزُوهُمْ مَعَ الْحُجَّاجِ كَالْحُجَّاجِ، وَتَكَاتَبُوا وَتَوَاصَوْا بِالشَّرِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: مَوْعِدُكُمْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي شَوَّالٍ، وَعَادُوا مَرَّةً أُخْرَىٰ وَقَدِ اشْتَدَّ شَرُّهُمْ، وَعَظُمَتْ فِتْنَتُهُمْ، فَحَاصَرُوا خَلِيفَتَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ وَنَهَبُوا مَالَهُ، وَاسْتَحَلُّوا بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِقَتْلِهِ ﷺ وُضِعَ السَّيْفُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا يُرْفَعُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[(٢)].

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ وَالثَّبَاتَ عَلَيْهِ، وَالْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَىٰ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

---

(١) أخرجه سيف بن عمر التميمي في الفتنة ووقعة الجبل (٥٥-٥٧)، وعنه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٥١-٦٥٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٣١٢-٣١٤).
وينظر حديث طويل في ذلك بسياق آخر عن سعيد مولىٰ أبي أسيد الأنصاري في: فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧٠) رقم (٧٦٥)، وفضائل عثمان ﷺ لعبد الله بن أحمد ابن حنبل (٥٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٧١).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥١).

الخُطبَة الثّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كَثِيرٌ مِنَ الشُّبَهِ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ، وَفِي حُقُوقِ السَّلَاطِينِ وَمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، يَحْتَاجُ النَّاسُ فِي إِزَالَتِهَا إِلَىٰ مَنْ يُحْسِنُ التَّعَامُلَ مَعَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَأَصْحَابِ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ، وَإِلَّا فَتَكَتْ بِأَصْحَابِهَا، وَأَدْخَلَتِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَوَّامَةٍ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنْهَا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَمَا وَقَعَ مِنْ أَحْدَاثٍ مَأْسَاوِيَّةٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِالْأَخَصِّ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ، عَلَىٰ أَيْدِي بَعْضِ أَبْنَائِهَا، إِنَّمَا هُوَ نَاتِجٌ عَنْ شُبُهَاتٍ وَرَدَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، أَخْطَئُوا مَعَهَا طَرِيقَ الْإِصْلَاحِ، وَظَنُّوهُ فِي رَفْعِ السِّلَاحِ، وَنَكْثِ الْبَيْعَةِ، وَالْخُرُوجِ عَلَىٰ السُّلْطَانِ؛ فَكَانُوا سَبَبًا فِي ضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَأَشْمَتُوا بِالْأُمَّةِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَكَّنُوا لِأَهْلِ الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ التَّسَلُّقَ عَلَىٰ الْأَحْدَاثِ، وَنَشْرَ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ، ثُمَّ كَانَتْ نِهَايَةُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَلِيمَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَلْقَوْنَ بِهِ رَبَّهُمْ، وَفِي رِقَابِهِمْ دِمَاءٌ مَعْصُومَةٌ، وَفِي ذَلِكَ أَبْلَغُ الْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ لِكُلِّ مَنْ يَسْتَسْلِمُ لِلشُّبُهَاتِ، وَلَا يُرَاجِعُ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ فِيهَا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ مَا اسْتَسْلَمُوا لِلشُّبُهَاتِ الَّتِي دَاخَلَتْ قُلُوبَهُمْ، وَلَا أَعَارُوا عُقُولَهُمْ غَيْرَهُمْ، لَمَا فَعَلُوا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَهِمُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَخْرِقُوا إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ، لَمَا

ضَلُّوا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، وَلَمَا رَفَعُوا السِّلَاحَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَاسْتَحَلُّوا الدِّمَاءَ المُحَرَّمَةَ الَّتِي شَأْنُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَقِهُوا المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ، وَعَرَفُوا تَرْتِيبَ الْأَوَّلِيَّاتِ، لَأَدْرَكُوا أَنَّ الْإِفْسَادَ لَا يَكُونُ إِصْلَاحًا، وَأَنَّ قَصْدَ الْآمِنِينَ وَالْإِفْسَادَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَنْ تَكُونَ عَاقِبَتُهُ إِلَّا خَرَابَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَالمَسْئُولُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الشُّبُهَاتُ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ فَتُفْسِدُهَا، فَيَظُنُّ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ وَهُمْ يُفْسِدُونَ، وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- أَنَّ الْمُتَشَرِّبِينَ بِالشُّبُهَاتِ مَعَهُمْ مَنْقُولَاتٌ ظَنُّوهَا صِدْقًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ خِبْرَةٌ بِأَنَّهَا كَذِبٌ، وَمَعَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ تَأْوِيلَاتٌ ظَنُّوهَا مُرَادَةً مِنَ النَّصِّ وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، وَمَعَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ ظَنُّوهُ حَقًّا وَهُوَ بَاطِلٌ، ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: فَهَذَا مَجْمُوعُ مَا يُورِثُ الشُّبَهَ فِي ذَلِكَ إِذَا خَلَتِ النُّفُوسُ عَنِ الْهَوَىٰ، وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٢٣](٣).

وَقَالَ تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: الشُّبْهَةُ وَارِدٌ يَرِدُ عَلَىٰ الْقَلْبِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ انْكِشَافِ الْحَقِّ لَهُ، فَمَتَىٰ بَاشَرَ الْقَلْبُ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ لَمْ تُؤَثِّرْ تِلْكَ الشُّبْهَةُ فِيهِ، بَلْ يَقْوَىٰ عِلْمُهُ وَيَقِينُهُ بِرَدِّهَا، وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا، وَمَتَىٰ لَمْ يُبَاشِرْ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ قَلْبُهُ قَدَحَتْ فِيهِ الشَّكَّ بِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَإِنْ تَدَارَكَهَا وَإِلَّا تَتَابَعَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَمْثَالُهَا حَتَّىٰ يَصِيرَ شَاكًّا مُرْتَابًا، وَالْقَلْبُ يَتَوَارَدُهُ جَيْشَانِ مِنَ الْبَاطِلِ:

جَيْشُ شَهَوَاتِ الْغَيِّ، وَجَيْشُ شُبُهَاتِ الْبَاطِلِ، فَأَيُّمَا قَلْبٍ صَغَا إِلَيْهَا، وَرَكَنَ إِلَيْهَا تَشَرَّبَهَا، وَامْتَلَأَ بِهَا، فَيَنْضَحُ لِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ بِمُوجَبِهَا، فَإِنْ أُشْرِبَ شُبُهَاتِ

---

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٣١-٣٣٢).

الْبَاطِلِ تَفَجَّرَتْ عَلَىٰ لِسَانِهِ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ وَالْإِيرَادَاتُ، فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ ذَلِكَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ. وَقَالَ لِي شَيْخُ الْإِسْلَامِ ﷺ وَقَدْ جَعَلْتُ أُورِدُ عَلَيْهِ إِيرَادًا بَعْدَ إِيرَادٍ: لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ لِلْإِيرَادَاتِ وَالشُّبُهَاتِ مِثْلَ السَّفِنْجَةِ، فَيَتَشَرَّبَهَا فَلَا يَنْضَحُ إِلَّا بِهَا، وَلَكِنِ اجْعَلْهُ كَالزُّجَاجَةِ الْمُصْمَتَةِ تَمُرُّ الشُّبُهَاتُ بِظَاهِرِهَا وَلَا تَسْتَقِرُّ فِيهَا فَيَرَاهَا بِصَفَائِهِ، وَيَدْفَعُهَا بِصَلَابَتِهِ، وَإِلَّا فَإِذَا أَشْرَبْتَ قَلْبَكَ كُلَّ شُبْهَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا صَارَ مَقَرًّا لِلشُّبُهَاتِ. أَوْ كَمَا قَالَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «فَمَا أَعْلَمُ أَنِّي انْتَفَعْتُ بِوَصِيَّةٍ فِي دَفْعِ الشُّبُهَاتِ كَانْتِفَاعِي بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِاشْتِبَاهِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ فِيهَا؛ فَإِنَّهَا تُلْبِسُ ثَوْبَ الْحَقِّ عَلَىٰ جِسْمِ الْبَاطِلِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ أَصْحَابُ حُسْنٍ ظَاهِرٍ، فَيَنْظُرُ النَّاظِرُ فِيمَا أَلْبَسَتْهُ مِنَ اللِّبَاسِ فَيَعْتَقِدُ صِحَّتَهَا، وَأَمَّا صَاحِبُ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِذَلِكَ، بَلْ يُجَاوِزُ نَظَرَهُ إِلَىٰ بَاطِنِهَا وَمَا تَحْتَ لِبَاسِهَا فَيَنْكَشِفُ لَهُ حَقِيقَتُهَا» اهـ(٤).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، وَأَنْ يَعْصِمَ شَبَابَهُمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



(٤) مفتاح دار السعادة (١٤٠-١٤١).

٢١٤- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٥) من آثارها ونتائجها

١٧/٤/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ كَلَّفَ عِبَادَهُ إِقَامَةَ الدِّينِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ؛ لِيَهْتَدِيَ مَنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُ، وَيَعْمَىٰ عَنِ الْحَقِّ مَنْ عَمِلَ بِجَهْلِهِ أَوِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٣]. نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَكْثَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَأَشَدِّ النَّاسِ اتِّبَاعًا لِلْحَقِّ، وَتَمَسُّكًا بِالدِّينِ، وَنَبْذًا لِلْبِدَعِ وَالْهَوَىٰ، مَنْ سَارَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ فَلَنْ يَضِلَّ أَبَدًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- فَإِنَّهُ كُلَّمَا تَخَلَّفَ النَّاسُ عَنْ هَدْيِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَابْتَعَدُوا عَنْ مَنْهَجِ سَلَفِهِمُ الصَّالِحِ؛ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُمْ، وَاشْتَدَّتْ مِحَنُهُمْ، وَكَثُرَتْ فِتَنُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ قُلُوبُهُمْ، وَالنَّاجِي مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ وَإِنْ قَلَّ السَّالِكُونَ، وَتَمَسَّكَ بِالشَّرِيعَةِ وَإِنْ كَثُرَ الْمُنْحَرِفُونَ وَالزَّائِغُونَ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣-٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذِهِ الْأُمَّةُ أُمَّةٌ مُبَارَكَةٌ، مَعْصُومَةٌ مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، قَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَافِيَتَهَا فِي أَوَّلِهَا، وَجُعِلَ بَلَاؤُهَا وَفِتْنَتُهَا فِي آخِرِهَا، وَمِنْ سِمَاتِ فِتَنِهَا وَمِحَنِهَا أَنَّ بَعْضَهَا يُرَقِّقُ بَعْضًا، وَأَنَّ عَظِيمَهَا يُخْلُفُ صَغِيرَهَا، وَأَنَّ شَدِيدَهَا يُنْسِي خَفِيفَهَا، إِلَىٰ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَىٰ بِخُرُوجِ آخِرِ فِتْنَةٍ فِيهَا وَأَكْبَرِهَا، وَهِيَ فِتْنَةُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ شِدَّةِ نُصْحِهِ لَنَا، وَرَحْمَتِهِ بِنَا، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْنَا؛ ذَكَرَ لَنَا الْفِتَنَ، وَوَصَفَهَا لَنَا، وَحَذَّرَنَا مِنْ شَرِّهَا، وَبَيَّنَ سُبُلَ النَّجَاةِ مِنْهَا.

اسْتَيْقَظَ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْفِتَنِ؟** ...» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا(٢).

وَذَاتَ مَرَّةٍ أَشْرَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ فَقَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَىٰ؟** قَالُوا: لَا، قَالَ: **فَإِنِّي لَأَرَىٰ الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٣).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ**

---

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب العلم والعظة بالليل (١١٥).

(٣) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**» (٧٠٦٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥).

الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ» رَوَاهُ الشَّيخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٤).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: شَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سُقُوطَ الْفِتَنِ وَكَثْرَتَهَا بِسُقُوطِ الْقَطْرِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْعُمُومِ . . . وَإِنَّمَا اخْتُصَّتِ المَدِينَةُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ رضي الله عنه كَانَ بِهَا، ثُمَّ انْتَشَرَتِ الْفِتَنُ فِي الْبِلَادِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْقِتَالُ بِالْجَمَلِ وَبِصِفِّينَ كَانَ بِسَبَبِ قَتْلِ عُثْمَانَ، وَالْقِتَالُ بِالنَّهْرَوَانِ كَانَ بِسَبَبِ التَّحْكِيمِ بِصِفِّينَ، وَكُلُّ قِتَالٍ وَقَعَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ إِنَّمَا تَوَلَّدَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ تَوَلَّدَ عَنْهُ، ثُمَّ إِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ كَانَ أَشَدَّ أَسْبَابِهِ الطَّعْنُ عَلَىٰ أُمَرَائِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بِتَوْلِيَتِهِ لَهُمْ(٥).

كَانَ مَقْتَلُ عُثْمَانَ رضي الله عنه أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَتْ بِهَا الْأُمَّةُ بَعْدَ مَوْتِ نَبِيِّهَا صلى الله عليه وسلم، وَإِنْ كَانَ الْفَارُوقُ عُمَرُ رضي الله عنه قَدْ قُتِلَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ عُثْمَانَ، فَإِنَّ قَاتِلَهُ كَانَ عِلْجًا وَاحِدًا مِنَ المَجُوسِ لَمْ يَرْكَعْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ رَكْعَةً، وَلَا ادَّعَىٰ بِقَتْلِهِ إِصْلَاحًا، بَلْ إِنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ إِثْرِ ذَلِكَ لِعِلْمِهِ بِشَنَاعَةِ مَا فَعَلَ(٦).

وَأَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ رضي الله عنه فَجَمَاعَةٌ وَلَيْسَ وَاحِدًا، قَدْ دَانُوا بِالْإِسْلَامِ، وَأَظْهَرُوا التَّنَسُّكَ وَالصَّلَاحَ، وَزَعَمُوا بِقَتْلِهِ الْخَيْرَ وَالْإِصْلَاحَ، وَهِيَ أَوَّلُ فِتْنَةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ افْتَاتَ مُشْعِلُوهَا عَلَىٰ أَمِيرِهِمْ، وَنَازَعُوهُ سُلْطَانَهُ، وَأَعْلَنُوا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَفَتَحُوا بَابَ الْفِتَنِ السِّيَاسِيَّةِ، وَسَنُّوا فِي الْأُمَّةِ شَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ،

---

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦).

(٥) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/ ٩٥) و(١٣/ ١٣)، وعمدة القاري (١٠/ ٢٤٢)، وفيض القدير (٦/ ٣٥٤).

(٦) ينظر: خطبة مقتل عمر رضي الله عنه مجلد (٤)، خطبة رقم (١٥٤).

وَمُفَارَقَةَ الْجَمَاعَةِ، وَمُنَازَعَةَ الأَمْرِ أَهْلَهُ، وَمَضَتْ سُنَّتُهُمُ السَّيِّئَةُ فِي النَّاسِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، فَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ أَثَرٍ لِفِتْنَتِهِمْ، وَأَكْبَرَ نَتِيجَةٍ لَهَا.

وَظَلَّتِ الْفِتَنُ فِي الْأُمَّةِ كَحَلَقَاتِ سِلْسِلَةٍ مُتَّصِلَةٍ، كُلَّمَا فُصِمَتْ مِنْهُ حَلْقَةٌ تَبِعَتْهَا أُخْتُهَا مُنْذُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَهِيَ فِتَنٌ مُتَشَابِهَةٌ، وَنَتَائِجُهَا وَاحِدَةٌ، تَتَمَثَّلُ فِي نُفْرَةِ الْقُلُوبِ وَتَبَاعُدِهَا، وَاخْتِلَافِ النَّاسِ وَتَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ يَعْقُبُ الِاخْتِلَافَ السِّبَابُ وَالتَّلَاسُنُ، فَالمُحَارَبَةُ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، فَلَا يَأْمَنُ النَّاسُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَا أَعْرَاضِهِمْ وَلَا أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَىٰ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْبَدَ، وَهَكَذَا تُعَطَّلُ شَعَائِرُ الدِّينِ وَأَحْكَامُهُ بِسَبَبِ اشْتِعَالِ الْفِتَنِ وَاشْتِغَالِ النَّاسِ بِهَا.

وَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ وَانْعَقَدَتِ الْبَيْعَةُ لأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ كَانَتِ الْفِتْنَةُ لَا تَزَالُ مُشْتَعِلَةً، فَاخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ مِنْ جَدِيدٍ فِي أَمْرِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ وَمَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ، فَقَوْمٌ رَأَوْا وُجُوبَ المُسَارَعَةِ بِالِاقْتِصَاصِ مِنْهُمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي حَالِ اشْتِعَالِ الْفِتْنَةِ، وَهَيَجَانِ النَّاسِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَسْكِينِهِمْ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الْأُمُورُ وَانْكَشَفَتِ الْفِتْنَةُ أُخِذُوا بِجُرْمِهِمْ، وَكَادَ الْفَرِيقَانِ أَنْ يَصْطَلِحَا، وَلَكِنَّ مُشْعِلِي الْفِتْنَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنِ اصْطَلَحُوا حُوكِمُوا بِقَتْلِ عُثْمَانَ، فَمَا زَالُوا يُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الْخِلَافِ، وَيَزِيدُونَ الْفُرْقَةَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، حَتَّىٰ بَلَغُوا مَا أَرَادُوا مِنِ اقْتِتَالِ الطَّائِفَتَيْنِ، فَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ حَرْبَانِ كَبِيرَتَانِ قُتِلَ فِيهِمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الْجَمَلِ وَصِفِّينَ(٧).

---

(٧) جاء في تاريخ الطبري ما نصه: «لما جاءت وفود أهل البصرة إلىٰ أهل الكوفة، ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم، جمع علي الناس، ثم قام علىٰ الغرائر، فحمد الله ﷻ وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ النبي ﷺ، وذكر الجاهلية وشقاءها =

. . . .

= والإسلام والسعادة وإنعام الله علىٰ الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جره علىٰ هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه علىٰ الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء علىٰ أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما أراد. ألا وإني راحل غدا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غدا أحد أعان علىٰ عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.
فاجتمع نفر، منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفىٰ بن ضبيعة، والأشتر، في عدة ممن سار إلىٰ عثمان، ورضىٰ بسير من سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء وخالد بن ملجم وتشاوروا، فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله علي، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلىٰ العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم ينفر إليه إلا هم والقليل من غيرهم، فكيف به إذا شام القوم وشاموه، وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم! أنتم والله ترادون، وما أنتم بأنجىٰ من شيء.
فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتىٰ كان اليوم، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا وعلي فعلىٰ دمائنا، فهلموا فلنتواثب علىٰ علي فنلحقه بعثمان، فتعود فتنة يرضىٰ منا فيها بالسكون، فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت! أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفه بذىٰ قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة، وهذا ابن الحنظلية وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق إلىٰ أن يجدوا إلىٰ قتالكم سبيلا، فارقأ علىٰ ظلعك.
وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم، فإن قلوا كان أقوىٰ لعدوهم عليهم، وإن كثروا كان أحرىٰ أن يصطلحوا عليكم، دعوهم وارجعوا، فتعلقوا ببلد من البلدان حتىٰ يأتيكم فيه من تتقون به، وامتنعوا من الناس.
فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت! ود والله الناس أنكم علىٰ جديلة، ولم تكونوا مع أقوام براء، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء.
فقال عدي بن حاتم: والله ما رضيت ولا كرهت، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله في خوض الحديث، فأما إذ وقع ما وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة، فإن لنا عتادا من خيول وسلاح محمودا، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا، فقال ابن السوداء: أحسنت! وقال سالم بن ثعلبة: من كان أراد بما أتىٰ الدنيا فإني لم أرد ذلك، والله لئن لقيتهم غدا لا أرجع إلىٰ بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزد علىٰ جزر جزور، =

. . . .

= وأحلف بالله إنكم لتفرقون السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلىٰ السيف فقال ابن السوداء: قد قال قولا.
وقال شريح بن أوفىٰ: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمرا ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمرا ينبغي لكم تأخيره، فإنا عند الناس بشر المنازل، فلا أدري ما الناس صانعون غدا إذا ما هم التقوا! وتكلم ابن السوداء فقال: يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقىٰ الناس غدا فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير، ومن رأىٰ رأيهم عما تكرهون، فأبصروا الرأي، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون» (٣/ ٣٢-٣٣)، وينظر: الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر (١٤٩)، والكامل لابن الأثير(٣/ ١٢٥).
وقال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تعالىٰ-: «فجرت فتنة الجمل علىٰ غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صفين لرأي، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من العدل عليهم -وهم كافون، حتىٰ يجتمع أمر الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا علىٰ الشهيد المظلوم» شرح العقيدة الطحاوية (٥٤٦).
وقال ابن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة رضي الله عنهم ومن كان معهم فما أبطلوا قط إمامة علي، ولا طعنوا فيها، ولا ذكروا فيه جرحة تحطه عن الإمامة، ولا أحدثوا إمامة أخرىٰ، ولا جددوا بيعة لغيره. هذا ما لا يقدر أن يدعيه أحد بوجه من الوجوه.
بل يقطع كل ذي علم علىٰ أن كل ذلك لم يكن؛ فإذ لا شك في كل هذا فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلىٰ البصرة لحرب علي، ولا خلافا عليه، ولا نقضا لبيعته. ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته، هذا ما لا يشك فيه أحد، ولا ينكره أحد، فصح أنهم إنما نهضوا إلىٰ البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلما؛ وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان، إلا أن الأراغة والتدبير عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير، وبذلوا السيف فيهم، فدفع القوم عن أنفسهم في دعوىٰ حتىٰ خالطوا عسكر علي، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن -ولا شك- أن الأخرىٰ بدأتها بالقتال، واختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد علىٰ أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون =

وَقَدْ شَخَّصَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَالْحَيْرَةِ وَالْأَسَىٰ، وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا، بَلْ يَدُورُونَ مَعَهَا حَيْثُ دَارَتْ، وَيَسْكُنُونَ إِذَا سَكَنَتْ، فَرَوَىٰ عَلْقَمَةُ اللَّيْثِيُّ ﷺ فَقَالَ: «لَمَّا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ ﷺ رَأَيْتُ طَلْحَةَ وَأَحَبُّ المَجَالِسِ إِلَيْهِ أَخْلَاهَا، وَهُوَ ضَارِبٌ بِلِحْيَتِهِ عَلَىٰ زَوْرِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَىٰ أَحَبَّ المَجَالِسِ إِلَيْكَ أَخْلَاهَا، وَأَنْتَ ضَارِبٌ بِلِحْيَتِكَ عَلَىٰ زَوْرِكَ، إِنْ كَرِهْتَ شَيْئًا فَاجْلِسْ. قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا عَلْقَمَةُ بْنَ وَقَّاصٍ، بَيْنَا نَحْنُ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَىٰ مَنْ سِوَانَا إِذْ صِرْنَا جَبَلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ يَطْلُبُ بَعْضُنَا بَعْضًا»(٨).

وَيُبَيِّنُ ﷺ كَيْفَ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ مِنْ عِظَمِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَشِدَّتِهَا فَيَقُولُ: «إِنَّ هَذِهِ

= من شن الحرب وإضرامها، فكلتا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها، مدافعة عن نفسها. ورجع الزبير وترك الحرب بحالها، وأتىٰ طلحة سهم غائر وهو قائم لا يدري حقيقة ذلك الاختلاط، فصادف جرحا في ساقه كان أصابه يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ فانصرف، ومات من وقته ﷺ، وقتل الزبير ﷺ بوادي السباع علىٰ أقل من يوم من البصرة فهكذا كان الأمر» الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٣).

وقال القرطبي في تفسيره: «وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت علىٰ غير عزيمة منهم علىٰ الحرب، بل فجأة وعلىٰ سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم؛ لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق علىٰ الرضا، فخاف قتلة عثمان ﷺ من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم علىٰ أن يفترقوا فريقين ويبدءوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي، فتم لهم ذلك علىٰ ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعا لمكرته عند نفسه، ومانعا من الإشاطة بدمه، وهذا صواب من الفريقين، وطاعة لله تعالىٰ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما علىٰ هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور، والله أعلم». (١٦/ ٣١٨-٣١٩).

(٨) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٢٢).

لَهِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنَّا نُحَدَّثُ عَنْهَا، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَتُسَمِّيهَا فِتْنَةً وَتُقَاتِلُ فِيهَا؟! قَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّا نُبْصِرُ وَلَا نُبْصِرُ، مَا كَانَ أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا عَلِمْتُ مَوْضِعَ قَدَمِي فِيهِ غَيْرَ هَذَا الْأَمْرِ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أَمُقْبِلٌ أَنَا فِيهِ أَمْ مُدْبِرٌ؟»(٩).

لَقَدْ أَكَلَتْ هَذِهِ الْفِتْنَةُ الْعَمْيَاءُ جُمْلَةً مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ، وَسَادَةِ النَّاسِ، عَلَىٰ رَأْسِهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، قَتَلَهُمْ مَنْ أَثَارُوا الْفِتْنَةَ، وَأَجَّجُوا الْخِلَافَ، مِنَ الْخَوَارِجِ وَالدَّهْمَاءِ وَالرَّعَاعِ، وَهُمْ ﷺ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَكَيْفَ يَقْتُلُهُمْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ؟! وَيَقْتُلُونَهُمْ تَقَرُّبًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِزَعْمِهِمْ!! وَلَكِنَّهَا الْفِتَنُ تُعْمِي الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهَا.

وَنَجَمَ عَنْ هَذِهِ الْفِتَنِ الْعَظِيمَةِ اخْتِلَالُ أَمْنِ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ، وَظُهُورُ اللُّصُوصِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّ الْحُدُودَ لَا تُقَامُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ دَوْلَةٌ وَوِلَايَةٌ، وَلَا دَوْلَةَ إِلَّا بِإِمَامٍ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقِيمُ الْعَدْلَ، وَيَرْفَعُ الظُّلْمَ، وَقَدْ شَغَلَ سَادَةَ النَّاسِ وَأَئِمَّتَهُمْ آنَذَاكَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ.

وَتَوَقَّفَتِ الْفُتُوحُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ ﷺ؛ لِأَنَّ الْجُيُوشَ تَحَوَّلَتْ مِنَ الثُّغُورِ إِلَىٰ مُنَاصَرَةِ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فُتُوحٌ تُذْكَرُ لَا فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ وَلَا فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ ﷺ. وَقَوِيَ النِّفَاقُ، وَكَثُرَ الْمُنَافِقُونَ وَطُلَّابُ الدُّنْيَا، وَشَمِتَتِ الْفُرْسُ وَالرُّومُ وَكُلُّ عَدُوٍّ بِالْمُسْلِمِينَ.

وَمَا عَادَتِ الْأُمُورُ إِلَىٰ نِصَابِهَا، وَلَا سَكَنَتِ الْفِتْنَةُ إِلَّا لَمَّا كَانَتِ الْبَيْعَةُ لِلْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ ﷺ، فَآثَرَ مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ، وَرَأَىٰ أَنَّ حَقْنَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَوْلَىٰ بِالرِّعَايَةِ مِنْ حَقِّهِ فِي الْخِلَافَةِ، وَمَا تَرَكَهَا ﷺ لِعَجْزِهِ أَوْ لِقِلَّةِ مِنْ يُعِينُهُ

---

(٩) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٢٢).

وَيَنْصُرُهُ!! كَلَّا، بَلْ تَرَكَهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَقْنًا لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ يَفْعَلُ فِعْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ تَنَافُرِهَا وَاخْتِلَافِهَا؟! فَكَانَ سَيِّدًا مِنْ سَادَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَحَقَّ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٠).

فَاجْتَمَعَ سَوَادُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بَعْدَ تَنَازُلِ الْحَسَنِ ﷺ، فَأُغْمِدَ السَّيْفُ، وَسَكَنَتِ الْفِتْنَةُ، وَعَادَتْ مَهَابَةُ الْأُمَّةِ، وَتَوَارَىٰ أَهْلُ النِّفَاقِ وَالشِّقَاقِ، فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي أَحْوَالِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَأُقِيمَتِ الْحُدُودُ، وَحُمِيَتِ الثُّغُورُ، وَانْطَلَقَتْ جُيُوشُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَفْتَحُ الْبُلْدَانَ، وَتُمَصِّرُ الْأَمْصَارَ، وَتَنْشُرُ الْإِسْلَامَ، حَتَّىٰ حُوصِرَتِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ، وَمَاتَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ تَحْتَ أَسْوَارِهَا، وَبُنِيَتْ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ، وَعَظُمَتِ الْفُتُوحُ فِي خُرَاسَانَ وَالسِّنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَاتَّسَعَتْ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفَاضَتِ الْخَيْرَاتُ، وَازْدَهَرَتِ الْعُلُومُ.

وَالْفُتُوحُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ الْفُتُوحِ وَأَكْثَرِهَا فِي تَارِيخِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِبَرَكَةِ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ إِمَامٍ وَاحِدٍ، وَالِائْتِلَافِ بَعْدَ الِاخْتِلَافِ، وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ.

وَمَا اشْتَعَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِتْنَةٌ فِي قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِيهَا

---

(١٠) أخرجه من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث ﷺ: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين ﷺ (٣٧٤٦)، وأبو داود في السنة، باب ما يدل علىٰ ترك الكلام في الفتنة (٤٦٦٢)، والنسائي في الجمعة، باب مخاطبة الإمام رعيته وهو علىٰ المنبر (٣/ ١٠٧)، والترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن والحسين (٣٧٧٣).

عَنْ إِمَامِهِمْ إِلَّا فَرَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ قُلُوبَهُمْ، وَصَدَّعَ صَفَّهُمْ، وَشَتَّتَ كَلِمَتَهُمْ، وَأَطْمَعَ فِيهِمْ أَعْدَاءَهُمْ، فَحَلَّ فِيهِمُ الْخَوْفُ، وَرُفِعَ مِنْهُمُ الأَمْنُ، وَعُطِّلَتِ الْحُدُودُ، وَظَهَرَ أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

وَمَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ إِلَّا اجْتَمَعَتْ قُلُوبُهُمْ، وَرُفِعَ خَوْفُهُمْ، وَزَادَتْ خَيْرَاتُهُمْ. وَكُلُّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ تَشْهَدُ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَمَنْ قَرَأَ التَّارِيخَ اسْتَبَانَ لَهُ الأَمْرُ، وَعَرَفَ أَنَّ مَوَاضِعَ عِزَّةِ الأُمَّةِ وَنَصْرِهَا تَكُونُ حَيْثُ يَجْتَمِعُ أَبْنَاؤُهَا، وَأَنَّ ضَعْفَهُمْ وَهَوَانَهُمْ يَكُونُ حَيْثُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ أَعْلَمَ الصَّحَابَةِ ﷺ بِمَا سَيَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ مِنَ الْفِتْنَةِ

وَالتَّفَرُّقِ إِنْ قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

أَمَّا حُذَيْفَةُ ﷺ فَكَانَ أَعْلَمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِهَا ﷺ بِالْفِتَنِ وَبِالْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الشَّرِّ فِي حِينِ أَنَّ النَّاسَ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ(١١)، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ عُثْمَانَ ﷺ قَالَ: «اعْتَبِرُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ أَصَابَتْ بِقَتْلِهَا عُثْمَانَ لَتَحْتَلِبَنَّ بِهِ لَبَنًا، وَلَئِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ أَخْطَأَتْ بِقَتْلِهَا عُثْمَانَ لَتَحْتَلِبَنَّ بِهِ دَمًا»(١٢)، فَوَقَعَ مَا قَالَ حُذَيْفَةُ ﷺ فَاحْتَلَبَتِ الْأُمَّةُ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ دَمًا كَثِيرًا، وَلَا زَالَتْ تَحْتَلِبُ دَمًا إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَسَتَظَلُّ تَحْتَلِبُ بِقَتْلِهِ دَمًا كَثِيرًا إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ قَالَ حُذَيْفَةُ: انْفَتَقَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْقٌ لَا يَرْتِقُهُ جَبَلٌ»(١٣).

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ﷺ فَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَحِكْمَةً، فَحَذَّرَ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ ﷺ وَقَالَ لَمَّا حَصَرُوا عُثْمَانَ فِي الدَّارِ: «لَا تَقْتُلُوهُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَجَلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ، وَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَا تُصَلُّونَ جَمِيعًا أَبَدًا»(١٤)، وَحَذَّرَ مِنَ الِاقْتِتَالِ فَقَالَ ﷺ: «لَا تَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ؛ فَلَئِنْ سَلَلْتُمُوهَا لَا تُغْمَدُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١٥)، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ عُثْمَانَ جَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ: «الْيَوْمَ هَلَكَتِ الْعَرَبُ»(١٦).

---

(١١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٣)، وأحمد في فضائل الصحابة (٨٠١).

(١٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١٨) وأبو نعيم في الإمامة (١٤٢).

(١٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٢).

(١٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥١٩).

(١٦) أخرجه ابن سعد (٣/ ٨١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١٨)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢٠٥٤).

وَكَانَ عُثْمَانُ ﵁ يَعْلَمُ مَا سَيَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ رَعِيَّتِهِ إِنْ هُمْ قَتَلُوهُ، فَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَقْتُلُونِي، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لَا تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا جَمِيعًا، وَلَا تَقْتَسِمُونَ فَيْئًا جَمِيعًا أَبَدًا، وَلَا تُصَلُّونَ جَمِيعًا أَبَدًا».

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَوَاللَّهِ إِنْ صَلَّىٰ الْقَوْمُ جَمِيعًا فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمُخْتَلِفَةٌ»(١٧).

وَوَقَعَ مَا خَافَهُ عُثْمَانُ وَحُذَيْفَةُ وَابْنُ سَلَامٍ ﵃، وَلَا يَزَالُ يَقَعُ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

وَمَنْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ وَعَقْلٌ عَلِمَ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَىٰ السَّلَاطِينِ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي تُبْتَلَىٰ بِهَا الْأُمَّةُ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَجُرُّ إِلَىٰ فِتَنٍ مَاحِقَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا: سَفْكُ الدِّمَاءِ، وَرَفْعُ الْأَمْنِ، وَحُلُولُ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ النُّصْحَ وَالدُّعَاءَ وَالصَّبْرَ وَالطَّاعَةَ خَيْرٌ مِنْ نَكْثِ الْبَيْعَةِ، وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، وَقَدْ تَضَافَرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٨).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

---

(١٧) أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (٢٠٧٥)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٣٤٨).

(١٨) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورا تنكرونها**» (٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلىٰ الكفر (١٨٤٩).

(١٩) أخرجه مسلم في الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلىٰ الكفر (١٨٥١).

وَمِمَّا يَأْسَىٰ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ مَا وَقَعَ فِيهِ بَعْضُ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّخْطِيطِ وَالْجَمْعِ وَالْعَزْمِ عَلَىٰ التَّخْرِيبِ وَالتَّفْجِيرِ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ بَعْضُ أَسْلَافِهِمْ مَا فَعَلُوا مِمَّا هُوَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِاجْتِهَادَاتٍ خَاطِئَةٍ، وَتَأْوِيلَاتٍ فَاسِدَةٍ، وَشُبُهَاتٍ فَاتِنَةٍ، وَالْفَسَادُ فِي أَرْضٍ فَاسِدَةٍ لَا يَحِلُّ، فَكَيْفَ بِالْفَسَادِ فِي أَرْضٍ آمِنَةٍ؟! وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَأَيُّ فَسَادٍ أَعْظَمُ مِنْ إِفْسَادٍ فِي بِلَادٍ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا بِالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَهِيَ مُهْوَىٰ أَفْئِدَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَإِذَا اخْتَلَّ أَمْنُهَا كَيْفَ يَحُجُّ النَّاسُ وَكَيْفَ يَعْتَمِرُونَ؟!

أَوَلَيْسُوا بِأَعْمَالِهِمُ الْخَاطِئَةِ، وَتَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ قَدْ أَشْمَتُوا بِالْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَهَّدُوا الطُّرُقَ لِلْمُنْحَرِفِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ أَنْ يَطْعَنُوا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْكَامِهَا، وَفِي الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ، وَفِي الْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ، وَفِي التَّعْلِيمِ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَفِي الْمَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا، وَكَمْ تَأَخَّرَتِ الدَّعْوَةُ وَالْإِغَاثَةُ وَالْإِصْلَاحُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ؟!

أَلَيْسَتْ أَفْعَالُهُمُ الْمَشِينَةُ كَانَتْ سَبَبًا فِي تَسَلُّقِ الْمُرْتَزِقَةِ وَذَوِي الْأَهْوَاءِ لِيَتَأَكَّلُوا بِالْأَحْدَاثِ، وَيَرْتَزِقُوا بِأَمْنِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَيَقْتَاتُوا عَلَىٰ الْمَصَائِبِ وَالنَّكَبَاتِ؛ لِيَحُوزُوا مَالًا أَوْ جَاهًا أَوْ لِيُصَفُّوا حِسَابَاتِهِمْ مَعَ الدِّينِ وَحَمَلَتِهِ وَأَهْلِهِ، وَيَسْعَوْا بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ فِي نَشْرِ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ. وَمَا رَأَيْنَا إِصْلَاحًا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَحْذَرَ الْفِتَنَ وَأَهْلَهَا، وَأَنْ لَا يُسَلِّمَ قَلْبَهُ لِلشُّبُهَاتِ، فَإِنَّهَا تَفْتِكُ بِالْقُلُوبِ فَتْكًا، وَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شُبْهَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الْعِلْمِ فِيهَا، وَأَنْ لَا يُقْدِمَ عَلَىٰ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهِ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ الْحِسَابَ عَسِيرٌ، وَإِنَّ حُرْمَةَ الدِّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ عَظِيمَةٌ،

وَلِعَظَمَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَانَتْ أَوَّلَ شَيْءٍ يُقْضَىٰ فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٢٠)، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٢١).

وَلَمَّا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ الْأُولَىٰ اعْتَزَلَهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٢).

وَلَمَّا قِيلَ لَهُ ﷺ: «أَلَا تُقَاتِلُ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الشُّورَىٰ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِكَ؟ قَالَ ﷺ: لَا أُقَاتِلُ حَتَّىٰ يَأْتُونِي بِسَيْفٍ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ وَشَفَتَانِ يَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، قَدْ جَاهَدْتُ وَأَنَا أَعْرِفُ الْجِهَادَ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ: وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ(٢٣).

وَلَمَّا جَاءَ الْخَوَارِجُ إِلَىٰ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ، وَمِنْ

---

(٢٠) كما في حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**أول ما يقضىٰ بين الناس في الدماء**» أخرجه البخاري في فاتحة كتاب الديات (٦٨٦٤)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضىٰ فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

(٢١) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في فاتحة كتاب الديات (٦٨٦٢).

(٢٢) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٥).

(٢٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٣٦)، ونعيم بن حماد في الفتن (٤٣٢)، وابن سعد (٣/ ١٤٣)، والطبراني في الكبير (١/ ١٤٤) رقم (٣٢٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٣٣)، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٤٩١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٩).

أَعْلَمِهِمْ بِالْفِتَنِ، جَاءُوهُ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَا هَؤُلَاءِ، لَوْ كَانَ لِي نَفْسَانِ بَايَعْتُكُمْ بِإِحْدَاهُمَا وَأَمْسَكْتُ الْأُخْرَىٰ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَقُولُونَ هُدًىٰ أَتْبَعْتُهَا الْأُخْرَىٰ، وَإِنْ كَانَ ضَلَالَةً هَلَكَتْ نَفْسٌ وَبَقِيَتْ لِي نَفْسٌ، وَلَكِنْ هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ لَا أُغَرِّرُ بِهَا»(٢٤).

فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- مِنْ سِيَرِ مَنْ سَبَقُوكُمْ عِظَاتٍ وَعِبَرًا؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ أَتْقَىٰ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مِنَّا، وَأَعْلَمُ بِالشَّرِيعَةِ، وَأَسَدُّ رَأْيًا، وَأَحْكَمُ عَقْلًا، وَالسَّعِيدُ مَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَالشَّقِيُّ مَنْ تَشَرَّبَتْهُ الْفِتَنُ فَلَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفْلِسًا بِمَا عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



---

(٢٤) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (٤/ ٣١٩)، وذكره الذهبي في السير (٤/ ١٩٥).

٢١٥- قنوات السحر والشعوذة (١) برامجها وموضوعاتها وخطرها

٨/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ خَلَقَ خَلْقَهُ لِيَعْبُدُوهُ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ لِيَشْكُرُوهُ، نَحْمَدُهُ وَلَا نَجْحَدُهُ، وَنَشْكُرُهُ وَلَا نَكْفُرُهُ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ، فَلَا نَفْعَ وَلَا ضُرَّ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرَّعْد: ٨-٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَمَّا سَمِعَ جَارِيَةً تَرْتَجِزُ وَتَقُولُ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ» أَنْكَرَ عَلَيْهَا ذَلِكَ، وَنَهَاهَا عَمَّا تَقُولُ[1]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِكُمْ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ سُبْحَانَهُ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهَا وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهَا، وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»[2].

---

(١) أخرجه من حديث الربيع بنت معوذ رضي الله عنها: البخاري في النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة (٥١٤٧)، وأبو داود في الأدب، باب في النهي عن الغناء (٤٩٢٢)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح (١٠٩٠)، وابن ماجه في النكاح: باب الغناء والدف (١٨٩٧).

(٢) أخرجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه: ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩)، والبغوي في شرح السنة (٨٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، والحاكم ووافقه الذهبي(١/ ٥٢٥).

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يَنَالُهَا الْإِنْسَانُ أَنْ يُهْدَىٰ إِلَىٰ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أُصُولَ دِينِهِ وَفُرُوعَهُ، وَأَنْ يُدْرِكَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ، وَأَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ الْوَحْيِ وَبَيْنَ الْخُرَافَةِ، فَيُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ وَلَوْ كَانَ غَيْبًا، وَيَنْبِذَ مَا نَتَجَ عَنِ الْخُرَافَةِ وَلَوْ شَاهَدَ لَهُ أَثَرًا. وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ هُوَ الْإِيمَانُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ السِّتَّةَ كُلَّهَا غَيْبٌ، وَالْقُرْآنُ لَا يَكُونُ هِدَايَةً إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢-٤].

وَعِلْمُ الْغَيْبِ خِصِّيصَةٌ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَكْشِفُ مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الْجِنّ: ٢٦-٢٧].

كَمَا أَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، لَا يَمْلِكُهُمَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ، أَوْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُ، أَوْ كَثُرَ جَمْعُهُ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْأَنْعَام: ١٧].

وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّانِ عَلَىٰ هَذَيْنَ الْأَصْلَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِيَدِهِ ﷻ، وَآيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُثْبِتُ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْغَيْبِ، وَتَنْفِيهِ عَمَّا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ ﷻ؛ فَفِي آيَةِ الْأَنْعَامِ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٩]، وَفِي آيَةِ يُونُسَ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يُونُس: ٢٠]، وَفِي آيَةِ النَّمْلِ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمْل: ٦٥]، وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَآ

أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هُود: ٣١]، وَهَكَذَا قِيلَ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ مَكَّةَ.

وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُمْ يَنْفَعُونَ وَيَضُرُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِمَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدِ اسْتَعْبَدَهُمْ وَاسْتَعْمَلَهُمْ، وَمَاتَ بَيْنَهُمْ، وَلَوْ عَلِمُوا الْغَيْبَ لَعَلِمُوا بِمَوْتِهِ، وَكَفُّوا عَنْ خِدْمَتِهِ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: ١٤].

وَلَمَّا قَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَبَرَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ ذَيَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هُود: ٤٩]، وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ خَتَمَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٢].

وَأَمَّا الضُّرُّ وَالنَّفْعُ فَقَدْ خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الْجِنّ: ٢١]، وَخُوطِبَ مَنِ اعْتَقَدُوا أَنَّ مَعْبُودَاتِهِمْ تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٥٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتُ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(٣).

---

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩) وقال: حسن صحيح (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وأبو يعلىٰ (٢٥٥٦).

وَجَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ خَاطَبَ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٨].

وَهَذَانَ الْأَصْلَانِ الْعَظِيمَانِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ يَجِبُ أَنْ يَدِينَ بِهِمَا الْمُسْلِمُ، وَلَا يَشُكَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَقُولَ أَوْ يَعْمَلَ أَوْ يَعْتَقِدَ مَا يُخَالِفُهُمَا، وَأَيُّ إِخْلَالٍ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا فَهُوَ إِخْلَالٌ بِتَوْحِيدِ الْعَبْدِ وَإِيمَانِهِ، وَقَدْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَىٰ الْكُفْرِ، وَمِنَ التَّوْحِيدِ إِلَىٰ الشِّرْكِ.

وَكُلُّ طَرِيقٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ، أَوْ يَزْعُمُ صَاحِبُهَا أَنَّهُ يَنْفَعُ النَّاسَ أَوْ يَضُرُّهُمْ فَهِيَ طَرِيقُ ضَلَالٍ وَشِرْكٍ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُنَازَعَةٍ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَصَاحِبُهَا يَسْعَىٰ فِي تَعْبِيدِ الْبَشَرِ لِغَيْرِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَفِي مُقَدِّمَةِ مَا يُخِلُّ بِهَذَيْنَ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ وَيَنْقُضُهُمَا: السِّحْرُ وَالتَّنْجِيمُ، وَالْكِهَانَةُ وَالْعِرَافَةُ، وَقِرَاءَةُ الْكَفِّ وَالْفِنْجَانِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَظِّ، وَالْخَطُّ بِالرَّمْلِ، وَالضَّرْبُ بِالْحَصَىٰ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ دَجَّالُونَ يُفْسِدُونَ عَقَائِدَ النَّاسِ، وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَيَزْرَعُونَ الشُّكُوكَ وَالْوَسَاوِسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْإِيمَانِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَىٰ شَقَاءِ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ، وَيَنْقُلُونَ قُلُوبَهُمْ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالله تَعَالَىٰ إِلَىٰ تَعَلُّقِهَا بِالْبَشَرِ وَبِالشَّيَاطِينِ وَبِالْأَوْثَانِ.

وَطُرُقُ الْبَاطِلِ كَثِيرَةٌ، وَأَسَالِيبُ أَهْلِ الضَّلَالِ فِي نَشْرِهِ عَدِيدَةٌ، وَمُدَّعُو عِلْمِ الْغَيْبِ وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ مَوْجُودُونَ فِي الْقَدِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ، وَيَحْتَالُونَ عَلَىٰ النَّاسِ بِشَتَّىٰ الْوَسَائِلِ لِنَشْرِ بَاطِلِهِمْ، بَيْدَ أَنَّ الدَّاهِيَةَ الْكُبْرَىٰ، وَالْبَلِيَّةَ الْعُظْمَىٰ: أَنَّهُمْ فِي هَذَا الزَّمَنِ اسْتَطَاعُوا الْوُصُولَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ،

وَالنَّفَاذَ عَبْرَ الشَّاشَاتِ إِلَىٰ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَالْخَلْوَةَ بِهِمْ فِي غُرَفِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ؛ لِإِفْسَادِ عُقُولِهِمْ، وَإِزَاغَةِ قُلُوبِهِمْ، وَتَدْمِيرِ عَقَائِدِهِمْ. إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ! إِنَّ هَذَا لَوَاقِعٌ، وَكَمْ مِنْ قَلْبٍ مُوَحِّدٍ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نَقَلُوهُ إِلَىٰ شِرْكِهِمْ، وَكَمْ مِنْ أُسْرَةٍ دَمَّرُوهَا بِسِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ.

إِنَّهَا قَنَوَاتٌ فَضَائِيَّةٌ خُصَّتْ لِلشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعِبَادَةِ الشَّيَاطِينِ، وَكَرَّسَتْ بَرَامِجَهَا لِلسِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ وَالْكِهَانَةِ، يَدَّعِي ضُيُوفُهَا عِلْمَ الْغَيْبِ، وَامْتِلَاكَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَيُمَارِسُونَ سِحْرَهُمْ وَكِهَانَتَهُمْ وَتَنْجِيمَهُمْ عَلَىٰ الْمَلَإِ، وَلَا أَحَدَ يُوقِفُهُمْ، وَلَا رَادِعَ يَرْدَعُهُمْ، وَالْمُقَدِّمُونَ لَهُمْ يَنْعَتُونَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْوِلَايَةِ وَالْمَشْيَخَةِ، وَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ أَلْفَاظَ التَّبْجِيلِ وَالْوَقَارِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَرَّسُوا أَوْقَاتَهُمْ لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَحَلِّ مَشَاكِلِهِمْ، وَإِزَالَةِ هُمُومِهِمْ وَغُمُومِهِمْ!!

أَيُشْرَكُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي النَّاسِ!! فَأَيْنَ هِيَ الْغَيْرَةُ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ؟! وَأَيْنَ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدْ أُعْلِنَ الشِّرْكُ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَبْرَ الشَّاشَاتِ، وَنَازَعَتِ الشَّيَاطِينُ رَبَّنَا ﷻ بَعْضَ خَصَائِصِهِ، فَمَا أَحْلَمَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ! وَمَا أَشَدَّ أَذَىٰ الْخَلْقِ لِرَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ!

قَنَوَاتٌ آثِمَةٌ تَبُثُّ ضَلَالَهَا عَلَىٰ الْهَوَاءِ مُبَاشَرَةً طِيلَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَضُيُوفُهَا شَيَاطِينُ فِي إِثْرِ شَيَاطِينَ، لَا يَكِلُّونَ وَلَا يَمَلُّونَ، وَالْمُتَّصِلُونَ بِهِمْ مِنْ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَاذَا يَقُولُونَ فِيهَا؟ وَمَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَمَاذَا يَعْرِضُونَ؟

لَقَدْ رَأَيْتُ فِي إِحْدَاهَا وَلَبِئْسَ مَا رَأَيْتُ!! وَسَمِعْتُ وَيَا لَفَظَاعَةِ مَا سَمِعْتُ!! رَأَيْتُ سَاحِرًا رَافِضِيًّا بَاطِنِيًّا- وَالْفِرَقُ الْبَاطِنِيَّةُ هِيَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَعَاطِيًا لِلسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ- يَنْتَمِي هَذَا السَّاحِرُ الرَّافِضِيُّ إِلَىٰ النَّجَفِ قَدْ أَلْقَىٰ عَلَىٰ طَاوِلَتِهِ أَحْجَارًا يَزْعُمُ أَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيهَا، وَمِنَ التَّلْبِيسِ وَالْإِضْلَالِ يَدَّعِي هَذَا الْأَفَّاكُ أَنَّ كُلَّ

هَذِهِ الْأَحْجَارِ مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا، وَأَنَّهَا مِنَ الطِّبِّ النَّبَوِيِّ، وَأَنَّ تَأْثِيرَهَا فَوْرِيٌّ.

وَتَتَّصِلُ بِهِ امْرَأَةٌ فَقَدَتْ زَوْجَهَا مُنْذُ عَامٍ فَيَتَقَمَّصُ هَذَا السَّاحِرُ الْخَبِيثُ صِفَةَ الرَّبِّ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]! تَعَالَىٰ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ شِرْكِ هَذَا الْكَذَّابِ الْأَشِرِ، ثُمَّ يُخَاطِبُ شَيَاطِينَهُ عَنْ طَرِيقِ حَجَرٍ مِنْ أَحْجَارِهِ، فَيَخْلَعُ عَلَيْهِمْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ إِرْجَاعَ هَذَا الزَّوْجِ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ يُخْبِرُهَا عَنْ مَكَانِهِ، وَأَنَّهُ يَرَاهُ الْآنَ، وَأَنَّهُ سَيَعُودُ فِي غُضُونِ أَيَّامٍ.

وَيَتَّصِلُ بِهِ آخَرُ يُرِيدُ تَخْلِيصَ مُعَامَلَةٍ إِدَارِيَّةٍ عَقَارِيَّةٍ فَيَعُودُ إِلَىٰ أَحْجَارِهِ وَشَيَاطِينِهِ يُخَاطِبُهَا بِمَا أَرَادَ، وَيَعِدُهُ بِإِنْجَازِهَا فَوْرًا.

وَتَتَّصِلُ بِهِ أُخْرَىٰ تَسْأَلُهُ الصِّحَّةَ وَالرِّزْقَ، فَيَضْمَنُ لَهَا تَوْسِيعَ رِزْقِهَا، وَعَافِيَتَهَا مِنْ مَرَضِهَا بَعْدَ أَنْ يُخَاطِبَ أَحْجَارَهُ وَشَيَاطِينَهُ.

وَفِي قَنَاةٍ أُخْرَىٰ شَيْطَانٌ آخَرُ يَرْسُمُ أَشْكَالًا وَيَكْتُبُ فِيهَا طَلَاسِمَ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنَ الْمُتَّصِلِ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا، وَيُعَلِّقَ هَذِهِ الْوَرَقَةَ فِي بَيْتِهِ لِتَحْمِيَهُ طَلَاسِمُهَا وَأُسْرَتَهُ مِنَ الشُّرُورِ.

وَحَدَّثَ أَحَدُ الْمَشَايِخِ الْمُهْتَمِّينَ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ: أَنَّهُ شَاهَدَ سَاحِرًا يَقُولُ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: رِزْقُكِ عِنْدِي .. حَيَاتُكِ عِنْدِي .. عَلَاقَتُكِ مَعَ زَوْجِكِ عِنْدِي .. كُلُّ شَيْءٍ عَنْكِ عِنْدِي.

وَيُحَدِّثُ عَنْ كَاهِنٍ آخَرَ أَنَّهُ يَقُولُ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: لِمَاذَا تَزَوَّجْتِ فُلَانًا؟ الْمَفْرُوضُ أَنَّكِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ تُطَلَّقِينَ.

وَقَالَتْ لَهُ مُتَّصِلَةٌ عَنْ مَشَاكِلَ لَهَا مَعَ زَوْجِهَا، فَقَالَ لَهَا: لَوْ يَجْتَمِعُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ لِكَيْ يُصْلِحُوا زَوَاجَكِ فَلَنْ يَنْجَحَ.

وَاتَّصَلَتْ بِهِ امْرَأَةٌ تَحْكِي أَنَّ زَوْجَهَا كَثِيرُ الانْشِغَالِ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لَهَا وَفِي يَدِهِ طِلَّسْمٌ: اكْتُبِي هَذَا الْحِجَابَ وَضَعِيهِ تَحْتَ فِرَاشِ زَوْجِكِ، وَإِنْ عَادَ إِلَىٰ أُمِّهِ عُودِي إِلَيَّ.

وَكَاهِنَةٌ أُخْرَىٰ يَتَّصِلُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْفَتَيَاتِ، تَسْأَلُهَا الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ: هَلْ سَتَتَزَوَّجُ أَمْ لَا؟ وَكَمْ سَتُرْزَقُ مِنَ الْوَلَدِ؟ فَتَسْأَلُهَا الْكَاهِنَةُ عَنْ عُمْرِهَا وَلَوْنِ بَشَرَتِهَا، ثُمَّ تَرْمِي بِحَجَرٍ، فَتُخْبِرُهَا مَنْ سَتَتَزَوَّجُ! وَكَمْ تُرْزَقُ مِنَ الْوَلَدِ!

وَيَهْزَءُونَ بِالْقُرْآنِ وَيُدَنِّسُونَهُ؛ وَذَلِكَ حِينَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: اكْتُبِي الْآيَاتِ مَعْكُوسَةً، وَآخَرُ يَقُولُ لِمُتَّصِلَةٍ أُخْرَىٰ: اجْمَعِي فَضَلَاتِ الطُّيُورِ وَاطْحَنِيهَا وَاكْتُبِي بِهَا سُورَةَ الْوَاقِعَةِ. وَيَقُولُ هَذَا الْأَفَّاكُ الْأَثِيمُ: إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي فِيهِ جِنٌّ لَا يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، الْمَرِيضُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ طَلَاسِمَ.

إِنَّهُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِفْسَادٌ لِلْعَقَائِدِ، وَشِرْكٌ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعِبَادَةٌ لِلْأَوْثَانِ وَالشَّيَاطِينِ، وَاسْتِهْزَاءٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَدْمِيرٌ لِلْأُسَرِ وَالْبُيُوتِ، وَإِفْسَادٌ لِلنِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ، وَتَعْلِيقٌ لِقُلُوبِ الْمَرْضَىٰ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَثٌّ عَلَىٰ الْقَطِيعَةِ وَالْعُقُوقِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٢].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: مَا نَقَلْتُهُ عَلَىٰ مَسَامِعِكُمْ مَا هُوَ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ، وَنَزْرٌ يَسِيرٌ، مِنْ شِرْكٍ كَثِيرٍ، وَإِفْسَادٍ عَظِيمٍ؛ يُبَثُّ إِلَيْكُمْ، وَيَصِلُ إِلَىٰ بُيُوتِكُمْ عَبْرَ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْفَاجِرَةِ الْمُفْسِدَةِ.

وَلَمْ أَنْقُلْهُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا التَّفْصِيلِ رَغْمَ مَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالدَّجَلِ إِلَّا لِتَعْلَمُوا خُطُورَةَ الْأَمْرِ؛ وَلِكَيْلَا يَتَصَدَّرَ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ تَخْذِيلِ النَّاسِ عَادَةً لَهُمْ، فَيَتَّهِمُونَ كُلَّ نَاصِحٍ بِالتَّهْوِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ؛ فَلَقَدْ بَلَغَ السِّحْرُ وَالْكِهَانَةُ بُيُوتَكُمْ،

وَوَصَلَ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ الْخَبِيثِ، فَاحْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا، اللَّهُمَّ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا، وَجَعَلَ لِلْبَاطِلِ أَعْوَانًا؛ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ وَامْتِحَانًا، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِيَلِ هَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ إِلَىٰ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَيُحَدِّدُونَ لَهُمْ سُوَرًا وَآيَاتٍ يَقْرَءُونَهَا بِأَعْدَادٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ -وَلَا أَحْنَثُ فِي يَمِينِي- أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْقُرْآنَ، وَإِنَّمَا شَيَاطِينُهُمْ تُلْقِي ذَلِكَ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ لِخِدَاعِ النَّاسِ وَإِضْلَالِهِمْ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ الْآيَاتِ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُونَ سُوَرَهَا وَأَرْقَامَهَا لِلْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، وَفَلَتَتْ مِنْ بَعْضِهِمْ مَعَ الْحَمَاسَةِ وَالِانْفِعَالِ فَلَتَاتٌ حَاوَلُوا فِيهَا ذِكْرَ أَوَّلِ الْآيَاتِ الَّتِي يُوصُونَ بِقِرَاءَتِهَا، فَإِذَا هُمْ يَكْسِرُونَهَا وَلَا يُقِيمُونَهَا،

وَيَلْحَنُونَ فِيهَا، وَيُخْطِئُونَ خَطَأً لَا يُخْطِئُهُ أَطْفَالُ المُسْلِمِينَ، وَهِيَ آيَاتٌ مِنْ قِصَارِ السُّوَرِ، فَهَلْ هَؤُلَاءِ يَعْرِفُونَ الْقُرْآنَ أَوْ يَقْرَؤُونَهُ؟ وَهَلْ هُمْ أَهْلُ مَشْيَخَةٍ وَوِلَايَةٍ؟!

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ بَعْضُ النَّاسِ: لِمَاذَا تَدْعُوهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِلَىٰ التَّزَيُّنِ بِالْقُرْآنِ، وَخِدَاعِ النَّاسِ بِهِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ قِرَاءَتِهِ، وَالشَّيَاطِينُ وَالسَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ هُمْ أَعْدَاءُ الْقُرْآنِ؟!

وَجَوَابُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمُ الرَّدِيئَةَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ كَانُوا عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ لَسَوَّقُوهَا بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، أَوْ بِمَا يُؤْمِنُ بِهِ مَنْ يَسْتَهْدِفُونَهُمْ. وَلَوْ أَنَّهُمُ اقْتَصَرُوا عَلَىٰ طَلَاسِمِهِمْ وَخُزَعْبَلَاتِهِمْ لَأَحْجَمَ عَنْهُمْ أَكْثَرُ مَنْ يَتَّصِلُونَ بِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ تَقَمَّصُوا ثِيَابَ الْمَشْيَخَةِ، وَادَّعَوُا الْوِلَايَةَ، وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الْهَيْئَةِ مِنْ قُرْآنٍ!

وَمَاذَا يَضِيرُ شَيَاطِينَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ إِذَا كَانُوا يَصْرِفُونَ زَبَائِنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ إِلَىٰ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟!

وَهَلْ يَنْفَعُ مَنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ شَيْئًا أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَوْ يُرَدِّدَ بَعْضَ سُوَرِهِ أَوْ آيَاتِهِ حَسَبَ مَا يُمْلِي عَلَيْهِ السَّاحِرُ أَوِ الْكَاهِنُ؟!

أَلَيْسَ الشَّيْطَانُ قَدْ عَلَّمَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَضْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ مُقَابِلَ أَنْ يُطْلِقَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَا يَرْفَعَ أَمْرَهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٤).

---

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، فقص الحديث، فقال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح، وقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان**» أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة (٥٠١٠).

أَيَفْعَلُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ مُقَابِلَ إِطْلَاقِهِ مِنْ عُقُوبَةٍ عَلَىٰ خُدْعَةٍ خَدَعَهَا أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ، وَلَا يَفْعَلُهَا فِيمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ إِغْوَاءُ مُوَحِّدِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَجَرُّهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاللَّهِ لَا يُمَانِعُ الشَّيْطَانُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ إِذَا كَانَتْ قِرَاءَتُهُ وَالدَّلَالَةُ عَلَيْهِ خُدْعَةً يَسْتَخْدِمُهَا السَّاحِرُ وَالْكَاهِنُ لِجَرِّ زَبَائِنِهِمْ إِلَىٰ مَا يُرِيدُونَ، وَرِبْحُ الشَّيْطَانِ فِي إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْخُدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ خَسَارَتِهِ بِقِرَاءَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

إِنَّ هَذَا الْوَبَاءَ بَالِغُ الْخُطُورَةِ، وَيَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَهُوَ يَفْتِكُ بِعَقَائِدِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ، وَيُدَمِّرُ أُسَرَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَدَاعَىٰ الْغَيُورُونَ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الرَّأْيِ وَالمَسْئُولِيَّةِ وَسَائِرِ النَّاسِ إِلَىٰ مُكَافَحَتِهِ، وَحِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِ.

إِنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ مَنْ بِيَدِهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ فِي الْأَقْمَارِ الِاصْطِنَاعِيَّةِ أَنْ يُوقِفُوا بَثَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ عَلَىٰ الْأَقْمَارِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ شَرِكَاتِ الِاتِّصَالَاتِ أَنْ تُلَاحِقَ أَرْقَامَ الِاتِّصَالِ بِتِلْكَ الْقَنَوَاتِ فَتَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُتَّصِلِينَ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَرَأْيٌ وَعَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْسِدَةِ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ رَبِّ الْأُسْرَةِ أَنْ يُحَصِّنَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُطَهِّرَ بَيْتَهُ وَيَحْفَظَ أُسْرَتَهُ مِنْ وَبَاءِ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ الْخَبِيثِ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ إِلْغَائِهِ فَلَا أَقَلَّ مِنْ تَرْشِيدِهِ، بِحَجْبِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ مِنْ أَجْهِزَةِ مَنْزِلِهِ. وَمَا يُدْرِيهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنَاتِهِ دَلَّتْهَا زَمِيلَتُهَا عَلَىٰ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ لِضَائِقَةٍ مَرَّتْ بِهَا، أَوْ لِأَمْرٍ أَهَمَّهَا تُرِيدُ مَشُورَةً فِيهِ، وَالْبَنَاتُ فِي ذَلِكَ ضَعِيفَاتٌ جِدًّا، فَدُلَّتْ عَلَىٰ سَاحِرٍ

أَوْ كَاهِنٍ يَنْقُلُ سِحْرَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ، فَيُدَمِّرُ بَيْتَهُ، وَيَخْسَرُ أُسْرَتَهُ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ.

وَمَاذَا لَوْ جَرَّبَ أَحَدُ الْأَوْلَادِ وَرَسَمَ هَذِهِ الطَّلَاسِمَ الَّتِي يَعْرِضُونَهَا عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْلِبُ الرِّزْقَ أَوْ تَدْفَعُ الشَّرَّ، وَعَلَّقَهَا فِي غُرْفَتِهِ، فَمَارَسَ السِّحْرَ بِنَفْسِهِ، وَجَلَبَهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَهِيَ قَنَوَاتٌ لَا تَكْتَفِي بِعَرْضِ السِّحْرِ، وَالدَّجَلِ عَلَىٰ النَّاسِ بِهِ، وَلَكِنَّهَا تُعَلِّمُ مُشَاهِدِيهَا كِتَابَةَ الطَّلَاسِمِ وَالشِّرْكِيَّاتِ.

وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ الْجُلُوسُ أَمَامَهَا وَمُشَاهَدَتُهَا، وَلَا الِاتِّصَالُ بِضُيُوفِهَا، فَمَنِ اتَّصَلَ بِهَا لِيَسْأَلَ السَّاحِرَ كَشْفَ ضُرِّهِ، أَوْ جَلْبَ النَّفْعِ إِلَيْهِ، مَعَ إِيمَانِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَمَنِ اتَّصَلَ بِكَهَنَتِهَا فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُمْ بِمَا يَقُولُونَ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٥)، وَمُجَرَّدُ سُؤَالِهِمْ وَلَوْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ يَمْنَعُ قَبُولَ صَلَاتِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ(٦).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهَا وَمِنَ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَحْفَظَنَا وَنِسَاءَنَا وَأَوْلَادَنَا وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ شَرِّ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالشَّيَاطِينِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ . . . .



(٥) كما في حديث أبي هريرة، والحسن، عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**» أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرطهما (١/ ٤٩).

(٦) كما في حديث صفية، عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» أخرجه مسلم في الآداب، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠).

٢١٦- قنوات السحر والشعوذة (٢) حكمها وأسباب الإقبال عليها

١٥/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ؛ هِدَايَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الضَّلَالِ، وَنَجَاةً لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ؛ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٧]، وَلَوْلَا هَذَا الْوَحْيُ لَمَا اهْتَدَىٰ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْبَشَرِ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]،

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَا رُوحَ إِلَّا فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَلَا نُورَ إِلَّا فِي الِاسْتِضَاءَةِ بِهِ؛ فَهُوَ الْحَيَاةُ وَالنُّورُ وَالْعِصْمَةُ وَالشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ وَالْأَمْنُ»(١).

وَلَمَّا كَانَ الْوَحْيُ نُورًا وَهُدًىٰ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْبَشَرِ كَانَ الضَّلَالُ وَالظُّلُمَاتُ فِيمَا عَارَضَهُ مِنَ الدِّيَانَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَفْعَالِ، يَتِيهُ فِيهَا مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ نُورَ الْوَحْيِ؛ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الْأَنْعَام: ١٢٢].

وَهَؤُلَاءِ عُمْيٌ عَنِ الْحَقِّ وَلَوْ كَانُوا يُبْصِرُونَ، وَصُمٌّ عَنْهُ وَلَوْ كَانُوا يَسْمَعُونَ، وَلَمْ تُوَفَّقْ عُقُولُهُمْ لِإِدْرَاكِهِ وَلَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ؛ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْحَجّ: ٤٦]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرَّعْد: ١٩]، وَفِي آيَةٍ رَابِعَةٍ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٤].

وَأَهْلُ الضَّلَالِ مُجْتَهِدُونَ فِي طَمْسِ الْهُدَىٰ، وَدَائِبُونَ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ وَالنُّورِ، إِلَىٰ الضَّلَالِ وَالظُّلُمَاتِ؛ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٧٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦-٣٧].

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٢).

وَكُلُّ بُعْدٍ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّ مَآلَ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ الضَّلَالِ وَالْعَمَىٰ، وَمِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ أَهْلِ الضَّلَالِ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ: تَعْلِيقُ قُلُوبِهِمْ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَرْفُهُمْ إِلَىٰ الْخُرَافَاتِ وَالشَّعْوَذَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ وَالْمُنَجِّمُونَ وَالْعَرَّافُونَ فَيَخْدَعُونَ بِهَا مَنْ رَقَّ دِينُهُمْ، وَضَعُفَتْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ عُقُولُهُمْ، فَلَمْ يَعُودُوا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَمَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يُدْرِكُونَ مَنْ يَصْدُقُ مَعَهُمْ مِمَّنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ.

إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَصْرُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَا فَتَحَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ مَغَالِيقِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وَمَا هَيَّأَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ السَّرِيعِ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ عَصْرُ الدَّجَلِ وَالْخُرَافَةِ وَالْكَذِبِ وَالشَّعْوَذَةِ؛ إِذْ مَعَ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ زَادَتْ نِسْبَةُ خِدَاعِ النَّاسِ، وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِخْفَافِ بِعُقُولِهِمْ، وَإِفْسَادِ عَقَائِدِهِمْ؛ بِزَعْمِ إِيجَادِ حُلُولٍ سَرِيعَةٍ لِمَشَاكِلِهِمْ عَنْ طَرِيقِ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشَّعْوَذَةِ. وَالْإِحْصَاءَاتُ الْعَرَبِيَّةُ تُفِيدُ بِأَنَّ الْعَرَبَ يُنْفِقُونَ سَنَوِيًّا عَلَىٰ السِّحْرِ وَحْدَهُ خَمْسَةَ مِلْيَارَاتِ دُولَارٍ، وَأَنَّ هُنَاكَ دَجَّالًا وَاحِدًا لِكُلِّ أَلْفٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَقَدِ ازْدَهَرَتْ سُوقُ تَرْوِيجِ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ حَتَّىٰ بَلَغَتْ مَبِيعَاتُ كُتُبِهَا أَرْقَامًا قِيَاسِيَّةً، وَبَعْضُ الصُّحُفِ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَرْبَاحُهَا الْكُبْرَىٰ مِنْ مَوَارِدِ إِعْلَانَاتِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ(٢).

---

(٢) نشرت صحيفة الحياة في ١٥/٠٨/٢٠٠٥ تحقيقًا عنوانه: (سياح يعودون من الخارج حاملين كتب سحر وشعوذة) وجاء فيه: أن أحد السعوديين يدعىٰ سالم محمد عاد بكتاب ورقه رديء، يعرف باسم «ورق دشت»، وهو أبيض منطفئ، يميل إلىٰ الاصفرار، وحروفه مطبوعة بطريقة بارزة، توحي أنه قديم جدا، ويحمل تاريخ نشر قديم أيضًا.
لم يكن الكتاب سوىٰ «الجواهر اللماعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة».
ويدعي سالم أن بائع الرصيف الذي اشترىٰ منه الكتاب قال له: إن مؤلفه جني، من أصحاب نبي الله سليمان ﷺ، وهو كتاب يجعل الجان تحت تصرفك وإمرتك، =

. . . .

= يدافعون عن حقوقك، ويغنونك ويطيلون عمرك. نعوذ بالله من الشرك.
وذكر التحقيق أنه زادت خلال السنوات الماضية بين السياح السعوديين جلب الكتب التي تتناول الشعوذة والسحر والدجل، فمن كتب قراءة الكف والفناجين وفتح المندل، إلىٰ كتب تفريق الأزواج وأخذ الأرزاق وما شابه ذلك.
ويشير موظف في أحد المنافذ البرية السعودية، إلىٰ أنهم غالبا ما يعثرون علىٰ تلك الكتب بين أمتعة العائدين من بعض الدول العربية، إذ تكون مخبأة بعناية واهتمام، في محاولة لتهريبها.
وتحوي أغلفة الكتب اسم مؤسسة طباعة ونشر، قد تكون معروفة، وقد تكون غير معروفة، وغالبا ما تطبعها دور نشر مصرح لها إعلاميا ونقابيا للحصول علىٰ الأرباح ولو علىٰ حساب عقائد الناس وأموالهم.
ومن تلك الكتب الخبيثة التي يعود بها بعض المسافرين «السحر الأحمر»، و«اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان»، وكتاب «سحر الكهان في حضور الجان»، و«المندل والخاتم السليماني والعلم الروحاني»، و«مفاتيح الكنوز في حل الطلاسم والرموز».
وتلعب الكتب علىٰ الوتر النفسي لدىٰ القارئ في صورة مباشرة، ومن أول بدايات الكتاب، يحاول الكاتب الإيحاء أنه «متصل دينيا بالله تعالىٰ في الكتاب، وما هو إلا تسخير من عند الله تعالىٰ» وذلك لخداع الناس بأن هذه الكتب الشيطانية ليست تتعارض مع الشريعة. ويذكر أحد باعة تلك الكتب: «أن النساء أكثر المشترين لهذه النوعية من الكتب؛ تصديقًا منهن لما تحويها، بينما الرجال لا يحتاجون لهذه الكتب».
ونشرت صحيفة (المغربية اليومية) في عددها (٦٦٩١) الأربعاء ١٦ مايو ٢٠٠٧ ملفًا صحفيًا عن هذه الظاهرة في المغرب بعنوان: ظلاميات السحرة والمشعوذين «الشعوذة» تتحول إلىٰ اقتصاد مواز يدر ملايين الدولارات، ذكروا فيه أن الدكتور محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة كشف في دراسة له حول السحر والشعوذة: أن (٢٥٠ ألف) دجال يمارسون أنشطة الشعوذة في عموم الدول العربية، وأن العرب ينفقون زهاء خمسة مليارات دولار سنويا في هذا المجال، وأن نصف نساء العرب يعتقدن بفعل الخرافات والخزعبلات ويترددن علىٰ المشعوذين سرا وعلانية.
وأشار د. محمد إلىٰ أن ممارسي السحر يخلطون بين السحر والدين، ويزعمون أن لهم القدرة علىٰ علاج الأمراض، وأن هناك زهاء ٣٠٠ ألف شخص في مصر يدعون علاج =

. . . .

= الأمراض بتحضير الأرواح. وتؤكد الإحصائيات أنه يوجد في العالم العربي عراف أو مشعوذ لكل ألف نسمة.

وفي دراسة أخرىٰ أعدتها الدكتورة سامية الساعاتي عن السحر والشعوذة ونشرها موقع -الجزيرة- أكدت أن ٥٥٪ من المترددات علىٰ السحرة هن من المتعلمات ومن المثقفات، و٢٤٪ ممن يجدن القراءة.

وذكر عالم الأنتروبولوجيا د.محمد بلفقيه أن «المشعوذ» في المغرب أصبح لا يتقن إلا لغة «السحر والشعوذة»، وأن المجتمع يتحمل مسؤولية هذا الواقع؛ لأنه لم يعلم هذه الفئات مهنا بديلة، وذكر أن المشارقة الذين يأتون للمغرب من أجل هذا الغرض يحملون معهم عقدا اجتماعية وجنسية وثقافية وتاريخية يبحثون عن حلول لها لدىٰ السحرة والمشعوذين، وأن ذلك يمكن تصنيفه في خانة «عودة المكبوت».

وفي دبي كشفت إحصائية رسمية أن حجم الجرائم الاقتصادية عن طريق السحر وصل ٤.١ مليار درهم سنويًا!

وفي تقرير أعدته الباحثة فابيولا بدوي في جريدة الحياة ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٣ قالت: إن الفقراء في مصر -وهم الآن غالبية الشعب- يعدون الدجل والخرافات والشعوذة الزاد الحقيقي لمعظمهم .. فقد أثبتت أحدث الدراسات التي أجراها المركز القومي للبحوث الجنائية بالقاهرة أن المصريين ينفقون عشرة مليارات جنيه مصري سنويا علىٰ قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان، وهذا مبلغ يفوق فعليا ما تحصل عليه مصر من قناة السويس نتيجة عبور السفن فيها، كما أشارت الدراسة نفسها إلىٰ أن هناك ٢٧٤ خرافة تسيطر علىٰ سلوك أهل الريف والحضر.

وهذا المبلغ الضخم الذي ينفقه المصريون علىٰ الشعوذة هو أكبر من ميزانية التعليم المصرية، وتؤكد الدراسة المذكورة في إحدىٰ فقراتها علىٰ أن هناك دجالًا لكل ٢٤٠ مواطنًا يعينه علىٰ كشف الغيب.

وذكر «عبد لاوي لخلافة» أن كثيرًا من الصحف المغربية تقتات علىٰ مداخيل إشهارات للدجالين والمشعوذين؛ إذ تخصص هذه الصحف حيزًا يوميًا أو أسبوعيًا أو شهريًا في أسفل صفحاتها لإعلانات الشعوذة والصداقة الوهمية وأرقام أصحابها الهاتفية لتسهيل الاتصال بهم.

هذا بالإضافة إلىٰ وجود عدة محلات في مختلف مناطق المغرب مخصصة للشعوذة =

وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا آل إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَوْصُوفِ بِالْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ!!

وَلَمَّا تَطَوَّرَ الْبَثُّ الْفَضَائِيُّ، وَتَيَسَّرَ الْحُصُولُ عَلَيْهِ؛ اسْتَغَلَّ ذَلِكَ مَنْ يُتَاجِرُونَ بِآلَامِ النَّاسِ وَمَصَائِبِهِمْ، فَبَرَزُوا إِلَيْهِمْ عَبْرَ الشَّاشَاتِ يَزْعُمُونَ حَلَّ مَشَاكِلِهِمْ،

= تقصدها شريحة متنوعة من المغاربة، كما أن بعض المشعوذين يستغلون مناسبة الأسواق التجارية والمناسبات الخاصة بالأولياء المزعومين للترويج لتجارتهم علىٰ مرأىٰ من السلطات القريبة من أماكن هذه المناسبات.

وفي هذا السياق قال صاحب جريدة مغربية فضل عدم ذكر اسمه: إنه يقبض ثلاثة آلاف درهم مقابل إشهاره لإعلانات الدجالين والمشعوذات ونشر أرقامهم الهاتفية، والذين يدعون قدرتهم علىٰ التنبؤ بالمستقبل، وحل المشاكل العاطفية، والتسريع بالزواج والشغل. وتكلف المكالمات الهاتفية مع هؤلاء المشعوذين والمشعوذات تسعيرة عالية تتراوح بين ستة دراهم وسبعة للدقيقة الواحدة، ويتم استهلاك جل وقتها -حسب أحد المجربين لها- في مقطوعات موسيقية لمزيد من ابتزاز الضحايا المغفلين.

ونشر في جريدة الوطن السعودية ٢٠٠٣/٦/١٨ علىٰ لسان الشيخ عبدالحق المسغوي أشهر الشيوخ المعالجين بالرقية الشرعية في المغرب: إن فصل الصيف في المغرب يعد موسما لصيد الزبائن الأجانب وبالخصوص الخليجيين من قبل المشعوذين والدجالين الذين يوزعون السماسرة علىٰ المطارات والفنادق والشقق المفروشة أو يستعينون بسائقي سيارات الأجرة أو عمال الفنادق أو حراس الشقق المفروشة.

وقد أصبح قول: إن فلانة قد عملت حجابا لزوجها لكي يطلق ضرتها أو لكي لا يتزوج غيرها من الأقوال المتعارف عليها، بل إن بعض الأسر الثرية تحتفظ في منازلها بمشايخ من المغرب مرفوع عنهم الحجاب، ومن أولياء الله؛ لطرد الجان والشياطين ودفع المكروه.

وتقول منال الشريف في جريدة الوطن السعودية: أحب أن أخبركم بأنني في هذا الصيف التقيت رجل أعمال من الخليج علىٰ وشك شراء خادم جني بمبلغ خرافي؛ حيث أخبره مشعوذ أنه سيشكل الخادم علىٰ شكل خنفساء ليتمكن من حمله وأخذه معه في الطائرة.

والعجائب في هذا الباب من الضلال كثيرة، والآن لا حاجة لكل ذلك؛ لأن قنوات السحر والشعوذة وصلت إلىٰ من يريدها ومن لا يريدها في بيوتهم، فلا يحتاجون السفر للبحث عن السحرة والمشعوذين.

وَإِنْهَاءَ مُعَانَاتِهِمْ، فَكَانَ الْإِقْبَالُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الدَّجَاجِلَةِ الْكَذَّابِينَ يَفُوقُ حِسَابَاتِ الْحَاسِبِينَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِوُجُودِ الْقَابِلِيَّةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُضْحَكَ عَلَيْهِمْ، وَيُسْتَخَفَّ بِعُقُولِهِمْ، وَيُتَلَاعَبَ بِدِينِهِمْ.

إِنَّهُ مَا ازْدَهَرَتْ سُوقُ فَضَائِيَّاتِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ إِلَّا لِكَثْرَةِ الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، الشَّاكِينَ لَهُمْ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بِقَدْرِ ازْدِيَادِ زَبَائِنِهَا وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا، وَهَذَا يُنْذِرُ بِخَطَرٍ عَظِيمٍ، وَإِثْمٍ كَبِيرٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَدَاعَىٰ الْغَيُورُونَ لِتَخْفِيفِهِ وَإِزَالَتِهِ؛ حِمَايَةً لِلنَّاسِ مِنْ شَرِّهَا وَإِثْمِهَا.

إِنَّ أَكْبَرَ سَبَبٍ لِلْإِقْبَالِ عَلَىٰ بَرَامِجِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ هُوَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ لَا يَرْجُو جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ إِلَّا مِنْهُ ﷻ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَمْلِكُونَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

وَمَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُقَدِّرُ عَلَيْهِ شَرًّا مَحْضًا، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ آلَامٍ وَأَحْزَانٍ وَأَمْرَاضٍ وَهُمُومٍ وَمُشْكِلَاتٍ فَإِنَّمَا هِيَ كَفَّارَاتٌ لِسَيِّئَاتِهِ، وَرِفْعَةٌ فِي دَرَجَاتِهِ، وَزِيَادَةٌ فِي حَسَنَاتِهِ، فَلَا يَسْعَىٰ فِي إِزَالَتِهَا بِمَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

إِنَّ الظُّرُوفَ المَعِيشِيَّةَ الضَّاغِطَةَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَمَحَبَّتَهُمْ لِلثَّرَاءِ السَّرِيعِ، وَاسْتِبْدَادَ الْجَشَعِ بِهِمْ، وَخَوْفَهُمْ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ المَجْهُولِ، وَإِقْبَالَهُمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ، قَدْ أَدَّىٰ بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَىٰ الْخَوْفِ وَالِاضْطِرَابِ وَالْقَلَقِ، فَأَتَاهُمْ أَبَالِسَةُ النَّاسِ مِنْ نُقْطَةِ الضَّعْفِ هَذِهِ، فَأَوْرَدُوهُمْ مَهَالِكَ لَمْ تُزِلْ هُمُومَهُمْ، وَلَا حَلَّتْ مَشَاكِلَهُمْ، وَلَكِنَّهَا اسْتَنْزَفَتْ أَمْوَالَهُمْ، وَأَفْسَدَتْ عَقَائِدَهُمْ، فَلَا أَصْلَحُوا لَهُمْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ، وَالنِّسَاءُ ضَعِيفَاتٌ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَالمَشَاكِلُ الْأُسَرِيَّةُ سَوَاءٌ بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، أَوْ بَيْنَ الْأَبِ وَبَنَاتِهِ قَدْ أَلْقَتْ بِظِلَالِهَا عَلَىٰ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ، حَتَّىٰ هُدِمَتْ أُسَرٌ بِسَبَبِ هَذَا الْبَلَاءِ، وَمَنْ أَرَادَ حِفْظَ أَهْلِهِ وَبَنَاتِهِ فَلْيَكُنْ قَرِيبًا مِنْهُنَّ، مُتَلَمِّسًا مَشَاكِلَهُنَّ، سَاعِيًا فِيمَا يُصْلِحُهُنَّ، وَإِلَّا شَكَوْنَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَاصْطَادَهُنَّ أَرْبَابُ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشَّعْوَذَاتِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ مِنَ الذَّهَابِ إِلَىٰ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِ، أَوْ لِجَهْلِهِ بِخُطُورَةِ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجِدُهُمْ بِسُهُولَةٍ، أَوْ يَخَافُ عَلَىٰ سُمْعَتِهِ، وَكَانَتْ وَلَا تَزَالُ الْجِهَاتُ الْمَسْئُولَةُ مِنَ الشُّرَطِ وَهَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ تُلَاحِقُ السَّحَرَةَ وَالْمُشَعْوِذِينَ، وَتَكُفُّ شَرَّهُمْ عَنِ النَّاسِ. أَمَّا الْآنَ فَقَدْ سَهُلَ الِاتِّصَالُ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ قَنَوَاتِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَصَارَ الْمُتَّصِلُ بِهِمْ وَبِالْأَخَصِّ مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ تَجِدُ نَفْسَهَا فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْفَضِيحَةِ، مَعَ سُهُولَةِ وُصُولِهَا إِلَىٰ مَا تُرِيدُ مِنْهُمْ، وَهَذَا هُوَ مَكْمَنُ الْخُطُورَةِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ، وَهُنَّ الْفِئَةُ الْأَضْعَفُ، وَالْأَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِهَذَا الدَّجَلِ؛ وَلِذَا تَسْتَهْدِفُهُنَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتُ الْخَبِيثَةُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِنَّ، وَفِي بَعْضِ الْإِحْصَائِيَّاتِ أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ ثُلُثَي الْمُتَابِعِينَ لِهَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا هُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ.

فَكَيْفَ سَتَكُونُ حَالُ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهَا أَدَوَاتُ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ عَنْ طَرِيقِ بَنَاتِهَا وَنِسَائِهَا، وَبِفِعْلِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْظُرُ إِلَّا إِلَىٰ الرِّبْحِ وَلَوْ فَرَّقَتْ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَوْلَادِهِ، وَلَوْ قَلَبَتْ بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ بُؤَرٍ لِلشَّيَاطِينِ، وَأَحْدَثَتْ مَا أَحْدَثَتْ فِيهَا مِنَ الْعَدَاوَاتِ وَالْبَغْضَاءِ وَالشَّقَاءِ.

وَالدَّاعِي إِلَىٰ هَذَا التَّحْذِيرِ وَتَكْرَارِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: هُوَ أَنَّ الْإِقْبَالَ عَلَىٰ هَذِهِ

الْقَنَوَاتِ الْخَبِيثَةِ كَبِيرٌ جِدًّا، وَهِيَ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّىٰ إِنَّ الْمُتَّصِلَ بِهَا رُبَّمَا اتَّصَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَىٰ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ مِنْ شِدَّةِ الزِّحَامِ عَلَيْهِ، وَفِي بَعْضِهَا يَأْخُذُونَ رَقَمَ الْمُتَّصِلِ وَيَعِدُونَهُ بِالِاتِّصَالِ بِهِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ أَوْ أَكْثَرَ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ يَنْتَظِرُونَ قَبْلَهُ، فَهَلْ هَذَا إِلَّا دَلِيلٌ عَلَىٰ قَابِلِيَّةِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُضْحَكَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْيَأْسِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِمْ، أَوِ الْجَهْلِ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِمْ، مَعَ ضَعْفِ إِيمَانِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِمْ وَاحْتِسَابِهِمْ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ.

فَمَا أَسْرَعَ النَّاسَ إِلَىٰ الْخُرَافَةِ فِي عَصْرٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَصْرُ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالْحَضَارَةِ، الَّتِي مَا زَادَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا جَهْلًا بِدِينِهِمْ، وَتَعَلُّقًا بِالدَّجَلِ وَالشَّعْوَذَةِ! وَلَا تَسَلْ حِينَئِذٍ عَمَّا يَقَعُ مِنْ فَسَادِ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَبُولُ المَحَلِّ لِمَا يُوضَعُ فِيهِ مَشْرُوطٌ بِتَفْرِيغِهِ مِنْ ضِدِّهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي الذَّوَاتِ وَالْأَعْيَانِ فَكَذَلِكَ هُوَ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ مُمْتَلِئًا بِالْبَاطِلِ اعْتِقَادًا وَمَحَبَّةً لَمْ يَبْقَ فِيهِ لِاعْتِقَادِ الْحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ مَوْضِعٌ ... وَسِرُّ ذَلِكَ: أَنَّ إِصْغَاءَ الْقَلْبِ كَإِصْغَاءِ الْأُذُنِ، فَإِذَا أَصْغَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ حَدِيثِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِصْغَاءٌ وَلَا فَهْمٌ لِحَدِيثِهِ، كَمَا إِذَا مَالَ إِلَىٰ غَيْرِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَيْلٌ إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ ...» اهـ(٣).

وَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الَّتِي تَبُثُّ السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ تُفْرِغُ قُلُوبَ مُشَاهِدِيهَا وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ، إِلَىٰ التَّعَلُّقِ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ فِي سِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ، وَرَبْطِهِمْ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ، فَيَرْجُونَ نَفْعَهُمْ، وَيَخَافُونَ ضُرَّهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْإِثْمِ وَالضَّلَالِ.

---

(٣) الفوائد (٢١٢).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَ وَيُحَذِّرَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الْمَاحِقِ الَّذِي غَزَا الْمُسْلِمِينَ فِي عُقْرِ دُورِهِمْ، يَسْتَهْدِفُ دِينَهُمْ، وَيُدَمِّرُ تَوْحِيدَهُمْ، وَيُفْسِدُ قُلُوبَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ زَادَ هَذَا الْأَمْرَ سُوءًا وَاسْتِفْحَالًا تَصْدِيرُ بَعْضِ الْمَفْتُونِينَ الْمُضِلِّينَ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ شُذُوذًا مِنَ الْقَوْلِ وَالرَّأْيِ إِلَّا قَذَفُوا بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَحْدَثُوا بِهِ ضَجَّةً فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، قَدْ رَكِبَهُمْ أَرْبَابُ الْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ لِتَمْرِيرِ مَا يُرِيدُونَ مِنْ ضَلَالٍ عَبْرَهُمْ، بَعْدَ دَمْغِهِ بِفَتَاوَاهُمُ الشَّاذَّةِ، وَآرَائِهِمُ الْمُضِلَّةِ.

وَقَدْ أَبَاحَ هَذَا الْفَرِيقُ المَفْتُونُ الْمُنْحَرِفُ الْعِلَاجَ بِالسِّحْرِ، وَرَخَّصَ لِلنَّاسِ فِي الِاتِّصَالِ بِالسَّحَرَةِ وَغِشْيَانِ مَجَالِسِهِمْ، فِي دَعَايَةٍ فَجَّةٍ وَدَعْمٍ كَبِيرٍ لِكُلِّ سَاحِرٍ وَمُشَعْوِذٍ، مَعَ مُخَالَفَةٍ صَرِيحَةٍ لِلنُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ فِي ذَلِكَ، وَمَا هَذَا الصِّنْفُ مِنَ المَفْتُونِينَ المُحَرِّفِينَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] فَإِذَا كَانَ السَّاحِرُ لَمْ يُفْلِحْ فِي نَفْعِ نَفْسِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ السَّحَرَةَ هُمْ مِنْ شَرِّ النَّاسِ حَالًا وَمَآلًا، وَوَاقِعُهُمْ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يُفْلِحُ فِي نَفْعِ غَيْرِهِ؟ وَكَيْفَ يُفْلِحُ مَنْ أَجَازَ لِلنَّاسِ أَنْ يَذْهَبُوا لِلسَّحَرَةِ وَالمُشَعْوِذِينَ؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْهَوَىٰ وَالرَّدَىٰ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَعَلَ السِّحْرَ مِنَ السَّبْعِ المُوبِقَاتِ الَّتِي أَمَرَ بِاجْتِنَابِهَا، وَعَدَّهُ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ يَسُوغُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُفْتِيَ بِجَوَازِ الِاسْتِشْفَاءِ بِهِ وَهُوَ مِنَ المُوبِقَاتِ؟ وَكَيْفَ يَرْضَىٰ مُسْلِمٌ أَنْ يُوبِقَ نَفْسَهُ عِنْدَ سَحَرَةٍ وَمُشَعْوِذِينَ؟ وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: **هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤).

وَالنُّشْرَةُ هِيَ حَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ(٥)، وَلَوْ جَازَتِ النُّشْرَةُ السِّحْرِيَّةُ لَكَانَتِ

(٤) أخرجه أبو داود في الطب، باب في النشرة (٣٨٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٤)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٦٤)، والنووي في المجموع (٩/ ٦٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٥) قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة -بضم النون-: نوع من التطبب بالاغتسال علىٰ هيئة مخصوصة بالتجربة لا يحتملها القياس الطبي» مشارق الأنوار (٢/ ٢٩).

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة: إطلاق السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر علىٰ ذلك إلا من يعرف السحر، ومع هذا فلا بأس بذلك» غريب الحديث (٢/ ٤٠٨).

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة -بالضم-: ضرب من الرقية والعلاج، =

. . . .

= يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن، سميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال، وقال الحسن: النشرة من السحر، وقد نشرت عنه تنشيرا، ومنه الحديث: فلعل طبا أصابه، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس، أي: رقاه، والحديث الآخر هلا تنشرت» النهاية (٥/ ٥٣).

وقد روىٰ مالك حديث عائشة ﵂ في جارية سحرتها، فرأت في المنام أنها تغتسل من آبار ثلاثة، فأحضر لها منها ماء فاغتسلت فشفيت، وهو حديث رواه مالك بآخرة من كتابه فليس عند يحيىٰ وطائفة معه من رواة الموطأ كما أفاد ذلك ابن عبد البر، ثم قال ابن عبد البر تعليقا عليه: «وفيه إثبات النشرة، وأنها قد ينتفع بها، وحسبك ما جاء منها في اغتسال العائن للمعين» الاستذكار (٨/ ١٥٨-١٥٩).

ونقل ابن عبد البر عن ابن جريج قال: سألت عطاء بن أبي رباح عن النشرة، فكره نشرة الأطباء، وقال: لا أدري ما يصنعون فيها؟ وأما شيء تصنعه أنت فلا بأس به، ثم نقل عن يحيىٰ بن سعيد -رحمه الله تعالىٰ- قال: «ليس بالنشرة التي يجمع فيها من الشجر والطيب ويغتسل به الإنسان بأس» التمهيد (٦/ ٢٤٥).

ونقل الحافظ ابن حجر عن حماد بن شاكر -رحمه الله تعالىٰ-: «أن النشرة أن يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد المفاره-هكذا في مطبوعة محب الدين الخطيب، ولعل الصواب: المفازة- وورد البساتين ثم يلقيها في إناء نظيف ويجعل فيهما ماء عذبا، ثم يغلي ذلك الورد في الماء غليا يسيرا، ثم يمهل حتىٰ إذا فتر الماء أفاضه عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالىٰ» الفتح (١٠/ ٢٣٤).

وفي عون المعبود نقل قول الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة من السحر، ثم نقل عن فتح الودود: لعله كان مشتملًا علىٰ أسماء الشياطين أو كان بلسان غير معلوم؛ فلذلك جاء أنه سحر، سمي نشرة لانتشار الداء وانكشاف البلاء به، هو من عمل الشيطان، أي: من النوع الذي كان أهل الجاهلية يعالجون به ويعتقدون فيه، وأما ما كان من الآيات القرآنية والأسماء والصفات الربانية والدعوات المأثورة النبوية فلا بأس به» اهـ من عون المعبود (١٠/ ٢٤٩).

والذي يظهر لي من خلال هذه النقول عن العلماء أن النشرة أنواع:

الأول: ما كان بأدوية مشروعة مأمور بها كالرقية الشرعية بآيات القرآن، فهذه لا شك في إباحتها، بل هي مستحبة؛ لأنها من الاستشفاء بالقرآن. =

. . . .

= **الثاني**: ما كان بأدوية مباحة لا محرم فيها، قد دلت التجربة علىٰ نفعها، كالحجامة وورق السدر، وبعض الأعشاب، ونوع من الاغتسال، وغير ذلك من الأدوية التي ثبت نفعها في ذلك، فالأظهر أنها مباحة.

الثالث: ما كان بأدوية سحرية، وهي التي يتناولها الحديث، وهي من عمل الشيطان، وهي محرمة ولو كان ظاهر كلام بعض الأئمة إجازتها، فيحمل قولهم علىٰ ما يجوز منها.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله وهو الذي من عمل الشيطان؛ فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز بل مستحب، وعلىٰ النوع المذموم يحمل قول الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر» إعلام الموقعين (٤/ ٣٩٦).

وقد جاء عن سعيد بن المسيب ما قد يفيد أنه يجيز النشرة السحرية، وهو ما رواه البخاري عن قتادة قال: «قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه» أخرجه البخاري معلقا مجزوما به في الطب، باب: هل يستخرج السحر (٥/ ٢١٧٥).

وكلام ابن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- محتمل، وليس قاطعا في أنه يجيز النشرة السحرية، بل قد يريد ما هو مباح من الأدوية المجربة النافعة التي لا محرم فيها.

يقول الشيخ الحافظ سليمان بن عبد الله -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل علىٰ نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا، فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل علىٰ ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح. فأي إصلاح في السحر؟ بل كله فساد وكفر» تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٣٦٦).

وفي موضع آخر ذكر ما قرره ابن القيم من أن النشرة نوعان: «محرمة وهو ما كان بالسحر ونحوه، والثاني: ما كان بالرقىٰ الشرعية، ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو علىٰ نوع لا يدري هل هو من السحر أم لا؟ وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة فإنه محمول علىٰ ذلك، وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل علىٰ ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر؟ قال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه =

الشَّرِيعَةُ مُتَنَاقِضَةً، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ؛ إِذْ كَيْفَ يُحْكَمُ بِالْكُفْرِ عَلَىٰ مُتَعَلِّمِ السِّحْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٢]، ثُمَّ يُبَاحُ حَلُّ السِّحْرِ بِمِثْلِهِ؟! وَالْعُلَمَاءُ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ مُمَارَسَةَ السِّحْرِ كُفْرٌ كَمَا أَنَّ تَعَلُّمَهُ كُفْرٌ(٦)، ثُمَّ كَيْفَ تَأْتِي النُّصُوصُ

= فنفض يده وقال: لا أدري ما هذا؟ قيل له: أفترىٰ أن يؤتىٰ مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة علىٰ الوجه المكروه، وكيف! وهو الذي روىٰ الحديث «**إنها من عمل الشيطان**» لكن لما كان لفظ النشرة مشتركا بين الجائزة والتي من عمل الشيطان، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك» اهـ من تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٦٧-٣٦٨).

وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: «التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقيا به فلا مانع من ذلك، وإن كان بسحر أو بألفاظ عجمية أو بما لا يفهم معناه أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وهذا واضح وهو الصواب إن شاء الله تعالىٰ كما ترىٰ» أضواء البيان (٤/ ٥٧).

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله تعالىٰ-: «أما حل السحر عن المسحور بسحر مثله فيحرم فإنه معاونة للساحر، وإقرار له علىٰ عمله، وتقرب إلىٰ الشيطان بأنواع القرب ليبطل عمله عن المسحور؛ ولهذا قال الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر» معارج القبول (٢/ ٥٦٦).

(٦) قال ابن قدامة -رحمه الله تعالىٰ-: «تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافا بين أهل العلم، قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، وروي عن أحمد ما يدل علىٰ أنه لا يكفر فإن حنبلا روىٰ عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرىٰ أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلها؛ فإنه عندي في معنىٰ المرتد فإن تاب وراجع، يعني: يخلىٰ سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل علىٰ أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله، وقوله في معنىٰ المرتد يعني: في الاستتابة.

وقال أصحاب أبي حنيفة: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء كفر، وإن اعتقد أنه تخييل لم يكفر.

وقال الشافعي: إن اعتقد ما يوجب الكفر مثل التقرب إلىٰ الكواكب السبعة، وأنها تفعل =

. . . .

= ما يلتمس، أو اعتقد حل السحر كفر؛ لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلا فسق ولم يكفر؛ لأن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة لها سحرتها بمحضر من الصحابة، ولو كفرت لصارت مرتدة يجب قتلها، ولم يجز استرقاقها؛ ولأنه شيء يضر بالناس فلم يكفر بمجرده كأذاهم.

ولنا قول الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: وما كفر سليمان، أي: وما كان ساحرا كفر بسحره، وقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: لا تتعلمه فتكفر بذلك .... وقول عائشة قد خالفها فيه كثير من الصحابة، وقال علي رضي الله عنه: كافر، ويحتمل أن المدبرة تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها، ويحتمل أنها سحرتها بمعنىٰ أنها ذهبت إلىٰ ساحر سحر لها» اهـ من المغني (٩/ ٣٤-٣٥).

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد استدل بهذه الآية علىٰ أن السحر كفر ومتعلمه كافر، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلا.

قال النووي: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفرا، ومنه ما لا يكون كفرا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر، وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب، بل يتحتم قتله كالزنديق، قال عياض: وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين» اهـ من فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).

ثم ذكر الحافظ أن اختيار البخاري -رحمه الله تعالىٰ- كفر الساحر فقال: وفي إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلىٰ اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية علىٰ لسان الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فإن فيه إشارة إلىٰ أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرا» اهـ فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

ونقل الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ- بعض كلام ابن حجر ثم قال: «التحقيق في هذه المسألة إن شاء الله تعالىٰ أن السحر نوعان: منه ما هو كفر، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه =

تَذُمُّ السَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ، وَتُحَذِّرُ مِنْ سُؤَالِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَ، ثُمَّ تُجِيزُ التَّدَاوِيَ بِسِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ؟! وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ التَّنَاقُضِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِهِ مِنَ المَفْتُونِينَ المُحَرِّفِينَ.

إِنَّ الاتِّصَالَ بِبَرَامِجِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ قَدْ يُؤَدِّي إِلَىٰ كُفْرِ المُتَّصِلِ بِهِمْ وَلَوْ صَلَّىٰ وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَإِنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شِفَاءِ المَرْضَىٰ، أَوْ رَدِّ غَائِبٍ، أَوْ حُصُولِ الرِّزْقِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَتِلْكَ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ يَرْزُقُونَ النَّاسَ أَوْ يَدُلُّونَهُمْ عَلَىٰ أَسْبَابِ الرِّزْقِ لَرَزَقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَمْ يُرْهِقُوهَا بِالْجُلُوسِ سَاعَاتٍ مُتَتَابِعَةً أَمَامَ الشَّاشَاتِ يَصِيحُونَ فِي زَبَائِنِهِمْ، يَخْدَعُونَهُمْ، وَيَسْتَدِرُّونَ أَمْوَالَهُمْ.

ومَنْ سَأَلَهُمْ عَنْ حَظِّهِ أَوْ مُسْتَقْبَلِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُهِمُّهُ فَصَدَّقَهُمْ كَانَ كَافِرًا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، مُكَذِّبًا لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا**

= الكفر؛ فإن كان الساحر استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفرا .... وأظهر القولين عندي أن المرأة الساحرة حكمها حكم الرجل الساحر، وأنها إن كفرت بسحرها قتلت كما يقتل الرجل ... وأما إن كان الساحر عمل السحر الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر فهذا هو محل الخلاف بين العلماء: فالذين قالوا يقتل ولو لم يكفر بسحره، قال أكثرهم: يقتل حدا ولو قتل إنسانا بسحره، وانفرد الشافعي في هذه الصورة بأنه يقتل قصاصا لا حدا ... أما الذين قالوا: مطلقا إذا عمل بسحره ولو لم يقتل به أحدا، فاستدلوا بآثار عن الصحابة ﷺ وبحديث جاء بذلك إلا أنه لم يصح» أضواء البيان (٤/ ٥٢-٥٣).
وقال في موضع آخر: «اعلم أن الناس اختلفوا في تعلم السحر من غير عمل به هل يجوز أو لا؟ والتحقيق وهو الذي عليه الجمهور هو أنه لا يجوز، ومن أصرح الأدلة في ذلك تصريحه تعالىٰ بأنه يضر ولا ينفع في قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وإذا أثبت الله أن السحر ضار ونفىٰ أنه نافع، فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا نفع فيه؟!» أضواء البيان (٤/ ٥٥).

فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧).

فَإِنْ سَأَلَهُ لَكِنْ لَمْ يَصَدِّقْهُ بِمَا قَالَ رُدَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ بِنَصِّ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

وَيُخْشَىٰ أَنْ يَلْحَقَ هَذَا الْوَعِيدُ مَنْ شَاهَدَ الْقَنَوَاتِ الَّتِي تَبُثُّ السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ لِلْفُرْجَةِ أَوِ التَّسْلِيَةِ أَوْ حُبِّ المَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّ مُشَاهَدَتَهَا تُشْبِهُ الْحُضُورَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ خَطَرِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وَتَصْدِيقِ دَجَاجِلَتِهَا فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُ إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَىٰ بِمَا يَسْتَطِيعُ لِلْحَيْلُولَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ المُفْسِدَةِ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ نُصْحًا لِإِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ، وَحِفْظًا لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَدَحْرًا لِهَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ المُشَعْوِذِينَ، عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَرُدَّ مَكْرَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....



---

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرطهما (١/ ٤٩) وجاء بلفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتىٰ حائضا أو امرأة في دبرها أو كاهنا فصدقه فقد برئ مما أنزل علىٰ محمد ﷺ**» أخرجه أحمد واللفظ له (٢/ ٤٠٨)، وأبو داود في الطب، باب في الكاهن (٣٩٠٤)، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في كراهيته إتيان الحائض (٦٣٩)، والدارمي (١١٣٦)، وابن الجارود (١٠٧)، وصححه الالباني.

(٨) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠)، وأحمد (٤/ ٦٨) وهذا الحديث جاء عن صفيه بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ، وذكر الحافظ في الفتح أن بعض الرواة سماها حفصة رضي الله عنها (١٠/ ٢١٧).

٢١٧- عيدا الميلاد ورأس السنة النصرانيين أصلهما، وشعائرهما، وحكمهما

١٩/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَشَرَعَ لَنَا دِينًا قَوِيمًا ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٦١]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَضَلَّ عَنْ صِرَاطِهِ أُمَمٌ لَا تَزِيدُهُمْ عِبَادَاتُهُمْ وَشَعَائِرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبُعْدًا عَمَّا يُرْضِيهِ ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الْكَهْف: ١٠٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ؛ فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ ضَلُّوا عَنْ دِينِهِ، وَحَادُوا عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَاسْتَوْجَبُوا سُخْطَهُ وَنِقْمَتَهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَقَلِيلٌ مَنْ هَدَاهُمْ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الدِّينِ، وَكُنْتُمْ مِنْ هَذَا الْقَلِيلِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكُمْ، وَهِدَايَتِهِ لَكُمْ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: تَقَعُ هَذِهِ الْجُمْعَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ عِيدَيْنِ كَبِيرَيْنِ مِنْ أَعْيَادِ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ عَنْ دِينِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَجَرَىٰ عَلَيْهَا مَا جَرَىٰ عَلَىٰ الْأُمَمِ الَّتِي حَادَتْ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ ﷺ ضَلَالًا وَإِضْلَالًا، وَوَقَعَ فِي دِينِهَا

التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ وَالْإِحْدَاثُ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِمَا لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ وَالشَّعَائِرِ.

وَقَبْلَ أَيَّامٍ كَانَتْ أَيَّامُ عِيدِ الْمُسْلِمِينَ الْكَبِيرِ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَارْتَضَاهَا مِنْ دِينِهِمْ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا ظَرْفًا لِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأُمَّهَاتِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْأَضَاحِي وَالْهَدَايَا، فَمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ أَعْيَادِنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَمَا بَيْنَ أَعْيَادِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعُبَّادِ الْأَوْثَانِ!! فَنَحْمَدُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِذْ هَدَانَا لِذَلِكَ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَىٰ مَا يُرْضِيهِ إِلَىٰ أَنْ نَلْقَاهُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْأُمَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ أُمَّةٌ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ مُبَكِّرًا؛ فَاسْتَقَوْا مِنَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ كَثِيرًا مِنْ شَعَائِرِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ، وَجَعَلُوهَا مِنْ أَصْلِ دِينِهِمْ، وَنَسَبُوا بَعْضَهَا لِلْمَسِيحِ ﷺ أَوْ لِحَوَارِيِّيهِ، وَهُمْ مِمَّا أَحْدَثُوا بُرَآءُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِهِمُ الْبَاطِلَةِ مَا يَحْتَفِلُونَ بِهِ كُلَّ عَامٍ مِنَ الْأَعْيَادِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ دِينِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَقَبْلَ يَوْمَيْنِ احْتَفَلُوا بِمَا يَزْعُمُونَهُ عِيدَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ ﷺ الْمُسَمَّىٰ «الْكِرِيسْمَسْ»[(١)]، وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ يَحْتَفِلُونَ بِعِيدِ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ[(٢)]، وَلَهُمْ فِي هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ عِنْدَهُمْ جُمْلَةٌ مِنَ الشَّعَائِرِ

---

(١) وهو في يوم ٢٥ ديسمبر، ويوافق هذا العام يوم الثلاثاء الماضي ١٦/ ١٢/ ١٤٢٨ حسب رؤية هلال ذي الحجة، و١٥/ ١٢/ ١٤٢٨ حسب تقويم أم القرىٰ، فعلىٰ الخطيب أن ينتبه ويغير في صلب الخطبة بما يتوافق مع العام الذي يلقيها فيه؛ لئلا يقع في الغلط والحرج.

(٢) وتسمىٰ ليلة رأس السنة، وتبدأ احتفالاتها عندهم بغروب شمس يوم ٣١ ديسمبر، وتبلغ ذروة الاحتفال منتصف الليل؛ لأن اليوم عندهم يبدأ بعد الساعة الثانية عشرة ليلا، وتدخل السنة الجديدة في تلك اللحظة، فيحتفلون احتفالا عظيما بها.

وتوافق هذه العام ليلة الثلاثاء ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٨هـ حسب رؤية الهلال، و٢٢ من ذي الحجة حسب تقويم أم القرىٰ.

وَالْأَعْمَالِ الْمَمْلُوءَةِ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ، وَالْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ الْمُضِلَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ.

وَهَذِهِ الْأَعْيَادُ الشِّرْكِيَّةُ تَصِلُ احْتِفَالَاتُهَا وَشَعَائِرُهَا إِلَىٰ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَبْرَ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ، وَأَضْحَىٰ كَثِيرٌ مِنَ الْمُذِيعِينَ وَمُقَدِّمِي الْبَرَامِجِ فِي أَكْثَرِ الْفَضَائِيَّاتِ وَالْإِذَاعَاتِ يَفْتَتِحُونَ بَرَامِجَهُمْ هَذِهِ الْأَيَّامَ بِتَهْنِئَةِ جُمْهُورِهِمْ بِهَذِهِ الْأَعْيَادِ الْمُحَرَّمَةِ؛ مِمَّا يُحَتِّمُ الْحَدِيثَ عَنْهَا، وَالتَّحْذِيرَ مِنْهَا؛ لِعُمُومِ الْبَلْوَىٰ بِهَا، وَكَثْرَةِ الْوَاقِعِينَ فِي إِثْمِهَا، الْمُغْتَرِّينَ بِزُخْرُفِهَا؛ نُصْحًا لِلْأُمَّةِ، وَحِمَايَةً لِجَنَابِ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الشَّعَائِرَ الْبَاطِلَةَ لَا يَكَادُ يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ كَثْرَتِهَا، وَلَيْسَ مِنْ مُهِمَّاتِ الْمُسْلِمِ مَعْرِفَتُهَا إِلَّا مَا يُخْشَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وُقُوعُهُمْ فِيهِ تَحْذِيرًا وَتَنْفِيرًا، وَذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ الشَّرِّ لِاتِّقَائِهِ؛ كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

إِنَّ عِيدَ الْمِيلَادِ عِنْدَ النَّصَارَىٰ قَدْ أَحْدَثُوهُ لِمَا يَزْعُمُونَهُ تَجْدِيدًا لِذِكْرَىٰ مَوْلِدِ الْمَسِيحِ عليه السلام، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لَدَىٰ مُؤَرِّخِي النَّصَارَىٰ يَوْمُ مَوْلِدِهِ عليه السلام، وَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي عَامِهِ كَبِيرٌ جِدًّا!! فَكَيْفَ بِشَهْرِهِ وَيَوْمِهِ؟!(٤).

---

(٣) أخرجه البخاري في الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، ومسلم في الإمارة، باب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ... (١٨٤٧).

(٤) اختلف مؤرخو النصارىٰ ورهبانهم في العام الذي ولد فيه المسيح عليه السلام علىٰ ما يلي:

أولًا: أنه ولد في السنة الرابعة قبل التاريخ الميلادي الذي وضعه الراهب «ديونسيوس أكيسجوس» وهذا هو المثبت في دائرة المعارف الكتابية الصادرة عن الأقباط في مصر، ونسبوا ذلك إلىٰ إنجيل متىٰ (٢/ ١و ١٣-١٥)، قالوا: ولا يمكن تحديد التاريخ بدقة أكبر. اهـ (٧/ ١٣١).

ثانيًا: أنه ولد في أواخر السنة الخامسة قبل التاريخ الميلادي، أو أوائل السنة الرابعة =

. . . .

= قبل التاريخ الميلادي. وهذا هو المثبت في قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، القاهرة، ط١٤، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠٥م (ص: ٨٦٣-٨٦٤).

ثالثًا: أنه ولد قبل التاريخ الميلادي بست سنوات إلىٰ ثمان سنوات، وهو ما توصل إليه مجموعة من الباحثين والفلكيين النصارىٰ بعد دراستهم لإنجيل متىٰ. ينظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٣٧٦).

رابعًا: أنه ولد قبل العام الثالث قبل الميلاد. ومستند ذلك أيضا في إنجيلي متىٰ ولوقا، كما في قصة الحضارة لديورانت (١١/ ٢١٢).

خامسًا: أنه ولد في العام الثاني أو الأول قبل الميلاد. ومستند ذلك: إنجيل لوقا، كما في قصة الحضارة (١١/ ٢١٢).

سادسًا: أنه ولد قبل العام السادس من التاريخ الميلادي. ومستند ذلك: إحصاء لبلاد اليهود قام به حاكم سورية (سترنينس) عام سبعة أو ثمانية قبل التاريخ الميلادي. ينظر: قصة الحضارة (١١/ ٢١٢).

أما اليوم والشهر، فالخلاف بينهم فيه أشد، ومن أقوالهم فيه:

١- في التاسع عشر من إبريل.

٢- في العاشر من مايو.

٣- في السابع عشر من نوفمبر.

وفي عام ٣٥٤ ميلادي احتفلت بعض الكنائس الغربية، ومنها كنيسة رومة بذكرىٰ مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر، هكذا في قصة الحضارة، ولعله أراد شهر ديسمبر؛ لأن النصارىٰ الغربيين استقروا عليه مولدا للمسيح، وهو اليوم الذي كان يحتفل به الوثنيون بعيد مثراس؛ أي: مولد الشمس التي لا تقهر. ينظر: قصة الحضارة (١١/ ٢١٢-٢١٣).

وفي دائرة المعارف البريطانية اعتراض علىٰ أن يكون المسيح ﷺ قد ولد في شهر ديسمبر؛ استنادا إلىٰ فقرة في إنجيل لوقا، وهي: «وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل علىٰ رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفًا عظيمًا». يقول محرر الدائرة: «لا يمكن أن يكون ذلك في شهر ديسمبر؛ لأن هذا الشهر يكثر فيه نزول المطر في أرض فلسطين؛ فلا يتصور وجود رعاة غنم خارج البنيان». ثم يقول عقب ذلك: «ويحتفل العالم المسيحي بعيد الميلاد في =

وَهَذَا الْعِيدُ مِنْ أَقْدَمِ أَعْيَادِهِمْ؛ إِذْ أَحْدَثُوهُ فِي أَوَاسِطِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ التَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ الْمِيلَادِيِّ(٥)، وَمِنْ شَعَائِرِهِمْ فِيهِ أَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ الْكَنَائِسِ، يُقِيمُونَ

= (٢٤-٢٥) ديسمبر من كل عام، علىٰ أن الفلكيين والمؤرخين من رجال العلم والدين علىٰ السواء قد أجمعوا علىٰ أن ٢٥ ديسمبر من السنة الأولىٰ ميلادي ليس التاريخ الحقيقي لميلاد المسيح، لا من حيث السنة ولا من حيث اليوم، وتقع المسئولية في هذا علىٰ هذا الراهب «ديونسيوس أكيسجوس» الذي ارتكب أخطاء عديدة في حساباته، وقد عاش هذا الراهب في رومية، وفي سنة (٥٣٢م) طلب إليه أن يجدد العهد الجديد بالرجوع إلىٰ الوراء، ولكنه نسي في حسابه سنة الصفر بين السنة الأولىٰ قبل الميلاد والسنة الأولىٰ بعد الميلاد التي كان يجب إدخالها في تقديره، كما أنه أغفل الأربع سنوات التي حكم فيها الإمبراطور (أوغسطس) باسمه القديم (أكنا فيرس) انظر: لمحات في التاريخ في الإنجيل (٣٢) لحبيب سعيد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة ١٩٧٤م، وعنه: الأعظمي في دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٢٧٥-٢٧٦).

ويذكر حسن نعمة في كتابه الأعياد (٢٧٧): أن أول من احتفل بعيد الميلاد هم مسيحيو مصر، وذلك بدءا من القرن الثالث للميلاد، وكان يتم ذلك في العشرين من آيار من كل عام، ثم نقلته كنيسة الإسكندرية إلىٰ السادس من كانون الثاني، وبعد ذلك دخل العيد إلىٰ روما ثم إلىٰ بقية الكنائس. اهـ.

والنصارىٰ الشرقيون يحتفلون به في السادس من يناير منذ القرن الثاني من التاريخ الميلادي، وذكر ديورانت أن الكنائس الشرقية استمسكت وقتا باليوم السادس من يناير، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وعبادة الشمس، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتىٰ اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيدا للميلاد في الشرق أيضا. قصة الحضارة (١١/ ٢١٢-٢١٣).

وقد عقب محمد بدران محقق هذا الجزء من قصة الحضارة علىٰ كلام ديورانت، فقال: «الذي نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد في اليوم السادس من يناير».

قلت: رأيت هذا العام ١٤٢٨ نصارىٰ فلسطين قد احتفلوا به في يوم الخامس والعشرين من ديسمبر علىٰ وفق ما ذكره ديورانت، ونقلت ذلك الفضائيات بالبث المباشر من (بيت لحم) البلد المزعوم لولادة المسيح ﵇.

(٥) أول احتفال لهم به كان عام ٣٣٦م، ينظر: الموسوعة العربية العالمية (١٦/ ٧١١)، ومن الموافقات العجيبة: أن مبتدعة النصارىٰ أحدثوا الاحتفال بميلاده ﵇ في القرن الرابع =

الصَّلَاةَ، وَيُرَتِّلُونَ التَّرَانِيمَ، وَيُنْشِدُونَ الْأَنَاشِيدَ، وَيَقْرَءُونَ قِصَّةَ الْمَوْلِدِ مِنْ إِنْجِيلَيْ مَتَّىٰ وَلُوقَا[٦]، وَيَتَبَادَلُونَ الْهَدَايَا وَالتَّهَانِيَ بِهِ، وَخَصُّوا الْأَطْفَالَ بِهَدَايَا الْبَابَا نُويِلْ[٧]، وَهُوَ رَاهِبٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَيَحْضُرُ لَيْلَةَ هَذَا الْعِيدِ لِيَضَعَ لُعَبًا لِلْأَطْفَالِ النَّصَارَىٰ وَهُمْ نَائِمُونَ. وَبَعْضُ النَّصَارَىٰ يَحْرِقُ كُتْلَةً مِنْ جِذْعِ شَجَرَةِ عِيدِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ، ثُمَّ يَحْتَفِظُونَ بِالْجُزْءِ غَيْرِ الْمَحْرُوقِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَرْقَ يَجْلِبُ الْحَظَّ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ مُؤَرِّخِي النَّصَارَىٰ أَنَّ عِيدَ الْمِيلَادِ عِيدٌ وَثَنِيٌّ أَحْدَثَهُ عُبَّادُ الشَّمْسِ لِمَا يَزْعُمُونَهُ مَوْلِدًا لِلشَّمْسِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ[٨]، فَلَمَّا تَنَصَّرَ الرُّومَانُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ، نَقَلَهُ رُهْبَانُ النَّصَارَىٰ مِنْ كَوْنِهِ عِيدًا لِمَوْلِدِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عِيدٍ لِمِيلَادِ الْمَسِيحِ ﷺ؛ مُسَايَرَةً لِلرُّومَانِ الْوَثَنِيِّينَ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ الْمُحَرَّفَةَ، وَمُوَافَقَةً لَهُمْ فِي عِيدِهِمْ؛ وَلِذَا جَعَلُوهُ فِي مَوْعِدِهِ.

= الميلادي، وكذلك أحدث بنو عبيد الباطنيين الاحتفال بمولد النبي محمد عليه الصلاة والسلام في القرن الرابع الهجري.

(٦) في دائرة المعارف الكتابية: «نجد قصة ميلاد يسوع مسجلة في إنجيلي متىٰ ولوقا، وواضح أنه كان لكل إنجيل مصادره ...» (٧/ ١٣٣).

(٧) هو راهب له عدة أسماء، منها: البابا نويل، القديس نيكولاس، سانتا كلوز، مار نقولا، الأب ميلاد. وقد عاش في القرن الرابع للميلاد، وكان أسقفا في كنيسة (ميرا) في ليسبا بالأناضول، وقيل: عاش في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. ينظر: الأعياد، حسن نعمة (٢٨٢).

وللنصارىٰ ولع شديد به في عيد ميلاد المسيح ﷺ في هذا العصر؛ إذ جعلوه رمزا لمحبة الأطفال وتخليصهم من مشاكلهم، وإهدائهم الهدايا، وألفت حوله القصص، ونسجت الأساطير، وصنعت أفلام فيه، وشعاره: اللباس الأحمر، واللحية الكثة البيضاء المستعارة.

(٨) كان الوثنيون يسمونه (عيد إله الشمس: ميثراس) ويسمىٰ إله الخير والضوء عند الرومان. ينظر: الأعياد، حسن نعمة (٢٧٧).

وَشَجَرَةُ الْمِيلَادِ الَّتِي هِيَ مِنْ رُمُوزِ عِيدِهِمْ هَذَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ؛ إِذْ يَعْتَقِدُ الْفَرَاعِنَةُ وَالصِّينِيُّونَ أَنَّ الشَّجَرَةَ رَمْزٌ لِلْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ(٩)، وَأَخَذَهَا عَنْهُمُ الرُّومَانُ الْوَثَنِيُّونَ، فَلَمَّا اعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ اخْتَرَعَ الرُّهْبَانُ لَهَا أَصْلًا فِي دِينِهِمْ عَلَىٰ عَادَتِهِمْ فِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَتَطْوِيعِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ لِأَهْوَاءِ النَّاسِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِمْ.

أَمَّا عِيدُ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ؛ فَهُوَ يُوَافِقُ عِيدًا يُسَمَّىٰ عِيدَ «الْبُسْتَرِينَةِ»(١٠) وَهِيَ آلِهَةٌ اتَّخَذَهَا الْيُونَانُ وَالرُّومَانُ الْوَثَنِيُّونَ رَمْزًا لِلْقُوَّةِ، فَلَمَّا اعْتَنَقَ الرُّومَانُ النَّصْرَانِيَّةَ

---

(٩) للوثنيين معتقدات غريبة في الشجرة حتىٰ اتخذوها آلهة تعبد من دون الله تعالىٰ، وجعلوا لها أعيادا، ويرىٰ مانفرد لوكر في معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة: أن المعبودات المختلفة انبثقت من الشجرة (١٦٣) مادة (ش).
وانتقلت عبادة الشجرة من الوثنيين إلىٰ النصارىٰ حتىٰ قال جون كولسي في انتصار الشجرة (١٣٠): «إن الاهتمام الذي يظهره الإنسان نحو الشجرة -شجرة الميلاد- ما هو سوىٰ بقية باقية من عبادة الشجرة» اهـ عن الأعياد، حسن نعمة (٣٧٣).
وينظر تفصيلا أكثر في أصلها الوثني في: «موسوعة أغرب الأعياد» سيد صديق عبد الفتاح (٥٣٨-٥٤٠).
وكان الوثنيون القدماء من الفراعنة وغيرهم في الشرق يحتفلون بشجرة الحياة التي يختارونها من الأشجار الدائمة الخضرة، وسرت هذه العادة من الشرق إلىٰ الغرب، فخرجت من مصر إلىٰ سوريا، ومنها إلىٰ بابل، ثم عبرت البحر الأبيض؛ لتظهر في أعياد الرومان، ثم في أعياد ميلاد المسيح عليه السلام.
وشجرة الكريسمس التي يختارونها من الأشجار التي تحتفظ بخضرتها طوال العام؛ كالسرو، والصنوبر.
فهي في واقع الأمر شجرة الحياة التي كانت عند الوثنيين من قبل، ولكنهم سموها الكريسمس. موسوعة أغرب الأعياد (٥٠٩-٥١٣).

(١٠) الأعياد، حسن نعمة (٢٦٩)، وعيد الختان عند الأقباط في السادس من شهر (طوبة) في التقويم القبطي، ولا زال هذا العيد عند الموارنة في لبنان يسمىٰ عيد (البسترينة) ويذكرون أنها هدية كانت تقدم لآلهة القوة عند قدماء الرومان، فسموها باسمها، وهي كلمة لاتينية من (سترينا) وعنهم أخذها اليونان، وجعلوها للعيد وللهدايا المتبادلة فيه. ينظر: صحيفة المستقبل اللبنانية، عدد (١٤٨٧) ص(٦).

أَقَرَّ الرُّهْبَانُ كَثِيرًا مِنْ شَعَائِرِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ، وَأَحْدَثُوا لَهَا أُصولًا دِينِيَّةً عِنْدَهُمْ، فَسَمَّوْا هَذَا الْعِيدَ الْوَثَنِيَّ «عِيدَ الْخِتَانَةِ» وَزَعَمُوا أَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُتِنَ فِيهِ(١١).

(١١) المعروف أن النصارىٰ بشتىٰ طوائفهم وكنائسهم لا يختتنون، وهذا ما دعاني لبحث ذلك في كتبهم، فتبين لي ما يلي:

أولًا: الختان ثابت في كتبهم المقدسة، وأناجيلهم المحرفة، وعلىٰ ألسنة رسلهم عليهم السلام، ومن ذلك:

١- عن إبراهيم عليه السلام في سفر التكوين (٢١/ ٤): «وختن إبراهيم إسحاق ابنه».

٢- موسىٰ عليه السلام، جاء في إنجيل يوحنا (٧/ ٢٢): «لهذا أعطاكم موسىٰ الختان».

٣- عيسىٰ عليه السلام: في سفر يشوع (٥/ ٢): «اختن بني إسرائيل ثانية».

٤- آيات عامة: في سفر الرؤيا (٢/ ٥٢): «فإن الختان ينفع إن عملت الذي في الكتاب والختان».

بل جاء في سفر التكوين أن الختان هو عهد الله تعالىٰ إليهم، ففيه: «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يختن منكم كل ذكر ... فيكون علامة عهد بيني وبينكم، وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرته، فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي». تكوين (١٧/ ٧-١٤) عن دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٧).

ثانيًا: أن الختان امتد من شريعة إبراهيم عليه السلام إلىٰ موسىٰ فعيسىٰ عليهما السلام، كما هو ظاهر من النصوص السابقة في كتبهم.

واختتان إبراهيم عليه السلام ثابت في شريعتنا؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**» أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣٣٥٦)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٢٣٧٠)، وقد جاءت آثار في كتب الأوائل أنه عليه السلام كان أول من اختتن.

ثالثًا: أن الذي لا يختتن يعاقب، كما في سفر الخروج «وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحا للرب، فليختتن منه كل ذكر، ثم يتقدم ليصنعه ... أما كل أغلف فلا يأكل منه» (١٢/ ٤٨).

وفي دائرة المعارف الكتابية أن الختان كان علامة مميزة لنسل إبراهيم عليه السلام، وفيها أن أم موسىٰ عليه السلام ختنت ابنها، وأن هذا يدل علىٰ أهمية الختان، بل ذكرت: «ختان الابن كان فيه نجاة موسىٰ» سفر الخروج (٤/ ٢٤-٢٥) عن دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٧).

وفيها أيضًا أن عيسىٰ عليه السلام كان يختن الإسرائيليين بسبب ما كان يمكن حدوثه من اختلاط =

. . . .

= بينهم وبين الشعوب الكنعانية؛ وذلك للاحتفاظ بالعلامة المميزة لعهد إبراهيم عليه السلام. دائرة المعارف (٣/ ٢٣٨).

رابعًا: نصت كتبهم علىٰ تحديد اليوم الثامن للمولد موعد الختان، كما في فهرس الكتاب المقدس (١٦٣)، ودائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٨)، وقاموس الكتاب المقدس (٣٣٧).

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام ختن وهو في التاسعة والتسعين، وإسماعيل وهو في الثالثة عشرة، ثم تجددت سنة الختان لموسىٰ عليه السلام وفي سفر اللاويين: «قضي بأن لا يأكل من الفصح رجل أغرل».

وأهمل اليهود سنة الختان في سنوات التيه، فلما أراد يوشع بن نون عليه السلام دخول الأرض المقدسة بهم أعاد تلك السنة، فختنهم كلهم. سفر يشوع (٥/ ٢-٩).

خامسًا: يجب علىٰ كل غريب يريد الدخول في اليهودية أن يخضع لفرض الختان، مهما كان عمره، كما في سفر التكوين (٣٤/ ١٤-١٧)، وسفر الخروج (١٢/ ٤٨).

سادسًا: لما دخل بعض اليهود في النصرانية بعد بعثة عيسىٰ عليه السلام تمسكوا بسنة الختان، معتقدين أنها ضرورية للخلاص، كما في قاموس الكتاب المقدس (٣٣٧).

سابعًا: جاء في إنجيل برنابا، وهو ممن شاهد عيسىٰ عليه السلام وأحد حوارييه:

أيها الأعزاء: إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوىٰ التقوىٰ مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا مجوزين كل لحم» اهـ.

إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم السلام، سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت - ١٤٠٣هـ، ط: الثانية، (ص٣٧).

وفيه أيضًا: وإذا بامرأة من كنعان مع ابنيها قد جاءت من بلادها لترىٰ يسوع فلما رأته آتيا مع تلاميذه صرخت يا يسوع ابن داود، ارحم ابنتي التي يعذبها الشيطان، فلم يجب يسوع بكلمة واحدة؛ لأنهم كانوا من غير أهل الختان فتحنن التلاميذ وقالوا: يا معلم، تحنن عليهم، انظر ما أشد صراخهم وعويلهم فأجاب يسوع: إني لم أرسل إلا إلىٰ شعب إسرائيل، فتقدمت المرأة وابناها إلىٰ يسوع معولة قائلة: يا يسوع بن داود، ارحمني، أجاب يسوع: لا يحسن أن يأخذ الخبز من أيدي الأطفال ويطرح للكلاب، وإنما قال يسوع هذا لنجاستهم؛ لأنهم كانوا من غير أهل الختان. ص ٦٣-٦٤. =

. . . .

= وفيه أيضًا: قال التلاميذ: قل لنا يا معلم لأي سبب يجب على الإنسان الختان؟ فأجاب يسوع: يكفيكم أن الله أمر به إبراهيم قائلا: يا إبراهيم، اقطع غرلتك وغرلة كل بيتك؛ لأن هذا عهد بيني وبينك إلى الأبد. ص ٦٥.

وفيه أيضا: فتسلسلت سنة الختان من جيل إلى جيل، إلا أنه لم يكن في زمن إبراهيم سوى النزر القليل من المختونين على الأرض؛ لأن عبادة الأوثان تكاثرت على الأرض، وعليه فقد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الختان، وأثبت هذا العهد قائلا: النفس التي لا تختن جسدها إياها ابدد من بين شعبي إلى الأبد، فارتجف التلاميذ خوفا من كلمات يسوع، لأنه تكلم باحتدام الروح، ثم قال يسوع: دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته؛ لأنه محروم من الفردوس. ص٦٦.

ثامنا: الظاهر أن بولس «شاؤول اليهودي» هو أول من ألغى الختان، في جملة ما ألغاه وحرفه من شرائع موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن أهل غلاطية كانوا مصرين على سنة الختان، فكتب إليهم بولس: «ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئًا»، وقال: «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئًا، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة» انتهى، من رسائل أهل غلاطية (٥/ ٢-٣) (٦/ ١٥).

وبهذين النصين نعرف أن بولس سعى لإلغاء الختان، والظاهر أنه استبدل به التعميد -وهو الغسل بالماء للتطهير- كما جاء في رسائل كولوسي: إن الرسول -يعني بولس- يعلم بأن للمعمودية في العهد الجديد نفس المكانة التي كانت للختان في العهد القديم» (٢/ ١١-١٢) عن قاموس الكتاب المقدس ص٣٣٨.

ولا يزال اليهود في عصرنا يختتنون في مراسيم وطقوس معينة ومعلوم أن بولس هو من أحدث التثليث في النصرانية، وقد أطبق النصارى عليه مع أن فيه تناقضًا كبيرًا، ولا يمكن فهمه، وفيه تغيير لأهم شيء في معتقد الإنسان وهو الربوبية والألوهية، فمن قدر على أن يغير أصل العقيدة النصرانية ليس عاجزًا على تغيير سنة الختان المتوارثة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ليجعل التعميد بدلًا عنها.

المراجع:

دائرة المعارف الكتابية، إعداد جماعة بإشراف: وليم وهبة بباوي، دار الثقافة القاهرة، ط٢.

فهرس الكتاب المقدس، د جورج بوست، إصدار مكتبة العائلة، القاهرة، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠١م. =

وَمِنَ اعْتِقَادَاتِ النَّصَارَىٰ فِي هَذَا الْعِيدِ الْوَثَنِيِّ: أَنَّ الَّذِي يَحْتَسِي آخِرَ كَأْسٍ مِنْ قِنِّينَةِ الْخَمْرِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ سَيَكُونُ سَعِيدَ الْحَظِّ، وَإِذَا كَانَ عَازِبًا فَسَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَزَوَّجُ مِنْ بَيْنِ رِفَاقِهِ فِي تِلْكَ السَّهْرَةِ، وَمِنَ الشُّؤْمِ دُخُولُ مَنْزِلٍ فِي هَذَا الْعِيدِ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ الْمَرْءُ هَدِيَّةً، وَكَنْسُ الْغُبَارِ إِلَىٰ الْخَارِجِ يُكْنَسُ مَعَهُ الْحَظُّ السَّعِيدُ، وَغَسْلُ الثِّيَابِ وَالصُّحُونِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الشُّؤْمِ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ بَقَاءِ النَّارِ مُشْتَعِلَةً طَوَالَ لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ يَحْمِلُ الْحَظَّ السَّعِيدَ . . . إِلَىٰ آخِرِ خُرَافَاتِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ فِيهِ(١٢).

= قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، القاهرة، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠١م.

(١٢) ينظر: أعياد الكفار وموقف المسلم منها، للمؤلف (٤٣).

ومن عاداتهم في زمننا هذا: إحياء السهرة التي تسبق العيد. وفيها يجتمع الناس سواء في المنازل أو الأندية أو في المقاهي أو الملاهي، ملتفين حول موائد الأطعمة والأشربة، يرقصون ويغنون، حتىٰ إذا انتصف الليل، والتقت العقارب، هتف الساهرون هتاف الابتهاج لانتقالهم من سنة إلىٰ أخرىٰ، وتعانقوا وتبادلوا القبلات والتهاني، فيما يسمع في الخارج قرع الأجراس، ودوي الأسهم النارية المتصاعدة في الأجواء، وزمامير السيارات، وسوىٰ ذلك من مظاهر التعبير عن الفرح، وتتعالىٰ الأصوات بالغناء، وتتوالىٰ حلقات الرقص. ومن عادات رأس العام وتقاليده المقامرة. وكان الرومان يحرمونها طول العام، ويجيزونها في رأس العام. وقد أخذها اللبنانيون عنهم بعد احتلالهم للبلاد. وسبب ذلك اعتقاد موروث، وهو أن اللعب في «صباح الخير» حلال، لكشفه الزهر أو البخت، فيعرف ما سيكون الحظ في السنة المقبلة؛ لذلك دعا بعضهم ليلة رأس السنة «ليلة الفوز»، أي: ليلة فوران المال بالمقامرة. فالرابح في اللعب يعتقد أن سنته الطالعة ستكون سنة خير وبركة، فيما يستعيذ الخاسر من مصاعبها ومكارهها.

ومن أغرب عاداتهم وخرافاتهم أن النساء في بعض القرىٰ اللبنانية عند ذهابهن في رأس العام إلىٰ العين؛ لملء جرارهن، يأخذن معهن حبوبا من الحنطة والحمص والشعير وحلوىٰ من الملبسات والمعجنات، والفاكهة المقددة كالتين المطبع والزبيب، ليقدمنه هدية أو صباحية للعين، وذلك بأن ينثرنه في الماء؛ اعتقادا بأن ذلك يسيغ الماء للشاربين، =

وَكَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ مِنْ نَصَارَىٰ الْغَرْبِ يُقِرُّونَ بِالْجُذُورِ الْوَثَنِيَّةِ لِشَعَائِرِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ وَتَعَبُّدَاتِهِمْ، وَأَلَّفَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ بَاحِثِيهِمْ كِتَابًا بِعُنْوَانِ: «الْأُصُولُ الْوَثَنِيَّةُ لِلْمَسِيحِيَّةِ» قَالُوا فِيهِ: «دَارِسُ تَارِيخِ الْأَدْيَانِ الْوَثَنِيَّةِ وَالمَسِيحِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَنَّ الْأَعْيَادَ المَسِيحِيَّةَ قَدْ وُقِّتَتْ بِذَكَاءٍ مِنْ قِبَلِ الْكَنِيسَةِ، وَصَارَ يُحْتَفَلُ بِهَا فِي أَيَّامِ الْأَعْيَادِ الْوَثَنِيَّةِ نَفْسِهَا . . . لَا بُدَّ مِنَ المُلَاحَظَةِ أَنَّ الشُّعُوبَ الْوَثَنِيَّةَ أَحْبَطَتْ جُهُودَ الْكَنِيسَةِ لِانْتِزَاعِ الطَّابَعِ الْوَثَنِيِّ عَنْ بَعْضِ الْأَدْيَانِ، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ مُسْتَحِيلًا مِمَّا أَدَّىٰ بِالْكَنِيسَةِ نَفْسِهَا إِلَىٰ أَنْ تَتَبَنَّىٰ التَّقَالِيدَ وَالشَّعَائِرَ الْوَثَنِيَّةَ، وَتَخْلَعَ عَلَيْهَا أَلْقَابًا مَسِيحِيَّةً» اهـ(١٣).

= ويبعد عنه الجان، ومختلف المضار والجراثيم. ومما يقلنه: «يا عين يا عين. الله يرد عنك العين. ويصير مزرابك تنين» ينظر: صحيفة المستقبل اللبنانية ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٣م ص٦.
وهناك لونان أساسيان للاحتفال بعيد الميلاد، هما اللون الأخضر والأحمر، ويمثل اللون الأخضر -حسب معتقدهم- استمرار الحياة خلال الشتاء، والإيمان المسيحي في الحياة الأبدية، واللون الأحمر يرمز إلىٰ دم المسيح. تعالىٰ الله عن إفكهم، والحمد لله الذي عافانا من ضلالهم.

(١٣) الأصول الوثنية للمسيحية، تأليف: أندريه نايتون، وإدغارونيد، وكارل غوستاف يونغ، ترجمة: سميرة عزمي الزين (٥١).
يقول إلياس عودة، وهو من نصارىٰ لبنان الأرثوذكس: «كثيرون يناقشوننا في تاريخ الميلاد، ونحن لا نتردد في الإجابة: إن التاريخ الذي نعيد فيه لذكرىٰ ميلاد المسيح ليس تاريخ ميلاده، الوثنيون كانوا يعيدون للشمس في ٢٥/ كانون الأول، وكانت احتفالاتهم تجري في الفحش، وفي ما لا ترضىٰ عنه النفس المؤمنة ... خوفي أن تكون الاحتفالات الوثنية بميلاد الشمس قد انتقلت إلىٰ رأس السنة، وعوض أن تجتمع العائلة وتصلي بخشوع سائلة الرب أن يغفر لها ما اقترفته في السنة المنصرمة، وأن يبارك سنتها المقبلة، يمضي أفرادها سهرتهم بالسكر والعربدة والقمار والتنجيم، واصلين الليل بالنهار، والله غائب عن قلوبهم وحياتهم ..» جريدة النهار، ٢/ كانون الثاني ١٩٩٦م، عن الأعياد، حسن نعمة (٢٧٦).

وَلِلاحْتِفَالِ بِهَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فِي هَذَا الزَّمَنِ شَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَانْتَقَلَ إِلَىٰ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ بِسَبَبِ التَّقْلِيدِ وَالمُحَاكَاةِ، وَالتَّزْيِينِ الْإِعْلَامِيِّ لَهُمَا، وَلَاسِيَّمَا عِيدُ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ الَّتِي تَكَادُ مَظَاهِرُ الِاحْتِفَالِ بِهِ تَشْمَلُ الْأَرْضَ كُلَّهَا بِسَبَبِ اعْتِمَادِ التَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ تَقْوِيمًا لِأَكْثَرِ دُوَلِ الْعَالَمِ، حَتَّىٰ إِنَّ المُسْلِمِينَ فِي أَكْثَرِ دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يَحْفَظُونَ التَّارِيخَ الْمِيلَادِيَّ النَّصْرَانِيَّ، وَلَا يَحْفَظُونَ التَّارِيخَ الْهِجْرِيَّ الْإِسْلَامِيَّ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ.

وَأَضْحَىٰ الِاحْتِفَالُ بِرَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ يَتَصَدَّرُ نَشَرَاتِ الْأَخْبَارِ، وَالصَّفَحَاتِ الْأَوْلَىٰ مِنَ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ، وَتُنْقَلُ بِالْبَثِّ المُبَاشِرِ فِي شَتَّىٰ بِقَاعِ الْعَالَمِ احْتِفَالَاتُ لَحْظَةِ انْتِهَاءِ الْعَامِ الْمِيلَادِيِّ مِنْ مُنْتَصَفِ آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وَمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ أَنْوَاعِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُوبِقَاتِ.

وَيُنْفَقُ عَلَىٰ هَذَا الْعِيدِ وَشِعَارَاتِهِ وَاحْتِفَالَاتِهِ مِنَ النَّفَقَاتِ مَا يَكْفِي لِإِطْعَامِ مَلَايِينِ الْجَائِعِينَ، وَإِيوَاءِ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ اللَّاجِئِينَ وَالمُشَرَّدِينَ، وَمُعَالَجَةِ المَرْضَىٰ، وَتَعْلِيمِ الْأُمِّيِّينَ، وَفِي إِحْصَاءٍ قَبْلَ سِتِّ سَنَوَاتٍ لِلدَّوْلَةِ النَّصْرَانِيَّةِ الْأُولَىٰ فِي الْعَالَمِ بَلَغَتْ نَفَقَاتُ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فِيهَا خَمْسِينَ مِلْيَارَ دُولَارٍ!!(١٤)

(١٤) هذا في أمريكا وحدها حسب ما نشر في الصحف. ومن العجيب أنه في أمريكا تشمل الاحتفالات بعيد رأس السنة القطط والكلاب . وقد ذكر بوب فيتيري رئيس الجمعية المهنية لصانعي المنتجات المخصصة للحيوانات في أمريكا أنه مع حساب الوجبات الخفيفة والحلوىٰ بلغت نفقات الأعياد المخصصة للحيوانات العام الماضي بين عيد «الهلويين» وعيد الميلاد ثلاثة مليارات دولار لفترة شهرين فقط!! وقال: إن الناس ينظمون لحيواناتهم احتفالات أعياد ميلادها وسهرات لمناسبة عيد الميلاد وعيد الأنوار اليهودي. وأفاد استطلاع للرأي نشر مؤخرا أن ٩٠% من الأميركيين الذين يملكون حيوانات يعتبرون قططهم أو كلابهم فردا من أفراد العائلة و٦٥% منهم يشترون لها هدية في عيد الميلاد. =

. . . .

= وهناك أكثر من ٧١ مليون أسرة في الولايات المتحدة يملكون حيوانًا أليفًا.
وقالت ساره شويمر مؤسسة موقع إلكتروني يبيع إكسسوارات يهودية للبشر والحيوانات لوكالة فرانس برس: كثير من الناس يعتبرون حيواناتهم جزءا من العائلة، ومن الطبيعي أن تشملهم الاحتفالات بأعياد آخر السنة، وفي هذه العقلية نقدم تشكيلة كبيرة متنوعة من السلع؛ فالقلنسوة المخصصة للكلاب مثلا تباع كالخبز!!
وأكد تامي زايكي الذي يصنع عدة الرسم علىٰ العشب للفنانين من الكلاب: إن المبيعات ترتفع كثيرا مع موسم الأعياد.
وذكر فيتيري: أن الحيوانات تشكل محط انتباه كبير؛ لأن أصحابها يشبهونها بالإنسان، وتلعب دورا مهما في حياتهم الخاصة. وساق مثالا علىٰ ذلك: أن هناك أزواجا يتبنون حيوانا ليعوضوا الفراغ الذي تركه الأولاد، أو في حال الشبان الذين يفضلون في البداية رفقة الحيوان عن تأسيس عائلة. وخلص فيتيري إلىٰ القول: «إن الحيوان الأليف هو ذلك الذي تستطيعون أن تشكوا له همومكم بعد يوم عمل مضن: فهو يجلس معكم ويحرك ذنبه فرحا».
وبات لهذه الحيوانات المحبوبة مصممون كبار، ومزينو شعر مشهورون، ومخازن كبرىٰ تهتم باكسسواراتها، كما أطلق جون بول ديجوريا مؤسس علامة «بول ميتشل» لمنتجات الشعر، تشكيلة من مستحضرات التجميل الخاصة بالحيوانات «جون بول بيت». وأثناء احتفال عشية الميلاد في محل (بلومينغديل) الشهير نظم في واشنطن لمصلحة إحدىٰ جمعيات الدفاع عن الحيوانات أتيح للكلاب الخيار التقاط صورة لها مع بابا نويل أو مع رجل الثلج، كما كان بإمكان الكلاب تجربة نماذج عطور خاصة بها «باو فيوم» من تصميم جوسي كوتور المتفرعة عن ماركة مصصمة الأزياء الأميركية المعروفة ليز كليربورن، أو تجربة سترات من الفرو الاصطناعي من إنتاج المصممة نفسها بسعر ٧٠ دولارًا!!
ولاستقبال السنة الجديدة كان بإمكان الكلاب الحصول علىٰ زجاجة لعبة «دوغ برينيون» بسعر ١٥ دولارًا!!
وفي مصر البلد المسلم تبلغ نفقات هذا العيد الوثني النصراني أكثر من خمسة عشر مليار جنيه مصري، ويصل سعر شجرة الكريسمس إلىٰ (٥٠٠ جنيه)، وبابا نويل إلىٰ (٧٠٠ جنيه)، وللأسف؛ فإن كثيرا من المسلمين قد اندمجوا في مصر والشام ودول المغرب العربي مع النصارىٰ في الاحتفال بهذين العيدين الوثنيين النصرانيين، والباعة المسلمون صاروا يتاجرون بأدوات هذا العيد وشعائره.

فَكَيْفَ بِبَقِيَّةِ دُوَلِ أُورُبَّا وَالْعَالَمِ أَجْمَعِ؟!

وَكُلُّهَا نَفَقَاتٌ غَيْرُ مَخْلُوفَةٍ، وَلَا أَجْرَ لِأَصْحَابِهَا فِيهَا؛ لِأَنَّهَا عَلَىٰ أَعْيَادٍ وَثَنِيَّةٍ أَدْخَلَهَا الرُّهْبَانُ فِي دِينِ النَّصَارَىٰ، لَا يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهَا، وَمَنْ شَارَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا بِاحْتِفَالٍ أَوْ حُضُورٍ أَوْ إِهْدَاءٍ أَوْ تَهْنِئَةٍ، أَوْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَحِ بِهَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ إِقْرَارًا لِشَعَائِرَ لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ، وَلَا يُحِبُّهَا مِنْهُمْ، وَلَا تَزِيدُ أَصْحَابَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا بُعْدًا، وَتَسْتَوْجِبُ سَخَطَهُ ﷻ وَنِقْمَتَهُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ شَرَعَ لَنَا مِنَ الْأَعْيَادِ وَالشَّعَائِرِ الَّتِي تُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ وَيَرْضَىٰ بِهَا عَنَّا مَا يُغْنِينَا عَنْ تَقْلِيدِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ فِي أَعْيَادِهَا الْوَثَنِيَّةِ الْمُحْدَثَةِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٨-١٩].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُثَبِّتَنَا وَالْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا التَّمَسُّكَ بِأَهْدَابِ الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا صِرَاطَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



= والأدهىٰ من ذلك والأمر أن مظاهر هذين العيدين وشعائرهما يزدادان ظهورا في الخليج العربي الذي ليس من مواطنيه نصارىٰ، ولكنه التقليد الأعمىٰ.

وأضحىٰ الفسقة من المغنيين والمغنيات يحيون ليالي هذين العيدين الوثنيين في فنادق مصر ولبنان وسورية وبعض دول الخليج وغيرها، وكثير من أبناء دول الخليج يسافرون إلىٰ حيث الاحتفال بهذه الأعياد؛ لحضور ما فيها من شهوات محرمة، حتىٰ برزت دعوات بأن تتبنىٰ دول الخليج الاحتفال بهذه الأعياد؛ لئلا يذهب الخليجيون إلىٰ الخارج لحضور الاحتفال بها؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الزَّمَنِ عَمَّتِ الْبَلْوَىٰ بِالْأَعْيَادِ الْوَثَنِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَصَارَ الِاحْتِفَالُ بِهَا ظَاهِرًا مُعْلَنًا، وَتَسَاهَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي حُضُورِهَا وَالْمُشَارَكَةِ فِيهَا، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهَا، وَالتَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، وَالتَّهَانِي بِهَا، وَهَذَا مِنَ التَّسَاهُلِ فِي شَعَائِرِ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَهِينَ بِذَلِكَ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَيُعَظِّمُ شَرِيعَتَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ حُضُورَهَا أَوِ الْمُشَارَكَةَ فِيهَا، أَوِ الْإِعَانَةَ عَلَيْهَا بِبَيْعِ أَدَوَاتِ الْعِيدِ وَشَعَائِرِهِ وَرُمُوزِهِ، أَوْ إِعَارَتِهَا أَوْ إِجَارَتِهَا أَوْ هِبَتِهَا، أَوِ التَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ قَبُولِ هَدَايَاهَا، أَوْ تَهْنِئَةِ الْغَيْرِ بِهَا، أَوِ الرَّدِّ عَلَىٰ تَهْنِئَتِهِمْ بِمِثْلِهَا، بَلِ الْوَاجِبُ رَحْمَتُهُمْ إِذْ ضَلُّوا عَنِ الْهُدَىٰ، وَتَمَنِّي الْهِدَايَةِ لَهُمْ، وَحَمْدُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَىٰ إِنْكَارِ أَعْيَادِ الْكُفَّارِ(١٥)؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا فِي الْمَدِينَةِ وَخَيْبَرَ وَمَا نُقِلَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مُشَارَكَتُهُمْ فِي أَعْيَادِهِمْ، أَوْ حُضُورُهَا، أَوْ إِعَانَتُهُمْ عَلَيْهَا، أَوِ التَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ تَهْنِئَتُهُمْ بِهَا.

---

(١٥) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥٢٤)، وأحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢٢-٧٥٢).

وَلَمَّا فُتِحَتْ كَثِيرٌ مِنْ بُلْدَانِ النَّصَارَىٰ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَغَيْرِهَا -وَكَانَ فِيهَا نَصَارَىٰ بَقُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَدَخَلُوا فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْجِزْيَةِ- لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مُشَارَكَتُهُمُ النَّصَارَىٰ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا صَالَحَ نَصَارَىٰ الشَّامِ، وَكَتَبَ شُرُوطَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ مِنْهَا أَلَّا يُظْهِرُوا الِاحْتِفَالَ بِأَعْيَادِهِمْ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ(١٦)، وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَىٰ هَذِهِ الشُّرُوطِ(١٧)، وَلَوْ سَاغَ مُشَارَكَتُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَوْ تَهْنِئَتُهُمْ بِهَا لَمَا مَنَعَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهَا.

وَكُلُّ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكُفَّارِ تَتَنَاوَلُ النَّهْيَ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَعْيَادِهِمْ أَوْ مُشَارَكَتِهِمْ فِيهَا، نَحْوُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [**الحديد**: ١٦]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَقَدِ اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ عَلَىٰ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم

---

(١٦) أخرج حديث الشروط العمرية من حديث عبد الرحمن بن غنم: ابن زبر الربعي في جزء في شروط النصارىٰ: ٢٢، وابن الأعرابي في معجمه (١/ ٣٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٢٠٢)، وابن عساكر في تاريخه (٢/ ١٧٤).

(١٧) نقل الإجماع عليها عدد من العلماء، منهم: ابن حزم في مراتب الإجماع (١١٥)، والطرطوشي في سراج الملوك (١٣٨)، وابن تيمية في الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٥٤)، والصارم المسلول (٢/ ٣٩٤)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١١٦٤-١١٦٥)، وتقي الدين السبكي في فتاويه (٢/ ٣٩٩)، ومجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٥٥)، والونشريسي المالكي في البيان المغرب (٢/ ٢٣٨).

(١٨) أخرجه أبو داود في اللباس، باب لبس الشهرة (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وتمام الرازي (٧٧٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٠٣١)، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٦)، وجود إسناده ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٢٤٠)، وقال الذهبي في السير: إسناده صالح (١٥/ ٥٠٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٧١)، والسيوطي في الجامع الصغير (٥١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٥).

مِنْ وُجُوبِ اجْتِنَابِ الْكُفَّارِ فِي أَعْيَادِهِمْ[١٩].

وَقَدْ يَعْجَبُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ هَذَا التَّشْدِيدِ فِي أَعْيَادِ الْكُفَّارِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَعْلَمُ أَنَّ حِمَايَتَهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَنْعِ شَعَائِرِ الْآخَرِينَ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا؛ وَذَلِكَ بِتَحْرِيمِ التَّشَبُّهِ بِالْكُفَّارِ، وَمَنْعِ الِابْتِدَاعِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَيَبْقَىٰ الدِّينُ عَلَىٰ صَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، لَا يَدْخُلُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهَا مَا هُوَ مِنْهَا، وَهَذَا هُوَ حِفْظُ الدِّينِ الَّذِي تَكَفَّلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ قَدَرًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]، وَجَعَلَ مِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ لِذَلِكَ: الْمَنْعَ مِنَ التَّشَبُّهِ وَالِابْتِدَاعِ.

وَقَدْ عَلِمْنَا آنِفًا كَيْفَ أَنَّ الشَّعَائِرَ وَالْأَعْيَادَ الْوَثَنِيَّةَ الْيُونَانِيَّةَ وَالرُّومَانِيَّةَ أُدْخِلَتْ فِي دِينِ النَّصَارَىٰ، وَابْتَدَعَ الرُّهْبَانُ فِيهِ مَا ابْتَدَعُوا، فَكَانَ دِينُهُمْ بَعِيدًا عَنْ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ عليه السلام بِسَبَبِ التَّشَبُّهِ وَالِابْتِدَاعِ.

وَأَمَّا الْمَنْعُ مِنْ تَهْنِئَتِهِمْ بِأَعْيَادِهِمْ؛ فَلِأَنَّ أَعْيَادَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِهِمْ سَوَاءً كَانَتْ مُبْتَدَعَةً أَمْ مُحَرَّفَةً، وَالصَّحِيحُ مِنْهَا -إِنْ كَانَ مَوْجُودًا- مَنْسُوخٌ بِأَعْيَادِنَا، فَأَعْيَادُهُمْ مِنْ دِينِ الشَّيْطَانِ الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهُ لِعِبَادِهِ دِينًا وَلَا عِيدًا، وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ إِنْكَارُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْكَارِ فِي شَيْءٍ التَّهْنِئَةُ بِهَا؛ بَلْ هِيَ مُشْعِرَةٌ بِقَبُولِهَا وَالرِّضَا بِهَا.

وَلَوْ أَنَّ وَثَنِيًّا سَجَدَ لِصَنَمٍ، أَوْ نَصْرَانِيًّا سَجَدَ لِقِسِّيسٍ أَوْ صَلِيبٍ فَهَنَّأَهُ مُسْلِمٌ عَلَىٰ سُجُودِهِ لَاسْتَعْظَمَ النَّاسُ مِنْهُ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي تَهْنِئَتِهِ مِنْ إِقْرَارِ السُّجُودِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْوَاجِبَ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ وَدَعْوَتُهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْجَبُونَ مِنْ تَحْرِيمِ تَهْنِئَةِ الْكُفَّارِ بِأَعْيَادِهِمْ، وَأَعْيَادُهُمْ مِنْ أَظْهَرِ شَعَائِرِهِمْ وَأَبْيَنِهَا؟!

---

(١٩) ينظر: الاقتضاء (٢/ ٥٢٤)، وأحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٤٥).

وَأَيْنَ التَّهْنِئَةُ بِشَعِيرَةٍ فَرْدِيَّةٍ خَاصَّةٍ سَجَدَ صَاحِبُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ التَّهْنِئَةِ بِشَعَائِرَ ظَاهِرَةٍ مُعْلَنَةٍ هِيَ مِنْ صَمِيمِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي أُدْخِلَتْ عَلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ المُحَرَّفَةِ؟!

وَلَكِنَّ النَّاسَ يَسْتَعْظِمُونَ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِقِلَّةِ مُشَاهَدَتِهِمْ لَهُ، وَلَا يَسْتَعْظِمُونَ شَعَائِرَ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةَ المُعْلَنَةَ الَّتِي مِنْهَا الْأَعْيَادُ وَمَظَاهِرُهَا وَهِيَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ لِإِلْفِهِمْ لَهَا، وَكَثْرَةِ الْوَاقِعِينَ مِنْهُمْ فِيهَا، وَقَدْ قِيلَ: كَثْرَةُ الْإِمْسَاسِ تُقَلِّلُ الْإِحْسَاسَ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَمَرَنَا بِتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّقْوَىٰ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢] وَلَيْسَ مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ الله تَعَالَىٰ الِاسْتِهَانَةُ بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ الَّتِي مِنْ أَظْهَرِهَا وَأَعْظَمِهَا الْأَعْيَادُ، فَمَنْ عَظَّمَ شَعَائِرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ قَامَ فِي قَلْبِهِ إِنْكَارُ شَعَائِرِ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَلَا يُدَاهِنُ وَلَا يُجَامِلُ أَحَدًا فِيهَا، وَلَوْ كَثُرَ الزَّائِغُونَ، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ المُطَبِّلِينَ لَهَا، المُحْتَفِينَ بِهَا؛ فَإِنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَصْحَابَ النَّارِ أَكْثَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١١٦].

فَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مُشَارَكَةَ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ فِي أَعْيَادِهَا وَشَعَائِرِهَا، أَوْ إِعَانَتَهُمْ عَلَيْهَا، أَوِ التَّهَادِيَ بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ تَهْنِئَةَ أَحَدٍ بِهَا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ رِضًا بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ وَمَنَاسِكِهِ، وَالمُؤْمِنُ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُكْفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْئًا، بَلْ يُنْكِرُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ، وَهَذَا مِنَ الِاعْتِزَازِ بِالْإِسْلَامِ وَالْفَخْرِ بِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

٢١٨- يوم عاشوراء

٧/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أُصُولِ إِقَامَةِ النِّظَامِ الْبَشَرِيِّ، وَدَفْعِ الْفَوْضَىٰ عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ ضَبْطُ مَوَاقِيتِهِمْ، وَمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ لَمَّا وَهَبَهُمُ الْعُقُولَ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَدَاهُمْ إِلَىٰ الْمَوَاقِيتِ، وَأَلْهَمَهُمُ الِاسْتِفَادَةَ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الِاسْتِنَادَ فِي ضَبْطِ الْمَوَاقِيتِ إِلَىٰ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ أَضْبَطُ وَأَبْعَدُ عَنِ الْخَطَإِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَنَاوَلُهَا أَيْدِي النَّاسِ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ(١).

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ١٨٠-١٨١).

لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، وَعَلَّمَهُمْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ؛ فَانْتَظَمَتْ حَيَاتُهُمْ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهِمْ، وَطَابَ عَيْشُهُمْ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْبَشَرَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَخَلَقَ الزَّمَانَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَأَفْضَلِيَّةُ الْبَشَرِ تكُونُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَتكُونُ مَنَازِلُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِحَسَبِ عِبَادَتِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ، وَأَمَّا أَفْضَلِيَّةُ المَكَانِ وَالزَّمَانِ فَبِحَسَبِ مَا يَقَعُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ السَّنَةِ أَشْهُرًا حُرُمًا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وَمِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ: شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ .. أَوَّلُ شَهْرٍ فِي السَّنَةِ، وَكَانَ شَهْرًا مُحَرَّمًا بَعْدَ شَهْرِ الْحَجِّ؛ لِيَأْمَنَ الْحُجَّاجُ فِي سَفَرِهِمْ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ، وَسُمِّيَ مُحَرَّمًا تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَقَلَّبُ فِيهِ، فَتُحِلُّهُ عَامًا وَتُحَرِّمُهُ عَامًا(٢).

وَلَهُ مَزِيَّةٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ، وَهِيَ أَفْضَلِيَّةُ الصِّيَام فِيهِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ: شَهْرُ الله الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُحَرَّمَ** ...» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

---

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٣).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٤٤)، ومسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم المحرم (٢٤٢٩)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صوم المحرم، وقال: حديث حسن (٧٤٠)، والنسائي في قيام الليل، باب فضل صلاة الليل (٣/ ٢٠٦)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام أشهر الحرم (١٧٤٢)، والدارمي (١٧٥٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٣)، وابن خزيمة (٢٠٧٦).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هَذَا إِنَّمَا كَانَ -وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ- مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمُحَرَّمَ أَوَّلُ السَّنَةِ الْمُسْتَأْنَفَةِ الَّتِي لَمْ يَجِئْ بَعْدُ رَمَضَانُهَا، فَكَانَ اسْتِفْتَاحُهَا بِالصَّوْمِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَالَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ ﷺ بِأَنَّهُ ضِيَاءٌ، فَإِذَا اسْتَفْتَحَ سَنَتَهُ بِالضِّيَاءِ مَشَىٰ فِيهِ بَقِيَّتَهَا»(٤) اهـ.

وَقَدْ سَمَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ الْمُحَرَّمَ: شَهْرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ تَدُلُّ عَلَىٰ شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يُضِيفُ إِلَيْهِ إِلَّا خَوَاصَّ مَخْلُوقَاتِهِ.. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الشَّهْرُ الْمُحَرَّمُ مُخْتَصًّا بِإِضَافَتِهِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَانَ الصِّيَامُ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ مُضَافًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ لَهُ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ؛ نَاسَبَ أَنْ يَخْتَصَّ هَذَا الشَّهْرُ الْمُضَافُ إِلَىٰ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ وَهُوَ الصَّوْمُ(٥).

فَأَفْضَلُ زَمَانٍ يَتَطَوَّعُ فِيهِ مُتَطَوِّعٌ بِصَوْمٍ مُطْلَقٍ هُوَ هَذَا الشَّهْرُ الْمُحَرَّمُ، كَمَا هُوَ نَصُّ الْحَدِيثِ(٦).

وَالْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ مُحَرَّمٍ يَوْمٌ عَظِيمٌ؛ نَجَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَأَغْرَقَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ أَتْبَاعُ مُوسَىٰ عليه السلام يَصُومُونَهُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ تَوَارَثَ ذَلِكَ الْيَهُودُ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَبَقِيَ صِيَامُهُ مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِمُ الَّتِي مَا طَالَتْهَا أَيْدِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ إِلَىٰ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَامَهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَكَّةَ، فَصَامَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ

---

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢٣٥).

(٥) لطائف المعارف، لابن رجب (٨١-٨٢).

(٦) قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- في لطائف المعارف (٧٨): «فأما التطوع المطلق فأفضله: صيام الأشهر الحرم ... وأفضل صيام الأشهر الحرم: صيام شهر الله المحرم» اهـ.

عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُهُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

ثُمَّ لمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ رَأَىٰ الْيَهُودَ يُعَظِّمُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَيَتَّخِذُونَهُ عِيدًا، وَيَصُومُونَهُ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِيهِ شَيْءٌ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَىٰ الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّىٰ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَىٰ، قَالَ: «**أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ كَانَ صِيَامُ عَاشُورَاءَ فَرِيضَةً، بِدَلِيلِ حَدِيثِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها قَالَتْ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَىٰ قُرَىٰ الْأَنْصَارِ الَّتِي حَوْلَ المَدِينَةِ: «**مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِمًا، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِرًا، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ**» فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ نَصُومُهُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَنَذْهَبُ إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَىٰ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الْإِفْطَارِ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِذَا سَأَلُونَا الطَّعَامَ، أَعْطَيْنَاهُمُ اللُّعْبَةَ تُلْهِيهِمْ حَتَّىٰ يُتِمُّوا صَوْمَهُمْ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(٩).

---

(٧) أخرجه مالك (١/ ٢٩٩)، وأحمد (٦/ ١٦٢)، وعبد الرزاق (٧٨٤٤)، والبخاري في مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (٣٨٣١)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٥).

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٦)، والبخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٩) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٩)، والبخاري في الصيام، باب صوم الصبيان (١٩٦٠)، ومسلم في الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه (١١٣٦).

وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَزَالَتْ فَرْضِيَّةُ صَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَلَمْ يَأْمُرِ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ بَعْدَ فَرْضِ رَمضَانَ بِصِيَامِ عَاشُورَاءَ، وَإِنَّمَا خَيَّرَهُمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «صَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تُرِكَ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامَهُ وَالْمُسْلِمُونَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ رَمَضَانُ، فَلَمَّا افْتُرِضَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ عَاشُورَاءَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ**»(١٠).

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَالصَّحَابَةَ رضي الله عنهم صَامُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا سَنَةً وَاحِدَةً، هِيَ السَّنَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ لِأَنَّ فَرْضَ صِيَامِ عَاشُورَاءَ كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هَاجَرَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ، فَلَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهِمْ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ فَاتَ وَقْتُهُ، وَفِي الْعَامِ الثَّانِي صَامُوهُ فَرْضًا، ثُمَّ فُرِضَ رَمَضَانُ فِي الْعَامِ الثَّانِي، فَصَامُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا وَرَمَضَانَ فَرْضًا، ثُمَّ فِي الْأَعْوَامِ الَّتِي تَلِيهِ لَمْ يَصُومُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا، وَصَامُوا رَمَضَانَ فَرْضًا.

وَبَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الدِّينَ، وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ، وَتَنَزَّلَتِ الشَّرِيعَةُ، وَاسْتَقَرَّتْ أَحْكَامُهَا؛ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِيَتَمَيَّزَ الْإِسْلَامُ بِصَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، وَشَرِيعَتِهِ المُنَزَّلَةِ عَنِ الشَّرَائِعِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي اخْتَلَطَ فِيهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ بِسَبَبِ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، فَعَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الْيَهُودِ فِي صَوْمِهِمْ عَاشُورَاءَ، كَمَا خَالَفَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِهِمْ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «حِينَ صَامَ رَسُولُ

(١٠) أخرجه أحمد (٢/ ٥٧)، والبخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٠)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٦).

اللَّهِ ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**» قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

فَاسْتَقَرَّتِ الشَّرِيعَةُ عَلَىٰ سُنِّيَّةِ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، مَعَ مُخَالَفَةِ الْيَهُودِ بِصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ؛ حَتَّىٰ تَتَحَقَّقَ الْمُخَالَفَةُ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خَالِفُوا الْيَهُودَ، وَصُومُوا التَّاسِعَ وَالْعَاشِرَ**»(١٢). وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، وَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا أَوْ بَعْدَهُ يَوْمًا**»(١٣).

فَكَانَتْ مُخَالَفَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْيَهُودِ فِي عَاشُورَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ وَيَتَّخِذُونَهُ عِيدًا، فَخَالَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَتَّخِذْهُ عِيدًا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْمًا تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَتَتَّخِذُهُ عِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صُومُوهُ أَنْتُمْ**»

(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤)، وأبو داود في الصوم، باب ما روي أن عاشوراء اليوم التاسع (٢٤٤٥).

(١٢) هذه الرواية لعبد الرزاق في مصنفه (٧٨٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٣) هذه الرواية لأحمد في المسند (١/ ٢٤١)، وفي فضائل الصحابة (١٩٥١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٧٨)، وفي سندها محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ وهو سيئ الحفظ، وقد رفع الحديث وخالفه عطاء وغيره، فرووه موقوفا علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما.

قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٣/ ٨١): «لكن لم ينفرد به -يعني ابن أبي ليلىٰ- فقد تابعه عليه صالح بن أبي صالح بن حي» اهـ.

والروايات الأخرىٰ الصحيحة التي تأمر بصيام التاسع تشهد لهذه الرواية وتقويها، وكذلك صححه ابن خزيمة (٢٠٩٥)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه علىٰ المسند (٢١٥٤).

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١٤).

وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِمُخَالَفَةِ الْيَهُودِ فِي صِيَامِ عَاشُورَاءَ بِشَفْعِهِ بِيَوْمٍ قَبْلَهُ أَوْ يَوْمٍ بَعْدَهُ.

وَجَاءَ فِي فَضْلِ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ سَنَةً كَامِلَةً؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَىٰ الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٥).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «مَنْ صَامَ عَاشُورَاءَ غَفَرَ اللهُ لَهُ سَنَةً»(١٦).

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا فِيمَنْ صَادَفَهُ صَوْمُهُ وَلَهُ سَيِّئَاتٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يُكَفِّرُهَا، فَإِنْ صَادَفَهُ صَوْمُهُ وَقَدْ كُفِّرَتْ سَيِّئَاتُهُ بِغَيْرِهِ انْقَلَبَتْ زِيَادَةً فِي دَرَجَاتِهِ»(١٧).

وَكَانَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- يُفْطِرُ إِذَا سَافَرَ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ عَاشُورَاءَ

---

(١٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩)، والبخاري في الصوم، باب صوم يوم عاشوراء (٢٠٠٥)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣١) واللفظ له.

(١٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٦)، ومسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم الدهر تطوعا (٢٤٢٥)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في الحث علىٰ صوم يوم عاشوراء (٧٥٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٢٧٩٦)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم عاشوراء (١٧٣٨). والرواية الثانية لمسلم، وأبي داود، وابن ماجه، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٧٧).

(١٦) أخرجه البزار، كما في مختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر (٦٧٣)، وقال البزار: «لا نعلم رواه هكذا إلا عمر بن صهبان، وليس بالقوي، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم» وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الأوسط، وقال: «وإسناد الطبراني حسن» (٣/ ١٨٩)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦٨).

(١٧) فضائل الأوقات (٤٣٩).

وَهُوَ مُسَافِرٌ فَلَمْ يُفْطِرْ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ رَمَضَانَ لَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَاشُورَاءَ يَفُوتُ»(١٨).

فَاحْرِصُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ صِيَامِهِ، وَخَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَصُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ وَذَلِكَ أَفْضَلُ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا جَمِيعًا فِي طَاعَتِهِ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعْمَتَهُ، وَأَنْ يَكِلَنَا إِلَىٰ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَالْزَمُوا السُّنَّةَ، وَاحْذَرُوا الْبِدْعَةَ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ: غُلُوُّهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: اخْتَرَعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَفْعَالًا فِي عَاشُورَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا شَرْعُنَا؛ بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ مُخَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِمَا عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ

---

(١٨) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ٢١٥).

الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ لَهُمْ فِيهِ مَنْهَجَانِ:

الْمَنْهَجُ الْأَوَّلُ: يَنْتَهِجُهُ أَكْثَرُ الْفِرَقِ الْبَاطِنِيَّةِ، جَعَلُوهُ مَأْتَمًا عَلَىٰ قَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ﵄ يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ذِكْرِهِ، وَيُغَالُونَ فِي مَدْحِهِ، وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ يَخْلَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ مَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِالرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدْ مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ خَلِيفَتُهُ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﵁ وَمَا اتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَي وَفَاتِهِمَا مَنَاحَةً يَنُوحُونَ فِيهَا، وَقُتِلَ الْخُلَفَاءُ الثَّلَاثَةُ: عُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ وَالِدُ الْحُسَيْنِ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ- وَمَا جُعِلَتِ الْأَيَّامُ الَّتِي تُوَافِقُ أَيَّامَ قَتْلِهِمْ مِنْ كُلِّ عَامٍ أَيَّامَ حُزْنٍ وَجَزَعٍ، وَإِنْشَادٍ لِلْمَرَاثِي؛ بَلْ رَضِيَ الْمُسْلِمُونَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَحَزِنُوا لِمَقْتَلِهِمْ كَمَا حَزِنُوا لِوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ أَشَدَّ الْحُزْنِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَوْلَىٰ بِأَنْ يُخَصَّصَ يَوْمُ وَفَاتِهِ لِرِثَائِهِ وَمَدْحِهِ، لَكَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ مَمْنُوعٌ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَالْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْحُسَيْنِ ﵁ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَخُصُّوا الْيَوْمَ الَّذِي يُوَافِقُ يَوْمَ وَفَاتِهِ مِنْ كُلِّ عَامٍ بِشَعَائِرَ لِرِثَائِهِ وَالْحُزْنِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ مَا وُتِرَتْ فِي شَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَقْدِهَا لِحَبِيبِهَا وَصَفِيِّهَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ: أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا ﵃ أَعْلَىٰ مَنْزِلَةً فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْحُسَيْنِ ﵁؛ لِسَابِقَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ وَالْهِجْرَةِ، وَصُحْبَتِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ زَمَنًا طَوِيلًا، وَأَعْمَالِهِمُ الْجَلِيلَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَدْ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّخِذِ الْمُسْلِمُونَ أَيَّامَ فَقْدِهِمْ مَنَاحَةً عَلَيْهِمْ، فَهَلْ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ يَرَوْنَ أَنَّ الْحُسَيْنَ ﵁ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ خُلَفَائِهِ الْأَرْبَعَةِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؟!

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الضَّلَالِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَأَمَّا اتِّخَاذُهُ مَأْتَمًا كَمَا تَفْعَلُهُ الرَّافِضَةُ لِأَجْلِ قَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما فِيهِ، فَهُوَ مِنْ عَمَلِ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا، وَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ بِاتِّخَاذِ أَيَّامِ مَصَائِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَوْتِهِمْ مَأْتَمًا، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ؟!»(١٩).

الْمَنْهَجُ الثَّانِي: وَهُوَ مُقَابِلٌ لِمَنْهَجِ هَؤُلَاءِ الضُّلَّالِ، وَقَدْ نَهَجَهُ النَّوَاصِبُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْجُهَّالِ، فَاتَّخَذُوا مِنْ يَوْمِ عَاشُورَاءَ عِيدًا، وَخَصُّوهُ بِعِبَادَاتٍ لَمْ تَأْتِ فِي شَرْعِ اللَّهِ ﷻ؛ كَزِيَارَةِ الْقُبُورِ فِيهِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالصَّدَقَةِ، وَقِرَاءَةِ سُورَةٍ فِيهَا ذِكْرُ قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ فِرْعَوْنَ فِي فَجْرِهِ، وَقِيَامِ لَيْلَتِهِ، وَإِحْيَائِهَا بِالذِّكْرِ.

وَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي عَاشُورَاءَ مِنَ الاغْتِسَالِ وَالاكْتِحَالِ وَالتَّطَيُّبِ، وَالذَّبْحِ فِيهِ، وَطَبْخِ طَعَامٍ خَاصٍّ لَهُ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَبَعْضُهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يُظْهِرُ الْفَرَحَ وَالشَّمَاتَةَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه، فَكُلُّ هَذَا أَيْضًا مِنَ الضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ رَدَّةَ فِعْلٍ وَنِكَايَةً بِمَنِ اتَّخَذُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ يَوْمَ حُزْنٍ عَلَىٰ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه(٢٠).

وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ قَدْ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَضَاعَ السُّنَّةَ، وَارْتَكَسَ فِي الْبِدْعَةِ، فَلَمْ

(١٩) لطائف المعارف (١١٣)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٣٠٩): «فكل ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغي من اتخاذ يوم عاشوراء مأتما، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلىٰ سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا، ولم يعرف طوائف الإسلام أكثر كذبا وفتنا ومعاونة للكفار علىٰ أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية؛ فإنهم شر من الخوارج المارقين» اهـ.

(٢٠) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٣٠٩-٣١٠): «فعارض هؤلاء قوم إما من =

يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا عَنْ صَحَابَتِهِ ﷺ عَمَلٌ فِي عَاشُورَاءَ سِوَىٰ صِيَامِهِ وَصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ صِيَامَهُ يُكَفِّرُ سَنَةً، وَمَنِ اتَّخَذَهُ مَنَاحَةً فَقَدْ خَالَفَ الْهَدْيَ النَّبَوِيَّ، وَشَابَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي تَعْظِيمِهِمْ وَإِطْرَائِهِمْ وَغُلُوِّهِمْ فِي أَنْبِيَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ.

وَمَنِ اتَّخَذَهُ عِيدًا فَقَدْ خَالَفَ الْهَدْيَ النَّبَوِيَّ أَيْضًا، وَشَارَكَ الْيَهُودَ فِي اتِّخَاذِهِ عِيدًا.

وَأَكْمَلُ الْهَدْيِ هَدْيُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَحَذَارِ -أَخِي الْمُسْلِمَ- مِنَ الْبِدَعِ، وَالتَّأَثُّرِ بِزُخْرُفِهَا وَنَمَارِقِهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَا ابْتَلَىٰ عِبَادَهُ إِلَّا لِيَرَىٰ مِنْهُمْ حُسْنَ الْعَمَلِ، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُوَافِقًا لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



= النواصب المتعصبين علىٰ الحسين وأهل بيته، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات علىٰ العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة، ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم، فهؤلاء صاروا يتخذون يوم عاشوراء موسما كمواسم الأعياد والأفراح، وأولئك يتخذونه مأتما يقيمون فيه الأحزان والأتراح، وكلا الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة» اهـ.

٢١٩- ليلة النصف من شعبان

١٠/٨/١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الزَّمَانَ، وَجَعَلَهُ ظَرْفًا لِلْأَعْمَالِ، وَفَاضَلَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْأَزْمَانِ كَمَا فَاضَلَ بَيْنَ سَائِرِ خَلْقِهِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْبِقَاعِ وَغَيْرِهَا، وَمَعْرِفَةُ فَضِيلَةِ الزَّمَانِ عَلَىٰ غَيْرِهِ تُدْرَكُ بِالنَّصِّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ أَنْ يُفَضِّلَ زَمَانًا لَمْ يَرِدْ لَهُ فَضْلٌ لَا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا أَنْ يَشْرَعَ فِيهِ عِبَادَاتٍ لَمْ يَشْرَعْهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُسْتَسْلِمٍ لِشَرْعِ اللَّهِ ﷻ، وَلَا خَاضِعٍ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُجْتَنِبٍ لِنَهْيِهِ؛ إِذِ الِاسْتِسْلَامُ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ ﷻ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِهَا، وَاتِّبَاعَ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَشَهْرُ شَعْبَانَ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ عَمَلٌ وَهُوَ صِيَامُ أَكْثَرِهِ، وَأَحْدَثَ النَّاسُ فِيهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَعْمَالًا أُخْرَىٰ مَا جَاءَتْ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ.

أَمَّا مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ صِيَامِ أَكْثَرِهِ، فَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولَ: لَا يَصُومُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلَّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا»(١).

وَحِكْمَةُ إِكْثَارِهِ مِنَ الصِّيَامِ فِي شَعْبَان بَيَّنَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(٢).

وَهَذَا الْعَرْضُ لِلْأَعْمَالِ هُوَ الْعَرْضُ السَّنَوِيُّ؛ فَإِنَّ عَرْضَ الْأَعْمَالِ يَوْمِيٌّ وَأُسْبُوعِيٌّ وَحَوْلِيٌّ: يُعْرَضُ عَلَيْهِ ﷻ عَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٨٦٨)، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (١١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠١)، والنسائي في الصيام، باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، واللفظ له (٤/ ٢٠١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٠٧٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٤٦)، والبزار (٢٦١٧)، وعزاه الحافظ في الفتح لأبي داود (٤/ ٢١٥)، وصححه ابن خزيمة (٢١١٩)، والضياء في المختارة (١٣٥٦)، وفي رواية ابن خزيمة الاقتصار علىٰ ذكر الاثنين والخميس.
وله شاهدان من حديث عائشة وحديث أم سلمة رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع فقال: «**إن الله** ﷻ =

وَالْأُسْبُوعِيُّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ يَوْمَيِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ؛ وَلِذَلِكَ نَدَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ صِيَامِهِمَا(٤)، وَالْحَوْلِيُّ يُعْرَضُ فِي شَعْبَانَ؛ فَاسْتُحِبَّ صِيَامُ أَكْثَرِهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصُومُ أَكْثَرَهُ.

هَذَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ شَعْبَانَ: الصِّيَامُ فَحَسْبُ.

أَمَّا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ الَّتِي كَثُرَ الْكَلَامُ فِيهَا، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ حَوْلَها، وَأَحْدَثُوا فِيهَا مَا أَحْدَثُوا، وَخَصُّوهَا بِأَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ؛ حَتَّىٰ أَضْحَتْ هَذِهِ الشَّعَائِرُ وَالْأَعْمَالُ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ النَّاسِ عَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ عَنْهَا، وَتَحْرِيرَ الْقَوْلِ فِيهَا يَكُونُ فِي مَقَامَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: مَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْفَضْلِ.

وَثَانِيهِمَا: مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَعْمَالٍ مَخْصُوصَةٍ كَصِيَامِ نَهَارِهَا، وَقِيَامِ لَيْلِهَا، وَاخْتِصَاصِهَا بِصَلَاةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَلْفِيَّةَ، وَاتِّخَاذِهَا عِيدًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ.

أَمَّا فَضْلُهَا؛ فَجَاءَ فِيهِ أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ، لَا يَسْلَمُ حَدِيثٌ مِنْهَا مِنْ طَعْنٍ فِي رُوَاتِهِ، أَوِ انْقِطَاعٍ فِي سَنَدِهِ، وَمَنْ صَحَّحَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّمَا صَحَّحَهَا بِكَثْرَةِ طُرُقِهَا، وَلَمْ يَصِحَّ مِنْهَا حَدِيثٌ مُسْتَقِلٌّ بِذَاتِهِ(٥).

= **لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل»** رواه أحمد، واللفظ له (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

(٤) جاء في رواية أحمد لحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما المخرج في هامش (٢) عن صيام الاثنين والخميس: «**ذلك يومان تعرض فيهما الأعمال علىٰ رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**» وهو كذلك في رواية ابن خزيمة (٢١١٩).

(٥) ذكر الشيخ العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالىٰ- في السلسلة الصحيحة طرقًا ثمانية لحديث فضل ليلة النصف من شعبان، وهي:

١- حديث معاذ رضي الله عنه يرويه مكحول عن مالك بن يخامر عنه مرفوعًا به، وهذا منقطع؛ =

وَمُفَادُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَطَّلِعُ إِلَىٰ خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ» وَهَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ مُنْقَطِعٌ(٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِ شَعْرِ غَنَمِ كَلْبٍ»؛ أَيْ: غَنَمِ قَبِيلَةِ كَلْبٍ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا -يَعْنِي الْبُخَارِيَّ- يُضَعِّفُ هَذَا الْحَدِيثَ(٧).

= فإن مكحولا لم يلق مالك بن يخامر كما أفاد ذلك الذهبي.

٢- حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، يرويه الأحوص بن حكيم عن مهاصر بن حبيب عنه، والأحوص ضعيف كما ذكر الهيثمي.

٣- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي سنده ابن لهيعة، وهو لين الحديث.

٤- حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه، وفي سنده ابن لهيعة، وعبد الرحمن بن عرزب وهو مجهول.

٥- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سنده هشام بن عبد الرحمن، وهو مجهول.

٦- حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي سنده عبد الملك بن عبد الملك، قال البخاري: في حديثه نظر.

٧- حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده ابن لهيعة وعبد الرحمن بن أنعم وهما ضعيفان.

٨- حديث عائشة رضي الله عنها، وفي سنده حجاج بن أرطاة، مدلس، وقد عنعن.

وبعد أن ساق الشيخ الألباني -رحمه الله تعالىٰ- هذه الطرق وما لها من متابعات قال: «وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب، والصحة تثبت بأقل منها عددا، ما دامت سالمة من الضعف الشديد، كما هو الشأن في هذا الحديث» اهـ من السلسلة الصحيحة (٣/ ١٣٥-١٣٩) برقم (١١٤٤).

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٥٧٠)، وفي المعجم الكبير (٢٠/ ١٠٨) برقم (٢١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩١)، وصححه ابن حبان (٥٦٦٥) من حديث معاذ رضي الله عنه.

قلت: وهو من رواية مكحول عن مالك بن يخامر ولم يلقه فهو منقطع.

(٧) أخرجه الترمذي في الصوم، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (٧٣٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (١٣٨٩)، وأحمد =

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَىٰ اخْتِصَاصِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ بِفَضْلٍ؛ تَسَامَحَ فِيهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَصَحَّحُوهَا بِكَثْرَةِ طُرُقِهَا، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّ طَرِيقٍ مِنْهَا ضَعِيفَةً.

وَطَعَنَ آخَرُونَ فِي أَحَادِيثِهَا، وَلَمْ يَقْبَلُوهَا لِضَعْفِهَا، وَجَزَمُوا بِأَنَّهَا لَيْلَةٌ كَسَائِرِ اللَّيَالِي لَا تَخْتَصُّ بِفَضْلٍ وَلَا بِعَمَلٍ؛ كَمَا نَقَل ابْنُ وَضَّاحٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «لَمْ أُدْرِكْ أَحَدًا مِنْ مَشَايِخِنَا وَلَا فُقَهَائِنَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَلَمْ نُدْرِكْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَذْكُرُ حَدِيثَ مَكْحُولٍ، وَلَا يَرَىٰ لها فَضْلًا عَلَىٰ مَا سِوَاهَا مِنَ اللَّيَالِي»(٨).

وَقِيلَ لِلتَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: إِنَّ زِيَادًا النُّمَيْرِيَّ يَقُولُ: «أَجْرُ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَأَجْرِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: لَوْ سَمِعْتُهُ وَبِيَدِي عَصًا لَضَرَبْتُهُ»(٩).

وَبَالَغَ بَعْضُ مَنْ عَظَّمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَزَعَمُوا أَنَّهَا المَقْصُودَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، مَعَ أَنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ صَرِيحٌ يُفِيدُ أَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ،

= (٦/ ٢٣٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٨٥٠)، وعبد بن حميد (١٥٠٩).
وهو من رواية الحجاج بن أرطاة عن يحيىٰ بن أبي كثير عن عروة عن عائشة، قال الترمذي: «حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا -يعني البخاري- يضعف هذا الحديث، وقال: يحيىٰ بن أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج لم يسمع من يحيىٰ بن أبي كثير» قلت: فهو حديث منقطع، والحجاج بن أرطاة ضعيف.
وتخصيص قبيلتي كلب بالذكر لأجل أنهم أكثر غنما من سائر العرب، ينظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٣٦٥).

(٨) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٤٦)، وينظر: الباعث علىٰ إنكار البدع لأبي بكر الطرطوشي (١/ ٣٥).

(٩) أخرجه ابن وضاح (٤٦)، وينظر: الباعث علىٰ إنكار البدع (١/ ٣٥).

وَأَنَّهَا فِي رَمَضَانَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ قَالَ إِنَّهَا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَمَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ؛ فَإِنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ»(١٠).

وَقَدْ جَزَمَ بِتَضْعِيفِ كُلِّ أَحَادِيثِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ جَمْعٌ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ، حَتَّىٰ قَالَ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يُسَاوِي سَمَاعَهُ»(١١).

وَقَالَ عَلَّامَةُ الشَّامِ جَمَالُ الدِّينِ الْقَاسِمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَالَ أَهْلُ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ: لَيْسَ فِي فَضْلِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يَصِحُّ»(١٢).

---

(١٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٠) وقال ابن العربي: «وهو باطل؛ لأن الله تعالىٰ قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنص علىٰ أن ميقات نزوله رمضان، ثم عبر عن زمانية الليل ها هنا بقوله: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فمن زعم أنها في غيره فقد أعظم الفرية علىٰ الله تعالىٰ» اهـ من أحكام القرآن (٤/ ١١٧).

(١١) عارضة الأحوذي (٣/ ٢٧٥)، وقال في أحكام القرآن: «وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها» (٤/ ١١٧).

(١٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد (٩٩)، وقد تعقبه الألباني في الحاشية فقال: «فلا تلتفت إلىٰ ما سينقله المصنف أنه ليس في فضل ليلة النصف حديث يصح، نعم، لا يلزم من ثبوت هذا الحديث اتخاذ هذه الليلة موسما يجتمع الناس فيها، ويفعلون فيها من البدع ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالىٰ» اهـ.

وممن ضعف أحاديثها أيضا العلامة المحدث سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ- فقال: «ومن البدع التي أحدثها بعض الناس: بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وتخصيص يومها بالصيام، وليس علىٰ ذلك دليل يجوز الاعتماد عليه، وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، أما ما ورد في فضل الصلاة فيها فكله موضوع كما نبه علىٰ ذلك كثير من أهل العلم» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد (٢٦) ص (٣) شوال ١٣٩٤هـ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَزْهَرِيُّ عَلِيّ مَحْفُوظ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ كُلَّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ دَائِرَةٌ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْوَضْعِ وَعَدَمِ الصِّحَّةِ»(١٣).

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَكُلُّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي لَيْلَةِ نِصْفِ شَعْبَانَ دَائِرٌ أَمْرُهَا بَيْنَ الْوَضْعِ وَالضَّعْفِ وَعَدَمِ الصِّحَّةِ»(١٤).

أَمَّا فَضِيلَةُ الْعَمَلِ فِيهَا، أَوْ تَخْصِيصُهَا بِقِيَامٍ، أَوْ بِإِفْرَادِ يَوْمِهَا بِالصِّيَامِ، أَوْ بِصَلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ فِيهَا، وَهِيَ صَلَاةٌ مُبْتَدَعَةٌ وَمُرْهِقَةٌ، يُصَلِّي فِيهَا الْمُصَلِّي مِئَةَ رَكْعَةٍ، يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ عَشْرَ مَرَّاتٍ(١٥)، أَوِ اتِّخَاذِ يَوْمِهَا أَوْ لَيْلَتِهَا عِيدًا بِالِاجْتِمَاعِ فِي الْمَسَاجِدِ، أَوِ الْبُيُوتِ عَلَىٰ طَعَامٍ مَخْصُوصٍ، وَإِظْهَارِ الْفَرَحِ وَالزِّينَةِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُبْتَدَعَاتِ الَّتِي أَنْكَرَهَا الْعُلَمَاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَأَمَّا صَوْمُ يَوْمِ النِّصْفِ مُفْرَدًا فَلَا أَصْلَ لَهُ، بَلْ إِفْرَادُهُ مَكْرُوهٌ، وَكَذَلِكَ اتِّخَاذُهُ مَوْسِمًا تُصْنَعُ فِيهِ الْأَطْعِمَةُ،

---

(١٣) الإبداع في مضار الابتداع (٢٨٧).

(١٤) مجلة المنار: (مجلد: ٣١، ص ٣٣١).

(١٥) وهذه الصلاة المزعومة فيها حديث موضوع عن علي ﷺ، ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في المنار المنيف، ولفظه: «يا علي، من صلىٰ ليلة النصف من شعبان مئة ركعة، بألف «قل هو الله أحد» قضىٰ الله له كل حاجة طلبها تلك الليلة ... وأعطي سبعين ألف حوراء، لكل حوراء سبعون ألف غلام وسبعون ألف ولدان .. ويشفع والداه كل واحد منهما في سبعين ألفًا ..» قال ابن القيم بعد أن ساقه مختصرا: «والعجب ممن شم رائحة العلم بالسنن أن يغتر بمثل هذا الهذيان ويصليها؟! وهذه الصلاة وضعت في الإسلام بعد الأربع مئة، ونشأت من بيت المقدس فوضع لها عدة أحاديث» اهـ من المنار المنيف في الصحيح والضعيف (١٧٥)، وينظر: الفوائد المجموعة للشوكاني (٥٠-٥١).

وَتُظْهَرُ فِيهِ الزِّينَةُ، هُوَ مِنَ المَوَاسِمِ المُحْدَثَةِ المُبْتَدَعَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَها، وَكَذَلِكَ مَا قَدْ أُحْدِثَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنَ الِاجْتِمَاعِ الْعَامِّ لِلصَّلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ فِي المَسَاجِدِ الْجَامِعَةِ، وَمَسَاجِدِ الْأَحْيَاءِ وَالدُّرُوبِ وَالْأَسْوَاقِ؛ فَإِنَّ هَذَا الِاجْتِمَاعَ لِصَلَاةِ نَافِلَةٍ مُقَيَّدَةٍ بِزَمَانٍ وَعَدَدٍ، وَقَدْرٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ لَمْ يُشْرَعْ، مَكْرُوهٌ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي الصَّلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ . . »(١٦).

---

(١٦) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٣٢) علىٰ أن شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- يرجح أن فضلها ثابت، فقال -رحمه الله تعالىٰ-: «ومن هذا الباب: ليلة النصف من شعبان؛ فقد روي في فضلها من الأحاديث المرفوعة والآثار ما يقتضي أنها ليلة مفضلة، وأن من السلف من كان يخصها بالصلاة فيها . . ومن العلماء من السلف من أهل المدينة وغيرهم من الخلف من أنكر فضلها، وطعن في الأحاديث الواردة فيها، كحديث «**إن الله يغفر فيها لأكثر من عدد شعر غنم كلب**» وقال: لا فرق بينها وبين غيرها، لكن الذي عليه كثير من أهل العلم، أو أكثرهم من أصحابنا وغيرهم علىٰ تفضيلها، وعليه يدل نص أحمد؛ لتعدد الأحاديث الواردة فيها، وما يصدق ذلك من الآثار السلفية، وقد روي بعض فضائلها في المسانيد والسنن، وإن كان قد وضع فيها أشياء أخر» اهـ من الاقتضاء (٢/ ٦٣١-٦٣٢).

ولكن شيخ الإسلام نص علىٰ أن إفراد النصف بالصيام بدعة، وأما إحياؤها بالصلاة فقال فيه: «إذا صلىٰ الإنسان ليلة النصف وحده أو في جماعة خاصة، كما كان يفعل طوائف من السلف فهو أحسن، وأما الاجتماع في المساجد علىٰ صلاة مقدرة كالاجتماع علىٰ مئة ركعة، بقراءة ألف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دائما فهذا بدعة، لم يستحبها أحد من الأئمة. والله أعلم» اهـ من مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ١٣١).

وقال أيضا: «وأما ليلة النصف فقد روي في فضلها أحاديث وآثار ونقل عن طائفة من السلف أنهم كانوا يصلون فيها، فصلاة الرجل فيها وحده قد تقدمه فيه سلف، وله فيه حجة فلا ينكر مثل هذا. وأما الصلاة فيها جماعة، فهذا مبني علىٰ قاعدة عامة في الاجتماع علىٰ الطاعات والعبادات فإنه نوعان:

أحدهما: سنة راتبة إما واجب وإما مستحب كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين. وصلاة الكسوف والاستسقاء والتراويح، فهذا سنة راتبة ينبغي المحافظة عليها والمداومة.

والثاني: ما ليس بسنة راتبة مثل الاجتماع لصلاة تطوع، مثل قيام الليل أو علىٰ قراءة =

. . . .

= قرآن أو ذكر الله أو دعاء. فهذا لا بأس به إذا لم يتخذ عادة راتبة» مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ١٣٢).
وأما الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- فإنه اختار العمل فيها وإحياءها، ولكن أفرادا وليس جماعات في المساجد، فقال بعد أن ذكر الخلاف فيها: «واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها علىٰ قولين:
أحدهما: أنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد، كان خالد بن معدان، ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم، ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المساجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه علىٰ ذلك، وقال في قيامها في المساجد جماعة: ليس ذلك ببدعة، نقله عنه حرب الكرماني في مسائله .
والثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها بخاصة نفسه، وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم، وهذا هو الأقرب إن شاء الله تعالىٰ» اهـ من اللطائف (٢٦٣).
وذكر أيضا أنه لم يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان، ثم قال ابن رجب عقب ذلك: «ينبغي للمؤمن أن يتفرغ في تلك الليلة لذكر الله تعالىٰ ودعائه بغفران الذنوب، وستر العيوب، وتفريج الكروب، وأن يقدم علىٰ ذلك التوبة؛ فإن الله تعالىٰ يتوب فيها علىٰ من يتوب» اهـ من اللطائف (٢٦٥).
ولما نقل الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- بعض كلام ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- قال عقبه: «وفيه التصريح منه بأنه لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ﷺ شيء في ليلة النصف من شعبان، وأما ما اختاره الأوزاعي -رحمه الله تعالىٰ- من استحباب قيامها الأفراد، واختيار الحافظ ابن رجب لهذا القول فهو غريب ضعيف؛ لأن كل شيء لم يثبت بالأدلة الشرعية كونه مشروعا لم يجز للمسلم أن يحدثه في دين الله تعالىٰ، سواء فعله مفردا أو في جماعة، وسواء أسره أو أعلنه؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**» وغيره من الأدلة الدالة علىٰ إنكار البدع والتحذير منها» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص(٤).
ثم قال الشيخ عقب ذلك: «فلو كان تخصيص شيء من الليالي بشيء من العبادة جائزًا لكانت ليلة الجمعة أولىٰ من غيرها؛ لأن يومها هو خير يوم طلعت عليه الشمس بنص الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فلما حذر النبي ﷺ من تخصيصها بقيام من بين الليالي دل ذلك علىٰ أن غيرها من الليالي من باب أولىٰ، لا يجوز تخصيص شيء منها بشيء من =

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَانَ التَّابِعُونَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ؛ كَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، وَمَكْحُولٍ، وَلُقْمَانَ بْنِ عَامِرٍ، وَغَيْرِهِمْ يُعَظِّمُونَهَا، وَيَجْتَهِدُونَ فِيهَا فِي الْعِبَادَةِ، وَعَنْهُمْ أَخَذَ النَّاسُ فَضْلَهَا

= العبادة إلا بدليل صحيح يدل علىٰ التخصيص، ولما كانت ليلة القدر وليالي رمضان يشرع قيامها والاجتهاد فيها نبه النبي ﷺ علىٰ ذلك، وحث الأمة علىٰ قيامها وفعل ذلك بنفسه ..» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص (٩).

وقد ضعف الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- كل الأحاديث الواردة في فضلها، فقال: «وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، أما ما ورد في فضل الصلاة فيها فكله موضوع كما نبه علىٰ ذلك كثير من أهل العلم ... وورد فيها أيضا آثار عن بعض السلف من أهل الشام وغيرهم، والذي عليه جمهور العلماء أن الاحتفال بها بدعة، وأن الأحاديث الواردة في فضلها كلها ضعيفة وبعضها موضوع .. والأحاديث الضعيفة إنما يعمل بها في العبادات التي قد ثبت أصلها بأدلة صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان فليس له أصل صحيح حتىٰ يستأنس بالأحاديث الضعيفة، وقد ذكر هذه القاعدة الجليلة الإمام أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ ..» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص (٩).

وحاصل الخلاف فيها كما يلي:

أولًا: أن الأحاديث في فضلها وفي العمل فيها لا يصح منها شيء، ولا يجوز الاحتجاج بها، وأنها كسائر الليالي لا مزية لها ألبتة، وهذا قول علماء المدينة من التابعين وغيرهم كما نقله عنهم زيد بن أسلم، وذكر الشيخ ابن باز أنه قول الجمهور، وجزم به ابن العربي المالكي والقاسمي وعلي محفوظ وابن باز رحمة الله علىٰ الجميع.

ثانيًا: تصحيح أحاديث فضلها، وهؤلاء علىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: من يرىٰ إحياءها بالصلاة جماعة في المساجد، وهو المنقول عن بعض التابعين من أهل الشام؛ كخالد بن معدان، ولقمان بن عامر، ووافقهم إسحاق بن راهويه فيما ذكره ابن رجب رحمة الله علىٰ الجميع.

الثاني: إحياؤها في البيوت، وهو قول الأوزاعي واختاره ابن رجب، واستحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية.

الثالث: إثبات فضل ليلة النصف من شعبان دون العمل فيها. كما هو قول الألباني.

وَتَعْظِيمَهَا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ بَلَغَهُمْ فِي ذَلِكَ آثَارٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ، فَلَمَّا اشْتُهِرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي الْبُلْدَانِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَهُ مِنْهُمْ، وَافَقَهُمْ عَلَىٰ تَعْظِيمِهَا، مِنْهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ عُبَّادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ، مِنْهُمْ: عَطَاءٌ، وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، وَنَقَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِمْ، وَقَالُوا: ذَلِكَ كُلُّهُ بِدْعَةٌ»(١٧).

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَعْظِيمَ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَتَخْصِيصَهَا بِعِبَادَاتٍ أَوْ بِاحْتِفَالَاتٍ مُحْدَثٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْدَ صَحَابَتِهِ ﷺ، فَعَلَهُ بَعْضُ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ بِنَاءً عَلَىٰ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَالْعِبَادَاتُ تُؤْخَذُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمِمَّا صَحَّ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَلَا تُؤْخَذُ مِنْ أَقْوَالِ الرِّجَالِ وَاجْتِهَادَاتِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂(١٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلِمْنَا، وَأَنْ يَدُلَّنَا عَلَىٰ الْحَقِّ، وَيَهْدِيَنَا لِاتِّبَاعِهِ، وَأَنْ يُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَيُعِينَنَا عَلَىٰ اجْتِنَابِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

---

(١٧) لطائف المعارف (٢٦٣).

(١٨) أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَعَلَّمُوا السُّنَّةَ، وَاحْذَرُوا الْبِدْعَةَ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ يَعْمَلُ فِي بِدْعَتِهِ وَلَا يُقْبَلُ عَمَلُهُ، وَيَسْعَىٰ وَلَا يَجِدُ أَجْرَ سَعْيِهِ؛ بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَفِي الدُّنْيَا تَشْغَلُهُ بِدْعَتُهُ عَنْ تَعَلُّمِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَةِ رَبِّهِ، كَمَا تَشْغَلُهُ عَنِ السَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ أَحْرَىٰ أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ بِدْعَتِهِ، وَأَنْ يُؤَاخَذَ بِعِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهُ؛ كَمَا يُؤَاخَذُ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِ فِي تَعَلُّمِ السُّنَّةِ، وَاجْتِنَابِ الْبِدْعَةِ. وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهَا السُّنَّةُ الْآفَاقَ، وَانْتَشَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ.

وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ الَّذِي يَنْشُرُ بِدْعَتَهُ، وَيُنَافِحُ عَنْهَا حَرِيٌّ بِأَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَىٰ بِدْعَتِهِ؛ لِأَنَّ مَنْشَأَ الْبِدْعَةِ هُوَ الشُّبْهَةُ، وَصَاحِبُهَا يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَهُوَ عَلَىٰ شَرٍّ؛ إِمَّا اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ، أَوْ تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِ، فَهُوَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ جَهْلٍ؛ وَلِذَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ**» رَوَاهُ

الطَّبَرَانِيُّ وَحَسَّنَهُ الْمُنْذِرِيُّ(١٩).

وَمِنْ شُؤْمِ الْبِدْعَةِ أَنَّهَا لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ زِمَامٌ يَزُمُّهَا، وَلَا غَايَةٌ تَبْلُغُهَا، وَالنَّاسُ يَتَوَسَّعُونَ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا بِهَا الشِّرْكَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ يَعْمَلُوا أَعْمَالًا شَنِيعَةً مُنْكَرَةً، لَا يَرْضَاهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ غَرَّتْهُمُ الْبِدْعَةُ فِي أَوَّلِ ظُهُورِهَا، وَمِثَالُ ذَلِكَ: مَا أَحْدَثَ النَّاسُ فِي شَعْبَانَ مِنْ عِبَادَاتٍ وَاحْتِفَالَاتٍ بِنَاءً عَلَىٰ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ فِي فَضَائِلِهِ؛ فَإِنَّ بَعْضَ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَخَذُوا بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ، وَأَحْيَوْا لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَلَمَّا انْقَرَضَ جِيلُهُمْ، وَأَعْقَبَتْهَا أَجْيَالٌ أُخْرَىٰ أَحْدَثَ النَّاسُ فِيهَا صَلَاةَ الْأَلْفِيَّةِ الَّتِي أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ فِي كُلِّ الْأَعْصَارِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَكْذُوبَةٌ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَكَمُوا بِبِدْعِيَّتِهَا، وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ؛ كَمَا حَكَىٰ ذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْدِسِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَالَ: «لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةُ الرَّغَائِبِ هَذِهِ الَّتِي تُصَلَّىٰ فِي رَجَبٍ، وَلَا صَلَاةُ شَعْبَانَ، وَأَوَّلُ مَا حَدَثَتْ عِنْدَنَا -يَعْنِي: صَلَاةَ شَعْبَانَ- فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ، قَدِمَ عَلَيْنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَجُلٌ مِنْ نَابُلِس يُعْرَفُ بِابْنِ أَبِي الْحَمْرَاءِ، وَكَانَ حَسَنَ التِّلَاوَةِ، فَقَامَ

---

(١٩) أخرجه من حديث أنس ﷺ: إسحاق بن راهويه في مسنده (٣٩٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٧)، وأبو الشيخ في تاريخ أصبهان (٢٥٩)، والطبراني في الأوسط (٤٢٠٢)، والبيهقي في الشعب (٩٤٥٧)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسىٰ الفروي وهو ثقة» (١٠/ ١٨٩)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢٠)، وقال: «وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير هارون بن موسىٰ وهو الفروي، قال النسائي وتبعه الحافظ في التقريب: لا بأس به».
وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية، وقال بعد أن أورد له طريقين (٢١١-٢١٢): «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ومدار الطريقين علىٰ محمد بن عبد الرحمن الكوفي القشيري. قال ابن عدي: هو منكر الحديث مجهول، وهو من مشائخ بقية المجهول ..».

يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَأَحْرَمَ خَلْفَهُ رَجُلٌ، ثُمَّ انْضَافَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ وَرَابِعٌ، فَمَا خَتَمَهَا إِلَّا وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ، ثُمَّ جَاءَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ فَصَلَّىٰ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَشَاعَتْ فِي المَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ وَبُيُوتِ النَّاسِ وَمَنَازِلِهِمْ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ كَأَنَّهَا سُنَّةٌ . . .»(٢٠).

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُحْدِثَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ أَدْعِيَةٌ مَخْصُوصَةٌ؛ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ يُؤَلِّفُونَهَا وَيُوَزِّعُونَهَا عَلَىٰ الْعَامَّةِ فِي كُتُبٍ مَطْبُوعَةٍ(٢١).

ثُمَّ صَارَ يُحْتَفَلُ بِهَا كَمَا يُحْتَفَلُ بِالْأَعْيَادِ الْكَبِيرَةِ، وَهَكَذَا لَا يَقِفُ الْجَهَلَةُ عِنْدَ حَدٍّ فِي بِدْعَتِهِمْ، وَكُلُّ أَهْلِ جِيلٍ يُحْدِثُونَ فِيهَا أَعْمَالًا جَدِيدَةً، حَتَّىٰ تُصْبِحَ شَعِيرَةً مِنَ الشَّعَائِرِ الْكَبِيرَةِ؛ فَيُطْمَسُ مَا يُطْمَسُ مِنَ السُّنَّةِ، وَيَنْتِجُ عَنْهَا مَا يَنْتِجُ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ، حَتَّىٰ يَكُونَ الدِّينُ الْحَقُّ فِي غُرْبَةٍ، وَضَحِيَّةُ ذَلِكَ: عَوَامُّ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ يَسْعَوْنَ فِي تِلْكَ الْبِدَعِ سَعْيًا بَاطِلًا، يُرْهِقُ أَبْدَانَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَيُضَيِّعُ أَوْقَاتَهُمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا بِأَوْزَارٍ اللهُ أَعْلَمُ بِهَا، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ شَيْءٌ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ؛ فَإِنَّهَا شَرٌّ عَظِيمٌ، وَالْتَزِمُوا السُّنَنَ فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهَا، وَإِذَا زَاحَمَتِ السُّنَّةُ الْبِدْعَةَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِ الزَّمَانِ، وَإِذَا قَضَتِ الْبِدْعَةُ عَلَىٰ السُّنَّةِ كَانَ ذَلِكَ شُؤْمًا عَلَىٰ النَّاسِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



(٢٠) الباعث علىٰ إنكار البدع (٢٥)، وانظر: الإبداع في مضار الابتداع (٢٨٨).

(٢١) تنشر هذه الكتب في كثير من البلاد الإسلامية؛ كبلاد الشام، وخاصة لبنان وسورية، ومصر وتركيا، وشرق آسيا، وغيرها، ويتبنىٰ نشرها وتوزيعها المتصوفة، هدانا الله وإياهم إلىٰ الحق.

٢٢٠- من صفات المنافقين (٣) (*)
رفض حكم الله تعالى

١٦/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٦٨-٧٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَ فِيهِ الزَّيْغُ وَالضَّلَالُ، وَالْتَبَسَ فِيهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَلَا مَنْجَاةَ فِيهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي ظِلِّ التَّلْبِيسِ وَالتَّضْلِيلِ وَالتَّحْرِيفِ إِلَّا بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ الصَّالِحِينَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وَأَسَاسُ

(*) من صفات المنافقين (١) تجدها في مجلد (١) خطبة رقم (٢٣)، ومن صفات المنافقين (٢) تجدها في مجلد (١) خطبة رقم (٢٤).

ذَلِكَ وَعِمَادُهُ: تَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ لِنَيْلِ ذَلِكَ النُّورِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: قَبُولُ الْحَقِّ، وَرَحْمَةُ الْخَلْقِ، وَالْقِيَامُ بِالْعَدْلِ، وَالْإِنْصَافُ مِنَ النَّفْسِ، وَمِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ: الْفُجُورُ فِي الْخُصُومَةِ، وَالْكَذِبُ فِي الْحَدِيثِ وَالدَّعْوَىٰ، وَرَفْضُ الْحَقِّ إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ. وَرَفْضُهُمْ لِلْحَقِّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِمْ، وَسَجِيَّةٌ مِنْ سَجَايَاهُمُ الَّتِي تَخَلَّقُوا بِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ مُنْذُ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا يَجِدُونَ حَرَجًا مِنْ رَدِّ الْحُكْمِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ كَانَ صَادِرًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، أَوْ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، أَوْ عَمَّنْ يَحْكُمُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَكَذَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَقْتَ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ قَبْلَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ.

وَمِنْ دَلَائِلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ يَقَعُ مِنْهُمْ كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ عَنْ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ حَاكِيًا عَنْهُمْ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥٠]، ثُمَّ بَعْدَ بَيَانِ مَوْقِفِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْكَامِ رَسُولِهِ ﷺ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّجُلِ

مُنَازَعَةٌ فَدُعِيَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُحِقٌّ أَذْعَنَ، وَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سَيَقْضِي لَهُ بِالْحَقِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْلِمَ فَدُعِيَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَعْرَضَ، وَقَالَ: أَنْطَلِقُ إِلَىٰ فُلَانٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ»(١).

وَتَأَمَّلُوا -عِبَادَ اللَّهِ- قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أَيْ: وَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ أَعْرَضُوا، وَدَعَوْا إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبُّوا التَّحَاكُمَ إِلَىٰ غَيْرِ الشَّرِيعَةِ؛ لِيُرَوِّجُوا بَاطِلَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ إِذْعَانُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِذَا أَذْعَنَ لِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ؛ بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ قَصْدُهُ الْحَقَّ عَدَلَ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

لَقَدْ فَضَحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنَّ أَفْعَالَهُمْ تُكَذِّبُ مَزَاعِمَهُمْ، وَعَدَمَ قَبُولِهِمْ لِلْحَقِّ يُنْبِئُ عَنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ، وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَاعَةِ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ أَمَرَ عِنْدَ التَّنَازُعِ بِالرَّدِّ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَىٰ مَا جَاءَ فِيهِمَا، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَوْقِفَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «ذَمَّ الْمُدَّعِينَ الْإِيمَانَ بِالْكُتُبِ كُلِّهَا وَهُمْ يَتْرُكُونَ التَّحَاكُمَ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَحَاكَمُونَ إِلَىٰ بَعْضِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٢٢).

الطَّوَاغِيتِ المُعَظَّمَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا يُصِيبُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَيَنْتَحِلُهُ، فِي تَحَاكُمِهِمْ إِلَىٰ مَقَالَاتِ الصَّابِئَةِ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ، أَوْ إِلَىٰ سِيَاسَةِ بَعْضِ المُلُوكِ الخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مُلُوكِ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا»(٢).

وَقَالَ الرَّازِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَوْجَبَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ عَلَىٰ جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ أَنْ يُطِيعُوا الله وَيُطِيعُوا الرَّسُولَ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لَا يُطِيعُونَ الرَّسُولَ وَلَا يَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ حُكْمَ غَيْرِهِ»(٣).

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الشِّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ مَنْ دُعِيَ إِلَىٰ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَصَدَّ عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ»(٤).

وَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنَّ الْإِيمَانَ مَنْفِيٌّ عَمَّنْ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وَالِاسْتِجَابَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَىٰ سُنَّتِهِ ﷺ، وَالتَّحَاكُمُ إِلَيْهَا.

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- جُمْلَةً مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَائِلُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ أَوْ أَوَامِرِ

---

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٣) التفسير الكبير (١٠/ ١٢٣).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٠٠).

الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّمَرُّدِ» اهـ(٥).

وَقَدْ ظَهَرَ لِكُلِّ مُتَابِعٍ لِأَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ مَوْقِفَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: أَخْذٌ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْهَا، وَرَدُّ مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ نَرَىٰ مَنْ يُحَارِبُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ، يُدَافِعُ عَنْهَا فِي جَوَانِبَ أُخْرَىٰ، وَلَا عَجَبَ أَنْ نَسْمَعَ مَنْ يَطْعَنُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ثُمَّ يَسْتَشْهِدُ بِهِمَا، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّنْ فَعَلَهُ إِيمَانًا بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكُمًا إِلَىٰ نُصُوصِهِمَا، وَاسْتِغْنَاءً بِهِمَا عَمَّا سِوَاهُمَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَخَذُوا بِكُلِّ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنَّهُ انْتِقَاءٌ يَنْتَقُونَهُ مِنْهَا بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَلَاحِدَةِ النَّاسِ.

وَإِذَا جَادَلَ الْمُنَافِقُونَ عَنْ بَاطِلِهِمْ، وَقَامُوا مَقَامَ الْمُحَاجَجَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ فَإِنَّهُمْ يَفْجُرُونَ فِي خُصُومَتِهِمْ، وَيَظْلِمُونَ فِي دَعَاوِيهِمْ، وَيَكْذِبُونَ فِي حَدِيثِهِمْ، وَيَسْتَمِيتُونَ فِي نَصْرِ بَاطِلِهِمْ، هَكَذَا جَاءَ الْخَبَرُ عَنْهُمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَصِفُهُمْ بِذَلِكَ كَأَنَّهَا تَتَنَزَّلُ الْآنَ، وَنَحْنُ نُشَاهِدُ أَفْعَالَهُمْ، وَنَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ، وَنَقْرَأُ كِتَابَاتِهِمْ؛ كَأَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ تَتَنَزَّلُ الْآنَ؛ مِنْ دِقَّةِ وَصْفِهَا لَهُمْ، وَشِدَّةِ انْطِبَاقِهَا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، فَوَصَفَ سُبْحَانَهُ الْمُنَافِقَ بِأَنَّهُ أَلَدُّ فِي خُصُومَتِهِ، وَالْأَلَدُّ هُوَ

(٥) التفسير الكبير (١٠/ ١٢٤).

الْأَعْوَجُ[٦]، فَهُوَ يَعُوجُ فِي خُصُومَتِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَيَفْتَرِي الْكَذِبَ، وَيَتَّخِذُ كُلَّ الْوَسَائِلِ فِي تَحْقِيقِ مُرَادِهِ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِدِينٍ أَوْ خُلُقٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ ظُلْمٍ أَوْ حَيْفٍ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْبَشَرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللَّهِ الْأَلَدُّ الخَصِمُ**»[٧].

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْفُجُورَ فِي الْخُصُومَةِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَقَالَ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٨].

---

(٦) قال العيني: «الألد في اللغة هو الأعوج: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٧٩]. أي: عوجا، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر. ويقال: الألد هو شديد الجدال، والإضافة فيه بمعنىٰ: في، كقولهم: ثبت الغدر أو جعل الخصام ألد علىٰ المبالغة، وفي (الجامع): واللدد مصدر الألد، ورجل ألد إذا اشتد في الخصومة، والأنثىٰ لداء، واللدد الجدال، أخذ من: لديد الوادي أي: جانبه، كأنه إذا منع من جانب جاء من جانب آخر، وفي تفسير عبد الرحمن عن ابن عباس: ألد الخصام، أي: ذو جدال إذا كلمك وراجعك. وعن الحسن: كاذب القول، وعن مجاهد: ظالم لا يستقيم، وعن قتادة: شديد القسوة في معصية الله جدل بالباطل. وقال ابن سيده: لددت لددا: صرت ألد، ولددته ألده إذا خصمته. وقيل: مأخوذ من اللديدين وهما صفحتا العنق، والمعنىٰ: من أي جانب أخذ في الخصومة قوي، والخصام جمع: الخصم، كصعب وصعاب، قاله الزجاج. وقيل: هو مصدر خاصمته» عمدة القاري (١٣/ ٤).

(٧) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ومسلم في العلم، باب في الألد الخصم (٢٦٦٨).

(٨) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَيَعْنِي بِالْفُجُورِ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الحَقِّ عَمْدًا حَتَّىٰ يَصِيرَ الحَقُّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلُ حَقًّا، وَهَذَا مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ الْكَذِبُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ**» . . . فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ ذَا قُدْرَةٍ عِنْدَ الْخُصُومَةِ -سَوَاءٌ كَانَتْ خُصُومَتُهُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الدُّنْيَا- عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لِلْبَاطِلِ، وَيُخَيِّلَ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُوهِنَ الْحَقَّ، وَيُخْرِجَهُ فِي صُورَةِ الْبَاطِلِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْبَحِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمِنْ أَخْبَثِ خِصَالِ النِّفَاقِ» اهـ(٩).

وَتِلْكَ هِيَ أَفْعَالُ الْمُنَافِقِينَ، يَنْتَصِرُونَ لِلظُّلْمِ عَلَىٰ الْعَدْلِ، وَيُعِينُونَ عَلَىٰ الْبَاطِلِ ضِدَّ الْحَقِّ، وَيَحُولُونَ دُونَ تَطْبِيقِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَها، وَيَقِفُونَ أَمَامَ حُدُودِهِ الَّتِي فَرَضَهَا، بِكُلِّ الْوَسَائِلِ وَالْأَسَالِيبِ، وَيَتَّخِذُونَ الْكَذِبَ وَالْبُهْتَانَ، وَتَزْوِيرَ الْحَقَائِقِ، وَرَمْيَ الْأَبْرِيَاءِ بِالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ مَطِيَّةً لِبُلُوغِ ذَلِكَ.

وَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ! وَأَصْحَابُهُ مَوْعُودُونَ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ، كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّىٰ يَخرُجَ مِمَّا قَالَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

وَإِذَا طُولِبَ أَهْلُ النِّفَاقِ بِالْعَدْلِ لَمْ يَعْدِلُوا، وَإِذَا ذُكِّرُوا لَمْ يَتَذَكَّرُوا، وَإِذَا

---

(٩) جامع العلوم والحكم (٤٣٢).

(١٠) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب فيمن يعين علىٰ خصومة من غير أن يعلم أمرها (٣٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٧٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٧).

وُعِظُوا اسْتَكْبَرُوا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وَقَدْ يَخْفَىٰ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَالُ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ؛ وَلِذَلِكَ يُعَامَلُونَ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ رِدَّتَهُ عُومِلَ مُعَامَلَةَ الْمُرْتَدِّينَ، وَحُوكِمَ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَنْ أَخْفَىٰ ذَلِكَ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فَلَا يُؤَاخَذُ إِلَّا بِمَا ظَهَرَ مِنْهُ، وَمَنْ فَلَتَ لِسَانُهُ بِزَنْدَقَةٍ فَقَدْ أَنْبَأَ لِسَانُهُ عَنْ مَكْنُونِ قَلْبِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا فَيُعَلَّمَ، أَوْ مُتَأَوِّلًا فَتُزَالَ شُبْهَتُهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَىٰ الْحَقِّ.

وَمِنْ عَجِيبِ مَا سُجِّلَ فِي التَّارِيخِ فِي هَذَا الشَّأْنِ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ فِي الْأَنْدَلُسِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ، دَوَّنَهَا مُؤَرِّخُو الْأَنْدَلُسِ، وَمُلَخَّصُهَا: أَنَّ أَمِيرَ قُرْطَبَةَ آنَذَاكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَكَمِ الْأُمَوِيَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ هِيَ أَحَبُّ زَوْجَاتِهِ إِلَيْهِ، وَلَهَا ابْنُ أَخٍ مُسْتَهْتِرٌ، خَرَجَ يَوْمًا وَالسَّمَاءُ تُمْطِرُ فَبَلَّهُ الْمَطَرُ، فَقَالَ: بَدَأَ الْخَرَّازُ يَرُشُّ جُلُودَهُ، فَحَبَسَهُ الْأَمِيرُ، فَلَمْ تَزَلْ زَوْجَةُ الْأَمِيرِ تُحَاوِلُ إِطْلَاقَ ابْنِ أَخِيهَا، فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: نُكَاشِفُ أَهْلَ الْعِلْمِ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي لَفْظِهِ، ثُمَّ يَكُونُ الْفَصْلُ فِي أَمْرِهِ، فَاجْتَمَعَ مَجْلِسُ كِبَارِ الْفُقَهَاءِ فِي قُرْطُبَةَ، وَتَوَقَّفُوا عَنْ سَفْكِ دَمِهِ عَلَىٰ الرِّدَّةِ، وَأَشَارُوا إِلَىٰ أَنَّهُ عَبَثٌ مِنَ الْقَوْلِ يَكْفِي فِيهِ الْأَدَبُ، إِلَّا الْفَقِيهَيْنِ عَبْدَالمَلِكِ بْنَ حَبِيبٍ وَأَصْبَغَ بْنَ خَلِيلٍ فَأَفْتَيَا بِقَتْلِهِ، وَرَأَىٰ قَاضِي قُرْطُبَةَ مُوسَىٰ بْنُ زِيَادٍ مَا رَأَىٰ جَمْعُ الْفُقَهَاءِ فَحَكَمَ بِهِ، فَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: دَمُهُ فِي عُنُقِي، أَيُشْتَمُ رَبًّا عَبَدْنَاهُ، وَلَا نَنْتَصِرُ لَهُ؟! إِنَّا إِذًا لَعَبِيدُ سُوءٍ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِعَابِدِينَ، وَبَكَىٰ، فَرُفِعَ الْمَجْلِسُ إِلَىٰ الْأَمِيرِ، فَخَرَجَ الْإِذْنُ مِنْ عِنْدِهِ بِالْأَخْذِ بِقَوْلِ ابْنِ حَبِيبٍ وَصَاحِبِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، فَقُتِلَ وَصُلِبَ بِحَضْرَةِ

الْفَقِيهَيْنِ: ابْنِ حَبِيبٍ وَأَصْبَغَ، وَعَزَلَ الْأَمِيرُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْقَاضِيَ لِمُدَاهَنَتِهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَوَبَّخَ بَقِيَّةَ الْفُقَهَاءِ وَسَبَّهُمْ عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَلَاءَنَا لَهُ وَلِدِينِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ عِبَادِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [النور: ٣٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ، وَاسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ رَاجِعُونَ، وَعَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، فَاسْتَعِدُّوا لِذَلِكَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاعْتِرَاضُ عَلَىٰ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّتِي أَنْزَلَهَا وَبَيَّنَهَا رَسُولُهُ ﷺ مَزْلَقٌ خَطِيرٌ، وَدَرْكٌ سَحِيقٌ، يُودِي بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ الرِّدَّةِ وَالزَّنْدَقَةِ، وَيَجْعَلُهُ فِي عِدَادِ

(١١) ينظر: الشفا للقاضي عياض (٢/ ٢٤٧)، والذخيرة (١٢/ ٣٠).

المُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَطَاعَةُ الْإِمَامِ المُسْلِمِ فِي غَيْرِ المَعْصِيَةِ هِيَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِذَا نَصَّبَ الْإِمَامُ قُضَاةً يَحْكُمُونَ النَّاسَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَىٰ أَحْكَامِهِمْ؛ لِأَنَّهَا لَا تُوَافِقُ هَوَاهُ، وَلَا أَنْ يَسْخَرَ مِنْ قَضَاءٍ هَذَا حَالُهُ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءً آخَرَ مَأْخُوذًا مِنَ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِمَّنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالمُثَقَّفِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ، وَمَنْ كَانَ حَالُهُ هَكَذَا فَهُوَ يَرُدُّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لِدِينِهِ، وَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ يَطْعَنُ فِيمَنِ اخْتَارَ الْإِسْلَامَ مَنْهَجًا يَتَحَاكَمُ النَّاسُ إِلَىٰ شَرِيعَتِهِ، وَهَذَا طَعْنٌ فِي كُلِّ مُسْلِمٍ يَرْتَضِي دِينَ الْإِسْلَامِ حَاكِمًا كَانَ أَمْ مَحْكُومًا.

إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ فُتِنُوا بِالمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ قَدْ رَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ طَعْنًا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِهْزَاءً بِشَرِيعَتِهِ، وَمُطَالَبَةً بِفَصْلِهَا عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ، وَحَصْرِهَا فِي التَّعَبُّدَاتِ المَحْضَةِ، كَمَا عَمِلَ المَلَاحِدَةُ الْغَرْبِيُّونَ بِدِينِ النَّصَارَىٰ المُحَرَّفِ، فِي تَدَاعٍ سَرِيعٍ، وَتَأَلُّبٍ عَجِيبٍ، لمَّا رَأَوْا أَنَّ الْقُوَىٰ المُسْتَكْبِرَةَ تَقِفُ مَعَ مَطَالِبِهِمْ، وَتُرِيدُ تَغْيِيرَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْ عَجِيبِ هَؤُلَاءِ المَفْتُونِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا ضَاقَتْ حِيلَتُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ، وَثَبَتَ الجُرْمُ عَلَىٰ أَتْبَاعِهِمْ؛ شَهَرُوا سِلَاحَ الْوَطَنِيَّةِ فِي وُجُوهِ خُصُومِهِمْ، مُدَّعِينَ أَنَّهُمْ وَطَنِيُّونَ، وَأَنَّ خُصُومَهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْوَطَنِ، فِي انْتِهَازِيَّةٍ قَبِيحَةٍ، وَأَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ، وَخُصُومَةٍ غَيْرِ شَرِيفَةٍ، بَلْ كُلُّهَا لَجَاجٌ وَكَذِبٌ وَفُجُورٌ.

وَالْوَطَنِيَّةُ الَّتِي فِي أَذْهَانِ هَؤُلَاءِ هِيَ ذَوَاتُهُمُ المُنْتَفِخَةُ بِالنَّرْجِسِيَّةِ، وَأَفْكَارُهُمُ النَّاضِحَةُ بِكُلِّ رَدِيءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَفِي وَاقِعِ الْأَمْرِ هُمْ أَعْدَاءُ الْوَطَنِ

وَأَعْدَاءُ أَبْنَائِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَطْعَنُونَ فِي دِينٍ يَدِينُ بِهِ جُمْهُورُ النَّاسِ فِي الْبِلَادِ الْمُسْلِمَةِ، وَيَدِينُ بِهِ كُلُّ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَا تَعْدُو أَفْعَالُهُمْ أَفْعَالَ إِخْوَانِهِمْ مِنْ مُدَّعِي الْوَطَنِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي بَاعُوهَا لِلْأَعْدَاءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، ثُمَّ كَانُوا -وَهُمْ وَطَنِيُّونَ- رَأْسَ حَرْبَةِ الْأَعْدَاءِ فِي احْتِلَالِهَا، وَطَلَائِعَ الِاسْتِعْمَارِ فِيهَا.

لَقَدْ عَلَّمَنَا التَّارِيخُ وَالْأَحْدَاثُ الْمُعَاصِرَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَزَنْدِقِينَ هُمْ أَخْوَنُ النَّاسِ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وَاسْتِحْكَامِ الشِّدَّةِ. وَمَنْ خَانَ دِينَهُ فَهُوَ لِمَا دُونَهُ أَخْوَنُ، وَمَنْ ضَيَّعَ أَمَانَتَهُ مَعَ رَبِّهِ فَهُوَ لِتَضْيِيعِهَا مَعَ غَيْرِهِ أَشَدُّ، وَمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ مَعَ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ فَهُوَ لِنَقْضِ غَيْرِهِ مِنَ الْعُهُودِ أَحْرَىٰ، وَمَنْ طَعَنَ الْيَوْمَ فِي الْقَضَاءِ طَعَنَ غَدًا فِي غَيْرِهِ، وَمَنْ شَكَّكَ الْيَوْمَ فِي شَرْعِيَّةِ الْقَضَاءِ شَكَّكَ غَدًا فِي شَرْعِيَّةِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ سُلْطَةً مِنَ الْقَضَاءِ.

لَقَدْ أَصَمَّ هَؤُلَاءِ آذَانَ النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَقَبُولِ الْآخَرِ، وَسَمَاعِ الرَّأْيِ الْآخَرِ، ثُمَّ رَأَيْنَاهُمْ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا الْكُفَّارَ وَالزَّنَادِقَةَ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِمْ مِنْ مُرِيدِيهِمْ وَالْمُطَبِّلِينَ لَهُمْ، وَمَا رَأَيْنَاهُمْ يَقْبَلُونَ سِوَاهُمْ مِنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَضْلًا عَنْ قَبُولِهِمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَرَأَيْنَا صُحُفَهُمُ الْمَسْمُومَةَ تَجْعَلُ الْمُذْنِبَ بَرِيئًا، وَتُعْلِي صَوْتَهُ، وَتَقْدَحُ فِي عَشَرَاتِ النَّاسِ مِمَّنِ احْتَسَبُوا عَلَيْهِ، أَوْ حَقَّقُوا مَعَهُ، أَوْ شَهِدُوا عَلَىٰ جُرْمِهِ، ثُمَّ إِذَا حَكَمَ الْقَاضِي عَلَيْهِ صَاحُوا مُطَالِبِينَ بِإِلْغَاءِ الْحُكْمِ، وَطَعَنُوا فِي كُلِّ مَا يَمُتُّ لِلْقَضِيَّةِ بِصِلَةٍ، وَأَلَّبُوا النَّاسَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فِي بَلْبَلَةٍ يَبْتَغُونَ بِهَا الْفِتْنَةَ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ أَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ لَمْ يُوَافِقْ هَوَاهُمْ، فَهَلْ فُجْرٌ فِي الْخُصُومَةِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْفُجُورِ؟! وَهَلْ إِرْهَابٌ فِكْرِيٌّ أَعْتَىٰ مِنْ هَذَا الْإِرْهَابِ؟! وَهَلْ يَعْقِلُ هَؤُلَاءِ مَا يَقُولُونَ، وَيَعُونَ مَا يَكْتُبُونَ؟!

إِنَّهُمْ يَرْمُونَ غَيْرَهُمْ بِخَسِيسَتِهِمْ، وَيَتَّهِمُونَهُمْ بِمَا هُمْ غَارِقُونَ فِيهِ! أَوَلَيْسُوا يَصِيحُونَ فِي دُعَاةِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُمْ مُؤْدَلَجُونَ لِأَفْكَارٍ مُعَيَّنَةٍ؟! فَلِمَاذَا لَا يَكُونُونَ هُمُ المُؤْدْلَجِينَ لِحَرْبِ الْإِسْلَامِ وَإِلْغَاءِ شَرِيعَتِهِ؟! يُفَكِّرُونَ بِعُقُولِ غَيْرِهِمْ، وَيَخْدُمُونَ أَعْدَاءَهُمْ، وَيُسِيئُونَ إِلَىٰ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، قَدِ انْحَازُوا إِلَىٰ الْبَاطِلِ بِشَكْلٍ مَفْضُوحٍ، وَاسْتَعْبَدَتْهُمْ أَفْكَارٌ دَخِيلَةٌ، وَمَذَاهِبُ هَدَّامَةٌ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ، فَتَبًّا لِحُرِّيَّةٍ أَوْثَقَتْ أَصْحَابَهَا بِتِلْكَ الْأَغْلَالِ حَتَّىٰ مَا عَادَ لَهُمْ عُقُولٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- تُرَّهَاتُهُمْ وَطُعُونُهُمْ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ ذَلِكَ حِيلَةُ الْحَانِقِ الْغَاضِبِ الَّذِي رَأَىٰ النَّاسَ مُنْصَرِفَةً عَنْهُ وَعَنْ أَفْكَارِهِ الْمُتَعَفِّنَةِ، وَقَدْ تَعَوَّدَ عَلَىٰ جَوٍّ مِنَ الدِّعَايَةِ وَتَضْخِيمِ الذَّاتِ لَا يَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ إِلَّا فِيهِ، ثُمَّ رَأَىٰ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ قَدْ وَلَّوْا عَنْهُ، وَانْحَازُوا إِلَىٰ دِينِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ فَضِيحَةِ المَبَادِئِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي ذَبَحَتْ بِلَادَ الْأَفْغَانِ وَالْعِرَاقَ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٢٢١- من صفات المنافقين (٤) السخرية بالدين وأهله

٢٨/ ٨/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَىٰ، وَأَضَلَّ عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ أَهْلَ الرَّدَىٰ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِنَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَبَشَّرَ عِبَادَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فَاطِر: ٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَرَصَ عَلَىٰ هِدَايَتِنَا فَنَصَحَ لَنَا وَبَلَّغَنَا، وَعَزَّ عَلَيْهِ عَنَتُنَا فَسَلَكَ سَبِيلَ الْيُسْرِ بِنَا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- بِتَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي بِكُمْ إِلَىٰ قُبُورِكُمْ، وَإِنَّكُمْ مُرْتَحِلُونَ مِنْ دُنْيَاكُمْ إِلَىٰ أُخْرَاكُمْ؛ وَلَنْ تَجِدُوا أَمَامَكُمْ إِلَّا أَعْمَالَكُمْ، فَاحْذَرُوا الِاشْتِغَالَ بِمَا يَفْنَىٰ عَمَّا يَبْقَىٰ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: النِّفَاقُ دَاءٌ يَفْتِكُ بِالْقُلُوبِ حَتَّىٰ يَنْقُلَ أَصْحَابَهَا مِنَ الْإِيمَانِ إِلَىٰ الْكُفْرِ، وَمِنَ اسْتِحْقَاقِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَالْمُنَافِقُونَ فِتْنَةٌ تَسْرِي فِي الْأُمَّةِ لِلصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْهُ، وَمُحَارَبَةِ الْحَقِّ وَدُعَاتِهِ؛ وَذَلِكَ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِحَانٌ لِلْعِبَادِ، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم

بِبَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٣]، وَفِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠]، وفِي الْقِتَالِ: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

وَمِنْ أَسْلِحَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: السُّخْرِيَةُ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ، وَرَفْضُ أَحْكَامِهِ، وَرَدُّ شَرِيعَتِهِ، وَالطَّعْنُ فِي حَمَلَتِهِ وَدُعَاتِهِ؛ لِتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْهُمْ، وَتَفْرِيقِهِمْ عَنْهُمْ.

وَتِلْكَ هِيَ طَرِيقَةُ الْمُشْرِكِينَ الْقُدَمَاءِ؛ فَإِنَّهُمُ اتَّخَذُوا السُّخْرِيَةَ بِالنَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ سِلَاحًا لَهُمْ؛ لِيَرُدُّوهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلِيُبْقُوهُمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ؛ كَمَا سَخِرَ قَوْمُ نُوحٍ مِنْهُ لَمَّا صَنَعَ السَّفِينَةَ، وَسَخِرَ قَوْمُ لُوطٍ مِنْهُ وَآلِ بَيْتِهِ لِأَنَّهُمْ يَتَطَهَّرُونَ، وَسَخِرَ أَهْلُ مَكَّةَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيَتَمَايَلُونَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠].

بَيْدَ أَنَّ سُخْرِيَةَ الْمُنَافِقِينَ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ أَعْظَمُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْكَافِرِينَ، وَأَشَدُّ خَطَرًا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ مَنْ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ يَعْرِفُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيَتَّقُونَ شَرَّهُمْ، وَيَحْذَرُونَ سُخْرِيَتَهُمْ، وَلَا يَقْبَلُونَ قَوْلَهُمْ، وَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ أَذَاهُمْ. أَمَّا سُخْرِيَةُ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَأْبَهُونَ بِهَا، وَلَا يُحَاسِبُونَ أَصْحَابَهَا عَلَيْهَا، وَلَا يَتَّخِذُونَهُمْ أَعْدَاءً، وَلَا يَحْذَرُونَهُمْ أَوْ يُحَذِّرُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَرُبَّمَا أَتَوْا بِشَعَائِرِهِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا كَانَ الْمُنَافِقُونَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يُصَلُّونَ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَصُومُونَ، وَيَغْزُونَ مَعَهُ، وَهُمْ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ.

وَالنَّاسُ يَقْبَلُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَا لَا يَقْبَلُونَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عَصْرِنَا لَمَّا سَخِرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي رُسُومِهِمْ وَمَقُولَاتِهِمْ غَضِبَ النَّاسُ أَشَدَّ الْغَضَبِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ كَانُوا -وَلَا يَزَالُونَ- يَسْخَرُونَ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ، وَبِحَمَلَةِ هَذَا الدِّينِ وَأَتْبَاعِهِ، وَيُعْلِنُونَ رَفْضَهُمْ

التَّامَّ لِشَرِيعَتِهِ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ فِي النَّاسِ سَاكِنًا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ النَّاسَ يَتَّقُونَ الْعَدُوَّ الظَّاهِرَ أَكْثَرَ مِنَ اتِّقَائِهِمْ لِلْعَدُوِّ الْكَامِنِ.

وَسُخْرِيَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ أَخْبَرَنَا بِهَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي مَوَاضِعَ شَتَّىٰ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ؛ فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣]، فَوَصَفُوا الْإِيمَانَ بِالسَّفَهِ، وَجَعَلُوا الْمُؤْمِنِينَ سُفَهَاءَ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الْمَقُولَةِ مَقُولَاتُ مُنَافِقِي عَصْرِنَا هَذَا، وَكِتَابَاتُهُمْ فِي صُحُفِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَمَنْ يَتَمَسَّكُونَ بِهَا، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٤].

لَقَدْ كَانَ مُنَافِقُو عَهْدِ الرِّسَالَةِ يُخْبِرُونَ رُؤُوسَ الْكُفْرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَهُمْ، وَأَنَّ إِيمَانَهُمْ جُنَّةٌ يَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَأَنَّهُمْ يَسْخَرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَيَلْعَبُونَ بِهِمْ، وَيَقَعُ هَذَا فِي عَصْرِنَا؛ فَإِنَّ مُنَافِقِي الْعَصْرِ يَتَّصِلُونَ بِرُؤُوسِ الْكُفْرِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَيُرَوِّجُونَ لِمَذَاهِبِهِمُ الْمَادِّيَّةِ الْمُعَارِضَةِ لِلْإِسْلَامِ بِاسْمِ التَّقَدُّمِ وَالْإِصْلَاحِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا عَلَىٰ أَنَّهَا الْخَلَاصُ مِنْ مَشَاكِلِهِمْ، وَيَطْعَنُونَ فِي الشَّرِيعَةِ وَحَمَلَتِهَا وَأَهْلِهَا زَاعِمِينَ أَنَّهَا التَّخَلُّفُ وَالرَّجْعِيَّةُ وَالظَّلَامِيَّةُ.

وَسُورَةُ التَّوْبَةِ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَسُمِّيَتِ الْفَاضِحَةَ؛ لِأَنَّهَا فَضَحَتِ الْمُنَافِقِينَ، وَهَتَكَتْ أَسْتَارَهُمْ، وَأَظْهَرَتْ مَكْنُونَ قُلُوبِهِمْ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٦٤]. قَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَىٰ اللهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا» اهـ[1].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهَا بِبَعْضِ مَا فَعَلَهُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧١).

فَلَمَزُوا النَّبِيَّ ﷺ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التَّوْبَة: ٥٨]، وَسَخِرُوا مِنْ أَصْحَابِهِ ﷺ فِي تَصَدُّقِهِمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا؛ فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧٩][٢].

وَمَنْ رَأَىٰ سُخْرِيَةَ مُنَافِقِي الْعَصْرِ بِالْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَرِجَالِ الْحِسْبَةِ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ وَدُورِ التَّحْفِيظِ النِّسَائِيَّةِ، وَكُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ وَالْهُدَىٰ؛ عَلِمَ أَنَّ السُّخْرِيَةَ بِالصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ، وَالتَّرْوِيجِ لِلْفَسَادِ وَأَهْلِهِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ زَمَنٍ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُمْ أَبَدًا.

وَكَانَ أَعْظَمُ فَضْحٍ لِلْمُنَافِقِينَ فِي سُورَةِ الْفَاضِحَةِ حِينَ سَخِرُوا بِقُرَّاءِ الصَّحَابَةِ ﷺ، فَكَفَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ فِي قُرْآنٍ يُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ! فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

---

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٣٤٩)، ومسلم في الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل (١٠١٨).

إِيمَٰنِكُمْ﴾» رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ(٣).

وَمِنْ يَوْمِهَا إِلَىٰ الْيَوْمِ يَقْرَؤُهَا الْمُسْلِمُونَ وَيَسْمَعُونَهَا فِي مَسَاجِدِهِمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦٥-٦٦].

وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذِهِ الآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَىٰ كُفْرِ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ سَخِرَ مِنْ شَخْصٍ لِتَمَسُّكِهِ بِشَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ لَا يَسْخَرُ بِهِ إِلَّا لِأَجْلِهَا؛ كَسُخْرِيَتِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْحِسْبَةِ وَتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَتَدْرِيسِ السُّنَّةِ، أَوِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِإِعْفَاءِ اللِّحَىٰ وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَاحْتِجَابِ الْمَرْأَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ مِنْ شَتَّىٰ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ:

قَالَ ابْنُ نُجَيْمٍ الْحَنَفِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الِاسْتِهْزَاءُ بِالْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ كُفْرٌ»(٤).

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ سُخْرِيَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي تَبُوكَ: «لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَا قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ جِدًّا أَوْ هَزْلًا، وَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ كُفْرٌ؛ فَإِنَّ الْهَزْلَ بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ»(٥).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالْأَفْعَالُ الْمُوجِبَةُ لِلْكُفْرِ هِيَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ عَمْدٍ وَاسْتِهْزَاءٍ بِالدِّينِ صَرِيحٌ»(٦).

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ الْحَنْبَلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ سَبَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَفَرَ،

---

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩) رقم (١٠٠٤٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لأبي الشيخ وابن مردويه (٣/ ٢٥٤).

(٤) الأشباه والنظائر (١٦٠)، وشرحه: غمز عيون البصائر (٢/ ٢٠٢).

(٥) أحكام القرآن (٢/ ٥٤٣)، وعنه القرطبي في تفسيره (٨/ ١٩٧).

(٦) روضة الطالبين (١٠/ ٦٤).

سَوَاءً مَازِحًا أَوْ جَادًّا، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ أَوْ بِآيَاتِهِ أَوْ بِرُسُلِهِ أَوْ كُتُبِهِ»(٧).

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الِاسْتِهْزَاءُ بِالْقَلْبِ وَالِانْتِقَاصُ يُنَافِي الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مُنَافَاةَ الضِّدِّ ضِدَّهُ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِاللِّسَانِ يُنَافِي الْإِيمَانَ الظَّاهِرَ بِاللِّسَانِ كَذَلِكَ»(٨).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنَ النِّفَاقِ وَأَهْلِهِ، وَأَنْ يُحْبِطَ كَيْدَهُمْ، وَيُبْطِلَ سَعْيَهُمْ، وَيَكْفِيَ الْأُمَّةَ شَرَّهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٩-٣٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَحَالُفُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمٌ قِدَمَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَضُوا دِينَهُمْ، فَلَنْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ، وَمَا يَقُومُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ مِنَ

---

(٧) المغني (٩/ ٣٣).

(٨) الصارم السلول (٣/ ٧٠١).

السُّخْرِيَةِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَذَىٰ الَّذِي يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الثَّبَاتُ عَلَىٰ دِينِهِمْ، وَأَنْ لَا تُزَحْزِحَهُمْ سُخْرِيَةُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِهِمْ عَنْ هَذَا النُّورِ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُمْ إِلَّا أَذًىٰ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٨].

وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ أَذَاهُمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ مَعَ التَّقْوَىٰ وَالْيَقِينِ سَبَبٌ لِلتَّمْكِينِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٨]، وَأُمِرَ بِذَلِكَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ [الرُّوم: ٦٠]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: ٤٩].

كَمَا يَجِبُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ عَدَمُ مُوَالَاةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَهَىٰ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الْمَائِدَة: ٥٧].

وَلَا يَجُوزُ حُضُورُ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي يَسْخَرُونَ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّهِمْ عَنْ غَيِّهِمْ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٨]، فَنَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ بَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ وَالتَّذْكِيرِ، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ.

وَأَمَّا مَنْ حَضَرَ وَسَكَتَ فَهُوَ كَمَنِ اسْتَهْزَأَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٠].

وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ الدِّفَاعُ عَنْهُمْ، وَالِاعْتِذَارُ لَهُمْ، وَتَأْوِيلُ أَقْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّ فِيهِ إِعَانَةً لَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٥]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٧].

أَيُّهَا الإِخْوَةُ المُؤْمِنُونَ: لَقَدْ عَوَّدَنَا فَسَقَةُ الإِعْلَامِ وَمُجْرِمُوهُ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ جَدِيدٍ عَلَىٰ صُنْعِ مُسَلْسَلَاتٍ وَمَشَاهِدَ يَسْخَرُونَ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَشَعَائِرِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَحْكَامِهِ المُنَزَّلَةِ، وَيُصَوِّرُونَ لِلْمُشَاهِدِينَ حَمَلَةَ الدِّينِ وَمُبَلِّغِيهِ، وَالمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَالدَّاعِينَ إِلَيْهِ، وَالمُدَافِعِينَ عَنْهُ فِي أَبْشَعِ الصُّوَرِ وَأَحَطِّهَا، وَهَذَا مِنَ الْغَيْظِ الَّذِي امْتَلَأَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَأْتِي ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الْحَمْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَآزَرَ فِيهَا الْكُفْرُ مَعَ النِّفَاقِ لِإِجْهَاضِ الإِسْلَامِ، وَالْحَدِّ مِنَ انْتِشَارِهِ فِي الأَرْضِ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢].

وَهُوَ حِلْفٌ شَيْطَانِيٌّ اجْتَمَعَ فِيهِ أَهْلُ الضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ مَعَ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرِّدَّةِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ كُفَّارُ أَهْلِ الْكِتَابِ، اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَدَارِ السَّنَوَاتِ المَاضِيَةِ لَمْ يَسْخَرُوا فِي مُسَلْسَلَاتِهِمُ الرَّمَضَانِيَّةِ مِنْ كَافِرٍ لِكُفْرِهِ، وَلَا مِنْ مُبْتَدِعٍ لِبِدْعَتِهِ، وَلَا مِنْ مُرْتَدٍّ لِرِدَّتِهِ، مَعَ مَا عِنْدَ الْكُفَّارِ وَالمُبْتَدِعَةِ وَالمُرْتَدِّينَ مِنَ الأَفْكَارِ وَالأَعْمَالِ مِمَّا هُوَ مَوْضِعٌ لِلنَّقْدِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْجَانِ!

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ صَائِمِينَ قَائِمِينَ يُفْطِرُونَ حِينَ يُفْطِرُونَ عَلَىٰ مَشَاهِدَ يُسْخَرُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهُمْ يَقْرَؤُونَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْجَالِسَ مَعَهُمْ مِثْلُهُمْ!

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾ [النِّسَاء: ١٤٠].

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ يَا أَهْلَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَيَا رُوَّادَ المَسَاجِدِ، وَقُرَّاءَ الْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ المَشَاهِدِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَىٰ بُيُوتِكُمْ عَبْرَ الْإِعْلَامِ الْفَاسِدِ الْمُفْسِدِ! فَإِنَّ المَسْأَلَةَ عَظِيمَةٌ خَطِيرَةٌ، إِنَّهَا مَسْأَلَةُ إِيمَانٍ وَنِفَاقٍ، وَالرَّاضِي فِيهَا كَالْفَاعِلِ، وَأَيُّ رِضًا أَبْلَغُ مِنَ الْإِفْطَارِ عَلَيْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ؟!

إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ يَا أَهْلَ رَمَضَانَ، وَيَا قُرَّاءَ الْقُرْآنِ، إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَنَعَّمُوا بِرِزْقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُفْطِرُونَهُ وَأَنْتُمْ تَأْنَسُونَ بِمَا يُعْرَضُ فِي الشَّاشَاتِ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِدِينِهِ ﷻ، وَتُشَاهِدُونَ الِاعْتِرَاضَ عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ، وَالِاسْتِهْزَاءَ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مُحَادَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُعَادَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَمَنْ عَادَىٰ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَهُ بِالمُحَارَبَةِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ٦٣].

وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَلِفَ هَذِهِ المَجَالِسَ وَالمَشَاهِدَ أَنْ يَزِيغَ قَلْبُهُ، وَيَفْقِدَ إِيمَانَهُ؛ فَإِنَّ زَيْغَ الْقُلُوبِ يَكُونُ بِزَيْغِ الْعِبَادِ عَنِ الْحَقِّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّف: ٥].

وَأَيُّ زَيْغٍ أَعْظَمُ مِنَ الْأُنْسِ بِمُسَلْسَلَاتٍ يُسْخَرُ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ؟ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ المُتَسَاقِطِينَ فِي هَذَا الْإِثْمِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَقَلُّ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أُقْسِمُ لَوْ نَبَتَ لِلْمُنَافِقِينَ أَذْنَابٌ مَا وَجَدَ المُؤْمِنُونَ أَرْضًا يَمْشُونَ عَلَيْهَا»(٩) اهـ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .

(٩) رواه ابن بطة في «الإبانة» (٩٣٧).

هَدي الكتاب والسُّنَّة

٢٢٢- سورة الكهف (١) تقرير التوحيد.

٢٢٣- سورة الكهف (٢) معالجة الفتن.

٢٢٤- كل يوم هو في شأن.

٢٢٥- إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا.

٢٢٦- ألهاكم التكاثر (١).

٢٢٧- ألهاكم التكاثر (٢).

٢٢٨- سورة العصر.

٢٢٩- سورة الإخلاص .. فضلها وشيء من معانيها.

٢٣٠- سورتا المعوذتين (١) الفضل والأثر.

٢٣١- سورتا المعوذتين (٢) التفسير والمعنىٰ.

٢٣٢- من هدايات السنة النبوية (٥) حديث الهوىٰ.

٢٣٣- من هدايات السنة النبوية (٦) حديث الطاعة.

٢٣٤- من هدايات السنة النبوية (٧) السؤال للاستفادة.

٢٣٥- من هدايات السنة النبوية (٨) النذير العريان.

٢٢٢- سورة الكهف (١)
تقرير التوحيد

٢٤/ ٥/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ دَلَّنَا عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِصِفَاتِهِ، وَعَرَّفَنَا عَظَمَتَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ، وَأَبَانَ لَنَا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ بِشَرِيعَتِهِ وَكِتَابِهِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَمَرَ عِبَادَهُ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَوَعَدَهُمْ رِضْوَانَهُ وَجَنَّتَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ دَاعِيًا إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، مُبَشِّرًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُنْذِرًا مِنْ عَذَابِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعَمَلَ، وَأَقِيمُوا لَهُ التَّوْحِيدَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شَرْطُ النَّجَاةِ مِنَ الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ، وَبُلُوغِ الرَّحْمَةِ وَالْجِنَانِ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، اخْتَصَّهُ سُبْحَانَهُ بِخَصَائِصَ كَثِيرَةٍ، وَشَرَعَ فِيهِ عِبَادَاتٍ لَمْ يَشْرَعْهَا فِي غَيْرِهِ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا أُجُورًا عَظِيمَةً لِمَنْ أَدَّاهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَّبِعًا هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمِنْ تِلْكُمُ الْخَصَائِصِ: فَضِيلَةُ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ فِيهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي

الْحَدِيثِ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»، رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، وَصَحَّحَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ(١).

وَمَنْ نَظَرَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، وَتَأَمَّلَ آيَاتِهَا وَمَعَانِيَهَا؛ عَلِمَ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: النسائي في الكبرىٰ (١٠٧٨٨)، والبيهقي في الشعب (٢٤٤٦)، والحاكم وصححه، وقال: علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه (١/ ٧٥٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير، وقال متعقبًا النسائي والبيهقي حينما رجحا رواية الوقف: ولك أن تقول: أي دليل علىٰ صواب رواية الوقف وخطأ رواية الرفع، ورواة هذه هم رواة هذه؟ والحق -إن شاء الله- الذي لا يتضح غيره أن رواية الرفع صريحة صحيحة كما قررناه (٢/ ٢٩٢-٢٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، إلا أن النسائي قال بعد تخريجه في اليوم والليلة: هذا خطأ والصواب: موقوفًا ثم رواه من رواية الثوري وغندر عن شعبة موقوفًا (١/ ٢٣٩).

وأخرجه موقوفًا علىٰ أبي سعيد: النسائي في الكبرىٰ (١٠٧٨٩-١٠٩٩٠)، والدارمي (٣٤٠٧)، وعبد الرزاق (٧٣٠)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٤٢٣)، وابن الضريس في فضائل القرآن (١/ ٢٢٢)، والطبراني في الأوسط (١٤٥٥)، والحاكم وصححه (٤/ ٥٧٧)، والبيهقي في الشعب، وقال: هذا هو المحفوظ موقوف (٢٤٤٤)، وقال الألباني بعد أن ساق رواية الدارمي: وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، وأبو النعمان وإن كان تغير في آخره فقد تابعه سعيد بن منصور كما تقدم، ثم هو وإن كان موقوفًا، فله حكم المرفوع؛ لأنه مما لا يقال بالرأي كما هو ظاهر، ويؤيده رواية يحيىٰ بن كثير التي علقها البيهقيُّ؛ فإنها صريحة في الرفع، وقد وصلها الحاكم (١/ ٥٦٤) من طريق أبي قلابة عبد الملك بن محمد حدثنا يحيىٰ بن كثير حدثنا شعبة به. وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبيُّ. إرواء الغليل (٣/ ٩٤).

تكْرَارِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ: التَّأْكِيدَ عَلَىٰ الْعَقِيدَةِ، وَالتَّذْكِيرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَالتَّنْوِيعَ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ تَارَةً بِالْقِصَّةِ، وَبِالمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ تَارَةً أُخْرَىٰ، مَعَ بَيَانِ مَصِيرِ الْمُكَلَّفِينَ، مِنْ فَوْزِ الْمُوَحِّدِينَ، وَخَسَارَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ؛ إِذْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَصِيرَ الْفَرِيقَيْنِ، بَعْدَ حَمْدِهِ ﷻ عَلَىٰ نِعْمَةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

فَهُمَا فَرِيقَانِ لَا ثَالِثَ لَهُما: فَرِيقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَرِيقُ الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّوْفِيقُ لِلْهِدَايَةِ وَالْإِيمَانِ بِيَدِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، لَا نَبِيًّا وَلَا مَلَكًا وَلَا عَالِمًا وَلَا دَاعِيًا إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَإِنَّمَا هُمْ يَدُلُّونَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَيَهْدُونَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَأْسَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَسَفًا يَضُرُّهُ وَيُصِيبُهُ بِالْيَأْسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَدْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَقْدِيرُهُ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا تَسْخِيرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ، وَهِيَ مَحَلُّ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَمَيْدَانُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهِيَ آيِلَةٌ إِلَىٰ الدَّمَارِ وَالْخَرَابِ وَالْفَنَاءِ مَهْمَا بَلَغَ عُمْرَانُهَا، وَاشْتَدَّ بُنْيَانُهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَضَىٰ أَنَّهَا دَارُ عَمَلٍ وَامْتِحَانٍ، وَلَيْسَتْ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨].

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ قَدِ افْتُتِحَتْ بِهَذَا التَّقْرِيرِ المُهِمِّ لِلْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ، وَإِسْكَانِهِمُ الْأَرْضَ، وَتَسْخِيرِ مَا عَلَيْهَا لَهُمْ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَإِقَامَةُ دِينِهِ، فَإِنَّ الْقَصَصَ المَذْكُورَةَ فِيهَا تُكَرِّسُ تِلْكَ الْغَايَةَ، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا.

وَأَوَّلُ قِصَّةٍ مِنْهَا هِيَ الْقِصَّةُ الَّتِي سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَا: قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَهُمْ قَوْمٌ مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، فَاعْتَزَلُوا قَوْمَهُمُ الْمُشْرِكِينَ؛ فِرَارًا بِإِيمَانِهِمْ، وَحِفَاظًا عَلَىٰ تَوْحِيدِهِمْ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مُفَارَقَةُ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

كَلَامٌ عَظِيمٌ مَتِينٌ، يُعْلِنُ فِيهِ أَصْحَابُهُ غَايَتَهُمْ، وَيَصْدَعُونَ بِتَوْحِيدِهِمْ، وَيَنْتَقِدُونَ شِرْكَ عَشِيرَتِهِمْ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِالْقَوْلِ بَلْ أَتْبَعُوهُ بِالْعَمَلِ، فَاعْتَزَلُوا الْمُشْرِكِينَ؛ إِنْكَارًا لِشِرْكِهِمْ، وَفِرَارًا مِنْ فِتْنَتِهِمْ، وَابْتِغَاءً لِسَلَامَةِ تَوْحِيدِهِمْ؛ فَاسْتَحَقُّوا فِي الدُّنْيَا جَزَاءَ إِيمَانِهِمْ أَنْ يَكُونُوا آيَةً مِنَ الْآيَاتِ، وَأُعْجُوبَةً مِنْ أَعَاجِيبِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي كِتَابٍ يُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

وَجَعَلَ ﷻ مَا جَرَىٰ لَهُمْ مِنَ النَّوْمِ فِي الْكَهْفِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ آيَةً عَظِيمَةً، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هِدَايَةَ مَنِ اهْتَدَىٰ مِنْ عِبَادِهِ مِنَّةٌ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ ﷻ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ثُمَّ يَخْتِمُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْعَظِيمَةَ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَ أَهْلِ

الْإِيمَانِ، وَلَوْ كَانُوا هُمُ الْأَضْعَفَ، وَكَانَ غَيْرُهُم أَقْوَىٰ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ إِلَىٰ تَدَبُّرِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْعَمَلِ بِهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي يَمُوج بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْفِتَنِ وَالضَّلَالِ!

وَالتَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، بَلْ هُوَ أَحَقُّ الْحَقِّ، تَجِبُ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ؛ لِاسْتِنْقَاذِ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْ ضَلَالِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَلَا يُفْرَضُ عَلَىٰ النَّاسِ؛ إِذْ الْهِدَايَةُ إِلَيْهِ مَحْضُ تَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا المَعْنَىٰ مُقَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ كَمَا قَرَّرَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وَعَاقِبَةُ الْإِيمَانِ حَمِيدَةٌ، كَمَا أَنَّ عَاقِبَةَ الْكُفْرِ أَلِيمَةٌ.

ومِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ؛ حَيْثُ الْفِرَارُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْهُرُوبُ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، إِلَىٰ قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ؛ حَيْثُ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ بِنِسْبَةِ النِّعَمِ إِلَىٰ مُسْدِيهَا، وَالِاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ، وَلَازِمُ ذَلِكَ حَمْدُهُ وَشُكْرُهُ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ﷻ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٧-٣٩]. تَقْرِيرٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةٌ إِلَيْهِ، وَاسْتِدْلَالٌ عَلَيْهِ بِالْخَلْقِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، مَعَ إِعْلَانِ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَدَحْضِ الشِّرْكِ.

وَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْمُنْجِي لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْإِيمَانُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ هُوَ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالتَّذْكِيرُ بِهِ تَذْكِيرٌ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا

كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

وَالَّذِي يَرُدُّ النَّاسَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ وَالمَعَاصِي: الْعَدُوُّ الْأَوَّلُ لِبَنِي آدَمَ: الشَّيْطَانُ وَجُنْدُهُ، وَهُوَ مَنْ سَنَّ مَعْصِيَةَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَغَوَىٰ وَهَلَكَ، فَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ كَانَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ الشَّيْطَانِ. وَمِنْ كِيَاسَةِ الْإِنْسَانِ حَذَرُهُ مِنْهُ وَمِنْ وَسَاوِسِهِ؛ لِئَلَّا يُرْدِيَهُ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُرْسِلُوا لِلتَّبْشِيرِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالنِّذَارَةِ مِنَ الشِّرْكِ، وَدَحْضِ حُجَجِ أَهْلِ الْبَاطِلِ الَّذِينَ هُمْ مُسْتَمِيتُونَ فِي إِزْهَاقِ الْحَقِّ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وَالرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يُعْرَفُ الْحَقُّ بِالرِّجَالِ، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عِلْمًا بِتَوْحِيدِهِ وَدِينِهِ، وَمَا يُوصِلُ إِلَيْهِ؛ وَجَبَ قَبُولُ الْحَقِّ مِنْهُ، وَحَمْلُ الْعِلْمِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ مَنْ يَتَلَقَّىٰ عَنْهُ أَعْلَىٰ مَنْزِلَةً مِنْهُ، فَالْحَقُّ أَعْلَىٰ مِنَ الْجَمِيعِ، وَهَذَا مَا حَكَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ عَنْ كَلِيمِ الرَّحْمَنِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِحْلَتِهِ المَشْهُورَةِ لِتَلَقِّي الْعِلْمِ وَحَمْلِهِ عَنْ عَبْدٍ صَالِحٍ لَمْ يَبْلُغْ مَبَالِغَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٥-٦٩].

وَفِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ المَلِكُ الصَّالِحُ الَّذِي مَلَكَ الدُّنْيَا، فَسَخَّرَ مُلْكَهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ، وَمُسَاعَدَةِ مَنْ يَحْتَاجُ المُسَاعَدَةَ بِلَا عِوَضٍ إِلَّا أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ تَعَالَىٰ، وَيُقِرُّ بِالْفَضْلِ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ بَنَىٰ لَهُمْ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥] أَيْ: مَا أَعْطَانِي مِنَ المُلْكِ وَالْقُوَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَبْذُلُونَ لِي وَتُعْطُونَنِي.

فَلَمَّا أَنْجزَ بِنَاءَهُ نَسَبَ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِصَاحِبِ الْفَضْلِ سُبْحَانَهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ لِهَذَا السَّدِّ أَجَلًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا التَّذَكُّرَ وَالِاعْتِبَارَ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِصَلَاحِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ الدِّينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَمَا ابْتَدَأَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَمْدِهِ، خُتِمَتْ بِالتَّوْحِيدِ كَذَلِكَ، وَأَوْضَحَتْ لِقَارِئِهَا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَأَنَّ الْمُكَلَّفِينَ يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ

يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠].

وَفِي خَاتِمَتِهَا بَيَانٌ لِمَصِيرِ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُوَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ؛ أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَمَصِيرُهُمْ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

إِنَّهَا النِّهَايَةُ الْأَلِيمَةُ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، بِخِلَافِ حَالِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَرْتَعُونَ فِي نَعِيمِ الْجِنَانِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

وَمِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الْإِقْرَارُ بِصِفَاتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِعَظَمَتِهِ، بِحَيْثُ تَصْرِفُ لَهُ الْقُلُوبُ كُلَّ تَعْظِيمٍ وَمَحَبَّةٍ وَرَجَاءٍ وَخَوْفٍ؛ وَهَذَا لَا يَتَأَتَّىٰ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ ﷻ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ، وَفِي أُخْرَيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ ذَلِكَ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ثُمَّ يَأْتِي الْقَارِئُ لِهَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهَا وَهِيَ تَدْعُوهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَتُحَذِّرُهُ مِنَ الشِّرْكِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَالْعَمَلُ لَا يَكُونُ صَالِحًا حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُوَافِقًا لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَبِهَذَا نَعْلَمُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- عَظَمَةَ هَذِهِ السُّورَةِ، وَحِكْمَةً مِنْ حِكَمِ تَكْرَارِهَا كُلَّ

جُمُعَةٍ، بَلْ صَحَّ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا تُنَجِّي صَاحِبَهَا مِنَ الدَّجَّالِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»(٢).

وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. زَادَ أَبُو دَاوُدَ: «**فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ**»(٣).

وَرَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الدَّجَّالِ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ، أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سَبِيلٌ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٤).

فَاقْرَءُوهَا -عِبَادَ اللَّهِ- بِتَدَبُّرٍ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِهَا، وَحَرِّكُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ، وَاعْمَلُوا بِمَا فِيهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



---

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩)، وأبو داود في الملاحم، باب خروج الدجال (٤٣٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٥١)، وأحمد (٥/١٩٦)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧)، وأبو داود في الملاحم، باب خروج الدجال (٤٣٢١)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في فتنة الدجال (٢٢٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسىٰ بن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج (٤٠٧٥).

(٤) هذا الحديث هو نفس حديث أبي سعيد المخرج في حاشية (١) وهذه الزيادة في الرواية للنسائي وصححها الحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم، وقد جاءت مرفوعة موقوفة، علىٰ ما هو مبين في الحاشية آنفة الذكر.

٢٢٣- سورة الكهف (٢)
معالجة الفتن

١٢/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكَهْف: ١].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِلتَّعَبُّدِ بِتِلَاوَتِهِ، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَالِانْتِفَاعِ بِعِظَاتِهِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْحِكْمَةَ وَالْكِتَابَ، وَشَرَّفَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْإِيمَانِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢] صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَقَصَصُهُ وَأَمْثَالُهُ لَيْسَتْ كَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ الْأُخْرَىٰ، فَلَا يُذْكَرُ فِيهَا إِلَّا مَا يَحْتَاجُهُ الْمُكَلَّفُونَ مِمَّا يَكُونُ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ، وَمَا لَا فَائِدَةَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَهْمَلَ ذِكْرَهُ، وَطَوَىٰ عَنِ النَّاسِ خَبَرَهُ، وَهَذَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ الْمَلَالِ مِنْ تَكْرَارِ الْقِصَّةِ فِي الْقُرْآنِ، وَكَمْ يُكَرِّرُ الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ

سُورَةٍ يَقْرَأُهَا، أَوْ قِصَّةٍ فِي سُورَةٍ أَوْ مَثَلٍ مِمَّا ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلنَّاسِ، وَمَا يَمَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ كَرَّرَ قِصَّةً مِنَ الْقِصَصِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ مَثَلًا مِنْ أَمْثَالِ الْحُكَمَاءِ لَمَلَّ ذَلِكَ.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ قَدِ امْتَازَتْ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ بِمِيزَاتٍ عِدَّةٍ، وَجَاءَ فِيهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ مَا لَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ السُّوَرِ أَفْضَلَ مِنْهَا كَسُورَتَي الْفَاتِحَةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ هِيَ سُورَةُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَقْرَءُونَهَا فِيهِ؛ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَتَحَرِّيًا لِلْفَضْلِ، وَطَلَبًا لِلنُّورِ الَّذِي يُضِيءُ لِقَارِئِهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه[1].

وَسُورَةُ الْكَهْفِ قَرَأَهَا أَحَدُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فَوَقَعَتْ لَهُ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَهُوَ يَقْرَأُهَا؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: **تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»[2].

وَحِفْظُ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ، أَوْ قِرَاءَةُ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْهَا سَبَبٌ لِلْعِصْمَةِ مِنْ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَهِيَ الْفِتْنَةُ بِالدَّجَّالِ[3]، وَكُلُّ ذَلِكَ ثَابِتٌ فِي أَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ، وَلَمْ يَرِدْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ.

---

(١) سبق تخريجه في الخطبة السابقة (٦/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (٤٧٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن (٧٩٥).

(٣) سبق تخريج الأحاديث في الخطبة السابقة (٦/ ٣٨٣).

إِنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ قَدْ عَرَضَتْ لِأَرْبَعِ قَصَصٍ فِيهَا مِنَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مَا فِيهَا: وَهِيَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ الَّتِي سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَا، وَقِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَقِصَّةُ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ ﷺ، وَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ الْأَرْبَعِ قَدْ عَالَجَتْ فِتْنَةً مِنْ كُبْرَيَاتِ الْفِتَنِ الَّتِي يَسْقُطُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ تَكُونَ آيَاتٌ مِنْهَا سَبَبًا لِلْعِصْمَةِ مِنْ أَكْبَرِ الْفِتَنِ وَهِيَ فِتْنَةُ الدَّجَّالِ.

إِنَّنَا نَتْلُو فِي هَذِهِ السُّورَةِ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فِي وَسَطِ أُنَاسٍ مُشْرِكِينَ، وَعَلِمُوا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ مَا عَلِمُوا فِي قَوْمٍ جَاهِلِينَ؛ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِفِتْنَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَسْلِمُوا، وَلَمْ يَتْبَعُوا قَوْمَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَلَا وَافَقُوهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ؛ بَلْ أَعْلَنُوا تَوْحِيدَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، كَمَا أَعْلَنُوا بَرَاءَتَهُمْ مِمَّا يَعْبُدُ أَهْلُوهُمْ وَعَشِيرَتُهُمْ ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الْكَهْف: ١٤-١٥].

ثُمَّ أَتْبَعُوا الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ فَتَبَرَّءُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَاعْتَزَلُوهُمْ، وَآوَوْا إِلَىٰ كَهْفٍ لِيَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِيَفِرُّوا مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا تِلْكَ الْكَرَامَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي نَالَتْهُمْ وَهُمْ فِي كَهْفِهِمْ، فَنَجَوْا بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَكَيْدِهِمْ، وَكَانَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ آيَةً تُتْلَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ.

وَفِي التَّعْقِيبِ عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَاصْطِبَارِ النَّفْسِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ مَالٍ وَثَرَاءٍ وَدُنْيَا، مَعَ مُجَانَبَةِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ، وَأَتْبَاعِ الْهَوَىٰ الَّذِينَ لَا يَرْدَعُهُمْ دِينُهُمْ عَنْ هَوَاهُمْ ﴿وَاصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الْكَهْف: ٢٨].

وَنَسْتَفِيدُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الدِّينِ: صُحْبَةُ الصَّالِحِينَ مِمَّنْ ثَبَتُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَلَوْ كَانُوا هُمُ الْأَقَلَّ وَالْأَضْعَفَ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ؛ إِذْ جَانَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَقْوَىٰ، وَصَاحَبَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ الْمُسْتَضْعَفُونَ، وَفِي صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ مِنَ التَّثْبِيتِ عَلَىٰ الدِّينِ، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهِ، وَتَحْصِيلِ الْخَيْرِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ أَبُو الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ نَالَ مِنْ بَرَكَتِهِمْ؛ كَلْبٌ أَحَبَّ أَهْلَ فَضْلٍ وَصَحِبَهُمْ فَذَكَرَهُ اللهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ»(٤).

كَمَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا التَّعْقِيبِ: أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ، وَطَاعَةَ أَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ سَبَبٌ لِلْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، وَالتَّحَوُّلِ عَنْهُ شَيْئًا شَيْئًا، كَمَا أَنَّ سَبَبَ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، وَطَاعَةِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ هُوَ طَلَبُ حَظٍّ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا. وَلَوْ أَنَّ فِتْيَةَ الْكَهْفِ أَطَاعُوا أَهْلَ الْغَفْلَةِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؛ مَيْلًا إِلَىٰ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا لَمَا نَجَوْا، وَلَمَا كَانَ خَبَرُهُمْ آيَةً تُتْلَىٰ.

وَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمَ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي يَمُوجُ بِالْفِتَنِ إِلَىٰ فِقْهِ هَذَا الدَّرْسِ الْعَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ، فَيَثْبُتُ عَلَىٰ دِينِهِ وَلَوْ رَأَىٰ قِلَّةَ الثَّابِتِينَ، وَيُضَحِّي بِكُلِّ نَفِيسٍ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الثَّمَنَ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَلْيَحْذَرْ

(٤) أخرجه بسنده ابن عطية في تفسيره فقال: وحدثني أبي ﷺ قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ... فذكره (٣/ ٥٠٤)، وعنه الثعالبي (٢/ ٣٧٢)، والقرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٧١)، والدميري في حياة الحيوان (٢/ ٣٨٩).

مِنَ الاغْتِرَارِ بِالْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ مَهْمَا كَانَتْ قَوَّتُهُمْ، وَبَلَغَتْ عُلُومُهُمْ؛ فَهُمْ وَحَضَارَتُهُمْ إِلَىٰ تَبَابٍ وَخُسْرَانٍ مَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَالمَالُ فِتْنَةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْفِتَنِ الَّتِي افْتُتِنَ النَّاسُ بِهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَزَادَتِ الْفِتْنَةُ بِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسَبَبِ سِيَادَةِ النُّظُمِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ عَلَىٰ أَسْوَاقِ المَالِ وَالْأَعْمَالِ فِي الْعَالَمِ؛ إِذْ حَوَّلَتْهُ فِي عُقُولِ أَتْبَاعِهَا مِنْ وَسِيلَةٍ يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَىٰ غَايَةٍ تُلْغَىٰ فِي سَبِيلِهَا كُلُّ المَبَادِئِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِمَا وُصِفَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الْكَهْف: ٣٢-٣٣].

وَلَكِنَّهُ افْتُتِنَ بِذَلِكَ، وَنَسِيَ أَمْرَ السَّاعَةِ، وَتَكَبَّرَ عَلَىٰ النَّاسِ بِمَالِهِ ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الْكَهْف: ٣٤-٣٦].

فَكَانَ ثَمَرَةُ افْتِتَانِهِ بِمَالِهِ، وَنَتِيجَةُ عُلُوِّهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِسَبَبِهِ أَنْ أَذْهَبَ اللهُ تَعَالَىٰ زَهْرَةَ جَنَّتِهِ، وَجَعَلَهَا خَرَابًا يَبَابًا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الْكَهْف: ٤٢-٤٣].

وَبَعْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ نَجِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ ضَرَبَ مَثَلًا عَظِيمًا فِي الدُّنْيَا؛ بَيَانًا لِحَقِيقَتِهَا، وَإِثْبَاتًا لِزَوَالِهَا، وَتَحْذِيرًا مِنَ الْغُرُورِ بِهَا ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الْكَهف: ٤٥-٤٦].

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْآخِرَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْكِتَابَ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

فَمَنْ فُتِنَ بِالمَالِ فَعَطَّلَ الْفَرَائِضَ مِنْ أَجْلِهِ، وَجَاوَزَ الْحَلَالَ إِلَىٰ الْحَرَامِ فِي جَمْعِهِ وَإِنْفَاقِهِ، وَاسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ بِهِ؛ فَلْيَأْخُذْ عِبْرَةً وَعِظَةً مِنْ قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَلْيُمْعِنِ النَّظَرَ فِي المَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلدُّنْيَا عَقِبَ ذَلِكَ، وَلْيَتَدَبَّرِ الْآيَاتِ الَّتِي تُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ وَالْكِتَابِ الَّذِي يُحْصِي الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ خَافَ المَالَ وَكَثْرَتَهُ، وَحَاذَرَ مِنْ فِتْنَتِهِ.

وَمِنْ فِتَنِ هَذَا الْعَصْرِ: الْفِتْنَةُ بِمَا فَتَحَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ الَّتِي قَادَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَكْذِيبِ آيَاتِهِ، وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَزَعَمَ المَفْتُونُونَ بِهَذِهِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَرْكَزُ الْكَوْنِ، وَمِحْوَرُ الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ سَيْطَرَ عَلَىٰ الطَّبِيعَةِ، وَأَنَّهُ لَا وُجُودَ إِلَّا لِلْمَادَّةِ، فِي إِلْحَادٍ صَارِخٍ، وَإِلْغَاءٍ لِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَإِنْكَارٍ لِلْآخِرَةِ، بَلْ زَعَمَ بَعْضُ مَلَاحِدَةِ هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُسَيْطِرُ عَلَىٰ المَوْتِ، وَسَيَكْتَشِفُ بَلْسَمَ الْحَيَاةِ.

لَقَدْ فُتِنُوا أَشَدَّ الْفِتْنَةِ بِالْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ، وَبِسَبَبِهَا عَبَدُوا الدُّنْيَا، وَتَرَكُوا النَّظَرَ فِي المَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ فَنَسُوا الْآخِرَةَ.

وَقَدْ يُفْتَنُ الْإِنْسَانُ بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا قَلْبُهُ، وَلَا تَزِيدُ إِيمَانَهُ، وَلَا تَقُودُهُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَذَلِكَ حِينَ يَغْتَرُّ الْعَالِمُ بِعِلْمِهِ، وَيَسْتَعْلِي بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَيَجْعَلُهُ مَطِيَّةً لِدُنْيَاهُ، فَيُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِيُرْضِيَ الْأَهْوَاءَ، وَيَنْصُرَ الْبَاطِلَ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَيَعْتَدَّ بِرَأْيِهِ وَلَوْ كَانَ

مُخَالِفًا لِلنُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ. وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ عليهما السلام؛ فَنَبِيُّ اللَّهِ مُوسَىٰ عليه السلام، كَلِيمُ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُوَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، وَقَدْ فُضِّلَ عَلَىٰ أَكْثَرِ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَأَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْآيَاتِ، وَدَحَرَ بِهِ السَّحَرَةَ وَعُلُومَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَتَكَبَّرْ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، وَمَا أَجْرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالمُعْجِزَاتِ، بَلْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَحَلَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ عَلَىٰ يَدِ الْخَضِرِ عليه السلام، وَقَالَ مَقُولَةَ التِّلْمِيذِ المُطِيعِ لِأُسْتَاذِهِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الْكَهْف: ٦٩].

يَقُولُ مُوسَىٰ ذَلِكَ لِلْخَضِرِ عليه السلام وَهُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَمُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ، وَهُوَ رَسُولٌ وَالْخَضِرُ عَبْدٌ صَالِحٌ، لَكِنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ لَا يَعْلَمُهُ مُوسَىٰ، فَتَعَلَّمَ مُوسَىٰ عليه السلام مِنْهُ.

وَلَمَّا عَلَّمَ الْخَضِرُ مُوسَىٰ عليهما السلام مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَغْتَرَّ بِعِلْمِهِ، بَلْ نَسَبَ ذَلِكَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَحَمْدًا لَهُ فَقَالَ: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الْكَهْف: ٨٢].

وَمَا أَحْوَجَ مَنْ فُتِنُوا بِالْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ، وَيَنْسُبُوا عُلُومَهُمْ إِلَيْهِ، وَيُسَخِّرُوهَا فِي ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي عَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [الْعَلَق: ٥].

وَلَكِنَّ أَهْلَ الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْسُبُوا الْفَضْلَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيمَا أُعْطُوا مِنَ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، وَمَا مَلَكُوا مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالْهَيْمَنَةِ، بَلْ نَسَبُوا ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَإِلَىٰ تَجَارِبِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ.

وَلَمْ يُسَخِّرُوا مَعَارِفَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَإِقَامَةِ

الْعَدْلِ، بَلْ سَخَّرُوهَا فِي مُحَارَبَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَنَشْرِ الْفَسَادِ، وَظُلْمِ الْعِبَادِ، وَقَهْرِ النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِي تَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَإِفْسَادِ فِطَرِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَالتَّسَلُّطِ عَلَىٰ بُلْدَانِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ؛ فَمَا زَادَتْهُمْ عُلُومُهُمْ وَحضَارَتُهُمْ إِلَّا إِفْسَادًا فِي الْأَرْضِ، وَعُلُوًّا عَلَىٰ النَّاسِ، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّتِي جَرَتْ عَلَىٰ أَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَبَدَتْ بَوَادِرُ هَزِيمَتِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ، وَظُهُورُ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا؛ فَكَانَتْ رَفَاهِيَتُهُمُ الَّتِي نَتَجَتْ عَنْ عُلُومِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ سَبَبَ خَوَرِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ مُقَارَعَةِ أَعْدَائِهِمْ، فَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ عَلَىٰ المَلَإِ، وَزَالَتْ هَيْبَتُهُمْ مِنَ الْقُلُوبِ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مَعَارِفُهُمْ وَتِقْنِيَّاتُهُمْ شَيْئًا. وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْثَالِهِمْ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر: ٤٢-٤٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَىٰ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَىٰ وَأَسْدَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاعْتَبِرُوا بِأَحْوَالِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، وَأَحْسِنُوا التَّلَقِّيَ عَنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي يَضْعُفُ أَمَامَهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ فِتْنَةُ السُّلْطَانِ الْغَالِبِ، وَالْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي تَقُودُ إِلَىٰ الْبَطْشِ وَالظُّلْمِ وَالْأَثَرَةِ، وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْكَبِيرَةِ فِي الْقِصَّةِ الرَّابِعَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ، الَّذِي مَلَكَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَدَانَتْ لَهُ الدُّوَلُ وَالمَمَالِكُ، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَجَبَّرْ بِسُلْطَانِهِ، وَلَا اسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ بِقُوَّتِهِ؛ بَلْ سَخَّرَ ذَلِكَ فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَنَصْرِ المَظْلُومِ.

وَثَبَتَ إِيمَانُهُ وَعَدْلُهُ، وَصَلَاحُهُ وَإِصْلَاحُهُ فِي قَوْمٍ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَمَلَكَ مَدِينَتَهُمْ، وَذَلَّتْ لَهُ رِقَابُهُمْ، وَخَيَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، فَحَكَمَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكَهْف: ٨٦-٨٨].

وَظَهَرَ تَسْخِيرُهُ لِسُلْطَانِهِ وَقُوَّتِهِ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ؛ مِنْ رَفْعِ الظُّلْمِ، وَنُصْرَةِ المُسْتَضْعَفِينَ، فِي قَوْمٍ مِنَ التُّرْكِ شَكَوْا إِلَيْهِ إِغَارَةَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ عَلَيْهِمْ، وَالْإِفْسَادَ فِي بِلَادِهِمْ، وَرَجَوْهُ أَنْ يَبْنِيَ حَاجِزًا يَحْجِزُهُمْ عَنْهُمْ مُقَابِلَ خَرَاجٍ يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِ، فَعَفَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- عَنْ جُعْلِهِمْ، وَبَادَرَ إِلَىٰ نَجْدَتِهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَبِنَاءِ السَّدِّ لَهُمْ، مُعْتَرِفًا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ وَالمَالِ ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكَهْف: ٩٤-٩٥]. أَيْ: مَا أَعْطَانِي رَبِّي مِنَ المُلْكِ وَالمَالِ خَيْرٌ مِنْ خَرَاجِكُمْ، وَطَلَبَ مَعُونَتَهُمْ عَلَىٰ بِنَاءِ السَّدِّ فَبَنَاهُ لَهُمْ، وَلَمَّا أَتَمَّ بِنَاءَهُ لَمْ يُفَاخِرْ بِذَلِكَ،

أَوْ يُعْلِنْ بِهِ عَلَىٰ المَلَإِ، أَوْ يَمُنَّ بِهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ؛ لِيَكْتَسِبَ بِذَلِكَ دِعَايَةً، أَوْ يُظْهِرَ بِهِ قُوَّةً، أَوْ يَحُوزَ بِهِ شَرَفًا، أَوْ يُسَجِّلَهُ فِي سِجِلِّ إِنْجَازَاتِهِ، بَلْ نَسَبَ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ صَاحِبِ الْفَضْلِ وَالمَنِّ، وَاعْتَرَفَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَذَا السَّدِّ وَتَدْمِيرِهِ فِي أَجَلٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الْكَهْف: ٩٨].

إِنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ قَدْ عَالَجَتْ فِي قَصَصِهَا هَذِهِ الْفِتَنَ الْأَرْبَعَ: فِتْنَةَ الشِّرْكِ فِي قِصَّةِ الْفِتْيَةِ، وَالْفِتْنَةَ بِالمَالِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَالْفِتْنَةَ بِالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ عليهما السلام، وَفِتْنَةَ السُّلْطَانِ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ. وَلَوْ نَظَرْنَا فِي حَالِ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ حَذَّرَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ فِتْنَةُ الدَّجَّالِ لَوَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الْفِتَنَ الْأَرْبَعَ قَدِ اجْتَمَعَتْ كُلُّهَا فِي الدَّجَّالِ؛ فَهُوَ يَفْتِنُ النَّاسَ فِي دِينِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ، وَيَقْهَرُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَكُونُ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَابْتِلَاءً؛ فَفِي فِتْنَةِ المَالِ يَمُرُّ الدَّجَّالُ بِالْخَرِبَةِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا، وَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ.

وَفِي فِتْنَةِ الْعِلْمِ يُخْبِرُ الدَّجَّالُ الرَّجُلَ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَيَقْطَعُ الرَّجُلَ بِسَيْفِهِ حَتَّىٰ يَمْشِيَ بَيْنَ نِصْفَيْهِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَأْتِي، وَيَشُقُّ الرَّجُلَ بِمِنْشَارِهِ مِنْ مَفْرِقِ رَأْسِهِ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ ثُمَّ يُعِيدُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَمَا كَانَ.

وَفِي فِتْنَةِ السُّلْطَانِ يَعِيثُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَيُسَلَّطُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَمَا مِنْ بَلَدٍ إِلَّا يَبْلُغُهَا سُلْطَانُهُ خَلَا مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَيَفِرُّ النَّاسُ إِلَىٰ الْجِبَالِ خَوْفًا مِنْ سُلْطَانِهِ وَبَطْشِهِ.

فَحَرِيٌّ بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، قَارِئًا لَهَا، مُتَدَبِّرًا لِآيَاتِهَا، عَارِفًا بِقَصَصِهَا، حَافِظًا لِلْآيَاتِ الْعَشْرِ مِنْ أَوَّلِهَا أَنْ يُحْفَظَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ فَلَا يَغْتَرَّ

بِكَذِبِهِ وَبَهْرَجِهِ، وَلَا تَنْطَلِي عَلَيْهِ أَفْعَالُهُ وَمَا سَخَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَلَا يَزْدَادُ فِيهِ وَفِي فِتْنَتِهِ إِلَّا بَصِيرَةً عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ، وَإِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مَعَ إِيمَانِهِ.

فَاعْرِفُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- لِهَذِهِ السُّورَةِ قَدْرَهَا، وَتَدَبَّرُوا آيَاتِهَا، وَانْتَفِعُوا بِقَصَصِهَا، وَلَا سِيَّمَا أَنَّكُمْ تُكَرِّرُونَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَاحْفَظُوهَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ فَاحْفَظُوا مِنْ آيَاتِهَا مَا يَعْصِمُكُمْ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ فَإِنَّهُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٢٤- كل يوم هو في شأن

٢/ ١/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُفْنِي الدُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، أَوَّلٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، وَآخِرٌ بِلَا انْتِهَاءٍ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِهِ، فَهُوَ المَحْمُودُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَسْتَحِقُّ كَمَالَ الْحَمْدِ سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، يَتَتَابَعُ تَتَابُعَ نِعَمِهِ عَلَيْنَا؛ فَكَمْ مِنْ عَيْبٍ سَتَرَهُ، وَذَنْبٍ غَفَرَهُ، وَبَلَاءٍ دَفَعَهُ!! وَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَسْبَغَهَا، وَنِقْمَةٍ رَفَعَهَا!! ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَمْحُو سَيِّئَاتٍ كُتِبَتْ، وَيُبَيِّضُ صَحَائِفَ سُوِّدَتْ، وَيُثَقِّلُ مَوَازِينَ خَفَّتْ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّكُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالْإِمْهَالِ، وَقَرِيبًا تُفَارِقُونَهَا إِلَىٰ دَارِ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١-٤٢]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَصَدِّقُوا بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَقَادِيرِهِ؛ فَلَا شَيْءَ يَقَعُ فِي الْكَوْنِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، عَلِمَهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ، وَشَاءَهُ وَأَرَادَهُ، وَخَلَقَهُ وَأَوْجَدَه. كُلُّ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ؛ فَيُعْطِيهِمْ سُؤْلَهُمْ، وَيَقْضِي شُؤُونَهُمْ، وَيُبَدِّلُ أَحْوَالَهُمْ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

رَوَىٰ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَخْفِضَ آخَرِينَ**»(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُرَبِّي صَغِيرًا، وَيَفُكُّ أَسِيرًا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، وَهُوَ مَرَدُّ حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ، وَمُنْتَهَىٰ شُكْرِهِمْ، وَصَرِيخُ الْأَخْيَارِ»(٢).

وَقَالَ سُوَيْدٌ الْفِزَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّ رَبَّكُمْ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: يُعْتِقُ رِقَابًا، وَيُقْحِمُ عِقَابًا، وَيُعْطِي رِغَابًا»(٣).

فَمِنْ شَأْنِهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَقْضِيهِ كُلَّ يَوْمٍ: أَنْ يُحْيِيَ وَيُمِيتَ، وَيُعِزَّ وَيُذِلَّ،

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ما أنكرت الجهمية (٢٠٢)، والبزار (٢٢٦٧)، والطبراني في الأوسط (٣١٤٠)، وفي مسند الشاميين (٢٢٠٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٠١)، والبيهقي في الشعب (١١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٥٢-٢٥٣)، وصححه ابن حبان (٦٨٩)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: «هذا إسناد حسن؛ لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان» (١/ ٢٨)، والوزير هو ابن صبيح الثقفي، قال أبو حاتم: صالح الحديث، وأورده ابن حبان في الثقات. ينظر: الجرح والتعديل (٩/ ٤٤)، والثقات (٩/ ٢٣٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة بعد أن ذكر له بعض الشواهد والمتابعات (٣٠١)، وقد علقه البخاري موقوفًا علىٰ أبي الدرداء في كتاب التفسير من صحيحه، تفسير سورة الرحمن (٤/ ١٨٤٧)، وينظر: تغليق التعليق (٤/ ٣٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤)، والدر المنثور (٧/ ٧٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤)، والدر المنثور (٧/ ٧٠٠)، وتفسير السمعاني (٥/ ٣٢٩).

وَيُعْطِي وَيَمْنَعَ، وَيَرْفَعَ وَيَضَعَ، وَيَشْفِيَ مَرِيضًا، وَيَفُكَّ عَانِيًا، وَيُفَرِّجَ مَكْرُوبًا، وَيُجِيبَ دَاعِيًا، وَيُعْطِيَ سَائِلًا، وَيَغْفِرَ ذَنْبًا، إِلَىٰ مَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ(٤).

وَمِنْ شَأْنِهِ ﷻ: أَنَّهُ يُخْرِجُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثَ أُمَمٍ؛ فَأُمَّةٌ يُخْرِجُهُمْ مِنْ أَصْلَابِ الْآبَاءِ إِلَىٰ أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ، وَأُمَّةٌ مِنَ الْأَرْحَامِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَأُمَّةٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْقُبُورِ، ثُمَّ يَرْتَحِلُونَ جَمِيعًا إِلَىٰ اللَّهِ ﷻ(٥).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هُوَ سَوْقُ الْمَقَادِيرِ إِلَىٰ الْمَوَاقِيتِ»(٦).

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «كُلُّ يَوْمٍ لَهُ إِلَىٰ الْعَبِيدِ بِرٌّ جَدِيدٌ»(٧).

لَا يَشْغَلُهُ سُبْحَانَهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغَلِّطُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يُبْرِمُهُ إِلْحَاحُ الْمُلِحِّينَ، وَلَا طُولُ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ، فَسُبْحَانَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ الَّذِي عَمَّتْ هِبَاتُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ! وَعَمَّ لُطْفُهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَاللَّحَظَاتِ، وَتَعَالَىٰ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِعْطَاءِ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، وَلَا اسْتِغْنَاءُ الْفُقَرَاءِ الْجَاهِلِينَ بِهِ وَبِكَرَمِهِ، وَهَذِهِ الشُّؤُونُ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ هِيَ تَقَادِيرُهُ وَتَدَابِيرُهُ الَّتِي قَدَّرَهَا فِي الْأَزَلِ وَقَضَاهَا، لَا يَزَالُ سُبْحَانَهُ يُمْضِيهَا وَيُنْفِذُهَا فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ(٨).

---

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠).
(٥) روح المعاني للألوسي (٢٧/ ١١١).
(٦) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٢٢٩)، وتفسير الثعالبي (٤/ ٢٤٤)، وتفسير ابن الجوزي (٨/ ١١٤).
(٧) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠).
(٨) تفسير السعدي (٨٣٠).

وَمِنْ جَمِيلِ مَا يُعْتَبَرُ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ: «أَنَّ أَحَدَ الْأُمَرَاءِ سَأَلَ وَزِيرَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهَا، وَاسْتَمْهَلَهُ إِلَىٰ الْغَدِ، فَانْصَرَفَ كَئِيبًا إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَقَالَ لَهُ غُلَامٌ لَهُ أَسْوَدُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: عُدْ إِلَىٰ الْأَمِيرِ فَإِنِّي أُفَسِّرُهَا لَهُ، فَدَعَاهُ فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، شَأْنُهُ ﷻ: أَنَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيَشْفِي سَقِيمًا، وَيَبْتَلِي مُعَافًىٰ، وَيُعَافِي مُبْتَلًىٰ، وَيُعِزُّ ذَلِيلًا، وَيُذِلُّ عَزِيزًا، وَيُفْقِرُ غَنِيًّا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ: فَرَّجْتَ عَنِّي فَرَّجَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِخَلْعِ ثِيَابِ الْوَزِيرِ، وَكَسَاهَا الْغُلَامَ، فَقَالَ الْغُلَامُ: هَذَا مِنْ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ»(٩).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الدَّهْرُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَوْمَانِ: أَحَدُهُمَا: الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مُدَّةُ الدُّنْيَا، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالْإِمَاتَةُ وَالْإِحْيَاءُ، وَثَانِيهِمَا: الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ»(١٠).

وَشُؤُونُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ، وَنِعَمُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ غَزِيرَةٌ، يَلْحَظُهَا الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، يُغَيِّرُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَلَا يَعْرِفُ سِرَّ ذَلِكَ، وَلَا كَيْفِيَّتَهُ، وَلَا مَتَىٰ يَكُونُ إِلَّا هُوَ ﷻ!

إِنَّ الْإِيمَانَ بِأَقْدَارِ اللَّهِ ﷻ هُوَ إِيمَانٌ بِقُدْرَتِهِ ﷻ، وَمَنْ نَفَىٰ الْقَدَرَ عَطَّلَ الْقُدْرَةَ؛ وَلِذَا جَاءَ عَنْ جَمْعٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ الْقَدَرَ هُوَ الْقُدْرَةُ(١١).

---

(٩) تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٧)، وتفسير النسفي (٤/ ٢٠٢).

(١٠) الكشاف (٤/ ٤٤٧)، وتفسير النسفي (٤/ ٢٠٢).

(١١) جاء ذلك عن عدد من السلف رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم، منهم:

أ- عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «القدر قدرة الله ﷻ، فمن كذب بالقدر فقد جحد قدرة الله ﷻ» أخرجه ابن بطة في الإبانة (١٥٦٢).

=

وَلِأَهَمِّيَّةِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ كَانَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، «**وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١٢).

وَرَاحَةُ الْعِبَادِ وَطُمَأْنِينَتُهُمْ، وَسَعَادَةُ قُلُوبِهِمْ، وَهَنَاءُ عَيْشِهِمْ؛ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِذَلِكَ، حَتَّىٰ لَا يَجْزَعَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا وَقَعَ مَا يَكْرَهُهُ، أَوْ تَخَلَّفَ مَا يَطْلُبُهُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ فِيمَا وَقَعَ مِنْ أَحْدَاثٍ خِلَالَ عَامِهِ الْمُنْصَرِمِ؛ لَعَجِبَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا، وَمَا ظَنَّ وُقُوعَهَا، وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرَادَ وُقُوعَهَا فَقَدَّرَهَا، سَوَاءً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَرْدِ نَفْسِهِ، فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أُسْرَتِهِ، أَوْ فِي وَظِيفَتِهِ وَعَمَلِهِ، مِنْ وُقُوعِ أُمُورٍ مَا كَانَ يَظُنُّهَا، أَوْ فَوَاتِهَا وَهُوَ يَطْلُبُهَا.

أَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ بَلَدِهِ أَوْ أُمَّتِهِ، أَوْ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ.

إِنَّ مُرَاجَعَةَ مَا وَقَعَ فِي الْعَامِ الْمُنْقَضِي لَمِمَّا يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ

= ب- زيد بن أسلم -رحمه الله تعالىٰ- مثل قول عمر ﷺ، أخرجه الفريابي (٢٠٧) والآجري في الشريعة (٤٨٢)، وابن بطة (١٨٠٥).

ج- سئل الإمام أحمد عن القدر فقال: «القدر قدرة الله تعالىٰ علىٰ العباد، فقال الرجل: إن زنىٰ فبقدر، وإن سرق فبقدر؟ قال: نعم، الله قدر عليه» أخرجه ابن بطة (١٨٧٩).

(١٢) هذا جزء من حديث عمر بن الخطاب ﷺ في قصة جبريل ﷺ لما تذاكر هو والنبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان، أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨)، وأبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٥)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام (٢٦١٠)، وابن حبان (١٧٣).

تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَيَدْفَعُهُ إِلَىٰ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ.

مَاتَ زُعَمَاءُ كَانُوا يُصَبِّحُونَ النَّاسَ وَيُمَسُّونَهُمْ فِي الصُّحُفِ وَالشَّاشَاتِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، فَخَلَفَهُمْ آخَرُونَ حَلُّوا مَكَانَهُمْ، وَكَانَ الْأَوَّلُونَ عِنْدَ النَّاسِ نَسِيًا مَنْسِيًّا(١٣).

رَفَعَ اللهُ تَعَالَىٰ أَقْوَامًا، فَنَالُوا فَوْقَ مُرَادِهِمْ، وَوَضَعَ آخَرِينَ مَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يُوضَعُونَ، وَإِلَىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ وَشَأْنُ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَجْرِي فِي عِبَادِهِ، وَحَتَّىٰ فِي بِدَايَةِ هَذَا الْعَامِ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَآنٍ؛ لَا خُرُوجَ لِلْمَخْلُوقَاتِ عَنْ تَقْدِيرِ الْخَالِقِ وَتَدْبِيرِهِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْعَامِ الْمَاضِي أَرَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، تَمَثَّلَ فِي طُوفَانٍ عَظِيمٍ أَتَىٰ عَلَىٰ الْمُدُنِ وَالْقُرَىٰ فَطَمَرَهَا، وَأَهْلَكَ بَشَرًا كَثِيرًا، وَقَفَ الْعَالَمُ كُلُّهُ أَمَامَهُ عَاجِزًا عَنْ تَخْفِيفِ آثَارِهِ، فَضْلًا عَنْ مَنْعِ وُقُوعِ مِثْلِهِ مُسْتَقْبَلًا(١٤).

وَفِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ شُؤُونٌ قَضَاهَا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَفِي مَغَارِبِهَا شُؤُونٌ أُخْرَىٰ.

وَفِي فِلَسْطِينَ شُؤُونٌ يُقَدِّرُهَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَفِي الْعِرَاقِ شُؤُونٌ، وَفِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ شُؤُونٌ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

شُؤُونٌ فِي السِّيَاسَاتِ وَمَصِيرِ الزُّعَمَاءِ وَالدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَشُؤُونٌ فِي الاقْتِصَادِ وَالْأَرْزَاقِ، وَشُؤُونٌ فِي الْحُرُوبِ وَالْعَسْكَرِيَّاتِ، وَشُؤُونٌ فِي السِّلْمِ وَإِبْرَامِ الِاتِّفَاقِيَّاتِ؛ فَالْكُلُّ عَبِيدُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ، فَلِمَاذَا يَخَافُ النَّاسُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟ وَلِمَاذَا

---

(١٣) ممن توفي من الزعماء في العام المنصرم: الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات، وياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية.

(١٤) هذا الطوفان هو التسونامي الذي حصل في شرق آسيا، وذهب ضحاياه أكثر من مئة وخمسين ألفا من البشر، وتنظر تفاصيله في خطبة: «حدثان كبيران» مجلد (٨)، رقم الخطبة (٣٣٢).

يَطْلُبُونَ الرِّزْقَ مِنْ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ وَلَا يَسْأَلُونَ الْغَنِيَّ الرَّزَّاقَ؟! لِمَاذَا يَخْشَىٰ الْمُؤْمِنُونَ عَبِيدًا مِثْلَهُمْ كَخَشْيَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً؟ وَلِمَاذَا تَتَعَلَّقُ قُلُوبُهُمْ بِمَنْ لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا؟! فَالشَّأْنُ شَأْنُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْكُلُّ عَبِيدُهُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، فَتَعَلَّقُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِرَبِّكُمْ، وَسَلُوهُ حَاجَاتِكُمْ، وَذَرُوا الْمَخْلُوقِينَ مِثْلَكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ مَهْمَا بَلَغُوا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّوكُمْ.

وَاسْتَقْبِلُوا عَامَكُمْ هَذَا بِتَجْدِيدِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا؛ فَإِنَّ أَعْمَارَكُمْ مَاضِيَةٌ كَمَا مَضَىٰ عَامُكُمْ هَذَا، وَكُلُّ عَبْدٍ سَيَجِدُ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أَحْسِنُوا فِيمَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ يُكَفَّرْ عَنْكُمْ مَا مَضَىٰ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَلْيَكُنْ عَامُكُمْ هَذَا خَيْرًا مِنْ عَامِكُمُ الَّذِي مَضَىٰ، وَلْيَكُنْ يَوْمُكُمْ خَيْرًا مِنْ أَمْسِكُمْ، وَغَدُكُمْ خَيْرًا مِنْ يَوْمِكُمْ. عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَخْتِمَ لَنَا أَجْمَعِينَ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَوَاقِبَ أُمُورِنَا إِلَىٰ خَيْرٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُؤْلِمَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي: اسْتِمْرَارُ احْتِلَالِ الْعِرَاقِ، وَمَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ ضَيَاعِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَأَذِيَّةِ كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَيْدِي الْفَجَرَةِ الْمُحْتَلِّينَ، وَخَاصَّةً فِي السُّجُونِ وَالْمُعْتَقَلَاتِ(١٥)؛ مِمَّا يَنْدَىٰ لَهُ الْجَبِينُ، وَيُحْزِنُ كُلَّ قَلْبٍ حَيٍّ سَلِيمٍ، وَهُوَ ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِخْوَانِنَا، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَأْجُرَهُمْ عَلَيْهِ عَظِيمَ الْأَجْرِ، وَأَنْ يَكْبِتَ عَدُوَّهُمْ، وَأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

وَابْتِلَاءٌ آخَرُ لِإِخْوَانِنَا فِي فِلَسْطِينَ؛ إِذْ عَانُوا كَلَبَ الْعَدُوِّ الْمُحْتَلِّ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ لَأْوَاءِ الصَّهَايِنَةِ أَشَدَّ الصَّبْرِ، ثَبَّتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ، وَسَدَّدَ أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ.

وَفِي خِضَمِّ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ اخْتُصَّتْ هَذِهِ

---

(١٥) هذا وقع في أول العام المنصرم؛ حيث سربت صور بعض المعتقلين في سجن «أبو غريب» في العراق، فكانت مأساوية، وانظر خطبة: «حقوق الأسرىٰ في الإسلام» مجلد (٩)، رقم الخطبة (٣٧٨).

الْبِلَادُ الْمُبَارَكَةُ بِبَلَاءٍ آخَرَ شَدِيدٍ؛ إِذْ انْبَرَىٰ بَعْضُ شَبَابِهَا لَهَا، فَخَرَجُوا عَنْ بَيْعَةِ إِمَامِهِمْ، وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ مَوْجَةَ التَّكْفِيرِ ثُمَّ التَّخْرِيبِ وَالتَّفْجِيرِ، فَخَالَفُوا النُّصُوصَ الْوَاضِحَةَ فِي وُجُوبِ الْبَيْعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَطَاعَةِ الْإِمَامِ الْمُسْلِمِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ، وَقَدْ شَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وَنَازَعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ، حَتَّىٰ اسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَسَاغُوا التَّخْرِيبَ فِي أَوْسَاطِهِمْ، فَأَشْمَتُوا بِالْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُفْسِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَرُدَّ إِلَىٰ الْحَقِّ ضَالَّهُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

إِنَّهَا ابْتِلَاءَاتٌ عِدَّةٌ، وَأَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ، حَوَاهَا عَامُنَا السَّالِفُ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَامُ عَامَ خَيْرٍ وَرَشَادٍ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَعَامَ نَصْرٍ وَتَمْكِينٍ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: انْتَشَرَتْ فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ ظَاهِرَةُ التَّهْنِئَةِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْرُوفًا عِنْدَنَا مِنْ قَبْلُ؛ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ.

وَالتَّحْقِيقُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَّ التَّهَانِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْعَادَاتِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَبْوَابِ الْعِبَادَاتِ، وَلَا زَالَ النَّاسُ يُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِتَجَدُّدِ النِّعَمِ، وَانْدِفَاعِ النِّقَمِ، كَالنَّجَاحِ فِي الدِّرَاسَةِ، وَالْحُصُولِ عَلَىٰ الْوَظِيفَةِ، وَالرِّبْحِ فِي التِّجَارَةِ، وَالْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ، وَكَبُلُوغِ رَمَضَانَ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ. وَوَرَدَ عَنِ السَّلَفِ التَّهْنِئَةُ بِرَمَضَانَ وَبِالْعِيدِ[16]، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ وَرَدَ عَنْهُمُ التَّهْنِئَةُ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ التَّهْنِئَةَ مِنْ أَبْوَابِ الْعَادَاتِ، فَالْأَصْلُ فِيهَا الْإِبَاحَةُ مَا لَمْ تَتَلَبَّسْ

---

(١٦) جاءت التهنئة بالعيد عن عدد من السلف منهم: أبو أمامة الباهلي، وواثلة بن الأسقع الليثي رضي الله عنهما، وعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وعبد الله بن بسر المازني، وخالد بن معدان، وراشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير بن نفير، وعبد الرحمن بن عائذ، =

بِمَحْظُورٍ آخَرَ، وَوَاقِعُ التَّهْنِئَةِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ لَيْسَ فِيهِ مَحْذُورٌ فِيمَا يَظْهَرُ لِي، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَشَبُّهٌ بِالْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ النَّصَارَىٰ يُهَنِّئُونَ بِالسَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ، وَالْيَهُودَ بِالسَّنَةِ الْعِبْرِيَّةِ، فَإِذَا انْتَشَرَتِ التَّهْنِئَةُ بِالسَّنَةِ الْهِجْرِيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَزَالَتِ الْخُصُوصِيَّةُ؛ انْتَفَىٰ التَّشَبُّهُ، وَزَالَ التَّحْرِيمُ، فَالْأَمْرُ فِيهَا وَاسِعٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَتَرْكُهَا أَوْلَىٰ وَأَحْوَطُ، لَكِنْ لَا يُنْكَرُ عَلَىٰ مَنْ فَعَلَهَا، وَهِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْمُبَاحَاتِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ الْمُنْذِرِيُّ أَنَّ الْحَافِظَ أَبَا الْحَسَنِ الْمَقْدِسِيَّ سُئِلَ عَنِ التَّهْنِئَةِ فِي أَوَائِلِ الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ، أَهُوَ بِدعَةٌ أَمْ لَا؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَزَالُوا مُخْتَلِفِينَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّهُ مُبَاحٌ، لَيْسَ بِسُنَّةٍ وَلَا بِدْعَةٍ(١٧).

وَيَنْبَغِي لِمَنِ اخْتَارَ أَنْ يُهَنِّئَ إِخْوَانَهُ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ طُولَ الْعُمْرِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ ﷻ، وَإِدْرَاكَ عَامٍ جَدِيدٍ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، مُؤَدٍّ لِلْفَرَائِضِ وَالْمَنْدُوبَاتِ، مُجْتَنِبٌ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ؛ لِتَكُونَ تَهْنِئَتُهُ تَهْنِئَةً بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



= وغيرهم، عليهم أجمعين رحمة الله تعالىٰ، ينظر في ذلك: المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٥٢)، والدعاء للطبراني (٢٨٨)، وسنن البيهقي (٣/ ٣١٩)، وتاريخ ابن عساكر (٦/ ٤٣٦-٢٤/ ١٥٤)، والثقات لابن حبان (٩/ ٩٠).

(١٧) الإقناع للشربيني (١/ ١٨٨)، ومغني المحتاج (١/ ٣١٦) ثم بعد مدة من كتابة هذا سمعت فتوىٰ مسجلة للشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- بالجواز، وأن الأمر فيها واسع، فالحمد لله كثيرًا.

٢٢٥- إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا

١٢/٤/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، وَتَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَقْسَمَ قَسَمًا عَظِيمًا عَلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْوَاقِعَة: ٨٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ وَاجْتَبَاهُ، وَرَفَعَهُ بِالْوَحْيِ وَأَعْلَاهُ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [الْقِيَامَة: ١٧-١٩]. صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَىٰ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَزَكَاءَ النُّفُوسِ فِي تَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الْحَشْر: ٢١].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَصَائِصُ الْقُرْآنِ وَأَوْصَافُهُ، وَعُلُومُهُ وَمَنَافِعُهُ؛ لَا يُطِيقُ عَدَّهَا الْعَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهَا الْحَاسِبُونَ؛ فَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ.

جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَمُعْجِزَةً بَاقِيَةً لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، دَعَا النَّاسَ بِهِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَخَلْعِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ.

قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فِي أَصْحَابِهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «**لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ**» مَعْنَاهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الذَّهَابُ، بَلْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْأَزْمَانِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «**تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» مَعْنَاهُ: يَكُونُ مَحْفُوظًا لَكَ فِي حَالَتَيِ النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ، وَقِيلَ: تَقْرَؤُهُ فِي يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ[٢].

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]؛ إِذْ حَفِظَهُ اللهُ ﷻ مِنْ تَحْرِيفِ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ، وَعَدَتْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ عَادِيَاتٌ مِنَ التَّتَارِ الْجَاهِلِينَ، وَعُبَّادِ الصَّلِيبِ الْحَاقِدِينَ، وَالْمُسْتَعْمِرِينَ الْمُفْسِدِينَ؛ لِيَنَالُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَنَالُوا مِنْ دِمَاءِ

---

(١) أخرجه من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ: مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وابن حبان (٦٥٣).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٧/ ١٩٨).

الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ مَا نَالُوا، وَأَفْسَدُوا فِي دِيَارِهِمْ مَا أَفْسَدُوا، وَعَجَزُوا عَنِ النَّيْلِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

لَمَّا نُبِّئَ رَسُولُنَا ﷺ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فَزِعَ أَشَدَّ الْفَزَعِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: **لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثِّرُونِي**»(٣).

لَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي سَيَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ كَلَامٌ عَظِيمُ الْمَنْزِلَةِ، ثَقِيلُ الْوَطْأَةِ، كَبِيرُ الشَّأْنِ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ٥]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَيْ كَلَامًا عَظِيمًا»(٤).

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ قَوْلًا ثَقِيلًا وَكَلَامًا عَظِيمًا وَهُوَ كَلَامُ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، الَّذِي طَلَبَ مُوسَىٰ عليه السلام مِنْهُ أَنْ يَرَاهُ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٣]؟

وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ثَقِيلٌ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛ فَلَا يُطِيقُهَا إِلَّا مَنْ هَدَاهُ

---

(٣) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في المقدمة، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (١٦٠). والرواية الثانية للبخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافق أحداهما الأخرىٰ غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٦٦)، ومسلم (١٦١) ومن حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٦).

اللهُ تَعَالَىٰ وَوَفَّقَهُ وَأَعَانَهُ، وَإِلَّا فَإِنَّ تَكَالِيفَهُ ثَقُلَتْ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وَهُوَ ثَقِيلٌ عَلَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَسَّرَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَآمَنُوا بِهِ، وَقَرَأُوهُ وَفَهِمُوهُ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وَثَوَابُ قِرَاءَتِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ثَقِيلٌ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوَازِينِ»(٥).

وَكَانَ حَالَ تَنَزُّلِهِ شَدِيدَ الْوَطْأَةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ تَعْتَرِيَهُ أَحْوَالٌ لَا يُطِيقُهَا الْبَشَرُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ثَبَّتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَىٰ تَلَقِّيهِ عَنْهُ، وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ﵁ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**. قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «إِنْ كَانَ لَيَنْزِلُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ ثُمَّ تَفِيضُ جَبْهَتُهُ عَرَقًا»(٦).

لَقَدْ عَايَشَهُ أَصْحَابُهُ ﵃، وَعَلِمُوا ثِقَلَ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ، وَجَرَتْ لَهُمْ مَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَإِذَا رَأَوْا مِنْهُ ﷺ تَغَيُّرًا عَلِمُوا أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَطَأْطَأُوا رُؤُوسَهُمْ، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَأَمْسَكُوا

---

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

عَنِ الْكَلَامِ؛ إِجْلَالًا لِلْقُرْآنِ، فَإِذَا رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ ﷺ وَأَنْصَتُوا؛ لِيَتَلَقَّوْا عَنْهُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: «كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ»(٧).

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ عُبَادَةُ ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَكَسَ رَأْسَهُ وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُؤُوسَهُمْ، فَلَمَّا أُتْلِيَ عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ»(٨) أَيْ: رُفِعَ عَنْهُ الْوَحْيُ رَفَعَ رَأْسَهُ.

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَّا يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ(٩).

وَرَوَىٰ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ فَقَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بُرَحَاءُ شَدِيدَةٌ، وَعَرِقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الْجُمَانِ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ الْقَتَبِ أَوْ كِسْرَةٍ، فَأَكْتُبُ وَهُوَ يُمْلِي عَلَيَّ، فَمَا أَفْرَغُ حَتَّىٰ تَكَادَ رِجْلِيَّ تَنْكَسِرُ مِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ أَقُولَ: لَا أَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيَّ أَبَدًا، فَإِذَا فَرَغْتُ قَالَ: اقْرَأْهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقْطٌ أَقَامَهُ، ثُمَّ أَخْرُجُ بِهِ إِلَىٰ النَّاسِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ(١٠).

---

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٤)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٨) أخرجه مسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٥).

(٩) أخرجه مسلم مطولًا في الجهاد والسير، باب فتح مكة (١٧٨٠)، والحاكم مختصرًا واللفظ له (٢/ ٢٤٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٩٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٨).

(١٠) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٤٢) رقم (٤٨٨٩)، والأوسط (١٩١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٧) رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَهُوَ عَلَىٰ دَابَّتِهِ تَأَثَّرَتْ دَابَّتُهُ بِثِقَلِ مَا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جِرَانَهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ، وَتَلَتْ عَائِشَةُ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٥]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١١).

وَفِي إِحْدَىٰ مَغَازِيهِ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «وَإِذَا أَصْحَابُهُ كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، وَإِذَا الْإِبِلُ قَدْ وَضَعَتْ جِرَانَهَا» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١٢).

وَمِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ وُقُوعُ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ عَلَىٰ رَجُلٍ آمَنَ بِهِ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْهُ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُفْتَرًىٰ؛ فَقَدْ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ اللهُ، فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا»(١٣).

(١١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٢٤)، والطبري (٢٩/ ١٢٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٩).

(١٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٨٦٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٨١٩)، وصححه ابن حبان (٧٢٠٧)، والحاكم (١/ ١٣٧).

(١٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢١)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨١).

فَحَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَفَضْلُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَنْ يُعَارِضَهُ مُعَارِضٌ إِلَّا كَانَ مَخْذُولًا مَرْذُولًا ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢]. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٨٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْمَلُوا بِكِتَابِ رَبِّكُمْ، وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا الْغِنَىٰ وَالْكِفَايَةَ عَنْ كُلِّ مَنَاهِجِ الْبَشَرِ وَأَفْكَارِهِمْ، وَبِهِمَا النَّجَاةُ فِي الدَّارَيْنِ، وَالسَّعَادَةُ فِي الْحَيَاتَيْنِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩-٧٠].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَإِعْجَازِهِ الظَّاهِرِ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ وَبَصِيرَةٍ: إِغَاظَتَهُ لِأَعْدَائِهِ مَعَ عَجْزِ أَعْدَائِهِ عَنِ النَّيْلِ مِنْهُ تَحْرِيفًا أَوْ تَبْدِيلًا، أَوْ مَحْوًا وَإِلْغَاءً، أَوْ صَرْفًا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

وَلَا زَالَ هَذَا الْقُرْآنُ عَظِيمًا عَزِيزًا ثَقِيلًا، يُغِيظُ أَعْدَاءَهُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ،

وَلَا حِيلَةَ لَهُمْ مَعَهُ؛ وَفِي الْقَدِيمِ قَالَ قَائِلُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٦].

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا اخْتَرَعَ صَهَايِنَةُ النَّصَارَىٰ قُرْآنًا سَمَّوْهُ فُرْقَانًا(١٤)؛ لِيَحُلَّ مَحَلَّ

---

(١٤) هذا إشارة إلىٰ ما نشرته بعض المجلات الإسلامية في الكويت حول توزيع الأمريكيين مصحفا نشرته داران أمريكيتان سمياته (الفرقان الحق) وزعموا أنه الكتاب المقدس للقرن الحادي والعشرين!! أو كتاب السلام!! أو مصحف الأديان الثلاثة!!
قدم له عضوا اللجنة المشرفة علىٰ تدوينه وترجمته ونشره المدعوان: الصفي والمهدي -كما ورد في مقدمته- وذكرا بأنه للأمة العربية خصوصًا، وللعالم الاسلامي عمومًا.
ويقع في ٣٦٦ صفحة من القطع المتوسط، ومترجم إلىٰ اللغتين العربية والإنجليزية .. ويوزع في الكويت علىٰ المتفوقين من أبناء الكويتيين الطلبة في المدارس الأجنبية الخاصة. التي أصبحت مرتعا خصبا للمنصرين.
يبتدئ هذا المصحف المخترع بمقدمة مسمومة ترسخ وتؤصل للخلط العقدي، وحرية الأديان في مرادات تنصيرية، زاعمة أن الفرقان الحق لكل إنسان بحاجة إلىٰ النور بدون تمييز لعنصره أو لونه أو جنسه أو أمته أو دينه.
يتألف قرآنهم هذا من ٧٧ سورة مختلقة وخاتمة، ومن أسماء تلك السور المفتراة: الفاتحة - المحبة - المسيح - الثالوث - المارقين - الصلب - الزنا - الماكرين - الرعاة - الإنجيل - الأساطير - الكافرين - التنزيل - التحريف - الجنة - الأضحىٰ - العبس - الشهيد .. إلخ.
ويفتتح ببسملة شركية هي: بسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد. مثلث التوحيد .. موحد التثليث ما تعدد.
يتجلىٰ فيها خلط واضح لمعنىٰ الإله، فهو الأب كما زعمت النصاري، ومثلث التوحيد، وهو الإله الواحد الأحد كما يعتقد المسلمون.
ثم تأتي سورة الفاتحة المزعومة بتلبيس إبليس في مطابقة اسمها لفاتحة القرآن العظيم .. ثم سورة النور .. ثم السلام .. وهكذا.
وفي سوره آيات مفتراة تنضح بالباطل، وتفيض بالإفك والافتراء ومن ذلك:
١- ما جاء في سورة السلام (والذين اشتروا الضلالة وأكرهوا عبادنا بالسيف ليكفروا بالحق ويؤمنوا بالباطل أولئك هم أعداء الدين القيم وأعداء عبادنا المؤمنين).
٢- قولهم افتراء علىٰ الله: (يا أيها الناس لقد كنتم أمواتا فأحييناكم بكلمة الإنجيل =

. . . .

= الحق. ثم نحييكم بنور الفرقان الحق).
٣- قولهم: (لقد افتريتم علينا كذبًا بأنا حرمنا القتال في الشهر الحرام ثم نسخنا ما حرمنا فحللنا فيه قتالًا كبيرًا).
وهكذا يحللون لأنفسهم القتال في الأشهر الحرم، ولعلهم يقصدون بذلك حربهم التي شنوها في رمضان علىٰ الأفغان وفي الأشهر الحرم علىٰ العراق.
٤- قولهم في سورة التوحيد المزعومة: (وما كان لكم أن تجادلوا عبادنا المؤمنين في إيمانهم وتكفروهم بكفركم فسواء تجلينا واحدا أو ثلاثة أو تسعة وتسعين فلا تقولوا ما ليس لكم به من علم وإنا أعلم من ضل عن السبيل).
٥- قولهم في سورة المسيح: (وزعمتم بأن الإنجيل محرف بعضه فنبذتم جله وراء ظهوركم). فهم يعترضون علىٰ القرآن في بيانه حقيقة تحريفهم للإنجيل والتوراة.
٦- اتهامهم المسلمين بالنفاق في مثل قولهم: (وقلتم: آمنا بالله وبما أوتي عيسىٰ من ربه، ثم تلوتم منكرين .. ومن يبتغ غير ملتنا دينا فلن يقبل منه .. وهذا قول المنافقين).
٧- قولهم في سورة الصلب: (إنما صلبوا عيسىٰ المسيح ابن مريم جسدا بشرا سويا وقتلوه يقينا) ... يردون بهذا الإفك المفترىٰ قول الله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.
٨- قولهم في سورة الثالوث: (ونحن الله الرحمن الرحيم ثالوث فرد إله واحد لا شريك لنا في العالمين).
٩- قولهم في سورة الثالوث: (إن أهل الضلال من عبادنا أشركوا بنا شركا عظيما فجعلونا تسعة وتسعين شريكا بصفات متضاربة وأسماء للإنس والجان يدعونني بها وما أنزلنا بها من سلطان .. وافتروا علينا كذبا بأنا الجبار المنتقم المهلك المتكبر المذل، وحاشا لنا أن نتصف بإفك المفترين ونزهنا عما يصفون) منكرين بإفكهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾. وقوله عز من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
١٠- قولهم في سورة الموعظة ملغين الجهاد، ناشرين ثقافة الاستسلام والخضوع والضعف والجبن في ديار المسلمين وعقائدهم: (وزعمتم بأنا قلنا قاتلوا في سبيل الله وحرضوا المؤمنين علىٰ القتال وما كان القتال سبيلنا وما كنا لنحرض المؤمنين علىٰ القتال إن ذلك إلا تحريض شيطان رجيم لقوم مجرمين). هل أصبح الجهاد إجراما؟! وهل أصبح أمر الله بتحريض المؤمنين قول شيطان رجيم؟! تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا.
١١- قولهم في سورة الصلاح ملغين ركن الولاء والبراء: (يا أيها الذين ضلوا من عبادنا =

. . . .

= هل ندلكم علىٰ تجارة تنجيكم من عذاب أليم تحابوا ولا تباغضوا وأحبوا ولا تكرهوا أعداءكم، فالمحبة سنتنا وصراطنا المستقيم .. وسكوا سيوفكم سككا ورماحكم مناجل ومن جني أيديكم تأكلون) يريدون بذلك أن يصبح المسلمون أهل جزية وصغار وأهل زروع ودنيا .. ومصانع السلاح بأيديهم، والقوة ملكهم وحدهم!! فأين هم من قول الله ﷻ في القرآن العظيم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٢- قولهم في سورة الصلاح أيضا: (ولا تطيعوا أمر الشيطان ولا تصدقوه إن قال لكم: كلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم).

١٣- قولهم في السورة نفسها: (وكم من فئة قليلة مؤمنة غلبت فئة كثيرة كافرة بالمحبة والرحمة والسلام).

١٤- قولهم في سورة الطهر: (وما كان النجس والطمث والمحيض والغائط والتيمم والنكاح والهجر والضرب والطلاق إلا كومة ركس لفظها الشيطان بلسانكم وما كانت من وحينا وما أنزلنا بها من سلطان).

١٥- قولهم أخزاهم الله تعالىٰ في سورة الطهر: (وقلتم إفكا لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .. وأمرتم باقترافه مثنىٰ وثلاث ورباع أو ما ملكت أيمانكم، ولا جناح عليكم إذا طلقتم النساء فإن طلقتموهن فلا يحللن لكم من بعد حتىٰ ينكحن أزواجا غيركم فهل بعد هذا من زنا وفحش وفجور). تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا ..

١٦- قولهم في سورة الغرانيق: (يا أيها الذين كفروا من عبادنا لقد ضل رائدكم وقد غوىٰ .. إن هو إلا وحي إفك يوحىٰ علمه مريد القوىٰ .. فرأىٰ من مكائد الشيطان الكبرىٰ. كلما مسه طائف من الشيطان زجره صحبه فأخفىٰ ما أبدىٰ .. وإذا خلا به قال: إني معك، فقد اتخذ الشيطان وليا من دوننا .. فلا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس إذ ينزل عليه رجزا) تعالىٰ الله عن إفكهم، وتنزه الرسول ﷺ عن وصفهم.

١٧- قولهم أخزاهم الله تعالىٰ: (وهن حرث لكم تأتون حرثكم أني شئتم، ذلك هو الظلم والفجور فأين العدل والخلق الكريم؟ وبدأنا خلقكم بآدم واحد وحواء واحدة فتوبوا عن شرك الزنا ووحدوا أنفسكم بأزواجكم .. فللزوج الذكر الواحد زوجة أنثىٰ واحدة وما زاد عن ذلك فهو من الشيطان الرجيم .. فالمرأة بشرعتكم نصف وارث فللذكر مثل حظ الأنثيين وهي نصف شاهد فإن لم يكن رجلان فرجل وامرأتان فللرجال عليهن درجة، =

. . . .

= وهذا عدل الظالمين .. واذا خشيتم عليهن الفتنة غيرة احتبستوهن بقولكم: قرن في بيوتكن ألا ساء حكم الظالمين قرارا .. فأي سلعة تبتاعون وأي بهيمة تقتنون وتسوسون).
١٨- قولهم في سورة الزنا: (يا أهل السفاح من عبادنا الضالين: لقد دفعتم بأنفسكم إلىٰ الزنا بما طاب لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع أو ما ملكت أيمانكم فعارضتم سنتنا في الإنجيل الحق بأن من نظر لأنثىٰ بعين الشهوة، فقد زنا بها في قلبه السقيم، ومن أشرك بزوجة أخرىٰ فقد زنا وأوقعها في الزنا والفجور).
١٩- قولهم في سورة المنافقين واصفين الله ﷻ بالشيطان تعالىٰ الله عن إفكهم ولعنهم وأخزاهم: (ومكرتم ومكر الشيطان والشيطان خير الماكرين .. وطبع الشيطان علىٰ قلوبكم وسمعكم وأبصاركم فأنتم قوم لا تفقهون).
٢٠- قولهم في سورة الجزية: (زعمتم بأننا قلنا: قاتلوا الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .. يا أهل الضلال من عبادنا: إنما دين الحق هو دين الإنجيل والفرقان الحق من بعده فمن ابتغىٰ غير ذلك دينا فلن يقبل منه فقد كفر بدين الحق كفرا).
تلك أمانيهم أن نكفر بالقرآن العظيم وبآيات الله ﷻ ونتبع إنجيلهم المحرف وفرقانهم المكذوب علىٰ الله، ولكن هيهات لهم، والقرآن محفوظ ودين الله تعالىٰ غالب، ولو كره الكافرون، فليفتروا ما هم مفترون، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون.
ثم بعد نقل هذا من بعض المجلات الكويتية وقت نشرها له بسنوات، وقفت علىٰ مصحفهم (فرقان الحق) فإذا هم قد طبعوه بحجم المصحف الذي يطبع في المدينة النبوية وعلىٰ هيئته؛ ليغروا به السذج من الناس، وفي كل صفحة منه عمودان للآيات بالعربي والإنجليزي، وأكثره تركيب من ألفاظ من القرآن ينتقونها بما يوافق أغراضهم وخلطها بعبارات من الإنجيل.
ثم وقفت بعد ذلك علىٰ دراسة وافية لفرقان الحق هذا، مطبوعة ومحفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية، أعدها الدكتور صلاح الخالدي؛ ذبا عن القرآن ودفاعا عنه، فجزاه الله تعالىٰ خيرا.
هذا؛ وقد دعاني فعلهم القبيح لتتبع محاولات اختراع قرآن يكونا بديلا عن كتاب الله تعالىٰ، فوقفت علىٰ إحدىٰ عشرة محاولة من مسيلمة الكذاب إلىٰ فرقان الحق هذا، وأكثر المحاولات كانت بعد القرن الحادي عشر الهجري، وجلها من أعاجم، كما وضع =

كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي أَغَاظَهُمْ أَشَدَّ الْغَيْظِ، فَمَا الْتَفَتَ أَحَدٌ إِلَىٰ قُرْآنِهِمُ الَّذِي أَمْلَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي كِتَابَتِهِ وَطِبَاعَتِهِ وَتَوْزِيعِهِ

= اليزيدون قرآنا لهم، ووضع البابيون كتاب البيان قرآنا لهم، ثم جاء البهائيون فنسخوا قرآن البابيين بكتاب سموه الأقدس جعلوه قرآنهم، والدروز وضعوا كتابا سموه المنفرد بذاته وهو قرآنهم، وكذلك فعل النصيرون، وكلها كتب وقفت عليها كاملة أو علىٰ قطع منها فإذا هي طلاسم وخزعبلات، وكثير منها جمل غير مفهومة، وفيها ركاكة في الأسلوب، ولعل سبب ذلك أن من كتبوها من الأعاجم الذين تعلموا العربية. وهذا دعاني إلىٰ التأمل أن الله تعالىٰ لما تحدىٰ الناس أن يأتوا بمثل القرآن، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة مثله، أنه سبحانه ما صرف الناس عن محاولة ذلك، ولكن الناس عجزوا كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وأن العرب الأقحاح في القرون الأولىٰ لم يحاولوا؛ لعلمهم أنه لا أحد يأتي بمثله، إلا ما كان من أمر مسيلمة الكذاب، وفعله صار أضحوكة للعرب في وقته وبعده. وأما ما نقل عن محاولات للمعري ثم المتنبي فلا يثبت منها شيء حسب علمي، وقد قيل: إن خصومهم رموهم بذلك للنيل منهم؛ حسدًا لهم.

وقد نقل الماوردي عن أبي عبيد: أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر علىٰ مثل هذا الكلام. تفسير الماوردي (١/ ٣٠).

بيد أنه لما جاء الأعاجم الذين لا يعرفون لسان العرب تمام المعرفة ظنوا أنهم بالاقتباس من القرآن، وتركيب بعض ألفاظه مع ألفاظ أخرىٰ ينقلونها من مصادر شتىٰ، وكلام يخترعونه ويؤلفون بينه وبين ألفاظ القرآن أنهم ينجحون في ذلك، لكنهم صاروا هم وكتبهم أضحوكة لمن يعرف العربية ويتذوقها، كما كان مسيلمة الكذاب أضحوكة قبلهم.

وتالله إن هذا لمن أعظم جوانب الإعجاز في القرآن، أن يتحدىٰ الله تعالىٰ الإنس والجن علىٰ الإتيان بمثل كلامه سبحانه، المنزل بلغتهم، ثم يعجزون عن ذلك، وتكون المحاولات علىٰ قلتها غاية في السخف والانحطاط لغة ومعنىٰ، ولا يزال التحدي قائمًا إلىٰ آخر الزمان؛ فسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

سُدًىٰ، وَسَتَكُونُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةً وَنَدَامَةً.

وَلَمَّا ضَاقُوا بِالْقُرْآنِ ذَرْعًا، وَأَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَعَجَزُوا عَنْ صَرْفِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ؛ أَوْعَزُوا لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُحَرِّفِينَ أَنْ يُعِيدُوا قِرَاءَتَهُ وَتَفْسِيرَهُ بِمَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَفْكَارِ الْقَوْمِ؛ لِيُفَسِّرُوا لَنَا الْقُرْآنَ تَفْسِيرًا لِيبْرَالِيًّا، وَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَمَا اسْتَمَعَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ وُكَلَائِهِمُ الْمُحَرِّفِينَ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ.

بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَتَعْجَبُونَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِنْ جُنَّ جُنُونُ الْقَوْمِ فَأَهَانُوا الْقُرْآنَ بِوَطْئِهِ بِالْأَقْدَامِ، وَرَمْيِهِ فِي دَوْرَاتِ الْمِيَاهِ(١٥)، لَيْسَ هَذَا بِمُسْتَغْرَبٍ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ

(١٥) نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية، الصادرة في يوم الإثنين ١/ ٤/ ١٤٢٦ الموافق ٩/ ٥/ ٢٠٠٥م، أن بعض جنود الجيش الأمريكي في قاعدة غوانتانامو الأمريكية بكوبا قاموا بتدنيس المصحف الشريف، وإلقائه في المراحيض، ؛ لإيذاء السجناء المسلمين. وغضب المسلمون أشد الغضب من هذه الإهانة لكتاب ربهم تبارك وتعالىٰ، وكان بعض من أطلق سراحهم في العام الماضي قد ذكروا أن المحققين الأمريكيين يدوسون المصحف بأقدامهم، ويتبولون عليه؛ لإهانة هؤلاء الأسرىٰ الذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

ومن هؤلاء الأسرىٰ المواطن الأردني (وسام عبد الرحمن أحمد المكنىٰ بأبي عبيدة) وهو أول من كشف عن إهانة القرآن وقال لموقع (إسلام أون لاين.نت) في يوليو ٢٠٠٤م إنه شاهد صنوفا من العذاب والتنكيل في جوانتانامو، كان أقساها وأشدها إيلاما إهانة القرآن الكريم من قبل حراس المعتقل الذين لم يتورعوا عن البول عليه.

ونقلت المجلة في عددها الأخير عن المحامي: مارك فالكوف، الذي يدافع عن عدد من معتقلي غوانتانامو قوله: إن ثلاثة وعشرين معتقلا حاولوا الانتحار في ٢٣ آب/ اغسطس ٢٠٠٣م؛ لأن حراسا ألقوا مصاحف علىٰ الأرض قبل أن يدوسوا عليها.

وفي يوم الأحد٧/ ٤/ ١٤٢٦ الموافق١٥/ ٥/ ٢٠٠٥م أصدر مجمع الفقه الإسلامي بجدة، بيانا استنكر فيه هذه الجريمة البشعة جاء فيه: (إن الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بجدة المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، تعبر باسم شعوب الأمة الإسلامية وعلمائها وفقهائها عن سخطهم الشديد واستنكارهم الكبير لما نقلته وكالات الأنباء العالمية استنادا إلىٰ مجلة (نيوزويك) الأمريكية، الصادرة في ٩ مايو ٢٠٠٥م، من أخبار مزعجة حول قيام بعض جنود الجيش الأمريكي في قاعدة غوانتانامو الأمريكية بكوبا، بتدنيس المصحف =

. . . .

= الشريف وإلقائه في المراحيض، قصد إيذاء السجناء المسلمين، ومن ورائهم من عامة المسلمين، وأهل الديانات الإلهية المعترفين بأن الكتاب المنزل علىٰ الرسول هو كمثله من الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل، واجب احترامها وتقديسها.

ومعلوم أن المصحف الشريف يحتوي بين دفتيه كلام الله جل وعلا المنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ، المنقول عنه متواترا، وهو مقدس جليل القدر متعبد بتلاوته. قال الله في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وهو أكبر معجزات النبي ﷺ، وأي انتهاك لحرمته وقدسيته يعتبر من أشد الموبقات جرمًا، ولا يمكن للمسلمين التسامح فيه.

والمجمع إذ يصدر هذا البيان يأمل من السلطات الأمريكية المختصة أن تحقق في الأمر بجدية وسرعة، وتصدر أشد العقوبات علىٰ مرتكبيه، عقوبة لهم وردعا لأمثالهم، فقد أجج مشاعر المسلمين، وألهب نفوسهم في سائر بقاع العالم، وهذا ما يزيد في تباعد الشقة بين المسلمين والغرب، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وطالبت (منظمة المؤتمر الإسلامي) بمحاكمة المسئولين عن انتهاك حرمة القرآن الكريم في معتقل جوانتانامو الأمريكي بكوبا، في ظل غضب إسلامي عارم في العديد من الدول الإسلامية عبر عن نفسه في صورة احتجاجات سالت الدماء في بعضها.

ثم صدر عن مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد آل الشيخ بيان حول هذا، نصه:

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه أما بعد:

فإن الله ﷻ أرسل رسوله محمدا ﷺ بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وأنزل عليه خير كتبه القرآن الكريم ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وأقسم الله سبحانه علىٰ تكريم كتابه وصيانته وأنه منزل من عنده بقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

فالقرآن العظيم حبل الله المتين وصراطه المستقيم أنزله الله لهداية الخلق أجمعين، وهو الأصل الأول الذي يتلقىٰ منه المسلم أحكام دينه وما يجب عليه تجاه ربه أو نبيه أو دينه أو الخلق أجمعين، والأصل الثاني هو سنة المصطفىٰ ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

ومكانة القرآن العظيم لدىٰ جميع المسلمين لا تعدلها مكانة أخرىٰ، فهو من أقدس =

. . . .

= المقدسات في نفس كل مسلم، فالكل يتلوه ويتدبر معانيه ويحافظ عليه ويعمل بما جاء فيه، ويدافع عنه بكل ما يستطيع.

وبمناسبة ما تناقلته وكالات الأنباء، وردده وسائل الإعلام المختلفة نقلا عن مجلة (نيوزويك) الأمريكية من انتهاك لحرمة هذا الكتاب الكريم علىٰ أيدي مسئولين في معسكر جوانتانامو بكوبا؛ حيث قاموا بتمزيق نسخ من القرآن وتدنيس أوراقه ودوسها بالأقدام فإننا نستنكر وندين هذا العمل الآثم الموجه لأقدس مقدسات المسلمين كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ويتعين علىٰ الجهات المسئولة عمن قاموا بهذا العمل المشين سرعة التحقيق في هذه الواقعة؛ وإيضاح الحقيقة كاملة، ومن ثم إيقاع الجزاء الرادع لمن يثبت تورطهم في هذا التصرف اللامسئول؛ إعذارا إلىٰ الله أولا، وتخفيفا للأسىٰ والأسف الذي أوجده هذا التصرف الآثم في نفوس جميع المسلمين ثانيا.

فاللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء بكتابك الكريم، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ.

وصدرت بيانات كثيرة من علماء المسلمين في مصر وماليزيا وأندونيسيا والباكستان والهند وغيرها، وكذلك من المراكز الإسلامية في بلاد الغرب.

وفي الأردن أفتت رئاسة لجنة علما ء الشريعة الإسلامية بحزب جبهة العمل الإسلامي بقتال الاحتلالين الأمريكي والصهيوني في كل من العراق وفلسطين، وإخراجهم من هناك؛ ردا علىٰ تدنيس القرآن الكريم، واستمرار عدوانهما علىٰ المسلمين.

وقال الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني رئيس لجنة علماء الشريعة في حزب جبهة العمل الإسلامي في فتوىٰ ضمن بيان: (يتوجب علىٰ المسلمين جميعا شعوبا وحكومات وقف هذا العدوان بالرفض والإدانة لجريمة تدنيس المصحف الكريم، والتحرك لنصرة الكتاب العزيز، والعمل لإخراج القواعد الأمريكية من البلاد الإسلامية، ومقاطعة البضائع الأمريكية، والعمل بكل السبل لتحرير بلاد العرب والمسلمين من كل أشكال الاستعمار والاحتلال وفي مقدمتهما الأمريكي والصهيوني).

كما دعا الكيلاني في بيانه المسلمين حكاما وأفرادا إلىٰ الاتحاد دفاعا عن الدين الإسلامي والقرآن والمقدسات وشرف الأمة.

واعتبر أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اقترفت جريمة تدنيس القرآن، إلىٰ جانب جرائمها السابقة بإصدار ما يسمىٰ بالفرقان الأمريكي المحرف لآيات الله، المشحون =

الْقُرْآنَ ثَقِيلٌ عَظِيمٌ يَسْتَعْصِي عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِضَعْفِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي أَفْكَارِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمُ الَّتِي عَجَزُوا عَنْ إِقْنَاعِ الْعَالَمِ بِهَا رَغْمَ مَا يَمْتَلِكُونَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُوَّةِ المَادِّيَّةِ!!

إِنَّهَا الْهَزِيمَةُ الَّتِي حَاقَتْ بِهِمْ مَعَ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَلَوْ كَانُوا أُسَارَىٰ فِي سُجُونِهِمْ، ضُعَفَاءَ فِي قُيُودِهِمْ؛ فَقُوَّتُهُمْ فِي كَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، وَضَعْفُ أَعْدَائِهِمْ فِي مُعَارَضَتِهِمْ لَهُ، وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ غَالِبٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

إِنَّهُمْ بِفِعْلِهِمُ الدَّنِيءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الْعَجْزِ وَالْفَشَلِ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ، وَيَسْتَجْلِبُونَ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَيُعْطُونَ أَعْدَاءَهُمُ الَّذِينَ نَكَأُوا فِيهِمْ أَشَدَّ النِّكَايَةِ -وَلَا يَزَالُونَ- يُعْطُونَهُمُ الْقُوَّةَ وَالتَّأْيِيدَ مِنْ كُلِّ الْعَالَمِ، وَخَاصَّةً المُسْلِمِينَ، وَيُحْرِجُونَ أَتْبَاعَهُمْ وَالمُسَارِعِينَ فِيهِمْ أَبْلَغَ الْحَرَجِ، وَيَفْضَحُونَهُمْ أَشَدَّ الْفَضِيحَةِ، وَيُقِيمُونَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَا يَكَادُ المُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَفْرَحُونَ بِرَأْبِ الصَّدْعِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَيُحَسِّنُونَ الْعَلَاقَةَ مَعَهُمْ إِلَّا قَابَلُوهُمْ بِدَاهِيَةٍ تَزِيدُ الشُّقَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَتُثْبِتُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِدِينِنَا وَأُمَّتِنَا وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ المُنَافِقُونَ وَالمُغَفَّلُونَ.

وَهُمْ مُنْذُ اعْتِدَائِهِمْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقَصُّدِهِمُ المُسْلِمِينَ بِالْإِيذَاءِ وَالتَّسَلُّطِ لَمْ يَرَوْا خَيْرًا وَلَنْ يَجِدُوهُ فِي مُقْتَبَلِ الْأَيَّامِ. وَسِيَاسَاتُهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ فَشَلٍ إِلَىٰ فَشَلٍ، وَفُضِحُوا أَمَامَ الْعَالَمِ شَرَّ فَضِيحَةٍ.

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ تَدْنِيسَهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَمُؤْذِنٌ بِعُقُوبَتِهِمُ الْعَاجِلَةِ مِنْ عِنْدِهِ ﷻ، أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ المُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَزْعَجُوهُمْ فِي الْعِرَاقِ وَأَفْغَانِسْتَانَ.

= بالأباطيل والعدوان علىٰ آيات الله، المزور لأسماء السور ومعانيها، إلىٰ جانب سعيها مع حكومة شارون وكيانه لهدم المسجد الأقصىٰ وبناء الهيكل المزعوم.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ وَالمُؤَرِّخُونَ إِبَّانَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ أَنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا يُحَاصِرُونَ النَّصَارَىٰ الْإِفْرِنْجَ فِي بَعْضِ حُصُونِهِمْ فِي الشَّامِ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ فَتْحَهُ وَلَا اقْتِحَامَهُ، حَتَّىٰ كَادُوا يَيْأَسُونَ مِنْهُ، فَيَتَعَرَّضُ أَهْلُهُ لِسَبِّ الْقُرْآنِ وَإِهَانَتِهِ وَسَبِّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْوَقِيعَةِ فِيهِ فَيُعَجِّلُ اللهُ تَعَالَىٰ فَتْحَهُ عَقِبَ ذَلِكَ(١٦).

حَتَّىٰ نُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ قَوْلُهُ: إِنْ كُنَّا لَنَتَبَاشَرُ بِتَعْجِيلِ الْفَتْحِ إِذَا سَمِعْنَاهُمْ يَقَعُونَ فِي ذَلِكَ، مَعَ امْتِلَاءِ الْقُلُوبِ غَيْظًا عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا.

فَمَا فَعَلَهُ هَؤُلَاءِ الصَّهَايِنَةُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرُ شُؤْمٍ عَلَيْهِمْ لَا عَافِيَةَ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلُوا بِكِتَابِكَ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ مُسَارِعٍ فِيهِمْ، أَوْ مُدَافِعٍ عَنْهُمْ، أَوْ دَاعٍ إِلَىٰ مَذَاهِبِهِمْ، اللَّهُمَّ خُصَّهُمْ بِعَذَابِكَ، وَلَا تَجْعَلْهُ عَامًّا عَلَىٰ عِبَادِكَ.

اللَّهُمَّ نَكِّسْ رَايَاتِهِمْ، وَفَرِّقْ جُمُوعَهُمْ، وَمَزِّقْهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ، وَأَخْرِجْهُمْ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ، وَاجْعَلْهُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ. أَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ المَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ، عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ . . .



(١٦) ينظر: الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (٢/ ٢٣٣-٢٣٤)

٢٢٦- ألهاكم التكاثر (١)

٣٠/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ هُدًىٰ لِلْمُتَّقِينَ، وَجَعَلَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

هُوَ رَبِيعُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَنُورُ صَدْرِهِ، وَجَلَاءُ حُزْنِهِ، وَذَهَابُ هَمِّهِ، وَسَلَا نَفْسِهِ، لَا غِنَىٰ لِمُؤْمِنٍ عَنْهُ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِهِ، مَا دَاخَلَتْ آيَاتُهُ قَلْبًا إِلَّا أَصْلَحَتْهُ، وَلَا عَمِلَ بِهَا عَبْدٌ إِلَّا سَعِدَ، وَلَا قَامَتْ بِهَا جَمَاعَةٌ إِلَّا أَفْلَحَتْ.

لَقَدْ دَلَّنَا كِتَابُ رَبِّنَا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحَذَّرَنَا مِمَّا يَضُرُّنَا وَيُهْلِكُنَا، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا، وَوَعْدًا وَوَعِيدًا، وَضَرَبَ لَنَا الْأَمْثَالَ، وَقَصَّ عَلَيْنَا الْأَخْبَارَ، وَأَمَرَنَا بِالِاعْتِبَارِ.

وَفِي سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ الْعَظِيمَةِ حَذَّرَنَا رَبُّنَا مِنَ اللَّهْوِ بِالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا، وَزَجَرَنَا عَنِ التَّكَاثُرِ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ إِذْ إِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ حِسَابٌ شَدِيدٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

سُورَةٌ مَعْدُودَةُ الْآيَاتِ، قَلِيلَةُ الْكَلِمَاتِ، فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ مَا يَقْرَعُ الْأَسْمَاعَ، وَيُحْيِي الْقُلُوبَ، وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، فَلَا يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ أَلْهَتْهُ وَشَغَلَتْهُ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَغَلَ الْعَبْدَ عَمَّا يَنْفَعُهُ فَهُوَ مِنَ اللَّهْوِ، وَأَكْثَرُ مَا يَشْغَلُ النَّاسَ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ: التَّكَاثُرُ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ تَكَاثُرٌ فِيهِ، وَتَفَاخُرٌ بِهِ، وَتَنَافُسٌ عَلَيْهِ، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه فَقَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ**

إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَىٰ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَىٰ، أَوْ أَعْطَىٰ فَاقْتَنَىٰ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وَإِنَّمَا تَكَاثَرَ النَّاسُ بِمَا تَكَاثَرُوا بِهِ تَوْقًا إِلَىٰ السَّعَادَةِ، وَطَلَبًا لِلرَّاحَةِ، يَنْشُدُونَ بِتَكَاثُرِهِمْ مُنَافَسَةَ النَّاسِ، وَالتَّفَوُّقَ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ مَا هُوَ مَحْمُودٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَالْمَحْمُودُ مِنَ التَّكَاثُرِ: مَا كَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَعُلُوم نَافِعَةٍ، وَنَحْوِهَا، لَا يَبْتَغِي الْمُكَاثِرُ بِهَا عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَبْتَغِي رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالصَّالِحُونَ بَعْدَهُمْ؛ إِذْ كَانَ تَكَاثُرُهُمْ فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ يَصِفُ الصِّدِّيقَ رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ مَا سَابَقْتُهُ إِلَىٰ خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ»[٣].

وَالتَّكَاثُرُ الْمَذْمُومُ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَمِنْهُ مَا هُوَ حِسِّيٌّ كَالتَّكَاثُرِ فِي الْأَمْوَالِ وَالزُّرُوعِ، وَالْبِنَاءِ وَالْمَرَاكِبِ، وَالْأَثَاثِ وَالْمَتَاعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ مِمَّا يُوْصِلُ أَصْحَابَهُ إِلَىٰ السَّرَفِ الْمَذْمُومِ، وَالتَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّثَاقُلِ عَنِ الْوَاجِبَاتِ،

---

(١) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، والترمذي في الزهد، باب (٣١) (٢٣٤٢)، وفي التفسير، باب ومن سورة التكاثر (٣٣٥٤)، والنسائي في الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية (٦/ ٢٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٤)، وعبد بن حميد (٥١٣)، وابن حبان (٧٠١)، ووهم الحاكم فاستدركه وقال: صحيح ولم يخرجاه (٤/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٨)، وابن حبان (٣٢٤٤).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ (١٩٤)، والبيهقي (١/ ٤٥٢)، والطبراني في الكبير (٩/ ٦٩) رقم (٨٤٢٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٥٦)، والضياء في المختارة (١٤)، والحاكم (٢/ ٢٤٦).

وَالْوُقُوعِ فِي المَكْرُوهَاتِ وَالمُحَرَّمَاتِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا اسْتِحْضَارُ الْحِسَابِ عَلَيْهِ لَكَانَ حَرِيًّا بِالْعُقَلَاءِ مِنَ النَّاسِ التَّخَفُّفُ مِنْهُ، وَالْبُعْدُ عَنِ التَّنَافُسِ فِيهِ.

وَأَمَّا كَثْرَةُ الْأَوْلَادِ فَطَاعَةٌ وَقُرْبَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِنْ كَانَ المُكَاثِرُ بِهِمْ يُرِيدُ تَحْقِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤).

وَيَكُونُ التَّكَاثُرُ بِالْأَوْلَادِ مَعْصِيَةً إِنْ كَانَ يُرِيدُ المُفَاخَرَةَ بِكَثْرَتِهِمْ، أَوِ الِاسْتِقْوَاءَ بِهِمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يُفَاخِرُونَ بِكَثْرَةِ أُسَرِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَيَسْتَعْلُونَ بِهَا عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهَا، حَالُهُمْ كَحَالِ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمُ الْأُولَىٰ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ المَعْنَوِيِّ: طَلَبُ الْجَاهِ وَالمَنَاصِبِ، وَالسَّعْيُ فِي التَّرَؤُّسِ عَلَىٰ النَّاسِ، لَا لِخِدْمَتِهِمْ، وَإِنَّما لِيُرَىٰ مَكَانُهُ، وَيَلْتَفَّ النَّاسُ حَوْلَهُ، وَيَطَأُوا عَقِبَهُ.

وَمِنْهُ كَذَلِكَ: التَّفَانِي فِي الْعَمَلِ لَا إِخْلَاصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَدَاءً لِلْأَمَانَةِ، وَنَفْعًا لِلْأُمَّةِ، بَلْ لِتَحْصِيلِ السُّمْعَةِ، وَطَلَبِ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّوْنَ هَذِهِ المَزَالِقَ أَشَدَّ التَّوَقِّي، وَيَتَحَاشَوْنَ الْوُقُوعَ فِيهَا وَيَحْذَرُونَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِيَّاكُمْ أَنْ تُوطَأَ أَعْقَابُكُمْ»(٥).

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَرْحَمُ اللهُ رَجُلًا لَمْ يَغُرَّهُ مَا يَرَىٰ مِنْ كَثْرَةِ

---

(٤) أخرجه من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه: أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٠)، وصححه ابن حبان (٤٠٥٦)، والحاكم (٢/ ١٧٦).
وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند: سعيد بن منصور (٤٩٠)، وأحمد (٣/ ١٥٨)، وصححه ابن حبان (٤٠٢٨)، والضياء في المختارة (١٨٨٩).

(٥) أخرجه الدارمي في سننه (٥٢٦).

النَّاسِ، ابْنَ آدَمَ، تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتَدْخُلُ الْقَبْرَ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وتُحَاسَبُ وَحْدَكَ»(٦).

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- إِذَا مَشَىٰ فِي الطَّرِيقِ يَكْرَهُ أَنْ يَتْبَعَهُ أَحَدٌ، وَكَانَ يَقُولُ: «أَشْتَهِي مَا لَا يَكُونُ: مَكَانًا لَا يَكُونُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ»(٧).

وَيَقُولُ: «طُوبَىٰ لِمَنْ أَخْمَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرَهُ»(٨).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا رَأَيْنَا الزُّهْدَ فِي شَيْءٍ أَقَلَّ مِنْهُ فِي الرِّيَاسَةِ، نَرَىٰ الرَّجُلَ يَزْهَدُ فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَالِ؛ فَإِذَا نُوزِعَ الرِّيَاسَةَ حَامَىٰ عَلَيْهَا وَعَادَىٰ»(٩).

وأَكْثَرُ تَنَافُسِ النَّاسِ فِي المَالِ وَالْجَاهِ، فَكَمَا أَنَّ المَالَ مَلِكُ الْأَعْيَانِ المُنْتَفَعِ بِهَا؛ فَإِنَّ الْجَاهَ مَلِكُ الْقُلُوبِ المَطْلُوبِ تَعْظِيمُهَا وَطَاعَتُهَا وَالتَّصَرُّفُ فِيهَا، مِنْ تَحْصِيلِ المَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ(١٠).

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ المُكَاثَرَةِ أَشَدُّ فَتْكًا، وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنَ المُكَاثَرَةِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِنَّمَا هَلَكُوا لِخَوْفِ مَذَمَّةِ النَّاسِ وَحُبِّ مَدْحِهِمْ؛ فَصَارَتْ حَرَكَاتُهُمْ كُلُّهَا عَلَىٰ مَا يُوَافِقُ رِضَا النَّاسِ؛ رَجَاءَ المَدْحِ، وَخَوْفًا مِنَ الذَّمِّ، وَذَلِكَ مِنَ المُهْلِكَاتِ(١١).

---

(٦) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في الزهد (٢٧١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦).

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥/ ٣٠٩).

(٩) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٨).

(١٠) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧٨).

(١١) مختصر منهاج القاصدين (٢١٢)، وينظر: مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص (٦)، وفيها بحث لطيف، كتبه: د. عبد الرحمن آل عثمان، جمع فوائد شتىٰ من كتب التفسير وغيرها في قوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ومنه استفدت في الخطبة كثيرًا.

وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ مَنْ غَلَبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ حُبُّ الْجَاهِ صَارَ مَقْصُورَ الْهَمِّ عَلَىٰ مُرَاعَاةِ الْخَلْقِ، مَشْغُوفًا بِالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمْ، وَالمُرَاءَاةِ لَهُمْ، وَلَا يَزَالُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ مُلْتَفِتًا إِلَىٰ مَا يُعَظِّمُ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُمْ، وَيَقْتَنِصُ بِهِ قُلُوبَهُمْ، وَهَذَا جَذْرُ النِّفَاقِ وَأَصْلُ الْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ رِضَا الْخَلْقِ عَلَىٰ رِضَا الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ رِقَّةِ الدِّينِ، وَالتَّلَاعُبِ بِالشَّرِيعَةِ، فَتَجِدُهُ إِنْ أَفْتَىٰ النَّاسَ مَالَ بِفَتَاوِيهِ مَعَ أَهْوَائِهِمْ، وَإِنْ صَلَّىٰ إِمَامًا لَهُمْ تَلَاعَبَ بِالصَّلَاةِ مُجَارَاةً لِأَذْوَاقِهِمْ(١٢).

وَأَقْبَحُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّكَاثُرِ: أَنْ يَتَكَاثَرَ الْعَبْدُ بِطَاعَةٍ يُرِيدُ بِهَا أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَأْكُلُ أَعْمَالَ صَاحِبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ كَمَنْ يَتَكَاثَرُ فِي الْعِلْمِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «التَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فَكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ وَأَلْهَاهُ التَّكَاثُرُ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُلْهِيهِ التَّكَاثُرُ بِالمَالِ أَوْ بِالْجَاهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْهِيهِ التَّكَاثُرُ بِالْعِلْمِ، فَيَجْمَعُ الْعِلْمَ تَكَاثُرًا وَتَفَاخُرًا، وَهَذَا أَسْوَأُ حَالًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِمَّنْ يُكَاثِرُ بِالمَالِ وَالْجَاهِ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ أَسْبَابَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَصَاحِبُ المَالِ وَالْجَاهِ اسْتَعْمَلَ أَسْبَابَ الدُّنْيَا لَهَا، وَكَاثَرَ بِأَسْبَابِهَا»(١٣).

وَمِنَ التَّكَاثُرِ المَذْمُومِ فِي الْعِلْمِ: التَّكَثُّرُ بِالمَسَائِلِ، وَالْبَحْثُ عَنِ الْغَرَائِبِ، كَمَنْ يَهْجُرُ صَحِيحَ الْحَدِيثِ لِاشْتِهَارِهِ، وَيَتَتَبَّعُ غَرِيبَهُ لِيُقَالَ: عِنْدَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ، أَوْ يَتْرُكُ المُهِمَّ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ، وَيَشْتَغِلُ بِنَوَادِرِ الْفُرُوعِ وَعِلَلِ النَّحْوِ وَغَيْرِهَا؛ لِيَظْهَرَ أَمَامَ الْجَهَلَةِ أَنَّ لَدَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَفْقِدُهُ غَيْرُهُ(١٤).

---

(١٢) ببعض التصرف من المصدرين السابقين.

(١٣) عدة الصابرين (١٤٢).

(١٤) مجلة البيان عدد (١٤٣) ص (٦) بتصرف.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَرَدَ فِي هَذَا المَعْنَىٰ: مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ حَمْزَةَ الْكِنَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «خَرَّجْتُ حَدِيثًا وَاحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مِائَتَيْ طَرِيقٍ. قَالَ: فَدَاخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْفَرَحِ غَيْرُ قَلِيلٍ، وَأُعْجِبْتُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَرَأَيْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا زَكَرِيَّا، خَرَّجْتُ حَدِيثًا وَاحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مِائَتَيْ طَرِيقٍ، قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَخْشَىٰ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا تَحْتَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»(١٥).

سَاقَ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- هَذِهِ الْحِكَايَةَ ثُمَّ قَالَ: «وَهُوَ صَحِيحٌ فِي الِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّ تَخْرِيجَهُ مِنْ طُرُقٍ يَسِيرَةٍ كَافٍ فِي المَقْصُودِ مِنْهُ؛ فَصَارَ الزَّائِدُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَضْلًا»(١٦).

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- أَنَّ قَوْمًا أَكْثَرُوا جَمْعَ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ مَقْصِدُهُمْ صَحِيحًا، وَلَا أَرَادُوا مَعْرِفَةَ الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِهِ بِجَمْعِ الطُّرُقِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مُرَادُهُمُ الْعَوَالِيَ وَالْغَرَائِبَ، فَطَافُوا الْبُلْدَانَ لِيَقُولَ أَحَدُهُمْ: لَقِيتُ فُلَانًا، وَلِي مِنَ الْأَسَانِيدِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِي، وَعِنْدِي أَحَادِيثُ لَيْسَتْ عِنْدَ غَيْرِي . . . قَالَ: وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ بِمَعْزِلٍ؛ وَإِنَّمَا مَقْصِدُهُمُ الرِّئَاسَةُ وَالمُبَاهَاةُ، وَلِذَلِكَ يَتَّبِعُونَ شَاذَّ الْحَدِيثِ وَغَرِيبَهُ(١٧).

وَالذَّمُّ فِي الْآيَةِ يَتَنَاوَلُ التَّكَاثُرَ فِي الْعِلْمِ مُبَاهَاةً وَرِيَاءً، وَطَلَبًا لِلْجَاهِ وَالرِّئَاسَةِ، كَمَا يَتَنَاوَلُ التَّكَاثُرَ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، مِمَّا يُلْهِي عَنِ التَّزَوُّدِ لِلْآخِرَةِ، لَكِنْ لَوْ

---

(١٥) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٠٣٤) وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٣٣).
(١٦) الموافقات (١/ ٨٢).
(١٧) تلبيس إبليس (١٤٢).

حَصلَتْ كَثْرَةُ المَالِ أَوِ الْجَاهِ أَوِ الْوَلَدِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَكَاثُرٍ(١٨)، وَلَا حِرْصٍ يُفْضِي إِلَىٰ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، أَوْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ، أَوِ الْمُدَاهَنَةِ فِي الْحَقِّ، أَوِ السُّكُوتِ عَنِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ الْكَثْرَةَ حِينَئِذٍ لَا تَضُرُّ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَهْلَ كَثْرَةٍ فِي المَالِ أَوِ الْوَلَدِ أَوِ الْجَاهِ، وَلَمْ يَضُرَّهُمْ ذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ حَصَلَ مِنْ غَيْرِ تَكَاثُرٍ، ثُمَّ لَمْ يُلْهِهِمْ مَا نَالُوهُ مِنْ كَثْرَةٍ عَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ، بَلْ سَخَّرُوا مَا رُزِقُوا مِنْ كَثْرَةٍ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُبَصِّرَنَا بِمَا يَنْفَعُنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لله حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَظَلُّ التَّكَاثُرُ بِالنَّاسِ فِي مُتَعِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا حَتَّىٰ يَرِدُوا قُبُورَهُمْ وَهُمْ لَاهُونَ فِي تَكَاثُرِهِمْ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ

(١٨) ينظر: مجلة البيان عدد (١٤٣).

قُبُورَهُمْ مَكَانَ زِيَارَتِهِمُ الثَّانِي، كَمَا كَانَتِ الدُّنْيَا مَحَلَّ زِيَارَتِهِمُ الْأَوَّلَ، وَكَمَا لَمْ يُخَلَّدُوا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ لَا يُخَلَّدُونَ فِي قُبُورِهِمْ.

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَرَأَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فَلَبِثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مَيْمُونُ، مَا أَرَىٰ المَقَابِرَ إِلَّا زِيَارَةً، وَمَا لِلزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ؛ أَيْ: إِلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ إِلَىٰ نَارٍ»(١٩).

وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: «بُعِثُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لِأَنَّ الزَّائِرَ لَا بُدَّ أَنْ يَرْتَحِلَ»(٢٠).

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ»(٢١)، يَعْنِي: سَيَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ لَهْوِهِمْ بِالتَّكَاثُرِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ المَوْتُ، ثُمَّ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ حِينَ يُوَسَّدُونَ فِي قُبُورِهِمْ(٢٢)، فَلَا أَنِيسَ لَهُمْ إِلَّا أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ، وَأَمَّا دُنْيَاهُمُ الَّتِي تَكَاثَرُوا بِهَا، وَنَافَسُوا غَيْرَهُمْ عَلَيْهَا، فَعَادَتْ إِلَىٰ وَارِثِهِمْ، كَمَا رَوَىٰ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢٣).

---

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٥٩) رقم (١٩٤٥٥).

(٢٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦)، وأضواء البيان (٩/ ٧٨).

(٢١) تفسير البغوي (٤/ ٥٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦).

(٢٢) ذكر هذا المعنىٰ ابن القيم في عدة الصابرين (١٥٧)، قال: وهو قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانتصر له بأوجه عدة.

(٢٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب سكرات الموت (٦١٤٩)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٠).

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أَيْ: لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْعِلْمِ لمَا أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الْآخِرَةِ حَتَّىٰ صِرْتُمْ إِلَىٰ الْمَقَابِرِ(٢٤).

وَإِنَّمَا الْبَاعِثُ عَلَىٰ الالْتِهَاءِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّكَاثُرِ مِنْهَا، وَالتَّنَافُسِ عَلَيْهَا إِمَّا عَدَمُ الْعِلْمِ بِحَقِيقَتِهَا وَحَقِيقَةِ الْآخِرَةِ، أَوْ عَدَمُ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ، أَوْ ضَعْفُ الْيَقِينِ بِهِ، وَإِلَّا لَوْ كَانَ يَقِينُهُمْ قَوِيًّا بِمَا أَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عَنْ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَةِ الْآخِرَةِ، لمَا فَرَّطُوا فِي الْآخِرَةِ، تَكَاثُرًا بِالدُّنْيَا، لَكِنْ لَمَّا فُقِدَ مِنْهُمْ عِلْمُ الْيَقِينِ وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُشَكُّ فِي صِحَّتِهِ وَثُبُوتِهِ، وَقَعَ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ مِنَ التَّكَاثُرِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَوْ وَصَلَتْ حَقِيقَةُ هَذَا الْعِلْمِ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَبَاشَرَتْهَا لمَا أَلْهَاهُمُ التَّكَاثُرُ بِالدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ.

وَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِقُبْحِ الشَّيْءِ وَسُوءِ عَوَاقِبِهِ قَدْ لَا يَكْفِي فِي تَرْكِهِ، فَإِذَا صَارَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ كَانَ اقْتِضَاءُ هَذَا الْعِلْمِ لِتَرْكِ التَّكَاثُرِ أَشَدَّ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَىٰ عَيْنِ يَقِينٍ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَكَاثُرٌ بِالدُّنْيَا إِلَّا فِيمَا شَذَّ وَنَدَرَ(٢٥).

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أَيْ: رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً حَقِيقِيَّةً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣](٢٦).

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فَكُلُّ أَحَدٍ يُسْأَلُ عَنْ نَعِيمِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا: هَلْ نَالَهُ مِنْ حَلَالِهِ وَوَجْهِهِ أَمْ لَا؟ فَإِذَا تَخَلَّصَ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ سُئِلَ سُؤَالًا آخَرَ: هَلْ شَكَرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ أَمْ لَا؟ فَالْأَوَّلُ سُؤَالٌ عَنْ سَبَبِ اسْتِخْرَاجِهِ، وَالثَّانِي عَنْ مَحَلِّ صَرْفِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ

---

(٢٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦)، وأضواء البيان (٩/ ٨٢).
(٢٥) ينظر معنىٰ هذا الكلام عند: ابن القيم في عدة الصابرين (١٥٦)
(٢٦) ينظر: تفسير السعدي (٩٣٤).

عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ(٢٧).

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فَقَرَأَهَا حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ، وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ: المَاءُ وَالتَّمْرُ، وَسُيوفُنَا عَلَىٰ رِقَابِنَا، وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ قَالَ: «**إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ**»(٢٨).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعَمِهِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خُذُوهَا مِنْ حِلِّهَا، وَاصْرِفُوهَا فِي حِلِّهَا، وَاشْكُرُوا الْمُنْعِمَ عَلَيْهَا، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَعَاقِبَةُ الْفِتْنَةِ بِهَا خُسْرَانٌ، وَكَمْ مِنْ عَظِيمٍ فِي جَاهِهِ، غَنِيٍّ بِمَالِهِ، مُكَاثِرٍ فِي دُنْيَاهُ خَلَّفَ ذَلِكَ لِوَارِثِهِ، وَرَحَلَ هُوَ إِلَىٰ قَبْرِهِ، فَمَا ثَمَّ إِلَّا عَمَلُهُ، فَاعْتَبِرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِمَنْ مَضَىٰ قَبْلَ أَنْ تَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ بَقِيَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



(٢٧) ينظر: عدة الصابرين (١٥٧).

(٢٨) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠).

وله شاهد من حديث الزبير بن العوام ﷺ: عند أحمد (١/ ١٦٤)، وابن ماجه في الزهد، باب معيشة أصحاب النبي ﷺ (٤١٥٨)، والضياء في المختارة (٨٥٦).

٢٢٧- ألهاكم التكاثر (٢)

١٢/ ٤/ ١٤٢٩هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الخَلْقِ وَمُدَبِّرِهِمْ، وَرَازِقِ العِبَادِ وَكَافِيهِمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَعَلَيْهِ حِسَابُهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ عَطَائِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظُمَ حِلْمُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ فَأَمْهَلَهُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ هُدًىٰ وَعِبْرَةً لَهُمْ؛ فَذَكَّرَهُمْ فِيهِ وَوَعَظَهُمْ، وَعَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِحَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا، فَزَهِدَ فِيهَا، وَتَقَلَّلَ مِنْهَا، وَلَمْ يَغْتَرَّ بِهَا، وَقَالَ ﷺ فِيهَا: **«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**(١)، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا فَإِنَّهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ، وَلَنْ يَجِدَ العَبْدُ فِيهَا إِلاَّ مَا عَمِلَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَجْزِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٣٠١)، وعبد بن حميد (٥٩٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٧) رقم (١١٨٩٨)، وصححه ابن حبان (٦٣٥٢)، والحاكم وقال: علىٰ شرط البخاري (٤/ ٣٤٤).

وجاء بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند: الترمذي في الزهد، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، والطيالسي (٢٧٧)، وأحمد (١/ ٣٩١)، وأبو يعلىٰ (٥٢٩٢).

يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُوَ الهُدَىٰ وَالنُّورُ، وَهُوَ الْعَاصِمُ مِنَ الضَّلاَلِ وَالهَوَىٰ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ.

وَالقُرْآنُ العَظِيمُ فِيهِ عِلاَجُ أَمْرَاضِ الأَفْرَادِ وَالأُمَمِ، وَحَلُّ مُشْكِلاَتِهِمْ، وَصَلاَحُ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءُ نُفُوسِهِمْ، وَمَا شَقِيَتِ الْبَشَرِيَّةُ إِلَّا لَمَّا حُكِمَتْ بِغَيْرِهِ، وَمَا ضَعُفَ المُسْلِمُونَ وَلاَ هَانُوا إِلَّا لَمَّا اسْتَبْدَلُوا بِهِ غَيْرَهُ؛ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وَسُورَةُ التَّكَاثُرِ مِنَ السُّوَرِ الْعَظِيمةِ الَّتِي تُعَالِجُ مَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حُبِّ التَّمَلُّكِ وَالاسْتِئْثَارِ عَلَىٰ الْغَيْرِ. والتَّكَاثُرُ يَقَعُ فِيمَا يَزِيدُ عَلَىٰ حَاجَةِ الإِنْسَانِ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ وَكُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا التَّكَاثُرُ صَارَ مِنْ سِمَاتِ هَذَا الْعَصْرِ الرَّأْسِمَالِيِّ الَّذِي تَرَبَّىٰ فِيهِ الْبَشَرُ عَلَىٰ الْقَسْوَةِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَالأَثَرَةِ، وَسَوْفَ يَقُودُهُمْ ذَلِكَ إِلَىٰ الهَلاَكِ وَالْبَوَارِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَنُذُرُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَاثِلَةٌ لِلْعِيَانِ فِي المُشْكِلاَتِ الاقْتِصَادِيَّةِ، وَالْقَلاقِلِ وَالْفِتَنِ الَّتِي تَنْتِجُ عَنْهَا.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكاثر: ١-٢]، التَّكَاثُر تَفَاعُلٌ مِنَ الكَثْرَةِ؛ أَيْ: مُكَاثَرَةُ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ(٢)، وَهَذَا هُوَ وَاقِعُ جُمْهُورِ النَّاسِ يُكَاثِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَيَغْفُلُونَ عَنْ الآخِرَةِ.

وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يَسْتَرِقُّ الْعَبْدَ وَيَسْلبُهُ عَقْلَهُ شُغْلُ قَلْبِهِ فِيمَا لاَ نَفْعَ فِيهِ، أَوْ فِيمَا نَفْعُهُ زَائِلٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَشْغَلُ الْقُلُوبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ لَهْوُهَا بِالدُّنْيَا، وَكَثْرَةُ التَّفْكِيرِ فِيهَا،

(٢) الفوائد لابن القيم (٩٠).

وَكَيْفِيَّةُ الحُصُولِ عَلَيْهَا، وَالتَّزَوُّدُ مِنْهَا، وَالاسْتِمْتَاعُ بِهَا، عَلَىٰ نَحْوٍ قَبِيحٍ مُخِيفٍ.

يَقُولُ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَوْلُهُ ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أَبْلَغُ فِي الذَّمِّ مِنْ (شَغَلَكُمْ)؛ فَإِنَّ الْعَامِلَ قَدْ يَسْتَعْمِلُ جَوَارِحَهُ بِمَا يَعْمَلُ وَقَلْبُهُ غَيْرُ لَاهٍ بِهِ؛ فَاللَّهْوُ هُوَ ذُهُولٌ وَإِعْرَاضٌ.

وَلَمْ يُذْكَرْ فِي الْآيَةِ نَوْعُ المُتَكَاثَرِ بِهِ؛ لِيَكُونَ عَامًّا مُطْلَقًا، وَأَنَّ كُلَّ مَا يُكَاثِرُ بِهِ الْعَبْدُ غَيْرَه سِوَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِنَفْعِ مَعَادِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا التَّكَاثُرِ، فَالتَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ رِيَاسَةٍ أَوْ نِسْوَةٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ عِلْمٍ وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ، والتَّكَاثُرُ فِي الْكُتُبِ وَالتَّصَانِيفِ وَكَثْرَةِ المَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَوْلِيدِهَا، والتَّكَاثُرُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ وَهَذَا مَذْمُومٌ إِلَّا فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فالتَّكَاثُرُ فِيهِ مُنَافَسَةٌ فِي الخَيْرَاتِ وَمُسَابَقَةٌ إِلَيْهَا» اهـ[٣].

إِنَّ مِنَ التَّكَاثُرِ المَذْمُومِ التَّكَاثُرَ بِعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ كَتَشْقِيقِ المَسَائِلِ، وَالْبَحْثِ عَنْ شَوَاذِّهَا وَغَرِيبِهَا، وَمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَمَلٌ؛ لِلْمُفَاخَرَةِ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ، وَلَفْتِ الأَنْظَارِ، أَوْ لِتَفْصِيلِ الشَّرِيعَةِ عَلَىٰ أَهْوَاءِ النَّاسِ، كَمَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ المَفْتُونِينَ بِالْجَاهِ وَالإِعْلامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يُقَالَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ**»[٤].

وَالتَّكَاثُرُ بِالمَالِ إِنْ لَمْ يَنْفَعْ صَاحِبَهُ ضَرَّهُ؛ كَأَنْ يَجْمَعَهُ مِنْ أَيِّ كَسْبٍ لَا يُرَاعِي

(٣) الفوائد بتصرف يسير (٩٠-٩١).

(٤) كما في حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

حَلَالًا وَلَا حَرَامًا، وَيُنْفِقُهُ فِي الحَرَامِ، فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ اكْتِسَابِهِ وَإِنْفَاقِهِ، وَلَنْ يَنْتَفِعَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ هُوَ لِوَارِثِهِ؛ فَغُرْمُهُ عَلَيْهِ وَغُنْمُهُ لِغَيْرِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»(٥)، وَيُفْهَمُ مِنْهُ ذَمُّ المَالِ غَيْرِ الصَّالِحِ عِنْدَ الرَّجُلِ غَيْرِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ بِالمَالِ التَّكَاثُرُ بِالدُّورِ وَالمَزَارِعِ وَالضَّيْعَاتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالهَوَاتِفِ النَّقَّالَةِ وَالكَمَالِيَّاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ مْن سِمَاتِ هَذَا العَصْرِ، وَأَضْحَتِ المُفَاخَرَةُ بِهَا ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، وَتَعَدَّتِ الضَّرُورَةَ وَالحَاجَةَ إِلَىٰ الكَمَالِيَّاتِ وَإِلَىٰ السَّرَفِ المَذْمُومِ، وَيُخْشَىٰ أَنْ يَدْخُلَ ذَلِكَ فِي الأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالظُّلْمِ وَالْكِبْرِ، وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يُسْلَبُوا مَا أُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ النِّعَمِ.

وَالتَّكَاثُرُ بِالْوَلَدِ إِنْ لَمْ يُرَاعِ فِيهِ الوَالِدُ مَا أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِيهِمْ مِنْ صَلَاحِ النِّيَّةِ، وَحُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ مَقْصِدُهُ بِتَكْثِيرِهِمْ: التَّكَاثُرَ بِهِمْ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُسَرِ وَالْقَبَائِلِ، أَوِ الْفَخْرَ بِهِمْ أَمَامَ قَرَابَتِهِ وَبَنِي عُمُومَتِهِ، وَلَا حِسْبَةَ لَهُ فِي نَفْعِ الْإِسْلَامِ بِهِمْ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَجَاءَ دَعْوَتِهِمْ لَهُ، ثُمَّ يُهْمِلُهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَيَعْتَنِي بِأُمُورِ دُنْيَاهُمْ، وَيُغَذِّي أَبْدَانَهُمْ، وَيُهْمِلُ قُلُوبَهُمْ، فَهَذَا يُخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ تَكَاثُرُهُ بِوَلَدِهِ وَبَالًا عَلَيْهِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لَمْ يَنْفَعْهُ كَثْرَةُ وَلَدِهِ وَحُضُورُهُمْ عِنْدَهُ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدَّثر: ١١-١٣].

وَهَذَا التَّكَاثُرُ يُلَازِمُ أَكْثَرَ النَّاسِ حَيَاتَهُمْ كُلَّهَا، فَتَطُولُ أَعْمَارُهُمْ، وَتُنْسَجُ أَكْفَانُهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الْآخِرَةِ، مُتَنَافِسُونَ فِي الدُّنْيَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(٥) أخرجه من حديث عمرو بن العاص ﵁: أحمد (٤/ ١٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٢١٠)، والعراقي في تخريج الإحياء (٣٢٥٣).

«**الشَّيْخُ يَكْبَرُ وَيَضْعُفُ جِسْمُهُ وَقَلْبُهُ شَابٌّ عَلَىٰ حُبِّ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الحَيَاةِ، وَحُبِّ المَالِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَهَكَذَا التَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَذْمُومٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَسْتَجْلِبُ رِضْوَانَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ بَعْدَ الإِخْبَارِ عَنْ لَهْوِ النَّاسِ بِالتَّكَاثُرِ الْوَعِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكَاثُر: ٣-٨].

وَهَذَا النَّعِيمُ الَّذِي سَيُسْأَلُ عَنْهُ الْعِبَادُ هُوَ كُلُّ نَعِيمٍ حِسِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ يَنَالُهُ الْعَبْدُ، وَنِعَمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ لَا تُحْصَىٰ، وَمَعَ كَثْرَةِ النِّعَمِ يَكْثُرُ السُّؤَالُ. والتَّكَاثُرُ مِنَ النِّعَمِ وَالْمُتَعِ الدُّنْيَوِيَّةِ سَبَبٌ لِتَكَاثُرِ السُّؤَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﵃ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا وَجَاعُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعُذِّبُوا، وَلَمَّا حَصَلَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَمْنٌ وَشِبَعٌ أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ سَيُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِهِمْ ذَاكَ، وَوَرَدَتْ حَوَادِثُ عِدَّةٌ فِي ذَلِكَ:

رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: **مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟** قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**، قُومُوا، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ:

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: أحمد (٢/ ٣٣٥).
وهو في صحيح البخاري (٦٤٢٠) بلفظ: «لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»، وفي صحيح مسلم (١٠٤٦) بلفظ: «قلب الشيخ شاب علىٰ حب اثنتين: حب العيش، والمال».

مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَيْنَ فُلَانٌ؟** قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِن هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ**، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الجُوعُ ثُمَّ لم تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَفِي حَادِثَةٍ أُخْرَىٰ قَالَ جَابِرٌ ﵁: «أَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَأَطْعَمْتُهُمْ رُطَبًا وَأَسْقَيْتُهُمْ مَاءً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

وَعَنِ الزُّبَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ ﵁ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم، قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ؟ قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٩).

فَإِذَا كَانَ أَفَاضِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ أَقَامُوا الْإِسْلَامَ، وَنَصَرُوا الدِّينَ، وَهَاجَرُوا

---

(٧) أخرجه مسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلىٰ دار من يثق برضاه بذلك، وبتحققه تحققًا تامًّا، واستحباب الاجتماع علىٰ الطعام (٢٠٣٨).
وجاء بسياق أطول منه من حديث ابن عباس ﵄ عند: ابن حبان (٥٢١٦).

(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، وأبو يعلىٰ (١٧٩٠)، والطيالسي (١٧٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٤١١).

(٩) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: حديث حسن (٣٣٥٦)، والحميدي (٦١)، وأبو يعلىٰ (٦٧٦)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٦٧).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْ تَمْرٍ سَدُّوا بِهِ جُوعَهُمْ، فَعَمَّ سَنُسْأَلُ وَقَدْ أَغْرَقَتْنَا النِّعَمُ مِنْ رُؤُوسِنَا إِلَىٰ أَقْدَامِنَا، وَأَسْرَفْنَا فِيهَا وَبَطِرْنَا، وَقَلَّ فِينَا شُكْرُهَا، وَالرِّضَا بِهَا، بَلْ نَطْلُبُ المَزِيدَ وَالمَزِيدَ؟! فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَنَا بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْ يُعَامِلَنَا بِعَفْوِهِ وَلُطْفِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ وَحُسْنَ عِبَادَتِهِ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا المُسْلِمونَ: إِنَّ مَا نَرْفُلُ فِيهِ مِنْ نِعَمِ المَوْلَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ يَسْتَحِقُّ مِنَّا شُكْرًا، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الشَّكُورُ.

وَلَيْسَتِ النِّعَمُ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَحْصُورَةً فِي النِّعَمِ المَادِّيَّةِ المَحْسُوسَةِ، بَلْ حَتَّىٰ النِّعَمُ المَعْنَوِيَّةُ مِنْ رَاحَةِ الْبَالِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَعَافِيَةِ الْجَسَدِ، وَالأُنْسِ بِالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالصَّحْبِ، كُلُّهَا وَغَيْرُهَا نِعَمٌ يُسْأَلُ عَنْهَا الْعِبَادُ

ضِمْنَ مَا يُسْأَلُونَ عَنْهُ مِنَ النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: «كُنَّا فِي مَجْلِسٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَىٰ رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا: نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَقَالَ: **أَجَلْ وَالحَمْدُ لِلَّهِ**، ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَىٰ، فَقَالَ: **لَا بَأْسَ بِالْغِنَىٰ لِمَنِ اتَّقَىٰ، وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَىٰ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(١٠).

وَأَوَّلُ نَعِيمٍ يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِحَّةُ الْجَسَدِ، وَالمَاءُ البَارِدُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ -يَعْنِي الْعَبْدَ- مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ الْبَارِدِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١١).

وَإِذَا كَانَ النَّاسُ يُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِهِمْ وَلَوْ لَمْ يُسْرِفُوا فِيهِ، فَكَيْفَ بِنَعِيمِ مَنْ تَوَسَّعُوا فِي المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالمَرَاكِبِ وَالمَسَاكِنِ وَالْأَثَاثِ وَالمَتَاعِ وَأَنْوَاعِ الرَّفَاهِيَةِ وَاللَّهْوِ المُبَاحِ وَغَيْرِ المُبَاحِ؟!

ثُمَّ كَيْفَ سَيَكُونُ سُؤَالُ النَّاسِ عَنْ نَعِيمٍ قَدْ بَالَغُوا فِي التَّمَتُّعِ بِهِ، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ تَوَسُّعًا تَعَدَّىٰ الْكَمَالِيَّاتِ إِلَىٰ السَّرَفِ وَالْبَطَرِ، وَفِي الْأَرْضِ جَوْعَىٰ لَا يَجِدُونَ بُلْغَةً مِنْ عَيْشٍ، وَفِيهَا مَنْ يَحْتَاجُونَ لِمَا يُرْمَىٰ فِي النُّفَايَاتِ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِهِ؟!

---

(١٠) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب الحث علىٰ المكاسب (٢١٤١)، وأحمد (٥/ ٣٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٦٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحاكم: والصحابي الذي لم يسمه سليمان بن بلال هو يسار بن عبدالله الجهني (٢/ ٣)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٦).

(١١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: حديث غريب (٣٣٥٨)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٨٨)، ونقل المناوي تصحيح الحاكم له، وقال المناوي: سند الترمذي جيد، فيض القدير (٢/ ٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٠٢٢).

انْظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ أَحْوَالِ إِخْوَانِكُمُ المُحَاصَرِينَ فِي غَزَّةَ، وَقَدْ قَارَبَ الْحِصَارُ المَضْرُوبُ عَلَيْهِمْ عَامًا كَامِلًا، ثُمَّ أَتْبَعَ الْيَهُودُ حِصَارَهُمْ وَتَجْوِيعَهُمْ ضَرْبًا وَقَتْلًا وَحَرْقًا بِقَنَابِلِهِمْ وَآلِيَّاتِهِمْ، وَلَا زَالُوا كَذَلِكَ إِلَىٰ الْآنَ.

وَانْظُروا إِلَىٰ إِخْوَانِكُمُ الْمُسْتَبَاحِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي الصُّومَالِ وَفِي بِلَادِ الْأَفْغَانِ وَفِي الشِّيشَانِ وَفِي غَيْرِهَا.

لَا يَجِدُونَ أَمْنًا كَمَا تَجِدُونَ، وَلَا يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُونَ، وَلَا يَنَامُونَ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَا يَهْنَئُونَ بِعَيْشٍ كَمَا تَهْنَئُونَ، قَدِ اسْتَبَاحَتْهُمْ جُيُوشُ الظَّلَمَةِ الْمُحْتَلِّينَ فَسَلَبَتْ أَمْنَهُمْ، وَنَهَبَتْ خَيْرَاتِهِمْ، وَأَحَلَّتِ الْفَوْضَىٰ فِي بِلَادِهِمْ، مَنْ سَلِمَ مِنْ نِيرَانِ غَدْرِهِمْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ وَبَاءٌ مُهْلِكٌ، أَوْ جُوعٌ مُفْتَرِسٌ، فَإِنْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ عَاشَ عِيشَةً بَئِيسَةً يَتَمَنَّىٰ مَعَهَا المَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ.

أَيْنَ شُكْرُنَا لِنِعَمِ رَبِّنَا عَلَيْنَا؟! وَأَيْنَ إِحْسَاسُنَا بِمُصَابِ إِخْوَانِنَا؟! أَلَا نَخَافُ أَنْ تُسْلَبَ نِعَمُنَا كَمَا سُلِبَتْ مِنْ غَيْرِنَا؟! ثُمَّ كَيْفَ نُقَابِلُ رَبَّنَا لِلْحِسَابِ وَهِذِهِ نِعَمُهُ تَتْرَا عَلَيْنَا، وَنَحْنُ لَا زِلْنَا فِي سَرَفِنَا وَلَهْوِنَا وَغَفْلَتِنَا، وَقَدْ رَأَيْنَا النُّذُرَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا؟!

أَلَا نَقْتَصِدُ فِي سَرَفِنَا وَلَهْوِنَا؛ شُكْرًا لِرَبِّنَا، وَمُوَاسَاةً لِإِخْوَانِنَا، وإِحْسَاسًا بِمُصَابِ غَيْرِنَا؟ فَإِنَّ هَذِهِ الغَفْلَةَ المُطْبِقَةَ مَعَ كَثْرَةِ النِّعَمِ، وَتَتَابُعِ النُّذُرِ مُؤْذِنَةٌ بِعُقُوبَاتِ الدُّنْيَا، وَإِذَا حَلَّتِ الْعُقُوبَةُ فَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ، وَسُؤَالُ الآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكَاثُر: ٨]، ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ.

٢٢٨- سورة العصر

١٨/ ١٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ هُدًىٰ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ وَنَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ، تَعَلُّمُ آيَاتٍ مَعْدُودَاتٍ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْأَمْوَالِ، وَنَفِيسِ الْمَتَاعِ، قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﵁: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ بُطْحَانَ، أَوْ إِلَىٰ الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ** -أَيْ: عَظِيمَتَي السَّنَامَيْنِ، وَكَانَتْ أَنْفَسَ النُّوقِ عِنْدَهُمْ آنَذَاكَ- **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟** فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: **أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ**

فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَهَذِهِ وَقْفَةٌ مَعَ سُورَةٍ قَصِيرَةٍ عَظِيمَةٍ، آيَاتُهَا ثَلَاثٌ فَقَطْ؛ لَكِنَّهَا جَمَعَتِ الْخَيْرَ كُلَّهُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ حَتَّىٰ قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ»(٢)، وَقَالَ: «لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسِعَتْهُمْ»(٣)؛ وَذَلِكَ «لِأَنَّهَا شَمِلَتْ جَمِيعَ عُلُومِ الْقُرْآنِ»(٤).

وَلِأَنَّهَا سُورَةٌ شَامِلَةٌ كَافِيَةٌ، جَمَعَتِ الْخَيْرَ كُلَّهُ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا يَتَذَاكَرُونَهَا، وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا، وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا بَعْدَ قِرَاءَتِهَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو مَدِينَةَ الدَّارِمِيُّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه (٨٠٣)، وأبو داود في الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٦)، وأحمد (٤/ ١٥٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٣)، والروياني في مسنده (٢٠٦)، وابن حبان (١١٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٠) برقم (٧٩٩)، وفي الأوسط (٣١٨٦)، والبيهقي في السنن الصغرىٰ (٩٨٥)، وفي الشعب (١٩٣٤)، وما بين الحاصرتين ليس من الحديث، ولكنه شرح مني.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (٥٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٤) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٢٢٧).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٢٤)، وقال: «قال علي بن المديني: اسم أبي مدينة: عبد الله بن حصن، لا يروىٰ هذا الحديث عن أبي مدينة إلا بهذا الإسناد تفرد به حماد بن سلمة».

وقال الهيثمي في الزوائد (١٠/ ٢٣٣): «وكان له صحبة .. ثم قال بعد أن عزا الحديث =

أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْعَصْرِ، وَهُوَ الدَّهْرُ؛ لِأَهَمِّيَّةِ الدَّهْرِ عِنْدَ الْبَشَرِ؛ فَهُمْ يَعِيشُونَ جُزْءًا مِنْهُ، وَيَسْمَعُونَ عَنْ أُمَمٍ ذَهَبَتْ، وَأُمَمٍ سَتَأْتِي، وَحَضَارَاتٍ سَادَتْ ثُمَّ بَادَتْ، وَمُلُوكٍ مَلَكَتْ ثُمَّ مَاتَتْ، وَالدَّهْرُ هُوَ الدَّهْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، لَيْلٌ يَعْقُبُهُ نَهَارٌ، وَنَهَارٌ يَطْرُدُهُ لَيْلٌ، وَهُوَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ، وَسِرٌّ مَكْنُونٌ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ، رَغْمَ مَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ؛ فَبِدَايَةُ الدَّهْرِ لَا تُعْلَمُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَلَا مَتَىٰ يَنْتَهِي، وَلَا يُعْلَمُ حَاضِرُهُ كَيْفَ يَنْقَضِي!![6] وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الشَّمْسَ تُكَوَّرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَذْهَبُ أَشِعَّتُهَا، وَالْقَمَرَ يُخْسَفُ فَيَذْهَبُ نُورُهُ، وَلَا يَدْرُونَ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّهْرِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ خَالِقُ الزَّمَانِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِأَمْرِهِ.

لَقَدْ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْعَصْرِ الَّذِي هُوَ زَمَانُ أَفْعَالِ الْإِنْسَانِ وَمَحِلُّها عَلَىٰ عَاقِبَةِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ وَجَزَائِهَا، وَنَبَّهَ بِالْمَبْدَإِ وَهُوَ خَلْقُ الزَّمَانِ وَالْفَاعِلِينَ وَأَفْعَالِهِمْ عَلَىٰ

= للطبراني في الأوسط: ورجاله رجال الصحيح» اهـ.

ثم أورده الهيثمي في موضع آخر (١٠/ ٣٠٧)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن عائشة وهو ثقة».

قلت: ابن عائشة هو عبيد الله بن محمد بن حفص القرشي التميمي، قال أبو حاتم في الجرح والتعديل: «صدوق ثقة» (٥/ ٣٣٥).

وعزا الحافظ ابن حجر هذا الأثر للطبراني في الكبير، وقال: «ترجم له الطبراني في العين من اسمه: عبد الله، فقال: عبد الله بن حصين الدارمي، فإن كان ضبط نسبه فهما اثنان: تابعي وهو الذي يروي عن أبي موسىٰ، وصحابي، اتفقا في الاسم والكنية، وفي اسم الأب، واختلفا في النسبة، وإلا فأبو مدينة الدارمي غير السدوسي، وإن ثبت أنهما اتفقا في الكنية، فالصحابي لم يسم، وأما التابعي فسمي، والله أعلم» اهـ. من تعجيل المنفعة (٢١٩) رقم الترجمة (٥٣٤)، وترجم له الحافظ في الإصابة، وقال نحو قوله في التعجيل (٤/ ٦٠) رقم الترجمة (٤٦٢٩).

(٦) تكملة الشيخ عطية سالم علىٰ أضواء البيان (٩/ ٨٧).

المَعَادِ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ كَمَا لَمْ تَقْصُرْ عَنِ المَبْدَإِ فَلَنْ تَقْصُرَ عَنِ المَعَادِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ الَّتِي اقْتَضَتْ خَلْقَ الزَّمَانِ، وَخَلْقَ الْفَاعِلِينَ وَأَفْعَالِهِمْ وَجَعْلَهَا قِسْمَيْنِ: خَيْرًا وَشَرًّا؛ تَأْبَىٰ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ لَا يُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ النَّوْعَيْنِ رَابِحِينَ أَوْ خَاسِرِينَ، بَلِ الإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ خَاسِرٌ، إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَهَدَاهُ وَوَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي نَفْسِهِ، وَأَمَرَ بِهِ غَيْرَهُ(٧).

وَهَذَا الْقَسَمُ الْعَظِيمُ بِالزَّمَنِ كُلِّهِ أَقْسَمَ بِهِ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَصِيرُهُمْ وَمَآلُهُمْ، وَحَالُهُمْ بَيْنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَالرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]. وَلَمْ يُبَيِّنْ مَجَالَ هَذَا الخُسْرِ، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ؛ لِيُفْهَمَ مِنْهُ عُمُومُ الْخُسْرَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَالخَسَارُ مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ؛ فَقَدْ يَكُونُ خَسَارًا مُطْلَقًا يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، كَمَنْ فَاتَهُ النَّعِيمُ، وَاسْتَحَقَّ الْجَحِيمَ(٨)، وَقَدْ يَكُونُ خَسَارًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ دُونَ بَعْضٍ؛ لَكِنَّ اللهَ ﷻ عَمَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الخَسَارَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ المُخِيفَةَ يَجِبُ أَنْ يَفْرَقَ مِنْهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، وَأَنْ تَرْتَعِدَ فَرَائِصُهُ، وَيَضْطَرِبَ قَلْبُهُ إِذَا قَرَأَهَا أَوْ سَمِعَهَا؛ وَلِمَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَهِيَ بَيَانٌ لِمَصِيرِ الْإِنْسَانِ، وَالحُكْمُ عَلَيْهِ بِالْخُسْرَانِ؟ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَضْطَرِبُونَ عِنْدَهَا، وَلَا يَخَافُونَ مِنْهَا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَتَدَبَّرُونَ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢].

---

(٧) التبيان لابن القيم (٥٣).

(٨) ينظر: تفسير السعدي (٩٣٤).

أَكَّدَ سُبْحَانَهُ هَذَا الخُسْرَ بِمُؤَكِّدَاتٍ ثَلَاثٍ، يَكْفِي مِنْهَا مُؤَكِّدٌ وَاحِدٌ لِإِحْيَاءِ الْقُلُوبِ المَيِّتَةِ، وَتَنْبِيهِ النُّفُوسِ الْغَافِلَةِ: أَكَّدَهُ ﷻ بِالْقَسَمِ وَبِإِنَّ وَبِاللَّامِ، وَقَالَ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾؛ أَيْ: إِنَّهُ مُنْغَمِسٌ فِي الخُسْرِ، وَالخُسْرَانُ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: الْإِنْسَانُ خَاسِرٌ أَوْ لَخَاسِرٌ(٩).

إِنَّ مَجِيءَ هَذَا الْخَبَرِ عَلَىٰ الْعُمُومِ، مَعَ تَأْكِيدِهِ بِالْقَسَمِ، وَحَرْفِ التَّوْكِيدِ فِي جَوَابِهِ؛ يُفِيدُ التَّهْوِيلَ وَالْإِنْذَارَ بِالْحَالِ المُحِيطَةِ بِمُعْظَمِ النَّاسِ، وَهِيَ الخُسْرَانُ الْأَبَدِيُّ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا الْتِفَاتَ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغِنَىٰ وَالْجَاهِ، وَالصِّنَاعَةِ وَالرَّاحَةِ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧](١٠).

فَمَنْ يَخَافُ هَذِهِ الْآيَةَ؟ مَنْ؟ وَمَنْ يُذَكِّرُ نَفْسَهُ بِهَا عَلَىٰ الدَّوَامِ؟!

وَأَعْظَمُ الْخُسْرَانِ خُسْرَانُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّلَطُّخُ بِالشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ، ثُمَّ دُونَ هَذَا الخُسْرَانِ الْعَظِيمِ خُسْرَانٌ مُتَفَاوِتٌ بِحَسَبِ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَإِتْيَانِ المُحَرَّمَاتِ.

وَالنَّجَاةُ مِنْ هَذَا الخُسْرَانِ الحَتْمِيِّ لَا تَكُونُ إِلَّا بِلُزُومِ الْأَوْصَافِ الَّتِي اسْتَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ أَصْحَابَهَا مِنَ الخُسْرَانِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

فَهِيَ أَرْكَانٌ أَرْبَعَةٌ، مَنْ حَقَّقَهَا نَجَا مِنَ الخُسْرَانِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي بَعْضٍ مِنْهَا كَانَ لَهُ مِنَ الخُسْرِ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ.

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَرْكَانِ وَأَعْلَاهَا: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ.

(٩) تفسير جزء عم للشيخ العثيمين (٣٠٨).

(١٠) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣١-٥٣٢).

وَثَانِي هَذِهِ الْأَرْكَانِ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَالْعَمَلُ الصَّالِحِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ مِنَ التَّصْدِيقِ بِلَا عَمَلٍ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَشْمَلُ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَاجْتِنَابَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحِفْظَ الْحُقُوقِ كُلِّهَا: حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَحُقُوقِ الْعَبْدِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَحُقُوقِ الْعِبَادِ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ مِنْهَا مَا كَانَ وَاجِبًا أَمْ مَنْدُوبًا، فَكُلُّ ذَلِكَ يَنْتَظِمُهُ مُسَمَّىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَدَاءِ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَكُونَ عَمَلًا صَالِحًا.

وَهَذَانِ الرُّكْنَانِ الْعَظِيمَانِ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِمَا صَلَاحُ الْعَبْدِ عَاجِلًا وَآجِلًا، فَتَنْتَظِمُ لَهُ بِهِمَا أُمُورُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَمَلُهُمْ مَبْرُورٌ، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورٌ، وَتِجَارَتُهُمْ لَنْ تَبُورَ؛ إِذْ بَاعُوا الفَانِيَ الخَسِيسَ، وَاشْتَرَوُا الْبَاقِيَ النَّفِيسَ؛ وَاسْتَبْدَلُوا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، بِالْغَادِيَاتِ الرَّائِحَاتِ، فَيَا لَهَا مِنْ صَفْقَةٍ مَا أَرْبَحَهَا! وَمَنْفَعَةٍ جَامِعَةٍ لِلْخَيْرِ مَا أَوْضَحَهَا![11].

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُ دَالًّا عَلَىٰ الْخَيْرِ، مُرَغِّبًا فِيهِ، مُعَدِّيًا نَفْعَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ إِذْ دِينُهُ يَحُثُّهُ عَلَىٰ نَفْعِ الْغَيْرِ، وَنَشْرِ الْخَيْرِ؛ كَانَ مِنَ الرِّبْحِ الْعَظِيمِ، وَاجْتِنَابِ كُلِّ أَنْوَاعِ الخَسَارِ: أَنْ يُحَقِّقَ الْمُسْلِمُ الرُّكْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ وَإِنْ كَانَ هَذَانِ الرُّكْنَانِ دَاخِلَيْنِ فِي مُسَمَّىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا أَنَّ تَخْصِيصَهُمَا بِالذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّتِهِمَا، وَاخْتِصَاصِهِمَا مِنْ دُونِ سَائِرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهُمَا مِنْ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ[12].

(١١) تفسير أبي السعود (٩/ ١٩٧)، وروح المعاني (٣٠/ ٢٢٨).

(١٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٥٣٢).

وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَشْمَلُ الْوَصِيَّةَ بِالدِّينِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ فَهُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَهَذَا سَنَنُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَدْيُهُمْ، كَانُوا يُوصُونَ بِالدِّينِ أَعْظَمَ الْوَصَايَا ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشُّورىٰ: ١٣].

فَدَعْوَةُ الْغَيْرِ إِلَىٰ الْخَيْرِ هِيَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَهِيَ وَصِيَّةُ الْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْغَيْرُ قَرِيبًا أَمْ بَعِيدًا، كَافِرًا كَانَ أَمْ مُسْلِمًا.

فَأَمْرُ الرَّجُلِ أَهْلَ بَيْتِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ هُوَ مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ. وَمِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ: تَعَاهُدُ جِيرَانِهِ وَقَرَابَتِهِ بِالنَّصِيحَةِ، وَدَعْوَةُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ إِلَىٰ الطَّاعَةِ إِنْ كَانُوا عُصَاةً، أَوْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانُوا كُفَّارًا، بِالْخِطَابِ الْمُبَاشِرِ، أَوِ الْكِتَابِ، أَوِ الْمُرَاسَلَةِ، أَوْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ تُحَقِّقُ الْمَقْصُودَ؛ فَمَجَالَاتُ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ كَثِيرَةٌ، وَأَبْوَابُهُ عَدِيدَةٌ، وَمَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ بَابَ الْخَيْرِ هَذَا؛ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخُسْرِ.

وَلِأَنَّ التَّوَاصِيَ بِالْحَقِّ يَقْتَضِي الِاسْتِمْرَارَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَتَعَاهُدَ مَنْ يُوصِيهِمْ بِوَصِيَّتِهِ، وَعَدَمَ الِانْقِطَاعِ عَنْهُمْ، وَلِأَنَّهُ يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَذَىٰ مِنْهُمْ؛ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

وَالتَّحَلِّي بِالصَّبْرِ وَالتَّوَاصِي بِهِ؛ هُوَ التَّاجُ الَّذِي يُزَيِّنُ أَسْبَابَ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْخُسْرَانِ، بَلْ هُوَ الرُّكْنُ الرَّكِينُ الَّذِي تُبْنَىٰ عَلَيْهِ الْأَرْكَانُ الْأُخْرَىٰ؛ فَالْإِيمَانُ

يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ صَبْرٍ عَلَىٰ الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِ اللَّهِ ﷻ. وَدَعْوَتُهُ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَوَصِيَّتُهُ بِالْحَقِّ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ فِي تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَبْرٍ عَلَىٰ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَذَىٰ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذِهِ نِهَايَةُ الْكَمَالِ؛ فَإِنَّ الْكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ، مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ، وَكَمَالُهُ بِإِصْلَاحِ قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَصَلَاحُ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ بِالْإِيمَانِ، وَصَلَاحُ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَكْمِيلِ غَيْرِهِ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ، وَصَبْرِهِ عَلَيْهِ، وَتَوْصِيَتِهِ بِالصَّبْرِ مَعَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ فَهَذِهِ السُّورَةُ عَلَىٰ اخْتِصَارِهَا هِيَ مِنْ أَجْمَعِ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ بِحَذَافِيرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِتَابَهُ كَافِيًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، شَافِيًا مِنْ كُلِّ دَاءٍ، هَادِيًا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ» اهـ(١٣).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ

(١٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦-٥٧).

وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّ الْأَعْمَارَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَالَ تُكْتَبُ، وَمَا يَكَادُ عَامٌ يَبْتَدِئُ إِلَّا وَيَنْتَهِي بِمَا عَمِلَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَالمُفْلِحُ مَنْ عَمَّرَ وَقْتَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا مَنْ قَضَىٰ عُمُرَهُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالمَعَاصِي فَهُوَ فِي خُسْرٍ عَظِيمٍ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ مَعَانٍ كَبِيرَةٍ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وَاقِعِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ؛ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ فِي خُسْرٍ، وَأَنَّ الْخُسْرَ يُحِيطُ بِالْبَشَرِيَّةِ فِي شَتَّىٰ الْأَقْطَارِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

كَمْ أَعْدَادُ الْكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ يُشْرِكُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ كَمْ أَعْدَادُ مَنْ يَعْبُدُونَ الصَّلِيبَ، وَمَنْ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، وَالْأَوْثَانَ وَالمَادَّةَ؟

كَمْ أَعْدَادُ مَنْ يَطُوفُونَ بِالْقُبُورِ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهَا، وَيَسْأَلُونَ الْأَمْوَاتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟

إِنَّ أَعْدَادَهُمْ كَبِيرَةٌ جِدًّا، بَلْ هُمْ أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَكُلُّ أُولَئِكَ فِي خُسْرَانٍ دَائِمٍ، بَلْ هُمْ فِي أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ وَالشَّقَاءِ، فَمَنْ يَتَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ، وَيُوصِيهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ، فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ خُسْرَانِهِمْ إِلَىٰ الرِّبْحِ الْعَظِيمِ، وَالْفَلَاحِ الدَّائِمِ؟!

كَمْ مِنْ عُصَاةِ المُسْلِمِينَ مَنْ قَارَفُوا المُنْكَرَاتِ، وَاسْتَبَاحُوا المُوبِقَاتِ؛ مِنَ الزِّنَا إِلَىٰ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ الْآثِمَةِ، وَمِنَ الرِّبَا إِلَىٰ أَنْوَاعِ المُعَامَلَاتِ المُحَرَّمَةِ وَالمَشْبُوهَةِ؟ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ الِاتِّصَالِ بِثَقَافَاتِ المَلَاحِدَةِ وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُؤَلِّهُونَ المَادَّةَ، وَيَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَتَّبِعُونَ شَهَوَاتِهِمْ، وَيُقَدِّمُونَ دُنْيَاهُمْ عَلَىٰ آخِرَتِهِمْ،

وَقَدْ قَلَّدَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا!! كَمْ مِنَ الخُسْرَانِ سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْ إِخْوَانِهِمْ مَنْ يَتَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمِنَ المَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ؟!

وَمَا أَحْوَجَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَحَمَلَتَهُ وَدُعَاتَهُ إِلَىٰ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ؛ لِمُوَاجَهَةِ هَذِهِ الهَجْمَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْعَلْمَانِيَّةِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ! يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ المُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ، وَيَوَدُّونَ تَبْدِيلَ ثَقَافَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ. وَلَنْ يَقِفَ فِي وُجُوهِ هَذِهِ الْحَمَلَاتِ الظَّالِمَةِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ إِلَّا مَنْ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ؛ لِتَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، كَمَا كَانَتْ لِمُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَاجَهُوا ظُلْمَ فِرْعَوْنَ وَكُفْرَهُ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

نَقَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ -رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ- قَوْلَهُ: «أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَىٰ أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ»، ثُمَّ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ؛ إِذْ إِنَّ أَهْلَ الْفَسَادِ وَالْبَاطِلِ لَا يَقُومُ بَاطِلُهُمْ إِلَّا بِصَبْرٍ عَلَيْهِ، لَكِنِ الْمُؤْمِنُونَ يَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَأُولَئِكَ يَتَوَاصَوْنَ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ؛ كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ بِدُونِ الصَّبْرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَ أَحَدَهُمْ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ بِدُونِ الْحَقِّ كَقَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ كِلَاهُمَا مُوجِبٌ لِلْخُسْرَانِ؛ وَإِنَّمَا نَجَا مَنْ نَجَا مِنَ

الْخُسْرَانِ: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» اهـ(١٤).

وَمَنْ لَزِمُوا الْحَقَّ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِيهِ فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ وَالمِحَنِ؛ أَنَالَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَجَعَلَهُمْ يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] إِرْشَادٌ إِلَىٰ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ فِي قُوَّةِ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ(١٥).

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَرَزَقَنَا التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



(١٤) قاعدة في المحبة (٢٠٧-٢٠٨).

(١٥) التبيان لابن القيم (٥٥).

٢٢٩- سورة الإخلاص
فضلها وشيء من معانيها

٢٨/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ الْهُدَىٰ وَالرَّشَادُ، وَالشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، مَنْ تمسَّكَ بِهِ نَجا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ، تِلَاوَتُهُ عِبَادَةٌ، وَالْعَمَلُ بِهِ فَرِيضَةٌ، لَمْ يَزَلْ مُنْذُ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ هَادِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَبُرْهَانًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ مَهْمَا كَانَتِ الْأَحْوَالُ وَالظُّرُوفُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فَاضَلَ اللهُ ﷻ بَيْنَ آيَاتِهِ وَسُوَرِهِ؛ فَأَعْظَمُ آيَةٍ مِنْهُ هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَأَفْضَلُ سُورَةٍ فِيهِ هِيَ فَاتِحَتُهُ الَّتِي لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهَا، وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ أَرْبَعُ آيَاتٍ فَقَطْ، وَلَكِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالرَّدِّ عَلَىٰ طَوَائِفِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْقُرْآنُ تَوْحِيدٌ وَأَخْبَارٌ وَأَحْكَامٌ، وَهِيَ قَدْ جَاءَتْ بِالتَّوْحِيدِ؛ فَكَانَتْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ، انْسِبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَزَادَ فِي رِوَايَتِهِ: «**فَالصَّمَدُ: الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ**: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] قَالَ: «**لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**»(١).

وَالْأَحَدُ فِي أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ: الْفَرْدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آخَرُ، فَهُوَ تَعَالَىٰ مُخْتَصٌّ بِالْأَحَدِيَّةِ فَلَا يُشْرِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ؛ وَلِهَذَا لَا يُنْعَتُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَلَا يُقَالُ: رَجُلٌ أَحَدٌ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب ﷺ: أحمد (٥/ ١٣٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٢)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٩٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٨١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨٩)، وقد جاء مرسلًا وموصولًا، وذكر الترمذي في جامعه أن المرسل أصح من الموصول (٣٣٦٥)، وقال الحافظ في الفتح: «وصحح الموصول ابن خزيمة والحاكم» اهـ (٨/ ٧٣٩)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٤٠٩).

وَكَانَ بِلَالٌ ﵁ يُغِيظُ المُشْرِكِينَ، فَيَقُولُ وَهُوَ يُعَذَّبُ: «أَحَدٌ، أَحَدٌ»(٣).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: يَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(٤).

«فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يَكُونَ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ؛ فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَىٰ الْكَمَالِ . . . فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْمُدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إِلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ أَوْ يَتَفَرَّقَ وَيَنْقَسِمَ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَالُهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ، لَا يُمْكِنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ تَثْنِيَةُ أَحَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ»(٥).

وَفِي إِثْبَاتِ صَمَدِيَّتِهِ ﷻ، وَقَصْرِهَا عَلَيْهِ بِتَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ: إِبْطَالٌ لِمَا تَعَوَّدَهُ

---

(٣) كما في حديث ابن مسعود ﵁ عند: أحمد في المسند (١/ ٤٠٤)، وفي فضائل الصحابة (١٩١)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٥٠)، وصححه ابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٩٦).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٢٣٨)، وينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٤١٠).

أَهْلُ الشِّرْكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ دُعَائِهِمْ أَصْنَامَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَالْفَزَعِ إِلَيْهَا فِي نَوَائِبِهِمْ، حَتَّىٰ نَسُوا اللهَ تَعَالَىٰ، مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تَصْمُدُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي حَوَائِجِهَا، وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي سُفْيَانَ لَيْلَةَ الْفَتْحِ: «**أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**»، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ لَقَدْ أَغْنَىٰ عَنِّي شَيْئًا(٦).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: فَمَنْ يُصْمَدُ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ مِنْ حَالِهِ أَنْ يَلِدَ؛ لِأَنَّ طَلَبَ الْوَلَدِ إِنَّمَا كَانَ لِقَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ فِي إِقَامَةِ شُؤُونِ الْوَالِدِ، وَتَدَارُكِ عَجْزِهِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتُدِلَّ عَلَىٰ إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ الْغَنِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فَهَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أَبْطَلَتْ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِطَرِيقِ تَوَلُّدِ إِلَهٍ عَنْ إِلَهٍ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَلِّدَ مُسَاوٍ لِمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ، كَمَا أَبْطَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِالْأَصَالَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ، وَكَمَا يَسْتَحِيلُ تَعَدُّدُ الْآلِهَةِ بِالْأَصَالَةِ فَهُوَ كَذَلِكَ بِالتَّوَلُّدِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِمَا يَلْزَمُ عَلَىٰ التَّعَدُّدِ فِي كِلَيْهِمَا مِنْ فَسَادِ الْأَكْوَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢](٧).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ زَعَمُوا لِلَّهِ الْوَلَدَ -تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا!- فَكُفَّارُ الْعَرَبِ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وَالْيَهُودُ زَعَمُوا أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللَّهِ، وَزَعَمَتِ النَّصَارَىٰ أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ

---

(٦) أخرجه مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٩-٣٢٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩) برقم: (٧٢٦٤).

(٧) مختصرا من التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٨-٦١٩).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، فَرَدَّ الْقُرْآنُ قَوْلَهُمْ، وَفَضَحَ زَعْمَهُمْ، وَبَيَّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وَمَا أَوْسَعَ حِلْمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ! خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ، وَآوَاهُمْ، ثُمَّ يَزْعُمُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ الْوَلَدَ؛ فَلَا يُعَذِّبُهُمْ بَلْ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَيُبَيِّنُ خَطَأَهُمْ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**»(٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفوًا أَحَدٌ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ سَدٌّ لِتَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَالِدٌ، فَأَرْدَفَ نَفْيَ الْوَلَدِ بِنَفْيِ الْوَالِدِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ نَفْيَ الْوَلَدِ لِأَنَّهُ أَهَمُّ؛ إِذْ قَدْ نَسَبَ أَهْلُ الضَّلَالَةِ الْوَلَدَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلَمْ يَنْسُبُوا إِلَىٰ اللَّهِ وَالِدًا، وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ يَكُونُ مَوْلُودًا

---

(٨) أخرجه من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب الصبر علىٰ الأذىٰ (٦٩٤٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ من الله ﷻ (٢٨٠٤).

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ (٤٦٩١)، والنسائي في الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١١٢)، وابن حبان (٨٤٨).

مِثْلَ عِيسَىٰ عليه السلام لَا يَكُونُ إِلَهًا، فَبَطَلَتِ الْعَقَائِدُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَىٰ تَوَلُّدِ الْإِلَهِ، مِثْلُ عَقَائِدِ النَّصَارَىٰ(١٠).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الْكُفُوُ: هُوَ الْمُمَاثِلُ وَالْمُسَاوِي، فَسَلَبَ عَنِ الْمَخْلُوقِ -أَيًّا كَانَ- مُكَافَأَتَهُ وَمُمَاثَلَتَهُ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، فَالْمَخْلُوقُ كَائِنًا مَنْ كَانَ لَا يُمَاثِلُ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ(١١).

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ صِفَاتِ الْخَالِقِ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَوْضَحَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وَمَنْ عَطَّلَ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مِنْ صِفَاتِهِ؛ فَنَفَاهَا، أَوْ تَأَوَّلَهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ فَهُوَ مُعْتَدٍ عَلَىٰ اللَّهِ عز وجل، مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ سَمَّىٰ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءَ، وَوَصَفَ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِفَاتٍ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؛ فَوَجَبَ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، وَنَفْيُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَا كُفُوَ لَهُ عز وجل.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ بِآيَاتِهَا الْقَلِيلَةِ، وَمَعَانِيهَا الْغَزِيرَةِ؛ قَدْ قَرَّرَتِ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ فِي الْخَالِقِ تبارك وتعالى، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُثْبَتَ لَهُ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنْفَىٰ عَنْهُ، وَرَدَّتْ عَلَىٰ طَوَائِفِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلَدًا، كَمَا رَدَّتْ عَلَىٰ أَصْنَافِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوِ الَّذِينَ عَطَّلُوا الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مِمَّا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ. وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ

(١٠) بتصرف واختصار من التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٨-٦١٩).

(١١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٢٣١).

وَإِعْجَازِهِ: أَنْ تَأْتِيَ الْكَلِمَاتُ الْقَلِيلَةُ، وَالسُّوَرُ الْقَصِيرَةُ بِالمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، وَالْأَحْكَامِ الْغَزِيرَةِ، وَصَدَقَ اللهُ ﷻ إِذْ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

نَفَعَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِسُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ؛ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَاجْتَنِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ، وَاعْرِفُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ؛ فَمَنْ أَوْفَىٰ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ اسْتَحَقَّ جَزَاءَهُ وَرِضَاهُ، وَمَنْ حَادَ عَنْ طَرِيقِ تَوْحِيدِهِ كَانَتِ النَّارُ مَأْوَاهُ؛ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ﴾ [الزمر: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِهَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تُسَمَّىٰ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَضَائِلُ كَبِيرَةٌ، جَاءَتْ بِهَا نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ، فَهِيَ تُعَدُّ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٢).

وَهِيَ مُوجِبَةٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ ﷻ، جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَىٰ سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُ»(١٣).

وَمَحَبَّتُهَا وَمَحَبَّةُ الْقِرَاءَةِ بِهَا مَعَ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ يُوجِبُ الْجَنَّةَ لِصَاحِبِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يُقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حَتَّىٰ يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَىٰ مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَىٰ أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّىٰ تَقْرَأَ بِالْأُخْرَىٰ، فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَىٰ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، قَالَ: «حُبُّكَ

(١٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٠٨)، ومن طريقه أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري في فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٤٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في سورة الصمد (١٤٦١)، والنسائي في الافتتاح، باب الفضل في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢/ ١٧١).

(١٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ (٦٩٤٠)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٨١٣).

إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا، وَالتِّرْمِذِيُّ مَوْصُولًا(١٤).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ بِهَا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**»، قَالُوا: وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**الجَنَّةُ**» رَوَاهُ مَالِكٌ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٥).

وَأَوْصَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِقِرَاءَتِهَا مَعَ قِرَاءَةِ المُعَوِّذَتَيْنِ فِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقَالَ لِمَنْ أَوْصَاهُ: «**تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**تَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(١٦).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْصَىٰ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ ﵁ بِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، لَا تَنْسَهُنَّ، وَلَا تَبِتْ لَيْلَةً حَتَّىٰ تَقْرَأَهُنَّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَشْفِي بِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ

---

(١٤) أخرجه معلقا مجزومًا به: البخاري في صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة والقراءة بالخواتيم، وبسورة قبل سورة، وبأول سورة (٧٤١)، وأخرجه الترمذي موصولًا في فضائل القرآن، وقال: حديث حسن غريب صحيح (٢٩٠١)، وأخرجه مختصرًا أحمد (٣/ ١٤٩-١٥٠)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وأبو يعلىٰ (٣٣٣٦)، والدارمي (٣٤٣٥)، وابن حبان (٧٩٢).

(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: مالك (١/ ٢٠٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٥)، والترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص، وقال: حديث حسن غريب (٢٨٩٧)، والنسائي في الافتتاح، باب الفضل في قراءة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢/ ١٧١)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ٧٥٤).

(١٦) أخرجه من حديث عبد الله بن خبيب ﵁: أحمد (٥/ ٣١٢)، وعبد بن حميد (٤٩٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٧٢)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٢)، والترمذي في باب (١١٧)، وقال: حديث حسن صحيح غريب (٣٥٧٥)، والنسائي في فاتحة كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥٠).

(١٧) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨-١٥٨).

فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ بِهَا وَبِسُورَةِ (الْكَافِرُونَ) فِي رَكْعَتَي الطَّوَافِ(١٩)، وَفِي الْوِتْرِ(٢٠)، وَفِي سُنَّةِ الْفَجْرِ(٢١)، وَفِي سُنَّةِ الْمَغْرِبِ(٢٢)؛ لِأَنَّ

---

(١٨) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٩)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ من القرآن عند المنام (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (١٠٦٢٤)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو إذا أوىٰ إلىٰ فراشه (٣٨٧٥).

(١٩) أخرجه من حديث جابر ﷺ مطولا في قصة حجته عليه الصلاة والسلام: مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأخرجه مختصرا: الترمذي في الحج، باب ما جاء ما يقرأ في ركعتي الطواف (٨٦٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب القراءة في ركعتي الطواف (٥/ ٢٣٦).

(٢٠) كما في حديث أبي بن كعب ﷺ عند الطيالسي (٥٤٦)، والنسائي في قيام الليل، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي بن كعب في الوتر (٣/ ٢٣٥-٢٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٩٧٣)، وصححه ابن حبان (٢٤٥٠).

(٢١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي الفجر (٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في تخفيفهما -أي: ركعتي الفجر- (١٢٥٦)، والنسائي في الافتتاح، باب القراءة في ركعتي الفجر بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٣/ ١٥٥).

(٢٢) كما في حديث ابن عمر قال: «رمقت رسول الله ﷺ عشرين مرة، يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد» أخرجه النسائي في الافتتاح، باب القراءة في الركعتين بعد المغرب (٢/ ١٧٠).
وأعله مسلم في التمييز فقال: «وهذا الخبر وهم عن ابن عمر، والدليل علىٰ ذلك الروايات الثابتة عن ابن عمر أنه ذكر ما حفظ عن النبي ﷺ من تطوع صلاته بالليل والنهار فذكر عشر ركعات، ثم قال: وركعتي الفجر أخبرتني حفصة أن النبي ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين =

هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ؛ فَكَانَ يَفْتَتِحُ بِهِمَا عَمَلَ النَّهَارِ، وَيَخْتِمُهُ بِهِمَا، وَيَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْحَجِّ الَّذِي هُوَ شِعَارُ التَّوْحِيدِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «سُنَّةُ الْفَجْرِ تَجْرِي مَجْرَىٰ بِدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالْوِتْرُ خَاتِمَتُهُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي سُنَّةَ الْفَجْرِ وَالْوِتْرَ بِسُورَتَيِ الْإِخْلَاصِ».

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= إذا طلع الفجر، وكانت ساعة لا أدخل علىٰ النبي ﷺ فيها. فكيف سمع منه أكثر من عشرين مرة قراءته فيها وهو يخبر أنه حفظ الركعتين من حفصة عن النبي ﷺ» التمييز (٢٠٨).

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه عند: الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، وضعفه فقال: حديث غريب لا نعرفه عن ابن مسعود إلا من حديث عبدالملك بن معدان عن عاصم (٤٣١).

وقد جود النووي حديث ابن عمر في المجموع (٣/ ٣٣٩)، ورجح الألباني تصحيحه في السلسلة الصحيحة، وأن زيادة قراءة سورتي الإخلاص في المغرب محفوظة، وهي من زيادة ثقتين فهي مقبولة (٣٣٢٨).

٢٣٠- سورتا المعوذتين (١)
الفضل والأثر

١١/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَتَمَ بِهِ كُتُبَهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا، وَكَفَلَ حِفْظَهُ إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِيَكُونَ هُدًىٰ لِلنَّاسِ.

جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ مَصْدَرَ هِدَايَةٍ لِلْعِبَادِ، وَسَبَبًا لِنَجَاتِهِمْ، وَشِفَاءً لِصُدُورِهِمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فَاضَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ سُوَرِهِ وَآيَاتِهِ، فَخَصَّ بَعْضَهَا بِالْفَضْلِ عَلَىٰ مَا سِوَاهَا؛ فَالْفَاتِحَةُ أَعْظَمُ سُوَرِهِ، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ أَفْضَلُ آيَاتِهِ، وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَسُورَةُ الْمُلْكِ هِيَ الْمُنْجِيَةُ، وَتَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّىٰ يُغْفَرَ لَهُ، وَمَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ.

وَلِلْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنَ الْفَضْلِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، وَلَهُمَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَمَعَاشِهِمْ، وَإِذَا مَا كَثُرَتِ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ، وَتَفَشَّتْ أَمْرَاضُ السِّحْرِ وَالْحَسَدِ وَالْعَيْنِ، وَالْقَلَقِ وَالْأَرَقِ؛ فَإِنَّ الدَّوَاءَ النَّاجِعَ، وَالشِّفَاءَ الْمَضْمُونَ فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «**أُنْزِلَ -أَوْ أُنْزِلَتْ- عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: الْمُعَوِّذَتَيْنِ**»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُقْرِئَهُ سُورَتَيْ هُودٍ وَيُوسُفَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤)، وأبو داود في الصلاة، باب في المعوذتين (١٤٦٢)، والترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء في المعوذتين (٢٩٠٤-٢٩٠٥)، والنسائي في افتتاح الصلاة، باب القراءة في الصبح بالمعوذتين (٢/ ١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٤٤).

(٢) هذه الرواية لمسلم (٨١٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٠)، وأحمد (٤/ ١٥٢).

(٣) هذه الرواية للنسائي (٢/ ١٥٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١١) رقم (٨٦٠)، =

وَوَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ بِأَنَّهُمَا خَيْرُ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا[(٤)]، وَقَالَ: «**مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ**»[(٥)]، وَأَوْصَىٰ عُقْبَةَ بِأَنْ يَقْرَأَهُمَا كُلَّمَا نَامَ وَقَامَ، وَقَالَ لَهُ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»[(٦)]، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا**»[(٧)].

وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «**لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ**»: يَعْنِي: لَمْ تَكُنْ آيَاتُ سُورَةٍ كُلُّهُنَّ تَعْوِيذًا لِلْقَارِئِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ غَيْرَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ[(٨)].

وَرَوَىٰ **جَابِرٌ** ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اقْرَأْ يَا جَابِرُ**» قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: «**اقْرَأْ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «**اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[(٩)].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِمَا، وَيَسْتَشْفِي بِهِمَا، وَيَرْقِي أَهْلَهُ وَنَفْسَهُ

= وصححها ابن حبان (٧٩٥).

قال السندي في حاشيته علىٰ النسائي: قوله «أبلغ عند الله» أي: أعظم ثوابا في باب الاستعاذة (٨/ ٢٥٤)

(٤) كما في رواية أبي داود (١٤٦٢)، والنسائي (٨/ ٢٥٢)، وأحمد (٤/ ١٥٣)، والبيهقي (٢/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٥)، رقم (٩٢٦)، وفي مسند الشاميين (١٩٨٧) وصححها ابن خزيمة (٥٣٥).

(٥) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥١).

(٦) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥٣)، والدارمي (٣٤٤٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٥) رقم (٩٤٩).

(٧) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥٠).

(٨) شرح الطيبي علىٰ المشكاة (٥/ ١٦٥٠).

(٩) أخرجه النسائي في فاتحة كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٧٩٦).

وجاء بنحوه من حديث عقبة بن عامر ﷺ عند: أحمد (٤/ ١٤٦-١٥١)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٨) رقم (٨٤٩)، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف.

بِهِمَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّىٰ نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١٠).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَشْفِي بِهِمَا، وَإِذَا مَرِضَ أَحَدُ أَهْلِهِ رَقَاهُ بِهِمَا؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّها كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي». قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَانَ يَنْفُثُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ»(١١).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَإِنَّمَا رَقَىٰ بِالمُعَوِّذَاتِ؛ لِأَنَّهُنَّ جَامِعَاتٌ لِلاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ المَكْرُوهَاتِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا؛ فَفِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَدَخَلَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنَ السَّوَاحِرِ، وَمِنْ شَرِّ الْحَاسِدِينَ، وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ»(١٢).

وَهَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ تُؤَمِّنَانِ الْخَائِفَ مِنْ تَغَيُّرِ الْأَجْوَاءِ، وَشِدَّةِ الرِّيَاحِ،

---

(١٠) أخرجه الترمذي في الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، وقال: حسن غريب (٢٠٥٨)، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان (٨/ ٢٧١)، وابن ماجه في الطب، باب من استرقىٰ من العين (٣٥١١).
قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذا لا يدل علىٰ المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل يدل علىٰ الأولوية ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملةً وتفصيلًا» فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

(١١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٨)، ومسلم واللفظ له في السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٢١٩٢).
وقول الزهري هو في رواية البخاري في الطب، باب في المرأة ترقي الرجل (٥٤١٩).

(١٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٤/ ١٨٣).

وَتُؤْنِسَانِهِ فِي الظَّلَامِ، وَمَنْ أَصَابَهُ خَوْفٌ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا؛ لِمَا رَوَىٰ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالْأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ويقول: «**يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا**»، قَالَ عُقْبَةُ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ(١٣).

إِنَّ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ كَافِيَتَانِ، تَكْفِيَانِ الْعَبْدَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَتَحْفَظَانِهِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَشَيْطَانٍ، وَالْعَبْدُ يُحِيطُ بِهِ أَعْدَاءٌ كُثُرٌ، وَيَخْشَىٰ شُرُورًا كَثِيرَةً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ فَالْجِنُّ كَثِيرًا مَا يُؤْذُونَ الْإِنْسَ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَتَعَوَّذُونَ بِهِمْ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. فَلَمَّا جَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِسْلَامِ شُرِعَتِ الِاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَهِيَ الِاسْتِعَاذَةُ النَّافِعَةُ مِنْ أَذَىٰ الْجِنِّ وَشَرِّهِمْ.

وَالْعَبْدُ كَذَلِكَ يَخَافُ أَعْيُنَ النَّاسِ وَحَسَدَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَدَافَعَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ، وَتَنَاءَتْ عَنْهُ النِّقَمُ، فَشَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَخَاوِفِ وَالشُّرُورِ افْتِتَاحَ الْيَوْمِ بِقِرَاءَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَافْتِتَاحَ اللَّيْلِ بِهِمَا، كَمَا شَرَعَ قِرَاءَتَهُمَا عَقِبَ كُلِّ صَلَاةٍ؛ لِيَكُونَ الْمُسْلِمُ مُحَصِّنًا لِنَفْسِهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ مِنَ الشُّرُورِ وَالْأَذَىٰ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ ﷺ قَالَ: «خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا، فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: **قُلْ**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: **قُلْ**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، قَالَ: **قُلْ**، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

---

(١٣) هذه الرواية لأبي داود (١٤٦٣)، والبيهقي (٢/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٥) رقم (٩٥٠).

وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(١٤).

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(١٥).

وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَىٰ الْحِفْظِ وَالْكِفَايَةِ حَالَ نَوْمِهِ كَحَاجَتِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي يَقَظَتِهِ؛ كَيْلَا يُصَابَ بِالْأَرَقِ وَالْفَزَعِ؛ وَلِئَلَّا تَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ بِالْأَحْلَامِ المُزْعِجَةِ، فَشُرِعَ لَهُ التَّعَوُّذُ بِالمُعَوِّذَتَيْنِ قَبْلَ نَوْمِهِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ.

رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٦).

وَرَوَىٰ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ؟**

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٢)، والترمذي في الدعوات، باب (١٧)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٣٥٧٥).

(١٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٢٣)، والترمذي في ثواب القرآن وفضائله، باب في المعوذتين، وقال: حسن غريب (٢٩٠٣)، والنسائي في الافتتاح، باب الأمر بقراءة المعوذات (٣/ ٦٨)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، وصححه ابن خزيمة (٧٥٥)، وابن حبان (٢٠٠٤).

(١٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٩)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ عند المنام، وقال: حسن غريب صحيح (٣٤٠٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٦٢٤)، وأحمد (٦/ ١١٦).

قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! فَأَقْرَأَنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: **يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَاهُنَّ وَلَا تَبِيتُ لَيْلَةً حَتَّىٰ تَقْرَأَهُنَّ**، قَالَ عُقْبَةُ: فَمَا نَسِيتُهُنَّ مُنْذُ قَالَ: لَا تَنْسَاهُنَّ، وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّىٰ أَقْرَأَهُنَّ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ(١٧).

أُنْزِلَتْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ لَمَّا سَحَرَتْ يَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ كَمَا رَوَىٰ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رضي الله عنه فَقَالَ: «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ، قَالَ: فَاشْتَكَىٰ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: **إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ**، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ وَيَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ حَتَّىٰ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لَهُ(١٨).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ»(١٩).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَنْفَعُ مَا يُسْتَعْمَلُ لِإِذْهَابِ السِّحْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي إِذْهَابِ ذَلِكَ وَهُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ . .»(٢٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .

---

(١٧) أخرجه أحمد مطولا (٤/ ١٤٨).

(١٨) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب (٧/ ١١٢)، وأحمد (٤/ ٣٦٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٠)، وعبد بن حميد (٢٧١). وكل الروايات ليس فيها ذكر المعوذات إلا رواية عبد بن حميد.

(١٩) التلخيص الحبير (٤/ ٤٧).

(٢٠) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٩).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [**الحشر**: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَعَ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ، وَانْفِتَاحِ الْعَالَمِ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ؛ انْتَقَلَتْ كَثِيرٌ مِنَ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ إِلَىٰ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَاجَتْ سُوقُ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ، بِسَبَبِ الدِّعَايَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ لَهُمْ، فَلَجَأَ إِلَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي شَدَائِدِهِمْ وَكُرُوبِهِمْ، فَزَادُوهُمْ رَهَقًا إِلَىٰ رَهَقِهِمْ، وَشِدَّةً إِلَىٰ شِدَّتِهِمْ، يَهْدِمُونَ تَوْحِيدَهُمْ، وَيُزِيلُونَ إِيمَانَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُونَ أَمْوَالَهُمْ!! وَقَدْ كَانَ لَهُمْ غِنًىٰ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ التَّعَاوِيذِ النَّافِعَةِ، وَالرُّقَىٰ الشَّافِيَةِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ، كَيْفَ؟! وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(٢١). وَفِي لَفْظٍ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا يَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ** ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢٢)، وَفِي لَفْظٍ: «**هَكَذَا فَتَعَوَّذْ؛ فَمَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِنَّ**»(٢٣).

---

(٢١) مضىٰ تخريج هذه الرواية في حاشية (٦).

(٢٢) هذه الرواية من روايات حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند: النسائي (٢/ ١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٤٩)، وصححها ابن حبان (٧٩٥).

(٢٣) هذه الرواية من روايات حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند: النسائي في الكبرىٰ (٧٨٤٥).

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأُسَرِ الْمُسْلِمَةِ تَشْكُو مِنْ قَلَقِ نِسَائِهَا وَأَوْلَادِهَا، وَاضْطِرَابِ نَوْمِهِمْ، وَفَزَعِهِمْ وَأَرَقِهِمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: السَّهَرُ عَلَىٰ الْأَفْلَامِ الْمُرْعِبَةِ، وَالْمَشَاهِدِ الْمُزْعِجَةِ، وَضَعْفِ الْحَصَانَةِ بِتَرْكِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَتَسَلَّطَتِ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ بُيُوتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، بِالْأَحْلَامِ الْمُزْعِجَةِ، وَالْإِيذَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ.

وَمَا أَحْوَجَ تِلْكَ الْأُسَرَ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالِاسْتِشْفَاءِ بِهِ، وَالتَّعَوُّذِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَتَنْظِيفِ بُيُوتِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ جَلْبِ الشَّيَاطِينِ، وَمَرَدَةِ الْجَانِّ، الَّذِينَ يُحِبُّونَ إِيذَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِخَافَتَهُمْ وَإِرْعَابَهُمْ!

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رضي الله عنهما وَهُمَا طِفْلَانِ؛ اقْتِدَاءً بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ عليه السلام الَّذِي كَانَ يُعَوِّذُ ابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عليهما السلام(٢٤).

وَثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجِنِّ وَالْعَيْنِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا الْأَفْضَلُ وَالْأَنْفَعُ فِي هَذَا الْبَابِ(٢٥).

فَمَنْ أَرَادَ حِفْظَ نَفْسِهِ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِعَاذَةِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَلَا يَدَعْ قِرَاءَتَهُمَا فِي الصَّبَاحِ، وَلَا فِي الْمَسَاءِ، وَلَا فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِلنَّوْمِ نَفَثَ بِهِمَا وَبِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ فِي كَفَّيْهِ، وَمَسَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَمَنْ أَرَادَ رَاحَةَ نَفْسِهِ وَسَلَامَةَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فَلْيُعَلِّمْهُمُ التَّعَوُّذَ بِهِمَا، وَلْيُعَوِّذْهُمْ هُوَ بِهِمَا؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ.

---

(٢٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الأنبياء، باب يزفون: النسلان في المشي (٣٣٧١) بلفظ: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**».

(٢٥) ينظر تخريجه في حاشية (١٠).

وَطَرِيقَةُ تَعْوِيذِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَلَا سِيَّمَا الْأَطْفَالُ بِهِمَا: أَنْ يَقْرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، وَيَنْفُثَ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي حَالِ يَقَظَتِهِمْ أَوْ حَالِ نَوْمِهِمْ، وَلَا يَلْزَمُ لِفِعْلِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا مَرْضَىٰ؛ فَإِنَّ التَّعَوُّذَ بِهِمَا لِلصِّحَاحِ مَشْرُوعٌ وَفَضِيلَةٌ، وَحِصْنٌ مِنْ أَذَىٰ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمَنْ فَرَّطَ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ التَّعْوِيذَةِ، أَوْ جَاوَزَهَا إِلَىٰ سِوَاهَا، فَقَدْ فَرَّطَ فِي عَظِيمٍ، وَحَرَمَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتَعَلَّمُوا مَا يَنْفَعُكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



٢٣١- سورتا المعوذتين (٢) التفسير والمعنى

٢٠/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ شُرُورٌ كَبِيرَةٌ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ أَعْدَاءٌ كُثُرٌ، بَدْءًا بِنَفْسِهِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، وَمُرُورًا بِقَرِينِهِ الَّذِي يُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ، وَانْتِهَاءً بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَىٰ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْحُصُونِ وَالتَّعَاوِيذِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي حِفْظِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ وَالْأَذَىٰ، وَرَدْعِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنِ النَّيْلِ مِنْهُمْ.

وَمِنْ أَنْفَعِ ذَلِكَ وَأَشَدِّهِ أَثَرًا: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَهُ شِفَاءً وَرَحْمَةً وَهُدًىٰ وَنُورًا ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤]، فِيهِ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْوَاءِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ، وَشِفَاءٌ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَفِيهِ التَّعَاوِيذُ النَّافِعَةُ الَّتِي تَحْفَظُ المُسْلِمَ وَأُسْرَتَهُ وَآلَ بَيْتِهِ مَتَىٰ مَا تَعَلَّمُوهَا، وَأَيْقَنُوا بِهَا، وَدَاوَمُوا عَلَيْهَا.

وَمِنْ أَنْفَعِ تَعَاوِيذِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: المُعَوِّذَتَانِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١] فَمَا سَأَلَ سَائِلٌ، وَلَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ، وَلَا قَرَأَ قَارِئٌ بِمِثْلِهِمَا، قَالَ ذَلِكَ نَبِيُّكُمْ ﷺ، وَكَانَ يَسْتَفْتِحُ بِهِمَا صَبَاحَهُ وَمَسَاءَهُ، وَيَقْرَأُهُمَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَأَدْبَارَ صَلَوَاتِهِ، وَيَسْتَشْفِي بِهِمَا؛ لِسُرْعَةِ أَثَرِهِمَا، وَعَظِيمِ نَفْعِهِمَا[(١)].

وَالْحَدِيثُ عَنْ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ المُوجَزَتَيْنِ حَدِيثٌ طَوِيلٌ جِدًّا؛ لِغَزَارَةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالمَعَانِي، وَدَلَالَتِهِمَا عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ الْبَارِي جَلَّ جَلَالُهُ.

وَحَسْبُنَا مَا يَكْشِفُ مُجْمَلَ المَعْنَىٰ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَثَرِ؛ لِيُحَفِّزَ المُسْلِمَ عَلَىٰ تَعَاهُدِهِمَا بِالْقِرَاءَةِ وَالتَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ، وَاتِّخَاذِهِمَا حِصْنًا حَصِينًا ضِدَّ الْأَشْرَارِ، وَالِاسْتِشْفَاءِ بِهِمَا مِنَ الْعَوَادِي وَالْأَسْقَامِ.

تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ: اسْتِعَاذَةً وَمُسْتَعَاذًا بِهِ، وَمُسْتَعَاذًا مِنْهُ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١]، وَالْعَوْذُ هُوَ اللَّجَأُ إِلَىٰ شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ[(٢)].

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في الخطبة السالفة (٦/ ٤٧١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/ ٦٢٦).

وَأَمَّا الْمُسْتَعَاذُ بِهِ فَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ؛ رَبُّ الْفَلَقِ، وَرَبُّ النَّاسِ، مَلِكُ النَّاسِ، إِلَهُ النَّاسِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الِاسْتِعَاذَةُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَعَاذُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُعِيذُ الْمُسْتَعِيذِينَ وَيَعْصِمُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْ شَرِّهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷻ فِي كِتَابِهِ عَمَّنِ اسْتَعَاذَ بِخَلْقِهِ أَنَّ اسْتِعَاذَتَهُ زَادَتْهُ طُغْيَانًا وَرَهَقًا فَقَالَ حِكَايَةً عَنْ مُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الْجِنّ: ٦]، فَلَا يُسْتَعَاذُ إِلَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١][٣].

وَالْفَلَقُ هُوَ فَلَقُ الصُّبْحِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأَنْعَام: ٩٦][٤].

وَأَمَّا الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ فَأُمُورٌ أَرْبَعَةٌ[٥]:

---

(٣) بتصرف يسير واختصار من بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٤٢٩).

(٤) اختلف المفسرون في المقصود بالفلق على أقوال نقلها أهل الأثر:

١- أنه الصبح، وهذا منقول عن ابن عباس وجابر بن عبد الله والحسن البصري وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وابن زيد، ورجحه الطبري، وهو اختيار البخاري وابن كثير وابن القيم. ينظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٤٠٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٥)، وصحيح البخاري (٤/ ١٩٠٤)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٣٥٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٤)، وبدائع الفوائد (٢/ ٢١٧).

٢- أنه سجن في جهنم، وفيه حديث مرفوع عن أبي هريرة رضي الله عنه لا يصح.

وهو منقول عن ابن عباس بإسناد منقطع، وروي عن كعب الأحبار والسدي. ينظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٩) ورده ابن القيم.

٣- أنه اسم من أسماء جهنم، نقله الطبري عن أبي عبدالرحمن الحبلي (٣٠/ ٣٥٠).

٤- أنه الخلق، أي: أمره الله تعالى أن يتعوذ من الخلق كله، نقله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٤).

قال ابن القيم: «واعلم أن الخلق كله فلق؛ وذلك أن فلقا فعل بمعنى: مفعول، كقبض وسلب وقنص، بمعنى: مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﷻ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح» بدائع الفوائد (٢/ ٢٢١).

(٥) بتصرف من بدائع الفوائد (٢/ ٢١٠).

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الْفَلَق: ٢]، وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ الشُّرُورِ فِي أَيِّ مَخْلُوقٍ قَامَ بِهِ الشَّرُّ مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ غَيْرِهِ إِنْسِيًّا كَانَ أَوْ جِنِّيًّا أَوْ هَامَّةً أَوْ دَابَّةً أَوْ رِيحًا أَوْ صَاعِقَةً أَوْ أَيَّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ . . . وَالمَعْنَىٰ: مِنْ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ . . . وَلَيْسَ المُرَادُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ، وَكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ حَصَلَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَعُمُّ شَرَّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ، كَمَا تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَشَرَّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَشَرَّ السِّبَاعِ وَالْهَوَامِّ، وَشَرَّ النَّارِ وَالْهَوَاءِ وَغَيْرَ ذَلِكَ(٦).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الْفَلَق: ٣]، أَيْ: شَرِّ اللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ بِظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ، أَوْ شَرِّ عَلَامَةِ اللَّيْلِ وَهِيَ الْقَمَرُ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ فَقَالَ: **تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٧).

وَالسَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَمَرَ اللهُ ﷻ عِبَادَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ اللَّيْلِ . . . هُوَ أَنَّ اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ فَهُوَ مَحَلُّ سُلْطَانِ الْأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَفِيهِ تَنْتَشِرُ الشَّيَاطِينُ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُرْسِلُوا مَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبَعِثُ إِذَا غَابَتِ**

---

(٦) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢١٥).

(٧) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ٢٠٦)، وإسحاق بن راهويه (١٠٧٢)، وأبو يعلىٰ (٤٤٤٠)، والطيالسي (١٤٨٦)، وعبد بن حميد (١٥١٧)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المعوذتين وقال: حديث حسن صحيح (٣٣٦٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠١٣٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (٨/ ٧٤١).

الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعُشَاءِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(٨).

قَالَ الْمُنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لِأَنَّ حَرَكَتَهُمْ- أَيِ: الشَّيَاطِينَ- لَيْلًا أَمْكَنُ مِنْهَا نَهَارًا؛ إِذِ الظَّلَامُ أَجْمَعُ لِقُوَىٰ الشَّيْطَانِ، وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ انْتِشَارِهِمْ يَتَعَلَّقُونَ بِمَا يُمْكِنُهُمُ التَّعَلُّقُ بِهِ؛ فَخِيفَ عَلَىٰ الْأَطْفَالِ مِنْ إِيذَائِهِمْ»(٩).

فَاللَّيْلُ هُوَ مَحَلُّ الظَّلَامِ، وَفِيهِ تَتَسَلَّطُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مَا لَا تَتَسَلَّطُ بِالنَّهَارِ؛ فَإِنَّ النَّهَارَ نُورٌ، وَالشَّيَاطِينُ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُظْلِمَةِ وَعَلَىٰ أَهْلِ الظُّلْمَةِ . . . وَلِهَذَا كَانَ سُلْطَانُ السِّحْرِ وَعِظَمُ تَأْثِيرِهِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ؛ فَالسِّحْرُ اللَّيْلِيُّ عِنْدَ أَهْلِ السِّحْرِ هُوَ السِّحْرُ الْقَوِيُّ التَّأْثِيرِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَتِ الْقُلُوبُ الْمُظْلِمَةُ هِيَ مَحَالَّ الشَّيَاطِينِ وَبُيُوتَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ، وَالشَّيَاطِينُ تَجُولُ فِيهَا، وَتَتَحَكَّمُ كَمَا يَتَحَكَّمُ سَاكِنُ الْبَيْتِ فِيهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَظْلَمَ كَانَ لِلشَّيْطَانِ أَطْوَعَ، وَهُوَ فِيهِ أَثْبَتَ . . . وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ السِّرَّ فِي الِاسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ الْفَلَقِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ فَإِنَّ الْفَلَقَ الصُّبْحُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ ظُهُورِ النُّورِ، وَهُوَ الَّذِي يَطْرُدُ جَيْشَ الظَّلَامِ وَعَسْكَرَ الْمُفْسِدِينَ فِي اللَّيْلِ، فَيَأْوِي كُلُّ خَبِيثٍ وَكُلُّ مُفْسِدٍ وَكُلُّ لِصٍّ وَكُلُّ قَاطِعِ طَرِيقٍ إِلَىٰ سِرْبٍ أَوْ كِنٍّ أَوْ غَارٍ، وَتَأْوِي الْهَوَامُّ إِلَىٰ جُحُورِهَا، وَالشَّيَاطِينُ الَّتِي انْتَشَرَتْ بِاللَّيْلِ إِلَىٰ أَمْكِنَتِهَا وَمَحَالِّهَا؛ فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِرَبِّ النُّورِ الَّذِي يَقْهَرُ الظُّلْمَةَ وَيُزِيلُهَا، وَيَقْهَرُ عَسْكَرَهَا وَجَيْشَهَا.

فَالْإِيمَانُ كُلُّهُ نُورٌ، وَمَآلُهُ إِلَىٰ نُورٍ، وَمُسْتَقَرُّهُ فِي الْقَلْبِ الْمُضِيءِ الْمُسْتَنِيرِ،

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١٠٦)، ومسلم في الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء وإغلاق الأبواب وذكر اسم الله عليها، واللفظ له (٢٠١٢).

(٩) فيض القدير (١/ ٤٢٣)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤١)

وَالْمُقْتَرِنُ بِأَهْلِهِ الْأَرْوَاحُ الْمُسْتَنِيرَةُ الْمُضِيئَةُ الْمُشْرِقَةُ. وَالْكُفْرُ وَالشِّرْكُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَمَآلُهُ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ، وَمُسْتَقَرُّهُ فِي الْقُلُوبِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْمُقْتَرِنُ بِهَا الْأَرْوَاحُ الْمُظْلِمَةُ، فَتَأَمَّلُوا- أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- الِاسْتِعَاذَةَ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ الظُّلْمَةِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَحْدُثُ فِيهَا، وَنُزُولُ هَذَا الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ الْوَاقِعِ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ، بَلْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَبَرَاهِينِ صِدْقِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ(١٠).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الْفَلَق: ٤] هِيَ الْأَنْفُسُ الْخَبِيثَةُ، وَالْأَرْوَاحُ الشِّرِّيرَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا السَّحَرَةُ فَيَنْفُثُونَ بِالشِّرْكِ وَالطَّلَاسِمِ فِي الْعُقَدِ الَّتِي يَعْقِدُونَهَا فِي سِحْرِهِمْ لِأَذِيَّةِ النَّاسِ، وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ؛ فَالْحَاجَةُ مَاسَّةٌ إِلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُمْ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْ شَرِّهِمْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ هَذِهِ السُّورَةِ النَّافِعَةِ.

وَآخِرُ مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ: الْحَاسِدُ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الْفَلَق: ٥] يَعُمُّ الْحَاسِدَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ وَحِزْبَهُ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ كَمَا حَسَدَ إِبْلِيسُ أَبَانَا آدَمَ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فَاطِر: ٦]، وَلَكِنَّ الْوَسْوَاسَ أَخَصُّ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَالْحَسَدَ أَخَصُّ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ، وَالْوَسْوَاسَ يَعُمُّهُمَا كَمَا أَنَّ الْحَسَدَ يَعُمُّهُمَا أَيْضًا، فَكِلَا الشَّيْطَانَيْنِ الْإِنْسِيِّ وَالْجِنِّيِّ حَاسِدٌ مُوَسْوِسٌ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ تَتَنَاوَلُهُمَا جَمِيعًا(١١).

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ الْمُوجَزَةَ قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ، وَتَضَمَّنَتْ شُرُورًا أَرْبَعَةً يُسْتَعَاذُ مِنْهَا، وَالنَّاسُ مُحْتَاجُونَ أَشَدَّ الْحَاجَةِ

---

(١٠) ملخص بتصرف يسير من بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٠).

(١١) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٥).

إِلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْهَا؛ لِاتِّقَاءِ شَرِّهَا وَضَرَرِهَا، وَلَا يُفَرِّطُ فِي هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ إِلَّا مَنْ يَجْلِبُ الْأَذَىٰ وَالضَّرَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيُجَرِّئُ شَيَاطِينَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الْفَلَق: ١-٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَمَا أَنَّ الْمُعَوِّذَةَ الْأُولَىٰ سُورَةَ الْفَلَقِ تَضَمَّنَتْ مِنَ الْمَعَانِي مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَدَلَّتْ عَلَىٰ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ مِمَّا يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ وَيَقِينَهُ بِرَبِّهِ؛ فَإِنَّ الْمُعَوِّذَةَ الْأُخْرَىٰ: سُورَةَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعَانِي مَا لَا يَقْصُرُ عَنْ أُخْتِهَا؛ إِذْ إِنَّهَا حَوَتْ مَعَانِيَ الرُّبُوبِيَّةِ بِافْتِتَاحِهَا بِذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ وَالْمُلْكِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

﴿ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٣]، فَإِذَا كَانَ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبَّنَا وَمَالِكَنَا وَإِلَهَنَا فَلَا مَفْزَعَ لَنَا فِي الشَّدَائِدِ سِوَاهُ، وَلَا مَلْجَأَ لَنَا مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا مَعْبُودَ لَنَا غَيْرُهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُدْعَىٰ وَلَا يُخَافَ وَلَا يُرْجَىٰ وَلَا يُحَبَّ سِوَاهُ، وَلَا يُذَلَّ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُخْضَعَ لِسِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ. فَكَيْفَ لَا يَلْتَجِئُ الْعَبْدُ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَنُزُولِ عَدُوِّهِ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ وَمَالِكِهِ وَإِلَهِهِ؟! وَبِهَذَا ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْإِضَافَاتِ الثَّلَاثِ لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ أَعْدَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَأَعْظَمِهِمْ عَدَاوَةً، وَأَشَدِّهِمْ ضَرَرًا، وَأَبْلَغِهِمْ كَيْدًا[١٢].

وَهَذِهِ الِاسْتِعَاذَةُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ هِيَ اسْتِعَاذَةٌ مِنْ شَرِّ الْوَسَاوِسِ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤-٥].

وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوا جُهْدًا فِي إِغْوَائِهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ**، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٣].

---

(١٢) ينظر: بدائع الفوائد ففيه كلام نفيس حول ذلك (٢/ ٢٤٨-٢٥٠).

(١٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبث سراياه لفتنة الناس ... (٢٨١٤)، والدارمي (٢٧٣٤)، وأحمد (١/ ٣٩٧)، وأبو يعلىٰ (٥١٤٣)، والبزار (١٨٧١)، وابن حبان (٦٤١٧)، وابن خزيمة (٦٥٨).
وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها عند: مسلم (٢٨١٥)، والنسائي (٧/ ٧٢)، وأحمد (٦/ ١١٥).
ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: أحمد (١/ ٢٥٧)، والضياء في المختارة (٤٣٩-٤٤٠)، وابن خزيمة (١٠٩٣).
=

وَشَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لَهَا وَسْوَسَةٌ أَيْضًا؛ وَلِذَا قَالَ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٦].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَسْتَعِيذَ النَّاسُ بِرَبِّهِمْ وَمَلِكِهِمْ وَإِلَهِهِمْ مِنْ شَرِّ مَا يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِهِمْ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُ الْخَيْرُ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ، وَيُطْلَبُ مِنْهُ دَفْعُ الشَّرِّ الَّذِي يَضُرُّهُمْ، وَالْوَسْوَاسُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ؛ لِأَنَّهُ مَبْدَأٌ لِلْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَعُقُوبَاتُ الرَّبِّ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ»(١٤).

وَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الْوَسْوَسَةِ**»(١٥).

= ومن حديث جابر ﵁ عند: الترمذي (١١٧٢)، والدارمي (٢٧٨٢)، وأحمد (٣/ ٣٠٩).
ومن حديث شريك بن طارق ﵁ عند: ابن حبان (٦٤١٦)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٠٩) برقم (٧٢٢٢-٧٢٢٣).

(١٤) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٥١٤).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: أحمد (١/ ٢٣٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٥٠٤)، وأبو داود في السنة، باب رد الوسوسة (٥١١٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٧٧٩)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٤٦).
وجاء بنحوه من حديث أبي هريرة ﵁ عند: مسلم (١٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٨٤)، وأحمد (٢/ ٣٩٧)، وابن حبان (١٤٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٥٠١)، وأبي يعلىٰ (٥٩١٤).
ومن حديث عائشة ﵂ عند: أحمد (٦/ ١٠٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٧٧٠).
ومن حديث أنس ﵁: عند أبي يعلىٰ (٤١٢٨).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَىٰ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ؛ فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١٦).

فَسُورَةُ الْفَلَقِ تَضَمَّنَتِ الِاسْتِعَاذَةَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ ظُلْمُ الْغَيْرِ لَهُ بِالسِّحْرِ وَالْحَسَدِ، وَهُوَ شَرٌّ يَأْتِيهِ مِنْ خَارِجِهِ، وَسُورَةُ النَّاسِ تَضَمَّنَتِ الِاسْتِعَاذَةَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ ظُلْمِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ وَالْعِصْيَانِ وَهُوَ شَرٌّ مِنْ دَاخِلِهِ، سَبَبُهُ تَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ بِالْوَسْوَسَةِ.

فَبَانَ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ الْمُوجَزَتَيْنِ تَحْصِينًا لِمَنْ حَافَظَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْأَعْدَاءِ كُلِّهِمْ: أَعْدَاءِ الدَّاخِلِ وَأَعْدَاءِ الْخَارِجِ، فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ السَّلَامَةَ وَالْحِفْظَ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ أَنْ يَأْخُذَ بِهَذَا الْحِرْزِ الْمَتِينِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَتْ فِيهِ الشُّرُورُ، وَعَظُمَ تَسَلُّطُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ وَالتَّخَيُّلَاتِ، وَبِالْعَيْنِ وَالْحَسَدِ وَالسِّحْرِ وَأَنْوَاعِ الْمُؤْذِيَاتِ، وَالْحَافِظُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَيُنَالُ حِفْظُهُ بِاتِّبَاعِ شَرْعِهِ، وَالْأَخْذِ بِحِرْزِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ؛ فَهُوَ ﷻ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا: أبويعلىٰ (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، والطبراني في الدعاء (١٨٦٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٣١).
وأخرجه موقوفًا علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما: عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٤١٠)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٥٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٣٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٧٦)، وصححه الحاكم، وقال: علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢/ ٥٩٠)، وحديث أنس المرفوع لا يصح، ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) بعدي ابن أبي عمارة. والموقوف أصح منه. والله أعلم.
وقد جاء عن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- مثله أيضًا.
وقوله: واضع خطمه: أي: فمه وأنفه، والخطم من الطير منقاره، ومن الدابة مقدم أنفها وفمها. وقوله: خنس: أي: انقبض وتأخر. ينظر: فيض القدير للمناوي (١/ ٣١٤).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٣٢- من هدايات السنة النبوية (٥)(*)
حديث الهوى

١٤/ ٥/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِمَّا يَعْتَنِي بِهِ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَيْهِ: تَحْصِيلُ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَاجْتِنَابُ مَا يَضُرُّهُمْ، وَمَا يَنْفَعُ وَمَا يَضُرُّ يُدْرَكُ بِالْحِسِّ أَوْ بِالْفِطْرَةِ أَوْ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالتَّجْرِبَةِ. وَلِلْمُسْلِمِ طَرِيقٌ يُدْرِكُ بِهَا مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ، وَهِيَ طَرِيقُ الْوَحْيِ الْمَحْفُوظِ، الَّذِي اخْتُصَّتْ بِهِ هَذِهِ

(*) من هدايات السنة النبوية (١) و(٢) و(٣) و(٤) تجدها في المجلد الأول خطب رقم: (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨).

الْأُمَّةُ المُبَارَكَةُ، الْخَاتِمَةُ لِأُمَمِ التَّارِيخِ، وَالمُفَضَّلَةُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٠].

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَوْصَىٰ المُسْلِمَ بِأَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ[(١)]، سَوَاءً كَانَ هَذَا النَّفْعُ مُتَعَلِّقًا بِأَمْرِ الدُّنْيَا، بِشَرْطِ أَلَّا يَضُرَّ بِالْآخِرَةِ، أَوْ كَانَ نَفْعًا شَامِلًا لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا وَمَنَافِعُهَا قَدْ تَتَعَارَضُ مَعَ مَصَالِحِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنْ قَدَّمَ الْعَبْدُ الْآخِرَةَ عَلَىٰ الدُّنْيَا فَازَ الْفَوْزَ الْأَبَدِيَّ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَإِنْ قَدَّمَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ خَسِرَ الْآخِرَةَ وَلَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ.

وَالضَّرَرُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَىٰ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ بِتَقْدِيمِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: انْتِشَارُ المُنْكَرَاتِ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَعْطِيلُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ ظُهُورِ الْفِتَنِ، وَتَتَابُعِ الْمِحَنِ، وَسَلْبِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ مِنْ كُفَّارٍ وَمُنَافِقِينَ.

وَفِي حَدِيثٍ عَظِيمٍ يُرْشِدُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُ؛ وَلَا سِيَّمَا فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَكَثْرَةِ الشَّرِّ، وَضَعْفِ الْخَيْرِ، وَتَشَعُّبِ الْآرَاءِ، وَافْتِرَاقِ النَّاسِ؛ قَالَ أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ رضي الله عنه فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ: كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥]؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «بَلِ

---

(١) وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك ...**» أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٦-٣٧٠)، وأبو يعلىٰ (٦٢٥١-٦٣٤٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٤٠٥٧)، والبيهقي (١٠/ ٨٩).

ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهُوا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَىٰ الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»، قَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ بْنِ حَكِيمٍ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**» رَوَاهُ الْأَرْبَعَةُ إِلَّا النَّسَائِيَّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢).

إِنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ شَأْنُهُ عَظِيمٌ، وَالمُؤْمِنُ الْحَقُّ لَا يَرْضَىٰ إِلَّا بِأَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ، وَيَنْشُرَ الْخَيْرَ فِيهِمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا أَشْكَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ قَرَأَهَا، وَفَهِمُوا مِنْهَا تَعْطِيلَ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥] كَأَنَّ السَّائِلَ يَقُولُ: أَمَا نَتْرُكُ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ بِنَاءً عَلَىٰ ظَاهِرِ الْآيَةِ؟ أَزَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْإِشْكَالَ بِقَوْلِهِ: «**بَلِ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ**»؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الْأُمَّةِ، وَحِفْظَهَا وَأَمْنَهَا وَاسْتِقْرَارَهَا؛ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِحْيَاءِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ.

---

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المائدة وقال: حسن غريب (٣٠٥٨)، وابن ماجه في الفتن، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥] (٤٠١٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ٩٧)، ومحمد ابن نصر المروزي في السنة (٣١)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥)، والبيهقي (١٠/ ٩١)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٥٣)، وفي المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢٠) برقم (٥٨٧)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣١٦)، وصححه ابن حبان (٣٨٥)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٥٨)، والزيادة التي ذكرها ابن المبارك للترمذي.

وَلَكِنَّ الشَّرَّ إِذَا كَثُرَ غَلَبَ الْخَيْرَ، وَالمُنْكَرَ إِذَا تَعَدَّدَ وَتَفَشَّىٰ قَوِيَ الدَّاعُونَ إِلَيْهِ، وَضَعُفَ النَّاهُونَ عَنْهُ، حَتَّىٰ يُبْتَلَىٰ مَنْ أَقَامَ هَذَا الرُّكْنَ الرَّكِينَ، وَرُبَّمَا فُتِنَ فِي دِينِهِ، فَإِذَا خَشِيَ المُؤْمِنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَدِينِهِ؛ اهْتَمَّ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، وَحِفْظِ دِينِهِ، وَتَقْوِيَةِ إِيمَانِهِ، وَثَبَاتِهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا لَا يُطِيقُ مِنَ الْبَلَاءِ، وَحَاذَرَ الْفِتَنَ وَمَوَارِدَهَا؛ لِئَلَّا يَسْقُطَ فِيهَا مَعَ السَّاقِطِينَ «**حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ**» إِنَّهَا صِفَاتٌ تَنْتَشِرُ حَيْثُ يَفْسُدُ الزَّمَانُ، وَيَغْتَرِبُ الدِّينُ، وَتَكْثُرُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ أَمْرُ النَّاسِ.

وَالْإِنْسَانُ يُطِيعُ شُحَّهُ حِينَ لَا يُؤَدِّي الْحُقُوقَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِيمَا رَزَقَهُ مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الْحَشْر: ٩]، وَطَاعَةُ الشُّحِّ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ يُؤْثِرُ الْإِنْسَانُ هَوَاهُ عَلَىٰ أَمْرِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيُقَدِّمُ دُنْيَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَأَخْبَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «أَنَّهُ فِي زَمَانِهِ كَانَ الْعَمَلُ قَائِدًا لِلْهَوَىٰ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَكُونُ الْهَوَىٰ قَائِدَ الْعَمَلِ»(٤).

---

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠-٤٢٣)، والبزار (٣٨٤٣-٣٨٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٣٧١)، والطبراني في الصغير (٥١١)، وعزاه الهيثمي لأحمد وقال: «ورجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٦)، وفي موضع آخر عزاه للطبراني في معاجمه الثلاثة وقال: «ورجاله رجال الصحيح» (١/ ١٨٨).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٩) بلفظ: «إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه» موقوفًا علىٰ ابن مسعود رضي الله عنه. قال ابن عبد البر في =

وَأَحْرَىٰ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الشَّرُّ، وَيَقِلُّ الْخَيْرُ، وَتَعْظُمُ الْفِتَنُ.

وَعَلِيٌّ ﷺ خَافَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَىٰ، وَقَالَ: «فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٥).

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «أَفْلَحَ مِنْكُمْ مَنْ حُفِظَ مِنَ الْهَوَىٰ وَالْغَضَبِ وَالطَّمَعِ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ(٦).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَىٰ؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(٧).

وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا بِجَاهِهِ وَمَالِهِ، مُتَّبِعًا هَوَاهُ؛ إِذَا آثَرَ الدُّنْيَا عَلَىٰ دِينِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً» أَيْ: يُؤْثِرُهَا النَّاسُ عَلَىٰ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﷻ.

وَمِمَّا يَنْتِجُ عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، مِنَ الشُّحِّ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، وَإِيثَارِ الدُّنْيَا: إِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ لِأَنَّ الْمُسَيِّرَ لِلنَّاسِ حِينَئِذٍ مَا تَهْوَاهُ نُفُوسُهُمْ، وَمَا أُشْرِبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَلَيْسَ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ مِنْ كَلَامٍ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَبِذَلِكَ يَصِيرُ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَامَّةِ يُفْتِي نَفْسَهُ

= الاستذكار (٢/ ٣٦٣): «هذا الحديث قد روي عن ابن مسعود من وجوه متصلة حسان متواترة» اهـ.
وقد جاء مرفوعًا بنحوه من حديث حكيم بن حزام ﷺ عند: الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٩٧) برقم (٣١١١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٨٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٠٦١٣).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٦٢)، والبيهقي في السنن (٣/ ٢١٥).

(٧) أخرجه الدارمي في سننه (٣٩٥).

فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بِسَبَبِ هَوَاهُ!!

وَإِذَا مَا وَقَعَ ذَلِكَ، وَأَدْرَكَ الْمُسْلِمُ هَذَا الزَّمَنَ الَّذِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهِ عَلَىٰ تِلْكَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ فَإِنَّهُ مَأْمُورٌ بِالْعِنَايَةِ بِنَفْسِهِ، وَالِاشْتِغَالِ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ كُلِّ مَا يُخِلُّ بِذَلِكَ.

وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ قَالَ: **«وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِهِ»**(٨) أَيْ: يَمِيلُ إِلَيْهِ هَوَاكَ وَنَفْسُكَ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، فَإِنْ أَقَمْتَ بَيْنَ النَّاسِ وَقَعْتَ فِيهِ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَاعْتَزِلِ النَّاسَ؛ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ(٩).

وَفِي رِوَايَةٍ: **«وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ»**(١٠) أَيْ: أَمْرًا عَظِيمًا لَا طَاقَةَ لَكَ بِدَفْعِهِ وَرَدِّهِ، فَعَلَيْكَ بِأَمْرِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَقَعُ إِلَّا حِينَ تَشْتَدُّ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَيَلْتَبِسُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَيَكْثُرُ الْقَوْلُ، وَيَقِلُّ الْعَمَلُ؛ وَلِذَلِكَ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْأَيَّامَ الَّتِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهَا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ هِيَ أَيَّامُ الصَّبْرِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ»** أَيْ: يُحْمَدُ فِيهَا الصَّبْرُ وَيُفَضَّلُ(١١)، فَمَنْ صَبَرَ فِيهِنَّ قَبَضَ عَلَىٰ الْجَمْرِ، أَيْ: مَشَقَّةُ الصَّابِرِ عَلَىٰ الْقَبَائِحِ وَالْمَحَارِمِ فِيهَا مِثْلُ مَشَقَّةِ الصَّابِرِ عَلَىٰ قَبْضِ الْجَمْرِ، مِنْ شِدَّتِهَا وَكَرْبِهَا، وَزُخْرُفِ الشَّهَوَاتِ فِيهَا، وَسُهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَىٰ

---

(٨) هذه الرواية لحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عند الحاكم (٤/ ٣٥٨).

(٩) ينظر: شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥).

(١٠) هذه الرواية لابن ماجه (٤٠١٤)، وأبي عمرو الداني (٢٩٣)، وفي رواية لأبي عمرو (٢٩٥) قال: «ورأيت أمرا لابد لك به». ومنه حديث النواس بن سمعان في شأن يأجوج ومأجوج **«قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم»** أي: لا قدرة ولا طاقة، وينظر: شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٦٥).

(١١) شرح الطيبي المشكاة (١٠/ ٣٢٦٥).

الْمُحَرَّمَاتِ وَالمَعَاصِي(١٢)، وَهَذَا الْوَصْفُ يَكَادُ يَكُونُ وَاقِعًا فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَلْ هُوَ وَاقِعٌ فِي أَكْثَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعِصْمَةَ وَالْعَافِيَةَ، وَالمُوَافَاةَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ. «**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**».

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الصَّابِرِينَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، قَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِالسَّلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ هَذَا عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ، بَلْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْأَعْمَالَ تَشْرُفُ بِثَمَرَاتِهَا، وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْغَرِيبَ فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ كَالْغَرِيبِ فِي أَوَّلِهِ، وَبِالْعَكْسِ»(١٣).

وَلِذَلِكَ كَانَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ مِمَّنْ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ، وَالنَّفَقَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ مِنَ النَّفَقَةِ بَعْدَ قُوَّتِهِ وَانْتِشَارِهِ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الْحَدِيد: ١٠].

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ النَّفَقَاتِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَثْمَرَتْ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَا يُثْمِرُ غَيْرُهَا، وَهَكَذَا كُلُّ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَىٰ(١٤).

(١٢) ينظر: المصدر السابق (١٠/ ٣٢٦٥).

(١٣) ينظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٢٥-٤٢٦)، وعون المعبود (١١/ ٤٩٦).

ولا يعني ذلك أن من المتأخرين من يكون أفضل من الصحابة ﷺ، بل الصحابة أفضل، قال الحافظ في الفتح (٧/ ٩) بعد ذكره طرفا من حديث أبي ثعلبة ﷺ: «لا يدل علىٰ أفضلية غير الصحابة علىٰ الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلىٰ ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد» اهـ.

(١٤) ينظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٢٦)، وعون المعبود (١١/ ٤٩٦).

وَكَمَا فُضِّلَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ؛ لِقِلَّةِ المُعِينِ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ، وَاشْتِدَادِ الْأَذَىٰ، وَمَشَقَّةِ الصَّبْرِ؛ فَكَذَلِكَ الْحَالُ إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ؛ حَيْثُ غُرْبَةُ الدِّينِ، وَفُشُوُّ الْمُنْكَرَاتِ، وَكَثْرَةُ الشَّرِّ، وَانْفِتَاحُ الْفِتَنِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ سِمَاتِ الْفِتَنِ أَنَّ الْخَوْضَ فِيهَا يَشْغَلُ الْعَبْدَ عَمَّا يُصْلِحُهُ وَيَنْفَعُهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ؛ وَلِذَا أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ عِنَايَةِ المُسْلِمِ بِنَفْسِهِ إِذَا رَأَىٰ بَوَادِرَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ مِنَ الشُّحِّ المُطَاعِ، وَالْهَوَىٰ المُتَّبَعِ، وَالدُّنْيَا المُؤْثَرَةِ، وَإِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ انْفَتَحَتْ فِتَنُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ عَلَىٰ النَّاسِ، فَابْتُلُوا بِالنِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ، كَمَا ابْتُلُوا بِالسُّوءِ وَالشَّرِّ، فَظَهَرَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمُ الشُّحُّ المُطَاعُ الَّذِي

يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِخْرَاجِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ لَا يَتَحَرَّوْنَ الْكَسْبَ الْحَلَالَ فِي تَنْمِيَةِ ثَرَوَاتِهِمْ.

وَأَمَّا الْهَوَىٰ الْمُتَّبَعُ؛ فَمَظَاهِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْجَهْلِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، لَا يَنْقَادُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِقَدْرِ مَا يَنْقَادُ لِهَوَىٰ نَفْسِهِ، وَشَهَوَاتِ بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، وَهَذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ إِيثَارِهِمُ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، فَفِيهَا يَتَنَافَسُونَ، وَمِنْ أَجْلِهَا يَخْتَصِمُونَ.

وَأَمَّا إِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَامَةُ سُوءٍ وَشَرٍّ، تُؤَدِّي إِلَىٰ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا الْعَصْرُ صَارَ يُسَمَّىٰ عَصْرَ الرَّأْيِ الْحُرِّ، وَكُتَّابُهُ وَمُثَقَّفُوهُ وَإِعْلَامِيُّوهُ يُرَبُّونَ النَّاسَ عَلَىٰ تَحَرُّرِ الْكَلِمَةِ مِنْ أَيِّ ضَوَابِطَ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ أَوْ عُرْفِيَّةٍ، وَهَلْ هَذَا التَّوَجُّهُ إِلَّا تَرْبِيَةٌ عَلَىٰ إِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؟! وَإِنَّمَا يَنْشَأُ الِاخْتِلَافُ وَالِافْتِرَاقُ، وَتَعْظُمُ الْفِتَنُ بِالْإِعْجَابِ بِالْآرَاءِ، دُونَ ضَبْطِ كُلِّ رَأْيٍ بِضَوَابِطِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

لَقَدْ أَضْحَتْ كَثِيرٌ مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي مُحَاوَرَاتِهَا وَمُنَاظَرَاتِهَا، وَالْعَدِيدِ مِنْ بَرَامِجِهَا؛ تُكَرِّسُ إِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَتُعَظِّمُ مَسْأَلَةَ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، وَتُعَنِّفُ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ ضَبْطَ الرَّأْيِ بِضَوَابِطِ الشَّرْعِ.

وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ: الْخُصُومَاتُ وَالْمُهَاتَرَاتُ، وَالسِّبَابُ وَالشَّتَائِمُ، وَتَصْدِيرُ الْأَكَاذِيبِ، وَتَرْوِيجُ الْإِشَاعَاتِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَنَوَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مُعْجَبٌ بِرَأْيِهِ، وَيُرِيدُ إِثْبَاتَهُ، وَلَوْ كَانَ مُجَافِيًا لِلْحَقَائِقِ، مُصَادِمًا لِلشَّرَائِعِ.

وَرَغْمَ كَثْرَةِ الْبَرَامِجِ الْحِوَارِيَّةِ، وَتَشَعُّبِ الْآرَاءِ وَاخْتِلَافِهَا؛ فَإِنَّنَا مَا سَمِعْنَا عَنْ وَاحِدٍ اعْتَرَفَ فِي نِهَايَةِ حِوَارٍ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ خَصْمِهِ؛ أَوْ أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي تَصَوُّرِهِ؛ إِذْ لَيْسَ الْمَقْصُودُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يُلْقَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ الْوُصُولَ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا إِثْبَاتُ

الرَّأْيِ، وَإِقْنَاعُ النَّاسِ بِهِ وَلَوْ كَانَ خَطأً وَبَاطِلًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْخِيَانَةِ، وَتَضْيِيعِ أَمَانَةِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَيُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَ مَنْ أَدْرَكَ زَمَانَ الِاخْتِلَافِ، وَتَضْيِيعِ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِهِ وَتَرْكِ النَّاسِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَىٰ حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا**، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ(١٥).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاثْبُتُوا عَلَىٰ دِينِكُمْ، وَاحْذَرُوا الشُّحَّ الْمُطَاعَ، وَالْهَوَىٰ الْمُتَّبَعَ، وَإِيثَارَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَالْعُجْبَ بِآرَائِكُمْ؛ فَكَمْ مِنْ رَأْيٍ كَانَ خَطأً، جَرَّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَبَالًا كَثِيرًا.

نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ، وَالْمُوَافَاةَ عَلَىٰ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



---

(١٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١)، وأبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٢)، وابن ماجه في الفتن، باب التثبت في الفتنة (٣٩٥٧)، ونعيم بن حماد في الفتن (٦٩٣)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٥٣)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط الشيخين (٢/ ١٧١).

قال السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: «إشارة إلىٰ أنه يهلك الصلحاء، ويبقىٰ ما لا منفعة فيه، كما أن الغربال ينقي الدقيق ويبقي الحثالة بلا منفعة» شرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٤).

٢٣٣- من هدايات السنة النبوية (٦) حديث الطاعة

٣/ ٨/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا يَكْثُرُ الشَّرُّ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَتَعْظُمُ الْمِحَنُ، وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الْفِتَنِ، وَتَشْتَدُّ حَيْرَةُ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْمَخْرَجَ يَكُونُ فِي اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْهُدَىٰ، وَمَا سَنَّ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْعَمَلِ.

وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قَدْ جَاءَ فِيهِمَا الدَّوَاءُ الشَّافِي، وَالْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِكُلِّ الْأَدْوَاءِ وَالْمُشْكِلَاتِ، فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ وَالْأَزْمَانِ، وَلِكُلِّ الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الْمُعَاصِرَةِ سِيَاسِيَّةً كَانَتْ أَمِ اقْتِصَادِيَّةً أَمِ اجْتِمَاعِيَّةً سَبَبُهَا

الرَّئِيسُ: الْبُعْدُ عَمَّا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، ثُمَّ عُولِجَتْ بِغَيْرِ هَدْيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا بِأَهْوَاءِ الْبَشَرِ وَاجْتِهَادَاتِهِمْ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، فَزَادُوهَا تَفَاقُمًا وَاضْطِرَابًا؛ حَتَّىٰ قَلَّ الْأَمْنُ فِي الْأَرْضِ، وَعَظُمَ الْخَوْفُ، وَكَثُرَ الظُّلْمُ، وَاعْتَدَتْ دُوَلٌ عَلَىٰ دُوَلٍ، وَأُمَمٌ عَلَىٰ أُمَمٍ، وَأَضْحَىٰ الْعَالَمُ الْمُعَاصِرُ كَالْغَابَةِ الْمُوحِشَةِ يَأْكُلُ قَوِيُّهَا ضَعِيفَهَا، وَيَتَسَلَّطُ قَادِرُهَا عَلَىٰ عَاجِزِهَا؛ إِنْ سِيَاسِيًّا أَوِ اقْتِصَادِيًّا أَوْ ثَقَافِيًّا.

أَفْرَزَ هَذَا الْوَاقِعُ الْبَئِيسُ مَوْجَاتٍ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَالتَّكْفِيرِ بِلَا دَلِيلٍ، وَالتَّخْرِيبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَتْلِ النُّفُوسِ الْمَعْصُومَةِ، وَإِتْلَافِ الْأَمْوَالِ الْمُحْتَرَمَةِ، كَمَا نَتَجَ عَنْهُ انْتِشَارُ ظَوَاهِرِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّخْذِيلِ، وَالطَّعْنِ فِي الدِّينِ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْحَقِّ فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ الْعَاتِيَةِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَالْبَلَايَا وَالْفِتَنِ.

وَفِي حَدِيثٍ عَظِيمٍ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَمَلَ الْمُنْجِي فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْمُعْتِمَةِ، وَالْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ؛ لِيَنْجُوَ الْمُسْلِمُ بِنَفْسِهِ، وَيَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ؛ فَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ إِلَىٰ قِرَاءَةِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ!

قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: **نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: **قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**، قُلْتُ: فَمَا

تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ حُذَيْفَةَ وَأَرْضَاهُ؛ لَقَدْ كَانَ أَعْلَمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفِتَنِ وَأَحْوَالِهَا وَأَسْبَابِهَا، وَسُبُلِ النَّجَاةِ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ دَاوَمَ عَلَىٰ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَزْمِهِ وَحَذَرِهِ، وَاحْتِيَاطِهِ لِنَفْسِهِ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَوَقَّعُ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَتَغَيَّرُ الْحَالُ، وَتَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَّ رضي الله عنه(٢).

وَلِذَلِكَ قَالَ: «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَعَرَفْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَنْ يَسْبِقَنِي»(٣).

وَالْحَدِيثُ جَاءَ فِيهِ بَيَانُ الْمَرَاحِلِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْخَيْرُ، وَالَّتِي يَكُونُ فِيهَا الشَّرُّ؛ فَزَمَنُ الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ مَرْحَلَةَ الشَّرِّ الْخَالِصِ، ثُمَّ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَانْتِشَارِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ دَوْلَتِهِ؛ كَانَ زَمَنُ الْخَيْرِ الْخَالِصِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج علىٰ الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن، باب العزلة (٣٩٧٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦)، والطيالسي (٤٤٢)، وابن حبان (٩٦٣)، والحاكم وقال: «هذا حديث مخرج في الصحيحين هكذا، وقد خرجاه مختصرا من حديث الزهري عن أبي إدريس الخولاني، وإنما خرجته في كتاب العلم؛ لأني لم أجد للشيخين حديثا يدل علىٰ أن الإجماع حجة غير هذا ..» (١/ ١٩٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٦).

(٢) ذكر ذلك القرطبي في المفهم وقال: «وفيه دليل علىٰ فرض المسائل، والكلام عليها قبل وقوعها إذا خيف موت العالم» (٤/ ٥٥).

(٣) هذه الرواية للنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٤٧)، وصححها ابن حبان (٥٩٦٣).

حُذَيْفَةُ ﷺ: «إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ»(٤).

وَهَذَا الشَّرُّ المَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ مَا وَقَعَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَرَ ﷺ مِنَ الْخُرُوجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ وَقَتْلِهِ، وَمَا اسْتَتْبَعَ ذَلِكَ مِنْ فِتَنٍ وَحُرُوبٍ قُتِلَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ كَانَ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ الْعَظِيمِ وَالْفِتَنِ الْكَبِيرَةِ خَيْرٌ فِيهِ دَخَنٌ، وَهُوَ مَا وَقَعَ فِي خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ ﷺ مِنِ اسْتِقْرَارِ المُلْكِ فِيهِمْ، وَأَمْنِ النَّاسِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، مَعَ وُقُوعِ الظُّلْمِ مِنْ بَعْضِ وُلَاتِهِمْ؛ كَزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ وَالْحَجَّاجِ ابْنِ يُوسُفَ وَغَيْرِهِمَا(٥).

---

(٤) هذه الرواية لمسلم (١٨٤٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٧).

(٥) قال القاضي عياض: «المراد بالشر الأول: الفتن التي وقعت بعد عثمان، والمراد بالخير الذي بعده: ما وقع في خلافة عمر بن عبدالعزيز، والمراد بالذين تعرف منهم وتنكر: الأمراء بعده، فكان فيهم من يتمسك بالسنة والعدل، وفيهم من يدعو إلىٰ البدعة ويعمل بالجور» ينظر: شرح النووي (١٢/ ٣٢٨)، وفتح الباري (١٣/ ٤٠).
وتعقبه القرطبي في المفهم وقال: «وفيه بعد، بل الأولىٰ أن الإشارة بذلك إلىٰ مدة خلافة معاوية؛ فإنها كانت تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وهي مدة الهدنة التي كان فيها الدخن؛ لأنه لما بايع الحسن معاوية، واجتمع الناس عليه؛ كره ذلك كثير من الناس بقلوبهم، وبقيت الكراهة فيهم، ولم تمكنهم المخالفة في مدة معاوية، ولا إظهارها إلىٰ زمن يزيد بن معاوية، فأظهرها كثير من الناس، ومدة خلافة معاوية كان الشر فيها قليلا، والخير غالبا، فعليهم يصدق قوله عليه الصلاة والسلام: «تعرف منهم وتنكر»، وأما خلافة ابنه فهي أول الشر الثالث، فيزيد وأكثر ولاته ومن بعده من خلفاء بني أمية هم الذين يصدق عليهم أنهم «دعاة علىٰ أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فإنهم لم يسيروا بالسواء، ولا عدلوا في القضاء، يدل علىٰ ذلك: تصفح أخبارهم، ومطالعة سيرهم، ولا يعترض علىٰ هذا بمدة خلافة عمر بن عبدالعزيز بأنها كانت خلافة عدل؛ لقصرها وندورها في بني أمية، فقد كانت سنتين وخمسة أشهر، فكأن هذا الحديث لم يتعرض لها، والله تعالىٰ أعلم» اهـ من المفهم (٤/ ٥٦). =

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الدُّوَلِ الْمُتَتَابِعَةِ بَعْدَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، فِيهَا خَيْرٌ وَشَرٌّ؛ فَخَيْرُهَا مَا قَامَتْ بِهِ مِنَ الدِّينِ، وَشَرُّهَا مَا حَادَتْ عَنْهُ، يَزِيدُ ذَلِكَ تَارَةً وَيَنْقُصُ أُخْرَىٰ بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ وَالْوُلَاةِ؛ فَفِي بَعْضِ الدُّوَلِ يَغْلِبُ الْخَيْرُ الشَّرَّ، وَفِي أُخْرَىٰ يَكُونُ الْعَكْسُ؛ وَلِذَا لَمَّا قَالَ حُذَيْفَةُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، فَمَا يُعْرَفُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هُوَ الْخَيْرُ، وَمَا يُنْكَرُ مِنْهَا هُوَ الشَّرُّ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ خَيْرٌ خَالِصٌ، وَلَا شَرٌّ خَالِصٌ، وَالْوَاجِبُ إِنْكَارُ الشَّرِّ حَسَبَ الْقُدْرَةِ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ مُسْلِمٍ: «**فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ كَرِهَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»(٦).

وَكُلَّمَا بَعُدَ النَّاسُ عَنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ كَثُرَ الْفَسَادُ، وَقَلَّ الصَّلَاحُ بِسَبَبِ تَفَشِّي الْجَهْلِ بِالدِّينِ، وَغَلَبَةِ الْهَوَىٰ، وَإِيثَارِ الدُّنْيَا، قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ**

= قلت: في كلام القرطبي تحامل كبير علىٰ بني أمية، ولا سيما الحكم بأنهم دعاة علىٰ أبواب جهنم، وتنزيل الحديث عليهم، وفي ذلك نظر لا يخفىٰ.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠): «والذي يظهر أن المراد بالشر الأول: ما أشار إليه من الفتن الأولىٰ، وبالخير: ما وقع من الاجتماع مع علي ومعاوية. (قلت: هكذا في الفتح في كل النسخ التي بين يدي، فلعله سبق قلم؛ لأن الاجتماع إنما كان بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما) وبالدخن: ما كان في زمنهما من بعض الأمراء كزياد بالعراق، وخلاف من خالف عليه من الخوارج، وبالدعاة علىٰ أبواب جهنم: من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم، وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله: «الزم جماعة المسلمين وإمامهم» يعني: ولو جار» اهـ.

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار علىٰ الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا (١٨٥٤)، وأبو داود في السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٦٠)، والترمذي في الفتن، باب (٧٨)، وقال الترمذي: حديث صحيح (٢٢٦٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٥)، وابن راهويه (١٠٦)، وأبو يعلىٰ (٦٩٨٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٩).

فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**».

وَقَدْ ذَكَرَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ هِيَ لِلْمُنَافِقِينَ، وَلِأَصْحَابِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ؛ كَالْخَوَارِجِ الَّذِينَ يُنَازِعُونَ السَّلَاطِينَ فِي سُلْطَانِهِمْ، وَيَخْرُجُونَ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا لَا غَيْرَةً لِلدِّينِ(٧).

وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي زَمَانٌ، وَلَا تُدْرِكُوا زَمَانًا لَا يُتْبَعُ فِيهِ الْعَلِيمُ، وَلَا يُسْتَحَىٰ فِيهِ مِنَ الحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁(٨).

وَمَنْ أَدْرَكَ زَمَنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ النَّارِ مِنَ المُنَافِقِينَ، وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ؛ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، قَالَ حُذَيْفَةُ ﵁: «فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**».

وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ وَإِمَامِهِمْ لَيْسَتْ مَحَلَّ اخْتِيَارٍ وَبَحْثٍ، أَوْ إِبَاحَةٍ وَنَدْبٍ؛ بَلْ هُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ المُكَلَّفِ حِينَ الِافْتِرَاقِ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ: تَحْجِيمُ أَمْرِ

---

(٧) نزل القرطبي في المفهم هذه الأوصاف علىٰ بني أمية كما مضىٰ سياق كلامه في الهامش(٥)، ونقل الحافظ عن القابسي: «أنهم في الظاهر علىٰ ملتنا وفي الباطن مخالفون» انظر: الفتح (١٣/ ٤٠).
وقال النووي في شرحه علىٰ مسلم (١٢/ ٣٢٩): «قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلىٰ بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة» اهـ.

(٨) أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد ﵁ (٥/ ٣٤٠)، وفي سنده جميل الأسلمي مجهول، وابن لهيعة سيئ الحفظ، وأخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة ﵁ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٥٥٥).

الْفِتْنَةِ، وَإِضْعَافُ أَثَرِهَا، وَتَقْلِيلُ شَرِّهَا، وَلِأَنَّ الْجَمَاعَةَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ.

فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ، مُخَالِفٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ الْعَظِيمِ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَبَرِ: لُزُومُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ فِي طَاعَةِ مَنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ تَأْمِيرِهِ؛ فَمَنْ نَكَثَ بَيْعَتَهُ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَىٰ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِمَامٌ فَافْتَرَقَ النَّاسُ أَحْزَابًا فَلَا يَتْبَعُ أَحَدًا فِي الْفُرْقَةِ، وَيَعْتَزِلُ الْجَمِيعَ إِنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ؛ خَشْيَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ يَتَنَزَّلُ مَا جَاءَ فِي سَائِرِ الْأَحَادِيثِ، وَبِهِ يَجْتَمِعُ مَا ظَاهِرُهُ الِاخْتِلَافُ مِنْهَا»(٩).

وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فِيهِ حُجَّةٌ لِجَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ لُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؛ لِأَنَّهُ وَصَفَ الطَّائِفَةَ الْأَخِيرَةَ -أَيِ الْخَارِجَةَ عَلَىٰ الْإِمَامِ- بِأَنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِمْ: تَعْرِفُ وَتُنْكِرُ كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِينَ، وَهُمْ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ إِلَّا وَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ حَقٍّ، وَأَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ» اهـ(١٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُبَصِّرَنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الْبَاطِلَ وَالْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَنَا دِينَنَا وَدُنْيَانَا، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ . .

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

---

(٩) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤١).

(١٠) شرح ابن بطال (١٠/ ١٠)، وعنه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَتَجَلَّىٰ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الْبَالِغَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ؛ إِذْ أَقَامَ سُبْحَانَهُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ عِبَادِهِ فِيمَا شَاءَ، فَحَبَّبَ إِلَىٰ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ ﵃ السُّؤَالَ عَنْ وُجُوهِ الْخَيْرِ؛ لِيَعْمَلُوا بِهَا، وَيُبَلِّغُوهَا غَيْرَهُمْ، وَحَبَّبَ لِحُذَيْفَةَ ﵁ السُّؤَالَ عَنِ الشَّرِّ؛ لِيَجْتَنِبَهُ، وَلِيَكُونَ سَبَبًا فِي دَفْعِهِ عَمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ النَّجَاةَ بِالْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ(١١).

وَيُبْرِزُ هَذَا الْحَدِيثُ خُطُورَةَ الْفِتَنِ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْ مُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، وَشَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ حَتَّىٰ عُدَّ أَصْحَابُهُ: دُعَاةً عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ فِقْهِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ حَالَ تَفَاقُمِ الْفِتَنِ، وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَالْتِبَاسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، وَطَاعَةُ السُّلْطَانِ الْمُسْلِمِ الَّذِيْ لَمْ يَنْقُضْ إِيمَانَهُ، وَتَحْرِيمُ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ حَتْمٌ وَاجِبٌ، وَدِينٌ يَدِينُ الْمُسْلِمُ بِهِ لِرَبِّهِ، فِي سِرِّهِ وَعَلَنِهِ، وَعُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَمَنْشَطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ عَلَيْهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ دِينًا خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لَا لِأَجْلِ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ مَالٍ يُرِيدُهُ، أَوْ إِرْضَاءً لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّىٰ

---

(١١) نقله الحافظ في الفتح (١٣/ ٤١) عن ابن أبي جمرة.

إِذَا مَا انْتُقِصَتْ دُنْيَاهُ، أَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ، أَوْ رَأَىٰ تَبَدُّلَ الْأَحْوَالِ؛ نَكَثَ بَيْعَتَهُ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَهَذَا أَطَاعَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَنَكَثَ لِأَجْلِهَا، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِأَهْلِهَا.

وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَىٰ لِلْحَدِيثِ تَدُلُّ النَّاسَ عَلَىٰ وُجُوبِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، حَتَّىٰ لَوِ انْتُقِصَ شَيْءٌ مِنْ دُنْيَاهُمْ، أَوْ أُخِذَتْ أَمْوَالُهُمْ، أَوْ ظُلِمُوا بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ؛ كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ أَنَّ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: **يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْحَاكِمِ قَالَ: «**تَسْمَعُ لِلْأَمِيرِ الْأَعْظَمِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ**»(١٢).

وَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَغْضَبُ إِلَّا لِأَجْلِ الدُّنْيَا إِذَا أُوثِرَ بِهَا غَيْرُهُ، وَمُنِعَ هُوَ مِنْهَا؛ حَتَّىٰ تَرَاهُمْ يَفْرُونَ لُحُومَ الْوُلَاةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ، وَخَاصَّةً بَعْدَ الِانْفِتَاحِ الْإِعْلَامِيِّ، وَانْتِشَارِ دُعَاةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ الَّذِينَ يَرُدُّونَ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُكَرِّسُ الْخُنُوعَ وَالْعُبُودِيَّةَ، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَسَادِ السِّيَاسِيِّ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، وَيُطَالِبُونَ الشُّعُوبَ الْمُسْلِمَةَ بِالثَّوْرَةِ وَلَوْ بِلَا قُدْرَةٍ؛ لِتَكُونَ الْفَوْضَىٰ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، عَلَىٰ غِرَارِ مَا حَدَثَ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ إِبَّانَ ثَوْرَةِ الْحُرِّيَّةِ.

بَلْ رَاحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَطْعَنُونَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ قَدْ كُذِبَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَوُضِعَتْ فِي ظُرُوفٍ سِيَاسِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لِإِخْضَاعِ النَّاسِ لِحُكْمِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَهَذَا زَعْمٌ بَذِيءٌ، وَاتِّهَامٌ صَفِيقٌ، يَدُلُّ عَلَىٰ جَهْلِ أَصْحَابِهِ،

(١٢) الرواية الأولىٰ لمسلم (١٨٤٧)، والرواية الثانية للحاكم (٤/ ٥٤٧).

وَضَحَالَةِ عِلْمِهِمْ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ هَدْمُ السُّنَّةِ كُلِّهَا، وَالطَّعْنُ فِي عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَنَقَلَةِ الْآثَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْأَئِمَّةِ الْحُفَّاظِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ جَاءَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالطَّعْنُ فِيهِمَا طَعْنٌ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَدُّ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَدٌّ لِلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا!! فَمَاذَا يَبْقَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ إِنْ أُلْغِيَتْ سُنَّةُ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟!

وَالِانْفِتَاحُ الْإِعْلَامِيُّ قَدْ سَرَّبَ مِثْلَ هَذَا الطَّعْنِ فِي السُّنَّةِ، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ عَبْرَ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ، أَوِ الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فِي مُنَاظَرَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ بَرَامِجَ فِكْرِيَّةٍ، أَوْ مُنْتَدَيَاتٍ حِوَارِيَّةٍ.

وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ تَعْظِيمُ مَا عَظَّمَهُ اللهُ ﷻ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَدَاءُ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ الَّتِي قَرَّرَتْهَا الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، وَلَوْ كَرِهَتْ بَعْضُ النُّفُوسِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَكُونُ مُؤْمِنًا إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ؛ اتِّبَاعًا لِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ.

وَفَسَادُ الْقُلُوبِ وَتَشَرُّبُهَا بِالْفِتْنَةِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ اتِّبَاعًا لِهَوَىٰ النُّفُوسِ، أَوْ تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا مَا عَلَيْكُمْ مِنْ حُقُوقٍ، وَسَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَمْرَكُمْ فِي غَيْرِ الْمَعْصِيَةِ «**فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**»(١٣)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيُحَاسِبُ اللهُ

---

(١٣) كما في حديث سلمة بن يزيد الجعفي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: «يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس وقال: **اسمعوا** =

تَعَالَىٰ كُلَّ عَبْدٍ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ.

وَمَنْ رَأَىٰ شَيْئًا يَكْرَهُهُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا فَلْيَصْبِرْ(١٤)، وَلْيَنْصَحْ، وَلْيُكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلْيَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ، وَلْيَنْهَ عَنِ المُنْكَرِ حَسَبَ طَاقَتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= **وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ماحملتم»** أخرجه مسلم (١٨٤٦)، والترمذي (٢١٩٩)، والطيالسي (١٠١٩)، والبيهقي (٨/ ٥٨).

(١٤) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية**» أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩).

٢٣٤- من هدايات السنة النبوية (٧) السؤال للاستفادة

٦/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ﴿يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يُونُس: ٢٥] أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا؛ فَقَدْ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَوَفَّقَنَا لِاتِّبَاعِ خَيْرِ الْأَنَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَهَدَىٰ بِهِ أَقْوَامًا مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ لَوْلَا أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فَإِنَّ التَّقْوَىٰ أَمَانٌ مِنَ الْفَقْرِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَفِيهَا مَخَارِجُ مِنَ الضَّوَائِقِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ وَدَعْوَتُهُ، وَأَخْلَاقُهُ وَسِيرَتُهُ فِيهَا عِظَاتٌ وَعِبَرٌ، وَدُرُوسٌ تَسْتَدْعِي التَّأَمُّلَ وَالنَّظَرَ.

لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْهِدَايَةَ الَّتِي هَدَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا النَّاسَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]، وَكَانَ ﷺ الرَّحْمَةَ الَّتِي رَحِمَ بِهَا الْخَلْقَ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٧].

وَصَدَّقَتْ سِيرَتُهُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَلَقَدْ صَبَرَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَذَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا تَحَمَّلَ جَفَاءَ الْأَعْرَابِ وَالْجَاهِلِينَ، وَلَمَّا آذَاهُ قَوْمُهُ

مَا دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ الْعَامِّ، بَلْ أَخَذَهُمْ بِالْحُسْنَىٰ، وَصَبَرَ عَلَيْهِمْ، وَرَجَا أَنْ يَهْتَدُوا، أَوْ يَهْتَدِيَ أَوْلَادُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

كَانَ أَغْلَاظُ النَّاسِ، وَجُفَاةُ الْأَعْرَابِ يَفِدُونَ إِلَيْهِ، وَيُغْلِظُونَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا صَبْرًا عَلَيْهِمْ، وَحِرْصًا عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ؛ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ قَدْ نُهُوا عَنِ التَّكَلُّفِ فِي السُّؤَالِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [المَائِدَة: ١٠١]، فَامْتَثَلُوا لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَاحْتَاطُوا فِي ذَلِكَ، فَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ السُّؤَالِ؛ خَشْيَةَ الْوُقُوعِ فِي النَّهْيِ، فَكَانُوا ﷺ يَفْرَحُونَ بِمَجِيءِ رَجُلٍ مِنَ الْبَادِيَةِ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ، فَيَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُمْ مُنْصِتُونَ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ»(١)، «وَكَانُوا أَجْرَأَ عَلَىٰ ذَاكَ مِنَّا»(٢).

وَفِي حَادِثَةٍ لِأَحَدِ أَذْكِيَاءِ الْعَرَبِ وَجُفَاتِهِمْ وَعُقَلَائِهِمْ، كَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ بِغِلْظَةٍ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجِيبُهُ عَلَىٰ أَسْئِلَتِهِ، وَيَسْتَحْلِفُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي إِجَابَتِهِ فَيَحْلِفُ لَهُ، وَمَا عَاقَبَهُ وَلَا عَنَّفَهُ، وَلَا طَرَدَهُ وَلَا أَسْكَتَهُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ وَهِدَايَةِ قَوْمِهِ عَلَىٰ يَدَيْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٨)، وأحمد (٣/ ١٩٣)، وعبد بن حميد (١٢٥٨).

(٢) هذه الرواية للطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٣٩)، وأبو عوانة في مسنده (١/ ١٥) برقم (١).

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ -وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ- مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **قَدْ أَجَبْتُكَ** -أَيْ: سَمِعْتُكَ- فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَقَالَ: **سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»(٣).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عِنْدَ أَحْمَدَ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ قَالَ: «إِنِّي سَائِلُكَ وَمُغْلِظٌ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ، قَالَ: **لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**»(٤).

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ

---

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلم في الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢)، وأبو داود مختصرًا في الصلاة، باب ما جاء في المشرك يدخل المسجد (١٤٨٦)، والنسائي في الصيام، باب وجوب الصيام (٤/ ١٢٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في فرض الصلوات الخمس والمحافظه عليها (١٤٠٢)، وأحمد (٣/ ١٦٨).
ويلاحظ أنني اعتمدت رواية أنس ﷺ عند البخاري أصلا، ثم ذكرت الزيادات من الروايات الأخرىٰ بين أقواس عن ابن عباس وأبي هريرة ﷺ، وتخريجها يكون في مواضع ذكرها.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: أحمد (١/ ٢٦٤)، والدارمي (٦٥١-٦٥٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٥)، برقم (٨١٤٩)، وابن شبة في أخبار المدينة (٩٠٢)، وصححه الحاكم (٣/ ٥٥).

الْأَرْضَ؟ قَالَ: **اللهُ**، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: **اللهُ**، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: **نَعَمْ**»(٥).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا؟ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**»(٦).

«قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَىٰ فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ»(٧).

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «قَالَ: ثُمَّ وَلَّىٰ، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**»(٨).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِئْسَتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ، قَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُذَامَ، اتَّقِ الْجُنُونَ. قَالَ: وَيْلَكُمْ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ لَا يَضُرَّانِ

---

(٥) هذه الرواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه المخرج في حاشية (١).
(٦) مضىٰ تخريج حديث ابن عباس في حاشية (٤).
(٧) إلىٰ هنا انتهت رواية البخاري المخرجة في حاشية (٣).
(٨) هذه رواية مسلم من حديث أنس المخرج في حاشية (٣).

وَلَا يَنْفَعَانِ، إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَىٰ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»(٩).

وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا أَنْ وَلَّىٰ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَقِهَ الرَّجُلُ**»(١٠). وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ مَسْأَلَةً وَلَا أَوْجَزَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»(١١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ ضِمَامٌ ﷺ: «فَأَمَّا هَذِهِ الْهَنَّةُ وَالْهُنَيَّاتُ -يَعْنِي: الْفَوَاحِشَ- فَقَدْ كُنَّا نَدَعُهَا تَكَرُّمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ» رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ(١٢).

إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْعَظِيمَةَ تُحَدِّدُ مَعَالِمَ وَاضِحَةً، وَتَرْسُمُ مَنْهَجًا مَضْمُونَ التَّأْثِيرِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ ﷻ حَتَّىٰ تُؤْتِيَ الدَّعْوَةُ ثِمَارَهَا الْمَرْجُوَّةَ.

وَمِنْ أَسَاسَاتِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَدْعُوِّينَ، وَقَبُولِهِمْ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي: التَّوَاضُعُ لَهُمْ، وَالْحِلْمُ عَلَيْهِمْ، وَأَخْذُ جَاهِلِهِمْ بِالرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ.

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ اتِّصَافِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ؛ إِذْ ظَهَرَ

---

(٩) تخريج حديث هذه الرواية في هامش (٤).

(١٠) ساق هذه الرواية الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٦٨١) فقال: وقال إسحاق بن أبي إسرائيل المروزي: حدثني حمزة بن الحارث عن عمير عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة ﷺ .. فذكره، وقد ذكرها الحافظ في الفتح (١/ ١٥٣).

(١١) الإصابة لابن حجر (٣/ ٤٨٧)، وجاء نحوه في رواية أبي هريرة عند الطيالسي (٢٣٢٩).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الطيالسي واللفظ له (٢٣٢٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٢٤٠٤)، وفي المجتبىٰ في الصيام، باب وجوب الصيام (٤/ ١٢٤).

تَوَاضُعُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي جُلُوسِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَعَدَم تَمَيُّزِهِ عَنْهُمْ فِي المَجْلِسِ؛ حَتَّىٰ إِنْ ضِمَامًا ﷺ مَا عَرَفَهُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ فَسَأَلَ عَنْهُ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ أَنَسٍ ﷺ: وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يَجْلِس بَيْنَهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ.

وَالدَّاعِيَةُ إِذَا أَرَادَ مِنَ النَّاسِ قَبُولَ قَوْلِهِ فَلَا يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِمْ وَيُخَاطِبُهُمْ مِنْ عُلُوٍّ، بَلْ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ لَهُمْ؛ فَإِنَّ التَّكَبُّرَ هُوَ صِفَةُ عُبَّادِ الدُّنْيَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ المُؤْمِنُ، فَضْلًا عَمَّنْ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا حِلْمُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَبْرُهُ عَلَىٰ ضِمَامٍ ﷺ وَتَحَمُّلُ جَهْلِهِ وَجَفَائِهِ فَظَاهِرٌ مِنْ طَرِيقَتِهِ فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُنَادَاتِهِ بِمُجَرَّدِ اسْمِهِ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِ فِي الْقَوْلِ، وَاسْتِحْلَافِهِ عَقِبَ كُلِّ سُؤَالٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُجَارِيهِ فِي ذَلِكَ؛ فَلَمْ يَتَبَرَّمْ مِنْ طَرِيقَتِهِ، وَلَا ضَجِرَ مِنْ تَعَدُّدِ مَسَائِلِهِ، وَلَا امْتَنَعَ عَنِ الْحِلْفِ لَمَّا اسْتَحْلَفَهُ، بَلْ سَايَرَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّىٰ أَلْزَمَهُ طَرِيقَ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ كَانَ هُوَ دَاعِيَةً لِقَوْمِهِ؛ لِاسْتِبَانَةِ الْحَقِّ لَهُ بَعْدَ هَذِهِ المُنَاظَرَةِ.

وَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ -وَخَاصَّةً الدُّعَاةَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ تَأَمُّلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حِرْصِهِ عَلَىٰ دَعْوَةِ الْخَلْقِ، وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَتَحَمُّلِ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ عَنَتِ المَدْعُوِّينَ، وَتَحْلِيَةِ ذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ وَالرِّفْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ! فَإِنَّ ذَلِكَ كَفِيلٌ بِفَتْحِ الْقُلُوبِ المُغْلَقَةِ، وَإِلَانَةِ النُّفُوسِ المُشْتَدَّةِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النَّحْل: ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَمَا أَنَّ فِي قِصَّةِ ضِمَامٍ ﵁ وَمُنَاظَرَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَوَائِدَ لِلدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ فِيهَا فَوَائِدَ لِلْمَدْعُوِّينَ، يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَهَا وَيَعْمَلَ بِهَا؛ وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْفَوَائِدِ: التَّجَرُّدُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ، وَالصِّدْقُ فِي طَلَبِ الْحَقِّ؛ فَرَغْمَ أَنَّ ضِمَامًا ﵁ كَانَ جِلْفًا فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، غَلِيظًا فِي أُسْلُوبِهِ، فَظًّا فِي عَرْضِ مَسْأَلَتِهِ، قَوِيًّا فِي لَجَاجِهِ؛ فَإِنَّهُ ﵁ كَانَ مُتَجَرِّدًا فِي مُنَاظَرَتِهِ، مُتَحَرِّيًا فِي مَسْأَلَتِهِ، طَالِبًا لِلْحَقِّ، فَلَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ تَبِعَهُ، وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ.

إِنَّ الْمُقَارَنَةَ بَيْنَ فِعْلِ ضِمَامٍ ﵁ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنَاظَرَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ الْحَدِيثَةِ لَتَدُلُّنَا عَلَىٰ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَنْ يُجَادِلُ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَبَيْنَ مَنْ يَلِجُّ لِإِثْبَاتِ رَأْيِهِ، وَهَزِيمَةِ خَصْمِهِ، مَعَ الْإِصْرَارِ الْمُسْبَقِ عَلَىٰ عَدَمِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَلَوْ ظَهَرَ كَظُهُورِ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.

وَرَغْمَ كَثْرَةِ الْمُنَاظَرَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَالْمُجَادَلَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالْمُخَاصَمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِهَا الْفَضَائِيَّاتُ وَالْمُنْتَدَيَاتُ -وَقَدْ عَدَّهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ ظَاهِرَةً صِحِّيَّةً تَدُلُّ عَلَىٰ سِيَادَةِ ثَقَافَةِ التَّحَاوُرِ وَقَبُولِ الْآخَرِ-، رَغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّنَا مَا سَمِعْنَا أَنَّ أَحَدَ الْمُتَنَاظِرِينَ اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ لَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ؛

إِنَّمَا هُوَ جِدَالٌ وَلَجَاجٌ وَخِصَامٌ، وَإِعْجَابٌ بِالرَّأْيِ، وَإِصْرَارٌ عَلَىٰ الْخَطَإِ إِلَىٰ آخِرِ رَمَقٍ.

إِنَّهُ لَعَجِيبٌ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنْ يَقْبَلَ ضِمَامٌ ﷺ الْحَقَّ لمَّا ظَهَرَ لَهُ، وَهُوَ الْأَعْرَابِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي عَاشَ فِي الصَّحْرَاءِ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ فِي الْجَامِعَاتِ الْحَدِيثَةِ، وَلَا دَرَسَ ثَقَافَةَ الْحِوَارِ وَمَا يَلْزَمُ لَهُ، بَيْنَمَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَيُطَالِبُونَهُمْ بِقَبُولِ الْآخَرِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ فَمَنِ الْمَسْؤُولُ عَنْ ذَلِكَ؟ وَمَا سَبَبُهُ يَا تُرَىٰ؟

إِنَّهُ الْجَهْلُ وَالْهَوَىٰ؛ الْجَهْلُ بِالْبَدَهِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْمُسَلَّمَاتِ الْمَنْطِقِيَّةِ، وَرَدُّ الْحَقِّ بِالْهَوَىٰ، الْجَهْلُ الَّذِي يَتَدَثَّرُ أَصْحَابُهُ بِالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ، وَيُخْفُونَهُ بِالْمُهَاتَرَاتِ الْكَلَامِيَّةِ حَتَّىٰ يَظُنَّ السَّامِعُ لَهُمْ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا التَّشَدُّقِ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّكَلُّفِ فِي الْمَنْطِقِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَثَقَافَةً وَخِبْرَةً، وَمَا هُوَ إِلَّا جَعْجَعَةٌ لَا طَحِينَ مَعَهَا.

وَهَذَا الدَّاءُ الْوَبِيلُ الَّذِي يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيُعْمِي عَنْ رُؤْيَتِهِ، وَيُصِمُّ الْآذَانَ عَنْ سَمَاعِهِ؛ قَدْ سَرَىٰ إِلَىٰ الْعَامَّةِ بِسَبَبِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَمُمَارَسَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَأَضْحَىٰ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ جُرْأَةٌ عَلَىٰ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ، وَالْمُجَادَلَةِ فِي الْحَقِّ لِمُجَرَّدِ الْجِدَالِ، وَيُسَمَّىٰ هَذَا الصُّدُودُ عَنِ الْحَقِّ، وَرَدُّهُ بِالْهَوَىٰ رَأْيًا حُرًّا، وَمَا هُوَ إِلَّا الْجَهْلُ وَالضَّلَالُ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ النَّاسِ مَعْرِفَةَ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ الْأَفْكَارِ، وَالسُّؤَالَ عَنِ الْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا -كَمَا فَعَلَ ضِمَامٌ ﷺ-، وَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَجَابَهُ، لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِمُ الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الْبَاطِلِ بَعْدَ اسْتِبَانَةِ الْحَقِّ، وَلَيْسُوا أَحْرَارًا فِي اعْتِنَاقِ مَا يَشَاؤُونَ مِنَ الْأَفْكَارِ، وَإِلَّا فَمَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْمُنَاظَرَاتِ وَالْمُجَادَلَاتِ؟ أَهِيَ لِمُجَرَّدِ إِشْغَالِ النَّاسِ وَضَيَاعِ أَوْقَاتِهِمْ؟ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا لَكَذَلِكَ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاقْبَلُوا الْحَقَّ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا ثَقُلَ عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَاحْذَرُوا الْجَهْلَ وَالْهَوَىٰ، وَالْقَوْلَ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِلَا عِلْمٍ؛ فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ هَوَىٰ أَرْدَاهُ هَوَاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٢٣].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَدْ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٣٥- من هدايات السنة النبوية (٨)
حديث النذير العريان

٣٠/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا وَأَوْلَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِأَخْطَائِنَا وَذُنُوبِنَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ لِيَشْكُرُوهُ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إِبْرَاهِيم: مِنَ الْآيَةِ ٣٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْبَشِيرُ النَّذِيرُ، وَالسِّرَاجُ الْمُنِيرُ؛ بَشَّرَ أُمَّتَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَهَدَاهُمْ وَعَلَّمَهُمْ، دَلَّهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ لِيَأْتُوهُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الشَّرِّ لِيَتَّقُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٤٥-٤٦]. صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: مِنَ الْآيَةِ ١٣١].

وَبِهَا وَصَّانَا رَسُولُهُ ﷺ لَمَّا وَعَظَ أَصْحَابَهُ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ**»[1].

---

(١) أخرجه من حديث العرباض بن سارية ﷺ: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين =

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَكَمَا وَصَّاكُمْ رَسُولُهُ ﷺ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ، وَأَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ: بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ هِدَايَةً لِلْعِبَادِ، وَنَجَاةً لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَرَزَقَهُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ، وَسَدَّدَ مَنْطِقَهُ؛ فَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النَّجم: ٤ - ٥].

وَلَمَّا قَالَتِ الصَّحَابَةُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا! قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[٢]، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «**اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٣].

إِنَّ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْذَبُ الْحَدِيثِ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْسَنُهُ، وَأَجْمَعُهُ وَأَحْكَمُهُ؛ فِيهِ الْقَصَصُ وَالْأَخْبَارُ، وَالْمَوَاعِظُ وَالرِّقَاقُ، وَالْحِكَمُ

= المهديين (٤٢)، وصححه ابن حبان (٥).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، وقال: حديث حسن صحيح (١٩٩٠)، وفي الشمائل (٢٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥)، وأحمد (٢/ ٣٤٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٨)، والطبراني في الأوسط (٨٧٠٦)، ووهم الهيثمي فجعله في مجمع الزوائد، وحسنه (٩/ ١٧).

(٣) أخرجه أبو داود في العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٦)، والدارمي (٤٨٤)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، والخطيب في تقييد العلم (٨٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥٣٢).

وَالْأَمْثَالُ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُدَاوِمُ عَلَىٰ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَؤُهَا وَيَحْفَظُهَا وَيَشْغَلُ وَقْتَهُ بِهَا، وَيَقْضِي عُمْرَهُ فِيهَا، مَعَ تَطْبِيقِهِ لَهَا إِلَّا نَوَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ بَصِيرَتَهُ، وَأَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، وَوَجَدَ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا أَهْلُ السُّلْطَانِ فِي سُلْطَانِهِمْ، وَلَا أَهْلُ الْمَالِ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَلَا أَهْلُ الدُّنْيَا فِي مَلَذَّاتِهِمْ، وَدُونَكُمْ أَخْبَارَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَرَاجِمَ حُفَّاظِ الْحَدِيثِ؛ اقْرَؤُوهَا إِنْ شَكَكْتُمْ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَكُونُ مَثَلًا مِنَ الْأَمْثَالِ، يَقْصِدُ بِهِ تَوْضِيحَ الْمَعْنَىٰ، وَزِيَادَةَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِالْأَمْرِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ ضَرَبَ لَنَا الْأَمْثَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَعْقِلُهَا. قَالَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(٤).

وَهَذَا مَثَلٌ عَظِيمٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَالِهِ مَعَ أُمَّتِهِ، وَبَيَّنَ فِيهِ الْفَرْقَ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَهُ وَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ، يَرْوِي هَذَا الْمَثَلَ الْعَظِيمَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»** مُتَفَقٌ عَلَيهِ(٥).

فَشَبَّهَ حَالَهُ مَعَ أُمَّتِهِ ﷺ بِالنَّذِيرِ الْعُرْيَانِ، وَأَصْلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ إِنْذَارَ قَوْمِهِ

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥).

(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ (٦٨٥٤)، ومسلم في الفضائل، باب شفقته ﷺ علىٰ أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣).

وَإِعْلَامَهُمْ بِمَا يُوجِبُ الْمَخَافَةَ نَزَعَ ثَوْبَهُ، وَأَشَارَ بِهِ إِلَيْهِمْ إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُمْ؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِمَا دَهَمَهُمْ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا طَلِيعَةُ الْقَوْمِ وَرَقِيبُهُمْ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَبْيَنُ لِلنَّاظِرِ، وَأَغْرَبُ مَشْهَدًا، وَأَشْنَعُ مَنْظَرًا، وَأَقْوَىٰ تَأْثِيرًا، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي اسْتِحْثَاثِهِمْ عَلَىٰ التَّأَهُّبِ لِلْعَدُوِّ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا النَّذِيرُ الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوِّ فَأَخَذَ ثِيَابِي فَأَنَا أُنْذِرُكُمْ عُرْيَانًا(٦).

---

(٦) ينظر: كشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٤٠٩)، ومشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/ ٧٨)، وشرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ٤٩)، وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٣١٧)، والنهاية لابن الأثير (٣/ ٢٢٥).
وقد اختلف في معنىٰ هذه الجملة ومصدرها علىٰ أقوال:
١- قال ابن بطال في شرح البخاري (١٠/ ١٩٤): «النذير العريان: رجل من خثعم حمل عليه رجل يوم ذي الخلصة فقطع يده ويد امرأته، فانصرف إلىٰ قومه فحذرهم، فضرب به المثل في تحقيق الخبر».
قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣١٦): «وسبق إلىٰ ذلك يعقوب بن السكيت وغيره، وسمىٰ الذي حمل عليه عوف بن عامر اليشكري، وأن المرأة كانت من بني كنانة، وتعقب باستبعاد تنزيل هذه القصة علىٰ لفظ الحديث؛ لأنه ليس فيها أنه كان عريانا».
٢- قال الحافظ (١١/ ٣١٦-٣١٧): «وزعم ابن الكلبي أن النذير العريان امرأة من بني عامر ابن كعب لما قتل المنذر بن ماء السماء أولاد أبي داود وكان جار المنذر، خشيت علىٰ قومها، فركبت جملا ولحقت بهم، وقالت: أنا النذير العريان».
٣- ويقال: أول من قاله أبرهة الحبشي لما أصابته الرمية بتهامة ورجع إلىٰ اليمن وقد سقط لحمه.
٤- وذكر أبو بشر الآمدي أن زنبر بن عمرو الخثعمي كان ناكحا في آل زبيد فأرادوا أن يغزوا قومه، وخشوا أن ينذر بهم فحرسه أربعة نفر، فصادف منهم غرة، فقذف ثيابه وعدا وكان من أشد الناس عدوا فأنذر قومه.
٥- قيل: الأصل فيه أن رجلا لقي جيشا فسلبوه وأسروه، فانفلت إلىٰ قومه، فقال: إني رأيت الجيش فسلبوني، فرأوه عريانا فتحققوا صدقه؛ لأنهم كانوا يعرفونه ولا يتهمونه في النصيحة، ولا جرت عادته بالتعري، فقطعوا بصدقة لهذه القرائن، فضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء به مثلا بذلك؛ لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة علىٰ القطع بصدقه =

وَقَدْ جَاءَ مَا يَكْشِفُ هَذَا المَعْنَىٰ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَنَادَىٰ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَىٰ لَهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ أَبْصَرَ الْعَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَىٰ بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ، ثَلَاثَ مِرَارٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧).

فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ الَّذِي أَنْذَرَ أُمَّتَهُ، وَبَالَغَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي نِذَارَتِهِ؛ رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَنُصْحًا لَهُمْ، حَتَّىٰ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِنِذَارَتِهِ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: **صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

= تقريبًا لإفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه.
قال الحافظ بعد أن ساقه (١١/ ٣١٧): ويؤيده ما أخرجه الرامهرمزي في الأمثال، وهو عند أحمد أيضا بسند جيد من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ... فذكر حديث بريدة المذكور في الخطبة المخرج في حاشية (٧) ثم قال الحافظ: وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث، وهذا كله يدل على أن العريان من التعري، وهو المعروف في الرواية.
٦- ونقل ابن الجوزي في المشكل (١/ ٤٠٩) عن الخطابي قوله: وقد روي لنا «وأنا النذير العربان» بالباء، فإن كان ذلك محفوظا فمعناه: المفصح بالإنذار لا يكني ولا يوري، يقال: رجل عربان أي: فصيح اللسان، ويقال: أعرب الرجل بحاجته إذا أفصح بها.
وينظر أيضًا: تهذيب اللغة (٣/ ١٠٢)، والمحكم لابن سيده (١٠/ ٦٢)، واللسان (٥/ ٢٠٢)، وتاج العروس (١٤/ ٢٠١ و٣٩/ ٣٥).

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح (٢/ ١٨٨).

(٨) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

وَلمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ انْطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ، فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجَرًا، ثُمَّ نَادَىٰ: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَىٰ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَوَصْفُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ نَذِيرٌ، وَأَمْرُهُ بِالنِّذَارَةِ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرًا، وَجَاءَ بِأَسَالِيبَ عِدَّةٍ، وَصِيَغٍ مُتَنَوِّعَةٍ:

فَفِي آيَاتٍ يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالنِّذَارَةِ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [**الْأَنْعَام: مِنَ الْآيَةِ ٥١**]، ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [**إِبْرَاهِيم: ٤٤**]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [**الْمُدَّثِّر: ١-٢**].

وَفِي آيَاتٍ أُخَرَ يُخْبِرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ النِّذَارَةَ هِيَ وَظِيفَتُهُ الَّتِي أَرْسَلَهُ إِلَىٰ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَجْلِهَا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [**الرَّعْد: ٧**]، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [**يس: ٦**]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [**فَاطِر: ٢٢-٢٤**].

وَفِي آيَاتٍ أُخْرَىٰ يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مَحَاجَّتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ حِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ الْآيَاتِ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ مُهِمَّتَهُ هِيَ إِنْذَارُهُمْ فَحَسْبُ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وَفِي الْأَعْرَافِ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وَفِي

---

(٩) أخرجه من حديث قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما: مسلم في الإيمان، باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٧).

هُودٍ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وَفِي الْحِجْرِ ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، وَفِي الْحَجِّ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الْحَجّ: ٤٩]، وَفِي ص ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة ص: ٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وَفِي الذَّارِيَاتِ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّارِيَات: ٥١-٥٢].

وَمَا كَانَتْ نِذَارَتُهُ ﷺ إِلَّا اسْتِمْرَارًا وَتَكْمِيلًا لِنِذَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: مِنَ الْآيَةِ ٢٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النَّجْم: ٥٦].

أَيْ: مِنْ جِنْسِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا أَقْوَامَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَأَمَّا مَوْضُوعَاتُ النِّذَارَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِيَ مَا يَضُرُّ الْبَشَرَ وَيُوبِقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعْصِيَةِ؛ تَحْذِيرًا وَتَنْفِيرًا مِنْهُمَا؛ إِذْ هُمَا سَبَبُ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَانَ مِنْ نِذَارَتِهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ تَحْذِيرُهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ سُنَنِ الْمُعَذَّبِينَ قَبْلَهُمْ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣].

وَأَمَّا إِنْذَارُهُمْ عَنْ قُرْبِ السَّاعَةِ، وَعَنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَفِي آيَاتٍ عِدَّةٍ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مَرْيَم: ٣٩]، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غَافِر: ١٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النَّازِعَات: ٤٢-٤٥]، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١٤-١٦].

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدْ بَيَّنَ مَسَالِكَ الشَّرِّ وَطُرُقَهُ، وَأَسْبَابَ الْعَذَابِ وَمُوجِبَاتِهِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْوَسِيلَةَ الْعُظْمَىٰ وَالْهِدَايَةَ الْكُبْرَىٰ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الْأَنْعَام: ٩٢]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٤٥]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٩].

وَالمَعْنَىٰ: أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَ بِهِ المُخَاطَبِينَ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، وَأُنْذِرَ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ(١٠)، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ»(١١).

وَنِذَارَتُهُ ﷺ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فَاطِر: ١٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

وَأَمَّا أَهْلُ التَّكْذِيبِ وَالشَّكِّ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِإِنْذَارِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَحْذَرُونَ مَا أَنْذَرَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الْأَحْقَاف: ٣].

وَبِإِرْسَالِ النُّذُرِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﷺ يَحْتَجُّ المَلَائِكَةُ عَلَىٰ المُعَذَّبِينَ مِنَ المُكَلَّفِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [المُلْك: ٨-٩].

---

(١٠) التسهيل في علوم التنزيل للكلبي (٢/ ٥)، وتفسير الرازي (١٢/ ١٤٧).

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٦٣)، وهو في تفسير مجاهد (١/ ٢١٣)، والدر المنثور (٣/ ٢٥٧).

لَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ» فَاسْتَخْدَمَ هَذَا اللَّفْظَ الْبَلِيغَ الْمُؤَثِّرَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ الْحَالِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَفَخَامَةِ الْأَمْرِ الْمُنْذَرِ عَنْهُ وَهُوَ عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَاسْتَخْدَمَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَفْرَادٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ يُبَلِّغُونَهُ، وَيُنْذِرُونَ عَنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه لَمَّا رَأَىٰ اخْتِلَافَ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَسْرَعَ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رضي الله عنه فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي رَأَىٰ مِنَ اخْتِلَافِ النَّاسِ، وَقَالَ: «أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَأَدْرِكُوا الْأُمَّةَ»(١٢).

وَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رضي الله عنه قَدِمَ الْحَجَّاجُ بْنُ خُزَيْمَةَ، فَقَالَ لِمُعَاوِيَةَ رضي الله عنه: «أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ أَنْعِي إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ»(١٣).

وَلَمَّا كَثُرَتِ الْفِتَنُ فِي وَقْتِ الْأَعْمَشِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «أَنَا لَكُمُ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، كَفَّ رَجُلٌ يَدَهُ، وَأَمْسَكَ لِسَانَهُ، وَعَالَجَ قَلْبَهُ»(١٤).

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْعِظَةَ وَالِاعْتِبَارَ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِقُوَّةِ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ

---

(١٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٢٤٢)، وهو في الكامل لابن الأثير (٣/ ٨).

(١٣) الإمامه والسياسة لابن قتيبة (١/ ٧٢).

(١٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٦٢٢)، وابن عساكر بنحوه (٦٣/ ٣٤٨).

تَعَالَىٰ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي هَذَا الْمَثَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَالِهِ مَعَ أُمَّتِهِ فِي نِذَارَتِهِ وَاسْتِجَابَتِهِمْ يَتَبَيَّنُ نُصْحُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَنَا، وَحِرْصُهُ عَلَىٰ نَجَاتِنَا، فَشَبَّهَ ﷺ نَفْسَهُ بِالرَّجُلِ الَّذِي أَنْذَرَ قَوْمَهُ الْعَدُوَّ، وَشَبَّهَ إِنْذَارَهُ بِالْعَذَابِ الْقَرِيبِ بِإِنْذَارِ الرَّجُلِ قَوْمَهُ بِالْجَيْشِ الْمُصَبِّحِ، وَشَبَّهَ مَنْ أَطَاعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ وَمَنْ عَصَاهُ بِمَنْ كَذَّبَ الرَّجُلَ فِي إِنْذَارِهِ وَمَنْ صَدَّقَهُ(١٥). وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِتَأْكِيدَاتٍ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ رَأَىٰ مِنْ أَحْوَالِ الْمُعَذَّبِينَ مَا رَأَىٰ، وَكَثِيرًا مَا أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ مَرَّةً: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ وَأَنَا أُصَلِّي، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٦).

وَمَرَّةً أُخْرَىٰ قَالَ: «**وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٧)، وَلَيْسَ مَنْ رَأَىٰ كَمَنْ سَمِعَ.

وَالْمُؤَكِّدُ الثَّانِي فِي الْحَدِيثِ: قَوْلُهُ: «**وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ**».

---

(١٥) شرح الطيبي علىٰ المشكاة (٢/ ٦١٢)، وعنه الحافظ في الفتح (١١/ ٣١٧).

(١٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٦٤)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك (٢٣٥٩).

(١٧) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٠٤)، ومسلم في الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

وَالثَّالِثُ: قَوْلُهُ: «**الْعُرْيَانُ**»؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ؛ وَلِأَنَّهُ الَّذِي يَخْتَصُّ فِي إِنْذَارِهِ بِالصِّدْقِ(١٨). ثُمَّ قَالَ: «**النَّجَاءَ النَّجَاءَ**» أَي: اطْلُبُوا النَّجَاءَ بِأَنْ تُسْرِعُوا الْهَرَبَ، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَ مُقَاوَمَةَ ذَلِكَ الْجَيْشِ(١٩).

فَانْقَسَمَ النَّاسُ تُجَاهَ هَذَا الْإِنْذَارِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ ذَكَرَهُمْ فِي الْحَدِيثِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا** -أَيْ: سَارُوا اللَّيْلَ كُلَّهُ مُبْتَعِدِينَ عَنْ خَطَرِ الْعَدُوِّ- **فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا**»، وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَالَ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ: «**وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ**»، وَلْيَخْتَرْ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَحَدِ الطَّائِفَتَيْنِ مَا دَامَ الْوَقْتُ وَقْتَ اخْتِيَارٍ، وَأَمَّا إِذَا دَهَمَ الْعَبْدَ الْمَوْتُ فَلَا اخْتِيَارَ.

وَنَجَاةُ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَهَلَاكُهُ فِي مَعْصِيَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَكُلَّمَا تَخَفَّفَ الْعَبْدُ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا وَأَثْقَالِهَا كَانَ أَحْرَىٰ لِنَجَاتِهِ، وَأَسْرَعَ فِي اللِّحَاقِ بِرِكَابِهِمْ، وَأَمَّا مَنْ أَثْقَلَتْهُ الدُّنْيَا بِزَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، فَحَرِيٌّ أَلَّا يَلْحَقَ بِرَكْبِ النَّاجِينَ لِثِقَلِ مَا مَعَهُ مِنْ أَحْمَالٍ، وَعُسْرِ سَيْرِهِ بِهَا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاقْبَلُوا نِذَارَةَ النَّاصِحِ الْأَمِينِ ﷺ؛ فَقَدْ بَانَ لَكُمْ صِدْقُهُ، وَعَلِمْتُمْ نُصْحَهُ، وَأَيْقَنْتُمْ بِخَبَرِهِ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَمَّنْ خَلَقَكُمْ وَابْتَلَاكُمْ بِالدِّينِ، وَمَنْ سَيُحَاسِبُكُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ، فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

---

(١٨) شرح الطيبي على المشكاة (٢/ ٦١٢)، والفتح (١١/ ٣١٧).

(١٩) فتح الباري (١١/ ٣١٧).

العبادات

٢٣٦- عمود الإسلام (١) تكبيرة الإحرام.

٢٣٧- عمود الإسلام (٢) الركوع والسجود.

٢٣٨- عمود الإسلام (٣) صلاة الأنبياء عليهم السلام.

٢٣٩- صلاة الجماعة (١) فضل الخروج إلىٰ المسجد.

٢٤٠- صلاة الجماعة (٢) آداب الخروج إلىٰ المسجد.

٢٤١- عيد الأسبوع (١) فضل يوم الجمعة.

٢٤٢- عيد الأسبوع (٢) فضل صلاة الجمعة.

٢٤٣- الزكاة المفروضة (١) فرضها وفضلها وأهميتها.

٢٤٤- الزكاة المفروضة (٢) تطهرهم وتزكيهم بها.

٢٤٥- من أحكام السفر وآدابه (١) السفر بين الطاعة والمعصية.

٢٤٦- من أحكام السفر وآدابه (٢) بعض أحكام السفر.

٢٣٦- عمود الإسلام (١)
تكبيرة الإحرام

١٥/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْأُجُورِ وَالْخَيْرَاتِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْفِتَنِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَالْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَمْوَالُ وَالْجِيرَانُ فِتَنٌ يُبْتَلَىٰ بِهَا الْعِبَادُ، وَلَكِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مِنْ وَاجِبَاتٍ وَمَنْدُوبَاتٍ تُكَفِّرُ هَذِهِ الْفِتَنَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَنْ يَحْفَظُ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: أَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب الصوم كفارة (١٧٨٦)، ومسلم في الفتن وأشراط =

وَأَعْظَمُ الْمُكَفِّرَاتِ بَعْدَ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَخَاطَبَ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ مُبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ.

فَرَضَهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَأَشَارَ مُوسَىٰ عليه السلام عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ ﷻ التَّخْفِيفَ، فَلَا تُطِيقُ أُمَّتُهُ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَمَا زَالَ نَبِيُّنَا ﷺ يُرَاجِعُ رَبَّهُ ﷻ فِيهَا يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ؛ رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَخَشْيَةً مِنْ تَضْيِيعِهِمْ هَذَا الْفَرْضَ الْعَظِيمَ؛ فَرَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَشُورَةِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَبِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ تبارك وتعالى، فَخَفَّفَهَا عَنْهُمْ مِنْ خَمْسِينَ إِلَىٰ خَمْسٍ، وَقَالَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: «**هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: فَقَالَ اللهُ ﷻ: «**إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَخَمْسٌ بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صِرَّىٰ**»[٣]؛ أَيْ: حَتْمٌ لَازِمَةٌ، «**فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٤].

إِنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ كَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَىٰ لَا فِي فَرْضِهَا، وَلَا فِي تَكْرَارِهَا فِي

= الساعة، باب في الفتنه التي تموج كموج البحر (١٤٤).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما: البخاري في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء بالنبي ﷺ إلىٰ السماوات وفرض الصلوات (١٦٣).

(٣) هذه الرواية من حديث أنس رضي الله عنه عند: النسائي في الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٤) هذه الرواية للبخاري في فضائل الصحابة، باب المعراج، من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما (٣٦٧٤).

الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَلَا فِي أَثَرِهَا عَلَىٰ مَنْ أَدَّاهَا؛ فَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ ضَيَّعَهَا.

إِنَّهَا ذُلٌّ وَخُضُوعٌ لِلْعَزِيزِ الْجَبَّارِ؛ فَقِيَامُهَا قُنُوتٌ، وَرُكُوعُهَا خُضُوعٌ، وَسُجُودُهَا خُشُوعٌ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

أَفْضَلُ الذِّكْرِ يُقْرَأُ فِي قِيَامِهَا، وَرُكُوعُهَا وَسُجُودُهَا تَسْبِيحٌ وَتَعْظِيمٌ وَدُعَاءٌ، وَالِانْتِقَالُ بَيْنَ أَرْكَانِهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَفِيهَا دُعَاءُ الثَّنَاءِ وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، فَهَلْ تَعْرِفُونَ عِبَادَةً فِيهَا مَا فِي الصَّلَاةِ؟! وَحَقِيقٌ بِالْعِبَادِ أَنْ يَلْهَجُوا لِرَبِّهِمْ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ.

تُفْتَتَحُ الصَّلَاةُ بِالتَّكْبِيرِ (اللهُ أَكْبَرُ)، وَتَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ يُشْرَعُ فِي الْمَوَاطِنِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِذَا شُرِعَ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيُهْزَمُونَ بِالتَّكْبِيرِ أَكْثَرَ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ بِالسِّلَاحِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَخْبَرَ أَنَّهَا تَسْقُطُ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بِالتَّكْبِيرِ بِلَا قِتَالٍ[٥]. وَشُرِعَ التَّكْبِيرُ فِي الْحَجِّ، وَفِي الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَشُرِعَ أَيْضًا إِذَا عَلَا نَشْزًا مِنَ الْأَرْضِ، وَشُرِعَ لِدَفْعِ أَذَىٰ الْمُؤْذِينَ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَسَبُعٍ وَنَارٍ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ التَّكْبِيرَ مَشْرُوعٌ فِي الْمَوَاضِعِ الْكِبَارِ؛ لِكَثْرَةِ الْجَمْعِ، أَوْ لِعَظَمَةِ الْفِعْلِ، أَوْ لِقُوَّةِ الْحَالِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ، وَتَسْتَوْلِي كِبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَىٰ كِبْرِيَاءِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْكِبَارِ، فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَكُونُ الْعِبَادُ لَهُ مُكَبِّرِينَ[٦]، فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَقْصُودَانِ: مَقْصُودُ الْعِبَادَةِ بِتَكْبِيرِ

(٥) جاء تفصيل هذا الفتح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في صحيحه (٢٩٢٠)، وقد سبق عرضه وتخريجه في المجلد الثالث، خطبة فتح القسطنطينية ورقمها (١٥١) حاشية رقم (١).

(٦) في مجموع الفتاوىٰ (مكبرون)، والجادة: مكبرين، خبر كان.

قُلُوبِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَقْصُودُ الِاسْتِعَانَةِ بِانْقِيَادِ سَائِرِ المَطَالِبِ لِكِبْرِيَائِهِ؛ وَلِهَذَا شُرِعَ التَّكْبِيرُ عَلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالرِّزْقِ وَالنَّصْرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ أَكْبَرُ مَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ، وَهِيَ جِمَاعُ مَصَالِحِهِ . . . فَجِمَاعُ هَذَا: أَنَّ التَّكْبِيرَ مَشْرُوعٌ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ كَبِيرٍ مِنْ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَحَالٍ وَرِجَالٍ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ لِتَسْتَوْلِيَ كِبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَىٰ كِبْرِيَاءِ مَا سِوَاهُ، وَيَكُونَ لَهُ الشَّرَفُ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ، قَالَ تَعَالَىٰ فِيمَا رَوَىٰ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «**الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»»(٧).

وَكَانَ يُقَالُ: أَبْلَغُ لَفْظَةٍ لِلْعَرَبِ فِي مَعْنَىٰ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ «اللهُ أَكْبَرُ» أَيْ: صِفْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ(٨)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «قَوْلُ الْعَبْدِ: اللهُ أَكْبَرُ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٩)، وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِعَارًا، وَإِنَّ شِعَارَ الصَّلَاةِ التَّكْبِيرُ»(١٠).

وَإِذَا عَلِمْنَا مَعْنَىٰ التَّكْبِيرِ وَمَنْزِلَتَهُ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّهُ حَقُّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الصَّلَاةَ افْتُتِحَتْ بِهِ؛ عَرَفْنَا قَدْرَ الصَّلَاةِ، وَقَدْرَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ.

---

(٧) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٢٢٩-٢٣٠)، والحديث الذي ساقه شيخ الإسلام ابن تيمية هو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أبي داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر، والتواضع (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٨).
وجاء من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عند: مسلم في البر والصلة، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) بلفظ: «**العز إزاري والعظمة ردائي، فمن نازعني عذبته**».

(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٥).

(٩) المصدر السابق (١٠/ ٣٤٥).

(١٠) أخرجه أبو الحسن العامري في الأمالي والقراءة (٤٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٠٨).

إِنَّ الْمُصَلِّيَ حِينَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ فَهُوَ يَنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَيَتْرُكُ كُلَّ عَمَلٍ، وَيَهْجُرُ كُلَّ قَوْلٍ، وَيَقُومُ قَانِتًا بِلَا حَرَكَةٍ، مُتَّجِهًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِقَلْبِهِ وَجَسَدِهِ، ثُمَّ يُكَبِّرُ رَافِعًا يَدَيْهِ لِيُحْرِمَ بِالصَّلَاةِ، مُعْلِنًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مُسْتَحْضِرًا كِبْرِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعَظَمَتَهُ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر: ٦٧]، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الْجَاثِيَة: ٣٧]، وَلِذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِتَكْبِيرِهِ ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسْرَاء: ١١١] أَيْ: عَظِّمْهُ عَظَمَةً تَامَّةً(١١).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالْحِكْمَةُ فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ بِالتَّكْبِيرِ: افْتِتَاحُهَا بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَنَعْتُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ»(١٢).

إِنَّ الْمُصَلِّيَ قَدْ تَرَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لِيُعْلِنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ مِنْهَا وَمِنْ أَشْغَالِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَنْبِذُ الدُّنْيَا، وَيَتْرُكُ شُغْلَهُ مَهْمَا كَبُرَ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ، فَيَذِلُّ لَهُ قَانِتًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا.

وَمِنَ الْمَعَانِي الْمَذْكُورَةِ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ مَعَ التَّكْبِيرِ، أَنَّ فِي رَفْعِهِمَا حَالَ التَّكْبِيرِ إِشَارَةً إِلَىٰ اطِّرَاحِ الْمُصَلِّي لِلدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَمُنَاجَاةِ رَبِّهِ ﷻ، كَمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ (اللهُ أَكْبَرُ)، وَفِيهِ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ لِيُنَاسِبَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ، وَفِيهِ اسْتِعْظَامُ مَا سَيَدْخُلُ فِيهِ وَهُوَ الصَّلَاةُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ رَفْعِ

---

(١١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٥)، وينظر: الشرح الممتع للشيخ ابن عثيمين (٣/ ٢٢-٢٣).

(١٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ٩٧).

الْحِجَابِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالمَعْبُودِ(١٣).

وَالمُحَافَظَةُ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ مَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ هِيَ مِنَ الرِّبَاطِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَىٰ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالمَسَاجِدِ، وَثَوَابُ ذَلِكَ: مَحْوُ الْخَطِيئَاتِ، وَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ، وَالِاسْتِظْلَالُ فِي المَوْقِفِ الْعَظِيمِ بِظِلِّ الرَّحْمَنِ(١٤).

وَمَنْ حَافَظَ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ أَثْبَتَ بَرَاءَتَهُ مِنَ النِّفَاقِ؛ لِأَنَّ المُنَافِقِينَ ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، وَلَا يُحَافِظُ عَلَىٰ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ كَسْلَانُ. وَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ كَذَلِكَ حَرِيًّا بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَىٰ كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٥).

---

(١٣) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٩/ ٢١٢)، وشرح النووي علىٰ مسلم (٤/ ٩٦)، وفتح الباري لابن حجر (٢/ ٢١٨)وطرح التثريب (٢/ ٢٦٠).

(١٤) دل علىٰ ذلك حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء علىٰ المكاره (٢٥١).
كما دل عليه حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله** ... وذكر منهم: **ورجل قلبه معلق في المساجد** ... » الحديث. أخرجه البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(١٥) أخرجه مرفوعا الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولىٰ، وقال الترمذي: وقد روي هذا الحديث عن أنس موقوفا، ولا أعلم أحدا رفعه إلا ما روىٰ سلم ابن قتيبة، عن طعمة بن عمرو، وإنما يروىٰ هذا عن حبيب بن أبي حبيب البجلي، عن أنس ابن مالك قوله. حدثنا بذلك هناد قال: حدثنا وكيع عن خالد بن طهمان عن حبيب بن أبي حبيب البجلي عن أنس قوله ولم يرفعه. وروىٰ إسماعيل بن عياش هذا الحديث، عن عمارة بن غزية، عن أنس بن مالك، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ نحو هذا. =

وَلِأَهَمِّيَّتِهَا شُرِعَ لِمَنْ كَانَ فِي نَافِلَةٍ أَنْ يَقْطَعَهَا لِيُدْرِكَ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ، إِلَّا إِذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يُتِمَّ نَافِلَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ الْإِمَامُ، وَإِدْرَاكُهَا يَكُونُ بِوُقُوفِهِ فِي الصَّفِّ حِينَ يُكَبِّرُ الْإِمَامُ، فَإِذَا كَبَّرَ الْإِمَامُ تَابَعَهُ بِالتَّكْبِيرِ(١٦).

= قال محمد بن إسماعيل: حبيب بن أبي حبيب يكنىٰ أبا الكشوثا، ويقال: أبو عميرة وهذا حديث غير محفوظ، وهو حديث مرسل. عمارة بن غزية لم يدرك أنس بن مالك، (٢٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

وأخرجه موقوفًا علىٰ أنس ﷺ: عبد الرزاق (٢٠٩١).

وللحديث طرق عدة وشواهد، لكن كلها ضعيفة لا يصح منها شيء. وينظر في الكلام عليها التلخيص الحبير (٢/ ٢٧-٢٨) رقم (٥٥٨)، وخلاصة البدر المنير (١/ ١٨٦) رقم (٦٤٢).

(١٦) في فتوىٰ للجنة الدائمة للإفتاء برئاسة الشيخ ابن باز، وعضوية المشائخ: ابن قعود وابن غديان وعفيفي: إذا أقيمت الصلاة فلا يجوز الدخول في نافلة، لعموم قوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» رواه مسلم وغيره. وإذا أقيمت الصلاة وهو في النافلة قطعها؛ للحديث المذكور؛ ولأن الفريضة أهم منها. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٧/ ٢٤٠- ٢٤١)، ومثله أيضا في (٧/ ٣١٤).

وفي فتوىٰ أخرىٰ للجنة الدائمة برئاسة ابن باز وعضوية ابن غديان وآل الشيخ والفوزان: إذا أقيمت الصلاة وهو في أول النافلة أو في أثنائها، فالواجب أن يقطعها بدون تسليم في أصح قولي العلماء؛ لقوله ﷺ: **«إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»** أخرجه مسلم، وإن أقيمت وهو في الركوع من الركعة الأخيرة أو بعده فالأولىٰ أن يكملها؛ لأن ذلك لا يأخذ عليه وقتا يفوت عليه الدخول في الصلاة. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٦/ ٢١٧).

وقال الشيخ ابن باز: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»**. أخرجه مسلم في صحيحه، فالمشروع لك إذا أقيمت الصلاة وأنت في نافلة أن تقطعها لهذا الحديث الشريف، مجموع فتاوىٰ ابن باز (١١/ ٣٨٩-٣٩٠). ومثله أيضًا في: (١١/ ٣٩٣، و٢٥/ ١٥٥).

وفي موضع آخر قال: لكن لو أقيمت الصلاة وهو في الركوع الأخير من النافلة أو في السجود الأخير فالأفضل إتمامها؛ لأنه لم يبق منها إلا أقل من ركعة وأقل الصلاة ركعة واحدة، مجموع فتاوىٰ ابن باز (١١/ ٣٩٠).

وقال أيضًا: من كان في صلاة النافلة حين الإقامة فإنه يقطعها للحديث المذكور، إلا أن =

وَهِيَ فِي الصَّلَاةِ رُكْنٌ لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ الْعَبْدُ بِهِ صَلَاتَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا النَّسَائِيَّ**[١٧].

= يكون في الركوع الثاني أو بعده فإنه يتمها خفيفة ثم يلتحق بالإمام؛ لأن ما أدركه في هذه الحال أقل من الركعة فلا يدخل في الحديث المذكور؛ لقول النبي ﷺ: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**» أخرجه مسلم في صحيحه. وقطع الصلاة يكون بالنية ولا يحتاج إلىٰ التسليم، مجموع فتاوىٰ ابن باز (٢٥/ ١٧٢-١٧٣). ومثله أيضًا في (٣٠/ ٧٤).

وقال الشيخ ابن عثيمين: إذا أقيمت الصلاة المكتوبة، وقد شرعت في نافلة، فمن أهل العلم من يقول: يجب عليك قطعها فورا، وإن كنت في التشهد الأخير.

ومن العلماء من يقول: لا تقطعها إلا أن تخاف أن يسلم الإمام قبل أن تدرك معه تكبيرة الإحرام. هذان قولان متقابلان.

القول الأول: إذا أقيمت الصلاة فاقطع النافلة ولو كنت في التشهد الأخير.

والقول الثاني: لا تقطعها إلا إذا بقي من صلاة الإمام بقدر تكبيرة الإحرام فاقطعها؛ يعني تستمر في الصلاة، ولا تقطعها إلا إن خفت أن يسلم الإمام قبل أن تدرك معه تكبيرة الإحرام.

هذان القولان متقابلان، يعني علىٰ هذا القول الأخير استمر في الصلاة حتىٰ لو فاتتك جميع الركعات، ما دمت تدرك تكبيرة الإحرام قبل أن يسلم الإمام، فاستمر في هذا النفل، وعندي أن القول الوسط في ذلك أنه إذا أقيمت الصلاة وأنت في الركعة الثانية فأتمها خفيفة، وإن أقيمت وأنت في الركعة الأولىٰ فاقطعها، لقول النبي ﷺ: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**»، فإذا كنت قد صليت ركعة قبل إقامة الصلاة فقد أدركت ركعة قبل الحظر والمنع، وإذا أدركت ركعة قبل الحظر والمنع فقد أدركت الصلاة، وصارت الصلاة كلها غير ممنوعة فتتمها لكن خفيفة؛ لأن إدراك جزء من الفرض خير من إدراك جزء من النفل، أما إذا كنت في الركعة الأولىٰ فإنك لم تدرك من الوقت ما تدرك به الصلاة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**».

وبناء علىٰ هذا فإنك تقطعها؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**» فتاوىٰ أركان الإسلام (٣٧١).

(١٧) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: أبو داود في الطهارة، باب فرض الوضوء (٦١)، =

إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ- قَدْ أَدْرَكُوا مَنْزِلَةَ الصَّلَاةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَعَرَفُوا قِيمَةَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ؛ فَمَا أَقْعَدَهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهَا عَجْزٌ وَلَا كَسَلٌ، وَلَا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا مَالٌ وَلَا وَلَدٌ، وَلَا أَخَّرَهُمْ عَنْهَا صَنْعَةٌ وَلَا عَمَلٌ؛ فَلَقَدْ كَانُوا يَتَهَيَّئُونَ لِصَلَاتِهِمْ قَبْلَ النِّدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَسْمَعِ النِّدَاءَ إِلَّا مِنْ دَاخِلِ الْمَسْجِدِ مِنْ مُبَالَغَتِهِ فِي التَّبْكِيرِ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَالْمُسَابَقَةِ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَالْحِرْصِ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، أَوْ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ، بَلْ هُوَ وَاللَّهِ جُلُّ أَعْمَارِهِمْ، وَأَكْثَرُ أَيَّامِهِمْ، فَلِلَّهِ دَرُّهَمْ مَا أَصْبَرَهُمْ! وَمَا أَشَدَّ رَغْبَتَهُمْ فِي الْخَيْرِ! وَمَا أَعْظَمَ جِهَادَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ! اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ سِيَرَهُمْ، وَقَارِنُوا حَالَنَا بِحَالِهِمْ!!

يَقُولُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه: «مَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا عَلَىٰ وُضُوءٍ»(١٨)، «وَمَا دَخَلَ وَقْتُ صَلَاةٍ حَتَّىٰ أَشْتَاقَ إِلَيْهَا»(١٩).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ»(٢٠)، وَقَالَ أَيْضًا: «مَا فَاتَتْنِي الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٢١).

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ

= والترمذي في الطهارة، باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور، وذكر الترمذي أنه أصح شيء في الباب وأحسنه (٣)، وابن ماجه في الطهارة وسننها، باب مفتاح الصلاة الطهور (٢٧٥)، والدارمي (٦٨٧)، وأحمد (١/ ١٢٣)، وأبو يعلىٰ (٦١٦) وجاء نحوه عن جابر وأبي سعيد وابن عباس رضي الله عنهم.

(١٨) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٢٨٩).

(١٩) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٤).

(٢٠) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٩٢٦)، وهو في السير (٤/ ٢٢١).

(٢١) أخرجه عبد الرزاق (٤/ ٢٧٩)، والبيهقي في الشعب (٢٩٢٤-٢٩٢٥).

مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي المَسْجِدِ، إِلَّا أَنْ أَكُونَ مَرِيضًا أَوْ مُسَافِرًا»[٢٢].

وَبِشْرُ بْنُ مَنْصُورٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- مَا فَاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ قَطُّ[٢٣].

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَمَاعَةَ التَّيْمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَكَثْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْنِي التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ إِلَّا يَوْمَ مَاتَتْ أُمِّي»[٢٤].

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْمُونٍ المَرْوَزِيُّ يَمْتَهِنُ صِيَاغَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَكَانَ إِذَا رَفَعَ الْمِطْرَقَةَ فَسَمِعَ النِّدَاءَ أَلْقَاهَا، فَلَمْ يَرُدَّهَا، وَلَمْ يَطْرُقْ بِهَا[٢٥].

وَقَالَ وَكِيعٌ: «كَانَ الْأَعْمَشُ قَرِيبًا مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ، وَاخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ، فَمَا رَأَيْتُهُ يَقْضِي رَكْعَةً»[٢٦].

وَكَانُوا -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ- يَأْسَوْنَ لِحَالِ مَنْ يَتَهَاوَنُ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَيَسْقُطُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ»[٢٧]، وقَالَ وَكِيعٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ لَمْ يُدْرِكِ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَىٰ فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ»[٢٨].

تِلْكَ بَعْضُ أَخْبَارِهِمْ مَعَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَعَسَىٰ أَنْ نَتَأَسَّىٰ بِهِمْ فِي الْخَيْرِ وَالْهُدَىٰ، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

---

(٢٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٩٣٠)، وهو في السير (٥/ ٢٤٠).

(٢٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٤٠).

(٢٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٤٦).

(٢٥) ذكر ذلك أبو داود في سننه (٣/ ٢٢٣).

(٢٦) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٧٥٥).

(٢٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٥).

(٢٨) أخرجه الدوري في تاريخ ابن معين (٢١٤٦)، والبيهقي في الشعب (٢٩١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ رِجَالٌ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وَلِلتَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ أَفْذَاذٌ لَا يُفَوِّتُونَهَا، وَهُمْ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ الَّذِينَ امْتَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور: ٣٦-٣٨].

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فِي تَفْسِيرِهَا: «كَانُوا حَدَّادِينَ وَخَرَّازِينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا رَفَعَ الْمِطْرَقَةَ، أَوْ غَرَزَ الْإِشْفَىٰ -وَهُوَ مَا يُخْرَزُ بِهِ- فَسَمِعَ الْأَذَانَ لَمْ يُخْرِجِ الْإِشْفَىٰ مِنَ الْغُرْزَةِ، وَلَمْ يُوقِعِ الْمِطْرَقَةَ، وَرَمَىٰ بِهَا، وَقَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(٢٩).

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَبْتَدِرُونَ عِنْدَ الْأَذَانِ، وَيُخْلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلصِّبْيَانِ وَأَهْلِ

---

(٢٩) شرح البخاري(٦/ ٢٠٢)، وعنه العيني (١١/ ١٧٤).

الذِّمَّةِ، وَكَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ بِالْقَرَارِيطِ لِحِفْظِ الْحَوَانِيتِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَعِيشَةً لَهُمْ[٣٠].

وَلَا زَالَتْ سُنَّةُ تَعْطِيلِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْأَعْمَالِ أَثْنَاءَ الصَّلَاةِ قَائِمَةً فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَوْفِيقِهِ؛ سَيْرًا عَلَىٰ سُنَنِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ، وَالْتِزَامًا بِهَدْيِهِمْ، وَيُرِيدُ الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِلْغَاءَ تِلْكَ السُّنَّةِ الْمُبَارَكَةِ، بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ نِظَامِ الْحِسْبَةِ، أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَكَبَتَهُمْ، وَلَا بَلَّغَهُمْ مَا يُرِيدُونَ.

وَرَأَىٰ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ حَيْثُ نُودِيَ لِلصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ تَرَكُوا بِيَاعَاتِهِمْ وَنَهَضُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧][٣١].

وَقَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: «كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَلَكِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ وَمِيزَانُهُ فِي يَدِهِ خَفَضَهُ وَأَقْبَلَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»[٣٢].

وَإِذَا كَانَ حَالُ السَّلَفِ مَعَ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ فَإِنَّ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَنِ الْتَزَمُوا هَذَا الْهَدْيَ، وَسَارُوا عَلَىٰ السُّنَّةِ؛ فَتَرَاهُمْ يُسَابِقُونَ إِلَىٰ النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ، أَكْثَرُهُمْ شُيُوخٌ وَكُهُولٌ، وَمِنْهُمْ شَبَابٌ وَفِتْيَانٌ، وَمَا مِنْ مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَّا وَفِيهِ مِنْهُمْ بِضْعَةُ رِجَالٍ، وَهُمْ مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَحِرْصِهِمْ عَلَىٰ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ لَمْ يَفُتْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَدْرَكَهُ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ ضَيَّعُوا الصَّلَوَاتِ، وَهَجَرُوا الْجَمَاعَاتِ!! بَلْ رُبَّمَا أَدْرَكُوا هُمْ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَدْرَكَهُ أُولَئِكَ الْمُفَرِّطُونَ.

---

(٣٠) إحياء علوم الدين (٢/ ٨٥).

(٣١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦)، وجاء مثله عن ابن عمر ﷺ.

(٣٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦).

وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُفَرِّطِينَ أَنَّهُمْ ضَبَطُوا أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ، وَفَرَّغُوهَا مِنَ المَشَاغِلِ وَالْأَعْمَالِ، وَسَارُوا فِي حَيَاتِهِمْ عَلَىٰ هَذَا النِّظَامِ؛ فَمَا يُؤَذَّنُ لِلصَّلَاةِ إِلَّا وَهُمْ فِي المَسْجِدِ، إِنْ كَانُوا فِي السُّوقِ فَفِي مَسْجِدِ السُّوقِ، وَإِنْ كَانُوا فِي وَظَائِفِهِمْ فَفِي مُصَلَّيَاتِ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي بُيُوتِهِمْ فَفِي مَسَاجِدِ حَارَاتِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي الطَّرِيقِ قَصَدُوا أَقْرَبَ المَسَاجِدِ.

وَإِذَا أَرَادَ وَاحِدُهُمْ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا، أَوْ كَانَتْ لَهُ وِجْهَةٌ يَقْصِدُهَا نَظَرَ إِلَىٰ سَاعَتِهِ، فَقَدَّرَ أَنْ يَبْلُغَ وِجْهَتَهُ قَبْلَ الْأَذَانِ، أَوْ أَرْجَأَ سَيْرَهُ إِلَىٰ مَا بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَبِذَا اعْتَادُوا ضَبْطَ أَوْقَاتِهِمْ عَلَىٰ النِّدَاءِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ عَنَاءٍ أَوْ مَشَقَّةٍ، بِخِلَافِ أَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَأْبَهُونَ بِذَلِكَ، وَلَرُبَّمَا كَانَ ضَبْطُهُمْ لِأَوْقَاتِهِمْ عَلَىٰ الْإِقَامَةِ لَا عَلَىٰ الْأَذَانِ، وَكَثِيرًا مَا تَفُوتُهُمْ تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ، وَيَفُوتُهُمْ مَعَهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ تَزَاحُمِ النَّاسِ عَلَىٰ الْبُنُوكِ عِنْدَ الِاكْتِتَابِ فِي الْأَسْهُمِ، حَتَّىٰ نُقِلَتْ صُوَرٌ مُخْجِلَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَارَنَهُ مَعَ فَرَاغِ المَسَاجِدِ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَفِي بَعْضِ المَسَاجِدِ عِنْدَ الْإِقَامَةِ؛ عَلِمَ مَدَىٰ تَمَكُّنِ الدُّنْيَا مِنَ الْقُلُوبِ، وَتَفْرِيطِ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي الْخَيْرِ الدَّائِمِ، وَتَقَاعُسِهِمْ عَنْ تَحْصِيلِ أَسْبَابِ النَّعِيمِ المُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا مِنَ الْخَيْرِ حَظَّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ نَاسًا عَاشُوا قَبْلَكُمْ، وَآخَرِينَ مَعَكُمْ، مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَاتَتْهُمْ كَثِيرًا، وَكَانُوا مَعًا فِي مَآكِلِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، المُحْسِنُونَ مِنْهُمْ وَالمُفَرِّطُونَ!! وَقَدْ مَضَوْا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ: المُحْسِنُ مِنْهُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالمُفَرِّطُ بِتَفْرِيطِهِ وَحِرْمَانِهِ، وَسَتَمْضُونَ كَمَا مَضَوْا، وَتَجِدُونَ مَا وَجَدُوا، فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُم ...

٢٣٧- عمود الإسلام (٢)
الركوع والسجود

٣٠/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَشَرَعَ لَنَا الدِّينَ الْحَنِيفَ، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، الْجَوَادُ الْكَرِيمُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسْرَاء: ٤٤]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَشَدُّهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لَهُ؛ صَلَّىٰ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَبَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»(١)، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: ابن حبان بهذا اللفظ (٦٢٠)، وأصل الحديث عند: البخاري في التفسير، باب قوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٤٨٣٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

قَدْرِهِ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١].

أَيُّهَا النَّاسُ: الدُّنْيَا مَلْهَاةٌ لِلْعِبَادِ، وَزَخَارِفُهَا تَصُدُّهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتُنْسِيهِمُ الدَّارَ الْأُخْرَىٰ، وَمَعَ شِدَّةِ الِاغْتِرَارِ بِهَا وَزَخَارِفِهَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَىٰ مَا يُذَكِّرُهُمْ حُقُوقَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ، وَيُنَبِّهُهُمْ حَالَ غَفْلَتِهِمْ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمُ الصَّلَوَاتِ، وَفَرَضَهَا عَلَيْهِمْ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، تُقَرِّبُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَتُذَكِّرُهُمْ آخِرَتَهُمْ .. تَنْشَرِحُ بِهَا صُدُورُهُمْ، وَتُخَفِّفُ هُمُومَهُمْ وَغُمُومَهُمْ. وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِمَنْ هُدِيَ إِلَيْهَا، وَوَاظَبَ عَلَيْهَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمَّا كَانَ الْعَبْدُ خَارِجَ الصَّلَاةِ مُهْمِلًا جَوَارِحَهُ، قَدْ أَسَامَهَا فِي مَرَاتِعِ الشَّهَوَاتِ وَالْحُظُوظِ أُمِرَ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْإِقْبَالِ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ عَلَىٰ رَبِّهِ ... وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ، مُقْبِلًا بِكُلِّهِ عَلَيْهِ، مُعْرِضًا عَمَّنْ سِوَاهُ، مُتَنَصِّلًا مِنْ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ، وَجِنَايَتِهِ عَلَىٰ حَقِّهِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا طَبْعَهُ وَدَأْبَهُ أُمِرَ أَنْ يُجَدِّدَ هَذَا الرُّكُوعَ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ؛ لِئَلَّا يَطُولَ عَلَيْهِ الْأَمَدُ فَيَنْسَىٰ رَبَّهُ، وَيَنْقَطِعَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَأَفْضَلِ هَدَايَاهُ الَّتِي سَاقَهَا إِلَيْهِ» اهـ(٢).

وَالصَّلَاةُ شَأْنُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ، وَمَقَامُهَا فِي الْإِسْلَامِ كَبِيرٌ؛ فَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ آخِرُ مَا يُفْقَدُ مِنْهُ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ ضَيَّعَهَا.

هِيَ دَلِيلُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَرَجَائِهِ وَخَوْفِهِ، وَهِيَ أَكْثَرُ الْمَقَامَاتِ ذُلًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فِي تَكْرَارِهَا، وَفِي أَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا، وَفِي هَيْئَةِ الْمُصَلِّي فِيهَا.

وَأَبْيَنُ الْمَوَاضِعِ فِيهَا ذُلًّا للَّهِ تَعَالَىٰ: الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَهُمَا رُكْنَانِ مِنْ

---

(٢) باختصار من شفاء العليل (٢٣٠).

أَرْكَانِهَا لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ بِدُونِهِمَا؛ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِهِمَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الْحَجّ: ٧٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ يُعَلِّمُهُ الصَّلَاةَ: «**ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا**»، وَقَالَ لَهُ فِي السُّجُودِ: «**ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

إِنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجودَ عَمَلَانِ جَلِيلَانِ يَسْتَسْلِمُ بِهِمَا الْمُصَلِّي لِرَبِّهِ، وَيُثْبِتُ أَنَّهُ عَبْدُهُ، وَيُعْلِنُ كَامِلَ ذُلِّهِ، مُنَزِّهًا رَبَّهُ عَنْ كُلِّ ذُلٍّ وَنَقْصٍ، مُقِرًّا لَهُ بِالْكَمَالِ وَالْعِزِّ، فَمَا أَرْوَعَ هَيْئَةَ الْمُصَلِّي حِينَ يُرَاغِمُ الشَّيْطَانَ الْمُسْتَكْبِرَ بِالتَّذَلُّلِ للَّهِ تَعَالَىٰ فِعْلًا وَقَوْلًا!

وَالْكُفَّارُ قَدِ اسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتَنَعُوا عَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [الْمُرْسَلَات: ٤٨] وَلِذَلِكَ يُعَذَّبُونَ.

وَالرُّكُوعُ انْحِنَاءٌ يُقْصَدُ بِهِ التَّعَبُّدُ للَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمُهُ وَإِجْلَالُهُ، يُسَوِّي فِيهِ الْمُصَلِّي ظَهْرَهُ، وَقَدْ حَكَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَكَعَ لَمْ يُشْخِصْ رَأْسَهُ وَلَمْ يُصَوِّبْهُ، وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وفِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَتِمُّوا الرُّكُوعَ**

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في صفة الصلاة، باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ... (٣٩٧).

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به ويختم به، وصفة الركوع والاعتدال منه، والسجود والاعتدال منه، والتشهد بعد كل ركعتين من الرباعية، وصفة الجلوس بين السجدتين، وفي التشهد الأول (٤٩٨)، وأبو داود في الصلاة، باب من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم (٧٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الركوع في الصلاة (٨٦٩)، وأحمد (٦/ ١٩٤).

وَالسُّجُودَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ، وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ»(٥).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ فِيهَا صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ(٦).

وَلَا يَتَأَتَّىٰ لِلْمُصَلِّي أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ فِي هَذَيْنَ الرُّكْنَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ إِلَّا بِالطُّمَأْنِينَةِ فِي صَلَاتِهِ. وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَقِيمُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَحَرِيٌّ بِالْمُصَلِّي إِذَا رَكَعَ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَىٰ الرُّكُوعِ، وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ مَقَامَهُ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَا رَكَعَ إِلَّا خُضُوعًا للَّهِ تَعَالَىٰ، مُوقِنًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، قَدْ رَضِيَ مِنْهُ هَذَا الْخُضُوعَ لَهُ، وَلَا يَكُونُ رُكُوعُهُ مُجَرَّدَ حَرَكَةٍ يُؤَدِّيهَا فِي صَلَاتِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَذْكَارَ الرُّكُوعِ عَلِمَ مَكَانَتَهُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَالرَّاكِعُ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَيَصِفُهُ بِالْعَظَمَةِ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ(٧).

وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٧٤] قَالَ عَلَيْهِ

---

(٥) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٤٤)، ومسلم في الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (٤٢٥).

(٦) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود، وقال: حديث حسن صحيح (٢٦٥)، والنسائي في الافتتاح، باب إقامة الصلب في الركوع (٢/ ١٨٣)، وابن ماجه في الصلاة، باب الركوع (٨٧٠)، والدارمي (١٣٢٧)، وصححه ابن خزيمة (٦٦٦)، وابن حبان (١٨٩٢)، وابن الجارود (١٩٥).

(٧) أخرجه من حديث حذيفة ﷺ: مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٧٧٢).

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قَالَ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٨).

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَالمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ فِي رُكُوعِهِ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، مُعْلِنًا إِيمَانَهُ بِهِ، مُثْبِتًا خُشُوعَ جَوَارِحِهِ كُلِّهَا لِرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا رَوَىٰ عَلِيٌّ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا رَكَعَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَالرَّاكِعُ وَهُوَ يَسْتَشْعِرُ عَظَمَةَ مَنْ يَرْكَعُ لَهُ، يُعْلِنُ ذُلَّهُ لَهُ، وَيُقِرُّ بِفَقْرِهِ إِلَيْهِ، فَيَحْنِي ظَهْرَهُ، وَيَخْفِضُ جَبْهَتَهُ، مُتَفَكِّرًا فِي عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَفِي كِبْرِيَائِهِ وَسُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي

---

(٨) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﵁: أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، والدارمي (١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو يعلىٰ (١٧٣٨)، وصححه ابن خزيمة (٦٠٠)، وابن حبان (١٨٩٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩).

(٩) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٧)، وأبو داود في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩٠)، وأحمد (٦/ ٣٤)، وابن خزيمة (٦٠٦)، وابن حبان (١٨٩٩).

(١٠) أخرجه من حديث علي ﵁: مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢١)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩٢)، وأحمد (١/ ٩٤)، وأبو يعلىٰ (٥٧٤)، وابن خزيمة (٦٠٧)، وابن حبان (١٩٠١).

رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَالرَّاكِعُ يَسْتَحْضِرُ حَالَ رُكُوعِهِ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، وَتَقْصِيرَهُ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ فَيُسَبِّحُهُ وَيَسْأَلُهُ المَغْفِرَةَ، وَيَقُولُ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَالمُلَاحَظُ أَنَّ الصِّفَةَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ هِيَ صِفَةُ التَّسْبِيحِ؛ فَقَدْ جَاءَ التَّسْبِيحُ فِيهَا كُلِّهَا. وَالتَّسْبِيحُ هُوَ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ أَيِّ نَقْصٍ، وَإِثْبَاتُ الْكَمَالِ لَهُ ﷻ، وَالرَّاكِعُ يُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ بِإِضَافَةِ صِفَةِ الْعَظَمَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقْصِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷿» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَالرَّاكِعُ قَدْ جَمَعَ بِرُكُوعِهِ وَذِكْرِهِ فِيهِ بَيْنَ التَّعْظِيمِ الْفِعْلِيِّ بِانْحِنَائِهِ، وَبَيْنَ التَّعْظِيمِ الْقَوْلِي بِتَسْبِيحِهِ وَذِكْرِهِ(١٤).

وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الرُّكُوعِ فَإِنَّ شَأْنَ السُّجُودِ أَعْظَمُ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي الذُّلِّ لِلَّهِ

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩١)، والترمذي في الشمائل (٣٠٦)، والبزار (٢٧٥٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٠٩)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، والبغوي في شرح السنة (٩١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (الأم ٨١٧).

(١٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(١٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: مسلم في الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩)، والنسائي في التطبيق، باب تعظيم الرب في الركوع (٢/ ١٨٩)، والدارمي (١٣٢٦)، وابن حبان (٦٠٤٥).

(١٤) ينظر: الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع (٣/ ٩٣).

تَعَالَىٰ، وَمَا الرُّكُوعُ إِلَّا بِمَثَابَةِ التَّهَيُّؤِ لِلسُّجُودِ، وَالمُقَدِّمَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّوْطِئَةِ لَهُ، وَقَدْ فَعَلَ السُّجودَ تَعَبُّدًا للَّهِ تَعَالَىٰ أَشْرَفُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٠٦].

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ للَّهِ تَعَالَىٰ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ السَّجَدَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧].

وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَكَمَا اسْتَنْكَفُوا عَنِ الرُّكُوعِ للَّهِ تَعَالَىٰ فَهُمْ كَذَلِكَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٠].

وَالسُّجُودُ فِي الصَّلَاةِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا، يَجِبُ أَنْ يُمَكِّنَ المُصَلِّي أَعْضَاءَهُ السَّبْعَةَ مِنَ الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَىٰ الجَبْهَةِ**- وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَىٰ أَنْفِهِ- **وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٥).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُجُودِهِ لَا يَتَّقِي الْأَرْضَ بِوَجْهِهِ قَصْدًا، بَلْ إِذَا اتَّفَقَ لَهُ ذَلِكَ فَعَلَهُ؛ وَلِذَلِكَ سَجَدَ فِي المَاءِ وَالطِّينِ(١٦).

إِنَّ أَشْرَفَ شَيْءٍ فِي الْإِنْسَانِ وَجْهُهُ، وَلِذَا كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا أَهَانَتْ أَحَدًا قَبَّحَتْ وَجْهَهُ، وَإِذَا أَرَادُوا النِّكَايَةَ بِشَخْصٍ جَدَعُوا أَنْفَهُ؛ مُبَالَغَةً فِي إِهَانَتِهِ وَتَحْقِيرِهِ، وَفِي

---

(١٥) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب السجود على الأنف (٧٧٩)، ومسلم في الصلاة، باب أعضاء السجود (٤٩٠).

(١٦) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم (٢١٠).

وَعِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القَلَم: ١٦] أَيْ: عَلَىٰ وَجْهِهِ أَوْ أَنْفِهِ(١٧)، وَأَشَقُّ شَيْءٍ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُوسَمَ فِي وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ عُنْوَانُ كَرَامَتِهِ، وَبِهِ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ، وَالْمُصَلِّي حِينَ يَهْوِي بِجَسَدِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ يُمَرِّغُ فِيهَا أَكْرَمَ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَهُوَ وَجْهُهُ؛ ذُلًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا، وَيَضَعُ جَبْهَتَهُ وَأَنْفَهُ مَوْضِعَ الْأَقْدَامِ، فَأَيُّ شَرَفٍ يَسْتَحِقُّهُ الْمُسْلِمُ وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي صَلَاتِهِ؟!

وَمَعَ كَوْنِ السُّجُودِ سُفُولًا بِالْعَبْدِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَبُعْدًا عَنِ التَّعَالِي وَالسُّمُوِّ، وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ، مُتَعَالٍ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُنَزَّهٌ عَنِ السُّفُولِ . . مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ حَالَ سُجُودِهِ أَقْرَبُ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْ حَالِهِ فِي قِيَامِهِ أَوْ قُعُودِهِ أَوْ رُكُوعِهِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا إِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمَنْ عَبَدَهُ، فَوَضَعَ أَكْرَمَ شَيْءٍ فِيهِ وَهُوَ وَجْهُهُ مَوْضِعَ الْأَقْدَامِ؛ ذُلًّا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا. رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١٨).

إِنَّ سُجُودَ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بَابٌ عَرِيضٌ مِنْ أَبْوَابِ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، يَنْتِجُ عَنْهُ اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ الْكَرِيمَ إِذَا رَأَىٰ ذُلَّ عَبْدِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَافْتِقَارَهُ إِلَيْهِ، مَعَ سُؤَالِهِ وَإِلْحَاحِهِ عَلَيْهِ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا؛ وَلِذَا كَانَ الدُّعَاءُ أَرْجَىٰ إِجَابَةً فِي

---

(١٧) ذهب بعض المفسرين إلىٰ أن ذلك في الدنيا بسواد في وجهه، وكما حصل للمشركين في بدر من ضرب الملائكة المشركين علىٰ وجوههم وأنوفهم ووسمها، وقيل: يكون ذلك في الآخرة، ومال الطبري وتبعه ابن كثير إلىٰ أنه لا مانع من اجتماع ذلك عليهم في الدنيا والآخرة، ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦).

(١٨) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأبو داود في صفة الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٧٢٣)، وأحمد (٢/ ٤٢١)، وأبو يعلىٰ (٦٦٥٨)، وابن حبان (١٩٢٨).

حَالِ السُّجُودِ مِنْ أَيِّ حَالٍ أُخْرَىٰ، وَأُمِرَ المُصَلِّي بِالْإِكْثَارِ فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ، وَنُهِيَ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ حَالَ رُكُوعِهِ وَحَالَ سُجُودِهِ؛ لِأَنَّهُمَا مَوْضِعَا ذُلٍّ وَسُفُولٍ، وَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ الْكَلَامِ، فَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يُقْرَأَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، بَلِ الْمُنَاسِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمُهُ وَدُعَاؤُهُ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷻ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَنَاسَبَ فِي أَذْكَارِ السُّجُودِ أَنْ يَقْرِنَ السَّاجِدُ بَيْنَ تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ إِقْرَارِهِ بِعُلُوِّهِ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ، مُسْتَحْضِرًا عُلُوَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلِيٌّ بِذَاتِهِ، وَعَلِيٌّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ أَعْلَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَذَكَّرَ حَالَ سُجُودِهِ ذُلَّهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَحَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا تَطَامَنَ بِجَسَدِهِ، وَمَرَّغَ فِي الْأَرْضِ وَجْهَهُ إِلَّا إِقْرَارًا بِذُلِّهِ، وَعُلُوِّ رَبِّهِ، فَلْيَكُنْ كَذَلِكَ فِي قَلْبِهِ كَمَا أَدَّاهُ بِجَسَدِهِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمَّا كَانَ السُّجُودُ غَايَةَ سُفُولِ الْعَبْدِ وَخُضُوعِهِ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَعْلَىٰ، وَالْعَبْدُ الْأَسْفَلُ، كَمَا أَنَّهُ الرَّبُّ، وَالْعَبْدُ الْعَبْدُ، وَهُوَ الْغَنِيُّ، وَالْعَبْدُ الْفَقِيرُ، وَلَيْسَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ إِلَّا مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ، فَكُلَّمَا كَمَّلَهَا قَرُبَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَرٌّ جَوَادٌ مُحْسِنٌ، يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُنَاسِبُهُ، فَكُلَّمَا عَظُمَ فَقْرُهُ إِلَيْهِ كَانَ أَغْنَىٰ، وَكُلَّمَا عَظُمَ ذُلُّهُ لَهُ كَانَ أَعَزَّ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لِمَا فِيهَا مِنْ أَهْوَائِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ، وَتَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهَا تَبْعُدُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ تَصِيرَ مَلْعُونَةً بَعِيدَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، وَاللَّعْنَةُ هِيَ

(١٩) مضىٰ تخريجه في حاشية (١٣)، وينظر في معنىٰ ذلك: فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢٣/ ٥٨-٥٩).

الْبُعْدُ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذُنُوبِهَا إِرَادَةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، وَالسُّجُودُ فِيهِ غَايَةُ سُفُولِهَا» اهـ[٢٠].

وَمِنْ عَظِيمِ أَمْرِ السُّجُودِ أَنَّهُ أَشْرَفُ رُكْنٍ فِي الصَّلَاةِ، وَتُذْكَرُ الصَّلَاةُ بِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا السُّجُودُ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ، فَجُعِلَ لِشَرَفِهِ عَلَامَةً عَلَيْهَا، وَلَمَّا قَالَ رَبِيعَةُ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢١].

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْإِكْثَارِ مِنْهُ، وَعَدَّهُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ، أَوْ قَالَ: أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ فَقَالَ ﷺ: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢٢].

وَمِنْ شَرَفِ السُّجُودِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّ الْمُعَذَّبِينَ فِي النَّارِ مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ تُحْفَظُ مَوَاضِعُ سُجُودِهِمْ فَلَا يَنَالُهَا الْعَذَابُ، وَإِذَا انْتَهَتْ فَتْرَةُ عَذَابِهِمْ، وَأَرَادَ الْمَلَائِكَةُ إِخْرَاجَهُمْ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَعْضَاءِ سُجُودِهِمْ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَتَّىٰ إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ**

---

(٢٠) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٧).

(٢١) أخرجه مسلم في صفة الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩)، وأبو داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق، باب فعل السجود (٢/ ٢٢٧).

(٢٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٨)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٦٩٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في كثرة السجود (١٤٢٢).

عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢٣).

وَأَكْثَرُ شَيْءٍ يُحْزِنُ الشَّيْطَانَ، وَيُذَكِّرُهُ بِشَقَائِهِ وَعَذَابِهِ: أَنْ يَرَىٰ ابْنَ آدَمَ يَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَيَظَلُّ يَبْكِي حَسْرَةً عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَا سَبَقَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ سُجُودِهِمْ لِلَّهِ ﷻ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلِي! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٤).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ

(٢٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في صفة الصلاة، باب فضل السجود (٧٧٣)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

(٢٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة (٨١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب سجود القرآن (١٠٥٢)، وابن خزيمة (٥٤٩)، وابن حبان (٢٧٥٩).

وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَلَا يُصْرَفَانِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَلِذَا نُهِيَ عَنِ الِانْحِنَاءِ حَالَ التَّحِيَّةِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعَاجِمِ لِلْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ؛ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ الرُّكُوعِ، وَالرُّكُوعُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَىٰ أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: **لَا**، قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: **نَعَمْ**»(٢٥).

قَالَ ابْنُ عَلَّانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مِنَ الْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ الِانْحِنَاءُ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِهَيْئَةِ الرُّكُوعِ»(٢٦).

«أَمَّا إِذَا وَصَلَ انْحِنَاؤُهُ لِلْمَخْلُوقِ إِلَىٰ حَدِّ الرُّكُوعِ قَاصِدًا بِهِ تَعْظِيمَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ كَمَا يُعَظِّمُ اللهُ ﷻ، فَلَا شَكَّ أَنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيَكُونُ كَافِرًا بِذَلِكَ، كَمَا لَوْ سَجَدَ لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ»(٢٧).

---

(٢٥) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في المصافحة وقال: حديث حسن (٢٧٢٨)، وابن ماجه في الأدب، باب المصافحة (٣٧٠٢)، وأحمد (٣/ ١٩٨)، وعبد بن حميد (١٢١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجه. لكن نقل الحافظ في التلخيص الحبير أن الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- استنكره؛ لأنه من رواية السدوسي وقد اختلط وتركه يحيىٰ القطان. اهـ (٣/ ١٤٩)، وذكر ابن الملقن في خلاصة البدر المنير أن هذا الحديث مما أنكر علىٰ السدوسي (١٩٢٢)، ويعارض هذا الحديث أحاديث المعانقة.

(٢٦) دليل الفالحين لشرح رياض الصالحين (٦/ ٢٧).

(٢٧) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٣/ ١٣٥)، وعزوه فيها للفواكه الدواني (٢/ ٤٢٥)، ودليل الفالحين (٣/ ٣٥٦)، وتحفة المحتاج (٩/ ٩٠)، ونهاية المحتاج (٧/ ٣٩٦)، ومغني المحتاج (٣/ ١٣٥)، والجمل علىٰ شرح المنهاج (٥/ ١٢٤).

وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَشَدُّ مِنَ الرُّكُوعِ؛ لِأَنَّهُ أَقْصَىٰ مَرَاتِبِ الْعِبَادَةِ، وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَلَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ كَانَ أَشْرَفَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَعْظَمَهَا، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَخْصِيصِهِ بِاللَّهِ ﷻ، وَالنَّهْيِ عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَقَدْ كَانَ تَحِيَّةً فِي بَعْضِ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ كَمَا فِي سُجُودِ إِخْوَةِ يُوسُفَ ﷺ لَهُ، لَكِنَّهُ مُنِعَ فِي شَرِيعَتِنَا الَّتِي أَكْمَلَهَا لَنَا رَبُّنَا، وَخَتَمَ بِهَا الشَّرَائِعَ.

رَوَىٰ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه فَقَالَ: أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ، فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: **«أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الحَقِّ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٨).

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟** قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«فَلَا تَفْعَلُوا؛ فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»** رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٢٩).

---

(٢٨) أخرجه أبو داود في النكاح، باب حق الزوج علىٰ المرأة (٢١٤٠)، والدارمي (١٤٦٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٣١) رقم (٨٩٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٢٣)، والبيهقي (٧/ ٢٩١)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٠٤)، والألباني في صحيح أبي داود دون جملة: «لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟».

(٢٩) أخرجه ابن ماجه في النكاح، باب حق الزوج علىٰ المرأة (١٨٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٨١)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٢) رقم (٩٠)، والبيهقي (٧/ ٢٩٢)، وصححه ابن حبان (٤١٧١)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (٤/ ١٩٠).

إِنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِمَا عَلَىٰ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ؛ تَعَبُّدًا لَهُ، وَقُرْبًا مِنْهُ، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ قَدْ حُرِمَهَا إِبْلِيسُ بِاسْتِكْبَارِهِ وَعُلُوِّهِ، وَهُوَ يَبْكِي لِأَجْلِهَا، وَقَدْ حُرِمَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ أَوْ جَهْلِهِمْ، وَحَقِيقٌ عَلَىٰ مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِسْلَامِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ المَفْرُوضَةِ؛ لِيَكُونَ مِنَ الرَّاكِعِينَ السَّاجِدِينَ الَّذِينَ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلِيَلْحَقَ بِرَكْبِ السَّابِقِينَ الْأَفَاضِلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ المُبَارَكَةِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الْفَتْح: ٢٩].

وَمَنْ كَانَ قَادِرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فَلْيَقْدِرْ هَذِهِ النِّعْمَةَ حَقَّ قَدْرِهَا، وَلْيَعْرِفْ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ؛ إِذْ هَدَاهُ وَعَافَاهُ فَأَقْدَرَهُ عَلَيْهِمَا؛ فَإِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِمَا مَنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، قَالَ مَسْرُوقٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيهِ إِلَّا أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنَا فِي التُّرَابِ، وَمَا آسَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا السُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ»(٣٠).

يَقُولُ مَسْرُوقٌ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَدْ حُرِمَ السُّجُودَ إِلَّا إِيمَاءً حِينَ شُلَّتْ يَدُهُ فِي الْقَادِسِيَّةِ، وَأَصَابَتْهُ آمَّةٌ فِي رَأْسِهِ(٣١).

وَكَمْ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَاجِزٍ عَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِعِلَّةٍ أَصَابَتْهُم قَدْ عَرَفُوا قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ بَعْدَ أَنْ حُرِمُوهَا، وَوَدُّوا لَوْ رَكَعُوا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَمَنَّوا أَنْ يُعَفِّرُوا وَجُوهَهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَذُلًّا وَتَعْظِيمًا.

---

(٣٠) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٧/ ٤٢٣).

(٣١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٧)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٠)، والآمة هي الشجة التي بلغت أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ.

وَحَسْبُ مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ قَلْبِهِ، عَالِمٌ بِأُمْنِيَّتِهِ، وَأَنَّ إِيمَاءَهُ لِلرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ يَكْفِيهِ مَا دَامَ عَاجِزًا، وَيَقْبَلُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كَمَا لَوْ رَكَعَ وَسَجَدَ حَقِيقَةً؛ وَذَلِكَ مِنْ تَخْفِيفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الْحَجّ: ٧٨].

فَأَقِيمُوا للَّهِ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- دِينَكُمْ، وَاحْنُوا لَهُ جِبَاهَكُمْ، وَعَفِّرُوا لَهُ وُجُوهَكُمْ، وَلْتَرْكَعْ قُلُوبُكُمْ وَلْتَسْجُدْ مَعَ رُكُوعِ أَبْدَانِكُمْ وَسُجُودِهَا؛ فَإِنَّ رُكُوعَ الْقَلْبِ للَّهِ تَعَالَىٰ وَسُجُودَهُ لَهُ تَذَلُّلًا وَمَحَبَّةً وَرَجَاءً أَهَمُّ وَأَوْلَىٰ مِنْ رُكُوعِ الْأَبْدَانِ وَسُجُودِهَا، بَلْ مَا شُرِعَ رُكُوعُ الْأَبْدَانِ وَسُجُودُهَا إِلَّا لِتَرْكَعَ الْقُلُوبُ وَتَسْجُدَ لِخَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا.

وَمَنْ صَلَّىٰ للَّهِ تَعَالَىٰ وَرَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ مُسْتَشْعِرٌ هَذِهِ المَعَانِي الْعَظِيمَةَ وَجَدَ لَذَّةً فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَنَهَتْهُ صَلَاتُهُ عَنِ المُحَرَّمَاتِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٥]، وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي يَرْكَعُ فِيهَا الْقَلْبُ وَيَسْجُدُ مَعَ رُكُوعِ الْبَدَنِ وَسُجُودِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٣٨- عمود الإسلام (٣)
صلاة الأنبياء عليهم السلام

٨/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَىٰ عِبَادَهُ إِلَىٰ دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُدَاهُ فَكَانَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَاغَ عَنْهُ فَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ عَلَيْنَا مِنَ الْفَرَائِضِ مَا يُصْلِحُنَا فِي الدُّنْيَا، وَيُنْجِينَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَيَرْتَاحُ بِهَا، وَإِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَيْهَا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَعْمَارَكُمْ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِكُمْ، وَأَنَّ أَعْمَالَكُمْ لَا تَنْتَهِي إِلَّا بِمَوْتِكُمْ، فَلَا تَتْرُكُوا الْعَمَلَ بَعْدَ رَمَضَانَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعْبَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ. وَشَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُتَنَوِّعَةٌ مُتَفَاضِلَةٌ: فَمِنْهَا مَا يَجِبُ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْحَجِّ، وَمِنْهَا مَا يَجِبُ فِي الْحَوْلِ كَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، وَمِنْهَا مَا يَعُودُ فِي الْأُسْبُوعِ كَالْجُمُعَةِ، وَمِنْهَا الْمُتَكَرِّرُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ كَالصَّلَاةِ، وَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الشَّرَائِعَ إِلَّا لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ.

وَالصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ أَمْرُهَا عَظِيمٌ، وَشَأْنُهَا كَبِيرٌ، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ

مَا يَفْقِدُ النَّاسُ مِنْ دِينِهِمْ . . هِيَ الشَّعِيرَةُ الظَّاهِرَةُ المُتَكَرِّرَةُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُسْلِمُ عَنْ غَيْرِهِ . . هِيَ بُرْهَانُ الْإِيمَانِ، وَدَلِيلُ الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصَّلَاةَ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي الصَّلَاةِ لَحَافَظُوا عَلَيْهَا، وَمَا تَهَاوَنُوا بِهَا، وَلَا انْشَغَلُوا بِغَيْرِهَا عَنْهَا.

إِنَّ الصَّلَاةَ أَجَلُّ عَمَلٍ يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، قَدْ جَمَعَتْ مِنَ الْأَقْوَالِ أَجَلَّهَا وَأَعْلَاهَا، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَكْثَرَهَا ذُلًّا وَخُضُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، كَالتَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَالْمُنَاجَاةِ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَيْهَا إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَتْرُكُهَا إِلَّا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ، وَهِيَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَفِي السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ يُصَلُّونَ لَهُ فَيَقْنُتُونَ وَيَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ، وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ المَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ(١).

وَالصَّلَاةُ أَهَمُّ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَأَوْلَىٰ شَيْءٍ دَعَوُا النَّاسَ إِلَيْهِ بَعْدَ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَلِذَا جَاءَتْ فِي شَرَائِعِهِمْ، وَأَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا، وَبَشَّرَ بَعْضَهُمْ بِمُرَادِهِمْ فِيهَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ فُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ فِي أَوْقَاتٍ وَقَّتَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّنِي جِبْرِيلُ** ﷺ **عِنْدَ**

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٤).

الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا وَقْتُكَ وَوَقْتُ النَّبِيِّينَ قَبْلَكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٢).

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ عليهم السلام كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالسُّجُودُ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَأَخَصِّهَا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٨]، ثُمَّ لَمَّا أَثْنَىٰ تعالى عَلَيْهِمْ ذَمَّ الْخُلُوفَ الَّتِي تُضَيِّعُ الصَّلَاةَ ﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٩].

وَشُعَيْبٌ عليه السلام كَانَ مُصَلِّيًا، وَأَنْكَرَ قَوْمُهُ عَلَيْهِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَقَالُوا: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ﴾ [هُود: ٨٧].

وَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لَمَّا وَضَعَ هَاجَرَ وَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ عليه السلام فِي مَكَّةَ وَهِيَ مُقْفِرَةٌ دَعَا اللهَ عز وجل أَنْ تُعْمَرَ وَيَثُوبَ النَّاسُ إِلَيْهَا، وَتُجْبَىٰ إِلَيْهَا الثَّمَرَاتُ

---

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب المواقيت (٣٩٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في مواقيت الصلاة، وقال: حسن صحيح (١٤٩)، وأحمد (١/ ٣٣٣-٣٥٤)، وأبو يعلىٰ (٢٧٥٠)، وعبد الرزاق (٢٠٢٨) (٣٢٥)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠٩) رقم (١٠٧٥٢)، وتمام في فوائده (٣٢٩)، والحاكم (١/ ٣٠٦)، وابن الجارود (١٤٩)، وصححه ابن خزيمة (٣٢٥).
وأخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب (١٥٠)، والنسائي في المواقيت، باب آخر وقت العصر (١/ ٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٠)، وصححه ابن حبان (١٤٧٢)، والحاكم (١/ ٣١٠)، ونقل الترمذي عن البخاري قوله: أصح شيء في المواقيت حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم، الجامع (١/ ٢٨١) رقم (١٥٠).
وأخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطبراني في الكبير (٦/ ٣٧) رقم (٥٤٤٣).

وَالْأَرْزَاقُ، وَعَلَّلَ دَعْوَتَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِيهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَمْ يَذْكُرْ عَمَلًا غَيْرَ الصَّلَاةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا عَمَلَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَلَا يُوَازِيهَا» اهـ(٣).

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَخَامَةِ الصَّلَاةِ، وَعَظِيمِ شَأْنِهَا، وَعُلُوِّ مَكَانَتِهَا، وَأَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِقَامَ الصَّلَاةِ فِيهِ وَإِلَيْهِ، وَاسْتَجَابَ اللهُ سُبْحَانَهُ دَعْوَةَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَمَنْ يَفِدُونَ إِلَيْهِ مُنْذُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَمَنْ يَؤُمُّونَهُ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنْ شَتَّىٰ الْبِقَاعِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ جِدًّا، لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمَوَاسِمِ الْفَاضِلَةِ كَرَمَضَانَ وَالْحَجِّ، وَعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَيَقْصِدُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، وَمُصَلِّيًا فِيهِ(٤).

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَ أَنَّ إِقَامَ الصَّلَاةِ مَقْصِدٌ مِنْ مَقَاصِدِ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْحَجّ: ٢٦]، وَالْقَائِمُونَ هُمُ الْمُصَلُّونَ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٥).

---

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٩٨).

(٤) روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما**» أخرجه مسلم في الحج، باب إهلال النبي صلى الله عليه وسلم وهديه (١٢٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٤٣)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٦). =

وَمِنْ عَظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ أَنَّ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام دَعَا رَبَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِإِقَامَتِهَا؛ فَمَنْ أَصَابَتْهُ دَعْوَةُ الْخَلِيلِ وُفِّقَ لَهَا، فَأَقَامَهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَمَنْ لَمْ تُصِبْهُ لَمْ يُوَفَّقْ لَهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وَخَلَفَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ابْنُهُ الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام، وَكَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ الْآمِرِينَ بِالصَّلَاةِ، أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

كَمَا خَلَفَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَدُهُ إِسْحَاقُ وَآلُهُ عليهم السلام، وَقَدْ كَانُوا أَئِمَّةً مُصَلِّينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وَمِنْ نَسْلِ إِسْحَاقَ عليه السلام بُعِثَ الْكَلِيمُ مُوسَىٰ عليه السلام، فَاصْطَفَاهُ رَبُّهُ عز وجل بِرِسَالَاتِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَلَامِهِ؛ فَسَاقَهُ إِلَىٰ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ، فَأَمَرَهُ سُبْحَانَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَنَصَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِخُصُوصِهَا -وَإِنْ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّىٰ الْعِبَادَةِ- وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعَظِيمِ شَأْنِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١١-١٤].

وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَىٰ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُرَخِّصِ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ فِي

= وجاء عن عطاء -رحمه الله تعالىٰ- أن القائمين: المصلون عنده، ينظر: الدر المنثور (٦/ ٣٢)، وقال البغوي: القائمين؛ أي: المقيمين (٣/ ٢٨٣).

تَرْكِ الصَّلَاةِ اتِّقَاءً لِلْعَذَابِ، بَلْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عليهما السلام أَنْ يَتَّخِذَا مِنْ بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَكَانًا لِلصَّلَاةِ بَدَلَ الْبِيَعِ وَالْكَنَائِسِ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٨٧].

وَفِي الْمُنَاظَرَةِ الْكُبْرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ وَالسَّحَرَةِ لَمْ يُلْهِمِ السَّحَرَةُ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ طَاعَةً يَرْجِعُونَ بِهَا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَيَتَرَضَّوْنَهُ بِهَا ظَنًّا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا السُّجُودَ، وَهُوَ أَعْظَمُ هَيْئَاتِ الصَّلَاةِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٦-٤٨]، فَعَفَّرُوا وُجُوهَهُمْ فِي التُّرَابِ خُضُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ مَفْزَعًا إِلَّا إِلَىٰ الصَّلَاةِ مَعَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَهِيَ مَفْزَعُ كُلِّ مُنِيبٍ(٦).

وَمِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ زَكَرِيَّا عليه السلام، سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ الْوَلَدَ، فَبُشِّرَ بِهِ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَجَاءَتْهُ الْبِشَارَةُ بِهِ وَهُوَ يُصَلِّي ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٩].

قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الصَّلَاةُ خِدْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ مَا قَالَ: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ»اهـ(٧).

وَمَرْيَمُ عليها السلام لَمَّا بُشِّرَتْ بِتَطْهِيرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهَا، وَاصْطِفَائِهِ لَهَا عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أُمِرَتْ بِالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الِاصْطِفَاءَ لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ

(٦) ينظر: تعظيم قدر الصلاة (١/ ٩٧).

(٧) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٣٩٠)، والبيهقي في الشعب (٣١٨٦)، وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٤٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٠).

مِمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ؛ طَاعَةً للَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَثْرَةَ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٤٣].

لَقَدْ كَانَتْ مَرْيَمُ عليها السلام كَثِيرَةَ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، كَثِيرَةَ الصَّلَاةِ، قَدِ اتَّخَذَتْ لَهَا مِحْرَابًا عُرِفَتْ بِهِ، لَا تَكَادُ تُبَارِحُهُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَتَعَبُّدِهَا، وَرِزْقُهَا يُسَاقُ إِلَيْهَا فِي مِحْرَابِهَا؛ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهَا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣٧].

أَسْأَلُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ مَا بِهِ يَرْضَىٰ عَنَّا، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَثَقِّلُوا مَوَازِينَ حَسَنَاتِكُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَخَفِّفُوا مَوَازِينَ سَيِّئَاتِكُمْ بِاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨-٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَتَابَعَ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالصَّلَاةِ، وَالِاهْتِمَامِ بِهَا، وَجَاءَتْ بِهَا شَرَائِعُهُمْ، وَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ بِهَا؛ حَتَّىٰ كَانَتِ الصَّلَاةُ مِمَّا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ.

وَمِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ بُعِثَ عِيسَىٰ بَعْدَ مُوسَىٰ عليهما السلام، وَتَكَلَّمَ فِي المَهْدِ آيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ لِيَدْرَأَ عَنْ أُمِّهِ عليها السلام أَيَّ تُهْمَةٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدِ اصْطَفَاهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَآتَاهُ الْكِتَابَ، وَأَوْصَاهُ بِالصَّلَاةِ، وَالْوَصِيَّةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا هُوَ مُهِمٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ إِذْ وَصَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٢٩-٣١].

وَنَبِيُّ اللَّهِ تَعَالَىٰ دَاوُدُ عليه السلام لَمَّا جَاءَهُ الْخَصْمَانِ لِلْحُكْمِ بَيْنَهُمَا تَسَوَّرَا عَلَيْهِ مِحْرَابَهُ، وَهُوَ مَكَانُ عِبَادَتِهِ وَصَلَاتِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [سورة ص: ٢١-٢٢].

ثُمَّ لَمَّا أَخْطَأَ عليه السلام فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا وَقَدْ سَمِعَ حُجَّةَ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدِ ابْتَلَاهُ بِهِمَا، وَأَرَادَ التَّوْبَةَ مِنْ ذَلِكَ؛ لَمْ يَجِدْ لِتَوْبَتِهِ مَفْزَعًا إِلَّا الصَّلَاةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ وَاصِفًا إِيَّاهُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: ٢٤].

وَوَرِثَ الْمُلْكَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام، وَكَانَ مُحِبًّا لِلْخَيْلِ حُبًّا شَدِيدًا، فَعُرِضَتْ عَلَيْهِ فَانْشَغَلَ بِهَا حَتَّىٰ فَاتَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، فَتَنَبَّهَ وَأَسِفَ لِذَلِكَ، فَأَمَرَ بِإِرْجَاعِهَا وَهِيَ أَحَبُّ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، فَعَقَرَهَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهَا لِأَنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ

صَلَاتِهِ(٨) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [سورة ص: ٣٠-٣٣].

وَقَدْ سُخِّرَتِ الْجِنُّ لِخِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ، فَلَمَّا قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ قَبَضَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي قَدْ تَوَكَّأَ عَلَىٰ عَصَاهُ(٩)، فَمَا عَلِمَتِ الْجِنُّ بِذَلِكَ إِلَّا لَمَّا أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ إِلَىٰ الْأَرْضِ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: ١٤].

وَيُونُسُ عليه السلام نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ بِكَثْرَةِ تَسْبِيحِهِ وَصَلَاتِهِ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٤٣-١٤٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ»(١٠)، وَقَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَانَ

---

(٨) وهذا هو قول جمهور المفسرين، وهو اللائق بحال سليمان عليه السلام، والموافق للسياق القرآني، واختار الطبري مسح أعناقها بيده. قال ابن الجوزي: «والمفسرون علىٰ القول الأول، وقد اعترضوا علىٰ القول الثاني، وقالوا: أي مناسبة بين شغلها إياه عن الصلاة وبين مسح أعرافها حبا لها ..» اهـ من زاد المسير (٧/ ١٣٢)، والمسح يطلق علىٰ المسح باليد، والمسح بالسيف كناية عن القتل، والظاهر من الآيات الثاني. والله أعلم.

(٩) ذكر ذلك ابن جزي الكلبي في تفسيره: التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ١٤٨)، والرازي (٢٥/ ٢١٦)، ونقله السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه الطبري والطبراني وابن أبي حاتم وابن السني وابن المنذر وابن مردويه والبزار (٦/ ٦٨٣).

(١٠) وهكذا جاء عن سعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة رحمهم الله تعالىٰ كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢).
قلت: والصلاة يطلق عليها تسبيح، وقيل: هو التسبيح علىٰ ظاهره، وقيل: هو دعوته التي جاءت في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].
قلت: ولا يمنع اجتماع ذلك فيه عليه السلام، ولفظة (المسبحين) تجمعه كله.

كَثِيرَ الصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ»(١١).

وَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ أُمِرُوا بِالصَّلَاةِ مَعَ التَّوْحِيدِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٤-٥].

وَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ لِلْقِيَامِ بِجُمْلَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ مِنْ أَجَلِّهَا وَأَعْظَمِهَا الصَّلَاةُ، وَوَعَدَهُمْ بِتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ إِنْ وَفَّوْا بِمَا عَاهَدُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ﴾ [المَائِدَة: ١٢].

ثُمَّ كَانَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْلَامِ ثَانِيَ أَرْكَانِهِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَأَعْظَم عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ ﷻ وَبَيْنَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيُّ وَاسِطَةٍ فِي فَرْضِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ شَأْنِهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا.

وَإِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ كَذَلِكَ فِي كُلِّ الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَقَدْ تَوَارَدَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا، حَتَّىٰ كَانَتْ شَرِيعَةُ خَاتَمِهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّتِي تَكَرَّرَتِ الصَّلَاةُ فِيهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهَلْ يَلِيقُ بِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ يُفَرِّطُوا فِيهَا، أَوْ يَتَهَاوَنُوا بِهَا، أَوْ يُخِلُّوا بِمَا يَجِبُ

(١١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٩٩)، وابن أبي حاتم (١٨٢٩٢)، والبيهقي (١٠/ ٢٨٧).

لَهَا؟! وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَمَرَنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِرُسُلِهِ عليهم السلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الْأَنْعَام: ٩٠].

وَتَعْظِيمُ أَمْرِ الصَّلَاةِ، وَالْعِنَايَةُ بِهَا، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، وَالْإِتْيَانُ بِمَا يَجِبُ لَهَا هُوَ مِنَ الِاقْتِدَاءِ بِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِينَ دَلَّتْ قِصَصُهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ تَعْظِيمِهِمْ لِقَدْرِ الصَّلَاةِ، وَعِنَايَتِهِمْ بِهَا.

إِنَّ الْمَسَاجِدَ فِي رَمَضَانَ كَانَتْ تَكْتَظُّ بِالْمُصَلِّينَ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَكِنْ مَا إِنْ يَنْتَهِي رَمَضَانُ حَتَّىٰ يَتَهَاوَنَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّلَاةِ، فَرُبَّمَا هَجَرُوا الْمَسَاجِدَ، أَوْ أَخَّرُوا الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَهَذَا مِنَ التَّهَاوُنِ بِهَا، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ تَعْظِيمِهِمْ لِشَأْنِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يُضَيِّعُ فُرُوضًا وَيَأْتِي بِفُرُوضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهَا كُلِّيَّةً إِلَىٰ رَمَضَانَ الْقَابِلِ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحِرْمَانِ، وَإِلَّا فَهَلْ يُفَرِّطُ فِيمَا هُوَ صِلَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَحَدٌ؟!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ، حَافِظُوا عَلَيْهَا، وَأَقِيمُوهَا فِي أَوْقَاتِهَا مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهَا فِي الْمَسَاجِدِ، وَلَا تُلْهِيَنَّكُمْ عَنْهَا الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٢٣٩- صلاة الجماعة (١)
فضل الخروج إلى المسجد

٥/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ فَتَحَ لِعِبَادِهِ أَبْوَابَ الْخَيْرَاتِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ طُرُقِ اكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ السَّيِّئَاتِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمِنَنِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا اخْتَصَّنَا بِهِ مِنَ النِّعَمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ آيَاتُهُ وَمَخْلُوقَاتُهُ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ، فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي صَمَدَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ فَقَامَ بِهِمْ، وَقَضَىٰ حَوَائِجَهُمْ؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم: ٢٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ نَصَحَ لِأُمَّتِهِ أَعْظَمَ النُّصْحِ، فَهَدَاهُمْ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ؛ فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَهْدَاهُمْ سَبِيلًا، ﷺ وَأَرْضَاهُمْ رَغْمَ أُنُوفِ الْكَارِهِينَ لَهُمْ، السَّاخِرِينَ بِهِمْ، السَّاخِطِينَ عَلَيْهِمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَلَئِنْ كَانَ رَمَضَانُ قَدِ انْتَهَىٰ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعْبَدُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِ إِلَّا الْمَوْتُ، فَبِهِ يَنْقَطِعُ الْعَمَلُ، وَيَبْتَدِئُ الْجَزَاءُ؛ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الْحِجْر: ٩٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَكْدَحُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهَا، وَيَنْسَىٰ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ كَأَنَّهُمْ لَا يُنْقَلُونَ إِلَيْهَا، وَيَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ تَضْيِيعُهُمْ لِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ

وَاجِبَةٍ عَظِيمَةِ الْأُجُورِ لِمَصْلَحَةِ أَعْمَالٍ دُنْيَوِيَّةٍ قَدْ يَرْبَحُونَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ مَالٍ وَقَدْ يَخْسَرُونَ، وَكَمْ ضُيِّعَ مِنَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَةِ؟ وَكَمْ فَاتَتْ تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا؟ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ تَضْيِيعِ النَّوَافِلِ!

وَالْكَيِّسُ الْحَازِمُ الْفَطِنُ مَنْ رَتَّبَ مُهِمَّاتِ أَعْمَالِهِ، وَبَدَأَ بِالْأَهَمِّ مِنْهَا، فَمَا كَانَ لِلْآخِرَةِ قَدَّمَهُ عَلَىٰ مَا كَانَ لِلدُّنْيَا؛ لِأَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ يَتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْآخِرَةَ أَهَمُّ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ سَلِمَتْ لَهُ آخِرَتُهُ، وَلَمْ تَفُتْهُ الدُّنْيَا.

إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ رَتَّبَ أُجُورًا كَبِيرَةً عَلَىٰ أَعْمَالٍ يَسِيرَةٍ دَائِمَةٍ مَعَ الْعَبْدِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَعْمَالِ -رَغْمَ أَنَّهَا يَسِيرَةٌ- إِلَّا المُرَابِطُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ تِلْكُمُ الْأَعْمَالِ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، فَفِيهَا مِنَ الْأُجُورِ وَالمَنَافِعِ وَالْخَيْرِ مَا لَا يُحْصِيهِ الْمُحْصُونَ، وَلَا يَعُدُّهُ الْعَادُّونَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَتَمَّ الْمُصَلِّي شُرُوطَهَا وَأَرْكَانَهَا، وَأَتَىٰ بِوَاجِبَاتِهَا وَسُنَنِهَا، وَسَابَقَ غَيْرَهُ إِلَيْهَا فِي المَسَاجِدِ مَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهَا؛ حَتَّىٰ إِنَّ مَشْيَهُ إِلَىٰ المَسْجِدِ عِبَادَةٌ تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ مَا لَا يُفَرِّطُ فِيهِ إِلَّا مَحْرُومٌ خَسْرَانٌ.

فَالمَشْيُ إِلَىٰ المَسَاجِدِ يُكَفِّرُ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَىٰ إِلَىٰ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، كَانَتْ خُطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَىٰ تَرْفَعُ دَرَجَةً»**(١). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟** قَالُوا: بَلَىٰ

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ بها الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦١)، وابن حبان (٢٠٤٤).

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَىٰ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**» رَوَىٰ الْحَدِيثَيْنِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢).

وَلَمَّا أَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ الِانْتِقَالَ قُرْبَ المَسْجِدِ أَوْصَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْقَوْا فِي مَسَاكِنِهِمْ؛ لِيُكْتُبَ لَهُمْ مَمْشَاهُمْ إِلَىٰ المَسْجِدِ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ المَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَىٰ قُرْبِ المَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: **إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِدِ**، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: **يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَكُلَّمَا بَعُدَ المَسْجِدُ عَنِ المَنْزِلِ طَالَ المَمْشَىٰ، وَكَثُرَتِ الْخُطَىٰ، فَزَادَ الْأَجْرُ، وَكَثُرَتِ الْحَسَنَاتُ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو مُوسَىٰ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًىٰ فَأَبْعَدُهُمْ**»(٤).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَكُلَّمَا شَقَّ عَلَيْكَ المَشْيُ إِلَىٰ المَسَاجِدِ كَانَ أَفْضَلَ؛ وَلِهَذَا فُضِّلَ المَشْيُ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ، وَعُدِلَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ:

---

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في إسباغ الوضوء (٥١)، والنسائي في الطهارة، باب الفضل في إسباغ الوضوء (١/ ٨٩)، ومالك (١/ ١٦١)، وأحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبو يعلىٰ (٥٠٣).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٧١). وجاء نحوه من حديث أنس ﷺ عند: البخاري في الجماعة والإمامة، باب احتساب الآثار (٦٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٢٣)، ومسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٢).

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّىٰ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّىٰ الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّىٰ اللَّيْلَ كُلَّهُ**»(٥).

وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَاتَانِ الصَّلَاتَانِ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ المُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ المُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ بِصَلَاتِهِمْ فِي المَسْجِدِ أَنْ يَرَاهُمُ النَّاسُ، وَهَاتَانِ الصَّلَاتَانِ لَيْلِيَّتَانِ، فَلَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا وَيَمْشِي إِلَيْهِمَا إِلَّا مُؤْمِنٌ.

وَالْخُطْوَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْخُطَىٰ إِلَىٰ المَسْجِدِ تَعْدِلُ صَدَقَةً؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَنْ يُقَارِبُ بَيْنَ الْخُطَىٰ فِي المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ لِتَكْثِيرِ الْأَجْرِ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «مَشَيْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ إِلَىٰ المَسْجِدِ فَقَارَبَ بَيْنَ الْخُطَىٰ وَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ تَكْثُرَ خُطَانَا إِلَىٰ المَسْجِدِ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ(٧).

---

(٥) اختيار الأولىٰ في شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ ط. المؤيد، تحقيق بشير محمد عيون (٣٦)، والحديث الذي ساقه أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعشاء في الجماعة (٦٥٦).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب من حمل متاع صاحبه في السفر (٢٧٣٤)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

(٧) عزاه الحافظ في الفتح (٢/ ١٤١) لابن أبي شيبة، ولم أقف عليه لا في المصنف ولا في المسند، وقد أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٥٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ١١٧) رقم (٤٧٩٦).

وأخرجه مرفوعا: البخاري في الأدب المفرد (٤٥٨)، والطبراني في الكبير (٥/ ١١٨) رقم (٤٨٠٠) لكن في سند البخاري الضحاك بن نبراس البصري وهو ضعيف، وقال النسائي: متروك، وقال ابن معين: ليس بشيء، وضعفه الدارقطني وغيره كما في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٤٧) رقم (٣٩٥٠)، وفي سند الطبراني محمد بن ثابت البناني عن أبيه وهو =

فَإِنْ كَانَ المَشْيُ إِلَىٰ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَالْأَجْرُ أَكْثَرُ، وَالثَّوَابُ أَعْظَمُ؛ كَمَا رَوَىٰ أَوْسُ بْنُ أَوْسٍ الثَّقَفِيُّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَىٰ وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ؛ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(٨).

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَتَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ لَهُمْ: أَنَّ الرُّجُوعَ مِنَ المَسْجِدِ عَقِبَ الصَّلَاةِ يُحْتَسَبُ كَمَا يُحْتَسَبُ الذَّهَابُ، رَوَىٰ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ المَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَىٰ جَنْبِ المَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَىٰ المَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ الثَّوَابِ فِي الْخُطَىٰ فِي الرُّجُوعِ كَمَا يَثْبُتُ فِي الذَّهَابِ(١٠).

= ضعيف، قال البخاري: فيه نظر، وضعفه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم، ينظر: الكاشف (٢/ ١٦٠) رقم (٤٧٥٣)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٧٢). والموقوف أصح من المرفوع.

(٨) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة (٣٤٥)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة وقال: حديث حسن (٤٩٦)، والنسائي في الجمعة، باب فضل غسل يوم الجمعة (٣/ ٩٥-٩٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة (١٠٨٧)، وأحمد (٤/ ٩)، والدارمي (١٥٤٧)، وصححه ابن خزيمة (١٧٥٨)، وابن حبان (٢٧٨١).

(٩) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٣).

(١٠) ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٦٨)، والديباج علىٰ مسلم (٢/ ٣٠٥)، وعون المعبود (٢/ ١٨٤).

وَمِنْ عَظِيمِ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ لِأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَبَسَ عَنْهُمْ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَلَمَّا سَأَلُوهُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّىٰ اسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الحَسَنَاتِ، وَالجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ حِينَ المَكْرُوهَاتِ» صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ[(١١)]، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قَالَ: قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: المَشْيُ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الجَمَاعَاتِ، وَالجُلُوسُ فِي المَسْجِدِ خِلَافَ الصَّلَوَاتِ، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ فِي المَكَارِهِ، قَالَ: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[(١٢)].

---

(١١) أخرجه في حديث طويل: الترمذي في تفسير سورة ص، وقال: حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الترمذي (٣٢٣٤)، وأحمد (١/ ٣٦٨)، وأبي يعلىٰ (٢٦٠٨)، وعبد بن حميد (٦٨٢).

وجاء من حديث عبد الرحمن بن عائش عن بعض أصحاب النبي ﷺ عند: أحمد (٤/ ٦٦)، والدارمي (٢١٥٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٧/ ١٧٦).

(١٢) هذه الرواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ (٤/ ٦٦). ونحوها عند الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٣٢٣٣-٣٢٣٤).

وَالمَشْيُ إِلَىٰ صَلَاتَي الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ سَبَبٌ لِلنُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «**بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ خُزَيْمَةَ: «**لِيُبَشَّرِ المَشَّاؤُونَ فِي الظَّلَامِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١٣).

وَيَفْرَحُ اللهُ تَعَالَىٰ بِمَشْيِ عَبْدِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ الطَّاعَةَ لِعِبَادِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمُ المَعْصِيَةَ؛ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزُّمَر: مِنَ الآيَةِ ٧]، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ خُزَيْمَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «بَابُ ذِكْرِ فَرَحِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ بِمَشْيِ عَبْدِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ مُتَوَضِّئًا، ثُمَّ سَاقَ تَحْتَهُ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ وَيُسْبِغُهُ ثُمَّ يَأْتِي المَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِطَلْعَتِهِ**»»(١٤).

---

(١٣) أخرجه من حديث بريدة رضي الله عنه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في المشي إلىٰ الصلاة في الظلم (٥٦١)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، ورجح الترمذي وقفه (٢٣٣)، والطبراني في الأوسط (٤٢٠٧).
وأخرجه من حديث سهل رضي الله عنه: ابن ماجه في المسجد والجماعات، باب المشي إلىٰ الصلاة (٧٨١)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٤٧) رقم (٥٨٠٠)، واستغربه ابن خزيمة (١٤٩٨)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٣١).
وقد جاء عن أنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٧٨١)، والضياء في المختارة (١٧١٣)، والحاكم (١/ ٣٣٢)، والطبراني في الأوسط (٥٩٥٦).
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: الطيالسي (٢٢١٢)، وأبي يعلىٰ (١١١٣).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٩) رقم (١٨٠٦٨٩).
وعن ابن عمر رضي الله عنهما عند الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٥٨) رقم (١٣٣٣٥).
(١٤) أخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة (٨٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٠٧)، والطيالسي (٢٢٣٤)، وصححه ابن خزيمة (١٤٩١)، وابن حبان (١٦٠٧)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٣٢)، واللفظ لأحمد وابن خزيمة، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٠٢).

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعِدُّ لِزُوَّارِ المَسَاجِدِ ضِيَافَةً فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ غَدْوَةٍ يَغْدُونَهَا إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَالمَشَّاؤُونَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ فِي ضِيَافَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ يَعُودُوا إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ، رَوَىٰ أَبو هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ غَدَا إِلَىٰ المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٥)، وَالنُّزُلُ: مَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ عِنْدَ قُدُومِهِ(١٦).

وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ إِلَىٰ أَنْ يَرْجِعَ؛ كَمَا رَوَىٰ الدَّارِمِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ خَرَجَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ**»(١٧).

وَإِذَا تَأَخَّرَ الْعَبْدُ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ مَعَ حِرْصِهِ عَلَىٰ إِدْرَاكِهَا، وَمَشْيِهِ إِلَيْهَا؛ كُتِبَ لَهُ أَجْرُهَا وَلَوْ فَاتَتْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا أَعْطَاهُ اللهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّاهَا أَوْ حَضَرَهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٨)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ أَمْرِ الْخُرُوجِ لِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

بَلْ جَاءَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَىٰ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ،**

---

(١٥) أخرجه مسلم في المساجد، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ بها الخطايا وترفع بها الدرجات (٦٦٩)، وأحمد (٢/ ٥٠٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ١١٥).

(١٦) شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٧٠)، والمفهم للقرطبي (٢/ ٢٩٤).

(١٧) أخرجه الدارمي (١٤٠٦)، وصححه ابن خزيمة (٤٣٩)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٢٤).

(١٨) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب فيمن خرج يريد الصلاة فسبق بها (٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٠)، وعبد بن حميد (١٤٥٥)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٣٢٧).

وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ تَسْبِيحِ الضُّحَىٰ لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَىٰ إِثْرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٩).

وَمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ فَهُوَ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحِفْظِهِ، وَلَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ سَالِمًا غَانِمًا، فَإِنْ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَىٰ اللَّهِ ﷻ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: رَجُلًا رَاحَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَىٰ اللَّهِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٢٠).

فَاحْرِصُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ بِالْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَكَثْرَةِ الْخُطَىٰ إِلَيْهَا، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَعَوِّدُوا أَبْنَاءَكُمْ وَمَنْ وَلَّاكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أُمُورَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ؛ فَفِي ذَلِكَ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ...



(١٩) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ما جاء في فضل المشي إلىٰ الصلاة (٥٥٨)، وأحمد (٥/ ٢٦٨)، والروياني (١٢٠٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٦) رقم (٧٧٣٤)، والأوسط (٣٢٦٢).

(٢٠) أخرجه أبو داود في الجهاد باب فضل الغزو في البحر (٢٤٩٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٩٤)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٥١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٠) رقم (٧٤٩٣)، وصححه ابن حبان (٤٩٩)، والحاكم (٢/ ٨٣)، ورجح ابن أبي حاتم وقفه كما في العلل (٩٢٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَاعْتِيَادُ الْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ يَسْتَطِيعُهُ الْمُسْلِمُ إِذَا جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَرَوَّضَهَا عَلَيْهِ، وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَعَلُوا ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَابِقُونَ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَعَلَىٰ الدُّنُوِّ مِنَ الْإِمَامِ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ فِي شَهْرٍ كَامِلٍ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَيْهِ الْعُمْرَ كُلَّهُ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْجِزُهُمْ عَنِ الْمُسَابَقَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ كَسَلُهُمْ، وَتَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْجِيلِ، فَيَسْمَعُ وَاحِدُهُمُ النِّدَاءَ فَيَتَعَلَّلُ بِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ، أَوْ يَتَأَخَّرُ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ بَقِيَ عَلَيْهَا وَقْتٌ، فَمَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَتَمَادَىٰ بِهِ حَتَّىٰ تَفُوتَهُ الْجَمَاعَةُ، أَوِ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ!

وَيَظَلُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يُحَافِظُ فِيهِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَيُسَابِقُ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَلَا تَفُوتُهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ، وَيَعِدُ نَفْسَهُ بِأَنَّ ذَلِكَ سَيَحْصُلُ إِذَا فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، وَقَلَّ ارْتِبَاطُهُ، وَخَفَّتْ مَسْئُولِيَّاتُهُ، وَمَا هَذَا التَّسْوِيفُ وَالْعِدَةُ وَالْأَمَانِي إِلَّا حَبَائِلَ الشَّيْطَانِ يَصْطَادُ بِهَا الْعَبْدَ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَلَمَّا يَفْرُغْ مِنْ شُغْلِهِ.

وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ الْمُسْلِمَ أَنْ يَجْعَلَ الْمَشْيَ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَحُضُورَ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَهَمِّ مُهِمَّاتِهِ، وَأَوَّلِ أَوْلَوِيَّاتِهِ، حَتَّىٰ يَعْتَادَ ذَلِكَ، وَيَكُونَ جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَهُ الْعُمْرَ كُلَّهُ، وَلَنْ يَفُوتَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا قَدْ يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ هَجَرُوا الْمَسَاجِدَ، وَأَضَاعُوا صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ، فَخَسِرُوا كَثِيرًا.

إِنَّ سَلَفَنَا الصَّالِحَ قَدْ أَدْرَكُوا أَهَمِّيَّةَ الْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَحُضُورَ الْجَمَاعَةِ، وَعَلِمُوا مَا رُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِهِمْ، لَا يُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَهْمَا عَلَا شَأْنُهُ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ عَذَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ لِمَرَضٍ مُقْعِدٍ، أَوْ كِبَرٍ مُعْجِزٍ، وَمَا تَرَكُوا الْمَشْيَ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ وَحُضُورَ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، يَبْتَغُونَ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ.

مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَفَّارُ الْغِرْنَاطِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-، قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ: قَدْ بَقِيَ الْحَفَّارُ نَحْوًا مِنْ عَامَيْنِ أَوْ أَزْيَدَ يَخْرُجُ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يُهَادَىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ لِشَيْءٍ كَانَ بِرِجْلِهِ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَقُولُ: الْحَفَّارُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَحْضُرِ الْجَمَاعَةَ(٢١).

وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَم -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- يُقَادُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَكَانَ بِهِ الْفَالِجُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا يَزِيدَ، إِنَّهُ قَدْ رُخِّصَ لَكَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: إِنِّي أَسْمَعُ حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَأْتُوهَا وَلَوْ حَبْوًا(٢٢).

وَمَنْ عَجَزَ مِنْهُمْ عَنِ الْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ كَانَ يَسْتَأْجِرُ مَنْ يَحْمِلُهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِحُضُورِ الْجَمَاعَةِ يَبْتَغِي الْأَجْرَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ كَمَا وَقَعَ لِلْعَالِمِ الْمَالِكِيِّ ابْنِ خَفِيفٍ

(٢١) الدرر الكامنة لابن حجر (٥/ ٣٣٥-٣٣٦) رقم (١٥٧٠)

(٢٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٨٩-١٩٠)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في الشعب (٢٩٢٩).

-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-؛ إِذْ كَانَ بِهِ وَجَعُ الْخَاصِرَةِ، فَكَانَ إِذَا أَصَابَهُ أَقْعَدَهُ عَنِ الْحَرَكَةِ، فَكَانَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ يُحْمَلُ عَلَىٰ ظَهْرِ رَجُلٍ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ خَفَّفْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ! فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: إِذَا سَمِعْتُمْ: حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَلَمْ تَرَوْنِي فِي الصَّفِّ فَاطْلُبُونِي فِي المَقْبَرَةِ(٢٣).

وَرُبَّمَا أَحَسَّ بَعْضُهُمْ بِالمَوْتِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَآثَرَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ لِيَشْهَدَهَا، وَيَمُوتَ فِي المَسْجِدِ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ -رحمه الله تعالىٰ-؛ إِذْ سَمِعَ المُؤَذِّنَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَمَنْزِلُهُ قَرِيبٌ مِنَ المَسْجِدِ، فَقَالَ: خُذُوا بِيَدِي، فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ عَلِيلٌ، فَقَالَ: أَسْمَعُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَا أُجِيبُهُ؟! فَأَخَذُوا بِيَدِهِ، فَدَخَلَ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ، فَرَكَعَ مَعَ الْإِمَامِ رَكْعَةً، ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٢٤).

إِنَّ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ كَانُوا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ وَأَوْلَادٌ وَمَسْؤُولِيَّاتٌ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوا مِنْ أَهَمِّ مُهِمَّاتِهِمُ المُحَافَظَةَ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ فِي المَسَاجِدِ، فَمَا فَاتَتْهُمُ الدُّنْيَا، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ، فَسِيرُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ سِيرَتَهُمْ فِي المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَالمُسَابَقَةِ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَإِدْرَاكِ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ؛ فَفِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْفَوْزُ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



---

(٢٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٤٦).

(٢٤) التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ٩٣١)، وصفة الصفوة (٢/ ١٣١-١٣٢) رقم (١٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٩-٢٢٠).

٢٤٠- صلاة الجماعة (٢)
آداب الخروج إلى المسجد

١/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ فَتَحَ لِعِبَادِهِ أَبْوَابَ خَيْرَاتِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا شَرَعَ لَنَا مِنْ دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ جَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَمِ الْعَالَمِينَ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٠]، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ عَلَيْنَا مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا يَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَيُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، وَيَزِيدُ الْحَسَنَاتِ؛ تَفَضُّلًا مِنْهُ عَلَيْنَا، وَرَحْمَةً بِنَا؛ لِيَجْزِيَنَا بِمَا عَمِلْنَا ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحْمَن: ٦٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ وَأَمَرَنَا بِهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ وَنَهَانَا عَنْهُ، وَمَا فَارَقَ أُمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ نُفُوسًا، وَأَخْلَصِهِمْ أَعْمَالًا، فَرَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُفَارِقُونَ بُيُوتَكُمْ إِلَىٰ قُبُورِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا فِيهَا إِلَّا أَعْمَالَكُمْ، فَشَمِّرُوا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ فِيمَا يُنْجِيكُمْ، وَاحْذَرُوا مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِكُمْ، فَالْفُرْصَةُ وَاحِدَةٌ .. فَوْزُهَا كَبِيرٌ، وَخَسَارَتُهَا عَظِيمَةٌ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨، ٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلصَّلَاةِ شَأْنٌ كَبِيرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ الشَّعِيرَةُ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَكَثُرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا كَثْرَةً لَا تُقَارِبُهَا فِيهَا عِبَادَةٌ أُخْرَىٰ، وَهِيَ الْعِبَادَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُؤَذَّنُ فِي النَّاسِ بِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ.

وَصَلَاةُ الْجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ، وَفِيهَا لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مَا يَعِزُّ عَلَىٰ الْحَصْرِ، وَلَهَا فِي دِينِ اللَّهِ ﷻ فَضَائِلُ عَظِيمَةٌ، وَرُتِّبَ عَلَيْهَا أُجُورٌ كَثِيرَةٌ، وَمُرْتَادُ الْمَسَاجِدِ فِي ضِيَافَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ فَمَنْ أَعْظَمُ شَرَفًا مِنْهُ؟! وَمَنْ غَدَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ نُزُلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ(١).

إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِذَا دُعِيَ إِلَىٰ ضِيَافَةٍ اسْتَعَدَّ لَهَا بِالْغُسْلِ وَالطِّيبِ، وَاخْتَارَ لَهَا مِنَ اللِّبَاسِ بِحَسَبِ نَوْعِهَا وَمَنْزِلَةِ صَاحِبِهَا، وَمَوْقِعِهِ هُوَ مِنَ الضِّيَافَةِ، وَمَنْ ضَيَّفَهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا لَيْسَ كَمَنْ ضَيَّفَهُ سَائِرُ النَّاسِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ ضَيَّفَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ، وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؟!

وَلَمَّا كَانَ مُرْتَادُ الْمَسَاجِدِ لِحُضُورِ الْجَمَاعَةِ ضَيْفًا عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ شُرِعَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ؛ لِحَقِّ هَذِهِ الضِّيَافَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَا تُقَارِبُهَا ضِيَافَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مَهْمَا كَانَتْ، وَلِلضَّيْفِ فِيهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ عَلَىٰ قَدْرِ الْتِزَامِهِ بِمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ فِي هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَمِنْ تِلْكُمُ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ: أَنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ

(١) هذا نص حديث أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلىٰ المسجد ومن راح (٦٦٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ به الخطايا (٦٦٩).

الصَّلَاةِ، وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ عَظَمَتَهَا وَمَكَانَتَهَا مِنَ الدِّينِ، وَمَنْزِلَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؛ حَتَّىٰ تَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ، فَلَا يُنَازِعُهُ فِيهَا مَخْلُوقٌ مَهْمَا كَانَ عَظِيمًا، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهَا شُغْلٌ دُنْيَوِيٌّ وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا، وَيُعْطِيهَا مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ التَّهْيِئَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ الْمَسْجِدَ لِشَيْءٍ فَهُوَ حَظُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢]، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ مَنْ أَتَاهُ لِلصَّلَاةِ فَحَظُّهُ عَظِيمٌ؛ لِمَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِمَكَانَتِهَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَغِيبُ عَنْهُمْ هَذَا الْمَعْنَىٰ الْمُهِمُّ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ اسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا؛ وَذَلِكَ لِاعْتِيَادِهِمْ عَلَيْهَا، وَبِسَبَبِهِ تَثْقُلُ عَلَيْهِمْ، وَيُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِيهَا، وَلَوْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ وَجَاهَدُوهَا قُبَيْلَ كُلِّ صَلَاةٍ عَلَىٰ اسْتِحْضَارِ مَكَانَتِهَا مِنَ الدِّينِ، وَمَنْزِلَتِهَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لَوَجَدُوا فِيهَا أَعْظَمَ اللَّذَّةِ وَالرَّاحَةِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَرِيحُ بِهَا، وَهِيَ قُرَّةُ عَيْنِهِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الصَّلَاةِ فِي الدِّينِ: مَا شُرِعَ لَهَا مِنَ التَّطَهُّرِ وَالْوُضُوءِ رَغْمَ أَنَّهَا تَتَكَرَّرُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَرُتِّبَ عَلَىٰ هَذَا الْوُضُوءِ أُجُورٌ عَظِيمَةٌ مِنْ تَكْفِيرِ الْخَطَايَا مَعَ كُلِّ عُضْوٍ يَغْسِلُهُ، وَفَتْحِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَوَضِّئِ إِذَا أَنْهَىٰ وُضُوءَهُ وَأَتَىٰ بِالذِّكْرِ الْوَارِدِ عَقِبَهُ.

وَهَذَا التَّطَهُّرُ لَهَا مِمَّا يَلِيقُ بِحَقِّ هَذِهِ الضِّيَافَةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِذَا شُرِعَ لَهَا التَّزَيُّنُ بِاللِّبَاسِ، وَالطِّيبُ لَهُ تَبَعٌ، وَالسِّوَاكُ لِتَطْهِيرِ الْفَمِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب فضل القعود في المسجد (٤٧٢)، والبيهقي (٢/ ٤٤٧)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٥٩٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (الأم: ٤٩١)، وصححه في صحيح الجامع (٥٩٣٦).

مَسْجِدٍ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣١]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَمِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالمَسْجِدِ وَبِالصَّلَاةِ: أَنْ يَحْضُرَهَا المُصَلِّي بِمَا لَا يَلِيقُ مِنْ لِبَاسِ النَّوْمِ أَوِ الرِّيَاضَةِ أَوِ المِهْنَةِ، مَعَ مَا تَعِجُّ بِهِ مِنْ رَوَائِحِ صَنْعَتِهِ وَحِرْفَتِهِ، أَوْ نَحْوِهَا مِنَ الْأَلْبِسَةِ الَّتِي لَا يَرْضَىٰ أَنْ يَلْبَسَهَا لَهُ ضَيْفُهُ، وَلَا يَلْبَسُهَا هُوَ إِذَا دُعِيَ إِلَىٰ ضِيَافَةٍ؛ فَكَيْفَ يَرْفُضُهَا فِي مَجْلِسِ بَيْتِهِ، وَيَرْضَاهَا فِي مَسْجِدِ رَبِّهِ؟! وَكَيْفَ لَا يَقْبَلُهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي دَعْوَةِ الْبَشَرِ، وَيَقْبَلُهَا فِي دَعْوَةِ رَبِّ الْبَشَرِ ﷻ؟!

وَجَاءَ النَّهْيُ الشَّدِيدُ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ بِالرَّوَائِحِ الْكَرِيهَةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِي عَظَمَةَ الضِّيَافَةِ، وَيَتَأَذَّىٰ بِهِ المَلَائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ، رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٤).

وَبَلَغَ مِنْ أَهَمِّيَّةِ هَذَا المَوْضُوعِ الَّذِي اسْتَهَانَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا عَلِمَ قُرْبَ وَفَاتِهِ بِرُؤْيَا رَآهَا أَوْصَىٰ النَّاسَ، فَكَانَ مِنْ وَصِيَّتِهِ قَوْلُهُ رضي الله عنه: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أُرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ: هَذَا الْبَصَلَ وَالثُّومَ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، ومسلم في الطهارة، باب السواك (٢٥٢).

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنىٰ الدلالة وتفسيرها (٦٩٢٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما (٥٦٤).

المَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجُ إِلَىٰ الْبَقِيعِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥)، وَلَوْلَا شِدَّةُ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ لَمَا أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ إِلَىٰ الْبَقِيعِ.

فَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْضُرَ المَسْجِدَ بِرَوَائِحِ الثُّومِ أَوِ الْبَصَلِ أَوِ الدُّخَانِ أَوْ نَتْنِ جَوَارِبِهِ أَوْ مَلَابِسِهِ إِذَا كَانَ لَا يُنَظِّفُهَا، وَمَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا طِبًّا أَوْ طَعَامًا فَلْيُصَلِّ فِي بَيْتِهِ، وَلَا يُؤْذِي المُصَلِّينَ بِرَائِحَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّخَانِ سَيِّئَةٌ إِلَّا أَنَّ المُدَخِّنَ يُؤْذِي المَلَائِكَةَ وَالمُصَلِّينَ بِرَائِحَتِهِ لَكَانَ ذَلِكَ رَادِعًا لِلْمُبْتَلَىٰ بِهِ أَنْ يَسْعَىٰ جُهْدَهُ فِي الْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَمَنِ ابْتُلِيَ بِرَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ فِي جَسَدِهِ أَوْ بَخَرٍ فِي فَمِهِ فَلْيَسْعَ قَبْلَ حُضُورِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ إِلَىٰ إِزَالَتِهَا بِأَنْوَاعِ المُطَهِّرَاتِ وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ، فَإِنْ كَانَتْ لَا تَزُولُ أَبَدًا، فَلَا جَمَاعَةَ عَلَيْهِ، وَلْيُصَلِّ فِي بَيْتِهِ.

وَإِذَا أَكْمَلَ المُسْلِمُ مَا يَلْزَمُ لِصَلَاتِهِ، وَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ قَدَّمَ رِجْلَهُ الْيُسْرَىٰ فِي خُرُوجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَأَتَىٰ بِالْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا تَدْحَرُ شَيْطَانَهُ، وَتُعِينُهُ عَلَىٰ الْخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ.

وَمَشْيُهُ إِلَىٰ المَسْجِدِ أَفْضَلُ مِنْ رُكُوبِهِ؛ لِمَا رُتِّبَ عَلَىٰ الْخَطْوِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ، وَزِيَادَةِ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْفِيرِ الْخَطِيئَاتِ، وَيُقَرِّبُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ فِي خُطُوَاتِهِ؛ لِتَكْثِيرِهَا وَتَحْصِيلِ مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «وَضَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ يَدَهُ عَلَيَّ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَجَعَلَ يُقَارِبُ خَطْوَهُ»(٦)، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنْ كُنَّا لَنُقَارِبُ فِي الْخُطَىٰ»(٧).

---

(٥) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما (٥٦٧)، والنسائي في المساجد، باب من يخرج من المسجد (٢/ ٤٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من أكل الثوم فلا يقربن المسجد (١٠١٤)، وأحمد (١/ ١٥)، والطيالسي (٥٣)، وأبو يعلىٰ (١٨٤)، وابن حبان (٢٠٩١).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٩٨٣).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٢)، والطيالسي =

وَهَذَا الْخَيْرُ الْعَظِيمُ لَا يَتَأَتَّىٰ إِلَّا لِمَنِ اسْتَعَدَّ لِلصَّلَاةِ قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِهَا، أَوْ فِي أَوَّلِهِ، وَخَرَجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ مُبَكِّرًا، وَالتَّبْكِيرُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ سَبَبٌ لِتَحْصِيلِ عِبَادَاتٍ كَثِيرَةٍ تَفُوتُ عَلَىٰ المُتَأَخِّرِينَ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَىٰ قُرْبِ الْإِقَامَةِ أَوْ بَعْدِهَا.

فَإِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَهُوَ يَمْشِي فَلَا يُسْرِعْ فِي مَشْيِهِ لِإِدْرَاكِ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ أَوِ الرَّكْعَةِ أَوِ الصَّلَاةِ، لَا خَارِجَ المَسْجِدِ وَلَا دَاخِلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَخْرَجَتْهُ الصَّلَاةُ، رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**»(٨).

وَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْجَرْيِ وَتَسْرِيعِ الْخُطَىٰ وَالْجَلَبَةِ وَالنَّحْنَحَةِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ وَالضَّرْبِ بِالْأَرْجُلِ لِإِدْرَاكِ الرُّكُوعِ مِمَّا يُنَافِي الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَفِيهِ مُخَالَفَةٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِزْعَاجٍ لِلْمُصَلِّينَ وَتَشْوِيشٍ عَلَيْهِمْ، فَحَرِيٌّ بِالمُصَلِّي أَنْ يَجْتَنِبَ ذَلِكَ، وَأَنْ يُبَكِّرَ لِلصَّلَاةِ مَا اسْتَطَاعَ؛ لِئَلَّا يَقَعَ فِي هَذِهِ المُخَالَفَاتِ.

وَمِنْ كَبِيرِ الْخَطَإِ: تَشْوِيشُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمُ المُصَلِّينَ بِهَوَاتِفِهِمْ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَأَثْنَاءَهَا وَبَعْدَهَا، بِمَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ أَصْوَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تُزْعِجُ المُصَلِّينَ، وَتُذْهِبُ خُشُوعَهُمْ، سَوَاءٌ كَانَتْ قُرْآنًا أَمْ أَذَانًا أَمْ دُعَاءً أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ،

= (٣١٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٦) رقم (٨٥٩٦)، والبيهقي في السنن الصغرىٰ (٥٠٢).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (٨٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيًا (٦٠٢).

فَإِذَا كَانَتْ تُصْدِرُ غِنَاءً أَوْ مُوسِيقَىٰ فَالْجُرْمُ أَكْبَرُ، وَالْأَذِيَّةُ أَشَدُّ؛ إِذْ كَيْفَ يَرْضَىٰ مُسْلِمٌ بِمُحَرَّمَاتٍ يَجْلِبُهَا إِلَىٰ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَذِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُصَلِّينَ، فَلْيَتَّقِ اللهَ تَعَالَىٰ مَنْ يَتَسَاهَلُونَ فِي ذَلِكَ.

فَإِذَا أَرَادَ دُخُولَ الْمَسْجِدِ قَدَّمَ رِجْلَهُ الْيُمْنَىٰ، وَأَتَىٰ بِذِكْرِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مِنَ السُّنَّةِ إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُمْنَىٰ، وَإِذَا خَرَجْتَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُسْرَىٰ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٩).

وَيَحْرِصُ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَعَلَىٰ الْقُرْبِ مِنَ الْإِمَامِ مَا اسْتَطَاعَ، وَعَلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي يَمِينِ الصَّفِّ؛ لِمَا رُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١٠).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَىٰ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

وَإِذَا أَخَذَ مَكَانَهُ فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ؛ لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ**

---

(٩) أخرجه البيهقي (٢/ ٤٤٢)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٢٣٨).

(١٠) أخرجه البخاري في الأذان، باب الاستهام في الأذان (٥٩٠)، ومسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف (٤٣٧).

(١١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام علىٰ الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل، وتقريبهم من الإمام (٤٣٢)، وأبو داود في الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف وكراهية التأخر (٦٧٤)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء ليلنىٰ منكم أولو الأحلام والنهىٰ (٢٢٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من يستحب أن يلي الإمام (٩٧٦).

فَلَا يَجْلِسْ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، فَإِنْ شَاءَ تَنَفَّلَ أَوْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَوِ اشْتَغَلَ بِالذِّكْرِ أَوْ بِالدُّعَاءِ، وَلَا يَشْتَغِلْ بِأُمُورِ الدُّنْيَا أَوْ بِالْحَدِيثِ مَعَ غَيْرِهِ فِي شُؤُونِهَا وَهُوَ مُنْتَظِرٌ صَلَاتَهُ، وَلَا يَعْبَثْ فِي المَسْجِدِ بِثَوْبِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ سَاعَتِهِ أَوْ جَوَّالِهِ، وَلَا يُشَبِّكْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؛ لِحَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَلَا يُشَبِّكَنَّ يَدَيْهِ؛ فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٣).

وَلَا يَرْفَعْ صَوْتَهُ بِقُرْآنٍ أَوْ ذِكْرٍ فَيُشَوِّشَ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: «اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ: **أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ. أَوْ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ(١٤).

---

(١٢) أخرجه البخاري في التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنىٰ مثنىٰ (١١١٠)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تحية المسجد بركعتين (٧١٤).

(١٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في الهدي في المشي إلىٰ الصلاة (٥٦٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في كراهية التشبيك بين الأصابع في الصلاة (٣٨٦)، ثم قال الترمذي: وروىٰ شريك عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا الحديث، وحديث شريك غير محفوظ. وأخرجه الطيالسي (١٠٦٣)، وعبد بن حميد (٣٦٩)، وصححه ابن حبان (٢٠٣٦).

وجاء في معناه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٤٢).

(١٤) أخرجه أبو داود في الصلاة أبواب قيام الليل، باب في رفع الصوت في القرآن في صلاة الليل (١٣٣٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٩٢)، وأحمد (٣/ ٩٤)، وعبد بن حميد (٨٨٣)، وصححه ابن خزيمة (١١٦٢)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤٥٤).

وَإِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا يُصَلِّي إِلَّا المَكْتُوبَةَ؛ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ(١٥)، وَلِأَنَّهَا هِيَ المَقْصُودُ مِنْ مَجِيئِهِ لِلْمَسْجِدِ، فَإِذَا صَلَّىٰ أَتَىٰ بِالْأَذْكَارِ عَقِبَ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَجْهَرَ بِهَا؛ لِمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ المَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ»(١٦).

فَإِنْ كَانَ لِلصَّلَاةِ رَاتِبَةٌ بَعْدِيَّةٌ أَتَىٰ بِهَا فِي المَسْجِدِ، وَإِنْ صَلَّاهَا فِي بَيْتِهِ فَذَلِكَ أَفْضَلُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صَلُّوا -أَيُّهَا النَّاسُ- فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه(١٧)، وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قَضَىٰ أَحَدُكُمُ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِهِ فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيبًا مِنْ صَلَاتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرًا**»(١٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ المُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....



(١٥) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذن (٧١).

(١٦) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٣).

(١٧) أخرجه البخاري في الأذان، باب صلاة الليل (٦٩٨)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب النافلة في بيته (٧٨١).

(١٨) أخرجه مسلم (٧٧٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلْمَسَاجِدِ حُرْمَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مُرْتَادِيهَا أَنْ يُرَاعُوا تِلْكَ الْحُرْمَةَ، وَأَنْ يَلْتَزِمُوا فِيهَا بِآدَابِ الشَّرِيعَةِ، وَمَنْ فَقَدَ شَيْئًا فَلَا يَسْأَلْ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ رَجَاءَ أَنْ يَجِدَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنِ انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْمَسَاجِدِ وَابْتِذَالِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَىٰ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا وَجَدْتَ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٠).

وَمِنْ تَعْظِيمِ الْمَسَاجِدِ: تَحْرِيمُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فِيهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ**

---

(١٩) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

(٢٠) أخرجه مسلم (٥٦٩).

فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ . . » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ[٢١].

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَحْلُو لَهُمُ الْحَدِيثُ عَنِ الدُّنْيَا وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالتِّجَارَةِ وَالْعَقَارِ وَالْأَسْهُمِ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ، وَأَثْنَاءَ انْتِظَارِ الصَّلَاةِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَلَسَ بِجِوَارِ شَرِيكِهِ أَوْ قَرِينِهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ؛ لِيُنْقِصَ مِنْ أَجْرِهِمْ، وَيَزِيدَ فِي إِثْمِهِمْ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ مَا بُنِيَتْ لِهَذَا.

وَيَدْخُلُ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ: التَّسَوُّلُ فِي الْمَسَاجِدِ إِذَا كَانَ فِيهِ تَشْوِيشٌ عَلَىٰ النَّاسِ، وَإِشْغَالٌ لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ، وَإِلْحَاحٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ؛ إِذْ لَا يَهْنَأُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يَصِيحَ فِي النَّاسِ يُفَصِّلُ حَاجَتَهُ، وَيَسْتَدِرُّ عَوَاطِفَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُنْهَىٰ عَنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَسُبُّ الْمُتَسَوِّلِينَ وَيَقُولُ: لَا تَشْهَدُونَ جُمْعَةً وَلَا عِيدًا إِلَّا لِلْمَسْأَلَةِ وَالْأَذَىٰ . . . قَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: فَكَيْفَ إِذَا انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ غِنًىٰ مَا عَنِ السُّؤَالِ، وَقُوَّةٌ عَلَىٰ التَّكَسُّبِ[٢٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تِلْكَ آدَابٌ عَظِيمَةٌ شُرِعَتْ لِمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَكَانَ مِنْ رُوَّادِ الْمَسَاجِدِ؛ لِيَكْتَمِلَ أَجْرُهُ، وَيَعْظُمَ جَزَاؤُهُ، فَحَرِيٌّ بِنَا وَبِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا وَيَعْمَلَ بِهَا؛ الْتِزَامًا بِالسُّنَّةِ، وَطَلَبًا لِلْأَجْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ **﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [الْبَقَرَة: ١١٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

---

(٢١) أخرجه الترمذي في البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، وقال: حسن غريب (١٣٢١)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٠٠٤)، والدارمي (١٤٠١)، وابن الجارود (٥٦٢)، وصححه ابن خزيمة (١٣٠٥)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (٢/ ٦٥).

(٢٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩).

تنبيه: كنت وضعت في صلب الخطبة حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مُيَامِنِ الصُّفُوفِ**» أخرجه أبو داود في الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف وكراهية التأخر (٦٧٦) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فضل ميمنة الصف (١٠٠٥)، وصححه ابن حبان (٢١٦٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٧١٢)، والحافظ في الفتح (٢/ ٢١٣)، وقال النووي في خلاصة الأحكام: رواه أبو داود بإسناد علىٰ شرط مسلم، وفيه رجل مختلف في توثيقه (٢٤٨٢)، ونقل تصحيح الطبراني له، وذكر إعلال البيهقي له فتعقبه قائلًا: والمختار تصحيحه فلم يذكر ما يقتضي ضعفًا. خلاصة الأحكام (٢/ ٧١٠)، وصححه المناوي في التيسير (١/ ٢٦٤)، ونقل في فيض القدير عن مغلطاي في شرح ابن ماجه قوله: سنده صحيح علىٰ شرط مسلم. فيض القدير (٢/ ٢٧٠).

ثم حذفته من الخطبة بعد أن تبين لي أنه حديث ضعيف؛ إذ ساقه البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله عنها وقال عقبه: والمحفوظ بهذا الإسناد عن النبي ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون علىٰ الذين يصلون الصفوف**» السنن الكبرىٰ (٣/ ١٠٣).

وبَيَّنَ الألباني -رحمه الله تعالىٰ- أن خطأ وقع في متن الحديث من بعض رواته فقال: إسناده حسن، وكذا قال المنذري والعسقلاني، وهو علىٰ شرط مسلم، كما قال النووي. لكن أخطأ في متنه بعض رواته؛ حيث قال: «**علىٰ ميامن الصفوف**»! والصواب فيه ما رواه جماعة من الثقات بلفظ: «**علىٰ الذين يَصِلُونَ الصفوف**». وقال البيهقي: «إنه المحفوظ». وبهذا اللفظ: أخرجه ابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما». وقال الحاكم: «حديث صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي .... إلىٰ أن قال: وهو علىٰ شرط مسلم؛ كما قال

النووي في الرياض (ص ٤١٤)؛ وزاد: وفيه رجل مختلف في توثيقه، وهو يشير بذلك إما إلىٰ معاوية بن هشام؛ وإما إلىٰ أسامة بن زيد- وهو الليثي-؛ فإنهما من رجال مسلم، وفي كل منهما مقال، ولكن التحقيق أنهما ثقتان، في حفظهما شيء من الضعف الذي لا يمنع من الاحتجاج به، ولا ينزل حديثهما عن رتبة الحسن؛ كما حكم بذلك الحافظان المذكوران: المنذري والعسقلاني. وهذا كله ما لم يتبين خطؤهما. وقد ظهر لي أن معاوية بن هشام قد أخطأ علىٰ سفيان في بعض متن هذا الحديث؛ وهو قوله: «**علىٰ ميامن الصفوف**»! وذلك لأنه رواه جماعة من الثقات وهم قَبِيصَة الآشْجَعِيّ وأبو أحمد والحسين بن حفص وعبد الرزاق وعبد الله بن الوليد العَدَني عن سفيان بلفظ: علىٰ الذين يَصِلون الصفوف. وكذلك رواه ابن وهب وغيره عن أسامة بن زيد. وإسماعيل بن عَيّاش عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ... به ... والمقصود هنا: الإشارة إلىٰ أن حديث الباب خطأ، وأن الصواب فيه رواية الجماعة. صحيح سنن أبي داود (٦٨٠).

وأورد الحديث في موضع آخر بهذا اللفظ وضعفه فقال: عن معاوية بن هشام ثنا سفيان عن أسامة بن زيد عن عثمان بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته يُصَلُّونَ عَلَىٰ مَيَامِنِ الصُّفُوفِ**». قلت: حديث ضعيف بهذا اللفظ؛ أخطأ فيه معاوية بن هشام، وتفرد به، وفي حفظه ضعف. ولذا قال البيهقي: «لا أراه محفوظًا». وقد خالفه جماعة من الثقات عن سفيان وغيره عن أسامة فرووه بلفظ: «**علىٰ الذين يصِلون الصفوف**». وهو الصواب. وقال البيهقي: «هو المحفوظ» اهـ من ضعيف سنن أبي داود (١٠٤).

قلت: وضعف الحديث لا يعني أن ميمنة الصف وميسرته في الفضل سواء؛

إذ ورد ما يدل علىٰ ترجيح ميمنة الصف علىٰ ميسرته، وهي الأدلة العامة في فضل اليمين؛ كما في حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النَّبِيّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ، فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ» أخرجه البخاري في الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨)، ومسلم في الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره (٢٦٨).

وفي يمين الصف بخصوصه حديث البراء رضي الله عنه قال: «كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ، أحببنا أن نكون عن يمينه، يقبل علينا بوجهه» رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام (٧٠٩).

والبراء رضي الله عنه ذكر أن العلة من ذلك إقبال النبي عليه الصلاة والسلام عليهم بوجهه، وجاء في رواية أخرىٰ لمسلم أنه لم يذكر هذه العلة. فإن كانت العلة محفوظة فالحكم يدور معها وجودًا وعدمًا، وإن كانت غير محفوظة فيكون الحكم مطلقًا، وترجح ميمنة الصف بهذا الحديث؛ لأنهم كانوا يفعلون ذلك بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وإقراره لهم شرع.

لكن ورد أيضًا أن النبي ﷺ ينصرف من الصلاة عن شماله، وذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَا يَجْعَلَنَّ أَحَدُكُمْ لِلشَّيْطَانِ مِنْ نَفْسِهِ جُزْءًا، لا يَرَىٰ إِلَّا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ لا يَنْصَرِفَ إِلَّا عَنْ يَمِينِهِ، أَكْثَرُ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَنْصَرِفُ عَنْ شِمَالِهِ» أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال (٨١٤) ومسلم واللفظ له في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام (٧٠٧).

وعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ هُلْبٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَؤُمُّنَا، فَيَنْصَرِفُ عَلَىٰ جَانِبَيْهِ جَمِيعًا: عَلَىٰ يَمِينِهِ وَعَلَىٰ شِمَالِهِ» أخرجه الترمذي في الصلاة، باب

ما جاء في الانصراف عن يمينه، وعن يساره، وقال: حديث حسن، ثم قال الترمذي عقبه: وعليه العمل عند أهل العلم: أنه ينصرف علىٰ أي جانبيه شاء، إن شاء عن يمينه، وإن شاء عن يساره، وقد صح الأمران عن النبي ﷺ (٣٠١).

فظاهرٌ أن النصوص ترجح جهة اليمين علىٰ جهة اليسار، هذا في حال تساوي الجهتين بالنسبة للقرب من الإمام، ولكن في حال كون الجهة اليسرىٰ أقرب للإمام، واليمين أبعد عنه؛ فإن العلماء المعاصرين اختلفوا في ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن جهة اليمين أفضل مطلقًا، ولو اختل الصف بحيث كان من في يمينه أكثر ممن هم في يساره، وهو قول الشيخ ابن باز، واللجنة الدائمة للإفتاء.

قال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ-: «قد ثبت عن النبي ﷺ ما يدل علىٰ أن يمين كل صف أفضل من يساره، ولا يشرع أن يقال للناس: اعدلوا الصف، ولا حرج أن يكون يمين الصف أكثر، حرصًا علىٰ تحصيل الفضل» مجموع فتاواه (١٢/ ٢٠٧).

وسئلت اللجنة الدائمة: هل الأفضل أن يكون المصلي في أيمن الصف مع بعده عن الإمام أو في أيسر الصف مع قربه من الإمام؟

فأجابوا: الأفضل أن يكون في الجانب الأيمن من الصف، سواء قرب من الإمام أو بعد؛ لعموم حديث: «**إنَّ اللهَ ومَلائكته يُصَلّون علىٰ مَيَامِنِ الصّفوف**» رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٧/ ٤٢١).

والحديث المستدل به قد بان ضعفه، لكن حديث البراء السابق يدل علىٰ الأفضلية، وأيضًا ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفا: «خَيْرُ المَسْجِدِ

المَقَامُ ثُمَّ مَيَامِنُ المَسْجِدِ» رواه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٠)، وفي لفظ: «خير المسجد خلف المقام، وعن يمين الإمام» أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١٠٢٧).

القول الثاني: أن جهة اليمين أفضل عند التساوي، وأما إذا كانت جهة اليسار أقرب للإمام فهي الأفضل، وهو قول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-، فقد سئل: أيهما أفضل: الصلاة عن يمين الإمام أم يساره؟ وأيهما أفضل يمين الصف أو يساره؟

فأجاب بقوله: إذا كان لا يصلي مع الإمام إلا رجل واحد فإن المأموم يقف عن يمينه، ولا يقف عن يساره، لحديث ابن عباس ﵄ أنه بات عند خالته ميمونة ﵄ فقام النبي ﷺ بالليل، فقام ابن عباس عن يساره فأخذه من ورائه، وأقامه عن يمينه، فهذا دليل أن المأموم إذا كان واحدًا فإنه يكون عن اليمين، ولا يكون عن اليسار، أما إذا كان المأموم أكثر من واحد فإنه يكون خلفه. ويمين الصف أفضل من يساره، وهذا إذا كانا متقاربين، فإذا بعد اليمين بعدًا بَيِّنًا فإن اليسار والقرب من الإمام أفضل، وعلىٰ هذا فلا ينبغي للمأمومين أن يكونوا عن يمين الإمام حتىٰ لا يبقىٰ في اليسار إلا رجل أو رجلان؛ وذلك لأنه لما كان المشروع في حق الثلاثة أن يكون إمامهم بينهم، كان أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره ولم يكونوا عن اليمين، فدل هذا علىٰ أن الإمام يكون متوسطًا في الصف أو مقاربًا.

والخلاصة: أن اليمين أفضل إذا كانا متساويين أو متقاربين، وأما مع بعد اليمين فاليسار أفضل؛ لأنه أقرب إلىٰ الإمام. والله الموفق. مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (١٥/ ١٨٤-١٨٥).

والنفس تميل إلىٰ هذا القول؛ لما يلي:

١- أن الدنو من الإمام له فضيلة ثابتة بفضيلة الصف الأول علىٰ غيره من الصفوف، وكل صف متقدم فهو أفضل من الصف الذي يليه، وما ذاك إلا لقربه من الإمام.

٢- أنه ورد التصريح بفضيلة الدنو من الإمام في حديث أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَىٰ وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**» أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة (**٣٤٥**) والنسائي في الجمعة، باب فضل غسل يوم الجمعة (**٣/ ٩٥**) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة (**١٠٨٧**) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (**٣٧٣**) فقال: إسناده صحيح. وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وقال الحاكم: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين»! ووافقه الذهبي! وقال الترمذي: «حديث حسن، ووافقه النووي» اهـ.

وهو وإن كان في الجمعة، ويحتمل أن الدنو لأجل سماع الخطبة، لكنه يعضد عموم فضيلة الدنو من الإمام حتىٰ في غير الجمعة. ويحمل التقييد بالدنو يوم الجمعة علىٰ أنه خرج مخرج الغالب؛ لكثرة الجمع فيها، كما في النهي عن تخطي الرقاب الوارد في الجمعة؛ فإنه يكره في الجمعة وغيرها، فكذلك الدنو يستحب في الجمعة وغيرها.

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «يستحب الدنو من الإمام بالإجماع؛ لتحصيل فضيلة التقدم في الصفوف واستماع الخطبة محققًا» المجموع (**٤/ ٤٦٦**).

٣- أن القول بفضيلة الجهة اليمنىٰ مطلقًا لو عمل به لأدىٰ إلىٰ تعطيل الجهة اليسرىٰ، فلا يتوسط الإمام، والأمة مجمعة عمليًّا علىٰ خلاف ذلك من عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ يومنا هذا؛ إذ لو صح القول بأفضلية الجهة اليمنىٰ مطلقًا لأسست المساجد علىٰ مقتضىٰ هذه الأفضلية بأن لا يكون في يسار الصفوف أحد، وذلك بأن يجعل موضع الإمام في الطرف الأيسر من المسجد، فيكون الناس كلهم عن يمينه في جميع الصفوف. فلما لم يقع ذلك عمليًّا مع تحري العلماء للأفضلية، وحرص عمار المساجد علىٰ تحري السنة فيها؛ علم أن محل أفضلية ميمنة الصف هي في حال التساوي بين اليمين واليسار في الدنو من الإمام. والله أعلم.



٢٤١- عيد الأسبوع (١)
فضل يوم الجمعة

٢/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَفَاضَلَ بَيْنَهُمْ بِحِكْمَتِهِ؛ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الْقَصَص: ٦٨]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ الْأَمِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ، وَكُلُّ خَيْرٍ وَفَضْلٍ اكْتَسَبْنَاهُ فَمِنْ فَضْلِ رَبِّنَا عَلَيْنَا، وَكُلُّ شَرٍّ أَصَابَنَا، وَفِتْنَةٍ حَلَّتْ بِنَا فَمِنْ شُؤْمِ ذُنُوبِنَا؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٣٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ دَلَّنَا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُنَا، وَحَذَّرَنَا مِمَّا يَضُرُّنَا، وَمَا فَارَقَ أُمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ مَا أَدَّىٰ أَمَانَتَهُ، وَبَلَّغَ دِينَ رَبِّهِ، وَتَرَكَ الْأُمَّةَ عَلَىٰ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا أَحْرَصَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الشَّرِّ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ؛ فَفِي التَّقْوَىٰ صَلَاحُ الْحَالِ وَالْمَآلِ، وَفِي التَّقْوَىٰ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَفَوْزُ الْآخِرَةِ؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَظِيمِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا أَنْ كَتَبَنَا فِي آخِرِ الْأُمَمِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا آخِرَ الْكُتُبِ، وَفَضَّلَ أُمَّتَنَا عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ،

وَشَرَّعَ لَنَا مِنَ الشَّرَائِعِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَجَاتِنَا مِنْ عَذَابِهِ، وَفَوْزِنَا بِجَنَّاتِهِ.

وَكَمَا فَضَّلَ ﷻ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ فَإِنَّهُ ﷻ هَدَاهَا لِأَفْضَلِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالْأَوْقَاتِ؛ لِيُعْمِرَهَا الْعِبَادُ بِطَاعَتِهِ وَذِكْرِهِ، فَتُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ، وَتُرْفَعَ دَرَجَاتُهُمْ.

وَمِنَ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَمَا فِيهِ مِنْ عِبَادَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَشَعَائِرَ كَبِيرَةٍ، كَانَ يُسَمَّىٰ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ الْعَرُوبَةِ(١)، فَسُمِّيَ فِي الْإِسْلَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ هَدَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُبَارَكَةَ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَأَضَلَّتْهُ الْأُمَمُ الْأُخْرَىٰ فَلَمْ تُوَفَّقْ لِإِصَابَتِهِ وَتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ الْيَهُودَ لَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِمُ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَأَضَاعُوهُ، فَجَعَلُوا مَكَانَهُ السَّبْتَ، وَبَقِيَ هَذَا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ مَحْفُوظًا لِتُخْتَصَّ بِهِ آخِرُ أُمَّةٍ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ.

وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ الْيَهُودِ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النَّحل: ١٢٤]، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَرَادُوا الْجُمُعَةَ فَأَخْطَؤُوا فَأَخَذُوا السَّبْتَ مَكَانَهُ»(٢)، وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللهُ،**

---

(١) قيل: سماه بهذا الاسم كعب بن لؤي جد النبي ﷺ كما في تاج العروس (٣/ ٣٤٢)، واللسان (٨/ ٥٨).

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣).

وأخرجه بنحوه عن مجاهد: عبد الرزاق (٢/ ٣٦٢)، والطبري (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٠٧)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٣٥٥).

فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَىٰ بَعْدَ غَدٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانَا اللهُ لَهُ قَالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ**»(٣).

وَرَوَىٰ حُذَيْفَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَىٰ يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ المَقْضِيُّ لهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ**»(٤)، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ حَسَدَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْجُمُعَةِ وَهُمْ قَدْ ضَلُّوا عَنْهُ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَىٰ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَىٰ الجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٥).

وَلِفَضْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ امْتَازَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ بِمَزَايَا عَظِيمَةٍ، وَاخْتُصَّ بِفَضَائِلَ وَعِبَادَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ فَهُوَ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِ المُسْلِمِينَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ(٦)، وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ**

---

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة، باب فرض الجمعة (٨٣٦)، ومسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤)، والبيهقي (٢/ ٥٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة (١٠٩٨)، والطبراني في الأوسط (٧٣٥٥)، وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٨٦)، وذكر البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٣٢): أن في سنده صالح بن أبي الأخضر، لينه الجمهور، وباقي رجاله ثقات. وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره (٧٠٧).

يَوْمَ صِيَامِكُمْ، إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ»(٧).

وَمِنْ أَعْظَمِ خَصَائِصِهِ، وَأَفْضَلِ مَزَايَاهُ: اخْتِصَاصُهُ بِسَاعَةٍ يُجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِنَّ فِي الجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»** وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ: **«وَهِيَ سَاعَةٌ خَفِيفَةٌ»**(٨).

وَجَاءَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا **«مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَىٰ أَنْ تُقْضَىٰ الصَّلَاةُ»**(٩)، كَمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهَا: **«آخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ»**(١٠).

وَفِي حَدِيثٍ ثَالِثٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«إِنِّي قَدْ كُنْتُ أُعْلِمْتُهَا ثُمَّ أُنْسِيتُهَا كَمَا أُنْسِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ»**(١١).

---

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣)، وإسحاق بن راهويه (٥٢٤)، وصححه ابن خزيمة (٢١٦١).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة (٨٩٣)، ومسلم، واللفظ له في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

(٩) أخرجه من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ: مسلم في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب الإجابة أية ساعة هي في يوم الجمعة (١٠٤٩)، وذكر الحافظ في الفتح أنه أعل بالانقطاع والاضطراب (٢/ ٤٢٢).

(١٠) أخرجه من حديث عبد الله بن سلام ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٦)، والنسائي في الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة (٣/ ١١٣-١١٤)، ومالك (١/ ١٠٨-١٠٩)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٣)، ورجح الحافظ وقفه علىٰ ابن سلام كما في الفتح (٢/ ٤٢٠).

وله شاهد من حديث جابر ﷺ عند أبي داود (١٠٤٨)، والنسائي (٣/ ٩٩).

(١١) أخرجه من حديث أبي سعيد ﷺ: أحمد (٣/ ٦٥)، وصححه ابن خزيمة (١٧٤١)، والحاكم، وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٥).

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الصَّحَابَةِ اجْتَمَعُوا فَتَذَاكَرُوا سَاعَةَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ افْتَرَقُوا فَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهَا آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ»(١٢).

وَذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يُوَافِقُ يَوْمَ المَزِيدِ فِي الْجَنَّةِ، حَيْثُ يُجْمَعُ فِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي وَادٍ أَفْيَحَ، وَيُنْصَبُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَيَاقُوتٌ عَلَىٰ كُثْبَانِ الْمِسْكِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ، فَيَرَوْنَهُ عِيَانًا، وَيَكُونُ أَسْرَعُهُمْ مُوَافَاةً أَعْجَلَهُمْ رَوَاحًا إِلَىٰ المَسْجِدِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ أَقْرَبَهُمْ مِنَ الْإِمَامِ(١٣). وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ الطَّوِيلِ: «... **فَلَيْسُوا هُمْ فِي الجَنَّةِ بِأَشْوَقَ مِنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الجُمُعَةِ، لِيَزْدَادُوا نَظَرًا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ وَكَرَامَتِهِ، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ المَزِيدِ**»(١٤).

وَهُوَ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ وَخَيْرُهَا وَسَيِّدُهَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَوْسُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ؛ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١٥).

وَرَوَىٰ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ عَلَىٰ يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ**»(١٦).

---

(١٢) عزاه الحافظ في الفتح لسعيد بن منصور وصححه (٢/ ٤٢١).

(١٣) زاد المعاد (١/ ٦٣).

(١٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٠٨٤)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٩١).

(١٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٣١)، والنسائي في الجمعة، باب إكثار الصلاة علىٰ النبي ﷺ يوم الجمعة (٣/ ٩١)، وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢)، وأحمد (٤/ ٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري (١/ ٤١٣).

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٢)، وعبد بن حميد (١٤٤٣)، وعبد الرزاق (٥٥٦٣)، وأبو يعلىٰ (٦٤٩٨)، وتمام الرازي في فوائده (٨٥٦)، والدولابي في الكنىٰ (١٤١٥)، والطبراني في الأوسط (٨٧٩٠)، وصححه ابن حبان (٢٧٧٠).

وَابْتِدَاءُ خَلْقِ الْبَشَرِ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَأَبُونَا آدَمُ ﷺ خُلِقَ فِيهِ، وَقُبِضَتْ رُوحُهُ فِيهِ، وَصَعْقُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّفْخُ فِي أَرْوَاحِهِمْ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ أَيْضًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ﷺ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ»**(١٧). وَقَالَ ﷺ: **«إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَلِذَلِكَ تُشْفِقُ سَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْهُ؛ فَرَقًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا بَنِي آدَمَ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ﷺ فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَىٰ وَيَوْمِ الْفِطْرِ، فِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ: خَلَقَ اللهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللهُ فِيهِ آدَمَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّىٰ اللهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا رِيَاحٍ، وَلَا جِبَالٍ، وَلَا بَحْرٍ؛ إِلَّا وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»** رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَحَسَّنَهُ الْبُوصِيرِيُّ(١٩).

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: «قَدِمْتُ الشَّامَ فَلَقِيتُ كَعْبًا، فَكَانَ يُحَدِّثُنِي عَنِ

---

(١٧) أخرجه مسلم في الجمعة، باب فضل يوم الجمعة (٨٥٤)، والنسائي في الجمعة، باب فضل الجمعة (٣/ ٨٩-٩٠)، وأبو يعلىٰ (٥٩٢٥)، وأحمد (٢/ ٤٠١)، والطيالسي (٢٣٦٢).

(١٨) هذه رواية أخرىٰ لحديث أوس بن أوس ﷺ المخرج في حاشية (١٥)، وهذه الرواية أخرجها أبو داود (١٠٤٧).

(١٩) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة (١٠٨٤)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٧٧)، وأحمد (٣/ ٤٣٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٢١)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢٩).

التَّوْرَاةِ وَأُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ ذِكْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَحَدَّثْتُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ.** فَقَالَ كَعْبٌ: أَتَدْرِي أَيَّ يَوْمٍ هُوَ؟ قُلْتُ: وَأَيُّ يَوْمٍ هُوَ؟ قَالَ: فِيهِ خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَالْخَلَائِقُ فِيهِ مُصِيخَةٌ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ خَشْيَةَ الْقِيَامَةِ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢٠).

وَالْوَفَاةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَتَهَا عَلَامَةُ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِ؛ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢١).

---

(٢٠) الظاهر أن أصل هذا الحديث ما مضىٰ تخريجه في حاشية (١٧)، لكن هنا فيه زيادة وقصة، وقد أخرجه بهذه الزيادة والقصة: مالك (١/ ١٠٨)، وأحمد واللفظ له (٥/ ٤٥٣)، والنسائي في الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة (٣/ ١١٣-١١٤)، والبيهقي في الصغرىٰ (٦٣١)، وصححه ابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٣)، والضياء في المختارة (٣٩٥)؛ وما مضىٰ من حديث عبد الله بن سلام المخرج في حاشية (١٠) هو تكملة هذا الحديث كما جاء في بعض الروايات التي جمعته؛ إذ إن أبا هريرة حدث عن كعب ثم لقي عبد الله بن سلام فأخبره بحديث كعب فحدثه عبد الله عن يوم الجمعة.
فجاء في بعض الروايات مختصرا عن أبي هريرة رضي الله عنه، اختصره بعض الرواة عنه، وفي بعضها قصة كعب مع قصة عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

(٢١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: الترمذي في الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، وقال: حديث غريب (١٠٧٤) وأعله الترمذي بالانقطاع؛ لأن راويه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: ربيعة بن سيف، وذكر الترمذي أن ربيعة إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعا من عبد الله بن عمرو. اهـ من جامعه (٣/ ٣٨٦).
لكن رواه أحمد من طريق أخرىٰ عن ابن سريج، حدثنا بقية عن معاوية بن سعيد عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (٢/ ١٧٦) وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعن. وأخرجه عبد بن حميد من طريق بقية، وفيه تصريح بالسماع (٣٢٣).
وجاء من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند أبي يعلىٰ (٤١١٣) وفي سنده يزيد الرقاشي ضعيف.

وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ فِيهِ -كَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا- خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالصَّدَقَةُ فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سَائِرِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ كَالصَّدَقَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سَائِرِ الشُّهُورِ. ثُمَّ قَالَ: وَشَاهَدْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ يَأْخُذُ مَا وَجَدَ فِي الْبَيْتِ مِنْ خُبْزٍ أَوْ غَيْرِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فِي طَرِيقِهِ سِرًّا»(٢٢).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا اخْتُصَّ بِهِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ: فَرْضُ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ ﷺ يُقِيمُونَ الْجُمُعَةَ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ؛ كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَالَ: «كُنْتُ قَائِدَ أَبِي حِينَ كُفَّ بَصَرُهُ، فَإِذَا خَرَجْتُ بِهِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، فَسَمِعَ الْأَذَانَ بِهَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِي أُسَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَمَكَثَ حِينًا عَلَىٰ ذَلِكَ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا لَعَجْزٌ! أَلَا أَسْأَلُهُ عَنْ هَذَا؟! فَخَرَجْتُ بِهِ كَمَا كُنْتُ أَخْرُجُ، فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ اسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَرَأَيْتَ اسْتِغْفَارَكَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ كُلَّمَا سَمِعْتَ الْأَذَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، كَانَ أَسْعَدُ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بِنَا بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَزْمِ النَّبِيتِ مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي نَقِيعٍ يُقَالُ لَهُ: نَقِيعُ الْخَضِمَاتِ؛ قُلْتُ: فَكَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ(٢٣).

---

(٢٢) زاد المعاد (١/ ٤٠٧) وعنه السيوطي في اللمعة في خصائص الجمعة (١٤٦).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الجمعة في القرىٰ (١٠٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فرض الجمعة (١٠٨٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٩١) رقم (١٧٦)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٦٦٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٢٤)، وابن حبان (٧٠١٣)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٤١٧)، وابن الجارود في المنتقىٰ (٢٩١)، وحسنه الحافظ في التلخيص الحبير (٢/ ٥٦). =

وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ لِلْجُمُعَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ مَا رَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «جَمَّعَ أَهْلُ المَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْجُمُعَةُ وَهُمُ الَّذِينَ سَمَّوْهَا الْجُمُعَةَ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لِلْيَهُودِ يَوْمٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصَارَىٰ أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ فَهَلُمَّ فَلْنَجْعَلْ يَوْمًا نَجْتَمِعُ وَنَذْكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَنُصَلِّي وَنَشْكُرُهُ فِيهِ، فَقَالُوا: يَوْمُ السَّبْتِ لِلْيَهُودِ، وَيَوْمُ الْأَحَدِ لِلنَّصَارَىٰ، فَاجْعَلُوهُ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَىٰ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَصَلَّىٰ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَذَكَّرَهُمْ، فَسَمَّوْهُ الْجُمُعَةَ حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَذَبَحَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ لَهُمْ شَاةً، فَتَغَدَّوْا وَتَعَشَّوْا مِنْ شَاةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَذَلِكَ لِقِلَّتِهِمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الْجُمُعَة: ٩]»[٢٤].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا كَانَ مَبْدَأَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقَامَ بِقُبَاءٍ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ؛ كَمَا قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَيَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، وَأَسَّسَ مَسْجِدَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَصَلَّاهَا فِي الْمَسْجِدِ

= ونقيع الخضمات موقع قرب المدينة علىٰ ميل من منازل بني سلمة، حماه عمر رضي الله عنه في خلافته لخيل المسلمين، وهو من أودية الحجاز، يدفع سيله إلىٰ المدينة، يسلك العرب إلىٰ مكة منه؛ ينظر: معجم البلدان لياقوت (٥/ ٣٠١)، وتهذيب الأسماء (٣/ ٣٥٢).
والهزم هو ما اطمأن من الأرض، والنبيت بطن من الأنصار وهو عمرو بن مالك بن الأوس، وبياضة أيضا بطن من الأنصار وهو بياضة بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. ينظر: معجم البلدان (٥/ ٤٠٥).
وبعضهم يجعله بالباء (بقيع الخضمات) والصواب أنه بالنون لا بالباء، وذكر الخطابي أن ذكره بالباء تصحيف، نقل ذلك ياقوت (٥/ ٣٠٢) والنووي في تهذيب الأسماء (٣/ ٣٥٢).
(٢٤) أخرجه عبد الرزاق (٥١٤٤).

الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي، وَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلَّاهَا بِالمَدِينَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَأْسِيسِ مَسْجِدِهِ» اهـ(٢٥).

وَمِنْ خَصَائِصِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ: فَضِيلَةُ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ فِيهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**أَنَّ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ**»، وَفِي لَفْظٍ: «**أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَالْحَاكِمُ(٢٦).

وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَتَوَاصَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَزَاوَرُونَ، وَفِيهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُوَسَّعُ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَفَرَحُ المُسْلِمِينَ بِهِ عَظِيمٌ، وَمِنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِهِ كَبِيرَةٌ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنْ هَدَانَا لَهُ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَأَعْمَالَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ٩-١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِله حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ

---

(٢٥) زاد المعاد (١/ ٣٧٣).

(٢٦) سبق تخريجه في خطبة: سورة الكهف (١) في هذا الجزء (ص: ٣٧٦).

نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ مَزِيدِ فَضْلِهِ، وَكَرِيمِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا اخْتُصَّتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا اعْتَادَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَعَدَمِ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ مِنَ الِاهْتِمَامِ وَالْعِنَايَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَكَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ تَعْظِيمُ هَذَا الْيَوْمِ وَتَشْرِيفُهُ وَتَخْصِيصُهُ بِعِبَادَاتٍ دُونَ غَيْرِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ فَرَّطُوا فِي فَضْلِ الْجُمُعَةِ، وَيَفُوتُهُمْ كَثِيرٌ مِنْ خَيْرِهِ وَأَجْرِهِ؛ إِمَّا جَهْلًا بِفَضْلِهِ، أَوِ اسْتِهَانَةً بِشَرَفِهِ؛ فَلَيْلَةُ الْجُمُعَةِ يَسْهَرُونَ فِيهَا إِلَىٰ قُبَيْلِ الْفَجْرِ، وَيَسْهَرُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي مَجَالِسَ تَغْشَاهَا الْمُحَرَّمَاتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يُسْمَعُ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا قَلِيلًا، وَهَذَا السَّهَرُ يُفَوِّتُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْهُمْ صَلَاةَ الْفَجْرِ الَّتِي اخْتُصَّتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِفَضِيلَةِ قِرَاءَةِ سُورَتَي السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ.

وَهَذَا السَّهَرُ الْمَشْؤُومُ يُؤَدِّي فِي الْغَالِبِ إِلَىٰ تَأَخُّرِهِمْ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُدْرِكُ تَقْرِيبَ دَجَاجَةٍ وَلَا بَيْضَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْضُرُ الْمَسْجِدَ إِلَّا وَقَدْ طَوَىٰ الْمَلَائِكَةُ صُحُفَهُمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ الذِّكْرِ، بَلْ يَبْلُغُ التَّفْرِيطُ بِبَعْضِهِمْ أَنْ تَفُوتَهُمْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ إِمَّا نَوْمًا، وَإِمَّا خُرُوجًا إِلَىٰ مُتَنَزَّهَاتٍ وَحَدَائِقَ لَا يَخْرُجُونَ إِلَيْهَا إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّاسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْحِرْمَانِ وَالْخِذْلَانِ.

وَبَعْضُ النَّاسِ يُقَصِّرُ فِي الْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَثَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَصِلُهُ وَيَبْلُغُهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَ النَّاسِ أَيْقَنَ أَنَّهُ لَوْ كَتَبَ كِتَابًا إِلَىٰ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا لَبَلَغَهُ ذَلِكَ الْكِتَابُ، وَكَافَأَهُ عَلَيْهِ، أَوْ رَفَعَ عَنْهُ مَظْلِمَتَهُ؛ لَبَادَرَ لِكِتَابَتِهِ، وَأَحْسَنَ فِيهَا أَشَدَّ الْإِحْسَانِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِصَلَاةٍ وَسَلَامٍ تَبْلُغَانِ خَيْرَ الْخَلْقِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ؟!

وَبَعْضُ النَّاسِ يُقَصِّرُ فِي الدُّعَاءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَغْفُلُ عَنْ سَاعَةِ الْإِجَابَةِ فِيهِ، فَيَسْأَلُ النَّاسُ رَبَّهُمْ حَاجَاتِهِمْ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ، وَكُلُّ هَذَا التَّفْرِيطِ يُعَدُّ حِرْمَانًا عَظِيمًا، وَخِذْلَانًا كَبِيرًا، وَفِيهِ تَفْوِيتٌ لِأُجُورٍ رُتِّبَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَمْ يَخْسَرُ صَاحِبُهُ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ؟!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَأَعْطُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَقَّهُ مِنَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ، وَفَرِّغُوا أَنْفُسَكُمْ فِيهِ لِاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْفِيرِ الْخَطِيئَاتِ، بِالتَّبْكِيرِ إِلَىٰ الْجُمُعَاتِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَالْإِلْحَاحِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الدَّعَوَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



٢٤٢- عيد الأسبوع (٢)
فضل صلاة الجمعة

٢٨/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَتَحَ أَبْوَابَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمُسَارَعَةِ فِيهَا، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة: ٤٨]، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَتَبَ الْأُجُورَ الْعَظِيمَةَ عَلَىٰ الْعَمَلِ الْقَلِيلِ؛ رَحْمَةً مِنْهُ بِنَا، وَإِحْسَانًا إِلَيْنَا، وَمُرَاعَاةً لِعَجْزِنَا وَضَعْفِنَا، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، فَلَهُ الْحَمْدُ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَىٰ هُوَ عَلَىٰ نَفْسِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ، بَارَكَهُ اللهُ ﷻ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصَ كَثِيرَةٍ، هَدَىٰ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْمُتَأَخِّرُ زَمَنُهَا فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ، وَضَلَّ عَنْهُ مَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا وَفَضَّلَنَا وَأَعْطَانَا.

وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ شَعِيرَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ فِي الْإِسْلَامِ، أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِهَا سُورَةً تُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِأَدَاءِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ٩]، فَأَمَرَ ﷻ بِالسَّعْيِ إِلَىٰ عَمَلِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ ذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْمَسَاجِدِ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، كَمَا أَمَرَ ﷻ بِتَرْكِ السَّعْيِ إِلَىٰ عَمَلِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْبَيْعُ وَنَحْوُهُ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ، وَلَقَدْ نُهُوا أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَكِنْ بِالْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ» اهـ[١]. وَقَالَ عَطَاءٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِذَا نُودِيَ بِالْأَذَانِ حَرُمَ اللَّهْوُ، وَالْبَيْعُ، وَالصِّنَاعَاتُ كُلُّهَا، وَالرُّقَادُ، وَأَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ، وَأَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا» اهـ[٢].

وَلَمَّا حَبَسَ الْمُصَلُّونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْجَوَامِعِ لِلْقِيَامِ بِفَرِيضَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أُمِرُوا بِالِانْتِشَارِ عَقِبَ أَدَائِهَا لِحَاجَاتِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفًا بِهِمْ، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ١٠].

وَقَدْ جَاءَ عَنْ عِرَاكِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّىٰ الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ، فَوَقَفَ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٨٩٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر (٨/ ١٦٢).

(٢) علقه البخاري مختصرا في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (١/ ٣٠٧)، ووصله عبد بن حميد في تفسيره كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٩١). وينظر: تغليق التعليق (٢/ ٣٦١).

وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»(٣).

وَمَنِ اشْتَغَلَ بِالتِّجَارَةِ أَوِ الدُّنْيَا عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيُخْشَىٰ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَقَدْ كَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَنْ يُصَابُوا بِهِ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ لِاسْتِقْبَالِ قَافِلَةٍ قَدِمَتْ، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرٌ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذ قَدِمَتْ عِيرٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَابْتَدَرَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الْجُمُعَة: ١١] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ أَحَدٌ، لَسَالَ لَكُمُ الْوَادِي نَارًا**»(٤).

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ هَذِهِ الصَّلَاةِ أَنَّهَا سَبَبٌ لِتَكْفِيرِ ذُنُوبِ الْأُسْبُوعِ، مَعَ أَنَّ الْمُبَكِّرَ إِلَيْهَا يَقْضِيهَا فِي سُوَيْعَاتٍ قَلَائِلَ، وَالْمُتَأَخِّرَ لَا يَمْكُثُ فِي الْمَسْجِدِ سَاعَةً كَامِلَةً، فَتَكُونُ هَذِهِ السَّاعَةُ سَبَبًا فِي تَكْفِيرِ ذُنُوبِ الْأُسْبُوعِ، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ فَضْلٍ حَبَانَا بِهِ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ! رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ**

---

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٨٩٧)، وعنه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة، باب إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة (٨٩٤)، ومسلم في الجمعة باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ واللفظ له (٨٦٣)، والرواية الثانية لابن حبان (٦٨٧٧).

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس (٢١٤).

الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الْأُخْرَىٰ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦)، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «**غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الْأُخْرَىٰ، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»(٧).

وَالْإِنْسَانُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ المَغْفِرَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْعَاقِلُ لَا يُفَوِّتُ هَذِهِ الشَّعَائِرَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تُكَفِّرُ الْكَثِيرَ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ يَرَىٰ أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرٍ ﷺ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ**»(٨)، فَجَعَلَ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الدهن للجمعة (٨٤٣).

(٧) أخرجه مسلم في الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة (٨٥٧).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (٨٦٥)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من اغبرت قدماه في سبيل الله (١٦٣٢)، والنسائي في الجهاد، باب ثواب من اغبرت قدماه في سبيل الله (٦/ ١٤)، وابن حبان (٤٦٠٥).
ولفظ روايتي الترمذي والنسائي: عن يزيد بن أبي مريم قال: لحقني عباية بن رفاعة بن رافع وأنا ماش إلىٰ الجمعة فقال: أبشر فإن خطاك هذه في سبيل الله، سمعت أبا عبس يقول قال رسول الله ﷺ: «**من اغبرت قدماه في سبيل الله فهما حرام علىٰ النار**».
وهنا مسألتان:
الأولىٰ: اختلاف الروايات في الحديث: ساق ابن رجب رواية الإسماعيلي للحديث ثم =

. . . .

= قال: «ففي هذه الرواية أن هذه القصة جرت ليزيد مع عباية، وفي رواية البخاري أنها جرت لعباية مع أبي عبس، وقد يكون كلاهما محفوظا» اهـ فتح الباري لابن رجب (٥/ ٤٣٧).
وقال ابن حجر: «وقع عند البخاري أن القصة وقعت لعباية مع أبي عبس، وعند الإسماعيلي من رواية علي بن بحر وغيره عن الوليد بن مسلم أن القصة وقعت ليزيد بن أبي مريم مع عباية، وكذا أخرجه النسائي عن الحسين بن حريث عن الوليد، ولفظه: حدثني يزيد قال: لحقنىٰ عباية بن رفاعة وأنا ماش إلىٰ الجمعة، زاد الإسماعيلي في روايته: وهو راكب فقال: احتسب خطاك هذه، وفي رواية النسائي فقال: أبشر؛ فإن خطاك هذه في سبيل الله؛ فإني سمعت أبا عبس بن جبر فذكر الحديث، فإن كان محفوظا احتمل أن تكون القصة وقعت لكل منهما» اهـ فتح الباري (٢/ ٣٩١).
الثانية: أن الصحابي أبا عبس بن جبر الأنصاري ﵁ عمم (سبيل الله) وأدخل فيه المشي إلىٰ الجمعة، أو يكون الذي عممه الراوي عنه عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج، أو كلاهما؛ بناء علىٰ أن كلا الروايتين محفوظ. وهكذا أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، وفي الجهاد أيضا، خلافا للنسائي والترمذي وابن حبان؛ إذ جعلوه في كتاب الجهاد فقط، مع أن روايتي النسائي والترمذي أصرح من رواية البخاري.
وكنت قد ذكرت عند حديث: «**من صام يوما في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار** ...» في خطبة (رمضان والقوة، المفيد في خطب الجمعة والعيد، ط: الأولىٰ ٢/ ٩٠-٩١) أن سبيل الله إذا أطلق فإن المراد به الجهاد، وإلا فإن كل الطاعات في سبيل الله تعالىٰ، ونقلت هناك أقوال العلماء مما يغني عن إعادتها، والاكتفاء بالإضافة عليها.
قال ابن قدامة: «سبيل الله عند الإطلاق إنما ينصرف إلىٰ الجهاد، فإن كل ما في القرآن من ذكر سبيل الله إنما أريد به الجهاد إلا اليسير» المغني (٦/ ٣٣٤).
وقال ابن الأثير: «وسبيل الله عام يقع علىٰ كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بأداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتىٰ صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه» اهـ النهاية في غريب الأثر (٢/ ٣٣٨-٣٣٩).
فالمشي للجمعة من الجهاد في سبيل الله تعالىٰ بمفهوم الجهاد العام الذي دل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فإن المشي إلىٰ الجمع والجماعات فيه مشقة ويحتاج إلىٰ جهاد. =

سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْبُخَارِيُّ وَضَعَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَبْوَابِ الْجُمُعَةِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَبْيَنِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ انْتَدَبَ إِلَيْهَا كَتَبَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ عليهم السلام، يَقِفُونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، يَكْتُبُونَ فِي صُحُفِهِمْ مَنْ يُبَكِّرُونَ إِلَيْهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَكَانِ يَكْتُبَانِ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ**»، وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهْ: «**فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِيءُ بِحَقٍّ إِلَىٰ الصَّلَاةِ**»(٩).

فَكَمْ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ يُحْرَمُ مِنْهُ مَنْ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ إِلَىٰ خُرُوجِ الْإِمَامِ؟ إذ يَفُوتُ عَلَيْهِمْ تَسْجِيلُ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ.

= وأما حمل الأحاديث العامة في تغبير القدمين في سبيل الله عليه فهو اجتهاد من الصحابي أو من التابعي رضي الله عنهما، ولم يرفعه للنبي ﷺ. والظاهر أن أحاديث تغبير الأرجل يراد بها تغبيرها في الجهاد والرباط، كما هو ظاهرها، ولا تتناول غير ذلك.

قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: «وليس عن النبي ﷺ في هذا الحديث ذكر المشي إلىٰ الجمعة، إنما فيه فضل المشي في سبيل الله، فأدخل الراوي المشي إلىٰ الجمعة في عموم السبيل، وجعله شاملا له وللجهاد. والأظهر في إطلاق سبيل الله: الجهاد، وقد يؤخذ بعموم اللفظ، كما أذن النبي ﷺ لمن جعل بعيره في سبيل الله أن يحج عليه، وقال: «**الحج من سبيل الله**» » فتح الباري لابن رجب (٥/ ٤٣٧).

(٩) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٩)، ومسلم في الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة (٨٥٠).

والرواية الثانية لعبد الرزاق (٥٥٦٣)، وأحمد (٢/ ٤٥٧)، وعبد بن حميد (١٧٧٠)، وابن حبان (٢٧٧٤)، والرواية الثالثة لابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في التهجير إلىٰ الجمعة (١٠٩٢).

وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْعِنَايَةُ بِالْجُمُعَةِ حَتَّىٰ خُصِّصَ لَهَا مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْمُبَكِّرِينَ إِلَيْهَا إِلَّا لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَفَخَامَةِ مَكَانَتِهَا مِنْ شَرِيعَتِهِ الْغَرَّاءِ، فَلَا يُحْرَمُ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ إِلَّا مَحْرُومٌ.

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَتَحَ مَجْلِسَهُ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِ كَتَبَةً يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ لِيَطَّلِعَ المَلِكُ عَلَىٰ أَسْمَائِهِمْ، وَيَجْزِيَهُمْ بِتَبْكِيرِهِمْ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ، فَمَاذَا سَيَحْصُلُ؟!

إِنَّهُ لَوْ حَلَفَ حَالِفٌ أَنَّ أَنْفُسًا تَهْلَكُ مِنَ الزِّحَامِ عَلَىٰ أَبْوَابِ مَجْلِسِهِ لَمَا حَنِثَ فِي يَمِينِهِ، فَكَيْفَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- وَالدَّاعِي إِلَىٰ الْجُمُعَةِ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَالمَسَاجِدُ بُيُوتُهُ، وَالمَلَائِكَةُ عَلَىٰ أَبْوَابِهَا كَتَبَتُهُ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَنْ بَادَرُوا إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَبَكَّرُوا، وَمَنْ نَامُوا عَنْهَا، أَوْ سَوَّفُوا فَتَأَخَّرُوا.

ثُمَّ مَا قِيمَتُنَا -نَحْنُ بَنِي آدَمَ- حَتَّىٰ يُنْتَدَبَ مَلَائِكَةٌ كِرَامٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ تَعَالَىٰ طَرْفَةَ عَيْنٍ، يَنْتَظِرُونَنَا عَلَىٰ أَبْوَابِ المَسَاجِدِ كُلَّ جُمْعَةٍ لِيَكْتُبُونَا فِي صُحُفِهِمْ، وَيَرْفَعُوهَا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ نُجْزَىٰ بِذَلِكَ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ؟!

مَا قِيمَتُنَا لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَفَعَ قَدْرَنَا، وَأَعْلَىٰ مَكَانَتَنَا، وَشَرَّفَنَا بِدِينِهِ، وَأَلْزَمَنَا شَرِيعَتَهُ؟ فَلْنَكُنْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- عَلَىٰ قَدْرِ تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنَا، وَرَفْعِهِ إِيَّانَا، وَلَنْ نَبْلُغَ ذَلِكَ مَهْمَا عَمِلْنَا، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَجِدُّوا وَاجْتَهِدُوا فِي طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَأَرُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَفَضِّلٌ عَلَيْكُمْ، شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا يُصْلِحُكُمْ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَرِيعَتَهُ، وَسَارِعُوا إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَنَافِسُوا غَيْرَكُمْ عَلَيْهَا ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المَطَفِّفِينَ: ٢٦]، وَلَا تُقَدِّمُوا

الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّكُمْ مُفَارِقُوهَا إِلَىٰ قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا أَمَامَكُمْ إِلَّا أَعْمَالَكُمْ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٨٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ عَظِيمِ الْخَطَرِ، وَكَبِيرِ الْإِثْمِ، أَنْ يَتَخَلَّفَ الْمُسْلِمُ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِلَا عُذْرٍ؛ وَذَلِكَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ، وَسَبَبٌ لِلْخَتْمِ عَلَىٰ قَلْبِ صَاحِبِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ قَلْبُهُ فَيَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ؛ كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ﵄ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَىٰ أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

---

(١٠) أخرجه مسلم في الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة (٨٦٥)، والنسائي في الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة (٣/ ٨٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، =

وَرَوَىٰ أَبُو الْجَعْدِ الضَّمْرِيُّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ**»، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ: «**مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلَاثًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مُنَافِقٌ**»(١١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ جُمَعٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَقَدْ نَبَذَ الْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»(١٢).

وَلَقَدْ هَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمُعَاقَبَةِ مَنْ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الجُمُعَةِ بُيُوتَهُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

= باب التغليظ في التخلف عن الجماعة (٧٩٤)، وأحمد (١/ ٢٣٩)، والطيالسي (١٩٥٢)، وابن حبان (٢٧٨٥).

وفي كل روايات من أخرجوا الحديث أنه من حديث ابن عمر وابن عباس ﷺ، سوىٰ رواية مسلم الذي جعله من رواية ابن عمر وأبي هريرة ﷺ.

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة (١٠٥٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر وقال: حديث حسن (٥٠٠)، والنسائي في الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة (٣/ ٨٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر (١١٢٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، وابن الجارود (٢٨٨)، وصححه ابن خزيمة (١٨٥٨)، وابن حبان (٢٧٨٦)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١٠٣٤).

والرواية الثانية لابن خزيمة (١٨٥٧)، وابن حبان (٢٥٨).

(١٢) أخرجه موقوفًا علىٰ ابن عباس ﷺ: عبد الرزاق (٥١٦٩)، وأبو يعلىٰ (٢٧١٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤٢)، وصححه المنذري في الترغيب (١/ ٢٩٦) رقم (١٠٦٤) والألباني في صحيح الترغيب (٧٣٣).

(١٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة والجمعة (٦٥١)، وأحمد (١/ ٤٠٢)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٨٠)، وأبو يعلىٰ (٥٣٣٥)، وابن خزيمة (١٨٥٣)، ووهم الحاكم فاستدرك (١/ ٤٣٠).

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَرِهَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّفَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ(١٤)، فَإِذَا أُذِّنَ الْأَذَانُ الثَّانِي وَهُوَ مُقِيمٌ لَزِمَهُ أَنْ يُصَلِّيَ قَبْلَ أَنْ يُنْشِئَ سَفَرَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ سَيُصَلِّيهَا فِي الطَّرِيقِ فِي بَلَدٍ قَرِيبٍ، أَوْ يَخْشَىٰ فَوَاتَ رِحْلَةٍ أَوْ رُفْقَةٍ فِي سَفَرِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَهَاوَنُونَ بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَيَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا، وَرُبَّمَا فَاتَتْهُمْ بِسَبَبِ سَهَرِهِمْ لَيْلَتَهَا، فَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمُ التَّبْكِيرَ إِلَيْهَا، وَفِيهِ مِنَ الْفَضْلِ مَا فِيهِ، وَرُبَّمَا فَاتَتْ بَعْضَهُمْ فَنَامُوا عَنْهَا.

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ قَدِ اتَّخَذُوا ضَيْعَاتٍ وَاسْتِرَاحَاتٍ أَوْ إِبِلٍ يَخْرُجُونَ إِلَيْهَا ثُمَّ يَتَثَاقَلُونَ عَنِ الْعَوْدَةِ لِشُهُودِ الْجُمُعَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا الصَّنِيعُ قَدْ خَافَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْكِتَابَ وَاللَّبَنَ**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ **قَالَ: يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ، ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا**، فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ **قَالَ: أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبَنَ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ الجَمَاعَاتِ، وَيَتْرُكُونَ الجُمُعَاتِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

---

(١٤) ينظر: مسائل الإمام أحمد رواية ابنه صالح (٢/ ٤٦٨)، والمغني (٢/ ١٠٨)، والمجموع (١/ ١٤٩).

(١٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٦-١٥٥)، وأبو يعلىٰ (١٧٤٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٩٥) رقم (٨١٥-٨١٦-٨١٧)، والبيهقي في الشعب (٣٠٠٩)، والحاكم وصححه (٢/ ٣٧٤)، وللحديث شاهدان يشهدان لمعناه فيما يتعلق باتخاذ الإبل أو الغنم وتضييع الصلاة:

١- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل عسىٰ أحدكم أن يتخذ الصبة من الغنم علىٰ رأس ميل أو ميلين، فيتعذر عليه الكلأ، فيرتفع، ثم تجيء الجمعة فلا يجيء ولا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، حتىٰ يطبع علىٰ قلبه**» رواه ابن ماجه (١١٢٧)، وصححه ابن خزيمة (١٨٥٩)، وسكت عنه =

قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَوْلُهُ: فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ؛ أَيْ: لَا يَتَيَسَّرُ الْإِكْثَارُ مِنْهُ إِلَّا فِي الْبَادِيَةِ، فَيَخْرُجُونَ إِلَيْهَا، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَىٰ تَرْكِ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ»(١٦).

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إذ يَقَعُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الزَّرْعِ وَأَهْلِ الْإِبِلِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَلَمْ يَشْغَلْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ ﷺ: «لَوْلَا الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ لَبَنَيْتُ فِي أَعْلَىٰ دَارِي هَذِهِ بَيْتًا، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّىٰ أُخْرَجَ إِلَىٰ قَبْرِي»(١٧)، وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ السَّرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَوْلَا الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ لَطَيَّنْتُ عَلَيَّ الْبَابَ»(١٨).

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَلَىٰ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَبَكِّرُوا إِلَيْهَا،

= الحاكم (١/ ٤٣٠)، وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٥٧٤) رقم (١٠٧٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٧٣١): حسن لغيره، لكن قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٣٦): هذا إسناد ضعيف لضعف معدي بن سليمان.

وجاء بنصه من حديث ابن عمر ﷺ عند: الطبراني في الأوسط (٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (٣٠١٠).

٢- حديث حارثة بن النعمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتخذ أحدكم السائمة فيشهد الصلاة في جماعة، فتتعذر عليه سائمته فيقول: لو طلبت لسائمتي مكانا هو أكلأ من هذا، فيتحول ولا يشهد إلا الجمعة، فيتعذر عليه سائمته، فيقول: لو طلبت لسائمتي مكانًا هو أكلأ من هذا، فيتحول فلا يشهد الجمعة ولا الجماعة، فيطبع علىٰ قلبه**» أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، وفيه عمر بن عبد الله مولىٰ غفرة، وثقه أحمد وضعفه الجمهور، لكن حسن هذا الحديث الألباني باعتبار ما قبله، ينظر: صحيح الترغيب (٧٣٤).

(١٦) ينظر: مسند أحمد ط: الرسالة (٢٨/ ٥٥٦).

(١٧) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٥٣٤)، وعبد الله بن أحمد في الزهد (١٥١).

(١٨) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (١٧٤)، وفي الشعب (٢٩٣٥)، وابن عساكر في تاريخه (٢٠/ ١٧٧).

وَتَهَيَّئُوا لَهَا بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهَا، فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَشَعِيرَةٌ مِنْ شَعَائِرِهِ، شَرَعَهَا لِتُقَرِّبَكُمْ إِلَيْهِ، وَلِتَكُونَ زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِكُمْ، وَرِفْعَةً لِدَرَجَاتِكُمْ، وَتَكْفِيرًا لِخَطَايَاكُمْ، وَكَمْ نُقَارِفُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ خِلَالَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مُكَفِّرَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....



٢٤٣- الزكاة المفروضة (١) فرضها وفضلها وأهميتها

٩/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؛ فَرَضَ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ مَا يُقَرِّبُ إِلَيْهِ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ؛ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٥]. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْقَصَص: ٧٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الْفَتْح: ٢٨]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَخُذُوا مِمَّا مَضَىٰ مِنْ أَعْمَارِكُمْ عِبْرَةً لِمَا بَقِيَ، فَحَالُ مَا بَقِيَ سَيَكُونُ كَحَالِ مَا مَضَىٰ؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلُّ النَّاسِ يَنْشُدُونَ السَّعَادَةَ، وَيَطْلُبُونَ الرَّاحَةَ، وَكُلُّ مَا يَسْعَىٰ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنْ تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، وَالتَّرَقِّي فِي الْجَاهِ، وَتَنْوِيعِ وَسَائِلِ التَّرَفِ وَالرَّفَاهِيَةِ الْمُبَاحِ مِنْهَا وَالْمُحَرَّمِ إِنَّمَا كَانَ سَعْيُهُمْ فِيهَا لِتَحْصِيلِ الرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَلَا رَاحَةَ لِلْعَبْدِ، وَلَا سَعَادَةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكُلُّ سَعَادَةٍ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ تَزُولُ سَرِيعًا، وَلَا تَبْقَىٰ أَبَدًا، وَالْأَثْرِيَاءُ الَّذِينَ يُغْبَطُونَ عَلَىٰ ثَرَوَاتِهِمْ كَانُوا يَجِدُونَ لَذَّةً فِي جَمْعِهَا وَتَنْمِيَتِهَا، فَلَمَّا امْتَلَأَتْ بِهَا أَرْصِدَتُهُمْ، ذَهَبَتْ لَذَّتُهَا، وَصَارَتْ أَمْرًا عَادِيًّا.

وَأَصْحَابُ المَسَاكِنِ وَالْقُصُورِ يَفْرَحُونَ بِهَا حَالَ بِنَائِهَا، وَبَعْدَ سُكْنَاهَا تَذْهَبُ حَلَاوَتُهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَرُبَّمَا أَصَابَهُمُ المَلَلُ مِنْهَا، وَصَاحِبُ الْجَاهِ يَسْعَىٰ إِلَيْهِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَهُ لَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا، فَيَذْهَبُ رَوْنَقُهُ، وَلَا يُحِسُّ بِهِ، وَيَسْعَىٰ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِمَّا بَلَغَ. وَهَكَذَا كُلُّ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، أَبَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ تَبْقَىٰ لَذَّتُهَا لِأَصْحَابِهَا أَبَدًا، كَيْفَ؟ وَلَا وَزْنَ لِلدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

أَمَّا لَذَّةُ الْعِبَادَاتِ فَلَا يُدَانِيهَا لَذَّةٌ، هِيَ السَّعَادَةُ الَّتِي يَطْرَبُ الْقَلْبُ لَهَا، وَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ بِهَا، وَإِذَا قَضَىٰ المُسْلِمُ فَرْضَهُ مِنَ الصَّلَاةِ أَحَسَّ بِرَاحَةٍ عَظِيمَةٍ، وَإِذَا وَضَعَ زَكَاةَ مَالِهِ فِي يَدِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا فَرِحَ بِذَلِكَ، وَإِذَا قَضَىٰ نُسُكَهُ مِنْ حَجَّتِهِ وَعُمْرَتِهِ، فَلَا تَسَلْ عَنْ فَرْحَتِهِ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَىٰ بَلَدِهِ، «**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»(١).

وَكَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحجَّ عِبَادَاتٌ بَدَنِيَّةٌ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ عِبَادَةٌ مَالِيَّةٌ، تَقِي النَّفْسَ شُحَّهَا، وَتُطَهِّرُهَا مِنْ بُخْلِهَا وَحِرْصِهَا، عَظُمَتْ عِنَايَةُ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ بِهَا، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا مُقْتَرِنَةً بِالصَّلَاةِ أَوْ مُنْفَصِلَةً عَنْهَا.

وَهِيَ مِنْ مَبَانِي الْإِسْلَامِ الْعِظَامِ، وَرُكْنُهُ الثَّالِثُ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَقَبْلَ الصِّيَامِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

وَلِمَكَانَةِ الزَّكَاةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ جَاءَتْ بِهَا شَرَائِعُ مَنْ سَبَقُوا مِنْ رُسُلِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم (١٨٠٥)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

تَعَالَىٰ، وَأُوحِيَ إِلَيْهِمْ بِهَا، وَفُرِضَتْ عَلَىٰ الْأُمَمِ المَاضِيَةِ، كَمَا أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وَامْتَدَحَ بِهَا إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٥]، وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ عِيسَىٰ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٣١].

وَأَخَذَ ﷻ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ كَانَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٣].

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّتِهَا، وَعِنَايَةِ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ بِهَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ خُوطِبُوا بِهَا فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ، فَقُرِنَتْ فِي سُورَةِ الْبَيِّنَةِ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ؛ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٥].

وَلَكِنْ لَمْ يَنْزِلْ نِصَابُهَا وَلَا مِقْدَارُهَا وَلَا وَقْتُهَا، بَلْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مَأْمُورِينَ بِإِطْعَامِ الْمِسْكِينَ، وَرِعَايَةِ الْيَتِيمِ، وَفَكِّ الْأَسِيرِ، وَتَبْلِيغِ السَّبِيلِ، وَمُوَاسَاةِ أَهْلِ الْمُوَاسَاةِ، وَكَثُرَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ، وَتَنَوَّعَتِ الْأَسَالِيبُ فِيهِ، تَارَةً بِالْأَمْرِ الْمُبَاشِرِ، ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ [الرُّوم: ٣٨]، وَتَارَةً أُخْرَىٰ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمُنْفِقِينَ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المَعَارِج: ٢٤-٢٥]، وَثَالِثَةً بِذَمِّ مَنْ يُقَصِّرُونَ فِي ذَلِكَ؛ ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الْفَجْر: ١٨]، وَرَابِعَةً بِجَعْلِ تَرْكِهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ؛ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم

بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦-٧]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المُدَّثِّر: ٤٢-٤٤].

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ صَرَاحَةً فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ، كَمَا فِي أَوَائِلِ «النَّمْلِ» وَ«لُقْمَانَ»؛ إذ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النَّمْل: ٣]، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ المُفْلِحِينَ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٤].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَمَّا أَمَرَهُمْ بِزَكَاةِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَيَّنَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُخْرِجْهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: **إِطْرَاقُ فَحْلِهَا، وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا، وَمَنِيحَتُهَا، وَحَلَبُهَا عَلَىٰ المَاءِ، وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَكُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ الْعَظِيمَةِ -وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ- تَدُلُّ عَلَىٰ مَكَانَةِ الزَّكَاةِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِهَا جَاءَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَبِنَاءِ الدَّوْلَةِ المُسْلِمَةِ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَأُمِرُوا بِالزَّكَاةِ وَالْإِحْسَانِ فِي مَكَّةَ، وَلَكِنَّ فَرَائِضَ الزَّكَاةِ وَنُصُبَهَا إِنَّمَا شُرِعَتْ بِالمَدِينَةِ»(٤).

وَبَايَعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ أَدَائِهَا، وَالْبَيْعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ. رَوَىٰ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

---

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٩٨٨)، والنسائي في الزكاة، باب مانع زكاة البقر (٢/ ١٢)، والدارمي (١٦١٦)، وابن الجارود (٣٣٥).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب البيعة علىٰ إيتاء الزكاة (١٣٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٦).

وَالمُمْتَنِعُ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ يُقَاتَلُ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ قَدْ نَصَّ عَلَىٰ أَنَّ أَدَاءَهَا مَعَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْتِزَامِ التَّوْبَةِ سَبَبٌ لِلْكَفِّ عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التَّوْبَة: ٥].

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التَّوْبَة: ١١].

وَنَصَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ هَذَا الْحُكْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَنَزَّلَ بِهِ الْقُرْآنُ فَقَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما[٦].

وَحِينَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَارْتَدَّتْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَمَنَعَ بَعْضُهُمُ الزَّكَاةَ زَاعِمِينَ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ عَمِلَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فِيهِمْ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، فَسَيَّرَ الْجُيُوشَ لِقِتَالِهِمْ، وَلَمْ يَتَهَاوَنْ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الزَّكَاةَ قَرِينَةُ الصَّلَاةِ، وَأَنَّ المُمْتَنِعَ عَنْ أَدَائِهَا يَسْتَحِقُّ الْقِتَالَ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَهَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللَّهِ؟** فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ

---

(٦) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥] (٢٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ... (٢٢).

بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَدِ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَىٰ قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، وَإِنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ، وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ» اهـ(٨).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ أَنْ لَا يَتَهَاوَنَ بِهَذَا الرُّكْنِ الرَّكِينِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، مُسْتَحْضِرًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهَذَا المَالِ، وَأَوْجَبَ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهُ فَرِيضَةً عَلَيْهِ، يُجْزَىٰ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْرًا عَظِيمًا إِنْ وَضَعَهَا فِي يَدِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، مُؤْمِنًا بِفَرْضِهَا، مُخْلِصًا لِرَبِّهِ فِي أَدَائِهَا، مُحْتَسِبًا ثَوَابَهَا.

مَعَ مَا فِيهَا مِنْ تَطْهِيرِ النَّفْسِ مِنْ شُحِّهَا وَأَثَرَتِهَا، وَتَزْكِيَةِ المَالِ وَتَنْمِيَتِهِ؛ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَأَنْ يَقِيَنَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



---

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ... (٢٠).

(٨) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٥١٩)، وقال ابن قدامة في الكافي: أجمعوا علىٰ قتال مانعي الزكاة (١/ ٩٥).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَنْعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَجِدُّوا فِيمَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمُ الْمُبَارَكِ؛ فَعَنْ قَرِيبٍ يُفَارِقُكُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُمْ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ؛ لِتَجِدُوا ذَلِكَ أَمَامَكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: اعْتَادَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِخْرَاجَ زَكَاتِهِمْ فِي رَمَضَانَ؛ تَحَرِّيًا لِفَضِيلَةِ الشَّهْرِ، وَفَضِيلَةِ التَّلَبُّسِ بِالصِّيَامِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَعَالَىٰ زَكَوَاتِهِمْ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يُوَفَّقُونَ فِي إِيصَالِ الزَّكَاةِ لِمُسْتَحِقِّيهَا بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ أَوِ الْجَهْلِ.

وَفِي الْمُسْلِمِينَ عَشَرَاتُ الْأُلُوفِ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ، وَفِيهِمْ مَلَايِينُ الْفُقَرَاءِ، وَلَوْ رَدَّ الْأَغْنِيَاءُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ عَلَىٰ الْمُسْتَحِقِّينَ لَمَا بَقِيَ فِي الْمُسْلِمِينَ فَقِيرٌ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْأَثْرِيَاءِ يُقَصِّرُونَ فِي إِخْرَاجِ زَكَاتِهِمْ، فَلَا يُخْرِجُونَهَا كُلِّيَّةً، أَوْ يُخْرِجُونَ بَعْضَهَا؛ اسْتِعْظَامًا لَهَا، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا أَمْوَالَهُمْ، وَمَا الزَّكَاةُ مِنْهَا إِلَّا جُزْءًا وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس: ١٧].

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ يُخْرِجُونَ زَكَاتَهُمْ وَلَكِنَّهَا لَا تَقَعُ فِي أَيْدِي مُسْتَحِقِّيهَا؛ وَذَلِكَ

لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ قَدِ اعْتَادُوا صَرْفَ زَكَوَاتِهِمْ مُنْذُ سَنَوَاتٍ لِأُسَرٍ كَانَتْ مُحْتَاجَةً لِفَقْرِهَا أَوْ فَقْدِ عَائِلِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ رِزْقِهِ، فَعَمِلَ أَبْنَاؤُهُمْ وَبَنَاتُهُمْ، وَسُدَّتْ حَاجَاتُهُمْ، وَهُمْ لَا زَالُوا يَتَقَبَّلُونَ الزَّكَاةَ؛ جَهْلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَهَا، أَوْ ظَنًّا أَنَّهَا هِبَةٌ أَوْ هَدِيَّةٌ مِمَّنْ يُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا، أَوْ جَشَعًا وَطَمَعًا.

وَبَعْضُ الْأَغْنِيَاءِ يَدْفَعُونَ زَكَاتَهُمْ إِلَىٰ أَقْرَبِ سَائِلٍ، وَلَا يَتَحَرَّوْنَ فِيهَا أَهْلَهَا الَّذِينَ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا، وَسَبَبُ ذَلِكَ الثِّقَةُ الْمُفْرِطَةُ، وَإِتْقَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَسَوِّلِينَ صَنْعَتَهُمْ، بِاصْطِنَاعِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَتَقَمُّصِ أَحْوَالِ ذَوِي الْعَاهَاتِ وَالْأَمْرَاضِ، مَعَ فَصَاحَةِ لِسَانٍ فِي اخْتِلَاقِ الْأَكَاذِيبِ، وَإِنْشَاءِ الْقِصَصِ الَّتِي يُحَرِّكُونَ بِهَا قُلُوبَ النَّاسِ، وَيَسْتَدِرُّونَ بِهَا عَوَاطِفَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ يَكُونُ مُحْتَاجًا فِي الْبِدَايَةِ، وَلَكِنَّهُ اعْتَادَ عَلَىٰ السُّؤَالِ، وَوَجَدَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ أَسْهَلُ الْأَبْوَابِ لِلْكَسْبِ وَالِارْتِزَاقِ.

وَبِكُلِّ حَالٍ فَإِنَّ مَنْ يَسْأَلُونَ سَيَجِدُونَ مَنْ يُعْطِيهِمْ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَحْفِلَ بِهِمْ كَثِيرًا، وَلَا يُغَامِرَ بِزَكَاتِهِ فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ لَا يَتَيَقَّنُ صِدْقَهُمْ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَرْشَدَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٩).

وَمَنْ كَانَ وَصِيًّا عَلَىٰ الزَّكَاةِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَرَّىٰ فِيهَا أَهْلَهَا، وَيَجْتَهِدَ فِي

(٩) أخرجه البخاري في التفسير ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] (٤٢٦٥)، ومسلم في الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنىً ... (١٠٣٩).

ذَلِكَ، وَلَا يُجَامِلَ أَحَدًا فِيهَا لِقَرَابَةٍ أَوْ زَمَالَةٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَغْنِيَاءَ مَا وَكَّلُوهُ بِصَدَقَاتِهِمْ إِلَّا لِثِقَتِهِمْ فِيهِ، فَيَجِبُ أَنْ يَرْدَعَهُ دِينُهُ عَنْ تَحَمُّلِ ذَلِكَ وَهُوَ لَيْسَ بِأَهْلٍ لَهُ؛ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِ، أَوْ كَثْرَةِ مَشَاغِلِهِ، فَإِنْ تَحَمَّلَهُ فَلْيَكُنْ عَلَىٰ قَدْرِ الْمَسْؤُولِيَّةِ فِيهِ، وَلَا يُفَرِّطْ فِي حَقِّ الْفُقَرَاءِ، فَيَحْرِمَهُمْ مِنْهُ، وَيَدْفَعَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

قَالَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٠).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ...



(١٠) أخرجه الترمذي في العيدين، باب (٤٣٤)، وقال: حسن صحيح (٦١٦)، وأحمد (٥/ ٢٥١)، والدارقطني (٢/ ٢٩٤) رقم (٢٥٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٥) رقم (٧٥٣٥)، وفي مسند الشاميين (٥٤٣)، وصححه ابن حبان (٤٥٦٣)، والحاكم، وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٥٤٧).

٢٤٤- الزكاة المفروضة (٢) تطهرهم وتزكيهم بها

١٤/ ٦/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ وَكَلَّفَهُمْ هَدَاهُمْ لِدِينِهِ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَقَطَعَ أَعْذَارَهُمْ، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨].

وَالشَّرَائِعُ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعِبَادِ وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا هِيَ لِمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، فَالْتِزَامُهُمْ بِهَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، وَرَفْضُهُمْ لَهَا

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَضُرُّ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

هَذَا؛ وَمِنْ أَعْظَمِ مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الْفَرَائِضِ فَرِيضَةُ الزَّكَاةِ، فَهِيَ عِبَادَةُ المَالِ، وَرُكْنُ الْإِسْلَامِ الثَّالِثُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ. تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَقُرِنَ ذِكْرُهَا بِذِكْرِ الصَّلَاةِ فِي أَكْثَرِ الْآيَاتِ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٣] فَالصَّلَاةُ تَعْصِمُ الدَّمَ، وَالزَّكَاةَ تَعْصِمُ المَالَ.

وَلَوْلَا مَا فِيهَا مِنَ المَنَافِعِ لِلْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَفِيمَا يَخُصُّهُمْ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ وَدُوَلًا وَأُمَمًا لمَا كَانَتْ عِنَايَةُ الشَّرِيعَةِ بِهَا كَذَلِكَ؛ إذ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَشْرَعُ لِعِبَادِهِ إِلَّا مَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالزَّكَاةُ دَلِيلُ صِدْقِ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ، وَتَسْلِيمِهِ لِرَبِّهِ، وَثِقَتِهِ فِي مَوْعُودِهِ؛ وَلِذَلِكَ يَبْذُلُ أَغْلَىٰ مَا يَمْلِكُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ وَرِضًا، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أُطْلِقَ عَلَىٰ الزَّكَاةِ لَفْظُ الصَّدَقَةِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الصِّدْقِ فِي مُسَاوَاةِ الْفِعْلِ لِلْقَوْلِ وَالِاعْتِقَادِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٢).

وَهَذَا الْفَهْمُ لِمَعْنَىٰ الزَّكَاةِ يَرْتَكِزُ عَلَىٰ مَفْهُومِ التَّلَازُمِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ وَالِاعْتِقَادِ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يَكْمُلُ الِاعْتِقَادُ بِلَا قَوْلٍ، كَمَا لَا يَكْمُلُ الْقَوْلُ بِدُونِ فِعْلٍ، فَالتَّلَازُمُ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ لُحْمَةُ عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ وَمُرْتَكَزُهَا(٣).

إِنَّ ارْتِبَاطَ الزَّكَاةِ بِالْعَقِيدَةِ، وَكَوْنَهَا جُزْءًا أَسَاسًا لَا يَكْتَمِلُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا يَدُلُّ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٥٢١).

(٣) ببعض التصرف من آراء وتأملات في فقه الزكاة، د.محمد بن عبد الله الشباني، مجلة البيان عدد (١١) ص(٣٥).

عَلَيْهِ مَا وَرَدَ مِنْ آيَاتٍ عَنِ الزَّكَاةِ فِي الْعَهْدِ المَكِّيِّ، حَيْثُ لَمْ تَتَكَوَّنْ بَعْدُ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ تَتَحَدَّدْ أَنْوَاعُ الْأَمْوَالِ وَالمَقَادِيرُ الْوَاجِبُ إِخْرَاجُهَا، إِنَّمَا كَانَتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الاعْتِقَادِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ التَّلَازُمِ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ تُبَرْهِنُ عَلَىٰ صِدْقِ الْإِيمَانِ، كَمَا يُبَيِّنُ هَذَا التَّبْكِيرُ فِي الْخِطَابِ بِالزَّكَاةِ قَبْلَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْفَرْدِ تُجَاهَ إِخْوَانِهِ وَمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ(٤).

إِنَّ الزَّكَاةَ تَعْنِي الطَّهَارَةَ وَالنَّمَاءَ وَالْبَرَكَةَ، يَقُولُ ابْنُ قُتَيْبَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الزَّكَاةُ مِنَ الزَّكَاءِ وَالنَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تُثْمِرُ المَالَ وَتُنَمِّيهِ، يُقَالُ: زَكَا الزَّرْعُ: إِذَا كَثُرَ رَيْعُهُ، وَزَكَتِ النَّفَقَةُ: إِذَا بُورِكَ فِيهَا»(٥) اهـ.

وَمِنْ عَجِيبِ التَّشْرِيعِ الرَّبَّانِيِّ أَنَّ الزَّكَاةَ أَخْذٌ، وَالْأَخْذُ فِي الْأَصْلِ نَقْصٌ مِنَ المَالِ، وَهَذَا هُوَ المُسْتَقِرُّ عِنْدَ الْبَشَرِ؛ وَلِذَلِكَ يَشِحُّ أَكْثَرُهُمْ بِبَذْلِ المَالِ خَوْفًا مِنْ نَقْصِهِ، وَلَكِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ أَخْبَرَنَا أَنَّ الزَّكَاةَ وَإِنْ كَانَتْ إِخْرَاجَ جُزْءٍ مِنَ المَالِ فَهِيَ طَهَارَةٌ وَنَمَاءٌ لِلْمَالِ، عَلَىٰ عَكْسِ مَا هُوَ مُسْتَقِرٌّ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَقَدْ تَوَارَدَتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣] وَالتَّطْهِيرُ وَالتَّزْكِيَةُ مِنْ أَعْظَمِ مَطْلُوبَاتِ أَصْحَابِ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ، وَالْهِمَمِ السَّامِقَةِ، وَتَطْهِيرُ الزَّكَاةِ عَامٌّ يَشْمَلُ المُزَكِّي وَآخِذَ الزَّكَاةِ وَالمَالَ المُزَكَّىٰ وَالمُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ.

أَمَّا المُزَكِّي فَتُطَهِّرُهُ الزَّكَاةُ مِنَ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ وَالْأَثَرَةِ، كَمَا تُطَهِّرُهُ مِنْ عُبُودِيَّةِ المَالِ، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَالٍ يَمْلِكُهُ المَالُ وَيُسَيِّرُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ، فَيُوَالِي

---

(٤) المصدر السابق ببعض التصرف.

(٥) غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ١٨٤)، وينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٥٧).

فِي المَالِ، وَيُعَادِي فِيهِ، وَيُحِبُّ فِيهِ، وَيُبْغِضُ فِيهِ، وَيَشْقَىٰ فِي جَمْعِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَيَخْشَىٰ فَوَاتَهُ أَكْثَرَ مِنْ خَشْيَتِهِ عَلَىٰ دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ، وَلَرُبَّمَا هَلَكَ بِسَبَبِ خَسَارَتِهِ! فَهَذَا عَبْدٌ لِمَالِهِ وَإِنْ مَلَكَهُ.

وَمُخْرِجُ الزَّكَاةِ يَتَحَرَّرُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَىٰ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَيَتَطَهَّرُ مِنْ شُحِّ نَفْسِهِ، وَفَقْرِ قَلْبِهِ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، وَوَصَفَهُ بِالْفَلَاحِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التَّغَابُن: ١٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ١]، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ فَلَاحِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٤] وَذَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ لَمْ يَتَطَهَّرْ قَلْبُهُ مِنَ الشُّحِّ وَالْأَثَرَةِ، وَدَعَا عَلَيْهِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٦).

وَالزَّكَاةُ سَبَبٌ لِطَهَارَةِ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ مِنَ الْحِقْدِ عَلَىٰ الْأَغْنِيَاءِ، وَحَسَدِهِمْ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ؛ إِذ يَرَوْنَ أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ قَدْ أَحَسُّوا بِهِمْ، وَشَارَكُوهُمْ فِي مُصَابِهِمْ، وَتَلَمَّسُوا حَاجَاتِهِمْ، وَوَاسَوْهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، فَالزَّكَاةُ أَعْظَمُ صِلَةٍ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَفِيهَا إِزَالَةٌ لِلْحَوَاجِزِ المُصْطَنَعَةِ بَيْنَهُمْ، وَتَقْرِيبُ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّىٰ يَكُونُوا إِخْوَةً مُتَآلِفِينَ، مُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ.

وَالْفُقَرَاءُ إِذَا مَا عَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ حَظًّا فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ قَدْ فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَقَامَ الْأَغْنِيَاءُ بِوَاجِبِهِمْ فِيهِ؛ فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ سَيَتَمَنَّوْنَ زِيَادَةَ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ،

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يتقىٰ من فتنة المال (٦٠٧١).

وَيَفْرَحُونَ بِرِبْحِهِمْ فِي تِجَارَاتِهِمْ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُبَرِّكُونَ عَلَىٰ مَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَ زَوَالَهَا أَوْ تَلَفَهَا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ حَقَّهُمْ مِنَ الزَّكَاةِ يَزِيدُ مَعَ زِيَادَةِ رُؤُوسِ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ وَأَرْبَاحِهِمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ يُسْتَجْلَبُ بِالْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ؛ وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ صَلَاحِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَىٰ سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**»[(٧)].

وَمَهْمَا عَمِلَ الْبَشَرُ مِنَ الْوَسَائِلِ وَالْأَسَالِيبِ، وَمَهْمَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ وَالدَّوْرَاتِ لِلتَّقْرِيبِ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَتَآلُفِهِمْ وَاجْتِمَاعِ قُلُوبِهِمْ فَلَنْ يَجِدُوا لِلزَّكَاةِ مَثِيلًا فِي ذَلِكَ، فَسُبْحَانَ مَنْ شَرَّعَ فَأَحْسَنَ، وَأَمَرَ فَأَحْكَمَ!!

وَالزَّكَاةُ طَهَارَةٌ لِلْمَالِ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ غَفْلَةِ صَاحِبِهِ عَنْ حَرَامٍ فِي تَحْصِيلِهِ، أَوْ تَقْصِيرِهِ فِي أَدَاءِ وَاجِبٍ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِهِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ غَفْلَةِ الْإِنْسَانِ وَنَقْصِهِ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّىٰ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الزَّكَاةَ: أَوْسَاخَ النَّاسِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٨)]. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْقَمِ رضي الله عنه: «إِنَّمَا الصَّدَقَةُ أَوْسَاخُ

---

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٧٣٩)، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/ ٤٥).

(٨) أخرجه مسلم في الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ علىٰ الصدقة (١٠٧)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربي (٢٩٨٥)، والنسائي في الزكاة، باب استعمال آل النبي ﷺ علىٰ الصدقة (٥/ ١٠٥)، وابن الجارود (١١١٣)، وابن خزيمة (٢٣٥٢)، وأحمد (٤/ ١٦٦).

النَّاسِ يَغْسِلُونَهَا عَنْهُمْ» رَوَاهُ مَالِكٌ(٩).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَمَعْنَىٰ أَوْسَاخِ النَّاسِ: أَنَّهَا تَطْهِيرٌ لِأَمْوَالِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣] فَهِيَ كَغُسَالَةِ الْأَوْسَاخِ»(١٠).

وَالزَّكَاةُ طَهَارَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ مِنْ مَشَاكِلِ الْفَقْرِ، وَاكْتِنَازِ الثَّرَوَاتِ، وَفُشُوِّ الطَّبَقِيَّةِ، وَزِيَادَةِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ إِنَّمَا يُقْضَىٰ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ حَقًّا لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ.

---

(٩) أخرجه مالك (٢/ ١٠٠١).

(١٠) شرح مسلم (٧/ ١٧٩).

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: «وخرج قوله «أوساخ الناس» مخرج المثل السائر المضروب في كراهة الصدقة لمن وجد عنها غنىٰ، ومعناه يقتضي وجهين يعضدهما الأصول:

أحدهما: أن الأوساخ التي ضرب بها المثل هي علىٰ الغني حرام؛ لأن الكلام خرج علىٰ الصدقة المفروضة وهي لا تحل للأغنياء.

والوجه الآخر: أن الصدقة كلها مكروهة لكل من يجد عنها بدا بقوته علىٰ الاكتساب والتخوف في طلب الرزق، وإن كان فقيرا فقد أوضحنا المعنىٰ الذي يحرم الصدقة علىٰ السائل فيما تقدم» الاستذكار (٨/ ٦١٤-٦١٥).

وقال العيني -رحمه الله تعالىٰ- في عمدة القاري (٩/ ٨٧): «الحكمة في تحريمها عليهم:

١- أنها مطهرة للملاك ولأموالهم، قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فهي كغسالة الأوساخ، وأن آل محمد منزهون عن أوساخ الناس وغسالاتهم.

٢- وإما أن أخذها مذلة، ولا يليق بهم الذل والافتقار إلىٰ غير الله تعالىٰ، ولهم اليد العليا.

٣- وإما أنها لو أخذوها لطال لسان الأعداء بأن محمدا يدعونا إلىٰ ما يدعونا إليه؛ ليأخذ أموالنا ويعطيها لأهل بيته، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]».

وَيَنْتِجُ عَنْهَا أَيْضًا: تَطْهِيرُ الْمُجْتَمَعِ مِنْ جَرَائِمِ السَّرِقَةِ وَالنَّهْبِ وَالنَّشْلِ وَالْغَصْبِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْجُهِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَإِنَّ الْمُحْتَاجِينَ إِنْ جَاءَهُمُ الْمَالُ مِنَ الْأَوْجُهِ الْمَشْرُوعَةِ، لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَىٰ تَحْصِيلِهِ بِطُرُقٍ مُحَرَّمَةٍ.

وَأَمَّا التَّزْكِيَةُ فَهِيَ الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ فَالزَّكَاةُ دَلِيلُ الطَّاعَةِ، وَعُنْوَانُ الْإِخْلَاصِ، وَلَا يُخْرِجُهَا سَخِيَّةً بِهَا نَفْسُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، صَادِقٌ فِي إِيمَانِهِ، مُخْلِصٌ لِدِينِهِ؛ وَلِذَا نَفَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ أَدَاءَ الزَّكَاةِ، فَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّهُمْ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ لِفَقْدِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦-٧].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالزَّكَاةُ تَتَضَمَّنُ الطَّهَارَةَ؛ فَإِنَّ فِيهَا مَعْنَىٰ تَرْكِ السَّيِّئَاتِ، وَمَعْنَىٰ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ؛ وَلِهَذَا تُفَسَّرُ تَارَةً بِالطَّهَارَةِ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ وَالنَّمَاءِ، وَمَعْنَاهَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ . . . فَالصَّدَقَةُ تُوجِبُ الطَّهَارَةَ مِنَ الذُّنُوبِ وَتُوجِبُ الزَّكَاةَ الَّتِي هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ» اهـ(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي دِينِهِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَأَنْ يَقِيَنَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَانَا فِي قُلُوبِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



(١١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٣٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنْ نَظَرَ فِي وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ وَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ قَصَّرُوا كَثِيرًا تُجَاهَ هَذَا الرُّكْنِ الرَّكِينِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَشَحَّتْ نُفُوسُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عَنْ أَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَعُوقِبُوا بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي يَبْحَثُونَ لَهَا عَنْ حُلُولٍ فَلَا يَجِدُونَ أَيَّ حَلٍّ.

انْظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ كَثْرَةِ الْأَسْوَاقِ وَالمَحِلَّاتِ التِّجَارِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْسُبُوا أَعْدَادَ الشَّرِكَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ؛ تَجِدُوا أَنَّهَا أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْأُسَرِ الْفَقِيرَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ، ثُمَّ انْظُرُوا إِلَىٰ حِسَابَاتِ كِبَارِ التُّجَّارِ، وَأَبَاطِرَةِ المَالِ؛ تَجِدُوا أَنَّهَا تُقَارِبُ مُوَازَنَاتِ دُوَلٍ كَامِلَةٍ، فَلَوْ أَخْرَجَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ مَا أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنْ زَكَاةٍ لَمَا بَقِيَ فِي النَّاسِ فَقِيرٌ وَلَا مُحْتَاجٌ!!

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ كُلِّ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ، أَوْ قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَىٰ، أَوْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ، أَوْ أُسْرَةٍ مِنَ الْأُسَرِ؛ وَجَدَ أَنَّ فِيهَا أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَأَنَّ زَكَاةَ أَغْنِيَائِهِمْ تَسُدُّ حَاجَةَ فُقَرَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ، فَلَوْ رَدُّوا صَدَقَاتِهِمْ عَلَيْهِمْ لَكَانَتْ صَدَقَةً وَصِلَةً، وَلَأَغْنَوْهُمْ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَلَكَانَ كُلُّ قَرِيبٍ وَجَارٍ كَفِيلًا بِقَرِيبِهِ وَجَارِهِ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَهَرَ الِاقْتِصَادُ، وَتَحَرَّكَتْ أَسْوَاقُ المَالِ وَالْأَعْمَالُ، وَكَثُرَتْ مَصَادِرُ الدَّخْلِ، وَاكْتَشَفَتِ الدُّوَلُ مَنَابِعَ أُخْرَىٰ لِلثَّرْوَةِ؛ ازْدَادَ الْفَقْرُ فِي

النَّاسِ، وَانْضَمَّ أُنَاسٌ جُدُدٌ إِلَىٰ قَوَائِمِ الْفُقَرَاءِ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْحِسَابَاتِ الْبَشَرِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَالُ بِعَكْسِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ السُّنَنَ الرَّبَّانِيَّةَ وَالنَّوَامِيسَ الْكَوْنِيَّةَ لَا تَخْتَلُّ وَلَا تُخْطِئُ؛ فَإِنَّ تَلَوُّثَ الْأَمْوَالِ بِالْكَسْبِ الْخَبِيثِ نَزَعَ الْبَرَكَةَ مِنْهَا، وَجَعَلَ عَاقِبَتَهَا إِلَىٰ مَحْقٍ وَقِلَّةٍ، وَإِنَّ التَّقَاعُسَ عَنْ إِخْرَاجِ زَكَاتِهَا أَوْقَفَ نَمَاءَهَا وَزِيَادَتَهَا، وَزَادَ مِنْ مَحْقِهَا وَقِلَّتِهَا وَإِنْ بَدَا لِلنَّاسِ فِي الظَّاهِرِ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَزْدَادُ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٩]، فَتَضْعِيفُ المَالِ وَبَرَكَتُهُ إِنَّمَا تَكُونُ بِتَطْهِيرِهِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَتَزْكِيَتُهُ بِالزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ، وَالصَّدَقَةِ المَنْدُوبَةِ، وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ.

وَالْخَلَلُ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَعَ مُرَكَّبًا مِنْ جِهَتَيْنِ، وَهَذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَعْفِ وَظِيفَتِهَا الَّتِي شُرِعَتِ الزَّكَاةُ مِنْ أَجْلِهَا، فَلَا أَغْنَتِ الْفُقَرَاءَ رَغْمَ كَثْرَةِ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا رَفَعَتِ الضَّائِقَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةَ عَنِ النَّاسِ.

أَمَّا الْجِهَةُ الْأُولَىٰ: فَكَثِيرٌ مِنْ مُلَّاكِ الْأَمْوَالِ لَا يُخْرِجُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيَتَحَايَلُونَ لِإِسْقَاطِهَا بِشَتَّىٰ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، فَمَا نَفَعَتْ أَمْوَالُهُمْ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَلَا سَدَّتْ حَاجَاتِ فُقَرَائِهِمْ.

وَأَمَّا الْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ مَنْ أَخْرَجُوا صَدَقَاتِهِمْ لَمْ يَضَعُوهَا فِي أَيْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّونَهَا، بَلْ جَامَلُوا مَنْ يَعْرِفُونَ بِهَا، أَوْ دَفَعُوهَا إِلَىٰ أَقْرَبِ سَائِلٍ تَخَلُّصًا مِنْهَا، فَانْبَرَىٰ لِذَلِكَ تُجَّارٌ يُتَاجِرُونَ بِالزَّكَاةِ، وَيَتَلَمَّسُونَهَا عِنْدَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْكُبَرَاءِ، وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الِاسْتِحْقَاقِ.

وَبَعْضُ مَنْ وُكِّلُوا بِالزَّكَاةِ مِنْ قِبَلِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْكُبَرَاءِ رَأَوْا أَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرَفِ وَالْعِزِّ وَالْجَاهِ، فَسَارُوا فِيهَا سِيرَةَ ذَوِي الْجَاهِ، وَطَلَبُوا بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ

شَرَفًا وَجَاهًا لَمْ يُحَصِّلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ، فَأَحَبُّوا أَنْ يَطَأَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، وَأَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ؛ لِتَحْصِيلِ مَا يُحَصِّلُونَهُ مِنْهُمْ مِنْ زَكَاةٍ هُمْ وُكَلَاءُ فِيهَا، وَسَيَسْأَلُهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا، فَازْدَحَمَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ جَمْعِ الصَّدَقَاتِ حِرْفَةً وَتِجَارَةً، وَعَفَّ عَنْهُمْ أَهْلُ الْعَفَافِ وَالْحَيَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَالًا، وَعَلَىٰ مَنْ كَانَ وَكِيلًا فِي الزَّكَاةِ أَنْ يَبْحَثُوا هُمْ عَنِ الْمُحْتَاجِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مَنِ اتَّخَذُوا مِنَ السُّؤَالِ حِرْفَةً وَتِجَارَةً.

وَمَنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ فَلْيَدْفَعْ زَكَاتَهُ إِلَىٰ ثِقَةٍ أَمِينٍ يَضَعُهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَا يَبْتَغِي بِهَا شَرَفًا وَلَا جَاهًا. وَمَنْ عَجَزَ عَنْ تَلَمُّسِ الْمُحْتَاجِينَ الْمُتَعَفِّفِينَ فَلَا يَجْعَلْ مِنْ نَفْسِهِ وَكِيلًا عَلَىٰ زَكَاةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِيصَالِهَا إِلَىٰ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَيَدْفَعُهَا إِلَىٰ غَنِيٍّ عَنْهَا، إِمَّا مُجَامَلَةً لَهُ، أَوْ كَسَلًا فِي الْبَحْثِ عَنْ مَدَىٰ حَاجَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



الفهرس

مركز البيان للبحوث والدراسات
Al-Bayan Center for Research and Studies
٢١٤

ملتقى الخطباء
www.KHUTABAA.com

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء السابع
المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٧)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٧)

www.albayan-magazine.com

الريـــاض:هـــاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة : ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢_ ٠٥٠٢٢١٩٢٠_ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦_ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥_ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جـدة : ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والـمدينـة : ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقـــة الشرقيـــة : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصـيـــم : ٠٥٠٢٢٠٦١٦

رمضان والحج

٢٤٥- رمضان وأبواب الجنة.

٢٤٦- رمضان والبركة.

٢٤٧- رمضان والإيمان.

٢٤٨- رمضان والمغفرة.

٢٤٩- رمضان وسلامة القلوب.

٢٥٠- افتقارنا إلى الله تعالى.

٢٥١- رمضان والعفو (٢).

٢٥٢- العشر والدعاء (٣).

٢٥٣- فضل صلاة التهجد (١).

٢٥٤- فضل صلاة التهجد (٢).

٢٥٥- في ختام رمضام مفلحون وغافلون.

٢٥٦- وداع رمضان.

٢٥٧- من أحكام العيد.

٢٥٨- خطبة عيد الفطر المبارك: موقفنا من الأحداث المعاصرة (٣).

٢٤٥- رمضان وأبواب الجنة

١/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ بَلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ .. أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ؛ فَقَدْ بَلَّغَنَا رَمَضَانَ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَفَاضَ عَلَيْنَا مِنَ النِّعَمِ بِلَا نُقْصَانٍ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ عَبْدٍ مُذْنِبٍ لَا مَفَرَّ لَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الزَّمَانَ، وَأَجْرَى الْأَيَّامَ، وَكَتَبَ الْآجَالَ؛ فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ أَوَّلٍ بِلَا ابْتِدَاءٍ، وَآخِرٍ بِلَا انْتِهَاءٍ، يَفْنَى الْوُجُودُ سِوَاهُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، خَيْرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ، وَنَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ أَدْرَكْتُمْ شَهْرَ التَّقْوَى .. احْمَدُوا اللهَ الَّذِي بَلَّغَكُمْ إِيَّاهُ، وَأَرُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ بَشَرًا كَثِيرًا قَدْ حُرِمُوا خَيْرَ رَمَضَانَ، وَإِنَّ إِخْوَانًا لَكُمْ مُسْلِمِينَ طَالَمَا تَمَنَّوْا إِدْرَاكَهُ، عَاجَلَتْهُمُ الْمَنَايَا قَبْلَ بُلُوغِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، مَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ، وَمَنْ صُرِفَ عَنْهَا حُرِمَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ بِالطَّاعَةِ وَسُرُورُ الْقَلْبِ بِالْعِبَادَةِ يَجِدُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ طَائِعٍ لِرَبِّهِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي المَوَاسِمِ الْعَظِيمَةِ كَشَهْرِ رَمَضَانَ؛ إِذْ يَجِدُ أَكْثَرُ المُسْلِمِينَ لَذَّةً فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَام، وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ مَا لَا يَجِدُونَهُ فِي الشُّهُورِ الْأُخْرَى.

وَكَمَا أَنَّ لِجَنَّةِ الْآخِرَةِ أَبْوَابًا يَدْخُلُ مِنْهَا أَهْلُوهَا؛ فَإِنَّ لِجَنَّةِ الدُّنْيَا أَبْوَابًا، وَأَبْوَابُهَا الطَّاعَاتُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالمَنْدُوبَاتِ.

وَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةٌ كَمَا فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَقَدْ جَاءَ تَعْدَادُ بَعْضِ أَبْوَابِ الجَنَّةِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ؛ فَالصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] (٣٢٥٢)، ومسلم واللفظ له في الإيمان، باب الدليل على أنَّ مَنْ مَاتَ على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤)، وأبو داود في الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا توضأ (١٦٩)، والترمذي في الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء (٥٥)، والنسائي في الكبرى (١٤١)، وأحمد (٤/ ١٥٣).

وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ . .**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَمَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّ لَهُمْ بَابًا يَخْتَصُّونَ بِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «. . **فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

وَأَوَّلُ مَنْ يَطْرُقُ بَابَ الْجَنَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

فَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ، فَيَفْتَحُونَ لِي، وَيُرَحِّبُونَ بِي، فَيَقُولُونَ مَرْحَبًا**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٦).

---

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب الريان للصائمين (١٧٩٨)، ومسلم في الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر (١٠٢٧).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير: «تفسير سورة الإسراء»، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (٤٤٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٦)، وأبو يعلى (٣٩٦٤)، وابن حبان (٦٤٨١).

(٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨)، والدارمي (٥٠)، وأبو يعلى (٣٩٨٩)، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ضعيف، لكن الحديث يتقوى برواية مسلم المذكورة قبله وهي عن أنس أيضًا.

وَهِيَ أَبْوَابٌ عَظِيمَةٌ وَاسِعَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الجَنَّةِ وَسَعَتِهَا، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ فَكَذَلِكَ أَبْوَابُهَا، وَكُلَّمَا كَانَتِ الجَنَّةُ أَعْلَى كَانَتْ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ، وَكَانَتْ أَبْوَابُهَا أَعْظَمَ وَأَوْسَعَ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «**أَنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ سَبْعِ سِنِينَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «**مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ عَامًا**»(٨).

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ سَعَةُ أَبْوَابِهَا، فَكَيْفَ بِسَعَتِهَا وَسَعَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُصُورِ وَالْأَنْهَارِ؟! جَعَلَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا . . آمِينْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَبْوَابُ الجَنَّةِ الْوَاسِعَةُ الَّتِي تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ، وَتَشْتَاقُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ؛

---

(٧) هو نفس حديث أبي هريرة المخرج في حاشية (٤)، لكن جاء في رواية البخاري: «**كما بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَر أو كَما بين مَكَّةَ وَبُصْرَى**»، وجاء في رواية مسلم: «**لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أو كما بين مَكَّةَ وبُصْرَى**».

(٨) أخرجه من حديث معاوية بن قرة رضي الله عنه: ابن حبان (٧٣٨٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٣٩).
وأخرجه بلفظ «مسيرة سبعين عامًا»: أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥).
وأخرجه بلفظ: «مسيرة أربعين عامًا»: أحمد (٥/ ٣).
والحديث إسناده حسن، لكن لتفاوت المدة المذكورة في الروايات حكم عليه ابن القيم بالاضطراب في حادي الأرواح (٩٢).
وفي موضع آخر جمع ابن القيم بين الروايات جمعًا حسنًا بأن سعة الجنة تختلف باختلاف الجنان، فكلما كانت الجنة أعلى كانت أبوابها أوسع، فقال رحمه الله تعالى: «وكلما عَلَتِ الجَنَّة اتَّسَعَتْ، فَعَالِيها أَوْسَعُ مِمَّا دُونَهُ، وسعة الباب بحسب وسع الجَنَّةِ، ولَعَلَّ هذا وَجْهُ الخِلَاف الذي جاء في مسافَةِ مَا بَيْنَ مصْرَاعي الباب» اهـ من حادي الأرواح (٩٦).

سَتَكُونُ مُزْدَحِمَةً بِالدَّاخِلِينَ؛ كَمَا قَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ رضي الله عنه: «**وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَنِصْفُ الدَّاخِلِينَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ الْعَظِيمَةِ هُمْ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠)، وَالرَّجَاءُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى إِكْرَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَنْ يَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَعَلى أَنْ جَعَلَنَا مِنْهَا.

وَأَوَّلُ شَيْءٍ يُسْتَقْبَلُ بِهِ المُؤْمِنُونَ إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالسَّلَامِ وَالْخُلُودِ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]

---

(٩) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٧)، وأحمد (٥/ ٦١)، وابن حبان (٧١٢١)، والحاكم (٣/ ٢٩٢)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١١٤) برقم (٢٨٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٠١).

(١٠) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠)، ومسلم في الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أَخْرِجْ بَعْثَ النار، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْع مئة وتسعة وتسعين (٢٢٢)، وجاء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه عند البخاري (٦١٦٣)، ومسلم (٢٢١).
ومعنى آخر الحديث: أي: نسبتكم في المشركين قليلة جدًّا؛ كما جاء مفسرًا في الرواية الأخرى للبخاري (٦١٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيها: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ**».

فَبَدَأَهُمْ خَزَنَتُهَا بِالسَّلَامِ المُتَضَمِّنِ لِلسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَمَكْرُوهٍ، أَيْ: سَلِمْتُمْ فَلَا يَلْحَقُكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ مَا تَكْرَهُونَ.

وَتَظَلُّ أَبْوَابُهَا مُفَتَّحَةً؛ لِأَنَّهَا دَارُ أَمْنٍ لَا خَوْفَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا تُغْلَقُ الْأَبْوَابُ خَوْفًا مِنْ شَيْءٍ، وَلَا خَوْفَ فِي الْجَنَّةِ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [سورة ص: ٥٠، ٥١].

وَفِي تَفْتِيحِ أَبْوَابِهَا لَهُمْ إِشَارَةٌ إِلَى تَصَرُّفِهِمْ وَذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ وَتَبَوُّئِهِمْ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاؤُوا، وَدُخُولِ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ بِالتُّحَفِ وَالْأَلْطَافِ وَالنَّعِيمِ مِنْ رَبِّهِمْ، وَدُخُولِ مَا يَسُرُّهُمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِينٍ(١١)، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

بِخِلَافِ حَالِ أَهْلِ النَّارِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا- فَإِنَّ أَبْوَابَهَا تُغْلَقُ عَلَيْهِمْ؛ لِيَشْتَدَّ عَذَابُهُمْ، وَيَعْظُمَ حُزْنُهُمْ، وَيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهُمْ فِي الْخُرُوجِ مِنْهَا؛ وَلِتَبْقَى مَعَهُمْ حَسْرَتُهُمْ وَنَدَامَتُهُمْ فِي نَارٍ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٦-٩] أَيْ: مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْبَابُ وَصِيدًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

يَصِيحُونَ فِيهَا سَائِلِينَ رَبَّهُمْ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فَيَكُونُ جَوَابُ سُؤَالِهِمْ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُمْ، وَفَسَادَ قُلُوبِهِمْ، وَاسْتِكْبَارَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ﷻ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أُخْرِجُوا مِنْهَا لَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١١) حادي الأرواح (٨٥).

فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا مِنْ أَهْلِ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٦-٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْآجَالَ مَحْدُودَةٌ، وَالْأَعْمَارَ مَعْدُودَةٌ، وَكَمَا يَبْتَدِئُ الْيَوْمَ رَمَضَانُ فَإِنَّهُ قَرِيبًا سَيَنْتَهِي، وَالْعِبْرَةُ بِمَا اسْتَوْدَعَ الْإِنْسَانُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ، خَيْرًا كَانَتْ أَمْ شَرًّا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ بَيْنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَبَيْنَ رَمَضَانَ وَشَعِيرَةِ الصِّيَامِ عَلَاقَةً وَثِيقَةً؛ فَأَبْوَابُ الْجَنَّةِ تُفْتَحُ فِي رَمَضَانَ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: «**فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ**»(١٢).

---

(١٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله =

وَذَلِكَ يَكُونُ طَوَالَ شَهْرِ رَمَضَانَ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، الشَّهْرَ كُلَّهُ**»(١٣).

وَلِفَضْلِ الصِّيَامِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَعَلَهُ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَاخْتَصَّهُ بِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الصِّيَامِ، وَعُرِفَ بِهِ؛ كَمَا رَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُه إِلَّا الصَّائِمُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**»(١٥)، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**مَنْ دَخَلَ فِيهِ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا**»(١٦).

وَالرَّيَّانُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيِّ، وَهُوَ ضِدُّ الْعَطَشِ، فَكَمَا أَنَّ الصَّائِمَ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنْ

= واسعًا (١٧٩٩)، ومسلم في الصيام، باب فضل شهر رمضان (١٠٧٩).
والرواية الثانية للترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان (٦٨٢)، وابن ماجه في الصيام، باب ما جاء في فضل شهر رمضان (١٦٤٢)، وصححها ابن خزيمة (١٨٨٣)، وابن حبان (٣٤٣٥)، والحاكم (١/ ٥٨٢).

(١٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٣٨٥)، وذكره الحافظ في الفتح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وعزاه للبيهقي (٤/ ١١٤).

(١٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة (٣٠٨٤)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥٢).

(١٥) هذه الرواية للبخاري في الصوم، باب الريان للصائمين (١٧٩٧).

(١٦) هذه الرواية للنسائي في الصوم، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصائم (٤/ ١٦٨).

مُشْتَهَيَاتِهَا وَأَعْظَمُهَا المَاءُ؛ كَانَ جَزَاؤُهُ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، فَيَشْرَبَ وَلَا يَظْمَأَ أَبَدًا(١٧).

إِنَّ مَا اخْتُصَّ بِهِ رَمَضَانُ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَغَلْقِ أَبْوَابِ النَّارِ، وَتَصْفِيدِ الشَّيَاطِينِ إِنَّمَا هُوَ خَاصٌّ بِالمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ رَمَضَانَ، وَيَقُومُونَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ الإِفْطَارَ فِيهِ، وَلَا يَرَوْنَ لَهُ حُرْمَةً وَلَا مَزِيَّةً؛ فَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَلَا تُغْلَقُ عَنْهُمْ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ، وَلَا تُصَفَّدُ شَيَاطِينُهُمْ(١٨).

وَمَنْ شَابَهَ الْكُفَّارَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ، وَإِتْيَانِ المُفْطِرَاتِ، أَوْ فَعَلَ مَا يُبْطِلُ الصِّيَامَ أَوْ يَخْرِقُهُ مِنَ الْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَشُهُودِ مَجَالِسِهِ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ فَوَاتِ هَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ تُغْلَقَ دُونَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَأَنْ تُفْتَحَ لَهُ أَبْوَابُ النَّارِ، وَأَنْ تُطْلَقَ شَيَاطِينُهُ.

وَإِنَّ حَالَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّائِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَيُنْبِئُ عَنْ حَالٍ مُحْزِنَةٍ أَلِيمَةٍ؛ إِذْ يَسْتَبْشِرُ أَكْثَرُهُمْ بِرَمَضَانَ لَا لِأَجْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَإِحْيَاءِ اللَّيْلِ بِالصَّلَاةِ وَالْقِيَامِ، وَبَذْلِ المَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ؛ وَإِنَّمَا لِأَجْلِ مَا يُبَشِّرُهُمْ بِهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ مِنْ قَوْلٍ بَذِيءٍ، وَتَرْفِيهٍ غَيْرِ بَرِيءٍ، عَبْرَ بَرَامِجَ وَمُسَلْسَلَاتٍ صُنِعَتْ خِصِّيصًا لِرَمَضَانَ، فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ اسْتِهْزَاءٍ بِمِلَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَشَعَائِرِهِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، مَعَ مَشَاهِدَ خَلِيعَةٍ يَخْجَلُ ذَوُو المُرُوءَةِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهَا، يُصَاحِبُهَا مَعَازِفُ تُزَاحِمُ الْقُرْآنَ فِي لَيَالِي تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ! فَوَاعَجَبًا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ كَيْفَ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ

(١٧) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/ ١١١)، وقال القرطبي: «اكتفى بذكر الري عن الشبع؛ لأنه يدل عليه من حيث إنه يستلزمه»، قال الحافظ: «أو لكونه أشق على الصائم من الجوع» اهـ من الفتح.

(١٨) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ١٣١-٤٧٤).

لِأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ؟! وَأَيْنَ هِيَ غَيْرَتُهُمْ عَلَى أُسَرِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَى مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ عَلَّلَ اخْتِصَاصَهُ بِالْجَزَاءِ عَلَى الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي**»(١٩)، وَهَذَا فِي الشَّهْوَةِ الْحَلَالِ فِي غَيْرِ الصَّوْمِ، فَكَيْفَ بِمَنِ اسْتَبَاحَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْمُعَظَّمِ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ؛ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ، وَسَمَاعِهِ، وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ، وَالرِّضَا بِهِ، وَالتَّفَكُّهِ عَلَيْهِ؟!

فَأَيْنَ مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَرَجَا أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ؛ فَيَشْرَبَ وَلَا يَظْمَأَ أَبَدًا؟! هَلْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُطْلِقَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَجَوَارِحَهُ لِمَا تَبُثُّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّاشَاتُ الْمُدَمِّرَةُ، بِقَنَوَاتِهَا الْمُفْسِدَةِ، وَبَرَامِجِهَا الْمُحَرَّمَةِ؟ وَلِمَاذَا لَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ الْمُحَرَّمَةَ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى؟ لِيَتَوَلَّى الرَّبُّ جَزَاءَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فِي فَاتِحَةِ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، شَهْرِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَاصْبِرُوا عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي أَوْلَادِكُمْ وَأُسَرِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشَاهِدُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ بِرِضَاكُمْ .. مُرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَانْهُوهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاقْصُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، وَأْطُرُوهُمْ عَلَيْه أَطْرًا؛ عَسَى أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ فِي هَذَا الْمَوْسِمِ الْكَرِيمِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



---

(١٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الصوم، باب فضل الصوم (١٧٩٥)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

٢٤٦- رمضان والبركة

٨/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عُمْرُ الإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا مَحْدُودٌ بِسَنَوَاتٍ قَلَائِلَ، وَلَدَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالمَشَاغِلِ مَا يَسْتَوْعِبُ عُمُرَهُ وَزِيَادَةً، وَمَا مِنْ مَقْبُورٍ إِلَّا لَهُ مَشَاغِلُ لَمْ يَقْضِهَا، وَأَعْمَالٌ كَانَ يَوَدُّ الْقِيَامَ بِهَا، وَلَكِنْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا نِهَايَةُ أَجَلِهِ.

وَالعِبَادَاتُ كَثِيرَةٌ، وَسُبُلُهَا عَدِيدَةٌ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى القِيَامِ بِكُلِّ النَّوَافِلِ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ؛ فَإِنْ فُتِحَ لِلْعَبْدِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ العِبَادَةِ أُغْلِقَتْ دُونَهُ أَبْوَابٌ أُخْرَى، وَمَشَاغِلُ دُنْيَاهُ تُزَاحِمُ أَعْمَالَ آخِرَتِهِ.

وَلِذَا كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ: أَنْ يُبَارِكَ لِلْعَبْدِ فِي وَقْتِهِ وَعُمْرِهِ، وَفِي جَسَدِهِ

وَرِزْقِهِ؛ حَتَّى يُنْجِزَ فِي الْوَقْتِ الْقَلِيلِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ فِي وَقْتٍ طَوِيلٍ، وَحَتَّى يَكُونَ لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، مَعَ عَدَمِ انْقِطَاعِهِ عَنِ الدُّنْيَا، وَأَخْذِ حَظِّهِ مِنْهَا، تِلْكَ هِيَ الْبَرَكَةُ، وَمَعْنَاهَا: ثُبُوتُ الْخَيْرِ وَدَوَامُهُ وَكَثْرَتُهُ وَتَتَابُعُهُ(١).

وَالْبَرَكَةُ تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكُ الْمُلْكِ، وَخَالِقُ الْخَلْقِ، إِذَا أَرَادَ بَرَكَةَ شَيْءٍ تَبَارَكَ وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا، وَإِذَا نَزَعَ الْبَرَكَةَ مِنْ شَيْءٍ تَمَاحَقَ مَهْمَا كَانَ كَثِيرًا، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي إِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ ثُمَّ قَالَ: «**حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، فَنَبَعَ المَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ﷺ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلَمْ يَأْتِ إِسْنَادُ الْبَرَكَةِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكُهَا وَمَانِحُهَا وَنَازِعُهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

وَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ إِسْحَاقَ بِهِ عليه السلام وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ مَا بَلَغَتْ، وَعَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ؛ قَالَ لَهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ عليهم السلام: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

وَكَانَ مِنْ ثَنَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي اسْتِفْتَاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ قَوْلُهُ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

---

(١) ينظر: الوسيط للواحدي (٢/ ٢٩٨) وتفسير القرطبي (١١/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٨٦)، والدارمي (٢٩)، وأحمد (١/ ٤٠١)، وابن حبان (٦٥٤٠).

(٣) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء =

19

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّم -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُلُّ كَمَالٍ وَخَيْرٍ فِي المَوْجُودَاتِ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ خَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَمَالِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهِيَ تُسْتَمَدُّ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَسْتَمِدُّ مِنْهَا، وَهِيَ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، كُلٌّ مِنْهَا يَسْأَلُهُ كَمَالَهُ؛ فَالمَلَائِكَةُ تَسْأَلُهُ مَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِلَّا بِهِ، وَإِعَانَتَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَنْفِيذَ أَوَامِرِهِ . . . وَالرُّسُلُ تَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَتَبْلِيغِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَبَنُو آدَمَ كُلُّهُمْ يَسْأَلُونَهُ مَصَالِحَهُمْ عَلَى تَنَوُّعِهَا وَاخْتِلَافِهَا، وَالْحَيَوانُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ رِزْقَهُ وَغِذَاءَهُ وَقُوتَهُ وَمَا يُقِيمُهُ، وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ يَسْأَلُهُ غِذَاءَهُ وَمَا يَكْمُلُ بِهِ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ يَسْأَلُهُ إِمْدَادَهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩] فَأَكُفُّ جَمِيعِ الْعَالَمِ مُمْتَدَّةٌ إِلَيْهِ بِالطَّلَبِ وَالسُّؤَالِ، وَيَدُهُ مَبْسُوطَةٌ لَهُمْ بِالْعَطَاءِ وَالنَّوَالِ، «**يَمِينُهُ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»(٤) وَعَطَاؤُهُ وَخَيْرُهُ مَبْذُولٌ لِلْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، لَهُ كُلُّ كَمَالٍ، وَمِنْهُ كُلُّ خَيْرٍ، لَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ كُلُّهُ، وَبِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَوْصَافُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَفْعَالُهُ، وَتَبَارَكَتْ ذَاتُهُ، فَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا لَهُ وَمِنْهُ، لَا يَتَعَاظَمُهُ خَيْرٌ سُئِلَهُ، وَلَا تَنْقُصُ خَزَائِنُهُ عَلَى كَثْرَةِ عَطَائِهِ وَبَذْلِهِ» اهـ(٥).

= (٧٦٠-٧٦١)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢٢)، والنسائي في الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة (٢/ ١٢٩)، وفي السنن الكبرى (٩٧١)، وأحمد (١/ ١٠٢)، والدارمي (١٢٣٨)، والطيالسي (١٥٢)، وابن الجارود في المنتقى (١٧٩)، وأبو يعلى (٥٧٤).

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] (٦٩٧٦)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

(٥) شفاء العليل(١٨٣-١٨٤).

وَالْبَرَكَةُ قَدْ تَكُونُ خَاصَّةً بِأُمُورِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تَجْمَعُ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْغَيْثُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ فِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ مَا يُحْيِي الْأَرْضَ، وَتَشْرَبُ مِنْهُ الْأَحْيَاءُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ؛ وَلِذَا يَفْرَحُ الْخَلْقُ بِنُزُولِهِ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَقَد جَاءَ وَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [سورة ق: ٩-١١].

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى هَادِيًا لِلنَّاسِ، وَهُوَ بَرَكَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَاءَ وَصْفُهُ بِالْبَرَكَةِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وَوُصِفَ بِالْبَرَكَةِ لِأَنَّهُ كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ، وَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّى مُبارَكًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ(٦).

وَلِلْبَرَكَةِ أَسْبَابُهَا، مَنْ أَخَذَ بِهَا بَارَكَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي حَيَاتِهِ وَفِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَرِزْقِهِ، وَرَأْسُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ: تَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَمَنْ لَزِمَهَا فُتِحَتْ لَهُ الْخَيْرَاتُ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَاتُ، وَمَنْ فَرَّطَ فِيهَا نُزِعَ مِنْهُ مِنَ الْبَرَكَةِ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهَا؛ كَمَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ

(٦) ينظر: جلاء الأفهام لابن القيم (٣٠٤).

جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وَقَالَ هُودٌ عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَمُدُّ فِي الْعُمُرِ، وَتَزِيدُ فِي الرِّزْقِ «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٧)، وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَمْحَقُ الْبَرَكَةَ فِي الْأَعْمَارِ وَالْأَرْزَاقِ: الذُّنُوبُ وَالمَعَاصِي؛ حَتَّى إِنَّ سَلْبَ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا وَثِمَارِهَا وَنَبَاتِهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ نَتَائِجِ عِصْيَانِ بَنِي آدَمَ.

وَيَطُولُ أَثَرُ نَزْعِ الْبَرَكَةِ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا: الْحَيَوانَ، فَيَتَضَرَّرُ بِقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِي طَعَامِهِ، وَلَرُبَّمَا نَفَقَتِ الْحَيَوانَاتُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب مَنْ بُسِطَ له في الرِّزْقِ بِصِلَةِ الرحم (٥٦٤٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧).

(٨) أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ١٥٩)، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦).

(٩) روى الطبري في تفسيره (٢/ ٥٥) عن مجاهد -رحمه الله تعالى- في قول الله سبحانه: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قال: «البهائم تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدَمَ حِينَ أَمْسَكَ اللهُ عَنْهُمْ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ المَطَرَ فَتَخْرُجُ الْبَهَائِمُ فَتَلْعَنُهُمْ».
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤): «وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فالدَّوَابّ تَلْعَنُ عُصَاةَ بَنِي آدم فتقول: اللهم الْعَنْهُمْ فَبِسَبَبِهِمْ أَجْدَبَتِ الأَرْضُ وقحَطَ المَطَرُ» اهـ، وينظر أيضًا: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥)، والداء والدواء (٣٨).

وَتعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالمَالِ سَبَبٌ لِمَحْقِ بَرَكَتِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَتَلْوِيثُ المَالِ بِالرِّبَا أَوِ الرِّشَا أَوِ المُعَامَلَاتِ المُحَرَّمَةِ وَالْكَذِبِ فِي التِّجَارَةِ أَوِ الْغِشِّ فِي المُعَامَلَاتِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ مَحْقِ بَرَكَةِ المَالِ ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْبَائِعِ وَالمُشْتَرِي: «**فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١١).

وَرَوَى الشَّيْخَانِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحَلِفُ مُنْفِقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**»(١٢).

وَمَا قَلَّتْ بَرَكَةُ الْأَعْمَارِ وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْوَالِ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَالتَّقْصِيرِ فِي تَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْبَرَكَةِ؛ حَتَّى كَثُرَتِ الْأَمْوَالُ فِي أَيْدِي النَّاسِ وَلَكِنَّهَا لَا تَكْفِيهِمْ! وَتَنَوَّعَتْ وَسَائِلُ الِاتِّصَالِ وَالرَّاحَةِ وَلَكِنْ مَشَاغِلُهُمْ لَا تَتَّسِعُ لَهَا أَوْقَاتُهُمْ، وَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْعَى بِشِدَّةٍ، وَيُرْهِقُ نَفْسَهُ، وَيَسْتَنْفِذُ أَوْقَاتَهُ وَلَا يَرَى ثَمَرَةً لِهَذَا السَّعْيِ، وَلَمْ يُحَقِّقْ إِنْجَازًا يُذْكَرُ يُوَازِي سَعْيَهُ وَلُهَاثَهُ.

إِنَّهَا قِلَّةُ الْبَرَكَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَتْ قِلَّةَ مَوَارِدَ، وَلَا قِلَّةَ أَوْقَاتٍ، وَيُخْشَى

---

(١٠) أخرجه من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من السفلى (١٠٣٥).

(١١) أخرجه من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه: البخاري في البيوع، باب إذا بَيَّنَ البَيِّعان ولم يكتما ونصحا (١٩٧٣)، ومسلم في البيوع، باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢).

(١٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات (١٩٨١)، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع (١٦٠٦).

عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَكُونَ أَعْمَارُهُمْ مَمْحُوقَةَ الْبَرَكَةِ، فَتَمْضِي بِلَا طَائِلٍ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي أَوْقَاتِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَهْلِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا، وَفِي كُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَى الْبَرَكَةِ فِيهِ؛ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بِذَلِكَ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ الْبَرَكَةَ، وَكَانَ النَّاسُ فِي عَهْدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَخَذَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَأَنَا أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ**» قَالَ الرَّاوِي: ثُمَّ يَدْعُو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْغَرَ وَلِيدٍ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٣).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . .



(١٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو (٢٧٣٢).
وأخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ لها بالبركة، واللفظ له (١٣٧٣).
وجاء أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند: مسلم في الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ لها بالبركة (١٣٧٤)، ومن حديث عائشة عند البخاري (١٧٩٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُبَارِكُ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ الْبِقَاعِ فَتَكُونُ أَكْثَرَ بَرَكَةً مِنْ غَيْرِهَا؛ كَمَا بَارَكَ فِي مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ وَبَيْتِ المَقْدِسِ، وَيُبَارِكُ سُبْحَانَهُ فِي بَعْضِ الْأَشْهُرِ وَالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي فَيَكُونُ فِيهَا مِنَ الْبَرَكَةِ مَا لَيْسَ فِي سِوَاهَا، وَشَهْرُ رَمَضَانَ هُوَ خَيْرُ الشُّهُورِ وَأَكْثَرُهَا بَرَكَةً، وَقَدْ جَاءَ التَّنْصِيصُ عَلَى بَرَكَتِهِ فِيمَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ(١٤).

وَمِنْ بَرَكَتِهِ: فَتْحُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فِيهِ، وَغَلْقُ أَبْوَابِ النَّارِ، وَسَلْسَلَةُ الشَّيَاطِينِ. وَأَعْظَمُ لَيْلَةٍ فِيهِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ مُبَارَكَةٌ؛ بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَهُوَ كِتَابٌ مُبَارَكٌ، وَمَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَاجْتَمَعَتِ الْبَرَكَةُ فِيهَا مِنْ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ، وَوَصَفَهَا اللهُ تَعَالَى بِالْبَرَكَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالسُّحُورِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بَرَكَةٌ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَسَحَّرُوا**

(١٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢/ ٣٣٠)، والنسائي في الصيام، باب فضل شهر رمضان (٤/ ١٢٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١-٢)، وعبد بن حميد (١٤٢٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢٦٨٧)، والحديث بألفاظ أخرى في الصحيحين وغيرهما.

فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ[(١٥)] وَمِنْ بَرَكَةِ السَّحُورِ: أَنَّهُ يُقَوِّي عَلَى الصِّيَامِ، وَيُنَشِّطُ لَهُ، وَيُخَفِّفُ المَشَقَّةَ فِيهِ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ فِيهِ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَمُخَالَفَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَسَحَّرُونَ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»[(١٦)].

وَوَقْتُ السَّحَرِ وَقْتُ اسْتِغْفَارٍ وَدُعَاءٍ، فَمَنِ اسْتَيْقَظَ لَهُ تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَثْنَى عَلَى الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَثْوَاهُمُ الْجَنَّةُ.

وَفَوَائِدُ السُّحُورِ كَثِيرَةٌ، وَبَرَكَاتُهُ عَدِيدَةٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا حُصُولُ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَدُعَاءُ المَلَائِكَةِ -وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ المُقَرَّبُونَ- لَكَانَ حَرِيًّا بِالمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى أَكْلَةِ السَّحَرِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ؛ فَإِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ**»[(١٧)]، وَفِي

---

(١٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب (١٨٢٣)، ومسلم في الصيام، باب فضل السحور (١٠٩٥).

(١٦) أخرجه من حديث عمرو بن العاص ﷺ: مسلم في الصيام، باب فضل السحور (١٠٩٦)، وأبو داود في الصوم، باب في تأكيد السحور (٢٣٤٣)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل السحور (٨٠٧)، والنسائي في الصيام، باب فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب (٤/ ١٤٦)، وأحمد (٤/ ١٩٧)، والدارمي (١٦٩٧)، وعبد بن حميد (٢٩٣).

(١٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤)، وفي سنده أبو رفاعة مجهول، وبقية رجاله ثقات.

وللحديث شواهد أخرى يصح بها، منها: حديث ابن عمر عند ابن حبان (٣٤٦٧)، وحديث ابن مسعود عند أبي يعلى (٥٠٧٣)، وابن خزيمة (١٩٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).

لَفْظٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ السَّحُورَ بَرَكَةٌ أَعْطَاكُمُوهَا اللهُ ﷻ فَلَا تَدَعُوهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٨).

وَالْإِفْطَارُ عَلَى التَّمْرِ إِفْطَارٌ عَلَى شَيْءٍ مُبَارَكٍ، وَقَدْ ثَبَتَ طِبِّيًّا مَا لِلْإِفْطَارِ عَلَى التَّمْرِ مِنَ المَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ عَلَى الْجِسْمِ وَآلَاتِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٩).

فَبَانَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ رَمَضَانَ شَهْرٌ مُبَارَكٌ، وَبَرَكَتُهُ تَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ فَهُوَ مُبَارَكٌ بِمَا يَقُومُ بِهِ الصَّائِمُونَ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَفَوْزِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى الْفُقَرَاءِ بِمَا يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ إِحْسَانٍ لَهُمْ وَالنَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ بِمَا يُخْرِجُونَ فِيهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَمَا يَبْذُلُونَهُ مِنَ المَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ . . وَهُوَ بَرَكَةٌ عَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ بِمَا يَقُومُونَ فِيهِ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ . . وَالسَّحُورُ فِيهِ بَرَكَةٌ . . وَالْإِفْطَارُ عَلَى رُطَبٍ أَوْ تَمْرٍ بَرَكَةٌ . . وَمِنْ أَعْظَمِ الْبَرَكَاتِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْفِرُ لِلصَّائِمِينَ، وَيُعْتِقُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ . .

---

(١٨) أخرجه من حديث عبد الله بن الحارث عن رجل من الصحابة: أحمد (٥/ ٣٦٧)، والنسائي في الصيام، باب فضل السحور (٤/ ١٤٥)، وجهالة الصحابي لا تَضُرّ.

(١٩) أخرجه من حديث سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه: الترمذي في الصوم، باب ما جاء ما يستحب عليه الإفطار، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٦٩٥)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٣٣٢٠)، وأحمد (٤/ ١٧)، والطيالسي (١١٨١)، وصححه ابن خزيمة (٢٠٦٧)، وابن حبان (١٥١٤)، وجاء بنحوه عن أنس رضي الله عنه.

فَجِدُّوا فِيهِ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاجْتَهِدُوا؛ حَتَّى تَنَالُوا بَرَكَتَهُ، فَمَنْ فَاتَتْهُ بَرَكَاتُ هَذَا الشَّهْرِ فَهُوَ مَحْرُومٌ، قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِلنَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: آمِينَ»**(٢٠).

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .



(٢٠) أخرجه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: ابن حبان (٤٠٩)، والحاكم وصححه (٤/ ١٧٠).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٤٥)، وقال الترمذي: حسن غريب، وأحمد (٢/ ٢٥٤) وصححه ابن حبان (٩٠٨).

٢٤٧- رمضان والإيمان

٢/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ هَدَانَا لِلإِيمانِ، وَعَلَّمَنَا الْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا اجْتَبَانَا. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ إِلَيْنَا أَفْضَلَ رُسُلِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِخَاتِمَةِ كُتُبِهِ، وَهَدَانَا لِمَعَالِمِ دِينِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَاخْتَارَ لَهُ أُمَّتَهُ، فَكَانَ أَفْضَلَ نَبِيٍّ لِخَيْرِ أُمَّةٍ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ أُوتُوا الإِيمانَ قَبْلَ العِلْمِ وَالقُرْآنِ؛ فَقَوِيَ إِيمَانُهُمْ، وَصَلَحَتْ قُلُوبُهُمْ، وَزَكَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الإِيمانِ، وَإِدْرَاكِ رَمَضَانَ؛ فَكَمْ فِي القُبُورِ مِنْ أُنَاسٍ فَاتَهُمْ هَذَا المَوْسِمُ العَظِيمُ، فَفَاتَهُمْ مِنَ الخَيْرِ كَثِيرٌ، وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِاسْتِعْمَالِ نِعْمَتِهِ فِيمَا يُرْضِيهِ، وَعِمَارَةِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤٦٩٦)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس.. (١٥٢).

رَمَضَانَ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ زِيَادَةِ الإِيمَانِ، وَصَلَاحِ الْقُلُوبِ، وَتَمَامِ النِّعَمِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فَأَرُوا اللهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِي هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّكُمْ فِي بِدَايَتِهِ، وَمَنْ عَاشَ مِنْكُمْ أَدْرَكَ نِهَايَتَهُ، وَالأَيَّامُ تَمُرُّ سَوَاءً بِسَوَاءٍ عَلَى أَهْلِ التَّشْمِيرِ وَالطَّاعَةِ، وَعَلَى أَهْلِ التَّفْرِيطِ وَالمَعْصِيَةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْدِيَهُ لِلْإِيمَانِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ فَإِنَّ فِي الإِيمَانِ بِذَلِكَ رَاحَةَ الْقَلْبِ وَطُمْأَنِينَتَهُ، وَنُورَ الْبَصِيرَةِ وَنَفَاذَهَا، وَصِحَّةَ الْعَمَلِ وَاسْتِقَامَتَهُ؛ وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ فِي الأَرْضِ يَتَعَبَّدُونَ لِأَوْثَانِهِمْ عَلَى غَيْرِ هُدًى، فَمَا كَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَلَا كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالإِيمَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ؛ لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ سُبْحَانَهُ، وَلِنَجَاةِ نُفُوسِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ . . . [البقرة: ١٣٦].

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْبِرَّ الَّذِي يَطْلُبُهُ النَّاسُ إِنَّمَا هُوَ فِي الإِيمَانِ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ مَا أَعَدَّ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي الجَنَّةِ بَيَّنَ ﷻ أَنَّهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، وَنَوَّهَ ﷻ

بِدُعَائِهِمْ حِينَ قَالُوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وَأَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الجِنِّ لمَّا قَالُوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجنّ: ١٣]، بَلْ إِنَّهُمْ ﷺ دَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى الإِيمَانِ فَقَالُوا: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وَامْتَدَحَ ﷻ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لمَّا عَرَفُوا الْحَقَّ فِي الْإِسْلَامِ، وَتُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ فَفَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالدَّمْعِ خُشُوعًا وَتَصْدِيقًا، وَأَعْلَنُوا إِيمَانَهُمْ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَنَوَّهَ ﷻ بِسَحرةِ فِرْعَوْنَ لمَّا آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعُوا مُوسَى عليه السلام عِنْدَمَا اسْتَبَانَ لَهُمُ الحَقُّ، وَظَهَرَتْ لَهُمُ الْآيَاتُ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ خَبَرَهُمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، وَلمَّا هَدَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا تَأْكِيدًا لِإِيمَانِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى دِينِهِمْ؛ وَخَاطَبُوا فِرْعَوْنَ بِعِزَّةٍ وَإِبَاءٍ فَقَالُوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

وَالإِيمانُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنِ الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، كَمَا أَنَّ عَدَمَ الْإِيمَانِ سَبَبٌ لِهَلَاكِ النَّاسِ، وَمَا عُذِّبَتِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عليه السلام إِلَّا بِسَبَبِ رَفْضِهِمُ الْإِيمَانَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى، فِي حِينِ أَنَّ قَوْمَ يُونُسَ عليه السلام نُجُّوا مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ

فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ هُمُ الْأَتْبَاعُ الْحَقِيقِيُّونَ لِإِمَامِ الْحُنَفَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْفِيَاؤُهُ، المَخْصُوصُونَ بِبِشَارَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وَالإِيمانُ سَبَبٌ لِلْأَمْنِ وَالتَّثْبِيتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَكَانَ جَزَاؤُهُمْ فِي الآخِرَةِ عَلَى إِيمَانِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠، ١١].

وَالفِرْدَوْسُ الأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ هُوَ نُزُلُ مَنْ تَرَقَّوْا فِي إِيمَانِهِمْ إِلَى أَنْ حَازُوا كَمَالَهُ، أَوْ قَارَبُوا ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ بَعْضَ آثَارِ الإِيمَانِ وَنَتَائِجِهِ، أَفَلَا يَكُونُ الإِيمَانُ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ؟! بَلَى وَرَبِّي إِنَّهُ لَكَذَلِكَ.

وَالإِيمَانُ هُوَ الإِقْرَارُ بِمَا يَجِبُ الإِقْرَارُ بِهِ، وَهُوَ يَقُودُ إِلَى الْعَمَلِ؛ إِذْ لَيْسَ هُوَ

بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ(٢)، فَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنَ الإِيمَانِ، وَهِيَ بَرَاهِينُ عَلَيْهِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَلَمْ يَعْمَلْ صَالِحًا فَإِنَّ تَرْكَهُ لِلْعَمَلِ يُكَذِّبُ زَعْمَهُ، وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ مُقَرَّرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا قَوْلَ لِأَحَدٍ فِيهَا بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَفِي الأَنْفَالِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وَفِي التَّوْبَةِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وَفِي الفَتْحِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٣).

وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَرَقَّى فِي دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ، وَيَسْعَى لِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ بِإِصْلَاحِ قَلْبِهِ، وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالإِكْثَارِ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَفْرَادِ الإِيمَانِ وَأَجْزَائِهِ، وَكُلَّمَا أَكْثَرَ المُسْلِمُ مِنْهَا ازْدَادَ إِيمَانُهُ؛ وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَنِبَ المَعَاصِيَ؛ فَإِنَّهَا سَبَبٌ لِنَقْصِ الإِيمَانِ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما

(٢) أخرجه من قول الحسن -رحمه الله تعالى-: ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣)، والبيهقي في الشعب (٦٦).

وجاء مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: اللالكائي في السنة (١٥٦١)، ولا يصح مرفوعًا، ففي سنده محمد بن عبد الرحمن الحميري، قال ابن عدي: روى عن الثقات بالمناكير وعن أبيه عن مالك بالبواطيل، ثم ساق ابن عدي هذا الحديث عن أبيه عن مالك، وعليه فلا يصح مرفوعًا، ينظر: الكامل (٦/ ٢٨٨) رقم الترجمة (١٧٧٣).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ يُنْزَعُ الْإِيمَانُ مِنْهُ؟ قَالَ: هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا، فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَطَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. وَفِي لَفْظٍ لِلْحَاكِمِ: «مَنْ زَنَا وَشَرِبَ الخَمْرَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ الإِيمَانَ كَمَا يَخْلَعُ الإِنْسَانُ القَمِيصَ مِنْ رَأْسِهِ»(٥).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الإِيمَانِ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا لِزِيَادَتِهِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَاجْتِنَابِ المَعَاصِي، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ

---

(٤) أخرجه البخاري في المحاربين، باب إثم الزنا (٦٤٢٤).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المظالم، باب النهب بغير إذن صاحبه (٢٣٤٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧).

(٥) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٩٠)، والطبري في تهذيب الآثار (٩٠٩)، وابن منده في الإيمان (٥١٩)، والبيهقي في الشعب (٥٣٦٤)، وصححه الحاكم (١/ ٧٢-٧٣)، والحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٦١).

وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧، ٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ رَأَى حَالَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الإِيمَانِ فَإِنَّهُ سَيَعْجَبُ أَشَدَّ العَجَبِ مِنْ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُبَادَرَتِهِمْ إِلَى تَرْكِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَمُفَارَقَةِ مَا يَتَلَذَّذُونَ بِهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلدُّنْيَا، وَلَا لِأَجْلِ الخَلْقِ؛ وَإِنَّمَا طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا هُوَ ﷻ؛ وَلَوْ أَفْطَرُوا سِرًّا لَمَا عَلِمَ بِهِمْ أَحَدٌ سِوَى خَالِقِهِمْ ﷻ، وَلَوْ كَثُرَ المُفْطِرُونَ لَاشْتَهَرَ ذَلِكَ فِي المُسْلِمِينَ وَلَوْ حَاوَلُوا إِخْفَاءَهُ، وَلَكِنَّ المَشْهُورَ وَالمُشَاهَدَ أَنَّ عُمُومَ المُسْلِمِينَ يَلْتَزِمُونَ بِفَرِيضَةِ الصِّيَامِ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يُخِلُّ بِهَا حَتَّى مَنْ هُمْ مُقَصِّرُونَ فِي الفَرَائِضِ الأُخْرَى كَالصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

إِنَّ الصَّائِمَ يَجُوعُ فَلَا يَأْكُلُ، وَيَظْمَأُ فَلَا يَشْرَبُ، وَيَضْحَى فَلَا يُفْطِرُ، وَيُجْهَدُ أَشَدَّ الجَهْدِ إِذَا كَانَ عَمَلُهُ شَاقًّا فَيَصْبِرُ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَخَفَّى فَيُفْطِرَ، وَيَخْتَلِقَ لِنَفْسِهِ المَعَاذِيرَ.

وَفِي بِلَادِ الكُفْرِ مُؤْمِنُونَ صَائِمُونَ، يَعْمَلُونَ فِي المَزَارِعِ وَالمَصَانِعِ وَالأَسْوَاقِ وَغَيْرِهَا، وَيَرَوْنَ غَيْرَهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَهُمْ مُمْسِكُونَ عَنْ شَهَوَاتِهِمْ بِاخْتِيَارِهِمْ، مَعَ أَنَّ الدَّاعِيَ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الصِّيَامِ.

فَمَا الَّذِي جَعَلَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ يَصُومُونَ، وَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مَا أُودِعَ فِي بَنِي آدَمَ مِنْ شَهَوَاتِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ؟ مَا الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَلْتَزِمُونَ بِوَقْتِ إِمْسَاكِهِمْ وَوَقْتِ إِفْطَارِهِمْ لَا يُخِلُّونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَضْعُفُونَ أَمَامَ الشَّهَوَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؟

إِنَّهُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- الإِيمَانُ الَّذِي وَقَرَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَصَدَّقَتْهُ أَعْمَالُهُمْ، فَيَصُومُونَ قُرْبَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَيُرَاقِبُونَهُ ﷻ فِي صِيَامِهِمْ، وَلَا يَخْشَوْنَ فِي ذَلِكَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ تَعَالَى، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى المُفْطِرِينَ وَشَهَوَاتِهِمْ؛ قَدْ رَوَّضُوا نُفُوسَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالمُصَابَرَةِ وَالمُرَابَطَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

سَمِعُوا نِدَاءَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُمْ فَأَرْعَوْا لَهُ أَسْمَاعَهُمْ، وَوَعَتْهُ قُلُوبُهُمْ، وَبَادَرَتْ إِلَى امْتِثَالِهِ جَوَارِحُهُمْ، وَأَجَابُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

نَادَاهُمْ رَبُّهُمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فَسَارَعُوا إِلَى الاسْتِجَابَةِ وَالِامْتِثَالِ.

إِنَّهُمْ مَا صَامُوا إِلَّا إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَرِضًا بِدِينِهِ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ. مَا تَرَكُوا طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ، وَجَانَبُوا نِسَاءَهُمْ، إِلَّا لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي ذَاتِهِ ﷻ، فَقَالَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الصَّائِمِ: «**يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦).

إِنَّ المُؤْمِنِينَ الصَّائِمِينَ لَا يُرَاقِبُهُمْ فِي صِيَامِهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَآيَةُ الأَمْرِ بِالصِّيَامِ خُوطِبَ بِهَا المُؤْمِنُونَ، وَالإِيمَانُ مَحَلُّهُ القَلْبُ، وَعُلِّلَ ذَلِكَ بِالتَّقْوَى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**التَّقْوَى هَا هُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧)، فَوَقَعَ الصِّيَامُ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَكِلَاهُمَا مَحَلُّهُ القَلْبُ، فَالصِّيَامُ سِرٌّ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، وَالدَّافِعُ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَيْهِ الإِيمَانُ وَالتَّقْوَى.

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب فضل الصوم، واللفظ له (١٧٩٥) ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله (٢٥٦٤).

إِنَّ الصَّائِمِينَ القَائِمِينَ يَطْلُبُونَ بِصِيَامِهِمْ وَقِيَامِهِمُ الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا أَجْرَ عَلَى صِيَامٍ وَلَا قِيَامٍ إِلَّا إِذَا كَانَ عَنْ إِيمَانٍ، وَالمُؤْمِنُونَ هُمُ المُخَاطَبُونَ بِالصِّيَامِ وَالقِيَامِ، وَلَوْ صَامَ غَيْرُهُمْ فَلَا أَجْرَ لَهُمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، «**وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ(٨).

فَالمُؤْمِنُ يَصُومُ وَيَقُومُ إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ فَرَضَ الصِّيَامَ وَشَرَعَ القِيَامَ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَشْرَعُ لَهُ وَلَا يَفْرِضُ عَلَيْهِ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، يَعْلَمُ سِرَّهُ وَجَهْرَهُ، وَيُحْصِي عَلَيْهِ عَمَلَهُ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَازِيهِ عَلَى صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ أَعْظَمَ الجَزَاءِ، فَيَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَهُ ﷻ، وَإِيمَانًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُعَاقِبُ مَنْ أَفْطَرُوا فِي نَهَارِ رَمَضَانَ لِكُفْرِهِمْ أَوْ لِفِسْقِهِمْ، فَيَفِرُّ بِالصَّوْمِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

إِنَّهُ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَبِحَشْرِ النَّاسِ وَحِسَابِهِمْ، وَبِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَيُؤْمِنُ أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ؛ فَيَطْلُبُ ثَوَابَ مَنْ يَمْلِكُ الثَّوَابَ، وَيَفِرُّ مِنْ عِقَابِ مَنْ يَمْلِكُ الْعِقَابَ، وَيَتَّقِي عَذَابَهُ بِطَاعَتِهِ، وَالْتِزَامِ فَرَائِضِهِ، وَإِنْ نَالَهُ بَعْضُ المَشَقَّةِ مِنْ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، الَّتِي يَعْقُبُهَا رَاحَةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَسَعَادَةٌ سَرْمَدِيَّةٌ.

---

(٨) أخرجه البخاري في الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان (٣٧) وباب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨) وفي الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ونية (١٨٠٢)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- شِدَّةَ ارْتِبَاطِ الصِّيَامِ بِالإِيمَانِ، وَلِمَاذَا خُوطِبَ بِهِ المُؤْمِنُونَ؟ وَلِمَاذَا لَا يَنَالُ ثَوَابَ الصِّيَامِ وَالقِيَامِ إِلَّا مَنْ صَامَ وَقَامَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا؟

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَثَبَّتَنَا عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٤٨- رمضان والمغفرة

٤/ ٩/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَفَاضَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ رَحَمَاتِهِ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ مِنَنَهُ وَإِحْسَانَهُ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَقَنَتَ لِرَبِّهِ وَقَامَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرِ الصَّوْمِ، وَقَدْ عُلِّلَ فَرْضُ الصَّوْمِ بِالتَّقْوَى، فَمِنْ مَقَاصِدِهِ وُقُوعُهَا مِنَ الْعِبَادِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: رَبُّكُمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ عَظِيمُ الْعَفْوِ، حَسَنُ التَّجَاوُزِ، وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، كَرِيمُ الصَّفْحِ، عَظِيمُ الْمَنِّ، يَبْتَدِئُ الْعِبَادَ بِالنِّعَمِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: الْغَفُورُ، وَمِنْ صِفَاتِهِ: الْمَغْفِرَةُ، وَأَصْلُ الْغَفْرِ: التَّغْطِيَةُ وَالسَّتْرُ(١)، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ سَتَرَ ذُنُوبَ عِبَادِهِ، ثُمَّ هُوَ يَغْفِرُهَا لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا.

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ حَتَّى يُعْلِنَ ذَنْبَهُ عَلَى

---

(١) قال الطبري في تفسيره: وأصل الغفر التغطية والستر فكل ساتر شيئًا فهو غافره (١/ ٣٠٢).

المَلأ؟! فَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ؟! أَوْ أَنَّ ذَنْبَهُ يُكْتَبُ عَلَى جَبِينِهِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ كُلَّ يَوْمٍ، فَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِزْيِ وَالْفَضِيحَةِ!!

وَإِذَا كَانَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَهُوَ هُوَ فِي الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي»(٢)، فَمَا عَسَانَا أَنْ نَقُولَ نَحْنُ؟! وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا اقْتَرَفْنَا مِنْ سَيِّئَاتٍ.

يَمْشِي الْوَاحِدُ مِنَّا أَمَامَ النَّاسِ وَهُوَ حَسَنُ الشَّكْلِ وَاللِّبَاسِ، نَظِيفُ الْجَسَدِ وَالثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، وَكُلُّهُ ذُنُوبٌ خَفِيَّاتٌ لَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى فَمَا هَتَكَ رَبُّهُ سِتْرَهُ، وَلَا فَضَحَ أَمْرَهُ، ثُمَّ بِتَوْبَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَمَا عَلِمَ أَحَدٌ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ مَا أَعْظَمَهَا! وَمِنَّةٍ مَا أَكْبَرَهَا! نَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَيْهَا وَعَلَى سَائِرِ نِعَمِهِ وَمِنَنِهِ عَلَيْنَا.

لَقَدْ وَسِعَ حِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَهُ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ مَغْفِرَتَهُ وَرَحَمَاتِهِ؛ حَتَّى سُمِّيَ الْغَفَّارَ مِنْ كَثْرَةِ مَغْفِرَتِهِ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [سورة ص: ٦٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزُّمر: ٥]، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ مِنْ أَسْمَائِهِ الْغَفَّارُ وَهُوَ الْقَائِلُ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَجَاءَ اسْمُهُ (الغَفُورُ) فِي الْقُرْآنِ فِي إِحْدَى وَتِسْعِينَ آيَةً.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْكَثِيرَةُ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَتَجَاوُزِهِ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَحَطِّهِ خَطِيئَاتِهِمْ، حَتَّى لَوْ بَلَغُوا أَعْظَمَ ذَنْبٍ وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟

(٢) أخرجه أبو بكر المروزي في الورع (٤٩٥)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٩).

مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

يَغْفِرُ لِلْعِبَادِ ظُلْمَهُمْ وَإِسْرَافَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦].

وَمَهْمَا بَلَغَتْ ذُنُوبُ الْعِبَادِ كَثْرَةً وَعِظَمًا، فَإِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النَّجم: ٣٢] أَفَلَا تَسَعُ مَغْفِرَتُهُ ذُنُوبَ عِبَادِهِ؟! بَلَى وَرَبِّنَا الْغَفُورِ الرَّحِيم.

وَمِنْ وَاسِعِ مَغْفِرَتِهِ، وَعَظِيمِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ يَعِيشُ السِّنِينَ الطَّوِيلَةَ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، مُجَانِبٌ لِمَا يُرْضِيهِ، مَا مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا ارْتَكَبَهُ، وَلَا مُوبِقَةٍ إِلَّا أَتَاهَا، فَيَتُوبُ مِنْ ذُنُوبِهِ، فَيَسْتُرُ اللهُ تَعَالَى عَيْبَتَهُ، وَيُقِيلُ عَثَرَاتِهِ، وَيَغْفِرُ زَلَّاتِهِ، وَيُكَفِّرُ خَطِيئَاتِهِ الَّتِي جَمَعَهَا طَوَالَ سَنَوَاتِهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ، بَلْ يُبَدِّلُ اللهُ تَعَالَى سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ؛ إِذْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ عَظَائِمَ الذُّنُوبِ، وَأُصُولَ الشُّرُورِ؛ مِنَ الشِّرْكِ، وَقَتْلِ الْأَنْفُسِ الْمَعْصُومَةِ، وَالزِّنَا، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

إِنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ هُوَ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ عِبَادِهِ، وَيَسْعَى إِلَيْهِمْ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِمَغْفِرَتِهِ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَى مَظَانِّ رَحْمَتِهِ؛ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ أَكْثَرُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ مِنْ تَقَرُّبِهِمْ إِلَيْهِ، وَأَسْرَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ سُرْعَتِهِمْ إِلَيْه؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ**

تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَيُنَادِي ﷻ عِبَادَهُ فَيَقُولُ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»(٤).

وَفِي نِدَاءٍ آخَرَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

وَمِنْ أَرْجَى الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَأَعْظَمِهَا فِي بَابِ الْمَغْفِرَةِ: قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧).

(٤) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

(٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: الترمذي في الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٣٥٤٠) والبزار وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه ولا رواه عن بكر عن أنس إلا سعيد بن عبيد ، وسعيد بن عبيد قد قالوا: سعيد بن عبيد وقالوا: سعيد بن عبيد الله ، وليس به بأس (٦٧٦٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧).

وأخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: أحمد (٥/ ١٦٧)، والدارمي (٢٨٧٧)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٣٢).

[النساء: ١١٠]، قَالَ المُفَسِّرُونَ: يَجِدِ اللهَ تَعَالَى غَفُورًا لِذُنُوبِهِ مَهْمَا بَلَغَتْ(٦).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «أَخْبَرَ اللهُ عِبَادَهُ بِحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَمَنْ أَذْنَبَ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَعْظَمَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ»(٧).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -أَوْ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ- لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمُ اللهَ ﷻ لَغَفَرَ لَكُمْ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ شِدَّةَ بَطْشِهِ بِمَنْ حَرَّقُوا أَوْلِيَاءَهُ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَغْفِرَتِهِ؛ حَتَّى لَا يَيْأَسَ مِنْهَا أَحَدٌ؛ فَالْقَوْمُ الَّذِينَ خَدُّوا الْأَخَادِيدَ فِي الْأَرْضِ وَأَشْعَلُوهَا نَارًا عَظِيمَةً وَقَذَفُوا فِيهَا الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى قِصَّتَهُمْ دَعَاهُمْ لِلتَّوْبَةِ بَعْدَ أَنْ هَدَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَغْفِرَتَهُ تَسَعُهُمْ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَهُوَ سُبْحَانَهُ المَوْصُوفُ بِشِدَّةِ الْبَطْشِ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ الْمُتَوَدِّدُ إِلَى عِبَادِهِ بِنِعَمِهِ الَّذِي يَوَدُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْوَدُودُ أَيْضًا أَيْ: المَحْبُوبُ ... وَقَالَ شُعَيْبٌ ﵇: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. وَمَا أَلْطَفَ اقْتِرَانَ اسْمِ الْوَدُودِ بِالرَّحِيمِ وَبِالْغَفُورِ! فَإِنَّ الرَّجُلَ

---

(٦) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٢٥٠)، وتفسير أبي السعود (٢/ ٢٣٠).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٢٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٣٤٥)، واللالكائي في السنة (١٩٥٨).

(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٨)، وأبو يعلى (٤٢٢٦)، والضياء في المختارة (١٥٤٤)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وحسنه بالرواية السابقة لأنس ﵁ (١٩٥١).

قَدْ يَغْفِرُ لِمَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ وَلَا يُحِبُّهُ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَرْحَمُ مَنْ لَا يُحِبُّ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَغْفِرُ لِعَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ وَيَرْحَمُهُ وَيُحِبُّهُ مَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ عَبْدُهُ أَحَبَّهُ، وَلَوْ كَانَ مِنْهُ مَا كَانَ» انْتَهَى(٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مُعَلِّقًا عَلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ: «انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ؛ يَقْتُلُونَ أَوْلِيَاءَهُ وَيَفْتِنُونَهُمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالمَغْفِرَةِ، انْظُرُوا إِلَى كَرَمِ الرَّبِّ تَعَالَى يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، وَقَدْ فَتَنُوا أَوْلِيَاءَهُ فَحَرَّقُوهُمْ بِالنَّارِ، فَلَا يَيْأَسِ الْعَبْدُ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ وَلَوْ كَانَ مِنْهُ مَا كَانَ، فَلَا عَدَاوَةَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْعَدَاوَةِ، وَلَا أَكْفَرَ مِمَّنْ حَرَّقَ بِالنَّارِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَعَبَدَهُ وَحْدَهُ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ تَابُوا لَمْ يُعَذِّبْهُمْ وَأَلْحَقَهُمْ بِأَوْلِيَائِهِ»(١٠).

وَمَغْفِرَتُهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ لَيْسَتْ مِنْ عَجْزٍ عَنْهُمْ، أَوْ مِنْ ضَعْفٍ أَمَامَهُمْ، أَوْ سَبَبُهَا الْحَاجَةُ إِلَيْهِمْ؛ كَمَا قَدْ يَغْفِرُ الضَّعِيفُ وَالْعَاجِزُ وَالْمُحْتَاجُ لِغَيْرِهِ، بَلْ رَبُّنَا غَنِيٌّ عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَغْفِرُ لَهُمْ؛ وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَ الِاسْمَانِ الْكَرِيمَانِ: الْغَفَّارُ وَالْغَفُورُ بِاسْمِ الْعَزِيزِ فِي عَدَدٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ لِلدِّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَغْفِرَتَهُ سُبْحَانَهُ عَنْ عِزٍّ وَقُوَّةٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا مَحْضُ كَرَمٍ وَتَفَضُّلٍ عَلَى عِبَادِهِ ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

إِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ هِيَ السَّبَبُ فِي نَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْعِبَادُ لَا يَزَالُونَ مُقَصِّرِينَ مُحْتَاجِينَ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَمَغْفِرَتِهِ، فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ ذُنُوبٌ يَحْتَاجُ فِيهَا

(٩) التبيان في أقسام القرآن (٥٩).
(١٠) المصدر السابق (٥٨).

إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَها، وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ . . . وَمَا أَعْظَمَ ضَلَالَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَائِمٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَجِبُ لِخَلْقِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَغْفِرَةِ الرَّبِّ تَعَالَى وَعَفْوِهِ! كَيْفَ وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**»(١١).

هَذَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٢).

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تَدُلُّ عَلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،

(١١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، ومسلم في صفات المنافقين: باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦).

(١٢) أخرجه أبو داود في السُّنة، باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٩)، وصححه ابن حبان (٧٢٧).

وَلَوْلَا هَذِهِ المَغْفِرَةُ لَعَجَّلَ الْعَذَابَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكَانَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ ﷻ؛ إِذْ نِعَمُ اللَّهِ تَعَالى عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ الْعِبَادُ شُكْرَهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ نِعْمَةَ الْبَصَرِ وَحْدَهَا رَجَحَتْ بِعِبَادَةِ عَابِدٍ انْقَطَعَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى خَمْسَ مِئَةِ عَامٍ(١٣)، فَكَيْفَ إِذًا بِالنِّعَمِ الْأُخْرَى؟! وَكَيْفَ بِذُنُوبِ الْعِبَادِ الَّتِي يُقَارِفُونَهَا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؟!

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ؛ كَالزَّلَازِلِ، وَالطُّوفَانِ، وَالْأَمْرَاضِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّ الْخَلْقَ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ حَاجَةً إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُمْ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فَمَعَ سَمْعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ سَأَلُوا اللهَ تَعَالَى المَغْفِرَةَ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِطَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَمَالَ إِيمَانِهِمْ وَكَمَالَ قَبُولِهِمْ وَكَمَالَ انْقِيَادِهِمْ، ثُمَّ قَالُوا: غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ، لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُوَفُّوا مَقَامَ الإِيمَانِ حَقَّهُ مَعَ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَمِيلَ بِهِمْ غَلَبَاتُ الطِّبَاعِ وَدَوَاعِي الْبَشَرِيَّةِ، إِلَى بَعْضِ التَّقْصِيرِ فِي وَاجِبَاتِ الإِيمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يَلُمُّ شَعْثَ ذَلِكَ إِلَّا مَغْفِرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، سَأَلُوهُ غُفْرَانَهُ الَّذِي

---

(١٣) جاء ذلك في حديث عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا، أخرجه الخرائطي في فضيلة الشكر (١٣٣)، والعقيلي في الضعفاء (٦٣٩)، وتمام في فوائده (١٦٨٨)، والبيهقي في الشعب (٤٦٢٠)، والحاكم وصححه (٤/ ٢٧٨)، وقال ابن القيم في شفاء العليل: والإسناد صحيح ومعناه صحيح لا ريب فيه؛ فقد صح عنه ﷺ أنه قال: لن ينجو أحد منكم بعمله. شفاء العليل (١١٤). لكن ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وتعقب الحاكم وابن القيم في تصحيحهما للحديث (١١٨٣).

هُوَ غَايَةُ سَعَادَتِهِمْ وَنِهَايَةُ كَمَالِهِمْ، فَإِنَّ غَايَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ المَغْفِرَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» اهـ(١٤).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَلَّا يُعَذِّبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ سُفَهَاؤُنَا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَسْبَابٌ إِذَا أَخَذَ بِهَا الْعَبْدُ غَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ، فَمِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِهَا: التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ إِقْلَاعًا عَنْهَا، وَنَدَمًا عَلَى فِعْلِهَا، وَعَزْمًا عَلَى عَدَمِ الْعَوْدَةِ إِلَيْهَا، مَعَ أَدَاءِ الْحُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]، وَقَالَ

---

(١٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣٦).

سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].

وَالتَّرَاحُمُ وَالتَّغَافُرُ سَبَبٌ لِلرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ**»(١٥).

وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَقِيَامُهُ وَقِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ سَبَبٌ لِلْمَغْفِرَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١٦).

وَمِنْ كَثْرَةِ المَغْفِرَةِ فِي رَمَضَانَ أَنَّهَا لَا تَكَادُ تَفُوتُ أَحَدًا، حَتَّى قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**قُلْ: آمِينْ، قَالَ: فَقُلْتُ: آمِينْ، قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ**»(١٧).

وَالسُّحُورُ سَبَبٌ لِلْمَغْفِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى المُتَسَحِّرِينَ**»(١٨).

---

(١٥) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٢١٩)، وعبد بن حميد (٣٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (٧٢٣٦)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٥٧)، واللالكائي في السنة (١٩٤٢)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد بإسناد جيد (٣/ ١٤٠)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات (٤٨٢).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب: صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩).

(١٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في الدعوات، باب قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «رَغِمَ أنف رجل»، وقال: حديث حسن غريب (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٩٠٨).

(١٨) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ابن أبي الدنيا في فضائل رمضان (٦٥)، والروياني (١٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٠)، وصححه ابن حبان (٣٤٦٧)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وحسنه (١٦٥٤).

وجاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند أحمد (٣/ ١٢).

وَصَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيهِمْ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ اسْتِغْفَارُهُمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَهُمْ(١٩)، وَهَذَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَغْفِرَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى

(١٩) قال أبو العالية -رحمه الله تعالى-: «صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء» أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في التفسير (٦/ ١٢٠). ووصله إسماعيل القاضي في كتاب الصلاة على النبي: من طريق نصر بن علي، حدثنا خالد بن يزيد، عن أبي جعفر، عن الربيع ابن أنس، عن أبي العالية (٨٠).
وقال الجصاص -رحمه الله تعالى-: «الصلاة من الله هي الرحمة، ومن العباد الدعاء» أحكام القرآن (٥/ ٢٣١).
وقال السمعاني في تفسيره: «الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الناس الدعاء» (١/ ٤٤)، ومثله البغوي في شرح السنة (٣/ ١٨٩) وفي التفسير (١/ ٤٧)، وابن عطية في تفسيره (٣/ ٧٤).
وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «قولهم: والصلاة من الله بمعنى الرحمة باطل من ثلاثة أوجه:
أحدها: أن الله تعالى غاير بينهما في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.
الثاني: أن سؤال الرحمة شرع لكل مسلم والصلاة تختص بالنبي وهي حق له ولآله، ولهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على معين غيره، ولم يمنع أحد من الترحم على معين.
الثالث: أن رحمة الله عامة وسعت كل شيء، وصلاته خاصة بخواص عباده.
وقولهم: الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل من وجوه:
أحدها: أن الدعاء يكون بالخير والشر، والصلاة لا تكون إلا في الخير.
الثاني: أن (دعوت) تُعدى باللام و(صليت) لا تعدى إلا بـ (على) ودعا المعدى بـ (على) ليس بمعنى صلى، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء.
الثالث: أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًّا ومدعوًّا له، تقول: دعوت الله لك بخير، وفعل الصلاة لا يقتضي ذلك. لا تقول: صليت الله عليك ولا لك، فدل على أنه ليس بمعناه. فأي تباين أظهر من هذا؟ ولكن التقليد يعمي عن إدراك الحقائق، فإياك والإخلاد إلى أرضه.
وقال: رأيت لأبي القاسم السهيلي كلامًا حسنًا في اشتقاق الصلاة، وهذا لفظه، قال: معنى الصلاة: اللفظة حيث تصرفت ترجع إلى الحنو والعطف، إلا أن الحنو والعطف يكون محسوسًا ومعقولًا، فيضاف إلى الله تعالى منه ما يليق بجلاله، وينفي عنه ما يتقدّس عنه. كما أن العلو محسوس ومعقول؛ فالمحسوس منه صفات الأجسام، والمعقول منه =

. . . .

= صفة ذي الجلال والإكرام. وهذا المعنى كثير موجود في الصفات، والكثير يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات، وهو من أسماء الرب تعالى، وقد تقدَّس عن مشابهة الأجسام، ومضاهاة الأنام، فالمضاف إليه من هذه المعاني معقولة غير محسوسة. وإذا ثبت هذا، فالصلاة كما تسمى عطفًا وحنوًّا تقول: اللهم اعطف علينا، أي: ارحمنا، قال الشاعر:

وما زلت في ليني له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم

ورحمة العباد رقة في القلب إذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم، وانثنى عليه. ورحمة الله للعباد جود وفضل، فإذا صلى عليه فقد أفضل عليه وأنعم.

وهذه الأفعال إذا كانت من الله أو من العبد فهي متعدية بـ (على) مخصوصة بالخير لا تخرج عنه إلى غيره، فقد رجعت كلها إلى معنى واحد، إلا أنها في معنى الدعاء والرحمة صلاة معقولة، أي: انحناء معقول غير محسوس، ثمرته من العبد الدعاء؛ لأنه لا يقدر على أكثر منه، وثمرته من الله الإحسان والإنعام، فلم تختلف الصلاة في معناها، إنما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها.

والصلاة التي هي الركوع والسجود انحناء محسوس، فلم يختلف المعنى فيها إلا من جهة المعقول والمحسوس، وليس ذلك باختلاف في الحقيقة؛ ولذلك تعدت كلها بـ(على) واتفقت في اللفظ المشتق من الصلاة، ولم يجز: صليت على العدو، أي: دعوت عليه، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة، وإن كان راجعًا إليه؛ إذ ليس كل راحم ينحني على المرحوم ولا ينعطف عليه» بدائع الفوائد (١/ ٢٦، ٢٧)، وينظر: جلاء الأفهام؛ ففيه تفصيل أكثر (١٥٧إلى١٧٠).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «صلاة الله على النبي ﷺ معناها: اللهم أثن عليه في الملأ الأعلى، واذكره بالجميل. وليست صلاة الله على عبده بمعنى رحمته، وإن كان بعض العلماء قال: «إن الصلاة من الله الرحمة» لكنه قول مرجوح بالآية التي قال الله فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ والعطف يقتضي التغاير» مجموع فتاواه (٥/ ٢٨٢).

وفي فتاوى اللجنة الدائمة: «الصلاة من الله سبحانه هي: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة والمؤمنين هي: الدعاء، وصلاة الله على رسوله تليق به سبحانه» (٢٤/ ١٥٠).

أَنَّ رَمَضَانَ شَهْرُ المَغْفِرَةِ، وَأَنَّ أَسْبَابَ المَغْفِرَةِ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ مَنْ حُرِمَ المَغْفِرَةَ فِيهِ فَقَدْ أَبْعَدَهُ اللهُ تَعَالَى بِسَبَبِ عُتُوِّهِ وَاسْتِكْبَارِهِ. فَلْنَأْخُذْ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ حَظَّنَا مِنَ المَغْفِرَةِ؛ فَمَنْ حُرِمَ المَغْفِرَةَ فِيهِ كَانَ أَجْدَرَ بِحِرْمَانِهَا فِي غَيْرِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٢٤٩- رمضان وسلامة القلوب

٧/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ اخْتَارَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَمِنَ الشَّرِيعَةِ أَكْمَلَهَا، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ النِّعَمِ، وَأَشْكُرُهُ فَكَمْ دَفَعَ عَنَّا مِنَ النِّقَمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الصِّيَامَ تَطْهِيرًا لِلْقُلُوبِ، وَزَكَاءً لِلنُّفُوسِ، وَصَلَاحًا لِلْعِبَادِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ كَانَ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ أَصْحَابُهُ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولُوا: لَا يَصُومُ، وَمَا اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلَّا رَمَضَانَ(١)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرٍ تَتَأَكَّدُ فِيهِ التَّقْوَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ ضِدَّ الأَعْدَاءِ، وَجَعَلَهُمْ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ مُتَعَاوِنِينَ، وَحِينَ كَانَتِ الثَّارَاتُ وَالحُرُوبُ بَيْنَ قَبِيلَتَي الأَنْصَارِ: الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ؛ جَاءَ اللهُ تَعَالَى بِالإِسْلَامِ الَّذِي جَمَعَهُمْ بَعْدَ التَّفَرُّقِ، وَوَحَّدَهُمْ بَعْدَ الشَّتَاتِ، وَأَبْدَلَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند: البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٩٦٩) ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (١١٥٦).

مِنَ البَغْضَاءِ وَالشَّحْنَاءِ مَحَبَّةً وَوِئَامًا وَإِيثَارًا ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، بَلِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ بِتَأْلِيفِهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَجَمْعِهِ كَلِمَتَهُمْ، وَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَجْمَعَهُمْ وَلَوْ أَنْفَقَ كُنُوزَ الأَرْضِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ؛ لِتَمَكُّنِ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ، وَامْتِلَاءِ قُلُوبِهِمْ بِالضَّغِينَةِ وَالشَّحْنَاءِ؛ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَزَالَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِبَرَكَةِ الإِسْلَامِ، وَغَسَلَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَحْقَادِ بِمَاءِ الإِيمَانِ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

إِنَّ سَلَامَةَ الْقُلُوبِ وَصَلَاحَهَا يَكُونُ بِاسْتِقَامَتِهَا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا اسْتَقَامَ قَلْبُ الْعَبْدِ ضَمِنَ صَاحِبُهُ طَهَارَتَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ وَالحَسَدِ وَالْغِشِّ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ كَانَ سَلِيمَ الْقَلْبِ فَازَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَصْحَابُ الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ يُدْرِكُونَ مِنَ الأَجْرِ، وَيَبْلُغُونَ مِنَ المَنَازِلِ بِطَهَارَةِ قُلُوبِهِمْ وَنَقَائِهَا مَا لَا يَبْلُغُهُ الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ بِصِيَامِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ المَرَّةِ الأُولَى، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ، فَعَلْتُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِيَ الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ

شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ ﷻ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الفَجْرِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ؛ فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَفَاضِلَ النَّاسِ هُمْ مَنْ سَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الضَّغَائِنِ وَالأَحْقَادِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﭭ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٣).

---

(٢) أخرجه عبد الرزاق من طريق معمر عن الزهري عن أنس ﷺ به (٢٠٥٥٩)، وابن المبارك في مسنده (١)، وفي الزهد (٦٩٤)، وأحمد (٣/ ١٦٦)، وعبد بن حميد (١١٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٩)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٥). وصححه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٨/ ٧٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٩)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٤)، وابن عساكر في تاريخه (٥٩/ ٤٥٢)، وصححه أبو حاتم كما في العلل (١٨٧٣)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠)، والمنذري في الترغيب (٤٣٨٦).

وَامْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَسَلِمَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ، وَنَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِدُعَائِهِمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَأَرْشَدَ اللهُ ﷻ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ مَنْ نَاصَبَكَ الْعَدَاءَ مِنْ إِخْوَانِكَ المُسْلِمِينَ بِأَنْ تُقَابِلَ إِسَاءَتَهُ بِالإِحْسَانِ، وَتَرُدَّ جَهْلَهُ بِالحِلْمِ، وَلَا تَسْتَسْلِمَ لِعَمَلِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَوَسْوَسَتِهِ الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَى الانْتِصَارِ وَالانْتِقَامِ دَفْعًا: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

وَصَاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ عَلَى إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ الَّذِينَ سَلِمَتْ قُلُوبُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْغِلِّ وَالكَرَاهِيَةِ بِتَطْهِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَالَهُمْ فِي الجَنَّةِ فَقَالَ: «**لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٤).

إِنَّ قُلُوبَ العِبَادِ تُفْسِدُهَا الضَّغَائِنُ وَالشَّحْنَاءُ وَالحَسَدُ وَالأَحْقَادُ؛ حَتَّى يَشْقَى بِهَا أَصْحَابُهَا فِي الدُّنْيَا؛ فَلَا يَهْنَئُونَ بِعَيْشٍ، وَلَا يَرْتَاحُ لَهُمْ بَالٌ، وَلَا تُرْفَعُ لَهُمْ أَعْمَالٌ، مَعَ مَا يَفُوتُهُمْ مِنَ الخَيْرِ الْكَثِيرِ، بَلْ وَيُفَوِّتُونَ الخَيْرَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِسَبَبِ مَا فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ.

---

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٣).

وَلْتَعْلَمُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ رُفِعَ العِلْمُ بِهَا فِي سَنَةٍ مِنَ السَّنَوَاتِ -وَلَا تَزَالُ مَعْرِفَتُهَا مَرْفُوعَةً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ- بِسَبَبِ خُصُومَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ؛ كَمَا رَوَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ: **خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ فَتَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ . . .**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٥).

وَأَمَّا عَدَمُ رَفْعِ العَمَلِ الصَّالِحِ بِسَبَبِ الشَّحْنَاءِ، فَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، فَيَغْفِرُ اللهُ ﷻ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا إِلَّا المُتَشَاحِنَيْنِ، يَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: ذَرُوهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا**»(٦).

وَكَمْ فِي المُسْلِمِينَ مِنَ التَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ بِسَبَبِ خِلَافَاتٍ يُمْكِنُ عِلَاجُهَا، وَإِزَالَةُ أَسْبَابِهَا؟!

كَمْ فِي الْقَرَابَةِ وَالْأَرْحَامِ وَالْأَصْهَارِ مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْحَسَدِ وَالهِجْرَانِ، وَالتَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ بِسَبَبِ إِرْثٍ لَمْ يُقَسَّمْ، أَوْ مَزَارِعَ مَيِّتَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا، يَدْفَعُونَ أَضْعَافَ أَثْمَانِهَا لِلْغُرَبَاءِ عَنْهُمْ، وَيَعِزُّ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَنَازَلَ

---

(٥) أخرجه البخاري في صلاة التراويح، باب رفع ليلة القدر لتلاحي الناس (١٩١٩).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥)، وأبو داود في الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٦)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المتهاجرين (٢٠٢٣)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم الاثنين والخميس (١٧٤٠)، ومالك (١٦١٨)، وأحمد (٢/ ٢٦٨).

عَنْ شِبْرٍ وَاحِدٍ مِنْهَا لِقَرِيبِهِ، وَلَمْ تَكُنِ الأَرْضُ هِيَ السَّبَبَ، وَلَا الإِرْثُ هُوَ المُشْكِلَةَ، إِنْ هِيَ إِلَّا تَعْلِيلَاتٌ تُجْعَلُ فِي الْوَاجِهَةِ، وَأَعْذَارٌ تُبْدَى لِلنَّاسِ عِنْدَ المُنَاقَشَةِ، وَلَكِنَّ المُشْكِلَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ فِي قُلُوبٍ امْتَلَأَتْ بِالضَّغَائِنِ، وَاسْوَدَّتْ بِالأَحْقَادِ؛ فَتَمَنَّى القَرِيبُ مَعَهَا لِقَرِيبِهِ كُلَّ سُوءٍ، وَحَسَدَهُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ.

وَكَمْ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ مِنْ قَطِيعَةٍ وَهِجْرَانٍ بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، وَالأَبِ وَابْنِهِ، وَالأَخِ وَأَخِيهِ، يَشْرَبُونَ وَيَأْكُلُونَ مِنْ زَادٍ وَاحِدٍ، وَيَسْتَظِلُّونَ تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ، وَرُبَّمَا جَمَعَهُمْ مَجْلِسٌ أَوْ فِرَاشٌ وَاحِدٌ، فَيُعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الآخَرِ؟ فَأَيُّ بُؤْسٍ لِأُسْرَةٍ تَجْتَمِعُ أَبْدَانُ أَصْحَابِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ سَاعَةٍ، وَقُلُوبُهُمْ مُتَفَرِّقَةٌ مُتَنَافِرَةٌ؟! وَأَيُّ ضَرَرٍ يُصِيبُ مَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ بَيْنَهُمْ، وَيَكْتَوِيَ بِنَارِ قَطِيعَتِهِمْ؟!

أَرْحَامٌ جَمَعَتْهَا أَوَاصِرُ الرَّحِمِ، وَوَشَائِجُ القُرْبَى، فَفَرَّقَتْهَا الأَحْقَادُ، وَمَزَّقَتْهَا الضَّغَائِنُ، وَيَا وَيْلَ قَاطِعِيهَا مِنَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ! إِذْ أَوْجَبَ صِلَتَهَا، وَحَرَّمَ قَطِيعَتَهَا، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِي، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

وَكَمْ فِي الجِيرَانِ مِنْ قُلُوبٍ لَا تَخْلُو مِنْ كَدَرِ الحَسَدِ وَالغِلِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، بُيُوتُهُمْ مُتَجَاوِرَةٌ وَرُبَّمَا مُتَلَاصِقَةٌ، وَيَسْلُكُونَ فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ طَرِيقًا وَاحِدَةً، وَيُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا صَبَاحًا وَمَسَاءً، بَلْ يَصْطَفُّونَ فِي مَسْجِدِ حَيِّهِمْ خَلْفَ إِمَامٍ وَاحِدٍ، قَدِ الْتَصَقَتْ أَكْعُبُهُمْ وَمَنَاكِبُهُمْ فِي عِبَادَةٍ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ وَأَعْظَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ

(٧) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أبو داود في الزكاة، باب في صلة الرحم (١٦٩٤)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، وقال: حديث صحيح (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩٤)، وأبو يعلى (٨٤٠)، وصححه ابن حبان (٤٤٣)، والحاكم (٤/ ١٧٤)، وله شواهد في الصحيحين.

تَعَالَى، وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَافُرِ وَالتَّبَاعُدِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، وَإِذَا جَمَعَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ فِي سُوقٍ أَوْ وَلِيمَةٍ أَوْ عِنْدَ بَابِ المَسْجِدِ أَعْرَضَ هَذَا وَتَنَحَّى ذَاكَ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

وَكَمْ بَيْنَ بَعْضِ الزُّمَلَاءِ فِي الْوَظَائِفِ وَالشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ مِنَ الضَّغِينَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالتَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ وَالهَجْرِ بِسَبَبِ التَّنَافُسِ عَلَى التَّرْقِيَاتِ أَوِ الدَّوْرَاتِ أَوْ غَيْرِهَا مِمَّا هُوَ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تُسَاوِي أَنْ يَتَقَاطَعَ الإِخْوَانُ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا أَنْ يَتَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِهَا، مَكَاتِبُهُمْ مُتَجَاوِرَةٌ، وَيَقْضِي بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي يَوْمِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَقْضُونَ مَعَ وَالِدِيهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، قَدْ جَمَعَتْهُمُ الْوَظَائِفُ وَالمَكَاتِبُ، وَلَكِنْ فَرَّقَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَزُولُ، وَلَا تَزُولُ ضَغَائِنُهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ!

وَلَوْ فَتَّشْتَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَسْبَابِ الْغِلِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، وَالتَّدَابُرِ وَالْقَطِيعَةِ، لَوَجَدْتَهَا أَسْبَابًا تَافِهَةً، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ.

إِنَّهَا عِزَّةٌ مُتَوَهَّمَةٌ، وَقُوَّةٌ مَزْعُومَةٌ تَمْنَعُ الْوَاحِدَ مِنَ المُتَخَاصِمَيْنِ أَنْ يُزِيلَ أَسْبَابَ الخِلَافِ، وَيَدْحَرَ الشَّيْطَانَ، وَيَبْدَأَ صَاحِبَهُ بِالسَّلَامِ، وَتَمْضِي الأَيَّامُ وَهُمَا عَلَى قَطِيعَتِهِمَا، فَلَا تُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَعْمَالُهُمَا؛ لِأَنَّ رَفْعَ الأَعْمَالِ مَشْرُوطٌ بِاصْطِلَاحِهِمَا، وَإِزَالَةِ الشَّحْنَاءِ بَيْنَهُمَا، وَصَفَاءِ قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ.

وَلَوْ مَاتَ أَحَدُهُمَا وَهُمَا عَلَى قَطِيعَتِهِمَا لَنَدِمَ الآخَرُ، وَمَنْ خَتَمَ حَيَاتَهُ بِهِجْرَانِ أَخِيهِ المُسْلِمِ فَبِئْسَ الخَاتِمَةُ؛ فَإِنْ كَانَ جَارًا لَهُ فَبِئْسَ الجَارُ، وَإِنْ كَانَ ذَا رَحِمٍ فَالأَمْرُ أَشَدُّ، وَالمَعْصِيَةُ أَكْبَرُ، وَبِقَدْرِ قُرْبِ رَحِمِهِ مِنْهُ مَعَ هَجْرِهِ لَهُ يَزْدَادُ الإِثْمُ، وَتَعْظُمُ شَنَاعَةُ الهَجْرِ وَالْقَطِيعَةِ؛ كَيْفَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ**

يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ؛ فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٨) . هَذَا فِي حَقِّ المُسْلِمِ عُمُومًا، فَكَيْفَ إِذَنْ بِالجَارِ؟! ثُمَّ كَيْفَ بِذِي الرَّحِمِ وَالْقَرَابَةِ؟!

فَإِنْ بَلَغَ الهَجْرُ بَيْنَهُمَا سَنَةً كَامِلَةً فَالأَمْرُ أَخْطَرُ، وَالإِثْمُ أَشَدُّ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي خِرَاشٍ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٩) .

فَكَيْفَ إِذَنْ بِهِجْرَانٍ وَتَقَاطُعٍ يَمْتَدُّ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةً؟!

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا مِنَ الحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالضَّغِينَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا قُلُوبًا سَلِيمَةً ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ

---

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٤)، وصححه النووي في رياض الصالحين، وقال: على شرط البخاري (١/ ٣٦٤)، وقال المنذري في الترغيب: على شرط البخاري ومسلم (٤١٧٥).

(٩) أخرجه أبو داود في السنة، باب فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٥)، وأحمد (٤/ ٢٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/٢٠٨)، رقم (٧٨٠)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١/ ٣٦٤).

وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ فَإِنَّ الأَعْمَارَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَالَ تُكْتَبُ، وَلَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ فِي آخِرَتِهِ -بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرُ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ وَإِحْسَانٍ، وَهُوَ فُرْصَةٌ عَظِيمَةٌ لِتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنْ أَدْرَانِ الحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ، وَالْكَرَاهِيَةِ وَالشَّحْنَاءِ.

إِنَّهُ فُرْصَةٌ لِوَصْلِ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ، وَزِيَارَةِ إِخْوَانٍ هُجِرُوا . .

إِنَّهُ مُنَاسَبَةٌ جَلِيلَةٌ لِإِزَالَةِ أَسْبَابِ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، وَوَضْعِ حَدٍّ لِلْمُتَهَاجِرِينَ وَالمُتَقَاطِعِينَ، إِنَّهُ فُرْصَةٌ لأَنْ تَسْمُوَ فِيهِ النُّفُوسُ عَلَى حُظُوظِهَا، وَتَتَطَهَّرَ فِيهِ الْقُلُوبُ مِنْ أَدْرَانِهَا وَغَلْوَائِهَا، فَتَمْتَدُّ فِيهِ الْأَيْدِي بِالمُصَافَحَةِ بَعْدَ سَنَوَاتِ الِانْقِبَاضِ، وَتُطْرَقُ فِيهِ الأَبْوَابُ لِلزِّيَارَةِ بَعْدَ طُولِ الجَفَاءِ وَالهِجْرَانِ، وَتَجْتَمِعُ فِيهِ الأَرْحَامُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالِانْقِطَاعِ.

إِنَّ رَمَضَانَ قَدْ جَمَعَ المُسْلِمِينَ فِي وَقْتِ إِمْسَاكِهِمْ وَإِفْطَارِهِمْ، وَضَيَّقَ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ فِي عُرُوقِهِمْ، فَصَارَ لِلصَّائِمِينَ فِيهِ إِقْبَالٌ عَلَى الخَيْرِ وَالإِحْسَانِ، وَمَشَاهِدُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ لِلْعِيَانِ فِي مَوَائِدِ الإِفْطَارِ، وَكَثْرَةِ البِرِّ وَالصَّدَقَاتِ، وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ؛ فَلِمَاذَا لَا يَمْتَدُّ هَذَا الإِحْسَانُ إِلَى مَوَاطِنِ النِّزَاعِ، وَمَوَاضِعِ الخِلَافِ، فَتُزَالَ أَسْبَابُهَا، وَيَسْتَعْلِيَ عَلَى حُظُوظِ النَّفْسِ أَصْحَابُهَا، فَيَسْتَبِقُونَ إِلَى مَنْ قَطَعُوا وَهَجَرُوا بِالمُصَافَحَةِ وَالِاعْتِذَارِ اسْتِبَاقَهُمْ إِلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ، وَرَمَضَانُ هُوَ الفُرْصَةُ المُوَاتِيَةُ لِذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ الصِّيَامَ سَبَبٌ لِإِزَالَةِ مَا فِي القُلُوبِ مِنَ الإِحَنِ وَالغِشِّ وَالدَّغَلِ، فَتَكُونُ النُّفُوسُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ

إِلَى الصَّفْحِ وَالعَفْوِ وَالمُسَامَحَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ وَحَرِ صَدْرِهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»(١٠).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ، وَيُذْهِبُ مَغَلَّةَ الصَّدْرِ**. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا مَغَلَّةُ الصَّدْرِ؟ قَالَ: **رِجْسُ الشَّيْطَانِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١١).

قَالَ الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَغَلُّ الصَّدْرِ مَا يَجِدُهُ الوَاجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الغِلِّ وَالفَسَادِ»(١٢).

وَجَاءَ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ أَنَّ الصِّيَامَ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَا يَسْتَجِنُّ مِنْهُ الْعَبْدُ بِالصِّيَامِ الأَحْقَادُ وَالشَّحْنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ، حَتَّى يَكُونَ قَلْبُهُ سَلِيمًا عَلَى إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَطَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَصِلُوا مَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَرْحَامِكُمْ، وَأَزِيلُوا أَسْبَابَ الخِلَافِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَكُمْ، وَخُذُوا بِوَصِيَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ الَّتِي وَصَّاكُمْ بِهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ**»(١٣).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

---

(١٠) أخرجه من حديث النمر بن تولب رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٧٨)، والنسائي في الصوم، باب صوم الدهر (٤/ ٢٠٨)، وقد سبق تخريجه في مجلد (٢) خطبة رقم (٥٩) رمضان والصبر، حاشية رقم (١٥) وينظر غريبه هناك.

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والطيالسي (٤٨٢).

(١٢) غريب الحديث (١/ ٥٨٥).

(١٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب الهجرة (٥٧٢٦).

٢٥٠- افتقارنا إلى الله تعالى

٢١/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَتَبَ آجَالَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَلَهُ سُبْحَانَهُ فِي رَمَضَانَ هِبَاتٌ وَعَطَايَا لَا تَنْقَضِي، وَخَزَائِنُهُ ﷻ لَا تَنْفَدُ، وَهُوَ القَائِلُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. لَوْ أَعْطَى كُلَّ سَائِلٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَهُوَ المَلِكُ الحَقُّ الكَبِيرُ، وَهُوَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَرَفَ رَبَّهُ تَمَامَ المَعْرِفَةِ، وَقَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، فَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ، إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَصَبَ فِي طَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ سَاجِدًا وَقَائِمًا، وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ كَانَ يَعْتَزِلُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ، خَالِيًا بِرَبِّهِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا النَّجَاةُ لِلعَبْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا قِيمَةُ الإِنْسَانِ بِلَا إِيمَانٍ وَلَا تَقْوَى ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَاجَةُ الخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا يُحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ؛ إِذْ هُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، مُحْتَاجُونَ إِلَى عَوْنِهِ فِي كُلِّ شُؤُونِهِمْ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُوجِدُهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَمُرَبِّيهِم بِالنِّعَمِ، وَهَادِيهِمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَصَارِفُهُمْ عَمَّا

يَضُرُّهُمْ؛ فَمَا قِيمَةُ الخَلْقِ بِلَا خَالِقِهِمْ؟!

وَالقُرْآنُ العَظِيمُ قَدْ عَرَضَتْ آيَاتُهُ لِهَذِهِ المَسَائِلِ، وَجَلَّتْ تِلْكَ الحَقَائِقَ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَغْفُلُونَ عَنْهَا وَهُمْ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، وَهَذِهِ اللَّيَالِي هِيَ لَيَالِي القُرْآنِ، فَالمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ الأَقْطَارِ يَتَحَرَّوْنَ فَضْلَهَا، وَيَلْتَمِسُونَ أَجْرَهَا، فَيُحْيُونَهَا بِالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ، وَأَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَحَرِيٌّ بِهِمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوا مَا يَقْرَؤُونَ وَيَسْمَعُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تعالَى فِي تِلْكَ اللَّيَالِي المَبَارَكَاتِ؛ لِيُدْرِكُوا حَقِيقَةَ فَقْرِهِمْ لِلَّهِ تعالَى، وَيَعْرِفُوا مَا لَهُ سُبْحَانَهُ مِنَ المِنَّةِ وَالفَضْلِ عَلَيْهِمْ، فَيَقُودُهُمْ ذَلِكَ إِلَى تَعْظِيمِهِ وَذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِنَا، فَلَمْ يَخْلُقْنَا سُبْحَانَهُ لِيَسْتَكْثِرَ بِنَا مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَسْتَقْوِيَ بِنَا مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا لِيَحْتَاجَ لَنَا فِي أَيِّ شَيءٍ؛ فَكَانَ خَلْقُهُ لَنَا مَحْضَ فَضْلٍ مِنْهُ ﷻ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْنَا ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

تَخَيَّلْ يا عَبْدَ اللَّهِ أَنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ، فَمَاذَا كَانَ؟! هَلْ سَيَخْتَلُّ الكَوْنُ بِدُونِكِ؟! وَهَلْ سَتَفْتَقِرُ المَوْجُودَاتُ إِلَى وُجُودِكَ؟!

أَلَمْ تَمْضِ أَزْمَانٌ قَبْلَ وُجُودِكِ، وَالكَوْنُ هُوَ الكَوْنُ، وَلَمْ يَفْتَقِرْ أَحَدٌ إِلَيْكَ، حَتَّى تُوْجَدَ مِنْ أَجْلِهِ، وَبَعْدَ مَوْتِكَ سَيَعِيشُ مَنْ يَعِيشُ، وَالكَوْنُ هُوَ الكَوْنُ، وَالنَّاسُ هُمُ النَّاسُ، فَلَا افْتَقَرَتِ المَوْجُودَاتُ إِلَى خَلْقِكَ، وَلَا اخْتَلَّ نِظَامُهَا بِمَوْتِكِ؟

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ نَصَّ عَلَيْهَا القُرْآن فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

نَعَمْ، مَضَتْ أَزْمَانٌ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عليه السلام لَمْ يَكُنْ لِلْبَشَرِ فِيهَا ذِكْرٌ؛ لأَنَّهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقِينَ، ثُمَّ مَضَتْ أَزْمَانٌ أُخْرَى بَعْدَ وُجُودِ الْبَشَرِ لَمْ يَكُنِ الْوَاحِدُ مِنَّا فِيهَا مَذْكُورًا مَعْرُوفًا؛ لأَنَّهُ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ، فَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا أَنْ خَلَقَ أَصْلَ الْبَشَرِ، ثُمَّ تَفَضَّلَ سُبْحَانَهُ عَلَيْنَا، فَجَعَلَنَا مِنْ نَسْلِ هَذَا الْبَشَرِ، وَلمَّا بُشِّرَ زَكَرِيَّا عليه السلام بِالْوَلَدِ، وَتَعَجَّبَ أَنْ يُرْزَقَ الْوَلَدَ عَلَى الْكِبَرِ وامْرَأَتُهُ عَاقِرٌ، كَانَ الْجَوَابُ: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وَسَمِعَ جُبَيرُ بْنُ مُطْعِمٍ وَهُوَ عَلَى الشِّرْكِ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِسُورَةِ الطُّورِ، قَالَ: «فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

ثُمَّ بَعْدَ افْتِقَارِنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي وُجُودِنَا بَشَرًا سَوِيًّا، نَفْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي بَقَائِنَا وَبَقَاءِ جِنْسِنَا الْبَشَرِيِّ، وَاللهُ عز وجل -وَهُوَ الغَنِيُّ عَنَّا- كَانَ وَلَا يَزَالُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُهْلِكَنَا وَيُذْهِبَنَا، وَأَنْ يُبْدِلَنَا بِبَشَرٍ مِثْلِنَا، بَلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يُلْغِيَ جِنْسَنَا، وَيَخْلُقَ خَلْقًا آخَرَ غَيْرَنَا، يَعْبُدُونَ اللهَ تعَالَى وَلَا يَعْصُونَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِالْآيَاتِ الَّتِي تُثْبِتُ افْتِقَارَنَا إِلَى اللَّهِ عز وجل فِي اسْتِمْرَارِ بَقَائِنَا وَبقَاءِ جِنْسِنَا البَشَرِيِّ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وفِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

(١) أخرجه من حديث: جبير بن مطعم رضي الله عنه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الطور (٤٥٧٣)، والنسائي في افتتاح الصلاة، باب القراءة في المغرب (٨٣١)، والدارمي (١٢٩٥)، وأحمد (٤/ ٨٤).

[إبراهيم: ١٩، ٢٠]، وفي سُورَةِ المَعَارِجِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]، وفي سُورَةِ الإِنْسَانِ: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

بَلْ جَاءَ النَّصُّ الصَّرِيحُ فِي القُرْآنِ عَلَى حَقِيقَةِ افْتِقَارِنَا إِلَى رَبِّنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي بَقَائِنَا وَبَقَاءِ جِنْسِنَا البَشَرِيِّ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي هِدَايَتِنَا وَإِسْلَامِنَا وَإِيمَانِنَا، وَإِلَى عِبَادَتِهِ ﷻ، فَلَوْلَا اللهُ تعَالَى لَمَا كُنَّا مُسْلِمِينَ، وَلَا آمَنَّا، وَلَا صَلَّيْنَا، وَلَا صُمْنَا، وَلَا عَمِلْنَا صَالِحًا، وَلَا جَانَبْنَا المُحَرَّمَاتِ، وَلَسْنَا أَعْلَى الْبَشَرِ شَأْنًا، وَلَا أَوْفَرَهُمْ عَقْلًا، وَلَا أَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَلَكِنَّ اللهَ تعَالَى مَنَّ عَلَيْنَا بِالهِدَايَةِ، وَضَلَّ عَنْهَا غَيْرُنَا مِمَّنْ لَمْ يَهْتَدُوا ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»(٢).

وَاسْتَحَقَّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ نَحْمَدَهُ وَنُكَبِّرَهُ عَلَى هَذِهِ الهِدَايَةِ؛ كَمَا جَاءَ الأَمْرُ بِذَلِكَ فِي سِيَاقِ آيَاتِ مَنَاسِكِ الحَجِّ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وَفِي سِيَاقِ آيَاتِ الصِّيَامِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(٢) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه في حديث طويل: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

وَكَمْ مِنْ شَخْصٍ ضَلَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْإِيمَانِ فَلَا هَادِيَ لَهُ، بَلِ الْكَثْرَةُ الكَاثِرَةُ مِنَ البَشَرِ هُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ جَعَلَنَا مِنَ المُؤْمِنِينَ وَهُمُ الأَقَلُّونَ، وَاقْرَؤُوا آيَاتِ الهِدَايَةِ وَالضَّلَالِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تعَالَى تَعْرِفُوا قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ بِالهِدَايَةِ، وَتُدْرِكُوا مَدَى افْتِقَارِكُمْ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الإِيمَانِ، فَقَدَ أَنْكَرَ ﷺ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَى فَلَنْ يُوجَدَ سَبِيلٌ إِلَى هُدَاهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وَلَا زِلْنَا مُفْتَقِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدَّيْمُومَةِ عَلَى إِيمَانِنَا، وَالثَّبَاتِ عَلَى إِسْلَامِنَا؛ فَلَا ثَبَاتَ لَنَا إِلَّا بِاللَّهِ تعالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ؛ وَلِذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وَالمُصَلِّي يَتْلُو فِي كُلِّ رَكْعَةٍ هَذَا الدُّعَاءَ المُبَارَكَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي رِزْقِنَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْزُقُنَا غَيْرُ رَبِّنَا وَخَالِقِنَا، وَالمُنْعِمِ عَلَيْنَا؟ وَالخَلْقُ مَهْمَا كَانَتْ عَظَمَتُهُمْ، أَوْ بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ، أَوْ عَلَتْ مَكَانَتُهُمْ، لَا يَرْزُقُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْزُقُوا غَيْرَهُمْ، فَكُلُّهُمْ عِيَالٌ عَلَى اللَّهِ تعَالَى، يَسُوقُ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ حَيْثُ كَانُوا، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تعَالَى ذِكْرَ افْتِقَارِنَا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي الخَلْقِ وَالرِّزْقِ فِي آيَاتٍ

كَثِيرَةٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا قِوَامَ لَنَا، وَلَا بَقَاءَ لِجِنْسِنَا بَعْدَ أَنْ خَلَقَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ إِلَّا بِرِزْقِهِ الَّذِي رَزَقَنَا، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، وَأَمَرَنَا سُبْحَانَهُ بِدَوَامِ تَذَكُّرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَعَدَمِ نِسْيَانِهَا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

وَلَوْ حَبَسَ عَنَّا رِزْقَهُ، فَمَنْ يَرْزُقُنَا؟ ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، فَالرِّزْقُ إِنَّمَا يُطْلَبُ مِمَّنْ يَمْلِكُهُ وَيَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

إِنَّنَا مُفْتَقِرُون إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي طَعَامِنَا وَشَرَابِنَا، وَكِسَائِنَا وَصِحَّتِنَا وَعِلَاجِنَا، وَفِي كُلِّ شُؤُونِنَا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ: «**يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وَكُلُّكُم كَانَ عَارِيًا إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ، وَكُلُّكُم كَانَ جَائِعًا إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنَ إِلَّا مَنْ سَقَيْتُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ مُسْلِم(٣).

وَفَقْرُنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى دَائِمٌ مَعَنَا، مُلَازِمٌ لَنَا، فَكُلُّ حَرَكَاتِنَا وَسَكَنَاتِنَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تعَالَى وَتَدْبِيرِهِ، أَقَرَّ بِذَلِكَ مَنْ أَقَرَّ بِهِ، فَخَضَعَ لِعِبَادَةِ مَوْلَاهُ جَلَّ جَلَالُهُ فَكَانَ مِنَ النَّاجِينَ الفَائِزِينَ، وَأَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ، فَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ فَكَانَ مِنَ الهَالِكِينَ المُعَذَّبِينَ.

---

(٣) هذه الرواية من حديث أبي ذر رضي الله عنه: لأحمد في المسند (٥/ ١٦٠)، والحديث أخرجه مسلم كما في حاشية (٢).

فَاعْرِفُوا لِلَّهِ تعَالَى حَقَّهُ، وَأَقِرُّوا بِفَضْلِهِ، وَتبَرَّؤُوا مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ إِلَّا بِاللَّهِ تعَالَى؛ فَإِنَّ التَّبَرُّؤَ مِنْ كُلِّ حَوْلٍ وَقُوَّةٍ إِلَّا مِنْ حَوْلِ اللَّهِ تعَالَى وَقَوَّتِهِ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؛ لأَنَّ فِيهِ اعْتِرَافًا بِالفَقْرِ الدَّائِمِ إِلَى اللَّهِ تعَالَى؛ رَوَى أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٢-٥٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، خَضَعَ الخَلْقُ لأَمْرِهِ، وَذَلُّوا لِسُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ عَنْ حُكْمِهِ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يُطِيلُ قِيَامَ اللَّيْلِ؛ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ؛

---

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩٦٨)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٩٤).

قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رضي الله عنه: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ؛ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: **أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(٥)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّكُمْ فِي لَيَالٍ عَظِيمَةٍ؛ تُغْفَرُ فِيهَا الذُّنُوبُ، وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ، وَتُسْتَجَابُ الدَّعَوَاتُ، وَتُقَالُ العَثَرَاتُ، وَيُعْتِقُ اللهُ تعالى خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ، وَفِيهَا لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ، مَنْ أَدْرَكَهَا وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ، فَقَبِلَ اللهُ تعالى مِنْهُ، فَقَدْ نَالَ خَيْرًا عَظِيمًا، وَحَازَ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٣-٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ تَوْجِيهُ الرُّسُلِ إِلَيْكُمْ، وَسَبِيلُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، الِافْتِقَارَ إِلَى اللَّهِ تعالَى، وَالِانْطِرَاحَ عَلَى بَابِهِ، وَالِاعْتِرَافَ لَهُ بِالْعَجْزِ وَالْفَاقَةِ وَالضَّعْفِ وَالحَاجَةِ، وَالتَّبَرُّؤَ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ.

هَذَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَتَبَرَّأُ مِنْ أَصْنَامِ قَوْمِهِ، وَيُعْلِنُ فَقْرَهُ لِلَّهِ تعالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

اعْتِرَافٌ مِنْهُ عليه السلام بِفَضْلِ اللَّهِ تعالَى عَلَيْهِ، وَإِعْلَانُ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْدَادُ نِعَمِهِ عَلَيْهِ.

---

(٥) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١٠٧٨)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار العمل والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).
وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٤٥٥٧)، ومسلم (٢٨٢٩).

وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ فَقْرًا إِلَى اللَّهِ تعالَى، واعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَتَعْدَادًا لِنِعَمِهِ، وَتَعَلُّقًا بِجَنَابِهِ، وَإِلْحَاحًا فِي دُعَائِهِ، دَعَاهُ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ قُبَاءٍ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيْهِ، قَالَ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمْنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَلَا مُكَافَئٍ، وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَايَةِ، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالحَاكِمُ(٦).

وَكَانَ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبِّي ذُرِّيَّتَهُ وَأُمَّتَهُ عَلَى دَوَامِ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَالإِقْرَارِ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رضي الله عنها: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَأَمْسَيْتِ: يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، ولَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**» رَوَاهُ الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٧).

فَسِيرُوا -رَحِمَكُم اللهُ تعَالَى- سِيرَةَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي افْتِقَارِهِمْ إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَإِعْلَانِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، فَكَمْ نَحْتَاجُ إِلَى إِحْيَاءِ هَذَا الِافْتِقَارِ فِي القُلُوبِ، بَعْدَ أَنْ قَسَتْ بِالذُّنُوبِ؟

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: النسائي في الكبرى (١٠١٣٣)، والطبراني في الدعاء (٨٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٤٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٨٦)، والبيهقي في الشعب (٤٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في الشكر(١٥)، وصححه ابن حبان (٥٢١٩)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (١/ ٧٣١).

(٧) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٠٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣١٩)، وصححه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين (١/ ٧٣٠).

لِنُعْلِنْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ فَقْرَنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى، وَلْنُلِحَّ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، فَمَا أَفْقَرَنَا إِلَى رَبِّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ! وَمَا أَحْوَجَنَا إِلَيْهِ!

إِنَّنَا مُفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي صَلَاحِ قُلُوبِنَا، وَزَكَاءِ أَعْمَالِنَا، واسْتِقَامَتِنَا عَلَى دِينِنَا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ تعَالَى؛ فَقُلُوبُنَا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي حِفْظِ أَنْفُسِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا مِنَ الأَمْرَاضِ وَالحَوَادِثِ وَالجَوَائِحِ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي دَوَامِ أَمْنِنَا وَاسْتِقْرَارِنَا، وَفِي حِفْظِ بِلَادِنَا وَبِلَادِ المُسْلِمِينَ مِنْ مَشْرُوعَاتِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ. وَمُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ ﷻ فِي دَيمُومَةِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا، فَهُوَ مَنْ يَمْلِكُ بِقَاءَهَا وَزَوَالِهَا.

مَا أَفْقَرَنَا إِلَى اللَّهِ تعَالَى فِي صَلَاحِ بُيُوتِنَا، وَاسْتِقَامَةِ أَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! وَمَا أَفْقَرَنَا إِلَى عَفْوِ رَبِّنَا وَرَحْمَتِهِ؛ لِنُعْتَقَ مِنَ النَّارِ، وَيُكْتَبَ لَنَا الرِّضْوَانُ! وَلِرَبِّنَا تبَارَكَ وَتعَالَى فِي هَذِهِ العَشْرِ المُبَارَكَةِ هِبَاتٌ وَعَطَايَا، فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا إِلَيْهَا!

فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ بِدُعَائِكُمْ وَإِلْحَاحِكُمْ، وَإِقْرَارِكُمْ بِفَقْرِكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِجَاهِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَصِحَّتِكُمْ وَرَغَدِ عَيْشِكُمْ، وَمَا بُسِطَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى فَقْرِكُمْ؛ لأَنَّكُمْ وَقَعْتُمْ فِي أَسْرِهَا، وَلَا تُطِيقُونَ فِرَاقَهَا، وَلَا يَمْلِكُ دَوَامَهَا لَكُمْ إِلَّا اللهُ تعَالَى؛ فَافْتَقِرُوا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ يُغْنِكُمْ، وَلَا تَسْتَغْنُوا بِغَيْرِهِ فَتَهْلِكُوا.

انْطَرِحُوا عَلَى بَابِهِ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَاتِ، خَاشِعِينَ بَاكِينَ، دَاعِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، تُقِرُّونَ بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، وَتَعْتَرِفُونَ بِجُرْمِكُم وَتَقْصِيرِكُمْ فِي حَقِّهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، إِنْ عَلِمَ صِدْقَكُمْ، وَرَأَى ذُلَّكُمْ، وَسَمِعَ

تَضَرُّعَكُمْ؛ غَفَرَ لَكُمْ، وَأَعْطَاكُمْ سُؤْلَكُمْ، وَدَفَعَ الشَّرَّ عَنْكُمْ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٥١- رمضان والعفو (٢) (*)

١٤٢٥/٩/٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلدُّنْيَا مُرِيدُوهَا الَّذِينَ يَسْعَوْنَ لهَا، وَيُفْنُونَ أَعْمَارَهُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا .. وَلِلْآخِرَةِ طُلَّابُهَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لهَا، وَيَجْعَلُونَ الدُّنْيَا مَطِيَّتَهُمْ إِلَيْهَا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وَلَقَدْ كَانَ رَمَضَانُ مَوْسِمًا لِلطَّائِفَتَيْنِ، وَمَيْدَانًا لِتَنَافُسِ الْفَرِيقَيْنِ؛ فَعُبَّادُ الدُّنْيَا

(*) رمضان والعفو (١) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦٠).

اسْتَمْتَعُوا فِيهِ بِمَا حَلَّ وَبِمَا حَرُمَ، وَقَضَوْا لَيَالِيَهُ الْفَاضِلَةَ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ.

وَطُلَّابُ الْآخِرَةِ عَمِلُوا فِيهِ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرَاتٍ، وَاكْتَسَبُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَسَيَجِدُ الْفَرِيقَانِ جَزَاءَ مَا عَمِلُوا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَهَا هُوَ ذَا رَمَضَانُ يَنْتَهِي عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، لَمْ يَتَقَدَّمْ لِلْعُصَاةِ دُونَ الطَّائِعِينَ، وَلَا تَأَخَّرَ عَنِ الطَّائِعِينَ دُونَ الْعَاصِينَ.

هَا هُو ذَا رَمَضَانُ يَنْتَهِي كَمَا كَانَ قَبْلَ أَيَّامٍ يَبْتَدِي، وَسَتُطْوَى صَحَائِفُهُ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ؛ لِيَجِدُوا مَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَيَا لِلَّهِ الْعَظِيمِ! كَمْ مِنْ ذَنْبٍ غُفِرَ؟ وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ قُبِلَ؟ وَكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ أُجِيبَتْ؟ كَمْ مِنْ رَقَبَةٍ أُعْتِقَتْ مِنَ النَّارِ؟ وَكَمْ مِنْ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى اسْتَوْجَبُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ سَبَبًا لِنَيْلِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ؟!

وَرَبُّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ عَفُوٌّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، لَهُ الْعَفْوُ الشَّامِلُ الْكَامِلُ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ كَرَبٍّ لِلْعَالَمِينَ، وَخَالِقٍ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

وَمِنْ كَمَالِ عَفْوِهِ عَنْ عِبَادِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ مَهْمَا أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ تَابَ إِلَيْهِ؛ غَفَرَ لَهُ جَمِيعَ جُرْمِهِ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

وَلَوْلَا كَمَالُ عَفْوِهِ، وَسَعَةُ حِلْمِهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تَدِبُّ، وَلَا نَفْسٍ تَطْرِفُ؛ فَإِنَّ ذُنُوبَ الْعِبَادِ تُرْدِيهِمْ، وَتَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُمْ وَهَلَاكَهُمْ، وَلَكِنَّ الْعَفُوَّ الْكَرِيمَ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وَمِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى عَفْوِهِ ﷻ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى**

سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، **إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه(١).

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا تَرَكَ عَذَابَ النَّاسِ مِنْ عَجْزٍ عَنْهُمْ، أَوْ لِأَجْلِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِمْ؛ بَلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وَمَا يَنْزِلُ بِالْعِبَادِ مِنْ كَوَارِثَ وَمَصَائِبَ تُصِيبُ أَفْرَادًا بِخُصُوصِهِمْ، أَوْ تُصِيبُ أُمَّةً كَامِلَةً مِنَ اضْطِرَابَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ مُشْكِلَاتٍ اقْتِصَادِيَّةٍ، أَوْ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، أَوْ أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ، فَهُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ الْعِبَادِ، وَمَا عَفَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورى: ٣٠]، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: ٤١]. قال ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ وَمَا قَالَ: «كُلَّ الَّذِي عَمِلُوا» وَإِلَّا لَأَهْلَكَهُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ هَلَاكَهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِ وَعِظَمِهِ.

وَلَمَّا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، خَاطَبَ الْعِبَادَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

يَعْنِي سُبْحَانَهُ: أَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِاللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب في الأذى (٥٧٤٨)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب: لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (٢٨٠٤).

النَّارِ، وَلَا أَنْ يُعَذِّبَ عِبَادَهُ بِأَيِّ عَذَابٍ إِذَا أَنَابُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَعَمِلُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكُوا مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ ﷻ لَا يَجْتَلِبُ بِعَذَابِ خَلْقِهِ إِلَى نَفْسِهِ نَفْعًا، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا ضُرًّا، وَإِنَّمَا عُقُوبَتُهُ مَنْ عَاقَبَ مِنْ خَلْقِهِ جَزَاءً مِنْهُ لَهُ عَلَى جَرَاءَتِهِ عَلَيْهِ، وَعُقُوبَةً عَلَى مُخَالَفَتِهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَكُفْرَانِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَنْتُمْ شَكَرْتُمْ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَأَطَعْتُمُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى تَعْذِيبِكُمْ، بَلْ يَشْكُرُ لَكُمْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ طَاعَةٍ لَهُ بِمُجَازَاتِكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَعْظَمَ الثَّوَابِ وَأَجْزَلَهُ(٢).

وَالْيَقِينُ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِ، مَعَ الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْعَفْوِ؛ مِنْ فِعْلِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَلُزُومِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ هُوَ طَرِيقُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ بِعَفْوِ اللَّهِ ﷻ مَعَ سَعْيِهِمْ فِي تَحْصِيلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا عَفْوَهُ وَمَغْفِرَتَهُ.

قَالَ بَكْرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الصَّوَّافُ: «دَخَلْنَا عَلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي الْعَشِيَّةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، فَقُلْنَا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكُمْ، إِلَّا أَنَّكُمْ سَتُعَايِنُونَ غَدًا مِنْ عَفْوِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي حِسَابٍ، قَالَ: ثُمَّ مَا بَرِحْنَا حَتَّى أَغْمَضْنَاهُ»(٣).

وَرَمَضَانُ الْمُبَارَكُ وَعَشْرُهُ الْأَخِيرَةُ مِنْ أَكْبَرِ مَوَاسِمِ عَفْوِ الْعَفُوِّ الْكَرِيمِ الَّذِي يُحِبُّ الْعَفْوَ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجُودُ عَلَى عِبَادِهِ بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ مَنْ تَعَرَّضُوا لِعَفْوِهِ، بِالْقِيَامِ بِحَقِّهِ ﷻ عَلَيْهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ وَقِيَامِهِمْ، وَذِكْرِهِمْ وَدُعَائِهِمْ.

وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ هِيَ أَعْظَمُ لَيْلَةٍ لِلْعَفْوِ فِي رَمَضَانَ، وَالْعَفُوُّ الْكَرِيمُ يَعْفُو فِيهَا عَنْ

---

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٨٦).

كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ مِمَّنِ اسْتَوْجَبُوا عِقَابَهُ، وَلِذَا خُصَّتْ بِسُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى الْعَفْوَ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(٤).

وَهَذَا الدُّعَاءُ الْمُبَارَكُ مِنْ أَوْجَزِ الدُّعَاءِ وَأَنْفَعِهِ، بَلْ تَنْتَظِمُ بِهِ مَصَالِحُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ، وَالْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَالْأُمَمُ يَحِقُّ عَلَيْهَا الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ بِعَمَلِ أَفْرَادِهَا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، وَالْفَرْدُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَوْجِبُ عُقُوبَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِتَرْكِهِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، فَإِذَا سَأَلَ الْمُسْلِمُ رَبَّهُ الْعَفْوَ فَقَبِلَ مِنْهُ لِإِتْيَانِهِ بِأَسْبَابِ الْقَبُولِ رَفَعَ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ .. فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ -وَهُمْ يَفْعَلُونَهُ فِي رَمَضَانَ بِدُعَائِهِمْ فِي قُنُوتِهِمْ وَسُجُودِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمُ الْعَفْوَ- وَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ رَفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا، فَزَالَتْ عَنْهُمُ الْمَصَائِبُ، وَفُرِجَتْ هُمُومُهُمْ، وَكُشِفَتْ غُمُومُهُمْ، وَحُلَّتْ مُشْكِلَاتُهُمْ.

وَعَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ مُؤَاخَذَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَسَلَامَتِهِمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ؛ فَانْتَظَمَتْ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ مَصَالِحُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ يُفَرِّطُ فِي مِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ إِلَّا مَحْرُومٌ؟! وَمَنْ يَسْتَبْدِلُ بِهِ أَدْعِيَةً مَسْجُوعَةً مُتَكَلَّفَةً إِلَّا مَنْ يَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟!

---

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٨٥) وقال: حديث حسن صحيح (٣٥١٣)، والنسائي في الكبرى (٧٧١٢)، وأحمد (٦/ ١٨٣)، وإسحاق بن راهويه (١٣٦١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٧٤).
وجاء هذا الدعاء بسند ضعيف من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أبي يعلى (١٠٢٣)، والطبراني في الأوسط (٧٧٤٦)، ولم يذكر فيه رمضان ولا ليلة القدر.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَقَبُولَ الأَعْمَالِ، وَاسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٨، ١٤٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاشْكُرُوا اللهَ الَّذِي بَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَسَلُوهُ قَبُولَ الأَعْمَالِ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ ﷻ: تَكْبِيرُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ، وَوَفَّقَنَا لِلصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَيَبْتَدِئُ التَّكْبِيرُ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِ آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ، أَيْ: لَيْلَةَ الْعِيدِ، يَجْهَرُ بِهِ الرِّجَالُ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ وَطُرُقَاتِهِمْ.

وَمِنْ شُكْرِهِ ﷻ: إِخْرَاجُ زَكَاةِ الْفِطْرِ؛ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ

فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَيَأْثَمُ مَنْ أَخَّرَهَا إِلَى مَا بَعْدَ الصَّلَاةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا بِعُذْرٍ مُعْتَبَرٍ شَرْعًا.

وَوَقْتُ إِخْرَاجِهَا الْفَاضِلُ: مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ، وَيَجُوزُ تَقْدِيمُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ .. يُخْرِجُهَا رَبُّ الْأُسْرَةِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، وَمَنْ كَانَ مُكْتَسِبًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، فَالْأَفْضَلُ أَنْ يُخْرِجَهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ نَفْسِهِ .. وَهِيَ صَاعٌ بِالصَّاعِ النَّبَوِيِّ مِنْ بُرٍّ أَوْ شَعِيرٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ أَقِطٍ أَوْ زَبِيبٍ أَوْ طَعَامٍ يَقْتَاتُهُ النَّاسُ.

وَالْعِيدُ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ الْعِظَامِ، وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا عِيدَانِ حَوْلِيَّانِ: الْفِطْرُ وَالْأَضْحَى، وَعِيدٌ أُسْبُوعِيٌّ: الْجُمُعَةُ. وَهَذِهِ الْأَعْيَادُ الثَّلَاثَةُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هَدَى لَها أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَحَرَمَ مِنْهَا أَهْلَ الْكِتَابِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْهُمَا عِيدَ الْفِطْرِ وَعِيدَ الْأَضْحَى**»(٥).

وَلِلْعِيدِ صَلَاةٌ عَظِيمَةٌ هِيَ مِنْ أَجَلِّ الشَّعَائِرِ، وَأَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الْحِرْصُ عَلَى أَدَائِهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ جَمْعًا مِنَ الْمُحَقِّقِينَ قَالُوا بِفَرْضِيَّتِهَا عَلَى آحَادِ النَّاسِ.

وَلِتَأْكِيدِهَا وَأَهَمِّيَّتِهَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِخْرَاجِ النِّسَاءِ لَها، وَلَمْ يَسْتَثْنِ إِلَّا الْحُيَّضَ فَيَخْرُجْنَ وَيَعْتَزِلْنَ الْمُصَلَّى، وَيَشْهَدْنَ جَمْعَ الْمُسْلِمِينَ(٦)، وَمَا

---

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، والنسائي في صلاة العيدين (٣/ ١٧٩)، وأحمد (٣/ ١٠٣، ١٧٨، ٢٣٥، ٢٥٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠، ٣٨٤١)، والحاكم وصَحَّحَهُ وقال: عَلَى شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤٣٤)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٤٤٢).

(٦) جاء ذلك في حديث أم عَطِيَّة ﵂ قالت: «أُمِرْنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنُخْرِجَ الْحُيَّضَ وَالْعَوَاتِقَ =

ذَاكَ إِلَّا لِعَظِيمِ أَمْرِ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْحَوْلِيَّةِ الَّتِي تَسَاهَلَ بِشَأْنِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ لَا يُصَلِّيهَا فِي بَيْتِهِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ فَلَا يَقْضِيهَا عَلَى الصَّحِيحِ(٧).

وَالسُّنَّةُ أَنْ لَا يَخْرُجَ فِي عِيدِ الْفِطْرِ إِلَى المُصَلَّى حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ، وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ(٨).

وَحِكْمَةُ ذَلِكَ: امْتِثَالُ السُّنَّةِ، وَتَأْكِيدُ الْإِفْطَارِ فِي يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ لِأَنَّهُ يَحْرُمُ صِيَامُهُ. فَالْيَوْمُ الَّذِي قَبْلَهُ كَانَ يَحْرُمُ فِطْرُهُ فِي النَّهَارِ، وَفِي يَوْمِ الْعِيدِ يَجِبُ أَنْ يُفْطِرَ، فَيُثْبِتُ المُسْلِمُ بِذَلِكَ عُبُودِيَّتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَمَامَ خُضُوعِهِ لِشَرِيعَتِهِ، فَهُوَ يَصُومُ بِأَمْرِهِ، وَيُفْطِرُ بِأَمْرِهِ.

وَيَتَجَمَّلُ يَوْمَ الْعِيدِ، وَيَتَطَيَّبُ، وَيَلْبَسُ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ فَرَحٍ وَسُرُورٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَبِخِتَامِ الشَّهْرِ، وَإِتْمَامِ الصِّيَامِ.

وَيَخْرُجُ المُسْلِمُ لِمُصَلَّى الْعِيدِ مَاشِيًا إِنْ تَيَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه: «السُّنَّةُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٩).

= وَذَوَاتِ الخُدُورِ، فأَمَّا الحُيَّضُ فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ ودَعْوَتَهُمْ، ويَعْتَزِلْنَ مُصَلَّاهُمْ» أخرجه البُخَارِيّ في العيدين، باب اعتزال الحيض المصلى(٩٣٨)، ومسلم في صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة مفارقات للرجال (٨٩٠).

(٧) ينظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ١٨١).

(٨) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تمرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» أخرجه البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩١٠)، والترمذي في العيدين، باب ما جاء في الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٥٤٣)، وابن ماجه في الصيام، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (١٧٥٩).

(٩) أخرجه الترمذي في العيدين، باب ما جاء في المشي يوم العيد، وحسنه (٥٣٠)، والبيهقي (٣/ ٢٨١)، وعبد الرزاق (٥٦٦٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٨٦).

وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند: ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما =

وَيُكَبِّرُ وَيَجْهَرُ بِتَكْبِيرِهِ إِلَى أَنْ يَشْرَعَ فِي الصَّلَاةِ، وَالتَّكْبِيرُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ التَّكْبِيرَ عِبَادَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِذَا حَضَرَ الْمُصَلَّى صَلَّى تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ، ثُمَّ يَشْتَغِلُ بِالتَّكْبِيرِ.

وَإِذَا صَلَّى الْمُسْلِمُونَ الْعِيدَ شُرِعَ لَهُمُ التَّهْنِئَةُ بِهِ عَلَى إِكْمَالِ الْعِدَّةِ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَلِإِزَالَةِ مَا قَدْ يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الشَّحْنَاءِ؛ فَإِنَّ سَلَامَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ سَبَبٌ لِلتَّحَابِّ بَيْنَهُمْ.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي ذَهَبَ مِنْهَا إِلَى الْمُصَلَّى؛ لِمَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا خَرَجَ يَوْمَ الْعِيدِ خَالَفَ الطَّرِيقَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٠].

وَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْمُنْكَرَاتِ فِي الْعِيدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ كُفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَاحْفَظُوا نِسَاءَكُمْ مِنَ التَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ، أَوِ الْخُرُوجِ إِلَى مُصَلَّى الْعِيدِ وَهُنَّ مُتَعَطِّرَاتٌ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خَطَرًا عَلَى دِينِهِنَّ، وَسَبَبًا لِفِتْنَةِ الرِّجَالِ بِهِنَّ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ فِي رَمَضَانَ وَفِي شَوَّالٍ وَفِي كُلِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخْلِفَ عَلَيْنَا رَمَضَانَ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يُعِيدَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَعْوَامًا عَدِيدَةً، فِي أَعْمَارٍ مَدِيدَةٍ، وَحَيَاةٍ سَعِيدَةٍ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

= جاء في الخروج إلى العيد ماشيًا (١٢٩٥).

وشاهد آخر من حديث ابن أبي رافع عن أبيه عن جدِّهِ عِنْدَ: ابن ماجه أيضًا (١٢٩٧) وفيه آثار عن السلف الصالح رضي الله عنهم.

(١٠) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: البخاري في العيدين، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (٩٤٣).

٢٥٢- العشر والدعاء (٣) (*)

٢٢/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ يَسْمَعُ كُلَّ شَكْوَى، وَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ نَجْوَى، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَالَّذِي نَقُولُ، وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وَأَسْتَغْفِرُهُ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ فَقَدْ كَثُرَ عِصْيَانُنَا، وَقَلَّ اسْتِغْفَارُنَا، وَثَقُلَتْ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ نُفُوسُنَا، فَنَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ لِكُلِّ ذُنُوبِنَا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ «كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[1] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّكُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالإِمْهَالِ، وَقَرِيبًا تُفَارِقُونَهَا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عَيْشُ الْمَرْءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ، مَنْ ضَيَّعَهَا شَقِيَ أَبَدًا، وَمَنِ اسْتَثْمَرَهَا سَعِدَ أَبَدًا.

(*) العشر والدعاء (١) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦١)، و(٢) تجدها في مجلد (٢)، خطبة رقم (٦٢).

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في صلاة التراويح، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (١٩٢٠)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

وَكَمَا أَنَّ فِي أَعْمَالِ الدُّنْيَا مِنْ تِجَارَةٍ وَصِنَاعَةٍ وَغَيْرِهَا فُرَصًا سَانِحَةً، وَمَجَالَاتٍ لِلرِّبْحِ الْعَظِيمِ، يَفُوزُ بِهَا مَنْ يَفُوزُ، وَتَفُوتُ مَنْ ضَيَّعَهَا؛ فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْآخِرَةِ فِيهَا فُرَصٌ أَيُّ فُرَصٍ، وَمَجَالَاتٌ لِلْكَسْبِ الْعَظِيمِ، وَالْأَجْرِ الْكَبِيرِ، فِي أَزْمِنَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَأَعْمَالٍ مَشْرُوعَةٍ، وَمَا عَشْرُ رَمَضَانَ إِلَّا فُرْصَةٌ مِنْ فُرَصِ الْآخِرَةِ، مَنِ اعْتَنَى بِهَا اعْتَنَى بِعَظِيمٍ، وَرَبِحَ كَثِيرًا، وَمَنْ فَاتَتْهُ أَوْ شُغِلَ عَنْهَا بِغَيْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَدْ فَاتَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَاشْتَغَلَ بِمَا لَا يَدُومُ عَمَّا يَدُومُ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الخَسَارَةِ؟!

إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ شَرَعَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ لِيَغْفِرَ لَنَا، وَيَرْحَمَنَا، وَيُعْتِقَنَا مِنَ النَّارِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنَّا وَنَحْنُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا نِعَمًا لَا نُحْصِيهَا، وَرَفَعَ عَنَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَثِيرٌ مِنَّا مَا شَكَرُوا نِعَمَهُ الْعَظِيمَةَ، وَلَكِنْ إِذَا أَحَاطَتْ بِهِمُ الْبَلَايَا، أَوْ نَزَلَتْ بِهِمُ المَصَائِبُ تَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ، فَهَرِعُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ رَفْعَ بَلَائِهِمْ، وَكَشْفَ ضَرَّائِهِمْ.

تَأَمَّلُوا مَعِي -أَيُّهَا الصَّائِمُونَ- قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. ذَكَرَ النِّعْمَةَ مُنَكَّرَةً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ نِعْمَةً وَاحِدَةً وَإِنَّمَا نِعَمٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، كُلُّ ذَلِكَ يَنْسَاهُ الْإِنْسَانُ! فَإِذَا أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ خَفِيفَةٌ عَبَّرَ عَنْهَا بِالمَسِّ، وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا (أل) التَّعْرِيفِ؛ لِأَنَّهُ ضُرٌّ وَاحِدٌ خَفِيفٌ؛ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسْأَلُهُ كَشْفَهُ.

إِنَّ الْبَشَرَ يَهْرَعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَقَلِّ ضُرٍّ يَمَسُّهُمْ، وَيَنْسَوْنَ شُكْرَهُ عَلَى عَظِيمِ النِّعَمِ(٢).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَفُوٌّ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، يَرْحَمُ عِبَادَهُ وَيَكْشِفُ ضُرَّهُمْ،

---

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ١٢٧).

وَيَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ، وَالدُّعَاءُ سِلَاحُ المُؤْمِنِ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ، لَجَأَ إِلَيْهِ خِيرَةُ الْخَلْقِ، وَأَفَاضِلُ الْبَشَرِ: الْأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ ﷺ.

فَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لَمَّا قَذَفَهُ قَوْمُهُ فِي النَّارِ قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»(٣)، فَكَانَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وَأَيُّوبُ عليه السلام كَانَ كَثِيرَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالمَالِ؛ فَابْتُلِيَ بِذَهَابِ ذَلِكَ، حَتَّى نَالَهُ الْبَلَاءُ فِي جَسَدِهِ، وَمَا سَلِمَ إِلَّا قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَاسْتَمَرَّ بَلَاؤُهُ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، جَفَاهُ فِيهَا الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا امْرَأَةً لَهُ كَانَتْ تَقُومُ عَلَيْهِ وَتُطْعِمُهُ وَهُوَ مُمَدَّدٌ فِي الْعَرَاءِ، وَكُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ يَسْتَقْذِرُهُ مِمَّا فِي جَسَدِهِ مِنْ قُرُوحٍ وَصَدِيدٍ، وَهُوَ فِي بَلَائِهِ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ عَلَى نِعَمِهِ(٤).

فَلَمَّا عَظُمَتْ مِحْنَتُهُ، وَاشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَطَالَ سَقَمُهُ؛ دَعَا اللهَ عز وجل بِأُسْلُوبٍ فِي غَايَةِ الْأَدَبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. عَبَّرَ فِي دُعَائِهِ بِالمَسِّ وَهُوَ الْإِصَابَةُ الْخَفِيفَةُ؛ لِأَنَّهُ عليه السلام نَظَرَ إِلَى نِعَمِ اللَّهِ عز وجل، فَمَا وَجَدَ بَلَاءَهُ رَغْمَ شِدَّتِهِ شَيْئًا يُذْكَرُ أَمَامَ تِلْكَ النِّعَمِ، وَعَرَّضَ بِطَلَبِ زَوَالِ هَذَا الضُّرِّ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فَقَالَ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِمَا تَقْتَضِي الرَّحْمَةُ لَهُ، وَوَصَفَ رَبَّهُ بِالْأَرْحَمِيَّةِ تَعْرِيضًا بِسُؤَالِهِ(٥).

فَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا الدُّعَاءِ المُبَارَكِ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما البخاري في التفسير باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] (٤٢٨٧).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠١-٣٠٢).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١٢٧).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

لَقَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْأَمْرَاضَ وَالْعِلَلَ تَزُولُ شَيْئًا شَيْئًا، وَلَكِنْ لِسُرْعَةِ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ أَيُّوبَ عليه السلام زَالَ مَا بِهِ فِي لَحْظَةٍ ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وَالْكَشْفُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْإِزَالَةِ السَّرِيعَةِ، فَشُبِّهَتْ إِزَالَةُ الْأَمْرَاضِ وَالْأَضْرَارِ الْمُتَمَكِّنَةِ الَّتِي يُعْتَادُ أَنَّهَا لَا تَزُولُ إِلَّا بِطُولِ وَقْتٍ بِإِزَالَةِ الْغِطَاءِ مِنَ الشَّيْءِ فِي السُّرْعَةِ(٦).

حَتَّى إِنَّ امْرَأَتَهُ لَمَّا جَاءَتْ تُطْعِمُهُ عَلَى عَادَتِهَا لَمْ تَعْرِفْهُ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ أَيُّوبُ عليه السلام(٧).

فَالْبَلَاءُ قَدْ يَطُولُ، لَكِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ إِذَا أَذِنَ بِالْفَرَجِ جَاءَ بِأَسْرَعَ مِمَّا يَظُنُّ النَّاسُ.

وَيُونُسُ عليه السلام ابْتَلَاهُ اللهُ تَعَالَى بِحُوتٍ ابْتَلَعَهُ، وَضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي بَطْنِهِ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فَكَانَ جَوَابُ دَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وَمَنِ ابْتَلَعَهُ حُوتٌ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي بَطْنِهِ هَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ نَاجٍ لَوْلَا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَنْ نَجَّى يُونُسَ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ أَلَيْسَ قَادِرًا عَلَى إِزَالَةِ كُلِّ هَمٍّ، وَكَشْفِ كُلِّ كَرْبٍ، وَرَفْعِ كُلِّ بَلَاءٍ؟! بَلَى وَرَحْمَةِ رَبِّنَا الرَّحِيمِ الْقَدِيرِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، مَهْمَا عَظُمَتْ كُرُوبُهُمْ، وَاشْتَدَّ بَلَاؤُهُمْ، وَتَوَالَتْ مَصَائِبُهُمْ.

---

(٦) المصدر السابق (١٧/ ١٢٧).

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٣).

مَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى اسْتِحْضَارِ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ! فَلَا يَيْأَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَنْقَطِعُ رَجَاؤُهُمْ بِهِ، وَلَا يَهْجُرُوا دُعَاءَهُ مُسْتَبْطِئِينَ الْإِجَابَةَ، بَلْ كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَعَظُمَتِ الْفِتَنُ ازْدَادُوا إِلْحَاحًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُوقِنِين أَنَّ فَرَجَهُ قَرِيبٌ.

وَهَكَذَا كَانَتِ اسْتِجَابَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ﷺ، كَانَتْ فِي أَوْجِ الشِّدَّةِ، وَمُنْتَهَى الِابْتِلَاءِ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ خَاصًّا بِالْأَنْبِيَاءِ ﷺ، بَلْ هُوَ عَامٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

وَتَأَمَّلُوا مَعِي سُرْعَةَ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِخَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ رضي الله عنها حِينَ اشْتَدَّتْ كُرْبَتُهَا، وَعَظُمَتْ مِحْنَتُهَا، فَبَثَّتْ شَكْوَاهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَبْلَغَتْ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَهَا الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْفَوْرِ بِرِسَالَةٍ يَحْمِلُهَا جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَحْكِي قِصَّتَهَا: «تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ لَهُ وَلَدِي؛ ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَاللَّفْظُ له[٨].

(٨) أخرجه البخاري مختصرًا معلقًا في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] (٦/ ٢٦٨٩)، ووصله النسائي في الطلاق، باب الظهار (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه -واللفظ له- في الطلاق، باب الظهار (٢٠٦٣)، وأحمد (٦/ ٤٦)، وعبد بن حميد (١٥١٤)، وأبو يعلى (٤٧٨٠)، والحاكم وصححه (٢/ ٥٢٤).

عَائِشَةُ رضي الله عنها مَا سَمِعَتْ كَامِلَ كَلَامِهَا، وَهِيَ بِجِوَارِهَا! وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ سَمِعَ شَكْوَاهَا، وَاسْتَجَابَ دُعَاءَهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَهَلْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ؟ وَهَلْ يَكْسَلُ عَنْ دُعَائِهِ إِلَّا المَحْرُومُونَ؟

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَلَّا يَحْرِمَنَا فَضْلَهُ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا النِّقَمَ، وَأَنْ يَقْبَلَ صِيَامَنَا، وَقِيَامَنَا، وَدُعَاءَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المُفْلِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، فَيَرْفَعُ عَنْهُ الْبَلَاءَ، لَا يَخِيبُ مَنْ رَجَاهُ، وَلَا يَهْلِكُ مَنْ دَعَاهُ، كَمْ مِنْ ذَنْبٍ غَفَرَهُ، وَمِنْ عَيْبٍ سَتَرَهُ، وَكَرْبٍ كَشَفَهُ؟!

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اسْتَغَاثَ رَبَّهُ بِبَدْرٍ فَأَغَاثَهُ بِالنَّصْرِ المُبِينِ، وَأَمَدَّهُ بِالمَلَائِكَةِ المُكَرَّمِينَ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: الصَّائِمُ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ، وَلَهُ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ(٩)، وَهَذِهِ

---

(٩) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ**» أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته (١٧٥٣)، والحاكم =

اللَّيَالِي الْمُبَارَكَةُ هِيَ لَيَالِي الصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ يَنْزِلُ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(١٠).

وَالْمُسْلِمُونَ يُحْيُونَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي سُنَّةَ الْقِيَامِ فِي الْمَسَاجِدِ؛ الْتِمَاسًا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَآيَاتُ الصِّيَامِ تَخَلَّلَهَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الْمُحَرِّضَةِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَهِيَ تُبَيِّنُ قُرْبَ الرَّبِّ مِنْ عِبَادِهِ، وَسُرْعَةَ اسْتِجَابَتِهِ لِدُعَائِهِمْ، يَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ نَظَرَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ، وَتَدَبَّرَهَا حَقَّ التَّدَبُّرِ مَعَ فَهْمِهِ لِمَعَانِيهَا، وَإِلْمَامِهِ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ.

فَالْآيَةُ سَبَقَتْهَا آيَاتُ فَرْضِ الصِّيَامِ، وَتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ، وَفِيهَا مِنَ الشِّدَّةِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مَا فِيهَا، وَجَاءَ عَقِبَهَا التَّيْسِيرُ وَالرُّخْصَةُ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وَكَوْنُ هَذِهِ الْآيَةِ جَاءَتْ فِي وَسْطِ آيَاتِ الصِّيَامِ فَإِنَّهُ مُشْعِرٌ بِأَنَّ الصَّائِمَ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ إِنْ دَعَا.

وَمَا جَاءَ سُؤَالٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فُصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَوَابِهِ بِأَمْرِ الْقَوْلِ إِلَّا فِي هَذِهِ

= (١/ ٥٨٣)، وصححه البوصيري في الزوائد (٢/ ٣٨).

(١٠) كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**» أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨).

الْآيَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَالْجَوَابُ جَاءَ مُبَاشَرَةً بَعْدَ السُّؤَالِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، مِمَّا يُشْعِرُ بِقُرْبِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَقَدْ أَكَّدَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ هَذَا الْمَعْنَى صَرَاحَةً، كَمَا قَالَ أَبُو مُوسَى ﷺ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ: «**ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ**»(١١).

فَادْعُوا اللهَ -أَيُّهَا الصَّائِمُونَ- وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ .. ادْعُوهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً، وَأَلِحُّوا عَلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ .. اسْأَلُوهُ أَنْ يَجْبُرَ مُصَابَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرْفَعَ الْبَلَاءَ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُبْدِلَ خَوْفَهُمْ أَمْنًا، وَذُلَّهُمْ عِزًّا، وَضَعْفَهُمْ قُوَّةً؛ فَلَعَلَّ دَعْوَةً صَادِقَةً مِنْ قَلْبٍ خَاشِعٍ فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَاسْتَجَابَ لَهَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَعَمَّ خَيْرُهَا الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَحْقِرَنَّ عَبْدٌ نَفْسَهُ لِمَا يَرَى مِنْ ذُنُوبِهِ، فَلَعَلَّ دَعْوَتَهُ تَكُونُ سَبَبًا فِي تَوْبَتِهِ وَرَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ وَعَنِ

---

(١١) أخرجه من حديث أبي موسى: البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٨٣٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).

الْمُسْلِمِينَ، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدًا الدُّعَاءَ مَا يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ -يَعْنِي مِنَ التَّقْصِيرِ- فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَجَابَ دُعَاءَ شَرِّ خَلْقِهِ وَهُوَ إِبْلِيسُ حِينَ قَالَ: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]»[١٢]، وَرَبُّنَا عَفُوٌّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، وَيُجِيبُ الْمُضْطَرَّ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



(١٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤٠)، وشرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٤٧)، وفيض القدير (١/ ٣٤٣).

٢٥٣- فضل صلاة التهجد (١)

٢٣/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْخَيْرَاتِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ؛ فَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَعَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَنِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا تَرَكُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا، وَأَقْبَلُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى الْآخِرَةِ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْفَتْح: ٢٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا صَامَ أَحَدٌ كَصِيَامِهِ، وَلَا قَامَ كَقِيَامِهِ، وَهُوَ الْمَغْفُورُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَأَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَاسْتَدْرِكُوا فِيمَا بَقِيَ مِنْهُ مَا فَاتَكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ اللَّيَالِيَ الْقَلَائِلَ هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي، وَحَرِيٌّ أَنْ تَكُونَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ؛ فَلَا تَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ بَرَكَتَهَا، وَاعْمَلُوا بِخَيْرِ مَا عِنْدَكُمْ فِيهَا؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ فِيهَا كَبِيرٌ، وَهِبَاتِ الرَّحْمَنِ عَظِيمَةٌ، وَالْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ خَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٣، ٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ تَعُجُّ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ بِالْمُصَلِّينَ، قَائِمِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ، يَتْلُونَ كِتَابَ رَبِّهِمْ، وَيُنْصِتُونَ إِلَى آيَاتِهِ خَاشِعِينَ مُتَدَبِّرِينَ، مُتَّبِعِينَ هَدْيَ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِي

شَرَعَ لَهُمْ قِيَامَ رَمَضَانَ جَمَاعَةً فِي المَسَاجِدِ، كَمَا شَرَعَ لَهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ طَوَالَ السَّنَةِ فِي بُيُوتِهِمْ.

وَأَحْيَا عُمَرُ رضي الله عنه سُنَّةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى أَئِمَّتِهِمْ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ هَذَا دَأْبَ المُسْلِمِينَ بِتَتَابُعِ الْقُرُونِ، وَتَطَاوُلِ السِّنِينَ، يُحْيُونَ لَيَالِيَ رَمَضَانَ فِي المَسَاجِدِ، وَيَخُصُّونَ الْعَشْرَ الْأَخِيرَةَ مِنْهُ بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاجْتِهَادٍ؛ تَأَسِّيًا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَزِيدُونَ فِي رَكَعَاتِ الصَّلَاةِ، وَيُطِيلُونَ الْقُنُوتَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ.

وَالصَّلَاةُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، وَمِنْ خَيْرِ مَا يَتَطَوَّعُ بِهِ المُسْلِمُ لِرَبِّهِ عز وجل، وَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَإِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ فِي أَفْضَلِ شَهْرٍ كَانَتْ أَعْظَمَ، فَكَيْفَ إِذَنْ إِنْ كَانَتْ فِي خَيْرِ عَشْرٍ، وَفِي أَفْضَلِ وَقْتٍ وَهُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، حِينَ يَنْزِلُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ، يَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيُجِيبُ الدَّاعِينَ، وَيُعْطِي السَّائِلِينَ؟!

لَقَدِ اجْتَمَعَتْ فِي قِيَامِ هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَةِ فَضِيلَةُ الْعَمَلِ وَهُوَ الصَّلَاةُ، وَفَضِيلَةُ الشَّهْرِ وَهُوَ رَمَضَانُ، وَفَضِيلَةُ عَشْرِهِ الْأَخِيرَةِ، وَفَضِيلَةُ الْوَقْتِ وَهُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ. وَهَذَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْجَلِيلُ الَّذِي كَانَ فِي أَشْرَفِ الزَّمَانِ وَأَشْرَفِ الْأَمَاكِنِ، وَبِهَيْئَاتٍ هِيَ أَشْرَفُ الْهَيْئَاتِ مِنْ قُنُوتٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ، إِنَّمَا كَانَ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيُعْطِي عَطَاءً جَزِيلًا عَلَى قَلِيلِ الْأَعْمَالِ، فَمَا ظَنُّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- بِعَطَايَا رَبِّكُمْ لِلْمُتَهَجِّدِينَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمْنَا مَا فِي التَّهَجُّدِ مِنْ فَضِيلَةٍ!!

إِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالمَنْفَعَةِ لِلْمُؤْمِنِ مَا لَا يَعُدُّهُ الْعَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهِ المُحْصُونَ، وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِهِ أَنَّهُ كَانَ فَرْضًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَخُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَكَّةَ، وَلَمَّا تَكْتَمِلْ بَعْدُ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَلَا أُقِيمَتْ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ.

بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ جَاءَ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ نُزُولًا، وَهِيَ سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ الَّتِي هِيَ ثَانِيَةُ السُّوَرِ نُزُولًا أَوْ ثَالِثَتُهَا أَوْ رَابِعَتُهَا عَلَى خِلَافٍ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ(١)، وَلَوْ كَانَتِ الرَّابِعَةَ عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ جِدًّا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ جَاءَ فِيمَا تَقَدَّمَ نُزُولُهُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ١-٤]، وَسَأَلَ سَعْدُ بْنُ هِشَامٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنْ قِيَامِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ اللهَ عز وجل افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ

---

(١) قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: «قال المفسرون: وكان النبي ﷺ يتزمل في ثيابه في أول ما جاء جبريل فَرَقًا منه حتى أنس به، وقال السدي: كان قد تزَمَّل للنوم، وقال مقاتل: خرج من البيت وقد لبس ثيابه فناداه جبريل: يا أيها المزمل، وقيل: أريد به متزمل النبوة، قال عكرمة في معنى هذه الآية: زملت هذا الأمر فقم به، وقيل: إنما لم يخاطب بالنبي والرسول ها هنا؛ لأنه لم يكن قد بلغ، وإنما كان في بدء الوحي» اهـ من زاد المسير (٨/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالى-: «واختلف في عدِّ هذه السورة في ترتيب نزول السور، والأصح الذي تضافرت عليه الأخبار الصحيحة: أن أول ما نزل سورة العلق، واختلف فيما نزل بعد سورة العلق، فقيل سورة (ن والقلم)، وقيل: نزل بعد العلق سورة المدثر، ويظهر أنه الأرجح، ثم قيل: نزلت سورة المزمل بعد القلم فتكون ثالثة. وهذا قول جابر بن زيد في تعداد نزول السور، وعلى القول بأن المدثر هي الثانية يحتمل أن تكون القلم ثالثة والمزمل رابعة، ويحتمل أن تكون المزمل هي الثالثة والقلم رابعة، والجمهور على أن المدثر نزلت قبل المزمل، وهو ظاهر حديث عروة بن الزبير عن عائشة في بدء الوحي من صحيح البخاري» التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٥٤).

السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ وَالدَّارِمِيِّ: «فَقَامَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ وَحُبِسَ خَاتِمَتُهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ نَزَلَ آخِرُهَا فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ»(٢).

بَيْدَ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ وَإِنْ وُضِعَ فَرْضُهُ عَنِ المُسْلِمِينَ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، وَتَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ؛ لِعَجْزِهِمْ وَضَعْفِهِمْ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَافَظَ عَلَيهِ؛ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ، وَزِيَادَةً فِي عِبَادَتِهِ، وَطَلَبًا لرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَحِرْصًا عَلَى فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، كَمَا اخْتَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِأَعْلَى المَنَازِلِ وَالمَقَامَاتِ، وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ خُوطِبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرَائِضِ، ثُمَّ خُوطِبَ عَقِبَهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الْإِسْرَاء:٧٩]؛ أَيْ لِأَجْلِكَ، وَهَذَا دَلِيلُ اخْتِصَاصِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنَافِلَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ دُونَ أُمَّتِهِ، أَيْ: زِيَادَةً فِي أَجْرِهِ، وَرَفْعِ دَرَجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ(٣).

---

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض(٧٤٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في صلاة الليل (١٣٤٢)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب قيام الليل (٣/ ١٩٩)، وأحمد (٦/ ٥٣)، والدارمي (١٥١٦).

(٣) اختلف العلماء في فرضية قيام الليل على النبي ﷺ، مع اتفاقهم على نسخ فرضيته على الأمة، وانتقال الحكم فيه من الوجوب إلى الاستحباب، كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة.

فقال قوم: إن قيام الليل كان فرضًا على النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ما رجحه جماعة من أهل التفسير في تفسيرهم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. =

. . . .

= قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبي ﷺ في الابتداء وعلى الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخًا في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب قال الله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ . . . .وقوله ﷺ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ أي: زيادة لك، يريد فضيلة زائدة على سائر الفرائض فرضها الله عليك.

وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخًا في حقه كما في حق الأمة فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة؛ لأن الله تعالى قال ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ ولم يقل (عليك).

فإن قيل: فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ؟

قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم، والنبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات . . .» ثم ساق البغوي جملة أحاديث في قيام النبي عليه الصلاة والسلام في تفسيره (٣/ ١٢٨-١٢٩).

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجبًا في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي -رحمه الله تعالى-، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه» اهـ من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥-٥٦) وقريب منه في تفسير السعدي (٤٦٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «فصل في هديه في قيام الليل، قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضًا عليه أم لا، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب.

قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١، ٢]، ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق =

. . . .

= الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢]؛ أي: زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي زيادة في درجاته، وفي أجره؛ ولهذا خصه بها، فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات، وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير. قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة، أي: زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه.
قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله ابن كثير، عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة، فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعًا يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها.
حدثنا محمد بن نصر، حدثنا عبد الله، حدثنا عمرو، عن سعيد وقبيصة، عن سفيان، عن أبي عثمان، عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ. وذكر عن الضحاك، قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.
وذكر سليم بن حيان، حدثنا أبو غالب، حدثنا أبو أمامة، قال: إذا وضعت الطهور مواضعه، قمت مغفورًا لك، فإن قمت تصلي، كانت لك فضيلة وأجرًا، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرأيت إن قام يصلي تكون له نافلة؟ قال: لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة، وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟! تكون له فضيلة وأجرًا.
قلت: والمقصود أن النافلة في الآية، لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه، كالمستحب، والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب» زاد المعاد (١/ ٣١١-٣١٣).

واحتج القائلون بأنه فرض عليه بحديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث هُنَّ عَلَيَّ فريضَة ولَكُمْ سُنَّة: الوِتْر، والسِّوَاكُ، وقِيامُ الليل**» أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٦٦) وهو حديث ضعيف لا يحتج به، قال ابن الملقن: وهو حديث لا ينبغي الاحتجاج به أوردته للتنبيه على ضعفه، قال البيهقي: في إسناده موسى بن عبد الرحمن -يعني الصنعاني- وهو ضعيف جدًّا. قال: ولم يثبت في هذا إسناد. البدر المنير(٢/ ٢٩)، وضعفه أيضًا الحافظ في التلخيص (٣/ ١١٩). =

وَاللهُ تَعَالَى لَا يَخْتَارُ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ إِلَّا مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ، وَلَا يَشْرَعُ لَهُ إِلَّا مَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلَّلَ هَذَا الْأَمْرَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإِسْرَاء: ٧٩].

وَالمَقَامُ المَحْمُودُ مَقَامٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ لِلْخَلْقِ بِأَنْ يُقْضَى بَيْنَهُمْ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ المَقَامُ إِلَّا لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حِينَ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقْبَلُ اللهُ تعالَى شَفَاعَتَهُ، فَيَغْبِطُهُ المُرْسَلُونَ ﷺ عَلَى ذَلِكَ المَقَامِ.

= واحتج القائلون أنه ليس فرضًا على النبي ﷺ بقول عائشة ﵂: «فإن الله ﷿ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولًا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦). فهو صريح في رفع الفرض، ولم يخص النبي ﷺ من رفع الفرض.

قال ابن حجر: وفي سياقه أيضًا دلالة على أنه حين وجب لم يكن من خصائصه. تلخيص الحبير (٣/ ١٢٠).

ومن أدلتهم أيضًا على عدم الوجوب: قصة حجة النبي ﷺ، وفيها أنه في ليلة مزدلفة نام إلى الفجر، قال جابر ﵁: حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر، حين تبين له الصبح، بأذان وإقامة. أخرجه مسلم في الحج، باب صفة حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

قال ابن حجر: «واستدل أيضًا بأنه كان يصلي التطوع في الليل على الراحلة في السفر، ويصليه في الحضر جالسًا، وقد استدل الشافعي على عدم وجوب الوتر عليه بذلك، وقيل: كان ذلك واجبًا عليه في حال الحضر، وفي حال عدم المشقة، وهذا يحتاج إلى نقل خاص» تلخيص الحبير (٣/ ١٢٠).

فَكَانَ المُتَأَسِّي بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ قَدْ تَأَسَّى بِمَا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَأَمَرَهُ بِهِ؛ لِيُعْطِيَهُ المَقَامَ المَحْمُودَ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضِيلَةِ مَا لَا يَخْفَى.

وَقِيَامُ اللَّيْلِ جَاءَ الْأَمْرُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا:

فَفِي سُورَةِ ق ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة ق: ٤٠].

وَفِي الطُّوْرِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطُّور: ٤٩].

وَفِي الْإِنْسَانِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإِنْسَان: ٢٦].

وَأَثْنَى ﷻ عَلَى المُتَهَجِّدِينَ فَقَالَ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وَفِي الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْنَا صَالِحُونَ مُتَهَجِّدُونَ يَقُومُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَامْتَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٣].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي «الْفُرْقَانِ» صِفَاتِ عِبَادِهِ ﷻ، وَمِنْهَا ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفُرْقَان: ٦٤]، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَأْوَاهُمُ الْجَنَّةُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفُرْقَان: ٧٥، ٧٦].

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ ذَكَرَ ﷻ مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ المُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ، وذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِمْ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧].

وَفِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ أَخْبَرَ ﷻ أَنَّ لِلْمُتَّقِينَ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَذَكَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ١٧].

وَذَكَرَ ﷻ أَنَّ المُؤْمِنِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تَنْتَفِعُ قُلُوبُهُمْ بِهَا، فَيَخْشَعُونَ عِنْدَهَا،

وَيَنْقَادُونَ لَهَا، وَيَتَأَثَّرُونَ بِمَوَاعِظِهَا، فَتَزِيدُهُمْ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَإِجْلَالًا، وَخُضُوعًا وَإِذْعَانًا، وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِ حَالِهِمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجْدَة: ١٦] وَالْجُنُوبُ لَا تَتَجَافَى عَنِ المَضَاجِعِ إِلَّا إِذَا اهْتَمَّتِ الْقُلُوبُ، وَالْقُلُوبُ لَا تَهْتَمُّ إِلَّا لِلْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ المُهِمَّةِ، وَهَلْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا -بَعْدَ الْإِيمَانِ- أَعْظَمُ وَأَجَلُّ وَأَهَمُّ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَجْعَةِ اللَّيْلِ وَسُكُونِ الْخَلْقِ؟! وَلَا يُدْرِكُ عَظَمَةَ ذَلِكَ إِلَّا أَصْحَابُ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ، وَالضَّمَائِرِ الْيَقِظَةِ، الَّذِينَ عَرَفُوا قَدْرَ رَبِّهِمْ، فَعَظَّمُوهُ حَقَّ التَّعْظِيمِ، وَانْتَفَضُوا مِنْ فُرُشِهِمْ لِجَلَالِهِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، ذَاكِرِينَ مُسَبِّحِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، قَانِتِينَ رَاكِعِينَ سَاجِدِينَ.

عَرَفُوا ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ وَعَجْزَهُمْ وَهَوَانَهُمْ، وَحَاجَتَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَافْتِقَارَهُمْ إِلَيْهِ؛ فَسَأَلُوا حَاجَاتِهِمْ مِمَّنْ يَقْضِي الْحَاجَاتِ، وَاسْتَغْفَرُوا مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٥].

وَقِرَاءَةُ اللَّيْلِ أَقْوَى حُضُورًا لِلْقَلْبِ، وَأَعْظَمُ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ، وَأَكْثَرُ خُشُوعًا، وَأَحْرَى بِالتَّدَبُّرِ؛ فَكَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٦]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

فَخُذُوا حَظَّكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي،

---

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣) وأبو داود في الصوم، باب في صوم المحرم (٢٤٢٩) والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل صلاة الليل (٤٣٨) والنسائي في قيام الليل، باب فضل صلاة الليل (٣/ ٢٠٦-٢٠٧) وابن ماجه في الصيام، باب صيام أشهر الحرم (١٧٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

وَأَحْيُوهَا بِالْقُرْآنِ قِرَاءَةً وَتَدَبُّرًا وَخُشُوعًا، وَانْطَرِحُوا فِيهَا عَلَى بَابِ رَبِّكُمْ ﷻ؛ فَلَهُ فِيهَا هِبَاتٌ عَظِيمَةٌ مَنْ حَازَهَا فَازَ فِي الدَّارَيْنِ، وَمَنْ فَاتَتْهُ فَوَاللَّهِ إِنَّهُ المَغْبُونُ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُون:٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ يُعْطِي جَزِيلًا عَلَى الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ فِي قَبْرِهِ وَآخِرَتِهِ إِلَّا عَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: قِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِلْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا صَامَ الصَّائِمُونَ، وَتَعَبَّدَ الْمُتَعَبِّدُونَ إِلَّا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، رَوَى عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات باب (١١٩)، وقال: حسن صحيح غريب (٣٥٧٩)، والنسائي في المواقيت، باب النهي عن الصلاة بعد العصر (١/ ٢٧٩)، والطبراني في الدعاء (١٢٨)، وصححه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (١/ ٤٥٣).

وَقِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِمَحَبَّتِهِ ﷻ لِعَبْدِهِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ، وَمَنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَرْجُو مَحَبَّتَهُ سُبْحَانَهُ؛ رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ** .. وَذَكَرَ مِنْهُمْ: **الَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَةٌ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَيَذْكُرُنِي وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَحَسَّنَهُ الْمُنْذِرِيُّ(٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَنَّ رَبَّنَا ﷻ عَجِبَ مِنْ رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ فَيَقُولُ رَبُّنَا: **أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ: «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: **مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا صَنَعَ؟** فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ، فَيَقُولُ: **فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ**» جَاءَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا، قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: وَالمَوْقُوفُ أَصَحُّ(٧).

---

(٦) عزاه المنذري والهيثمي للطبراني في الكبير، وقال المنذري: إسناده حسن، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات، ينظر: الترغيب والترهيب (٩٥٣)، ومجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨٣)، وأورده الألباني في الصحيحة (٣٤٧٨).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦)، وأبو يعلى (٥٢٧٢)، وابن أبي شيبة في مسنده (٣٨٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٦٩) وفي الجهاد (١٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٩٣٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٥٧)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥)، والمنذري في الترغيب فقال: رواه الطبراني موقوفًا بإسناد حسن (١/ ٤٣٦)، وصحح الدارقطني في العلل وقفه (٥/ ٢٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وقال بعد أن ذكر الاختلاف في رفعه ووقفه بين حماد ابن زيد وحماد بن سلمة: «فالخطب حينئذ سهل؛ لأنه في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي كما هو ظاهر» اهـ(٧/ ١٤٠١) تحت الحديث (٣٤٧٨). =

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ضَرَبَ مَوْعِدًا لِأَحَدِ النَّاسِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ لِيُقَابِلَهُ وَحْدَهُ، وَيَسْمَعَ شِكَايَتَهُ، وَيَقْضِيَ حَاجَتَهُ، بَلْ وَيَكُونُ لِقَاؤُهُ بِهِ سَبَبَ قُرْبِهِ مِنْهُ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، أَتُرَاهُ يَهْنَأُ بِنَوْمٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ؟ كَلَّا بَلْ لَا يَنَامُ، وَإِنْ نَامَ فَنَوْمُ مُتَيَقِّظٍ لَا يَكَادُ يَخْفُقُ رَأْسُهُ حَتَّى يَفْزَعَ خَشْيَةَ فَوَاتِ مَوْعِدِهِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ سَيُنَاجِي رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَمَلِكَ المُلُوكِ، وَمَنْ خَزَائِنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِيَدِهِ، وَمَنْ يَقْضِي كُلَّ الْحَاجَاتِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتَعْظِمُ عَطَاءً أَعْطَاهُ؛ يُنَاجِيهِ لِيَنَالَ قُرْبَهُ وَمَحَبَّتَهُ، وَيَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ، مَا ظَنُّكُمْ بِهِ؟!

وَكَمْ أَغْدَقَ رَبُّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ عَلَى الْخَلْقِ مُنْذُ خَلْقِهِمْ؟ وَكَمْ أَعْطَاهُمْ وَهُمْ يَعْصُونَهُ؟ وَمَا أَمْسَكَ عَنْهُمْ رِزْقَهُ، وَلَا أَغْلَقَ دُونَهُمْ خَزَائِنَهُ؛ بَلْ يُعْطِي وَيُعْطِي وَيُعْطِي ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [سورة ص: ٥٤].

فَهَنِيئًا لِمُؤْمِنٍ يَتَوَضَّأُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، أَوْ فِي لَهْوِهِمْ، فَيَخْلُو بِرَبِّهِ يُنَاجِيهِ، يَتْلُو كِتَابَهُ، وَيَسْأَلُ حَاجَتَهُ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِ فِي سُؤَالِهِ؛ فَوَاللَّهِ مَا خَسِرَ وَلَا خَابَ، وَلَا يَرُدُّهُ الْكَرِيمُ الْوَهَّابُ، وَفِي اللَّيْلِ سَاعَةُ إِجَابَةٍ قَدْ يُوَافِقُهَا فَيَنَالُ

= وقوله: «من بين أهله وحبه» جاءت في المسند (حَيِّه) في الموضعين، ط: الشيخ أحمد شاكر، وكذلك ط: الرسالة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، رقم الحديث في كليهما (٣٩٤٩)، وكذلك في مسند أبي يعلى ت: الشيخ حسين سليم أسد (٥٢٧٢) ولم يعلق عليها أحد من المحققين.

وجاءت بالباء الموحدة (وحبه) في صحيح ابن حبان ت: الشيخ شعيب (٢٥٥٧)، وفي الموارد للهيثمي ت: الشيخ حسين سليم أسد (٦٤٣)، وفي شرح السنة (٩٣٠)، وسنن البيهقي(٩/ ١٦٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١٠/ ١٧٩) رقم (١٠٣٨٣)، والجهاد لابن أبي عاصم (١٢٥)، والترغيب والترهيب للمنذري(٩٢٥)، قال الألباني في صحيح الترغيب: (وحبه)؛ أي حبيبه، ووقع في المسند: (حيه)!.

قلت: (وحِبِّه) أظهر في المعنى من (وحيِّه)، ولا سيما أن أكثر الكتب عليها، خلافًا لمسندي أحمد وأبي يعلى؛ ولذا استغرب الألباني -رحمه الله تعالى- لفظ (وحيِّه).

حَظَّهُ مِنْهَا، فَمَا أَوْفَرَ حَظَّهُ! وَمَا أَسْعَدَهُ! رَوَى جَابِرٌ ﷺ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

فَأَيْنَ مَنْ وَقَفُوا عَلَى أَبْوَابِ المُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ، يَنْتَظِرُونَ سَاعَاتٍ تِلْوَ سَاعَاتٍ؛ لِحَاجَاتٍ يَسْأَلُونَهُمْ قَضَاءَهَا، أَوْ لِقَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا يَرْجُونَهُ مِنْهُمْ، رُبَّمَا أَدْرَكُوهُ وَرُبَّمَا فَاتَهُمْ؟! **أَيْنَ هُمْ عَنْ أَبْوَابِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ؟!**

وَقِيَامُ اللَّيْلِ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِهِ، وَجَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرُ مِنْ أَوْسَعِ أَبْوَابِهِ، وَهَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةُ هِيَ أَوْسَعُ اللَّيَالِي لِرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَعَطَائِهِ، وَفِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ تُكْتَبُ الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ وَالمَقَادِيرُ؛ فَلْيَكُونُوا فِيهَا حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي مَسَاجِدِهِمْ وَخَلَوَاتِهِمْ، وَلْيَسْأَلُوا رَبَّهُمْ حَاجَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَخِيبُونَ كَمَا يَخِيبُونَ عِنْدَ أَبْوَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا، رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﷺ فَقَالَتْ: «اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ كَمْ مِنْ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

اللَّهُمَّ أَغْدِقْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا رَحْمَتَكَ، وَخُذْ بِنَوَاصِينَا إِلَى مَا يُرْضِيكَ، اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، وَافْتَحْ لَنَا أَبْوَابَ مُنَاجَاتِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، وَاقْبَلْ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . . .

---

(٨) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣)، وابن حبان (٢٥٦١).

(٩) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس والتبسط (٥٥٠٦)، وأبو يعلى (٦٩٨٨).

٢٥٤- فضل صلاة التهجد (٢)

٢٦/ ٩/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الغَفُورِ الوَدُودِ؛ يَتَوَدَّدُ لِعِبَادِهِ بِالنِّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ، وَيُضَاعِفُ لَهُمُ الأُجُورَ وَالْحَسَنَاتِ، وَيُكَفِّرُ عَنْهُمُ الْخَطَايَا وَالسَّيِّئَاتِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ فَضْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي هِبَاتٌ وَعَطَايَا وَرَحَمَاتٌ وَنَفَحَاتٌ . . مَنْ أَصَابَتْهُ فَازَ فَوزًا كَبِيرًا، وَمَنْ حُرِمَهَا حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ وَعَبَدَ اللهَ تَعَالَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَومِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاغْتَنِمُوا مَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ فِيمَا يَنْفَعُكُمْ، وَأَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِمَا أَمَامَكُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّ الْكَيِّسَ الْفَطِنَ مَنْ عَمَرَ آخِرَتَهُ فِي دُنْيَاهُ، وَسَابَقَ فِي مَغْفِرَةِ رَبِّهِ وَرِضَاهُ، أَلَا وَإِنَّ الْأَعْمَارَ مُسْتَوْدَعُ الْأَعْمَالِ، وَكُلٌّ يَجِدُ غَدًا مَا اسْتَوْدَعَهُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذِهِ اللَّيَالِي المُبَارَكَاتُ مِنْ لَيَالِي الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ تَتَنَزَّلُ فِيهَا رَحَمَاتُهُ، وَتَعْظُمُ هِبَاتُهُ، وَيُعْتِقُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَحْظَى النَّاسِ بِذَلِكَ مَنْ عَمَرُوا هَذِهِ اللَّيَالِيَ بِطُولِ الْقُنُوتِ، وَالتَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ، وَكَثْرَةِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَلَحُّوا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ تَجَلِّيهِ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ، وَنُزُولِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا؛ لِيُعْطِيَ السَّائِلِينَ، وَيَغْفِرَ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيُجِيبَ دُعَاءَ

الدَّاعِينَ(١)، بَيْنَمَا غَيْرُهُمْ فِي سُبَاتٍ وَرَقْدَةٍ، أَوْ لَهْوٍ وَغَفْلَةٍ.

إِنَّ هَذِهِ اللَّيَالِيَ الْعَظِيمَةَ هِيَ لَيَالِي الذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ، وَالدُّعَاءِ وَالْقِيَامِ، وَصَلَاةُ اللَّيْلِ هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ(٢)، وَثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ هُوَ أَفْضَلُ أَجْزَاءِ اللَّيْلِ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ٦]. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِصَلَاةِ اللَّيْلِ وَرَغَّبَ فِيهَا، وَحَضَّ الْعِبَادَ عَلَيْهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الْإِسْرَاء: ٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الْإِنْسَان: ٢٦].

وَأَثْنَى سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُتَهَجِّدِينَ؛ فَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجْدَة: ١٦].

وَلِأَهَمِّيَّةِ صَلَاةِ اللَّيْلِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، وَأَثَرِهَا فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَاسْتِقَامَةِ دِينِهِ، وَثَبَاتِ أَمْرِهِ؛ كَانَتْ فَرْضًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَقَامَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم حَتَّى وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ مِنْ طُولِ الْقُنُوتِ، ثُمَّ خَفَّفَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَرَفَعَ فَرْضَهَا، وَأَبْقَى فَضْلَهَا(٣).

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» أخرجه البخاري في الكسوف، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه، قال: سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة: الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان: صيام شهر الله المحرم**» أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣).

(٣) ينظر الخطبة الماضية: فضل صلاة التهجد (١)، ص (٩٨).

وَفِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَدِينَةِ كَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ مِنْ أَوَائِلِ مَا حَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: **يَاأَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(٤).

وَأَهْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ مَوْعُودُونَ بِغُرَفٍ حَسَنَةٍ فِي أَعَالِي الْجِنَانِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، وَظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا**»، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لِمَنْ هِيَ؟! قَالَ: «**لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٥).

---

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٢) وقال: هذا حديث صحيح (٢٤٨٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤)، والدارمي (١٥٠١)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، وعبد بن حميد (٤٩٦)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي(٣/ ١٤)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: وهو كما قالا (٥٦٩).

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقد تكلم بعض أهل الحديث في عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه، وهو كوفي، وعبد الرحمن بن إسحاق القرشي مدني وهو أثبت من هذا، وكلاهما كانا في عصر واحد (١٩٨٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٢٥)، وأحمد (١/ ١٥٦)، وابن خزيمة (٢١٣٦).

وله شاهد من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عند: عبد الرزاق (٢٠٨٨٣)، وأحمد =

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ اخْتِصَامِ المَلَإِ الْأَعْلَى: «**وَالدَّرَجَاتُ: بَذْلُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَأَهْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ هُمْ أَهْلُ ذِكْرٍ، وَلَيْسُوا أَهْلَ غَفْلَةٍ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٧).

وَقَدْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مَنْ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَأَيْقَظَ أَهْلَ بَيْتِهِ لِلصَّلَاةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ**

= (٥/ ٣٤٣)، والطبراني في الكبير (٣٤٦٦)، والبيهقي (٤/ ٣٠٠)، والبغوي في شرح السنَّة (٩٢٧)، وصححه ابن حبان (٥٠٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات (٢/ ٢٥٤).

وآخر من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عند: أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ٣٢١).

(٦) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: أحمد (١/ ٣٦٨)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ص) وقال: وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلًا، وقد رواه قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس (٣٢٣٣)، وعبد بن حميد (٦٨٢).

وجاء بنحوه من حديث معاذ ﷺ عند: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ص) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل، عن هذا الحديث، فقال: «هذا حديث حسن صحيح» (٣٢٣٤).

(٧) أخرجه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل (١٣٠٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل (١٣٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٣١٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٦٩)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (١/ ٣١٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود: صحيح على شرط مسلم (١٣٠٥).

اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(٨).

وَالمُحَافَظَةُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُغْبَطُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُطِيقُونَ الدَّيْمُومَةَ عَلَيْهِ، وَيُشْغَلُونَ عَنْهُ بِمَا هُوَ دُونَهُ مِنَ النَّوْمِ أَوِ اللَّهْوِ أَوِ الدُّنْيَا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ؛ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا؛ فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَقِيَامُ اللَّيْلِ سَبَبٌ لِتَرْكِ المَعَاصِي، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٥]، وَقِيَامُ اللَّيْلِ هُوَ أَفْضَلُ صَلَاةِ التَّطَوُّعِ(١٠)، وَجَاءَ فِي المُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ! قَالَ: **إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١١).

---

(٨) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل(١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل، باب الترغيب في قيام الليل (٣/ ٢٠٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل(١٣٣٦)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٤٨)، وابن حبان (٢٨٦٧) والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٣٠٩).

(٩) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٥).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: **«رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل»** (٧٥٢٨).

(١٠) ينظر حديث أبي هريرة ﷺ السابق في حاشية (٢).

(١١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٧)، والبزار (٧٢٠)، وصححه ابن حبان (٢٥٦٠).

وَمَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ مَعَ شِدَّةِ الدَّاعِي إِلَى النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، وَمُغَالَبَةِ السَّهَرِ وَالتَّعَبِ؛ فَلَهُ مَا سَأَلَ؛ جَزَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جِهَادِهِ لِنَفْسِهِ، وَقِيَامِهِ لِرَبِّهِ ﷻ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ أَحَدُهُمَا مِنَ اللَّيْلِ فَيُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطَّهُورِ وَعَلَيْهِ عُقَدٌ فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ، مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٢).

وَلِمَا فِي قِيَامِ اللَّيْلِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو أَهْلَهُ وَآلَ بَيْتِهِ لَهُ، كَمَا دَعَا إِلَيْهِ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ رضي الله عنهما(١٣).

وَأَوْصَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي قَيْسٍ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَرَغَّبَتْهُ فِيهِ، فَقَالَتْ رضي الله عنها: «لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَدَعُهُ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ(١٤).

---

(١٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٩)، وأبو يعلى (١٧٥١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤١٦)، وصححه ابن حبان (٢٥٥٥).

(١٣) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: «**ألا تصليان؟**» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه، وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] أخرجه البخاري في الكسوف، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، والسياق له (١١٢٧)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع ... (٧٧٥).

(١٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب قيام الليل (١٣٠٧)، والطيالسي (١٥١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٠٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٣٧)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٤٤٣).

فَكَيْفَ إِذَا أُضِيفَ إِلَى هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْعَظِيمَةِ لِقِيَامِ اللَّيْلِ شَرَفُ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَفَضِيلَةُ اجْتِمَاعِ المُسْلِمِينَ فِي المَسَاجِدِ عَلَى التَّهَجُّدِ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةِ؟! وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٥). وَعَنْهُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٦).

فَهَنِيئًا لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِإِحْيَاءِ هَذِهِ اللَّيَالِي الْفَاضِلَةِ بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَهُوَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي عَمَلِهِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَيَا خَسَارَةَ مَنْ ضَيَّعَهَا فِي اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ! وَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ إِلَى التَّوْبَةِ، وَيَغْتَنِمَ مَا بَقِيَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، فَعَسَى أَنْ يُعَوِّضَ مَا فَاتَهُ مِنْهُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



(١٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: تطوع رمضان من الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٥٩).

(١٦) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: قيام ليلة القدر (٣٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (٧٦٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنِ اعْتَادَ عَلَى قِيَامِ رَمَضَانَ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ -بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى- عَلَى أَنْ يُحَافِظَ بَعْدَ رَمَضَانَ عَلَى قَدْرٍ مِنَ الْقِيَامِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ أَوْ آخِرِهِ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ، وَلَا يَهْجُرُ قِيَامَ اللَّيْلِ إِلَى رَمَضَانَ الْقَابِلِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٧).

وَاعْلَمُوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَرَعَ لَنَا زَكَاةَ الْفِطْرِ؛ تُرَقِّعُ مَا تَخَرَّقَ مِنْ صِيَامِنَا، وَتَنْفَعُ الْمَسَاكِينَ مِنْ إِخْوَانِنَا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ

---

(١٧) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تحزيب القرآن (١٣٩٨)، وابن السني (٧٠١)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن المنذر في الأوسط (٥١٠)، والبيهقي في الشعب (٢١٩٤)، وصححه ابن حبان (٢٥٧٢)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وجود إسناده (٦٤٢).

فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَهِيَ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ، تُؤَدَّى قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ، وَيَجُوزُ تَقْدِيمُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ؛ كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ ﷺ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٩).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: قَالَ نَافِعٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، حَتَى إِنْ كَانَ يُعْطِي عَنْ بَنِيَّ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطَوْنَ قَبْلَ الْفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ»(٢٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُخْلِفَ رَمَضَانَ عَلَيْنَا بِخَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .

---

(١٨) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب زكاة الفطر (١٩٠٦)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة الفطر (١٨٢٧)، والدارقطني (٢/ ١٣٨)، والبيهقي في فضائل الأوقات (١٤٧)، والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي (١/ ٤٠٩)، قال الألباني في الإرواء (٨٤٣): وأقره المنذري في الترغيب والحافظ في بلوغ المرام، وفي ذلك نظر؛ لأن من دون عكرمة لم يخرج لهم البخاري شيئًا، وهم صدوقون سوى مروان فثقة، فالسند حسن، وقد حسنه النووي في المجموع (٦/ ١٢٦)، ومن قبله ابن قدامة في المغني (٣/ ٥٦).

(١٩) أخرجه البخاري في الزكاة، باب صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٢٠) هذه الرواية للبخاري في الزكاة، باب: صدقة الفطر على الحر والمملوك (١٥١١).

٢٥٥- في ختام رمضان مفلحون وغافلون

٢٥/ ٩/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: يُوشِكُ رَمَضَانُ عَلَى الِانْقِضَاءِ، وَتُوشِكُ صَحَائِفُهُ عَلَى الِانْطِوَاءِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، وَقَدَرُ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالدَّائِمُ الَّذِي لَا يَفْنَى.

وَدَّ الْمُؤْمِنُونَ الْقَانِتُونَ أَنْ يَطُولَ رَمَضَانُ، وَتَبْقَى أَيَّامُهُ وَلَيَالِيهِ؛ فَهُمْ فِي رِيَاضِ الطَّاعَاتِ يَتَقَلَّبُونَ، وَمِنْ نَعِيمِ الْعِبَادَاتِ يَتَزَوَّدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِيهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُقْبِلَةٌ، وَلِجَنَّاتِ الْخُلْدِ مُشْتَاقَةٌ، لَا تَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا تَمِيدُ بِالشَّهَوَاتِ. ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧-١٩]، وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، وَبِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَبِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي

ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ فِي مُصَلَّاهُمْ آخِرَ اللَّيْلِ، قُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِرَبِّهِمْ، يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيَلْهَجُونَ بِالذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ، وَيَلْتَمِسُونَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَيَتَحَرَّوْنَ سَاعَاتِ الْإِجَابَةِ، وَأَوْقَاتَ نُزُولِ الْجَبَّارِ.

عَلِمُوا أَنَّ رَبَّهُمْ يَنْزِلُ ثُلُثَ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَاسْتَعَدُّوا لِذَلِكُمُ النُّزُولِ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: «**مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»، فَإِذَا هُمُ الْمُسْتَغْفِرُونَ، وَالنَّاسُ لَاهُونَ، وَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «**مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟**»، فَإِذَا هُمُ السَّائِلُونَ وَالنَّاسُ غَافِلُونَ، وَيَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟**»[1]، فَإِذَا هُمُ الدَّاعُونَ وَالنَّاسُ يَلْعَبُونَ.

وَلَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَأْمَنُونَ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، يَعْلَمُونَ أَنَّ بَطْشَ رَبِّهِمْ شَدِيدٌ، وَأَنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ؛ فَخَافُوا مَقَامَهُ، وَاسْتَعَدُّوا لِلِقَائِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهَا تَغْلِبُ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، فَتَعَلَّقُوا بِجَنَابِهِ، وَلَاذُوا بِبَابِهِ . .

اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ فَغَفَرَ لَهُمْ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، وَدَعَوْهُ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، الْمَرْحُومُونَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ**

---

(١) كما في حديث أبي هريرة ﵁ عند: البخاري في الكسوف، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٧٥٨).

-أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ- وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٢).

وَأَمَّا فِي الْقِيَامَةِ فَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ هَذِهِ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ الْجَمِيلَةَ، وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْهَا، وَهُمْ فِي الْجَنَّةِ مُخَلَّدُونَ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

وَفِي ضِمْنِ تَسَاؤُلِهِمْ وَمُحَاوَرَتِهِمْ يَتَذَاكَرُونَ أَحْوَالَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَصْرِفُونَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ وَآخِرَتِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٠-٥٤]، ثُمَّ يَطَّلِعُونَ فِي النَّارِ عَلَى مَنِ اسْتَبْدَلُوا بِآخِرَتِهِمْ دُنْيَاهُمْ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٧].

وَبَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ يَتَحَاوَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥٨-٦٠]، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَنْ يَذُوقُوا الْمَوْتَ إِلَّا فِي الدُّنْيَا ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٦، ٥٧].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لِمِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ .. وَمَا صَامَ الصَّائِمُونَ، وَقَامَ الْقَائِمُونَ، وَتَعِبُوا وَجَدُّوا وَشَمَّرُوا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ إِلَّا زَادًا لِذَلِكَ الْيَوْمِ

---

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد، باب التوقي على العمل (٤١٩٨)، وأبو يعلى (٤٩١٧)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٢).

الْعَظِيمِ، تِلْكَ سِيرَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ حَيَاتُهُمْ قَضَوْهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ، فَاسْتَحَقُّوا النِّهَايَةَ الْحَسَنَةَ، وَالْعَاقِبَةَ الْحَمِيدَةَ، فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، هَنِيئًا لَهُمْ مَا قَضَوْا مِنْ أَيَّامِ رَمَضَانَ فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَطَاعَةِ الرَّحْمَنِ.

هَذَا هُوَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِمْ، وَتِلْكَ بُشْرَاهُمْ نَزُفُّهَا لَهُمْ، ثَبَّتَنَا اللهُ تَعَالَى وَإِيَّاهُمْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَهَدَانَا وَإِيَّاهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنَارَ لَنَا وَلَهُمُ السَّبِيلَ الْمُبِينَ.

أَمَّا الْمُفَرِّطُونَ الْغَافِلُونَ فَالْحَدِيثُ إِلَيْهِمْ حَدِيثُ الْمُشْفِقِينَ عَلَيْهِمْ، النَّاصِحِينَ لَهُمْ، حَدِيثٌ كُلُّهُ عَطْفٌ وَمَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ، حَدِيثٌ مِنَ الْقَلْبِ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي الْقَلْبِ، حَدِيثٌ لَا تَنْقُصُهُ الصَّرَاحَةُ، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ قَسْوَةٍ عَلَى قَدْرِ الْغَفْلَةِ وَالتَّفْرِيطِ، لَكِنَّهَا قَسْوَةٌ بِإِشْفَاقٍ لَعَلَّهَا تَقُودُ إِلَى تَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ.

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ: هَا هُوَ رَمَضَانُ مَرَّ عَلَيْكُمْ كَمَا مَرَّ عَلَى الْمُخْبِتِينَ سَاعَةً بِسَاعَةٍ، وَيَوْمًا بِيَوْمٍ، لَمْ تَنْفَعْكُمْ غَفْلَتُكُمْ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْكُمْ لَهْوُكُمْ، كَيْفَ قَضَيْتُمْ رَمَضَانَ؟ رَاجِعُوا أَنْفُسَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا مَا عَمِلْتُمْ فِي أَيَّامِكُمْ، نِمْتُمْ نَهَارَهُ، وَسَهِرْتُمْ لَيْلَهُ، ثُمَّ مَاذَا؟ ضَيَّعْتُمْ قِيَامَ رَمَضَانَ، وَلَرُبَّمَا أَلْحَقْتُمْ بِهِ بَعْضَ الْفَرَائِضِ، ثُمَّ مَاذَا أَيُّهَا اللَّاهُونَ؟

فِي لَيَالِي رَمَضَانَ بَيْنَمَا الْمُتَّقُونَ فِي الْمَسَاجِدِ يُصَلُّونَ وَيَخْشَعُونَ، تُزَاحِمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَغْشَاهُمُ الرَّحْمَةُ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، كُنْتُمْ -أَيُّهَا اللَّاهُونَ- فِي مَجَالِسِ الْبَاطِلِ تَعْمَهُونَ .. تُزَاحِمُونَ الشَّيَاطِينَ، فِي لَعِبٍ وَغَفْلَةٍ، وَضَيَاعٍ وَسَكْرَةٍ، وَقَدْ مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَانْقَضَتِ اللَّيَالِي، أَلَا يَجِدُ النَّدَمُ إِلَى نُفُوسِكُمْ سَبِيلًا، وَالْإِنَابَةُ إِلَى قُلُوبِكُمْ طَرِيقًا؟! أَلَا تَكُونُ التَّوْبَةُ بَابًا تَدْخُلُونَ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ وَصَفْحَةً تُبَيِّضُونَ بِهَا مَا اسْوَدَّ مِنْ حَيَاتِكُمْ؟ هَلْ تَؤُوبُونَ إِلَى رَبِّكُمْ وَتَرْجِعُونَ أَمْ

تُرَاكُمْ عَلَى غَفْلَتِكُمْ مُقِيمُونَ؟ أَلَمْ يَأْنِ لِقُلُوبِكُمْ أَنْ تَحْيَا بَعْدَ مَوْتِهَا؟ أَلَمْ يَأْنِ لِعُقُولِكُمْ أَنْ تُفِيقَ مِنْ سُكْرِهَا؟ أَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ فِي بَقِيَّةِ شَهْرِكُمْ، فَعَسَى نَفْحَةٌ تَغْشَاكُمْ فَتَسْعَدُونَ بِهَا وَلَا تَشْقَوْنَ أَبَدًا؟ أَمْ تُرَى الشَّيْطَانُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَغَطَّى سَعِيرُ الشَّهَوَاتِ عُقُولَكُمْ؛ فَلَمْ تَعُدِ المَوَاعِظُ تُجْدِي، وَلَا الذِّكْرَى تَنْفَعُ؟ فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيُكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا؛ فَقَدْ مَاتَتْ رُوحُهُ، وَمَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَحَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، أَحْسَنَ اللهُ الْعَزَاءَ فِي مُصَابِهِ!

يَا مَنْ غَرَّتْهُ الْأَمَانِي، وَذَاقَ مَرَارَةَ المَعَاصِي، يَا مَنْ غَرِق فِي لُجَجِ الْآثَامِ، وَتَاهَ فِي غُبَارِ الشَّهَوَاتِ، أَلَا يَكُنْ مِنْكَ إِقْبَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ جَرَّبْتَ طَرِيقَ الْأَوْزَارِ، وَهَتَكْتَ الْحُرُمَاتِ، وَاسْتَهَنْتَ بِأَوَامِرِ مَوْلَاكَ، فَمَا وَجَدْتَ فِي ذَلِكَ إِلَّا شَقَاءً عَلَى شَقَاءٍ! تَعِسَتْ نَفْسُكَ، وَشَقِيَ قَلْبُكَ، وَتَعِبَ جَسَدُكَ، وَكَلَّ عَقْلُكَ، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُكَ. وَجْهُكَ عَبُوسٌ دَائِمًا، وَنَفْسُكَ ضَيِّقَةٌ جِدًّا، تَغْضَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَظْهَرُ عَلَيْكَ الْبُؤْسُ وَالْحُزْنُ، وَتَتَّسِمُ بِالصَّمْتِ وَالتَّأَفُّفِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِلَّا وَهُوَ عِنْدَكَ، ظَنَّ النَّاسُ أَنَّكَ أَسْعَدُهُمْ بِالمَالِ وَالْجَاهِ وَالدُّنْيَا، فَإِذَا أَنْتَ أَشْقَاهُمْ، فَلِمَ تِلْكَ الشَّقَاوَةُ؟ وَفِيمَ ذَلِكُمُ الْبُؤْسُ؟ أَلَمْ تُفَتِّشْ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ؟

اقْرَأْ كِتَابَ اللَّهِ لِتَجِدَ أَنَّ سَبَبَ بُؤْسِكَ إِعْرَاضُكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هَذَا فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ إِذَا لَمْ تُرَاجِعْ نَفْسَكَ، وَتَؤُبْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْتَمِعْ إِلَى المَصِيرِ المُنْتَظَرِ ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وَأَمَّا عِنْدَ المَوْتِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾، يَتَمَنَّى الرُّجُوعَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَيُجَابُ: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

هَلْ عَرَفْتَ سِرَّ ضَنْكِكَ وَضِيقِكَ؟ وَهَلْ أَدْرَكْتَ سَبَبَ ضَيَاعِكَ وَتِيهِكَ؟ فَهَلْ تُزِيلُ ذَلِكَ وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوَافِلِ التَّائِبِينَ الآيِبِينَ، وَتَقِفُ فِي صُفُوفِ المُتَّقِينَ المُخْلَصِينَ، فَتَسْعَدُ سَعَادَةً لَنْ تَجِدَهَا فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ دُنْيَا؟ إِنَّمَا هِيَ فِي التَّقْوَى، أَلَا تُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ وَتَدْحَرُ عَدُوَّكَ الرَّجِيمَ؟

اللهُ الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَأَعْطَاكَ، وَهُوَ تَعَالَى أَرْحَمُ بِكَ مِنْ نَفْسِكَ، إِنَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَتِكَ، لَا يَزَالُ يُنَادِيكَ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا يُخْبِرُكَ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَيُحَذِّرُكَ مِنْ أَحَابِيلِ عَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ أَنْ يَزْرَعَ اليَأْسَ مِنْ رَحْمَتِهِ فِي قَلْبِكَ، فَيُخَاطِبُكَ ﷻ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فَهَلْ فَقِهْتَ الْحَدِيثَ يَا رَعَاكَ اللهُ؟ وَهَلِ اسْتَفَدْتَ مِنْ مَوَاعِظِ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَزَوَاجِرِ السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ؟ يُصَدِّقُ ذَلِكَ تَوْبَتُكَ وَإِنَابَتُكَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَةُ الثّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَدَاوِمُوا عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ شَهْرِكُمْ، فَرَبُّ رَمَضَانَ هُوَ رَبُّ الشُّهُورِ كُلِّهَا، وَعَلَامَةُ الْقَبُولِ إِتْبَاعُ الْحَسَنَةِ حَسَنَةً مِثْلَهَا، وَعَلَامَةُ الرَّدِّ وَالْخَسَارَةِ الْإِسَاءَةُ بَعْدَ الْإِحْسَانِ، وَالِانْتِكَاسُ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الصَّائِمِ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِصَوْمِهِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى العَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣)، وَلَا تَجِبُ عَلَى الْحَمْلِ الَّذِي فِي الْبَطْنِ، إِلَّا أَنْ يُتَطَوَّعَ بِإِخْرَاجِهَا، فَقَدْ أَخْرَجَهَا عَنْهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه(٤)، يُخْرِجُهَا الْإِنْسَانُ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا فَالْأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ مَالِهِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَهُ عَائِلٌ يَعُولُهُ.

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الزكاة، باب إخراج صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٤) عن حميد بن بكر وقتادة: «أن عثمان كان يعطي صدقة الفطر عن الصغير والكبير والحمل» مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله (١٧٠)، ورواه عن حميد ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢).
وعن أبي قلابة، قال: «كانوا يعطون صدقة الفطر حتى يعطوا عن الحبل» أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢).

وأما الوجوب فلا يجب، قال ابن المنذر -رحمه الله تعالى-: «وأجمعوا على أن لا زكاة على الجنين في بطن أمه، وانفرد ابن حنبل فكان يحبه ولا يوجبه» الإجماع (٤٥).

وَوَقْتُهَا الْفَاضِلُ يَوْمُ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَإِنْ أَخْرَجَهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ فَجَائِزٌ(٥)، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا إِلَى الصَّلَاةِ، فَمَنْ أَخَّرَهَا بِلَا عُذْرٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ.

كَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ التَّكْبِيرَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَصِفَتُهُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، يَجْهَرُ بِهَا الرِّجَالُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْبُيُوتِ؛ إِعْلَانًا بِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِظْهَارًا لِعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَالنِّسَاءُ يُكَبِّرْنَ فِي السِّرِّ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِنَّ التَّسَتُّرُ وَالْحَيَاءُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: فِي يَوْمِ الْعِيدِ يُسَنُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَجَمَّلَ وَيَلْبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَقَبْلَ الْخُرُوجِ لِصَلَاةِ الْعِيدِ يَأْكُلُ تَمَرَاتٍ وِتْرًا، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦).

وَيَذْهَبُ لِصَلَاةِ الْعِيدِ مِنْ طَرِيقٍ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، كَمَا يُسَنُّ لِلنِّسَاءِ أَنْ يَخْرُجْنَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَلَا مُتَطَيِّبَاتٍ، بَلْ مُتَسَتِّرَاتٍ مُحْتَشِمَاتٍ حَيِيَّاتٍ، قَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى: الْعَوَاتِقَ، وَالْحُيَّضَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ؛ فَأَمَّا الْحُيَّضُ فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلَاةَ، وَيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ، وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِحْدَانَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ، قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

---

(٥) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

(٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩١٠).

(٧) أخرجه البخاري في العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى (٩٧٤)، ومسلم =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مَنْ كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامٌ مِنْ رَمَضَانَ قَدْ أَفْطَرَهَا لِعُذْرٍ أَوْ لِغَيْرِ عُذْرٍ فَعَلَيْهِ المُبَادَرَةُ بِالْقَضَاءِ؛ إِبْرَاءً لِلذِّمَّةِ، وَمُسَارَعَةً لِلْخُرُوجِ مِنَ الْعُهْدَةِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الْقَضَاءِ إِلَى مَا بَعْدَ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ لِغَيْرِ عُذْرٍ، وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَصُومَ سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه[٨].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: تَقْوَى اللَّهِ لَيْسَتْ فِي رَمَضَانَ فَقَطْ، بَلْ فِي كُلِّ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ. إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ الْعِيدَ فِسْقًا وَفُجُورًا، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَلَيْسَ مِنَ الشُّكْرِ أَنْ تَتَبَرَّجَ النِّسَاءُ، وَيَتَسَاهَلْنَ بِالْحِجَابِ، وَيَجُبْنَ الْبِلَادَ عَرْضًا وَطُولًا فِي الْأَسْوَاقِ وَالشَّوَارِعِ وَالْمُتَنَزَّهَاتِ، وَكُلٌّ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

لِيَنْظُرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِلَى اللِّبَاسِ المُعَدِّ لِلْعِيدِ لِبَنَاتِهِ وَزَوْجَتِهِ وَأَخَوَاتِهِ؛ فَإِنْ كَانَ سَاتِرًا فَضْفَاضًا وَإِلَّا وَجَبَ عَلَيْهِ مَنْعُهُنَّ مِنْ لُبْسِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي، بَلْ هُوَ فِيمَا يَعْنِي وَهُوَ مِنَ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ مِنْ وِقَايَةِ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ مِنَ النَّارِ، وَهُوَ حِفْظٌ لِلْمُجْتَمَعِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ الْكَبِيرِ. وَإِذَا كَانَ التَّسَاهُلُ فِي لِبَاسِ النِّسَاءِ وَالتَّبَرُّجُ وَالسُّفُورُ فِي الْعِيدِ مُنْكَرًا ظَاهِرًا مَلْحُوظًا، فَثَمَّةَ مُنْكَرٌ آخَرُ حِينَمَا تَضِيعُ أَوْقَاتُ النَّاسِ فِي السَّهَرِ المُحَرَّمِ، فَيُقْضَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي أَنْوَاعِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَمِنْهُ المُحَرَّمُ؛ كَالرَّقْصَاتِ الشَّعْبِيَّةِ،

= في صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة (٨٩٠).

(٨) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

وَالْعَرْضَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَالمَعَازِفِ وَالمَزَامِيرِ!! فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَنْقَلِبُ الْحَالُ، وَيَنْتَكِسُ النَّاسُ؟! فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ كَانَ صَوْتُ الْقُرْآنِ عَالِيًا فِي المَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ، وَرُبَّمَا فِي الْأَسْوَاقِ، وَبَعْدَهَا بِلَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ يَنْقَلِبُ الْأَمْرُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَتَحِلُّ المَزَامِيرُ مَحَلَّ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَيَحِلُّ الْغِنَاءُ مَحَلَّ الْقُرْآنِ . . فَمَنْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ هَلْ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْحُوا أَثَرَ رَمَضَانَ مِنْ نُفُوسِهِمْ، إِنْ كَانَ لِرَمَضَانَ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ، وَيُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ رَدِّ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالْخُسْرَانِ، فَالْحَذَرَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي مُنْكَرَاتِ الْعِيدِ، فَالْعِيدُ شُكْرٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمٌ لَهُ، وَلَيْسَ كُفْرًا أَوْ فِسْقًا وَفُجُورًا.

تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ، وَصَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَأَعَادَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ رَمَضَانَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



٢٥٦- وداع رمضان

٢٨/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُمْضِي الشُّهُورَ وَالْأَعْوَامَ؛ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ، وَالمَعُونَةِ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَخْتِمَ لَنَا شَهْرَنَا بِالْقَبُولِ وَالرِّضْوَانِ، وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ. وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ، فَمُنْذُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ يُغْدِقُ النِّعَمَ عَلَيْهِمْ، وَيَدْفَعُ النِّقَمَ عَنْهُمْ، وَمَا نَفِدَتْ خَزَائِنُهُ، وَلَا حُبِسَ عَطَاؤُهُ «**يَدُهُ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»[1]، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا إِلَى النَّاسِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْخَلْقِ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْخَالِقِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الْآخِرَةِ، فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَأَدَّى أَمَانَتَهُ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَى رَسُولًا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَدُعَاةِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، فَهَا هُوَ شَهْرُ التَّقْوَى قَدْ آذَنَ بِصَرْمٍ، وَأَزِفَ رَحِيلُهُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَهَنِيئًا لِمَنْ عَمَرَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (٤٤٠٧)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٩٩٣).

تَعَالَى، وَيَا خَسَارَةَ مَنْ مَضَى عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْتَسِبْ فِيهِ أَعْمَالًا صَالِحَةً.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَنْقَضِي الدُّنْيَا كَمَا يَنْقَضِي عُمْرُ الْإِنْسَانِ، وَيَمْضِي عُمْرُ الْإِنْسَانِ كَمَا يَمْضِي رَمَضَانُ، فَبِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ شَهْرَهُمْ، وَهُمُ الْآنَ يُوَدِّعُونَهُ، وَهَكَذَا يُولَدُ الْإِنْسَانُ كَمَا يُولَدُ هِلَالُ الشَّهْرِ، وَمَهْمَا طَالَ عُمْرُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ نَسِيَ مَا فَاتَ، وَيُؤَمِّلُ فِيمَا هُوَ آتٍ، وَلَيْسَ بَيْنَ أَمَلِ الْإِنْسَانِ وَبُلُوغِهِ إِلَّا الْمَوْتُ؛ فَإِنَّهُ قَاصِمُ الْأَعْمَارِ، وَقَاطِعُ الْآمَالِ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الْعَيْشِ وَالْمَالِ**»(٢). وَفِي لَفْظٍ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِثْلُ عُمْرِ الْإِنْسَانِ لَهَا بِدَايَةٌ أَذِنَ اللهُ تَعَالَى بِهَا، وَلَهَا نِهَايَةٌ قَدَّرَهَا ﷻ، وَهُوَ ﷻ مَنْ يَعْلَمُ نِهَايَتَهَا ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

أَعَلِمْتُمْ خَبَرَ آلَافِ الْأَعْوَامِ الَّتِي مَضَتْ مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا، وَقَرَأْتُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ تَارِيخَ الْأُمَمِ الْمُتَعَاقِبَةِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا بَعْضُ ذِكْرِهَا، وَلَيْسَ لِأَفْرَادِهَا إِلَّا مَا اسْتَوْدَعُوا صَحَائِفَ أَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَمٌ عَاشَتْ آلَافَ السِّنِينَ، وَأَفْرَادٌ جَاوَزُوا الْمِئِينَ، وَنُوحٌ عليه السلام قَضَى مِنَ السِّنِينَ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٦)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في قلب الشيخ شاب على حب اثنتين (٢٣٣٨)، وابن ماجه في الزهد، باب الأمل والأجل (٤٢٣٣)، وأحمد (٢/ ٣٥٨)، وأبو يعلى (٦٢٥٨)، ووهم الحاكم فاستدركه وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧)، وأبو يعلى (١٨٥٧).

خَمْسِينَ عَامًا، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ كَمْ كَانَ عُمْرُهُ كَامِلًا، فَأَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمُ؟! وَأَيْنَ مَنْ عُمِّرُوا فِيهَا طَوِيلًا؟! لَقَدْ مَضَوْا إِلَى رَبِّهِمْ، وَكَأَنَّهُمْ مَا عَاشُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَلِيلًا!!

إِنَّ عُمْرَ الْإِنْسَانِ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا بِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلٍ؛ فَالشَّيْخُ الَّذِي يُعَمَّرُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى احْدَوْدَبَ ظَهْرُهُ، وَسَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، يَكُونُ طُولُ عَيْشِهِ حُجَّةً لَهُ، وَسَبَبًا فِي زِيَادَةِ حَسَنَاتِهِ، وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ، فَيَحْظَى بِالمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِذَا كَانَ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ(٤).

وَأَمَّا مَنْ عُمِّرَ طَوِيلًا فَقَضَى عُمْرَهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَا حَسْرَةً لَهُ عَلَى مَا فَرَّطَ وَضَيَّعَ! ذَهَبَتِ المَلَذَّاتُ وَالشَّهَوَاتُ، وَبَقِيَ النَّدَمُ وَالْحَسَرَاتُ، وَكَيْفَ يُقَابِلُ اللهَ تَعَالَى مَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؟! وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَأَنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ(٥).

إِنَّ الدُّنْيَا مِثْلُ رَمَضَانَ، تَمْضِي بِلَذَائِذِهَا وَشَهَوَاتِهَا، وَتَعَبِهَا وَنَصَبِهَا، وَيَنْسَى الْعِبَادُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَا قَدَّمُوا مُدَّخَرًا لَهُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَنَحْنُ فِي أُخْرَيَاتِ شَهْرِنَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- سَلُوا مَنْ جَاهَدُوا نُفُوسَهُمْ،

---

(٤) كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مِنْ إجْلَالِ اللهِ: إكْرَامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وحَامِلَ القُرْآنِ غَيْرَ الغَالي فيه والجافِي عَنْهُ، وإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ**» أخرجه أبو داود في الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، وابن أبي شيبة (٤/ ٤٤٠)، وابن المبارك في الزهد (١٨/ ٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧).

(٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**مَنْ طَالَ عمرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**» أخرجه الترمذي في الزهد، باب منه، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٣٣٠).

وللاستزادة ينظر خطبة: فضيلة طول العمر مع حسن العمل (٣/ ١٤١-١٤٢).

وَاصْطَبَرُوهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَيَّامِ المَاضِيَةِ، فَأَضْنَوْا أَجْسَادَهُمْ، وَأَمْضَوْا نَهَارَهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفِي بِرِّ وَالِدِيهِمْ، وَصِلَةِ أَرْحَامِهِمْ، وَنَفْعِ إِخْوَانِهِمْ رَغْمَ صِيَامِهِمْ، وَأَسْهَرُوا لَيْلَهُمْ فِي التَّهَجُّدِ وَالمُنَاجَاةِ، وَالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ، سَلُوهُمُ الْآنَ عَنْ تَعَبِهِمْ وَسَهَرِهِمْ، وَعَنْ جُوعِهِمْ وَعَطَشِهِمْ، تَجِدُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَسُوا ذَلِكَ، وَلَكِنْ كُتِبَ فِي صَحَائِفِهِمْ أَنَّهُمْ صَامُوا فَحَفِظُوا الصِّيَامَ، وَقَامُوا فَأَحْسَنُوا الْقِيَامَ، وَعَمِلُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً كَثِيرَةً امْتَلَأَتْ بِهَا صُحُفُهُمْ فِي رَمَضَانَ، وَسَوْفَ يَجِدُونَ عُقْبَى ذَلِكَ غَدًا فِي قُبُورِهِمْ وَعِنْدَ نَشْرِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ.

وَسَلُوا الَّذِينَ قَضَوْا رَمَضَانَ فِي النَّوْمِ وَالْبِطَالَةِ، وَرَفَّهُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْوَاعِ المُحَرَّمَاتِ، وَتَفَكَّهُوا بِمَا يُعْرَضُ فِي الْفَضَائِيَّاتِ، وَضَحِكُوا كَثِيرًا مِنْ مَشَاهِدِ السُّخْرِيَةِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ صَلَّى أَحَدُهُمْ صَلَّى ثَقِيلًا، وَإِنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مَلَّ مِنْهُ سَرِيعًا، وَمَا مَضَتْ عَلَيْهِمُ اللَّيَالِي الشَّرِيفَةُ إِلَّا وَقَدْ أَخَذُوا مِنَ الرَّفَاهِيَةِ أَكْثَرَهَا، وَمِنَ الضَّحِكِ وَالمُتْعَةِ أَنْوَاعَهَا، سَلُوهُمُ الْآنَ عَنْ أَنْوَاعِ الرَّفَاهِيَةِ وَالمُتَعِ الَّتِي تَمَتَّعُوا بِهَا لَنْ تَجِدُوا عِنْدَهُمْ مِنْهَا شَيْئًا يُذْكَرُ، وَبَقِيَتِ الْأَوْزَارُ تُثْقِلُ كَوَاهِلَهُمْ، وَتُسَوِّدُ صَحَائِفَهُمْ، وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ عَاجِلَةٍ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ.

إِنَّ الدُّنْيَا يَا عِبَادَ اللَّهِ هِيَ مِثْلُ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي مَضَتْ بِحَرِّهَا وَعَطَشِهَا وَجُوعِهَا وَسَهَرِهَا وَتَعَبِهَا، يَنْسَى المُعَمَّرُونَ فِيهَا مَا أَصَابُوهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالسَّرَّاءِ، وَأَلْوَانِ الرَّفَاهِيَةِ وَالنَّعْمَاءِ، كَمَا يَنْسَوْنَ مَا لَحِقَهُمْ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْبَلَاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَيَبْقَى المُحْسِنُ فِيهَا مُحْسِنًا يَجْنِي فِي الْآخِرَةِ ثَمَرَةَ إِحْسَانِهِ، كَمَا يَجِدُ المُسِيءُ عَاقِبَةَ سُوئِهِ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

نَسِيَ الْمُؤْمِنُ الْمُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا كُلَّ مَا أَصَابَهُ فِيهَا بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَنَسِيَ الْكَافِرُ الْفَاجِرُ كُلَّ النَّعِيمِ الَّذِي عَاشَهُ سِنِينَ طَوِيلَةً فِي الدُّنْيَا بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ.

إِنَّهَا عِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَمَوْعِظَةٌ لِمَنِ اتَّعَظَ، مَنْ فَهِمَهَا فَأَخَذَ بِهَا نَجَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجِدُ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

وَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ، فَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ تُخْبِرُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَوْنَ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، رَغْمَ أَنَّهُمْ قَدْ عُمِّرُوا فِيهَا طَوِيلًا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يُونُس: ٤٥]، بَلْ وَيُقْسِمُونَ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: ٥٥]، ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١١٢، ١١٣].

فَمَا نَفَعَهُمْ مَا تَمَتَّعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ طُولِ أَعْمَارِهِمْ، وَكَثْرَةِ أَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَقُوَّةِ عَشَائِرِهِمْ، لَقَدْ ذَهَبَ كُلُّ ذَلِكَ بِذَهَابِهِمْ عَنِ الدُّنْيَا، وَوُرُودِهِمْ لِلْحِسَابِ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ

---

(٦) أخرجه مسلم في المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار (٢٨٠٧).

عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٥-٢٠٧].

إِنَّ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ يَكُونُ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ فِي ذِكْرِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ؛ فَفِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تُخْبِرُ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ نَجِدُ أَنَّهُمْ فَرِحُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، مُغْتَبِطُونَ بِمَا نَالُوهُ مِنَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ نَسُوا مَا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَكْدَارِهَا وَآلَامِهَا وَمَصَائِبِهَا؛ وَلِذَلِكَ يَحْمَدُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى هِدَايَتِهِ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٤٣].

وَفِي آيَةٍ أُخْرَى بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ حَمْدَهُمْ لَهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى عَمَلِهِمُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ هَذَا الْأَجْرَ الْكَبِيرَ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٤]، وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ الْعَظِيمَ لَهُمْ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَمَلِهِمُ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الْإِنْسَان: ٢٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الْحَاقَّة: ٢٤].

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يُخْبِرُ الْقُرْآنُ عَنْ نَدَمِ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَرَوْنَ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ، وَأَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ لِلدُّنْيَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ! قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا هِيَ إِلَّا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَتَكَرَّرُ، فَمَا أَشَدَّ بُؤْسَهُمْ حِينَ يَقُولُونَ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١٠٧]! وَمَا أَعْظَمَ خَسَارَتَهُمْ حِينَ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْحِسَابِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الْأَنْعَام: ٣١]! وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ

﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩٩، ١٠٠]، وَلَكِنْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَاللَّهِ مَا تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا إِلَى عَشِيرَةٍ، وَلَا بِأَنْ يَجْمَعَ الدُّنْيَا، وَيَقْضِيَ الشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ تَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً عَمِلَ فِيمَا يَتَمَنَّاهُ الْكَافِرُ إِذَا رَأَى الْعَذَابَ»(٧)، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشُّورَى: ٤٤].

وَلَوْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَجَابَهُمْ إِلَى مَا أَرَادُوا مِنْ إِعَادَتِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا صَالِحًا لَعَادُوا إِلَى أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ لَأَخَذُوا الْعِبْرَةَ مِمَّا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ، وَلَمْ يَسِيرُوا سِيرَتَهُمْ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ عَاقِبَتَهُمْ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٢٨].

يَقِفُونَ أَمَامَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالِانْكِسَارِ، وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ مِمَّا صَنَعُوا وَاكْتَسَبُوا فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السَّجْدَة: ١٢]، فَلَا رُجُوعَ حِينَئِذٍ، إِنَّمَا حِسَابٌ وَعَذَابٌ، فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- مِنْ حَالِهِمْ أَبْلَغَ الْعِبْرَةِ، وَأَحْسَنَ الْمَوْعِظَةِ؛ فَقَدْ قَرَأْتُمْ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَيَّامِ الْخَوَالِي، وَاسْتَمَعْتُمْ إِلَى آيَاتِهِ فِي تِلْكَ اللَّيَالِي، وَعَلِمْتُمْ كَثِيرًا مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، فَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ تَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ؛ فَإِنَّ دُنْيَاهُمْ قَدْ زَالَتْ عَنْهُمْ، وَبَقِيَ عَذَابُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ وَلَا نَعِيمُهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا.

فَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَ فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى، وَلْيَخْتِمْ شَهْرَهُ بِكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ، وَلْيَثْبُتْ عَقِبَ رَمَضَانَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ انْتِهَاءَ الْعُمْرِ

---

(٧) تفسير البغوي (٣/ ٣١٧)، وتفسير النسفي (٣/ ١٣٠)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦).

سَيَكُونُ كَانْتِهَاءِ رَمَضَانَ، يَمُرُّ سَرِيعًا وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهِ.

وَمَنْ أَسَاءَ فِي رَمَضَانَ، وَفَاتَهُ الْخَيْرُ وَالْإِحْسَانُ، فَلْيُبَادِرْ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ يَخْتِمُ بِهَا شَهْرَهُ، وَلْيَسْتَغْفِرْ لِمَا مَضَى مِنْ ذَنْبِهِ، وَلْيَأْخُذْ مِنْ سُرْعَةِ دُخُولِ الشَّهْرِ وَخُرُوجِهِ عِبْرَةً بِسُرْعَةِ زَوَالِ الدُّنْيَا، وَقُرْبِ رَحِيلِهِ هُوَ عَنْهَا، وَلَهُ عِوَضٌ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ عَمَّا فَاتَهُ مِنْ تَحْصِيلِ الْخَيْرِ، وَلْيَحْذَرْ مِنْ تَضْيِيعِ عُمْرِهِ كَمَا ضَيَّعَ رَمَضَانَ، فَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ النَّدَمَ وَالْخُسْرَانَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨-٢٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْبُدُوهُ فِي رَمَضَانَ وَفِي غَيْرِ رَمَضَانَ، وَإِيَّاكُمْ وَهِجْرَانَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَصَاحِفِ بَعْدَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ؛ فَبِئْسَ الْقَوْمُ قَوْمٌ لَا يَعْرِفُونَ اللهَ تَعَالَى إِلَّا فِي رَمَضَانَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ أَعْمَالًا صَالِحَةً تُزَكِّي نُفُوسَكُمْ، وَتُتَمِّمُ طَاعَتَكُمْ، وَتَجْبُرُ نَقْصَ صِيَامِكُمْ.

وَمِنْ ذَلِكُمْ: زَكَاةُ الْفِطْرِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى طُهْرَةً لِلصَّائِمِينَ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، وَأَوْجَبَهَا عَلَى الْوَاجِدِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ مِنْ زَوْجٍ وَوَلَدٍ وَنَحْوِهِمْ، وَالْأَفْضَلُ لِلْمُكْتَسِبِ الْوَاجِدِ أَنْ يُخْرِجَهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَتُخْرَجُ مِنَ الْأَصْنَافِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُخْرِجَهَا الْمُسْلِمُ بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ، وَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ إِخْرَاجَهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم(٩).

كَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكُمْ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ تَكْبِيرَهُ عز وجل عَلَى مَا هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَشُكْرَهُ عَلَى مَا وَفَّقَكُمْ لِلصِّيَامِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٥]. وَيَبْدَأُ التَّكْبِيرُ مِنْ غُرُوبِ شَمْسِ آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ.

وَاحْذَرُوا مُنْكَرَاتِ الْعِيدِ مِنَ الْمَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَالْإِسْرَافِ فِي اللِّبَاسِ

---

(٨) أخرجه البخاري في صدقة الفطر، باب صدقة الفطر صاع من طعام (١٤٣٥)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٥).

(٩) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

وَالطَّعَامِ، وَتَضْيِيعِ الصَّلَوَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآثَامِ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ بِصِيَامِ سِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ كَانَ كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ(١٠).

وَاخْتِمُوا شَهْرَكُمْ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الْقَبُولَ؛ فَإِنَّ الْمُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي الْأَعْمَالِ قَبُولُهَا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ، وَلَا تُسِيئُوا الظَّنَّ بِرَبِّكُمْ، وَكُونُوا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، تَرْجُونَ رَبَّكُمْ، وَتَخَافُونَ تَقْصِيرَكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



---

(١٠) كما في حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ عند: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ستة أيام من شوال (١١٦٤).

٢٥٧- من أحكام العيد

٢٥/ ٩/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: نِعَمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرَةٌ، وَمِنَّتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ عَظِيمَةٌ؛ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَعَلَّمَهُمْ وَهَدَاهُمْ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

نِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِحُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ، وَأَنْوَاعِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَذَّاتِ، وَنِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الْآخِرَةِ مِنَ الْهِدَايَةِ لِلدِّينِ، وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفَرْضِ الْفَرَائِضِ، وَشَرْعِ الشَّرَائِعِ الَّتِي تُقَرِّبُ الْعِبَادَ مِنْ رَبِّهِمْ ﷻ،

وَتَسْتَوْجِبُ لَهُمْ رِضَاهُ وَجَنَّتَهُ، وَنِعَمٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوْفِيقِ لِلْإِتْيَانِ بِهَا كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى. وَمِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ: فَرِيضَةُ الصِّيَامِ، وَمَا تَسْتَوْجِبُهُ مِنَ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْخَطَإِ وَالنِّسْيَانِ وَالْعِصْيَانِ، فَشَرَعَ اللهُ تَعَالَى الْفَرَائِضَ مُقَرِّبَاتٍ إِلَيْهِ، مُكَفِّرَاتٍ لِلسَّيِّئَاتِ، مُسْتَوْجِبَاتٍ لِلْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا أَتَى بِهَا الْعِبَادُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَحَقٌّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَفْرَحَ بِعِيدِهِ بَعْدَ كَمَالِ شَهْرِهِ، وَإِتْمَامِ صَوْمِهِ وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إِنَّهُ عِيدُ فَرَحٍ وَشُكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَوَفَّقَهُمْ لِلْقِيَامِ بِهَا، وَلَوْلَاهُ سُبْحَانَهُ مَا صَامُوا وَلَا قَامُوا، فَكَمْ مِنْ مَحْرُومٍ مِنَ الْبَشَرِ صُرِفَ عَنْ ذَلِكَ بِكُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ أَوْ جَهْلِهِ؟!

وَالْعِيدُ فِي الْإِسْلَامِ مَعَ كَوْنِهِ مَوْسِمَ فَرَحٍ وَحُبُورٍ وَسُرُورٍ، فَهُوَ كَذَلِكَ عِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ، يَرْجُونَ بِهَا الْأَجْرَ وَالمَثُوبَةَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فِي شَعَائِرَ عَظِيمَةٍ، وَعِبَادَاتٍ جَلِيلَةٍ، وَآدَابٍ كَثِيرَةٍ.

وَشِعَارُ الْعِيدِ: التَّكْبِيرُ فِي لَيْلَتِهِ وَصَبَاحِهِ إِلَى أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ، وَالتَّكْبِيرُ إِنَّمَا يُشْرَعُ فِي المَوَاطِنِ الْكِبَارِ الَّتِي مِنْهَا الْأَعْيَادُ.

وَالسُّنَّةُ جَهْرُ الرِّجَالِ بِالتَّكْبِيرِ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَطُرُقِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ- يَفْعَلُونَ.

وَلِلتَّكْبِيرِ صِيَغٌ كَثِيرَةٌ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷵ؛ فَابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي تَكْبِيرِهِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤٩٠)، وابن المنذر في الأوسط (٤/ ٣٠١).

وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما كَانَ يَقُولُ فِي تَكْبِيرِهِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، اللهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ، اللهُ أَكْبَرُ عَلَى مَا هَدَانَا(٢).

وَقَالَ سَلْمَانُ رضي الله عنه: كَبِّرُوا اللهَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا(٣)، وَقَدْ حُفِظَ عَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم عَشْرُ صِيَغٍ لِلتَّكْبِيرِ، فَأَيًّا ما اخْتَارَ الْمُسْلِمُ مِنْهَا فَصَحِيحٌ، وَقَدْ وَافَقَ هَدْيَهُمْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَلَيْلَةُ الْعِيدِ لَيْسَ لَها سُنَّةٌ تُحْيَا، وَلَمْ يَرِدْ فِي فَضْلِ قِيَامِهَا بِخُصُوصِهَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ يَقُومُ اللَّيْلَ فَهِيَ مِثْلُ غَيْرِهَا. وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَنْشَغِلَ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْعِيدِ عَنِ الْوِتْرِ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ آخِرَهُ، بِحَسَبِ مَا يَتَيَسَّرُ لَهُ.

وَشُهُودُ صَلَاةِ الْعِيدِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مُصَلَّيَاتِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ هُوَ شُهُودٌ لِأَعْظَمِ شَعِيرَةٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ الْعِيدِ مِنَ الشَّعَائِرِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، حُضُورُهَا مُتَأَكِّدٌ جِدًّا، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِفَرْضِهَا عَلَى الْأَعْيَانِ(٤).

---

(٢) أخرجه البيهقي (٣/ ٣١٥).

(٣) أخرجه البيهقي (٣/ ٣١٦).

(٤) ممن قال بذلك أبو حنيفة، واختاره ابن تيمية وابن القيم والشوكاني وابن باز وابن عثيمين.
قال السرخسي في المبسوط (٢/ ٣٧): «روى الحسن عن أبي حنيفة -رحمهما الله تعالى- أنه تجب صلاة العيد على مَنْ تَجِبُ عليه صلاة الجمعة» وينظر: بدائع الصنائع (١/ ٢٧٥).
وقال شيخ الإسلام: «ولهذا رجحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان كقول أبي حنيفة وغيره، وهو أحد أقوال الشافعي، وأحد القولين في مذهب أحمد. وقول من قال: لا تجب، في غاية البعد؛ فإنها مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الإسلام، والناس يجتمعون لها أعظم من الجمعة، وقد شرع فيها التكبير. وقول من قال: هي فرض على الكفاية لا ينضبط؛ فإنه لو حضرها في المصر العظيم أربعون رجلًا لم يحصل المقصود، وإنما يحصل بحضور المسلمين =

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ أَنْ يَخْرُجْنَ لِصَلَاةِ الْعِيدِ، حَتَّى أَمَرَ الحُيَّضَ بِشُهُودِ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاةِ الْعِيدِ مَعَ اعْتِزَالِ الْمُصَلَّى، وَحُضُورِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ(٥)، وَمَا

= كلهم كما في الجمعة» مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦١-١٦٢).

وقال ابن القيم: «صلاة العيد من أعاظم شعائر الإسلام الظاهرة، ولم يكن يتخلف عنها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا تركها رسول الله ﷺ مرة واحدة، ولو كانت سنة لتركها ولو مرة واحدة كما ترك قيام رمضان؛ بيانًا لعدم وجوبه، وترك الوضوء لكل صلاة؛ بيانًا لعدم وجوبه وغير ذلك» الصلاة وأحكام تاركها (٣٩).

وقال الشوكاني بعد أن ساق الخلاف فيها: «والظاهر ما قاله الأولون؛ لأنه قد انضم إلى ملازمته ﷺ لصلاة العيد على جهة الاستمرار وعدم إخلاله بها، الأمر بالخروج إليها، بل ثبت كما تقدم أمره ﷺ بالخروج للعواتق والحيض وذوات الخدور، وبالغ في ذلك حتى أمر من لها جلباب أن تلبس من لا جلباب لها، ولم يأمر بذلك في الجمعة ولا في غيرها من الفرائض، بل ثبت الأمر بصلاة العيد في القرآن كما صرح بذلك أئمة التفسير في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] فقالوا: المراد صلاة العيد ونحر الأضحية. ومن مقويات القول بأنها فرض: إسقاطها لصلاة الجمعة كما تقدم، والنوافل لا تسقط الفرائض في الغالب» نيل الأوطار (٣/ ٣٦٩).

وقال ابن باز -رحمه الله تعالى-: «صلاة العيد فرض كفاية عند كثير من أهل العلم، ويجوز التخلف من بعض الأفراد عنها، لكن حضوره لها ومشاركته لإخوانه المسلمين سنة مؤكدة لا ينبغي تركها إلا لعذر شرعي، وذهب بعض أهل العلم إلى أن صلاة العيد فرض عين كصلاة الجمعة، فلا يجوز لأي مكلف من الرجال الأحرار المستوطنين أن يتخلف عنها، وهذا القول أظهر في الأدلة، وأقرب إلى الصواب» مجموع فتاواه (١٣/ ٧).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «الذي أرى أن صلاة العيد فرض عين، وأنه لا يجوز للرجال أن يدعوها، بل عليهم حضورها؛ لأن النبي ﷺ أمر بها، بل أمر النساء العواتق وذوات الخدور أن يخرجن إلى صلاة العيد، بل أمر الحيض أن يخرجن إلى صلاة العيد ولكن يعتزلن المصلى، وهذا يدل على تأكدها، وهذا القول الذي قلت إنه الراجح هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله» مجموع فتاواه (١٦/ ٢١٤).

(٥) عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَمَرَنَا - تَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - أَنْ نُخْرِجَ فِي الْعِيدَيْنِ، الْعَوَاتِقَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، وَأَمَرَ الْحُيَّضَ أَنْ يَعْتَزِلْنَ مُصَلَّى الْمُسْلِمِينَ» رواه مسلم (٨٩٠).

ذَاكَ إِلَّا لِتَأْكِيدِ اجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ عَلَى هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَرَّطَ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ بِالنَّوْمِ عَنْهَا، أَوْ بِالِانْشِغَالِ بِالسَّفَرِ، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَتَهَيَّأَ الْمُسْلِمُ لِلْعِيدِ بِالْغُسْلِ وَالطِّيبِ، وَلُبْسِ أَحْسَنِ الثِّيَابِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَكَانَ ﷺ يَلْبَسُ لِلْخُرُوجِ إِلَيْهِمَا أَجْمَلَ ثِيَابِهِ، فَكَانَ لَهُ حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا لِلْعِيدَيْنِ وَالْجُمُعَةِ»(٦).

وَثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ فِي الْعِيدَيْنِ(٧)، وَجَاءَ عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الْفِطْرِ قَبْلَ أَنْ يَغْدُوَ لِلْمُصَلَّى(٨).

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سُنَّةُ الْفِطْرِ ثَلَاثٌ: الْمَشْيُ إِلَى الْمُصَلَّى، وَالْأَكْلُ قَبْلَ الْخُرُوجِ، وَالِاغْتِسَالُ»(٩).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَفْتَتِحَ الْمُسْلِمُ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ بِالْفِطْرِ عَلَى تَمَرَاتٍ؛ إِعْلَانًا بِأَنَّهُ يَصُومُ حِينَ يَصُومُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُفْطِرُ حِينَ يُفْطِرُ بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمَرَاتٍ وَيَأْكُلُهُنَّ وِتْرًا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٠).

وَإِنِ اسْتَطَاعَ الْمَشْيَ إِلَى الْمُصَلَّى أَوْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الرُّكُوبِ؛

---

(٦) زاد المعاد (١/ ٤٤١).

(٧) فتح الباري لابن حجر، وعزاه لابن أبي الدنيا، والبيهقي بإسناد صحيح (٢/ ٤٣٩).

(٨) أخرجه مالك بسند صحيح (٤٢٥).

(٩) أخرجه الفريابي في أحكام العيدين (٨٤).

(١٠) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (٩٥٣).

لِقَوْلِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ-: «مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا»(١١).

وَرَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، وَيَرْجِعُ مَاشِيًا»(١٢).

وَيُكَبِّرُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمُصَلَّى جَهْرًا؛ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَشُكْرًا عَلَى نِعَمِهِ، وَإِظْهَارًا لِشَعِيرَةِ الْعِيدِ. فَإِذَا بَلَغَ الْمَسْجِدَ أَوِ الْمُصَلَّى أَدَّى تَحِيَّتَهُ رَكْعَتَيْنِ، وَلَا يَتَنَفَّلُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ وَلَا بَعْدَهَا، بَلْ يَشْتَغِلُ بِالتَّكْبِيرِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْإِمَامُ؛ لِأَنَّ التَّكْبِيرَ هُوَ عِبَادَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الفِطْرِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُصَلِّ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا ...»(١٣).

وَلَا يُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُنْشِئَ صَلَاةَ الْعِيدِ، لَكِنْ إِنْ حَضَرَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَهَا صَلَّاهَا مَعَهُمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَدْرَكَهُ الْعِيدُ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَلَمْ يُصَلِّهَا فِي سَفَرِهِ مَعَ كَثْرَةِ الَّذِينَ مَعَهُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَمَ إِنْشَائِهَا لِلْمُسَافِرِ مَقْصُودٌ، وَأَنَّ إِنْشَاءَهَا فِي السَّفَرِ خُرُوجٌ عَنِ السُّنَّةِ(١٤).

---

(١١) أخرجه الترمذي في العيدين، باب في المشي يوم العيد، وقال: هذا حديث حسن. والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم (٥٣٠).

(١٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في الخروج إلى العيد ماشيًا (١٢٩٥)، وضعفه البوصيري في الزوائد بعبد الرحمن بن عبد الله العمري، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٣٢).

(١٣) أخرجه البخاري في العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها (٩٨٩)، ومسلم في العيدين، باب ترك الصلاة قبل العيد وبعدها في المصلى (٨٨٤).

(١٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «تنازع الناس في «صلاة الجمعة والعيدين» هل تشترط لهما الإقامة أم تفعل في السفر؟ على ثلاثة أقوال:
أحدها: من شرطهما جميعًا الإقامة فلا يشرعان في السفر. هذا قول الأكثرين وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في أظهر الروايتين عنه.
والثاني: يشترط ذلك في الجمعة دون العيد وهو قول الشافعي وأحمد في الرواية الثانية عنه. =

وَإِذَا صَلَّى مَعَ المُسْلِمِينَ فَالسُّنَّةُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ إِلَى المُصَلَّى أَوِ المَسْجِدِ؛ لِمَا رَوَى جَابِرٌ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٥).

وَالتَّهْنِئَةُ بِالْعِيدِ لَا حَرَجَ فِيهَا، قَالَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ

= والثالث: لا يشترط لا في هذا ولا هذا كما يقوله من يقوله من الظاهرية . . . والصواب بلا ريب هو القول الأول، وهو أن ذلك ليس بمشروع للمسافر؛ فإن رسول الله ﷺ كان يسافر أسفارًا كثيرة. قد اعتمر ثلاث عمر سوى عمرة حجته، وحج حجة الوداع ومعه ألوف مؤلفة، وغزا أكثر من عشرين غزاة ولم ينقل عنه أحد قط أنه صلى في السفر لا جمعة ولا عيدًا. بل كان يصلي ركعتين ركعتين في جميع أسفاره، ويوم الجمعة يصلي ركعتين كسائر الأيام . . . وكذلك أيضًا لم يصل العيد بمنى لا هو ولا أحد من خلفائه الراشدين؛ فقد دخل مكة عام الفتح، ودخلها في شهر رمضان فأدرك فيها عيد الفطر ولم يصل بها يوم العيد صلاة العيد ولم ينقل ذلك مسلم. ومن المعلوم أنهم لو كان صلى بهم صلاة العيد بمكة مع كثرة المسلمين معه -كانوا أكثر من عشرة آلاف- لكان هذا من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وكذلك بدر كانت في شهر رمضان وأدركه يوم العيد في السفر ولم يصل صلاة عيد في السفر» مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧٧-١٧٩).

وقال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى-: «صلاة العيد إنما تقام في المدن والقرى، ولا تشرع إقامتها في البوادي والسفر، هكذا جاءت السنة عن رسول الله ﷺ، ولم يحفظ عنه ﷺ ولا عن أصحابه ﷺ أنهم صلوا صلاة العيد في السفر ولا في البادية. وقد حج حجة الوداع عليه الصلاة والسلام فلم يصل الجمعة في عرفة وكان ذلك اليوم هو يوم عرفة، ولم يصل صلاة العيد في منى، وفي اتباعه ﷺ وأصحابه ﷺ كل الخير والسعادة، والله ولي التوفيق» مجموع فتاواه (٣/ ٣٢١).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «لا تشرع صلاة العيد في حق المسافر، كما لا تشرع الجمعة في حق المسافر أيضًا، لكن إذا كان المسافر في البلد الذي تقام فيه صلاة العيد فإنه يؤمر بالصلاة مع المسلمين» مجموع فتاواه (١٦/ ٢٣٦).

(١٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب من خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (٩٨٦).

تَعَالَى-: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا الْتَقَوْا يَوْمَ الْعِيدِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكَ»(١٦).

وَتُشْرَعُ التَّوْسِعَةُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ فِي الْعِيدِ، وَإِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ بِاللَّهْوِ المُبَاحِ كَالدُّفِّ وَنَحْوِهِ؛ لِمَا رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ، تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ، قَالَتْ: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلشَّيْخَيْنِ قَالَتْ: وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالدَّرَقِ وَالحِرَابِ، فَإِمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَإِمَّا قَالَ: «**تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ، خَدِّي عَلَى خَدِّهِ، وَيَقُولُ: «**دُونَكُمْ بَنِي أَرْفِدَةَ**»، حَتَّى إِذَا مَلِلْتُ، قَالَ: «**حَسْبُكِ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاذْهَبِي**»(١٧).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَشْرُوعِيَّةُ التَّوْسِعَةِ عَلَى الْعِيَالِ فِي أَيَّامِ الأَعْيَادِ . . . وَفِيهِ أَنَّ إِظْهَارَ السُّرُورِ فِي الأَعْيَادِ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ . . . » اهـ(١٨).

وَلَا يَحِقُّ لِأَهْلِ الْعِصْيَانِ وَالْفُجُورِ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ المُحَرَّمَاتِ، وَيَنْتَهِكُونَ الْحُرُمَاتِ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ عَلَى فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ أَوِ الْهَوَى فِي هَذَا الزَّمَنِ فِيمَا يُسَمَّى بِالمِهْرَجَانَاتِ الْغِنَائِيَّةِ الَّتِي

(١٦) عزاه الحافظ ابن حجر للمحاملي، وحَسَّنَهُ كما في الفتح (٢/ ٤٤٦)، وفيه آثار أخرى ضعيفة.

(١٧) رواه البخاري في العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام (٩٥٢)، ومسلم في العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد (٨٩٢).
والرواية الثانية للبخاري في العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢).

(١٨) فتح الباري (٢/ ٤٤٣).

يُلَطِّخُونَ بِهَا قُدْسِيَّةَ الْأَعْيَادِ وَشَعَائِرَهَا؛ كُفْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُجَاهَرَةً بِالمَعَاصِي، فَالرُّخْصَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ فِي الدُّفِّ فَقَطْ، وَبَيْنَ النِّسَاءِ فَحَسْبُ، وَيَبْقَى المَنْعُ مِنْ بَقِيَّةِ آلَاتِ اللَّهْوِ عَلَى عُمُومِهِ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ أَنْوَاعِ المَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَالمُحَرَّمَاتِ المُصَاحِبَةِ لهَا، وَاخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَمَا يَقَعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ فِتَنٍ عَظِيمَةٍ، وَإِفْسَادٍ لِلْقُلُوبِ، وَمَحْوٍ لِأَثَرِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالْقُرْآنِ؟!

ثُمَّ يَأْتِي مَنْ يَأْتِي مِنْ ذَوِي الْأَهْوَاءِ المَفْتُونِينَ لِيَنْتَزِعَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ سِيَاقِهِ، وَيَجْعَلَهُ أَسَاسًا لِإِبَاحَةِ جُمْلَةٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَفِعْلِ عَدَدٍ مِنَ المُنْكَرَاتِ وَالمُوبِقَاتِ، لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَى، وَتُخَالِفُ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا مِنَ الافْتِيَاتِ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْكَذِبِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَغِشِّ عَامَّةِ المُسْلِمِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا المُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّهَا سَبَبٌ لِزَوَالِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ وَصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ المُجَاهَرَةُ بِالمَعَاصِي بَعْدَ رَمَضَانَ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ شَارَكَ فِيهِ أَوْ رَضِيَهُ فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ رَدِّ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعُمْرَ يَمْضِي كَمَا مَضَى رَمَضَانُ، وَكَمَا أَنَّ فِي النَّاسِ مُحْسِنًا وَمُسِيئًا فِي رَمَضَانَ، فَكَذَلِكَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ يَعْمَلُ لِنَجَاةِ نَفْسِهِ وَفَوْزِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفَرِيقٍ يَعُبُّ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْيَادٌ سِوَى الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَعِيدِ الْجُمُعَةِ، وَكُلُّ عِيدٍ يُتَّخَذُ غَيْرَ هَذِهِ الْأَعْيَادِ فَبَاطِلٌ وَإِثْمٌ وَضَلَالٌ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَبْدَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ بِأَعْيَادِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ أَعْيَادًا خَيرًا مِنْهَا، وهي هَذِهِ الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ الثَّلَاثَةُ الْمُبارَكَةُ. وَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَجَدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ**»(١٩).

وَالْإِبْدَالُ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْمُبْدَلِ إِلَى الْبَدَلِ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ الْوَقْفُ فِي بَابِ الْأَعْيَادِ

(١٩) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود - الأم (٤/ ٢٩٧) وقال: وهذا سند صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه.

عَلَى مَا جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَإِلَّا لَمَا كَانَ لِلْإِخْبَارِ بِالْإِبْدَالِ فَائِدَةٌ(٢٠).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِمَّا يُشْرَعُ فِي خِتَامِ شَهْرِكُمْ: صَدَقَةُ الْفِطْرِ، وَهِيَ طُعْمَةٌ لِلْمَسَاكِينِ، وَطُهْرَةٌ لِلصَّائِمِينَ، وَمَرْضَاةٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَكَافُلٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَرَضَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «. . . صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى العَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢١).

وَيَجُوزُ إِخْرَاجُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ(٢٢).

---

(٢٠) قال شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٤٨٦-٤٨٨): «والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه؛ إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه؛ ولهذا لا تستعمل هذه العبارة إلا فيما ترك اجتماعهما، كقوله سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]. ومنه الحديث في المقبور فيقال له: «**انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ خَيْرًا مِنْهُ مَقْعَدًا فِي الجَنَّةِ**»، ويقال للآخر: «**انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ فِي الجَنَّةِ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ النَّارِ**». وقول عمر رضي الله عنه للبيد: «ما فعل شِعرك؟» قال: أبدلني الله به البقرة وآل عمران. وهذا كثير في الكلام. فقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا**» يقتضي ترك الجمع بينهما، لا سيما وقوله: «خَيْرًا مِنْهُمَا» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية. وأيضًا فقوله لهم: «إن الله قد أبدلكم» لما سألهم عن اليومين فأجابوه: «بأنهما يومان كانوا يلعبون فيهما في الجاهلية» دليل على أنه نهاهم عنهما اعتياضًا بيومي الإسلام؛ إذ لو لم يقصد النهي لم يكن ذكر هذا الإبدال مناسبًا؛ إذ أصل شرع اليومين الإسلاميين كانوا يعلمونه، ولم يكونوا ليتركوه لأجل يومي الجاهلية.

(٢١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الزكاة، باب إخراج صدقة الفطر (١٥٠٣)، ومسلم في الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

(٢٢) لقول نافع راوي الحديث عن ابن عمر: «وكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ» أخرجه البخاري (١٥١١).

عِبَادَ اللَّهِ: أَحْسِنُوا خِتَامَ شَهْرِكُمْ، وَأَرُوا اللهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِيمَا بَقِيَ مِنْهُ، فَلَعَلَّ مِنَّا مَنْ لَا يُدْرِكُهُ الْعَامَ الْقَابِلَ، وَلَعَلَّ عَبْدًا تَابَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِيمَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ، وَاجْتَهَدَ فِيمَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِهِ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَتَهُ، وَغَسَلَ حَوْبَتَهُ، وَأَوْجَبَ رَحْمَتَهُ، فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ؛ فَإِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَةِ، وَيَجْزِي الْحَسَنَةَ بِأَضْعَافِهَا، وَقَدْ فَتَحَ لَكُمْ أَبْوَابَهُ، وَنَشَرَ بَيْنَكُمْ رَحْمَتَهُ، وَنَادَى فِي عِبَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَأَخْبَرَ ﷻ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَفَّارٌ ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا يَيْأَسُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِلَّا ضَالٌّ قَانِطٌ، وَلَا يُعْرِضُ عَنْ نَفَحَاتِهِ إِلَّا مَحْرُومٌ خَاسِرٌ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ مِنَ الْبَشَرِ؟! وَحَاجَاتُهُمْ كُلُّهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمر: ٧]؟!

فَأَكْثِرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى حَاجَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَظُنُّوا بِرَبِّكُمْ سُبْحَانَهُ خَيْرًا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى عِنْدَ ظَنِّ عِبَادِهِ بِهِ، فَإِنْ ظَنُّوا خَيْرًا فَلَهُمْ، وَإِنْ ظَنُّوا غَيْرَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِمْ، وَبِئْسَ مَا ظَنُّوا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . . .



٢٥٨- خطبة عيد الفطر المبارك موقفنا من الأحداث المعاصرة (٣) (★)

السبت ١/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا فَبَلَّغَنَا رَمَضَانَ، وَوَفَّقَنَا لِلصِّيَامِ، وَأَعَانَنَا عَلَى الْقِيَامِ، فَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَنَا، وَأَنْ يَشْكُرَ سَعْيَنَا، وَأَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَنَا، وَأَنْ يُكْمِلَ نَقْصَنَا؛ فَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ، يُثِيبُ الثَّوَابَ الْكَثِيرَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا كَالَّذِي نَقُولُ، وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، يَتَتَابَعُ مَعَ تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَهَدَانَا وَأَنْعَمَ عَلَيْنَا، فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَسِرَاجًا مُنِيرًا؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

(*) موقفنا من الأحداث المعاصرة (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٦٩)، و(٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٠).

وَأَصْحَابِهِ؛ السَّادَةِ المُكَرَّمِينَ، وَالْغُرِّ المَيَامِينِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ مَا صَامَ الصَّائِمُونَ وَأَفْطَرُوا، اللهُ أَكْبَرُ مَا صَلَّى المُصَلُّونَ وَخَشَعُوا، اللهُ أَكْبَرُ مَا قَرَأَ الْقَارِئُونَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدَبَّرُوا.

اللهُ أَكْبَرُ، قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ، وَضَرَبَ الْآجَالَ، وَقَدَّرَ المَقَادِيرَ.

اللهُ أَكْبَرُ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ أَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِحُكْمِهِ، ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١]، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى أَحْيَوْا لَيَالِيَ رَمَضَانَ، وَرَفَعُوا أَكُفَّهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى ضَارِعِينَ خَاشِعِينَ مُخْبِتِينَ، يَجْأَرُونَ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَوْقَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَبِلُغَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ؟! فَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِهِمْ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَهُمْ، وَاسْتَجَابَ دَعَوَاتِهِمْ، وَقَضَى حَاجَاتِهِمْ!

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رُفِعَتْ؟ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ مِنْهُ طُلِبَتْ؟ كَمْ مِنْ مَسْأَلَةٍ سُئِلَتْ؟ مَنْ سَمِعَهَا، وَمَنْ يُجِيبُهَا، وَمَنْ يَقْضِيهَا، إِلَّا رَبُّنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ؟ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ، أَيُّهَا الصَّائِمُونَ، أَيُّهَا الْقَائِمُونَ، أَيُّهَا الدَّاعُونَ: أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا، وَظُنُّوا بِرَبِّكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ سَأَلْتُمُ الْجَوَادَ الْكَرِيمَ، وَلُذْتُمْ بِحِمَى

اللَّطِيفِ الرَّحِيمِ، الْخَزَائِنُ بِيَدِهِ، وَالْكَرَمُ صِفَتُهُ، وَابْقُوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْوَعْدِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ يُعْبَدُ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ، وَيَا أَيُّهَا الْمُفَرِّطُونَ تُوبُوا؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: بَيْنَمَا كَانَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ يُحْيُونَ الْعَشْرَ؛ رَجَاءَ الْأَجْرِ، وَالْتِمَاسًا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ كَانَ النَّاسُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا يَدُوكُونَ فِي الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ هَلَاكِ بَعْضِ الزُّعَمَاءِ، وَمِنَ انْتِخَابِ بَعْضِهِمْ(١)، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثَ الدَّوْلِيَّةَ بَاتَتْ مُؤَثِّرَةً عَلَى أَمْنِ الدُّوَلِ وَأَرْزَاقِهَا، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ تَآزُرِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ بِشِقَّيْهَا الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ مَعَ اللِّيبْرَالِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ لِأَجْلِ احْتِلَالِ الْبُلْدَانِ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى الثَّرَوَاتِ، سَوَاءً كَانَتِ الدَّوَافِعُ دِينِيَّةً تَوْرَاتِيَّةً، أَمْ كَانَتْ دُنْيَوِيَّةً مَادِّيَّةً.

وَلَقَدْ كَانَ لِلْيَمِينِ الْإِنْجِيلِيِّ الْمُتَصَهْيِنِ صَوَلَاتُهُ السَّابِقَةُ، وَمُغَامَرَاتُهُ الْمُتَهَوِّرَةُ، وَقَدْ عَادَ مِنْ جَدِيدٍ يَعْتَلِي سُدَّةَ أَقْوَى نِظَامٍ فِي الْأَرْضِ؛ لِيَبْدَأَ مَرْحَلَةً جَدِيدَةً مِنْ سِيَاسَاتِ التَّوَسُّعِ وَالِاحْتِلَالِ، وَالْحِصَارِ وَالتَّجْوِيعِ، وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَعَالَى إِلَى أَيِّ مَدًى سَيَصِلُونَ، وَعِنْدَ أَيِّ حَدٍّ يَنْتَهُونَ، وَلَكِنْ سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ: أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ أَلِيمَةٌ، وَأَنَّ نِهَايَتَهُ قَرِيبَةٌ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّةُ أَصْحَابِهِ، وَلَوْ طَوَّعُوا الْأُمَمَ كُلَّهَا لَهُمْ، وَأَذَلُّوا الْعَالَمِينَ بِقُوَّتِهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يُطِيلُ أَمَدَ ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ؛ إِمْلَاءً لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، وَابْتِلَاءً لِلْمَظْلُومِ حَتَّى يَصْبِرَ وَيَتَّقِيَ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

(١) هذا إشارة إلى موت الرئيس الفلسطيني (عرفات)، وكثرة الجدل حول كَوْنِه مسمومًا أو لا، وكان ترشيح (بوش) للولاية الثانية رئيسًا لأمريكا في عشر رمضان الأخيرة، وأخذ هذان الموضوعان أكثر الاهتمام الإعلامي على مستوى العالم.

[الحج: ٤٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

إِنَّهُمْ إِنِ اسْتَمَرُّوا فِي ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ فَإِنَّ نِهَايَتَهُمْ آتِيَةٌ، وَعَذَابَهُمْ وَاقِعٌ، لَهُ مَوْعِدٌ لَا يُخْلَفُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لَقَدْ مَرَّتْ بِالمُسْلِمِينَ خِلَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الْقَلَائِلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ أَزَمَاتٌ خَانِقَةٌ، وَكُرُوبٌ شَدِيدَةٌ، نَتَجَ عَنْهَا خَرَابُ الدِّيَارِ، وَتَدْمِيرُ الْعُمْرَانِ، وَحَبْسُ الْأَرْزَاقِ، تَوَلَّى كِبْرَهَا أَعْدَاءُ المِلَّةِ وَالدِّينِ، مِنَ الصَّهَايِنَةِ الْحَاقِدِينَ، وَالإِنْجِيلِيِّينَ المُتَطَرِّفِينَ، وَسَوَّقَ لِشَعَارَاتِهَا الزَّائِفَةِ ضِعَافُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ، مِنَ الْجَهَلَةِ وَالمُنَافِقِينَ، وَلَنْ يَكُونَ مَا مَضَى مِنْ أَحْدَاثٍ أَيْسَرَ مِمَّا سَيَأْتِي، إِلَّا أَنْ يَتَوَلَّى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ فُتِنُوا بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ؛ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ الرَّائِدَةَ فِي الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ تَنْتَهِجُهَا، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ الْفَاسِدِ مِنْهَا عَلَى المُسْلِمِينَ بِالْقُوَّةِ، وَلَوِ اقْتَضَى ذَلِكَ إِقْصَاءَ أَدْيَانِهِمْ، وَإِلْغَاءَ أَخْلَاقِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ نِهَايَةَ التَّارِيخِ كَانَتْ عِنْدَهَا، وَيَطْمَحُونَ فِي إِنْهَاءِ الْجُغْرَافِيَا عِنْدَهَا كَذَلِكَ؛ بِتَطْوِيعِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ لِأَفْكَارِهِمُ المَجْنُونَةِ بِالْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ، وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَنْ تَكُونَ مَشْرُوعَاتُهُمُ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ نِهَايَةَ التَّارِيخِ، وَلَا نِهَايَةَ الْجُغْرَافِيَا، بَلْ هِيَ وَاللَّهِ بِدَايَةُ نِهَايَتِهِمْ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَذِهِ المِحْنَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي يَعِيشُهَا المُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ نَتَجَ عَنْهَا فِتَنٌ عِدَّةٌ، غَرِقَ فِي لُجَّتِهَا مَنْ غَرِقَ، وَالْتَبَسَ بِسَبَبِهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى صَارُوا حَيَارَى لَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ! وَلَا مَنْ يَنْصُرُونَ!!

فَطَائِفَةٌ خَالَفَتِ النُّصُوصَ الْوَاضِحَةَ، وَافْتَاتَتْ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَخَرَقَتْ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ؛ فَشَقَّتْ عَصَا الطَّاعَةِ، وَخَرَجَتْ عَلَى السَّلَاطِينِ، وَرَفَعَتِ السِّلَاحَ عَلَى المُعَاهَدِينَ وَالمُؤَمَّنِينَ، وَأَحْدَثَتْ مَا أَحْدَثَتْ مِنَ التَّخْرِيبِ وَالْإِفْسَادِ فِي أَوْسَاطِ المُسْلِمِينَ!!

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ وَمَنْ نَاصَرَهُمْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تُبِيحُ الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ إِلَّا فِي حَالِ الْكُفْرِ الْبَوَاحِ الَّذِي لَهُ فِيهِ بُرْهَانٌ، وَمَا فَقِهُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قَبِلَ تَأْمِينَ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ لِرَجُلٍ مُشْرِكٍ وَقَالَ: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**»[٢] فَكَيْفَ بِتَأْمِينِ وَلِيِّ الأَمْرِ؟!

وَمَا أَدْرَكَ هَؤُلَاءِ أَنَّ عَمَلَهُمُ المَشِينَ يَنْفَعُ أَعْدَاءَ المِلَّةِ وَالدِّينِ، وَيُصَدِّعُ وَحْدَةَ المُسْلِمِينَ، وَيَجُرُّ مَا يَجُرُّ عَلَى الْبِلَادِ وَالعِبَادِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْوَيْلَاتِ. وَمَنْ عَظَّمَ اللهَ تَعَالَى عَظَّمَ شَرِيعَتَهُ، وَأَخَذَ بِالنُّصُوصِ كُلِّهَا وَلَوْ خَالَفَتْ هَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ؛ فَاللَّهُمَّ اكْفِ المُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَرُدَّهُمْ إِلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَافْتَحْ عَلَى قُلُوبِنَا وَقُلُوبِهِمْ بِالْهِدَايَةِ وَالصَّوَابِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

وَطَائِفَةٌ أُخْرَى حَمَلَتْ عَلَى عَاتِقِهَا تَزْوِيرَ شَرِيعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَلَيَّ أَعْنَاقِ

---

(٢) أخرجه من حديث أم هانئ بنت أبي طالب: البخاري في الجزية والموادعة، باب أمان النساء وجوارهن (٣٠٠٠)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٣٣٦).

النُّصُوصِ، وَتَطْوِيعَهَا لِلْوَاقِعِ، وَدَعْمَ ذَلِكَ بِالْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ، وَإِحْيَاءَ الْمَذَاهِبِ الْمَهْجُورَةِ، بَلْ وَالْقَوْلَ بِأَقْوَالٍ لَمْ يَقُلْ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا؛ إِرْضَاءً لِأَهْوَائِهِمْ، وَمُسَايَرَةً لِلْأَحْدَاثِ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِرُوحِ الشَّرِيعَةِ، وَأَدْرَى بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ، وَأَكْثَرُ غَيْرَةً عَلَى الْحُرُمَاتِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُمْ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ يَدْفَعُونَ دِينَهُمُ اسْتِبْقَاءً لِدُنْيَاهُمْ، وَيُبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى خَوْفًا عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَآجَالِهِمْ!!

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَأَنَّ الْحَذَرَ لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ؛ فَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ تَسَلُّطَ أَعْدَائِهَا عَلَيْهَا فَلَنْ يَرُدَّهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ فَتَاوَى مُضَلِّلَةٌ، أَوِ اجْتِهَادَاتٌ خَاطِئَةٌ، تَخْدُمُهُمْ فِي مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ، وَتُسَبِّبُ الْخِذْلَانَ الْعَظِيمَ لِلْمُسْلِمِينَ.

لَقَدْ ظَنَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ -كَمَا ظَنَّ الْجَاهِلُونَ- أَنَّ هَذَا الْعَدُوَّ الْمُتَصَهْيِنَ سَيُوقِفُهُ عَنْ أَطْمَاعِهِ فَتَاوَى تَكُونُ فِي صَالِحِهِ، وَسَيُرْضِي طُمُوحَه شَوَاذٌّ فِقْهِيَّةٌ تَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَزْوِيرَ شَرِيعَتِهِ لَمُؤْذِنٌ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، وَمَنْ سَكَتَ عَنْ حَقٍّ لَا يُطِيقُ نُطْقَهُ خَيْرٌ مِمَّنْ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ، وَلِأَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ ذَيْلًا فِي الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَأْسًا فِي الشَّرِّ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُخَيَّرُ فِيهِ الرَّجُلُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْفُجُورِ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَخْتَرِ الْعَجْزَ عَلَى الْفُجُورِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(٣).

وَمَنْ غَيَّرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى اتِّقَاءً لِشَرٍّ مُتَوَهَّمٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ فَهُوَ الْمَفْتُونُ، وَيُوشِكُ اللهُ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٧٨-٤٤٧)، وإسحاق بن راهويه (١٥٠)، وأبو يعلى (٦٤٠٣)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ٤٨٤-٤٨٥).

تَعَالَى لَهُ بِعَذَابٍ عَاجِلٍ مَعَ الْعَذَابِ الْآجِلِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ، قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا فَلْيَنْظُرْ، فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ(٤).

وَاللهُ تَعَالَى أَمَرَ عِبَادَهُ فِي حَالِ اشْتِدَادِ أَذَى الْأَعْدَاءِ وَتَكَالُبِهِمْ وَمَكْرِهِمْ بِالصَّبْرِ مَعَ التَّقْوَى، وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي تَبْدِيلِ الدِّينِ، أَوْ تَحْرِيفِ النُّصُوصِ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ، أَوْ دَفْعًا لِخَطَرِهِمْ ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وَلَيْسَ مِنَ التَّقْوَى فِي شَيْءٍ تَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَحْرِيفُ نُصُوصِهِ، وَيُوشِكُ مَنْ نَهَجَ هَذَا الْمَنْهَجَ الْآثِمَ أَنْ لَا يَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ، وَلَا تَسْتَقِيمَ لَهُ دُنْيَاهُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغَارُ عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَإِنَّ الْأَعْدَاءَ إِنْ ظَفِرُوا بِالْمُسْلِمِينَ فَلَنْ يَرْقُبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، سَوَاءً مَنْ كَانَ ضِدَّهُمْ أَوْ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ، نَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ الْهِدَايَةَ وَالْعِصْمَةَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَطَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ قَدِ انْتَفَشَتْ زُهُوًّا، وَرَقَصَتْ طَرَبًا مِنْ مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُبَشِّرُ بِانْتِهَاءِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ الَّذِي تَوَارَثَهُ الْمُسْلِمُونَ؛ لِيَخْلُفَهُ الْإِسْلَامُ اللِّيبْرَالِيُّ، زَعَمُوا وَخَسِئُوا!

إِنَّهَا طَائِفَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الَّتِي أَبْدَأَ الْقُرْآنُ فِيهَا وَأَعَادَ، وَحَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا أَشَدَّ تَحْذِيرٍ.. إِنَّهَا الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرْكَبُ مَوْجَ الْأَحْدَاثِ؛

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٥١٤).

لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهَا الدَّنِيئَةِ، وَالتَّنْفِيسِ عَنْ أَحْقَادِهَا الدَّفِينَةِ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

بَاتَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ تُخَوِّفُ الْأُمَّةَ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ بِأَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى نَبْذِ دِينِهِمْ، وَالتَّخَلِّي عَنْ شَرِيعَتِهِمْ، بَلْ وَتَتَوَعَّدُ مَنْ لَمْ يُوَافِقْهَا فِي ضَلَالِهَا بِتَسْلِيطِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِ!!

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ فِي الْأُمَّةِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَجْعَلُ مَجْمُوعَهَا يَخَافُونَ اللهَ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمَا يَمْتَلِكُونَ، قَدْ وَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزُّمر: ٣٦]. وَقَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وَمَآلُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ المَنْكُودَةِ: الخَسَارَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، هَتَكَ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُمْ، وَكَشَفَ أَمْرَهُمْ، وَكَفَى المُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ!

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنَّ مَا تُوَاجِهُهُ الْأُمَّةُ مِنْ تَحَدِّيَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَمَا تُعَانِيهِ مِنْ مُشْكِلَاتٍ جَسِيمَةٍ؛ لَيُوجِبُ عَلَى الجَمِيعِ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ الرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَالتَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاسْتِحْضَارَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ وَقُوَّتَهُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ، وَأَنَّ الحُكْمَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مَالِكُ المُلْكِ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ الْعِزَّةَ لَهُ ﷻ، فَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِهِ فَلَنْ يَجِدَهَا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وَأَنَّهُ ﷻ المُسْتَحِقُّ لِلْخَشْيَةِ دُونَ النَّاسِ، مَهْمَا عَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ، وَتَطَوَّرَتْ صِنَاعَاتُهُمْ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

يَجِبُ أَنْ يُوقِنَ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنَّ دِينَهَا هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْأَفْكَارِ فَضَلَالٌ وَإِثْمٌ وَخَطَأٌ وَبَاطِلٌ.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أُمِرَ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالدِّينِ وَهُوَ المَعْصُومُ مِنَ الحَيْدَةِ عَنْهُ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ يَا مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ؟! ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخرف: ٤٣]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ المَرْحَلَةَ الْحَرِجَةَ مِنْ تَارِيخِ الْأُمَّةِ مَا هِيَ إِلَّا مَرْحَلَةُ الِابْتِلَاءِ وَالتَّمْحِيصِ الَّتِي تَسْبِقُ الرِّيَادَةَ وَالتَّمْكِينَ، فَلَا بُدَّ فِيهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى؛ لِنَيْلِ النَّصْرِ وَالْحُسْنَى ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافات: ١٧١-١٧٣].

كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعِيَ المُسْلِمُونَ حَقِيقَةً مُهِمَّةً وَهِيَ: أَنَّ التَّخَلِّيَ عَنِ الدِّينِ، أَوْ تَبْدِيلَ الشَّرِيعَةِ سَبَبٌ لِلْمَصَائِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْخَسَارَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى المُسْلِمِينَ أَفْرَادًا وَأُمَمًا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَنْ يَرُدَّهُ تَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ سَيَكُونُ سَبَبًا لِلْخِذْلَانِ وَالِانْتِكَاسَةِ، وَمَنْ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى نَصَرَهُ اللهُ ﷻ، وَمَنْ خَذَلَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى خَذَلَهُ اللهُ ﷻ، وَأَصَابَهُ مَا قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يُوقِنُوا أَنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ اللهُ ﷻ بِسَبَبِ نَصْرِهِ لِدِينِهِ فَهُوَ غَالِبٌ، وَمَنْ خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِسَبَبِ خِذْلَانِهِ لِدِينِهِ فَلَنْ يُنْصَرَ، بَلْ سَيَنَالُهُ الذُّلُّ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

إِنَّ هَذِهِ المَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ يَجِبُ أَنْ يَتَدَبَّرَهَا المُسْلِمُونَ، وَأَنْ يَفْهَمُوا كَلَامَ

اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، كَمَا يَجِبُ غَرْسُ هَذِهِ المَفَاهِيمِ فِي قُلُوبِ النَّاشِئَةِ، وَتَرْبِيَةُ المُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ عَلَيْهَا؛ فَلَا عِزَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا نَصْرَ إِلَّا فِي دِينِهِ، وَلَا غَالِبَ إِلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيَّتُهَا المَرْأَةُ المُسْلِمَةُ، أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ هَذِهِ المَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَمْلَأُ قَلْبَ المُؤْمِنِ عِزَّةً وَأَنَفَةً وَثِقَةً فِي اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ نَحْتَاجُ إِلَى غَرْسِهَا فِي أَفْهَامِ النَّاشِئَةِ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكِ تُؤَدِّينَهُ؛ خِدْمَةً لِدِينِكِ، وَإِرْضَاءً لِرَبِّكِ، وَنَصْرًا لِأُمَّتِكِ.

أَيَّتُهَا الْعَفِيفَةُ الحَصِينَةُ: إِيَّاكِ وَادِّعَاءَاتِ اللِّيبْرَالِيِّينَ، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ مِنْ دُعَاةِ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ فَسَادَ الْأُسْرَةِ، وَتَقْوِيضَ دَعَائِمِ الْفَضِيلَةِ، وَجَعْلَ مُجْتَمَعَاتِ المُسْلِمِينَ مُجْتَمَعَاتٍ حَيَوَانِيَّةً بَهِيمِيَّةً لَا تَرْعَى لِلَّهِ حُرْمَةً، وَلَا تَأْنَفُ مِنْ تَفَسُّخٍ وَانْحِلَالٍ، وَلَا تَأْبَهُ بِالْحَيَاءِ، وَلَا تَرْفَعُ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَأْسًا.

تَمَسَّكِي بِدِينِكِ وَحِجَابِكِ، وَعَضِّي بِالنَّوَاجِذِ عَلَى طُهْرِكِ وَعَفَافِكِ، وَلَا تَغْتَرِّي بِأُطْرُوحَاتِهِمُ المَأْفُونَةِ، وَاحْذَرِيهِمْ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: حُقَّ لَكُمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ صِيَامِ شَهْرِكُمْ، وَإِرْضَاءِ رَبِّكُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى فِي فِطْرِكُمْ كَمَا كُنْتُمْ تَتَّقُونَهُ فِي صَوْمِكُمْ، وَاحْذَرُوا المُنْكَرَاتِ وَالمَعَازِفَ وَالْغِنَاءَ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ المَعْصُومِ ﷺ(٥).

---

(٥) أخرجه من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ: مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَلِينُوا لِإِخْوَانِكُمْ، وَأَزِيلُوا الشَّحْنَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.

وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُحَاصَرِينَ وَالْمُضْطَهَدِينَ، أَكْثِرُوا لَهُمْ مِنَ الدُّعَاءِ فَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَعَادَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.



٢٥٩- خطبة عيد الفطر المبارك
التذكير بالنعم والتحذير من النقم

الخميس ١/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَعَ لَنَا مَوَاسِمَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَعَانَنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. هُوَ خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا، وَهُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَتَابُعِ إِحْسَانِهِ، وَتَرَادُفِ تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِتَقْصِيرِنَا فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، وَارْتِكَابِنَا نَهْيَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَسِعَ حِلْمُهُ عَلَيْنَا، فَسَتَرَ عُيُوبَنَا، وَلَمْ يَأْخُذْنَا بِذُنُوبِنَا، مَعَ وُقُوعِنَا فِي مُوجِبَاتِ غَضَبِهِ، وَاسْتِحْقَاقِنَا لِعِقَابِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا جَوَادٌ كَرِيمٌ، غَفُورٌ حَلِيمٌ، عَفْوُهُ أَقْرَبُ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ كَرِيمٍ، وَإِلَهٍ عَظِيمٍ، وَرَحْمَنٍ رَحِيمٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرَ مَنْ شَهِدَ رَمَضَانَ، فَصَلَّى وَصَامَ، وَقَنَتَ لِلَّهِ تَعَالَى وَقَامَ. وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ كَانَ يَشُدُّ مِئْزَرَهُ، وَيُحْيِي لَيْلَهُ، وَيُوقِظُ أَهْلَهُ، وَيَعْتَكِفُ فِي مَسْجِدِهِ، خَالِيًا قَلْبُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يُعَظِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، وَيَذْكُرُهُ وَيَسْأَلُهُ، وَيَدْعُوهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ الزَّادُ

وَالْعُدَّةُ لِيَوْمٍ عَسِيرٍ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اشْكُرُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاذْكُرُوهُ فِي كُلِّ أَحْيَانِكُمْ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَهْمَا عَمِلْتُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فَإِنَّكُمْ لَا تَفُونَ اللهَ تَعَالَى حَقَّهُ، وَلَا تَجْزُونَهُ عَنْ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي غَمَرَكُمْ بِهَا، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَجْزِي خَالِقَهُ وَرَازِقَهُ وَهَادِيَهُ مَهْمَا عَمِلَ؟!

خَلَقَكُمْ رَبُّكُمْ وَلَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَيْكُمْ، وَكَلَّفَكُمْ بِالشَّرِيعَةِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ، فَلَا طَاعَتُكُمْ تَنْفَعُهُ، وَلَا مَعْصِيَتُكُمْ تَضُرُّهُ، كَيْفَ وَهُوَ الْقَائِلُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**»(١).

وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَأَهْلَكَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ لَأَبْدَلَ جِنْسَ الْبَشَرِ بِخَلْقٍ غَيْرِهِمْ لَا يَعْصُونَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٣]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٣٣]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فَاطِر: ١٥-١٧]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [مُحَمَّد: ٣٨].

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ ﷻ، فَمَنْ أَرَادَ شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى آمَنَ بِهِ وَحْدَهُ، وَعَمِلَ صَالِحًا؛ فَذَلِكَ سَبَبٌ لِحِفْظِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ -بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى- لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، وَكُلَّمَا زَادَ تَتَابُعُ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ اسْتَوْجَبَ ذَلِكَ مَزِيدًا مِنْ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- قَوْلَ سُلَيْمَانَ عليه السلام حِينَ وَرِثَ الْمُلْكَ، وَأُوتِيَ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، وَعُلِّمَ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسُخِّرَ لِخِدْمَتِهِ الْجِنُّ، وَحَكَمَ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل: ٤٠]، وَتَأَمَّلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى قَوْلَ مُوسَى عليه السلام مُخَاطِبًا قَوْمَهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٨].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الصَّائِمُونَ: لَئِنْ كُنْتُمْ مُحْسِنِينَ فِي رَمَضَانَ، مُحَافِظِينَ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَهِدَايَتِهِ وَإِعَانَتِهِ لَكُمْ، وَلَوْلَا اللهُ تَعَالَى لَمَا صُمْتُمْ وَلَا قُمْتُمْ؛ فَأَعْدَادُ الَّذِينَ خُذِلُوا عَنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَعُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُ مِنَ الْقَائِمِينَ بِهَا، فَاحْمَدُوا اللهَ الَّذِي جَعَلَكُمْ مِنَ النَّاجِينَ وَهُمْ قَلِيلٌ، وَلَمْ يَجْعَلْكُمْ مِنَ الْهَالِكِينَ وَهُمْ كَثِيرٌ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

وَلَئِنْ كُنْتُمْ مُفَرِّطِينَ فِي رَمَضَانَ -وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَّا إِلَّا وَعِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ تَفْرِيطٍ

فَمُسْتَكْثِرٌ وَمُقِلٌّ- لَئِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ رَبِّكُمْ، وَاسْتَغْفِرُوهُ لِذُنُوبِكُمْ، وَسِيرُوا سِيرَةَ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عليه السلام الَّذِي كَانَ دُعَاؤُهُ بَعْدَ خَطِيئَتِهِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٣]، وَهَكَذَا قَالَ أَفَاضِلُ الْخَلْقِ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَهُمْ قُدْوَةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ، فَنُوحٌ عليه السلام قَالَ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧] وَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام قَالَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢]، وَكَلِيمُ الرَّحْمَنِ مُوسَى عليه السلام قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [الْقَصَص: ١٦]، وَيُونُسُ عليه السلام قَالَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٨٧]، وَكَانَ مِنِ اسْتِغْفَارِ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَأَفْضَلِ الْبَشَرِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[٢]، وَلَمَّا سَأَلَهُ الصِّدِّيقُ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣].

فَتِلْكَ جَادَّةُ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ: الِاعْتِرَافُ بِالتَّقْصِيرِ وَالْخَطَإِ، مَعَ إِتْقَانِ

---

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، وقال: حسن صحيح غريب (٣٤٣٤)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار (٣٨١٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٥٨)، وأحمد (٢/ ٢١)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨)، وصححه ابن حبان (٩٢٧)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ولكن الرواة اختلفوا على مالك في قوله «الغفور» (٥٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الدعاء في الصلاة (٥٩٦٧)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥).

الْعَمَلِ، وَعَدَمِ التَّعْوِيلِ عَلَيْهِ، بَلْ سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ؛ فَسِيرُوا -عِبَادَ اللَّهِ سِيرَتَهُمْ- وَالْزَمُوا هَدْيَهُمْ؛ فَهُمْ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرْضِي رَبَّهُمْ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَضَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فَفَازَ بِهَا مَنْ فَازَ، وَحُرِمَ خَيْرَهَا مَنْ حُرِمَ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ كُتِبَ لَهُ فِيهَا ذُلٌّ! وَكَمْ مِنْ ذَلِيلٍ قُضِيَ لَهُ فِيهَا بِعِزٍّ! وَكَمْ مِنْ حَيٍّ قَدْ طَالَ أَمَلُهُ فِي الدُّنْيَا، يُفَكِّرُ وَيُقَدِّرُ وَيُخَطِّطُ وَيَبْنِي، قَدْ قُضِيَ أَمْرُهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَلَا يُدْرِكُهَا مِنْ قَابِلٍ! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «إِنَّكَ لَتَرَى الرَّجُلَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَقَدْ وَقَعَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٣، ٤]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[(٤)].

أَحْدَاثٌ وَتَحَوُّلَاتٌ، وَشُؤُونٌ وَحَاجَاتٌ؛ قَضَى فِيهَا الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ بِعِلْمِهِ، وَقَدَّرَهَا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ بِحِكْمَتِهِ، وَكَتَبَهَا الْقَوِيُّ الْقَدِيرُ بِقُدْرَتِهِ، وَكَانَ زَمَنُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ بِإِمْضَائِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحْمَن: ٢٩] فَعَلِّقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى قُلُوبَكُمْ، وَاطْلُبُوهُ حَاجَاتِكُمْ، وَسَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَعُوذُوا بِهِ مِنْ سَخَطِهِ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الْحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى أَحْوَالِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِكُمْ لَعَلِمْتُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِنِعَمٍ عَظِيمَةٍ، وَدَرَأَ عَنْكُمْ مِحَنًا كَبِيرَةً، وَحَفِظَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، وَأُسَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؛ فَرَبُّكُمْ عَزَّ فِي عُلَاهُ قَدْ عَافَاكُمْ مِنْ كَلَبِ عَدُوٍّ

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٥٣٠)، والضياء في المختارة (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٣٦٦١)، والحاكم (٢/ ٤٨٧).

يَحْتَلُّ دِيَارَكُمْ، وَيُفْسِدُ عُمْرَانَكُمْ، وَيَنْتَهِكُ حُرُمَاتِكُمْ، وَيَذِلُّ كَرَائِمَ رِجَالِكُمْ؛ فَفِي الْعِرَاقِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ، وَعِبَرٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ .. فِيهَا عَدُوٌّ اغْتَصَبَ الْبِلَادَ، وَأَرْهَبَ الْعِبَادَ، وَنَهَبَ الْخَيْرَاتِ، وَنَشَرَ الْوَيْلَاتِ .. وَفِي الْعِرَاقِ قَتْلٌ وَتَرْوِيعٌ، وَإِبَادَةٌ وَتَشْرِيدٌ .. وَفِي الْعِرَاقِ جُوعٌ وَشِدَّةٌ، وَبَلَاءٌ وَكُرْبَةٌ .. مَا هَنِئَ أَهْلُهَا بِعَيْشٍ كَرِيمٍ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، وَزَادَ بُؤْسُهُمْ يَوْمَ وَطِئَتْ أَرْضَهُمْ أَقْدَامُ الصَّهَايِنَةِ الْمُحْتَلِّينَ، عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى إِخْرَاجَهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

وَفِي النَّيْجَرِ أَرْضٌ مُقْفِرَةٌ، وَمَوْتٌ مُطِلٌّ .. عُيُونٌ زَائِغَةٌ، وَبُطُونٌ جَائِعَةٌ، وَبُيُوتٌ خَاوِيَةٌ، وَأَجْسَادٌ هَزِيلَةٌ .. تَنْتَظِرُ الْمَوْتَ بَعْدَ أَلَمِ الْجُوعِ، وَلَا تَأْمُلُ فِي شِبَعٍ قَبْلَ الْمَوْتِ .. صَامُوا وَمَا صَامُوا، وَأَفْطَرُوا وَمَا أَفْطَرُوا !! صَامُوا جَوْعَى، وَأَفْطَرُوا جَوْعَى، فَعَنْ مَاذَا يَصُومُونَ، وَعَلَى مَاذَا يُفْطِرُونَ؟! وَيَحْضُرُهُمُ الْعِيدُ وَهُمْ لَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ، وَأَنْتُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ تَرْفُلُونَ فِي أَنْوَاعِ النَّعِيمِ، وَتَجِدُونَ مَا تَشْتَهُونَ، وَلَا تُحْرَمُونَ مِمَّا تُرِيدُونَ، فَاحْمَدُوا مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ.

وَفِي الْبَاكِسْتَانِ زَلَازِلُ مُدَمِّرَةٌ، وَبُيُوتٌ مُهَدَّمَةٌ .. وَفِيهَا مَوْتٌ وَهَلَاكٌ، وَمَصَائِبُ عِظَامٌ، فَكَمْ خَلَّفَ زِلْزَالُهُمْ مِنْ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ، وَشَرِيدٍ وَطَرِيدٍ! كَمْ مِنْ فَرْدٍ أَمْسَى فِي أُسْرَتِهِ هَانِئًا بِهَا، حَالِمًا بِمُسْتَقْبَلِهَا؛ أَصْبَحَ يَوْمَ الْفَاجِعَةِ وَلَا أُسْرَةَ لَهُ!! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَأَضْنَى جَسَدَهُ فِي اكْتِسَابِ رِزْقِهِ، وَالِاغْتِرَابِ عَنْ بَلَدِهِ، وَجَمْعِ مَالِهِ؛ أَتَى الزِّلْزَالُ عَلَى مَتْجَرِهِ وَمَزْرَعَتِهِ فَأَذْهَبَ مَالَهُ كُلَّهُ!! كَانَ بِالْأَمْسِ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَالْيَوْمَ حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ وَلَا يَجِدُهَا!! فَتَأَمَّلُوا قُدْرَةَ الْقَدِيرِ، وَاحْمَدُوا اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ؛ إِذْ عَافَاكُمْ وَابْتَلَى غَيْرَكُمْ.

إِنَّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- قَدْ أَمِنْتُمْ وَخَافَ غَيْرُكُمْ، وَشَبِعْتُمْ وَجَاعَ سِوَاكُمْ، وَنَعِمْتُمْ

وَبِئْسَ أَمْثَالُكُمْ، وَأُصِيبَتْ بُلْدَانٌ مِنْ حَوْلِكُمْ، وَسَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بِلَادَكُمْ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ فَضْلٌ سِوَاهُ. وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَجُعْتُمْ كَمَا جَاعَ غَيْرُكُمْ، وَخِفْتُمْ كَمَا خَافُوا، وَشُرِّدْتُم كَمَا شُرِّدُوا، وَأُصِبْتُمْ كَمَا أُصِيبُوا؛ فَاحْمَدُوا اللهَ الَّذِي عَافَاكُمْ، وَالْهَجُوا لَهُ بِالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

لَا تَظُنُّوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّكُمْ أُعْطِيتُمْ هَذِهِ النِّعَمَ وَحُرِمَهَا غَيْرُكُمْ لِقُوَّتِكُمْ وَضَعْفِهِمْ، أَوْ لِكَثْرَتِكُمْ وَقِلَّتِهِمْ، أَوْ لِشَرَفِكُمْ وَوَضَاعَتِهِمْ، أَوْ لِعَمَلِكُمْ وَكَسَلِهِمْ، فَفِي مَنْ حُرِمُوا مَا تَتَنَعَّمُونَ بِهِ مَنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْكُمْ بَأْسًا، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَأَمْكَنُ عَمَلًا، وَفِيهِمْ أَشْرَافٌ يَضْرِبُونَ فِي أَوْسَطِ الْقَبَائِلِ نَسَبًا؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَعْطَاكُمْ وَحَرَمَهُمْ، أَفَلَا تَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الشُّكْرَ حَافِظُ النِّعَمِ وَمُبَارِكُهَا، وَأَنَّ كُفْرَهَا مُزِيلُهَا وَرَافِعُهَا؟!

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَقَدْ كَثُرَتِ الْفَوَاجِعُ وَالْكَوَارِثُ الْعَامَّةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنَ الزَّلَازِلِ وَالْفَيَضَانَاتِ، وَوَقَعَ فِي عَامِنَا هَذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ كُبْرَيَاتِهَا، أَهْلَكَتْ بَشَرًا كَثِيرًا، وَأَتْلَفَتْ مَالًا عَظِيمًا، وَهَذَا يَسْتَدْعِي النَّظَرَ وَالِاعْتِبَارَ، وَمَعْرِفَةَ الْأَسْبَابِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ قَدْ طَغَوْا وَظَلَمُوا، وَبَارَزُوا اللهَ تَعَالَى بِالْعِصْيَانِ، بَلْ وَأَعْلَنُوا بِالْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَجَاهَرُوا بِهَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَيُرِيدُونَ قَهْرَ النَّاسِ عَلَيْهَا، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ إِثْمًا: سَنُّ الْقَوَانِينِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي تُلْغِي شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَتُحَارِبُهَا، وَتُبِيحُ أَنْوَاعَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ مِنْ تَدْمِيرِ الْأُسَرِ السَّوِيَّةِ، وَنَشْرِ الْإِبَاحِيَّةِ، وَاكْتِفَاءِ الرِّجَالِ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَاجَرَةِ بِالْغَرَائِزِ وَالشَّهَوَاتِ، إِلَى أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ الَّذِي تُمَارِسُهُ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ

عَلَى الشُّعُوبِ الْمُسْتَضْعَفَةِ مِنِ احْتِلَالِ بُلْدَانِهَا، وَنَهْبِ خَيْرَاتِهَا، وَتَبْدِيلِ دِينِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَنَشْرِ الْفَسَادِ فِي أَوْسَاطِهَا، إِلَى أَنْوَاعِ التَّعَامُلَاتِ الْمَالِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ مِنَ الرِّبَا وَالِاحْتِكَارِ وَالِاخْتِلَاسِ، وَفَرْضِ التِّجَارَةِ الْحُرَّةِ مِنْ أَيِّ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَتَشْغِيلِ مَصَانِعِ السِّلَاحِ عَلَى حِسَابِ دِمَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَآلَامِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ، إِلَى إِفْقَارِ النَّاسِ، وَنَشْرِ الْمَجَاعَاتِ، وَسَحْقِ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْبَشَرِ لِتَحْقِيقِ رَفَاهِيَةِ الْأَقْوِيَاءِ، وَتَسْوِيغِ هَذَا الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ بِالْمُسَوِّغَاتِ الذَّرَائِعِيَّةِ الَّتِي تُبِيحُ لِلْقَوِيِّ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ بِالضُّعَفَاءِ، دُونَ نِظَامٍ أَوْ دُسْتُورٍ أَوْ قَانُونٍ إِلَّا قَانُونَ الْقُوَّةِ!!

وَهَذَا مَا يُسَبِّبُ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ وَعَلَا، وَيَسْتَجْلِبُ عُقُوبَاتِهِ، وَيَرْفَعُ مُعَافَاتِهِ، فَكُلُّ هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ وَالْآثَامِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ، مَارَسَهَا الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهَا الظَّالِمُونَ، وَسَكَتَ عَنْ إِنْكَارِهَا الْبَقِيَّةُ، إِلَّا أَصْوَاتًا ضَعِيفَةً لَا تَكَادُ تُسْمَعُ، وَيُرِيدُ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ كَبْتَ أَصْوَاتِهِمْ.

إِنَّ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ عُذِّبَتْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ عَلَى كُفْرِهَا، وَعَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَاصِي انْتَشَرَتْ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، كَانْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ فِي قَوْمِ لُوطٍ، وَالْغِشِّ فِي الْبَيْعِ عِنْدَ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ جَمَعَتِ الْحَضَارَةُ الْمُعَاصِرَةُ بِقِيَادَةِ الْقُوَى الرَّأْسِمَالِيَّةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ كُلَّ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ الَّتِي عُرِفَتْ فِي الْبَشَرِ مِنْ سَالِفِ الْأَزْمَانِ، وَهِيَ مُسْتَحِقَّةٌ لِكُلِّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَلَا نَسْتَغْرِبُ -وَحَالُ الْبَشَرِ هَكَذَا- أَنْ تَكْثُرَ فِيهِمُ الْحَوَادِثُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي هِيَ عُقُوبَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ، وَلَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ غَيْرَ ذَلِكَ، مِمَّا يُنْبِئُ عَنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ، وَفَسَادِ أَفْكَارِهِمْ، وَيَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ جَلَّ جَلَالُهُ غَيُورٌ، وَغَيْرَتُهُ أَنْ تُؤْتَى مَحَارِمُهُ، وَقَدْ وَقَعَ أَكْثَرُ

الْبَشَرِ فِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمِ المُوبِقَاتِ، أَفَنَسْتَغْرِبُ تَنَزُّلَ الْعُقُوبَاتِ وَحَالُ الْبَشَرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ؟!

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَرِيمٌ حَلِيمٌ عَلَى عِبَادِهِ، فَكَمْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَيُمْلِي وَيُمْهِلُ، لَعَلَّ الْعَاصِيَ يَتُوبُ، وَالشَّارِدَ يَؤُوبُ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النَّحْل: ٦١]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: وَمِنْ أَكْبَرِ الظُّلْمِ، وَأَعْظَمِ الافْتِرَاءِ: أَنَّ يَزْعُمَ قَائِدُ المُسْتَكْبِرِينَ فِي الْأَرْضِ، وَفِرْعَوْنُ الظَّالِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ: أَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ بَغْيٍ وَظُلْمٍ وَفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَرِسَالَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَصَلَتْ إِلَيْهِ، بِأَنْ يُحَطِّمَ الْأُمَّةَ الْبَابِلِيَّةَ المَلْعُونَةَ فِي التَّوْرَاةِ المُحَرَّفَةِ، وَأَنَّهُ بِأَعْمَالِهِ الْإِجْرَامِيَّةِ التَّوَسُّعِيَّةِ يَسْعَى لِتَحْقِيقِ إِرَادَةِ الرَّبِّ، وَأَنَّهُ وَصَهَايِنَتَهُ التَّوْرَاتِيِّينَ يُمَثِّلُونَ مِحْوَرَ الْخَيْرِ فِي الْبَشَرِيَّةِ، بَيْنَمَا يُمَثِّلُ بَقِيَّةُ الْبَشَرِ مِحْوَرَ الشَّرِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُذْبَحَ عَلَى المَذْبَحِ التَّوْرَاتِيِّ، بَدْءًا بِالْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ الَّتِي صَارُوا يَصْطَادُونَهَا دَوْلَةً بَعْدَ أُخْرَى(٥).

---

(٥) صرح الرئيس الأمريكي جورج بوش الأصغر بأن غزوه العراق وأفغانستان كان بموجب رسالة من الله تعالى، وقال حسب ما نقلته عنه وسائل الإعلام: «إن الرب طلب منه اجتياح العراق وأفغانستان»، وذكر الكاتب الأمريكي بوب وردود في كتابه «خطة الحرب»: «إن بوش تمشى في حديقة البيت الأبيض مصليًا وداعيًا الرب أن يحمي الجنود ويحفظهم»، وقال: «كنت أصلي طالبًا القوة من أجل تحقيق إرادة الرب».
وذكر وزير الإعلام في السلطة الفلسطينية نبيل شعث بأنهم التقوا بالرئيس بوش قال: «فقال لنا الرئيس بوش: أتحرك بموجب رسالة من الرب، يقول لي الرب: جورج ضَعْ حَدًّا للتسلط في العراق، وهذا ما فعلته» تعالى الله عن كذبه وإفكه علوًّا كبيرًا. ومن العجيب أن عبارة «محور الشر» مأخوذة من التوراة المحرفة.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبَلَاءٌ كَبِيرٌ نَزَلَ بِالمُسْلِمِينَ، إِذَا مَا مَضَى الْقَوْمُ فِي مَشْرُوعَاتِهِمْ، وَسَعَوْا فِي تَحْقِيقِ خُرَافَاتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ ظُهُورِ التَّحَالُفِ النَّجِسِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ المَجُوسِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُظْهِرُ الْعَدَاءَ لَهُمْ، فَلَمَّا جَدَّ الْجِدُّ كَانُوا مِنْ أَكْبَرِ المُعِينِينَ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، مُحْيِينَ بِذَلِكَ سِيرَةَ أَجْدَادِهِمُ الْبَاطِنِيِّينَ الْأَوَائِلِ مِنْ أَمْثَالِ ابْنِ سَبَإٍ وَابْنِ الْعَلْقَمِيِّ. وَلَقَدْ وَقَعَ المَحْذُورُ الَّذِي طَالَمَا حَذَّرَ مِنْهُ الْغَيُورُونَ عَلَى بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ أَضْحَتِ الْمِنْطَقَةُ بَيْنَ فَكَّيْ كَمَّاشَةِ الصَّهَايِنَةِ وَالمَجُوسِ، وَبَدَأَ المَجُوسُ فِي تَسَلُّمِ مَفَاتِيحِ السَّيْطَرَةِ وَمَوَاضِعِ الْقُوَّةِ فِي حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَضَعْفٍ مِنَ الْعَاجِزِينَ.

وَلَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا بِاللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَمُقَاوَمَةِ هَذِهِ المَشْرُوعَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ بِكُلِّ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ المُتَاحَةِ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِسَانُ حَالِ الْقَائِلِ: أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الْأَبْيَضُ.

وَلَنْ يَكُونَ المَخْرَجُ مِنْ هَذِهِ الْأَزَمَاتِ المُتَلَاحِقَةِ مُسَايَرَةَ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ، وَإِرْضَاءَهُمْ بِالتَّخَلِّي عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا شَيْئًا، وَتَعْطِيلَ بَعْضِ أَحْكَامِهِ، وَمُوَافَقَتَهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَ مِنِ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ، وَتَحْرِيفِ النُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ لِأَجْلِهِمْ، وَفَتْحِ المَجَالِ لِلسَّفِلَةِ وَالْأَرَاذِلِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالمَوْتُورِينَ أَنْ يُنَفِّسُوا عَنْ أَحْقَادِهِمُ الدَّفِينَةِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّنَدُّرِ بِحَمَلَتِهَا، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِالْعُقُوبَاتِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَسَبَبٌ لِخِذْلَانِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَزِيدُ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ إِذَا مَا رَأَوْا أَنَّ الضُّغُوطَ تُجْدِي، وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ يُقَاوِمُهَا وَيُدَافِعُهَا، كَمَا يَزِيدُ مِنْ عُتُوِّ السَّفِلَةِ وَالمُنَافِقِينَ إِذَا مَا رَأَوْا أَنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى تُسْتَبَاحُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ وَلَا يُنْكَرُ ذَلِكَ، بَلْ يُمَكَّنُ لِلْمُسْتَهْزِئِينَ بِهَا بِكُلِّ

الْوَسَائِلِ وَالْإِمْكَانَاتِ، وَعَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ.

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَقُولُ لَنَا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٠]، فَالنَّصْرُ يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَمَهْمَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ وَإِمْكَانَاتٍ؛ إِذْ إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.

وَنَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا يُسْتَحَقُّ بِالثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَنَصْرِ شَرِيعَتِهِ، وَعَدَمِ الْمُسَاوَمَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَضْلًا عَنِ التَّنَازُلِ عَنْهَا، أَوِ السَّمَاحِ بِاسْتِبَاحَتِهَا مِنْ قِبَلِ الْأَرَاذِلِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

وَنَصْرُهُ سُبْحَانَهُ هُوَ بِنَصْرِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، وَالْغَضَبِ لَهُ سُبْحَانَهُ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُ، وَفِي الْآيَةِ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الْحَجّ: ٣٨]، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ أُولَئِكَ دِفَاعَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ حَافَظُوا عَلَى وَصْفِ الْإِيمَانِ الَّذِي اتَّصَفُوا بِهِ، وَلَمْ يَتَنَازَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ لَعْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَغَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: تَحْرِيفُهُمْ لِكُتُبِهِمْ، وَكَذِبُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْ سَارَ سِيرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِإِصْدَارِ الْفَتَاوَى الشَّاذَّةِ وَتَحْرِيفِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ لِتُوَافِقَ الْوَاقِعَ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ مَنْ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٧، ٧٨].

وَأَيُّ فِتْنَةٍ أَعْظَمُ مِنْ تَبْدِيلِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَزْوِيرِ شَرِيعَتِهِ، وَإِضْلَالِ النَّاسِ عَنْهَا؛ اتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ، بِاسْمِ المَصَالِحِ المَوْهُومَةِ الَّتِي صَارَتْ سَيْفًا مُصَلَّتًا عَلَى النُّصُوصِ المَحْفُوظَةِ.

عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا فَلْيَنْظُرْ؛ فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ(٦).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ: اجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ، وَوَحْدَةَ الصَّفِّ، وَطَاعَةَ الْأَئِمَّةِ فِي المَعْرُوفِ، وَنَصِيحَتَهُمْ، وَالِاحْتِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَتَجَنُّبَ أَسْبَابِ الشِّقَاقِ وَالْخِلَافِ؛ فَالِاجْتِمَاعُ قُوَّةٌ، وَالِافْتِرَاقُ ضَعْفٌ، وَلَنْ يُؤْتَى المُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «عَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّهَا حَبْلُ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَإِنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ»(٧).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيَّتُهَا المُسْلِمَةُ الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ التَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ المُسْلِمِينَ كَبِيرَةٌ، وَإِنَّكِ مَيْدَانٌ مِنْ مَيَادِينِ المَعْرَكَةِ الَّتِي أَشْعَلَهَا الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ، وَلَنْ يَقَرَّ لَهُمْ

---

(٦) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٥١٤).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩١٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٩٨) رقم (٨٩٧١)، واللالكائي في السنة (١٥٩).

قَرَارٌ، أَوْ يَهْدَأَ لَهُمْ بَالٌ حَتَّى يَنْزِعُوا الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَلْبِكِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعُوا الْحِجَابَ الشَّرْعِيَّ عَنْ وَجْهِكِ وَشَعْرِكِ؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ: مَا يَكْتُبُونَهُ فِي صُحُفِهِمْ، وَمَا يَقْذِفُونَهُ فِي شَاشَاتِهِمْ مِنْ شُبُهَاتٍ حَوْلَ الْأُسْرَةِ وَالمَرْأَةِ .. يَدْعُونَهَا إِلَى التَّمَرُّدِ عَلَى نِظَامِ الْأُسْرَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَيُطَالِبُونَهَا بِالثَّوْرَةِ عَلَى مَا يُسَمُّونَهُ الْقُيُودَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي هِيَ أَحْكَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا! فَتَبًّا لَهُمْ مَاذَا يَقُولُونَ؟! وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ!!

وَلَقَدِ اغْتَرَّ بِأُطْرُوحَاتِهِمُ الْآثِمَةِ كَثِيرٌ مِنْ فَتَيَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَضْحَى ذَلِكَ ظَاهِرًا فِي التَّسَاهُلِ بِالْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ، وَالْحِرْصِ عَلَى الْعَمَلِ الدُّنْيَوِيِّ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَا يُغْضِبُ اللهَ تَعَالَى مِنَ الِاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ، وَالْخَلْوَةِ بِهِمْ، وَالسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: تَقْدِيمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

فَإِيَّاكِ -أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ- أَنْ تَغْتَرِّي بِدَعَاوَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُتَحَرِّرِينَ؛ فَإِنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا!

تَمَسَّكِي بِدِينِكِ، وَعَضِّي عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ؛ فَإِنَّهُ سَبَبُ نَجَاتِكِ، وَسَبِيلُ إِسْعَادِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .. وَلَا تُفَرِّطِي فِي مَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لَكِ مِنَ الْحِجَابِ؛ فَإِنَّهُ مَصْدَرُ عِزِّكِ وَكَرَامَتِكِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُغِيظُهُمْ لَمَا شَنُّوا عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَرْبَ الَّتِي لَا هَوَادَةَ فِيهَا، فَتَمَسَّكِي بِهِ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِغَاظَةً لَهُمْ؛ فَإِنَّ إِغَاظَتَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَوْثَقِ عُرَى الْإِسْلَامِ، وَمِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَمَنْ كَانَتْ صَاحِبَةَ قَلَمٍ وَبَيَانٍ فَلْتَدْرَأْ بِقَلَمِهَا عَنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي شُؤُونِ المَرْأَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ جِهَادِ الْكَلِمَةِ، وَكِتَابَةُ المَرْأَةِ فِي شُؤُونِهَا أَبْلَغُ مِنْ كِتَابَةِ الرِّجَالِ، وَأَدْعَى لِقَبُولِ مَا تَكْتُبُ بَيْنَ بَنَاتِ جِنْسِهَا.

حَمَى اللهُ تَعَالَى نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَحَفِظَ عَلَيْهِنَّ دِينَهُنَّ وَعَفَافَهُنَّ، آمِينَ آمِينَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: احْتَفِلُوا بِعِيدِكُمْ فِيمَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى، وَبَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى جِيرَانِكُمْ، وَأَدْخِلُوا السُّرُورَ عَلَى أُسَرِكُمْ وَأَطْفَالِكُمْ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ المُشَرَّدِينَ وَالمُسْتَضْعَفِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، خُصُّوهُمْ بِدُعَائِكُمْ، وَابْذُلُوا لَهُمْ مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِكُمْ؛ فَعَسَى أَنْ تُوَاسُوهُمْ وَتُخَفِّفُوا مُصَابَهُمْ فِي عِيدٍ لَمْ يَجِدُوا لَهُ طَعْمًا؛ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، فَأَدُّوا مَا لَهُمْ عَلَيْكُمْ.

وَاعْبُدُوا اللهَ تَعَالَى فِي رَمَضَانَ وَفِي شَوَّالٍ، وَفِي كُلِّ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ؛ فَإِنَّ مَنْ صَامَهَا مَعَ رَمَضَانَ كَانَ كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ.

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



٢٦٠- خطبة عيد الفطر المبارك بين الأعياد الشرعية والأعياد البدعية

الاثنين ١/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَانَا، هَدَانَا لِلْإِيمَانِ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا.

نَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا؛ فَكَمْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا؟! وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَسْدَى إِلَيْنَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِذُنُوبِنَا وَتَقْصِيرِنَا، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يُوَفِّيهِ الْعِبَادُ حَقَّهُ، وَلَا يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْبَدَ، وَلَوْ شَخَصُوا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا قَانِتِينَ لَهُ وَرَاكِعِينَ وَسَاجِدِينَ، فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي ذَلَّ كُلُّ قَوِيٍّ لَسَطْوَتِهِ وَعِزَّتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى، وَعَلِمَ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا عَلِمَ، فَخَشَعَ قَلْبُهُ لَهُ، وَسَحَّتْ بِالدَّمْعِ عَيْنُهُ، وَنَصَبَتْ فِي الطَّاعَةِ أَرْكَانُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، كَانُوا فِي مَجْلِسِهِ

كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ؛ هَيْبَةً لَهُ وَتَوْقِيرًا، وَمَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ عِيدٍ جَدِيدٍ يُبْعِدُكُمْ عَنْ دُنْيَاكُمْ وَيُقَرِّبُكُمْ مِنْ أُخْرَاكُمْ، فَتَزَوَّدُوا مِنْ دَارِ فَنَائِكُمْ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِفَوْزِكُمْ فِي دَارِ بَقَائِكُمْ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَضَى رَمَضَانُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَمُحْسِنٌ وَمُسِيءٌ، وَمُشَمِّرٌ وَمُفَرِّطٌ، وَمُسْتَكْثِرٌ وَمُقِلٌّ، وَمَقْبُولٌ وَمَرْدُودٌ، فَيَا لِلَّهِ الْعَظِيمِ! كَمْ مِنْ آيَةٍ فِي رَمَضَانَ تُلِيَتْ، وَكَمْ مِنْ جِبَاهٍ لِلَّهِ تَعَالَى سَجَدَتْ، وَكَمْ مِنْ عَيْنٍ مِنْ خَشْيَتِهِ دَمَعَتْ، وَكَمْ مِنْ دَعَوَاتٍ إِلَيْهِ رُفِعَتْ!

مَضَى رَمَضَانُ وَمَلَايِينُ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ، وَمِنْ كُلِّ الْأَجْنَاسِ، وَبِمُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ وَاللَّهَجَاتِ قَدْ عَبَدُوا اللهَ تَعَالَى فِيهِ، يُمْسِكُونَ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَيُفْطِرُونَ وَقْتَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَمَنْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ؟ وَمَنْ رَاقَبَهُمْ فِيهِ؟ وَلِمَاذَا أَذْعَنُوا لَهُ وَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ؟ فَسُبْحَانَ الَّذِي عَبَّدَهُمْ لَهُ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهِ!!

مَضَى رَمَضَانُ وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَضَاءَتْ فِي اللَّيْلِ بِالْقُرْآنِ وَالدُّعَاءِ، وَالتَّهَجُّدِ وَالْوِتْرِ، فَكَمْ مِنْ حَمْدٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَثَنَاءٍ عَلَيْهِ قَدْ رُفِعَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ؟! ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَكَمْ مِنْ حَاجَةٍ طَلَبَهَا الْمُصَلُّونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمَّنَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ؟! وَكَمْ مِنْ مَسَائِلَ وَأَسْرَارٍ أَفْضَى بِهَا الْعِبَادُ إِلَى رَبِّهِمْ فِي خَلَوَاتِهِمْ وَسُجُودِهِمْ يَسْأَلُونَهَا رَبَّهُمْ، وَيُخَافِتُونَ بِهَا

أَصْوَاتَهُمْ، يُخْفُونَهَا عَمَّنْ يَسْجُدُونَ بَجِوَارِهِمْ؟! فَسُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ أَصْوَاتَهُمْ، حَتَّى عَلِمَ تَخَافُتَهُمْ وَتَمْتَمَاتِهِمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِلُغَاتِهِمْ وَلَهَجَاتِهِمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ أَحْصَى مَسَائِلَهُمْ! وَسُبْحَانَ مَنْ وَسِعَتْ خَزَائِنُهُ حَاجَاتِهِمْ!!

خَتَمَ الْعِبَادُ شَهْرَهُمْ، وَالْيَوْمَ يَحْضُرُونَ عِيدَهُمْ، فَمِنْهُمُ الْمَرْحُومُ، وَمِنْهُمُ الْمَحْرُومُ، وَالْعِيدُ الْحَقِيقِيُّ إِنَّمَا هُوَ عِيدُ مَنْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَرَضِيَ عَمَلَهُ، وَشَكَرَ سَعْيَهُ؛ فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْمَقْبُولِينَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمَحْرُومِينَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَتَفَضُّلِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْفَاضِلَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ شَرَعَ لَهَا الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: عِيدَ الْفِطْرِ وَعِيدَ الْأَضْحَى، وَجَعَلَ عِيدَهَا الْأُسْبُوعِيَّ الْجُمُعَةَ، وَهَدَاهَا لِهَذِهِ الْأَعْيَادِ الْمُبَارَكَةِ بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ عَنْهَا الْأُمَمُ الضَّالَّةُ، وَجَعَلَ الْعِيدَيْنِ الْحَوْلِيَّيْنِ عِوَضًا وَبَدَلًا عَنْ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَعْيَادِهَا.

رَوَى أَنَسٌ ﷺ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟**» قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١]، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ**

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وأحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، والضياء في المختارة (١٩١٠)، وصححه الحاكم وابن تيمية وقالا: على شرط مسلم، ينظر: المستدرك (١/ ٤٣٤)، والاقتضاء (١/ ١٨٤)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢/ ٤٤٢).

عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا» رَوَاهُ الشَّيخَانِ(٢).

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ تُفِيدُ أَنَّ الْأَعْيَادَ لَيْسَتْ مِنَ الْعَوَائِدِ الَّتِي يَتَوَاطَأُ النَّاسُ عَلَيْهَا فَحَسْبُ، حَتَّى يُشَرِّعَ النَّاسُ فِيهَا مَا يُشَرِّعُونَ، وَيَخْتَرِعُوا مِنْهَا مَا يَخْتَرِعُونَ، وَيَتَّبِعُوا غَيْرَهُمْ فِيهَا؛ وَلَكِنَّ الْأَعْيَادَ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ، فَوَجَبَ الْوُقُوفُ فِيهَا وَفِي شَعَائِرِهَا عِنْدَ النُّصُوصِ، وَكُلُّ عِيدٍ يُخْتَرَعُ، أَوْ يَوْمٍ يُعَظَّمُ لَمْ يَرِدْ فِي الشَّرْعِ أَنَّهُ عِيدٌ فَهُوَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَلَوْ سَاغَ لِلنَّاسِ أَنْ يَخْتَرِعُوا أَعْيَادًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَأَقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ المَدِينَةِ عَلَى الْيَوْمَيْنِ الْجَاهِلِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا عِيدًا لَهُمْ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَبْدَلَهُمْ بِهِمَا الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ؛ وَالْإِبْدَالُ مِنَ الشَّيْءِ يَقْتَضِي تَرْكَ الْمُبْدَلِ مِنْهُ؛ إِذْ لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْبَدَلِ وَالمُبْدَلِ مِنْهُ(٣).

إِنَّ كُلَّ عِيدٍ يُصَاحِبُهُ -وَلَا بُدَّ- جُمْلَةٌ مِنَ الِاحْتِفَالَاتِ وَالشَّعَائِرِ وَالمَرَاسِمِ، وَهَذَا عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَالْحَاضِرَةِ، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ تَعْظِيمَ الْيَوْمِ الَّذِي يُتَّخَذُ عِيدًا، لِمِيزَةٍ تَمَيَّزَ بِهَا حَسَبَ شَرِيعَةٍ أَوْ عَادَةِ مَنِ اتَّخَذُوهُ عِيدًا، وَأَعْيَادُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ قَدْ تُوِّجَتْ بِأَعْظَمِ الشَّعَائِرِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ الْبَشَرِيَّةِ، كَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَصَلَاةِ الْعِيدِ وَخُطْبَتَيْهِمَا، وَارْتِبَاطِ الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ بِرُكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ: الصَّوْمِ وَالْحَجِّ، فَاسْتَحَقَّتْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ أَنْ تَكُونَ أَعْيَادًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ ارْتَضَاهَا لِلْمُسْلِمِينَ أَعْيَادًا.

وَأَيُّ أَعْيَادٍ غَيْرِهَا أَوْ أَيَّامٍ مِنَ السَّنَةِ تُعَظَّمُ وَتُتَّخَذُ عِيدًا، وَتُرْسَمُ لَهَا المَرَاسِمُ،

---

(٢) أخرجه البخاري في العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام (٩٠٩)، ومسلم في صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد (٨٩٢).

(٣) ينظر: الاقتضاء (١/ ١٨٤-١٨٥).

وَيَحْتَفِلُ النَّاسُ فِيهَا فَهِيَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَا يَرْضَاهَا لَهُمْ أَعْيَادًا. فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي أَغْنَانَا بِالْأَعْيَادِ الشَّرْعِيَّةِ عَنْ أَعْيَادِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَكْثُرُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْحَدِيثُ عَنِ الْوَطَنِ وَالْوَطَنِيَّةِ، وَالدَّوْلَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَكُلُّ مُتَكَلِّمٍ وَكَاتِبٍ يُدْلِي فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ بِحَسَبِ تَوَجُّهَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَانْتِمَاءَاتِهِ الْمَذْهَبِيَّةِ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ تَدَّعِي أَنَّ الْحَقَّ مَعَهَا، وَأَنَّهَا أَخْلَصُ لِلْوَطَنِ مِنْ غَيْرِهَا، وَتَرْمِي سِوَاهَا بِالْعَدَاءِ لِلْوَطَنِ، وَالْحَقُّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى: أَنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ، وَصِدقَ الِانْتِمَاءِ إِلَيْهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّنَاصُحِ بَيْنَ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا خَيْرَ فِي رَعِيَّةٍ لَا يَبْذُلُونَ النُّصْحَ لِوُلَاتِهِمْ، وَلَا خَيْرَ فِي وُلَاةٍ لَا يَقْبَلُونَ نُصْحَ النَّاصِحِينَ مِنْ رَعَايَاهُمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قَالُوا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

إِنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُهَا، وَلَا إِصْلَاحَ إِلَّا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَفْقَ شَرِيعَتِهِ، وَكُلُّ مَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَلَيْسَ بِإِصْلَاحٍ، وَلَكِنَّهُ الْفَسَادُ وَالْإِفْسَادُ، وَهُوَ ضِدُّ مَصَالِحِ الْأَوْطَانِ.

إِنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ أَكْبَرُ أَمْرًا، وَأَعْلَى شَأْنًا مِنْ مُجَرَّدِ التَّعَلُّقِ بِتُرَابٍ أَوْ حَصًى، أَوْ رَسْمِ أَيَّامٍ لِذَلِكَ، إِنَّهَا عَقْدٌ وَثِيقٌ، وَمِيثَاقٌ غَلِيظٌ عَلَى التَّعَاضُدِ وَالتَّعَاوُنِ، وَالنُّصْحِ وَالنُّصْرَةِ، إِنَّهَا دِينٌ يَدِينُ بِهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَفِي عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَفِي مَنْشَطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ عَلَيْهِ، وَفِي مَا أَحَبَّ وَمَا كَرِهَ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ تِجَارَةٍ يَطْلُبُ بِهَا الْعَبْدُ جَاهًا أَوْ مَالًا، أَوْ يَبْتَغِي

---

(٤) أخرجه من حديث تميم الداري ﷺ: مسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥).

بِهَا ثَنَاءً بِمَقَالَةٍ يَتَزَلَّفُ بِهَا، وَيُظْهِرُ التَّبَاكِي بِهَا عَلَى الْوَطَنِ، وَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ كَرَاهِيَةٍ لِهَذَا الْوَطَنِ وَأَهْلِهِ، بِسَبَبِ انْحِرَافَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَانْتِمَائِهِ ثَقَافِيًّا وَمَذْهَبِيًّا لِأَعْدَاءِ وَطَنِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ حَصْرَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ فِي تُرَابٍ وَحَصًى، وَاخْتَزَلَهَا فِي أَيَّامٍ يُحْتَفَى بِهَا فِيهَا فَهُوَ يُضْعِفُهَا وَيُصَدِّعُهَا، وَيُفَرِّغُهَا مِنْ مَضَامِينِهَا الشَّرْعِيَّةِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُلِحُّونَ وَبِقُوَّةٍ مِنْ بَنِي يَعْرُبَ عَلَى مَسْأَلَةِ الْوَطَنِيَّةِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَحُلَّ الِانْتِمَاءُ إِلَى الْوَطَنِ مَحَلَّ الِانْتِمَاءِ لِلدِّينِ؛ تَمْهِيدًا لِنَقْلِ النَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عِبَادَةِ الدُّنْيَا، فِيمَا يُسَمَّى بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَالدَّوْلَةِ الْمَدَنِيَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِمُوجِبِهَا الِاتِّفَاقُ عَلَى تَقَاسُمِ الدُّنْيَا، وَبِنَاءِ الْعَلَاقَاتِ عَلَى أَسَاسِهَا، وَتَرْكِ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْآخِرَةِ، وَإِقْصَائِهَا عَنْ وَاقِعِ النَّاسِ، عَلَى غِرَارِ مَا حَصَلَ فِي الْغَرْبِ إِبَّانَ نُشُوءِ مَا يُسَمَّى بِحَرَكَاتِ التَّحَرُّرِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي جُعِلَتِ الْأَوْطَانُ فِيهَا بَدَائِلَ لِلْكَنَائِسِ، وَثَارَ دُعَاتُهَا عَلَى مُلُوكِ أُورِبَّةَ وَرُهْبَانِهَا، وَأَعْلَنُوا أَنَّ الدِّينَ لِلَّهِ وَأَنَّ الْوَطَنَ لِلْجَمِيعِ، وَهَذِهِ الشِّعَارَاتُ الْجَاهِلِيَّةُ يَقْذِفُ بِهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ فِي أَحَادِيثِهِمْ عَنِ الْوَطَنِيَّةِ.

ثُمَّ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِمَّنْ يَسْتَمِيتُونَ فِي إِحْلَالِ الْوَطَنِيَّةِ مَحَلَّ الدِّينِ، وَيَتَبَاكَوْنَ فِي قَنَوَاتِهِمْ وَصُحُفِهِمْ عَلَى ضَعْفِ الِانْتِمَاءِ الْوَطَنِيِّ لَدَى النَّاسِ، رَأَيْنَاهُمْ يَتَّصِلُونَ بِالْأَعْدَاءِ مِنْ وَرَاءِ حُكُومَاتِهِمْ، وَيُفْشُونَ أَسْرَارَ دُوَلِهِمْ، وَيَدُلُّونَ عَلَى عَوْرَاتِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَيُحَرِّضُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَى بَنِي أَوْطَانِهِمْ، وَلَا يَطْرَحُونَ مِمَّا يَزْعُمُونَهُ مَشَارِيعَ إِصْلَاحٍ إِلَّا مَا رَضِيَهُ لَهُمْ مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، عَبْرَ امْلَاءَاتٍ يُمْلُونَهَا عَلَيْهِمْ،

بِأُجُورٍ يَدْفَعُونَهَا لَهُمْ، فَيَا لَهَا مِنْ وَطَنِيَّةٍ خَانُوا فِيهَا أَوْطَانَهُمْ، وَجعَلَتْهُمْ مُجَنَّدِينَ لِأَعْدَاءِ أُمَّتِهِمْ!!

ثُمَّ رَأَيْنَا إِخْوَانَهُمُ الْوَطَنِيِّينَ فِي الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ كَانُوا فِي مُقَدِّمَةِ جَيْشِ الْعَدُوِّ لِاحْتِلَالِ وَطَنِهِمْ، وَلَمَّا مَكَّنَ لَهُمُ الْعَدُوُّ فِي وَطَنِهِمُ الَّذِي خَانُوهُ؛ نَهَبُوا ثَرَوَاتِهِ، وَأَحَلُّوا الْفَوْضَى فِيهِ، وَلَنْ يَعْدُوَ فِعْلُ هَؤُلَاءِ فِعْلَ أُولَئِكَ لَوْ قَدَرُوا وَتَمَكَّنُوا(٥).

وَمَنْ خَانَ اللهَ تَعَالَى فَاطَّرَحَ دِينَهُ، وَرَامَ تَبْدِيلَ شَرِيعَتِهِ، فَخِيَانَتُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَهْوَنُ، وَبَيْعُهُ لِوَطَنِيَّتِهِ الَّتِي يَصِيحُ بِهَا أَجْدَرُ وَأَحْرَى، وَلَا مَبْدَأَ لَدَيْهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَعَ مَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ. حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شُرُورِ أَصْحَابِ هَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ الْمَشْبُوهَةِ، وَالْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَيَوْمُ الْعِيدِ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنِعْمَةٌ اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَيْهَا وَعَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ، وَتَمَامِ الصِّيَامِ، وَلَيْسَ مِنَ الشُّكْرِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ يَوْمُ الْعِيدِ يَوْمَ الْمُنْكَرَاتِ، وَكَأَنَّ النَّاسَ قَدْ أُطْلِقُوا مِنْ سِجْنِ رَمَضَانَ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ شَهْرِهِمْ شَيْئًا.

إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَوَسَّعُوا فِي الْعِيدِ تَوَسُّعًا تَجَاوَزَ الْمُبَاحَاتِ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، كَإِقَامَةِ الْحَفَلَاتِ الْغِنَائِيَّةِ، وَالْمَسْرَحِيَّاتِ النِّسَائِيَّةِ، وَالْفَعَالِيَّاتِ الْمُخْتَلِطَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَمَا يُصَاحِبُ ذَلِكَ مِنْ تَبَرُّجِ النِّسَاءِ وَسُفُورِهِنَّ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ الْكَبِيرِ، وَكُلُّ هَذَا الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَالْمُنْكَرِ الْكَبِيرِ، يُسَوَّغُ بِفَرْحَةِ الْعِيدِ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَى النَّاسِ، فَهَلِ الْفَرَحُ بِمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لِلنَّاسِ

---

(٥) هذا إشارة لما يحصل في العراق؛ فإن الذين ادعوا الوطنية فيه أعانوا المحتل الأمريكي على احتلاله وتدميره، وتسليمه للمليشيات الصفوية الفارسية التي تأتمر بأمر عمائم طهران.

مِنَ الْأَعْيَادِ الْمُبَارَكَةِ يَكُونُ بِمُبَارَزَتِهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا بِالْعِصْيَانِ؟ لَيْسَتْ هَذِهِ أَخْلَاقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا مَا تَعَلَّمُوهُ مِنَ الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، فَاجْتَنِبُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- الْمُنْكَرَاتِ فِي الْعِيدِ؛ صِيَانَةً لِدِينِكُمْ، وَشُكْرًا لِرَبِّكُمْ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَيُّهَا الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ: مَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الطَّاعَةِ بَدَلَ المَعْصِيَةِ، وَالِاتِّبَاعِ بَدَلَ الِابْتِدَاعِ، وَالِاسْتِقْلَالِ بَدَلَ التَّبَعِيَّةِ، وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى بَدَلَ الْخُضُوعِ لِغَيْرِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ! فَفِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَوْصَابِ وَالْهُمُومِ وَالْغُمُومِ مَا لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

لَقَدْ عَانَى الْمُسْلِمُونَ -وَلَا زَالُوا- مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَلَنْ يَلُمَّ شَعَثَهُمْ، وَيَقْضِيَ عَلَى تَفَرُّقِهِمْ إِلَّا الْتِزَامُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَيُعَانِي الْمُسْلِمُونَ مِنْ تَسَلُّطِ أَعْدائِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ بِاحْتِلَالِ دِيارِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ تَقْسِيمِ بُلْدَانِهِمْ فِيمَا يُعْرَفُ بِالشَّرْقِ أَوْسَطِيَّةٍ، ثُمَّ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ الْجَدِيدِ، فِي مَشَارِيعَ وَخُطَطٍ يَتَآمَرُونَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يُبْدُونَهَا وَلَا يُخْفُونَهَا، وَالمَارِينْزُ الْعَرَبُ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ يُسَوِّقُونَ لَهَا، وَيُبَشِّرُونَ النَّاسَ بِهَا، دُونَ حَيَاءٍ وَلَا خَوْفٍ.

لَقَدِ اعْتَدَى أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى قُرْآنِ الْمُسْلِمِينَ فَدَنَّسُوهُ وَمَزَّقُوهُ وَأَهَانُوهُ، وَاعْتَدَوْا عَلَى نَبِيِّهِمْ فَصَوَّرُوهُ بِأَقْبَحِ الصُّوَرِ، وَوَصَفُوهُ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، وَاعْتَدَوْا عَلَى شَرِيعَتِهِمْ فَاتَّهَمُوهَا بِالدَّمَوِيَّةِ وَالْفَاشِيَّةِ، وَانْبَرَى إِخْوَانُهُمُ الْمُنَافِقُونَ لِلطَّعْنِ فِي رِجَالَاتِ الْإِسْلَامِ وَقَادَتِهِ وَعُظَمَائِهِ بَدْءًا بِالصَّحَابَةِ ﷺ، وَمُرُورًا بِقَادَةِ الْمُسْلِمِينَ عَبْرَ الْعُصُورِ، وَانْتِهَاءً بِعُلَمَاءِ هَذَا

الْعَصْرِ وَدُعَاتِهِ، مَعَ تَشْكِيكِهِمْ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِ، وَوَصْفِهِ بِالظَّلَامِ وَالِاسْتِبْدَادِ.

وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَثْنُونَ عَهْدَ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَأَمَّا الْآنَ، وَمَعَ ظُهُورِ الْإِلْحَادِ، وَاسْتِعْلَانِ النِّفَاقِ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَثْنُونَ أَيَّ شَيْءٍ مِنْ طَعْنِهِمْ وَتَشْكِيكِهِمْ، إِضَافَةً إِلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَفَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسُخْرِيَّتِهِمْ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ وَلَهَجَاتِهِمْ فِي مُسَلْسَلَاتٍ هَازِلَةٍ، وَمَقَالَاتٍ سَاخِرَةٍ، وَرِوَايَاتٍ فَاجِرَةٍ(٦).

وَقَنَوَاتُهُمُ الْإِعْلَامِيَّةُ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ وَإِذَاعَاتٍ وَفَضَائِيَّاتٍ تَقُومُ بِمُهِمَّةِ مَسْخِ الْعُقُولِ وَتَدْمِيرِهَا، وَإِفْسَادِ الْفِطَرِ وَتَخْرِيبِهَا، مَعَ تَكْرِيسِ كُلِّ أَنْوَاعِ الذُّلِّ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَتَسْوِيقِ أَلْوَانِ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ، فِي شَبَكَاتٍ إِعْلَامِيَّةٍ لَيْسَ لَهَا مِنْ عَرَبِيَّتِهَا إِلَّا أَنَّ مُلَّاكَهَا عَرَبٌ، وَإِلَّا فَهِيَ إِفْرِنْجِيَّةُ التَّأْسِيسِ وَالْمَشْرَبِ، وَالتَّوَجُّهِ وَالدِّعَايَةِ، وَالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ.

إِنَّهُ تَنْسِيقٌ بَيْنَ قُوَى الشَّرِّ وَالْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ وَالظَّلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ لِضَرْبِ كُلِّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِالْإِسْلَامِ، وَتَشْوِيهِهِ وَتَجْرِيحِهِ، وَتَخْوِيفِ النَّاسِ مِنْهُ، مَعَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ مِنْ قِبَلِ أَرْبَابِ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ، وَأَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ لِاسْتِغْلَالِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ بِتَسْوِيقِ بَاطِلِهِمْ، وَنَشْرِ مَذَاهِبِهِمْ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ الْقُوَى الْعَالَمِيَّةَ الْمُسْتَكْبِرَةَ، وَالْمُرَوِّجِينَ لِمَشَارِيعِهَا مِنَ الْمَارِينْزِ الْعَرَبِ لَا يَتَعَرَّضُونَ فِي هُجُومِهِمْ لِمَبَادِئِ هَذِهِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، وَأَفْعَالِهَا الشَّاذَّةِ، بَلْ يُدَافِعُونَ عَنْهَا، وَيَجْعَلُونَهَا الْمَثَلَ الْمُحْتَذَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ

(٦) كثر في السنوات الأخيرة الحملات المغرضة على التاريخ الإسلامي وأعلام المسلمين لتشويههم، والطعن فيهم، في تآزر مكشوف وغير مسبوق بين العلمانيين مِنْ ليبراليين ويَسَارِيِّين وبين الطوائف الباطنية وخاصَّة الصفوية.

المُسْلِمُونَ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هَدْمِ الْإِسْلَامِ وَتَشْوِيهِهِ، وَلِيَقِينِهِمْ أَنَّ أَرْبَابَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ مِنْ أَكْبَرِ حُلَفَائِهِمْ ضِدَّ أَهْلِ الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ تَمْكِينُهُمْ لَهَا فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَحْتَلُّونَهَا؛ لِذَبْحِ أَهْلِ الْحَقِّ وَإِبَادَتِهِمْ.

إِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ تِلْكَ الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ وَالنِّفَاقِيَّةِ المُعَاصِرَةِ؛ فَدِينُ اللَّهِ تَعَالَى مَنْصُورٌ، وَشَرِيعَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَأَمْرُهُ سُبْحَانَهُ نَافِذٌ، وَلَكِنَّ الْخَوْفَ كُلَّ الْخَوْفِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ، وَيَطَّرِحُوا شَرِيعَةَ رَبِّهِمْ، وَيَتَّبِعُوا مَا رَضِيَهُ لَهُمُ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ مِنَ مَنَاهِجَ مُنْحَرِفَةٍ، وَأَفْكَارٍ ضَالَّةٍ.

وَإِزَاءَ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَضَافَرَ جُهُودُ الْغَيُورِينَ لِلدَّرْءِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَحِمَايَةِ بَيْضَتِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَرَدِّ تَشْكِيكِ الْمُشَكِّكِينَ، وَدَحْضِ شُبُهَاتِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَحِفْظِ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ وَنَاشِئَتِهِمْ وَشَبَابِهِمْ وَفَتَيَاتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحَمَلَاتِ الْمُفْسِدَةِ الْمُضَلِّلَةِ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَسْؤُولٌ فِي مَجَالِهِ، وَمُطَالَبٌ بِالْعَمَلِ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وَوُسْعِهِ.

فَأَصْحَابُ الْقَرَارِ وَالسِّيَاسَةِ هُمْ رُؤُوسُ النَّاسِ، وَبِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْحُلُولِ وَأَوْرَاقِ الضَّغْطِ مَا لَيْسَ بِأَيْدِي غَيْرِهِمْ، وَيَسْتَطِيعُونَ تَحْجِيمَ الْفَسَادِ، وَتَقْلِيلَ خَطَرِ الْمُفْسِدِينَ، كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِصْلَاحِ، وَالتَّمْكِينِ لِلْمُصْلِحِينَ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَيَانُ الْحَقِّ الَّذِي يَدِينُونَ اللهَ تَعَالَى بِهِ، وَفَضْحُ أَصْحَابِ التَّوَجُّهَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى مَنَاهِجِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَتَحْذِيرُ النَّاسِ مِنْ أَسَالِيبِهِمْ وَوَسَائِلِهِمْ، وَالْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي الْمُحَرِّفِينَ وَالْمُبَدِّلِينَ مِمَّنْ يَتَلَبَّسُونَ بِلِبَاسِ الْعِلْمِ وَيُحَرِّفُونَ النُّصُوصَ لِتُوَافِقَ الْأَهْوَاءَ، وَتُسَايِرَ الْوَاقِعَ، مَعَ إِبْدَاءِ الرَّأْيِ وَالنَّصِيحَةِ لِلْوُلَاةِ وَالْأُمَرَاءِ.

وَالْأُسْتَاذُ فِي جَامِعَتِهِ، وَالْمُدَرِّسُ فِي مَدْرَسَتِهِ، وَالْمُعَلِّمَةُ مَعَ طَالِبَاتِهَا، عَلَيْهِمْ أَنْ يُرَبُّوا وَيُعَلِّمُوا، وَيُنَشِّئُوا جِيلًا يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَمُجْتَمَعَهُ، وَيَعِي التَّحَدِّيَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ أُمَّتَهُ.

وَالرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ مَسْئُولٌ عَنْ أُسْرَتِهِ وَوَلَدِهِ بِأَنْ يَحْجزَهُمْ عَنْ وَسَائِلِ الشَّرِّ وَالْإِفْسَادِ، وَيُوجِدَ لَهُمُ الْبَدَائِلَ النَّافِعَةَ، مَعَ غَرْسِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَى التَّفَانِي فِي نَصْرِ دِينِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ؛ حَتَّى يَكُونُوا أَصْحَابَ هَمٍّ، وَحَمَلَةَ رِسَالَةٍ، لَا مُجَرَّدَ هَمَلٍ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ.

وَالمَرْأَةُ -وَمَا أَدْرَاكَ مَا المَرْأَةُ- عَلَيْهَا مَسْئُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ جِدًّا، فَقَدْ شَرَّفَهَا اللهُ ﷻ بِأَنْ وُجِّهَتْ إِلَيْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَكْثَرُ سِهَامِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَهِيَ المَجَالُ الْخِصْبُ عِنْدَهُمْ، وَهِيَ الْحَدِيثُ المَكْرُورُ لَدَيْهِمْ، يُرِيدُونَ نَزْعَ حَيَائِهَا مَعَ حِجَابِهَا، وَسَلْخَ دِينِهَا مَعَ عَفَافِهَا، وَهَذَا ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ لَهَا، يَعْظُمُ بِهِ أَجْرُهَا، وَتَعْلُو مَنْزِلَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا مَا ثَبَتَتْ عَلَى دِينِهَا، وَأَطَاعَتْ رَبَّهَا، وَحَافَظَتْ عَلَى حِجَابِهَا، وَجَاهَدَتِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ بِلِسَانِهَا وَقَلَمِهَا، فَأَعْلَنَتْ رَفْضَهَا لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَقَدَّمَتْ رِضَا رَبِّهَا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ، وَآثَرَتْ آخِرَتَهَا عَلَى دُنْيَاهُمْ.

إِنَّهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَغْرِسُ فِي قُلُوبِ أَوْلَادِهَا مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ دِينِهِ، وَكَرَاهِيَةَ مَا يُعَارِضُهُ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ زُخْرُفُهُ. إِنَّهَا المَرْأَةُ الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ الَّتِي تُفْشِلُ مُخَطَّطَاتِ الْأَعْدَاءِ، وَتُغِيظُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ بِرَفْضِ مَشْرُوعَاتِهِمْ ، وَرَدِّ أُطْرُوحَاتِهِمْ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ.

وَلَوْ قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِوَاجِبِهِ، وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَثَبَتَ عَلَى دِينِهِ،

فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ أَنْ يَنَالُوا مِنَ المُسْلِمِينَ شَيْئًا ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: حُقَّ لَكَمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ بِتَمَامِ شَهْرِكُمْ، وَأَدَاءِ مَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَالْعِيدُ عِيدُ المُسْلِمِينَ الصَّائِمِينَ.

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَزِيلُوا الشَّحْنَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَأَصْلِحُوا بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ فِيكُمْ، وَكُونُوا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى إِخْوَانًا مُتَآلِفِينَ مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ المُسْتَضْعَفِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، أَدُّوا لَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَخُصُّوهُمْ بِصَالِحِ دُعَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، ابْتَلَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَعَافَاكُمْ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى عَافِيَتِهِ.

وَاعْبُدُوا اللهَ فِي رَمَضَانَ وَبَعْدَ رَمَضَانَ، وَرَاقِبُوهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَالْأَحْيَانِ، فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَكُمْ إِلَيْهِ! وَهُوَ الْغَنِيُّ سُبْحَانَهُ عَنْكُمْ.

وَأَتْبِعُوا رَمَضَانَ بِصِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ، تَكُونُوا كَمَنْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ، وَمَنْ عَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ رَمَضَانَ قَدَّمَ الْقَضَاءَ عَلَى سِتِّ شَوَّالٍ.

أَعَادَهُ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمِنَ المُسْلِمِينَ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ . . .



٢٦١- خطبة عيد الفطر المبارك حملات المفسدين على المصلحين

الجمعة ١/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ، وَاخْتَصَّهُمْ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، وَشَرَعَ لَهُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ، وَجَعَلَهُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاسِمِ الْهِبَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُقِيلِ الْعَثَرَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنَزِّلِ الرَّحَمَاتِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ مُجِيبِ الدَّعَوَاتِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى؛ نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْزَلَهَا! وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ دَفَعَهَا! نَوَاصِينَا بِيَدِهِ، وَأَرْزَاقُنَا عِنْدَهُ، وَآجَالُنَا إِلَيْهِ، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَصُومُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: لَا يَصُومُ، وَكَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَإِنَّ شُكْرَ النِّعَمِ يَزِيدُهَا، وَإِنَّ كُفْرَهَا يَمْحَقُهَا وَيُزِيلُهَا.

اشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَحَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ، وَبَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَأَعَانَكُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَوَفَّقَكُمْ لِلْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَلَوْلَا اللهُ تَعَالَى مَا آمَنْتُمْ وَلَا عَمِلْتُمْ صَالِحًا ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن

قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٨].

اشْكُرُوهُ ﷻ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَمَا شَرَعَ لَكُمْ فِيهِمَا مِنَ الشَّعَائِرِ وَالمَنَاسِكِ الَّتِي تَزِيدُكُمْ قُرْبًا مِنْ رَبِّكُمْ، وَتَمَسُّكًا بِدِينِكُمْ، مَعَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ بِهِمَا؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَانَا وَأَعْطَانَا.

وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ: التَّمَسُّكُ بِالْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَيْهِمَا، وَالْحَذَرُ مِنْ مُزَاحَمَتِهِمَا أَوْ مُضَاهَاتِهِمَا بِالْأَعْيَادِ الْبِدْعِيَّةِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، كَيْفَ؟ وَنَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَلِأَهْلِهَا يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا قَالَ: «**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ**؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

كَمَا أَنَّ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ الْأَعْيَادِ الشَّرْعِيَّةِ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهَا، وَاجْتِنَابَ الْمُنْكَرَاتِ فِيهَا، مِنَ الْمَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ، وَاخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَتَضْيِيعِ الْجَمَاعَاتِ، وَالتَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَيُّهَا الصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ: فِي اللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ وَعَلَى مَدَى شَهْرٍ كَامِلٍ أَضَاءَتْ مَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّرَاوِيحِ وَالْقِيَامِ، وَعَجَّتِ الْمَآذِنُ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ تُتْلَى، وَرُفِعَتِ الْأَيْدِي إِلَى الْكَرِيمِ الْجَوَّادِ بِالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ.. يَقْنُتُونَ وَيَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ لِخَالِقِهِمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ.. مَا سِيقُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ مُكْرَهِينَ، وَلَا يَرْجُونَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، بَلْ سَابَقُوا إِلَيْهَا مُخْتَارِينَ رَاغِبِينَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، يَرْجُونَ ثَوَابَهُ، وَيَحْذَرُونَ عِقَابَهُ، وَأَهْلُ الْمَلَاهِي فِي مَلَاهِيهِمْ، فَكَمْ

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة العيدين (١١٣٤)، وأحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠)، وعبد بن حميد (١٣٩٢)، وصححه الحاكم وابن تيمية وابن حجر، ينظر: المستدرك (١/ ٤٣٤)، والاقتضاء (١/ ١٨٤)، وفتح الباري (٢/ ٤٤٢).

لَهُمْ مِنَ الْأُجُورِ عِنْدَ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الزَّمَنِ يُوَاجِهُ الْمُوَحِّدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، الْمُسْتَمْسِكُونَ بِدِينِهِمْ حَمَلَاتٍ ضَارِيَةً، وَحَرْبًا ضَرُوسًا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ.

حَمَلَاتٌ شَمِلَتْ جَمِيعَ الْمَيَادِينِ، وَحُرُوبٌ مَا أَبْقَتْ مَجَالًا فِيهِ نَشْرٌ لِلْإِسْلَامِ أَوْ نَفْعٌ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَتَتْ عَلَيْهِ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفَ شَرِيعَتِهِ، وَصَرْفَ النَّاسِ عَنْ دِينِهِ، وَإِخْرَاجَهُمْ مِنْهُ إِلَى مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ أَفْكَارٍ ضَالَّةٍ، وَمَبَادِئَ مُنْحَرِفَةٍ، وَيُسَوِّقُ لِهَذَا الضَّلَالِ الْمُبِينِ وُكَلَاؤُهُمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ أَوِ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ مِمَّنْ يُصَنَّفُونَ بِالْكُتَّابِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَرَوْنَ أَبْعَدَ مِنْ أُنُوفِهِمْ.

لَقَدْ كَانَ فِي خُطَطِ الدَّوْلَةِ الْأُولَى فِي الِاسْتِكْبَارِ وَالظُّلْمِ وَالِاعْتِدَاءِ مَشْرُوعَاتٌ اسْتِعْمَارِيَّةٌ ضَخْمَةٌ؛ أَرَادُوا بِهَا تَغْيِيرَ خَرَائِطِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَقْسِيمَ مَا قُسِّمَ مِنْ دُوَلِهِ، وَتَفْتِيتَهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ، وَالِاسْتِيلَاءَ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنْ ثَرَوَاتِهِ، وَإِخْضَاعَهُ تَمَامًا لِحُكْمِهِمْ وَإِمْلَاءَاتِهِمْ، زَاعِمِينَ أَنَّ الْقَرْنَ قَرْنُهُمْ، وَأَنَّ الْعَالَمَ قَدْ خَضَعَ لِجَبَرُوتِهِمْ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِلُطْفِهِ وَحِكْمَتِهِ خَيَّبَ مَسَاعِيَهُمْ، وَكَسَرَ شَوْكَتَهُمْ، وَأَزَالَ هَيْبَتَهُمْ، فَغَرِقَ جُنُودُهُمْ فِي أَفْغَانِسْتَانَ وَالْعِرَاقِ، وَلَا زَالُوا يَغْرَقُونَ، وَيَبْحَثُونَ عَمَّا يَحْفَظُ مَاءَ وُجُوهِهِمْ، وَيُعِيدُ هَيْبَتَهُمْ، فَسَوَّلَتْ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِحْلَالَ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ فِي الدُّوَلِ الَّتِي لَمْ يُسَيْطِرُوا عَلَيْهَا، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ تَمَّ سَكُّهُ حَدِيثًا، وَيَعْنِي التَّدْمِيرَ لِمَنْ يُعَارِضُهُمْ، ثُمَّ إِعَادَةَ الصِّيَاغَةِ وَالْبِنَاءِ وَفْقَ مَا يُرِيدُونَ.

وَالتَّدْمِيرُ يَكُونُ بِأَيْدِيهِمْ أَوْ بِأَيْدِي وُكَلَائِهِمْ فِي الْمِنْطَقَةِ؛ وَمِنْ وَسَائِلِهِمْ فِي

التَّدْمِيرِ إِحْيَاءُ النُّعَرَاتِ الْعِرْقِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ، وَإِشْعَالُ الْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ تَحْتَ إِشْرَافِهِمْ، وَبِمَعُونَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ؛ حَتَّى يُفْنِيَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِذَا مَلُّوا مِنَ الْحُرُوبِ، وَفَنِيَ أَكْثَرُهُمْ؛ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى لِتَرْتِيبِ أَوْرَاقِ الْمِنْطَقَةِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصَالِحَهُمْ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَكْبَرُ لِمَا يُسَعِّرُونَهُ مِنْ حُرُوبٍ رَأْسُ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

لَقَدْ عَظُمَتْ حَرْبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَتَوَاصَوْا بِهَا بَيْنَهُمْ؛ فَدَنَّسُوا الْقُرْآنَ، وَمَزَّقُوهُ وَأَهَانُوهُ، وَكَتَبُوا مُصْحَفًا جَدِيدًا سَمَّوْهُ فُرْقَانَ الْحَقِّ، وَضَعُوا فِيهِ خُلَاصَةَ أَفْكَارِهِمْ؛ لِيَجْعَلُوهُ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي تَنَزَّلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى[٢].

وَسَخِرُوا مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي رُسُومَاتِهِمْ وَكِتَابَاتِهِمْ، مِنَ الدِّنِمَارَكِ إِلَى السُّويدِ، إِلَى غَيْرِهِمَا، وَاعْتَدَوْا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَسَخِرُوا مِنْهَا، وَطَعَنُوا فِي أَحْكَامِهَا، وَوَضَعُوهَا عَلَى طَاوِلَةِ الْمُنَاقَشَةِ وَالتَّجْرِيحِ وَالتَّسْفِيهِ، وَأَسَّسُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً وَإِذَاعِيَّةً عَرَبِيَّةً لِهَذِهِ الْغَايَةِ، وَأَعَانُوا بِالْمَالِ وَالنُّفُوذِ الْقَنَوَاتِ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي تُسَوِّقُ لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَتَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ عَرَبِيَّتِهَا إِلَّا لِسَانُهَا.

لَقَدْ تَمَالَئُوا فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ عَلَى الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي تُطْعِمُ الْجَوْعَى، وَتَكْفُلُ الْأَيْتَامَ، وَتُقِيمُ الْمَشْرُوعَاتِ التَّنْمَوِيَّةَ فِي الْبُلْدَانِ الْفَقِيرَةِ، كَمَا تَمَالَأَ كُفَّارُ مَكَّةَ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ فَحَصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ.

إِنَّهُمْ يُحَارِبُونَ الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَقَدْ أَغْلَقُوا أَكْثَرَهَا؛ لِيُفْسِحُوا الْمَجَالَ لِمُنَظَّمَاتِهِمُ التَّنْصِيرِيَّةِ لِتَعْمَلَ عَمَلَهَا فِي تَنْصِيرِ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَقْلِهِمْ

---

(٢) وقد حصلت على نسخة منه -قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!- وعلمت أن كاتبه نصراني فلسطيني أخزاه الله تعالى، وينظر تفصيلًا عنه في خطبة: إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا مجلد (٦)، خطبة رقم (٢٢٥).

مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْ إِقْنَاعِ النَّاسِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ، فَاسْتَغَلُّوا حَاجَتَهُمْ لِفَرْضِ ضَلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ حَرْبِهِمْ مِنْدِيلٌ تُغَطِّي بِهِ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ شَعْرَهَا، فَحَارَبُوهَا مِنْ أَجْلِهِ فِي أُورُبَّةَ الْمُتَحَضِّرَةِ الَّتِي تَحْفَظُ حُقُوقَ الْإِنْسَانِ، وَتُؤْمِنُ بِالْحُرِّيَّاتِ كَمَا يَقُولُونَ!!

وَكَانَ مِنْ أُخْرَيَاتِ عَدَائِهِمْ لِلْإِسْلَامِ وَصْفُهُمْ إِيَّاهُ عَلَى أَلْسُنِ رُؤَسَائِهِمْ وَكِبَارِهِمْ بِالْفَاشِيَّةِ، وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى مُحَارَبَتِهِ وَتَبْدِيلِهِ، وَبَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ يَبْدَأُ أُسْبُوعٌ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الْفَاشِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِائَتَيْ جَامِعَةٍ أَمْرِيكِيَّةٍ تُلْقَى فِيهِ الْمُحَاضَرَاتُ، وَتُعْرَضُ الْأَفْلَامُ وَتُوَزَّعُ الْكُتُبُ وَالْمَنْشُورَاتُ الْمُعَادِيَةُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَأَيُّ عَدَاءٍ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟![٣].

لَقَدْ آذَوُا الْمُسْلِمِينَ فِي رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَفِي نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي قُرْآنِهِمْ، وَفِي دِينِهِمْ، وَفِي بُلْدَانِهِمْ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَا زَالُوا! عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى كَبْتَهُمْ، وَكَفَى الْمُؤْمِنِينَ شَرَّهُمْ، وَحَفِظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكْرِهِمْ.

وَأَمَّا إِخْوَانُهُمُ الْمُنَافِقُونَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ أَبْدَوْا مَا كَانُوا يُخْفُونَ، وَكَشَّرُوا عَنْ وُجُوهٍ كَالِحَةٍ قَبِيحَةٍ، وَقُلُوبٍ تَقْطُرُ حِقْدًا عَلَى كُلِّ مَا يَمُتُّ لِلْإِسْلَامِ بِصِلَةٍ؛ فَمَا إِنْ رَأَوُا الْكُفَّارَ قَدْ سَنُّوا حِرَابَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ حَتَّى انْحَازُوا لِصَفِّهِمْ، وَأَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُبْطِنُونَ مِنْ عَدَاوَتِهِمْ، وَأَضْحَوْا عُيُونًا لِلْكُفَّارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يَتَّصِلُونَ بِسِفَارَاتِهِمْ، وَيَتَلَقَّوْنَ تَعْلِيمَاتِهِمْ، وَيَخْضَعُونَ لِتَوْصِيَاتِهِمْ، وَيُطَالِبُونَ بِمَطَالِبِ الْأَعْدَاءِ ذَاتِهَا، وَيُحَارِبُونَ مَا يُحَارِبُهُ الْأَعْدَاءُ، وَيُرَكِّزُونَ

(٣) أعلن مركز (هورويتز للحرية) عن إقامة هذا الأسبوع في مائتي جامعة أمريكية يبدأ من ١١ شوال، قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟!

هُجُومَهُمْ عَلَى الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ؛ لِيَسْتَبْدِلُوا بِهِ الْقَانُونَ الْوَضْعِيَّ، وَيُحَارِبُونَ شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ؛ لِيَقْضُوا عَلَى الْفَضَائِلِ، وَيَنْشُرُوا الرَّذَائِلَ، وَيُحَارِبُونَ التَّعْلِيمَ الشَّرْعِيَّ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ؛ لِتَجْهِيلِ النَّشْءِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْبِيَتِهِ عَلَى غَيْرِ كِتَابِهِ ﷻ، وَيُحَارِبُونَ مُؤَسَّسَاتِ الْإِغَاثَةِ وَالدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، وَتَحْفَظُ الْفُقَرَاءَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ، وَيُحَارِبُونَ حِجَابَ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَيِّزُ الْمُسْلِمَةَ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا يُرِيدُونَهَا أَنْ تَتَمَيَّزَ بِشَيْءٍ، وَيُحَارِبُونَ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَيُطَالِبُونَ بِالِاخْتِلَاطِ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ تَسْعِيرَ الشَّهَوَاتِ، وَيَسْعَوْنَ فِي انْحِلَالِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَيَكْتُبُونَ تَقَارِيرَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ يُمِدُّونَ بِهَا أَعْدَاءَ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالْمَلَاحِدَةِ.

إِنَّهُمْ تَحْتَ شِعَارِ مَا يُسَمُّونَهُ إِصْلَاحًا -وَهُوَ الْإِفْسَادُ- يَسْخَرُونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرِيعَتِهِ، وَيَهْزَءُونَ بِحَمَلَتِهَا، وَيُحَرِّفُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَلَاعَبُونَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، فَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ، وَيُلْقُونَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ الْمُحْكَمَةَ عَلَى طَاوِلَةِ النِّقَاشِ وَالْمُزَايَدَةِ؛ لِيُلْغُوا مِنْهَا مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ.

إِنَّهُمْ فِي وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ يَبُثُّونَ الشَّائِعَاتِ، وَيَخْتَلِقُونَ الْأَكَاذِيبَ ضِدَّ الْمُصْلِحِينَ؛ لِيُنَفِّرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ، وَمِنْ قَبْلُ اخْتَرَعَ قُدْوَتُهُمْ فِي النِّفَاقِ إِفْكًا مُفْتَرًى فِي عَائِشَةَ ؓ، وَطَعَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي عِرْضِهِ، أَفَتَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ مُنَافِقِي زَمَنِنَا يَتَوَرَّعُونَ عَمَّا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ!!

إِنَّهُمْ يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ، وَيُسَوِّقُونَ لِلرَّذِيلَةِ فِيمَا امْتَلَكُوهُ مِنْ وَسَائِلِ إِعْلَامٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ بِمَا يَشْرَعُونَهُ مِنْ قَرَارَاتِ الِاخْتِلَاطِ فِي الْعَمَلِ، وَمَا يُطَالِبُونَ بِهِ، وَيُحَاوِلُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ مِنْ قِيَادَةِ الْمَرْأَةِ لِلسَّيَّارَةِ،

وَفَرْضِ الرِّيَاضَةِ فِي مَدَارِسِ الْبَنَاتِ، وَالاخْتِلَاطِ فِي التَّعْلِيمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْإِفْسَادِ لَا تَنْتَهِي.

لَقَدْ أَضْحَى إِفْسَادُ النَّاسِ، وَنَشْرُ الرَّذِيلَةِ، وَتَوْسِيعُ الاخْتِلَاطِ هُوَ شُغْلَهُمُ الشَّاغِلَ، وَقَضِيَّتَهُمُ الْكُبْرَى، مَعَ مُحَارَبَتِهِمْ لِلطُّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ. أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَذَلَّهُمْ، وَحَفِظَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ مِنْ مَكْرِهِمْ وَشَرِّهِمْ.

إِنَّهَا حَرْبٌ عَلَى كَافَّةِ الْأَصْعِدَةِ يَتَوَلَّى كِبْرَهَا أَعْدَاءُ الرُّسُلِ، وَأَتْبَاعُ الشَّيَاطِينِ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُعِينُهُمْ فِيهَا بَعْضُ الظَّالِمِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ.

إِنَّهَا حَرْبٌ يُسَعِّرُهَا الْمُفْسِدُونَ عَلَى الْمُصْلِحِينَ، وَيُشْعِلُهَا دُعَاةُ الرَّذِيلَةِ عَلَى دُعَاةِ الْفَضِيلَةِ.

إِنَّهُ تَحَالُفٌ نَجِسٌ نَكِدٌ يَقُودُهُ طَوَاغِيتُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، وَيَنْضَوِي تَحْتَ لِوَائِهِمُ الْمُفْسِدُونَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ لِيُجَنِّدُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْأَعْدَاءِ ضِدَّ أُمَّتِهِمْ.

وَهُوَ تَحَالُفٌ يُذَكِّرُنَا بِمَا كَانَ بَيْنَ الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ مِنِ اتِّصَالَاتٍ وَتَحَالُفَاتٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ. وَاتِّصَالَاتُ مُنَافِقِي عَصْرِنَا بِسِفَارَاتِهِمْ تُذَكِّرُ بِاتِّصَالَاتِ ابْنِ سَلُولَ وَأَتْبَاعِهِ بِالْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ آنَذَاكَ.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَزْمَةٌ كَبِيرَةٌ، عَانَى مِنْهَا الْمُصْلِحُونَ خِلَالَ السَّنَوَاتِ الْقَلِيلَةِ وَلَا زَالُوا؛ حَتَّى دَبَّ الْيَأْسُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقُلُوبِ، فَتَغَيَّرَتْ قَنَاعَاتٌ، وَزَلَّتْ أَقْدَامٌ وَأَفْهَامٌ، وَنَكَصَ أَقْوَامٌ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَارْتَدُّوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مُنْتَحِلِينَ مَا يُسَمَّى بِالْإِنْسَانِيَّةِ، رَاكِبِينَ قِطَارَ الْعَلْمَانِيَّةِ، يُحَارِبُونَ الدُّعَاةَ وَالْمُصْلِحِينَ، وَهُمْ مَحَلُّ حَفَاوَةٍ وَإِطْرَاءٍ مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَتُفْرَدُ لَهُمُ الصَّفَحَاتُ، وَتُجْرَى مَعَهُمُ

الْمُقَابَلَاتُ؛ لِيُسَوِّقُوا رِدَّتَهُمْ وَزَنْدَقَتَهُمْ عَلَى جُمْهُورِ النَّاسِ، وَلِيَطْعَنُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

وَآخَرُونَ اتَّخَذُوا مِنْ تَمْيِيعِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَيِّ نُصُوصِهَا، وَتَتَبُّعِ الْأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ وَالمَهْجُورَةِ طَرِيقَةً لَهُمْ؛ لِيُقَرِّبُوهُ مِمَّا يُرِيدُ الْأَعْدَاءُ، وَلِيَرْضَى المُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ عَنْهُمْ؛ كَيْمَا يُظْهِرُونَهُمْ فِي فَضَائِيَّاتِهِمُ الْهَابِطَةِ، وَصُحُفِهِمُ المُنْحَرِفَةِ، فَتَرَكُوا مَا كَانُوا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَتَنَكَّرُوا لِمَنَاهِجِهِمْ، وَأَضْحَتْ هِجِّيرَاهُمْ أَقَاوِيلَ فَلَاسِفَةِ الْغَرْبِ وَمُفَكِّرِيهِ بَدَلَ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَرُبَّمَا طَوَّعُوا النُّصُوصَ لِآرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى.

وَآخَرُونَ غَيْرُهُمْ تَخَلَّوْا عَنْ نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَرَدِّ حَمَلَاتِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ عَلَى الصَّلَاحِ وَالمُصْلِحِينَ، وَاشْتَغَلُوا بِأُمُورِ الدُّنْيَا؛ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ، أَوْ يَأْسًا مِنْ وَاقِعِ الْأُمَّةِ.

وَكُلُّ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ قَدْ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَمَا صَبَرُوا فِي الِابْتِلَاءَاتِ، وَلَا فَقِهُوا حَقَّ الْفِقْهِ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي المُصْلِحِينَ وَالمُفْسِدِينَ، وَلَا أَخَذُوا مِنْ سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام مَعَ المُسْتَكْبِرِينَ دُرُوسًا وَعِبَرًا.

إِنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْعَصْرِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ مِنَ الْحِصَارِ وَالمُضَايَقَةِ، وَالْحَرْبِ الشَّامِلَةِ فِي كَافَّةِ المَجَالَاتِ قَدْ جَرَى مِثْلُهُ وَأَضْعَافُهُ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَيْدِي الطُّغَاةِ وَالمُسْتَكْبِرِينَ؛ فَأُخْرِجَ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَالمُؤْمِنُونَ مَعَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَأُوذُوا فِي اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤]، وَمَا فَتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِمْ، وَلَا أَوْهَنَ عَزِيمَتَهُمْ، وَلَمْ يُقْعِدْهُمْ عَنْ نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ

تَعَالَى، وَلَمْ يُؤَدِّ بِهِمْ إِلَى مُوَافَقَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِيمَا أَرَادُوا، بَلْ صَبَرُوا وَاتَّقَوْا حَتَّى نَالُوا الظَّفَرَ فِي الدُّنْيَا، وَجَزَاءُ الآخِرَةِ أَوْفَى وَأَعْظَمُ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٤٦].

إِنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْصُورٌ رَغْمَ أُنُوفِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ غَالِبُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّمْكِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْبَلَاءِ، وَالشِّدَّةُ يَعْقُبُهَا الْفَرَجُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرْح: ٦]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧٣]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٠].

وَبَوَادِرُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالتَّمْكِينِ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ تَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، وَيَرَاهَا الْمُسْتَبْصِرُونَ؛ وَلَكِنَّهَا تَحْتَاجُ مِنَّا إِلَى صَبْرٍ وَتَقْوَى ..

إِنَّنَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ نَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَصَبْرٍ فِي التَّمَسُّكِ بِالدِّينِ؛ وَإِنْ عَظُمَ الْبَلَاءُ، وَتَوَالَتِ الْمِحَنُ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ.

نَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالدِّفَاعِ عَنْ دِينِهِ وَحُرُمَاتِهِ، وَمُجَاهَدَةِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَنَحْتَاجُ إِلَى تَقْوَى تَمْنَعُنَا مِنَ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِنَا إِرْضَاءً لِلْمُفْسِدِينَ، وَتَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَسْوِيغِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، أَوِ الرِّضَا بِالْمُنْكَرَاتِ، أَوِ السُّكُوتِ عَنْهَا.

نَحْتَاجُ إِلَى تَقْوَى تَدْفَعُنَا إِلَى الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى

اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَالنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

وَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ حِينَ غَدَرَ الْمُنَافِقُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَانْتَصَرَ الْمُشْرِكُونَ، وَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَجُرِحَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ بِالْمُؤْمِنِينَ، تَنَزَّلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الْعَظِيمَةَ؛ لِتُبَيِّنَ أَنَّ كَيْدَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ لَنْ يَضُرَّ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا مَتَى مَا صَبَرُوا وَاتَّقَوْا ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٠].

وَمَا أَحْوَجَ الْمُصْلِحِينَ إِلَى عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ وَمَدَدِهِ وَجُنْدِهِ فِي مُقَارَعَةِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَرَدِّ بَاطِلِهِمْ، وَدَحْضِ حُجَجِهِمْ، وَكَشْفِ زَيْفِهِمْ! وَلَنْ يَنَالَ الْمُصْلِحُونَ عَوْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدَهُ وَتَوْفِيقَهُ إِلَّا بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٥].

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْأَمْرُ الصَّرِيحُ بِلُزُومِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى عِنْدَمَا يَعْظُمُ الْبَلَاءُ، وَتَشْتَدُّ الْمِحَنُ، وَيَتَسَلَّطُ الْكَافِرُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٦].

وَلَيْسَ مِنَ الصَّبْرِ وَلَا مِنَ التَّقْوَى مُوَافَقَةُ الْمُفْسِدِينَ فِيمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ تَشْرِيعِ الْفَسَادِ، أَوْ إِذَابَةِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَهُمْ، أَوْ لَيِّ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ مُسَايَرَةً لِلنَّاسِ، وَمُوَافَقَةً لِضُغُوطِ الْوَاقِعِ. بَلِ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى فِي الِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مَهْمَا زَاغَ الزَّائِغُونَ، وَانْحَرَفَ الْمُنْحَرِفُونَ، وَارْتَدَّ الْمُرْتَدُّونَ، وَمَهْمَا عَظُمَتِ الضُّغُوطُ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣]، فَاسْتَمْسِكُوا يَا أَهْلَ الْحَقِّ بِدِينِكُمْ، وَلَا تَتَنَازَلُوا عَنْهُ فَتَهْلِكُوا.

إِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ أَقْوِيَاءُ بِمَا يَتَّبِعُونَهُ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ ضُعَفَاءُ بِبَاطِلِهِمْ وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ جَمْعًا وَقُوَّةً ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤٩]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٨]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سَبَأ: ٤٩].

أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ، أَيَّتُهَا الصَّائِمَةُ الْقَائِمَةُ: إِنَّ الْجُزْءَ الْأَكْبَرَ مِنْ حَمَلَاتِ الْمُفْسِدِينَ يَتَنَاوَلُ جَوَانِبَ الْمَرْأَةِ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا بَوَّابَةُ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ مَتَى مَا تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا، وَجَانَبَتِ الرِّجَالَ، وَدَعَتْ أَخَوَاتِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا قَنْطَرَةُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مَتَى مَا نَبَذَتْ حِجَابَهَا، وَخَالَطَتِ الرِّجَالَ، وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما(٤). وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «... **فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

فَإِيَّاكِ -أُخْتِي الْمُسْلِمَةَ- أَنْ تَنْجَرِفِي لِتَيَّارَاتِهِمْ، أَوْ تُصْغِي لِدَعَوَاتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

كَيْفَ تُجِيبِينَهُمْ إِلَى مَا يُرِيدُونَ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدِ امْتَلَأَ قَلْبُكِ بِالْإِيمَانِ، وَبِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ دِينِهِ؟!

---

(٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يتقى مِنْ شُؤْمِ المَرْأَة (٤٨٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤١).

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٢٧٤٢).

كَيْفَ تُطِيعِينَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْتِ تُصَلِّينَ وَتَصُومِينَ وَتَعْبُدِينَ اللهَ تَعَالَى؟! فَكُونِي نَصِيرَةً لِلْحَقِّ وَجُنْدِهِ، وَاحْذَرِي أَنْ تَكُونِي عَوْنًا لِلْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ.

ادْرَئِي عَنْ حِجَابِكِ وَعَفَافِكِ عُدْوَانَ الْأَعَادِي مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ؛ فَإِنَّهُمُ الْأَضْعَفُ مَتَى مَا جُوبِهُوا بِقُوَّةِ الْحَقِّ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٧٦].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: افْرَحُوا بِعِيدِكُمْ بَعْدَ تَمَامِ صِيَامِكُمْ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ .. بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى جِيرَانِكُمْ، وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَأَقِيمُوا عَلَى عَهْدِكُمْ، وَأَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَلَا تَهْجُرُوا مَسَاجِدَكُمْ وَمَصَاحِفَكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى رَبُّ رَمَضَانَ وَغَيْرِ رَمَضَانَ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النَّحل: ٩٢].

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمِنَ المُسْلِمِينَ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.



٢٦٢- ماذا بعد رمضان؟ (٣) (*)

٧/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ بِدَايَةٍ نِهَايَةٌ، وَالْإِنْسَانُ يُولَدُ ثُمَّ يَعِيشُ مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ مَآلُهُ إِلَى المَوْتِ وَالْحِسَابِ . . وَالدُّنْيَا لَهَا بِدَايَةٌ وَنِهَايَةٌ، وَالْإِنْسَانُ مُفَارِقُهَا لَا مَحَالَةَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُهُ فِيهَا، وَكَثُرَ عَمَلُهُ لَهَا، وَاشْتَدَّ سَعْيُهُ لِأَجْلِهَا، وَالمَغْبُوطُ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَالمَغْبُونُ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **خِيَارُكُمْ**

(*) ماذا بعد رمضان (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٢)، و(٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٧٣).

أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا، وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: **مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٢).

إِنَّ عُمْرَ ابْنِ آدَمَ هُوَ مُسْتَوْدَعُ عَمَلِهِ، وَتَتَفَاوَتُ مُسْتَوْدَعَاتُ النَّاسِ ضِيقًا وَاتِّسَاعًا بِحَسَبِ أَعْمَارِهِمْ، فَلَيْسَ مَنْ صَلَّى لِلَّهِ تَعَالَى سِتِّينَ سَنَةً كَمَنْ صَلَّى عَشْرَ سَنَوَاتٍ، وَلَيْسَ مَنْ صَامَ سَبْعِينَ رَمَضَانَ كَمَنْ صَامَ عَشْرَ رَمَضَانَاتٍ!!

وَالْعَبْدُ الَّذِي يُدْرِكُ مَنَافِعَهُ، وَيَعْرِفُ أَيْنَ تَكُونُ مَصَالِحُهُ؛ يَفْرَحُ أَشَدَّ الْفَرَحِ إِذَا أَدْرَكَ زَمَنًا فَاضِلًا يُؤَدِّي فِيهِ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا مَا انْقَضَى ذَلِكَ الزَّمَنُ الْفَاضِلُ انْتَظَرَ زَمَنًا آخَرَ وَهَكَذَا؛ حَتَّى تُوَافِيَهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ مُرَابِطٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَازِمٌ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهِ، وَالْقِيَامِ بِفَرَائِضِهِ.

وَقَدْ رَوَى عُبَيْدُ بْنُ خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقُتِلَ أَحَدُهُمَا وَمَاتَ الْآخَرُ بَعْدَهُ بِجُمُعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، فَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا قُلْتُمْ؟ فَقُلْنَا: دَعَوْنَا لَهُ، وَقُلْنَا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَأَلْحِقْهُ بِصَاحِبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ صَلَاتُهُ بَعْدَ صَلَاتِهِ وَصَوْمُهُ بَعْدَ صَوْمِهِ** -شَكَّ شُعْبَةُ فِي

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥)، والبزار (١٩٧١)، وصححه ابن حبان (٢٩٨١)، والشيخ أحمد شاكر (٧٢١١).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في طول العمر، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٣٠)، وأحمد (٥/ ٤٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٩٠)، والطيالسي (٨٦٤)، والدارمي (٢٧٤٢)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٣٣٩).

صَوْمِهِ- وَعَمَلُهُ بَعْدَ عَمَلِهِ؟ إِنَّ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٣).

وَمَنْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَقَدْ بَلَغَ كَمَالَ عَقْلِهِ، وَمُنْتَهَى رُشْدِهِ، وَحَقَّ عَلَيْهِ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَكَانَ مَسْرُوقٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «إِذَا بَلَغْتَ الْأَرْبَعِينَ فَخُذْ حِذْرَكَ»(٤)، وَقَالَ هِلَالُ بْنُ يَسَافٍ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً تَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ»(٥).

وَمَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ جَاءَهُ النَّذِيرُ وَلَا عُذْرَ لَهُ؛ إِذْ أَمْهَلَهُ اللهُ تَعَالَى كَثِيرًا، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِعُمُرٍ مَدِيدٍ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يَتَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ، وَيُكْثِرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَنْفَعُهُ فِي الدَّارِ الَّتِي اقْتَرَبَ مِنْهَا، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «يُعَمِّرُكُمْ سِتِّينَ سَنَةً»(٦).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ

---

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في النور يرى عند قبر الشهيد (٢٥٢٤)، والنسائي في الجنائز، باب الدعاء في الجنازة (٤/ ٧٤)، وأحمد (٤/ ٢١٩)، والطيالسي (١١٩١)، والبيهقي (٣/ ٣٧١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٩٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٠٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

(٥) أخرجه هناد في الزهد (٦٧١)، ونحوه في رياض الصالحين للنووي (٤٦).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٢/ ١٤١)، وصححه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٨٨-٨٨٩).

حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: «مَنْ أَتَتْ عَلَيْهِ سِتُّونَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ»(٧).

وَالْإِعْذَارُ هُوَ إِزَالَةُ الْعُذْرِ، وَالمَعْنَى: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ اعْتِذَارٌ كَأَنْ يَقُولَ: لَوْ مُدَّ لِي فِي الْأَجَلِ لَفَعَلْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ بَلَّغَهُ أَقْصَى الْغَايَةِ فِي الْعُذْرِ، وَمَكَّنَهُ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْهَا بِالْعُمُرِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ حِينَئِذٍ إِلَّا الِاسْتِغْفَارُ وَالطَّاعَةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ(٨).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّمَا كَانَتِ السِّتُّونَ حَدًّا لِهَذَا؛ لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ المُعْتَرَكِ، وَهِيَ سِنُّ الْإِنَابَةِ وَالْخُشُوعِ، وَتَرَقُّبِ المَنِيَّةِ، فَهَذَا إِعْذَارٌ بَعْدَ إِعْذَارٍ؛ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَتَّى نَقَلَهُمْ مِنْ حَالَةِ الْجَهْلِ إِلَى حَالَةِ الْعِلْمِ، ثُمَّ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ، وَإِنْ كَانُوا فُطِرُوا عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ؛ لَكِنَّهُمْ أُمِرُوا بِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فِي ذَلِكَ؛ لِيَمْتَثِلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَيَنْزَجِرُوا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ»(٩).

وَرَأَى الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- رَجُلًا فَقَالَ: «كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَفْسِيرُهُ؟ قَالَ: فَسِّرْهُ

---

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٥٦)، وأحمد (٢/ ٤١٧-٢٧٥-٣٢٠-٤٠٥)، وابن حبان (٢٩٧٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٤)، والبيهقي (٣/ ٣٧٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٢٤).

(٨) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٤٠).

(٩) المصدر السابق (١١/ ٢٤٠).

لَنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ، قَالَ: قَوْلُكَ: إِنَّا لِلَّهِ تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَسْؤُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْؤُولٌ فَلْيُعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرُ لَكَ مَا مَضَى وَمَا بَقِيَ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ» رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ(١٠).

وَمَنِ اسْتَكْمَلَ السِّتِّينَ وَدَخَلَ فِي السَّبْعِينَ فَقَدِ اقْتَرَبَ مِنْ أَجَلِهِ، وَقَلِيلٌ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ يُجَاوِزُهَا؛ لِمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى سَبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١١).

فَهَنِيئًا لِمَنْ جَاوَزَ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، هَنِيئًا لَهُ ثُمَّ هَنِيئًا لَهُ!! كَمْ أَقَامَ مِنْ سَنَةٍ عَلَى التَّوْحِيدِ؟ وَكَمْ صَلَّى لِلَّهِ ﷻ؟ وَكَمْ صَامَ؟ وَكَمِ اسْتَغْفَرَ وَسَبَّحَ اللهَ تَعَالَى وَذَكَرَهُ وَهَلَّلَهُ وَدَعَاهُ؟ وَكَمْ أَتَى مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَالصَّدَقَاتِ؟ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ! إِنَّهُ لَيُغْبَطُ، وَإِنَّ حَظَّهُ لَكَبِيرٌ، وَإِنَّ الْخَيْرَ لَيُرْجَى لَهُ، يُقْدِمُ حِينَ يُقْدِمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعُمُرٍ مَدِيدٍ، وَسَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ قَضَاهَا فِي تَوْحِيدِ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ.

---

(١٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٣).

(١١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين وقال: هذا حديث حسن غريب (٢٣٣١)، وابن ماجه في الزهد، باب الأمل والأجل (٤٢٣٦)، وأبو يعلى (٥٩٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٥٠)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٤٣٠)، وصححه ابن حبان (٢٩٨٠)، والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٣)، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٤٠).
وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند أبي يعلى (٢٩٠٢)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٦): «رواه أبو يعلى، وفيه شيخ لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح».

عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «دَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ نَعُودُهُ، فَذَهَبَ بَعْضُ الْقَوْمِ يُرَجِّيهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو رَبِّي وَقَدْ صُمْتُ لَهُ ثَمَانِينَ رَمَضَانًا»(١٢).

إِنَّ انْقِضَاءَ الْعُمُرِ حَقِيقَةٌ يَعْلَمُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، وَإِنَّ بُلُوغَ الْعَبْدِ سِتِّينَ وَسَبْعِينَ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمُؤْذِنٌ بِاقْتِرَابِ أَجَلِهِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَغُرُّ الْإِنْسَانَ، وَيُزَيِّنُ لَهُ طُولَ الْأَمَلِ، وَحُبَّ الدُّنْيَا؛ حَتَّى يَغْفُلَ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيَكْثُرُ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِ وَالمَالِ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَشِيبُ رَأْسُهُ، وَيَحْدَوْدِبُ ظَهْرُهُ، وَتَكْثُرُ عِلَلُهُ، مِنْ طُولِ عُمُرِهِ، وَهُوَ يَتَصَابَى وَيَتَشَبَّبُ، لَا يُرِيدُ مُفَارَقَةَ جَاهِهِ، وَيَخَافُ عَلَى مَالِهِ، وَهُوَ مُفَارِقٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَكْبُرُ فِي ابْنِ آدَمَ وَيَشِيبُ وَيَهْرَمُ إِلَّا حُبَّهُ لِلدُّنْيَا، وَأَمَلَهُ فِيهَا؛ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ تَظَلَّانِ شَابَّتَيْنِ فِي قَلْبِهِ وَلَوْ تَجَاوَزَ المِئَةَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَيْنِ: طُولِ الحَيَاةِ وَحُبِّ المَالِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣).

وَرَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

---

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله تعالى (١٢٧)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٤٠٩).

(١٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٠٥٧)، ومسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٦)، والرواية الأولى للبخاري، والثانية لمسلم.

(١٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٠٥٨)، ومسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا (١٠٤٧) واللفظ للبخاري.

وَسَبَبُ ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى ابْنِ آدَمَ نَفْسُهُ، فَهُوَ رَاغِبٌ فِي بَقَائِهَا؛ فَأَحَبَّ لِذَلِكَ طُولَ الْعُمُرِ، وَأَحَبَّ المَالَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي دَوَامِ الصِّحَّةِ الَّتِي يَنْشَأُ عَنْهَا غَالِبًا طُولُ الْعُمُرِ، فَكُلَّمَا أَحَسَّ بِقُرْبِ نَفَادِ ذَلِكَ اشْتَدَّ حُبُّهُ لَهُ، وَرَغْبَتُهُ فِي دَوَامِهِ(١٥).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَأَعْمَالَنَا، وَأَنْ يُحْسِنَ خَوَاتِمَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ..

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، وَاشْكُرُوهُ أَنْ بَلَّغَكُمْ رَمَضَانَ، وَأَعَانَكُمْ عَلَى الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَفَتَحَ لَكُمْ أَبْوَابَ الْإِحْسَانِ، وَاسْأَلُوهُ تَعَالَى قَبُولَ الْأَعْمَالِ؛ فَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ السَّلَفِ الصَّالِحِ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي لِرَمَضَانَ وَسَلِّمْ لِي رَمَضَانَ وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي مُتَقَبَّلًا»(١٦).

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي شَرْحِ مَعْنَاهُ: «سَلِّمْنِي لِرَمَضَانَ؛ أَيْ: لَا يُصِيبُنِي مَا يَحُولُ

---

(١٥) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٤١)، وتحفة الأحوذي (٧/ ١٢٨).

(١٦) أخرجه عن يحيى بن أبي كثير: أبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٩).

بَيْنِي وَبَيْنَ صَوْمِهِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَسَلِّمْهُ لِي: هُوَ أَنْ لَا يَغُمَّ عَلَيْهِ الْهِلَالُ فِي أَوَّلِهِ أَوْ آخِرِهِ، فَيَلْتَبِسَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ وَالْفِطْرُ، وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي؛ أَيْ: يَعْصِمُهُ مِنَ المَعَاصِي فِيهِ»(١٧).

وَإِنَّ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِهِ وَصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ: المُحَافَظَةَ عَلَى الْفَرَائِضِ عَقِبَهُ، وَإِتْبَاعَهَا بِمَا تَيَسَّرَ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الدَّيْمُومَةِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَثْبَتَهُ»(١٨)، وَسَبَبُ ذَلِكَ: «**أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**» كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂(١٩).

وَمِنْ دَاوَمَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ طِيلَةَ شَهْرِ رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُدَاوِمَ عَلَى ذَلِكَ طَوَالَ الْعَامِ، وَلَا يَهْجُرَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى رَمَضَانَ الْقَابِلِ.

وَمَنْ حَافَظَ عَلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ فِي رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحَافِظَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ آخِرَهُ، بِحَسَبِ مَا يُيَسِّرُ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَلَا يَقْطَعُ ذَلِكَ.

وَمَنْ بَكَّرَ فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ، وَانْتَظَرَ الْفَرِيضَةَ عَقِبَ الْفَرِيضَةِ؛ حَتَّى صَارَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالمَسْجِدِ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ.

وَمَنْ وُقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ فِي رَمَضَانَ؛ فَفَطَّرَ الصَّائِمِينَ، وَبَذَلَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ

---

(١٧) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٩٥).

(١٨) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومَنْ نَامَ عنه أو مرض (٧٤٦)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يؤمر من القصد في الصلاة (١٣٦٨)، والنسائي في القبلة، باب المصلي يكون بينه وبين الإمام سترة (٢/ ٦٨).

(١٩) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦٠٩٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٢).

لِلْمُحْتَاجِينَ، فَلِمَاذَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ؟!

وَمَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ، وَوَصَلَ أَرْحَامَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَى جِيرَانِهِ، وَنَفَعَ إِخْوَانَهُ فِي رَمَضَانَ؛ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ ذَلِكَ طَوَالَ الْعَامِ، حَتَّى يَكُونَ عَامُهُ كُلُّه رَمَضَانَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَهَابُ المَوْتَ؛ لِأَنَّهُ مُحْسِنٌ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ وَلِأَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ طِيلَةَ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِعَبْدِهِ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ فِي طَاعَتِهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ؛ حَتَّى يَخْتِمَ لَهُ بِتِلْكَ الطَّاعَةِ الَّتِي يَسَّرَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُ.

وَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ لِمَنْ صَامَ رَمَضَانَ أَنْ يَصُومَ سِتَّةَ أَيَّام مِنْ شَوَّالٍ، سَوَاءً كَانَتْ مُتَتَابِعَةً أَمْ مُتَفَرِّقَةً؛ لِمَا رَوَى أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢٠)].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَاسْعُوا فِيمَا يُرْضِيهِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .



(٢٠) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (١١٦٤)، وأبو داود في الصوم، باب صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال (٧٥٩)، والنسائي في الكبرى (٢٨٦٢)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٦).

٢٦٣- ماذا بعد رمضان؟ (٤)

١/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْعَرْشِ الْمَجِيدِ؛ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُبْدِي وَيُعِيدُ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، نَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَعَظِيمِ مَنِّهِ، فَقَدْ أَحْسَنَ بِنَا إِذْ مَدَّ فِي أَعْمَارِنَا، وَمَتَّعَنَا بِقُوَّاتِنَا، حَتَّى بَلَّغَنَا نِهَايَةَ شَهْرِنَا، وَأَعَانَنَا فِي صِيَامِنَا وَقِيَامِنَا، فَلَهُ الْحَمْدُ لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَى هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَكَتَبَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْعَدَ عَنْهَا الْكَافِرِينَ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٦].

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَشَّرَنَا وَأَنْذَرَنَا، وَبَلَّغَنَا دِينَ رَبِّنَا، وَنَصَحَ لَنَا، وَأَشْفَقَ عَلَيْنَا، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا يَسْتَبِقُونَ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ اسْتِبَاقَ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَى دُنْيَاهُمْ، وَقَدْ جَعَلُوا زَمَانَهُمْ كُلَّهُ رَمَضَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْتَبِرُوا بِمُرُورِ أَيَّامِكُمْ، وَانْقِضَاءِ شُهُورِكُمْ وَأَعْوَامِكُمْ؛ فَمَا ذَلِكُمْ وَاللَّهِ إِلَّا مِنْ أَعْمَارِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا فِي قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ إِلَّا مَا قَدَّمْتُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠٠-٢٠٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنْ كَانَ رَمَضَانُ قَدِ انْقَضَى بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْقَضِي عَمَلُهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ شَرٍّ؛ وَلِذَا أَمَرَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِأَنْ نَجْعَلَ نِهَايَةَ سَعْيِنَا الْمَوْتَ، فَلَا يُوقِفُنَا عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا هُوَ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ يَتَزَوَّدُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ يُكْتَبُ عَلَيْهِمْ مَا يَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ قَاطِعُ الْعَمَلِ، وَلَيْسَ انْتِهَاءُ شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَالْمَسَاجِدَ بَعْدَ رَمَضَانَ.

وَلِأَجْلِ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ لَا يَنْقَطِعُ إِلَّا بِمَوْتِهِ كَانَ طُولُ عُمْرِ الْمُؤْمِنِ خَيْرًا لَهُ لِتَزَوُّدِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَاكْتِسَابِهِ الْحَسَنَاتِ، فَكُرِهَ فِي حَقِّهِ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ أَوْ يَدْعُوَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ؛ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا تَحْوِيهِ

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الصدقة عن الميت (٣٨٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب في الوقف (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت (٦/ ٢٥١)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٢)، وأحمد (٢/ ٣١٦)، وابن حبان (٣٠١٥)، والبيهقي (٣/ ٣٧٧)، والبغوي في شرح السنة (١٤٤٦).

مِنْ مَعَانٍ جَلِيلَةٍ، فَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ نِعْمَةِ بَقَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَدِّ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي أَعْمَارِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ بَقُوا لِلتَّمَتُّعِ بِالشَّهَوَاتِ، وَجَمْعِ الْحُطَامِ، وَالتَّكَاثُرِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَهِيَ تَفْنَى، وَهُمْ عَنْهَا زَائِلُونَ، مَعَ تَفْرِيطِهِمْ فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ وَهِيَ تَبْقَى، وَهُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ؛ فَاجْتَهَدُوا فِيمَا كُفُوا، وَغَفَلُوا عَمَّا كُلِّفُوا.

إِنَّ اللهَ ﷻ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُنَا، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُنَا، كَيْفَ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنَّا؟! وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣). وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧].

وَهُوَ ﷻ غَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِنَا وَإِرْهَاقِنَا؛ وَلِذَا اخْتَارَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْكَمَهُ وَأَحْسَنَهُ وَأَيْسَرَهُ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المَائِدَة: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الْحَجّ: ٧٨].

وَلَمْ يُكَلِّفْنَا ﷻ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ نُطِقْ، دَعَاهُ الْمُؤْمِنُونَ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٦]، فَقَالَ ﷻ: «**قَدْ فَعَلْتُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَقَالَ نَبِيُّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂(٥).

وَكَمَا أَنَّهُ ﷻ لَمْ يُعَذِّبِ الْبَشَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَمَا يَعْفُو عَنْهُ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر ﵁: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٧٥٥).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: مسلم في الإيمان، باب بيان أنه ﷻ لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٦)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة (٢٩٩٢)، وأحمد (١/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٩٧٠)، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (٧٨٢).

أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ؛ فَكَذَلِكَ لَا يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِمَا اقْتَرَفُوا، وَمَا يَتَجَاوَزُ عَنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٧].

وَلِذَا كَانَ ﷻ شَدِيدَ الْفَرَحِ بِتَوْبَةِ مَنْ يَتُوبُ مِنْ عِبَادِهِ؛ لِغِنَاهُ عَنْ تَعْذِيبِهِمْ، وَإِرَادَتِهِ الْخَيْرَ وَالْفَلَاحَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَسْرَعُ إِلَى عِبَادِهِ إِذَا أَقْبَلُوا عَلَيْهِ مِنْ سُرْعَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَدْ كَتَبَ ﷻ أَنَّ رَحْمَتَهُ تَسْبِقُ غَضَبَهُ، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا**

---

(٦) أخرجه مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٤).
قال الحميدي: الأرض الدوية: المستوية إلى الدو، وهي المفازة والقفر التي يخاف فيها الهلاك لبعدها عن العمران. تفسير غريب ما في الصحيحين (٦٥) ومثله في كشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٢٨٧).
وقال البغوي في شرح السنة: الدوية والداوية: اسم للمفازة الملساء التي يسمع فيها الدوي وهو الصوت. (٥/ ٨٥).
وقال النووي في شرح مسلم: قال أهل اللغة: الدوية: الأرض القفر والفلاة الخالية، قال الخليل: هي المفازة، قالوا: ويقال: دوية وداوية، فأما الدوية فمنسوب إلى الدوّ -بتشديد الواو- وهي البرية التي لا نبات بها، وأما الداوية فهي على إبدال إحدى الواوين ألفًا كما قيل في النسب إلى طي طائي (١٧/ ٦١).

ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ جِئْتُهُ -أَوْ قَالَ: أَتَيْتُهُ- بِأَسْرَعَ**»(٧).

فَلِمَاذَا لَا نُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يُرِيدُنَا؟! وَلِمَاذَا نَفِرُّ مِنْ عِبَادَتِهِ بَعْدَ رَمَضَانَ وَلَا مَفَرَّ لَنَا مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ؟!

لَقَدْ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ فِي رَمَضَانَ بِقُلُوبِنَا، وَاجْتَهَدْنَا فِي أَعْمَالِنَا، وَلَازَمْنَا مَسَاجِدَنَا، وَلَمْ تُفَارِقْنَا مَصَاحِفُنَا، وَرَأَيْنَا صَلَاحًا فِي قُلُوبِنَا، وَوَجَدْنَا لَذَّةً عَظِيمَةً لَمْ نَجِدْهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، أَتُرَانَا بَعْدَ رَمَضَانَ نُفَارِقُ ذَلِكَ، وَنَبْتَعِدُ عَنْهُ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ رَبَّنَا أَسْرَعُ إِلَيْنَا مِنْ سُرْعَتِنَا إِلَيْهِ؟! وَنَحْرِمُ أَنْفُسَنَا لَذَّةَ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنَّا؟!

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ لِأَبِي يُوسُفَ الْغَسُولِيِّ: «يَا أَبَا يُوسُفَ، لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالسُّرُورِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، طَلَبَ الْقَوْمُ الرَّاحَةَ وَالنَّعِيمَ فَأَخْطَئُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ»(٨).

وَمَنْ تَأَمَّلَ حَالَنَا، وَقَارَنَهُ بِحَالِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ عَجِبَ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ نُعْجَبُ بِقَلِيلِ عَمَلِنَا، وَتَزْهُو نُفُوسُنَا، وَلَا نَخَافُ الرَّدَّ وَعَدَمَ الْقَبُولِ!!

---

(٧) أخرجه البخاري في التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧١)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٠)، والخطيب في الزهد والرقائق (١١٥)، وابن عساكر (٦/ ٣٦٦).

أَمَّا سَلَفُنَا الصَّالِحُ؛ فَمَعَ كَثْرَةِ عَمَلِهِمْ، وَشِدَّةِ اجْتِهَادِهِمْ يَخَافُونَ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ، وَيَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ، فَإِذَا بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ دَعَوْهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ(٩)، وَحَقَّ فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ وَصْفُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٥٧-٦١].

وَرِضَا الْعَبْدِ بِطَاعَتِهِ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَدَمِ عِلْمِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَبِمَا يَلِيقُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّضَا بِالطَّاعَةِ مِنْ رُعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَتِهَا، وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيبَ الطَّاعَاتِ؛ لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكِ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ»(١٠).

فَحَذَارِ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ فِي رَمَضَانَ، وَتَتْرُكُوا الْعَمَلَ بَعْدَهُ؛ فَحَرِيٌّ بِالطَّاعَةِ الْمُتَقَبَّلَةِ أَنْ تَقُودَ إِلَى طَاعَةٍ أُخْرَى، وَيُخْشَى مِنَ الْمَعْصِيَةِ أَنْ تُوَلِّدَ مَعْصِيَةً أُخْرَى.

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَخَلَفَ عَلَيْنَا رَمَضَانَ بِخَيْرٍ، وَتَقَبَّلَ مِنَّا الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....



(٩) قال معلى بن الفضل: «كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ويدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم» لطائف المعارف (١٤٨).

(١٠) مدارج السالكين (١/ ١٧٥).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ صِيَامِ رَمَضَانَ وَقِيَامِهِ، وَالْهَجُوا بِدُعَائِهِ أَنْ يَتَقَبَّلَ أَعْمَالَكُمْ، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَجْسَامِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ.

وَاشْكُرُوهُ ﷻ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُمَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الِاقْتِصَارُ عَلَى الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ: الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى، مَعَ عِيدِ الْجُمْعَةِ الْأُسْبُوعِيِّ، وَعَدَمُ إِحْدَاثِ أَعْيَادٍ أُخْرَى، أَوِ الْمُشَارَكَةِ فِيهَا، مَهْمَا كَانَتْ مُنَاسَبَتُهَا، وَمَهْمَا زَيَّنَهَا الْمُزَخْرِفُونَ، وَسَوَّغَهَا الْمُسَوِّغُونَ؛ فَإِنَّ الْأَعْيَادَ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَلَا يَحِلُّ لِلنَّاسِ أَنْ يَبْتَدِعُوا الشَّرَائِعَ، وَإِنَّمَا تُؤْخَذُ الشَّرَائِعُ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى: مِنْ كِتَابِهِ ﷻ، أَوْ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ افْتِيَاتًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي شَرْعِ شَيْءٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِمَا يُشَرِّعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاسِكِ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ شَرِيعَتَهَا وَمَنْهَجَهَا: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا

مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائِدَة: ٤٨].

وَشَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَتْبَاعِهِ هِيَ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِسْلَامُ فِي بَابِ الْأَعْيَادِ قَدْ فَرَضَ الْعِيدَيْنِ الشَّرْعِيَّيْنِ، مَعَ عِيدِ الْجُمُعَةِ، وَأَبْطَلَ مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَعْيَادِ؛ فَلَا يَحِلُّ أَنْ يَتَّخِذَ الْمُسْلِمُونَ أَعْيَادًا غَيْرَهُمَا، وَلَا أَنْ يَسْتَبْدِلُوا بِهِمَا سِوَاهُمَا، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَانَا لِلْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَهُوَ مِنَ اسْتِبْدَالِ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْدِرَاسِ الشَّرِيعَةِ، وَغُرْبَةِ الدِّينِ، وَسِيَادَةِ الْجَهْلِ، وَتَحَكُّمِ الْهَوَى، كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَهَاوَنُوا فِي مَسْأَلَةِ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ؛ حَتَّى حَلَّتِ الْبِدْعَةُ مَحَلَّ السُّنَّةِ، وَالضَّلَالُ مَكَانَ الْهُدَى، وَالْجَهْلُ بَدَلَ الْعِلْمِ، نَسَالُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُبَصِّرَنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى الْتِزَامِهِ.

وَمِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعِيدِ: اجْتِنَابُ الْمُنْكَرَاتِ مِنَ الْغِنَاءِ وَالمَعَازِفِ وَالِاخْتِلَاطِ، وَتَبَرُّجِ النِّسَاءِ وَسُفُورِهِنَّ، وَبُرُوزِهِنَّ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ بِأَبْهَى حُلَّةٍ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ فِتْنَةٌ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ، قَدْ تَنْتِجُ عَنْهُ الْفَوَاحِشُ الَّتِي عُذِّبَتْ بِهَا بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَنَا.

وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وَكَيْفَ يُشْكَرُ اللهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَإِتْيَانِ نَهْيِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا عِيدًا، وَأَمَرَنَا بِشُكْرِهِ ﷻ فِيهِ.

وَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى: الْمُحَافَظَةَ عَلَى فَرَائِضِهِ بَعْدَ رَمَضَانَ، وَعَدَمَ التَّفْرِيطِ فِيهَا، وَإِتْبَاعَهَا بِالنَّوَافِلِ الَّتِي تُكْمِلُ نَقْصَهَا، وَتُرَقِّعُ خُرُوقَهَا، وَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ الْقَبُولِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَمَا صَامَ الْمُؤْمِنُ وَقَامَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا وَهُوَ يَرْجُو الْقَبُولَ، فَلْيَأْخُذْ بِأَسْبَابِهِ، وَلَا يَنْكُصْ عَلَى عَقِبَيْهِ.

وَقَدْ حَثَّنَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى صِيَامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ عَقِبَ رَمَضَانَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ فَشَهْرٌ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ فَذَلِكَ تَمَامُ صِيَامِ السَّنَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٢).

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى صِيَامِهَا مُجْتَمِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ أَوْ وَسْطِهِ أَوْ آخِرِهِ، فَأَيًّا مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُ مِنْ ذَلِكَ أَجْزَأَهُ، وَاسْتَحَقَّ الْأَجْرَ الْمُرَتَّبَ عَلَيْهَا إِنْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ.

وَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ قَضَاءُ أَيَّامٍ مِنْ رَمَضَانَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَصُومَهَا حَتَّى يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، وَيُبْرِئَ ذِمَّتَهُ مِنْ فَرِيضَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفَرَائِضُ تُقَدَّمُ عَلَى النَّوَافِلِ.

وَاخْتِمُوا شَهْرَكُمْ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ، وَسَلُوا اللهَ تَعَالَى الْقَبُولَ؛ فَإِنَّ الْمُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي الْأَعْمَالِ قَبُولُهَا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِعَمَلِكُمْ، وَلَا تُسِيئُوا الظَّنَّ بِرَبِّكُمْ، وَكُونُوا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، تَرْجُونَ رَبَّكُمْ، وَتَخَافُونَ تَقْصِيرَكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . .



---

(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا لرمضان (١١٦٤).

(١٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب صيام ستة أيام من شوال (١٧١٥)، والنسائي في الكبرى (٢٨٦٠-٢٨٦١)، وأحمد (٥/ ٢٨٠)، والدارمي (١٧٥٥)، وصححه ابن خزيمة (٢١١٥) وابن حبان (٣٦٣٥).

٢٦٤- العشر والحج والأضحية

٣/ ١٢/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَافْتَرَضَ فِي الْعُمْرِ إِلَيْهِ عُمْرَةً وَحَجًّا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَفْضَلُ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ وَسَكَبَ الْعَبَرَاتِ، وَبَاتَ بِمِنًى وَوَقَفَ بِعَرَفَاتٍ، وَنَحَرَ الْهَدْيَ وَرَمَى الْجَمَرَاتِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى جَاهَدُوا فِي كُلِّ فَجٍّ، وَأَقَامُوا شَعَائِرَ الْمَنَاسِكِ وَالْحَجِّ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ ﷻ، فَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُتَضَافِرَةٌ عَلَى وُجُوبِ التَّقْوَى، وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ وَالْأُضْحِيَّةُ مِنْ سُبُلِ التَّقْوَى ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: دِينُ الْإِسْلَامِ دِينٌ يُحِبُّ الْأُلْفَةَ وَالِاجْتِمَاعَ، وَيَكْرَهُ التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ، يَحْرِصُ عَلَى تَوْطِيدِ الْعَلَاقَاتِ، وَتَوْثِيقِ الصِّلَاتِ، وَيَقْطَعُ كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى التَّنَاحُرِ وَالتَّبَاغُضِ.

يَتَجَلَّى ذَلِكَ وَيَظْهَرُ فِي الِاجْتِمَاعَاتِ الْمُصَغَّرَةِ وَالْمُكَبَّرَةِ، وَالْقَصِيرَةِ وَالْمُطَوَّلَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا الْإِسْلَامُ وَدَعَا إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا عِبَادَةً يَتَقَرَّبُ النَّاسُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَا؛ فَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ اجْتِمَاعٌ لِأَصْحَابِ الْحَيِّ الْوَاحِدِ، يَتَعَارَفُونَ وَيَتَآلَفُونَ، وَعَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى يَجْتَمِعُونَ، فَيَجْمَعُهُمْ مَسْجِدُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي دَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ، وَشَعَائِرَ مِنَ الدِّينِ مَعْلُومَةٍ، تُخْتَمُ هَذِهِ الِاجْتِمَاعَاتُ الْمُبَارَكَةُ

بِيَوْمٍ عَظِيمٍ مُبَارَكٍ هُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، حَيْثُ تَجْتَمِعُ جَمَاعَاتُ المَسَاجِدِ فِي المَسْجِدِ الْجَامِعِ، فَتُلْقَى فِيهِ خُطْبَةٌ، وَتُسْمَعُ مَوْعِظَةٌ، وَتُذْكَرُ وَصِيَّةٌ، وَفِي آخِرِهِ سَاعَةُ إِجَابَةٍ، يُجَابُ فِيهَا دَاعٍ، وَيُغْفَرُ لِمُسْتَغْفِرٍ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ، حَتَّى يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْبَلَدِ كُلُّهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ مَرَّةً فِي الْفِطْرِ وَأُخْرَى فِي الْأَضْحَى، يَتَفَقَّدُونَ أَحْوَالَهُمْ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى تَوْجِيهَاتِ أَئِمَّتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، فَيُغَادِرُونَ مُصَلَّاهُمْ وَقَدْ صَفَتْ نُفُوسُهُمْ، وَطَهُرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَأُزِيلَتِ الشَّحْنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ، وَحَلَّ الْوُدُّ وَالْإِخَاءُ.

ثُمَّ يَحْضُرُ المُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْأَرْضِ بِلِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَإِلَى وِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَنَاسِكَ وَاحِدَةٍ، قَدْ زَالَتْ عَنْهُمُ الطَّبَقِيَّاتُ وَالْحِزْبِيَّاتُ، وَتَلَاشَى التَّعَالِي وَالتَّفَاضُلُ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَعْلَنَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**»(١).

فِي الْحَجِّ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- تَتَجَلَّى المُسَاوَاةُ، وَتَزُولُ الْفَوَارِقُ، لَيْسَ لِلْمُلُوكِ

---

(١) أخرجه عن أبي نضرة العبدي عن رجل من الصحابة ﷺ: أحمد (٥/ ٤١١)، وابن المبارك في مسنده (٢٣٩)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٤١٢)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠) وقال عن رواية أحمد: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير من سمع خطبته ﷺ، فإنه لم يسم، وذلك مما لا يضر؛ لأنه صحابي، والصحابة كلهم عدول كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث. اهـ.

وأخرجه عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أبو الشيخ الأصبهاني في التوبيخ والتنبيه (٢٥٠).

وأخرجه عن أبي نضرة عن جابر ﷺ: أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٣٧).

وَالْأُمَرَاءِ، وَلَا لِلشُّرَفَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ مَنَاسِكُ غَيْرَ مَنَاسِكِ النَّاسِ، وَلَا لِبَاسُهُمْ يَخْتَلِفُ عَنْ لِبَاسِ غَيْرِهِمْ، الْكُلُّ سَوَاسِيَةٌ، وَالدَّرَجَاتُ الْعُلَى وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِأَخْلَصِهِمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ ﷻ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَلَعَلَّهُ لَا يَرْجِعُ بَعْدَ حَجِّهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ مَالِهِ الْحَلَالِ مَا يَكُونُ زَادًا وَمَعُونَةً لَهُ فِي حَجِّهِ، وَلَا يَجُوزُ الْحَجُّ بِالمَالِ الْحَرَامِ، فَاللهُ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْتَارَ الرُّفْقَةَ الطَّيِّبَةَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطَلَبَةِ الْعِلْمِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا وَصَلَ المِيقَاتَ أَحْرَمَ وَسَمَّى نُسُكَهُ الَّذِي يُرِيدُ، وَإِنْ نَسِيَ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ تَكْفِيهِ، ثُمَّ يُكْثِرُ مِنَ التَّلْبِيَةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْبَيْتِ، فَيَطُوفُ طَوَافَ الْقُدُومِ، وَيَسْعَى الْمُتَمَتِّعُ لِلْعُمْرَةِ ثُمَّ يُقَصِّرُ شَعْرَهُ وَيُحِلُّ إِحْرَامَهُ. أَمَّا المُفْرِدُ وَالْقَارِنُ فَيَبْقَيَانِ عَلَى إِحْرَامِهِمَا.

ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ، أَحْرَمَ الْمُتَمَتِّعُ بِالْحَجِّ مِنْ مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَذَهَبَ إِلَى مِنًى فَيَبِيتُ بِهَا لَيْلَةَ التَّاسِعِ، وَكَذَا الْمُفْرِدُ وَالْقَارِنُ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ وَلَا يَجْمَعُ، فَإِذَا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ التَّاسِعِ يَذْهَبُ الْحُجَّاجُ إِلَى عَرَفَاتٍ فَيُصَلُّونَ بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ قَصْرًا وَجَمْعَ تَقْدِيمٍ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَيَتَفَرَّغُونَ لِلذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنْهُمْ، رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟**»(٢).

وَفِي حَدِيثٍ مُرْسَلٍ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا**

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (١٣٤٨).

وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»(٣).

(٣) أخرجه مرسلًا من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز: مالك (٥٠٠)، وعبد الرزاق (٨١٢٥)، والبيهقي في الدعوات الكبير، وقال عقبه: وقد روي من حديث مالك بإسناد آخر موصولًا، وهو ضعيف، والمرسل هو المحفوظ (٤٦٨).
وأخرجه موصولًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: الترمذي في الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، وضعفه الترمذي، فقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو: محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث (٣٥٨٥).
وجاء من طريق أخرى موصولة عن أبي هريرة ﷺ عند البيهقي في الشعب، وقال البيهقي: هكذا رواه أبو عبد الرحمن بن يحيى، وغلط فيه، إنما رواه مالك في الموطأ مرسلًا (٤٠٧٢).
قال ابن عبد البر: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندًا من وجه يحتج بمثله. وقد جاء مسندًا من حديث علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو بن العاص؛ فأما حديث علي فإنه يدور على دينار أبي عمرو عن ابن الحنفية، وليس دينار ممن يحتج به، وحديث عبد الله بن عمرو من حديث عمرو بن شعيب وليس دون عمرو من يحتج به فيه. التمهيد (٦/ ٣٩).
وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وذكر شواهده، ثم قال: وجملة القول: أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم (١٥٠٣)، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١١٠٢).
قال ابن عبد البر: وفيه من الفقه: إن دعاء يوم عرفة أفضل من غيره، وفي ذلك دليل على فضل يوم عرفة على غيره، وفي فضل يوم عرفة دليل أن للأيام بعضها فضلًا على بعض، إلا أن ذلك لا يدرك إلا بالتوقيف، والذي أدركنا من ذلك بالتوقيف الصحيح: فضل يوم الجمعة ويوم عاشوراء ويوم عرفة، وجاء في يوم الاثنين ويوم الخميس ما جاء، وليس شيء من هذا يدرك بقياس ولا فيه للنظر مدخل، وفي الحديث أيضًا دليل على أن دعاء يوم عرفة مجاب كله في الأغلب، وفيه أيضًا أن أفضل الذكر لا إله إلا الله. اهـ التمهيد (٦/ ٤١).
وقال ابن تيمية: فجمع في هذا الحديث بين أفضل الدعاء وأفضل الثناء، فإن الذكر نوعان: دعاء وثناء، فقال «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت...» هذا الكلام، ولم يقل: أفضل ما قلت يوم عرفة هذا الكلام، وإنما هو أفضل ما قلت مطلقًا. مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٣٤).

فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ نَفَرَ الْحُجَّاجُ إِلَى مُزْدَلِفَةَ، وَصَلَّوْا بِهَا المَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ جَمْعًا وَقَصْرًا، وَلَا يُحْيِي الْحُجَّاجُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَا بِصَلَاةٍ وَلَا ذِكْرٍ؛ فَالمَنْقُولُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ نَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَمَنْ أَدْرَكَ الْوُقُوفَ بِعَرَفَةَ، وَلَوْ فِي اللَّيْلِ قَبْلَ فَجْرِ يَوْمِ النَّحْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ، مَنْ جَاءَ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ مِنْ لَيْلَةِ جَمْعٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ**»(٤).

فَإِذَا طَلَعَ فَجْرُ يَوْمِ النَّحْرِ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يُسْفِرَ جِدًّا، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى مِنًى فَيَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، فَإِنْ كَانَ مُتَمَتِّعًا أَوْ قَارِنًا يَذْبَحُ هَدْيَهُ، ثُمَّ يَحْلِقُ رَأْسَهُ أَوْ يُقَصِّرُهُ، وَالْحَلْقُ أَفْضَلُ، وَيُحِلُّ إِحْرَامَهُ، ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ فَيَطُوفُ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ، وَيَسْعَى الْمُتَمَتِّعُ سَعْيَ الْحَجِّ، وَأَمَّا الْقَارِنُ وَالْمُفْرِدُ فَيَسْعَيَانِ إِنْ لَمْ يَكُونَا سَعَيَا مَعَ طَوَافِ الْقُدُومِ، وَحِينَئِذٍ يَتَحَلَّلُ الْحَاجُّ التَّحَلُّلَ الْأَكْبَرَ، وَيَحِلُّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَرُمَ عَلَيْهِ بِالْإِحْرَامِ.

---

(٤) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ﷺ: أبو داود في المناسك، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة، وقال: حسن صحيح (٢٩٧٥)، والنسائي في مناسك الحج، باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٥/ ١٦٤-١٦٥)، وابن ماجه في الحج، باب من أتى عرفة قبل الفجر من جمع (٣٠١٥)، والطيالسي (١٣٠٩-١٣١٠)، وأحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٢٢)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي(٢/ ٢٧٨).

وأخرجه الترمذي في الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٩٠)، وقال عقبه: «والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنه من لم يقف بعرفات قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج، ولا يجزئ عنه إن جاء بعد طلوع الفجر، ويجعلها عمرة، وعليه الحج من قابل وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق» .ثم نقل عن وكيع أنه ذكر هذا الحديث، فقال: «هذا الحديث أم المناسك».

ثُمَّ يَبِيتُ بِمِنًى لَيْلَةَ الْحَادِي عَشَرَ وَالثَّانِيَ عَشَرَ وَالثَّالِثَ عَشَرَ إِنْ لَمْ يَتَعَجَّلْ، يَقْصُرُ الرُّبَاعِيَّةَ وَلَا يَجْمَعُ، وَيَرْمِي الْجَمَرَاتِ الثَّلَاثَ: الصُّغْرَى ثُمَّ الْوُسْطَى ثُمَّ الْعَقَبَةَ بَعْدَ الزَّوَالِ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَرْمِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، وَيَجُوزُ الرَّمْيُ لَيْلًا، وَلَا يَجُوزُ التَّوْكِيلُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ الْقُصْوَى، وَلِلْأَسَفِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَسَاهَلُوا فِي التَّوْكِيلِ فِي الرَّمْيِ.

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِيَ عَشَرَ لِمَنْ تَعَجَّلَ يَرْمِي الْحَاجُّ الْجَمَرَاتِ، ثُمَّ يُبَادِرُ بِالِانْصِرَافِ مِنْ مِنًى، فَإِنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَهُوَ لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْ مِنًى بَاتَ لَيْلَةَ الثَّالِثَ عَشَرَ وَرَمَى الْجَمَرَاتِ، إِلَّا إِذَا بَاشَرَ الرَّحِيلَ قَبْلَ الْغُرُوبِ، لَكِنَّ الزِّحَامَ أَعَاقَهُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْ مِنًى قَبْلَ الْغُرُوبِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ، حَتَّى لَوْ أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ فِي مِنًى؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَرِّطْ، وَالْبَقَاءُ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ فِي مِنًى أَفْضَلُ، ثُمَّ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ مِنًى طَافَ طَوَافَ الْوَدَاعِ، وَرَحَلَ إِلَى بَلَدِهِ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا حَاضَتْ أَوْ نَفِسَتْ قَبْلَ أَنْ تَطُوفَ سَقَطَ عَنْهَا طَوَافُ الْوَدَاعِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: مَنْ لَمْ يَحُجَّ فَرْضَهُ فَلْيُبَادِرْ بِالْحَجِّ، وَلَا يُؤَخِّرْهُ؛ فَهُوَ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ﷻ، وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ وَهُوَ قَادِرٌ فَقَدِ ارْتَكَبَ إِثْمًا عَظِيمًا، وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا، وَلَعَلَّهُ يُرِيدُ الْحَجَّ يَوْمًا فَلَا يَسْتَطِيعُهُ، فَلْيُعَجِّلْ مَا دَامَ قَادِرًا، وَمَنْ كَانَ حَجَّ فَرْضَهُ فَلْيَتَزَوَّدْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَيُكْثِرْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَفَضْلُهُمَا عَظِيمٌ، وَثَوَابُهُمَا جَزِيلٌ، وَإِلَيْكُمْ طَرْفًا مِنْ أَقْوَالِ الْمُصْطَفَى ﷺ فِي ذَلِكَ:

فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(٥)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «**الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ**

---

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الحج، باب فضل الحج المبرور (١٥٢١)، ومسلم في الحج، باب في فضل الحج والعمرة، ويوم عرفة (١٣٥٠).

فَأَعْطَاهُمْ»(٦)، وَقَالَ ﷺ: **«تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ»**(٧)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: **«الحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ»**(٨)، وَقَالَ ﷺ: **«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، ثُمَّ الْجِهَادُ، ثُمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تَفْضُلُ سَائِرَ الْعَمَلِ، كَمَا بَيْنَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا»**(٩)، وَعَنْهُ ﷺ أَنَّهُ

---

(٦) أخرجه مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٣)، وذكر البيهقي في الشعب أنه موقوف (٤١٠٨).
وجاء من حديث جابر رضي الله عنه عند: البزار (١١٥٣)، وذكر البيهقي أيضًا أنه موقوف (٤١٠٧).
وجاء مرفوعًا عن أبي هريرة رضي الله عنه: عند ابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٢)، والبيهقي في الشعب وضعفه (٤١٠٦).
وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٢٠) وساق طريقين له، ثم قال: حسن بمجموع طريقيه. وحسنه في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣١٧٣).

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الترمذي في الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود (٨١٠)، والنسائي في مناسك الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٥/ ١١٥)، وأحمد (١/ ٣٨٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٥١٢)، وابن حبان (٣٦٩٣).

(٨) أخرجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها: ابن ماجه في المناسك، باب الحج جهاد النساء (٢٩٠٢)، وأحمد (٦/ ٣١٤)، وأبو يعلى (٦٩١٦)، ونقل الترمذي في العلل عن البخاري قوله: هو حديث مرسل، لم يدرك محمد بن علي أم سلمة (٢٢٠).
لكن يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: **«جِهَادُكُنَّ الحَجُّ»** أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب جهاد النساء (٢٨٧٥).

(٩) أخرجه من حديث ماعز رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٣٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٤٤) رقم (٨٠٩)، وقال المنذري والهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، ينظر: الترغيب والترهيب (٢/ ١٠٦)، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٠٧)، وقال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير: رواه أحمد وإسناده جيد (١/ ١٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩١).
=

قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ عَبْدًا صَحَّحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَا يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ»(١٠). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى من عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا»(١١).

أَيُّهَا المُسْلِمُ: لَعَلَّ هَذِهِ النُّصُوصَ حَافِزَةٌ لَكَ عَلَى تَكْرَارِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَتَتَابُعِهِمَا، وَعَدَمِ التَّقَاعُسِ وَالتَّكَاسُلِ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ إِمْسَاكُ لِسَانِكَ عَنْ تَخْذِيلِ مَنْ يُكْثِرُ مِنْهُمَا يُرِيدُ الْخَيْرَ، فَيُخْشَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنَ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَالمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . .



= وماعز راوي الحديث ذكر الطبراني أنه التميمي، وتبعه ابن منده، وقال: سكن البصرة، وقال ابن عبد البر: لا أقف على نسبه، وقال المنذري: وماعز هذا صحابي مشهور غير منسوب، وقال المناوي: ماعز في الصحابة متعدد، فكان اللائق تمييزه، وقيل: إن هذا غير منسوب. فيض القدير (٢/ ٢٧).

(١٠) أخرجه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أبو يعلى (١٠٣١)، والخطيب في تاريخه (٨/ ٣٢٨)، والبيهقي (٥/ ٢٦٢)، وصححه ابن حبان (٣٧٠٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، ورجال الجميع رجال الصحيح (٣/ ٢٠٦)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وساق له طرقًا عدة، ثم قال: وجملة القول: إن الحديث صحيح قطعًا بمجموع هذه الطرق. والله أعلم (١٦٦٢).

(١١) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: الترمذي في الحج، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر (٨٢٨)، وصححه المناوي في التيسير (٢/ ٣٦٨)، والألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَذِهِ الْأَيَّامُ -أَيَّامُ الْعَشْرِ- أَفْضَلُ أَيَّامِ السَّنَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَقْسَمَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وَقَالَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ**» يَعْنِي: الْعَشْرَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**»(١٢).

فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ خَاصَّةً أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهِيَ التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَالتَّحْمِيدُ، فَقَدْ ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ، «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ يُكَبِّرَانِ، فَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا»(١٣).

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أبو داود في الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٤).

وجاء بلفظ آخر عند: البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٦٩).

(١٣) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٢/ ٢٠)، ووصله عبد بن حميد كما في فتح الباري لابن حجر (٢/ ٣٨١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦٥١).

قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-: «وأما ما ذكره البخاري عن ابن عمر وأبي هريرة، فهو من رواية سلام أبي المنذر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، أن ابن عمر وأبا هريرة كانا يخرجان في العشر إلى السوق يكبران، لا يخرجان إلّا لذلك. خرجه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر في كتاب الشافي، وأبو بكر المروزي القاضي في كتاب العيدين. =

وَيُسَنُّ صِيَامُ تِسْعِ ذِي الْحِجَّةِ؛ فَصِيَامُهَا مِنْ جُمْلَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ المَأْمُورِ بِهِ فِيهَا، وَخَاصَّةً يَوْمَ عَرَفَةَ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالسَّنَةَ الْبَاقِيَةَ»(١٤).

وَمَنْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ فَلَا يَصُومُهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ بِعَرَفَةَ مُفْطِرًا(١٥).

كَذَلِكَ تُسَنُّ الْأُضْحِيَةُ فِي يَوْمِ النَّحْرِ، وَمَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ إِرَاقَةِ الدَّمِ؛ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ(١٦)، وَهَذِهِ الْأَضَاحِيُّ سُنَّةُ أَبِينَا

= ورواه عفان، نا سلام أبو المنذر -فذكره- ولفظه: كان أبو هريرة وابن عمر يأتيان السوق أيام العشر، فيكبران، ويكبر الناس معهما، ولا يأتيان لشيء إلا لذلك.
وروى جعفر الفريابي، من رواية يزيد بن أبي زياد، قال: رأيت سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهدًا -أو اثنين من هؤلاء الثلاثة- ومن رَأينا مِنْ فقهاء الناس يقولون في أَيَّام العَشْر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.
وروى المروزي، عن ميمون بن مهران، قال: أدركت الناس وإنهم ليكبرون في العشر، حتى كنت أشبهه بالأمواج من كثرتها، ويقول: إن الناس قد نقصوا في تركهم التكبير. اهـ من فتح الباري لابن رجب (٦/ ١١٢).

(١٤) أخرجه من حديث أبي قتادة ﷺ: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

(١٥) كما في حديث عمير مولى أم الفضل، عن أم الفضل قالت: «شك الناس يوم عرفة في صوم النبي ﷺ فَبَعَثْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِشَرَابٍ فَشَرِبَهُ» أخرجه البخاري في الحج، باب صوم يوم عرفة (١٦٥٨)، ومسلم في الصيام، باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة (١١٢٣).
قلت: لو لم يقف بعرفة إلا ليلة النحر فإنه يشرع في حقه صوم يوم عرفة، بل هو سنة في حقه كغيره.

(١٦) عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ، إِنَّهُ لَيَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا**» أخرجه الترمذي في الأضاحي، باب ما جاء في فضل الأضحية، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا من هذا الوجه (١٤٩٣)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٤٧)، لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥١١٢).

إِبْرَاهِيمَ وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِنَّ ذَبْحَهَا خَيْرٌ مِنَ التَّصَدُّقِ بِثَمَنِهَا، ثَبَتَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلِلْأُضْحِيَّةِ شُرُوطٌ لَا بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا، وَهِيَ: أَنْ تَبْلُغَ السِّنَّ الْمُعْتَبَرَةَ، وَهِيَ خَمْسٌ لِلْإِبِلِ، وَسَنَتَانِ لِلْبَقَرِ، وَسَنَةٌ لِلْمَعْزِ، وَنِصْفُهَا لِلضَّأْنِ، وَأَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً مِنَ الْعُيُوبِ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِجْزَاءَ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الضَّحَايَا: الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(١٧).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يَخْتَارَ السَّمِينَةَ الطَّيِّبَةَ؛ لِأَنَّهَا قُرْبَانٌ لِلَّهِ ﷻ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْظِيمُهَا: اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِعْظَامُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا(١٨). وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ قَالَ: «كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ»(١٩).

---

(١٧) أخرجه أبو داود في الضحايا، باب ما يكره في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا، باب العجفاء (٧/ ٢١٥ - ٢١٦)، والترمذي في الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عبيد بن فيروز عن البراء، والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم (١٤٩٧)، وأحمد (٤/ ٢٨٤ و٢٨٩)، والطيالسي (٧٤٩)، وصححه ابن خزيمة (٢٩١٢)، وابن حبان (٥٩١٩).

(١٨) ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٨)، والمغني لابن قدامة (٩/ ٣٤٨).

(١٩) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الأضاحي، باب في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين، ويذكر سمينين (٧/ ١٠٠). قال ابن حجر: «وصله أبو نعيم في المستخرج من طريق أحمد بن حنبل عن عباد بن العوام أخبرني يحيى بن سعيد وهو الأنصاري ولفظه: «كان المسلمون يشتري أحدهم الأضحية فيسمنها ويذبحها في آخر ذي الحجة». قال أحمد: هذا الحديث عجيب» فتح الباري (١٠/ ١٠). =

وَمِنْ شُرُوطِ الْأُضْحِيَّةِ: أَنْ تَقَعَ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ، وَهُوَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِيدِ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَالذَّبْحُ فِي النَّهَارِ أَفْضَلُ مِنَ اللَّيْلِ، وَمَنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ الذَّبْحَ فَذَبْحُهَا بِيَدِهِ أَفْضَلُ، وَيُسَمِّي وَيُكَبِّرُ عِنْدَ الذَّبْحِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا لَكَ وَمِنْكَ، اللَّهُمَّ عَنْ فُلَانٍ أَوْ فُلَانَةٍ، وَإِذَا لَمْ يُسَمِّ أَشْخَاصًا أَجْزَأَتِ النِّيَّةُ فِي تَحْدِيدِهِمْ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا أَظْفَارِهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ هِلَالَ ذِي الحِجَّةِ وَأَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ**»(٢٠)، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وَيَتَصَدَّقَ وَيُهْدِيَ، وَلَا يُعْطِي الْجَزَّارَ أُجْرَتَهُ مِنْهَا، إِلَّا أَنْ يُهْدِيَ إِلَيْهِ أَوْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: اتَّقُوا اللهَ ﷻ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ، وَعَظِّمُوهَا كَمَا عَظَّمَهَا رَبُّكُمْ جَلَّ وَعَلَا، وَعَظِّمُوا حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

أَلَا صَلُّوا وَسَلِّمُوا.

= قال القاضي عياض: «ظاهره يعلفونها، وقد يحتمل أن يختاروا سمنها» مشارق الأنوار (٢/ ٢٢٠).

فائدة: نقل القرافي أثر أبي العالية: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون» ثم نقل عن ابن القوطي المالكي أنه يكره؛ لأنه سنة اليهود» الذخيرة (٤/ ١٤٦).

وتعقبه النووي فقال: «وحكى القاضي عياض عن بعض أصحاب مالك كراهة ذلك؛ لئلا يتشبه باليهود، وهذا قول باطل» شرح مسلم (١٣/ ١١٨).

وقال ابن التين: «كان بعض المالكية يكره تسمين الأضحية؛ لئلا يتشبه باليهود، وقول أبي أمامة أحق. قاله الداودي» فتح الباري لابن حجر (١٠/ ١٠).

(٢٠) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره، أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧).

٢٦٥- حجة الوداع (١)
خطب النبي ﷺ فيها

١/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ لَيْسَ يُحْصِيهِ الْعَدُّ؛ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَعَافَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ، وَكَلَّفَهُمْ وَهَدَاهُمْ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ، وَنَوَّعَ لَهُمْ سُبُلَ الْخَيْرِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مَوَاسِمَ وَأَيَّامًا يُفَضَّلُ الْعَمَلُ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا؛ فَضْلًا مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، وَزِيَادَةً فِي ثَوَابِهِمْ إِذَا هُمْ عَمَرُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ الْفَاضِلَةَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ.

وَإِنَّ أَفْضَلَ أَيَّامٍ يُعْمَلُ فِيهَا بِالصَّالِحَاتِ هِيَ أَيَّامُ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، كَمَا قَالَ

النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ**. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)].

وَإِذَا كَانَتْ عَشْرُ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةُ فُضِّلَتْ لَيَالِيهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَإِنَّ أَيَّامَ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ فُضِّلَتْ بِيَوْمِ عَرَفَةَ، وَالْعَمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ فِي أَيَّامِ عَشْرِ رَمَضَانَ كَمَا هُوَ نَصُّ الْحَدِيثِ.

وَمِنَ الْعَمَلِ فِيهَا صِيَامُهَا، وَخَاصَّةً صَوْمَ يَوْمِ عَرَفَةَ لِغَيْرِ حَاجٍّ، وَهُوَ يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالسَّنَةَ الْبَاقِيَةَ، كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه[(٢)].

وَالذِّكْرُ فِيهَا مَأْمُورٌ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧]، وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[(٣)].

وَشُرِعَتْ فِيهَا الْأُضْحِيَّةُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَأَعْظَمُ عِبَادَةٍ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هِيَ إِهْرَاقُ الدَّمِ عَقِبَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَأْخُذْ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق واللفظ له (٩٢٦)، وأبو داود في الصيام، باب صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧).

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة (١١٦٢)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم الدهر تطوعًا (٢٤٢٥)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل صوم يوم عرفة (٧٤٩)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم عرفة (١٧٣٠).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أحمد (٢/ ٧٥)، وأبو عوانة (٣٠٢٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٥٤٤٦).

شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ مُنْذُ دُخُولِ الشَّهْرِ، كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(٤)، وَأَكْبَرُ عِبَادَةٍ فِي هَذَا المَوْسِمِ الْعَظِيمِ: حَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَزِيَارَةُ مَشَاعِرِهِ، وَتَعْظِيمُ شَعَائِرِهِ.

إِنَّ الْحَجَّ رُكْنُ الْإِسْلَامِ الْخَامِسُ، وَفِيهِ عِبَادَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَشَعَائِرُ مُعَظَّمَةٌ؛ تَعْظُمُ بِهَا الْأُجُورُ، وَتَكْثُرُ فِيهَا المَنَافِعُ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧، ٢٨].

حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ حَجَّةً وَاحِدَةً، كَانَتْ أَعْظَمَ حَجَّةٍ فِي التَّارِيخِ وَأَفْضَلَهَا، أَقَامَ فِيهَا شَعَائِرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظَّمَ حُرُمَاتِهِ، وَصَدَعَ بِدِينِهِ، وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ، وَخَطَبَ فِيهِمْ يُعَلِّمُهُمْ وَيُبَشِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ.

لَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْحَجِّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِهِ؛ فَتَجَهَّزُوا لِلْخُرُوجِ مَعَهُ، وَسَمِعَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَ المَدِينَةِ، فَقَدِمُوا يُرِيدُونَ الْحَجَّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَافَاهُ فِي الطَّرِيقِ خَلَائِقُ لَا يُحْصَوْنَ، فَكَانُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ مَدَّ الْبَصَرِ(٥).

---

(٤) وذلك في حديث أم سلمة رضي الله عنها عند: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو يريد أن يضحي أن يأخذ من شعره وأظفاره شيئًا (١٩٧٧)، وأبي داود في الضحايا، باب الرجل يأخذ من شعره في العشر وهو يريد أن يضحي (٢٧٩١)، والترمذي في الأضاحي، باب ترك أخذ الشعر لمن أراد أن يضحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي، باب من أراد أن يضحي فلا يأخذ في العشر من شعره وأظفاره (٣١٤٩).

(٥) جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة النبي ﷺ قال: «إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه...» أخرجه مطولًا مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٩٠٥-١٩٠٧-١٩٠٨-١٩٠٩)، وابن ماجه في المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤).

كُلُّهُمْ شَرُفُوا بِالْحَجِّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَلْ حَجَّةٌ أَفْضَلُ مِنْ حَجَّةٍ يَؤُمُّهُمْ فِيهَا أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ، وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِهِ، وَيُقَلِّدُونَهُ فِي أَفْعَالِهِ، وَيَنْعَمُونَ بِرُؤْيَتِهِ، وَيَسْتَمِعُونَ إِلَى خِطَابِهِ، وَيَأْخُذُونَ عَنْهُ مَنَاسِكَهُمْ، وَيُشَارِكُونَهُ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ؟!

فَيَا لَلَّهِ الْعَظِيمِ! مَا أَعْظَمَ تِلْكَ الْحَجَّةَ! وَيَا لَسَعَادَةِ مَنْ حَضَرَهَا!

إِنَّ مَنْ حَضَرَهَا طَافَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَيْتِ، وَوَقَفَ مَعَهُ فِي عَرَفَةَ، وَفِي الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ فِي مُزْدَلِفَةَ، وَشَارَكَهُ فِي الْهَدْيِ، وَفِي الْجِمَارِ، وَبَاتَ مَعَهُ فِي مِنًى، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ يُعَلِّمُهُمْ مَنَاسِكَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَيَحُضُّهُمْ عَلَى مَا فِيهِ فَلَاحُهُمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِالِاخْتِيَارِ لَاخْتَارَ كُلُّ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحُجُّوا مَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَقَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي عَرَفَةَ، وَخَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةً عَظِيمَةً بَلِيغَةً بَيَّنَ فِيهَا الْحُقُوقَ وَالْحُرُمَاتِ، وَوَضَعَ فِيهَا مَآثِرَ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَأَوْصَى بِالنِّسَاءِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْعِصْمَةِ مِنَ الضَّلَالِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ، فَشَهِدُوا فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ الْعَظِيمِ شَهَادَةً مَا اجْتَمَعَ حَشْدٌ مِثْلُهُ يَشْهَدُونَ عَلَى مِثْلِ مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تِلْكَ الْجُمُوعِ الْعَظِيمَةِ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًّا أَضَعُ رِبَانَا، رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ.**

فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ.

وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(٦).

وَخَطَبَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ النَّحْرِ خُطْبَةً عَظِيمَةً، قَالَ فِيهَا: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقِعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ»، ثُمَّ

(٦) هذه الخطبة جاءت في حديث جابر رضي الله عنه المخرج في حاشية (٥).

قَالَ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(٧)].

وَخَطَبَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةً عَلَّمَهُمْ فِيهَا مَنَاسِكَهُمْ، وَكَانَتْ خُطَبُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبْلُغُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَخِيَامِهِمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يُبَلِّغُهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ جَلَّ جَلَالُهُ، فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاذٍ التَّمِيمِيِّ ﵁ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِنًى فَفَتَحَ اللهُ أَسْمَاعَنَا، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَسْمَعُ مَا يَقُولُ وَنَحْنُ فِي مَنَازِلِنَا، فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ مَنَاسِكَهُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ[(٨)].

وَسُمِّيَتْ حَجَّتُهُ تِلْكَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدَّعَ أَصْحَابَهُ فِيهَا، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»، وَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[(٩)].

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى تَوْدِيعِهِمْ، وَإِعْلَامِهِمْ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ ﷺ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الِاعْتِنَاءِ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ مِنْ مُلَازَمَتِهِ،

---

(٧) أخرجه من حديث أبي بكرة ﵁: البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى (١٧٤١)، ومسلم في القسامة، باب تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٥٤)، وأبو داود في المناسك، باب الأشهر الحرم (١٩٤٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علمًا (٢٣٣)، وأحمد (٥/ ٣٧-٣٩-٤٥-٤٩).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ١٦-٥/ ٣٧٤)، وأبو داود في المناسك، باب النزول بمنى (١٩٥١)، والنسائي في الحج، باب ما ذكر في منى (٥/ ٢٤٩)، والبيهقي (٥/ ١٢٧-١٣٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٨٥).

(٩) أخرجه من حديث جابر ﵁: مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر (١٢٩٧)، وأبو داود في المناسك، باب في رمي الجمار (١٩٧٠)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات (٨٨٦) والرواية الأولى للترمذي والثانية

وَتَعَلُّمِ أُمُورِ الدِّينِ، وَبِهَذَا سُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ»(١٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ، وَعَظِّمُوا شَعَائِرَهُ، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَتْ خُطَبُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ الَّتِي وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا مُتَضَمِّنَةً لِمَعَانٍ عَظِيمَةٍ، وَجَامِعَةً مَا يَحْتَاجُهُ الْمُسْلِمُونَ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ؛ فَفِيهَا بَيَانُ حُرْمَةِ الدَّمِ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالْفِتْنَةِ، وَوَضْعُ مَآثِرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَعْرَافِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَالْوَصِيَّةُ بِالنِّسَاءِ وَبَيَانِ حَقِّهِنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ، وَالْحَثُّ عَلَى الِاعْتِصَامِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَمَنِ اعْتَصَمَ بِهَدْيِهِ فَلَنْ يَضِلَّ.

إِنَّ هَذِهِ الْخُطَبَ الْجَامِعَةَ لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ تَعْظُمُ أَهَمِّيَّةُ تَدَبُّرِهَا، وَالْأَخْذِ بِمَا فِيهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي اخْتَلَطَ فِيهِ الْأَمْرُ، وَعَظُمَ الشَّرُّ، وَكَثُرَ

لمسلم.

الْهَرْجُ، وَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الْفِتَنِ، وَخَاصَّةً مَا يَنْفُثُهُ الْمُنَافِقُونَ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْكَافِرُونَ مِنَ التَّخَلِّي عَنِ الدِّينِ، وَنَبْذِ أَحْكَامِهِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّهَا رَجْعِيَّةٌ لَا تُنَاسِبُ هَذَا الْعَصْرَ. وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ قَدْ أَوْضَحَ لِلْأُمَّةِ أَنَّ مَنِ اعْتَصَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخَذَ بِمَا فِيهِ فَلَنْ يَضِلَّ، وَلَكِنَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَقْهَرُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّخَلِّي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَرْكِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؛ لِيُورِدُوهُمْ مَوَارِدَ الضَّلَالِ وَالْإِثْمِ وَالْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ سُخْرِيَتِهِمْ بِنَا وَبِدِينِنَا أَنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي بِلَادِنَا، يَتَآمَرُونَ عَلَى دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا، وَيَبْحَثُونَ شَأْنَنَا الِاقْتِصَادِيَّ(١١)، فِي ثُلَّةٍ مِمَّنْ يُسَمُّونَهُنَّ سَيِّدَاتِ الْمُجْتَمَعِ، سَافِرَاتٍ مُتَبَرِّجَاتٍ، قَدِ اخْتَلَطْنَ بِالرِّجَالِ، فِيهِنَّ الْعَجُوزُ الْمُتَصَابِيَةُ، وَفِيهِنَّ الْمُرَاهِقَةُ الْجَاهِلَةُ، وَقَدِ اسْتَضَافُوا فِي مُؤْتَمَرِهِمْ مَنْ تَلَطَّخَتْ أَيْدِيهِمْ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ نَهَبُوا ثَرَوَاتِهِمْ؛ لِيَحُلُّوا لَهُمْ مَشَاكِلَهُمُ الِاقْتِصَادِيَّةَ.

وَالْحَدِيثُ فِي الْمُؤْتَمَرِ كَانَ بِلُغَةٍ غَيْرِ لُغَتِنَا، وَلِبَاسُ أَصْحَابِهِ كَانَ اللِّبَاسَ الْإِفْرِنْجِيَّ، وَكَبِيرُهُمْ مِنَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ الَّذِينَ نَهَبُوا ثَرَوَاتِ الْعَالَمِ صَارَ يُفْتِي فِي دِينِنَا، وَيُعَلِّمُنَا كَيْفَ يُفَكِّرُ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَبَنُو دِينِهِ وَقَوْمُهُ كَانُوا بِالْأَمْسِ وَإِلَى الْيَوْمِ يَسُبُّونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَتَّهِمُونَهُ بِالتَّطَرُّفِ وَالْإِرْهَابِ!!

وَبَعْضُ النِّسَاءِ الْمُخْتَارَاتِ لِهَذَا الْمُؤْتَمَرِ لَسْنَ يَعْرِفْنَ مِنْ مَشَاكِلِنَا وَبِلَادِنَا شَيْئًا،

---

(١٠) شرح النووي على مسلم (٩/ ٦٥).

(١١) هذا إشارة إلى المنتدى الاقتصادي الذي عقد في جدة الأسبوع الماضي، وقد دعي إليه الرئيس الأمريكي السابق كلينتون، وحضره عدد من النساء السافرات منهن: لبنى العليان التي ألقت ورقتها باللغة الإنجليزية وهي متزوجة من أمريكي نصراني، والبرنامج كله كان باللغة الإنجليزية، ولباس الرجال كان اللباس الإفرنجي، وكان برنامجًا مختلطًا، والنساء فيه سافرات الوجوه حاسرات الرؤوس متبرجات. نسأل الله لهن الهداية، وأن يكفي المسلمين شرهن.

وَنِسْبَتُهُنَّ إِلَيْهَا تَنْحَصِرُ فِي أَنَّ لَهُنَّ أَجْدَادًا كَانُوا يَوْمًا مَا مِنْ بِلَادِنَا، فَلُغَتُهُنَّ هِيَ لُغَةُ الْبِلَادِ الَّتِي عِشْنَ فِيهَا، وَتَزَوَّجْنَ فِيهَا، وَأَخْلَاقُهُنَّ هِيَ أَخْلَاقُهُمْ، حَتَّى أَمْوَالُهُنَّ وَأَمْوَالُ آبَائِهِنَّ شُغِّلَتْ فِي الْبِلَادِ الَّتِي عِشْنَ فِيهَا، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا الْمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ تَقُومُ الصَّحَافَةُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَالْإِعْلَامُ الْمَأْفُونُ بِتَصْوِيرِ هَؤُلَاءِ السَّافِرَاتِ عَلَى أَنَّهُنَّ سَيِّدَاتُ الْمُجْتَمَعِ، وَالْمُمَثِّلَاتُ لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُصَادِرُ حَقَّ الْمَلَايِينِ مِنَ النِّسَاءِ الْعَفِيفَاتِ، وَالْفَتَيَاتِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا يُعْرَضُ رَأْيُهُنَّ فِي الْحِجَابِ وَفِي الِاخْتِلَاطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَضَايَا النِّسَاءِ، مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الشِّرْذِمَةِ الْقَلِيلَةِ مِنَ السَّافِرَاتِ الْمُتَبَرِّجَاتِ، اللَّائِي يَعْرِضْنَ رَأْيَهُنَّ الْمُنْحَرِفَ فِي ذَلِكَ بِأَقْوَالِهِنَّ وَسُلُوكِهِنَّ، ثُمَّ يُعَمَّمُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ رَأْيُ الْجَمِيعِ، فَأَيْنَ هِيَ الْمَوْضُوعِيَّةُ الَّتِي يَتَشَدَّقُ بِهَا مَنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ؟! وَأَيْنَ الْعَدْلُ؟ أَيْنَ الْعَدْلُ؟!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ فَرْضَ رُؤْيَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ، فِي إِرْهَابٍ فِكْرِيٍّ وَإِعْلَامِيٍّ لَا مَثِيلَ لَهُ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَشْتَكُونَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِبْدَادِ وَالتَّسَلُّطِ السِّيَاسِيِّ وَالدِّينِيِّ؛ فَإِنَّهُمْ يُمَارِسُونَ أَبْشَعَ صُوَرِ الِاسْتِبْدَادِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى دِينِنَا وَأَخْلَاقِنَا وَأَعْرَافِنَا، وَعَلَى حَقِّ نِسَائِنَا فِي حِجَابِهِنَّ وَعِفَّتِهِنَّ وَحِفْظِهِنَّ، وَهُمْ وَهُنَّ ثُلَّةٌ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ وَالْمُنْحَرِفَاتِ لَا تُمَثِّلُ إِلَّا نَفْسَهَا، بَلْ وَتُمَثِّلُ مَنْ يَدْفَعُهَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الْخَيْرَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا.

إِنَّ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ يَجِبُ إِنْكَارُهُ بِالْوَسَائِلِ الْمَأْذُونِ فِيهَا شَرْعًا(١٢)، وَحَسَبَ

---

(١٢) قد أصدر مفتي عام المملكة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ بيانًا يستنكر فيه ما حدث في هذا المؤتمر من الاختلاط، وما تم بعده من إبراز لأحداثه، وللنساء المشاركات فيه، ودعا إلى الإنكار حسب الاستطاعة.

الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، وَكُلٌّ بِحَسَبِهِ، كَمَا يَجِبُ فَضْحُ الْأُطْرُوحَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي تُغَلَّفُ بِأَغْلِفَةٍ تُخَالِفُ مَضْمُونَهَا كَالْإِصْلَاحِ، وَالتَّقَدُّمِ، وَالتَّطَوُّرِ، وَحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ، وَإِعْطَائِهَا حُقُوقَهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشِّعَارَاتِ.

وَقَدْ رَأَيْنَا بِلَادًا حَوْلَنَا كَثِيرَةً أُخْرِجَتْ فِيهَا الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِهَا، وَنَبَذَتْ حِجَابَهَا، وَخَالَطَتِ الرِّجَالَ، وَنَافَسَتْهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَصَارَعَتْهُمْ فِي مَيَادِينِهِمْ، فَمَا رَأَيْنَا بِلَادَهُمْ تَقَدَّمَتْ؛ بَلِ ازْدَادَتْ جَهْلًا إِلَى جَهْلِهَا، وَفَقْرًا إِلَى فَقْرِهَا، وَتَخَلُّفًا إِلَى تَخَلُّفِهَا، وَتَفَكَّكَتْ كَثِيرٌ مِنْ أُسَرِهِمْ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، وَعَمَّ الْجَهْلُ بِالدِّينِ وَأَحْكَامِهِ أَرْجَاءَ بِلَادِهِمْ، وَلَا حَصَّلُوا الدُّنْيَا الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نَبَذُوا الدِّينَ، وَأَفْسَدُوا الْمَرْأَةَ وَالْأُسْرَةَ، فَصَارُوا كَالْمُنْبَتِّ، لَا ظَهْرًا أَبْقَى، وَلَا أَرْضًا قَطَعَ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خُسْرَانِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاحْفَظُوا بُيُوتَكُمْ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ مِنْكُمْ؛ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَمَّتْ، وَلَا تَخُصُّ الْمُفْسِدِينَ وَحْدَهُمْ؛ بَلْ تَعُمُّ الْجَمِيعَ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدْرَأُ الْعُقُوبَاتِ، وَيَرْفَعُ الْبَلَاءَ: الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالسَّعْيَ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، وَشَرَّ كُلِّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا وَالْمُسْلِمِينَ الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَشَرِّ الْمُتَرَبِّصِينَ، وَحَسَدِ الْحَاسِدِينَ، وَأَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



٢٦٦- حجة الوداع (٢)
تحذير أمته من الفتن

٤/ ١٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ كَبِيرٌ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِم عَظِيمٌ؛ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى بِبَعْثَتِهِ إِلَى البَشَرِ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَمُزَكِّيًا وَمُعَلِّمًا؛ فَكَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، دَالًّا عَلَى صِرَاطِ رَبِّهِ المُسْتَقِيمِ ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

بَشَّرَ وَأَنْذَرَ، وَحَذَّرَ وَأَعْذَرَ، اجْتَهَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَيَانِ الحَقِّ لِأُمَّتِهِ، وَمَا تَرَكَ النُّصْحَ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ.

وَفِي حَجَّتِهِ العَظِيمَةِ الَّتِي وَدَّعَ النَّاسَ فِيهَا؛ حَثَّهُمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، وَكَرَّرَ النُّصْحَ لَهُمْ، وَأَعَادَ الْكَلَامَ عَلَيْهِمْ فِي أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَأَمَاكِنَ عِدَّةٍ، وَأَحْوَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

حَذَّرَهُمْ مِنْ عَظِيمَاتِ الْفِتَنِ، وَكَبَائِرِ الْإِثْمِ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا وَمَا يَعْصِمُ مِنْهَا، وَكَانَ فِي خَاتِمَةِ كُلِّ خُطْبَةٍ يُلْقِيهَا، أَوْ نَصِيحَةٍ يُؤَدِّيهَا؛ يُشْهِدُهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ، فَيَشْهَدُونَ، فَيُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى شَهَادَتِهِمْ.

وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ، وَيَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى، وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ عِنْدَ الجَمَرَاتِ.

كَرَّرَ فِي خُطَبِهِ المُتَوَالِيَةِ تَقْرِيرَ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ، وَالتَّأْكِيدَ عَلَى المَعَانِي العَظِيمَةِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ مُفَارِقٌ أَصْحَابَهُ، مُوَدِّعٌ أُمَّتَهُ.

حَذَّرَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ فِي الْبَشَرِ وَهِيَ فِتْنَةُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، كَمَا حَذَّرَهُمْ مِنْ صَغِيرَاتِ الْفِتَنِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى كُبْرَيَاتِهَا، وَبَيَّنَ أَسْبَابَ الْفِتَنِ لِيَجْتَنِبُوهَا، كَمَا دَلَّهُمْ عَلَى مَا يَعْصِمُهُمْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

قَالَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ المَسِيحَ الدَّجَّالَ وَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: **مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ ثَلَاثًا، إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ** ...» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب حجة الوداع (٤١٤١)، وأبو عوانة (٦١٧٦)، وأحمد (٢/ ١٣٥)، وأبو يعلى (٥٥٨٦).

وَحَذَّرَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ فِتَنِ الِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ، وَأَكَّدَ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَلَى حُرْمَةِ المُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ المُسْلِمِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ** -ثَلَاثًا- **وَيْلَكُمْ** -أَوْ وَيْحَكُمْ!- **انْظُرُوا، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(٢).

وَلَمَّا كَانَتِ العَصَبِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ لِعِرْقٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ تُرَابٍ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالِاقْتِتَالِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ؛ نَهَاهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْهَا، وَبَيَّنَ أَنَّ أَصْلَ النَّاسِ وَاحِدٌ؛ فَخَطَبَهُمْ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَاجْتِمَاعُ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ تَفَرُّقِهِمْ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاتِهِمْ سَبَبٌ لِاجْتِنَابِ

---

(٢) هذه قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما المخرج في الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه من حديث أبي نضرة المنذر بن مالك العبدي عن رجل من الصحابة: ابن المبارك في مسنده (٢٣٩)، وأحمد (٥/ ٤١١)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (١/ ١٩٣)، وجهالة صحابيه لا تضر، قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» ينظر: مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦).
وأخرجه من حديث أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه: أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٣٧)، وقال البيهقي: في إسناده بعض من يجهل.
وأخرجه من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البزار كما في مختصر زوائده لابن حجر (١٧٤٥)، والطبراني في الأوسط (٤٧٤٩)، وقال البزار: «لا نعلمه يروى عن أبي سعيد إلا من هذا الوجه» وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: «ورجال البزار رجال الصحيح» (٨/ ٨٤).

الفِتْنَةِ، وَاجْتِمَاعِ الكَلِمَةِ، كَمَا أَنَّ طَاعَةَ الوَالِي المُسْلِمِ سَبَبٌ لِجَمْعِ القُلُوبِ عَلَيْهِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَكَّدَ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي فِي حَجَّتِهِ، قَالَتْ أُمُّ حُصَيْنٍ ﵂: «حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الوَدَاعِ، فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ، وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأُسَامَةُ، أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا كَثِيرًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ -حَسِبْتُهَا قَالَتْ- أَسْوَدُ، يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وَقَالَ جُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ ﵁: «قَامَ رَسُولُ اللَّهِ بِالخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: ... **ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(٥).

وَمِنْ أَعْظَمِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ: أَمْرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى الحَقِّ.

---

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٢)، ومسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة راكبًا (١٢٩٨)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في طاعة الإمام وقال: حسن صحيح (١٧٠٦)، والنسائي في البيعة، باب الحض على طاعة الإمام (٧/ ١٥٤)، وابن ماجه، في الجهاد باب طاعة الإمام (١٨٦١).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وابن ماجه في المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٦)، والدارمي (٢٢٨)، وأبو يعلى (٧٤١٣)، والبزار (٣٤١٧)، والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢) رقم (١٥٤١)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (١/ ١٦٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٢١)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٢) برقم (١٥٣). وقد جاء هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابه منهم: عمر وعثمان وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وأنس والنعمان بن بشير وغيرهم ﵃. ونقل العجلوني في كشف الخفاء أن السيوطي ذكره في الأحاديث المتواترة (٢/ ٤٢٣).

وَلمَّا كَانَ الظُّلْمُ سَبَبًا لِلْفِتَنِ، وَالْغِيبَةُ سَبِيلًا لِلْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ حَذَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَجَّتِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي بِمِنًى أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ: «... **اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، أَلَا لَا تَظْلِمُوا، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ... أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَمِنْ قَائِلٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ، أَوْ قَدَّمْتُ شَيْئًا أَوْ أَخَّرْتُ شَيْئًا، فَكَانَ يَقُولُ: «**لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ، إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧). وَالمَعْنَى: أَنَّهُ عَابَهُ وَنَالَ مِنْهُ، وَقَطَعَهُ بِالْغِيبَةِ(٨).

حَذَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ غُلُوِّ أُمَّتِهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ لِمَا فِي الغُلُوِّ مِنْ تَبْدِيلِ الدِّينِ، وَالِانْحِرَافِ عَنِ الهَدْيِ المُسْتَقِيمِ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ العَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «**الْقُطْ لِي حَصًى. فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ**

---

(٦) أخرجه من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه: أحمد (٥/ ٧٢-٧٣)، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد أخرى، وهي أحاديث خطب النبي ﷺ في حجته.
وأخرجه أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: الروياني في مسنده (١٤١٦).

(٧) أخرجه من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه: أبو داود في المناسك، باب فيمن قدم شيئًا قبل شيء في حجه (٢٠١٥)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، والحميدي (٨٢٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٧٩)، والطبراني في الكبير (١/ ١٨٤) برقم (٤٨٣)، وأبو القاسم البغوى في مسند ابن الجعد (٢٥٨٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، والبيهقي (٥/ ١٩٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٧٧٤)، وابن حبان (٤٨٦)، والحاكم وقال: هذا حديث أسانيده صحيحة كلها على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٢٢٠).

(٨) عون المعبود (٥/ ٣٤٤).

حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ: **أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا**، ثُمَّ قَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(٩).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قَوْلُهُ: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ**» عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الغُلُوِّ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالأَعْمَالِ، وَالغُلُوُّ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ بِأَنْ يُزَادَ فِي حَمْدِ الشَّيْءِ أَوْ ذَمِّهِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَالنَّصَارَى أَكْثَرُ غُلُوًّا فِي الِاعْتِقَادَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ مِنْ سَائِرِ الطَّوَائِفِ، وَإِيَّاهُمْ نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنِ الغُلُوِّ فِي القُرْآنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِى دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]. وَسَبَبُ هَذَا اللَّفْظِ العَامِّ: رَمْيُ الجِمَارِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِيهِ، وَالغُلُوُّ فِيهِ مِثْلُ رَمْيِ الحِجَارَةِ الكِبَارِ وَنَحْوُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَبْلَغُ مِنَ الصِّغَارِ، ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ مُجَانَبَةَ هَدْيِهِمْ مُطْلَقًا -يَعْنِي: النَّصَارَى- أَبْعَدُ عَنِ الوُقُوعِ فِيمَا بِهِ هَلَكُوا، وَأَنَّ المُشَارِكَ لَهُمْ فِي بَعْضِ هَدْيِهِمْ يُخَافُ عَلَيْهِ الهَلَاكُ»(١٠).

وَيُقَابِلُ الغُلُوَّ فِي الدِّينِ، وَالتَّشَدُّدَ بِلَا دَلِيلٍ: التَّفَلُّتُ مِنَ الدِّينِ، وَتَحْرِيفُ الشَّرِيعَةِ، وَتَبْدِيلُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِيُوَافِقَ أَهْوَاءَ البَشَرِ، بَلْ وَالكَذِبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى رَسُولِهِ ﷺ؛ إِرْضَاءً لِلأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ، وَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ وَاقِعٌ فِي أُمَّتِهِ، فَحَذَّرَهُمْ مِنْهُ فِي حَجَّتِهِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي في مناسك الحج، باب التقاط الحصى (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه في المناسك، باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩)، والبيهقي (٥/ ١٢٧)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٣)، وصححه ابن حبان (٣٨٧١)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١/ ٦٣٧).

(١٠) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٤).

الْمُخَضْرَمَةِ بِعَرَفَاتٍ: «**أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟! . . .**»، إِلَى أَنْ قَالَ: «**أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمُ الأُمَمَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» رَوَاهُ ابنُ مَاجَهْ(١١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «**أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَنْظُرُكُمْ، وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَقَدْ رَأَيْتُمُونِي وَسَمِعْتُمْ مِنِّي، وَسَتُسْأَلُونَ عَنِّي؛ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ رِجَالًا أَوْ نَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي آخَرُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»(١٢).

إِنَّهَا مَعَانٍ عَظِيمَةٌ، وَأُصُولٌ كَبِيرَةٌ، أَكَّدَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ، وَكَرَّرَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ؛ نُصْحًا لَهُمْ، وَرَأْفَةً بِأُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يَعْجَبُونَ مِنْ تَأْكِيدِهِ هَذِهِ الْمَعَانِيَ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ

---

(١١) أخرجه ابن ماجه في المناسك، باب الخطبة يوم النحر (٣٠٥٧) من حديث عمرو بن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ.
وأخرجه من حديث عمرو بن مرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ -ولم يسمه-: النسائي في الكبرى (٤٠٩٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٥)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، والظاهر أن الصحابي المبهم هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه كما في رواية ابن ماجه.
وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٠٧): «هذا إسناد صحيح رواه مسدد في مسنده عن يحيى بن سعيد عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ فذكره، وسياقه أتم. . .».
وجاء نحوه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند: الديلمي في مسند الفردوس (١٢٨) وهو حديث ضعيف كما في لسان الميزان (٦/ ١٢٥) ترجمة موسى بن عثمان عن الحكم ابن عتيبة (٤٣٣).
(١٢) هذه الرواية للإمام أحمد (٥/ ٤١٢).

وَتَكْرَارِهَا، وَيَتَكَلَّمُونَ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ وَلَا يَدْرُونَ مَا هِيَ: أَهِيَ وَدَاعُ النَّبِيِّ ﷺ أَمْ غَيرُهُ؟! حَتَّى تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ فَعَلِمُوا عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدَّعَ النَّاسَ بِالْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاهُمْ بِهَا قُرْبَ أَيَّامِ مَوْتِهِ(١٣).

فَهَنِيئًا لِمَنْ فَهِمَ تِلْكَ الوَصَايَا؛ فَأَخَذَ بِهَا، وَيَا شَقَاءَ مَنْ أَغْفَلَهَا أَوْ أَعْرَضَ عَنْهَا!

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: هَذِهِ العَشْرُ المُبَارَكَةُ هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالعَمَلُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ العَمَلِ فِي غَيْرِهَا، بِنَصِّ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ**. يَعْنِي: أَيَّامَ العَشْرِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! قَالَ: **وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ**

(١٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٠٧)، وعمدة القاري (١٨/ ٤٠).

وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»(١٤).

وَمِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي هَذِهِ العَشْرِ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فَإِنَّ الأَيَّامَ المَعْلُومَاتِ هِيَ أَيَّامُ العَشْرِ عِنْدَ جُمْهُورِ العُلَمَاءِ(١٥).

وَرَوَى ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ العَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

وَذَكَرَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَنَّ ابنَ عُمَرَ وَأَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما كَانَا يَخْرُجَانِ إِلَى السُّوقِ فِي أَيَّامِ العَشْرِ يُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاسُ بِتَكْبِيرِهِمَا(١٧).

فَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ العَشْرِ: كَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَآكَدُهُ التَّكْبِيرُ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ الإِكْثَارُ مِنَ التَّكْبِيرِ المُطْلَقِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ العَظِيمَةِ، وَالجَهْرُ بِهِ، ابْتِدَاءً مِنْ دُخُولِ هَذِهِ العَشْرِ فِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤].

---

(١٤) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود واللفظ له في الصوم، باب في صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام العشر (١٧٢٧)، والدارمي (١٧٧٣)، وأحمد (١/ ٢٢٤).

(١٥) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٤٨) وعلّق البخاري في صحيحه في كتاب العيدين باب فضل العمل في أيام التشريق قول ابن عباس رضي الله عنهما: «الأيام المعلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق» (١/ ٣٢٩).

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥)، وعبد بن حميد (٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٥٠).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الكبير (١١/ ٨٢) برقم (١١١١٦).

(١٧) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (١/ ٣٢٩).

فَإِذَا صَلَّى غَيْرُ الحُجَّاجِ فَجْرَ يَوْمِ عَرَفَةَ شُرِعَ التَّكْبِيرُ المُقَيَّدُ مَعَ المُطْلَقِ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ؛ لِفَضْلِ تِلْكَ الأَيَّامِ، وَلِمَزِيَّةِ التَّكْبِيرِ فِيهَا عَلَى غَيْرِهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ»(١٨).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ** عز وجل» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَمِنْ أَعْظَمِ القُرَبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى- فِي يَوْمِ النَّحْرِ: الأُضْحِيَّةُ، وَهِيَ فِعْلُ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، وَفِدَاءُ أَبِينَا إِسْمَاعِيلَ، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ، وَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعَرِهِ وَأَظْفَارِهِ مُنْذُ إِهْلَالِ ذِي الحِجَّةِ حَتَّى

---

(١٨) ينظر: حاشية (١٥).

(١٩) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١)، وأبو داود في الضحايا، باب في حبس لحوم الضحايا (٢٨١٣)، والنسائي في الفرع والعتيرة، باب تفسير العتيرة (٧/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٧٥).

وجاء نحوه من حديث علي رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ٩٢).

ومن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عند: مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤٢).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٢٢٩)، وابن ماجه (١٧١٩).

ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ١٦٩).

وعن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢٠) أخرجه البخاري في الأضاحي، باب من ذبح الأضاحي بيده (٥٢٣٨)، ومسلم في الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير (١٩٦٦).

يَذْبَحَ أُضْحِيَّتَهُ؛ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها(٢١).

وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ فَيُشْرَعُ لَهُ صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَصِيَامُهُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، رَتَّبَ الشَّارِعُ الحَكِيمُ عَلَيْهَا تَكْفِيرَ ذُنُوبِ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ، السَّنَةَ البَاقِيَةَ وَالسَّنَةَ المَاضِيَةَ؛ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(٢٢).

فَلَا يُفَرِّطُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأَرُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَأَكْثِرُوا مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي هَذِهِ العَشْرِ المُبَارَكَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ، مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ؛ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



---

(٢١) روت أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره**» أخرجه مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧)، وأحمد (١٢/ ٣٤١).

(٢٢) روى أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن يوم عرفة فقال: «**يكفر السنة الماضية والباقية . .**» أخرجه مسلم في الصوم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة. . (١١٦٢)، والنسائي في الكبرى (٢٨١٣)، وأحمد (٥/ ٢٩٦).

٢٦٧- حجة الوداع (٣)
مخالفة المشركين

٦/ ١٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، خَلَقَ الإِنْسَ وَالجِنَّ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، أَحْمَدُهُ فَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ، وَأَشْكُرُهُ فَلَا أَحَدَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالشُّكْرِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الشَّرَائِعَ، وَفَرَضَ المَنَاسِكَ؛ سَبِيلًا إِلَى مَرْضَاتِهِ، وَطَرِيقًا يُبَلِّغُ الْعِبَادَ جَنَّاتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا طَرِيقُهُ، وَلَا سُنَّةَ يَجِبُ لُزُومُهَا إِلَّا سُنَّتُهُ؛ تَحَمَّلَ رِسَالَةَ رَبِّهِ فَبَلَّغَهَا، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ فَبَشَّرَهَا وَأَنْذَرَهَا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْكُمْ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَفْضُلُ الزَّمَانُ بِمَا فِيهِ مِنْ شَعَائِرَ، وَيَفْضُلُ المَكَانُ بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَشَاعِرَ، وَيَتَفَاضَلُ البَشَرُ بِتَعْظِيمِ الحُرُمَاتِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالطَّاعَاتِ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ فَضِيلَةُ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالأَشْخَاصِ وَالأَعْمَالِ؛ كَمَا وَقَعَ فِي أَفْضَلِ حَجَّةٍ عَلَى الإِطْلَاقِ، فِي أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي أَقْدَسِ البِقَاعِ عِنْدَهُ، يَؤُمُّ النَّاسَ فِيهَا خَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَفْضَلُ البَشَرِ، فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ مِنْ خِيرَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ، قَدْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

لَقَدْ كَانَتْ حَجَّةُ الوَدَاعِ حَدَثًا مُهِمًّا فِي تَارِيخِ الإِسْلَامِ، خَطَبَ فِيهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَذَكَرَ أُصُولَ الإِسْلَامِ، وَأَوْصَى النَّاسَ، وَبَلَّغَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى بَلَاغِهِ فَشَهِدُوا، فَكَانَ ذَلِكَ تَوْدِيعًا مِنْهُ لِأُمَّتِهِ؛ إِذْ مَا لَبِثَ بَعْدَ حَجَّتِهِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ أَوْ أَقَلَّ فَلَحِقَ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى(١)، فَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ فِي حَجِّهِ كَانَ يُوَدِّعُهُمْ. وَرَغْمَ أَنَّ حَجَّتَهُ ﷺ كَانَتْ أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَإِنَّهَا حَوَتْ مِنَ البَلَاغِ وَالدَّعْوَةِ، وَالعِلْمِ وَالتَّرْبِيَةِ فُصُولًا كَثِيرَةً، أُلِّفَتْ فِيهَا كُتُبٌ، وَأُفْرِدَتْ لَهَا أَبْوَابٌ.

وَمِنْ أَبْرَزِ المَظَاهِرِ وَالشَّعَائِرِ فِي حَجَّتِهِ ﷺ تَعَمُّدُ مُخَالَفَةِ المُشْرِكِينَ فِي هَدْيِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ وَحَجِّهِمْ، وَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِعْلًا فِي مَوَاطِنَ عِدَّةٍ؛ وَصَدَعَ بِهِ قَوْلًا فِي خُطْبَةِ عَرَفَةَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢). وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ: «**وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(٣).

كَيْفَ؟ وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ أَبْطَلَ التَّلْبِيَةَ الشِّرْكِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ شِعَارَ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؛ وَأَبْدَلَ بِهَا التَّوْحِيدَ الخَالِصَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ المُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ

---

(١) تراوحت المدة بين حجته ووفاته من ثمانين يومًا إلى واحد وتسعين يومًا، على خلاف بين العلماء وأهل السير في ذلك. ينظر تفصيله في فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٢٩-١٣٠).

(٢) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبو داود في المناسك، باب حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٤٠٠١)، وابن ماجه في المناسك، باب حجة الرسول ﷺ (٣٠٧٤).

(٣) هذه الرواية من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه عند: أحمد (٥/ ٧٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَيْلَكُمْ قَدِ قَدِ** -أَيْ: يَكْفِيكُمْ هَذَا عَنْ بَاقِي تَلْبِيَتِكُمْ- فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ»(٤).

فَأَبْطَلَ تَلْبِيَتَهُمْ تِلْكَ بِالتَّلْبِيَةِ الشَّرْعِيَةِ المَعْرُوفَةِ، وَأَعَادَ الحَجَّ عَلَى أُصُولِهِ الَّتِي أَذَّنَ بِهَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ؛ كَمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو ابنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ صَفْوَانَ عَنْ يَزِيدَ بنِ شَيْبَانَ قَالَ: «أَتَانَا ابنُ مِرْبَعٍ الأَنْصَارِيُّ وَنَحْنُ بِعَرَفَةَ فِي مَكَانٍ يُبَاعِدُهُ عَمْرٌو عَنِ الإِمَامِ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، يَقُولُ لَكُمْ: **قِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**»(٥).

وَذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَتَابُعَ الأَنْبِيَاءِ ﷺ لِإِحْيَاءِ الشَّعَائِرِ العَظِيمَةِ فِي المَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ فَذَكَرَ مُوسَى وَعِيسَى وَيُونُسَ؛ كَمَا رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ -وَيَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ مِيلَيْنِ- فَقَالَ: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا؟** فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى ﷺ هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ**، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى فَقَالَ: أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟ قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى، قَالَ: **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى ﷺ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خُطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

---

(٤) أخرجه مسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٥)، وما بين المعترضتين ليس من الحديث، وإنما هو مني بيانًا للمعنى.

(٥) أخرجه أبو داود في المناسك، باب موضع الوقوف بعرفة (١٩١٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة (٥/ ١٥٤).

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٦)، وابن ماجه في المناسك، باب الحج على الرحل (٢٨٩١)، وأحمد (١/ ٢١٥).
وقوله: وادي الأزرق: خلف أمج، إلى مكة بميل.. قاله البكري في معجمه (١/ ١٤٦).
وقوله: «ثنيه هرشى» -بفتح الهاء وسكون الراء وألف مقصورة بعد الشين المعجمة-: جبل على طريق الشام والمدينة قريب من الجحفة. ذكره السيوطي في الديباج (١/ ٢١٢). =

وَفِي حَجِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

لَقَدْ أَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ دِينَ المُشْرِكِينَ فِي الحَجِّ؛ وَأَعَادَ مَنَاسِكَهُ عَلَى مُقْتَضَى أَذَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَسُنَنِ الأَنْبِيَاءِ بَعْدَهُ، وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي مَوَاطِنَ عِدَّةٍ؛ فَفِي العُمْرَةِ كَانَ المُشْرِكُونَ يُحَرِّمُونَ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ(٨)، وَالنَّبِيُّ ﷺ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كُلُّهُنَّ فِي ذِي القِعْدَةِ وَهُوَ مِنْ أَشْهُرِ الحَجِّ، بَلْ فِي حَجَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يُحَوِّلُوا نُسُكَهُمْ إِلَى عُمْرَةٍ، ثُمَّ يُحْرِمُوا بِالحَجِّ بَعْدَ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الْفُجُورِ فِي الأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ المُحَرَّمَ صَفَرًا، وَيَقُولُونَ: إِذَا بَرَأَ الدَّبَرْ، وَعَفَا الأَثَرْ، وَانْسَلَخَ صَفَرْ حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرْ، فَقَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مُهِلِّينَ بِالحَجِّ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَتَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الحِلِّ؟ قَالَ: **الحِلُّ كُلُّهُ**»(٩).

= وقوله: «جعدة» أي: مكتنزة اللحم.
وقوله: «خُلبة» -بضم الخاء والتنوين في آخره-: هو الحبل من الليف الصلب الرقيق. ينظر: الديباج (١/ ٢٠٨) ويكون من ليف النخل. كما ذكر القاضي عياض في مشارق الأنوار (١/ ٢٣٦).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم في الحج، باب إهلال النبي ﷺ وهديه (١٢٥٢).

(٨) روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: «اعتمر أربع عمر في ذي القعدة إلا التي اعتمر مع حجته» رواه البخاري (١٦٨٨)، ومسلم (١٢٥٣). ولما حكى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ اعتمر في رجب خطأته عائشة رضي الله عنها كما في البخاري (١٦٨٥)، ومسلم (١٢٥٥).

(٩) أخرجه البخاري في الحج، باب التمتع والإقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي (١٤٨٩)، ومسلم في الحج، باب جواز العمرة في أشهر الحج (١٢٤٠)، والنسائي في مناسك الحج، باب إباحة فسخ الحج بعمرة لمن لم يسق الهدي (٥/ ١٧٧)، وأحمد (١/ ٢٥٢). =

وَلَمَّا حَاضَتْ عَائِشَةُ ﵂ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ فَجَعَلَتْ نُسُكَهَا حَجًّا، وَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّ أَصْحَابِكَ يَرْجِعُ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ غَيْرِي»(١٠)، أَمَرَهَا بِالْعُمْرَةِ بَعْدَ حَجِّهَا، وَكَانَ ذَلِكَ عَظِيمًا فِي دِينِ المُشْرِكِينَ، حَتَّى قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ﵄: «وَاللَّهِ مَا أَعْمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ فِي ذِي الحِجَّةِ إِلَّا لِيَقْطَعَ بِذَلِكَ أَمْرَ أَهْلِ الشِّرْكِ؛ فَإِنَّ هَذَا الحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ وَمَنْ دَانَ دِينَهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا عَفَا الوَبَرْ، وَبَرَأَ الدَّبَرْ، وَدَخَلَ صَفَرْ فَقَدْ حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرَ، فَكَانُوا يُحَرِّمُونَ العُمْرَةَ حَتَّى يَنْسَلِخَ ذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرَّمُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَفِي الطَّوَافِ كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الحُمْسَ -وَالحُمْسُ: قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ- سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَكَانُوا إِذَا أَهَلُّوا بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ لَا يَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَلَا يَضْرِبُونَ وَبَرًا وَلَا شَعَرًا، وَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ وَضَعُوا ثِيَابَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ النَّاسُ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ بِالبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ؛ فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ.

وَفِي الوُقُوفِ بِعَرَفَةَ كَانَتِ الحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ المُزْدَلِفَةِ، وَكَانَ النَّاسُ

= وقولهم «إذا برأ الدبر» بفتح الدال، وهو ما كان يحصل لظهور الإبل جراء الحمل عليها للحج، فإنه يبرأ بعد انصرافهم من الحج.

وقولهم «وعفا الأثر» أي: اندرس أثر الإبل وغيرها في سيرها إلى الحج، ويحتمل: أثر الدبر المذكور آنفًا.

وقولهم «وعفا الوبر» أي: كثر وبر الإبل الذي حلق أو سقط بالرحال. ينظر: فتح الباري (٣/ ٤٢٦)، وشرح النووي على مسلم (٨/ ٢٢٥).

(١٠) أخرجه البخاري في الحج، باب إذا حاضت المرأة بعدما أفاضت (١٦٧٣)، ومسلم في الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١).

(١١) أخرجه أبو داود في المناسك، باب العمرة (١٩٨٧) وصححه ابن حبان (٣٧٦٥).

كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِمْ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَكَانَ الحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنَ المُزْدَلِفَةِ يَقُولُونَ: لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنَ الحَرَمِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] رَجَعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ»(١٢).

وَسَبَبُ فِعْلِهِمْ هَذَا: «أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدِ اسْتَهْوَاهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ عَظَّمْتُمْ غَيْرَ حَرَمِكُمْ اسْتَخَفَّ النَّاسُ بِحَرَمِكُمْ؛ فَكَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الحَرَمِ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ لَا نَخْرُجُ مِنَ الحَرَمِ، وَكَانَ سَائِرُ النَّاسِ يَقِفُ بِعَرَفَةَ»(١٣).

وَخَالَفَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّفْرَةِ مِنْ عَرَفَةَ، وَفِي الدَّفْعِ مِنْ مُزْدَلِفَةَ؛ إِذْ كَانُوا يَنْفِرُونَ مِنْ عَرَفَةَ قَبْلَ الغُرُوبِ، وَيَدْفَعُونَ مِنْ مُزْدَلِفَةَ بَعْدَ الشُّرُوقِ؛ فَنَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَرَفَةَ بَعْدَ الغُرُوبِ، وَدَفَعَ مِنْ مُزْدَلِفَةَ قُبَيْلَ الشُّرُوقِ؛ كَمَا رَوَى المِسْوَرُ ابنُ مَخْرَمَةَ ﵁ فَقَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَةَ؛ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ مِنْ هَاهُنَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حِينَ تَكُونُ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجَالِ عَلَى رُؤُوسِهَا، فَهَدْيُنَا مُخَالِفٌ لِهَدْيِهِمْ، وَكَانُوا يَدْفَعُونَ مِنَ المَشْعَرِ الحَرَامِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ عَلَى رُؤُوسِ الجِبَالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجَالِ عَلَى رُؤُوسِهَا فَهَدْيُنَا مُخَالِفٌ لِهَدْيِهِمْ**» رَوَاهُ الحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ(١٤).

وَرَوَى عَمْرُو بنُ مَيْمُونٍ ﵁ فَقَالَ: «شَهِدْتُ عُمَرَ ﵁ صَلَّى بِجَمْعٍ الصُّبْحَ ثُمَّ

(١٢) أخرجه البخاري في الحج، باب الوقوف بعرفة (١٥٨٢)، ومسلم في الحج، باب في الوقوف (١٢١٩).

(١٣) ينظر: فتح الباري (٣/ ٥١٦).

(١٤) أخرجه البيهقي (٥/ ١٢٥)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٣٠٤).

وَقَفَ فَقَالَ: إِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُفِيضُونَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَيَقُولُونَ: أَشْرِقْ ثَبِيرُ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَالَفَهُمْ ثُمَّ أَفَاضَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١٥).

وَكَانَ مِنْ مُبَالَغَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُخَالَفَةِ المُشْرِكِينَ وَمُرَاغَمَتِهِمْ، وَإِبْطَالِ دِينِهِمْ: أَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ الأَمَاكِنَ الَّتِي تَوَاصَوْا فِيهَا عَلَى الشِّرْكِ وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، وَيُقِيمُ فِيهَا مَعَالِمَ التَّوْحِيدِ، وَيَشْكُرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَدَحْرِ الكُفْرِ وَأَهْلِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جَمَعَ قُرَيْشًا إِبَّانَ صَدْعِهِ بِدَعْوَتِهِ، وَصَعِدَ الصَّفَا، وَقَالَ: «**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ: أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!(١٦) وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ هَذِهِ الحَادِثَةِ يَصْعَدُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا فِي حَجَّتِهِ حَتَّى رَأَى البَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٧).

وَنَزَلَ فِي حَجَّتِهِ فِي المَكَانِ الَّذِي تَقَاسَمَ فِيهِ المُشْرِكُونَ وَتَعَاهَدُوا عَلَى مُقَاطَعَةِ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا لَمْ يُسْلِمُوهُ لِلْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الغَدِ يَوْمَ النَّحْرِ وَهُوَ بِمِنًى: «**نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي**

---

(١٥) أخرجه البخاري في الحج، باب متى يدفع من جمع (١٦٠٠)، وأبو داود في المناسك، باب الصلاة بجمع (١٩٣٨)، والترمذي في الحج، باب ما جاء أن الإفاضة من جمع قبل طلوع الشمس (٨٩٦)، وابن ماجه في المناسك، باب الوقوف بجمع (٣٠٢٣).

(١٦) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في التفسير باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٤٤٩٢)، ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٨).

(١٧) هذا جزء من حديث جابر رضي الله عنه المخرج في حاشية (٢).

كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الكُفْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَكِنَانَةَ تَحَالَفَتْ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ أَنْ لَا يُنَاكِحُوهُمْ وَلَا يُبَايِعُوهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ ﷺ»(١٨).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قِيلَ إِنَّمَا اخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ النُّزُولَ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ لِيَتَذَكَّرَ مَا كَانُوا فِيهِ؛ فَيَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الفَتْحِ العَظِيمِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ ظَاهِرًا عَلَى رَغْمِ أَنْفِ مَنْ سَعَى فِي إِخْرَاجِهِ مِنْهَا، وَمُبَالَغَةً فِي الصَّفْحِ عَنِ الَّذِينَ أَسَاءُوا، وَمُقَابَلَتِهِمْ بِالمَنِّ وَالإِحْسَانِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»(١٩).

وَصَدَقَ اللهُ العَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

(١٨) أخرجه البخاري في الحج، باب نزول النبي ﷺ إلى مكة (١٥١٣)، ومسلم في الحج، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به (١٣١٤).

(١٩) فتح الباري (٨/ ١٥) وعنه: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٦٧).

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الكِتَابِ، لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقْصِدُ مُخَالَفَةَ المُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ عُبَّادُ أَوْثَانٍ. فَأَهْلُ الكِتَابِ أَقْرَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ وَلِذَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِانْتِصَارِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرَحُونَ بِانْتِصَارِ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ وَثَنِيَّةٍ مِثْلُهُمْ.

فَلَمَّا كَمُلَتْ أَحْكَامُ الإِسْلَامِ، وَاسْتَقَرَّتْ شَرَائِعُهُ؛ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَالَفَةَ عُمُومِ الكُفَّارِ، وَحَذَّرَ مِنْ تَوَلِّيهِمْ، وَمِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ أَمْ عُبَّادَ أَوْثَانٍ.

إِنَّ مِنْ طَبِيعَةِ الخُرَافَةِ سُرْعَةَ سَرَيَانِهَا فِي النَّاسِ، وَمِنْ طَبَائِعِ البَشَرِ تَنَاقُلَ العَادَاتِ وَالأَخْلَاقِ وَالشَّعَائِرِ بَيْنَهُمْ، وَالدِّينُ لَا يَكُونُ دِينًا صَحِيحًا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِحِفْظِهِ مِنْ عَبَثِ العَابِثِينَ، وَتَحْرِيفِ المُحَرِّفِينَ؛ وَلِذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ شَدِيدَةً وَحَاسِمَةً فِي أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ: الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، وَالتَّشَبُّهِ بِالكَافِرِينَ، فَمَنَعَتْهُمَا، وَأَوْصَدَتِ السُّبُلَ إِلَيْهِمَا؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ البِدْعَةِ أَنْ تُغَيِّرَ مَعَالِمَ المِلَّةِ، وَمِنْ أَثَرِ التَّشَبُّهِ مُتَابَعَةُ المُتَشَبَّهِ بِهِ فِي هَدْيِهِ وَسَمْتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ وَعَادَاتِهِ، إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى التَّشَبُّهِ بِهِ فِي شَعَائِرِ دِينِهِ؛ كَالأَعْيَادِ، وَالِانْحِنَاءِ عِنْدَ التَّحِيَّةِ، وَاتِّخَاذِ الصُّلْبَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالهَجْمَةُ الشَّرِسَةُ عَلَى الإِسْلَامِ الحَقِّ وَأَهْلِهِ مِنْ قِبَلِ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ تَسْلُكُ

هَذَيْنِ المَسَارَيْنِ: نَشْرَ البِدْعَةِ، وَالدَّعْوَةَ إِلَى التَّشَبُّهِ؛ أَمَّا نَشْرُ البِدْعَةِ فَبِالسَّمَاحِ لِلْمُبْتَدِعَةِ بِإِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ لِتُضَاهِيَ الشَّعَائِرَ المُحَمَّدِيَّةَ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا تَحْتَ شِعَارِ الحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا الدَّعْوَةُ إِلَى التَّشَبُّهِ فَتَأْخُذُ أَشْكَالًا عِدَّةً مِنْ مُوَافَقَةِ الكَافِرِينَ فِي طَرَائِقِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ -وَلَوْ كَانَ فِيهَا مَا فِيهَا مِنْ تَقْدِيمِ المَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ- إِلَى اسْتِنْسَاخِ مَوَادِّهِمُ الإِعْلَامِيَّةِ المَوْبُوءَةِ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ العَرَبُ لَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، حَتَّى يَبْلُغَ أَحْقَرَ الأَشْيَاءِ وَأَتْفَهَهَا؛ كَتَقْلِيدِهِمْ فِي أَزْيَائِهِمْ، وَتَسْرِيحَاتِ شُعُورِهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ كِلَابَهُمْ.

وَلَوْ أَنَّ مَنْ وَقَعُوا فِي هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي يُلْغِي الشَّرِيعَةَ الرَّبَّانِيَّةَ، وَيُخَالِفُ الهَدْيَ النَّبَوِيَّ قَصَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَكَانَ إِثْمُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُجَاهِرُونَ بِهِ أَمَامَ النَّاسِ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ، وَيُحَارِبُونَ مَنْ يُحَذِّرُ مِنَ اتِّبَاعِهِمْ فِي طَرِيقِهِمُ الخَاطِئَةِ، بَلْ بَلَغُوا مَبْلَغًا شَنِيعًا حِينَ طَالَبُوا بِتَبْدِيلِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ إِجْرَاءِ تَعْدِيلَاتٍ عَلَيْهَا؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَ الكَافِرِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ؛ حَتَّى قَالَ القَائِلُونَ مِنْهُمْ: «إِنَّ بِاسْتِطَاعَتِهِمْ جَمْعَ الشُّذُوذَاتِ الفِقْهِيَّةِ لِيُشَكِّلَ مِنْهَا إِسْلَامٌ لِيبْرَالِيٌّ لَا وُجُودَ فِيهِ لِمُحَرَّمَاتٍ البَتَّةَ سِوَى المُحَرَّمَاتِ اللِّيبْرَالِيَّةِ، وَلَا وَاجِبَاتٍ مَفْرُوضَةٍ غَيْرِ الحُرِّيَّةِ»(٢٠).

إِنَّهُ ضَلَالٌ عَظِيمٌ، وَإِثْمٌ مُبِينٌ، وَحَيْدَةٌ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي ارْتَضَاهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ الإِسْلَامُ مُتَضَرِّرًا مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَحْفُوظٌ بِأَمْرِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ

---

(٢٠) سمعت هذا الضلال في برنامج حواري استضيف فيه أحد الليبراليين اللبنانيين في قناة الحرة الأمريكية.

خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام، وَلَكِنَّ الضَّرَرَ العَظِيمَ عَلَى أَغْرَارِ المُسْلِمِينَ وَجَهَلَتِهِمْ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ، زُيِّنَ فِي نُفُوسِهِمْ هَذَا الانْحِلَالُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَسُوِّغَ بِمُسَوِّغَاتِ الشُّذُوذِ الفِقْهِيِّ، عَلَى أَيْدِي المَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ!

وَإِنَّ الوَاجِبَ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى أَثَرَةً مِنْ عِلْمٍ، وَحَظًّا مِنْ فِقْهٍ وَدَعْوَةٍ؛ حِمَايَةُ النَّاسِ مِنْ هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي يُنْشَرُ فِي أَوْسَاطِهِمْ بِفَضْحِهِ وَبَيَانِ بُطْلَانِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ دُعَاتِهِ وَأَزْلَامِهِ، كَمَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَلَّا يُسْلِمَ عَقْلَهُ لِكُلِّ مُتَكَلِّمٍ وَكَاتِبٍ؛ بِحُجَّةِ أَنَّهُ يُمَيِّزُ الحَقَّ مِنَ البَاطِلِ؛ فَإِنَّ الشُّبُهَاتِ تَرِدُ عَلَى القُلُوبِ شَيْئًا شَيْئًا حَتَّى تَفْتِكَ بِهَا، وَالَّذِينَ أَلْحَدُوا مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ مَا كَانَ إِلْحَادُ الوَاحِدِ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَإِنَّمَا بَعْدَ كَمٍّ كَبِيرٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تَشَرَّبُوهَا، وَاسْتَسْلَمُوا لَهَا فَآلَتْ بِهِمْ إِلَى الخُرُوجِ عَنِ الإِسْلَامِ إِلَى الإِلْحَادِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى العِصْمَةَ وَالسَّلَامَةَ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ تَرْبِيَةُ أَوْلَادِهِمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لِأَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ، وَالإِذْعَانِ لَهَا دُونَ جِدَالٍ وَمُنَاقَشَةٍ؛ لِأَنَّ الجَدَلَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَذَلِكَ خِلَافُ مَا يُقَرِّرُهُ أَهْلُ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ وَالإِلْحَادِ مِنْ تَقْرِيرِهِمُ الشَّكَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ ثَمَّ مُنَاقَشَتُهُ وَالتَّحَاوُرُ فِيهِ، حَتَّى قَالُوا بِلُزُومِ الشَّكِّ فِي وُجُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَفَتْحِ أَبْوَابِ المُنَاقَشَةِ وَالحِوَارِ فِي ذَلِكَ، عَلَى طَرِيقَةِ المُتَزَنْدِقِينَ مِنْ قُدَمَاءِ الفَلَاسِفَةِ. نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهُمْ وَمِنْ مَنَاهِجِهِمُ المُنْحَرِفَةِ، وَنَسْأَلُهُ العِصْمَةَ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، كَمَا نَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الحَقِّ إِلَى المَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ ....

٢٦٨- مظاهر التوحيد في الحج (١)
بناء البيت على التوحيد

١/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِنْعَامًا، وَكَلَّفَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ابْتِلَاءً مِنْهُ وَامْتِحَانًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]. نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ وَهَدَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الْحَجَّ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفُرْقَانًا بَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَرَاغَمَ بِمَنَاسِكِهِ وَشَعَائِرِهِ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ حَجَّ حَجَّةً وَاحِدَةً، أَقَامَ فِيهَا التَّوْحِيدَ، وَأَبَانَ الْمَنَاسِكَ، وَوَدَّعَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»، فَسُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَجُّ تَوْحِيدٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ وَمَنَاسِكِهِ؛ فَزَمَانُهُ هُوَ الزَّمَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ فِيهِ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٧]، وَمَنَاسِكُهُ قَدْ جَمَعَتْ بَيْنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَخَلْعِ مَا سِوَاهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ، فَقُلُوبُ الْحَجِيجِ مُتَّجِهَةٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تُلَبِّي لَهُ وَتُكَبِّرُهُ، وَتَذْكُرُهُ وَتَشْكُرُهُ، وَتَسْتَغْفِرُهُ وَتَسْأَلُهُ،

فَسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ قُلُوبَ الْحَجِيجِ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ!

وَأَمَّا مَكَانُ المَنَاسِكِ فَلَهُ قِصَّةٌ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ عَظِيمَةٌ، وَالْبَيْتُ الْعَظِيمُ شَيَّدَتْهُ أُسْرَةٌ نَبَعَ مِنْهَا التَّوْحِيدُ بَعْدَ انْتِشَارِ الشِّرْكِ فِي الْبَشَرِ، وَأَنْجَبَتِ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عليهم السلام عَقِبَ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَانْقِطَاعِ الْوَحْيِ.

إِنَّهَا أُسْرَةُ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، مُمَثَّلَةٌ فِي شَخْصِهِ الْكَرِيمِ، وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ أُمُّكُمُ الصَّالِحَةُ هَاجَرُ عليها السلام، وَهِيَ أُسْرَةُ تَوْحِيدٍ وَإِيمَانٍ، أَخْلَصَتْ دِينَهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَنَابَذَتِ الشِّرْكَ وَالْأَوْثَانَ، وَتَحَمَّلَتْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْعَنَتَ وَالمَشَقَّةَ، وَالْهِجْرَةَ وَالْوَحْدَةَ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهَا حَمِيدَةً؛ إِذْ شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى -بَعْدَ مَوْجَاتٍ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ- بِأَنْ تَكُونَ بَانِيَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالمُؤَذِّنَةَ بِالْحَجِّ فِي النَّاسِ، وَبَارَكَ فِي عَقِبِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، مِنْهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الثَّلَاثَةُ: مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام هُوَ إِبْرَاهِيمُ، وَكَيْفَ لَا يَعْرِفُ إِبْرَاهِيمَ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ!! هُوَ أَبُو المُوَحِّدِينَ بَعْدَ آدَمَ وَنُوحٍ عليهما السلام، وَهُوَ الْإِمَامُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى أُمَّةً، وَحَمَلَ رَايَةَ التَّوْحِيدِ وَحْدَهُ، وَوَاجَهَ الشِّرْكَ وَالْوَثَنِيَّةَ بِمُفْرَدِهِ، بِالْجِهَادِ وَالمُفَاصَلَةِ، وَبِالْحِجَاجِ وَالمُنَاظَرَةِ.

إِنَّهُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام الَّذِي نَاظَرَ النُّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، فَثَبَتَ أَمَامَهُ بِلَا خَوْفٍ وَلَا وَجَلٍ، وَبَرْهَنَ لَهُ أَنَّهُ الْعَبْدُ الْحَقِيرُ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الرَّبُّ الْكَبِيرُ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٨].

وَتَنَزَّلَ فِي مُنَاظَرَتِهِ مَعَ الصَّابِئَةِ مِنْ قَوْمِهِ فَحَجَّهُمْ بِأُفُولِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ، وَأَعْلَنَ تَوْحِيدَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبَرَاءَتَهُ مِنْ شِرْكِ قَوْمِهِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٨١].

إِنَّهُ الْخَلِيلُ الَّذِي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ؛ دَحْرًا لِلشِّرْكِ وَإِقَامَةً لِلتَّوْحِيدِ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٩١-٩٦]، فَأَلْقَاهُ قَوْمُهُ فِي النَّارِ عِقَابًا لَهُ، بَعْدَ أَنْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، وَأَبَانَ لَهُمُ المَحجَّةَ، وَأَثْبَتَ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى نَجَّاهُ مِنْهَا ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدٗا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٧٠].

فَلَمَّا لَمْ يَرَ اسْتِجَابَتَهُمْ لِدَعْوَتِهِ لِلتَّوْحِيدِ، وَأَيْقَنَ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ، هَجَرَهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ لِيُقِيمَ التَّوْحِيدَ فِي بِلَادٍ أُخْرَى ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مَريَم: ٤٨]، فَرَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً بِإِيمَانِهِ وَدَعْوَتِهِ، وَصِدْقِهِ وَيَقِينِهِ، وَصَبْرِهِ وَإِخْلَاصِهِ، فَدَعَا أَنْ يَحْفَظَهُ رَبُّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ الشِّرْكِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٣٥، ٣٦].

تِلْكَ هِيَ أَجْزَاءٌ مِنْ سِيرَةِ بَانِي الْبَيْتِ، وَهِيَ سِيرَةُ مُوَحِّدٍ لِلَّهِ تَعَالَى، مَنَابِذٍ لِلشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ، وَقَدْ تَحَمَّلَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ أَلْوَانًا مِنَ المَشَقَّةِ وَالأَذَى، وَشَارَكَهُ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام وَهُوَ عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَا وَالِدُهُ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَدَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الصَّابِرِينَ الأَخْيَارِ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٨٥]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [سورة ص: ٤٨]، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِإِيمَانِهِ وَصَلَاحِهِ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٤، ٥٥].

وَابْتُلِيَ هُوَ وَوَالِدُهُ عليهما السلام بِأَعْظَمِ مَا يُبْتَلَى بِهِ ابْنٌ وَأَبُوهُ؛ إِذْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَنْحَرَ إِسْمَاعِيلَ بِيَدِهِ، فَبَادَرَ إِبْرَاهِيمُ وَاضْطَجَعَ إِسْمَاعِيلُ، بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا تَفْكِيرٍ، طَائِعِينَ أَمْرَ رَبِّهِمَا، مُسْتَسْلِمِينَ لَهُ، فَأَيُّ تَوْحِيدٍ وَإِيمَانٍ وَيَقِينٍ قَدْ مَلَأَ قَلْبَيْهِمَا، فَمَا طَلَبَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْبَلَاءِ، وَلَا امْتَنَعَ إِسْمَاعِيلُ عَنْ تَنْفِيذِهِ، بَلْ بَادَرَ يَحُثُّ أَبَاهُ عَلَى الِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢-١٠٦].

وَأُمُّ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ الَّذِي شَارَكَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ هِيَ هَاجَرُ عليها السلام، الَّتِي ابْتُلِيَتْ أَعْظَمَ الْبَلَاءِ بِتَوْطِينِهَا وَرَضِيعِهَا فِي وَادِي مَكَّةَ، وَهُوَ الْوَادِي الْمُقْفِرُ مِنْ أَسْبَابِ

الْحَيَاةِ، فَسَلَّمَتْ أَمْرَهَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَضِيَتْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟! فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟! قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا».

وَفِي رِوَايَةٍ: «نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ: إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟! قَالَ: إِلَى اللَّهِ، قَالَتْ: رَضِيتُ بِاللَّهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)].

فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- كَيْفَ بَلَغَ رِضَاهَا بِاللَّهِ ﷻ، وَيَقِينُهَا بِهِ سُبْحَانَهُ، وَتَوَكُّلُهَا عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، حَتَّى رَضِيَتْ أَنْ تَبْقَى فِي ذَلِكَ الْوَادِي الْمَهْجُورِ الْمُقْفِرِ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَنْ يُضَيِّعَهَا وَرَضِيعَهَا، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ مَدَدِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا بِمَاءِ زَمْزَمَ، وَقُدُومِ قَبِيلَةِ جُرْهُمَ؛ حَتَّى عُمِرَتْ مَكَّةُ بَعْدَ إِقْفَارِهَا، وَاسْتُوْطِنَتْ بَعْدَ هِجْرَانِهَا، وَأَوَّلُ مَنِ اسْتَوْطَنَهَا هِيَ وَابْنُهَا عليهما السلام.

لَقَدْ عَلِمَتْ أُمُّكُمْ هَاجَرُ عليها السلام أَنَّ حَالَ مَكَّةَ سَيَتَغَيَّرُ، وَسَتَكُونُ مَهْوَى الْأَفْئِدَةِ، وَمَقْصِدَ الْحُجَّاجِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ تَسْعَى بَحْثًا عَنِ المَاءِ، وَجَاءَ المَلَكُ فَنَبَعَ زَمْزَمُ؛ قَالَ لَهَا عليه السلام: «لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتًا لِلَّهِ ﷻ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولًا موقوفًا: البخاري في: الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي (٣١٨٤)، والنسائي في الكبرى (٨٣٧٩)، وعبد الرزاق (٩١٠٧)، والبيهقي (٥/ ٩٨). والرواية الثانية للبخاري (٣١٨٥).

وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

تِلْكَ هِيَ الْأُسْرَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي شَرُفَتْ بِاسْتِيطَانِ مَكَّةَ، وَبِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهِيَ أُسْرَةُ تَوْحِيدٍ وَعِلْمٍ، وَتَوَكُّلٍ وَيَقِينٍ، ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْ مَوَاقِفِ الِابْنِ وَأَبِيهِ وَأُمِّهِ عليهم السلام.

بَلْ إِنَّ الْمَقْصِدَ الْأَعْظَمَ الَّذِي تَرَكَ مِنْ أَجْلِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام زَوْجَهُ وَوَلَدَهُ فِي مَكَّةَ إِنَّمَا كَانَ إِقَامَةَ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ بِجَلَاءٍ فِي دَعْوَةِ الْخَلِيلِ حِينَ فَارَقَهُمْ مُتَّجِهًا إِلَى الشَّامِ؛ إِذْ لَهِجَ لِلَّهِ تَعَالَى دَاعِيًا ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وَمَرَّتِ السِّنُونَ، وَأَزْهَرَتْ مَكَّةُ بِسَاكِنِيهَا، فَجَاءَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِبِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَسَافَرَ مِنَ الشَّامِ إِلَى مَكَّةَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ الْجَلِيلَةِ، وَالْتَقَى الِابْنُ بِأَبِيهِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ طُولِ الْفِرَاقِ، فَجَرَى بَيْنَهُمَا مَا يَجْرِي بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ مِنَ الْمُصَافَحَةِ وَالْعِنَاقِ، فَقَالَ: «يَا إِسْمَاعِيلُ: إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ، فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٧]، حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

وَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْهُمَا عليهما السلام وَهُمَا يَبْنِيَانِ الْبَيْتَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوْحِيدِهِمَا،

---

(٢) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في حاشية (١).

(٣) قطعه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في حاشية (١)

وَرَجَائِهِمَا فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَخَوْفِهِمَا أَنْ لَا يُقْبَلَ عَمَلُهُمَا، وَكَانَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ يَبْكِي إِذَا قَرَأَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾، ثُمَّ يَقُولُ: «يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ: تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ مُشْفِقٌ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْكَ!!»(٤).

وَمِنْ أَبْيَنِ دَلَائِلِ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام الْبَيْتَ عَلَى التَّوْحِيدِ أَنَّهُ دَعَا حَالَ بِنَائِهِ لَهُ وَلِوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا، كَمَا دَعَا بِبَعْثَةِ إِمَامِ الْمُوَحِّدِينَ، فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَهُ، وَبَعَثَ سَيِّدَ الْبَشَرِ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ مِنْ مَكَّةَ؛ لِيُقَرِّرَ التَّوْحِيدَ، وَيَمْحُوَ الشِّرْكَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَهُوَ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ: دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٥).

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٤٠)، وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٦).

(٥) أخرجه من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: أحمد (٤/ ١٢٧-١٢٨)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٠٣٥)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٠١)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٣٦) وفي الأوسط (٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٨٩)، وابن عساكر في تاريخه (١/ ١٦٨)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٥٢) رقم (٦٢٩) وفي مسند الشامين (١٤٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ٨٧)، وصححه ابن حبان (٤٦٠٤) والحاكم (٢/ ٤٥٣)، وحسنه ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٧٢٨)، والذهبي في تاريخ الإسلام (١/ ٤٢).

وأخرجه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٢٦٢)، والطيالسي (١١٤٠)، والروياني =

وَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عليهما السلام مَوْضِعَ الْمَنَاسِكِ، وَمَكَانَ الطَّوَافِ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِتَطْهِيرِهِ مِنْ كُلِّ مَا يُعَارِضُ التَّوْحِيدَ ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٥].

= (١٢٦٧)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٢٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥) رقم (٧٧٢٦) وفي مسند الشاميين (١٥٨٢)، وابن عساكر (١/ ١٦٧)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي (٩٢٧).
وأخرجه من حديث خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ: ابن عساكر (١/ ١٧٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٦٥٦)، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦١).
قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «قوله: «لمنجدل» أي: مطروح على وجه الأرض صورة من طين، لم يجر فيه الروح بعد. ودعوة إبراهيم عليه السلام قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشارة عيسى عليه السلام قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]» شرح السنة (١٣/ ٢٠٧).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «وأما ما يَرْوِيه هؤلاء الجهال: كابن عربي في الفصوص وغيره من جهال العامة «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين، كنت نبيًّا وآدم لا ماء ولا طين» فهذا لا أصل له، ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ، بل هو باطل؛ فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط؛ فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتى صار طينًا، وأيبس الطين حتى صار صلصالًا كالفخار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين، ولو قيل بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها وإنما قال: «بين الروح والجسد»، وقال: «وإن آدم لمنجدل في طينته»؛ لأن جسد آدم بقي أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ الآيتين. والأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما. فأخبر ﷺ أنه كان نبيًّا؛ أي: كُتِبَ نَبِيًّا وآدم بين الروح والجسد. وهذا -والله أعلم- لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذي يكون بأيدي ملائكة الخلق، فيقدر لهم، ويظهر لهم، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه» مجموع الفتاوى (٢/ ١٤٧-١٤٨).

وَلمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ الْبَيْتِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَبَنَاهُ إِمَامُ المُوَحِّدِينَ فِي وَقْتِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِأَنْ يَقْصِدُوا هَذَا الْبَيْتَ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧، ٢٨]، فَأَذَّنَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام يَدْعُو المُوَحِّدِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ لِيَثُوبُوا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَاسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ، وَنَكَلَ عَنْهَا المُشْرِكُونَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ؛ قِيلَ لَهُ: أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا يَبْلُغُ صَوْتِي؟! قَالَ: أَذِّنْ وَعَلَيَّ الْبَلَاغُ. فَنَادَى إِبْرَاهِيمُ: أَيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَحُجُّوا. قَالَ: فَسَمِعَهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ أَفَلَا تَرَى النَّاسَ يَجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ يُلَبُّونَ؟!»(٦). وَفِي لَفْظٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «قَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى الْحَجَرِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ، فَأَسْمَعَ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، فَأَجَابَهُ مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَانَ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»(٧).

وَتَوَارَثَ هَذَا التَّعْظِيمَ لِبَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى المُوَحِّدُونَ مِنْ ذُرِّيَّةِ الْخَلِيلِ عليه السلام،

---

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٩)، والبيهقي (٥/ ١٧٦)، والطبري في تفسيره (١٧/ ١٤٤)، وصححه الحاكم(٢/ ٤٢١)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٠).

(٧) هذه الرواية أخرجها الطبري في التفسير (١٧/ ١٤٤)، وصححها الحافظ ابن حجر في الفتح بعد أن عزاها للفاكهي (٦/ ٤٠٦) والذي وقفت عليه عند الفاكهي في أخبار مكة عن مجاهد من قوله ولم يسنده لابن عباس(٩٧٤).
وجاء أيضًا مرفوعًا من رواية مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه عند الفاكهي (٩٧٣).

وَأَقَامُوا المَنَاسِكَ، وَعَظَّمُوا الشَّعَائِرَ، وَمَا زَالُوا كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَسَيَبْقَى مَنْ يُقِيمُ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَبَعْدَ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام وَقَتْلِهِ الدَّجَّالَ سَيُهِلُّ بِالْحَجِّ قَاصِدًا الْبَيْتَ الْحَرَامَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِجَابَةً لِدَعْوَةِ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ. وَأَعْرَضَ عَنِ الْحَجِّ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ؛ لِيَتَّخِذُوا مِنْ أَوْثَانِهِمْ وَقُبُورِ سَادَتِهِمْ مَحَجًّا لَهُمْ عَنِ الْحَجِّ الشَّرْعِيِّ الَّذِي رَضِيَهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ جَعَلَنَا مِمَّنْ أَجَابُوا دَعْوَةَ الْخَلِيلِ عليه السلام، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِذُنُوبِنَا وَخَطَايَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ عَظِيمَةٍ هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

[الْفَجْر: ١، ٢]، قِيلَ: هِيَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ[٨]، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ** ﷻ **وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُهُ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى**، قِيلَ: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﷻ **إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالدَّارِمِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ[٩].

فَأَرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَاجْتَهِدُوا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كَمَا تَجْتَهِدُونَ فِي عَشْرِ رَمَضَانَ أَوْ أَشَدَّ اجْتِهَادًا؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَشْرَ الْمُبَارَكَاتِ لَا تَقِلُّ فَضْلًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ، وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْهَا.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ بَنَى إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ بَيْتَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى التَّوْحِيدِ، بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمَا بِذَلِكَ، وَفِي الْمَكَانِ الَّذِي اخْتَارَهُ؛ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَالْمُوَحِّدُونَ مِنَ الْبَشَرِ هُمْ أَوْلَى بِبَيْتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالْوَلَاءِ لِبَانِيهِ عليه السلام مِنْ أَيَّةِ أُمَّةٍ أُخْرَى؛ وَلَمَّا زَعَمَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ

---

(٨) اختلف المفسرون في ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ على أقوال:
١- أنها عشر ذي الحجة وهو ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، ورجحه ابن كثير.
٢- أنها عشر رمضان.
٣- أنها العشر الأولى من محرم.
وجاء في حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع النحر**» أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٧١)، وأحمد (٣/ ٣٢٧)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٤/ ٢٤٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة (٧/ ١٣٧)، وقال ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد رجاله لا باس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة (٤/ ٥٠٦).
قلت: ولو صح هذا الحديث لكان نصًّا في المسألة.

(٩) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، والدارمي (١٧٧٤).

الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ وَنَصْرَانِيَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ أَتْبَاعُهُ كَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيمَا زَعَمُوا، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَتْبَاعَهُ هُمْ مَنْ كَانُوا عَلَى دِينِهِ، وَهُمْ مَنْ لَبَّوْا نِدَاءَهُ بِالْحَجِّ، وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٦٧، ٦٨].

وَكَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي هَذَا الْعَصْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَجَّ وَمَنَاسِكَهُ مِنْ شَعَائِرِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي تَسَرَّبَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُرِيدُونَ بِهَذَا الطَّعْنِ ادِّعَاءَ تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنِ التَّشْكِيكِ فِي كَوْنِهِ رِسَالَةً رَبَّانِيَّةً أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى إِفْكِهِمُ الْمُبِينِ بِمَا جَاءَ فِي التَّارِيخِ مِنْ حَجِّ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَهِيَ عَلَى الشِّرْكِ.

وَقَدْ تَلَقَّفَ عَنْهُمْ هَذِهِ الْفِرْيَةَ بَعْضُ زَنَادِقَةِ هَذَا الْعَصْرِ مِمَّنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَهُمْ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ مَلَاحِدَةٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْضُهُمْ يَتَبَاكَى عَلَى هَذَا التَّسَابُقِ إِلَى الْحَجِّ وَالِازْدِحَامِ عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مِنْ بَقَايَا الْجَاهِلِيَّةِ حَسَبَ قَوْلِهِمْ(١٠).

---

(١٠) ممن نقل عنهم ذلك حسن حنفي، ونوال السعداوي التي تقول ساخرة من شعائر الإسلام: «الله يرحم رابعة العدوية.. لم تكن تحج أو تصلي وكانت ضد الشعائر.. وكانت تقول: الله هو الحب إنما (مش الله) أروح الكعبة وأبوس الحجر الأسود.. إيه ده.. أنا عقلي لا يسمح أن ألبس الحجاب وأطوف، هذه وثنية.. الحج هو بقايا الوثنية؟!».

يقول د. نصر فريد واصل.. مفتي مصر لما سئل عن كلام السعداوي: «والرسول ﷺ يقول: «**أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا**»... والحج كما يعلم المسلمون جميعًا منذ فرضه الله من أركان الإسلام الخمسة، ثم تأتي منكرة زمانها لتقول بأنه عبادة وثنية، فكيف تطوف حول حجر وتقبل حجرًا وترمي حجرًا بحجر، ويقيني أن مثلها =

. . . .

= لا يتذوق حلاوة الإيمان .. فنحن نطوف حول البيت خضوعًا لله وتسليمًا وتسبيحًا وتكبيرًا . . . وتنفيذًا لقوله وأمره: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فنحن مع منهج الله في افعل ولا تفعل، ونحن نُقَبِّل حَجَرًا قَبَّلَه رسول الله ﷺ اقتداء به مع اعتقادنا أنه لا يضر ولا ينفع . . . كما نرمي حجرًا بحجر رمزًا للرفض والتمرّد على الشيطان، وخروجًا على وساوسه التي يأمرنا بها بالسوء ويعدنا بها الفقر. والله يعدنا فضلًا منه ورحمة. . فهل مثل الدكتورة يتذوق حلاوة هذا الإيمان؟!».
وفي مقابلة مع هذه المنحرفة قال المذيع: وماذا عن إنكارك لفريضة الحج يا دكتورة؟
- أنا لم أنكره ، لقد قلت نصًا أن (الحج) و(تقبيل الحجر الأسود) عادة وثنية.
ولكنه ركن خامس؟
- أبدًا . . هو (اختياري) (لمن استطاع إليه سبيلا)، أبي توفي ولم يحج، وهذا لا يعني أن إسلامه ناقص، هناك من يصلي دون أن تنفعه صلاته، وهذا ينطبق على الذي يذهب إلى الحج ليقوم بعمل، أو يقبل الحجر الأسود!! إنني أسأل: هل تقبيل الحجر الأسود من الإسلام؟ هذه وثنية!!! الإسلام أتى ليقضي على الوثنية وأنا أحارب عبادة الأوثان.
وهل يمثلها الحج؟
- بالطريقة التي يقومون بها ، نعم. وأنا أيضًا ضد الطريقة التي يصلون بها ، لقد ذهب جمع من الصحابة لرسول الله وقالوا له: فلان يصلي الليل والنهار، فقال لهم: ومن يعول أسرته، قالوا: كلنا يا رسول الله، فقال: أنتم خير منه. يا أخي رعاية الأولاد صلاة وعبادة، الصدق صلاة وعبادة، التعامل الإنساني صلاة وعبادة، ليس أن يذهب إلى الحج ليسرق أو يتاجر أو يصلي وهو أفسق خلق الله، أنا مع المفهوم الصحيح للإسلام، الصلاة ليست مجرد حركة رياضية كما أصبحت حالًا ، الصلاة هي إحياء الضمير، الحج كذلك ليس زيارة لقبر أو تقبيل لحجر؛ لأن الإسلام حارب الوثنية، الحج هو التأمل، اسمع الكلام الجميل لرابعة العدوية التي حاربت مع الصوفية (الطقوسية): «لا أعبد الله لأنني أخاف النار أو أطمع في الجنة فأكون أمة أو جارية، إنما أعبده لأنني أحبه»، انظر إلى هذا الجمال.
وهذا ما يفسر غضبتك حين يقول أحدهم لك: يا حجة؟
- نعم .. لا أحب أن يناديني أحد بهذا اللقب؛ لأنني لم أحج ولن أحج، بإمكاني أن أحج وأنا في شرفة بيتي، وعملي وكتبي هي صلاتي، تقربي لله هو تقربي للعدل والحرية، =

وَتَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ، وَأَشَدِّهِمْ تَكْذِيبًا بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ وَمَنَاسِكَهُ مِنَ الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، وَالمَبِيتِ بِمُزْدَلِفَةَ وَغَيْرِ ذَلِكَ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ، فَمَاذَا سَيَقُولُونَ؟!

ثُمَّ إِنَّهُمْ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالتَّارِيخِ وَبِمَا يُسَمَّى بِعُلُومِ الاِجْتِمَاعِ وَتَنَاقُلِ الْحَضَارَاتِ؛ وَذَلِكَ بِنِسْبَتِهِمْ شَعَائِرَ الْحَجِّ لِلْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ مِنَ الثَّابِتِ فِي التَّارِيخِ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ بِالْحَجِّ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، ثُمَّ انْحَرَفَ النَّاسُ فِي مَكَّةَ بَعْدَ دَعْوَتِهِ وَدَعْوَةِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَبَقِيَتْ بَقَايَا مِنْ دِينِهِمَا يَتَوَارَثُهَا النَّاسُ، وَدَاخَلَهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالشِّرْكِ، كَالِاعْتِقَادِ فِي الْأَصْنَامِ، وَعِبَادَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَلْءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِهَا، وَالتَّمْيِيزِ فِي الْحَجِّ بَيْنَ الْحُمْسِ وَغَيْرِهِمْ، وَالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

= وليس بالنصوص والتفسيرات، هذه سياسة.
وهذه النماذج المنحرفة هي التي تصدر في الإعلام! عاملها الله تعالى ومن كان مثلها ومن رفع شأنها بما يستحقون، وحسبنا الله تعالى عليهم.
وهم على جادة الزنادقة السابقين؛ فقد نقل وصف الحج بالوثنية عن أبي العلاء المعرّي وابن الراوندي. يقول المعري كما في ديوانه (٥٢):

أَرَى عَالماً يرجونَ عَفْوًا مليكهم ... بتقبيلِ ركنٍ واتخاذِ صليبِ

وينظر كلام المؤرخين فيه: ابن الجوزي في المنتظم (١٦/ ٢٥)، والذهبي في السير (١٨/ ٢٨)، وابن كثير في البداية والنهاية (١٢/ ٧٤).
وقال ابن الراوندي: «إن الرسول أتى بما كان منافرًا للعقول، مثال الصلاة، وغسل الجنابة، ورمي الحجارة، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر، والعدْو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران، وهذا كله مما لا يقتضيه عقل، فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبي قبيس وحرى، وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت» ينظر: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، د. عبد الرحمن بدوي (ص٩٩) سيناء للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.

فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي المَكَانِ الَّذِي أَذَّنَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام بِالْحَجِّ؛ لِيُزِيلَ مَا زَادَهُ النَّاسُ فِي دِينِهِ، وَلِيَقْضِيَ عَلَى أَوْضَارِ الشِّرْكِ، وَيُعِيدَ النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، وَتَمَّ ذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَجَّ النَّاسُ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى وَفْقِ التَّوْحِيدِ الَّذِي أَذَّنَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لمَّا بَنَى الْبَيْتَ.

أَفَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ يَأْتِي جَاهِلٌ أَخْرَقُ قَدِ اسْوَدَّ قَلْبُهُ بِالْحِقْدِ، وَأَعْمَى الضَّلَالُ بَصِيرَتَهُ، لِيَقْرَأَ صَفَحَاتٍ مِنَ التَّارِيخِ فَيَرَى أَنَّ قُرَيْشًا كَانُوا يَحُجُّونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، فَيَطِيرَ فَرَحًا بِمَا اكْتَشَفَ، وَيَصِيحَ فِي النَّاسِ أَنَّ الْحَجَّ مِنْ بَقَايَا الْوَثَنِيَّةِ، وَهُوَ مِنْ جَهْلِهِ لَا يَعْلَمُ أَنَّ عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَرْضِهِ يَعْلَمُونَ أَنَّ قُرَيْشًا وَرِثَتِ الْحَجَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَبَقِيَ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ مَنَاسِكِهِ وَشَعَائِرِهِ مَعَ مَا دَاخَلَهَا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالشِّرْكِ الَّذِي أَزَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِدَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَهَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفُونَ يُصَدَّرُونَ فِي الْإِعْلَامِ الْفَاسِدِ، وَيُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ، وَيُفْرَضُونَ عَلَى النَّاسِ صَبَاحًا وَمَسَاءً، بِدَعْوَى أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَبَاحِثُونَ، وَقَدْ بَلَغَ جَهْلُهُمْ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّارِيخِ وَالتَّوَارُثِ الْحَضَارِيِّ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ وَعَلِمْتُمْ، فَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُشْتَكَى مِنْ زَمَنٍ صُدِّرَ فِيهِ الْأَرَاذِلُ، وَأُخْفِيَتِ الْحَقَائِقُ، وَتَكَلَّمَ الرُّوَيْبِضَةُ.

وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، وَيُعْلِيَ كَلِمَتَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



٢٦٩- مظاهر التوحيد في الحج (٢) التوحيد في التلبية والطواف

٥/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ مَالِكِ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ؛ فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ تَوْحِيدَهُ وَطَاعَتَهُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِهِ وَمِنْ مَعْصِيَتِهِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥]. نَحْمَدُهُ فَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَأَحَقُّ مَنْ حَمِدَهُ الْحَامِدُونَ، وَشَكَرَهُ الشَّاكِرُونَ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الْجَاثِيَة: ٣٦، ٣٧].

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَأَصْلَحَ بِهِ الْقُلُوبَ، وَزَكَّى النُّفُوسَ، وَأَعَادَ الْحَنِيفِيَّةَ، وَقَضَى عَلَى مَظَاهِرِ الْوَثَنِيَّةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْرِفُوا لَهُ ﷻ حَقَّهُ، وَاقْدُرُوهُ سُبْحَانَهُ قَدْرَهُ؛ فَإِنَّهُ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ، وَمُحْيِيكُمْ وَمُمِيتُكُمْ، وَبَاعِثُكُمْ وَمُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا يُرِيدُ مِنْكُمْ إِلَّا تَوْحِيدَهُ وَطَاعَتَهُ، وَمُجَانَبَةَ الْإِشْرَاكِ بِهِ، وَتَرْكَ مَعْصِيَتِهِ، لَمْ يَخْلُقْكُمْ لِيَسْتَقْوِيَ بِكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، وَلَا لِيُكَاثِرَ بِكُمْ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا لِيَقْدِرَ بِكُمْ مِنْ عَجْزٍ، بَلْ

هُوَ الْقَادِرُ الْقَوِيُّ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦-٥٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَجُّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَمَبْنًى مِنْ مَبَانِيهِ الْعِظَامِ، شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى لِمَصَالِحِ عِبَادِهِ وَمَنَافِعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالْحَجُّ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ وَأَعْمَالِهِ شَعِيرَةٌ مِنَ الشَّعَائِرِ الْكُبْرَى، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَبْذِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ؛ فَزَمَانُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ مِنَ الْبَشَرِ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٧]، وَمَكَانُهُ بُقْعَةٌ مُبَارَكَةٌ مُقَدَّسَةٌ بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى، وَفَضَّلَهَا عَلَى سَائِرِ الْبِقَاعِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِأَنْ يَفِدُوا إِلَيْهَا مِنْ فِجَاجِ الْأَرْضِ حُجَّاجًا وَمُعْتَمِرِينَ وَزَائِرِينَ ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٧].

هَكَذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ زَمَانُ الْحَجِّ وَمَكَانُهُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا الْقَبُولُ وَالْإِذْعَانُ وَالِامْتِثَالُ؛ فَلَبَّى النِّدَاءَ مَنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ خَيْرًا مِنْ عِبَادِهِ -وَلَا زَالُوا وَإِلَى آخِرِ الزَّمَانِ-، وَاسْتَنْكَفَ عَنْهُ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالشِّرْكِ وَالِاسْتِكْبَارِ.

وَالْحَجُّ فِي أَعْمَالِهِ وَشَعَائِرِهِ مَبْنِيٌّ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ؛ فَالْحَاجُّ يَخْرُجُ مِنْ بَلَدِهِ، وَيُفَارِقُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَحِبَّهُ، وَلَا يَدْرِي أَيَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمُوتُ بَعِيدًا عَنْهُمْ، وَيَتَحَمَّلُ مَشَقَّةَ السَّفَرِ وَمَخَاطِرَهُ، وَيَبْذُلُ نَفِيسَ الْمَالِ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَلْبِيَةً لِنِدَاءِ الْخَلِيلِ عليه السلام حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَبْتَنِيَ بَيْتًا، وَيُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِأَنْ يَحُجُّوا إِلَيْهِ. مُسْلِمُونَ يَفِدُونَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ مِنْ أَقَاصِي الْبُلْدَانِ.. شِيبٌ وَعَجَائِزُ أَخَذَتِ السُّنُونَ مِنْهُمْ حَظَّهَا، فَهَزَلَتْ أَجْسَامُهُمْ،

وَضَعُفَتْ حَرَكَتُهُمْ، وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْأَسْقَامُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، مَا إِنْ يُبَشَّرُوا بِأَنَّهُمْ سَيَحُجُّونَ حَتَّى تَنْهَضَ بِهِمْ هِمَمٌ عَالِيَةٌ دُونَهَا هِمَمُ الشَّبَابِ وَقُوَّتُهُمْ . .

مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ هَذِهِ الْبُشْرَى مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ . . وَمِنْهُمْ مَنْ بَذَلَ كُلَّ ثَرْوَتِهِ فِي هَذَا السَّبِيلِ . . وَمِنْهُمْ مَنْ بَاعَ بَيْتَهُ لِأَجْلِ الْحَجِّ . . فَهَلْ تَرَوْنَ يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدِمُوا إِلَى مَكَّةَ يُرِيدُونَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَقَدْ بَذَلُوا كُلَّ دُنْيَاهُمْ لِأَجْلِ الْحَجِّ؟!

مَا إِنْ تَطَأُ أَقْدَامُهُمْ أَرْضَ الْحَرَمِ، فَيَرَوُا الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ حَتَّى تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَفِيضَ بِالدَّمْعِ عُيُونُهُمْ؛ شَاكِرِينَ اللهَ تَعَالَى بُلُوغَ الْهَدَفِ، وَتَحَقُّقَ الْأُمْنِيَةِ، وَأَدَاءَ الْفَرِيضَةِ!! وَتَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ إِلَّا بِهِ؛ إِنَّ خُرُوجَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ إِلَى مَكَّةَ مَظْهَرٌ عَظِيمٌ مِنْ مَظَاهِرِ التَّوْحِيدِ، وَإِنَّ فِي خُرُوجِهِمْ بِهَذِهِ الْأَعْدَادِ الْهَائِلَةِ فِي كُلِّ عَامٍ، وَمِنْ مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ حَتَّى لَا تَكَادُ تُوجَدُ بِلَادٌ لَا يَفِدُ مِنْهَا حُجَّاجٌ، إِنَّ فِيهِ دَعْوَةً إِلَى التَّوْحِيدِ؛ فَكَمْ مِنْ مُلْحِدٍ وَمُشْرِكٍ وَضَالٍّ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ الْحَجُّ سَبَبَ هِدَايَتِهِ حِينَ رَأَى أَهْلَ بَلَدِهِ يَحُجُّونَ، أَوْ رَأَى جُمُوعَ الْحَجِيجِ فِي الْمَشَاعِرِ عَلَى شَاشَاتِ التَّلْفَزَةِ، فَسَأَلَ نَفْسَهُ مَاذَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ؟ وَمَاذَا يُرِيدُونَ؟ وَلِمَاذَا كَانَ لِبَاسُهُمْ هَكَذَا؟ وَلِمَاذَا كَانَ لِبَاسًا وَاحِدًا؛ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ، شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ؟ مَا طَوَافُهُمْ وَوُقُوفُهُمْ وَبُكَاؤُهُمْ؟ فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ وَبَحْثُهُ عَنْ أَجْوِبَتِهَا سَبَبَ هِدَايَتِهِ، وَكَانَ سَبَبُ تِلْكَ الْأَسْئِلَةِ سَفَرَ الْحَجِيجِ وَاجْتِمَاعَهُمْ وَمَشْهَدَهُمْ!! فَمَا أَعْظَمَ الْحَجَّ وَشَعَائِرَهُ! وَمَا أَدَلَّهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ!

وَالْحَاجُّ حِينَ يَبْلُغُ الْمِيقَاتَ يَتَجَرَّدُ مِنْ لِبَاسِهِ الْمُعْتَادِ، وَيَلْبَسُ مَا لَا يَعْتَادُ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَشَقَّةٌ؛ فَإِنَّ مُفَارَقَةَ الْمَأْلُوفِ شَاقٌّ عَلَى النُّفُوسِ. وَهُوَ كَذَلِكَ يَجْتَنِبُ

مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ، لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ مَالِيَّةٍ، أَوْ مُرَاعَاةٍ طِبِّيَّةٍ، أَوْ غَيْرِهَا، بَلْ يَفْعَلُهُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِيمَانًا بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَرَضَ الْحَجَّ، وَأَوْجَبَ عَلَى الْحَاجِّ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الطَّاعَةُ فِي تَرْكِ مَا هُوَ مَأْلُوفٌ، وَفِعْلِ غَيْرِ المَأْلُوفِ، وَاجْتِنَابِ المَحْبُوبِ مَا هِيَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِيمَانِ بِهِ.

وَأَوَّلُ جُمْلَةٍ يَنْطِقُ بِهَا الْحَاجُّ حَالَ دُخُولِهِ النُّسُكَ هِيَ التَّلْبِيَةُ، وَالتَّلْبِيَةُ إِعْلَانٌ لِلتَّوْحِيدِ وَنَبْذٌ لِلشِّرْكِ؛ رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَزِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَهَذِهِ التَّلْبِيَةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ إِهْلَالٌ بِالتَّوْحِيدِ كَمَا قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه وَهُوَ يَحْكِي حَجَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَصِفُ حَالَهُمْ مَعَهُ: «وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**. وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ، فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

فَكَانَتْ هَذِهِ التَّلْبِيَةُ المُبَارَكَةُ هِيَ أَفْضَلُ صِيَغِ التَّلْبِيَةِ؛ لِالْتِزَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا، وَعَدَمِ زِيَادَتِهِ عَلَيْهَا؛ وَلِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ، وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ؛ وَلِمَا فِيهَا مِنَ الِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْخَلِيلِ عليه السلام حِينَ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ؛ فَإِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب التلبية (١٤٧٤)، ومسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٤)، والرواية الثانية للبخاري في اللباس، باب التلبيد (٥٥٧١)، ومسلم (١١٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٤)، وابن الجارود (٤٦٩)، وابن حبان (٣٩٤٤).

مَعْنَاهَا: إِجَابَةً لَكَ بَعْدَ إِجَابَةٍ، إِجَابَةً خَالِصَةً لَا شِرْكَ فِيهَا[٣].

وَتَضَمَّنَتِ التَّلْبِيَةُ كَذَلِكَ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِقْرَارَ بِنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَبِأَنَّهُ ﷻ مَالِكُ الْمُلْكِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تِلْكَ التَّلْبِيَةِ الْمُبَارَكَةِ.

وَهِيَ رَدٌّ عَلَى تَلْبِيَةِ الْمُشْرِكِينَ حِينَ كَانُوا يُلَبُّونَ فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ» فَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «**وَيْلَكُمْ قَدٍ قَدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٤].

أَيْ: تَكْفِيكُمْ تَلْبِيَةُ التَّوْحِيدِ عَنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الشِّرْكِيَّةِ فِي التَّلْبِيَةِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْحَجَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا الدِّينِ الْحَنِيفِ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



(٣) ينظر: شرح النووي (١/ ٢٣١) و(٨/ ٨٧)، ومرقاة المفاتيح (٢/ ٢٦٠)، وفيض القدير (٢/ ٣١١)، وذكر ابن القيم في تهذيب السنن ثمانية أقوال في معناها (٥/ ١٧٥).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﭭ: مسلم في الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٥)، وأبو عوانة (٣٧٢٦)، والضياء في المختارة (٤٤٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ عَظِيمَةٍ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ** -يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ-، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ(٥).

فَاعْمُرُوهَا -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ بِأَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا وَجَدَ أَنَّ لَهَا ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهِيَ أَعْمَالٌ يَعْمَلُهَا الْمُسْلِمُ انْطِلَاقًا مِنْ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَوْحِيدِهِ ﷻ، مُنْذُ خُرُوجِهِ مِنْ بَلَدِهِ لِأَدَاءِ هَذَا النُّسُكِ الْعَظِيمِ إِلَى رُجُوعِهِ بَعْدَ أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ.

وَإِذَا مَا بَلَغَ الْحَاجُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ اسْتَحْضَرَ وَهُوَ يَرَى الْكَعْبَةَ أَنَّ بَانِيَ الْبَيْتِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عليه السلام، الَّذِي كَانَ إِمَامًا فِي دَعْوَتِهِ إِلَى الْحَنِيفِيَّةِ الَّتِي هِيَ التَّوْحِيدُ حَتَّى نُسِبَتْ إِلَيْهِ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

(٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود في الصوم، باب صوم العشر (٢٤٣٨).

ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِاتِّبَاعِهَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٥].

كَمَا يَسْتَحْضِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ قَدْ شَيَّدَ الْبَيْتَ عَلَى التَّوْحِيدِ؛ كَيْفَ وَهُوَ مَنْ دَعَا اللهَ تَعَالَى قَائِلًا: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٣٥]؟!

فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْمُسْلِمُ هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ وَهُوَ يَرَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، لَمْ يُشْرِكْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى آلِهَةً أُخْرَى؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ يَبْتَدِئُ طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْبِيرِهِ، وَهَذَا مِنْ إِعْلَانِ التَّوْحِيدِ فِي بِدَايَةِ الطَّوَافِ. وَهُوَ يَطُوفُ حِينَ يَطُوفُ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الطَّوَافَ بِالْكَعْبَةِ عِبَادَةً وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ.

إِنَّ الْحُجَّاجَ لَا يَطُوفُونَ بِالْكَعْبَةِ؛ لِأَنَّهَا بِنَاءٌ جَمِيلٌ، أَوْ لِأَنَّهَا أَقْدَمُ بِنَاءٍ عَلَى الْأَرْضِ فَهِيَ مِنَ التُّرَاثِ، أَوْ لِأَنَّ أَبَوَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ قَدْ بَنَيَاهَا، أَوْ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَهِيَ أَكْوَامُ حِجَارَةٍ كَغَيْرِهَا؛ بَلْ يَطُوفُونَ بِهَا لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَضَى سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الطَّوَافَ بِهَا مِنْ شَعَائِرِهِ ﷻ، وَمِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَى عِبَادِهِ، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الْحَجّ: ٢٩] وَلِذَا كَانَ الطَّوَافُ بِهَا قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ الطَّوَافُ بِأَيِّ بِنَاءٍ عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ شِرْكًا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَمَا أَعْظَمَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ وَقَدْ غَفَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ!!

وَإِنْ تَيَسَّرَ لِلطَّائِفِ أَنْ يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَيُقَبِّلَهُ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَ ذَلِكَ وَجَعَلَهُ عِبَادَةً لَهُ سُبْحَانَهُ، لَا لِأَنَّهُ يَعْبُدُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ، أَوْ يَعْتَقِدُ فِيهِ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ ﵁ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ

النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٦].

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَبَّلَ حَجَرًا غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ لَكَانَ مُشْرِكًا؛ فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ عِبَادَةً، وَجَعَلَ الطَّوَافَ بِغَيْرِهِ شِرْكًا! وَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ تَقْبِيلَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عِبَادَةً، وَجَعَلَ تَقْبِيلَ غَيْرِهِ شِرْكًا!!

وَهَلِ التَّوْحِيدُ إِلَّا الْتِزَامُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَالْحَذَرُ مِمَّا أَحْدَثَهُ الْمُحْدِثُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ وَالضَّلَالِ؟!

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ؛ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٧].

وَلَوْ فَقِهَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ فِي الْحَجِّ لَمَا كَانَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ قُبُورٌ وَأَضْرِحَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَيُطَافُ بِهَا، وَيُنْذَرُ لَهَا، وَيُدْعَى عِنْدَهَا، وَيُصْرَفُ لَهَا مَا لَا يَجُوزُ صَرْفُهُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَمَا أَشَدَّ غُرْبَةَ التَّوْحِيدِ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؟!

وَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ ارْتِبَاطِ الْعِبَادَاتِ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَغَيْرِهَا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى! وَأَنَّ الدَّافِعَ الَّذِي يَدْفَعُ الْمُسْلِمَ إِلَى هَذِهِ الْعِبَادَاتِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ مَشَقَّةٍ هُوَ تَوْحِيدُهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ فَقِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ حَقَّ الْفِقْهِ لَمَا انْقَلَبَتِ الْعِبَادَاتُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَا يُشْبِهُ الْعَادَاتِ، فَلَا تَتَحَرَّكُ بِهَا

---

(٦) أخرجه البخاري في الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود (١٥٢٠)، ومسلم في الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (١٢٧٠).

(٧) أخرجه أبو داود في المناسك، باب في الرمل (١٨٨٨)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في كراهية طرد الناس عند رمي الجمار، وقال: حسن صحيح (٩٠٣)، وأحمد (٦/ ٦٤)، وإسحاق ابن راهويه (٩٢٨)، وابن الجارود (٤٥٧)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٨٢)، والحاكم (١/ ٦٣٠).

قُلُوبُهُمْ، وَلَا تَزْكُو بِهَا أَعْمَالُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَشْعِرُوا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ تُؤَدُّونَهَا حَقَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْكُمْ، وَاسْتَحْضِرُوا عَظَمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، وَأَنَّهُ ﷻ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ وَأَنْتُمْ عَبِيدُهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ وَأَحْيَانِكُمْ وَشُئُونِكُمْ، فَمَنِ اسْتَحْضَرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ عِبَادَةٍ يُؤَدِّيهَا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٢٧٠- خطبة عيد الأضحى المبارك
ظاهرتا الإرجاء والتكفير

الْأَرْبَعَاء ١٠/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَالِقِ الْخَلْقِ، وَقَاسِمِ الرِّزْقِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

اللهُ أَكْبَرُ مَا هَلَّ هِلَالٌ وَأَدْبَرَ، اللهُ أَكْبَرُ مَا حَجَّ حَاجٌّ وَاعْتَمَرَ، اللهُ أَكْبَرُ مَا لَبَّى مُلَبٍّ وَكَبَّرَ.

اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَنْ وَقَفُوا بِعَرَفَاتٍ، اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا رُفِعَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الدَّعَوَاتِ، اللهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا قَضَى سُبْحَانَهُ مِنَ الْحَاجَاتِ.

اللهُ أَكْبَرُ، كَمْ مِنْ قُلُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى خَشَعَتْ! وَكَمْ مِنْ أَعْيُنٍ مِنْ خَشْيَتِهِ دَمَعَتْ! وَكَمْ مِنْ دَعَوَاتٍ إِلَيْهِ رُفِعَتْ!

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَجَّ حَجَّةً وَاحِدَةً سُمِّيَتْ حَجَّةَ الْوَدَاعِ. سَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي جُمُوعٍ غَفِيرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ الِائْتِمَامَ بِهِ، وَمَعْرِفَةَ الْمَنَاسِكِ مِنْهُ، فَكَانُوا مَدَّ الْبَصَرِ رِجَالًا وَرُكْبَانًا، بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَحَجَّ بِهِمْ،

وَعَلَّمَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَتْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا؟ وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ مُبْغِضِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الرَّفْضِ وَالشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْمَدُوهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ؛ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَعَلَّمَكُمُ الشَّرَائِعَ وَالْأَحْكَامَ، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ مَا يُصْلِحُكُمْ فِي الْحَالِ وَالمَعَادِ، وَمِنْ عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، وَكَبِيرِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ أَنْ بَلَّغَكُمْ هَذِهِ الْعَشْرَ المُبَارَكَةَ، وَخَاتِمَتُهَا هَذَا الْيَوْمُ الْأَغَرُّ الَّذِي سُمِّيَ فِي الْقُرْآنِ: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ أَعْظَمُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى[(١)].

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي مَكَّةَ وَالمَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ ضُيُوفُ الرَّحْمَنِ، وَحُجَّاجُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قَدْ وَقَفُوا بِالْأَمْسِ فِي عَرَفَاتٍ، يَعْبُدُونَ رَبًّا وَاحِدًا، وَيَلْبَسُونَ لِبَاسًا وَاحِدًا، وَيُلَبُّونَ تَلْبِيَةً وَاحِدَةً.

قَدْ تَبَاعَدَتْ بُلْدَانُهُمْ، وَلَكِنْ تَقَارَبَتْ فِي المَنَاسِكِ قُلُوبُهُمْ، اخْتَلَفَتْ لُغَاتُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ وَأَجْنَاسُهُمْ فَجَمَعَتْهُمْ رَابِطَةُ الْإِيمَانِ؛ فَجَاءُوا مِنْ شَتَّى بُلْدَانِهِمْ لِهَدَفٍ وَاحِدٍ، وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ: تَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي المَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ، وَأَدَاءُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَمَا ظَنُّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- بِرَبٍّ جَوَادٍ كَرِيمٍ يُعْطِي الْعَطَاءَ

---

(١) كما في حديث عبد الله بن قرط ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن أعظم الأيام عند الله تبارك وتعالى يوم النحر ثم يوم القر» رواه أبو داود في المناسك، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ (١٧٦٥)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٦٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٦).

الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ؟!

مَا ظَنُّكُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ وَقَدْ وَقَفَ الْحَجِيجُ فِي عَرَفَاتٍ شُعْثًا غُبْرًا، تَجَرَّدُوا مِنْ لِبَاسِهِمْ، وَحَسَرُوا رُؤُوسَهُمْ ذُلًّا لَهُ وَتَعْظِيمًا، وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ يَسْأَلُونَهُ بَاكِينَ رَاجِينَ مُتَضَرِّعِينَ، أَتَرَوْنَهُ يَرُدُّهُمْ وَهَذِهِ حَالُهُمْ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ طَرَحَ بِالْأَمْسِ نَفْسَهُ عَلَى بَابِ رَبِّهِ، يَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ فَيَخَافُ وَيُشْفِقُ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ كَرَمَ رَبِّهِ ﷻ وَعَفْوَهُ وَرَحْمَتَهُ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَيَرْجُو وَيَرْغَبُ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ أَظْهَرَ بِعَرَفَةَ مِنَ الذُّلِّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالنَّدَمِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَالْبُكَاءِ عَلَى خَطِيئَتِهِ مَا كَانَ سَبَبًا فِي مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؟!

كَمْ مِنْ عَبْدٍ رَفَعَ يَدَيْهِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي عَرَفَةَ فَكَانَ عَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتُهُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ مِنْ إِرْسَالِ يَدَيْهِ حِينَ أَرْسَلَهَا؟!

كَمْ مِنْ عَبِيدٍ لِلَّهِ تَعَالَى مَا غَرَبَتْ عَلَيْهِمْ شَمْسُ الْأَمْسِ إِلَّا وَقَدْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُمْ، وَحُطَّتْ خَطَايَاهُمْ، وَاسْتُجِيبَتْ دَعَوَاتُهُمْ، وَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَهُمْ؛ فَغَسَلَ حَوْبَهُمْ.

جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، يَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لَمْ يَرَوْا رَحْمَتِي، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي، فَلَمْ أَرَ يَوْمًا أَكْثَرَ عِتْقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢).

---

(٢) أخرجه أبو يعلى (٢٠٩٠)، والبغوي في شرح السنة (١٩٣١)، والبزار (١١٢٨)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، وابن حبان (٣٨٥٣)، وضعفه الألباني بعنعنة أبي الزبير فقال: قلت: إنما علة الحديث أبو الزبير، فإنه مدلس، وقد عنعنه في جميع الطرق عنه. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦٧٩).

كَمْ مِنْ عَبِيدٍ مَا خَرَجُوا بِالْأَمْسِ مِنْ عَرَفَةَ إِلَّا وَقَدْ نَالُوا مِنَ الرَّحْمَنِ مُرَادَهُمْ، وَالْبَارِحَةَ بَاتُوا لَيْلَتَهُمْ فِي مَشْعَرِ مُزْدَلِفَةَ، وَوَقَفُوا فَجْرَ هَذَا الْيَوْمِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ يَذْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى وَيُعَظِّمُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ وَيَرْجُونَهُ، وَهُمُ الْآنَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْجَمَرَاتِ؛ لِيَرْمُوهَا مُكَبِّرِينَ اللهَ تَعَالَى وَمُعَظِّمِينَ، ثُمَّ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَدَايَاهُمْ كَمَا تَتَقَرَّبُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِضَحَايَاكُمْ، ثُمَّ يُحِلُّوا إِحْرَامَهُمْ، وَيَطُوفُوا بِالْكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

فَمَا أَجَلَّهَا مِنْ شَعَائِرَ! وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ مَنَاسِكَ!! فَاللَّهُمَّ اقْبَلْ مِنَّا وَمِنَ الْحُجَّاجِ وَمِنْ سَائِرِ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ تُرَاقُ الدِّمَاءُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا سَخَّرَ لَنَا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أَنْعَامٌ وَهَبَنَا اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا، وَسَخَّرَهَا لَنَا، وَرَزَقَنَا أَثْمَانَهَا، وَهَدَانَا إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِهَا، ثُمَّ نَنْتَفِعُ بِلَحْمِهَا، وَهِيَ لَنَا، وَلَا يَأْخُذُ رَبُّنَا مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ يَأْجُرُنَا عَلَيْهَا، فَمَا أَوْسَعَ كَرَمَ رَبِّنَا عَلَيْنَا! وَمَا أَكْثَرَ إِحْسَانَهُ إِلَيْنَا! وَمَا أَشَدَّ رَحْمَتَهُ بِنَا! ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧].

وَقَدْ أَمَرَنَا ﷺ بِنَحْرِهَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ عَقِبَ الصَّلَاةِ فَقَالَ ﷻ: ﴿فَصَلِّ

لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ﴾ [الْكَوْثَر: ٢]، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِوُجُوبِهَا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا(٣)، فَامْتَثِلُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاحْمَدُوهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، وَكَبِّرُوهُ كَمَا أَمَرَكُمْ، وَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا، وَاخْتَارُوا أَطْيَبَهَا وَأَسْمَنَهَا وَأَنْفَسَهَا؛ فَإِنَّهَا قُرْبَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ هِيَ عَائِدَةٌ إِلَيْكُمْ.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ قَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَى الْحُجَّاجَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَبِمَنْسَكٍ وَاحِدٍ، وَلِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَإِنْ تَبَاعَدَتْ بُلْدَانُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ، وَتَبَايَنَتْ ثَقَافَاتُهُمْ وَعَادَاتُهُمْ، وَهَذَا الِاجْتِمَاعُ فِي المَشَاعِرِ؛ لِأَدَاءِ الشَّعَائِرِ وَالمَنَاسِكِ، وَعَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْوَاحِدَةِ مُشْعِرٌ بِلُزُومِ اجْتِمَاعِ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ، وَدَالٌّ عَلَى وُجُوبِ تَآلُفِهِمْ وَتَكَاتُفِهِمْ؛ فَإِنَّ رَابِطَةَ الْإِيمَانِ أَقْوَى رَابِطَةٍ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٠].

كَيْفَ؟! وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٦].

إِنَّ اجْتِمَاعَ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ مَطْلَبٌ دِينِيٌّ، وَوَاجِبٌ شَرْعِيٌّ، وَهُوَ سَبَبُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالْقُوَّةِ، فَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَوْا إِلَيْهِ، وَيَعْمَلُوا بِهِ، وَيَجْتَنِبُوا أَسْبَابَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالتَّنَافُرِ وَالْبَغْضَاءِ، وَإِنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ فِي الْقَدِيمِ

(٣) ذهب إلى القول بوجوبها أبو حنيفة وربيعة ومالك والثوري والأوزاعي والليث؛ لحديث: «من كان له سعة ولم يضح فلا يقربنّ مصلانا»، وقال بأنها سنة مؤكدة: سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وعطاء والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وابن المنذر، وهو مروي عن أبي بكر وعمر وبلال وأبي مسعود البدري ﷺ. ينظر: المغني (٩/ ٣٤٥)، واختار القول بالوجوب مع القدرة عليها شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦٢).

وَالْحَدِيثِ مَا نَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ دَسُّوا الدَّسَائِسَ فِيهِمْ، وَسَعَوْا بِالْوِشَايَةِ بَيْنَهُمْ، وَأَشْعَلُوا فَتِيلَ الْفِتْنَةِ فِي أَوْسَاطِهِمْ، فَكَانَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ، وَنَتَجَ عَنْهُ تَبَاغُضُ الْقُلُوبِ وَتَنَافُرُهَا، وَمِنْ ثَمَّ الِاحْتِرَابُ وَالِاقْتِتَالُ.

وَنَتِيجَةً لِهَذَا التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ بَلَغَ ضَعْفُ الْمُسْلِمِينَ مَدَاهُ، وَقَرُبَ عَجْزُهُمْ مِنْ مُنْتَهَاهُ؛ حَتَّى سَبَّ الْكَافِرُونَ دِينَهُمْ، وَدَنَّسُوا قُرْآنَهُمْ، وَسَخِرُوا مِنْ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِمْ، وَاعْتَدَوْا عَلَى نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالتَّنَقُّصِ وَالِازْدِرَاءِ وَالِاتِّهَامِ، وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَمْلِكُونَ حِيَالَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الشَّجْبِ وَالِاسْتِنْكَارِ.

لَقَدِ احْتَلَّ الْغَاصِبُونَ أَرَاضِيَهُمْ، وَعَبَثُوا بِأَعْرَاضِهِمْ، وَنَهَبُوا ثَرَوَاتِهِمْ، وَأَهَانُوا إِخْوَانَهُمْ، وَتَطَاوَلُوا عَلَى مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَلَهُمْ مَشْرُوعَاتٌ إِجْرَامِيَّةٌ خَبِيثَةٌ فِي تَمْزِيقِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا، تُعْرَفُ بِالشَّرْقِ أَوْسَطِيَّةِ وَالشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ ثُمَّ الْجَدِيدِ، وَلَا يَمْلِكُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ إِزَاءَ ذَلِكَ إِلَّا الِانْتِظَارَ وَالتَّرَقُّبَ عَمَّا تُسْفِرُ عَنْهُ الْأَحْدَاثُ، وَهَذَا مُنْتَهَى الضَّعْفِ وَغَايَةُ الْعَجْزِ.

وَقَدْ نَتَجَ عَنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ الْعَظِيمَةِ فِتْنَتَانِ كَبِيرَتَانِ هُمَا: فِتْنَةُ الْإِرْجَاءِ، وَفِتْنَةُ التَّكْفِيرِ.

أَمَّا فِتْنَةُ الْإِرْجَاءِ فَحَمَلَ لِوَاءَهَا مُبْتَدِعَةٌ اسْتَهَانُوا بِحُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظَّمُوا الْبَشَرَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدَّمُوا أَقْوَالَهُمْ عَلَى نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، وَحَرَّفُوا الْمُحْكَمَاتِ لِإِشْبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَإِرْضَاءِ غَيْرِهِمْ.

يَقْتَاتُونَ بِأَعْرَاضِ الصَّالِحِينَ وَالْمُصْلِحِينَ، وَيَرْتَزِقُونَ بِأَذِيَّتِهِمْ، وَيُحَاوِلُونَ الصُّعُودَ عَلَى أَكْتَافِ غَيْرِهِمْ.

فِيهِمْ مِنَ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ وَالْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ مَا اسْوَدَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَغَشَى عَلَى أَبْصَارِهِمْ، وَغَطَّى عُقُولَهُمْ فَلَمْ يُمَيِّزُوا صَدِيقًا مِنْ عَدُوٍّ، وَلَا نَاصِحًا مِنْ مُخَادِعٍ،

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحُمْقِ وَالْغَفْلَةِ وَالضَّلَالِ وَالْهَوَى.

وَاسْتَغَلَّهُمْ مُنَافِقُونَ حَاقِدُونَ لَهُمْ مَشْرُوعَاتٌ تَخْرِيبِيَّةٌ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَوْنَ لِتَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَإِبْطَالِ شَرِيعَتِهِمْ، وَإِفْسَادِ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَلَهُمْ حِبَالٌ مُمْتَدَّةٌ مَعَ أَعْدَاءِ الْخَارِجِ.

قَدِ اجْتَرَأُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى حِمَى الشَّرِيعَةِ فَتَطَاوَلُوا عَلَيْهَا، وَسَخِرُوا مِنْهَا وَمِنْ حَمَلَتِهَا، وَطَعَنُوا فِيمَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمُ الْفَاسِدَةَ، وَآرَاءَهُمُ الْكَاسِدَةَ، فَسَلَّطُوا أَلْسِنَتَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ عَلَى الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ، وَعَلَى الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ شَرِّهِمُ الْجَمْعِيَّاتُ الْخَيْرِيَّةُ، وَلَا حَلَقَاتُ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا المَنَابِرُ، وَلَا حِجَابُ المَرْأَةِ وَعَدَمُ اخْتِلَاطِهَا بِالرِّجَالِ.

إِنَّهُ تَحَالُفٌ شَيْطَانِيٌّ، وَتَآزُرٌ نَكِدٌ، تَوَاصَى فِيهِ أَهْلُ الْإِثْمِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ بِالْمُنْكَرِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَعَاوَنُوا فِيهِ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَلَنْ يَجِدُوا عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ إِلَّا خُسْرًا، وَدِينُ اللَّهِ تَعَالَى عَزِيزٌ مَنْصُورٌ وَلَوْ تَخَلَّوْا عَنْهُ، أَوْ تَأَكَّلُوا بِهِ، أَوْ حَارَبُوهُ؛ فَإِنَّهُمُ الْأَذَلُّونَ، وَإِنَّ الْمُصْلِحِينَ مَنْصُورُونَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادلَة: ٢٠].

وَرَوَى أَبُو عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيُّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٤).

فَلْيَمُوتُوا بِغَيْظِهِمْ؛ فَإِنَّ مَا يَسُوؤُهُمْ بَاقٍ لَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

---

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (٨)، وأحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٩٧)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (٦٥)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢٧٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٦)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٥).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَمَّا الْفِتْنَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ فِتْنَةُ التَّكْفِيرِ فَقَدْ حَمَلَ لِوَاءَهَا قَوْمٌ لَمْ يَأْخُذُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ حَظَّهُمْ، وَكَانَ فِيهِمْ مِنْ حَمَاسِ الشَّبَابِ وَتَهَوُّرِهِمْ مَا أَدْخَلَهُمُ المَضَايِقَ، وَانْتَهَى بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى المَهَالِكِ، فَكَفَّرُوا الْحُكُومَاتِ، وَلَمْ يُصْغُوا إِلَى الْعُلَمَاءِ، وَلَا رَاعَوُا المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ، ثُمَّ أَتْبَعُوا التَّكْفِيرَ بِالتَّفْجِيرِ، فَعَمَدُوا إِلَى بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ الْآمِنَةِ فَأَفْسَدُوا فِيهَا وَفَجَّرُوا، وَرَاحَ ضَحِيَّةً لِأَعْمَالِهِمُ الْخَاطِئَةِ، وَآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ أُنَاسٌ لَا ذَنْبَ لَهُمْ! فِيهِمْ رِجَالٌ وَأَطْفَالٌ وَنِسَاءٌ قَدْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى دِمَاءَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، فَأَهْدَرُوهَا هُمْ بَلَا حَقٍّ.

وَكَانُوا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ عَوْنًا لِأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ، وَالنَّيْلِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَمَا تَكَادُ تَقَعُ بَلِيَّةٌ مِنْهُمْ فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْبِقَاعِ المُسْلِمَةِ الْآمِنَةِ إِلَّا طَارَ بِهَا فَرَحًا الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ، وَوَجِلَ مِنْهَا المُؤْمِنُونَ وَالمُصْلِحُونَ.

وَقَدْ نَتَجَ عَنْ تَخْرِيبِهِمْ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ مَفَاسِدُ جَمَّةٌ، وَتَعَطَّلَتْ بِهِ مَصَالِحُ عُظْمَى، وَمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِالشَّرِيعَةِ يَرْفُضُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِرِعَايَةِ المَصَالِحِ وَتَحْصِيلِهَا، وَدَرْءِ المَفَاسِدِ وَتَعْطِيلِهَا.

وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ طَاعَةُ إِمَامِهِ الَّذِي بَايَعَهُ فِي المَعْرُوفِ، وَالنُّصْحُ لَهُ، وَأَمْرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُ عَنِ المُنْكَرِ، وَالتَّعَاوُنُ مَعَهُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِي ذَلِكَ.

وَحَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ عَصَى الطَّاعَةِ، أَوْ يُفَارِقَ الْجَمَاعَةَ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ ﵄ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: هَاتَانِ الْفِتْنَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ -أَعْنِي: فِتْنَتَيِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّكْفِيرِ- مُتَقَابِلَتَانِ، فَلَا تُوجَدُ إِحْدَاهُمَا فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ إِلَّا وُجِدَتِ الْأُخْرَى فِي إِثْرِهَا، وَوَاجِبٌ عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَوْا فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا.

إِنَّ التَّكْفِيرَ لَا يُعَالَجُ بِالْإِرْجَاءِ كَمَا يَظُنُّ ذَلِكَ المُبْتَدِعَةُ وَالْجَهَلَةُ وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِ بِتَسْوِيغِ المُوبِقَاتِ، وَالتَّشْرِيعِ لِلْمُنْكَرَاتِ، وَإِيجَادِ المَعَاذِيرِ الْبَاهِتَةِ لِلْمُخَالَفَاتِ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ نَارَ التَّكْفِيرِ اشْتِعَالًا إِلَى اشْتِعَالِهَا.

وَكَذَلِكَ لَا يُعَالَجُ الْإِرْجَاءُ بِالتَّكْفِيرِ؛ فَإِنَّ مَا يَقَعُ مِنْ مُخَالَفَاتٍ، وَمَا يُجَاهِرُ بِهِ أَهْلُ السُّوءِ مِنْ مُنْكَرَاتٍ، وَمَا يُظْهِرُهُ أَهْلُ النِّفَاقِ؛ يُعَالَجُ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ.

إِنَّ هَاتَيْنِ الْفِتْنَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ: التَّكْفِيرَ وَالْإِرْجَاءَ تُعَالَجَانِ بِتَعْظِيمِ الشَّرِيعَةِ وَتَحْكِيمِهَا، وَحِمَايَةِ جَنَابِهَا مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ، وَفَتَاوَى النَّفْعِيِّينَ المُضِلِّينَ، وَمِنْ سُخْرِيَةِ الْأَرَاذِلِ وَالمُنَافِقِينَ، وَالْأَخْذِ بِنُصُوصِهَا جَمِيعًا بِلَا اجْتِزَاءٍ وَلَا انْتِقَائِيَّةٍ.

إِنَّهُمَا تُعَالَجَانِ بِاجْتِنَابِ الْهَوَى، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَسُلُوكِ سَبِيلِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَدْلِ، وَاجْتِنَابِ آرَاءِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٥١)، وأبو عوانة (١٧٥٣)، والبيهقي (٨/ ١٥٦).

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦]

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: بَعْدَ صَلَاتِكُمْ تَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِضَحَايَاكُمْ، فَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَأَعْطَاكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ فِي أَعْمَالِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ تَسْتَمِرُّ إِلَى غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَهُوَ آخِرُ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.

وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ عَظِيمَةٌ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٠٣]، وَخُصَّتْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

فَاعْرِفُوا لَهَا فَضْلَهَا، وَاقْدُرُوهَا حَقَّ قَدْرِهَا، وَاعْمُرُوهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ.

عِبَادَ اللَّهِ: افْرَحُوا بِعِيدِكُمْ، وَأَطِيعُوا فِيهِ رَبَّكُمْ، وَطَهِّرُوا قُلُوبَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْمُنْكَرَاتِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ، فَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ أَنْ يُعْصَى فِي أَيَّامِ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ.

بَرُّوا وَالِدِيكُمْ، وَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَكْرِمُوا جِيرَانَكُمْ، وَلِينُوا لِإِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَنْسَوُا الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُرَابِطِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ مِنْ صَالِحِ دُعَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ.

---

(٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١)، وأبو داود في الضحايا، باب في حبس لحوم الأضاحي (٢٨١٣)، والنسائي في الفرع والعتيرة، باب العتيرة (٧/ ١٧٠)، وأحمد (٥/ ٧٥).

أَعَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ وَعَلَى المُسْلِمِينَ جَمِيعًا بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَتَقَبَّلَ اللهُ تَعَالَى مِنَّا وَمِنْكُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



٢٧١- التكبير في أيام التشريق

١٢/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ المُتَعَالِ؛ دَلَّ خَلْقُهُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَبَرْهَنَ عَطَاؤُهُ وَإِمْهَالُهُ عَلَى حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ العَظِيمِ؛ فَهُوَ الجَوَادُ الكَرِيمُ، الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَحَجَّ وَذَكَرَ اللهَ تَعَالَى، أَخْبَرَتْ عَنْهُ زَوْجُهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَعَظِّمُوا حُرُمَاتِهِ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَلَا تَتَعَدَّوْا حُدُودَهُ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَظَمَةُ المَخْلُوقِ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا رَأَى مِنْ عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ مَا لَا يَعُدُّهُ العَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهِ المُحْصُونَ، وَفِي السَّمَاءِ عَجَائِبُ نَعْلَمُ قَلِيلًا مِنْهَا، وَيَخْفَى عَلَيْنَا أَكْثَرُهَا، وَكُلُّ

---

(١) رواه البخاري معلقًا مجزومًا به في الحيض، باب: تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت (١/ ٦٨)، ورواه مسلم موصولًا في الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (٣٧٣).

ذَلِكَ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ فَاسْتَحَقَّ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعَظَّمَ وَيُكَبَّرَ، وَيُفْرَدَ بِالْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وَلِذَا كَانَ تَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَأَجَلِّهَا، وَأُمِرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ خِطَابَاتِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا، وَاقْتَرَنَ الأَمْرُ بِهِ مَعَ الأَمْرِ بِالنِّذَارَةِ، وَهَذَا مُشْعِرٌ بِشَرَفِ مُهِمَّتِهِ، وَثِقَلِ رِسَالَتِهِ، وَفِيهِ تَقْوِيَةٌ لِقَلْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُقَابَلَةِ صُدُودِ الْمُشْرِكِينَ وَمُعَارَضَتِهِمْ وَأَذَاهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدَّثر: ١-٣].

وَلِعَظِيمِ شَأْنِ التَّكْبِيرِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَعَهُ فِي أَشْرَفِ المَوَاضِعِ وَأَعْلَاهَا؛ كَالصَّلَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَالحَجِّ، وَالأَعْيَادِ، وَالجِهَادِ، وَغَيْرِهَا؛ فَالصَّلَاةُ يُنَادَى لَهَا بِالتَّكْبِيرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ الإِقْبَالَ عَلَيْهَا إِقْبَالٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ وَأَجَلُّ مِمَّا يَشْتَغِلُ بِهِ المُسْلِمُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ كُلَّ شُغُلٍ، وَيُقْبِلَ عَلَى الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ تُقَامُ بِالتَّكْبِيرِ، وَتُفْتَتَحُ بِالتَّكْبِيرِ، وَيَنْتَقِلُ المُسْلِمُ بَيْنَ أَرْكَانِهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَمَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ فَإِنَّهُ يُكَرِّرُ التَّكْبِيرَ فِيهَا أَرْبَعًا وَتِسْعِينَ مَرَّةً، هَذَا عَدَا السُّنَنِ الرَّوَاتِبِ، وَصَلَاةِ الضُّحَى وَالوِتْرِ وَالنَّفْلِ المُطْلَقِ، وَمُتَابَعَةِ المُؤَذِّنِ، وَالتَّكْبِيرِ عَقِبَ الصَّلَاةِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، مَعَ التَّحْمِيدِ وَالتَّسْبِيحِ، وَتَكْبِيرِهِ إِنْ رَأَى مَا يُعْجِبُهُ أَوْ يَعْجَبُ مِنْهُ، وَتَكْبِيرِهِ إِنْ عَلَا مُرْتَفِعًا، وَتَكْبِيرِهِ فِي أَذْكَارِهِ المُطْلَقَةِ.

وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ أَكْثَرَ جُمْلَةٍ يُرَدِّدُهَا المُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا هِيَ التَّكْبِيرُ لَمَا كَانَ ذَلِكَ بَعِيدًا.

وَمَا شُرِعَ التَّكْبِيرُ فِي فَرِيضَةٍ عَظِيمَةٍ تَتَكَرَّرُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ إِلَّا

لِعَظِيمِ مَنْزِلَةِ التَّكْبِيرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَبَعْدَ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ شُرِعَ لِلْمُسْلِمِ التَّكْبِيرُ لَيْلَةَ الْعِيدِ إِلَى صَلَاةِ الْعِيدِ؛ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَالحَجُّ مِنْ أَعْظَمِ الشَّعَائِرِ وَأَظْهَرِهَا؛ فَشُرِعَ فِيهِ التَّكْبِيرُ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ، مِثْلُ التَّكْبِيرِ فِي الطَّوَافِ عِنْدَ اسْتِلَامِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ، أَوِ الإِشَارَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى الصَّفَا وَعَلَى المَرْوَةِ، وَالتَّكْبِيرِ مَعَ رَمْيِ الجِمَارِ، وَالتَّكْبِيرِ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فَالأَيَّامُ المَعْدُودَاتُ هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ(٢)، وَأَشْهَرُ الذِّكْرِ فِيهَا هُوَ التَّكْبِيرُ المُطْلَقُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَالمُقَيَّدُ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ.

وَالهَدَايَا وَالأَضَاحِي مِنَ الشَّعَائِرِ العَظِيمَةِ وَالمَنَاسِكِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا المُسْلِمُونَ لِرَبِّهِمْ، وَشُرِعَ التَّكْبِيرُ عِنْدَ تَقْرِيبِهَا لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَا تُذْبَحُ وَلَا تُنْحَرُ إِلَّا بِذِكْرِ اسْمِهِ ﷻ وَتَكْبِيرِهِ عَلَيْهَا ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِرْوَةُ سَنَامِ الإِسْلَامِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَشُرِعَ فِيهِ التَّكْبِيرُ وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ مُلَاقَاةِ الْعَدُوِّ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي ثَبَاتِ الْقُلُوبِ وَقُوَّتِهَا وَجَسَارَتِهَا، وَإِقْدَامِ الجُنْدِ وَحَمَاسَتِهِمْ وَتَضْحِيَّتِهِمْ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ أَعْجَبُ فِي زَعْزَعَةِ الأَعْدَاءِ، وَبَعْثَرَةِ جُمُوعِهِمْ، وَإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مَدِينَةٍ تُفْتَحُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِلَا قِتَالٍ، وَإِنَّمَا بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَإِذَا جَاؤُوهَا نَزَلُوا فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا**

---

(٢) كما هو قول ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وبه قال عطاء والحسن ومجاهد وقتادة عليهم رحمة الله تعالى، ورجحه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٠٣)، وينظر: زاد المسير (١/ ٢١٧)، وهو قول أكثر أهل العلم فيما نقله البغوي في تفسيره (١/ ١٧٨).

بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَكْبِيرِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ بِحَمْدِهِ، وَنَفَى الشَّرِيكَ وَالْوَلَدَ وَالْوَلِيَّ عَنْهُ ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

فَمَلِكُ الْمُلُوكِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَرِيكٍ أَوْ وَلِيٍّ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى صَاحِبَةٍ أَوْ وَلَدٍ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ الضُّعَفَاءُ الْمُفْتَقِرُونَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَنَاسَبَ أَنْ يُكَبِّرَ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ الحَاجَةَ إِلَى أَحَدٍ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾؛ أَيْ: عَظِّمْهُ عَظَمَةً تَامَّةً، وَيُقَالُ: أَبْلَغُ لَفْظَةٍ لِلْعَرَبِ فِي مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**»؛ أَيْ: صِفْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَوْلَهُ: قَوْلُ الْعَبْدِ: (اللهُ أَكْبَرُ)، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(٤).

وَفِي هَذَا الأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ بِتَكْبِيرِهِ ﷻ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ وَإِنْ بَالَغَ فِي التَّنْزِيهِ وَالتَّمْجِيدِ، وَاجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ وَالتَّحْمِيدِ، يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَرِفَ بِالْقُصُورِ فِي ذَلِكَ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ شَأْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا يَظُنُّهُ الْبَشَرُ، وَأَنَّ الصَّالِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ مَهْمَا تَعَبَّدُوا لِلَّهِ تَعَالَى، فَلَنْ يُوَفُّوهُ حَقَّهُ، وَلَنْ يُكَافِئُوا نِعَمَهُ.

وَبِهَذَا تَتَبَيَّنُ مَكَانَةُ التَّكْبِيرِ، وَجَلَالَةُ قَدْرِهِ، وَعِظَمُ شَأْنِهِ، وَمَقَامُهُ مِنَ الدِّينِ،

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٠).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٥).

فَلَيْسَ التَّكْبِيرُ كَلِمَةً لَا مَعْنَى لَهَا، أَوْ لَفْظَةً لَا مَضْمُونَ فِيهَا، بَلْ هِيَ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ تَتَضَمَّنُ مَعَانِيَ جَلِيلَةً، وَمَقَاصِدَ كَبِيرَةً[٥].

وَمِمَّا يُبَيِّنُ عَظَمَةَ التَّكْبِيرِ، وَجَلَالَةَ قَدْرِهِ: أَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُعَدُّ تَفْصِيلًا لِكَلِمَةِ (اللهُ أَكْبَرُ)، فَالمُسْلِمُ يَقُومُ بِالطَّاعَاتِ جَمِيعِهَا، وَيَجْتَنِبُ المُحَرَّمَاتِ كُلَّهَا؛ تَكْبِيرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ ﷻ وَقِيَامًا بِحَقِّهِ سُبْحَانَهُ[٦].

إِنَّ التَّكْبِيرَ هُوَ تَعْظِيمُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِجْلَالُهُ، وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرُ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَيَصْغُرُ دُونَ جَلَالِهِ كُلُّ كَبِيرٍ، وَيَتَضَاءَلُ أَمَامَ جَلَالِهِ كُلُّ جَلِيلٍ؛ فَهُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَلَانَتْ لَهُ الشِّدَادُ، وَدَانَتْ لَهُ الخَلَائِقُ، وَذَلَّتْ لَهُ الجَبَابِرَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَوَاضَعَتْ لِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ المَوْجُودَاتُ، وَاسْتَكَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ كُلُّ المَخْلُوقَاتِ[٧].

وَالتَّكْبِيرُ لَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَبِيرٌ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ الْعَبْدِ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ: **«يَا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ، مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ؟ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ عَدِيٌّ: فَأَسْلَمْتُ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ[٨].

---

(٥) ينظر: فقه الأدعية والأذكار، د.عبد الرزاق البدر (١/ ٢٤٩).

(٦) المصدر السابق (١/ ٢٤٩).

(٧) المصدر السابق (١/ ٢٥٠).

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨-٣٧٩)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب (٢٩٥٤)، وصححه ابن حبان (٧٢٠٦).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِي قَوْلِهِ: (اللهُ أَكْبَرُ) إِثْبَاتُ عَظَمَتِهِ؛ فَإِنَّ الْكِبْرِيَاءَ تَتَضَمَّنُ الْعَظَمَةَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرِيَاءَ أَكْمَلُ؛ وَلِهَذَا جَاءَتِ الْأَلْفَاظُ المَشْرُوعَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ بِقَوْلِ: (اللهُ أَكْبَرُ)، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْمَلُ مِنْ قَوْلِ: (اللهُ أَعْظَمُ)؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»(٩)، فَجَعَلَ الْعَظَمَةَ كَالْإِزَارِ، وَالْكِبْرِيَاءَ كَالرِّدَاءِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرِّدَاءَ أَشْرَفُ، فَلَمَّا كَانَ التَّكْبِيرُ أَبْلَغَ مِنَ التَّعْظِيمِ صَرَّحَ بِلَفْظِهِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ التَّعْظِيمَ» اهـ(١٠).

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الحَمْدُ، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ . . .



---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، والطيالسي (٢٣٨٧)، والحميدي (١١٤٩)، وأحمد (٢/ ٢٤٨ و٣٧٦)، والبغوي في شرح السُّنة (٣٥٩٢)، وصححه ابن حبان (٣٢٨).
وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٥)، وصححه ابن حبان (٥٦٧٢).

(١٠) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَهُ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ فِي المَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ السَّادَةِ الغُرَرِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْعَرْضِ الأَكْبَرِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَانْتَهُوا عِنْدَ حُدُودِهِ، وَعَظِّمُوا شَعَائِرَهُ؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: تَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَى فَضِيلَةٌ فُضِّلَتْ بِهَا هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، وَمَيْزَةٍ تَمَيَّزَتْ بِهَا، وَوَصْفٌ وُصِفَتْ بِهِ فِي الْكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ كَمَا نَقَلَ أَصْحَابُ السِّيَرِ وَدَلَائِلِ النُّبُوَّةِ عَنْ زَبُورِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَصْفِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُمْ «يُسَبِّحُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَضَاجِعِهِمْ، وَيُكَبِّرُونَهُ سُبْحَانَهُ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ»(١١).

يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذِهِ الصِّفَاتُ إِنَّمَا تَنْطَبِقُ عَلَى صِفَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ؛ فَهُمْ يُكَبِّرُونَ اللهَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ؛ فِي أَذَانِهِمْ لِلصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَهَذَا التَّكْبِيرُ يَمْلَأُ الدُّنْيَا مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا»(١٢).

وَكَانَ النَّصَارَى فِي وَقْتِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يُسَمُّونَ عِيدَ

---

(١١) ينظر: أعلام النبوة للماوردي (٢١٠)، والوفا لابن الجوزي (٥٩)، وهداية الحيارى (١٩٣).

(١٢) الجواب الصحيح (٥/ ٢٢٦)، وينظر: الفروسية لابن القيم (١٦٠).

المُسْلِمِينَ: «عِيدَ اللَّهِ الأَكْبَرِ»؛ لِظُهُورِ التَّكْبِيرِ فِيهِ، فَهُمْ يُوَافِقُونَ المُسْلِمِينَ عَلَى تَسْمِيَتِهِ بِالْعِيدِ الْأَكْبَرِ، أَوْ عِيدِ اللَّهِ الأَكْبَرِ(١٣).

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَلَيْسَ هَذَا لِأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ -لَا أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ- غَيْرَ المُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا كَانَ مُوسَى يَجْمَعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالبُوقِ، وَالنَّصَارَى شِعَارُهُمُ النَّاقُوسُ»(١٤).

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: لَقَدْ بَانَ بِمَا سَبَقَ مَا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ فَضِيلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ بِهِ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ المُبَارَكَةِ، فَلَا يَحْسُنُ بِالمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَرِّطُوا فِيهِ، أَوْ يُشْغَلُوا عَنْهُ، وَهُوَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُدُوا إِلَيْهَا، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي المَوَاسِمِ العَظِيمَةِ كَالأَعْيَادِ.

وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ مِنَ الأَعْيَادِ، بَلْ هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْعِيدِ الْكَبِيرِ عِيدِ النَّحْرِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٥).

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهَا أَيَّامٌ يَنْبَغِي أَنْ يُكْثَرَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا فِي حَدِيثِ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ**

---

(١٣) الجواب الصحيح (٥/ ٢٣٢).

(١٤) الجواب الصحيح (٥/ ٢٣٢).

(١٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٢)، وأبو داود في الصوم، باب صيام أيام التشريق (٢٤١٩) والترمذي في الصوم، باب ما جاء في كراهية الصوم في أيام التشريق وقال: حديث حسن صحيح (٧٧٣) والنسائي في مناسك الحج، باب النهي عن صوم يوم عرفة (٥/ ٢٥٢)، وصححه ابن خزيمة (٢١٠٠) وابن حبان (٣٦٠٣) والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي(١/ ٤٣٤).

لِلَّهِ تَعَالَى» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٦).

وَمِنْ أَعْظَمِ الذِّكْرِ: التَّكْبِيرُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خُصَّتْ بِالتَّكْبِيرِ الْمُطْلَقِ فِي سَائِرِ الأَوْقَاتِ، وَبِالتَّكْبِيرِ الْمُقَيَّدِ بِأَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ.

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى التَّكْبِيرِ، وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ مِنْهَا، وَاشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَى آلَائِهِ وَنِعَمِهِ، وَاجْتَنِبُوا الْمُنْكَرَاتِ؛ فَإِنَّهَا جَالِبَةُ النِّقَمِ، رَافِعَةُ النِّعَمِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(١٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق (١١٤١).

التربية والآداب

٢٧٢- الخلال النبوية (١) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (أ).

٢٧٣- الخلال النبوية (٢) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (ب).

٢٧٤- الخلال النبوية (٣) واخفض جناحك للمؤمنين.

٢٧٥- الحسبة والمحتسبون (١) احتساب الأنبياء عليهم السلام.

٢٧٦- الحسبة والمحتسبون (٢) الحسبة فيصل بين الحق والباطل.

٢٧٧- احتساب النبي صلى الله عليه وسلم (١) تقرير الحسبة بأقواله (أ).

٢٧٨- احتساب النبي صلى الله عليه وسلم (٢) تقرير الحسبة بأقواله (ب).

٢٧٩- إصلاح ذات البين (١) فضله وفقهه وآدابه.

٢٨٠- إصلاح ذات البين (٢) مجالات الصلح.

٢٨١- العِلم والتعليم (١) فضل العلم والعلماء.

٢٨٢- العلم والتعليم (٢) ذم الجهل وأهله.

٢٨٣- العلم والتعليم (٣) العلماء الربانيون أمان للأمة.

٢٧٢- الخلال النبوية (١)
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (أ)

١٨/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ رَحِمَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ فَأَكْرَمَهَا بِأَفْضَلِ خَلْقِهِ، وَبَعَثَ فِيهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَعَدُّدِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الْأَنْعَام: ١٢].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ، وَالنِّعْمَةُ الْمُسْدَاةُ؛ كَانَ أَرْحَمَ نَبِيٍّ لِأُمَّتِهِ، وَأَشَدَّهُمْ شَفَقَةً وَنُصْحًا، وَأَكْثَرَهُمْ عَفْوًا وَصَفْحًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَلَا مَنْجَاةَ لِلْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِهَا ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ عَظِيمَةٌ، وَمِنَّتُهُ عَلَيْهِمْ كَبِيرَةٌ، وَهُوَ ﷻ ذُو الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا نَقْصٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَيْسَ الْعَجْزُ وَالضَّعْفُ بَاعِثًا عَلَيْهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ رَحْمَةُ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.

وَأَعْظَمُ رَحْمَةٍ حَظِيَتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ: اخْتِصَاصُهَا بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ، وَأَخْرَجَ الْعِبَادَ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، وَأَنْزَلَ بِبَرَكَتِهِ أَنْوَاعَ الرَّحَمَاتِ، فَأَهْلُ الْأَرْضِ يَتَرَاحَمُونَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَصَدَقَ

اللهُ الْكَرِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فَرِسَالَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّتِي بَلَّغَهَا عَنْ رَبِّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ قَدْ أَفَاضَتْ عَلَى الْعِبَادِ بِأَنْوَاعِ الرَّحَمَاتِ، وَشَمِلَتِ الرَّحْمَةُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ، وَالطَّيْرَ وَالْحَيَوَانَ، وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ، وَالْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ عَلَى الْأَرْضِ مُنْذُ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا وَإِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى وَاصِلَةً لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي حَدِيثٍ مُرْسَلٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١).

وَأَخَصُّ الْعَالِمِينَ بِتِلْكَ الرَّحْمَةِ، وَأَكْثَرُهُمْ حَظًّا مِنْهَا: مَنْ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَفَلَاحُهُمْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَمَا جَاءَ النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ جَاءَ كَذَلِكَ بِالنَّصِّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦١].

وَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَدَانَ بِدِينِهِ: دُعَاؤُهُ لَهُمْ؛

---

(١) أخرجه من حديث أبي صالح ذكوان السمان -رحمه الله تعالى- قال: «كان النبي ﷺ يناديهم . . .» فذكره: الدارمي (١٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الشعب (١٤٠٤)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢).
ووصله من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ به: الطبراني في الأوسط (٢٩٨١) والصغير (٢٦٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٦٠-١١٦١)، والبيهقي في الشعب (١٤٠٤-١٠٤٦)، وصححه الحاكم وقال: على شرطهما (١/ ٩١) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار، وقال: ورجاله رجال الصحيح (٨/ ٢٥٧).
ورجح إرساله البخاري كما في علل الترمذي (٦٨٥)، والدارقطني في العلل، وذكر أن وصله وهم (١٠/ ١٠٥).

إِذْ كَانَ يُكْثِرُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَذَكَّرَ حَالَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مَعَ أُمَمِهِمْ، فَتَغْلِبُهُ رَحْمَتُهُ لِأُمَّتِهِ فَيَدْعُو لَهُمْ؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إِبْرَاهِيم: مِنَ الْآيَةِ ٣٦]. وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المَائِدَة: ١١٨]. فَرَفَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمًا فَقَالَ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً فِي غَضَبِي، أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَاجْعَلْهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

وَبَلَغَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ قَدَّمَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ فِي دَعْوَةِ

---

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٩)، وابن حبان (٧٢٣٤).

(٣) أخرجه من حديث سلمان رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ (٤٦٥٩)، وأحمد (٥/ ٤٣٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
وله شواهد عدة منها:
١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة» (٦٠٠٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجرًا ورحمة (٢٦٠١).
٢- حديث عائشة رضي الله عنها: عند مسلم (٢٦٠٠)، وأحمد (٦/ ٤٥).
٣- حديث جابر رضي الله عنه عند: مسلم (٢٦٠٢)، وأحمد (٣/ ٣٨٤).
٤- حديث انس رضي الله عنه عند: مسلم (٢٦٠٣).

مُجابَةٍ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا كَمَا أَعْطَى الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ، فَلَمْ يَخُصَّهَا لِنَفْسِهِ بَلِ ادَّخَرَهَا لِأُمَّتِهِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**»(٤).

صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، مَا أَعْظَمَ رَحْمَتَهُ بِنَا! وَمَا أَشَدَّ حِرْصَهُ عَلَيْنَا!

أَيُلَامُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ أَنْ أَحَبُّوهُ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَقَدْ آثَرَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، وَخَصَّهُمْ بِدَعْوَتِهِ فِي مَوْقِفٍ يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ؟! وَاللَّهِ لَا يَلُومُهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا كَافِرٌ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، أَوْ مُنَافِقٌ يُخْفِي كُفْرَهُ، أَوْ جَاهِلٌ لَمْ يَعْرِفْ فَضْلَ الرَّسُولِ ﷺ.

وَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ إِلَّا وَقَدْ شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ(٥)، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ دَعَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْعَذَابِ فَقَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

---

(٤) حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابه (٥٩٤٦)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (٢٠٠).
وحديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٥٩٤٥)، ومسلم (١٩٩).
وجاء من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (٢٠١)

(٥) قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:
أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته؛ أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة.
وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.
=

ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٢]. فَرَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الْأَنْفَال: مِنَ الْآيَةِ ٣٣].

وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَبِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: مِنَ الْآيَةِ ٣٣].

وَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَصَدُّوا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ، وَلَحِقَهُ مِنَ الْهَمِّ مَا لَحِقَهُ؛ اسْتَأْذَنَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنْ يُهْلِكَ الْمُشْرِكِينَ، وَيَسْحَقَهُمْ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ فَرَحِمَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَغْمَ شِدَّةِ أَذَاهُمْ لَهُ، وَأَمْهَلَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَمْ يَنْتَصِرْ لِنَفْسِهِ لَمَّا جَاءَهُ النَّصِيرُ، بَلْ غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ لِقَوْمِهِ انْتِقَامَهُ لِنَفْسِهِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِمَلَكِ الْجِبَالِ عَلَيْهِ السَّلَام: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ مَا أَرَادَ عَذَابَ أُمَّتِهِ، بَلِ ابْتَغَى أَنْ يَكُونَ ذُخْرًا لَهُمْ، وَخَيْرًا

= وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له.
وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره.
وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.
الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض» جلاء الأفهام (١/ ١٨١).

(٦) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٥٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

مُتَقَدِّمًا يَجِدُونَهُ أَمَامَهُمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَلَمَّا دَعَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِالْجُوعِ فَأَصَابَهُمْ شَكَوْا إِلَيْهِ مَا وَجَدُوا، فَرَحِمَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَعَادَ يَدْعُو لَهُمْ بِالْغَيْثِ فَسُقُوا؛ كَمَا رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَنَّ قُرَيْشًا أَبْطَؤُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبَيْهَقِيِّ: «فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ وَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ لَهُمْ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسُقُوا الْغَيْثَ»(٨).

وَلَمَّا قَالَ لَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَدِيدَ الْأَسَى، كَثِيرَ الْحُزْنِ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ

---

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٢٢٨٨)، وابن حبان (٦٦٤٧).

(٨) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الروم (٤٤٩٦)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان (٢٧٩٨) والرواية الثانية للبيهقي (٣/ ٣٥٢)

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩)، وأبو يعلى (٦١٧٤).

قَوْمِهِ، لَا يَهْنَأُ بِعَيْشٍ وَهُوَ يَرَاهُمْ عَلَى الْكُفْرِ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، فَعَاتَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الْكَهْف: ٦].

أَيْ: لَعَلَّكَ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ أَوْ قَاتِلُهَا أَسَفًا عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣].

وَاشْتَدَّتْ بِهِ الْحَسْرَةُ عَلَيْهِمْ حَتَّى خَاطَبَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فَاطِر: ٨]. وَسَلَّاهُ رَبُّهُ ﷻ فِي حُزْنِهِ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٣].

إِنَّهَا وَاللَّهِ لَرَحْمَةٌ عَجِيبَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمٍ كَذَّبُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ وَبِدِينِهِ، وَآذَوْا أَتْبَاعَهُ، وَاضْطَرُّوهُ إِلَى الْهِجْرَةِ عَنْ بَلَدِهِ، وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ لِحَرْبِهِ، وَجَرَحُوهُ فِي أُحُدٍ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهَشَّمُوا الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَرْحَمُهُمْ وَيَأْسَى عَلَيْهِمْ، وَيَحْزَنُ لِأَجْلِهِمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُنْهَى عَنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(١٠)، وَلَمْ يَكُنْ أَشَدَّ فَرَحًا بِشَيْءٍ فَرَحُهُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ الْإِسْلَامَ؛ رَوَى أَنَسٌ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: **أَسْلِمْ**، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي**

---

(١٠) أخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ: الطبراني في الكبير (٦/ ١٢٠) رقم (٥٦٩٤)، وصححه ابن حبان (٩٧٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٦/ ١١٧)، وذكر ابن حبان في صحيحه عقب إخراجه له أن النبي ﷺ قال ذلك في أحد لما شجوا وجهه.

أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١١).

إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ رَحِمَ بِالنَّبِيِّ ﷺ الْمُشْرِكِينَ فَرَفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ بِحِلْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَفْوِهِ عَنْهُمْ، وَطَلَبِهِ إِمْهَالَهُمْ، وَاسْتِسْقَائِهِ لَهُمْ، وَرَحِمَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ بِقَبُولِ مَعَاذِيرِهِمْ إِذَا اعْتَذَرُوا، وَتَصْدِيقِهِمْ إِذَا حَلَفُوا، وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ، وَمُعَامَلَتِهِمْ بِظَاهِرِ حَالِهِمْ، وَرَدِّ سَرَائِرِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْتُهِرَ ذَلِكَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى لَمَزَهُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التَّوْبَة: ٦١]. أَيْ: يَسْتَمِعُ لَنَا، وَيَقْبَلُ أَعْذَارَنَا، وَسَنَقُولُ مَا شِئْنَا ثُمَّ نَحْلِفُ لَهُ فَيُصَدِّقُنَا، فَكَانَ رَدُّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦١]. يَعْنِي: أَنْ يَسْمَعَ مِنْكُمْ وَيُصَدِّقَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ يُكَذِّبَكُمْ وَلَا يَقْبَلَ قَوْلَكُمْ(١٢).

وَفِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ١٠٧]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كُتِبَ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ»(١٣).

وَمَظَاهِرُ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بَلْ حَتَّى لِلْحَيَوَانِ لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَقَامُ لِعَدِّهَا كُلِّهَا، فَضْلًا عَنْ عَرْضِهَا بِحَوَادِثِهَا وَتَفْصِيلَاتِهَا.

---

(١١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠)، وأبو داود في الجنائز، باب في عيادة الذمي (٣٠٩٥)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٧)، وأبو يعلى (٣٣٥٠)، وابن حبان (٢٩٦٠)

(١٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٣٠٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٦١).

(١٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣) رقم (١٢٣٥٨)، وعزاه ابن كثير لابن أبي حاتم (٣/ ٢٠٣)، وإسناد الطبري فيه مجهول، وإسناد الطبراني فيه أيوب بن سويد ضعيف جدًّا كما قال الهيثمي في الزوائد (٧/ ٦٩).

وَمِنَ الْمُعْجِزَاتِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ بَعْضَ الْحَيَوَانِ كَانَ يُحِسُّ بِرَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَلْجَأُ إِلَيْهِ يَشْتَكِي رَهَقَ مَالِكِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: **مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟** فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: **أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**» أَيْ: تُرْهِقُهُ فِي الْعَمَلِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١٤).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٩)، وأحمد (١/ ٢٠٤)، وأبو عوانة (٤٩٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢١)، وأبو يعلى (٦٧٨٧)، والبيهقي (٨/ ١٣)، وصححه الحاكم (٢/ ١٠٩)، والضياء في المختارة (٩/ ١٥٩-١٦٠) رقم (١٣٥)، وأصل الحديث في صحيح مسلم دون قصة الجمل (٢٤٢٩).

أَيُّهَا النَّاسُ: كَمَا حَفِظَتْ سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَوَاقِفَ كَثِيرَةً أَظْهَرَتْ رَحْمَتَهُ بِالْعَالِمِينَ؛ فَإِنَّهَا حَفِظَتْ كَذَلِكَ مَوَاقِفَ أُخْرَى أَوْقَعَ فِيهَا الْعُقُوبَةَ الشَّدِيدَةَ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَارَضُ مَعَ صِفَةِ الرَّحْمَةِ الَّتِي امْتَلأَ قَلْبُهُ بِهَا، بَلْ إِنَّ وَضْعَ الرَّحْمَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا مِمَّا يُذَمُّ وَلَا يُحْمَدُ؛ وَذَلِكَ كَتَعْطِيلِ الْحُدُودِ وَالتَّعْزِيرَاتِ رَحْمَةً بِالْمُجْرِمِينَ، وَلَازِمُ ذَلِكَ سَلْبُ الرَّحْمَةِ عَنْ عُمُومِ النَّاسِ لِحِسَابِ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالْإِجْرَامِ.

وَكَمَا دَعَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ بِالْهِدَايَةِ، وَاسْتَسْقَى لَهُمْ؛ دَعَا كَذَلِكَ عَلَى آخَرِينَ بِالْعَذَابِ وَالزَّلْزَلَةِ وَالنَّارِ، فَعُلِمَ أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهِدَايَةِ جَائِزٌ، كَمَا أَنَّ الدُّعَاءَ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ جَائِزٌ كَذَلِكَ(١٥).

وَلَمَّا عَدَا يَهُودِيٌّ عَلَى جَارِيَةٍ فَأَخَذَ ذَهَبَهَا، وَرَضَخَ رَأْسَهَا بِالْحِجَارَةِ؛ رَضَخَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَ الْيَهُودِيِّ بَيْنَ حَجَرَيْنِ(١٦).

وَأَسْلَمَ نَاسٌ مِنَ الْعُرَنِيِّينَ فَأَلْحَقَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِبِلِ الصَّدَقَةِ لِيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا، وَيَتَدَاوَوْا بِأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا وَتَعَافَوْا؛ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَسَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي آثَارِهِمْ «فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَحْسِمْهُمْ حَتَّى مَاتُوا». وَفِي رِوَايَةٍ: «فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ، وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَمَا سُقُوا حَتَّى مَاتُوا». قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَكْدِمُ الْأَرْضَ بِلِسَانِهِ حَتَّى يَمُوتَ»، وَفِي رِوَايَةٍ

(١٥) ينظر تفصيل ذلك في خطبة «سرية بئر معونة» مجلد (٣) خطبة رقم (١٢٩).

(١٦) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الخصومات، باب ما يذكر في الخصومات والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨٢)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر .. (١٦٧٢).

قَالَ أَنَسٌ ﵁: «فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ فَاغِرًا فَاهُ يَعَضُّ الْأَرْضَ لِيَجِدَ مِنْ بَرْدِهَا مِمَّا يَجِدُ مِنَ الْحَرِّ وَالشِّدَّةِ» وَقِصَّتُهُمْ مُخَرَّجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١٧).

وَنَقَضَ يَهُودُ قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ، وَحَكَّمَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﵁ فَحَكَمَ

---

(١٧) أخرجها من حديث أنس ﵁: البخاري في فاتحة كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٤١٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين (١٦٧١).
وقد بوب البخاري على حديثهم أبوابًا عدة فقال: باب لم يحسم النبي ﷺ المحاربين من أهل الردة حتى هلكوا، وباب لم يُسق المرتدون حتى ماتوا، وباب سمر النبي ﷺ أعين المحاربين، وساق تحت تلك الأبواب حديث أنس بألفاظه (٦٤١٨-٦٤١٩-٦٤٢٠).
والرواية الثانية للبخاري في (٦٤١٩) ومثلها في (٢٨٥٥).
والرواية الثالثة للبخاري في الطب، باب الدواء بألبان الإبل (٥٣٦١)، وهي عند أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجه.
والرواية الرابعة لأبي عوانة (٦١١١)، وساقها الحافظ في الفتح (١/ ٣٤٠).
قوله: «وسمل أعينهم» قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هكذا هو في معظم النسخ «سمل» باللام، وفي بعضها «سمر» بالراء والميم مخففة، وضبطناه في بعض المواضع في البخاري «سمّر» بتشديد الميم، ومعنى «سمل» باللام: نقاها وأذهب ما فيها، ومعنى «سمر» بالراء: كحلها بمسامير محمية، وقيل: هما بمعنى» انتهى من شرح مسلم (١١/ ١٥٥).
قوله: «ولم يحسمهم»؛ أي: ولم يكوهم، والحسم في اللغة: كي العرق بالنار لينقطع الدم.
قال ابن بطال -رحمه الله تعالى-: «إنما ترك حسمهم لأنه أراد إهلاكهم، فأما من قطع في سرقة مثلًا فإنه يجب حسمه؛ لأنه لا يؤمن معه التلف غالبًا بنزف الدم» ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ١٥٦)، وفتح الباري (١٢/ ١١١).
مسألة: هل ما فعله النبي ﷺ بالعرنيين كان قصاصًا منهم، وأنهم فعلوا ذلك بالراعي، أم هو عقوبة على فعلتهم الشنيعة، ومقابلتهم أعظم الإحسان بأبلغ الإساءة، من ردتهم عن الإسلام، وحرابتهم لأهله بقتل الراعي وسوق ذوده بعد أن أمنوا وأنعم عليهم بالانتفاع بإبل الصدقة؟!
قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى-: «قد اختلف العلماء في وجه عقوبة هؤلاء: فمنهم من قال: من فعل مثل فعلهم؛ فمن ارتد وحارب وأخذ المال صُنِعَ به كما صُنِعَ =

فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ» فَخُدَّتْ لَهُمْ خَنَادِقُ فِي الْأَرْضِ، وَضُرِبَتْ أَعْنَاقُ رِجَالِهِمْ فِيهَا، وَكَانُوا يُقَارِبُونَ

= بهؤلاء، وروي هذا عن طائفة، منهم أبو قلابة، وهو رواية عن أحمد.
ومنهم من قال: بل هذا يدل على جواز التمثيل ممن تغلظت جرائمه في الجملة، وإنما نهى عن التمثيل في القصاص، وهو قول ابن عقيل من أصحابنا.
ومنهم من قال: نُسخ ما فعل بالعُرنيين بالنهي عن المُثْلَة.
ومنهم من قال: كان قبل نزول الحدود وآية المحاربة، ثم نسخ بذلك، وهذا قول جماعة منهم الأوزاعي وأبو عبيدة.
ومنهم من قال: بل ما فعله النبي ﷺ بهم إنما كان من باب المحاربة، ولم ينسخ شيء من ذلك وقالوا: إنما قتلهم النبي ﷺ وقطع أيديهم؛ لأنهم أخذوا المال، ومن أخذ المال وقتل قطع وقتل وصلب حتمًا؛ فيقتل لقتله، ويقطع لأخذه المال يده ورجله من خلاف، ويصلب لجمعه بين الجنايتين وهما القتل وأخذ المال، وهذا قول الحسن ورواية عن أحمد. وإنما سمل أعينهم؛ لأنهم سملوا أعين الرعاة، كذا خرجه مسلم من حديث أنس، وذكر ابن شهاب أنهم قتلوا الراعي ومثلوا به، وذكر ابن سعد أنهم قطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات، وحينئذ فقد يكون قطعهم وسمل أعينهم وتعطيشهم قصاصًا.
وهذا يتخرج على قول من يقول: إن المحارب إذا جنى جناية توجب القصاص استوفاه منه قبل قتله، وهو مذهب أحمد، لكن هل يستوفى منه تحتمًا كقتله أم على وجه القصاص فيسقط بعفو الولي؟
على روايتين عنه، ولكن رواية الترمذي أن قطعهم من خلاف يدل على أن قطعهم للمحاربة، إلا أن يكونوا قد قطعوا يد الراعي ورجله من خلاف، والله أعلم» انتهى من جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٤-١٥٥).
وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وحكى ابن بطال عن المهلب أن الحكمة في ترك سقيهم: كفرهم نعمة السقي التي أنعشتهم من المرض الذي كان بهم، قال: وفيه وجه آخر يؤخذ مما أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ قال لما بلغه ما صنعوا: «**عَطَّشَ الله مَنْ عطش آل محمد الليلة**»، قال: فكان ترك سقيهم إجابة لدعوته ﷺ، قلت: وهذا لا ينافي أنه عاقبهم بذلك، كما ثبت أنه سملهم؛ لكونهم سملوا أعين الرعاة، وإنما تركهم حتى ماتوا لأنه أراد إهلاكهم كما مضى في الحسم، وأبعد من قال: إن تركهم بلا سقي لم يكن بعلم النبي ﷺ» انتهى من الفتح (١٢/ ١١١).

سِتَّمِائَةِ رَجُلٍ، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ، وَغُنِمَتْ أَمْوَالُهُمْ.

وَكَانَ هَذَا الْجَزَاءُ الْعَادِلُ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَنْ نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَأَرَادُوا السُّوءَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَقِصَّتُهُمْ أَيْضًا مُخَرَّجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١٨).

كُلُّ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَمَثِيلَاتُهَا تَشْرِيعٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْحَى بِهِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ حَكَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ بِمَا سَمِعْتُمْ، وَأَقَرَّ اللهُ تَعَالَى حُكْمَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ تَشْرِيعًا، وَرَسُولُنَا ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، فَعُلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ مِنْهُ ﷺ -وَإِنْ بَدَتْ لِلْبَعْضِ قَاسِيَةً- حَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ أَبَدًا.

وَإِزَاءَ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَمَثِيلَاتِهَا فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ اخْتَلَفَتْ مَوَاقِفُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَضَلَّ فِيهَا طَائِفَتَانِ مِنَ النَّاسِ؛ فَالْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ حِقْدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ أَبْرَزُوهَا دَلِيلًا عَلَى دَمَوِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَدْحِ بِهَا فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتَزَلُوا السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ فِي ذَلِكَ، مَعَ تَعَامِيهِمْ عَنِ الْجُرْمِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ مَنِ اسْتَحَقُّوا تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، وَإِخْفَائِهِمُ الْحَوَادِثَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى: قَوْمٌ قَابَلُوا هَؤُلَاءِ، فَجَدُّوا وَاجْتَهَدُوا فِي الذَّبِّ عَنِ الْإِسْلَامِ، لَكِنَّهُمْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ، وَلَمْ يُوَفَّقُوا فِي الْمُعَالَجَةِ؛ إِذْ حَرِجُوا مِنْ مِثْلِ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ، فَرَاحَ بَعْضُهُمْ يُنْكِرُهَا وَلَوْ كَانَتْ ثَابِتَةً، أَوْ يَتَكَلَّفُ فِي تَأْوِيلِهَا

---

(١٨) أخرجها من حديث أبي سعيد ﵁: البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٩٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتل من نقض العهد، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم (١٧٦٨).

وأخرجها من حديث عائشة ﵂: البخاري (٣٨٩٦)، ومسلم (١٧٦٩).

بِمَا يُضْعِفُ حُجَّتَهُ، وَيُنْقِصُ عَقْلَهُ.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَكُوا تِلْكَ الطَّرِيقَ الْوَعِرَةَ هُمْ مِمَّنْ سَلَّمُوا بِبَعْضِ المَبَادِئِ الْغَرْبِيَّةِ الإِلْحَادِيَّةِ، وَيَدْعُونَ إِلَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ الَّتِي مِنْهَا جَوَازُ تَغْيِيرِ الدِّينِ حَسَبَ المَنْهَجِ الْغَرْبِيِّ، فَيَضْطَرُّونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ إِلَى إِلْغَاءِ حَدِّ الرِّدَّةِ . . . وَإِذَا تَحَدَّثُوا عَنِ الْإِسْلَامِ اخْتَزَلُوهُ فِي صُوَرِ السَّمَاحَةِ وَالعَفْوِ، وَلَا يَعْرِضُونَ الْعُقُوبَاتِ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَبِخَفْضِ صَوْتٍ، وَيُعَلِّلُونَهَا بِتَعْلِيلَاتٍ سَامِجَةٍ بَارِدَةٍ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ -هَدَانَا اللهُ وَإِيَّاهُمْ- قَدْ بُهِرُوا بِمَا فِي الْقَوَانِينِ الدَّوْلِيَّةِ مِنْ مَوَادِّ حِفْظِ حُقُوقِ الإِنْسَانِ، وَجَعَلُوهَا حَقًّا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، ثُمَّ حَاكَمُوا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ إِلَيْهَا، فَمَا وَافَقَهَا رَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ مُثْبِتِينَ أَنَّ الْإِسْلَامَ سَبَقَ إِلَيْهَا، وَمَا خَالَفَهَا أَخْفَوْهُ أَوْ سَكَتُوا عَنْهُ، فَإِنْ جُوبِهُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ أَنْكَرُوهُ، أَوْ تَأَوَّلُوهُ، أَوِ اسْتَخْرَجُوا لَهُ مَذْهَبًا شَاذًّا، أَوْ قَوْلًا مَهْجُورًا لَيْسَ لَهُ مِنَ الدَّلِيلِ إِلَّا أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلْقَانُونِ الطَّاغُوتِيِّ الْوَضْعِيِّ، فَهُمْ قَاسُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى المُحْكَمَةَ بِشَرَائِعِ الْبَشَرِ الْفَاسِدَةِ، وَحَاكَمُوهَا إِلَى مَا يُعَارِضُهَا وَيُنَاقِضُهَا وَهِيَ الْحَاكِمَةُ، وَهَذَا أُسُّ الْخَطَإِ، وَسَبَبُ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ.

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ المَفْتُونُونَ أَنَّنَا لَسْنَا مُلْزَمِينَ بِإِقْنَاعِ أَعْدَائِنَا بِأَحْكَامِ دِينِنَا، فَإِنْ آمَنُوا فَلَهُمْ، وَإِنْ كَفَرُوا فَعَلَيْهِمْ. لَكِنَّنَا مُلْزَمُونَ بِتَعْظِيمِ شَرِيعَةِ رَبِّنَا، وَالْأَخْذِ بِجَمِيعِ أَحْكَامِهَا، وَعَدَمِ الْحَرَجِ مِنْ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَوْ كَانَ يُزْعِجُ الْأَعْدَاءَ، وَيُخَالِفُ قَوَانِينَهُمُ الْوَضْعِيَّةَ.

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مَنْ يُزَوِّرُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَجْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا عَنْهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دِينِهِ، وَيَتَّبِعَهُمْ فِي إِلْحَادِهِمْ؛ فَأَوْلَى لَهُ سَلَامَةُ دِينِهِ مِنْ مُرَاعَاةِ أَعْدَائِهِ، وَشَرِيعَةُ

اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ نَقْدِ النَّاقِدِينَ، وَيَجِبُ أَلَّا تُضَاهَى بِتَخَبُّطَاتِ الْقَانُونِيِّينَ، وَهِيَ شَرِيعَةٌ خَالِدَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى رَغْمِ أُنُوفِ الْحَاقِدِينَ وَالْكَارِهِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَمَنْ رَضِيَهَا وَسَلَّمَ بِهَا فَهُوَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَمَنْ رَدَّهَا أَوْ عَارَضَهَا فَهُوَ يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونُس: ٩٩، ١٠٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٢٧٣- الخلال النبوية (٢)
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (ب)

١٤/٤/١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَأَتَمَّ عَلَى عِبَادِهِ النِّعْمَةَ، فَبَعَثَ فِيهِمْ أَرْحَمَ الخَلْقِ بِهِمْ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَيْهِمْ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى نِعَمِهِ المُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مِنَنِهِ المُتَكَاثِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَحِمَ عِبَادَهُ بِالدِّينِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الخَيْرِ وَالمَصَالِحِ، وَتَرْفَعُ الشَّرَّ وَالمَفَاسِدَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ عَلَى العَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الخَلْقِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ أَكْمَلَهَا ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وَلَا يَرْضَى لَكُمْ رَبُّكُمْ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَهُوَ الرَّحِيمُ بِكُمُ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى دِينَهُ، وَافْرَحُوا بِشَرِيعَتِهِ، وَاحْمَدُوهُ إِذْ هَدَاكُمْ وَقَدْ ضَلَّ غَيْرُكُمْ ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ، اتَّصَفَ بِهَا، فَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالْبَشَرِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ، وَمَا

ذَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بِهِمْ، وَهِدَايَةً لَهُمْ، وَقَدْ خَاطَبَ سُبْحَانَهُ خَاتَمَ رُسُلِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وَمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الهُدَى وَالشَّرِيعَةِ، وَمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَهُ بِهَا، وَحَضَّهُ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَمَظَاهِرُ رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ حَفَلَتْ بِهَا سِيرَتُهُ وَامْتَلَأَتْ بِهَا شَرِيعَتُهُ، فَرَحِمَ الصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ، وَالْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَالمَرْأَةَ وَالضَّعِيفَ، بَلْ شَمِلَتْ رَحْمَتُهُ الحَيَوَانَ وَالجَمَادَ، وَجَاءَ بِشَرِيعَةٍ كُلُّهَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ لِلْعِبَادِ، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ يُوَصِّلُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا جَلَّاهُ لِأُمَّتِهِ، وَحَضَّهُمْ عَلَى سُلُوكِهِ، وَمَا مِنْ طَرِيقٍ تُبْعِدُهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا زَجَرَهُمْ عَنْهَا، وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِأُمَّتِهِ أَنِ اخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الشَّرِيعَةِ أَيْسَرَهَا وَأَكْمَلَهَا، وَمِنَ الأَحْكَامِ أَخَفَّهَا وَأَحْكَمَهَا، وَوَصَفَتْهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها وَهِيَ أَلْصَقُ النَّاسِ بِهِ، فَقَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتْرُكُ العَمَلَ وَهُوَ يُطِيقُهُ، وَيَوَدُّ العَمَلَ بِهِ، مَا يَتْرُكُهُ إِلَّا رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ فَلَا يُطِيقُهُ أَكْثَرُهُمْ، وَمَنْ نَظَرَ فِي سُنَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ قَالَ: لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٣٦٧)، ومسلم في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام. . . (٢٣٢٧).

لَأَمَرْتُهُمْ بِكَذَا وَكَذَا، أَوْ لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِكَذَا، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَفِي قِيَامِ رَمَضَانَ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجَزُوا عَنْهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ يَغْضَبُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا تَشْرِيعٌ يَشُقُّ عَلَى النَّاسِ، وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُ مِثْلَ تِلْكَ الأَسْئِلَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا**، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

---

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب (١٠٧٦)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (٧١٨).

(٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد (٨٨٢)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦١).

(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧)، والترمذي في العلم، باب في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله ﷺ (٢٦٧٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب وجوب الحج (٥/ ١١١)، وأحمد (٢/ ٢٤٧)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٤).

وَبَلَغَ مِنْ شِدَّتِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَمَا كَانَتْ رَحْمَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ خَاصَّةً بِالدُّنْيَا، بَلْ شَمِلَتْهُمْ فِي الآخِرَةِ، فَأَجَّلَ دَعْوَتَهُ الْمُسْتَجَابَةَ لِأُمَّتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَلَمْ يُعَجِّلْهَا لِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ أُؤَخِّرَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ، وَاعْتِنَائِهِ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمُ الْمُهِمَّةِ، فَأَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْوَتَهُ لِأُمَّتِهِ إِلَى أَهَمِّ أَوْقَاتِ حَاجَاتِهِمْ»(٨).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَدِيدَ الرَّحْمَةِ بِالأَطْفَالِ، حَتَّى قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

---

(٦) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٥٩)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك (٢٣٥٨).

(٧) أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٩).

(٨) شرح النووي على مسلم (٣/ ٧٥).

(٩) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٦)، وأحمد (٣/ ١١٢)، وأبو يعلى (٧/ ٢٠٢)، وابن حبان (٦٩٥٠).

وَلَمَّا نَازَعَتْ ابْنَهُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ رُوحُهُ «جَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟! فَقَالَ: **يَا بنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ**. ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: **إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالُوا لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

وَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالأَطْفَالِ أَنَّهُ يَحْمِلُهُمْ وَيُحَنِّكُهُمْ، وَيُقَبِّلُهُمْ وَيُدَاعِبُهُمْ، وَيَضَعُهُمْ فِي حِجْرِهِ، وَلَا يَتَرَفَّعُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَرُبَّمَا بَالَ الصَّبِيُّ فِي حِجْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَوَّثَ ثِيَابَهُ، فَلَمْ يَغْضَبْ عَلَى مَنْ أَتَى بِهِ، وَلَمْ يَتَبَرَّمْ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يَكْتَفِي بِنَضْحِ ثَوْبِهِ بِالْمَاءِ. وَكَانَتْ رَحْمَتُهُ بِالأَطْفَالِ لَا تُفَارِقُهُ حَتَّى وَهُوَ فِي عِبَادَتِهِ، وَمُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ ﷻ، فَصَلَّى ذَاتَ مَرَّةٍ وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ ابْنَتِهِ «فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٢).

وَرَوَى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ ﷺ فَقَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى

---

(١٠) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في الجنائز، باب قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون (١٢٤١)، ومسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥)، واللفظ للبخاري.

(١١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧)، وابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٦٥)، وأحمد (٦/ ٧٠)، وابن حبان (٥٥٩٥).

(١٢) أخرجه من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ: البخاري في سترة المصلي، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٤٩٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (٥٤٣).

صَلَاتَيِ الْعِشَاءِ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا. قَالَ أَبِي: فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: **كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٣).

وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالنِّسَاءِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَرَّجَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالمَرْأَةِ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»(١٤).

وَكَانَ يَرْحَمُ ضُعَفَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَيَزُورُهُمْ وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ.

وَشَمِلَتْ رَحْمَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَهْلَ الحَرْبِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَ

---

(١٣) أخرجه النسائي في التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (٢/ ٢٢٩)، وأحمد (٣/ ٤٩٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٧٩-٣٨٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٣٤)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٧٠) رقم (٧١٠٧)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٥٨٠)، والبيهقي (٢/ ٢٦٣)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣/ ١٨١).

(١٤) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: البخاري في الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (٦٧٧-٦٧٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الإمام يخفف الصلاة إذا حدث أمر (٩٨٩)، وأبو يعلى (٣١٤٤).
وجاء من حديث أبي قتادة رضي الله عنه عند البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٤٩٤) وأبي داود في الصلاة، باب تخفيف الصلاة للأمر يحدث (٧٨٩) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الإمام يخفف الصلاة إذا حدث أمر (٩٩١).

أَصْحَابَهُ ﷺ فِي مَغَازِيهِمْ أَلَّا يَغُلُّوا وَلَا يَغْدِرُوا وَلَا يَمْثُلُوا وَلَا يَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَأَلَّا يُعَذِّبُوا الأَسْرَى بَلْ يَرْفُقُوا بِهِمْ، وَيُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَأَنْ يُحْسِنُوا القِتْلَةَ إِذَا قَتَلُوا.

وَمِنْ صُوَرِ الرَّحْمَةِ الَّتِي طَبَّقَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «كُنَّا فِي البَحْرِ وَعَلَيْنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ الفَزَارِيُّ وَمَعَنَا أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَمَرَّ بِصَاحِبِ المَقَاسِمِ وَقَدْ أَقَامَ السَّبْيَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: فَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ وَلَدِهَا حَتَّى وَضَعَهُ فِي يَدِهَا، فَانْطَلَقَ صَاحِبُ المَقَاسِمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي أَيُّوبَ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَحِبَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَتَعَدَّتْ رَحْمَتُهُ ﷺ بَنِي آدَمَ إِلَى الْحَيَوَانِ، فَنَهَى عَنْ تَصْبِيرِ الْبَهَائِمِ، وَهُوَ أَنْ تُحْبَسَ وَتُتَّخَذَ هَدَفًا يُرْمَى إِلَيْهِ حَتَّى تَمُوتَ؛ فَفِيهِ تَعْذِيبٌ لَهَا(١٦).

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا، أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا، فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

---

(١٥) أخرجه أحمد واللفظ له (٥/ ٤١٢)، والترمذي في البيوع، باب في كراهية التفريق بين السبي وقال: حسن غريب (١٥٦٦)، والبيهقي (٩/ ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٨٢) رقم (٤٠٨٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ٦٣).

(١٦) كما في حديث أنس ﷺ قال: «نهى النبي ﷺ أن تصبر البهائم» أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثَّمة (٥١٩٤)، ومسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم (١٩٥٦).
وجاءت أحاديث أخرى في هذا المعنى عن ابن عباس وابن عمر وجابر ﷺ.

(١٧) أخرجه من حديث قرة بن إياس المزني ﷺ: أحمد (٣/ ٤٣٦)، والبخاري في الأدب =

وَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِحُمَّرَةٍ قَدْ أَخَذُوا وَلَدَهَا، وَهِيَ تُفَرِّشُ بِجَنَاحَيْهَا فِي الأَرْضِ وَجْدًا عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»(١٨).

وَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»(١٩).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ**»(٢٠).

= المفرد (٣٧٣)، والبزار (٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٠٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٢) رقم (٤٤)، والأوسط (٢٧٣)، وابن أبي الدنيا في العيال (٢٦٠)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٤/ ٣٣).

(١٨) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار (٢٦٧٥)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١٦١٠) وعزاه ابن مفلح في الآداب الشرعية للبخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الدلائل والحاكم والطبراني، ثم قال: وسنده صحيح إن ثبت سماع عبد الرحمن لهذا الحديث من أبيه عبدالله بن مسعود (٣/ ٣٥٤). ونقل الزيلعي عن المنذري قوله: «ذكر البخاري وابن أبي حاتم أن عبد الرحمن بن عبد الله سمع من أبيه، وصحح الترمذي حديثه عنه في جامعه» اهـ من نصب الراية (٣/ ٤٠٧).

(١٩) أخرجه من حديث سهل بن الحنظلية ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٤٨)، وأحمد (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٤٥)، وابن حبان (٥٤٥)، والنووي في رياض الصالحين (٩٦٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣).

(٢٠) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب الوقوف على الدابة (٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/ ٢٥٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٨٦٧)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٨)، وجوّد إسناده النووي في المجموع (٤/ ٣٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢).

قال الخطابي -رحمه الله تعالى-: «قد ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب على راحلته واقفًا =

وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِالجَمَادِ أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى نَخْلَةٍ، فَقَالَ أَحَدُ الأَنْصَارِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهَا إِلَيْهِ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ: **كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا**»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٢١).

وَمَا نُزُولُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ المِنْبَرِ، وَإِتْيَانُهُ الجِذْعَ، وَضَمُّهُ وَوَضْعُ يَدَيْهِ عَلَيْهِ حَتَى سَكَنَ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنْهُ ﷺ لَهُ.

فَشَمِلَتْ رَحْمَتُهُ ﷺ العَالَمِينَ، فَكَانَ رَحْمَةً لَهُمْ عَلَى مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وَعَلَى مَا وَصَفَهُ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَنَّهُ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ أُمَّتِهِ خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَالدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ الرَّفِيعَةَ، وَأَنْ يَبْعَثَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدَهُ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَحْبَابِهِ

= عليها، فدل ذلك على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لأرب أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض مباح جائز، وأن النهي إنما انصرف في ذلك إلى الوقوف عليها لا لمعنى يوجبه، لكن بأن يستوطنه الإنسان ويتخذه مقعدًا فيتعب الدابة ويضر بها من غير طائل» معالم السنن (٢/ ٢٥٣).

(٢١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٢)، والبيهقي (٣/ ١٩٥).

وَأَنْصَارِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَيُدْخِلَنَا الجَنَّةَ مَعَهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَوْلَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا هَدَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُصْطَفَى، وَالنَّبِيُّ الْمُجْتَبَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعَ كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَضَعُ الرَّحْمَةَ فِي مَوْضِعِهَا اللَّائِقِ بِهَا؛ لِئَلَّا تَتَحَوَّلَ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ، أَوْ يُفْهَمَ مِنَ التَّخَلُّقِ بِهَا ذَلِكَ، فَلَقَدْ قَاتَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنِ اسْتَحَقَّ القِتَالَ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَتَلَ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ بِيَدِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنَ الْيَهُودِ، وَأَقَامَ الحُدُودَ عَلَى مَنِ انْتَهَكَهَا؛ فَرَجَمَ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ لَمَّا زَنَيَا، وَقَطَعَ السَّارِقَ، وَقَتَلَ الْمُحَارِبِينَ الْمُرْتَدِّينَ بَعْدَ أَنْ قَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ.

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الحُدُودَ إِذَا بَلَغَتِ الْإِمَامَ أَوْ نَائِبَهُ وَجَبَ إِقَامَتُهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَعَافُوا الحُدُودَ فِيمَا بَيْنَكُمْ؛ فَمَا بَلَغَنِي مِنْ**

حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٢).

وَمَعْنَى الحَدِيثِ: تَجَاوَزُوا عَنْهَا، وَلَا تَرْفَعُوهَا إِلَيَّ؛ فَإِنِّي مَتَى عَلِمْتُهَا أَقَمْتُهَا.

وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ نَائِمًا فِي المَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ لِي ثَمَنُ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، أَنَا أَبِيعُهُ وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا قَالَ: **فَهَلَّا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٣).

وَجَاءَ فِي القُرْآنِ فِي شَأْنِ جَلْدِ الزَّانِيَيْنِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فَعُلِمَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الكَثِيرَةِ أَنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهُ مِنْ قَتْلِ المُشْرِكِينَ لَيْسَ مِمَّا يُنَافِي الرَّحْمَةَ، وَأَنَّ إِقَامَةَ الحُدُودِ لَا تُنَافِي الرَّحْمَةَ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِعُمُومِ الْبَشَرِ، وَأَمَّا المَنَاهِجُ الْوَضْعِيَّةُ الْإِلْحَادِيَّةُ الَّتِي سَادَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَمَا هِيَ إِلَّا عِقَابٌ لِلضَّحَايَا وَالْأَبْرِيَاءِ، وَعَوْنٌ لِلْمُجْرِمِينَ عَلَى إِجْرَامِهِمْ، وَمُكَافَأَةٌ لِلْمُفْسِدِينَ عَلَى إِفْسَادِهِمْ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الخَوْفِ وَالجُوعِ، كَمَا أَنَّ إِقَامَةَ الحُدُودِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الأَمْنِ وَالرَّخَاءِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«حَدٌّ يُعْمَلُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ**

---

(٢٢) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أبو داود في الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان (٤٣٧٦)، والنسائي في قطع السارق، باب ما يكون حرزًا أو ما لا يكون (٨/ ٧٠)، والبيهقي (٨/ ٣٣١)، والطبراني في الأوسط (٦٢١٢)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٢٤).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الحدود، باب من سرق من حرز (٤٣٩٤)، والنسائي في قطع السارق، باب ما يكون حرزًا وما لا يكون (٨/ ٩٦)، والبيهقي (٨/ ٢٦٥)، والطحاوي في شرح المشكل (٦/ ١٦١)، والحاكم (٤/ ٤٢٢)، والضياء المقدسي في المختارة (٨/ ٢٠)، وابن الجارود في المنتقى (٨٢٨)، والدارقطني (٣/ ٢٠٤) رقم (٣٦٢).

صَبَاحًا»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِقَامَةُ حَدٍّ بِأَرْضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(٢٤).

وَلَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُعَارِضَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَدْعُوَ لِتَعْطِيلِ حُدُودِهِ بِدَعْوَى أَنَّ الزَّمَنَ تَغَيَّرَ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعَارِضُ حُقُوقَ الإِنْسَانِ الَّتِي تَوَاضَعَ الْبَشَرُ عَلَيْهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَكُلُّ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِثْمٌ وَضَلَالٌ تُوصِلُ أَصْحَابَهَا إِلَى الكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ فِيهَا مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ، وَاللهُ تَعَالَى لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَفِيهَا مُشَاقَّةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فِيمَا قَضَى وَحَكَمَ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وَكَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّ الحُدُودَ الشَّرْعِيَّةَ فِيهَا قَسْوَةٌ وَوَحْشِيَّةٌ لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ هَذَا العَصْرِ، وَقَدْ شَرَعَهَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَقَضَى بِهَا مَنْ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟! ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ، وَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى شَرِيعَتَهُ، وَلَا تَلْتَفِتُوا لِأَقْوَالِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ فِيهَا، فَهِيَ الخَيْرُ وَالصَّلَاحُ لِلْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٢٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: النسائي في قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحد (٨/ ٧٥)، وابن ماجه في الحدود، باب إقامة الحدود (٢٥٣٨)، وأحمد (٢/ ٤٠٢)، وابن المبارك في مسنده (١٥٧)، وصححه ابن حبان (٤٣٩٧)، وابن الجارود (٨٠١)، والرواية الثانية لابن حبان، وقد رواه النسائي موقوفًا ومرفوعًا.

٢٧٤- الخلال النبوية (٣) واخفض جناحك للمؤمنين

١٠/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِكَمَالِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِهَا، وَنَهَاهُ عَنْ سَفَاسِفِهَا وَرَذَائِلِهَا، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا اجْتَبَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا عَذَّبَهُ[1]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[2]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: تُعْرَفُ أَقْدَارُ الرِّجَالِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَيُقَاسُ كِبَارُ النَّاسِ بِأَوْصَافِهِمْ، فَقُوَّةُ الْجَسَدِ يَعْقُبُهَا الْمَرَضُ أَوِ الْهَرَمُ، وَقُوَّةُ الْمَالِ وَالْجَاهِ يَخْلُفُهَا الْمَوْتُ، وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا عَمَلُهُ، وَلَا يَذْكُرُهُ النَّاسُ إِلَّا بِوَصْفِهِ، فَإِنْ كَانَ ذَا عَمَلٍ جَلِيلٍ، وَوَصْفٍ نَبِيلٍ؛ أَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهِ بِمَا عَلِمُوا مِنْ حَالِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ

---

(١) كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عند: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب ما يقرأ الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩١)، والترمذي في الشمائل (٣١٤)، وأحمد (٦/ ٢٤)، وصححه النووي في الأذكار (١٣٣)، وفي خلاصة الأحكام (١٢٥٤)، والألباني في صحيح أبي داود (الأم ٨١٧).

ذَكَرُوهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ، وَالْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ(٣).

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ كُلِّفَ مِنَ الْأَعْمَالِ أَشَقَّهَا وَأَشْرَفَهَا، وَحَازَ مِنَ الْأَخْلَاقِ أَعْلَاهَا وَأَكْمَلَهَا، حُمِّلَ أَعْظَمَ رِسَالَةٍ وَكُلِّفَ بِتَبْلِيغِهَا، فَحَمَلَهَا وَبَلَّغَهَا، وَأُوذِيَ فِي سَبِيلِهَا؛ فَمَا وَهَنَتْ عَزِيمَتُهُ، وَلَا لَانَتْ عَرِيكَتُهُ.

وَأَمَّا الْأَخْلَاقُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى وَصْفِ خُلُقِهِ، وَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ؟! وَمَهْمَا تَكَلَّمَ الْمُتَكَلِّمُونَ، وَوَصَفَ الْوَاصِفُونَ فِي خُلُقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَنْ يَفُوهُ حَقَّهُ، وَلَنْ يُدْرِكُوا وَصْفَهُ.

وَالتَّوَاضُعُ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ، وَلِينُ الْجَانِبِ؛ كَانَتْ أَوْصَافًا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَخَلَّقَ بِهَا امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْحِجْر: ٨٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤، ٢١٥]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٣٧].

وَأَوْصَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام بِالتَّوَاضُعِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ فَقَالَ جِبْرِيلُ: **إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ**

---

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الشهادات، باب تعديل كم يجوز؟ (٢٤٩٩)، ومسلم في الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى (٩٤٩).

جِبْرِيلُ: **تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولًا»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٤).

فَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْثَرَ النَّاسِ تَوَاضُعًا، وَأَخْفَضَهُمْ جَنَاحًا، وَأَلْيَنَهُمْ جَانِبًا، وَسِيرَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَلِيئَةٌ بِالمَوَاقِفِ وَالْعِبَرِ فِي هَذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ.

لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةٍ مَا بَلَغَهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَكَانَ سَيِّدَ الْبَشَرِ، وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ، وَكَانَ إِذَا أَخْبَرَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ تِلْكَ يَقْرِنُ إِخْبَارَهُ بِهَا بِنَفْيِ الْفَخْرِ؛ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِزْرَاءً بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٥).

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام مَعَ أَنَّهُ سَيِّدُهُمْ وَخَاتَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما(٦).

---

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٢٥)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٧٢)، وصححه ابن حبان (٦٣٦٥).

(٥) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٣٦١٥)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الشفاعة (٤٣٠٨).
وجاء بنحوه من طرق أخرى عن أبي بكر وجابر وابن عباس وواثلة الليثي رضي الله عنهم.

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّفات: ١٣٩]. (٣٢٣١)، ومسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٧).
وجاء أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: =

وَلمَّا قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّهِ، قَالَ ﷺ: «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ** عليه السلام» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَمَا كَانَ يَقْبَلُ حَمِيَّةَ أَحَدٍ لَهُ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ عليهم السلام، رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ، فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ الْيَهُودِيَّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ فَقَالَ: **لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا فِي لِبَاسِهِ وَمَرْكَبِهِ؛ فَيَلْبَسُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ اللِّبَاسِ، وَلَا يَأْنَفُ مِنْ رُكُوبِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَوْ شَاءَ ﷺ لَلَبِسَ الدِّيبَاجَ وَالْحَرِيرَ، وَلَمَا رَكِبَ إِلَّا أَصِيلَاتِ الْخَيْلِ، كَيْفَ وَأَغْنِيَاءُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَفْدُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ!! كَيْفَ وَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْفُتُوحِ وَسَاقَ إِلَيْهِ أَمْوَالَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ!! وَلَكِنَّ تَوَاضُعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْبَى عَلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ سِيرَةَ الْمُلُوكِ، أَوْ يَتَخَلَّقَ خُلُقَ الْأَغْنِيَاءِ، أَوْ يَتَزَيَّا بِزِيِّ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ

= ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّفات: ١٣٩] (٣٢٣٤)، ومسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٢٣٧٦).

(٧) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٢٣٦٩)، وأبو داود في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤٦٧٢)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة: لم يكن (٣٣٥٢)، والنسائي في الكبرى (١١٦٩٢)، وأحمد (٣/ ١٧٨)، وأبو يعلى (٣٩٤٨).

(٨) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء عليهم السلام، باب ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] (٣٢٢٧)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٣).

يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا . رَوَى أَبُو بُرْدَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَأَخْرَجَتْ إِلَيْنَا إِزَارًا غَلِيظًا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْيَمَنِ، وَكِسَاءً مِنَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمُلَبَّدَةَ، قَالَ: فَأَقْسَمَتْ بِاللَّهِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ فِي هَذَيْنِ الثَّوْبَيْنِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَلْبَسُ مَا وَجَدَهُ، فَيَلْبَسُ فِي الْغَالِبِ الشَّمْلَةَ، وَالْكِسَاءَ الْخَشِنَ، وَالْبُرْدَ الْغَلِيظَ»(١٠).

وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ، عَلَى إِكَافٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَرُبَّمَا أَرْدَفَ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ خَلْفَهُ، وَإِذَا تَلَقَّاهُ الصِّبْيَانُ أَرْدَفَهُمْ مَعَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رَوَى عَبْدُاللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأُدْخِلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٢).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا مَعَ أُسْرَتِهِ وَفِي دَاخِلِ بَيْتِهِ، وَيَعْمَلُ أَعْمَالًا يَأْنَفُ مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ، سُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ

---

(٩) أخرجه البخاري في الخمس، باب ما ذكر من ورع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه .... (٢٩٤١)، ومسلم واللفظ له في اللباس والزينه، باب التواضع في اللباس ... (٢٠٨٠).

(١٠) الشفاء في حقوق المصطفى (١/ ٩٥).

(١١) أخرجه البخاري في اللباس، باب الارتداف على الدابة (٥٦١٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨).

(١٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنه (٢٤٢٨).

فِي الْبَيْتِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ»[١٣]. وَسَأَلَ رَجُلٌ عَائِشَةَ: هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: «نَعَمْ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٤]. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ رضي الله عنها: «كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ: يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ»[١٥].

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَوَاضِعًا مَعَ النَّاسِ، وَمِنْ شِدَّةِ تَوَاضُعِهِ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم، فَلَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ بِمَلْبَسٍ أَوْ مَرْكَبٍ أَوْ مَجْلِسٍ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الْكُبَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَإِذَا جَاءَ الْغَرِيبُ مَا عَرَفَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو ذَرٍّ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما فَقَالَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، قَالَ: فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، - وَالدُّكَّان: الدِّكَّةُ الْمَبْنِيَّةُ لِلْجُلُوسِ عَلَيْهَا - فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَجْلِسُ بِجَنْبَتَيْهِ . . .» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٦].

---

(١٣) أخرجه البخاري في النفقات، باب خدمة الرجل في أهله (٥٠٤٨)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٥) (٢٤٨٩)، والطيالسي (١٣٨٣)، وأحمد (٦/ ١٢٦).

(١٤) هذه الرواية لأحمد (٦/ ١٠٦)، وعبد الرزاق (٢٠٤٩٢)، وعبد بن حميد (١٤٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٩)، وصححها ابن حبان (٦٤٤٠) .

(١٥) هذه الرواية لأحمد (٦/ ٢٥٦)، وأبي يعلى (٤٨٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، والترمذي في الشمائل (٣٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٧٨)، وصححها ابن حبان (٥٦٧٥).

(١٦) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام (٨/ ١٠١)، وإسحاق بن راهويه (١٦٥)، وابن منده في الإيمان (١٦٠)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٣٧٨)، والبزار (٤٠٢٥)، وما بين الحاصرتين في تفسير الدكان ليس من الحديث، وإنما هو مني، وهو في اللسان =

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لَهُ كَمَا هُوَ شَأْنُ أَهْلِ الدُّنْيَا، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «مَا كَانَ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ رُؤْيَةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَمِنْ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ وَلَوْ كَانَ فَقِيرًا، وَيَقْبَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا كَانَ يَسِيرًا، وَلَا يَشْتَرِطُ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَغْضَبُ مِنْ دَعْوَةٍ يَرَاهَا أَقَلَّ مِنْ حَقِّهِ، كَمَا هُوَ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُبَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: «إِذَا

= (١٢/ ١٥٧) والنهاية لابن الأثير (٢/ ١٢٨).

وهذا كان منه عليه الصلاة والسلام في أول الأمر، فلما احتاج الناس إلى بروزه عليه الصلاة والسلام برز إليهم، ويرى القرطبي استحباب جلوس العالم بمكان يختص به، ويكون مرتفعًا إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه، ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٦).

(١٧) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء كراهية قيام الرجل للرجل، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢٧٥٤)، وأحمد (٣/ ١٣٢)، وأبو يعلى (٣٧٨٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤)، والطبري في تهذيب الآثار (٨٣٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، والضياء في المختارة (١٩٦٠).

(١٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الهبة وفضلها، باب القليل من الهبة (٢٤٢٩)، والنسائي في الكبرى (٦٦٠٩)، وأحمد (٢/ ٤٢٤)، وإسحاق بن راهويه (٢٠٤)، وابن حبان (٥٢٩١).

وجاء بنحوه من حديث أنس ﷺ عند: الترمذي في الأحكام، باب ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة، وقال: حسن صحيح (١٣٣٨)، وأحمد (٣/ ٢٠٩)، وصححه ابن حبان (٥٢٩٢).

دُعِيتُمْ إِلَى كُرَاعٍ فَأَجِيبُوا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩). وَالْكُرَاعُ مِنَ الدَّابَّةِ: مَا دُونَ الْكَعْبِ(٢٠). وَقَالَ أَنَسٌ ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْعَى إِلَى خُبْزِ الشَّعِيرِ وَالْإِهَالَةِ السَّنِخَةِ فَيُجِيبُ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(٢١).

وَلَا يَأْنَفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الضَّعَفَةِ وَالمَسَاكِينِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ، بَلْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ، وَيَقْضِي حَاجَاتِهِمْ، فَيُجِيبُ السَّائِلَ، وَيُعَلِّمُ الْجَاهِلَ، وَيَدُلُّ التَّائِهَ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى الْفَقِيرِ، وَمَا يَرُدُّ أَحَدًا قَصَدَهُ فِي حَاجَةٍ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ ﷺ يَتَبَرَّكُونَ بِالمَاءِ يَغْمِسُ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ فِيهِ، فَمَا يَرُدُّهُمْ، وَلَا يَنْزَعِجُ مِنْ كَثْرَةِ طَلَبِهِمْ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدَمُ المَدِينَةِ بِآنِيَتِهِمْ فِيهَا المَاءُ فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا، فَرُبَّمَا جَاءُوهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٢).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: **يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**. فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٣).

---

(١٩) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: مسلم في النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة (١٤٢٩)، وابن حبان (٥٢٩٠).

(٢٠) فتح الباري (٥/ ١٩٩) قال الحافظ: وخص الذراع والكراع بالذكر؛ ليجمع بين الحقير والخطير؛ لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها، والكراع لا قيمه له، وفي المثل: اعط العبد كراعًا يطلب منك ذراعًا.

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢)، وأبو يعلى واللفظ له (٤٠١٥)، والبيهقي (٦/ ٣٦).

(٢٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٤)، وعبد بن حميد (١٢٧٤)، والبيهقي في الشعب (١٤٢٩).

(٢٣) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأبو داود في الأدب، باب في الجلوس في الطرقات (٤٨١٨)، وأحمد (٣/ ١١٩).

وَأَخْبَارُ تَوَاضُعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَثِيرَةٌ، وَسِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ مَلِيئَةٌ بِهَا، وَمَا حُفِظَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ تَكَبَّرَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ فَاخَرَ بِنَفْسِهِ أَوْ مَكَانَتِهِ، وَقَدْ نَالَ أَعْلَى المَنَازِلِ، وَحَظِيَ عِنْدَ رَبِّهِ بِأَكْبَرِ المَقَامَاتِ، فَهُوَ صَاحِبُ الْحَوْضِ المَوْرُودِ، وَاللِّوَاءِ المَعْقُودِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، وَأُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَتَّى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وبَلَغَ مَقَامًا لَمْ يَبْلُغْهُ مَخْلُوقٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ، وَكَلَّمَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْآيَاتِ. وَمَا حَكَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ أَوِ المَدْحِ لِنَفْسِهِ ﷺ، وَلَا تَعَالَى بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ كَانَ التَّوَاضُعُ صِفَتَهُ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ سِمَتَهُ، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا هَدْيَ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَتَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِهِ؛ فَإِنَّهُ قُدْوَتُكُمْ وَأُسْوَتُكُمْ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ التَّوَاضُعُ سَجِيَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَا كَانَ يَتَكَلَّفُ التَّخَلُّقَ بِهِ، أَوْ يَتَصَنَّعُهُ أَمَامَ النَّاسِ، وَإِلَّا فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ ذَوِي الشَّرَفِ وَالرِّيَاسَةِ يُظْهِرُونَ

التَّوَاضُعَ وَقُلُوبُهُمْ مُتَكَبِّرَةٌ، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وَفِي أَكْبَرِ المَجَامِعِ الَّتِي تَسْتَخِفُّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ، وَقَدْ تَدْفَعُهَا إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْكِبْرِ وَالتَّمَيُّزِ عَلَى النَّاسِ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَزْدَادُ فِيهَا إِلَّا تَوَاضُعًا إِلَى تَوَاضُعِهِ، وَأَعْظَمُ جَمْعٍ حَضَرَهُ فِي حَيَاتِهِ وَخَطَبَ النَّاسَ فِيهِ كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ بَرَزَ لِلنَّاسِ عَلَى نَاقَتِهِ، وَقَدْ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ جُمُوعُ الْحَجِيجِ!!

وَانْظُرُوا إِلَى زُعَمَاءِ الدُّنْيَا، وَقَادَةِ النَّاسِ إِذَا وَقَفُوا يَخْطُبُونَ فِي الْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَهْتِفُ لَهُمْ، أَيْنَ يَقِفُونَ؟ وَكَيْفَ يَقِفُونَ؟ وَقَارِنُوا ذَلِكَ بِوُقُوفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي عَرَفَةَ عَلَى نَاقَتِهِ بِكُلِّ تَوَاضُعٍ وَذُلٍّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَمَوَاقِفُ النَّصْرِ وَالْفُتُوحِ تَسْتَبِدُّ بِالْقَادَةِ وَالْفَاتِحِينَ، وَتَسْتَخِفُّ عُقُولَهُمْ، وَتَسْتَوْلِي عَلَى نُفُوسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيهَا فَخْرُهُمْ وَعُلُوُّهُمْ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى التَّوَاضُعِ فِيهَا إِلَّا أَقَلُّ الرِّجَالِ، وَمَا حُفِظَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -رَغْمَ كَثْرَةِ فُتُوحِهِ وَانْتِصَارَاتِهِ- أَنَّهُ تَعَالَى بِنَصْرٍ، وَلَا اسْتَبَدَّ بِهِ فَتْحٌ، بَلْ يَزْدَادُ تَوَاضُعًا إِلَى تَوَاضُعِهِ. وَيَوْمَ الْفَتْحِ الْأَكْبَرِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ مَنْصُورًا مُؤَزَّرًا دَخَلَهَا وَهُوَ مُطَأْطِئٌ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهُ لَيَمَسَّ رَحْلَهُ مِنْ شِدَّةِ طَأْطَأَتِهِ، وَلَمَّا هَابَتْهُ الرِّجَالُ فَارْتَعَدُوا أَمَامَهُ هَوَّنَ عَلَيْهِمْ، وَسَكَّنَ مِنْ رَوْعِهِمْ، وَأَزَالَ هَيْبَتَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَأَزْرَى بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

رَوَى أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَأَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: **هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ**

تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٢٤).

هَكَذَا كَانَ تَوَاضُعُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا يَمْلِكُ مَنْ يَقْرَأُ سِيرَتَهُ، وَيَطَّلِعُ عَلَى صِفَاتِهِ إِلَّا أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّتِهِ؛ وَلِذَلِكَ أَحَبَّهُ كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ حُسْنِ أَخْلَاقِهِ، وَجَمِيلِ صِفَاتِهِ.

وَالنَّاسُ مَفْطُورُونَ عَلَى مَحَبَّةِ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَعَلَى بُغْضِ الْمُتَكَبِّرِينَ، فَإِنْ تَكَبَّرَ عَائِلٌ ضَعِيفٌ؛ ازْدَادَ النَّاسُ لَهُ بُغْضًا وَاحْتِقَارًا وَكَرَاهِيَةً، كَمَا أَنَّهُ إِذَا تَوَاضَعَ سَيِّدٌ كَبِيرٌ؛ عَظُمَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَأَحَبُّوهُ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ سَيِّدُ الْخَلْقِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَعْلَى النَّاسِ مَكَانَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشَدُّ النَّاسِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَحَرِيٌّ أَنْ يَمْلِكَ الْقُلُوبَ، وَأَنْ يُحِبَّهُ كُلُّ الْبَشَرِ إِلَّا الْمُسْتَكْبِرِينَ.

وَحَرِيٌّ بِأَتْبَاعِهِ ﷺ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَوَاضِعِينَ؛ اتِّبَاعًا لِهَدْيِهِ، وَتَمَسُّكًا بِسُنَّتِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا مِنْ سَرَاةِ النَّاسِ وَسَادَتِهِمْ.

وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةِ الْجَاهِ أَوِ المَالِ، فَجَعَلَ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقْرَؤُوا مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِجَوَانِبِ التَّوَاضُعِ، وَخَفْضِ

---

(٢٤) أخرجه من حديث قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود رضي الله عنه: ابن ماجه في الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والخطيب في تاريخه (٦/ ٢٧٧)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٣) وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٣/ ٥٠)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٩).

وأخرجه من حديث قيس بن أبي حازم عن جرير رضي الله عنه: الطبراني في الأوسط (١٢٦٠)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٢)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٦٠٥).

وأخرجه من حديث قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- مرسلًا: ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣)، وهناد في الزهد (٨٠٢)، والخطيب في تاريخه (٦/ ٢٧٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٤٨٥-٨٦)، ورجح الدارقطني في العلل إرساله (٦/ ١٩٥) رقم (١٠٦٣).

الْجَنَاحِ، وَلِينِ الْجَانِبِ؛ لِيَتَعَلَّمُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَكَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَمِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ.

وَلَا يَحِلُّ لِذِي جَاهٍ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ بِجَاهِهِ وَقَدْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَلَا لِذِي مَالٍ أَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ مَا لَا يَرَى لِلنَّاسِ وَهُوَ لَا يَرْزُقُ نَفْسَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْزُقَ غَيْرَهُ، فَإِنْ تَخَلَّقَ بِالْكِبْرِ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عُلُومَ الشَّرِيعَةِ فَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ؛ إِذْ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ فِي ذَلِكَ، وَكَانَ كَالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.

وَمَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةً فَتَرَفَّعُ بِهَا عَلَى النَّاسِ فَقَدْ أَوْبَقَ نَفْسَهُ، وَكَفَرَ نِعْمَةَ رَبِّهِ، وَاللهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْلُبَهُ مَا أَعْطَاهُ، فَيَصِيرَ بَعْدَ الْعِزِّ إِلَى الذُّلِّ، وَبَعْدَ الْغِنَى إِلَى الْفَقْرِ، مَعَ مَا يَنَالُهُ مِنْ فَرَحِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَشَمَاتَتِهِمْ بِهِ، وَسُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ، وَيَبْقَى لَهُ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

فَتَوَاضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى رَبِّكُمْ، وَاخْفِضُوا لِإِخْوَانِكُمْ جَنَاحَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْكِبْرَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ، وَاسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ كِبْرِهِمْ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٧٥- الحسبة والمحتسبون (١)
احتساب الأنبياء عليهم السلام

٢١/١/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ وَأَثْنَى عَلَى الْمُصْلِحِينَ، وَنَهَى عَنِ الْفَسَادِ وَذَمَّ الْمُفْسِدِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ بِدِينِهِ سُبْحَانَهُ وَبِرَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ، وَمُنْذِرِينَ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَالْوُقُوعِ فِي نَهْيِهِ، وَمُحَذِّرِينَ مِنْ شِدَّةِ انْتِقَامِهِ، وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى؛ فَتِلْكَ وَصِيَّةُ الرُّسُلِ عليهم السلام إِلَيْكُمْ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرَ قَسَمَهُمْ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٍ فِي السَّعِيرِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: ٢]، وَلَا وُجُودَ لِفَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ.

وَفَرِيقُ الْجَنَّةِ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَفَرِيقُ السَّعِيرِ هُمُ الشَّيْطَانُ وَأَتْبَاعُهُ الْكَافِرُونَ، وَفَرِيقُ الْجَنَّةِ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَفَرِيقُ

السَّعِيرِ يَسْعَى فِيهَا بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ؛ وَلِذَا كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا الرُّسُلَ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ أَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي السَّعْيِ بِالصَّلَاحِ، وَمُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الصَّالِحِينَ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وَقَالَ شُعَيْبٌ وَهُوَ يَحْتَسِبُ عَلَى قَوْمِهِ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وَهَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفَضْحِ الْمُفْسِدِينَ، وَبَيَانِ فَسَادِهِمْ؛ قَدْ أُمِرْنَا بِالنَّظَرِ فِي سِيَرِهِمْ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِهِمْ، وَاقْتِفَاءِ أَثَرِهِمْ فِي الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَالسَّعْيِ بِالْإِصْلَاحِ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالْمُفْسِدَاتِ؛ وَذَلِكَ حِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا فَضْلَهُمْ وَصَلَاحَهُمْ، وَمَا اخْتُصُّوا بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، ثُمَّ ذَيَّلَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ بِتَدَبُّرٍ، وَاسْتَقْرَأَ أَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ؛ عَلِمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ إِنَّمَا بُعِثُوا لِلِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَمُرَاقَبَةِ أَحْوَالِهِمْ، وَتَقْوِيمِ سُلُوكِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَالْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَرَدِّهِمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالمَوْضُوعَاتُ الَّتِي احْتَسَبَ فِيهَا الرُّسُلُ ﷺ عَلَى أَقْوَامِهِمْ شَامِلَةٌ لِمَا يُصْلِحُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا، ابْتِدَاءً بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَبْذِ الشِّرْكِ، وَانْتِهَاءً بِتَقْوِيمِ سُلُوكِ النَّاسِ، وَتَصْحِيحِ مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ.

لَقَدْ أَمَرُوهُمْ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ فِيهِ صَلَاحُ أَحْوَالِهِمْ فِي الدَّارَيْنِ، وَنَهَوْهُمْ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ يَضُرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لَقَدِ احْتَسَبَ الرُّسُلُ عَلَى أَقْوَامِهِمْ فِي مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ أَعْظَمُ مَسْأَلَةٍ

وَأَجَلُّهَا، وَحَذَّرُوهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَعَاقِبَتِهِ، وَهُوَ أَخْطَرُ مَعْصِيَةٍ وَأَكْبَرُهَا، وَمَا مِنْ رَسُولٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَكَانَ احْتِسَابُهُمْ شَامِلًا لِكُبَرَاءِ الْقَوْمِ وَمَلَئِهِمْ، كَمَا شَمِلَ عَامَّةَ النَّاسِ وَضَعَفَتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ صَلَاحَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَمِثَالُ ذَلِكَ مِنْ سِيرَتِهِمْ: إِنْكَارُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام عَلَى النُّمْرُودِ بْنِ كَنْعَانَ، وَمُنَاظَرَتُهُ إِيَّاهُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَإِنْكَارُ مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ ظُلْمَهُ وَتَعْبِيدَهُ النَّاسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَتَحَمَّلَ هَذَانِ النَّبِيَّانِ الْكَرِيمَانِ عليهما السلام فِي سَبِيلِ إِنْكَارِهِمَا عَلَى الطَّاغِيَتَيْنِ مَا تَحَمَّلَا مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ.

وَأَنْكَرَ مُوسَى عليه السلام عَلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ تَزْوِيرَ الْحَقَائِقِ، وَتَزْوِيقَ الْبَاطِلِ، وَالدَّجَلَ عَلَى النَّاسِ، وَإِضْلَالَ الْعَامَّةِ فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]، فَكَانَ مُوسَى عليه السلام قُدْوَةً لِمَنْ يَتَصَدَّوْنَ لِعُلَمَاءِ السُّوءِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِإِرْضَاءِ الْبَشَرِ مَنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا كَانَ قُدْوَةً صَالِحَةً لِمَنْ يَفْضَحُونَ الْكُتَّابَ وَالمُفَكِّرِينَ وَالْإِعْلَامِيِّينَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ، وَيَنْشُرُونَ الضَّلَالَ، وَيَبُثُّونَ الشُّبُهَاتِ، وَيَدْعُونَ إِلَى الشَّهَوَاتِ.

وَكَمْ يُفْتَرَى فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَتُؤَوَّلُ نُصُوصُهُ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِمُوَافَقَةِ مَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ!! وَكَمْ يُفْتَرَى عَلَى المُصْلِحِينَ المُحْتَسِبِينَ مِنْ أَكَاذِيبَ كَمَا افْتُرِيَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ؟!

وَكَمَا احْتَسَبَ الرُّسُلُ عَلَى كُبَرَاءِ النَّاسِ وَرُؤُوسِهِمْ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَسَبُوا عَلَى أَهْلِ بُيُوتِهِمْ وَقَرَابَتِهِمْ، فَأَمَرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا كَانُوا عليهم السلام

لِيَحْتَسِبُوا عَلَى النَّاسِ وَيَتْرُكُوا المُقَرَّبِينَ مِنْهُمْ!!

هَذَا نُوحٌ عليه السلام يُخَاطِبُ ابْنَهُ وَقَدْ بَدَتْ بَوَادِرُ الْعَذَابِ لِيُنْقِذَهُ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ فَيَقُولُ لَهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هُود: ٤٢].

وَاحْتَسَبَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام عَلَى أَبِيهِ فَخَصَّهُ بِالْخِطَابِ، وَأَكْثَرَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ، حَتَّى غَضِبَ أَبُوهُ مِنْهُ وَهَمَّ بِرَجْمِهِ، وَأَمَرَ بِهَجْرِهِ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٤١-٤٦].

وَاحْتَسَبَ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مَرْيَم: ٥٥].

وَاحْتَسَبَ الرُّسُلُ كَذَلِكَ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ، وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ مَا سَادَ فِيهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالمَعَاصِي؛ فَنُوحٌ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ شِرْكَهُمْ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ اعْتِقَادَهُمْ فِي النُّجُومِ وَفِي أَصْنَامِهِمْ، وَنَاظَرَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَأَبْطَلَ حُجَّتَهُمْ، وَبَيَّنَ ضَلَالَهُمْ وَضَلَالَ آبَائِهِمْ، وَأَتْبَعَ الْإِنْكَارَ بِالْقَوْلِ الْإِنْكَارَ بِالْفِعْلِ، فَكَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ، وَهَدَمَ مَذَاهِبَهُمْ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٥٨]. وَلَمَّا جَادَلُوهُ فِي ذَلِكَ أَغْلَظَ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٦٧].

وَهُودٌ عليه السلام احْتَسَبَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الشِّرْكَ، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ اغْتِرَارَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ، وَمُفَاخَرَتَهُمْ بِعُمْرَانِهِمْ، وَتَبَاهِيهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ، وَهُمُ الْقَائِلُونَ: ﴿مَن

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥]؟ فَبيَّنَ لَهُمْ عليه السلام أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَقْوَى مِنْهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ مَغَبَّةِ عَبَثِهِمْ، وَقَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨-١٣١].

وَاحْتَسَبَ صَالِحٌ عليه السلام عَلَى قَوْمِهِ؛ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ شِرْكَهُمْ، وَسَرَفَهُمْ فِي الْعُمْرَانِ عَلَى سَبِيلِ الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالرَّفَاهِيَةِ وَالْمُفَاخَرَةِ، فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤٩، ١٥٠]، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ طَاعَةَ أَهْلِ الْفَسَادِ وَالِانْحِرَافِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

وَأَمَّا قَوْمُ لُوطٍ عليه السلام فَانْتَشَرَتْ فِيهِمُ الْفَوَاحِشُ، وَأَعْلَنُوا بِهَا فِي النَّاسِ، وَأَظْهَرُوهَا فِي مَجَالِسِهِمْ وَنَوَادِيهِمْ، مَعَ شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَاحْتَسَبَ لُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنْكَرَ شِرْكَهُمْ، وَمَا يَأْتُونَهُ مِنَ الْفَوَاحِشِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٤، ٥٥]، وَكَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ لِنَهْبِهِمْ، وَلِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ بِهِمْ، فَأَنْكَرَ لُوطٌ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢٨، ٢٩].

وَأَمَّا شُعَيْبٌ عليه السلام فَمَعَ إِنْكَارِهِ شِرْكَ قَوْمِهِ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ غِشَّهُمْ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَخْسِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، فَقَالَ عليه السلام لَهُمْ: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨١-١٨٣]، كَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَطْعَ الطَّرِيقِ لِأَخْذِ أَمْوَالِ

المُسَافِرِينَ بِالْقُوَّةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٣٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٦].

وَكَمَا احْتَسَبَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَقْوَامِهِمْ فَنَهَوْهُمْ عَنْ هَذِهِ المُوبِقَاتِ؛ فَإِنَّهُمُ احْتَسَبُوا عَلَيْهِمْ فِي المَعْرُوفِ فَأَمَرُوهُمْ بِكُلِّ مَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى، وَيُوصِلُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَأَمَرُوهُمْ بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِفَضْلِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، فَهَذَا هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَقُولَانِ لِأَقْوَامِهِمَا: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الْأَعْرَاف: ٧٤].

وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٦].

وَأَمَرُوا أَقْوَامَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ فَهُودٌ وَصَالِحٌ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَا لِأَقْوَامِهِمَا: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٦١]، وَقَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هُود: ٩٠].

وَمِنِ احْتِسَابِ الرُّسُلِ عَلَى أَقْوَامِهِمْ أَنَّهُمْ نَهَوْهُمْ عَنْ مُتَابَعَةِ المُفْسِدِينَ فِي فَسَادِهِمْ ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٢].

وَمَا أَشَدَّ غَضَبَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حِينَ تُنْتَهَكُ حُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى! يَغْضَبُونَ غَيْرَةً عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ، فَكَمْ عُذِّبُوا وَأُوذُوا فَلَمْ يَغْضَبُوا، فَإِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فِي أَقْوَامِهِمْ ظَهَرَتْ غَيْرَتُهُمْ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ.

وَلَمَّا أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ الَّذِي آمَنَ

مَعَهُ دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ؛ غَيْرَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَانْتِصَارًا لِدِينِهِ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وَلَمْ يَكُنْ دُعَاؤُهُ عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ انْتِصَارًا لِنَفْسِهِ، أَوِ انْتِقَامًا مِنْهُمْ لمَّا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ عَلَّلَ دُعَاءَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى عليه السلام مِنْ مِيقَاتِ رَبِّهِ، وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ وَجَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ عَبَدُوا الْعِجْلَ، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ حَتَّى رَمَى الْأَلْوَاحَ وَفِيهَا كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى؛ غَضَبًا لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَخْلُفَهُ هَذَا الْمُنْكَرُ الْعَظِيمُ فِي قَوْمِهِ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، هَكَذَا غَضِبَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ لمَّا رَأَى الْمُنْكَرَ فِي قَوْمِهِ، وَكَمْ مِنْ مُنْكَرَاتٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَا تُحَرِّكُ قُلُوبَ أَكْثَرِ النَّاسِ!! فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالرُّسُلُ عليهم السلام قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا فِي وَظِيفَةِ الِاحْتِسَابِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، حَتَّى مَكَثَ نُوحٌ عليه السلام مُحْتَسِبًا عَلَى قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَلَمَّا أَهْلَكَ اللهُ تَعَالَى الْمُكَذِّبِينَ مَكَثَ مُحْتَسِبًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ احْتَسَبَ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ سَنَةً أَوْ سَنَتَيْنِ ثُمَّ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام مَا تَوَقَّفُوا عَنِ الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ حَتَّى فَارَقُوا الدُّنْيَا.

وَلَقِيَ الرُّسُلُ عليهم السلام فِي سَبِيلِ احْتِسَابِهِمْ أَنْوَاعَ الصُّدُودِ وَالْأَذَى؛ فَنُوحٌ عليه السلام سَخِرَ مِنْهُ قَوْمُهُ، وَنَبَذُوا أَتْبَاعَهُ، وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرُمِيَ هُودٌ عليه السلام بِالْجُنُونِ، وَاتُّهِمَ مُوسَى عليه السلام بِالسِّحْرِ، وَطَارَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ، وَكَادَ شُعَيْبٌ عليه السلام أَنْ يُرْجَمَ لَوْلَا مَنَعَةُ رَهْطِهِ، وَقُتِلَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عليهما السلام، وَطُورِدَ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ

بِسَبَبِ احْتِسَابِهِمْ عَلَى أَقْوَامِهِمْ، فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي المُحْتَسِبِينَ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ وَالمُسْتَكْبِرِينَ مَا يَنَالُهُمْ.

وَمِنْ عَادَةِ المُسْتَكْبِرِينَ وَالمُفْسِدِينَ مُحَاوَلَةُ إِغْرَاءِ المُحْتَسِبِينَ بِدُنْيَا يَبْذُلُونَهَا لَهُمْ مُقَابِلَ إِيقَافِ احْتِسَابِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِخْرَاسِ أَصْوَاتِهِمْ، وَشِرَاءِ أَقْلَامِهِمْ. وَمَا كَانَ الرُّسُلُ عليهم السلام لِيَقْبَلُوا المُسَاوَمَةَ فِي دِينِهِمْ، وَلَا تَرَكُوا الِاحْتِسَابَ لِكَمَالِ دُنْيَاهُمْ بِنَقْصِ دِينِهِمْ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام قُدْوَةً لِلْمُحْتَسِبِينَ فِي ذَلِكَ؛ إِذْ رَفَضَ مُصَانَعَةَ مَلِكَةِ سَبَإٍ لَهُ بِالْهَدِيَّةِ مُقَابِلَ الْكَفِّ عَنِ الِاحْتِسَابِ عَلَيْهَا وَقَوْمِهَا ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [النَّمل: ٣٦، ٣٧].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَوَفَّقَنَا لِلصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَرَزَقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ ....



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَنْصَحُ النَّاسِ لِلنَّاسِ هُمْ أَهْلُ الْحِسْبَةِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِي السُّفَهَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ، وَيَمْنَعُونَ تَنَزُّلَ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام ظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ؛ إِذْ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام وَهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى أَقْوَامِهِمْ كَانُوا يُعْلِنُونَ فِيهِمْ أَنَّ الدَّافِعَ إِلَى احْتِسَابِهِمْ عَلَيْهِمْ هُوَ النُّصْحُ لَهُمْ لَيْسَ غَيْرَ.

قَالَ نُوحٌ عليه السلام وَهُوَ يَدْعُو قَوْمَهُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦٢]، وَقَالَ هُودٌ عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦٨]، وَقَالَ صَالِحٌ وَشُعَيْبٌ عليهما السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الْأَعْرَاف: ٧٩].

وَأَغَشُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَأَخْطَرُهُمْ عَلَيْهِمْ: هُمْ مَنْ يَقِفُونَ فِي وَجْهِ أَهْلِ الْحِسْبَةِ، وَيُحِبُّونَ نَشْرَ الْفَاحِشَةِ؛ لِأَنَّهُمْ سَبَبُ انْحِرَافِ النَّاسِ وَضَلَالِهِمْ، وَبِسَبَبِهِمْ تَتَنَزَّلُ الْعُقُوبَاتُ مِنَ السَّمَاءِ، وَكُلُّ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الَّتِي أُهْلِكَتْ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ وَقَوْمِ شُعَيْبٍ إِنَّمَا أُهْلِكُوا بِسَبَبِ إِصْرَارِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى إِفْسَادِهِمْ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَتَضْيِيقِ مَنَافِذِ الْإِصْلَاحِ وَإِغْلَاقِهَا، مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِ الْفَسَادِ عَلَى مَصَارِعِهَا.

وَالْحُجَّةُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ عَلَى أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ هِيَ تَوْسِيعُ دَائِرَةِ الْحُرِّيَّاتِ، وَاحْتِرَامُ خُصُوصِيَّاتِ النَّاسِ، وَزَعْمُهُمْ أَنَّ الْحِسْبَةَ تَدَخُّلٌ فِيمَا لَا يَعْنِي، سُبْحَانَ اللَّهِ!! مَا أَضْعَفَ عُقُولَهُمْ! وَمَا أَشَدَّ ضَلَالَهُمْ وَانْحِرَافَهُمْ! إِذْ كَيْفَ تَكُونُ الْحِسْبَةُ تَدَخُّلًا فِيمَا لَا يَعْنِي وَبِسَبَبِهَا يُحْفَظُ الْمُجْتَمَعُ، وَبِزَوَالِهَا يَهْلِكُ النَّاسُ؟!

وَالْحُرِّيَّاتُ الَّتِي يُرِيدُهَا الْمُفْسِدُونَ هِيَ الْحُرِّيَّاتُ الَّتِي تَضْمَنُ لَهُمْ إِلْغَاءَ

الشَّرِيعَةِ، وَتَعْطِيلَ أَحْكَامِهَا، وَالتَّسَلُّط عَلَى عُقُولِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ بِأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ لِنَقْلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنَ الطُّهْرِ وَالْعَفَافِ إِلَى الْخَنَا وَالِانْحِرَافِ وَالشَّهَوَاتِ، وَمِنْ دَرَجَاتِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، إِلَى دَرَكَاتِ الشَّرِّ وَالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَتِلْكَ الْحُجَّةُ السَّمِجَةُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا المُفْسِدُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدِ احْتَجَّ بِهَا قَبْلَهُمُ المُعَذَّبُونَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَزَعَمُوا أَنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام يَتَدَخَّلُونَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَحُدُّونَ مِنْ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَيَنْتَهِكُونَ خُصُوصِيَّاتِهِمْ، فَقَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ [هُود: ٨٧]؛ أَيْ: نُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ، وَنَحْنُ أَحْرَارٌ فِيهَا، فَلِمَاذَا تَأْمُرُنَا وَتَنْهَانَا؟ وَالمُفْسِدُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُكَرِّرُونَ تِلْكَ المَقُولَةَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ أَوْ بِأُخْرَى، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ مَا يَشَاءُونَ دُونَ قُيُودٍ أَوْ ضَوَابِطَ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ!!

إِنَّهَا نَفْسُ الْحُجَّةِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا الْأَقْدَمُونَ فَكَانَتْ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِمْ، وَهَلَاكِ النَّاسِ مَعَهُمْ.

إِنَّ مَنْ نَظَرَ فِي سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَالمَعَاصِي الَّتِي احْتَسَبُوا عَلَى النَّاسِ فِيهَا، وَنَهَوْهُمْ عَنْهَا، يَجِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ مُتَنَوِّعَةٌ، وَإِنْ كَانَ الشِّرْكُ مَوْجُودًا فِي كُلِّ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ؛ وَلِذَا أَمَرَ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَوْا عَنِ الشِّرْكِ.

وَكُلُّ المَعَاصِي الَّتِي سَلَفَتْ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ قَدِ اجْتَمَعَتْ فِي الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ، وَهِيَ حَرِيَّةٌ بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ، مِمَّا يَجْعَلُ التَّبِعَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ كَبِيرَةً فِي إِنْكَارِ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ المُجْتَمِعَةِ؛ رَفْعًا لِلْعَذَابِ، وَإِصْلَاحًا لِلنَّاسِ، وَإِلَّا لَهَلَكُوا بِبَعْضِ هَذِهِ المُوبِقَاتِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِجَمِيعِهَا؟!

وَنَجِدُ أَنَّ كُلَّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْمُنْكَرَاتِ قَدِ انْتَشَرَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ دُونَ الْأُخْرَى، فَتَصَدَّى لَهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مُنْكِرًا لَهُ، وَمُحْتَسِبًا عَلَى قَوْمِهِ فِيهِ: فَمَثَّلَ احْتِسَابُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عليهما السلام عَلَى الطَّاغِيَتَيْنِ الْمُسْتَكْبِرَيْنِ مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ السِّيَاسِيِّ، وَمُكَافَحَةَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْوُقُوفَ فِي وُجُوهِ الطُّغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، سَوَاءً كَانُوا أَفْرَادًا أَمْ دُوَلًا.

وَمَثَّلَ احْتِسَابُ هُودٍ وَصَالِحٍ عليهما السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْعُمْرَانِيِّ وَالْحَضَارِيِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ الرَّفَاهِيَةِ وَالسَّرَفِ فِي الْبُنْيَانِ، وَالتَّبَاهِي بِالْقُوَّةِ، وَالْبَطْشِ بِالنَّاسِ. وَمَثَّلَ احْتِسَابُ لُوطٍ عليه السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى طُهْرِ النَّاسِ وَعَفَافِهِمْ.

وَمَثَّلَ احْتِسَابُ شُعَيْبٍ عليه السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الِاقْتِصَادِيِّ، وَمُكَافَحَةَ الْغِشِّ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَالسَّرِقَةِ بِأَيِّ سَبِيلٍ كَانَ.

كَمَا مَثَّلَ احْتِسَابُ لُوطٍ وَشُعَيْبٍ عليهما السلام مُقَاوَمَةَ الْفَسَادِ الْأَمْنِيِّ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ وَالْجُوعِ.

فَمَنْ قَاوَمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَجَالَاتِ الْمُفْسِدِينَ كُلَّهَا، فَأَنْكَرَ عَلَى الْكُفَّارِ كُفْرَهُمْ وَدَعَاهُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْعَاصِينَ مَعْصِيَتَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالطَّاعَةِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الظَّلَمَةِ ظُلْمَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالْعَدْلِ، وَأَنْكَرَ عَلَى الْمُسْرِفِينَ إِسْرَافَهُمْ، وَعَلَى أَهْلِ الْفَسَادِ الْمَالِيِّ فَسَادَهُمْ، وَعَلَى أَصْحَابِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُرَوِّجِينَ لَهَا فُحْشَهُمْ وَفُجُورَهُمْ -وَمَا مِنْ فَسَادٍ إِلَّا وَلَهُ فِيهِ إِنْكَارٌ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ- فَقَدِ اقْتَدَى بِالْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَسَارَ سِيرَتَهُمْ، وَامْتَثَلَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأَنْعَام: ٩٠]، وَكَفَى بِذَلِكَ شَرَفًا وَفَضْلًا.

وَمَنِ اخْتَارَ مَجَالًا مِنْ مَجَالَاتِ الْفَسَادِ، وَاحْتَسَبَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ، وَوَقَفَ فِي

وَجْهِ الْمُفْسِدِينَ، وَتَحَمَّلَ السُّخْرِيَةَ وَالْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، فَقَدِ اقْتَدَى بِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَشَارَكَ فِي حِفْظِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الانْحِرَافِ وَالْعَذَابِ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ، وَلَيْسَ لَهُ فِي مُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ أَيُّ نَصِيبٍ، فَقَدْ حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَسَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ تَقْصِيرِهِ وَخِذْلَانِهِ.

وَأَقْبَحُ مِنْهُ مَنْ سَلَّ قَلَمَهُ، وَأَطَالَ لِسَانَهُ بِالْكَذِبِ وَالتَّجَنِّي، وَالِافْتِرَاءِ وَالتَّشَفِّي مِنْ أَهْلِ الِاحْتِسَابِ، وَاخْتَلَقَ الْقَصَصَ عَلَيْهِمْ، أَوْ سَمِعَهَا ثُمَّ رَوَّجَهَا فِي الْمَجَالِسِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ صِدْقَهَا، وَلَرُبَّمَا زَادَ عَلَيْهَا مِنْ نَفْسِهِ لِلْإِثَارَةِ وَشَدِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ فِرْيَةٍ سُوِّدَتْ بِهَا الصُّحُفُ، وَضَجَّتْ بِهَا الْقَنَوَاتُ وَالْإِذَاعَاتُ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالِاحْتِسَابِ، وَعِنْدَ التَّتَبُّعِ وَالتَّحْقِيقِ بَانَ أَنَّهَا مَحْضُ افْتِرَاءٍ وَاخْتِلَاقٍ، أَرَادَ مِنْهُ الْمُفْسِدُونَ تَأْلِيبَ الْعَامَّةِ عَلَى أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ!!

وَمَنْ رَوَّجَ الشَّائِعَاتِ عَلَى أَهْلِ الْحِسْبَةِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُشَارِكٌ فِي نَشْرِ الْفَسَادِ وَإِعَانَةِ الْمُفْسِدِينَ، وَأَنَّهُ قَدْ سَارَ مِنْ حَيْثُ يَشْعُرُ أَوْ لَا يَشْعُرُ سِيرَةَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، وَانْحَازَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لَا يَعْلَمُ إِلَى صَفِّ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ، وَيُخْشَى عَلَى دِينِهِ وَلَوْ كَانَ فِي عِدَادِ الْمُصَلِّينَ.

فَاعْرِفُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى مَقَامَ الْحِسْبَةِ مِنَ الدِّينِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا وَظِيفَةُ الْمُرْسَلِينَ، فَقُومُوا بِهَا، وَأَعِينُوا أَهْلَهَا، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَحِفْظًا لِمُجْتَمَعَاتِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْعُقُوبَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٢٧٦- الحسبة والمحتسبون (٢)
الحسبة فيصل بين الحق والباطل

٢٩/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ العَلِيمِ الحَكِيمِ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ فَجَعَلَ لِلْحَقِّ مِنْهُمْ أَنْصَارًا، وَجَعَلَ لِلْبَاطِلِ مِنْهُمْ أَعْوَانًا، وَكَتَبَ الصِّرَاعَ بَيْنَهُمْ فِتْنَةً لَهُمْ وَاخْتِبَارًا ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَتَبَ الْعِزَّ لِمَنْ نَصَرَ دِينَهُ، وَقَضَى بِالذُّلِّ عَلَى مَنْ حَارَبَ شَرِيعَتَهُ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الرِّسَالَاتِ، فَلَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا الأَنِيسُ فِي الغُرْبَةِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْكُرْبَةِ، وَالجَلِيسُ فِي الْقَبْرِ حِينَ الْوَحْشَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ تَكْلِيفُهُمْ بِالشَّرَائِعِ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِهِمْ هِدَايَتُهُمْ لَهَا، وَدَلَالَتُهُمْ عَلَيْهَا بِمَا أَرْسَلَ لَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ، فَأَقَامَ بِهَا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَطَعَ أَعْذَارَهُمْ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَاءُوا أَقْوَامَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْهَدُوا، وَنَهَوْهُمْ عَمَّا تَعَوَّدُوا؛ وَلِذَا أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا مَا تَوَارَثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: ١٠٤].

إِنَّ الظَّاهِرَ مِنْ أَحْوَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي كُلِّ الأُمَمِ السَّالِفَةِ أَنَّهُمْ مَا رَفَضُوا تَنَسُّكَ الأَنْبِيَاءِ وَتَعَبُّدَهُمْ، وَلَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ عَدَمَ مُشَارَكَتِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ، وَلَا أَلْزَمُوهُمْ بِعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَإِنَّمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ الَّذِي رَأْسُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَهْيَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي غَايَتُهُ شِرْكُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُسَمَّى فِي الْعَصْرِ الحَاضِرِ بِالحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا مَا لَا يَفْهَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَيَسْتَغْرِبُونَهُ وَقَدْ يُنْكِرُونَهُ.

إِنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ، وَلَا جَاءُوا إِلَى الأَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا نَزَحُوا إِلَى قَبَائِلِهِمْ مِنْ خَارِجِهَا، بَلْ هُمْ مَنْ صَلِيبَةِ أَقْوَامِهِمْ: وُلِدُوا فِيهِمْ، وَعَاشُوا بَيْنَهُمْ، حَتَّى أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ، وَقَبْلَ بَعْثِهِمْ أَنْبِيَاءَ كَانُوا يَرَوْنَ أَقْوَامَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، وَمَا كَانَتِ الرُّسُلِ لِتُشْرِكَ بِاللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، وَلَم يُنْقَلْ وُقُوعُ الشِّرْكِ مِنْهُمْ لَا قَبْلَ بَعْثَتِهِمْ وَلَا بَعْدَهَا، وَلَوْ وَقَعَ الشِّرْكِ مِنْهُمْ لَاحْتَجَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ لَمَّا دَعَتْهُمْ رُسُلُهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلَقَالُوا لَهُمْ: أَتَنْهَوْنَنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَعَنَا؟ وَلَمَا احْتَاجَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى إِحَالَتِهِمْ عَلَى مَا كَانَ يَعْبُدُ الآبَاءُ[1].

---

(١) أجمع العلماء على عصمتهم في التبليغ:

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: «لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة =

. . . .

= والتقصير في التبليغ» الشفا (٢/ ١٢٦).
وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: «واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- في كل ما يتعلق بالتبليغ» أضواء البيان (٤/ ١٠٥).
ومعصومون أيضًا من الفواحش بالإجماع:
قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: «أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات» الشفا (٢/ ١٢٦).
وقال الجويني -رحمه الله تعالى-: «وقد اتفقت الأمة على وجوب عصمة الرسل عن الكبائر الواضعة من أقدارهم نحو السرقة والزنا ونحوهما، وهذا أثبت إجماعًا» التلخيص (٢/ ٢٢٧).
وأما عصمتهم من الشرك قبل بعثتهم فهذه المسألة من عويصات المسائل، وهي محل خلاف لا إجماع، على قولين:
القول الأول: أن الرسل ﷺ ليسوا معصومين من الشرك قبل بعثتهم، وأنهم من سائر أقوامهم.
قال أبو بكر بن الطيب -رحمه الله تعالى-: «وقال كثير منهم ومن أصحابنا وأهل الحق: إنه لا تمتنع بعثة من كان كافرًا أو مصيبًا للكبائر قبل بعثته. قال: ولا شيء عندنا يمنع من ذلك على ما نبين القول فيه» تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ١٨٦).
وقال الزركشي -رحمه الله تعالى-: «أما قبل النبوة، فقال المازري: لا تشترط العصمة، ولكن لم يرد في السمع وقوعها. وقال القاضي عياض: الصواب عصمتهم قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكيك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتبرئتهم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان. ونقل ابن الحاجب عن الأكثرين عدم امتناعها عقلًا، وأن الروافض ذهبوا إلى امتناعها، ونقله غيره عن المعتزلة؛ لأن ذلك يوجب هضمه واحتقاره، وهو خلاف الحكمة، والأصح قول الأكثرين، ومنهم القاضي؛ لأن السمع لا دلالة له على العصمة قبل البعثة، وأما دلالة العقل فمبنية على فاسد أصلهم في التحسين والتقبيح العقلي ووجوب رعاية الأصلح والمصلحة» البحر المحيط (٦/ ١٣).
وبهذا القول قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له في تفسير آيات أشكلت (١/ ١٦٠-٢٣٨)، وهو يرى أنه لا مانع من وقوع ذلك، ولا يقدح في نبوتهم، لكنه لم يذكر وقائع =

. . . .

= لذلك، فهو يجوزه عقلًا، ولا يقول بوقوعه منهم ويستدل له بالقرآن.
قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: «وأما العقل: ففيه نزاع، والذي عليه نظار أهل السنة أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك، وهذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من المنتسبين إلى السنة والحديث، والمعتزلة».
وقال بعد أن ساق الخلاف والأدلة: «المقصود بما ذكر خلاف الناس في هذا الأصل، وأما تحقيق القول فيه: فالله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ بل قد يبعث النبي من أهل بيت ذي نسب طاهر، كما قال هرقل لأبي سفيان: «كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها»، وقد قالوا لشعيب -مع استضعافهم له-: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومن نشأ بين قوم مشركين جُهَّال لم يكن عليه منهم نقص ولا بغض ولا غضاضة إذا كان على مثل دينهم، إذا كان عندهم معروفًا بالصدق والأمانة، وفعل ما يعرفون وجوبه، واجتناب ما يعرفون قبحه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؛ فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب قبل الرسالة، وإن كان لا هو ولا هم يعلمون ما أرسل به. وفَرْق بين مَنْ يَرْتَكِب ما علم قبحه، وبين مَنْ يفعل ما لم يعرف، فإن هذا الثاني لا يذمونه ولا يعيبونه عليه، ولا يكون ما فعله مما هم عليه منفرًا عنه، بخلاف الأول» اهـ تفسير آيات أشكلت (١/ ١٩٢-١٩٣).
ومن أدلة هذا القول:
١- قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].
٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].
قلت: جمع من المفسرين فسروا العود في الآيتين بمعنى الصيرورة، ولو لم يكن النبي على دينهم من قبل، أو قالوا: خطاب للنبي والمراد به قومه الذين أسلموا. وأحسن من ذلك أن يفسر بأن دينهم ترك الأمر والنهي الشرعيين بحيث يعبد من يشاء ما شاء بلا نكير. والرسل قبل البعثة ما كانوا ينكرون الشرك على أقوامهم. ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٢٥٨)، وتفسير الثعلبي (٤/ ٢٦٢)، وتفسير السمعاني (٢/ ١٩٨)، وتفسير ابن عطية (٢/ ٤٢٧)، وتفسير ابن الجوزي (٢/ ١٣٨)، وتفسير العز بن عبد السلام (١/ ٤٩٢)، وتفسير القرطبي =

. . . .

= (٧/ ٢٥٠)، وتفسير البيضاوي (٣/ ٢٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٨).
قال ابن عطية: «وعاد: تجيء في كلام العرب على وجهين. أحدهما: عاد الشيء إلى حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي على هذه الجهة لا تتعدى فإن عديت فبحرف... والوجه الثاني: أن تكون بمعنى صار وعاملة عملها، ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة... فقوله في الآية: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ وشُعَيْبٌ عليه السلام لم يكن قط كافرًا يقتضي أنها بمعنى صار، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب، إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث» المحرر الوجيز (٢/ ٤٢٧-٤٢٨).
٣- قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشُّورى: ٥٢].
٤- قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى: ٧]. قال السدي: كان على دين قومه أربعين سنة. تفسير الرازي (٣١/ ١٩٥).
٥- قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].
٦- حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس حتى يدفع معهم منها، توفيقًا من الله له» أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وصححه ابن خزيمة (٣٠٥٧) وفي رواية للبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٧): «لقد رأيت رسول الله وهو على دين قومه وهو يقف على بعير له بعرفات... » الحديث.
وهذا الدليل يصلح أن يستدل به أصحاب القولين، فقوله: «وهو على دين قومه» دليل لمن قال بجواز الشرك عليه قبل البعثة، وهذا ضعيف؛ لأنه لم ينقل وقوع ذلك منه، ولا أعلم أحدًا قال بوقوعه منه عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال البيهقي بعد روايته: قلت: قوله: «على دين قومه» معناه: على ما كان قد بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم ومناكحهم وبيوعهم دون الشرك؛ فإنه لم يشرك بالله قط. دلائل النبوة (٢/ ٣٧). وكونه لم يقف معهم وجاوز الحرم إلى عرفة وهو من أهل مكة (الحمس) دليل على مخالفته دين المشركين قبل أن يوحى إليه.
على أن هذا الدليل محتمل وليس حجة قاطعة؛ للاحتمال في قوله: «قبل أن ينزل عليه». قال ابن خزيمة في صحيحه: قوله: «قبل أن ينزل عليه» يشبه أن يكون أراد قبل أن ينزل عليه ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أو من قبل أن ينزل عليه جميع القرآن (٤/ ٣٥٣). =

. . . .

= القول الثاني: أن الرسل معصومون من الشرك قبل البعثة، ونقل الإجماع عليه السيوطي فقال: والأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وبعدها إجماعًا. الإتقان (١/ ٢٤٠).

ومن الأدلة على عصمتهم:

١- عدم نقل وقوع شيء من الشرك منهم، على كثرة ما حكى الله تعالى عنهم في القرآن، وفيما حكى أحوالهم، ومناظرات أقوامهم معهم، وليس فيها ما يشير إلى وقوع الشرك منهم أو من بعضهم قبل بعثتهم.

٢- قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] ولا يُصنع موسى على عين الله تعالى ويقع في الشرك، والكلام عنه في طفولته.

٣- قول يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]. والنفي هنا عام.

٤- قوله تعالى ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠]، ولم يقولوا: أتنهوننا أن نعبد ما كنتم تعبدون معنا، مع حاجة المشركين إلى الاحتجاج على الرسل، فلو وقع منهم الشرك لاحتجوا به عليهم.

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. فكيف يتصور وقوع الشرك منهم وقد أخذ الميثاق عليهم؟!

٦- حادثة شق الصدر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه...» أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢).

٧- ما وقع من نهي النبي ﷺ عن الشرك قبل البعثة، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: «... وكان صنمًا من نحاس يقال له: إساف ونائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مَرَرْت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تمسّه، قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي: لأمسنه حتى أنظر ما يقول، فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: «ألم تنه؟» قال زيد: فو الذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلمت صنمًا حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب» أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (٣/ ٢٥٩). =

إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يُجْبِرُونَ الرُّسُلَ قَبْلَ مَبْعَثِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ وَإِلَّا لَوُجِدَتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَبَيْنَ الرُّسُلِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثُوا، وَلَنُقِلَ ذَلِكَ. بَلْ مَا

= قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى-: «من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه فهو قول سوء، أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب؟!» زاد المسير (٧/ ٢٩٨).

قلت: هذا لا يتناول ما قرره شيخ الإسلام؛ لأنه لا يقول بوقوعه، وإنما يقول بجوازه. وكلام الإمام أحمد فيمن يقول بوقوعه.

قال القاضي عياض: «ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدًا نُبِّئَ واصْطُفِيَ ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عَمَّن كانت هذه سبيله، وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبيًّنا بكل ما افترته، وعَيَّرَ كفارُ الأمم أنبياءَهَا بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهته، وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، ويتلونه في معبوده محتجّين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباؤهم من قبل، ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلًا إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] كما حكاه الله عنهم» الشفا (٢/ ٢٠٩-٢١٠)، وعنه القرطبي في تفسيره (١٦/ ٥٦).

وقال الذهبي -رحمه الله تعالى-: «والذي لا ريب فيه أنه كان معصومًا قبل الوحي وبعده وقبل التشريع من الزنى قطعًا، ومن الخيانة والغدر والكذب والسكر والسجود لوثن والاستقسام بالأزلام، ومن الرذائل والسفه وبذاء اللسان وكشف العورة، فلم يكن يطوف عريانًا، ولا كان يقف يوم عرفة مع قومه بمزدلفة. بل كان يقف بعرفة. وبكل حال لو بدا منه شيء من ذلك لما كان عليه تبعة؛ لأنه كان لا يعرف، ولكن رتبة الكمال تأبى وقوع ذلك منه ﷺ تسليمًا» سير أعلام النبلاء (١/ ١٣١).

وقال الشنقيطي: «فإن كان كُفرًا فقد أجمعت الأُمَّة على عِصْمَتِهم منه قبل النبُوَّة وبعدها، وإن كان غيره فالجمهور على عِصْمَتهم مِن الكبائر عَمدًا» أضواء البيان (٤/ ١١٨).

والنفس تميل إلى القول الثاني، وتطمئن إليه، وهو أن الرسل ﷺ عُصِمُوا من الشرك قبل البعثة وبعدها، خلافًا لقول أبي بكر بن الطيب والمازري وابن تيمية رحمهم الله تعالى. والله أعلم.

حَكَاهُ القُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا عَلَى وِفَاقٍ مَعَ أَقْوَامِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ قَوْلُ قَوْمِ صَالِحٍ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

فَهَذِهِ تَزْكِيَةٌ مِنْهُمْ لِصَالِحٍ عليه السلام، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، فَرَفَضُوهُ، وَتَنَكَّرُوا لَهُ، وَانْقَلَبُوا عَلَيْهِ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحْكِي سِيرَتُهُ الخَالِدَةُ أَنَّهُ اجْتَنَبَ المُشْرِكِينَ وَمَا يَعْبُدُونَ، وَكَانَ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى فِي غَارِ حِرَاءٍ، وَمَا نُقِلَ أَنَّ المُشْرِكِينَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، أَوْ ضَايَقُوهُ فِي عِبَادَتِهِ، أَوْ أَلْزَمُوهُ بِشِرْكِهِمْ. بَلْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَحَلَّ إِعْجَابِهِمْ وَثَنَائِهِمْ، وَمَوْضِعَ تَقْدِيرِهِمْ وَثِقَتِهِمْ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَوْدِعُونَهُ أَمَانَاتِهِمْ، وَيُحَكِّمُونَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَقَّبُوهُ بِالأَمِينِ.

وَكَانَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ المَبْعَثِ بَعْضُ الحُنَفَاءِ الَّذِينَ بَقُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَمِنْهُمْ مَنْ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ الإِنْجِيلَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ كَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ(٢)، وَمَا عُرِفَ أَنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ مِنْ كِبَارِ قُرَيْشٍ كَانُوا يُؤْذُونَهُمْ، أَوْ يُجْبِرُونَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، أَوْ يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِمْ.

كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَحَلَّوْنَ بِمَا يُسَمَّى فِي هَذَا العَصْرِ بِالحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَمَا نَقَمُوا عَلَى مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُوَحِّدَهُ إِذَا لَمْ يَأْمُرْهُمْ أَوْ يَنْهَهُمْ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي نَقَمَهُ المُشْرِكُونَ مِنْ رُسُلِهِمْ، وَعَارَضُوهُمْ فِيهِ، وَآذَوْهُمْ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ مَا يُسَمَّى فِي هَذَا العَصْرِ بِالتَّدَخُّلِ فِي الخُصُوصِيَّاتِ، وَهِيَ

(٢) جاء ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها عند: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣).

الَّتِي أَمَرَ الشَّارِعُ الحَكِيمُ رُسُلَهُ عليهم السلام أَنْ يَتَدَخَّلُوا فِيهَا بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَيَأْمُرُوهُمْ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ، وَيَنْهَوْهُمْ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، وَقَدْ أَنْكَرَ المُشْرِكُونَ هَذَا الأَمْرَ وَالنَّهْيَ بِشِدَّةٍ، وَحَارَبُوا رُسُلَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ عليه السلام لَهُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧].

فَهُمْ مَا نَقَمُوا عَلَيْهِ إِلَّا تَدَخُّلَهُ فِي خُصُوصِيَّاتِهِمْ، وَتَقْيِيدَهُ لِحُرِّيَّاتِهِمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا مَا يَرَى المُشْرِكُونَ أَنَّهُ عَيْنُ الإِفْسَادِ لِأَقْوَامِهِمْ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

إِنَّ الاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ، وَأَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيَهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، هُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَهُوَ سَبَبُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ مُنْذُ أَنْ وُجِدَ عَلَى الأَرْضِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَأَهْلُ الْحِسْبَةِ مِنَ الآمِرِينَ بِالمَعْرُوفِ النَّاهِينَ عَنِ المُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَالمُعَارِضُونَ لِلْحِسْبَةِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ هُمْ أَتْبَاعُ المُشْرِكِينَ، أَعْدَاءُ المُرْسَلِينَ، أَوْ فِيهِمْ شَبَهٌ بِهِمْ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَاطَّلَعَ عَلَى أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ عَلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَغَرَضُ احْتِسَابِهِ عَلَيْهِمْ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ؛ وَذَلِكَ بِإِصْلَاحِ عَقَائِدِهِمْ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ أَدْرَانِ الشِّرْكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَإِصْلَاحِ عِبَادَاتِهِمْ بِتَنْقِيَتِهَا مِنْ أَوْضَارِ الْبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ، وَإِصْلَاحِ مُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ بِتَخْلِيصِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُوجِبُ الظُّلْمَ وَالْفَسَادَ.

وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَتَدَخُّلٍ فِيمَا يُسَمَّى بِالخُصُوصِيَّاتِ، وَذَلِكَ هُوَ مُقْتَضَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَلَازِمُ شَهَادَةِ الحَقِّ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللَّهِ، وَلَا يَكُونُ اللهُ تَعَالَى مَعْبُودًا لِلنَّاسِ لَا شَرِيكَ لَهُ حَتَّى يَخْضَعُوا لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَا يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَتْبُوعًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَرَسُولُنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَجْعَلِ الِاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ مِنَ انْتِهَاكِ الخُصُوصِيَّاتِ، أَوْ مِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي، بَلْ جَعَلَهُ مِنَ الدِّينِ وَمِنَ التَّدَخُّلِ فِيمَا يَعْنِي، وَأَخْبَرَنَا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ أَنَّ الِاحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ، وَأَمْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيَهُمْ عَنِ المُنْكَرِ، هُوَ مِنَ الخَيْرِيَّةِ الَّتِي فُضِّلَتْ بِهَا هَذِهِ الأُمَّةُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَأَمَرَنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ فَقَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه[٣].

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَضَعُونَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، **أَلَا وَإِنِّي** سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ: المُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ- عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٤].

---

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩)، وأبو داود في الصلاة، باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب تفاضل أهل الإيمان (٨/ ١١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في صلاة العيدين (١٢٧٥)، وأحمد (٣/ ١٠).

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، وقال: حديث صحيح (٢١٦٨)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٥)، وأبو يعلى =

وَفِي حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٥).

فَهَلْ نُطِيعُ فِي هَذَا الأَمْرِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ، وَنُطِيعُ رَسُولَنَا الَّذِي أُمِرْنَا بِاتِّبَاعِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَمْ نُطِيعُ ثُلَّةً مِنْ مُنْحَرِفِي الْإِعْلَامِ وَالصَّحَافَةِ، تَارِيخُهُمْ حَافِلٌ بِتَرْوِيجِ التَّخَلُّفِ وَالِانْحِلَالِ وَالضَّيَاعِ، وَمُحَارَبَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام مِنَ الهُدَى وَالنُّورِ وَالرَّشَادِ؟! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَأَنْ يَشْغَلَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



= (١٣١)، وعبد بن حميد (١) وصححه ابن حبان (٣٠٥)، والنووي في رياض الصالحين (٧٠).
ونقل ابن أبي حاتم في العلل عن أبي زرعة الرزاي -رحمه الله تعالى- قوله: «وقد وقفه ابن عيينة ووكيع ويحيى بن سعيد والقطان وإسماعيل ويونس بن أبي إسحاق، ورواه يونس عن طارق بن بيان بن بشر عن قيس عن أبي بكر، موقوف، ورواه الحكم عن قيس عن أبي بكر، موقوف، قال أبو زرعة: وأحسب إسماعيل بن أبي خالد كان يرفعه مرة ويوقفه مرة» (٢/ ٩٨)، وأطال الخطيب البغدادي في ذكر طرقه، وبيان من وقفه ومن رفعه في الفصل للوصل المدرج (١/ ١٣٩-١٤٥).

(٥) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٤)، وسعيد بن منصور (٨٤١)، والبيهقي (١٠/ ٩١) وصححه ابن حبان (٣٠٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ وَتَرْكِ المُنْكَرَاتِ، فَكَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَعَمَلُهُمْ مَأْجُورًا، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاسْتَسْلِمُوا لِأَمْرِهِ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لَا يُسْتَغْرَبُ عَلَى دُعَاةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ وَالِانْحِلَالِ، وَخَفَافِيشِ التَّخَلُّفِ وَالظَّلَامِ وَالضَّيَاعِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ؛ حَمْلَتُهُمُ المَسْعُورَةُ عَلَى الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَمُحَاوَلَةُ إِبْطَالِهِ فِي الأُمَّةِ، وَتَقْرِيرُ مَذْهَبِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ فِي الحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَمُطَالَبَتُهُمْ بِعَدَمِ التَّدَخُّلِ فِيمَا يُسَمُّونَهُ الخُصُوصِيَّاتِ، مَعَ سَعْيِهِمُ الجَادِّ فِي نَشْرِ المُنْكَرَاتِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، وَالأَمْرِ بِهَا، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ المَعْرُوفِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا هُمْ إِلَّا المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إِنَّ الْوَاحِدَ مِنَ المُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ لَزَلَقُوهُ بِأَبْصَارِهِمْ،

وَسَلَقُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَرَمَوْهُ بِالتَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِأَنَّ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ جِهَةً مَسْئُولَةً وَهُوَ يَنْتَهِكُ تَخَصُّصَهَا، وَيَتَدَخَّلُ فِي عَمَلِهَا.

ثُمَّ إِذَا هُمْ لَا يَحْتَرِمُونَ هَذِهِ الجِهَةَ المَسْئُولَةَ، وَلَا يَتْرُكُونَهَا لِتَقُومَ بِعَمَلِهَا، بَلْ يُحَارِبُونَهَا سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهَا، وَيَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَيْهَا، وَيُضَخِّمُونَ أَخْطَاءَهَا، وَيُظْهِرُونَ مَعَايِبَهَا، وَيُخْفُونَ مَحَاسِنَهَا، وَفِي النِّهَايَةِ يُطَالِبُونَ بِإِلْغَائِهَا، فَبِذَلِكَ عُلِمَ مَاذَا يُرِيدُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَدًى سَيَنْتَهُونَ؟

إِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ لِإِبْطَالِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، كَمَا حَاوَلَ إِبْطَالَهُ أَعْدَاءُ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَطْلُوبُهُمُ الأَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ اللِّيبْرَالِيَّةِ رَأْسُ هَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّى امْتَدَّتْ رَأْفَتُهُمْ وَشَفَقَتُهُمْ إِلَى قَتَلَةِ الشَّبَابِ مِنْ مُرَوِّجِي المُخَدِّرَاتِ، وَلَمْ يَرْحَمُوا ضَحَايَا هَؤُلَاءِ المُجْرِمِينَ، فَمَنْ هُوَ المُفْسِدُ؟ وَمَنْ هُوَ المُصْلِحُ؟

إِنَّهَا حَمْلَةٌ إِعْلَامِيَّةٌ فَاجِرَةٌ تُرَكِّزُ عَلَى بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ البَحْثِ وَالنَّظَرِ لَدَى جِهَاتِ التَّحْقِيقِ، وَتَتَعَامَى عَنْ سَيْلٍ مِنَ المُنْجَزَاتِ وَالْإِبْدَاعَاتِ، فِي كَشْفِ شَبَكَاتِ تَرْوِيجِ الخُمُورِ وَالمُخَدِّرَاتِ وَالتَّزْوِيرِ وَالدَّعَارَةِ وَغَيْرِهَا(٦).

وَيَا لَيْتَ أَنَّ هَذَا التَّرْكِيزَ عَلَى الأَخْطَاءِ القَلِيلَةِ المُحْتَمَلَةِ كَانَ بِدَافِعِ الإِصْلَاحِ، وَرَفْعِ الضَّرَرِ، وَإِحْقَاقِ الحَقِّ، وَمُحَاسَبَةِ المُخْطِئِينَ وَالمُقَصِّرِينَ، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانُوا مَحَلَّ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّأْيِيدِ وَالمَعُونَةِ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا خَلَاقَ لَهُمْ،

(٦) هذه الحملة بدأت قبل أيام على إثر اكتشاف وكر لكبار مروجي المخدرات في الرياض، واقتحمت الهيئة هذا الوكر بإذن من إمارة الرياض، فهرب هذا المروج، وسقط أثناء هروبه ومات، فاستغل الصحفيون هذا الحدث للتشهير بالهيئة وادعاء أنها تقتل الناس، حتى كتبوا: هيئة الأمر بالموت والنهي عن الحياة. ثم ثبت طبيًّا أن المروج أصيب بسكتة قلبية، ويبدو أنه فزع من ملاحقة الهيئة له.

قَدْ تَسَلَّقُوا عَلَى هَذِهِ الأَخْطَاءِ المُحْتَمَلَةِ الَّتِي يَقَعُ مَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ مِنْهَا فِي جِهَاتٍ أُخْرَى؛ لِتَحْقِيقِ مَآرِبَ خَسِيسَةٍ، مِنْ نُفُوسٍ خَبِيثَةٍ، تُرِيدُ وَأْدَ الفَضِيلَةِ، وَنَشْرَ الرَّذِيلَةِ، وَإِغْرَاقَ النَّاسِ فِي لُجَجٍ مِنَ الفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ وَالضَّيَاعِ!!

وَالعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِنْ صَفَاقَتِهِمْ وَوَقَاحَتِهِمْ حِينَ جَعَلُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ مَجَالًا لِتَصْوِيتِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَأَخْذِ رَأْيِهِمْ فِيهِ، وَهُوَ شَعِيرَةٌ كُبْرَى مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَأْسٌ فِي دِينِهِ ﷻ!! يُصَوِّتُونَ عَلَيْهِ فِي قَنَوَاتٍ لَوْ صُوِّتَ عَلَيْهَا فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ لَأُغْلِقَتْ فِي لَحْظَتِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تُمَثِّلُهُمْ وَإِنَّمَا تُمَثِّلُ أَعْدَاءَهُم، وَتُرَوِّجُ لِكُلِّ دِينٍ وَنِحْلَةٍ خَلَا الإِسْلَامِ، وَتُدَافِعُ عَنْ جَرَائِمِ الأَعْدَاءِ أَكْثَرَ مِنْ دِفَاعِهَا عَنْ حُقُوقِ مَنْ تَنْطِقُ بِلِسَانِهِمْ، وَتَتَسَمَّى بِاسْمِهِمْ(٧).

يَا لَهُ مِنْ فَسَادٍ فِي الْعُقُولِ، وَخَلَلٍ فِي التَّفْكِيرِ، وَانْحِرَافٍ فِي الْفِطَرِ مِنْ قَوْمٍ مَا عُرِفَ عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمُ الْآمِرُونَ بِالمُنْكَرِ، النَّاهُونَ عَنِ المَعْرُوفِ! وَمَا لِسَانُهُمْ إِلَّا لِسَانُ قَوْمِ لُوطٍ حِينَ قَالُوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

العُهْرُ عِنْدَهُمْ فَضِيلَةٌ، وَالْآمِرُونَ بِهِ مُطَاعُونَ وَمُقَدَّسُونَ، وَالطُّهْرُ فِي مَذْهَبِهِمْ رَذِيلَةٌ، وَالْآمِرُونَ بِالطُّهْرِ المُحَافِظُونَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِمْ؛ وَلِذَا يُرِيدُونَ إِغْلَاقَ مُؤَسَّسَتِهِمْ، كَمَا نَادَى قَوْمُ لُوطٍ بِإِخْرَاجِهِ عليه السلام مِنْ قَرْيَتِهِمْ.

إِنَّ حِقْدَهُمْ عَلَى الْفَضِيلَةِ، وَضَغِينَتَهُمْ عَلَى الْآمِرِينَ بِهَا قَدْ بَلَغَ بِهِمْ حَدًّا أَغْلَقَ عُقُولَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، فَجَعَلَهُمْ يَنْطِقُونَ بِمَا لَا يَعْقِلُونَ، وَيَهْرِفُونَ بِمَا لَا

(٧) هي قناة العربية فتحت مجال التصويت لإلغاء الهيئة، وخذلهم الله تعالى؛ إذ كانت أصوات المطالبين ببقائها أكثر من أصوات المطالبين بإلغائها والحمد لله كثيرًا، على أننا لا نرضى بأن نصوت على أجهزة تقيم شعائر الله تعالى في الناس بوجوب بقائها وليست محل اختيار ونظر.

يَعْرِفُونَ، وَإِلَّا هَلْ يُنَادِي عَاقِلٌ بِإِغْلَاقِ جِهَازِ الحِسْبَةِ لِأَنَّ أَخْطَاءً مُحْتَمَلَةً وَقَعَتْ مِنْ بَعْضِ أَفْرَادِهِ، لَوْلَا أَنَّ مَطْلُوبَهُمُ الأَكْبَرَ شَعِيرَةُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ!!

مَاذَا لَوْ أَنَّ بَعْضَ الْأَطِبَّاءِ أَخْطَئُوا فَقَتَلُوا بَعْضَ المَرْضَى فَكَتَبَ بَعْضُ النَّاسِ أَنْ تُغْلَقَ المُسْتَشْفَيَاتُ، وَتُلْغَى كُلِّيَّاتُ الطِّبِّ وَوَزَارَةُ الصِّحَّةِ؟ أَلَيْسَ حَقُّ المُطَالِبِ بِذَلِكَ أَنْ يُحْجَرَ عَلَيْهِ وَيُعَالَجَ فِي مُسْتَشْفَيَاتِ الصِّحَّةِ النَّفْسِيَّةِ، لَا أَنْ يُصَدَّرَ فِي وَسَائِلِ الإِعْلَامِ المُخْتَلِفَةِ؟! وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ الدَّوَائِرِ وَالمُؤَسَّسَاتِ وَالوَزَارَاتِ، تُلْغَى لِأَجْلِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَخْطَاءِ وَالتَّجَاوُزَاتِ، أَيَقُولُ عُقَلَاءُ مِنَ الْبَشَرِ بِذَلِكَ؟! فَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْعَقْلِ.

إِنَّهَا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مُوَاجَهَةٌ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالطُّهْرِ وَالْعَفَافِ، وَيُحَافِظُونَ عَلَى نَقَاءِ المُجْتَمَعِ وَتَمَاسُكِهِ وَبَيْنَ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ الَّذِينَ يُرَوِّجُونَ لِلْخَنَا وَالمَوَاخِيرِ، وَيُحَاوِلُونَ جَرَّ النَّاسِ إِلَى الرَّذَائِلِ وَالمُوبِقَاتِ، وَلْيَخْتَرْ كُلُّ مُسْلِمٍ مَعَ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ يَكُونُ، وَإِلَى أَيِّ الطَّائِفَتَيْنِ يَنْحَازُ، أَإِلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَأَنْصَارِ الْفَضِيلَةِ أَمْ إِلَى أَتْبَاعِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْصَارِ الرَّذِيلَةِ؟!

حَمَى اللهُ بِلَادَنَا وَبِلَادَ المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّ الْفَاسِدِينَ المُفْسِدِينَ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



٢٧٧- احتساب النبي ﷺ (١) تقرير الحسبة بأقواله (أ)

٤/ ٨/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْجَوْرِ إِلَى الْعَدْلِ، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَى الْإِحْسَانِ، وَمِنْ دَرَكَاتِ الْإِثْمِ وَالشَّرِّ وَالذُّلِّ وَالضَّعْفِ إِلَى دَرَجَاتِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، وَالْعِزِّ وَالْقُوَّةِ، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطَّلَاق: ١١].

وَكَانَتْ رِسَالَتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِسَالَاتِ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُرْسَلِينَ مُتَضَمِّنَةً الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ؛ الْأَمْرَ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالمَقَاصِدِ، وَالنَّهْيَ عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ يُبْغِضُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالمَقَاصِدِ.

وَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ تَعْنِي الْخُضُوعَ وَالتَّسْلِيمَ وَالِانْقِيَادَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ؛ وَلِذَلِكَ عَارَضُوهَا، وَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: ٥].

وَسِيرَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذُ بَعْثَتِهِ وَحَتَّى وَفَاتِهِ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَيَاتَهُ كُلَّهَا كَانَتِ احْتِسَابًا عَلَى النَّاسِ؛ لِإِصْلَاحِ عَقَائِدِهِم وَعِبَادَاتِهِم، وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ هُوَ الرُّكْنُ الْأَسَاسُ لِتَبْلِيغِ هَذَا الدِّينِ، وَالْحُكْمِ بِشَرِيعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ أُمِرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْبَلَاغِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المَائِدَة: ٦٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النَّحل: ٨٢].

وَمَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي بُعِثَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ؛ لِأَنَّ المُبَاحَاتِ لَا أَمْرَ فِيهَا وَلَا نَهْيَ، بَلْ سُكِتَ عَنْهَا؛ تَخْفِيفًا عَلَى الْعِبَادِ.

وَمَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ لِبَسْطِ سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّاسِ، وَتَخْلِيصِهِمْ مِنْ أَنْظِمَةِ الْجَوْرِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْحَدِيثُ عَنِ احْتِسَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أُمَّتِهِ هُوَ الْحَدِيثُ عَنْ سِيرَتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ مُنْذُ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ إِلَيْهِ ﷻ، وَأَنَّى لِمَقَامٍ كَهَذَا أَنْ يَأْتِيَ عَلَى ذَلِكَ؟! بَيْدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ حَثَّ أُمَّتَهُ عَلَى إِحْيَاءِ شَعِيرَةِ الِاحْتِسَابِ بَيْنَهُمْ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَخَاطِرَ تَعْطِيلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ، وَقَدْ كَثُرَتْ أَقْوَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرِيعَةِ.

فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ، وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَبَرِئَتْ ذِمَّتُهُ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْمُنْكَرِ أَوْ وَافَقَ أَهْلَهُ فَهُوَ الْآثِمُ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه(١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَلِأَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ فِي إِصْلَاحِ النَّاسِ، وَلِمَكَانَتِهَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَايَعَ أَصْحَابَهُ رضي الله عنهم عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ، وَأَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ.

أَمَّا الْبَيْعَةُ عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ، فَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْنَا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان. . . (٤٩)، وأبو داود في الصلاة، باب الخطبة يوم العيد (١١٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٣)، وأحمد (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا (١٨٥٤)، وأبو داود في السنن، باب في قتل الخوارج (٤٧٦٠)، والترمذي في باب (٧٨) (٢٢٦٥).
وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن حبان (٦٦٥٨).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ -أَوْ نَقُولَ- بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

وَالصَّدْعُ بِالْحَقِّ؛ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَعْرُوفٍ قَدْ عُطِّلَ، أَوْ فِي مُنْكَرٍ قَدْ أُظْهِرَ.

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: قَوْلُهُ: «وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»، مَعْنَاهُ: «نَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَنَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ الْكِبَارَ وَالصِّغَارَ، لَا نُدَاهِنُ فِيهِ أَحَدًا، وَلَا نَخَافُهُ هُوَ، وَلَا نَلْتَفِتُ إِلَى الْأَئِمَّةِ، فَفِيهِ الْقِيَامُ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ فَرْضُ كِفَايَةٍ، فَإِنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ عَلَى غَيْرِهِ، سَقَطَ الْإِنْكَارُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَوَجَبَتْ كَرَاهَتُهُ بِقَلْبِهِ» اهـ(٤).

وَأَمَا وَصِيَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ بِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ . . .، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ - وَإِنْ كَانَ مُرًّا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٥).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَيْعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا عَلَى الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ، وَكَذَا الْوَصِيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَا هُوَ مُهِمٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ قَوْلِ الْحَقِّ، وَالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ أَوْصَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِ، وَبَايَعَهُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَيْهِ.

---

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام (٦٧٧٤)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ... (١٧٠٩).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٦) رقم (١٦٤٨)، والبيهقي (١٠/ ٩١)، وصححه ابن حبان (٤٤٩).

وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ مَعَ الْبَيْعَةِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ مِمَّا يَنْقُضُ رَأْيَ مَنْ يَرَى أَنَّ الصَّدْعَ بِالْحَقِّ وَالْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فِيهِ خُرُوجٌ عَلَى السَّلَاطِينِ، أَوْ يُؤَدِّي إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَلَازِمُ هَذَا الْقَوْلِ تَعْطِيلُ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يَنْقُضُ هَذَا الرَّأْيَ الْفَاسِدَ.

بَلْ إِنَّ الِاحْتِسَابَ عَلَى كِبَارِ الْقَوْمِ، وَرُؤُوسِ النَّاسِ، وَالصَّدْعَ بِالْحَقِّ أَمَامَهُمْ مِمَّا يَنْفَعُهُمْ؛ لِئَلَّا يَتْرُكُوا مَعْرُوفًا، أَوْ يَتَمَادَوْا فِي مُنْكَرٍ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ النُّصْحِ لَهُمُ الَّذِي جَاءَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ بِهِ فِي حَدِيثِ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْغِشِّ لِكِبَارِ الْقَوْمِ، وَسَرَاةِ النَّاسِ تَرْكُ مُنَاصَحَتِهِمْ، وَعَدَمُ الصَّدْعِ بِالْحَقِّ أَمَامَهُمْ، وَالتَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ.

وَقَدْ فَهِمَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ ذَلِكَ، فَأَنْكَرُوا عَلَى السَّلَاطِينِ مُخَالَفَاتِهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا رَأَوْا أَنَّ الْإِنْكَارَ يُؤَدِّي إِلَى الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا يَزْعُمُهُ مَنْ يُعَطِّلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ، وَلَا جَعَلُوا ظُهُورَ المُنْكَرَاتِ مُسَوِّغًا لِلْخُرُوجِ، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ أَشْهَرِ أَهْلِ عَصْرِهِ فِي شِدَّةِ الْإِنْكَارِ عَلَى بَنِي الْعَبَّاسِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَبُولُ الدَّمَ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارَهُ؛ كَمَا قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-(٧)، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئَ الْقَوْلِ فِي الْحَسَنِ بْنِ صَالِحِ بْنِ حَيٍّ، مَعَ أَنَّ الْحَسَنَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْكِبَارِ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْحَسَنَ كَانَ يَرَى الْخُرُوجَ؛ وَلِذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ

(٦) بوب به البخاري في الإيمان، باب (٤٠) فقال: باب قول النبي ﷺ: «**الدين النصيحة . . .**»، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الدين النصيحة (٥٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٥٩).

فِيهِ: «ذَاكَ رَجُلٌ يَرَى السَّيْفَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[٨].

فَكَانَ مَنْهَجُ الْإِمَامِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ وَقَعَ فِي الْمُنْكَرِ؛ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، وَأَمْرَهُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنُّصْحَ لَهُ، مَعَ الْتِزَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَهَكَذَا كَانَ دَأْبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَى أَنْ نَبَتَ فِي الْمُسْلِمِينَ طَائِفَتَانِ مُخْطِئَتَانِ، إِحْدَاهُمَا عَطَّلَتِ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ بِحُجَّةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَلِكَيْلَا يَكُونَ الِاحْتِسَابُ عَلَى الْوُلَاةِ ذَرِيعَةً لِلْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى اسْتَحَلَّتِ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ لِمُجَرَّدِ ظُهُورِ الْمُنْكَرَاتِ فِي دُوَلِهِمْ، وَكَانَ الصَّوَابُ وَسَطًا بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ.

وَمِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ إِحْيَاءِ شَعِيرَةِ الْحِسْبَةِ بَيْنَ النَّاسِ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ الْحَقِّ أَعْظَمُ الْجِهَادِ، وَأَنَّ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ كَلِمَةِ الْحَقِّ؛ كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ: كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٩]، وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ**

---

(٨) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٢٠٥٢)، وينظر: تهذيب الكمال (٦/ ١٨١) ترجمة (١٢٣٨).

(٩) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٤)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، وقال: حسن غريب من هذا الوجه (٢١٧٤)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١١)، وأحمد مطولًا (٣/ ١٩)، وأبو يعلى (١١٠١).

وله شاهد مرسل من حديث طارق بن شهاب البجلي الأحمسي -رحمه الله تعالى- عند: النسائي في البيعة، باب فضل مَنْ تكلَّم بالحق عند إمام جائر (٧/ ١٦١)، وأحمد (٤/ ٣١٥).

وطارق بن شهاب له رؤية، وليست له صحبة، كما قال أبو حاتم الرازي. ينظر: المراسيل لابن أبي حاتم (٣٥١)، ونقل الحافظ ابن حجر عن أبي داود قوله: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه، ينظر: التقريب (٤٦١) رقم (٣٠١٧)، وفي جامع التحصيل للعلائي: قال =

جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ(١٠).

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَكَفَانَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ أَعْدَائِنَا؛ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

= أبو زرعة وأبو داود وغيرهما: طارق ابن شهاب له رؤية وليست له صحبة، قال العلائي: يلحق حديثه بمراسيل الصحابة. ينظر: جامع التحصيل (٣٠٥)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١٩٥) والألباني في صحيح النسائي.

وجاء أيضًا من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٢)، والروياني في مسنده (١١٧٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٨٨)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٣٢٦)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢) رقم (٨٠٨١)، وفي الأوسط (٦٨٢٤)، والصغير (١٥١).

(١٠) أخرجه الحاكم وصححه (٣/ ٢١٥)، والديلمي في مسند الفردوس (٣٤٧٢)، وضعفه الذهبي في السير (١/ ١٧٣)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٧٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٧٥).

وجاء أيضًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الأوسط (٤٠٧٩)، وأبو نعيم في مسند أبي حنيفة (ص١٨٧)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٦)، وعزاه الهيثمي للطبراني من حديث علي رضي الله عنه، قال: وفيه علي بن الحزور وهو متروك (٩/ ٢٦٨).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ دُنْيَاكُمْ؛ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ قَرَأَ سِيرَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَوَقَفَ عَلَى أَحَادِيثِهِ فِي شَعِيرَةِ الِاحْتِسَابِ، عَلِمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَوْلَى هَذَا الْجَانِبَ مِنَ الدِّينِ أَهَمِّيَّةً كُبْرَى، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَأَوَّلُ وَصْفٍ وُصِفَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ كَوْنُهُ مُحْتَسِبًا عَلَى النَّاسِ، يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ؟! ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعْرَاف: ١٥٧].

فَمِنْ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ المَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اتِّبَاعُ النُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَفْرَادِ هَذَا النُّورِ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ تُفِيدُ بِوَجْهِ المُخَالَفَةِ أَنَّ تَرْكَ هَذَا النُّورِ سَبَبٌ لِلْخُسْرَانِ وَالْبَوَارِ لِلْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ، وَتَعْطِيلَ الْحِسْبَةِ سَبَبٌ لِتَرْكِ هَذَا النُّورِ الَّذِي أُوصِينَا بِاتِّبَاعِهِ.

وَمَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحْيِيًا لِشَعِيرَةِ الْحِسْبَةِ، مُعْتَنِيًا بِهَا، دَاعِيًا إِلَيْهَا، نَاهِيًا عَنْ تَعْطِيلِهَا، مُحَذِّرًا مِنْ تَرْكِهَا؛ إِلَّا لِأَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ بَقَاءِ دِينِ

الْإِسْلَامِ الَّذِي قَضَى اللهُ تَعَالَى قَدَرًا أَنْ يَبْقَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، فَأَمَرَ شَرْعًا بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِذَلِكَ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ.

فَكَانَ مِنْ خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تُحْيَا هَذِهِ الشَّعِيرَةُ الْعَظِيمَةُ فِيهِمْ، وَأَنْ يَتَوَاصَوْا بِهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَتَعَاوَنُوا عَلَى أَدَائِهَا، وَيُحَارِبُوا مَنْ حَارَبَهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٠].

إِنَّ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الْحِسْبَةَ وَالمُحْتَسِبِينَ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ تَدَخُّلٌ فِي الْخُصُوصِيَّاتِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى رَفْضِ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُمْ يُرِيدُونَ نَزْعَ الْخَيْرِيَّةِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِتَكُونَ كَأُمَمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالْوَثَنِيَّةِ وَالمَادِّيَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا، وَأَفْسَدَتْ أَخْلَاقَهَا، وَأَضَاعَتْ دِينَهَا، وَأَسْخَطَتْ رَبَّهَا، فَسُلِبَتْ مِنْهَا الْخَيْرِيَّةُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ المُبَارَكَةِ.

إِنَّ هَذِهِ الْفِئَةَ المُنْحَرِفَةَ تُرِيدُ تَعْطِيلَ أَعْظَمِ وَصْفٍ وُصِفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَأَجَلِّهِ وَأَكْبَرِهِ؛ فَقَدْ نَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدَّمَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْصَافِ؛ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٧].

يُرِيدُونَ تَعْطِيلَهُ بِحُجَّةِ أَنَّ الِاحْتِسَابَ تَدَخُّلٌ فِي الْخُصُوصِيَّاتِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَا يَفْصِلُهُمَا عَنْ بَعْضٍ، كَمَا فِي دِيَانَاتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْوَثَنِيِّينَ، وَيُنَظِّمُ عَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا، وَيَتَدَخَّلُ فِي خُصُوصِيَّاتِهِ، وَيَأْمُرُ أَفْرَادَ المُجْتَمَعِ أَنْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ، وَيَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَيَقْصُرُوهُمْ عَلَى

الْحَقِّ قَصْرًا، فَمَنْ رَفَضَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَرْفُضُ دِينَ الْإِسْلَامِ.

وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ أَجْزَاءً يَسُوغُ لِلنَّاسِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ مَا يَشْتَهُونَ، وَيَتْرُكُوا مَا لَا يُرِيدُونَ، بَلْ هُوَ كُلٌّ مُتَكَامِلٌ، مَنْ رَفَضَ شَعِيرَةً مُحْكَمَةً مِنْ شَعَائِرِهِ، فَهُوَ يَرْفُضُهُ كُلَّهُ، وَلَا يَنْفَعُهُ مَا أَخَذَ مِنْ بَعْضِهِ؛ إِذْ رَفْضُ بَعْضِهِ كَرَفْضِ جَمِيعِهِ.

وَمَا الَّذِي أَضَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَقَدْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ، وَأُوتُوا الْكِتَابَ قَبْلَنَا، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ دِينِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَيَتْرُكُونَ مَا لَا يُرِيدُونَ، وَكَانَ أَحْبَارُ السُّوءِ وَرُهْبَانُ الضَّلَالَةِ يُحَرِّفُونَ كُتُبَهُمْ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَخَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٨٥، ٨٦].

فَالْمُحَارِبُونَ لِلْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ، الدَّاعُونَ إِلَى إِبْطَالِهَا، لَا يُرِيدُونَ إِلَّا أَنْ يَسْلُكُوا بِنَا مَسَالِكَ مَنْ غَضِبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ تَرَكُوا دِينَهُمْ، وَحَرَّفُوا كُتُبَهُمْ، فَهَلْ يُعَطِّلُ الْمُؤْمِنُونَ شَعِيرَةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ طَاعَةً لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْجِفِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، فَيُحْرَمُوا الْخَيْرِيَّةَ الَّتِي خُصَّتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ؟!

لَيْسَ هَذَا الظَّنُّ بِمَنْ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَقَرَؤُوا كِتَابَهُ، وَقَبِلُوا عَنْهُ شَرِيعَتَهُ، كَيْفَ وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ، وَنَهَانَا عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ

لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٨، ١٩].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَحْيُوا شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ فِيكُمْ، وَأَعِينُوا عَلَيْهَا مَنْ قَامَ بِهَا مِنْ إِخْوَانِكُمْ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ لِلْأَفْرَادِ وَلِلْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٢٧٨- احتساب النبي ﷺ (٢)
تقرير الحسبة بأقواله (ب)

١١/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خَلَقَ خَلْقَهُ فَدَبَّرَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُصْلِحُهُمْ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى رِعَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ رَسُولًا، وَزَادَهُ رِفْعَةً وَتَفْضِيلًا، فَهُوَ صَاحِبُ الْحَوْضِ وَالْفَضِيلَةِ وَالشَّفَاعَةِ وَالْوَسِيلَةِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: دِينُ الْإِسْلَامِ دِينٌ لَهُ حُدُودٌ، وَفِيهِ حَلَالٌ وَحَرَامٌ، وَحُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

وَهَذِهِ الْحُدُودُ الَّتِي يَجِبُ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا -وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَدَّاهَا- مِنْهَا

مَا هُوَ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ؛ كَالْعِبَادَاتِ المَحْضَةِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِحَقِّ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ المُعَامَلَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالقِصَاصِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَمَّا كَانَ الْعِصْيَانُ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، وَالْخَطَأُ مِنْ سَجَايَاهُمْ؛ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الاِحْتِسَابِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّ الظَّالِمِ عَنْ ظُلْمِهِ، وَالْعَاصِي عَنْ عِصْيَانِهِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَغَيْرَةً عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَحِفْظًا لِلأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ مِنْ كُلِّ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَبِهَذَا كَانَ الاِحْتِسَابُ عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا عَلَى آحَادِهِمْ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَوْقِعِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ يَعْنِيهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا؛ وَلِأَنَّ الْعَذَابَ إِنْ وَقَعَ بِسَبَبِ أَهْلِ المَعَاصِي لَا يَسْتَثْنِي مِنْهُمْ أَحَدًا، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ المَاضِيَةُ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ التَّهَاوُنِ بِهِ، وَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فِيهِ؛ فَتَارَةً يَأْمُرُهُمْ بِالاِحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، بِأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، بَلْ وَيُوصِيهِمْ بِذَلِكَ، وَيُبَايِعُهُ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم عَلَيْهِ، وَتَارَةً أُخْرَى يُخْبِرُ أَنَّ سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ مَنْ قُتِلَ بِسَبَبِ احْتِسَابِهِ وَقَوْلِهِ لِلْحَقِّ، كَمَا يُخْبِرُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ كَلِمَةَ الْحَقِّ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

بَلَ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَدَّ الاِحْتِسَابَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ . . .، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ . . .**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (٧٢٠)، =

وَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَقِّ الطَّرِيقِ لِمَنْ جَلَسَ فِيهِ أَنْ يَحْتَسِبَ عَلَى النَّاسِ، وَلَا يَسْكُتَ إِذَا رَأَى الْمُنْكَرَاتِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُؤَدِّيًا لِحَقِّ الطَّرِيقِ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ: **فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**. قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: **غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَالْأَسْوَاقُ كَالطُّرُقَاتِ؛ تَكْثُرُ فِيهَا الْمُنْكَرَاتُ، وَيَرْتَادُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا مِنْ تَقْصِيرِهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ مِنَ الدِّينِ.

وَمِنْ أَسَالِيبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ الْحِسْبَةِ: أَنَّهُ ضَرَبَ مَثَلًا عَظِيمًا بَيَّنَ فِيهِ ضَرَرَ الْمُفْسِدِينَ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَنَفْعَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ لِيَدُلَّ النَّاسَ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْحِسْبَةِ فِي نَجَاتِهِمْ، وَرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، فَلَا يَتَهَاوَنُوا بِهَا، أَوْ يَقْعُدُوا عَنِ الْأَخْذِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالسُّفَهَاءِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ أَهْلَكُوهُمْ مَعَهُمْ؛ كَمَا رَوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا**

= وأبو داود في الصلاة، باب صلاة الضحى (١٢٨٥)، وأحمد (٥/ ٢٦٧).
وجاء عن أبي هريرة عند: أحمد (٢/ ٣٢٨).
وعن ابن عباس ﷺ عند: ابن حبان (٢٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات (٢٣٣٣)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣).

وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْهَلَاكَ الَّذِي يُصِيبُ مَنْ تَرَكُوا الاِحْتِسَابَ، وَعَطَّلُوا الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، يَكُونُ خَاصًّا وَعَامًّا؛ فَالْخَاصُّ يَكُونُ لِلْأَفْرَادِ بِإِلْفِهِمُ المُنْكَرَاتِ، وَاعْتِيَادِهِمْ مُشَاهَدَتَهَا، وَعَدَمِ إِنْكَارِ قُلُوبِهِمْ لَهَا، وَهَذَا هُوَ مَوْتُ الْقُلُوبِ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ هَلَكَ!

وَجَاءَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

فَذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ السَّلِيمِ إِنْكَارَ الْفِتَنِ. وَالْإِعْلَانُ بِالمَعَاصِي مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ، كَمَا ذَكَرَ أَنَّ مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ الْفَاسِدِ تَشَرُّبَ الْفِتَنِ الَّتِي مِنْ أَعْظَمِهَا ظُهُورُ المُنْكَرَاتِ، فَعَدَمُ الاِحْتِسَابِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَعَدَمُ إِنْكَارِ الْقَلْبِ لَهَا هُوَ الْإِصَابَةُ بِمَوْتِ الْقُلُوبِ وَفِتْنَتِهَا، فَلَا تَعْرِفُ

---

(٣) أخرجه البخاري في الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه؟ (٣٢٦١)، وأحمد (٤/٢٦٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وإنه يأرز بين المسجدين (١٤٤)، وأحمد (٥/٣٨٦).

مَعْرُوفًا وَلَا تُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَتْ مِنْ هَوَاهَا.

وَأَمَّا الْعِقَابُ الْعَامُّ، وَالْعَذَابُ الشَّامِلُ إِذَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ قَدِ اسْتَوْجَبَتْ ذَلِكَ بِانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا فَإِنَّهُ لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ وَحْدَهُمْ، بَلْ يَكُونُ عَامًّا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وَسَبَبُ ذَلِكَ انْتِشَارُ الْمُنْكَرَاتِ وَظُهُورُهَا، مَعَ عَدَمِ النَّكِيرِ عَلَى أَصْحَابِهَا؛ لِضَعْفِ أَهْلِ الْحَقِّ وَاسْتِكَانَتِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ، وَقُوَّةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَقَدْ جَاءَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي حَدِيثِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

وَالْخَبَثُ لَا يَكْثُرُ إِلَّا بِتَوَافُرِ أَسْبَابِهِ وَدَوَاعِيهِ الَّتِي مِنْهَا: جَلَدُ الْمُفْسِدِينَ فِي نَشْرِ فَسَادِهِمْ، وَقُوَّةُ نُفُوذِهِمْ، مَعَ تَقَاعُسِ الْمُصْلِحِينَ عَنْ مُدَافَعَةِ الْمُفْسِدِينَ، وَرَدِّ إِفْسَادِهِمْ عَنِ النَّاسِ.

وَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ كَانَتْ حَرِيَّةً بِعُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ**

---

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٦).

وَفِي حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي يَقْدِرُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا وَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٧).

وَالمُتَأَمِّلُ لِلنُّصُوصِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي تَقْرِيرِ الْحِسْبَةِ، وَأَنَّهَا مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ يَجِدُ أَنَّهَا مُتَنَوِّعَةٌ؛ فَتَارَةً يَأْمُرُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ، وَيُوصِيهِمْ بِذَلِكَ، وَيُبَايِعُهُمْ عَلَيْهِ، وَيَعُدُّهُ فِي الصَّدَقَاتِ، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ مِنَ الْجِهَادِ، وَأَنَّهُ نَجَاةٌ لِلْمُجْتَمَعِ، وَيَضْرِبُ الْأَمْثِلَةَ عَلَى ذَلِكَ.

وَتَارَةً أُخْرَى يُرَهِّبُهُمْ مِنَ التَّفْرِيطِ فِيهِ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تَرْكِ الِاحْتِسَابِ مِنْ فَسَادِ الْقُلُوبِ، وَحُلُولِ الْعِقَابِ وَالْهَلَاكِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَا لِلِاحْتِسَابِ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ كُبْرَى فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ الْخَاتِمَةُ تُلَازِمُهَا الْخَيْرِيَّةُ مَا قَامَتْ فِيهَا هَذِهِ الشَّعِيرَةُ الْعَظِيمَةُ، فَإِذَا مَاتَتْ فِيهَا لَمْ تَكُنْ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ مِنْ قَبْلُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .



(٦) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال: حديث حسن (٢١٦٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٧) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٣٩)، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٤)، وسعيد بن منصور (٨٤١)، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٢) رقم (٢٣٨٢)، وصححه ابن حبان (٣٠٠) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَ بِهِ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ فِي الْمَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَأَقِيمُوا عَلَى طَاعَتِهِ دَهْرَكُمْ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ يُحَارِبُونَ الْحِسْبَةَ وَالْمُحْتَسِبِينَ مِنَ الصَّحَفِيِّينَ وَالإِعْلَامِيِّينَ وَمَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ يَبْنُونَ فِكْرَتَهُمْ فِي مُحَارَبَةِ الْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ عَلَى مَذْهَبٍ غَرْبِيٍّ مَفَادُهُ: أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ بَعْدَ الثَّوْرَتَيْنِ الصِّنَاعِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ قَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الرُّشْدِ، وَآنَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْ أَيِّ وِصَايَةٍ عَلَيْهِ، وَبِالأَخَصِّ وِصَايَةُ الدِّينِ؛ فَلَهُ الْحُرِّيَّةُ فِي أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، وَيَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِ وَلَا حَسِيبَ إِلَّا نَفْسُهُ وَضَمِيرُهُ كَمَا يَقُولُونَ!

ثُمَّ بَعْدَ ثَوْرَةِ الِاتِّصَالَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ الَّتِي نَتَجَ عَنْهَا مِئَاتُ الْقَنَوَاتِ الْمَرْئِيَّةِ الْفَضَائِيَّةِ، وَمَلَايِينُ الْمَوَاقِعِ الإِلِكْتُرُونِيَّةِ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ زَادَ إِلْحَاحُ الْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ؛ مُطَالِبِينَ بِإِلْغَاءِ الْحِسْبَةِ، وَنَشِطُوا فِي مُحَارَبَةِ الْمُحْتَسِبِينَ عَبْرَ وَسَائِلِ الإِعْلَامِ؛ بِحُجَّةِ أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ أَصْبَحَ قَرْيَةً وَاحِدَةً، وَأَنَّ مَنْعَ الْفَسَادِ أَوْ تَحْجِيمَهُ لَنْ يُغْنِيَ شَيْئًا أَمَامَ طُوفَانِ عَوْلَمَةِ الِاتِّصَالَاتِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنَ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ أَنْ يَتَعَايَشُوا مَعَ الِانْفِتَاحِ الَّذِي مِنْهُ الْفَسَادُ الْعَقَائِدِيُّ وَالأَخْلَاقِيُّ، وَيَعْتَادُوا عَلَيْهِ، وَيُسَارِعُوا إِلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُفَاجَأُوا بِهِ.

وَكُلُّ هَذِهِ المُسَوِّغَاتِ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا مَا هِيَ إِلَّا مِنْ حِيَلِ المُفْسِدِينَ، وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ، وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

أَمَّا دَعْوَى أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ قَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الرُّشْدِ، وَيَجِبُ أَنْ تُرْفَعَ الْوِصَايَةُ عَنْ أَفْرَادِهَا، فَهِيَ كِذْبَةٌ صَدَّقُوهَا وَلَمْ يُطَبِّقُوهَا لَا فِي الشَّرْقِ وَلَا فِي الْغَرْبِ؛ إِذْ يُوجَدُ فِي كُلِّ دُوَلِ الْعَالَمِ قَوَانِينُ وَأَنْظِمَةٌ، وَعُقُوبَاتٌ لِمَنْ يَنْتَهِكُهَا، وَمُقْتَضَى بُلُوغِ الْبَشَرِيَّةِ سِنَّ الرُّشْدِ أَنْ تُلْغَى جَمِيعُ الْأَنْظِمَةِ وَالْقَوَانِينِ وَالْعُقُوبَاتِ؛ لِأَنَّهَا وِصَايَةٌ عَلَى الْبَشَرِ، وَلَا وِصَايَةَ عَلَى مَنْ بَلَغُوا سِنَّ الرُّشْدِ، وَلَا يَقُولُ بِهَذَا عَاقِلٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَعْضِ مُنَظِّرِي مَا يُسَمَّى بِـ: المَذَاهِبِ الْفَوْضَوِيَّةِ، الَّتِي ظَلَّتْ كِتَابَاتُهُمْ نَظَرِيَّاتٍ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلِمَاذَا يَقْبَلُ المُحَارِبُونَ لِلْحِسْبَةِ وِصَايَةَ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ عَلَيْهِمْ فِي سَائِرِ الْأَنْظِمَةِ وَالْقَوَانِينِ، وَلَا يَقْبَلُونَ وِصَايَةَ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمُ المُتَمَثِّلِ فِي شَعِيرَةِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؟ وَهَلْ هُمْ يَعْبُدُونَ بَشَرًا مِثْلَهُمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ مِنَ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَيُطَالِبُونَ النَّاسَ بِرَفْضِهَا وَالتَّمَرُّدِ عَلَيْهَا؟!

وَأَمَّا دَعْوَى المُسَارَعَةِ إِلَى الِانْفِتَاحِ، وَقَبُولِ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ وَلَوْ كَانَ فَسَادًا؛ لِئَلَّا نُفَاجَأَ بِهِ، فَهِيَ دَعْوَى مَرْدُودَةٌ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَمَرَنَا بِمُدَافَعَةِ الْفَسَادِ، وَمُحَارَبَةِ أَزْلَامِهِ، وَتَحْذِيرِ النَّاسِ مِنْهُمْ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

هَذَا، وَالْأُمَمُ الْأُخْرَى مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَثَنِيَّةٍ تُدَافِعُ عَنْ أَفْكَارِهَا وَأَدْيَانِهَا وَثَقَافَاتِهَا

أَمَامَ غَزْوِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى لَهَا، وَتَفْرِضُ وِصَايَةً عَلَى أَفْرَادِهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ، فَمَا بَالُ أَقْوَامِنَا يَرْفُضُونَ الْحَقَّ الَّذِي لَدَيْهِمْ، وَيُسَارِعُونَ فِي بَاطِلِ غَيْرِهِمْ، بَلْ وَيَفْرِضُونَ وِصَايَتَهُمْ عَلَيْنَا بِقَسْرِنَا عَلَى بَاطِلِهِمْ؟!

إِنَّ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ شَعِيرَةَ الْحِسْبَةِ مَا هُمْ إِلَّا مُنْحَرِفُونَ مُتَسَلِّطُونَ، يُرِيدُونَ فَرْضَ وِصَايَتِهِمْ عَلَى النَّاسِ، وَيَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِينِهِمْ وَشَعَائِرِهِ، وَيَسْعَوْنَ فِي نَقْلِهِمْ مِنْ أَشْرَفِ المَقَامَاتِ، وَهُوَ مَقَامُ عُبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالرِّضَا بِدِينِهِ، وَالْتِزَامِ أَحْكَامِهِ إِلَى عُبُودِيَّةِ أَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ، وَمَذَاهِبِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ، كَفَى اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، آمِينَ.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٢٧٩- إصلاح ذات البين (١) فضله وفقهه وآدابه

٢٦/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ هِدَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، أَنْ وَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَجَمَعَ قُلُوبَهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَلَمَّ بِهِ شَعَثَهُمْ، وَأَزَالَ ضَغَائِنَهُمْ، وَشَفَى صُدُورَهُمْ، فَكَانُوا إِخْوَةً فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَحَابِّينَ مُتَجَالِسِينَ مُتَبَاذِلِينَ؛ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَفِي الْآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَمَا مِنْ سَبِيلٍ يَزِيدُ مِنْ لُحْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُؤَدِّي إِلَى تَرَابُطِهِمْ وَتَآلُفِهِمْ إِلَّا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ؛ وُجُوبًا أَوْ نَدْبًا، وَمَا مِنْ طَرِيقٍ تُؤَدِّي إِلَى التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَالضَّغِينَةِ وَالشَّحْنَاءِ، وَالْقَطِيعَةِ وَالْبَغْضَاءِ، إِلَّا حَرَّمَتْهَا الشَّرِيعَةُ، وَأَوْصَدَتْ طُرُقَهَا، وَسَدَّتْ سُبُلَهَا؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَتِ الشَّرِيعَةُ بِالْبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَحَرَّمَتِ الْعُقُوقَ وَالْقَطِيعَةَ، وَأَمَرَتْ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ، وَالحُبِّ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَالزِّيَارَةِ فِيهِ، وَإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَعِيَادَةِ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَحِفْظِ حُقُوقِ الأَهْلِ وَالْقَرَابَةِ وَالْجِيرَانِ، وَجَعَلَتْ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ حُقُوقًا يَحْفَظُهَا لَهُ؛ فَيُؤْجَرُ عَلَيْهَا، وَأَرْشَدَتْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُقَوِّيَ الرَّوَابِطَ، وَتُدِيمَ الْأُلْفَةَ، وَتَزِيدَ فِي المَوَدَّةِ وَالمَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ.

وَحَرَّمَتِ الشَّرِيعَةُ الهَمْزَ واللَّمْزَ وَالسُّخْرِيَةَ، وَالْغِيبَةَ وَالنَّمِيمَةَ، وَالْقَذْفَ وَالبُهْتَانَ، وَالشَّتْمَ وَالسِّبَابَ، وَالْكَذِبَ وَالمِرَاءَ، وَالفُجُورَ وَالجِدَالَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسَبِّبَ الضَّغَائِنَ وَالْخُصُومَاتِ، وَتُؤَجِّجَ نِيرَانَ الْأَحْقَادِ وَالْعَدَاوَاتِ.

وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الِاحْتِرَازَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُرَبِّي الإِسْلَامُ أَهْلَهُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ -وَهُوَ يَعِيشُ صَخَبَ الحَيَاةِ وَمُشْكِلَاتِهَا- لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِيَهُ غَضَبٌ وَسَهْوٌ وَغَفْلَةٌ، فَيَعْتَدِيَ عَلَى أَخِيهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِي حَالِ ضَعْفٍ مِنْهُ عَنْ كَبْحِ جِمَاحِ نَفْسِهِ، وَتَسْكِينِ سَوْرَةِ غَضَبِهِ، وَحَتَّى لَا يَتَسَبَّبَ هَذَا الخَطَأُ مِنْهُ فِي الخُصُومَةِ وَالْقَطِيعَةِ الَّتِي يُغَذِّيهَا الشَّيْطَانُ، وَيَنْفُخُ نَارَهَا؛ رَتَّبَ الإِسْلَامُ أُجُورًا عَظِيمَةً عَلَى الحِلْمِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ، وَوَعَدَ اللهُ ﷻ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالأَرْضُ، وَأَمَرَ المُعْتَدِي بِرَفْعِ ظُلْمِهِ،

وَالرُّجُوعِ عَنْ خَطَئِهِ، وَالِاعْتِذَارِ لِمَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ اعْتِدَاؤُهُ.

إِنَّهَا تَشْرِيعَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ، لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا، لَمَا وَجَدَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا، وَلَمَا حَلَّتْ فِي أَوْسَاطِهِمُ الْقَطِيعَةُ وَالْخُصُومَةُ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ -وَإِنْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ- فَإِنَّهُ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ التَّحْرِيشِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبَثِّ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ فِيهِمْ، وَالنَّيْلِ مِنْهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَةِ؛ وَلِذَا فَهُوَ يُزَيِّنُ لِلْمُعْتَدِي سُوءَ عَمَلِهِ، وَإِصْرَارَهُ عَلَى خَطَئِهِ، وَتَمَادِيَهِ فِي جَهْلِهِ، وَيُحَرِّضُ الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ عَلَى الِانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ، وَأَخْذِ حَقِّهِ، وَالنَّيْلِ مِمَّنِ اعْتَدَى عَلَيْهِ، وَعَدَمِ الْعَفْوِ عَنْهُ، وَحِينَئِذٍ تَدُبُّ الْخُصُومَةُ وَالْفُرْقَةُ الَّتِي تَتَوَلَّدُ عَنْهَا الضَّغِينَةُ وَالْقَطِيعَةُ، وَقَدْ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَى الِاعْتِدَاءِ وَالِاقْتِتَالِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ شَرَعَ الْإِسْلَامُ إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَبَاحَ لِلْمُصْلِحِينَ مَا حَرَّمَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَرَتَّبَ أَعْظَمَ الْأُجُورِ عَلَى هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْعَظِيمَةِ.

وَالْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وَالِاشْتِغَالُ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ أَفْضَلُ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِنَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ؛ لِمَا فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ مِنَ النَّفْعِ الْمُتَعَدِّي الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا فِي وَصْلِ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ، وَزِيَارَةِ إِخْوَانٍ هُجِرُوا، وَنَظَافَةِ الْقُلُوبِ مِمَّا عَلِقَ بِهَا مِنْ أَدْرَانِ الْحِقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى مَتَانَةِ الْمُجْتَمَعِ وَقُوَّتِهِ بِتَآلُفِ أَفْرَادِهِ وَتَمَاسُكِهِمْ؛ رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ ﵁ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ**

الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الحَالِقَةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١).

وَالإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ مَعْدُودٌ فِي الصَّدَقَاتِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢)، قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَمَعْنَى يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ: أَيْ يُصْلِحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ»(٣).

وَلِعَظِيمِ أَمْرِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ أُبِيحَ لِلْمُصْلِحِينَ مَا حَرُمَ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ، إِلَّا إِذَا كَانَ غَرَضُ المُنَاجِي لأَحَدِهِمَا الإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى كَثِيرًا مِنَ التَّنَاجِي، إِلَّا مَا كَانَ لِلإِصْلَاحِ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]، وَمِنْ أَعْظَمِ التَّنَاجِي بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى مَا كَانَ لِلإِصْلَاحِ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ قَدْ فَسَدَ مَا بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ يَحْتَاجُ المُصْلِحُ إِلَى بَعْضِ الْكَذِبِ؛ لِيُقَرِّبَ بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنِ، وَيُزِيلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الضَّغِينَةِ، وَيُهَيِّئَ قَلْبَيْهِمَا لِقَبُولِ الصُّلْحِ وَالْعَفْوِ؛ وَذَلِكَ كَأَنْ يُخْبِرَ أَحَدَ الخَصْمَيْنِ بِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَذْكُرُهُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَأَنَّهُ مُتَشَوِّقٌ لِمُصَالَحَتِهِ، حَرِيصٌ عَلَى

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي في صفة الجنة، باب سوء ذات البين هي الحالقة، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٤-٤٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩١)، وصححه ابن حبان (٥٠٩٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس (٢٧٠٧)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

(٣) رياض الصالحين (٢٤٨).

قُرْبِهِ وَمَوَدَّتِهِ، مَعَ عَدَمِ حَقِيقَةِ ذَلِكَ، أَوْ يَسَأَلُهُ أَحَدُ الخَصْمَيْنِ إِنْ كَانَ خَصْمُهُ ذَكَرَهُ بِسُوءٍ عِنْدَهُ، فَيَنْفِي ذَلِكَ مَعَ وُقُوعِهِ مِنْهُ، وَمَا قَصَدَ بِكَذِبِهِ إِلَّا إِطْفَاءَ نَارِ الخُصُومَةِ، وَإِزَالَةَ أَسْبَابِ الشَّحْنَاءِ، فَرُخِّصَ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ قُبْحِ الْكَذِبِ، وَعُمُومِ المَنْعِ مِنْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ كُلْثُوم بِنْتِ عُقْبَةَ: أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: «قُلْتُ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْتَذِرُ إِلَيَّ مِنَ الشَّيْءِ، عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ فَعَلَهُ، وَيُحَرِّفُ فِيهِ الْقَوْلَ لِيُرْضِيَهُ، أَعَلَيْهِ فِيهِ حَرَجٌ؟ قَالَ: لَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ: «**لَيْسَ بِكَاذِبٍ مَنْ قَالَ خَيْرًا أَوْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ**»، وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فَإِصْلَاحُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلُ، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ وَكَرَاهَةِ أَذَى المُسْلِمِينَ، وَهُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِعَدَاوَةِ صَاحِبِهِ وَبُغْضَتِهِ، فَإِنَّ الْبُغْضَةَ حَالِقَةُ الدِّينِ، قُلْتُ: أَلَيْسَ مَنْ قَالَ مَا لَمْ يَكُنْ فَقَدْ كَذَبَ؟ قَالَ: لَا، إِنَّمَا الْكَاذِبُ الْآثِمُ، فَأَمَّا المَأْجُورُ، فَلَا، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات: ٨٩]، و﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]؟ وَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، وَمَا سَرَقُوا وَمَا أَثِمَ يُوسُفُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وَقَالَ المَلَكَانِ لِدَاوُدَ عليه السلام: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة ص: ٢٢]، وَلَمْ يَكُونَا خَصْمَيْنِ، وَإِنَّمَا أَرَادَا الْخَيْرَ وَالمَعْنَى الْحَسَنَ . . .»(٥).

بَلْ إِنَّ المُصْلِحَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ مَنْهِيٌّ عَنِ الصِّدْقِ، إِذَا كَانَ صِدْقُهُ يُشْعِلُ نَارَ

---

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٦٩٢)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥).

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

الفِتْنَةِ بَيْنَهُمَا، وَيَزِيدُ فُرْقَتَهُمَا، وَالَّذِي يَنْقُلُ الْكَلَامَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الإِفْسَادِ يُسَمَّى نَمَّامًا، وَلَوْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا يَنْقُلُ، وَالنَّمِيمَةُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٦)، فَلَرُبَّمَا نُهِيَ المُصْلِحُ عَنِ الصِّدْقِ، إِنْ كَانَ يَضُرُّ بِمُهِمَّتِهِ فِي الصُّلْحِ، وَيُرَخَّصُ لَهُ فِي الكَذِبِ، إِنْ كَانَ الكَذِبُ يُؤَدِّي إِلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ.

وَالمُتَصَدِّي لِفَضِّ الخُصُومَاتِ، وَقَطْعِ النِّزَاعَاتِ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، قَدْ يَحْتَاجُ إِلَى مَالٍ لِيَدْفَعَهُ تَعْوِيضًا أَوْ دِيَةً، أَوْ إِرْضَاءً لأَحَدِ الخَصْمَيْنِ، فَيَغْرَمُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مِنْ مَالِهِ، فَأُبِيحَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا غَرِمَ مِنَ الزَّكَاةِ؛ إِذْ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الزَّكَاةِ المَنْصُوصِ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الغَارِمِينَ، سَوَاءٌ غَرِمُوا لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ، أَمْ لِحَظِّ غَيْرِهِمْ.

إِنَّ الإِصْلَاحَ بَيْنَ المُتَخَاصِمَيْنَ مُهِمَّةٌ جَلِيلَةٌ قَدْ فَرَّطَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الخُصُومَاتِ تَكُونُ أَسْبَابُهَا تَافِهَةً، وَإِزَالَتُهَا يَسِيرَةً، وَقَدْ تُوجَدُ رَغْبَةُ الصُّلْحِ عِنْدَ كِلَا الخَصْمَيْنِ، وَلَكِنْ تَمْنَعُهُمَا الأَنَفَةُ وَالْعِزَّةُ مِنَ التَّنَازُلِ مُبَاشَرَةً، أَوْ المُبَادَرَةِ إِلَى الصُّلْحِ بِلَا وَسِيطٍ، فَإِذَا مَا جَاءَ الْوَسِيطُ سَهُلَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَهُمَا؛ لِرَغْبَةِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي ذَلِكَ، فَيَنَالُ الوَسِيطُ أَجْرًا عَظِيمًا عَلَى عَمَلٍ قَلِيلٍ، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ قَلْبَيْنِ مُتَنَافِرَيْنَ. وَمَا مِنْ أُسْرَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ بَيْنَ بَعْضِ رِجَالِهَا خِلَافٌ وَقَطِيعَةٌ، إِلَّا وَفِيهَا رِجَالٌ عُقَلَاءُ، يَسْتَطِيعُونَ السَّعْيَ فِي إِزَالَةِ الْخِلَافِ وَالقَطِيعَةِ، وَلَكِنَّ التَّقْصِيرَ وَالغَفْلَةَ تَحُولُ دُونَ ذَلِكَ.

وَمَا مِنْ حَارَةٍ أَوْ دَائِرَةٍ حُكُومِيَّةٍ، أَوْ شَرِكَةٍ أَوْ مُؤَسَّسَةٍ بَيْنَ بَعْضِ أَفْرَادِهَا

---

(٦) أخرجه من حديث حذيفة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

خُصُومَةٌ، إِلَّا وَفِيهَا مِنَ الرِّجَالِ الأَكْفَاءِ مَنْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى الإِصْلَاحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، وَلَا سِيَّمَا ذَوِي الجَاهِ وَالْغِنَى وَالمَنَاصِبِ، وَلَكِنَّهُمْ يُقَصِّرُونَ فِي ذَلِكَ مِنْ بَابِ عَدَمِ التَّدَخُّلِ فِيمَا لَا يَعْنِي حَسَبَ ظَنِّهِمْ، وَقَدْ صَلَحَتْ لَهُمْ دُنْيَاهُمْ، فَمَا عَلَيْهِمْ لَوِ اخْتَصَمَ النَّاسُ، وَأَكَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَهَذِهِ فَرْدِيَّةٌ مُفْرَطَةٌ، وَأَثَرَةٌ بَغِيضَةٌ، وَحِرْمَانٌ مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ، قَدْ رَتَّبَهُ الشَّارِعُ الحَكِيمُ عَلَى إِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ تَصَدَّى لِلإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُخْلِصَ نِيَّتَهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا يَنْشُدَ ثَنَاءَ النَّاسِ وَشُكْرَهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ المُهِمَّةَ الجَلِيلَةَ مَظِنَّةٌ لِلسُّؤْدُدِ وَالرِّفْعَةِ وَالثَّنَاءِ، وَقَدْ يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ مِنْ خِلَالِهَا عَلَى العَبْدِ، فَيُفْسِدُ نِيَّتَهُ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى مُهِمَّتِهِ، وَيَسأَلَهُ تَأْلِيفَ قَلْبَيْ صَاحِبَيْهِ، وَإِلَانَتَهُمَا لِقَبُولِ مُبَادَرَتِهِ؛ فَإِنَّ القُلُوبَ بِيَدِهِ ﷻ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ يُقَرِّبُهَا وَيُبَاعِدُهَا، وَلَا عَوْنَ لَهُ فِي صُلْحِهِ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَعَلَى السَّاعِي بَالْإِصْلَاحِ أَنْ يَتَحَرَّى الْعَدْلَ فِي صُلْحِهِ؛ فَلَا يَمِيلَ لأَحَدِ الْخَصْمِينِ لِقُوَّتِهِ وَنُفُوذِهِ، أَوْ لإِلْحَاحِهِ وَعِنَادِهِ، فَيَظْلِمَ الآخَرَ لِحِسَابِهِ، فَيَتَحَوَّلَ مِنْ مُصْلِحٍ إِلَى ظَالِمٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا ارْتَضَاهُ الخَصْمَانِ حَكَمًا بَيْنَهُمَا، فَمَالَ إِلَى أَحَدِهِمَا، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وَلْيَتَسَلَّحْ فِي إِصْلَاحِهِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، أَوْ سُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى سُؤَالٍ؛ فَإِنْ كَانَ الْخِلَافُ عَلَى مَالٍ أَوْ إِرْثٍ أَوْ أَرْضٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ حُكْمَ الشَّرِيعَةِ فِي ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الصُّلْحِ، وَلَهُ أَنْ يُقَرِّبَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ، وَيُقْنِعَهُمَا بِالصُّلْحِ، ثُمَّ يَخْتَارَ لَهُمَا حَكَمًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَرْضَيَانِهِ، وَإِنْ كَانَ الخِلَافُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ بِالحُقُوقِ الشَّرْعِيَّةِ لِلزَّوْجَيْنِ؛ لِيَتَبَيَّنَ الظَّالِمَ مِنَ المَظْلُومِ، وَالمُخْطِئَ مِنَ المُصِيبِ، فَيُنَبِّهَ الظَّالِمَ عَلَى ظُلْمِهِ، وَيَدُلَّ المُخْطِئَ عَلَى خَطَئِهِ.

وَمِنْ فِقْهِ المُصْلِحِ أَنْ يَخْتَارَ الوَقْتَ المُنَاسِبَ لِلصُّلْحِ، فَلَا يُبَادِرُ إِلَى الصُّلْحِ عَقِبَ التَّشَاتُمِ وَالتَّعَارُكِ وَالتَّقَاتُلِ، بَلْ يَتَرَبَّصُ بِقَدْرِ مَا يَسْكُنُ الخَصْمَانِ، وَيَعُودَانِ إِلَى رُشْدِهِمَا، وَتَذْهَبُ سَوْرَةُ الغَضَبِ، وَتَضْعُفُ دَوَاعِي الِانْتِقَامِ، فَيُلْقِي بِمُبَادَرَتِهِ إِلَيْهِمَا.

وَعَلَى المُصْلِحِ أَنْ يَجِدَّ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى النَّمَّامِينَ، وَنَقَلَةِ الْكَلَامِ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ أَنْ تَسُودَ الْبَغْضَاءُ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُمْ يَنْشَطُونَ فِي الأَزَمَاتِ؛ لِبَثِّ

الشَّائِعَاتِ، وَنَقْلِ الْكَلَامِ، فَيُحَذِّرُ الْخَصْمَيْنِ مِنَ الاسْتِمَاعِ إِلَى أَرَاجِيفِهِمْ، وَيُثْبِتُ لَهُمَا كَذِبَهُمْ، وَمَا يُرِيدُونَهُ مِنَ الْإِفْسَادِ وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمَا.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْكَلَامِ أَحْسَنَهُ، وَيُرَقِّقَ قَلْبَيْهِمَا، وَيُبَيِّنَ لَهُمَا حَقَارَةَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَعَادَى الْإِخْوَانُ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا أَنْ تُقْطَعَ الْقَرَابَةُ بِسَبَبِهَا، وَيُذَكِّرَهُمَا بِالمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْحِسَابِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعِظَهُمَا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمَا أَعْظَمُ زَاجِرٍ لِلْمُؤْمِنِ، فَيُخْبِرُهُمَا بِأَنَّ أَعْمَالَهُمَا الصَّالِحَةَ مَوْقُوفَةٌ عَنِ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُنْظِرُهُمَا إِلَى أَنْ يَصْطَلِحَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

فَإِنْ كَانَتِ الخُصُومَةُ بَيْنَهُمَا قَدْ أَدَّتْ إِلَى قَطِيعَةِ رَحِمٍ، بَيَّنَ لَهُمَا عَظِيمَ مَا وَقَعَا فِيهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَأَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا قَاطِعٌ، وَأَنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ ﷻ، كَمَا جَاءَ فِي الأَحَادِيثِ(٨).

---

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).

(٨) كما في حديث جبير بن مطعم ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قاطع**» أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطعها (٢٥٥٦).

وحديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلَكِ وصَلْتُهُ، ومَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ**» أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله (٥٩٨٨).

وَإِنْ تَهَاجَرَا بِسَبَبِ خُصُومَتِهِمَا، ذَكَّرَهُمَا بِخَطَرِ هَجْرِ المُسْلِمِ، وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ(٩).

وَإِنْ كَانَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَ زَوْجَيْنِ، بَيَّنَ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حُقُوقَ الْآخَرِ عَلَيْهِ، وَذَكَّرَهُمَا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥].

فَإِنِ احْتَجَّ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ بِأَنَّهُ نَذَر أَلَّا يَتَنَازَلَ، أَوْ حَلَفَ عَلَى أَلَّا يُصَالِحَ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا بَيْنَ الْغُرَمَاءِ وَالمُتَخَاصِمِينَ، فَيَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَيُصَالِحَ أَخَاهُ، وَيَحتَجَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاس رضي الله عنهما: «هُوَ الرَّجُلُ يَحْلِفُ أَلَّا يَصِلَ قَرَابَتَهُ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ مَخْرَجًا فِي التَّكْفِيرِ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْتَلَّ بِاللَّهِ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»(١٠).

وَرَوَى أَبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِم(١١).

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الصُّلْحَ خَيْرٌ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالصِّلَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْقَطِيعَةِ، وَالمَوَدَّةَ أَوْلَى مِنَ الْكَرَاهِيَةِ.

---

(٩) كما في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لِرَجُلٍ أن يهْجُرَ أخَاهُ فَوْقَ ثلاث ليال، يلتقيان: فيُعْرض هذا ويُعْرض هذا، وخَيْرُهُمَا الذي يَبْدَأُ بالسَّلَام**» أخرجه البخاري في الأدب، باب الهجرة (٦٠٧٧) ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الهجر (٢٥٦٠).

(١٠) شرح ابن بطال على البخاري (٦/ ١٣٤)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٦٨). ولم أقف عليه مسندًا عن ابن عباس رضي الله عنهما بهذا المعنى. لكن جاء نحوه عن إبراهيم النخعي كما أخرجه عنه سعيد بن منصور في سننه (٣٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٢).

(١١) أخرجه مسلم في الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه (١٦٥٠).

وَمَنْ سَعَى فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّه يَجِبُ عَلَى النَّاسِ تَأْيِيدُهُ وَتَشْجِيعُهُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَمَعُونَتُهُ بِمَا يَحْتَاجُ مِنَ الْجَاهِ وَالمَالِ؛ فَإِنَّ إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ يَعُودُ عَلَى الْجَمِيعِ بِالْخَيْرِ وَالمَحَبَّةِ وَالأُلْفَةِ، كَمَا أَنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ يَضُرُّ المُجْتَمَعَ عَامَّةً، بِمَا يَسُودُ فِيهِ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ، وَالْجَرَائِمِ وَالِانْتِقَامِ.

وَمَنْ سَعَى إِلَيْهِ أَخُوهُ بِالإِصْلَاحِ، فَلْيَقْبَلْ مِنْهُ، وَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ، وَلْيَكُنْ خَيْرَ الخَصْمَيْنِ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



٢٨٠- إصلاح ذات البين (٢)
مجالات الصلح

١٣/ ١١/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَحَ قُلُوبَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِالإِسْلَامِ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ بِالإِيمَانِ؛ فَكَانُوا إِخْوَةً فِي اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ امْتَنَّ عَلَى رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِزَالَةِ الشَّحْنَاءِ مِنْ قُلُوبِ أَصْحَابِهِ، وَمَلَأَهَا مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً وَوِئَامًا؛ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَمَرَ بِالصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ، وَدَعَا إِلَيْهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، وَبَيَّنَ مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ؛ حَتَّى أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ السَّعْيَ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصِّيَامِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَطَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَلِينُوا لَهُمْ، وَاحْذَرُوا الْخُصُومَةَ وَالشَّحْنَاءَ؛ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ الَّتِي تَحْلِقُ الدِّينَ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاخْتِلَافُ مِنْ سَجَايَا الْبَشَرِ، وَالتَّنَازُعُ مِنْ عَادَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ

لِاخْتِلَافِ أَخْلَاقِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ؛ وَلِتَنَافُسِهِمْ فِي حُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ المَالِ وَالشَّرَفِ وَغَيْرِهِمَا؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَغْضَبُونَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلَا يَغْضَبُونَ لِلدِّينِ، وَتُنْتَهَكُ حُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَتَحَرَّكُ قَلْبُ أَحَدِهِمْ! وَلَكِنَّهُ يَغْضَبُ أَشَدَّ الْغَضَبِ إِذَا انْتُقِصَ شَيْءٌ مِنْ دُنْيَاهُ، أَوِ اعْتُدِيَ عَلَى كَرَامَتِهِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَكْثُرُ الْخُصُومَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ. بَلْ قَدْ تَكُونُ الْخُصُومَةُ عَلَى أُمُورٍ حَقِيرَةٍ، وَأَسْبَابُهَا تَافِهَةٌ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفُخُ فِيهَا حَتَّى تَعْظُمَ فِي نُفُوسِ الْمُتَخَاصِمِينَ، وَقَدِيمًا اشْتَعَلَتْ حَرْبُ الْبَسُوسِ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ، فَدَامَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَكَلَتِ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ عُقِرَتْ!! وَاشْتَعَلَتْ حَرْبُ دَاحِسَ وَالْغَبْرَاءِ فِي خَيْلٍ سُبِقَتْ! وَلَيْسَ ثَمَنُ النَّاقَةِ أَوِ الخَيْلِ أَغْلَى مِنْ ثَمَنِ الرِّجَالِ وَالقَبَائِلِ، حَتَّى تُسَعَّرَ الحُرُوبُ فِي سَبِيلِهَا، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي يُشْعِلُ الْفِتَنَ الْكَبِيرَةَ مِنْ مُسْتَصْغَرِ شَرَرِهَا، فَإِنْ قُضِيَ عَلَى أَسْبَابِهَا فِي بَادِئِهَا وَإِلَّا نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي نَارِهَا، حَتَّى تَفْنَى قَبَائِلُ فِيهَا، وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ ذَهَبَتْ رُوحُهُ فِي خُصُومَةٍ بَدَأَتْ صَغِيرَةً فَكَبُرَتْ حَتَّى فَقَدَتْهُ أُسْرَتُهُ؟! وَكَمْ مِنْ رَحِمٍ قُطِعَتْ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً بِسَبَبِ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ أَوْ نُقِلَ عَنْهُ؟! وَكَمْ مِنْ إِخْوَانٍ تَهَاجَرُوا فِي وِشَايَةٍ سَرَتْ بَيْنَهُمْ؟!

إِنَّ الإِسْلَامَ جَاءَ بِإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ، وَأَوْصَدَ الطُّرُقَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى فَسَادِهَا، وَأَمَرَ المُسْلِمِينَ بِالإِصْلَاحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ، كَمَا حَثَّ المُتَخَاصِمِينَ عَلَى قَبُولِ أَيِّ مُبَادَرَةٍ لِلصُّلْحِ وَفَضِّ النِّزَاعِ وَالشِّقَاقِ، وَإِنْهَاءِ الْقَطِيعَةِ.

وَالخُصُومَةُ قَدْ تَقَعُ بَيْنَ زُعَمَاءِ الدُّوَلِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى حُرُوبٍ يَكْتَوِي بِنَارِهَا شُعُوبٌ لَا ذَنْبَ لَهَا، وَقَدْ تَقَعُ الخُصُومَةُ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ: قَبِيلَتَيْنِ، أَوْ أُسْرَتَيْنِ، أَوْ جَمَاعَتَيْنِ، أَوْ حِزْبَيْنِ، فَتُفَرِّقُ أَفْرَادَهُمَا الخُصُومَةُ وَقَدْ جَمَعَهُمْ

الإِسْلَامُ، وَقَدْ يُوَالُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ فِي سَبِيلِ النَّيْلِ مِنْ خُصُومِهِمْ وَهُمْ مُسْلِمُونَ مِثْلُهُمْ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَيَعْظُمُ الْإِثْمُ إِنْ قُطِعَتْ أَرْحَامٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنْ نَتَجَ عَنِ الخُصُومَةِ اقْتِتَالٌ فَالأَمْرُ أَشَدُّ؛ لِأَنَّهُ عَوْدٌ إِلَى أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي أَنْقَذَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْهَا بِالإِسْلَامِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِقَطْعِ دَابِرِ الخُصُومَةِ، وَالسَّعْيِ بَيْنَ المُتَقَاتِلِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ بِالإِصْلَاحِ، وَرَدْعِ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةِ حَتَّى تَسْتَكِينَ إِلَى الصُّلْحِ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه قَالَ: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ المُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ؛ فَغَضِبَ لِعَبْدِاللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث جرير رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب الإنصات للعلماء (١٢١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا . . .**» (٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢٥٤٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٩).

وَحَازَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما فَضِيلَةَ حَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخْمَدَ اللهُ تَعَالَى نَارَ الْفِتْنَةِ عَلَى يَدَيْهِ، حِينَ صَالَحَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه، وَتَنَازَلَ عَنِ الخِلَافَةِ لَهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

وَوَقَعَتْ خُصُومَةٌ بَيْنَ حَيَّيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ؛ فَسَعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلصُّلْحِ بَيْنَهُمَا؛ كَمَا رَوَى سَهْلُ بنُ سَعْدٍ رضي الله عنه: «أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالْحِجَارَةِ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: **اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحْ بَيْنَهُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: فَقَالَ لِبِلَالٍ: «**إِنْ حَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَلَمْ آتِكَ فَمُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»(٤).

فَهَمَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِتَرْكِ إِمَامَةِ النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، مَعَ عَظِيمِ شَأْنِهَا مِنْ أَجْلِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ.

وَقَدْ تَقَعُ الخُصُومَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَتَشْتَدُّ حَتَّى يَكُونَ الطَّلَاقُ نَتِيجَتَهَا، وَيَكُونَ الأَوْلَادُ ضَحِيَّتَهَا، وَلِئَلَّا تَبْلُغَ الخُصُومَةُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ هَذَا المَبْلَغَ فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ سُبْحَانَهُ شَرَعَ الصُّلْحَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَأَمَرَ بِتَحْكِيمِ حَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِهِمَا؛ لِلْقَضَاءِ عَلَى الخُصُومَةِ، وَإِزَالَةِ أَسْبَابِ التَّوَتُّرِ وَالشِّقَاقِ، وَالحِفَاظِ عَلَى اسْتِقْرَارِ

---

(٣) أخرجه من حديث الحسن البصري عن أبي بكرة رضي الله عنه: البخاري في الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنه: «ابني هذا سيد ...» (٢٥٥٧)، وأحمد (٥/ ٤٩) ونقل البخاري عقبه عن علي بن المديني -رحمه الله تعالى- قوله: «إنما ثبت لنا سماع الحسن من أبي بكرة بهذا الحديث» اهـ (٢/ ٩٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح (٢٥٤٧)، والنسائي في آداب القضاة، باب مسير الحاكم إلى رعيته للصلح بينهم (٨/ ٢٤٣)، وأبو داود في الصلاة، باب التصفيق في الصلاة (٩٤١)، وأبو يعلى (٧٥٢٤)، وابن حبان (٢٢٦١).

الأُسْرَةِ، وَسَلَامَةِ الأَوْلَادِ؛ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

وَرَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ ﵁ قَالَ: «جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ فَاطِمَةَ، فَلَمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: **أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟** قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَيْءٌ فَغَاضَبَنِي، فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: **انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟** فَجَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي المَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ، وَيَقُولُ: **قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

لَاحِظُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِفَاطِمَةَ: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**» وَلَمْ يَقُلْ: أَيْنَ ابْنُ عَمِّي؟ أَوْ أَيْنَ زَوْجُكِ؟ أَوْ أَيْنَ عَلِيٌّ؟ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِمَ أَنَّهُ جَرَى بَيْنَهُمَا خُصُومَةٌ، فَأَرَادَ اسْتِعْطَافَهَا عَلَيْهِ بِذِكْرِ الْقَرَابَةِ النَّسَبِيَّةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا(٦)، ثُمَّ تَلَطَّفَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ عَلِيٍّ، وَمَسَحَ التُّرَابَ عَنْهُ، وَمَازَحَهُ؛ لِيُطَيِّبَ خَاطِرَهُ، وَيُلَيِّنَ قَلْبَهُ عَلَى زَوْجِهِ، فَلْنَتَعَلَّمْ مِنَ هَذَا الأُسْلُوبِ الْحَسَنِ فِي الإِصْلَاحِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَقَدْ تَكُونُ الْخُصُومَةُ بِسَبَبِ الْأَمْوَالِ -وَهِيَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الخُصُومَةِ وُقُوعًا- إِمَّا فِي دَيْنٍ لَمْ يَقْضِهِ صَاحِبُهُ، أَوْ فِي شَرِكَةٍ اخْتَصَمَ الشُّرَكَاءُ بِسَبَبِهَا، أَوْ فِي إِرْثٍ تَأَخَّرَ الْوَرَثَةُ فِي قِسْمَتِهِ، أَوْ وَقْفٍ اخْتَلَفُوا فِي فَهْمِ مُرَادِ الْوَاقِفِ فِيهِ، أَوْ وَصِيَّةٍ لِوَارِثٍ أَخْطَأَ فِيهَا المُوصِي، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

(٥) أخرجه البخاري في المساجد، باب نوم الرجال في المسجد (٤٣٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﵁ (٢٤٠٩).

(٦) ينظر: عمدة القاري (٤/ ١٩٩).

وَحَرِيٌّ بِمَنْ هُوَ قَرِيبٌ مِنَ المُتَخَاصِمِينَ أَنْ يَسْعَى بِالصُّلْحِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَوْ أَنْ يَقْتَرِحَ وَضْعَ بَعْضِ الدَّيْنِ أَوْ تَأْجِيلَهُ أَوْ تَقْسِيطَهُ، فَإِنْ كَانَتِ الخُصُومَةُ بَيْنَ شُرَكَاءَ أَزَالَ أَسْبَابَهَا، أَوْ سَعَى فِي فَضِّ شَرَاكَتِهِمَا بِالْعَدْلِ، فَإِنْ كَانَتِ الْخُصُومَةُ بِسَبَبِ إِرْثٍ سَعَى فِي قِسْمَتِهِ وَفْقَ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَتْ بِسَبَبِ وَصِيَّةٍ جَوْرٍ رَفَعَ الظُّلْمَ وَصَحَّحَ الخَطأَ؛ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢]، وَمَا مِنْ خُصُومَةٍ إِلَّا لَهَا أَسْبَابٌ إِنْ سَعَى المُصْلِحُ فِي إِزَالَتِهَا زَالَ الشِّقَاقُ، وَحَلَّ مَكَانَهُ الوِفَاقُ.

رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: «أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا لَهُ عَلَيْهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى: **يا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، يَا كَعْبُ**، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **قُمْ فَاقْضِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَرَوَتْ عَائِشَةُ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةٍ أَصْوَاتُهُمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ -أَيْ: دَيْنٍ- وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **أَيْنَ المُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ؟** فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَهُ أَيُّ ذَلِكَ أَحَبَّ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ،

---

(٧) أخرجه البخاري في المساجد، باب التقاضي والملازمة في المسجد (٤٤٥)، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٨).

(٨) أخرجه البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح (٢٥٥٨)، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (١٥٥٧).

صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا تَجِدُوهُ أَمَامَكُمْ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة: ٧، ٨].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الخُصُومَةِ ضَرَرًا وَإِثْمًا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْقَرَابَةِ فَتُقْطَعُ بِسَبَبِهِ الْأَرْحَامُ، وَيَتَهَاجَرُ الْإِخْوَانُ وَالْأَعْمَامُ وَالْأَخْوَالُ وَالْأَصْهَارُ، وَرُبَّمَا مَكَثُوا سَنَوَاتٍ عِدَّةً عَلَى حَالٍ لَا تُرْضِي اللهَ ﷻ، وَلَا تُرْضِيهِمْ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَعْلَمُونَ عَظِيمَ حَقِّ الرَّحِمِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ، فَيُوهِمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الخَصْمَيْنِ أَنَّ كَرَامَتَهُ تَقْتَضِي الْإِصْرَارَ عَلَى رَأْيِهِ، وَالْبَقَاءَ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِ، وَهِجْرَانِ قَرِيبِهِ، وَهَذِهِ نُقْطَةُ الضَّعْفِ الَّتِي يَتَسَلَّلُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا إِلَى قُلُوبِ المُتَخَاصِمِينَ.

أَلَا وَإِنَّ القُوَّةَ كُلَّ القُوَّةِ، وَإِنَّ مُنْتَهَى الشَّجَاعَةِ وَالجُرْأَةِ فِي دَحْرِ الشَّيْطَانِ، وَالِانْتِصَارِ عَلَى النَّفْسِ، وَالمُبَادَرَةِ إِلَى الصُّلْحِ، وَالسَّابِقُ مِنَ الخَصْمَيْنِ هُوَ المُنْتَصِرُ، وَالمَسْبُوقُ مِنْهُمَا يَوَدُّ بَعْدَ الصُّلْحِ لَوْ كَانَ هُوَ السَّابِقَ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى كُبَرَاءِ الأُسَرِ وَوُجَهَاءِ الْقَبَائِلِ وَمُدِيرِي الدَّوَائِرِ أَنْ يُصْلِحُوا بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ فِي أُسَرِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ وَإِدَارَاتِهِمْ، وَكُلُّ ذِي مَالٍ وَجَاهٍ يَقْبَلُ الْمُتَخَاصِمُونَ مِنْهُ مَا لَا يَقْبَلُونَ مِنْ غَيْرِهِ؛ فَلْيُزَكِّ مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ بِالصُّلْحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَنَالَ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ النَّاسِ لَهُ.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ حُدِّثَتْ: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ فِي بَيْعٍ أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ، أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَهُوَ قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَلَّا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَبَدًا -وَكَانَتْ خَالَتَهُ ﵄- فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَيْهَا حِينَ طَالَتِ الْهِجْرَةُ، فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، لَا أُشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ كَلَّمَ الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، وَهُمَا مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ لَمَا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ، فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي، فَأَقْبَلَ بِهِ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلَيْنِ بِأَرْدِيَتِهِمَا حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَنَدْخُلُ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا، قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ. وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمِسْوَرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا مَا كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَأَعْتَقَتْ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ

دُمُوعُهَا خِمَارَهَا» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٩).

أَلَّا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاسْعُوا فِي الصُّلْحِ بَيْنَ المُتَخَاصِمِينَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ وَقَرَابَتِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ وَزُمَلَائِكُمْ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خَيْرًا عَظِيمًا؛ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مُخَاصِمٍ لِأَخِيهِ المُسْلِمِ أَنَّ عَمَلَهُ الصَّالِحَ وَعَمَلَ خَصْمِهِ لَا يُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَصْفُوَ قَلْبَاهُمَا عَلَى بَعْضٍ، وَيُزِيلَا الشَّحْنَاءَ بَيْنَهُمَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الخَمِيسِ؛ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٩) أخرجه البخاري في الأدب، باب الهجرة (٥٧٢٥)، وعبد الرزاق (١٥٨٥١)، وأحمد (٤/ ٣٢٧)، وابن حبان (٥٦٦٢).

(١٠) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر (٢٥٦٥).

٢٨١- العلم والتعليم (١)
فضل العلم والعلماء

١٢/٨/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ بِمَا أَرْسَلَ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وَلَا سَبِيلَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مُرَادِهِ، وَلَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إِلَّا بِقِرَاءَةِ كِتَابِهِ، وَالتَّلَقِّي عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ وَلِذَا كَانَتِ الْعُلُومُ الشَّرْعِيَّةُ أَفْضَلَ الْعُلُومِ وَأَجَلَّهَا؛ لِأَنَّهَا تُوصِلُ

إِلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المُجَادَلَة: ١١]، وَرَوَى عَامِرُ بْنُ وَاثِلَةَ: «أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ -وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ- فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: **إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَمِنْ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَشْهَدَ أَهْلَهُ عَلَى أَجَلِّ مَشْهُودٍ عَلَيْهِ وَأَصْدَقِهِ وَأَفْضَلِهِ، وَهُوَ تَوْحِيدُهُ ﷻ، وَقَرَنَ شَهَادَةَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ ﷻ وَبِشَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ عليهم السلام ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اسْتَشْهَدَ بِهِمْ عَلَى أَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ وَأَعْظَمِهِ وَأَكْبَرِهِ وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَالْعَظِيمُ الْقَدْرِ إِنَّمَا يَسْتَشْهِدُ عَلَى الْأَمْرِ الْعَظِيمِ أَكَابِرَ الْخَلْقِ وَسَادَاتِهِمْ»(٢).

وَقَدْ نَفَى اللهُ تَعَالَى التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ كَمَا نَفَى التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابِ النَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨/٧)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢/٨)، والدارمي (٣٣٦٥)، وأحمد (١/ ٣٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٩).

ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ [الحشر: ٢٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ فَضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ.

وَجَعَلَ ﷻ صَاحِبَ الْجَهْلِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَى الَّذِينَ لَا يُبْصِرُ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: ١٩]، فَمَا ثَمَّ إِلَّا مُبْصِرٌ أَوْ أَعْمَى، وَقَدْ وَصَفَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الْجَهْلِ بِأَنَّهُمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ مَنْ يَعْرِفُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُمْ يُبَصِّرُونَهُمْ وَيُرْشِدُونَهُمْ وَيُفْتُونَهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وَأَهْلُ الذِّكْرِ هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ، خَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَهَذَا حَصْرٌ لِخَشْيَتِهِ فِي أُولِي الْعِلْمِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ خَشْيَتِهِ هُمُ الْعُلَمَاءُ، فَدَلَّ ذَلِكَ -بِمَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ- عَلَى أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ الْمَذْكُورَ هُوَ لِلْعُلَمَاءِ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا»(٣).

وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ خُشُوعًا إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تُتْلَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٤)، وابن المبارك في الزهد (١٥)، وأحمد في الزهد (١٥٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩) رقم (٨٩٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧٤٦).

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإِسْرَاء: ١٠٧، ١٠٩].

وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ؟ وَقُلُوبُهُمْ مُسْتَوْدَعُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ فِي نُصُوصِهِمَا تَدَبُّرًا وَفَهْمًا وَاسْتِنْبَاطًا ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٩]. وَلِمَكَانَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: ٥٦].

وَالْأَمْثَالُ الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَدُلُّهُمْ بِهَا عَلَى صِحَّةِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ لَا يَفْهَمُهَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٣]. وَفِي الْقُرْآنِ بِضْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ مَثَلًا، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا مَرَّ بِمَثَلٍ لَا يَفْهَمُهُ يَبْكِي وَيَقُولُ: «لَسْتُ مِنَ الْعَالِمِينَ»(٤).

وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ يَنَالُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِمُقْتَضَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [الْبَقَرَة: ٢٦٩]. وَبِمُقْتَضَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما. وَفِي لَفْظٍ لِلطَّبَرَانِيِّ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَعَلَّمُوا؛ إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٥).

---

(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥١).

(٥) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين (٧١)، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة (١٠٣٧).
والرواية الثانية للطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٥) رقم (٩٢٩)، وفي مسند الشاميين (٧٥٨)، وقال الحافظ في الفتح بعد أن عزاه لابن أبي عاصم والطبراني (١/ ١٦١): إسناده حسن، إلا أن فيه مبهمًا اعتضد بمجيئه من وجه آخر.

وَالمُرَادُ بِالْفِقْهِ هُنَا: مَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ لِلَّهِ ﷻ، وَفَهْمُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ فِي دِينِهِ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، كَمَا أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَقَّهَهُ فِي دِينِهِ»(٦).

وَيَكْفِي فِي فَضْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ نَبِيَّهُ ﷺ بِطَلَبِ الِازْدِيَادِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الِازْدِيَادَ مِنَ الْعِلْمِ فَأَمَرَهُ بِهِ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وَالْعِلْمُ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٧).

وَأَصْحَابُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تَنْقَطِعُ أَعْمَالُهُمْ بِوَفَاتِهِمْ إِلَّا مَنْ وَرَّثَ عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ، فَإِنَّ عِلْمَهُ يَجْرِي عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ جُمْلَةً مِنْ فَضَائِلِ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ: «وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِائَتَيْ دَلِيلٍ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ فِي كِتَابٍ مُفْرَدٍ، فَيَا لَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ مَا أَعْلَاهَا، وَمَنْقَبَةٍ مَا أَجَلَّهَا وَأَسْنَاهَا: أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ فِي حَيَاتِهِ مَشْغُولًا بِبَعْضِ أَشْغَالِهِ، أَوْ فِي قَبْرِهِ قَدْ صَارَ أَشْلَاءً مُتَمَزِّقَةً،

---

(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

(٧) أخرجه مسلم في الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع في تلاوة القرآن والذكر (٢٦٩٩)، والترمذي في العلم، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٢).

(٨) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٢)، والترمذي في الأحكام، باب في الوقف (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا، باب فضل الصدقة عن الميت (٣٦٥١).

وَأَوْصَالًا مُتَفَرِّقَةً، وَصُحُفُ حَسَنَاتِهِ مُتَزَايِدَةٌ يُمْلَى فِيهَا الْحَسَنَاتُ كُلَّ وَقْتٍ، وَأَعْمَالُ الْخَيْرِ مُهْدَاةٌ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ! تِلْكَ وَاللَّهِ الْمَكَارِمُ وَالْغَنَائِمُ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ، وَعَلَيْهِ يَحْسُدُ الْحَاسِدُونَ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَحَقِيقٌ بِمَرْتَبَةٍ هَذَا شَأْنُهَا أَنْ تُنْفَقَ نَفَائِسُ الْأَنْفَاسِ عَلَيْهَا، وَيَسْبِقَ السَّابِقُونَ إِلَيْهَا، وَتُوَفَّرَ عَلَيْهَا الْأَوْقَاتُ، وَتَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا الطَّلَبَاتُ، فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ خَيْرٍ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْنَا خَزَائِنَ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ يُدْعَوْنَ عُظَمَاءَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» انْتَهَى كَلَامُهُ(٩).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفَضَائِلُ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ، وَمَزَايَاهُ عَدِيدَةٌ، لَا يُحِيطُ بِهَا كِتَابٌ، وَلَا يُحْصِيهَا مَقَامٌ، وَكُلُّ الْبَشَرِ يُحِبُّونَ الِانْتِسَابَ إِلَى الْعِلْمِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَكُلُّ النَّاسِ يَتَبَرَّؤُونَ مِنَ الْجَهْلِ وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِنْ عَمَى الْبَصَائِرِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الْعَلَق: ١-٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



(٩) طريق الهجرتين (٥٢١-٥٢٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا أُطْلِقَ الْعِلْمُ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ، قَالَ الطَّحَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اسْمُ الْعَالِمِ يُسْتَحَقُّ بِشَيْئَيْنِ: بِعِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ فَهُوَ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ، وَالْآخَرُ بِخَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨] فَالْمُرَادُ بِالْعَالِمِ: هُوَ الْعَالِمُ الْفَقِيهُ؛ لِأَنَّ آبَاطَ الْإِبِلِ لَا تُضْرَبُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْفِقْهُ، لَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْخَشْيَةُ، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَيْسَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْهُمْ فَهُوَ فِي أَرْفَعِ مَرَاتِبِ الْعُلَمَاءِ»(١٠).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يُفِيدُ مَعْرِفَةَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ فِي عِبَادَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقَائِصِ» اهـ(١١).

وَعُلُومُ الدُّنْيَا كَالطِّبِّ وَالْهَنْدَسَةِ وَالْفَلَكِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ، لِصَاحِبِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ فِي نَفْعِ النَّاسِ، وَالِارْتِقَاءِ بِمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ حَتَّى

---

(١٠) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار لأبي المحاسن الملطي (٢/ ٣٤٠).

(١١) فتح الباري (١/ ٤١٤).

لَا تَكُونَ عَالَةً عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَهَذِهِ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ هِيَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَنْفِرَ لَهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُغْنُوا مُجْتَمَعَاتِهِمْ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَمَنْ نَفَرَ إِلَيْهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُشَارِكٌ فِي رَفْعِ الْحَرَجِ عَنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ بِقَدْرِ نِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ يُرَاجِعَ كُلُّ مُدَرِّسٍ وَمُدَرِّسَةٍ، وَطَالِبٍ وَطَالِبَةٍ، نَوَايَاهُمْ تُجَاهَ بَذْلِ الْعِلْمِ وَطَلَبِهِ؛ إِذْ إِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَأَخُّرِ الْمُسْلِمِينَ فِي شَتَّى الْعُلُومِ ضَعْفَ الْإِخْلَاصِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّحْصِيلِ، وَتَقْدِيمَ حُظُوظِ الدُّنْيَا عَلَى حُقُوقِ الْآخِرَةِ، وَإِلَّا فَالْمُخْلِصُونَ لِلَّهِ تَعَالَى مُوَفَّقُونَ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ، وَيَظْهَرُ إِنْتَاجُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ كَمَا لَوْ كَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ.

لَقَدْ أَدَّى إِخْلَاصُ الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ فِيمَا مَضَى مِنْ تَارِيخِنَا إِلَى نَهْضَةٍ حَضَارِيَّةٍ شَامِلَةٍ، تَبِعَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا غَيْرُهُمْ، فَكَانَتِ الطَّوَائِفُ الْأُخْرَى مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَغَيْرِهِمْ يَرَوْنَ أَنَّ الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ فِي أَنْ يُتْقِنُوا اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَآدَابَهَا وَفُنُونَهَا، يَبُزُّونَ بِذَلِكَ أَقْرَانَهُمْ، وَيُفَاخِرُونَ بِهِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ؛ وَذَلِكَ إِبَّانَ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ، حَتَّى كَتَبَ أَحَدُ الْمُؤَرِّخِينَ الْقَسَاوِسَةِ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ يَصِفُ الْأَحْوَالَ آنَذَاكَ، فَمِمَّا كَتَبَ قَوْلُهُ: «كَثِيرُونَ مِنْ أَبْنَاءِ دِينِي يَقْرَؤُونَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَأَسَاطِيرَهُمْ، وَيَدْرُسُونَ مَا كَتَبَهُ عُلَمَاءُ الدِّينِ، لَا لِيَخْرُجُوا عَنْ دِينِهِمْ، وَإِنَّمَا لِيَتَعَلَّمُوا كَيْفَ يَكْتُبُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُسْتَخْدِمِينَ الْأَسَالِيبَ الْبَلَاغِيَّةَ.

ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ نَجِدُ الْيَوْمَ مَسِيحِيًّا عَادِيًّا يَقْرَأُ النُّصُوصَ الْمُقَدَّسَةَ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ؟ مَنْ مِنْكُمْ يَدْرُسُ الْيَوْمَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ أَوْ مَا قَالَهُ الرُّسُلُ؟

إِنَّ كُلَّ الشَّبَابِ النَّابِهِ مُنْصَرِفٌ الْآنَ إِلَى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيَّيْنِ، فَهُمْ يَقْرَؤُونَ وَيَدْرُسُونَ بِحَمَاسَةٍ بَالِغَةٍ الْكُتُبَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَدْفَعُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي اقْتِنَاءِ

المَكْتبَاتِ، وَيَتَحَدَّثُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِأَنَّ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ جَدِيرٌ بِالدِّرَاسَةِ وَالِاهْتِمَامِ، وَإِذَا حَدَّثَهُمْ أَحَدٌ عَنِ الْكُتُبِ المَسِيحِيَّةِ أَجَابُوهُ بِلَا اكْتِرَاثٍ: بِأَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ تَافِهَةٌ وَلَا تَسْتَحِقُّ اهْتِمَامَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا لَلْهَوْلِ! نَسِيَ المَسِيحِيُّونَ حَتَّى لُغَتَهُمْ، وَلَنْ تَجِدَ بَيْنَ الْأَلْفِ مِنْهُمْ وَاحِدًا يَسْتَطِيعُ كِتَابَةَ خِطَابٍ بِاللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ، بَيْنَمَا تَجِدُ بَيْنَهُمْ عَدَدًا كَبِيرًا لَا يُحْصَى يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ، وَيَقْرِضُ الشِّعْرَ أَحْسَنَ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ» انْتَهَى كَلَامُهُ(١٢).

وَذَكَرَتْ مُسْتَشْرِقَةٌ أَلمَانِيَّةٌ أَنَّ الْأُسْقُفَ وَالْقَاضِيَ الْأُورُبِّيَّيْنِ آنَذَاكَ يَلْبَسَانِ زِيًّا عَرَبِيًّا، وَيَحْمِلَانِ اسْمَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ، وَيَتْلُوَانِ كَغَيْرِهِمَا مِنَ النَّصَارَى الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ(١٣).

وَلَيْسَ يَعْنِينَا فِي هَذَا المَقَامِ التَّذْكِيرُ بِالْأَمْجَادِ السَّالِفَةِ قَدْرَ أَنْ نَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنَ التَّارِيخِ، وَأَنْ لَا نُفَرِّطَ فِيمَا خَطَّهُ الْأَجْدَادُ بِمِدَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي صَفَحَاتِ التَّارِيخِ الْأُورُبِّيِّ، وَمَا أَحْوَجَ النَّاسَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَى الْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى حَظِيرَةِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ! وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ، وَلَا بَصِيرَةَ بِلَا عِلْمٍ صَحِيحٍ.

فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأُمَّتِكُمْ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ وَعَلِّمُوهُ، وَاغْرِسُوا فِي نُفُوسِ أَوْلَادِكُمْ وَطُلَّابِكُمُ الْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ، وَالْجِدَّ فِي الطَّلَبِ، وَالِابْتِعَادَ عَنِ المُلْهِيَاتِ الَّتِي فَتَكَتْ بِعُقُولِ الشَّبَابِ، وَدَمَّرَتْ

---

(١٢) قائل ذلك هو الفارو أسقف قرطبة، كما ذكرته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها: «شمس العرب تسطع على الغرب» (٥٢٩)، تعريب: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٣.

(١٣) شمس العرب تسطع على الغرب (٥٢٩).

كَثِيرًا مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، وَأَوْهَنَتْ عَزَائِمَهُمْ، وَأَضْعَفَتْ قُوَّتَهُمْ عَنْ تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّاتِ. عَسَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ شَبَابَ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لِوَالِدِيهِمْ وَلِمُجْتَمَعَاتِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٨٢- العلم والتعليم (٢)
ذم الجهل وأهله

١٨/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الْعَلَق: ٤-٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٢، ١٠٣].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ نَقَلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْخَاتِمَةَ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنْ دَرَكَاتِ الشَّرِّ إِلَى دَرَجَاتِ الْخَيْرِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ عَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ مِنْهُمْ يَجْلِبُ لِنَفْسِهِ النَّفْعَ، وَيَدْفَعُ عَنْهَا الضُّرَّ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، وَهِدَايَةً مِنْهُ ﷻ لَهُمْ، وَلَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ فِي مُنَاظَرَتِهِ

لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وَفَضَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْبَشَرَ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانِ بِمَا وَهَبَهُمْ مِنَ الْعُقُولِ الَّتِي فَتَحَتْ لَهُمْ مَغَالِيقَ الْعُلُومِ، وَسُخِّرَتْ لَهُمْ بِهَا كُنُوزُ الأَرْضِ وَدَوَابُّهَا ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسْرَاء: ٧٠].

وَالْبَشَرُ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا، لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَكَّبَ فِيهِمُ الأَسْمَاعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ الَّتِي هِيَ وَسَائِلُ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨].

وَأَعْظَمُ عِلْمٍ يَنْفَعُ الإِنْسَانَ فِي عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا يُرْضِيهِ، وَذَلِكَ بِتَعَلُّمِ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْفِقْهِ فِيهِمَا؛ لِيَعْبُدَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، ثُمَّ الْعِلْمُ بِمَا يُصْلِحُ لِلْعَبْدِ دُنْيَاهُ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الآخِرَةِ.

وَأَعْظَمُ الْجَهْلِ وَأَشَدُّهُ وَأَشْنَعُهُ الْجَهْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَمَنْ عَطَّلَ عَقْلَهُ عَنْ تَحْصِيلِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي بِهَا يُقِيمُ دِينَهُ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ فَهُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَلَوْ كَانَ مُبَرَّزًا فِي عُلُومِ الدُّنْيَا. وَالأُمَّةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مِنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ أَيُّ حَظٍّ هِيَ أُمَّةٌ جَاهِلَةٌ هَالِكَةٌ وَلَوِ اكْتَشَفَتِ الذَّرَّةَ، وَشَيَّدَتِ الْعُمْرَانَ وَالْحَضَارَةَ، وَصَعِدَتْ إِلَى الْفَضَاءِ حَتَّى بَلَغَتِ الْقَمَرَ؛ إِذْ إِنَّ أَضَرَّ شَيْءٍ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَجْهَلُوا مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ، وَمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ الإِيمَانُ بِهِ وَطَاعَتُهُ، وَاتِّبَاعُ رُسُلِهِ؛ وَلِذَلِكَ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ، وَذَمَّ الْجَهْلَ وَأَهْلَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ وَأَهْلَ الْجَهْلِ لَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وَكُلُّ حَمْدٍ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يَنْصَرِفُ إِلَى الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ ذَمٍّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لِلْجَهْلِ وَأَهْلِهِ فَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْجَهْلِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ أَخْبَرَ ﷻ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١١١].

وَالْجَهْلُ سَبَبٌ لِلْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَمُحَارَبَتِهِ، وَمُنَابَذَةِ أَهْلِهِ بِالْعَدَاءِ، وَهُوَ أَكْثَرُ دَاءٍ فِي أَهْلِ الْبَاطِلِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٢٤].

وَالْجَهْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ يُؤَدِّي إِلَى الشِّرْكِ بِهِ؛ وَلِذَا وَصَفَ بِهِ نُوحٌ وَهُودٌ وَلُوطٌ ﷤ أَقْوَامَهُمْ لَمَّا رَفَضُوا دَعَوَاتِهِمْ، وَأَصَرُّوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ نُوحٌ ﵇: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هُود: ٢٩].

وَقَالَ هُودٌ ﵇ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأَحْقَاف: ٢٣].

وَقَالَ لُوطٌ ﵇ لِقَوْمِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٥].

وَلَمَّا طَلَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى ﵇ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَصْنَامِ أَنْكَرَ مُوسَى عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ هَذَا هُوَ جَهْلُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٣٨].

وَمَعَ أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ عُصِمُوا مِنَ الْجَهْلِ؛ لِكَمَالِ عُقُولِهِمْ بِالْوَحْيِ

الرَّبَّانِيِّ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى وَعَظَهُمْ أَنْ يَكُونُوا فِي عِدَادِ الْجَاهِلِينَ، وَهُمْ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ قَدْ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا هِدَايَةً لِلْبَشَرِ أَنْ يَقْتَفُوا أَثَرَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ.

سَأَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنَجِّيَ ابْنَهُ الْمُشْرِكَ مِنَ الطُّوفَانِ، فَكَانَ وَحْيُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هُود: ٤٦]، فَقَبِلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْعِظَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَاسْتَعَاذَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ سُلُوكِ سُبُلِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧].

وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٦٧].

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا أَعْرَضَ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَطَالَبُوهُ بِالْآيَاتِ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ وَعَظَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْهِدَايَةَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَحَذَّرَهُ مِنَ الْجَهْلِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٥].

وَأَمَرَهُ عَزَّ وَجَلَّ بِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٩٩].

وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْهُدَى لَا يُطَاوِلُونَ أَهْلَ الْجَهْلِ فِي جَهَالَاتِهِمْ، وَلَا يُشَارِكُونَهُمْ فِي مِرَائِهِمْ وَمُجَادَلَاتِهِمْ، وَلَا يُجْتَرُّونَ إِلَى مَعَارِكِهِمْ وَخُصُومَاتِهِمْ، وَهِيَ مَعَارِكُ جَانِبِيَّةٌ تَشْغَلُ عَنِ الْمَعَارِكِ الْكُبْرَى لِلْأُمَّةِ، وَغَالِبُ أَهْدَافِهَا الِانْتِصَارُ لِلنَّفْسِ

فَحَسْبُ؛ وَأَهْلُ الْعِلْمِ لَا يُجَارُونَ أَهْلَ السَّفَهِ وَالْجَهْلِ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هِمَّتَهُمْ أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ انْتِصَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِثْبَاتِ ذَوَاتِهِمْ؛ وَلِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَهْلَ الْجَهْلِ بِجَهَالَاتِهِمْ وَمُجَادَلَاتِهِمْ إِنَّمَا يَسْتَنْزِفُونَ جُهْدَهُمْ، وَيُضَيِّعُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِيمَا لَا طَائِلَ مِنْهُ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ لِاشْتِغَالِهِمْ بِمَا هُوَ أَهَمُّ وَأَعْلَى، وَقَدِ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْأُسْلُوبَ مِنْهُمْ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْجَاهِلِينَ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الْقَصَص: ٥٥]، وَجَعَلَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُفْلِحِينَ تَجَنُّبَ مُجَادَلَةِ أَهْلِ الْجَهْلِ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [الْمُؤْمِنون: ٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٣].

وَمَنْ حَالَ جَهْلُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُلُوغِ الْحَقِّ وَهُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، فَقَدْ عَطَّلَ مَا وَهَبَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ؛ وَلِذَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنْ هَذِهِ حَالُهُمْ بِالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَنَفَى عَنْهُمْ صِفَةَ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْقِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يُبْصِرُوهُ وَلَمْ يَسْمَعُوهُ، فَهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّسِعُ مَقَامٌ كَهَذَا لِعَرْضِهَا كُلِّهَا، فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧١]، وَفِي المَائِدَةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٣]، وَفِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٩]، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٢٢]، وَفِي يُونُسَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يُونُس: ١٠٠]، وَفِي الْحَجِّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن

تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الْحَجّ: ٤٦].

وَلأَنَّهُمْ عَطَّلُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَسَائِلِ تَحْصِيلِ الْعُلُوم فَكَفَرُوا بِهِ سُبْحَانَهُ وَقَدْ كَانَ أَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ فَلَا يَجْحَدُوهُ، وَيُوَحِّدُوهُ فَلَا يَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّهُ ﷻ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ شَرُّ خَلْقِهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦].

وَقَدْرُهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَقَلُّ مِنْ قَدْرِ الْأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٤].

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُدْرِكَ قَدْرَ نِعْمَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَأَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَيَسْأَلَهُ الثَّبَاتَ، فَكَمْ مِنَ الْبَشَرِ مَنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ جَهْلًا أَوِ اسْتِكْبَارًا؟! ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ١٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ فُتِنُوا بِحَضَارَةِ الْغَرْبِ، وَمَا قَدَّمَتْهُ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ إِنْجَازَاتٍ عَظِيمَةٍ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ حَتَّى سَمَّوْهَا حَضَارَةَ النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَوَسَمُوا دُوَلَهَا بِدُوَلِ الْعَالَمِ الْأَوَّلِ، وَوَصَمُوا غَيْرَهَا بِالدُّوَلِ النَّامِيَةِ وَدُوَلِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ، وَالدُّوَلِ الْجَاهِلَةِ وَالمُتَخَلِّفَةِ، وَاسْتَقَرَّتْ هَذِهِ التَّسْمِيَاتُ فِي عُقُولِ النَّاسِ، وَسَلَّمُوا بِهَا لِلْغَرْبِيِّينَ.

وَلَئِنْ صَحَّ ذَلِكَ فِي عُلُومِ الدُّنْيَا فَلَا يَصِحُّ فِي عُلُومِ الدِّينِ الَّتِي نَفْعُهَا أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِ عُلُومِ الدُّنْيَا وَأَبْقَى، وَهِيَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقَدَّمَ عَلَيْهَا فِي التَّصْنِيفِ وَالتَّفْضِيلِ، فَمَا قِيمَةُ عُلُومِ الدُّنْيَا مَهْمَا بَلَغَتْ مَعَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِدِينِهِ الْحَنِيفِ، وَبِالدَّارِ الْآخِرَةِ؟! وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الْقَصَص: ٦٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الْأَعْلَى: ١٧].

وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُسَلِّمَ لِلْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ المُطْلَقَةِ مِنَ النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ هَذِهِ الْأَوْصَافُ فِيهِمْ بِعُلُومِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ حَضَارَةَ الْغَرْبِ وَإِنْ أَبْدَعَتْ فِي عُلُومِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا جَهِلَتْ عُلُومَ الدِّينِ، وَهِيَ مِنْ شَرِّ الْأُمَمِ انْحِطَاطًا فِي هَذَا الْجَانِبِ، وَمِنْ أَشَدِّهَا كُفْرًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَا زَادَتْهُمْ عُلُومُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ إِلَّا اسْتِكْبَارًا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَاسْتِنْكَافًا عَنِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ، وَتَصْدِيقِ كُتُبِهِ، وَيَصْدُقُ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٧].

وَالْعِلْمُ بِالْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ المُتَضَمِّنِ الْعِلْمَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ، وَهُوَ الرُّوحُ لِلْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ

مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَى: ٥٢].

وَمَنْ جَهِلَ بِهِ فَهُوَ مَيِّتٌ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَحْيَاءِ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢].

وَكُلَّمَا بَعُدَ النَّاسُ عَنْ زَمَنِ الْوَحْيِ قَلَّ فِيهِمُ الْعِلْمُ، وَزَادَ فِيهِمُ الْجَهْلُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ:

فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى رضي الله عنهما قَالَا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ، وَالهَرْجُ: الْقَتْلُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَانْتِشَارُ الْجَهْلِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْمُؤْذِنَةِ بِقُرْبِ قِيَامِهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ**»(٢).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفِي زَمَنِنَا هَذَا كَثُرَ إِلْحَاحُ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَفِيِّينَ وَمَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ عَلَى التَّهْوِينِ مِنْ شَأْنِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَيُطَالِبُونَ بِتَقْلِيصِهَا فِي مَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ، وَدَمْجِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، مَعَ مُطَالَبَتِهِمْ بِتَوْسِيعِ الْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب ظهور الفتن (٦٦٥٣)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧١).
والرواية الثانية للبخاري في النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء (٤٩٣٣).

عَلَى حِسَابِهَا؛ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ التَّقَدُّمِ وَالِازْدِهَارِ.

يَقُولُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أَقْصَتِ التَّعْلِيمَ الدِّينِيَّ، وَقَضَتْ عَلَى مَدَارِسِهِ وَجَامِعَاتِهِ وَمَنَاهِجِهِ مُنْذُ عُقُودٍ تَرْسُفُ فِي الْفَقْرِ وَالتَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَمَا نَفَعَهَا شَيْئًا الْقَضَاءُ عَلَى مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ وَمَنَاهِجِهِ، بَلْ أَضَرَّ بِشُعُوبِهَا ضَرَرًا بَالِغًا؛ فَلَا أَصْلَحُوا لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ.

وَلِذَا فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْغَيُورِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مُحَاوَلَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَالتَّغْرِيبِيِّينَ الْعَبَثِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ عُقُولَ أَوْلَادِنَا، وَمَدَارِسَنَا وَجَامِعَاتِنَا، وَمَنَاهِجَ تَعْلِيمِنَا، وَتُحَاوِلُ طَمْسَ أَنْوَارِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْهَا، وَمَسْخَهَا لِتَكُونَ كَالْعُقُولِ الْغَرْبِيَّةِ فِي تَمَرُّدِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ وَشَرَائِعِهِ.

إِنَّنَا مَا رَأَيْنَا هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُجِيدُونَ شَيْئًا سِوَى الثَّرْثَرَةِ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ وَصُحُفِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعُوا لِلْأُمَّةِ مَجْدًا، وَلَمْ يُعِيدُوا لَهَا حَقًّا، وَلَمْ يَخْتَرِعُوا شَيْئًا، وَلَمْ يُسْهِمُوا فِي رُقِيِّ الْأُمَّةِ وَتَقَدُّمِهَا، بَلْ هُمْ سَبَبٌ رَئِيسٌ فِي تَخَلُّفِهَا وَتَقَهْقُرِهَا بِدَعَوَاتِهِمُ الْمَشْبُوهَةِ لِنَبْذِ الدِّينِ، وَمُطَالَبَاتِهِمُ الْمَكْرُورَةِ بِالتَّبَعِيَّةِ لِلْغَرْبِ، وَالِانْصِهَارِ فِي مَنَاهِجِهِ الْمُحَرَّفَةِ لِتَفْقِدَ الْأُمَّةُ مَا مَيَّزَهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢، ٣٣].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٨٣- العلم والتعليم (٣)
العلماء الربانيون أمان للأمة

١/ ٢/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَضَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَجعلَهَا شَاهِدَةً لِأَنْبِيَائِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِخطَايَانَا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَخْرَجَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطَّلاق: ١١] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، وَاحْذَرُوا مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى؛ فَإِنَّ الْفِتَنَ تُعْمِي عَنِ السُّنَنِ، وَإِنَّ الْهَوَى يَهْوِي بِأَهْلِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتَارَ اللهُ تَعَالَى دِينَ الْإِسْلَامِ مُهَيْمِنًا عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ، وَاخْتَارَ سُبْحَانَهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَاتِمًا لِلرِّسَالَاتِ وَالنُّبُوَّاتِ، وَاخْتَارَ الْقُرْآنَ كِتَابًا لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْهُدَى يَبْقَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَلَا دِينَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا كِتَابَ بَعْدَ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى بِحِفْظِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَكِتَابِهِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالضَّيَاعِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَجَعَلَ ﷻ لِهَذَا الْحِفْظِ أَسْبَابًا قَدَرِيَّةً وَأَسْبَابًا شَرْعِيَّةً:

فَمِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ: تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الِابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الِابْتِدَاعَ وَالتَّشَبُّهَ يُدْخِلَانِ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَإِذَا أُدْخِلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، خَرَجَ مَا هُوَ مِنْهُ، فَحَصَلَ التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ.

وَمِنَ الْأَسْبَابِ الْقَدَرِيَّةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا يَذُودُونَ عَنِ الدِّينِ، وَيَحْفَظُونَهُ مِنْ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْمُحَرِّفِينَ، وَيَصْبِرُونَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَلَى أَذَى الْمُؤْذِينَ، وَظُلْمِ الظَّالِمِينَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَمَنْ نَظَرَ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اسْتَبَانَ لَهُ أَنَّ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَهُمُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ الْحَقَّ خَلَفًا عَنْ سَلَفٍ، وَهُمُ الَّذِينَ يَدْرَءُونَ عَنِ الدِّينِ شُبُهَاتِ الْمُضِلِّينَ، وَهُمُ الَّذِينَ يُقَوِّمُونَ اعْوِجَاجَ الْأُمَّةِ إِذَا اعْوَجَّتْ، وَيَتَصَدَّوْنَ لِلْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، وَيَنْصَحُونَ الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ، فَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَصْدَعُونَ بِالْحَقِّ،

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (٣٤٤٢)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٠٣٧).

لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ تَعَالَى لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَفِي حَالِ المِحَنِ وَالْفِتَنِ وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ يَؤُوبُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ لِاسْتِجْلَاءِ الْأَمْرِ، وَاتِّخَاذِ المَوَاقِفِ المُنَاسِبَةِ.

لَقَدْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّيَاعِ بِالْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَبِهِمْ حَفِظَ دِينَهُ، وَلَقَدْ كَانَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَعْلَمَ الصَّحَابَةِ بِمُلَازَمَتِهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبِعِلْمِهِ وَثَبَاتِهِ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حِينَ صُدِمَ النَّاسُ بِوَفَاتِهِ، ثُمَّ حَفِظَ بِهِ الْأُمَّةَ مَرَّةً أُخْرَى لَمَّا ارْتَدَّ المُرْتَدُّونَ، فَثَبَتَ ثَبَاتًا عَظِيمًا قُضِيَ بِسَبَبِهِ عَلَى المُرْتَدِّينَ، وَسَلِمَتْ بِهِ الْأُمَّةُ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي أَوَّلِ عَهْدِهَا.

وَلَمَّا حَاوَلَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ الْكَذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَضَعُوا أَحَادِيثَ لَمْ يَقُلْهَا؛ انْبَرَى لَهُمْ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ، فَبَيَّنُوا الصَّحِيحَ مِنَ السَّقِيمِ، وَمَيَّزُوا الْأَصِيلَ مِنَ الدَّخِيلِ، وَبِهِمْ حَفِظَ اللهُ تَعَالَى سُنَّةَ المُصْطَفَى ﷺ.

ثُمَّ لَمَّا أُحْدِثَ فِي الْأُمَّةِ بِدْعَةُ الْجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَانْتَحَلَهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، تَصَدَّى لَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، وَثَبَتَ ثَبَاتًا عَجِيبًا مَا ظَفِرَ المُبْتَدِعَةُ مِنْهُ بِشَيْءٍ، حَتَّى قَالَ عَلِيُّ بْنُ المَدِينِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللهَ أَعَزَّ هَذَا الدِّينَ بِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ، وَبِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَوْمَ المِحْنَةِ»[٢]. وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْلَا أَحْمَدُ وَبَذْلُ نَفْسِهِ لِمَا بَذَلَهَا لَهُ لَذَهَبَ الْإِسْلَامُ»[٣].

وَلَمَّا احْتَلَّتِ الْجُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةُ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ نَهَضَ الْعُلَمَاءُ بِوَاجِبِهِمْ، يُرَبُّونَ الْأُمَّةَ، وَيَرُدُّونَهَا إِلَى دِينِهَا، وَيَحُولُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ المَعَاصِي

---

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (٤/ ٤١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧١)، وابن عساكر (٥/ ٢٧٨).

وَالشَّهَوَاتِ، فَيَخْطُبُونَ فِي النَّاسِ، وَيُلْقُونَ الدُّرُوسَ وَالمَوَاعِظَ الَّتِي تَسْتَنْهِضُ الْعَزَائِمَ، وَتَشْحَذُ الْهِمَمَ، وَيَحُثُّونَهُمْ عَلَى جِهَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَيَبُثُّونَ الْحَمِيَّةَ الدِّينِيَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ؛ حَتَّى تَهَيَّأَتِ الْأُمَّةُ فِي عَهْدِ نُورِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَقَدْ أَعْلَى مِنْ شَأْنِ الْعُلَمَاءِ فِي دَوْلَتِهِ وَأَدْنَاهُمْ، وَخَلَّى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَالصَّدْعِ بِهِ.

ثُمَّ خَلَفَهُ عَلَى سِيرَتِهِ الْحَسَنَةِ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَاتَّخَذَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ بِطَانَةً لَهُ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يُفَارِقُهُ فِي حَضَرٍ وَلَا سَفَرٍ، وَلَا حَرْبٍ وَلَا سِلْمٍ، كَالْقَاضِي ابْنِ شَدَّادٍ الَّذِي لَازَمَهُ رُبْعَ قَرْنٍ، فَكَتَبَ سِيرَتَهُ(٤).

وَبِإِدْنَاءِ الْعُلَمَاءِ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ تَهَيَّأَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ الصَّادِقِينَ لِكَسْرِ جُيُوشِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ، وَتَمَّ ذَلِكَ بَعْدَ تِسْعِينَ سَنَةً مِن احْتِلَالِهَا(٥).

وَلَمَّا وَطِئَ التَّتَرُ بِلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَسْقَطُوا دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ، وَعَاثُوا فَسَادًا فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ؛ هَيَّأَ اللهُ تَعَالَى الْقَائِدَ سَيْفَ الدِّينِ قُطُزَ الَّذِي تَرَبَّى فِي مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، فَقَادَ الْأُمَّةَ وَمَا كَانَ يَقْطَعُ بِرَأْيٍ فِي الْإِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ التَّتَرِ وَجِهَادِهِمْ حَتَّى يُرَاجِعَ الْعُلَمَاءَ، وَيَأْخُذَ بِمَشُورَتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِالسَّلَامِ وَالْقَاضِي بَدْرُ الدِّينِ السِّنْجَارِيُّ(٦).

وَلَمَّا جَبُنَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ وَالْقَادَةِ عَنْ مُوَاجَهَةِ التَّتَرِ، وَهَابُوا الْخُرُوجَ إِلَيْهِمْ قَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: اخْرُجُوا وَأَنَا أَضْمَنُ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى النَّصْرَ، وَاتَّفَقَ مَعَ

(٤) وكتابه مطبوع بعنوان: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».
(٥) ينظر خطبة: «سلب الأقصى واسترداده» مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، وخطبة: «معركة حطين» مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).
(٦) ينظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١٥).

السُّلْطَانِ قُطُزَ عَلَى إِخْرَاجِ مَا فِي خَزَائِنِهِ مِنْ أَمْوَالٍ، وَكَذَلِكَ خَزَائِنُ الْأُمَرَاءِ لِتَجْهِيزِ الْجُيُوشِ، فَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ، وَكَسَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمُ التَّتَرَ فِي عَيْنِ جَالُوتَ، فَلَمْ تَقُمْ لَهُمْ قَائِمَةٌ بَعْدَهَا(٧).

وَكَانَ لِعُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ الْفَضْلُ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَأَخُّرِ سُقُوطِهَا قَرْنَيْنِ وَزِيَادَةً، وَذَلِكَ بِالسَّعْيِ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ الْحُكَّامِ الْمُتَنَاحِرِينَ، وَاسْتِنْهَاضِ هِمَمِ النَّاسِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمَّا تَدَهْوَرَتْ أَحْوَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَظُمَ الِاخْتِلَافُ وَالتَّنَاحُرُ بَيْنَ مُلُوكِهِمْ، وَغَلَبَ النَّصَارَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ؛ سَافَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشْفِينَ فِي الْمَغْرِبِ، وَعَبَرُوا الْبَحْرَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَكَانَ فِي رِحْلَتِهِمْ تِلْكَ إِنْقَاذٌ لِكَثِيرٍ مِنْ مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ السُّقُوطِ فِي أَيْدِي النَّصَارَى؛ إِذْ عَبَرَ إِلَيْهِمُ ابْنُ تَاشْفِينَ بِجُيُوشِهِ، وَكَسَرَ النَّصَارَى فِي مَعْرَكَةِ الزَّلَاقَةِ، وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِعُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَفُقَهَائِهَا(٨).

وَأَمَّا جِهَادُ الْعُلَمَاءِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ بِأَقْلَامِهِمْ، وَذَبُّهِمْ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَحِمَايَتِهِمْ لِلْأُمَّةِ مِنَ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَرَ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا، حَتَّى إِنَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ شَغَلَ حَيَاتَهُ كُلَّهَا بِذَلِكَ؛ كَشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَتِلْمِيذِهِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ الَّذِي قَالَ: «وَالْجِهَادُ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ بِهِ تَعَالَى فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ حَيْثُ لَا جِهَادَ بِالْيَدِ؛ إِنْذَارًا وَتَعْذِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وَأَمَرَ تَعَالَى بِجِهَادِ الْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، مَعَ كَوْنِهِمْ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَقَامِ وَالْمَسِيرِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

(٧) ينظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢١٥)، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي (٨/ ٢١٥)، وخطبة: قهر التتار في رمضان مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٠).

(٨) ينظر: خطبة معركة الزلاقة مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٨).

وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، فَالْجِهَادُ بِالْعِلْمِ وَالْحُجَّةِ جِهَادُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَخَاصَّتِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمَخْصُوصِينَ بِالْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالِاتِّفَاقِ» اهـ(٩).

وَلَمَّا عَابَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى ابْنِ الْمُنَيِّرِ قُعُودَهُ عَنِ الْغَزْوِ، قَالَ: «وَلَا أَجِدُ فِي تَأَخُّرِي عَنْ حُضُورِ الْغَزَاةِ عُذْرًا إِلَّا صَرْفَ الْهِمَّةِ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ هَذَا الْمُصَنَّفِ -يَعْنِي: كَشَّافَ الزَّمَخْشَرِيِّ الْمُعْتَزِلِيِّ- وَالرَّدِّ عَلَى أَقْوَالِهِ الَّتِي تُمَثِّلُ رَأْيَ الْمُعْتَزِلَةِ..» اهـ(١٠).

وَقَدْ لَقِيَ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ مِنْ أَهْلِ السُّوءِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ أَنْوَاعًا مِنَ الْأَذَى كَالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ وَالْقَتْلِ، وَمَا رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَنْ بَذْلِ النُّصْحِ، وَالصَّدْعِ بِالْحَقِّ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْمُلَاحَظُ فِي حَوَادِثِ التَّارِيخِ، وَسِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ، أَنَّهُ مَتَى اتَّفَقَتْ سِيَاسَةُ السَّلَاطِينِ مَعَ كَلِمَةِ الْعُلَمَاءِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَكَانَتْ بِطَانَةُ السَّلَاطِينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ النَّاصِحِينَ؛ صَلَحَتْ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ، وَاسْتَقَرَّتِ الْمَمَالِكُ، وَفَاضَتِ الْخَيْرَاتُ، وَبَقِيَتْ هَيْبَةُ السَّلَاطِينِ وَالْعُلَمَاءِ مَحْفُورَةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

وَمَتَى وُجِدَ انْفِصَامٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ الْمُخْلِصِينَ وَبَيْنَ السَّلَاطِينِ؛ فَسَدَتْ أَحْوَالُ الرَّعِيَّةِ، وَاضْطَرَبَتِ الْمَمَالِكُ، وَسَقَطَتْ مَهَابَةُ السَّلَاطِينِ وَالْعُلَمَاءِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ وَاضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ مَا لَا يَخْفَى.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ دُعَاةٌ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَأَصْحَابَ السُّلْطَانِ دُعَاةٌ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَبِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَأَصْحَابِ السُّلْطَانِ وَتَعَاوُنِهِمْ تَتَقَدَّمُ الْأُمَّةُ، وَيَصْلُحُ أَمْرُ الْبِلَادِ

(٩) شرح الكافية الشافية (١/ ٢٦).

(١٠) دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، د. أحمد محمد علوان (٦٠-٦١).

وَالْعِبَادِ؛ فَالْعُلَمَاءُ وَرِثُوا الْعِلْمَ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَأَهْلُ السُّلْطَانِ وَرِثُوا الْقُوَّةَ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، وَالْعَدْلُ أَسَاسُ الْمُلْكِ، وَالتَّقْوَى أَسَاسُ الْعِلْمِ، فَبِالْعَدْلِ وَالتَّقْوَى تُبْنَى الْأُمَمُ وَتَزْدَهِرُ، وَيَسُودُ الْأَمْنُ وَالرِّضَا، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ يَكُونُ الْخَرَابُ وَالدَّمَارُ(١١).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَوْتُ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ خَسَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْأُمَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ قِيمَتَهُمْ، وَتُدْرِكُ أَهَمِّيَّتَهُمْ، وَتَعْلَمُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى فَقْدِهِمْ، وَكَانَ النَّاسُ -وَلَا يَزَالُونَ- يَبْكُونَ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ. وَلَمَّا مَاتَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: «مَاتَ الْيَوْمَ حَبْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَعَلَّ اللهَ يَجْعَلُ فِي ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْهُ خَلَفًا»(١٢).

---

(١١) المصدر السابق (٨٤-٨٥).

(١٢) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٤٣)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٠٨) رقم (٤٧٥٠)، والحاكم (٣/ ٤٨٣).

وَبَقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَالِمًا لِلأُمَّةِ، وَإِمَامًا لَهَا سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، فَلَمَّا مَاتَ صَفَّقَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى، وَقَالَ: «مَاتَ أَعْلَمُ النَّاسِ وَأَحْلَمُ النَّاسِ، وَلَقَدْ أُصِيبَتْ بِهِ هَذِهِ الأُمَّةُ مُصِيبَةٌ لَا تُرْتَقُ»(١٣).

وَإِنَّمَا كَانَ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ مُصِيبَةً عَظِيمَةً؛ لِأَنَّهُ مِنْ نَقْصِ الْأَرْضِ بِنَقْصِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ فِيهَا ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] قَالَ عَطَاءٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي مَعْنَى نَقْصِهَا: «هُوَ ذَهَابُ فُقَهَائِهَا وَخِيَارِ أَهْلِهَا»(١٤).

وَبِتَوَافُرِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ صَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَبِفَقْدِهِمْ فَسَادُهُمَا؛ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ قَبْضًا سَرِيعًا، فَنَعْشُ الْعِلْمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وفي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ»(١٥).

وَقَالَ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ، لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ ما اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»(١٦).

---

(١٣) أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٧٢).

(١٤) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٧٢٩)، وذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٣٣٤). ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما أبو الليث السمرقندي في تفسيره (٢/ ٢٣١)، وابن الجوزي في تفسيره (٤/ ٣٤٠).

(١٥) أخرجه الدارمي (٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٦٩)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٣).

(١٦) أخرجه الدارمي (٣٢٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٦٢).
وأخرجه من حديث الحسن عن ابن مسعود موقوفًا: البيهقي في الشعب (١٧١٩).
وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للبزار من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه محمد بن عبد الملك عن الزهري، قال البزار: يروي أحاديث لا يتابع عليها، وهذا منها (١/ ٢٠١).

وَسُئِلَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا عَلَامَةُ هَلَاكِ النَّاسِ؟ قَالَ: إِذَا ذَهَبَ عُلَمَاؤُهُمْ»(١٧).

وَالْعِلْمُ إِنَّما يَزُولُ مِنَ الْأَرْضِ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، فَيَحِلُّ مَحَلَّهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَجْهِيلُ النَّاسِ وَإِضْلَالُهُمْ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسَ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِالْعُلَمَاءِ؛ كُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَيَتَّخِذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا، فَيُسْتَفْتَوْا، فَيُفْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَيَضِلُّوا وَيُضِلُّوا**»(١٨).

وَلَقَدْ رُزِئَتِ الْأُمَّةُ فِي هَذَا الْعَقْدِ الثَّالِثِ مِنَ المِئَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الْأَلْفِ بِكَوْكَبَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، تَلَاحَقُوا فِي سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ؛ فَفُتِحَ عَلَى النَّاسِ بَابٌ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ عَرِيضٌ، وَكَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَاسْتَنْسَرَ أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَحَقَّقُوا كَثِيرًا مِنْ مَآرِبِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَاسْتَطَاعُوا فِي بِضْعِ سَنَوَاتٍ تَحْقِيقَ مَا عَجَزُوا عَنْهُ فِي خَمْسِينَ سَنَةً، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَجَبَرَ اللهُ تَعَالَى مُصَابَ المُسْلِمِينَ فِي

---

(١٧) أخرجه الدارمي (٢٤١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٦)، والبيهقي في الشعب (١٦٦٢).

(١٨) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٣).

والرواية الثانية لأحمد (٢/ ٢٠٣)، وعبد الرزاق (٢٠٤٧١).

عُلَمَائِهِمْ، وَجَعَلَ فِي الْخَلَفِ مِنْهُمْ عِوَضًا عَنِ السَّلَفِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
(١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٨٤- ستر الله تعالى

٢٢/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَقُودُ إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَرَجَاءِ رَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَالْخَوْفِ مِنْ عَذَابِهِ.

وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى تَكُونُ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، بِحَسَبِ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاللهُ تَعَالَى يُحِبُّ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يُوَافِقُهَا؛ فَهُوَ الْقَوِيُّ وَيُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ، وَهُوَ الرَّحِيمُ وَيُحِبُّ الرُّحَمَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْعَفُوُّ الْكَرِيمُ وَيُحِبُّ أَهْلَ الْعَفْوِ مِنْ خَلْقِهِ(١).

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٦٧٦).

وَلَمَّا كَانَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ كَانَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي يُحِبُّهَا، وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيْهِ مَنِ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي يَكْرَهُهَا، وَأَمَّا صِفَاتُ الْكِبْرِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْعَظَمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الصِّفَاتِ فَهِيَ مِنْ صِفَاتِهِ ﷻ، وَيُبْغِضُ مَنِ اتَّصَفَ بِهَا مِنْ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهَا تُنَافِي صِفَةَ الْعَبِيدِ، وَتُخْرِجُهُ مِنْ رِبْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ ﷻ، بِخِلَافِ الصِّفَاتِ الْأُخْرَى[٢].

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى: السِّتِّيرُ، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَى: السَّتْرُ، فَهُوَ يَسْتُرُ عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَهْلَ السَّتْرِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ -أَي: الْفَضَاءُ الْوَاسِعُ- فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ[٣].

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «**سِتِّيرٌ**» يَعْنِي أَنَّهُ سَاتِرٌ يَسْتُرُ عَلَى عِبَادِهِ

---

(٢) ينظر: طريق الهجرتين لابن القيم (٢١٤). قال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- بعد أن قرر التخلق بموجب الأسماء التي يحسن من المخلوق أن يتصف بمقتضاها: «بخلاف الصفات المختصة بالله كالخلاق والرزاق والإله ونحو ذلك؛ فإن هذا شيء لا يمكن أن يتصف به المخلوق، ولا يجوز أن يدعيه، وهكذا ما أشبه هذه الأسماء، وإنما المقصود الصفات التي يحب الله من عباده أن يتصفوا بمقتضاها كالعلم والرحمة والحلم» مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (١/ ١٣٨)، وينظر: أسماء الله الحسنى، للدكتور عبد الله الغصن (٢٥٧).

(٣) أخرجه وكيع في الزهد (١/ ٤٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود في الحمام، باب النهي عن التعري (٤٠١٢-٤٠١٣)، والنسائي في الغسل، باب الاستتار عند الاغتسال (١/ ٢٠٠)، وهناد في الزهد (١٣٥٩)، والبيهقي في السنن (١/ ١٩٨)، وفي الأسماء والصفات (١٥٧) وصححه النووي في خلاصة الأحكام (٥١٤) والألباني في صحيح الجامع (١٧٥٦).
وجاء عند عبد الرزاق مرسلًا من رواية عطاء -رحمه الله تعالى- (١١١١).

كَثِيرًا، وَلَا يَفْضَحُهُمْ فِي المَشَاهِدِ، كَذَلِكَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ السَّتْرَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَاجْتِنَابَ مَا يَشِينُهُمْ(٤).

وَقَالَ المُنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «تَارِكٌ لِحُبِّ الْقَبَائِحِ، سَاتِرٌ لِلْعُيُوبِ وَالْفَضَائِحِ»(٥).

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَتَفَضُّلِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ سَتَرَ عَوْرَاتِهِمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ لِبَاسًا يُوارِي سَوْءَاتِهِمْ، وَأَجْمَلُ مَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ حِينَ يَتَزَيَّا بِلِبَاسِهِ، وَيَسْتُرُ عَوْرَاتِهِ، وَأَقْبَحُ مَنْظَرٍ قَطُّ مَنْظَرُ إِنْسَانٍ عَارٍ مِنْ لِبَاسِهِ(٦)؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ شُرِعَ

(٤) الأسماء والصفات (١/ ٢٢٤).

(٥) فيض القدير (٢/ ٢٢٨).

(٦) وقد ذكر الله تعالى هذه النعمة في معرض الآيات التي تُعَدِّد أفضاله ونعمه على بني آدم، فقال ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، يقول: يَسْتر عوراتكم عن أعينكم، وكَنّى بـ«السوءات»، عن العورات. واحدتها: (سوءة)، وهي (فعلة) من (السوء)، وإنما سميت (سوءة)، لأنه يسوء صاحبها انكشافُها من جسده» (٨/ ١٤٦).

وقال القرطبي -رحمه الله تعالى-: «قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة لأنه قال: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ ومن جملة الإنعام ستر العورة، فبين أنه ﷻ جعل لذريته ما يسترون به عوراتهم، ودل على الأمر بالستر، ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين الناس» (٧/ ١٨٢).

وقوله ﷻ عقب ذكر هذه المنَّةِ العظيمة بإنزال اللباس لستر العورات: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ دليل على وجوب شكر الله تعالى على هذه النعمة التي لولاها لقبح بَنُو آدم، وفسدت أخلاقهم، وتعطلت مصالحهم.

قال الزمخشري في تفسيره: «ذلك من آيات الله الدالة على فَضْلِهِ ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها؛ إظهارًا للمنة فيما خلق من =

. . . .

= اللباس؛ ولما في العُرْى وكشف العورة مِنَ المهانة والفضيحة؛ وإشعارًا بأنّ التستر باب عظيم من أبواب التقوى» (٢/ ٩٤).

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالى-: «فابتدأ فأعلمهم بمنته عليهم أن أنزل لهم لباسًا يواري سوءاتهم، ويتجملون به بمناسبة ما قص الله عليهم مِنْ تَعَرّي أبويهم حين بدت لهما سوءاتهما، ثم بتحذيرهم من كيد الشيطان وفتنته بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٧] ثم بأن أمرهم بأخذ اللباس وهو زينة الإنسان عند مواقع العبادة لله تعالى بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣١]» (٨/ ٧٢).

وقال أيضًا: «ولما كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنة منة عليه، وقد تقلدها بنوه، خوطب الناس بشمول هذه المنة لهم بعنوان يدل على أنها منة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمي تيسير اللباس لهم وإلهامهم إياه إنزالًا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، بأنه منزل على الناس من عند الله، أو لأن الذي كان منه على آدم نزل به من الجنة إلى الأرض التي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيد اختصاص، على أن مجرد الإلهام إلى استعماله بتسخير إلهي، مع ما فيه من عظيم الجدوى على الناس والنفع لهم، يحسن استعارة فعل الإنزال إليه؛ تشريفًا لشأنه... وقد كان ذلك اللباس الذي نزل به آدم هو أصل اللباس الذي يستعمله البشر. وهذا تنبيه إلى أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام، وأنه مما كرم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض، وفي هذا تعريض بالمشركين؛ إذ جعلوا من قرباتهم نزع لباسهم بأن يحجوا عراة» (٨/ ٧٣-٧٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «اللباس له منفعتان: إحداهما: الزينة بستر السوءة. والثانية: الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو. فذكر اللباس في سورة الأعراف لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف كما دل عليه قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وَقَالَ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ ... ردًّا على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس... وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾، ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر الشرعي، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين، وهذه من باب دفع المضرة؛ فالناس إلى هذه =

. . . .

= أحوج» مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١٧-٢١٨).
ومن أبين الأدلة على أن ستر العورة من الفطرة الإنسانية التي فطر عليها البشر، وفارقوا بها سائر الحيوان أنَّ الطِّفْل الصغير غير المميز يستحيي من إبداء سَوْءَتِهِ، ويحاول موارَاتِها عن الأعين؛ ولأن البشرية قد تَنَاقَلَتْ سَتْرَ العورة جيلًا بعد جيل مِنْ لَدُن آدم عليه السلام، ولم يوجد خَرْق لتوارث اللباس وسَتْر العورة إلا عند بعض القَبَائِل الهَمَجِيَّة التي اتخذت إبداء العورة عادة أو دينًا وثنيًّا، وفق طقوس معينة يَعْتَقِدُونَها بسبب غلبة الجهل عليهم.
الحضارة المعاصرة والتعري:
كانت البشرية بما في ذلك الأمم الغربية تُرَاعِي مسألة الحشمة، وتأنف من التعري وكشف السوءة، إلى أن جاءت ثورة الحرية الفرنسية، وانتشرت شعاراتها في كافة الأرجاء الأوربية، وازدهرت التجارة والصناعة باختراع الآلات الحديثة، وفتح للبشرية فتوحات عظيمة في مجالات العلوم التجريبية وخاصة في أوربا.
ومع دوران الآلة، وتعدد سبل الصناعة ارتفعت نسبة الإنتاج، فكان لا بد من نقل عقليات البشر من العقلية المكتفية بالضرورات والقانعة بأيسر العيش إلى عقليات استهلاكية؛ لكي تستهلك منتجات المصانع والمزارع من المأكولات والمشروبات والملابس وغيرها، فأُقحمت المرأة في هذا الميدان للترويج للسلع، والدعاية لها، فظهرت أول ما ظهرت محتشمة، ولا تروج إلا لسلع النساء، ثم أخذت في التعرّي، وتنافست الشركات الكبرى على استقطاب أجمل النساء للدعاية لمنتجاتها، مع شيء من الإثارة والحركات الماجنة، وتَعْرِيَة أكبر قدر ممكن من الجسد، وصارت المرأة الدّعَائِيَّة مبتذلة لدرجة أنها تعمل دعاية لزيوت السيارات وإطاراتها، وغير ذلك مما لا دخل فيه للمرأة لا من قريب ولا من بعيد، إلا محاكاة الناس من غرائزهم، وجرهم إلى المنتج عن طريق شهواتهم لا عن طريق عقولهم باقتناعهم بجدوى هذه السلعة ومنفعتها.
والمطلع على التراث الأوربي في بداية القرن الميلادي الماضي، سواء في القصص أو المسرحيات المكتوبة، أو حتى الأفلام والمسلسلات التلفزيونية، يلاحظ أن المرأة الغربية كانت لا تعرف التعري، بل تلبس اللباس الفضفاض الواسع، وقد رأيت كثيرًا من الصور في المتاحف الغربية والأمريكية لمظاهرات وتجمعات صُوِّرَتْ قبل خمسين سنة وستين سنة، وأكثر من ذلك، يلاحظ فيها أن المرأة الغربية كانت تَسْتُر حتى شَعْرها، وكانت تبتعد عن الرجال قَدْرَ الإمكان، فتكون النساء كتلة مجتمعة في جانب المظاهرة أو التجمع؛ تحاشيًا للاختلاط بالرجال. =

. . . .

= فالتعري كان حادثًا حتى في الأمم الغربية التي وصل فيها الشذوذ إلى حَدٍّ مُخِيفٍ يفتك بالناس، وسأذكر شيئًا قليلًا من ذلك للتذكير فقط، وإلا فإن المشاهد التلفزيونية التي تعرضها القنوات الأوربية، وكذلك مَظَاهِر التَّعَرّي في الشوارع والأسواق وغيرها أشهر من أن يُسْتَدَلّ عليها.

وأذكر هنا بعض النماذج التي فيها شيء من الغرابة عن ذلك:

١- أن إحدى الجامعات الأوربية وهي جامعة (بوردو) نظمت مسابقة للتعري، والمتعارف عليه أن الجامعات هي محاضن التعليم والفضيلة لا التعري والرذيلة، وما يصل السوء إلى أماكن الفضيلة إلا بعد أن تفتك الرذيلة بالمجتمع، وتنتشر انتشار الوباء المهلك بسبب إطلاق الحريات الجنسية، واللهاث خلف الشهوات الحيوانية، يقول الإعلان عن هذه المسابقة السيئة:

سوف تعقد جامعة (بوردو) أول مسابقة لها في الإغراء السريع، يبدأ السير من قاعة الاتحاد من مركز الخدمات، وذلك في الساعة التاسعة مساء، الرَّجاء مِنْ كل من يرغب في الاشتراك أن يأتي مرتديًا بطانية فقط، ونحن نرحب بالمشاركين والمتطوعين.

المشتركون في هذه المسابقة سوف يتسابقون في الآتي:

١- مدى كشفهم لأجسامهم.

٢- المقدرة على الوقوف عراة وبدون حرج أمام العامة.

٣- مدى الاستجابة لمطالب العامة.

درجات المكافأة وشهادات التقدير:

١- شهادة استحقاق لكل مَنْ يُكْمل المدة المقررة عاريًا.

٢- سوف يمنح لقب سمير خاص لأول فتاة من جامعة بوردو.

٣- سوف تمنح مكافأة للمجموعة التي تؤدي عرضًا سريعًا.

٤- أعلى درجة شرف سوف تمنح لكل من يظهر على شاشة التلفزيون عاريًا. معتمدة من جمعية بوردو للتعري. «أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الإباحية» مصطفى غزال (١٤٣-١٤٥).

وهناك منظمات تتخذ من التعري وممارسة الجنس الجماعي أصلًا من أصول جماعتهم، كمنظمة (الهيبيز) المنتشرة في أوربة، نعوذ بالله مِنَ التَّرَدِّي والانتكاس. =

لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا رَزَقَهُ مِنَ اللِّبَاسِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٧).

= ٢- في أيام الحرب الأمريكية على العراق لخلع صدام حسين من الحكم قامت عجوز أمريكية تبلغ من العمر ٧٢ عامًا بالدعوة إلى مظاهرة ضد الحرب تتسم بالعري، فأَقْنَعَتْ نساء وفتيات بذلك، وقادَتْ هذه العجوز المظاهرة وَمَعَهَا حَشْد من النساء وهن عاريات من أي لباس. وعندما سئل زوجها: ألا تَغَارُ عليها عندما تخرج عارية في الشارع؟ قال: الحقيقة أني أغار كأي زوج، ولكن لِتَعَرِّيها أهداف سامية!! وهذا يُقَلِّصُ مِنَ الإحراج، وهي حُرَّة، وهذا أسلوبها في التعبير؛ وأنا أشجعها؛ لأنه ليس بوسع أي إنسان أن يتعرَّى، وذكر في ختام تعليقه على ذلك: أنه يتوقع بأن موجة من التعري الاحتجاجي ستجتاح العالم، وستشمل الرجال!! مجلة الجندي المسلم، عدد (١١١)، ص (١٠٨).

ومع الأسف فإن ما وَقَعَ في الغرب مِنَ التَّعَرِّي انتقل إلى البلاد الإسلامية؛ فبَعْض الدول الإسلامية أنشأت نَوَادِيَ لِلْعُرَاةِ، وأكثر الدول الإسلامية انتشرت فيها موجة كشف أكثر الجسد في الشوارع والأسواق وغيرها، بِفِعْلِ الضخّ الإعلامي الضَّخْم الذي يدعو إلى التعرّي في مسلسلاته وأفلامه وأغَانِيه المصوّرة، وغير ذلك بالفعل والممارسة، والصورة قبل القول والتنظير الفكري، تحت دعاوى الحرية وتحرير المرأة، وما أشبه ذلك من الشعارات الاستهلاكية.

وكثير من المسلمين الذين بقي فيهم شيء من دين وحياء يأنفون من الخروج إلى شواطئ البحار والأنهار، ولا سيما في الصيف؛ لِمَا ينتشر فيها مِنْ تَعَرّي النساء اللائي يلبسن للبحر وأمام الناس ما لا يُلْبَس إلا في غرف النوم للأزواج. فنعوذ بالله من هذا الحال، ونسأله أن يستر علينا وعلى نسائنا ونساء المسلمين.

(٧) أخرجه من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣)، والدارمي واللفظ له (٢٦٩٠)، وأبو يعلى (١٤٨٨-٣٤٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨١) برقم (٣٨٩) وفي مسند الشاميين (٢٤٢)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي بأن في سنده أبا مرحوم وهو ضعيف (٤/ ٢١٣)، وأبو مرحوم هو عبد الرحيم بن ميمون المدني صدوق زاهد من السادسة كما في التقريب (٤٠٨٧)، وقال الذهبي في الكاشف: فيه لين (٣٣٥٩)، وذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ١٣٤)، وذكر عوامة في حاشيته على الكاشف (١/ ٦٥١) أن الترمذي أخرج حديث الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب، وفي سنده أبو مرحوم، =

وَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ سَتْرًا، وَأَشَدَّ تَحَرُّزًا مِنْ كَشْفِ شَيْءٍ مِنْ عَوْرَاتِهِ كَانَ ذَلِكَ أَكْثَرَ لِحَيَائِهِ، وَأَدْعَى لِلِاسْتِحْيَاءِ مِنْهُ، وَعُثْمَانُ ﷺ كَانَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ فَاسْتَحْيَا مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَاسْتَحْيَتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ.

وَمَنْ كَانَ صَفِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ الْحَيَاءِ، ضَعِيفَ الدِّيَانَةِ، مُعْدَمَ الْأَخْلَاقِ وَالْمُرُوءَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَحَرَّزُ فِي لِبَاسِهِ، وَيَتَسَاهَلُ فِي عَوْرَتِهِ، وَلَا يُمَانِعُ مِنْ إِبْدَاءِ سَوْءَتِهِ، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ الْمُتَخَلِّعَاتِ اللَّائِي يَنْزِعْنَ مِنْ لِبَاسِهِنَّ بِقَدْرِ مَا نُزِعَ

= وقال في آخره: وهذا حديث حسن، ينظر: سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية الاحتباء والإمام يخطب (٥١٤)، ثم قال عوامة: «واقتصار الترمذي على تحسين الحديث (حديث حسن) فقط دون كلمة غريب معها يشعر بتليين أحد رواته، وهو هذا هنا، راجع تعريفه للحديث الحسن آخر سننه، ولو أضاف إليها كلمة غريب لكان يريد الحسن لذاته» اهـ، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٠٨٦).

وجاء في ذلك أيضًا: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا استجدّ ثوبًا سمَّاه باسمه: إما قميصًا أو عِمامةً، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيرِهِ، وَخَيرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وشرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**». قال أبو نضرة: وكان أصحابُ النبي ﷺ إذا لبس أحدُهم ثوبًا جديدًا قيل له: «تُبْلي ويُخْلِفُ الله ﷻ» أخرجه أحمد (٣/ ٢٠-٥٠)، وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح (١٧٦٧)، وعبد بن حميد (٨٨٢)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٦٠)، والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (٤/ ٢١٣).

قال شراح الحديث: «خير الثوب بقاؤه ونقاؤه، وكونه ملبوسًا للضرورة والحاجة، وخير ما صنع له هو الضرورات التي من أجلها يصنع اللباس من الحر والبرد وستر العورة، والمراد: سؤال الخير في هذه الأمور، وأن يكون مبلغًا إلى المطلوب الذي صنع لأجله الثوب من العون على العبادة والطاعة لموليه. وفي الشر عكس هذه المذكورات، وهو كونه حرامًا ونجسًا ولا يبقى زمانًا طويلًا، أو يكون سببًا للمعاصي والشرور والافتخار والعجب والغرور، وعدم القناعة بثوب الدون وأمثال ذلك، والحديث يدل على استحباب حمد الله تعالى عند لبس الثوب الجديد» ينظر: مرقاة المفاتيح (٨/ ٢١٨)، وعون المعبود (١١/ ٤٤)، وتحفة الأحوذي (٥/ ٣٨٦).

مِنْ حَيَائِهِنَّ، وَيُبْدِينَ مِنْ عَوْرَاتِهِنَّ عِنْدَ مَحَارِمِهِنَّ وَعِنْدَ الْغُرَبَاءِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مَا لَا يَحِلُّ كَشْفُهُ إِلَّا لِلزَّوْجِ!

وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ ذَهَابِ الدِّينِ وَالْغَيْرَةِ، وَقِلَّةِ الْمُرُوءَةِ وَالْحَيَاءِ، وَالتَّهَتُّكِ فِي الْأَخْلَاقِ وَاللِّبَاسِ: النَّظَرَ إِلَى الْمُتَخَلِّعِينَ وَالْمُتَخَلِّعَاتِ، اللَّائِي نَبَذْنَ لِبَاسَهُنَّ كَمَا نَبَذْنَ أَخْلَاقَهُنَّ، يَخْتَلِطْنَ بِالرِّجَالِ فِي لِبَاسٍ فَاضِحٍ، وَحَرَكَاتٍ مَاجِنَةٍ، وَرَقَصَاتٍ خَالِعَةٍ، وَيَكْثُرُ ذَلِكَ فِي الْبَرَامِجِ الْفَضَائِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ صَنْعَةُ أَكْثَرِهَا مَحْصُورَةً فِي تَهْيِيجِ الْغَرَائِزِ، وَفَتْحِ أَبْوَابِ الرَّذِيلَةِ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

فَمَنْ رَضِيَ لِنِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ وَأَخَوَاتِهِ، بَلْ حَتَّى لِإِخْوَانِهِ وَأَبْنَائِهِ أَنْ يُشَاهِدُوا هَذِهِ الْمَنَاظِرَ الْقَاتِلَةَ لِلْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ، الْمُعْدِمَةِ لِلْحَيَاءِ وَالسَّتْرِ وَالْعَفَافِ؛ فَلَا يَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلَ سَتْرٍ وَحَيَاءٍ وَعَفَافٍ، وَقَدْ نَزَعَتِ الْفَضَائِيَّاتُ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّتْرَ وَالْحَيَاءَ وَالْعَفَافَ لَنَا وَلِنِسَائِنَا وَأَوْلَادِنَا وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

إِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى سِتِّيرٌ يَسْتُرُ عِبَادَهُ، وَلَمَّا كَانَ مُحِبًّا لِمُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَهْلَ السَّتْرِ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ مَعَايِبَهُمْ، وَلَا يُجَاهِرُونَ بِمَعَاصِيهِمْ.

وَمَا مِنْ عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ إِلَّا وَلَهُ أَخْطَاءٌ وَمَعَايِبُ، وَهَنَّاتٌ وَفَضَائِحُ، فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، أَوْ فِي حَقِّ الْعِبَادِ، فَإِنْ سَتَرَهَا سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يُوَفَّقَ لِلتَّوْبَةِ مِنْهَا، وَالْإِقْلَاعِ عَنْهَا، وَإِنْ أَظْهَرَهَا، وَجَاهَرَ بِذُنُوبِهِ، وَفَاخَرَ بِعِصْيَانِهِ، فَهُوَ مِمَّنْ يُشِيعُ الْفَاحِشَةَ، وَيَنْشُرُ الرَّذِيلَةَ، وَيُبَارِزُ اللهَ تَعَالَى بِمَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ مُتَوَعَّدٌ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

وَمِنَ الْعَذَابِ الْمُعَجَّلِ لَهُ فِي الدُّنْيَا: بَقَاؤُهُ عَلَى ذَنْبِهِ، وَإِصْرَارُهُ عَلَى عِصْيَانِهِ؛ حَتَّى يَسْتَحِقَّ الْعُقُوبَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»**(٨).

---

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠١٩)، ومسلم في الرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).
قال القرطبي -رحمه الله تعالى-: «وَهَذِه الروايات -وإن اختلفت ألفاظها- هي راجعة إلى معنىً واحد قد فَسَّرَه في الحديث، وهو أن يعمل الرجل معصية في خفية وخلوة، ثم يخرج يتحدث بها مع الناس ويجهر بها ويعلنها، وهذا من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش؛ وذلك أن هذا لا يصدر إلا مِنْ جَاهِل بقدر المعصية، أو مُسْتَهِين مُسْتَهْزِئ بها، مُصِرٍّ عليها، غير تائب منها، مظهرٍ للمنكر. والواحد من هذه الأمور كبيرة، فكيف إذا اجتمعت؟! فلذلك كان فاعل هذه الأشياء أشَدّ الناس بلاء في الدنيا وعقوبة في الآخرة؛ لأنه تجتمع عليه عقوبة تلك الأمور كلها، وسائر الناس ممن ليس على مثل حاله، وإن كان مرتكب كبيرة فأمره أخفّ وعقوبته إن عوقب أهون، ورجوعه عنها أقرب من الأول؛ لأن ذلك المجاهر قَلَّ أن يتوب أو يرجع عما اعْتَاده من المعصية وسهل عليه منها، فيكون كل العصاة بالنسبة إليه إما معافى مطلقًا إن تاب، وإما معافى بالنسبة إليه إن عوقب، والله تعالى أعلم» المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٦١٨).
ونقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: «في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين، وفيه ضرب من العناد لهم، وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصي تذل أهلها، ومن إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حدًّا، وإذا تمحض حق الله فهو أكرم الأكرمين، ورحمته سبقت غضبه؛ فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يَفْضَحْهُ في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك» فتح الباري (١٠/ ٤٨٧).
وقال الحافظ ابن حجر بعد أن شرح حديث أبي هريرة في تحريم المجاهرة، وحديث ابن عمر في النجوى، وبعد أن ذكر حديث أبي سعيد في القصاص: «فدل مجموع هذه الأحاديث على أن العصاة من المؤمنين في القيامة على قسمين: =

. . . .

= أحدهما: من معصيته بينه وبين ربه، فدل حديث ابن عمر على أن هذا القسم على قسمين: قسم تكون معصيته مستورة في الدنيا، فهذا الذي يسترها الله عليه في القيامة، وهو بالمنطوق.

وقسم تكون معصيته مجاهرة، فدل مفهومه على أنه بخلاف ذلك.

والقسم الثاني: من تكون معصيته بينه وبين العباد؛ فهم على قسمين أيضًا:

قسم ترجح سيئاتهم على حسناتهم؛ فهؤلاء يقعون في النار ثم يخرجون بالشفاعة.

وقسم تتساوى سيئاتهم وحسناتهم؛ فهؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يقع بينهم التقاص، كما دل عليه حديث أبي سعيد» فتح الباري (١٠/ ٤٨٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «نهى الله عن إشاعة الفاحشة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وكذلك أمر بستر الفواحش كما قال النبي ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيهِ الكتاب**»، وقال: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**»، والمجاهرة: أن يبيت الرجل على الذنب قد سَتَرَهُ الله، فيصبح يتحدث به، فما دام الذنب مستورًا فمصيبته على صاحبه خاصة، فإذا أظهر ولم ينكر كان ضرره عامًّا؛ فكيف إذًا كان في ظهوره تحريك غيره إليه؛ ولهذا أنكر الإمام أحمد وغيره أشكال الشِّعْر الغزلي الرقيق؛ لئلا تتحرك النفوس إلى الفواحش؛ فلهذا أمر مَنِ ابْتُلِيَ بالعشق أن يعفّ ويكتم، فيكون حينئذ ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]» مَجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٥).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «وبالجملة فمراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها، فالمتخذ خدْنًا من النساء والمتخذة خدنًا من الرجال أقل شرًّا من المُسَافِح والمسافحة مَعَ كل أحد، والمستخفي بما يرتكبه أقل إثمًا من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثمًا من المُخْبِر المحدِّث للناس به، فهذا بعيد عن عافية الله تعالى وعفوه، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَسْتُرَ اللهُ تعالى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ، يَقُولُ: يَا فُلان، فَعَلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، فَيَبِيتُ رَبُّهُ يَسْتُرُهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْ نَفْسِهِ**» أو كما قال. وفى الحديث الآخر عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**مَنِ أُبْتُلِى مِنْ هذِهِ الْقَاذُورَاتِ بِشَيء فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ**»، وفي الحديث الآخر: =

وَلمَّا كَانَ اللهُ تَعَالَى سِتِّيرًا يُحِبُّ السَّتْرَ؛ فَإِنَّهُ نَدَبَ المُسْلِمَ إِذَا وَقَعَ فِيمَا يُوجِبُ حَدًّا أَوْ تَعْزِيرًا أَنْ يَسْتُرَ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَتُوبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَرْفَعَ أَمْرَهُ لِلسُّلْطَانِ لِيُقِيمَ الْحَدَّ عَلَيْهِ، وَبِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**مَنْ أَتَى مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ حَدَّ اللَّهِ عَلَيْهِ**»(٩).

= «**إنَّ الخَطِيئَةَ إذا خفِيتَ لَمْ تَضُرَّ إلا صَاحِبَهَا، وَلكِنْ إذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَر ضَرَّتِ الْعَامَّةَ**».
وكذلك الزنا بالمرأة التي لا زوج لها أيسر إثمًا من الزنا بذات الزوج؛ لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه، وإفساد فراشه عليه، وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنا، أو دونه. والزنا بحليلة الجار أعظم إثمًا من الزنا ببعيدة الدار؛ لما اقترن بذلك من أذى الجار، وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به. وكذلك الزنا بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنا بغيرها. ولهذا يقام له يوم القيامة ويقال له: «**خُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ**». وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والأحوال، وبحسب الفاعل؛ فالزنا في رمضان ليلًا أو نهارًا أعظم إثمًا منه في غيره. وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثمًا منه فيما سواها. وأما تفاوته بحسب الفاعل: فالزنا من الحر أقبح منه من العبد، ولهذا كان حَدُّه على النصف من حده، ومن المحصن أقْبَح منه من البكر، ومن الشيخ أقْبَح منه من الشاب؛ ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: الشيخ الزاني. ومِنَ العالم أقبح منه من الجاهل؛ لعلمه بقبحه، وما يترتب عليه، وإقدامه على بصيرة. ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز» إغاثة اللهفان (٢/ ١٤٧-١٤٨).

(٩) أخرجه مالك في الموطأ مرسلًا من حديث زيد بن أسلم (١٥٠٨).
وأخرجه مسندًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩١)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، والحاكم، وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٤/ ٢٤٤)، وذكر الحافظ في التلخيص الحبير: أن ابن السكن صححه (٤/ ٧٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (١٧٥)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، وقال بعد أن ذكر تصحيح الحاكم والذهبي: «وهو كما قالا»، وذكر له شاهدًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الديلمي في مسند الفردوس، ينظر: السلسلة الصحيحة (٦٦٣).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «فَإِنَّهُ أَرَادَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- بَعْدَ أَمْرِهِ بِالِاسْتِتَارِ بِالذَّنْبِ أَنَّهُ مَنْ أَقَرَّ عِنْدَهُ فَلَا شَفَاعَةَ حِينَئِذٍ لَهُ وَلَا عَفْوَ عَنْهُ، وَمِنْ هَذَا وَشِبْهِهِ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا بَلَغَتِ السُّلْطَانَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُتَشَفَّعَ فِيهَا، وَلَا أَنْ تُتْرَكَ إِقَامَتُهَا، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ: «**فَهَلَّا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ**»، وَقَوْلِ الزُّبَيْرِ: إِذَا بَلَغْتَ بِهِ السُّلْطَانَ، فَلَعَنَ اللهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفِّعَ»(١٠).

وَلَمَّا جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ زَنَى أَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِرَارًا، وَعَرَّضَ لَهُ بِأَنْ يَسْتُرَ نَفْسَهُ، وَيَتُوبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا أَقَرَّ عِنْدَهُ، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجْمِهِ(١١).

وَمِنْ فِقْهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ مَاعِزًا جَاءَهُمَا وَأَخْبَرَهُمَا قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَشَارَا عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَجَنُّبِ الْفَضِيحَةِ، وَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «اسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ، وَتُبْ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ،

---

(١٠) التمهيد (٥/ ٣٤١-٣٤٢).

(١١) جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ماعزًا شهد على نفسه أربع مرات، وقال له النبي ﷺ: «**أبك جنون؟**» أخرجه البخاري في الحدود، باب الرجم في المصلى (٦٨٢٠)، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩١).
وفي رواية للبخاري في الحدود، باب سؤال الإمام المقر: «**هل أحصنت؟**» (٦٨٢٥) أن النبي ﷺ لما اعترف عنده ماعز أعرض عنه، فتنحى ماعز لشق وجهه الذي أعرض قبله .. وتكرر ذلك أربع مرات.
وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال لماعز: «**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ**» أخرجه البخاري في الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت أو نظرت (٦٨٢٤).
وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٣٨) تعليقًا على تبويب البخاري لهذا الحديث: «هذه الترجمة معقودة لجواز تلقين الإمام المقر بالحد ما يدفعه عنه، وقد خصه بعضهم بمن يظن به أنه أخطأ أو جهل».

وَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ»(١٢).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ ﷺ لمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ بِالْكُوفَةِ حَتَّى امْتَلَأَتْ دَارُهُ قَالَ: «مَنْ جَاءَ يَسْتَفْتِينَا فَلْيَجْلِسْ نُفْتِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمَنْ جَاءَ يُرِيدُ أَنْ يُطْلِعَنَا عَلَى عَوْرَةٍ قَدْ سَتَرَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ، وَلْيَقْبَلْ عَافِيَةَ اللَّهِ، وَلْيُسْرِرْ تَوْبَتَهُ إِلَى الَّذِي يَمْلِكُ مَغْفِرَتَهَا، فَإِنَّا لَا نَمْلِكُ مَغْفِرَتَهَا، وَلَكِنَّا نُقِيمُ عَلَيْهِ حَدَّهَا، وَنُمْسِكُ عَلَيْهِ بِعَارِهَا»(١٣).

وَجَاءَ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذَا أَذْنَبَتْ إِحْدَاكُنَّ ذَنْبًا فَلَا تُخْبِرَنَّ بِهِ النَّاسَ، وَلْتَسْتَغْفِرَنَّ اللهَ تَعَالَى، وَلْتَتُبْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ، وَإِنَّ اللهَ يُغَيِّرُ وَلَا يُعَيِّرُ»(١٤).

وَلَمَّا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ سِتِّيرًا يُحِبُّ السَّتْرَ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُحِبُّ الْعَفْوَ عَنْهُمْ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَهَى الْمُسْلِمَ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ عَلَى النَّاسِ لِكَشْفِ خَبَايَاهُمْ، وَالِاطِّلَاعِ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، فَمَنِ اسْتَتَرَ بِسَتْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ كَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، فَلَا يَجُوزُ هَتْكُ سِتْرِهِ، وَفَضْحُ أَمْرِهِ؛ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي مَعْصِيَتِهِ إِضْرَارٌ بِالْمُسْلِمِينَ، وَإِلَّا فَالْأَصْلُ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ سِرًّا يَتُوبُ سِرًّا، وَمَنْ أَذْنَبَ عَلَانِيَةً يَتُوبُ عَلَانِيَةً(١٥).

---

(١٢) مشورة أبي بكر وعمر ﷺ على ماعز أن يتوب أخرجها عبد الرزاق مرسلة عن سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- (١٣٣٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٥٣٩) برقم: (٢٨٧٧٨)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ١١٩-١٢٠)، واللفظ له من قول أبي بكر ﷺ، وفيه: أن أبا بكر ﷺ قال له: هل ذكرت ذلك لأحد قبلي؟ قال ماعز: لا، ثم أشار عليه بأن يستتر بستر الله تعالى . . . إلخ.

(١٣) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤١).

(١٤) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٦٦٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٥١٦).

(١٥) قال ميمون بن مهران: «مَنْ أَسَاءَ سِرًّا فليتب سِرًّا، ومن أساء علانية فليتب علانية؛ فإن الله يغفر ولا يعير، والناس يعيرون ولا يغفرون» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٢)، وهو في تهذيب الكمال (٢٩/ ٢٢٢).
=

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ**

= قال شيخ الإسلام: «المعصية إذا كانت ظاهرة كانت عقوبتها ظاهرة؛ كما جاء في الأثر: «مَنْ أذنب سرًّا فليتب سرًّا، وَمَنْ أَذْنَبَ علانية فليَتُبْ عَلَانية»، وليس من الستر الذي يحبه الله تعالى -كما في الحديث-: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ**»، بل ذلك إذا ستر كان ذلك إقرارًا لمنكر ظاهر، وفي الحديث: «**إِنَّ الخَطِيئَةَ إِذَا خَفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُنْكَرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ**»، فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن، ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة، كما رُوِي ذلك عن الحسن البصري وغيره؛ لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له، وأدنى ذلك أن يُذَمّ عليه؛ لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغْتَرّ به الناس، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ويزداد أيضًا هو جرأة وفجورًا ومعاصي. فإذا ذكر بما فيه انْكَفَّ وانكف غيره عن ذلك، وعن صحبته ومخالطته، قال الحسن البصري: «أترغبون عن ذكر الفاجر؟! اذكروه بما فيه كي يحذره الناس» وقد روي مرفوعًا. و«الفجور» اسم جامع لكل مُتَجَاهِر بمعصية أو كلام قبيح يَدُلّ السامع له على فجور قلب قائله. ولهذا كان مستحقًّا لِلْهَجْر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورًا أو تهتكًا أو مخالطة لمن هذا حاله، بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه؛ فإن رَأَى مَنْ يهوى بعض المتصلين به أو يعاشره عشرة منكرة، أو رأى له محبة أو ميلًا وصبابة وعشقًا، ولو كان ولده رأف به، وظن أن هذا من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ومكارم الأخلاق، وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين، وضعف إيمان، وإعانة على الإثم والعدوان، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر. وتدخل النفس به في القيادة التي هي أعظم الدياثة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران، والمعاونة لهم على ذلك، وكانت في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط، وفي الباطن منافقة على دين قومها، لا تقلي عملهم كما قلاه لوط؛ فإنه أنكره ونهاهم عنه وأبغضه، وكما فعل النسوة اللواتي بمصر مع يوسف؛ فإنهن أعَنَّ امرأة العزيز على ما دَعَتْه إليه من فعل الفاحشة معها؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وذلك بعد قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾. ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب؛ فإن الشهوة توجب السكر؛ كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ**» الحديث إلى آخره» الفتاوى (١٥/ ٢٨٥-٢٨٨).

عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه(١٦).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْقُرُبَاتِ، وَأَحْسَنِ الطَّاعَاتِ، وَأَجْمَلِ الْأَخْلَاقِ: أَنْ يَبْتَعِدَ الْمُسْلِمُ عَنْ مَوَاطِنِ الرِّيَبِ، وَيَحْذَرَ مِنَ التَّجَسُّسِ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ عَلِمَ بِجُرْمِ عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ لَمْ يُجَاهِرْ بِذَنْبِهِ سَتَرَهُ، وَلَمْ يَكْشِفْ سِتْرَهُ، وَلَا فَضَحَ أَمْرَهُ، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١٧).

وَفِي قِصَّةِ مَاعِزٍ رضي الله عنه لَمَّا زَنَى: أَنَّهُ جَاءَ لِأَحَدِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يُقَالُ لَهُ: هَزَّالٌ، يَسْتَشِيرُهُ فِيمَا يَفْعَلُ، فَاجْتَهَدَ هَزَّالٌ فَأَخْطَأَ، وَأَشَارَ عَلَى مَاعِزٍ بِأَنْ يَذْهَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيُطَهِّرَهُ بِالْحَدِّ، فَلَمَّا أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَدَّ عَلَى مَاعِزٍ رضي الله عنه، وَعَلِمَ بِمَشُورَةِ هَزَّالٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ يَا هَزَّالُ، لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ مِمَّا صَنَعْتَ بِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٨).

اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ

---

(١٦) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠-٤٢١)، وأبو داود في الأدب، باب في الغيبة (٤٨٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٧)، والبيهقي (١٠/ ٣٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٢٦)، وصححه ابن حبان (٥٧٦٣).

وله شواهد أخرى عن ابن عباس وثوبان والبراء بن عازب رضي الله عنهم.

(١٧) قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخاري في المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

(١٨) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٧)، وأبو داود في الحدود، باب في الستر على أهل الحدود (٤٣٧٧)، والنسائي في الكبرى (٧٢٧٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٥٤٠)، برقم: (٢٨٧٨٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٩٣) من حديث يزيد بن نعيم عن أبيه. وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٦٠).

أَيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا، وَمِنْ فَوْقِنَا، وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا، اللَّهُمَّ اسْتُرْنَا وَإِخْوَانَنا الْمُسْلِمِينَ بِسَتْرِكَ، وَأَسْبِغْ عَلَيْنَا عَفْوَكَ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَتَقْوَاهُ حَقَّ التَّقْوَى.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْتَادَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مُلِمَّةٌ أَنْ يَسْتَغِيثُوا بِاللَّهِ تَعَالَى لها فَيَقُولُوا: يَا سَاتِرُ، أَوْ يَقُولُوا: يَا سَتَّارُ، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ السَّاتِرَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَقُولُوا: يَا سِتِّيرُ؛ لِوُرُودِ النَّصِّ النَّبَوِيِّ بِأَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى[١٩]، وَكَمْ لِهَذَا الِاسْمِ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ مِنْ أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي مَعَاشِ النَّاسِ وَمَعَادِهِمْ، فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا وَحَيَاتِهِمُ الْأُخْرَى.

---

(١٩) ومن الطريف في هذا الشأن ما نقل عن الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالى-، مِنْ أنه تعرّض لحادث سير فانقلبت السيارة، فقال أحد الركاب والسيارة تتدحرج: يا ساتر، فقال الشيخ له: «قل: يا ستير، ولا تقل: يا ساتر، فليس من أسماء الله تعالى».

إِنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، أَدْرَكَ آثَارَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَيْهِ، وَعَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، بَلْ وَعَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ.

فَكَمْ مِنْ سَوْءَةٍ لَنَا سَتَرَهَا رَبُّنَا، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ لِلَّهِ تَعَالَى إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ؛ دَخَلَ دَارَهُ، وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَعَاشَ فِي أَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا رَبُّهُ سُبْحَانَهُ، وَالْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ، فَيَعْصِي رَبَّهُ، وَيَنْتَهِكُ حُرْمَتَهُ، المَرَّةَ وَالمَرَّتَيْنِ، وَالسَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ، يُقِيمُ عَلَى المَعْصِيَةِ زَمَنًا طَوِيلًا لَا يَهْتِكُ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُ، وَلَا يَفْضَحُ أَمْرَهُ، فَمَا أَحْلَمَهُ تَعَالَى! وَمَا أَرْحَمَهُ بِخَلْقِهِ!

أَرَأَيْتُم -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- لَوْ أَنَّ كُلَّ عَاصٍ مِنَّا -وَكُلُّنَا كَذَلِكَ- هَتَكَ اللهُ تَعَالَى سِتْرَهُ، وَأَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَمْرَهُ، وَعَرَفَ أَهْلُهُ وَقَرَابَتُهُ وَجِيرَانُهُ بِكُلِّ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فِي الْخَفَاءِ، فَكَمْ مِنَ الْعَارِ وَالْفَضِيحَةِ سَتَكُونُ فِي النَّاسِ؟! لَكِنَّ رَبَّنَا السِّتِّيرَ الرَّحِيمَ يَسْتُرُنَا عَنْ خَلْقِهِ، فَلَا تَنَالُنَا فَضِيحَةٌ، وَلَا يَلْحَقُنَا عَارٌ، وَلَا يُعَيِّرُنَا مُعَيِّرٌ، وَلَا يَشْمَتُ بِنَا شَامِتٌ، فَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ مَا عَرَفَ النَّاسُ قَدْرَهَا! فَلِلَّهِ رَبِّنَا الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ سَتْرِهِ لَنَا، يُوَفِّقُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلتَّوْبَةِ مِنْ ذَنْبِهِ، ثُمَّ يَقْبَلُهَا مِنْهُ فَيَتَجَاوَزُ عَمَّا سَلَفَ مِنْ عِصْيَانِهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَاضِيهِ، وَلَوْ عَصَى اللهَ تَعَالَى أَلْفَ مَرَّةٍ، وَلَوْ أَقَامَ عَلَى الْعِصْيَانِ خَمْسِينَ سَنَةً.

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَى المُؤْمِنِينَ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ تَوْبَتَنَا مِنْ ذُنُوبِنَا مُعَلَّقَةً عَلَى فَضِيحَتِنَا؛ فَلَيْسَ مِنْ شُرُوطِ التَّوْبَةِ أَنْ يُعْلِنَ التَّائِبُ ذَنْبَهُ المَسْتُورَ عَلَى رُؤُوسِ المَلَإِ، ثُمَّ يُعْلِنُ تَوْبَتَهُ عِقِبَ ذَلِكَ حَتَّى تُقْبَلَ، فَرَبُّنَا السِّتِّيرُ سُبْحَانَهُ سَتَرَ ذُنُوبَنَا عَنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَ تَوْبَتَنَا مِنْهَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ؛ حَتَّى لَا يُعَيِّرَنَا مُعَيِّرٌ، وَلَا يَشْمَتَ بِنَا شَامِتٌ.

وَمَنْ مَاتَ مِنَ الْعِبَادِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكِنَّهُ لَمْ يُجَاهِرْ بِهَا، فَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ لَا يُفْضَحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَلْ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَرُبَّمَا عَفَا عَنْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ، حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

وَمِنَ الْبِشَارَاتِ الْكَبِيرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَفَضُّلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ: أَنَّ مَنْ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مَوْعُودٌ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَسْتُرُ اللهُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢١).

وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَسْتُرُ عَلَيْهِ فَلَا يَفْضَحُهُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَقَدْ يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى ذُنُوبَهُ، فَإِنْ عُوقِبَ بِهَا لَمْ يَفْضَحْهُ اللهُ ﷻ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ(٢٢).

وَمِنَ الْآثَارِ الْعَظِيمَةِ لِاسْمِ السِّتِّيرِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَحَبَّ السَّتْرَ فَسَتَرَ عَلَى عِبَادِهِ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتُرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنَدَبَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمُ التَّجَسُّسَ وَالْغِيبَةَ وَظَنَّ السَّوْءِ، وَالتَّشْهِيرَ وَالتَّعْيِيرَ، فَتَعَايَشَ النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ فِي

---

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عمر ؓ: البخاري في الأدب، ستر المؤمن على نفسه (٦٠٧٠)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

(٢١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب بشارة من ستر الله عيبه في الدنيا بأن يستر عليه في الآخرة (٢٥٩٠)، والطيالسي (٢٤٢٧)، وجاء من حديث عائشة ؓ بمعناه عند: أحمد (٦/ ١٤٥)، والحاكم (٤/ ٤٢٥).

(٢٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢١٦).

الْجُمْلَةِ؛ فَاسْتَقَامَتْ أُمُورُهُمْ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ.

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ تَجَسَّسُوا عَلَى بَعْضِهِمْ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَفْضَحُ بَعْضًا وَيُعَيِّرُهُ، وَمَا يَقَعُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي مَعْصِيَةٍ إِلَّا أُشْهِرَ أَمْرُهُ، وَهُتِكَ سِتْرُهُ، وَفُضِحَ فِي نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ؛ لَعَسُرَ عَيْشُهُمْ، وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُهُمْ، وَانْتَشَرَتْ فِيهِمُ الْأَحْقَادُ وَالضَّغَائِنُ، وَسَرَتْ فِيهِمُ الشَّائِعَاتُ وَالظُّنُونُ الْفَاسِدَةُ؛ فَحَسَمَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ كُلَّ هَذِهِ المَفَاسِدِ، وَأَوْصَدَ أَبْوَابَهَا بِتَحْرِيمِ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا وَبِالْأَمْرِ بِالسَّتْرِ عَلَى عِبَادِهِ تَعَالَى.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّها المُؤْمِنُونَ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ عَظِيمَةٍ، أَعْظَمُهَا أَنْ هَدَاكُمْ لِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، وَشَرَعَ لَكُمْ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي كُلُّهَا خَيْرٌ وَصَلَاحٌ لِلْعِبَادِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَإِنَّ مِنْ تَمَامِ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ: الْتِزَامَ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ الْغَرَّاءِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَفِي كُلِّ المَجَالَاتِ وَالشُّؤُونِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



٢٨٥- فضل الاجتماع وخطر الاختلاف

٢٤/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَهْبَطَ اللهُ تَعَالَى الْأَبَوَيْنِ عليهما السلام إِلَى الْأَرْضِ، وَسَخَّرَ لَهُمَا وَلِذُرِّيَّتِهِمَا مَا فِي سَمَائِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وَاسْتَخْلَفَ ﷻ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ، يَسْكُنُونَهَا وَيَعْمُرُونَهَا وَيَحْكُمُونَهَا، وَكُلُّ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ فَهُوَ مُسَخَّرٌ لَهُمْ، يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ، وَلَا يَتَصَرَّفُ هُوَ فِيهِمْ مَهْمَا عَظُمَ حَجْمُهُ، وَمَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وَفِي أُخْرَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

بَلْ كَانَ اسْتِخْلَافُ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ هُوَ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ؛ لِيُقِيمُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فيها؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٣٠].

وَلَمَّا كَانَ الْبَشَرُ يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ وَهُمْ حُكَّامُهَا، وَالْمُتَصَرِّفُونَ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ؛ كَانَ الْإِصْلَاحُ فِيهَا يَأْتِي مِنْ قِبَلِهِمْ، كَمَا أَنَّ الْإِفْسَادَ فِيهَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَيْدِيهِمْ، وَكُلُّ المَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى عَلَى الْأَرْضِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنَ الْبَشَرِ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا أَكْبَرُ مِنْهُمْ وَأَقْوَى؛ فَإِنَّهَا لَا تَمْلِكُ إِصْلَاحًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا؛ وَلِذَلِكَ خُوطِبَ الْبَشَرُ بِالْإِصْلَاحِ، وَنُهُوا عَنِ الْفَسَادِ، وَلَمْ يُخَاطَبْ غَيْرُهُمْ بِذَلِكَ ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ٢٢]، وَقَالَ المَلَائِكَةُ لِرَبِّهِمْ ﷻ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِاسْتِخْلَافِ الْبَشَرِ فِي الْأَرْضِ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنَّ المُصْلِحِينَ وَالمُفْسِدِينَ مِنَ الْبَشَرِ يَبْقَوْنَ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَيَكُونُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَقَعُ بَيْنَهُمُ الصِّرَاعُ عَلَى الْأَرْضِ، فَالمُصْلِحُونَ يُرِيدُونَ صَلَاحَهَا، وَالمُفْسِدُونَ يَسْعَوْنَ فِي فَسَادِهَا؛ وَذَلِكَ لِيَتَحَقَّقَ الِاسْتِخْلَافُ، وَتَظْهَرَ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي ابْتِلَاءِ الْعِبَادِ.

وَمُنْذُ أَنْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ أُمَّتَهُ اسْتَلَمَتْ قِيَادَةَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَبِمَا حَظِيَتْ بِهِ مِنَ شَرَفِ الْإِمَامَةِ وَالْخَيْرِيَّةِ الَّتِي مِنْ لَوَازِمِهَا السَّعْيُ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَمَعُونَةُ المُصْلِحِينَ، وَالْأَخْذُ عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وَمِنْ لَوَازِمِ قِيَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ بِمُهِمَّةِ الْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي كُلِّفَتْ بِهَا: أَنْ يَكُونَ أَفْرَادُهَا مُتَآلِفِينَ مُتَحَابِّينَ، مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، مُتَوَاصِينَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، مُتَنَاهِينَ عَنِ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَأَيُّ شَرْخٍ بَيْنَ أَفْرَادِهَا فَإِنَّهُ يَشْغَلُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ إِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ، وَيُعَطِّلُ مُهِمَّتَهُمْ، وَيَسْلُبُهُمْ رِسَالَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ، وَوَظِيفَتَهُمُ الْجَلِيلَةَ.

إِنَّ الْفُرْقَةَ وَالِاخْتِلَافَ دَاءَانِ وَبِيلَانِ يُقْعِدَانِ بِالْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ عَنِ الْإِصْلَاحِ وَالْبِنَاءِ، وَيُمَكِّنَانِ لِلْهَدْمِ وَالْفَسَادِ، وَيُسَبِّبَانِ ظُلْمَةَ الْقُلُوبِ، وَفَسَادَ الْأَلْسُنِ، وَالطَّعْنَ فِي النَّاسِ، وَقَدْ يُؤَدِّيَانِ إِلَى الِاحْتِرَابِ وَالتَّقَاتُلِ.

وَمَا أُصِيبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنَّقْصِ وَالْخِذْلَانِ، وَحَاقَ بِهِمُ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ -رَغْمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِيهِمْ، وَقَدْ فُضِّلُوا عَلَى الْعَالَمِينَ- إِلَّا بِسَبَبِ اخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَأَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْيَهُودِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَفِي شَأْنِ النَّصَارَى قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

لَقَدْ قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا مَا وَقَعَتْ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ؛ لِئَلَّا نَسِيرَ سِيرَتَهُمْ، وَلِكَيْ نَحْذَرَ مَسْلَكَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ، فَنَعْتَصِمَ بِحَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى جَمِيعًا وَلَا نَتَفَرَّقَ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

وَبَلَغَ بِهِمُ اخْتِلَافُهُمْ وَفُرْقَتُهُمْ مَبْلَغَ الشِّقَاقِ وَالْعِنَادِ وَالْقِتَالِ؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

لَقَدْ نَهَانَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ نَكُونَ كَمَا كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فُرْقَةً وَاخْتِلَافًا وَتَبَاغُضًا وَتَنَاحُرًا؛ لِئَلَّا نَضِلَّ كَمَا ضَلُّوا، وَنَزِيغَ كَمَا زَاغُوا ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرُّوم: ٣١، ٣٢].

إِنَّهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِسُلُوكِهِ، وَهُوَ طَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، مَنْ سَلَكَهُ أَنْجَى نَفْسَهُ، وَسَعَى بِالصَّلَاحِ فِي أُمَّتِهِ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ فَقَدْ فَرَّقَ دِينَهُ، وَأَوْبَقَ نَفْسَهُ، وَجَنَى عَلَى أُمَّتِهِ.

وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِسُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ الْأَوْحَدِ نَهَى عَنِ الطُّرُقِ الْأُخْرَى الَّتِي يَنْتِجُ عَنْهَا التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشُّورى: ١٣].

وَمَعَ هَذَا التَّحْذِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي أَبْدَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ وَأَعَادَ فَإِنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَانَتْ مَعْصُومَةً مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مَعْصُومَةً مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي سَبَبُهُ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، وَتَعْطِيلُ السُّنَنِ، وَالْغُرُورُ بِالدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا؛ وَلِذَلِكَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا

وَاحِدَةً[١]، وَهَذِهِ الْوَاحِدَةُ هِيَ مَنْ سَلَكَتْ سَبِيلَ الْمُرْسَلِينَ، وَالْفِرَقُ الْبَاقِيَةُ الْهَالِكَةُ هِيَ الَّتِي ابْتَدَعَتْ فِي الدِّينِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالْبِدْعَةُ مَقْرُونَةٌ بِالْفُرْقَةِ كَمَا أَنَّ السُّنَّةَ مَقْرُونَةٌ بِالْجَمَاعَةِ، فَيُقَالُ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ كَمَا يُقَالُ: أَهْلُ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ» اهـ[٢].

وَقَدْ يَبْلُغُ التَّفَرُّقُ بِالْأُمَّةِ مَبْلَغَ الِاحْتِرَابِ وَالْاقْتِتَالِ، فَيُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَتْرُكُونَ أَعْدَاءَهُمْ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ دُوَلِ الْإِسْلَامِ وَتَارِيخِهِمْ، وَلَا يَزَالُ يَقَعُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ**

---

(١) جاء ذلك في أحاديث عدة منها:
١- حديث أبي هريرة ﷺ عند: أبي داود في السنة، باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو يعلى (٥٩١)، وصححه ابن حبان (٦٢٤٧)، والحاكم (١/ ٤٧).
٢- حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ عند: أحمد (٤/ ١٠٢)، والدارمي (٢٥١٨)، والحاكم (١/ ٢١٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٦) رقم (٨٨٤).
٣- حديث عوض بن مالك ﷺ عند: ابن ماجه في الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٣)، وصححه البوصيري (٤/ ١٧٩).
٤- حديث أنس بن مالك عند: ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وأبي يعلى (٣٩٤٤)، والطبراني في الصغير (٧٢٤).
٥- حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عند: عبد بن حميد (١٤٨).
٦- حديث أبي أمامة ﷺ عند: الطبراني في الكبير (٨/ ٢٧٤) رقم (٨٠٥٤)، والأوسط (٧٢٠٢).
(٢) الاستقامة (١/ ٤٢).

عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[٣]، وَفِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا» رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ[٤].

وَإِذَا كَانَ التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ وَاقِعًا فِي الْأُمَّةِ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَيْهَا، فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ أَفْرَادُ الْأُمَّةِ لِهَذَا الْقَدَرِ، وَلَا أَنْ يَحْتَجُّوا بِهِ عَلَى تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَإِنْ قَدَّرَ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ فَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ بِالِاجْتِمَاعِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُرْقَةِ ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَفِي أُخْرَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى أَمْرَكُمْ ...» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٥].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالِاجْتِمَاعُ وَالِائْتِلَافُ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ ... وَهَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ الْإِسْلَامِ،

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣١١).

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠)، وأحمد (١/ ١٧٥)، وابن خزيمة (١٢١٧)، وابن حبان (٧٢٣٧).

(٥) أخرجه مسلم في الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥)، ومالك (٢/ ٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن حبان (٣٣٨)، ولم يذكر مسلم في روايته: «وأن تناصحوا من ولاه الله تعالى أمركم».

وَمِمَّا عَظُمَتْ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَمِمَّا عَظُمَ ذَمُّهُ لِمَنْ تَرَكَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَمِمَّا عَظُمَتْ بِهِ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَوَاطِنَ عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ» اهـ(٦).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُخْلِصٍ لِرَبِّهِ، مُتَّبِعٍ لِلسُّنَّةِ، نَاصِحٍ لِلْأُمَّةِ: أَنْ يَسْعَى فِي كُلِّ طَرِيقٍ صَحِيحٍ يَجْمَعُ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى الشِّقَاقِ وَالْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَلَوْ سَعَى كُلُّ مُسْلِمٍ فِي بَيَانِ الْحَقِّ وَالنُّصْحِ لِلْخَلْقِ، بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِ لَتَقَارَبَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْقُلُوبِ الْمُتَبَاعِدَةِ، وَلَأُزِيلَ كَثِيرٌ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ الَّذِي يُوجِبُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَسْبُ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ حَصَرَ الْأُخُوَّةَ فِي الْإِيمَانِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ، وَالتَّجَرُّدُ لِلْحَقِّ، وَالْبُعْدُ عَنِ الْهَوَى، هُوَ سَبَبُ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ، كَمَا أَنَّ الِابْتِدَاعَ فِي الدِّينِ، وَالْمَيْلَ إِلَى الْهَوَى، وَالْغُرُورَ بِالدُّنْيَا هُوَ سَبَبُ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ.

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى، وَنَسْأَلُهُ الْمُوَافَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

---

(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٨-٣٥٩).

وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاخْتِلَافُ وَالتَّفَرُّقُ فِي الْأُمَّةِ يَنْتِجُ عَنْ أَحَدِ سَبَبَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَوْ كِلَيْهِمَا، وَكُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْبَابٍ أُخْرَى فَلَا تَخْرُجُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ:

أَمَّا السَّبَبُ الْأَوَّلُ: فَالشُّبْهَةُ فِي الدِّينِ، وَهِيَ الَّتِي تَقُودُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، كَبِدَعِ الْمُرْجِئَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي: فَشَهْوَةُ الدُّنْيَا، وَهِيَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى التَّنَافُسِ عَلَى السُّلْطَانِ وَالْجَاهِ وَالْمَالِ فَيَخْتَلِفُ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَيَفْتَرِقُونَ مِنْ أَجْلِهَا، وَقَدْ يَقْتَتِلُونَ بِسَبَبِهَا.

وَكُلُّ دُوَلِ الْإِسْلَامِ الَّتِي سَقَطَتْ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ إِنَّمَا سَقَطَتْ بِهَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا:

فَدَوْلَةُ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ أُحْدِثَ فِي آخِرِهَا بِدْعَةُ الْخُرُوجِ عَلَى السَّلَاطِينِ، وَتَبِعَتْهَا بِدْعَةُ الْغُلُوِّ فِي عَلِيٍّ وَآلِهِ ﵃ بِسَبَبِ شُبُهَاتٍ عَرَضَتْ لِأَصْحَابِهَا، وَمُنَافِقِينَ رَوَّجُوهَا عَلَى النَّاسِ، مَعَ مَا دَاخَلَ الْقُلُوبَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا، فَزَالَتِ الْخِلَافَةُ الرَّاشِدَةُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ دَبَّ الْخِلَافُ عَلَى الدُّنْيَا فِي الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ، وَاشْتَدَّ التَّنَافُسُ عَلَى مَنَاصِبِ الْخِلَافَةِ فَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْفُرْقَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي ضَعْفِ الْأُمَوِيِّينَ وَسُقُوطِ دَوْلَتِهِمْ.

وَأَمَّا الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ فَظَهَرَتْ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبِدَعِ وَالْأَفْكَارِ الْيُونَانِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ

وَالْفَارِسِيَّةِ عَلَى إِثْرِ تَرْجَمَةِ كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِهِمْ، وَفِي أُخْرَيَاتِهَا تَمَكَّنَ أَهْلُ الْبِدْعَةِ فِيهَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عَلَى يَدِ الْوَزِيرِ الرَّافِضِي ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الَّذِي أَجْمَعَ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَسْقَطَ الْخِلَافَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمغُولِ، وَخَانَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ(٧).

وَأَمَّا الْخِلَافَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ فَفِي أُخْرَيَاتِهَا ظَهَرَ الْقَوْلُ بِالْبِدْعَةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَهَا يَجْمَعُهُمُ الْإِسْلَامُ، فَفَرَّقَهُمُ الْأَعْدَاءُ بِبِدْعَةِ الْجِنْسِ وَالْعِرْقِ، فَفَاخَرَ التُّرْكُ بِطُورَانِيَّتِهِمْ، وَاعْتَزَّ الْفُرْسُ بِفَارِسِيَّتِهِمْ، وَقِيلَ لِلْعَرَبِ أَنْ يَفْخَرُوا بِعُرُوبَتِهِمْ، وَصَارَ كُلُّ أَهْلِ عِرْقٍ وَقَوْمِيَّةٍ يُوَالُونَ وَيُعَادُونَ فِي عِرْقِهِمْ حَتَّى فُرِّقَتِ الْأُمَّةُ شَذَرَ مَذَرَ، وَوَجَدَ الْأَعْدَاءُ مَنْ يُعِينُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى دَوْلَتِهِمْ، فَقُضِيَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَمُزِّقَتْ تَرِكَتُهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ كَثِيرَةٍ ضَعِيفَةٍ، أُرِيدَ لَهَا أَنْ تَزْدَادَ تَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهَا بِإِحْيَاءِ النُّعَرَاتِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ؛ لِئَلَّا يَعُودَ لِلْمُسْلِمِينَ وَحْدَةٌ.

وَأَمَّا الْأَنْدَلُسُ الَّتِي مَا بَقِيَ لِلْإِسْلَامِ فِيهَا إِلَّا خَبَرٌ يُذْكَرُ، وَأَثَرٌ يُبْصَرُ، وَلَا دَوْلَةَ لَهُمْ فِيهَا الْبَتَّةَ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ سَبَبٍ لِسُقُوطِهَا كَانَ خِلَافُ مُلُوكِهَا وَأُمَرَائِهَا عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الْأَخَ رُبَّمَا تَحَالَفَ مَعَ النَّصَارَى وَسَلَّمَهُمْ دِيَارَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُعِينُوهُ عَلَى أَخِيهِ ابْنِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، بَلْ إِنَّ الِابْنَ قَدْ يُفَارِقُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَيُعْلِنُ الْخُرُوجَ عَلَيْهِ فَيُعِينُهُ النَّصَارَى عَلَى ذَلِكَ لِوَهْنِ الْإِسْلَامِ، وَالْفَتِّ فِي عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ وَتَمْزِيقِهِمْ، حَتَّى انْتَهَتْ دَوْلَتُهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: بِمَا سَبَقَ إِيرَادُهُ مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ، وَمِنْ مَوَاعِظِ التَّارِيخِ؛ يُعْلَمُ أَنَّ الِاجْتِمَاعَ خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ، وَبِهِ يَقْوَى جَانِبُ الْمُسْلِمِينَ، وَتُهَابُ دَوْلَتُهُمْ،

(٧) ينظر تفصيل ذلك في: خطبة اجتياح المغول لبغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٩)، وخطبة سقوط بغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٣).

وَتُزْهِرُ حَضَارَتُهُمْ، وَلَا يَظْفَرُ الْأَعْدَاءُ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ. وَأَنَّ الْفُرْقَةَ شَرٌّ وَعَذَابٌ، وَهِيَ سَبَبُ الْوَهْنِ وَالِاضْمِحْلَالِ، وَرَفْعِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الْخَوْفِ، وَتَوَقُّفِ الْعُمْرَانِ، وَمَا ظَفِرَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا بِدَوْلَةٍ فَأَسْقَطُوهَا وَاحْتَلُّوهَا إِلَّا بِسَبَبِ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ بَيْنَ أَبْنَائِهَا، حَتَّى يَنْبَرِيَ الْخَوَنَةُ مِنْهُمْ لِإِعَانَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَيْمَا يُحَقِّقُوا مُرَادَهُمْ.

فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ حَقَّ الْإِدْرَاكِ دَانَ لِلَّهِ تَعَالَى بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَحَذِرَ مِنْ مُفَارَقَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَشَقِّ عَصَاهُمْ، وَالشُّذُوذِ عَنْهُمْ، وَمُمَالَأَةِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ.

حَفِظَ اللهُ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَرَدَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٢٨٦- الإيثار (٣) (*)
صور أخرى منه

٢١/ ٥/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا دَارَ نَعِيمٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا هِيَ مُسْتَقَرٌّ لِعِبَادِهِ، وَلَكِنَّهَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَفِتْنَةٍ، يَبْتَلِي اللهُ تَعَالَى فِيهَا الْعِبَادَ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيَجْعَلُ بَعْضَهُمْ فِتْنَةً لِبَعْضٍ؛ فَالْمُسْلِمُ يُفْتَنُ بِالْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ يُفْتَنُ بِالْمُسْلِمِ، وَالْغَنِيُّ يُفْتَنُ بِالْفَقِيرِ، وَالْفَقِيرُ يُفْتَنُ بِالْغَنِيِّ.. وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ، ﴿كُلُّ

(*) الإيثار (١) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٩٧)، والإيثار (٢) تجدها في مجلد (٢) خطبة رقم (٩٨).

نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وَأَفَاضِلُ الْخَلْقِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ﷩، وَمِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ﷡ ابْتُلُوا ابْتِلَاءً شَدِيدًا، أَصَابَتْهُمُ الْفَاقَةُ وَالْحَاجَةُ، وَمَسَّهُمُ الْجُوعُ وَالنَّقْصُ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَأَحْبَابُهُ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ: «جَلَسْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرْيِ، وَقَارِئٌ يَقْرَأُ عَلَيْنَا، إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَكَتَ الْقَارِئُ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا، فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ** -يُرِيدُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨]- قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَتَحَلَّقُوا، وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرَفَ مِنْهُمْ أَحَدًا غَيْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَاكَ خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(١).

---

(١) ما بين المعترضتين ليس في نص الحديث، ولكنه مني بيانًا للمقصود. والحديث أخرجه أحمد (٣/٦٣- ٩٦)، وأبو يعلى (١١٥١-١٣١٧)، وأبو داود في العلم، باب في القصص (٣٦٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨٨٦٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٩٢). وفي سنده العلاء بن بشير المزني وهو مجهول؛ ولذا ضعفه الألباني في المشكاة (٢١٩٨) وفي ضعيف الجامع (٤٠). =

إِنَّ الصَّبْرَ فِي حَالِ الْفِتْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ المَقَامَاتِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ الإِيمَانِ. وَمِنْ دَلَائِلِ الصَّبْرِ: الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِهِ، وَالإِيمَانُ بِقَدَرِهِ، وَالْتِزَامُ شَرْعِهِ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَفْضَلُهُ: إِيثَارُ الْغَيْرِ بِالخَيْرِ الدُّنْيَوِيِّ؛ طَلَبًا لِلْخَيْرِ الأُخْرَوِيِّ، مَعَ الصَّبْرِ عَلَى اللَّأْوَاءِ وَالضَّنْكِ.

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ إِمَامِهَا وَقُدْوَتِهَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى صَحَابَتِهِ ﷺ إِلَى التَّابِعِينَ لهُمْ بِإِحْسَانٍ، كَانُوا يُؤْثِرُونَ غَيْرَهُمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالمَالِ وَالمَتَاعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَيَحْتَمِلُونَ نَتَائِجَ ذَلِكَ، وَيُعَالِجُونَ مُصَابَهُمْ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ الَّذِي لَا شَكْوَى لِلْخَلْقِ مَعَهُ، وَقِصَصُهُمْ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَخْبَارُهُم فِيهِ غَزِيرَةٌ.

رَوَى المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ ﷺ قَالَ: «أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي، وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ -أي: الجُوعُ وَالمَشَقَّةُ- فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا -وَسَبَبُ ذَلِكَ: قِلَّتُهُمْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ مُوَاسَاتِهِمْ- فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا ثَلَاثَةُ أَعْنُزٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **احْتَلِبُوا هَذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا**، قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، قَالَ: ثُمَّ يَأْتِي المَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ، فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي، فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَى هَذِهِ الْجُرْعَةِ، فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا، فَلَمَّا

= لكن لآخره شاهد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم**» أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٢٢).

أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ، قَالَ: نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَا صَنَعْتَ؟ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ، فَيَجِيءُ فَلَا يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ؟! وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَى رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لَا يَجِيئُنِي النَّوْمُ، وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ، قَالَ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقُلْتُ: الْآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي، وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي**، قَالَ: فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الْأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ، فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ، وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ -أَيْ: بِالْحَلِيبِ- فَعَمَدْتُ إِلَى إِنَاءٍ لِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ، قَالَ: فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: **أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟** قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ، ثُمَّ نَاوَلَنِي، فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ رَوِيَ وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّى أُلْقِيتُ إِلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِحْدَى سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ**. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا وَفَعَلْتُ كَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **مَا هَذِهِ إِلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، أَفَلَا كُنْتَ آذَنْتَنِي فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا؟** قَالَ: فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

---

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣)، ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥)، والترمذي في الاستئذان، باب كيف السلام (٢٧١٩)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٥).
وما بين المعترضتين ليس في نص الحديث، ولكنه مني بيانًا لواقع الحال كما ذكره شراح الحديث، وينظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٣).

وَهَذَا الْخُلُقُ الْكَرِيمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَشِدَّةُ إِيثَارِهِ لِغَيْرِهِ أَخَذَهُ عَنْهُ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ، وَضَرَبَ الأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ، حَتَّى نَوَّهَ اللهُ تَعَالَى بِفِعْلِهِمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا المَقَامُ أَعْلَى مِنْ حَالِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧] فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يُحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خَصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوا، وَمِنْ هَذَا المَقَامِ تَصَدَّقَ الصِّدِّيقُ ﷺ بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟** فَقَالَ ﷺ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[٣]. وَهَكَذَا المَاءُ الَّذِي عُرِضَ عَلَى عِكْرِمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، وَهُوَ جَرِيحٌ مُثْقَلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى المَاءِ، فَرَدَّهُ الآخَرُ إِلَى الثَّالِثِ، فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ»[٤].

لَقَدْ كَانَ الإِيثَارُ خُلُقًا عَامًّا فِي صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ حَتَّى كَثُرَتْ أَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ، رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ:

---

(٣) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: أحمد في فضائل الصحابة (٥٢٧)، وأبو داود في الزكاة، باب في الرخصة في ذلك (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما، وقال: حديث حسن صحيح (٣٦٧٥)، والدارمي (١٦٦٠)، وعبد بن حميد (١٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٤١٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨).

«أُهْدِيَ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأْسُ شَاةٍ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا، قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهِ وَاحِدٌ إِلَى آخَرَ حَتَّى تَدَاوَلَهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ، حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الأَوَّلِ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ ...» رَوَاهُ الحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٥).

وَأَخَذَ التَّابِعُونَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- هَذَا الخُلُقَ عَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ؛ فَآثَرُوا غَيْرَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ورُوِيَ عَنْهُمُ الْعَجَبُ الْعُجَابُ فِي ذَلِكَ؛ كَمَا نَقَلَ الْقُرْطُبِيُّ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأَنْطَاكِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَنَّهُ اجْتَمَعَ عِنْدَهُ نَيِّفٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الرَّيِّ، وَمَعَهُمْ أَرْغِفَةٌ مَعْدُودَةٌ لَا تُشْبِعُ جَمِيعَهُمْ، فَكَسَرُوا الرُّغْفَانَ، وَأَطْفَؤُوا السِّرَاجَ، وَجَلَسُوا لِلطَّعَامِ، فَلَمَّا رُفِعَ فَإِذَا الطَّعَامُ بِحَالِهِ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ أَحَدٌ شَيْئًا؛ إِيثَارًا لِصَاحِبِهِ عَلَى نَفْسِهِ»(٦).

اللهُ أَكْبَرُ، أَخْلَاقٌ كَرِيمَةٌ، وَإِيثَارٌ عَجِيبٌ، وَإِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ فِي كَبْحِ جِمَاحِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَالصَّبْرِ عَلَى الجُوعِ وَالْقِلَّةِ، وَهِمَّةٌ عَالِيَةٌ مَطْلُوبُهَا رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى وَالمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، وَأَلْحَقَنَا بِهِمْ، وَوَقَانَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ..



---

(٥) أخرجه الحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: عبيد الله بن الوليد ضعفوه (٢/ ٥٢٦).
وجاء نحوه عن مجاهد -رحمه الله تعالى- في مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢١٤) برقم (٣٥٤٤٧).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَاجْتَنِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَا أَحْوَجَ الْبَشَرِيَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى إِحْيَاءِ خُلُقِ الإِيثَارِ وَالْمُوَاسَاةِ فِي النَّاسِ؛ كَيْ يُقْضَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَشَاكِلِهِمْ!!

إِنَّ المَشَاكِلَ الِاقْتِصَادِيَّةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْتَجَتْ مَشَاكِلَ سِيَاسِيَّةً وَأَمْنِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً، وَسَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا يَرَاهُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ: الْفَقْرُ وَالجُوعُ، وَالْفَقْرُ وَالجُوعُ إِنَّمَا نَجَمَا عَنِ اسْتِيلَاءِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ عَلَى ثَرَوَاتِ الأَرْضِ بِالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ، أَوْ بِالسِّلَاحِ وَالْقُوَّةِ، وَفِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ يَسْتَأْثِرُ الأَغْنِيَاءُ بِالأَمْوَالِ دُونَ الْفُقَرَاءِ، وَيُنَمُّونَهَا بِكُلِّ الطُّرُقِ المَشْرُوعَةِ وَالمُحَرَّمَةِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى.

لَقَدْ أَضْحَتِ المَشَاكِلُ الِاقْتِصَادِيَّةُ تُشَكِّلُ رُعْبًا حَقِيقِيًّا لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، يَقُضُّ مَضَاجِعَهُمْ، وَيُهَدِّدُ أَمْنَهُمُ السِّيَاسِيَّ وَالِاجْتِمَاعِيَّ وَالنَّفْسِيَّ؛ حَتَّى تَنَادَوْا فِي كُلِّ الأَقْطَارِ إِلَى بَحْثِ هَذِهِ المَشَاكِلِ، وَمُحَاوَلَةِ تَخْفِيفِ آثَارِهَا، وَتَضْيِيقِ نِطَاقِهَا، وَلَا إِخَالُهُم يَنْجَحُونَ فِي ذَلِكَ؛ لأَنَّ المُشْكِلَةَ لَيْسَتْ نَاجِمَةً عَنْ قِلَّةٍ وَنُدْرَةٍ فِي المَوَارِدِ وَالأَرْزَاقِ، أَوْ زِيَادَةٍ فِي الْبَشَرِ، كَمَا يُرَوِّجُ ذَلِكَ مَنْ يُرَوِّجُهُ مِمَّنْ لَا عِلْمَ

عِنْدَهُمْ؛ فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَمَعَهُ رِزْقُهُ، وَمَا ضَنَّتِ الْأَرْضُ بِخَيْرَاتِهَا، وَلَا حَبَسَ اللهُ تَعَالَى رِزْقَهُ عَنِ الْعِبَادِ، بَلْ هُوَ الْجَوَّادُ الْكَرِيمُ، الْمُنْعِمُ بِالْخَيْرِ الْوَفِيرِ؛ وَلَكِنَّ الْمُشْكِلَةَ مُشْكِلَةُ مَبَادِئَ وَقِيَمٍ وَأَخْلَاقٍ سَيْطَرَتْ عَلَى الْبَشَرِ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَى عُقُولِهِمْ، وَمَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ.

إِنَّ الْمَسْؤُولَ الْأَوَّلَ عَنْ ذَلِكَ: الثَّقَافَةُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ الَّتِي عَظَّمَتِ الْمَادَّةَ أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدَّمَتِ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ؛ إِنْكَارًا لَهَا، أَوِ اسْتِخْفَافًا بِشَأْنِهَا.

إِنَّهَا ثَقَافَةُ الِاسْتِهْلَاكِ الَّتِي اجْتَاحَتِ الدُّوَلَ وَالْأُمَمَ، وَاقْتَنَعَ بِهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهَا الْغَنِيُّ وَلَا الْفَقِيرُ.

وَانْظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- إِلَى آثَارِ ذَلِكَ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْأَثَاثِ وَالْبُيُوتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَسَائِرِ النَّفَقَاتِ؛ تَجِدُوا أَنَّ ثُلُثَيْ مَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَاجَاتِ فَضْلًا عَنِ الضَّرُورَاتِ، أَوْصَلَ أَصْحَابَهُ إِلَى السَّرَفِ الْمُحَرَّمِ، وَإِذَا مَا اسْتَمَرَّ هَذَا الْفِكْرُ الْمَادِّيُّ الْبَغِيضُ مُسَيْطِرًا عَلَى عَقْلِ الإِنْسَانِ فَإِنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ تَسْلَمَ مِنَ الْقَلَاقِلِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ الَّتِي يَنْتِجُ عَنْهَا الْخَوْفُ وَالْجُوعُ.

إِنَّ الِاسْتِهْلَاكَ يَحْتَاجُ إِلَى إِنْفَاقٍ، وَالسِّلَعُ الْمُسْتَهْلَكَةُ لَا تَنْتَهِي، وَالنَّاسُ يَلْهَثُونَ خَلْفَهَا فِي سِبَاقٍ مَحْمُومٍ، يَقُودُهُمْ إِلَى ذَلِكَ دِعَايَاتٌ وَإِعْلَانَاتٌ غَطَّتْ عُقُولَهُمْ، وَحَرَّكَتْ شَهَوَاتِهِمْ، وَلَوْ مَلَكَ وَاحِدُهُمْ مَالَ قَارُونَ لَمَا سَدَّ نَفَقَاتِهِ، وَلَا أَشْبَعَ نَهْمَتَهُ فِي الِاسْتِهْلَاكِ؛ لأَنَّ السِّلَعَ الْمُسْتَهْلَكَةَ لَا تَنْتَهِي عِنْدَ حَدٍّ مُعَيَّنٍ، وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ لَا يُوقِفُ طَمَعَهَا شَيْءٌ.

إِنَّهَا أَزْمَةُ قَنَاعَاتٍ وَأَفْكَارٍ، وَقِيَمٍ وَمَبَادِئَ يَتَرَبَّى عَلَيْهَا النَّاسُ، وَانْتَقَلَتْ مِنَ الْغَرْبِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ إِلَى الشَّرْقِ، حَتَّى اجْتَاحَتِ الْأَرْضَ كُلَّهَا، وَمَا اعْتَدَتِ الدُّوَلُ الْقَوِيَّةُ عَلَى الدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ إِلَّا لِنَهْبِ خَيْرَاتِهَا، وَالِاسْتِئْثَارِ بِأَرْزَاقِهَا؛ لِأَنَّ

اسْتِهْلَاكَ أَفْرَادِهَا لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، فَمَا كَفَتْهُمْ أَرْزَاقُهُمْ رَغْمَ كَثْرَةِ خَيْرَاتِ بِلَادِهِمْ، فَأَرَادُوا خَيْرَاتِ الْآخَرِينَ.

وَانْتَقَلَ هَذَا الْفِكْرُ الْمَادِّيُّ الْمُدَمِّرُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مَعَ الِانْفِتَاحِ عَلَى الْآخَرِينَ، وَالْخُلْطَةِ بِهِمْ، وَانْتِشَارِ ثَقَافَتِهِمْ.

لَقَدْ كَانَتْ أَخْلَاقُ الْمُوَاسَاةِ وَالْإِيثَارِ وَالرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ أَخْلَاقًا سَائِدَةً فِي مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَقْتٍ قَرِيبٍ، فَلَمْ يُعَانُوا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا، رَغْمَ شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُم يَتَفَقَّدُ جِيرَانَهُ، وَيُوَاسِي فُقَرَاءَ بَلْدَتِهِ أَوْ قَرْيَتِهِ، وَكَانَ الْفَقِيرُ يُقَاسِمُ أَخَاهُ مَا جَاءَهُ مِنْ رِزْقٍ، وَرُبَّمَا آثَرَ أَخَاهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمْ يَشْكُوا قِلَّةَ الرِّزْقِ، بَلْ قَنِعُوا بِمَا قَسَمَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَكَانَتْ نُفُوسُهُمْ غَنِيَّةً رَغْمَ قِلَّتِهِمْ، وَبَارَكَ اللهُ تَعَالَى فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنْ قَلِيلِ طَعَامٍ وَلِبَاسٍ وَأَثَاثٍ.

أَمَّا الْيَوْمُ فَقَدْ فُتِحَتِ الْأَرْزَاقُ عَلَى النَّاسِ، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَتْ أَرْزَاقُهُمْ لَا تَكْفِيهِمْ حَسَبَ رُؤْيَتِهِمْ، وَشَكَوْا قِلَّةَ الرِّزْقِ، وَاسْتَوْلَتِ الْأَثَرَةُ وَالطَّمَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَمَا عَادَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُحِلُّ حَلَالًا، أَوْ يُحَرِّمُ حَرَامًا! فَالْحَلَالُ مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ!! وَصَارَ فِي مَسْتُورِي الْحَالِ وَالْفُقَرَاءِ مِنَ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ مَا يُوَازِي جَشَعَ الْأَغْنِيَاءِ وَيَفِيضُ عَنْهُ؛ فَحَلَّتِ الْأَثَرَةُ مَحَلَّ الْإِيثَارِ، وَالطَّمَعُ مَكَانَ الْقَنَاعَةِ، وَاسْتَبْدَلُوا الْفَرْدِيَّةَ بِالْمُوَاسَاةِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَلَا عِلَاجَ يَنْجَعُ لِهَذِهِ الْمُشْكِلَاتِ الْمُتَفَاقِمَةِ إِلَّا رَدُّ النَّاسِ إِلَى الْجَادَّةِ، وَتَرْبِيَتُهُمْ عَلَى أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ مِنَ: الْمُوَاسَاةِ وَالْإِيثَارِ وَالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَأَيُّ عِلَاجٍ سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مُسَكِّنَاتٌ لَا تَأْتِي عَلَى الْعِلَّةِ مِنْ جُذُورِهَا،

وَلَا تَسْتَأْصِلُ المَرَضَ مِنْ أَصْلِهِ، وَلَوْ مَلَكَ وَاحِدُهُمْ خَزَائِنَ الْأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ قَارُونَ فَلَنْ يَشْبَعَ، بَلْ سَيَطْلُبُ المَزِيدَ وَالمَزِيدَ وَلَوْ عَلَى حِسَابِ الآخَرِينَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»(٧).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



(٧) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٦).
وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند: البخاري في الكتاب والباب السابقين (٦٤٣٩)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٨).

٢٨٧- لا يسخر قوم من قوم

١٨/٣/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ فَهَدَاهُمْ، وَكَلَّفَ الْبَشَرَ وَاصْطَفَاهُمْ، لَهُ الْحُكْمُ فِيمَا خَلَقَ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِيمَا قَضَى وَأَوْجَبَ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٤٩]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَرَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْعَقْلِ، وَهَدَاهُ إِلَى الْحَقِّ، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [الْبَلَد: ٨-١٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَدُلَّ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، فَكَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ خُلُقًا، وَأَحْسَنَهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ٤] سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ لِلسَّائِلِ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ النُّورِ وَالْهُدَى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٦].

---

(١) أخرجه في حديث طويل: مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض (٧٤٦)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب قيام الليل (٣/ ١٩٩).

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرَ، وَفَاضَلَ بَيْنَهُمْ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ فِي خِدْمَةِ بَعْضٍ؛ ابْتِلَاءً وَتَسْخِيرًا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢].

وَهَذِهِ الرِّفْعَةُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا لَا تَسْتَلْزِمُ الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرَات: ١٣]، وَلِهَذَا كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، فَلَا يَسْخَرُ قَوِيُّهُمْ مِنْ ضَعِيفِهِمْ، وَلَا يَهْزَأُ سَيِّدُهُمْ بِمَسُودِهِمْ، وَلَا يَحْقِرُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

وَقَدْ نَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الْجَاهِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّنَابُزِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرَات: ١١].

إِنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، اتَّصَفَ بِهِ مَنْ أَبْغَضَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَمَقَتَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى سُخْرِيَتَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِهِمْ، وَلَمْزَهُمْ لَهُمْ، وَالْحَطَّ مِنْهُمْ، فَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ [هُود: ٣٨]، وَهَكَذَا كَانَ دَأْبُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ الْأُمَمِ يَسْخَرُونَ مِنْ رُسُلِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وَأَمَّا سُخْرِيَتُهُمْ بِالمُؤْمِنِينَ فَجاءَ خَبَرُهَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [الْمُطَفِّفِين: ٢٩، ٣٠].

وَيَقُولُونَ سَاخِرِينَ بِالمُؤْمِنِينَ، مُحَقِّرِينَ شَأْنَهُمْ، مُصَغِّرِينَ أَمْرَهُمْ: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٣].

وَأَمَّا المُنَافِقُونَ فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ سُخْرِيَةً بِالرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٦٤]، وَفِي مَقَامٍ آخَرَ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَٰتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧٩].

وَسَيَجِدُ الْكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَاقِبَةَ سُخْرِيَتِهِمْ بِالرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عليهم السلام، وَحِينَهَا يَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلَ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ، وَذَلِكَ حِينَ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٩-١١١].

وَيَعْجَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ لَا يَرَوْنَ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَهُمْ فِي النَّارِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة ص: ٦٢، ٦٣].

وَيَكُونُ الضَّحِكُ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَرَوْنَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ، وَيَرَوْنَ مَنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُهِينِ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفِّفين: ٣٤-٣٦]. نَعَمْ وَاللَّهِ قَدْ ثُوِّبُوا وَجُوزُوا بِأَعْظَمِ الْعَذَابِ، وَأَشَدِّ النَّكَالِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، وَعَلَى سُخْرِيَتِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ.

وَإِذَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَلَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ، فَيَسْخَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ يَلْمِزَهُمْ، أَوْ يُنَابِزَهُمْ بِأَلْقَابٍ فِيهَا تَحْقِيرٌ لَهُمْ، وَحَطٌّ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَقَدْ نَهَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢). أَيْ: كَافِيهِ مِنْ خِلَالِ الشَّرِّ وَخِصَالِهِ احْتِقَارُهُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ.

وَالسُّخْرِيَةُ مِنَ النَّاسِ تَنِمُّ عَنْ كِبْرٍ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا، وَتَعَالٍ عَلَى مَنْ سَخِرَ مِنْهُمْ، فَلَا يَرَى لَهُمْ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ، وَيَأْنَفُ مِنْ أُخُوَّتِهِمْ وَهُمْ إِخْوَانُهُ فِي الدِّينِ، وَالْكِبْرُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَجَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، ثُمَّ فَسَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْكِبْرَ بِأَنَّهُ «**بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ**

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤).

وجاء نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما عند: البخاري في المظالم، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٣١٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٠).

النَّاسِ»(٣)، وَغَمْطُ النَّاسِ: هُوَ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ؛ وَذَلِكَ يَحْصُلُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْكَمَالِ وَإِلَى غَيْرِهِ بِعَيْنِ النَّقْصِ(٤).

وَقَدْ يَكُونُ الدَّافِعُ إِلَى سُخْرِيَةِ المَرْءِ بِأَخِيهِ المُسْلِمِ: حَسَدَهُ لَهُ عَلَى نِعْمَةٍ لَمْ يَبْلُغْهَا، وَيَرَى أَنَّ أَخَاهُ لَا يَسْتَحِقُّهَا، فَيَبْلُغُ بِهِ حَسَدُهُ وَظُلْمَةُ قَلْبِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَسْخَرَ مِنْ أَخِيهِ وَيَحْتَقِرَهُ وَيَتَنَقَّصَهُ؛ لِيَحُطَّ مِنْ قَدْرِهِ، وَيُنْزِلَهُ مِنْ مَكَانَتِهِ، وَيُعْلِيَ مِنْ شَأْنِ نَفْسِهِ، وَيَلْفِتَ الأَنْظَارَ إِلَيْهِ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ نِعْمَتِهِ.

وَالسُّخْرِيَةُ تَقُودُ إِلَى الْغِيبَةِ وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، فَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ السُّخْرِيَةَ بِحَضْرَةِ أَخِيهِ، فَيَسْخَرُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ؛ فَتَكُونُ سُخْرِيَةً وَغِيبَةً، وَيَكُونُ هُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا.

وَصَاحِبُ السُّخْرِيَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَمَّازًا لَمَّازًا، وَاللَّمْزُ هُوَ المُبَاشَرَةُ بِالسُّوءِ وَالمَكْرُوهِ، وَالمُوَاجَهَةُ بِالْقَدْحِ وَالْعَيْبِ، وَيَكُونُ بِالْقَوْلِ. وَالْهَمْزُ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَأَنْ يَعِيبَهُ بِالإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ أَوْ بِالشِّدْقِ أَوْ بِالرَّأْسِ بِحَضْرَتِهِ أَوْ عِنْدَ تَوَلِّيهِ(٥).

---

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأحمد (١/ ٤٢٧).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٢).

(٥) اختلف أهل اللغة والتفسير في معنى الهمز واللمز والفرق بينهما، فمنهم من جعلهما بمعنى، ومنهم من جعل الهمز بالقول، واللمز بالفعل، ومنهم من جعل الهمز بالجهر، واللمز بالسر، أي: الغيبة.
قال النحاس: «يقال: لمزه يلمزه: إذا عابه، ومنه: فلان همزة لمزة، أي: عيَّاب للناس، ويقال: اللمزة: هو الذي يعيب في سر، وإن الهمزة هو الذي يشير بعينيه، وهذا كله يرجع إلى أنه يعيب» معاني القرآن (٣/ ٢٢٠).
وقال ابن الجوزي: «اختلفوا في الهمزة واللمزة هل هما بمعنى واحد أم مختلفان؟ على قولين:
أحدهما: أنهما مختلفان، ثم فيهما سبعة أقوال: =

وَهَذَانَ الْخُلُقَانِ الذَّمِيمَانِ اتَّصَفَ بِهِمَا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، فَكَانُوا يَهْمِزُونَهُمْ وَيَلْمِزُونَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ سُورَةَ الْهُمَزَةِ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: ١]، وَتَوَعَّدَهُمْ فِيهَا بِنَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الْهُمَزَة: ٧-٩].

= أحدها: أن الهمزة المغتاب، واللمزة العيّاب، قاله ابن عباس.
والثاني: أن الهمزة الذي يهمز الإنسان في وجهه، واللمزة يلمزه إذا أدبر عنه، قاله الحسن وعطاء وأبو العالية.
والثالث: أن الهمزة الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنساب الناس، قاله مجاهد.
والرابع: أن الهمزة بالعين، واللمزة باللسان، قاله قتادة.
والخامس: أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه، قاله ابن زيد.
والسادس: أن الهمزة الذي يهمز بلسانه، واللمزة الذي يلمز بعينه، قاله سفيان الثوري.
والسابع: أن الهمزة المغتاب، واللمزة الطاعن على الإنسان في وجهه، قاله مقاتل.
والقول الثاني: أن الهمزة العياب الطعان، واللمزة مثله. وأصل الهمز واللمز الدفع، قاله ابن قتيبة، وكذلك قال الزجاج: الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ويعضهم» زاد المسير (٩/ ٢٢٧-٢٢٨).
وقال ابن كثير: «الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعني: يزدري الناس، وينتقص بهم» (٤/ ٥٤٩).
وقال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، هو الطعان العياب، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧٩]، والهمز أشد؛ لأن الهمز الدفع بشدة، ومنه الهمزة من الحروف، وهي نقرة في الحلق، ومنه ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، وقال: «هَمْزُهُ الموتة» وهي: الصرع، فالهمز مثل الطعن لفظًا ومعنى. واللمز كالذم والعيب، وإنما ذم من يكثر الهمز واللمز، فإن الهُمَزَة و اللُمَزَة هو الذي يفعل ذلك كثيرًا، والهُمْزَةُ واللُمْزَةُ الذي يفعل ذلك به» مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢١-٥٢٢).

فَالْهَمَّازُ اللَّمَازُ فِي النَّاسِ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ، مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ السَّعِيرِ، وَيَنَالُهُ مِنَ الْوَعِيدِ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ فِي إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ. كَمَا أَنَّ الْهَمَّازَ قَدْ أَخَذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ بَعْضَ صِفَاتِهِمُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٩٨]، فَالْهَمَّازُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَطْعَنُ بَنِي آدَمَ بِالصَّرْعِ وَالْمَسِّ، وَالْهَمَّازُ مِنَ الْبَشَرِ يَطْعَنُ أَخَاهُ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ.

وَالْهَمَّازُ قَدْ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [الْقَلَم: ١٠، ١١].

وَإِذَا فَشَتِ السُّخْرِيَةُ فِي النَّاسِ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ، وَعَيَّرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَتَنَافَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْحَلَّتْ رَوَابِطُهُمْ، فَتَعَادَوْا وَتَهَاجَرُوا، وَتَدَابَرُوا وَتَبَاغَضُوا، وَلَمْ يَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ وَلِذَا نَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنِ التَّنَابُزِ بِالْأَلْقَابِ، وَالتَّنَادِي بِالْعُيُوبِ وَالمَعَايِرِ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الْحُجُرَات: ١١].

قَالَ أَبُو جُبَيْرَةَ بْنُ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه: «فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَنِي سَلِمَةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الْحُجُرَات: ١١] قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: يَا فُلَانُ، فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الِاسْمِ، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

وَلَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه رَجُلًا بِأُمِّهِ غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ**

---

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الألقاب (٤٩٦٢)، والنسائي في الكبرى (١١٥١٦)، وأحمد (٤/ ٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٩) رقم (٩٦٨)، والضياء في المختارة (٨١)، وصححه الحاكم (٤/ ٣١٤).

بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

وَلَمَّا عَابَتْ عَائِشَةُ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا، وَبَيَّنَ لَهَا عَظِيمَ مَا فَعَلَتْ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا -تَعْنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: **لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ: **مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٨).

وَالسُّخْرِيَةُ سَبَبٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْخُصُومَاتِ، وَقَدْ يَنْتِجُ عَنْهَا سِبَابٌ وَاعْتِدَاءٌ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْمُقَاتَلَةِ؛ لِأَنَّ السَّاخِرَ قَدْ يَتَمَادَى فِي سُخْرِيَتِهِ، فَلَا يَحْتَمِلُ أَخُوهُ مِنْهُ سُخْرِيَتَهُ، فَيَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ. وَكَمْ مِنْ خُصُومَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ أَضَرَّتْ بِأَصْحَابِهَا وَلَرُبَّمَا كَانَ فِيهَا قَاتِلٌ وَمَقْتُولٌ كَانَتْ شَرَارَتُهَا الْأُولَى اسْتِهْزَاءَ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ بِالْآخَرِ، نَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي نَارِهَا حَتَّى آلَتْ بِأَصْحَابِهَا إِلَى الْمُقَاتَلَةِ!!

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ بَابٌ مِنَ الشَّرِّ عَظِيمٌ، يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَيَمْلَأُ الْقُلُوبَ ضَغَائِنَ وَأَحْقَادًا وَعَدَاوَاتٍ، وَيَكْفِي رَادِعًا عَنِ السُّخْرِيَةِ بِالْآخَرِينَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ، وَيَتَوَقَّى فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ،

(٧) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، والبيهقي (٨/ ٧).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: إسحاق بن راهويه (٤٩٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٣٤٣).

(٨) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الغيبة (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥١)، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥٠٢-٢٥٠٣)، وأحمد (٦/ ١٨٩).

وَيَحْذَرَ سَبِيلَ الْهَمَّازِينَ اللَّمَّازِينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَنْجُوَ مَعَ النَّاجِينَ، وَلَا يَهْلِكَ مَعَ الْهَالِكِينَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ- يَتَوَقَّوْنَ عَيْبَ غَيْرِهِمْ وَقَدْحَهُمْ، وَالسُّخْرِيَةَ بِهِمْ، وَالْحَطَّ مِنْهُمْ؛ حِفَاظًا عَلَى الْأُخُوَّةِ، وَتَأْلِيفًا لِلْقُلُوبِ، وَخَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ، وَحَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي عُيُوبِ أَهْلِ الْعُيُوبِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، حَتَّى نُقِلَ عَنْهُ قَوْلُهُ: «لَوْ سَخِرْتُ مِنْ كَلْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ كَلْبًا»(٩)، وَكَانَ رضي الله عنه يَقُولُ: «الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ

(٩) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٤١)، وهناد في الزهد (١١٩٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣١)، وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ١٧٩).

بِالْقَوْلِ» رَوَاهُمَا ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ(١٠).

وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَرْضَعُ شَاةً فِي الطَّرِيقِ فَسَخِرْتَ مِنْهُ خِفْتُ أَنْ لَا أَمُوتَ حَتَّى أَرْضَعَهَا» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ(١١).

وَاجْتَمَعَ الْكِسَائِيُّ وَالْيَزِيدِيُّ عِنْدَ الرَّشِيدِ، فَحَضَرَتْ صَلَاةٌ يُجْهَرُ فِيهَا، فَقَدَّمُوا الْكِسَائِيَّ يُصَلِّي، فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فِي قِرَاءَةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فَلَمَّا أَنْ سَلَّمَ قَالَ الْيَزِيدِيُّ: قَارِئُ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُرْتَجُ عَلَيْهِ فِي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَحَضَرَتْ صَلَاةٌ يُجْهَرُ فِيهَا، فَقَدَّمُوا الْيَزِيدِيَّ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ (الْحَمْدُ)، فَلَمَّا أَنْ سَلَّمَ قَالَ:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فَتُبْتَلَى إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ(١٢)

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرَى الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ»(١٣).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا عَابَ رَجُلٌ رَجُلًا قَطُّ بِعَيْبٍ إِلَّا ابْتَلَاهُ اللهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْعَيْبِ»(١٤)، وَهَذَا وَاقِعٌ مَشَاهَدٌ، وَقَدْ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ، فَيَسْخَرُ مِنْ شَخْصٍ فِي صِفَةٍ اتَّصَفَ بِهَا، أَوْ فِعْلَةٍ فَعَلَهَا، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَفْعَلُ مِثْلَ فِعْلَتِهِ، وَيَتَخَلَّقُ بِصِفَتِهِ الَّتِي عَابَهَا مِنْهُ، أَوْ ضَحِكَ بِسَبَبِهَا عَلَيْهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ

---

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣١)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٩٦٣)، وهناد في الزهد (١١٩٣).

وجاء مرفوعًا من طرق كثيرة لا يصح منها شيء، والصحيح موقوف.

(١١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٠)

(١٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (١١/ ٤٠٨).

(١٣) أخرجه هناد (١١٩٢)، والبيهقي في الشعب (٦٧٧٥).

(١٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٧٦).

عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، فَإِنْ لَمْ تَصُبْهُ أَصَابَتْ وَلَدَهُ حَتَّى يَرَاهَا فِيهِ، وَهَذَا جَزَاءٌ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

إِنَّ السُّخْرِيَةَ بِالنَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الِانْحِرَافُ قَدْ أَضْحَتْ فَنًّا مِنَ الْفُنُونِ يُسَوَّقُ لَهُ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِيمَا يُسَمَّى بِفَنِّ الْفُكَاهَةِ أَوِ الْكُومِيدْيَا، يَتَقَمَّصُ فِيهِ الْمُمَثِّلُونَ شَخْصِيَّاتِ مَنْ يُرِيدُونَ السُّخْرِيَةَ بِهِمْ فِي هَيْئَاتِهِمْ أَوْ طَرِيقَةِ كَلَامِهِمْ أَوْ أَفْعَالِهِمْ؛ لِيُضْحِكُوا النَّاسَ فِي كَرَاسِيِّ الْمَسَارِحِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الشَّاشَاتِ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى السُّخْرِيَةِ مِنَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ وَأَهْلِهِ؛ لِصَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَتَنْفِيرِهِمْ مِنْهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ.

وَلَا تَسْلَمُ الصُّحُفُ وَالْمَجَلَّاتُ مِنْ وَبَاءِ السُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ فِيمَا يُسَمَّى بِالْكَارِيكَتِيرِ وَالْمَقَالَاتِ السَّاخِرَةِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ غَمْزِ أَشْخَاصٍ وَلَمْزِهِمْ وَإِضْحَاكِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَيَزْعُمُ أَصْحَابُ هَذِهِ التَّوَجُّهَاتِ السَّاخِرَةِ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ النَّقْدِ الْهَادِفِ، وَمُحَاوَلَةِ الْإِصْلَاحِ، وَلَا يَدْرِي الْعُقَلَاءُ كَيْفَ يَكُونُ الْإِصْلَاحُ فِي السُّخْرِيَةِ مِنَ النَّاسِ؟!

وَثَمَّةَ أَشْخَاصٌ مُتَخَصِّصُونَ فِي صُنْعِ النَّوَادِرِ وَالنُّكَتِ عَلَى أَقْوَامٍ بِالْبُخْلِ أَوْ قِلَّةِ الْمُرُوءَةِ، وَعَلَى آخَرِينَ بِالْجَشَعِ وَالطَّمَعِ، وَعَلَى غَيْرِهِمْ بِالْغَبَاءِ وَالْغَفْلَةِ، وَهَكَذَا دَوَالَيْكَ . . . لَا يَتْرُكُونَ قَبِيلًا مِنَ النَّاسِ، أَوْ بَلَدًا مِنَ الْبُلْدَانِ إِلَّا أَبْرَزُوا بَعْضَ عُيُوبِ أَفْرَادِهِ وَعَمَّمُوهَا عَلَى جَمِيعِهِمْ فِي طَرَائِفَ وَنُكَتٍ يَبُثُّونَهَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ السُّخْرِيَةِ لَا تَكَادُ أَرْضٌ تَخْلُو مِنْهُ، فَأَهْلُ كُلِّ بُقْعَةٍ يَخْتَرِعُونَ النَّوَادِرَ عَلَى جِيرَانِهِمْ، سَاخِرِينَ مِنْهُمْ، مُقَلِّلِينَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَتَكْثُرُ فِي أَهْلِ الْقُرَى وَالْمُدُنِ الصَّغِيرَةِ الْمَعَايِرُ، حَتَّى لَا يُعْرَفَ الْوَاحِدُ بِاسْمِهِ أَوْ بِكُنْيَتِهِ بَلْ يُعْرَفُ بِمَا يُعَيِّرُهُ النَّاسُ بِهِ.

وَقَدْ يَسْخَرُ بَعْضُ النَّاسِ بِخَدَمِهِمْ وَعُمَّالِهِمْ، وَقَدْ يَسْخَرُ المُدَرِّسُ بِبَعْضِ طُلَّابِهِ، وَالمُدِيرُ بِبَعْضِ مُوَظَّفِيهِ، وَقَدْ تَسْخَرُ الرَّعَايَا بِرَاعِيهَا، وَالرُّؤَسَاءُ بِشُعُوبِهَا، وَقَدْ يَسْخَرُ أَفْرَادُ المُجْتَمَعِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَكُونُ سُخْرِيَتُهُمْ لَهُمْ بِتَقْلِيدِ أَصْوَاتِهِمْ، أَوْ مُحَاكَاةِ مَا يُضْحِكُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، أَوْ إِظْهَارِ مَعَايِبِهِمْ، أَوْ تَعْيِيرِهِمْ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ هَمْزٍ أَوْ لَمْزٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ إِيمَاءٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ يَسْخَرُونَ بِغَيْرِهِمْ فِي لِسَانِهِمْ أَوْ جِنْسِهِمْ أَوْ لَوْنِهِمْ أَوْ قَبَائِلِهِمْ أَوْ حِرَفِهِمْ أَوْ عَادَاتِهِمْ أَوْ صِفَاتِهِمْ حَتَّى تَغْلِبَ السُّخْرِيَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَتَكُونَ دَيْدَنَهُمْ، وَلَا يُنْكِرُهَا عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ!!

وَقَدْ تُخَصُّ السُّخْرِيَةُ بِمَجَالِسَ وَبَرَامِجَ يَتَمَتَّعُ فِيهَا رُوَّادُهَا وَمُشَاهِدُوهَا بِالْهُزْءِ بِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، وَالضَّحِكِ عَلَيْهِمْ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي عَصْرِنَا هَذَا!! وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ جَوَابَ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «**الْفَمُ وَالْفَرْجُ**»(١٥). وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**» رَوَاهُمَا التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُمَا(١٦).

فَرَحِمَ اللهُ عَبْدًا حَفِظَ لِسَانَهُ عَنِ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالسُّخْرِيَةِ بِالنَّاسِ، وَاشْتَغَلَ

(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في النكاح، باب ماجاء في حسن الخلق، وقال: صحيح غريب (٢٠٠٤)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٤)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، وصححه ابن حبان (٤٧٦)، والحاكم (٤/ ٣٦٠).

(١٦) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال: حسن صحيح (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣٦٠٥).

بِعُيُوبِ نَفْسِهِ عَنْ عُيُوبِ غَيْرِهِ «وَالْمُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١٧)، وَلِلَّهِ دَرُّ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حِينَ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ مِنْهُ الْخَلْقُ رَضِيَ عَنْهُ الرَّبُّ»(١٨).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(١٧) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: البخاري في الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٠).

(١٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٨٣).

٢٨٨- من حقوق البنات على آبائهن

١٣/ ٥/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، وَأَلْزَمَ عِبَادَهُ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَرْشَدَ وَهَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَسْدَى وَأَعْطَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِلَيْهِ تُرْفَعُ الشَّكْوَى، وَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ نَجْوَى، وَإِلَيْهِ المَآبُ والرُّجْعَى، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْعَبْدُ المُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ المُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَ هَدْيَهُمْ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَأَدُّوا مَا عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَمَانَاتِ، وَتَخَلَّصُوا مِنَ الْحُقُوقِ؛ فَإِنَّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَوْقُوفُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، وَعَنْ أَمَانَاتِكُمْ مَسْئُولُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ جَعَلَ تَنَاسُلَهُمْ وَتَكَاثُرَهُمْ بِالْمُزَاوَجَةِ بَيْنَ ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ عَامَّةٌ فِي الإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَكَاثَرَهُمْ بِغَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ سُبْحَانَهُ اقْتَضَتْ الْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ النَّوعَيْنِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ مَا نَعْلَمُهُ وَمَا لَا نَعْلَمُهُ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وَالنَّوعُ الْأَقْوَى دَائِمًا هُوَ الذَّكَرُ، وَالْأُنْثَى هِيَ الْأَضْعَفُ فِي كُلِّ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ نُوعٍ مِنْهُمَا مُحْتَاجٌ إِلَى الآخَرِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِاتِّفَاقِهِمَا وَتَزَاوُجِهِمَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَضْعَفَ مِنَ الرَّجُلِ كَانَتْ مُسْتَضَامَةً عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ

مِنْ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَكَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَئِدُونَ الْبَنَاتِ؛ لأَنَّهُنَّ لَا يَمْتَطِينَ الْجِيَادَ، وَلَا يُقَاتِلْنَ الْأَعْدَاءَ، وَلَا يَكْتَسِبْنَ المَالَ، وَلَا يَدْفَعْنَ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ أَيَّ اعْتِدَاءٍ؛ فَرَآهُنَّ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ عِبْئًا وَعَارًا ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التَّكوير: ٨، ٩].

وَإِزَاءَ هَذَا الضَّعْفِ فِي المَرْأَةِ ٱلَّذِي اتَّسَمَتْ بِهِ خِلْقَتُهَا، وَاسْتُبِيحَ بِسَبَبِهِ حِمَاهَا، وَسُلِبَ مِنْهَا حَقُّهَا؛ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِمَا يُعَزِّزُ مَوْقِفَهَا، وَيُعْلِي مَكَانَتَهَا، وَيَحْفَظُ لَهَا حَقَّهَا؛ فَعَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَظْرَتَهُمْ لِلْبَنَاتِ، وَشُؤْمَهُمْ مِنْهُنَّ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَزْكَى الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ ﷺ مَا عَاشَ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا الْبَنَاتُ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ ٱلفَخْرِ لِلْبَنَاتِ، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِمَنْ لَمْ يُرْزَقْ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا بَنَاتٌ.

وَلَمَّا كَانَ الْبَنَاتُ هُنَّ الْأَضْعَفَ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَسْتَبْشِرُونَ بِالْأَبْنَاءِ أَكْثَرَ مِنَ اسْتِبْشَارِهِمْ بِالْبَنَاتِ؛ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ الْغَرَّاءَ رَتَّبَتْ مِنَ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ عَلَى رِعَايَةِ الْبَنَاتِ، وَرَحْمَتِهِنَّ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ فِي حَقِّ الْأَبْنَاءِ، وَاخْتَصَّتِ الْبَنَاتِ بِنُصُوصٍ كَثِيرَةٍ فِي ذَلِكَ:

فَمَنْ رُزِقَ بَنَاتٍ وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُنَّ، وَٱلْقِيَامَ عَلَيْهِنَّ، نُجِّيَ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِهِنَّ بَعْدَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُشِرَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَدْخَلَهُ بَنَاتُهُ الْجَنَّةَ، وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ ٱلْبَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(١).

---

(١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في الزكاة باب «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» والقليل من الصدقة (١٣٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، وَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ»(٢).

وَفِي حَدِيثٍ ثَالِثٍ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُدْرِكُهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ صُحْبَتَهُمَا إِلَّا أَدْخَلَتَاهُ الجَنَّةَ»(٣).

وَفِي رَابِعٍ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ الْبَتَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ: وَثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَثِنْتَيْنِ»(٤).

وَفِي خَامِسٍ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»(٥)، وَكُلُّهَا أَحَادِيثُ ثَابِتَةٌ، وَبَعْضُهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ.

---

(٢) أخرجه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: ابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنت (٣٦٦٩)، وأحمد (٤/ ١٥٤)، وأبو يعلى (١٧٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٩) رقم (٨٢٦)، والبيهقي في الشعب (٨٦٨٨)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٩)، وصححه البوصيري في زوائد ابن ماجه (٤/ ١٠١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه (٣٦٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٧)، وأحمد (١/ ٣٦٣)، وأبو يعلى (٢٥٧١)، والبيهقي في الشعب (٨٦٨٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٣٧) رقم (١٠٨٣٦)، وصححه ابن حبان (٢٩٤٥)، والحاكم (٤/ ١٩٦)، والضياء في المختارة (٤٥١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٢١)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٠١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: حسن لغيره (٥٧).

(٤) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أحمد (٣/ ٣٠٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨)، والبيهقي في الشعب (١١٠٢٥)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وإسناد أحمد جيد (٨/ ١٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٨)، وذكره في الصحيحة (٢٩٤-٢٤٩٢).

(٥) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة، باب الإحسان إلى البنات (٢٦٣١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَحْصُرُ الْإِعَالَةَ وَالْإِحْسَانَ لِلْبَنَاتِ فِي الْجَوَانِبِ الْحِسِّيَةِ مِنَ المَأْكَلِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَنَحْوِهِ، وَيُغْفِلُ جَوَانِبَ الْعَطْفِ وَالْحَنَانِ، وَالْحَاجَاتِ الْقَلْبِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، مِنَ الْجُلُوسِ مَعَهُنَّ، وَالتَّبَسُّمِ لَهُنَّ، وَالْحَدِيثِ إِلَيْهِنَّ، وَالْإِنْصَاتِ لِحَدِيثِهِنَّ، وَتَلَمُّسِ حَاجَاتِهِنَّ، وَمُعَالَجَةِ مَشَاكِلِهِنَّ، حَتَّى تَسَرَّبَتْ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ عَادَاتُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فَلَا يَأْكُلُ مَعَ نِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ مُنَافٍ لِرُجُولَتِهِ، قَادِحٌ فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَلَا يَحْظَى بِمُجَالَسَتِهِ وَمُؤَاكَلَتِهِ وَمُبَاسَطَتِهِ إِلَّا الذُّكُورُ مِنْ وَلَدِهِ دُونَ الْإِنَاثِ؛ وَهَذَا مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْأَوْلَادِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَالْعَدْلُ فِي هَذَا وَاجِبٌ مِثْلُ الْعَدْلِ فِي النَّفَقَةِ إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَهَمَّ وَأَوْلَى مِنَ الْعَدْلِ فِي النَّفَقَةِ؛ لِمَسِيسِ حَاجَاتِ الْبَنَاتِ لِمِثْلِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالرِّعَايَةِ.

وَمَا ضُحِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بَنَاتِ المُسْلِمِينَ حَتَّى وَقَعْنَ فِي المَعْصِيَةِ وَالْعَارِ إِلَّا بَعْدَ خُلُوِّ بُيُوتِهِنَّ مِنْ تِلْكَ الرِّعَايَةِ، فَبَحَثْنَ عَنْهَا فِي غَيْرِ بُيُوتِ آبَائِهِنَّ؛ فَاصْطَادَهُنَّ ذِئَابٌ لَا يَرْقُبُونَ فِي حُرُمَاتِ المُسْلِمِينَ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِنَّ مَا كَانَ.

وَمِنَ الْخَطَلِ فِي الرَّأْيِ وَالْخَطَإِ فِي الْفَهْمِ أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنْ هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ فِي رِعَايَةِ الْبَنَاتِ وَإِعَالَتِهِنَّ الَّذِي أَخْبَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ يَنَالُهُ مَنْ قَصَّرَ فِي تَرْبِيَةِ بَنَاتِهِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ فَتَحَ لَهُنَّ أَبْوَابَ المَعْصِيَةِ، فَلَا عَلَّمَهُنَّ أَحْكَامَ الْحَيْضِ وَالطَّهَارَةِ، وَلَا أَمَرَهُنَّ بِالصَّلَاةِ وَالطَّاعَةِ، وَلَا بَيَّنَ لَهُنَّ أَهَمِّيَّةَ الْعَفَافِ وَالطُّهْرِ وَالْحَصَانَةِ.. وَلَمْ يُرَاقِبْ حِجَابَهُنَّ، وَلَا يُبَالِي أَيَّ لِبَاسٍ يَلْبَسْنَ، وَلَا يَسْأَلُ: مَعَ مَنْ كُنَّ وَأَيْنَ ذَهَبْنَ؟ وَقَدْ مَلَأَ بَيْتَهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُوبِقَاتِ الَّتِي تُوبِقُ بَنَاتِهِ وَتُهْلِكُهُنَّ،

---

(٦) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: البخاري في الهبة وفضلها، باب الإشهاد في الهبة (٢٤٤٧)، ومسلم في الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٦٢٣).

مِنْ فَضَائِيَّاتٍ سَاقِطَةٍ، وَأَشْرِطَةٍ مَاجِنَةٍ، وَمَجَلَّاتٍ هَابِطَةٍ، تُثِيرُ الشَّهَوَاتِ وَلَا تُشْبِعُ الْعَوَاطِفَ، وَتُحَرِّكُ الْغَرَائِزَ وَلَا تُنَمِّي الْعُقُولَ، وَتَدْعُو إِلَى الْمَعَاصِي، بَلْ تُؤَصِّلُ لِلْمَعْصِيَةِ وَالْكُفْرِ بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ، وَعَنَاوِينَ خَادِعَةٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْحُبِّ خَارِجَ إِطَارِ الزَّوْجِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا غَزَا أَكْثَرَ الْبُيُوتِ، وَفَتَكَ بِقُلُوبِ كَثِيرٍ مِنْ بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ.

أَوَيَظُنُّ مُسْلِمٌ أَنْ يَحْظَى بِهَذَا الْأَجْرِ فِي إِعَالَةِ بَنَاتِهِ وَقَدْ أَشْبَعَ بُطُونَهُنَّ وَأَهْمَلَ عُقُولَهُنَّ، وَأَلْهَبَ غَرَائِزَهُنَّ وَلَمْ يُشْبِعْ عَوَاطِفَهُنَّ، قَدِ اهْتَمَّ بِأُمُورِ دُنْيَاهُنَّ وَلَمْ يُبَالِ بِأَعْمَالِ أُخْرَاهُنَّ؟!

كَيْفَ يَظُنُّ مُسْلِمٌ ذَلِكَ وَهُوَ يَرى أَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ ذَكَرَتْ أَوْصَافًا لِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْبَنَاتِ؛ فَفِي حَدِيثٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَيُحْسِنُ صُحْبَتَهُمَا**»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ**» فَهَلْ أَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ مَنْ ضَيَّعَ عَلَيْهِنَّ الدِّينَ وَاكْتَفَى لَهُنَّ بِالدُّنْيَا؟ وَهَلْ رَحِمَهُنَّ مَنْ جَلَبَ لَهُنَّ أَسْبَابَ الْعَذَابِ وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ؟ وَتَأَمَّلُوا قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُؤْوِيهِنَ وَيَكْفِيهِنَّ**»، وَالْإِيوَاءُ وَالْكِفَايَةُ لَهَا قَدْرٌ مُحَدَّدٌ، لَا يَنْزِلُ عَنْهُ فَيَحْتَجْنَ إِلَى غَيْرِهِ وَهُوَ أَبُوهُنَّ وَرَاعِيهِنَّ، وَلَا يَتعدَّاهُ فَيُفْسِدُهُنَّ وَيُبْطِرُهُنَّ، فَإِنْ قَصَّرَ عَنْ هَذَا الْحَدِّ مَا كَانَ مُؤْوِيًا لَهُنَّ وَلَا كَافِيًا، وَإِنْ تَجَاوَزَهُ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّرَفِ مِمَّا يَحِلُّ وَمَا يَحْرُمُ فَقَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْإِيوَاءِ وَالْكِفَايَةِ إِلَى الطُّغْيَانِ وَالْإِفْسَادِ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ مَذْمُومٌ.

فَإِذَا عَمِلَ فِيهِنَّ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَامَ عَلَيْهِنَّ خَيْرَ قِيَامٍ حَتَّى يُزَوِّجَهُنَّ بِالْأَكْفَاءِ فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَالْتَزَمَ الدِّيَانَةَ، وَاسْتَحَقَّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا رُتِّبَ عَلَى رِعَايَةِ الْبَنَاتِ مِنْ أُجُورٍ عَظِيمَةٍ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَأَكْبَرِ الْبَغْيِ، وَأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْقَسْوَةِ: أَنْ يَحْرِمَ بَنَاتِهِ مِنْ حَقٍّ

قَدْ قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْ جَهَلَةِ النَّاسِ، وَجُفَاةِ الرِّجَالِ بِحِرْمَانِ بَنَاتِهِمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، أَوِ التَّحَايُلِ لِإِسْقَاطِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَنْ يُسَجِّلَ أَمْلَاكَهُ بِاسْمِ أَبْنَائِهِ دُونَ بَنَاتِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ خَتَمَ حَيَاتَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ، وَلَقِيَ اللهَ تَعَالَى بِظُلْمٍ عَظِيمٍ لِبَنَاتِهِ، وَقَدْ خَلَقَهُنَّ اللهُ تَعَالَى ضِعَافًا، وَأَوْصَى بِهِنَّ، فَضَيَّعَ بِجَهْلِهِ وَعَصَبِيَّتِهِ وَصِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِنَّ، وَانْحَازَ إِلَى الْأَقْوِيَاءِ مِنْ وَلَدِهِ، وَأَعْطَاهُمْ حَقَّ الضُّعَفَاءِ، وَلَعَلَّهُ لَا يُحْسِنُ إِلَيْهِ فِي كِبَرِهِ وَضَعْفِهِ، وَلَا يَدْعُو لَهُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا بَنَاتُهُ.

وَأَعْظَمُ ظُلْمًا مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَعْضُلَ بَنَاتِهِ، فَلَا يُزَوِّجُهُنَّ الْأَكْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ إِمَّا عَصَبِيَّةً لِعَشِيرَتِهِ؛ فَبَنَاتُهُمْ لَا تُزَوَّجُ مِنْ غَيْرِ أَبْنَاءِ الْعَشِيرَةِ، وَلَيْسَ فِي عَصَبَتِهِ كُفْؤٌ يَرْضَاهُ عَاقِلٌ لِابْنَتِهِ، فَإِمَّا زَوَّجَهَا بِغَيْرِ كُفْءٍ لَهَا فَظَلَمَهَا، أَوْ تَرَبَّصَ إِلَى أَنْ تُنْتِجَ عَشِيْرَتُه كُفْئًا لَهَا، وَقَدْ يَأْتِي وَقَدْ لَا يَأْتِي حَتَّى يَشِيبَ رَأْسُهَا.

أَوْ كَانَ أَبُوهَا مَرِيضًا بِالْعَظَمَةِ فَيَرُدُّ عَنْهَا الْخَاطِبِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَمْلَئُوا عَيْنَهُ، وَلَا أَحَدَ يَمْلَأُ عَيْنَهُ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ فِيهِ لَا فِيهِمْ، وَالرَّجُلُ الْعَاقِلُ لَا يَطْلُبُ المَعَالِيَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ، بَلْ يَنْشُدُ سِتْرَهُنَّ وَسَعَادَتَهُنَّ.

أَوْ يَمْنَعُهَا الزَّوَاجَ لِأَنَّهُ أَهْدَاهَا فِي صِغَرِهَا لِأَحَدِ أَبْنَاءِ عَمِّهِ وَهِيَ لَا تُرِيدُهُ، فَيَرْكَبُ رَأْسَهُ؛ لِئَلَّا يُقَالَ: قَدْ رَضَخَ لِرَأْيِ النِّسَاءِ، فَيُعَذِّبَ نَفْسَهُ وَابْنَتَهُ لِعِزَّةٍ يَتَوَهَّمُهَا، وَهِيَ عَيْنُ الذُّلِ وَالْإِهَانَةِ؛ إِذْ كَيْفَ يَبْتَزُّهُ الْآخَرُونَ فِي بَنَاتِهِ، فَلَا رَأْيَ لَهُ فِيهِنَّ، بَلِ الرَّأْيُ رَأْيُهُمْ!!

أَوْ يَمْنَعُهَا الزَّوَاجَ يُرِيدُ بَيْعَهَا لِذَوِي المَالِ وَالْجَاهِ كَمَا تُبَاعُ السِّلَعُ، حَتَّى إِذَا قَبَضَ ثَمَنَهَا، وَقَضَى الْغَنِيُّ حَاجَتَهُ مِنْهَا؛ رَمَى بِهَا مُهَانَةً ذَلِيلَةً حَزِينَةً، فَهَلْ هَذَا أَبٌ يَرْحَمُ؟! كَيْفَ وَمَهْرُهَا مَهْمَا بَلَغَ حَقٌّ لَهَا لَا لِأَبِيهَا، وَلَهَا أَنْ تَتَنَازَلَ عَمَّا شَاءَتْ مِنْهُ لِزَوجِهَا؟!

أَوْ كَانَتْ تَعْمَلُ وَيَأْخُذُ أَبُوهَا أَجْرَهَا فَيَحْبِسُهَا، وَيَرُدُّ الْأَكْفَاءَ عَنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ. وَرُبَّمَا كَانَ صَفِيقَ الْوَجْهِ، قَلِيلَ الْحَيَاءِ، يُعَلِّلُ فِعْلَتَهُ الشَّنِيعَةَ فِي بَنَاتِهِ بِمَا مَضَى مِنْ نَفَقَتِهِنَّ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِنَّ بِحَقٍّ أَوْجَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ، فَيَحْرِمُ بَنَاتِهِ أَعْظَمَ لَذَّةٍ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ الزَّوَاجُ وَطَلَبُ الْوَلَدِ، وَقَدْ تَمَتَّعَ هُوَ مِنْ قَبْلُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَأَيُّ فَرْدِيَّةٍ تِلْكَ؟ وَأَيُّ قُلُوبٍ قُدَّتْ مِنْ حَجَرٍ قُلُوبُ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ؟

وَإِذَا خَطَبَهَا خَاطِبٌ وَجَبَ عَلَى أَبِيهَا أَنْ يَتَحَرَّى عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْ دِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ، ثُمَّ يَعْرِضُ الْأَمْرَ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ الْخَاطِبُ مِمَّنْ يُرْضَى دِينُهُ وَأَخْلَاقُهُ، وَلَا يُكْرِهُهَا عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ لَهَا، وَالْقَوْلُ قَوْلُهَا، وَهِيَ مَنْ تَتَحَمَّلُ نَتِيجَةَ اخْتِيَارِهَا، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ.** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: **أَنْ تَسْكُتَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَعْضُلَهَا، وَالْعَضْلُ: هُوَ مَنْعُ الْمَرْأَةِ مِنَ التَّزْوِيجِ بِكُفْئِهَا إِذَا طَلَبَتْ ذَلِكَ، وَرَغِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الْبِنْتَ إِنْ رَغِبَتْ فِي كُفْءٍ بِعَيْنِهِ، وَأَرَادَ أَبُوهَا تَزْوِيجَهَا بِغَيْرِهِ مِنْ أَكْفَائِهَا، وَأَبَى تَزْوِيجَهَا مِنَ الَّذِي أَرَادَتْهُ كَانَ عَاضِلًا لَهَا، فَأَمَّا إِنْ طَلَبَتِ التَّزْوِيجَ بِغَيْرِ كُفْئِهَا فِي دِينٍ أَوْ خُلُقٍ فَلَهُ مَنْعُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ عَاضِلًا لَهَا بِهَذَا(٨).

وَإِذَا رَأَى الرَّجُلُ عُزُوفًا مِنْ بَنَاتِهِ عَنِ الزَّوَاجِ لِأَجْلِ الدِّرَاسَةِ أَوِ الْوَظِيفَةِ ذَكَّرَهُنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَوَعَظَهُنَّ بِكِتَابِهِ، وَبَيَّنَ لَهُنَّ خُطُورَةَ رَدِّ الْأَكْفَاءِ مِنَ الرِّجَالِ،

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها (٤٨٤٣)، ومسلم في النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤١٩).

(٨) المغني لابن قدامة (٧/ ٢٤).

وَأَخْبَرَهُنَّ أَنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ إِنْ رَدَّتْ كُفْئًا يُرْضَى دِينُهُ وَخُلُقُهُ فَقَدْ تُعَاقَبُ بِالْحِرْمَانِ مِنْ مِثْلِهِ؛ حَتَّى لَا يَأْتِيَهَا مُسْتَقْبَلًا إِلَّا غَيْرُ كُفْءٍ لَهَا، وَإِذَا اشْتُهِرَ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ آلَ فُلَانٍ يَرُدُّونَ الْأَكْفَاءَ عَنْ بَنَاتِهِمْ أَحْجَمُوا عَنْهُمْ، وَهَذَا وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ، وَكَمْ رَاحَ ضَحِيَّتَهُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَرْغَبُ الشَّبَابُ فِي مِثْلِهِنَّ مِنْ بَنَاتِ النَّاسِ، لَوْلَا هَذَا التَّصَرُّفُ الْخَطَأُ؟!

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»(٩)، فَمَنْ يَرْضَى مِنَ الْآبَاءِ، وَمَنْ يَرْضَى مِنَ الْبَنَاتِ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ الْعَرِيضِ؟!

وَالْوَظِيفَةُ وَالدِّرَاسَةُ لَيْسَتْ تَمْنَعُ مِنَ الزَّوَاجِ؛ إِذْ سَتَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مَعَ وَظِيفَتِهَا وَدِرَاسَتِهَا، وَلَوْ قُدِّرَ التَّعَارُضُ فِي ذَلِكَ قُدِّمَتْ مَصْلَحَةُ زَوَاجِهَا عَلَى وَظِيفَتِهَا وَدِرَاسَتِهَا؛ لِأَنَّهُ بِزَوَاجِهَا يُنْفِقَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى الْوَظِيفَةِ، لَكِنْ إِنْ فَاتَهَا الزَّوَاجُ لِكِبَرِهَا، وَرَغْبَةِ الرِّجَالِ عَنْهَا؛ لَمْ تَهَبْ لَهَا وَظِيفَتُهَا زَوْجًا وَوَلَدًا.

وَإِذَا طُلِّقَتِ الْبِنْتُ وَعَادَتْ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُعَيِّرَهَا بِطَلَاقِهَا، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهَا؛ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ تَعَالَى لَهَا سَبِيلًا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ عِدَّتِهَا، وَعَادَ إِلَيْهَا مُطَلِّقُهَا يُرِيدُ نِكَاحَهَا مَرَّةً أُخْرَى فَالْقَوْلُ قَوْلُهَا،

---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه (١٠٨٤)، وابن ماجه في النكاح باب الأكفاء (١٩٦٧)، وصححه الحاكم (٢/ ١٧٩)، ورجح البخاري فيما نقله عنه الترمذي إرساله عن عبد الله بن هرمز عن النبي ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.
وجاء أيضًا من حديث أبي حاتم المزني عند: البيهقي (٧/ ٨٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٩٩) رقم (٧٦٢).

فَإِنْ أَرَادَتْهُ فَلَيْسَ لِأَبِيهَا أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْهُ بِحُجَّةِ أَنَّهُ طَلَّقَهَا المَرَّةَ الْأُولَى، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ نَزَلَتْ آيَةُ الْعَضْلِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ قَالَ: «حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَأَفْرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا! لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ»(١٠)، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ مَعْقِلٌ رضي الله عنه: «سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً، فَدَعَا زَوْجَهَا فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ»(١١)، وَفِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ يَقُولُ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «عَلِمَ اللهُ تَعَالَى حَاجَةَ الرَّجُلِ إِلَى امْرَأَتِهِ، وَحَاجَةَ المَرْأَةِ إِلَى زَوْجِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ»(١٢).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَى نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَبَنَاتِهِمْ سِتْرَهُ، وَأَنْ يُجَنِّبَهُنَّ طُرُقَ الْهَلَاكِ وَالرَّدَى، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



(١٠) أخرجه البخاري في النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي (٤٨٣٧).
(١١) ذكر هذه الرواية الحافظ في الفتح من رواية أبي مسلم الكجي (٩/ ١٨٧).
(١٢) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٢٦٨)، وينظر: الفتح (٩/ ١٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَيْسَ مِنَ الْعَيْبِ فِي شَيْءٍ أَنْ يَعْرِضَ الرَّجُلُ بَنَاتِهِ عَلَى الْأَكْفَاءِ تَصْرِيحًا أَوْ تَلْمِيحًا، أَوْ يُوصِيَ بِذَلِكَ مَنْ يَثِقُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْأَكْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ إِنْ رَغِبُوا فِيهِنَّ حَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِحْسَانِهِ لِبَنَاتِهِ، وَإِنْ رَغِبُوا عَنْهُنَّ مَنَعَهُمْ دِينُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ وَالثَّرْثَرَةِ، وَإِفْشَاءِ سِرِّهِ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: فَعُمَرُ عَرَضَ ابْنَتَهُ حَفْصَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ثُمَّ عَلَى عُثْمَانَ ﷺ، فَتَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ. وَعُثْمَانُ عَرَضَ ابْنَتَهُ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ كَبِيرٌ وَهِيَ صَغِيرَةٌ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا رضي الله عنهما مِنْ خِلَافٍ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ.

وَسَعِيدُ بنُ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- رَفَضَ ابْنَ الْخَلِيفَةِ وَقَدْ خَطَبَ ابْنَتَهُ، وَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ صَالِحٍ فَقِيرٍ كَانَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ عَلَى يَدَيْهِ.

وَإِنْ طُلِّقَتِ الْبِنْتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، أَوْ كَانَ أَزْوَاجُهَا يَمُوتُونَ عَنْهَا، فَلَيْسَ لِأَبِيهَا أَنْ يُعَاقِبَهَا بِمَنْعِهَا مِنَ الزَّوَاجِ؛ حَرَجًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، أَوْ خَوْفًا مِنْ شَمَاتَتِهِمْ، فَحَقُّ ابْنَتِهِ عَلَيْهِ أَوْلَى مِنْ مُرَاعَاةِ النَّاسِ، وَلَوْ أَرَادَتِ الزَّوَاجَ وَلَهَا أَوْلَادٌ فَلَهَا ذَلِكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَهَا حَقَّهَا وَلَوْ كَانَتْ كَبِيرَةَ السِّنِ، فَهِيَ أَدْرَى بِنَفْسِهَا،

وَأَعْرَفُ بِحَاجَتِهَا، وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابِيَّاتُ رَضِيَ اللهُ عنهنَّ لَا تَنْقَضِي عِدَّةُ الْوَاحِدَةِ مِنْهُنَّ إِلَّا وَتُخْطَبُ عَلَى الْفَوْرِ، وَقَدْ تزَوَّجَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ رضي الله عنها جَعْفَرًا ثُمَّ أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ عَلِيًّا رضي الله عنهم. وَكَوْنُهَا تَكُونُ زَوْجَةً ثَانِيَةً أَوْ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً خَيْرًا لَهَا مِنْ بَقَائِهَا بِلَا زَوْجٍ.

وَمَا انْتَشَرَ رَفْضُ هَذِهِ المَبَادِئِ الْأَصِيلَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ، وَطَبَّقَهَا الصَّحَابَةُ، إِلَّا لَمَّا سَادَتْ ثَقَافَةُ المُسَلْسَلَاتِ الْهَابِطَةِ، وَالمَجَلَّاتِ السَّاقِطَةِ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى حَارَبُوا تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ وَهُوَ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَلِلْمُجْتَمَعِ، وَأَلْقَوْا فِي رُوعِ المُطَلَّقَةِ عَدَمَ الزَّوَاجِ مَرَّةً أُخرَى، وَعَلَيْهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِهَا وَلَذَّتِهَا فِي طَرِيقٍ آخَرَ غَيْرِ طَرِيقِ الزَّوَاجِ، يَعْنِي: فِي الْحَرَامِ! نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ، حَتَّى وُئِدَتِ الْفَضِيلَةُ، وَانْتَشَرَتِ الرَّذِيلَةُ، وَإِنْ صَبَرَتْ فَعَلَى جَمْرٍ يُحْرِقُ قَلْبَهَا.

وَمِنْ إِحْسَانِ الرَّجُلِ إِلَى بَنَاتِهِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ فَيَبْتَسِمَ لَهُمْ، وَيُظْهِرَ حَفَاوَتَهُ بِهِمْ، وَيَحْضُرَ وَلَائِمَهُمْ، وَيَدْعُوَهُمْ هُوَ إِلَى بَيْتِهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ ذَا فَضْلٍ عَلَيْهِمْ بِتَزْوِيجِهِمْ، فَلَهُمْ فَضْلٌ عَلَيْهِ بِحِفْظِ عَوْرَةٍ لَهُ، وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ يَنْتِجُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ إِحْسَانُ الْأَزْوَاجِ إِلَى بَنَاتِهِ، وَهَذَا مَا يَطْلُبُهُ لَهُنَّ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْلَادًا وَحَفَدَةً أَنْ لَا يُظْهِرَ احْتِفَاءَهُ بِأَوْلَادِ بَنِيهِ أَكْثَرَ مِنِ احْتِفَائِهِ بِأَوْلَادِ بَنَاتِهِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَنْكَأُ فِي قُلُوبِ بَنَاتِهِ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ أَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا أَمَانَاتِكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَى بَنَاتِكُمْ كَمَا تُحْسِنُونَ إِلَى أَبْنَائِكُمْ، وَخُذُوا فِي ذَلِكَ بِآدَابِ الْإِسْلَامِ؛ فَفِي ذَلِكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

٢٨٩- الحسد .. أثره وعلاجه

٢٣/ ٥/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ صَلَاحَ الْجَسَدِ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ، وَفَسَادَهُ فِي فَسَادِهِ، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي بِهِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ بَشَرًا سَوِيًّا أَوْ يَكُونُ شَيْطَانًا مَرِيدًا، ذَلِكَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ وَالْجَوَارِحُ تَبَعٌ لَهُ، وَالْأَفْعَالُ إِنَّمَا تَصْدُرُ بِأَمْرِهِ «**أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَإِنَّ مِنْ أَشَدِّ الْأَمْرَاضِ فَتْكًا بِتِلْكَ الْمُضْغَةِ: الْحَسَدَ، الَّذِي أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

---

(١) أخرجه من حديث النعمان بن بشير ﭭ: البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي تَعْرِيفِهِ: «هُوَ تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا، سَوَاءً كَانَتْ نِعْمَةَ دِينٍ أَوْ دُنْيَا»(٢).

نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «**وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**»(٣)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ يَتَحَاسَدُوا**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَقَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رِجَالُهُ ثِقَاتٌ(٤).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: بِسَبَبِ الْحَسَدِ طُرِدَ إِبْلِيسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، حِينَمَا أَبَى السُّجُودَ لِآدَمَ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وَأُهْبِطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ حِينَمَا حَسَدَهُ إِبْلِيسُ، فَزَيَّنَ لَهُ الْمَعْصِيَةَ.

وَمِنْ جَرَّاءِ الْحَسَدِ قَتَلَ ابْنُ آدَمَ أَخَاهُ، وَلَطَّخَ الْأَرْضَ بِأَوَّلِ دَمٍ يُسْفَكُ عَلَيْهَا، وَسَنَّ الْقَتْلَ فِي بَنِي آدَمَ؛ فَهُوَ يَحْمِلُ وِزْرًا مَعَ كُلِّ دَمٍ يَسِيلُ ظُلْمًا. وَلِهَذَا قِيلَ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ ارْتُكِبَ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ وَقَعَ فِي الْأَرْضِ(٥).

---

(٢) رياض الصالحين (٢٨٩) ونقل الإجماع على تحريمه، فقال: وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة، شرح مسلم (٦/ ٩٧).

(٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر (٢٥٥٩).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٩) رقم (٨١٥٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورواته ثقات (٣/ ٣٤٧)، وأورده الألباني بسند الطبراني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٦)، وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات من رجال «التهذيب»، وفي بعضهم خلاف لا يضر؛ غير شيخ الطبراني: الحسن بن جرير الصوري، وهو من شيوخه المشهورين، ترجم له الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٤١٩) بروايته عن جمع من الثقات، وعنه نحو عشرين من الشيوخ بعضهم من الحفاظ، ووصفه الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٤٢) بـ: «الإمام المحدث» اهـ.

(٥) أخرجه من قول سفيان بن عيينة -رحمه الله تعالى-: أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٦٥٩)، وأورده غير منسوب لقائل: ابن قتيبة في عيون الأخبار (١٤٧)، والماوردي في تفسيره (٦/ ٣٦٦).

وَلَا يَقَعُ هَذَا الدَّاءُ الْخَبِيثُ إِلَّا بَيْنَ الْأَقْرَانِ فِي الْغَالِبِ، وَلَقَدْ عَمَّ وطَمَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ، بِسَبَبِ تَعْظِيمِ المَادَّةِ، وَالمَيْلِ إِلَى الشَّهْوَةِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ النَّاسِ، بَلْ شَمِلَ السَّادَةَ وَالْكُبَرَاءَ، كَمَا أَتَى عَلَى الضَّعَفَةِ وَالْفُقَرَاءِ.

أَلَا تَرَوْنَ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ وَالْجَاهِ وَالمَنَاصِبِ يَتَحَاسَدُونَ؟ يَطَأُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَتَكْثُرُ المَكَائِدُ وَالْحِيَلُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتُسْرِعُ الْوِشَايَةُ فِي أَوْسَاطِهِمْ، وَالْحَاذِقُ الْفَطِنُ مَنْ يُسْقِطُ صَاحِبَهُ، وَيَعْتَلِي المَجْدَ عَلَى كَتِفَيْهِ، بَعِيدًا عَنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحَذَرِ مِنْ مَكْرِهِ، فَذَلِكَ أَمْرٌ لَا يُؤْبَهُ بِهِ عِنْدَهُمْ.

وَكَمَا يَنْتَشِرُ الْحَسَدُ فِي هَؤُلَاءِ؛ فَالْأَغْنِيَاءُ وَأَهْلُ الثَّرَوَاتِ لَيْسُوا عَنْهُمْ بِبَعِيدٍ، يَظْهَرُ ذَلِكَ حِينَمَا تُطْرَحُ المُنَاقَصَاتُ، أَوْ يُعْلَنُ عَنْ فَتْحِ أَسْوَاقٍ جَدِيدَةٍ، فَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا، وَلَا يَكْفِيهِمُ التَّنَافُسُ، بَلْ يَتَحَاسَدُونَ وَيَتَنَاجَشُونَ وَيَتَبَاغَضُونَ، سَالِكِينَ فِي تَحْقِيقِ المَكَاسِبِ، وَمُضَاعَفَةِ الْأَرْبَاحِ كُلَّ طَرِيقٍ مِنَ الْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ وَالرَّشْوَةِ وَالْخِدَاعِ، وَحِينَمَا يَعْلُو اسْمٌ فِي السُّوقِ، وَيُوَفَّقُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فِي تِجَارَتِهِ يَغْتَمُّونَ لِذَلِكَ، وَفِي عِرْضِهِ يَقَعُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا تَحَاسُدُ الْعَامَّةِ فَعَلَى قَدْرِهِمْ، وَفِي مُسْتَوَى مَعِيشَتِهِمْ، يَحْسُدُونَ الرَّجُلَ عَلَى زَوْجَةٍ حَسْنَاءَ أَوْ صَالِحَةٍ أَوْ غَنِيَّةٍ، وَيَحْسُدُونَهُ عَلَى صَلَاحِ الْأَوْلَادِ وَاسْتِقَامَتِهِمْ وَتَفَوُّقِهِمْ وَرِفْعَتِهِمْ، وَلِلنِّسَاءِ فِي الْحَسَدِ عَلَى الْأَوْلَادِ وَصَلَاحِهِمْ نَصِيبٌ كَبِيرٌ.

وَأَقْبَحُ الْحَسَدِ وَأَشْنَعُهُ حِينَمَا يَكُونُ بَيْنَ المُنْتَسِبِينَ لِلْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، فَيُحْسَدُ أَقْوَامٌ عَلَى مَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ، وَأُعْطُوا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالمَعْرِفَةِ . .

يُحْسَدُونَ عَلَى قُوَّةِ حُجَّتِهِمْ، وَعَظِيمِ بَلَاغَتِهِمْ، وَرَوْعَةِ بَيَانِهِمْ، وَشِدَّةِ تَأْثِيرِهِمْ فِي النَّاسِ . .

يُحْسَدُونَ عَلَى حَدِيثِهِمُ الَّذِي يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ، وَيَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ، وَكَذَلِكَ حُسِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . .

يُحْسَدُونَ لِأَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا حَوْلَهُمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى حُبِّهِمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى بُغْضِ مَنْ نَاوَأَهُمْ. وَتَجِدُ أَنَّ الْحَاسِدِينَ لَهُمْ قَلِيلُو عِلْمٍ وَفِقْهٍ، ضَعِيفُو عَمَلٍ وَدَعْوَةٍ، لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَثَرُ عِبَادَةٍ وَوَرَعٍ . . فَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِ غَيْرِهِمْ، وَيَنْتَقِدُونَ عَمَلَهُمْ.

حَسَدُوهُمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلٍ وَعِلْمٍ، وَتَقْوًى وَعَمَلٍ.

وَالْحَسَدُ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ مِنْ سِمَاتِ الْيَهُودِ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وَحِينَمَا تَجْتَمِعُ مِلَلُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَدِيَانَاتُ النَّاسِ كُلِّهِمْ مِنْ يَهُودِيَّةٍ وَنَصْرَانِيَّةٍ، وَبُوذِيَّةٍ وَهُنْدُوسِيَّةٍ، وَإِلْحَادٍ وَعَلْمَانِيَّةٍ وَغَيْرِهَا عَلَى بُغْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُجْمِعُ عَدَاوَتَهُمْ وَقَهْرَهُمْ وَظُلْمَهُمْ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَنْ أَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَالْحَسَدُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- وَهُوَ مَعْصِيَةٌ وَاحِدَةٌ، يَجُرُّ إِلَى مَعَاصٍ عِدَّةٍ، فَالْحَسُودُ مُعْتَرِضٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، وَتَقْسِيمِ رِزْقِهِ، فَكَأَنَّهُ يُخَاطِبُ رَبَّهُ قَائِلًا: لِمَاذَا أُعْطَى قَلِيلًا وَيُعْطَى غَيْرِي كَثِيرًا؟! وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَسْخَطْهُ أَحَدٌ، وَمَنْ قَنِعَ بِعَطَائِهِ لَمْ يَدْخُلْهُ حَسَدٌ»(٦).

وَالْحَسُودُ مَلِيءٌ قَلْبُهُ بِالْكِبْرِ وَالْعُجْبِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ؛ فَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَفْضَلَ

---

(٦) أدب الدنيا والدين (٣٣٣).

مِنَ المَحْسُودِ، وَإِلَّا لَمَا حَسَدَهُ؛ وَلِهَذَا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْكِبْرَ بِأَنَّهُ: «**بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٧)، فَهُوَ غَمْطُ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ، وَعَدَمُ إِنْزَالِهِمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَالْحَسُودُ مُبْتَلًى بِالنَّمِيمَةِ وَالْوِشَايَةِ، فَهُوَ لَا يَزَالُ يَمْشِي بِهَا حَتَّى يُسْقِطَ المَحْسُودَ، أَوْ يُصِيبَهُ بِمَكْرُوهٍ. وَالْحَسُودُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْغِيبَةِ؛ فَهُوَ يُنَفِّسُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ بِالْوُقُوعِ فِي عِرْضِ المَحْسُودِ، ثُمَّ هُوَ ظَالِمٌ مُبِينٌ، فَالمَحْسُودُ إِنَّمَا نَالَ مَا نَالَ مِنْ خَيْرٍ؛ لِأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ يَسْتَحِقُّهُ، وَالْحَسَدُ إِيذَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

إِنَّ الْحَاسِدَ خَبِيثُ النَّفْسِ، شَحِيحٌ بِالْخَيْرِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، يَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوصَفَ عِنْدَهُ حُسْنُ حَالِ عَبْدٍ وَقَعَتْ لَهُ نِعْمَةٌ، وَيَفْرَحُ بِذِكْرِ فَوَاتِ خَيْرٍ عَلَى أَخِيهِ المُسْلِمِ، وَاضْطِرَابِ أُمُورِهِ، وَتَنَغُّصِ عَيْشِهِ، فَهُوَ أَبَدًا يُحِبُّ الْإِدْبَارَ لِغَيْرِهِ، وَيَبْخَلُ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، كَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ.

أَرَأَيْتُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- كَيْفَ كَانَ الْحَسَدُ مِفْتَاحًا لِلْكَبَائِرِ، جَامِعًا لِلذُّنُوبِ .. هَذَا ضَرَرُ الدِّينِ، وَأَمَّا ضَرَرُ الدُّنْيَا؛ فَقَدْ قَالَ المَاوَرْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَمِّ الْحَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ خُلُقٌ دَنِيءٌ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ الْأَكْفَاءِ وَالْأَقَارِبِ، وَيَخْتَصُّ بِالمُخَالِطِ وَالمُصَاحِبِ، لَكَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنْهُ كَرَمًا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهُ مَغْنَمًا، فَكَيْفَ

---

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).
قال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «بطر الحق: أن يجعل ما جعله الله حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا، هذا عند من جعل أصل البطر من الباطل، ومن جعله من الحيرة، فمعناه: أن يتحير عند الحق فلا يقبله حقًّا، وقيل: البطر: التكبر، أي: يطغى ويتكبر عند سماع الحق فلا يقبله.
غمط: غمطت حق فلان: إذا احتقرته ولم تره شيئًا، وكذلك غمصته: إذا انتقصت به وأزريت به» جامع الأصول (١٠/ ٦١٥).

وَهُوَ بِالنَّفْسِ مُضِرٌّ، وَعَلَى الْهَمِّ مُصِرٌّ، حَتَّى رُبَّمَا أَفْضَى بِصَاحِبِهِ إِلَى التَّلَفِ مِنْ غَيْرِ نِكَايَةٍ فِي عَدُوٍّ وَلَا إِضْرَارٍ بِمَحْسُودٍ»(٨).

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ رضي الله عنه: «لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنَ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى المَحْسُودِ»(٩).

وَقَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِك»(١٠).

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: «لَقِيتُ أَعْرَابِيًّا قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقُلْتُ: مَا بَقَّى نَفْسَكَ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ الْحَسَدَ فَبَقِيَتْ نَفْسِي»(١١).

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: «الْحَسَدُ دَاءُ الْجَسَدِ»(١٢).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: قَدْ يَكُونُ الْحَسَدُ طَبْعًا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، لَا يَسْلَمُ مِنْه إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، لَكِنْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُكَافِحَهُ وَيَقْهَرَ نَفْسَهُ؛ حَتَّى لَا يَتَمَكَّنَ هَذَا الدَّاءُ مِنْ إِفْسَادِ قَلْبِهِ؛ فَعَلَيْهِ: أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِقَدَرِهِ وَرِزْقِهِ؛ فَهُوَ تَعَالَى الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، وَهُوَ المَانِعُ المُعْطِي، وَهُوَ المُبَاعِدُ المُقَرِّبُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُمْسِكَ لِرِزْقِهِ وَفَضْلِهِ، يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَضَعُ آخَرِينَ.

إِذَا أَدْرَكَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ وَتَذَكَّرَهُ كُلَّ حِينٍ ذَهَبَتْ سَوْرَةُ الْحَسَدِ مِنْ نَفْسِهِ، وَخَفَّتْ حِدَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَيُعَوِّدُ نَفْسَهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ يَرَى فِيهَا نِعْمَةً

---

(٨) أدب الدنيا والدين (٣٣٤).

(٩) الفاضل للمبرد (٣١)، وأدب الدنيا والدين (٣٣٤).

(١٠) الإعجاز والإيجاز للثعالبي (٢٦)، وربيع الأبرار للزمخشري (١/ ٢٨٦).

(١١) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٦٦٠)، وأبو طاهر السلفي في الطيوريات (٦/ ٥٢٤).

(١٢) أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ لِيَعْلَمِ الْعَبْدُ أَنَّ النِّعْمَةَ قَدْ تَكُونُ نِقْمَةً وَبَلَاءً عَلَى أَخِيهِ، فَعَلَامَ يَحْسُدُهُ؟!

وَلْيُدْرِكْ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَا فَائِزَ فِيهَا إِلَّا مَنْ أَطَاعَ اللهَ تَعَالَى، وَلَا مُطِيعَ لَهُ سُبْحَانَهُ مَنْ حَسَدَ عِبَادَهُ ﷻ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا حَسَدْتُ أَحَدًا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَصِيرُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَصِيرُ إِلَى النَّارِ»(١٣).

وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْعَاقِلُ إِذَا خَطَرَ بِبَالِهِ ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ لِأَخِيهِ أَبْلَغَ الْمَجْهُودَ فِي كِتْمَانِهِ وَتَرْكِ إِبْدَاءِ مَا خَطَرَ بِبَالِهِ»(١٤).

وَعَنْ حَمَّادِ بْنِ حُمَيْدٍ قَالَ: «قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ: هَلْ يَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: مَا أَنْسَاكَ بَنِي يَعْقُوبَ لَا أَبَا لَكَ! حَيْثُ حَسَدُوا يُوسُفَ، وَلَكِنْ غُمَّ الْحَسَدَ فِي صَدْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا لَمْ يَعْدُ لِسَانُكَ، وَتَعْمَلْ بِهِ يَدُكَ»(١٥).

أَمَّا إِذَا أَصَرَّ الْحَاسِدُ عَلَى ذَنْبِهِ؛ فَالْخَيْرُ فِي مُقَاطَعَتِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَعَلَامَتُهُ: «أَنَّهُ إِذَا رَأَى بِأَخِيهِ نِعْمَةً بُهِتَ، وَإِنْ رَأَى بِهِ عَثْرَةً شَمِتَ، وَدَلِيلُ مَا فِي قَلْبِهِ كَمِينٌ عَلَى وَجْهِهِ مُبِينٌ»(١٦)، وَفِي الِابْتِعَادِ عَنْهُ كِفَايَةٌ مِنْ شَرِّهِ، وَحِفْظٌ مِنْ خُبْثِ نَفْسِهِ، وَمِنْ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ: «مَنْ ضَرَّ بِطَبْعِهِ فَلَا تَأْنَسْ بِقُرْبِهِ، فَإِنَّ قَلْبَ الْأَعْيَانِ صَعْبُ الْمَرَامِ»(١٧).

---

(١٣) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء (١٣٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٤٥)، وابن عساكر (٥٣/ ٢١٥-٢١٦).

(١٤) روضة العقلاء (١٣٦).

(١٥) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في التوبيخ والتنبيه (٧٢)، وابن حبان في روضة العقلاء (١٣٦).

(١٦) الفاضل (٣١)، وروضة العقلاء (١٣٧).

(١٧) أدب الدنيا والدين (٣٣٩).

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ الْغِلِّ وَالْبَغْضَاءِ، وَمِنَ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ وَالشَّحْنَاءِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الطَّاهِرِينَ، وَلَا تُشْمِتْ بِنَا الْأَعْدَاءَ وَلَا الْحَاسِدِينَ، وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ.

وَأَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ، الْعَلِيمُ بِمَكْنُونَاتِ عِبَادِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَصْدَقُ الْعِبَادِ إِيمَانًا، وَأَكْثَرُهُمْ نَقَاءً، وَأَطْهَرُهُمْ سَرِيرَةً، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ-؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تُخْفُونَ، وَمَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: لَيْسَ مِنَ الْحَسَدِ أَنْ يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ مِثْلَ نِعْمَةِ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَها مِنْهُ، وَهَذَا مِنَ الْغِبْطَةِ(١٨)، وَالتَّنَافُسِ فِي الْخَيْرِ، الْمَأْمُورِ بِهِ شَرْعًا إِذَا كَانَ فِي أُمُورِ الدِّينِ، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١٨) قال البغوي -رحمه الله تعالى-: «الغبطة هي: أن يتمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من غير أن يتمنى زوالها عن أخيه» شرح السنة (١/ ٢٩٩).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وَالْمُسَابَقَةُ وَالْمُسَارَعَةُ تَقْتَضِي التَّنَافُسَ وَالتَّشْمِيرَ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حَسَدٍ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ عِلْمٍ نَافِعٍ، وَذَلِكَ هُوَ الْغِبْطَةُ الْمَحْمُودَةُ.

وَالتَّنَافُسُ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالْمُسَابَقَةُ فِي الْخَيْرَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ الَّتِي تُقَرِّبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه(١٩). وَفِيهِمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»(٢٠).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: تَرْكُ الْحَسَدِ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ فِي مَصَافِّ الْأَفَاضِلِ، وَضِمْنَ الْأَخْيَارِ، فَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: «قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»(٢١).

---

(١٩) أخرجه البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٢٠) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل» (٧٥٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلَّم حكمة مِنْ فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها (٨١٥).

(٢١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥٩/ ٤٥١)، =

بَلْ إِنَّ تَرْكَ الْحَسَدِ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَلَوْ كَانَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ قَلِيلًا، فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ مِنْ هَذَا الفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، قَالَ: فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ عَلَّقَ نَعْلَهُ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ مَرَّتِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: إِنِّي لَاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَنْقَضِيَ الثَّلَاثَةُ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ ثَلَاثَ ليالٍ، قَالَ: فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ - أَي: اسْتَيْقَظَ- وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهَ وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ: فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مِرَارٍ: **يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَانْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ

= وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤٩)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٠)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال: وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات (٩٤٨).

عَبْدُ اللَّهِ: فَهَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطَاقُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٢٢).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ- وَأَزِيلُوا الْبَغْضَاءَ مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَارْفَعُوا أَسْبَابَ التَّحَاسُدِ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ؛ تَنَالُوا رِضَاهُ وَجَنَّتَهُ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



(٢٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٩٤)، وفي المسند (١)، وعبد الرزاق (٢٠٥٥٩)، وأحمد والسياق له (٣/ ١٦٦)، وعبد بن حميد (١١٥٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٣)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٢/ ٢٧٩)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٨٦)، والبيهقي في الشعب (٦٦٠٥)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٣٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٦١٩)، قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم (٣/ ٣٤٨)، وساقه ابن كثير في التفسير بسنده، وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (٤/ ٣٣٩)، وساقه الألباني في مقدمة سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة في معرض رده على الشيخ إسماعيل الأنصاري، وقال: وإسناده صحيح على شرط الشيخين (١/ ٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فقول عبد الله بن عمرو له: «هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق» يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد، وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؛ أي: مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة، أي: حسدًا وغيظًا مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم؛ فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال، ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا. وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]» مجموع الفتاوى (١٠/ ١١٩).

٢٩٠- العصبية الجاهلية

٢٧/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عليه السلام مِنْ تُرَابٍ، وَأَنْسَلَ جَمِيعَ الْبَشَرِ مِنْهُ، وَهَذَا التُّرَابُ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ آدَمُ مُخْتَلِفٌ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَرْضِ فِي لَوْنِهَا وَطَبِيعَتِهَا، وَسُهُولَتِهَا وَصُعُوبَتِهَا، وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، فَكَانَ بَنُو آدَمَ عَلَى نَحْوِ الْأَرْضِ، فِيهِمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَفِيهِمُ السَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَفِيهِمُ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ؛ لَكِنَّ أَصْلَهُمْ وَاحِدٌ[1].

---

(١) كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ =

وَالْإِنْسَانُ بِطَبْعِهِ أَكْثَرُ مَيْلًا إِلَى مَنْ يُشَاكِلُهُ وَيُمَاثِلُهُ فِي لَوْنِهِ أَوْ لِسَانِهِ أَوْ عِرْقِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ مَوْطِنِهِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَأْنَسُ بِهِ مَا لَا يَأْنَسُ بِسِوَاهُ.

لِأَجْلِ ذَلِكَ ظَهَرَتِ الْعَصَبِيَّاتُ فِي الْبَشَرِ لِلْعِرْقِ، أَوْ لِلْوَطَنِ، أَوْ لِلِّسَانِ، أَوْ لِلَّوْنِ، وَأَكْثَرُ حُرُوبِ الْبَشَرِ وَتَكَتُّلَاتِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ كَانَ مَبْنَاهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ الَّذِي لَا يُحِبُّه اللهُ تَعَالَى وَلَا يَرْضَاهُ، وَتَرْفُضُهُ شَرَائِعُهُ وَتَأْبَاهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّعَصُّبَ لِلْعِرْقِ، أَوْ لِلْوَطَنِ، أَوْ لِلِّسَانِ، أَوْ لِلَّوْنِ سَبَبٌ لِإِقْصَاءِ الدِّيَانَةِ، وَتَعْطِيلِ الشَّرِيعَةِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَفْضِ الْخُضُوعِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى خَلْقِهِ.

وَمَا الَّذِي جَعَلَ إِبْلِيسَ يَهْبِطُ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَى أَسْفَلِ دَرَكَاتِ الِاسْتِكْبَارِ وَالْعِنَادِ، وَيَخْرُجُ مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى إِلَى سَخَطِهِ عَلَيْهِ؛ إِلَّا اغْتِرَارُهُ بِنَفْسِهِ، وَعَصَبِيَّتُهُ لِأَصْلِهِ؟! ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٢، ١٣].

فَاخَرَ بِأَصْلِهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ؛ فَعَاقَبَهُ اللهُ تَعَالَى بِالصَّغَارِ الدَّائِمِ، وَالْعَذَابِ الْخَالِدِ.

إِنَّ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ ﷻ -وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ- أَنْ جَعَلَ حِسَابَ الْبَشَرِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَا يُحَاسَبُونَ عَلَى أَجْنَاسِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ السَّادَةُ وَالْكُبَرَاءُ فِي النَّارِ بِكُفْرِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، كَأَبِي جَهْلٍ

= وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقرة وقال: حسن صحيح (٢٩٩٥)، وأحمد (٤/ ٤٠٠)، وعبد بن حميد (٥٤٩)، وصححه ابن حبان (٦١٦٠).

وَأَبِي لهَبٍ، وَيَكُونُ الْعَبِيدُ وَالإِمَاءُ فِي الْجَنَّةِ بِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ، كَبِلَالٍ وَيَاسِرٍ وَسُمَيَّةَ.

وَلَمَّا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] كَانَ الْجَوَابُ: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢].

وَلَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨] كَانَتِ الْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

إِنَّ كُلَّ فَخْرٍ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مَرْفُوضٌ، وَكُلَّ عَصَبِيَّةٍ لَيْسَتْ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَهِيَ مَذْمُومَةٌ؛ فَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ، وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ، وَذَلِكَ أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ، وَلَا فَخْرَ إِلَّا بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصّلت: ٣٣].

وَهَذَا الِانْتِسَابُ لِلْإِسْلَامِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُ انْتِسَابٌ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَى وَيَرْضَاهُ، وَيَكُونُ سَبَبًا لِلْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ يَفْخَرَ الْمُسْلِمُ بِإِسْلَامِهِ، وَحَذَّرَهُ مِنِ افْتِخَارِهِ بِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «... **مَنِ ادَّعَى دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى،**

تَدَاعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، عِبَادَ اللَّهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(٢).

وَخَطَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ: مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ

---

(٢) أخرجه من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه: الترمذي في الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب. قال محمد بن إسماعيل: الحارث الأشعري له صحبه وله غير هذا الحديث» (٢٨٦٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٩)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والبيهقي (٨/ ١٥٧)، وصححه ابن خزيمة (١٨٩٥)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٥٨٢)، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٢٣١)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٩).

وأخرجه عبد الرزاق من حديث علي رضي الله عنه موقوفًا (٥١٤١).

وأخرجه عبد الرزاق بلاغاً من حديث يحيى بن أبي كثير قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال ... فذكره (٢٠٧٠٩).

وقوله في الحديث: «فهو من جثى جهنم» الجثى جمع، واحده: جُثوة، وهي الشيء المجموع، قال طرفة:

ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح موصد

يصف قبرين، فكان معنى الحديث: أنه من جماعات جهنم، هذا بتخفيف الثاء، ومن شدّدها فإنه يريد الذين يجثون على الركب، واحدها: جاث، وجمعه: جثيّ بتشديد الياء، قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] ذكر المعنيين أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث، ثم قال عن المعنى الثاني: وهذا أحب إِلَيّ من الأول. اهـ (٣/ ٢٠٦)، وجزم بالمعنى الثاني ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ١٣٨)، وذكر الزمخشري في الفائق المعنيين ولم يرجح (١/ ١٩٠).

وقال ابن عبد البر: حِثَاء جَهَنَّمَ، وغَيْرُهُ يَرْوِيه: جُثَاء جهنم بالجيم، وذلك كله خطأ عند أهل العلم باللغة، وقد أنكره أبو عبيدة وغيره، وقال أبو عبيد: إنما هو من حثاء جهنم، وهو كما قال أبو عبيد. التمهيد لابن عبد البر (٢١/ ٢٨٠).

أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ(٣).

قَالَ الْقَارِي -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «شَبَّهَ الْمُفْتَخِرِينَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، باب في فضائل الشام واليمن، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٩٥٥- ٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٣٦١-٣٢٣-٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء (١/ ٧٣)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٦٧٣) برقم (٤٤٩٤).

وله شاهد ضعيف من حديث ابن عمر ﷺ، أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحجرات، وقال: هذا حديث غريب (٣٢٧٠)، وعبد بن حميد (٧٩٥)، وصححه ابن حبان (٣٨٢٨).

وقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «عُبّية الجاهِلِيَّة» يجوز في عَيْنِهَا الكسر والضم، ومعناه: الكبر والفخر والنخوة.

قال الخطابي -رحمه الله تعالى- في غريب الحديث (١/ ٢٩٠): «العُبِّية: الكبر والنخوة، يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها، وفيها لغة أخرى وهي العِبية بالكسر، وأصله مهموز من العبء وهو الحمل الثقيل، ولكن الهمزة قد تركت فيه كالبرية والذرية، قال الشنفرى:

ويقال: ألقى فلان علي عِباه، أي: ثقله، ومثله: ألقى عليه عبالته» اهـ.

وقال في اللسان (١/ ٥٧٤-٥٧٥): «العُبِّيَّة والعِبِّيَّة: الكبر والفخر، حكى اللِّحْيَانِيّ: هذه عُبِّيَّةُ قُرَيْش، وَعِبِّيَّةُ، ورجل فيه عُبِّيَّة وعِبِّيَّة، أَيْ: كِبْر وفخر، وعُبِّيَّةُ الْجَاهِلِيَّة: نَخْوَتُهَا، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بآبائها» يعني: الكبر، بِضَمّ العين، وتُكسَر، وهي فُعُّولَة أو فُعِّيلَة، فإن كانَ فُعُّولَة فَهِيَ مِنَ التَّعْبِيَة؛ لأَنَّ المُتَكَبِّر ذُو تَكَلُّف وتَعْبِيَة، خلافُ المُسْتَرْسِل عَلَى سَجِيَّتِهِ، وإنْ كَانَتْ فُعِّيلَة فَهِيَ مِنْ عُبَابِ المَاءِ، وهُوَ أَوَّلُهُ وارْتِفَاعُهُ» اهـ.

وقال العسكري: «وقد رواه بعضهم: عُمِّيَّة الجاهلية بالميم، وعلى هذا فَسَّرَهُ الخليل بن أحمد فقال: هِيَ الكبر والتَّعَظُّم، ورواه القُتَيْبِي: عِبِّيَّة الجاهلية، بكسر العين، وزعم أنهما لغتان: عُبِّيَّة وَعِبِّيَّة، بالضم والكسر، ويقال فيه: عُبِّيَة، العين مضمومة والباء مشددة، وهذا هو الأشهر والأكثر. وفيه عُنْجُهِيَّة وجَبَرِيَّة: إذا كان فِيهِ تَكَبُّر وتَعَظُّم» تصحيفات المحدثين (١/ ٢٩١).

الْجَاهِلِيَّةِ بِالْجِعْلَانِ، وَآبَاءَهُمُ الْمُفْتَخَرَ بِهِمْ بِالْعَذِرَةِ، وَنَفْسَ افْتِخَارِهِمْ بِهِمْ بِالدَّفْعِ وَالدَّهْدَهَةِ بِالْأَنْفِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ وَاقِعٌ الْبَتَّةَ: إِمَّا الِانْتِهَاءُ عَنِ الِافْتِخَارِ، أَوْ كَوْنُهُمْ أَذَلَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الجِعْلَانِ المَوْصُوفَةِ»(٤) اهـ.

وَالْفَخْرُ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ أَوْ بِالْوَطَنِ وَالتُّرَابِ يُقَوِّي العِزْوَةَ بِالْقَبِيلَةِ وَالْجِنْسِ حَتَّى تَحِلَّ مَحَلَّ الْعِزْوَةِ بِالدِّينِ، فَمَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ عَامَلَ النَّاسَ بِحَسَبِ قَبَائِلِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ، لَا بِدِينِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ؛ فَكَانَ وَلَاؤُهُ وَبَرَاءُهُ، وَحُبُّهُ وَبُغْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْعَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ أَعْظَمِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ يَرْدَى بِهَا صَالِحُونَ، وَيُضَلُّ بِهَا مُهْتَدُونَ .. كَيْفَ؟ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ! فَفِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاجْتَمَعَ قَوْمُ ذَا، وَقَوْمُ ذَا، وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ هَؤُلَاءِ: يَا لَلْأَنْصَارِ! فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟! أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟!**»(٥).

---

(٤) عون المعبود (١٤/ ١٧).

(٥) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] (٤٦٢٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤)، وأحمد (٣/ ٣٣٨).
والكسع هو: ضرب الدّبر، وكان ذلك عظيمًا عند الأنصار رضي الله عنهم؛ فهذا هو سبب شدة غضب الأنصاريّ، وثوران الفتنة بينهم رضي الله عنهم.
قال في اللسان (٨/ ٣٠٩) مادة (كسع): «والكسع: أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء» اهـ.
وقال ابن الأثير في النهاية (٤/ ١٧٣): «هو ضرب الدبر»، ونقل الحافظ في الفتح =

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ ذَلِكَ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ كَرَاهَةٌ مِنْهُ لِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنَ التَّعَاضُدِ بِالْقَبَائِلِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَمُتَعَلَّقَاتِهَا، وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَأْخُذُ حُقُوقَهَا بِالْعَصَبَاتِ وَالْقَبَائِلِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِإِبْطَالِ ذَلِكَ، وَفَصَّلَ الْقَضَايَا بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِذَا اعْتَدَى إِنْسَانٌ عَلَى آخَرَ حَكَمَ الْقَاضِي بَيْنَهُمَا، وَأَلْزَمَهُ مُقْتَضَى عُدْوَانِهِ كَمَا تَقَرَّرَ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ»(٦).

وَلَيْسَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ مَحَبَّةُ الرَّجُلِ قَوْمَهُ، وَنُصْرَتُهُمْ فِي الْحَقِّ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ، وَتَعَاهُدُهُمْ بِالْهَدِيَّةِ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ، وَفَضْلٌ وَإِحْسَانٌ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَنْ يُعِينَهُمْ عَلَى الظُّلْمِ، أَوْ يُفَاخِرَ بِهِمْ فِي غَيْرِ دِينِ اللَّهِ ﷻ، دَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ اللَّيْثِيَّ ؓ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: **أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ أَنَّ وَاثِلَةَ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ؟ قَالَ: **لَا، وَلَكِنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَنْ يُعِينَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ**»(٧).

= (٨/ ٦٥١) عن ابن التين قوله: «الكسع أن تضرب بيدك على دبر شيء أو برجلك، وقال القرطبي: أن تضرب عجز إنسان بقدمك، وقيل: الضرب بالسيف على المؤخر» اهـ. ونقل الحافظ أيضًا في الفتح (٨/ ٦٤٩) رواية الطبري وفيها «أن رجلًا من المهاجرين كسع رجلًا من الأنصار برجله وذلك عند أهل اليمن شديد..»، وذكر الحافظ أن المهاجري هو جهجاه ابن قيس، ويقال: ابن سعيد الغفاري، وكان مع عمر بن الخطاب يقود فرسه، والرجل الأنصاري هو سنان بن وبرة الجهني حليف الأنصار، وفي رواية عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلًا أن الأنصاري كان حليفًا لهم من جهينة، وأن المهاجري كان مِنْ غِفَار، وسماهما ابن إسحاق في المغازي عن شيوخه» اهـ من الفتح.

(٦) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٧).

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في العصبية (٥١١٩)، وابن ماجه في الفتن، باب =

وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَرَادَ إِحْيَاءَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ بِتَحَزُّبٍ مَذْمُومٍ، أَوْ تَعَصُّبٍ مَمْقُوتٍ؛ فَيَجِبُ وَعْظُهُ وَكَفُّهُ، أَوْ تَأْدِيبُهُ وَرَدْعُهُ بِمَا يُزِيلُ أَدْرَانَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدْرِهِ؛ لِئَلَّا يَتَمَادَى فِي عَصَبِيَّتِهِ، فَيَضُرَّ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ.

عَنْ عُتَيِّ بْنِ ضَمْرَةَ قَالَ: «رَأَيْتُ رَجُلًا تَعَزَّى عِنْدَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، افْتَخَرَ بِأَبِيهِ، فَأَعَضَّهُ بِأَبِيهِ وَلَمْ يَكْنِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ أُبَيٌّ ﷺ: أَمَا إِنِّي قَدْ أَرَى الَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ، إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا ذَلِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ **تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا**» وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ رَجُلًا اعْتَزَى فَأَعَضَّهُ أُبَيٌّ بِهَنِ أَبِيهِ، فَقَالُوا: مَا كُنْتَ فَاحِشًا!! قَالَ: إِنَّا أُمِرْنَا بِذَلِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٨).

= العصبية (٣٩٤٩)، وأحمد (٤/ ١٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٩٨) برقم (٢٣٦)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٤).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) والرواية الثانية له أيضًا (٥/ ١٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٨١٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٣)، وصححه ابن حبان (٣١٥٣).

وقوله: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ» معناه: افتخر بهم، وانتسب إليهم بدل انْتِسَابِهِ للإسلام. نقل أبو عبيد عن الكسائي قوله: «يعني: انتسب وانتمى، كقولهم: يا لفلان ويا لبني فلان، فقوله: «عَزَاء الجاهلية» الدعوى للقبائل، أن يقال: يَا لتميم، ويا لعامر، وأشباه ذلك» اهـ من غريب الحديث لابن سلام (١/ ٣٠١).

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «التعزي: الانتماء والانتساب إلى القوم، يقال: عزيت الشيء، وعزوته أعزيه، وأعزوه: إذا أسندْته إِلَى أَحَدٍ، والعزاء والعزوة اسم لدعوى المُسْتَغِيث، وهو أن يقول: يا لفلان، أو يا للأنصار، ويا للمهاجرين» اهـ من النهاية (٣/ ٢٣٣).

وقوله: «**فَأَعِضُّوهُ بِهَنِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا**» أي: قولوا له: أعضض بأير أبيك، ولا تكنوا عن الأير بالهن؛ تنكيلًا له وتأديبًا. ينظر: النهاية (٣/ ٢٥٢).

وذكر ابن الأثير رواية أخرى لم أقف عليها عند غيره وهي: «**مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الجَاهِلِيَّة فَأَعِضْهُوهُ** -هكذا بهاء بين الضاد والواو- وقال: هكذا جاء في رواية، أي: اشتموه صَرِيحًا من العضيهة البهت» اهـ من النهاية (٣/ ٢٥٥).

وَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَقَالَ: «اسْتَأْذِنُوا لِابْنِ الْأَخْيَارِ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: ائِذَنُوا لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، قَالَ: فَجَعَلَ يَعُدُّ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ عُمَرُ: ذَاكَ ابْنُ الْأَخْيَارِ، وَأَنْتَ ابْنُ الْأَشْرَارِ، إِنَّمَا تَعُدُّ عَلَيَّ رِجَالَ أَهْلِ النَّارِ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَقَالَ: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(٩).

وَهَكَذَا أَدَّبَ الْفَارُوقُ وَأُبَيٌّ رضي الله عنهما مَنْ كَانَتْ فِيهِمَا لَوْثَاتٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَبَقَايَا مِنْ أَدْرَانِهَا.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَزَكَاءَ الْأَعْمَالِ، وَصِدْقَ الِانْتِمَاءِ لَهُ وَلِدِينِهِ، وَمُوَالَاةَ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةَ أَعْدَائِهِ . .

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٤، ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ

---

(٩) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٣٧٨).

الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ التَّفَاضُلَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّقْوَى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: «**انْظُرْ؛ فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٠).

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ يَدْعُوانِ المُسْلِمِينَ إِلَى اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ، وَتَوْحِيدِ الْأُمَّةِ، وَيُحَذِّرَانِهَا مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَقَدْ حَصَرَ اللهُ تَعَالَى الأُخُوَّةَ فِي الإِيمَانِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فَهِيَ الرَّابِطَةُ الْقَوِيَّةُ، وَالْحَبْلُ المَتِينُ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى.

بِهَا تُلْغَى كُلُّ الرَّوَابِطِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالتَّحَزُّبَاتِ المَذْمُومَةِ، كَمَا فَعَلَ

---

(١٠) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٨)، ولم أقف عليه عند غيره، وفي سنده أبو هلال الراسبي ضعيف، وهو كذلك منقطع؛ إذ يرويه بكر المزني عن أبي ذر ولم يسمع منه، ولذلك قال الحافظان الهيثمي والمنذري: «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن بكر بن عبد الله المزني لم يسمع من أبي ذر» انظر: مجمع الزوائد (٨/ ٤٨)، والترغيب والترهيب (٣/ ٣٧٥) برقم (٤٤٩٣)، لكن للحديث شواهد تقويه منها:

١- حديث أبي نضرة المنذر بن مالك العبدي عن أحد الصحابة في ذكر خطبة النبي ﷺ بمنى وسط أيام التشريق، وجاء فيها: «**أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**» أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وسنده صحيح.

٢- حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (٤/ ١٤٥-١٤٦).

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

الصَّحَابَةُ ﷺ؛ إِذْ قَدَّمُوا فِي الْوِلَايَةِ إِخْوَانَهُمُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى آبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ فَمَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَأَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فَمَنْ قَطَعَ هَذِهِ الرَّابِطَةَ الإِيمَانِيَّةَ، وَخَالَفَ مُقْتَضَاهَا فَدَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، أَوْ غَضِبَ لَهَا، أَوْ نَصَرَهَا، أَوْ قَاتَلَ عَلَيْهَا فَفِيهِ لَوْثَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَشُؤْمِ الْعَاقِبَةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ . .**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

لَاحِظُوا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الخُرُوجِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ حَذَّرَهُمْ كَذَلِكَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَإِشْعَالِ الْفِتَنِ

---

(١١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٨)، والنسائي في تحريم الدم، باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية (٧/ ١٢٣)، وابن ماجه مختصرًا في الفتن، باب العصبية (٣٩٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٦) واللفظ لمسلم.
وقوله عليه الصلاة والسلام: «تحت راية عمِّيَّة» أي: غَيْر مستبينة ولا واضحة، نقل ابن الجوزي عن الإمام أحمد قوله: «هذا الأمر الأعمى كالعصبية لا يُسْتَبَانُ وَجْهُهُ، يقال: مات فلان ميتة عمية، أي: ميتة فتنة» اهـ من الغريب لابن الجوزي (٢/ ١٢٧- ١٢٨).
وقال القاضي عياض: قوله: «مَنْ قَاتَلَ تحت راية عمية يعصب لعصبة، أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة» كذا جاء في رواية الكافة عن مسلم في حديث شيبان بن فروخ: بالعين والصاد المهملتين، كما جاء في سائر الأحاديث بعد، ووقع هنا عند العذري في الحرفين الأولين: غضبة: بالغين والضاد المعجمتين وكسر الباء وهاء الإضافة، والأول أوجه وأصوب» اهـ من مشارق الأنوار (٢/ ٩٥).
وقال ابن الأثير: «قيل: هو فعيلة من العماء: الضلالة، كالقتال في العصبية والأهواء، وحكى بعضهم فيها ضم العين» اهـ من النهاية (٣/ ٣٠٤).

وَالِاحْتِرَابِ: إِحْيَاءَ الْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْقَضَاءَ عَلَى الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

إِنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ قَدْ تَكُونُ تَعَصُّبًا لِحِزْبٍ، أَوْ طَائِفَةٍ، أَوْ مَذْهَبٍ، أَوْ قَبِيلَةٍ، أَوْ بَلَدٍ، أَوْ عَشِيرَةٍ؛ حَتَّى يُقَدِّمَ الْمُتَعَصِّبُ وَلَاءَهُ لِمَنْ تَعَصَّبَ لَهُ عَلَى وَلَائِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ، وَيُرْضِيهِ مِنْ دُونِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ حَلَّتِ الْأَحْزَابُ وَالتَّكَتُّلَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ فِيمَا يُعْرَفُ بِالْمَذَاهِبِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ مَحَلَّ الْقَبَائِلِ الْقَدِيمَةِ، فَصَارَ الْمُنْتَمِي لِحِزْبٍ سِيَاسِيٍّ يُوَالِي فِيهِ، وَيُعَادِي فِيهِ، وَيَتَعَصَّبُ لَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَصَبِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْوَبِيلِ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْجَماعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَتَرَى وَاحِدَهُمْ مَعَ دِينِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَتَعْظِيمِهِ شَرِيعَةَ رَبِّهِ يَتَعَصَّبُ لِجَمَاعَتِهِ، فَيَرْضَى عَنْ خَطَئِهِمْ، وَلَا يَسْمَحُ بِنَقْدِهِمْ، وَلَوْ كَانَ نَقْدًا فِي الْحَقِّ، صَادِرًا مِنْ أَنْصَحِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ نَاقِدَهُمْ لَيْسَ مِنْهُمْ!

بَلْ سَقَطَ فِي حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَصُّبَاتِهَا الْمَذْمُومَةِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُنَادُونَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مَنْهَجِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ الْحِزْبِيَّةَ؛ فَإِذَا هُمْ فِي الْعَصَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ يَرْتَكِسُونَ، وَفِي الْحِزْبِيَّةِ الْمَذْمُومَةِ يَرْتَمِسُونَ؛ فَاخْتَرَعُوا لَهُمْ مَذْهَبًا شَاذًّا يَقُومُ عَلَى السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْتَكَرُوا مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَأَخْرَجُوا مِنْهُ كُلَّ مُخَالِفِيهِمْ، بَلْ رَمَوْا بِالْبِدْعَةِ مَنْ لَا يُوَافِقُهُمْ فِي غُلُوِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ!

ثُمَّ لَمَّا شَبِعُوا مِنْ فَرْيِ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْوُلُوغِ فِي لُحُومِ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالْمُصْلِحِينَ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَنْهَجِهِمُ الْفَاسِدِ؛ فَصَارَ بَعْضُهُمْ يَرْمِي بَعْضًا بِالْبِدْعَةِ وَالْفِسْقِ، وَأَحْيَانًا بِالْكُفْرِ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِنْ

إِخْوَانِهِمُ الصَّالِحِينَ شَمَاتَةً لِأَعْدَاءِ المِلَّةِ وَالدِّينِ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالْفَسَقَةِ وَالظَّالِمِينَ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِغُلُوِّهِمُ المَقِيتِ، وَتَنَطُّعِهِمُ الشَّدِيدِ، وَالطَّعْنِ فِي عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ قَدْ حَارَبُوا الْبِدْعَةَ، وَهُمْ أَهْلُ الْبِدْعَةِ!!

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَمَنْ تَعَصَّبَ لِأَهْلِ بَلْدَتِهِ أَوْ مَذْهَبِهِ أَوْ طَرِيقَتِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ أَوْ لِأَصْدِقَائِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى يَكُونَ المُؤْمِنُونَ كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَإِنَّ كِتَابَهُمْ وَاحِدٌ، وَدِينَهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيَّهُمْ وَاحِدٌ، وَرَبَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»(١٢).

وَالمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يَجْمَعُهُمْ، لَا إِلَى مَنْ يُفَرِّقُهُمْ! وَإِلَى مَنْ يُوَحِّدُ كَلِمَتَهُمْ، لَا إِلَى مَنْ يُشَتِّتُ شَمْلَهُمْ! وَمَنْ ضَاقَ صَدْرُهُ عَلَى إِخْوَانِهِ ضَاقَ عِلْمُهُ، وَقَصُرَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الحَقِّ، فَتَخَطَّفَتْهُ الْأَهْوَاءُ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهُ الشُّبُهَاتُ؛ فَلَجَأَ إِلَى الْعَصَبِيَّةِ وَالْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهَا أَهْلَ الْكُفْرِ، وَبَرَّأَ مِنْهَا المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ لِإِخْوَانِهِمْ؛ فَلَا يَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..

---

(١٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٢٢-٤٢٣).

٢٩١- الكبر والخيلاء

١٤١٧/١/١١هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ، وَالسُّلُوكُ الطَّيِّبُ، وَتَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ الْآخَرِينَ، كُلُّ ذَلِكَ وَنَحْوُهُ اسْتَغْرَقَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى نُصُوصًا كَثِيرَةً؛ فَالْإِسْلَامُ دِينُ الْأَدَبِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ، وَعَدَمِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، وَتَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى: دَاءَ الْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ، الَّذِي مَا دَخَلَ قَلْبًا إِلَّا أَفْسَدَهُ، وَلَا لَزِمَ عَبْدًا إِلَّا أَهْلَكَهُ، يُطْبَعُ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهِ، وَيُصْرَفُ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَسْتَوْجِبُ النَّارَ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]،

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

بِالْكِبْرِ حُرِمَ إِبْلِيسُ الْجَنَّةَ حِينَمَا تَكَبَّرَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَبِالْكِبْرِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَ فِرْعَوْنُ مُخَلَّدًا فِي النَّارِ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى الِانْقِيَادِ لِلرُّسُلِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا هُوَ حَالُ كُفَّارِ مَكَّةَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعَذَابَ، وَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَيَكْفِي فِي الْكِبْرِ ذَمًّا وَإِثْمًا أَنَّهُ مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ «**أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ، وَالمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟ قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، وقال: حسن صحيح (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

رِجْلَهُ، تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٣).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ لِلْكِبْرِ دَوَاعِيَ يُوجَدُ بِوُجُودِهَا فِي الْغَالِبِ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَكَبَّرُ بِحَسَبِهِ، وَيُفَاخِرُ بِنَسَبِهِ، فَيَقُودُهُ ذَلِكَ إِلَى التَّرَفُّعِ عَنْ مُجَالَسَةِ النَّاسِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، وَقَدْ عَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى نَسَبَهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وَلَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه رَجُلًا بِأُمِّهِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ...»(٤).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٥).

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَكُونُ كِبْرُهُ بِسَبَبِ مَالِهِ؛ فَيَرَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي

---

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠] (٤٨٥٠)، ومسلم واللفظ له، في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم في الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١).

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، وقال: حديث حسن (٣٩٥٥)، وساقه عقبه بسياق مختصر وقال: حسن صحيح (٣٩٥٦)، وأحمد (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٢)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

هَذَا المَالِ وَلَوْ كَانَ خَالِقَهُ ﷻ، وَيَأْنَفُ مِنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ أَوْ مُخَالَطَتِهِمْ، وَمَا عَلِمَ هَذَا وَأَمْثَالُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخبَرَ بِأَنَّ فُقَرَاءَ المُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ(٦)، ثُمَّ إِنَّ الَّذِي أَعْطَاهُ المَالَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْلُبَهُ إِيَّاهُ.

وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَكَبَّرُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِجَاهِهِ وَمَنْصِبِهِ، فَيُؤْذِي مَنْ هُمْ تَحْتَ يَدِهِ. فَلَا يُعْطِي النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَلَا يُنْجِزُ أَعْمَالَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ. وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي رَفَعَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَضَعَهُ، وَقَدْ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مِثْلِ هَذَا؛ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ**»(٧).

وَمِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ سَبَبَ كِبْرِهِ عِبَادَتُهُ، فَلَا يَزَالُ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ أَصْلَحُ مِنْهُمْ، وَيَرَى أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وَأَنَّهُ النَّاجِي الْوَحِيدُ فِيهِمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»(٨).

---

(٦) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﵁ عند: الترمذي في الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه (٢٣٥١).

وحديث أبي هريرة ﵁ عند: الترمذي في الكتاب والباب السابق ذكرهما، وقال: حسن صحيح (٢٣٥٣).

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (١٨٢٨).

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول: هلك الناس (٢٦٢٣)، وأبو داود في الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي (٤٩٨٣).

ونقل أبو داود عن الإمام مالك قوله: «إذا قال ذلك تحزنًا لما يرى في الناس -يعني في =

وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى جُمْلَةً مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَهُوَ

= أمر دينهم- فلا أرى به بأسًا، وإذا قال ذلك عجبًا بنفسه وتصاغرًا للناس فهو المكروه الذي نهي عنه» اهـ.

وقال الحميدي: «قال بعض الرواة: لا أدري «أهلكَهم» بالنصب، أو «أهلكُهم» بالرفع. كذا قال، والرفع أشهر، أي: أشدهم هلاكًا، وذلك إذا قال على سبيل الإزراء عليهم بالاحتقار لهم وتفضيل نفسه عليهم؛ لأنه لا يدري سرائر الله في خلقه. وهكذا كان بعض علمائنا يقول، والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ» الجمع بين الصحيحين (٣/ ٢٨٧).

وقال الخطابي: «تأويل هذا على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك في أصحاب الوعيد، ومن يرى رأي الغلاة منهم في الخلود على الكبيرة والإياس من عفو الله، والقنوط من رحمته، يقول: فمن رأى هذا الرأي كان أشد هلاكًا وأعظم وزرًا ممن قارف الخطيئة ثم لم ييأس من الرحمة.

والوجه الآخر: أن يكون ذلك في الرجل يولع بذكر الناس، وإحصاء عيوبهم، وعد مساوئهم؛ فهو لا يزال يقول: هلك الناس، وفسدت نِيَّاتُهم، وقلت أماناتهم، ويذهب بنفسه عجبًا، ويرى لها على الناس فضلًا، يقول: فهذا بما يناله في ذلك من الإثم أشدهم هلاكًا وأعظمهم وزرًا» اهـ غريب الحديث (١/ ٥٣٦-٥٣٧).

وقال ابن عبد البر: «هذا الحديث معناه لا أعلم خلافًا فيه بين أهل العلم: أن الرجل يقول ذلك القول احتقارًا للناس، وازدراء بهم، وإعجابًا بنفسه. وأما إذا قال ذلك تأسفًا وتحزنًا وخوفًا عليهم؛ لقبح ما يرى من أعمالهم، فليس ممن عني بهذا الحديث. والله أعلم» الاستذكار (٨/ ٥٤٩).

وقال أيضًا: «والفرق بين الأمرين أن يكون في الوجه الأول راضيًا عن نفسه، معجبًا بها، حاسدًا لمن فوقه، محتقرًا لمن دونه. ويكون في الوجه الثاني ماقتًا لنفسه، موبخًا لها، غير راض عنها، روينا عن أبي الدرداء -﵁- أنه قال: لن يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس كلهم في ذات الله، ثم يعود إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا» التمهيد (٢١/ ٢٤٢).

وينظر للاستزادة: شرح السنة (١٣/ ١٤٤)، وجامع الأصول (١١/ ٧٤١)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٦٨)، وكشف المشكل لابن الجوزي (٣/ ٥٦٠)، وشرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٥).

يَخَافُ اللهَ؟ قَالَ: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ**»(٩).

وَيَكُونُ الْعِلْمُ سَبَبًا لِلْكِبْرِ، مَعَ أَنَّ الْعِلْمَ يَدْعُو لِلتَّوَاضُعِ، فَيَسْتَشْعِرُ الْمُتَكَبِّرُ بِعِلْمِهِ كَمَالَ عِلْمِهِ، وَيَسْتَعْظِمُ نَفْسَهُ، وَيَحْقِرُ النَّاسَ وَيَسْتَجْهِلُهُمْ، لَا يَعْرِفُ حَقَّ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وَلَا يَقْبَلُ الْحَقَّ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ، وَلَا يَبْذُلُ لِلنَّاسِ عِلْمَهُ، وَهَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الَّذِي يُورِدُ الْمَهَالِكَ.

كَمْ مِنْ أَشْخَاصٍ ظَنُّوا أَنَّهُمْ بَلَغُوا الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَغَمَطُوا النَّاسَ حُقُوقَهُمْ، وَوَقَعُوا فِي أَعْرَاضِ الصَّالِحِينَ وَالْمُصْلِحِينَ مِنْهُمْ، فَكَالُوا لَهُمُ التُّهَمَ فِي النِّيَّاتِ وَالْمَقَاصِدِ، وَقَذَفُوهُمْ بِقَبِيحِ الْعِبَارَاتِ، وَشَنِيعِ الْأَلْفَاظِ، ثُمَّ لَمْ يَسُدُّوا مَسَدَّهُمْ.

إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ أَنْ يَخْفِضُوا جَنَاحَهُمْ لِلنَّاسِ، فَيُعَلِّمُوهُمْ

(٩) أخرجه الترمذي في التفسير، باب سورة المؤمنون (٣١٥٧)، وابن ماجه في الزهد، باب التوقي على العمل (٤١٩٨)، وأحمد (٦/ ١٥٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٣)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢).

فائدة: قال الألباني: «والسر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيهم الله أجورهم، فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: ١٧٣]، بل إنه ليزيدهم عليها كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠]، والله تعالى لا يخلف وعده كما قال في كتابه، وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم. فليتأمل المؤمن هذا؛ عسى أن يزدادَ حرصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها له، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]» سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٠٦).

وَيُفْتُوهُمْ، وَيَقْبَلُوا الْحَقَّ مِمَّنْ سِوَاهُمْ، وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ سِنًّا، وَأَقَلَّ عِلْمًا وَشَأْنًا؛ فَالْحَقُّ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، وَإِنَّمَا الرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ وَالمَنَاصِبِ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لِلنَّاسِ، فَيَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ، وَيُنْفِقُوا عَلَى ضُعَفَائِهِمْ. أَمَّا أَنْ يُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ دُونَهُمْ، وَيَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْوَالِهِمْ، فَذَلِكَ مِمَّا يُوَلِّدُ الْأَحْقَادَ، وَيُذْكِي الْعَدَاوَاتِ، وَيَسْتَوْجِبُ الْعُقُوبَاتِ.

وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ كِبْرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَعَدَمِ التَّرَفُّعِ؛ فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يُتَعَلَّمُ كَمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ؛ وَذَلِكَ بِأَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ؛ مِنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْفُقَرَاءِ، وَحَمْلِ مَتَاعِ الضُّعَفَاءِ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِ الْأَهْلِ بِنَفْسِهِ، وَمُخَالَطَةِ المَسَاكِينِ، وَبَذْلِ المَالِ وَالْجَاهِ لِلْمُسْتَحِقِّينَ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «لَا يَنْقُصُ الرَّجُلَ الْكَامِلَ مِنْ كَمَالِهِ مَا حَمَلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى عِيَالِهِ»(١٠).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ المُتَكَبِّرِينَ يُعَامَلُونَ فِي الْآخِرَةِ بِاحْتِقَارٍ وَإِذْلَالٍ؛ جَزَاءَ تَكَبُّرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الخَبَالِ**» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ**

---

(١٠) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٥).

(١١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٤٧) وحسنه (٢٤٩٢)، وأحمد (٢/ ١٧٩)، والحميدي (٥٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٠٤٠).

اللَّهِ إِلهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(١٢).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ يَصِلُ الْكِبْرُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى مُوَافَقَةِ الشَّيْطَانِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ بِالشِّمَالِ، وَقَدْ أَبْصَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «**لَا اسْتَطَعْتَ**»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَدَاخِلِ الْكِبْرِ عَلَى الْإِنْسَانِ: التَّمَيُّزُ بِاللِّبَاسِ، وَالْإِسْرَافُ فِيهِ، وَلِذَا

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة النار، وقال: حسن صحيح غريب (٢٤٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (٦٣١٧)، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: وإسناده صحيح على شرط الشيخين (٥١٢).

(١٣) أخرجه من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ: مسلم في الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢١).

حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ لِبَاسِ الشُّهْرَةِ؛ لِأَنَّهُ مَدْخَلٌ مِنْ مَدَاخِلِ الْكِبْرِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ، ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٥).

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي الْكِبْرِ: إِسْبَالُ الثِّيَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**»(١٦).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِدْ الْخُيَلَاءَ فَفِيهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٧)، وَلَمْ يُقَيِّدْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْوَعِيدَ بِالْخُيَلَاءِ، بَلْ أَطْلَقَهُ فِي جَمِيعِ مَنْ أَسْبَلَ ثَوْبَهُ، سَوَاءً قَصَدَ الْخُيَلَاءَ أَمْ لَمْ يَقْصِدْهَا(١٨)؛ وَلِذَا جَاءَ فِي

---

(١٤) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في لبس الشهرة (٤٠٢٩)، وابن ماجه في اللباس، باب من لبس شهرة من الثياب (٣٦٠٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٨٣)، والألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٦)، ورجح أبو حاتم وقفه كما في العلل (١٤٧١).

(١٥) أخرجه البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٩)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء (٢٠٨٧).

(١٧) أخرجه البخاري في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء (٥٧٨٧).

(١٨) قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: «إسبال الإزار إذا قصد به الخيلاء فعقوبته أن لا ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة، ولا يكلمه، ولا يزكيه، وله عذاب أليم.

وأما إذا لم يقصد به الخيلاء فعقوبته: أن يعذب ما نزل من الكعبين بالنار؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يوْمَ القِيَامَةِ، ولا ينظُرُ إليهِمْ، ولا يُزَكِّيهِمْ، ولهم عَذَابٌ أَلِيمٌ: المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمنفق سِلْعَتَهُ بالحلِف الكَاذِبِ**»، وقال ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ** =

حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ -أَوْ قَالَ: لَا جُنَاحَ- عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ ذلك فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يوم القِيَامَةِ» أَخْرَجَهُ مَالِكٌ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٩).

= يَنْظُرِ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فهذا فيمن جر ثوبه خيلاء.

وأما من لم يقصد الخيلاء ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ». ولم يقيد ذلك بالخيلاء، ولا يصح أن يقيد بها بناء على الحديث الذي قبله؛ لأن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِزْرَةُ المؤمِنِ إلى نِصْفِ السَّاقِ ولا حَرَج -أو قال: لا جناح- عليه فما بيْنَهُ وبَيْنَ الكعْبَيْنِ، وما كان أَسْفَل مِنْ ذلك فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطرًا لم ينظرِ اللهُ إليهِ يَوْمَ القيامَةِ» رواه مالك، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه؛ ولأن العملين مختلفان، والعقوبتين مختلفتان، ومتى اختلف الحكم والسبب امتنع حمل المطلق على المقيد، لما يلزم على ذلك من التناقض.

وأما من احتج علينا بحديث أبي بكر رضي الله عنه فنقول له: ليس لك حجة فيه، من وجهين:

الوجه الأول: أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «إِنَّ أَحَدَ شقي ثوبي يسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه..» فهو رضي الله عنه لم يرخ ثوبه اختيارًا منه، بل كان ذلك يسترخي، ومع ذلك فهو يتعاهده، والذين يسبلون ويزعمون أنهم لم يقصدوا الخيلاء يرخون ثيابهم عن قصد، فنقول لهم: إن قصدتم إنزال ثيابكم إلى أسفل من الكعبين بدون قصد الخيلاء عُذِّبْتم على ما نزل فقط بالنار، وإن جررتم ثيابكم خيلاء عذبتم بما هو أعظم من ذلكم، لا يكلمكم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليكم، ولا يزكيكم، ولكم عذاب أليم.

الوجه الثاني: أن أبا بكر رضي الله عنه زكاه النبي ﷺ، وشهد له أنه ليس ممن يصنع خيلاء، فهل نال أحد من هؤلاء تلك التزكية والشهادة؟ ولكن الشيطان يفتح لبعض الناس اتباع المتشابه من نصوص الكتاب والسنة؛ لِيُبَرّر لهم ما كانوا يعملون، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، نسأل الله لنا الهداية والعافية» مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٢/ ٣٠٨-٣٠٩).

(١٩) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: مالك (٢/ ٩١٤)، وأحمد (٣/ ٦)، وأبو داود في اللباس، باب في قدر موضع الإزار (٤٠٩٣)، وابن ماجه في اللباس، باب موضع الإزار أين هو (٣٥٧٣)، وصححه ابن حبان (٥٤٤٦)، والنووي فيما نقله عنه المناوي في فيض القدير (١/ ٤١٨)، والألباني في صحيح الجامع (٩٢١).

وَأَمَّا مَنِ احْتَجَّ بِحَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَنَّهُ شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ اسْتِرْخَاءَ إِزَارِهِ، فَقَالَ: «**إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلَاءَ**»(٢٠)، فَذَلِكَ مِنْ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ إِزَارَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه كَانَ يَسْتَرْخِي مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ بِالرَّفْعِ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُسْبِلُونَ فَقَدْ أَرْخَوْا ثِيَابَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ، بَلْ إِنَّ الثَّوْبَ لَوْ عَلَا عَلَى الْكَعْبَيْنِ لَمَا لَبِسُوهُ حَتَّى يَنْزِلَ عَنِ الْكَعْبَيْنِ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَى فِي أَنْفُسِكُمْ، وَارْفَعُوا أَلْبِسَتَكُمْ عَنِ الْكَعْبَيْنِ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكُمْ، وَأَنْقَى لِثِيَابِكُمْ، وَمَنْ أَبَى ذَلِكَ فَلْيَضَعْ عَلَى رِجْلِهِ جَمْرَةً وَلْيَنْظُرْ هَلْ يَصْبِرُ عَلَيْهَا؟ فَكَيْفَ سَيَصْبِرُ عَلَى نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي سَتَشْوِي مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ؟!

وَيَعْظُمُ الْإِثْمُ وَيَكْبُرُ حِينَمَا يُسْتَهْزَأُ بِهَذِهِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَيُسْخَرُ مِمَّنْ يُطَبِّقُهَا، وَمَنِ اسْتَهْزَأَ بِرَفْعِ اللِّبَاسِ عَنِ الْكَعْبَيْنِ، فَقَدْ أَتَى جُرْمًا عَظِيمًا، فَإِنْ كَانَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِذَاتِ السُّنَّةِ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِالشَّخْصِ نَفْسِهِ فَقَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ الْإِنْكَارُ عَلَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُسْبِلِينَ مَهْمَا كَانُوا، وَتَأَمَّلُوا هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَى الْمُسْبِلِينَ مِنَ الْفَارُوقِ رضي الله عنه وَهُوَ مَطْعُونٌ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «دَخَلَ شَابٌّ عَلَى عُمَرَ، فَجَعَلَ الشَّابُّ يُثْنِي عَلَيْهِ، قَالَ: فَرَآهُ عُمَرُ يَجُرُّ إِزَارَهُ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي، ارْفَعْ إِزَارَكَ؛ فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكَ، وَأَنْقَى لِثَوْبِكَ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ: يَا عَجَبًا لِعُمَرَ! إِنْ رَأَى حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مَا هُوَ فِيهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ»(٢١).

---

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في المناقب، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٣٦٦٥).

(٢١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ١٦٦)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٦٠١)، والبلاذري في =

وَرَأى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ المُهَلَّبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ يَتَبَخْتَرُ فِي جُبَّةِ خَزٍّ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ لَهُ المُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلَى أَعْرِفُكَ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنْتَ بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ الْعَذِرَةَ. فَتَرَكَ المُهَلَّبُ مِشْيَتَهُ تِلْكَ(٢٢).

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتَوَاضَعُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ .. وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



= أنساب الأشراف (٣/ ٤٠٩).
وورد أيضًا عن علي رضي الله عنه أنه أنكر على مسبل وهو خارج من المسجد، كما في المطالب العالية (١٣٣٩) وعزاه لإسحاق وعبد بن حميد.

(٢٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٨٤)، والخطيب البغدادي في الزهد والرقائق (٢٨)، وابن عساكر (٥٦/ ٤٢٧)، وابن الجوزي في المنتظم (٧/ ٢٧٣).
وأخطأ الغزالي في الإحياء فجعل المنكر على المهلب مطرف بن عبد الله بن الشخير (٣/ ٣٤٠).

٢٩٢- اختلاط النساء بالرجال (١) الحكم والأدلة

١٧/ ١١/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ شَرَعَ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ أَكْمَلَهَا، فَأَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُم، وَأَتَمَّ عَلَيْهِم نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَ لَهُمُ الإِسْلَامَ دِينًا، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا شَرَعَ وَأَوْجَبَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَنْعَمَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ فَأَتْقَنَ الخَلْقَ، وَحَكَمَ فَأَحْسَنَ الحُكْمَ؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَنْصَحُ الخَلْقِ للخَلْقِ، وَأَتْقَاهُم لِلَّهِ تَعَالَى، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ وَأَمَرَنَا بِهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ وَنَهَانَا عَنْهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَسْرَعِ هَذِهِ الأُمَّةِ اسْتِجَابَةً للأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَشَدِّهِم الْتِزَامًا بِالأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُم بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُم مَا يَكُونُ زَادًا لَكُمْ فِي أُخْرَاكُم، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا إِلَى زَوَالٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَأَنَّ المَوْتَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ صِدْقِ إِيمَانِ الْعَبْدِ وَسَلَامَةِ قَلْبِهِ لِلَّهِ تَعَالَى: الِاسْتِسْلَامُ لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، وَتَعْظِيمُ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، وَالوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَتَقْدِيمُهَا عَلَى أَقْوَالِ الرِّجَالِ مَهْمَا كَانُوا؛ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

وَإِنَّمَا تَقَعُ الرِّدَّةُ وَالضَّلَالُ، وَيَتَأَصَّلُ الزَّيْغُ وَالنِّفَاقُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ إِذَا عَارَضَ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِ، أَوْ لِرَأْيٍ أَحْدَثَهُ؛ مُتَّبِعًا فِيهِ هَوَاهُ، مُعْرِضًا عَنْ شَرْعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَمَعَ عَظِيمِ الْأَسَى، وَشَدِيدِ الْأَسَفِ، فَإِنَّ الإِعْلَامَ الْمُعَاصِرَ فِي أَكْثَرِ فَضَائِيَّاتِهِ وَإِذَاعَاتِهِ، وَصُحُفِهِ وَمَجَلَّاتِهِ، يُرَبِّي الْمُتَلَقِّينَ عَنْهُ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ، وَالِاجْتِرَاءِ عَلَى شَرِيعَتِهِ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي يُلْقِيهَا عَلَى النَّاسِ مِنْ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَرْأَةِ وَقَضَايَاهَا.

لَقَدِ اعْتَادَ الْمُتَلَقُّونَ عَنِ الإِعْلَامِ وَبِشَكْلٍ يَوْمِيٍّ، بَلْ وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ، اعْتَادُوا عَلَى مُشَاهَدَةِ سُفُورِ النِّسَاءِ، وَظُهُورِهِنَّ بِأَبْهَى حُلَّةٍ، وَأَجْمَلِ زِينَةٍ، مُتَكَشِّفَاتٍ مُبْتَسِمَاتٍ، مُخْتَلِطَاتٍ بِالرِّجَالِ، تَجْلِسُ الْمَرْأَةُ بِجِوَارِ الرَّجُلِ، وَتُمَازِحُهُ وَتُضَاحِكُهُ أَمَامَ مَلَايِينِ الْمُشَاهِدِينَ وَالْمُشَاهِدَاتِ، وَلَا هِيَ قَرِيبَتُهُ، وَلَا هُوَ مَحْرَمٌ لَهَا، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا رِبَاطٌ إِلَّا رِبَاطَ الإِعْلَامِ وَالشَّيْطَانِ، وَلَا يَكَادُ يَخْلُو بَرْنَامَجٌ أَوْ فَقْرَةٌ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ فِي الأَخْبَارِ وَالرِّيَاضَةِ، وَالْحِوَارِ وَالسِّيَاسَةِ، وَالأَزْيَاءِ وَالطَّبْخِ، بَلْ حَتَّى بَرَامِجُ الأَطْفَالِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ فَتًى وَفَتَاةٍ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ الْمُتَكَرِّرَةُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ تُهَوِّنُ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ فِي نُفُوسِ الْمُشَاهِدِينَ، وَتُحَوِّلُهُ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَعَيْبٍ إِلَى لَا شَيْءَ، وَتِلْكَ وَاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ.

وَاعْتِيَادُ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ المَشَاهِدِ الْآثِمَةِ يَجْعَلُ إِنْكَارَهُم لَهَا، وَانْصِرَافَهُم عَنْهَا ضَعِيفًا جِدًّا، بَلْ لَرُبَّما أَنْكَرَ أَكْثَرُهُمْ عَلَى مَنْ يُنْكِرُهَا وَيُنْكِرُ مُشَاهَدَتَهَا، فَانْقَلَبَتْ مِنْ كَوْنِهَا مُنْكَرًا وَبَاطِلًا، إِلَى مَعْرُوفٍ وَحَقٍّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُجَادِلَ فِيهِ أَحَدٌ!!

وَهَذَا التَّهْوِينُ لِلْمُنْكَرِ بِالْفِعْلِ وَالصُّورَةِ الَّذِي يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَحْظَةٍ، يُصَاحِبُهُ تَسْوِيغٌ لَهُ بِالْكَلِمَةِ وَالمَقَالَةِ؛ فَيَنْبَرِي أَجْهَلُ النَّاسِ بِالشَّرِيعَةِ، وَأَضْعَفُ الْخَلْقِ دِيَانَةً لِمُنَاقَشَةِ مَسَائِلِ الْحِجَابِ وَالسُّفُورِ، وَالْخَلْوَةِ وَالِاخْتِلَاطِ، وَسَفَرِ المَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَلَيْسَ نِقَاشُهُمْ عِلْمِيًّا مَوْضُوعِيًّا لِإِحْقَاقِ حَقٍّ، وَإِبْطَالِ بَاطِلٍ، وَإِنَّمَا هُوَ نَسْفٌ لِلشَّرِيعَةِ، وَإِبْطَالٌ لِلْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَإِلْغَاءٌ لِمَا سَارَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ المُسْلِمَةُ فِي قُرُونِهَا السَّالِفَةِ، وَإِحْلَالٌ لِلْقَوَانِينِ وَالْعَادَاتِ الغَرْبِيَّةِ مَحَلَّ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ، بِاسْمِ الِانْفِتَاحِ وَالرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ.

وَمِنْ آثَارِ هَذَا التَّجْيِيشِ الْإِعْلَامِيِّ لِلْبَاطِلِ، وَنَشْرِ تِلْكَ الرَّذَائِلِ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ، نَرَى تَغَيُّرًا مُسْتَمِرًّا فِي كَثِيرٍ مِنْ بُيُوتِ المُسْلِمِينَ، يَتَجَلَّى فِي مَظَاهِرَ عِدَّةٍ، وَأَخْلَاقٍ بَدِيلَةٍ، لَمْ يَكُنِ المُسْلِمُونَ يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ هَذَا الْغَزْوِ الإِعْلَامِيِّ، مِنَ التَّسَاهُلِ بِالْحِجَابِ، وَسَفَرِ الْفَتَاةِ لِلدِّرَاسَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَمُزَاحَمَةِ المَرْأَةِ لِلرِّجَالِ فِي الْعَمَلِ، وَاخْتِلَاطِهَا بِهِم فِي كَثِيرٍ مِنَ المَجَالَاتِ وَالأَعْمَالِ، بِلَا خَجَلٍ وَلَا حَيَاءٍ، وَأَهْلُ الْفَسَادِ يُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الْإِفْسَادِ؛ لِيَجْتَاحَ الأُمَّةَ بِأَكْمَلِهَا، وَيَأْتِيَ عَلَى الْبُيُوتِ وَالأُسَرِ كُلِّهَا.

وَإِذَا لَمْ يَسْعَ المُسْلِمُونَ لِإِيقَافِ هَذِهِ الأَمْرَاضِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالمُجْتَمَعَاتِ، وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي دُعَاةِ الرَّذِيلَةِ وَنَاشِرِي الْفَسَادِ، فَإِنَّهُ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يَفْقِدُ فِيهِ الرَّجُلُ سُلْطَانَهُ عَلَى نِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ، فَيَخْرُجْنَ مَتَى أَرَدْنَ، وَيُصَاحِبْنَ مَنْ شِئْنَ، وَيَفْعَلْنَ مَا يَحْلُو لَهُنَّ، كَمَا وَقَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ الَّتِي غَزَاهَا شَيَاطِينُ

الإِنْسِ بِأَفْكَارِهِم، وَدَمَّرُوهَا بِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ، وَحِينَهَا لَا يَنْفَعُ نَدَمٌ وَلَا بُكَاءٌ عَلَى عِفَّةٍ فُقِدَتْ، وَقَدْ كَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَسْتَصْرِخُ أَهْلَ الْغَيْرَةِ وَلَا مُجِيبَ لَهَا، وَنُعِيذُ بِاللَّهِ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهَا ذَلِكَ.

إِنَّ الخَطَأَ خَطَأٌ وَلَوْ كَثُرَ الْوَاقِعُونَ فِيهِ، وَإِنَّ الْمُنْكَرَ لَا يَنْقَلِبُ إِلَى مَعْرُوفٍ بِمُجَرَّدِ انْتِشَارِهِ، وَهَكَذَا الْبَاطِلُ يَبْقَى بَاطِلًا وَلَوْ زَيَّنَهُ الْمُزَوِّرُونَ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَرَوَّجُوهُ بِالدِّعَايَةِ، وَالوَاجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ، وَلَوْ كَانَ الْمُتَجَافِي عَنْهُ غَرِيبًا فِي النَّاسِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِم إِحْقَاقُ الحَقِّ وَلَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَانْتِشَارُ الْبَاطِلِ وَانْتِشَاءُ أَهْلِهِ، وَغُرْبَةُ الحَقِّ وَضَعْفُ حَمَلَتِهِ لَا يُسَوِّغُ السُّكُوتَ وَالتَّخَاذُلَ، وَإِلَّا غَرِقَ الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ فِي حَمْأَةِ الْبَاطِلِ، وَطُوفَانِ الرَّذَائِلِ.

وَاخْتِلَاطُ المَرْأَةِ بِالرِّجَالِ هِيَ القَضِيَّةُ الأَسَاسُ الَّتِي يَسْعَى الْمُفْسِدُونَ لِنَشْرِهَا فِي الْمُجْتَمَعِ، وَيَسْتَمِيتُونَ فِي إِقْنَاعِ النَّاسِ بِهَا، وَيُوجِدُونَ لَهَا الْمُسَوِّغَاتِ، وَيَجْعَلُونَهَا مِنَ الضَّرُورَاتِ، وَيَعْزُونَ كُلَّ بَلَاءٍ فِي الأُمَّةِ وَتَخَلُّفٍ وَانْحِطَاطٍ إِلَى مَا سَادَ مِنْ عَزْلِ المَرْأَةِ عَنِ الرَّجُلِ فِي التَّعْلِيمِ وَالْعَمَلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَيَعْلَمُ الْمُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أَنَّهُم إِنْ نَجَحُوا فِي نَشْرِ الِاخْتِلَاطِ، وَقَهْرِ النَّاسِ عَلَيْهِ بِقُوَّةِ الْقَرَارَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَالتَّخْوِيفِ بِالدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، وَاسْتِغْلَالِ نُفُوذِهِم فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْتِفَافِهِمْ عَلَى أَصْحَابِ الْقَرَارَاتِ وَالتَّوْصِيَاتِ؛ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ قَادِرِينَ عَلَى إِلْجَاءِ النَّاسِ إِلَيْهِ عَمَلِيًّا فِي الْعَمَلِ وَالدِّرَاسَةِ، وَفَرْضِهِ بِقُوَّةِ النِّظَامِ - وَهُوَ مَا يَسْعَونَ إِلَيْهِ بِجِدٍّ وَقُوَّةٍ - فَإِنَّ مَا بَعْدَ الِاخْتِلَاطِ مِنَ الْإِفْسَادِ يَكُونُ أَهْوَنَ، وَالنِّسَاءُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ كَالْخَلْوَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَسَفَرِ الْمَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَسُفُورِهَا وَتَبَرُّجِهَا، وَعَرْضِ زِينَتِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الإِثْمِ وَالضَّلَالِ، وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِ الْكَبِيرِ الْمُتْعَالِ.

وَلَنْ يُوقِفَ ذَلِكَ إِلَّا إِنْكَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَرَفْضُهُمْ لِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ، وَكَشْفُ خُطَطِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ لِعَامَّةِ النَّاسِ، وَالأَمْرُ يَعْنِي الْجَمِيعَ، وَلَا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ، وَمِنْ حَقِّ النَّاسِ أَنْ يَسْعَوْا إِلَى مَا فِيهِ حِفْظُ بُيُوتِهِمْ وَأُسَرِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ وَالِانْحِرَافِ، وَأَنْ يَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ وَالْمُفْسِدَاتِ، مِنْ أَتْبَاعِ الْغَرْبِ وَعُبَّادِ الشَّهَوَاتِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَجِدْ أَنَّهَا أَوْصَدَتْ كُلَّ الأَبْوَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الِاخْتِلَاطِ، وَسَدَّتِ الذَّرَائِعَ لِذَلِكَ، وَحَمَتِ الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ بِتَشْرِيعَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ، تُبْقِي عَلَى الْمُجْتَمَعِ عِفَّتَهُ وَطَهَارَتَهُ وَنَقَاءَهُ، وَاسْتِقَامَةَ أُسَرِهِ، وَصَلَاحَ بُيُوتِهِ، مَا دَامَ أَفْرَادُهُ قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، مُمْتَثِلِينَ شَرْعَهُ، مُسْتَسْلِمِينَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَسْمَحُوا لِلْمُفْسِدِينَ أَنْ يَنْخَرُوا ذَلِكَ السِّيَاجَ الرَّبَّانِيَّ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وَهَذَا الْخِطَابُ الرَّبَّانِيُّ لِأَطْهَرِ هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوبًا وَهُمُ الصَّحَابَةُ ﷺ وَفِي أَعَفِّ النِّسَاءِ، وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنهنَّ فَمَا بَالُكُمْ بِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، وَبِمَنْ هُنَّ دُونَهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ؟! ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾، فَالْخَالِقُ الرَّزَّاقُ سُبْحَانَهُ يَأْمُرُ فِي كِتَابِهِ بِالْحِجَابِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالْمُفْسِدُونَ يُرِيدُونَ تَحْطِيمَهُ وَإِزَالَتَهُ.

وَفِي خِطَابٍ رَبَّانِيٍّ آخَرَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ من [النور: ٣٠]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

فَلَوْ كَانَ الِاخْتِلَاطُ سَائِغًا فِي الشَّرْعِ، لَكَانَ فِي هَذِهِ الأَوَامِرِ الرَّبَّانِيَّةِ تَكْلِيفٌ

بِمَا لَا يُطَاقُ؛ إِذْ كَيْفَ تَخْتَلِطُ المَرْأَةُ بِالرَّجُلِ، وَتَجْلِسُ بِجِوَارِهِ فِي الْعَمَلِ أَوِ الدِّرَاسَةِ، وَلَا يَنْظُرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ، وَهُمَا يَتَبَادَلَانِ الْأَعْمَالَ وَالْأَوْرَاقَ وَالدُّرُوسَ؟!

وَذَكَر النَّبِيُّ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مِنْ حَقِّ الطَّرِيقِ: «**غَضُّ الْبَصَرِ**»(١)، فَإِذَا كَانَ غَضُّ الْبَصَرِ وَاجِبًا عَلَى الرِّجَالِ إِذَا مَرَّتْ بِمَجْلِسِهِمْ فِي الطَّرِيقِ امْرَأَةٌ، فَكَيْفَ يُسَوَّغُ لِلْمُزَوِّرِينَ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تُمَانِعُ مِنَ اخْتِلَاطِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ؟!

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ**»؛ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢)، فَكَيْفَ إِذًا بِالمُكْثِ عِنْدَهُنَّ وَأَمَامَهُنَّ وَبِجِوَارِهِنَّ فِي سَاعَاتِ الْعَمَلِ كُلَّ يَوْمٍ؟!

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَمِلَ عَلَى مَنْعِ الِاخْتِلَاطِ فِي الطَّرِيقِ أَثْنَاءَ الْخُرُوجِ مِنَ المَسْجِدِ، وَمَا هُوَ إِلَّا لَحَظَاتٌ، وَعَقِبَ عِبَادَةٍ عَظِيمَةٍ، وَالرِّجَالُ فِيهِ وَالنِّسَاءُ مِنَ المُصَلِّينَ وَالمُصَلِّيَاتِ، وَهُمْ وَهُنَّ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَأَبْعَدُ عَنِ الرِّيبَةِ، فَكِيفَ بِغَيْرِ ذَلِكَ؟!

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «**فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها**»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر**» أخرجه البخاري في الاستئذان، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ [النور: ٢٧] (٥٨٧٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه (٢١٢١).

(٢) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النِّسَاءَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ إِذَا سَلَّمْنَ مِنَ المَكْتُوبَةِ، قُمْنَ وَثَبَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ صَلَّى مِنَ الرِّجَالِ مَا شَاءَ اللهُ، فَإِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ الرِّجَالُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣).

وَذَاتَ مَرَّةٍ وَقَعَ فِي الخُرُوجِ مِنَ المَسْجِدِ اخْتِلَاطٌ غَيْرُ مَقْصُودٍ، فَبَادَرَ عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى إِنْكَارِهِ، وَأَوْصَى بِمَا يُزِيلُهُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو أُسَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ المَسْجِدِ، فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «**اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ**. فَكَانَتِ المَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ، حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤).

وَفِي المَسْجِدِ مَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ الِاخْتِلَاطَ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُها، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُها**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَالمَسْجِدُ أَجَلُّ مَكَانٍ وَأَشْرَفُهُ، وَالْقُلُوبُ فِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، بَعِيدَةٌ عَنِ

---

(٣) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب انتظار الناس قيام الإمام العالم (٨٢٨)، والنسائي في السهو، باب جلسة الإمام بين التسليم والانصراف (٣/ ٦٧)، وأحمد (٦/ ٣١٦)، وأبو يعلى (٦٩٨٣)، وابن خزيمة (١٧١٨)، وابن حبان (٢٢٣٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق (٥٢٧٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٦١) رقم (٥٨٠)، وابن عبد البر في الاستذكار (٢/ ٤٧٠)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٤٠)، وأبو داود في الصلاة، باب صف النساء (٦٧٨)، والنسائي في الإمامة، باب ذكر خير صفوف النساء وشر صفوف الرجال (٢/ ٩٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الصف الأول (٢٢٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب صفوف النساء (١٠٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٦٧).

الْفَسَادِ وَالشَّرِّ، وَمَعَ ذَلِكَ حُسِمَتْ فِيهِ مَادَّةُ الشَّرِّ، وَسُدَّتْ فِيهِ ذَرَائِعُ الْفَسَادِ.

وَفِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ -وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ وَأَشْرَفِهَا- مُنِعَ الِاخْتِلَاطُ؛ كَمَا أَخْبَرَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ النِّسَاءَ فِيهِ لَمْ يَكُنَّ يُخَالِطْنَ الرِّجَالَ، وَقَالَ: «كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَطُوفُ حَجْرَةً مِنَ الرِّجَالِ، لَا تُخَالِطُهُمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِزَوْجِهِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ**»(٧).

وَلَمَّا وَقَعَ فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَيءٌ مِنِ اخْتِلَاطِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ فِي الطَّوَافِ، نَهَى أَنْ يَطُوفَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ، فَرَأَى رَجُلًا مَعَهُنَّ، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ(٨).

تِلْكَ هِيَ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَضِيَّةِ الِاخْتِلَاطِ الَّتِي يَسْعَى الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ؛ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِأَنَّ الِاخْتِلَاطَ لَا يُعَارِضُ الدِّينَ، وَأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ، كَذَبُوا وَاللَّهِ، وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا!!

أَفَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ الْوَاضِحَةِ يَلِيقُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يُصَدِّقُوا أَكَاذِيبَهُمْ، وَيَرْضَوْا بِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَيَسْتَسْلِمُوا لِإِفْسَادِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِم لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَبَنَاتِهِم، وَقَتْلِهِمْ لِحَيَائِهِنَّ وَإِحْصَانِهِنَّ وَعَفَافِهِنَّ، وَيَتْرُكُوهُمْ يَنْخَرُونَ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَلَا يُنْكِرُوا ذَلِكَ عَلَيْهِم؟! وَقَدِ اسْتَبَانَ لَهُمُ الْحَقُّ بِأَدِلَّتِهِ، وَبَانَ لَهُمُ الْبَاطِلُ بِدَجَلِهِ وَعَوْرَتِهِ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟!

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ

---

(٦) أخرجه البخاري في الحج، باب طواف النساء مع الرجال (١٥٣٩).

(٧) أخرجه البخاري في الحج، باب طواف النساء مع الرجال (١٥٤٠)، ومسلم في الحج، باب جواز الطواف على بعير وغيره (١٢٧٦).

(٨) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤٨٤).

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً نَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ يَوْمَ لِقَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَزْلُ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَاخْتِصَاصُهُنَّ بِأَعْمَالِ الْمَنْزِلِ وَحَضَانَةِ الأَطْفَالِ، وَاخْتِصَاصُ الرِّجَالِ بِالْعَمَلِ وَالِاكْتِسَابِ؛ هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ عَلَيْهَا، وَسَارَتْ عَلَيْهَا الْبَشَرِيَّةُ طَوَالَ تَارِيخِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَعِنْدَ سَائِرِ الأُمَمِ، قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْحَضَارَةُ الْمُعَاصِرَةُ بِضَلَالِ الِاخْتِلَاطِ، وَمَنْ قَرَأَ تَوَارِيخَ الْحَضَارَاتِ وَالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، أَيْقَنَ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ.

وَنَزَلَتْ شَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ﷺ بِمَا يُوافِقُ هَذِهِ الْفِطْرَةَ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا عَلَى حِفْظِ النَّسْلِ مِنَ الِاخْتِلَاطِ، وَعَلَى حِفْظِ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ؛ وَلِذَا كَانَ الزِّنَا مُحَرَّمًا عَلَى لِسَانِ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَيُجْمِعُ كُلُّ الْعُقَلَاءِ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى أَنَّ الِاخْتِلَاطَ أَكْبَرُ سَبَبٍ لِلزِّنَا، كَمَا يُجْمِعُ

الْبَشَرُ عَلَى أَنَّ الزِّنَا سَبَبٌ لِلْأَمْرَاضِ وَالطَّوَاعِينِ الَّتِي تَفْتِكُ بِالنَّاسِ، وَالْوَاقِعُ يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَلَا يُمَارِي فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُكَابِرٌ؛ فَمَنْ دَعَا لِلِاخْتِلَاطِ وَرَضِيَهُ، فَهُوَ يَدْعُو لِلزِّنَا وَانْتِشَارِ الْفَوَاحِشِ، وَهُوَ يَدْعُو كَذَلِكَ لِنَشْرِ الطَّاعُونِ فِي النَّاسِ، وَإِهْلَاكِهِمْ بِهِ، شَاءَ ذَلِكَ أَمْ أَبَى؛ إِذْ إِنَّ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الْخَبِيثَةَ هِيَ نِتَاجُ دَعْوَتِهِ الْخَبِيثَةِ.

وَإِنْ تَعْجَبُوا، فَعَجَبٌ لأُنَاسٍ يَدْعُونَ لِلِاخْتِلَاطِ، وَيَنْشُرُونَ الرَّذِيلَةَ فِي النَّاسِ، ثُمَّ يُحَذِّرُونَ مِنَ انْتِشَارِ مَرَضِ الْإِيدْزِ، وَيَعْقِدُونَ الْمُؤْتَمَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ لِمُكَافَحَتِهِ، فَهَلْ هُمْ صَادِقُونَ فِي تَحْذِيرِهِمْ؟ وَهَلْ يَعْقِلُونَ مَا يَقُولُونَ وَمَا يَفْعَلُونَ؟ وَهَلْ هُمْ إِلَّا كَمَنْ يَسْقِي الْإِنْسَانَ سُمًّا، ثُمَّ يَصِيحُ بِهِ مُحَذِّرًا إِيَّاهُ أَنْ يَمُوتَ مِمَّا سَقَاهُ؟!

إِنَّهُ لَنْ تُجْدِيَ الْمُؤْتَمَرَاتُ وَالنَّدَوَاتُ، وَالتَّوْعِيَةُ الصِّحِّيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ فِي التَّخْفِيفِ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ، النَّاجِمَةِ عَنِ الْمُمَارَسَاتِ الْجِنْسِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ، إِذَا كَانَ الْمُفْسِدُونَ يَخْلِطُونَ النِّسَاءَ بِالرِّجَالِ، وَيُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الِاخْتِلَاطِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ وَيَنْشُرُونَ فِي إِعْلَامِهِمْ مَا يُسَعِّرُ الشَّهَوَاتِ، وَيَدْعُو إِلَى الرَّذِيلَةِ؛ وَلِذَا نُوصِيهِمْ أَلَّا يَكْذِبُوا عَلَى النَّاسِ وَيَخْدَعُوهُمْ، وَيُحَذِّرُوهُمْ مِنَ انْتِشَارِ الْإِيدْزِ؛ لأَنَّهُم أَكْبَرُ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِهِ حِينَ شَرَّعُوا الِاخْتِلَاطَ، وَأَفْسَدُوا الْإِعْلَامَ، وَفَرَضُوا عَلَى النَّاسِ آرَاءَهُمُ الْفِكْرِيَّةَ الشَّهْوَانِيَّةَ.

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنِ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ نُزُولِ الْعُقُوبَاتِ الْعَامَّةِ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ فَسَادِ أُمُورِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ. وَاخْتِلَاطُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ وَالزِّنَا، وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ الْعَامِّ، وَالطَّوَاعِينِ

الْمُهْلِكَةِ. وَلَمَّا اخْتَلَطَ الْبَغَايَا بِعَسْكَرِ مُوسَى عليه السلام وَفَشَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ، أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمُ الطَّاعُونَ، فَمَاتَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ. فَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَوْتِ الْعَامِّ: كَثْرَةُ الزِّنَا بِسَبَبِ تَمْكِينِ النِّسَاءِ مِنِ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ، وَالْمَشْيِ بَيْنَهُمْ مُتَبَرِّجَاتٍ مُتَجَمِّلَاتٍ»(٩).

وَكَلَامُ ابْنِ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لَا يُعْجِبُ أَهْلَ الشَّرِّ وَالفَسَادِ، وَدُعَاةَ الرَّذِيلَةِ وَالِانْحِلَالِ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَعْبَدُونَ فِي أَفْكَارِهِمْ لِمَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَمُشْرَبُونَ بِحُبِّ كِتَابَاتِ الْغَرْبِيِّينَ، فَلَا بَأْسَ مِنْ نَقْلِ شَيْءٍ مِنْ أَقْوَالِ الْغَرْبِيِّينَ مِنْ بَابِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وَحَيْثُ إِنَّ الْمُفْسِدِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِمَشْرُوعَاتِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ التَّخْرِيبِيَّةِ يَنْصُرُونَ الْمَرْأَةَ، وَيُدَافِعُونَ عَنْ حُقُوقِهَا فِي الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ، فَإِنَّنِي سَأَنْقُلُ بَعْضَ أَقْوَالِ النِّسَاءِ الْغَرْبِيَّاتِ؛ حَتَّى نَعْرِفَ رَأْيَهُنَّ فِي الِاخْتِلَاطِ وَقَدْ جَرَّبْنَهُ، وَسَبَقْنَ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ، وَلَسْنَ مُتَّهَمَاتٍ بِأَنَّهُنَّ مُؤْدلَجَاتٌ أَوْ مُتَطَرِّفَاتٌ، أَوْ يَعِشْنَ عُصُورَ الظَّلَامِ وَالحَرِيمِ، كَمَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ.

تَقُولُ الصَّحَفِيَّةُ الأَمْرِيكِيَّةُ هِيلْيَان سْتَانْبِرِي: «أَنْصَحُكُمْ بِأَنْ تَتَمَسَّكُوا بِتَقَالِيدِكُمْ وَأَخْلَاقِكُمْ، امْنَعُوا الِاخْتِلَاطَ، وَقَيِّدُوا حُرِّيَّةَ الْفَتَاةِ، بَلِ ارْجِعُوا لِعَصْرِ الْحِجَابِ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِبَاحِيَّةِ وَانْطِلَاقِ وَمُجُونِ أُورُبَّا وَأَمْرِيكَا . . ، امْنَعُوا الِاخْتِلَاطَ؛ فَقَدْ عَانَيْنَا مِنْهُ فِي أَمْرِيكَا الْكَثِيرَ، لَقَدْ أَصْبَحَ الْمُجْتَمَعُ الأَمْرِيكِيُّ مُجْتَمَعًا مَلِيئًا بِكُلِّ صُوَرِ الْإِبَاحِيَّةِ وَالْخَلَاعَةِ. إِنَّ ضَحَايَا الِاخْتِلَاطِ يَمْلَؤُونَ

---

(٩) الطرق الحكمية (٤٠٧).

السُّجُونَ، إِنَّ الِاخْتِلَاطَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْأَمْرِيكِيِّ وَالْأُورُبِّيِّ قَدْ هَدَّدَ الْأُسْرَةَ، وَزَلْزَلَ الْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ»(١٠).

وَتَقُولُ كَاتِبَةٌ أُخْرَى: «إِنَّهُ لَعَارٌ عَلَى بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ أَنْ تَجعَلَ بَنَاتِهَا مَثَلًا لِلرَّذَائِلِ بِكَثْرَةِ مُخَالَطَةِ الرِّجَالِ»(١١). وَفِي بِرِيطَانْيَا حَذَّرَتِ الْكَاتِبَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ اللِّيدي كوك مِنْ أَخْطَارِ وَأَضْرَارِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، فَقَالَتْ: «عَلَى قَدْرِ كَثْرَةِ الِاخْتِلَاطِ، تَكُونُ كَثْرَةُ أَوْلَادِ الزِّنَا، وَقَالَتْ: عَلِّمُوهُنَّ الِابْتِعَادَ عَنِ الرِّجَالِ»(١٢).

فَهَلْ يَبْقَى لِدُعَاةِ الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ قَوْلٌ وَقَدْ عَارَضُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَالَفُوا الْفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وَكَذَبُوا عَلَى النَّاسِ، فَزَوَّرُوا الْحَقَائِقَ، وَأَخْفَوُا النَّتَائِجَ الْمُخْزِيَةَ لِلِاخْتِلَاطِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي اكْتَوَتْ بذَلِكَ؟!

حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ والمُفْسِدَاتِ، وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَرَدَّهُم عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ...



(١٠) من مقالة (أنا الحجاب) فاضل بشناق، منشور في موقع (عودة ودعوة) على الشبكة العالمية.
(١١) المصدر السابق.
(١٢) المصدر السابق.

٢٩٣- اختلاط النساء بالرجال (٢) نتائجه وآثاره

٦/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ ضَرَبَ لِلخَلْقِ آجَالَهُمْ، وَكَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ دِينَهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَتِهِ وَهِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى رِعَايَتِهِ وَكِفَايَتِهِ، فَمَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُسْدِيهَا، وَلَا مِنْحَةٍ إِلَّا وَهُوَ مُعْطِيهَا، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، والشَّرْعُ شَرْعُهُ، وَالْعِبَادُ عِبَادُهُ، لَا يَسَعُ أَحَدًا الخُرُوجُ عَنْهُ، أَوْ إِبْدَالُ غَيْرِهِ بِهِ؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهُم مِنْهُ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَسْرَعِ النَّاسِ الْتِزَامًا بِأَمْرِهِ، وَأَبْعَدِهِم عَنْ نَهْيِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَارْجُوا رَحْمَتَهُ، وَاحْذَرُوا مَعْصِيَتَهُ، وَخَافُوا نِقْمَتَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ رَفْعُهُ الْحَرَجَ عَنْهُم، وَتَكْلِيفُهُمْ بِمَا يُطِيقُونَ، وَالتَّخْفِيفُ عَنْهُمْ فِيمَا يُرْهِقُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وَلمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ التَّخْفِيفَ فِي أَحْكَامِ الصِّيَامِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَفِي شَرْعِيَّةِ التَّيَمُّمِ عِنْدَ عَدَمِ المَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وَوَصَفَ رَسُولَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّهُ: يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ الرَّحْمَةِ وَالْيُسْرِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ كَلَّفَ الْعِبَادَ بِمَا يُطِيقُونَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَخَفَّفَ عَنْهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَهَذَا الْمَظْهَرُ مِنْ مَظَاهِرِ التَّخْفِيفِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَعْرِفُ الْأَحْكَامَ.

وَثَمَّةَ مَظْهَرٌ آخَرُ لِلتَّيْسِيرِ يَغْفُلُ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَهُوَ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ الْأَوَّلِ؛ ذَلِكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ اللهَ تَعَالَى لمَّا حَرَّمَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى الْعِبَادِ أَوْصَدَ سُبُلَهَا، وَمَنَعَ وَسَائِلَهَا، وَسَدَّ الطُّرُقَ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهَا؛ رَحْمَةً بِالْعِبَادِ، وَعَوْنًا لَهُمْ؛ وَذَلِكَ لِئَلَّا تُوجَدَ فِي نُفُوسِهِمْ دَوَاعِيهَا، وَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ، فَيُرْهِقُهُمُ الِامْتِنَاعُ عَنْهَا.

فَالزِّنَا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كُلِّ شَرَائِعِ الرُّسُلِ ﷺ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ انْتِهَاكِ العِرْضِ، وَتَدْمِيرِ النَّسْلِ. وَالشَّرَائِعُ الرَّبَّانِيَّةُ جَاءَتْ بِحِفْظِ الضَّرُورَاتِ الَّتِي مِنْهَا الْعِرْضُ وَالنَّسْلُ.

وَلمَّا كَانَ مِنْ فِطْرَةِ الإِنْسَانِ وَجِبِلَّتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مَيْلُ كُلِّ جِنْسٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ لِلْجِنْسِ الْآخَرِ، وَمَحَبَّتُهُ لَهُ، وَالأُنْسُ بِهِ، وَتَمَنِّي مُعَاشَرَتِهِ؛ فَإِنَّ الشَّرَائِعَ الرَّبَّانِيَّةَ نَظَّمَتْ ذَلِكَ بِالزَّوَاجِ، وَحَرَّمَتِ السِّفَاحَ، وَأَوْصَدَتِ الطُّرُقَ الْمُسَبِّبَةَ لِلزِّنَا، فَأَمَرَتِ الشَّرِيعَةُ السَّمْحَةُ بِغَضِّ الْبَصَرِ، وَمَنَعَتِ الْخَلْوَةَ بِالنِّسَاءِ، وَسَفَرَهُنَّ بِلَا مَحَارِمَ، كَمَا مَنَعَتْ سُفُورَهُنَّ وَتَبَرُّجَهُنَّ واخْتِلَاطَهُنَّ بِالرِّجَالِ.

وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ وَالْوَسَائِلُ مُبَاحَةً مَعَ تَحْرِيمِ مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ الزِّنَا؛ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الرَّهَقِ وَالْعُسْرِ عَلَى الْعِبَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى؛ وَلَكَانَ حَالُهُمْ كَحَالِ الْجَائِعِ الَّذِي يُوضَعُ أَمَامَهُ مَا لَذَّ مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: لَا تَأْكُلْ، وَالْجَائِعُ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ إِذَا كَانَ لَا يَرَاهُ وَلَا يَشْتَمُّهُ، وَلَكِنْ إِذَا رَآهُ أَوِ اشْتَمَّهُ، لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ، وَالرَّجُلُ يَصْبِرُ عَنِ الْمَرْأَةِ فِي حَالِ غِيَابِهَا وَتَسَتُّرِهَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَنْهَا فِي حَالِ سُفُورِهَا وَتَبَرُّجِهَا وَاخْتِلَاطِهَا بِهِ.

وَحَيْثُمَا كَثُرَ الِاخْتِلَاطُ وَالْعُرْيُ وَالتَّفَسُّخُ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ؛ مَرِضَتِ الْقُلُوبُ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ، وَازْدَادَ السُّعَارُ الْجِنْسِيُّ، وَانْتَشَرَتْ جَرَائِمُ الزِّنَا وَالِاغْتِصَابِ، وَأَنْوَاعُ الشُّذُوذِ.

وَإِذَا أُوصِدَتْ أَبْوَابُ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ، وَفُصِلَ النِّسَاءُ عَنِ الرِّجَالِ، صَلَحَتِ الْقُلُوبُ، وَاسْتَقَامَتِ الْأَخْلَاقُ، وَانْتَشَرَ فِي النَّاسِ الطُّهْرُ وَالْعَفَافُ، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ لِتِلْكَ الْحَقَائِقِ.

إِنَّ اخْتِلَاطَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ هُوَ الْبَوَّابَةُ الَّتِي مَا فَتَحَتْهَا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَلَجَتْ إِلَيْهَا الْجَرَائِمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ، وَانْتَشَرَ فِيهَا الشُّذُوذُ الْجِنْسِيُّ، وَصَارَتْ عُرْضَةً لِلطَّاعُونِ وَالْأَوْبِئَةِ الْفَتَّاكَةِ.

إِنَّ الِاخْتِلَاطَ يَفْتَحُ أَنْوَاعًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالشُّرُورِ عَلَى النَّاسِ؛ فَحَيَاءُ الْمَرْأَةِ الَّذِي لَا زِينَةَ لَهَا إِلَّا بِهِ يَضْعُفُ شَيْئًا شَيْئًا كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنَ الرِّجَالِ، وَعَامَلَتْهُمْ وَخَالَطَتْهُمْ، تُكَلِّمُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ وَتُضَاحِكُهُ، وَتُمَازِحُهُ أَشَدَّ مِمَّا تَفْعَلُ ذَاتُ الْمَحْرَمِ مَعَ مَحَارِمِهَا، وَمَا كَانَتْ بَجَاحَتُهَا وَجُرْأَتُهَا إِلَّا بِسَبَبِ قِلَّةِ حَيَائِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَعْتَنِي بِحِجَابِهَا؛ لِئَلَّا يَرَاهَا مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُمْ رُؤْيَتُهَا مِنَ الرِّجَالِ، فَإِذَا كَانَتْ تُقِيمُ السَّاعَاتِ الطِّوَالَ أَمَامَهُمْ، وَتُعَايِشُهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ وَمَقَرَّاتِ أَعْمَالِهِمْ،

فَإِنَّهَا تَتَخَفَّفُ مِنْ حِجَابِهَا الشَّيءَ بَعْدَ الشَّيءِ؛ لِأَنَّهَا أَلِفَتْهُمْ، وَلَا تَرَاهُمْ فِي مَنْزِلَةِ مَنْ لَا تَعْرِفُهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَعَ كَثْرَةِ المُخَالَطَةِ لَا تَرَى حَرَجًا فِي إِلْقَاءِ حِجَابِهَا أَمَامَهُمْ بِحُجَّةِ الزَّمَالَةِ وَقِدَمِ المَعْرِفَةِ، وَثِقَتِهَا بِأَخْلَاقِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُجَجِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُزَيِّنُهَا الشَّيْطَانُ لَهَا، وَتَعْصِي بِهَا رَبَّهَا الَّذِي أَمَرَهَا بِالْحِجَابِ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وَالمَرْأَةُ تَعْتَنِي أَبَدًا بِزِينَتِهَا، وَيَهُمُّهَا شَكْلُهَا وَمَظْهَرُهَا، وَتَضْعُفُ أَمَامَ المَادِحِينَ لَهَا، فَإِذَا اخْتَلَطَتْ بِالرِّجَالِ، أَبْدَتْ لَهُمْ مَا يُثْنُونَ بِهِ عَلَيْهَا، وَتَنَافَسَتْ هِيَ وَزَمِيلَاتُهَا فِي هَذَا المَجَالِ؛ حَتَّى يُخَيَّلَ لِبَعْضِ مَنْ يَرَاهُنَّ أَنَّهُنَّ فِي دُورِ عُرُوضِ الْأَزْيَاءِ، مِنْ كَثْرَةِ أَصْبَاغِهِنَّ، وَعُرْيِ مَلَابِسِهِنَّ، فَيُخَالِفْنَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

وَلِضَعْفِ المَرْأَةِ أَمَامَ عَوَاطِفِهَا، فَقَدْ تَتَعَلَّقُ فِي مَجَالِ عَمَلِهَا بِرَجُلٍ لِجَمَالِ خِلْقَتِهِ، أَوْ حُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، أَوْ قُوَّةِ نُفُوذِهِ، وَهُوَ لَا يَحِلُّ لَهَا؛ لِأَنَّهَا ذَاتُ زَوْجٍ، أَوْ لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، فَتَكُونُ بَيْنَ نَارَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ تُشْبِعَ عَوَاطِفَهَا وَرَغَبَاتِهَا بِمَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا، أَوْ تَكْبِتَ مَشَاعِرَهَا، فَتَشْقَى بِهَا.

وَلَا تَسْلَمُ المَرْأَةُ الْعَامِلَةُ فِي مَجَالَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ مِنَ الْخَلْوَةِ بِزَمِيلٍ أَوْ مُدِيرٍ لِأَيِّ ظَرْفٍ كَانَ، فَتَقَعُ بِذَلِكَ فِي مُخَالَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَالَ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»(١).

وَأَخْطَرُ مَا فِي الِاخْتِلَاطِ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ المَرْأَةُ مِنَ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، وَالمُرَاوَدَةِ وَالِابْتِزَازِ، وَقَدْ يَصِلُ ذَلِكَ إِلَى التَّحَرُّشِ وَالِاعْتِدَاءِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم والدخول على المغيبة (٤٩٣٥)، ومسلم في الحج، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٤١).

مِنْ زُمَلَائِهَا أَوْ أَسَاتِذَتِهَا أَوْ رُؤَسَائِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ دَرَجَاتُهَا وَتَرْقِيَاتُهَا بِأَيْدِيهِمْ، وَلَا دِينَ يَرْدَعُهُمْ، وَلَا خُلُقَ يَمْنَعُهُمْ. وَفِي الدُّوَلِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي الِاخْتِلَاطِ، وَزَاحَمَتِ الْمَرْأَةُ فِيهَا الرِّجَالَ؛ تَكْثُرُ الْفَضَائِحُ وَالْمُشْكِلَاتُ بَيْنَ الْعَامِلِينَ وَالْعَامِلَاتِ، وَالطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ، حَتَّى وَصَلَتْ نِسْبَةُ الِاعْتِدَاءَاتِ وَالتَّحَرُّشَاتِ إِلَى تِسْعِينَ فِي الْمِائَةِ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ، وَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ عَفِيفَةٍ تَرَكَتْ دِرَاسَتَهَا، أَوْ غَيَّرَتْ تَخَصُّصَهَا، أَوْ نَقَلَتْ وَظِيفَتَهَا؛ لِمَا تَلْقَاهُ مِنِ ابْتِزَازٍ فِي عِرْضِهَا وَعَفَافِهَا؟!

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِلْعُزُوفِ عَنِ الزَّوَاجِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَدَرَ عَلَى إِرْوَاءِ غَرِيزَتِهِ بِغَيْرِ زَوَاجٍ وَلَا نَفَقَةٍ، وَلَا بَيْتٍ وَلَا مَسْؤُولِيَّاتٍ، فَلِمَاذَا إِذًا يَتَزَوَّجُ؟! وَعُزُوفُ الشَّبَابِ عَنِ الزَّوَاجِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَائِلِ عَلَى ذَلِكَ، وَفِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ أَرْقَامٌ مُخِيفَةٌ فِي ذَلِكَ.

وَالِاخْتِلَاطُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْخِيَانَاتِ الزَّوْجِيَّةِ، وَهُوَ يُوقِدُ نَارَ الْخِصَامِ وَالْجِدَالِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ؛ فَلَا الرَّجُلُ يَقْنَعُ بِزَوْجَتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُجَالِسُ الْجَمِيلَاتِ وَيُمَازِحُهُنَّ، وَلَا الْمَرْأَةُ تَقْنَعُ بِزَوْجِهَا وَهِيَ تَرَى مِنْ زُمَلَائِهَا مَنْ هُمْ أَجْمَلُ خِلْقَةً، وَأَرْقَى تَعَامُلًا مِنْ زَوْجِهَا.

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِكَسَادِ الْمَرْأَةِ، وَعُزُوفِ الرِّجَالِ عَنْهَا، وَعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ فِيهَا؛ لِأَنَّ غَيْرَتَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ قَبُولِ امْرَأَةٍ تُعَامِلُ الرِّجَالَ وَتُحَادِثُهُمْ وَتُجَالِسُهُمْ، فَالرَّجُلُ السَّوِيُّ يُرِيدُهَا لَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَعُزُوفُ الشَّبَابِ عَنِ الزَّوَاجِ بِالْعَامِلَاتِ فِي الْمَجَالَاتِ الطِّبِّيَّةِ الْمُخْتَلِطَةِ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ.

وَالِاخْتِلَاطُ سَبَبٌ لِانْشِغَالِ كُلِّ جِنْسٍ بِالْآخَرِ عَنِ الْعَمَلِ أَوِ الدِّرَاسَةِ، فَهُوَ أَبَدًا يُفَكِّرُ فِيهِ، وَيُكَرِّسُ عَقْلَهُ وَجُهْدَهُ فِي كَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَثْبَتَتْ كَثِيرٌ مِنَ

الدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ ضَعْفِ التَّحْصِيلِ الدِّرَاسِيِّ فِي المَدَارِسِ المُخْتَلِطَةِ انْشَغَالَ كُلِّ جِنْسٍ بِالجِنْسِ الآخَرِ؛ يَقُولُ أَحَدُ الأَطِبَّاءِ الْغَرْبِيِّينَ: عِنْدَمَا تَتَحَرَّكُ الْغَرِيزَةُ الْجِنْسِيَّةُ لَدَى الإِنْسَانِ، تُفْرِزُ بَعْضُ الْغُدَدِ هُرْمُونَاتٍ تَتَسَرَّبُ فِي الدَّمِ إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى الدِّمَاغِ، فَتُخَدِّرُهُ فَلَا يُصْبِحُ قَادِرًا عَلَى التَّفْكِيرِ وَالتَّرْكِيزِ الصَّافِي(٢).

وَالْغَرَائِزُ الجِنْسِيَّةُ تَتَحَرَّكُ بِشَكْلٍ أَكْبَرَ حِينَ يَجْتَمِعُ النِّسَاءُ بِالرِّجَالِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الِاخْتِلَاطَ دَاءٌ وَبِيلٌ، وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ، لَا يُفْتَحُ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ إِلَّا أَصَابَ دِينَهَا وَأَخْلَاقَهَا فِي مَقْتَلٍ، وَكَانَ سَبَبًا لِانْتِشَارِ الرَّذَائِلِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي تُنْتِجُ أَوْلَادَ الْحَرَامِ، وَتُسَبِّبُ كَثْرَةَ الإِجْهَاضِ، وَتَنْشُرُ الطَّوَاعِينَ وَالأَمْرَاضَ، وَتُفَكِّكُ رَوَابِطَ الأُسَرِ، وَتُوجِدُ الشُّكُوكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ.

وَالمُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ، يَسْعَوْنَ جُهْدَهُمْ فِي تَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ فِي بِلَادِنَا؛ فَبَعْدَ أَنْ فَرَضُوهُ وَاقِعًا فِي كُلِّيَّاتِ الطِّبِّ وَالمُسْتَشْفَيَاتِ، وَالمَرَاكِزِ الصِّحِّيَّةِ، ثُمَّ فِي الْبُنُوكِ وَكَثِيرٍ مِنَ الشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ، يُرِيدُونَ تَوْسِيعَهُ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى، وَيَعْقِدُونَ المُؤْتَمَرَاتِ وَالمُنْتَدَيَاتِ المُخْتَلِطَةَ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِتَكْرِيسِ هَذِهِ الصُّورَةِ المُنْحَرِفَةِ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى الدُّوَلِ المُسْتَكْبِرَةِ بِالْجَهْرِ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعَدِّي حُدُودِهِ، وَانْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ. وَوَدَّ المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ لَوِ اجْتَاحَتْ حُمَّى الِاخْتِلَاطِ كُلَّ المَجَالَاتِ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى المَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ! وَمَا يَصِيحُونَ بِهِ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ يَشِي بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ نَحْوَ الْبِلَادِ وَالعِبَادِ مِنْ مُحَاوَلَةِ الْفَسَادِ وَالإِفْسَادِ، وَفَرْضِ المَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ المُنْحَرِفَةِ عَلَى المُجْتَمَعِ، وَقَسْرِ النَّاسِ

(٢) تنظر بعض الدراسات المتخصصة في نهاية حواشي الخطبة.

عَلَيْهَا بِالقُوَّةِ وَالْإِرْهَابِ، وَلَنْ يَسْتَكِينُوا أَوْ يَتَوَقَّفُوا عَنْ فَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ؛ حَتَّى يَرَوُا الْحَرَائِرَ الْعَفِيفَاتِ يَبْذُلْنَ أَعْرَاضَهُنَّ بِالمَجَّانِ وَبِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ.

وَمِنْ حَقِّ النَّاسِ أَنْ يَغَارُوا عَلَى نِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَأَنْ يَقِفُوا فِي وُجُوهِهِمْ، وَيُنْكِرُوا عَلَى المُفْسِدِينَ خُطُوَاتِهِمُ المُسْتَفِزَّةَ الَّتِي هِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَأْتُونَ بِقَارِعَةٍ جَدِيدَةٍ، وَيَجُسُّونَ نَبْضَ النَّاسِ بِخُطْوَةٍ يُقْدِمُونَ عَلَيْهَا فِي بَابِ الِاخْتِلَاطِ(٣).

فَإِذَا لَمْ يُنْكِرِ النَّاسُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مُنْكَرٍ فِي حِينِهِ تَقَدَّمُوا خُطْوَةً أُخْرَى، وَهَكَذَا.. حَتَّى يَصِلُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنْ إِفْسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَخَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وَحَفِظَ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ مِنْ إِفْكِهِمْ وَشَرِّهِمْ؛ إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٣) نشرت الصحف هذه الأيام أن بعض شركات الطيران الجديدة خرجت دفعات من المضيفين والمضيفات السعوديات، كما نشرت أنه وظف في مطار جدة أربع بنات يعملن بجانب الرجال في كونترات خدمات المسافرين .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَرَى الْمُتَبَصِّرُ أَنَّ الْعَالَمَ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ قَدْ تَجَرَّعَ آلَامَ الِاخْتِلَاطِ وَمَفَاسِدَهُ، وَأَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ تِلْوَ الدِّرَاسَاتِ أَنَّ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَالطُّلَّابِ عَنِ الطَّالِبَاتِ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَلِلرِّجَالِ، وَلِلْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَنَادَى كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالْبَاحِثَاتِ فِي الدُّوَلِ الَّتِي شَرَّعَتْ لِلِاخْتِلَاطِ . . نَادَوْا بِعَزْلِ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَقَامَ بَعْضُ الزُّعَمَاءِ وَأَصْحَابُ الْقَرَارِ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ بِخُطُوَاتٍ عَمَلِيَّةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ(٤)، إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ بَنِي قَوْمِنَا لَا زَالُوا مُتَخَلِّفِينَ،

---

(٤) نشر الموقع الأمريكي (سي إن إن) في ١٨/ ١١/ ٢٠٠٦م تحت عنوان: (الطلاب الأمريكيون في الصفوف المختلطة يحصلون على علامات متدنية) أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش قد منحت مدراء المدارس العامة في البلاد حق فصل الصفوف بين الجنسين، الأمر الذي يعتبر أكبر تعديل يطال النظام التربوي منذ عقود عديدة.
وسيتم بموجب القرار إيلاء مديري المدارس حق تقرير ما إذا كان من الأفضل فصل الصفوف التعليمية على أساس جنسي أو إبقائها موحدة، وذلك بحسب المادة المراد تعليمها، أو بموجب معايير إدارية خاصة.
وقالت وزيرة التربية الأمريكية مارغريت سبيلنغ: إن القرار يأتي انسجامًا مع حق كل طلاب الولايات المتحدة في الحصول على تعليم جيد من جهة، وحق الهيئات التعليمية بامتلاك الوسائل التي تكفل تحقيق هذا الهدف من جهة أخرى.
واستندت الدوائر التربوية الأمريكية في موقفها على معطيات، أمنتها تقارير إحصائية، تُظهر حصول الطلاب في الصفوف غير المختلطة على علامات أعلى من نظرائهم في الصفوف المختلطة، خاصة في مادتي الرياضيات واللغات الأجنبية.
ويلاقي القرار معارضة شديدة من جمعيات حقوقية ونسائية تتهم واضعيه بالسعي إلى خلق تمييز تعليمي، وبتجاوز حقوق الطلاب الأساسية بتحصيل العلوم بشكل متساوٍ.
ويعود آخر قرار مماثل إلى العام ١٩٧٥، عندما أقرت الدوائر التربوية الأمريكية مبدأ =

يَعِيشُونَ بِعَقْلِيَّاتِ مَا قَبْلَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنَ الْآنَ، حِينَ اجْتَاحَتْ مَوْجَاتُ الِاخْتِلَاطِ كَثِيرًا مِنَ الدُّوَلِ، وَقَامَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْحَرَكَاتِ التَّحَرُّرِيَّةِ النِّسَوِيَّةِ بِالمُطَالَبَةِ بِهِ وَتَشْرِيعِهِ، وَلَمَّا بَانَتْ لَهُمْ أَضْرَارُهُ بَعْدَ قَرْنٍ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنْ مُفَكِّرِيهِمْ إِلَى مُقَاوَمَتِهِ، وَالمُطَالَبَةِ بِإِلْغَائِهِ، وَتَغَيَّرَ العَالَمُ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ بَنُو قَوْمِنَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِوَصْفِ التَّخَلُّفِ وَالرَّجْعِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

لَقَدِ افْتَرَى المُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ فِرْيَةً صَدَّقُوهَا، ثُمَّ نَشَرُوهَا، فَانْطَلَتْ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَهَذِهِ الفِرْيَةُ هِيَ قَوْلُهُمْ: إِنَّ عَزْلَ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ سبَّبَ سُعَارًا جِنْسِيًّا فِي المُجْتَمَعَاتِ المُنْغَلِقَةِ، فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ لَا يَرَى فِي المَرْأَةِ إِلَّا المَعَانِيَ الجِنْسِيَّةَ، بِخِلَافِ المُجْتَمَعَاتِ المُنْفَتِحَةِ المُتَحَرِّرَةِ الَّتِي يَخْتَلِطُ فِيهَا الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ، وَتَتَعَرَّى النِّسَاءُ كَمَا يَحْلُو لَهُنَّ، وَتُصَاحِبُ المَرْأَةُ فِيهَا مَنْ تَشَاءُ، لَا يُوجَدُ فِيهَا هَذَا السُّعَارُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ تَعَوَّدَ عَلَى المَرْأَةِ وَأَلِفَهَا، هَكَذَا يَقُولُونَ!

وَالسُّؤَالُ هُنَا: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ المُفْتَرُونَ، فَلِمَاذَا يَكْثُرُ اغْتِصَابُ

= فصل الطلاب على أساس الجنس، لكنها حصرته في ذلك الحين بحصص التربية الجنسية.
غير أن القانون الجديد يتيح لمديري المدارس تقدير منافع الفصل الجنسي، وتطبيقه في حصص المواد التي يرتئونها، على أنه يمنح الطلاب بالمقابل حق عدم حضور تلك الصفوف.
يشار إلى أن المدارس الراغبة بتطبيق هذا القانون، يتوجب عليها الالتزام بتقديم نوعية التعليم ذاتها لكل طلابها من الجنسين، مع تقديم مراجعة كل سنتين لأداء الصفوف التي تخضع لهذا القانون.
ولفت مراقبون تربويون إلى انتشار المدارس العامة التي تعتمد الفصل الجنسي بشكل كامل في الآونة الأخيرة، حيث ارتفع عددها من أربعة عام ١٩٩٨ إلى ٢٢٨ في العام الحالي. انتهى.
وسمعت أن العدد تضاعف أربع مرات هذا العام.

النِّسَاءِ، بَلِ الْأَطْفَالِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُنْحَلَّةِ؟! أَلَيْسَ الْوُصُولُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْلًا؛ فَالْبَغَايَا يَمْلأْنَ الْحَانَاتِ وَالْخَمَّارَاتِ، وَيَنْتَظِرْنَ زَبَائِنَهُنَّ عَلَى نَوَاصِي الطُّرُقَاتِ؟!

أَلَيْسَ الْحُصُولُ عَلَى الْمُتْعَةِ فِي بِلَادِهِمْ أَسْهَلَ مِنْ شِرَاءِ الْخُبْزِ؟! فَمَا عَلَى الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ يُصَادِقَ مَنْ تُعْجِبُهُ، فَيَأْخُذَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ! إِذًا فَلِمَاذَا يَكْثُرُ الِاغْتِصَابُ فِي بِلَادِهِمْ؟! حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَةَ مِنْ نِسَائِهِمْ لَا تَخْلُو حَقِيبَةُ يَدِهَا مِنْ سَلَاحٍ تُدَافِعُ بِهِ عِنْ نَفْسِهَا، وَتَرُدُّ عُدْوَانَ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهَا، وَلِمَاذَا تَظْهَرُ الْفَضَائِحُ تِلْوَ الْفَضَائِحِ لِلسِّيَاسِيِّينَ وَأَصْحَابِ النُّفُوذِ فِي بِلَادِهِمْ بِتَحَرُّشَاتِهِمْ بِنِسَاءٍ يَعْمَلْنَ عِنْدَهُمْ، أَوْ يَتَدَرَّبْنَ فِي مَكَاتِبِهِمْ؟!

بَلْ لِمَاذَا يَكْثُرُ الشُّذُوذُ وَالزَّوَاجُ الْمِثْلِيُّ وَأَنْوَاعُ الْغَرَائِبِ الْجِنْسِيَّةِ الَّتِي تَأْبَاهَا الْحَيَوَانَاتُ وَيَرْضَاهَا بَشَرُهُمْ؟ أَلَيْسُوا غَيْرَ مُعَقَّدِينَ، وَلَا مَكْبُوتِينَ جِنْسِيًّا، كَمَا يَقُولُ بَنُو قَوْمِنَا؟! وَمَنْ قَرَأَ أَرْقَامَ الِاغْتِصَابِ وَالشُّذُوذِ عَلِمَ أَنَّ مُجْتَمَعَاتِهِمْ تَسِيرُ إِلَى الْهَاوِيَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ هُوَ الِاخْتِلَاطُ، وَلَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَكُلُّ الدِّرَاسَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالإِحْصَاءَاتِ الْجَادَّةِ فِي كُلِّ الْبِلَادِ الَّتِي يَنْتَشِرُ فِيهَا الِاخْتِلَاطُ -سَوَاءٌ كَانَتْ بِلَادًا غَرْبِيَّةً أَمْ شَرْقِيَّةً، وَسَوَاءٌ كَانَتْ بِلَادًا مُسْلِمَةً أَمْ غَيْرَ مُسْلِمَةٍ- تُجْمِعُ عَلَى حَقِيقَةٍ مُفَادُهَا: أَنَّ خَلْطَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ شَرٌّ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، وَيُخَلِّفُ كَثِيرًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ وَالْأَمْرَاضِ الْجِنْسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَسْتَعْصِي عَلَى الْعِلَاجِ.

فَمَتَّى يَتْرُكُ الْكَذَّابُونَ كَذِبَهُمْ، وَيَتَوَقَّفُونَ عَنِ افْتِرَائِهِمْ، وَيُقْلِعُونَ عَنْ إِفْسَادِهِمْ، وَيَقِفُونَ مَوْقِفَ صِدْقٍ مَعَ أَنْفُسِهِمْ، وَنُصْحٍ لِمُجْتَمَعِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ، فَيَسْأَلُونَ أَنْفُسَهُمْ: لِمَاذَا يَنْشُرُونَ الْفَسَادَ وَالِاخْتِلَاطَ فِي بِلَادٍ حُفِظَتْ مِنْهُ طِيلَةَ الْعُقُودِ الْمَاضِيَةِ، وَقَدْ غَرِقَتْ أَكْثَرُ الْبُلْدَانِ فِي مُصِيبَتِهِ، وَتَجَرَّعَتْ مَرَارَتَهُ، وَرَأَى الْقَرِيبُ

وَالْبَعِيدُ مَا خَلَّفَهُ الِاخْتِلَاطُ فِيهَا مِنْ آثَارٍ سَلْبِيَّةٍ، وَمُشْكِلَاتٍ كَثِيرَةٍ مُسْتَعْصِيَةٍ؟ وَلَمْ يَعُدْ ذَلِكَ خَافِيًا عَلَى أَحَدٍ، فَهَلْ هُمْ نَاصِحُونَ غَافِلُونَ؟ أَوْ فَاسِدُونَ مُفْسِدُونَ؟ أَوْ هُمْ أُجَرَاءُ حَاقِدُونَ عَلَى مُجْتَمَعَاتِهِمْ، لَهُمْ مُهِمَّةٌ مُحَدَّدَةٌ فِي إِفْسَادِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ بِأَجْرٍ يَقْبِضُونَهُ مِنْ مُنَظَّمَاتٍ مَشْبُوهَةٍ، وَدُوَلٍ مُتَنَفِّذَةٍ طَامِعَةٍ فِي المِنْطَقَةِ، لَهَا مَشْرُوعَاتُهَا وَخُطَطُهَا؟!

وَإِلَى مَتَى يَقِفُ الْعُقَلَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَالصَّالِحُونَ، وَأُولُو النُّصْحِ لِبِلَادِهِمْ وَوُلَاتِهِمْ، وَأَهْلُ الْغَيْرَةِ عَلَى نِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ .. إِلَى مَتَى يَقِفُونَ مَوَاقِفَ المُتَفَرِّجِينَ السَّلْبِيِّينَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ وَيَنْتَظِرُونَ؛ حَتَّى تَحُلَّ الْقَوَارِعُ بِمُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَيَتَمَكَّنَ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مِنْ بُيُوتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ؟! فَلَا هُمْ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُنَاصِحُونَهُمْ، وَلَا يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِفْسَادِهِمْ، وَلَا يُبَيِّنُونَ لِلنَّاسِ خَطَرَ الِاخْتِلَاطِ، وَقَدْ فَتَكَ بِكَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي انْتَشَرَ فِيهَا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَانْصَحُوا لِوُلَاتِكُمْ، وَأَخْلِصُوا لِمُجْتَمَعَاتِكُمْ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي المُفْسِدِينَ مِنْكُمْ، وَقِفُوا دُونَ إِفْسَادِهِمْ لِنِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ السَّفِينَةَ إِذَا خُرِقَتْ غَرِقَ كُلُّ مَنْ كَانَ فِيهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ(٥).

---

(٥) بعض الدراسات التربوية المختصة في ضرر الاختلاط وأثره على التحصيل العلمي والعملي:
أجريت دراسات في ألمانيا الغربية وبريطانيا على المدارس المختلطة فلوحظ فيها انخفاض مستوى ذكاء الطلاب، واستمرار تدهور مستواهم الدراسي، وثبت العكس من ذلك في المدارس غير المختلطة.
وأجرى معهد أبحاث علم النفس الاجتماعي في بون بألمانيا دراسة تبين منها: أن تلاميذ وتلميذات المدارس المختلطة لا يتمتعون بقدرات إبداعية، وهم محدودو المواهب، قليلو الهوايات، وأنه على العكس من ذلك تبرز محاولات الإبداع واضحة بين تلاميذ مدارس =

. . . .

= الجنس الواحد غير المختلطة. ينظر: الغرب يتراجع عن التعليم المختلط (٧-٨).
وفي تجربة أخرى تم فصل البنين عن البنات، فحققوا نتائج أفضل في شهادة الثانوية العامة وأثبتت التجربة: أن عدد البنين الذين نالوا درجات مرتفعة تزايد أربع مرات على ما كان سيكون عليه الحال لو أن الفصل كان مختلطًا. ينظر: مجلة المعرفة، شوال ١٤١٧هـ.
وفي دراسة أخرى بمعهد كيل بألمانيا تبين بعد الفصل بين الطلاب والطالبات أن البنات كن أكثر انتباها ، ودرجاتهن أفضل كثيرًا قبل فصلهن عن الطلاب. ينظر: مجلة المعرفة، رمضان ١٤١٩هـ.
وذكرت الدكتورة كاولس شوستر خبيرة التربية الألمانية: أن توحد نوع الجنس في المدارس بحيث يكون البنون في مدارس البنين، والبنات في مدارس البنات يؤدي إلى استعلاء روح المنافسة بين التلاميذ، أما الاختلاط فيلغي هذا الدافع. ينظر: الغرب يتراجع عن التعليم المختلط (٧).
وفي دراسات عربية في بعض المدارس العربية المختلطة ثبت أن أضرار الاختلاط في التعليم كثيرة جدًّا، ومن تلكم الدراسات:
١- قامت الباحثة فاطمة محمد رجاء مناصرة بدراسة أثر مشكلة الاختلاط على تعليم الفتاة المسلمة في الجامعات الأردنية، فخرجت بالنتائج التالية:
السؤال الأول: هل يعد الاختلاط في الدراسة بنظرك مشكلة؟
- أجاب ٧٧% من الطلاب والطالبات بنعم.
السؤال الثاني: إذا كان الاختلاط مشكلة، اذكر أهم السلبيات التي تعانيها بسببه؟
فذكرت المشكلات التالية:
أ- مشكلات أخلاقية:
١- إثارة الفتنة.
٢- التصنع في التصرفات من قبل الجنسين .
٣- تعرض الفتيات لمضايقات الشباب.
٤- ضعف الوازع الديني، بسبب تعود الطلبة على الممارسات الخاطئة، واستباحة المنكرات لكثرة تكرارها.
٥- انتشار ظاهرة السفور، بسبب تبرج الطالبات ولباسهن المخالف للزي الإسلامي، فطالبات الجامعة اللاتي يرحن ويرجعن بين البيت والجامعة سافرات متبرجات يلبسن =

. . . .

= ثيابًا رقيقة قصيرة.

٦- انتشار الجرائم الأخلاقية مثل الزنا، فإن كثرة المخالطة مع وجود عوامل الفتنة تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة.

٧- فساد الأخلاق عند الطرفين.

ب- مشكلات أكاديمية:

١- عدم الحرية في النقاش أثناء المحاضرات، وهذا يظهر في عدم رغبة الطلاب والطالبات بالمشاركة في الدرس خيفة أن يخطئ أحدهم فيُحرج أمام الجنس الآخر، فتشوه صورته أمام من يود كسب رضاه من الجنس الآخر .

٢- تعاطف المدرسين مع الطالبات، وذلك على حساب الطلاب.

٣- التغيب عن المحاضرات، وعدم الالتزام بحضورها بسبب انشغال كل جنس مع الآخر.

٤- صعوبة ممارسة النشاطات الجادة والفاعلة، وخاصة التي تمارس في ساحات الجامعة.

٥- تحويل الجامعة عن الغاية الأساسية التي وجدت من أجلها.

٦- فيه قتل للوقت؛ لكثرة التفكير بالجنس الآخر.

٧- ضعف التحصيل العلمي.

ج- مشكلات اقتصادية:

وقد حددها الطلبة بما يلي:

١- محاولة إظهار كل من الجنسين كرمه وسخاءه أمام الجنس الآخر، وبذلك يتحمل كل منهما مسؤوليات مادية كثيرة قد تضطره لإرهاق نفسه بالديون، أو اللجوء إلى تصرفات غير مرغوب بها لتحصيل المال.

٢- المبالغة في النفقات على اللباس والمظهر الخارجي من قبل الجنسين وخاصة الطالبات.

د- مشكلات اجتماعية: وتتلخص آراء الطلبة فيما يلي:

١- التقليل من قدر المرأة في المجتمع؛ حيث تصبح عارضة أزياء تلفت الأنظار، فتعتبر نفسها كسلعة قابلة للعرض.

٢- له آثار سلبية في الحياة الأسرية للطلاب والطالبات المتزوجين، فقد يكون سببًا في دمار هذه الأسرة وتشتيت شملها، بسبب تعرف الشاب على فتاة أخرى غير متزوجة مثلًا!

٣- عزوف الشباب عن الزواج، والاكتفاء بالعلاقات غير المشروعة. =

. . . .

= وهذه المشكلات هي جزء من معاناة الشباب، والضغوطات التي يسببها الاختلاط لهم والمآسي التي تترتب على ذلك.

هـ- مشكلات نفسية:

ولقد ذكر الطلبة بعضًا من المشكلات النفسية منها:

١- القلق والاضطراب والخوف من الجنس الآخر نتيجة ما يرى من ممارسات خاطئة.

٢- الصراع الداخلي في نفس الشاب.

السؤال الثالث: اذكر أهم المعوقات التي يسببها الاختلاط على تحصيلك العلمي؟

هناك من اعتبر أن للاختلاط معوقات، ومنهم من يرى أن ليس للاختلاط معوقات، وكانت النسب على النحو التالي:

أجاب ٧٥٪ بأن للاختلاط معوقات.

وأجاب ٢٥٪ ليس للاختلاط معوقات.

ويبدو أن أهم المعوقات في نظر هذه المجموعة التي تعتبر أن للاختلاط معوقات هي:

١- الخوف من السؤال بصراحة؛ خوفًا من التعرض لسخرية الآخرين واستهزائهم.

٢- تكرار التغيب عن المحاضرات للانشغال بالجنس الآخر.

٣- عدم المشاركة في المحاضرة خوفًا من الوقوع في الخطأ.

٤- تعرض الأستاذ للحرج وعدم توضيح الكثير من القضايا لوجود الطالبات.

٥- إعطاء الأستاذ أكبر قدر من الاهتمام للطالبات على حساب الطلاب.

٦- إذا كان المعلم أنثى، فهذا يؤثر على نفسية الطلاب ولا يقبلون تلقي العلم من امرأة.

وبالتالي فإن كل هذا يؤدي إلى انخفاض مستوى التحصيل العلمي عند الطلبة.

السؤال الرابع: يدعي البعض أن العلاقة التي تنشأ بين الجنسين تحفز على زيادة التحصيل العلمي لكونها باعثًا للتعلم، فما رأيك في ذلك؟

- فأجاب ٩٠٪: ليس للاختلاط حافز على التعليم.

- أجاب ١٠٪: الاختلاط يشكل حافزًا باعثًا على التعليم.

السؤال الخامس: هل وجود الجنسين في قاعة واحدة يعيق حرية الأستاذ في إيضاح عناصر الموضوع؟

أجاب ٨٦٪: يعيق.

أجاب ١٤٪: لا يعيق. =

. . . .

= السؤال السادس: ما الآثار التي يسببها الاختلاط على حياتك الاجتماعية؟ اذكرها؟
أجاب ٨٦% أن له آثارًا سلبية.
فمن تلك الآثار:
١- عدم ثقة الشباب بالفتيات، وبالتالي العزوف عن الزواج.
٢- تفكك الروابط الاجتماعية وبروز المشكلات الأسرية.
٣- عدم قدرة الشباب على الزواج، وبالتالي يتعرضون للانحراف والفساد.
٤- كثرة التفكير في الجنس الآخر، وإثارة الشهوة في النفس وتحررها من القيود التي يجب أن يلتزم بها.
٥- البعض يحبذ عند ذلك الانعزال والوحدة والابتعاد عن الآخرين حتى من بني جنسه؛ لقلة ثقته بهم.
٦- قد يؤدي إلى الخجل والخوف مِنَ التَّعامل مع الجنس الآخر.
٧- آثار سلبية على علاقاتهم مع أهلهم في البيت ومع الآخرين في المجتمع. تنظر هذه الدراسة في: رسالة ماجستير بعنوان (أثر مشكلتي الاختلاط والمنهاج التعليمي على تعليم الفتاة المسلمة في الجامعات الأردنية) ص٣٢ إلى ص٤٦.
الدراسة الثانية:
قام عبد الحليم محمود السيد وآخرون بدراسة المشكلات النفسية والاجتماعية لدى عينة من طلاب جامعة القاهرة حجمها (٣٩٨٧) طالبًا وطالبة، وكشفت نتائج هذه الدراسة فيما يتعلق بالمشكلات مع الزملاء من الجنس الآخر عن أن أكثر مشكلات الطلبة أهمية مع زميلاتهم تتمثل:
المبالغة في الملبس.
عدم الالتزام بتعاليم الدين.
والتحرر من السلوك.
والاختلاط الزائد عن الحد بين الجنسين.
والخروج عن العادات والتقاليد.
أما بالنسبة إلى المشكلات التي تعاني منها الطالبات في علاقتهن بزملائهن من الطلبة الذكور فتتمثل في:
عدم الالتزام بتعاليم الدين. =

. . . .

= والتحرر في السلوك.

والاختلاط الزائد عن الحد بين الجنسين.

وعدم مراعاة مشاعر الزملاء.

وسوء الفهم المتبادل. تنظر نتائج هذه الدراسة في: المجلة العربية للتربية، المجلد السادس عشر- العدد الأول ١٤١٧هـ بحث بعنوان (الاتجاه نحو الاختلاط بين الجنسين لدى عينة من طلاب جامعة الكويت) د . عبد اللطيف محمد خليفة.

ومن يتتبع أقوال أهل التربية والتعليم يلحظ أن أقوالهم تكاد تتفق على خطورة الاختلاط على مستوى دين وثقافة الطالب والطالبة، فمن تلك الأقوال:

يقول الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله تعالى-: «إني لا أرى الاختلاط بين الجنسين في المدارس، ولا في كليات الجامعة، لا لموانع الدين فقط، فقد يكون من القراء من لا يحرص مع الأسف على تتبع أوامر الدين ونواهيه، بل لأنَّ هذا الاختلاط إذا قلَّت نتائجه السيئة في فرنسا وانجلترا وأمريكا لطول اعتياد أهلها عليه، فإنَّ خطره شديد في بلاد خرجت رأسًا من الحجاب السابغ إلى هذا الاختلاط على قوة الغريزة، وشدة الرغبة، وطول الحرمان، وهذه مصر جرَّبت الاختلاط في الجامعة قبلنا، ولا تزال إلى اليوم تشعر بأضراره، وقد ظهرت فيها رغبة طوية من الطالبات أنفسهن في الانفصال عن الشباب، ومن شاء فليقرأ خبر ذلك في جرائد مصر، وفي آخر عدد وصل إلى الشام من (أخبار اليوم)، وأنا مستعد للمناقشة في هذا الموضوع بلسان الواقع والعلم لا بلسان الدين، فمن شاء فليناقشني. أمَّا التسرع إلى الرد عليّ بأنَّ هذه رجعية وجمود، فلا ينفع شيئاً؛ لأنَّه لو كان كل جديد نافعًا، وكان كل قديم ضارًّا، لكان أشدّ الأشياء ضررًا العقل؛ لأنَّ العقل أقدم من التسرع، وكان أنفع الأشياء في هذا الباب مذهب العري، وأن نمشي في الجامعة وغيرها مثل الحيوانات؛ لأنَّ مذهب العري أحدث المذاهب!!» مأخوذ من: موقع لها أون لاين بعنوان: (المرأة والتعليم المختلط) ..وقد نشرت هذه المقالة في مجلة المرأة. دمشق ١٩٤٨م.

ويقول رئيس الاتحاد الوطني لطلبة جامعة الكويت محمد الرشيد: إن الأبحاث العلمية أكدت أن الاختلاط ما بين الجنسين يؤثر سلبًا على تحصيل الطلبة دراسيًّا ... ينظر: جريدة السياسة ٢ أكتوبر ٢٠٠١ م.

وأوفدت وزارة التربية السورية الأستاذ أحمد مظهر العظمة إلى بلجيكا في رحلة علمية =

. . . .

= زار فيها المدارس البلجيكية، وفي إحدى الزيارات لمدرسة ابتدائية للبنات سأل المديرة: لماذا لا تخلطون البنين مع البنات في هذه المرحلة؟ فأجابته: قد لمسنا أضرار اختلاط الأطفال حتى في سن المرحلة الابتدائية. ينظر: مكانك تحمدي (ص٨٩-٩٠).

وذكر الباحث الأمريكي جورج بالوشي في كتاب الثورة الجنسية: بأن الرئيس الأمريكي كنيدي صرح عام ١٩٦٢ بأن مستقبل أمريكا في خطر؛ لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه، وأن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين؛ لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية.

ونتيجة للاختلاط الكائن بين الطلاب والطالبات في المدارس والجامعات ذكرت جريدة لبنانية: أن الطالبة في المدرسة والجامعة لا تفكر إلا بعواطفها والوسائل التي تتجاوب بها مع هذه العاطفة .. وأن أكثر من ستين في المائة من الطالبات سقطن في الامتحانات، وتعود أسباب الفشل إلى أنهن يفكرن في عواطفهن أكثر من دروسهن وحتى مستقبلهن.

ينظر: الإعجاز العلمي في الإسلام، السنة النبوية، لمحمد كامل عبد الصمد.

٢٩٤- اختلاط النساء بالرجال (٣)
آراء العقلاء ودراسات المختصين

٢٢/ ٧/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَرَحِمَ عِبَادَهُ فِي حُكْمِهِ وَشَرْعِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَاهِرَةُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، فَإِنَّ تَقْوَاهُ وَطَاعَتَهُ سَبَبٌ لِصَلَاحِ أُمُورِ الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَمَنَعَتْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، فَهِيَ الصَّلَاحُ وَالرَّشَادُ لِلنَّاسِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، بَلَّغَهَا النَّبِيُّونَ عَنْ رَبِّهِمْ، وَاسْتَنْكَفَ عَنْهَا الْمُجْرِمُونَ مِنَ الْبَشَرِ، وَحَارَبُوا أَتْبَاعَهَا وَالدُّعَاةَ إِلَيْهَا، وَزَيَّنُوا

لِلنَّاسِ كُلَّ طَرِيقٍ تُخْرِجُ النَّاسَ مِنْ دِينِهِمْ، وَتَصُدُّهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ حَرَّمَ الزِّنَا وَنَهَى الْعِبَادَ عَنْهُ؛ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ المَفَاسِدِ، وَيُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ المَرْأَةَ أَعْظَمُ مَا يَفْتِنُ الرَّجُلَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ فِي كُلٍّ مِنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ مَيْلًا إِلَى الْآخَرِ؛ نَظَّمَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا بِمَا يُحَقِّقُ المَصْلَحَةَ، وَيَرْوِي الشَّهْوَةَ، وَيُحَافِظُ عَلَى النَّسْلِ، وَيَصُونُ الْعِرْضَ، وَيَدْرَأُ الشَّرَّ، فَرَغَّبَ فِي النِّكَاحِ وَحَضَّ عَلَيْهِ ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، وَأَمَرَ ﷻ بِالْعَفَافِ مَنْ لَا يَجِدُ مُؤْنَةَ النِّكَاحِ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

ثُمَّ أَوْصَدَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ الْفَاحِشَةِ أَوْ مُقَدِّمَاتِهَا، فَحَرَّمَ خَلْوَةَ الرَّجُلِ بِالْأَجْنَبِيَّةِ عَنْهُ، وَمَنَعَ مِنْ سَفَرِ المَرْأَةِ بِلَا مَحْرَمٍ، وَأَمَرَ النِّسَاءَ بِالْحِشْمَةِ وَالسَّتْرِ وَالْحَيَاءِ وَالْعَفَافِ، وَنَهَى عَنِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب قول النبي ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، لأنه أغض للبصر وأحصن للفرج» وهل يتزوج من لا أرب له في النكاح (٥٠٦٥)، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠٠).

بِالرِّجَالِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ؛ وَلِمَا يُخَلِّفُهُ مِنْ ذَهَابِ الْأَخْلَاقِ وَقِلَّةِ الْحَيَاءِ؛ وَلِأَنَّهُ سَبَبٌ فِي وُقُوعِ الْفَوَاحِشِ وَنَشْرِهَا.

وَالْأَدِلَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ خَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ تَظَاهَرَتْ بِهَا نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَجْمَعَ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ عَلَى مَا يُخَلِّفُهُ الِاخْتِلَاطُ مِنْ مَفَاسِدَ وَكَوَارِثَ دِينِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَصِحِّيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ، وَلَمْ يُمَارِ فِي ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُكَابِرٌ.

وَقَدِ اتَّجَهَ جَمْعٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي شَرَّعَتْ لِلِاخْتِلَاطِ بَعْدَ عُقُودٍ مِنْ تَجْرِبَتِهِ لِدِرَاسَةِ آثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ، فَأَجْمَعَتْ دِرَاسَاتُهُمْ وَإِحْصَائِيَّاتُهُمْ عَلَى أَنْ ضَرَرَهُ أَعْظَمُ مِنْ نَفْعِهِ، وَأَنَّ الْمَنَافِعَ الَّتِي تَوَهَّمَهَا مَنْ شَرَّعُوا لِلِاخْتِلَاطِ خَلَّفَتْ مِنَ الْأَضْرَارِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ مَا لَا يُحْصَى.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَعْهَدَ أَبْحَاثِ عِلْمِ النَّفْسِ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي مَدِينَةِ (بُون) بِأَلْمَانْيَا أَجْرَى دِرَاسَةً عَلَى الْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِطَةِ وَغَيْرِ الْمُخْتَلِطَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ تَلَامِيذَ وَتِلْمِيذَاتِ الْمَدَارِسِ الْمُخْتَلِطَةِ لَا يَتَمَتَّعُونَ بِقُدُرَاتٍ إِبْدَاعِيَّةٍ، وَهُمْ مَحْدُودُو الْمَوَاهِبِ، قَلِيلُو الْهِوَايَاتِ، وَأَنَّهُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَبْرُزُ مُحَاوَلَاتُ الْإِبْدَاعِ وَاضِحَةً بَيْنَ تَلَامِيذِ مَدَارِسِ الْجِنْسِ الْوَاحِدِ غَيْرِ الْمُخْتَلِطَةِ.

وَفِي تَجْرِبَةٍ أُخْرَى تَمَّ فَصْلُ الْبَنِينَ عَنِ الْبَنَاتِ فِي الدِّرَاسَةِ، فَحَقَّقَ الْجَمِيعُ نَتَائِجَ أَفْضَلَ فِي شَهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ الْعَامَّةِ، وَأَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ: أَنَّ عَدَدَ الْبَنِينَ الَّذِينَ نَالُوا دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَةً تَزَايَدَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ عَلَى مَا كَانَ سَيَكُونُ عَلَيْهِ الْحَالُ لَوْ أَنَّ الْفَصْلَ الدِّرَاسِيَّ كَانَ مُخْتَلِطًا.

وَفِي دِرَاسَةٍ أُخْرَى بِمَعْهَدِ (كِيل) بِأَلْمَانْيَا تَبَيَّنَ بَعْدَ الْفَصْلِ بَيْنَ الطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ أَنَّ الْبَنَاتِ كُنَّ أَكْثَرَ انْتِبَاهًا، وَدَرَجَاتُهُنَّ أَفْضَلُ كَثِيرًا قَبْلَ فَصْلِهِنَّ عَنِ الطُّلَّابِ.

وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ ذَكَرَتِ الدَّكْتُورَةُ (كَاولس شوستر) خَبِيرَةُ التَّرْبِيَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ: أَنَّ تَوْحِيدَ نَوْعِ الْجِنْسِ فِي المَدَارِسِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْبُنُونَ فِي مَدَارِسِ الْبَنِينَ، وَالْبَنَاتُ فِي مَدَارِسِ الْبَنَاتِ، يُؤَدِّي إِلَى اسْتِعْلَاءِ رُوحِ المُنَافَسَةِ بَيْنَ التَّلَامِيذِ، أَمَّا الِاخْتِلَاطُ فَيُلْغِي هَذَا الدَّافِعَ.

وَهَذِهِ الدِّرَاسَاتُ المُتَعَدِّدَةُ صَدَرَتْ فِي أَلمَانْيَا، وَهِيَ بَلَدٌ نَصْرَانِيٌّ عَلْمَانِيٌّ، وَلَمْ تَصْدُرْ عَنْ مُسْلِمِينَ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُمْ مُنْحَازُونَ لِلْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ صَدَرَتْ عَنْ مُتَخَصِّصِينَ يَعْنِيهِمُ الشَّأْنُ الْأَلمَانِيُّ أَوَّلًا وَأَخِيرًا.

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ أَوْفَدَتْ وِزَارَةُ التَّرْبِيَةِ السُّورِيَّة مُهْتَمًّا بِشَأْنِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ إِلَى بَلْجِيكَا فِي رِحْلَةٍ عِلْمِيَّةٍ زَارَ فِيهَا المَدَارِسَ الْبَلْجِيكِيَّةَ، وَفِي إِحْدَى الزِّيَارَاتِ لِمَدْرَسَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ لِلْبَنَاتِ سَأَلَ المُدِيرَةَ: لمَاذَا لَا تَخْلِطُونَ الْبَنِينَ مَعَ الْبَنَاتِ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ؟ فَأَجَابَتْهُ: قَدْ لمَسْنَا أَضْرَارَ اخْتِلَاطِ الْأَطْفَالِ حَتَّى فِي سِنِّ المَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ.

وَفِي أَمْرِيكَا نَشَرَ المَوْقِعُ الْإِخْبَارِيُّ الْأَمْرِيكِيُّ (سِي إن إن) قَبْلَ سَنَتَيْنِ خَبَرًا تَحْتَ عُنْوَانِ: (الطُّلَّابُ الْأَمْرِيكِيُّونَ فِي الصُّفُوفِ المُخْتَلِطَةِ يَحْصُلُونَ عَلَى عَلَامَاتٍ مُتَدَنِّيَةٍ) وَذُكِرَ فِيهِ: أَنَّ إِدَارَةَ الرَّئِيسِ قَدْ مَنَحَتْ مُدِيرِي المَدَارِسِ الْعَامَّةِ فِي الْبِلَادِ حَقَّ فَصْلِ الصُّفُوفِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، حَسَبَ مَا يَرَوْنَهُ مِنَ المَصْلَحَةِ التَّرْبَوِيَّةِ لِلطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ، وَهَذَا يُعَدُّ أَكْبَرَ تَعْدِيلٍ يَطَالُ النِّظَامَ التَّرْبَوِيَّ فِي أَمْرِيكَا مُنْذُ عُقُودٍ كَثِيرَةٍ.

وَاسْتَنَدَتِ الدَّوَائِرُ التَّرْبَوِيَّةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ فِي مَوْقِفِهَا هَذَا عَلَى تَقَارِيرَ إِحْصَائِيَّةٍ أَثْبَتَتْ حُصُولَ الطُّلَّابِ فِي الصُّفُوفِ غَيْرِ المُخْتَلِطَةِ عَلَى عَلَامَاتٍ أَعْلَى مِنْ نُظَرَائِهِمْ فِي الصُّفُوفِ المُخْتَلِطَةِ، خَاصَّةً فِي مَادَّتَيِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ.

هَذَا؛ وَقَدِ اشْتَهَرَ ابْتِزَازُ الضُّبَّاطِ وَالجُنُودِ فِي الجُيُوشِ المُخْتَلِطَةِ لِلْمُجَنَّدَاتِ وَالْعَامِلَاتِ فِي الْجَيْشِ، وَأُجْرِيَ أَكْثَرُ مِنْ تَحْقِيقٍ فِي اغْتِصَابِهِنَّ وَالتَّحَرُّشِ الجِنْسِيِّ بِهِنَّ، وَإِكْرَاهِهِنَّ عَلَى مَا يُرِيدُهُ رُؤَسَاؤُهُنَّ مِنْهُنَّ، وَسَبَبُ ذَلِكَ هُوَ الِاخْتِلَاطُ.

وَكَشَفَ تَقْرِيرٌ صَحَفِيٌّ لِجَرِيدَةِ (نُيويُورْك تَايِمز) أَنَّ الْجَيْشَ الْأَمْرِيكِيَّ يُوَاجِهُ اتِّهَامَاتٍ كَثِيفَةً تَتَعَلَّقُ بِتَحَرُّشَاتٍ جِنْسِيَّةٍ، وَاعْتِدَاءَاتٍ جِنْسِيَّةٍ بِحَقِّ مُجَنَّدَاتٍ أَمْرِيكِيَّاتٍ مِنْ جَانِبِ زُمَلَاءٍ لَهُنَّ وَخَاصَّةً فِي الْعِرَاقِ وَالْكُوَيْتِ وَأَفْغَانِسْتَانَ، كَمَا تُشِيرُ إِحْصَاءَاتٌ صَادِرَةٌ فِي إِسْرَائِيلَ إِلَى ارْتِفَاعٍ حَادٍّ فِي ظَاهِرَةِ تَحَرُّشِ الْجُنُودِ بِزَمِيلَاتِهِمْ المُجَنَّدَاتِ.

وَلِكَثْرَةِ الشِّكَايَةِ مِنَ التَّحَرُّشَاتِ الْجِنْسِيَّةِ فِي وَسَائِلِ المُوَاصَلَاتِ المُخْتَلِطَةِ؛ عَمَدَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ الْوَثَنِيَّةِ إِلَى تَخْصِيصِ عَرَبَاتٍ خَاصَّةٍ لِلنِّسَاءِ فِي بَعْضِ الْقِطَارَاتِ.

وَفِي دِرَاسَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ لِبْنَانِيَّةٍ تَبَيَّنَ نَتِيجَةً لِلِاخْتِلَاطِ بَيْنَ الطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ فِي المَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ: أَنَّ الطَّالِبَةَ فِي المَدْرَسَةِ وَالْجَامِعَةِ لَا تُفَكِّرُ إِلَّا بِعَوَاطِفِهَا وَالْوَسَائِلِ الَّتِي تَتَجَاوَبُ بِهَا مَعَ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ . . . وَأَنَّ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ فِي المِئَةِ مِنَ الطَّالِبَاتِ رَسَبْنَ فِي الِامْتِحَانَاتِ، وَتَعُودُ أَسْبَابُ الْفَشَلِ إِلَى أَنَّهُنَّ يُفَكِّرْنَ فِي عَوَاطِفِهِنَّ أَكْثَرَ مِنْ دُرُوسِهِنَّ وَحَتَّى مُسْتَقْبَلِهِنَّ.

وَأَشَارَ تَقْرِيرٌ حُكُومِيٌّ يَابَانِيٌّ إِلَى ارْتِفَاعٍ وَاضِحٍ فِي قَضَايَا التَّحَرُّشِ الْجِنْسِيِّ بِالنِّسَاءِ الْعَامِلَاتِ وَصَلَ إِلَى خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ فِي المِئَةِ، وَنَفْسُ النِّسْبَةِ ثَبَتَتْ فِي دِرَاسَةٍ مَيْدَانِيَّةٍ فِي مِصْرَ عَلَى النِّسَاءِ الْعَامِلَاتِ، وَهِيَ نِسْبَةٌ تُقَارِبُ النِّصْفَ، أَيْ: مَا يُقَارِبُ مِنْ نِصْفِ الْعَامِلَاتِ فِي أَجْوَاءٍ مُخْتَلِطَةٍ، يَتَعَرَّضْنَ لِمُضَايَقَاتٍ وَتَحَرُّشَاتٍ

جِنْسِيَّةٍ، وَرُبَّمَا وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى التَّهْدِيدِ أَوِ الِاغْتِصَابِ.

وَهُنَاكَ مِئَاتُ التَّقَارِيرِ وَالدِّرَاسَاتِ تُثْبِتُ أَضْرَارَ الِاخْتِلَاطِ وَمَآسِيهِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، وَالْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَبَعْدَ تَجْرِبَةٍ مَرِيرَةٍ عَانَى النِّسَاءُ مِنْ آثَارِهَا مُعَانَاةً شَدِيدَةً، يَعُودُ الْعَالَمُ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى اكْتِشَافِ أَنَّ الِاخْتِلَاطَ شَرٌّ وَبَلَاءٌ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَهُوَ مَا نَهَتْ عَنْهُ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهَا إِلَى المَمَاتِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ نَظَرَ إِلَى الْبُحُوثِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَالْإِحْصَائِيَّةِ، وَالدِّرَاسَاتِ الْمُتَخَصِّصَةِ الْجَادَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُشْكِلَةِ خَلْطِ الْفَتَيَاتِ بِالْفِتْيَانِ فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ، وَخَلْطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ فِي الْوَظَائِفِ وَالمِهَنِ وَالْأَعْمَالِ؛ وَصَلَ إِلَى

مَا قَرَّرَتْهُ الشَّرِيعَةُ الْغَرَّاءُ مِنْ لُزُومِ فَصْلِ الْفَتَيَاتِ عَنِ الْفِتْيَانِ، وَإِبْعَادِ النِّسَاءِ عَنِ الرِّجَالِ، وَإِلَّا كَانَتِ المَصَائِبُ وَالْمُشْكِلَاتُ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ وَالْإِحْصَاءَاتِ صَدَرَتْ فِي دُوَلٍ عَلْمَانِيَّةٍ نَصْرَانِيَّةٍ سَبَقَتِ الْعَالَمَ فِي الِاخْتِلَاطِ، وَجَرَّبَتْهُ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً، ثُمَّ صَدَرَتْ بُحُوثٌ أُخْرَى فِي بِلَادٍ عَرَبِيَّةٍ وَأُخْرَى شَرْقِيَّةٍ أَثْبَتَتْ بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ أَنَّ مَنْعَ الِاخْتِلَاطِ خَيْرٌ لِلنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ وَالْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ.

وَلَكِنَّنَا قَدِ ابْتُلِينَا بِصَحَفِيِّينَ وَإِعْلَامِيِّينَ لَا نَدْرِي مَا هُمْ؟ وَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُونَ؟ وَلَا مَاذَا يُرِيدُونَ؟

لَا يَحْفِلُونَ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَرْفَعُونَ بِهِ رَأْسًا، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ حَكَمًا، حَتَّى نَحْتَكِمَ وَإِيَّاهُمْ فِي قَضِيَّةِ الِاخْتِلَاطِ إِلَى الشَّرِيعَةِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لَنَا رَبُّنَا، وَأَمَرَنَا بِهَا!

وَلَيْسُوا مِنْ عُقَلَاءِ الْبَشَرِ، حَتَّى نَحْتَكِمَ وَإِيَّاهُمْ إِلَى بَدَائِهِ الْعَقْلِ وَمُسَلَّمَاتِهِ.

وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ وَالْإِحْصَاءِ، حَتَّى نَعْرِضَ قَضَايَا الِاخْتِلَافِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَلَى تِلْكَ الدِّرَاسَاتِ وَالْبُحُوثِ وَالْإِحْصَاءَاتِ.

إِنَّهُمْ جَهَلَةٌ فِي تَعْلِيمِهِمْ، مُتَخَلِّفُونَ فِي تَفْكِيرِهِمْ، لَمْ يَتَجَاوَزْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ الْأَكَادِيمِيِّ الشَّهَادَةَ الْمُتَوَسِّطَةَ؛ بِسَبَبِ ضَيَاعِهِمْ فِي الْأَنْدِيَةِ وَالشَّوَارِعِ وَالْأَرْصِفَةِ، وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ تَجْرِبَةٍ وَخِبْرَةٍ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْقِرَاءَةِ وَالثَّقَافَةِ، غَايَةُ مَعْرِفَتِهِمْ تَتَبُّعُ أَخْبَارِ الْمُغَنِّيَاتِ وَالرَّاقِصَاتِ وَالْمُمَثِّلَاتِ فِي المَلَاحِقِ الْفَنِّيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ لِلصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ.

ثُمَّ فَجْأَةً أُبْرِزُوا لِلنَّاسِ فِي هَيْئَةِ خُبَرَاءَ وَمُفَكِّرِينَ وَمُثَقَّفِينَ، يَلُوكُونَ كَلَامًا

لَا يُدْرِكُونَ أَبْعَادَهُ وَلَوَازِمَهُ، وَيَسْتَعْمِلُونَ أَلْفَاظًا وَمُصْطَلَحَاتٍ لَا يَفْقَهُونَ أَكْثَرَهَا، وَقَدْ أُذِنَ لَهُمْ وَرُبَّما شُجِّعُوا عَلَى أَنْ يَخُوضُوا فِي الْقَضَايَا الْكُبْرَى لِلْأُمَّةِ، وَأَنْ يَرُدُّوا شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَأَنْ يُنَاكِفُوا بِهَذَيَانٍ كَهَذَيَانِ الْبُلْهِ وَالمَجَانِينِ كِبَارَ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، وَالمُخْتَصِّينَ فِي عُلُومِ النَّفْسِ وَالِاجْتِمَاعِ وَالْحَضَارَةِ، لَا زِمَامَ لِمَقُولَاتِهِمْ وَلَا خِطَامَ، وَلَا تَسْتَنِدُ إِلَى قَوَاعِدَ حَتَّى يُحَاكِمَهَا عُقَلَاءُ الْبَشَرِ إِلَى تِلْكَ الْقَوَاعِدِ؛ لِنَقْصِ عُقُولِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ، وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ وَنَفْسِيَّاتِهِمْ، وَحَقُّ كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُحْجَرَ عَلَيْهِمْ فِي المَصَحَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ لِلْعِلَاجِ، لَا أَنْ يُسَوَّدُوا فِي الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ.

وَمَعَهُمْ لَفِيفٌ مِنَ الْعَجَائِزِ اللِّيبْرَالِيَّاتِ المُتَشَبِّبَاتِ يُرِدْنَ إِفْسَادَ بَنَاتِ المُسْلِمِينَ بِاسْمِ الْإِصْلَاحِ، وَانْتِزَاعِ حُقُوقِ المَرْأَةِ مِنَ المُجْتَمَعِ، وَهُنَّ فَاشِلَاتٌ فِي حَيَاتِهِنَّ، قَدِ امْتَلَأْنَ بِالْعُقَدِ النَّفْسِيَّةِ وَالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ؛ بِسَبَبِ عُنُوسَتِهِنَّ فَلَا يَرْضَاهُنَّ عُقَلَاءُ الرِّجَالِ زَوْجَاتٍ لَهُمْ، وَالمُتَزَوِّجَاتُ مِنْهُنَّ فَشِلْنَ فِي حَيَاتِهِنَّ الْأُسَرِيَّةِ؛ فَأَكْثَرُهُنَّ مُطَلَّقَاتٌ، وَمَع ذَلِكَ يَزْعُمْنَ أَنَّهُنَّ مُصْلِحَاتٌ، فَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الشُّمْطُ المُتَصَابِيَاتُ قَدْ فَشِلْنَ فِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِهِنَّ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ وَبُيُوتِهِنَّ فَكَيْفَ يُصْلِحْنَ غَيْرَهُنَّ؟! مَا أَعْرَضَهَا مِنْ دَعْوَى!!

وَلَنْ يُعْطِيَ المَرْأَةَ حُقُوقَهَا، وَيَضَعَهَا فِي مَكَانِهَا اللَّائِقِ بِهَا إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فَمَنْ عَارَضَ شَرِيعَتَهُ ضُرِبَ بِكَلَامِهِ عُرْضَ الْحَائِطِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَوَجَبَ الْأَخْذُ عَلَى يَدِهِ، وَرَدُّهُ عَنْ غَيِّهِ وَإِفْسَادِهِ.

وَإِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى عُمُومِ المُسْلِمِينَ أَنْ يُوَاجِهُوا الْحَمَلَاتِ المُنَظَّمَةَ لِإِفْسَادِ المَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ، وَأَنْ يَدْفَعُوا المُحَاوَلَاتِ المَكْرُورَةَ لِتَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ وَالْفَسَادِ، وَأَنْ يَسْعَوْا فِي رَدْعِ المُفْسِدِينَ وَالمُفْسِدَاتِ؛ دِيَانَةً لِلَّهِ تَعَالَى فِي إِنْكَارِ

مُنْكَرِهِمْ، وَصِيَانَةً لِأَعْرَاضِهِمْ، وَحِفْظًا لِنِسَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ الْبُلْدَانَ الَّتِي سَبَقَتْ إِلَى الِاخْتِلَاطِ يُعَانِي نِسَاؤُهَا مُشْكِلَاتٍ تِلْوَ مُشْكِلَاتٍ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ الْمُفْسِدُونَ نَشْرَ الِاخْتِلَاطِ وَتَعْمِيمَهُ أَصَابَنَا مَا أَصَابَ غَيْرَنَا، وَلَنْ يُوقِفَهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ إِلَّا وُقُوفُكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- فِي وُجُوهِهِمْ، وَفَضْحُ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَبَيَانُ عُوَارِهِمْ، وَكَشْفُ زَيْفِهِمْ، بِالِاحْتِسَابِ عَلَيْهِمْ، وَنَشْرِ مَا صَدَرَ مِنْ دِرَاسَاتٍ وَإِحْصَاءَاتٍ تُثْبِتُ ضَرَرَ الِاخْتِلَاطِ، وَذَلِكَ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، وَلَا يَخْتَصُّ بِأَحَدٍ دُونَ أَحَدٍ؛ فَإِنَّ الْفَسَادَ إِنِ انْتَشَرَ عَمَّ ضَرَرُهُ الْجَمِيعَ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٢٩٥- من أحكام السفر وآدابه (١) السفر بين الطاعة والمعصية

٦/ ٥/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْبَشَرَ لِيَعْبُدُوهُ، وَرَزَقَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ وَلَا يَكْفُرُوهُ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَتَابُعِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَشَّرَ أُمَّتَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا شَرٍّ إِلَّا حَذَّرَهُمْ مِنْهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ، اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ وَرَعَايَاكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي حِلِّكُمْ وَتَرْحَالِكُمْ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبٌ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَقْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ وَمَقَاصِدِكُمْ ﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٤]، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٧، ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلنُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ إِقْبَالُهَا وَإِدْبَارُهَا، وَلَهَا ضَرُورَاتُهَا وَحَاجَاتُهَا، وَقَدْ رَاعَى الْإِسْلَامُ مَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حُبٍّ لِلشَّهَوَاتِ؛ فَأَبَاحَ مِنَ الشَّهَوَاتِ مَا يَنْفَعُهَا وَيُنَشِّطُهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَا يَضُرُّهَا وَيُوبِقُهَا، وَمَا مِنْ شَهْوَةٍ مُحَرَّمَةٍ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا وَيُغْنِي عَنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْهَا.

إِنَّ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ دِينَ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ، وَيُرَبِّي أَتْبَاعَهُ عَلَى الِاقْتِصَادِ فِي اللَّهْوِ وَالْعَبَثِ، وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ عِوَضًا عَنِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ أَبَاحَ لَهُمْ

مِنْ لَذَائِذِ الدُّنْيَا مَا يَكُونُ عَوْنًا عَلَى الطَّاعَةِ، وَسَبَبًا لِاجْتِنَابِ المُحَرَّمِ.

وَتَكُونُ هَذِهِ اللَّذَّاتُ المُبَاحَةُ عِبَادَاتٍ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا إِذَا أَحْسَنَ النِّيَّةَ فِيهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: **أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَلَمَّا قَالَ حَنْظَلَةُ الْأُسَيِّدِيُّ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِالْجِدِّ، وَيُفَرِّغَهَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ رَغْبَةً فِي الْآخِرَةِ، وَإِعْرَاضًا عَنِ الدُّنْيَا؛ تَعَقَّبَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سِيرَتِهِ تِلْكَ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

---

(١) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، وابن حبان (٤١٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... (٢٧٥٠)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩) (٢٥١٤)، وابن ماجه في الزهد، باب المداومة على العمل (٤٢٣٩)، وأحمد (٤/ ١٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح باب لزوجك عليك حقًّا (٤٩٠٣)، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تعذر به أو فوت به حقًّا... (١١٥٩).

فَأَخْذُ النَّفْسِ بِالْجِدِّ دَائِمًا قَدْ يُؤَدِّي إِلَى المَلَلِ وَالسَّأَمِ، وَمِنْ ثَمَّ تَرْكِ كُلِّ الْعَمَلِ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَوْلَهُ: «أَجِمُّوا هَذِهِ الْقُلُوبَ، وَالْتَمِسُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ؛ فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ»(٤).

وَكَذَلِكَ الزِّيَادَةُ فِي اللَّهْوِ وَالتَّرْوِيحِ، وَالِانْغِمَاسُ فِي المَلَذَّاتِ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً سَبَبٌ لِمَوْتِ الْقَلْبِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَالْخِيَارُ فِي ذَلِكَ المُوَازَنَةُ بَيْنَ حُقُوقِ الْآخِرَةِ، وَحُظُوظِ النَّفْسِ مِنَ الدُّنْيَا.

وَلِلنَّاسِ فِي التَّرْوِيحِ وَالسَّعَةِ مَذَاهِبُ يَتَّبِعُونَهَا، وَطَرَائِقُ يَسْلُكُونَهَا: مِنِ اتِّخَاذِ المَزَارِعِ وَالضَّيْعَاتِ، وَالْخُرُوجِ إِلَى الْمُتَنَزَّهَاتِ وَالِاسْتِرَاحَاتِ، فِي أَنْوَاعٍ مِنَ اللَّهْوِ المُبَاحِ وَغَيْرِ المُبَاحِ.

وَمِنْ أَشْهَرِ أَنْوَاعِ التَّرْوِيحِ وَالتَّنْفِيسِ عَنِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ: السَّفَرُ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى، إِمَّا لِأَنَّهَا مَسْقَطُ رَأْسِهِ، وَبَلَدُ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، وَإِمَّا لِمِيزَاتٍ أُخْرَى دَعَتْهُ إِلَيْهَا، وَجَعَلَتْهُ يُقَدِّمُهَا عَلَى غَيْرِهَا.

وَغَالِبُ الْبَشَرِ يُقَدِّمُونَ السَّفَرَ لِلتَّنْفِيسِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّرْفِيهِ وَالتَّرْوِيحِ، وَيَجْعَلُونَهُ تَاجَهَا وَرَأْسَهَا، وَلَا بُدَّ مِنْهُ فِي كُلِّ عَامٍ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ مِمَّنْ يُطِيقُونَهُ وَيَجِدُونَ نَفَقَاتِهِ.

وَالسَّفَرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ سَفَرَ طَاعَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ سَفَرَ مَعْصِيَةٍ، وَالمُبَاحُ مِنْهُ يَؤُولُ بِالنِّيَّةِ وَالْعَمَلِ إِلَى أَحَدِهِمَا وَلَا بُدَّ.

وَمِنْ سَفَرِ الطَّاعَةِ: السَّفَرُ لِلْجِهَادِ أَوِ الرِّبَاطِ، أَوْ طَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ صِلَةِ

(٤) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٣٣٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١٠٥)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (٦٨)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٢٩) رقم (١٣٧).

الرَّحِمِ، أَوْ زِيَارَةِ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ سَفَرِ المَعْصِيَةِ: السَّفَرُ لِلسَّرِقَةِ، أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، أَوِ الزِّنَا، أَوِ الْقِمَارِ، أَوِ الْخَمْرِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ المُحَرَّمَاتِ.

وَالسَّفَرُ لِلتَّرْوِيحِ وَالتَّرْفِيهِ هُوَ مِنَ المُبَاحَاتِ الَّتِي تَؤُولُ إِلَى الطَّاعَةِ أَوْ إِلَى المَعْصِيَةِ.

فَإِنْ سَافَرَ إِلَى بَلَدٍ يُقَامُ فِيهَا دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحْكَمُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِهَا بِشَرِيعَتِهِ، وَأَحْكَامُ الْإِسْلَام فِيهَا ظَاهِرَةٌ، وَالدِّينُ فِيهَا عَزِيزٌ، مَعَ قِيَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَرُفْقَتِهِ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ فِعْلِ المَأْمُورَاتِ، وَاجْتِنَابِ المَحْظُورَاتِ، فَهَذَا سَفَرٌ مُبَاحٌ لَا ضَيْرَ عَلَى الْعَبْدِ فِيهِ، وَلَا فِيمَا أَنْفَقَهُ مِنْ نَفَقَاتٍ عَلَيْهِ.

فَإِنِ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ مِنْ قَصْدِ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَجَعْلِهِمْ تَحْتَ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ، وَحِفْظِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ وَرُفْقَةِ السُّوءِ فِي بَلَدِهِ، أَوْ أَرَادَ بِسَفَرِهِ نَشَاطَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّفَكُّرِ فِي عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ كَانَ سَفَرُهُ سَفَرَ طَاعَةٍ، وَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِيهِ عَلَى حَسَبِ نِيَّتِهِ، وَنَفَقَتُهُ فِيهِ مَخْلُوفَةٌ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ وِجْهَةُ سَفَرِهِ إِلَى بِلَادٍ كَافِرَةٍ، الْكُفْرُ فِيهَا عَزِيزٌ، وَالْإِسْلَامُ فِيهَا ضَعِيفٌ، وَحُرُمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى تُنْتَهَكُ فِيهَا جِهَارًا نَهَارًا وَلَا نَكِيرَ، فَهَذَا سَفَرُ مَعْصِيَةٍ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَإِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ. وَهَكَذَا إِنْ سَافَرَ إِلَى بِلَادٍ تَتَسَمَّى بِالْإِسْلَامِ وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ فِيهَا ظَاهِرًا، بَلِ الظَّاهِرُ فِيهَا الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ. وَلَمْ يُرَخِّصِ الْعُلَمَاءُ فِي السَّفَرِ إِلَيْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا، أَوْ حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ هَذَا المُسَافِرِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رُفْقَتِهِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ الشُّبُهَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ دِينٌ يَمْنَعُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

فَإِنْ خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا أَمَامَ الشَّهَوَاتِ، فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ، وَلَعَلَّ ضَرُورَتَهُ أَوْ حَاجَتَهُ تَنْدَفِعُ بِغَيْرِ هَذَا السَّفَرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى عَوَّضَهُ اللهُ تَعَالَى خَيْرًا مِنْهُ.

إِنَّ السَّفَرَ إِلَى بِلَادٍ تَعِجُّ بِأَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ لَمِمَّا يَضُرُّ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ، فَكَيْفَ إِذَا اصْطَحَبَ مَعَهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَهُمْ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِهِ، وَأَضْرَارُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَآثَامُهُ عَظِيمَةٌ: فَمَنِ اخْتَارَ بِلَادًا كَافِرَةً مَوْطِنًا لِسِيَاحَتِهِ، وَمَقَرًّا لِإِجَازَتِهِ فَقَدْ أَجَازَ لِنَفْسِهِ الْإِقَامَةَ بَيْنَ ظَهْرَانَي الْمُشْرِكِينَ بِلَا ضَرُورَةٍ وَلَا حَاجَةٍ، فَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ بَرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»(٥).

فَإِنْ وَقَعَتْ لَهُ مُشْكِلَةٌ اضْطَرَّتْهُ إِلَى مَحَاكِمِهِمْ فَقَدْ تَحَاكَمَ إِلَى الطَّاغُوتِ بِلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ فِي عَافِيَةٍ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّفَرِ مِنَ الْحَرَجِ وَالْإِثْمِ إِلَى بِلَادٍ يَظْهَرُ فِيهَا الْكُفْرُ وَالْفُجُورُ وَيُعْلِنُ النَّاسُ بِهِ إِلَّا أَنَّ هَذَا الْمُسَافِرَ الْمُسْلِمَ يَرَى الْمُنْكَرَ فَلَا يُنْكِرُهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُغَيِّرَهُ وَيُزِيلَهُ؛ لَكَانَ كَافِيًا فِي صَرْفِهِ عَنْهُ، وَالِاسْتِعَاضَةِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ. وَكَمْ يَمُرُّ بِهِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ مِنْ مُنْكَرَاتٍ يَأْثَمُ بِحُضُورِهَا وَعَدَمِ إِنْكَارِهَا؟ وَلَازِمٌ عَلَى مَنْ حَضَرَ مُنْكَرًا أَنْ يُنْكِرَهُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ مَكَانَهُ.

بَلْ إِنَّ إِدْمَانَهُ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرَاتِ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَغَيُّرِ قَلْبِهِ، وَرِقَّةِ دِينِهِ؛ فَإِنْ

---

(٥) أخرجه من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين (١٦٠٤)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة (٨/ ٣٦)، واختلف في وصله وإرساله، ورجح البخاري إرساله كما في علل الترمذي (٤٨٣)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٠٧).

سَلِمَ هُوَ مِنْ أَكْثَرِ ذَلِكَ لِعُزْلَتِهِ فِي مَسْكَنِهِ أَوْ مُنْتَجَعِهِ؛ لَمْ يَسْلَمْ مَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ وَرُفْقَةٍ، وَآثَامُهُمْ عَلَى رَقَبَتِهِ.

وَإِنَّ تَغَيُّرَ أَخْلَاقِ كَثِيرٍ مِنْ نِسَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَفَتَيَاتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحِجَابِ الشَّرْعِيِّ حَتَّى اسْتُبْدِلَ بِهِ اللِّثَامُ وَالنِّقَابُ وَاللِّبَاسُ الضَّيِّقُ، وَالتَّوَسُّعِ فِي كَشْفِ الْوَجْهِ، وَإِظْهَارِ الزِّينَةِ، فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْغُرُورِ وَالِاسْتِعْرَاضِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ بَلَاءِ السَّفَرِ وَالْإِعْلَامِ، فَالمَرْأَةُ الرَّحَّالَةُ مَعَ أَهْلِهَا شَرْقًا وَغَرْبًا قَدْ أَلِفَتْ نَزْعَ الْحِجَابِ فِي غَيْرِ بَلَدِهَا، مَعَ اخْتِلَاطِهَا بِالرِّجَالِ، وَبِنَزْعِهَا لِحِجَابِهَا نُزِعَ حَيَاؤُهَا، فَثَقُلَ عَلَيْهَا أَنْ تُعِيدَهُ كَمَا كَانَ إِذَا عَادَتْ إِلَى بَلَدِهَا!! وَكُلُّ هَذِهِ الْآثَامِ يَتَحَمَّلُهَا وَلِيُّهَا، مَعَ بَقَاءِ إِثْمِهَا عَلَيْهَا. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِلْإِعْجَابِ بِالْكُفَّارِ وَمَذَاهِبِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِ عَيْشِهِمْ مِثْلُ هَذِهِ الْأَسْفَارِ الْمَشْئُومَةِ؛ حَتَّى صَارَتِ الْمُجَاهَرَةُ بِمَدِيحِهِمْ عَلَانِيَةً فِي الصُّحُفِ وَغَيْرِهَا مَعَ نِهَايَةِ كُلِّ صَيْفٍ، فَكُلُّ كَاتِبٍ مُعْجَبٍ بِهِمْ، أَقَامَ صَيْفَهُ فِي أَحْضَانِهِمْ، يَعُودُ إِلَى بَلَدِهِ لِيَنْفُثَ جَهَالَاتِهِ وَضَلَالَاتِهِ عَلَى النَّاسِ، مَدْحًا لِلْكُفَّارِ، وَإِعْجَابًا بِهِمْ، وَشَتْمًا فِي بَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وَبُغْضًا لَهُمْ، وَهُوَ يَأْكُلُ مِنْ خَيْرِهِمْ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالَهُمْ، فَمَا أَجْحَدَهُ! وَمَا أَنْكَرَهُ! ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس: ١٧].

وَمَا عَلِمَ هَذَا الْمِسْكِينُ الْمُعْجَبُ بِمَا لَا يُعْجِبُ الْعُقَلَاءَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّ الْكُفْرَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ، وَأَنَّ الْمُتَلَبِّسَ بِهِ مَهْمَا كَانَتْ أَخْلَاقُهُ عَالِيَةً، وَابْتِسَامَتُهُ عَرِيضَةً، وَتَعَامُلُهُ حَسَنًا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُقَرِّبُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ مَمْقُوتٌ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَإِنْ عَمِلَ صَالِحًا فِي الدُّنْيَا عُجِّلَتْ لَهُ حَسَنَتُهُ فِيهَا؛ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يُحَاجِجُهُ بِهِ، فَيُوَافِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُوَافِي وَلَا حَسَنَةَ لَهُ، وَقَدِ اسْتَحَقَّ النَّارَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا إِنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَمَنْ يُعْجَبُ بِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ

حَالَهُ وَمَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ نِهَايَتُهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؟!

وَاللَّهِ لَا يُعْجَبُ بِهِ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ، وَلَا يَرْضَى بِحَالِهِ إِلَّا مَرِيضُ الْقَلْبِ، مَغْمُوصٌ عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ جَاهِلٌ أَخْرَقُ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ.

وَكُلُّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالتَّغْرِيبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا هُمْ إِلَّا ضَحَايَا لِهَذِهِ الْأَسْفَارِ الْمُحَرَّمَةِ حَتَّى لُوِّثَتْ عُقُولُهُمْ بِالشُّبُهَاتِ، وَتَمَلَّكَهُمْ حُبُّ الشَّهَوَاتِ، فَهِيَ الَّتِي تُسَيِّرُهُمْ فِي دَعَوَاتِهِمُ التَّخْرِيبِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ، وَأَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرُورَ دَعَوَاتِهِمْ وَمَشْرُوعَاتِهِمْ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ بَعْضَ أَضْرَارِ السَّفَرِ لِبِلَادِ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ فَكَيْفَ يَسُوغُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُورِدَ نَفْسَهُ وَمَنْ يُحِبُّ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ هَذِهِ الْمَهَالِكَ فِي الدِّينِ مِنْ أَجْلِ مُتْعَةٍ عَابِرَةٍ، وَلَذَّةٍ زَائِلَةٍ؟!

هَذَا إِنْ سَلِمَ هُوَ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمِ الْمُوبِقَاتِ، وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْلَمُ؛ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وَقُوَّةِ الدَّافِعِ، وَغِيَابِ الرَّادِعِ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَكَمْ نَقَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ أَمْرَاضًا جِنْسِيَّةً لِأَهْلِهِمْ وَمُجْتَمَعِهِمْ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا إِلَّا بِاجْتِنَابِ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْخَبَائِثِ، وَالِاكْتِفَاءِ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاجْتَنِبُوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَرَاقِبُوهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ، وَاسْتَعِيضُوا بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ؛ فَإِنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ لَا يُشْبَعُ مِنْهُ، وَعَاقِبَتُهُ شَقَاءٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، وَاحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ وَرَعَايَاكُمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ مِنْ مُوجِبَاتِ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ تَعَالَى رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا؛ أَنْ يُرَاقِبَ اللهَ تَعَالَى فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَأَنْ يَصْدُرَ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ هَوَاهُ وَهَوَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأَحْزَاب: ٣٦].

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي التَّرْوِيحِ الْحَلَالِ وَالسَّفَرِ الْمُبَاحِ مَنْدُوحَةً وَغِنًى لِلْمُؤْمِنِ عَنْ كُلِّ سَفَرٍ مُحَرَّمٍ.

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ بَعْضِ الْمُسَافِرِينَ أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مَالًا عَظِيمًا فِي أَسْفَارِهِمْ،

لَا يُنْفِقُونَ عُشْرَهُ فِي مَجَالَاتِ الْخَيْرِ، وَنَفْعِ النَّاسِ، وَالصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ وَاحِدَهُمْ يَزْعُمُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَقْطَعُ آلَافَ الْأَمْيَالِ فِي سَفَرٍ مُحَرَّمٍ، وَيُصَبِّرُ نَفْسَهُ عَلَى الرَّهَقِ وَالْعُسْرِ وَالزِّحَامِ فِي المَطَارَاتِ وَغَيْرِهَا، وَمَكَّةُ وَالمَدِينَةُ قَرِيبَتَانِ مِنْهُ، فَيَغِيبُ عَنْهُمَا سَنَةً وَسَنَتَيْنِ، بَلْ عَشْرًا وَعِشْرِينَ، وَلَرُبَّمَا أَنْكَرَ عَلَى وَلَدِهِ أَوْ قَرَابَتِهِ كَثْرَةَ الْعُمْرَةِ وَزِيَارَةِ المَدِينَةِ، بِحُجَّةِ الزِّحَامِ وَالْحَرِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ لَمْ يَمْنَعْهُ تَكَلُّفُ صِعَابٍ أَعْظَمَ، وَمَسَافَاتٍ أَطْوَلَ، وَنَفَقَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ سَفَرِهِ المُحَرَّمِ، فَأَيُّ حِرْمَانٍ وَخِذْلَانٍ لِمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؟! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ وَالْهِدَايَةَ.

وَمَنْ أَبَى مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا أَنْ يَخْتَارَ السَّفَرَ المُحَرَّمَ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى كَبْحِ جِمَاحِ شَهْوَتِهِ عَنْهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، وَأَنْ يُرَاقِبَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَنْ يَدْعُوَ إِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ خَالَطَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَوْ إِلَى الطَّاعَةِ مَنْ رَآهُ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى مَعْصِيَةٍ؛ لَعَلَّهُ بِذَلِكَ أَنْ يُكَفِّرَ بَعْضَ سَيِّئَاتِ سَفَرِهِ.

وَأَمَّا تَرْكُهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ يَسْرَحُونَ وَيَمْرَحُونَ كَيْفَ شَاءُوا، وَيَأْتُونَ مِنَ المُنْكَرَاتِ مَا أَرَادُوا؛ فَذَلِكَ مِنْ تَضْيِيعِ الْأَمَانَةِ، وَخِيَانَةِ الدِّيَانَةِ، وَهُمْ مُتَعَلِّقُونَ بِرَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِمَ زَوْجَهُ وَبَنَاتِهِ الْحِجَابَ الشَّرْعِيَّ حَتَّى لَوْ كَانُوا فِي بِلَادٍ لَا يَلْتَزِمُهُ أَهْلُهَا؛ إِذْ إِنَّ الْوُقُوعَ فِي المُحَرَّمِ -وَهُوَ السَّفَرُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ- لَا يُسَوِّغُ المُحَرَّمَاتِ الْأُخْرَى.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِمَ رُفْقَتَهُ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، فَكَمْ تُنْسَى الصَّلَاةُ فِي بِلَادٍ لَا تُرَى فِيهَا المَسَاجِدُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يُعْلَنُ بِالنِّدَاءِ لِلصَّلَاةِ فِيهَا؟! فَلَعَلَّ مَنْ حَافَظَ عَلَى دِينِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ خَشْيَةً وَصَلَاحًا فِي قُلُوبِهِمْ، تَجْعَلُهُمْ

يَسْتَغْنُونَ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمَا أَحَلَّ لَهُمْ، فَيُعْتِقُونَ مِنْ أَسْرِ هَذِهِ المَعَاصِي وَالْآثَامِ.

وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُبْدِيَ إِعْجَابَهُ بِأَحْوَالِ الْكُفَّارِ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ المَعِيشَةِ وَالْحَالِ دُونَ أَنْ يَقْرِنَ ذَلِكَ بِالتَّحْذِيرِ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَبَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ؛ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِمَدِيحِهِ ضِعَافُ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ.

وَالثَّنَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ وَمَدْحُهُمْ بِإِطْلَاقٍ سَبَبٌ لِمَحَبَّتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ، وَمَحَبَّةِ مَنَاهِجِهِمْ وَطَرَائِقِ عَيْشِهِمْ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢].

كَمَا أَنَّهُ سَبَبٌ لِتَوَلِّيهِمْ وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائِدَة: ٥١].

وَهُوَ كَذَلِكَ سَبَبٌ لِتَقْلِيدِهِمْ، وَالتَّشَبُّهِ بِهِمْ فِيمَا أُعْجِبَ بِهِ مِنْهُمْ؛ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(٦).

(٦) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو داود في اللباس، باب في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وساق ابن تيمية في الاقتضاء سند أبي داود وقال: وهذا إسناد جيد (٨٢)، وقال الذهبي في السير: إسناده صالح (١٥/ ٥٠٩)، وصححه العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٨٥١)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٣٧١)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: حديث حسن صحيح (١٤/ ٢٤) في ثنايا كلامه على الحديث رقم (٦٥٠٩).

وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ إِبْرَازُ قَبَائِحِهِمْ، وَإِظْهَارُ مَعَايِبِهِمْ، وَانْتِقَادُ طَرَائِقِ عَيْشِهِمْ؛ تَحْذِيرًا لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ، وَانْتِهَاجِ نَهْجِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ النَّارِ إِنْ لَقُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى كُفْرِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ لَا يُمْدَحُونَ بِإِطْلَاقٍ، بَلْ هُمْ أَهْلُ المَذَمَّةِ وَالْقَدْحِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ مِنْ حَالِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٢٩٦- من أحكام السفر وآدابه (٢)
بعض أحكام السفر

٧/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَشَرَعَ لَنَا دِينًا قَوِيمًا ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] نَحْمَدُهُ عَلَى تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَتَرَادُفِ آلَائِهِ وَمِنَنِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، أَعْلَى اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أُولِي الْبِرِّ وَالْهُدَى، وَأَصْحَابِ الْفَضْلِ وَالتُّقَى، وَمَنْ تَبِعَهُمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا لِغَدِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُفَارِقُونَ دُنْيَاكُمْ إِلَى أُخْرَاكُمْ، وَمُرْتَحِلُونَ عَنْ قُصُورِكُمْ إِلَى قُبُورِكُمْ، وَمَسْئُولُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ؛ فَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ بِالدُّنْيَا، فَإِنَّهَا لَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُمْ يُفْتَنُونَ بِهَا، وَيَتَفَنَّنُونَ فِي مُتَعِهَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْوَسَائِلُ عِنْدَهُمْ إِلَى غَايَاتٍ، وَالْكَمَالِيَّاتُ إِلَى ضَرُورَاتٍ.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ بَلَغَتِ الرَّفَاهِيَةُ بِالْوَاجِدِينَ أَوْجَهَا، وَانْتَهَتْ بِهِمْ إِلَى كَمَالِهَا، فِي مَآكِلِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ، وَفِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَمَرَاقِدِهِمْ، وَفِي حِلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ.

وَأَضْحَتِ الْمُتْعَةُ وَالرَّفَاهِيَةُ فَنًّا مِنَ الْفُنُونِ، وَتِجَارَةً مِنَ التِّجَارَاتِ؛ تُدَرَّسُ فِي الْمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ، وَتُخَصُّ بِالتَّدْرِيبَاتِ وَالدَّوْرَاتِ، وَيَتَدَاعَى لِمَشْرُوعَاتِهَا التُّجَّارُ وَالْأَغْنِيَاءُ، فَجَامِعَاتٌ تَمْنَحُ شَهَادَاتٍ عُلْيَا فِي صُنْعِ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ، وَأُخْرَى فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّيَاضَاتِ، وَغَيْرُهَا فِي السَّفَرِ وَالسِّيَاحَةِ، حَتَّى غَدَتْ هَذِهِ الْوَسَائِلُ وَالْكَمَالِيَّاتُ فُنُونًا يُنْفَقُ عَلَيْهَا طَائِلُ الْأَمْوَالِ، وَتُفْنَى فِي تَعَلُّمِهَا وَصِنَاعَتِهَا الْأَعْمَارُ؛ وَذَلِكَ لِلتَّرْفِيهِ عَنِ الْأَغْنِيَاءِ وَإِسْعَادِهِمْ عَلَى حِسَابِ الْفُقَرَاءِ وَتَعَاسَتِهِمْ.

هَذَا غَيْرُ وَسَائِلِ التَّرْفِيهِ الْمُحَرَّمِ مِنَ الرَّقْصِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْغِنَاءِ وَأَنْوَاعِ الصِّنَاعَاتِ السِّينِمَائِيَّةِ وَالْمَسْرَحِيَّةِ وَالْفُكَاهِيَّةِ الَّتِي يُنْفَقُ عَلَيْهَا مَا يَفُوقُ مُوَازَنَاتِ دُوَلٍ كَامِلَةٍ.

وَالسَّفَرُ مِنْ أَقْدَمِ مَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مِنْ وَسَائِلِ الرَّفَاهِيَةِ وَالتَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ وَإِجْمَامِهَا، وَقَدْ عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ مُنْذُ الْقِدَمِ، وَفِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مَا لَا يَخْفَى، كَمَا أَنَّهُ يَنْطَوِي عَلَى مَخَاطِرَ وَأَضْرَارٍ لَا تُنْكَرُ[(١)] وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)].

---

(١) ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أن أسفار النبي عليه الصلاة والسلام دائرة بين أربعة أسفار: سفره لهجرته، وسفره للجهاد وهو أكثرها، وسفره للعمرة، وسفره للحج. زاد المعاد (١/ ٤٦١).

(٢) أخرجه البخاري في العمرة، باب السفر قطعة من العذاب (١٧١٠)، ومسلم في الإمارة، باب السفر قطعه من العذاب (١٩٢٧).

وَالشَّرِيعَةُ الْغَرَّاءُ قَدْ جَاءَتْ بِأَحْكَامٍ وَآدَابٍ لِلْمُسَافِرِ قَبْلَ سَفَرِهِ وَأَثْنَاءَهُ وَبَعْدَهُ، يُؤْجَرُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا، وَيُحْرَمُ خَيْرًا كَثِيرًا مَنْ فَرَّطَ فِيهَا.

وَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِ وَهُوَ يُرِيدُ سَفَرًا قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا أَنْ يَسْتَشْعِرَ مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ مِنْ عَظِيمِ النِّعَمِ، وَجَزِيلِ الْعَطَاءِ؛ فَهُوَ يُسَافِرُ لِمُجَرَّدِ النُّزْهَةِ وَالرَّفَاهِيَةِ، وَآخَرُونَ غَيْرُهُ يُسَافِرُونَ بِلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ، بَلْ أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى سَفَرِهِمُ الضَّرُورَةُ أَوِ الْحَاجَةُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُسَافِرُونَ فِرَارًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، قَدِ اسْتُبِيحَتْ أَوْطَانُهُمْ، وَاحْتُلَّتْ دِيَارُهُمْ، وَرُفِعَ أَمْنُهُمْ، وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِيهِمْ، فَالْقَادِرُ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا أَوْ لَاجِئًا قَدْ خَلَّفَ دَارَهُ وَأَرْضَهُ وَضَيْعَتَهُ وَرَاءَهُ، لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا نَجَاةَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

وَآخَرُونَ يَهْجُرُونَ أَوْطَانَهُمْ، وَيُفَارِقُونَ أَهْلَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ؛ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ، وَطَلَبًا لِلرِّزْقِ، قَدْ شَحَّتْ مَوَارِدُهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، فَبَحَثُوا عَنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي غَيْرِهَا.

وَآخَرُونَ قَدْ أَخَذَتِ الْأَمْرَاضُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ حَظَّهَا، فَأَطَالَتْ نَهَارَهُمْ، وَأَسْهَرَتْ لَيْلَهُمْ، وَحَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ لَذَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، كُلَّمَا سَمِعُوا بِطَبِيبٍ شَدُّوا رِحَالَهُمْ إِلَيْهِ، وَإِذَا وُصِفَ لَهُمْ دَوَاءٌ جَدُّوا فِي تَحْصِيلِهِ، يُسَافِرُونَ حِينَ يُسَافِرُونَ لَا لِلرَّفَاهِيَةِ وَالْمُتْعَةِ، وَإِنَّمَا لِلصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ الَّتِي لَا يَعْرِفُ كَثِيرٌ مِنَّا قَدْرَهَا.

كُلُّ أُولَئِكَ يُسَافِرُونَ حِينَ يُسَافِرُونَ مُكْرَهِينَ، تَحْتَ سِيَاطِ الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ، فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَالْعَافِيَةِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ إِذْ أَعْطَاهُ وَحُرِمَ غَيْرُهُ، وَعَافَاهُ وَابْتُلِيَ سِوَاهُ، فَهُوَ حِينَ يُسَافِرُ إِنَّمَا يُسَافِرُ لِمُتْعَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، فَلْيَشْكُرِ اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ؛ فَإِنَّ الشُّكْرَ يَزِيدُهَا، وَإِنَّ كُفْرَهَا يَرْفَعُهَا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٧].

وَمِنْ دَلَائِلِ شُكْرِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، فَلَا يَقْصِدُ بِلَادًا الْكُفْرُ فِيهَا عَزِيزٌ، وَالْإِيمَانُ فِيهَا ضَعِيفٌ، قَدْ عَجَّتْ بِأَنْوَاعِ الشُّبَهِ وَالِانْحِرَافَاتِ، وَطَفَحَتْ بِعَظَائِمِ المَعَاصِي وَالمُوبِقَاتِ، وَمَهْمَا عَظُمَتْ مِيزَاتُهَا، وَاخْضَرَّتْ أَرْضُهَا، وَحَسُنَتْ أَجْوَاؤُهَا، فَإِنَّ إِعْلَانَ المَعَاصِي فِيهَا، مَعَ عَدَمِ قُدْرَتِهِ هُوَ عَلَى إِنْكَارِهَا يُلْغِي كُلَّ حَسَنَةٍ فِيهَا، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ فِيهَا، وَإِذَا كَانَ المُسْلِمُ مَأْمُورًا بِمُفَارَقَةِ مَجْلِسٍ فِيهِ مُنْكَرٌ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ وَلَوْ فِي وَلِيمَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ حُضُورُهَا؛ فَكَيْفَ إِذَنْ يُسَافِرُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ إِلَى بِلَادِ المُنْكَرَاتِ وَالمُوبِقَاتِ؟!(٣).

وَيُكْرَهُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ، وَلَا يُسَافِرَ الِاثْنَانِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ وَهُمُ الْجَمَاعَةُ؛ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَإِبْعَادًا لِلْوَحْشَةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ»** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(٤).

---

(٣) ينظر في مفاسد السفر إلى بلاد الكفر أو الفجور: الخطبة التي قبل هذه، ص: (٦٠٥).

(٤) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أبو داود في الجهاد، باب في الرجل يسافر وحده (٢٦٠٧)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده وحسنه (١٦٧٤)، والنسائي في الكبرى (٨٨٤٩)، ومالك (٢/ ٩٧٨)، وأحمد (٢/ ١٨٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٧٠)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ١١٢)، والنووي في رياض الصالحين (٢٤١)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٢٦٧٥)، والحافظ في الفتح (٦/ ٥٣).
وقد اختلف العلماء في النهي عن الوحدة في السفر هل هو على التحريم أم على الكراهة؟ ولا يصل إلى التحريم، على قولين:
الأول: أن النهي للتحريم، وهو ما يُفهم من تبويب ابن خزيمة على الحديث إذ قال: باب النهي عن سير الاثنين والدليل على أن ما دون الثلاث من المسافرين فهم عصاة؛ إذ النبي ﷺ قد أعلم أن الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، ويشبه أن يكون معنى قوله: شيطان =

. . . .

= أو عاصي كقوله: شياطين الإنس والجن، ومعنا: عصاة الجن والإنس. صحيح ابن خزيمة (٤/ ١٥١).

الثاني: أن النهي للكراهية ولا يصل إلى التحريم، قال الطبري -رحمه الله تعالى-: هذا الزجر زجر أدب وإرشاد؛ لما يخشى على الواحد من الوحشة والوحدة وليس بحرام، فالسائر وحده في فلاة، وكذا البائت في بيت وحده لا يأمن من الاستيحاش لا سيما إذا كان ذا فكرة رديئة، وقلب ضعيف، والحق أن الناس يتباينون في ذلك، فيحتمل أن يكون الزجر عن ذلك وقع لحسم المادة، فلا يتناول ما إذا وقعت الحاجة لذلك. اهـ من فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٣-٥٤).

وقال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: «في هذا الحديث كراهية الوحدة في السفر، وأن هذا الحديث بلفظ (الراكب)، ويدخل الراجل في معناه إذا كان وحده، ولم تختلف الآثار في كراهية السفر للواحد، واختلفت في الاثنين، ولم يختلف في الثلاثة، فما زاد أن ذلك حسن جائز، وإنما وردت الكراهية في ذلك -والله أعلم- لأن الوحيد إذا مرض لم يجد من يمرضه، ولا يقوم عليه، ولا يخبر عنه» التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ٦).

ثم قال ابن عبد البر: «وقد كان مجاهد ينكر هذا الحديث مرفوعًا ويجعله قول عمر، ولا وجه لقول مجاهد؛ لأن الثقات رووه مرفوعًا، وخبر مجاهد أخبرناه محمد بن عبد الملك حدثنا ابن الأعرابي حدثنا سعدان بن نصر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قيل له: إن النبي ﷺ قال: الواحد في السفر شيطان والاثنان شيطانان، قال: لا، لم يقله النبي ﷺ، قد بعث النبي ﷺ عبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت سرية، وبعث دحية سرية وحده، ولكن قال عمر يحتاط للمسلمين: كونوا في أسفاركم ثلاثة إن مات واحد وليه اثنان، الواحد شيطان والاثنان شيطانان» التمهيد (٢٠/ ٦-٧).

لكن أجاب ابن المنير عما احتج به مجاهد من الآثار في سفر الواحد والاثنين فقال -رحمه الله تعالى-: «السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفردًا للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد كإرسال الجاسوس والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك، ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن، وحالة المنع مقيدة بالخوف حيث لا ضرورة، وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من حذيفة ونعيم بن مسعود وعبد الله بن أنيس وخوات بن جبير وعمرو بن أمية وسالم بن عمير في عدة مواطن وبعضها في الصحيح» اهـ من الفتح =

. . . .

= لابن حجر (٦/ ١٣٨)، وعنه تحفة الأحوذي (٥/ ٢٦٠).
ولفظ حديث جابر الذي أشار إليه ابن المنير -رحمه الله تعالى-: «ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ثلاثًا، قال النبي ﷺ: **إن لكل نبي حواريًّا وحواريَّ الزبير**» أخرجه البخاري (٦٨٣٣)، ومسلم (٢٤١٥).
وقال الخطابي -رحمه الله تعالى-: «معناه: أن التفرد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان ويدعوه إليه، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان، ويقال: إن اسم الشيطان مشتق من الشطون وهو البعد والنزوح، يقال: بئر شطون: إذا كانت بعيدة المهوى، فيحتمل على هذا أن يكون المراد: أن الممعن في الأرض وحده مضاهيًا للشيطان في فعله وشبه اسمه، وكذلك الاثنان ليس معهما ثالث، فإذا صاروا ثلاثة فهم ركب، أي: جماعة وصحب، قال: والمنفرد في السفر إن مات لم يكن بحضرته من يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده من يوصي إليه في ماله، ويحمل تركته إلى أهله، ويورد خبره إليهم، ولا معه في سفره من يعينه على الحمولة، فإذا كانوا ثلاثة تعاونوا وتناوبوا المهنة والحراسة وصلوا الجماعة، وأحرزوا الحظ منها» اهـ من معالم السنن بهامش أبي داود (٣/ ٨٠-٨١)، وقريب منه في النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٧٥-٤٧٦).
ونقل البغوي في شرح السنة (١١/ ٢٢) بعض كلام الخطابي ثم قال: معنى الحديث عندي: ما روي عن سعيد بن المسيب مرسلًا عن رسول الله ﷺ: «**الشيطان يهم بالواحد وبالاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم ...**» اهـ.
وقال الزرقاني في شرح الموطأ: «والثلاثة ركب؛ لزوال الوحشة، وحصول الأنس، وانقطاع الأطماع عنهم، وخروجه ﷺ مع أبي بكر مهاجرين لضرورة الخوف على أنفسهما من المشركين، أو لأن من خصائصه ﷺ عدم كراهة الانفراد في السفر وحده؛ لأمنه من الشيطان بخلاف غيره» شرح الزرقاني (٤/ ٥٠٠).
وقال النووي: «يستحب أن يرافق في سفره جماعة» المجموع (٤/ ٣٢٩).
فكل المنقول عن هؤلاء العلماء -خلا المنقول عن ابن خزيمة- يفيد أنهم يرون كراهة الوحدة في السفر، واستحباب الجماعة ثلاثة فأكثر.
وأما ما نقل عن الإمام أحمد في ذلك فلا يفيد أنه يرى التحريم، قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: لا يسافر الرجل وحده، ولا يبيت في بيت وحده، وقال جعفر: سألت =

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ**»(٥).

وَالسُّنَّةُ أَنْ يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ فِي سَفَرِهِمْ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَخْتَارُوا أَحْكَمَهُمْ وَأَعْلَمَهُمْ، وَأَكْثَرَهُمْ دِرَايَةً بِالسَّفَرِ وَحَاجَاتِهِ؛ جَمْعًا لِلْقُلُوبِ، وَقَطْعًا لِلاخْتِلَافِ؛ فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ وَالتَّبَاغُضَ فِي السَّفَرِ لَا يُطَاقُ، وَيَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِ وَمَشَقَّتِهِ، وَقَدْ رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

= أحمد عن الرجل يبيت وحده؟ قال: أحب إليَّ أن يتوقى ذلك، قال: وسألت أحمد عن الرجل يسافر وحده؟ قال: لا يعجبني. وقال في رواية الحسن بن علي بن الحسن: ما أحب ذلك، يعني في المسألتين إلا أن يضطر مضطر. وقال في رواية صالح في الرجل يسير وحده: مع الجماعة أحب إلي. اهـ من الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٤٥٧).

والسفر الآن تغير عن العهد السابق؛ فإن الطرق المعبدة التي تسلكها السيارات لا يصدق على الشخص أنه منفرد بالسفر ولو كان وحده في السيارة، وكذلك من سافر وليس معه أحد يعرفه في طائرة أو قطار أو باخرة فإنه لا يكون وحده، بل معه أناس ولو لم يعرفهم، أشبه ما يكون بالقافلة قديمًا. وقد أحسن الألباني حين علق على الحديث بقوله: «ولعل الحديث أراد السفر في الصحارى والفلوات التي قَلَّمَا يرى المسافر فيها أحدًا من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم في الطرق المعبدة الكثيرة المواصلات. والله أعلم.

ثم إن فيه ردًّا صريحًا على خروج بعض الصوفية إلى الفلاة وحده للسياحة وتهذيب النفس، زعموا! وكثيرًا ما تعرضوا في أثناء ذلك للموت عطشًا وجوعًا، أو لتكفف أيدي الناس، كما ذكروا ذلك في الحكايات عنهم. وخير الهدي هدي محمد ﷺ» اهـ سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٣٢) حديث (٦٢).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب السير وحده (٢٨٣٦).

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في القوم يسافرون ويؤمرون أحدهم (٢٦٠٨)، وأبو عوانة (٧٥٣٨)، والطبراني في الأوسط (٨٠٩٤).

وجاء أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عند أبي داود في الجهاد، باب في القوم يسافرون ويؤمرون أحدهم (٢٦٠٩)، والبيهقي (٥/ ٢٥٧)، وأعله الدارقطني بالاختلاف فيه على =

فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى مَرْكُوبِهِ أَتَى بِمَا وَرَدَ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ مُسْتَحْضِرًا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمَا يَسَّرَ لَهُ مِنَ المَرَاكِبِ، وَسَخَّرَ لَهُ مِنْ وَسَائِلِ النَّقْلِ الَّتِي حُرِمَهَا غَيْرُهُ مِمَّنْ لَا يُطِيقُونَ ثَمَنَهَا، وَهَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي يَقُولُهُ فِيهِ نَفْعُهُ وَصَلَاحُهُ؛ لِأَنَّهُ يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَهُ وَيُعِينَهُ فِي سَفَرِهِ، وَأَنْ لَا يَفْجَعَهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، وَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ مَا دَامَ مُمْتَثِلًا أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، مُطَبِّقًا لِلسُّنَّةِ، رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: **سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالْأَهْلِ**، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: **آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

= أبي هريرة أو أبي سعيد، ورجح إرساله عن أبي سلمة، كما هي رواية يحيى القطان. ينظر: العلل (٩/ ٣٢٦) رقم (١٧٩٥).

(٧) أخرجه مسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٢)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا ركب الناقة (٣٤٤٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٣٥)، والدارمي (٢٦٧٣)، وأحمد (٢/ ١٤٤)، وعبد بن حميد (٨٣٣).

وجاء أيضًا في ذلك حديث علي بن ربيعة -رحمه الله تعالى- قال: «شهدت عليًّا أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، ثلاثًا، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله، ثلاثًا، والله أكبر، ثلاثا، سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، قلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٤٤٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

(٨) أخرجه مسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (١٣٤٣)، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من دعوة المظلوم (٨/ ٢٧٣)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا سافر (٣٨٨٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٨)، وعبد الرزاق (٢٠٩٢٧)، وأحمد (٥/ ٨٢)، والطيالسي (١١٨٠).
وجاء في رواية مسلم «الحور بعد الكون»، وفي كل الروايات: «الحور بعد الكور».
قوله: (والحور بعد الكون) قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هكذا هو في معظم النسخ من صحيح مسلم (بعد الكون) بالنون، بل لا يكاد يوجد في نسخ بلادنا إلا بالنون، وكذا ضبطه الحفاظ المتقنون في صحيح مسلم، قال القاضي: وهكذا رواه الفارسي وغيره من رواة صحيح مسلم، قال: ورواه العذري (بعد الكور) بالراء، قال: والمعروف في رواية عاصم الذي رواه مسلم عنه بالنون، قال القاضي: قال إبراهيم الحربي: يقال: إن عاصمًا وهم فيه، وأن صوابه (الكور) بالراء، قلت: وليس كما قال الحربي، بل كلاهما روايتان. وممن ذكر الروايتين جميعًا الترمذي في جامعه وخلائق من المحدثين، وذكرهما أبو عبيد وخلائق من أهل اللغة وغريب الحديث، قال الترمذي بعد أن رواه بالنون: ويُروى بالراء أيضًا، ثم قال: وكلاهما له وجه، قال: ويقال: هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية، ومعناه: الرجوع من شيء إلى شيء من الشر، هذا كلام الترمذي، وكذا قال غيره من العلماء معناه بالراء والنون جميعًا: الرجوع من الاستقامة، أو الزيادة إلى النقص، قالوا: ورواية الراء مأخوذة من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها، ورواية النون مأخوذة من الكون، مصدر كان يكون كونًا: إذا وجد واستقر، قال المازري في رواية الراء: قيل أيضًا: إن معناه: أعوذ بك من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا فيها، يقال: كار عمامته إذا لفها، وحارها إذا نقضها، وقيل: نعوذ بك من أن تفسد أمورنا بعد صلاحها كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس، وعلى رواية النون قال أبو عبيد: سئل عاصم عن معناه فقال: ألم تسمع قولهم: حار بعد ما كان؟ أي أنه كان على حالة جميلة فرجع عنها، والله أعلم» اهـ من شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١١١-١١٢).
وقال السندي في حاشيته على النسائي (٨/ ٢٧٣): «(والحور بعد الكور) الكور: لف العمامة، والحور: نقضها، والمراد: الاستعاذة من النقصان بعد الزيادة، أو من الشتات =

وَالسُّنَّةُ إِذَا عَلَا شَرَفًا مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى، وَهَكَذَا إِذَا أَقْلَعَتْ بِهِ الطَّائِرَةُ، وَإِذَا هَبَطَ وَادِيًا أَنْ يُسَبِّحَ اللهَ تَعَالَى، وَهَكَذَا إِذَا هَبَطَتْ بِهِ الطَّائِرَةُ؛ لِمَا رَوَى جَابِرٌ ﷺ فَقَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَعِدَ أَكَمَةً أَوْ نَشَزًا قَالَ: **اللَّهُمَّ لَكَ الشَّرَفُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، وَلَكَ الحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَمْدٍ**»(١٠).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ**. فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْأَرْضَ وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(١١).

= بعد الانتظام، أي: من فساد الأمور بعد صلاحها، وقيل: من الرجوع عن الجماعة بعد الكون فيهم، وروي «بعد الكون» بنون، أي: الرجوع من الحالة المستحسنة بعد أن كان عليها، قيل: هو مصدر كان تامة، أي: من التغير بعد الثبات» اهـ.
وللاستزادة ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ٣٥٣)، ومشارق الأنوار (١/ ٣٤٩)، وغريب الحديث لابن سلام (١/ ٢٢٠)، والتطريف في التصحيف للسيوطي (٣٥).

(٩) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب التسبيح إذا هبط واديًا (٣٨٣١)، والدارمي (٢٦٧٤)، وأحمد (٣/ ٣٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٧٦)، وابن خزيمة (٢٥٦٢).

(١٠) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧)، وأبو يعلى (٤٢٩٧)، والطبراني في الدعاء (٨٤٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٢٢).

(١١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٤٦) وقال: هذا حديث حسن (٣٤٤٥)، وابن ماجه في الجهاد، باب فضل الحرس والتكبير في سبيل الله تعالى (٢٧٧١)، وأحمد (٢/ ٣٢٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٠١)، والبيهقي في السنن (٥/ ٢٥١)، وفي الزهد الكبير (٨٨٣)، وصححه ابن خزيمة (٢٥٦١)، وابن حبان (٢٦٩٢)، والحاكم وقال: على شرط مسلم (٢/ ١٠٨).

وَلَمَّا كَانَ الْمُسَافِرُ إِذَا عَلَا نَشَزًا مِنَ الْأَرْضِ، أَوْ حَلَّقَ فِي الْهَوَاءِ رَأَى مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى مَا رَأَى مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَغَابَاتٍ وَعُمْرَانٍ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ يَعْظُمُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ نَاسَبَ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى، فَيُقِرَّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ مِمَّا يَرَى مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِهِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الِاسْتِعْلَاءَ وَالِارْتِفَاعَ مَحْبُوبٌ لِلنُّفُوسِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ اسْتِشْعَارِ الْكِبْرِيَاءِ، فَشُرِعَ لِمَنْ تَلَبَّسَ بِهِ أَنْ يَذْكُرَ كِبْرِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَيُكَبِّرُهُ لِيَشْكُرَ لَهُ ذَلِكَ، فَيَزِيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ(١٢).

وَأَمَّا تَسْبِيحُهُ حَالَ انْخِفَاضِهِ وَهُبُوطِهِ، فَهُوَ تَنْزِيهٌ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ انْخِفَاضٍ وَسُفُولٍ(١٣).

وَإِذَا انْبَلَجَ عَلَيْهِ السَّحَرُ وَهُوَ فِي سَفَرِهِ قَالَ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ وَأَسْحَرَ يَقُولُ: «**سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ بَلَائِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبْنَا وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا، عَائِذًا بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤). وَمَعْنَاهُ: لِيَسْمَعْ سَامِعٌ، وَيَشْهَدْ شَاهِدٌ بِحَمْدِنَا لِرَبِّنَا عَلَى نِعْمَتِهِ، ثُمَّ

---

(١٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٨٨).

(١٣) وقيل أيضًا: إن مناسبة التسبيح عند الهبوط؛ لكون المكان المنخفض مَكَانَ ضيقٍ فيشرع فيه التسبيح؛ لأنه من أسباب الفرج، كما وقع في قصه يونس ﵇ حين سبح في الظلمات فنُجِّي مِنَ الغم. الفتح (١١/ ١٨٨).

(١٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما لم يعمل (٢٧١٨)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٦)، والنسائي في الكبرى (٨٨٢٨)، وابن خزيمة (٢٥٧١)، وابن حبان (٢٧٠١).

وقوله «سمع سامع» يروى بفتح ميم الفعل سمَّع وتشديدها، كما يروى بكسرها وتخفيفها، واختار القاضي عياض التشديد باعتبار أنها رواية الأكثر، وضبطه الخطابي بالكسر والتخفيف. ينظر: مشارق الأنوار (٢/ ٢٢١)، وشرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٩)، والديباج على مسلم (٦/ ٦٩).

يَطْلُبُ حِفْظَهُ وَإِعَانَتَهُ، وَيَتَعَوَّذُ مِنَ النَّارِ(١٥).

فَإِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا فَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُعِيذُهُ مِنْ شُرُورِ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَآفَاتِهِ؛ كَمَا قَالَتْ خَوْلَةُ السُّلَمِيَّةُ رضي الله عنها: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٦).

وَيُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدُّعَاءِ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ دَعْوَةَ الْمُسَافِرِ مَرْجُوَّةُ الْإِجَابَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٧).

وَعَلَى الْمُسَافِرِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ تَعَالَى فِي سَفَرِهِ، فَيَلْزَمَ طَاعَتَهُ، وَيَجْتَنِبَ مَعْصِيَتَهُ، وَيَعْتَزَّ بِدِينِهِ، وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْفَظَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَجَوَارِحَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ غَائِبًا عَنْ أَعْيُنِ مَنْ يَخَافُهُمْ أَوْ يَسْتَحْيِي مِنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، عَالِمٌ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١١٠]، وَفِي أُخْرَى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٤]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿يَعْلَمُ

(١٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٣٩)، ومشارق الأنوار (٢/ ٢٢١)، والنهاية لابن الأثير (٢/ ٤٠١).

(١٦) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلًا (٣٤٣٧)، والدارمي (٢٦٨٠)، ومالك (٢/ ٩٧٨)، وأحمد (٦/ ٣٧٧).

(١٧) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (١٥٣٦) والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة وسكت عنه (١٩٠٥) وفي موضع آخر حسنه (٣٤٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٥٨)، والطيالسي (٢٥١٧)، وعبد بن حميد (١٤٢١)، وصححه ابن حبان (٢٦٩٩).

خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غَافِر: ١٩]، وَالمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ يُحْصُونَ عَلَيْهِ أَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الِانْفِطَار: ١٠-١٢].

وَلْيَحْفَظْ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ؛ فَإِنَّهُمْ رَعِيَّتُهُ، وَأَمَانَةُ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَهُ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَبِحِفْظِ الْأَهْلِ مِمَّا يُوجِبُ عَذَابَهُ سُبْحَانَهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُشْرَعُ لِلْمُسَافِرِ إِذَا قَفَلَ مِنْ سَفَرِهِ أَنْ يُكَبِّرَ اللهَ تَعَالَى وَيُهَلِّلَهُ وَيَحْمَدَهُ كُلَّمَا عَلَا مُرْتَفَعًا حَتَّى يَبْلُغَ بَلَدَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما

قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَفَلَ مِنَ الْجُيُوشِ أَوِ السَّرَايَا أَوِ الْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ إِذَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا المَدِينَةَ»(١٨).

وَالمُسَافِرُ مَنْهِيٌّ عَنْ مُفَاجَأَةِ أَهْلِهِ لَيْلًا بِمَجِيئِهِ؛ لِئَلَّا يَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ مِنْ شَعَثِ امْرَأَتِهِ أَوْ وَلَدِهِ، أَوْ عَدَمِ نَظَافَةِ مَنْزِلِهِ، أَوْ عَدَمِ تَهْيِئَةِ فِرَاشِهِ؛ فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ المَرْأَةِ تَبَسُّطَهَا فِي بَيْتِهَا إِذَا غَابَ زَوْجُهَا، وَاسْتِعْدَادَهَا لَهُ إِذَا عَلِمَتْ بِمَقْدَمِهِ، وَهَذَا مِمَّا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. وَوُقُوعُ عَيْنِ الزَّوْجِ عَلَى مَا يَكْرَهُ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ زَوْجِهِ أَوْ وَلَدِهِ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى النُّفْرَةِ بَيْنَهُمَا؛ وَالشَّارِعُ الْحَكِيمُ قَدْ سَدَّ مَنَافِذَ الشِّقَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَدَعَا إِلَى مَا يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمَا.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلًا، وَكَانَ يَأْتِيهِمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٩).

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ».

---

(١٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب التكبير إذا علا شرفًا (٢٨٣٣)، ومسلم في الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره (١٣٤٤).
وقوله: (أو فدفد) قال القاضي عياض: هي الفلاة من الأرض لاشيء فيها، وقيل: الغليظة من الأرض ذات الحصى، وقيل: الجلد من الأرض في ارتفاع، وجمعه فدافد، ينظر: المشارق (٢/ ١٤٩)، وشرح النووي على مسلم (٩/ ١١٣)، وقال الحافظ في الفتح: هي الرابية المشرعة، ووقع عند أبي داود: (قردد) بقاف وراء ودالين، قال ابن الأثير: هذا الموضع المرتفع، ويقال الأرض المستوية. قال الحافظ: والأول أصح. اهـ (٧/ ٣٨١).

(١٩) أخرجه البخاري في العمرة، باب الدخول بالعشي (١٧٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر (١٩٢٨).

وَفِي لَفْظٍ قَالَ جَابِرٌ ﷺ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ فَقَالَ: **أَمْهِلُوا حَتَّى نَدْخُلَ لَيْلًا** -أَيْ: عِشَاءً- **كَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٠]

وَمَنْ أَعْلَمَ أَهْلَهُ بِوَقْتِ وُصُولِهِ فَإِنَّ النَّهْيَ لَا يَتَنَاوَلُهُ[٢١]، وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى

(٢٠) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا يطرق أهله ليلًا إذا أطال الغيبة مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم (٤٩٤٥-٤٩٤٦)، ومسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق، وهو الدخول ليلًا لمن ورد من سفر (٧١٥).

(٢١) كذلك لا يتناول الحديث من خرج لحاجته في النهار وعاد ليلًا؛ لأن الحديث قيد بطول الغيبة.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وقوله في طريق عاصم عن الشعبي عن جابر: «**إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلًا**» التقييد فيه بطول الغيبة، يشير إلى أن علة النهي إنما توجد حينئذ؛ فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فلما كان الذي يخرج لحاجته مثلًا نهارًا ويرجع ليلًا لا يتأتى له ما يحذر من الذي يطيل الغيبة، كان طول الغيبة مظنة الأمن من الهجوم، فيقع الذي يهجم بعد طول الغيبة غالبًا ما يكره:

إما أن يجد أهله على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «**كي تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة**»، ويؤخذ منه كراهة مباشرة المرأة في الحالة التي تكون فيها غير متنظفة؛ لئلا يطلع منها على ما يكون سببًا لنفرته منها.

وإما أن يجدها على حالة غير مرضية، والشرع محرض على الستر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «**أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم**».

فعلى هذا، من أعلم أهله بوصوله، وأنه يقدم في وقت كذا مثلًا لا يتناوله هذا النهي، وقد صرح بذلك ابن خزيمة في صحيحه، ثم ساق من حديث ابن عمر ﷺ قال: «قدم النبي ﷺ من غزوة فقال: **لا تطرقوا النساء**، وأرسل من يؤذن الناس إنهم قادمون».

قال ابن أبي جمرة -رحمه الله تعالى-: وقد خالف بعضهم فرأى عند أهله رجلًا، فعوقب بذلك على مخالفته. اهـ

وأشار بذلك إلى حديث أخرجه ابن خزيمة عن ابن عمر ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ =

عَلَى النَّاسِ مَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الاِتِّصَالِ الَّتِي تُزِيلُ كَثِيرًا مِنَ الْحَرَجِ فِي ذَلِكَ.

وَالسُّنَّةُ إِذَا عَادَ مِنْ سَفَرِهِ فَبَلَغَ بَلَدَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِالمَسْجِدِ قَبْلَ بَيْتِهِ، فَيُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ؛ لِمَا رَوَى كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ»[٢٢]. وَرَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ قَالَ لِي: **ادْخُلِ المَسْجِدَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٣].

وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ يُولِمَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ وَلِيمَةً تُسَمَّى النَّقِيعَةَ، وَهِيَ وَلِيمَةٌ يُقِيمُهَا الْعَائِدُ مِنَ السَّفَرِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا، رَوَى جَابِرٌ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ «نَحَرَ جَزُورًا أَوْ بَقَرَةً»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ جَابِرٌ ﷺ: «فَلَمَّا قَدِمَ صِرَارًا -وَهُوَ مَوْضِعٌ بِظَاهِرِ المَدِينَةِ- أَمَرَ بِبَقَرَةٍ فَذُبِحَتْ فَأَكَلُوا مِنْهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٤].

= أن تطرق النساء ليلا، فطرق رجلان، كلاهما وجد مع امرأته ما يكره» وأخرجه من حديث ابن عباس نحوه، وقال فيه: «فكلاهما وجد مع امرأته رجلًا»، ووقع في حديث محارب عن جابر أن عبد الله بن رواحة أتى امرأته ليلًا وعندها امرأة تمشطها فظنها رجلًا، فأشار إليها بالسيف، فلما ذكر للنبي ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلًا» أخرجه أبو عوانة في صحيحه» اهـ فتح الباري (٩/ ٣٤٠-٣٤١).

(٢٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك (٤١٥٦)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر أول قدومه (٧١٦).

(٢٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الصلاة إذا قدم من سفر (٢٩٢١)، ومسلم في النكاح، باب استحباب نكاح البكر (٧١٥).

(٢٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الطعام عند القدوم (٢٩٢٣-٢٩٢٤)، ومسلم في المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه (٧١٥)، وما بين الحاصرتين مني بيانًا للمعنى.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ لَا يَصُومُ أَوَّلَ قُدُومِهِ مِنَ السَّفَرِ لِأَجْلِ الَّذِينَ يَغْشَوْنَهُ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ وَالتَّهْنِئَةِ بِالْقُدُومِ(٢٥).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: كَانَتْ تِلْكَ بَعْضَ أَحْكَامِ السَّفَرِ وَآدَابِهِ، مَنْ أَخَذَ بِهَا كَانَ مُمْتَثِلًا لِلسُّنَّةِ، مَأْجُورًا فِي أَسْفَارِهِ، مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْأُنْسِ وَالْمُتْعَةِ الْمُبَاحَةِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا اسْتِهَانَةً بِهَا فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَنْ تَرَكَهَا جَهْلًا فَقَدْ قَصَّرَ فِي تَعَلُّمِ مَا يَنْفَعُهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ أَسْفَارُهُ كَثِيرَةً.

فَاعْرِفُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مَا يَنْفَعُكُمْ، وَتَعَلَّمُوا الضَّرُورِيَّ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ، وَالْتَزِمُوا سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي كُلِّ شُئُونِكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(٢٥) علقه البخاري بصيغة الجزم في فاتحة باب الطعام عند القدوم من كتاب الجهاد والسير (٣/ ١١٢٣)، ووصله إسماعيل القاضي في أحكام القرآن من طريق أيوب عن نافع قال: «كان ابن عمر إذا كان مقيمًا لم يفطر، وإذا كان مسافرًا لم يصم، فإذا قدم أفطر أيامًا لغاشيته ثم يصوم» اهـ من الفتح لابن حجر (٦/ ١٩٤)، وينظر: تغليق التعليق (٣/ ٤٦٧).

الفهرس



ملتقى الخطباء
WWW.KHUTABAA.com

مركز البيان للبحوث والدراسات ٢١٤
Al-Bayan Center for Research and Studies

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثا ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء الثامن
المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٨)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٨)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢_ ٠٥٠٢٢١٩٢٠_ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦_ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥_ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦

المحرَّمات

٢٩٧- منزلة الدماء في الشريعة.

٢٩٨- خطورة إشاعة المحرمات.

٢٩٩- الإنسان والمال (١) المال بين المدح والذم.

٣٠٠- الإنسان والمال (٢) رأي في تجارة الأسهم

٣٠١- الإنسان والمال (٣) شؤم الكسب الخبيث.

٣٠٢- التحذير من المتشابهات.

٣٠٣- الفساد المالي والإداري (١) التحذير من الرشوة.

٣٠٤- الفساد المالي والإداري (٢) غلول العمال.

٣٠٥- الفساد المالي والإداري (٣) هدايا الموظفين.

٣٠٦- بين المصلحين والمفسدين (١) بركة المصلحين.

٣٠٧- بين المصلحين والمفسدين (٢) شؤم المفسدين.

٣٠٨- بين الإصلاح والإفساد .. الاختلاط أنموذجًا.

٢٩٧- منزلة الدماء في الشريعة

١١/ ٣/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى تَعْظِيمُ دِينِهِ، وَالْغَيْرَةُ عَلَى حُرُمَاتِهِ، وَالْتِزَامُ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلُ بِأَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابُ زَوَاجِرِهِ.

مَنْ عَظَّمَ اللَّهَ ﷻ عَظَّمَ حُرُمَاتِهِ فَلَمْ يَنْتَهِكْهَا، وَوَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهِ فَلَا يَتَعَدَّاهَا، وَلَوْ خَالَفَ ذَلِكَ هَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ، وَإِنَّمَا كَانَ ابْتِلَاءُ الْبَشَرِ بِالشَّرَائِعِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ ثَقِيلَةٌ عَلَى النُّفُوسِ، وَفِيهَا مُخَالَفَةٌ لِشَهْوَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوَاهُ.

وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الشَّرْعِيَّةُ مُتَفَاوِتَةٌ فِي مَرَاتِبِهَا، مُتَفَاضِلَةٌ بِحَسَبِ أَهَمِّيَّتِهَا؛ فَمِنَ الْأَوَامِرِ مَا تَرْكُهُ كُفْرٌ، وَمِنْهَا مَا تَرْكُهُ فِسْقٌ، وَمِنْهَا مَا تَرْكُهُ خِلَافُ السُّنَّةِ

أَوْ خِلَافُ الْأَوْلَى، وَكَذَلِكَ النَّوَاهِي مِنْهَا مَا يُوصِلُ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنْهَا مَا فِعْلُهُ فِسْقٌ، وَمِنْهَا مَكْرُوهٌ كَرَاهَةً تَنْزِيهِيَّةً.

وَالْأَوَامِرُ الشَّرْعِيَّةُ تَتَأَكَّدُ بِحَسَبِ تَأْكِيدِ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ عَلَيْهَا، وَالنَّوَاهِي تَكُونُ مُغَلَّظَةً إِذَا غَلَّظَهَا الشَّارِعُ الْحَكِيمُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِمَخْلُوقٍ مَهْمَا عَلَا شَأْنُهُ؛ بَلْ هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ ﷻ، وَضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ رُبُوبِيَّتِهِ ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٤].

وَالدِّمَاءُ الْمَعْصُومَةُ حُرْمَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمَةٌ، وَشَأْنُهَا كَبِيرٌ، وَغِلْظَتُهَا شَدِيدَةٌ.

وَمِنْ دَلَائِلِ الْعِنَايَةِ بِهَا، وَالتَّغْلِيظِ فِيهَا: أَنَّ ذِكْرَهَا وَالتَّنْوِيهَ بِهَا وَقَعَ قَبْلَ أَنْ تُنْفَخَ الرُّوحُ فِي آدَمَ ﵇، وَقَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ دِمَاؤُهُ فِي عُرُوقِهِ؛ فَالْمَلَائِكَةُ ﵈، هُمْ مِنْ أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَا يَرْضَاهُ وَمَا لَا يَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ ﷻ أَنَّهُ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٠]، وَلَوْلَا عَظَمَةُ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمَا نَوَّهَ الْمَلَائِكَةُ بِذِكْرِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ وُجُوهِ الْإِفْسَادِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْكَثْرَةِ بِمَا يَعِزُّ عَلَى الْعَدِّ وَالْحَصْرِ.

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ، وَجَرَتْ عَلَيْهِ الْمِحْنَةُ وَالْبَلَاءُ وَالتَّكْلِيفُ، ثُمَّ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَنَاسَلَ بَنُوهُ مِنْ صُلْبِهِ كَانَ أَوَّلَ ذَنْبٍ عَظِيمٍ وَقَعَ مِنْ بَنِيهِ: قَتْلُ أَحَدِهِمْ أَخَاهُ، فِي قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَأَهَمِّيَّةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ تَأْرِيخِ أَوَّلِ دَمٍ سُفِكَ عَلَى الْأَرْضِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَعَقِبَ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ تَأْتِي الْآيَاتُ لِتُبَيِّنَ مَنْزِلَةَ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى إِنَّ سَافِكَ دَمٍ وَاحِدٍ قَدْ شُبِّهَ بِمَنْ سَفَكَ دَمَ النَّاسِ جَمِيعًا ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ

مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة: ٣٢]، وَلَسْتُ أَعْلَمُ ذَنْبًا فِي الشَّرِيعَةِ يَكُونُ مُرْتَكِبُهُ فِي حَقِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ كَمَنْ فَعَلَهُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ غَيْرَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ؛ فَمَا أَعْظَمَ شَأْنَ الدِّمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى!!

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَنِ اسْتَحَلَّ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا اسْتَحَلَّ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا، وَمَنْ حَرَّمَ دَمَ مُسْلِمٍ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ دِمَاءَ النَّاسِ جَمِيعًا»(١).

وَجَاءَتِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ تُؤَكِّدُ عَلَى ذَلِكَ، وَتَزِيدُهُ وُضُوحًا وَبَيَانًا؛ فَابْنُ آدَمَ الَّذِي سَفَكَ أَوَّلَ دَمٍ فِي الْأَرْضِ شَرِيكٌ فِي إِثْمِ كُلِّ دَمٍ سُفِكَ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَمَا أَكْثَرَ مَا سَيَتَحَمَّلُ مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!! نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ. رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَلِذَا كَانَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ الَّتِي تُوبِقُ صَاحِبَهَا، وَيَسْتَحِقُّ بِسَبَبِهَا الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْحَقِّ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥)، وينظر: تفسير البغوي (٢/ ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٣١٥٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

(٣) جاء ذلك في أحاديث عدة منها:
أ- حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور -أو قال- وشهادة الزور**» أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٨٨).
ب- حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات** . . . وذكر منها: **قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**» أخرجه البخاري (٦٤٦٥)، ومسلم (٨٩). =

وَالْمُسْلِمُ فِي سَعَةٍ مِنْ دِينِهِ، وَفِي فُسْحَةٍ مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي هِيَ دُونَ الْقَتْلِ، حَتَّى يُبَاشِرَ الْقَتْلَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، فَيَضِيقَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ؛ لِعِظَمِ شَأْنِ الدَّمِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**فِي فُسْحَةٍ مِنْ ذَنْبِهِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْفُسْحَةُ فِي الدِّينِ سَعَةُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْلُ ضَاقَتْ؛ لِأَنَّهَا لَا تَفِي بِوِزْرِهِ، وَالْفُسْحَةُ فِي الذَّنْبِ قَبُولُهُ الْغُفْرَانَ بِالتَّوْبَةِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَتْلُ ارْتَفَعَ الْقَبُولُ»(٥).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْخَسَارَةِ، وَأَشَدِّ الْخِذْلَانِ: أَنْ يُوَرِّطَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي دَمٍ حَرَامٍ؛ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ»(٦).

= ج- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر الإشراك بالله ... وقتل النفس**» أخرجه البخاري (٦٤٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٤)، والبخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٦٩)، والرواية الثانية للكشميهني أحد رواة صحيح البخاري كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ١٩٥).

(٥) نقله عنه الحافظ في الفتح (١٢/ ١٩٥).

(٦) أخرجه البخاري موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٧٠)، والبيهقي (٨/ ٢١).

والوَرَطات بفتح الواو والراء، وحكى ابن مالك أنه قُيِّد في الرواية بسكون الراء، قال الحافظ ابن حجر: «والصواب التحريك» وهي جمع وَرْطة بسكون الراء. الفتح (١٢/ ١٩٦).

وأصل الورطة: الهوة العميقة في الأرض، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بلية يعسر المخرج منها. ذكره ابن الأثير في النهاية (٥/ ١٧٣).

وفي اللسان عن أبي عبيد: «وأصل الورطة: أرض مطمئنة لا طريق فيها» اهـ (٧/ ٤٢٥). =

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ دِهْقَانَ قَالَ: كُنَّا فِي غَزْوَةِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِذُلُقْيَةَ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَخِيَارِهِمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لَهُ، يُقَالُ لَهُ: هَانِئُ بْنُ كُلْثُومِ بْنِ شَرِيكٍ الْكِنَانِيُّ، فَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكَرِيَّا وَكَانَ يَعْرِفُ لَهُ حَقَّهُ، قَالَ لَنَا خَالِدٌ: فَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَكَرِيَّا قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ الدَّرْدَاءِ تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**». فَقَالَ هَانِئُ بْنُ كُلْثُومٍ: سَمِعْتُ مَحْمُودَ بْنَ الرَّبِيعِ يُحَدِّثُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**». قَالَ لَنَا خَالِدٌ: ثُمَّ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ**»(٧).

= وقال الحافظ في الفتح «وهي الهلاك، يقال: وقع فلان في ورطة أي: في شيء لا ينجو منه، وقد فسرها في الخبر بقوله: التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها» اهـ (١٢/ ١٩٦).

(٧) أخرجه بهذا السياق أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، والبيهقي (٨/ ٢١)، وهذا الحديث مشتمل على أحاديث ثلاثة: حديثين عن أبي الدرداء وحديث عن عبادة. وقد فَصَل الألباني هذه الأحاديث، وساقها ثلاثة أحاديث في صحيح سنن أبي داود مع اختصار السند وصححها (٣٥٨٨ - ٣٥٨٩ - ٣٥٩٠).

والحديث الأول منها: حديث أبي الدرداء ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره ...**» الحديث. أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٨)، وفي المعجم الأوسط (٩٢٢٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠).

وله شاهد من حديث معاوية ﷺ عند أحمد (٤/ ٩٩)، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ٨١)، والطبراني في مسند الشاميين (٤٩٧)، وفي المعجم الكبير (١٩/ ٣٦٥) برقم: (٨٥٨)، والأوسط (٥١٣٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١). =

. . . .

= والحديث الثاني: حديث عبادة ﷺ: «من قتل مؤمنًا فاغتبط ...» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣١١).

والحديث الثالث: حديث أبي الدرداء ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنقًا ...» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٩)، وفي المعجم الأوسط (٢٢٩)، والصغير (١١٠٨).

قوله في الحديث الثاني: «فاغتبط» جاء بالعين المهملة: «فاعتبط»، وفي بعض النسخ بالغين المعجمة، كما في عون المعبود (١١/ ٣٥٣).

قال الخطابي في معالم السنن بهامش سنن أبي داود (٤/ ٤٦٤): «قوله: فاعتبط قتله، يريد أنه قتله ظلمًا لا عن قصاص، يقال: عبطت الناقة، واعتبطها إذا نحرتها من غير داء أو آفة تكون بها، ومات فلان عبطة إذا كان شابًّا، واحتضر قبل أوان الشيب والهرم، قال أمية بن أبي الصلت: من لم يمت عبطة مات هرمًا» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (٣/ ١٧٢): «من اعتبط مؤمنًا قتلًا فإنه قود، أي: قتله بلا جناية كانت منه، ولا جريرة توجب قتله؛ فإن القاتل يقاد به ويقتل، وكل من مات بغير علة فقد اعتبط، ومات فلان عبطة؛ أي: شابًّا صحيحًا ...» ثم ذكر ابن الأثير الحديث، ونقل قول الخطابي.

وقد جاء في الحديث ما يدل على أن هذا التفسير غير مراد، وهو ما رواه أبو داود عقب هذا الحديث: قال خالد بن دهقان: سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله: «اعتبط بقتله» قال: الذين يقاتلون في الفتنة، فيقتل أحدهم، فيرى أنه على هدى لا يستغفر الله، يعني: من ذلك» اهـ (٤٢٧١).

قلت: هذا التفسير من الغساني يرد ما ذكره الخطابي من معنى كلمة «فاعتبط»، ويدل على أن الرواية بالمعجمة «فاغتبط».

قال ابن الأثير بعد أن أورد تفسير الغساني: «وهذا التفسير يدل على أنه من الغبطة بالغين المعجمة، وهي الفرح والسرور وحسن الحال؛ لأن القاتل يفرح بقتل خصمه، فإذا كان المقتول مؤمنًا وفرح بقتله دخل في هذا الوعيد ...»، ثم ذكر ابن الأثير أن الخطابي لم يذكر تفسير الغساني لهذه الكلمة، انظر: النهاية (٣/ ١٧٢)، واللسان (٧/ ٣٤٨)، وعون المعبود (١١/ ٣٥٣).

وقوله في الحديث الثالث: «لا يزال المؤمن مُعنِقًا» أي: خفيف الظهر، وهي بضم الميم وسكون العين وكسر النون، قال الخطابي في معالم السنن (٤/ ٤٦٤): «يريد خفيف =

وَمَعْنَى: مُعْنِقًا؛ أَيْ: خَفِيفَ الظَّهْرِ، وَمَعْنَى: بَلَّحَ، أَيْ: صَارَ ثَقِيلًا بِسَبَبِ الدَّمِ الَّذِي حَمَلَهُ.

إِنَّ الدَّمَ المَعْصُومَ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَا يَجُوزُ سَفْكُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوِ التَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِ، وَإِذَا كَانَ النَّهْيُ الشَّرْعِيُّ قَدْ زَجَرَ عَنْ قَتْلِ الْبَهِيمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَرُتِّبَ عَلَى ذَلِكَ وَعِيدٌ، فَكَيْفَ بِقَتْلِ الْآدَمِيِّ؟! ثُمَّ كَيْفَ بِقَتْلِ المُسْلِمِ؟! وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما[(٨)].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَتْلُ المُؤْمِنِ**

= الظهر، يعنق في مشيه سير المخف، والعَنَق: ضرب من السير وسيع، يقال: أعنق الرجل في سيره فهو معنق ...» اهـ.

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (٢/ ١٣١): «أي متبسِّطًا في سيره يوم القيامة».

وقال ابن منظور: «أي مسرعًا في طاعته، منبسطًا في عمله، وقيل: أراد يوم القيامة» اهـ من اللسان (١٠/ ٢٧٣).

وقوله في الحديث: «فإذا أصاب دمًا حرامًا بلَّح» بتشديد اللام، وقد تخفف كما في عون المعبود (١١/ ٣٥٤)، ونقله عن مرقاة الصعود.

قال الخطابي في معالم السنن (٤/ ٤٦٤): «معناه: أعيا وانقطع، ويقال: بلح عليَّ الغريم: إذا قام عليك فلم يعطك حقك، وبلَّحت الركية: إذا انقطع ماؤها» اهـ وانظر: الغريب له (١/ ٢٠٣).

وقال ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٠١): «والمُبلح من قولك: بَلَح الرجل: إذا انقطع من الإعياء، فلم يقدر على أن يتحرك، ويقال: أبلحه السير» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٥١): «بلح الرجل: إذا انقطع من الإعياء فلم يقدر أن يتحرك، وقد أبلحه السير فانقطع به، يريد به: وقوعه في الهلاك بإصابة الدم الحرام، وقد تخفف اللام» اهـ وانظر: الفائق للزمخشري (٣/ ٣١).

(٨) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، والبيهقي (٨/ ٢٢).

وقد جاء مرفوعًا وموقوفًا والموقوف أصح كما ذكر الترمذي والبيهقي.

أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(٩).

إِنَّ الدَّمَ الَّذِي يُسْفَكُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا لَا يَضِيعُ، وَلَوْ تَمَالأَ أَهْلُ بَلَدٍ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ لَقُتِلُوا بِهِ، وَلَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الأَرْضِ كُلُّهُمْ عَلَى سَفْكِ دَم مُحَرَّم لأُخِذُوا بِهِ، وَعُذِّبُوا بِسَبَبِهِ، كَيْفَ؟! وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: **«لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٠).

وَحَمْلُ السِّلَاحِ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَتَرْوِيعُهُمْ بِهِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ وَلَوْ لَمْ يُقَاتِلْ بِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ قَاتَلَ بِهِ؟! قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١١).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: **«مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»**(١٢).

---

(٩) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٣).
وله شاهد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند: ابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا (٢٦١٩).
وقال الترمذي في جامعه (٤/ ١٦): «وفي الباب عن سعد وابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وعقبة بن عامر وابن مسعود رضي الله عنهم» اهـ.

(١٠) أخرجه الترمذي في الديات، باب الحكم في الدماء، وقال: هذا حديث غريب (١٣٩٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٢١)، والصغير (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١١٢٨)، وفي الروض النضير (٩٢٥).

(١١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٦٦٥٩)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٩٨).
وجاء أيضًا من حديث أبي موسى عند البخاري (٦٦٦٠)، ومسلم (١٠٠).
ومن حديث أبي هريرة عند مسلم (١٠١).

(١٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٥)، ومسلم في البر والصلة، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسلاح (٢١٦٢).

فَإِذَا اسْتَحَقَّ الَّذِي يُشِيرُ بِالْحَدِيدَةِ اللَّعْنَ فَكَيْفَ بِالَّذِي يُصِيبُ بِهَا؟ وَكَيْفَ بِمَنْ حَمَلَ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا؟!

وَرَوَى جَابِرٌ ﷺ فَقَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولًا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٣).

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا تُثْبِتُ خُطُورَةَ أَمْرِ الدِّمَاءِ، وَتَدُلُّ عَلَى حُرْمَةِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَتَسُدُّ كُلَّ ذَرِيعَةٍ مِنْ ذَرَائِعِ إِخَافَتِهِ وَتَرْوِيعِهِ، فَضْلًا عَنْ إِيذَائِهِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، وَأَعْظَمُ الِاعْتِدَاءِ: سَفْكُ دَمِهِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَحْقِنَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ أَيْدِيَنَا مِنْ دِمَائِهِمْ، وَأَلْسِنَتَنَا مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، وَيُجَنِّبَنَا الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٩٣].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



(١٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠)، وأبو داود في الجهاد، باب في النهي أن يتعاطى السيف مسلولًا (٢٥٨٨)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن تعاطي السيف مسلولًا وقال: حديث حسن غريب (٢١٦٣)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٢٢).
ونقل الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٨) عن ابن العربي قوله: «إذا استحق الذي يشير بالحديدة اللعن فكيف الذي يصيب بها، ثم قال: وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديدًا سواءً كان جادًّا أم لاعبًا كما تقدم، وإنما أوخذ اللاعب لما أدخله على أخيه من الروع، ولا يخفى أن إثم الهازل دون إثم الجاد، وإنما نهى عن تعاطي السيف مسلولًا؛ لما يخاف من الغفلة عند التناول فيسقط فيؤذي» اهـ.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَعَظِّمُوا مَا عَظَّمَهُ، وَالْتَزِمُوا أَمْرَهُ، وَجَانِبُوا نَهْيَهُ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ يَوْمًا عَسِيرًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، تَذْهَلُ فِيهِ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِعِظَمِ أَمْرِ الدَّمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعُلُوِّ شَأْنِهِ؛ كَانَ ابْتِدَاءُ الْقَضَاءِ بِهِ يَوْمَ الْقَضَاءِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

وَقَدْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَى كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «**يَأْتِي الْمَقْتُولُ مُعَلِّقًا رَأْسَهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حَتَّى يَقِفَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ. وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ: «**أَنَّ**

---

(١٤) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٧١)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

المَقْتُولَ يَجِيءُ مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟»(١٥).

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي. وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ، فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ»** رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٦).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: بَانَ بِهَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ أَنَّ قَصْدَ الْمُسْلِمِ بِالتَّرْوِيعِ وَالْقَتْلِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَأَعْظَمَ ذَنْبٍ يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ مَخْلُوقٍ: سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمِنْ أَبْيَنِ صُوَرِ ذَلِكَ: التَّفْجِيرُ وَالتَّخْرِيبُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَصْدُ الْمَعْصُومِينَ بِالتَّخْوِيفِ وَالتَّرْوِيعِ، وَالْإِيذَاءِ وَالْقَتْلِ، وَمَا حَصَلَ قَبْلَ أَيَّامٍ مِنْ قَصْدِ بَعْضِ دَوَائِرِ

---

(١٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٢ - ٢٤٠)، والنسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٥)، وابن ماجه في الديات، باب هل لقاتل المؤمن من توبة (٦٢١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٩٤١)، والألباني في صحيح سنن النسائي (٣٧٣٤).

(١٦) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٤)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٩٦) برقم: (١٠٠٧٥)، من حديث الأعمش عن شقيق عن عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود رضي الله عنه به.

وأخرجه من حديث الأعمش عن عمرو بن شرحبيل به: ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٤٥٥- ٤٥٦) برقم: (٢٧٩٤٠)، ولم يذكر فيه شقيقًا ولا ابن مسعود ولا رفعه إلى النبي ﷺ وصحح الألباني رواية النسائي في صحيح سنن النسائي (٣٧٣٢) وذكرها في السلسلة الصحيحة، وقال بعد إيراد سند النسائي: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين (٢٦٩٨).

قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في ذكر الصور، أخرجه إسحاق ابن راهويه في مسنده (١٠)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)، وسنده ضعيف.

الْأَمْنِ بِالتَّفْجِيرِ(١٧)، مَا هُوَ إِلَّا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَفَاعِلُهُ قَدْ أَتَى جُرْمًا عَظِيمًا، وَعَلَّقَ فِي رَقَبَتِهِ دِمَاءً مَعْصُومَةً، مَعَ مَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ إِعْدَامٍ لِلْبِنْيَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَإِتْلَافٍ لِلْمُمْتَلَكَاتِ، وَاعْتِدَاءٍ عَلَى الْآمِنِينَ، وَتَرْوِيعٍ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَآثَارُ هَذَا الْعَمَلِ الشَّنِيعِ وَأَمْثَالِهِ مِنْ قَصْدِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ تَطُولُ نِسَاءً بِالتَّرْمِيلِ، وَأَطْفَالًا بِالتَّيْتِيمِ لَا ذَنْبَ لَهُمْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ، وَفِيهَا مِنَ الْإِثْمِ وَالْبَغْيِ مَا فِيهَا، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا إِلَّا أَعْدَاءُ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ؛ مِنَ الصَّهَايِنَةِ الْحَاقِدِينَ، وَالْمُنَافِقِينَ الْمَوْتُورِينَ؛ الَّذِينَ يُعْجِبُهُمْ أَنْ يَخْتَلِطَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ، وَيَخْتَلَّ أَمْنُهُمْ، وَيَضْرِبَ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.

إِنَّ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ لَنْ يَكُونَ صُورَةً مِنْ صُوَرِ الْإِصْلَاحِ، وَالتَّخْرِيبَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَكُونَ سَبِيلًا لِلتَّعْمِيرِ، وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَ أَمْرَهُ، وَمَنْ عَظَّمَ أَمْرَهُ عَظَّمَ شَأْنَ الدِّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ؛ فَلَا يَسْفِكُهَا بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَهَلْ يَعْقِلُ ذَلِكَ مَنْ يَقْصِدُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ؟ وَهَلْ يُعَظِّمُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ؟!

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْحَاسِدِينَ، مِنْ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ مَنْ قَصَدَ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَرَامَ الْإِفْسَادَ فِي بِلَادِهِمْ، وَالتَّخْرِيبَ فِي أَوْسَاطِهِمْ فَاهْتِكْ سِتْرَهُ، وَاكْشِفْ أَمْرَهُ، وَاكْفِ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

---

(١٧) وهو التفجير الذي حصل يوم الثلاثاء فيما أظن ١/ ٣/ ١٤٢٥هـ لمقر إدارة المرور وقوة الطوارئ بشارع الوشم في الرياض؛ حيث فخخت سيارة وفجرت بالقرب من المبنيين، ونتج عن ذلك قتل عدد من المسلمين وجرح آخرين، ودمار المباني المقصودة بالتفجير والمجاورة لها. أسأل الله تعالى أن يحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل شر، وأن يكبت المفسدين في الأرض، إنه سميع مجيب.

اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ بِسُوءٍ فَاشْغَلْهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ، وَاجْعَلْهُ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ اهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصْلِحْ شَبَابَهُمْ وَشَيْبَهُمْ، وَرِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَفُكَّ أَسْرَاهُمْ، وَعَافِ مُبْتَلَاهُمْ.

اللَّهُمَّ فَارِجَ الْهَمِّ، كَاشِفَ الْغَمِّ، مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ، ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفَلُّوجَةِ وَفِي فِلَسْطِينَ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



٢٩٨- خطورة إشاعة المحرمات

٥/٤/١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ فَدَبَّرَهُمْ، وَكَلَّفَ الْبَشَرَ وَهَدَاهُمْ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى قَوْمٍ بَلَغُوا مِنَ الْجَهَالَةِ مَا بَلَغُوا؛ فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَصْلَحَ بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَتَبْلِيغِ دِينِهِ، فَبَلَّغُوا وَنَصَحُوا، وَصَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ يَزْدَادُ شِدَّةً، وَإِنَّ الدِّينَ أَضْحَى لِأَهْلِ الغُرْبَةِ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَقَرِيبٌ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ أَنْ عَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَسَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَرَكَّبَ فِيهِمْ وَسَائِلَ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ مِنَ الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالْعُقُولِ؛ فَبِهَا يَسْمَعُونَ الْعِلْمَ وَيُبْصِرُونَهُ، وَبِالْعُقُولِ يُفَكِّرُونَ وَيُحَلِّلُونَ وَيَسْتَنْبِطُونَ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

إِنَّهَا نِعَمٌ وَأَيُّ نِعَمٍ؛ بِهَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَا يَضُرُّهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ، وَبِهَا تَبَادَلَ الْبَشَرُ الْمَنَافِعَ وَالْمَصَالِحَ، وَتَنَاقَلُوا الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ، وَمَا يُكْتَبُ فِي الْغَرْبِ يُتَرْجَمُ فِي حِينِهِ وَيَصِلُ إِلَى الشَّرْقِ، وَمَا يَقَعُ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ يُنْقَلُ حَالَ وُقُوعِهِ إِلَى أَقْصَى الْجَنُوبِ.

وَبِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ فِي مَجَالَاتِ الِاتِّصَالِ؛ صَارَ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَحْمِلُ فِي جَيْبِهِ أَجْهِزَةً فِي حَجْمِ الْكَفِّ يَخْتَزِنُ الْوَاحِدُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ، وَيَلْتَقِطُ صُوَرًا كَثِيرَةً ثَابِتَةً وَمُتَحَرِّكَةً، وَفِيهِ مِنَ النَّفْعِ مَا يَعِزُّ عَلَى الْحَصْرِ؛ وَلَكِنْ إِذَا أُسِيءَ اسْتِخْدَامُهَا فَإِنَّ أَضْرَارَهَا بَلِيغَةٌ، وَعَوَاقِبَهَا وَخِيمَةٌ؛ فَبِهَا تُكْشَفُ الْعَوْرَاتُ، وَيُهْتَكُ سِتْرُ الْمُخَدَّرَاتِ، وَتُشَاعُ الْفَوَاحِشُ وَالْمُنْكَرَاتُ. وَبِهَا يَنْشُرُ أَهْلُ الْفَسَادِ فَسَادَهُمْ، وَيُحَقِّقُونَ أَهْدَافَهُمْ وَأَغْرَاضَهُمْ، وَيَصِلُونَ إِلَى أَهْلِ الْبُيُوتِ فِي بُيُوتِهِمْ؛ وَكَمْ مِنِ امْرَأَةٍ عَفِيفَةٍ طُعِنَتْ فِي عَفَافِهَا مِنْ صَدِيقَةٍ أَوْ زَمِيلَةٍ نَشَرَتْ سَوْءَتَهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ؟ وَكَمْ مِنْ أُسْرَةٍ مُجْتَمِعَةٍ فَرَّقَتْهَا صُورَةٌ أُشِيعَتْ هُنَا وَهُنَاكَ؟

حَمَى اللَّهُ نِسَاءَنَا وَنِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ خِزْيٍ وَفَضِيحَةٍ.

إِنَّ فِئَامًا مِنْ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ رَكِبُوا سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُجَّانِ وَالْفَاسِقِينَ؛ وَذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِالْمَشَاهِدِ الْخَلِيعَةِ، وَالصُّوَرِ الْقَبِيحَةِ، وَلَمْ يَكْتَفِ أَكْثَرُهُمْ بِحِفْظِهَا وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِسْخَاطِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَتْلِ الْغَيْرَةِ وَالْمُرُوءَةِ، بَلْ رَاحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُشِيعُونَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَنَاقَلُونَهَا مَعَ أَصْحَابِهِمْ وَأَقْرَانِهِمْ، وَيُهْدُونَهَا إِلَى مَنْ يَعْرِفُونَ وَمَنْ لَا يَعْرِفُونَ؛ وَلَا يُدْرِكُونَ مَغَبَّةَ مَا يَفْعَلُونَ!!

إِنَّنِي -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- وَفِي هَذَا الْمَقَامِ الْجَامِعِ لَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْأَضْرَارِ

الْأَخْلَاقِيَّةِ أَوِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ الِاجْتِمَاعِيَّةِ أَوِ الْأَمِنِيَّةِ الَّتِي تَنْتِجُ عَنْ تبَادُلِ هَذِهِ الصُّوَرِ الخَلِيعَةِ بَيْنَ الشَّبَابِ؛ فَالحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ يَطُولُ، بَيْدَ أَنَّ حَدِيثِي سَيَكُونُ عَنِ الجِنَايَةِ الَّتِي يَجْنِيهَا الشَّابُّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى صَحِيفَةِ حَسَنَاتِهِ حِينَ يَحْتَفِظُ بِهَذِهِ الصُّوَرِ وَيُوَزِّعُهَا عَلَى أَقْرَانِهِ، إِنَّهُ لَا يَدْرِي عِظَمَ مَا يَفْعَلُ، وَلَا يُدْرِكُ حَجْمَ الْأَوْزَارِ الَّتِي يَحْمِلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ، وَلَوْ أَدْرَكَ الشَّبَابُ ذَلِكَ لَامْتَنَعُوا عَنْهُ؛ وَلَوْ كَانُوا مِنْ ضِعَافِ الدِّينِ وَالمُرُوءَةِ.

إِنَّ مَنْ يُهْدِي مِثْلَ هَذِهِ الصُّوَرِ الْآثِمَةِ إِلَى غَيْرِهِ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ وِزْرَهُ مَعَ وِزْرِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ وِزْرِ المُهْدَى إِلَيْهِ شَيْءٌ؛ وَذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وَتَنَاقُلُ الصُّوَرِ الإِبَاحِيَّةِ؛ ثَابِتَةً كَانَتْ أَوْ مُتَحَرِّكَةً مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ، كَيْفَ وَقَدْ أَضَلُّوا بِهَا أَغْرَارًا مَا عَرَفُوا الخَنَا حَتَّى أَسَرُوهُمْ بِهَا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

إِنَّهَا لَخَسَارَةٌ فَادِحَةٌ أَنْ تَرِدَ الصُّورَةُ المَاجِنَةُ إِلَى شَابٍّ مُسْلِمٍ، فَيَحْفَظَهَا فِي آلَتِهِ، وَيُهْدِيَهَا إِلَى أَقْرَانِهِ وَأَقَارِبِهِ، ثُمَّ هُمْ يُرْسِلُونَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ؛ حَتَّى تَصِلَ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ إِلَى مِائَةٍ أَوْ مِائَتَيْنِ، وَفِي جُمُعَةٍ إِلَى أَلْفٍ أَوْ أَلْفَيْنِ، وَمَا تَمْضِي أَشْهُرٌ قَلِيلَةٌ إِلَّا وَتَبْلُغُ أَعْدَادُ مَنْ وَصَلَتْهُمْ تِلْكَ الصُّورَةُ الْخَلِيعَةُ عَشَرَاتِ الْآلَافِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة أو دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤)، والترمذي في العلم، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة (٢٦٧٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة (٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٥٠٤)، والدارمي (٥١٣).

يَحْمِلُ وِزْرَهُمْ جَمِيعًا مَنْ وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ عَنْ طَرِيقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ شَيْءٌ مِنْ أَوْزَارِهِمْ فِي أَعْدَادٍ مِنَ الأَوْزَارِ وَالآثَامِ تَزْدَادُ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ وَلَا تَنْقُصُ، مَا كَانَ يَظُنُّ مَنْ وَزَّعَهَا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَفْسَدَةٍ لِهَذِهِ الْعَادَةِ الْقَبِيحَةِ إِلَّا حَمْلُ أَوْزَارِ الْغَيْرِ بِلَا مُقَابِلٍ لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي رَدِّ الشَّبَابِ إِلَى الْجَادَّةِ، وَالمَرْءُ تَكْفِيهِ ذُنُوبُهُ؛ فَكَيْفَ يَرْضَى بِحَمْلِ ذُنُوبِ غَيْرِهِ، وَبِأَعْدَادٍ وَفِيرَةٍ جِدًّا.

وَبِهَذَا يُتَصَوَّرُ-أَيُّهَا الإِخْوَةُ- كَمْ مِنَ الأَوْزَارِ يَحْمِلُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَبَرَّعُوا لِإِبْلِيسَ فَأَسَّسُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً عَرَبِيَّةً تُفْسِدُ وَلَا تُصْلِحُ، وَتَسْتَبِقُ إِلَى جَبْذِ الشَّبَابِ إِلَيْهَا بِإِثَارَةِ غَرَائِزِهِمْ، وَقَتْلِ مُرُوءَاتِهِمْ، وَتَعْطِيلِ عُقُولِهِمْ.

وَقَدْ يُرْسِلُ الشَّابُّ مَادَّةً إِبَاحِيَّةً إِلَى زَمِيلِهِ، فَيَرْتَكِبُ زَمِيلُهُ بِسَبَبِهَا الزِّنَا، أَوْ يَفْعَلُ فِعْلَ قَوْمِ لُوطٍ، أَوْ يَغْتَصِبُ عَفِيفَةً، أَوْ يَقَعُ عَلَى ذَاتِ مَحْرَمٍ، وَمَا أَغْوَاهُ إِلَّا صَاحِبُهُ فِي حَالِ ضَعْفٍ وَغَفْلَةٍ، وَغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، وَتَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَجُنْدِهِ.

وَلَوْ نُقِلَتْ هَذِهِ الحَقِيقَةُ المُرْعِبَةُ إِلَى الشَّبَابِ لَكَفَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ غَيِّهِ، وَخَافُوا تَكَاثُرَ الذُّنُوبِ بِتَدَاوُلِ هَذِهِ الصُّوَرِ.

كَيْفَ؟ وَتِلْكَ المُمَارَسَةُ الخَاطِئَةُ تُخْرِجُ فَاعِلَهَا مِنْ دَائِرَةِ المُعَافَاةِ إِلَى المُجَاهَرَةِ الَّتِي نُفِيَتِ المُعَافَاةُ عَنْ صَاحِبِهَا؟!

إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَاصِي أَنْ يَسْتُرَهُ رَبُّهُ، فَلَا يُفْتَضَحُ أَمْرُهُ أَمَامَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَشْتَدُّ حَيَاؤُهُ مِنْهُمْ؛ كَوَالِدَيْهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَسَاتِذَتِهِ، وَالشَّابُّ الَّذِي يَقْتَنِي صُوَرًا مُحَرَّمَةً عَاصٍ لِلَّهِ ﷻ، وَاللهُ تَعَالَى قَدْ سَتَرَهُ فِي مَعْصِيَتِهِ تِلْكَ، فَإِذَا أَطْلَعَ غَيْرَهُ عَلَى مَا يَحْمِلُ مِنْ صُوَرٍ مُحَرَّمَةٍ فَقَدْ هَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَجَاهَرَ بِعِصْيَانِهِ، وَبِقَدْرِ تَوْزِيعِهِ لِتِلْكَ المَوَادِّ المُحَرَّمَةِ تَكُونُ مُجَاهَرَتُهُ حَتَّى تَبْلُغَ

الآفَاقَ، وَالمُجَاهِرُ بِعِصْيَانِهِ حَرِيٌّ أَنْ لَا يُعَافَى فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعُقُوبَةِ أَوْ مِنَ الإِقْلَاعِ عَنْ ذَنْبِهِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

فَإِنْ مَاتَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى المُجَاهَرَةِ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعَافِيَةِ، جَدِيرٌ بِالمُؤَاخَذَةِ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣). وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَيَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَيَقُولُ اللَّهُ** ﷻ: **لَا بَأْسَ عَلَيْكَ، إِنَّكَ فِي سِتْرِي لَا يَطَّلِعُ عَلَى ذُنُوبِكَ غَيْرِي**»(٤).

قَالَ العُلَمَاءُ: «إِذَا تَمَحَّضَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ، وَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ؛ فَلِذَلِكَ إِذَا سَتَرَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَفْضَحْهُ فِي الآخِرَةِ، وَالَّذِي يُجَاهِرُ يَفُوتُهُ جَمِيعُ ذَلِكَ . . .».

وَسَتْرُ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَلْزِمٌ لِسَتْرِ المُؤْمِنِ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَمَنْ قَصَدَ إِظْهَارَ المَعْصِيَةِ

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢١)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢٢)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

(٤) هذه الرواية الثانية عزاها الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني، وضعفها بالقاسم بن بهرام (٧/ ٣٧)، وسكت عنها الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٨٨).

وَالمُجَاهَرَةَ بِهَا أَغْضَبَ رَبَّهُ فَلَمْ يَسْتُرْهُ، وَمَنْ قَصَدَ التَّسَتُّرَ بِهَا؛ حَيَاءً مِنْ رَبِّهِ وَمِنَ النَّاسِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِسَتْرِهِ إِيَّاهُ(٥).

فَلْيَعْلَمْ مَنْ يَتَنَاقَلُونَ الصُّوَرَ المُحَرَّمَةَ أَنَّهُمْ حَرِيُّونَ بِالخُرُوجِ مِنْ سِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى المُجَاهَرَةِ بِعِصْيَانِهِ، وَيُخْشَى عَلَيْهِمُ الحِرْمَانُ مِنَ المُعَافَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ مِمَّا يُنْذِرُ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَشُؤْمِ الْعَاقِبَةِ؛ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

وَمِنَ المَفَاسِدِ الْعَظِيمَةِ لِمَنْ سَلَكَ هَذَا المَسْلَكَ الخَاطِئَ أَنَّهُ بِتَبَادُلِ هَذِهِ المَوَادِّ الْفَاسِدَةِ مَعَ غَيْرِهِ مَعْدُودٌ فِيمَنْ يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِي حَقِّ مَنْ يُحِبُّ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ فَكَيْفَ بِمَنْ تَوَلَّى بِنَفْسِهِ إِشَاعَتَهَا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ رِزْقٍ وَمَعْرِفَةٍ فِي اسْتِخْدَامِ التِّقْنِيَّاتِ المُعَاصِرَةِ؟!

فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ كُلُّ مَنْ تَلَطَّخَ بِهَذَا الْإِثْمِ المُبِينِ، وَلْيُبَادِرْ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ قَبْلَ أَنْ يَدْهَمَهُ المَوْتُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ السَّيِّئَةِ.

وَمَنِ ابْتُلِيَ بِهَذِهِ الْقَاذُورَاتِ حَتَّى صَارَ أَسِيرًا لَهَا فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَسْتَتِرَ بِسِتْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونَ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ عَلَى شَبَابِ المُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ؛ وَلْيَقْصُرْ هَذَا الإِثْمَ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يُعَدِّيهِ إِلَى غَيْرِهِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ رُجِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ، وَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يُعْتَقَ مِنْ أَسْرِ تِلْكَ الخَطِيئَةِ المُرْدِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٦).

---

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٦) أخرجه مرسلًا من حديث زيد بن أسلم: مالك (٢/ ٨٢٥) ومن طريقه الشافعي في =

وَعَلَى كُلِّ أَبٍ وَأُمٍّ أَنْ يَتَعَاهَدُوا أَوْلَادَهُمْ بِالنَّصِيحَةِ وَالتَّوْجِيهِ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ، وَالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، مَعَ بَيَانِ مَخَاطِرِ سُوءِ اسْتِخْدَامِ التِّقْنِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةِ؛ عَسَى اللَّهُ أَنْ يُصْلِحَ أَوْلَادَنَا وَأَوْلَادَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَهُمْ شُرُورَ أَنْفُسِهِمْ وَشُرُورَ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛

= الأم (٦/ ١٤٥) وقال: منقطع. قال ابن عبد البر في الاستذكار (٧/ ٤٩٧): «لم يختلف عن مالك في إرسال هذا الحديث، ولا أعلمه يستند بهذا اللفظ من وجه من الوجوه» اهـ. وأخرجه موصولًا من حديث ابن عمر ﭭ: الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨١٥٨)، والبيهقي (٨/ ٣٣٠)، والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٤/ ٤٢٥). وعزاه الحافظ ابن حجر للحاكم، وقال: «وصححه ابن السكن وذكره الدارقطني في العلل، وقال: روي عن عبد الله بن دينار مسندًا ومرسلًا، والمرسل أشبه» اهـ. من التلخيص الحبير (٤/ ٥٧)، وصححه ابن الملقن فقال: «أسنده الحاكم والبيهقي من رواية ابن عمر بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم» اهـ من خلاصة البدر المنير (٢/ ٣٠٤).

فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا؛ فَيَحِلُّ الْخَوْفُ مَحَلَّ الأَمْنِ، وَتَكُونُ القِلَّةُ بَعْدَ الْجِدَا، وَيُمْنَعُ الْعِبَادُ أَرْزَاقَ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الأَرْضِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كُلَّمَا تَقَادَمَ زَمَنُ النُّبُوَّةِ كَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَعَظُمَتِ الشُّرُورُ، وَانْتَشَرَتِ الْفَوَاحِشُ وَالْمُنْكَرَاتُ؛ حَتَّى إِنَّ الْفَوَاحِشَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُعْلَنُ بِهَا، وَيَقْوَى أَهْلُهَا، وَيَضْعُفُ الْمُنْكِرُونَ لَهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَفْنَى هَذِهِ الأُمَّةُ حَتَّى يَقُومَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ فَيَفْتَرِشَهَا فِي الطَّرِيقِ، فَيَكُونُ خِيَارُهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ: لَوْ وَارَيْتَهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(٧).

وَلَمَّا كَانَتْ قِيَادَةُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِيَدِ أَقْوَامٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَغَايَةُ هَمِّهِمْ إِشْبَاعُ شَهَوَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَأْبَهُوا بِتَرَدِّي الْعَالَمِ فِي نَوَاحِي الأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ، بَلْ هُمْ يُتَاجِرُونَ فِي أَخْلَاقِ الأُمَمِ، وَيَشْتَرُونَ الذِّمَمَ فِي مَبَادِئَ لَا تَعْرِفُ الْمَبَادِئَ، وَأَخْلَاقٍ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنِ الأَخْلَاقِ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا النَّفْعِيَّةُ وَالِانْتِهَازِيَّةُ أَيْنَمَا وُجِدَتْ، وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ كَانَتْ؛ فَالْغَايَاتُ عِنْدَهُمْ تُسَوِّغُ الْوَسَائِلَ وَتَفْرِضُهَا.

وَقَدْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَتُجَّارِهِمْ فَسَلَكُوا مَسْلَكَهُمْ، وَاخْتَطُّوا خُطَّتَهُمْ فِي الْمُتَاجَرَةِ بِالْغَرَائِزِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَدْمِيرُ شَبَابِ

---

(٧) أخرجه أبو يعلى (٦١٨٣)، والديلمي في مسند الفردوس (٧٠٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣١): «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح».

وجاء بنحوه من حديث أبي ذر ﷺ عند: الطبراني في الأوسط (٤٨٦٠)، والحاكم (٣/ ٣٨٦)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد بسيف بن مسكين (٧/ ٣٢٥).

أُمَّتِهِمْ؛ وَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ المَعْصُومُ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه(٨).

وَرَوَى الحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلًا بِمِثْلٍ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ نَكَحَ أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ فِي أُمَّتِي مِثْلُهُ**»(٩).

وَلَنْ يَزُولَ هَذَا الْبَلَاءُ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ مَا دَامَ مَنْ يُدِيرُهَا يَدِينُونَ بِتِلْكَ الْأَفْكَارِ الإِلْحَادِيَّةِ النَّفْعِيَّةِ، وَلَا سَبِيلَ لِحِفْظِ المُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ المَاحِقِ إِلَّا بِتَحْصِينِ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ بِالدِّينِ الْقَوِيمِ، وَمَلْءِ قُلُوبِهِمْ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَحَبَّةِ

---

(٨) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٩)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

(٩) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة وقال: حديث حسن غريب (٢٦٤١)، والديلمي في مسند الفردوس (٥٣٤٨)، واللالكائي في السنة (١٤٧)، ومحمد بن نصر في السنة (٥٩)، والحاكم (١/ ٢١٨).

وجاء بنحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه عند: ابن أبي شيبة (٧/ ٤٨١)، والطبراني في مسند الشاميين (٩٨٧)، وأبي عمرو الداني في السنن الواردة (٢٢٥-٢٧١)، والحاكم وصححه (٤/ ٥١٦).

وجاء بنحوه أيضًا من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٤) رقم (٦٠١٧).

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عند: الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٤).

وجاء من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه عند: ابن أبي عاصم في السنة (٤٥) ومحمد بن نصر في السنة (٤٢)، والحاكم (١/ ٢١٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣) رقم (٣)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٠) بكثير بن عبدالله.

رَسُولِهِ ﷺ، وَمَحَبَّةِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، مَعَ تَقْلِيلِ وَسَائِلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ قَدْرَ الإِمْكَانِ، وَتَخْفِيفِ الْبُيُوتِ مِنْهَا، وَإِيجَادِ الْبَدَائِلِ النَّافِعَةِ، وَإِشْغَالِ الشَّبَابِ بِمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالنَّفْعِ عَاجِلًا وَآجِلًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



٢٩٩- الإنسان والمال (١)
المال بين المدح والذم

٢١/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ رَبُّهَا وَمَالِكُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَهِيَ مُسْتَكِينَةٌ لَهُ، خَاضِعَةٌ لِأَمْرِهِ، ذَلِيلَةٌ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهَا وَأَمَرَهَا وَدَبَّرَهَا، وَإِذَا شَاءَ أَبْقَاهَا، وَإِذَا شَاءَ أَفْنَاهَا، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الْفَاتِحَة: ٢]. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْمُلْك: ١]، وَمِنْ أَفْضَلِ الذِّكْرِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ

السُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

وَمِنْ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي خَلْقِهِمْ وَرِزْقِهِمْ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ سُخْرَةً لِبَعْضٍ؛ لِتَسْتَقِيمَ أَحْوَالُهُمْ، وَتَحْصُلَ مَنَافِعُهُمْ؛ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢].

جَعَلَ ﷻ فِيهِمُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالشَّرِيفَ وَالْوَضِيعَ، وَالْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالمَالِكَ وَالمَمْلُوكَ، فَهَذَا يَخْدِمُ ذَاكَ، وَذَاكَ مُحْتَاجٌ لِهَذَا.

وَمِنْ نِعْمَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى بَنِي آدَمَ مَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنْ مَنَافِعِ الْأَرْضِ، وَمَا اسْتَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ نِعَمِهَا، وَمَا رَزَقَهُمْ مِنْ خَيْرَاتِهَا؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلْك: ١٥]، ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٥، ٣٦]. وَرَأْسُ هَذَا الرِّزْقِ: المَالُ الَّذِي يَتَمَوَّلُهُ الْإِنْسَانُ، فَيَكْفِيهِ حَاجَتَهُ، وَيُغْنِيهِ عَنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِمَا يَشْفِي وَيَكْفِي فِي بَيَانِ عَلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِهَذَا المَالِ الَّذِي رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ، وَإِيضَاحِ الْحُدُودِ وَالضَّوَابِطِ فِي كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ بِمَا يُحَقِّقُ

(١) كما في حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قال: **لا إله إلا الله وحْدَهُ لا شريك له، له الملكُ وله الحمْدُ وهو على كل شيء قدير، في يوم مِئَة مرة كانت له عدْل عشر رِقَاب، وكتبت له مِئَةُ حسنة، ومُحِيَتْ عنه مِئَةُ سيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمْسِي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ،إلا أَحَدٌ عَمِلَ أكثر من ذلك**» أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١١٩)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١).

النَّفْعَ لِلْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

فَالْأَصْلُ أَنَّ المَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ المَالِكُ لَهُ؛ لِأَنَّ المُلْكَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ فَهُوَ لَهُ ﷻ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَتْ نِسْبَتُهُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى المُكَاتَبِينَ قَالَ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النُّور: ٣٣].

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالمَالِ، وَيَسْتَخْلِفُهُمْ فِيهِ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يُدِيرُونَهُ كَسْبًا وَإِنْفَاقًا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الْحَدِيد: ٧]، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا سَخَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَرْزَاقِ، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لُقْمَان: ٢٠].

إِنَّ الَّذِي يَخْلُقُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ، وَالَّذِي لَا يَخْلُقُ لَا يَمْلِكُ، فَالْخَلْقُ هُوَ أَسَاسُ المُلْكِ؛ وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالِارْتِبَاطُ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالمُلْكِ مُدْرَكٌ بِالْعُقُولِ، وَمُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ، وَجَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الْفُرْقَان: ٢]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [المُلْك: ١، ٢].

وَمَا دَامَ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَاجِزٌ عَنِ الْخَلْقِ فَهُوَ لَا يَمْلِكُ اسْتِقْلَالًا، وَإِنَّمَا يَمْلِكُ بِمَا مَلَّكَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَزَقَهُ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْضَعَ لِأَوَامِرِ مَنْ مَلَّكَهُ فِيمَا مَلَّكَهُ، يَقُولُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «النَّاسُ عَبِيدُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ فَمَلَّكَهُمْ مَا شَاءَ أَنْ يُمَلِّكَهُمْ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ فِيمَا مَلَّكَهُمْ مَا شَاءَ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فَكَانَ فِيمَا آتَاهُمْ أَكْثَرُ مِمَّا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ»(٢).

---

(٢) أحكام القرآن للشافعي (١/ ١٠٢)، والأم (٢/ ٢٧).

لَقَدِ ابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ بِالْمَالِ فَرَزَقَهُ إِيَّاهُ، وَأَبَاحَ لَهُ اكْتِسَابَهُ وَإِنْفَاقَهُ وَفْقَ ضَوَابِطَ مُحَدَّدَةٍ، فِي شَرَائِعَ مُنَزَّلَةٍ، وَأَحْكَامٍ بَيِّنَةٍ، وَحُدُودٍ وَاضِحَةٍ؛ فَإِنْ هُوَ الْتَزَمَهَا فَازَ بِالْحَسَنَتَيْنِ: حَسَنَةِ الْمَالِ، وَحَسَنَةِ الْتِزَامِ شَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ هُوَ أَخَلَّ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي الْمَالِ؛ ذَهَبَتْ بَرَكَةُ مَالِهِ، وَحُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِخْلَالِهِ.

وَالَّذِي يَجْعَلُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَلْتَزِمُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْوَالِهِمْ كَسْبًا وَإِنْفَاقًا مَا رُكِّبَ فِيهِمْ مِنْ جِبِلَّةِ حُبِّ الْمَالِ الَّتِي تُزَاحِمُ التَّقْوَى وَالْوَرَعَ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الْفَجْر: ٢٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [الْعَادِيَات: ٨]، وَالْخَيْرُ هُنَا هُوَ الْمَالُ، وَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى زِينَةً لِبَنِي آدَمَ يَتَزَيَّنُونَ بِهَا أَمَامَ النَّاسِ فِيمَا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ، وَيَرْكَبُونَ، وَيَسْكُنُونَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْكَهْف: ٤٦].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الْمَالُ فِتْنَةً عَظِيمَةً فُتِنَ بِهَا الْخَلْقُ، فَهُمْ مِنْ جِهَةٍ يُحِبُّونَهُ حُبًّا شَدِيدًا، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْهُ وَلَوْ مَلَكُوا أَوْدِيَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٣).

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: الطبراني في الكبير (١١/ ٧٦) برقم: (١١٠٩٥)، والأوسط (٥٦٧٠)، والبزار كما في مختصر زوائده للحافظ ابن حجر (٨١)، وفي سنده ليث بن أبي سليم، قال البزار: ليث أصابه شبه الاختلاط فبقي في حديثه لين، ولا نعلمه يروى من وجه أحسن من هذا» اهـ.
وأخرجه موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما: ابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٤) برقم: (٢٦١١٨).
وجاء من حديث أبي بكر الداهري عن إسماعيل بن أبي خالد عن زيد بن وهب عن ابن مسعود مرفوعًا، أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٢٢) ولا يصح فالداهري مرمي بالوضع.
=

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُطْلِقْ لِلْإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ تَحْصِيلِ المَالِ وَإِنْفَاقِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ بَلْ جَعَلَ لِذَلِكَ قُيُودًا تُقَيِّدُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ، وَفِتْنَةً لِأَصْحَابِ الْأَمْوَالِ: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التَّغَابُن: ١٥].

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِوَصْفِ المَالِ بِالطَّيِّبِ وَالصَّالِحِ بِالنَّظَرِ إِلَى طُرُقِ كَسْبِهِ المَشْرُوعَةِ الَّتِي أَبَاحَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي إِنْفَاقِهِ فِيمَا يَنْفَعُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] **وقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

= وجاء من رواية عون بن عبد الله عن ابن مسعود موقوفًا، وفيه انقطاع بين ابن عون وابن مسعود، أخرجه الدارمي (٣٤٤).
وله شاهد آخر من حديث قتادة عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم أجد له علة، ووافقه الذهبي (١/ ٩٢)، قلت: وعلته رواية قتادة عن أنس بالعنعنة وهو مدلس.
وقد جاء مرسلًا من حديث الحسن عن النبي ﷺ عند ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٨).
وجاء من كلام الحسن ولم يرسله عند الدارمي (٣٤٣).
وجاء أيضًا من كلام الزهري -رحمه الله تعالى- عند عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٤٧٨).
وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢٠٦) بعد إيراد تلك الأحاديث: «وهي وإن كانت مفرداتها ضعيفة فبمجموعها تقوى» اهـ.
وقد صحح الألباني حديث أنس في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٤) أخرجه أحمد (٣٢٧٢)، ومسلم في الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها =

وَأَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ لَا يُدْخِلَ أَحَدُهُمْ فِي جَوْفِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، فَقَدْ قَالُوا لَهُ: أَوْصِنَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي بَطْنِهِ إِلَّا طَيِّبًا؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٥).

وَلَمَّا أَسْلَمَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ زَعْبَةً صَالِحَةً**، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: **يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٦).

= (١٠١٥)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة (٢٩٨٩)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٩٩)، والدارمي (٢٧١٧).

(٥) أخرجه من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه موقوفًا: البخاري في الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٦٧٣٣).

وأخرجه مرفوعًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، والأوسط (٨٤٩٥)، والبيهقي في الشعب، وقال: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٧). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، وتعقب البيهقي في إعلاله الحديث بالوقف فقال: قلت: وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن -وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري (٣٣٧٩).

(٦) أخرجه أحمد واللفظ له (٤/ ١٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٥٦-٦٠٥٧)، وأبو يعلى (٧٢٩٨)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٩٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣١٥)، وصححه ابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٢/ ٢٣٦).

وقوله في الحديث: «وأزعب لك من المال زعبة صالحة» جاء هكذا بالزاء والعين المهملة في مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة (٢٢٦٢٧)، والمعجم الأوسط للطبراني، =

. . . .

= تحقيق: طارق عوض الله (٩٠١٢)، وفوائد أبي محمد الفاكهي، تحقيق: محمد الغباني، ط: الرشد (١٤).

وجاء في بعض النسخ والكتب بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» بالراء والغين المعجمة هكذا فيما وقفت عليه من النسخ المطبوعة من المسند، وفي المطبوع من فضائل الصحابة تحقيق وصي الله محمد عباس (١٧٤٥)، وكذلك في مستدرك الحاكم (٢/ ٢)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، وكذا في مسند أبي يعلى تحقيق إرشاد الحق الأثري (٧٢٩٨).

وذكره الشيخ الساعاتي في بلوغ الأماني في ثلاثة مواضع بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» ولم يشرح هذه الجملة فيما يشرحه من الغريب. ينظر: بلوغ الأماني مع الفتح الرباني (١٩/ ١٢٤) و(٢١/ ١٤١) و(٢٢/ ٢٤٠). فالظاهر أن اللفظ لم يكن مشكلًا عنده ولذلك ما شرحه.

وكتب الغريب تذكره بلفظ: «وأزْعَبُ لك من المال زَعْبَةً صالحة» بالزاي والعين المهملة، فقد نقل أبو عبيد بن سلام في غريب الحديث (١/ ٩٤) عن الأصمعي قوله: «أزعب لك زعبة من المال، أي: أعطيك دفعة من المال، قال: والزعب هو الدفع، يقال: جاءنا سيل يزعب زعبًا، أي يتدافع» اهـ.

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (١/ ٤٣٦): «قوله: وأزعب لك من المال زعبة، أي: أعطيك دفعة منه».

وقال الزمخشري في الفائق (٢/ ١١٠) بعد أن ساق الحديث: «زعب الزعْبُ والزَّأب والزَّهْبُ أخوات معناها: الدفع والقسم، ومنه: تزعَبُوا المال، وتزهَّبوه، وتأزنوه على القلب إذا توزعوه، والزعبة بناء المرة، ويقال للمدفوع: الزَّعبة والزَّهبة أيضًا والزَّعب والزَّهب» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٣٠٢): «وأَزْعَبُ لك زَعْبَة من المال، أي: أعطيك دفعة من المال، وأصل الزعب: الدفع والقسم، ومنه حديث أبي الهيثم: فلم يلبث أن جاء بقربة يزعبها، أي يتدافع بها ويحملها لثقلها» اهـ.

وفي مادة «زعب» قال الخليل في العين (١/ ٣٦٢): «وزعبت له من مال زعبة أي: قطعت له قليلًا من كثير» وفي القاموس (١/ ١٢٠): «وله من المال زَعْبَةَ، ويضم، وزعبًا بالكسر: دفع له قطعة منه» اهـ. =

. . . .

= وفي اللسان (٦/ ٤٣) ذكر الحديث ثم قال: «أي: أعطيك دفعة من المال، الزعبة: الدفعة من المال، قال: وأصل الزعب الدفع والقسم يقال: زعبت له زَعْبَة من المال زُعبةً، وزهْبتُ زُهْبة: دفعت له قطعة وافرة من المال، وأصل الزعب: الدفع والقسم، يقال: أعطاه زعْبًا من ماله، فازدعبه، وزهبًا من ماله فازدهبه، أي: قطعه» اهـ.

ولم أعثر في كتب الغريب واللغة في مادة (رغب) على ما يوافق ما جاء في بعض النسخ المطبوعة التي ذكرت الحديث بلفظ: «وأرغب لك من المال رغبة صالحة» مما يرجح أنها ليست رواية أخرى، وليس ثمة خلاف في ضبط الجملة كما في بعض الأحاديث، وإنما هو تصحيف من النُسّاخ وقد فات على المراجعين، فجاء مصحفًا في كل الكتب التي وقفت عليها، وأشرت إليها آنفًا، والله أعلم.

ثم بعد كتابة ما سبق وقفت على نسخة مؤسسة الرسالة للمسند بتحقيق جماعة بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط (٢٩/ ٢٩٩) رقم الحديث (١٧٧٦٣) فوجدتهم قد نبهوا على هذا التصحيف فقالوا بعد ذكرهم لكلام الأصمعي الذي نقله أبو عبيد: «قلنا: وتصحف في بعض النسخ إلى: أرغب رغبة» اهـ فالحمد لله كثيرًا.

ثم بعد مدة طويلة وقفت على كلام للعلامة المحدث الألباني -رحمه الله تعالى- في صحيح الأدب المفرد، ذكر فيه عكس ما قررته آنفًا، فقال: كذا الأصل بالراء، وكذا في الهندية وغيرها، وكذلك هو في مصادر الحديث من المسانيد وغيرها وهو الصواب، ووقع في «سنة البغوي»: «وأزعب» بالزاء ثم العين المهملة، وبذلك قيده شارح الكتاب «الأدب» اغترارًا منه برواية البغوي، واعتمدها المعلق عليه! وهي وإن كان لها وجه في اللغة، وعليه جرى أهل الغريب كأبي عبيد، وابن الجوزي، وابن الأثير؛ لأنهم يفسرون اللفظة التي وقعت لهم، بغض النظر عن ثبوت نسبتها إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أو الراوي كما هو معروف عند أهل العلم.

أقول: إذا كان الأمر كذلك فلا وجه لهذه اللفظة من حيث الرواية؛ لأن المصادر المشار إليها على خلافها، مثل «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند أحمد»، و«أبي يعلى»، و«صحيح بن حبان» و«مستدرك الحاكم» في موضعين منه، و«شعب الإيمان»، و«المعجم الأوسط» للطبراني (مخطوط)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر «مخطوط» عن خمسة من الثقات فيهم بعض الحفاظ كلهم قالوا: «أرغب» بالراء، وشذ عنهم سعيد الجمحي عند البغوي فرواه بالزاي! ومع ذلك ففيه نفسه ضعف من قبل حفظه، فمن العجب بعد ذلك =

. . . .

= أن يزعم المعلق على البغوي أن رواية (الراء) التي في «المسند» تصحيف، وبناء عليه قيده في طبعته لِصحيح ابن حبان (٧/٨) بالزاي تقليدًا منه لزعمه المذكور، وهو يعلم أن المصادر التي قرنها مع «المسند» موافقة له، وإنما أُتي من عدم انتباهه لما ذكرته من التحقيق، والله ولي التوفيق.اهـ من صحيح الأدب المفرد (ص: ١٢٦) رقم الحديث (٢٢٩).

قلت: هذا الذي جزم به الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- فيه نظر من أوجه:
الأول: أن كتب الحديث منقسمة بين اللفظين، ولم تكن لفظة (وأزعب) في مصدر واحد أو مصدرين حتى يُجزم بخطأ في النسخ.
الثاني: أن كل كتب الغريب التي وقفت عليها تشرح كلمة (أزعب) وتعزوها للحديث، ولم أقف على مصدر واحد ذكرها (أرغب)، ومعلوم أن مؤلفي الغريب ينقلون من المخطوطات لا من المطبوع، ومنهم متقدمون جدًّا كأبي عبيد، ونقله عن الأصمعي، وهم أقرب إلى مصادر السنة الأصلية من الشيخ الألباني، فوقوفه -رحمه الله تعالى- على جملة من المخطوطات لا يغير من الأمر شيئًا، ولا سيما أن لفظة (أرغب) على الجادة، فالغلط وارد فيها جدًّا، بخلاف (أزعب). ومعلوم أن مؤلفي كتب الغريب شرحوا ألفاظا هي أقل غرابة من لفظة (وأرغب لك من المال رغبة صالحة) فلماذا لم يأت أحد منهم على هذا اللفظ بالشرح، وشرحوا كلهم لفظ (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) فدعوى أنهم يشرحون ما اتفق لهم دليل على أن المتفق لهم هو اللفظ الصحيح، وأن ما لم يتفق لهم فليس صحيحًا؛ لأنه لم يوجد في وقتهم، ولو وجد ولو مصحفًا لنبهوا عليه أو ذكروا وجهًا آخر.
الثالث: أن العلامة الألباني -رحمه الله تعالى- قد ذكرها على الصواب (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، ط: الأولى ١٤٢٤هـ حديث (٣٢٠١)، وأيضًا في تحقيقه لمشكاة المصابيح، ط: الثانية ١٣٩٩هـ حديث (٣٧٥٦) وعلق في حاشية المشكاة شارحًا الكلمة بقوله: أي: أقطع لك قطعة أو دفعة من المال.

ويحتمل أن الشيخ -رحمه الله تعالى- رجع عما قرره في الأدب المفرد؛ لأنني وقفت على الطبعة الرابعة منه، المطبوعة عام ١٤١٨هـ وفي حاشيتها ما ذكرته عنه آنفًا، ثم أخرج الشيخ التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان عام ١٤٢٤هـ أي: بعدها بست سنوات، وأثبت فيه (وأزعب لك من المال زعبة صالحة) على الصواب، مخالفًا ما قرره في صحيح =

فَدَلَّتْ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى وَصْفِ المَالِ بِالطَّيِّبِ وَبِالصَّالِحِ إِذَا كَانَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ يُرَاعِي شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ؛ بَلْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ مِنْ مَوَاطِنِ الْغِبْطَةِ فَقَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**»، وَذَكَرَ مِنْهُمَا: «**وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَلِعَظِيمِ شَأْنِ المَالِ وَقِيمَتِهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ؛ كَانَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ الْخَمْسِ الَّتِي لَا تَقُومُ بِدُونِهِ، وَلَا تَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهِ، فَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيهِ(٨)، وَهُوَ أَقَلُّ الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ مَنْزِلَةً؛ وَلِذَلِكَ يُضَحَّى بِهِ فِي سَبِيلِ حِفْظِ الدِّينِ، وَسَلَامَةِ النَّفْسِ، وَتَأْمِينِ الْعَقْلِ، وَحِمَايَةِ الْعِرْضِ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ المَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ كَالسُّؤَالِ عَنْ غَيْرِهِ، فَلَهُ جِهَتَانِ فِي المَسْأَلَةِ: جِهَةُ الْكَسْبِ، وَجِهَةُ الْإِنْفَاقِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ**»(٩).

= الأدب المفرد. إلا أن تكون تعليقات الشيخ على صحيح ابن حبان قديمة، ولم يدفعها للطبع إلا متأخرًا ولم يراجعها، وهذا فيه بُعْد لمن عرف الشيخ ودقته وإتقانه لعمله -رحمه الله تعالى- رحمة واسعة.

(٧) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٨) وهو حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**» أخرجه البخاري في المظالم، باب من قتل دون ماله (٢٣٤٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه (١٤١).

(٩) أخرجه من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه: الترمذي في صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، وقال: حديث حسن صحيح (٢٤١٧)، والدارمي (٥٣٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤٨). وله شواهد عن معاذ وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَشْهَدُ المَالُ عَلَى صَاحِبِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . . ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِينَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ مَوْتِكُمْ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَلَا بَقَاءَ لِحَيٍّ فِيهَا، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٤]، فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- مِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَمِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ.

---

(١٠) أخرجه في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦)، ومسلم في الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢).

أَيُّهَا النَّاسُ: لَيْسَ المَالُ مَحَلَّ ذَمٍّ مُطْلَقًا، وَلَا يُمْدَحُ مُطْلَقًا؛ بَلْ يُنْظَرُ فِي مَصْدَرِهِ وَمَخْرَجِهِ، فَإِنْ كَانَ مَصْدَرُهُ طَيِّبًا فَهُوَ مَالٌ صَالِحٌ، وَكَانَ عِنْدَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ تَقِيٍّ مُنْفِقٍ كَانَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَهُوَ مَحَلُّ مَدْحٍ وَمُدِحَ بِهِ صَاحِبُهُ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مَالًا فَاسِدًا مَصْدَرُهُ الرِّبَا، أَوِ الرَّشْوَةُ، أَوْ أَكْلُ الْحُقُوقِ، أَوِ التِّجَارَةُ الْمُحَرَّمَةُ؛ فَهُوَ مَالٌ خَبِيثٌ، وَمَآلُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى السُّحْتِ وَقِلَّةِ الْبَرَكَةِ، وَغَالِبًا مَا يَكُونُ وَبَالًا عَلَى صَاحِبِهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا مَلَكَ المَالَ رَجُلُ سُوءٍ يُمْسِكُهُ عَنْ وَاجِبَاتِهِ، وَيَبْخَلُ بِهِ عَنْ حُقُوقِهِ، وَيُنْفِقُهُ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ يَعُودُ بِالْخُسْرَانِ عَلَى صَاحِبِهِ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ قَدْ تَمَلَّكَهُ مِنْ طُرُقٍ حَلَالٍ كَالْإِرْثِ وَالْهِبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَشَرُّ النَّاسِ فِي الْأَمْوَالِ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْخَبِيثَيْنِ، وَحَصَّلَ السُّحْتَينِ: فَكَسَبَ مَالَهُ مِنْ حَرَامٍ، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي الْحَرَامِ.

وَلَقَدْ فَهِمَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ هَذِهِ المَسْأَلَةَ المُهِمَّةَ؛ فَاجْتَنَبُوا الْحَرَامَ فِي كَسْبِهِمْ، وَسَلَّطُوا المَالَ عَلَى حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبَةِ وَالمَنْدُوبَةِ، وَكَانَ مِنْهُمْ تُجَّارٌ نَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِتِجَارَتِهِمُ الْإِسْلَامَ كَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَأَرْضَاهُمْ.

وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى مَا قَدَرَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْأَفْذَاذُ؟ فَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه تَكَفَّلَ بِجِهَازِ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ فِي خِدْمَتِهِ وَخِدْمَةِ دَعْوَتِهِ، وَلَمَّا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْإِنْفَاقِ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَالِهِ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ**؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(١١).

---

(١١) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبو داود في الزكاة، باب في الرخصة في ذلك =

وَبَلَغَ مَا أَنْفَقَهُ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعِينَ أَلْفًا؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ[١٢]، وَالْأَلْفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ لَهُ قِيمَتُهُ الْكَبِيرَةُ، وَلِكَثْرَةِ مَا أَنْفَقَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ**، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَقَالَ: مَا أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[١٣].

وَخَرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسَهُ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ . . .**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٤].

وَعُثْمَانُ ﷺ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَجَاءَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فَأَفْرَغَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقَلِّبُهَا وَيَقُولُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[١٥].

= (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (١٤)، والدارمي (١٦٦٠)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (١/ ٥٧٤).

(١٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٨٥٩).

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد في المسند (٢/ ٢٥٣)، وفي فضائل الصحابة (٢٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥٨)، وصححه ابن حبان (٦٨٥٨).

(١٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٥٥)، وأحمد (١/ ٢٧٠).

وجاء أيضًا بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند: البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٢).

(١٥) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ: أحمد في المسند (٥/ ٦٣)، وفي فضائل =

وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ سَمِعَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مِنْ بَعْدِي**» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ؛ فَأَوْصَى لَهُنَّ بِحَدِيقَةٍ بِيعَتْ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ(١٦).

وَبَاعَ أَرْضًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَسَّمَ قِيمَتَهَا فِي فُقَرَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، وَفِي المُهَاجِرِينَ وَأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ(١٧).

= الصحابة (٧٣٨)، والترمذي في المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ؓ، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٧٠١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٤١٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١١٠).

(١٦) أخرجه بنحوه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ؓ: الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ؓ، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٧٤٩).
وأخرجه من حديث أبي سلمة «أن عبد الرحمن بن عوف أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربع مئة ألف» الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ؓ، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣٧٥٠).
وأخرجه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة ؓ بلفظ: «**خيركم خيركم لأهلي من بعدي**» أبو يعلى (٥٩٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤١٤)، والطبري في تاريخه (٧/ ٢٧٦-٢٧٧)، والحاكم وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١-٣١٢).
وقال الهيثمي في الزوائد (٩/ ١٧٤): «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات».
وقصة بيعه للحديقة وقسمتها بين أمهات المؤمنين جاءت عند الترمذي وابن أبي عاصم والحاكم.

(١٧) جاء ذلك في حديث أم بكر بنت المسور: أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضًا له من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأمهات المؤمنين، قال المسور: فأتيت عائشة بنصيبها، فقالت: من أرسل بهذا؟ فقلت: عبدالرحمن، قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحِنَّ عليكن من بعدي إلا الصابرون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة» أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٠٣-١٣٥)، وفي فضائل الصحابة (١٢٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٨)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٥٦٦)، والطبراني في الأوسط (٩١١١).

وَأَوْصَى ﷺ لِلْبَدْرِيِّينَ فَوَجَدُوا مِائَةَ بَدْرِيٍّ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَأَوْصَى بِأَلْفِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى(١٨).

وَكَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ كَعِيَالِهِ ﷺ؛ قَالَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَ أَهْلُ المَدِينَةِ عِيَالًا عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: ثُلُثٌ يُقْرِضُهُمْ مَالَهُ، وَثُلُثٌ يَقْضِي دَيْنَهُمْ، وَيَصِلُ ثُلُثًا(١٩).

هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ أَمْوَالِهِمْ؛ جَمَعُوهَا بِالْحَقِّ، ثُمَّ أَنْفَقُوهَا بِالْحَقِّ، فَكَانَتْ أَمْوَالًا طَيِّبَةً صَالِحَةً عِنْدَ عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى طَيِّبِينَ صَالِحِينَ.

أَيْنَ حَالُ تُجَّارِ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ هَذَا؟ أَيْنَ حَالُ مَنْ جَمَعُوا أَمْوَالَهُمْ مِنَ الرِّبَا، أَوِ الرِّشَا، أَوْ أَكْلِ الْحُقُوقِ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ؟ أَيْنَ مَنْ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فِي تَشْيِيدِ الْبُنُوكِ الرِّبَوِيَّةِ، وَالمُسَاهَمَاتِ المُحَرَّمَةِ، أَوْ فِي إِصْدَارِ مَجَلَّاتٍ فَاضِحَةٍ تَمْتَلِئُ بِصُوَرِ الْبَغَايَا وَأَشْبَاهِ الْبَغَايَا، وَتَنْضَحُ بِالْغَزَلِ المَاجِنِ وَالْفِكْرِ المُنْحَرِفِ الَّذِي يُعَارِضُ الدِّينَ وَالْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ؟!

وَأَعْظَمُ شَرًّا مِنْهُمْ مَنْ أَطْلَقُوا قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً، وَصَنَعُوا بَرَامِجَ تَرْفِيهِيَّةً لَيْسَ لَهَا رِسَالَةٌ تُؤَدِّيهَا إِلَّا إِفْسَادَ الْفِطْرَةِ، وَإِمَاتَةَ الْغَيْرَةِ، وَقَتْلَ الْأَخْلَاقِ وَالدِّيَانَةِ، بِاسْمِ التَّرْفِيهِ وَالِانْفِتَاحِ، وَيُشَارِكُهُمْ فِي إِثْمِهِمْ تُجَّارٌ يَدْعَمُونَ هَذِهِ الْوَسَائِلَ الْإِعْلَامِيَّةَ الْفَاسِدَةَ وَالمُفْسِدَةَ بِالْإِعْلَانِ فِيهَا، وَالدِّعَايَةِ لِتِجَارَاتِهِمْ وَمُنْتَجَاتِهِمْ عَبْرَهَا، وَلَا يُنْكِرُونَ مَا فِيهَا مِنْ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ! وَلَوْ أَنَّهُمْ كَفُّوا عَنْهَا، وَلَمْ يُعْلِنُوا فِيهَا إِلَّا بِشَرْطِ تَنْظِيفِ قَنَوَاتِهِمْ مِنْ هَذِهِ المَوَادِّ المُحَرَّمَةِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ وَلِأَصْحَابِهَا،

---

(١٨) سير أعلام النبلاء (١/ ٩٠).

(١٩) المصدر السابق (١/ ٨٨).

وَلِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ؛ بِتَقْلِيلِ الشَّرِّ وَتَحْجِيمِهِ، وَالِاحْتِسَابِ عَلَى أَهْلِهِ وَنَاشِرِيهِ.

وَأَيْنَ مَا فَعَلَهُ أَئِمَّةُ الْهُدَى بِأَمْوَالِهِمْ، وَإِنْفَاقِهَا فِي مَجَالَاتِ الْخَيْرِ، مِمَّا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ المَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي وَلَائِمِهِمْ وَأَفْرَاحِهِمْ وَقُصُورِهِمْ وَمَرَاكِبِهِمْ، مِنْ سَرَفٍ عَظِيمٍ، وَتَبْذِيرٍ كَبِيرٍ، وَكُفْرَانٍ لِنِعْمَةِ المَالِ، بِإِلْقَاءِ فَوَائِضِ الْأَطْعِمَةِ فِي النُّفَايَاتِ، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا يُنْقَلُ عَبْرَ الشَّاشَاتِ مِنْ مَجَاعَاتٍ هُنَا وَهُنَاكَ، وَقَدْ تَبِعَهُمْ فِي سَرَفِهِمْ، وَقَلَّدَهُمْ فِي تَبْذِيرِهِمْ غَيْرُهُمْ مِنْ مَسْتُورِي الْحَالِ، فِي بُعْدٍ عَنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ المَالِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُحَاسَبُونَ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ دَخَلَ بُسْتَانًا مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فَأَكَلُوا بَلَحًا، وَشَرِبُوا مَاءً، فَلَمَّا انْتَهَوْا قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ[٢٠].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ: المَاءُ وَالتَّمْرُ، وَسُيُوفُنَا عَلَى رِقَابِنَا وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟! قَالَ: «**أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢١].

---

(٢٠) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٣٣٨)، والنسائي في الوصايا، باب قضاء الدين قبل الميراث (٦/ ٢٤٦)، والطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨٦)، وأبو يعلى (١٧٩٠)، والطيالسي (١٧٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٤١١).

(٢١) أخرجه من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٤٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٠) برقم: (٣٤٣٤٥).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر (٣٣٥٧).

=

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَا الَّذِي سُنَسْأَلُ عَنْهُ، وَنَحْنُ لَا نَدْرِي مَاذَا نَأْكُلُ؟ وَلَا مَاذَا نَشْرَبُ؟ وَلَا مَاذَا نَلْبَسُ؟ وَلَا مَاذَا نَرْكَبُ؟ وَلَا مَاذَا نَضَعُ فِي بُيُوتِنَا مِنْ أَثَاثٍ وَمَتَاعٍ وَتُحَفٍ وَزِينَةٍ؟!

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ، وَالْعَمَلَ فِي أَمْوَالِنَا بِمَا يُرْضِيهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ . . .



= وشاهد ثان من حديث الزبير بن العوام ﷺ عند: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: هذا حديث حسن(٣٣٥٦).

٣٠٠- الإنسان والمال (٢) رأي في تجارة الأسهم

١٧/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَبْسُطُ وَيَقْبِضُ، وَيَرْفَعُ وَيَخْفِضُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَعْطَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحْل: ٥٣]، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّدْبِيرُ فِي خَلْقِهِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَرَضَ عَلَيْهِ رَبُّهُ الدُّنْيَا فَرَضِيَ بِالْكَفَافِ، وَخَيَّرَهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ مَعَ الْمُلْكِ، وَبَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ مَعَ النُّبُوَّةِ؛ فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، عَلَى أَنْ يَكُونَ مَلِكًا رَسُولًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ، وَهَاجَرُوا مَعَهُ، وَقَاتَلُوا دُونَهُ، وَبَذَلُوا فِي الْإِسْلَامِ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ؛ إِرْضَاءً لِرَبِّهِمْ، وَتَصْدِيقًا لِإِيمَانِهِمْ، وَنُصْرَةً لِدِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى وَلَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَ شَيْئًا مِنْ حَظِّهَا، فَخَافَ أَنْ تَكُونَ طَيِّبَاتُهُ قَدْ عُجِّلَتْ لَهُ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ؛ فَفِي التَّقْوَى تَفْرِيجٌ لِكُرَبِ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا، وَأَفَاضَ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ أَرْزَاقِ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الْأَرْضِ مَا يَكُونُ عَوْنًا لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَأَمَرَهُمْ

بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْبَقَرَة: ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٣].

وَالمَالُ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا سَخَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ، وَبِهِ يَتَبَايَعُونَ وَيَتَعَامَلُونَ، وَبِهِ يُقَدِّرُونَ قِيمَةَ مَا يَتَبَادَلُونَ، وَالمَالُ شَهْوَةٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَقَدْ رُكِّبَ فِي بَنِي آدَمَ مَحَبَّةُ الشَّهَوَاتِ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الْفَجْر: ٢٠] وَهُوَ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا الَّتِي يُحِبُّ الْبَشَرُ نَمَاءَهَا وَزِيَادَتَهَا، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْهَا مَهْمَا كَانَتْ كَثْرَتُهَا ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْكَهْف: ٤٦]، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

وَلَيْسَ إِمْدَادُ اللَّهِ تَعَالَى عَبْدَهُ بِالمَالِ دَلِيلَ رِضًا وَمَحَبَّةٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ ابْتِلَاءً، أَوِ اسْتِدْرَاجًا، أَوْ عَذَابًا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥٥، ٥٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي حَقِّ أَبِي لَهَبٍ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المَسَد: ٢]، وَفِي

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٢)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٩).
وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٥)، ومسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٤٨).
ومن حديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما عند: البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٦٠٧٤).
ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه عند: مسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا (١٠٥٠).

الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٨٥]، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى إِغْدَاقَ النِّعَمِ عَلَى الْعِبَادِ، وَأَنَّ مِنْ عَدَمِ الرِّضَا قِلَّةَ المَالِ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الزَّجْرُ عَنْ هَذَا الْفَهْمِ الْخَاطِئِ ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]؛ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنُّونَ.

وَلَمَّا تَفَاخَرَ أَغْنِيَاءُ الْكُفَّارِ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سَبَأ: ٣٥]، كَانَ الْجَوَابُ عَلَيْهِمْ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مِنَ الْآيَةِ [سَبَأ: ٣٧]، وَلِذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَعْرَاف: ٤٨]، وَنَحْنُ نُبْصِرُ أَنَّ الدُّوَلَ الْكَافِرَةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَكْثَرُ حَظًّا بِالْغِنَى وَالْأَمْوَالِ مِنَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كَثْرَةَ المَالِ وَقِلَّتَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْفِتْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ لَيْسَ إِلَّا.

إِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ الْعَظِيمَةُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، وَفَهِمَهَا حَقَّ الْفَهْمِ، وَأَيْقَنَ أَنَّ المَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، يُقَسِّمُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ كَيْفَ شَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْزَعُ لِفَوَاتِ شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا تَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَيَرْضَى بِمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ فِيهِ.

وَمَجَالَاتُ تَنْمِيَةِ الْأَمْوَالِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ تَنَوَّعَتْ وَتَعَدَّدَتْ وَسَائِلُهَا، وَقَذَفَتِ النُّظُمُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ بِمِئَاتِ الصُّوَرِ فِي إِدَارَةِ الِاقْتِصَادِ وَتَنْمِيَةِ الْأَمْوَالِ، تَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ مِنْ أَيَّةِ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ تَحُولُ بَيْنَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ وَبَيْنَ الْأَرْبَاحِ الْكَبِيرَةِ؛ فَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ الرِّبَا وَالْغِشِّ وَالنَّجْشِ وَالْغَرَرِ وَالِاحْتِكَارِ، وَصَارَ الْأَقْوِيَاءُ أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى اصْطِيَادِ الضُّعَفَاءِ وَإِغْرَائِهِمْ، ثُمَّ

سَحْقِهِمْ وَإِنْهَائِهِمْ. وَيَكْفِي تَصْرِيحٌ أَوْ تَلْمِيحٌ أَوْ إِشَارَةٌ مِنْ أَحَدِ كِبَارِ المُرَابِينَ لِيُحْدِثَ ارْتِبَاكًا كَبِيرًا فِي أَسْوَاقِ المَالِ وَالْأَعْمَالِ، يَأْتِي عَلَى السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنَ النَّاسِ.

وَسُوقُ الْأَسْهُمِ هِيَ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي أَفْرَزَهَا النِّظَامُ الرَّأْسِمَالِيُّ، وَأَقْبَلَ عَلَى الِاتِّجَارِ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَتَقَلَّبُوا فِي أَرْبَاحِهَا وَخَسَارَتِهَا، وَذَاقُوا حَلَاوَتَهَا كَمَا طَعِمُوا مَرَارَتَهَا، وَجَرَّبُوا فِيهَا الثَّرَاءَ السَّرِيعَ، كَمَا جَرَّبُوا الْخَسَارَةَ الْكَبِيرَةَ، وَكَثُرَتْ فِيهَا أَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُفْتِينَ؛ فَأَحَلَّهَا قَوْمٌ وَحَرَّمَهَا آخَرُونَ، وَتَوَقَّفَ فِيهَا قَوْمٌ وَفَصَّلَ الْقَوْلَ فِيهَا آخَرُونَ. وَكَثِيرٌ مِنْ مُعَامَلَتِهَا يُخَالِطُهَا شَيْءٌ مِنَ الرِّبَا أَوِ الِاحْتِكَارِ أَوِ النَّجْشِ، وَمَنْ يَدْخُلُ سُوقَهَا مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ يَدْخُلُونَهَا عَلَى غَرَرٍ وَعَدَمِ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا مُقَلِّدُونَ لِغَيْرِهِمْ، مُتَّبِعُونَ لِلْأَثْرِيَاءِ مِنْهُمْ.

وَمَا الْأَسْهُمُ إِلَّا مِنَ الْبَلَاءِ الرَّأْسِمَالِيِّ الَّذِي أَغْرَقَ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِأَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْمُخْتَلِطَةِ وَالْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي تَحَارُ فِيهَا الْعُقُولُ، وَيَخْتَلِفُ فِيهَا الْمُجْتَهِدُونَ.

وَمَهْمَا كَثُرَ الِاخْتِلَافُ حَوْلَهَا، وَقَالَ النَّاسُ فِيهَا مَا قَالُوا؛ فَإِنَّ مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ أَنَّ مَنْ تَوَرَّعَ عَنْهَا اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَلَمْ يُخَاطِرْ بِمَالِهِ، وَمَنْ تَاجَرَ فِيهَا بِفَتْوَى عَالِمٍ مُعْتَبَرٍ فَلَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ عَلَيْهِ الْحَذَرَ مِنَ الْفِتْنَةِ بِهَا؛ إِذْ هِيَ بَابٌ مِنْ فِتْنَةِ المَالِ عَرِيضٌ، وَمَجَالٌ مِنْ مَجَالَاتِ الْكَسْبِ وَالْخَسَارَةِ سَرِيعٌ، يُصْبِحُ صَاحِبُهَا عَلَى حَالٍ، وَيُمْسِي عَلَى حَالٍ أُخْرَى، فَإِنْ رَبِحَ فَرِحَ وَشَكَرَ، وَإِنْ خَسِرَ سَخِطَ وَضَجِرَ، لَا يَرْحَمُ سُوقُهَا فِي ضَعِيفٍ ضَعْفَهُ، وَلَا يُمْهِلُهُ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ، مَنْ دَخَلَهَا فَمَالُهُ لَيْسَ لَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ مِنْهَا رَابِحًا أَوْ خَاسِرًا، فَإِنْ خَرَجَ رَابِحًا لَا يَلْبَثُ فَرَحُهُ إِلَّا قَلِيلًا فَتَرْتَفِعُ مَرَّةً أُخْرَى فَيَحْزَنُ لِفَوَاتِ الرِّبْحِ الْجَدِيدِ،

وَإِنْ خَسِرَ تَرَبَّصَ لَعَلَّهَا تَعُودُ كَمَا كَانَتْ، فَتَزْدَادُ خَسَارَةً إِلَى خَسَارَتِهَا حَتَّى لَا يَجِدَ مَنْ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ، فَلَا تَمَتَّعَ بِأَرْبَاحِهَا لَمَّا رَبِحَتْ، وَلَا سَلِمَ مِنْ خَسَارَتِهَا إِذْ خَسِرَتْ، كَأَنَّ الْوَاحِدَ فِي سُوقِهَا يَمُدُّ حَبْلًا مَطَّاطًا يَزْدَادُ طُولُهُ مَعَ اسْتِمْرَارِهِ فِي شَدِّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ لَا مَحَالَةَ لَكِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَنْقَطِعُ، فَلَا سَلِمَ لَهُ حَبْلُهُ، وَلَا تَوَقَّفَ هُوَ عَنْ مَدِّهِ!! وَلَيْسَ لِلْوَاحِدِ فِيهَا أَمَدٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، بَلْ تُغْرِيهِ وَتُغْرِيهِ حَتَّى يَتَمَلَّكَهُ الطَّمَعُ، وَيَسْتَبِدَّ بِهِ الْجَشَعُ، فَيُصْبِحَ رَقِيقَهَا، تَمْلِكُهُ وَلَوْ كَانَ هُوَ مَالِكَهَا، وَمَنْ أَسَرَتْهُ فَلَا هَنِئَ بِنَوْمٍ، وَلَا الْتَذَّ بِطَعَامٍ؛ فَهُوَ مُنْشَغِلُ الْبَالِ، دَائِمُ التَّفْكِيرِ، مُضَيِّعُ الْحُقُوقِ، وَكَمْ مِنْ صَلَاةٍ ضُيِّعَتْ لِأَجْلِهَا! وَكَمْ مِنْ حُقُوقٍ لِلْأَهْلِ وَالْعِيَالِ أُهْدِرَتْ فِي سَبِيلِهَا! وَفِي طَرِيقِهَا الطَّوِيلِ تَهْلِكُ أَنْفُسٌ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْهَا، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ مَعَهَا فَسَلَامَتُهُ مِنْهَا خَيْرٌ لِنَفْسِهِ وَدِينِهِ وَأَهْلِهِ.

وَمَنْ أَبَى إِلَّا اقْتِحَامَهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَيَسْتَخِيرَهُ فِيهَا، وَيَتَحَرَّى أَقْرَبَهَا إِلَى الْحَلَالِ، وَأَكْثَرَهَا سَلَامَةً مِنَ الْإِثْمِ، وَلَوْ كَانَ رِبْحُهَا أَقَلَّ مِنْ غَيْرِهَا، فَقَلِيلُ الْحَلَالِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْحَرَامِ.

وَعَلَيْهِ أَلَّا يُخَاطِرَ بِمَالِهِ كُلِّهِ فِيهَا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُحَمِّلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ بِقَرْضٍ أَوْ رَهْنٍ أَوْ نَحْوِهِ، وَمِنَ الطَّمَعِ الْمَذْمُومِ أَنْ يَرْهَنَ شَيْئًا تَتَعَلَّقُ مَنَافِعُهُ بِغَيْرِهِ، كَدَارِهِ الَّتِي يَسْكُنُهَا أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ فَإِنَّهُ إِنْ خَسِرَ شُرِّدُوا مِنْهَا، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَهَى أَنْ يُوصِيَ الرَّجُلُ بِشَطْرِ مَالِهِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَضِيعَ الْوَرَثَةُ بَعْدَ مَوْتِهِ(٢)، فَكَيْفَ بِمَنْ يَعْمَلُ عَلَى إِضَاعَتِهِمْ وَهُوَ حَيٌّ فَيَجْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ طَمَعِهِ وَجَشَعِهِ!!

وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُتَاجِرَ فِيمَا فِيهِ مُخَاطَرَةٌ بِأَمْوَالٍ لَا يَمْلِكُهَا وَهُوَ وَصِيٌّ عَلَيْهَا،

---

(٢) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: البخاري في الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٥٩١)، ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

كَأَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ وَالْقَاصِرِينَ وَنَحْوِهِمْ، وَسَلَامَتُهُ مِنْ أَمْوَالِ غَيْرِهِ مَهْمَا كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُخَاطِرَ بِهَا، فَإِنْ رَبِحُوا عَزَوُا الرِّبْحَ إِلَى السُّوقِ، وَإِنْ خَسِرُوا نَسَبُوا الْخَسَارَةَ إِلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا شَارَطَهُمْ عَلَى بَعْضِ أَرْبَاحِهَا. وَكَمْ مِنْ ضَغَائِنَ وَقَعَتْ، وَقَرَابَةٍ قُطِعَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ! وَالنَّاسُ فِي أَغْلَبِهِمْ مُحِبُّونَ مَا دَامُوا يَرْبَحُونَ، فَإِنْ خَسِرُوا أَمْوَالَهُمْ تَأَثَّرُوا وَأَبْغَضُوا.

فَإِنْ سَلِمَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَاجَرَ بِبَعْضِ مَالِهِ فِيهَا، فَلَا يَجْعَلُهَا أَكْبَرَ هَمِّهِ، وَلَا يَصْرِفُ عَلَيْهَا جُلَّ وَقْتِهِ، بَلْ يُعْطِيهَا مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ وَالْمُتَابَعَةِ بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، مُحَافِظًا عَلَى الْحُقُوقِ الَّتِي عَلَيْهِ لِرَبِّهِ وَلِنَفْسِهِ وَوَالِدَيْهِ وَأُسْرَتِهِ وَقَرَابَتِهِ، مُوَطِّنًا نَفْسَهُ عَلَى الرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ؛ فَلَا الرِّبْحُ يَسْتَخِفُّهُ، وَلَا الْخَسَارَةُ تُجْزِعُهُ، وَعَلَيْهِ أَنْ لَا يُصْغِيَ إِلَى الشَّائِعَاتِ، أَوْ يَكُونَ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِهَا، أَوْ يَسْعَى فِي بَثِّهَا وَنَشْرِهَا.

وَمَنْ رَأَى مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفًا شَدِيدًا تُجَاهَ المَالِ، وَأَحَسَّ أَنَّ المَالَ بَدَأَ يَتَسَرَّبُ مِنْ يَدِهِ إِلَى قَلْبِهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ: إِضَاعَةُ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ لِصَالِحِ الْأَسْهُمِ وَالشَّاشَاتِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَرِقَّ دِينُهُ، أَوْ تَعْتَلَّ صِحَّتُهُ. وَرِقَّةُ دِينِهِ تُسَهِّلُ عَلَيْهِ تَجَاوُزَ الْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ، بِتَسْوِيغَاتٍ يُقْنِعُ بِهَا نَفْسَهُ، وَتَأْوِيلَاتٍ يَلْتَفُّ بِهَا عَلَى أَحْكَامِ دِينِهِ. وَمَنِ اسْتَحْوَذَ المَالُ عَلَى قَلْبِهِ اعْتَلَّتْ صِحَّتُهُ بِسَبَبِ اضْطِرَابِ أَسْوَاقِ الْأَسْهُمِ وَالمَالِ، فَكُلُّ خَسَارَةٍ تُوجِدُ فِيهِ عِلَّةً، وَكُلُّ رِبْحٍ يُحْدِثُ فِيهِ خِفَّةً؛ حَتَّى يَفْقِدَ نَشَاطَهُ وَصِحَّتَهُ، وَلَرُبَّمَا فَقَدَتْهُ أُسْرَتُهُ فِي قَارِعَةٍ مِنْ قَارِعَاتِ الْأَسْهُمِ! فَلَا اسْتَمْتَعَ بِمَالِهِ، وَلَا سَلِمَ مِنْ تَبِعَتِهِ وَإِثْمِهِ. وَكُلُّ امْرِئٍ أَبْصَرُ بِنَفْسِهِ، وَأَدْرَى بِكَوَامِنِ قَلْبِهِ، وَمَنْ بَلَى نَفْسَهُ وَاخْتَبَرَهَا، وَأَيْقَنَ بِضَعْفِهَا أَمَامَ المَالِ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا نَزَّاعَةٌ إِلَى الطَّمَعِ، وَلَا تَحْتَمِلُ الصَّدَمَاتِ الْفُجَائِيَّةَ فِي سُوقِ

الْأَسْهُمِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ مَرِيضًا بِأَمْرَاضٍ مُزْمِنَةٍ تَتَأَثَّرُ بِالْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَحَرَامٌ عَلَيْهِ ثُمَّ حَرَامٌ أَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ وَيُوبِقَهَا مِنْ أَجْلِ المَالِ، وَلْيَسْلُكْ فِي التِّجَارَةِ مَسَالِكَ أُخْرَى؛ فَذَلِكَ أَتْقَى لِرَبِّهِ، وَأَنْقَى لِدِينِهِ، وَأَحْفَظُ لِنَفْسِهِ. وَالْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَانَا فِي قُلُوبِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التَّغَابُن: ١٥، ١٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ الْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالمُلْكُ مُلْكُهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، نِعَمُهُ عَلَى عِبَادِهِ تَتْرَا، وَخَيْرُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٦٠٨١)، ومسلم في الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْزَلَهَا! وَكَمْ مِنْ نِقْمَةٍ دَفَعَهَا! وَكَمْ مِنْ ضَرَّاءَ كَشَفَهَا! لَا تَضِيقُ بِالْعَبْدِ حَالٌ إِلَّا أَعْقَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهَا فَرَجًا، وَأَوْجَدَ لَهُ مِنْهَا مَخْرَجًا ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: ٥، ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: المَالُ عَزِيزٌ عَلَى النُّفُوسِ، يَرْتَفِعُ بِزِيَادَتِهِ أَقْوَامٌ، وَيَسْفُلُ بِخَسَارَتِهِ آخَرُونَ، وَهُوَ سَبَبُ الْجَاهِ، كَمَا أَنَّ الْجَاهَ سَبَبُهُ؛ وَلِذَا كَانَ فَقْدُهُ شَدِيدَ الْوَطْأَةِ عَلَى النَّفْسِ، وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ يَتَمَالَكُ نَفْسَهُ، وَيُقَلِّلُ آثَارَ خَسَارَتِهِ، فَإِنْ خَسِرَ مَالَهُ فَلَا يَخْسَرُ دِينَهُ بِجَزَعِهِ، وَلَا يَخْسَرُ أَجْرَهُ عَلَى مُصَابِهِ بِقِلَّةِ صَبْرِهِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَيَحْتَسِبَ، وَأَنْ يُوَطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى، كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ(٤).

فَإِنْ قَابَلَ مُصِيبَتَهُ عَلَى خَسَارَتِهِ بِالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَذَلِكَ أَعْلَى المَنَازِلِ، وَأَشْرَفُ المَقَامَاتِ، رَوَى أَبُو عَمْرٍو الْكِنْدِيُّ فَقَالَ: «أَغَارَتِ الرُّومُ عَلَى جَوَامِيسَ لِبَشِيرٍ الطَّبَرِيِّ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ جَامُوسٍ، فَرَكِبْتُ مَعَهُ أَنَا وَابْنٌ لَهُ، فَلَقِينَا عَبِيدُهُ الَّذِينَ كَانَتْ مَعَهُمُ الْجَوَامِيسُ مَعَهُمْ عِصِيُّهُمْ، فَقَالُوا: يَا مَوْلَانَا ذَهَبَتِ الْجَوَامِيسُ، فَقَالَ: وَأَنْتُمْ أَيْضًا اذْهَبُوا مَعَهَا، فَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتِ أَفْقَرْتَنَا! قَالَ: اسْكُتْ! إِنَّ رَبِّي اخْتَبَرَنِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَزِيدَهُ»(٥).

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ لَهُ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا**

(٤) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الجنائز، باب زيارة القبور (١٢٢٣)، ومسلم في الجنائز، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (١٩)، وهو في صفة الصفوة (٤/ ٢٣٥)، والوافي بالوفيات (١٠/ ٩٩).

لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَعَلَيْهِ أَلَّا يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِالمَخْلُوقِينَ مِنْ خُبَرَاءِ السُّوقِ وَالمَالِ، وَمُدِيرِي الْبُنُوكِ وَالشَّرِكَاتِ، بَلْ يَهْرَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِرْجَاعِ، وَيَسْأَلُهُ التَّثْبِيتَ وَالتَّعْوِيضَ؛ كَمَا رَوَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنها فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ أَشَدَّ الْحَذَرِ مِنْ قَوَادِحِ التَّوْحِيدِ كَالْجَزَعِ وَالتَّسَخُّطِ، وَكَثْرَةِ اللَّوْمِ، وَفَتْحِ بَابِ «لَوْ»، فَيَقُولُ: لَوْ أَطَعْتُ فُلَانًا فَبِعْتُ، أَوْ لَوْ عَصَيْتُ فُلَانًا فَلَمْ أَبِعْ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَحِينَئِذٍ يَفْتَحُ عَلَى نَفْسِهِ عَمَلَ الشَّيْطَانِ. وَلْيُوقِنْ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا الْخَيْرُ لَهُ، فَقَدْ يَطْلُبُ الرِّبْحَ وَهُوَ شَرٌّ لَهُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي خَسَارَتِهِ حِفْظُ دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَيَسْخَطُ عَلَى رَبِّهِ وَهُوَ يَحْفَظُهُ، رَوَى قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ المَاءَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٨).

---

(٦) أخرجه من حديث صهيب رضي الله عنه: مسلم في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٧) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة (٩١٨)، وأبو داود في الجنائز، باب ما يستحب أن يقال عند الميت من الكلام (٣١١٩)، والترمذي في الدعوات باب (٨٨) (٣٥٠٦)، ومالك (١/ ٢٣٦)، وأحمد (٦/ ٣٠٩).

(٨) أخرجه الترمذي في الطب، باب ما جاء في الجمعة، وقال: حسن غريب (٢٠٣٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، والحاكم (٤/ ٢٣٠).

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مُصِيبَتَهُ كَانَتْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي جُزْءٍ مِنْهُ، وَلَمْ تَكُنْ فِي دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ، وَلَوْ قُدِّرَ عَلَى وَلَدِهِ مَرَضٌ لَا يُعَافَى مِنْهُ إِلَّا بِبَذْلِ مَالِهِ كُلِّهِ وَزِيَادَةٍ لَبَذَلَ مَالَهُ وَاقْتَرَضَ، أَفَإِنْ سَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَدَهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ مُصِيبَتَهُ فِي مَالِهِ جَزِعَ وَتَسَخَّطَ، وَقَدْ كَانَ يَبْذُلُهُ لِعَافِيَةِ وَلَدِهِ؟!

ثُمَّ لِيَنْظُرْ إِلَى حَالِهِ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ مَا مَلَكَ، مَنِ الَّذِي رَزَقَهُ وَأَعْطَاهُ وَوَفَّقَهُ وَقَدْ كَانَ لَا يَمْلِكُ مِنْ قَبْلُ شَيْئًا؟! فَلَا يَخْدَعْ نَفْسَهُ وَيَخْدَعْهُ شَيْطَانُهُ بِأَنَّهُ وَرِثَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، أَوْ أُعْطِيَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدَهُ؛ فَفِي النَّاسِ مَنْ هُمْ أَمْكَنُ مِنْهُ عَمَلًا، وَأَكْثَرُ سَعْيًا، وَأَوْفَرُ عَقْلًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ وَحَرَمَهُمْ، أَفَإِنْ أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ مَا أَعْطَاهُ، وَأَبْقَى لَهُ مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى يَغْضَبُ وَلَا يَرْضَى؟!

وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ أَنْ يُنَفِّسَ عَنْ غَضَبِهِ فِيمَنْ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ، وَلَا ذَنْبَ لَهُ فِي خَسَارَتِهِ، مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ، وَزَوْجَةٍ وَرَعِيَّةٍ. فَضِعَافُ الرِّجَالِ مَنْ لَا يَثْبُتُونَ فِي الْأَزَمَاتِ، وَلَا يُوَاجِهُونَ الْمُشْكِلَاتِ، فَلَرُبَّمَا عَقَّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَالِدَهُ وَوَالِدَتَهُ، أَوْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، أَوْ آذَى وَلَدَهُ، أَوْ عَاقَبَ مَنْ هُمْ تَحْتَ إِدَارَتِهِ، بِسَبَبِ خَسَارَتِهِ، وَهَذَا ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَعُقُوقٌ كَبِيرٌ، فَمَا ذَنْبُ هَؤُلَاءِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ السَّيِّئَةِ، وَمُخَاطَرَتِهِ بِأَمْوَالِهِ؟!

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْعِوَضَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيَطْلُبْهُ مِنْهُ، وَرِزْقُ اللَّهِ تَعَالَى يُطْلَبُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ.

فَإِنْ تَبَدَّلَتْ حَالُهُ، وَعَادَتْ خَسَارَتُهُ أَرْبَاحًا فَلْيَتَذَكَّرْ حَالَهُ مِنْ قَبْلُ، وَيُقَارِنْهَا مَعَ حَالِهِ بَعْدَ عَافِيَتِهِ مِنْ خَسَارَتِهِ؛ لِيَعْرِفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَيَنْسُبَ الْفَضْلَ إِلَيْهِ، لَا لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ وَمِنْ

بَعْدُ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَا مَضَى مِنْ خَسَارَتِهِ مَوْعِظَةً لَهُ حَتَّى لَا يَأْخُذَهُ الْعُجْبُ وَالْبَطَرُ، وَكُفْرَانُ النِّعْمَةِ، وَمِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ: الْإِكْثَارُ مِنَ الصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّهَا تُنَمِّي المَالَ وَتُبارِكُهُ، وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٠١- الإنسان والمال (٣)
شؤم الكسب الخبيث

٢٢/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ، وَيُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونُس: ٣١، ٣٢]، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مِنَنِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَوْجَدَ الْبَشَرَ مِنَ الْعَدَمِ، وَرَبَّاهُمْ بِالنِّعَمِ، وَكَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ آجَالُهُمْ، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرُّوم: ٤٠].

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَشَدُّهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ، يَمُرُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الطَّرِيقِ فَيَجِدُ تَمْرَةً فَيَشْتَهِيهَا فَيَقُولُ: «**لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا**»(١)، وَيَقُولُ ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، ثُمَّ أَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**»(٢)، وَتَضَوَّرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقِيلَ لَهُ: «مَا أَسْهَرَكَ؟ قَالَ: **إِنِّي وَجَدْتُ**

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في البيوع، باب ما يتنزه من الشبهات (١٩٥٠)، ومسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وآله (١٠٧١).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: مسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وآله (١٠٧٠)، وابن حبان (٣٢٩٢).

تَمْرَةً سَاقِطَةً فَأَكَلْتُهَا، ثُمَّ تَذَكَّرْتُ تَمْرًا كَانَ عِنْدَنَا مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَلَا أَدْرِي أَمِنْ ذَلِكَ كَانَتِ التَّمْرَةُ أَوْ مِنْ تَمْرِ أَهْلِي، فَذَلِكَ أَسْهَرَنِي»(٣) فَمَا أَشَدَّ خَشْيَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى! وَمَا أَعْظَمَ اتِّقَاءَهُ لِلْحَرَامِ! صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، اتَّقُوا مَنْ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَحَرَمَ غَيْرَكُمْ، وَأَعْطَاكُمْ وَمَنَعَ سِوَاكُمْ؛ فَإِنَّ تَقْوَاهُ مِنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَهِيَ سَبَبٌ لِاسْتِدَامَةِ رِزْقِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فَاطِر: ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: أَنْ جَعَلَ الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدَّرَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ جَنِينٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَلَوْ كَانَ الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ بِيَدِ بَعْضِ الْبَشَرِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَجَوَّعُوا الْخَلْقَ، وَأَبَادُوا النَّاسَ، وَلَبَقِيَ الْجَبَابِرَةُ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ أَبَدَ الدَّهْرِ. كَيْفَ؟! وَهَم يَظْلِمُونَ وَيَعْتَدُونَ لَمَّا مُنِحُوا بَعْضَ الْقُوَّةِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، فَلَوْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْبَشَرِ إِلَيْهِمْ، وَآجَالُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فَكَيْفَ سَيَكُونُ الْحَالُ؟! وَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِهِمْ؟! وَتِلْكَ حِكْمَةٌ قَلَّ فِي الْخَلْقِ مَنْ يَفْهَمُهَا، وَنِعْمَةٌ جَلَّ فِي الْعِبَادِ مَنْ يَشْكُرُهَا، فَنَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

إِنَّ مَنْ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الشَّرْعُ وَالْأَمْرُ، وَمَنْ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ فَلَا أَمْرَ لَهُ، بَلْ هُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ لِرَبٍّ مَعْبُودٍ؛ وَلِذَا قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ وَالشَّرْعَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَعْرَاف: ٥٤]. فَوَاجِبٌ عَلَى

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ١٨٣)، والبيهقي في الشعب (٥٧٤٤)، وصححه الحاكم (٢/ ١٧)، والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٦٧٢٠)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٩).

الْمُسْلِمِ أَنْ يَلْتَزِمَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ حَتَّى يَكُونَ مُعْتَرِفًا بِخَلْقِهِ، مُسْتَسْلِمًا لِأَمْرِهِ، مُلْتَزِمًا لِشَرْعِهِ.

وَقَضِيَّةُ الرِّزْقِ قَضِيَّةٌ أَرَّقَتْ كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ، وَشَوَّشَتْ تَفْكِيرَهُمْ، وَسَبَّبَتْ أَنْوَاعًا مِنَ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ؛ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَجَزَعًا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ، فَضَرَبَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ كُلَّ وَادٍ فِي كَسْبِ الْمَالِ، وَتَأْمِينِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَاسْتَحَلُّوا كُلَّ وَسِيلَةٍ؛ فَالْحَلَالُ عِنْدَهُمْ مَا حَلَّ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ، دُونَ مُرَاعَاةٍ لِلشَّرْعِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ! وَتِلْكَ وَاللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الْبَشَرُ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ إِذْ سَادَتِ النُّظُمُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ فَقَذَفَتْ بِأَنْوَاعٍ مِنْ وَسَائِلِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، مَبْنِيَّةً عَلَى مَا يُشْبِهُ الْحُرِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ فِي الْأَمْوَالِ، فَعَمَّ الظُّلْمُ وَالْفَسَادُ وَالسُّحْتُ أَرْجَاءَ الْأَرْضِ حَتَّى لَا تَكَادُ بُقْعَةٌ تَخْلُو مِنْ كَسْبٍ خَبِيثٍ، وَاتِّجَارٍ مُحَرَّمٍ. وَكَمَا أَنَّ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ طَيِّبًا وَخَبِيثًا فَكَذَلِكَ فِي الْكَسْبِ وَالتِّجَارَةِ وَالْأَمْوَالِ مَا هُوَ طَيِّبٌ وَمَا هُوَ خَبِيثٌ، وَلَا يَسْتَوِيَانِ أَبَدًا؛ بَلْ قَلِيلُ الطَّيِّبِ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ وَأَكْثَرُ بَرَكَةً وَنَفْعًا مِنَ الْخَبِيثِ.

وَمَهْمَا كَثُرَ الْخَبِيثُ وَامْتَلَأَتْ بِهِ خَزَائِنُ الْبُنُوكِ، وَتَنَفَّذَ بِهِ الْمُتَنَفِّذُونَ، وَسَادَ بِهِ الْأَرْذَلُونَ، وَتَسَلَّطَتْ بِهِ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ عَلَى الدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ الْفَقِيرَةِ؛ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ إِلَى تَبَابٍ وَخُسْرَانٍ فِي الدُّنْيَا الْآخِرَةِ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٠]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَيَّنَ ﷻ أَنَّ مَصِيرَ الْخَبِيثِ نَارُ جَهَنَّمَ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ﴾ مِنَ الْآيَةِ [الْأَنْفَال: ٣٧].

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَسْعَى جُهْدَهُ لِجَرِّهِمْ إِلَى المَكَاسِبِ الْخَبِيثَةِ، وَيُزَيِّنُ لَهُمُ الْمُتَشَابِهَ لِيُجَاوِزَ بِهِمْ إِلَى الْحَرَامِ، فَيَنْقُلَهُمْ إِلَيْهِ خُطْوَةً خُطْوَةً؛ حَتَّى إِذَا أَغْرَقَهُمْ فِي الْحَرَامِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا النَّجَاةَ مِنْهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٨].

إِنَّهَا خُطُوَاتٌ يَنْقُلُ بِهَا الشَّيْطَانُ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْبَشَرِ مِنَ الْحَلَالِ الْخَالِصِ إِلَى الْمُتَشَابِهِ الْمُشْكِلِ؛ لِيَكُونَ قَنْطَرَةً إِلَى الْحَرَامِ الْخَالِصِ، بَعْدَ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِهِمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ كَحَالِهِمْ لَوِ افْتَقَرُوا، وَأَحْوَالِ أَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمُقَارَنَةِ كَسْبِهِمْ بِكَسْبِ غَيْرِهِمْ مِمَّنِ اسْتَحَلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَلَغُوا فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، فَإِذَا أَغْرَقَهُمُ الشَّيْطَانُ فِي الْكَسْبِ الْخَبِيثِ فَقَدْ أَوْقَعَهُمْ فِي النَّارِ، وَلَنْ تُنْجِيَهُمْ أَمْوَالُهُمُ الْخَبِيثَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، بَلْ سَتَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَشُؤْمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَمَنْ تَخَوَّضَ فِي الْحَرَامِ، وَاكْتَسَبَ الْخَبِيثَ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ لِلنَّارِ؛ كَمَا رَوَتْ خَوْلَةُ الْأَنْصَارِيَّةُ ﵂ فَقَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِلتِّرْمِذِيِّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، مَنْ أَصَابَهُ بِحَقِّهِ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ**»(٤).

---

(٤) أخرجه البخاري في الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (٢٩٥٠)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في أخذ المال (٢٣٧٤)، وأحمد (٦/ ٣٦٤)، وعبد الرزاق (٢٩٦٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٥)، وعبد بن حميد (١٥٨٨)، وابن حبان (٢٨٩٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: «**إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ**»(٥).

وَلَمَّا قَالَ أَصْحَابُ جُنْدُبٍ ﷺ لَهُ: أَوْصِنَا، قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦).

وَمِنْ شُؤْمِ المَالِ الْحَرَامِ أَنَّهُ يَمْنَعُ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، حَتَّى فِي سَفَرِ الطَّاعَاتِ؛ كَالْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ**

---

(٥) أخرجه مطولًا من حديث كعب بن عجرة ﷺ: الترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، وقال: حسن غريب، ثم قال: وسألت محمدًا -يعني البخاري- عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عبيد الله بن موسى واستغربه جدًّا (٦١٤)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٥).

وأخرجه مطولًا أيضًا من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣٢١)، وعبد الرزاق (٢٠٧١٩)، وصححه ابن حبان (١٧٢٣)، وأخرجه مختصرًا الدارمي (٢٧٧٦)، وقال الهيثمي عن حديث جابر ﷺ: رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح (٥/ ٢٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٦) أخرجه من حديث جندب بن عبد الله ﷺ موقوفًا: البخاري في الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٦٧٣٣).

وأخرجه مرفوعًا: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٤)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، والأوسط (٨٤٩٥)، والبيهقي في الشعب وقال: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٧). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وتعقب البيهقي في إعلاله الحديث بالوقف فقال: قلت: وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن -وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري (٣٣٧٩).

الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَقَوْلُهُ: «**وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ**» ظَاهِرُهُ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ، فَيُخْشَى عَلَيْهِمْ أَلَّا يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُمْ، وَهَذَا مِنْ شُؤْمِ مَنْ أَنْفَقَ الْحَرَامَ عَلَيْهِمْ، وَبَنَى بِهِ أَجْسَادَهُمْ؛ فَإِنْ تَصَدَّقَ مِنْ هَذَا الْحَرَامِ الْخَبِيثِ لَمْ تُقْبَلْ صَدَقَتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ . . . ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيُنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلُ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللَّهَ عز وجل لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، إِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٨).

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة البقره (٢٩٨٩)، والدارمي (٢٧١٧).

(٨) أخرجه مرفوعًا: أحمد (١/ ٣٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٦٦)، والحاكم وصححه (١/ ٨٨) و(٤/ ١٨٢)، والبيهقي في الشعب (٦٠٧) و(٥٥٢٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٤٣٧)، وضعفه مرفوعًا الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٣٦٧٢)، وفي سنده الصباح بن محمد ضعيف، ويرفع الموقوفات.
وأخرج موقوفًا: البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)، وأبو نعيم في الحليه (٤/ ١٦٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٣) رقم (٨٩٩٠)، والحاكم وصححه (٢/ ٤٨٥)، وقال المنذري بعد أن عزاه للطبراني: ورواته ثقات (٢/ ٢٨٣)، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٩٠)، ورجح الدارقطني في العلل وقْفه (٨٧٢).

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَأَنْ يَتْرُكَ الرَّجُلُ دِرْهَمًا حَرَامًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ»(٩).

وَصَاحِبُ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ يُبْتَلَى بِأَمْرَاضِ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ وَالْبُخْلِ وَالْأَثَرَةِ وَالْفَرْدِيَّةِ، وَحُبِّ الذَّاتِ، وَالْعُلُوِّ عَلَى النَّاسِ، وَيَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُمْ يُنَافِسُونَهُ فِي المَالِ، وَلَا دِينَ يَرْدَعُهُ عَنْ حَسَدِهِمْ؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ دِينٌ لَرَدَعَهُ عَنِ الْحَرَامِ الَّذِي أَفْسَدَ قَلْبَهُ، وَابْتَنَى بِهِ جَسَدَهُ وَجَسَدَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

وَمَعَ تَمَكُّنِ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ الْخَبِيثَةِ مِنْ قَلْبِهِ يَتَحَوَّلُ مِنْ مُتَمَوِّلٍ لِلْمَالِ، مُنْتَفِعٍ بِهِ، إِلَى خَادِمٍ لَهُ، يَجْمَعُهُ وَيَحْرُسُهُ وَيُنَمِّيهِ، وَيَخَافُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْخَوْفِ، وَلَرُبَّمَا كَانَ حَتْفُهُ بِسَبَبِ مَالِهِ فِي صَفْقَةٍ فَاتَتْهُ، أَوْ خَسَارَةٍ أَصَابَتْهُ. رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا**، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الْأَرْضِ .... ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ المَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَهَذَا وَاقِعٌ مَشَاهَدٌ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِأَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ لَا يَقْنَعُونَ بِقَلِيلِ الْكَسْبِ، وَلَا يَشْبَعُونَ مِنْ كَثِيرِهِ، بَلْ هُمْ فِي تَزَوُّدٍ دَائِمٍ مِنَ الْحَرَامِ، يَجْمَعُونَهُ لِغَيْرِهِمْ، وَيَحْمِلُونَ وِزْرَهُ عَلَى ظُهُورِهِمْ.

وَمِنْ شُؤْمِ المَالِ الْحَرَامِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْكَسَلِ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَاسْتِسْهَالِ الْكَبَائِرِ

---

(٩) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٤٣٠).

(١٠) أخرجه مطولًا من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦٣)، ومسلم في الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢).

وَالمُوبِقَاتِ؛ إِذْ لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَقْذِفُ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ أَنَّ الطَّاعَاتِ لَا تَنْفَعُهُ مَا دَامَ يَكْتَسِبُ الْحَرَامَ، فَرُبَّمَا تَرَكَ الصَّدَقَةَ وَتَقَاعَسَ عَنِ الزَّكَاةِ المَفْرُوضَةِ، بِحُجَّةِ أَنَّ كَسْبَهُ حَرَامٌ فَكَيْفَ يُزَكِّيهِ، فَإِنْ كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ بَعْضِ المُحَرَّمَاتِ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ يُذَكِّرُهُ أَنَّ مَالَهُ حَرَامٌ، فَمَا ضُرُّهُ لَوِ اسْتَمْتَعَ بِهَذَا الْحَرَامِ الَّذِي كَفَّ عَنْهُ؟! وَتُعِينُهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ عَلَى الْحَرَامِ، وَتَدْفَعُهُ الرُّفْقَةُ الْخَبِيثَةُ إِلَيْهِ دَفْعًا. بَلْ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْكَسْبَ الْخَبِيثَ يَنْبَغِي أَلَّا يُنْفَقَ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ الْخَبِيثِ، فَيُحْدِثُ أَعْمَالًا وَمَشَارِيعَ خَبِيثَةً يُنْفِقُ فِيهَا مَالَهُ الْخَبِيثَ، فَيَعُودُ مَوْزُورًا بِالْكَسْبِ الْخَبِيثِ، وَبِالْعَمَلِ الْخَبِيثِ، وَبِالْإِنْفَاقِ عَلَى مَا هُوَ خَبِيثٌ، فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- كَيْفَ جَرَّهُ الْكَسْبُ الْخَبِيثُ إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ، وَلَوْ فَتَّشْتُمْ عَنْ حَالِ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَخَوَّضُونَ فِي المَالِ الْحَرَامِ لَوَجَدْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ. وَانْظُرُوا إِلَى أَحْوَالِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةَ الْفَاضِحَةَ، المُدَمِّرَةَ لِلدِّيَانَةِ وَالْأَخْلَاقِ، وَرَاجِعُوا مَكَاسِبَهُمْ، وَمَصَادِرَ ثَرَوَاتِهِمْ قَبْلَ إِنْشَاءِ فَضَائِيَّاتِهِمْ تَجِدُوا أَنَّهَا كَانَتْ مَكَاسِبَ خَبِيثَةً، أُنْفِقَتْ فِي مَجَالَاتٍ خَبِيثَةٍ.

وَلَرُبَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى صَاحِبِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ ظَلَمَةٌ أَقْوَى مِنْهُ يَبْتَزُّونَهُ فِي تِجَارَتِهِ، وَيُرِيدُونَ غَصْبَ مَالِهِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَوَارِدِهِ، وَلِقَنَاعَتِهِمْ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ، فَلَا يَزَالُ يَدْفَعُهُمْ عَنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ، فَمَا هَنِئَ بِمَالِهِ، وَكَانَ مَا جَمَعَ مِنْ حَرَامٍ سَبَبًا فِي خَوْفِهِ وَشَقَائِهِ، وَغَالِبًا مَا يُسَلِّطُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الظَّالِمِ مَنْ هُوَ أَظْلَمُ مِنْهُ وَأَطْغَى؛ لِيُذِيقَهُ بَعْضَ الْأَلَمِ وَالظُّلْمِ الَّذِي جَرَّعَهُ مَنْ ظَلَمَهُمْ سَابِقًا.

فَإِنْ كَانَ المَالُ الْحَرَامُ الَّذِي اكْتَسَبَهُ مُتَعَلِّقًا بِحُقُوقِ النَّاسِ، وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ، كَالْغِشِّ وَالرِّشْوَةِ وَالسَّرِقَةِ وَالْغَصْبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ وَفَاءَ غُرَمَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مِنْ صَحِيفَةِ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ

مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْمُفْلِسِ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ إِفْلَاسِهِ: «**وَأَكَلَ مَالَ هَذَا**»(١١).

وَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَقْلًا، وَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ أَنْ يُجَانِبَ الْكَسْبَ الْخَبِيثَ، وَقَدْ عَلِمَ مَا فِيهِ مِنْ تَبِعَاتٍ وَآثَامٍ، وَمَا يُخَلِّفُهُ مِنْ آثَارٍ مُهْلِكَةٍ عَلَيْهِ وَعَلَى دِينِهِ وَقَلْبِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَ كَثِيرًا قَبْلَ أَنْ يَدْهَمَهُ الْمَوْتُ، فَيَحْمِلَ عَلَى ظَهْرِهِ ذُنُوبَ مَا جَمَعَ مِنْ حَرَامٍ، وَخَلَّفَهُ لِوَارِثِهِ، وَلَا يَدْرِي أَيَتَذَكَّرُهُ وَرَثَتُهُ فَيَدْعُونَ لَهُ، أَمْ يَشْغَلُهُمْ عَنْهُ مَا وَرَّثَهُ لَهُمْ، فَيَذْرُونَهُ نَسِيًا مَنْسِيًّا، وَقَدْ تَدِبُّ الْخُصُومَةُ بَيْنَهُمْ عَلَى إِرْثِهِمْ، فَيَقْطَعُونَ أَرْحَامَهُمْ، وَيَغْصِبُ بَعْضُهُمْ حُقُوقَ بَعْضٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ عَاجِلِ شُؤْمِ مَا خَلَّفَهُ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مِنْ مَالٍ حَرَامٍ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَالْكِفَايَةَ بِالْحَلَالِ الطَّيِّبِ عَنِ الْحَرَامِ الْخَبِيثِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَ

---

(١١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨١).

الْعِبَادَ أَنْ يَطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ، المُعْطِي المَانِعُ، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ الْحَلَالِ المُبَارَكِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ١٧].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَافِعِ الَّتِي تَدْفَعُ المَرْءَ إِلَى الْكَسْبِ الْخَبِيثِ: خَوْفَهُ عَلَى أَهْلِهِ وَذُرِّيَّتِهِ الْفَقْرَ وَالْعَالَةَ، وَزَعْمَهُ تَأْمِينَ مُسْتَقْبَلِهِمْ، وَمَا عَلِمَ الْمِسْكِينُ أَنَّهُ بِهَذَا الْحَرَامِ يُدَمِّرُ مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَغَالِبًا مَا يَرَى عُقُوقَهُمْ لَهُ رَغْمَ مَا مَتَّعَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ المُتَعِ وَالرَّفَاهِيَةِ بِكَسْبِهِ الْخَبِيثِ، ثُمَّ يَتَحَمَّلُ هُوَ وِزْرَ وَإِثْمَ مَا سَيُخَلِّفُهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَهَذَا وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٨]، فَكَيْفَ يَأْمُلُ فِي بِرِّ وَلَدِهِ -وَالْبِرُّ عَمَلٌ طَيِّبٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ- وَهُوَ قَدْ غَذَّاهُ بِأَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ، وَابْتَنَى جَسَدَهُ بِالمُحَرَّمَاتِ؟!

وَكَثِيرًا مَا يُبَدِّدُ الْوَرَثَةُ مَا خَلَّفَ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مِنْ مَالٍ حَرَامٍ، فَيَعُودُونَ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ؛ لِمَحْقِ بَرَكَةِ مَا خَلَّفَ لَهُمْ بِخُبْثِ مَصْدَرِهِ وَكَسْبِهِ، فَلَا أَمَّنَ لَهُمْ وَارِثُهُمْ مُسْتَقْبَلَهُمْ، وَلَا سَلِمَ هُوَ مِنْ وِزْرِ مَا وَرَّثَ لَهُمْ.

وَعَلَى المُسْلِمِ إِذَا اسْتَهْوَاهُ المَالُ الْحَرَامُ، وَغَرَّتْهُ زَهْرَتُهُ، وَكَانَتْ مَجَالَاتُهُ تَحْتَ يَدِهِ بِوِلَايَةٍ، أَوْ شَرَاكَةٍ، أَوْ وِصَايَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ خَبِيثٌ، وَأَنَّ بَرَكَتَهُ مَمْحُوقَةٌ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ إِلَى الْقِلَّةِ وَالزَّوَالِ، وَأَنَّ السَّلَامَةَ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ يُحِبُّ مِنْ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ إِنَّمَا هِيَ فِي مُجَانَبَتِهِ.

وَلْيَتَيَقَّنْ أَنَّ دُخُولَهُ فِي الْحَرَامِ هُوَ مِنْ أَسْهَلِ مَا يَكُونُ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ وُجُودِ الْمُغْرِيَاتِ، وَغِيَابِ الْعُقُوبَاتِ، وَضَعْفِ الرَّادِعِ، وَلَكِنَّ خُرُوجَهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَإِنْقَاءَ مَالِهِ مِنْهُ أَعْسَرُ مَا يَكُونُ، وَانْظُرُوا إِلَى أَحْوَالِ مَنْ غَرِقُوا فِي الْحَرَامِ تَجِدُوا ذَلِكَ صَحِيحًا.

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُرَاقِبَ اللَّهَ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يُرَاقِبَ الْجِهَاتِ الرِّقَابِيَّةَ، وَأَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ مِنْهُ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِهِ مِنَ الْبَشَرِ مَهْمَا كَانُوا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى مَا يَرْدَعُهُ عَنِ الْكَسْبِ الْحَرَامِ. فَإِنْ وَفَّقَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ إِلَى كَبْحِ جِمَاحِ نَفْسِهِ عَنِ الْخُطْوَةِ الْأُولَى فِي الْكَسْبِ الْخَبِيثِ نُجِّيَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا بَعْدَهَا، وَإِنْ خَطَاهَا أَسْرَعَ إِلَى غَيْرِهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

فَإِنْ رَأَى غَيْرَهُ قَدِ اغْتَنَوْا بِالْغُلُولِ وَالرِّشْوَةِ وَالرِّبَا وَالسُّؤَالِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَبِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الْخَبِيثَةِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ مَسْتُورَ الْحَالِ أَوْ فَقِيرًا، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَأَنَّ الْفَقْرَ فَقْرُ الْقَلْبِ، وَأَنَّ مَنْ يَثْرُونَ بِالطُّرُقِ الْمُحَرَّمَةِ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ فَقْرًا فِي قُلُوبِهِمْ وَإِنْ بَدَا لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ، ثُمَّ لْيَنْظُرْ إِلَى أَحْوَالِ مَنْ هُمْ أَشَدُّ فَقْرًا مِنْهُ؛ لِئَلَّا يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ لْيَسْتَشْعِرِ الْمُسْلِمُ أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ؛ وَلِذَا قُرِنَ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠]، فَلَا يُسَوَّغُ لَهُ أَنْ يُلَطِّخَهُ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

وَلْيُوقِنْ أَنَّ الْخَيْرَ الْعَظِيمَ فِي تَرْكِهِ لِلْخَبِيثِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، مَهْمَا كَانَتِ الْمُغْرِيَاتُ، وَمَهْمَا كَثُرَ الْمُتَسَاقِطُونَ فِيهِ، وَحَرِيٌّ أَنْ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَيْرًا مِمَّا تَرَكَ لِأَجْلِهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئًا لَا يَتْرُكُهُ إِلَّا لِلَّهِ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَلَا تَهَاوَنَ بِهِ فَأَخَذَهُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَنْبَغِي لَهُ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ بِمَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِ»(١٢)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا تَرَكْتُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا أَعْقَبَنِي اللَّهُ ﷻ فِي قَلْبِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ» يَعْنِي: مِنَ الزُّهْدِ(١٣).

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَطَيِّبُوا مَكَاسِبَكُمْ تُقْبَلْ صَدَقَاتُكُمْ، وَتُسْتَجَبْ دَعَوَاتُكُمْ، وَتبرَّكُمْ أَوْلَادُكُمْ، وَتُعَوَّضُوا خَيْرًا مِمَّا تَرَكْتُمْ، وَتَسْتَقِمْ لَكُمْ أُمُورُ دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . . .



---

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (٤٢).

(١٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الورع (٤٣).

٣٠٢- التحذير من المتشابهات

٢٧/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَوْجَدَنَا مِنَ العَدَمِ، وَأَغْدَقَ عَلَيْنَا النِّعَمَ، أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَرَعَ الشَّرَائِعَ، وَحَدَّ الْحُدُودَ، وَأَكْمَلَ الدِّينَ، وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ؛ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا أَنْقَى هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَصْدَقَهُمْ أَلْسُنًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَشَدَّهُمْ وَرَعًا، فَتَرَكُوا المُتَشَابِهَ خَوْفًا مِنَ الحَرَامِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَظِيمٌ، وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ كَبِيرٌ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ: مَا بَيَّنَ لَهُمْ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، وَمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ الَّتِي تُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَوْ تَرَكَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ لَضَلُّوا وَهَلَكُوا، وَشَرَعُوا لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ عَاجِلًا وَآجِلًا؛ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ الكِتَابَ، وَبَيَّنَ فِيهِ لِلأُمَّةِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، قَالَ مُجَاهِدٌ

-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ»[١]، وَوَكَلَ بَيَانَ مَا أَشْكَلَ مِنَ التَّنْزِيلِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]. وَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ الأَمْوَالِ وَالأَبْضَاعِ، خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦]، وَفِي سُورَةِ الأَنْعَامِ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ اللُّحُومِ وَالطَّعَامِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ عَلِيمٍ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وَهَذَا الْبَيَانُ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ هُوَ مِنْ هِدَايَةِ النَّاسِ لِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَصَرْفِهِمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ، إِذَا مَا أَخَذُوا بِهَذِهِ الأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

وَمَا يَبْتَغِيهِ النَّاسُ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ، وَمَلَابِسَ وَمَرَاكِبَ، وَبُيُوعٍ وَمُعَامَلَاتٍ، وَأَنْكِحَةٍ وَعَادَاتٍ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَلَالًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُشْتَبِهًا، وَلَا رَابِعَ لَهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

---

(١) أخرجه الطبري (١٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

لَقَدْ دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ الْعَظِيمُ عَلَى أَنَّ مَنْ جَانَبَ الشُّبُهَاتِ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ وَعِرْضُهُ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِشَأْنِهَا، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ فِيهَا؛ فَهُوَ يَدْفَعُهَا لِمُوَاقَعَةِ الحَرَامِ.

وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جعَلَ بَيْنَ كُلِّ مُتَبَايِنَيْنِ بَرْزَخًا؛ فَجعَلَ الشُّبُهَاتِ بَرْزَخًا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَمَا جَعَلَ المَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ بَرْزَخًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَجَعَلَ المَعَاصِيَ بَرْزَخًا بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَجعَلَ الْأَعْرَافَ بَرْزَخًا بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ[٣].

فَمَنْ وَقَعَ فِي بَرْزَخِ المُتَشَابِهَاتِ جَاوَزَهَا إِلَى الْحَرَامِ، ثُمَّ عَسُرَ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى عَنِ الحَرَامِ، فَضْلًا عَنْ تَوَرُّعِهِ عَنِ المُشْتَبِهَاتِ.

وَلِذَا جَاءَتِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ تُحَذِّرُ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالمُتَشَابِهَاتِ، وَتَحُثُّ عَلَى مُجَانَبَتِهَا؛ صِيَانَةً لِلنَّفْسِ عَنِ التَّمَادِي إِلَى مَا وَرَاءَهَا، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ، مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٤]، وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ حِبَّانَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الحَلَالِ**»[٥].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ[٦].

---

(٣) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥-١٦).

(٤) هذه الرواية من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما للبخاري في البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات (٢٠٥١).

(٥) هذه الرواية من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما لابن حبان (٥٥٦٩).

(٦) أخرجه من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما: الترمذي في صفة القيامة، وصححه (٢٥١٨)، والنسائي في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات (٨/ ٣٢٧)، والدارمي (٢٥٧٤)، وصححه ابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ١٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِثْمُ؟ قَالَ: «**إِذَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ شَيْءٌ فَدَعْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧)، وَمَعْنَاهُ: إِذَا شَكَكْتَ فِي شَيْءٍ فَدَعْهُ.

وَتَرْكُ الْمُسْلِمِ مَا يَشُكُّ فِيهِ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي الْوَرَعِ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ مَرْفُوعًا: «**لَا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ حَذَرًا مِمَّا بِهِ الْبَأْسُ**»(٨).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُلُّ مَا شَكَكْتَ فِيهِ فَالوَرَعُ اجْتِنَابُهُ، ثُمَّ هُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: وَاجِبٍ، وَمُسْتَحَبٍّ، وَمَكْرُوهٍ؛ فَالْوَاجِبُ: اجْتِنَابُ مَا يَسْتَلْزِمُهُ ارْتِكَابُ الْمُحَرَّمِ، وَالمَنْدُوبُ: اجْتِنَابُ مُعَامَلَةِ مَنْ أَكْثَرُ مَالِهِ حَرَامٌ، وَالمَكْرُوهُ: اجْتِنَابُ الرُّخَصِ المَشْرُوعَةِ عَلَى سَبِيلِ التَنَطُّعِ»(٩).

وَرَوَى وَابِصَةُ بْنُ مَعْبَدٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَلَّا أَدَعَ شَيْئًا مِنَ البِرِّ وَالإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَإِذَا عِنْدَهُ جَمْعٌ، فَذَهَبْتُ أَتَخَطَّى النَّاسَ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ، فَقُلْتُ: أَنَا وَابِصَةُ، دَعُونِي أَدْنُو مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: **ادْنُ يَا وَابِصَةُ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ**. فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى مَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ، فَقَالَ: **يَا وَابِصَةُ، أُخْبِرُكَ مَا جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْهُ**؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْبِرْنِي، قَالَ: **جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ**. قُلْتُ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي،

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٠٢)، والطبراني في الأوسط (٣٠١٧)، وصححه ابن حبان (١٧٦)، والحاكم ووافقه الذهبي (١/ ١٤).

(٨) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: حسن غريب (٢٤٥١)، وابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٥)، وعبد بن حميد (٤٨٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٦٣٢٠).

(٩) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٩٣).

وَيَقُولُ: **يَا وَابِصَةُ، اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**»(١٠).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «**الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنَ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ**»(١١).

وَعَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ مِنِ اجْتِنَابِ الْمُتَشَابِهَاتِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ، سَارَ خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَفْضَلُهَا رَسُولُنَا ﷺ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَّكِلْ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ حَاذَرَ الْمُشْتَبِهَاتِ مُحَاذَرَةَ الْحَرَامِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِتَمْرَةٍ بِالطَّرِيقِ،

---

(١٠) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٨)، وابن أبي شيبة في مسنده (٧٥٣)، والدارمي (٢٥٣٣)، وأبو يعلى (١٥٨٦)، والطحاوي في شرح المشكل (٢١٣٩)، وحسنه المنذري في الترغيب (٢٦٨٣)، والنووي في الأذكار (١٢٤٩)، وفي المجموع (٩/ ١٤١)، والألباني في صحيح الترغيب (١٧٣٤).

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩)، رقم (٥٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠)، وجود إسناده المنذري في الترغيب (٢٦٨٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٨١).

(١٢) أخرجه البخاري في اللقطة، باب إذا وَجَدَ تمرةً في الطريق (٢٤٣١)، ومسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وعلى آله -وهم بنو هاشم وبنو المطلب- دون غيرهم (١٠٧٠).

فَقَالَ: لَوْلَا أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَلَوْ وَقَعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلامُ فِي مُشْتَبِهٍ سَهْوًا أَوْ نِسْيَانًا نَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ؛ كَمَا رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ تَحْتَ جَنْبِهِ تَمْرَةً مِنَ اللَّيْلِ، فَأَكَلَهَا، فَلَمْ يَنَمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ بَعْضُ نِسَائِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرِقْتَ البَارِحَةَ! قَالَ: **إِنِّي وَجَدْتُ تَحْتَ جَنْبِي تَمْرَةً فَأَكَلْتُهَا، وَكَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ**»(١٤).

وَلَقَدْ تَأَسَّى بِهِ ﷺ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ إِذْ كَانُوا أَحْوَطَ النَّاسِ لِدِينِهِمْ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْمُشْتَبِهَاتِ، حَتَّى جَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا كَثِيرًا مِنَ الْمُبَاحَاتِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ ﷺ: «كُنَّا نَدَعُ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْحَلَالِ؛ مَخَافَةَ أَنْ نَقَعَ فِي بَابٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحَرَامِ»(١٥).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ: «إِنَّ إِتْمَامَ التَّقْوَى أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ الْعَبْدُ فِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، حَتَّى يَتْرُكَ بَعْضَ مَا يَرَى أَنَّهُ حَلَالٌ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، يَكُونُ حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَرَامِ»(١٦).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أَدَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ لَا أَخْرِقُهَا»(١٧).

---

(١٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وعلى آله -وهم بنو هاشم وبنو المطلب- دون غيرهم (١٠٧١).

(١٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد، ورجاله موثقون (٣/ ٨٨)، وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٩).

(١٥) ذكره أبو القاسم القشيري عن أبي بكر الصديق ﷺ في الرسالة القشيرية (١٤٦) وذكره عن بعض الصحابة الغزالي في الإحياء (٣/ ٢٦٨)، وابن القيم في المدارج (٢/ ٢٢).

(١٦) الورع للمروزي (١٧١).

(١٧) الورع للمروزي (٥٠)، وجامع العلوم والحكم (٧٤).

هَكَذَا كَانَ الْقَوْمُ ﷺ وَبِنَحْوِ هَذَا سَبَقُوا غَيْرَهُمْ، وَشَرُفُوا بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَرَعَنَا مِثْلَ وَرَعِهِمْ، كَمَا أَسْأَلُهُ ﷻ أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا؛ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: خَلَفَ الصَّحَابَةَ ﷺ رِجَالٌ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ؛ فَسَارُوا عَلَى هَذِهِ الْجَادَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَعَالَجُوا المُشْتَبِهَ بِتَرْكِهِ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِذَا شَكَكْتَ فِي شَيْءٍ فَاتْرُكْهُ»(١٨)، وَاجْتَمَعَ حَسَّانُ مَرَّةً وَيُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ -عَلَيْهِمَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- فَقَالَ يُونُسُ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْوَرَعِ، فَقَالَ حَسَّانُ: مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ حَسَّانُ: تَرَكْتُ مَا يَرِيبُنِي إِلَى مَا لَا يَرِيبُنِي؛ فَاسْتَرَحْتُ»(١٩)،

(١٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٦).

(١٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١١٦).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا رَأَيْتُ أَسْهَلَ مِنَ الْوَرَعِ، مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ فَاتْرُكْهُ»(٢٠).

وَسُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ الشُّبْهَةِ، فَقَالَ: «هُوَ الشَّيْءُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ . . . وَقَالَ: آمُرُ الرَّجُلَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَهَا»(٢١).

وَقَدْ تَوَقَّفَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي طَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ إِذَا أَمَرَا بِالْمُشْتَبِهَاتِ مَعَ مَا لِلْوَالِدَيْنِ مِنْ عَظِيمِ الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَزِيُّ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: هَلْ لِلْوَالِدَيْنِ طَاعَةٌ فِي الشُّبْهَةِ؟ فَقَالَ: فِي مِثْلِ الْأَكْلِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: مَا أُحِبُّ أَنْ يُقِيمَ مَعَهُمَا عَلَيْهَا، وَمَا أُحِبُّ أَنْ يَعْصِيَهُمَا، يُدَارِيهِمَا، قَالَ: وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُقِيمَ عَلَى الشُّبْهَةِ مَعَ وَالِدَيْهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ الشُّبْهَةَ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»، وَلَكِنْ يُدَارِي بِالشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ، فَأَمَّا أَنْ يُقِيمَ مَعَهُمَا عَلَيْهَا فَلَا»(٢٢).

إِذَا عُلِمَ ذَلِكَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- فَأَيْنَ هُوَ وَاقِعُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُهُمْ مِنَ التَّوَقِّي وَالِاحْتِيَاطِ، وَمُجَانَبَةِ الشُّبُهَاتِ خَوْفًا مِنَ الْحَرَامِ؟

إِنَّهُ وَاقِعٌ يَنْدَى لَهُ الجَبِينُ؛ إِذِ اسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَى بِأَدْنَى الْحِيَلِ.

وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ فَقَلِيلٌ ثُمَّ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهَا، وَخَاصَّةً فِي مَجَالَاتِ الِاقْتِصَادِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَالْبَيْعِ وَالشَّرَاءِ، تَسِيرُ بِهِمُ الْمُشْتَبِهَاتُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، حَتَّى تُوقِعَهُمْ فِي الْحَرَامِ الصُّرَاحِ، تَغْزُو الْبِلَادَ مُعَامَلَاتٌ مُحَرَّمَةٌ مِنَ

---

(٢٠) الرسالة القشيرية (١٤٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٢).
(٢١) الورع للمروزي (٤٧).
(٢٢) الورع للمروزي (٤٨).

الشَّرْقِ أَوْ مِنَ الْغَرْبِ؛ فَيَنْبَرِي لَهَا جَمَاعَةٌ يَتَلَقَّفُونَهَا، وَيُجْرُونَ عَلَيْهَا عَمَلِيَّاتٍ تَجْمِيلِيَّةً؛ لِإِخْرَاجِهَا مِنَ الْحَرَامِ الْوَاضِحِ إِلَى مَا هُوَ دُونَهُ بِحِيَلٍ وَشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ، تُكْتَبُ وَلَا يُعْمَلُ بِأَكْثَرِهَا، فِي غَفْلَةٍ أَوْ تَغَافُلٍ عَنِ الأُصُولِ الْكَبِيرَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ؛ مِنْ نَحْوِ: النَّهْيِ عَنِ الْغَبْنِ، وَالْغَرَرِ، وَالْغِشِّ، وَالظُّلْمِ، وَوُجُوبِ رَفْعِ الضَّرَرِ، وَعَدَمِ جَوَازِ اسْتِغْلَالِ حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ لِإِفْقَارِهِ وَإِغْرَاقِهِ فِي دُيُونٍ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنْهَا.

وَمَعَ كُلِّ مَفَاسِدِ هَذِهِ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الْحَرَامِ الْوَاضِحِ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ؛ فَإِنَّهَا قَدْ قَضَتْ قَضَاءً تَامًّا عَلَى الْقَرْضِ الْحَسَنِ الَّذِي رَتَّبَ عَلَيْهِ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ أُجُورًا عَظِيمَةً.

إِنَّ الصُّورَةَ الْجَدِيدَةَ مِنْ صُوَرِ الْبَيْعِ أَوِ الشَّرَاكَةِ أَوِ الاكْتِتَابِ، يُدْعَى النَّاسُ إِلَيْهَا؛ فَيُفْتِي بِحِلِّهَا عَشَرَةٌ، وَيُفْتِي وَاحِدٌ بِحُرْمَتِهَا، فَقَلَّ أَنْ تَجِدَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَوَرَّعُ عَنْهَا خَوْفًا مِنَ الشُّبْهَةِ، ثُمَّ تَأْتِي أُخْرَى، فَيُفْتِي نِصْفٌ بِحِلِّهَا وَنِصْفٌ بِتَحْرِيمِهَا؛ فَتَرَى أَكْثَرَ النَّاسِ يَأْخُذُ بِأَقْوَالِ مَنْ أَحَلُّوهَا، وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى مَنْ حَرَّمُوهَا، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ، ثُمَّ تَأْتِي ثَالِثَةٌ فَيُفْتِي عَشَرَةٌ بِحُرْمَتِهَا، وَيُفْتِي وَاحِدٌ بِحِلِّهَا، فَتَجِدُ أَقْوَامًا يُسَارِعُونَ فِيهَا اعْتِمَادًا عَلَى قَوْلِهِ، وَلَوْ كَانَ ضَعِيفًا! ثُمَّ تَأْتِي رَابِعَةٌ فَلَا يُفْتِي أَحَدٌ بِحِلِّهَا، فَيَقُولُ مَنْ وَلَغُوا فِيمَا قَبْلَهَا: قَدْ أَخَذْنَا بِالسَّابِقَةِ، وَلَمْ يُفْتِنَا فِيهَا إِلَّا وَاحِدٌ مُقَابِلَ عَشَرَةٍ، فَمَا قِيمَةُ هَذَا الْوَاحِدِ إِنْ لَمْ يُوجَدْ فِي تِلْكَ؟ فَيَقَعُونَ فِي الْحَرَامِ الْوَاضِحِ، بَعْدَ أَنْ تَدَرَّجُوا فِي دَرَكَاتِ الْمُشْتَبِهَاتِ، مِنَ الْمُشْتَبِهِ الضَّعِيفِ إِلَى الْمُتَوَسِّطِ إِلَى الْمُشْتَبِهِ الْقَوِيِّ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى الْحَرَامِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنِ الأُولَى؛ لَمَا وَقَعُوا فِي الثَّانِيَةِ الَّتِي قَادَتْهُمْ إِلَى الثَّالِثَةِ

وَالرَّابِعَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ الَّتِي حَذَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُقَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِلَا عِلْمٍ فِي المُعَامَلَاتِ المُعَاصِرَةِ! وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فِيهَا! نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الهِدَايَةَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٠٣- الفساد المالي والإداري (١) التحذير من الرشوة

١٠/٥/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ غَمَرَنَا بِرُّهُ وَإِنْعَامُهُ، وَتَتَابَعَ عَلَيْنَا فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ، خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا، وَهَدَانَا وَعَلَّمَنَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَانَا، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَمَرَنَا بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَانَا عَنِ المُنْكَرِ، وَأَحَلَّ لَنَا الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الخَبَائِثَ، وَوَضَعَ عَنَّا الآصَارَ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَن قَبْلَنَا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: حِينَ يَضْعُفُ الدِّينُ فِي النَّاسِ تَفْسُدُ أَخْلَاقُهُمْ، وَتَقِلُّ أَمَانَتُهُمْ، فَتُرْفَعُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، وَتَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَيَتَسَلَّطُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالظُّلْمِ وَالبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، فَتَحُلُّ فِيهِمُ الأَثَرَةُ مَحَلَّ الإِيثَارِ، وَيَتَخَلَّقُونَ بِحُبِّ الذَّاتِ بَدَلَ المُوَاسَاةِ وَالإِحْسَانِ، وَالسَّاعَةُ لَا تَقُومُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، وَمِنْ عَلَامَاتِ قُرْبِهَا فَسَادُ الزَّمَانِ، وَالزَّمَانُ يَفْسُدُ إِذَا رُفِعَتِ الأَمَانَةُ.

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: **إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١).

وَمِنْ أَبْيَنِ صُوَرِ ارْتِفَاعِ الأَمَانَةِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ انْتِشَارُ الرِّشْوَةِ فِيهَا؛ حَتَّى لَا تَصِلَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا بِهَا، وَهِيَ خُلُقٌ ذَمِيمٌ، وَإِثْمٌ مُبِينٌ، يَحْذَرُهَا الشُّرَفَاءُ الْكُرَمَاءُ، وَلَا يَرْتَضِيهَا لِنَفْسِهِ إِلَّا الأَرَاذِلُ الْوُضَعَاءُ.

تَخَلَّقَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرُهْبَانِ النَّصَارَى، فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى صَنِيعَهُمْ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وَسَمَّى مَا أَكَلُوهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سُحْتًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ(٢).

إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمَّا ذَمَّ كَفَرَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ نَجِسَةٌ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالخِزْيِ فِي الدُّنْيَا، وَالعَذَابِ الأَلِيمِ فِي الآخِرَةِ؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في العلم، باب فضل العلم (٥٩).
(٢) أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ١٤١).
وله شاهد عن جابر ﵁ عند: الحاكم أيضًا (٤/ ١٤١).
ومن حديث ابن عباس ﵄ عند: الطبراني في الكبير (١١/ ١١٤) رقم (١١٢١٦)، والأوسط (٢٩٤٤)، والصغير (٢٢٤).
ومن حديث كعب بن عجرة ﵁ عند: الطبراني (١٩/ ١٤١) رقم (٣٠٩)، وقد استقصى طرقه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ١٤٩-١٥٠)

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «السُّحْتُ: الرِّشَا»(٣). وقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ الْحَاكِمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا أَتَاهُ أَحَدُهُمْ بِرِشْوَةٍ جَعَلَهَا فِي كُمِّهِ فَأَرَاهَا إِيَّاهُ وتَكَلَّمَ بِحَاجَتِهِ، فَيَسْمَعُ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَى خَصْمِهِ، فَيَأْكُلُ الرِّشْوَةَ، وَيَسْمَعُ الكَذِبَ»(٤).

بَلْ إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَسَاغُوا الرِّشْوَةَ، وَأَضْحَتْ لَهُمْ خُلُقًا؛ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ وَأَنْكَرُوهُ وَزَوَّرُوهُ، وَأَضَلُّوا أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْعَامَّةِ وَالرَّعَاعِ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُمْ كَتَمُوا النَّاسَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنُبُوَّتَهُ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ؛ بِرِشْوَةٍ أُعْطُوهَا فَأَخَذُوهَا(٥).

إِنَّهُمْ -بِسَبَبِ حُبِّ الدُّنْيَا وَالمَالِ، وَقَبُولِ الرِّشْوَةِ لِإِخْفَاءِ الحَقِّ وَإِظْهَارِ البَاطِلِ- حَرَّفُوا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَغَيَّرُوا مَعَانِيَهَا؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَ مَنْ يَرْشُونَهُمْ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، فكَانَ وَعِيدُهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا شَدِيدًا، وَعَذَابُهُمْ أَلِيمًا، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وَكَانَ الثَّمَنُ الَّذِي بَاعُوا بِهِ الحَقَّ، وَنَصَرُوا الْبَاطِلَ هُوَ الرِّشْوَةُ الَّتِي ذَمَّهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَذَمَّ أَهْلَهَا.

وَكَانَ مِنْ عَاجِلِ عُقُوبَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَهُمْ مِنْ

---

(٣) أخرجه أبو بكر الضبي في أخبار القضاة (١/ ٥١).
(٤) تفسير البغوي (٢/ ٣٩).
(٥) تفسير الطبري (٢/ ٨٩).

طَيِّبَاتٍ فِي الدُّنْيَا، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

وَظَلَّ هَذَا الْخُلُقُ الدَّنِيءُ مُلَازِمًا لِلْيَهُودِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذُوا خَيْبَرَ مِنْهُمْ، وَعَامَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا، فَحَاوَلُوا رِشْوَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه لَمَّا جَاءَ يَخْرُصُ تَمْرَ خَيْبَرَ لِإِخْرَاجِ زَكَاتِهِ كَمَا رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ يَخْرُصُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُودِ خَيْبَرَ، قَالَ: فَجَمَعُوا لَهُ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ نِسَائِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ فَخَفِّفْ عَنَّا، وَتَجَاوَزْ فِي الْقَسْمِ، فقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَمِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَمَا ذَلِكَ بِحَامِلِي عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، فَأَمَّا مَا عَرَضْتُمْ مِنَ الرِّشْوَةِ فَإِنَّهَا سُحْتٌ وَإِنَّا لَا نَأْكُلُهَا، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»(٦).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا أَخَذَهُ الْحَاكِمُ وَالشَّاهِدُ عَلَى الْحُكْمِ بِالحَقِّ أَوِ الشَّهَادَةِ بِالحَقِّ سُحْتٌ، وَكُلَّ رِشْوَةٍ

---

(٦) أخرجه مالك مرسلًا (٢/ ٧٠٤)، وعنه البيهقي (٤/ ١٢٢).

وأخرجه من حديث الزهري: عبد الرزاق (٧٢٠٢) قال ابن عبد البر: «هذا الحديث مرسل في جميع الموطآت عن مالك بهذا ... وقد يستند معنى هذا الحديث من رواية ابن عباس وجابر وغيرهما عن النبي ﷺ، وسماع سليمان بن يسار من ابن عباس صحيح» التمهيد (٩/ ١٣٩).

وجاء إرسال ابن رواحة إلى اليهود لخرص نخلهم من حديث ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عند: عبد الرزاق (٧٢١٩)، وأحمد (٦/ ١٦٣)، وأبي داود في البيوع، باب في الخرص (٣٤١٣)، وابن خزيمة (٢٣١٥)، وهو منقطع؛ فابن جريج لم يسمع من الزهري.

سُحْتٌ، وَكُلَّ سُحْتٍ حَرَامٌ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَكْلُهُ، وَهَذَا مَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ . . . ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّحْتَ وَهُوَ الرِّشْوَةُ عِنْدُ الْيَهُودِ حَرَامٌ وَلَا يَحِلُّ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ؟ وَلَوْلَا أَنَّ السُّحْتَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِمْ مَا عَيَّرَهُمُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِأَكْلِهِ، فَالسُّحْتُ مُحَرَّمٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ، آمِينَ» انْتَهَى(٧).

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّشْوَةُ عَلَى تَبْدِيلِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى خَصْلَةً نَشَأَتْ عِنْدَ الْيَهُودِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلَعْنَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ عَنْهُمْ؛ كَانَ مَنْ تَخَلَّقَ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُتَّصِفًا بِأَخَسِّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ، مُسْتَحِقًّا لِلَعْنَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَضَبِهِ وَعَذَابِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَإِذَا ارْتَشَى وَتَبَرْطَلَ عَلَى تَعْطِيلِ حَدٍّ ضَعُفَتْ نَفْسُهُ أَنْ يُقِيمَ حَدًّا آخَرَ، وَصَارَ مِنْ جِنْسِ الْيَهُودِ الْمَلْعُونِينَ، وَأَصْلُ الْبَرْطِيلِ هُوَ الْحَجَرُ الْمُسْتَطِيلُ سُمِّيَتْ بِهِ الرِّشْوَةُ؛ لِأَنَّهَا تُلْقِمُ الْمُرْتَشِيَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِالْحَقِّ كَمَا يُلْقِمُهُ الْحَجَرُ الطَّوِيلُ؛ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «إِذَا دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ مِنَ الْبَابِ خَرَجَتِ الْأَمَانَةُ مِنَ الْكُوَّةِ»(٨)». وَمِنْ كَلَامِهِمْ: الْبَرَاطِيلُ تَنْصُرُ

(٧) التمهيد (٩/ ١٤٠-١٤١).

(٨) رواه عن الحسن البصري: الدولابي في الكنى والأسماء (٧٨١)، وابن المقرئ في معجمه (٢/ ٨٣).

وجاء مرفوعًا من حديث أبي هريرة ﷺ عند: أبي يعلى الخليلي القزويني في الإرشاد، وقال: لم نكتبه إلا من هذا الطريق، ولا يعرف بالعراق من حديث الحجاج (٣/ ٩٤٥).

قلت: يريد الحجاج بن أرطاة النخعي، وهو ضعيف، ينظر الكامل لابن عدي (٤٠٦).

الأَبَاطِيلَ(٩). وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: «الرِّشْوَةُ تُسَفِّهُ الْحَلِيمَ، وَتُعْمِي عَيْنَ الْحَكِيمِ»(١٠).

وَقَدْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُتَخَلِّقِينَ بِقَبُولِ الرِّشْوَةِ أَخْذًا أَوْ عَطَاءً أَوْ تَوَسُّطًا؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَقَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ والمُرْتَشِيَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١١).

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّشْوَةُ هِيَ كُلُّ مَالٍ دُفِعَ لِيَبْتَاعَ بِهِ مِنْ ذِي جَاهٍ عَوْنًا عَلَى مَا لَا يَجُوزُ، والمُرْتَشِي هُوَ قَابِضُهُ، وَالرَّاشِي هُوَ دَافِعُهُ، وَالرَّائِشُ يُوَسِّطُ بَيْنَهُمَا»(١٢).

وَمَهْمَا تَعَدَّدَتْ أَسَالِيبُ الرِّشْوَةِ وَسُمِّيَتْ بِغَيْرِ اسْمِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَتِهَا شَيْئًا؛ فَهِيَ سُحْتٌ يَبْنِي بِهَا صَاحِبُهَا جَسَدَهُ وَأَجْسَادَ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَأَوْلادِهِ، وَكُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ.

إِنَّ الرِّشْوَةَ رِشْوَةٌ وَلَوْ سُمِّيَتْ هِدَيَّةً أَوْ مُكَافَأَةً أَوْ حُلْوَانًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَوْ قُدِّمَتْ مَالًا أَوْ مَتَاعًا أَوْ حَتَّى قَضَاءَ حَاجَةٍ لَا تَحِلُّ لِصَاحِبِهَا مُقَابِلَ أَنْ يَقْضِيَ لَهُ حَاجَتَهُ، فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ مُسَمَّى الرِّشْوَةِ، وَلَا يَرْفَعُ الإِثْمَ الوَاقِعَ بِسَبَبِهَا، وَظَنُّ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الأَمْوَالِ ظَنٌّ خَاطِئٌ أَدَّى إِلَى

---

(٩) ينظر: ربيع الأبرار (١/ ٤٨٣) قال الفيومي: «كأنه مأخوذ من (البرطيل) الذي هو المعول؛ لأنه يستخرج به ما استتر، وفتح الباء عامي لفقد فعليل بالفتح» المصباح المنير (١/ ٤٢).

(١٠) المغني لابن قدامة (١١/ ٤٣٧).

(١١) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب كراهية الرشوة (٣٥٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، وقال: حسن صحيح (١٣٣٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة (٢٣١٣)، وصححه ابن حبان (٥٠٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٠٣).

(١٢) عارضة الأحوذي (٦/ ٨٠).

احْتِيَالِهِمْ عَلَى الشَّرْعِ بِطُرُقٍ شَيْطَانِيَّةٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ إِثْمِ الرِّشْوَةِ؛ لِيَقَعُوا فِيهَا بِطُرُقٍ أُخْرَى، مَعَ إِثْمِ احْتِيَالِهِمْ عَلَى الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَأَمَّا اسْتِحْلَالُ السُّحْتِ بِاسْمِ الهَدِيَّةِ، وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ؛ كَرِشْوَةِ الْحَاكِمِ وَالْوَالِي وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ المُرْتَشِيَ مَلْعُونٌ هُوَ وَالرَّاشِي؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ المَفْسَدَةِ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّهُمَا لَا يَخْرُجَانِ عَنْ حَقِيقَةِ الرِّشْوَةِ بِمُجَرَّدِ اسْمِ الْهَدِيَّةِ، وَقَدْ عَلِمْنَا وَعَلِمَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَمَنْ لَهُ اطِّلَاعٌ عَلَى الْحِيَلِ أَنَّهَا رِشْوَةٌ»(١٣).

وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ الرِّشْوَةَ هِيَ مَا يُعْطِيهِ الشَّخْصُ لِلْحَاكِمِ وَغَيْرِهِ لِيَحْكُمَ لَهُ أَوْ يَحْمِلَهُ عَلَى مَا يُرِيدُ(١٤).

وَوَاضِحٌ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّ الرِّشْوَةَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَالًا أَوْ مَنْفَعَةً يُمَكِّنُهُ مِنْهَا، أَوْ يَقْضِيهَا لَهُ، وَالمُرَادُ بِالْحَاكِمِ: الْقَاضِي وَغَيْرُهُ، وَكُلُّ مَنْ يُرْجَى عِنْدَهُ قَضَاءُ مَصْلَحَةِ الرَّاشِي، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ وُلَاةِ الدَّوْلَةِ وَمُوَظَّفِيهَا، أَوِ الْقَائِمِينَ بِأَعْمَالٍ خَاصَّةٍ كَوُكَلَاءِ التُّجَّارِ وَالشَّرِكَاتِ وَأَصْحَابِ الْعَقَارَاتِ وَنَحْوِهِمْ، وَالمُرَادُ بِالْحُكْمِ لِلرَّاشِي وَحَمْلِ المُرْتَشِي عَلَى مَا يُرِيدُهُ الرَّاشِي: تَحْقِيقُ رَغْبَةِ الرَّاشِي وَمَقْصِدِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا(١٥).

وَلَا يُسْتَثْنَى مِنَ التَّحْرِيمِ إِلَّا مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ مَظْلِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ رَفْعَهَا إِلَّا بِالرِّشْوَةِ، أَوْ مُنِعَ مِنْ حَقِّهِ الثَّابِتِ لَهُ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَا؛ فَهَذَا قَدْ رُخِّصَ لَهُ فِي دَفْعِهَا، وَالمُصَانَعَةِ بِهَا؛ لِأَخْذِ حَقِّهِ، وَرَفْعِ الضَّرَرِ عَنْ نَفْسِهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَنْفِذَ الطُّرُقَ المَشْرُوعَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَالإِثْمُ فِي هَذِهِ الحَالِ عَلَى آخِذِ الرِّشْوَةِ دُونَ دَافِعِهَا.

---

(١٣) إعلام الموقعين (٣/ ١١٦).

(١٤) المصباح المنير (١/ ٢٢٨)، والبحر الرائق (٦/ ٢٨٥)، وتاج العروس (٣٨/ ١٥٣).

(١٥) المغني (١١/ ٤٣٧).

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَأَمَّا الرَّاشِي فَإِنْ رَشَاهُ لِيَحْكُمَ لَهُ بِبَاطِلٍ، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ حَقًّا فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَإِنْ رَشَاهُ لِيَدْفَعَ ظُلْمَهُ، وَيَجْزِيَهُ عَلَى وَاجِبِهِ، فَقَدْ قَالَ عَطَاءٌ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالحَسَنُ: لَا بَأْسَ أَنْ يُصَانِعَ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ: مَا رَأَيْنَا فِي زَمَنِ زِيَادٍ أَنْفَعَ لَنَا مِنَ الرِّشَا! وَلِأَنَّهُ يَسْتَنْقِذُ مَالَهُ كَمَا يَسْتَنْقِذُ الرَّجُلُ أَسِيرَهُ!»(١٦).

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرَّاشِي يَقْصِدُ بِهَا التَّوَصُّلَ إِلَى إِبْطَالِ حَقٍّ أَوْ تَحْقِيقِ بَاطِلٍ، فَهَذَا الرَّاشِي المَلْعُونُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنْ رَشَا لِدَفْعِ الظُّلْمِ اخْتُصَّ المُرْتَشِي وَحْدَهُ بِاللَّعْنَةِ»(١٧).

عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الصَّبْرَ وَاحْتِسَابَ الْحَقِّ الضَّائِعِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ مِنَ المُصَانَعَةِ بِالرِّشْوَةِ لِاسْتِخْرَاجِ حَقِّهِ، إِلَّا إِذَا تَرَتَّبَ عَلَى ضَيَاعِ ذَلِكَ الحَقِّ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ تَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ.

---

(١٦) المغني (١١/ ٤٣٧). وعقد ابن أبي شيبة بابًا في المصنف بعنوان: الرجل يصانع عن نفسه، وذكر فيه من الآثار:

١- عن جابر بن زيد قال: لم نجد في ذلك الزمان لنا أشياء أنفع لنا من الرشاء.

٢- وعن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود لما أتى أرض الحبشة أُخذ في شيء فأعطى دينارين حتى خلي سبيله، وقد حرف هذا الأثر إلى (أخذ سبيله) في طبعة مكتبة الرشد، تحقيق كمال الحوت (٢١٩١١)، وهي طبعة سقيمة جدًّا كثيرة التحريف والسقط. وهو على الصواب في طبعة محمد عوامة (٢٢٤٢٣).

٣- وعن مجاهد قال: اجعل مالك جنة دون دينك، ولا تجعل دينك جنة دون مالك.

٤- وعن عطاء وعمرو بن دينار وجابر بن زيد والشعبي أنهم قالوا: لا بأس أن يصانع الرجل إلى نفسه وماله إذا خاف الظلم، وعن الحسن مثله.

٥- وعن الحسن أنه كان لا يرى بأسًا أن يعطي الرجل من ماله ما يصون به عرضه. ينظر: المصنف (٦/ ٥٥٧-٥٥٨) طبعة عوامة.

(١٧) الروح (٢٤٠).

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَيْضًا: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ الحَقَّ فِي الشَّيْءِ، فَيُصَانِعُ عَلَى نَيْلِهِ بِالرِّشَا، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ؛ كَمَنْ يَدْفَعُ الرِّشْوَةَ لِلْوُصُولِ إِلَى الهِبَاتِ وَالْعَطَايَا الَّتِي يَبْذُلُهَا السَّلَاطِينُ وَالأُمَرَاءُ وَالأَغْنِيَاءُ، فَهَذِهِ العَطَايَا مُبَاحَةٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ مُغْتَصَبَةً، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا بِالرِّشْوَةِ؛ لِأَنَّهُ وَغَيْرَهُ فِيهَا سَوَاءٌ، وَلَيْسَتْ حَقًّا ثَابِتًا لَهُ مُنِعَ مِنْهُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا؛ فَكَمْ أَرْدَتِ الْفِتْنَةُ بِهَا مِنْ أَقْوَامٍ، اسْتَحَلُّوا مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ، وَحَمَلُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ أَوْزَارَهُمْ وَأَوْزَارَ غَيْرِهِمْ.

حَمَانَا اللَّهُ وَالمُسْلِمِينَ مِنَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتِهَا، وَرَزَقَنَا الْقَنَاعَةَ بِمَا رَزَقَنَا، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِغِنَى النُّفُوسِ، وَصَلَاحِ الْقُلُوبِ، إِنَّهُ خَيْرُ مَسْؤُولٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ وَمَا يُقَرِّبُ

مِنْهَا، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِلرِّشْوَةِ آثَارٌ سَيِّئَةٌ عَلَى الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ، فَهِيَ سَبَبٌ لِفَسَادِ الأَخْلَاقِ، وَانْحِطَاطِ الهِمَمِ، وَسُفُولِ الأُمَمِ؛ لَا يَرْضَاهَا كَسْبًا لَهُ إِلَّا مَنْ ضَعُفَتْ نَفْسُهُ، وَرَقَّ دِينُهُ، وَلَا يَتَخَلَّقُهَا إِلَّا مَنْ ذَهَبَتْ أَمَانَتُهُ، وَظَهَرَتْ خِيَانَتُهُ، وَتَقَاصَرَتْ عَنِ الْكَسْبِ الْحَلَالِ هِمَّتُهُ؛ فَأَضْحَى دَنِيءَ النَّفْسِ، يُرْضِي شَهْوَتَهُ بِبَذْلِ دِينِهِ، وَيُشْبِعُ طَمَعَهُ بِتَعْطِيلِ مَصَالِحِ إِخْوَانِهِ، وَلَنْ يَشْبَعَ وَلَوْ حَازَ الدُّنْيَا كُلَّهَا؛ إِذْ مُشْكِلَتُهُ فِي فَقْرِ قَلْبِهِ، لَا فِي قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ.

إِنَّ الرِّشْوَةَ سَبَبٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَسْتَوْلِي الرَّاشِي عَلَى حُقُوقِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ دَفَعَ لِلْمُرْتَشِي، وَيُمْنَعُ صَاحِبُ الحَقِّ حَقَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْفَعْ لِلْمُرْتَشِي.

وَاللهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا يَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ، فَأَخَذُوا الرِّشْوَةَ فِي الحُكْمِ، وَجَاوَزُوا الحُدُودَ؛ أَلْقَى اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، فقَالَ ﷻ فِي الْيَهُودِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقَالَ فِي النَّصَارَى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤]، وَهَكَذَا الْمُسْلِمُونَ إِنْ تَعَامَلُوا بِالرِّشْوَةِ، وَلَمْ يُنْكِرُوهَا وَيُكَافِحُوهَا؛ حَرِيٌّ أَنْ تُلْقَى بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَحِينَهَا لَا يَأْمَنُ وَاحِدُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا مَالِهِ وَلَا وَلَدِهِ.

وَالرِّشْوَةُ سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ عَلَى مَنْ تَعَامَلَ بِهَا؛ لِأَنَّهَا ظُلْمٌ وَبَغْيٌ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٨).

---

(١٨) أخرجه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أبو داود في الأدب، باب النهي عن البغي (٤٩٠٢)، =

وَمَا دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ فِي شَيْءٍ إلاَّ أَفْسَدَتْهُ، وَلَا فِي بِلَادٍ إِلَّا دَمَّرَتْهَا، وَلَا فِي أُمَّةٍ إِلَّا أَهْلَكَتْهَا؛ فَإِنْ دَخَلَتْ فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيم، وَغَزَتِ المَدَارِسَ وَالْجَامِعَاتِ؛ خَرَّجَتْ طُلَّابًا يَمْلِكُونَ أعلَى المُؤَهِّلَاتِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا، فَوُكِلَتْ إِلَيْهِمُ المَهَامُّ الْعَظِيمَةُ، وَأُسْنِدَتْ إِلَيْهِمُ المَسْؤُولِيَّاتُ الْكَبِيرَةُ، وَعُلِّقَتْ بِهِمْ مَصَالِحُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ؛ فَأَضَاعُوهَا بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ، وهَذَا مِنْ إِسْنَادِ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ المُؤْذِنِ بِقُرْبِ السَّاعَةِ.

وَإِنْ كَانَتِ الرِّشْوَةُ فِي الْبِنَاءِ وَالتَّعْمِيرِ؛ كَانَ الْغِشُّ فِي المَسَاكِنِ وَالْبِنَايَاتِ، وَحِينَئِذٍ لَا يَأْمَنُ النَّاسُ أَنْ تَخِرَّ بُيُوتُهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، وَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ.

وَإِنْ دَخَلَتِ الرِّشْوَةُ مَجَالَاتِ الطِّبِّ وَالصِّحَّةِ كَانَتْ حَيَاةُ النَّاسِ فِي خَطَرٍ؛ إِذْ يَتَطَبَّبُ فِيهِمْ فَاقِدُ الْعِلْمِ وَالْأَمَانَةِ؛ فَلَا الْعِلْمَ يَسْنُدُهُ فِي عَمَلِهِ، وَلَا يَمْلِكُ أَمَانَةً تَمْنَعُهُ مِنَ التَّجْرِبَةِ فِي عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَإِذَا كَانَتِ الرِّشْوَةُ فِي المُنَاقَصَاتِ وَإِرْسَاءِ الْعُقُودِ؛ تَعَطَّلَتْ مَصَالِحُ الْعِبَادِ، وَتَقَهْقَرَ عُمْرَانُهُمْ، وَتَأَخَّرَتْ حَضَارَتُهُمْ؛ إِذْ يَرَى النَّاسُ أَنَّه لَا مَجَالَ لِلْمُنَافَسَةِ الشَّرِيفَةِ فِي ذَلِكَ، فَيُغَادِرُ الْأَكْفَاءُ مِنْهُمْ بِلَادَهُمْ إِلَى أُخْرَى، يَسْتَطِيعُونَ فِيهَا المُنَافَسَةَ وَالْإِبْدَاعَ، وَمَا هَاجَرَتْ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقُولِ الْإِسْلَامِيَّةِ المُنْتِجَةِ إِلَى الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَّا بِسَبَبِ الْفَسَادِ المَالِيِّ والْإِدَارِيِّ الَّذِي خَيَّمَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ.

وَإِذَا تَخَلَّقَ بِالرِّشْوَةِ أَهْلُ الْقَضَاءِ، أَوْ حُرَّاسُ الْأَمْنِ؛ فَشَتِ الْجَرَائِمُ، وَكَثُرَ الِاعْتِدَاءُ، وَرُفِعَ الْأَمْنُ، وَحَلَّ الْخَوْفُ.

= والترمذي في صفة القيامة وصححه (٢٥١١)، وابن ماجه في الزهد، باب البغي (٤٢١١)، وأحمد (٢٠٣٧٤)، وصححه ابن حبان (٤٥٥).

وَبِهَذَا يُعْلَمُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الرِّشْوَةَ لَا تَفْشُو فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فَسَدَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَذَهَبَتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَهُمْ حَرِيُّونَ بِمَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى وَعُقُوبَتِهِ، مَعَ تَوَقُّفِ عُمْرَانِهِمْ، وَكَسَادِ أَرْزَاقِهِمْ؛ مِمَّا يُوَلِّدُ الْفَقْرَ وَالْجَرِيمَةَ.

فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَهَا وَيُحَذِّرَ مِنْهَا، وَيَسْعَى فِي إِنْكَارِهَا بِنَصِيحَةِ الْمُتَعَامِلِينَ بِهَا، وَالتَّبْلِيغِ عَنْهُمْ إِذَا لَمْ تُجْدِ النَّصِيحَةُ؛ حِمَايَةً لَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ، وَرَدْعًا لِغَيْرِهِمْ عَنِ الْفَسَادِ، وَحِفَاظًا عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مِنَ الضَّيَاعِ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



٣٠٤- الفساد المالي والإداري (٢)
غلول العمال

٢٣/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ شَرَعَ لِعِبَادِهِ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَمَنَعَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَلَهُ الشُّكْرُ فَلَا أَحَدَ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ مِنْهُ ﷻ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ وَرَزَقَهُمْ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَهَدَاهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ هُدَاهُ فَاهْتَدَى، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَرَدَى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، أَحَلَّ لَنَا الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا الْخَبَائِثَ، وَوَضَعَ عَنَّا الْأَغْلَالَ وَالْآصَارَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ أَمَلُ الْإِنْسَانِ فِيهَا فَهُوَ مُفَارِقُهَا، وَإِنْ طَابَ عَيْشُهُ فِيهَا فَهُوَ يَنْسَاهَا، وَلَا دَارَ إِلَّا الدَّارُ الْآخِرَةُ؛ فَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا، وَاسْعُوا لَهَا سَعْيَهَا، وَاعْمَلُوا بِعَمَلِ الْفَائِزِينَ فِيهَا ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا صَلَحَ الزَّمَانُ صَلَحَتِ الذِّمَمُ وَالْأَخْلَاقُ، وَإِذَا فَسَدَ الزَّمَانُ فَسَدَتِ الذِّمَمُ وَالْأَخْلَاقُ، حَتَّى تُرْفَعَ الْأَمَانَةُ، وَتَكْثُرَ الْخِيَانَةُ، وَتَنْتَشِرَ الْأَخْلَاقُ الرَّدِيئَةُ مِنَ الْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالرَّشْوَةِ وَالظُّلْمِ، وَيَعُمَّ الْفَسَادُ جَمِيعَ مَنَاحِي الْحَيَاةِ،

وَإِنَّمَا يَصْلُحُ الزَّمَانُ وَالْحَالُ أَوْ يَفْسُدَانِ بِصَلَاحِ النَّاسِ أَوْ فَسَادِهِمْ، وَيَبْلُغُ الْفَسَادُ بِالنَّاسِ حَدًّا يَعْجَزُ أَكْثَرُهُمْ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَلَوْ كَانَ أَدَاؤُهَا يَسِيرًا، وَلَا يَنْتَهُونَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ بَلْ وَالْمُوبِقَاتِ، وَلَوْ كَانَ الْبَدِيلُ حَلَالًا؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ النُّفُوسِ، وَتَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ، وَغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَمِنْ أَكْثَرِ مَا تَسَاهَلَ النَّاسُ فِيهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ: غُلُولُ الْعُمَّالِ، وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَامَّةِ مَا لَيْسَ لَهُ، أَوْ يُسَخِّرَ أَدَوَاتِ وَظِيفَتِهِ أَوْ نُفُوذَهُ لِنَفْعِ نَفْسِهِ وَقَرَابَتِهِ لَا لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَهُوَ مَا أُجْلِسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَّا لِأَجْلِهِمْ، وَهَذَا مِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجُرُّ الْمُجْتَمَعَ إِلَى فَسَادٍ عَرِيضٍ، وَصَاحِبُهُ مُتَوَعَّدٌ بِالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَمَنْ غَلَّ شَيْئًا لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُحَاسَبَ عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾ [آل عمران: ١٦١]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ** -أي: الرَّقِيقُ- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ** -أَي: الثِّيَابُ وَنَحْوُهَا- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ**

شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ -أَي: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ- **فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُك**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(١)].

إِنَّهُ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ أَكَّدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، أَيْ: هِيَ حَالَةٌ شَنِيعَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ أَرَاكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[(٢)]، وَمَعْنَاهُ: لَا تَعْمَلُوا عَمَلًا أَجِدُكُمْ بِسَبَبِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ[(٣)]، ثُمَّ عَدَّدَ أَنْوَاعَ المَالِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ غَالَّها يَحْمِلُ مَا غَلَّ مِنْهَا عَلَى رَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَاخَذُ بِهِ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ وَالتَّخْفِيفَ.

وَعَلَى عِظَمِ قَدْرِ الْجِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَرِفْعَةِ مَنْزِلَةِ المُجَاهِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى -حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْجِهَادَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ- وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَنْ غَلَّ شَيْئًا مِنَ المَغَانِمِ فَهُوَ مُتَوَعَّدٌ بِالْعَذَابِ فِي قَبْرِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَدَدٍ مِمَّنْ غَلُّوا فِي زَمَنِهِ أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ بِمَا غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وَلَوْ كَانَ مَا غَلُّوهُ قَلِيلًا كَعَبَاءَةٍ يَلْبَسُهَا أَحَدُهُمْ، أَوْ كِسَاءٍ يَكْتَسِيهِ، أَوْ شَمْلَةٍ يَتَزِرُهَا، أَوْ سَيْرًا يَجْعَلُهُ فِي نَعْلِهِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ عَلى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ -أَيْ: عَلَى مَتَاعِهِ- رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: كَرْكِرَة، فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **هُوَ فِي النَّارِ**. فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا»[(٤)].

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، وَلَمْ نَغْنَمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الغلول (٣٠٣٧)، ومسلم في الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).
(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٨٦).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢١٦).
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب القليل من الغلول (٣٠٧٤).

ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ وَالمَتَاعَ وَالحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ، أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ، حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **بَلْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**. فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **شِرَاكٌ -أَوْ شِرَاكَانِ- مِنْ نَارٍ**»(٥).

وَالشِّرَاكُ: سَيْرُ النَّعْلِ عَلَى ظَهْرِ الْقَدَمِ، فَإِذَا كَانَ الْغَالُّ يُؤَاخَذُ بِسَيْرِ النَّعْلِ الَّذِي لَا يُسَاوِي شَيْئًا فَكَيْفَ بِمَا فَوْقَهُ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ الْعَظِيمِ؟! فَيَا وَيْلَ مَنِ اسْتَحَلُّوا الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ بِمُجَرَّدِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا، وَائْتِمَانِهِمْ عَلَيْهَا! وَيْلَهُمْ! مَاذَا سَيَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رِقَابِهِمْ؟! وَمَا جَوَابُهُمْ لِرَبِّهِمْ حِينَ يَسْأَلُهُمْ؛ إِذَا كَانَ سُبْحَانَهُ قَدْ عَذَّبَ أَشْخَاصًا فِي قُبُورِهِمْ فِي شَمْلَةٍ وَعَبَاءَةٍ، وَسَيْرِ نَعْلٍ، فَمَا أَعْظَمَ الْأَمْرَ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- وَقَدْ تَسَاهَلَ النَّاسُ بِهِ! وَمَا أَكْثَرَ الْوَاقِعِينَ فِيهِ! نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْهِدَايَةَ وَالنَّجَاةَ لَهُمْ وَلِأَنْفُسِنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ، آمِينَ آمِينَ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَكَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى وُجُوبِ أَدَاءِ الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ، وَعَدَمِ احْتِقَارِ الشَّيْءِ مَهْمَا كَانَتْ قِلَّتُهُ وَوَضَاعَتُهُ فِي نَفْسِ آخِذِهِ مَا دَامَ أَنَّ لِغَيْرِهِ فِيهِ حَقًّا، فَقَدْ رَوَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ فِي غَزْوِهِمْ إِلَى بَعِيرٍ مِنَ المَقْسِمِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَتَنَاوَلَ وَبَرَةً بَيْنَ

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٥).

أُنْمُلَتَيْهِ فَقَالَ: **إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ، وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَعَكُمْ إِلَّا الخُمُسُ، وَالخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ، فَأَدُّوا الخَيْطَ وَالمَخِيطَ، وَأَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرَ، وَلَا تَغُلُّوا؛ فَإِنَّ الْغُلُولَ نَارٌ وَعَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَلَمَّا قَالَ رَجُلٌ لِسَلْمَانَ رضي الله عنه: «إِنِّي أَخَذْتُ خَيْطًا مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَخِطْتُ بِهِ ثَوْبِي، قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ وَقَدْرُهُ»(٧).

إِنَّ الْقَضِيَّةَ لَيْسَتْ فِي شَمْلَةٍ أَوْ عَبَاءَةٍ، أَوْ سَيْرِ نَعْلٍ، أَوْ خَيْطٍ أَوْ مَا سِوَاهُ مِمَّا يُحْتَقَرُ فِي الْعَادَةِ، وَلَكِنَّ الْقَضِيَّةَ قَضِيَّةُ دِينٍ يَدِينُ النَّاسُ بِهِ لِرَبِّهِمْ، وَخُلُقٌ يَتَخَلَّقُونَهُ، وَأَمَانَةٌ يُؤَدُّونَهَا، وَمَنْ أَخَذَ مَا يُحْتَقَرُ أَخَذَ مَا فَوْقَهُ، وَمَنِ امْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى سَيْرِ نَعْلٍ امْتَدَّتْ إِلَى جَامِ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَمَنْ فُتِنَ بِقَلِيلِ المَالِ فَاسْتَحَلَّهُ مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَفِتْنَتُهُ بِكَثِيرِهِ أَحْرَى وَأَوْلَى.

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُصَلِّ عَلَى صَاحِبِ الْغُلُولِ، مَعَ أَنَّهُ مَا غَلَّ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا لَا يَكَادُ يُذْكَرُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه يُحَدِّثُ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ تُوُفِّيَ بِخَيْبَرَ، وَأَنَّهُ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**. قَالَ: فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ الْقَوْمِ لِذَلِكَ، فَلَمَّا رَأَى الَّذِي بِهِمْ، قَالَ: **إِنَّ صَاحِبَكُمْ غَلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**. فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ، فَوَجَدْنَا فِيهِ خَرَزًا مِنْ خَرَزِ الْيَهُودِ مَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٨).

---

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦-٣٢٦)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣١٢)، وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند النسائي (٦/ ٢٦٢).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٢).

(٨) أخرجه مالك (٢/ ٤٥٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في تعظيم الغلول (٢٧١٠)، والنسائي في الجنائز، باب الصلاة على من غل (٤/ ٦٤)، وابن ماجه في الجهاد، باب =

وَمِنْ تَرْبِيَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ، وَتَأْدِيبِ الْمُخَالِفِ مِنْهُمْ، وَتَعْظِيمِ أَمْرِ الْغُلُولِ فِي نُفُوسِهِمْ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا كَانَ يَقْبَلُ مِمَّنْ غَلَّ إِرْجَاعَ مَا غَلَّ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ وَانْتِفَاءِ الْعُذْرِ؛ كَمَا رَوَى سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا غَنِمَ غَنِيمَةً أَمَرَ بِلَالًا فَيُنَادِي فِي النَّاسِ فَيَجُوزُ بِغَنَائِمِهِمْ فَيُخَمِّسُهُ وَيُقَسِّمُهُ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَوْمًا بَعْدَ النِّدَاءِ بِزِمَامٍ مِنْ شَعَرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا كَانَ مِمَّا أَصَبْنَاهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَقَالَ: **أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ؟** فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **كَلَّا، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٩).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ مَرَّةً فِي مُؤَخِّرَةِ الْجَيْشِ وَالنَّاسُ جَوْعَى، فَاجْتَهَدَ بَعْضُ مَنْ كَانُوا فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ، فَذَبَحُوا شِيَاهًا مِنَ الْغَنَائِمِ وَطَبَخُوهَا لِلْجَيْشِ، فَمَا قَبِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اجْتِهَادَهُمْ، وَأَنْكَرَ فِعْلَهُمْ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ؛ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَأَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ وَأَصَبْنَا إِبِلًا وَغَنَمًا، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُخْرَيَاتِ النَّاسِ، فَعَجَّلُوا فَنَصَبُوا الْقُدُورَ فَأَمَرَ بِالْقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ»(١٠).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ النَّاسَ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ، وَأَصَابُوا غَنَمًا فَانْتَهَبُوهَا، فَإِنَّ

= الغلول (٢٨٤٨)، وصححه ابن حبان (٤٨٥٣)، والحاكم، وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٣٨).

(٩) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الغلول إذا كان يسيرًا يتركه الإمام ولا يحرق رحله (٢٧١٢)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وصححه ابن حبان (٤٨٠٩)، والحاكم، ووافقه الذهبي (٢/ ١٣٨).

(١٠) أخرجه البخاري في الشركة، باب قسمة الغنم (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم (١٩٦٨).

قُدُورَنَا لَتَغْلِي؛ إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي عَلَى قَوْسِهِ فَأَكْفَأَ قُدُورَنَا بِقَوْسِهِ، ثُمَّ جَعَلَ يُرَمِّلُ اللَّحْمَ بِالتُّرَابِ، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ الْمَيْتَةِ**»(١١).

فَجَعَلَ ﷺ فِعْلَهُمْ نُهْبَةً انْتَهَبُوهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ قِسْمَتِهَا، وَأَكْفَأَ قُدُورَهُمْ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ، مَعَ جُوعِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْمَيْتَةَ أَحَلُّ مِنْ فِعْلِهِمْ.

وَلَمَّا عَلِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ مَا فِي الْغُلُولِ مِنَ الْإِثْمِ الْعَظِيمِ، وَالْعُقُوبَةِ الشَّدِيدَةِ، وَالْفَضِيحَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ اسْتَعْفَوْا مِنَ الْوِلَايَةِ، وَاعْتَذَرُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَبُولِها؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَلْحَقَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغُلُولِ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ عُذْرَهُمْ، وَأَعْفَاهُمْ مِنْ وَظَائِفِهِمْ، كَانَ مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ، وَقِصَّتُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: وَمَا لَكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: **وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْحَاكِمِ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا سَعْدُ، إِيَّاكَ أَنْ تَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ لَهُ رُغَاءٌ**، قَالَ: لَا آخُذُهُ وَلَا أَجِيءُ بِهِ، فَأَعْفَاهُ»(١٢).

وَمِمَّنْ اسْتَعْفَى مِنَ الْوَظِيفَةِ خَوْفًا مِنَ الْغُلُولِ: أَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي

---

(١١) أخرجه عن رجل من الأنصار ﷺ: أبو داود في الجهاد، باب في النهي عن النهبى إذا كان في الطعام قلة في أرض العدو (٢٧٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٩٨٦).

(١٢) رواه مسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٣)، وأبو داود في الأقضية، باب في هدايا العمال (٣٥٨١)، والرواية الثانية للحاكم (١/ ٥٥٦).

قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ساعِيًا، ثُمَّ قَالَ: **انْطَلِقْ أَبَا مَسْعُودٍ، لَا أُلْفِيَنَّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَجِيءُ عَلَى ظَهْرِكَ بَعِيرٌ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ لَهُ رُغَاءٌ قَدْ غَلَلْتَهُ**. قَالَ: إِذًا لَا أَنْطَلِقُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِذًا لَا أُكْرِهُكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٣).

وَأَعْظَمُ الْغُلُولِ: غُلُولُ الْجَارِ أَوِ الشَّرِيكِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ خِيَانَتِهِ وَقَدْ أَمَّنَهُ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذِرَاعٌ مِنْ أَرْضٍ يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ أَوِ بَيْنَ الشَّرِيكَيْنِ لِلدَّارِ، فَيَقْتَسِمَانِ فَيَسْرِقُ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا مِنْ أَرْضٍ، فَيُطَوَّقُهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»(١٤).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُغْنِيَنَا بِحَلَالِهِ عَنْ حَرَامِهِ، وَبِطَاعَتِهِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَبِفَضْلِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى؛ عَمَّ فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ كُلَّ الْوَرَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ

---

(١٣) رواه أبو داود (٢٩٤٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥٧٦).

(١٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٠)، والرواية الثانية له أيضًا (٥/ ٣٤٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (٥/ ١٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٧٤).

وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا تَعَاقَبَ النَّهَارُ وَالدُّجَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا انْتَشَرَ الْغُلُولُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدُهُمْ حَرَجًا مِنَ امْتِدَادِ يَدِهِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ؛ لِضَعْفِ دِيَانَتِهِ، وَفَسَادِ خُلُقِهِ، وَجَشَعِ نَفْسِهِ، مَعَ غِيَابِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالْعِقَابِ؛ فَإِنَّ أَخْلَاقًا رَدِيئَةً تَنْتَشِرُ فِي النَّاسِ، يَأْخُذُ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلُّ خُلُقٍ سَيِّءٍ مِنْهَا يَدْعُو إِلَى خُلُقٍ آخَرَ أَسْوَأَ مِنْهُ، فِي سِلْسِلَةٍ لَا تَنْتَهِي مِنْ فَسَادِ الضَّمَائِرِ وَالْأَخْلَاقِ، وَالطَّمَعِ وَالْجَشَعِ، مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا فِي الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ الضَّغَائِنُ وَالْأَحْقَادُ الَّتِي تُؤَدِّي بِالنَّاسِ إِلَى النِّزَاعِ وَالشِّقَاقِ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ اتِّسَاعِ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةِ الْمَوَارِدِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِعِفَّةِ الْيَدِ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ عَقِبَ غَنْمِهِمْ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، مُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ مِنَ الِافْتِتَانِ بِمَا يَرَوْنَ مِنْ أَمْوَالٍ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي الْغُلُولِ، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبْ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَلْبَسْ ثَوْبًا مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ رَدَّهُ فِيهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَبِيعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقْسَمَ**»(١٥).

وَتَأَمَّلُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَرْكَبْ دَابَّةً مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ**»،

---

(١٥) أخرجه من حديث رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب في الرجل ينتفع من الغنيمة بالشيء (٢٧٠٨)، والدارمي (٢٤٨٨)، وصححه ابن حبان (٤٨٥٠)، وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٥٦).

والرواية الثانية لأبي داود في النكاح، باب جامع في النكاح (٢١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٠٨).

وَقَارِنُوهُ مَعَ حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَنَفِّذِينَ فِي الدَّوَائِرِ الْحُكُومِيَّةِ وَالشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ؛ إِذْ يَسْتَحِلُّونَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنَ السَّيَّارَاتِ وَغَيْرِهَا وَيَقْسِمُونَهَا فِي أَوْلَادِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَكَأَنَّهَا مِلْكُ آبَائِهِمْ، وَيَعْمَلُونَ بِهَا مَا لَا يَعْمَلُونَ بِسَيَّارَاتِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَا خَلِقَتْ أَوْ تَلِفَتْ أَعَادُوهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَأَخَذُوا بَدَلًا عَنْهَا بِلَا وَازِعٍ يَزَعُهُمْ، وَلَا عِقَابٍ يَرْدَعُهُمْ.

وَلَقَدْ كَانَ المِسْكُ يُوزَنُ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَيَأْخُذُ بِأَنْفِهِ حَتَّى لَا تُصِيبَهُ الرَّائِحَةُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، مَا ضَرَّكَ إِنْ وَجَدْتَ رِيحَهُ؟ فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَهَلْ يُنْتَفَعُ مِنْ هَذَا إِلَّا بِرِيحِهِ؟!(١٦).

إِنَّ الْفَسَادَ الْإِدَارِيَّ وَالمَالِيَّ قَدْ ضَرَبَ أَطْنَابَهُ فِي أَكْثَرِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَأَدَّى بِهِمْ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ التَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ، وَالْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَضَعْفِ الدِّيَانَةِ وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ؛ حَتَّى إِنَّ عَفِيفَ الْيَدِ فِي بَعْضِ المُجْتَمَعَاتِ المُعَاصِرَةِ غَرِيبٌ بَيْنَ أَقْرَانِهِ، وَلَرُبَّمَا قُطِعَتْ يَدُهُ أَوْ كُفَّتْ عَنِ الْعَمَلِ لِعِفَّتِهَا، وَغَابَ السُّؤَالُ المَشْهُورُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ وَحَلَّ مَكَانَهُ: فُلَانٌ ضَيَّعَ عَلَى نَفْسِهِ الْفُرْصَةَ بِمِثَالِيَّتِهِ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَأَصْبَحْتُ مِنْ أَثْرِيَاءِ النَّاسِ!

وَأَضْحَى كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ضَعُفَ دِينُهُمْ وَمَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَفَسَدَتْ ذِمَمُهُمْ هُمْ سَرَاةَ النَّاسِ وَقُدْوَتَهُمْ، بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ، وَتَقَبَّلُوا العَزَاءَ فِي مُجْتَمَعَاتٍ يَكُونُ أَهْلُ الْقُدْوَةِ فِيهِمْ هُمُ السُّرَّاقَ وَالنُّهَّابَ، وَأَكَلَةَ الْحَرَامِ، وَأَهْلَ الْغُلُولِ.

وَأَدَّى هَذَا الْفَسَادُ الْعَظِيمُ إِلَى تَعْطِيلِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي كَثِيرٍ مِنْ دِيَارِ أَهْلِ

---

(١٦) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩١٩)، ونحوه عند: أبي نعيم في الحلية (٥/ ٣٢٦).

الْإِسْلَامِ، وَظُلْمِهِمْ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، فَمَنْ يَمْلِكُ الْوَظَائِفَ يَغُلُّهَا فَيَحْبِسُهَا عَلَى بَنِيهِ وَقَرَابَتِهِ، وَأَهْلِ عَشِيرَتِهِ وَقَبِيلَتِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي النَّاسِ مَنْ هُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْهُمْ، وَمَنْ كَانَتْ مَقَاعِدُ الْقَبُولِ فِي الْجَامِعَاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ بِيَدِهِ غَلَّهَا وَحَرَمَ مِنْهَا الأَكْفَاءَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَحْجِزَهَا لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا! وَدَوَالَيْكَ فِي أَكْثَرِ حَاجَاتِ النَّاسِ وَمَصَالِحِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا مَا حُمِّلْتُمْ مِنْ أَمَانَاتٍ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُولَ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَخَذَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ فِيهِ حَقٌّ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ حَمَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحُوسِبَ بِهِ، وَلَا تَحْتَقِرُوا الْقَلِيلَ مِمَّا لَيْسَ لَكُمْ؛ كَقَلَمٍ وَوَرَقَةٍ وَمُكَالَمَةٍ هَاتِفِيَّةٍ وَنَحْوِهَا؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يُحَاسَبُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَالْقَلِيلُ مَعَ الْقَلِيلِ يَصِيرُ كَثِيرًا، وَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ عَلَى الْوَرَعِ وَالْمُحَاسَبَةِ اعْتَادَتْ ذَلِكَ.

وَإِنَّ مِنَ الْغَبْنِ الْعَظِيمِ، وَالْخُسْرَانِ الْكَبِيرِ أَنْ يَجْمَعَ الْمَرْءُ مَالًا عَظِيمًا مِنْ طُرُقٍ مُحَرَّمَةٍ ثُمَّ يُخَلِّفَهَا لِوَارِثِهِ، وَحِسَابُهَا عَلَى ظَهْرِهِ، فَخَسَارَةٌ لَهُ، وَخَسَارَةٌ لِمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَأَشَدُّ خَسَارَةً مِنْهُ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي النَّاسِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِخَطَرِ مَا يَفْعَلُونَ بِسَبَبِ تَمَكُّنِ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِمْ!

فَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، أَوْ تَتَشَبَّهُوا بِهِمْ، أَوْ تَتَمَنَّوْا أَفْعَالَهُمْ، وَلْيَكُنْ قُدْوَتُكُمْ فِي عِفَّةِ الْيَدِ، وَطِيبِ الْمَطْعَمِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتَهُ الْكِرَامَ ﵃ وَالصَّالِحِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى أَفْضَلِ الرُّسُلِ، وَخَيْرِ الْبَشَرِ . . .

٣٠٥- الفساد المالي والإداري (٣)
هدايا الموظفين

١٥/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ؛ الْخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ٣٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَلَّغَنَا رِسَالَاتِ رَبِّنَا، وَنَصَحَ لَنَا؛ فَلَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلَّمَا تَقَادَمَ عَهْدُ النُّبُوَّةِ، وَاقْتَرَبَ النَّاسُ مِنَ الْقِيَامَةِ؛ قَلَّ الدِّينُ فِي النَّاسِ، وَفَسَدَتِ الْأَخْلَاقُ، وَمَرِجَتِ الْعُهُودُ، وَضُيِّعَتِ الْأَمَانَاتُ، وَلَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة (٦١٣١)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وابن حبان (١٠٤).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ»[٢].

وَإِذَا فُقِدَتِ الْأَمَانَةُ بَيْنَ النَّاسِ ضَاعَتِ الْحُقُوقُ، وَاضْمَحَلَّ الْعَدْلُ، وَانْتَشَرَ الظُّلْمُ، وَحِينَئِذٍ يُرْفَعُ الْأَمْنُ، وَيَسُودُ الْخَوْفُ.

وَالشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ قَدْ أَكَّدَتْ عَلَى وُجُوبِ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَحَرَّمَتِ الْخِيَانَةَ، وَسَدَّتْ كُلَّ الطُّرُقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهَا؛ حَتَّى إِنَّهَا مَنَعَتْ مَا هُوَ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فِي الْأَصْلِ إِذَا أَفْضَى إِلَى مُحَرَّمٍ تَفْسُدُ بِهِ الذِّمَمُ، وَتُقْتَطَعُ الْحُقُوقُ، وَيُعْطَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، وَيُمْنَعُ الْمُسْتَحِقُّ؛ كَمَا حَرَّمَتِ الشَّرِيعَةُ الْهَدِيَّةَ لِذَوِي الْوِلَايَاتِ وَالْوَظَائِفِ، إِذَا بُذِلَتْ لَهُمْ لِأَجْلِ مَنَاصِبِهِمْ وَوَظَائِفِهِمْ وَجَعَلَتْهَا رِشْوَةً، مَعَ أَنَّ الْهَدِيَّةَ مَأْمُورٌ بِهَا شَرْعًا، وَمَنْدُوبٌ إِلَيْهَا، وَيُرْوَى: «**تَهَادُوا؛ فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصَّدْرِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣]. وَالرِّشْوَةُ مَلْعُونٌ دَافِعُهَا وَآخِذُهَا وَالسَّاعِي بَيْنَهُمَا؛ إِذْ «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٤].

---

(٢) أخرجه موقوفًا عن ابن مسعود ﷺ: سعيد بن منصور في سننه (٩٧)، وعبد الرزاق (٥٩٨١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٥٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١) رقم (٨٧٠٠)، والبيهقي (٦/ ٢٨٩)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٦٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٥٤٩).
وقد جاء مرفوعًا من حديث أنس ﷺ عند: البخاري في تاريخه (٢/ ١٥٨)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢١٦)، وتمام الرازي في فوائده (١٩١)، وفي الروض البسام برقم (٧٠٨).
وجاء أيضًا مرفوعًا من حديث شداد بن أوس عند: الطبراني في الكبير (٧/ ٢٩٥) رقم (٧١٨٢).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في الولاء والهبة، باب في حث النبي ﷺ على التهادي، وقال: حديث غريب من هذا الوجه (٢١٣٠)، وأحمد (٢/ ٤٠٥)، والطيالسي (٢٣٣٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٥٦)، قال الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٦٩): «وفي إسناده أبو معشر المدني، وتفرد به وهو ضعيف» اهـ، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٣٣٧٧)، والألباني في ضعيف الجامع (٢٤٨٩).

(٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: أبو داود في الأقضية، باب كراهية =

فَمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْهَدِيَّةِ المَأْمُورِ بِهَا، وَالرَّشْوَةِ المَمْنُوعِ مِنْهَا! وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتِ الْهَدِيَّةُ رِشْوَةً فِي المَوَاضِعِ الَّتِي تكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ الذِّمَمِ، وَضَيَاعِ الْأَمَانَةِ، وَإِهْدَارِ الْحُقُوقِ.

وَأَصْحَابُ الْوِلَايَاتِ كَالْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالمُحَافِظِينَ وَالْقُضَاةِ وَالمُدِيرِينَ وَوُكَلَائِهِمْ وَالمُوَظَّفِينَ تَحْتَ وِلَايَاتِهِمْ صَغُرُوا أَمْ كَبُرُوا، مِمَّنْ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ؛ إِنَّمَا نُصِّبُوا فِي وِلَايَاتِهِمْ لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَإِدَارَةِ شُؤُونِهِمْ، وَرِعَايَةِ مَصَالِحِهِمْ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَيَأْخُذُونَ أُجُورَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ بَيْتِ المَالِ.

وَهَكَذَا مَنْ يَعْمَلُونَ فِي الشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ وَغَيْرِهَا إِنَّمَا يَخْدِمُونَ مَنْ وَظَّفُوهُمْ فِيهَا، وَيَتَقَاضَوْنَ أُجُورَهُمْ مِنْهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْذُلُوا النُّصْحَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَيُحِقُّوا الْحَقَّ، وَيُؤَدُّوا الْأَمَانَةَ، مُرَاقِبِينَ اللَّهَ تَعَالَى فِي وَظَائِفِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ مُحْتَاجِينَ إِلَى ذَوِي الْوِلَايَاتِ وَالمَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ فِي قَضَاءِ حَاجَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَدَّدُونَ لَهُمْ، وَيَتَزَلَّفُونَ إِلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا بَذَلُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْوَسَائِطَ وَالصَّنَائِعَ مِنَ الْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ وَالْوَلَائِمِ وَالْخِدْمَاتِ وَغَيْرِهَا؛ لِنَيْلِ حُقُوقِهِمْ مِنْهُمْ، أَوْ لِلْحُصُولِ عَلَى مَا لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهِ، أَوْ لِتَقْدِيمِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ المَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ يَمْلِكُونَ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ ثَرَوَاتٍ طَائِلَةً لَوِ اسْتَغْرَقُوا أَعْمَارَهُمْ كُلَّهَا فِي جَمْعِهَا مِنْ أَرْزَاقِهِمْ مَا جَمَعُوهَا، وَلَكِنَّهَا هَدَايَا النَّاسِ وَصِلَاتُهُمُ الَّتِي لَوْلَا مَنَاصِبُهُمْ وَوَظَائِفُهُمْ مَا ظَفِرُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا.

= الرشوة (٣٥٨٠)، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، وقال: حسن صحيح (١٣٣٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة (٢٣١٣)، وصححه ابن حبان (٥٠٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٠٣).

وَأَضْحَى الْخُبَرَاءُ فِي هَذَا الْبَابِ يَدُلُّونَ غَيْرَهُمْ عَلَى مَفَاتِيحِ مَنْ لَهُمْ حَاجَةٌ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَوِي الْمَنَاصِبِ وَالْوَظَائِفِ، وَكَيْفَ تُقْضَى حَاجَاتُهُمْ، وَمَا يُنَاسِبُ بَذْلَهُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْهَدَايَا الَّتِي تُبْذَلُ لِهَؤُلَاءِ الْمُوَظَّفِينَ لِأَجْلِ وَظَائِفِهِمْ قَدْ مَنَعَتِ الشَّرِيعَةُ مِنْهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ مَالًا أَمْ مَتَاعًا أَمْ وَلَائِمَ أَمْ خِدْمَاتٍ أَمْ غَيْرَهَا، وَلَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا؛ إِذْ لَوْلَا وَظَائِفُهُمْ مَا بُذِلَتْ لَهُمْ، وَلَوْ قَعَدُوا فِي بُيُوتِهِمْ لَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَحَرُمَ بَذْلُهَا عَلَى الْبَاذِلِينَ، كَمَا حَرُمَ أَخْذُهَا عَلَى الْعَامِلِينَ، وَلَا يَحِلُّ لِمُوَظَّفٍ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا أَنْ يُمَاطِلَ فِي حُقُوقِ النَّاسِ، أَوْ يُؤَخِّرَ مُعَامَلَاتِهِمْ لِأَجْلِ أَنْ يَبْذُلُوا لَهُ شَيْئًا، أَوْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِصَنِيعَةٍ.

كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ هَدِيَّةً بُذِلَتْ إِلَيْهِ مِمَّنْ لَهُ مَصْلَحَةٌ عِنْدَهُ وَلَوْ لَمْ يُشَارِطْهُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا -وَلَا بُدَّ- تُؤَثِّرُ فِي قَلْبِهِ، فَيَمِيلُ إِلَى صَاحِبِهَا، وَيُقَدِّمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْ نَقْصٍ أَوْ خَلَلٍ فِي مُعَامَلَتِهِ لِأَجْلِ هَدِيَّتِهِ، وَقَدْ لَا يَشْعُرُ بِمَا فَعَلَ؛ وَذَلِكَ مِنْ تَضْيِيعِ الْأَمَانَةِ وَغِشِّ الْمُسْلِمِينَ.

وَالْأَصْلُ فِي مَنْعِ هَدَايَا الْمُوَظَّفِينَ وَتَحْرِيمِهَا حَدِيثُ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ يُدْعَى ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسَبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا؟!** ثُمَّ خَطَبَنَا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ فَيَأْتِي، فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ؟! وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا**

خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٥). وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَرَوَى بُرَيْدَةُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ هَدَايَا الْعُمَّالِ سُحْتٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ سَبِيلُهَا سَبِيلَ سَائِرِ الْهَدَايَا الْمُبَاحَةِ، وَإِنَّمَا يُهْدَى إِلَيْهِ لِلْمُحَابَاةِ، وَلِيُخَفِّفَ عَنِ الْمُهْدِي، وَيُسَوِّغَ لَهُ بَعْضَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ، وَهُوَ خِيَانَةٌ، وَبَخْسٌ لِلْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ اسْتِيفَاؤُهُ لِأَهْلِهِ» اهـ(٨).

هَذَا؛ وَقَدْ كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَتَوَرَّعُونَ عَنْ قَبُولِ الْهَدَايَا؛ خَوْفًا مِنَ الشُّبْهَةِ، وَلَا سِيَمَا إِذَا تَقَلَّدَ أَحَدُهُمْ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا

---

(٥) أخرجه البخاري في الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له (٦٥٧٨)، ومسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢).

(٦) أخرجه من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ: أحمد (٥/ ٤٢٤)، والبزار، وقال: هذا الحديث رواه إسماعيل بن عياش، واختصره وأخطأ فيه، وإنما هو عن الزهري عن عروة عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ بعث رجلًا على الصدقة ... (٣٧٢٣)، والبيهقي في الصغرى (٤١٨٩)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٠٠)، والحافظ في الفتح (٥/ ٢٢١)، والعراقي كما في فيض القدير (٦/ ٣٥٧)، وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٣)، والسيوطي في الجامع الصغير (٩٥٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٢١)، وفي الإرواء (٢٦٢٢)، ونقل عن ابن الملقن في الخلاصة أنه قال: (بإسناد حسن) ثم ساق الألباني في الإرواء شواهد للحديث عن جابر وأبي هريرة وابن عباس ﷺ.

(٧) أخرجه أبو داود في الخراج والفيء والإمارة، باب في أرزاق العمال (٢٩٤٣)، وصححه ابن خزيمة (٢٣٦٩)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٥٦٢)، والألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٣).

(٨) معالم السنن بحاشية أبي داود (٣/ ٣٥٥).

عَقَدَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي صَحِيحِهِ بَابًا لِذَلِكَ قَالَ فِيهِ: «بَابُ مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْهَدِيَّةَ لِعِلَّةٍ»، ثُمَّ سَاقَ الْبُخَارِيُّ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَتِ الْهَدِيَّةُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ هَدِيَّةً، وَالْيَوْمَ رِشْوَةً»(٩).

وَقِصَّةُ ذَلِكَ مَا رَوَى عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «اشْتَهَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ تُفَّاحًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ مِنْ تُفَّاحٍ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ طَيِّبُ الطَّعْمِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَأَهْدَى إِلَيْهِ تُفَّاحًا، فَلَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَالَ عُمَرُ: مَا أَطْيَبَ رِيحَهُ وَأَحْسَنَهُ! ارْفَعْهُ يَا غُلَامُ، وَأَقْرِئْ فُلَانًا السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ هَدِيَّتَكَ وَقَعَتْ عِنْدَنَا بِحَيْثُ نُحِبُّ. قَالَ عَمْرُو بْنُ مُهَاجِرٍ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ابْنُ عَمِّكَ وَرَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، وَقَدْ بَلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ! فَقَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّ الْهَدِيَّةَ كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَدِيَّةً وَهِيَ لَنَا الْيَوْمَ رِشْوَةً»(١٠).

فَإِنْ كَانَتِ الْهَدِيَّةُ تُبْذَلُ لِمَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ كَالْقَاضِي وَنَحْوِهِ فَالْإِثْمُ أَكْبَرُ، وَالْخَطَرُ أَشَدُّ؛ لِمَا يَلْحَقُهُ مِنْ تُهْمَةِ تَغْيِيرِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَمْسِ الْعَدْلِ، وَإِقْرَارِ الظُّلْمِ بِسَبَبِ مَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْهَدَايَا الَّتِي تُهْدَى لِلْقُضَاةِ وَنَحْوِهِمْ هِيَ نَوْعٌ مِنَ الرِّشْوَةِ؛ لِأَنَّ الْمُهْدِيَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِلْإِهْدَاءِ إِلَى الْقَاضِي قَبْلَ وِلَايَتِهِ لَا يُهْدِي إِلَيْهِ إِلَّا لِغَرَضٍ وَهُوَ: إِمَّا التَّقَوِّي بِهِ عَلَى بَاطِلِهِ، أَوِ التَّوَصُّلُ لِهَدِيَّتِهِ لَهُ إِلَى حَقِّهِ، وَالْكُلُّ حَرَامٌ، وَأَقَلُّ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ طَالِبًا لِقُرْبِهِ

(٩) في كتاب الهبة من صحيحه (٢/ ٩١٦)، وأثر عمر بن عبد العزيز وصله ابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٩٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ١٧-١٨)، وينظر: تغليق التعليق (٣/ ٣٥٩)، وتاريخ الخلفاء (٢٣٧).

(١٠) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ٢٢٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ١٨).

مِنَ الْحَاكِمِ وَتَعْظِيمِهِ وَنُفُوذِ كَلَامِهِ، وَلَا غَرَضَ لَهُ بِذَلِكَ إِلَّا الِاسْتِطَالَةُ عَلَى خُصُومِهِ، أَوِ الْأَمْنُ مِنْ مُطَالَبَتِهِمْ لَهُ، فَيَحْتَشِمُهُ مَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْهِ، وَيَخَافُهُ مِنْ لَا يَخَافُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْأَغْرَاضُ كُلُّهَا تَؤُولُ إِلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ الرِّشْوَةُ، فَلْيَحْذَرِ الْحَاكِمُ الْمُتَحَفِّظُ لِدِينِهِ، الْمُسْتَعِدُّ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مِنْ قَبُولِ هَدَايَا مَنْ أَهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ تَوَلِّيهِ لِلْقَضَاءِ؛ فَإِنَّ لِلْإِحْسَانِ تَأْثِيرًا فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ، وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، فَرُبَّمَا مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمُهْدِي إِلَيْهِ مَيْلًا يُؤَثِّرُ المَيْلَ عَنِ الْحَقِّ عِنْدَ عُرُوضِ الْمُخَاصَمَةِ بَيْنَ الْمُهْدِي وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَالْقَاضِي لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الصَّوَابِ بِسَبَبِ مَا قَدْ زَرَعَهُ الْإِحْسَانُ فِي قَلْبِهِ، وَالرِّشْوَةُ لَا تَفْعَلُ زِيَادَةً عَلَى هَذَا» اهـ[(١١)].

أَلَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى كُلُّ عَبْدٍ وَلِيَ وِلَايَةً صَغِيرَةً كَانَتْ أَمْ كَبِيرَةً، وَلْيُؤَدِّ الْأَمَانَةَ فِي وِلَايَتِهِ، وَلْيَحْذَرْ مِنْ بَخْسِ الْحُقُوقِ، وَاسْتِحْلَالِ الرَّشَاوِي بَاسِمِ الْهَدَايَا؛ فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِالمَعَانِي لَا بِالْمُسَمَّيَاتِ، وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١٢)].

(١١) نيل الأوطار (٩/ ١٧٣).

(١٢) هذا الحديث يحتمل الرفع والوقف في رواية البخاري، فقد رواه بسنده عن طريفٍ أبي تميمة، قال: شهدت صفوان وجندبًا وأصحابه وهو يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا؟ قال: سمعته يقول: «من سمع سمع الله به يوم القيامة، قال: ومن يشاقق يشقق الله عليه يوم القيامة»، فقالوا: أوصنا، فقال: إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهراقه فليفعل، قلت لأبي عبد الله: «من يقول: سمعت رسول الله ﷺ؟ جندب؟ قال: نعم جندب» انتهى من صحيحه، كتاب الأحكام، باب من شاق شق الله عليه (٧١٥٢).

وأخرجه مرفوعًا من حديث أبي عوانة عن قتادة عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره. الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٦٢)، وفي الأوائل =

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ

= (٢٢) وابن أبي الدنيا في الورع (١١٩)، والبيهقي في الشعب، وقال عقبه: وكذلك رواه أبو كامل عن أبي عوانة مرفوعًا، والصحيح موقوف (٥٣٥٠) فرجح البيهقي وقفه.

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «هكذا وقع هذا الحديث من هذا الوجه موقوفًا، وكذا أخرجه الطبراني من طريق قتادة عن الحسن هو البصري عن جندب موقوفًا، وأخرجه من طريق صفوان ابن محرز وسياقه يحتمل الرفع والوقف؛ فإنه صدر بقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سمع ... الحديث. ثم قال: وهذا لو لم يرد مصرحًا برفعه لكان في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالرأي» فتح الباري (١٣/ ١٣٠).

ورجح القاري رفعه فقال: «والظاهر من عبارته أن الحديث بكماله مرفوع، والله تعالى أعلم» مرقاة المفاتيح (٩/ ٥١٢).

ورجح الألباني أن رفعه صحيح فقال: «وأبو عوانة ثقة من رجال الشيخين، وكذلك من فوقه؛ فهو إسناد صحيح لولا عنعنة الحسن- وهو البصري- لكنه قد صح مرفوعًا من غير طريقه، فلا وجه لإعلاله بالوقف؛ لأن الرفع زيادة يجب قبولها، ولا سيما أن الذي أوقفه كان اختلط، وهو سعيد بن إياس الجريري، فقد قال: عن طريفٍ أبي تميمة قال ... فذكر رواية البخاري آنفة الذكر.

ثم قال الألباني: وعندي جواب آخر على افتراض أن الجريري حفظه، وهو قول الحافظ في الفتح ... فساقه وقد ذكرته آنفًا، ثم قال الألباني: فكيف وقد صح مرفوعًا؟ ثم ساق حديثًا بطرقه ومتابعاته وقال: وبالجملة؛ فالحديث بهذه الطرق والمتابعات صحيح مرفوعًا، ولا يضره وقف مَنْ أوقفه، ولذلك سكت عن هذه الطرق الحافظ في الفتح، بل صرح بأن الموقوف في حكم المرفوع؛ كما تقدم عنه، فاتفقت الروايات، وزال الخلاف من بينها. والحمد لله رب العالمين» ينظر: السلسلة الصحيحة (٣٣٧٩).

الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِذَا أُهْدِيَ لِلْمُوَظَّفِ هَدِيَّةٌ لِأَجْلِ وَظِيفَتِهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّهَا وَعَدَمُ قَبُولِهَا، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُنْكِرَ عَلَى بَاذِلِهَا، وَيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّهَا رِشْوَةٌ لَا يَحِلُّ بَذْلُهَا وَلَا أَخْذُهَا. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِ؛ لِقُوَّتِهِ وَنُفُوذِهِ وَقَدْ يَضُرُّهُ فَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَقْبَلَهَا وَلَا يُحَابِيَهِ مِنْ أَجْلِهَا، بَلْ يُحِقُّ الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ اسْتَعْفَى مِنَ الْبَتِّ فِي مُعَامَلَتِهِ لِتُحَالَ عَلَى غَيْرِهِ، وَذَلِكَ أَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِاجْتِنَابِ الْوُقُوعِ فِي الْإِثْمِ.

فَإِنْ قَبِلَ الْمُوَظَّفُ هَدِيَّةً أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ لِأَجْلِ وَظِيفَتِهِ؛ جَهْلًا بِالْحُكْمِ، أَوْ تَهَاوُنًا بِالتَّحْرِيمِ؛ فَلَا يَسْتَحِلُّهَا وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا، بَلْ يَرُدُّهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِلْكًا لَهُ دُونَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَبُولِ مَا أُهْدِيَ إِلَيْهِ لِأَجْلِ مَنْصِبِهِ أَوْ وَظِيفَتِهِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَرَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: «خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي جَيْشٍ إِلَى الْعِرَاقِ، فَلَمَّا قَفَلَا مَرَّا عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ

---

(١٣) أخرجه من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب في تحريم هدايا العمال (١٨٣٣).

وينظر تفصيل تصرف الموظف المهدى إليه في كتاب (الهدايا للموظفين .. أحكامها وكيفية التصرف فيها) د. عبد الرحيم بن إبراهيم الهاشم ص٨٢-٨٦.

وَهُوَ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ، فَرَحَّبَ بِهِمَا وَسَهَّلَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ أَقْدِرُ لَكُمَا عَلَى أَمْرٍ أَنْفَعُكُمَا بِهِ لَفَعَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، هَا هُنَا مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأُسْلِفُكُمَاهُ فَتَبْتَاعَانِ بِهِ مَتَاعًا مِنْ مَتَاعِ الْعِرَاقِ ثُمَّ تَبِيعَانِهِ بِالمَدِينَةِ، فَتُؤَدِّيَانِ رَأْسَ المَالِ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَيَكُونُ الرِّبْحُ لَكُمَا، فَقَالَا: وَدِدْنَا ذَلِكَ، فَفَعَلَ وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمَا المَالَ، فَلَمَّا قَدِمَا بَاعَا فَأُرْبِحَا، فَلَمَّا دَفَعَا ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ قَالَ: أَكُلُّ الْجَيْشِ أَسْلَفَهُ مِثْلَ مَا أَسْلَفَكُمَا؟ قَالَا: لَا، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ابْنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فَأَسْلَفَكُمَا، أَدِّيَا المَالَ وَرِبْحَهُ، فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَسَكَتَ، وَأَمَّا عُبَيْدُ اللَّهِ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لَكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ هَذَا، لَوْ نَقَصَ هَذَا المَالُ أَوْ هَلَكَ لَضَمِنَّاهُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَدِّيَاهُ، فَسَكَتَ عَبْدُ اللَّهِ، وَرَاجَعَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ عُمَرَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ: لَوْ جَعَلْتَهُ قِرَاضًا، فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ جَعَلْتُهُ قِرَاضًا، فَأَخَذَ عُمَرُ رَأْسَ المَالِ وَنِصْفَ رِبْحِهِ، وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ نِصْفَ رِبْحِ المَالِ» رَوَاهُ مَالِكٌ فِي المُوَطَّإِ(١٤).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَقَدِ اسْتَهَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِهَذَا الْبَابِ الْخَطِيرِ، وَهُوَ سَبَبُ فَسَادِ الذِّمَمِ، وَشِرَاءِ الضَّمَائِرِ، وَالمُمَاطَلَةِ فِي الْحُقُوقِ، وَالتَّقَاعُسِ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ إِلَّا بِرَشْوَةٍ أَوْ هَدِيَّةٍ أَوْ خِدْمَةٍ يَبْذُلُهَا صَاحِبُ الْحَقِّ.

وَتَاللَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ الظُّلْمِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ تَخَلُّفِ المُسْلِمِينَ

---

(١٤) أخرجه مالك (٢/ ٦٨٧) رقم (١٣٧٢)، وعنه الشافعي في مسنده (١٢٣٥)، وفي الأم (٤/ ٣٣). ومن طريقهما البيهقي (٦/ ١١٠)، وصححه الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ٥٧)، وفي الإصابة (٥/ ٥٣).

وفي تهذيب الأسماء واللغات أن الذي أشار على عمر رضي الله عنه أن يجعله قراضًا فقبل منه هو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (٢/ ٥٨٢) رقم (١٠٨٢)، وكذا في غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال (٢/ ٥٩٧).

وَانْحِطَاطِهِمْ؛ إِذْ لمَّا عَمَّتْ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ الرَّدِيئَةُ كَثِيرًا مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ تَوَقَّفَ نَمَاؤُهَا، وَاسْتَشْرَى فَسَادُهَا، وَخَرِبَتْ إِدَارَاتُهَا، وَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُ أَبْنَائِهَا، وَصَارَ الْمَرْءُ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ لَا لِبَلَدِهِ وَأُمَّتِهِ، وَيَسْعَى فِي مَلْءِ خَزَائِنِهِ بِالمَالِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ انْتِهَاكُ الشَّرِيعَةِ، وَمُخَالَفَةُ الْأَنْظِمَةِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ خَرَابُ الدِّيَارِ وَالْعُمْرَانِ، وَفَسَادُ الذِّمَمِ وَالْأَخْلَاقِ، وَعَمَّ ذَلِكَ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ يَكَادُ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، إِلَّا مَنْ سَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

وَبِسَبَبِ ذَلِكَ سَادَ فِي كَثِيرٍ مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ وَبُلْدَانِهِمُ السَّفِلَةُ وَالْأَرَاذِلُ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ، سَادُوا بِمَا جَمَعُوا مِنْ أَمْوَالٍ مُحَرَّمَةٍ جَلَبَتْ لَهُمْ جَاهًا لَا يَسْتَحِقُّونَهُ، فَخَرِبَتِ الْبُلْدَانُ بِسَبَبِهِمْ، وَاسْتَشْرَى الْفَسَادُ، وَانْزَوَى الْأُمَنَاءُ الْمُصْلِحُونَ النَّاصِحُونَ، وَخَمَلَ ذِكْرُهُمْ؛ لِأَنَّ الْبِيئَاتِ الْمُتَلَوِّثَةَ بِالرِّشْوَةِ وَالْغِشِّ وَالسُّحْتِ وَأَكْلِ الْحَرَامِ وَمُمَارَسَتِهِ وَتَسْوِيغِهِ لَا مَكَانَ فِيهَا لِلْأُمَنَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ النَّاصِحِينَ.

وَمَا تَقَدَّمَتْ بِلَادُ الْغَرْبِ عَلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِذَكَاءٍ فِي عُقُولِ أَبْنَائِهَا، وَلَا بِفَسَادِ أَخْلَاقِهَا وَأَعْرَاضِهَا، وَلَا بِتَحَرُّرِ نِسَائِهَا؛ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ وَالتَّغْرِيبِ مِنْ دُعَاةِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَلَكِنَّهَا تَقَدَّمَتْ بِأَنْظِمَةٍ صَارِمَةٍ تُجَاهَ الْغِشِّ وَالرِّشْوَةِ وَجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ الْإِدَارِيِّ وَالمَالِيِّ، لَا مُحَابَاةَ فِيهَا لِأَحَدٍ، وَيُؤَاخَذُ بِهَا الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

وَلَا سَبِيلَ لِنَجَاةِ الْفَرْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِمُرَاقَبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ الْخَوْفِ مِنَ الْجِهَاتِ الرِّقَابِيَّةِ، وَلَا سَبِيلَ لِنَهْضَةِ الْأُمَّةِ وَتَقَدُّمِهَا، وَانْتِشَالِهَا مِنَ الْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفِ وَالِانْحِطَاطِ إِلَّا بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَاسْتِعْمَالِ الْأَمِينِ، وَإِقْصَاءِ الْخَائِنِ، وَمُكَافَأَةِ الْمُحْسِنِ، وَمُعَاقَبَةِ الْمُسِيءِ،

وَمُحَاسَبَةِ المُقَصِّرِ، وَعَدَمِ مُحَابَاةِ أَحَدٍ فِي ذَلِكَ، كَبِيرًا كَانَ أَمْ صَغِيرًا، وَإِلَّا كَانَ المَزِيدُ مِنَ التَّخَلُّفِ وَالانْحِطَاطِ وَالذُّلِّ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَلَنْ يَكُونَ حَالُ المُسْلِمِينَ إِلَّا كَحَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلُ: إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَرَاقِبُوهُ فِي وَظَائِفِكُمْ وَمَكَاتِبِكُمْ؛ فَإِنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَمُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨].

فَأَعِدُّوا لِمَا سَتُسْأَلُونَ عَنْهُ جَوَابًا، وَإِنَّكُمْ لَمَسْئُولُونَ عَنْ أَمْوَالِكُمْ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتُمُوهَا، وَأَيْنَ أَنْفَقْتُمُوهَا، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ تَخَوَّضُوا فِي المَالِ الْحَرَامِ كَمْ جَمَعُوا؟ فَإِنَّهُمْ زَائِلُونَ عَنْ جَمْعِهِمْ! وَأَمْوَالُهُمْ تُثْقِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظُهُورَهُمْ، وَمَنِ اغْتَصَبَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ(١٥)، فَاحْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا!

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



---

(١٥) كما في حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ ظَلَمَ قَيد شِبْرٍ مِنَ الأرْضِ طوِّقه مِنْ سَبْعِ أرضِين**» أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٢٤٥٣) ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢).

٣٠٦- بين المصلحين والمفسدين (١) بركة المصلحين

٢٢/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الإِنْسَانَ وَكَلَّفَهُ، وَجعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَاهُ النَّجْدَيْنِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ؛ فَقَدْ هَدَانَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَدَلَّنَا عَلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَجَعَلَ الجَزَاءَ عَلَيْهِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظُمَ سُلْطَانُهُ وَقَهْرُهُ؛ فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَكُلُّ الوُجُودِ تَحْتَ حُكْمِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَبِّهِ وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ؛ شُكْرًا لِخَالِقِهِ، وَمَحَبَّةً لَهُ، وَاعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَرَجَاءً لِرَحْمَتِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، وَعَلَى التَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ لَنَا وَلِلْأُمَمِ قَبْلَنَا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا يَعْلُو أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ، وَتَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَصْحَابِ الضَّلَالَةِ عَلَى أَتْبَاعِ الهُدَى، وَيُدَالُ لِجُنْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى عِبَادِ الرَّحْمَنِ؛ فَإِنَّ المَفَاهِيمَ تَنْقَلِبُ، وَتَنْتَكِسُ المَوَازِينُ، وَيَكُونُ الحُكْمُ عَلَى الأَشْيَاءِ بِمِيزَانِ

الْقُوَّةِ، لَا بِمِيزَانِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالحَقِّ وَالْعَدْلِ، كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْبَشَرِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ شَهَوَاتُ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ، فَرْدًا كَانَ أَمْ دَوْلَةً أَمْ أُمَّةً، وَعَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ الْخُضُوعُ لِهَذَا الْقَانُونِ الْجَائِرِ مَهْمَا كَانَ مُوغِلًا فِي الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ، وَلَوْ كَانَ مُغْرِقًا فِي الشُّذُوذِ وَالْجُنُونِ.

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أُمَّةً مُخْتَلِفَةً مُتَفَرِّقَةً مُسْتَبَاحَةً مُسْتَضَامَةً؛ فَإِنَّ أَهْلَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ؛ هُمْ مَنْ يُقَرِّرُ مِيزَانَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيُمَيِّزُ الْمُصْلِحَ مِنَ الْمُفْسِدِ. بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْحُكْمِ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْجَرَاءَةِ عَلَى نَقْدِهَا وَرَدِّهَا، وَبَيَانِ مَا يَصْلُحُ مِنْهَا وَمَا لَا يَصْلُحُ، وَإِلْزَامِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا حَكَمَتْ بِهِ أَهْوَاؤُهُمُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَعُقُولُهُمُ السَّقِيمَةُ، تَحْتَ مُسَمَّيَاتِ الْإِصْلَاحِ وَنَشْرِ الْحُرِّيَّةِ، وَضِمْنَ مَشَارِيعِ مَسْخِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَبْدِيلِهَا؛ لِتُوَافِقَ الْمَشَارِيعَ اللِّيبْرَالِيَّةَ الَّتِي يُرَادُ لَهَا أَنْ تَسُودَ الْأَرْضَ كُلَّهَا، وَأَنْ يُقْضَى بِهَا عَلَى كُلِّ الْمَنَاهِجِ وَالشَّرَائِعِ، رَبَّانِيَّةً كَانَتْ أَمْ وَضْعِيَّةً.

وَمَا اخْتِرَاعُ إِمَامَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ تَؤُمُّهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي كَنِيسَةٍ مِنَ الْكَنَائِسِ، وَعَلَى حَالٍ مِنَ الِاخْتِلَاطِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَكَشْفِ الْعَوْرَاتِ[1]، إِلَّا جُزْءٌ مِنْ

---

(١) هذا إشارة لما قامت به امرأة أمريكية في الجمعة الماضية في سابقة هي الأولى من نوعها؛ إذ أمت المصلين في صلاة الجمعة الماضية ٨/ صفر/ ١٤٢٦ الموافق ١٨/ مارس/ ٢٠٠٥، وكانت صلاة اختلط فيها النساء بالرجال وهن متكشفات، وكثير منهن متبرجات حاسرات الرؤوس، وقد لبس بعضهن بناطيل الجينز!!

وقد نظمت تلك الصلاة منظمة تدعى (جولة حرية المرأة المسلمة) والموقع الالكتروني (صحوة الإسلام).

وقامت الدكتورة أمينة ودود أستاذة الدراسات الإسلامية بجامعة (فيرجينيا كومنولث) الأمريكية بإلقاء خطبة الجمعة وإمامة الصلاة.

وأقيمت هذه الصلاة الشاذة وسط إجراءات أمن مشددة بكنيسة (سينود هاوس) التابعة =

. . . .

= لإحدى الكاتدرائيات بمدينة (مانهاتن) الأمريكية، بسبب أن المساجد رفضت استضافة هؤلاء المفسدين لإقامة صلاتهم.

وهذه عادة الغرب: حماية المشغبين على الإسلام، المحرفين لشريعته، ولو أن امرأة رشحت نفسها لتكون بابا الفاتيكان لقامت الدنيا ولم تقعد في الغرب المتحضر الذي يزعم حفظ الحقوق ونشر الحرية، وهو لا يحفظ هذه الحقوق المزعومة إلا إذا كانت لمنحرفين يطعنون في الإسلام فحسب.

وقالت إمامتهم ودود في مؤتمر صحفي قبل الصلاة: لا أريد أن أغير من طبيعة المساجد. أريد أن أشجع قلوب المسلمين على الإيمان بأنهم متساوون. مضيفة: أنها تتمنى المساعدة في إزالة القيود المصطنعة والمزعجة التي تستهدف المرأة المسلمة حسب زعمها.

وقالت ودود: إن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة أمر مهم في الإسلام، وقد استعمل المسلمون -وللأسف- تفسيرات تاريخية متشددة للعودة إلى الوراء.

ولهذه المبتدعة كتاب بعنوان (القرآن والمرأة) تناولت فيه قراءة للنصوص القرآنية من خلال وجهة نظر نسائية حسب زعمها، تناولت فيه حق المرأة في إمامة المسلمين، وترى ودود أن عدم إعطاء المرأة المسلمة هذا الحق هو أمر خاطئ متجذر داخل المجتمعات الإسلامية، دون أن يقوم أحد بمحاولات جادة لتصويبه.

وتزعم هذه الضالة عن الحق أنه من خلال الأبحاث التي قامت بها: لا يوجد في سلوكيات النبي محمد ﷺ ما يمنع أن تؤم المرأة المسلمين رجالًا ونساء، وتؤكد في كتابها أن الرسول الكريم وافق على إمامة المرأة المسلمة، وعدم إعطائها هذا الحق جعلها تفقد مكانتها كقائدة روحية وفكرية.

وستطالب د. ودود بحق النساء المسلمات في المساواة مع الرجال في التكاليف الدينية كحق المرأة في الإمامة، وعدم ضرورة أن يصلي النساء في صفوف خلفية وراء الرجال، باعتبار أن هذا الأمر هو ناتج عن عادات وتقاليد بالية، وليس من الدين في شيء.

وتأتي هذه الخطوة التي تقوم بها هذه المرأة وأمثالها برعاية ودعم جماعات أمريكية منحرفة تدعو إلى تحرير المرأة المسلمة من أحكام الإسلام؛ لتصبح مثل المرأة الغربية سواء بسواء، وتقوم بتنظيم مسيرات وفعاليات عديدة لإفساد المرأة زاعمين المطالبة بحقوقها، وهي في واقع الأمر حقوق اخترعوها لتطويع الإسلام للنظم الليبرالية الغربية.

وقد شهدت هذه الصلاة الشاذة شذوذات كثيرة منها: أن المؤذن كان امرأة وكانت =

. . . .

= بلا حجاب ولا حتى شيء يغطي شعرها!! والتصق الرجال بالنساء في الاصطفاف للصلاة، وهن بلا حجاب أيضًا بل حاسرات الرؤوس، وقد لبسن الألبسة الضيقة كبناطيل الجينز وغيرها.

ومن أعظم المنكر الذي قامت به هذه الخطيبة المنحرفة: إشارتها أثناء الخطبة إلى لفظ الجلالة (الله) بضمير المذكر والمؤنث وغير العاقل بالإنجليزية، بحجة أن الله الدائم يستعصي على التعريف من حيث النوع، تعالى الله عن فعلها وقولها علوًّا كبيرًا!

وبعد أن أنهت خطبتها قامت لتؤم المصلين الذين وقفوا نساء ورجالًا في نفس الصفوف، وكان أغلبية الصف الأول من النساء وأدى هذه الصلاة الباطلة خلف هذه المنحرفة نحو (١٥٠) مصليًا (٦٠) منهم من النساء والباقي من الرجال والأطفال.

وقد أجرت قناة الجزيرة لقاء مع د.آمنة ودود قالت فيه: أنا لست فقيهًا ولا أقوم بأعمال الفقه، ولكنني أقرأ في كتب الفقه، وقرأت الكثير منها في الأسبوعين الماضيين، ربما أكثر من أي وقت مضى من قبل، وتخصصي الرئيسي في الحقيقة هو في التفسير ... أنا أشجع وأروج لفكرة مفادها: إن الحاجة للإصلاح في القانون الإسلامي لا يمكن أن يحدث ما لم ننجح، وأيضًا نحن ننجح في جعل المزيد أو وضع المزيد من الدراسات المفصلة والمعمقة والتحليل المفصل للقرآن نفسه، إذن هذا هو نقطة تركيزي الرئيسية وليس تركيزي على الفقه؛ لأن الفقه ليس في الحقيقة جزء من سُنة الرسول ﷺ، فالرسول لم ينتم إلى مذهب، أنا أنتمي إلى نفس المذهب الذي ينتمي إليه الرسول ... ونحن محظوظون الآن في استمرارنا في بحثنا وفي تحليلنا لماهية معاني القرآن الكريم، وأيضًا في القرن الحادي والعشرين إحدى القضايا التي دخلت مع بداية هذا القرن الجديد كانت مسألة الوعي بأننا لا نملك سجلًا للمرأة، وهو كيفية استجابتها لمعاني القرآن الكريم، إذن رسالتي لو أننا استطعنا أن نوسع من نطاق فهمنا للقرآن الكريم علينا أن نوسع من اهتمام علمائنا لِيُضمِنوا النساء بشكل متساو مع الرجال، بحيث تتوافر لهن علوم القرآن والمهارات اللازمة لكي يتقصوا المعاني التي تمشي جنبًا إلى جنب مع النصوص ومعانيها.

وقالت أيضًا: أنا سأقف أمام المصلين إن شاء الله، وسنصلي إن شاء الله تعالى حسب أفضل ما يتوفر لي من فهم أعكسه.. المبدأ التوحيدي القائل، والذي على أساسه تتوحد كل الكائنات البشرية على أساس من المساواة الروحية، ومع القدرة الكامنة للوصول إلى أهداف أسمى وأعلى، وأن يحصلوا أيضًا على المزيد من الفوائد المادية أيضًا. =

. . . .

= وسألها المذيع حافظ الميرازي فقال: دكتورة آمنة: هل اللحظة غير مناسبة والمكان غير مناسب؟

فأجابت: أولًا أنا لم أختر هذا الوقت، أنا وُجِّهت إلى الدعوة كضيفة وقبلتُها، وأيضًا قبلت دعوة قبل أكثر من عشر سنوات لأكون خطيبة في بلد آخر في جنوب أفريقيا، وصليت مع الرجال والنساء جنبًا إلى جنب، وصليت وراء نساء كن يؤمن رجالًا ونساء. إذن هذه ليست بالضرورة قضية جديدة مثيرة للجدل، هذه قضية مستمرة وهي مبعث قلق واهتمام، ولو لم نجعل قضية الهوية الروحية الكاملة والخلافة للمرأة المسلمة بشكل كامل لن نكون قد وضعنا هذا في مصافه الصحيح، ونكون قد خذلنا المرأة كما فعلنا في جزء كبير من تاريخنا.

وكانت امرأة أخرى مفسدة تدعى (إسراء النعماني) وهي كاتبة وصحفية سابقة بصحيفة (وول ستريت جورنال)، وهي أيضًا من منظمي هذه الصلاة الشاذة دخلت مسجدًا بمنطقة (مورجانتاون) بولاية (وست فرجينيا) من الباب الأمامي المخصص للرجال داعية بذلك إلى اختلاط الجنسين، رافضة الفصل بينهما بتخصيص باب للرجال وآخر للنساء وقالت معقبة على فعلها الشنيع: اليوم تنتقل النساء المسلمات من خلفية المسجد إلى الأمام، إنه حدث تاريخي.

وهذه المفسدة تترأس جمعية (جولة الحرية للنساء المسلمات) تتبنى الدعوة إلى إمامة المرأة للرجال في الصلاة متحدية إجماع علماء المسلمين على عدم مشروعية ما تدعو إليه هي وسابقتها.

وقالت: إنها ستؤم المصلين في صلاة الجمعة القادمة في ولاية بوسطن، على الرغم من رفض الأوساط الفقهية والشرعية هذا العمل البدعي.

وكانت نعماني، مؤلفة كتاب سيصدر قريبًا حول المرأة في الإسلام، قد أمَّت المسلمين في إحدى الصلوات يوم الأربعاء، وفق ما ذكرته وكالة رويترز للأنباء، لتصبح ثاني امرأة تقوم بهذا العمل المخالف لأحكام الشريعة الإسلامية.

وأضافت نعماني بأنها ستنظم صلوات مختلطة أخرى في مختلف الولايات الأمريكية، ومن بينها سان فرانسيسكو وواشنطن، وأكدت أنها لن تقبل بالأفكار التي أجمع عليها علماء الأمة الإسلامية، مدعية اعتقادها بشرعية وصحة ما تقوم به.

وقالت في مقابلة بثتها قناة الجزيرة القطرية: شكرًا جزيلًا لإتاحة الفرصة لي، ويشرفني =

. . . .

= أن أتحدث إليكم وإلى مشاهديكم؛ لنعلم أين هي الأزمة في العالم الإسلامي، والأمر متروك للنساء والمعتدلين ليعيدوا الدين من الذين استحوذوا عليه باسم التطرف، حقوق المرأة جانب حيوي من العالم الإسلامي وفي الولايات المتحدة -وبصفتنا نساء مسلمات- نحن نطالب بحقوقنا ضمن الإسلام، وأن نقف في مساجدنا، وأن ندخل من الأبواب الرئيسية، وغدًا سوف نستعيد حقنا في إمامة الصلاة، الدكتورة آمنه ودود امرأة قوية وشجاعة ألهمتني لأتعلم التعاليم الحقيقية ...

وهذه المنحرفة ابنة لمهاجر هندي يدعى ظفر نعماني وصل إلى (مورجان تاون) قبل حوالي ربع قرن، وكان يرتاد مسجدًا فيها، لكن المسجد لفت اهتمام وسائل الإعلام عندما نظمت نساء بزعامة ابنته المنحرفة إسراء مسيرة في العام الماضي لتحدي إدارة المسجد التي كانت تمنعهن من استخدام الباب الأمامي المخصص للرجال.

وفي كتابها لا تخجل من مفاخرتها بالزنا وإنجابها ولدًا سفاحًا، وتذكر هذه المنحلة كيف أن والديها المسلمين لم يتخليا عن دعمها حتى مع ابنها الذي أنجبته من دون زواج.

وقال والدها ظفر نعماني: إنه حفيدي، إنه طفل جميل ورائع، أقضي معه أوقات جميلة أستمتع بها كثيرًا.

فإذا كان هذا حال هذا الرجل وابنته يرضيان بالزنا، ويعترفان بولد السفاح ابنًا وحفيدًا لهما بلا حياء ولا إعلان توبة أو ندم من هذه الكبيرة، فلا يستغرب عليهما أي انحراف آخر! نسأل الله تعالى الهداية والموافاة على الإيمان والسنة.

والمنحرفون من الليبراليين والعقلانيين العرب يعجبهم مثل هذا التلاعب بالشريعة، ويعدونه تطويرًا للإسلام، وتقريبًا له من الحضارة الغربية والأمريكية على وجه الخصوص، وهم أشد إخلاصًا لها من قومها الأصليين! نسأل الله تعالى العافية. وكما عودونا فقد سنّوا أقلامهم للدفاع عن هاتين المرأتين المنحرفتين، واستخرج بعضهم حديثًا ضعيفًا للاستدلال به على هذا الشذوذ.

ورغم أنهم يردون الأحاديث الصحيحة الصريحة التي أجمعت الأمة على الأخذ بها في كثير من القضايا؛ كأحاديث تحريم الخلوة بالأجنبية، واشتراط المحرم للمرأة في السفر، وغيرها من الأحاديث الصحيحة الصريحة في كثير من القضايا التي لا تتفق وأهواءهم؛ فإنهم في هذه القضية يستدلون بحديث ضعيف في سنده، ولو فرض صحة إسناده فإنه لا يدل على ما يريدون، وهذا الحديث هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٠٥) =

. . . .

= قال: حدثنا أبو نعيم قال: ثنا الوليد قال: حدثتني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري، وكانت قد جمعت القرآن، وكان النبي ﷺ قد أمرها أن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذن، وكانت تؤم أهل دارها. ورواه أبو داود (٥٩٢)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢٣٨١)، وابن خزيمة (١٦٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٦٣)، والدارقطني (١/ ٤٠٣)، والطبراني في الكبير(٢٥/ ١٣٤) برقم (٣٢٦)، والبيهقي (٣/ ١٣٠).
وهو حديث ضعيف؛ فجدة الوليد بن عبد الله بن جميع مجهولة. ينظر: التلخيص الحبير(٢/ ٢٧) ونقل الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٣١) عن ابن القطان قوله: الوليد بن جميع وعبد الرحمن بن خلاد لا يعرف حالهما.
وقد نقل الشوكاني في نيل الأوطار (٣ / ١٨٧) عن الدارقطني: «إنما أذن لها أن تؤم نساء أهل دارها».
قال ابن قدامة في المغني (٢/ ١٦): «وحديث أم ورقة إنما أذن لها أن تؤم نساء أهل دارها. كذلك رواه الدارقطني، وهذه زيادة يجب قبولها ولو لم يذكر ذلك؛ لتعين حمل الخبر عليه؛ لأنه أذن لها أن تؤم في الفرائض بدليل أنه جعل لها مؤذنًا، والأذان إنما يشرع في الفرائض، ولا خلاف في أنها لا تؤمهم في الفرائض؛ ولأن تخصيص ذلك بالتراويح واشتراط تأخرها تحكم يخالف الأصول بغير دليل فلا يجوز المصير إليه، ولو قدر ثبوت ذلك لأم ورقة لكان خاصًا لها، بدليل أنه لا يشرع لغيرها من النساء أذان ولا إقامة فتختص بالإمامة لاختصاصها بالأذان والإقامة» انتهى.
قلت: هذه الزيادة التي ذكرها ابن قدامة والشوكاني عن الدارقطني كاشفة تثبت أن إمامتها للنساء دون الرجال، فإن كانت هذه الزيادة محفوظة لم يكن فيه حجة لمن يجيز إمامة المرأة للرجال، وإن لم تثبت هذه الزيادة فلم يثبت أيضًا أن مؤذن أم ورقة كان يصلي معها مقتديًا بها في أي رواية من الروايات، ومن قال بخلاف ذلك فليسق الرواية الدالة على ما يريد، فيحتمل أن خادمها يؤذن ثم يذهب إلى المسجد فيصلي مع الناس؛ لأن الرجال مأمورون بصلاة الجماعة التي لم يأذن النبي ﷺ للأعمى بأن يتخلف عنها. وهذا يكفي في الجزم بأنها إنما كانت تؤم نساء أهل بيتها، فإن قيل: يحتمل أن من أهل بيتها رجال تؤمهم، قيل: هذا الاحتمال يسقط الاستدلال بهذا الدليل، على أن ضعف الحديث كاف في الرد على من استدل به. والله أعلم. =

. . . .

= والأدلة على عدم جواز إمامة المرأة للرجال كثيرة جدًّا، منها:
١- قول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].
فجعل الله تبارك وتعالى القوامة للرجال ولم يجعلها للنساء، والولاية من القوامة، وإمامة الصلاة نوع ولاية، بل هي الولاية الصغرى عند الفقهاء، فلا تتولاها المرأة على الرجال.
٢- حديث أبي بكرة ﷺ قال: «لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل لما بلغ النبي ﷺ أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى قال: **لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» رواه البخاري (٦٦٨٦).
فنفى النبي ﷺ الفلاح عمن تولى أمورهم امرأة، والصلاة أمر من هذه الأمور، بل هي من أعظم الأمور، ونفي الفلاح يقتضي التحريم، فلا تتولى الإمامة فيها النساء.
وكثير ممن لم يعجبهم هذا الحديث ممن فتنوا بالحضارة المعاصرة التي تساوي بين الرجل والمرأة في كل شيء شرقوا به:
أ- فمنهم مَنْ رَدَّهُ جملة وتفصيلًا.
ب- ومنهم مَنْ خَصَّهُ بِزَمَن النبوة قبل أن تتعلم المرأة، زعموا.
ت- ومنهم من خَصَّه بقوم فارس، مع أن سياق الحديث يفيد العموم في الزمان والمكان، فالنبي ﷺ لما بلغه خبر فارس ما قال: لن يفلحوا، بل عمم ذلك في كل قوم، وليس ذلك في زمان دون زمان، أو أحوال دون أحوال؛ لأن الذي أخبر بذلك لا ينطق عن الهوى، وأقره الله سبحانه على ذلك مع علمه ﷻ بتغير أحوال البشر.
هذا إذا سلم أن ذلك الزمان ليس فيه نساء متعلمات وهو غير مُسَلَّم؛ فعائشة ﵂ كانت تحوي علمًا كثيرًا، ويرجع إليها في العلم كبار الصحابة ﵃ كما هو معلوم من سيرتهم ﵃.
٣- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلها وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلهَا**» رواه مسلم (٤٤٠).
فهذا الحديث نص في تأخر النساء عن الرجال، وقد جعل الخيرية في ابتعادهن عن الرجال، وجعل الشر في مقاربة صفوفهن صفوف الرجال، فكيف إذن يجوز أن تتقدم المرأة عليهم، وتكون أمامهم إمامة لهم؟! هذا أفسد ما يكون حكمًا وتعطيلًا لهذا الحديث.
ويتأكد ذلك بقول أَنَس ﷺ: «صليت أنا ويتيم في بيتنا خلف النبي ﷺ وأمي أم سليم خلفنا» رواه البخاري (٦٩٤).
فالحديث نص على أن المرأة لا تصافف الرجل ولو كان ابنها، ولو كان صغيرًا .. فكيف =

. . . .

= إذن تؤم الرجال وتتقدَّم عليهم؟ ومع أن الرجل لا يجوز له أن يصلي منفردًا خلف الصف، فإن ذلك سائغ شرعًا في حق المرأة؛ لئلا تخالط الرجل، وقد بوب البخاري -رحمه الله تعالى- على ذلك في صحيحه (١/ ٢٥٥) فقال: باب المرأة وحدها تكون صفًّا.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- في الفتح (٢/ ٢١٢) تعليقًا على حديث أنس وقصة صلاته وأمه مع النبي ﷺ: فيه أن المرأة لا تصف مع الرجال، وأصله ما يخشى من الافتتان بها.

٤- حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**» رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

ومعلوم أنَّ الذي عليه أمر النبي ﷺ أنَّ الرجل هو الذي يؤم الرجل والمرأة، واستمر العمل على ذلك في سائر العصور والأمصار الإسلامية، ولم تُنقل حادثة واحدة بخلاف ذلك، إلى أن أحدث هؤلاء بدعتهم النكراء، فإحداثهم لذلك بدعة في الإسلام، وكل بدعة ضلالة، وهي مردودة على صاحبها، وهذا يقتضي بطلان ذلك؛ لأن الأمر المردود ما ردَّ إلا لبطلانه.

٥- ما رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٤٥) معلقًا مجزومًا به: أن عائشة ﵂ كان يؤمها عبدها ذكوان من المصحف، ووصله ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ١٢٣) ولفظه: عن أبي بكر بن أبي مليكة أن عائشة أعتقت غلامًا لها عن دبر، فكان يؤمها في رمضان في المصحف. وصححه الحافظ في تغليق التعليق (٢/ ٢٩١).

٦- وعلى جلالة عائشة ﵂، ومكانتها في العلم والفضل، وهي وعاء من أوعية علم هذه الأمة الخاتمة، ورغم محلها من النبي ﷺ؛ فإنها لم تتقدم على عبدها في الصلاة، بل كانت تابعة له، رغم أنه غير حافظ للقرآن فيما يظهر من الأثر، وهذا كان في صلاة التراويح وهي نافلة، فكيف بمن أمَّتِ الرجال في الفريضة وهي دون عائشة ﵂، وفي صلاة الجمعة التي لم يوجبها الله تعالى إلا على الرجال دون النساء؟!

٧- أن الشريعة الغراء جاءت بسد كل الذرائع المفضية إلى اختلاط المرأة بالرجال، وحرمت نظر الرجل للمرأة، وأمرت كلا الجنسين بالغض من أبصارهم، وألزمت المرأة بالحجاب، وشرعت آداب الاستئذان وكيفية الدخول في البيوت، والنظر للمخطوبة، وغير ذلك من التشريعات التي تحسم مادة الفساد والانحلال. واعتلاء المرأة المنبر أمام الرجال، ثم تقدمها بين أيديهم لإمامتهم ينافي تلك التشريعات، ويبطل هذه الأحكام =

. . . .

= الربانية التي شرعها اللطيف الخبير بعباده، العليم بما يصلحهم وما يصلح لهم، والمعروف أن الخطيب إذا قام في الناس توجهت إليه الأبصار، فذلك أدعى للإنصات ومتابعة ما يقول، والرجل مأمور بغض بصره عن المرأة، فكيف يكون هذا التناقض؟!

٨- ما ثبت في الشريعة من وجوب الخشوع في الصلاة، والبعد عن كل ما يلهي المصلي فيها من لباس أو غيره، وفي إمامة المرأة للرجال وركوعها وسجودها أمامهم أعظم الإلهاء في الصلاة، بتحجيم عورتها، وإبداء محاسنها في الركوع والسجود، وهو سبب لعدم الخشوع، وسبيل لانحراف المصلين عن صلاتهم إلى شهواتهم. نسأل الله تعالى العافية والسلامة من ذلك.

وكل من له مسكة عقل، وعنده أدنى معرفة بالشريعة، وله فطرة سليمة؛ فإنه يستبشع هذا العمل المشين من هاتين المرأتين، ومن أيدهما في انحرافهما.

إنكار الأمة هذا العمل الشنيع:

استنكر المسلمون هذا العمل الشنيع من هاتين المرأتين المجترئتين على الله تعالى وعلى شريعته، وصدرت بيانات كثيرة، منها:

البيان الأول: صادر عن مجمع الفقه الإسلامي، ونصه:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بجدة المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي تعبر باسم علماء الأمة الإسلامية وفقهائها عن استنكارها وأسفها على ظهور بدعة مضلة وفتنة قائمة تمثلت في تقدم امرأة لأول مرة لإمامة جماعة من المصلين في صلاة جمعة بكاتدرائية مسيحية في مدينة مانهاتن، وفي هذا مخالفة لأحكام الشريعة من وجوه: تولي المرأة خطبة الجمعة وإمامتها للرجال في صلاتها ووقوف الرجال والنساء متجاورين مختلطين في كاتدرائية مسيحية، وهى أمور تخالف ما عليه اتفاق جمهور علماء الإسلام وفقهائه المعتمدين، وقد يكون المقيمون لهذه الصلاة على هذا الوجه معتمدين على أقوال ضعيفة أو غير معتمدة وردت في بعض الكتب الفقهية.

والمعتبر عند فقهاء الإسلام أن الجمعة فرض على الرجال دون النساء، فهم الذين يقيمونها خطبة وصلاة. والمرأة يجوز لها الحضور استحبابًا لا فرضًا، فكيف يسوغ لها أن تتقدم على من هو أحق منها بأدائها؟! كما أن من المعلوم أن تقدم المرأة على الرجل في =

. . . .

= الصف مما يبطل صلاة الرجل فكيف تؤمه؟! وقد بين رسول الله ﷺ أماكن وقوف النساء في الصفوف في حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجالِ أولها وشَرُّهَا آخِرُهَا، وخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُها**» رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمي.

وأن من شروط إقامة الجمعة عند الفقهاء أن تكون في مسجد جامع فضلًا عن إقامتها في غيره، فكيف تصح في كنيسة أو كاتدرائية مع وجود المساجد؟ وبناء على ما سَبَقَ فإن هذه الصلاة غير مستوفية للشروط، وعَلَى مَنْ أَدَّاها أن يعيدها ظهرًا قضاء.

والمجمع إذ يستنكر هذا الحدث، ويحث المسلمين كافة على التمسك بأحكام الدين الإسلامي المستمدة من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ويدعو الباحثين إلى الرجوع إلى أهل الدين المعتمدين فيما يعرض لهم من مشاكل وقضايا، محذرًا إياهم من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين المبطلة لأحكام الشرع وأدلته، إما بالطعن في ألفاظها أو أسانيدها أو بالعمل على تأويل معانيها الأصلية الثابتة بين الناس وبإجماع الأمة من عهده عليه الصلاة والسلام، ومن بعده بين الصحابة والتابعين، إلى أن انتهى الأمر للائمة المجتهدين.

والرسول ﷺ هو المبلغ والداعي إلى تحكيم الشرع بما صدر عنه من أوامر ونواه وإقرارات، وأن الدين وبخاصة في العبادات لا يجوز أن يتصرف فيه؛ لأن التوجيه فيها ينبغي أن يقصد به وجه الله، والامتثال له فيما أمر به ولكن طائفة من المبطلين ترمي إلى تحقيق مصالح خاصة على حساب المبادئ الإسلامية السامية، وتروم عقلنة الشريعة وإخراج الدين الإسلامي من كونه إلهيًّا إلى دين طبيعي قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الناس على مذهبين لا ثالث لهما: مذهب الملتزمين بالشريعة التي تلقوها عن الله، ومذهب المنحرفين الذين يحكمون بأهوائهم وبما لا يعلمون، منحرفين عن شريعة الله وأحكام دينه.

وينبه المجمع كل مسلم عاقل يقدم على الاجتهاد في الدين أن يعرف قدره، وألا يتعدى طوره، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ويذكر المجمع سائر المسلمين بأن الحقوق والواجبات والتكاليف المتنوعة المرتبطة =

. . . .

= بالنساء والرجال قد قضى الله بها، وليس لأحد من الناس التصرف فيها أو التأويل لها. ولقد خص سبحانه كل جنس من الجنسين الرجال والنساء بما هو محتاج إليه ومفتقر له، فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ وفي هذا دليل على أن المنهج الإسلامي يتبع الفطرة، وقد أودع سبحانه كل واحد من الجنسين خصائص يتميز بها عن الآخر، فتناط على وفقها الأحكام والوظائف المناسبة للشخص رجلًا كان أو امرأة، وبهذا تبطل أسباب الخصام والتنازع على أعراض الدنيا.

فلا وجه للحملة على الرجال ولا على النساء، ولا وجه لمحاولة النيل من أحدهم، كما لا مكان للطعن بأن التنوع في التكوين والخصائص لا يقابله تنوع في التكليف والوظائف، وكل هذه التصورات التي قدمنا عبث وسوء فهم للمنهج الإسلامي ولإرادة تحقيق وظيفة كل واحد من الجنسين، فالله الأعلم بما خلق، وهو الأعرف بمصالح الناس، وهو وليهم في الأمر كله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

البيان الثاني: من مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ونصه ما يلي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد: فقد ورد إلى مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا استفسار حول مدى مشروعية إمامة المرأة لصلاة الجمعة وإلقائها لخطبتها، وذلك بمناسبة ما أعلن عنه مؤخرًا من اعتزام بعض النساء على إلقاء خطبة الجمعة وإمامة صلاتها بأحد مساجد نيويورك. والمجمع إذ يستنكر هذا الموقف البدعي الضال ويستبشعه فإنه يقرر للأمة الحقائق التالية:

أولًا: أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الكتاب والسنة، وقد قال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي**»، وأن الإجماع على فهم نص من النصوص حجة دامغة تقطع الشغب في دلالته، فقد عصم الله مجموع هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة، وأن من عدل عن ما أجمع عليه المسلمون عبر القرون كان مفتتحًا لباب ضلالة، متبعًا لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ في معرض بيانه للفرقة الناجية في زحام الفرق الهالكة: «**مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**».

ثانيًا: لقد انعقد إجماع الأمة في المشارق والمغارب على أنه لا مدخل للنساء في خطبة الجمعة ولا في إمامة صلاتها، وأن من شارك في ذلك فصلاته باطلة إمامًا كان =

. . . .

= أو مأمومًا، فلم يسطر في كتاب من كتب المسلمين على مدى هذه القرون المتعاقبة من تاريخ الإسلام فيما نعلم قول فقيه واحد: سني أو شيعي، حنفي أو مالكي أو شافعي أو حنبلي يجيز للمرأة خطبة الجمعة أو إمامة صلاتها، فهو قول محدث من جميع الوجوه، باطل في جميع المذاهب المتبوعة، السنية والبدعية على حد سواء!

ثالثًا: لقد علم بالضرورة من دين الإسلام أن سنة النساء في الصلاة التأخير عن الرجال، فخير صفوف الرجال أولها وخير صفوف النساء آخرها، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلها وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلها**» وما ذلك إلا صيانة لهن من الفتنة، وقطعًا لذريعة الافتتان بهن من جميع الوجوه، فكيف يجوز لهن صعود المنابر والتقدم لإمامة الرجال في المحافل العامة؟!

رابعًا: لم يثبت أن امرأة واحدة عبر التاريخ الإسلامي قد أقدمت على هذا الفعل، أو طالبت به على مدى هذه العصور المتعاقبة من عمر الإسلام، لا في عصر النبوة، ولا في عصر الخلفاء الراشدين، ولا في عصر التابعين، ولا فيما تلا ذلك من العصور، وإن ذلك ليؤكد تأكيدًا قاطعًا على ضلال هذا المسلك وبدعية من دعا إليه أو أعان عليه. ولو كان شيئًا من ذلك جائزًا لكان أولى الناس به أمهات المؤمنين، وقد كان منهن الفقيهات النابغات، وعن بعضهن نقل كثير من الدين، وحسبك بالفصيحة البليغة العالمة النابهة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة ﵄، ولو كان في ذلك خير لسبقونا إليه وسنّوا لنا سنة الاقتداء به.

لقد عرف تاريخ الإسلام فقيهات نابغات ومحدثات ثقات أعلام، وقد أبلى النساء في ذلك بلاء حسنًا، وعرفن بالصدق والأمانة حتى قال الحافظ الذهبي: (لم يؤثر عن امرأة أنها كذبت في الحديث)، ويقول ﵀: (وما علمت من النساء مَنِ اتُّهِمَتْ ولا من تركوها) (ميزان الاعتدال: ٤/ ٦٠٤) وحتى كان من شيوخ الحافظ ابن عساكر بضع وثمانون من النساء! ومثله الإمام أبو مسلم الفراهيدي المحدث الذي كتب عن سبعين امرأة، ومن النساء في تاريخ هذه الأمة من كن شيوخًا لمثل الشافعي والبخاري وابن خلكان وابن حيان وغيرهم!! ومع ذلك لم يؤثر عن واحدة منهن أنها تطلعت إلى خطبة الجمعة أو تشوفت إلى إمامة الصلاة فيها، مع ما تفوَّقْن فيه على كثير من الرجال يومئذ من الفقه في الدين والرواية عن النبي ﷺ. لقد عرف تاريخ الإسلام المرأة عاملة على جميع الأصعدة، عرفها عالمة =

. . . .

= وفقيهة، وعرفها مشاركة في العبادات الجماعية، ومشاركة في العمليات الإغاثية، ومشاركة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه لم يعرفها خطيبة جمعة ولا إمامة جماعة عامة من الرجال.

وبهذا يعلم بالضرورة والبداهة من دين المسلمين أن الذكورة شرط في خطبة الجمعة وإمامة صلوات الجماعة العامة، وأمام من يجادل في ذلك عمر نوح لكي يفتش في كتب التراث ليخرج لنا شيئًا من ذلك، وهيهات هيهات! وما ينبغي لهم وما يستطيعون!

خامسًا: أما تعويل من زعم ذلك على ما روي من أن أم ورقة قد أذن لها النبي ﷺ في إمامة أهل بيتها؛ فإن هذا الحديث على فرض صحته لا علاقة له بموضوع النازلة، فإنه يتحدث عن إمامة خاصة داخل البيت بالنساء أو بهن وببعض أهل البيت من الرجال على أوسع التفسيرات، وأكثرها ترخصًا، فأين ذلك من خطبة الجمعة والإمامة العامة للصلاة؟!

إن المجمع ليحذر الأمة من الافتتان بمثل هذه الدعوات الضالة المارقة من الدين، والمتبعة لغير سبيل المؤمنين، ويدعوهم إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، ويذكرهم بأن هذا العلم دين، وأن عليهم أن ينظروا عمن يأخذون دينهم، وأن القابض على دينه في هذه الأزمنة كالقابض على الجمر، ويسأل الله لهذه الأمة السلامة من الفتن والعافية من جميع المحن، وأن يحملها في أحمد الأمور عنده وأجملها عاقبة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الأمين العام: د. صلاح الصاوي

ثالثًا: ما جاء على لسان مفتي عام المملكة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ حيث قال: قضية في هذه الأيام يروج لها الإعلام الخارجي، ربما ننظر إليها على أنها ثانوية وهامشية، ولكن إذا سبرنا الوضع وجَدْنَا أنها لإيجاد الفرقة بين أبناء الأمة، وقطْع الصلة بين حاضرها وماضيها، وهذه القضية: ما ينشر بأن هناك فكرة هي: إمامة امرأة لرجال ونساء في صلاة الجمعة.

ومن نظر بتدبر وجد أن أمَّتَنَا منذ عهد محمد ﷺ إلى وقتنا الحاضر لم يجز للمرأة أن تقف خطيبة في الرجال، فهذه القضية ما أُتي بها إلا لإضعاف الحياء في النساء، ولم يريدوا خيرًا بل سوءًا وضلالًا؛ لأن هذا الأمر لم يعهد منذ العصور السابقة. وعلى الرغم من أن البعض اعتبرها قضية خاصة، إلَّا أنه يجب الحذر منها، فالمرادبها تحطيم الحواجز وحياء المرأة، ويكون أعداء الإسلام معول هدم في الأمة الإسلامية ويأبى الله ذلك. =

. . . .

= **رابعًا: ما جاء عن شيخ الأزهر؛ حيث أكد شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي** أن إمامة المرأة للرجال بصفة عامة سواء كانت في صلاة الجمعة أو في الصلوات الخمس المفروضة أو في صلاة النوافل أو في أي صلاة أخرى لا تجوز، وإنما يجوز لها أن تكون إمامة لبنات جنسها من النساء؛ لأن بدن المرأة عورة، وعندما تؤم الرجال ففي هذه الحالة لا يليق بهم أن ينظروا إلى المرأة التي يظهر أمامهم بدنها، فإن ظهر لهم في الحياة العامة فإنه لا يصح أن يوجد في العبادات التي لحمتها الخشوع.

خامسًا: ما جاء عن مفتي مصر السابق الدكتور نصر فريد واصل؛ حيث أكد على أن قيام المرأة بإمامة الرجال في الصلاة غير صحيح، ولا يجوز شرعًا للمرأة إمامة الرجال أو الصبيان، وإنما يجوز لها فقط أن تؤم النساء.

وأضاف: من أدى الصلاة خلف هذه المرأة فصلاته باطلة، فلو أن إمامة المرأة جائزة للرجال في الصلاة لكان أولى بها أمهات المؤمنين، مشيرًا إلى أن ما فعلته الدكتورة أمينة ودود بإمامتها صلاة الجمعة الماضية للرجال والنساء بدعة منكرة؛ لأن حكم إمامة المرأة للرجال شيء معلوم من الدين بالضرورة.

سادسًا: ما صدر عن الشيخ محمد نور عبدالله رئيس الاتحاد الإسلامي لأمريكا الشمالية، وهي أكبر منظمة إسلامية في الولايات المتحدة وكندا والمكسيك؛ حيث قال تعليقًا على هذا الحدث الشاذ والغريب: قطعًا نحن كمسلمين في أمريكا الشمالية وفي العالم ككل نواجه تحديًا كبيرًا جدًّا، تحديًا حضاريًّا، تحديًا ثقافيًّا، تحديًا دينيًّا، وهذه التحديات تسير في اتجاه واحد هو خلخلة مبادئ الإسلام والأصول الثابتة للإسلام وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة. والمشيعون للتصدي للإسلام لديهم مواقع على الإنترنت يكشفون فيها نواياهم الحقيقية لتغيير الإسلام أو تعديله كما حصل في الأديان الأخرى، في حين أننا كمسلمين لدينا في ديننا ثوابت متينة مصدرها القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وإجماع السلف الصالح، أما ما عدا ذلك فيدخل تحت نطاق الاجتهاد.

ومن خلال اطلاعي على السنة وعلى أقوال الفقهاء لم أجد أنهم أجازوا قيام امرأة بإمامة الناس رجالًا ونساءً في مكان عام.

ثم قال: لو كان في إمامة المرأة للرجال في الصلاة خير أو رفعة وعزة للمرأة، فبدون شك أن أمهات المؤمنين سَيَكُنَّ السباقات إلى ذلك.

إن عائشة ﵂ التي هي فقيهة الأمة أمت النساء فقط في صلاة التراويح، ووقفت في =

مَشْرُوعِ المَسْخِ وَالتَّبْدِيلِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفِ شَرِيعَتِهِ، مَعَ إِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى مُجَافَاةِ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّاذِّ لِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ هَذَا الإِجْمَاعِ إِلَّا شُذَّاذٌ مِنَ المُنَافِقِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ، قَدْ تَدَثَّرُوا بِاللِّيبْرَالِيَّةِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهَا، وَهَتَفُوا بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَهُمْ وَأَسْيَادُهُمْ يَنْحَرُونَهَا صَبَاحًا وَمَسَاءً. وَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ بَغْيَهُمْ وَظُلْمَهُمْ، أَوْ رَدَّ مَنْهَجَهُمْ وَطَرِيقَتَهُمْ، فَهُوَ مِحْوَرٌ لِلشَّرِّ، خَارِجٌ عَلَى الْقَانُونِ، مُفْسِدٌ فِي الْأَرْضِ.

= وسط الصف، وكذلك الحال مع أم سلمة ﵂ التي أمت النساء فقط.
والأمر الآخر المهم هو أن صلاتنا تعني الخشوع والخضوع لله ﷻ فكيف يمكن لذلك أن يتم متى كانت امرأة تؤم الرجال، ترجع وتسجد أمامهم؟!! حتى حياء المرأة يمنعها من فعل هذا الشيء، لو سلمنا بأن ذلك جائز، وأنا شخصيًّا لا يمكنني تخيل أن والدتي أو أختي ستؤم الرجال الأجانب. وحادثة الدكتورة أمينة ودود لا تخرج عن كونها خلخلة لمبادئ الدين الإسلامي؛ لأن من يقومون بهذا العمل -وقد تكون نواياهم سليمة -إلا أنهم- وبدون قصد- يصبحون أدوات في أيدي أعداء الإسلام الساعين إلى إحداث تغيير أو تبديل في الإسلام. ولذلك فنحن نناشد كل من لديهم ضمير، وكل من لديهم حياء في دينهم أن يتقوا الله في أنفسهم وفي دينهم وفي آخرتهم؛ فالدين الإسلامي ليس مظاهرة أو مسألة صراع بين الرجل والمرأة، الإسلام كرَّم المرأة ومنحها حقوقها كاملة، وهي حقوق لم تمنح للمرأة من قبل، وحتى الآن لم تتمتع المرأة الغربية بالحقوق التي تتمتع بها المرأة المسلمة. وختم حديثه بقوله: علينا أن نؤكد على أن أمامة المرأة للرجال والنساء في الصلاة بإجماع الفقهاء تجعل من صلاتهم صلاة باطلة؛ فالتاريخ الإسلامي لا يتضمن سوى حالة واحدة، وهي حالة الصحابية الجليلة أم ورقة ﵂ التي أمت أهل بيتها ولم تؤم المسلمين، رجالًا ونساءً، في مكان عام سواء في صلاة الجمعة أو غيرها. كانت هذه هي الحالة الوحيدة، ولو كانت حالة أو حالات غيرها لكان قد دَوَّنَها العلماء. ومع الأسف أن هذا الذي نواجهه ما هو إلا تحد جديد يواجهه الإسلام والمسلمون، ونحن المسلمين في أمريكا أصبحنا في فوهة المدفع؛ لأن أمريكا أصبحت لأعداء الإسلام ساحة اختبار، أما الهدف الأساسي لهم فهو تخريب الإسلام في العالم أجمع، ومسخ كل القواعد والمسلمات المتعلِّقة بالإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إِنَّ اللَّهَ ﷻ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِيهِمْ، الْمُبَيِّنُ لِأَحْوَالِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فَمَنْ تبعَ شَرِيعَتَهُ، وَدَعَا إِلَيْهَا، وَدَافَعَ عَنْهَا؛ فَهُوَ الْمُصْلِحُ. وَمَنْ أَنْكَرَهَا، أَوْ تَنَكَّرَ لَهَا، أَوْ حَرَّفَهَا، أَوْ حَادَ عَنْهَا؛ فَهُوَ الْمُفْسِدُ وَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ مُصْلِحٌ، هَذَا هُوَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ هِيَ إِرَادَتُهُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ الْمُطَهَّرِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ ﷺ، وَبِهَذَا الْمِيزَانِ الْعَادِلِ يُوزَنُ النَّاسُ، بَعِيدًا عَنْ تَحْكِيمِ الْأَهْوَاءِ، أَوْ الِاعْتِبَارِ بِالْأَعْرَاقِ وَالْأَنْسَابِ، أَوِ الْإِمْكَانَاتِ وَالْقُوَّةِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَلَكِنَّ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ عَنْ جَهْلٍ أَوْ هَوًى لَا يَرْتَضُونَ هَذَا الْحُكْمَ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا الْمِيزَانِ، وَلَا يَخْتَطُّونَ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ؛ وَلِذَا فَهُمْ يَحْكُمُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَيُرْجِعُونَ مَشَاكِلَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَيَرْمُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ نَقِيصَةٍ، وَيَقْذِفُونَهَا بِكُلِّ خَسِيسَةٍ؛ بَلْ وَيَتَشَاءَمُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْ شَرِيعَتِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَلَفُوا فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ حِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧]، وَجَاءَ بَعْدَهُمْ أَقْوَامٌ فَقَالُوا لِرُسُلِهِمْ: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

إِنَّهَا سُنَّةُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ يَرْمُونَ غَيْرَهُمْ بِأَدْوَائِهِمْ، وَيَتَطَيَّرُونَ بِالصَّالِحِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَنَتِيجَةً لِضَخَامَةِ التَّزْوِيرِ وَالْإِفْكِ الَّذِي يَنْشُرُهُ كُفَّارُ هَذَا الزَّمَنِ وَمُنَافِقُوهُ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، وَيَخُصُّونَ عِبَادَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَخْدُوعِينَ صَدَّقُوا إِفْكَهُمْ، وَانْطَلَى عَلَيْهِمُ افْتِرَاؤُهُمْ، فَظَنُّوا ظَنَّ الْجَاهِلِينَ: ظَنُّوا أَنَّ التَّمَسُّكَ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ سَبَبُ مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا

الْعَصْرِ هُمْ حَمَلَةُ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ وَلِذَا فَهُمْ يَرُومُونَ تَغْيِيرَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَبْدِيلَ شَرِيعَتِهِ الَّتِي ارْتَضَاهَا لِلنَّاسِ كَافَّةً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي الأَرْضِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْهُمْ بِوَجْهٍ أَخْصَّ هُمْ أَهْلُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ عَلَى الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ؛ فَبِعِبَادَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ عَمَّ الْخَيْرُ أَرْجَاءَ الأَرْضِ، وَرُفِعَ بِصَلَاحِهِمْ وَإِصْلَاحِهِمْ وَدُعَائِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا رُفِعَ، فَلَيْسُوا مَصْدَرَ شُؤْمٍ وَبَلَاءٍ.

بَلِ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَأَهْلُ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ، الْمُحَادُّونَ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمُحَارِبُونَ لِأَوْلِيَائِهِ هُمْ أَهْلُ الشُّؤْمِ، وَهُمْ سَبَبُ الْعَذَابِ وَالذُّلِّ وَالْهَوَانِ عَلَى الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، وَيَتَعَدَّى شُؤْمُهُمُ الْبَشَرَ لِيُصِيبَ الْحَيَوَانَ وَالطَّيْرَ وَالْوَحْشَ وَالنَّبَاتَ، بِمَا يُحْبَسُ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْأَمْطَارِ، وَمَا يُمْنَعُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَبِمَا يَقَعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ مُحَادَّتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِشَرِيعَتِهِ.

إِنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ يَجِبُ أَنْ يَفْرَحَ النَّاسُ بِكَثْرَتِهِمْ، وَأَنْ يَقْتَدُوا بِهِمْ فِي سَمْتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ، وَأَنْ يُعِينَهُمُ النَّاسُ فِي إِصْلَاحِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ؛ فَبِدَعْوَتِهِمْ تُسْتَمْطَرُ السَّمَاءُ، وَيُسْتَنْصَرُ عَلَى الأَعْدَاءِ، وَيُدْفَعُ الْبَلَاءُ، وَيَعُمُّ الْخَيْرُ وَالأَمْنُ أَرْجَاءَ الأَرْضِ:

فَفِي شَأْنِ الِاسْتِمْطَارِ بِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعَفَتِهِمْ، بِدَعَوَاتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**»(٢).

---

(٢) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب من =

وَإِيمَانُ المُؤْمِنِ سَبَبٌ لِرِزْقِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِرِزْقِهِ غَيْرُهُ مِنْ قَرَابَتِهِ وَمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا المُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَأَمَّا رَفْعُ الْعَذَابِ عَنِ الْعِبَادِ فَبِسَبَبِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ، فَهُمُ المُصْلِحُونَ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُبَالِي بِهِمْ، بَلْ وَلَا يُبَالِي بِأَهْلِ الأَرْضِ إِذَا خَلَتْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَتَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ، لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِمْ شَيْئًا**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً**»(٤).

= استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٧٣٩)، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/ ٤٥)، والبزار (١١٥٩)، والبيهقي (٣/ ٣٤٥) وتمام الرازي في فوائده (٦٩٨).

وأخرجه بنحوه من حديث أبي الدرداء ﷺ: أحمد (٥/ ١٩٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة (٢٥٩٤)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (١٧٠٢)، والنسائي (٦/ ٤٥)، وصححه ابن حبان (٤٧٦٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ١١٦).

(٣) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا (٢٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٥)، وأبو يعلى (٢٨٤٤)، والطبراني في الأوسط (٢٨٨٦).

(٤) أخرجه من حديث مرداس الأسلمي ﷺ: البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٢٥). =

وَالمَعْنَى: لَا يَرْفَعُ لَهُمْ قَدْرًا، وَلَا يُقِيمُ لَهُمْ وَزْنًا(٥)، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ وَزْنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ خُلُوِّهِمْ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ؛ رُفِعَتْ عَنْهُمُ الْبَرَكَاتُ، وَحَلَّتْ بِهِمُ الْعُقُوبَاتُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: النَّدْبُ إِلَى الِاقْتِدَاءِ بِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَصِيرَ مَنْ خَالَفَهُمْ مِمَّنْ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ(٦).

وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وَالمُسْلِمُونَ هُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَنْفِي الْعَذَابَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْهُمْ هُمْ أَهْلُ الشُّكْرِ وَالإِحْسَانِ.

وَفِي خِطَابٍ قُرْآنِيٍّ آخَرَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]، وَأَهْلُ الخَيْرِ وَالصَّلَاحِ هُمْ أَهْلُ الِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِدَعْوَةِ رُسُلِهِ ﷺ، وَهُمْ أَهْلُ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَهُمْ أَهْلُ دُعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ، وَالِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَبِهَذَا يُعْلَمُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ-: أَنَّ خَيْرًا كَثِيرًا يَنْعَمُ بِهِ البَشَرُ كُلُّهُمْ سَبَبُهُ وُجُودُ الصَّالِحِينَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَهَذَا الخَيْرُ الْكَثِيرُ يَقَعُ بِصَلَاتِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، وَأَمْرِهِمْ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ المُنْكَرِ؛ فَكَمْ مِنْ خَيْرٍ نَزَلَ عَلَى الْعِبَادِ، وَشَرٍّ دُفِعَ عَنْهُمْ

= والرواية الثانية للبخاري في الرقاق، باب ذهاب الصالحين (٦٠٧٠). وقال البخاري: يقال حفالة، وحثالة.

وقال الحافظ في الفتح: يعني: أنها بمعنى واحد، ثم نقل عن الخطابي قوله، الحثالة بالفاء والمثلثة الرديء، من كل شيء. وقيل: آخر ما يبقى من الشعير والتمر وأرداه، وقال ابن التين: الحثالة سقط الناس، وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير وغيرها، وقال الداودي: ما يسقط من الشعير عن الغربلة (١١/ ٢٥٢).

(٥) هذا المعنى ذكره الخطابي فيما نقله الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥٢).

(٦) شرح ابن البطال (١٠/ ١٥٨)، وعنه ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٥٢).

بِسَبَبِهِمْ؟! وَكَمْ مِنْ عَجَائِزَ رُكَّعٍ سُجَّدٍ يَعْبَأُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِنَّ، فَيَرْفَعُ عُقُوبَتَهُ عَنِ الْعِبَادِ بِدُعَائِهِنَّ؟! فَهَلْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ شُؤْمٌ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ حَتَّى يَتَطَيَّرَ بِهِمُ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي بَغْيِهِمْ مِنَ الْجَهَلَةِ وَالظَّالِمِينَ؟! أَمْ أَنَّ الشُّؤْمَ عَلَى الْبَشَرِ مَا وَقَعَ إِلَّا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَمُحَاوَلَةِ مَسْخِهَا وَإِلْغَائِهَا، ثُمَّ اعْتَدَوْا عَلَى الْبَشَرِ بِالظُّلْمِ وَالْبَطْشِ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ قُوَّةً بَنَوْهَا مِنْ أَقْوَاتِ وَدِمَاءِ الشُّعُوبِ الْمَغْلُوبَةِ الْمَقْهُورَةِ.

ثُمَّ تَرَى أَقْوَامًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَوْ مِنَ الْجَاهِلِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَنَاهِجِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي كَانَتْ أَعْظَمَ شُؤْمٍ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَيَصْرِفُونَهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُخَوِّفُونَهُمْ مِنْ حَمَلَتِهَا، وَمَا كَانَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا خَيْرًا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ.

فَحَذَارِ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمُرْجِفَةِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي حَمَلَتِهِ وَالْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ نَعِيقُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ عَمَّ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ أَرْكَانَ الْبَسِيطَةِ، وَلَوْ قَهَرُوا النَّاسَ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ، وَاللهُ تَعَالَى مُظْهِرٌ دِينَهُ، مُعْلٍ كَلِمَتَهُ، مُتِمٌّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَمَا هَذِهِ الْمِحَنُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ إِلَّا ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨، ١٣٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

الخُطْبَةُ الثّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ-؛ فَإِنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِتَقْوَاهُ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى آمِنُونَ مِنَ الخَوْفِ وَالحُزْنِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: أَهْلُ الإِسْلَامِ أَهْلُ خَيْرٍ وَفَضْلٍ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَهُمْ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى رَحِمَ بِهَا الأَحْيَاءَ عَلَى الأَرْضِ؛ وَلِذَلِكَ إِذَا خَلَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ فَلَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا فِيمَنْ كَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[(٧)].

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ»[(٨)].

---

(٧) جاء في ذلك أحاديث عدة منها:

أ- حديث النواس بن سمعان عند: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

ب- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤٠).

ج- حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٩٤٩).

(٨) أخرجه موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٤).**

وَمِنْ بَرَكَاتِ تَوَافُرِ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّالِحِينَ عَلَى الأَرْضِ أَنَّ الْعَذَابَ وَالهَلَاكَ يُؤَخَّرُ أَوْ يُرْفَعُ عَمَّنِ اسْتَوْجَبُوهُ بِكُفْرِهِمْ وَفِسْقِهِمْ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُصِيبَ الْمُسْلِمِينَ أَوِ الصَّالِحِينَ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَقَدْ يُدْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ؛ لِئَلَّا يُصِيبَ مَنْ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فَلَوْلَا الضُّعَفَاءُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الكُفَّارِ عَذَّبَ اللَّهُ الكُفَّارَ، وَقَدْ قَالَ المَسِيحُ ﵇: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فَبَرَكَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ بِاعْتِبَارِ نَفْعِهِمْ لِلْخَلْقِ بِدُعَائِهِمْ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِدُعَائِهِمْ لِلْخَلْقِ، وَبِمَا يُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرَّحْمَةِ، وَيَدْفَعُ مِنَ الْعَذَابِ بِسَبَبِهِمْ حَقٌّ مَوْجُودٌ» اهـ[٩].

وَلِانْتِفَاعِ الْبَشَرِ بِوُجُودِ الْمُسْلِمِينَ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ بِالنَّخْلَةِ النَّافِعَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي يُسْتَفَادُ مِنْ كُلِّ أَجْزَائِهَا، وَهَكَذَا الْمُسْلِمُ أَيْنَمَا حَلَّ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ حَلَّتِ الْبَرَكَةُ وَالْخَيْرُ عَلَى أَهْلِهِ، بِمَا يَقُومُ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ، رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﵄ فَقَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسٌ إِذْ أُتِيَ بِجُمَّارِ نَخْلَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ**. فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي النَّخْلَةَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ الْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشَرَةٍ أَنَا أَحْدَثُهُمْ، فَسَكَتُّ، فَقَالَ

---

(٩) مجموع الفتاوى (١١/ ١١٣-١١٤).

النَّبِيُّ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

فَلَيْسَ المُسْلِمُونَ كَالْكُفَّارِ، وَلَا الأَبْرَارُ مِثْلُ الْفُجَّارِ؛ فَالْفُجَّارُ وَالْكُفَّارُ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ، حَتَّى يَطُولَ ضَرَرُهُمْ مَنْ عَلَى الأَرْضِ جَمِيعًا، وَأَمَّا المُسْلِمُونَ الأَبْرَارُ فَإِنَّ نَفْعَهُمْ يَتَعَدَّاهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٨]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

فَلَمْ يُسَوِّ اللَّهُ ﷻ بَيْنَهُمْ؛ بَلْ بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، وَوَصَفَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُمْ شُؤْمٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى مُجْتَمَعَاتِهِمْ، بَلْ وَعَلَى أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُعَذِّبَ الْعِبَادَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ.



(١٠) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب أكل الجمار (٥١٢٩)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة (٢٨١١).

والجُمَّار: بضم الجيم وتشديد الميم: هو شَحْم النخلة الذي في قلبها، قال النووي: «هو الذي يُؤْكَل مِنْ قَلْبِ النخل يكون لَيِّنًا» شرح مسلم (١٧/ ١٥٥).

٣٠٧- بين المصلحين والمفسدين (٢)
شؤم المفسدين

٢١/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَقَامَ حُجَّتَهُ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى وِلَايَتِهِ؛ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٧]، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْكُفَّارِ، وَالْأَخْيَارَ بِالْفُجَّارِ؛ حِكْمَةً مِنْهُ وَامْتِحَانًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٣]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَلَا يَسَعُ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ إِلَّا اتِّبَاعُهُ؛ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٨]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ عَمَلَكُمْ، وَأَقِيمُوا دِينَكُمْ، فَمَنْ وَافَاهُ عَلَى ذَلِكَ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَمَنْ فَرَّطَ فِي حَيَاتِهِ، وَضَيَّعَ دِينَهُ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ؛ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨-٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَمِنْ عَظِيمِ ابْتِلَائِهِ لَهُمْ أَنْ

جَعَلَهُمْ طَائِفَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، وَقَسَّمَهُمْ إِلَى فَرِيقَيْنِ مُتَحَارِبَيْنِ؛ فَفَرِيقٌ اخْتَارَ طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فِي السَّعْيِ بِالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَفَرِيقٌ سَارَ سِيرَةَ الطُّغَاةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَسَعَى بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي تَحْدِيدِ الصَّلَاحِ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْإِصْلَاحِ مِنَ الْإِفْسَادِ بِحَسَبِ أَدْيَانِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ، وَإِلَّا فَإِنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ يَدَّعِيهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَالْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ يَتَبَرَّأُ مِنْهُ كُلُّ النَّاسِ، وَالْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ لَا يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ، وَمَلَاحِدَةُ الْبَشَرِ يَرَوْنَ أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْمُفْسِدُ لِلنَّاسِ؛ وَلِذَا يُحَارِبُونَهُ لِتَحْرِيرِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْهُ كَمَا يَزْعُمُونَ، وَقَدِيمًا قَالَ فِرْعَوْنُ الطَّاغِيَةُ وَهُوَ رَأْسٌ فِي الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وَإِذَا كَانَ الِاخْتِلَافُ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي تَحْدِيدِ الصَّلَاحِ مِنَ الْفَسَادِ، وَالْمُصْلِحِ مِنَ الْمُفْسِدِ قَدْ بَلَغَ هَذَا الْحَدَّ؛ فَإِنَّ الْمِيزَانَ فِي ذَلِكَ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْخَلْقِ وَمُدَبِّرُهُمْ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الدِّينَ وَشَرَعَهُ لَهُمْ، وَهُوَ مَنْ يُحَاسِبُهُمْ بِهِ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَتَحْدِيدُ الْمُصْلِحِينَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ عَنْ طَرِيقِ وَحْيِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ يَجِبُ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ فِيهَا مُسْلِمَانِ، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٦٣]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونُس: ٤٠].

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقٍ بِمَوْعُودِهِ، دَاعِيَةٍ إِلَى دِينِهِ، مُحَارِبٍ لِمَا عَارَضَهُ فَهُوَ صَالِحٌ مُصْلِحٌ وَإِنْ رُمِيَ بِغَيْرِ ذَلِكَ، وَكُلُّ مُعَارِضٍ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى مُمَالِئٍ لِمَنْ يُحَارِبُهَا، فَهُوَ فَاسِدٌ مُفْسِدٌ وَلَوْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُمْ يَتَشَاءَمُونَ بِالْمُصْلِحِينَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَبَبُ بَلَاءِ الْبَشَرِ، وَانْتِكَاسِ حَالِهِمْ، وَتَرَدِّي أَوْضَاعِهِمْ، وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ الْأَقْدَمُونَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَتَشَاءَمُوا مِنْ رُسُلِهِمْ عليهم السلام، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ سَبَبُ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ:

فَقَبِيلَةُ ثَمُودَ تَطَيَّرُوا بِصَالِحٍ عليه السلام وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النَّمل: ٤٧].

وَأَصْحَابُ الْقَرْيَةِ تَطَيَّرُوا بِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ؛ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٨، ١٩].

وَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُمْ تَطَيَّرُوا بِمُوسَى عليه السلام وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣١].

وَالْمُفْسِدُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فَعَلُوا ذَلِكَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَتَطَيَّرُوا بِهِ، وَأَرْجَعُوا كُلَّ مَصَائِبِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ؛ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

وَمَنْ تَأَمَّلَ وَاقِعَ الْمُفْسِدِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ، سَوَاءٌ كَانُوا مَلَاحِدَةً أَمْ وَثَنِيِّينَ أَمْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَمْ مُنَافِقِينَ، فَسَيَجِدُ أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا عَلَى ذَاتِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا إِخْوَانُهُمُ الْمُفْسِدُونَ قَبْلَهُمْ؛ فَهُمْ يَتَطَيَّرُونَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِشَرِيعَتِهِ وَبِحَمَلَتِهَا، وَبِالدُّعَاةِ إِلَيْهَا، وَيُرْجِعُونَ كُلَّ مَصَائِبِ الْأُمَّةِ وَتَأَخُّرَهَا وَاخْتِلَافَهَا إِلَى

دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَالمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى نَبْذِ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ أَرَادُوا عِزًّا وَتَقَدُّمًا وَاجْتِمَاعًا وَازْدِهَارًا.

وَالْحَقِيقَةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: أَنَّ سَبَبَ بَلَاءِ الْبَشَرِ وَمَصَائِبِهِمْ هُمْ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَسَارَ سِيرَتَهُمْ، وَهُمْ سَبَبُ رَفْعِ الْخَيْرَاتِ، وَتَنَزُّلِ الْعُقُوبَاتِ، وَهُمْ سَبَبُ هَلَاكِ مَنْ هَلَكَ فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَكُلُّ بَلَاءٍ حَلَّ فِي الْبَشَرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فَبِشُؤْمِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَحَرْبِهِمْ عَلَى شَرِيعَتِهِ، وَسَعْيِهِمْ لِإِفْسَادِ الْبَشَرِ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُصْلِحِينَ بِشَتَّى الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، وَاقْرَؤُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى تَجِدُوا أَنَّ كُلَّ الْمُعَذَّبِينَ قَبْلَنَا إِنَّمَا عُذِّبُوا بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لِلْمُفْسِدِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، وَتَنَكُّبِهِمْ لِمَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ رُسُلُهُمْ عليهم السلام:

فَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٩٠]، وَقَدْ ذَكَّرَهُمْ شُعَيْبٌ عليه السلام بِسِيَرِ الْمُعَذَّبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٦]، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُصْغُوا إِلَيْهِ عليه السلام، وَسَارُوا سِيرَةَ الْمُفْسِدِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعُذِّبُوا كَمَا عُذِّبُوا.

وَهَكَذَا كُلُّ الْأُمَمِ الَّتِي عُذِّبَتْ إِنَّمَا عُذِّبَتْ بِسَبَبِ طَاعَةِ الْمُفْسِدِينَ، فَكَانُوا شُؤْمًا وَبَلَاءً عَلَى أَقْوَامِهِمْ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الْحَجّ: ٤٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا

خُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٨، ٩]، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ شُؤْمِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى الْبَشَرِ.

وَالْمُفْسِدُونَ مِنَ الْبَشَرِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ فِي نَشْرِ فَسَادِهِمْ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكْثُرَ الْخَبَثُ فِيهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ عَذَابِهِمْ، وَقَدْ قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَلَا يَكْتَفُونَ بِإِتْيَانِ الْخَبِيثِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَنَشْرِهِ فِي النَّاسِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ، بَلْ يُجَاهِرُونَ بِمُنْكَرِهِمْ، وَيُعْلِنُونَ بِهِ، حَتَّى تُرْفَعَ الْعَافِيَةُ عَنِ النَّاسِ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْعِقَابَ بِسَبَبِهِمْ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٢).

وَالْأُمَّةُ الَّتِي يُجَاهِرُ الْمُفْسِدُونَ فِيهَا بِالْمُنْكَرَاتِ وَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ حَرِيَّةٌ بِرَفْعِ عَافِيَتِهَا، وَوُجُوبِ عُقُوبَتِهَا.

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

---

(١١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٦٨)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه (٥٧٢١).

(١٣) أخرجه البخاري في الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (٩٩٧)، ومسلم في الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١).

(١٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة (٤٩٢٢)، ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٦٧٦٠).

وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الْفَوَاحِشَ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَيُمَهِّدُونَ سُبُلَهَا بِمَا يَشْرَعُونَهُ مِنِ انْحِرَافٍ فِكْرِيٍّ عَقَائِدِيٍّ يُسَمُّونَهُ الْحُرِّيَّاتِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ، وَبِمَا يُيَسِّرُونَ مِنْ سُبُلِ اخْتِلَاطِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ سَبَبُ سَلْبِ الْخَيْرَاتِ، وَقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِي الْأَرْزَاقِ، وَهُمْ سَبَبُ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَهُمْ أَهْلُهَا وَالدَّاعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا شُؤْمَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ عَلَى قَوْمِهِمْ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١].

وَقَوْمُ سَبَإٍ لَمْ يَتَبَدَّلْ نَعِيمُهُمْ وَهَنَاؤُهُمْ إِلَى جُوعٍ وَخَوْفٍ وَعَذَابٍ إِلَّا بِشُؤْمِ المُفْسِدِينَ مِنْهُمْ؛ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سَبَأ: ١٥-١٧].

وَأَهْلُ مَكَّةَ كَانُوا فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَأَمْنٍ مِنَ الْخَوْفِ، فَلَمَّا اسْتَكْبَرَ المُفْسِدُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُصِيبَتْ مَكَّةُ بِالْجُوعِ وَالْخَوْفِ، وَهِيَ المَعْنِيَّةُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ المُعَاصِرِ وَجَدَ أَنَّ كُلَّ بَلَاءِ النَّاسِ وَجُوعِهِمْ وَخَوْفِهِمْ، وَاضْطِرَابِ أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ إِفْسَادِ المُفْسِدِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَعْبِيدَ النَّاسِ لِأَهْوَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ سَعَّرَ الْحُرُوبَ، وَأَفْقَرَ الشُّعُوبَ

إِلَّا الْمُسْتَكْبِرُونَ فِي الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ؟! وَمَنْ حَالَ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ دِينِ الْحَقِّ إِلَّا هُمْ وَالْمُنَافِقُونَ مَعَهُمْ بِتَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَالتَّدْلِيسِ عَلَى النَّاسِ؟! وَلَا يَزَالُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ جَادِّينَ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَيَمْلِكُونَ أَقْوَى وَسَائِلِ الدِّعَايَةِ فِي ذَلِكَ.

رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩، ١٥٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: قَدْ أَفَاضَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي وَصْفِ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْبَشَرِ، وَبَيَّنَ أَسْبَابَ ضَلَالِهِمْ، وَرَدَاءَةَ أَحْوَالِهِمْ، وَحَذَّرَ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، وَلَمْ يُسَوِّ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُصْلِحِينَ، بَلْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ

تَعَالَى هُمْ خَيْرُ خَلْقِهِ ﷻ، كَمَا بَيَّنَ ﷻ أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ هُمْ شَرُّ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦، ٧].

وَأَعْظَمُ شُؤْمٍ جَرَّهُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ أَتْبَاعَهُمُ الْمَخْدُوعِينَ بِهِمُ السَّائِرِينَ خَلْفَهُمْ، يُعَذَّبُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ طَاعَتِهِمْ لَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَعِدُونَهُمْ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ، وَبِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَهْدُونَهُمْ سُبُلَ الرَّشَادِ، فَإِذَا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى تَبَيَّنَ لِلْأَتْبَاعِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ قَدْ غَشُّوهُمْ وَكَذَبُوا عَلَيْهِمْ، وَأَوْرَدُوهُمْ دَارَ السَّعِيرِ، ثُمَّ تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ، كَمَا يَتَبَرَّأُ الْمُجْرِمُ مِنْ شُرَكَائِهِ فِي الْجَرِيمَةِ؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٦، ١٦٧].

وَفِي مَشْهَدٍ آخَرَ يَحْكِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٢١].

وَفِي مَشْهَدٍ ثَالِثٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصِفًا جِدَالَهُمْ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ

ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سَبَأ: ٣١-٣٣].

وَفِي مَشْهَدٍ رَابِعٍ يَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غَافِر: ٤٧، ٤٨].

إِنَّهَا آيَاتٌ عَظِيمَةٌ فِيهَا الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ يَتَعَدَّى وَبَالُهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِيُصِيبَ أَتْبَاعَهُمْ، فَهَلْ هُنَاكَ شُؤْمٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟! حِينَ يُورِدُونَهُمُ الْعَذَابَ، ثُمَّ يَتَخَلَّوْنَ عَنْهُمْ، وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ.

إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَا يَقَعُ إِلَّا بِالمَعَاصِي، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ أَهْلُ المَعَاصِي، وَهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا.

وَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى دِينِهِ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يَصُدُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحَارِبُونَ الدُّعَاةَ إِلَيْهِ.

وَإِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ لَا يُصِيبُ الْعِبَادَ إِلَّا بِكُفْرِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ هُمْ مَنْ يُزَيِّنُونَ المَعَاصِيَ لِلنَّاسِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَيْهَا، وَيَفْتَحُونَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا، وَيُمَهِّدُونَ سُبُلَهَا.

وَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَالمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُطِيعُوهُمْ وَلَا يُطِيعُوا رَبَّهُمْ، فَهُمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا، فَاحْذَرُوهُمْ، وَاحْذَرُوا مَسَالِكَهُمْ وَحَبَائِلَهُمْ، وَحَذِّرُوا النَّاسَ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ تَبَرَّؤُوا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...

٣٠٨- بين الإصلاح والإفساد
الاختلاط أنموذجًا

٧/ ٤/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَمَرَ بِالْإِصْلَاحِ، وَامْتَدَحَ الْمُصْلِحِينَ، وَنَهَى عَنِ الْفَسَادِ، وَذَمَّ الْمُفْسِدِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَبَعْثَةِ خَيْرِ الْأَنَامِ ﷺ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَمَامِ الدِّينِ، وَكَمَالِ الشَّرِيعَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَكَلَّفَهُمْ، وَبِدِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ ابْتَلَاهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ لَهُمْ وَيُصْلِحُهُمْ؛ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ حَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنْ دُعَاةٍ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا(١)، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَتْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَسْرَعُهُمُ امْتِثَالًا لِتَعَالِيمِ الْمِلَّةِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَكُونُوا صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الصَّلَاحُ غَيْرُ الْفَسَادِ، وَالْإِفْسَادُ مُنَاقِضٌ لِلْإِصْلَاحِ، وَمَعَايِيرُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَالصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمَفْهُومُ ذَلِكَ وَمَعْنَاهُ وَحَقِيقَتُهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الدِّيَانَاتِ وَالْمَبَادِئِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِي يَحْتَكِمُ النَّاسُ إِلَيْهَا، وَيَصْدُرُونَ

(١) كما في حديث حذيفة ﷺ عند: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

عَنْهَا، فَمَا تَرَاهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا، قَدْ يَرَاهُ غَيْرُهَا فَسَادًا وَإِفْسَادًا؛ لِاخْتِلَافِ الدِّيَانَةِ الَّتِي يَدِينُونَ بِهَا، وَالشَّرِيعَةِ الَّتِي يَلْزَمُونَهَا، وَالْفِكْرَةِ الَّتِي يُعَظِّمُونَهَا.

وَفِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ دَعَا كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ، وَالسِّيَاسِيِّينَ وَالصَّحَفِيِّينَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ وَالِاقْتِصَادِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَكُلُّ دَاعِيَةٍ مِنْهُمْ يَصْدُرُ فِي دَعْوَتِهِ تِلْكَ عَنْ أَفْكَارٍ يَعْتَقِدُهَا، وَمَنَاهِجَ يَعْتَنِقُهَا، رَبَّانِيَّةً كَانَتْ أَمْ بَشَرِيَّةً، وَيَرَى أَنَّ الْفَسَادَ فِيمَا يُخَالِفُ دَعْوَتَهُ، وَأَنَّ مَنْ يُعَارِضُهَا فَهُوَ المُفْسِدُ.

وَمَعَ كَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ، وَغَزَارَةِ مَا يُلْقَى عَلَى النَّاسِ فِي شَأْنِ الْإِصْلَاحِ، أَضْحَى أَكْثَرُ النَّاسِ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، لَا يَعْلَمُونَ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ، وَلَا يُمَيِّزُونَ الصَّادِقَ فِي دَعْوَاهُ مِنَ الْكَاذِبِ.

وَقَضَايَا المَرْأَةِ أُنْمُوذَجٌ حَيٌّ لِهَذَا التَّجَاذُبِ وَالِاخْتِلَافِ، فَأَقْوَامٌ يَدْعُونَ إِلَى تَحْرِيرِ المَرْأَةِ مِنْ كُلِّ الْقُيُودِ، وَمُسَاوَاتِهَا بِالرِّجَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَإِقْحَامِهَا مَعَهُ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ؛ مُدَّعِينَ أَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ صَلَاحِ الْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ، وَطَرِيقُ انْتِشَالِهَا مِنْ تَخَلُّفِهَا وَجَهْلِهَا.

وَآخَرُونَ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْأُطْرُوحَاتِ لَا تُرِيدُ الْخَيْرَ بِالْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا تُغْرِقُهَا فِي مُسْتَنْقَعَاتِ الْإِثْمِ وَالْفَسَادِ، وَتُجَرِّدُهَا مِنْ أَقْوَى سِلَاحٍ يَمْتَلِكُهُ المُسْلِمُونَ أَمَامَ الْغَرْبِ، وَهُوَ الْأُسْرَةُ السَّوِيَّةُ، فِي مُقَابِلِ الْأُسْرَةِ الْغَرْبِيَّةِ المُفَكَّكَةِ.

وَإِزَاءَ كَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ، وَتَعَدُّدِ الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، فَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ، وَأَنْ يُسَلِّمَ بِهِ كُلُّ مُسْلِمٍ يَدِينُ بِالْإِسْلَامِ: أَنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ هُوَ فِيمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ ﷺ، وَأَنَّ الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ هُوَ مَا عَارَضَ

ذَلِكَ، أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ وَزْنُ قَائِلِهِ، فَشَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ؛ إِذْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَمُدَبِّرُ الْكَوْنِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ؛ وَكُلُّ الْعُقَلَاءِ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الصَّنْعَةِ أَعْلَمُ بِهَا مِنْ غَيْرِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الْمُلْك: ١٤]، وَهُوَ أَدْرَى بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٠].

إِنَّ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ هُوَ فِيمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَتْبَاعُهُمْ هُمُ الْمُصْلِحُونَ، وَيَدْعُونَ إِلَى الصَّلَاحِ، وَيُحَارِبُونَ الْفَسَادَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الْأَعْرَاف: ٨٥]، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الْفَسَادِ وَيَأْتِيهِ، بَلْ يُجَانِبُهُ صَلَاحًا وَإِصْلَاحًا ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ [هُود: ٨٨].

وَأَعْدَاءُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الْمُسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِمْ، الْمُعَارِضُونَ دَعْوَتَهُمْ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، هُمُ الْفَاسِدُونَ الْمُفْسِدُونَ؛ إِذْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كِبَارِ ثَمُودَ الَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُمْ ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥٢]، وَأَوْصَى مُوسَى أَخَاهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِالْإِصْلَاحِ لَمَّا اسْتَخْلَفَهُ عَلَى قَوْمِهِ، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٢].

وَلَكِنَّ أَعْدَاءَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهُمْ فَاسِدُونَ مُفْسِدُونَ؛ بَلْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ صَالِحُونَ مُصْلِحُونَ، وَيَرْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَأَتْبَاعَهُمْ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، كَمَا فَعَلَ وُزَرَاءُ فِرْعَوْنَ؛ إِذْ قَالُوا لَهُ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٧].

وَإِخْوَانُهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُخَاطِبُونَ الْمُلُوكَ وَالسَّاسَةَ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ

قَائِلِينَ لَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوِ المَقَالِ: أَتَدْرُونَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ وَالدُّعَاةَ لِيُفْسِدُوا النَّاسَ، وَيَصْرِفُوهُمْ عَنِ المَشَارِيعِ التَّغْرِيبِيَّةِ فِي المَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ الَّتِي كُلُّهَا صَلَاحٌ وَتَقَدُّمٌ، إِلَى شَرِيعَةٍ قَدِيمَةٍ لَا تُنَاسِبُ هَذَا الْعَصْرَ؟

وَأَعْرَضُ دَعْوَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفِرْعَوْنَ الْأَوَّلَ فِي الْبَشَرِ سَوَّغَ مُعَارَضَتَهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَارَبَتَهُ إِيَّاهُ، وَالتَّنْكِيلَ بِأَتْبَاعِهِ، وَالسَّعْيَ لِقَتْلِهِ؛ بِالْخَوْفِ عَلَى النَّاسِ مِنْ فَسَادِهِ وَإِفْسَادِهِ، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وَمَا نَفَعَتْ فِرْعَوْنَ دَعْوَاهُ الْعَرِيضَةُ فِي قَلْبِ الحَقِيقَةِ؛ إِذْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْفَسَادِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصص: ٤]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفَجْر: ١٠-١٢].

وَالمُنَافِقُونَ يَدَّعُونَ الْإِصْلَاحَ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِفْسَادِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١١، ١٢]؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى الْإِصْلَاحَ مُصْلِحًا، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ رُمِيَ بِالْفَسَادِ مُفْسِدًا، بَلْ تُعْرَضُ دَعْوَتُهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَيَنْجَلِي الْأَمْرُ، وَيَبِينُ الْحَقُّ.

إِنَّ المُسْتَكْبِرِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لَا يَرْضَوْنَ عَنِ الْحَقِّ مَهْمَا بُسِطَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يُونُس: ١٠١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعَام: ١٢٥]، وَمِنْ قَبْلُ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعْرَاف: ١٣٢]. فَمَا يَعْنِينَا فِي هَذَا المَقَامِ هُوَ بَسْطُ الْحَقِّ بِأَدِلَّتِهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَالْقَضِيَّةُ المُتَنَازَعُ عَلَيْهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هِيَ: تَوْسِيعُ عَمَلِ المَرْأَةِ

فِي المَحَلَّاتِ التِّجَارِيَّةِ بِزَعْمِ الْقَضَاءِ عَلَى الْبِطَالَةِ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى بِزَعْمِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى خُصُوصِيَّةِ النِّسَاءِ فِي شِرَاءِ مَلَابِسِهِنَّ، وَتَعَالَوْا لِنَعْرِضَ هَذَا الْمَشْرُوعَ الْإِصْلَاحِيَّ الْإِنْقَاذِيَّ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِنَرَى هَلْ هُوَ إِصْلَاحٌ كَمَا يُرَوِّجُ لِذَلِكَ أَصْحَابُهُ، أَوْ إِنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟!

لَقَدْ بَيَّنَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ، وَالصَّفْقَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَالْإِنْفَاقَ عَلَى الْأُسْرَةِ، هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ، وَبِهِ خُوطِبُوا فِي نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الْمُزَّمِّل: ٢٠]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطَّلَاق: ٧]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتُ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةِ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَلَمْ يَرِدْ خِطَابٌ وَاحِدٌ لِلنِّسَاءِ يُلْزِمُهُنَّ بِالضَّرْبِ فِي الأَرْضِ أَوِ النَّفَقَةِ عَلَى الأُسْرَةِ، بَلْ أُمِرَ النِّسَاءُ بِالْقَرَارِ فِي الْبُيُوتِ، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٣]. يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِلُزُومِ النِّسَاءِ بُيُوتَهُنَّ، وَالِانْكِفَافِ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَّا لِضَرُورَةٍ»(٣).

وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ رَبِّهَا إِذَا هِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا**» صَحَّحَهُ

(٢) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب: ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى (٥٦)، ومسلم في الوصية، باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

(٣) تفسير القرطبي (١٤/ ١٧٩).

ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(٤). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٥).

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «نُبِّئْتُ أَنَّهُ قِيلَ لِسَوْدَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا لَكِ لَا تَحُجِّينَ وَلَا تَعْتَمِرِينَ كَمَا يَفْعَلُ أَخَوَاتُكِ؟ فَقَالَتْ: قَدْ حَجَجْتُ وَاعْتَمَرْتُ، وَأَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَقَرَّ فِي بَيْتِي، فَوَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ بَيْتِي حَتَّى أَمُوتَ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: فَوَاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بَابِ حُجْرَتِهَا حَتَّى أُخْرِجَتْ جِنَازَتُهَا»(٦).

فَالْأَصْلُ أَنَّ الرَّجُلَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ الْمَرْأَةَ مَكْفُولَةٌ مِنْ قِبَلِ ذَوِيهَا مُنْذُ وِلَادَتِهَا إِلَى أَنْ تَمُوتَ، فَإِنْ قَصَّرُوا أُخِذَ لَهَا حَقُّهَا بِالْقَضَاءِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا قَرِيبٌ فَالْإِمَامُ وَلِيُّهَا، وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُومُونَ عَلَى حَاجَاتِهَا، وَإِنْ عَمِلَتْ لِكَفَافِ نَفْسِهَا فَذَلِكَ اسْتِثْنَاءٌ وَلَيْسَ أَصْلًا، وَيَكُونُ بِشُرُوطٍ تُحَقِّقُ الْمَصْلَحَةَ لَهَا، وَتُدْرَأُ الْفِتْنَةُ بِهَا. وَلَكِنَّ هَذَا الْأَصْلَ الْمُقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ قَدْ قُلِبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ؛ بِسَبَبِ سَيْطَرَةِ الْمَذَاهِبِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ عَلَى أَكْثَرِ الْبَشَرِ، وَصَارَ الْأَصْلُ -وَهُوَ قَرَارُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا- اسْتِثْنَاءً، وَأَضْحَى الِاسْتِثْنَاءُ -وَهُوَ خُرُوجُهَا لِلْعَمَلِ- أَصْلًا.

وَانْقِلَابُ الْمَوَازِينِ لَا يُضْفِي الشَّرْعِيَّةَ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يَقْلِبُهُ إِلَى حَقٍّ،

---

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب التشديد في ذلك (٥٧٠)، والترمذي في الرضاع، باب رقم (١٨) وقال: حسن غريب (١١٧٣)، وصححه ابن خزيمة (١٦٩٠)، وابن حبان (٥٥٩٩).

(٥) أخرجه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٠).

(٦) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٨/ ٣٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن المنذر (٦/ ٥٩٩).

وَلَا يَجْعَلُ الْفَسَادَ إِصْلَاحًا؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ دَائِمَةٌ بَاقِيَةٌ حَاكِمَةٌ بَيْنَ النَّاسِ، فَالْوَاجِبُ تَعْدِيلُ مَيلِ المَوَازِينِ، وَرَدُّ الْحَقِّ إِلَى نِصَابِهِ. وَمِنَ الْإِفْسَادِ تَسْوِيغُ هَذَا الْبَاطِلِ بِالمُسَوِّغَاتِ السَّامِجَةِ، وَتَعْلِيلُهُ بِالتَّعْلِيلَاتِ الْبَارِدَةِ.

ثُمَّ رَأَيْنَا هَذَا المَشْرُوعَ المُنْقِذَ لِلنِّسَاءِ مِنَ الْبِطَالَةِ قَدْ تُعُمِّدَ فِيهِ الِاخْتِلَاطُ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْبَائِعَةِ، تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَتُخَاطِبُهُ وَيُخَاطِبُهَا، وَرُبَّمَا مَازَحَتْهُ وَمَازَحَهَا، فَمِائَةُ أَلْفِ وَظِيفَةٍ وَقَدْ تَزِيدُ تَنْتَظِرُ نِسَاءَ المُجْتَمَعِ فِي جَوٍّ مِنَ الِاخْتِلَاطِ الْبَرِيءِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنِ اخْتَرَعُوا بِدْعَةَ الْبَرَاءَةِ فِي اجْتِمَاعِ رَجُلٍ بِامْرَأَةٍ لَا تَحِلُّ لَهُ، مُعَارِضِينَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي يُخْبِرُ عَنْهَا المُبَلِّغُ عَنْهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ!** فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: **الحَمْوُ المَوْتُ**»(٧)، فَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ يُحَذِّرُ مِنْ قَرِيبِ الزَّوْجِ وَهُوَ يَغَارُ عَلَى عِرْضِ قَرِيبِهِ، فَأَيُّ بَرَاءَةٍ فِي اجْتِمَاعِ رَجُلٍ بِامْرَأَةٍ لَا رَابِطَ بَيْنَهُمَا إِلَّا الْعَمَلُ؟!

وَمَاذَا يَفْعَلُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النُّور: ٣٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النُّور: ٣١]، وَهُمْ سَيَجْمَعُونَ بَيْنَهُمَا أَطْوَلَ وَقْتٍ، وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْعَمَلِ مَا يُحَتِّمُ نَظَرَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ!

ثُمَّ سَيَخْلُو بِهَا حَتْمًا فِي الْأَوْقَاتِ المَيِّتَةِ الَّتِي لَا بَيْعَ فِيهَا، وَهِيَ غَالِبُ الْأَوْقَاتِ، وَأَيَّامُ الْجَرْدِ السَّنَوِيِّ حَيْثُ تُغْلَقُ المَحِلَّاتُ، وَتُحْسَبُ الْبَضَائِعُ. بَلْ قَدْ تَصْحَبُهُ فِي دَوْرَةٍ لِتَطْوِيرِ الْأَدَاءِ الْوَظِيفِيِّ، وَتَعَلُّمِ المَزِيدِ مِنْ فُنُونِ التَّسْوِيقِ، وَتَضْطَرُّ لِلسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ، إِلَّا زَمِيلَهَا الَّذِي أَصْبَحَ مَحْرَمَهَا بِجَامِعِ الْعَمَلِ

(٧) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٢)، ومسلم في السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها (٢١٧٢).

وَالزَّمَالَةِ! وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا فِي الْبُنُوكِ وَالشَّرِكَاتِ الْكُبْرَى، فَكَيْفَ سَيَصِيرُ الْحَالُ لَوْ وُسِّعَ ذَلِكَ بِهَذَا الْمَشْرُوعِ الْآثِمِ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لَنَا: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَاكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: **ارْجِعْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

فَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْجِهَادِ وَهُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِيَكُونَ رَفِيقًا لِامْرَأَتِهِ فِي سَفَرِهَا، وَلَيْسَ سَفَرُهَا سَفَرَ رِيبَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ عَمَلٍ، بَلْ هُوَ أَشْرَفُ سَفَرٍ لِامْرَأَةٍ؛ سَفَرُ حَجِّهَا الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ، فَحَالُهَا وَحَالُ مَنْ مَعَهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ الرِّيبَةِ وَالْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي عِبَادَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنَ الْمَحْرَمِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ بِمَكَانٍ مَوْبُوءٍ تُحِيطُ بِهِ شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؟! وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَسْوَاقُهَا(٩).

وَقَدْ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلُ أَنْ تَتَحَلَّى الْبَائِعَةُ بِكَامِلِ زِينَتِهَا حَتَّى تَكُونَ دِعَايَةً لِلْمَتْجَرِ، وَلِتَجْذِبَ الزَّبَائِنَ إِلَيْهِ، فَيُسَوِّقُ التَّاجِرُ بِضَاعَتَهُ بِأَجْسَادِ بَنَاتِ النَّاسِ وَزِينَتِهِنَّ، وَهَذَا وَاقِعٌ فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي هَذَا الْمَجَالِ؛ وَمَنْ يُسَافِرُونَ وَيُتَاجِرُونَ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَكَمْ يُعْلَنُ فِي صُحُفِهِمْ عَنْ وَظَائِفَ لِبَائِعَاتٍ يُشْتَرَطُ فِيهِنَّ مِنَ الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ أَكْثَرُ مِمَّا يُشْتَرَطُ فِيهِنَّ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْخِبْرَةِ! وَنُعِيذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ بَنَاتِنَا وَبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَالَهُنَّ.

---

(٨) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة (٥٢٣٣)، ومسلم في الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٤١).

(٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها**» أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح، وفضل المساجد (٦٧١).

وَإِذَا كَانَ زَمِيلُهَا ذِئْبًا أَغْبَرَ، يُجِيدُ التَّلَاعُبَ بِالْعَوَاطِفِ، وَيَعْرِفُ نِقَاطَ الضَّعْفِ فِي الْمَرْأَةِ، كَالَ لَهَا مِنَ الْمَدِيحِ وَالثَّنَاءِ مَا يَصْطَادُهَا بِهِ، فَيَفْتَرِسُ عَفَافَهَا، وَلَا خَيْرَ فِي وَظِيفَةٍ تِلْكَ نِهَايَتُهَا! وَلَا عَزَاءَ لِمُجْتَمَعٍ يَرْضَى لِبَنَاتِهِ أَنْ يَتَأَكَّلْنَ بِأَجْسَادِهِنَّ!

وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُكَّامٍ وَمَحْكُومِينَ لَيْسُوا مَسْؤُولِينَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ تَوْفِيرِ الْوَظَائِفِ لِلنِّسَاءِ، وَإِنَّمَا هُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْ رِعَايَتِهِنَّ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ قَارَّاتٌ فِي بُيُوتِهِنَّ، كُلُّ وَلِيٍّ بِوَلِيَّتِهِ، وَمَنْ لَا وَلِيَّ لَهَا فَوَلِيُّهَا الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ.

هَذَا هُوَ حُكْمُ الشَّرِيعَةِ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَتِلْكَ هِيَ مَفَاسِدُ بَعْضِ هَذَا الْقَرَارِ الَّذِي بَانَ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَهُوَ إِفْسَادٌ وَلَيْسَ إِصْلَاحًا، وَإِنْ سَمَّاهُ أَصْحَابُهُ إِصْلَاحًا، إِمَّا عَنْ جَهْلٍ بِسَبَبِ مَا يُعَانُونَهُ مِنَ الْأُمِّيَّةِ وَالتَّخَلُّفِ فِي فَهْمِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَإِمَّا عَنْ هَوًى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ مُؤْدَلَجُونَ بِأَفْكَارٍ مُنْحَرِفَةٍ، وَمُسَيَّسُونَ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِ الْأَعْدَاءِ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ، وَالْتِزَامَ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، كَمَا نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ كُلَّ مُصْلِحٍ وَمُصْلِحَةٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَنْطَلِقُ هَذِهِ الْمَشَارِيعُ التَّخْرِيبِيَّةُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَفْكَارٍ تَغْرِيبِيَّةٍ لَا تَمُتُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِصِلَةٍ، بَلْ هِيَ نِتَاجُ مَوْجَاتِ الْإِلْحَادِ وَالْفَسَادِ الَّتِي اجْتَاحَتْ بِلَادَ الْغَرْبِ إِبَّانَ الثَّوْرَةِ الصِّنَاعِيَّةِ، فَأَفْسَدَتْ نِسَاءَهُمْ، وَحَطَّمَتْ أُسَرَهُمْ، وَفَرَّقَتْ مُجْتَمَعَاتِهِمْ.

وَيَسْتَمِيتُ الْمُفْسِدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ فِي تَصْدِيرِ هَذَا الْفَسَادِ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، بِالرِّضَا أَوْ بِالْقُوَّةِ، تَحْتَ دَعَاوَى الْإِصْلَاحِ فِي دُوَلِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ، مَعَ أَنَّ الْغَرْبَ لَا زَالَ يُعَانِي مِنْ آثَارِ هَذَا الْإِفْسَادِ، وَمُجْتَمَعَاتُهُ مُهَدَّدَةٌ بِالِانْقِرَاضِ، وَتُعَانِي مِنْ كَثْرَةِ الشُّيُوخِ، وَقِلَّةِ الشَّبَابِ وَالْأَطْفَالِ.

وَأَجِدُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ مُضْطَرًّا لِنَقْلِ بَعْضِ الْمَقُولَاتِ لِمُفَكِّرِينَ غَرْبِيِّينَ يُبْرِزُونَ حَجْمَ الْفَسَادِ النَّاجِمِ عَنْ إِخْرَاجِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَنْزِلِهَا وَإِقْحَامِهَا فِي مَيَادِينِ الرِّجَالِ، مِنْ بَابِ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وَإِلَّا فَالْمُسْلِمُ مُسْتَسْلِمٌ لِأَمْرِ رَبِّهِ، تَكْفِيهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ قَائِدًا وَإِمَامًا.

تَقُولُ كَاتِبَةٌ إِنْجِلِيزِيَّةٌ: إِنَّ الِاخْتِلَاطَ يَأْلَفُهُ الرِّجَالُ، وَلِهَذَا طَمِعَتِ الْمَرْأَةُ بِمَا

يُخَالِفُ فِطْرَتَهَا، وَعَلَى قَدْرِ كَثْرَةِ الِاخْتِلَاطِ تَكُونُ كَثْرَةُ أَوْلَادِ الزِّنَا(١٠). وَتَقُولُ بَاحِثَةٌ أُخْرَى: إِنَّ الِاعْتِدَاءَاتِ الْجِنْسِيَّةَ بِأَشْكَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ مُنْتَشِرَةٌ انْتِشَارًا سَرِيعًا فِي أَمْرِيكَا وَأُورُبَّا . . . ، وَهِيَ الْقَاعِدَةُ وَلَيْسَتِ الِاسْتِثْنَاءَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرْأَةِ الْعَامِلَةِ فِي أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَعْمَالِ تُمَارِسُهُ مَعَ الرِّجَالِ(١١). وَنَشَرَتْ مَجَلَّةُ «نُيُوزْوِيكَ» الْأَمْرِيكِيَّةُ تَحْقِيقًا بِعُنْوَانِ: سُوءُ اسْتِخْدَامِ الْجِنْسِ فِي الْمَكَاتِبِ، قَالَتْ فِيهِ: إِنَّ مُضَايَقَةَ الرَّئِيسِ لِمَرْؤُوسِيهِ أَمْرٌ قَدْ خَرَجَ عَنْ دَوْرَةِ الْمِيَاهِ؛ أَيْ: خَرَجَ عَنِ السِّرِّيَّةِ وَصَارَ عَلَنًا(١٢).

وَمَنْ قَالُوا هَذَا الْكَلَامَ قَدْ عَاشُوا فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَوَقَفُوا عَلَى مُشْكِلَاتِهَا، وَخَبَرُوا عِلَلَهَا، وَلَيْسُوا أُمِّيِّينَ فِي حَضَارَتِهِمْ؛ بَلْ مُثَقَّفُونَ وَمُفَكِّرُونَ، وَلَيْسُوا كَذَلِكَ مُؤَدْلَجِينَ وَمُسَيَّسِينَ لِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ يَحْكُونَ أَمْرَاضَ مُجْتَمَعَاتِهِمْ.

إِنَّ أَيَّ مَشْرُوعٍ يَسْعَى لِجَعْلِ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَنْزِلِهَا هُوَ الْأَصْلَ، وَقَرَارِهَا فِيهِ هُوَ الِاسْتِثْنَاءَ، فَهُوَ مَشْرُوعٌ مُعَارِضٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمُخَالِفٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ؛ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ جُمْلَةٌ مِنَ الْمَفَاسِدِ الْكُبْرَى؛ كَالِاخْتِلَاطِ، وَالتَّبَرُّجِ، وَالسُّفُورِ، وَالْخَلْوَةِ، وَالسَّفَرِ بِلَا مَحْرَمٍ؟!

وَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْحَدُّ مِنْ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ بِشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ؛ فَإِنَّ التَّجَارِبَ السَّابِقَةَ أَثْبَتَتْ أَنَّ هَذِهِ الضَّوَابِطَ تَتَبَخَّرُ مَعَ الزَّمَنِ كَمَا يَتَبَخَّرُ الْمَاءُ الرَّاكِدُ، وَانْظُرُوا كَمْ فِي سِيَاسَةِ الْإِعْلَامِ بِصُحُفِهِ وَمَجَلَّاتِهِ، وَشَاشَاتِهِ وَإِذَاعَاتِهِ مِنْ

(١٠) قائلة ذلك الكاتبة الإنجليزية اللادي كوك، ينظر: التبرج وخطر مشاركة المرأة للرجل في ميدان عمله، للإمام عبد العزيز بن باز، ط: وزارة الشئون الإسلامية، الأولى ١٤٢٣ (٣٦).

(١١) القائلة هي الباحثة لين فارلي، ينظر: عمل المرأة في الميزان، د.محمد علي البار (١٦٧).

(١٢) مجلة النيوزويك الأمريكية، ١٧ مارس ١٩٨٠م عن المصدر السابق (١٢٧).

شُرُوطٍ وَضَوَابِطَ تُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ؛ فَهَلْ طُبِّقَتْ أَوْ لَا؟!

وَالْأَبْوَابُ إِذَا فُتِحَتْ قَلِيلًا أَمْكَنَ إِشْرَاعُهَا عَلَى مَصَارِيعِهَا، بَلْ أَمْكَنَ خَلْعُهَا، وَلَا تُخْلَعُ الْأَبْوَابُ إِذَا كَانَتْ مُوصَدَةً.

فَإِيَّاكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- أَنْ يَخْدَعَكُمْ مُصَدِّرُو الرَّذِيلَةِ، وَنَاشِرُو الْفَسَادِ، بِتَلْبِيسِ الْكَلَامِ، وَلَحْنِ الْقَوْلِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُنْكِرَ هَذَا الْمُنْكَرَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُطِلُّ بِشَرِّهِ وَفَسَادِهِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَيَكُونُ إِنْكَارُهُ بِالطُّرُقِ الْمَأْذُونِ بِهَا شَرْعًا الَّتِي لَا تُسَبِّبُ إِثْمًا أَكْبَرَ، وَلَا تُحْدِثُ فِتْنَةً أَعْظَمَ.

وَالْمَسْؤُولِيَّةُ الْكُبْرَى، وَالْأَمَانَةُ الْعُظْمَى، تُثْقِلُ كَاهِلَ كِبَارِ الْقَوْمِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْمَسْؤُولِينَ أَنْ يَقِفُوا أَمَامَ مَوْجَاتِ الْإِفْسَادِ هَذِهِ، وَإِلَّا تَحَمَّلُوا وِزْرَ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، وَبِمَاذَا سَيُقَابِلُونَ رَبَّهُمْ إِذَا سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ مَنَاصِبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

وَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى جَاهًا، وَكَلِمَتُهُ لَهَا وَقْعُهَا، أَنْ يُبَادِرَ بِالْإِنْكَارِ؛ بَرَاءَةً لِلذِّمَّةِ، وَانْتِصَارًا لِلْمِلَّةِ، وَحِفَاظًا عَلَى بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الرَّذَائِلِ، وَعَلَى صَاحِبِ كُلِّ قَلَمٍ وَبَيَانٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَنْ يُنْكِرُوا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ، وَيُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ مَفَاسِدَ مِثْلِ هَذَا الْقَرَارِ.

وَنُعِيذُ بِاللَّهِ تَعَالَى كُلَّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ أَنْ يَكُونُوا عَوْنًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ بِالِاعْتِذَارِ لِلْبَاطِلِ وَتَسْوِيغِهِ، أَوِ الدِّعَايَةِ لَهُ وَتَرْوِيجِهِ؛ وَ«**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١٣)، ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هُود: ١١٧].

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الأدب، باب: من كان يؤمن بالله =

جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى هَادِينَ مَهْدِيِّينَ، صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ، وَمَنَّ عَلَى وُلَاةِ أَمْرِنَا بِالصَّلَاحِ وَالرَّشَادِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَجَنَّبَهُمْ طُرُقَ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْإِفْسَادِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



= واليوم الآخر فلا يؤذ جار (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٧).

المغازي والتاريخ

٣٠٩- الإسراء والمعراج (٢).

٣١٠- الإسراء والمعراج (٣).

٣١١- الإسراء والمعراج (٤).

٣١٢- الهجرة النبوية.

٣١٣- الغزو في رمضان (١).

٣١٤- الغزو في رمضان (٢).

٣١٦- غزوة بدر (٣) البطولات والتضحيات.

٣١٧- غزوة بدر (٤) ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

٣١٨- غزوة بدر (٥) ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣١٩- إجلاء بني قينقاع.

٣٢٠- غزوة أحد (٣).

٣٢١- غزوة أحد (٤) فقه السنن الربانية.

٣٢٢- غزوة الأحزاب (١) شدة البلاء والمحنة.

٣٢٣- غزوة الأحزاب (٢) بين المؤمنين والمنافقين.

٣٢٤- غزوة الأحزاب (٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

٣٢٥- غزوة بني قريظة .. الغدر والعقوبة.

٣٢٦- صلح الحديبية بين الصلح والفتح.

٣٠٩- الإسراء والمعراج (٢) (*)

٢٥/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ تَفَرَّدَ بِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَتَنَزَّهَ عَنِ النُّظَرَاءِ وَالْأَمْثَالِ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزُّخرف: ٨٤، ٨٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْمَوَاعِظَ وَالْآيَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَخَتَمَ بِهِ الرِّسَالَاتِ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى؛ فَإِنَّ الثَّابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ قَلِيلٌ، وَالنَّاكِصِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ كَثِيرٌ، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فَضْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا عَظِيمٌ، وَنِعَمُهُ كَثِيرَةٌ، فِي خَلْقِنَا وَرِزْقِنَا، وَهِدَايَتِنَا وَتَوْفِيقِنَا، وَفِي كُلِّ شُؤُونِنَا وَأَحْوَالِنَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَوْفَاهَا: أَنْ جَعَلَنَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي قَضَى

(*) الإسراء والمعراج (١) تجدها في المجلد (٣) خطبة رقم (١٢٤).

اللهُ ﷻ بِأَنَّهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ؛ فَرَسُولُهَا خَاتَمُ الرُّسُلِ وَأَفْضَلُهُمْ، وَكِتَابُهَا خَيْرُ الْكُتُبِ وَأَشْمَلُهَا، وَشَرِيعَتُهَا أَكْمَلُ الشَّرَائِعِ وَأَتَمُّهَا.

إِنَّهَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِنْعَامِ، وَالْفَضْلِ وَالْإِكْرَامِ: أَنْ جَعَلَنَا مِنْ آخِرِ أُمَّةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، وَهِيَ أَفْضَلُ أُمَّةٍ وُجِدَتْ عِنْدَ رَبِّهَا وَخَالِقِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(١).

أُمَّةٌ هِيَ الْأَخِيرَةُ فِي خَلْقِهَا وَإِيجَادِهَا، وَهِيَ الْأُولَى فِي حِسَابِهَا وَمَنْزِلَتِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٢).

أُمَّةٌ أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَا مُحَمَّدًا ﷺ أَعْظَمَ كَرَامَةٍ، وَرَعَاهُ أَفْضَلَ رِعَايَةٍ، وَحَبَاهُ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ، وَتَكْرِيمُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهَا هُوَ تَكْرِيمٌ لَهَا، وَعُلُوُّ مَنْزِلَتِهِ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا.

أُمَّةٌ أَسْرَى اللَّهُ تَعَالَى بِنَبِيِّهَا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَأَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَنْبِيَاءَهَا وَمُرْسَلِيهَا، بَدْءًا بِآدَمَ، فَيَحْيَى

---

(١) أخرجه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أحمد (٣/ ٥٠٥)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٨)، والدارمي (٢٧٦٠)، والبيهقي (٥/ ٩)، وعبد بن حميد (٤٠٩-٤١١)، والروياني في مسنده (٩٢١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٩٤).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: ابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٩٠)، وصَحَّحَهُ البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٣١٧).
وجاء في حديث أبي هريرة ﵁ بلفظ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة** ...» أخرجه مسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

وَعِيسَى، فَيُوسُفَ، فَإِدْرِيسَ، فَهَارُونَ، فَمُوسَى، فَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٣).

وَفِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «**مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**، فَلَمَّا جَاوَزَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا بَكَى مُوسَى عليه السلام، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: **أَبْكِي؛ لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي**»(٤)، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ مُوسَى عليه السلام: «**لَمْ أَظُنَّ أَحَدًا يُرْفَعُ عَلَيَّ**»(٥)، وَقَالَ: «**يَزْعُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ، وَهَذَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنِّي**»(٦)، «**وَلَوْ كَانَ هَذَا وَحْدَهُ هَانَ عَلَيَّ، وَلَكِنْ مَعَهُ أُمَّتُهُ وَهُمْ أَفْضَلُ الْأُمَمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى**»(٧).

بَكَى مُوسَى عليه السلام غِبْطَةً لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ، وَأَسَفًا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ رَفْعُ الدَّرَجَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ كَثْرَةِ الْمُخَالَفَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَنْقِيصِ أُجُورِهِمْ، الْمُسْتَلْزِمِ لِتَنْقِيصِ أَجْرِهِ؛ لِأَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِثْلَ أَجْرِ كُلِّ مَنْ تَبِعَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ فِي الْعَدَدِ دُونَ مَنِ اتَّبَعَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ(٨).

---

(٣) ترتيب الأنبياء هكذا هو على حسب ترتيبهم في السماوات لما رآهم النبي ﷺ، كما جاء ذلك في حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٦٧٤)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، وأحمد (٤/ ٢٠٨)، وابن حبان (٤٨)، وابن خزيمة (٣٠١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٧١) برقم (٥٩٩).

(٤) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(٥) هذه الرواية أخرجها الطبري في تفسيره من حديث أنس رضي الله عنه (٤/ ١٥)، وذكرها العيني في عمدة القاري (١٧/ ٢٧).

(٦) هذه الرواية من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أخرجها ابن أبي زمنين في تفسيره (٣/ ٥) أول سورة الإسراء، وذكرها الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٣٧)، وابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٠)، والحافظ في الفتح (٧/ ٢١١)، ولم أقف على من أخرجها.

(٧) هذه الراوية ذكرها الحافظ في الفتح (٧/ ٢١١)، والعيني في عمدة القاري (١٧/ ٢٧).

(٨) ينظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).

ثُمَّ جَاوَزَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ، وَرُفِعَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى «**وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا، فَيُقْبَضُ مِنْهَا**»(٩).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سُمِّيَتْ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْمَلَائِكَةِ يَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَلَمْ يُجَاوِزْهَا أَحَدٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ»(١٠).

وَقَدْ وَصَفَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: «**ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثُمَّ انْطَلَقَ بِي -أَيْ: جِبْرِيلُ- حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: «**فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ**

(٩) هذا جزء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند: مسلم في الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١٧٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النجم (٣٢٧٦)، والنسائي في الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢٣)، وأحمد (١/ ٤٢٢)، وأبي يعلى (٥٣٠٣).

(١٠) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢١٤).

(١١) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).

(١٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٣).

مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٣).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «فَإِذَا هُوَ بِنَهَرٍ آخَرَ عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ يَدَهُ، فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ، قَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ»(١٤).

ثُمَّ جَاوَزَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِدْرَةَ المُنْتَهَى، حَتَّى بَلَغَ مَقَامًا سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ(١٥)، تَنْسِخُ المَقَادِيرَ عَنِ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وَارْتَقَى مَكَانًا عَلِيًّا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا وَصَلَ إِلَيْهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ سِوَاهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «وَدَنَا الجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَتَدَلَّى، حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى اللَّهُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»(١٦).

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَرَجَعْتُ، فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَ: أُمَّتُكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ

---

(١٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ في التوحيد باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] (٧٠٧٩)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات واللفظ له (١٦٢).

(١٤) هذه الرواية للبخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ المخرج في حاشية (١٣).

(١٥) ثبت ذلك في حديث أبي ذر المخرج في حاشية (١٢)، وفيه قال النبي ﷺ: «**ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**».

قال النووي في شرحه على مسلم: «وصريف الأقلام بالصاد المهملة: تصويتها حال الكتابة، قال الخطابي: هو صوت ما تكتبه الملائكة مِنْ أَقْضِيَة الله تعالى ووحيه، وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده من أمره وتدبيره» (٢/ ٢٢١)، وينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٦٢).

(١٦) هذه الرواية جاءت من حديث أنس ﷺ المخرج في حاشية (١٣) وهي للبخاري في التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (٧٠٧٩).

الْمُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا»(١٧).

فَلَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ رَبِّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِهِ، وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام يُشِيرُ عَلَيْهِ بِطَلَبِ التَّخْفِيفِ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: «**فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ، نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ: «**أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لم يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ**»(١٩) يَعْنِي: الْكَبَائِرَ.

---

(١٧) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).
(١٨) هذا جزء من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٣).
(١٩) هذا جزء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه المخرج في حاشية (٩).
والمقحمات هي الكبائر، قال النووي -رحمه الله تعالى-: «هو بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار، وتقحمهم إياها، والتقحم: الوقوع في المهالك، ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غير مشرك بالله غفر له المقحمات، والمراد -والله أعلم- بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يعذب أصلًا، فقد تقررت نصوص الشريعة وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة مِنَ الْمُوَحِّدِين، ويحتمل أن يكون المراد بهذا خصوصًا من الأمة، أي: يغفر لبعض الأمة المقحمات، وهذا يظهر على مذهب من يقول إن لفظة: (من) لا تقتضي العموم مطلقًا، وعلى مذهب من يقول: لا تقتضيه في الأخبار، وإن اقتضته في الأمر والنهي، ويمكن تصحيحه على المذهب المختار، وهو كونها للعموم مطلقًا؛ لأنه قد قام دليل على إرادة الخصوص، وهو ما ذكرناه من النصوص والإجماع، والله أعلم». اهـ من شرح مسلم (٣/ ٣).
وقال السندي -رحمه الله تعالى-: «ولعل المراد: أن الله تعالى لا يؤاخذهم بكلها، بل =

وَرَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي رِحْلَتِهِ تِلْكَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَسَلَّمَ عَلَى مَالِكٍ خَازِنِ النَّارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَضْحَكْ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِجبْرِيلَ: «**مَا لِي لَمْ آتِ أَهْلَ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَّبُوا وَضَحِكُوا إِلَيَّ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِي، وَلَمْ يَضْحَكْ إِلَيَّ؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَاكَ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ لَمْ يَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَ، وَلَوْ ضَحِكَ إِلَى أَحَدٍ لَضَحِكَ إِلَيْكَ**»[٢٠].

وَفِي رُؤْيَتِهِ لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَإِذَا فِي الجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَنَظَرْتُ إِلَى النَّارِ فَإِذَا عَذَابٌ شَدِيدٌ لَا تَقُومُ لَهُ الْحِجَارَةُ وَالحَدِيدُ**»[٢١]، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا!

لَقَدْ كَانَ المِعْرَاجُ رِحْلَةً عَظِيمَةً، وَمَشَاهِدُهَا كَثِيرَةٌ، وَهُوَ كَرَامَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْرَمَ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ بِتَكْرِيمِ نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

لَهُ الْحَمْدُ عَلَى إِكْرَامِهِ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى التَّخْفِيفِ عَنَّا مِنْ خَمْسِينَ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، وَبَقَاءُ أَجْرِهَا خَمْسِينَ لِمَنْ أَحْسَنَهَا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٢].

= لا بد أن يغفر لهم بعضها، وإن شاء غفر لهم كلها، وقيل: المراد بالغفران: أن لا يخلد صاحبها في النار، أو المراد الغفران لبعض الأمة، ولعله إن كان هناك تأويل فما ذكرت أقرب، وإلا فتفويض هذا الأمر إلى علمه تعالى أولى، والله تعالى أعلم» اهـ من حاشيته على النسائي (١/ ٢٢٤).

(٢٠) هذه الرواية من حديث أنس رضي الله عنه، عزاها ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦١) لابن أبي حاتم، وذكرها الحافظ في الفتح، وسكت عنها (٧/ ١١٧).

(٢١) هذا جزء من حديث أبي سعيد الخدري عند الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده للهيثمي (٢٧).

(٢٢) هذا جزء من حديث أبي ذر المخرج في حاشية (١٢).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي حَادِثَةِ المِعْرَاجِ وَمُشَاهَدَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّمَاءِ الْكَثِيرُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ، وَالمَوَاعِظِ وَالْمُعْجِزَاتِ.

فِيهَا الدَّلَائِلُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَكَمَالِ صُنْعِهِ، وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ؛ فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي المِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ الصَّلَاةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُبَاشَرَةً، وَكَلَّمَ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ بِلَا وَاسِطَةٍ، دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَقَدْ تَلَمَّسَ الْعُلَمَاءُ حِكْمَةَ ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا عُرِجَ بِهِ رَأَى فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَعَبُّدَ المَلَائِكَةِ، وَأَنَّ مِنْهُمُ الْقَائِمَ فَلَا يَقْعُدُ، وَالرَّاكِعَ فَلَا يَسْجُدُ، وَالسَّاجِدَ فَلَا يَجْلِسُ؛ فَجَمَعَ

اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَلِأُمَّتِهِ تِلْكَ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ يُصَلِّيهَا الْعَبْدُ بِشَرَائِطِهَا مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالْإِخْلَاصِ(٢٣).

وَفِي المِعْرَاجِ بَانَ حِرْصُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام عَلَى الْبَشَرِيَّةِ، وَمَحَبَّتُهُمْ لِلنَّاسِ، وَمُحَاوَلَةُ إِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَتَخْفِيفُ الشَّرَائِعِ عَلَيْهِمْ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي نَصِيحَةِ مُوسَى لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ التَّخْفِيفَ فِي الصَّلَاةِ؛ حَتَّى خُفِّفَتْ مِنْ خَمْسِينَ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ.

رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام؛ فَقَدْ غَبَطَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَبَكَى لَمَّا رَآهُ، وَذَكَرَ تَفْضِيلَهُ عَلَيْهِ، وَتَفْضِيلَ أُمَّتِهِ عَلَى أُمَّتِهِ، لَكِنَّ غَيْرَتَهُ تِلْكَ مَا حَجَزَتْهُ عَنِ النَّصِيحَةِ لِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ؛ فَمَا زَالَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِطَلَبِ التَّخْفِيفِ حَتَّى خَفَّفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كَانَ مُوسَى أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ حِينَ مَرَرْتُ بِهِ، وَخَيْرَهُمْ لِي حِينَ رَجَعْتُ إِلَيْهِ**»(٢٤)، وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ: «**فَأَقْبَلْتُ رَاجِعًا، فَمَرَرْتُ بِمُوسَى وَنِعْمَ الصَّاحِبُ كَانَ لَكُمْ**»(٢٥).

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرَّحْمَةَ فِي قُلُوبِ الْأَنْبِيَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا جَعَلَ فِي قُلُوبِ غَيْرِهِمْ»(٢٦).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَأَمَّا تَخْصِيصُ مُوسَى بِأَمْرِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمُرَاجَعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَطِّ مِنَ الصَّلَوَاتِ؛ فَلَعَلَّهُ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ أُمَّةَ مُوسَى كَانَتْ قَدْ كُلِّفَتْ مِنَ

(٢٣) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢١٦).

(٢٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الطبري في تفسيره (١٥/ ٦-١١)، وعزاه الحافظ في الفتح للبزار وسكت عنه (٧/ ٢١٢).

(٢٥) هذه الرواية من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، كما ذكر ذلك الحافظ في الفتح (٧/ ٢١٢) ولم أقف عليها عند غيره.

(٢٦) فتح الباري، لابن حجر (٧/ ٢١٢).

الصَّلَوَاتِ مَا لَمْ يُكَلَّفْ غَيْرُهَا مِنَ الْأُمَمِ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِمْ، فَخَافَ مُوسَى عليه السلام عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا يَدُلُّ قَوْلُهُ: **«فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ»**(٢٧)، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ مُوسَى: **«فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ»**(٢٨)، وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ: **«فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ صَلَاتَيْنِ، فَمَا قَامُوا بِهِمَا، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي عز وجل فَسَأَلْتُهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ: إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَخَمْسٌ بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى صِرَّى، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَقَالَ: ارْجِعْ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ صِرَّى؛ أَيْ: حَتْمٌ، فَلَمْ أَرْجِعْ»**(٢٩). وَقَوْلُهُ: (صِرَّى) أَيْ: حَتْمٌ وَاجِبَةٌ لَا مُرَاجَعَةَ فِيهَا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ قِرَاءَةَ تَفَاصِيلِ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ، وَالتَّأَمُّلَ فِي أَحْدَاثِهَا وَمُجْرَايَاتِهَا؛ لَمِمَّا يُقَوِّي إِيمَانَ المُؤْمِنِ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَزَكَاءِ عَمَلِهِ، مَتَى مَا تَأَمَّلَ ذَلِكَ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَأَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ يَرَى شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ فَيَخْشَاهُ وَيَحْذَرُهُ، وَيُبْصِرُ آيَاتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ؛ فَيَزِيدُهُ

---

(٢٧) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٢٨) هذه الرواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه المخرج في حاشية (١٣).

(٢٩) هذه الرواية للنسائي من حديث أنس بن مالك المخرج في حاشية (١٣) وهي في النسائي، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢١)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٤١)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٣٥).

«ومعنى: صِرَّى: أي حتم واجبة وعزيمة وجد، وقيل: مشتقة من صرَّ إذا قطع، وقيل: هي مشتقة من أصررت الشيء: إذا لزمته، فإن كان من هذا فهو بالصاد والرَّاء المشددة، وقيل: المعنى ثابتة ومستقرة، قال ابن فارس: الإِصْرَار: الثبات على الشيء والعزم عليه، يقال: هذه يمين صِرَّى؛ أي: جد» اهـ من شرح السيوطي على النسائي (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).
وقال السندي في حاشيته: «أي: عزيمة باقية لا تقبل النسخ» اهـ (١/ ٢٢٣).

ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَيَقِينًا إِلَى يَقِينِهِ، وَيَلْحَظُ رَحْمَتَهُ بِعِبَادِهِ فِي التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ؛ فَيَقُودُهُ ذَلِكَ إِلَى حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ عَلَى نِعْمَتِهِ، وَيَعْرِفُ لِلْأَنْبِيَاءِ فَضْلَهُمْ وَمَنْزِلَتَهُمْ؛ فَيُحِبُّهُمْ وَيَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يُحْشَرَ مَعَهُمْ، وَيَعْلَمُ حَقَّ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَتَّبِعُهُ وَيُطِيعُهُ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى الْقَائِلِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وَالْقَائِلِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَقَدْ نَهَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الِابْتِدَاعِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ تَعْظِيمِ أَزْمَانٍ لَمْ يُعَظِّمْهَا، أَوْ تَخْصِيصِهَا بِفَضَائِلَ لَمْ يَشْرَعْهَا، أَوْ بِعِبَادَاتٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا؛ كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِتَخْصِيصِ رَجَبٍ بِعِبَادَاتٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا شَرَعَهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ كَانَ فِيهِ، وَبِالْأَخَصِّ فِي لَيْلَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ!! وَذَلِكَ مَا لَمْ يَثْبُتْ مِنْ جِهَةِ التَّارِيخِ؛ فَالْخِلَافُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَبِيرٌ جِدًّا، وَلَوْ عُرِفَ ذَلِكَ لَمَا كَانَ حُجَّةً لِلْمُحْتَفِلِينَ بِهَا أَنْ يَحْتَفِلُوا؛ لِعَدَمِ احْتِفَالِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا، وَلَا احْتَفَلَ بِهَا صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ، وَلَا التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْفَضْلِ؛ وَإِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ بَعْدَهُمْ!!

إِنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ مَا هِيَ إِلَّا مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَلَوْ تَنَاقَلَتْهَا وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ فِي شَتَّى الْأَقْطَارِ، وَلَوْ شَارَكَ فِي احْتِفَالَاتِهَا قُرَّاءُ وَمَشَايِخُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ عَمَائِمُ، وَلَوْ عَظُمَ بَهْرَجُهَا وَزَخَارِفُهَا، وَلَوْ قَرَأَ فِيهَا مَنْ قَرَأَ، وَوَعَظَ فِيهَا مَنْ وَعَظَ، وَبَكَى فِيهَا مَنْ بَكَى، وَتَأَثَّرَ فِيهَا مَنْ تَأَثَّرَ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَالْحَقُّ يُعْرَفُ بِالدَّلِيلِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يُدْرَكُ الْحَقُّ بِهَوَى النُّفُوسِ وَخُشُوعِهَا، وَتَأَثُّرِهَا بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ قَصَائِدَ وَمَدَائِحَ، وَغُلُوٍّ فِي النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ

يَخْشَعُونَ عِنْدَ حَائِطِ الْبُرَاقِ، وَالنَّصَارَى يَتَأَثَّرُونَ بِقِصَّةِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَالْهُنْدُوسَ يَبْكُونَ تَحْتَ أَبْقَارِهِمْ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَمَا سُمِّيَ الْهَوَى هَوًى إِلَّا لِأَنَّ النُّفُوسَ تَهْوَاهُ، وَلَوْ كَانَ عِبَادَةً مُحْدَثَةً.

وَأَمَّا كَثْرَةُ الْمُحْتَفِلِينَ بِتِلْكَ الْمُنَاسَبَاتِ فَلَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا جَعَلَ الْكَثْرَةَ دَلِيلًا عَلَى الْحَقِّ؛ بَلِ الْحَقُّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ وَالضَّلَالَاتِ؛ فَإِنَّ الِاقْتِصَادَ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الِاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



٣١٠- الإسراء والمعراج (٣)

٢١/ ٧/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَصَّ رُسُلَهُ بِالرِّسَالَاتِ، وَأَيَّدَهُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِالْآيَاتِ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُشْكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَبَرْهَنَتْ آيَاتُهُ فِي خَلْقِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَسْرَى بِهِ رَبُّهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَعَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى، فَأَبْصَرَ مَا أَبْصَرَ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَهْلِ الْبِرِّ وَالتُّقَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ، وَمَنْ سَارَ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ مَخْرَجٌ مِنَ الضَّوَائِقِ، وَهِيَ مَنْجَاةٌ فِي الشَّدَائِدِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ابْتِلَاؤُهُمْ وَتَمْحِيصُهُمْ؛ لِيَمِيزَ صَادِقَهُمْ مِنْ كَاذِبِهِمْ، وَيَظْهَرَ مُؤْمِنُهُمْ مِنْ مُنَافِقِهِمْ، وَيَتَبَيَّنَ خَبِيثُهُمْ مِنْ طَيِّبِهِمْ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٧٩]. ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣].

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ يُثَبِّتُ الْمُؤْمِنَ الصَّادِقَ عَلَى إِيمَانِهِ، وَيَرْبِطُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَحِيدُ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُ مَهْمَا اشْتَدَّ بِهِ الْأَذَى،

وَمَهْمَا عَظُمَتِ عَلَيهِ الْمِحْنَةُ، ثُمَّ يَكُونُ الْفَرَجُ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَالْيُسْرُ عَقِبَ الْعُسْرِ، وَتكُونُ الْمِنْحَةُ فِي إِثْرِ الْمِحْنَةِ، وَهَكَذَا كَانَ مَعَ أَفْضَلِ الْخَلْقِ رُسُلِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إِذِ ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمَّا آمَنُوا وَصَبَرُوا؛ أَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى مَا يَزِيدُهُمْ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى ثَبَاتِهِمْ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ.

هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أُوذِيَ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، وَهَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَأَرَادَ تَكْلِيفَهُ بِالدَّعْوَةِ؛ كَلَّمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ قُدْرَتِهِ؛ لِيُعْلِمَ أَنَّ قُوَّةَ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ مَهْمَا بَلَغَتْ فَهِيَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَتَقَاعَسُ عَمَّا كُلِّفَ بِهِ رَهْبَةً مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٧-٢٣].

نَعَمْ، إِنَّهَا آيَاتٌ كُبْرَى يُؤَيِّدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي ثَبَاتِهِمْ وَيَقِينِهِمْ.

وَرَسُولُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُوذِيَ أَشَدَّ الْأَذَى، وَثَبَتَ أَعْظَمَ الثَّبَاتِ، وَصَبَرَ أَجْمَلَ الصَّبْرِ؛ مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ حِينَ قَالَ لَهُ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وَحِينَ تَتَابَعَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ بِمَوْتِ عَمِّهِ وَزَوْجِهِ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَامٍ سُمِّيَ: عَامَ الْحُزْنِ لِأَجْلِ ذَلِكَ؛ أَيَّدَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِالْآيَةِ الْكُبْرَى، وَأَكْرَمَهُ

بِالْمِنْحَةِ الْعُظْمَى؛ جَزَاءَ صَبْرِهِ وَيَقِينِهِ، فَأَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى، وَكَلَّمَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى بِلَا وَاسِطَةٍ، فِي حَادِثَةٍ عَظِيمَةٍ، أَجْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهَا فِي سُورَتَي النَّجْمِ وَالْإِسْرَاءِ، وَفَصَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُنَّتِهِ مَا رَأَى، وَوَصَفَ اللَّهُ ﷻ ذَلِكَ بِالْآيَاتِ الْكُبْرَى؛ فَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الْإِسْرَاء: ١]، وَقَالَ فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النَّجم: ١٨].

إِنَّهَا مِنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ أُعْطِيهَا النَّبِيُّ ﷺ، فِي وَقْتٍ هُوَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ إِذْ سُدَّتْ طُرُقُ الدَّعْوَةِ فِي وَجْهِهِ، وَاشْتَدَّ تَعْذِيبُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَمَاتَ الْمُحَامِي عَنْهُ، وَمَعَ بُلُوغِ الْكَرْبِ مَدَاهُ جَاءَتْ هَذِهِ الْكَرَامَةُ مُزِيلَةً لِلْكَرْبِ، مُثْبِتَةً لِلْقَلْبِ.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى ثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَشَجَاعَتِهِ عَقِبَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ إِخْبَارِهِ غَيْرَهُ بِتَفَاصِيلِهَا، إِنَّهَا رِحْلَةٌ فِي غَايَةِ الْغَرَابَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَفِيهَا مِنْ خَوَارِقِ مَا اعْتَادُوهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَالْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَقَعَ لَهُ مَا يُسْتَغْرَبُ أَخْفَاهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ عُرْضَةً لِلتَّكْذِيبِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَمْلِكْ دَلِيلًا عَلَى إِثْبَاتِهِ. فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُهُ إِلَّا الْإِخْبَارَ بِهِ قَصَرَهُ عَلَى أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ.

لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَ مِنْ ثَبَاتِهِ وَشَجَاعَتِهِ عَقِبَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ: أَنْ أَخْبَرَ عَنْ رِحْلَةٍ أَرْضِيَّةٍ يَسْتَحِيلُ -عِنْدَ النَّاسِ- وُقُوعُ مِثْلِهَا فِي وَقْتِهِ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ يَتَحَدَّثُ عَنْ رِحْلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ مَا فِيهَا، وَيُحَدِّثُ بِهَا مَنْ؟

إِنَّهُ يَرْمِي بِهَا فِي نُحُورِ أَعْدَائِهِ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ، حَتَّى إِنَّ أُمَّ هَانِئٍ رضي الله عنها لَمَّا أَخْبَرَهَا بِهَا، حَاوَلَتْ مَنْعَهُ مِنْ إِخْبَارِ النَّاسِ؛ لِئَلَّا يُكَذِّبَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، فَتَعَلَّقَتْ بِرِدَائِهِ، وَقَالَتْ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا ابْنَ عَمِّي أَنْ تُحَدِّثَ بِهَذَا قُرَيْشًا فَيُكَذِّبُكَ مَنْ

صَدَّقَكَ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى رِدَائِهِ فَانْتَزَعَهُ مِنْ يَدَيْهَا(١).

وَمَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ**، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: **إِنَّهُ أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ**؟ قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: **إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ**. قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: **نَعَمْ**. فَلَمْ يُرِهِ أَبُو جَهْلٍ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **نَعَمْ**، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ**. قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قُلْتُ: **إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ**. قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: **نَعَمْ**. قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «فَضَجُّوا وَأَعْظَمُوا ذَلِكَ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يُصَفِّقُ، وَبَعْضُهُمْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ تَعَجُّبًا وَاسْتِنْكَارًا، فَقَالَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ: كُلُّ أَمْرِكَ قَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَمَمًا -أَيْ: يَسِيرًا قَرِيبًا- غَيْرَ قَوْلِكَ الْيَوْمَ، أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ كَاذِبٌ، نَحْنُ

---

(١) أخرجه من حديث أم هانئ ﵂: أبو يعلى في معجمه (٤٢-٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٣) رقم (١٠٩٥)، والضياء المقدسي في فضائل بيت المقدس (٥٢). وعزاه السيوطي في الدر المنثور للطبراني وابن مردويه (٥/ ٢٠٧)، وينظر: المطالب العالية (٤٢٣٥)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٤٥)، والسيرة الحلبية (٢/ ٨٧)، والخصائص الكبرى (١/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: أحمد (١/ ٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣١٢)، والضياء في المختارة (١٠/ ٣٩) رقم (٣٤)، وعزاه الهيثمي لأحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح (١/ ٦٥)، والطبراني في الأوسط (٢٤٤٧)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٢١).

نَضْرِبُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ نَصْعَدُ شَهْرًا، وَنَنْحَدِرُ شَهْرًا، تَزْعُمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا أُصَدِّقُكَ، وَمَا كَانَ هَذَا الَّذِي تَقُولُ قَطُّ»[(٣)].

«قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، قَالَ: فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ، حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عَقِيلٍ، فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**، قَالَ: **وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ**، قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ»[(٤)].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ ﷺ: «**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ**» رَوَاهُ مسلم[(٥)].

لَقَدْ ظَهَرَتْ حُجَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَانَ صِدْقُهُ، وَلَكِنَّ الْمَصْدُودَ عَنِ الْحَقِّ لَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ، فَانْتَقَلُوا إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ يُرِيدُونَهُ «قَالُوا: يَا مُطْعِمُ، دَعْنَا نَسْأَلْهُ عَمَّا هُوَ أَغْنَى لَنَا مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا؟ فَقَالَ: **أَتَيْتُ عَلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ بِالرَّوْحَاءِ قَدْ أَضَلُّوا نَاقَةً لَهُمْ، فَانْطَلَقُوا فِي**

---

(٣) جزء من حديث أم هانئ المخرج في حاشية (١).

(٤) هذا جزء من حديث ابن عباس ﵄ المخرج في حاشية (٢).

(٥) أخرج هذا اللفظ من حديث أبي هريرة ﵁: مسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩).

وعن جابر بن عبد الله ﵄ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذبتني قريش، قمْتُ في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**» أخرجه البخاري في المناقب، باب الإسراء (٤٤٣٣)، ومسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١٧٠).

طَلَبِهَا، فَانْتَهَيْتُ إِلَى رِحَالِهِمْ لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا قَدَحُ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: هَذِهِ وَالإِلَهِ آيَةٌ! ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ فَنَفَرَتْ مِنِّي الْإِبِلُ، وَبَرَكَ مِنْهَا جَمَلٌ أَحْمَرُ عَلَيْهِ جَوَالِقُ مَخِيطٌ بِبَيَاضٍ، لَا أَدْرِي أَكُسِرَ الْبَعِيرُ أَمْ لَا فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ. قَالُوا: هَذِهِ وَالإِلَهِ آيَةٌ! ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ فِي التَّنْعِيمِ يَقْدُمُهَا جَمَلٌ أَوْرَقُ، وَهَا هِيَ ذِهِ تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنَ الثَّنِيَّةِ. فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: سَاحِرٌ، وَانْطَلَقُوا، فَنَظَرُوا، فَوَجَدُوا الْأَمْرَ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَرَمَوْهُ بِالسِّحْرِ، وَقَالُوا: صَدَقَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ فِيمَا قَالَ(٦).

وَهَكَذَا حَالُ الْمُكَذِّبِينَ، يَطْلُبُونَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ؛ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا رَأْيَ الْعَيْنِ؛ انْصَرَفُوا عَنِ التَّصْدِيقِ، وَصَدُّوا عَنِ الْحَقِّ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ، شَأْنُهُمْ فِي ذَلِكَ شَأْنُ مَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وَوَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وَفِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وَأَمَّا طُلَّابُ الْحَقِّ، أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، فَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ إِيمَانِهِمْ تَكْذِيبُ مُكَذِّبٍ، وَلَا اسْتِهْزَاءُ مُسْتَهْزِئٍ، وَلَا حَرْبُ مُحَارِبٍ، حَالُهُمْ حَالُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِنِدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَأَخْبَرَ ﷻ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

كَانَ مِنْهُمُ الصِّدِّيقُ الْأَوَّلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، حِينَ أُخْبِرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(٦) قطعة من حديث أم هانئ المخرج في الحاشية (١).

يُخْبِرُ بِخَبَرِ الْإِسْرَاءِ، وَأَنَّ بَعْضَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَبْلُ قَدِ ارْتَدُّوا، وَأَنَّ كِبَارَ قُرَيْشٍ جَعَلُوا حَدِيثَهُ مَوْضِعًا لِلسُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، فَبَادَرَ رضي الله عنه إِلَى تَصْدِيقِهِ وَبَيَانِ حُجَّتِهِ فِي ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَى رِجَالٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟! فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ؛ أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ. فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ(٧).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٢-٣٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



(٧) أخرجه الضياء المقدسي في فضائل بيت المقدس (٥٣)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (٣/ ٨١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . .

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُطَالَعَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ؛ لِاسْتِلْهَامِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ، وَالِاقْتِدَاءِ بِخَيْرِ الْبَشَرِ، فِي إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَصَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الطَّاعِنُونَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، الْمُشَكِّكُونَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، مِنَ الْكُفَّارِ وَالزَّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا الْمُشْرِكِينَ كَمَا أَخْبَرَهُمْ بِتَفَاصِيلِهَا، وَمَا جَرَى لَهُ وَمَا رَأَى غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ أَوِ اسْتِهْزَائِهِمْ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ حَقِيقَةَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ بِالْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَمْ يُخْفِ شَيْئًا خَوْفًا مِنْ تَكْذِيبِهِمْ، أَوْ حَذَرًا مِنِ اسْتِهْزَائِهِمْ؛ فَسَخِرُوا مِنْهُ وَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا مَا قَالُوا، وَتِلْكَ سُنَّةُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا كَثُرَتْ طُعُونُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي شَرِيعَةِ رَبِّنَا، تَكْذِيبًا وَتَحْرِيفًا، يُعِينُهُمْ فِي إِفْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ أَقْوَامٌ مِنْ بَنِي جِلْدَتِنَا، يَنْطِقُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، وَمَعَ كَثْرَةِ تَشْكِيكِهِمْ فِي شَرِيعَةِ رَبِّنَا، وَتَحْرِيفِهِمْ لِكَلَامِهِ ﷻ، وَرَدِّهِم لِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَصَابَ بَعْضَ النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ مَا أَصَابَهَا مِنَ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ

وَالزَّعْزَعَةِ، فَرَاحَتْ تَلْتَمِسُ المَعَاذِيرَ الْوَاهِيَةَ تَزْعُمُ أَنَّهَا بِهَا تَدْرَأُ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَتُقَرِّبُهَا مِنْ عُقُولِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ كَيْمَا يَرْضَوْا عَنْهَا، وَلَوِ اقْتَضَى ذَلِكَ تَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ، وَمُخَالَفَةَ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ.

لَقَدْ فُتِنَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِالْحَضَارَةِ المَادِّيَّةِ الَّتِي لَا تُؤْمِنُ بِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَلَا تَعْتَرِفُ إِلَّا بِالْعَالَمِ المُشَاهَدِ، وَكَثِيرٌ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهِ المَادِّيُّونَ أَرْبَابُ الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ، فَانْبَرَى المُنْهَزِمُونَ فِكْرِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا لِلتَّقْلِيلِ مِنْ أَهَمِّيَّةِ الْإِيمَانِ بِهَذَا الْغَيْبِ، وَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِنُوَاكِبَ مَنْ سَبَقُونَا فِي التَّقَدُّمِ المَادِّيِّ!! يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِالمُسْلِمِينَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ السِّتَّةَ الَّتِي لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهَا كُلُّهَا غَيْبٌ!!

بَلْ رَاحَ فَرِيقٌ مِمَّنْ زَاغَتْ قُلُوبُهُمْ، وَمَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَفَسَدَتْ دِيَانَتُهُمْ إِلَى إِنْكَارِ كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْغَيْبِ بَعْدَ إِخْضَاعِهِ لِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ المُنْحَرِفَةِ، وَيَرَى مَنْ يُمَارِسُونَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ النَّكْرَاءَ فِي حَقِّ المُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يُسْدُونَ خِدْمَةً لِلْإِسْلَامِ بِتَقْرِيبِهِ مِنَ الْحَضَارَةِ المَادِّيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ، وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ وَإِلْغَاءِ نُصُوصِهِ المُحْكَمَةِ.

وَرَسُولُنَا ﷺ لَمَّا جَاءَ قُرَيْشًا بِحَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَهِيَ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَا لَا يَخْفَى مَا هَابَ تَكْذِيبَ المُشْرِكِينَ وَلَا سُخْرِيَتَهُمْ بِهِ، وَلَا اتِّهَامَهُمْ لَهُ، وَلَا أَخْفَى شَيْئًا مِمَّا رَأَى بِحُجَّةِ أَنَّ المَصْلَحَةَ تَقْضِي بِإِخْفَائِهِ، بَلْ أَعْلَنَ ذَلِكَ فِي جُمُوعِ النَّاسِ بِكُلِّ ثِقَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.

فَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يُرِيدُ الِاقْتِدَاءَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَامْتِثَالَ سُنَّتِهِ أَنْ

يُفَاخِرَ بِدِينِهِ، وَيَعْتَزَّ بِشَرِيعَتِهِ، بَعِيدًا عَنِ الِاعْتِذَارِ عَنْهَا، أَوْ تَحْرِيفِهَا وَمَسْخِهَا، أَوِ الْخَجَلِ مِنْ أَحْكَامِهَا، وَلْيَرْضَ بِذَلِكَ مَنْ يَرْضَى، وَيَرْفُضْهُ مَنْ يَأْبَى، فَمَنْ رَضِيَ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الرِّضَا، وَبِهَذَا الرِّضَا يُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ سَخِطَهَا وَسَخِرَ مِنْهَا فَإِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزُّمَر: ٧].

وَمَعَ أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَقْطَارٍ شَتَّى لَمْ يَعْرِفُوا مِنْ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ إِلَّا أَنْ جَعَلُوهَا مُنَاسَبَةً لِإِحْيَاءِ الْبِدْعَةِ، وَإِمَاتَةِ السُّنَّةِ، بِاحْتِفَالَاتٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا فَعَلَهَا صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ ﵃ مَعَ تَوَفُّرِ الدَّاعِي لِذَلِكَ، وَعَدَمِ الْمَانِعِ مِنْهُ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَهُمْ لِذَلِكَ كَانَ مَقْصُودًا، وَهَلْ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ فَاتَتْهُمْ، وَهُدِيَ إِلَيْهَا مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ فِي الْقُرُونِ الْمُتَأَخِّرَةِ؟ كَيْفَ يَزْعُمُ مُسْلِمٌ أَنَّ ذَلِكَ فَاتَ أَفَاضِلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَى، وَعَنْهُمْ يُؤْخَذُ الدِّينُ، أَوَلَيْسَ هَذَا طَعْنًا فِي الرِّسَالَةِ، وَاسْتِدْرَاكًا عَلَى الشَّارِعِ الْحَكِيمِ؟!

وَكُلُّ هَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ الَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَسَاسٍ لَا يَثْبُتُ، وَخَبَرٍ لَا يَصِحُّ؛ إِذْ مَبْنَاهُ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَ فِي آخِرِ رَجَبٍ، وَذَلِكَ مَا لَا يَثْبُتُ مِنْ جِهَةِ التَّارِيخِ، وَإِذَا كَانَ الِاخْتِلَافُ فِي مَعْرِفَةِ الْعَامِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْإِسْرَاءُ كَبِيرًا بَيْنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَأَهْلِ السِّيَرِ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ الشَّهْرِ وَاللَّيْلَةِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا؟!

وَلَوْ عُلِمَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً صَحِيحَةً لِمَنْ يَحْتَفِلُونَ بِهِ، فَالْزَمُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ فَإِنَّهَا تُرْدِي أَصْحَابَهَا، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى

تَثْبُتُ بِالتَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ، وَالْتِزَامِ السُّنَّةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْبِدْعَةِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١، ٣٢].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١١- الإسراء والمعراج (٤)

٢٧/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى؛ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعُلَى، حَتَّى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَرَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ وَهَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَنَا الْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ١٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَسَاوَمُوهُ عَلَى دِينِهِ، فَثَبَتَ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي حَتَّى أَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَنَصَرَهُ وَأَعَزَّهُ، وَهَزَمَ أَعْدَاءَهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَى، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ وَالْهَوَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا صَوَابًا ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ جَعَلَ أُمَّتَهُمْ خَيْرَ الْأُمَمِ، وَجَعْلَهُمْ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٠]، فَدِينُهُمْ أَحْسَنُ الدِّينِ وَأَتَمُّهُ، وَشَرِيعَتُهُمْ أَفْضَلُ الشَّرَائِعِ وَأَكْمَلُهَا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النِّسَاء: ١٢٥].

وَلِذَا كَانَ حَقًّا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَنْشُرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، وَتَدْعُوَ النَّاسَ إِلَيْهِ، وَتَحْكُمَهُمْ بِهِ، فَلَا يَعْلُو سُلْطَانٌ سُلْطَانَهُ، وَلَا يُحْكَمُ النَّاسُ بِغَيْرِهِ؛ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَلَا عَدْلَ إِلَّا فِيمَا اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَحَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ حَادِثٍ فَرْدِيٍّ صَغِيرٍ، بَلْ رَأَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْآيَاتِ الْكُبْرَى، وَتَجَلَّى لَهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُشَاهَدَةً وَعِيَانًا، وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ النَّبَوِيَّةُ الْغَيْبِيَّةُ عَلَى مَعَانٍ دَقِيقَةٍ كَثِيرَةٍ، وَإِشَارَاتٍ حَكِيمَةٍ بَعِيدَةِ المَدَى، مِنْ أَهَمِّهَا:

أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ نَبِيُّ الْقِبْلَتَيْنِ، وَإِمَامُ المَشْرِقَيْنِ وَالمَغْرِبَيْنِ، وَوَارِثُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَإِمَامُ الْأَجْيَالِ بَعْدَهُ، فَفِي شَخْصِهِ الْكَرِيمِ، وَفِي إِسْرَائِهِ الْعَظِيمِ؛ الْتَقَتْ مَكَّةُ بِالْقُدْسِ، وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ خَلْفَهُ، فَكَانَ هَذَا إِيذَانًا بِعُمُومِ رِسَالَتِهِ، وَخُلُودِ إِمَامَتِهِ، وَعَالَمِيَّةِ دِينِهِ، وَصَلَاحِيَّتِهِ لِاخْتِلَافِ المَكَانِ وَالزَّمَانِ، وَإِصْلَاحِهِ لِمَا أَفْسَدَتِ الشَّيَاطِينُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ(١).

إِنَّ مُرُورَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَنْبِيَاءِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَسَلَامَهُ عَلَيْهِمْ، وَتَرْحِيبَهُمْ بِهِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: «**مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**» إِلَّا أَبَوَيْهِ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ عليهما السلام فَقَالَا: «**مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ**»(٢)، وَصَلَاتَهُ

---

(١) الأساس في السنه لسعيد حوى (١/ ٢٩٢)، عن: السيرة النبويه د: على محمد الصلابي (١/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن عبدالله بن صعصعة رضي الله عنهما: البخاري في الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء (١٦٤).

بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا وَهُمْ خَلْفَهُ يَأْتَمُّونَ بِهِ . . . إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ قَدْ سَلَّمُوا لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ، وَأَقَرُّوا -وَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ- أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَام قَدْ نَسَخَتِ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ، وَأَنَّهُ لَا يَسَعُ أَتْبَاعَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ وَالْأَجْنَاسِ إِلَّا مَا وَسِعَ أَنْبِيَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ التَّسْلِيمُ بِالْقِيَادَةِ لِهَذَا الرَّسُولِ وَلِرِسَالَتِهِ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَالْإِيمَانُ بِهَا، وَالْتِزَامُ أَحْكَامِهَا.

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّينَ بِذَلِكَ، وَذَمَّ مَنْ رَفَضَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، فَالْتَزَمَ النَّبِيُّونَ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ بِهَذَا الْمِيثَاقِ الْعَظِيمِ، فَمَا بَالُ مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﷺ لَا يَتَّبِعُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ فِي انْقِيَادِهِمْ لِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْإِقْرَارِ بِإِمَامَتِهِ؟ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١، ٨٢].

إِنَّ عَلَى الَّذِينَ يَعْقِدُونَ مُؤْتَمَرَاتِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ الْأَدْيَانِ أَنْ يُدْرِكُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَيْهَا، وَهِيَ ضَرُورَةُ انْخِلَاعِ أَتْبَاعِ الدِّيَانَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ مِنْ أَدْيَانِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَالدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ ﷺ وَرِسَالَتِهِ؛ اتِّبَاعًا لِرُسُلِهِمْ، وَوَفَاءً بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ(٣).

وَعَلَى الْمُشَارِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْمُؤْتَمَرَاتِ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ الْغَرْبِيِّينَ وَأَذْنَابَهُمْ لَا يُرِيدُونَ بِمَا يُسَمَّى حِوَارَاتِ الْحَضَارَاتِ، وَدَعَوَاتِ التَّقْرِيبِ بَيْنَ

(٣) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).

الْأَدْيَانِ إِلَّا إِخْضَاعَ الْحَقِّ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَطْوِيعَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَدْيَانِهِمُ المُحَرَّفَةِ، وَأَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ، وَهَذَا مَا لَنْ يَكُونَ قَدَرًا، وَلَا يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ شَرْعًا؛ فَالْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ لَا يَلْتَقِيَانِ أَبَدًا، وَلَا يَنْتَفِيَانِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ.

فَخَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يَدْعُوا الضَّالِّينَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يَقْبَلُوا المُسَاوَمَةَ عَلَيْهِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ؛ فَإِنَّ تَنَازُلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ؛ إِرْضَاءً لِلْقُوَى الطَّاغُوتِيَّةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ لَنْ يَكُونَ حَلًّا صَحِيحًا لِمَشَاكِلِهِمْ، وَلَنْ يَرُدَّ عُدْوَانَ الظَّالِمِينَ عَنْهُمْ، بَلْ إِنَّهُ سَيُطْمِعُ أَعْدَاءَهُمْ فِيهِمْ، مَعَ إِيبَاقِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِسْخَاطِهِمْ لِرَبِّهِمْ. وَلَوْ بَذَلُوا دِينَهُمْ كُلَّهُ لِعُبَّادِ الصَّلِيبِ وَعُبَّادِ الْعِجْلِ وَعُبَّادِ المَادَّةِ، فَلَنْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٠].

وَلَمَّا سَاوَمَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِينِهِ، وَطَلَبُوا مِنْهُ التَّنَازُلَ عَنْ بَعْضِهِ، وَمُوَافَقَتَهُمْ فِي بَعْضِ دِينِهِمْ كَانَ جَوَابُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الْكَافِرُون: ١-٦].

وَمَاذَا يُرِيدُ دُعَاةُ تَقَارُبِ الْأَدْيَانِ إِلَّا انْخِلَاعَ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ حَقِّهِمْ، وَمُوَافَقَةَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَاطِلِهِمْ، وَلَنْ يَقْبَلُوا حِوَارًا أَوْ تَقَارُبًا يُقْضَى فِيهِ بِالْحَقِّ، وَيُزْهَقُ فِيهِ الْبَاطِلُ، وَيُؤْخَذُ فِيهِ عَلَى أَيْدِي الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالظَّالِمِينَ.

وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ ارْتَبَطَتْ أَرْضُ الشَّامِ الْمُبَارَكَةُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ الْمُقَدَّسَةِ،

وَتَوَاثَقَتْ عَلَاقَةُ بَيْتِ المَقْدِسِ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ وَالمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، فَكَانَ الْإِسْرَاءُ مِنْ مَكَّةَ، وَالْمِعْرَاجُ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَبَيْنَهُمَا مَسْجِدُ المَدِينَةِ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ المَعَانِي مَا لَا يُدْرِكُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَفِيهِ أَهَمِّيَّةُ المَسْجِدِ الْأَقْصَى بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ؛ وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، وَلَيْسَ لِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ، أَوْ طَائِفَةٍ دُونَ طَائِفَةٍ؛ إِذْ هُوَ مَسْرَى رَسُولِهِمْ ﷺ، وَمِعْرَاجُهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ قِبْلَتَهُمُ الْأُولَى طِيلَةَ الْفَتْرَةِ المَكِّيَّةِ، وَهَذَا تَوْجِيهٌ وَإِرْشَادٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُحِبُّوا المَسْجِدَ الْأَقْصَى وَمَا حَوْلَهُ؛ لِأَنَّهَا أَرْضٌ مُبَارَكَةٌ مُقَدَّسَةٌ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ تَحْرِيرِ المَسْجِدِ الْأَقْصَى مِنَ الشِّرْكِ وَالمُشْرِكِينَ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ، كَمَا هِيَ أَيْضًا مَسْئُولِيَّتُهُمْ فِي تَحْرِيرِ المَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ أَوْضَارِ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، حِينَ أُزِيلَتْ يَومَ الفَتْحِ المُبِينِ.

وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةُ ﷺ أَهَمِّيَّةَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى فَلَمْ يُرْضِهِمْ أَنْ يَظَلَّ أَسِيرًا تَحْتَ حُكْمِ الرُّومَانِ، فَسُيِّرَتْ جُيُوشُ الْحَقِّ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ المُبَارَكَةِ؛ لِفَتْحِهِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ شِرْكِ الرُّومَانِ، وَضَمِّهِ إِلَى بِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَسَافَرَ خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ لِاسْتِلَامِهِ مِنْ قَادَةِ النَّصَارَى لَمَّا تَصَالَحُوا مَعَ قَادَةِ المُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَجَاوَرَ فِي أَرْضِهِ المُبَارَكَةِ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَكَانَتِهِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ.

وَبِهَذَا نُدْرِكُ أَهَمِّيَّةَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِهَا سُورَةً افْتُتِحَتْ بِذِكْرِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ المُبَارَكَةِ، وَسُمِّيَتْ بِاسْمِهَا ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الْإِسْرَاء: ١].

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ أُمَّتِهِ وَمِنْ أَتْبَاعِهِ وَعَلَى دِينِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ....



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الرَّبْطَ بَيْنَ حَرَمِ مَكَّةَ وَبَيْتِ المَقْدِسِ فِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ مُشْعِرٌ بِأَنَّ أَيَّ تَهْدِيدٍ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَأَهْلِهِ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِلْحَرَمَيْنِ المَكِّيِّ وَالمَدَنِيِّ وَأَهْلِهِمَا، وَأَنَّ النَّيْلَ مِنَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى مَا هُوَ إِلَّا تَوْطِئَةٌ لِلنَّيْلِ مِنَ الْحَرَمَيْنِ؛ فَالمَسْجِدُ الْأَقْصَى هُوَ بَوَّابَةُ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ إِلَى الْحَرَمَيْنِ المَكِّيِّ وَالنَّبَوِيِّ. وَاحْتِلَالُ الصَّهَايِنَةِ لِلْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَوُقُوعُهُ فِي أَيْدِي الْيَهُودِ يَعُودُ بِالْخَطَرِ عَلَى حَرَمَيْ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَنْظَارَ الْأَعْدَاءِ تَتَّجِهُ إِلَيْهِمَا بَعْدَ الْأَقْصَى.

وَلَمَّا احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ المَسْجِدَ الْأَقْصَى سَعَى المُسْلِمُونَ إِلَى تَطْهِيرِهِ مِنْ رِجْسِهِمْ، وَجَاهَدُوهُمْ تِسْعِينَ سَنَةً فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَقَدَّمُوا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ رَخِيصَةً لِافْتِدَاءِ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَسْجِدِهَا الْأَقْصَى، حَتَّى تَهَيَّأَ لَهُمْ ذَلِكَ بِقِيَادَةِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِقَدَاسَتِهَا،

وَلِعِلْمِ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ أَنَّ أَطْمَاعَ الصَّلِيبِيِّينَ سَتَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى حَرَمَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ(٤).

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ؛ إِذْ إِنَّ الْمَلِكَ الصَّلِيبِيَّ «أَرْنَاط» صَاحِبَ مَمْلَكَةِ الْكَرَكِ آنَذَاكَ أَرْسَلَ بِعْثَةً لِلْحِجَازِ لِلاعْتِدَاءِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَبْشِ قَبْرِهِ، وَلَكِنَّهُ خَابَ وَخَسِرَ(٥).

ثُمَّ حَاوَلَ الْبُرْتُغَالِيُّونَ الْوُصُولَ إِلَى الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ لِتَنْفِيذِ مَا عَجَزَ عَنْهُ أَسْلَافُهُمُ الصَّلِيبِيُّونَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَدَّهُمْ بِالْمَمَالِيكِ وَالْعُثْمَانِيِّينَ فَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ.

---

(٤) ينظر: خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس (٣/ ٤٣٥)، وخطبة: سلب الأقصى واسترداده (٣/ ٤٦٦).

(٥) السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).
قال المقريزي في السلوك في أحداث سنة (٥٧٨): «وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز، وأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفنًا، وحملها على البر إلى بحر القلزم، وأركب فيها الرجال، وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم لمنع أهلها من استقاء الماء. وسارت البقية نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا في بحر القلزم نحو ست عشرة مركبًا، وأخذوا بعيذاب مركبًا يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين، وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع؛ فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية. فجهز الملك العادل -وهو يخلف السلطان بالقاهرة- الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم فعمر مراكب بمصر والإسكندرية وسار إلى أيلة، وظفر بمراكب للفرنج فحرقها، وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب، وتبع مراكب الفرنج فوقع بها بعد أيام، واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، ورد عليهم ما أخذ لهم، وصعد البر موكب خيل العرب حتى أدرك مَنْ فَرَّ من الفرنج، وأخذهم فَسَاقَ منهم اثنين إلى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة، فضربت أعناقهم كلهم» اهـ من السلوك (١/ ١٩٠)، وأشار إلى ذلك ابن كثير في البداية (١٦/ ٥٥٧).

وَفِي حَرْبِ مَا يُسَمَّى بِالنَّكْسَةِ قَبْلَ أَرْبَعِينَ عَامًا احْتَلَّ الْيَهُودُ بَيْتَ المَقْدِسِ، ثُمَّ صَرَّحَ زُعَمَاؤُهُمْ بَعْدَ نَصْرِهِمْ بِأَنَّ الْهَدَفَ بَعْدَ بَيْتِ المَقْدِسِ احْتِلَالُ الْحِجَازِ، وَفِي مُقَدِّمَةِ ذَلِكَ مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَيْبَرُ، وَوَقَفَ الزَّعِيمُ الصِّهْيَوْنِيُّ بِنْ غُورْيُونْ بَعْدَ دُخُولِ الْجَيْشِ الْيَهُودِيِّ الْقُدْسَ يَسْتَعْرِضُ جُنُودًا وَشُبَّانًا مِنَ الْيَهُودِ بِالْقُرْبِ مِنَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَيُلْقِي فِيهِمْ خِطَابًا نَارِيًّا يَخْتَتِمُهُ بِقَوْلِهِ: «لَقَدِ اسْتَوْلَيْنَا عَلَى الْقُدْسِ، وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى يَثْرِبَ»(٦).

وَوَقَفَتْ غُولْدَا مَائِيرُ رَئِيسَةُ وُزَرَاءِ الْيَهُودِ، بَعْدَ احْتِلَالِ بَيْتِ المَقْدِسِ، عَلَى خَلِيجِ إِيلَاتَ فِي الْعَقَبَةِ، تَقُولُ: إِنَّنِي أَشُمُّ رَائِحَةَ أَجْدَادِي فِي المَدِينَةِ وَالْحِجَازِ، وَهِيَ بِلَادُنَا الَّتِي سَوْفَ نَسْتَرْجِعُهَا(٧).

ثُمَّ نَشَرَ الْيَهُودُ خَرِيطَةً لِدَوْلَتِهِمُ المُنْتَظَرَةِ الَّتِي شَمِلَتِ الْمِنْطَقَةَ مِنَ الْفُرَاتِ إِلَى النِّيلِ، بِمَا فِي ذَلِكَ أَجْزَاءٌ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، مِنْ ضِمْنِهَا مَدِينَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَزَّعُوا تِلْكَ الْخَرِيطَةَ فِي أُورُوبَّا إِثْرَ انْتِصَارِهِمْ فِيمَا سُمِّيَ بِالنَّكْسَةِ(٨).

كُلُّ هَذِهِ أَحْدَاثٌ وَدَلَائِلُ تُشِيرُ إِلَى الِارْتِبَاطِ الْوَثِيقِ بَيْنَ المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ لِلْعِبَادَةِ إِلَّا إِلَيْهَا، وَأَنَّ الْخَطَرَ عَلَى بَعْضِهَا يَشْمَلُ جَمِيعَهَا، وَأَنَّ أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَالرُّسُلُ قَدْ بُعِثُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَرْضُ أَرْضُهُ، وَقَدْ بَارَكَ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ بِالْحَرَمَيْنِ، وَبَارَكَ أَرْضَ الشَّامِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَجَعَلَ هَذِهِ المَسَاجِدَ مَوْضِعَ ذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَلَا أَحَدَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى بِحَقٍّ إِلَّا أَتْبَاعُ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(٦) السيرة النبوية لأبي فارس (٢١٣)، عن السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٦).
(٧) السيرة النبوية لابي فارس (٢١٤)، عن السيرة النبوية للصلابي (١/ ٣٣٧).
(٨) المصدران السابقان.

وَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُدْرِكُوا مِنْ مَعَانِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ إِلَّا إِحْيَاءَ اللَّيْلَةِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَقَعَ فِيهَا، مَعَ أَنَّهَا لَيْلَةٌ مَجْهُولَةُ الْعَيْنِ وَالشَّهْرِ وَالْعَامِ، وَلَوْ كَانَتْ مَعْلُومَةً لَمَا كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ فِي إِحْيَائِهَا بِعِبَادَةٍ لَمْ يُشَرِّعْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَا فَعَلَ ذَلِكَ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ ﷺ، وَلَا التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ.

وَإِنَّمَا أَحْدَثَ الاحْتِفَالَاتِ الْبِدْعِيَّةَ بِالأَيَّامِ بَنُو عُبَيْدٍ الْبَاطِنِيُّونَ فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ إِبَّانَ احْتِلَالِهِمْ لِمِصْرَ، وَهُمْ طَائِفَةٌ خَبِيثَةٌ تُظْهِرُ وَلَاءَهَا لِآلِ الْبَيْتِ، وَتُبْطِنُ عَقَائِدَ خَبِيثَةً، وَقَدْ أَطْبَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كُفْرِ أَئِمَّتِهِمْ وَحُكَّامِهِمْ؛ لِمَا أَظْهَرُوهُ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، وَلِمَا حَرَّفُوهُ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِمَا دَعَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، ثُمَّ قَلَّدَهُمْ جَهَلَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي الاحْتِفَالَاتِ بِالْمَوَالِدِ وَالْإِسْرَاءِ وَالْهِجْرَةِ مَا تَرَوْنَهُ أَوْ تَسْمَعُونَ بِهِ كُلَّ عَامٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، فَاحْذَرُوا ذَلِكَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَحَذِّرُوا مِنْهُ إِخْوَانَكُمُ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَمَنِ اسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٢- الهجرة النبوية

١٢/ ١/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ جَعَلَ الهِجْرَةَ مَلَاذًا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَسَبَبًا يُوصِلُ إِلَى النَّصْرِ المُبِينِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ الهِجْرَةَ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ، وَرَفْعِ رَايَةِ التَّوْحِيدِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَفْضَلُ المُهَاجِرِينَ، وَخَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ المُؤْمِنِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، وَيُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا.

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ: إِنَّ سِيرَةَ المُصْطَفَى ﷺ حَافِلَةٌ بِالْعِبَرِ، مَلِيئَةٌ بِالْعِظَاتِ، مُنْذُ بَعْثَتِهِ ﷺ إِلَى وَفَاتِهِ، فَمَا مِنْ يَوْمٍ قَضَاهُ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا وَهُوَ دَرْسٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعِبْرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، يَنْهَلُ المُؤْمِنُونَ مِنْ مَعِينِ سِيرَتِهِ الصَّافِيَةِ، وَيَرْتَوُونَ مِنْ عُذُوبَةِ حَدِيثِهِ الْجَامِعِ، وَطِيبِ كَلَامِهِ النَّافِعِ، إِنَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ، وَخَلِيلُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَمُصْطَفَاهُ ﷺ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وَلَئِنْ كَانَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَغَزَوَاتِهِ وَأَسْفَارِهِ، لَا يُحِيطُ بِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَوْرَاقِ، وَلَا يَكْفِي فِي الْحَدِيثِ عَنْهَا طَوِيلُ السَّاعَاتِ، فَحَسْبُنَا جَانِبٌ مِنْ جَوَانِبِهَا الْعَظِيمَةِ، وَجُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهَا الْكَثِيرَةِ.

إِنَّهَا الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الْمُبَارَكَةُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، الَّتِي بِهَا فَرَّ

المُسْلِمُونَ بِدِينِهِمْ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ حِينَ أَذَاقُوهُمْ أَصْنَافَ الْعَذَابِ، وَأَلْوَانَ الْأَذَى؛ لِيَصْرِفُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟! لِأَنَّ الدِّينَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَرْضَ أَرْضُهُ سُبْحَانَهُ، وَالْعِبَادَ عِبَادُهُ ﷻ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُمَكِّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالْهِجْرَةِ، وَانْتَظَرَ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ تَسَابُقَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ خَافُوا أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَتَقْوَى شَوْكَتُهُ ثُمَّ يَعُودَ فَيَغْزُوهُمْ، فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ لَا تَقْضِي أَمْرًا إِلَّا فِيهَا، يَتَشَاوَرُونَ مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَضَرَ مَعَهُمُ اجْتِمَاعَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، وَكَانَ يُخَطِّئُ كُلَّ رَأْيٍ لَا يَرَاهُ سَدِيدًا فِي الْقَضَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، حَتَّى أَعْلَنَ أَبُو جَهْلٍ رَأْيَهُ فِي أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى جَلْدًا نَسِيبًا، ثُمَّ يُعْطُوهُمْ سُيوفًا صَارِمَةً، ثُمَّ يَعْمِدُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَضْرِبُوهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَيَقْتُلُوهُ وَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ، فَيُرْغِمُونَ قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الرِّضَا بِالدِّيَةِ، فَقَالَ إِبْلِيسُ حِينَهَا: الْقَوْلُ مَا قَالَ الرَّجُلُ، هَذَا الرَّأْيُ الَّذِي لَا أَرَى غَيْرَهُ.

تَفَرَّقَ الْقَوْمُ وَهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ أَبَى إِلَّا أَنْ يَحْفَظَ نَبِيَّهُ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، وَمُؤَامَرَةِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ حَيْثُ أَتَى جِبْرِيلُ عليه السلام وَأَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي فِرَاشِهِ، وَأَمَرَ عَلِيًّا رضي الله عنه أَنْ يَنَامَ فِيهِ، فَفَدَى عَلِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْتِهِ وَالْفِتْيَةُ يَنْتَظِرُونَهُ عَلَى الْبَابِ، وَأَخَذَ ﷺ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ، وَصَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَبْصَارَهُمْ عَنْهُ فَلَمْ يَرَوْهُ، فَجَعَلَ يَنْثُرُ التُّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو أَوَائِلَ سُورَةِ يس، حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ

تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩][١].

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالْهِجْرَةِ، فَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الصُّحْبَةَ**»[٢].

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ»[٣].

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ عَلَى رَاحِلَتَيْنِ كَانَ قَدْ أَعَدَّهُمَا لِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَسَارَ الْمُشْرِكُونَ فِي طَلَبِهِمَا، وَجَعَلُوا مِائَةَ نَاقَةٍ لِمَنْ ظَفِرَ بِهِمَا، فَلَجَأَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ لَيْلًا، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَسَ الْغَارَ لِيَنْظُرَ: أَفِيهِ سَبُعٌ أَوْ حَيَّةٌ؟ يَقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِهِ، وَاشْتَدَّ طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبِهِ، وَوَصَلُوا إِلَى الْغَارِ، حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»[٤].

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩١)، وسيرة ابن كثير (٢/ ٢٢٩)، وسبل الهدى والرشاد (٣/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في البيوع، باب إذا اشترى متاعًا أو دابة، فوضعه عند البائع أو مات قبل أن يقبض (٢١٣٨).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١١)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٦٩).

(٤) أخرجه من حديث أنس عن أبي بكر رضي الله عنهما: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم(٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٢٣٨١).

وَمَكثَا فِي الْغَارِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى هَدَأَ الطَّلَبُ عَنْهُمَا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَا المَسِيرَ وَمَعَهُمَا دَلِيلُهُمَا عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ ﷺ لَمَّا سَمِعُوا بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ يَخْرُجُونَ إِذَا صَلَّوُا الْفَجْرَ إِلَى ظَاهِرِ حَرَّةِ المَدِينَةِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: فَوَاللَّهِ مَا نَبْرَحُ حَتَّى تَغْلِبَنَا الشَّمْسُ عَلَى الظِّلَالِ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ ظِلًّا دَخَلْنَا وَذَلِكَ فِي أَيَّامٍ حَارَّةٍ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَلَسْنَا كَمَا كُنَّا نَجْلِسُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ رَآهُ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ قَدْ رَأَى مَا كُنَّا نَصْنَعُ، وَأَنَّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا بَنِي قَيْلَةَ، هَذَا جَدُّكُمْ -أَيْ: حَظُّكُمْ- قَدْ جَاءَ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ نَخْلَةٍ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فِي مِثْلِ سِنِّهِ، وَأَكْثَرُنَا لَمْ يَكُنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَكِبَهُ النَّاسُ وَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، حَتَّى زَالَ الظِّلُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَأَظَلَّهُ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ(٥).

وَهَكَذَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ- وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ سَالِمًا مَحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِعَايَتِهِ، رَغْمَ مُؤَامَرَاتِ المُشْرِكِينَ وَمَكَائِدِهِمْ، وَاسْتَبْشَرَ بِهِ الْأَنْصَارُ أَيَّمَا اسْتِبْشَارٍ، وَفَرِحُوا بِهِ أَعْظَمَ الْفَرَحِ.

هَذَا مُوجَزُ هِجْرَةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَجُزْءٌ مِنْ تَضْحِيَاتِهِ لِإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، فَتَرَكَ وَطَنَهُ، وَتَغَرَّبَ عَنْ بَلَدِهِ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا وَطِئَتِ الْأَرْضَ قَدَمٌ أَفْضَلُ مِنْ قَدَمِهِ ﷺ، لَكِنَّهُ رَغْمَ ذَلِكَ أُوذِيَ وَغُرِّبَ، وَأُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ؛ لِيُقِيمَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ، وَيَعُودَ إِلَيْهَا فَاتِحًا مَنْصُورًا، حَتَّى وَصَلَنَا الدِّينُ نَقِيًّا مَحْفُوظًا، فَنُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى بَلَاغِهِ، وَجَزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنَّا

(٥) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠)، وتاريخ خليفة (٥٥).

وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَلَئِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ مَوْلِدِهِ وَمَنْشَئِهِ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْبِقَاعِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ﷻ فِي الْأَرْضِ، وَنَشْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى عَادَ إِلَى بَلَدِهِ فَاتِحًا مُحَطِّمًا الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَمُطَهِّرًا بَيْتَ اللَّهِ ﷻ مِنْ رِجْسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَادَاتِهَا، فَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهَا أَصْبَحَتْ بَلَدًا إِسْلَامِيًّا، بَلْ هِيَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ، وَمَنْبَعُ الرِّسَالَةِ، وَقِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ.

إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُهَاجِرُونَ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي شَرُفَتْ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ إِلَى دِيَارِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ الْكَافِرَةِ، بِحُجَّةِ التَّرْوِيحِ وَالتَّرْفِيهِ عَنِ النَّفْسِ؟! وَيَمْكُثُونَ أَشْهُرًا عِدَّةً بِنِسَائِهِمْ

وَأَوْلَادِهِمْ، وَقَدْ يَقَعُونَ فِي المُحَرَّمَاتِ، وَتُغْوِيهِمُ المُغْرِيَاتُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ إِثْمِ ذَلِكَ إِلَّا الْإِقَامَةُ بَيْنَ ظَهَرَانَي المُشْرِكِينَ، وَعَدَمُ سَمَاعِ الْأَذَانِ يُجْهَرُ بِهِ فِي المَآذِنِ، وَرُؤْيَةُ الْحَرَامِ الَّتِي لَا يَكَادُ يَنْفَكُّ مِنْهَا أَحَدٌ بِسَبَبِ انْتِشَارِ الْعُرْيِ فِي الْبِلَادِ الْكَافِرَةِ.

حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَتِ الْإِجَازَةُ وَقَدْ صَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَقَدْ كَانَ الْأَوْلَى أَنْ تَسُدَّ جَوْعَةَ مُؤْمِنٍ، أَوْ تَكْسُوَ عَوْرَتَهُ، عَادُوا بِجَرَاثِيمِ تِلْكَ الْبِلَادِ، جَرَاثِيمَ حِسِّيَّةٍ أَنْتَجَتْهَا الشَّهَوَاتُ لِمَنْ وَقَعَ فِي المُحَرَّمَاتِ، فَنَقَلُوا أَمْرَاضَهَا إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَنَشَرُوهَا فِي مُجْتَمَعِهِمْ وَذَوِيهِمْ، وَجَرَاثِيمَ مَعْنَوِيَّةٍ تَتَمَثَّلُ فِي مَبَادِئَ سَاقِطَةٍ، وَأَفْكَارٍ مُنْحَرِفَةٍ، مُسْتَقَاةٍ مِنْ فِكْرِ الْغَرْبِيِّينَ وَثَقَافَتِهِمْ، يُعْجَبُ بِهَا الْأَبُ فَيَلُوكُهَا بِلِسَانِهِ، وَيَدْعُو إِلَيْهَا وَهِيَ تُنَاقِضُ التَّوْحِيدَ وَالشَّرِيعَةَ، وَلَكِنَّهُ الِانْبِهَارُ بِمَا عِنْدَ الْآخَرِينَ.

وَتَتَأَثَّرُ النِّسَاءُ بِالتَّهَتُّكِ فِي اللِّبَاسِ، وَمَا نُقِلَتْ مُوضَاتُ الْعُرْيِ إِلَّا بِسَبَبِ الْإِعْجَابِ بِأَلْبِسَةِ الْكَافِرَاتِ وَالْفَاسِقَاتِ.

وَيَتَأَثَّرُ الْأَوْلَادُ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِحَيَاةِ الِانْفِلَاتِ الَّتِي يَعِيشُهَا أَوْلَادُ الْغَرْبِ بَعِيدًا عَنْ رِقَابَةِ الْأُسْرَةِ وَصِيَانَتِهَا، وَهَذَا يُوجِدُ فِي نُفُوسِهِمُ التَّمَرُّدَ عَلَى أُسَرِهِمْ، وَعَلَى قُيُودِ الشَّرِيعَةِ، وَعَلَى أَنْظِمَةِ بُلْدَانِهِمْ.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَدْمَنُوا السَّفَرَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ وَالْعُهْرِ ضَجِرُوا مِنْ بُلْدَانِهِمْ فِي تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ فِيهَا، وَصَارَ مِنْهُمْ أُنَاسٌ يُطَالِبُونَ بِنَقْلِ مَبَادِئِ الْكَافِرِينَ وَقَوَانِينِهِمْ إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَهَلْ هَذِهِ دُرُوسُ الْهِجْرَةِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا المُسْلِمُونَ وَدَرَسُوهَا مِنْ كُتُبِ السِّيرَةِ؟ أَهَكَذَا يَنْقَلِبُ مَفْهُومُ الْهِجْرَةِ عِنْدَ بَعْضِ المُسْلِمِينَ حَتَّى تُصْبِحَ مِنْ بَلَدِ الْإِسْلَامِ إِلَى بَلَدِ الشِّرْكِ؟

وَأَضْرَارُ سَفَرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ -بِلَا حَاجَةٍ تَدْعُو لِذَلِكَ- كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَالْأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ فِي الْمُجْتَمَعِ صَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْقَادِمِينَ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ وَالْخَنَا نَظْرَةَ إِعْجَابٍ وَتَقْدِيرٍ، وَاحْتِرَامٍ وَتَوْقِيرٍ، تَقُودُ إِلَى تَقْلِيدِهِمْ فِيمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ طَرَائِقِ الْكُفَّارِ وَعَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَلْبِسَتِهِمْ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاحْذَرُوا كُلَّ سَفَرٍ يَكُونُ سَبَبًا فِي انْحِرَافٍ، وَلَا تَسْتَمِعُوا لِكُلِّ نَاعِقٍ مُتَفَرْنِجٍ، وَخُذُوا مِنْ هِجْرَةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَسِيرَتِهِ الْعِبَرَ وَالْعِظَاتِ؛ فَإِنَّ النَّصْرَ يَكُونُ بِالسَّيْرِ عَلَى طَرِيقِهِ، وَاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ، وَعَدَمِ الْحَيْدَةِ عَنْهُ أَبَدًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣١٣- الغزو في رمضان (١)

١٥/ ٩/ ١٤١٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ جَعَلَ رَمَضَانَ لِلْخَيْرَاتِ مَوْسِمًا، وَلِلنَّصْرِ وَالْفُتُوحِ مَوْقِعًا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، لَمْ يَزَلْ غَفُورًا رَحِيمًا، وَكَانَ بِعِبَادِهِ لَطِيفًا خَبِيرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَلِلنَّاسِ هَادِيًا وَبَشِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ لَيْلُهُمْ قِيَامٌ وَسُجُودٌ، وَنَهَارُهُمْ جِهَادٌ وَفُتُوحٌ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَأَنْتُمْ فِي شَهْرِ التَّقْوَى، وَلَا سَبِيلَ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا التَّقْوَى، وَلَا فِكَاكَ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، اتَّقُوا اللَّهَ ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: شَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرٌ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَذَلَّ فِيهِ الْكَافِرِينَ، أَعَزَّ فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ، وَبِالْفُتُوحِ وَالِانْتِصَارَاتِ، وَأَذَلَّ الْكَافِرِينَ بِالْبُعْدِ عَنْهُ وَمُقَارَفَةِ السَّيِّئَاتِ، وَالْهَزَائِمِ الْمُتَتَابِعَاتِ.

لَمْ تُوجَدْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَعَلَى مَرِّ التَّارِيخِ أُمَّةٌ سَعِدَتْ بِرَمَضَانَ كَمَا سَعِدَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ؛ فَرَمَضَانُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ يُحَرِّكُ فِي نُفُوسِهِمْ كَوَامِنَ الذِّكْرَيَاتِ، وَيُشَوِّقُهُمْ لِلذِّكْرِ وَالْعِبَادَاتِ؛ فَأَيَّامُهُ أَيَّامُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالْفَخَارِ، وَلَيَالِيهِ لَيَالِي

اسْتِجْلَابِ الرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ.

إِنَّ أَوَّلَ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ نُصِرَ فِيهَا الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ كَانَتْ فِي رَمَضَانَ، وَإِنَّ أَعْظَمَ فَتْحٍ أُكْرِمَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَذُلَّ بِهِ الْكَافِرُونَ كَانَ فِي رَمَضَانَ.

وَإِنَّ اسْتِعْرَاضَ غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى، وَدِرَاسَةَ أَحْدَاثِهَا لَيَأْخُذُ مِنَ الْوَقْتِ الْكَثِيرَ، وَحَسْبُنَا مُرُورًا عَابِرًا عَلَى أَهَمِّ أَحْدَاثِهَا، وَأَعْظَمِ أَخْبَارِهَا؛ لِإِحْيَاءِ الْقُلُوبِ بِذِكْرَيَاتِهَا، وَحَشْدِ الْهِمَمِ بِأَخْبَارِ رِجَالَاتِهَا، فَالنُّفُوسُ الْأَبِيَّةُ تَفْرَحُ بِذِكْرِ الْجِهَادِ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَتَتَرَنَّمُ بِتَفَاصِيلِ الْغَزْوِ وَالْفُتُوحِ.

وَفِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، بِفَرَسَيْنِ وَسَبْعِينَ بَعِيرًا(٢)، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَلْفِ مُقَاتِلٍ بِمِائَةِ فَرَسٍ وَسِتِّمِائَةِ دِرْعٍ، وَجِمَالٍ كَثِيرَةٍ يَقُودُهَا أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ فِي غُرُورٍ(٣)، ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي مُقَارَعَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَقَالَ وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: «يَا رَسُولَ

---

(١) اتفق أهل السير على أنها في رمضان، والجمهور على أنها يوم الجمعة السابع عشر. ينظر: مصنف عبد الرزاق (٧٦٩٧)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٧٥)، وسنن أبي داود في الصلاة، باب من روى أنها ليلة سبع عشرة (١٣٨٤)، وسنن البيهقي (٤/ ٣١٠)، ومستدرك الحاكم (٣/ ٢٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: مسند الإمام أحمد (٦/ ٣) بتحقيق: أحمد شاكر وصححه، ومستدرك الحاكم (٣/ ٢٠)، ومجمع الزوائد (٦/ ٦٨)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٨٦)، وفتح الباري (١٥/ ١٥٥).

(٣) ينظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤).

اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وربُّكَ فقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ[٤].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرِيدُ رَأْيَ الْأَنْصَارِ؛ لِأَنَّهُمُ الْأَغْلَبِيَّةُ؛ وَلِأَنَّ بُنُودَ اتِّفَاقِ بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ لَا تُلْزِمُهُمْ بِالْقِتَالِ خَارِجَ المَدِينَةِ[٥]، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**»، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، فَفَطِنَ لِذَلِكَ قَائِدُ الْأَنْصَارِ وَحَامِلُ لِوَائِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ**»، قَالَ رضي الله عنه: «فَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوًّا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدَّقٌ فِي اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ»، فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، ونَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «**سِيرُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»[٦].

---

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨)، ونحوه عند أحمد في المسند وصححه الشيخ أحمد شاكر (٥/ ٢٥٩)، والبخاري كما في الفتح (١٥/ ١٥١) برقم (٣٩٥٢).

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٢٤)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية (٣٤١).

(٦) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨).وجاء في رواية مسلم أن المتكلم سعد بن عبادة (٣/ ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩)، وعزاه الحافظ في الفتح لابن أبي شيبة (١٥/ ١٥١)، وينظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٥١)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٣٤٢).

عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ فِي جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَقَالَ: «**هَذِهِ مَكَّةُ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا**»(٧)، فَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى بَلَغُوا بَدْرًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَطَرًا وَاحِدًا، كَانَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَابِلًا شَدِيدًا مَنَعَهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ، وَكَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَلًّا طَهَّرَهُمْ بِهِ، وَأَذْهَبَ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَوَطَّأَ بِهِ الْأَرْضَ، وَثَبَّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، وَرَبَطَ بِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَيْشِ حَتَّى أَتَى أَقْرَبَ مَاءٍ مِنَ الْعَدُوِّ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ شَطْرَ اللَّيْلِ، ثُمَّ صَنَعُوا الْحِيَاضَ وَغَوَّرُوا مَا عَدَاهَا مِنَ الْقُلُبِ؛ لِيَمْنَعُوا الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمَاءِ، وَبُنِيَ عَرِيشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَاخْتِيرَ عَدَدٌ مِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ لِحِرَاسَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَقَرِّ قِيَادَتِهِ، ثُمَّ عَبَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَيْشَ(٨)، وَمَشَى فِي مَوْضِعِ الْمَعْرَكَةِ، وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ**»(٩)، ثُمَّ بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ يُصَلِّي إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَهُمْ هَادِئِي الْأَنْفَاسِ، مُنِيرِي الْآفَاقِ، غَمَرَتِ الثِّقَةُ بِاللَّهِ قُلُوبَهُمْ، وَأَخَذُوا مِنَ الرَّاحَةِ قِسْطَهُمْ، يَأْمُلُونَ أَنْ يَرَوْا بَشَائِرَ رَبِّهِمْ بِعُيُونِهِمْ صَبَاحًا(١٠).

(٧) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٨).

(٨) عن عبد الرحمن بن عوف قال: «عبأنا النبي ﷺ ببدر ليلًا» أخرجه الترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة وقال: وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وسألت محمد ابن إسماعيل عن هذا الحديث؟ فلم يعرفه، وقال: محمد بن إسحاق سمع من عكرمة وحين رأيته كان حسن الرأي في محمد بن حميد الرازي، ثم ضعفه بعد (١٦٧٧).

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٣)، والنسائي في الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨).

(١٠) الرحيق المختوم (٢١٢).

أَمَّا قُرَيْشٌ فَقَضَتْ لَيْلَتَهَا فِي مُعَسْكَرِهَا بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى، وَبَعَثَتْ عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ الْجُمَحِيَّ يَسْتَطْلِعُ لِيَعْرِفَ مَدَى قُوَّةِ جَيْشِ الْمَدِينَةِ، فَأَخْبَرَ قُرَيْشًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ يَزِيدُونَ قَلِيلًا أَوْ يَنْقُصُونَ، وَقَالَ: وَلَكِنِّي رَأَيْتُ مَعْشَرَ قُرَيْشٍ الْبَلَايَا تَحْمِلُ الْمَنَايَا، نَوَاضِحُ يَثْرِبَ تَحْمِلُ الْمَوْتَ النَّاقِعَ، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفُهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَرَى أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَادَكُمْ فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَ ذَلِكَ؟! فَرُوا رَأْيَكُمْ، فَوَقَعَ الْخِلَافُ وَالشِّقَاقُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُسْلِمِينَ(١١)، لَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ أَصَرَّ عَلَى الْحَرْبِ.

وَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تَحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ**»(١٢)، وَعَدَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ الصَّحَابَةَ ﭫ أَنْ لَا يَبْدَءُوا الْقِتَالَ حَتَّى يَأْمُرَهُمْ بِهِ، ثُمَّ وَجَّهَ أَصْحَابَهُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ فَقَالَ: «**إِذَا أَكْثَبُوكُمْ** -يعني: كَثَرُوكُمْ- **فَارْمُوهُمْ، واسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ**(١٣)، **وَلَا تَسُلُّوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشُوكُمْ**»(١٤).

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدِ اسْتَفْتَحَ أَبُو جَهْلٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِقَوْلِهِ: اللَّهُمَّ أَقْطَعُنَا لِلرَّحِمِ،

---

(١١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٣).

(١٢) المغازي للواقدي (١/ ٧٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٩٢).

(١٣) أخرجه أحمد كما في الفتح الرباني (٢١/ ٤٢)، والبخاري في المغازي، باب من شهد بدرًا (٣٩٨٤-٣٩٨٥).

(١٤) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب سل السيوف عند اللقاء (٢٦٦٤)، وباب في الصفوف (٢٦٦٣).

وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ، فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ(١٥)، اللَّهُمَّ أَيُّنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، وَأَرْضَى عِنْدَكَ، فَانْصُرْهُ الْيَوْمَ(١٦).

وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ، وَبَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِالمُبَارَزَةِ الَّتِي تَفَوَّقَ فِيهَا أَنْصَارُ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَافِعًا يَدَيْهِ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ**»، حَتَّى إِذَا الْتَحَمَ الْفَرِيقَانِ، وَحَمِيَ الْوَطِيسُ، وَاسْتَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ بِشِدَّةٍ، وَاحْتَدَمَ الْقِتَالُ، وَبَلَغَتِ المَعْرَكَةُ ذِرْوَتَهَا، قَالَ: «**اللَّهُمَّ وَإِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا**» وَبَالَغَ فِي الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِهِ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ الصِّدِّيقُ وَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وَأَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩](١٧).

وَأَغْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِغْفَاءَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ**» ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَثِبُ فِي الدِّرْعِ، وَيَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥](١٨)، وَأَخَذَ حَفْنَةً مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ بِهَا قُرَيْشًا، وَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ، وَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَحَدٌ إِلَّا

(١٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤).

(١٦) هذه الزيادة للطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٨) وينظر: الرحيق المختوم (٢١٦).

(١٧) أخرجه أحمد (١/ ٣٠-٣٢)، ومسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

(١٨) ينظر هامش (١٥) وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب إذ تستغيثون ربكم .. (٣٩٥٣).

أَصَابَ عَيْنَهُ وَمِنْخَرَيْهِ وَفَمَهُ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧](١٩).

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْمِلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: «**شُدُّوا**»، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ قَائِلًا: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ، فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ**»(٢٠).

وَقَالَ وَهُوَ يَحُضُّهُمْ عَلَى الْقِتَالِ أَيْضًا: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، وَحِينَئِذٍ شَدَّ الْمُسْلِمُونَ فِي الْقِتَالِ، وَحَمَلُوا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَاخْتَرَقُوا صُفُوفَهُمْ، وَبَعْثَرُوا نِظَامَهُمْ حَتَّى قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: «بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(٢١).

فَفَتَرَ حَمَاسُ الْمُشْرِكِينَ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُمْ، وَتَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ، وَهَرَبَ إِبْلِيسُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَالَ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨](٢٢)، فَبَدَأَتْ أَمَارَاتُ الْفَشَلِ وَالِاضْطِرَابِ فِي صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَتْ تَتَهَدَّمُ أَمَامَ حَمَلَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَاقْتَرَبَتِ الْمَعْرَكَةُ مِنْ نِهَايَتِهَا، وَأَخَذَتْ جُمُوعُ الْمُشْرِكِينَ فِي

(١٩) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٣)، والواحدي في أسباب النزول (٢٣٧)، وابن جرير في تفسيره (٩/ ١٣٦)، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٤).

(٢٠) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٣٣).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، والحاكم (٣/ ٤٢٦)، وابن سعد (٢/ ٢٥)، والبيهقي (٩/ ٤٣).

(٢٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٦)، وسيرة ابن كثير (٢/ ٤٢٧).

الْفِرَارِ وَالِانْسِحَابِ المُبَدِّدِ، وَرَكِبَ المُسْلِمُونَ ظُهُورَهُمْ يَأْسِرُونَ وَيَقْتُلُونَ، حَتَّى هُزِمُوا شَرَّ هَزِيمَةٍ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يَنْظُرُ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ؟**» فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي طَلَبِهِ، فَوَجَدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وَبِهِ آخِرُ رَمَقٍ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِهِ، وَأَخَذَ لِحْيَتَهُ لِيَحْتَزَّ رَأْسَهُ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَقَدِ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًى صَعْبًا يَا رُوَيْعِيَّ الْغَنَمِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْ رُعَاةِ الْغَنَمِ بِمَكَّةَ، فَاحْتَزَّ رَأْسَهُ وَأَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ، فَقَالَ: «**آللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟**» فَرَدَّدَهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، انْطَلِقْ أَرِنِيهِ**»، فَأَرَاهُ إِيَّاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»(٢٣).

وَقَدْ أَبْلَى المُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ بَلَاءً حَسَنًا، وَعَلَى رَأْسِهِمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ، حَتَّى إِنَّ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ لَمَّا أَسَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ سَأَلَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ مِنْكُمُ المُعَلَّمُ بِرِيشَةِ النَّعَامَةِ فِي صَدْرِهِ؟ قُلْتُ: ذَاكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الْأَفَاعِيلَ(٢٤).

انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ بِهَزِيمَةٍ سَاحِقَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَبِفَتْحٍ وَنَصْرٍ مُبِينٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدِ

---

(٢٣) أخرجه الطيالسي (٣٢٨)، وأحمد (١/ ٤٤٤) وفيه انقطاع بين أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود وأبيه، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٩). وروى أنس ﷺ، قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «**مَنْ ينظُرُ ما فعَلَ أبو جَهْلٍ؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته، فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه. أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٦٣)، ومسلم في الجهاد، باب قتل أبي جهل (١٨٠٠).

(٢٤) أخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم (٢/ ١٢٨) وينظر: مغازي الواقدي (١/ ٨٩).

اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا : سِتَّةٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ(٢٥)؛ أَمَّا المُشْرِكُونَ فَقَدْ لَحِقَتْهُمْ خَسَائِرُ فَادِحَةٌ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَأُسِرَ سَبْعُونَ، مِنْهُمُ الْقَادَةُ وَالزُّعَمَاءُ وَالصَّنَادِيدُ(٢٦).

وَلَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَتْلَى فَقَالَ: «**بِئْسَ الْعَشِيرَةُ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ، كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَخَذَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ**»(٢٧)، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا إِلَى قَلِيبٍ مِنْ قُلُبِ بَدْرٍ، فَأُلْقُوا فِيهِ(٢٨).

وَتَلَقَّى المُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ نَبَأَ الْهَزِيمَةِ بِأَسًى شَدِيدٍ، وَحُزْنٍ عَظِيمٍ عَلَى قَتْلَاهُمْ وَأَسْرَاهُمْ، بَيْنَمَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَدْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَعْدَ انْتِهَاءِ المَعْرَكَةِ، ثُمَّ تَحَرَّكَ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَةِ مُظَفَّرًا مَنْصُورًا قَدْ خَافَهُ كُلُّ عَدُوٍّ لَهُ بِالمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَهَنَّأَهُ المُسْلِمُونَ فِي المَدِينَةِ بِهَذَا النَّصْرِ الْعَظِيمِ، وَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، وَقَسَّمَ الْأَسْرَى عَلَى أَصْحَابِهِ لِإِطْعَامِهِمْ وَإِيوَائِهِمْ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَوْصَى أَصْحَابَهُ بِالْأَسْرَى خَيْرًا، فَكَانَ الصَّحَابَةُ يَأْكُلُونَ التَّمْرَ، وَيُقَدِّمُونَ لِأَسْرَاهُمُ الْخُبْزَ؛ عَمَلًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَسْرَى(٢٩).

---

(٢٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٧)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٧).

(٢٦) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٦)، والمنتظم (٣/ ١٠٩).

(٢٧) زاد المعاد (٣/ ١٨٧).

(٢٨) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البخاري في الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى (٥٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٤).

(٢٩) قال أبو عزيز أخو مصعب بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحيي فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها. أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٣٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٩١٨).

وَهَذِهِ أَخْلَاقٌ عَالِيَةٌ، وَصِفَاتٌ حَمِيدَةٌ فِي مُعَامَلَةِ الْأَسْرَى، لَمْ تُوجَدْ إِلَّا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُرَاقَبَةٍ دَوْلِيَّةٍ، وَلَا إِلَى مُنَظَّمَاتٍ عَالَمِيَّةٍ فِي مُعَامَلَةِ الْأَسْرَى، فَدِينُهُمْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِيذَاءِ الْأَسِيرِ وَتَعْذِيبِهِ، بَلْ يَأْمُرُهُمْ بِتَقْدِيمِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَدِينُ بِالدِّينِ، وَيُطَبِّقُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَسْرَى.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ مَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ عَظِيمٍ، وَفَتْحٍ مُبِينٍ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَصَفِيُّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي النُّهَى وَالْعِرْفَانِ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ التَّقْوَى، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى عِزٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرِفْعَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَالتَّقْوَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْمُبِينِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: فِي قِرَاءَةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَدِرَاسَةِ أَحْدَاثِهَا عِبَرٌ

وَعِظَاتٌ. وَمَعْرَكَةُ التَّوْحِيدِ الْأُولَى غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَيَكْفِي فِيهَا أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ الْتَقَوْا بِعَشِيرَتِهِمْ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، فَرَفَعُوا فِيهَا السُّيُوفَ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ؛ وَلَاءً لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِخْلَاصًا لِدِينِهِ.

وَكَمْ هُوَ عَزِيزٌ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ تُشْهِرَ السَّيْفَ فِي وُجُوهِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَةِ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَزُولُ الْعَوَاطِفُ، وَتَذْهَبُ وَشَائِجُ الْقُرْبَى، وَيُقْطَعُ حَبْلُ الْمَوَدَّةِ.

إِنَّهَا مَعْرَكَةُ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ، إِنَّهَا سَاحَةُ شِرْكٍ وَتَوْحِيدٍ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّضْحِيَاتِ، وَقَدْ ضَحَّى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِكُلِّ شَيْءٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ.

وَفِي بَدْرٍ تَتَجَلَّى الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، أُخُوَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى تَبَادُلِ الْمَصَالِحِ، وَاسْتِجْلَابِ الْمَنَافِعِ، وَلَكِنَّهَا مَحَبَّةٌ خَالِصَةٌ فَاقَتْ أُخُوَّةَ النَّسَبِ، وَرَابِطَةَ الْقَرَابَةِ. وَإِلَيْكُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَجِيبَ؛ فَبَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَعْرَكَةِ مَرَّ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ الْعَبْدَرِيُّ بِأَخِيهِ أَبِي عَزِيزِ بْنِ عُمَيْرٍ الَّذِي خَاضَ الْمَعْرَكَةَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَسَرَهُ أَحَدُ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ مُصْعَبٌ لِلْأَنْصَارِيِّ: شُدَّ يَدَيْكَ بِهِ؛ فَإِنَّ أُمَّهُ ذَاتُ مَتَاعٍ، لَعَلَّهَا تُفْدِيهِ مِنْكَ، فَقَالَ أَبُو عَزِيزٍ لِأَخِيهِ مُصْعَبٍ: أَهَذِهِ وَصَاتُكَ بِي؟ فَقَالَ مُصْعَبٌ: إِنَّهُ -أَيِ: الْأَنْصَارِيَّ- أَخِي دُونَكَ(٣٠). رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى مُصْعَبًا وَرَضِيَ عَنْهُ؛ فَلَقَدْ قَدَّمَ أَخَاهُ فِي الدِّينِ عَلَى أَخِيهِ فِي النَّسَبِ.

وَغَزْوَةُ بَدْرٍ تُصَادِفُ أَوَّلَ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَيَصُومُونَهُ؛ فَرَمَضَانُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَفْتَتِحُهُ مُحَمَّدٌ وَصَحْبُهُ بِأَعْظَمِ مَعْرَكَةٍ تَارِيخِيَّةٍ حَاسِمَةٍ، فَمَا أَجْمَلَهُ

---

(٣٠) مغازي الواقدي (١/ ١٣٤)، وأنساب الأشراف (١/ ١٣١)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٩).

مِنْ رَمَضَانَ! وَمَا أَلَذَّهُ مِنْ صِيَامٍ وَقِيَامٍ بَعْدَ نَصْرٍ مُبِينٍ!

وَمِنْ أَحْسَنِ المَوَاقِعِ وَأَرْوَعِ المُوَافَقَاتِ أَنَّ أَوَّلَ عِيدٍ عَيَّدَهُ المُسْلِمُونَ فِي حَيَاتِهِمْ هُوَ الْعِيدُ الَّذِي يَلِي غَزْوَةَ بَدْرٍ مُبَاشَرَةً، فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، فَمَا أَرْوَعَ ذَلِكُمُ الْعِيدَ بَعْدَ أَنْ تَوَّجَ اللَّهُ تَعَالَى هَامَتَهُمْ بِتَاجِ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ! وَمَا أَرْوَعَ تِلْكَ الصَّلَاةَ الَّتِي صَلَّوْهَا حِينَ خَرَجُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّحْمِيدِ وَهُمْ يَسْتَحْضِرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ! وَقَدْ فَاضَتْ قُلُوبُهُمْ رَغْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحَنِينًا إِلَى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ بَعْدَ مَا أَوْلَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَأَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ، وَذَكَّرَهُمْ بِذَلِكَ قَائِلًا عَلِيمًا حَكِيمًا: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٤- الغزو في رمضان (٢)

١٨/ ٩/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ رَمَضَانَ شَهْرُ الْجِهَادِ وَالْمُجَاهَدَةِ، شَهْرٌ يَشْحَذُ الْعَزِيمَةَ، وَيَرْفَعُ الْهِمَّةَ، وَيُقَوِّي الْإِرَادَةَ. يَكْبَحُ فِيهِ الصَّائِمُ حَقًّا جِمَاحَ شَهَوَاتِهِ، وَيَسْتَعْلِي عَلَى نَزَوَاتِهِ، وَيَتَأَبَّى عَلَى كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَحَبَائِلِ الْهَوَى. هَذَا فِي جِهَادِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ.

وَأَمَّا جِهَادُ الْأَعْدَاءِ فَشَهْرُنَا هَذَا هُوَ شَهْرُ الْمَعَارِكِ وَالْفُتُوحِ، فَاضَتْ مِنْهُ أَنْبَاءُ الْجِهَادِ، وَزَخَرَتْ فِيهِ الْمَلَاحِمُ، وَلَبِسَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدِّرْعَ وَحَمَلَ السِّلَاحَ، وَخَاضَ مَعَامِعَ الْقِتَالِ، وَقَادَ الْجُيُوشَ. وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فِيهِمْ صَائِمُونَ وَفِيهِمْ مُفْطِرُونَ، وَقَائِمُونَ وَمُسْتَغْفِرُونَ وَمُكَبِّرُونَ.

وَهَذَا حَدِيثٌ عَنْ مَعْرَكَةٍ كَانَتْ فَاصِلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفُرْقَانًا بَيْنَ الْإِيمَانِ

وَالْكُفْرِ، وَمَهْمَا طَالَ الْحَدِيثُ عَنْهَا فَإِنَّهُ لَا يَرْوِي الظَّامِئَ، وَلَا يُذْهِبُ شَوْقَ الْمُتَلَهِّفِ، لَكِنَّ هَذَا عَرْضٌ عَامٌّ لِلْغَزْوَةِ، وَوَقَفَاتٌ مِنْهَا.

كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ مُبَارَكٍ مِثْلِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُوَافِقُ سَابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ الْمُبَارَكَةِ[(١)]، وَمَعَ أَنَّ الْعُدَّةَ وَالْعَتَادَ كَانَ قَلِيلًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ حَاسِمَةٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ.

كَانَ النَّصْرُ فِيهَا سَبَبًا لِلْبَقَاءِ وَالرُّسُوخِ، كَمَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ فِيهَا سَبَبًا لِلانْتِكَاسِ وَرُبَّمَا الْفَنَاءُ، وَإِلَّا لَمَا أَلَحَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَبِّهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا**» فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالمَلَائِكَةِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

مَنْ حَضَرَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ كَمَنْ لَمْ يَحْضُرْهَا فِي الْفَضْلِ وَالْمَنْقَبَةِ، «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(٣)]، وَيَكْتَسِبُ رَمَضَانُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْجِهَادِ وَالْمَعَارِكِ

---

(١) نقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن وقعة بدر كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، وقاله أيضًا عروة بن الزبير وقتادة وإسماعيل والسدى الكبير وأبو جعفر الباقر. ونقل البيهقي أقوالًا في ذلك ثم قال: والمشهور عن أهل المغازي أن ذلك لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان. السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

(٣) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٩٨٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب (٢٤٩٤).

أَهَمِّيَّةً كُبْرَى، حِينَمَا يَكُونُ أَوَّلُ نَصْرٍ فِي أَوَّلِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ، فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ، إِنَّهُ تَوَافُقٌ عَجِيبٌ يُوحِي بِأَنَّ رَمَضَانَ كَمَا أَنَّهُ جِهَادٌ لِلنَّفْسِ، فَيَتَأَكَّدُ فِيهِ جِهَادُ الْكُفَّارِ.

كَانَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَسِيرُونَ مَعَهُ، يُؤَاكِلُهُمْ وَيُشَارِبُهُمْ وَيُشَاوِرُهُمْ، وَيَعِيشُ هُمُومَهُمْ، وَقَدْ مَلَكَ حُبُّهُ ﷺ قُلُوبَهُمْ.

كَانَ ﷺ مَعَ أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ؛ بَعِيدًا عَنْ كِبْرِيَاءِ الْقَادَةِ، وَغُرُورِ السَّادَةِ، وَكَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ سَبْعُونَ بَعِيرًا يَتَعَاقَبُونَ رُكُوبَهَا(٤)، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَتَعَاقَبُونَ بَعِيرًا وَاحِدًا، فَأَرَادَا رضي الله عنهما أَنْ يُؤْثِرَاهُ بِالرُّكُوبِ، فَقَالَ: «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٥)، مَعَ أَنَّ أَبَا لُبَابَةَ وَعَلِيًّا كَانَا شَابَّيْنِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فَيَا لَرَوْعَةِ هَذَا الْمَوْقِفِ حِينَمَا يَسْتَوِي الْقَائِدُ وَالْجُنْدُ فِي تَحَمُّلِ الشَّدَائِدِ وَالصِّعَابِ!

وَمَع هَذَا التَّوَاضُعِ الْعَظِيمِ كَانَ ﷺ يُشَارِكُ الْجُنْدَ فِي الْحَرْبِ، وَيُبَاشِرُ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، حَتَّى قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٦).

بِهَذِهِ الرُّوحِ الْمُتَوَاضِعَةِ مَعَ الْخَلْقِ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، يَدْخُلُ الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ، وَيُقَابِلُهُمْ فِي الصَّفِّ صَنَادِيدُ الْكُفْرِ، وَأَئِمَّةُ الضَّلَالِ فِي كِبْرِيَاءٍ وَعَظَمَةٍ،

---

(٤) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٤٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦).

(٥) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أحمد (١/ ٤١١)، وأبو يعلى (٥٣٥٩)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٨٦)، وصححه ابن حبان (٤٧٣٣)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٣).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٥١).

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَصِفُهُمْ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٤٧]، يَقُولُ قَائِلُهُمْ: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ، وَنَنْحَرَ الْجُزُرَ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا(٧).

دَخَلُوا المَعْرَكَةَ بِنُفُوسِ المُتَغَطْرِسِينَ، وَعُقُولِ المَغْرُورِينَ. يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ وَالنَّصْرِ، وَهُمْ يَرْزَحُونَ تَحْتَ وَطْأَةِ الْبَاطِلِ، وَجَهَالَةِ الشِّرْكِ. كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ بِاحْتِقَارٍ وَازْدِرَاءٍ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وَمَا بَلَغُوا هَذَا المَبْلَغَ مِنَ الْعَنْجَهِيَّةِ وَالْكِبْرِ وَالْغُرُورِ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ قَدْ عَمِلَ فِيهِمْ عَمَلَهُ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٨].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَايَتِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ المُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ المُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ»(٨).

فَالْتَقَى الْفَرِيقَانِ بِهَذَا التَّبَايُنِ الْكَبِيرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَاشِدُ رَبَّهُ، فَيُجِيبُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ، وَيُرْسِلُ مَدَدَهُ، وَيُنْزِلُ نَصْرَهُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وَتَكْتَسِبُ بَدْرٌ شَرَفًا، وَيَعْظُمُ قَدْرُ مَنْ حَضَرَهَا حِينَ نَعْلَمُ أَنَّ المَلَائِكَةَ نَزَلَتْ تُقَاتِلُ مَعَ المُسْلِمِينَ. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ -اسْمُ فَرَسِ المَلَكِ- فَنَظَرَ إِلَى المُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ

(٧) سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٢٩).
(٨) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩).

مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «**صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**»(٩) هَذَا مَوْقِفٌ.

وَمَوْقِفٌ آخَرُ: أَسَرَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسَرَنِي، لَقَدْ أَسَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: أَنَا أَسَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «**اسْكُتْ؛ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَلَكٍ كَرِيمٍ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(١٠).

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ قَتْلَى النَّاسِ بِضَرْبٍ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، وَعَلَى الْبَنَانِ، مِثْلَ وَسْمِ النَّارِ(١١).

وَفِي مَغَازِي الْأُمَوِيِّ: خَفَقَ النَّبِيُّ ﷺ خَفْقَةً فِي الْعَرِيشِ ثُمَّ انْتَبَهَ فَقَالَ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَتُهُ**»(١٢). وَقَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٣).

---

(٩) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: أحمد (١/ ١١٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٧)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (٦/ ٧٦).

(١١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٥٦)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٣١٢).

(١٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٣)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٥٤)، وعزاه ابن كثير للأموي في مغازيه، وساق سنده في البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤).

(١٣) أخرجه من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٢).

وَلمَّا رَأَى إِبْلِيسُ مَدَدَ المَلائِكَةِ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وَجَاءَ فِي المُوَطَّإِ مُرْسَلًا: «**مَا رُؤِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَدْحَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ**، قِيلَ: وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ المَلَائِكَةَ**»(١٤).

وَأَمَّا التَّضْحِيَةُ وَالْفِدَاءُ فَمِثَالُهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ؛ حَيْثُ جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ يَتَصَدَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِيدُ عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ قَصَدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ قَتَلَ أَبَاهُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ

---

(١٤) أخرجه مرسلًا من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز: مالك في الموطأ (٩٤٤)، وعبد الرزاق (٨١٢٥)، والبغوي في شرح السنة (١٩٣٠). قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى-: «وطلحة بن عبيد الله بن كريز هذا خزاعي من أنفسهم، تابعي، مدني، ثقة، سمع من ابن عمر وغيره، وقال البخاري: طلحة بن عبيد الله بن كريز الكعبي الخزاعي المدني، سمع أم الدرداء. قال أبو عمر: ... وفيه أن شهود بدر أفضل من كل عمل يعمله الإنسان بعده إلى يوم القيامة نفلًا كان أو فرضًا؛ لأن هذا القول كان منه ﷺ في حجة الوداع، وفيه الخبر عن حسد إبليس وعداوته لعنه الله، وفيه دليل على أن الحسود يجد في ذلة لعدمه ما أوتيه المحسود، ... وأما قوله (أدحر) فمعناه: أبعد من الخير وأهون، والأدحر المطرود المبعد من الخير المهان، يقال: أدحره عنك، أي: أطرده وأبعده. وأما قوله: (يزع الملائكة) فقال أهل اللغة: معنى يزع يكف ويمنع، إلا أنها ها هنا بمعنى يعبيهم ويرتبهم للقتال ويصفهم، وفيه معنى الكف؛ لأنه يمنعهم عن الكلام من أن يشف بعضهم على بعض، ويخرج بعضهم عن بعض في الترتيب، قالوا: ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]» التمهيد (١/ ١١٥، ١١٦).

أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ . . . الآيَةَ [المجادلة: ٢٢] أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ(١٥) .

وَهَكَذَا تَنْتَهِي المَعْرَكَةُ بِنَصْرٍ عَظِيمٍ لِجُنْدِ الرَّحْمَنِ، وَقَتْلٍ شَنِيعٍ لِجُنْدِ الشَّيْطَانِ. قُتِلُوا شَرَّ قِتْلَةٍ، وَخُتِمُوا بِأَسْوَإِ خَاتِمَةٍ، وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ المُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى المُسْلِمِينَ ضَرَبُوا وُجُوهَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَدْرَكَتْهُمُ المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ أَدْبَارَهُمْ»(١٦) .

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَالْحَدِيثُ عَنِ الْجِهَادِ فِي رَمَضَانَ، وَاسْتِعْرَاضُ أَوَّلِ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ يَقُودُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ المُجَاهِدِينَ المُسْلِمِينَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ الْيَوْمَ.

صَامُوا قَبْلَ المَعْرَكَةِ فَأَمْكَنَهُمْ أَنْ يَخُوضُوهَا فِي رَمَضَانَ صَائِمِينَ، إِنَّهُمْ فِي الْبُوسْنَةِ مَا زَالُوا صَامِدِينَ مُنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ. وَفِي الشِّيشَانِ يَتَكَرَّرُ حَدَثُ الْبُوسْنَةِ، وَقَبْلَهَا فِلَسْطِينُ الْعَزِيزَةُ؛ إِذْ تَرْزَحُ تَحْتَ حُكْمِ الْيَهُودِ عُقُودًا مِنَ السِّنِينَ، وَفِي الْفِلِبِّينَ وَكَشْمِيرَ وَالْهِنْدِ وَبُورْمَا، وَغَيْرِهَا مِنْ مَآسِي المُسْلِمِينَ فِي بِلَادٍ مِنَ الْأَرْضِ كَثِيرَةٍ.

هَؤُلَاءِ المُسْلِمُونَ الصَّائِمُونَ الصَّامِدُونَ، قَدْ أَحَاطَ بِهِمُ الْعَدُوُّ إِحَاطَةَ السِّوَارِ

---

(١٥) أخرجه من حديث عبد الله بن شوذب: الطبراني في الكبير (١/ ١٥٤) رقم (٣٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠١)، وفي معرفة الصحابة (٥٧٩)، والحاكم (٣/ ٣٢١)، وساقه الحافظ في الإصابة فقال: أخرجه الطبراني بسند جيد (٣/ ٥٨٧)، لكنه قال في التلخيص الحبير: وهذا معضل، وكان الواقدي ينكره ويقول: مات والد أبي عبيدة قبل الإسلام (٤/ ١٩٢).

(١٦) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٢).

بِالمِعْصَمِ، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِمْ أُمَمُ الأَرْضِ فِي حُرُوبٍ عَقَائِدِيَّةٍ، وَتَخَلَّى عَنْ نَجْدَتِهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْقَادِرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. هَذَا إِذَا لَمْ يَكُونُوا بِأَمْوَالِهِمْ يُعِينُونَ الْعَدُوَّ عَلَى إِخْوَانِهِمْ، وَبَعْضٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَذَلِكَ.

هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفُونَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ، هَلْ هُمْ إِلَّا صَائِمُونَ عَنِ الرَّاحَةِ؟! فَلَا يَعْرِفُونَ هُدُوءًا وَلَا اسْتِقْرَارًا، صَائِمُونَ عَنِ التَّرَفِ فَلَا يَعْرِفُونَ فِرَاشًا وَثِيرًا، أَوْ قُعُودًا مُرِيحًا، صَائِمُونَ عَنِ النَّوْمِ فَلَا يَعْرِفُونَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، صَائِمُونَ عَنْ طُولِ الْأَمَلِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا، فَلَا يَرَوْنَ أَلَذَّ مِنَ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى طَعْمًا، وَلَا أَحْلَى مِنَ الشَّهَادَةِ مَوْرِدًا، حَتَّى عَجِبَ الْأَعْدَاءُ مِنْ ثَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَتَضْحِيَاتِهِمْ رَغْمَ قِلَّةِ الْمُعِينِ وَالنَّصِيرِ، وَرَغْمَ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ الْعَظِيمِ، وَالْأَعْدَاءُ يُكَابِدُونَ ضَرَبَاتِ الْمُجَاهِدِينَ الْمُوجِعَةَ عَلَى قِلَّةِ الْعَدَدِ وَالْعَتَادِ، يَقُولُ قَائِلُهُمْ وَقَدْ شَابَتْ ذَوَائِبُهُمْ مِنْ بُطُولَاتِ الْمُسْلِمِينَ الْعُزَّلِ: مَنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ؟! أَهُمْ جِنٌّ أَمْ شَيَاطِينُ أَمْ قَوْمٌ خُلِقَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْحَدِيدِ، فَلَا تَعْرِفُ الْخَوْفَ أَوِ الْهَلَعَ، وَلَا يُرْهِبُهُمُ الدَّمَارُ وَلَا النَّارُ؟!

وَمَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ أَنَّ نَفْسًا لَهَا أَخْلَاقُ الْمُفْطِرِينَ الْمُنْهَزِمِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَعْبِدُهُمُ الطَّعَامُ، وَيَسْتَذِلُّهُمُ الشَّرَابُ، لَنْ تَنْتَصِرَ بِحَالٍ عَلَى نَفْسٍ لَهَا أَخْلَاقُ الصَّائِمِينَ الْمُنْتَصِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَعْبِدُهُمْ رَبٌّ قَاهِرٌ، وَيُوَجِّهُهُمْ قَلْبٌ مُشْرِقٌ طَاهِرٌ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَاهُمْ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ، وَكَثْرَةِ الْمِحَنِ، ثَبَّتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَوَّى عَزَائِمَهُمْ. اللَّهُمَّ انْصُرْ إِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ يُفِيضُ مِنْ جُودِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَزِيدُ حَسَنَاتِهِمْ، وَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- فَشَهْرُ التَّقْوَى آخِذٌ فِي النُّقْصَانِ، وَذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الْأَعْمَارِ وَقُرْبِ الْآجَالِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: عَلَى الْأَبْوَابِ عَشْرُ رَمَضَانَ الْفَاضِلَةُ، فُضِّلَتْ عَلَى غَيْرِهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ «**مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[(١٧)]، وَرَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَمْ يَجْتَهِدْ فِي غَيْرِهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[(١٨)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ**»[(١٩)].

بَلْ كَانَ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا بُدَّ مِنْ عِمَارَتِهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْمَغْبُونَ مَنْ غُبِنَ فِيهَا وَصَرَفَهَا فِي غَيْرِ الْعِبَادَةِ

(١٧) أخرجه البخاري في الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ونية (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

(١٨) أخرجه مسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(١٩) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

وَالطَّاعَةِ، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَ فَلْيَتُبْ وَلْيُقْبِلْ عَلَى اللَّهِ قُبَالَةَ هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَيَغْفِرَ لَهُ، وَيُوَفِّقَهُ لِلطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ؟

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: أَقْبِلُوا عَلَى رَبِّكُمْ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ الْمُبَارَكَةِ، وَاجْتَهِدُوا فِيهَا بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ، فَفِيها يُعْتِقُ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ النَّارِ، وَلَا تَنْسَوْا إِخْوَانَكُمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي جَبَهَاتِ الْقِتَالِ، أَمِدُّوهُمْ بِالْمَالِ وَالدُّعَاءِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٥- غزوة بدر (٢) (*)
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾

١٥/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ قُدْرَةٍ، وَعَظَمَتُهُ لَا تُدَانِيهَا عَظَمَةٌ.. خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ.

يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَكْبِتُ أَعْدَاءَهُ.. يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ.. يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وَمَنِ

(*) غزوة بدر (١) تجدها في (٣/ ٢٢٩).

ابْتَغَى الْعِزَّةَ فِي غَيْرِ دِينِهِ أَذَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَفِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ أَعَزَّ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ مُبِينٍ، وَأَذَلَّ الْمُشْرِكِينَ بِهَزِيمَةٍ لَمْ يَتَوَقَّعُوهَا، وَنِهَايَةٍ لَمْ يَنْتَظِرُوهَا، وَتِلْكَ سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ، وَنَامُوسٌ كَوْنِيٌّ إِلَهِيٌّ؛ يَقْضِي بِأَنَّ مَرْتَعَ الظُّلْمِ وَخِيمٌ، وَنِهَايَةَ الْكُفْرِ وَالِاسْتِكْبَارِ أَلِيمَةٌ، وَأَنَّ عَاقِبَةَ الْإِيمَانِ مَعَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ حَمِيدَةٌ.

خَرَجَتْ قُرَيْشٌ بِفَخْرِهَا وَخُيَلَائِهَا تَحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وَخَرَجَتِ الطَّائِفَةُ الْمُؤْمِنَةُ تُرِيدُ الْعِيرَ وَلَا تَوَدُّ الْقِتَالَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَدَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ نَصْرًا عَزِيزًا، وَظُهُورًا مُبِينًا، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْلَمُونَ تَدْبِيرَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ!!

خَرَجَتِ الطَّائِفَتَانِ: الْمُؤْمِنَةُ وَالْكَافِرَةُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خُطَّتُهَا الَّتِي رَسَمَتْهَا، وَأَهْدَافُهَا الَّتِي تُرِيدُ تَحْقِيقَهَا، وَلَا مِيعَادَ لِلْقِتَالِ بَيْنَهُمَا، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ بِتَدْبِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ، وَيَسَّرَ طُرُقَهُ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

لَقَدْ أَتَتْ سَاعَةُ انْتِقَامِ اللَّهِ ﷻ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ، وَصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وَأَذِنَ سُبْحَانَهُ بِفَرَجٍ لِعِبَادِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ.

إِنَّهَا السَّاعَةُ الَّتِي مِنْ عَلَامَاتِهَا: اشْتِدَادُ الْكَرْبِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَبُلُوغُ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْتَهَى فِي الِاسْتِكْبَارِ وَالْعُلُوِّ وَالطُّغْيَانِ، وَالْإِعْجَابِ بِالْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][1].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٢/ ٤٥٤): «وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفر الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدَّره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدًا وهدى، ونصرًا وفتحًا» اهـ.
=

نَعَمْ، إِنَّ هَذَا الْفَرِيقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَرِهُوا لِقَاءَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَضَعْفِهِمْ وَقُوَّةِ عَدُوِّهِمْ، بَلْ فَضَّلُوا الظَّفَرَ بِالْعِيرِ عَلَى لِقَاءِ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، وَلَكِنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ إِرَادَةِ الْبَشَرِ، وَتَقْدِيرُهُ عَلَى خِلَافِ حِسَابَاتِهِمْ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

وَنَتِيجَةً لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ: الْتَقَى الْجَمْعَانِ بِلَا مِيعَادٍ، وَاصْطَفَّ الْفَرِيقَانِ لِلْقِتَالِ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَعَظُمَ طُغْيَانُ الْمُشْرِكِينَ، وَازْدَادَ غُرُورُهُمْ، وَلَا مَلْجَأَ لِلطَّائِفَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ فَاسْتَغَاثُوا بِهِ -وَنِعْمَ الْمُغِيثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، وَكَانَ مِنْ شِدَّةِ اسْتِغَاثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِرَبِّهِ، وَاجْتِهَادِهِ فِي دُعَائِهِ: أَنْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهِ أَخَصُّ أَصْحَابِهِ ﷺ.

وَمَا لَهُ لَا يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ بَلَغُوا أَلْفَ مُقَاتِلٍ وَأَصْحَابُهُ لَا يَبْلُغُونَ ثُلُثَهُمْ؟! فَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِمْ إِلَّا بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَمَدَّ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ**»(٢).

= وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٩/ ٢٦٤): «المعنى أن الله تعالى أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرًا موافقًا للمصلحة، في حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج» اهـ.

(٢) أخرجه من حديث عمر ﷺ: أحمد (١/ ٣٠-٣٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وعبد بن حميد (٣١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٥)، وابن حبان (٤٧٩٣).

نَظَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يَجِدُونَ الطَّعَامَ، وَيَنْتَعِلُونَ الْحِذَاءَ، وَيَرْكَبُونَ المَرَاكِبَ، وَقَدْ دُجِّجُوا بِالسِّلَاحِ . . وَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَرَأَى مَا بِهِمْ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ، وَالضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ . . قَدْ أَنْهَكَهُمُ الْجُوعُ، وَقَلَّتْ مَرَاكِبُهُمْ، وَحَفِيَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَقَصُرَتْ ثِيَابُهُمْ عَنْ أَبْدَانِهِمْ؛ فَاسْتَغَاثَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَدَعَاهُ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ**»(٣).

لَمْ يَزَلْ ﷺ مُسْتَغِيثًا رَبَّهُ، رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَيْهِ، مُلِحًّا عَلَيْهِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ؛ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ»(٤) «حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ»(٥).

لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُسْتَغِيثًا بِرَبِّهِ، مُشْتَدًّا فِي إِلْحَاحِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْجَهْدُ مَا بَلَغَ، وَأَعْيَاهُ التَّعَبُ، فَخَفَقَ خَفْقَةً، وَأَخَذَتْهُ سِنَةٌ مِنْ نَوْمٍ، وَيَا لَهَا مِنْ خَفْقَةٍ جَاءَتْ مَعَهَا الْبُشْرَى!!

لَقَدْ أَزَالَتِ الْكَرْبَ، وَذَهَبَ مَعَهَا التَّعَبُ، وَرَأَى فِيهَا الْفَرَجَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . . انْتَبَهَ مِنْ نَوْمَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ، هَذَا جِبْرِيلُ مُعْتَجِرٌ**

---

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أبو داود في الجهاد، باب في نفل السرية تخرج من العسكر(٢٧٤٧)، والبيهقي (٦/ ٣٠٥ و٩/ ٥٧)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٤٤).

(٤) انظر تخريجه في حاشية (٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٧٥٨)، وأحمد (١/ ٣٢٩)، والنسائي في الكبرى (١١٥٥٧)، والبيهقي (٩/ ٤٦).

بِعِمَامَتِهِ، آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، أَتَاكَ نَصْرُ اللَّهِ وَعِدَتُهُ»(٦).

خَرَجَ مِنْ عَرِيشِهِ الَّذِي اسْتَغَاثَ فِيهِ رَبَّهُ؛ لِيُبَشِّرَ أَصْحَابَهُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥](٧).

وَحَرَّضَ أَصْحَابَهُ عَلَى الْقِتَالِ؛ أَخْذًا بِالْأَسْبَابِ، وَدَفْعًا لِلاتِّكَالِ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»(٨)، فَعَانَقُوا الْمَنَايَا، وَخَاضُوا حِمَامَ الْمَوْتِ؛ يَطْلُبُونَ رِضَا رَبِّهِمْ، وَيَنْصُرُونَ دِينَهُمْ، وَيَتَسَابَقُونَ إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

وَهُنَا ظَهَرَتْ نَتِيجَةُ اللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ فَكَانَ جَوَابُ اسْتِغَاثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِرَبِّهِ، وَإِلْحَاحِهِ عَلَيْهِ فِي دُعَائِهِ:

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ٩-١٤].

---

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٨٤)، ونقله عن الأموي بسنده، وسيرة ابن هشام (٢/ ٣٢١-٣٢٢)، ودلائل النبوة للبيهقي(٧/ ٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة للغزالي (٢٢٦).

(٧) انظر تخريجه في حاشية (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وعبد بن حميد (١٢٧٢)، والبيهقي (٩/ ٤٣)، ووهم الحاكم فاستدركه (٣/ ٤٨١).

لَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةً شَدِيدَةً، وَلَهَا نِهَايَةٌ عَجِيبَةٌ .. فَأَهْلُ الْبَأْسِ وَالشِّدَّةِ، وَالطُّغْيَانِ وَالْكَثْرَةِ، بَيْنَ مُجَنْدَلٍ فِي التُّرَابِ، وَمُقَرَّنٍ بِالْحِبَالِ! وَأَهْلُ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَأَعَزَّهُمْ وَنَصَرَهُمْ؛ فَانْقَلَبُوا حِينَ انْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ، وَاكْتَسَوْا وَشَبِعُوا(٩).

إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ فَاصِلَةٌ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَنْصَارِ الْبَاطِلِ، وَهِيَ أَوَّلُ مُنَازَلَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَلِأَنْصَارِ الْحَقِّ عَلَى أَتْبَاعِ الْبَاطِلِ، وَزَادَهَا شَرَفًا إِلَى شَرَفِهَا أَنَّهَا حَدَثَتْ فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ يُفْرَضُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



(٩) جاء ذلك في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما المخرج في حاشية (٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُدِيمُ نِعْمَتَهُ، وَيَزِيدُ فَضْلَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، ﷻ عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَكْثَرُ الْخَلْقِ إِيمَانًا بِرَبِّهِ، وَأَعْظَمُهُمْ يَقِينًا بِوَعْدِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتَدَى بِسُنَّتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي شَهْرِ التَّقْوَى، وَقَدْ مَضَى شَطْرُهُ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ حَسَنَاتٍ وَسَيِّئَاتٍ، وَمَا عَمِلُوا فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. وَلْيَكُنْ مَا بَقِيَ مِنْهُ خَيْرًا مِمَّا مَضَى؛ بِاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ فَإِنَّ فِيمَا بَقِيَ عَشْرًا مُبَارَكَةً، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْيِيهَا بِالصَّلَاةِ وَالْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ، مُنْقَطِعًا لِعِبَادَةِ رَبِّهِ.

وَفِي عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرَةِ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ.. مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ آيَةً بَيِّنَةً، وَبُرْهَانًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ، وَمَنْ نَصَرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى نَصَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْعِزَّةَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَمَا أَحْوَجَ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ إِلَى فَهْمِ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النَّصْرِ، فِي وَقْتٍ اشْتَدَّ فِيهِ كَرْبُهَا، وَكَثُرَتْ أَحْزَانُهَا، وَتَكَالَبَ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهَا، يُفْسِدُونَ فِي أَرَاضِيهَا، وَيَنْهَبُونَ خَيْرَاتِهَا، وَيَسُومُونَ أَبْنَاءَهَا، وَيُرِيدُونَ تَبْدِيلَ دِينِهَا، أَوِ الْقَضَاءَ عَلَيْهَا.

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَرْبٌ شَدِيدٌ، قَدْ مَرَّ مِثْلُهُ وَأَعْظَمُ مِنْهُ بِخِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَحَابَتِهِ ﵃، وَلَا يَسَعُ الْمُسْلِمِينَ إِنْ أَرَادُوا كَشْفَ كُرُوبِهِمْ، وَتَفْرِيجَ هُمُومِهِمْ، وَكَسْرَ أَعْدَائِهِمْ، وَحِمَايَةَ أَنْفُسِهِمْ؛ إِلَّا السَّيْرُ عَلَى خُطَى أَسْلَافِهِمْ، وَاسْتِلْهَامُ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَأَخَوَاتِهَا.

لَقَدْ كَانَ اللَّهُ ﷻ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُهْلِكَ الْمُشْرِكِينَ بِلَا غَزْوَةٍ وَلَا قِتَالٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خُرُوجٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلَا عُدَّةٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ؛ كَمَا أَهْلَكَ عَادًا بِالرِّيحِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَفِرْعَوْنَ بِالْغَرَقِ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا.

وَلَكِنْ سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ تَأْبَى ذَلِكَ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا بِأَنْ يَفْتَقِرَ عِبَادُهُ إِلَيْهِ، وَيُلِحُّوا عَلَيْهِ، وَيَسْتَغِيثُوا بِهِ، يَطْلُبُونَ مَدَدَهُ وَنَصْرَهُ، مَعَ أَخْذِهِمْ بِالْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ، مِنَ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوَةِ، وَالتَّخْطِيطِ لِلْمَعْرَكَةِ، وَمُشَاوَرَةِ الْأَصْحَابِ، وَمُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ، وَعَدَمِ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، فَلَا اعْتِمَادَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﷻ وَحدَهُ.

فَلَمَّا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ فِي بَدْرٍ مَا ضَرَّتْهُمْ قِلَّتُهُمْ، وَلَا نَفَعَ أَعْدَاءَهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَجَاءَ الْمَدَدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَتْبَعُ بَعْضُهُ بَعْضًا .. جَيْشٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَقُودُهُ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ ﵉، مَعَهُمْ أَوَامِرُ الرَّبِّ جَلَّ فِي عُلَاهُ بِضَرْبِ الْمُشْرِكِينَ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ، وَتَعْطِيلِ كُلِّ بَنَانٍ .. إِلَى إِلْقَاءِ النُّعَاسِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ رَبْطًا عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِخَوْفِهِمْ، وَتَنْشِيطًا لِأَجْسَادِهِمْ، وَمَنْ يَنَامُ وَهُوَ يُقَابِلُ أَعْدَاءَهُ؟! وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَمَّنَهُمْ بِهِ .. إِلَى إِنْزَالِ الْمَطَرِ؛ تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَثْبِيتًا لِأَقْدَامِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِرِجْزِ الشَّيْطَانِ .. إِلَى إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ.

فَالْمَلَائِكَةُ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنُّعَاسُ جُنْدُهُ، وَالْمَطَرُ جُنْدُهُ، وَالرُّعْبُ جُنْدُهُ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ الْجُنْدِ كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، أَفَلَا يَنْتَصِرُونَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ؟! بَلَى وَرَبِّنَا الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ.

إِنَّ جُنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُونَ مَعَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]؛ وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُونَ بِأَسْبَابِ إِمْدَادِهِمْ بِهَذَا الْجُنْدِ الْكَثِيرِ، وَيُحَقِّقُوا شَرْطَ النَّصْرِ الْمُبِينِ، الْمُتَمَثِّلِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إِنَّهُ شَرْطٌ وَاضِحٌ، وَمُعَادَلَةٌ مَعْقُولَةٌ، وَطَلَبٌ عَادِلٌ، لَا اسْتِحَالَةَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ .. وَنَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْتِزَامِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

وَمَنْ رَأَى وَاقِعَ الْمُسْلِمِينَ دُوَلًا وَأُمَمًا، حُكُومَاتٍ وَشُعُوبًا؛ يَجِدُ أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا هَذَا الشَّرْطَ؛ وَلِذَلِكَ تَخَلَّفَ النَّصْرُ.

وَلَوْ فَتَّشَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فِي نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ لَرَأَى أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْعِصْيَانِ وَالذُّنُوبِ مَا يُوجِبُ الْعَذَابَ، وَيَحْجُبُ النَّصْرَ.

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ رَامَ نَصْرَ الْأُمَّةِ وَعِزَّهَا؛ فَلْيُبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ الْفَوَاتِ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ، وَلَا طَرِيقَ غَيْرُهُ، وَلَنْ تُجْدِيَ الْحُلُولُ السِّيَاسِيَّةُ وَالِاقْتِصَادِيَّةُ وَالْعَسْكَرِيَّةُ وَغَيْرُهَا، مَا دَامَ النَّاسُ يَعْصُونَ رَبَّهُمْ؛ بَلْ سَيَتَجَرَّعُونَ مَزِيدًا مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَسَيَجِدُونَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ كُلَّ أَلْوَانِ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَمَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى هَانَ عَلَى الله تَعَالَى.

فَتُوبُوا -عِبَادَ اللَّهِ- تُوبُوا؛ نَجَاةً لِأَنْفُسِكُمْ، وَنُصْرَةً لِإِخْوَانِكُمْ، وَرَدًّا لِعُدْوَانِ أَعْدَائِكُمْ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



٣١٦- غزوة بدر (٣)
البطولات والتضحيات

١٨/ ٩/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَظْهَرَ دِينَهُ، وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ، وَنَصر عَبْدَهُ، وَأَعزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَوْلَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالتُّقَى؛ فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَجَزَاؤُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْفُورًا. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَيَّدَهُ رَبُّهُ فِي بَدْرٍ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ، فَهُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَهُوَ الدِّينُ الظَّاهِرُ الْمَنْصُورُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، رَغْمَ أُنُوفِ الْكَارِهِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ. صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا وَاتَّقَوْا، وَبَذَلُوا فِي سَبِيلِ إِيمَانِهِمْ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ سِرَاعٌ بِكُمْ إِلَى قُبُورِكُمْ، وَإِنَّ الدُّنْيَا لَنْ تَكُونَ دَارَكُمْ، وَهَا هُوَ ذَا رَمَضَانُ شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي نِصْفِهِ الْأَخِيرِ، فَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنْهُ قَبْلَ الرَّحِيلِ؛ فَإِنَّ صَفَحَاتِهِ إِنْ طُوِيَتْ لَا تُفَضُّ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْإِيمَانُ كَمَا هُوَ عَقِيدَةُ الْقَلْبِ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ، فَهُوَ كَذَلِكَ عَمَلُ

الْأَرْكَانِ. وَالْأَفْعَالُ هِيَ بَرَاهِينُ الْأَقْوَالِ، وَلَا خَيْرَ فِي أَقْوَالٍ جُرِّدَتْ عَنْ بَرَاهِينِهَا.

وَبَرَاهِينُ الْإِيمَانِ: الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ؛ فَالصَّلَاةُ بُرْهَانُهُ، وَالزَّكَاةُ بُرْهَانُهُ، وَالصِّيَامُ بُرْهَانُهُ، وَالْحَجُّ بُرْهَانُهُ، وَالْبَذْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالى بُرْهَانُهُ.

وَمِنْ بَرَاهِينِهِ كَذَلِكَ: تَقْدِيمُ مَا يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى عَلَى حُظُوظِ النُّفُوسِ وَمُشْتَهَيَاتِهَا، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وَمَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ سُمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ(١).

وَلَقَدْ بَرْهَنَ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ، وَحُسْنِ إِسْلَامِهِمْ، وَكَمَالِ إِحْسَانِهِمْ، بِأَفْعَالِهِمْ وَتَضْحِيَاتِهِمْ؛ أُوذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَا لَانُوا، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ فَمَا وَهَنُوا، وَسَاوَمَهُمُ المُشْرِكُونَ عَلَى أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ، أَوْ يَنْخَلِعُوا مِنْ أَهْلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَانْخَلَعُوا، وَهَامُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي أَرْضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فِرَارًا بِدِينِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى تَوْحِيدِهِمْ، وَلَوْ فَقَدُوا فِي سَبِيلِهِ كُلَّ عَزِيزٍ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَلَوِ اغْتَرَبُوا بِسَبَبِهِ عَنِ الدِّيَارِ وَالْبَلَدِ.

ثُمَّ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَأُبِيحَ لَهُم قِتَالُ الْكُفَّارِ، بَرْهَنُوا مَرَّةً أُخْرَى فِي غَزْوَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى أَنَّهُمْ أَهْلُ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، فَخَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ الْكُبْرَى فِي أَوَّلِ رَمَضَانٍ صَامُوهُ، وَهُمْ لَا يَبْلُغُونَ ثُلُثَ عَدُوِّهِمْ، وَلَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْعَتَادِ مَا يَمْلِكُ، وَلَكِنَّ إِيمَانَهُمْ فَوْقَ الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ بُطُولَاتِهِمْ وَتَضْحِيَاتِهِمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَقَدْ بَانَتْ نِيَّتُهُمْ وَعَزِيمَتُهُمْ عَلَى التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ فِي

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٨).

جَوَابِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا شَاوَرَهُمْ فِي التَّعَرُّضِ لِعِيرِ قُرَيْشٍ، وَاحْتِمَالِ الْوُصُولِ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ.

وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ ﷺ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَانْطَلَقُوا»(٢).

وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو ﷺ قَامَ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِهِ.

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ يُرِيدُ الْأَنْصَارَ؛ لِأَنَّهُمْ عُدَدُ النَّاسِ؛ وَلِأَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بُرَآءُ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دِيَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا، نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَحَوَّطُ أَلَّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نَصْرَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ لَيْسَ مِنْ بِلَادِهِمْ.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **أَجَلْ**. قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ

---

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة بدر (١٧٧٩)، وأحمد (٣/ ٢١٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٢).

هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ، لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدَّقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: **سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»(٣).

إِنَّهَا عَزِيمَةٌ عَلَى التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَمُنَازَلَةِ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، فَالثَّمَنُ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ.

لَقَدْ بَرْهَنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِمْ، وَصِدْقِ بَذْلِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَغْلَى مَا يَمْلِكُونَ، فَقَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ لَمَّا تَقَابَلَ الْجَمْعَانِ، وَالْتَحَمَ الصَّفَّانِ، صَدَّقَ الصَّحَابَةُ ﷺ أَقْوَالَهُمْ بِالْأَفْعَالِ، وَنُقِلَتْ بَعْضُ تَضْحِيَاتِهِمْ إِلَيْنَا شَاهِدَةً عَلَى إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ، وَمُحَفِّزَةً لَنَا لِلتَّأَسِّي بِهِمْ، وَقَفْوِ أَثَرِهِم.

وَكَانَ قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ الَّذِي كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَأَكْمَلَهُمْ إِيمَانًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا، وَأَكْثَرَهُمْ تَوَكُّلًا، حَتَّى قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه يَصِفُهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٤).

---

(٣) أخرجه من حديث محمد بن إسحاق عن أشياخه عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٥) وفي تاريخه (٢/ ٢٦)، وابن هشام في سيرته (٣/ ١٦٢).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٦)، وأبو يعلى (١/ ٣٢٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٢٥٦١)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٩٣٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٦٥٤).

بَلْ بَلَغَ مِنْ شَجَاعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ نَهَى أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْمُتَقَدِّمَ أَمَامَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «**لَا يُقْدِمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَلَمَّا بَرَزَ ثَلَاثَةٌ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَشُجْعَانِهِمْ يَطْلُبُونَ الْمُبَارَزَةَ؛ اسْتَبَقَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ أَرَادُوا ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي عَمِّهِمُ الْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ ثَلَاثَةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَمَا تَوَانَوْا عَنِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، بَلْ بَرَزُوا لِمُبَارَزَتِهِمْ مِنْ فَوْرِهِمْ.

كَمَا رَوَى عَلِيٌّ رضي الله عنه فَقَالَ: «تَقَدَّمَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ فَنَادَى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَانْتُدِبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ، إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **قُمْ يَا حَمْزَةُ، قُمْ يَا عَلِيُّ، قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنُ الحَارِثِ**، فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ، وَاخْتَلَفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

---

(٥) هذا جزء من حديث طويل رواه أنس رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان .... الحديث» أخرجه مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١).

وفي شرح هذا الحديث ذكر الأبي في شرحه أن المراد: لا يتقدم في الرأي، ولا يريد حتى أكون أمامه في القتال؛ لأنه لم يقاتل يوم بدر، وإنما كان في العريش ... كذا قال، وتبعه السنوسي في ذلك. ينظر شرحهما على صحيح مسلم (٦/ ٦٣٥).

قلت: حديث علي رضي الله عنه المذكور آنفًا يرد ما قالا، فهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام كان أقربهم إلى العدو وكانوا يلوذون به، ولا مانع أنه عليه الصلاة والسلام أراد الأمرين، التقدم في القتال وفي الرأي. والله أعلم.

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في المبارزة واللفظ له (٢٦٦٥)، وأحمد (١/ ١١٧)، والبيهقي (٣/ ٢٧٦)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٩٥)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد =

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ هَؤُلَاءِ السِّتَّةَ الَّذِينَ افْتَتَحُوا غَزْوَةَ بَدْرٍ بِالمُبَارَزَةِ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَجْلِسُ لِلْخُصُومَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عُبَادٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَفِيهِم أُنْزِلَتْ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، قَالَ: هُمُ الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: حَمْزَةُ وَعَلِيٌّ وَعُبَيْدَةُ أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْحَارِثِ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

إِنَّ قُوَّةَ إِيمَانِ أَهْلِ بَدْرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَقِينَهُمْ بِمَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَتَصْدِيقَهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ جعَلَ بَعْضَهُمْ يَسْتَطِيلُ حَيَاتَهُ الْبَاقِيَةَ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا لَحَظَاتٌ يَسِيرَةٌ؛ كَمَا وَقَعَ لِعُمَيْرِ بْنِ الْحُمَامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

دَنَا الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**، فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟! قَالَ: **نَعَمْ**، قَالَ: بَخٍ بَخٍ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ**؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: **فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

= رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة (٦/ ٧٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٩٤٨)، والألباني في صحيح أبي داود.

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٧٤٧).
وجاء من حديث قيس بن عباد -رحمه الله تعالى- عن أبي ذر ﷺ بنحوه عند: البخاري (٣٧٤٨)، ومسلم (٣٠٣٣).

(٨) هذا جزء من حديث أنس ﷺ المخرج في حاشية (٥).

إِنَّهُ إِيمَانٌ عَجِيبٌ، وَمُسَابَقَةٌ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجَنَّةِ عَلَى وَجْهِ السُّرْعَةِ، فَلَا تَأَمُّلَ وَلَا مُشَاوَرَةَ وَلَا تَوَانِيَ، وَلَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَلَا تَفْكِيرَ فِي الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَالدَّارُ الْآخِرَةُ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا الشُّعُورُ جَمَاعِيًّا، أَتَى عَلَى صِغَارِهِمْ كَمَا مَلَأَ قُلُوبَ كِبَارِهِمْ.

وَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى لِبَعْضِ صِبْيَةِ الْأَنْصَارِ أَنْ يَشْفُوا قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُذِلَّ أَبَا جَهْلٍ وَهُوَ الْقَائِدُ الْمُسْتَكْبِرُ الْمُتَجَبِّرُ بِأَنْ يَكُونَ حَتْفُهُ عَلَى أَيْدِي غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- مَا فَعَلَ الْإِيمَانُ بِقُلُوبِ الصِّبْيَةِ حَتَّى يَبْحَثُوا عَنِ الْقَائِدِ الْمُهَابِ الْمُتَجَبِّرِ لِمُنَازَلَتِهِ، فَيُذِلُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، أَوَلَيْسَ هَذَا أَثَرَ الْإِيمَانِ، وَبُرْهَانًا مِنْ بَرَاهِينِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ لِلْإِسْلَامِ؟! بَلَى وَاللَّهِ! إِنَّ الْأَمْرَ لَكَذَلِكَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﵁ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ -حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا- فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**»، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**»، قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ**»، وَكَانَا

مُعاذ بْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ»[٩].

وَقَدْ حَكَى مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ رضي الله عنه كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ لِعَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ الْقَوْمَ وَأَبُو جَهْلٍ فِي مِثْلِ الحَرَجَةِ -وَالْحَرَجَةُ هِيَ: الشَّجَرَةُ بَيْنَ الشَّجَرِ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا مِنْ مَنَعَتِهَا وَإِحَاطَةِ الشَّجَرِ بِهَا[١٠]- وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعْتُهَا جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي فَصَمَدْتُ نَحْوَهُ، فَلَمَّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ فَضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً أَطَنَّتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَوَاللَّهِ مَا شَبَّهْتُهَا حِينَ طَاحَتْ إِلَّا بِالنَّوَاةِ تَطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النَّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا.

قَالَ: وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي، فَطَرَحَ يَدِي، فَتَعَلَّقَتْ بِجِلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي، وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ عَنْهُ، فَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامَّةَ يَوْمِي، وَإِنِّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي، فَلَمَّا آذَتْنِي جَعَلْتُ عَلَيْهَا رِجْلِي، ثُمَّ تَمَطَّيْتُ بِهَا حَتَّى طَرَحْتُهَا. وَعَاشَ مُعَاذٌ رضي الله عنه بِلَا يَدٍ وَلَا ذِرَاعٍ إِلَى زَمَنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه[١١].

وَإِنَّهَا لَآيَةٌ عَجِيبَةٌ، وَشَجَاعَةٌ نَادِرَةٌ أَنْ يُكْمِلَ الْقِتَالَ وَيَدُهُ مَقْطُوعَةٌ، ثُمَّ يَطَؤُهَا بِقَدَمِهِ لِيَتَخَلَّصَ مِنْهَا لَمَّا آذَتْهُ؛ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ لَوْلَا مَعُونَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَثْبِيتُهُ وَتَأْيِيدُهُ لَهُ، وَقَدْ بَهَرَ هَذَا المَوْقِفُ الْحَافِظَ الذَّهَبِيَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ الْقِصَّةَ: هَذِهِ وَاللَّهِ الشَّجَاعَةُ، لَا كَآخَرَ مِنْ خَدْشٍ بِسَهْمٍ يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ وَتَخُورُ قِوَاهُ[١٢].

---

(٩) أخرجه البخاري في أبواب الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب (٢٩٧٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

(١٠) ينظر: النهاية (١/ ٣٦٢)، واللسان (٢/ ٢٣٦) مادة (حرج).

(١١) أخرجه من حديث ابن إسحاق عن ثور بن يزيد عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر بن حزم رضي الله عنهم: ابن هشام في السيرة (٣/ ١٨٢-١٨٣)، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٦)، وعزاه الحافظ في الفتح للحاكم (٧/ ٢٩٦).

(١٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥١).

وَمِنْ شَبَابِ الْأَنْصَارِ مَنْ ضَحَّى فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ بِنَفْسِهِ؛ فِدَاءً لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ؛ فَكَانَ الْجَزَاءُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ، رَوَى أَنَسٌ ﷺ فَقَالَ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**وَيْحَكِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٣).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَذِهِ بَعْضٌ مِنْ تَضْحِيَاتِ الْقَوْمِ فِي أَوَّلِ فُرْقَانٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمَا اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ لِصُحْبَةِ أَفْضَلِ خَلْقِهِ، وَخَاتَمِ رُسُلِهِ إِلَّا وَهُمْ أَكْثَرُ إِيمَانًا وَيَقِينًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ، وَرِضًا بِهِ عَمَّا سِوَاهُ، فَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

وَإِنَّنَا إِذْ لَمْ نَحُزْ فَضْلَهُمْ، فَقَدْ سَبَقُونَا بِإِسْلَامِهِمْ وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَصُحْبَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّنَا نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ جَزَاءَ مَحَبَّتِنَا لَهُمْ، وَالْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَنُشْهِدُ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّا نُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَنَبْرَأُ مِمَّنْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَنَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَكَفَى بِاللَّهِ تَعَالَى شَهِيدًا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ...



(١٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٧٦١)، وأحمد (٣/ ٢٦٤)، والطيالسي (٢٠٢٩)، وأبو يعلى (٣٥٠٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَخُذُوا مِنْ صِحَّتِكُمْ لِسَقَمِكُمْ، وَمِنْ شَبَابِكُمْ لِهَرَمِكُمْ، وَمِنْ فَرَاغِكُمْ لِشُغْلِكُمْ، وَمِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَجَلَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ مَحْدُودَةً فِي مَكَانِهَا وَزَمَانِهَا؛ إِذْ لَمْ تَتَعَدَّ مَوْقِعَ بَدْرٍ، وَلَا جَاوَزَ زَمَنُهَا ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ ثُمَّ انْتَهَتْ، وَالْجَيْشَانِ الْمُتَقَابِلَانِ قَلِيلَا الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالْقَتْلَى وَالْأَسْرَى قَلِيلٌ أَيْضًا، وَقَدْ سَبَقَهَا مَعَارِكُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَامَتْ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، وَأَفْنَتْ قَبَائِلَ كَامِلَةً، وَوَقَعَ بَعْدَهَا مَعَارِكُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ لَا تُحْصَى هِيَ أَعْتَى مِنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ حَظِيَتْ بَدْرٌ بِمَا لَمْ تَحْظَ بِهِ مَعْرَكَةٌ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا؛ فَأَهْلُ بَدْرٍ مَغْفُورٌ لَهُمْ، «**وَمَا يُدْرِيكَ؟! لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَأَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خِيَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ هُمْ خِيَارُ أَهْلِ السَّمَاءِ.

---

(١٤) أخرجه من حديث علي ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس (٢٨٤٥)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أهل بدر ﷺ (٢٤٩٤).

وَفِي الْعَطَاءِ فَضَّل عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبَدْرِيِّينَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَأَعْظَمُ مَنْقَبَةٍ يُصَدِّرُهَا مَنْ كَتَبُوا عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَرْجَمَ لَهُ بَدْرِيٌّ.

فَلِمَاذَا كُلُّ هَذَا الِاحْتِفَاءِ بِمَنْ شَهِدُوا هَذِهِ الْغَزْوَةَ، وَقَدْ أَتَى بَعْدَهَا غَزَوَاتٌ أَكْبَرُ مِنْهَا فِي الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، وَشِدَّةِ الْقِتَالِ؟!

إِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كَوْنُهَا فُرْقَانًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى فُرْقَانًا؛ فَمَا انْكَسَرَ الشِّرْكُ إِلَّا فِيهَا، وَلَا وُلِدَ النِّفَاقُ إِلَّا بَعْدَهَا، وَلَا عَزَّ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهَا، كَيْفَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي مُنَاشَدَتِهِ لِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١٥)، فَعَزَّ بِهَا الْإِسْلَامُ، فَهُوَ عَزِيزٌ ظَاهِرٌ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

إِنَّ الدَّعَوَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةَ فِي بِدَايَاتِ ظُهُورِهَا تَكُونُ ضَعِيفَةً مُسْتَضَامَةً، لَا يَنْتَظِمُ فِي سِلْكِهَا وَلَا يُضَحِّي مِنْ أَجْلِهَا إِلَّا أَهْلُ الْقَنَاعَةِ بِهَا، الصَّادِقُونَ لَهَا، الْمُتَفَانُونَ فِي سَبِيلِهَا، وَمِنْ هُنَا اكْتَسَبَ أَهْلُ بَدْرٍ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ شَهِدُوا الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا غَيْرَهَا، فَهِيَ رَاجِحَةٌ بِهَا.

وَإِذَا مَا انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ، وَعَظُمَ أَمْرُهَا، وَقَوِيَ أَنْصَارُهَا؛ كَثُرَ أَتْبَاعُهَا، فَاخْتَلَطَ صَادِقُهُمْ بِكَاذِبِهِمْ، وَقَوِيُّهُمْ بِخَائِرِهِمْ، وَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ مِنْ الْمُمَحِّصَاتِ الَّتِي تَمِيزُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَأَعْظَمُ ابْتِلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ فِي بَدْرٍ الْكُبْرَى، فَاسْتَحَقَّتْ مَا اسْتَحَقَّتْ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ.

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا تَعْصِفُ بِالْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ مِحَنٌ شَدِيدَةٌ، وَابْتِلَاءَاتٌ مُمَحِّصَةٌ،

---

(١٥) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨١).

يَظْهَرُ فِيهَا النَّاجِي مِنَ الْهَالِكِ، وَالمُؤْمِنُ مِنَ المُنَافِقِ، وَالثَّابِتُ مِنَ النَّاكِصِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، ابْتِلاءَاتٌ يَنْجُو فِيهَا مَنْ يَنْجُو، وَيَغْرَقُ فِي لُجَّتِهَا مَنْ يَغْرَقُ.

وَمَعَ شِدَّةِ هَذِهِ الابْتِلَاءَاتِ، رَأَيْنَا فِيمَا رَأَيْنَا تَحَوُّلَاتٍ مِنَ الْغُلُوِّ إِلَى الْإِلْحَادِ، وَمِنَ الْيَقِينِ إِلَى الشَّكِّ، وَمِنَ التَّشَدُّدِ إِلَى التَّفَلُّتِ، وَمِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ؛ وَرَأَيْنَا انْتِقَالَاتٍ مِنْ أَقْصَى الْيَمِينِ إِلَى أَقْصَى الْيَسَارِ، وَشَاهَدْنَا ثَوَابِتَ زُعْزِعَتْ مِنْ بَعْضِ الْقُلُوبِ المَرِيضَةِ، ومُسَلَّمَاتٍ أَضْحَتْ مَحَلَّ نَظَرٍ عِنْدَ المَفْتُونِينَ، وَلَا عَاصِمَ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى!

فَلُوذُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ، وَأَنِيبُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ وَلَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ تَجَبُّرِ المُشْرِكِينَ، وَتَسَلُّطِ المُلْحِدِينَ، وَاسْتِهْزَاءِ المُسْتَهْزِئِينَ؛ فَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ عَلَى الْحَقِّ المُبِينِ. وَمَا عَظُمَ أَذَاهُمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِشَعَائِرِهِ، وَدَنَّسُوا كِتَابَهُ، وَشَتَمُوا نَبِيَّهُ، إِلَّا لِأَنَّ المُسْلِمِينَ يَمْلِكُونَ حَقًّا هُوَ أَقْوَى مِنْ بَاطِلِهِمْ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَتَخَلَّوْا عَمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ إِلَى بَاطِلِهِمُ المُهِينِ! وَمَا ظَفِرَ أَهْلُ بَدْرٍ بِمَا ظَفِرُوا إِلَّا بِثَبَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ قَلِيلٌ، فَاثْبُتُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- كَمَا ثَبَتُوا؛ فَإِنَّكُمْ كَثِيرٌ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى ثَبَاتِ الْقَلْبِ وَقُوَّتِهِ: كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَأَنْتُمْ مُقْبِلُونَ عَلَى عَشْرٍ مُبَارَكَاتٍ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْلُو فِيهَا بِرَبِّهِ، مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَيَجْتَهِدُ فِيهَا مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(١٦).

---

(١٦) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

فَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَأَكْثِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَإِنَّمَا يُنَالُ عَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدُهُ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٧- غزوة بدر (٤)
﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

١٤/ ٩/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ كَتَبَ النَّصْرَ وَالْعِزَّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَضَى بِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ عَلَى الْكَافِرِينَ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ فِي بَدْرٍ أَهْلَ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ، وَدَحَرَ ذَوِي الشَّوْكَةِ وَالْكَثْرَةِ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَعْظَمُ النَّاسِ خَشْيَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَشَدُّهُمْ خَوْفًا مِنْهُ، وَأَكْثَرُهُمْ رَجَاءً فِيهِ، وَأَصْدَقُهُمْ دُعَاءً لَهُ، كَانَ فِي بَدْرٍ رَافِعًا يَدَيْهِ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ فَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ هَاجَرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَفَارَقُوا أَوْلَادَهُمْ؛ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِعْزَازًا لِدِينِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِعْلَاءً لِكَلِمَتِهِ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَاغْتَنِمُوا مَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَعْمَارَكُمْ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِكُمْ، وَأَنَّهَا مِثْلُ رَمَضَانَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، تَبْتَدِئُ بِالتَّكْلِيفِ

---

(١) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: مسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

كَمَا يَبْدَأُ الشَّهْرُ بِإِهْلَالِ هِلَالِهِ، ثُمَّ تَتَوَسَّطُ كَمَا يَتَوَسَّطُ الشَّهْرُ، ثُمَّ تَنْتَهِي بِالمَوْتِ كَمَا يَنْتَهِي الشَّهْرُ بِخُرُوجِهِ، وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: عَظَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ عَظَمَةٍ، وَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ قُدْرَةٍ، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، يَقْضِي الْقَضَاءَ فَيَظُنُّ الْخَلْقُ أَنَّهُ شَرٌّ لَهُمْ فَإِذَا فِي طَيَّاتِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَمْ يُدْرِكُوهُ، وَحَادِثَةُ الْإِفْكِ الَّتِي أُوذِيَ فِيهَا أَفَاضِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ الصِّدِّيقُ وَابْنَتُهُ عَائِشَةُ رضي الله عنهما كَانَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١١]. وَهَكَذَا أَيْضًا فِي فَرْضِ الْجِهَادِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الرَّهَقِ وَالشِّدَّةِ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالمَالِ وَالنَّفْسِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٦].

وَوَقَعَ ذَلِكَ عَمَلِيًّا فِي أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ بَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ مَسِيرُ قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ يَقُودُهَا أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَقْصِدُ مَكَّةَ، وَتَمُرُّ بِقُرْبِ المَدِينَةِ، فَشَاوَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ رضي الله عنهم فِيهَا كَمَا رَوَى أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالمَدِينَةِ: «**إِنِّي أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قِبَلَ هَذَا الْعِيرِ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِمُنَاهَا؟** فَقُلْنَا: نَعَمْ»[2].

فَانْتَدَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النَّاسَ لِلْخُرُوجِ، فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضٌ؛

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٨٠٥)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٤) رقم (٤٠٥٦)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧٤).

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَلْقَى حَرْبًا»(٣).

عَلِمَ قَائِدُ الْقَافِلَةِ أَبُو سُفْيَانَ بِمَسِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ لِأَخْذِ قَافِلَتِهِ؛ فَأَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَبَلَغَ رَسُولُ أَبِي سُفْيَانَ مَكَّةَ، وَأَتَى الْأَبْطَحَ مُسْتَصْرِخًا مُسْتَنْفِرًا، وَعَمِلَ مَا يَعْمَلُهُ النَّذِيرُ بِخَطَرٍ وَشِيكٍ؛ فَوَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قَمِيصَهُ، وَجَدَعَ بَعِيرَهُ، يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمَةَ، أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ وَتِجَارَتُكُمْ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ، فَالْغَوْثَ الْغَوْثَ»(٤).

وَعَلَى إِثْرِ هَذَا الْإِنْذَارِ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مُسْرِعَةً لِإِنْقَاذِ عِيرِهَا وَرِجَالِهَا، وَاسْتِعَادَةِ هَيْبَتِهَا، وَالنَّيْلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقُودُهُمْ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ.

وَلَكِنَّ أَبَا سُفْيَانَ ﵁ كَانَ مِنْ دُهَاةِ الْعَرَبِ، وَأَفْذَاذِ الرِّجَالِ؛ إِذْ غَيَّرَ طَرِيقَ الْقَافِلَةِ، وَنَجَا بِهَا مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ يُطَمْئِنُهُمْ عَلَى عِيرِهِمْ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمُ الْعَوْدَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَهُنَا تَخَلَّفَ مَقْصُودُ كِلَا الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَالْمُسْلِمُونَ خَرَجُوا لِطَلَبِ الْعِيرِ، وَالْعِيرُ فَاتَتْهُمْ، وَالْمُشْرِكُونَ خَرَجُوا لِنَجْدَتِهَا، وَقَدْ نَجَتْ مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَفِي كُلِّ الْحِسَابَاتِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تَرْجِعُ إِلَى بَلَدِهَا، وَلَا سِيَّمَا مَعَ عَدَمِ وُجُودِ التَّكَافُؤِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَالْمُسْلِمُونَ مَا خَرَجُوا لِلْقِتَالِ وَإِنَّمَا لِلْعِيرِ فَحَسْبُ،

---

(٣) أخرجه في سياق قصة بدر من حديث ابن إسحاق عن جمع من شيوخه عن ابن عباس ﵄، وعن عروة بن الزبير ﵄: ابن هشام في السيرة (٣/ ١٥٢)، والطبري في تفسيره (٩/ ٢٨٢)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٥٣)، والحاكم (٣/ ٢١)، وابن حبان في ثقاته (١/ ١٥٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣١)، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٠).

(٤) هذا جزء من سياق قصة غزوة بدر المخرج في حاشية (٣).

وقوله: «اللطيمة»: اللطيمة هي الجمال التي تحمل العطر والمسك والبز غير الميرة، ينظر: النهاية (٤/ ٢٥١)، واللسان (١٢/ ٥٤٣) مادة (لطم).

وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ لَهُ تَدْبِيرٌ آخَرُ غَيْرُ تَدْبِيرِ الْبَشَرِ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ؛ فَسَلَّطَ ﷻ أَبَا جَهْلٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ الْخُرُوجِ، فَرَفَضَ رُجُوعَهُمْ رَغْمَ نَجَاةِ الْقَافِلَةِ، وَرَغْمَ رُجُوعِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ كَبَنِي زُهْرَةَ لَمَّا زَالَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ.

وَمَا إِصْرَارُ أَبِي جَهْلٍ عَلَى الْمُضِيِّ فِي هَذَا السَّبِيلِ الْمَجْهُولِ إِلَّا لِيُحَقِّقَ بِزَعْمِهِ مَجْدًا لِقُرَيْشٍ أَمَامَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلِيَسْتَعِيدَ هَيْبَةَ أَهْلِ مَكَّةَ الَّتِي تَضَعْضَعَتْ بِهِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ مُعَلِّلًا عَدَمَ رُجُوعِهِمْ إِلَى مَكَّةَ: «وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ- فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ جَمِيعُ الْعَرَبِ بِمَخْرَجِنَا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يُصِبِ الْعِيرَ، وَأَنَّا قَدْ أَعْضَضْنَاهُ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا»(٥).

هَكَذَا سُلِّطَ أَبُو جَهْلٍ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِيَحِقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِيَنْفُذَ فِيهِمْ أَمْرُهُ، وَلِيُصِيبَهُمْ قَدَرُهُ الَّذِي قَدَّرَهُ عَلَيْهِمْ، إِنَّهَا آيَةٌ وَأَيُّ آيَةٍ!!

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَشَارَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُخْبِرُهُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَقَالَ لَهُمْ: «**مَا تَقُولُونَ؟ إِنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَالْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمِ النَّفِيرُ؟** قَالُوا: بَلِ الْعِيرُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَدَّدَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: **إِنَّ الْعِيرَ قَدْ مَضَتْ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَيْكَ بِالْعِيرِ وَدَعِ الْعَدُوَّ، فَقَامَ عِنْدَ غَضَبِ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَا

---

(٥) جزء من حديث قصة بدر المخرج في حاشية (٣).

فَأَحْسَنَا، ثُمَّ قَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: انْظُرْ أَمْرَكَ فَوَاللَّهِ لَوْ سِرْتَ إِلَى عَدَنَ مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ»(٦).

ثُمَّ تَتَابَعَ الصَّحَابَةُ ﷺ عَلَى مَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ.

وَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنُ لِهَذَا الْفَصْلِ الْعَظِيمِ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ، وَالْمُجَادَلَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَهُمْ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْعِيرَ، وَلَا يُرِيدُونَ مُنَازَلَةَ جَيْشٍ لَمْ يَتَهَيَّئُوا لِمُنَازَلَتِهِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى -وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ- أَنْ تَكُونَ مَلْحَمَةً لَا غَنِيمَةً، وَأَنْ تَكُونَ مَوْقِعَةً بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُثْبِتَهُ، وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَيُزْهِقَهُ، وَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ؛ فَيُقْتَلَ مِنْهُمْ مَنْ يُقْتَلُ، وَيُؤْسَرَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْسَرُ، وَتُذَلَّ كِبْرِيَاؤُهُمْ، وَتُخْضَدَ شَوْكَتُهُمْ، وَتَعْلُوَ رَايَةُ الْإِسْلَامِ، وَيُمَكَّنَ لِلْعُصْبَةِ الْمُسْلِمَةِ فِي الْأَرْضِ، وَلَنْ يَكُونَ هَذَا التَّمْكِينُ إِلَّا بِجُهْدٍ وَعَمَلٍ، وَمُنَازَلَةٍ وَجِهَادٍ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْوَثَنِيَّةِ(٧).

لَقَدْ خَبَّأَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الْعِيرِ وَالْغَنِيمَةِ، فَهَيَّأَ أَسْبَابَ الْمَعْرَكَةِ بِلَا سَابِقِ إِنْذَارٍ وَلَا اسْتِعْدَادٍ، وَهُنَا تَظْهَرُ التَّضْحِيَاتُ، وَتَبْرُزُ

(٦) جزء من حديث قصة بدر المخرج في حاشية (٣).
(٧) ينظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٨١).

الْبُطُولَاتُ، وَيَسْتَعْلِي الْإِيمَانُ، وَيَتَحَقَّقُ التَّوَكُّلُ، وَعِنْدَهَا لَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْإِيمَانِ إِلَى قِلَّتِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَلَا إِلَى قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ الصَّحَابَةُ ﵃ مَا قَالُوا لمَّا رَأَوْا عَزْمَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مُقَاتَلَةِ الْجَيْشِ الْمُشْرِكِ بَعْدَ أَنْ فَاتَتِ الْعِيرُ، وَأَعْلَنُوا لَهُ أَنَّهُ مَهْمَا سَارَ بِهِمْ فَهُمْ مَاضُونَ مَعَهُ، وَلَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْهُ وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ ذَهَابُ نُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ اتَّفَقُوا عَلَى الْمُنَازَلَةِ لَرُبَّمَا لَمْ يَتَهَيَّأْ ذَلِكَ لَهُمْ بِسَبَبِ بُعْدِ مَكَّةَ عَنِ المَدِينَةِ، وَلِلْفَارِقِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ، وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَمِيلُ إِلَى التَّسْوِيفِ بِحُجَّةِ الِاسْتِعْدَادِ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]. أَيْ: لِيَقْضِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلَالِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ مَلَإٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَدْبِيرٍ وَلَا تَخْطِيطٍ، فَفَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ(٨). قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﵁: «إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

وَمِنْ عَجِيبِ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَوَّى قَلْبَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى خَوْضِ المَعْرَكَةِ بِرُؤْيَا رَآهَا، ثُمَّ عِنْدَ الْتِقَاءِ الطَّائِفَتَيْنِ أَرَى كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا قِلَّةَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى، وَأَطْمَعَهَا فِيهَا، فَلَا الْمُسْلِمِينَ هَابُوا الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ ثَلَاثَةُ أَضْعَافِهِمْ، وَلَا كَفَّ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ خَوْفًا مِنْهُمْ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ

(٨) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٩) أخرجه البخاري في المغازي، باب قصة غزوة بدر (٣٧٣٥)، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩).

ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤]، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لَقَدْ قُلِّلُوا فِي أَعْيُنِنَا يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قُلْتُ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِي: تَرَاهُمْ سَبْعِينَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ هُمْ مِئَةٌ، حَتَّى أَخَذْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ: كُنَّا أَلْفًا»(١٠).

فَأَيْنَ مَا أَرَادَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُجَرَّدِ الظَّفَرِ بِالْعِيرِ مِمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَسَاقَهُ إِلَيْهِمْ، مِنْ كَسْرِ شَوْكَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَظُهُورِ الْحَقِّ وَعُلُوِّهِ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ وَسُفُولِهِ؟!

وَلَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ ظَفِرُوا بِالْقَافِلَةِ لَكَانَتْ مُجَرَّدَ غَنِيمَةٍ لَا تَكَادُ تُذْكَرُ، فَأَيْنَ ذِكْرُهَا مِنْ ذِكْرِ بَدْرٍ الَّتِي لَا يُذْكَرُ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِهَا، حِينَ جَسَّدَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِدُعَائِهِ «**اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(١١).

لَقَدْ غَدَتْ بَدْرٌ بَعْدَ النَّصْرِ المُبِينِ أَعْظَمَ مَعْرَكَةٍ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَلَكَمْ تَمَنَّى مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم إِدْرَاكَهَا! وَلَكَمْ يَغْبِطُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ مَنْ حَضَرَهَا! وَأَهْلُ بَدْرٍ مَغْفُورٌ لَهُمْ، وَفَضْلُ مَنْ شَهِدَهَا مِنَ المَلَائِكَةِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ عليهم السلام كَفَضْلِ مَنْ شَهِدَهَا مِنَ الصَّحَابَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَبَعْدَ بَدْرٍ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ، وَعُرِفَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ الْعَرَبِ، بَلْ تَسَامَعَ بِهِمُ الْعَجَمُ.

وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى قُوَّةِ المُسْلِمِينَ بَعْدَ بَدْرٍ أَنَّ النِّفَاقَ كَانَ بَعْدَهَا؛ إِذْ كَانَ أَهْلُ

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٩٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٩١٢٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٧) رقم (١٠٢٦٩).
(١١) مضى تخريجه في حاشية (١).

الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا يُعْلِنُونَ كُفْرَهُمْ وَعَدَاءَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ أَظْهَرَ كَثِيرٌ مِنْهُمُ الْإِيمَانَ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ، فَهَذَا هُوَ أَوَّلُ تَارِيخِ النِّفَاقِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «أَنَّ رَأْسَ النِّفَاقِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ قَالُوا بَعْدَ بَدْرٍ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمُوا»(١٢).

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَرَكَاتِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَرِهَ الْمُوَاجَهَةَ فِيهَا بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذٌ، وَحُكْمَهُ قَاهِرٌ، وَكَانَ مَا اخْتَارَهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا مِمَّا اخْتَارُوهُ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَصَدَقَ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٢].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا تَدَبُّرَ كِتَابِهِ، وَالْفِقْهَ فِي دِينِهِ، وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ...



(١٢) أخرجه في حديث طويل من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: البخاري في الأدب، باب كنية المشرك (٥٨٥٤)، والبيهقي (٩/ ١٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٦١) رقم (٣٨٩) وتمام في فوائده (٤٢٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٤٢)، وابن شبة في أخبار المدينة (٧١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا وَنَصِيرًا، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الْفُرْقَان: ٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيْرُ مَنْ صَامَ وَقَامَ وَقَنَتَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَكَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رَمَضَانَ يَشُدُّ مِئْزَرَهُ، وَيُحْيِي لَيْلَهُ، وَيُوقِظُ أَهْلَهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَتَعَرَّضُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ لِنَفَحَاتِهِ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ خَيْرَاتِهِ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَا بُدَّ مِنْ إِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالْيَقِينِ بِأَنَّ قَضَاءَهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا يَخْتَارُونَهُ هُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ بَدَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ أَنَّ مَا قَضَاهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ عَنَتٌ وَمَشَقَّةٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُقَدِّرُ شَرًّا مَحْضًا، وَسَيَظْهَرُ بِجَلَاءٍ بَعْدَ اسْتِبَانَةِ الْأَمْرِ أَنَّ قَضَاءَهُ سُبْحَانَهُ كَانَ خَيْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا اسْتَبَانَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ بَعْدَ أَنْ كَرِهُوا مُقَاتَلَةَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالْمُسْلِمُ يَحْتَاجُ لِأَنْ يَمْلَأَ قَلْبَهُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ الْمَصَائِبُ، وَتَعَدَّدَتِ الْمُشْكِلَاتُ، وَتَنَوَّعَتِ الِابْتِلَاءَاتُ؛ فَقَدْ يَضْجَرُ الْمُسْلِمُ مِنْ خَسَارَةٍ مَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، أَوْ مِنْ مُشْكِلَةٍ أُسَرِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ، أَوْ مِنِ ابْتِلَاءٍ عَظِيمٍ حَاقَ بِهِ، وَلَا يُثَبِّتُهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ إِلَّا إِحْسَانُهُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ ﷻ، وَثِقَتُهُ

بِهِ، وَتَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ، وَيَقِينُهُ بِأَنَّ فِي مُصَابِهِ خَيْرًا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، لَا يُدْرِكُهُ هُوَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ؛ فَلْيَرْضَ بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيُسَلِّمِ الْأَمْرَ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَسَيَنَالُ بِذَلِكَ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَعَلَى مُسْتَوَى الْجَمَاعَةِ وَالْأُمَّةِ؛ فَكَمْ يُعَانِي الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ بِالْإِفْسَادِ فِي دِيَارِهِمْ، وَالسُّخْرِيَةِ بِدِينِهِمْ، وَتَدْنِيسِ قُرْآنِهِمْ، وَشَتِيمَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَمُحَاوَلَةِ قَهْرِهِمْ عَلَى مَنَاهِجِهِمُ الْمُنْحَرِفَةِ! وَأَهْلُ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يَرَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى مُنَازَلَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَرَدِّ عُدْوَانِهِمْ، وَإِزَاءَ ذَلِكَ كَمْ تَخَلَّى أُنَاسٌ عَنْ عَقَائِدِهِمْ، وَانْحَازُوا بِعُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ إِلَى طَوَائِفِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَزَادُوا الْفِتْنَةَ فِتْنَةً، وَعَظُمَ الِابْتِلَاءُ بِهِمْ، وَكَانَ مَا فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ مِمَّا فَعَلَهُ الْأَعْدَاءُ!

وَلَكِنْ فِي هَذِهِ التَّقَلُّبَاتِ وَالِابْتِلَاءَاتِ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يَثْبُتُ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا مَنِ اقْتَنَعَ بِهِ، وَضَحَّى فِي سَبِيلِهِ، وَرَجَا أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ، يَتَّبِعُ الْحَقَّ لِأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ لِدُنْيَا يُرِيدُهَا، أَوْ لِنَصْرٍ يَنْتَظِرُهُ؛ حَتَّى إِذَا مَا اسْتَبْطَأَ نَصْرَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْحَقِّ انْسَلَخَ مِنْ جِلْدِهِ، وَانْحَازَ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْوَى!

وَكَمْ كَشَفَتْ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ فَسَادِ الْعُقُولِ، وَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، وَأَظْهَرَتْ أَهْوَاءَ ذَوِي الْهَوَى وَالنِّفَاقِ، وَفَضَحَتْ مَنِ اتَّخَذُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى مَطِيَّةً لِتَحْقِيقِ مَصَالِحَ آنِيَةٍ، وَإِشْبَاعِ طُمُوحَاتٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَهَذَا مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الِابْتِلَاءَاتِ؛ حَتَّى لَا يُخْدَعُوا بِكُلِّ دَعِيٍّ، وَلَا يُصْغُوا لِكُلِّ رُوَيْبِضَةٍ.

وَفِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ بَدْرٍ، وَمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ

لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِعَدَدِهِمْ وَعُدَّتِهِمْ، ثُمَّ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ؛ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ عَلَى تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٤٢]. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَيْ: لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبْرَةِ، وَيُؤْمِنَ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ»(١٣).

وَلَئِنْ كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ قَدْ سَاقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى حَتْفِهِمْ بِعُلُوِّهِ وَاسْتِكْبَارِهِ، وَزَعْمِهِ إِعَادَةَ هَيْبَةِ قُرَيْشٍ وَمَجْدِهَا؛ فَإِنَّنَا نَرَى قَادَةَ الدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَ أَبِي جَهْلٍ، فَسُلِّطُوا عَلَى دُوَلِهِمْ، بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَغَزَوْا بِجَحَافِلِهِمْ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِبَسْطِ نُفُوذِهِمْ، وَاسْتِعَادَةِ هَيْبَتِهِمْ، فَغَرِقَ جُنُودُهُمْ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ بِلَادِ الْأَفْغَانِ وَالْعِرَاقِ، كَمَا غَرِقَ أَبُو جَهْلٍ وَجُنْدُهُ فِي بَدْرٍ، وَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ كَمَا كُسِرَتْ شَوْكَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ، وَزَالَتْ هَيْبَتُهُمْ مِنَ الْقُلُوبِ، وَصَغُرَ أَمْرُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ، وَاسْتَأْسَدَتْ عَلَيْهِمُ الدُّوَلُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ قَبْلُ تَخَافُهُمْ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ(١٤).

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ قَدْ كَرِهُوا تَسَلُّطَ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى بُلْدَانِهِمْ، كَمَا كَرِهَ أَهْلُ بَدْرٍ مُنَازَلَةَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ اسْتَبَانَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ فِي هَذَا التَّسَلُّطِ وَالِاسْتِكْبَارِ الْعَالَمِيِّ خَيْرًا كَثِيرًا لَمْ يَعْلَمُوهُ هُمْ مِنْ قَبْلُ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

---

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩١١٦)، وعزاه ابن كثير في تفسيره لابن إسحاق من قوله (٣١٦/٢)، وهو في سيرة ابن هشام (٣/ ٢٢٧).

(١٤) هذا إشارة إلى ما فعله رئيس أمريكا بوش وعصابته من المحافظين بالكذب والتدليس على شعبهم، حتى غزوا أفغانستان والعراق بحجج واهية، وكانت مستنقعًا يقتل فيه جنودهم، ولم يحققوا مرادهم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَثِقُوا بِهِ سُبْحَانَهُ، وَاثْبُتُوا عَلَى دِينِهِ إِلَى أَنْ تَلْقَوْهُ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ، فَهُوَ وَاللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ . . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣١٨- غزوة بدر (٥)
﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

١٦/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؛ يَنْصُرُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَقْصِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ إِلَى أَنْ نَلْقَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَبِيرٌ فِي حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، حَكِيمٌ فِي تَقْدِيرِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَمْ يَزَلْ يَوْمَ بَدْرٍ مُنْطَرِحًا عَلَى بَابِ رَبِّهِ، رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُو، حَتَّى جَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَثْمِرُوا مَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمْ؛ فَبِالْأَمْسِ بَدَأْتُمُوهُ، وَهَا أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ مِنْ نِصْفِهِ الْآخَرِ، وَقَرِيبًا يُفَارِقُكُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُمْ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاعْمَلُوا الْيَوْمَ صَالِحًا تَجِدُوا خَيْرًا فِي غَدِكُمْ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلْزَلَة: ٧، ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمُكَذِّبِينَ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُرَغِّبَهُمْ وَيُرَهِّبَهُمْ، وَيُمْهِلَهُمْ وَيُمْلِيَ لَهُمْ، وَيُحَذِّرَهُمْ عِقَابَهُ، وَيُخَوِّفَهُمْ بِآيَاتِهِ، وَيُرْسِلَ لَهُمُ النُّذُرَ تِلْوَ النُّذُرِ، وَيَفْتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ النِّعَمِ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ؛ حَتَّى إِذَا اسْتَوْجَبُوا الْعِقَابَ؛

قَطَعَ دَابِرَهُمْ، وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ، وَأَبَادَ خَضْرَاءَهُمْ؛ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وَسَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ عليهم السلام فِي شَتَّى الْأَزْمَانِ وَالْأُمَمِ؛ فَهَذِهِ عَادٌ لَمَّا كَذَّبَتْ هُودًا عليه السلام قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَهُمْ، وَأَنْجَى هُودًا وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ؛ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وَقَضَى ﷻ فِي قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام لَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَتَوُا الْفَوَاحِشَ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ؛ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

وَذَكَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُكَذِّبِينَ لِخَاتَمِ رُسُلِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِعَاقِبَةِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ؛ لِئَلَّا يَقْطَعَ دَابِرَهُمْ كَمَا قَطَعَ دَابِرَ مَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

غَيْرَ أَنَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَهُمْ، فَيَأْتُوا أَسْبَابَهُ، وَلَا يَنْفَكُّوا عَنْ عَمَلِ أَهْلِهِ حَتَّى تُرْدِيَهُمْ شِقْوَتُهُمْ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى نَجَاتَهُمْ أَدْرَكَتْهُمْ رَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ، وَأَسْعَفَتْهُمْ هِدَايَتُهُ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَمَا قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَضَاهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى الَّتِي كَانَتْ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ؛ إِذْ سَارَتْ جَحَافِلُ الشِّرْكِ وَجُنْدُ الْبَاطِلِ تَجُرُّ أَذْيَالَهَا بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِتُنْقِذَ قَوَافِلَهَا مِنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَحْبِهِ رضي الله عنهم، وَتَضْرِبَ أَقْبِيَتَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ؛ تَحَدِّيًا لَهُمْ، وَاسْتِعَادَةً لِهَيْبَةٍ تَضَعْضَعَتْ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ،

وَكَادَ اللِّقَاءُ أَنْ لَا يَتِمَّ بِنَجَاةِ الْقَافِلَةِ مِنْ قَبْضَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَضَى -وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ- بِقَطْعِ دَابِرِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ، وَصَنَادِيدِ مَكَّةَ؛ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

لَقَدْ قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ قَضَاءَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِمْ حُكْمُهُ، وَأَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ مُرَادُهُ، فَكَانَ اللِّقَاءُ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَبَلَغَ الْمُسْلِمُونَ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ قَبْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُشِيرُ إِلَى مَصَارِعِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَرْضِ، رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ بَدْرًا قَالَ: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ**. قَالَ: وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدُهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، قَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَؤُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَتَقَابَلَ الصَّفَّانِ، وَكَانَ فِي الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُشِيرُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَرْجِعُوا، وَلَكِنَّ كِبْرِيَاءَ أَبِي جَهْلٍ تَأْبَى ذَلِكَ، فَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى عَزَمُوا عَلَى الْحَرْبِ، وَوَقَفُوا لَهَا، وَخَرَجَ الْمُبَارِزُونَ مِنْهُمْ لِلْمُبَارَزَةِ، وَوَقَعَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحَقَّقَ وَعْدُهُ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ؛ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

---

(١) أخرجه مسلم في المغازي والسير، باب غزوة بدر (١٧٧٩)، وأحمد (٣/ ٢١٩)، وابن حبان (٤٧٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٣)، والطيالسي (٤٠)، وأبو يعلى (١٤٠).

فَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنْهُمْ، وَأُسِرَ سَبْعُونَ، وَكَانَ فِي الْقَتْلَى جُمْلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ سَادَةِ قُرَيْشٍ وَكِبَارِهِمْ، وَصَنَادِيدِ الْكُفْرِ وَشُجْعَانِهِمْ، أَخَذَتْ مِنْهُمْ سُيُوفُ الْحَقِّ حَظَّهَا، وَارْتَوَتْ أَرْضُ بَدْرٍ بِدِمَائِهِمْ، وَدَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَانْتَصَرَتِ الْفِئَةُ الْمُؤْمِنَةُ الْمُسْتَضْعَفَةُ، وَنَالَ الْمُعَذَّبُونَ مِمَّنْ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ فِي رَمْضَاءِ مَكَّةَ، وَانْتَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْهُمْ، وَأَبْصَرَ بِلَالٌ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ -وَقَدْ كَانَ يُعَذِّبُهُ بِمَكَّةَ- فَقَالَ: «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ! لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ فَرِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَتَخَلَّلُوهُ بِسُيُوفِهِم حَتَّى قَتَلُوهُ»، وَقِصَّةُ قَتْلِهِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[٣].

وَكَانَ أُمَيَّةُ صَدِيقًا لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَإِذَا ذَهَبَ سَعْدٌ إِلَى مَكَّةَ نَزَلَ عِنْدَ أُمَيَّةَ، وَإِذَا ذَهَبَ أُمَيَّةُ إِلَى الْمَدِينَةِ نَزَلَ عِنْدَ سَعْدٍ، وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا فَأَجَارَهُ أُمَيَّةُ وَضَيَّفَهُ، وَأَخْبَرَهُ سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَخْبَرَ بِمَقْتَلِهِ، فَقَالَ: «بِمَكَّةَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَفَزِعَ لِذَلِكَ أُمَيَّةُ فَزَعًا شَدِيدًا، فَأَخْبَرَ أَهْلَهُ بِذَلِكَ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ»[٤]، وَلَكِنَّ الشَّقِيَّ سَيُدْرِكُهُ شَقَاؤُهُ وَلَوِ احْتَرَزَ، وَأَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَمْضَى مِنْ عَزْمِهِ وَيَمِينِهِ، وَرُفْقَةُ السُّوءِ لَنْ تَزَالَ بِهِ حَتَّى تُورِدَهُ حَتْفَهُ.

«فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ، قَالَ: أَدْرِكُوا عِيرَكُمْ، فَكَرِهَ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي تَخَلَّفُوا مَعَكَ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى

---

(٣) في كتاب الوكالة، باب إذا وكل المسلم حربيًا في دار الحرب أو في دار الإسلام جاز (٢١٧٩) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مطولًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن سعد بن معاذ رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر (٣٧٣٤)، وأحمد (١/ ٤٠٠).

قَالَ: أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِي فَوَاللَّهِ لَأَشْتَرِيَنَّ أَجْوَدَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ، ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ: يَا أُمَّ صَفْوَانَ جَهِّزِينِي، فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: لَا، مَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيبًا، فَلَمَّا خَرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لَا يَنْزِلُ مَنْزِلًا إِلَّا عَقَلَ بَعِيرَهُ، فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ ﷻ بِبَدْرٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥).

لَقَدْ قُتِلَ فِي بَدْرٍ رُؤَسَاءُ الْكُفْرِ، وَأَئِمَّةُ الشِّرْكِ، وَقَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَهُمْ، وَشَفَى صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَكَانَتْ نِهَايَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا شَرَّ نِهَايَةٍ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقَتْلَى أَنْ يُطْرَحُوا فِي الْقَلِيبِ، فَطُرِحُوا فِيهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ فَإِنَّهُ انْتَفَخَ فِي دِرْعِهِ فَمَلَأَهَا فَذَهَبُوا يُحَرِّكُوهُ فَتَزَايَلَ، فَأَقَرُّوهُ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِ مَا غَيَّبَهُ مِنَ التُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ، فَلَمَّا أَلْقَاهُمْ فِي الْقَلِيبِ وَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**، فَقَالَ لَهُ: أَصْحَابُهُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى، فَقَالَ لَهُمْ: **لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدْتُهُمْ حَقٌّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: «**جَزَاكُمُ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ**»(٧).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه: «فَجَعَلَ ﷺ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: **يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ**

(٥) قطعة من الحديث السابق المخرج في حاشية (٤).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٦).

(٧) هذه الرواية لأحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيها انقطاع (٦/ ١٧٠).

أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟».

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَنَادَاهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ يَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»(٨).

وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ! كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقَنِي النَّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النَّاسُ وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النَّاسُ، فَبِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ»(٩).

هَكَذَا كَانَتْ نِهَايَةُ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ، وَكَذَلِكَ يَقْطَعُ اللَّهُ تَعَالَى دَابِرَ كُلِّ مُسْتَكْبِرٍ جَبَّارٍ، كَمَا قَطَعَ سُبْحَانَهُ دَابِرَ قَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَقَوْمِ شُعَيْبٍ، وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ، وَحَقَّ فِي كُفَّارِ مَكَّةَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، وَمُحَمَّدٌ النِّعْمَةُ، وَدَارُ الْبَوَارِ النَّارُ يَوْمَ بَدْرٍ»(١٠).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْكَنَ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَنَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ

---

(٨) أخرجه من حديث أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما: البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٧٥٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه (٢٨٧٤)، ولم يذكر مسلم في روايته عن أبي طلحة به، وإنما جعله عن أنس رضي الله عنه، وأحمد (٤/ ٢٩)، وابن حبان (٤٧٧٨).

(٩) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٠٢).

(١٠) علقه البخاري مجزومًا به في المغازي، باب قتل أبي جهل (٤/ ١٤٦٢)، وذكر الحافظ في الفتح أنه موصول (٧/ ٣٠٣).

وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [المُجَادَلَة: ٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٠، ٢١].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى نِعَمِهِ، فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاثْبُتُوا عَلَى دِينِكُمْ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ؛ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الْحِجْر: ٩٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَهْلُ الْخَيْرِ يَنْفَعُونَ إِخْوَانَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَرَاقِي الْعِزِّ وَالسَّعَادَةِ، وَأَهْلُ الشَّرِّ يُرْدُونَ أَقْرَانَهُمْ، وَيَكُونُونَ سَبَبًا فِي هَلَاكِ أَصْحَابِهِمْ، وَلَا يَدُلُّونَهُمْ إِلَّا عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ، وَظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ أَغْرَى أَبُو جَهْلٍ صَاحِبَهُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ بِالْخُرُوجِ مَعَ يَقِينِهِ أَنَّهُ مَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ، فَمَا زَالَ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَى الْقَتْلِ وَالنَّارِ.

وَفِي زَمَنِنَا هَذَا رَأَيْنَا فَرَاعِنَةَ الدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ يَجُرُّونَ مَعَهُمْ إِلَى الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ وَالنَّارِ مَنْ يُوَافِقُهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الدُّوَلِ الْأُخْرَى لِيُغْرِقُوهُمْ فِي مُسْتَنْقَعَاتِ الدَّمِ وَالدَّمَارِ وَالْإِثْمِ وَالْعَارِ فِي الْعِرَاقِ وَالصُّومَالِ وَأَفْغَانِسْتَانَ، فَمَتَى يَتَّعِظُ الطُّغَاةُ؟

وَمَتَى يَعْتَبِرُ الْأَتْبَاعُ؟ وَهَلَّا كَانَ لَهُمْ فِيمَنْ مَضَوْا مِنْ طُغَاةِ التَّارِيخِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ؟!

هَذَا؛ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَصَارِعَ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ عَلِمَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ فِيهِمْ؛ فَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَوْ آمَنُوا -وَهُمْ سَادَةُ مَكَّةَ وَأَشْرَافُ قُرَيْشٍ- لَسَادُوا النَّاسَ كَمَا سَادَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَسَائِرُ الْأَشْرَافِ مِنْ قُرَيْشٍ ﷺ، وَلَكَانَتْ هَذِهِ عَاجِلَ بُشْرَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ مَنْ حُجِبَ قَلْبُهُ عَمَّا يَنْفَعُهُ فَلَنْ تَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، وَلَنْ تُجْدِيَ فِيهِ الْمَوَاعِظُ، وَلَوْ جَاءَتْهُ النُّذُرُ، وَأَبْصَرَ الْآيَاتِ؛ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٦].

وَمِنْ عَجِيبِ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنَّ أَبْنَاءً لِهَؤُلَاءِ الصَّنَادِيدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَإِخْوَانًا وَأَقْرَانًا وَأَصْحَابًا حَضَرُوا بَدْرًا عَلَى الشِّرْكِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقْتَلُوا، وَبَقِيَ مِنْهُمْ عَلَى الشِّرْكِ مَنْ بَقِيَ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، وَلَكِنَّهُمْ مَكْتُوبُونَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنْ أَهْلِ الْهِدَايَةِ وَالسَّعَادَةِ وَلَوْ رَفَعُوا سُيُوفَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَالْخَنْدَقِ وَغَيْرِهَا، وَمَنْ كُتِبَ سَعِيدًا فَلَنْ تَسْتَمِرَّ مَعَهُ شِقْوَتُهُ، وَلَنْ يَبْقَى عَلَى كُفْرِهِ، وَلَنْ يَمُوتَ إِلَّا مُؤْمِنًا، فَمَا أَعْظَمَ مَقَادِيرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ! وَمَا أَحْكَمَ قَضَاءَهُ سُبْحَانَهُ فِي عِبَادِهِ! ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٤٩].

كَانَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ حَكِيمُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ﷺ الَّذِي رَأَى الْمَوْتَ فِي بَدْرٍ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى شَمِلَتْهُ فَنَجَا وَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ سَيِّدًا فِي الْإِسْلَامِ كَمَا كَانَ سَيِّدًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ إِذَا حَلَفَ بِيَمِينٍ قَالَ: لَا وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ(١١).

---

(١١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٥/ ١١٨)، وينظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤).

وَكَانَ مِنْهُمْ عِكْرِمَةُ رضي الله عنه ابْنُ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبِي جَهْلٍ، قُتِلَ أَبُوهُ عَلَى الشِّرْكِ فِي بَدْرٍ، وَنَجَّى اللَّهُ تَعَالَى عِكْرِمَةَ رضي الله عنه لِخَيْرٍ أَرَادَهُ بِهِ، فَأَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ رضي الله عنه إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ: وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ(١٢).

وَإِذَا كَانَتِ الْهِدَايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَحَرِيٌّ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْهَجَ بِدُعَائِهِ دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْ يَهْدِيَهُ وَيُثَبِّتَهُ. كَيْفَ؟ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْفَاتِحَة: ٦، ٧].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرُهُ، وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ مَعَ الْإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِدَايَةِ الْقُلُوبِ وَصَلَاحِهَا وَثَبَاتِهَا عَلَى الْحَقِّ، وَإِنْ كَثُرَتِ الْمُلْهِيَاتُ وَالصَّوَارِفُ، وَقَوِيَتِ الضُّغُوطُ وَالْمُضَايَقَاتُ.

وَعَنْ قَرِيبٍ تَحُلُّ بِكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- عَشْرُ لَيَالٍ مُبَارَكَاتٌ، هِيَ خَيْرُ اللَّيَالِي وَأَكْثَرُهَا بَرَكَةً، جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ كُلَّهَا الْتِمَاسًا لِهَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَيَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ تَحَرِّيًا لَهَا؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣)، وَقَالَتْ رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤).

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن أبي مليكة -رحمه الله تعالى-: الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٧١) رقم (١٠١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤١/ ٥٨).

(١٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

(١٤) أخرجه مسلم في الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

فَشَمِّرُوا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ الْمُبَارَكَاتِ، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَنَافِسُوا أَهْلَ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَيْهَا غَالِبٌ؛ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ شَغَلَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَهُوَ قَانِتٌ لِلَّهِ تَعَالَى قَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، قَارِئًا بَاكِيًا مُتَضَرِّعًا، وَالْخَاسِرَ مَنْ ضَيَّعَهَا فِيمَا لَا طَائِلَ مِنْهُ.

أَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا فِي عَشْرِكُمْ تَجِدُوا خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا فَلَعَلَّهُ لَا يُدْرِكُهَا مِنْ قَابِلٍ، فَكَمْ وُسِّدَ فِي الْقُبُورِ مِنْ أُنَاسٍ أَدْرَكُوهَا فِي الْأَعْوَامِ الْمَاضِيَةِ، فَخُذُوا مِنْ مَصِيرِهِمْ عِبْرَةً لِأَنْفُسِكُمْ، وَاعْمَلُوا لِمَا عَلَيْهِ قَدْ قَدِمُوا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣١٩- إجلاء بني قينقاع

١٩/ ١٠/ ١٤١٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَلَا دِينَ أَكْمَلُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَرِيعَةَ أَوْفَى مِنْ شَرِيعَتِهِ، وَالصِّدْقُ كُلُّ الصِّدْقِ فِي أَخْبَارِهِ، وَالْحقُّ كُلُّ الْحَقِّ فِي أَحْكَامِهِ. فَالْحُكْمُ الْمُحْكَمُ، وَالْخَبَرُ الْمَوْثُوقُ هُوَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَحِيحِ سُنَّةِ وَسِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، وَمَا عَدَا الْإِسْلَامَ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ فَهُوَ مُحَرَّفٌ أَوْ مُبَدَّلٌ أَوْ مَنْسُوخٌ، وَلَنْ يَكُونَ دِينًا صَحِيحًا؛ لِلْكَذِبِ فِي نَقْلِهِ، وَلِأَنَّ الْإِسْلَامَ نَسَخَ مَا كَانَ قَبْلَهُ.

بَلْ إِنَّ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّابِقِينَ، الصِّدْقُ مِنْهَا وَالْحَقُّ مَا كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَأَهْلُ الْإِسْلَامِ بِالْوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ: الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَعْلَمُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِكُتُبِهِمْ، وَبِأَحْوَالِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَقْوَمُ طَرِيقًا، وَأَهْدَى سَبِيلًا.

وَنَفَاسَةُ الْخَبَرِ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، إِنَّمَا تَكُونُ فِي صِدْقِهِ وَثُبُوتِهِ، وَلَا مَصْدَرَ أَصَحُّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ؛ فَأَهْلُ الْكِتَابِ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ لَأَخَذُوا أَخْبَارَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَأَحْوَالَ سَابِقِيهِمْ مِنْهُمَا، وَلَكِنْ كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ قَدْ زَهِدُوا فِيهِمَا وَضَيَّعُوهُمَا وَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي وَقَلِيلٌ مَا هُمْ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ يَعْتَنِي أَهْلُ الْكِتَابِ بِكُتُبِهِمْ وَقَدْ مُلِئَتْ زُورًا وَظُلْمًا مِمَّا لَا يَصِحُّ عَقْلًا وَنَقْلًا، وَيُهْمِلُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ مَصَادِرَهُمُ الَّتِي كَانَتْ وَلَا تَزَالُ صِدْقًا وَعَدْلًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنْهَا الدُّرُوسُ، وَتُؤْخَذُ مِنْهَا الْعِبَرُ، مِنْ سِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ: حَادِثَةٌ وَقَعَتْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ . . إِنَّهَا حَادِثَةُ إِجْلَاءِ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَنِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ حِينَمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ[١].

وَكَمْ نَحْتَاجُ إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَإِمْعَانِ النَّظَرِ فِي تَفَاصِيلِهَا فِي زَمَنٍ يُشَاهِدُ فِيهِ الْمُسْلِمُ الْحَقَائِقَ تُبَدَّلُ، وَالثَّوَابِتَ تُغَيَّرُ، وَالتَّارِيخَ يُزَوَّرُ.

كَانَ بَنُو قَيْنُقَاعَ صَاغَةً وَحَدَّادِينَ، وَيَمْلِكُونَ الْكَثِيرَ مِنَ السِّلَاحِ، كَمَا كَانُوا أَوَّلَ مَنْ نَكَثَ الْعَهْدَ وَالمِيثَاقَ مِنْ يَهُودِ المَدِينَةِ، وَكَانُوا أَشْجَعَ يَهُودِ المَدِينَةِ، وَكَانُوا يَكْتُمُونَ غَيْظَهُمْ وَحِقْدَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، فَلَمَّا انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ اشْتَدَّ غَضَبُهُمْ وَحِقْدُهُمْ، وَازْدَادَتْ سُخْرِيَتُهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَالتَّحَرُّشِ بِهِمْ، وَعِنْدَمَا تَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ بَغْيُهُمْ، نَفَذَ صَبْرُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، لَكِنَّ

(١) قال الواقدي: غزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال، على رأس عشرين شهرًا، حاصرهم النبي ﷺ إلى هلال ذي القعدة. المغازي (١/ ١٦٥)، ومثله في طبقات ابن سعد (٢/ ٢١)، ونقله عن الواقدي البيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٣).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ المُعَلِّمُ وَالْقُدْوَةُ لَمْ يَسْتَعْجِلْ فِي أَمْرِهِمْ، بَلْ رَأَى أَنْ يَعِظَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ.

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جمعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا**»، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣][٢].

فَكَانَ ظَاهِرًا مِنْ جَوَابِ الْيَهُودِ الْإِعْلَانُ السَّافِرُ بِالْحَرْبِ، وَاقْتِرَابُ نَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ، لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَصَبَرَ عَلَيْهِمْ.

وَيَذْكُرُ أَهْلُ السِّيَرِ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ -وَهُوَ مِنْ صِغَارِ التَّابِعِينَ- أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ، فَجَعَلَ الْيَهُودُ يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ، فَعَمَدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ، فَلَمَّا قَامَتِ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ، فَشَدَّتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ[٣].

---

(٢) أخرجه أبو داود في الإمارة والخراج والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة؟ (٣٠٠١)، وابن إسحاق في السيرة (٣/ ٢٩٤)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٩٢)، والبيهقي (٩/ ١٨٣)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٣/ ٣١٤)، وعنه ابن كثير في السيرة (٣/ ٦).

وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ إِلَى بَنِي قَيْنُقَاعَ يَحْمِلُ لِوَاءَهُ عَمُّهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه وَلَمَّا رَأَوْهُ تَحَصَّنُوا بِحُصُونِهِمْ، فَحَاصَرَهُمْ أَشَدَّ حِصَارٍ مِنْ نِصْفِ شَوَّالٍ إِلَى هِلَالِ ذِي الْقِعْدَةِ، فَقَذَفَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحِينَئِذٍ قَامَ كَبِيرُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ بِدَوْرِهِ النِّفَاقِيِّ؛ فَأَلَحَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ؛ حَتَّى إِنَّهُ -أَخْزَاهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَرْسِلْنِي**»، وَغَضِبَ حَتَّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ظُلَلًا، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَرْسِلْنِي**»، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقَ مَضَى عَلَى إِصْرَارِهِ وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ، أَرْبَعُمِائَةِ حَاسِرٍ، وَثَلَاثُمِائَةِ دَارِعٍ قَدْ مَنَعُونِي مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَتَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنِّي وَاللَّهِ امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَوَهَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ(٤)، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَا يُجَاوِرُوهُ بِهَا، فَخَرَجُوا إِلَى أَذْرِعَاتِ الشَّامِ، فَقَلَّ أَنْ لَبِثُوا فِيهَا حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ أَكْثَرَهُمْ(٥). وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ، وَنَاصَبَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَتُظْهِرُ هَذِهِ الْحَادِثَةُ الْفَرْقَ الْوَاضِحَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ، وَالْمُنَافِقِ الْكَذَّابِ؛ فَقُدْوَةُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ كَانَ مُوَالِيًا لِلْيَهُودِ، وَشَفَعَ فِيهِمْ لَدَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَغْمَ عَدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِيذَائِهِمْ، وَرَغْمَ نَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَيُلِحُّ فِي شَفَاعَتِهِ وَيَقُولُ: أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَيُنْزِلُ اللَّهُ ﷻ فِيهِ وَفِي أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ

(٤) أخرجه ابن إسحاق (٣/ ٢٩٥)، وعنه ابن هشام (٣/ ٣١٥)، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٤).

(٥) أخرجه الواقدي في المغازي (١/ ١٦٧-١٦٨)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩).

﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

بَيْنَمَا يَقِفُ مَوْقِفَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ، وَيَتَبَرَّأُ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ؛ حَيْثُ أَعْلَنَ بَرَاءَتَهُ مِنْ حُلَفَائِهِ الْيَهُودِ؛ مُظَاهَرَةً لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودَ كَثِيرٍ عَدَدُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَنِعْمَ مَا تَوَلَّى عُبَادَةُ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦][٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَقِفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ هَذَا الْمَوْقِفَ الْفَاضِحَ مِنْ تَوَلِّي إِخْوَانِهِ الْيَهُودِ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يَغْتَمُّ لِأَيِّ حَسَنَةٍ تُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَفْرَحُ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ تَضُرُّهُمْ.

---

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٧٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٦٥)، والدر المنثور (٣/ ٩٩)

كَذَلِكَ لَنْ يَكُونَ غَرِيبًا عِنْدَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَوَلَّى مُنَافِقُو هَذَا الْعَصْرِ أَعْدَاءَ الدِّينِ مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِ يَهُودٍ، وَلَنْ يَكُونَ غَرِيبًا أَنْ يُسَلِّطُوا أَلْسِنَتَهُمْ وَأَقْلَامَهُمْ ضِدَّ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَعُلَمَائِهِ وَدُعَاتِهِ وَاصِفِينَ إِيَّاهُمْ بِالتَّطَرُّفِ وَالْأُصُولِيَّةِ، مُلْصِقِينَ بِهِمْ كُلَّ تُهْمَةٍ هُمْ مِنْهَا بُرَءَاءُ؛ فَقَدْ كَانَ أَسْلَافُهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِسْلَامِ:

أَلَمْ يَنْسَحِبْ مِنْهُمْ ثُلُثُ الْجَيْشِ فِي أُحُدٍ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ؟[٧].

أَلَمْ يَرْمُوا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَزَوْجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الطَّاهِرَةَ الْمُطَهَّرَةَ عَائِشَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما بِالْإِفْكِ؟[٨].

ثُمَّ أَلَمْ يُوقِعُوا الْفِتْنَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا؟[٩].

فَهَلْ نَسْتَغْرِبُ أَفْعَالَهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ؟

أَمَّا الْيَهُودُ فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مَلِيئَانِ بِأَخْبَارِهِمُ السَّيِّئَةِ، وَصِفَاتِهِمُ الذَّمِيمَةِ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يُدْخِلُوا مَوَدَّتَهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا، مَا دَامَ الْمُسْلِمُونَ يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ وَيَعْمَلُونَ بِهِمَا؛ فَالْحَقَائِقُ الْفَاضِحَةُ الْوَاضِحَةُ لِلْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ ثَابِتَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ تَغَيَّرُوا، فَالْقُرْآنُ يُكَذِّبُ زَعْمَ الْمُنَافِقِينَ هَذَا مَا دَامَ الْيَهُودُ عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ.

---

(٧) ينظر: مصنف عبد الرزاق (٩٧٣٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٢١)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٠١).

(٨) أخرج حديث الإفك مطولًا: البخاري في المغازي، باب حديث الإفك (٤١٤١)، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول الله توبة القاذف (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٩) وذلك ما فعله عبد الله بن سبأ اليهودي حين أظهر الإيمان، وحرض على قتل عثمان رضي الله عنه، وأشعل الفتنة بين المسلمين.

تَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مُخَاطِبًا الْيَهُودَ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١]، بَعْدَ أَنْ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، ثُمَّ بَيَّنَ الْقُرْآنُ حَقِيقَةَ زَعْمِهِمْ هَذَا ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١].

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يُفْرَضُ فِي هَذَا الْمَقَامِ: هَلْ قَتَلَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَبِيًّا وَاحِدًا، أَوْ شَارَكُوا فِي قَتْلِ نَبِيٍّ؟ بَلْ هَلْ أَدْرَكُوا زَمَنَ قَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام؟ كَلَّا، لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يُخَاطِبُهُمُ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

إِنَّ فِي هَذَا إِيمَاءً إِلَى أَنَّ أَخْلَاقَ الْيَهُودِ وَطِبَاعَهُمْ لَا تَتَغَيَّرُ، وَأَنَّهُمْ يَسْلُكُونَ مَسْلَكَ أَجْدَادِهِمْ قَتَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام. ثُمَّ تَأْتِي الْحَوَادِثُ لِتُؤَكِّدَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي أَوْمَأَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ؛ حَيْثُ سَمَّ يَهُودُ الْمَدِينَةِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ(١٠)، وَسَحَرُوهُ(١١)،

(١٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ. أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧)، ومسلم في السلام، باب السم (٢١٩٠).

(١١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبي ﷺ، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «**أَشَعَرْتِ أن الله أفتاني فيما فيه شِفَائي، أتاني رَجُلَانِ: فقعَدَ أحدُهُمَا عند رأسِي والآخر عند رِجلي، فقال أحَدُهما للآخَرِ: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطْبُوب، قال: ومَنْ طبَّه؟ قال: لَبِيد بن الأعْصَمِ، قال: فيما ذا؟ قال: في مشْطٍ ومُشَاطَة وجفّ طلعَةٍ ذَكَر، قال: فأين هُوَ؟ قال: في بئر ذرْوان**» فخرج إليها النبي ﷺ، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: «**نخلها كأنه رءوس الشياطين**» فقلت: استخرجته؟ فقال: «**لا، أمَّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا**» ثم دفنت البئر. أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٦٨)، ومسلم في الآداب، باب السحر (٢١٨٩).

وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ(١٢)، فَأَخْلَاقُ سَابِقِيهِمُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَتَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَالْيَهُودُ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ نَاصَبُوا مُحَمَّدًا ﷺ الْعَدَاءَ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ حَاكُوا الْمُؤَامَرَاتِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَفِي كُلِّ عَصْرٍ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ الدَّجَّالَ، وَهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ يَخْتَبِئُونَ خَلْفَ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَنْطِقُ يُخْبِرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوهُمْ فِي آخِرِ الزَّمَانِ(١٣).

وَلَا يُوجَدُ نَصٌّ شَرْعِيٌّ وَلَا حَقِيقَةٌ تَارِيخِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ يَخْتَلِفُونَ مِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْرٍ، وَلَوْ أَرَادَ الْمُنَافِقُونَ مُخَالَفَةَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّطْبِيعِ مَعَهُمْ، وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِالنُّصُوصِ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا نُصُوصُ عَدَاءٍ لَا تُنَاسِبُ حَضَارَةَ الْيَوْمِ، وَالنِّظَامَ الْعَالَمِيَّ الْجَدِيدَ؛ فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يُكَذِّبَانِ ذَلِكَ، وَالتَّارِيخُ يُكَذِّبُهُ، وَالْوَاقِعُ يُكَذِّبُهُ.

أَمَا يَسْتَحِيي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ حِينَ يُخَادِعُونَ عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّطْبِيعِ مَعَ الْيَهُودِ، وَيُخَالِفُونَ قَوَاطِعَ النُّصُوصِ، وَوَقَائِعَ التَّارِيخِ، وَدَلَائِلَ الْوَاقِعِ؟! وَلَكِنْ لَا عَجَبَ؛ فَالْقُرْآنُ قَالَ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ

(١٢) كما فعل بنو النضير حين حاولوا قتله غدرًا، ينظر: خطبة إجلاء بني النضير (٣/ ٣٢٥).

(١٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقْتُلهم المسْلِمُون حتى يختبئ اليهودي مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خَلْفِي، فتعال فاقتله، إلا الغَرْقَد، فإنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ**» أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢).

قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنْ كَانَ الْيَهُودُ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَقْوَى سِلَاحًا، وَأَمْضَى قَرَارًا، فَإِنَّ عَقِيدَةَ الْمُؤْمِنِ كَرَاهِيَتُهُمْ وَبُغْضُهُمْ، هُمْ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ الثَّابِتَةُ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْمُنَافِقُونَ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْيَهُودُ أَنْ يُزِيلُوهَا مِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ مَا دَامَ يَقْرَأُ الْوَحْيَ وَيَعْمَلُ بِمَا فِيهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ.

فَلْتَسْتَقِرَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، يَشِبُّ عَلَيْهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ عَلَيْهَا الْكَبِيرُ، وَيَمُوتُ عَلَيْهَا كُلُّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِهَا فِي الْقِيَامَةِ، أَوْ يَعِيشَ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَيَتَحَقَّقَ نَصْرُهُ، وَيُخْذَلَ الْأَعْدَاءُ، وَيُفْضَحَ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٢٠- غزوة أحد (٣) (*)
التضحيات والبطولات

١٤/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: الْجَنَّةُ سِلْعَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْغَالِيَةُ، لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. وَلَيْسَ الْإِيمَانُ أَمْرًا هَيِّنًا؛ فَهُوَ مِنَ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَبَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ حَمْلَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا! وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، مِنْ فِعْلٍ لِلْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابٍ لِلنَّوَاهِي؛ ثَقِيلٌ عَلَى نُفُوسٍ رُكِّبَتْ فِيهَا الشَّهَوَاتُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(*) غزوة أحد (١) تجدها في (٣/ ٢٤٦)، وغزوة أحد (٢) تجدها في (٣/ ٢٥٨).

بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يُعِينُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْمُؤْمِنُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَسْأَلُهُ الْإِعَانَةَ عَلَى عِبَادَتِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَمِنَ الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

بَيْدَ أَنَّ الْإِيمَانَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الْقُلُوبِ عَمِلَ عَمَلَهُ فِيهَا، فَتَعِبَتْ فِي مُرَادِهِ الْأَجْسَادُ، وَخَاضَتِ الصِّعَابَ، لَا تَهِنُ لهَا عَزِيمَةٌ، وَلَا تَلِينُ لَهَا شَكِيمَةٌ، تُضَحِّي بِالنَّفْسِ وَبِالمَالِ وَبِالْوَلَدِ، وَبِكُلِّ مَا يُمْكِنُ التَّضْحِيَةُ بِهِ؛ حِفَاظًا عَلَى الدِّينِ، وَثَبَاتًا عَلَى الْحَقِّ، وَإِرْضَاءً للَّهِ تَعَالَى؛ وَهَكَذَا فَعَلَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ الَّتِي كَانَتْ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

لَقَدْ كَانَتْ تَضْحِيَاتُهُمْ فِيهَا كَبِيرَةً، وَبُطُولَاتُهُمْ فِيهَا عَظِيمَةً، بَرْهَنُوا بِهَا عَلَى إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ مَعَ اللَّهِ ﷻ، حَتَّى نَزَلَ فِيهِمْ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وَإِذَا كَانَ صِبْيَانُهُمْ يَتَطَاوَلُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ لِيُجِيزَهُمْ لِلْغَزْوِ فَكَيْفَ إِذًا بِرِجَالِهِمْ؟!

رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ عَشَرَ صَبِيًّا لَمْ يَبْلُغُوا الْخَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَجَمَاعَةٌ

---

(١) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وعبد بن حميد (١٢٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠-٢٠٢١)، والحاكم ووافقه الذهبي (٣/ ٣٠٧).

آخَرُونَ(٢)، وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ رَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ مَاهِرٌ فِي الرِّمَايَةِ، فَأَجَازَهُ وَهُوَ صَبِيٌّ(٣)، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِ سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ بِأَنَّهُ أَقْوَى مِنْ رَافِعٍ وَيَصْرَعُهُ، فَأَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَذَلِكَ(٤).

وَفِي الطَّرِيقِ لِلْمَعْرَكَةِ طَلَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ أَخِيهِ زَيْدٍ رضي الله عنه أَنْ يَأْخُذَ دِرْعَهُ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: «لَا، إِنِّي أُرِيدُ مِنَ الشَّهَادَةِ مِثْلَ مَا تُرِيدُ، فَتَرَكَهُ كِلَاهُمَا»(٥).

وَهَذَا عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ خَرَجَ مَعَ أَبْنَائِهِ الْأَرْبَعَةِ لِلْغَزْوَةِ، أُسْرَةٌ كَامِلَةٌ خَرَجَتْ مَا وَقَّرَ مِنْهُمَ أَحَدًا، وَلَا اسْتَبْقَاهُ احْتِيَاطًا لِشَيْءٍ، وَكَانَ رضي الله عنه مَعْذُورًا لَوْ قَعَدَ؛ لِأَنَّهُ أَعْرَجُ شَدِيدُ الْعَرَجِ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَبْنَاؤُهُ الْأَرْبَعَةُ يُحَاوِلُونَ ثَنْيَهُ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ وَهُوَ بِهَذَا الْعُذْرِ وَالضَّعْفِ؛ وَلَكِنَّ إِيمَانَهُ كَانَ أَقْوَى، فَأَصَرَّ عَلَى الْخُرُوجِ، وَاشْتَكَى أَبْنَاءَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَسْتَشْهِدَ فَأَطَأَ بِعَرَجَتِي هَذِهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ**»، وَقَالَ لِبَنِيهِ: «**وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدَعُوهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ**».

فَلَمَّا الْتَقَى النَّاسُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ الْيَوْمَ أَطَأُ بِعَرَجَتِي

---

(٢) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٢١٦)، والبداية والنهاية (٤/ ١٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٣٩)، وقال الهيثمي في الزوائد: «وفيه من لم أعرفهم» (٦/ ١٠٨)، وذكر خبره أيضًا: أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٩٥)، وهو في السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٣).

(٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٩٦)، وينظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٢/ ٤٦٧).

(٥) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٥٣٠٠)، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح» (٥/ ٢٩٨)، وهو في الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٥٥٠)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٠٠)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٩٨).

هَذِهِ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَطَأَنَّ بِهَا الْجَنَّةَ الْيَوْمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ.

فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ»**(٦).

إِنَّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ ﷺ قَبْلَ المَعْرَكَةِ لَتَدُلُّ دِلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ عَزَمُوا عَلَى التَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ بَاعُوا الدُّنْيَا، وَاشْتَرَوُا الْآخِرَةَ.

وَلَمَّا انْسَحَبَ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْجَيْشِ وَكَانُوا ثُلُثَهُ، مَا تَرَدَّدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَمْرِ الْغَزْوِ، وَلَا تَكَاسَلُوا عَنِ التَّضْحِيَةِ.

ثُمَّ بَرْهَنُوا عَلَى ذَلِكَ فَوْرَ بَدْءِ المَعْرَكَةِ؛ فَأَبُو دُجَانَةَ أَخَذَ السَّيْفَ بِحَقِّهِ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَثْخَنَ فِي صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ يَهُدُّهَا وَيُبَعْثِرُهَا، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَارَزَ حَامِلَ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَصَرَعَهُ، وَاقْتَرَبَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النَّصْرِ، بَلِ انْتَصَرُوا؛ لَوْلَا أَنَّ الرُّمَاةَ بَارَحُوا أَمَاكِنَهُمْ، وَاشْتَغَلُوا بِجَمْعِ الْغَنَائِمِ عَنْ حِمَايَةِ ظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ!!

---

(٦) أخرجه من حديث أبي قتادة ﷺ: أحمد (٥/ ٢٩٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٢٤٠)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن شبَّة في أخبار المدينة (٤/٦١٦)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير يحيى بن نصر الأنصاري وهو ثقة» (٩/ ٣١٥).

وأخرجه من حديث ابن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة: البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٤).

وأخرجه مرسلًا من حديث عكرمة مولى ابن عباس ﷺ: ابن المبارك في الجهاد (٧٨).
والرواية الأولى للبيهقي، والثانية لابن المبارك، والثالثة لأحمد.

وَإِذْ ذَاكَ كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ أَكْثَرَ تَضْحِيَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَفِدَاءً بِأَرْوَاحِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ فَأَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ﷺ فَاتَتْهُ بَدْرٌ، فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَيَفْعَلَنَّ الْأَفَاعِيلَ فِي أُحُدٍ؛ فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، وَرَزَقَهُ الثَّبَاتَ فِي مُقَابَلَةِ الْمُشْرِكِينَ .. رَأَى ﷺ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قُعُودًا إِثْرَ الْهَزِيمَةِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: أَصْحَابَهُ-، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ -يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ-، ثُمَّ تَقَدَّمَ يُرِيدُ الِانْغِمَاسَ فِي جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ يُجَالِدُهُمْ وَحْدَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ -وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُحُدٍ- قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ!! وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ جَسَدَهُ مُزِّقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِبِضْعٍ وَثَمَانِينَ؛ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ وَطَعْنَةٍ، وَمَا عَرَفَتْهُ إِلَّا أُخْتُهُ الرُّبَيِّعُ بِبَنَانِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَرَجُلٌ آخَرُ أَحْيَا سِيرَةَ عُمَيْرِ بْنِ الْحُمَامِ ﷺ حِينَ قَالَ: «لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ»(٨)، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ .. هَذَا الرَّجُلُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ؛ فَلَمْ يَذْكُرِ الرُّوَاةُ اسْمَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْرِفُهُ .. جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيْنَ أَنَا؟ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ**»؛ فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] (٢٦٥١)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣).

(٨) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٦٣)، وعبد بن حميد (١٢٧٢)، والبيهقي (٩/ ٤٣)، والحاكم (٣/ ٣٨١).

(٩) أخرجه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٢٠)، ومسلم في الإمارة، باب ثبوب الجنة للشهيد (١٨٩٩).

وَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَبَّهُ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْتَلَ فِي أُحُدٍ، وَأَنْ يُبْقَرَ بَطْنُهُ، وَيُجْدَعَ أَنْفُهُ وَأُذُنُهُ، وَيُمَثَّلَ بِهِ، حَتَّى إِذَا سَأَلَهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: فِيمَ هَذَا؟ قَالَ: فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِكَ. فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، حَتَّى قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ آخِرَ النَّهَارِ وَإِنَّ أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ لَمُعَلَّقَانِ فِي خَيْطٍ»، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَبَرَّ اللَّهُ آخِرَ قَسَمِهِ كَمَا بَرَّ أَوَّلَهُ»رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ مُرْسَلٌ(١٠).

وَحَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زُفَّ إِلَى عَرُوسِهِ لَيْلَةَ أُحُدٍ، فَلَمَّا سَمِعَ النِّدَاءَ بِالْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ انْخَلَعَ مِنْ أَحْضَانِ زَوْجَتِهِ، وَهَرِعَ إِلَى سَاحَةِ الْوَغَى؛ حَتَّى لَا يَفُوتَهُ شَرَفُ الْجِهَادِ، فَكَانَ حَادِيَ التَّضْحِيَةِ أَمْلَكَ لِنَفْسِهِ، وَأَمْلَأَ لِحِسِّهِ مِنْ دَاعِي اللَّذَّةِ(١١)، فَاسْتُشْهِدَ وَهُوَ جُنُبٌ، فَغَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى عُرِفَ بِغَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ(١٢).

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَيْرَ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ نَالَهُ بِأَسْرَعَ مِمَّا يَظُنُّ الْبَشَرُ، فَانْتَقَلَ مِمَّا يُوجِبُ لَهُ دَرَكَ النَّارِ إِلَى أَعْلَى الْجِنَانِ؛ كَمَا حَدَثَ لِأُصَيْرِمِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ

---

(١٠) أخرجه مرسلًا من حديث سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى-: ابن المبارك في الجهاد (٨٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٥٥٢)، والحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه» ووافقه الذهبي (٢/ ٨٦) و(٣/ ٢٢٠)، والبيهقي (٦/ ٣٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٩)، وعزاه الهيثمي في الزوائد (٩/ ٣٠١-٣٠٢) للطبراني، وقال: «رجاله رجال صحيح».

(١١) ينظر: فقه السيرة للغزالي (٢٥٣).

(١٢) أخرجه من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: ابن إسحاق في السيرة (٣١٢)، والبيهقي في السنن (٤/ ١٥)، وفي الدلائل (٣/ ٢٤٦)، وصححه ابن حبان (٧٠٢٥)، والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٢٥)، وحسنه الهيثمي في الزوائد بعد أن عزاه للطبراني في الكبير(٣/ ٢٣).

عَمْرِو بْنِ أُقَيْشٍ رضي الله عنه، فَقَدْ كَانَ كَارِهًا لِلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِ خُرُوجِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أُحُدٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ، وَمَلَأَهُ بِالْإِيمَانِ؛ فَأَسْلَمَ، وَلَحِقَ بِالْمُسْلِمِينَ فَقُتِلَ وَنَالَ شَرَفَ الْجِهَادِ، وَمَنْزِلَةَ الشَّهَادَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَسْجُدْ لِلَّهِ تَعَالَى سَجْدَةً وَاحِدَةً!![13].

وَالنُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ رضي الله عنه أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَرَّ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمَهُ، قَالَ وَهُوَ فِي سَاحَةِ الْوَغَى: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ أَنْ لَا تَغِيبَ الشَّمْسُ حَتَّى أَطَأَ بِعَرْجَتِي فِي خُضَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِيهَا وَمَا بِهِ مِنْ عَرَجٍ»**[14].

وَلَمَّا وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَحَاطُوا بِهِ وَجَرَحُوهُ؛ اسْتَمَاتَ جَمْعٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَجُرِحَ مِنْهُمْ مَنْ جُرِحَ . . كَانُوا سَبْعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ: **«مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»**[15]. أَمَّا الْمُهَاجِرَانِ فَهُمَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنهما؛ فَأَمَّا طَلْحَةُ فَقَاتَلَ قِتَالًا عَنِيفًا يُدَافِعُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى شُلَّتْ يَدُهُ[16]، وَأَمَّا سَعْدٌ

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب فيمن يسلم ويقتل مكانه في سبيل الله ﷻ (٢٥٣٧)، وأحمد (٥/ ٤٢٨)، والبيهقي في السنن (٩/ ١٦٧) وفي الدلائل (٣/ ٢٤٧) وفي الشعب (٤٣١٦)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم (٢/ ١٢٤)، وحسنه الحافظ في الإصابة (٤/ ٦٠٩).

(١٤) أخرجه البغوي من طريق مالك بن خالد الجعدي، قال: وجدت في كتاب أبي ... فذكره؛ كما في الإصابة لابن حجر، وسكت عنه الحافظ (٦/ ٤٥١).
وأخرجه ابن قانع في معجمه بنحوه من حديث أبي ثابت بن شداد بن أوس (٣/ ١٤٦)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن منده أيضًا.

(١٥) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٨٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٣٣١٩)، وأحمد (٣/ ٢٨٦)، وعبد بن حميد (١٣٨٧)، وابن حبان (٤٧١٨)، وأبو عوانة (٦٨٧١).

(١٦) كما في حديث قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- قال: «رأيت يد طلحة شلاَّء وقى =

فَكَانَ يَدْفَعُ المُشْرِكِينَ بِالنِّبَالِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يُنَاوِلُهُ السِّهَامَ، وَيَقُولُ لَهُ: «**ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي**»، وَلَمْ يَجْمَعِ النَّبِيُّ ﷺ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدٍ رضي الله عنه. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٧).

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ أَمْهَرِ الرُّمَاةِ، وَأَشَدِّ النَّاسِ صَوْتًا، فَكَانَ يَرْمِي وَيَصِيحُ فِي المُشْرِكِينَ يُفْزِعُهُمْ بِصَوْتِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِ أَحَدٌ بِجُعْبَتِهِ نَبْلٌ يَقُولُ لَهُ: «**انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ**»، وَعِنْدَمَا يُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْقَوْمِ يَنْظُرُ إِلَى مَوَاقِعِ النَّبْلِ، كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَقِيهِ بِصَدْرِهِ وَيَقُولُ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٨).

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَوْتِهِ مُعْجَبًا بِشِدَّتِهِ: «**لَصَوْتُ أَبِي طَلْحَةَ فِي الْجَيْشِ أَشَدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ فِئَةٍ**»(١٩).

= بها النبي ﷺ يوم أحد» أخرجه البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٣٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل طلحة بن عبيد الله (١٢٨)، وأحمد (١/ ١٦١)، وجاء تفصيل ذلك في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند النسائي في الجهاد، باب ما يقول من يطعنه العدو (٦/ ٢٩-٣٠)، وقال الذهبي في السير: رواته ثقات (١/ ٢٧).

(١٧) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه (٢٧٤٩)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (٢٤١١).

وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص: البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٢٩)، ومسلم في الكتاب والباب السابقين (٢٤١٢).

(١٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] (٣٨٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال (١٨١١).

(١٩) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٥١٣)، وعبد بن حميد (١٣٨٤)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (١٠٢٢)، =

وَمِنْ عَجَائِبِ التَّضْحِيَةِ: مَا فَعَلَهُ أَبُو دُجَانَةَ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَعْطَى سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقَّهُ مِنَ الْقِتَالِ؛ إِذِ انْحَنَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقِيهِ سِهَامَ الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى كَثُرَ النَّبْلُ فِي ظَهْرِهِ، وَهُوَ لَا يَتَحَرَّكُ(٢٠)، إِلَى أَنِ انْجَلَتِ الْغُمَّةُ، وَزَالَ الْكَرْبُ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَإِنَّ أَبَا دُجَانَةَ لَمْ تُكْتَبْ لَهُ الشَّهَادَةُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ.

إِنَّهَا بُطُولَاتٌ فَذَّةٌ، وَتَضْحِيَاتٌ عَجِيبَةٌ، بَذَلَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ؛ فِدَاءً لِدِينِهِمْ، وَحِمَايَةً لِنَبِيِّهِمْ ﷺ. قَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الَّذِي قَاوَمَ مُقَاوَمَةً شَدِيدَةً، وَأُصِيبَ إِصَابَاتٍ كَثِيرَةً، وَدَفَعَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ حَتَّى كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي جَبْهَتِهِ، وَانْكَسَرَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَسَالَ دَمُهُ، فَجَعَلَ يَمْسَحُهُ وَيَقُولُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ؟!**»، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٢١).

فَلَمَّا طَمِعَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إِسْلَامِهِمْ قَالَ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٢).

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شُهَدَاءِ أُحُدٍ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ،

= والضياء المقدسي في المختارة (١٦٥٧)، وعزاه الهيثمي في الزوائد لأحمد وأبي يعلى وقال: «ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح» (٩/ ٣١٢).

(٢٠) سيرة ابن إسحاق (٣٠٧)، وعنه ابن هشام (٤/ ٣١)، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٦)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ٥١٠).

(٢١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في التفسير، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] معلقًا مجزومًا به (٤/ ١٤٩٣)، ووصله مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩١) واللفظ له.

(٢٢) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩٢).

اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ، وَاثْبُتُوا عَلَى الْحَقِّ؛ فَإِنَّ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ ﷺ أُسْوَةً حَسَنَةً؛ إِذْ ثَبَتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ حَتَّى لَقُوا اللَّهَ ﷻ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: غَزْوَةُ أُحُدٍ فَيَّاضَةٌ بِالْعِظَاتِ الْغَوَالِي، وَالدُّرُوسِ الْعَوَالِي، وَقَدْ نَزَلَتْ فِي أَدْوَارِهَا وَحَوَادِثِهَا وَنَتَائِجِهَا آيَاتٌ طِوَالٌ، اسْتَغْرَقَتْ أَكْثَرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَكَانَ لَهَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَثَرٌ عَمِيقٌ ظَلَّ يَذْكُرُهُ إِلَى قُبَيْلِ وَفَاتِهِ، رَغْمَ تَعَدُّدِ الْغَزَوَاتِ بَعْدَهَا، وَكَثْرَةِ الْفُتُوحِ.

لَقَدْ كَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ امْتِحَانًا ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ، عَظِيمَ الْمَنْفَعَةِ، مَحَّصَ السَّرَائِرَ، وَمَزَّقَ النِّقَابَ عَنْ مَخْبُوئِهَا؛ فَامْتَازَ النِّفَاقُ عَنِ الْإِيمَانِ، وَبَانَ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ، بَلْ تَمَيَّزَتْ أَيْضًا مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ، وَبَانَتْ مَقَادِيرُ التَّضْحِيَاتِ فِي الرِّجَالِ، فَعُرِفَ الَّذِينَ رَكَلُوا الدُّنْيَا بِنِعَالِهِمْ فَلَمْ يُعَرِّجُوا عَلَى مَطْمَعٍ مِنْ مَطَامِعِهَا، وَالَّذِينَ مَالُوا إِلَيْهَا بَعْضَ الْمَيْلِ فِي حَالَةِ ضَعْفٍ بَشَرِيٍّ، فَنَشَأَ عَنْ مَيْلِهِمْ إِلَيْهَا مَا يَنْشَأُ عَنِ الشَّرَرِ الْمُسْتَصْغَرِ مِنْ حَرَائِقَ مُرَوِّعَةٍ.

بَدَأَتِ المَعْرَكَةُ بِانْسِحَابِ المُنَافِقِينَ، وَهُوَ انْسِحَابٌ يَنْطَوِي عَلَى اسْتِهَانَةٍ بِمُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ، وَغَدْرٍ بِهِ فِي أَحْرَجِ الظُّرُوفِ، وَأَحْلَكِ السَّاعَاتِ، وَتِلْكَ أَبْرَزُ خَسَائِسِ النِّفَاقِ(٢٣).

وَهَذَا المَشْهَدُ النِّفَاقِيُّ فِي أُحُدٍ يَتَكَرَّرُ كُلَّمَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ صَوْلَةٌ، أَوْ كَسَبُوا جَوْلَةً، وَمَنِ اسْتَحْيَا مِنْ إِسْلَامِهِ، أَوِ انْسَحَبَ عَنْ إِيمَانِهِ، أَوْ نَقَدَ شَرِيعَةَ رَبِّهِ؛ دَفْعًا لِضَرَرٍ مُتَوَهَّمٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ، أَوْ حِمَايَةً لِدُنْيَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مَسَالِكَ المُنَافِقِينَ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِهِمْ، وَلَوْ كَانَ مِنَ المُصَلِّينَ!!

إِنَّ الدَّعَوَاتِ إِبَّانَ امْتِدَادِهَا وَانْتِصَارِهَا لَتُغْرِي الْكَثِيرِينَ بِالِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَائِهَا، فَيَخْتَلِطُ المُخْلِصُ بِالمُغْرِضِ، وَالْأَصِيلُ بِالدَّخِيلِ، وَهَذَا الِاخْتِلَاطُ مُضِرٌّ أَكْبَرَ الضَّرَرِ بِسَيْرِ الرِّسَالَاتِ الْكَبِيرَةِ وَإِنْتَاجِهَا، وَمِنْ مَصْلَحَتِهَا الْأُولَى أَنْ تُصَابَ بِرَجَّاتٍ عَنِيفَةٍ تَعْزِلُ خَبَثَهَا عَنْهَا، وَقَدِ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَقَعَ هَذَا التَّمْحِيصُ فِي أُحُدٍ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فَالْجُبْنُ وَالنُّكُوصُ، وَتَوْفِيرُ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ هِيَ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْ طَوِيَّةِ المُنَافِقِينَ فِي أُحُدٍ، فَافْتُضِحُوا أَمَامَ أَنْفُسِهِمْ وَأَمَامَ النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَفْضَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٢٤).

وَرَأْسُ المُنَافِقِينَ ابْنُ سَلُولٍ حِينَ انْسَحَبَ بِقَوْمِهِ مِنَ الْجَيْشِ مَا عَلَّلَ ذَلِكَ الِانْسِحَابَ إِلَّا بِأَنَّ رَأْيَهُ لَمْ يُطَعْ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ اسْتِبْقَاءَ نَفْسِهِ، فَقَالَ: «أَطَاعَ الْوِلْدَانَ وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ، أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي، عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا؟!»(٢٥).

---

(٢٣) ينظر: فقه السيرة لمحمد الغزالي (٢٦٠).

(٢٤) المصدر السابق (٢٦١).

(٢٥) أخرجه عن ابن إسحاق: الطبري في تفسيره (٤/ ١٦٨) وفي تاريخه (٢/ ٦٠)، وابن هشام في السيرة (٤/ ١٠)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٦) وفي تاريخه (٤/ ١٣)، وعزاه الحافظ في الفتح لموسى بن عقبة في مغازيه (٧/ ٣٥٦).

وَمَقُولَتُهُ تِلْكَ يُرَدِّدُهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِعِبَارَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، يُعَلِّلُونَ بِهَا تَخَلِّيَهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَتَبْدِيلِ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

وَلَمَّا عَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ، وَرَدَّ عَلَى مَقُولَةِ ابْنِ سَلُولٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ؛ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ هَذَا الِانْكِسَارِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ: بَيَانُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَتَمْيِيزُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إِنَّهُ ابْتِلَاءُ التَّمْحِيصِ وَالتَّمْيِيزِ، يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ لِيَظْهَرَ بِهِ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ؛ وَلِيَبِينَ قَوِيُّ الْإِيمَانِ مِنْ ضَعِيفِهِ، فَاسْتَمْسِكُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِدِينِكُمْ، وَعَضُّوا بِالنَّوَاجِذِ عَلَى شَرِيعَتِكُمْ؛ حِفَاظًا عَلَى إِيمَانِكُمْ، وَإِرْضَاءً لِرَبِّكُمْ، وَلَوْ تَكَاثَرَ عَلَيْكُمُ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَعْوَانِهِمْ مِنَ الْجَاهِلِينَ وَالظَّالِمِينَ؛ فَلَنْ يُصِيبَكُمْ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَقَدَّرَ لَكُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



٣٢١- غزوة أحد (٤)
فقه السنن الربانية

٢٦/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ أَبَانَ الْحَقَّ لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ بِرَحْمَتِهِ، وَأَزَاغَ مَنْ زَاغَ قَلْبُهُ بِحِكْمَتِهِ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّفّ: ٥] نَحْمَدُهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى الْإِمْدَادِ وَالرِّعَايَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَلِيمٌ حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التَّحْرِيم: ٢]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَكْمَلُ النَّاسِ إِيمَانًا، وَأَعْظَمُهُمْ يَقِينًا، أَحَاطَتْ بِهِ الْمِحَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ، فَمَا زَادَتْهُ إِلَّا قُوَّةً فِي الْحَقِّ، وَصَلَابَةً فِي الدِّينِ، وَلَا زَادَهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ إِلَّا صَبْرًا وَحِلْمًا، وَفِي أُحُدٍ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَشُجَّ فِي جَبْهَتِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟!**»(١)، وَلَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(٢) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﵁: مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩١).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٧٩٢).
وأخرجه من حديث سهل بن سعد ﵁: الطبراني في الكبير (٦/ ١٢٠) رقم (٥٦٩٤)، وصححه ابن حبان (٩٧٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١١٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨] فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مَعْرِفَةُ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْبَشَرِ تُقَوِّي إِيمَانَ الْعِبَادِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتُعِينُهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِمْ، وَتُزِيلُ الْحَيْرَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ. وَهَذِهِ السُّنَنُ الرَّبَّانِيَّةُ تُؤْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَتُعْرَفُ مِنْ أَخْبَارِ السَّابِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ؛ فَفِيهِمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، كَمَا أَنَّ فِيهِمُ النَّاكِصِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ.

وَفِي أَحْوَالِ الشِّدَّةِ وَالْبَأْسَاءِ تَكُونُ الْحَاجَةُ مُلِحَّةً لِفَهْمِ هَذِهِ السُّنَنِ؛ تَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ، وَتَقْوِيَةً لِلْإِيمَانِ، وَتَرْسِيخًا لِلْيَقِينِ، وَتِلْكَ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ؛ فَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ الَّتِي وَقَعَتْ فِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، وَأُصِيبَ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ بِمَا لَمْ يُصَابُوا قَبْلَهَا؛ نَجِدُ أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي عَالَجَتْ هَذِهِ الْمُصِيبَةَ قَدْ عَرَضَتْ لِكَثِيرٍ مِنَ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَأَشَارَتْ إِلَى أَحْوَالِ السَّابِقِينَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٧-١٣٩].

إِنَّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ الْأَيَّامَ دُوَلًا بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ فَفِي أَزْمَانٍ تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْحَقِّ أَزْمَانًا أُخْرَى. وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ بَاقِيَانِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ وَامْتِحَانًا. فَأَهْلُ الْحَقِّ قَدْ يَخْسَرُونَ بَعْضَ الْمَعَارِكِ، وَلَا يَعْنِي انْهِزَامُهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ انْتِصَارَ أَهْلِ الْبَاطِلِ لَا يَقْلِبُ

بَاطِلَهُمْ إِلَى حَقٍّ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ فِي الِابْتِلَاءِ قَلَّ فِي الْبَشَرِ مَنْ يَفْهَمُهَا؛ وَلِذَلِكَ يَتَخَلَّى كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنِ الْحَقِّ إِنِ اسْتَبْطَئُوا النَّصْرَ، وَرَأَوْا غَلَبَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَقُوَّتَهُمْ. وَالْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ وَمَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا قَدْ نَصَّتْ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَبَيَّنَتِ الْحِكْمَةَ مِنْهَا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وَمِنْ حِكَمِ تِلْكَ الْمُدَاوَلَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ: تَمْيِيزُ الْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَإِظْهَارُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَعْرِفَةُ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ؛ فَإِنَّ الصُّفُوفَ لَا تَتَمَايَزُ، وَلَا تُصْقَلُ الْقُلُوبُ، وَلَا تُعْرَفُ أَقْدَارُ الرِّجَالِ إِلَّا بِمَوْجَاتِ الْبَلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَفِي أَحْوَالِ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ كُلٌّ يَدَّعِي الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْحَازُ إِلَى مَنْ هُمْ أَقْوَى وَلَوْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَا يَتْبَعُ الْحَقَّ إِنْ كَانَ أَهْلُهُ أَضْعَفَ. بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ هُمْ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ انْتَصَرُوا دَائِمًا لَانْحَازَ لَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الِابْتِلَاءَاتِ وَالْهَزَائِمَ مَحَطَّاتِ تَصْفِيَةٍ وَتَمْحِيصٍ؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْإِسْلَامَ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى الشِّرْكِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَقَوِيَ الْمُسْلِمُونَ قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدَّرَ فِي أُحُدٍ؛ ابْتِلَاءً لَهُمْ وَامْتِحَانًا؛ لِيَثْبُتَ عَلَى الْإِيمَانِ -وَإِنِ انْهَزَمَ أَهْلُهُ- مَنْ صَدَقَ إِيمَانُهُ، وَلِيَنْحَازَ إِلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ مَنْ كَذَبَ فِي إِيمَانِهِ، وَالْجَنَّةُ سِلْعَةٌ غَالِيَةٌ، لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ فِي إِيمَانِهِمْ، الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، الْمُضَحُّونَ فِي سَبِيلِهِ بِالْغَالِي وَالنَّفِيسِ، فَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ فِي أُحُدٍ مَنِ اصْطَفَى فَكَانُوا مِنْ شُهَدَائِهَا، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ وَمِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثُمَّ إِنَّ هَزِيمَةَ أَهْلِ الْحَقِّ ابْتِلَاءٌ يُكَفِّرُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي تَوْبَتِهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَإِيَابِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، كَمَا أَنَّ انْتِصَارَ أَهْلِ الْبَاطِلِ سَبَبٌ لِمَحْقِهِمْ بِمَا يُدَاخِلُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْحَقِّ، وَالْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ، وَالْإِمْعَانِ فِي الظُّلْمِ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لِتَكُونَ نِهَايَتُهُمُ الْهَلَاكَ وَالمَحْقَ.

وَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ زُعَمَاءَ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدِ انْتَشَوْا بِقُوَّتِهِمْ، وَاغْتَرُّوا بِحَضَارَتِهِمْ، وَسَعَوْا فِي فَرْضِ بَاطِلِهِمْ وَلَكِنَّ غُرُورَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ، كَانَ سَبَبًا فِي جَرِّهِمْ إِلَى مُسْتَنْقَعَاتٍ غَرِقَ فِيهَا جُنْدُهُمْ، وَكَانَتْ سَبَبَ ذُلِّهِمْ وَانْكِسَارِهِمْ، وَظُهُورِ أَهْلِ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ نَجِدُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤١، ١٤٢].

وَمِنَ الصِّدْقِ فِي الْإِيمَانِ: الثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ مَهْمَا عَظُمَتِ المَصَائِبُ، وَعَدَمُ رَبْطِ الدِّينِ بِالرِّجَالِ، وَلَا مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِالْأَشْخَاصِ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَمُوتُونَ وَيَبْقَى الدِّينُ، بَلْ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ مَنْ يَنْتَكِسُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَيُبَدِّلُونَ دِينَهُمْ، فَهَلْ يَنْتَكِسُ أَهْلُ الْحَقِّ بِانْتِكَاسِهِمْ؟!

وَهَذِهِ السُّنَّةُ الْعَظِيمَةُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤].

---

(٣) هذا إشارة إلى غزو الأمريكان لأفغانستان والعراق والإفساد فيها وظلم العباد ونهب الثروات بغير حق، وقد بدت بوادر هزيمتهم ولله الحمد والفضل.

فَإِذَا كَانَ مَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ قَتْلُهُ لَا يُسَوِّغُ لِأَتْبَاعِهِ التَّخَلِّيَ عَنْ لُزُومِ الْحَقِّ، وَنُصْرَةِ الدِّينِ فَمَا دُونَ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لَا يَكُونَ مُسَوِّغًا صَحِيحًا لِذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ إِنَّمَا عَرَضَتْ لِإِشَاعَةِ قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي سَرَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ يُبَيِّنُ أَنَّ شَرَفَ النَّبِيِّ ﷺ، وَعُلُوَّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاخْتِصَاصَهُ بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ لَنْ يَمْنَعَ الْمَوْتَ عَنْهُ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ سَتَجْرِي عَلَيْهِ، فَيَجِبُ عَلَى أَتْبَاعِ الْحَقِّ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى الْحَقِّ وَإِنْ مَاتَ دَاعِيَةُ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ تَبِعُوا الْحَقَّ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ عِبَادَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم فَهْمَ هَذِهِ السُّنَّةِ الْعَظِيمَةِ؛ فَهَذَا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَرْمِي بِهَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ ذُهِلُوا مِنْ هَوْلِ الْفَاجِعَةِ بِوَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ نَالَتْهُمْ، وَأَكْبَرُ فَاجِعَةٍ أَصَابَتْهُمْ، وَأَفْقَدَتْهُمْ صَوَابَهُمْ، فَكَانَ لَهَا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه؛ إِذْ حَضَرَ النَّاسُ وَعُمَرُ رضي الله عنه يَخْطُبُ فِيهِمْ وَيَحْلِفُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا مَاتَ فَخَاطَبَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤] فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

---

(٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو =

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ الْعِتَابِ مَعَ الْمُنْهَزِمِينَ أَيْ: لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الِانْهِزَامُ وَإِنْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ، وَالنُّبُوَّةُ لَا تَدْرَأُ الْمَوْتَ، وَالْأَدْيَانُ لَا تَزُولُ بِمَوْتِ الْأَنْبِيَاءِ»(٥).

وَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى فَهْمِ هَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ حَتَّى لَا يُغَيِّرُوا دِينَهُمْ، وَلَا يُبَدِّلُوا شَرِيعَةَ رَبِّهِمْ بِزَعْمِ الِانْفِتَاحِ عَلَى الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ، أَوْ بِدَعْوَى اللِّحَاقِ بِرِكَابِ الْأُمَمِ الْمُتَطَوِّرَةِ أَوْ بِحُجَّةِ تَخْفِيفِ ضُغُوطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَإِنَّ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَيْفَ وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَعَارِكِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهِ، وَيَسْتَجْلِبُونَ النَّصْرَ بِدُعَائِهِ، وَقَدِ اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَيْهِ، وَلَمَّا مَاتَ ارْتَدَّتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ، وَاشْرَأَبَّتْ أَعْنَاقُ الْمُنَافِقِينَ، وَطَمِعَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ فَهْمُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لِهَذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ سَبَبًا فِي

= كنت متخذًا خليلًا» (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٢٧)، وأحمد (٦/ ٢١٩).

والرواية الثانية للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (١١٨٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عليًّا كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل يقول: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ولئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت. والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه، ومن أحق به مني؟!» أخرجه النسائي في الكبرى (٨٤٥٠)، وفي خصائص علي رضي الله عنه (٦٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١١١٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٠٧) رقم (١٧٦)، والضياء في المختارة (٦١٢)، والحاكم (٣/ ١٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

قلت: في سنده عمرو بن حماد القناد، نقل الذهبي في الميزان (٥/ ٣٠٩) عن أبي داود قوله: كان عمرو بن حماد من الرافضة، ثم ساق الذهبي الحديث، وقال: هذا منكر.

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

ثَبَاتِهِ وَتَثْبِيتِ الصَّحَابَةِ ﷺ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُقَاتَلَةِ الْمُرْتَدِّينَ.

أَفَإِنْ طَعَنَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فِي دِينِنَا، وَاسْتَخَفُّوا بِقُرْآنِنَا وَنَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَالَبُونَا بِتَغْيِيرِ شَعَائِرِنَا، وَالتَّخَلِّي عَنْ أَوَامِرِ رَبِّنَا، وَاتِّبَاعِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَسَاوَمُونَا عَلَى ذَلِكَ، أَفَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِنَا يَرْتَدُّ أَقْوَامٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَيَنْبَرُونَ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، فَيَصِيحُونَ فِي النَّاسِ إِنْ أَرَادُوا النَّجَاةَ مِنْ كَلَبِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتْبَعُوهُمْ فِيمَا أَرَادُوا، وَيُطِيعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوا؟! وَاللهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٤]، وَالشَّاكِرُونَ هُمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ وَإِنْ غَيَّرَ الْمُغَيِّرُونَ، وَحَرَّفَ الْمُحَرِّفُونَ، وَبَدَّلَ الْمُبَدِّلُونَ.

وَجَزَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّاكِرِينَ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ تَكُونَ الْغَلَبَةُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ مِنْ نَصِيبِهِمْ، وَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الِابْتِلَاءَ بِالْهَزِيمَةِ فَقُتِلُوا وَهُمْ يَدْرَءُونَ عَنْ دِينِهِمْ فَقَدِ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ، كَمَا اصْطَفَى سَبْعِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ فِي أُحُدٍ شُهَدَاءَ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ حَتْفَ أَنْفِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَنَزَّلَ النَّصْرُ فَقَدْ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ ثَابِتًا عَلَى دِينِهِ، لَمْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ.

وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ جَزَاءُ مَنْ ثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَوَاجَهُوا الْمِحَنَ وَالْبَلَايَا بِقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، مُوقِنَةٍ بِوَعْدِهِ، صَابِرَةٍ عَلَى ابْتِلَائِهِ، رَاضِيَةٍ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ. وَجَزَاءُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ وَالرِّضَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ عَظِيمٌ؛ وَلِذَا سَمَّى أَهْلَهُ شَاكِرِينَ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ سَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ، وَجَزَاءُ الْكَرِيمِ عَظِيمٌ، وَاللهُ ﷻ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَاثْبُتُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- عَلَى دِينِكُمْ مَهْمَا كَانَتِ الِابْتِلَاءَاتُ، وَثِقُوا بِوَعْدِ رَبِّكُمْ لَكُمْ؛ فَإِنَّ الدِّينَ دِينُهُ، وَالْعِزَّ وَالنَّصْرَ

يُسْتَجْلَبُ بِطاعَتِهِ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنَ السُّنَنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي نَصَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَتَوَلَّوْنَ حَالَ الْمِحَنِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْحَازُونَ إِلَى الْكَافِرِينَ، وَيَشْتَغِلُونَ عَنْ نَصْرِ الْأُمَّةِ وَتَأْيِيدِهَا بِاللَّوْمِ وَالنَّقْدِ، وَالتَّخْذِيلِ وَالْإِرْجَافِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَمَّا انْخَذَلَ الْمُنَافِقُونَ فِي أُحُدٍ وَكَانُوا ثُلُثَ الْجَيْشِ، ثُمَّ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْهَزِيمَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ وَتَشَفَّوْا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالُوا: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٥٦]، فَعَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَفَضَحَهُمْ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٦-١٦٨].

وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ بِطَانَةً، أَوْ تَوْلِيَتِهِمْ وِلَايَةً؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَزَالُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ، وَيَحِيكُونَ لَهُمُ الْمَكَائِدَ، وَظَهَرَتْ أَفْعَالُهُمُ الْقَبِيحَةُ الشَّنِيعَةُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ إِذْ خَذَلُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَمَالَئُوا الْكَافِرِينَ؛ وَلِذَا حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تَقُصُّ خَبَرَ غَزْوَةِ أُحُدٍ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْمُنَافِقِينَ لَا تَتَغَيَّرُ مِنْ زَمَانٍ إِلَى زَمَانٍ، وَلَا تَكُونُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ؛ فَهُمْ كَارِهُونَ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، رَافِضُونَ لِشَرِيعَتِهِ. فَأَيُّ خَيْرٍ أَوْ صَلَاحٍ أَوْ إِصْلَاحٍ يُرْتَجَى مِنْهُمْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٨-١٢٠].

كَمَا أَنَّ مِنَ السُّنَنِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بَانَتْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ: أَنَّ طَاعَةَ الْكَافِرِينَ سَبَبٌ لِلْهَزِيمَةِ وَالضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ وَالتَّبَعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يُرِيدُونَ الْخَيْرَ لِلْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ النَّصْرَ لَا يُسْتَجْلَبُ مِنَ الْكَافِرِينَ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ وَغَلَبَتُهُمْ، بَلْ يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي سِيَاقِ آيَاتِ غَزْوَةِ أُحُدٍ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَذِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩، ١٥٠].

وَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ السُّنَّةَ الْعَظِيمَةَ مَاثِلَةً لِلْعِيَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا الْمُعَاصِرَةِ، فَلَا يَزَالُ الْكَافِرُونَ يَغْدِرُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَفُونَ لَهُمْ، وَفِي أَكْبَرِ قَضَايَاهُمْ وَهِيَ قَضِيَّةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ رَأَيْنَا الْمُسْلِمِينَ لَمَّا أَطَاعُوا الْكَافِرِينَ فِيهَا مَا زَادُوهُمْ إِلَّا وَهْنًا عَلَى وَهْنِهِمْ، وَتَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهِمْ، وَمَا حُلَّتْ قَضِيَّتُهُمْ، بَلْ جَرَّأَتِ الْيَهُودَ عَلَيْهِمْ، وَأَطْمَعَتْهُمْ فِي بَقِيَّةِ بُلْدَانِهِمْ، وَمَا نَفَعَتْهُمْ وُعُودُ الْكَافِرِينَ لَهُمْ، إِنْ هِيَ إِلَّا قَرَارَاتٌ يَمْتَصُّونَ بِهَا غَضَبَهُمْ، وَمُبَادَرَاتٌ يُمِيتُونَ بِهَا إِحْسَاسَهُمْ، حَتَّى بَلَغَ عُتُوُّ الْيَهُودِ وَظُلْمُهُمْ أَنْ قَتَلُوا الْأَطْفَالَ وَالنِّسَاءَ، وَدَمَّرُوا الْبُيُوتَ عَلَى سَاكِنِيهَا، وَخَرَّبُوا الزَّرْعَ وَالثِّمَارَ، وَجَوَّعُوا أُمَّةً كَامِلَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى نُصْرَةِ إِخْوَانِهِمْ أَوْ نَجْدَتِهِمْ، وَلَوْ بِرَغِيفِ خُبْزٍ يُرْسِلُونَهُ إِلَيْهِمْ، أَوْ دَوَاءٍ يُعَالِجُونَ بِهِ جَرْحَاهُمْ(٦).

وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ وَهُمْ يُطِيعُونَ الْكَافِرِينَ فِي قَضِيَّتِهِمْ تِلْكَ؛ وَلِذَلِكَ خَسِرُوهَا، وَلَا يَزَالُونَ يَخْسَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ جُزْءًا مِنْهَا، وَلَا تَزِيدُهُمُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَنَازُلَاتٍ مَا كَانُوا يَرْضَوْنَهَا مِنْ قَبْلُ، وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ حَذَّرَنَا مِنْ ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٩].

لَقَدْ كَانَتِ الْآيَاتُ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ أُحُدٍ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ زَاخِرَةً بِالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَوْ فَقِهَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَأَحْسَنُوا التَّلَقِّيَ عَنِ الْقُرْآنِ؛ لَتَبَدَّلَ حَالُهُمْ مِنْ ضَعْفٍ إِلَى قُوَّةٍ، وَمِنْ ذُلٍّ إِلَى عِزَّةٍ، وَمِنْ هَزِيمَةٍ إِلَى نَصْرٍ، فَهَلْ يَفْعَلُ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَقَدْ خَسِرُوا كَثِيرًا بِالتَّفْرِيطِ فِي دِينِهِمْ، وَتَقْصِيرِهِمْ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّ

---

(٦) لا يزال الحصار مضروبًا على إخواننا في فلسطين إلى لحظة كتابة هذه الخطبة، ويحاصرونهم في بيت حانون، ويدكونهم بالطائرات، فرج الله تعالى عنهم، وأذل اليهود وأعوانهم.

جَلَالُهُ، وَطَاعَتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَفْتَحَ لِلْمُسْلِمِينَ فَتْحًا مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى دِينِهِمْ رَدًّا جَمِيلًا، وَأَنْ يَجْمَعَ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَأَنْ يَكْبِتَ أَعْدَاءَهُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٢٢- غزوة الأحزاب (١)
شدة البلاء والمحنة

٩/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَجْزَلَ الْمَثُوبَةَ لِلصَّابِرِينَ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا قَدَّرَ مِنَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ الْمِنَحِ وَالْعَطَاءِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كُلِّ الذُّنُوبِ وَالْأَخْطَاءِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَنُزِّهَ عَنِ الْأَنْدَادِ وَالْأَمْثَالِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَسَّتْهُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ، وَأَحَاطَتْ بِهِ الْمَصَائِبُ وَاللَّأْوَاءُ، فَصَبَرَ عَلَى عَظِيمِ الْأَذَى، وَاحْتَمَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى شِدَّةَ الِابْتِلَاءِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أُولِي الصِّدْقِ وَالنَّقَاءِ، وَأَهْلِ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَلَنِعْمَ زَادُ الْمُؤْمِنِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى سَبَبَانِ لِلْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ، وَثَمَنُ الثَّبَاتِ عَلَيْهِمَا جَنَّةٌ عَرْضُهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَقَدْ حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ كَمَا حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ. وَأَفَاضِلُ الْخَلْقِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا أَعْظَمَ النَّاسِ بَلَاءً، وَأَشَدَّهُمُ امْتِحَانًا، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ لَا يُطِيقُهُ سِوَاهُمْ، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤].

وَلمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: **الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ؛ فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(١).

وَفِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ المُبَارَكَةِ(٢) وَقَعَ ابْتِلَاءٌ شَدِيدٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ؛ إِذْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ جُمُوعُ المُشْرِكِينَ مَعَ غَدْرِ الْيَهُودِ وَتَخْذِيلِ المُنَافِقِينَ، فِي وَاقِعَةٍ سُمِّيَتْ بِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَنَزَلَ فِي وَصْفِ شِدَّتِهَا وَمِحْنَتِهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ تُتْلَى إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

كَانَتْ قُرَيْشٌ تُرِيدُ الثَّأْرَ لِأَسْيَادِهَا الَّذِينَ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ، وَشَجَّعَهُمْ عَلَى حَشْدِ الْحُشُودِ، وَتَحْزِيبِ الْأَحْزَابِ جَمَاعَةٌ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ المَوْتُورِينَ بِالْجَلَاءِ عَنِ

---

(١) أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: الترمذي في الزهد، باب ماجاء في الصبر على البلاء وقال: حسن صحيح (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٨١)، والدارمي (٢٧٨٣)، وأحمد (١/ ١٧٢)، والطيالسي (٢١٥)، وأبو يعلى (٨٣٠)، وعبد بن حميد (١٤٦)، وصححه ابن حبان (٢٩٠١)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (١/ ٩٩).

(٢) هذا هو قول الجمهور، وهو الراجح أنها كانت في شوال من السنه الخامسة.
وذكر الواقدي في المغازي (٢/ ٤٤٠)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٥) أنها كانت في ذي القعدة من سنه خمس.
ونُقل عن الأئمة: مالك والزهري وموسى بن عقبة وابن حزم في جوامع السيرة (١٨٥) بأنها كانت سنه أربع.
وقد أطال ابن حجر في الفتح في مناقشة هذا القول، ورجح ما رجَّحَهُ الجمهور (٧/ ٣٩٣)، وينظر في ذلك: زاد المعاد (٣/ ٢٦٩)، والسيرة النبويه في ضوء المصادر الأصلية (١/ ٥٤٦) وصحيح السيرة النبوية للعلي (٢٦٤)، والسيرة النبوية للصلابي (٢/ ٢٧٣).

الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ بَعْدَ نَقْضِهِمُ الْعَهْدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَفَدَ مِنْهُمْ وَفْدٌ إِلَى مَكَّةَ شَجَّعُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى غَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَأَفْتَوْهُمْ بِأَنَّ دِينَ الْمُشْرِكِينَ خَيْرٌ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَسَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَأَبُو رَافِعٍ . . . وَذَكَرَ جَمَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ قَالُوا: هَؤُلَاءِ أَحْبَارُ يَهُودٍ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالْكُتُبِ الْأُوَلِ فَاسْأَلُوهُمْ: أَدِينُكُمْ خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَهْدَى مِنْهُ وَمِمَّنِ اتَّبَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥١، ٥٢]»(٣).

ثُمَّ انْتَقَلَ وَفْدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ إِلَى قَبِيلَةِ غَطَفَانَ، وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ قَبَائِلِ نَجْدٍ آنَذَاكَ، فَأَغْرَوْهَا بِالتَّحَالُفِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَنَّ لَهُمْ نِصْفَ ثَمَرِ خَيْبَرَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْجَعَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَبَنِي مُرَّةَ، وَبَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ(٤)، سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى: الْأَحْزَابَ، قَاصِدِينَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ، فَلَمَّا عَلِمَ

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (٥/ ١٣٥)، وينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٤-٢١٥)، ومغازي الواقدي (٢/ ٤٤٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه، فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل يثرب، فنحن خير أم هذا الصنيبير المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ فقال: أنتم خير منه، فنزل على رسول الله ﷺ: «﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]» أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٣٠)، وصححه ابن حبان (٦٥٧٢)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٨).

(٤) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١/ ٥٤٩).

النَّبِيُّ ﷺ بِقُدُومِهِمْ شَاوَرَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رضي الله عنه بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ لِمَنْعِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَحَفَرَهُ الْمُسْلِمُونَ.

وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَعَ خَوْفِ عَدُوِّهِمْ، وَتَكَالُبِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، مَا يَجِدُونَهُ مِنَ الْمَخْمَصَةِ الشَّدِيدَةِ، وَالْجُوعِ الْمُؤْذِي، وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ، وَالشِّتَاءُ لَا يُخَفِّفُ بَرْدَهُ إِلَّا الطَّعَامُ وَلَا طَعَامَ، وَالْحَفْرُ شَاقٌّ وَمُرْهِقٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ جَائِعٌ، وَالْمُسْلِمُونَ جَوْعَى، فَتَكَالَبَ عَلَيْهِمْ قِلَّةُ ذَاتِ يَدٍ، وَشِدَّةُ جُوعٍ، مَعَ خَوْفِ عَدُوٍّ. قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه يَصِفُ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ: «يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنَ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ، وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥).

وَالْإِهَالَةُ: هِيَ الدُّهْنُ الَّذِي يُؤْتَدَمُ بِهِ، سَوَاءٌ كَانَ زَيْتًا أَوْ سَمْنًا أَوْ شَحْمًا، وَقَوْلُهُ: «سَنِخَةٍ» أَيْ: تَغَيَّرَ طَعْمُهَا وَلَوْنُهَا مِنْ قِدَمِهَا؛ وَلِهَذَا وَصَفَهَا بِكَوْنِهَا بَشِعَةً(٦).

وَهَذَا الطَّعَامُ -عَلَى رَدَاءَتِهِ- وُجُودُهُ أَحْسَنُ مِنْ عَدَمِهِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ قَدْ يُعْدَمُونَهُ فَلَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَيَسْتَمِرُّ بِهِمُ الْجَهْدُ وَالْجُوعُ أَيَّامًا تِبَاعًا لَا يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ حَتَّى يَبْلُغَ بِهِمْ إِلَى عَصْبِ بُطُونِهِمْ بِالْحِجَارَةِ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: «إِنَّا يَوْمَ

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٤)، وأحمد (٣/ ٢٨٨)، وعبد بن حميد (١٣١٩)، وأبو يعلى (٣٩١٣)، والنسائي في الكبرى (٦٦٣٦).

(٦) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٦)، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك وبتحققه تحققًا تامًّا (٢٠٣٩).

الْخَنْدَقِ نَحفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: **أَنَا نَازِلٌ**، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا . . .»(٨). وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «أَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الْجُوعِ»(٩).

وَهَذِهِ الْحَالُ الَّتِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ جَعَلَتْ جَابِرًا ﷺ يَسْتَأْذِنُ النَّبِيَّ ﷺ، وَيَغْدُو إِلَى امْرَأَتِهِ فَيَقُولُ لَهَا، فَلَمَّا أَصَابَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ مِنْ طَعَامِ جَابِرٍ ﷺ بَعْدَ أَنْ بَارَكَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِامْرَأَةِ جَابِرٍ: «**كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»(١٠)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْقِلَّةِ وَالمَسْغَبَةِ.

وَتَتَوَاصَلُ الْمِحَنُ عَلَيْهِمْ، وَيَعْظُمُ الْبَلَاءُ بِهِمْ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَصِيبِ؛ إِذْ سَرَتْ فِي النَّاسِ شَائِعَةٌ: أَنَّ الْيَهُودَ دَاخِلَ المَدِينَةِ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُمْ سَيُحَالِفُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الْخَطَرَ قَدْ أَحَاطَ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ دَاخِلَ حُصُونِ المَدِينَةِ، وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟** -يَعْنِي: بَنِي قُرَيْظَةَ- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: **مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟** قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١١).

فَأَخْبَرَ الزُّبَيْرُ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِبَوَادِرِ نَقْضِ قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(٨) هذه الرواية للبخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٥).
(٩) هذه الرواية لأحمد (٣/ ٣٠١).
(١٠) هذه الألفاظ جزء من حديث جابر المخرج في حاشيتي (٧-٨).
(١١) أخرجه من حديث جابر ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الطليعة (٢٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابه ﷺ، باب من فضائل طلحه والزبير (٢٤١٥).

وَفْدًا مِنْ سَادَةِ الْأَنْصَارِ لِمُحَاوَرَتِهِمْ وَاسْتِظْهَارِ خَبَرِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالحَنُوا لِي لحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**»، فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَالُوا: لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ، فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَشَاتَمُوهُ، وَكَانَ رَجُلًا فِيهِ حِدَّةٌ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ؛ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنَ الْمُشَاتَمَةِ».

ثُمَّ أَقْبَلَ السَّعْدَانِ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالُوا: «عَضَلٌ وَالْقَارَةُ» أَيْ: كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ أَصْحَابِ الرَّجِيعِ خُبَيْبِ ابْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ -أَرَادُوا أَلَّا يَعْلَمَ النَّاسُ بِالْأَمْرِ كَمَا أَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ- عِنْدَهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ**»(١٢).

إِنَّهَا بِشَارَةٌ فِي شِدَّةِ الْمِحْنَةِ، وَتَفَاؤُلٌ بِقُرْبِ مَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ عِظَمِ الْكَرْبِ، وَاسْتِحْكَامِ الْأَمْرِ، فَيَا لَهُ مِنْ يَقِينٍ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَزَحْزَحُ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ مَهْمَا عَظُمَتِ الْمِحْنَةُ، وَاشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَاسْتَحْكَمَ الْبَلَاءُ!

مِحَنٌ وَشَدَائِدُ تَتَابَعَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، شِدَّةٌ فِي إِثْرِ شِدَّةٍ، وَمِحْنَةٌ تُنْسِي الْأَخِيرَةُ مِنْهَا مَا قَبْلَهَا، انْضَمَّ إِلَيْهَا ظُهُورُ النِّفَاقِ، وَتَخْذِيلُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِضْعَافُ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ بِبَثِّ الشَّائِعَاتِ وَالْأَرَاجِيفِ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ قُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ، مَعَ الِانْسِحَابِ مِنَ الْجَيْشِ عَلَى مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى قَالَ قَائِلُ الْمُنَافِقِينَ: «كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ

(١٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١) وفي تاريخه (٢/ ٩٣)، وينظر: السيرة الحلبية (٢/ ٦٣٨)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٣).

يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ»(١٣)، وَقَالَ آخَرُ: «إِنَّ بُيُوتَنَا لَعَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ -وَذَلِكَ عَنْ مَلَإٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ- فَائْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَى دَارِنَا»(١٤).

إِنَّهَا مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَرْبٌ شَدِيدٌ، لَا يَصْمُدُ أَمَامَهُ إِلَّا مَنْ كَانَ قَوِيَّ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، مَعَ تَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَبْطِهِ عَلَى الْقُلُوبِ، وَإِلَّا فَمَا ظَنُّكُم بِاجْتِمَاعِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّعِيفَةِ؟!

عَدُوٌّ شَرِسٌ قَدْ حَاصَرَ المَدِينَةَ يَرُومُ اسْتِئْصَالَ المُسْلِمِينَ، فِي أَعْدَادٍ كَثِيفَةٍ لَا يَبْلُغُ المُسْلِمُونَ الثُّلُثَ مِنْهَا، وَعَدُوٌّ فِي الدَّاخِلِ قَدْ عَزَمَ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ، وَخِيَانَةِ المُسْلِمِينَ، وَخَفَرَهُمْ فِي نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَمُنَافِقُونَ مُرْجِفُونَ قَدْ فَرِحُوا بِمُصَابِ المُسْلِمِينَ، وَصَارُوا يُظْهِرُونَ مَا يُخْفُونَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَثْبُتُ أَمَامَ هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ، وَيُوَاجِهُ تِلْكَ المِحَنَ المُتَلَاحِقَةَ بِثَبَاتٍ وَيَقِينٍ؟!

لَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ هَذَا الْبَلَاءَ بِأَدَقِّ وَصْفٍ وَأَبْلَغِهِ، وَأَفْصَحَ عَمَّا أَصَابَ المُؤْمِنِينَ مِنْ عَظِيمِ الشِّدَّةِ وَالْكَرْبِ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

نَعَمْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ وَالْكَرْبِ، وَنَبَتِ الْقُلُوبُ عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ فَبَلَغَتِ الْحَنَاجِرَ، وَهُوَ خَوْفٌ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ مَهْمَا كَانُوا، وَيُبَيِّنُ حُذَيْفَةُ ﷺ مَا أَصَابَهُمْ آنَذَاكَ، فَيَقُولُ ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ**

---

(١٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣١)، وابن هشام (٣/ ٥٥) من حديث ابن إسحاق.
(١٤) المصدران السابقان.

يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: **أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: **قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ -أَيْ لَا تُفْزِعْهُمْ حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بِكَ- فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ -أَيْ: لَمْ يَجِدِ الْبَرْدَ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ- حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يُصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**. وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ -أَيْ: أَصَابَهُ الْبَرْدُ بَعْدَ انْتِهَاءِ مُهِمَّتِهِ، وَتِلْكَ كَرَامَةٌ عَجِيبَةٌ- فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: **قُمْ يَا نَوْمَانُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٥).

وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى مَقُولَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي أَرَادُوا بِهَا الْإِرْجَافَ، وَإِضْعَافَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَقْوِيَةَ الْكَافِرِينَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

لَقَدْ ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُسْتَأْصَلُونَ، وَأَيْقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى حَقٌّ وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

---

(١٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣٨٨)، وابن حبان (٧١٢٥)، وأبو عوانة (٦٨٣٩)، والبيهقي (٩/ ١٤٨)، وما بين الحواصر من كلامي إيضاحًا للمعنى.

وَعِنْدَ اسْتِحْكَامِ الْبَلَاءِ، وَشِدَّةِ الْكَرْبِ يَأْتِي الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ أَرْسَلَ جُنْدَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَخَالَفَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ بِخُدْعَةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ الَّذِي أَسْلَمَ حِينَئِذٍ، وَسَعَى بِالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِسْلَامَهُ، وَرَأَى الْمُنَافِقُونَ مَا يَسُوءُهُمْ مِنْ بَقَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وَبَعْدَ رَحِيلِ الْمُشْرِكِينَ أُمِرَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَسِيرِ إِلَى الْخَوَنَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ نَاقِضِي الْعَهْدِ وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي نَطَقَ بِهِ حَلِيفُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﷺ فَقَالَتْ: «أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ الْعَرِقَةِ، رَمَاهُ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ يَعُودُهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلَاحَ فَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ فَقَالَ: وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ؟** فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى سَعْدٍ، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقَسَّمَ أَمْوَالُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ**. وَفِي رِوَايَةٍ: **لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[١٦].

وَبَعْدَ أَنْ حَكَمَ فِيهِمْ سَعْدٌ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى دَعَا وَهُوَ جَرِيحٌ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ

---

(١٦) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظه (٣٨٩٦)، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٩).

تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي أُجَاهِدْهُمْ فِيكَ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَافْجُرْهَا وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهَا. فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَلَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَالدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ، فَإِذَا سَعْدٌ جُرْحُهُ يَغِذُّ دَمًا فَمَاتَ مِنْهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٧).

وَلَمَّا وُضِعَتْ جِنَازَتُهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٨).

رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَعْدٍ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَبَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١٧) قطعة من حديث عائشه رضي الله عنها السابق المخرج في حاشية (١٦).

(١٨) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه (٣٥٩٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه (٢٤٦٦)، والرواية الأولى لمسلم والثانيه لهما.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ مَوْطِنًا عَصِيبًا مِنْ مَوَاطِنِ الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ، اجْتَازَهُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ بِاقْتِدَارٍ، وَأَخْفَقَ فِيهِ الْمُنَافِقُونَ، وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ يَفْضَحُهُمْ، وَيُبْدِي مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَسَاوِئِهِمْ، وَيَمْدَحُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ، وَمُوَاجَهَتِهِمْ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَاللَّافِتُ لِلنَّظَرِ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْآيَةَ الْآمِرَةَ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ جَاءَتْ مُتَخَلِّلَةً الْآيَاتِ الَّتِي عَرَضَتْ لِهَذِهِ الْغَزْوَةِ وَتَفْصِيلَاتِهَا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ .... ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ، وَجَعْلِهِ الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٢]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَقَتَادَةُ: يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤]» اهـ[١٩].

---

(١٩) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٥-٤٧٦).

وَمَا أَحْوَجَ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى مُطَالَعَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْيَقِينِ بِأَنَّ مَا يُعَانُونَهُ مِنْ أَذَى الْكَافِرِينَ، وَتَسَلُّطِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِرْجَافِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، قَدْ وَقَعَ مِثْلُهُ وَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ لِأَهْلِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ! فَصَبَرُوا عَلَى الْأَذَى، وَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَلَمْ يُغَيِّرُوا أَوْ يُبَدِّلُوا إِرْضَاءً لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ، وَمَهْمَا بَلَغَ مَكْرُهُ وَتَخْوِيفُهُ؛ فَأَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَرَضِيَ فِعْلَهُمْ فَأَرْضَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَمَا نَالَ أَعْدَاؤُهُمْ إِلَّا الْهَزِيمَةَ وَالْحَسْرَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْخَسَارَةَ فِي الْآخِرَةِ.

وَهُؤَلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ رَغْمَ مَا مَرَّ بِهِمْ مِنِ ابْتِلَاءَاتٍ قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا أُسْوَةً، وَأَمَرَنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي إِيمَانِهِمْ وَيَقِينِهِمْ، وَثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِمَوْعُودِهِ.

فَمَا أَحْوَجَنَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- إِلَى التَّأَسِّي بِهِمْ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ كَمَا ثَبَتُوا، إِلَى أَنْ نَلْقَى اللَّهَ ﷻ غَيْرَ مُبَدِّلِينَ وَلَا مُغَيِّرِينَ. وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ فِي زَمَنٍ اشْتَدَّتْ فِيهِ الْمِحْنَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَزَادَتِ الضُّغُوطُ وَالْمُضَايَقَاتُ وَالتَّسَلُّطُ مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ دِينِهِمْ، وَصَرْفَهُمْ عَنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ، وَلَا ثَبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا بِتَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَاسْأَلُوهُ سُبْحَانَهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٢٣- غزوة الأحزاب (٢) بين المؤمنين والمنافقين

٦/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُثَبِّتُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ؛ فَلَا تُزَعْزِعُهُمُ الْمِحَنُ وَالشَّدَائِدُ، وَلَا تَمِيدُ بِهِمُ الْفِتَنُ وَالِابْتِلَاءَاتُ، وَيُضِلُّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فَتَتَقَاذَفُهُمُ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ، وَتَحْرِفُهُمُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

نَحْمَدُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى اجْتِبَائِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ، وَجَاهَدُوا أَعْدَاءَهُمْ، وَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ، حَتَّى لَقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَلَا تُطِيعُوا أَهْلَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ طَاعَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ بِالتَّقْوَى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَا يُعْرَفُ الصَّادِقُ فِي إِيمَانِهِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ إِلَّا بِالِاخْتِبَارِ وَالِابْتِلَاءِ؛ وَلِذَا كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالْبَأْسَاءِ حَتَّى يَتَمَيَّزَ صَادِقُهُمْ مِنْ كَاذِبِهِمْ، وَمُؤْمِنُهُمْ مِنْ

مُنَافِقِهِمْ، وَطَيِّبُهُمْ مِنْ خَبِيثِهِمْ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣].

وَقَدِ ابْتُلِيَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَابَتُهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- أَعْظَمَ الِابْتِلَاءِ، فَثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ فَنَالُوا الْحُسْنَيَيْنِ: الظَّفَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَالْأَجْرَ الْكَبِيرَ مِنْ رَبِّهِمْ ﷻ.

وَكَانَ مِنْ مَوَاطِنِ الِابْتِلَاءِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا جَرَى عَلَيْهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ؛ حَيْثُ تَحَزَّبَتْ أَحْزَابُ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، وَنَقَضَ الْيَهُودُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ، وَطَعَنُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَأَظْهَرَ الْمُنَافِقُونَ نِفَاقَهُمْ، وَبَثُّوا أَرَاجِيفَهُمْ فَكَانَ مَوْقِفًا عَسِيرًا لَا يَثْبُتُ فِيهِ إِلَّا مَنْ رَبَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِوَعْدِهِ، وَيَكْفِي فِي وَصْفِهِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٠، ١١].

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفًا عَظِيمًا بَانَ فِيهِ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَتَمَيَّزَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ:

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَثَبَتُوا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَبَرُوا عَلَى عَظِيمِ الْبَلَاءِ، وَقَابَلُوهُ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ.

جَاعُوا أَشَدَّ الْجُوعِ فَمَا ضَجِرُوا، وَتَكَالَبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ فَمَا انْخَذَلُوا وَلَا تَرَاجَعُوا، وَأَرْجَفَ فِيهِمْ أَهْلُ النِّفَاقِ فَلَمْ يُطِيعُوهُمْ، وَلَمْ يُصْغُوا لِأَقَاوِيلِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ هُوَ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٤](١). وَلِذَا لمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا فِي الْأَحْزَابِ مَا زَادُوا عَلَى أَنْ قَالُوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٢].

إِنَّهُ إِيمَانٌ فِي أَوْجِ الْمِحْنَةِ، وَيَقِينٌ حَالَ الِابْتِلَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَتَصْدِيقٌ بِمَوْعُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ، وَتَوَكُّلٌ عَلَيْهِ فِي أَصْعَبِ السَّاعَاتِ، فَكَانُوا جَدِيرِينَ بِتَزْكِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، حَقِيقِينَ بِثَنَائِهِ ﷻ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٣].

إِنَّهُمْ مَا بَدَّلُوا دِينَهُمْ لِرَدِّ عَدُوِّهِمْ، وَلَا نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمُ اسْتِبْقَاءً لِأَرْوَاحِهِمْ، وَلَمْ يَتَخَلَّوْا عَنْ نَبِيِّهِمْ لِلدِّفَاعِ عَنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَالْيَهُودُ قَدْ خَفَرَتْهُمْ فِيهِمْ؛ بَلْ قَدَّمُوا رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَالثَّبَاتَ مَعَ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَصَدَقُوا فِي عَهْدِهِمْ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالنِّفَاقِ فَارْتَابُوا فِي وَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ، وَشَكُّوا فِي دِينِهِ، وَتَبِعَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ وَشَكِّهِمْ ضِعَافُ الْإِيمَانِ

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ ... الآية قال: ذلك أن الله قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ ...، إلى قوله: ﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قال: فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأوّل المؤمنون ذلك، ولم يزدهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا» أخرجه الطبري في تفسيره، وساق مثله عن قتادة رحمه الله تعالى (٢٠/ ٢٣٦).

الَّذِينَ مَرِضَتْ قُلُوبُهُمْ بِأَدْوَاءِ الشُّبُهَاتِ أَوِ الشَّهَوَاتِ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْصُرُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ، وَاجْتَمَعَتِ الْجُمُوعُ الَّتِي لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهَا، وَطَوَّقَتِ المَدِينَةَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

فَانْقَسَمَ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إِلَى طَائِفَتَيْنِ:

فَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَخَذُوا يُخَذِّلُونَ فِي المُؤْمِنِينَ، وَيَبُثُّونَ الْأَرَاجِيفَ فِيهِمْ، وَيُخَوِّفُونَهُمْ بِأَعْدَائِهِمْ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ أَيْ: لَا مُقَامَ لَكُمْ فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ؛ لِكَثْرَةِ عَدُوِّكُمْ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّخَلِّي عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَخِذْلَانِهِ وَإِسْلَامِهِ إِلَى أَعْدَائِهِ.

وَرُبَّمَا أَرَادُوا: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَارْجِعُوا إِلَى دِينِ الشِّرْكِ؛ لِتَسْلَمَ لَكُمْ أَرْوَاحُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ.

وَرُبَّمَا أَرَادُوا: لَا مُقَامَ لَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ فَارْجِعُوا إِلَى الِاسْتِئْمَانِ وَالِاسْتِجَارَةِ، فَاسْتَجِيرُوا بِالمُشْرِكِينَ، وَاطْلُبُوا مِنْهُمُ الْأَمَانَ لَكُمْ بِمَا يُرِيدُونَ(٢).

وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ كُلُّ هَذِهِ المَعَانِي قَدْ أَرَادَهَا المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؛ لِأَنَّ تِلْكَ المَطَالِبَ هِيَ مَطَالِبُ المُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي كُلِّ شِدَّةٍ تُصِيبُ المُسْلِمِينَ عَلَى أَيْدِي الْكَافِرِينَ، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهِيَ تَتَكَرَّرُ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَلَئِنْ كَانَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ المُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ تَبُثُّ أَرَاجِيفَهَا بِالْقَوْلِ؛ فَإِنَّ طَائِفَةً أُخْرَى طَبَّقَتْ ذَلِكَ عَمَلِيًّا حِينَ اخْتَلَقَتِ المَعَاذِيرَ لِتُغَادِرَ أَرْضَ المَعْرَكَةِ؛ فَتَفُتَّ فِي عَضُدِ المُؤْمِنِينَ، وَتُوهِنَ قُوَّتَهُمْ، وَتُزَلْزِلَ قُلُوبَهُمْ، وَتُصَدِّعَ ثَبَاتَهُمْ، وَهِيَ

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٤٥٠).

الطَّائِفَةُ الَّتِي عَنَاهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٣].

إِنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِخُلُوِّ بُيُوتِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ مِنْ أَحَدٍ يُدَافِعُ عَنْهُمْ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ سَيَطَؤُهُمْ، مَعَ أَنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ كَحَالِهِمْ فَلَمْ يَعْتَذِرُوا وَلَمْ يَفِرُّوا، فَفَضَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ سِرَاعٌ إِلَى الْفِتْنَةِ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَوْ دَخَلُوا الْمَدِينَةَ لَانْحَازُوا هُمْ إِلَيْهِمْ، وَقَبِلُوا شِرْكَهُمْ؛ لِنِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٤]. فَمَا أَسْرَعَهُمْ إِلَى فِتْنَةِ الشِّرْكِ وَمُوَافَقَةِ الْمُشْرِكِينَ!!

كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ لَمَّا رَأَوُا الْمُؤْمِنِينَ قَدْ غَنِمُوا فِي بَدْرٍ مَا غَنِمُوا عَاهَدُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَثْبُتُوا فِي الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا، وَلَا يَفِرُّوا مِنْ غَزْوَةٍ أَبَدًا، فَنَكَثُوا عَهْدَهُمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لِلْغَنِيمَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يُعَاهِدُ لِلدُّنْيَا وَمَنْ يُعَاهِدُ لِلْآخِرَةِ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١٥].

فَهُمُ الْمُعَوِّقُونَ عَنِ النَّفِيرِ، الْمُخَذِّلُونَ فِي صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ، عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَصَّ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ خَبَرَهُمْ ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الْأَحْزَاب: ١٩]؛ أَيْ: بُخَلَاءَ عَلَيْكُمْ بِالْقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ بِالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ؛ فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشِحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ، وَأَقْوَامًا يَشِحُّونَ بِمَعْرُوفِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ وَهُمُ الْحُسَّادُ(٣).

وَمِنْ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ أَنَّهُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ

---

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٦).

خَوْفًا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، وَأَشَدُّ سَلَاطَةً وَبَذَاءَةً إِذَا أَمِنُوا، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مُطَالَبَةً بِغَنَائِمَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِيهَا ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا السَّلْقُ بِالْأَلْسِنَةِ الْحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ:

تَارَةً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ: هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ دَعَوْتُمُ النَّاسَ إِلَى هَذَا الدِّينِ، وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا . . .، وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ -مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ- تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا الْعَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ.

وَتَارَةً يَقُولُونَ: أَنْتُمْ مَجَانِينُ لَا عَقْلَ لَكُمْ؛ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسَ مَعَكُمْ. وَتَارَةً يَقُولُونَ أَنْوَاعًا مِنَ الْكَلَامِ الْمُؤْذِي الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ، أَيْ: حُرَّاصٌ عَلَى الْغَنِيمَةِ وَالْمَالِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ» اهـ(٤).

وَكُلُّ هَذِهِ الْمَقُولَاتِ الَّتِي حَكَاهَا ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْأَحْزَابِ، وَذَكَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي زَمَنِهِ يُرَدِّدُونَهَا، هِيَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ مِمَّا يُرَدِّدُهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فِي عَصْرِنَا هَذَا، وَسَتَبْقَى مُلَازِمَةً لِلْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

---

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٧-٤٥٨).

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ بِأَوْصَافٍ ثَلاثَةٍ تَدُلُّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَمَرَضِ قُلُوبِهِمْ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لِفَرْطِ خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنِ الْبَلَدِ، وَهَذِهِ حَالُ الْجَبَانِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ؛ فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إِلَى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ الْمَخُوفِ، وَتَكْذِيبِ خَبَرِ الْأَمْنِ.

وَالْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّهُمْ إِذَا جَاءُوا تَمَنَّوْا أَلَّا يَكُونُوا بَيْنَكُمْ، بَلْ يَكُونُوا فِي الْبَادِيَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ: مَا خَبَرُ الْمَدِينَةِ؟ وَمَاذَا جَرَى لِلنَّاسِ؟

وَالْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْأَحْزَابَ إِذَا أَتَوْا وَهُمْ فِيكُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا؛ لِجُبْنِهِمْ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ، وَتَقْدِيمِهِمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، فَلَا خَيْرَ فِيهِمْ لِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ هُمْ شَرٌّ وَبَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ لِلنَّاسِ(٥).

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٠].

جَعَلَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَكَفَانَا شَرَّ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِنَا بِالتَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.



(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٥٩).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٥١، ١٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يُلَاحَظُ أَنَّ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ الَّتِي عَرَضَتْ لِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ لَمْ يَأْتِ فِيهَا تَفْصِيلٌ لِهَذِهِ الْغَزْوَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا جَرَى فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ، بِقَدْرِ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ وَأَفْعَالِهِمْ، ثُمَّ وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَفْعَالِهِمْ.

وَمَجْمُوعُ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي غَزْوَتَيِ الْأَحْزَابِ وَقُرَيْظَةَ تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً، مِنْهَا تِسْعُ آيَاتٍ فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَحِكَايَةِ أَقْوَالِهِمْ، وَأَرْبَعُ آيَاتٍ فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ وَحِكَايَةِ أَقْوَالِهِمْ؛ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا سِتُّ آيَاتٍ فِيهَا وَصْفُ الْمَعْرَكَتَيْنِ، وَمَا جَرَى عَلَى أَحْزَابِ الْمُشْرِكِينَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ لِلْحَذَرِ مِنْهُمْ، وَمَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ لِلتَّأَسِّي بِهِمْ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ مَعْرِفَةِ تَفَاصِيلِ الْمَعْرَكَتَيْنِ وَأَحْدَاثِهِمَا.

وَمَا كَانَ ذَلِكَ -وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى- إِلَّا لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ مَوْجُودُونَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ، يُخْفُونَ كُفْرَهُمْ إِنْ رَأَوْا فِي الْمُؤْمِنِينَ قُوَّةً، وَيُظْهِرُونَهُ إِنْ رَأَوْا فِيهِمْ ضَعْفًا، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ كِتَابُ بَيَانٍ وَهِدَايَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ هِدَايَتِهِ ذِكْرُ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، وَكَشْفُ حَقِيقَتِهِمُ الَّتِي يُخْفُونَهَا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَخْذِ الْحَذَرِ وَالْحِيطَةِ مِنْهُمْ.

كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِذَلِكَ سَبَبٌ لِثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَزَمَاتِ، وَفِي حَالِ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ، وَظُهُورِ الْمُنَافِقِينَ؛ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ تَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ، وَتَخْذِيلِ الْمُنَافِقِينَ قَدْ أُصِيبَ بِمِثْلِهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَيَصْبِرُونَ كَمَا صَبَرُوا؛ فَإِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ نَصْرٌ وَتَمْكِينٌ لَهُمْ؛ وَلِذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَوْصَافَ الْمُنَافِقِينَ وَأَفْعَالَهُمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ذَيَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١].

وَالمَعْنَى: كُونُوا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَحَابَتُهُ ﷺ فِي ثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَقِينِهِمْ بِظَفَرِهِمْ وَعُلُوِّهِمْ، مَهْمَا كَانَ ضَعْفُكُمْ وَقُوَّةُ أَعْدَائِكُمْ، وَلَا تُصْغُوا لِأَرَاجِيفِ المُنَافِقِينَ، وَتَخْذِيلِ المُخَذِّلِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِمَّنْ فَرُّوا يَوْمَ الْأَحْزَابِ؛ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَاسْتِبْقَاءً لِدُنْيَاهُمْ بِبَذْلِ دِينِهِمْ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا بِالظَّفَرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَفِي زَمَنِنَا هَذَا لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ تَسَلُّطُ قُوَى الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالِاسْتِكْبَارِ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ عَلَى المُسْلِمِينَ بِاحْتِلَالِ دِيَارِهِمْ، وَفَرْضِ أَفْكَارِهِمْ، وَإِهَانَةِ دِينِهِمْ، وَتَدْنِيسِ قُرْآنِهِمْ، وَالسُّخْرِيَةِ بِنَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَضْطَلِعُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِذَاتِ المُهِمَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا أَسْلَافُهُمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ بِالتَّخْذِيلِ فِي أَوْسَاطِ المُسْلِمِينَ، وَتَخْوِيفِهِمْ بِالْكَافِرِينَ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى نَبْذِ دِينِهِمْ، وَالدُّخُولِ فِي مَشَارِيعِ أَهْلِ الظُّلْمِ وَالِاسْتِكْبَارِ؛ حَتَّى آلَ أَمْرُ المُسْلِمِينَ إِلَى مَا آلَ إِلَيْهِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ وَالضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ.

فَمَنْ بَذَلَ دِينَهُ لِأَجْلِ دُنْيَاهُ، وَحَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى إِرْضَاءً لِلْكَافِرِينَ، وَطَاعَةً

لِلْمُنَافِقِينَ فقَدْ أَوْبَقَ نَفْسَهُ وَخَسِرَ دِينَهُ، وَلَنْ يَكُونَ حَظُّهُ إِلَّا كَحَظِّ المُخَذِّلِينَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ.

وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى الْحَقِّ؛ فَلَمْ يُبَدِّلْ دِينَهُ، وَلَا انْحَازَ إِلَى الْكَافِرِينَ وَمَا يُرِيدُونَ، وَلَا اسْتَمَعَ إِلَى أَرَاجِيفِ المُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؛ فَقَدْ تَأَسَّى بِخِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ المُبَارَكَةِ، وَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَنْتَظِمَ فِي سِلْكِ مَنْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأَحْزَاب: ٢٣].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ..



٣٢٤- غزوة الأحزاب (٣)
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾

٢٩/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ؛ نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يُقْضَى قَضَاءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المَائِدَة: ١٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ وَإِنْ ضَلَّ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفِي التَّدَافُعِ بَيْنَ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَجُنْدِ الشَّيْطَانِ حِكَمٌ وَأَسْرَارٌ لَا يُحِيطُ بِجَمِيعِهَا إِلَّا الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الَّذِي جَعَلَ التَّدَافُعَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ فِي الْبَشَرِ لِإِصْلَاحِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١].

وَكُلُّ مَا جَرَى وَيَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ المَعَارِكِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ هُوَ مِنْ هَذَا التَّدَافُعِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى

قَدَرًا؛ فَضْلًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلِيُظْهِرَ الْمُنَافِقَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَحَتَّى يَبِينَ الْكَاذِبُ مِنَ الصَّادِقِ.

وَلِلَّهِ ﷻ جُنْدٌ لَا يَعْلَمُهُمُ الْبَشَرُ وَلَا يَرَوْنَهُمْ، يُسَخِّرُهُمْ ﷻ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَيُؤَيِّدُونَهُمْ وَيَنْصُرُونَهُمْ؛ لِتَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَهُمْ جُنُودٌ فِي السَّمَاءِ وَجُنُودٌ عَلَى الْأَرْضِ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الْفَتْح: ٧]، لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٣١].

وَمِنْ جُنْدِهِ ﷻ مَا هُوَ حِسِّيٌّ وَمِنْهَا المَعْنَوِيُّ، وَفِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُطَارَدَةِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ كَانَتْ جُنُودُ اللَّهِ تَعَالَى حَاضِرَةً لِحِفْظِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعُيُونِهِمْ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

وَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ أَيَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَلَائِكَةٍ مِنَ السَّمَاءِ مُرْدِفِينَ يُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ، وَأَلْقَى الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْزَلَ المَطَرَ تَطْهِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِيُذْهِبَ عَنْهُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، وَأَلْقَى النُّعَاسَ تَأْمِينًا لِعِبَادِهِ وَتَنْشِيطًا لَهُمْ، وَكُلُّ أُولَئِكَ مِنْ جُنْدِهِ ﷻ.

وَمَا مِنْ مُوَاجَهَةٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا جُنْدٌ حَاضِرَةٌ لِنُصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ حِمَايَتِهِمْ مِنَ الِاسْتِئْصَالِ.

وَفِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ كَانَ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ هَذَا الصُّلْحِ الَّذِي سَمَّاهُ فَتْحًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا

مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفَتْح: ٤].

وَلمَّا أُعْجِبَ المُؤْمِنُونَ فِي حُنَيْنٍ بِكَثْرَتِهِمْ، وَبَغَتَهُمُ الْعَدُوُّ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَاخْتَلَطَ حَابِلُهُمْ بِنَابِلِهِمْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِجُنْدِهِ، وَأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمْ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التَّوْبَة: ٢٥، ٢٦].

وَفِي الْأَحْزَابِ حِينَ اجْتَمَعَتْ جُمُوعُ المُشْرِكِينَ، وَحَاصَرُوا المَدِينَةَ، وَغَدَرَتِ الْيَهُودُ، وَخَذَّلَ المُنَافِقُونَ وَأَرْجَفُوا، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، وَزُلْزِلَ المُؤْمِنُونَ حَتَّى زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ . . فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ الْعَصِيبِ الرَّهِيبِ كَانَ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ المُؤْمِنِينَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأَحْزَاب: ٩].

وَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

فَهُزِمَتْ جُمُوعُ الشِّرْكِ فِي الْأَحْزَابِ بِالرِّيحِ وَهِيَ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالمَلَائِكَةِ عليهم السلام، وَهُمْ أَيْضًا مِنْ جُنْدِهِ عز وجل، وَهُمُ المُرَادُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وَهَذِهِ الرِّيحُ تَهُبُّ مِنَ الْغَرْبِ، وَتُسَمَّى الصَّبَا، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢). قَالَ

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٤١٠٥)، ومسلم في الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «رِيحُ الصَّبَا أُرْسِلَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى كَفَأَتْ قُدُورَهُمْ عَلَى أَفْوَاهِهَا، وَنَزَعَتْ فَسَاطِيطَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(٣).

وَمَعَ تَأْيِيدِ اللَّهِ ﷻ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَحْزَابِ بِالرِّيحِ وَالْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّهُ ﷻ أَكْرَمَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ، وَالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ؛ تَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ، وَشَدًّا لِلْعَزَائِمِ، وَحَفْزًا لِلْهِمَمِ؛ لِتَمْضِيَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَصْبِرَ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

وَمِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ مَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مُبَارَكَةِ طَعَامٍ قَلِيلٍ لَا يُشْبِعُ رَهْطًا، فَيَدْعُو فِيهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُشْبِعَ الْجَيْشَ كُلَّهُ وَيَبْقَى مِنْهُ بَقِيَّةٌ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ -أَيْ: سَمِينَةٌ- فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ.** فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي

(٣) تفسير مجاهد (٢/ ٥١٥)، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٢٨).

قُلْتِ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا، وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ؛ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ قَالَ: كُلِي هَذَا وَأَهْدِي؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

وَمِنَ الْكَرَامَاتِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَرْسَلَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه لِيَسْتَطْلِعَ خَبَرَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ آذَتْهُمُ الرِّيحُ، وَأَصَابَهُمْ بَرْدٌ شَدِيدٌ كَانَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه يَنْعَمُ دُونَهُمْ بِالدِّفْءِ، وَلَا يَجِدُ أَثَرَ الرِّيحِ وَالْبَرْدِ لَا فِي ذَهَابِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَا فِي رُجُوعِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَالَ رضي الله عنه: «فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ -أَيْ: مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ . . . وَفِي عَوْدَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْهَى مُهِمَّتَهُ قَالَ رضي الله عنه: فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَيَّدَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ بِكَرَامَاتِهِ، وَأَعَانَهُمْ بِجُنْدِهِ، وَكَتَبَ لَهُمْ نَصْرَهُ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . . .



(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق (٣٨٧٦)، ومسلم في الأشربة باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩). والرواية الثانية للبخاري (٣٨٧٥).

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَقِيمُوا عَلَى دِينِكُمْ، وَثِقُوا بِوَعْدِ رَبِّكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلَا يَخْذُلُ عِبَادَهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ امْتِحَانًا صَعْبًا نَجَحَ فِيهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَأَخْفَقَ فِيهِ أَهْلُ النِّفَاقِ.

كَانَ امْتِحَانًا ابْتُلِيَ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ثَبَّتَ الْمُؤْمِنِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيَقِينِهِمْ، وَخَذَلَ الْمُنَافِقِينَ بِشَكِّهِمْ وَارْتِيَابِهِمْ، وَرَدَّ الْكَافِرِينَ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَصْرًا وَلَا غَنِيمَةً ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٥].

وَفِي أَثْنَاءِ حِصَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَدِينَةِ، وَخِيَانَةِ الْيَهُودِ، وَتَخْذِيلِ الْمُنَافِقِينَ وَإِرْجَافِهِمْ، وَاشْتِدَادِ الْكَرْبِ، وَعِظَمِ الْبَلَاءِ؛ كَانَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى يَمْلَأُ قَلْبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخَذَ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ ﷺ بِمَا سَيَفْتَحُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ عَوَاصِمِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى آنَذَاكَ، وَهَذَا الْيَقِينُ هُوَ مِنْ تَأْيِيدِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَثْبِيتِهِ لَهُمْ، وَرَبْطِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ؛ فَالْفَضْلُ لِلَّهِ تَعَالَى، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**، ثُمَّ قَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَتْ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**، ثُمَّ قَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

فَمَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى اسْتِلْهَامِ هَذَا الدَّرْسِ الْعَظِيمِ مِنْ تِلْكَ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ! فَنَزْدَادُ بِاللَّهِ تَعَالَى إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَنُصَدِّقُ بِوَعْدِهِ، وَنَثْبُتُ عَلَى دِينِهِ، فَلَا نُبَدِّلُ وَلَا نُغَيِّرُ مَهْمَا عَظُمَ الْكَرْبُ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ، مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، خَاصَّةً وَقَدِ اشْتَدَّتْ حَمَلَاتُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي تَنَاوَلَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الْعَظِيمَةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ قَدْ أَثْنَتْ عَلَى ثَبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ وَأَصْعَبِ السَّاعَاتِ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٣].

إِنَّهُمْ رِجَالٌ قَابَلُوا الْبَلَاءَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، وَتَسَلَّحُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَلَمْ

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٣)، وأبو يعلى (١٦٨٥)، والنسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبد الله وثقة ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات (٦/ ١٣١)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧).

يُبَدِّلُوا دِينَهُمْ أَوْ يَتَنَازَلُوا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إِلَّا بِتَثْبِيتِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ وَمَعُونَتِهِ ﷻ لَهُمْ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يُنَالُ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ، وَلَا تُغَيِّرُوا دِينَكُمْ، أَوْ تَتَخَلَّوْا عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ؛ إِرْضَاءً لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَرْضَوْا إِلَّا بِكُفْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النِّسَاء: ٨٩].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٢٥- غزوة بني قريظة
الغدر والعقوبة

٢٤/ ١١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَالِكِ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرِ الْأَمْرِ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٢٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَظْهَرَ بِهِ الْإِيمَانَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَكَتَبَ الْبَقَاءَ لِشَرِيعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَدَّمُوا وَلَاءَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ عَلَى وَلَائِهِمْ لِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [الْمُجَادَلَة: ٢٢]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْغَدْرُ وَالْخِيَانَةُ مِنْ أَحَطِّ الصِّفَاتِ، وَأَسْوَإِ الْأَخْلَاقِ، وَلَا تَسُودُ الْخِيَانَةُ فِي النَّاسِ إِلَّا انْتَشَرَ فِيهِمُ الْخَوْفُ، فَلَا يَأْمَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَلِذَا جَاءَتْ شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَى آمِرَةً بِالْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ، نَاهِيَةً عَنِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المَائِدَة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنْفَال: ٢٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٧].

وَلَمَّا كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِمُ الْخَوَنَةُ الْغَدَّارُونَ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ حَذَّرَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَبَيَّنَ كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنْفَال: ٥٨].

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ أَشْهَرُ الْأُمَمِ فِي الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ؛ فَلَا يُعَاهِدُونَ عَهْدًا إِلَّا نَقَضُوهُ، وَلَا يُسَالِمُهُمْ قَوْمٌ إِلَّا غَدَرُوا بِهِمْ، وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا أَسَاءُوا إِلَيْهِ، وَيَرَوْنَ ذَلِكَ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَفَرْضًا مِنْ فُرُوضِ دِينِهِمْ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٠٠]، ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةًۖ﴾ [المَائِدَة: ١٣]، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنْفَال: ٥٦].

وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ أَغْدَرُ النَّاسِ وَأَخْوَنُهُمْ: أَنَّ كُلَّ قَبَائِلِهِمْ فِي المَدِينَةِ نَقَضَتْ عُهُودَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ مَنْ هُجِّرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِّلُوا وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيُّهُمْ.

وَفِي آخِرِ ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ[١]، نَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمْكَنَ اللَّهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، فَقَضَوْا فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَهُ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ هِجْرَتِهِ لِلْمَدِينَةِ أَنْ وَادَعَ الْيَهُودَ فِيهَا،

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٧٤)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٧١٥).

وَعَاهَدَهُمْ بِمِيثَاقٍ بَيَّنَ فِيهِ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ بُنُودِ ذَلِكَ الْمِيثَاقِ: أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ، وَلِلْيَهُودِ دِينَهُمْ، وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ(٢).

وَالْتَزَمَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ؛ لِأَنَّ مِنْ شِيمَتِهِمُ الْوَفَاءَ وَالْأَمَانَةَ، فَدِينُهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَدْرَ وَالْخِيَانَةَ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ نَقَضُوا الْعَهْدَ قَبِيلَةً قَبِيلَةً، وَأَخْطَرُ مَا نَقَضَتِ الْيَهُودُ مِنَ الْعُهُودِ، وَأَشَدُّهُ ضَرَرًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرُهُ خِسَّةً وَدَنَاءَةً وَغَدْرًا فِعْلَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ؛ إِذْ إِنَّ مُقْتَضَى الْمُعَاهَدَةِ مَعَهُمْ أَنْ يُشَارِكُوا الْمُسْلِمِينَ فِي دَفْعِ خَطَرِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ حَاصَرُوهَا بِأَعْدَادٍ كَثِيفَةٍ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَلَمْ يَكْتَفِ الْيَهُودُ بِخِذْلَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ، وَالتَّخَلِّي عَنْهُمْ فِي هَذَا الْمَأْزِقِ الْحَرِجِ، بَلْ دَعَتْهُمْ نُفُوسُهُمُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي تَنْضَحُ بِالْغَدْرِ، وَتَقْطُرُ بِالْخِيَانَةِ، دَعَتْهُمْ إِلَى طَعْنِ الْمُسْلِمِينَ فِي ظُهُورِهِمْ، وَخَفْرِهِمْ فِي نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، وَمُمَالَأَةِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ، وَيَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ عَصِيبٍ! وَيَا لَهَا مِنْ خِيَانَةٍ لَا نَظِيرَ لَهَا الْبَتَّةَ!

وَلَمَّا تَسَامَعَ بَعْضُ النَّاسِ بِخَبَرِ الْغَدْرِ هَذَا، وَخَافُوا عَلَى مَنْ فِي الْحُصُونِ مِنَ

---

(٢) هذه الوثيقة المهمة مشهورة في كتب السيرة والتاريخ، وجاءت من طرق عدة، وبعض ما جاء فيها ثبت في أحاديث صحيحة، وذكر الدكتور صالح العلي في كتابه: «تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة» أنها كانت عقب غزوة بدر (ص: ٦).
بينما رَجَّحَ الدكتور أكرم ضياء العمري في «السيرة النبوية الصحيحة» أنها كتبت قبل بدر (١/ ٢٧٦).
وينظر فيها: أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٨٦)، والأموال لأبي عبيد بن سلام (٥١٨)، وتاريخ الطبري (٢/ ٤٧٩)، والبداية والنهاية (٣/ ١٠٣).

النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ مِنْ غَدْرِ الْيَهُودِ؛ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ الِاسْتِيثَاقَ مِنْ غَدْرِهِمْ، فَأَرْسَلَ الزُّبَيْرَ وَالسَّعْدَيْنِ ابْنَ مُعَاذٍ وَابْنَ عُبَادَةَ رضي الله عنهم(٣)، فَرَجَعُوا مُؤَكِّدِينَ خَبَرَ نَقْضِ قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ، وَعَظُمَ بَلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، وَاشْتَدَّتْ مِحْنَتُهُمْ، وَأَصْبَحُوا يُوَاجِهُونَ عَدُوًّا شَرِسًا يُحَاصِرُ الْمَدِينَةَ فِي عَدَدٍ كَثِيفٍ يَبْلُغُ عَشَرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَيُعَالِجُونَ مُنَافِقِينَ يُخَذِّلُونَ وَيُرْجِفُونَ، وَيَبُثُّونَ الشَّائِعَاتِ وَالْأَكَاذِيبَ، وَلَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ بِالْيَهُودِ وَهُمْ دَاخِلُ الْحُصُونِ عِنْدَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَقَدْ تَنَكَّرُوا لِلْمُسْلِمِينَ، وَانْحَازُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الْأَحْزَاب: ١١].

وَحَمَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي قَلْبِهِ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِسَبَبِ خِيَانَتِهِمُ الْقَبِيحَةِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُ وَأَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمَّا جُرِحَ رضي الله عنه فِي الْأَحْزَابِ وَنَزَفَ، وَخَشِيَ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، دَعَا اللَّهَ تَعَالَى قَائِلًا: «اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ» فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ، فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً(٤).

اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَضَرُّعِهِمْ، وَخَذَلَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَرَدَّ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَصَدَعَ تَحَالُفَ الْيَهُودِ مَعَهُمْ بِشُكُوكٍ أَلْقَاهَا فِي قُلُوبِ الْفَرِيقَيْنِ، وَتَوْفِيقٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِنُعَيْمِ بْنِ

---

(٣) ينظر: حديث جابر رضي الله عنه عند: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل الطليعة (٢٦٩١)، ومسلم في فضائل الصحابه رضي الله عنهم، باب من فضائل طلحه والزبير (٢٤١٥)، وتفسير الطبري (٢١/ ١٣١) وتاريخه (٢/ ٩٣)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٣). ومضى سياق الأحاديث في ذلك في خطبة: غزوة الأحزاب (١) خطبة رقم (٣٢٢).

(٤) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي في السير، باب ما جاء في النزول على الحكم وقال: حسن صحيح (١٥٨٢)، والنسائي في الكبرى (٨٦٧٩)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، والدارمي (٢٥٠٩)، وصححه ابن حبان (٤٧٨٤).

مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي الْوَقِيعَةِ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ أَسْلَمَ وَلَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِهِ[٥].

فَعَادَتْ أَحْزَابُ الْمُشْرِكِينَ خَاسِرَةً خَائِبَةً إِلَى مَكَّةَ، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ فَقَالَ: «وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟! فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **فَأَيْنَ؟** قَالَ: هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ»[٦]، فَأَذَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النَّاسِ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[٧].

---

(٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٦٩)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١٩٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١١١).

(٦) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الجهاد والسير، باب الغسل بعد الحرب والغبار (٢٦٥٨)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٩).

(٧) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء (٩٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (١٧٧٠) إلا أن في رواية مسلم: «**لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة**».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٠٨-٤٠٩) قوله: «**لا يصلين أحد العصر**» كذا وقع في جميع النسخ عند البخاري، ووقع في جميع النسخ عند مسلم: (الظهر) مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد، وقد وافق مسلمًا أبو يعلى وآخرون، وكذلك أخرجه ابن سعد عن أبي عتبان مالك بن إسماعيل عن جويرية بلفظ: (الظهر) وابن حبان من طريق أبي عتبان كذلك، ولم أره من رواية جويرية إلا بلفظ (الظهر)، غير أن أبا نعيم في المستخرج أخرجه من طريق أبي حفص السلمي عن جويرية فقال: (العصر)، وأما أصحاب المغازي فاتفقوا على أنها (العصر)، قال ابن إسحاق: لما انصرف النبي ﷺ من الخندق راجعًا إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال: «إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فأمر بلالًا فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة» وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل بإسناد صحيح إلى الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب «أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب، وجمع عليه اللأمة، واغتسل واستجمر؛ تبدى له جبريل فقال: عذيرك من محارب، فوثب فزعًا، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا =

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَزْوَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَاسْتِئْصَالَ شَأْفَتِهِمْ جَاءَ الْأَمْرُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ عَنْ طَرِيقِ جِبْرِيلَ عليه السلام، وَلَيْسَ فِعْلًا فَعَلَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَقَرَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ. بَلْ إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَنْكَرَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَضْعَ السِّلَاحِ وَالِاغْتِسَالَ قَبْلَ إِيقَاعِ الْعُقُوبَةِ بِالْخَوَنَةِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عليهم السلام لَمْ يَضَعُوا أَسْلِحَتَهُمْ.

خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَقَدْ بَعَثَ عَلِيًّا رضي الله عنه عَلَى مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ وَمَعَهُ اللِّوَاءُ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ، وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ

= بني قريظة، قال: فلبس الناس السلاح فلم يأتوا، قال النبي ﷺ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأدرك بعضهم **العصر** في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا منهم»، ولفظ مسلم وسائر من رواه: «نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب أن لا يُصَلِّيَنَّ أحد الظهر إلا في بني قريظة، فتخوف ناس فَوْتَ الوَقْتِ، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّفَ وَاحِدًا من الفريقين».

فالذي يظهر من تغاير اللفظين أن عبد الله بن محمد بن أسماء شيخ الشيخين فيه لما حدث به البخاري حدث به على هذا اللفظ، ولما حدث به الباقين حدثهم به على اللفظ الأخير وهو اللفظ الذي حدث به جويرية، بدليل موافقة أبي عتبان له عليه، بخلاف اللفظ الذي حدث به البخاري، أو أن البخاري كتبه من حفظه ولم يراع اللفظ كما عرف من مذهبه في تجويز ذلك بخلاف مسلم فإنه يحافظ على اللفظ كثيرًا، وإنما لم أجوز عكسه لموافقة من وافق مسلمًا على لفظه بخلاف البخاري، لكن موافقة أبي حفص السلمي له تؤيد الاحتمال الأول، وهذا كله من حيث حديث ابن عمر.

أما بالنظر إلى حديث غيره فالاحتمالان المتقدمان في كونه قال: (الظهر) لطائفة، و(العصر) لطائفة متجه، فيحتمل أن تكون رواية (الظهر) هي التي سمعها ابن عمر، ورواية (العصر) هي التي سمعها كعب بن مالك وعائشة، والله أعلم.

الذَّبْحُ، قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ -وَكَانَ ﵁ حَلِيفًا لَهُمْ، فَظَنُّوا أَنْ يُحَابِيَهُمْ وَيُخَفِّفَ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**» فَنَزَلُوا، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، يُحَاوِلُونَ الشَّفَاعَةَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ، وَهُوَ ﵁ سَاكِتٌ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمُ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «قَدْ آنَ لِي أَنْ لَا أُبَالِيَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»(٨). وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ﵁: «قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ»(٩).

فَجِيءَ بِسَعْدٍ ﵁ وَهُوَ جَرِيحٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْزِلُوهُ**، فَأَنْزَلُوهُ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**. قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتَلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ(١٠). قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ**» فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَكَانُوا بَيْنَ سِتِّمِائَةٍ وَتِسْعِمِائَةٍ(١١).

---

(٨) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ١٤١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٢١)، وصححه ابن حبان (٧٠٢٨).

(٩) هذه الرواية للطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٣).

(١٠) هذا جزء من حديث عائشة المخرج في حاشية (٨). وجاء نحوه من حديث أبي سعيد ﵁ عند: البخاري في الاستئذان، باب قول النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**» (٥٩٠٧) ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (١٧٦٨).

(١١) ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة. السيرة النبوية (٤/ ٢٠١)، وينظر: تاريخ الطبري (٢/ ١٠١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣١٧)، وسيرة ابن كثير (٣/ ٢٣٩).

وجاء من حديث جابر ﵁: أنهم كانوا أربعمائة، أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في النزول على الحكم، وقال حسن صحيح (١٥٨٢)، والدارمي (٢٥٥١)، وصححه ابن حبان (٤٧٨٤)

إِلَّا مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ حَقَنَ إِسْلَامُهُ دَمَهُ[١٢]، وَسُبِيَتْ نِسَاؤُهُمْ وَذُرِّيَّاتُهُمْ، وَقُسِّمَتْ فِي المُسْلِمِينَ.

فَكَانَ هَذَا الْعِقَابُ الشَّدِيدُ مُنَاسِبًا لِجُرْمِهِمُ الشَّنِيعِ، وَقَدْ وَجَدَ بَعْضُ المُعَاصِرِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي نُفُوسِهِمْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْحُكْمِ الشَّدِيدِ، مَعَ أَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَلِسَانُ حَالِهِمْ يَقُولُ: كَيْفَ تُفْنَى قَبِيلَةٌ كَامِلَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ خِيَانَتِهِمْ، وَالْإِسْلَامُ دِينُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالسَّمَاحَةِ وَالمُسَامَحَةِ؟! وَيَزْدَادُ حَرَجُهُمْ حِينَ يَسْتَغِلُّ الْأَعْدَاءُ هَذِهِ المَوَاقِفَ مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِيُشَغِّبُوا بِهَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَتَّهِمُوهُ بِالْفَاشِيَّةِ وَالدَّمَوِيَّةِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْحَرَجَ الَّذِي يَجِدُهُ بَعْضُ المُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَمَثِيلَاتِهَا يَنْطَوِي عَلَى عَدَمِ اسْتِسْلَامٍ كَامِلٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَدُلُّ عَلَى شَكٍّ دَاخِلَ تِلْكَ الْقُلُوبِ فِي حُكْمِهِ ﷺ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

(١٢) روى ابن إسحاق عن أيوب بن عبد الرحمن، أن سلمى بنت قيس أم المنذر استطلقت من رسول الله ﷺ رفاعة بن شموال، وكان قد بلغ فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فأطلقه لها، وكانت قالت: يا رسول الله إن رفاعة يزعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل. فأجابها إلى ذلك فأطلقه. سيرة ابن هشام (٤/ ٢٠٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٠٣).
ولم يقتل منهم إلا امرأة واحدة، كما في حديث عائشة ﵂ قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك، وما لك؟ قالت: أقتل. قالت: قلت: ولم؟ قالت: حدث أحدثته. قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها، وكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود في الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١).
قال ابن هشام في سيرته: وهي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته (٤/ ٢٠٢).
قال ابن كثير في السيرة: يعني: فقتلها رسول الله ﷺ به (٣/ ٢٤٢).

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، فَلَا يَسَعُ مُسْلِمًا إِلَّا الرِّضَا بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرِهِ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّهُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ، وَأَنَّ مَا عَارَضَهُ هُوَ الْبَاطِلُ وَالظُّلْمُ.

وَسَبَبُ هَذَا الضَّعْفِ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ الْخَطَأَ قَدْ سَلَّمَ بِحُكْمِ الطَّاغُوتِ الْمُتَمَثِّلِ فِيمَا يُسَمَّى بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ جَعَلَهُ حَاكِمًا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا وَافَقَ قَوَانِينَهُمُ الْوَضْعِيَّةَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَضِيَهُ وَصَاحَ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ سَبَقَ إِلَيْهِ، وَمَا خَالَفَ قَوَانِينَهُمْ طَعَنَ فِيهِ وَتَأَوَّلَهُ، وَفِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ يَقْبَلُهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ وَيُخْفِيهِ كَأَنَّمَا هُوَ عَارٌ وَنَقْصٌ وَخَلَلٌ فِي الْإِسْلَامِ.

وَقَوَانِينُهُمُ الدَّوْلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالسِّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَالْمَرْأَةِ وَالطِّفْلِ، وَحُقُوقِ الْأَسْرَى وَغَيْرِهَا، فِيهَا مَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَكْتَسِبُ شَرَفًا بِذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِوَاضِعِيهِ فِيهِ نِيَّةٌ وَلَا احْتِسَابٌ، كَمَا أَنَّ فِي قَوَانِينِهِمْ مَا يُعَارِضُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ تَحْتَ الْأَقْدَامِ وَإِنْ زَمَّرَ لَهُ الْمُزَمِّرُونَ، وَطَبَّلَ لَهُ الْمُطَبِّلُونَ، وَجَعَلَهُ الْمُنَافِقُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ شَرِيعَتَهُمُ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَلَا مِنْ خَلْفِهَا، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ، وَكُلُّ مَا عَارَضَ الشَّرِيعَةَ فَهُوَ الْبَاطِلُ وَالظُّلْمُ، وَلَا يُحِقُّ الْحَقَّ، وَلَا يَقْضِي بِالْعَدْلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُوقِنَ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَا صَارَ مُسْلِمًا إِلَّا لِقَنَاعَتِهِ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتِسْلَامِهِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَغَالِبُ الَّذِينَ يُدَاخِلُهُمْ شَكٌّ فِي بَعْضِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَيَجِدُونَ حَرَجًا مِنْ قَضَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ إِنَّمَا نَظَرُوا إِلَى الْمُجْرِمِ حَالَ سَفْكِ دَمِهِ، وَلَمْ يَسْتَحْضِرُوا جَرِيمَتَهُ الشَّنْعَاءَ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ

فَزَعَمُوا حِفْظَ حُقُوقِهِمْ، وَنَسُوا مَنْ ظَلَمَهُمْ وَغَدَرَ بِهِمْ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمُونَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدُّوَلَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُجْمِعَةٌ عَلَى قَتْلِ الْجَاسُوسِ الَّذِي يَنْقُلُ الْأَخْبَارَ لِلدُّوَلِ الْمُعَادِيَةِ، وَيُعِينُهَا عَلَى دَوْلَتِهِ، وَأَيْنَ فِعْلُ جَاسُوسٍ وَاحِدٍ خَانَ وَطَنَهُ مِنْ نَقْضِ الْيَهُودِ لِلْعَهْدِ وَهُمْ أُمَّةٌ كَامِلَةٌ تَتَطَلَّعُ لِإِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُقَابِلُ عَظِيمَ إِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِمْ بِحِفْظِ الْعَهْدِ مَعَهُمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِ جِوَارِهِمْ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُمْ، تُقَابِلُ أُمَّةُ الْيَهُودِ ذَلِكَ بِأَعْظَمِ الْإِسَاءَةِ، وَأَشَدِّ دَرَجَاتِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ.

لَقَدْ نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ عَهْدَهَا فِي أَصْعَبِ مَوْقِفٍ، وَأَشَدِّ سَاعَةٍ، وَلَوْ أَنَّ مُظَاهَرَةَ الْيَهُودِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَخِيَانَتَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ تَمَّتْ عَلَى مَا أَرَادُوا، وَدَخَلَ الْمُشْرِكُونَ الْمَدِينَةَ، وَتَمَكَّنَ الْيَهُودُ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَطْفَالِهِمْ لَأَبَادُوهُمْ جَمِيعًا، أَفَإِنْ سَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، وَرَدَّ الْمُشْرِكِينَ، وَأُنْزِلَتِ الْعُقُوبَةُ الشَّرْعِيَّةُ بِالْخَوَنَةِ الْغَادِرِينَ يَجِدُ الْمُسْلِمُ حَرَجًا فِي نَفْسِهِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَتَذَكَّرُ حَالَ الْيَهُودِ وَهُمْ يُقْتَلُونَ، وَلَا يَسْتَحْضِرُ حَالَ الْمُسْلِمِينَ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِسَبَبِ خِيَانَةِ الْيَهُودِ.

وَلِمَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَرَجٍ مِنْ ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ فِيمَا يَفْعَلُهُ الْيَهُودُ فِي أَهْلِ فِلَسْطِينَ، مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَنَقْضِ الْعَهْدِ، وَقَصْدِ الْآمِنِينَ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَهَدْمِ الدُّورِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَلَا يَكَادُ يَمُرُّ يَوْمٌ دُونَ أَنْ يَقْتُلُوا نِسَاءً وَأَطْفَالًا، فَتَبًّا لِقَوَانِينَ وَضْعِيَّةٍ تُوجِدُ حَرَجًا فِي قُلُوبِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، وَمِنَ الِاسْتِدْرَاكِ عَلَى الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا وَالْإِذْعَانَ وَالْقَبُولَ وَالتَّسْلِيمَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . .

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَمَلِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَجَلَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ الْحِسَابَ عَسِيرٌ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الْكَهْف: ٤٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي غَدْرِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَخِيَانَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّوَائِفَ وَالْأَقَلِّيَّاتِ الَّتِي لَيْسَتْ عَلَى دِينِ أَهْلِ الْبَلَدِ هِيَ أَقْرَبُ لِلْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ مِنَ الْأَدَاءِ وَالْوَفَاءِ مَتَى مَا رَأَتِ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِذَلِكَ، وَأَنَّ إِحْسَانَ أَهْلِ الْبَلَدِ إِلَيْهِمْ سَنَوَاتٍ مُتَتَابِعَةً، وَحِمَايَتَهُمْ لَهُمْ، وَحِفْظَ حُقُوقِهِمْ، لَا يَمْنَعُهُمْ أَبَدًا مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَمُمَالَأَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَى أَبْنَاءِ أَوْطَانِهِمْ، وَأَنَّ زَعْمَهُمْ أَنَّهُمْ وَطَنِيُّونَ، وَأَنَّ مَصْلَحَةَ الْأَوْطَانِ فَوْقَ أَدْيَانِهِمْ وَطَوَائِفِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ مَا هُوَ إِلَّا شِعَارٌ يُخَدِّرُونَ بِهِ أَهْلَ الْغَفْلَةِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَئِنْ كَانَتْ خِيَانَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ شَاهِدَةً عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ التَّارِيخَ مَلِيءٌ بِالنَّمَاذِجِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ، وَتُؤَكِّدُ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ، وَفِي أَثْنَاءِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ أَسَّسَ نَصَارَى الشَّرْقِ مِنَ الْأَقْبَاطِ وَالْمَوَارِنَةِ لِوَاءً كَامِلًا يُعِينُ نَصَارَى الْغَرْبِ عَلَى إِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، رَغْمَ الْعَدَاوَةِ الشَّدِيدَةِ بَيْنَ نَصَارَى الشَّرْقِ وَهُمُ الْأُرْثُوذُكْسُ، وَنَصَارَى الْغَرْبِ وَهُمُ الْكَاثُولِيكُ.

وَفِي اجْتِيَاحِ التَّتَارِ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَضَائِهِمْ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ انْحَازَ

ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيُّ الْبَاطِنِيُّ إِلَى الْمَغُولِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ وَزِيرًا لِلْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ، فَمَا رَدَّهُ عَنْ خِيَانَتِهِ تَوْزِيرُ الْعَبَّاسِيِّينَ لَهُ، وَإِغْدَاقُهُمُ الْأَمْوَالَ عَلَيْهِ، وَتَمْكِينُهُ مِنْ مَفَاصِلِ الدَّوْلَةِ وَثَرَوَاتِهَا وَقَرَارَاتِهَا، بَلِ اسْتَغَلَّ ذَلِكَ فِي نَسْجِ الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي قَضَى بِهَا عَلَى مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ، وَهَذِهِ النَّمَاذِجُ الْخَائِنَةُ تَتَكَرَّرُ عَبْرَ الْعُصُورِ وَالدُّوَلِ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ!

وَلَئِنْ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ نَمَاذِجَ مِنْهَا، فَفِي اجْتِيَاحِ الصِّرْبِ لِلْبُوسْنَةِ كَانَ صِرْبُ الْبُوسْنَةِ يَدُلُّونَ الْمُحَارِبِينَ مِنْ صِرْبِيَا عَلَى جِيرَانِهِمْ وَأَبْنَاءِ وَطَنِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُشَارِكُونَ الْعَدُوَّ الْغَاشِمَ فِي إِبَادَةِ أَبْنَاءِ وَطَنِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلُوا فِي كُوسُوفَا.

وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ الْبَاطِنِيُّونَ الصَّفَوِيُّونَ وَالْعَلْمَانِيُّونَ فِي أَفْغَانِسْتَانَ، كَمَا فَعَلُوهُ فِي الْعِرَاقِ -وَلَا زَالُوا- وَمَذَابِحُهُمْ ضِدَّ جِيرَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَشُدِّهَا، وَلَا زَالَتِ الْأَقَلِّيَّاتُ النَّصْرَانِيَّةُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ تُحَرِّضُ الْغَرْبَ عَلَى دُوَلِهَا، وَتَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُسَرِّبُ الْأَخْبَارَ وَالْمَعْلُومَاتِ لِلدُّوَلِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، وَتَسْتَنْجِدُ بِهَا عَلَى أَوْطَانِهِمْ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ ذَلِكَ مَا حَصَلَ وَمَا يَحْصُلُ فِي السُّودَانِ وَالصُّومَالِ وَإِرِتْرِيَا وَغَيْرِهَا.

وَرَأَيْنَا فِي حَرْبِ لِبْنَانَ الْقَرِيبَةِ أَصْحَابَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ قَدْ رَكَلُوا وَطَنِيَّتَهُمْ بِأَقْدَامِهِمْ، وَانْحَازُوا بِوَلَائِهِمْ لِلدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الطَّامِعَةِ فِي إِعَادَةِ أَمْجَادِ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَنُو شِرْوَانَ، رَغْمَ إِحْسَانِ دُوَلِهِمْ إِلَيْهِمْ.

كَمَا رَأَيْنَا أَنَّ أَتْبَاعَ التَّيَّارَاتِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ قَدْ أَجَّرُوا أَنْفُسَهُمْ لِمَا يَخْدِمُ مَصَالِحَ الدُّوَلِ الَّتِي تَسْتَأْجِرُهُمْ، وَتَأْمُرُهُمْ وَتَنْهَاهُمْ، بَعِيدًا عَنْ مَصَالِحِ أَوْطَانِهِمْ.

وَكُلُّ هَذِهِ النَّمَاذِجِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مَا هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مَكْرُورَةٌ مِنْ خِيَانَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَإِذَا مَا أَلَمَّتْ بِأَهْلِ أَيِّ بِلَادٍ مُلِمَّةٌ، وَدَهَمَهَا عَدُوُّهَا ظَهَرَ هَؤُلَاءِ الْخَوَنَةُ عَلَى حَقِيقَتِهِمْ، وَخَرَجُوا مِنْ تَقِيَّتِهِمْ، وَرَكَلُوا وَطَنِيَّتَهُمْ، وَأَعْلَنُوا الْعَدَاءَ السَّافِرَ لِمَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ، وَحَفِظُوا لَهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَلَمْ يُكْرِهُوهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

وَالتَّارِيخُ وَالْوَاقِعُ الْمُعَاصِرُ مَلِيئَانِ بِالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ، وَالْكَيِّسُ الْفَطِنُ لَا يَنْخَدِعُ بِالشِّعَارَاتِ دُونَ الْحَقَائِقِ، وَلَا يَغْشَى عَلَى بَصَرِهِ لَحْنُ الْقَوْلِ، وَكَثْرَةُ الْوُعُودِ وَالْعُهُودِ؛ فَكَمْ مِنْ وَعْدٍ أُخْلِفَ، وَكَمْ مِنْ مُعَاهِدٍ غَدَرَ، وَلَا قُوَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْ غَدْرِ الْغَادِرِينَ، وَخِيَانَةِ الْخَائِنِينَ، وَرَدِّ كَيْدِ الْكَائِدِينَ إِلَّا بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِ رَبِّهِمْ، وَمُخَالَفَةِ مَنْ يُرِيدُونَ إِضْعَافَ الْمُسْلِمِينَ بِتَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَتَغْيِيرِ مَنَاهِجِهِمْ، وَحَرْفِهِمْ عَنْ مَنْهَجِهِمْ، مَعَ أَخْذِ الْحِيطَةِ وَالْحَذَرِ مِنَ الطَّوَائِفِ الضَّالَّةِ، وَعَدَمِ تَمْكِينِهِمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ خَائِنٍ وَغَادِرٍ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِإِرْهَابِ أَعْدَاءِ الْخَارِجِ، وَتَخْوِيفِ أَهْلِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ أَعْدَاءِ الدَّاخِلِ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٢٦- صلح الحديبية
بين الصلح والفتح

٢٤/ ١١/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى: الْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ فَاللهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

هُوَ الْقَادِرُ سُبْحَانَهُ عَلَى تَحْوِيلِ الْمِحَنِ إِلَى مِنَحٍ، وَقَلْبِ الْعُسْرِ إِلَى يُسْرٍ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ سَبَبًا لِفَتْحِ مَكَّةَ، مَعَ أَنَّ الصُّلْحَ يَمْنَعُ الْفَتْحَ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ جعَلَهُ سَبَبًا لِلْفَتْحِ، عَلَى خِلَافِ رُؤْيَةِ الْبَشَرِ وَحِسَابَاتِهِمْ وَدِرَاسَاتِهِمْ.

فِي ذِي الْقِعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ(١) خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ مِنَ أَصْحَابِهِ ﷺ(٢)، فَأَحْرَمَ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَقَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ، وَعَدَدُهُ سَبْعُونَ بَدَنَةً، وَسَارَ قَاصِدًا مَكَّةَ.

عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ فَخَرَجَتْ تُرِيدُ صَدَّهُ عَنِ الْبَيْتِ، وَجَاءَ بُسْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ فَخَرَجُوا مَعَهُمُ الْعُوذُ المَطَافِيلُ، قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى يُعَاهِدُونَ اللَّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ، قَدِمُوا كُرَاعَ الْغَمِيمِ . . . » فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي الْإِغَارَةِ عَلَى مَنْ عَاوَنُوا قُرَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣).

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى سَلَامَةِ قُرَيْشٍ وَإِسْلَامِهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَسَادَةُ الْعَرَبِ، وَمَعَ حِرْصِهِ هَذَا مَا كَانَ ﷺ لِيُهَادِنَهُمْ عَلَى مَا فِيهِ نَيْلٌ مِنَ الدِّينِ،

---

(١) ينظر: مغازي الواقدي (١/ ٥٧٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٩٥)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٤٢٦)، وسيرة ابن كثير (٣/ ٣١٢)، وزاد المعاد (٣/ ٢٨٧).

(٢) اختلفت الروايات في عدد مَنْ كانوا معه عليه الصلاة والسلام، وتراوحوا بين ألف وثلاث مئة وبين ألف وخمس مئة، والراجح أنهم ألف وأربع مئة، وقد جمع بين الروايات الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٧٩٢٠)، وأحمد (٤/ ٣٢٨-٣٣١)، والبخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٤-٣٩٤٥)، وأبو داود في الجهاد، باب صلح العدو (٢٧٦٠).

أَوْ يُسَاوِمَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنْ عَلَى مَا فِيهِ إِيقَافُ الْحَرْبِ، وَبَسْطُ الْأَمْنِ، وَحِفْظُ الْأَرْوَاحِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**»(٤)، يَعْنِي: عُنُقَهُ الشَّرِيفَةَ ﷺ.

لَقَدْ بَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ لَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ يُقْتَلَ دُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ سَيُصَالِحُهُمْ عَلَى هُدْنَةٍ يَسْتَرِيحُ فِيهَا الْفَرِيقَانِ مِنَ الْحَرْبِ، وَيَأْمَنُ النَّاسُ، وَأَكَّدَ هَذِهِ الرَّغْبَةَ فِي الصُّلْحِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»(٥).

وَرَغْمَ أَنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ مُعْتَمِرًا، وَلَمْ يَأْتِ مُحَارِبًا فَإِنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى صَدِّهِ عَنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَقَالُوا لِلسَّفِيرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ: «وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَلَا وَاللَّهِ لَا يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عُنْوَةً أَبَدًا، وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ الْعَرَبُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

---

(٤) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: أحمد في المسند مطولًا واللفظ له (٤/ ٣٢٣)، وأخرجه مختصرًا البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٤)، وأبو داود في الجهاد، باب في صلح العدو (٢٧٦٦)، وابن خزيمة (٢٩٠٦)، والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/ ٤٥٩).

(٥) قطعة من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم المخرج في حاشية (٤).

(٦) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (٤).

أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُؤَكِّدَ لِقُرَيْشٍ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ الْحَرْبَ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ﷺ بِرِسَالَةٍ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَنَزَلَ عُثْمَانُ فِي جِوَارِ أَبَانَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حَتَّى أَدَّى رِسَالَتَهُ(٧)، وَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَهُ لِلْبَيْعَةِ تَحْتَ شَجَرَةِ سَمُرَةٍ، فَبَايَعُوهُ جَمِيعًا عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا سِوَى الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ(٨)، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ الْبَيْعَةَ كَانَتْ عَلَى الْمَوْتِ(٩)، وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى الصَّبْرِ(١٠)، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ؛ فَإِنَّ الْمُبَايَعَةَ عَلَى الْمَوْتِ تَعْنِي: الصَّبْرَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَعَدَمَ الْفِرَارِ(١١).

كَانَ أَوَّلَ مَنْ بَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الْأَسَدِيُّ(١٢)، فَخَرَجَ النَّاسُ بَعْدَهُ يُبَايِعُونَ

---

(٧) ورد ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٤).

(٨) جاء ذلك في حديث جابر ﷺ قال: «كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة فبايعناه ... وقال: بايعنا على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت» أخرجه مسلم في الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

(٩) جاء ذلك في حديث سلمة بن الأكوع ﷺ سئل: «على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت» أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٣٦).

(١٠) جاء ذلك في حديث نافع عن ابن عمر ﷺ قال: «رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله، فسألنا نافعًا: على أي شيء بايعهم، على الموت؟ قال: لا، بايعهم على الصبر» أخرجه البخاري في الجهاد، باب البيعة في الحرب على أن لا يفروا (٢٧٩٨).

(١١) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥١٥): «وحاصل الجمع أن من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها؛ لأنه إذا بايع أنه لا يفر لزم من ذلك أن يثبت، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر، والذي يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت، ولما كان الموت لا يؤمن في مثل ذلك أطلقه الراوي، وحاصله: أن أحدهما حكى صورة البيعة، والآخر حكى ما تئول إليه، وجمع الترمذي بأن بعضًا بايع على الموت وبعضًا بايع على أن لا يفر» اهـ.

(١٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣٨)، وزاد المعاد (٣/ ٢٩١).

عَلَى بَيْعَتِهِ، فَأَثْنَى عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ فَقَالَ: «**أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ**»(١٣)، وَقَالَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**»(١٤)، وَبَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُثْمَانَ ﵁ فَأَشَارَ إِلَى يَدِهِ الْيُسْرَى، وَقَالَ: «**هَذِهِ لِعُثْمَانَ**»(١٥)، فَنَالَ عُثْمَانُ بِذَلِكَ فَضْلَ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَهُوَ فِي مَكَّةَ يُفَاوِضُ قُرَيْشًا.

وَعُرِفَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ بِبَيْعَةِ الرُّضْوَانِ، وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِذِكْرِهَا يُخْبِرُ عَنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى عَنْ أَهْلِهَا.

وَقَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْقِتَالُ رَجَعَ عُثْمَانُ ﵁ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ، وَاسْتَمَرَّتْ الْمُرَاسَلَاتُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ حَتَّى تَمَّ الصُّلْحُ، وَكَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّ الْحَرْبِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي شَأْنِ هَذَا الصُّلْحِ سُورَةَ الْفَتْحِ، وَسَمَّاهُ فَتْحًا مُبِينًا.

كَانَ هَذَا الصُّلْحُ هُوَ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَهُ وَرَضِيَهُ لِلْمُسْلِمِينَ، رَغْمَ أَنَّ بُنُودَ بَعْضِ الصُّلْحِ كَانَ ظَاهِرُهَا إِجْحَافًا بِالْمُسْلِمِينَ؛ وَذَلِكَ كَرُجُوعِهِمْ عَنْ عُمْرَتِهِمُ الَّتِي أَحْرَمُوا بِهَا، وَرَدِّ مَنْ أَسْلَمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَعَدَمِ رَدِّ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ

---

(١٣) أخرجه من حديث جابر ﵁: البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٢٣)، ومسلم في الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (١٨٥٦).

(١٤) أخرجه من حديث جابر ﵁: مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان ﵃ (٢٤٩٦)، وأبو داود في السنة، باب في الخلفاء (٤٦٥٣)، والترمذي في المناقب، باب فضل من بايع تحت الشجرة (٣٨٦٠)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر البعث (٤٢٨١)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، وابن حبان (٤٨٠٢).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر ﵄: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁ (٣٤٩٥)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁ (٣٧٦٠)، وأحمد (٢/ ١٢٠).

الْإِسْلَامِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، بَلْ حَتَّى صِيَاغَةُ الصُّلْحِ أَبَى الْمُشْرِكُونَ أَنْ يُكْتَبَ فِيهَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ وَجَدَ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ فِي صُدُورِهِمْ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ عُمَرُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: **بَلَى**، قَالَ عُمَرُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**، قَالَ عُمَرُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: **بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ**؟ قَالَ عُمَرُ: لَا، قَالَ: **فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ**، فَأَتَى عُمَرُ أَبَا بَكْرٍ وَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٦).

وَوَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَا وَجَدَ عُمَرُ ﷺ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْحَرُوا هَدْيَهُمْ، وَيَحْلِقُوا رُؤُوسَهُمْ لِلْحِلِّ مِنْ إِحْرَامِهِمْ، فَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سَلَمَةَ ﷺ بِأَنْ يَبْدَأَ هُوَ بِمَا يُرِيدُ، فَفَعَلَ، فَقَامُوا وَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا(١٧).

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ وَهُمْ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»(١٨)، فَقَالَ عُمَرُ مُتَعَجِّبًا: «أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١٦) جاء ذلك في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم المخرج في حاشية (٣)، و(٤) وهذا اللفظ للبخاري.

(١٧) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٣)، و(٤).

(١٨) أخرجه من حديث زيد بن أسلم عن أبيه: مالك في الموطأ (١/ ٢٠٣)، ومن طريقه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٣).

نَعَمْ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ»[١٩]، وَفِي رِوَايَةٍ: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ»[٢٠]، وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَانْجَلَى عَنْهُمُ الْغَمُّ، وَأَدْرَكُوا قُصُورَهُمْ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ الْأَسْبَابِ وَالنَّتَائِجِ، وَأَيْقَنُوا بِأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ فِي التَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ.

قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا»[٢١].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١٩) هذه الزيادة للبخاري في الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠١١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (١٧٨٥) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢٠) هذه الرواية للحاكم من حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي فقال: لم يرو مسلم لمجمع شيئًا ولا لأبيه وهما ثقتان (٢/ ٤٥٩).

(٢١) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (٣)، و(٤).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ قَبْلَ اتِّهَامِ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، قَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ يَوْمَ صِفِّينَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّهِمُوا رَأْيَكُمْ، رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ»(٢٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ حَدَثًا فَاصِلًا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، اسْتَرَاحَ الْمُسْلِمُونَ عَقِبَهُ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ وَأَذَاهَا، وَتَفَرَّغَ النَّبِيُّ ﷺ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُرَاسَلَةِ مُلُوكِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ كَمَا سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾؛ إِذْ نَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَهَا قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ سَنَتَيْنِ مِنْ تَوْقِيعِهِ؛ فَكَانَ الْفَتْحُ الْعَظِيمُ لِمَكَّةَ فِي رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الثَّامِنَةِ.

كَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذَا الصُّلْحِ أَنْ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْوَاجًا؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ بَلَغَتْهُمْ؛ وَلِأَنَّهُمْ أَمِنُوا مِنْ غَضْبَةِ قُرَيْشٍ عَلَيْهِمْ؛ فَهِيَ مَا صَالَحَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ إِلَّا وَهِيَ تَعْتَرِفُ بِظُهُورِهِ، وَعُلُوِّ دِينِهِ، وَقُوَّةِ شَوْكَتِهِ، وَهَذَا نَصْرٌ عَظِيمٌ فِي هَذَا الصُّلْحِ مَا فَطِنَتْ لَهُ قُرَيْشٌ، وَلَا فَطِنَ لَهُ مَنِ اعْتَرَضَ عَلَى الصُّلْحِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَيَكْفِي دِلَالَةً عَلَى أَثَرِ هَذَا الصُّلْحِ فِي دُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْرَمَ الصُّلْحَ وَمَعَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَقَلَّ مِنْ سَنَتَيْنِ سَارَ إِلَى مَكَّةَ بِعَشْرَةِ آلَافِ مُسْلِمٍ، أَيْ: مَا يُقَارِبُ سَبْعَةَ أَضْعَافِهِمْ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا تَدْبِيرًا مِنَ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، وَتَقْدِيرًا مِنَ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَبْرَمَ الصُّلْحَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُوَالِهِمْ أَوْ يُوَادَّهُمْ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ

(٢٢) جاء ذلك في الحديث المخرج في حاشية (١٩).

عَنْ شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ لِأَجْلِهِمْ، وَلَا غَيَّرَ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَلَكِنَّهُ صَالَحَهُمْ عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ مُدَّةً زَمَنِيَّةً مُحَدَّدَةً، فَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا الصُّلْحِ عَلَى انْتِقَاصِ شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ، أَوِ التَّنَازُلِ عَنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ تَغْيِيرِهَا فَهُوَ مُخْطِئٌ، كَيْفَ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ يَعْرِضُ الصُّلْحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: «**مَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**» يَعْنِي: صَفْحَةَ عُنُقِهِ، فَهَلْ فِي هَذَا تَنَازُلٌ عَنِ الْمَبْدَإِ أَمْ تَأْكِيدٌ عَلَيْهِ؟!

بَلْ إِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا تَرَكَ إِغَاظَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّكْدِيرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَمَّ التَّوْقِيعُ عَلَى الصُّلْحِ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَ الْهَدْيَ لِلْحِلِّ مِنْ إِحْرَامِهِ نَحَرَ عَنْ نَفْسِهِ جَمَلًا كَانَ لِأَبِي جَهْلٍ غَنِيمَةً مِنْ غَنَائِمِ بَدْرٍ؛ لِيَغِيظَ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ(٢٣).

فَأَيْنَ هَذَا مِمَّنْ يَسْتَدِلُّ بِهَذَا الصُّلْحِ عَلَى التَّنَازُلِ عَنِ الدِّينِ، وَتَغْيِيرِ أَحْكَامِ الْمِلَّةِ، وَاتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ؟! هَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ تَلْبِيسًا وَتَزْوِيرًا وَخِدَاعًا.

قَالَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَصِفُ مَنَافِعَ هَذَا الصُّلْحِ: «فَمَا فُتِحَ فِي

---

(٢٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٢٦١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٣٩)، برقم (٣٨١٦)، وأبو داود في المناسك، باب في الهدي (١٧٤٩)، وابن ماجه في المناسك، باب الهدي من الإناث والذكور (٣١٠٠)، وصححه ابن خزيمة (٢٨٩٧)، والحاكم (١/ ٦٣٩).

وأخرجه مالك في الموطأ من حديث عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (١/ ٣٧٧).

قال الخطابي في معالم السنن (٢/ ٣٦١): «وقوله: «يغيظ بذلك المشركين» معناه: أن هذا الجمل كان معروفًا بأبي جهل فحازه النبي ﷺ في سلبه، فكان يغيظهم أن يروه في يده وصاحبه قتيل سليب» اهـ.

الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ، وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ، وَآمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي هاتين السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»(٢٤).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَيُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَلَاءَنَا لَهُ وَلِدِينِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



(٢٤) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤٧)، وينظر: فتح الباري لابن حجر (٥/ ٣٤٨).

المواعظ والرقائق

٣٢٧- عظمة الله تعالى.

٣٢٨- تعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره.

٣٢٩- الرعد والبرق والغيث.

٣٣٠- الرياح آية من آيات الله تعالى.

٣٣١- إعصار جونو.

٣٣٢- حدثان كبيران.

٣٣٣- حقيقة الزمن (١) الزمن من خلق الله تعالى.

٣٣٤- حقيقة الزمن (٢) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾.

٣٣٥- سنن الله تعالى في التدافع.

٣٣٦- الاستغفار (١) استغفار الأنبياء عليهم السلام.

٣٣٧- الاستغفار (٢) جلب الأرزاق ورفع العذاب.

٣٣٨- الاستغفار (٣) استغفار الملائكة للمؤمنين.

٣٣٩- الحب في الله تعالى (١).

٣٤٠- الحب في الله تعالى (٢).

٣٤١- الرضا عن الله تعالى (٢).

٣٤٢- قيمة الحياة الدنيا (١).

٣٤٣- قيمة الحياة الدنيا (٢).

٣٤٤- وسوسة الشيطان للإنسان.

٣٤٥- في القبر عذاب ونعيم.

٣٤٦- من أسباب الذل.

٣٢٧- عظمة الله تعالى

١٩/٤/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَظِيمِ؛ تَعَاظَمَ فِي ذَاتِهِ عَنِ الْإِحَاطَةِ وَالتَّكْيِيفِ، وَجَلَّ فِي صِفَاتِهِ عَنِ النَّقَائِصِ وَالتَّشْبِيهِ، وَتَعَالَى فِي مُلْكِهِ وَمَجْدِهِ فَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُشْكَرَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ فَهُوَ الَّذِي يُسْتَغْفَرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ جَمِيعُ المَوْجُودَاتِ، وَتَلَاشَتْ عَظَمَةُ المَخْلُوقَاتِ، فَكُلُّ الْكَائِنَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النَّمل: ٢٥، ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**» صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى.

اتَّقُوا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَاتَّقُوا مَنْ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ﴾ [لقمان: ١٠].

اتَّقُوا مَنْ ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فَاطِر: ٤١].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى: اسْمُ الْعَظِيمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَى: صِفَةُ

الْعَظَمَةِ؛ فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَمْرِهِ، وَدَانَ لِحُكْمِهِ، وَالْكُلُّ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ، وَهُوَ ذُو الْعَظَمَةِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، فَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥].

وَكُرْسِيُّهُ الَّذِي وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِيهِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَعَظَمَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ كَعَظَمَةِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ(١)، وَاللهُ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ. ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّورى: ٥]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «يَعْنِي مِنْ ثِقَلِ الرَّحْمَنِ وَعَظَمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(٢).

عَلِمَ مَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبُونَ عَظَمَتَهُ فَخَافُوهُ وَأَذْعَنُوا، وَعَظَّمُوهُ وَسَبَّحُوا، وَلَمْ يَسْتَنْكِفُوا عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَمْ يَسْتَكْبِرُوا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٩، ٢٠].

وَهُمْ عليهم السلام مَاضُونَ فِي تَنْفِيذِ أَمْرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ وَجِلُونَ مُشْفِقُونَ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٧، ٢٨].

إِنَّ عُظَمَاءَ الدُّنْيَا مَهْمَا عَلَوْا وَبَلَغُوا فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا يُشَاهِدُونَ أَوْ يُنْقَلُ إِلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى خِدْمَةِ رَعَايَاهُمْ، وَمَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ مَمَالِكِهِمْ

---

(١) جاء مرفوعًا، وجاء موقوفًا، والمرفوع جاء من حديث أبي ذر رضي الله عنه عند: ابن أبي شيبة في العرش (٥٨)، والطبري في تفسيره (٣/ ١٠) وأخرجه مطولًا ابن حبان في صحيحه (٣٦١) وسنده ضعيف، وصححه الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (١٠٩)، وقال: «واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث ...» اهـ من السلسلة الصحيحة (١/ ١٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ٧).

أَكْثَرُ مِمَّا يَظْهَرُ لَهُمْ، وَقَدْ يَخْدَعُهُمْ بَعْضُ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَخَافُهُمْ رَعِيَّتُهُمْ فِي السِّرِّ وَلَوْ أَظْهَرُوا الْخُضُوعَ لَهُمْ فِي الْعَلَنِ. وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ كَلَّفَ الْمَلَائِكَةَ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ خَلْقِهِ وَلَوْ لَمْ يُنْقَلْ إِلَيْهِ؛ بَلْ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُخْبِرُونَهُ الْخَبَرَ وَهُوَ ﷻ أَعْلَمُ مِنْهُمْ بِمَا أَخْبَرُوا، وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

وَالْخَلْقُ يَفِرُّونَ مِنْ عُظَمَاءِ الْخَلْقِ فَيَطْلُبُونَهُمْ وَلَا يَجِدُونَهُمْ، وَيُسَخِّرُونَ مَا يَمْلِكُونَ فَيَعْجَزُونَ فِي طَلَبِهِمْ، وَأَمَّا ذُو الْعَظَمَةِ فَلَا فِرَارَ لِلْخَلْقِ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا مَعَاذَ مِنْهُ إِلَّا بِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٨].

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْأَصْبَهَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْعَظَمَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَقُومُ لَهَا خَلْقٌ، وَاللهُ تَعَالَى خَلَقَ بَيْنَ الْخَلْقِ عَظَمَةً يُعَظِّمُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَظَّمُ لِمَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِفَضْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِعِلْمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِسُلْطَانٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَظَّمُ لِجَاهٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا يُعَظَّمُ بِمَعْنًى دُونَ مَعْنًى. وَاللهُ ﷻ يُعَظَّمُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ حَقَّ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَكْرَهُهَا اللَّهُ ﷻ، وَلَا يَرْتَكِبَ مَعْصِيَةً لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ ﷻ؛ إِذْ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»(٣).

عَلِمَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَظَمَةَ الْعَظِيمِ؛ فَنَصَبُوا فِي عِبَادَتِهِ، وَدَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى خَشْيَتِهِ، وَخَوَّفُوهُمْ مِنْ نِقْمَتِهِ، فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نُوح: ١٣، ١٤].

---

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٣٠).

أَيْ: مَا لَكَمَ لَا تَرَوْنَ لِلَّهِ تَعَالَى عَظَمَةً(٤).

وَخَاتَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاطَبَهُ رَبُّهُ ﷻ فَقَالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٧٤]. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»(٥).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُكْثِرُ مِنْ تَعْظِيمِ رَبِّهِ ﷻ وَتَسْبِيحِهِ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَفِي كُلِّ أَحْيَانِهِ وَيَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(٦).

وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شَيْئًا مِنْ عَظَمَةِ رَبِّهِ فِيمَا خَلَقَ فَقَالَ ﷺ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٧).

فَإِذَا كَانَتْ صَفْحَةُ عُنُقِ هَذَا الْمَلَكِ الْكَرِيمِ بِهَذَا الْحَجْمِ فَمَا حَجْمُهُ كَامِلًا، وَهُوَ خَلْقٌ وَاحِدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ؟! فَكَيْفَ إِذًا بِمَخْلُوقَاتِهِ الْأُخْرَى؟!

(٤) جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد والضحاك، ينظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٧٥)، وشعب الإيمان للبيهقي (٧٢٩).

(٥) أخرجه من حديث عقبة بن عامر ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، وابن ماجه في الإقامة، باب التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، والدارمي (١٣٠٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٢٥٣)، وأبو يعلى (١٧٣٨)، والروياني (٢٦٤)، والطبراني في الدعاء (٥٣٢)، والبيهقي (٢/ ٨٦)، وصححه ابن خزيمة (٦٠٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥١٩).

(٦) أخرجه من حديث عائشة ﷺ: البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء في الركوع (٧٦١)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٧) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٤٧٦)، والطبراني في الأوسط (١٧٠٩)، وقال ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات (٤/ ٤١٥). وقال الحافظ في الفتح: وإسناده على شرط الصحيح (٨/ ٦٦٥). وصححه المناوي في التيسير كما في عون المعبود (١٣/ ٢٦-٢٧).

فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ!

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ السَّابِعَةَ، وَالْعَرْشُ عَلَى مَنْكِبِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ أَيْنَ كُنْتَ وَأَيْنَ تَكُونُ» رَوَاهُ أَبُو يُعْلَى(٨).

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ يَقْطُرُ دَمْعُهُ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ مَلَكًا قَائِمًا يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، لَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ كَمَا يَنْبَغِي لَكَ»(٩).

وَسُئِلَ بَعْضُ السَّلَفِ عَنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لِلسَّائِلِ: «مَا تَقُولُ فِيمَنْ لَهُ عَبْدٌ وَاحِدٌ يُسَمَّى جِبْرِيلُ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، لَوْ نَشَرَ مِنْهَا جَنَاحَيْنِ لَسَتَرَ الْخَافِقَيْنِ»(١٠)، فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ!

وَالْمُؤْمِنُونَ بِرَبِّهِمْ، الْمُتَفَكِّرُونَ فِي خَلْقِهِ؛ يُدْرِكُونَ عَظَمَتَهُ، فَيُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ،

(٨) أخرجه أبو يعلى (٩/ ٦٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (١/ ٨٠)، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٤٣٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٧٤).

(٩) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢٦٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٥١٥)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٤٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٦)، وابن عساكر (٤٠/ ٦١)، وساقه ابن كثير في التفسير بسنده وقال: وهذا إسناد لا بأس به (٤/ ٤٤٧) لكن ضعفه الألباني بعباد بن منصور، فقال: وهذا إسناد ضعيف من أجل عباد بن منصور، قال الحافظ: «صدوق وكان يدلس، وتغير بأخرة» سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٩٨٨).

(١٠) شرح أسماء الله الحسنى للقشيري (٢٤٨).

وَيَخْضَعُونَ لِأُلُوهِيَّتِهِ، وَيُخْلِصُونَ فِي عِبَادَتِهِ، وَلَا يُشْرِكُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، لَا فِي مَحَبَّةٍ وَلَا رَجَاءٍ وَلَا خَوْفٍ، يَتَأَمَّلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ، فَتَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، وَتَفِيضُ بِالدَّمْعِ عُيُونُهُمْ؛ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا وَإِخْلَاصًا، وَتَلْهَجُ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِهِ ﷻ وَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَحَمْدِهِ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٩١].

لَقَدْ دَلَّتْ دَلَائِلُ الْوُجُودِ عَلَى عَظَمَةِ رَبِّنَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَخَضَعَتْ لَهُ المَخْلُوقَاتُ، وَبِهَذَا الْخُضُوعِ انْتَظَمَ الْعَالَمُ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُ الْخَلْقِ، فَقُنُوتُ الْكُلِّ لَهُ ﷻ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الْبَقَرَة: ١١٦، ١١٧]. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٣].

وَلَمَّا أَشْرَكَ بَعْضُ عِبَادِهِ بِهِ، وَادَّعَوْا لَهُ الْوَلَدَ؛ فَزِعَتِ المَوْجُودَاتُ مِنْ هَذَا الْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَأَوْشَكَ الْكَوْنُ أَنْ يَضْطَرِبَ وَيَخْتَلِطَ؛ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَفَرَقًا مِنْهُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ بَعْضُ خَلْقِهِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَسْكُنَ وَيَنْتَظِمَ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مَرْيَم: ٩٠-٩٢][١١].

وَمِنْ عَظَمَتِهِ ﷻ: أَنَّهُ لَا قِيَامَ لِلْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٥، ٢٦].

وَمَا يَجْرِي فِي الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالٍ وَأَحْوَالٍ، وَأَوْصَافِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كُلُّ ذَلِكَ

(١١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٠).

مِنْ دَلَائِلِ عَظَمَةِ الْكَبِيرِ المُتَعَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَى سَلْمَانُ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ! وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ المُوسَى فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟ فَيَقُولُ** ﷻ: **مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ!**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ(١٢).

فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ عَظِيمٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، عَظِيمٌ فِي مُلْكِهِ وَخَلْقِهِ، عَظِيمٌ فِي حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، عَظِيمٌ فِي افْتِقَارِ خَلْقِهِ إِلَيْهِ وَغِنَاهُ هُوَ عَنْهُمْ، عَظِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ شُؤُونَ خَلْقِهِ، عَظِيمٌ فِي الْفَصْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَكُلُّ عَظَمَةٍ فِي الْوُجُودِ فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا؛ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَتَعَاظَمَ فِي مَجْدِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ عَلِمَ أَنَّهَا قَدْ جَمَعَتْ أَوْجُهَ الْعَظَمَةِ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كَلَامِهِ ﷻ، كَمَا اسْتَحَقَّتِ الْفَاتِحَةُ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ سُورَةٍ؛ لِأَنَّهَا دَلَّتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَظَمَةِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ..

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

(١٢) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٦٢٩).
وأخرجه موقوفًا على سلمان ﷺ: ابن المبارك في الزهد (١٣٥٧)، والآجري في الشريعة (٨٩٥)، واللالكائي في السنة (٢٢٠٨)، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٧): ولكن الموقوف هو المشهور. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: وإسناده صحيح، وله حكم المرفوع، لأنه لا يقال من قبل الرأي (٩٤١).

ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْفَاتِحَة: ٢-٧]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥].

آمَنَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ..

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: عَظَمَةُ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ يُقِرُّ بِهَا كُلُّ مُسْلِمٍ، وَلَا يُمَارِي فِيهَا إِلَّا زِنْدِيقٌ أَوْ مُلْحِدٌ، وَقُدَمَاءُ أَهْلِ الشِّرْكِ فِي الْبَشَرِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِعَظَمَتِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُخْلِصُونَ لَهُ الدِّينَ، بَلْ يُشْرِكُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى.

وَالْإِيمَانُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ ثِمَارٌ يَجْنِيهَا الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﷻ، وَلَهُ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ مُعَظِّمٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ أَعْظَمِ ثِمَارِ الْإِيمَانِ بِعَظَمَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ وَتَعْظِيمِهِ ﷻ: فَرَحُ الْقَلْبِ وَسُرُورُهُ وَطُمَأْنِينَتُهُ؛ لِأَنَّهُ صَرَفَ التَّعْظِيمَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ، وَتِلْكَ هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الَّتِي مَنْ دَخَلَهَا دَخَلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ ﷻ وَصَفَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْأَوْصَافِ، وَأَقَرَّ بِأَفْعَالِهِ، وَنَسَبَ النِّعَمَ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣].

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى؛ خَضَعَ لِهَيْبَتِهِ، وَرَضِيَ بِقِسْمَتِهِ، وَلَمْ يَرْضَ بِدُونِهِ عِوَضًا، وَلَمْ يُنَازِعْ لَهُ اخْتِيَارًا، وَلَمْ يَرُدَّ لَهُ دِينًا ... وَتَحَمَّلَ فِي طَاعَتِهِ كُلَّ مَقْدُورٍ، وَبَذَلَ فِي مَرْضَاتِهِ كُلَّ مَيْسُورٍ.

وَكُلَّمَا قَوِيَ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ اسْتَصْغَرَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، وَاسْتَقَلَّ عَمَلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَجَلَّى لِشَيْءٍ خَشَعَ لَهُ؛ وَلِأَنَّ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ.

إِنَّ مَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى عَظَّمَ شَرِيعَتَهُ، وَأَجَلَّ أَهْلَهَا وَحَمَلَتَهَا وَالْعَامِلِينَ بِهَا؛ إِذْ إِنَّ إِجْلَالَهُمْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَامْتَثَلَ أَوَامِرَهُ، وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ، وَعَظَّمَ شَعَائِرَهُ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الْحَجّ: ٣٠]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الْحَجّ: ٣٢].

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى مَحَبَّةِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ وَكُلِّ مَحْبُوبٍ؛ لِأَنَّ مَا قَامَ فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى قَضَى عَلَى كُلِّ الْمَحْبُوبَاتِ سِوَاهُ ﷻ، فَإِذَا دَعَتْهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ مَحْبُوبٍ يُحِبُّهُ، وَشَيْءٍ يَطْلُبُهُ،

رَدَعَهُ تَعْظِيمُهُ لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّ الْبَشَرَ لَا يَزَالُونَ يَذْكُرُونَ مَنْ يُعَظِّمُونَ، فَكَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ أَنَّهُ مُعَظِّمٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ لَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ إِلَّا لَمَمًا.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَاعْتَصَمَ بِهِ، وَلَمْ يَخَفْ عُظَمَاءَ الْخَلْقِ؛ فَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ ﷻ أَقْوَى وَأَمْكَنُ مِنَ المَخْلُوقِينَ، مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ.

وَمَنْ عَظَّمَ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّمْ عَلَى كَلَامِهِ أَيَّ كَلَامٍ، بَلْ هُوَ مُسْتَدِيمُ النَّظَرِ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، تِلَاوَةً وَحِفْظًا وَتَدَبُّرًا وَعَمَلًا، يَتَأَمَّلُ بِقِرَاءَتِهِ صِفَاتِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَيَتَلَمَّسُ حِكَمَهُ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَيَلْحَظُ رَحْمَتَهُ وَعَدْلَهُ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَهْجُرُ كِتَابَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا يَغْمُضُ لَهُ جَفْنٌ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ حَتَّى يَقْرَأَ وِرْدَهُ، وَيُرَتِّلَ جُزْءَهُ، وَاضِعًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجُرَات: ١].

وَمَهْمَا عَمِلَ الْخَلْقُ مِنْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَتَعْظِيمِهِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَظَّمَ؛ فَحَقُّهُ ﷻ أَعْظَمُ، وَقَدْرُهُ أَكْبَرُ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْعَوْنَ فِي ذَلِكَ جُهْدَهُمْ، وَيَبْذُلُونَ فِيهِ وُسْعَهُمْ؛ وَالْعَظِيمُ لَا يُخَيِّبُ سَعْيَهُمْ، وَلَا يُضِيعُ عَمَلَهُمْ، وَلَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ؛ رَحْمَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَيَجْزِيهِمْ عَلَى قَلِيلِ سَعْيِهِمْ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ، وَأَجْزَلَ الْمَثُوبَةِ، وَهُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]..

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

٣٢٨- تعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره (*)

٦/٦/١٤١٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ -مَعَ كَثْرَةِ الصَّوَارِفِ، وَالِانْغِمَاسِ فِي الْمَادِّيَّاتِ، وَتَنَوُّعِ الْمُغْرِيَاتِ- يَتَنَاسَى عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ، وَيَغْفُلُ عَنْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ، فَلَا يَتَأَمَّلُ خَلْقَهُ، وَلَا يَتَدَبَّرُ كِتَابَهُ، وَيُقَصِّرُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى.

يَتَّاقَلُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَيُسَارِعُ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَدْ خَشَعَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ لِعَظَمَةِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذَلَّتْ لِقُدْرَتِهِ ﷻ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إِنَّ الشِّرْكَ فَزِعَتْ مِنْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ

(*) هذه الخطبة مستفادة من مقالة نفيسة جدًّا، بعنوان: تعظيم الله تعالى وشعائره، لفضيلة الشيخ د.عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مجلة البيان، عدد (١٠١) ص (٨).

وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، وَكَادَتْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى»(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»(٢).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ قَالَ: «يَتَشَقَّقْنَ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ عز وجل»(٣).

وَكَانَ دَأْبُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْظِيمَ اللَّهِ عز وجل وَتَذْكِيرَ أَقْوَامِهِمْ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ، قَالَ نُوحٌ عليه السلام مُخَاطِبًا قَوْمَهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ للَّهِ تَعَالَى عَظَمَةً؟»(٤).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَا تَرَوْنَ للَّهِ تَعَالَى عَظَمَةً»(٥).

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «مَا لَكُمْ لَا تُعَظِّمُونَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ عَظَمَتِهِ؟!»(٦).

لَقَدْ كَانَ نُوحٌ يُحَرِّكُ عُقُولَ قَوْمِهِ لِإِدْرَاكِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَضْرِبُ لَهُمُ الدَّلَائِلَ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] (٧٣٧٨)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٢٨٠٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٧٤)، وأورده عنه وعن السدي: القرطبي في تفسيره (١٦/ ٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الزهد (١/ ٣٦٨).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٤).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٩٥).

إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٥-٢٠].

وَنَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ يُرَبِّي أَصْحَابَهُ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»(٧).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَمَا فِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِمَّا وَصَفَ ذَلِكَ الْحَبْرُ؛ فَإِنَّ الَّذِي فِي الْآيَةِ أَبْلَغُ»(٨).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ»(٩).

وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا؛ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟**» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا**»،

---

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] (٤٨١١)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٨) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٢).

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤١).

وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ «وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

وَسَارَ عَلَى نَهْجِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى صَحَابَةُ رَسُولِهِ ﷺ، فَعَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَعُمِرَتْ قُلُوبُهُمْ بِإِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْقِيرِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لِبَعْضِ أَصْحَابِ المِرَاءِ وَالْجَدَلِ: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا

(١٠) أخرجه من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤٧٢٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥)، وابن أبي شيبة في العرش (١١)، وابن خزيمة في التوحيد (١٧٥)، والآجري في الشريعة (٦٦٧)، والدارقطني في الصفات (٣٨)، وصححه ابن منده في التوحيد، فقال: وهذا الحديث رواه بكر بن سليمان وغيره، وهو إسناد صحيح متصل من رسم أبي عيسى والنسائي (٣/ ١٨٨) رقم (٦٤٤)، فتعقبه الألباني في السلسلة الضعيفة فقال: قلت: كلا؛ فإن ابن سليمان مدلس وقد عنعنه، وبكر بن سليمان الذي ذكر ابن منده أنه روى هذا الحديث هو من الرواة عن ابن إسحاق، فمدار الحديث عليه، ولم يصرح بسماعه فيه، فهو علة الحديث؛ ولذلك استغربه الحافظ ابن كثير في تفسيره لآية الكرسي (٢٦٣٩).

فائدة: قال ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية: وهذا الحديث قد يطعن فيه بعض المشتغلين بالحديث؛ انتصارًا للجهمية وإن كان لا يفقه حقيقة قولهم، وما فيه من التعطيل، أو استبشاعًا لما فيه من ذكر الأطيط، كما فعل أبو القاسم المؤرخ، ويحتجون بأنه تفرد به محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن جبير، ثم يقول بعضهم: ولم يقل ابن إسحاق: حدثني، فيُحْتَمل أن يكون منقطعًا، وبعضهم يتعلل بكلام بعضهم في ابن إسحاق، مع أن هذا الحديث وأمثاله وفيما يشبهه في اللفظ والمعنى لم يزل متداولًا بين أهل العلم خالفًا عن سالف، ولم يزل سلف الأمة وأئمتها يَرْوون ذلك رواية مصدق به راد به على مَنْ خالفه من الجهمية، متلقين لذلك بالقبول، حتى قد رواه الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه في التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بأحاديث الثقات المتصلة الإسناد، رواه عن بندار، كما رواه الدارمي وأبو داود سواء، وكذلك رواه عن أبي موسى محمد بن المثنى بهذا الإسناد مثله سواء... إلى أن قال: وممن احتج به الحافظ أبو محمد بن حزم، في مسألة استدارة الأفلاك، مع أن أبا محمد هذا من أعلم الناس، لا يقلد غيره، ولا يحتج إلا بما تثبت عنده صحته. بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٠-٥٧١).

أَصَمَّتْهُمْ خَشْيَةُ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ وَلَا بُكْمٍ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُصَمَاءُ، النُّبَلَاءُ الطُّلَقَاءُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللَّهِ ﷻ انْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حتَّى إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ؛ فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ؟»(١١).

وَجَاءَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَوْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ»(١٢).

وَسَارَ عَلَى تِلْكَ الطَّرِيقَةِ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ، قَادَهُمْ عِلْمُهُمْ وَمَعْرِفَتُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى إِلَى تَعْظِيمِهِ وَخَشْيَتِهِ، قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لِيُعَظِّمْ أَحَدُكُم رَبَّهُ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى يَقُولَ: أَخْزَى اللَّهُ الْكَلْبَ، وَفَعَلَ اللَّهُ بِهِ كَذَا»(١٣).

وَقَالَ الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَكَانَ بَعْضُ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ مَشَايِخِنَا قَلَّ مَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا فِيمَا يَتَّصِلُ بِالطَّاعَةِ»(١٤).

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الشَّاشِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَعِيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ خَوْضِهِمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: «هَؤُلَاءِ يَتَمَنْدَلُونَ بِاللَّهِ ﷻ»(١٥).

---

(١١) أخرجه ابن أبي عاصم في الزهد (٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٥)، والبيهقي في الشعب (٥٠٠١)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٧٢١ و٧٢٢)، والآجري في الشريعة (١٢٩ و١٣٠).

(١٢) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٥٣٤)، وابن عساكر في تاريخه (٩/ ٣٦٧).

(١٣) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٢٤٨)، وفتاوى السبكي (٢/ ٥٧٨).

(١٤) نقله عنه القاضي عياض في الشفا (٢/ ٢٤٨).

(١٥) الشفا (٢/ ٢٤٨).

وَجَاءَ فِي سِيرَةِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَانْتَفَضَ أَبُو حَنِيفَةَ، وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَأَطْرَقَ، ثُمَّ قَالَ: «جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، مَا أَحْوَجَ النَّاسَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى مَنْ يَقُولُ لَهُمْ مِثْلَ هَذَا!»(١٦).

وَمِنْ أَرْوَعِ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي دَوَّنَهَا التَّارِيخُ عَنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ فِي تَعْظِيمِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى: مَا وَقَعَ لِلْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لَمَّا سَأَلَهُ أَحَدُهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ الرَّاوِي يَحْكِي مَوْقِفَ الْإِمَامِ مَالِكٍ إِزَاءَ هَذَا السُّؤَالِ: فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ -أَيْ: غَضِبَ- مِنْ شَيْءٍ كَوَجْدِهِ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ -أَيْ: الْعَرَقُ- وَأَطْرَقَ الْقَوْمُ، فَجَعَلُوا يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِهِ فِيهِ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْ مَالِكٍ، فَقَالَ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَإِنِّي لَأَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ»(١٧).

فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- مَا أَصَابَ الْإِمَامَ مَالِكًا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَتَصَبُّبِ الْعَرَقِ؛ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنْكَارًا لِهَذَا السُّؤَالِ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَيَتَوَاصَلُ الْأَئِمَّةُ إِمَامًا بَعْدَ إِمَامٍ فِي ضَرْبِ الْأَمْثِلَةِ الْعَجِيبَةِ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَتِهِ، فَهَذَا إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَمُرُّ مَعَ ابْنِهِ، فَإِذَا قَاصٌّ يَقُصُّ عَلَى النَّاسِ حَدِيثَ النُّزُولِ، وَيَقُولُ: يَنْزِلُ اللهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا بِلَا زَوَالٍ وَلَا انْتِقَالٍ، وَلَا تَغَيُّرِ حَالٍ، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ: «فَارْتَعَدَ أَبِي وَاصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَلَزِمَ يَدِي، وَأَمْسَكْتُهُ حَتَّى سَكَنَ، ثُمَّ قَالَ: قِفْ بِنَا عَلَى هَذَا

(١٦) تاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٤٠٠)، وسيرة أبي حنيفة وصاحبيه للذهبي أيضًا (٢٣).

(١٧) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (١٠٤).

الْمُتَخَرِّصِ، فَلَمَّا حَاذَاهُ قَالَ: يَا هَذَا، رَسُولُ اللَّهِ أَغْيَرُ عَلَى رَبِّهِ ﷻ مِنْكَ، قُلْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»[١٨].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ مِنْ لَوَازِمِ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]؛ إِذْ مَحَلُّ هَذَا التَّعْظِيمِ هُوَ الْقَلْبُ، وَيَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ؛ فَتَأْتِي مَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى، وَتَنْتَهِي عَمَّا نَهَى عَنْهُ، فَتَعْظِيمُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِمَا، وَالِانْتِهَاءُ إِلَى مَعَالِمِهِمَا هُوَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ مَالِكٌ: «كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ إِلَّا كَانَ يَبْكِي»[١٩].

وَقَالَ مَهْدِيُّ بْنُ مَيْمُونٍ: «رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثِ النَّاسِ، وَيُنْشِدُ الشِّعْرَ وَيَضْحَكُ حَتَّى يَمِيلَ، فَإِذَا جَاءَ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْمُسْنَدِ كَلَحَ وَتَقَبَّضَ، وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ حَتَّى تَقُولَ: كَأَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي كَانَ»[٢٠].

وَذَكَرَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ أَنَّ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ إِذَا حَدَّثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ[٢١].

وَقَالَ بَكَّارُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «كَانَ ابْنُ عَوْنٍ إِذَا حَدَّثَ بِالْحَدِيثِ يَخْشَعُ عِنْدَهُ حَتَّى نَرْحَمَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَزِيدَ أَوْ يَنْقُصَ»[٢٢].

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا التَّعْظِيمُ وَالْخُشُوعُ عِنْدَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ

(١٨) عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني المقدسي (٤٦)، وأقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات لمرعي الكرمي (٦٢-٦٣)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٢٦١).
(١٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٤٧).
(٢٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦١٢).
(٢١) تاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ١٥٦).
(٢٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٩).

الْهَوَى، فَتَعْظِيمُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى جَعَلَهُمْ يُعَظِّمُونَ مَا جَاءَ عَنْهُ تَعَالَى، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ رَسُولًا فَعَظَّمَهُ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّعْظِيمَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْإِطْرَاءِ أَوِ التَّعَدِّي عَلَى حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَعْظِيمُ حَدِيثِهِ إِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ الْإِمَامَ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ فَقَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ مَالِكٍ وَهُوَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وَمَالِكٌ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَصْفَرُّ وَلَا يَقْطَعُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْمَجْلِسِ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ، قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْكَ عَجَبًا، فَقَالَ: نَعَمْ، إِنَّمَا صَبَرْتُ إِجْلَالًا لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٢٣).

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ تَعْظِيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ» اهـ(٢٤).

هَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَمَا جَاءَ عَنْهُمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ...



(٢٣) أخرجه البيهقي في المدخل للسنن الكبرى (٦٩٨)، وابن عساكر في تاريخه (٣٦/ ٣١٣).

(٢٤) أخرجه البيهقي في الشعب (١٥١٥)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٩٥٩).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: مَعَ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَدْ خَلَقَ هَذَا الْكَوْنَ وَدَبَّرَهُ وَأَتْقَنَهُ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرَّمَ بَنِي آدَمَ بِعِبَادَتِهِ، وَشَرَّفَهُمْ بِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَالِاسْتِخْلَافِ فِيهَا، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ عُظْمَى، وَمِنَّةٌ كُبْرَى مِنَ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ ﷻ لِهَذَا الْبَشَرِ الضَّعِيفِ، فَهَلْ نَحْنُ أَهْلٌ لِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ؟!

قَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْحَيَوَانَ، لَا سِيَّمَا ابْنَ آدَمَ؛ حَيْثُ أَبَاحَهُ الشِّرْكَ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ وَخَوْفِ الضَّرَرِ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. مَنْ قَدَّمَ حُرْمَةَ نَفْسِكَ عَلَى حُرْمَتِهِ حَتَّى أَبَاحَكَ أَنْ تَتَوَقَّى وَتُحَامِي عَنْ نَفْسِكَ بِذِكْرِهِ بِمَا لَا يَنْبَغِي لَهُ سُبْحَانَهُ، لَحَقِيقٌ أَنْ تُعَظِّمَ شَعَائِرَهُ، وَتُوَقِّرَ أَوَامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ. وَعَصَمَ عِرْضَكَ بِإِيجَابِ الْحَدِّ بِقَذْفِكَ، وَعَصَمَ مَالَكَ بِقَطْعِ مُسْلِمٍ فِي سَرِقَتِهِ، وَأَسْقَطَ شَطْرَ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ مَشَقَّتِكَ، وَأَبَاحَكَ الْمَيْتَةَ سَدًّا لِرَمَقِكَ وَحِفْظًا لِصِحَّتِكَ، وَزَجَرَكَ عَنْ مَضَارِّكَ بِحَدٍّ عَاجِلٍ، وَوَعِيدٍ آجِلٍ، وَفَرَّقَ الْعَوَائِدَ لِأَجْلِكَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ إِلَيْكَ، أَيَحْسُنُ بِكَ مَعَ هَذَا الْإِكْرَامِ أَنْ تُرَى عَلَى مَا نَهَاكَ

مُنْهَمِكًا، وَعَمَّا أَمَرَكَ مُتَنَكِّبًا، وَعَنْ دَاعِيهِ مُعْرِضًا، وَلِسُنَّتِهِ هَاجِرًا، وَلِدَوَاعِي عَدُوِّكَ فِيهِ مُطِيعًا؟ يُعَظِّمُكَ وَهُوَ هُوَ، وَتُهْمِلُ أَمْرَهُ وَأَنْتَ أَنْتَ، حَطَّ رُتَبَ عِبَادِهِ لِأَجْلِكَ، وَأَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا لَكَ، مَا أَوْحَشَ مَا تَلَاعَبَ الشَّيْطَانُ بِالْإِنْسَانِ! بَيْنَا يَكُونُ بِحَضْرَةِ الْحَقِّ وَمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ سُجُودٌ لَهُ، تَتَرَامَى بِهِ الْأَحْوَالُ وَالْجَهَالَاتُ بِالمَبْدَإِ وَالمَآلِ، إِلَى أَنْ يُوجَدَ سَاجِدًا لِصُورَةٍ فِي حَجَرٍ، أَوْ لِشَمْسٍ أَوْ لِقَمَرٍ، أَوْ لِشَجَرَةٍ مِنَ الشَّجَرِ، مَا أَوْحَش زَوَالَ النِّعَمِ، وَتَغَيُّرَ الْأَحْوَالِ، وَالْحَوْرَ بَعْدَ الْكَوْرِ!» اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى(٢٥).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُعَظِّمٌ للَّهِ تَعَالَى وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُبَرْهِنَ عَلَى هَذَا التَّعْظِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فِي تَعْظِيمِهِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ، فِي الْخَوْفِ مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِلَا عِلْمٍ. سُئِلَ عَطَاءٌ عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، فَقِيلَ: أَلَا تَقُولُ بِرَأْيِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي أَسْتَحِيي مِنَ اللَّهِ تَعَالى أَنْ يُدَانَ فِي الْأَرْضِ بِرَأْيِي»(٢٦).

يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ هَذَا التَّعْظِيمُ للَّهِ تَعَالَى فِي تَعْظِيمِ كِتَابِهِ، وَتَعْظِيمِ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَعْظِيمِ حَمَلَتِهِمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ، وَتَعْظِيمِ مَا عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا عَظَّمَ رَسُولُهُ ﷺ؛ حَتَّى نَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي تَعْظِيمِنَا للَّهِ ﷻ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَعَظِّمُوهُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

---

(٢٥) ذكره في كتابه الفنون، ونقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٣٩).

(٢٦) أخرجه الدارمي في السنن (١٠٧)، والهروي في ذم الكلام (٣٦٤)، وابن عساكر (٤٠/ ٣٩٧).

٣٢٩- الرعد والبرق والغيث (*)

٢٣/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢]، ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: آيَاتُ الرَّبِّ -جَلَّ جَلَالُهُ- فِي خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ، وَحَاجَةُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ عَظِيمَةٌ.. لَا يَنْفَكُّ الْخَلْقُ عَنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.. وَلَوْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ عَنْهُمْ لَهَلَكُوا. ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونُس: ٣١]، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ

(*) هذه الخطبة كانت بمناسبة أمطار غزيرة عمت مناطق المملكة في هذا الأسبوع صاحبها رعد وبرق كثير، فلله الحمد والشكر لا أحصي ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه.

رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وَمِنْ رِزْقِهِ ﷻ: إِنْزَالُ الْغَيْثِ الَّذِي يُغِيثُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْعِبَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ.

وَالْغَيْثُ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى إِثْبَاتِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٤].

إِنَّ مَا يَكُونُ فِي مُقَدِّمَاتِ الْغَيْثِ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ يَطْمَعُ فِيهِ الْبَشَرُ وَيَخَافُونَهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، يَخَافُونَ أَنْ يَكُونَ مُقَدِّمَةَ عَذَابٍ وَهَلَاكٍ، وَيَطْمَعُونَ فِي مَا يَحْوِيهِ مِنَ الْغَيْثِ وَالرَّحْمَةِ.

وَالرَّعْدُ وَالْبَرْقُ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يُسَخِّرُهُ اللَّهُ ﷻ حَيْثُ شَاءَ، فَيَجْعَلُهُ سَبَبَ رَحْمَةٍ أَوْ مُقَدِّمَةَ عَذَابٍ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرَّعْد: ١٢-١٣].

قَالَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: وَيُعَظِّمُ اللَّهَ الرَّعْدُ وَيُمَجِّدُهُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ، وَيُنَزِّهُهُ مِمَّا أَضَافَ إِلَيْهِ أَهْلُ الشِّرْكِ بِهِ، وَمِمَّا وَصَفُوهُ بِهِ مِنِ اتِّخَاذِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، تَعَالَى رَبُّنَا وَتَقَدَّسَ»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: **مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ**. فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ

---

(١) جامع البيان (١٣/ ١٢٤).

الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: **زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ.** قَالُوا: صَدَقْتَ»(٢).

وَجَاءَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الرَّعْدُ مَلَكٌ وَالْبَرْقُ مِخْرَاقٌ مِنْ حَدِيدٍ..»(٣)، وَجَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: «أَنَّ المَلَكَ يَزْجُرُ السَّحَابَ بِالمَخَارِيقِ يَسُوقُهُ حَيْثُ يُرِيدُ اللَّهُ ﷻ»(٤).

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ السَّحَابَ يَنْطِقُ وَيَضْحَكُ؛ فَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ المَنْطِقِ، وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ**»(٥).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَالمُرَادُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ نُطْقَهَا الرَّعْدُ

---

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الرعد، وقال: هذا حديث حسن غريب (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢)، وأحمد (١/ ٢٧٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥) رقم (١٢٤٢٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٤٨٣)، والألباني في صحيح الترمذي (٢٤٩٢)، وعزاه الألباني في السلسلة الصحيحة لابن منده في التوحيد وأبي إسحاق الحربي في الغريب، وابن بشران في الأمالي، والضياء في المختارة، ونقل عن ابن منده قوله: «هذا إسناد متصل ورواته ثقات مشاهير أخرجه النسائي»، ثم قال الألباني بعد أن ذكر طرقه: «وجملة القول أن الحديث عندي حسن على أقل الدرجات» اهـ السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٩١-٤٩٣) رقم (١٨٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٥٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٦٧) وأخرجه الطبري في تفسيره مختصرًا بلفظ: «الرعد ملك» (١/ ١٥١).

(٤) أخرجه الطبري (١/ ١٥٢) عن علي وابن عباس وابن جريج ﷺ: أن البرق مخاريق من نار بأيدي الملائكة يزجرون بها السحاب، وعن علي ﷺ: «الرعد الملك، والبرق ضربة السحاب بمخراق من حديد»، وأخرجه عن علي أبو الشيخ في العظمة (٧٦٨).

(٥) أخرجه عن شريح بن غفار ﷺ: أحمد (٥/ ٤٣٥)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٧١)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٢٢٠)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧١٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٥).

وَضَحِكَهَا الْبَرْقُ»(٦)، ثُمَّ نَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «يَبْعَثُ اللَّهُ الْغَيْثَ فَلَا أَحسَنَ مِنْهُ مَضْحَكًا! وَلَا آنَس مِنْهُ مَنْطِقًا! فَضَحِكُهُ الْبَرْقُ وَمَنْطِقُهُ الرَّعْدُ»(٧).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ يَقُولُونَ: الرَّعْدُ مَلَكٌ يَزْجُرُ السَّحَابَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ زَجْرُهُ لَهَا تَسْبِيحًا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وَالرَّعْدُ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ إِلَّا بِذَلِكَ الصَّوْتِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَسْبِيحَهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] أَيْ: سَبِّحِي مَعَهُ» اهـ(٨).

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَفْرَقَ إِذَا أَبْصَرَ تَغَيُّرَ الْأَحْوَالِ الْجَوِّيَّةِ خَشْيَةَ الْعَذَابِ، فَإِذَا بَانَ لَهُ أَنَّهُ رَحْمَةٌ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ مِنَ الْغَيْثِ فَلْيَفْرَحْ بِالرَّحْمَةِ، وَلْيَشْكُرِ الْمُنْعِمَ عَلَى النِّعْمَةِ، وَلْيَلْحَظْ حِينَ نُزُولِ الْغَيْثِ، وَسَمَاعِ الرَّعْدِ، وَرُؤْيَةِ الْبَرْقِ: قُدْرَةَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَقُوَّتَهُ، وَكَثْرَةَ جُنْدِهِ، وَعَظِيمَ صُنْعِهِ، وَحُسْنَ تَدْبِيرِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا كَانَ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَفْعَلُونَ، وَقَدْ أَخْبَرَتْ عَائِشَةُ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ إِذَا رَأَى مَخِيلَةَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ يَتَمَعَّرُ وَجْهُهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَرَحْمَةٌ هِيَ أَمْ عَذَابٌ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ(٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٦).

(٧) لم أقف على هذا الأثر إلا عند ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٢/ ٥٠٦).

(٨) الاستذكار (٨/ ٥٨٨).

(٩) أخرجه بلفظ: «إذا رأى مخيلة في السماء» البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] (٣٠٣٤)، والترمذي=

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ إِذَا رَأَى نَاشِئًا فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ تَرَكَ عَمَلَهُ، وَإِنْ كَانَ فِي صَلَاتِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ**، فَإِنْ كَشَفَهُ اللَّهُ حَمِدَ اللهَ، وَإِنْ مَطَرَتْ قَالَ: **اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «أَخَذَتِ النَّاسَ الرِّيحُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَنْ حَوْلَهُ: مَا الرِّيحُ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ شَيْئًا، فَبَلَغَنِي الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ؛ فَاسْتَحْثَثْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُخْبِرْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الرِّيحِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﷻ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ؛ فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ مِنْ خَيْرِهَا وَعُوذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١١).

= في التفسير، باب ومن سورة الأحقاف (٣٢٥٧)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر (٣٨٩١)، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٣١٨).

(١٠) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٥١)، وأحمد واللفظ له (٦/ ١٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٣٠)، وأورده في الصحيحة (٢٧٥٧).

(١١) أخرجه أبو داود مختصرًا في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٥)، وأحمد (٢/ ٢٦٧-٥١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠٦)، وأبو يعلى (٦١٤٢)، والطبراني في الدعاء (٩٧١)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣١٥)، وصححه ابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣١٨)، وحسنه النووي في رياض الصالحين (٣٩١)، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد: «حسن صحيح» (٩٦٩)، وأورده في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٧).

وقوله: «**من روح الله**» قال البغوي في شرح السنة: أي: من رحمته (٤/ ٣٩٣).

وقال شيخ الإسلام: لفظ «الروح» يقتضي اللطف؛ ولهذا تسمى الريح روحًا. وقال النبي ﷺ: «**الرِّيح من روح الله**» أي: من الروح التي خلقها الله، فإضافة الروح إلى الله =

وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- كَانُوا إِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ وَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ يَلْحَظُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَيُسَبِّحُونَهُ وَيُعَظِّمُونَهُ؛ كَمَا جَاءَ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَوَعِيدٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ المُفْرَدِ(١٢).

= إضافة ملك لا إضافة وصف؛ إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عينًا قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله:

فالأول: كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]، وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال عن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

والثاني: كقولنا: علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياة الله وأمر الله، لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علمًا، والمقدور قدرة، والمأمور به أمرًا، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقًا. كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، ومن هذا الباب قوله: «**إِنَّ اللهَ خلقَ الرَّحْمَةَ يوم خلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً وأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَة وتِسْعِين رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ فَرَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ**»، ومنه قوله في الحديث الصحيح للجنة: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**»، كما قال للنار: «**أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِك مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا**» » مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٠-٢٩١).

(١٢) أخرجه موقوفًا على ابن الزبير رضي الله عنهما: مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأحمد في الزهد (١/ ٢٠١)، وأبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٣٠٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، وصححه النووي في الأذكار (٥٦٦)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٥٦). =

وَرَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»[١٣].

= وأخرجه مرفوعًا من حديث أبي هريرة ﭬ: الطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٤)، وهو ضعيف في سنده رجل مبهم.

وجاء عن الأسود بن يزيد أنه كان يقوله إذا سمع الرعد، عند الطبري (١٣/ ١٢٤)، والطبراني في الدعاء (٩٨٤).

وجاء عن كعب أن من قال ذلك ثلاثًا عوفي من الصواعق، أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٨٤)، والطبراني في الدعاء (٩٨٥) وفي سنده سليمان بن علي لم يوثقه إلا ابن حبان.

وجاء عن ابن عباس ﭭ موقوفًا «أنَّ مَنْ قاله فأصابته فعليّ ديته» أخرجه سعيد ابن منصور (١١٦٥).

وجاء أيضًا في ذلك: حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ﭭ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: **اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك**» أخرجه أحمد (٢/ ١٠٠)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال: حديث غريب (٣٤٥٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأبو يعلى (٥٥٠٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣١٨) رقم (١٣٢٣٠)، وفي الدعاء (٩٨١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣١٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥٧٦٣)، وقواه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات (٤/ ٢٨٤)، لكن ضعفه النووي في الأذكار (١٦٤)، وكذا الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٤٢).

وجاء أيضًا في حديث ابن عباس ﭭ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنها لا تصيب ذاكرًا**» أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٦٤) رقم (١١٣٧١) وأبو الشيخ في العظمة (٧٨٢)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد بيحيى بن كثير أبي النضر (١٠/ ١٣٦) ثم الألباني في ضعيف الجامع (٥٥١) وذكر له علة أخرى وهي عبدالكريم بن أبي المخارق البصري أبو أمية المعلم كما في السلسلة الضعيفة (٢٥٦٨).

وجاء أيضًا من حديث عبيد الله بن أبي جعفر مرسلًا: «أن قومًا سمعوا الرعد فكبروا فقال رسول الله ﷺ: **إذا سمعتم الرعد فسبحوا ولا تكبروا**» أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٣١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٥٢).

(١٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٢٧).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: «اللَّهُمَ لَا تُسْقِطْ عَلَيْنَا سَخَطَكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ»(١٤).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «قُلْتُ لِابْنِ طَاوُسٍ: مَا كَانَ أَبُوكَ يَقُولُ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ؟ قَالَ: كَانَ يَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْ لَهُ، قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله: كَأَنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عز وجل: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ(١٥).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٨، ٤٩].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

---

(١٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٧٤)، وفي المصنف (٢٠٠٠٦).

(١٥) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٠٠٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٥)، والطبراني في الدعاء (٩٨٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، والطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٤)، وصححه النووي في الأذكار (٥٦٧).

وأخرجه بنحوه الطبري بأسانيده عن ابن عباس وعلي والأسود بن يزيد رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون ذلك إذا سمعوا الرعد.

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ- عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ؛ فَإِنَّ فِي الشُّكْرِ دَوَامَ النِّعَمِ وَزِيَادَتَهَا، وَفِي كُفْرِهَا زَوَالَهَا وَتَبْدِيلَهَا؛ فَيَحُلُّ الْخَوْفُ مَحَلَّ الْأَمْنِ، وَتَكُونُ الْقِلَّةُ بَعْدَ الْجِدَا، وَيُمْنَعُ الْعِبَادُ أَرْزَاقَ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الْأَرْضِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: ٧]، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

وَاللهُ ﷻ لَا يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الْإِقْرَارَ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ، وَالِاعْتِرَافَ بِفَضْلِهِ عَلَى خَلْقِهِ، ثُمَّ الْعَمَلَ بِذَلِكَ مِنْ حَمْدِهِ تَعَالَى وَذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ: لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

---

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩)، والطيالسي (٢٥٧٦)، وعبد بن حميد (١١٤٢٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٧١٩)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: صدقة ضعفوه (٤/ ٢٨٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٧١)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٨٦٩٣)، لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٦٢).

وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية، ونقل قول الدارقطني: الحديث غير ثابت (١٣٢١).

وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة، وذكر له علتين:

الأولى: ضعف صدقة بن موسى الدقيقي، وهي العلة التي أعل بها الذهبي الحديث في تعقبه على الحاكم، وقد أورد الذهبي صدقة هذا في الضعفاء وفي الميزان، وقال: =

وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الْجِنّ: ١٦].

وَإِنَّ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْغَيْثِ الْمُبَارَكِ: الِاعْتِرَافَ بِفَضْلِهِ، وَنِسْبَةَ أَفْعَالِهِ ﷻ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يُنْشِئُ السَّحَابَ، وَيَسُوقُهُ حَيْثُ شَاءَ، وَيَأْمُرُ الرَّعْدَ بِمَا شَاءَ، وَيُغِيثُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ.

وَنِسْبَةُ هَذِهِ الْحَوَادِثِ إِلَى غَيْرِهِ شِرْكٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ مُتَضَمِّنٌ لِلشِّرْكِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ: كَنِسْبَةِ الْأَمْطَارِ لِلْأَنْوَاءِ، أَوْ نَفْيِ أَنَّ الرَّعْدَ وَالْبَرْقَ تَسُوقُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وحَصْرِهِ فِي احْتِكَاكِ السُّحُبِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْعَلُهُ بَعْضُ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَوْ أَهْلُ الْفَلَكِ عِلَّةً، فَيَقْصُرُونَ هَذِهِ الْحَوَادِثَ عَلَى عِلَّاتِهَا بَعِيدًا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الْوَاقِعَة: ٨٢] أَيْ: وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ، أَوْ تُنْكِرُونَ قُدْرَتَهُ جَلَّ جَلَالُهُ(١٧).

= ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما؛ وقال أبو حاتم: يكتب حديثه وليس بالقوي.
الثانية: جهالة شتير بن نهار، قال الذهبي في الميزان (٣/ ٤٢٩) «نكرة»، وينظر: السلسلة الضعيفة (٨٨٣).

وأخرجه الدارقطني في العلل وقال: يرويه محمد بن واسع، واختلف عنه، فقال عبد السلام بن حرب: عن محمد بن واسع عن نهار العبدي عن أبي سعيد، ووهم فيه، وقال حماد بن سلمة عن محمد بن واسع عن شتير بن نهار عن أبي سعيد، وقيل: سمير بن نهار، والحديث غير ثابت» اهـ من العلل (١١/ ٣١٥) رقم (٢٣٠٦).

(١٧) قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- في التمهيد (١٦/ ٢٩٢): «وتجعلون شكركم لله تعالى على ما رزقكم من المال أن تنسبوا ذلك الرزق إلى الكوكب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «وأما الرعد والبرق ففي الحديث المرفوع في الترمذي وغيره أنه سئل عن الرعد، قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله». وفي مكارم الأخلاق للخرائطي عن علي: «أنه سئل عن الرعد فقال: ملك، وسئل عن البرق فقال: مخاريق بأيدي =

. . . .

= الملائكة»، وفي رواية عنه: «مخاريق من حديد بيده» وروي في ذلك آثار كذلك، وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك كقول من يقول: إنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك؛ فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدًا، وكذلك الراعد يسمى رعدًا كما يسمى العادل عدلًا، والحركة توجب الصوت، والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان، وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة، وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحًا للرب، وآمرًا بمعروف، وناهيًا عن منكر، فالرعد إذًا صوت يزجر السحاب، وكذلك البرق قد قيل: لمعان الماء، أو لمعان النار، وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافي أن يكون اللامع مخراقًا بيد الملك؛ فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجي المطر، والملك يزجي السحاب كما يزجي السائق للمطي» اهـ من مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٦٣-٢٦٤).

وقال أيضًا: «لكن أهل العلم في إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله تعالى ومشيئته وربوبيته أصح عقلًا ودينًا، ومن أدخل في ذلك كل شيء حتى أفعال الحيوان فهو المصيب الموافق للسنة والعقل، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقررون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولدات، وكلاهما باطل كما بين في غير هذا الموضع؛ ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا في الحركات التي بين السماء والأرض مثل: حركة الرياح، والسحاب، والمطر، وحدوث المطر من الهواء الذي بين السماء والأرض تارة، ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة، كما ذكر ذلك أيضًا غير واحد من السلف وهو حق مشهود بالأبصار، كما يُخلق الولد في بطن أمه من المني، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى، فشهدوا بعض الأسباب المرئية، وجهلوا أكثر الأسباب، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله، وعما جاء في ذلك من عبادته وتسبيحه والسجود له الذي هو غاية حكمته؛ فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبخار الأرض كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور.

ومعلوم أن المني جسم صغير مشابه لهذا الذي في الحيوان من الأعضاء المكسوة والمتنوعة في أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها، هل يقول عاقل: إن هذا مضاف إلى عَرَضٍ وصفةٍ حالٌ في جسمٍ صغير أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير؟ هذا مِنْ أَفْسَدِ =

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٨).

= الأمور في بديهة العقل، ومعلوم أنه لا نسبة إلى خلق هذا من هذا، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التي يصنعونها من المداد، مثل: الكتابة بالمداد، ونسيج الثياب من الغزل، وصنعة الأطعمة والبنيان من موادها، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعًا يستجهلونه ويستحمقونه؛ فالذي يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها أو ما في مادتها من الطبع أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر؟! وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار هو كذلك، وإضافة الزلزلة إلى احتقان البخار، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب، إلى غير ذلك من الأسباب التي ضلوا فيها ضلالًا مبينًا؛ حيث جعلوها هي العلة التامة فاعلًا، ولم يعرفوا الغاية، فجهلوا الوضعين. ونازعهم طوائف من الناس فيما يوجد من الأسباب والقوى التي في الطباع، وذلك أيضًا جهل. وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة، وأعظمها في الحق محبة الله وإرادته بعبادته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتخذ الناس من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلًا وشريكًا علم أن المحبة والإرادة أصل كل دين، سواء كان دينًا صالحًا أو دينًا فاسدًا؛ فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة» اهـ من قاعدة في المحبة (٣٠-٣٢).

(١٨) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] (٩٩١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧١). قال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨): «والنوء في كلام العرب واحد أنواء: النجوم، يقال: ناء النجم ينوء، أي: نهض ينهض للطلوع، وقد يكون أن يميل للمغيب، ومما قيل: ناوأت فلانًا بالعداوة، أي: ناهضته، ومنه قولهم: الحمل ينوء بالدابة، =

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ، يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ، فَيَقُولُونَ: الْكَوْكَبُ كَذَا وَكَذَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: «مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ، وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ** ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٠).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ أَمْسَكَ اللَّهُ الْقَطْرَ عَنِ النَّاسِ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ لَأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ بِهِ كَافِرِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ الْمِجْدَحِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢١)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَقَالَ: الْمِجْدَحُ هُوَ الدَّبَرَانُ،

= أي: يميل بها، وكل ناهض بثقل وإبطاء فقد ناء.

والأنواء على الحقيقة: النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر منزلًا، ويخفى أربعة عشر، فكلما غاب منها منزل بالمغرب طلع رقيبه من المشرق، فليس يُعْدَم منها أبدًا أربعَةَ عشر للناظرين في السماء، وإذا لم ينزل مع النوء ماء قيل: خوى النجم، وأخوى، وخوى النوء، وأخلف.

وأما العرب فكانت تضيف المطر إلى النوء، وهذا عندهم معروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم، فلما جاء الإسلام نهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وأدبهم، وعرفهم ما يقولون عند نزول الماء؛ وذلك أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، ونحو هذا من الإيمان والتسليم لما نطق به القرآن» اهـ.

(١٩) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٢)، وابن منده في الإيمان (٥٠٧)، والبيهقي (٣/ ٣٥٨).

(٢٠) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (٧٣)، والبيهقي (٣/ ٣٥٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٩٨) رقم (١٢٨٨٢).

(٢١) أخرجه الحميدي (٧٥١)، وأحمد (٣/ ٧)، والنسائي في الاستسقاء، باب كراهية الاستمطار بالكوكب (٣/ ١٦٥)، والدارمي (٢/ ٣١٤)، وعبد الرزاق في تفسيره =

وَهُوَ: المَنْزِلُ الرَّابِعُ مِنْ مَنَازِلِ الْقَمَرِ(٢٢).

= (٣/ ٢٧٤)، وأبو يعلى (١٣١٢)، والطحاوي في شرح المشكل (١٣١٢)، والطبراني في الدعاء (٩٦١)، وصححه ابن حبان (٦١٣٠).
وقد جاء في راويات الحميدي وأحمد وابن حبان: «**سبع سنين**» وفي روايتي الطحاوي وأبي يعلى: «**عشر سنين**» وفي رواية النسائي: «**خمس سنين**».

(٢٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٣/ ٥٠٢).
وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٩٢): «وأما المجدح فإن الخليل زعم أنه نجم كانت العرب تزعم أنها تمطر به، قال: ويقال: أرسل السماءَ مجاديحُ الغيث، قال: ويقال: مِجدح ومُجدح بالكسر والضم» اه.
وقال الحافظ في الفتح(٢/ ٥٢٤): «المجدح بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة، ويقال بضم أوله هو: الدَّبَران بفتح المهملة والموحدة بعدها، وقيل: سمي بذلك لاستدباره الثريا، وهو نجم أحمر صغير منير، قال ابن قتيبة: كل النجوم المذكورة لها نوء، غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض، ونوء الدبران غير محمود عندهم. انتهى»اهـ.
وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ١٦٥): «المجدح -بكسر الميم- هو نجم من النجوم الدالة على المطر عند العرب».
أقوال العلماء في حكم نسبة المطر للأنواء:
يظهر من الأحاديث المذكورة في الخطبة أن ذلك كفر؛ ولكنه قد يكون كفرًا أكبر، وقد يكون كفرًا أصغر؛ فإذا اعتقد أن الأنواء هي المؤثرة في الأجواء والأمطار من دون الله ﷻ فهذا كفر أكبر؛ لأن فيه تعطيل قدرة الله ﷻ وإنكارها، وهذا شرك في الربوبية.
وإذا اعتقد أن الله ﷻ هو الفاعل لذلك لكنه نسب ذلك إلى الأنواء على اعتبار اقتران المطر بها؛ فهذا سوء أدب مع الله ﷻ ينافي حمده وشكره، وفيه نسبة الفضل إلى غير أهله؛ ولذلك كان كفر نعمة، وهو ذريعة إلى الكفر الأكبر.
وأقوال العلماء في بيان ذلك متظاهرة:
قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: «وأرى معنى قوله -والله أعلم- أن من قال: «مطرنا بفضل الله ورحمته» فذلك إيمان بالله ﷻ، وأما من قال: «مطرنا بنوء كذا وكذا» على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا؛ فذلك كفر؛ كما قال رسول الله ﷺ؛ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ولا يمطر، ولا يصنع شيئًا. =

. . . .

= فأما من قال: «مطرنا بنوء كذا» على معنى: مطرنا بوقت كذا؛ فإنما ذلك كقوله: مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفرًا، وغيره من الكلام أحب إليّ منه.

وقال أيضًا: أحب أن يقول: «مطرنا في وقت كذا» وقد روي عن عمر أنه قال يوم الجمعة وهو على المنبر: «كم بقي من نوء الثريا؟ فقام العباس فقال: لم يبق منه شيء إلا العواء، فدعا ودعا الناس حتى نزل عن المنبر، فمطر مطرًا حيي الناس منه» وقول عمر هذا يبين ما وصفت؛ لأنه إنما أراد: كم بقي من وقت الثريا؛ ليعرفهم بأن الله ﷻ قدَّر الأمطار في أوقات، فيما جربوا، كما علموا أنه قدَّر الحر والبرد بما جربوا في أوقات، وبلغني أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا أصبح وقد مطر الناس قال: مطرنا بنوء الفتح ثم قرأ: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وبلغني أن عمر بن الخطاب أوجف بشيخ من بني تميم غدًا متكئًا على عكازه وقد مطر الناس فقال: «أجاد ما أقرى المجدح البارحة» فأنكر عمر قوله: «أجاد ما أقرى المجدح»؛ لإضافة المطر إلى المجدح» اهـ من الأم (١/ ٢٥٢).

وقد وجّه الشيخ سليمان بن عبد الله كلام الشافعي هذا في تيسير العزيز الحميد (٤٠٣) فقال رحمه الله تعالى: «قد يقال: إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه، أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز؛ لما تقدم أن معنى الحديث: هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظًا، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فإن كثيرًا من النعم قد تجرُّ الإنسان إلى شرٍّ كالذين قالوا: «مطرنا بنوء كذا، بسبب نزول النعمة» اهـ.

وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٨٤-٢٨٥): «وفي لفظ هذا الحديث ما يدل على أن الكفر ههنا كفر النعم لا كفر بالله».

وقال أيضًا (١٦/ ٢٨٦-٢٨٧): «وأما قوله حاكيًا عن الله ﷻ: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» فمعناه عندي على وجهين:

أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله ﷻ؛ فذلك كافر كفرًا صريحًا يجب استتابته عليه وقتله؛ لنبذه الإسلام ورده القرآن.

والوجه الآخر: أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدَّره الله، =

. . . .

= وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهًا مباحًا؛ فإن فيه أيضًا كفرًا بنعمة الله ﷻ، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء. وكثيرًا ما يخوى النوء، فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله لا من النوء، وكذلك كان أبو هريرة يقول: إذا أصبح وقد مطر: «مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر: ٢]، وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: «مطرنا بفضل الله وبرحمته»، ومن هذا قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: «يا عم رسول الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر، ويؤمل، فسأله عنه: أَخَرَجَ أم بقيت منه بقية؟ وروي عن الحسن البصري أنه سمع رجلًا يقول: «طلع سهيل وبرد الليل» فكره ذلك وقال: «إن سهيلًا لم يأت قط بحر ولا برد».

وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: «ما أخلقها للمطر!» وهذا من قول مالك مع روايته «إذا أنشأت بحرية» تدل على أن القوم احتاطوا، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من زمن الجاهلية في قولهم: «مطرنا بنوء كذا وكذا» على ما فسرناه، والله أعلم» اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣): «وهذا كثير جدًّا في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشركه به، قال بعض السلف هو: كقوله: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا؛ ولهذا قرن الشكر بالتوحيد في الفاتحة وغيرها، أولها شكر، وأوسطها توحيد، وفي الخطب المشروعة لا بد فيها من تحميد وتوحيد، وهذان هما ركن في كل خطاب، ثم بعد ذلك يذكر المتكلم من مقصوده ما يناسب من الأمر والنهي والترغيب والترهيب وغير ذلك» اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٢٤): «وكأن ذلك ورد في الحديث تنبيهًا على مبالغتهم في نسبة المطر إلى النوء ولو لم يكن محمودًا، أو اتفق وقوع ذلك المطر في ذلك الوقت إن كانت القصة واحدة، وفي مغازي الواقدي أن الذي قال في ذلك الوقت: «مطرنا بنوء الشعرى» هو عبد الله بن أبي المعروف بابن سلول أخرجه من حديث أبي قتادة».

وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ١٦٥): «وهذا فيمن يرى أن الكوكب هو المؤثر، وأما من يراه علامة، ويرى المؤثر هو الله تعالى فليس من الكافرين، لكن مع ذلك الاحتراز عن هذه الكلمة أولى».

وقال الزرقاني في شرحه على الموطأ (١/ ٥٤٨): «فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» يحتمل =

. . . .

= أن المراد كفر الشرك بقرينة مقابلته بالإيمان، ولأحمد عن معاوية الليثي مرفوعًا: «يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقًا من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مطرنا بنوء كذا»، ويحتمل أن المراد كفر النعمة، ويرشد إليه قوله في رواية معمر وسفيان عن صالح عند النسائي والإسماعيلي وغيرهما: «فأما من حمدني على سقياي وأثنى عليَّ فذاك آمن بي»، وقال في آخره: «وكفر بي أو كفر نعمتي» اهـ.
وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (٤٠٢-٤٠٣): «قوله: مؤمن بي وكافر» المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله تعالى وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر، المنزل له، بدليل قوله في الحديث: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته إلى آخره»، فلو كان المراد هو الأكبر لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية؛ ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سببًا، وفي رواية: «فأما من حمدني على سقياي وأثنى علي فذلك من آمن بي» فلم يقل: فأما من قال: إني المنزل للمطر فذلك من آمن بي؛ لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك، فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله، وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال في آخره: «وكفر بي أو كفر نعمتي»، وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم: «قال الله تعالى: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين»، وله من حديث ابن عباس: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر» الحديث، وفي حديث معاوية الليثي مرفوعًا: «يكون الناس مجدبين، فينزل الله تبارك وتعالى عليهم رزقًا من رزقه فيصبحون مشركين، يقولون: مطرنا بنوء كذا» رواه أحمد، فبيّن الكفر والشرك المراد هنا بأنه نسبة ذلك إلى غيره تعالى بأن يقال: «مطرنا بنوء كذا»، قال ابن قتيبة: كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء، إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفرًا؛ فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعًا في ذلك فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه، وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين» اهـ.
وقال الدهلوي في رسالة التوحيد (١٣٠): «ومغزى الحديث: أن من اعتقد للنجوم تأثيرًا في العالم وما يحدث فيه من الحوادث كان عند الله ممن كفر به وعبد النجوم، ومن عزا كل ما يحدث في العالم من خير وشر ومن حوادث وأمور إلى الله وحده، كان عند الله من عباده المقبولين الذين تبرءوا من عبادة النجوم والكواكب». اهـ

وَمِنْ شُكْرِهِ سُبْحَانَهُ تَسْخِيرُ هَذِهِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ فِي طَاعَتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَعَدَمُ الْفَرَحِ بِهَا فَرَحًا يَسْتَخِفُّ صَاحِبَهُ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

وَمِنْ دَلَائِلِ الشُّكْرِ: اجْتِنَابُ المُحَرَّمَاتِ فِي الْبَرَارِي وَالْمُنْتَزَهَاتِ، وَالمُحَافَظَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَإِتْبَاعُهَا بِالمَنْدُوبَاتِ، وَالْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ؛ اعْتِرَافًا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، وَطَمَعًا فِي إِيصَالِ المَزِيدِ إِلَيْنَا.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي مَا رَزَقَنَا، وَأَنْ يُعِينَنَا وَإِخْوَانَنَا المُسْلِمِينَ عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ .. آمِينَ آمِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ..



٣٣٠- الرياح آية من آيات الله تعالى

٢٥/ ٣/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ؛ خَلَقَ الخَلْقَ فَأَتْقَنَ خَلْقَهُمْ، وَدَبَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ تَدْبِيرَهُمْ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِقْرَارًا بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَاعْتِرَافًا بِأُلُوهِيَّتِهِ، وَإِرْغَامًا لِمَنْ كَفَرَ بِهِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الخَلْقِ بِرَبِّهِ ﷻ، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، يَخْشَى العَذَابَ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ آيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ عَظِيمَةٌ، يَرَاهَا العِبَادُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّهَا دَلَائِلُ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَعَجِيبِ صُنْعِهِ وَتَقْدِيرِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وَذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَشُكْرَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَالحَذَرَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: للَّهِ ﷻ فِي خَلْقِهِ آيَاتٌ بَاهِرَةٌ، وَمُعْجِزَاتٌ قَاهِرَةٌ، تُبْهِرُ العُقُولَ، وَتَمْلِكُ النُّفُوسَ، وَتُخَوِّفُ العِبَادَ، وَتَقْهَرُ الْأَقْوِيَاءَ. وَلَهُ ﷻ جُنْدٌ فِي الأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، مِنَ المَلَائِكَةِ وَالإِنْسِ وَالجِنِّ، وَمِنَ الحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ، وَمِنَ الزَّوَاحِفِ وَالحَشَرَاتِ وَالطُّفَيْلِيَّاتِ وَالجَمَادَاتِ، وَمِنَ الْكَوَاكِبِ وَالأَنْجُمِ وَالنَّيَازِكِ، وَمِنَ الْبِحَارِ وَالرِّيَاحِ وَالزَّلَازِلِ وَالأَعَاصِيرِ وَالْبَرَاكِينِ وَالأَوْبِئَةِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي الأَرْضِ وَالأَجْوَاءِ، لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يُدْرِكُ قُوَّتَهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ ﷻ، يُسَلِّطُهَا عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ فَلَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ حَتَّى تُنْهِيَ مُهِمَّتَها، وَتُؤَدِّيَ وَظِيفَتَهَا ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وَالرِّيَاحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَرَاهَا الْبَشَرُ، وَلَكِنَّهُمْ يُحِسُّونَهَا، وَيَرَوْنَ أَثَرَهَا، تَكُونُ رَحْمَةً وَتَكُونُ عَذَابًا بِأَمْرِ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَوُجُوبِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ: ذِكْرُ الرِّيَاحِ وَتَدْبِيرِهَا ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وَالرِّيحُ آيَةٌ فِي حَالِ كَوْنِهَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

كَمَا أَنَّ الرِّيحَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالِ كَوْنِهَا عَذَابًا؛ فَقَدْ عَدَّدَ اللَّهُ ﷻ جُمْلَةً مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَذَكَرَ مِنْهَا آيَةَ إِهْلَاكِ عَادٍ بِالرِّيحِ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وَلِلرِّيَاحِ مَنَافِعُ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ، وَبِفَقْدِهَا تَمُوتُ الأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ فَالرِّيَاحُ هِيَ سَبَبُ الْغَيْثِ المُبَارَكِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الْبُشْرَى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]. وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الرُّوم: ٤٨].

فَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِهَا لِمَا يَعْقُبُهَا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْغَيْثِ المُبَارَكِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ حَيَاتُهُمْ، وَحَيَاةُ أَنْعَامِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَزَرْعِهِمْ، وَنَمَاءُ أَمْوَالِهِمْ، وَرَغَدُ عَيْشِهِمْ.

وَالرِّيَاحُ هِيَ الَّتِي تَسُوقُ السُّحُبَ فِي السَّمَاءِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ إِلَى حَيْثُ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَسْقِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ [فاطر: ٩].

وَالرِّيَاحُ تُلَقِّحُ السُّحُبَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَنْزِلُ المَاءُ(١)، وَتُلَقِّحُ الزَّرْعَ وَالشَّجَرَ

(١) يذكر الفلكيون أن تلقيح السحب على أنواع ثلاثة:
١- تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة مما يزيد عملية التكاثف، وبالتالي نزول المطر.
٢- تلقيح السحب موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة، ويحدث تفريغ وشرر كهربائي، فيكون المطر مصحوبًا بالبرق والرعد، وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفريغ. =

فَيَهْتَزُّ خَضِرًا مُثْمِرًا، وَتَنْقُلُ الْبُذُورَ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ حَتَّى إِذَا سُقِيَتِ اكْتَسَتْ خُضْرَةً وَرَبِيعًا، وَمَهْمَا عَمِلَ الْبَشَرُ وَبِكُلِّ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ فَهُمْ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَزْرَعُوا صَحَارَى تَمْتَدُّ مَدَّ النَّاظِرَيْنِ بِسَاطًا أَخْضَرَ بِأَنْوَاعِ النَّبَاتِ الطَّيِّبِ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَلَكِنَّ الرِّيَاحَ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ اللَّيْثِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُثِيرَةَ فَتَقُمُّ الأَرْضَ قَمًّا، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاشِئَةَ فَتُنْشِئُ السَّحَابَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤَلِّفَةَ فَتُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى اللَّوَاقِحَ فَتُلَقِّحُ السَّحَابَ»(٢).

وَالرِّيَاحُ سَبَبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لِدَوْرَةِ المِيَاهِ حَوْلَ الأَرْضِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَسِنَ المَاءُ، وَلَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ الأَحْيَاءُ، بَلْ إِنَّ كُلَّ الأَحْيَاءِ عَلَى الأَرْضِ لَوْ فُقِدَتِ الرِّيَاحُ لَهَلَكَتْ، يَقُولُ كَعْبُ الأَحْبَارِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْ حُبِسَتِ الرِّيحُ عَنِ النَّاسِ ثَلَاثًا لَأَنْتَنَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»(٣).

= ٣- التلقيح الثالث -وهو أهم أنواع التلقيح جميعًا- هو أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر؛ إذ إن نويات التكاثف -وهي النويات التي يتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطًا من الماء نامية داخل السحب- هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هو أملاح البحار، وما تذروه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للإمطار، وهذه هي فكرة المطر الصناعي عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق وأن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف يتكاثف عليها المطر ويهطل، أي: أن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب وتلقيحها ونزول المطر، ولذلك يربط القرآن بين الرياح والمطر في آيات كثيرة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٢١) و(١٨/ ١٣٥)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٣٨). وعبيد بن عمير من المخضرمين ولد في زمن النبي ﷺ ولم يره على الصحيح من أقوال أهل السير، وذكر بعضهم أن له صحبة.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (٢٤٤).

وَالرِّيَاحُ فِيهَا مَا لَا يُحْصَى مِنْ مَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَتَسِيرُ بِالسُّحُبِ الَّتِي فِيهَا حَيَاةُ الأَرْضِ، وَتَذْرُو البُذُورَ، وَفِيهَا أَرْزَاقُ الْعِبَادِ وَالحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ، وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ١، ٢]، فَالذَّارِيَاتُ هِيَ الرِّيَاحُ، وَالحَامِلَاتُ هِيَ السُّحُبُ، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ [المرسلات: ١، ٢](٤)، وَابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ لمَّا وَصَفَ جُودَ النَّبِيِّ ﷺ اسْتَعَارَ الرِّيَاحَ المُرْسَلَةَ فِي وَصْفِهِ فَقَالَ ﷺ «فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

وَمَا هَذَا الوَصْفُ مِنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ إِلَّا لِأَنَّ الرِّيحَ يَنْتِجُ عَنْهَا خَيْرٌ عَظِيمٌ لِلأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَالرِّيَاحُ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يُسَخِّرُهَا سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ سَاكِنَةً طَيِّبَةً، تَجْرِي بِهَا فُلْكُهُمْ فِي البِحَارِ حَيْثُ يُرِيدُونَ ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ [الشُّورى: ٣٣].

وَفِي لَحْظَةٍ يَأْمُرُهَا اللَّهُ ﷻ، فَتَتَحَرَّكُ بَعْدَ السُّكُونِ، وَتَتَحَوَّلُ مِنْ رِيحٍ طَيِّبَةٍ

---

(٤) المرسلات مختلف فيها على أقوال:
الأول: أنها الرياح، وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة، ورجحه ابن كثير (٤/ ٤٦٠).
الثاني: أنها الملائكة، وهو قول أبي هريرة والربيع بن أنس والفراء، واقتصر عليه السعدي في تفسيره (٩٠٣).
الثالث: أنها الرسل بما يعرفون به من المعجزات، وهو قول أبي صالح.
الرابع: أنها الملائكة والريح، وهو قول أبي عبيدة، ورجحه الطبري (٢٩/ ٢٢٩) وينظر: زاد المسير (٨/ ٤٤٤).

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٣٦١)، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨).

هَادِئَةٍ إِلَى عَاصِفَةٍ تَكَادُ تُغْرِقُهُمْ، فَلَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وَلِذَلِكَ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى العِبَادَ مِنَ الكُفْرِ بِهِ، وَأَمْنِ مَكْرِهِ، وَهَدَّدَهُمْ بِرِيحٍ تُغْرِقُهُمْ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّيحُ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَخَّرَهَا لِبَعْضِ رُسُلِهِ؛ كَمَا سَخَّرَهَا لِسُلَيْمَانَ عليه السلام ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة ص: ٣٦].

وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالرِّيحِ هُودًا عليه السلام، وَأَهْلَكَ بِهَا عَادًا لَمَّا كَذَّبُوا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]، وَكَانَ مِنْ شِدَّةِ هَذِهِ الرِّيحِ أَنَّهَا تَرْفَعُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تُلْقِيهِ صَرِيعًا عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تُثْلَغَ رَأْسُهُ(٦)، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ فِعْلِهَا بِهِمْ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى العَافِيَةَ مِنْ سَخَطِهِ وَنِقْمَتِهِ.

لَقَدْ فَرِحَتْ عَادٌ بِهَا فِي بَادِئِ الأَمْرِ، يَظُنُّونَ أَنَّهَا مِنَ المُبَشِّرَاتِ فَإِذَا هِيَ مِنَ المُهْلِكَاتِ، وَانْقَلَبَ فَرَحُهُمْ بِهَا إِلَى حُزْنٍ وَعَذَابٍ، فَأَخَذَتْهُمْ وَصَرَعَتْهُمْ، وَدَمَّرَتْ حَضَارَتَهُمْ، وَأَبَادَتْ خَضْرَاءَهُمْ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا

(٦) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٥).

فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وَحَاقَتْ بِهِمْ أَيَّامًا عَدَدًا، لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهَا دَفْعًا، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْهَا مَهْرَبًا، وَمَا عَجَزَتِ الرِّيحُ عَنْهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ فَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْهَا، وَأَلْقَتْهُمْ صَرْعَى، فَمَا أَقْوَاهَا مِنْ رِيحٍ! وَمَا أَشَدَّهَا عَلَى المُكَذِّبِينَ! وَمَا أَطْوَعَهَا لِرَبِّ العَالَمِينَ! ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

وَنُصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرِّيحِ فِي أَعْسَرِ مَوْقِفٍ أَحَاطَ بِالمُسْلِمِينَ، لَمَّا حَاصَرَتْ جُمُوعُ المُشْرِكِينَ المَدِينَةَ فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ، فَفَرَّقَتِ الرِّيحُ جُمُوعَهُمْ، وَفَكَّتْ تَحَالُفَهُمْ، وَصَدَعَتْ أَحْزَابَهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]. قَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «سَلَّطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فَكَفَأَتْ قُدُورَهُمْ، وَنَزَعَتْ خِيَامَهُمْ حَتَّى أَظْعَنَتْهُمْ»(٧).

وَهِيَ رِيحُ الصَّبَا، كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨). وَالصَّبَا مَهَبُّهَا شَرْقِيٌّ، وَالدَّبُورُ مَهَبُّهَا غَرْبِيٌّ(٩).

وَرَأَيْنَا قَبْلَ سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ مَا فَعَلَتِ الرِّيحُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تُسُونَامِي وَكَاتْرِينَا(١٠)، حِينَ حَرَّكَتِ البَحْرَ فَأَخْرَجَتْ أَمْوَاجَهُ العَاتِيَةَ أَمْثَالَ الجِبَالِ لِتَضْرِبَ

(٧) تفسير مجاهد (٢/ ٥١٥)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٤٠٢).

(٨) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالصبا**» (٩٨٨)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

(٩) ينظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ١٩٨)، وفتح الباري (٦/ ٣٠١).

(١٠) ينظر خطبة: حدثان كبيران رقم الخطبة: (٣٣٢).

مُدُنًا سَاحِلِيَّةً فَتُغْرِقَهَا، وَتَطْمُرَ جُزُرًا كَامِلَةً، وَتُهْلِكَ بَشَرًا كَثِيرًا، وَتُتْلِفَ مَالًا كَبِيرًا، وَتُخَلِّفَ خَرَابًا عَظِيمًا.

بُلْدَانٌ كَانَتْ قَبْلَ الرِّيحِ عَامِرَةً مُتَحَرِّكَةً، تَدِبُّ الحَيَاةُ فِي أَرْجَائِهَا، وَيَأْتِيهَا الْبَشَرُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ لِجَمَالِ أَرْضِهَا، وَطِيبِ أَجْوَائِهَا، وَحُسْنِ سَوَاحِلِهَا، وَفِي غَمْضَةٍ وَإِفَاقَتِهَا أَضْحَتْ مُوحِشَةً يَبَابًا، لَا سَاكِنَ فِيهَا وَلَا زَائِرَ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الرِّيحَ لَهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَهَا عَلَيْهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ أَمَرَهَا فَفَعَلَتْ فِعْلَهَا، فَأَهْلَكَتْ مَنْ أَهْلَكَتْ بِأَمْرِ رَبِّهَا، وَنَجَا مَنْ نُجِّيَ مِنْهَا؛ لِيَحْكِيَ لِلنَّاسِ مَا رَأَى، وَمَا نَجَا مِنْهَا بِقُوَّتِهِ وَهُوَ الضَّعِيفُ، وَلَا هَلَكَ القَوِيُّ فِيهَا لِضَعْفِهِ، وَلَكِنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرُهُ، يُصِيبُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

إِنَّ الرِّيحَ أُعْجُوبَةٌ مِنَ الأَعَاجِيبِ يَحْتَاجُ الْبَشَرُ إِلَيْهَا وَلَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْهَا، وَلَوْ عَمِلُوا مَا عَمِلُوا مِنْ وَسَائِلِهِمْ وَمُخْتَرَعَاتِهِمْ لَمَا حَرَّكُوهَا وَهِيَ سَاكِنَةٌ.

وَإِذَا تَحَرَّكَتْ فَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِإِيقَافِهَا أَوْ تَخْفِيفِهَا، أَوْ تَحْوِيلِ مَسَارِهَا. وَغَايَةُ مَا يَفْعَلُونَ هُوَ الهَرَبُ مِنْهَا، وَالِاحْتِمَاءُ بِالمَلَاجِئِ عَنْهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ يُجْلُونَ أَهْلَ المُدُنِ وَالقُرَى الَّتِي فِي طَرِيقِهَا، ثُمَّ يَتَرَبَّصُونَ تَرَبُّصَ الْعَاجِزِ الْبَائِسِ الَّذِي انْقَطَعَتْ حِيلَتُهُ، وَغَلَبَهُ يَأْسُهُ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَهَا، وَيَنْظُرُونَ إِلَى آثَارِهَا.

ثُمَّ إِذَا سَكَنَتْ دَفَنُوا مَوْتَاهُمْ، وَدَاوَوْا جَرْحَاهُمْ، وَآوَوْا مُشَرَّدِيهِمْ، وَحَسَبُوا خَسَائِرَهُمْ، وَأَصْلَحُوا مَا دُمِّرَ مِنْ عُمْرَانِهِمْ، وَبَكَوْا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ.

وَلَمَّا ضَرَبَ إِعْصَارُ كَاتْرِينَا جُزْءًا مِنَ الدَّوْلَةِ الكُبْرَى فِي الأَرْضِ، ظَهَرَ عَجْزُهَا فَأَعْلَنَتْ حَالَةَ الطَّوَارِئِ، وَقَبِلَتِ المُسَاعَدَاتِ مِنَ الدُّوَلِ الفَقِيرَةِ المُعْدَمَةِ، فَمَا أَضْعَفَ البَشَرَ! وَمَا أَعْجَزَهُمْ! وَمَا أَقَلَّ حِيلَتَهُمْ أَمَامَ الرِّيحِ! وَهِيَ آيَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَجُنْدِيٌّ وَاحِدٌ مِنْ جُنُودٍ لَا تُحْصَى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدَّثر: ٣١].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ؛ دَلَّتْ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى أَنَّهُ الرَّبُّ المَعْبُودُ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ عَبِيدٌ مَخْلُوقُونَ، خَلَقَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ عَمَلَكُمْ، وَارْجُوا رَحْمَتَهُ، وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ كَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: الرِّيحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، سَخَّرَهَا لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ وَمَصَالِحِهِمْ، تَكُونُ رَحْمَةً وَتَكُونُ عَذَابًا، وَمَا أُنْزِلَ بِهَا عَلَى الْبَشَرِ مِنْ رَحَمَاتِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَكْثَرُ مِمَّا أَخَذَتْ مِنَ المُكَذِّبِينَ، وَهَذَا مِنْ إِعْذَارِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْبَشَرِ، وَإِمْلَائِهِ لَهُمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ.

وَالمَشْرُوعُ لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ أَنْ يَخَافَ الْعَذَابَ؛ فَقَدْ عُذِّبَ أَقْوَامٌ بِهَا فِي الْقَدِيمِ وَالحَدِيثِ، وَمَا الأَعَاصِيرُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فَأَهْلَكَتْ

بَشَرًا كَثِيرًا إِلَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَا، رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالغَيْمِ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرَّ بِهِ وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

وَلَمَّا كَانَتِ الرِّيحُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ يَتَضَرَّرُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، بِفَسَادِ زُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، أَوْ نُفُوقِ أَنْعَامِهِمْ وَتَلَفِ أَمْوَالِهِمْ، أَوْ خَرَابِ مُدُنِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ كَمَا فِي العَوَاصِفِ وَالأَعَاصِيرِ الشَّدِيدَةِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ سَبُّهَا؛ فَمَسَبَّتُهَا مَسَبَّةٌ للَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ خَالِقُهَا وَآمِرُهَا وَمُدَبِّرُهَا جَلَّ فِي عُلَاهُ، بَلْ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ عِنْدَ هُبُوبِهَا أَنْ يَلْحَظَ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا، وَيَلْتَزِمَ بِمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ.

رَوَى أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَخَذَتِ النَّاسَ رِيحٌ بِطَرِيقِ مَكَّةَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ حَاجٌّ فَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِمَنْ حَوْلَهُ: مَنْ يُحَدِّثُنَا عَنِ الرِّيحِ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا

---

(١١) أخرجه مسلم في صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٨٩٩)، وابن حبان (٦٥٨).

(١٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٩)، وأحمد (٥/ ١٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧)، والضياء في المختارة (١٢٢٣)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٢٩٨).

إِلَيْهِ شَيْئًا، فَبَلَغَنِي الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ عُمَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَاسْتَحْثَثْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أُخْبِرْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الرِّيحِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٣).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَعَنَهَا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا تَلْعَنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٤).

وَأَمَّا الدُّعَاءُ بِقَوْلِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا، فَلَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٥)، وَالأَوْلَى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى مَا وَرَدَ؛ فَإِنَّهُ أَتْبَعُ لِلسُّنَّةِ، وَأَنْفَعُ لَهُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

---

(١٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥٠٩٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٧٦٥)، وابن ماجه في الأدب، باب النهي عن سب الريح (٣٧٢٧)، وأحمد والسياق له (٢/ ٢٦٧)، وأبو يعلى (٦١٤٢)، وعبد الرزاق (٢٠٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠٦)، وصححه ابن حبان (١٠٠٧)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٣١٨).

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في اللعن (٤٩٠٨)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة وقال: حسن غريب (١٩٧٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٠) رقم (١٢٧٥٧)، وفي الصغير (٩٥٧)، وصححه ابن حبان (٥٧٤٥).

(١٥) جاء في ذلك حديث مرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا ثارت الريح استقبلها وجثا على ركبتيه وقال: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا ...» الحديث، ولكنه حديث ضعيف، أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣) رقم (١١٥٣٣)، وفي الدعاء (٩٧٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٥٢)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥-١٣٦).

٣٣١- إعصار جونو

٢٢/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ؛ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ بِقُدْرَتِهِ، وَدَبَّرَهَا بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَلَا تَبْقَى وَلَا تَفْنَى إِلَّا بِأَمْرِهِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَشَدَّهُمْ خَوْفًا مِنْهُ، شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ مَنَعَ بِهِ الْعَذَابَ، وَرَفَعَ الْعِقَابَ؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَلَمْ يَرْكَنْ لِذَلِكَ، وَلَمْ يَأْمَنْ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاشْكُرُوا نِعَمَهُ، وَلَا تَأْمَنُوا مَكْرَهُ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَا يَقْدُرُ الْخَلْقُ رَبَّهُمْ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يُعَظِّمُونَهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَظَّمَ، وَالْبَشَرُ كَثِيرًا مَا يَعْصُونَهُ وَلَا يُطِيعُونَهُ؛ وَذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِعَظَمَةِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَاجِزُونَ عَنْهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الَّتِي نَعْمُرُهَا وَنَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا، فَلَا نُدْرِكُهَا وَلَا نَعْلَمُ كُلَّ مَا فِيهَا، وَمَا نَجْهَلُهُ مِنْ عَجَائِبِهَا وَأَسْرَارِهَا أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ

مَخْلُوقَاتِهَا أَكْثَرُ مِمَّا ظَهَرَ لَنَا، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ وَالْعُمْرَانِ، وَالْمَرَاكِبِ وَغَيْرِهَا، كُلُّ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئًا يُذْكَرُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ وَيَطْوِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَدِهِ، وَيَجْعَلُهُ عَلَى إِصْبَعِهِ، كَمَا يَجْعَلُ السَّمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَعْظَمَهُ!

رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ فَقَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)].

وَقَدْ كَانَتْ تَعْلُو النَّبِيَّ ﷺ هَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَإِجْلَالٌ كَبِيرٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَيَحْكِي لَهُمْ شَيْئًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللَّهُ ﷻ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا الْمَلِكُ**. حَتَّى

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (٤٨١٢)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧).

نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(٣).

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حِبَّانَ: «وَرَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ هَكَذَا بِإِصْبَعِهِ يُحَرِّكُهَا يُمَجِّدُ الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا نَفْسَهُ: **أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ**. فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرُ؛ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ»(٤)، زَادَ أَبُو الشَّيْخِ فِي رِوَايَتِهِ: «أَنَا الَّذِي بَدَأْتُ الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُ شَيْئًا، أَنَا الَّذِي أُعِيدُهَا، أَيْنَ الْمُلُوكُ؟ أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ؟»(٥).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ اللَّهِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٦)، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «بِقَضِّهَا وَقَضِيضِهَا كَأَنَّهَا جَوْزَةٌ فِي يَدِهِ»(٧).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ لَنَا مِنْ عَظَمَتِهِ بِقَدْرِ مَا نَعْقِلُهُ، وَإِلَّا فَعَظَمَتُهُ ﷻ فَوْقَ مَا نَتَصَوَّرَ، لَا يَحُدُّهَا حَدٌّ، وَلَا يُحِيطُ بِهَا عَقْلٌ، وَلَا يُدْرِكُهَا أَحَدٌ، وَمَهْمَا وَصَفُوهُ سُبْحَانَهُ فَلَنْ يَقْدُرُوهُ قَدْرَهُ، وَلَنْ يُعَظِّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ!

---

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٤١٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

(٤) هذه الرواية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما لأحمد (٢/ ٧٢)، والنسائي في الكبرى (٧٦٩٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٩٥)، وصححها ابن حبان (٧٣٢٧)، والحاكم (٢/ ٢٧٧).

(٥) هذه الرواية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما لأبي الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، والإبانة لابن بطة (٢١٦)، والثعلبي في تفسيره (٨/ ٢٥٢).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (١٠٩٠)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥)، وابن بطة في الإبانة (٢٣٧)، والذهبي في العلو (٣١٤).

(٧) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٤٤٢)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥).

أَرْزَاقُ الْعِبَادِ وَآجَالُهُمْ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ، وَاسْتِقْرَارُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَعَيْشُهُمْ فِيهَا بِأَمْرِهِ تَعَالَى، لَا بِأَمْرِ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَلَوْ شَاءَ لَأَطْبَقَ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ، فَسَحَقَ مَنْ فِيهَا، وَلَوْ شَاءَ ﷻ لَطَوَى الْأَرْضَ عَلَى مَنْ فِيهَا فَأَهْلَكَهُمْ، كَيْفَ وَهُوَ يَطْوِيهَا بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! وَلَكِنَّهُ ﷻ رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ، يُؤَخِّرُهُمْ وَلَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ، وَلَا يُعَذِّبُهُمْ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَجّ: ٦٥].

إِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ جُنْدَهُ، فَيُعَذِّبُوهُمْ وَيُهْلِكُوهُمْ، وَلَا يَذَرُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الْفَتْح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٣١].

وَقَادِرٌ ﷻ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْدِثَهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا حِيلَةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَادِرٌ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ عَذَابَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٥].

وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٩٥]، وَفِي الزُّخْرُفِ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٢].

وَقَدْ رَأَى الْعَالَمُ كُلُّهُ مَا تَخَلِّفُهُ الزَّلَازِلُ وَالْأَعَاصِيرُ وَالْفَيَضَانَاتُ مِنْ دَمَارٍ كَبِيرٍ فِي الْأَرْضِ، تَأْتِي بِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ فِي ثَوَانٍ أَوْ دَقَائِقَ، وَفِي جُزْءٍ قَلِيلٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِذَا الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى بِالْمِئَاتِ، رَغْمَ الِاحْتِرَازَاتِ وَالِاحْتِيَاطَاتِ، فَمَا أَغْنَتْ عَنِ الْبَشَرِ حَضَارَتُهُمْ وَلَا عُلُومُهُمْ، وَلَا مَنَعَ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ حِرْصُهُمْ

وَاحْتِيَاطُهُمْ؛ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطُّور: ٨]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المَعَارج: ٣].

وَفِي الْإِعْصَارِ الْأَخِيرِ(٨) رَصَدَتِ الْمَرَاصِدُ سَيْرَهُ، وَرَاقَبَ الْخُبَرَاءُ حَرَكَتَهُ، وَلَا يَقْدِرُونَ لَهُ دَفْعًا وَلَا تَخْفِيفًا وَلَا تَحْوِيلًا، إِنْ هُمْ إِلَّا مُتَرَبِّصُونَ يَنْتَظِرُونَ وُصُولَهُ، وَيَدُوكُونَ فِي آثَارِهِ، وَيُخْلُونَ الْمُدُنَ مِنْ سَاكِنِيهَا لِأَجْلِهِ، وَيَهْرُبُ النَّاسُ مِنْ طَرِيقِهِ تَارِكِينَ أَمْوَالَهُمْ، وَمَرَاكِبَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ، وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نَفِيسِ أَثَاثِهِمْ وَمَتَاعِهِمْ، قَدْ رَخصَتْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْعَصِيبَةِ، فَلَمْ تُسَاوِ شَيْئًا، وَحقَّ لِلنَّاسِ أَنْ يَهْرُبُوا مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُطِيقُ عَذَابَهُ؟!

وَعِنْدَ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ وَالِاحْتِرَازَاتِ تَتَوَقَّفُ قُدْرَةُ الْبَشَرِ وَطَاقَتُهُمْ عَلَى مَا بَلَغَتْهُ عُلُومُهُمْ وَمَعَارِفُهُمْ، فَيَضْرِبُ الْإِعْصَارُ مَا أُمِرَ بِضَرْبِهِ مِنَ الْمُدُنِ، وَيُدَمِّرُ مَا يُدَمِّرُ، وَيَقْتُلُ مَنْ حَانَتْ سَاعَتُهُ، وَلَا تَسَلْ حِينَئِذٍ عَنِ الْمُدُنِ، وَقَدْ غَمَرَتْهَا الْمِيَاهُ، وَحَدَثَ مَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ خَرَابٍ.

وَقَدْ نُقِلَ لِلنَّاسِ مَا خَلَّفَهُ هَذَا الْإِعْصَارُ مِنْ بَعْضِ الدَّمَارِ، وَرَأَوُا السَّيَارَاتِ كَأَنَّهَا أَكْوَامُ حِجَارَةٍ، قَدْ حُمِلَتْ فَأُلْقِيَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَاخْتَرَقَ بَعْضُهَا الْجُدْرَانَ، فَوَلَجَتْ إِلَى الْبُيُوتِ، فَإِذَا مَا جَاوَزَهُمُ الْإِعْصَارُ، أَحْصَوْا خَسَائِرَهُمْ،

---

(٨) هو إعصار جونو الذي ضرب سواحل عمان الشرقية يومي ٢٠ و٢١/ ٥/ ١٤٢٨هـ وخلف أضرارًا كبيرة في المدن والقرى الساحلية، وامتد إلى سواحل الإمارات الشرقية وسواحل إيران الجنوبية الشرقية، بلغ ارتفاع أمواجه ١٢ مترًا، وسرعته ٢٦٠ كلم، وأغلقت بعض المواني والمطارات في عمان بسببه، وكانت منطقة القرم في مسقط أكثر المناطق تضررًا به، وبلغ عدد المنكوبين بالإعصار بين قتيل وجريح ومشرد نحو عشرين ألفا، والصور التي بثت لمكان الإعصار تظهر دمارًا شديدًا في المناطق التي ضربها. نسأل الله تعالى السلامة والعافية، وأن يرحم القتلى من المسلمين، ويشفي الجرحى، ويعوض المنكوبين.

وَدَفَنُوا مَوْتَاهُمْ، رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَخَلَفَ عَلَى الْخَاسِرِينَ مَا خَسِرُوا، وَمِنْ ثَمَّ يَعُودُ مَنْ سَلِمَ إِلَى مَسْكَنِهِ؛ لِيَنْظُرَ مَا أَصَابَهُ، وَيُصْلِحَ خَرَابَهُ.

وَمَنْ لَمْ يَصِلْهُمُ الإِعْصَارُ يَتَرَقَّبُونَ وُصُولَهُ، وَيُصْدِرُونَ التَّعْلِيمَاتِ فِي إِثْرِ التَّعْلِيمَاتِ لِمَنْ كَانُوا فِي طَرِيقِهِ، وَيَلْهَجُونَ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَهَذَا غَايَةُ مَا يَفْعَلُونَ، وَنِهَايَةُ مَا يَقْدِرُونَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ! وَمَا أَعْجَزَ الْبَشَرَ! وَمَا أَقَلَّ حِيلَتَهُمْ أَمَامَ جُنْدِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ!

إِنَّهَا عِبْرَةٌ يَا عِبَادَ اللَّهِ وَأَيُّ عِبْرَةٍ، تَدُلُّ عَلَى عَجْزِنَا وَضَعْفِنَا وَاسْتِكَانَتِنَا، كَمَا تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، وَعَلَى حَاجَتِنَا إِلَيْهِ وَغِنَاهُ سُبْحَانَهُ عَنَّا، فَلِمَاذَا الِاسْتِكْبَارُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَلِمَاذَا الْعِصْيَانُ؟ وَلِمَاذَا الْغُرُورُ بِمُنْجَزَاتِ الْبَشَرِ وَمُخْتَرَعَاتِهِمْ، وَهِيَ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

إِنَّ هَذِهِ الْكَوَارِثَ وَالنَّكَبَاتِ عُقُوبَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِنْ عُصَاةِ الْبَشَرِ، وَابْتِلَاءٌ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَهِيَ تَخْوِيفٌ وَإِنْذَارٌ لِمَنْ سَلِمُوا مِنْهَا؛ لِيَثُوبُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَيُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتُوبُوا مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِمْ؛ ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وَالنَّاسُ فِيهِمُ الْمُعْتَبِرُ الْمُتَّعِظُ، وَفِيهِمُ الْمُصِرُّ الْمُسْتَكْبِرُ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]، فَكُونُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ؛ فَإِنَّ الْعَذَابَ إِذَا حَلَّ بِدَارِ قَوْمٍ، رَخُصَتْ أَمْوَالُهُمْ وَإِنِ امْتَلَأَتْ بِهَا الْبُنُوكُ، وَهَانَتْ عَلَيْهِمْ مَسَاكِنُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ قُصُورًا، وَتَكَدَّرَ عَيْشُهُمْ وَإِنْ كَانُوا قَبْلَهُ فِي أَعْظَمِ النَّعِيمِ وَالْهَنَاءِ، وَحِينَهَا لَا يَطْلُبُونَ إِلَّا النَّجَاةَ.

فَخُذُوا مِنْ يُسْرِكُمْ مَا يُعِينُكُمْ فِي عُسْرِكُمْ، وَتَعَرَّفُوا إِلَى رَبِّكُمْ فِي رَخَائِكُمْ

تَجِدُوهُ فِي شِدَّتِكُمْ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِدُنْيَاكُمْ، فَإِنَّهَا فِي لَحْظَةٍ تَكُونُ أَهْوَنَ شَيْءٍ عَلَيْكُمْ، وَسَلُوا مَنْ أُصِيبُوا بِتِلْكَ الْكَوَارِثِ، تَعْلَمُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ.

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغُوطَةِ مِنَ الْبُنْيَانِ وَنَصْبِ الشَّجَرِ، قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ فَنَادَى: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمُلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ، قَدْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ، وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ، وَيُؤَمِّلُونَ فَيُطِيلُونَ، فَأَصْبَحَ أَمَلُهُمْ غُرُورًا، وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا، أَلَا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ مَا بَيْنَ عَدَنَ وَعُمَانَ خَيْلًا وَرِكَابًا، مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدِرْهَمَيْنِ؟»(٩).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٧٩٩)، وذكره عنه ابن كثير (٣/ ٣٤٢).

وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَلَّا تَمُرَّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْحَوَادِثُ الرَّبَّانِيَّةُ الْكَوْنِيَّةُ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهَا؛ فَلَقَدْ تَكَرَّرَتْ وَتَنَوَّعَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَكَانَ ضَحَايَاهَا عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ، وَخَسَائِرُهَا أُلُوفَ الْمَلَايِينِ، فَمِنَ الزَّلَازِلِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي ضَرَبَتْ إِيرَانَ، فَالْبَاكِسْتَانَ، فَالْجَزَائِرَ، إِلَى إِعْصَارَاتِ تُسُونَامِي، فَكَاتْرِينَا، إِلَى إِعْصَارِ جُونُو، وَتَخَلَّلَتْهَا كَثْرَةٌ مَلْحُوظَةٌ فِي الْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ، مَا عَهِدَهَا النَّاسُ مِنْ قَبْلُ.

وَمَعْلُومٌ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَمَعَ بَالِغِ الْأَسَفِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَمُرُّ بِهِمْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ الْمَخُوفَةُ، فَلَا يَأْبَهُونَ بِهَا، وَلَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ، وَالْمُكَذِّبُونَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَا أُهْلِكُوا إِلَّا لَمَّا أَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَتَّعِظُوا بِآيَاتِهِ الَّتِي خَوَّفَهُمْ بِهَا، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، فَعُذِّبُوا.

إِنَّ الْعِلْمَ الْمُسْبَقَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَرَصْدَ ظَوَاهِرِهَا بِالْمَرَاصِدِ وَالْمَنَاظِيرِ، قَدْ قَلَّلَ مِنْ هَيْبَتِهَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَهَذَا مِنْ مَوْتِ الْقُلُوبِ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ نُزُولُ الْعَذَابِ.

وَزَادَ الْأَمْرَ سُوءًا أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُحَلِّلُونَ أَسْبَابَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، وَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا، يُرْجِعُونَهَا إِلَى أَسْبَابٍ أَرْضِيَّةٍ أَوْ جَوِّيَّةٍ بَحْتَةٍ، غَافِلِينَ أَوْ مُتَغَافِلِينَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ مُقَدِّرُهَا وَمُقَدِّرُ أَسْبَابِهَا، بَلْ يَتَعَمَّدُ بَعْضُهُمُ الْإِلْحَادَ بِاللَّهِ تَعَالَى حِينَ يَنْفُونَ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا، وَيَسْخَرُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُونَ أَنَّهَا نُذُرٌ وَعُقُوبَاتٌ، وَلَا يُمَارِي فِي كَوْنِهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

تَعَالَى وَتَقَعُ بِقَدَرِهِ وَقُدْرَتِهِ إِلَّا زِنْدِيقٌ مُلْحِدٌ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ ﷻ يُخَوِّفُنَا بِآيَاتِهِ؛ ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٥٩].

كَمَا أَخْبَرَنَا ﷻ أَنَّ الْكَوَارِثَ الَّتِي تُصِيبُنَا إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ ذُنُوبِنَا ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠].

إِنَّ الْبَشَرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَحَقِيقُونَ بِالْعُقُوبَةِ، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَعْفُوَ عَنْهُمْ أَوْ يُمْهِلَهُمْ؛ فَكَمْ بَارَزُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالْعِصْيَانِ، وَكَمْ حَارَبُوهُ بِالْمُنْكَرَاتِ عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ وَالدُّوَلِ وَالْأُمَمِ.

أَلَيْسَ أَقْوِيَاءُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَظْلِمُونَ ضُعَفَاءَهُمْ، وَالْأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ يَزِيدُونَ فِي فَقْرِ فُقَرَائِهِمْ؟!

أَلَيْسَتِ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ تَتَجَبَّرُ وَتَظْلِمُ، فَتَغْزُو مَا شَاءَتْ، وَتُبِيدُ مِنَ الشُّعُوبِ مَا أَرَادَتْ، وَتُحَاصِرُ مَنْ تَشَاءُ، وَتَمْنَعُ رِزْقَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّنْ تَشَاءُ، وَبَقِيَّةُ الدُّوَلِ إِمَّا مُعِينَةٌ عَلَى هَذَا الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ الْكَبِيرِ، وَإِمَّا خَائِفَةٌ مِنْ بَطْشِ الْأَقْوِيَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ؟!

أَلَيْسَ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْبِيدَ النَّاسِ لِنِظَامِهِمُ الطَّاغُوتِيِّ، وَفَرْضَهُ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ بِدَعَاوَى الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَيُرِيدُونَ إِفْسَادَ الْمَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ؟! وَالْمُوَافِقُونَ لِضَلَالِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ كَثِيرٌ، وَالْمُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ قَلِيلٌ.

أَلَيْسَ النِّظَامُ الرَّأْسِمَالِيُّ الْمُتَوَحِّشُ قَدْ أَغْرَقَ الْأَفْرَادَ وَالدُّوَلَ فِي أَنْوَاعِ الْكَسْبِ الْخَبِيثِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ حَرْبًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى شَرِيعَتِهِ، وَنَتَجَ عَنْهُ مَا نَتَجَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْأَثَرَةِ، وَالْبَغْيِ وَأَكْلِ الْحُقُوقِ، وَغِيَابِ الْإِحْسَانِ وَالْإِيثَارِ وَالتَّعَاوُنِ؟!

أَلَيْسَ الْمُسْتَكْبِرُونَ مِنَ الْبَشَرِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى مَعَانِي الْعِفَّةِ وَالطُّهْرِ وَالنَّقَاءِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ؛ لِيَخْلُفَهَا الْفَسَادُ وَالِانْحِلَالُ وَالرَّذِيلَةُ، وَيَفْرِضُونَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالْعُقُوبَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالْإِرْهَابِ الْفِكْرِيِّ الْإِعْلَامِيِّ؟! وَمَا يُعْرَضُ فِي الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ مِنْ تَشْرِيعٍ مُقَنَّنٍ لِكُلِّ رَذِيلَةٍ، وَمُحَارَبَةِ كُلِّ فَضِيلَةٍ لَيْسَ يَخْفَى عَلَى الْمُتَابِعِينَ.

أَوَلَيْسَ الْمُصْلِحُونَ مِنَ النَّاسِ، وَذَوُو الْغَيْرَةِ عَلَى الْأَعْرَاضِ وَالْأَوْطَانِ يُحَارَبُونَ بِشَرَاسَةٍ مِنَ قِبَلِ الْمُفْسِدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَحُولُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِفْسَادِهِمْ، وَيَفْضَحُونَ لِلنَّاسِ مَشْرُوعَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ مِنْ إِمْلَاءَاتِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُفْسِدَةِ؟! يُرِيدُونَ تَمْرِيرَهَا بِاسْمِ الْإِصْلَاحِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، حَمْلَتُهُمُ الشَّرِسَةُ الظَّالِمَةُ عَلَى هَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، يُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهَا، وَيُؤَلِّبُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَيْهَا، يُرِيدُونَ إِلْغَاءَهَا؛ لِتَسْلَمَ لَهُمْ شَهَوَاتُهُمْ، وَيَمْضِيَ فِي النَّاسِ إِفْسَادُهُمْ، رَغْمَ أَنَّ هَذِهِ الْهَيْئَاتِ هِيَ مِنَ أَكْبَرِ صِمَامَاتِ الْأَمَانِ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَلَكِنْ لَمْ تُعْجِبْهُمْ؛ لِأَنَّهَا تَحُولُ بَيْنَ الشَّهْوَانِيِّينَ وَشَهَوَاتِهِمُ الْمَسْعُورَةِ، وَتَقِفُ أَمَامَ إِفْسَادِ الْمُفْسِدِينَ، وَلَا يَسْعَى وَاللَّهِ فِي إِبْطَالِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا مُغْرِضٌ خَبِيثٌ، يُرِيدُ الْإِفْسَادَ، وَلَا يُرِيدُ صَلَاحًا وَلَا إِصْلَاحًا، وَلَوْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.

أَوَلَيْسَ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ مَنِ اعْتَدَوْا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِهَانَةِ وَالتَّمْزِيقِ، وَوَطْئِهِ بِالْأَقْدَامِ، وَاعْتَدَوْا عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالتَّحْقِيرِ وَالِاسْتِصْغَارِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى مُعَاقَبَةِ أُولَئِكَ الْمُجْرِمِينَ، وَإِيقَافِ إِهَانَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةِ لِلْقُرْآنِ وَلِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ لِضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِظُهُورِ النِّفَاقِ وَعُلُوِّ الْمُنَافِقِينَ؟!

أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمُوبِقَاتُ وَالْعَظَائِمُ حَقِيقَةً بِاسْتِجْلَابِ غَضَبِ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْبَشَرِ، وَحُرُمَاتُهُ تُنْتَهَكُ جِهَارًا نَهَارًا، وَلَا يُنْكِرُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ؟!

أَيَشُكُّ الْبَشَرُ أَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَوَارِعِ وَالْكَوَارِثِ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَذَابٌ وَعُقُوبَاتٌ وَنُذُرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ، وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْمُزْرِيَةِ مِنِ اسْتِعْلَاءِ الْمُفْسِدِينَ، وَضَعْفِ الْمُصْلِحِينَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هُود: ١١٧]، وَقَالَ فِي الْمُعَذَّبِينَ السَّابِقِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هُود: ١٠١، ١٠٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٦].

وَاللهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلْبَشَرِ، وَيُرْسِلُ لَهُمُ الْآيَاتِ تِلْوَ الْآيَاتِ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَّعِظُونَ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ مِنْهُمْ، حَقَّتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ؛ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الْحَجّ: ٤٨].

فَخُذُوا الْعِبْرَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ آيَاتِ إِنْذَارٍ وَتَخْوِيفٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَكُمْ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى نُذُرَهُ، وَالْتَزِمُوا شَرِيعَتَهُ، وَخُذُوا عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ؛ لِئَلَّا يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ غَيْرَكُمْ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣٣٢- حدثان كبيران (*)

١٩/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ذِي الْمُلْكِ وَالمَلَكُوتِ وَالْعِزِّ وَالْجَبَرُوتِ، دَائِمٍ لَا يَفُوتُ، حَيٍّ لَا يَمُوتُ، أَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ وَمِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَأَحْمَدُهُ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ وَمِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ(١)؛ فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ يُمِيتُ الْخَلَائِقَ وَلَا يَمُوتُ ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ عَبْدٍ مُقِرٍّ بِذَنْبِهِ، مُعْتَرِفٍ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ

(*) وقع في هذا الأسبوع حدثان كبيران:

أولهما: وقع يوم الأحد ليلة الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ تسونامي كبير ضَرَبَ قَاعَ المحيط الهندي مِنْ جِهَةِ جزيرة سُومَطْرَة الأندونيسية، وارتفع المَدُّ البَحْرِي مِنْ جَرَّائِهِ، وغمرت مياهه مُدُنًا وقرى وجزرًا كثيرة.

الثاني: وقع يوم الأربعاء ليلة الخميس ١٨/ ١١/ ١٤٢٥هـ في مدينة الرياض، حيث فَجَّرَ بعض الشباب الخارجين على الدولة سَيَّارَتَيْن مُلَغَّمَتَيْن؛ مُسْتَهْدِفين مبنى وزارة الداخلية، ومبنى قوات الطوارئ في شمال الرياض، نسأل الله العافية مِنَ الْفِتَنِ مَا بطن منها وما ظهر.

(١) هذا الحمد بهذه الصيغة جاء في السنة النبوية من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، أخرجه النسائي في الكبرى (٩٩٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٤٩)، والسهمي في تاريخ جرجان (١/ ١٥٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٨) برقم (٧٩٣٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥٤)، وابن حبان (٨٣٠)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ٦٩٤)، ولفظه عند النسائي: أن النبي ﷺ مرّ بأبي أمامة وهو يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ: «**مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟**» قال: أذكر ربي، قال: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ ...**» فَذَكَرَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَمْدَ مِثْلَهُ.

وَقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ حُكْمِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لَهُ، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَهُ، كَانَ يَقُومُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا .. ذَاكِرًا وَدَاعِيًا، يُثْنِي عَلَى رَبِّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَيَعْبُدُهُ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ، سُمِعَ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّي ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»(٢) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ وَنِقْمَتَهُ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَدْفَعُوا أَمْرَهُ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِعَذَابِهِ.

اتَّقُوا مَنْ لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، لَا سُلْطَانَ إِلَّا سُلْطَانُهُ، وَلَا قُدْرَةَ إِلَّا قُدْرَتُهُ، وَلَا جَبَرُوتَ إِلَّا جَبَرُوتُهُ ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١].

فَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ طَوْعُ أَمْرِهِ، وَتَحْتَ حُكْمِهِ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا

(٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: عبد الرزاق في مصنفه (٢٨٨١).

وجاء من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الذكر بعد الرَّفْع من الركوع، أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨-٣٩٦)، والبزار (٢٩٣٤)، والطبراني في الأوسط (٥٦٨٩).

وجاء من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قاله في الافتتاح، أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (٢/ ٢٣١)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٠٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٨٧)، وأحمد (٥/ ٣٩٨-٤٠٠)، والطيالسي (٤١٦)، وابن المبارك في الزهد (١٠١)، والترمذي في الشمائل (٢٧٦)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٣١٣)، وقال الهيثمي عن حديث حذيفة: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثوقون».

وَقَدْ شَاءَ وُقُوعَهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْوُقُوعِ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ لَمْ يَشَأْ وُقُوعَهُ. يُرِي عِبَادَهُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، وَيُخَوِّفُهُمْ بِبَعْضِ آيَاتِهِ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وَبِدِينِهِمْ يَسْتَمْسِكُونَ.

لَقَدِ اغْتَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ بِقُوَّتِهِمْ، وَفَاخَرُوا بِعُلُومِهِمْ وَتِقْنِيَّاتِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ بِأَقْمَارِهِمْ وَأَرْصَادِهِمْ يَسْتَطِيعُونَ رَصْدَ بَوَادِرِ أَيِّ حَدَثٍ عَلَى الْأَرْضِ فِي بِدَايَاتِهِ، وَأَنَّ إِمْكَانَاتِ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ تَسْتَطِيعُ احْتِوَاءَ آثَارِ الْكَوَارِثِ وَالنَّكَبَاتِ؛ فَإِذَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ يُرِيهِمْ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، وَيُثْبِتُ لَهُمْ أَنَّهُمْ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَدْفَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا، أَوْ يُعَطِّلُوا لَهُ حُكْمًا، وَأَنَّ قُوَّتَهُ ﷻ تَتَجَاوَزُ إِمْكَانَاتِهِمْ، وَأَنَّ الْبَشَرَ مَهْمَا بَلَغُوا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يُخَفِّفُوا آثَارَ عَذَابٍ وَقَعَ، أَوِ ابْتِلَاءٍ قُدِّرَ.

وَمِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ: مَا وَقَعَ مِنْ زِلْزَالٍ قَوِيٍّ فِي قَاعِ الْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ، وَمَا نَتَجَ عَنْهُ مِنْ فَيَضَانِ الْبَحْرِ وَمَدِّهِ؛ حَتَّى غَمَرَ الْبَحْرُ مَا كَانَ أَمَامَ مَدِّهِ مِنْ سُفُنٍ وَمَرَاكِبَ وَبَوَارِجَ، وَقَطَعَ الْمُحِيطَ كُلَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ بِسُرْعَةٍ تُعَادِلُ سُرْعَةَ الطَّائِرَةِ، وَأَتَى عَلَى الْيَابِسَةِ فَابْتَلَعَ قُرًى كَامِلَةً بِسُكَّانِهَا وَعُمْرَانِهَا، وَامْتَدَّتْ آثَارُهُ لِتَطُولَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دُوَلٍ فِي قَارَّتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، وَجَرَفَ فِي خَطِّ سَيْرِهِ الَّذِي جَاوَزَ سَبْعَةَ آلَافِ كِيلُو مِتْرٍ مَا جَرَفَ مِنْ بَشَرٍ، وَعُمْرَانٍ، وَأَشْجَارٍ، وَمَرَاكِبَ، وَمَتَاعٍ، وَأَلْقَى بِهَا بَعِيدًا عَنْ أَمَاكِنِهَا.

إِنَّهُ حَدَثٌ عَظِيمٌ عِنْدَ الْبَشَرِ، رَوَّعَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَتَدَاعَى لَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ مِنْ كُلِّ فِجَاجِ الْأَرْضِ؛ مُحَاوِلِينَ تَصْوِيرَهُ لِلنَّاسِ، وَرَصْدَ آثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ، وَوَقَفَ الْبَشَرُ بِدُوَلِهِمْ وَأُمَمِهِمْ، وَصِنَاعَاتِهِمْ وَتِقْنِيَّاتِهِمْ أَمَامَهُ عَاجِزِينَ مَذْهُولِينَ، وَلَيْسَ عَجْزُهُمْ عَنْ تَخْفِيفِ آثَارِهِ، وَإِرْجَاعِ الْمُدُنِ وَالْقُرَى الَّتِي جَرَفَهَا فَحَسْبُ، بَلْ هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ دَفْنِ الْمَوْتَى الَّذِينَ خَلَّفَهُمْ، وَإِخْرَاجِ الْجُثَثِ مِنْ تَحْتِ الْأَبْنِيَةِ وَالرُّكَامِ،

وَيُنْذِرُونَ بِتَعَفُّنِ المِيَاهِ، وَانْتِشَارِ الْأَوْبِئَةِ، وَأَنَّ مَا سَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ المَوْتِ بِالطَّاعُونِ سَيَتَجَاوَزُ أَعْدَادَ مَنْ جَرَفَهُمْ هَذَا الطُّوفَانُ المُدَمِّرُ، وَقَدْ تَجَاوَزَتْ أَعْدَادُهُمْ مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفَ إِنْسَانٍ، عَدَا المَفْقُودِينَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ، وَالمَطْمُورِينَ تَحْتَ الْأَبْنِيَةِ المُتَسَاقِطَةِ، مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ أَثْبَتَ خُبَرَاءُ الزَّلَازِلِ وَالْفَيَاضَانَاتِ أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ: وُقُوعَ هَذَا الزِّلْزَالِ تَحْتَ الْبَحْرِ بِأَرْبَعِينَ كِيلُو مِتْرًا، وَلَوْ كَانَ عَلَى الْيَابِسَةِ لَأُهْلَكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَلَكَانَتْ قُوَّتُهُ أَعْنَفَ، وَتَدْمِيرُهُ أَكْثَرَ.

لَقَدْ قَدَّرُوا أَنَّ هَذَا الزِّلْزَالَ يُعَادِلُ مَا يُقَارِبُ مِنَ انْفِجَارِ مِئَتَيْ قُنْبُلَةٍ نَوَوِيَّةٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً، فَأَيْنَ نَوَوِيَّاتُ الْبَشَرِ وَقُدْرَتُهُمْ وَقُوَّتُهُمْ أَمَامَ هَذَا؟!

فَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ! وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

لَقَدْ أَعْلَنَ الْبَشَرُ بِدُوَلِهِم وَأُمَمِهِمْ وَمُنَظَّمَاتِهِمُ الدَّوْلِيَّةِ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ إِيوَاءِ بِضْعَةِ مَلَايِينَ مِمَّنْ شُرِّدُوا جَرَّاءَ هَذَا الْفَيَضَانِ، وَتَصِيحُ المُنَظَّمَاتُ الْإِغَاثِيَّةُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا تَطْلُبُ الْعَوْنَ وَالمُسَاعَدَةَ، مُطْلِقِينَ أَكْبَرَ عَمَلِيَّةِ إِنْقَاذٍ دَوْلِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ كَمَا يَقُولُونَ(٣).

---

(٣) هذه المعلومات التي أوردتها في الخطبة عن هذا الفيضان لَخَّصْتُهَا مِنَ الصّحُف والمحطات الإخبارية ومواقع الإنترنت خلال الأيام الماضية، وإلى ساعة كِتَابَةِ هذه الخطبة تَجَاوَزَ عَدَدُ الهَلْكَى الذين أعلن عنهم مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفَ نسمة، عَدَا المَفْقُودين ومَنْ لا يُعْلَم عنهم شيء حتى الآن، والمطمورين تحت البنايات المهدمة، وهم كثير جدًّا.
ولا يزال جمع كبير مِنْ فِرَق الإغاثة والطوارئ يَبْحَثُون عن جثث عالقة على الأشجار، وعائلات تَبْكِي قَتْلَاها على الشواطئ، وعمال إنقاذ يبحثون عن سياح مفقودين.
وتحولت شواطئ جنوب آسيا التي يزينها النخيل إلى مشاهد موت ودمار من جراء =

. . . .

= موجات المد العاتية الناجمة عن أكبر زلزال في العالم منذ أربعين عامًا.
وهَرعَتْ وكالات الإغاثة الدولية لإرْسَال عمال إنقاذ ومعدات وأموال للمنطقة؛ مُحَذِّرَة من أن الجثث المتَعَفِّنَة في المياه بَدَأَتْ بالفعل تهدد إمدادات المياه للناجين.
وسَوَّتْ مياهٌ بلغ ارتفاعها عَشرَةَ أمْتَار المَنَازِلَ بالأرض، وقَذَفَتْ بِقَوَارب الصيد على الطُّرق الساحلية، وألْقَتْ بِسَيَّارَات كانت تدور وسط دَوَّامَات من المياه داخل بهو فنادق، كما جرفت المياه أفرادًا كانوا يأخذون حمامات شمس ورُضّع وَصَيَّادِين.
وقال فيل ايزموند رئيس شركة أوكسفام في سريلانكا: «هذه كارثة إنسانية هائلة، والاتصالات سيئة للغاية، وما زلنا لا نعرف حجم الكارثة بالكامل. إذا لم ننقل إمدادات إغاثة سريعًا للناس يمكن أن يلقى كثير منهم حَتْفَهُمْ».
وأزيلت بالكامل قُرًى تَعْمَل بالصيد ومنتجعات سياحية فاخرة.
وبعد يوم واحد من المَوْجَاتِ العاتية التي ضربت المناطق الساحلية في بلدة بينانج شمالي ماليزيا عاد أمس إلى الشاطئ المواطنون والسائحون على حَدٍّ سواء؛ ليشاهدوا عُمَّال الإنقاذ يُمَارِسُون مهِمَّتَهُم بانتشال جثث الضحايا مِنَ البحر في مَشْهَدٍ كئيب.

قوة الزلزال:

أَكَّدَ المَعْهَد الجيولوجي الأمريكي أن قوة الهزَّة التي ضربت إندونيسيا وتَلَتْهَا أمواج عاتية بلغت ٩ درجات على مقياس ريختر المفتوح، وقد أعاد المعهد النظر في الرقم السابق لقوة الهزة الذي كان ٨.٩ درجات.
وقال العالم الفيزيائي (دون بلامكن) لوكالة فرانس برس: إن المعهد أعاد في ضوء المعلومات الجديدة النظر في الرقم ٨.٩ الذي أعلنه في وقت سابق من النهار.
وأضاف: إنه حدث استثنائي، وهي الهزة الرابعة بهذه القوة منذ ١٩٩٠م.
وذكر المعهد: أن الهزة الأقوى منذ ١٩٠٠م والتي بلغت قوتها ٩,٥ درجات على مقياس ريختر قد ضربت تشيلي في ١٩٦٠م.
وكانت هزتان في ألاسكا (شمال غرب الولايات المتحدة) الأولى في ١٩٥٧م والثانية في ١٩٦٤م، وأخرى في كامتشاتكا (سيبيريا الشرقية)، بلغت قوتها ٩ درجات. وحدد مركز الهزة التي وقعت الأحد غرب شمال جزيرة سومطرة.
وقال أحد الخبراء: إن هذا الزلزال لو كان قد وقع على الأرض لكانت خسائره أكبر بكثير مما شوهد بسبب وقوعه على عمق ٤٠ كيلومترًا من قاع البحر. =

. . . .

= وقال أحد الخبراء: إنه يُمْكِنُكَ أن تَتَخَيَّلَ سرعة المياه وقوة اندفاعها من أنك لو فتحت غسالة كهربائية تعمل بكل قوتها عند إخراج الماء، فسوف يضرب الماء وجهك بقوة، والذي جرى صباح الأحد الماضي هو بمثابة فتح أبواب مليون غسالة كَهْرَبائِيَّة عند أوج عملها وفي وقت واحد ..!

وأَكَّدَ البروفيسور أحمد رجان رئيس مؤسسة البحوث الجيوفيزيقية التركية: أن الزلزال الذي شهدته دول جنوب شرق آسيا يعادل في قوته قوة مائة وخمسة وسبعين قنبلة ذرية، مشيرًا إلى أن زلزال بحر مرمرة الكبير الذي ضرب إسطنبول وضواحيها في أغسطس عام ١٩٩٩م وأودى بحياة ما لا يقل عن سبعة عشر ألف شخص كانت قوته تعادل قوة ٧٩ قنبلة ذرية جراء الضغط في قاع بحر مرمرة. وأشار في تصريح له إلى أن لحسن الحظ فإن زلزال جنوب شرق آسيا كان مركزه في قاع المحيط الهندي بمسافة أربعين كيلومترًا.

امتداد آثار الزلزال:

شهدت سواحل اليمن وسلطنة عمان المقابلة لبحر العرب الذي يفتح على المحيط الهندي الأحد ارتفاعًا في منسوب مياهها وأمواجًا عاتية، يرجح أنها من تأثير المد البحري الذي نجم عن زلزال سومطرة، أوقعت ثلاثة جرحى في اليمن، وفق ما نشر أمس الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ في صنعاء ومسقط.

وأوضحت وسائل الإعلام اليمنية أن سواحل محافظة المهرة «جنوب شرق اليمن» تعرضت ظهر الأحد ١٤/ ١١ إلى أمواج بحرية عاتية، يُرَجَّحُ أَنَّهَا بتأثير الزلزال الذي أوقع عدة آلاف قتيل في عدد من الدول الآسيوية.

تَعَفّن الجُثَثِ والخَوْف من الأوبئة:

حذرت الأمم المتحدة أمس الاثنين ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ من تَفَشِّي أوبئة خلال أيام ما لم تستطع الأجهزة الصحية في جنوب وجنوب شرق آسيا تدبير الأمر بعد مقتل الآلاف وتشريد عشرات الآلاف من جراء الموجات البحرية العاتية التي نجمت عن الزلزال الذي بلغت شدته ٩ بمقياس ريختر الذي هزَّ المنطقة أمس الأَوَّل.

وقال خبراء: إن أول خمسة أمور سيتم معالجتها هي: المياه، والمرافق الصحية، والطعام، والمأوى، والصحة.

وقال دومينيك نوت من مؤسسة كريستيان للمساعدات: «لدينا تقارير بالفعل من جنوب الهند عن تعفن جثث في الأماكن التي سقطت فيها، وسيكون لهذا تأثير فَوْرِيّ عَلَى =

. . . .

= إِمْدَادَات المياه ولا سيما بالنِّسْبَةِ لِلْفُقَرَاء».
وتوجد قرى مَعْزُولة في بعض المناطق المَنْكُوبَة، وتوجد قرى بعيدة جدًّا بحيث يستحيل معرفة حجم الأضرار.
وقال هاكان ساندبلاد وهو مسؤول صحي كبير في الاتحاد الأوروبي في جنيف: «أكبر التحديات التي نواجهها هي انتشار الأمراض التي تنتقل عن طريق المياه خصوصًا الملاريا والإسهال وأمراض الجهاز التنفّسِي».
وقال منسق إغاثة الطوارئ بالأمم المتحدة جان انجلاند لشبكة «سي. ان. ان التليفزيونية الإخبارية»: إن هذه الكارثة قد تكون الأسوأ في التاريخ الحديث؛ بسبب تأثيرها على الكثير جدًّا مِنَ المناطق الساحلية الكثيفة السكان، وبسبب تَعَرُّضِ الكثير جدًّا من المجتمعات للخطر.
وأضاف يقول: «ربما تكون التأثيرات على المدى الطويل مدمرة، مثل: موجات المد أو الزلزال نفسه، فالكثير جدًّا من الناس يعانون حاليًا من تناول مياه الشرب الملوثة، ويمكن أن تكون لدينا أمراض وبائية في غضون أيام قليلة، ما لم يتم تعزيز النظم الصحية وتفعيلها».
وقال دومينيك نوت المسؤول بوكالة الإغاثة المسيحية: إن لديه تقارير من جنوب الهند عن تعفن جثث، وسيؤثر ذلك بسرعة على إمدادات المياه وخاصة بالنسبة للسكان الأشد فقرًا.
من جانبه قال فيل اسموند رئيس منظمة أوكسفام في سريلانكا: «إن هذه كارثة إنسانية مروعة، والاتصالات سيئة للغاية، لدرجة أننا ما زلنا لا نعرف الحجم الكامل لها، وإذا لم نحصل على مساعدات بسرعة؛ فإن المزيد من الناس يمكن أن يموتوا».
وتقول «مراسلة بي بي سي في آتشيه راتشيل هارفي»: إن الحجم الحقيقي للكارثة على الساحل الجنوبي الغربي، وعلى مجموعة الجزر الصغيرة المقابلة للساحل لم يُعْرَفْ بَعْد، ويتم حاليًا حَفْر قبور جماعية في أَسْوَأ المناطق تأثيرًا بالكارثة في إقليم آتشيه الأندونيسي.
من آثار الزلزال:
يقف العالم مشدوهًا أمام هول كارثة المَدِّ البحري الزلزالي في آسيا، ومع بدء أكبر عملية إنقاذ دولية في التاريخ يتواصل ارتفاع عدد الضحايا إلى أرقام تماثل قتلى الحروب الكبرى.
وتروي الصور وإفادات الناجين من الطوفان مآسي لا تحصى؛ حيث جرف الطوفان الأخضر واليابس لعشرات الكيلومترات، وغيض الماء، وكَشَفَ عن دمار شامل؛ حيث =

وَمَنْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لهُمُ النَّجَاةَ مِنَ الهَلَاكِ يَحْكُونَ لِلنَّاسِ مَا رَأَوْا فَإِذَا هُوَ عَظِيمٌ عَظِيمٌ . . كَبِيرٌ كَبِيرٌ!! لَا طَاقَةَ لِلْبَشَرِ بِهِ، وَلَا حَوْلَ لهُمْ وَلَا قُوَّةَ أَمَامَهُ، بَلْ مَا نَقَلَتْهُ مَحَطَّاتُ التَّلْفَزَةِ تَسْتَعْظِمُهُ أَكْبَرُ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ؛ فَالْجُثَثُ عَلَى السَّوَاحِلِ

= أُبيدَتْ قُرى بأكملها، ووصفت أمواج المد التي بلغ ارتفاعها نحو عشرة أمتار بحوائط القتل؛ فقد غمرت كل شيء بقوة رَهِيبَة حتى الذين اعتصموا بقمم الأشجار وأسطح المنازل.

فقد تَوَقَّع مسؤول بالأمم المتحدة ارتفاع عدد القتلى في إقليم آتشه بإندونيسيا فقط إلى نحو (٨٠ ألفا)، مشيرًا إلى أنه -وفقًا لتقديرات حكومية- أُبِيدَ ثلث سكان بلدة (مولابو) غربي إندونيسيا.

ويتواصل ارتفاع ضحايا كارثة المد الزلزالي بآسيا، ويواجه ملايين الناجين شبح المجاعات والأوبئة الفتاكة؛ بسبب طوفان العصر الحديث.

وتشير التوقعات إلى أن عدد قتلى «تسونامي» في دول جنوب وجنوب شرق آسيا سيتجاوز المائة ألف بكثير، ففي إندونيسيا وسريلانكا والهند وتايلند ودول أخرى يستمر انتشال الجثث من وسط الدمار الشامل، ودفنها في مقابر جماعية.

وفي بعض المناطق النائية مثل: جزر إندامان، ونيكوبار الهندية، لم تصل فرق الإنقاذ بعد لبعض القرى؛ حيث من المتوقع العثور على آلاف القتلى، بينما يعتقد أن تركيز الجهود على جمع الجثث لمنع انتشار الأوبئة يؤثر أيضًا على أعمال الإغاثة.

ومع استمرار وصول المساعدات الدولية الإنسانية في أكبر عملية إغاثة بالتاريخ، تزاحم ملايين المُشَرَّدِين بالمناطق الساحلية في المحيط الهندي؛ للحصول على الغذاء والمياه النقية والوقود.

ولم تنشغل فِرَقُ الإِنْقَاذِ بِإِيوَاءِ المُشَرَّدِينَ وإطعامهم فقط، بل شَرَعَتْ فِي تَنفِيذ خُطَط طارئة لتوفير الخدمات الأساسية، وأيضًا تقديم كميات كافية من الحقائب البلاستيكية؛ لجمع الجثث ومكافحة الآثار الصحية الناجمة عن الكارثة.

وقد حذرت وكالات الأمم المتحدة من كارثة صحية جديدة تفوق خسائر الزلزال والمد؛ بسبب عدم تَوَفُّر الخدمات الأساسية لنحو خمسة ملايين مشرَّد. فخطر المياه الرَّاكِدَة قَدْ يفوق الجارفة على حد تعبير مديرة صندوق الأمم المتحدة للطفولة «يونيسيف» كارول بيلامي وقال يان اجلاند رئيس مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية: «تكلفة الدمار ستكون بمليارات الدولارات».

لَمْ يَسْتَطِعِ الْوُصُولَ إِلَيْهَا أَحَدٌ، وَبَشَرٌ قَدْ عَلَّقَهُمُ الطُّوفَانُ فِي أَعَالِي الْأَشْجَارِ، وَالْبِنَايَاتُ وَالمَرَاكِبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ قَدْ بُعْثِرَتْ، وَالهَالِكُونَ فِي وَسَطِ المُحِيطِ لَا يُعْلَمُ عَنْهُمْ شَيْءٌ(٤)، كُلُّ هَذَا الطُّوفَانِ مَعَ شِدَّتِهِ وَعُنْفِهِ، وَقُوَّةِ تَدْمِيرِهِ، وَكَثْرَةِ

---

(٤) تقول شين سولين، وهي من أهالي المنطقة التي جرفها الطوفان: «إنه لا يصدق .. بالأمس فقط كنا نقضي العطلة على الشاطئ دون أي خوف»، واستطردت شين التي ذهبت للشاطئ مع عائلتها: «والآن ينتظر العالم أنْ يعرف كم مِنَ الضَّحايَا قد مات».
شين البالغة من العمر ٣٩ عامًا قالت: «إنها كانت قد خرجت لتوِّهَا مِنَ السيارة عندما رأت الناس يركضون هربًا مِنَ المياه، وأمرت أُسْرَتَهَا بالعودة للسيارة، وانطلقت بها مُسْرِعَةً».
وقالت: «كانت الأمواج وكأنها جدار رمادي ضخم لم أَرَ مطلقًا شيئًا كهذا»، وأضافت: «كان المشهد الأكثر رعبًا حيث كان الناس يطلقون صرخات رعب».
كان أحد الصيادين، ويدعى: شعيب محمد عيسى، قَدْ أَبْعَدَتْهُ الأمواج مسافة ثلاثة كيلومترات عن سواحل بلدة كيدا الشمالية لِتُلْقِي به على إحدى أشجار المانجروف.
ويذكر لوكالة الأنباء الرسمية بيرناما: «سمعت صوت زَئِيرٍ عَالٍ، ورأيت موجةً كبرى قادمة باتجاه الشاطئ، وقبل أنْ أَتَمَكَّنَ من فعل شيء كانت المَوْجَة قد أصابت قَارِبِي وأصابتني».
وفي قصة أخرى احتضن ساريا دارمار (٣٥ عامًا) اثنين من أبنائه، فيما أمسكت زوجته بالثالث، وخرجوا من منزلهم عند مشارف بلدة باندا آتشيه الإندونيسية بسرعة، بعد أن شاهدوا الناس يركضون ويصرخون: «اخرجوا .. اخرجوا» لكنهم لم يتمكنوا من تجاوز سرعة الموجة العاتية التي وصلت سرعتها إلى ٥٠٠ كيلو متر في الساعة، وعبرت المحيط الهندي في ساعة واحدة يوم الأحد، وسرعان ما غطت رؤوسهم وجرفتهم.
وقال دارمار وهو يرقد في مستشفى عسكري في باندا آتشيه أمس، وقد امتلأ جسده بالجروح، وكسرت ساقه: «المياه كانت قوية للغاية .. أمسكت بابني لأطول مدة استطعتها لكن المياه جرفتهما» .. كما اختفت زوجته والطفل الآخر، ويحكي دارمار أنه تشبث بقطعة من الخشب، وجرفته المياه، إلى أن ارتطم بسقف متجر؛ مما تسبب في كسر ساقه، إلا أنه استطاع أن يتسلق إلى القمة.
وقال دارمار: حياتي انتهت .. كل ما بوسعي هو أن أفوض أمري لله تعالى.
ونجت صبية هندية عمرها ١٣ عامًا بعد أن ظلت في البحر يومين، تشبثت خلالها أولًا بباب، ثم شجرة، ثم حقيبة في جزر اندامان ونيكوبار النائية، قرب ميانمار وأندونيسيا.
وقال رام كابس نائب حاكم المنطقة للصحفيين: «حين جرفتها المياه طوال يومين =

آثَارِهِ لَيْسَ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ دَلَائِلِ قُوَّةِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ، وَمَا هَذَا الطُّوفَانُ الْيَسِيرُ أَمَامَ الطُّوفَانِ الَّذِي أَغْرَقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ قَوْمَ نُوحٍ، وَغَطَّى قِمَمَ الْجِبَالِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ؟!

لَقَدْ بَانَ عَجْزُ الْبَشَرِ، وَظَهَرَ ضَعْفُهُمْ، رَغْمَ مَا يَتَبَاهَوْنَ بِهِ مِنْ قُدْرَةٍ وَقُوَّةٍ، وَمَا يَمْتَلِكُونَهُ مِنْ مَوَارِدَ وَإِمْكَانِيَّاتٍ، وَمَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ وَمُخْتَرَعَاتٍ . . إِنَّهَا لَمْ تَجِدْ شَيْئًا أَمَامَ هَذَا الطُّوفَانِ الصَّغِيرِ الَّذِي مَا أَتَى إِلَّا عَلَى عَدَدٍ مِنَ الدُّوَلِ، وَغَمَرَ بَعْضًا مِنَ الْقُرَى، فَحَدَثَ مَا حَدَثَ مِمَّا رَأَيْتُمْ وَسَمِعْتُمْ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُ الْبَشَرُ، فَكَيْفَ لَوْ غَمَرَ قَارَّةً بِكَامِلِهَا أَوْ غَطَّى رُبْعَ الْأَرْضِ أَوْ نِصْفَهَا؟! مَاذَا سَيَقُولُ الْبَشَرُ؟ وَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ؟! فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

إِنَّ الْأَرْضَ بِكُلِّ مَا فِيهَا لَيْسَتْ إِلَّا ذَرَّةً صَغِيرَةً فِي مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقْبِضُهَا الرَّبُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَمُحِيطَاتٍ وَأَشْجَارٍ. وَمَعَهَا السَّمَاءُ يَطْوِيهَا بِيَمِينِهِ، فَمَا هَذَا الْفَيَضَانُ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

= واجهت سلاحف وأفاعي أثناء الليل، واستطاعت في النهاية أن تبذل ما يكفي من جهد لتصل إلى قرية على ساحل كارنيكوبار، حيث قدم لها الناس بعض مياه جوز الهند وبعض الطعام، ونقلوها إلى مخيم الإنقاذ».

كما تحدث الناجون عن السرعة التي تحولت بها حياتهم، يقول محمد صوفي محمد حسن ١٩ عامًا: «استغرق الأمر لحظات»، وكان محمد قد حاول التعلق بشجرة بعد ما أطاحت الأمواج بوالدته وشقيقته على شاطئ باتوفيرنجي الشعبي في بنانج، حيث لاقتا حتفيهما. وذكر لصحيفة مالاي ميل: «لم يكن أيّ منا في الماء عند ما انطلقت الموجات .. كنا جلوسًا على الصخر نعد طعامنا فحسب».

فيما ظلت عائلات مئات المفقودين في المستشفيات، وتكَدَّسَتْ على مضايق الشواطئ، في انتظار ورود أنباء عن أحبائهم، فيما سعى رجال الإنقاذ جاهدين في المياه بحثًا عن جثث الضحايا.

رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**». وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(٥).

وَالنَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَنْتَفِضُ وَيُرْعَدُ؛ إِجْلَالًا للَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ يَحْكِي وَصْفَ ذَلِكَ: «حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٦).

بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ بِقَارَّاتِهَا وَدُوَلِهَا وَأُمَمِهَا وَكُلِّ مَا فِيهَا لَيْسَ حَجْمُهَا شَيْئًا يُذْكَرُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ، كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ عَلَى إِصْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ كَمَا رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ.

---

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ (٦٩٤٧)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧). وأخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥] (٦٩٧٧)، ومسلم (٢٧٨٨).

(٦) هذه الرواية لمسلم (٢٧٨٨).

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦١٥٥)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (٢٧٩٢).
وفي رواية مسلم: «**يَكْفَؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ**».

فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِلْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر: ٦٧](٨).

تِلْكَ بَعْضٌ مِنْ مَظَاهِرِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا رَأَيْنَاهُ مِنْ أَحْدَاثِ هَذَا الزِّلْزَالِ الْمُدَمِّرِ مَا هُوَ إِلَّا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ تِلْكَ الْعَظَمَةِ، وَدَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ، فَهَلْ آمَنَ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ بِرَبِّهِمْ؟ وَهَلِ ازْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ؟

إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى حَتَّى فِي أَحْوَالِ الْكَوَارِثِ وَالْأَزَمَاتِ، وَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ!!

لَقَدْ نَسَبُوا هَذَا الْحَدَثَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: «إِذَا غَضِبَتِ الطَّبِيعَةُ فَلَا يَقِفُ أَمَامَ غَضَبِهَا شَيْءٌ»، وَقَالُوا: «غَضِبَ الْبَحْرُ فَابْتَلَعَ الْيَابِسَةَ»، وَقَالُوا: «مَنْ يَقِفُ أَمَامَ الْبَحْرِ إِذَا غَضِبَ؟!»(٩)، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الشِّرْكِيَّةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَإِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

لَقَدْ غَفَلَ هَؤُلَاءِ الْمَفْتُونُونَ عَنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَعَظَمَتِهِ، وَجَهِلُوا أَنَّ الْبَحْرَ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، خَاضِعٌ لِحُكْمِهِ؛ مُمْتَثِلٌ لِأَمْرِهِ، أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ أَنْ يَكُونَ يَبَسًا عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ، فَلَمَّا سَلَكُوهُ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ يُطْبِقَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَطْبَقَ عَلَيْهِمْ فَأَغْرَقَهُمْ، وَيَأْمُرُهُ اللَّهُ ﷻ بِمَا شَاءَ، مَتَى شَاءَ، فَلَا يَعْصِي لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا؛ لِأَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَجُنْدٌ مِنْ جُنْدِهِ، أَعْلَنَ طَاعَتَهُ

---

(٨) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمر: ٦٧] (٤٥٣٣)، ومسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٩) هذه الأقوال ونحوها كثير، دَوَّنْتُهَا من أفواه الإعلاميين في بعض القنوات الفضائية العربية التي تناقلت الخبر.

يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١].

آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا، وَإِلَيْهِ المَصِيرُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، زِنَةَ عَرْشِهِ، وَرِضَاءَ نَفْسِهِ، وَعَدَدَ خَلْقِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشُّورى: ٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا مِنْ ذُنُوبِكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَوِيٌّ قَدِيرٌ، جَبَّارٌ عَزِيزٌ، سَرِيعُ الْحِسَابِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، الرَّعْدُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَالمَلَائِكَةُ مِنْ

خِيفَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ ﷻ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَالٍ.

وَكُلُّ عَذَابٍ يَنْزِلُ، أَوْ فِتْنَةٍ تَقَعُ فَإِنَّ الذُّنُوبَ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَالتَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ، وَكَشْفِ الْبَلَاءِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وَإِنْ كَانَ هَذَا الزِّلْزَالُ الْمُدَمِّرُ حَدَثًا كَبِيرًا قَدْ رَوَّعَ الْبَشَرَ؛ فَإِنَّ حَدَثًا آخَرَ رَوَّعَنَا فِي دِيَارِنَا؛ إِذْ تَسَلَّطَ عَلَيْنَا ثُلَّةٌ مِنْ أَبْنَائِنَا، يُفَجِّرُونَ فِي بِلَادِنَا، وَيُفْسِدُونَ فِي أَرْضِنَا، وَيُزَعْزِعُونَ أَمْنَنَا، بِتَأْوِيلَاتٍ خَاطِئَةٍ، وَاجْتِهَادَاتٍ غَيْرِ سَائِغَةٍ.

فَإِنْ كَانُوا مُعَظِّمِينَ لِلَّهِ تَعَالَى فَأَيْنَ هُمْ مِنْ تَعْظِيمِ الدَّمِ الْحَرَامِ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ شَأْنَهُ، وَتَوَعَّدَ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَنْ سَفَكَهُ؟! ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١٠)]، وَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ قَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْحَقِّ مِنَ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الَّتِي تُوبِقُ صَاحِبَهَا[(١١)].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[(١٢)].

---

(١٠) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٤٦٩).

(١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**» أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ .. (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(١٢) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل =

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»(١٣).

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّ زَوَالَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِ»(١٤).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(١٥).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»(١٦)، فَإِذَا اسْتَحَقَّ الْمُشِيرُ بِالْحَدِيدَةِ لِلَعْنَةِ الْمَلَائِكَةِ فَكَيْفَ إِذًا بِمَنْ حَمَلَ السِّلَاحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟! نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

= المؤمن (٤٢٧٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٣٠٨)، وفي المعجم الأوسط (٩٢٢٨)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠) والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١).

(١٣) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٣١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٥٤).

(١٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، والبيهقي (٨/ ٢٢). وقد جاء مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح كما ذكر الترمذي والبيهقي. وجاء مرفوعًا من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند: ابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا (٢٦١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٨).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٦٦٥٩)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»** (٩٨).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٥٠٥)، ومسلم في البر والصلة، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم (٢٦١٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في إشارة المسلم إلى أخيه بالسلاح (٢١٦٢).

وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِتَفْجِيرِهِمْ وَتَخْرِيبِهِمْ وَقَتْلِهِمْ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ فَهُمْ مُخْطِئُونَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ: جَمْعَ الْكَلِمَةِ، وَتَوْحِيدَ الصَّفِّ، لَا تَفْرِيقَ الْمُسْلِمِينَ، وحَمْلَ السِّلَاحِ عَلَيْهِمْ، وَإِشْغَالَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ قَضَايَاهُمْ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَأَيُّ فَشَلٍ وَتَنَازُعٍ أَعْظَمُ مِنْ شَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ، وَالْخُرُوجِ بِالسِّلَاحِ، وَقَصْدِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى، وَمِنَ الْغِلْظَةِ وَالْفَظَاظَةِ.

اللَّهُمَّ اهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَرُدَّهُمْ إِلَى الْحَقِّ رَدًّا جَمِيلًا، اللَّهُمَّ اكْفِنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِكَ، اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْإِفْسَادَ فِي الْبِلَادِ، وَزَعْزَعَةَ أَمْنِ الْعِبَادِ فَاكْفِنَاهُ بِمَا تَشَاءُ وَأَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، اللَّهُمَّ اكْبِتْ كُلَّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، وَكُلَّ ظَالِمٍ وَظَالِمَةٍ، وَاهْدِ كُلَّ ضَالٍّ وَضَالَّةٍ، وَاحْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَصْلِحْ وُلَاتَنَا وَوُلَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَاءَنَا وَعُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَشَبَابَنَا وَشَبَابَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ مَنِ اسْتَهْدَفَ دِينَنَا أَوْ أَمْنَنَا، وَأَرَادَ بِنَا وَبِالْمُسْلِمِينَ شَرًّا وَسُوءًا، فَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ، وَاجْعَلْ تَدْبِيرَهُ تَدْمِيرَهُ، وَاهْتِكْ سِتْرَهُ، وَافْضَحْ أَمْرَهُ، وَرُدَّهُ عَلَى عَقِبِهِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، أَنْتَ مَوْلَانَا وَمَوْلَى الْمُسْلِمِينَ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

وَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . . .



٣٣٣- حقيقة الزمن (١)
الزمن من خلق الله تعالى

٢٦/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ؛ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَتْقَنَهُ، وَدَبَّرَ مَا خَلَقَ وَأَحْكَمَهُ، وَشَرَعَ لَنَا مِنَ الدِّينِ أَحْسَنَهُ وَأَعْدَلَهُ ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَصُرَ عِلْمُ الْعِبَادِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ﷻ؛ فَلَمْ يَفُوهُ سُبْحَانَهُ حَقَّهُ، وَلَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَصَفَ رَبَّهُ ﷻ بِمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِ، وَرَغَّبَ الْعِبَادَ فِي رِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ نِقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَزْكَى هَذِهِ الْأُمَّةِ عَمَلًا، وَأَنْفَعُهُمْ عِلْمًا، اجْتَنَبُوا مَا نُهُوا عَنْهُ، وَسَارَعُوا إِلَى مَا أُمِرُوا بِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَارَ تَنْقُصُ، وَإِنَّ عَامَكُمْ هَذَا يُشَارِفُ عَلَى الِانْتِهَاءِ، وَأَنْتُمْ تَعِيشُونَ أَيَّامَهُ الْأَخِيرَةَ، لِيَخْلُفَهُ عَامٌ جَدِيدٌ، وَكُلُّ عَامٍ يَمْضِي يُبْعِدُكُمْ عَنْ دُنْيَاكُمْ، وَيُقَرِّبُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ، فَخُذُوا مِنَ الزَّادِ مَا يَنْفَعُكُمْ، وَاعْتَبِرُوا بِمُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ

أَعْمَارِكُمْ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي نَعِيشُهُ وَنَعْرِفُ لَهُ مَاضِيًا وَحَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا أُعْجُوبَةٌ مِنَ الْأَعَاجِيبِ، وَآيَةٌ بَاهِرَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجِيبِ صُنْعِهِ ﷻ . . آيَةٌ بَيِّنَةٌ انْبَرَى لِمَعْرِفَتِهَا الدَّارِسُونَ، وَاحْتَارَتْ فِيهَا الْعُقُولُ، وَتَخَبَّطَ فِيهَا الْبَشَرُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَمُنْذُ الْقِدَمِ وَالْإِنْسَانُ يُحَاوِلُ كَشْفَ كُنْهِ الزَّمَنِ وَحَدَّهُ وَبِدَايَتَهُ وَطَرِيقَةَ سَيْرِهِ، فَمَا يُدْرِكُ حَقِيقَةً مِنْ حَقَائِقِهِ -بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ- إِلَّا وَيَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَةِ الْخَالِقِ ﷻ، وَيَكْتَشِفُ مَا مَضَى مِنْ جَهْلِهِ وَعَجْزِهِ، وَمَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ حَقَائِقِ الزَّمَنِ فَإِنَّهُ يَتَخَبَّطُ فِيهِ يَمِينًا وَشِمَالًا بِنَظَرِيَّاتٍ وَفَرْضِيَّاتٍ، حَتَّى يَأْتِيَ لَاحِقٌ فَيَكْشِفُ خَطَأَ السَّابِقِينَ وَتَخَبُّطَهُمْ.

وَمِنْ عَجِيبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ أَدِلَّةِ عَجْزِ الْبَشَرِ وَضَعْفِهِمْ: أَنَّ أَرْقَى الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَقْوَاهَا تَفْكِيرًا وَحِدَّةً وَاسْتِحْضَارًا وَتَحْلِيلًا؛ يَعْسُرُ عَلَيْهَا تَحْدِيدُ مَفْهُومِ الزَّمَنِ فِي الْوُجُودِ، وَإِنْ كَانَ أَخْمَلَ الْبَشَرِ وَأَغْبَاهُمْ يَجِدُونَ سُهُولَةً فِي الشُّعُورِ بِالزَّمَنِ وَإِدْرَاكِ أَثَرِهِ.

لَقَدْ كَرَّسَ كَثِيرٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الْقُدَمَاءِ، وَأَهْلُ الْكَلَامِ، وَعُلَمَاءُ الْفَلَكِ عُقُولَهُمْ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الزَّمَنِ، وَظَنَّ أَكْثَرُهُمْ أَنَّ الزَّمَنَ فِي الْأَرْضِ مُطْلَقٌ لَا يَتَنَاهَى أَبَدًا، فَلَيْسَ لَهُ بِدَايَةٌ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَمِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ الْخَاطِئِ انْبَثَقَتْ مَذَاهِبُ الدَّهْرِيَّةِ، وَالْقَوْلُ بِالتَّنَاسُخِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ.

وَفِي الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ مِنْ آفَاقِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مَا تَوَصَّلُوا بِهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ ظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيًّا عَلَى أَيْدِي

عُلَمَاءِ الْفِيزْيَاءِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ، فَاكْتَشَفُوا النِّسْبِيَّةَ الَّتِي مِنْهَا نِسْبِيَّةُ الزَّمَنِ، وَأَنَّ الزَّمَنَ الَّذِي تَعِيشُهُ المَخْلُوقَاتُ عَلَى الْأَرْضِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، وَهُوَ غَيْرُ الزَّمَنِ الَّذِي يُوجَدُ فِي الْعَوَالِمِ الْأُخْرَى لَا مِنْ جِهَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الْفُصُولِ وَالْأَعْوَامِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَجَدَ الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي النُّصُوصِ الْمُعْتَنِيَةِ بِالزَّمَنِ، الْكَاشِفَةِ لِكَثِيرٍ مِنْ حَقَائِقِهِ وَأَسْرَارِهِ، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ وَعَلَامَاتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَعْسُرُ إِحْصَاؤُهُ بِدِقَّةٍ مِنْ كَثْرَتِهِ وَتَنَوُّعِهِ، وَاللهُ تَعَالَى سَمَّى سُوَرًا بِالزَّمَنِ أَوْ أَجْزَاءٍ مِنْهُ أَوْ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ وَالشَّمْسِ وَالْفَجْرِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى وَالْعَصْرِ، وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِكَثِيرٍ مِنْهَا، وَقَدْ حَاوَلَ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ أَنْ يُحْصِيَ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَجَمَعَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ مِئَةِ مَوْضِعٍ[١].

وَالمُتَقَرَّرُ فِي عَقِيدَةِ المُسْلِمِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ الزَّمَنِ وَمُدَبِّرُهُ، وَخَالِقُ عَلَامَاتِهِ وَآيَاتِهِ وَهِيَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشُّهُورِ وَالْفُصُولِ؛ فَبِالشَّمْسِ يُعْرَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَتُشْرِقُ لِيَبْدَأَ النَّهَارُ، وَتَغْرُبُ لِيَبْدَأَ اللَّيْلُ، وَيَهِلُّ الْقَمَرُ لِيَبْدَأَ الشَّهْرُ، وَيَضْمَحِلُّ لِيَنْتَهِيَ الشَّهْرُ، وَبِالنُّجُوم تُعْرَفُ الْفُصُولُ ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، وَبِهَا يَهْتَدِي المُسَافِرُونَ، وَيَزْرَعُ الزَّارِعُونَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدْبِيرِهِ، وَتَسْخِيرِهِ لِمَنَافِعِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصّلت: ٣٧]، وَدَلَّتِ الآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى

---

(١) ينظر: مفهوم الزمن في القرآن الكريم رسالة ماجستير لمحمد موسى باب عمى (٣٧) وهو من أجود المراجع في تقسيم الألفاظ الواردة في القرآن الكريم المتعلقة بالزمن ومعانيها ومدلولاتها، وواضح أن الباحث بذل فيه جهدًا كبيرًا، جزاه الله تعالى خيرًا.

أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ مُسَخَّرَةٌ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ وَمَصَالِحِهِمْ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

وَمِنْ مَنَافِعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَنَتَائِجِ تَسْخِيرِهَا لِلْبَشَرِ: حِسَابُ الزَّمَنِ، وَضَبْطُ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالْفُصُولِ وَالْأَعْوَامِ، وَتِلْكَ عِلَّةٌ لِخَلْقِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وَلِلزَّمَنِ غَايَةٌ كَمَا أَنَّ لِعَلَامَاتِهِ غَايَةً، وَجَرَيَانُ الزَّمَنِ إِنَّمَا هُوَ بِجَرَيَانِ عَلَامَاتِهِ، وَإِذَا تَوَقَّفَتْ عَلَامَاتُ الزَّمَنِ تَوَقَّفَ هُوَ عَنِ الْمَسِيرِ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

وَآيَاتُ الزَّمَنِ فِي الدُّنْيَا -وَهِيَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ- تَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ الدُّنْيَا، وَبِزَوَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ يَنْتَهِي زَمَنُ الدُّنْيَا ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٩]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وَفِي غَيْرِهَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١، ٢]، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلَمَّا كَانَ الزَّمَنُ وَعَلَامَاتُهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، يَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ، وَيَخْضَعُ لِحُكْمِهِ

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣٠٢٨).

وَتَدْبِيرِهِ؛ فَإِنَّهُ ﷻ قَادِرٌ عَلَى إِيقَافِ عَمَلِهِ فِي حَقِّ أَشْخَاصٍ بِأَعْيَانِهِمْ فَلَا يَعْمَلُ فِيهِمُ الزَّمَنُ مَا يَعْمَلُهُ فِي غَيْرِهِمْ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فَهَذَا تَوَقَّفَ عَمَلُ الزَّمَنِ فِي جَسَدِهِ وَفِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِئَةَ سَنَةٍ، وَعَمِلَ الزَّمَنُ فِي حِمَارِهِ فَكَانَ عِظَامًا أَحْيَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَرَّةً أُخْرَى وَكَسَاهَا لَحْمًا(٣)، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى اسْتَأْنَفَ عَمَلُ زَمَنِهِ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَهَذَا مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ، وَجَاءَ فِي أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ بَنِيهِ مَاتُوا، وَبَنِي بَنِيهِ هَرِمُوا وَهُمْ شُيُوخُ أَقْوَامِهِمْ فِي صُدُورِ مَجَالِسِهِمْ، وَهُوَ جَدُّهُمْ وَلَا يَزَالُ شَابًّا يَافِعًا(٤).

وَأَبْيَنُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْظَمُ دَلَالَةً عَلَى تَوَقُّفِ عَمَلِ الزَّمَنِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى: قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ حِينَ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آذَانِهِمْ، فَنَامُوا ثَلَاثَةَ قُرُونٍ وَتِسْعَ سَنَوَاتٍ.. تَوَقَّفَ خِلَالَهَا عَمَلُ الزَّمَنِ فِيهِمْ فَلَمْ تَبْلَ أَجْسَادُهُمْ، وَلَا انْقَضَتْ أَعْمَارُهُمْ، وَلَا هَرِمُوا، وَلَمْ يُحْسَبْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ، وَاسْتَأْنَفُوا يَوْمَهُمْ بَعْدَ

---

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن العظام المذكورة في الآية ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ عظامه هو، والتحقيق أن المقصود بها عظام حماره، كما هو ظاهر من سياق الآية، والله أعلم، وينظر: مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي (١٧١-١٧٢).

(٤) نقل ابن الجوزي عن ابن عباس ﷺ قوله: «مات وهو ابن أربعين سنة وابنه ابن عشرين سنة، ثم بعث وهو ابن أربعين سنة وابنه ابن عشرين ومئة ...» زاد المسير (١/ ٣١١-٣١٢)، وينظر: تفسير القرطبي (٣/ ٢٩٥).

نَوْمِهِمْ، وَأَرْسَلُوا أَحَدَهُمْ بِوَرِقِهِمْ إِلَى مَدِينَتِهِمْ لِيُحْضِرَ لَهُمْ طَعَامًا فَإِذَا الْمَدِينَةُ تَغَيَّرَتْ، وَإِذَا جِيلُهُمْ قَدْ فَنِيَ، وَخَلَفَتْهُ أَجْيَالٌ فِي إِثْرِ أَجْيَالٍ كُلُّهَا فَنِيَتْ، وَقَدْ تَوَقَّفَ عَمَلُ زَمَنِهِمْ بِنَوْمِهِمْ، فَسُبْحَانَ مَنْ حَبَسَ عَمَلَ الزَّمَنِ فِيهِمْ، وَأَجْرَاهُ فِي غَيْرِهِمْ، وَكَانُوا آيَةً مِنَ الآيَاتِ يُتْلَى خَبَرُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦].

وَقَدْ يَكُونُ حَبْسُ الزَّمَنِ عَامًّا بِحَبْسِ آيَتِهِ وَهِيَ الشَّمْسُ، فَيَتَوَقَّفُ الزَّمَنُ بِتَوَقُّفِهَا، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، كَمَا حَصَلَ لِيُوشَعَ بن نُونَ عليه السلام، فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: «**غَزَا فَدَنَا من الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أو قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٥). وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ**»(٦)، وَفِي هَذَا الْحَبْسِ تَوَقُّفٌ لِلزَّمَنِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

---

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم» (٢٩٥٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٢٥)، وأبو بكر القطيعي في جزء الألف دينار (٢٣٩)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٣٤)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٥٣٩٩)، وصححه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١).

وأخرج الطبراني في الأوسط (٤٠٣٩) من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار» وحسنه الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٧، ٢٩٨)، والمناوي في فيض القدير (٥/ ٤٤٠).

وظاهر هذا الحديث معارض لحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يفيد بأن الشمس ما حبست إلا ليوشع بن نون عليه السلام، وقد جاء بصيغة الحصر. =

وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الزَّمَنِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَمُدُّهُ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ الْوَاحِدُ كَقَدْرِ سَنَةٍ أَوْ شَهْرٍ أَوْ جُمُعَةٍ؛ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ مُكْثِ الدَّجَّالِ فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ: «**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» وَهُوَ مَدٌّ حَقِيقِيٌّ، بِدَلِيلِ قَوْلِ الصَّحَابَةِ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: **لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**»(٧).

وَمِنْ عَجِيبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ عَلَامَةَ الزَّمَنِ قَدْ تَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ، فَيَكُونُ رُجُوعُهَا رُجُوعًا لِلزَّمَنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «**تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟** قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

فَرُجُوعُ عَلَامَةِ الزَّمَنِ وَهِيَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ هُوَ رُجُوعٌ لِلزَّمَنِ؛ وَلِذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي رَجَعَتْ فِيهَا الشَّمْسُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَوِيلَةٌ جِدًّا، حَتَّى إِنَّ النَّائِمَ يَسْتَيْقِظُ وَسْطَهَا، وَالْقَائِمَ تَطُولُ

= قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٢١): «ووجه الجمع أن الحصر محمول على ما مضى للأنبياء قبل نبينا ﷺ، فلم تحبس الشمس إلا ليوشع، وليس فيه نفي أنها تحبس بعد ذلك لنبينا محمد ﷺ» اهـ.

(٧) أخرجه من حديث النواس بن سمعان ﷺ: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر (٣٠٢٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

عَلَيْهِ، وَيَدُوكُ النَّاسُ فِيهَا إِذَا صَلَّوُا الْفَجْرَ يَوْمَهَا، وَيَعْجَبُونَ مِنْ تَأَخُّرِ الشَّمْسِ عَنِ الشُّرُوقِ فَتَفْجَأُهُمْ بِطُلُوعِهَا مِنَ المَغْرِبِ(٩).

فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَهَا وَأَجْرَاهَا، وَسُبْحَانَ مَنْ أَمَرَهَا فَأَطَاعَتْهُ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَوْنُ الزَّمَنِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَا يُحِيطُ الزَّمَنُ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ وَمُدَبِّرُهُمْ، وَهُوَ ﷻ خَالِقُ الزَّمَنِ، وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَظِيمَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَانِ وَالمَكَانِ، قَالَ اللَّهُ

(٩) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٥).

تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣][١٠]. نُقِلَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَرَّازِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِجَمْعِهِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ مُجْتَمِعٌ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ مَا يَتَضَادُّ فِي حَقِّ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَكُونُ أَوَّلًا آخِرًا بَاطِنًا ظَاهِرًا» اهـ[١١].

وَهُنَا يَقِفُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَلِكَ، وَمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّتِهِ؛ لِعَجْزِهِ وَقُصُورِهِ؛ وَلِكَمَالِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا ثَمَّ إِلَّا الْإِيمَانُ وَالتَّسْلِيمُ، وَتَعْظِيمُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَوِ الْإِلْحَادُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَتَعْطِيلُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِثْبَاتِ وَالْإِجْلَالِ، وَهَذَا هُوَ الْمَزْلَقُ الْخَطِرُ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ الْفَلَاسِفَةُ وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَدِيمًا، وَغَرِقَتْ فِي لُجَّتِهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِ، حِينَ أَخْضَعُوا صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ الْمَحْدُودَةِ، وَلَوْ عَرَفُوا مِقْدَارَهُمْ لَعَلِمُوا أَنَّ ذَا الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ سُبْحَانَهُ لَا يُحِيطُ بِهِ الْعَقْلُ الْقَاصِرُ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَإِذَا كَانَتْ كِبَارُ الْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ قَدْ عَجَزَتْ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ الزَّمَنِ وَمَفْهُومِهِ فِي الْوُجُودِ، وَهُمْ يَعِيشُونَهُ وَيَجْرِي عَلَيْهِمْ، وَالزَّمَنُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ يُجِيلُونَ عُقُولَهُمْ فِي كُنْهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ؟! مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أُمِرَ الْعِبَادُ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنُهُوا عَنِ التَّفَكُّرِ فِي ذَاتِهِ ﷻ.

وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ مَا يُفَسِّرُ الْآيَةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ

(١٠) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤/ ٣٠١)، وينظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٣-٥٤٤).
(١١) الجواب الصحيح (٤/ ٣٠١).

حُصَيْنٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٢).

وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ(١٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ أَنْتَ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ فَلَهُ أَوَّلٌ وَآخِرٌ وَظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، حَتَّى الْخَطْرَةُ وَاللَّحْظَةُ وَالنَّفَسُ وَأَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ؛ فَأَوَّلِيَّةُ اللَّهِ ﷻ سَابِقَةٌ عَلَى أَوَّلِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَآخِرِيَّتُهُ ثَابِتَةٌ بَعْدَ آخِرِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ . . .» اهـ(١٤).

وَمُرُورُ الزَّمَنِ وَعَمَلُهُ فِي النَّاسِ قَدْ أَفْسَدَ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ، فَيَنْقُلُهُمُ الزَّمَنُ مِنْ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الشَّيْخُوخَةِ وَالضَّعْفِ، وَجَرَيَانُ الزَّمَنِ يُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى الْمَوْتِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَكَانَ الزَّمَنُ آيَتَهُ سُبْحَانَهُ الَّتِي قَدَّرَهَا لِتُحَقِّقَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ الْعَظِيمَةَ. قَالَ الْخَلِيفَةُ الْمَنْصُورُ لِلرَّبِيعِ بْنِ يُونُسَ: مَا أَطْيَبَ الدُّنْيَا لَوْلَا الْمَوْتُ! قَالَ الرَّبِيعُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا طَابَتْ إِلَّا بِالْمَوْتِ، قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: لَوْلَا الْمَوْتُ لَمْ تَقْعُدْ هَذَا الْمَقْعَدَ(١٥).

وَلَمَّا كَانَ الزَّمَنُ يَجْرِي بِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْسِدَ عَلَيْهِمْ نَعِيمَهُمْ فِيهَا كَانَ مِنْ نَعِيمِ

---

(١٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) (٦٩٨٢).

(١٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات، (٣٤٨١)، والنسائي في الكبرى (٧٦٦٨)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه (٣٨٧٣)، وأحمد (٢/ ٣٨١).

(١٤) طريق الهجرتين (٤٧).

(١٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣٥)، والوافي بالوفيات (١٤/ ٥٩).

الْآخِرَةِ أَنَّ الزَّمَنَ لَا يَعْمَلُ فِيهِمْ عَمَلَهُ؛ فَأَعْمَارُهُمْ ثَابِتَةٌ فِي ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً(١٦)، وَهُوَ مُنْتَهَى قُوَّةِ الشَّبَابِ وَاكْتِمَالِهِ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا يَبْلَى شَبَابُهُمْ(١٧)، وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦] وَتَوَقُّفُ عَمَلِ الزَّمَنِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ هُوَ مِنْ كَمَالِ نَعِيمِهِمْ وَدَوَامِهِ.

وَالْمُؤْمِنُ يَقْرَأُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَيَعْلَمُهُ، وَيَرَى أَنَّ الزَّمَنَ يَجْرِي بِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى

---

(١٦) جاء في ذلك:

١- حديث معاذ رضي الله عنه قال قال نبي الله ﷺ: «**يبعث المؤمنون يوم القيامة جردًا مردًا مكحلين بني ثلاثين سنة**» أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢)، وفي رواية للترمذي: «**أبناء ثلاثين أو ثلاثة وثلاثين**» وقال: حسن غريب، وبعض أصحاب قتادة رووا هذا عن قتادة مرسلًا ولم يسندوه (٢٥٤٥)، ورواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢١)، والبزار (٢٦٤٤)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٤) رقم (١١٨)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٥٨).

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مُردًا بيضًا جعادًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في سبعة أذرع**» أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٥٨).

٣- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يبعث أهل الجنة على صورة آدم في ميلاد ثلاث وثلاثين سنة جردًا مرادًا مكحلين ...**» أخرجه أبو بكر بن أبي داود في البعث (٦٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٨٢)، والطبراني في الصغير (١١٦٤)، والضياء في المختارة (٢٧١٧).

(١٧) جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: **لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، مِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، حَصْبَاؤُهَا الْيَاقُوتُ وَاللُّؤْلُؤُ، وَتُرْبَتُهَا الْوَرْسُ وَالزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، وَيَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا يَبْلَى شَبَابُهُمْ، وَلَا تُخَرَّقُ ثِيَابُهُمْ**» أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥)، والطبراني في الأوسط (١١/ ٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤١٥٦).

الْهَرَمِ وَالمَوْتِ، وَالْعَاقِلُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، فَكَرَّسَ دُنْيَاهُ الْفَانِيَةَ بِفَنَاءِ زَمَنِهَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِخُلُودِهِ فِي نَعِيمِ الآخِرَةِ، فَلَا يَجْرِي بِهِ زَمَنٌ فِيهَا إِلَى الْهَرَمِ وَالمَوْتِ، فَأَعِدُّوا لِلْقِيَامَةِ عُدَّتَهَا، وَخُذُوا مِنْ مُرُورِ الْأَيَّامِ وَانْتِهَاءِ الْأَعْوَامِ مُعْتَبَرًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٣٤- حقيقة الزمن (٢)
﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾

٢٨/ ١٢/ ١٤٢٩هـ

الحَمْدُ للَّهِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ؛ جَعَلَ فِي الْكَوْنِ مِنَ الآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِه، وَحُسْنِ خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ؛ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦، ٧]. نَحْمَدُهُ عَلَى وَافِرِ نِعَمِهِ، وَجَزِيلِ عَطَايَاهُ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ مَنِّهِ وَهِدَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ ابْتِلَاءٍ لِعِبَادِهِ، وَظَرْفًا لِأَعْمَالِهِمْ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُجْزَوْنَ بِهَا؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَعْرَفُ الخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَتْقَاهُمْ لَهُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِحَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَمَصِيرِهَا، كَانَ ﷺ يَدْعُو، فَيَقُولُ فِي دُعَائِه: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لِي**»(١)، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ تَرَضَّى عَنْهُمْ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الكَارِهِينَ لَهُمْ، وَالحَاقِدِينَ عَلَيْهِمْ؛ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ كُلَّ عَامٍ يَنْقَضِي عَلَيْنَا

(١) أخرجه من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما: النسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٤)، وأحمد (٤/ ٢٦٤)، وأبو يعلى (١٦٢٤)، وصححه ابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٧٠٥).

فَإِنَّهُ مِنْ أَعْمَارِنَا، وَهُوَ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِنَا، وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَيْنَا؛ فَتَزَوَّدُوا مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاحْذَرُوا الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَفِتْنَتَهَا؛ فَإِنَّهَا -وَإِنِ اخْضَرَّتْ لِأَهْلِهَا- يُوشِكُ أَنْ تَصْفَرَّ وَتَزُولَ، وَيُوشِكُ جَامِعُهَا أَنْ يَتْرُكَ مَا جَمَعَ، وَيُوشِكُ بَانِيهَا أَنْ يُفَارِقَ مَا بَنَى، وَلَا يَبْقَى إِلَّا العَمَلُ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: الزَّمَنُ آيَةٌ احْتَارَ البَشَرُ فِيهَا، وَعَجِبُوا مِنْهَا أَشَدَّ العَجَبِ، وَمَعَ أَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي الزَّمَنِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ كُنْهَهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ بِدَايَتَهُ وَنِهَايَتَهُ، وَتَخَبَّطُوا فِيهِ تَخَبُّطًا كَبِيرًا، وَأَنْكَرَ أَقْوَامٌ مِنْهُمْ أَنَّ لِلزَّمَنِ بِدَايَةً وَنِهَايَةً: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَالكَلَامُ عَنِ الزَّمَنِ وَآيَاتِهِ وَعَلَامَاتِهِ وَآثَارِهِ طَوِيلٌ جِدًّا، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةَ الَّتِي ذَكَرَتِ الزَّمَنَ -أَوْ شَيْئًا مِنْهُ- قَارَبَتْ أَرْبَعمِائَةِ آيَةٍ[٢].

وَأَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِجُمْلَةٍ مِنْ عَلَامَاتِهِ وَأَجْزَائِهِ، وَسُمِّيَتْ سُوَرٌ فِي القُرْآنِ بِبَعْضِهِ وَبَعْضِ عَلَامَاتِهِ؛ كَـ﴿ٱلْفَجْرِ﴾، وَ﴿ٱلشَّمْسِ﴾، وَ﴿ٱلَّيْلِ﴾، وَ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وَ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ أَجْزَاءِ الزَّمَنِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَعَلَامَتُهُمَا: الشَّمْسُ وَالقَمَرُ؛ فَالقَمَرُ لِلَّيلِ، وَالشَّمْسُ لِلنَّهَارِ، جَاءَ ذِكْرُهُمَا كَثِيرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ عِنْدَ الْبَشَرِ، فَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ هُمَا زَمَنُ الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ لِلدُّنْيَا وَلِلآخِرَةِ.

---

(٢) ينظر: مفهوم الزمن في القرآن الكريم، محمد موسى بابا عمي (٤٧).

إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَانِ عَلَى وُجُودِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَعَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَعَلَى حُسْنِ خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، جَاءَ ذِكْرُهُمَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا فِي سِيَاقِ بَيَانِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلُزُومِ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهِ، وَصَرْفِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ؛ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَاتٌ مُسَخَّرَاتٌ لِأَهْلِ الأَرْضِ؛ فَلَا يَطَالُهَا الْبَشَرُ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَغْيِيرِهَا أَوْ تَأْخِيرِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الإِفْسَادَ فِيهَا كَمَا أَفْسَدُوا فِي الأَرْضِ؛ بَلْ هِيَ آيَاتٌ مُسَخَّرَاتٌ لِلْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ، وَالأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ؛ بَلْ وَمُسَخَّرَاتٌ لِلْحَيَوَانِ، وَالطَّيْرِ وَالزَّوَاحِفِ، كُلُّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ -مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ- أَنْ يَحُولَ بَيْنَ أَهْلِ الأَرْضِ وَبَيْنَ الِانْتِفَاعِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ.

وَنَجِدُ النَّصَّ عَلَى آيَةِ التَّسْخِيرِ هَذِهِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الزمر: ٥].

وَكَوْنُ اللَّيْلِ ظَلَامًا، وَالنَّهَارِ ضِيَاءً آيَةٌ مِنَ الآيَاتِ الْعَجِيبَةِ، وَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ

تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ؛ فَفِي الضِّيَاءِ يَعْمَلُونَ وَيَكْدَحُونَ، وَفِي الظَّلَامِ يَنَامُونَ وَيَرْتَاحُونَ، وَقَدْ ذَكَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الآيَةِ وَالنِّعْمَةِ فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

وَذَكَرَ لَنَا رَبُّنَا ﷻ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَ الدُّنْيَا لَيْلًا بِلَا ضِيَاءٍ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهَا نَهَارًا بِلَا لَيْلٍ؛ وَلَكِنَّهُ ﷿ رَحِمَ عِبَادَهُ، فَعَاقَبَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِيَسْتَقِيمَ عَيْشُهُمْ، وَتُعْمَرَ أَرْضُهُمْ، وَتَصْلُحَ أَحْوَالُهُمْ؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَدُخُولُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي الآخَرِ حَتَّى يَمْحُوَهُ، وَأَخْذُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ زَمَنِ الآخَرِ صَيْفًا وَشِتَاءً .. كُلُّ ذَلِكَ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُتَصَرِّفَ فِيهِمَا بِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ أَيَّةَ قُوَّةٍ -مَهْمَا بَلَغَتْ- لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْنَعَ تَعَاقُبَهُمَا، وَلَا أَنْ تَأْخُذَ مِنَ اللَّيْلِ لِلنَّهَارِ، وَلَا مِنَ النَّهَارِ لِلَّيْلِ؛ وَلِذَلِكَ يَضْبِطُ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ وَمَعَاشَهُمْ وَنَوْمَهُمْ عَلَى وَفْقِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِعَجْزِهِمْ عَنْ تَغْيِيرِ ذَلِكَ أَوْ تَعْدِيلِهِ، وَنَجِدُ هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمَ

مَذْكُورًا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤]، وَفِي رَابِعَةٍ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وَفِي خَامِسَةٍ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

وَلِعَظَمَةِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ -اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ- أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى- بِهِمَا فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ؛ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِعَلَامَتَيْهِمَا الشَّمْسِ وَالقَمَرِ؛ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١، ٢].

وَالمُلَاحَظُ -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- تَقْدِيمُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ فِي الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، وَالعَرَبُ كَانُوا يَجْعَلُونَ النَّهَارَ تَبَعًا لِلَّيْلِ، وَعَلَى هَذَا جَاءَتْ أَغْلَبُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ؛ فِي الصِّيَامِ، وَالفِطْرِ، وَالأَعْيَادِ، وَغَيْرِهَا، بَيْنَمَا كَانَ الأَعَاجِمُ يُقَدِّمُونَ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ.

وَالشَّرِيعَةُ الغَرَّاءُ حَدَّدَتْ بِدَايَةَ اللَّيْلِ، مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ، وَبِدَايَةَ النَّهَارِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ كَمَا جَاءَ فِي نُصُوصِ الصِّيَامِ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي سَاجِدٌ فَاسْجُدُوا مَعِيَ كَمَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ

(٣) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ: البخاري في الصوم، باب متى يحل فطر الصائم (١٨٥٣)، ومسلم في الصيام، باب بيان وقت انقضاء الصوم وخروج النهار (١١٠٠).

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ المُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ دُونَ سِوَاهُ، وَأَغْلَبُ الآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا ذِكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرِ رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَمْرِ الْعِبَادِ بِلُزُومِ تَوْحِيدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَذُيِّلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ بِالتَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

وَمِنْ عَظِيمِ الِاعْتِبَارِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ تَعَاقُبَهُمَا يُنْقِصُ أَعْمَارَنَا، وَيُقَرِّبُ آجَالَنَا، وَيُعَجِّلُ آخِرَتَنَا، وَأَنَّ كُلَّ عَامٍ يَمْضِي فَهُوَ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، بِمَا أَوْدَعْنَاهُ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ وَالعُلَمَاءُ وَالحُكَمَاءُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَيَعْمَلُونَ صَالِحًا بِمُقْتَضَاهُ، وَيَعِظُونَ النَّاسَ بِهِ.

قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ نَدَمِي عَلَى يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ، نَقَصَ فِيهِ أَجَلِي، وَلَمْ يَزِدْ فِيهِ عَمَلِي»(٤).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»(٥).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ، فَاعْمَلْ أَنْتَ فِيهِمَا»(٦).

وَقَالَ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ابنَ آدَمَ، إِنَّكَ بَيْنَ مَطِيَّتَيْنِ يُوضِعَانِكَ: اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ، وَالنَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ، حَتَّى يُسْلِمَاكَ إِلَى الآخِرَةِ»(٧).

وَقَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَاحِلُ يَنْزِلُهَا

---

(٤) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، للشيخ عبد العزيز السلمان (١/ ٢٢١)، ولم أعثر على هذا الأثر في كتب المتقدمين.

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥١١)، وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٧١).
وأخرجه من قول الحسن البصري: ابن المبارك في الزهد (٨٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٥) وعزاه الحافظ ابن رجب لأبي الدرداء والحسن جميعًا في جامع العلوم والحكم (٧).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا منسوبًا لبعض الحكماء في مكارم الأخلاق (٤٧)، وذكره الزمخشري منسوبًا لعمر بن عبد العزيز في ربيع الأبرار (١/ ٣٠٥).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (١/ ٤٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٥١٢).

النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً، حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَافْعَلْ»(٨).

وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ، فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمُ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ»(٩).

فَلْنَكُنْ كَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الأَخْيَارُ؛ حِفْظًا لِأَوْقَاتِنَا، وَإِقْبَالًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّنَا، وَعَمَلًا لِآخِرَتِنَا. وَلْنَعْلَمْ أَنَّهُ لَا رَاحَةَ فِي الدُّنْيَا، إِنْ هِيَ إِلَّا عَمَلٌ فِيمَا يَنْفَعُ، أَوْ فِيمَا يَضُرُّ، وَالرَّاحَةُ الكَامِلَةُ فِي الجَنَّةِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَتَى مَا يَنْفَعُهُ، وَجَانَبَ مَا يَضُرُّهُ. جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَصَدْتُكَ مِنْ خُرَاسَانَ؛ أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، قَالَ لَهُ: سَلْ، قَالَ: مَتَى يَجِدُ العَبْدُ طَعْمَ الرَّاحَةِ؟ قَالَ: عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الجَنَّةِ»(١٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لِفِعْلِ الخَيْرَاتِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ المُعْتَبِرِينَ بِتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



(٨) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٤٥)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٩٣).

(٩) صيد الخاطر (٣-٤).

(١٠) أخرجه أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٣)، وابن مفلح في المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (٩٢٧).

٣٣٥- سنن الله تعالى في التدافع

١٧/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: سُنَنُ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ قُوَّةٍ مَهْمَا بَلَغَتْ أَنْ تُعَطِّلَ لِلَّهِ تَعَالَى أَمْرًا، أَوْ تَرُدَّ لَهُ قَدَرًا، أَوْ تُبْطِلَ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٨]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النَّحْل: ٤٠]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [الْقَمَر: ٥٠].

وَمِنْ سُنَّتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ قَدَّرَ التَّدَافُعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَبَيْنَ الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ﴾ [الْحَجّ: ٤٠].

وَمِنْ سُنَّتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ شَرَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ مُدَافَعَةَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، وَمُقَارَعَتَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَمُقَاتَلَتَهُمْ بِالْيَدِ وَالسِّلَاحِ.

لَقَدْ كَانَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ إِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ؛ كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا بِالدَّبُورِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَحِجَارَةِ السِّجِّيلِ، وَقَوْمَ شُعَيْبٍ بِيَوْمِ الظُّلَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَهْلَكَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْغَرَقِ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَمْرِ الْجِهَادِ فِي الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَاسْتَمَرَّ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الْقَصَص: ٤٣][(١)].

وَسَيَظَلُّ الْجِهَادُ قَائِمًا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ إِلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ الدَّجَّالَ وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[(٢)]، وَثَبَتَ أَنَّ الْجِهَادَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «**الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الجهاد ماض مع البر والفاجر (٢٦٩٧) من حديث عروة البارقي رضي الله عنه.

وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ، وَكَلَّفَ بِهِ الْعِبَادَ: أَنْ جَعَلَ الْأَيَّامَ دُوَلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَتَكُونُ الْغَلَبَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى تَكُونُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ؛ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِلْعِبَادِ، وَتَمْحِيصًا لِلْقُلُوبِ، وَتَمْيِيزًا لِلثَّابِتِ عَلَى الْحَقِّ مِنَ النَّاكِصِ عَلَى عَقِبَيْهِ، الْمُبَدِّلِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى. وَالْحِكْمَةُ مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ مَنْصُوصٌ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٠، ١٤١]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٧٩]، وَفِي بَرَاءَةَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ﴾ [التَّوْبَة: ١٦]، وَفِي الْعَنْكَبُوتِ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢، ٣]، وَفِي الْقِتَالِ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، وَفِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣١].

ثُمَّ كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ كَتَبَ الْغَلَبَةَ لِأَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ وَالْعَدْلِ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْكُفْرِ وَالظُّلْمِ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، نَاصِرِينَ لِدِينِهِ، مُسْتَمْسِكِينَ بِشَرِيعَتِهِ، فَإِنْ غَلَبَهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ فَبِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَمَعْصِيَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ. وَهَذِهِ السُّنَّةُ الْعَظِيمَةُ جَاءَتْ بِذِكْرِهَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الْحَجّ: ٤٠]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ: ﴿وَعَدَ

ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١-١٧٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وَلَكِنْ إِنْ أَخلَّ أَهْلُ الْحَقِّ بِهَذَا الشَّرْطِ الْمُتَمَثِّلِ فِي نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِهَا، فَقَدُوا سَبَبَ النَّصْرِ، وَعُوقِبُوا بِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ؛ تَذْكِيرًا لَهُمْ وَتَأْدِيبًا، لَعَلَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ، وَبِدِينِهِمْ يَسْتَمْسِكُونَ، وَعَنِ الْمَعَاصِي يَنْتَهُونَ.

وَهَذَا التَّأْدِيبُ وَالتَّذْكِيرُ ذَاقَ شِدَّتَهُ وَمَرَارَتَهُ أَفَاضِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ حِينَ عَصَى الرُّمَاةُ فِي أُحُدٍ أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ، فَانْقَلَبَ مِيزَانُ الْمَعْرَكَةِ لِصَالِحِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَفَّ الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْقِتَالِ إِلَّا حِمَايَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ كَرْبٌ شَدِيدٌ، وَأَلَمَّتْ بِهِمْ مِحْنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي نَفَرٍ قَلِيلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَشُجَّ رَأْسُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَشَاعَ الْمُشْرِكُونَ قَتْلَهُ، وَقُتِلَ سَبْعُونَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَمَثَّلَ الْمُشْرِكُونَ بِبَعْضِهِمْ، وَأُصِيبَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتٍ كَرِيمَاتٍ تُبَيِّنُ أَنَّ مَعْصِيَتَهُمْ هِيَ سَبَبُ مُصَابِهِمْ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٢] إِلَى أَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٥].

إِنَّهَا حَقَائِقُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِخْبَارُ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، وَلَيْسَتْ تَكَهُّنَاتِ كُهَّانٍ، أَوِ اسْتِنْتَاجَاتِ خُبَرَاءَ، أَوْ تَحْلِيلَاتِ سِيَاسِيِّينَ، أَوْ تَخَبُّطَاتِ صَحَفِيِّينَ، لَا يَرَى أَكْثَرُهُمْ أَبْعَدَ مِنْ أَنْفِهِ، وَلَا يُدْرِكُونَ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَلَا يُحْسِنُونَ التَّلَقِّيَ عَنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ.

إِنَّ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ قَدْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ عَلَى أَيْدِي كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عُبَّادِ الْعِجْلِ وَعُبَّادِ الصَّلِيبِ، الْمَلْعُونِينَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﷺ؛ فَاسْتَبَاحُوا الدِّيَارَ، وَاحْتَلُّوا الْبُلْدَانَ، وَنَهَبُوا الثَّرَوَاتِ وَالْتَفُّوا عَلَى الْقَرَارَاتِ، وَصَارُوا يَلْعَبُونَ بِالْمُسْلِمِينَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ فِي مَجَالِسَ وَمُنَظَّمَاتٍ أُسِّسَتْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى الظُّلْمِ، وَرَاعِيَةً لَهُ مُنْذُ نَشْأَتِهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

لَقَدْ أَقَضَّتْ هَذِهِ الْحَالُ الْمُزْرِيَةُ مَضْجَعَ كُلِّ غَيُورٍ عَلَى أُمَّتِهِ، وَرَاحَ الْكُتَّابُ وَالْبَاحِثُونَ يُشَخِّصُونَ الْمُشْكِلَةَ، وَيَبْحَثُونَ أَسْبَابَهَا، وَيَقْتَرِحُونَ الْحُلُولَ لِعِلَاجِهَا؛ فَرَأَى أَقْوَامٌ مِنْهُمْ أَنَّ سَبَبَهَا تَمَسُّكُ الْمُسْلِمِينَ بِمَوْرُوثِهِمْ مِنْ دِينٍ وَكِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَأَنَّ الْعِلَاجَ فِي اطِّرَاحِ ذَلِكَ، وَأَخْذِ دِينِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُتَمَثِّلِ فِي الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ، وَالْحُرِّيَّةِ الْمَزْعُومَةِ، وَهُوَ مَا تَصِيحُ بِهِ أَكْثَرُ الْإِذَاعَاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ، وَيُسَوَّدُ فِي الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ مَعَ كُلِّ نَازِلَةٍ تَنْزِلُ وَأَزْمَةٍ تَتَجَدَّدُ، يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ، وَتَجْرِيدَهُمْ مِنْ مَصْدَرِ عِزِّهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، وَتَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمَاحِقُ، وَالدَّاءُ الْقَاتِلُ.

وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّ مَا أَصَابَ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ الرُّكُونِ إِلَى الدَّعَةِ

وَالْكَسَلِ، وَالتَّقَاعُسِ عَنِ الْعَمَلِ فِي المَجَالَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَكْثُرُ حَدِيثُ هَؤُلَاءِ عَنِ الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ، وَالتَّقَدُّمِ التِّقْنِيِّ، وَيَتَكَرَّرُ فِي خِطَابِهِمُ اسْتِخْدَامُ الْمُصْطَلَحَاتِ الِانْهِزَامِيَّةِ، كَمُصْطَلَحَاتِ السَّلَامِ وَالتَّعَايُشِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ وَنَحْوِهَا، وَتَجِدُ اسْتِدْلَالَهُمْ بِأَقْوَالِ حُكَمَاءِ الْكُفَّارِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، حَتَّى فِي مَجَالَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ؛ مِمَّا يَنِمُّ عَنِ انْهِزَامٍ أَمَامَ المَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ، وَانْبِهَارٍ بِمُنْجَزَاتِ الْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ، وَافْتِتَانٍ بِالدُّنْيَا، وَيَرَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُ لَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِتَغْيِيرِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ المَأْلُوفَةِ إِلَى عَقْلِيَّةٍ جَدِيدَةٍ وَاسِعَةِ الْآفَاقِ، مُنْفَتِحَةٍ عَلَى الْآخَرِينَ، وَنِهَايَةُ مَقُولَاتِهِمْ تَلْتَقِي مَعَ مَقُولَاتِ الطَّائِفَةِ الْأُولَى، وَلَوْلَا سَابِقَةُ بَعْضِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ لَرُبَّمَا نَحَوْا نَحْوَهَا.

وَالْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ مَا أَصَابَ المُسْلِمِينَ مِنْ ذُلٍّ وَهَوَانٍ مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَهِيَ الَّتِي أَوْرَثَتِ التَّنَازُعَ وَالِاخْتِلَافَ، وَهِيَ سَبَبُ تَسَلُّطِ الظَّالِمِينَ وَالْكَافِرِينَ. وَكُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْبَابِ التَّخَلُّفِ وَالضَّعْفِ فَمَرَدُّهُ إِلَى المَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ المُسْلِمِينَ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُهْزَمُونَ إِلَّا بِمَعْصِيَتِهِ. وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَةٌ وَاحِدَةٌ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا بَعْدَ عِزٍّ، وَقَلَبَتِ المَعْرَكَةَ مِنْ نَصْرٍ إِلَى هَزِيمَةٍ، فَكَيْفَ بِمِئَاتِ المَعَاصِي الَّتِي تَمْتَلِئُ بِهَا بُيُوتُنَا وَأَسْوَاقُنَا وَأَعْمَالُنَا؟!

كَمْ فِي المُسْلِمِينَ مِنْ مَعَاصٍ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ، كَمْ فِيهِمْ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، وَبَخْسٍ لِلْحُقُوقِ، وَتَضْيِيعٍ لِلْأَمَانَاتِ، وَتَرْكٍ لِلْوَاجِبَاتِ، وَمُسَارَعَةٍ إِلَى المُحَرَّمَاتِ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ كِبَارُ الْقَوْمِ وَأَصَاغِرُهُمْ.

إِنَّ الْوَاحِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ لَوْ أَحْصَى ذُنُوبَهُ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، سَوَاءٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ

بِحَقِّ رَبِّهِ ﷻ، أَوْ حَقِّ نَفْسِهِ، أَوْ حُقُوقِ الْآخَرِينَ مِنْ وَالِدٍ وَوَالِدَةٍ وَزَوْجٍ وَوَلَدٍ، وَذِي رَحِمٍ وَجِوَارٍ، وَحُقُوقِ وَظِيفَتِهِ وَعَمَلِهِ، وَحُقُوقِ رَعِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ وَأُمَّتِهِ. لَوْ أَحْصَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَعَلِمَ أَنَّ ذُنُوبَ يَوْمٍ وَاحِدٍ كَفِيلَةٌ بِحَجْبِ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنَزُّلِ عُقُوبَتِهِ، وَتَسَلُّطِ أَعْدَائِهِ، فَكَيْفَ إِذَا عَدَّهَا فِي عَامٍ كَامِلٍ، ثُمَّ جَمَعَ مَعَهَا ذُنُوبَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ.

إِنَّهَا الذُّنُوبُ الَّتِي تُورِثُ الذُّلَّ، وَتُسَبِّبُ التَّنَازُعَ وَالْفَشَلَ، وَتُؤَدِّي إِلَى الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وَتَدْفَعُ إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَضَعْفِ الْهِمَّةِ لِلْآخِرَةِ. وَلَيْسَ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْأَمْرِ كَلَامٌ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ سِيَاقَ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فِي مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ وَأَسْبَابِهِ؛ تَعْرِفُوا أَثَرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْأُمَّةِ، كَيْفَ وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ قُرِّرَ فِي غَيْرِ الْحَدِيثِ عَنْ أُحُدٍ فِي عَدَدٍ مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِذَلِكَ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّسَاء: ٧٩].

هَذَا هُوَ الدَّاءُ، وَالْعِلَاجُ فِي التَّوْبَةِ مِنْ هَذَا الدَّاءِ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، شُعُوبًا وَحُكُومَاتٍ، وَإِلَّا كَانَ الْمَزِيدُ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَالظُّلْمِ وَالِاسْتِضْعَافِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَنَا وَأَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرُدَّنَا إِلَيْهِ رَدًّا جَمِيلًا، وَأَنْ يَعْفُوَ عَنْ ذُنُوبِنَا، وَأَلَّا يُؤَاخِذَنَا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ كَتَبَ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ - وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الْمَعَاصِيَ فَإِنَّهَا سَبَبُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَالْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النَّحل: ١١٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَمَالِكُ الْمُلْكِ، وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ، وَبِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بِيَدِهِ ﷻ الذُّلُّ وَالْعِزُّ، وَالنَّصْرُ وَالْهَزِيمَةُ، وَهُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَبْسُطُ وَيَقْبِضُ، وَيَرْفَعُ وَيَضَعُ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٦]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المُلْك: ١].

مَنِ ابْتَغَى الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا مِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا عِزَّةَ إِلَّا فِي دِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فَاطِر: ١٠] أَيْ: مَنْ أَرَادَهَا فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَتِهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠]. وَلَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنَ قَدْحُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي دِينِهِ، أَوِ انْتِقَاصُهُمْ لَهُ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ فِيهِ مَهْمَا قَالُوا ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يُونُس: ٦٥]، وَلمّا قَالَ المُنَافِقُ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٨] كَانَ الْجَوَابُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٨]، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ وَالَى الْكُفَّارَ يَطْلُبُ الْعِزَّةَ مِنْهُمْ فَقَدْ طَلَبَهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٩].

وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ النَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ، وَيُطْلَبُ ذَلِكَ مِنْهُ لَا مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ مَهْمَا عَلَا قَدْرُهُ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٠]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦]، ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الرُّوم: ٥].

أَفَبَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الْوَاضِحَاتِ يَسُوغُ لِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَطْلُبَ الْعِزَّ وَالنَّصْرَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَبْتَغِيَهُ فِي غَيْرِ دِينِهِ، وَقَدْ قَضَى سُبْحَانَهُ بِأَنَّ مَنْ نَصَرَهُ بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِ فَسَوْفَ يَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ؟

أَيَسُوغُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَقْرَأُ كِتَابَهُ؟ أَوْ يَيْأَسَ مِنْ عَوْدَةِ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ؛ لِتَحْكُمَ فِي الْأَرْضِ بِالْعَدْلِ وَقَدِ امْتَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى عَزِيزٌ رَغْمَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ؟

نَحْتَاجُ فَقَطْ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ الَّتِي يَتَخَلَّصُ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِنْ ذُنُوبِهِ، وَيَسْتَشْعِرُ مَسْئُولِيَّتَهُ، وَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَيُرَاقِبُ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِ، وَيَسْعَى فِي نَصْرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، مَعَ ثِقَتِهِ بِرَبِّهِ ﷻ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ

الدُّعَاءَ سِلَاحٌ لَا يُخْطِئُ، وَقُوَّةٌ لَا تُغْلَبُ، وَمَا تَسَلَّحَ الْفَاتِحُونَ مِنْ أَسْلَافِكُمْ بِسِلَاحٍ أَمْضَى مِنْهُ، سَأَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى-: «مَا كُنْتَ تَفْزَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَرْبِ؟ قَالَ: الدُّعَاءُ وَالصَّبْرُ»(٤).

وَلَمَّا صَافَّ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لِلتُّرْكِ، وَهَالَهُ أَمْرُهُمْ سَأَلَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، فَقِيلَ: هُوَ ذَاكَ فِي المَيْمَنَةِ، جَامِحٌ عَلَى قَوْسِهِ، يُبَصْبِصُ بِأُصْبُعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، قَالَ: «تِلْكَ الْأُصْبُعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ وَشَابٍّ طَرِيرٍ»(٥).

وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- إِذَا سَمِعَ أَنَّ الْعَدُوَّ دَاهَمَ المُسْلِمِينَ خَرَّ سَاجِدًا لِلَّهِ قَائِلًا: «إِلَهِي، قَدِ انْقَطَعَتْ أَسْبَابِي الْأَرْضِيَّةُ فِي دِينِكَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْإِخْلَادُ إِلَيْكَ، وَالِاعْتِصَامُ بِحَبْلِكَ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِكَ، أَنْتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»(٦).

فَثِقُوا بِرَبِّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَتَعَلَّقُوا بِهِ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَاسْأَلُوهُ فَإِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ . . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٩).
(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ١٦٨) وهو في السير (٦/ ١٢١).
(٦) النوادر السلطانية لابن شداد (٤٠).

٣٣٦- الاستغفار (١)
استغفار الأنبياء عليهم السلام

١٣/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَسْتُرُ الْعُيُوبَ، وَيَجْبُرُ الْقُلُوبَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ نِعَمَهُ، وَيَسْتَجْلِبُ رِزْقَهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَسْتَوْجِبُ رِضَاهُ، وَيُطْفِئُ غَضَبَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَغْفِرُ الزَّلَّاتِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً[(١)]، وَكَانَ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم يَعُدُّونَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[(٢)] صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٢٨٢)، والبخاري في الدعوات، باب استغفاره ﷺ (٦٣٠٧)، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة محمد ﷺ (٣٢٥٩)، وابن حبان (٩٢٥).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد(٢/ ٢١)، وعبد بن حميد (٧٨٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٥٧) برقم (٢٩٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٦١٨)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، وقال: حسن صحيح غريب (٣٤٣٤)، وأبو داود في الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٦)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار (٣٨١٤).

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَاتَّقُوهُ: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ، وَشَرَّفَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُ بِدِينِهِ، وَأَعْطَاهُ عَقْلًا يَدُلُّهُ عَلَى رَبِّهِ، وَيَعْرِفُ بِهِ مَصَالِحَهُ؛ وَرَكَّبَ فِيهِ شَهْوَةً تَمِيلُ بِهِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ، وَتَصْرِفُهُ عَمَّا يَنْفَعُهُ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ شَيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، يُزَيِّنُونَ لَهُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفَهَا وَمَتَاعَهَا؛ فَيَسْقُطُ فِي شَهَوَاتِهَا مَنْ يَسْقُطُ، وَيَعْصِمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا مَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا.

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ عَلَى عِبَادِهِ فَتَحَ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ لِلْمُذْنِبِينَ، وَشَرَعَ الِاسْتِغْفَارَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَإِذَا عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ فَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا اسْتَغْفَرَ لِذُنُوبِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وَيَقُولُ ﷻ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

إِنَّ الِاسْتِغْفَارَ كَانَ دَأْبَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَهُوَ سِلَاحُ الْمُذْنِبِينَ ضِدَّ الشَّيْطَانِ وَأَعْوَانِهِ، وَكَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ أَهْلَكَهُ عُلُوُّهُ وَاسْتِكْبَارُهُ؛ فَإِنَّ آدَمَ عليه السلام أَنْجَاهُ تَوْبَتُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ.

عَصَى إِبْلِيسُ فَاسْتَكْبَرَ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ وَالْعَذَابُ، وَعَصَى آدَمُ عليه السلام فَاسْتَغْفَرَ وَأَنَابَ، فَقَبِلَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْبَتَهُ، وَغَسَلَ حَوْبَتَهُ، وَتَجَاوَزَ عَنْ خَطِيئَتِهِ؛ فَكَانَتِ التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ عَقِبَ الْخَطَإِ سُنَّةً سَنَّهَا آدَمُ عليه السلام

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أحمد (٥/ ١٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧).

لِجَمِيعِ الْبَشَرِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَنِيهِ؛ فَإِنَّمَا يَقْتَفِي سُنَّةَ أَبِيهِ، وَمَنْ عَانَدَ وَاسْتَكْبَرَ فَهُوَ مُتَّبِعٌ لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ.

إِنَّ الِاسْتِغْفَارَ كَانَ أَوَّلَ طَاعَةٍ عَمِلَهَا إِنْسَانٌ بَعْدَ أَوَّلِ خَطَإٍ، وَتِلْكَ الطَّاعَةُ مِنَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِدَايَةٌ هُدِيَ إِلَيْهَا آدَمُ وَحَوَّاءُ عليهما السلام، وَبَقِيَتْ لِبَنِيهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧].

وَتِلْكَ الْكَلِمَاتُ هِيَ كَلِمَاتُ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَإِ، وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٢، ٢٣].

رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، قَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [الْبَقَرَة: ٣٧]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٤).

وَكَانَتِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام مُقْتَفِينَ أَثَرَ أَبِيهِمْ آدَمَ عليه السلام فِي مُلَازَمَةِ التَّوْبَةِ، وَكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ.

هَذَا نُوحٌ عليه السلام يَسْأَلُ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ الْمُشْرِكِ مِنَ الطُّوفَانِ، فَيُعَاتِبُهُ اللَّهُ عز وجل فِي

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٩٠)، وابن عساكر في تاريخه (٧/ ٤٣٣) والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر وابن مردويه (١/ ١٤٢)، وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما.

ذَلِكَ، وَيُخْبِرُهُ بِأَنَّ ابْنَهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مُشْرِكٌ، وَيُحَذِّرُهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَيُبَادِرُ نُوحٌ عليه السلام بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَطَلَبِ الرَّحْمَةِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧].

وَلَمَّا دَعَا نُوحٌ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ بَعْدَ أَنْ مَكَثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ؛ أَعْقَبَ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، فَقَالَ عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نُوح: ٢٨].

وَفَعَلَهَا بَعْدَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، بَعْدَ أَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ، فَدَعَا بِدَعَوَاتٍ كَانَ مِنْهَا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤١]، وَكَانَ دُعَاؤُهُ عليه السلام لِوَالِدِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١١٤].

وَحَاجَّ قَوْمَهُ فِيمَا يَعْبُدُونَ فَحَجَّهُمْ، وَخَاصَمَهُمْ فَخَصَمَهُمْ، وَقَالَ فِي مَعْرِضِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ تَبَرَّأَ مِنْ أَصْنَامِهِمْ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٧-٨٢].

وَقَالَ عليه السلام يَدْعُو رَبَّهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المُمْتَحِنَة: ٥].

وَهَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام يُقِرُّ بِذَنْبِهِ، وَيَعْتَرِفُ بِظُلْمِهِ، وَيَطْلُبُ مَغْفِرَةَ رَبِّهِ، حِينَ نَصَرَ مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ عَدُوِّهِ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ

هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الْقَصَص: ١٥، ١٦].

وَلَمَّا رَجَعَ عليه السلام مِنْ مُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- غَضِبَ أَشَدَّ الْغَضَبِ مِنْ عِبَادَةِ قَوْمِهِ لِلْعِجْلِ، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٠، ١٥١].

وَلَمَّا أَصَابَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَصَابَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالرَّجْفَةِ بَادَرَ مُوسَى عليه السلام بِالِاسْتِغْفَارِ وَطَلَبِ الرَّحْمَةِ؛ ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٥].

وَابْتَلَى اللَّهُ تَعَالَى دَاوُدَ عليه السلام بِخَصْمَيْنِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا عَلِمَ دَاوُدُ عليه السلام أَنَّهُ قَدْ فُتِنَ بِذَلِكَ بَادَرَ بِالِاسْتِغْفَارِ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٥٠﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [سورة ص: ٢٤، ٢٥].

وَابْتُلِيَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ، فَسَارَ عَلَى سُنَّةِ آبَائِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ؛ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٤، ٣٥].

وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ أَمَرَهُ رَبُّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَلَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [مُحَمَّد: ١٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النَّصْر: ٣]. قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَلَاةً بَعْدَ

أَنْ نَزَلَتْ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النَّصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٥)، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهَا رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٦).

وَلَمْ يَكُنِ اسْتِغْفَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقْصُورًا عَلَى صَلَاتِهِ فَحَسْبُ؛ بَلْ لَازَمَ الِاسْتِغْفَارَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَفِي كُلِّ أَحْيَانِهِ، حَتَّى قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَعُدُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ مِائَةَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: «**أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(٨).

نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

---

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣)، والبخاري في التفسير، باب تفسير إذا جاء نصر الله والفتح (٤٩٦٨)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٦) هذه الرواية للبخاري في الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٧) مضى تخريجه في حاشية (١).

(٨) عزاه الحافظ في الفتح للنسائي وجوّد إسناده (١١/ ١٠١)، وعنه المباركفوري في شرح الترمذي (٩/ ١٠٢)، ولم أعثر عليه في المجتبى ولا في السنن الكبرى.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَأَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْزَمُوا التَّوْبَةَ، وَأَكْثِرُوا الِاسْتِغْفَارَ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ أَمَانٌ مِنَ الْعَذَابِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣].

رَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه مَوْقُوفًا: قَالَ: «أَمَانَانِ كَانَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُفِعَ أَحَدُهُمَا وَبَقِيَ الْآخَرُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣]»(٩)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ فِيكُمْ أَمَانَانِ، مَضَتْ إِحْدَاهُمَا وَبَقِيَتِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

---

(٩) أخرجه مرفوعًا الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنفال (٣٠٨٢)، وتمام في فوائده كما في الروض البسام (١٣٤٥)، وفي سنده إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، وسفيان بن وكيع وهما ضعيفان، قال الترمذي: هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٦٩٠).
وجاء موقوفًا من طريق أخرى عند: أحمد (٤/ ٣٩٣)، قال: حدثنا وكيع، عن حرملة بن قيس عن محمد بن أيوب عن أبي موسى به، ورواه الحاكم وسكت عنه (١/ ٥٤٢)، والطبراني في الدعاء (١٧٩٢). وله شواهد أخرى عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم.

لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٠).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَمَانَيْنِ، لَا يَزَالُونَ مَعْصُومِينَ مُجَارِينَ مِنْ طَوَارِقِ الْعَذَابِ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَأَمَانٌ قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَمَانٌ بَقِيَ فِيكُمْ»(١١)، قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فِيهِ حَثٌّ لِلنَّاسِ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ حَيْثُ مَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا هَذَا الْأَمَانُ»(١٢).

وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ: «**الْعَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ﷻ**»(١٣).

إِنَّهَا نِعْمَةٌ، وَأَيُّ نِعْمَةٍ! أَنْ يَلْزَمَ الْعَبْدُ الِاسْتِغْفَارَ لِمَحْوِ ذُنُوبِهِ، وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ، وَتَأْمِينِ نَفْسِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَإِذَا اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ فَضَعُفَ عَنِ الطَّاعَةِ، أَوْ وَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ؛ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ، وَأَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ حَتَّى يَمْحُوَ أَثَرَ الذُّنُوبِ، وَيَنْجُوَ مِنَ الْعَذَابِ.

وَهَذَا مَا يَغِيظُ الشَّيْطَانَ وَيَدْحَرُهُ، وَمَا ظَفِرَ إِبْلِيسُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ ظَفَرِهِ بِعَبْدٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَيِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ، فَتَرَكَ الطَّاعَاتِ، وَرَكِبَ

---

(١٠) أخرجه موقوفًا على أبي هريرة ﵁: الحاكم (١/ ٥٤٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٤٤٢)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٩٢)، والبيهقي (٥/ ٤٥-٤٦).

(١٢) ينظر: حاشية محققي مسند أحمد، ط: الرسالة (٣٢/ ٢٦٦).

(١٣) أخرجه من حديث فضالة بن عبيد ﵁: أحمد (٦/ ٢٠)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٢٦٤)، وفي سنده رشدين بن سعد وهو ضعيف، والراوي عن فضالة لا يعرف، لكن للحديث طريقًا أخرى عند ابن عساكر في تاريخه (٥٥/ ٨٦) عن يعقوب بن محمد بن فضالة بن عبيد عن أبيه عن جده قال: قال رسول ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ آمِنًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللهَ**» وشواهد أخرى.

الْمُحَرَّمَاتِ، حَتَّى وَقَعَ فِي الْكُفْرِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَعْظَمُ سِلَاحٍ يَتَسَلَّحُ بِهِ الْمُسْلِمُ لِلنَّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ، وَصِيَانَةِ نَفْسِهِ وَعِصْمَتِهَا، وَدَحْرِ عَدُوِّهِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مُلَازَمَتُهُ لِلِاسْتِغْفَارِ، وَتَكْرَارُهُ لِلتَّوْبِهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُجَاهِدًا لِنَفْسِهِ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٩].

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ عز وجل: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عز وجل: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٤).

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٢]: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى(١٥).

---

(١٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩-٤١-٦٧)، وعبد بن حميد (٩٣٢)، وأبو يعلى (١٢٧٣-١٣٩٩)، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨)، وفي الدعاء (١٧٧٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٢٩٠)، وقال الهيثمي في الزوائد: «وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى (١٠/ ٢٠٧).

(١٥) أخرجه مسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).
وهذا رأي ابن المبارك -رحمه الله تعالى-، وقد جاء عنه في تفسير الطبري ومستدرك الحاكم عن محمد بن المنكدر قال: «التقى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرجى عندك؟ قال عبدالله بن عمرو: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: ٥٣]، فقال ابن عباس: لكن قول إبراهيم: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] هذا لما في الصدور ويوسوس الشيطان، فرضي الله من قول إبراهيم: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: =

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ كَثُرَتِ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ، وَتَفَشَّتِ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ وَالْعَصَبِيَّةُ، بِسَبَبِ ضُغُوطِ الْحَيَاةِ، وَتَشَعُّبِ الِاهْتِمَامَاتِ، وَكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَفِي مُلَازَمَةِ الِاسْتِغْفَارِ تَفْرِيجٌ لِلْهُمُومِ، وَمَخَارِجُ مِنَ الضَّوَائِقِ، وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِجَلْبِ الْأَرْزَاقِ.

رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

= فيه انقطاع، ينظر: المستدرك (١/ ١٢٨)، ورواه الطبري في تفسيره بنحوه عن سعيد بن المسيب (٣/ ٤٩) لكن فيه رجل لم يسم.

(١٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨)، وأبو داود في الوتر، باب في الاستغفار (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه في الأدب، باب الاستغفار(٣٨١٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١١)، والخطيب في تاريخه (٥/ ٥٧)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي فقال: الحكم فيه جهالة (٤/ ٢٩١)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨١) برقم (١٠٦٦٥) وفي الدعاء (١٧٧٤)، والضياء المقدسي في فضائل الأعمال (١١٨).
وقال الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة: «هذا حديث حسن غريب» (٢٥٠ -٢٥١)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٨٥٠٨)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٤٢٢).
لكن ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٧١) وفي الضعيفة بجهالة الحكم (٧٠٥).
والحديث في سنده الحكم بن مصعب القرشي المخزومي، قال أبو حاتم: مجهول(٣/ ١٢٨)، وذكره ابن حبان في الثقات (٦/ ١٨٧) ثم ذكره في المجروحين (٢٤٩) حتى قال الحافظ في تهذيب التهذيب (٢/ ٣٧٧): «وهو تناقض صعب»، وقال الشيخ أحمد شاكر بعد أن صحح الحديث، ونقل تجهيل أبي حاتم للحكم بن مصعب، واضطراب ابن حبان فيه: «والذي أراه أنه إن جهله أبو حاتم فقد عرفه غيره، وإن تناقض فيه ابن حبان فلا يؤخذ بكلامه؛ فإن البخاري عرفه وترجمه في الكبير (٢/ ٣٣٨) قال: «الحكم بن مصعب القرشي سمع محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس، سمع منه الوليد بن مسلم» فلم يذكر فيه جرحًا، فهو ثقة عنده، خصوصًا وأنه لم يذكره هو ولا النسائي في الضعفاء» اه (٤/ ٥٤)، وينظر: التاريخ الكبير (٢/ ٣٣٨).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَجَدِّدُوا تَوْبَاتِكُمْ، وَاسْتَغْفِرُوا مَوْلَاكُمْ؛ فَتِلْكَ سُنَّةُ الْمُرْسَلِينَ لَكُمْ، وَدَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٤٧].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٣٧- الاستغفار (٢)
جلب الأرزاق ورفع العذاب

٢٨/ ١٠/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافِر: ٣]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ فَهُوَ أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، فَهُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٢٥ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ [الشُّورَى: ٢٥، ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ يُسْرًا، وَاتَّقُوهُ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُعْظِمْ لَكُمْ أَجْرًا.

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا تَتَابَعَتِ الْكُرُوبُ، وَتَرَاكَمَتِ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَتَفَاقَمَتِ الْفِتَنُ، وَعَظُمَتِ الْأَزَمَاتُ، وَاسْتَحْكَمَتِ الْمُشْكِلَاتُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَتَدَاعَوْنَ لِبَحْثِهَا، وَيَخُوضُونَ فِي أَسْبَابِهَا وَعِلَاجِهَا، وَيَوَدُّونَ حَسْمَهَا وَنِهَايَتَهَا.

وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِمْ أَزَمَاتٌ عَظِيمَةٌ، وَابْتُلُوا بِرَزَايَا كَبِيرَةٍ، وَمُشْكِلَاتٍ مُعَقَّدَةٍ؛ أَذْهَبَتْ هَيْبَتَهُمْ، وَفَرَّقَتْ جَمْعَهُمْ، وَأَشْغَلَتْهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ ضُيِّقَتْ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدِّيَارِ، فَمُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَعَمَّ

الْقَحْطُ وَالْجَدْبُ كَثِيرًا مِنْ أَرَاضِيهِمْ.

وَمَعْرِفَةُ أَدْوَائِهِمْ، وَعِلَاجُ مُشْكِلَاتِهِمْ لَنْ يَجِدُوهُ فِي فَلْسَفَاتِ الْمُتَفَلْسِفِينَ، وَتُرَّهَاتِ الْمُتَخَرِّصِينَ، وَآرَاءِ الْجَاهِلِينَ؛ بَلْ سَيَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ رَبِّهِمُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ ﷻ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ؛ قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَدُلُّكُمْ عَلَى دَائِكُمْ وَدَوَائِكُمْ، أَمَّا دَاؤُكُمْ فَذُنُوبُكُمْ، وَأَمَّا دَوَاؤُكُمْ فَالِاسْتِغْفَارُ»(١).

إِنَّ ذُنُوبَ الْعِبَادِ هِيَ سَبَبُ كُلِّ الْمُشْكِلَاتِ وَالْأَزَمَاتِ، وَإِنَّ اسْتِغْفَارَهُمْ وَتَوْبَتَهُمْ مُؤْذِنٌ بِرَفْعِ الْعَذَابِ، وَحُصُولِ الْأَرْزَاقِ، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

فَالذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلْمَصَائِبِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَرْزَاقِ، كَمَا أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْعَذَابِ إِذَا تَكَاثَرَتْ، وَلَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُهَا، وَيَنْهَى عَنْهَا.

وَالِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِمَحْوِ الذُّنُوبِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ رَفْعُ الْعَذَابِ، وَنُزُولُ الْأَرْزَاقِ؛ وَقَدْ رَوَى الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: أَنَّ عُمَرَ ﷺ خَرَجَ يَسْتَسْقِي، فَمَا زَادَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا رَأَيْنَاكَ اسْتَسْقَيْتَ! قَالَ: لَقَدِ اسْتَسْقَيْتُ بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ(٢).

---

(١) أخرجه مرفوعًا من حديث أنس ﷺ: البيهقي في الشعب (٧١٤٧)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٧٣)، ولا يصح رفعه، قال البيهقي: «روي مرفوعًا بإسناد مجهول»، وقال المنذري في الترغيب والترهيب بعد أن أورد المرفوع: «وقد روي عن قتادة من قوله وهو أشبه بالصواب» (٢/ ٣٠٩) برقم (٢٥٠١).
وأخرجه من قول قتادة -رحمه الله تعالى-: البيهقي في الشعب (٧١٤٦)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم (٥/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٦١)، والطبري =

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عُذِّبُوا بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَاطِّرَاحِهِمْ لِدِينِهِمْ؛ حَتَّى حُبِسَتْ عَنْهُمُ الْأَرْزَاقُ . . نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المَائِدَة: ٦٦]؛ أَيْ: لَوْ

= في تفسيره (٢٩/ ٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٥١)، وفي معرفة السنن والآثار (٢٠٠٩-٢٠١٠)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٤٣٤)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ٢٠٤٥)، وسعيد بن منصور في سننه (١٠٩٥)، والطبراني في الدعاء (٩٦٤)، وابن شبة في أخبار المدينة (١٢٣٥)، وهو مرسل؛ كما نقل الزيلعي عن النووي في الخلاصة أنه قال: «إسناده صحيح لكنه مرسل فإن الشعبي لم يدرك عمر» ينظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٤/ ٩٣) برقم (١٤٠٤)، ولإرساله ضعفه الألباني في الإرواء (٣/ ١٤١) برقم (٦٧٣).

والمجاديح جمع مجدح، قال ابن سلام في غريب الحديث (٣/ ٢٥٩): «وهو كل نجم من النجوم كانت العرب تقول إنه يمطر به، كقولهم في الأنواء، فسألت عنه الأصمعي فلم يقل فيه شيئًا، وكره أن يتأول على عمر مذهب الأنواء .. والذي يراد من هذا الحديث أنه جعل الاستغفار استسقاءً بتأول قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]، وإنما نرى أن عمر تكلم بهذا على أنها كلمة جارية على ألسنة العرب، ليس على تحقيق الأنواء، ولا على التصديق بها .. ومما يبين لك أن عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بها قوله: «لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها الغيث، فجعل الاستغفار هو المجاديح لا الأنواء» اهـ.

وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالى-: «المجدح نجم من النجوم، وقيل: هو الدبران، وقيل: هو ثلاثة كواكب كالأثافي، تشبيهًا بالمجدح الذي له ثلاث شعب، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهًا بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولًا بالأنواء، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر» اهـ من النهاية (١/ ٢٤٣).

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالى-: «استدل عمر بالآيتين على أن الاستغفار الذي ظُن الاقتصار عليه لا يكون استسقاءً من أعظم الأسباب التي يحصل عندها المطر والخصب؛ لأن الله جل جلاله قد وعد عباده بذلك وهو لا يخلف الوعد، ولكن إذا كان الاستغفار واقعًا من صحيح القلب، وتطابق عليه الظاهر والباطن، وذلك مما يقل وقوعه» اهـ من نيل الأوطار (٤/ ٣٣).

أَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَأَقَامُوا كِتَابَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ؛ لَيَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْأَرْزَاقَ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْطَارَ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ(٣).

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ خَاصًّا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلِكُلِّ الْبَشَرِ؛ فَنُوحٌ ﷺ دَعَا قَوْمَهُ لِلاسْتِغْفَارِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ؛ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وَجَاءَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الْجَدْبَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ الْفَقْرَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافَ بُسْتَانِهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ عَدَمَ الْوَلَدِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ(٤).

وَالْخَلْقُ مَجْبُولُونَ عَلَى مَحَبَّةِ الْخَيْرَاتِ الْعَاجِلَةِ فِي الدُّنْيَا مِنْ بَسْطِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الرِّزْقِ، فَإِنْ أَرَادُوا ذَلِكَ؛ فَسَبِيلُهُ التَّقْوَى وَالتَّوْبَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ، كَمَا بَيَّنَ نُوحٌ ﷺ أَنَّ ثَمَرَةَ الِاسْتِغْفَارِ سَتَكُونُ الْأَمْطَارَ، وَالْإِمْدَادَ بِالْبَنِينَ وَالْأَمْوَالِ، وَإِنْبَاتَ الْأَرْضِ، وَجَعْلَهَا أَنْهَارًا مِنْ كَثْرَةِ الْخَيْرَاتِ، وَقَالَ هُودٌ ﷺ لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وَالْأُمَّةُ الْمُسْلِمَةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَحْتَاجُ إِلَى الْأَرْزَاقِ الَّتِي سَبَبُهَا الْأَمْطَارُ، وَهِيَ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تَرُدُّ بِهَا بَأْسَ أَعْدَائِهَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

---

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٤١٦).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٩٨)، وذكره بنحوه الرازي في تفسيره الكبير (٣٠/ ١٢٢) ولم أقف عليه مسندًا في كتب الآثار والزهد.

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ إِنْ لَزِمَتِ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ حَفِظَهَا اللَّهُ ﷻ مِنَ الْعَذَابِ، وَمِنْ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ، وَبَسَطَ لَهَا الْأَرْزَاقَ، وَمَتَّعَهَا مَتَاعًا حَسَنًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هُود: ٣].

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الذُّنُوبِ سَبَبٌ لِأَنْ يُمَتِّعَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؛ لِأَنَّهُ رَتَّبَ ذَلِكَ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ تَرْتِيبَ الْجَزَاءِ عَلَى شَرْطِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالمَتَاعِ الْحَسَنِ سَعَةُ الرِّزْقِ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا(٥).

وَجَاءَ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى مُعَاوِيَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ- فَقَالَ لَهُ بَعْضُ حُجَّابِهِ: إِنِّي رَجُلٌ ذُو مَالٍ وَلَا يُولَدُ لِي، عَلِّمْنِي شَيْئًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي وَلَدًا، فَقَالَ الْحَسَنُ: عَلَيْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ، فَكَانَ يُكْثِرُ الِاسْتِغْفَارَ حَتَّى رُبَّمَا اسْتَغْفَرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَمِائَةِ مَرَّةٍ، فَوُلِدَ لَهُ عِشْرُونَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: هَلَّا سَأَلْتَهُ مِمَّ قَالَ ذَلِكَ؟ فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ هُودٍ عليه السلام: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هُود: ٥٢]، وَقَوْلَ نُوحٍ عليه السلام: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نُوح: ١٢](٦).

إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ فَلَمْ يَشْكُرُوا كَانُوا حَقِيقِينَ بِسَلْبِ النِّعْمَةِ، وَحُلُولِ النِّقْمَةِ، وَإِذَا ابْتَلَاهُمْ فَصَبَرُوا وَاتَّقَوْا وَاسْتَغْفَرُوا؛ رَفَعَ سُبْحَانَهُ بَلْوَاهُمْ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَتْبَاعِ مُوسَى لَمَّا

---

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٦٩-١٧٠).

(٦) تفسير النسفي (٢/ ١٥٩)، والكشاف (٢٢/ ٣٨١)، ولم أقف عليه مسندًا بعد بحث طويل في كتب الآثار والزهد.

مَكَّنَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

فَحَقِيقٌ بِكُلِّ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةً أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَجَدِيرٌ بِكُلِّ مُبْتَلًى أَنْ يَصْبِرَ وَيَسْتَغْفِرَ؛ حَتَّى يُكْشَفَ بَلَاؤُهُ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ؛ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ اجْتَمَعَ بِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا-، فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: لَا أَقُومُ حَتَّى تُحَدِّثَنِي، قَالَ جَعْفَرٌ: أَمَا إِنِّي أُحَدِّثُكَ، وَمَا كَثْرَةُ الْحَدِيثِ لَكَ بِخَيْرٍ، يَا سُفْيَانُ: إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَأَحْبَبْتَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا فَأَكْثِرْ مِنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَإِذَا اسْتَبْطَأْتَ الرِّزْقَ فَأَكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢](٧).

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «أَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فِي بُيُوتِكُمْ، وَعَلَى مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طُرُقَاتِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ»(٨).

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَنْ أَقَامَ فِي أَرْضِنَا فَلْيُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ الْقِطَارَ. وَالْقِطَارُ هُوَ السَّحَابُ الْعَظِيمُ الْقَطْرِ(٩).

وَحَبْسُ الْمَطَرِ، وَجَدْبُ الْأَرْضِ مَا هُوَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَسَبَبُهُ

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٩٣)، وهو في صفة الصفوة (٢/ ١٦٨).
(٨) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٤)، وأخرجه بنحوه عن الحسن مختصرًا: الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٩٤).
(٩) الاستغفار لمحمد بن علي العرفج (١٩).

المَعَاصِي وَالذُّنُوبُ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ سَبَقُوا كَانَ عَذَابُهُمْ بِذَلِكَ؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعْرَاف: ٩٦]. وَبَرَكَاتُ السَّمَاءِ هِيَ الْأَمْطَارُ، وَبَرَكَاتُ الْأَرْضِ هِيَ النَّبَاتُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَنَا بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْ يُغِيثَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالْأَمْطَارِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ، وَحُسْنَ عِبَادَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَكَمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ مَصَائِبَ وَأَدْوَاءٍ لَا مَخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ! ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الِاسْتِغْفَارُ سَبَبٌ لِرَفْعِ الْعَذَابِ، سَوَاءٌ كَانَ الْعَذَابُ سَمَاوِيًّا كَحَبْسِ الْأَمْطَارِ، وَقِلَّةِ الْأَرْزَاقِ، الَّذِي يَنْتِجُ عَنْهُ مَا يَنْتِجُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَالضَّعْفِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمِحَنِ وَالْفِتَنِ، أَوْ يَكُونُ الْعَذَابُ مِنْ قَبِيلِ تَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تَسْلِيطِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ بِاخْتِلَافِ كَلِمَتِهِمْ،

وَتَشَعُّبِ آرَائِهِمُ الَّذِي يَنْتِجُ عَنْهُ التَّفَرُّقُ ثُمَّ الِاقْتِتَالُ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

فَالِاسْتِغْفَارُ يَرْفَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَهُوَ أَمَانٌ لِلْعِبَادِ مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْفِتَنِ وَالْعَذَابِ، يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ تَعْلِيقًا عَلَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٣٣]، يَقُولُ: «وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: فِي الِاسْتِغْفَارِ الدَّافِعِ لِلْعَذَابِ.

وَالثَّانِي: فِي الْعَذَابِ الْمَدْفُوعِ بِالِاسْتِغْفَارِ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّ الْعَذَابَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الذُّنُوبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ يُوجِبُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْعَذَابِ فَيَنْدَفِعُ الْعَذَابُ ...

وَأَمَّا الْعَذَابُ الْمَدْفُوعُ فَهُوَ يَعُمُّ الْعَذَابَ السَّمَاوِيَّ، وَيَعُمُّ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَذَابًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي النَّوْعِ الثَّانِي: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٩].

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٥]، مَعَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ!**» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ!**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ: «**هَاتَانِ أَهْوَنُ**»(١٠). يَقْتَضِي أَنَّ لَبْسَنَا شِيَعًا وَإِذَاقَةَ بَعْضِنَا بَأْسَ بَعْضٍ هُوَ مِنَ

---

(١٠) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب في قوله الله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] (٦٨٨٣) والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأنعام (٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (٧٧٣١)، وأحمد (١/ ٧٠)، وابن حبان (٧٢٢٠)، والحميدي (١٢٥٩).

الْعَذَابِ الَّذِي يَنْدَفِعُ بِالِاسْتِغْفَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وَإِنَّمَا تُنْفَى الْفِتْنَةُ بِالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ» اهـ مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى(١١).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ أَنْ يَقْتُلَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَمِنْ أَشَدِّ الْفِتَنِ أَنْ تُعْلِنَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ الْمُسْلِمِ، وَتُتْبِعَ ذَلِكَ بِأَفْعَالٍ مُنَافِيَةٍ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ تَرْوِيعِ الْآمِنِينَ، وَقَتْلِ الْمُسْتَأْمَنِينَ وَالْمُعَاهَدِينَ، وما يَسْتَتْبِعُهُ مِنَ الِاعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النِّسَاء: ٩٣].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»(١٢)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**»(١٣).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**»(١٤)، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ**

(١١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١-٤٤).

(١٢) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] (٦٨٦٢)، وأحمد (٢/ ٩٤).

(١٣) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: أبو داود في الفتن والملاحم، باب في تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠)، وصححه ابن حبان (٥٩٨٠)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٩١).

(١٤) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: النسائي في تحريم الدم، باب تعظيم الدم (٧/ ٨٢)، والترمذي في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥)، وذكر الترمذي والبيهقي أن الموقوف أصح من المرفوع.

اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»(١٥).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(١٦)، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١٧).

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُدِيمَ عَلَيْنَا نِعْمَتَهُ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا وَشَرَّ ذُنُوبِنَا، وَشَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِهِ؛ وَأَنْ يَقْطَعَ دَابِرَ الْمُفْسِدِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَأَمْنَنَا وَأَرْزَاقَنَا وَعَافِيَتَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

نَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ لِذُنُوبِنَا وَذُنُوبِ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ، فَلَا تُعَذِّبْنَا وَلَا تُعَذِّبْهُمْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا وَأَيْدِيهِمْ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا وَذُنُوبِهِمْ مَنْ لَا يَخَافُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا، وَعَافِنَا وَعَافِهِمْ، وَاعْفُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيبٌ.

---

(١٥) أخرجه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: الترمذي في الديات، باب الحكم في الدماء وقال: حديث غريب (١٣٩٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٢١)، والصغير (٥٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١١٢٨).

(١٦) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» (٧٠٧٠)، ومسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» (٩٨).

(١٧) أخرجه موقوفًا على ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] (٦٨٦٣).

٣٣٨- الاستغفار (٣)
استغفار الملائكة للمؤمنين

٢٢/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الحَمْدُ للَّهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ؛ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إِلَّا نَالَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا نَالَهُ، وَفَازَ المُؤْمِنُونَ بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنْهَا، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. نَحْمَدُهُ عَلَى مِنَنِهِ وَإِفْضَالِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى وَاسِعِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ رَحِمَ أُمَّتَهُ فَبَشَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ، وَأَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَادَّخَرَ دَعْوَتَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لِيَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَفِي طَاعَتِهِ ﷻ اسْتِجْلَابُ رَحْمَتِهِ ﷻ، وَفِي ذَلِكَ أَمَانٌ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى المَلَائِكَةَ مِنْ نُورٍ، وَسَخَّرَهُمْ فِي طَاعَتِهِ، فَمِنْهُمُ المُصَلُّونَ وَمِنْهُمُ المُسَبِّحُونَ؛ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وَكَلَّفَ فَرِيقًا مِنْهُمْ بِأَعْمَالٍ تَخُصُّ بَنِي آدَمَ؛ فَمِنْهُمُ الحَفَظَةُ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ،

وَمِنْهُمُ المُتَعَاقِبُونَ عَلَيْهِمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ حَلَقَاتِ الذِّكْرِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَقِفُونَ عَلَى أَبْوَابِ المَسَاجِدِ يَوْمَ الجُمُعَةِ يُسَجِّلُونَ فِي صُحُفِهِمُ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ.

وَهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ دَائِبُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعْصُومُونَ مِنَ الخَطَإِ وَالعِصْيَانِ؛ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحريم: ٦].

وَلَمَّا كَانُوا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَهْلَ طَاعَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى كَانُوا مُحِبِّينَ لِلطَّائِعِينَ مِنَ الْبَشَرِ، مُحْتَفِينَ بِهِمْ، دَاعِينَ لَهُمْ، يُبَشِّرُونَهُمْ عِنْدَ المَوْتِ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وَيَسْتَقْبِلُونَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ أَبْوَابِ الجَنَّةِ مُرَحِّبِينَ بِهِمْ، وَمُهَنِّئِينَ لَهُمْ بِمَنَازِلِهِمْ فِي الجَنَّةِ؛ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لَهُمْ، وَدَافِعُ تِلْكَ المَحَبَّةِ الإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتُهُ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ المَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ.

إِنَّ المَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ شَرَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا بِأَعْلَى المَقَامَاتِ، وَوَكَلَ إِلَيْهِمْ أَشْرَفَ الأَعْمَالِ وَأَجَلَّهَا، وَيَكْفِي شَرَفًا لَهُمْ قُرْبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي المَلَكُوتِ الأَعْلَى، وَدَأْبُهُمْ فِي عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ، وَمَعَ هَذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ، وَالمَقَامِ الكَبِيرِ الرَّفِيعِ فَإِنَّهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَائِهِمْ لَهُمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنْهُمْ؛ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى لَهُمْ، وَيَدْعُونَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، وَيُجَنِّبَهُمْ مُوجِبَاتِ سَخَطِهِ، وَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ؛ فَأَيُّ شَرَفٍ حَظِيَ بِهِ

المُؤْمِنُونَ؟! وَأَيُّ مَكَانَةٍ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ يُسَخِّرُ سُبْحَانَهُ مَلَائِكَتَهُ المُقَرَّبِينَ لِلدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ؟! بَلْ وَيَدْعُونَ لِآبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، وَمَا أَعْظَمَ الإِيمَانَ الَّذِي أَنَالَهُمْ هَذِهِ المَنْزِلَةَ العَالِيَةَ! ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وَاسْتِغْفَارُ المَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَلَائِكَةَ عليهم السلام أَنْصَحُ لِلْبَشَرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ البَشَرِ؛ فَالْبَشَرُ يَعْتَدِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ.

قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَجَدْنَا أَنْصَحَ عِبَادِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى المَلَائِكَةَ، وَوَجَدْنَا أَغَشَّ عِبَادِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْطَانَ» وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ[(١)].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كَانَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُونَ: المَلَائِكَةُ خَيْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنِ ابْنِ الْكَوَّاءِ؛ فَالمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ، وَابْنُ الكَوَّاءِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ، وَكَانَ ابْنُ الكَوَّاءِ رَجُلًا خَارِجِيًّا»[(٢)].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ لِأَصْحَابِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: «افْهَمُوهَا فَمَا فِي العَالَمِ جَنَّةٌ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٨).

(٢) تفسير السمرقندي (٣/ ١٩١)، وتفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لأبي عبيد وابن المنذر (٧/ ٣٣٧).

أَرْجَى مِنْهَا، إِنَّ مَلَكًا وَاحِدًا لَوْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَغَفَرَ لَهُمْ، كَيْفَ وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ؟!»(٣).

وَقَالَ خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى سُلَيْمِ بْنِ عِيسَى فَلَمَّا بَلَغْتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا خَلَفُ، مَا أَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى! نَائِمًا عَلَى فِرَاشِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ»(٤).

تَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- هَذَا الدُّعَاءَ الْعَظِيمَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ؛ فَهُمْ ﷺ يَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَغْفِرَةَ، وَالْوِقَايَةَ مِنَ الْجَحِيمِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ وَهِيَ اقْتِرَافُ السَّيِّئَاتِ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى الْجَنَّةَ لَهُمْ وَلِلصَّالِحِينَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ.

وَهَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا أَيَّ مَلَائِكَةٍ، وَإِنَّمَا هُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، وَهُمْ أَقْرَبُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا ذُنُوبَ عَلَيْهِمْ أَلْبَتَّةَ، وَاسْتِغْفَارُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَدُعَاؤُهُمْ لَهُمْ كَانَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، لَا يَعْلَمُهُ الْمُؤْمِنُونَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ دَعَوَاتِهِمْ مَرْجُوَّةَ الْإِجَابَةِ، فَمَا أَحَظَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَسْعَدَهُمْ بِدُعَاءِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ لَهُمْ!!

إِنَّ الرَّابِطَةَ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ وَبَيْنَ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى دَعَوُا اللَّهَ لَهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ الصَّالِحَ الْعَظِيمَ إِنَّمَا هِيَ رَابِطَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ ﷻ قَالَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فَوَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ بَنِي آدَمَ فِي اسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛

---

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (٨/ ٣٢١-٣٢٤)، وهو في تفسير القرطبي (١٨/ ٣٣٢-٣٣٣).

فَوَصَفَهُمْ أَيْضًا بِالإِيمَانِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّابِطَةَ بَيْنَهُمْ هِيَ الإِيمَانُ، وَهِيَ أَعْظَمُ رَابِطَةٍ[٥]، فَاعْرِفُوا -عِبَادَ اللَّهِ- فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكُمْ إِذْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ، وَاقْدُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ حَقَّ قَدْرِهَا، بِشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا، وَالْعَمَلِ بِلَوَازِمِهَا.

وَفِي الآيَةِ الأُخْرَى يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِغْفَارِ المَلَائِكَةِ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، وَقَدْ ذَكَرَ العُلَمَاءُ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ إِكْثَارِ المَلَائِكَةِ عليهم السلام مِنَ الاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ اطِّلَاعَهُمْ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنْ نَقْصٍ وَخُرُوقٍ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مَعَ مَا يُقَارِفُونَهُ مِنَ المَعَاصِي[٦].

وَلَمَّا كَانَ الدُّعَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ سَجِيَّةً مِنْ سَجَايَا المَلَائِكَةِ وَعَادَاتِهِمْ عليهم السلام كَانُوا يُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَاءِ المُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، كَمَا رَوَى أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٧].

وَلَمَّا كَانَ هَذَا حَالَ المَلَائِكَةِ عليهم السلام مَحَبَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاءً لَهُمْ، وَقُرْبًا مِنْهُمْ، وَحِرْصًا عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَدْعُونَ لَهُمْ؛ كَانَ مِنَ الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ عليهم السلام أَنْ يُوَالِيَ المُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَاذَلُونَ المَحَبَّةَ وَالنُّصْحَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ فَإِنَّ رَابِطَةَ الإِيمَانِ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ تَحْتَ العَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ المَلَائِكَةِ وَبَيْنَ المُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ اخْتِلَافِ الجِنْسِ، وَبُعْدِ المَكَانِ؛ لَحَقِيقَةٌ أَنْ تَرْبِطَ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ مِنَ الْبَشَرِ وَهُمْ مِنْ جِنْسٍ

(٥) أضواء البيان (٣/ ٤٦-٤٧).

(٦) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٣).

(٧) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٢).

وَاحِدٍ وَفِي مَلَكُوتٍ وَاحِدٍ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فَكُونُوا -أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- لِإِخْوَانِكُمْ كَمَا كَانَ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ لَكُمْ؛ مَحَبَّةً وَوَلَاءً، وَنُصْحًا وَدُعَاءً، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٨).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا العَمَلَ بِمَا عَلِمْنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إِنْ كَانَ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ ﷺ يَسْتَغْفِرُونَ لِعُمُومِ المُؤْمِنِينَ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ، فَإِنَّ ثَمَّةَ أَعْمَالًا صَالِحَةً تَسْتَجْلِبُ صَلَاةَ المَلَائِكَةِ عَلَى المُؤْمِنِينَ، وَمِن نُصْحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ أَنْ دَلَّهُمْ عَلَى تِلْكَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِيُسَابِقُوا إِلَيْهَا، فَيَحْظَوْا بِصَلَاةِ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ.

---

(٨) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: الطبراني في مسند الشاميين (٢١٥٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني وإسناده جيد (١٠/ ٢١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٦).

وَمِنْ تِلْكُمُ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ: مُكْثُ المُصَلِّي فِي مُصَلَّاهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَبَعْدَهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ**»(٩).

وَجَاءَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنَّهُ لَا يَكَادُ يُبَارِحُ المَسْجِدَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: «فَإِنِّي أَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأُهَلِّلُ، وَأُسَبِّحُ، وَأَسْتَغْفِرُ؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ تَقُولُ المَلَائِكَةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِسَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ»(١٠).

---

(٩) أخرجه البخاري في المساجد، باب الحدث في المسجد (٤٣٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (٦٤٩).

(١٠) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ٤٠).

وأصل الخبر ما روى ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- فقال: « ذكر الفريابي حدثنا حكيم بن زريق الأيلي قال: سمعت أبي يسأل سعيد بن المسيب وأنا معه قال: يا أبا محمد، إنا أهل قرية لا نكاد أن نقبر موتانا إلا بالعشي، فإذا خرجت الجنازة لم يتخلف عنها أحد، إلا من لا يستطيع حضورها، فكيف ترى اتباع الجنازة أحب إليك أم القعود في المسجد؟ فقال سعيد: من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تقبر فله قيراطان، والتخلف في المسجد أحب؛ فإني أذكر الله وأهلل وأسبح وأستغفر؛ فإن الملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، فإذا فعلت تقول الملائكة: اللهم اغفر لسعيد بن المسيب.

ثم ساق ابن عبد البر -رحمه الله تعالى- عن الفريابي بإسناده إلى مجاهد -رحمه الله تعالى- قوله: الصلاة على الجنائز أفضل من صلاة التطوع. ثم قال ابن عبد البر: هذا أصح في النظر؛ لأن الفروض التي على الكفاية أفضل من النوافل» اهـ من التمهيد (١٩/ ٣٩-٤٠)، وينظر: الاستذكار (٢/ ٣٠٠).

وَجَاءَ فِي أَحَادِيثَ عِدَّةٍ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَنْ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ المُنْقَطِعَةَ(١١)، وَيُصَلُّونَ عَلَى أَهْلِ الصَّفِّ الأَوَّلِ(١٢)، وَيُصَلُّونَ عَلَى المُتَسَحِّرِينَ لِلصِّيَامِ(١٣)، وَمَنْ أَصْبَحَ فَزَارَ مَرِيضًا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، فَإِنْ زَارَهُ فِي المَسَاءِ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ(١٤).

---

(١١) كما في حديث عائشة ﵂ عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف**» أخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب إقامة الصفوف (٩٩٥) وصححه ابن خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٢١٦٣-٢١٦٤).

(١٢) كما في حديث البراء ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يأتينا فيمسح عواتقنا وصدورنا ويقول: «**لا تختلف صفوفكم فتختلف قلوبكم، إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول**». وفي لفظ: «**على الصفوف المقدمة**» أخرجه أبو داود في الصلاة، باب تسوية الصفوف (٦٦٤)، والنسائي في الإمامة، باب كيف يقوم الإمام الصفوف (٢/ ٨٩)، وابن ماجه في الإقامة، باب فضل الصف المقدم (٩٩٧)، وأحمد (٤/ ٣٠٤)، وصححه ابن خزيمة (١٥٥١)، وابن حبان (٢١٥٧-٢١٦١).

(١٣) جاء ذلك من حديث أبي سعيد ﵁ عند: أحمد (٣/ ١٢)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٨٠١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).
وجاء أيضًا من حديث ابن عمر ﵄ عند: أبي نعيم (٨/ ٣٢٠)، وصححه ابن حبان (٣٤٦٧)، وذكره الألباني في الصحيحة (١٦٥٤).

(١٤) كما في حديث علي ﵁: «**وما من رجل يعود مريضًا ممسيًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ...**» الحديث. أخرجه أبو داود في الجنائز، باب في فضل العيادة على وضوء (٣٠٩٨-٣٠٩٩) وفي (٣١٠٠) قال أبو داود: أُسند هذا عن علي عن النبي ﷺ من غير وجه صحيح اهـ، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، وقال: حسن غريب (٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٧٤٩٤)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٢) ولفظ ابن ماجه: «**فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ...**» الحديث، وأحمد كلفظ ابن ماجه (١/ ٨١)، وكذا أبو يعلى (٢٨٩)، وقد اختلف في رفعه ووقفه، وقد مضى ذكر تصحيح أبي داود لروايات الرفع، وقال البزار بعد أن أورد رواية الرفع: وهذا الحديث قد روي عن علي بنحو كلامه هذا من غير وجه، ولا نعلم يروى إلا عن علي. اهـ من البحر الزخار (٧٧٧).
قلت: إن ترجّح الوقف على الرفع فله حكم المرفوع؛ إذ لا مجال للرأي فيه، والله أعلم.

وَمَنْ نَامَ عَلَى طَهَارَةٍ وُكِّلَ بِهِ مَلَكٌ يَسْتَغْفِرُ لَهُ لَيْلَتَهُ أَجْمَعَ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**طَهِّرُوا هَذِهِ الأَجْسَادَ طَهَّرَكُمُ اللهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَبِيتُ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ مَعَهُ مَلَكٌ فِي شِعَارِهِ لَا يَنْقَلِبُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فَإِنَّه بَاتَ طَاهِرًا**» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(١٥).

وَمِنْ أَسْبَابِ اسْتِجْلَابِ رَحْمَةِ المَلَائِكَةِ عليهم السلام أَنْ يَرْحَمَ المُسْلِمُ غَيْرَهُ، وَرَحْمَةُ المَلَائِكَةِ لِلْعَبْدِ سَبَبٌ لِاسْتِغْفَارِهِمْ وَدُعَائِهِمْ لَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**ارْحَمْ مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١٦).

وَفِي لَفْظٍ: «**ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ**»(١٧)، وَالمَلَائِكَةُ مِنْ أَهْلُ السَّمَاءِ(١٨).

(١٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٦) رقم (١٣٦٢٠)، وفي مسند الشاميين (٢٥٥٢)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٣٩٦٧)، وعزاه المنذري في الترغيب للطبراني في الأوسط، وقال: بإسناد جيد (٨٧٩)، وحسّنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره (٥٩٩) وخرّجه في الصحيحة (٢٥٣٩).

(١٦) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الطيالسي (٣٣٥)، وأبو يعلى (٥٠٦٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٤٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٤٩) رقم (١٠٢٧٧)، والأوسط (٣٠٣١)، والصغير (٢٨١)، وهو من رواية أبي عبيدة عن أبيه عبد الله رضي الله عنه، ولم يسمع منه، لكنه من أهل بيته ومختص به، واختلف أيضًا في رفعه ووقفه. وصححه الحاكم (٤/ ٢٧٧) والألباني في صحيح الجامع الصغير (٨٩٦).

(١٧) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أبو داود في الأدب، باب في الرحمة (٤٩٤١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، وقال: حسن صحيح (١٩٢٤)، والحميدي (٥٩١)، وابن المبارك في مسنده (٢٧٠)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، وصححه الحاكم (٤/ ١٧٥).

(١٨) ينظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٤٣)، وعون المعبود (١٣/ ١٩٥).

عِبَادَ اللَّهِ: كُلُّ هَذِهِ أَبْوَابٌ مِنَ الخَيْرِ عَظِيمَةٌ؛ فَمَنْ وَلَجَها كُلَّهَا كَانَ أَحْظَى النَّاسِ بِدُعَاءِ المَلَائِكَةِ ﷺ، وَاسْتِغْفَارِهِمْ لَهُ، وَمَنْ أَخَذَ بِبَعْضِهَا كَانَ لَهُ مِنْ دُعَاءِ المَلَائِكَةِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ بِقَدْرِ مَا أَخَذَ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي جَمِيعِهَا فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٣٩- الحب في الله تعالى (١)

١٨/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ اخْتِلَافُ الْبَشَرِ فِي صُوَرِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ، وَطَبَائِعِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَأَصْوَاتِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، وَأَجْنَاسِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الرُّوم: ٢٢].

وَالرَّوَابِطُ بَيْنَ الْبَشَرِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، دِينِيَّةً كَانَتْ أَمْ دُنْيَوِيَّةً؛ فَمِنْهَا الْعِرْقِيَّةُ وَالْوَطَنِيَّةُ، وَالْقَبَلِيَّةُ وَالْأُسَرِيَّةُ، وَمِنْهَا الدِّينِيَّةُ وَالْفِكْرِيَّةُ، وَالثَّقَافِيَّةُ وَاللِّسَانِيَّةُ.

وَالرَّابِطَةُ الْأَعْلَى الَّتِي لَا تُمَاثِلُهَا رَابِطَةٌ أُخْرَى، وَلَا تُضَاهِيهَا وَلَا تُقَارِبُهَا،

وَيَجِبُ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُقْضَى بِهَا عَلَى كُلِّ رَابِطَةٍ، هِيَ الرَّابِطَةُ الْإِيمَانِيَّةُ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ.

إِنَّهَا الرَّابِطَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الْمُسْلِمَ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ لَوْنِهِ وَجِنْسِهِ وَبَلَدِهِ وَلِسَانِهِ، وَهِيَ الَّتِي آخَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ بِلَالٍ الْحَبَشِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ الْقُرَشِيِّ(١)، وَبَيْنَ صُهَيْبٍ الرُّومِيِّ وَالْحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ الْخَزْرَجِيِّ الْأَنْصَارِيِّ(٢)، وَبَيْنَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ الْخَزْرَجِيِّ الْأَنْصَارِيِّ(٣)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَهِيَ الَّتِي حَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْأُخُوَّةَ فِيهَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٠].

بِهَا يُحَقِّقُ الْعَبْدُ كَمَالَ الْإِيمَانِ مَتَى مَا بَنَى تَعَامُلَهُ مَعَ الْآخَرِينَ عَلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه(٤).

إِنَّ الْحُبَّ فِي اللَّهِ ﷻ عِبَادَةٌ قَلْبِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، يَتَقَرَّبُ بِهَا الْمُؤْمِنُ لِرَبِّهِ فَيَنَالُ خَيْرًا كَثِيرًا. إِنَّهَا مَحَبَّةٌ خَالِصَةٌ صَادِقَةٌ، لَا تُكَدِّرُهَا شَوَائِبُ الدُّنْيَا، وَلَا تَخْلَقُ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ، وَلَا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ؛ وَإِنَّمَا هِيَ ثَابِتَةٌ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ، مَا

---

(١) ينظر: أسد الغابة (١/ ٤١٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥١٤).

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤) برقم (٧٦١٣) وفي مسند الشاميين (١٢٦٠)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (١٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٦٩).
وجاء أيضًا بنحوه من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٤٣٨)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب (٦٠)، وقال: هذا حديث حسن (٢٥٢١)، وأبي يعلى (١٤٨٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٨) برقم (٤١٢).

دَامَ المَحْبُوبُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ.

يُحِبُّ المُؤْمِنُ أَخَاهُ لَا لِأَجْلِ جَاهٍ قَدْ يَنْفَعُهُ بِهِ، وَلَا لِمَالٍ قَدْ يَنَالُ حَظَّهُ مِنْهُ، وَلَا لِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ يَرْجُوهُ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ يُحِبُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَحَسْبُ؛ وَتَزْدَادُ مَحَبَّتُهُ لِأَخِيهِ كُلَّمَا ازْدَادَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَصَلَاحًا إِلَى صَلَاحِهِ.

هَذِهِ المَحَبَّةُ الْخَالِصَةُ الَّتِي يَبْذُلُهَا المُؤْمِنُ لِأَخِيهِ المُؤْمِنِ لَيْسَتْ تُشْتَرَى بِمَالٍ، وَلَا تُنَالُ بِجَاهٍ، وَيَمْلِكُهَا المُؤْمِنُ بِقَلْبٍ صَادِقِ الْإِيمَانِ، مُخْلِصٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَرَغْمَ أَنَّهَا لَا تُكَلِّفُ الْعَبْدَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، وَهِيَ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَؤُونَةٍ، وَلَا يَنْتِجُ عَنْهَا نَصَبٌ وَلَا رَهَقٌ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ قَدْ رَتَّبَ عَلَيْهَا أُجُورًا عَظِيمَةً، لَا يُفَرِّطُ فِيهَا إِلَّا مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَبَخَسَ حَظَّهُ؛ فَآثَرَ دُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ!

بِهَا يَجِدُ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَحَلَاوَتَهُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**»، وَذَكَرَ مِنْهَا: «**وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَيُبْغِضَ فِي اللَّهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه(٥).

وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٦).

---

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار من الإيمان (٢١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٨)، والطيالسي (٢٤٩٥)، وابن راهويه في مسنده (٢٥٣-٣٦٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٤٤٠)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٧٠٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٤٤).

وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ حِينَ يَطُولُ بِالنَّاسِ المُقَامُ، وَيَشْتَدُّ الزِّحَامُ؛ وَتَعْظُمُ الْأَهْوَالُ، وَتَكُونُ الشَّمْسُ عَلَى مِقْدَارِ مِيلٍ مِنْ رُؤُوسِ أَهْلِ المَوْقِفِ، فَإِنَّ المُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ تَعَالَى يُنْجِيهِمْ حُبُّهُمْ هَذَا مِنْ كَرْبِ ذَلِكَ المَوْقِفِ الْعَظِيمِ؛ فَمِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «**رَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧)، أَيْ: اجْتَمَعَا عَلَى هَذِهِ المَحَبَّةِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهَا. وَالمُرَادُ: أَنَّهُمَا دَامَا عَلَى المَحَبَّةِ الدِّينِيَّةِ وَلَمْ يَقْطَعَاهَا بِعَارِضٍ دُنْيَوِيٍّ، سَوَاءٌ اجْتَمَعَا حَقِيقَةً أَمْ لَا، حَتَّى فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المَوْتُ(٨).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

إِنَّ أَهْلَ المَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ فِي الدُّنْيَا يُغْبَطُونَ فِي الآخِرَةِ، وَلَيْسَ مَنْ يَغْبِطُهُمْ كُفَّارٌ أَوْ مُنَافِقُونَ، أَوْ حَتَّى مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ؛ بَلْ يَغْبِطُهُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَهُ: النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ**»، قِيلَ: مَنْ هُمْ؟ لَعَلَّنَا نُحِبُّهُمْ! قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِنُورِ اللَّهِ، مِنْ**

---

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٩)، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٨) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٤٥). وقال النووي في شرح مسلم: «معناه: اجتمعا على حب الله، واستمرا على ذلك حتى تفرقا من مجلسهما وهما صادقان في حب كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما» (٧/ ١٢١) وينظر: الديباج (٣/ ١١٠).

(٩) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٦)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢)، وأحمد (٢/ ٢٣٧- ٢٣٨)، والدارمي (٢٧٥٧).

غَيْرِ أَرْحَامٍ وَلَا أَنْسَابٍ، وُجُوهُهُمْ نُورٌ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يُونُس: ٦٢]» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٠).

وَفِي رِوَايَةٍ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَحُقَّ لِذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ أَنْ يَعْجَبَ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَثَا عَلَى الْأَرْضِ، وَأَلْوَى إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَاسٌ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ! انْعَتْهُمْ لَنَا -أَيْ: صِفْهُمْ لَنَا- فَسُرَّ وَجْهُ النَّبِيِّ بِسُؤَالِ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ، وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ، لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ، تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا، يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا، وَثِيَابَهُمْ نُورًا ...» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى(١٢).

وَقَدْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ قَلِيلَ الْعَمَلِ، لَكِنَّ مَحَبَّتَهُ لِمَنْ هُمْ أَقْوَى مِنْهُ إِيمَانًا وَأَكْثَرُ

---

(١٠) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٣٦)، وأبو يعلى (٦١١٠)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٥)، وصححه ابن حبان (٥٧٣).

(١١) هذه الرواية جاءت من حديث عمر بن الخطاب ﷺ عند: أبي داود في البيوع والإجارات، باب في الرهن (٣٥٢٧)، وصححها الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٢٦).

(١٢) هذه الرواية جاءت من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ عند: أحمد (٥/ ٣٤٣)، وعبد الرزاق (٢٠٣٢٤)، وابن المبارك في الزهد (٧١٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٢٩) برقم (٣٤٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٦٤)، وفي سندها شهر بن حوشب ضعيف، لكن لها شواهد تتقوى بها؛ ولذا ذكر الألباني هذ الحديث في السلسلة الصحيحة في تخريج حديث ابن عمر ﷺ (٣٤٦٤)، وحسنه المنذري بعد أن عزاه لأبي يعلى (٤/ ٤٨).

عَمَلًا؛ صَيَّرْتُهُ إِلَيْهِمْ، وَرَفَعْتُهُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ المَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ فِي الدُّنْيَا، عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١٣).

رَوَى الشَّيْخَانِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، ثُمَّ قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ أَعْمَالَهُمْ»(١٤).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: قَالَ أَنَسٌ: رَأَيْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرِحُوا بِشَيْءٍ لَمْ أَرَهُمْ فَرِحُوا بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْهُ(١٥). وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ حِبَّانَ: قَالَ أَنَسٌ: فَمَا رَأَيْتُ المُسْلِمِينَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِهَا(١٦).

وَنَحْنُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْرَحَ بِذَلِكَ، وَحُقَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَفْرَحَ بِهَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، الَّذِي بِهِ يُدْرِكُ المُؤْمِنُ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ، وَالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ بِمَحَبَّتِهِمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِمْ، كَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثٌ أَحْلِفُ**

(١٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب علامة حب الله ﷻ (٦١٦٩)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٤٠).

(١٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٤٨٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩).

(١٥) هذه الرواية لأبي داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٧).

(١٦) هذه الرواية لابن حبان (٧٣٤٨)، والبغوي في شرح السنة (٣٤٧٩).

عَلَيْهِنَّ»، وَذَكَرَ مِنْهَا: «وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ مَعَهُمْ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[(١٧)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا حُشِرَ مَعَهُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١٨)].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا مَحَبَّتَهُ، وَمَحَبَّةَ مَا يُحِبُّهُ، وَمَحَبَّةَ كُلِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نُشْهِدُكَ عَلَى مَحَبَّتِكَ، وَمَحَبَّةِ رُسُلِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَمَلَائِكَتِكَ وَصَحَابَةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، وَعِبَادِكَ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَاحْشُرْنَا مَعَهُمْ، وَبَلِّغْنَا مَنَازِلَهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مَرْيَم: ٩٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَيْ: مَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ[(١٩)].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . . .



(١٧) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ١٤٥)، وإسحاق بن راهويه (٨٦٣)، وأبو يعلى (٤٥٦٦)، والحاكم وصححه (١/ ٦٧).

(١٨) هذه الرواية جاءت من حديث علي رضي الله عنه عند: الطبراني في الأوسط (٦٤٥٠)، والصغير (٨٧٤).

وللحديث شاهد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦٣) برقم (٨٠٢٣).

وشاهد آخر من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عند: عبد الرزاق (٢٠٣١٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٩) برقم (٨٧٩٩).

(١٩) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥١٦)، وذكره البغوي في شرح السنة، إلا أنه قال: «محبة في قلوب الصالحين» (١٣/ ٥٥).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

عِبَادَ اللَّهِ: مَنْ أَحَبَّ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَصِدْقِهِمْ فِي إِيمَانِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ فِي تَنَسُّكِهِمْ، وَصَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ كَانَ رَفِيقًا لَهُمْ، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

وَمَنْ أَحَبَّ أُولِي الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، وَأَهْلَ الْجِهَادِ وَالْحِسْبَةِ، وَأَصْحَابَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِجِهَادِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ، وَنَشْرِهِمْ لِلْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَقْوَاهُمْ وَصَلَاحِهِمْ؛ كَانَ مَعَهُمْ وَلَوْ قَصُرَ عَمَلُهُ عَنْهُمْ، وَحُشِرَ فِي زُمْرَتِهِمْ وَلَوْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ.

وَمَنْ أَحَبَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْفُجَّارَ وَالْفَاسِقِينَ، كُتَّابًا كَانُوا أَمْ سِيَاسِيِّينَ أَمْ صَحَفِيِّينَ، أَمْ أَهْلَ غِنَاءٍ وَتَمْثِيلٍ وَرَقْصٍ وَرِيَاضِيِّينَ؛ فَيُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يُحْشَرَ مَعَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زُمْرَتِهِمْ.

وَمَنْ أَبْغَضَ أَهْلَ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَأَصْحَابَ الصَّلَاحِ وَالتُّقَى، لَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا لِمَا يَظْهَرُ عَلَى حَالِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ لِلشَّرِيعَةِ، وَاسْتِمْسَاكِهِمْ بِالسُّنَّةِ فِي هَدْيِهِمْ وَدَلِّهِمْ، وَأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، كَإِعْفَاءِ اللِّحَى، وَتَقْصِيرِ اللِّبَاسِ، وَالْتِزَامِ السِّوَاكِ، وَارْتِيَادِ الْمَسَاجِدِ، وَتَعْظِيمِ الْقُرْآنِ، وَيُحِبُّ مِنَ النَّاسِ تَرْكَ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الشَّرْعِيَّةِ، وَنَبْذَ تِلْكَ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَلَوْ كَانَ فِي عِدَادِ

الْمُصَلِّينَ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَكْرَهُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي شَرَعَهَا، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ الَّتِي سَنَّهَا! وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ لَا يَنْتَبِهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُدْرِكُ مَغَبَّةَ فِعْلِهِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ ظُهُورِ أَهْلِ الْغُلُوِّ وَالتَّكْفِيرِ، وَانْتِشَارِ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّخْذِيلِ.

فَحَذَارِ حَذَارِ أَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَوْ يُبْغِضَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَشْخَاصِ! فَإِنَّ أَصْلَ الْإِسْلَامِ وَالْكُفْرِ، وَالْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، مُعَلَّقٌ بِمَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَحَبَّةٍ وَمَوَدَّةٍ، وَبُغْضٍ وَكَرَاهِيَةٍ، وَمُوَالَاةٍ وَمُعَادَاةٍ.

وَإِذَا أَحَبَّ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فَلْيُعْلِمْهُ بِذَلِكَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ(٢٠)، وَرَوَى أَنَسٌ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ رَجُلٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ نَاسٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِمَّنْ عِنْدَهُ: إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا لِلَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَقُمْ إِلَيْهِ فَأَعْلِمْهُ**»، فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَعْلَمَهُ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكَ مَا احْتَسَبْتَ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ(٢١).

وَفَائِدَةُ هَذَا الْإِعْلَامِ بِالْمَحَبَّةِ أَنَّهُ يَجْلِبُ الْمَوَدَّةَ، وَيَزِيدُ فِي الْأُلْفَةِ، وَيَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ، وَيُزِيلُ شَحْنَاءَ النُّفُوسِ، وَإِذَا عَلِمَ أَخُوهُ أَنَّهُ مُحِبٌّ لَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ قَبِلَ

---

(٢٠) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٢)، وأبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٤)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في إعلام الحُب وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٩٣)، وصححه ابن حبان (٢٥١٤).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٦)، وعبد بن حميد (٤٤٤)، وأبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه (٥١٢٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠١٠)، وأبو يعلى (٣٤٤٢)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣١٩٣)، وصححه ابن حبان (٥٧١)، والحاكم (٤/ ١٨٩)، والزيادة التي في آخر الحديث للبغوي في شرح السنة (٣٤٨٢).

نُصْحَهُ وَمَوْعِظَتَهُ، وَأَصْغَى إِلَى رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ؛ لِيَقِينِهِ بِصِدْقِ أَخِيهِ مَعَهُ، وَنُصْحِهِ لَهُ(٢٢).

فَإِنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ يَدْعُو لِإِخْوَانِهِ وَأَحْبَابِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُخْبِرُهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ يَكْتُمُهُ عَنْهُمْ، وَإِنْ دَعَا لَهُمْ بِحَضْرَتِهِمْ أَسَرَّ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يُظْهِرُهُ لَهُمْ(٢٣)، إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ مَعْرُوفًا فَيُكَافِئُهُ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ(٢٤).

فَمَحَبَّتُهُ لِأَخِيهِ يُعْلِمُهُ بِهَا، وَدُعَاؤُهُ لَهُ يَكْتُمُهُ عَنْهُ؛ لِئَلَّا يَتَّكِلَ أَخُوهُ عَلَى دُعَائِهِ

---

(٢٢) ينظر: شرح السنة (١٣/ ٦٧)، وشرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣٢٠٥).

(٢٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٧/ ٤٩)، وعون المعبود (٤/ ٢٧٥-٢٧٦)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٩٧).

(٢٤) وذلك لحديث ابن عمر ﭭ قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، وعبد بن حميد (٨٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٥/ ٨٢)، وصححه ابن حبان (٣٤٠٨)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٧٣).

ولا يرد على ذلك أن من أراد مكافأة أخيه على معروفه بالدعاء أن يدعو له بظهر الغيب فقط، فله ذلك، وله أن يظهر دعوته له؛ للحاجة إلى ذلك، ولتأليف قلب أخيه، وهو من باب الشكر على المعروف ولو كان دعاءً، والشكر لا ينفع إذا كان سرًّا، بل لا بد من إظهاره.

وقد دل النص على استثناء دعوة المكافأة من عموم دعوة المسلم لأخيه المسلم التي ينبغي أن تكون بظهر الغيب، وذلك ما جاء في حديث أسامة بن زيد ﭭ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن جيد غريب (٢٠٣٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٠٨)، والطبراني في الصغير (١١٨٣)، وصححه ابن حبان (٣٤١٣).

وهذا الثناء البليغ المذكور في الحديث دعاء، وجاء بصيغة الخطاب لمن صنع المعروف، فاستثنيت هذه الصورة من عموم دعوة المسلم لأخيه التي ينبغي أن تكون بظهر الغيب، والله أعلم.

فَيَتْرُكَ الدُّعَاءَ، أَوْ يَكْسَلَ عَنْهُ؛ وَلِظَاهِرِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٥).

فَسَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ «دَعْوَةً بِظَهْرِ الْغَيْبِ»، وَإِذَا أَظْهَرَهَا، أَوْ أَعْلَمَ أَخَاهُ بِهَا لَمْ تَكُنْ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، فَفَقَدَتْ مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَسْرَعَ الدَّعَوَاتِ إِجَابَةً دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ؛ لِإِخْلَاصِهِ، وَصِدْقِ نِيَّتِهِ، وَبُعْدِهِ عَنْ شَوَائِبِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ(٢٦).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- وَأَخْلِصُوا عَمَلَكُمْ لَهُ، وَأَحِبُّوا فِيهِ، وَأَبْغِضُوا فِيهِ، وَوَالُوا فِيهِ، وَعَادُوا فِيهِ؛ تَجِدُوا بِذَلِكَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



---

(٢٥) أخرجه من حديث أبي الدرداء ﷺ: مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٢)، وأبو داود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (١٦٣٤)، وابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢٨٩٥).

(٢٦) جاء في ذلك حديث ضعيف، وهو ما رواه عبدالله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ما دعوة أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب»** أخرجه أبو داود (١٥٣٥)، والترمذي (١٩٨)، وعبد بن حميد (٣٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٣٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٢٣)، وفي سنده عبدالرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، ضعفه الأئمة كما في تهذيب التهذيب (٣/ ٢٦٠) رقم الترجمة: (٤٤٠٥)، وقال الترمذي بعد رواية حديثه: والأفريقي يضعف في الحديث.

٣٤٠- الحب في الله تعالى (٢)

٧/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَأَتْقَنَ خَلْقَهُمْ، وَصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْمُتَتَابِعِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّلَ بِخَلْقِهِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَبَرْهَنَ بِتَقْدِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ عَلَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، لَا رَبَّ يُعْبَدُ بِحَقٍّ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ يَنْفَعُ سِوَاهُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٨٤، ٨٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ مَا كَانَ فِي قَلْبِهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَلَا اتَّخَذَ خَلِيلًا سِوَاهُ، قَالَ جُنْدَبٌ رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»(١) صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَلَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا بَعْدَ الْفُرْقَةِ، وَتَحَابُّوا بَعْدَ الْبَغْضَاءِ، وَاتَّفَقُوا بَعْدَ الِاخْتِلَافِ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣] وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها (٥٣٢). وجاء في الصحيحين عن ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهم بنحوه.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ وَلَا تَكْفُرُوهُ، فَمَا مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا وَهُوَ مَانِحُهَا، وَلَا مِنْ عَطِيَّةٍ إِلَّا وَهُوَ وَاهِبُهَا، خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَهَدَاكُمْ وَكَفَاكُمْ، وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أَعْطَاكُمْ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِمَرْضَاتِهِ، وَطَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى جَنَّاتِهِ، وَالْعِبَادَاتُ مِنْهَا الْأَقْوَالُ، وَمِنْهَا الْأَفْعَالُ، وَمِنْهَا أَعْمَالُ الْقُلُوبِ، وَهِيَ أَعْمَالٌ يَقُومُ بِهَا الْقَلْبُ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى مؤُونَةِ قَوْلٍ وَلَا عَمَلِ جَوَارِحَ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا إِلَّا الْقَلْبُ السَّلِيمُ الَّذِي سَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتَسْلَمَ لِأَمْرِهِ، وَخَضَعَ لِحُكْمِهِ، وَطَوَّعَ هَوَاهُ لِشَرِيعَتِهِ.

وَكَمْ مِنْ عَظِيمٍ فِي النَّاسِ، قَوِيِّ الْجَاهِ، كَثِيرِ المَالِ، مُهَابِ الْجَنَابِ؛ يَحْمِلُ قَلْبًا ضَعِيفًا مَرِيضًا، تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ، وَلَا يَثْبُتُ عِنْدَ الضَّرَّاءِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المَعَارج: ٢٠، ٢١].

وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ عِنْدَ النَّاسِ يَحْمِلُ قَلْبًا حَيًّا، فَاضَ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُزَحْزِحُوهُ عَنْ يَقِينِهِ مَا زَحْزَحُوهُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتِهِ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ مَحَلُّ الْإِخْلَاصِ أَوِ الرِّيَاءِ، وَحَامِلُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ إِنْ أَحَبَّ أَحَبَّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ وَالَى وَالَى فِيهِ، وَإِنْ عَادَى عَادَى فِيهِ، وَبِذَلِكَ يُسْتَكْمَلُ الْإِيمَانُ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي اللَّهِ تَعَالَى وَالْبُغْضَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَسَلَامَتِهِ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا .. بِهِ تُنَالُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ، وَيَسْتَظِلُّ صَاحِبُهُ حِينَ لَا ظِلَّ إِلَّا مَنْ أَظَلَّهُ الرَّحْمَنُ، وَيَبْلُغُ الْعَبْدُ بِحُبِّهِ لِأَخِيهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى مَنْزِلَةً يَغْبِطُهُ عَلَيْهَا النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَإِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ قَوْمًا لَا يُدْرِكُ بِعَمَلِهِ

فَضْلَهُمْ فَهُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ؛ كُلُّ ذَلِكَ جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ.

وَمِنْ كَمَالِ مَحَبَّتِهِ لِأَخِيهِ أَنْ يَتَمَنَّى لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ؛ فَلَا يَحْسُدُهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا يَزْدَرِيهِ أَوْ يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ**»(٣).

وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ لَا يَكُونُ كَامِلَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ أَنْ يَحْصُلَ لِأَخِيهِ نَظِيرُ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ فِي أُمُورِ الدِّينِ أَوْ فِي الْمُبَاحَاتِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا(٤).

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مِنَ الْإِيمَانِ أَيْضًا أَنْ يُبْغِضَ لِأَخِيهِ مَا يُبْغِضُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِّ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ حُبَّ الشَّيْءِ مُسْتَلْزِمٌ لِبُغْضِ نَقِيضِهِ(٥).

وَمَنْ رَأَى تَحَاسُدَ الْأَقْرَانِ، وَتَهَاجُرَ الْإِخْوَانِ، وَتَقَطُّعَ الْقَرَابَةِ؛ عَلِمَ أَنَّ بَيْنَ أَكْثَرِ النَّاسِ وَبَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ مَفَازًا عَظِيمًا، وَسَبَبُ ذَلِكَ الدُّنْيَا الَّتِي عَظُمَتْ فِي النُّفُوسِ فَأَفْسَدَتِ الْقُلُوبَ، وَقَدَّمَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ شَهَوَاتِهِمْ عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ

---

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

(٣) هذه الرواية لأبي يعلى (٣٠٨١)، وصححها ابن حبان (٢٣٥)، والضياء في المختارة (٢٥٢٥).

(٤) ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٦)، وفتح الباري لابن حجر (١/ ٥٧-٥٨).

(٥) ذكره الحافظ عن الكرماني (١/ ٥٨).

تَعَالَى، وَإِلَّا فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي اللَّهِ تَعَالَى هِيَ مِنْ إِكْرَامِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَيَسْتَوْجِبُ بِذَلِكَ مَا يَسْتَوْجِبُ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْأَجْرِ الْكَثِيرِ، وَمَنْ أَكْرَمَ الْكَرِيمَ أَكْرَمَهُ الْكَرِيمُ أَكْثَرَ مِنْ كَرَمِهِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُكْرِمُ رَبَّهُ ﷻ بِإِخْلَاصِ الْمَحَبَّةِ لَهُ وَفِيهِ؟! رَوَى أَبُو أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَحَبَّ عَبْدٌ عَبْدًا لِلَّهِ ﷻ إِلَّا أَكْرَمَ رَبَّهُ ﷻ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

فَهَلْ يُفَرِّطُ فِي إِكْرَامِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ يُرِيدُ كَرَامَتَهُ؟! وَكَرَامَتُهُ سُبْحَانَهُ جَنَّتُهُ وَرِضَاهُ عَنْ عِبَادِهِ، كَيْفَ؟! وَفَضْلُهُ عَلَيْنَا لَا يُعَدُّ، وَعَطَاؤُهُ لَا يُحْصَى!

إِنَّهُ حُبٌّ فِي اللَّهِ تَعَالَى لَا تُكَدِّرُهُ أَدْرَانُ الدُّنْيَا، خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى لَا حَظَّ فِيهِ لِمَخْلُوقٍ، صَادِقٌ مِنَ الْقَلْبِ لَا يَتَأَثَّرُ بِتَقَلُّبَاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِيهِ الْوُدُّ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ صَاحِبِهِ مِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى، أَوْ بِتَبَدُّلِ مَنْ يُحِبُّ مِنَ الْجَاهِ إِلَى فَقْدِهِ.

وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ الصَّادِقَةِ هُمُ الزِّينَةُ وَالْأُنْسُ فِي الرَّخَاءِ، وَهُمُ الْعَوْنُ وَالْعُدَّةُ -بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى- فِي الشَّدَائِدِ، إِنْ رَأَوْا مِنْ أَخِيهِمْ حَسَنًا أَظْهَرُوهُ، وَإِنْ وَقَعُوا عَلَى سَيِّئٍ سَتَرُوهُ، يَحْفَظُونَ لَهُ فِي غَيْبَتِهِ مَا يُبْدُونَ لَهُ فِي حَضْرَتِهِ، لَا يَخْتَلِفُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَمَّا تُلْقِيهِ أَلْسِنَتُهُمْ فِي ذِكْرِ صَاحِبِهِمْ. إِنْ جَلَسُوا مَعَ مَنْ يُحِبُّونَ احْتَسَبُوا مَجْلِسَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ تَزَاوَرُوا تَزَاوَرُوا لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنِ احْتَاجَ صَاحِبُهُمْ مَعُونَةً بَذَلُوهَا لَهُ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى.

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ بِالشَّامِ، فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٩)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (٢٠)، والبيهقي في الشعب (٩٠١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٦).

هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ، فَقَالَ: آللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آللَّهِ. فَقَالَ: آللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آللَّهِ. فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ: أَبْشِرْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**» رَوَاهُ الْإِمَامَانِ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ(٧).

وَفِي لَفْظٍ لِأَحْمَدَ: قَالَ أَبُو إِدْرِيسَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلْتُ فَإِذَا مُعَاذٌ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ، قَالَ: فَصَلَّيْتُ عِنْدَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ جَلَسْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ السَّارِيَةُ، ثُمَّ احْتَبَيْتُ فَلَبِثْتُ سَاعَةً لَا أُكَلِّمُهُ وَلَا يُكَلِّمُنِي، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِغَيْرِ دُنْيَا أَرْجُوهَا أُصِيبُهَا مِنْكَ، وَلَا قَرَابَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، قَالَ: فَلِأَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: فَنَثَرَ حُبْوَتِي ثُمَّ قَالَ: فَأَبْشِرْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**»، قَالَ: ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَلْقَى عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قَالَ: فَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي حَدَّثَنِي مُعَاذٌ، فَقَالَ عُبَادَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: **حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ**»(٨).

وَالزِّيَارَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ الْمَحَبَّةِ فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهَا مَحَبَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْظُمُ أَثَرُهَا إِنْ أَنْشَأَ الْمُحِبُّ سَفَرًا لِأَجْلِهَا؛ فَمَاذَا

---

(٧) أخرجه مالك (٢/ ٩٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٠) رقم (١٥٠)، وصححه ابن حبان (٥٧٥)، والحاكم (٣/ ٣٠٢)، والضياء في المختارة (٣٧٢-٣٧٣).

(٨) هذه الرواية لأحمد (٥/ ٣٢٨).

سَيَكُونُ فِي قَلْبِ أَخِيهِ لَهُ إِنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَا شَدَّ رَحْلَهُ، وَلَا أَنْشَأَ سَفَرَهُ، وَلَا أَكَلَّ ظَهْرَهُ، وَلَا أَتْعَبَ نَفْسَهُ؛ إِلَّا لِلُقْيَاهُ وَزِيَارَتِهِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ وَمُجَالَسَتِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى؛ فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ زِيَارَةٍ! وَمَا أَعْلَى مَنْزِلَةَ صَاحِبِهَا! وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ دِينٍ يُرَبِّي أَتْبَاعَهُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شُؤُونِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ! رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عز وجل، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»**(٩).

وَيَنَالُ المُحِبُّ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ عز وجل بِقَدْرِ مَا يَبْذُلُ لِأَخِيهِ مِنَ المَحَبَّةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»** رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّقْوَى وَالْيَقِينِ، وَأَنْ يَمْلَأَ قُلُوبَنَا مَحَبَّةً لَهُ وَلِأَوْلِيَائِهِ، وَبُغْضًا لِأَعْدَائِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.



(٩) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب الحب في الله تعالى (٢٥٦٧)، وإسحاق بن راهويه (٢٧)، وأحمد (٢/ ٤٠٨)، وابن حبان (٥٧٢).

(١٠) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، والطيالسي (٢٠٥٣)، وأبو يعلى (٣٤١٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣١٩٢)، والطبراني في الأوسط (٢٨٦٩)، وصححه ابن حبان (٥٦٦).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَأَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْخَلْقُ خَلْقُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقُلُوبُ بِيَدِهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَنْقَى الْعِبَادِ سَرِيرَةً، وَأَصْلَحُهُمْ قَلْبًا، وَأَزْكَاهُمْ نَفْسًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا رُتِّبَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ؛ أَيْقَنَ أَنَّ لِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ شَأْنًا عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الْعَبْدَ يُدْرِكُ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يُدْرِكُهُ مَرِيضُ الْقَلْبِ وَلَوْ كَانَ أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَشَدَّ سَعْيًا.

وَقَدْ يُحِبُّ الرَّجُلُ قَوْمًا يَظُنُّ أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا لِهَوَى نَفْسِهِ، وَشَهْوَةِ قَلْبِهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي مَحَبَّتِهِ نَصِيبٌ؛ كَمَنْ يُحِبُّ مُؤْمِنًا تَقِيًّا صَاحِبَ جَاهٍ وَمَالٍ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِمَا يَمْلِكُ، وَيَزُورُهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، أَوْ لِيَرَاهُ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَوْ لَمْ يَنَلْ مِنْهُ شَيْئًا، فَإِذَا مَا زَالَ مَا يَمْلِكُهُ زَالَتْ مَحَبَّتُهُ، وَانْقَطَعَ عَنْ زِيَارَتِهِ، فَهَذَا مَا أَحَبَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا لِشَهْوَةٍ فِي نَفْسِهِ.

وَصَاحِبُ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ لَا تَتَغَيَّرُ مَحَبَّتُهُ بِتَغَيُّرَاتِ الدُّنْيَا وَأَحْوَالِهَا، وَلَكِنَّهَا تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرَاتِ الدِّينِ، كَانْتِقَالِ مَنْ يُحِبُّ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، أَوْ مِنَ السُّنَّةِ إِلَى الْبِدْعَةِ، أَوْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَحِينَئِذٍ يَتَنَازَعُ الْقَلْبَ وَارِدَانِ: وَارِدُ مَحَبَّتِهِ لِصَاحِبِهِ الَّذِي تَغَيَّرَ دِينُهُ، وَانْقَلَبَتْ أَحْوَالُهُ، وَقَدْ صَاحَبَهُ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ،

وَوَارِدُ مَحَبَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَيُقَدِّمُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَحَبَّةِ خَلِيلِهِ؛ لأَنَّهُ مَا أَحَبَّهُ إِلَّا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا تَنَكَّرَ لِدِينِهِ فَقَدَ سَبَّبَ مَحَبَّتِهِ لَهُ.

قَالَ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، فَإِذَا أَحَبَبْتَ أَحَدًا فِي اللَّهِ فَأَحْدَثَ حَدَثًا فَأَبْغِضْهُ فِي اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْحُبُّ فِي اللَّهِ»(١١).

وَمِنْ هُنَا كَانَتِ المَحَبَّةُ الصَّادِقَةُ الْخَالِصَةُ لِلَّهِ تَعَالَى مَبْنَاهَا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيُحِبُّ صَاحِبُهَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُبْغِضُ أَعْدَاءَهُ، وَهَكَذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي اللَّهِ**»(١٢)، وَمُعَاذٌ مِنْ فُقَهَاءِ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَائِهِمْ وَقُضَاتِهِمْ، فَأَحَبَّهُ النَّبِيُّ ﷺ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَاتٍ يُحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى.

وَوَصَفَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها مَحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: «مَا أَحَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا ذَا تُقًى» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(١٣).

وَجَاءَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، تَتَلَاقَى فِي الْهَوَاءِ فَتَتَشَامُّ كَمَا تَتَشَامُّ الْخَيْلُ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ، وَلَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا جَاءَ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُنَافِقٍ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ لَقُيِّضَ لَهُ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيْهِ»(١٤).

---

(١١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩٥١٧)، وجاء نحوه عن سفيان الثوري في الشعب (٩٥١٨-٩٥١٩).

(١٢) أخرجه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: البخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وأبو داود في الصلاة، باب الاستغفار (١٥٢٢)، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وعبد بن حميد (١٢٠)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم (٣/ ٣٠٧).

(١٣) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥٢)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٤).

(١٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٤٣٧).

بَلْ إِنَّ مِنْ عُقُوبَاتِ المَعَاصِي أَنَّهَا تُفَرِّقُ المُحِبِّينَ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي انْقِلَابِ المَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ إِلَى عَدَاوَةٍ وَبَغْضَاءَ، وَيَكُونُ هَذَا فِي الآخِرَةِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخْرُف: ٦٧]، كَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَكَمَا أَنَّ لِلْعَبْدِ أَصْدِقَاءَ يُحِبُّهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَعْدَاءٌ يُبْغِضُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُجُورِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُهُمْ وَيُبْغِضُ أَفْعَالَهُمْ، فَبُغْضُ الْعَبْدِ لَهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ طَاعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُوَافَقَةٌ لَهُ فِي شَرْعِهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «فَمِنَ الْحُبِّ فِي اللَّهِ حُبُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَهُمُ الْأَنْقِيَاءُ الْعُلَمَاءُ الْفُضَلَاءُ، وَمِنَ الْبُغْضِ فِي اللَّهِ بُغْضُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَجَاهَرَ بِمَعَاصِيهِ، أَوْ أَلْحَدَ فِي صِفَاتِهِ وَكَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، أَوْ نَحْوُ هَذَا كُلِّهِ»(١٦).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَتَفَقَّدُوا قُلُوبَكُمْ، وَتَعَاهَدُوهَا بِأَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالرَّشَادِ؛ فَأَحِبُّوا مَنْ أَحْبَبْتُمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَبْغِضُوا مَنْ أَبْغَضْتُمْ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



---

(١٥) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٦٨)، وحسنه المنذري في الترغيب (٣٣٦٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٤).
وله شاهد من حديث الحسن عن رجل من بني سليط عند: أحمد (٥/ ٧١).

(١٦) التمهيد (١٧/ ٤٣١).

٣٤١- الرضا عن الله تعالى (٢) (*)

٤/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: سَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَالرِّضَا عَنْهُ ﷻ، وَشَقَاءُ الْعَبْدِ فِي كُفْرِهِ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَوِ التَّفْرِيطِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، أَوْ عَدَمِ الرِّضَا عَنْهُ ﷻ.

وَالْمُلْكُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، وَخَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعَافِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَبْتَلِي مَنْ يَشَاءُ .. لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. وَالْخَلْقُ مَهْمَا عَلَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَبَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ؛ فَإِنَّهُم مَخْلُوقُونَ مُدَبَّرُونَ، مَشِيئَتُهُمْ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ

(*) الرضا عن الله تعالى (١) تجدها في مجلد (٣) خطبة رقم (١٠٥).

تَعالَى، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير: ٢٩]. فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا الَّذِي بِهِ يَسْعَدُ فِي الدُّنْيَا بِعَيْشِهَا، وَيَهْنَأُ فِي الْآخِرَةِ بِنَعِيمِهَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ الَّذِي بِهِ يَشْقَى فِي الدُّنْيَا، وَلَنْ يَنَالَ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا، مَعَ خَسَارَتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى مَقَامٌ رَفِيعٌ، وَمَطْلَبٌ عَزِيزٌ، لَا يَبْلُغُهُ إِلَّا الْخُلَّصُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ؛ فَهُوَ مِنَ الْخِلَالِ الَّتِي بِهَا يَصْعَدُ الْعَبْدُ إِلَى ذِرْوَةِ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه[1]، وَيَقْتَفِي أَثَرَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ عليه السلام الَّذِي حَقَّقَ الرِّضَا، فَرَضِيَ اللَّهُ فِعْلَهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَنَالَهُ الإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَجَعَلَهُ أُمَّةً فِي الْعَالَمِينَ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ابْتَلَاهُ بِالْكَوْكَبِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِذَبْحِ ابْنِهِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالْهِجْرَةِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالنَّارِ فَرَضِيَ عَنْهُ، وَابْتَلَاهُ بِالخِتَانِ»[2].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «مَا ابْتُلِيَ بِهَذَا الدِّينِ أَحَدٌ فَأَقَامَهُ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النَّجم: ٣٧]. فَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ»[3].

---

(١) قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ذروة الإيمان: الصَّبْرُ للحكم والرضا بالقَدَرِ والإِخْلَاص في التوكُّل والاستسلام للرَّبِّ عز وجل» أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٦)، وابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٣)، والبيهقي في الشعب (١٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٢١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي شيبة (١/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٣٣١)، والطبري (١/ ٥٢٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٦٠٢).

وَمَنْشَأُ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ: قُوَّةُ إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ، وَعِلْمُهُ بِعَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ؛ فَإِنَّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، لَا يَخْرُجُ عَنْ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

أَمَّا عَدْلُهُ ﷻ فَإِنَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ مِنْ مَصَائِبَ، وَمَا يُضَيَّقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَرْزَاقٍ، سَبَبُهُ: تَفْرِيطُهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِتْيَانُهُمْ مَا يَسْتَوْجِبُ عُقُوبَتَهُمْ. وَمَا يَعْفُو عَنْهُ الرَّبُّ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورى: ٣٠]، وَالمُؤْمِنُ الْحَقُّ يَلْحَظُ ذَلِكَ وَيُبْصِرُهُ فَوْرَ وُقُوعِ المُصِيبَةِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ؛ كَمَا كَانَ السَّلَفُ يَصْنَعُونَ، قَالَ يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ المَكِّيُّ: «زَرَعَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ زَرْعًا، فَلَمَّا بَلَغَ أَصَابَتْهُ آفَةٌ فَاحْتَرَقَ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ نُوَاسِيهِ عَنْهُ، فَبَكَى، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَلَيْهِ أَبْكِي، وَلَكِنْ سَمِعْتُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧] فَأَخَافُ أَنْ أَكُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَذَلِكَ الَّذِي أَبْكَانِي»(٤).

وَأَمَّا رَحْمَتُهُ ﷻ؛ فَإِنَّ مُصَابَ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا يُخَفِّفُ عَنْهُ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُبَلِّغُهُ المَنَازِلَ الْعَالِيَةَ فِي الْجَنَّةِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ المَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٥).

---

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (١٢).

(٥) أخرجه من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده: أبو داود في الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٢)، وأبو يعلى (٩٢٣)، والبيهقي (٣/ ٣٧٤)، والطبراني في الكبير(٢٢/ ٣١٨) برقم (٨٠١) وفي الأوسط (١٠٨٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٤١٦).
ومحمد بن خالد مجهول هو وأبوه كما ذكر الحافظان الذهبي وابن حجر، لكن للحديث شواهد يتقوى بها عن أبي هريرة وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن إياس عن أبيه عن جده ﵃؛ ولذلك ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٩٩).

فَأَفْعَالُهُ ﷻ دَائِرَةٌ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، وَكُلُّ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ بَعْضُ الْعِبَادِ وَلَمْ يَرْضَوْهُ، فَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُهُمْ مِنْهُمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَجِبْتُ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْضِ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه(٦).

وَمِنَ الْخِذْلَانِ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ: أَنْ يَتَّهِمَ الْعَبْدُ رَبَّهُ ﷻ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ عَنْ رَبِّهِ فِي رِزْقِهِ فَهُوَ مُتَّهِمٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ، شَاكٌّ فِي عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُهُ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَأَجَابَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اذْهَبْ فَلَا تَتَّهِمِ اللَّهَ عَلَى نَفْسِكَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَلَا تَتَّهِمِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ**» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٧).

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، لَا يَتَّهِمُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِي قَضَائِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَكٌّ فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَإِنْ أُصِيبَ وَاحِدُهُمْ بِمُصِيبَةٍ، أَوْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ أَرْجَعَ ذَلِكَ إِلَى ذُنُوبِهِ،

---

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧، ١٨٤)، وأبو يعلى (٤٢١٨)، وصححه ابن حبان (٧٢٨).
وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند: أحمد (١/ ١٧٣، ١٨٢) وعبد بن حميد (١٣٩)، وعبد الرزاق (٢٠٣١٠)، والبيهقي (٣/ ٣٧٥).

(٧) الرواية الأولى أخرجها من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٢٠٤).
والرواية الثانية أخرجها من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣١٨)، وابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٤٠٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للطبراني (١/ ٥٨٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما حسن» (٢/ ١٨٨) برقم (٢٠٤٦)، لكن ضعَّف الهيثمي حديث عمرو بن العاص برشدين بن سعد، وضعّف حديث عبادة بابن لهيعة، ينظر: مجمع الزوائد (١/ ٥٩ - ٦٠).

وَأَحْسَنَ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَقَابَلَ مُصَابَهُ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا، فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ.

هَذَا عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ﷺ أُصِيبَ بِدَاءٍ فِي بَطْنِهِ ثَلاثِينَ سَنَةً، فَقَابَلَ ذَلِكَ بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ، قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «أَتَيْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ يَوْمًا فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَأَدَعُ إِتْيَانَكَ لِمَا أَرَاكَ فِيهِ، وَلِمَا أَرَاكَ تَلْقَى، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ: «سُقِيَ بَطْنُهُ فَمَكَثَ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى سَرِيرٍ مَثْقُوبٍ»[٨].

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اشْتَكَى عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ ﷺ فَدَخَلَ عَلَيْهِ جَارٌ لَهُ، فَاسْتَبْطَأَهُ فِي الْعِيَادَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا نُجَيْدٍ: إِنَّ بَعْضَ مَا يَمْنَعُنِي مِنْ عِيَادَتِكَ مَا أَرَى بِكَ مِنَ الْجَهْدِ، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللَّهِ فَلَا تَبْتَئِسْ لِي بِمَا تَرَى، أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ مَا تَرَى مُجَازَاةً بِذُنُوبٍ قَدْ مَضَتْ، وَأَنَا أَرْجُو عَفْوَ اللَّهِ عَلَى مَا بَقِيَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]»[٩].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «مَا أُبَالِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَرَاهُمْ، أَبِسَرَّاءَ أَمْ بِضَرَّاءَ، وَمَا أَصْبَحْتُ عَلَى حَالٍ فَتَمَنَّيْتُ أَنِّي عَلَى سِوَاهَا»[١٠].

وَجَاءَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- «أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتِهِ اشْتَكَى فَوَجَدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُخْبِرَ بِمَوْتِهِ فَسُرِّيَ عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: نَدْعُو

---

(٨) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية أبي عبدالله المروزي (٤٦١)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩٠)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٦٠).

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٦١).

(١٠) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٥)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٩).

اللَّهَ فِيمَا نُحِبُّ، فَإِذَا وَقَعَ مَا نَكْرَهُ لَمْ نُخَالِفِ اللَّهَ تَعَالَى فِيمَا أَحَبَّ»(١١).

إِنَّ رِضَا الْعَبْدِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَبَبٌ لِرِضَا اللَّهِ ﷻ عَنِ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «ارْضَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى يَرْضَ اللَّهُ عَنْكَ، وَأَعْطِ اللَّهَ تَعَالَى الْحَقَّ مِنْ نَفْسِكَ، أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]»(١٢).

وَالرِّضَا سَبَبٌ لِرَاحَةِ النَّفْسِ، وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، وَذَهَابِ الهَمِّ وَالْغَمِّ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ عَنْ رَبِّهِ ﷻ فَإِنَّهُ لَا يَسْعَدُ وَلَوْ مَلَكَ المَالَ الْكَثِيرَ، وَحَازَ الْجَاهَ الْعَظِيمَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقِسْطِهِ وَحِلْمِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»(١٣).

وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزْقِ وَبَرَكَتِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ ﷻ لَهُ بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ**» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(١٤).

وَالصَّبْرُ عَلَى المُصِيبَةِ وَاجِبٌ، وَالرِّضَا أَعْلَى مَقَامًا مِنَ الصَّبْرِ، وَلَا يَقْدِرُ

(١١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٧)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٨٧).

(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٩٠).

(١٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية أبي عبد الله المروزي (١٤٣٨)، وهناد في الزهد (٥٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١١٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٦) برقم (١٠٥١٤)، وابن أبي الدنيا في اليقين (٣٢)، والبيهقي في الشعب (٢٠٣)، ورفعه بعضهم، ولا يصح مرفوعًا، بل هو موقوف على ابن مسعود ﵁، والروح: استراحة القلب وطمأنينته.

(١٤) أخرجه من حديث أبي العلاء بن الشخير عن رجل من بني سليم له صحبة: أحمد (٥/ ٢٤)، وابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٧)، والبيهقي في الشعب (١٣٥٤)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٤)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٧٢)، وقال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٥٧).

عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعِبَادِ، لِذَلِكَ كَانَ مُسْتَحَبًّا[١٥].

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «الرِّضَا عَزِيزٌ، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مُعَوَّلُ الْمُؤْمِنِ»[١٦].

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الرِّضَا بِمَا أَعْطَانَا، وَبِمَا قَدَّرَ عَلَيْنَا، وَأَنْ يَرْضَى عَنَّا، وَأَنْ يُرْضِيَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ،

---

(١٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (٢/ ٧٤): «النوع الثاني: الرضا بالمصائب؛ كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر».
وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥): «فالرضا فضل مندوب إليه مستحب، والصبر واجب على المؤمن حتم» اهـ.
وفي الفرق بين الرضا والصبر قال الحافظ ابن رجب: «والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر كَفّ النفس وحبسها عن السخط مع وجود الألم وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال الألم وإن وجد الإحساس بألم، لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية» اهـ من جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥).

وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي الْحَيَاةِ الْمُعَاصِرَةِ بِكُلِّ مَشْكِلَاتِهَا وَتَعْقِيدَاتِهَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَمْنِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ؛ تَكْثُرُ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ، وَالاضْطِرَابَاتُ الْعَصَبِيَّةُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، الَّذِينَ رَضُوا عَنِ اللَّهِ ﷻ فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ فِي الدُّنْيَا بِرَاحَةِ الْبَالِ، وَسَعَادَةِ الْقَلْبِ، وَلَوْ كَانُوا أَهْلَ قِلَّةٍ وَذِلَّةٍ فِي النَّاسِ.

وَالتَّسَابُقُ الْمَحْمُومُ فِي مَيَادِينِ الدُّنْيَا الَّذِي كَرَّسَتْهُ الْمَذَاهِبُ الْمَادِّيَّةُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، كَانَ سَبَبًا فِي عَدَمِ رِضَا أَكْثَرِ النَّاسِ عَنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَسَخُّطِهِمْ عِنْدَ أَدْنَى مُصِيبَةٍ تَحِلُّ بِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَرْضَوْا بِأَرْزَاقِهِمْ رَغْمَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ الْوَفِيرِ.. فَمَسْتُورُ الْحَالِ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا، وَالْغَنِيُّ يُرِيدُ ثَرَاءً فَاحِشًا، وَأَصْحَابُ الثَّرَاءِ الْفَاحِشِ يَطْلُبُونَ الْمَزِيدَ وَالْمَزِيدَ، فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الْجَشَعِ لَا تَنْتَهِي، قَدْ عَمَّتْ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى.

إِنَّ الْحَضَارَةَ الْمَادِّيَّةَ الْمُعَاصِرَةَ قَدْ أَوْجَدَتْ حَالَةً مِنَ السَّخَطِ وَعَدَمِ الرِّضَا عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَكَثُرَ فِي النَّاسِ تَذَمُّرُهُمْ مِنْ وَاقِعِهِمْ، وَخَوْفُهُمْ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِمْ؛ فَاسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَرَاتِبِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ؛ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّ فِي أَيْدِيهِمْ، وَالْحَرَامُ مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ.

وَصَارَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَهِمُّ بِالْأَمْرِ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ وَظِيفَةٍ أَوْ جَاهٍ، فَإِذَا أَخْفَقَ فِيهِ أَوْ خَسِرَ رَأَى أَنَّ حَيَاتَهُ انْتَهَتْ مَعَ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُدْرِكْهُ، وَأُصِيبَ بِعِلَّاتٍ نَفْسِيَّةٍ يَعْسُرُ شِفَاؤُهُ مِنْهَا، وَلَيْسَتْ مُشْكِلَتُهُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي فَوَاتِ مَا يَطْلُبُ، وَوُقُوعِ مَا

يَكْرَهُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُنْذُ خُلِقَ مُعَرَّضٌ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّ مُشْكِلَتَهُ فِي ضَعْفِ يَقِينِهِ بِرَبِّهِ، فَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ تَسَخُّطُهُ مِنْ أَدْنَى شَيْءٍ يَجْرِي عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ يَسِيرًا.

وَلَوْ آمَنَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِحِكْمَتِهِ الَّتِي أَتْقَنَ بِهَا صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِعِلْمِهِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُقَدِّرُ لَهُ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ يَضُرُّهُ، وَلَوْ كَانَ هُوَ يَطْلُبُهُ وَيَرْغَبُهُ، وَالْخِيرَةُ خَفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَالْخَيْرُ فِيمَا اخْتَارَهُ ﷻ.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُشْرِفُ عَلَى الْأَمْرِ مِنَ التِّجَارَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ حَتَّى يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ يَذْكُرُهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَيَقُولُ لِلْمَلَكِ: اذْهَبْ فَاصْرِفْ عَنْ عَبْدِي هَذَا؛ فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أُدْخِلْهُ جَهَنَّمَ، فَيَجِيءُ الْمَلَكُ فَيَعُوقُهُ، فَيُصْرَفُ عَنْهُ، فَيَظَلُّ يَتَظَنَّى بِجِيرَانِهِ: إِنَّهُ دَهَانِي فُلَانٌ .. سَبَقَنِي فُلَانٌ، وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً بِهِ» رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَالدَّارِمِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ(١٧).

---

(١٦) الاستقامة (٢/ ٧٤)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٩٥).

(١٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٩)، والدارمي في الرد على الجهمية (٨٠)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٥٧)، واللالكائي في السنة (١٢١٩)، والذهبي في العلو وقال: «بإسناد قوي» (٩٩-١٧٧)، وصححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٥٤)، وقوّى إسناده الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول (١/ ١٧٧).
وأخرجه مرفوعًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٤-٣٠٥ و٧/ ٢٠٨)، وابن قدامة في العلو (ص٦٣)، قال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث شعبة والحكم عن مجاهد، لم نكتبه إلا من حديث علي بن معبد عن صالح» اهـ.
قلت: صالح هو ابن بيان الثقفي، ويقال العبدي، ذكره العقيلي في الضعفاء وقال: «الغالب على حديثه الوهم، ويُحَدِّث بالمناكير عمن لم يحتمل» (٢/ ٢٠٠) برقم (٧٢٤)، وذكره ابن عدي في الكامل وقال: «وكان شيخًا صالحًا» (٤/ ٦٦) برقم (٩١٤)، وذكره ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين، ونقل عن الدارقطني قوله: «متروك» (٢/ ٤٧) برقم (١٦٥٤)، ولذلك ذكر ابن الجوزي حديثه هذا في العلل المتناهية (٢/ ٨٠٢) برقم (١٣٤١).

وَيَقُولُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْتَخِيرُ اللَّهَ تَعَالَى فَيَخْتَارُ لَهُ، فَيَسْخَطُ عَلَى رَبِّهِ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْظُرَ فِي الْعَاقِبَةِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خِيرَ لَهُ»(١٨).

وَاسْتَمِعُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- إِلَى هَذَا الْكَلَامِ الْمَتِينِ مِنَ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- يَقُولُ: «ارْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ لِهَمِّكَ، وَأَبْلَغُ فِيمَا تَطْلُبُ مِنْ آخِرَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ لَنْ يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِنْدَ الْفَقْرِ وَالْبَلَاءِ كَرِضَاهُ عِنْدَ الْغِنَى وَالثَّرَاءِ، كَيْفَ تَسْتَقْضِي اللَّهَ تَعَالَى فِي أَمْرِكَ ثُمَّ تَسْخَطُ إِنْ رَأَيْتَ قَضَاءً مُخَالِفًا لِهَوَاكَ؟ وَلَعَلَّ مَا هَوِيْتَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَكَتُكَ، وَتَرْضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ؛ وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالْغَيْبِ، وَكَيْفَ تَسْتَقْضِيهِ إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ؟ مَا أَنْصَفْتَ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا» اهـ(١٩).

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



---

(١٨) أخرجه ابن المبارك في الزهد رواية نعيم بن حماد (١٢٨)، وابن أبي الدنيا في الرضا (٦١).

(١٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا (٦٩)، وهو في صفة الصفوة (٣/ ٣١١).

٣٤٢- قيمة الحياة الدنيا (١)

٢٤/ ٨/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: يَعْتَنِي الْبَشَرُ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى قَدْرِ أَهَمِّيَّتِهَا، وَيُثَمِّنُونَهَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا وَبَقَائِهَا، وَتَخْتَلِفُ نَظْرَتُهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَعِلْمِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَالْمُؤْمِنُ يَهْتَدِي فِي ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَلَا تُخْطِئُ نَظْرَتُهُ لِلْأَشْيَاءِ، وَلَا يَخْتَلُّ تَقْدِيرُهُ لَهَا.

وَالدُّنْيَا عِنْدَ الْمُؤْمِنِ مَطِيَّةُ الْآخِرَةِ وَوَسِيلَتُهَا، وَأَمَّا مَطْلُوبُهُ الْأَعْظَمُ، وَغَايَتُهُ الْكُبْرَى فَرِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَالدَّارُ الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَإِنْ كَانَ يُكَذِّبُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فَهُوَ عَبْدٌ لِلدُّنْيَا، مُعْرِضٌ عَنِ

الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَيَعْمَلُ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ، فَلَنْ يَزِيدَهُ عَمَلُهُ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْفَوْزِ بِالْآخِرَةِ.

إِنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ قَدْ بَيَّنَا مَنْزِلَةَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَذَّرَا مِنْ عَاقِبَةِ الْعَمَلِ لَهَا، أَوْ جَعْلِهَا غَايَةً تُطْلَبُ مِنْ دُونِ الْآخِرَةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ الْمَقَامُ وَالْمُسْتَقَرُّ، وَهِيَ السُّرُورُ وَالْحُبُورُ، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وَإِذَا ذُكِرَتِ الدُّنْيَا فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَهِيَ لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ عَنْهَا وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِحَقِيقَتِهَا، وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِرَبِّهِ، وَبِمَا أَعَدَّ ﷻ لِعِبَادِهِ فِي الْآخِرَةِ.

دَخَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ السُّوقَ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ -أَيْ: عَلَى جَانِبَيْهِ، وَإِذَا ذُكِرَ السُّوقُ فَإِنَّ فِيهِ التُّجَّارَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ التِّجَارَةَ، وَيَعْرِفُونَ قِيمَةَ الْأَشْيَاءِ- فَمَرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه[1].

---

(١) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٧)، وأبو داود في الطهارة، باب ترك الوضوء من مس الميتة (١٨٦)، وأحمد (٣/ ٣٦٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٢).

وجاء تفسير الأسك في رواية البخاري قال فيها: «فقالوا: والله لو كان حيًّا لكان عيبًا فيه أنه أسك -والأسك الذي ليس له أذنان- فكيف وهو ميت ..» فلعله إدراج من بعض =

وَفِي حَادِثَةٍ أُخْرَى عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: **«أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا»** رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٢).

عَجِيبٌ وَاللَّهِ مَا أَفَادَتْهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنَ المَعَانِي، وَمَا ضَرَبَتْهُ مِنَ الْأَمْثَالِ! فَأَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ الموقِنُونَ الَّذِين يُتْبِعُونَ الْعِلْمَ الْعَمَلَ؟! فَلَا تَغُرُّهُمُ الدُّنْيَا، وَلَا تَشْغَلُهُمْ عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ؟!

هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَدْيًا أَسَكَّ مَيِّتًا، وَلَا شَاةً

= الرواة تفسيرًا للكلمة.

وقد ذكر النووي أن الأسكَّ صغير الأذنين، وقال القاضي عياض: «يطلق على ملتصق الأذنين وعلى فاقدهما وعلى مقطوعهما وعلى الأصم الذي لا يسمع، والمراد ها هنا الأول» ينظر: شرح النووي (١٨/ ٩٣)، والديباج على مسلم (٦/ ٢٧٤)، وعون المعبود (١/ ٢٢٢).

وقوله: «والناس كَنَفَته» قال النووي: «وفي بعض النسخ: «كَنَفَتَيْه» معنى الأول: جانبه، ومعنى الثاني: جانبيه» اهـ من شرحه على مسلم (١٨/ ٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٤١١٠)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧) برقم (٥٨٤٠)، والحاكم وصححه، وتعقبه الذهبي بأن في سنده زكريا بن منظور ضعيف (٤/ ٣٤١).

قلت: له شاهد من حديث المستورد بن شداد ﷺ عند: الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وحَسَّنَه، وقال: وفي الباب عن جابر وابن عمر (٢٣٢١)، وأخرجه ابن ماجه (٤١١١)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٠٤) برقم (٧٢٣)، وله شاهد آخر من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف عند أحمد (٢/ ٣٣٨)، والدارمي (٣٩٦).

وقد أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وذكر طرقًا كثيرة له، وقال: وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب (٦٨٦).

مَيِّتَةً، وَلَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ عَندَ وَاحِدٍ مِنَّا.

وَإِذَا أُطْلِقَتِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا تَنْتَظِمُ الزَّمَانَ الدُّنْيَوِيَّ كُلَّهُ، وَالْأَرْضَ بِكَامِلِهَا، مَعَ أَنْجُمِهَا وَأَفْلَاكِهَا، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا. وَالْوَاحِدُ مِنَّا لَمْ يَرَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ، لَا مِنْ جِهَةِ الزَّمَانِ وَلَا مِنْ جِهَةِ المَكَانِ! فَلَوْ عَاشَ المَرْءُ مِئَةَ سَنَةٍ لَمَا أَدْرَكَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا الْقَلِيلَ؛ فَهِيَ تَزِيدُ عَلَى آلَافِ السِّنِينَ، فَمَا عُمْرُ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ لِعُمْرِ الدُّنْيَا؟!

وَأَمَّا المَكَانُ فَكَمْ يُشَاهِدُ الْإِنْسَانُ أَثْنَاءَ حَيَاتِهِ وَلَوْ كَانَ أَكْبَرَ رَحَّالَةٍ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ؟! إِنَّهُ لَنْ يَرَى مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ! وَمَا فَاتَهُ مِنْ مُدُنِهَا وَقُرَاهَا، وَأَوْدِيَتِهَا وَجِبَالِهَا، وَغَابَاتِهَا وَأَشْجَارِهَا، وَبِحَارِهَا وَأَنْهَارِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ المَخْلُوقَاتِ أَكْثَرُ مِمَّا أَدْرَكَهُ وَرَآهُ، وَمَا لَمْ يُشَاهِدْهُ مِنَ المَلَكُوتِ الْعُلْوِيِّ بِأَنْجُمِهِ وَأَفْلَاكِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي شَاهَدَ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَا جَدْيًا أَسَكَّ، وَلَا شَاةً مَيِّتَةً!!

إِنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا لَتَدُلُّنَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَعَظِيمِ خَزَائِنِهِ، وَاتِّسَاعِ سُلْطَانِهِ، وَغِنَاهُ عَنْ عِبَادِهِ.

كَمْ قِيمَةُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَّا؟ وَمَا ثَمَنُ شَاةٍ مَيِّتَةٍ فِي نُفُوسِنَا؟ وَلَوْ أَنَّ أَفْقَرَ رَجُلٍ عَلَى الْبَسِيطَةِ أُعْطِيَ مِنْ أَغْلَى المَعَادِنِ وَأَثْمَنِهَا مَا زِنَتُهُ عَشْرَ بَعُوضَاتٍ لَمَا انْتَفَعَ بِهِ؛ لِخِفَّةِ وَزْنِهَا، فَكَيْفَ بِزِنَةِ بَعُوضَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ بِزِنَةِ جَنَاحِهَا؟!

فَزِنَةُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَثَمَنُ شَاةٍ مَيِّتَةٍ فِي نَفْسِكَ، لَا يُسَاوِي مِقْدَارَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِكُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ دُوَلٍ وَأُمَمٍ، وَحَضَارَةٍ وَعُمْرَانٍ،

وَمَطَاعِمَ وَمَشَارِبَ، وَمَرَاكِبَ وَمَلَابِسَ، وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَجِبَالٍ وَشِعَابٍ، وَأَشْجَارٍ وَغَابَاتٍ، وَكُلِّ شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِي الدُّنْيَا مِمَّا نَعْلَمُهُ وَمِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكُلِّ مَا مَضَى قَبْلَنَا مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا، وَكُلِّ مَا يَأْتِي بَعْدَنَا إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . . كُلُّ ذَلِكَ لَا يُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَّا، فَمَنْ يَقْدُرُ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَيَعْبُدُهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ، وَيَعْلَمُ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَزِنَتَهَا عِنْدَ خَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا؟! عَزَّ سُلْطَانُهُ، وَجَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى لُهَاثِ الْبَشَرِ عَلَى الدُّنْيَا أَيْقَنَ أَنَّهُمْ مَا عَرَفُوا قَدْرَهَا، أَوْ غَفَلُوا عَنْ حَقِيقَتِهَا.

فِي مُقَابِلِ تَصْوِيرِ الدُّنْيَا بِهَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِالمَهَانَةِ وَالْقِلَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ إِذَا ذُكِرَتْ أَوْ ذُكِرَ جُزْءٌ مِنْهَا، أَوْ عَمَلٌ يُوَصِّلُ إِلَيْهَا؛ ذُكِرَ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، أَوْ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ لَا يَتَّسِعُ المَقَامُ لِذِكْرِهَا كُلِّهَا، وَحَسْبُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى المَقْصُودِ مِنْهَا؛ فَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ تُفِيدُ أَنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؛ فَالْغُدْوَةُ وَالرَّوْحَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ(٣)، وَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا(٤)، وَلَمَّا أُنْزِلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ**

(٣) أخرجه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله تعالى (١٨٨٣).
وأخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»: البخاري في الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٦٣٩).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لَغُدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ»: البخاري (٢٦٤٠).

(٤) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله تعالى (٢٧٣٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٤)، وأحمد (٥/ ٣٣٩).

أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس»(٥).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لِأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٦).

وَلَمَّا أَرْسَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِيًّا رضي الله عنه في بعض مَغَازِيهِ أَوْصَاهُ بِأَشْيَاءَ، ثُمَّ قَالَ: «يَاعَلِيُّ، لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٧).

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَكْعَتَا الْفَجْرُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨)، وَالمَقْصُودُ بِهَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ: السُّنَّةُ الرَّاتِبَةُ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِالْفَرِيضَةِ؟!

(٥) أخرجه من حديث زيد بن أسلم عن أبيه: مالك في الموطأ (١/ ٢٠٣)، والبخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٩٤٣)، وأبو يعلى (١٤٨)، وابن حبان (٦٤٠٩).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٥)، والترمذي في الدعوات، باب العفو والعافية، وقال: حديث حسن صحيح (٣٥٩٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٧١).

(٧) أخرجه من حديث أبي رافع رضي الله عنه: الحاكم، وسكت عنه، وحذفه الذهبي من التلخيص (٣/ ٦٩٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٣٣٢) برقم (٩٩٤).

(٨) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٥)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل (٤١٦)، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار، باب المحافظة على الركعتين قبل الفجر (٣/ ٢٥٢)، وأحمد (٦/ ٢٦٥)، وأبو يعلى (٤٧٦٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١٦٥٠)، وقال الطحاوي: «فلما كانت أشرف التطوع كان أولى بهما أن يفعل فيهما أشرف ما يفعل في التطوع» اهـ، قلت: يعني بذلك: قراءة سورتي الإخلاص.
وقال النووي في شرح مسلم (٦/ ٥): «أي: خير من الدنيا وما فيها، أي: من متاع الدنيا» اهـ.
وقال الطيبي: «إن حُمل الدنيا على أعراضها وزهرتها فالخير إما يجرى على زعم من =

فَثَوَابُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ رَغْمَ قِلَّتِهَا فِي الْعَدَدِ، وَضَآلَةِ مَا يُنْفَقُ فِيهَا مِنْ جُهْدٍ وَزَمَنٍ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

وَأَمَّا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا فَإِنَّ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهَا، أَوْ شَيْئًا مِمَّا يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا؛ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا.

قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ لَخيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]»[٩].

= يرى فيها خيرًا، أو يكون من باب: أيّ الفريقين خير مقامًا، وإن حُمِلَ على الإنفاق في سبيل الله فتكون هاتان الركعتان أكثر ثوابًا منها».

ونقل المباركفوري عن الدهلوي في حجة الله البالغة قوله: «إنما كانت خيرًا منها؛ لأن الدنيا فانية، ونعيمها لا يخلو عن كدر النصب والتعب، وثوابهما باق غير كدر» اهـ من تحفة الأحوذي (٢/ ٣٨٨).

وقال السندي في حاشيته على النسائي (٣/ ٢٥٢): «ركعتا الفجر؛ أي: سنة الفجر، وهي المشهورة بهذا الاسم، ويحتمل الفرض، خير من الدنيا؛ أي: خير من أن يعطى تمام الدنيا في سبيل الله تعالى، أو هو على اعتقادهم أن في الدنيا خيرًا، وإلا فَذَرَّةٌ من الآخرة لا تساويها الدنيا وما فيها» اهـ.

وذكر ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٢٨): أن ركعتي الفجر فاتتا عبد الله بن أبي ربيعة فأعتق رقبة.

ونقل ابن عبد البر الخلاف في أيهما أوكد: سنة الفجر أو الوتر؟ ومال إلى ترجيح أن سنة الفجر أوكد؛ لأن النبي ﷺ قضاها حين نام عن صلاة الفجر، ولم يقض شيئًا من السنن غيرها بعد انقضاء وقتها. ينظر: التمهيد (٢٤/ ٤٥).

(٩) أخرجه من حديث سهل بن سعد ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٣٠)، وأحمد (٣/ ٤٣٣).

وأخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في الإسلام (٢٦٤٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة آل عمران، وقال: حديث =

وَلَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ قَالَ فِي الْوَاحِدَةِ مِنْهُنَّ: «**وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١٠). وَنَصِيفُهَا هُوَ خِمَارُهَا عَلَى رَأْسِهَا.

وَالسُّؤَالُ المُهِمُّ هُنَا: لِمَاذَا كَانَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ وَنَعِيمٍ لَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئًا؟

وَلِمَاذَا كَانَ قَلِيلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كَرَكْعَتَيِ الْفَجْرِ الرَّاتِبَةِ، وَهِدَايَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؟ وَلِمَاذَا كَانَ قَلِيلُ الْجَنَّةِ كَمَوْضِعِ سَوْطٍ فِيهَا، أَوْ خِمَارٍ عَلَى رَأْسِ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؟!

إِنَّ مَعْرِفَةَ جَوَابِ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ تُزِيلُ الْإِشْكَالَ مِنْ عَقْلِ مَنْ عِنْدَهُ إِشْكَالٌ، وَإِنَّ جَوَابَ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَسْأَلَةِ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ، فَالدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَقَلِيلُ مَا يَبْقَى خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ مَا يَفْنَى، هَذَا إِذَا تَسَاوَيَا فِي الْجَوْدَةِ وَاللَّذَّةِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مَا فِي الْجَنَّةِ أَطْيَبَ وَأَلَذَّ، وَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ نَعِيمِهَا وَنَعِيمِ الدُّنْيَا؟! ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

= حسن صحيح، واللفظ له (٣١٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٢٧)، وابن حبان (٧٤١٧)، والحاكم (٢/ ٣٢٧).

قال ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٨٧): «إنما أراد به ذم الدنيا، والزهد فيها، والترغيب في الآخرة؛ فأخبر أن اليسير من الجنة خير من الدنيا كلها، وأراد بذكر السوط -والله أعلم- التقليل، لا أنه أراد موضع السوط بعينه، بل موضع نصف سوط وربع سوط من الجنة الباقية خير من الدنيا الفانية ..» اهـ.

(١٠) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٦٤٣)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله تعالى (١٦٥١).

أَلَيْسَ الْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ إِذَا أَرَادَ شِرَاءَ سِلْعَةٍ مِنَ السِّلَعِ وَلَوْ كَانَتْ سِلْعَةً مُحْتَقَرَةً كَنَعْلٍ يَقِي بِهَا قَدَمَهُ، أَوْ سَرَاوِيلَ تَسْتُرُ عَوْرَتَهُ يَدْفَعُ ثَمَنًا أَعْلَى لِسِلْعَةٍ أَجْوَدَ لِتَبْقَى مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ غَيْرِهَا؟ فَكَيْفَ لَوْ قِيلَ لِلنَّاسِ: إِنَّ سِلْعَةً تَبْقَى مَعَهُمْ مَا بَقُوا، وَتَعِيشُ مَا عَاشُوا؟! إِذَنْ لَبَذَلَ النَّاسُ فِيهَا غَالِيَ الْأَثْمَانِ! وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِيمَا يُحْتَقَرُ كَنَعْلٍ وَسَرَاوِيلَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَسَاكِنِ وَغَيْرِهَا؟!

وَأَجْوَدُ مَا فِي الدُّنْيَا لَا يَدُومُ إِلَّا سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ، ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ، وَأَمَّا ثَوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَوْ كَانَ الْعَمَلُ قَلِيلًا فَإِنَّهُ يَدُومُ وَلَا يَنْقَطِعُ، وَمِنْ هُنَا كَانَ قَلِيلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْ كَثِيرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا.

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى، لَكَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَخْتَارَ خَزَفًا يَبْقَى عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى، فَكَيْفَ وَقَدِ اخْتَرْنَا خَزَفًا يَفْنَى عَلَى ذَهَبٍ يَبْقَى»(١١).

ثُمَّ إِنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ كَامِلٌ غَيْرُ مَنْقُوصٍ، مُتَتَابِعٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، يَشْمَلُ الرُّوحَ وَالْجَسَدَ، وَلَا يَتَكَدَّرُ بِخَوْفٍ وَلَا حُزْنٍ، وَأَمَّا نَعِيمُ الدُّنْيَا فَهُوَ عَلَى الْجَسَدِ دُونَ الرُّوحِ، وَيُصَاحِبُهُ مَا يُصَاحِبُهُ مِنْ خَوْفٍ وَأَحْزَانٍ وَمُنَغِّصَاتٍ، وَقَدْ قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ يُحَذِّرُ قَوْمَهُ وَيُنْذِرُهُمُ الِاغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

---

(١١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٠٧).

الخُطْبَةُ الثّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَهْمَا طَالَ عُمْرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَنْسَى مَا مَضَى مِنْ عُمُرِهِ، وَلَوْ سَأَلْتُمْ أَبْنَاءَ الثَّمَانِينَ وَالتِّسْعِينَ، وَمَنْ جَاوَزُوا المِئَةَ لَحَدَّثُوكُمْ أَنَّهَا مَضَتْ سَرِيعًا، وَمَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا جَزَاءُ مَا عَمِلُوا فِيهَا.

إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسَوْنَ نَعِيمَ الدُّنْيَا، وَيَنْسَوْنَ طُولَ إِقَامَتِهِمْ فِيهَا؛ حَتَّى إِنَّ عَيْشَهُمْ كُلَّهُ يَخْتَصِرُونَهُ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

بَلْ إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الدُّنْيَا نَعِيمًا يَنْسَى نَعِيمَهُ بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ، وَأَكْثَرَ أَهْلِ الدُّنْيَا بُؤْسًا يَنْسَى بُؤْسَهُ بِغَمْسَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ،**

مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه(١٢).

اللَّهُ أَكْبَرُ! نَسِيَ صَاحِبُ النَّعِيمِ فِي الدُّنْيَا نَعِيمَهُ الْمُتَتَابِعَ فِي سِنِينَ طَوِيلَةٍ مِنْ صَبْغَةٍ وَاحِدَةٍ فِي النَّارِ، وَنَسِيَ صَاحِبُ الْبُؤْسِ بُؤْسَهُ مِنْ صَبْغَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْجَنَّةِ، فَمَنْ يَتَّعِظُ؟ وَمَنْ يَتَذَكَّرُ؟ وَمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الدُّنْيَا فَلَا يُعْطِيهَا أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهَا؟ وَمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الْآخِرَةِ فَيَعْمَلُ لَها عَمَلَهَا، وَيُنَافِسُ أَهْلَهَا عَلَيْهَا؟!

مَنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا أَحْرَمَ بِسُنَّةِ الْفَجْرِ الرَّاتِبَةِ اسْتَحْضَرَ أَنَّ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا؟ فَأَدَّاهُمَا كَمَا يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى خُشُوعًا وَخُضُوعًا، وَأَعْطَى الْفَرِيضَةَ مِنْ خُشُوعِهِ وَحُضُورِ قَلْبِهِ أَكْثَرَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: **«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»**(١٣).

إِنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ يَقْلِبُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَيُقَدِّمُ قَلِيلَ الدُّنْيَا عَلَى كَثِيرِ الْآخِرَةِ، بَلْ قَدْ يُضَيِّعُ الْآخِرَةَ بِجُزْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا!!

أَلَا يُوجَدُ فِي النَّاسِ مَنْ لَوْ سَاوَمَهُ مُسَاوِمٌ عَلَى أَنْ يَدَعَ سُنَّةَ الْفَجْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً مُقَابِلَ سَيَّارَةٍ أَوْ مَنْزِلٍ أَوْ أَيِّ مَتَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا لَتَرَكَهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ؟! بَلْ رُبَّمَا بَذَلَ الْفَرَائِضَ لِأَجْلِ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَكُلُّ مُضَيِّعٍ لِلْفَرَائِضِ يُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ!! وَقَدْ سَمِعْتُمْ قَبْلَ أَيَّامٍ أَنْ سُوقًا تِجَارِيًّا بَذَلَ قَلِيلًا مِنَ الْمَالِ لِمَنْ يَدْخُلُهُ أَوَّلًا وَقْتَ افْتِتَاحِهِ، فَبَاتَ أُنَاسٌ كَثِيرٌ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ عِنْدَ السُّوقِ فِي الْعَرَاءِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْمَالِ الْقَلِيلِ، وَعِنْدَ افْتِتَاحِهِ هَلَكَتْ أَنْفُسٌ مِنْ شِدَّةِ الزِّحَامِ(١٤). وَلَعَلَّ مِنْ

(١٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة (٢٨٠٧).

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب التواضع (٦١٣٧).

(١٤) هذا إشارة إلى ما وقع قبل أسبوع تقريبًا من إعلان شركة إيكيا الإيطالية للأثاث عن =

أُولَئِكَ النَّاسِ الَّذِينَ تَزَاحَمُوا عَلَى عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ مَنْ ضَيَّعَ رَكْعَتَي الْفَجْرِ اللَّتَيْنِ هُمَا خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ السُّوقِ، وَخَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، بَلْ لَعَلَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُضَيِّعٌ لِلْفَرَائِضِ! فَمَا أَعْظَمَ إِقْبَالَ النُّفُوسِ عَلَى الدُّنْيَا! وَمَا أَشَدَّ إِعْرَاضَهَا عَنِ الْآخِرَةِ! نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ يُدْرِكُ مَنْ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا رَمَضَانَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا رَمَضَانُ؟! ذَلِكَ المَوْسِمُ الْعَظِيمُ الَّذِي تُقَالُ فِيهِ الْعَثَرَاتُ، وَتُكَفَّرُ السَّيِّئَاتُ، وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ.

مَوْسِمٌ عِظِيمٌ جَلِيلٌ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجِنَانِ، وَتُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ، وَتُسَلْسَلُ فِيهِ الشَّيَاطِينُ؛ فَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَتَزَوَّدُوا فِيهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَا يَبْقَى لَكُمْ.

وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا أَكْثَرَ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُ مِنْ رَمَضَانَ إِلَّا السَّهَرَ عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالنَّوْمَ عَنْ بَعْضِ الْفَرَائِضِ، وَالتَّفْرِيطَ فِي النَّوَافِلِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ تَسَلُّطِ أَهْلِ الشَّرِّ فِيمَا يَعْرِضُونَهُ عَلَى النَّاسِ فِي قَنَوَاتِهِمُ الْإِعْلَامِيَّةِ، مِمَّا يُبَشِّرُونَ بِهِ الصَّائِمِينَ قَبْلَ أَشْهُرٍ مِنْ رَمَضَانَ؛ لِيُفْسِدُوا عَلَيْهِمْ صِيَامَهُمْ، وَيُحَمِّلُوهُمْ أَوْزَارًا إِلَى أَوْزَارِهِمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ، وَأَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرُورَهُمْ.

= افتتاح فرعين كبيرين لها، أحدهما في جدة، والآخر في الرياض، وقد أعلنت الصحف المحلية ثاني يوم الافتتاح أن الزحام شديد، وهلك من جرائه اثنان على الأقل، وأصيب عشرات، وقد ذكر من شاهد الموقع بأنه زحام كالحج، وكانت الشركة قد أعطت أول خمسين يدخلون المحل الحق في أن يتسوقوا بما قيمته خمس مئة ريال سعودي، فكان ذلك الزحام الشديد والتدافع بسبب ذلك. وعلى الخطيب أن يحور الحادثة بما يناسب الحال أو يحذفها، فذكري لها؛ لأن عهد الناس بها قريب ويعرفونها.

فَالمَغْبُونُ مَنْ طَاوَعَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ، وَوَافَقَهُمْ فِي مُرَادِهِمْ، وَأَسَرُوهُ بِبَرَامِجِهِمْ، فَقَضَى رَمَضَانَ أَمَامَ شَاشَتِهِمْ؛ فَهَذَا حَظُّهُ مِنْ رَمَضَانَ الْإِثْمُ وَالْأَوْزَارُ، وَيُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ.

وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى فِي رَعِيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ؛ فَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَفْعَلُونَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ إِذَا كَانَ رَاضِيًا مُوَافِقًا، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُبَلِّغَنَا رَمَضَانَ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنَّا، اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا إِلَى رَمَضَانَ، وَسَلِّمْهُ لَنَا، وَتَسَلَّمْهُ مِنَّا مُتَقَبَّلًا.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



٣٤٣- قيمة الحياة الدنيا (٢)

٢٦/٨/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ، أَحْمَدُهُ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَشْكُرُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَيَّرَهُ رَبُّهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا وَإِنِ اخْضَرَّتْ فَهِيَ إِلَى زَوَالٍ، وَإِنَّ النَّاسَ وَإِنْ طَالَ عَيْشُهُمْ فِيهَا فَهُمْ إِلَى مَوْتٍ وَجَزَاءٍ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَافَى رَبَّهُ وَدُنْيَاهُ قَلِيلَةٌ، وَأَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ كَثِيرَةٌ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القمر: ١٣]، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا مَحَلًّا لِأَعْمَالِ الْآخِرَةِ، وَزَيَّنَهَا بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَحَذَّرَ عِبَادَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ بِهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، وَأَنَّهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَأَنَّ نَعِيمَهَا زَائِلٌ، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ يَدْعُو بَنِي آدَمَ إِلَيْهَا، وَيُزَيِّنُهَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَيُعَظِّمُهَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَمَنْ أَطَاعَهُ فِي ذَلِكَ فَقَدْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَاغْتَرَّ بِالدُّنْيَا، وَلَمْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ عَدُوًّا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

لَقَدْ أَبْدَأَ الْقُرْآنُ وَأَعَادَ فِي ذَمِّ الدُّنْيَا، وَنَوَّعَ الْأَسَالِيبَ، وَأَكْثَرَ الْآيَاتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، وَحَكَى الْقَصَصَ، وَحَذَّرَ الْعِبَادَ، وَرَهَّبَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا، وَرَغَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْحَيَاةَ الْأُخْرَى هِيَ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

فَهِيَ الْعَاجِلَةُ الَّتِي يَغْتَرُّ بِهَا الْعِبَادُ ابْتِدَاءً، وَيُؤْثِرُهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى الْمُدَّخَرِ الْبَاقِي ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وَلَمَّا تَقَاعَسَ قَوْمٌ عَنِ النَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخْلَدُوا إِلَى الدُّنْيَا وَدَعَتِهَا؛ كَانَ الْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ لَهُمْ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وَمَهْمَا أُوتِيَ الْعَبْدُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا فَهُوَ يَزُولُ عَنْهَا بِالمَوْتِ، ثُمَّ هِيَ إِلَى زَوَالٍ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ، وَلَا يَبْقَى لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

وَالْآخِرَةُ حَرْثُهَا يَبْقَى، وَزَرْعُهَا لَا يَفْنَى، وَمَنْ رَضِيَ بِحَرْثِ الدُّنْيَا دُونَهَا فَلَا حَرْثَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وَالنَّاسُ بِالنِّسْبَةِ لِطَلَبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ مَذْكُورَيْنِ فِي الْقُرْآنِ ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ لَوْ عَقَلَهَا النَّاسُ وَتَدَبَّرُوهَا وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا لَما رَأَيْنَا شُحَّهُمْ بِالدُّنْيَا، وَتَنَافُسَهُمْ عَلَيْهَا، وَتَخَاصُمَهُمْ فِيهَا، فَكَمْ مِنْ أَرْحَامٍ قُطِعَتْ فِي سَبِيلِ الدُّنْيَا؟ وَكَمْ مِنْ فَرَائِضَ عُطِّلَتْ بِسَبَبِهَا؟ وَكَمْ مِنْ حُرُمَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى انْتُهِكَتْ مِنْ أَجْلِهَا؟ وَكَمْ مِنْ شِكَايَةٍ بُثَّتْ لِلْخَلْقِ مِنْ قِلَّةِ الرِّزْقِ؟! أَيَشْكُو الْعَبِيدُ خَالِقَهُمْ وَرَازِقَهُمْ إِلَى عَبِيدٍ مِثْلِهِمْ، لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ خَلْقًا وَلَا رِزْقًا؟!

إِنَّ مَحَبَّةَ الدُّنْيَا، وَالْإِغْرَاقَ فِي شَهَوَاتِهَا هُوَ الَّذِي أَوْرَدَ النَّاسَ هَذِهِ الْمَوَارِدَ، وَجَرَّهُمْ إِلَى الْمَهَالِكِ. نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَرْزَاقِ بَعْضٍ، فَازْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَلَا شَبِعَ غَنِيُّهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَنْ هُوَ أَغْنَى مِنْهُ، وَلَا قَنِعَ مَسْتُورُهُمْ؛ لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْغَنِيِّ، وَلَا صَبَرَ فَقِيرُهُمْ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ اللِّحَاقَ بِصَاحِبَيْهِ.

وَكُلَّمَا زَادَ انْفِتَاحُ النَّاسِ عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا زَادَتْ حَسْرَتُهُمْ وَعَذَابُهُمْ وَجْدًا عَلَى مَا لَمْ يُدْرِكُوهُ مِنْهَا، وَبِقَدْرِ انْصِرَافِ قُلُوبِهِمْ إِلَيْهَا يَنْصَرِفُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَمَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابًا مِنْ شَهَوَاتِهَا الْمُحَرَّمَةِ

فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ يَفْتَحُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ عَذَابٍ فِي قَبْرِهِ وَيَوْمَ نَشْرِهِ.

وَلَا مَنْجَاةَ مِنْ هَذَا السُّعَارِ الَّذِي أَصَابَ النَّاسَ عَلَى الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا، وَتَدَبُّرِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِيهَا، وَالنَّظَرِ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَهُوَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ قَرَأَ سِيرَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَأَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي احْتِقَارِهِ لِلدُّنْيَا وَتَقَلُّلِهِ مِنْهَا.

لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَلَوْ شَاءَ لَسَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أَوْدِيَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَوْ أَرَادَ لَأَكَلَ أَطْيبَ الْمَآكِلِ، وَلَبِسَ أَحْسَنَ الثِّيَابِ، وَرَكِبَ أَفْخَرَ الْمَرَاكِبِ، وَلَوْ شَاءَ لَشَيَّدَ الْقُصُورَ، وَعَدَّدَ الدُّورَ، وَاتَّخَذَ مَا يَتَّخِذُ الْمُلُوكُ، كَيْفَ وَقَدْ خَيَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ، وَبَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا(١).

لَقَدْ دَعَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رَبَّهُ، وَمَا دَعَا بِانْفِتَاحِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، وَلَا بِالْغِنَى وَالرِّزْقِ، بَلْ قَالَ ﷺ: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»(٢). وَالْقُوتُ هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ بَدَنُ الْإِنْسَانِ(٣).

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك أملكًا جعلك لهم أم عبدًا رسولًا؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال ﷺ: «**لا بل عبدًا رسولًا**» أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، والبزار (٢٤٦٢)، وصححه ابن حبان (٦٣٦٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال الأولين رجال الصحيح (٩/ ١٩-٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٠).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا (٦٤٦٠)، ومسلم في الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٥).

(٣) عمدة القاري (١٨/ ١٥).

وَمَنْ طَالَعَ حَيَاتَهُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اسْتَجَابَ دُعَاءَهُ، فَكَانَ يَجُوعُ أَكْثَرَ مِمَّا يَشْبَعُ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْوَاعًا مِنَ الطَّعَامِ فَلَا يَذُوقُهَا إِلَّا بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ، مِنَ الْقِلَّةِ الَّتِي كَانَ يَجِدُهَا.

وَالْأَخْبَارُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ وَهِيَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَالِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِنْ خُبْزِ بُرٍّ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

وَقَالَتْ ﵂: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي رَفِّي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرَ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

وَقَالَتْ ﵂ لِعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ﵄: «وَاللَّهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ(٧)، وَقَلَّ أَنْ يَجِدَهُمَا،

---

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم، من الطعام واللحم وغيره (٥٤٢٣)، ومسلم واللفظ له في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته (٣٠٩٧)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٣).

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب: كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدنيا (٦٤٥٩)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

(٧) عن عائشة ﵂، قالت: «كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل» أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الحلواء والعسل (٥٤٣١)، ومسلم في الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته (١٤٧٤).

وَكَانَ يَشْتَهِي الْإِدَامَ، فَإِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا زَيْتًا أَوْ خَلًّا فَيَأْتَدِمُ بِهِ، وَلَا يَجْمَعُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»(٨).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْأُدُمَ فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ فَدَعَا بِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ بِهِ وَيَقُولُ: «**نِعْمَ الْأُدُمُ الخَلُّ، نِعْمَ الْأُدُمُ الخَلُّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَذَاتَ مَرَّةٍ دَخَلَ عَلَى أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**» فَقُلْتُ: لَا إِلَّا كِسَرٌ يَابِسَةٌ وَخَلٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَرِّبِيهِ، فَمَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدْمٍ فِيهِ خَلٌّ**»(١٠).

وَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنهما تَوَسُّعَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ، مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ»، «وَمَا تَرْضَوْنَ دُونَ أَلْوَانِ التَّمْرِ وَالزُّبْدِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١). وَالدَّقَلِ هُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ(١٢).

---

(٨) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٤).

(٩) أخرجه مسلم في الأشربة، باب فضيلة الخل والتأدم به (٢٠٥٢).

(١٠) أخرجه من حديث أبي حمزة الثمالي، عن الشعبي، عن أم هانئ بنت أبي طالب به: الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث أم هانئ إلا من هذا الوجه. وأبو حمزة الثمالي اسمه ثابت بن أبي صفية، وأم هانئ ماتت بعد علي بن أبي طالب بزمان، وسألت محمدًا عن هذا الحديث قال: لا أعرف للشعبي سماعًا من أم هانئ، فقلت: أبو حمزة كيف هو عندك؟ فقال: أحمد بن حنبل تكلم فيه، وهو عندي مقارب الحديث (١٨٤١)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٧) رقم (١٠٦٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (٢١٢٥).

(١١) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٧).

(١٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ١٢٧).

وَذَكَرَ عُمَرُ مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا فِي وَقْتِهِ، فَقَالَ مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ لَمْ يَجِدْ مَا يَسُدُّ بِهِ جُوعَهُ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، كَمَا قَالَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ رضي الله عنه: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ -وَهُوَ وَرَقُ شَجَرِ السَّمُرِ- حَتَّى يَضَعَ أَحَدُنَا مَا تَضَعُ الشَّاةُ»(١٥).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَمُرُّ عَلَيْهِ الْيَوْمُ وَالْيَوْمَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَلَمْ يَذُقْ طَعَامًا أَلْبَتَّةَ، كَمَا رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ فَاطِمَةَ رضي الله عنها نَاوَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كِسْرَةً مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**هَذَا أَوَّلُ طَعَامٍ أَكَلَهُ أَبُوكِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٦).

وَأَمَّا فِرَاشُهُ وَأَثَاثُهُ فَيَحْكِي وَصْفَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَيَقُولُ: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ، مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ . . .

---

(١٣) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٧٨).

(١٤) أخرجه مسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٦٧).

(١٥) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥٤١٢)، ومسلم في فاتحة الزهد والرقائق (٢٩٦٦).

(١٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، وابن أبي عاصم في الزهد (٣٩)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٨٣٢)، ووثق المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٩٢) والهيثمي في مجمع الزوائد رجاله (١٠/ ٣١٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٩٩).

فَرَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ البَصَرَ، غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ قَدْ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا، وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: «**أَوَفِي هَذَا أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟! إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي».

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: **مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟! فَقَالَ: **يَا ابْنَ الخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟** قُلْتُ: بَلَى» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧).

وَذَاتَ مَرَّةٍ غَابَ النَّبِيُّ ﷺ فَحَصَلَ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها مَا يَحْصُلُ لِلنِّسَاءِ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِبُيوتِهِنَّ، وَالْعِنَايَةِ بِأَثَاثِهِنَّ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرْتَضِ ذَلِكَ مِنْهَا، تَقُولُ رضي الله عنها: «رَأَيْتُهُ خَرَجَ فِي غَزَاتِهِ فَأَخَذْتُ نَمَطًا -وَالنَّمَطُ: بِسَاطٌ لَطِيفٌ لَهُ خَمْلٌ يُجْعَلُ عَلَى الْهَوْدَجِ وَقَدْ يُجْعَلُ سِتْرًا- فَسَتَرْتُهُ عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا قَدِمَ فَرَأَى النَّمَطَ عَرَفْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ، فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتَكَهُ أَوْ قَطَعَهُ، وَقَالَ: **إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ**. قَالَتْ: فَقَطَعْنَا مِنْهُ وِسَادَتَيْنِ وَحَشَوْتُهُمَا لِيفًا، فَلَمْ

(١٧) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨) ومسلم في الطلاق، باب في الإيلاء، واعتزال النساء، وتخييرهن وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ [التحريم: ٤] (١٤٧٩) والرواية الأولى للبخاري والثانية لمسلم.

يَعِبْ ذَلِكَ عَلَيَّ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٨).

هَكَذَا كَانَ زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا، وَحَمَلَ أَهْلَهُ عَلَى ذَلِكَ؛ لِيَتِمَّ لَهُمُ الْأَجْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ مَضَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَضَى أَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ ﷺ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ مِنَ التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا وَطَلَبِ الْآخِرَةِ، وَسَنَمْضِي كَمَا مَضَى الْقَوْمُ، فَهَلْ نَقْتَدِي بِهِمْ، وَنَقْتَفِي آثَارَهُمْ، وَنَلْتَزِمُ هَدْيَهُمْ، عَلَّنَا نُحْشَرُ مَعَهُمْ؟!

عَسَى أَنْ نَكُونَ كَذَلِكَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى أَنْفُسِنَا الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].



الخُطبَة الثّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا

(١٨) أخرجه مسلم في اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٢١٠٧).

سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ بَانَ لَنَا بِمَا سَبَقَ مِنْ نُصُوصٍ مُتَضَافِرَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مِنْ أَزْهَدِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهَا وَبِمَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَمِعْنَا الْعَجَبَ الْعُجَابَ فِي شِبَعِهِ وَجُوعِهِ، وَطَعَامِهِ وَإِدَامِهِ، وَمَتَاعِهِ وَأَثَاثِهِ. لَئِنْ عَلِمْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فَأَعْجَبُ مِنْهُ وَصْفُ دَارِهِ وَدُورِ نِسَائِهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ-، فَفِي ذَلِكَ عَجَبٌ لَا يَنْقَضِي، وَتَزْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ تَأَسَّى بِالنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى ﷺ.

رَوَى ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ، عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «أَدْرَكْتُ حُجَرَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ عَلَى أَبْوَابِهَا الْمُسُوحُ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَحَضَرْتُ كِتَابَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ يُقْرَأُ يَأْمُرُ بِإِدْخَالِ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَكْثَرَ بَاكِيًا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ . . . قَالَ عَطَاءٌ: فَسَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهُمْ تَرَكُوهَا عَلَى حَالِهَا؛ يَنْشَأُ نَاشِئٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَيَقْدَمُ الْقَادِمُ مِنَ الأُفُقِ فَيَرَى مَا اكْتَفَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يُزَهِّدُ النَّاسَ فِي التَّكَاثُرِ وَالتَّفَاخُرِ فِيهَا». وَقَالَ يَوْمَئِذٍ أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ: «لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ؛ حَتَّى يَقْصُرَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ، وَيَرَوْنَ مَا رَضِيَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ، وَمَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ . . . فَلَمَّا فَرَغَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ مِنْ حَدِيثِهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي أَنَسٍ: كَانَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ بِلَبِنٍ لَهَا حُجَرٌ مِنْ جَرِيدٍ، وَكَانَتْ خَمْسَةَ أَبْيَاتٍ مِنْ جَرِيدٍ مُطَيَّنَةٍ لا حُجَرَ لَهَا، عَلَى أَبْوَابِهَا مُسُوحُ الشَّعْرِ، ذَرَعْتُ السِّتْرَ فَوَجَدْتُهُ ثَلاثَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَالْعَظْمِ أَوْ أَدْنَى مِنَ الْعَظْمِ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتُ مِنَ الْبُكَاءِ

يَوْمَئِذٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي مَجْلِسٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَأَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ حَتَّى أَخْضَلَ لِحَاهُمُ الدَّمْعُ ... وَقَالَ يَوْمَئِذٍ أَبُو أُمَامَةَ: «لَيْتَهَا تُرِكَتْ فَلَمْ تُهْدَمْ حَتَّى يَقْصُرَ النَّاسُ عَنِ الْبِنَاءِ، وَيَرَوْا مَا رَضِيَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ وَمَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا بِيَدِهِ»(١٩).

وَعَنِ الْحَسَنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: «كُنْتُ أَدْخُلُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَأَتَنَاوَلُ سَقْفَهَا بِيَدِي»(٢٠).

هَذَا وَصْفُ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ، وَلَوْ شَاءَ لَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا فَمَا حَفَلَ بِهَا، وَلَا أَتْبَعَهَا بَصَرَهُ، وَلَا رَفَعَ إِلَيْهَا رَأْسَهُ، فَرَضِيَ مِنْهَا بِمَا يُبَلِّغُهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، فَمَاتَ يَوْمَ مَاتَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ اقْتَرَضَ مِنْهُ شَعِيرًا(٢١)، وَلَمْ يُخَلِّفْ كَثِيرَ مَالٍ وَلَا مَتَاعٍ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ رضي الله عنه قَالَ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً، وَلَا شَيْئًا، إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً»(٢٢).

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاحْذَرُوا الدُّنْيَا وَالْفِتْنَةَ بِهَا؛

---

(١٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٩٩- ٥٠٠)، وابن الجوزي في المنتظم (٦/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢٠) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٠)، وأبو داود في المراسيل (٤٩٧)، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل (٢٤٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٣٥١).

(٢١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعًا من شعير» أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، والقميص في الحرب (٢٩١٦).

(٢٢) أخرجه البخاري في الوصايا، باب الوصايا (٢٧٣٩).

فَكَمْ أَهْلَكَتْ مِنَ النَّاسِ؟!

أَفْسَدَتْ عَلَيْهِمْ آخِرَتَهُمْ، وَمَا سَلِمَتْ هِيَ لَهُمْ، وَلَا سَلِمُوا لَهَا، بَلْ فَارَقُوهَا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلَائِلُ وَيَدْخُلُ شَهْرٌ مِنْ أَشْهُرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَيْدَانٌ مِنْ مَيَادِينِ الْآخِرَةِ، فَيَا لِسَعَادَةِ مَنْ أَدْرَكَهُ وَعَمَرَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى! وَيَا لِخَسَارَةِ مَنْ ضَيَّعَهُ كَمَا ضَيَّعَ الْمَوَاسِمَ قَبْلَهُ، وَضَيَّعَ عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ!

أَحْسِنُوا اسْتِقْبَالَ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ، وَأَرُوا اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، وَاحْذَرُوا شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فِي رَمَضَانَ، مِنَ الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَمَجَالِسِ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، وَفَضَائِيَّاتِ الشَّرِّ وَالشَّيْطَانِ، وَمَا يَعْرِضُونَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ. فَإِنَّهُمْ فِي مُسَلْسَلَاتِهِمُ الْفُكَاهِيَّةِ قَدْ عَوَّدُوا الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ عَلَى الاسْتِهْزَاءِ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ الْعِظَامِ.

فَمَنْ شَاهَدَ تِلْكَ الْمَشَاهِدَ مُتَفَكِّهًا بِهَا فَهُوَ رَاضٍ، وَالرَّاضِي كَالْفَاعِلِ، وَلَمَّا قَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ كَانَ جَوَابُهُمْ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»(٢٣)، فَهَلْ كَرِهَ تِلْكَ الْبَرَامِجَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهَا وَتَابَعَهَا، وَتَفَكَّهَ بِمَا فِيهَا مِنْ مُحَرَّمَاتٍ؟!

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

---

(٢٣) أخرجه من حديث أم سلمة رضي الله عنها: مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك (١٨٥٤).

٣٤٤- وسوسة الشيطان للإنسان

١٤١٤/٧/١١هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ جَعَلَ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا، وَسَخَّرَ لَهُ مِنَ الْكَيْدِ وَالْوَسْوَسَةِ بِالْإِنْسَانِ شَيْئًا عَظِيمًا، وَأَمَدَّ حَيَاتَهُ فَجَعَلَهُ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ المَعْلُومِ مَنْظُورًا، فَغَوَى مِنْ بَنِي آدَمَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَهُوَ وَإِيَّاهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، حَفِظَ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ، فَأَمَدَّهُمْ بِالذِّكْرِ سِلَاحِ المُتَّقِينَ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَدَّرَ فَهَدَى، وَخَلَقَ فَابْتَلَى، وَإِلَيْهِ المَآبُ وَالمُنْتَهَى. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، فَبَلَّغَ وَنَصَحَ، وَحَذَّرَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَمَكَائِدِهِ، وَخَطَرَاتِهِ وَوَسَاوِسِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَهْلِ التَّقْوَى وَالِاتِّبَاعِ، وَمُحَارَبَةِ الْهَوَى وَالِابْتِدَاعِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ- فَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى نَجَاةٌ مِنَ النَّارِ، وَطَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَى الْجِنَانِ، وَهِيَ حَاجِزٌ يَحْفَظُ مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ المُؤْمِنُونَ: مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَأَهْبَطَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الجَنَّةِ، وَالصِّرَاعُ قَائِمٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَسَمِهِ فِي إِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ وَصَدِّهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْجَنَّةِ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، هَذِهِ حَقِيقَةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ بَنِي آدَمَ وَالشَّيَاطِينِ، وَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

لَقَدْ تَكَبَّرَ إِبْلِيسُ عَلَى رَبِّهِ، فَعَصَى أَمْرَهُ، وَأَبَى السُّجُودَ لِآدَمَ، فَحَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، وَاسْتَوْجَبَ الْخُرُوجَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَطَلَبَ الْخُلُودَ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِيَرُدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَقَدْ حَشَدَ ضِدَّ الْإِنْسَانِ جُنُودَهُ، وَنَوَّعَ فِي الْغِوَايَةِ وَسَائِلَهُ؛ فَهَذَا يَقْذِفُ فِي قَلْبِهِ الشُّبُهَاتِ، وَذَاكَ يُزَيِّنُ لَهُ الشَّهَوَاتِ. يَأْتِي مِنْ طَرِيقِ المَعْصِيَةِ تَارَةً، وَمِنْ طَرِيقِ الْبِدْعَةِ تَارَةً أُخْرَى.

وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَلُطْفًا بِهِمْ، وَخَوْفًا عَلَيْهِمْ؛ حَذَّرَ النَّاسَ مِنْهُ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ، وَأَنَّهُ يَقُودُ إِلَى دَارِ السَّعِيرِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وَلَكِنْ رَغْمَ هَذَا الْإِعْلَامِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ أَقْوَامًا أَجْلَبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَاجْتَرَّ فِئَامًا مِنْهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَالْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ.

وَآخَرُونَ زَيَّنَ لَهُمُ المَعَاصِيَ وَالشَّهَوَاتِ وَالمُحَرَّمَاتِ، وَبَغَّضَ إِلَيْهِمُ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ فَكَرِهُوهَا، وَإِنْ لَمْ يَكْرَهُوهَا اسْتَثْقَلُوهَا.

وَعَجَزَ عَنْ آخَرِينَ؛ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الدِّينِ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِالصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، فَوَسْوَسَ لَهُمْ فِي المُعْتَقَدَاتِ وَالطَّاعَاتِ، حَتَّى سَلَكُوا الْغُلُوَّ وَالْإِفْرَاطَ فِي المُعْتَقَدَاتِ، وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّشْدِيدَ فِي الْعِبَادَاتِ، فَمِنْهُمْ مَنْ نَصَّبَ نَفْسَهُ مُوَقِّعًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، يُكَفِّرُ وَيُفَسِّقُ وَيَرْمِي المُؤْمِنِينَ بِالنِّفَاقِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ، وَآخَرُونَ تَشَدَّدُوا فِي الْعِبَادَاتِ وَالْقُرُبَاتِ حَتَّى أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ.

فَانْظُرْ -يَا عَبْدَ اللَّهِ- كَيْفَ يَصِلُ الشَّيْطَانُ إِلَى إِفْسَادِ قَلْبِ بَنِي آدَمَ؟ وَتَأَمَّلْ -يَا رَعَاكَ اللهُ- طَرِيقَتَهُ وَتَدَرُّجَهُ فِي الْإِفْسَادِ.

إِنَّهُ حِينَمَا يَبْدَأُ بِالْوَسْوَسَةِ يَصُدُّ عَنِ السُّنَنِ وَالمَنْدُوبَاتِ، وَيُزَيِّنُ المَكْرُوهَاتِ،

ثُمَّ يَتَدَرَّجُ بِالْإِنْسَانِ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَيُحَبِّبَ إِلَيْهِ فِعْلَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَإِذَا أَبْلَغَهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ حَسَّنَ فِي نَفْسِهِ تَرْكَ الدِّينِ وَكَرَاهِيَةَ أَهْلِهِ، حَتَّى يُوقِعَهُ فِي سَبِّ الدِّينِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالسُّنَنِ وَالْوَاجِبَاتِ، فَيَبْلُغَ دَرَجَةَ الْكُفْرِ، وَرُبَّمَا أَنْزَلَهُ إِلَى دَرَكِ النِّفَاقِ.

وَإِذَا أَعْيَتْهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ وَلَمْ يَنْفَعْ مَعَهُ هَذَا الطَّرِيقُ؛ لِقُوَّةِ الدِّينِ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ، اسْتَعْمَلَ وَسِيلَةً أُخْرَى وَسَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ، فَقَذَفَ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ الشُّبُهَاتِ، وَحَسَّنَ لَهُ الْمُبْتَدَعَاتِ بِاسْمِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّينِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، فَأَوْصَلَهُ إِلَى دَرَجَةِ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ، فَأَدْخَلَ فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَاتَّهَمَ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا هُمَ مِنْهُ بُرَءَاءُ، أَوْ وَسْوَسَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، فَزَادَ عَلَى قَدْرِهَا، وَأَدْخَلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، أَوْ أَمَاتَ فِي نَفْسِهِ سُنَّةً كَانَ يَعْمَلُهَا.

وَهُوَ مَعَ هَذَا الْإِغْرَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ يَغُرُّ الْإِنْسَانَ وَيَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْكَرَهُمْ وَتَبَرَّأَ مِنْهُم فَاسْتَوْجَبُوا النَّارَ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

تِلْكُمْ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- نِهَايَةُ مَنْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ، وَسَلَّمُوا قُلُوبَهُمْ لِوَسَاوِسِهِ وَخَطَرَاتِهِ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ، عِبَادُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ، فَقَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ

كَيْدِهِ، فَاسْتَعَانُوا بِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى دَحْرِهِ.

اسْتَقَامُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَمِلُوا بِسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَاقْتَفَوْا أَثَرَ صَحْبِهِ الْكِرَامِ، إِنْ فَعَلُوا طَاعَةً حَمِدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ خَالَفُوا أَوْ هَمُّوا بِمَعْصِيَةٍ ذَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، فَعَادُوا أَتْقِيَاءَ أَنْقِيَاءَ، سَلِمُوا مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَجَانَبُوا الْغُلُوَّ وَالتَّقْصِيرَ، لَمْ يُدْرِكِ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ شَيْئًا فَعَادَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٤].

أَلَا وَإِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، وَالْمُوَاظَبَةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْبُعْدَ عَمَّا حَرَّمَ؛ عَاصِمٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى يَطْرُدُهُ مِنَ الْمَكَانِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ»(١).

وَعَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَازِمٌ بِالْقَلْبِ، مَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى. مَا تَرَوْنَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ، يَأْتِي عَلَى أَحَدِهِمْ عَامَّةُ يَوْمِهِ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا حَالِفًا، مَا لَهُ مِنَ الْقَلْبِ طَرْدٌ إِلَّا قَوْلُهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]»(٢).

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ قَالَ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلا وَشَيْطَانٌ مُتَبَطِّنٌ فِقَارَ ظَهْرِهِ، لَاوٍ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٥)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٨٠)، وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٣).

عُنُقَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، فَاغِرٌ فَاهُ عَلَى قَلْبِهِ»(٣).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ عَلَى ابْنِ آدَمَ: أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ قِبَلِ الطَّاعَةِ، فَيُوَسْوِسَ لَهُ فِيهَا، وَهَذَا الْأَمْرُ مَعَ شِدَّةِ خُطُورَتِهِ قَدْ غَفَلَ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، وَمَا يُوقِعُ فِيهِ إِلَّا شِدَّةُ الْحِرْصِ، وَقِلَّةُ الذِّكْرِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِخَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ، فَتَجِدُ صَاحِبَهُ دَائِمَ الشَّكِّ فِي طَهَارَتِهِ وَطَهَارَةِ ثِيَابِهِ، وَفِي التَّكْبِيرِ لِلصَّلَاةِ، وَفِي الْقِرَاءَةِ، وَفِي الرَّكَعَاتِ، وَفِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ، حَتَّى يُهْلِكَ نَفْسَهُ، وَيُتْعِبَ بَدَنَهُ، وَرُبَّمَا فَاتَ وَقْتُ الْعِبَادَةِ وَهُوَ مُشْتَغِلٌ عَنْهَا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَلَا تُقْبَلُ عِبَادَةٌ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي وَصْفِهِمْ: «وَهَؤُلَاءِ يَغْسِلُ أَحَدُهُمْ عُضْوَهُ غَسْلًا يُشَاهِدُ بِبَصَرِهِ، وَيُكَبِّرُ وَيَقْرَأُ شَيْئًا بِلِسَانِهِ، بِحَيْثُ تَسْمَعُهُ أُذُنَاهُ، وَيَعْلَمُهُ بِقَلْبِهِ، بَلْ يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ مِنْهُ وَيَتَيَقَّنُهُ، وَهَذَا يُصَدِّقُ الشَّيْطَانَ فِي إِنْكَارِهِ يَقِينَ نَفْسِهِ وَجَحْدِهِ لِمَا رَآهُ بِبَصَرِهِ، وَسَمِعَهُ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ يَشُكُّ: هَلْ فَعَلَ ذَلِكَ أَمْ لَا.

وَكَذَلِكَ يُشَكِّكُهُ فِي نِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ، أَلَا يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ يَقِينًا، بَلْ يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ مِنْهُ بِقَرَائِنِ أَحْوَالِهِ؟ وَمَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ قَوْلَ إِبْلِيسَ فِي أَنَّهُ مَا نَوَى الصَّلَاةَ وَلَا أَرَادَهَا؛ مُكَابَرَةً مِنْهُ لِعِيَانِهِ، وَجَحْدًا لِيَقِينِ نَفْسِهِ، حَتَّى تَرَاهُ مُتَلَدِّدًا مُتَحَيِّرًا، كَأَنَّهُ يُعَالِجُ شَيْئًا يَجْتَذِبُهُ، أَوْ يَجِدُ شَيْئًا فِي بَاطِنِهِ يَسْتَخْرِجُهُ. كُلُّ ذَلِكَ مُبَالَغَةً فِي طَاعَةِ إِبْلِيسَ، وَقَبُولِ وَسْوَسَتِهِ.

وَمَنِ انْتَهَتْ طَاعَتُهُ لِإِبْلِيسَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ فَقَدْ بَلَغَ النِّهَايَةَ فِي طَاعَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَقْبَلُ قَوْلَهُ فِي تَعْذِيبِ نَفْسِهِ، وَيُطِيعُهُ فِي الْإِضْرَارِ بِجَسَدِهِ، تَارَةً بِالْغَوْصِ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَتَارَةً بِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ، وَإِطَالَةِ الْعَرْكِ، وَرُبَّمَا فَتَحَ عَيْنَيْهِ فِي الْمَاءِ وَغَسَلَ

---

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٢٤).

دَاخِلَهُمَا حَتَّى يَضُرَّ بَصَرَهُ، وَرُبَّمَا أَفْضَى إِلَى كَشْفِ عَوْرَتِهِ لِلنَّاسِ، وَرُبَّمَا صَارَ إِلَى حَالٍ يَسْخَرُ مِنْهُ الصِّبْيَانُ، وَيَسْتَهْزِئُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ، وَرُبَّمَا شَغَلَهُ بِوَسْوَسَتِهِ حَتَّى تَفُوتَهُ الْجَمَاعَةُ، وَرُبَّمَا فَاتَهُ الْوَقْتُ، وَيَشْغَلُهُ بِوَسْوَسَتِهِ فِي النِّيَّةِ حَتَّى تَفُوتَهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى، وَرُبَّمَا فَوَّتَ عَلَيْهِ رَكْعَةً أَوْ أَكْثَرَ، وَرُبَّمَا فَوَّتَ عَلَيْهِ الْوَقْتَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَسْوِسُ فِي إِخْرَاجِ الْحُرُوفِ حَتَّى يُكَرِّرَ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ لِي إِنْسَانٌ: قَدْ عَجَزْتُ عَنْ قَوْلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: قُلْ مِثْلَمَا قُلْتُ الْآنَ، وَقَدِ اسْتَرَحْتَ، وَنَحْوُ هَذَا وَأَصْنَافُهُمْ كَثِيرٌ» اهـ كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى(٤).

وَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي الْوَفَاءِ ابْنِ عَقِيلٍ الْحَنْبَلِيِّ: أَنَّ رَجُلًا لَقِيَهُ فَقَالَ: إِنِّي أَغْسِلُ الْعُضْوَ وَأَقُولُ: مَا غَسَلْتُهُ، وَأُكَبِّرُ وَأَقُولُ: مَا كَبَّرْتُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَقِيلٍ: دَعِ الصَّلَاةَ؛ فَإِنَّهَا مَا تَجِبُ عَلَيْكَ، فَقَالَ قَوْمٌ لِابْنِ عَقِيلٍ: كَيْفَ تَقُولُ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُمْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ**»، وَمَنْ يُكَبِّرُ وَيَقُولُ: مَا كَبَّرْتُ فَلَيْسَ بِعَاقِلٍ، وَالْمَجْنُونُ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ» اهـ(٥).

فَاتَّقُوا اللَّهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاحْذَرُوا الشَّيْطَانَ وَمَكَائِدَهُ، فَإِنَّهُ مَنْ يُسْلِمْ نَفْسَهُ لِلشَّيْطَانِ يُفْسِدْ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، فَيَعِيشُ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ، وَشُكُوكٍ مُسْتَمِرَّةٍ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ غَيْرَ مُسْتَقِرَّةٍ، وَمَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَدْ أَتْعَبَ بَدَنَهُ، وَضَيَّعَ وَقْتَهُ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④

(٤) ذم الموسوسين (١٠-١٢)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٣٣).

(٥) تلبيس إبليس (١٢٤)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٣٤).

ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ، تَابَعَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ، وَتَرَادَفَ إِلَيْنَا إِحْسَانُهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَمْ يَزَلْ بِعِبَادِهِ لَطِيفًا خَبِيرًا، وَلَهُمْ غَفُورًا رَحِيمًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَتْقَى الْخَلْقِ وَأَزْكَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ، كَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفًا رَحِيمًا، وَلِرَبِّهِ عَبْدًا شَكُورًا، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ خَيْرِ صَحْبٍ وَآلٍ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ اتَّقَى اللَّهَ ﷻ سِرًّا وجَهْرًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَعْصِمُ اللَّهُ بِهِ الْإِنْسَانَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ مُدَاوَمَةَ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وَلَا يُسْلِمْ نَفْسَهُ لِلْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ وَالشُّكُوكِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَعِبَادَتُهُ مُكَمَّلَةً بِالْيَقِينِ، وَيَسُدَّ كُلَّ طَرِيقٍ يُفْضِي إِلَى الشُّكُوكِ وَالْوَسَاوِسِ، وَيَقْتَفِي فِي ذَلِكَ آثَارَ سَلَفِ الْأُمَّةِ؛ فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا عَمِلُوهُ، فَإِذَا جَاءَتْهُ الشُّكُوكُ فِي الْوُضُوءِ قَلَّلَ المَاءَ وَأَرْغَمَ الشَّيْطَانَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: «قُلْتُ لِأَبِي: إِنِّي أُكْثِرُ الْوُضُوءَ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: يَا بُنَيَّ، يُقَالُ: إِنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَانًا يُقَالُ لَهُ: الْوَلْهَانُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَلَقَدْ نَهَانِي عَنْ كَثْرَةِ

صَبِّ المَاءِ، وَقَالَ لِي: أَقْلِلْ مِنْ هَذَا المَاءِ يَا بُنَيَّ»(٦).

وَنَقَلَ ابْنُ قُدَامَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ قَوْلَهُ: «الْفِقْهُ فِي الدِّينِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ، وَقِلَّةُ إِهْرَاقِ المَاءِ»(٧).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجْزِئُ مِنَ الْوُضُوءِ المُدُّ، وَمِنَ الجَنَابَةِ الصَّاعُ**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: لَا يَكْفِينَا ذَلِكَ يَا جَابِرُ، فَقَالَ: قَدْ كَفَى مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ وَأَكْثَرُ شَعَرًا»(٨).

وَلَا يَزِيدُ فِي غَسْلِ الْعُضْوِ الْوَاحِدِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَّاتٍ؛ لأن أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْوُضُوءِ، فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، فَقَالَ: «**مَنْ زَادَ فَقَدْ أَسَاءَ وَظَلَمَ أَوِ اعْتَدَى وَظَلَمَ**»(٩).

وَقَالَ إِسْحَاقُ الْكَوْسَجُ: «قُلْتُ لِأَحْمَدَ: يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثٍ فِي الْوُضُوءِ؟ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا رَجُلًا مُبْتَلًى»(١٠).

وَمَنْ كَانَ يَشُكُّ فِي الْحَدَثِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ فَلْيَعْمَلْ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا يَنْصَرِفْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا**»(١١).

---

(٦) مسائل أحمد بن حنبل، رواية ابنه عبد الله (١١٢).

(٧) ذم الموسوسين (٢٣).

(٨) أخرجه البخاري في الغسل، باب الغسل بالصاع ونحوه (٢٥٢)، ومسلم في الحيض، باب استحباب إفاضة الماء على الرأس (٣٢٩)، وأحمد (٣/ ٣٧٠)، وابن خزيمة (١١٧) واللفظ لأحمد وابن خزيمة.

(٩) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أبو داود في الطهارة، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا (١٣٥) والنسائي في الطهارة، باب الاعتداء في الوضوء (١/ ٨٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٤)، والنووي في خلاصة الأحكام (٢٠٩).

(١٠) مسائل أحمد وإسحاق بن راهويه، رواية إسحاق بن منصور الكوسج (٢/ ٢٧٧)

(١١) أخرجه من حديث عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد ﵁: البخاري في الوضوء، =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْوَسْوَاسُ فِي الصَّلَاةِ كَثِيرٌ وُقُوعُهُ، وَقَلِيلٌ مَنْ يَسْلَمُ مِنْهُ، وَإِذَا كَثُرَ أَضَرَّ بِالْإِنْسَانِ، وَأَذْهَبَ أَجْرَ الصَّلَاةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُكَافَحَتِهِ وَمُدَافَعَتِهِ وَعَدَمِ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي(١٢).

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: وَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ لَا يَسَعُ الْمُسْلِمَ إِلَّا أَنْ يَتَجَنَّبَ مَكَائِدَ الشَّيْطَانِ، وَيَحْذَرَ مِنْ غَوَائِلِهِ، بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ، وَالتَّوْجِيهَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَيَقْتَفِي آثَارَ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِيَكُونَ دِينُهُ قَوِيًّا كَمَا كَانُوا، خَالِيًا مِنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، وَسَطًا بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، فَيَعِيشَ قَرِيرَ الْعَيْنِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، مُسْتَرِيحًا فِي دُنْيَاهُ، مَأْجُورًا عَلَى أَعْمَالِهِ، مُقْتَفِيًا أَثَرَ الْمُصْطَفَى ﷺ، عَامِلًا بِسُنَّتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرِدُ حَوْضَهُ، وَيَدْخُلُ جَنَّةَ رَبِّهِ، وَيَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



= باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن (١٣٧)، ومسلم في الحيض، باب الدليل على أن مَنْ تَيَقَّنَ الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك (٣٦١).

(١٢) أخرجه مسلم في الآداب، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٢٢٠٣).

٣٤٥- في القبر عذاب ونعيم

٣٠/ ١٠/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَالنَّاسُ إِلَى أَبَدِ الْآبَادِ يَبْقَوْنَ، وَعَلَى ثَلَاثِ دُورٍ يَمُرُّونَ، وَلَنْ يَفْنَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَنَاءً أَبَدِيًّا، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى. إِنَّهَا السُّنَّةُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ.

وَدَارُ الدُّنْيَا يَعِيشُهَا الْأَحْيَاءُ، وَدَارُ الْبَرْزَخِ يَعِيشُهَا الْأَمْوَاتُ، وَلَسَوْفَ يَمُوتُ الْأَحْيَاءُ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ وَيُحَاسَبُونَ، وَبِمَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ، وَيَسْتَقِرُّ الْكُلُّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَالْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، تِلْكَ الْحُفْرَةُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَا يُكَلِّفُ حَفْرُهَا جُهْدًا كَبِيرًا، وَلَا مَالًا كَثِيرًا، وَلَكِنَّهَا الْمُسْتَقَرُّ وَالمَقَامُ إِلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ.

فِي دَارِ الدُّنْيَا يَبْنِي الْإِنْسَانُ دَارًا عَلَى قَدْرِ مَالِهِ، وَأَعْظَمُ التَّبَاهِي هُوَ التَّبَاهِي فِي الدُّورِ وَالمَسَاكِنِ، وَالْغَلَبَةُ لِمَنْ كَانَ أَكْثَرَ مَالًا، وَأَوْفَرَ مَتَاعًا، لَكِنَّ دَارَ الْبَرْزَخِ

لَيْسَ بِنَاؤُهَا بِكَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَوَفْرَةِ المَالِ، وَإِنَّمَا بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ الْإِخْلَاصِ وَحُسْنِ الِاتِّبَاعِ.

وَيَعْجَبُ الْعُقَلَاءُ مِنْ أَشْخَاصٍ يَعْتَنُونَ بِبِنَاءِ دُورٍ لَا يَسْكُنُونَها إِلَّا قَلِيلًا، وَيُهْمِلُونَ دَارًا يُقِيمُونَ فِيهَا كَثِيرًا، وَإِذَا كَانَ المَقَامُ فِي دَارِ الدُّنْيَا عُقُودًا قَلِيلَةً، فَقَدْ يَكُونُ المَقَامُ فِي الْبَرْزَخِ قُرُونًا طَوِيلَةً، وَلَوْلَا ضَعْفُ الْإِيمَانِ، وَنِسْيَانُ الْقَبْرِ وَالْآخِرَةِ لمَا كَانَ هَذَا حَالَنَا وَحَالَ النَّاسِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ المُؤْمِنُونَ: يُفْتَنُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ، وَيُنَعَّمُ فِيهِ المُؤْمِنُونَ، وَيُعَذَّبُ الْكَافِرُونَ، وَقَدْ يُعَذَّبُ المُؤْمِنُونَ بِمَعَاصِيهِمْ، وَأَدِلَّةُ الشَّرْعِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَلَا يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَّا المَلَاحِدَةُ وَالمَادِّيُّونَ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ الضَّالَّةِ ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هَذَا فِي الْقَبْرِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنهم: هُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ[(١)]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَدْنَى فِي الْقُبُورِ، وَعَذَابُ الدُّنْيَا[(٢)].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَرْشَدَ أُمَّتَهُ إِلَى ذَلِكَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١٩١).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨).

وَالمُشَكِّكُونَ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ يَقُولُونَ: لَوْ كَشَفْنَا عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ قُبُورَهُمْ لمَا رَأَيْنَا نَعِيمًا وَلَا عَذَابًا، وَلَرَأَيْنَا عِظَامًا بَالِيَةً، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! كَيْفَ أَضَلَّهُمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانُ؟!

أَلَيْسَ النَّائِمُ قَدْ يَتَنَعَّمُ فِي نَوْمِهِ لِمَا يَرَى مِنَ المُبَشِّرَاتِ وَالمَسَرَّاتِ، وَقَدْ يُعَذَّبُ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْقَلَقِ وَالْأَحْلَامِ المُزْعِجَةِ، بَلْ يَنَامُ اثْنَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَمَكَانٍ وَاحِدٍ، وَظُرُوفٍ وَاحِدَةٍ، وَيَكُونُ أَحَدُهُمَا مُتَلَذِّذًا بِنَوْمِهِ، وَالْآخَرُ مُعَذَّبًا فِيهِ، فَالْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ أَلَيْسَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُوقِعَ الْعَذَابَ أَوِ النَّعِيمَ عَلَى رُوحِ المَيِّتِ وَجَسَدِهِ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﷻ؟ قَالَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ المَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَلَا نَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ؛ إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ؛ لِكَوْنِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ» اهـ(٤).

وَبَعْضُ الضُّلَّالِ وَالمُنْحَرِفِينَ جَعَلُوا لَهُمْ وَسَائِلَ وَطُرُقًا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بِهَا يَنْجَوْنَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِذَا مَاتَ المَيِّتُ فِيهِمْ أَحْرَقُوهُ حَتَّى يَصِيرَ رَمَادًا، ثُمَّ فَرَّقُوهُ عَلَى شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، وَسَحِيقِ الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، أَوْ رُبَّمَا قَطَّعُوهُ وَوَزَّعُوهُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ.

وَكُلُّ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ نَقْصِ الْعُقُولِ، وَخَطَإِ المُعْتَقَدِ؛ فَالَّذِي خَلَقَهُ أَوَّلًا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ كَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُذِيقَ الْجَسَدَ وَالرُّوحَ عَذَابًا أَوْ نَعِيمًا وَلَوْ كَانَ الْجَسَدُ مُفَرَّقًا.

بَلْ لَوْ كَانَ المَيِّتُ مَصْلُوبًا أَمَامَ النَّاسِ فِي مَهَابِّ الرِّيحِ، أَوْ عَلَى ثَلْجٍ لَنَالَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ. وَلَوْ جُعِلَ

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٠).

جَسَدُ المَيِّتِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَأَتُونِ النَّارِ وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى نَعِيمَهُ لَحَصَلَ لَهُ النَّعِيمُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ جَعَلَ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بَرْدًا وَسَلَامًا، وَسَيَجْعَلُ نَارَ الدَّجَّالِ الَّتِي يَقْذِفُ فِيهَا الصَّالِحِينَ جَنَّةً، وَسَيَجْعَلُ جَنَّتَهُ الَّتِي يَجْعَلُ فِيهَا الْكُفَّارَ نَارًا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**» قَالَ: «**يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ -مُحَمَّدٍ ﷺ-؟**» قَالَ: «**فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**» قَالَ: «**فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ**»، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «**فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**» قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ: «**وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ**»(٥).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، فَمَرَّ عَلَى حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ؛ فَإِذَا هُوَ بِقَبْرٍ يُعَذَّبُ صَاحِبُهُ، فَحَاصَتِ الْبَغْلَةُ، فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

---

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال (١٣٣٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٠).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾** [إبراهيم: ٢٧]» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: مُنْكَرٌ، وَلِلآخَرِ: نَكِيرٌ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ -لِمُحَمَّدٍ ﷺ-؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ ﷿ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ(٨).

---

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] واللفظ له، (٤٤٢٢)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧١)، ولفظه: عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ، قال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: **نزلت في عذاب القبر، فيقال له**: من ربك؟ **فيقول: ربي الله، ونبيي محمد** ﷺ، **فذلك قوله** ﷿: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]».

(٨) أخرجه الترمذي في الجنائز: باب ما جاء في عذاب القبر، وقال: حديث حسن غريب (١٠٧١)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٥٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٦٤)، =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالمَعَاصِي تَكُونُ سَبَبًا فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهُنَاكَ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تَكُونُ سَبَبًا لِلنَّعِيمِ فِيهِ، فَمِمَّا يُعَذَّبُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ: النَّمِيمَةُ، وَعَدَمُ الِاسْتِبْرَاءِ مِنَ الْبَوْلِ، فَقَدْ مَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»(٩).

وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَالَ: «**مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبُطُونَهُمْ نَارًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

و«**المَيِّتُ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١١).

وَالْغُلُولُ مِنَ المَعْرَكَةِ سَبَبٌ لِعَذَابِ الْقَبْرِ؛ خَرَجَ رَجُلٌ مَعَهُمْ فِي خَيْبَرَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْهَا أَصَابَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ! فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٢).

وَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَنَفْسُهُ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ، وَقَدْ بَوَّبَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ

= والآجري في الشريعة (٣٦٥)، وصححه ابن حبان (٣١١٧)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، وفي ابن إسحاق وهو العامري القرشي مولاهم كلام لا يضر (١٣٩١).

(٩) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الوضوء، باب ما جاء في غسل البول (٢١٨)، ومسلم في الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢).

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧).

(١١) أخرجه من حديث المغيرة رضي الله عنه: البخاري في الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١)، ومسلم في الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٣).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٥).

تَعَالَى- فَقَالَ: بَابُ مَا يُخَافُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فِي الدَّيْنِ(١٣)، وَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَجُلٍ عَلَيْهِ دِينَارَانِ، حَتَّى ضَمِنَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ السَّدَادَ عَنْهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ لِلضَّامِنِ: «**مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ**» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١٤).

وَأَمَّا مَنْ أَخَذَ الْقُرْآنَ فَرَفَضَهُ وَنَامَ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، فَعَذَابُهُ أَنَّ رَأْسَهُ يُرْضَخُ بِالْحِجَارَةِ، كُلَّمَا رُضِخَ عَادَ كَمَا كَانَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالَّذِي يَكْذِبُ كَذْبَةً تَبْلُغُ الْآفَاقَ يُشَقُّ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي فَيُجْمَعُونَ فِي تَنُّورٍ وَهُمْ عُرَاةٌ، وَيَأْتِيهِمُ اللَّهَبُ مِنْ تَحْتِهِمْ فَيَرْفَعُهُمْ، كُلَّمَا ارْتَفَعُوا ضَوْضَوْا، وَيَبْقَوْنَ فِي التَّنُّورِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَآكِلُ الرِّبَا يَسْبَحُ فِي نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، يَنْقِلُ حِجَارَةً بِفَمِهِ أَوَّلَ النَّهْرِ إِلَى آخِرِهِ، وَهَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٥).

وَأَمَّا الْأَسْبَابُ الَّتِي تَقِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَبَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَقْوَاهُ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُنْجِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ: فِي الْقَبْرِ(١٦).

وَالرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُنْجِي مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**

---

(١٣) في كتابه: إثبات عذاب القبر (٩٣).

(١٤) أخرجه من حديث جابر ﷺ: أحمد (٣/ ٣٣٠)، والطيالسي (١٦٧٣)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٣).

(١٥) أخرجه من حديث سمرة بن جندب ﷺ: البخاري في التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

(١٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ١١٢).

خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٧).

وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ وَلَا يُفْتَنُ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٨). وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ لَلْقَتِيلِ عِنْدَ اللَّهِ سِتَّ خِصَالٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»(١٩).

وَرُوِيَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»(٢٠).

وَالمَبْطُونُ لَا يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ قَتَلَهُ بَطْنُهُ لَمْ يُعَذَّبْ فِي قَبْرِهِ»(٢١).

---

(١٧) أخرجه من حديث سلمان ﷺ: مسلم في الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله ﷻ (١٩١٣).

(١٨) أخرجه عن رجل من الصحابة ﷺ: النسائي في الجنائز، باب الشهيد (٤/ ٩٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٧٢١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣).

(١٩) أخرجه من حديث المقدام بن معدي كرب ﷺ: الترمذي في فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، وقال: حسن صحيح غريب (١٦٦٣)، وابن ماجه في الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢١٣).

(٢٠) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ﷺ: أحمد (٢/ ١٦٩) والترمذي في الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، وقال: هذا حديث غريب. وهذا حديث ليس إسناده بمتصل، ربيعة بن سيف إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعًا من عبد الله بن عمرو (١٠٧٤)، قال الزيلعي: وصله الطبراني في معجمه فرواه من حديث ربيعة بن سيف عن عياض بن عقبة الفهري عن عبدالله بن عمرو فذكره. تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٢١) أخرجه من حديث سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة ﷺ: النسائي في الجنائز، باب من قتله بطنه (٤/ ٩٨)، والطيالسي (١٢٨٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٢)، وصححه ابن حبان (٢٩٣٣)، والألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٤٦١).

وَمَنْ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نَوَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي قَبْرِهِ؛ فَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عز وجل يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(٢٢).

وَمِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَجْرِي عَمَلُهَا عَلَى الْإِنْسَانِ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَا رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ**»(٢٣).

وَكُلُّ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ يَجْرِي أَجْرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ وَفَضْلِهَا.

تِلْكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- بَعْضُ مُوجِبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْهُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . .



(٢٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في الجنائز، باب الصلاة على القبر (٩٥٦).

(٢٣) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (٨١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٤)، والبيهقي في الشعب وضعفه، فقال: محمد بن عبيد الله العَرْزَمِيّ ضعيف، غير أنه قد تقدَّمه ما يشهد لبعضه، والله أعلم، وهما لا يخالفان الحديث الصحيح، فقد قال فيه: إلا من صدقة جارية، وهي تجمع ما قد جاء به من الزيادة (٣٤٤٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٦٠٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْعِبَادَ فَابْتَلَاهُمْ، وَأَحْصَى عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، فَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى نَجَاةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَثَبَاتٌ فِي الْفِتْنَةِ، وَنُورٌ فِي الْقَبْرِ، وَأَنِيسٌ فِي الْوَحْدَةِ، وَأَمْنٌ مِنَ الْخَوْفِ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: مُشَاهَدَةُ الْقَبْرِ، وَالنَّظَرُ إِلَى اللَّحْدِ؛ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ الْمُتَكَلِّمِ، وَمِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ، لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ غُرْبَتَهُ، وَتَفَكَّرَ فِي وَحْدَتِهِ، لَا أَنِيسَ وَلَا جَلِيسَ إِلَّا الْعَمَلُ، فَإِنْ كَانَ صَالِحًا فَنِعْمَ الْجَلِيسُ، وَجْهُهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ سَيِّئًا فَشَرٌّ وَبَلَاءٌ وَعَذَابٌ وَنَدَامَةٌ.

إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ لَيَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا وَلَوْ وَقْتًا قَلِيلًا، مَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى تَسْبِيحَةٍ وَتَحْمِيدَةٍ، وَتَهْلِيلَةٍ وَتَكْبِيرَةٍ! وَمَا أَشَدَّ لَهفَهُمْ عَلَى رَكْعَتَيْنِ يَزْدَادُونَ بِهِمَا رِفْعَةً وَدَرَجَةً!

إِنَّ فِيهِمْ لَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً، تَحَلَّلَتْ أَجْسَادُهُمْ، وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُمْ، وَأَكَلَ الدُّودُ لُحُومَهُمْ، وَاسْتَحَالَتْ عِظَامُهُمْ رُفَاتًا وَرَمِيمًا، لَكِنْ فِيهِمْ مَنْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَهُمْ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعْضِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: الْقَبْرُ مَرْحَلَةٌ حَاسِمَةٌ، إِنْ نَجَا الْإِنْسَانُ مِنْ عَذَابِهِ نَجَا مِنْ عَذَابِ

النَّارِ؛ وَلِذَا كَانَ خَوْفُ السَّلَفِ مِنْهُ شَدِيدًا، وَعَمَلُهُمْ لَهُ كَثِيرًا، كَانَ عُثْمَانُ ﷺ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**»(٢٤).

وَلِلْقَبْرِ ضَمَّةٌ عَظِيمَةٌ تَخْتَلِفُ فِيهَا الْأَضْلَاعُ، يَجِدُهَا كُلُّ أَحَدٍ، لَكِنْ يُفَرَّجُ عَنِ المُؤْمِنِ، وَيُعَذَّبُ الْكَافِرُ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْهَا لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**»(٢٥).

فَاعْمَلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى- لِلدَّارِ الَّتِي يَكُونُ بَقَاؤُكُمْ فِيهَا أَطْوَلَ؛ فَإِنَّ الْكَيِّسَ الْفَطِنَ مَنْ بَنَى دَارَهُ الَّتِي يَسْكُنُهَا أَبَدًا، وَإِنَّ مِنَ الْحُمْقِ وَالْجَهَالَةِ تَقْدِيمَ دَارٍ فِي طَرِيقِ سَفَرٍ عَلَى دَارِ المَقَامِ وَالْبَقَاءِ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ- عَلَى الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ المُسْدَاةِ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...



---

(٢٤) أخرجه الترمذي في الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام ابن يوسف (٢٣٠٨)، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، والحاكم وصححه (٤/ ٤٧٥-٤٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٦٢٣).

(٢٥) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٥)، وفي فضائل الصحابة (١٥٠١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٤)، وصححه ابن حبان (٣١١٢)، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: رواه أحمد بإسناد جيد (٤٤٦٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد عن نافع عن عائشة، وعن نافع عن إنسان عن عائشة، وكلا الطريقين رجالهما رجال الصحيح (٣/ ٤٦) وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٩٥).

٣٤٦- من أسباب الذل

١٩/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النِّسَاء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْد: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: حِينَمَا تَتَرَدَّى أَوْضَاعُ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَتَضْطَرِبُ أَحْوَالُهَا، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا أَعْدَاؤُهَا، وَيَكْثُرُ تَفَرُّقُهَا وَاخْتِلَافُهَا، وَيَعْمَى عَنِ الْحَقِّ كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَائِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا مَخْرَجَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الضَّوَائِقِ وَالْمَآزِقِ إِلَّا بِالْمُرَاجَعَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ.. مُرَاجَعَةِ عَلَاقَتِهَا مَعَ رَبِّهَا، وَمُحَاسَبَةِ نَفْسِهَا عَلَى تَقْصِيرِهَا.. مُرَاجَعَةً جَادَّةً لَا هَزْلَ مَعَهَا، وَمُحَاسَبَةً صَارِمَةً لَا مُحَابَاةَ فِيهَا.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ الْمُزَلْزِلَةُ، وَالِاضْطِرَابَاتُ الْعَاتِيَةُ؛ لَمْ تُحَرِّكْ فِي الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا يَدْفَعُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ لَيْسُوا حَقِيقِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى،

وَلَنْ يَكُونُوا جَدِيرِينَ بِالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ وَحَمَلَةِ دِينِهِ.

إِنَّ الْعِزَّ وَالذُّلَّ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ يَهَبُهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٢٦].

وَلِلْعِزِّ أَسْبَابُهُ، كَمَا أَنَّ لِلذُّلِّ أَبْوَابَهُ، فَمَنْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ الْعِزِّ فَلَنْ يُهَانَ دِينُهُ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَضْعَفًا، وَلَا يَظْفَرُ الْعَدُوُّ مِنْهُ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَ مُسْتَضَامًا، تَتَزَحْزَحُ الْجِبَالُ الرَّوَاسِي عَنْ مَقَارِّهَا قَبْلَ أَنْ يَحِيدَ هُوَ عَنْ دِينِهِ وَمَبَادِئِهِ، يَلْقَى اللَّهَ ﷻ بِصَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ، فَيُجَازِيهِ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى.

وَمَنْ تَلَمَّسَ أَبْوَابَ الذُّلِّ وَلَجَ مِنْ جَمِيعِهَا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ وَاصِفٌ أَنْ يَصِفَ الذُّلَّ، قَالَ: انْظُرْ إِلَى فُلَانٍ!! يَرْضَى لِنَفْسِهِ الْهَوَانَ، وَيَتَنَكَّرُ لِدِينِهِ وَمَبَادِئِهِ؛ اسْتِبْقَاءً لِنَفْسِهِ، أَوْ خَوْفًا عَلَى دُنْيَاهُ؛ وَلَنْ يُعَمَّرَ أَكْثَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ؛ عِزُّهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَذُلُّ أَعْدَائِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٨]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادَلَة: ٢١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧١-١٧٣]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ تُثْبِتُ هَذَا الْأَصْلَ الْعَظِيمَ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ عَزِيزٌ مَرْفُوعٌ، وَأَنَّ دِينَهُ غَالِبٌ مَنْصُورٌ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ ذَلِيلٌ مَقْهُورٌ . .

وَلَا يَتَخَلَّفُ هَذَا الْأَصْلُ إِلَّا بِتَخَلُّفِ أَسْبَابِهِ، وَلَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا بِتَغَيُّرِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَنَكُّرِهِمْ لِدِينِهِمْ الَّذِي يَمْنَحُهُمْ الْعِزَّةَ وَالرِّفْعَةَ، وَالمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ.

وَكَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يُقَرِّرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ وَالمُسْلِمِينَ أَعِزَّةٌ؛ فَهُوَ كَذَلِكَ يُقَرِّرُ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ: الضَّعَةُ وَالذِّلَّةُ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ، وَأَيًّا كَانَ عَدَدُهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٠]. وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ كَافِرٍ.

وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الْبَقَرَة: ٦١]، وَهَذِهِ الذِّلَّةُ مَضْرُوبَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِنَصِّ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٢]، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٢].

هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُخَالِفُ ذَلِكَ، فَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ عَزُّوا بِقُوَّتِهِمْ، وَذَلَّ غَيْرُهُمْ بِضَعْفِهِمْ، فَفَرَضُوا سُلْطَانَهُمْ عَلَى النَّاسِ، وَبَسَطُوا نُفُوذَهُمْ عَلَى الدِّيَارِ، فَأَوَامِرُهُمْ تُنَفَّذُ عَلَى الْفَوْرِ، وَأَقْوَالُهُمْ يُنْصَتُ إِلَيْهَا، وَأَخْبَارُهُمْ هِيَ أَهَمُّ الْأَخْبَارِ، وَأَحْوَالُهُمْ الدَّاخِلِيَّةُ فِي بِلَادِهِمْ صَارَتْ تَهُمُّ الْقَاصِيَ وَالدَّانِيَ، وَقَتِيلٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُوزَنُ بِأَلْفِ قَتِيلٍ مِنْ سِوَاهُمْ!! بَلْ صَارَ الْعَالَمُ يَتَسَابَقُ لِإِرْضَائِهِمْ؛ بِتَقْدِيمِ أَبْنَائِهِ قَرَابِينَ لِمَشْرُوعَاتِهِمُ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ التَّوَسُّعِيَّةِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الْعِرَاقِ وَغَيْرِهَا!![1].

(١) رغم عدم استصدار قرار من مجلس الأمن الطاغوتي بغزو العراق فإن أمريكا قررت الحرب وحدها، وكان معها قليل من الدول المؤيدة كبريطانيا واستراليا وأسبانيا وإيطاليا، ثم =

وَمَا كَانَ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُجَافِيَ الْحَقَائِقَ، أَوْ يُخَالِفَ الْوَاقِعَ، وَلَا يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شَيْءٍ فَيَقَعُ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكَلَامُ اللَه تَعَالَى يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِعِزَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِلَّةِ الْكَافِرِينَ أَسْبَابًا، لَا يَتَخَلَّفُ الْأَصْلُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا بِتَخَلُّفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ.

فَإِقَامَةُ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَمَلُ بِشَرِيعَتِهِ فِي الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ، وَالْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فَكَمْ أَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي لَا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ! أَوِ الَّذِينَ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فِي المَسَاجِدِ! وَكَمْ أَعْدَادِ الَّذِينَ لَا يُخْرِجُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ!

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَضَعْفُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ، بَلْ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الْإِنْكَارُ يَقَعُ عَلَى مَنْ أَمَرَ بِالمَعْرُوفِ أَوْ نَهَى عَنْ الْمُنْكَرِ! بَلْ وَيُتَّهَمُ بِإِثَارَةِ الْفِتَنِ!!

وَالْأَخْذُ بِالْقُوَّةِ، وَإِعْدَادُ الْعُدَّةِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْعِزَّةِ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، سَوَاءٌ كَانَتْ قُوَّةَ الرَّمْيِ وَالسِّلَاحِ، أَوْ قُوَّةَ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ، فَمَاذَا أَعَدَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ؟!

إِنَّ قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُفَاخِرُ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَائِهِمْ قَدْ تَحَوَّلَتْ مِنَ الْقُوَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ إِلَى قُوَّةِ الْأَنْدِيَةِ الرِّيَاضِيَّةِ، وَالْبَرَامِجِ التَّرْفِيهِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ مِنْ غِنَاءٍ وَرَقْصٍ وَقِلَّةِ

= لما تورطت في العراق وطلبت من الدول إرسال جنود لحفظ الأمن بادرت كثير من الدول الغربية والآسيوية بذلك، وأرسلوا جنودهم ليقتلوا في العراق إرضاء لأمريكا!!.

حَيَاءٍ، حَتَّى صَارَ يُحْتَفَى بِالْفَائِزِينَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنَ الِاحْتِفَاءِ بِكِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ، وَحُذَّاقِ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُهَنْدِسِينَ.

يَفْعَلُ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَعْدَاءَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؛ هِيَ السَّبَبُ فِي التَّسَلُّطِ، وَبَسْطِ النُّفُوذِ، وَتَقْوِيضِ الدُّوَلِ، وَتَدْمِيرِ الْعُمْرَانِ.. يَرَوْنَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً إِعْلَامِيَّةً تُزَوِّرُ الْحَقَائِقَ، وَتُلَفِّقُ التُّهَمَ، وَتَحْشُدُ الْعَالَمَ ضِدَّهُمْ!!

وَيَرَوْنَ أَعْدَاءَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً سِيَاسِيَّةً يَلْتَفُّونَ بِهَا عَلَى الْقَرَارَاتِ، وَيَسْتَخْرِجُونَ بِهَا التَّوْصِيَاتِ الَّتِي تَخْدِمُهُمْ وَحُلَفَاءَهُمْ!!

وَيَرَوْنَهُمْ يَمْتَلِكُونَ قُوَّةً عَسْكَرِيَّةً ضَارِبَةً، تُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَتُدَمِّرُ الْمُدُنَ وَالْقُرَى!!

وَمَا يَمْتَلِكُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُوَّةٍ أَسَاءَ الْكَثِيرُونَ اسْتِخْدَامَهَا، حَتَّى سَخَّرَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الِاحْتِرَابِ بَيْنَهُمْ، وَمُقَاتَلَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ التَّفَرُّقِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الذُّلِّ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَقَدْ رَضِيَ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ بِوَاقِعِهِمْ الْمَهِينِ الذَّلِيلِ، الَّذِي يَجْعَلُ مَصِيرَهُمْ وَمَصِيرَ دُوَلِهِمْ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمْ!! وَلَا وُجُودَ لِتَفْكِيرٍ جَادٍّ، وَسَعْيٍ حَثِيثٍ لِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَاقِعِهِمْ الْمَهِينِ الْأَلِيمِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَنْتَظِرُ فَرَجًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ أَنْ يَأْخُذَ بِأَسْبَابِ هَذَا الْفَرَجِ!!

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ -وَهُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ، وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ- قَدْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ الْعِزَّةِ، وَاجْتَنَبَ أَسْبَابَ الذُّلِّ، وَلَمْ يَرْكَنْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ يَنْتَظِرِ الْفَرَجَ بِلَا عَمَلٍ؛ بَلْ كَانَ يَعْمَلُ وَيَبْنِي، وَيُوَجِّهُ وَيُرْشِدُ، وَيُوَاجِهُ الْمِحَنَ وَالْأَذَى بِالصَّبْرِ وَالْجَلَدِ؛ حَتَّى أُوذِيَ وَضُرِبَ، وَانْتَقَلَ إِلَى الطَّائِفِ يَدْعُو، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَرَكَ بِلَادَهُ وَدَارَهُ، وَجَاهَدَ وَجُرِحَ، وَشُجَّ رَأْسُهُ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،

وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، وَفَعَلَ كُلَّ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَنَّهَا اللَّهُ ﷻ لِلْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَمَعَ كُلِّ مَا عَمِلَ فَإِنَّهُ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْعَوْنَ وَالسَّدَادَ، وَكَانَ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ ذَلِكَ(٢).

وَمَا تَرَكَ ﷺ أُمَّتَهُ حَتَّى بَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَ الْعِزَّةِ؛ لِيَأْخُذُوا بِهَا، كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَ الذُّلِّ لِيَجْتَنِبُوهَا، فَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ ﷺ: **«إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»**(٣)، وَمَا بَيْعُ الْعِينَةِ أَمَامَ انْتِشَارِ الرِّبَا، وَالرَّشْوَةِ،

---

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٣٠٥-٣٢٥-٣٥٤-٥٤٠)، وأبي داود في الصلاة، باب الاستعاذة (١٥٤٤)، والنسائي في الاستعاذة، باب في الاستعاذة من الذلة (٨/ ٢٦١)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يعوذ منه رسول الله ﷺ (٣٨٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٧٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي(١/ ٥٣١-٥٤١).

(٣) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ٤٢-٨٤)، وأبو داود واللفظ له في الإجارة، باب في النهي عن بيع العينة (٣٤٦٢)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢) برقم (١٣٥٨٣)، والبيهقي (٥/ ٣١٦)، وصححه ابن القطان فيما نقله الزيلعي في نصب الراية (٤/ ١٦)، والحافظ في التلخيص الحبير(٣/ ١٩)، وأورد ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود إسنادي أحمد وأبي داود ثم قال: «وهذان إسنادان حسنان يشد أحدهما الآخر» (٩/ ٢٤٥)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٠): «وقد روى أحمد وأبو داود بإسنادين جيدين» فذكر الحديث. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٥١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٣)، وفي السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه (١١). وذكره الحافظ في البلوغ (٨٦٠) وقال: «رواه أبو داود من رواية نافع عنه، وفي إسناده مقال، ولأحمد نحوه من رواية عطاء، ورجاله ثقات، وصححه ابن القطان» وذكر الشيخ ابن باز أن هذا الحديث جاء من طرق يشد بعضها بعضًا، وأقواها رواية أحمد كما في تهميشي على البلوغ.

وتعقب الحافظ ابن حجر تصحيح ابن القطان له في التلخيص الحبير وقال: «وعندي أن الحديث الذي صححه ابن القطان معلول؛ لأنه لا يلزم من كون رجاله ثقات أن يكون =

. . . .

= صحيحًا؛ لأن الأعمش مدلس ولم يذكر سماعه من عطاء، وعطاء يحتمل أن يكون هو الخراساني فيكون من تدليس التسوية بإسقاط نافع بين عطاء وابن عمر فيرجع إلى الحديث الأول وهو المشهور» اهـ (٣/ ١٩).

وقد عقد البيهقي في سننه لهذا الحديث بابًا استوفى طرقه وأوضح علله (٥/ ٣١٦).

وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند من طريق الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر (٤٨٢٥) وضعفه في موضع آخر من حديث ابن أبي غنية أنبأنا أبو حيان عن شهر بن حوشب عن ابن عمر به (٥٠٠٧).

وجمهور العلماء: أبو حنيفة ومالك وأحمد على تحريم بيع العينة، وقال بجوازه الشافعي، وقد حقق العلامة ابن القيم تحريمه بعد أن بحثه باستفاضة في حاشيته على سنن أبي داود (٩/ ٢١٧-٢٥٠)، وفي إعلام الموقعين (٣/ ١٦٥- ١٧١) وعنه نقل تحريمه الشوكاني في نيل الأوطار (٥/ ٣١٩) وينظر في تحريمه: الموطأ (٢/ ٦٤٢)، والمغني(٩/ ٢٤٢).

وصورة العينة: «أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ثم يشتري قبل قبض الثمن بثمن نقدًا أقل من ذلك القدر».

ووجه المنع: أنه حيلة للربا، والمبيع مجرد وسيلة، وإلا فحقيقته دراهم متفاضلة حالّة بدراهم مؤجلة.

وقوله في الحديث: «**وأخذتم أذناب البقرة ورضيتم بالزرع**»، قال الصنعاني: «كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث، والرضا بالزرع كناية عن كونه قد صار همهم ونهمتهم، وتسليط الله كناية عن جعلهم أذلاء بالتسلط؛ لما في ذلك من الغلبة والقهر.

وقوله: «حتى ترجعوا إلى دينكم» أي: ترجعوا إلى الاشتغال بأعمال الدين، وفي هذه العبارة زجر بالغ وتقريع شديد، حتى جعل ذلك بمنزلة الردة، وفيه الحث على الجهاد» اهـ من سبل السلام (٥/ ١٢٧).

وقد جاء في صحيح البخاري (٢٣٢١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه رأى سكة وشيئًا من آلة الحرث فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل**»، وفي رواية: «**إلا دخله الذل**» وفي رواية أخرى: «**إلا أدخلوا على أنفسهم ذلًّا لا يخرج عنهم إلى يوم القيامة**»، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «والمراد بذلك ما يلزمهم من حقوق الأرض التي تطالبهم بها الولاة، وكان العمل في الأراضي أول ما افتتحت على أهل الذمة، فكان الصحابة يكرهون تعاطي ذلك، وقال =

. . . .

= ابن التين: هذا من إخبار النبي ﷺ بالمغيبات؛ لأن المشاهد الآن أن أكثر الظلم إنما هو على أهل الحرث» اهـ من الفتح (٥/ ٧).

وقد وجه الحافظ سياق البخاري لهذا الحديث مع حديث أنس رضي الله عنه في فضل الفرس والزرع متواليين بأن البخاري أشار إلى الجمع بينهما بأحد أمرين:

١. إما أن يحمل ما ورد من الذم على عاقبة ذلك، ومحله: ما إذا اشتغل به فضيع بسببه ما أمر بحفظه.

٢. وإما أن يحمل على ما إذا لم يضيع إلا أنه جاوز الحد فيه، ثم قال الحافظ: «والذي يظهر أن كلام أبي أمامة محمول على مَنْ يَتَعَاطَى ذلك بنفسه، أما من له عمال يعملون له، وأدخل داره الآلة المذكورة لتحفظ لهم فليس مرادًا، ويمكن الحمل على عمومه؛ فإن الذل شامل لكل من أدخل على نفسه ما يستلزم مطالبة آخر له، ولا سيما إذا كان المطالب من الولاة، وعن الداودي: هذا لمن يقرب من العدو؛ فإنه إذا اشتغل بالحرث لا يشتغل بالفروسية فيتأسد عليه العدو، فحقهم أن يشتغلوا بالفروسية، وعلى غيرهم إمدادهم بما يحتاجون إليه» اهـ من الفتح (٥/ ٧).

وقال شمس الحق آبادي: «وسبب هذا الذل -والله أعلم- أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين عاملهم بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان» اهـ عون المعبود (٩/ ٢٤٢) وقد نقله عن الشوكاني في نيل الأوطار(٥/ ٣٢٠) وذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤-١٧) كلامًا نحو ما ذكره الحافظ ابن حجر.

فائدة: قال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «عامة العينة إنما تقع من رجل مضطر إلى نفقة يضن بها عليه الموسر بالقرض حتى يربح عليه في المئة ما أحب، وهذا المضطر إن أعاد السلعة إلى بائعها فهي العينة، وإن باعها لغيره فهو التورق، وإن رجعت إلى ثالث يدخل بينهما فهو محلل الربا، والأقسام الثلاثة يعتمدها المرابون، وأخفها التورق، وقد كرهه عمر بن عبد العزيز وقال: هو أخية الربا، وعن أحمد فيه روايتان، وأشار في رواية الكراهة إلى أنه مضطر، وهذا من فقهه رضي الله عنه، قال: فإن هذا لا يدخل فيه إلا مضطر، وكان شيخنا رحمه الله -يعني ابن تيمية- يمنع من مسألة التورق، وروجع فيها مرارًا وأنا حاضر فلم يرخص فيها، وقال: المعنى الذي لأجله حرم الربا موجود فيها بعينه مع زيادة الكلفة بشراء السلعة وبيعها، والخسارة فيها، والشريعة لا تحرم الضرر الأدنى وتبيح ما هو أعلى منه» اهـ من إعلام الموقعين (٣/ ١٧٠).

وَالِاحْتِكَارِ، وَالْغِشِّ، وَأَنْوَاعِ الْبُيُوعِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي صَارَ مِنْ أَقَلِّهَا بَيْعُ الْعِينَةِ؟!

وَأَمَّا الْأَخْذُ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَالرِّضَا بِالزَّرْعِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْخُلُودِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْعَمَلِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: مَخَافَةُ الْمَوْتِ، وَتَعْطِيلُ الْجِهَادِ. وَهَذَا عَيْنُ مَا وَقَعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ، فَقَدْ سَيْطَرَ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُقُولِ؛ فَفِيهَا يَتَنَافَسُونَ! وَلِأَجْلِهَا يَتَبَاغَضُونَ! وَفِي سَبِيلِهَا يَتَقَاتَلُونَ!

إِنَّ تَعْظِيمَ الدُّنْيَا وَإِكْبَارَهَا جَعَلَ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ -بَلْ أَكْثَرَهُمْ- يَهْتَمُّونَ بِالرُّسُومِ وَالْمَبَانِي، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْأَهْدَافِ وَالْمَعَانِي، فَصَارَ وَاحِدُهُمْ يَهْتَمُّ بِلِبَاسِهِ وَمَظْهَرِهِ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمَامِهِ بِقَلْبِهِ وَمَخْبَرِهِ، وَيَحْرِصُ عَلَى دَلِّهِ وَشَكْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى هَدَفِهِ وَغَايَتِهِ، وَيَعْتَنِي بِبَيْتِهِ وَسَيَّارَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِدِينِهِ وَمَبْدَئِهِ، وَيُرَبِّي أَوْلَادَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُوصِيهِمْ بِهِ، وَأَضْحَى الْعَمَلُ لِأَجْلِ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، وَهَذَا وَاللَّهِ هُوَ أَصْلُ الذُّلِّ، وَأَسَاسُ الْبَلَاءِ.

وَمَا عَزَّ أَسْلَافُنَا فِيمَا مَضَى إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا دِينَهُمْ عَلَى حُظُوظِ أَنْفُسِهِمْ، وَاهْتَمُّوا لِأَمْرِ آخِرَتِهِمْ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمَامِهِمْ لِأَمْرِ دُنْيَاهُمْ، وَاعْتَنَوْا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَهْدَافِ وَالْغَايَاتِ وَلَوْ بَذَلُوا فِي سَبِيلِهَا الْأَرْوَاحَ وَالْأَوْطَانَ، وَالرَّاحَةَ وَالِاطْمِئْنَانَ؛ فَحَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْمَبَانِيَ وَالْمَعَانِيَ، وَحَازُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَعَاشُوا أَعِزَّةً بَيْنَ النَّاسِ؛ يَهَابُهُمُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ .. مَا أُهِينَتْ لَهُمْ كَرَامَةٌ، وَلَا دَعَسَ الْعَدُوُّ لَهُمْ عَلَى وِطَاءٍ.

هَذَا عُمَرُ رضي الله عنه خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ، يَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الشَّامِ لِاسْتِلَامِ مَفَاتِيحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ نُزُولِ النَّصَارَى عَنْهَا لِلْمُسْلِمِينَ، فَمَاذَا كَانَ مَرْكَبُهُ؟ وَمَا هِيَ هَيْئَتُهُ وَعُدَّتُهُ؟!

كَانَ ﷺ يَرْكَبُ جَمَلًا أَوْرَقَ، عَلَيْهِ قَمِيصٌ قَدِ انْخَرَقَ، وَحَقِيبَتُهُ شَمْلَةٌ أَوْ نَمِرَةٌ مَحْشُوَّةٌ لِيفًا، وَهِيَ وِسَادَتُهُ، وَوِطَاؤُهُ فَرْوُ كَبْشٍ نَجْدِيٍّ، وَهُوَ فِرَاشُهُ إِذَا نَزَلَ(٤).

هَكَذَا وَصَفَ النَّقَلَةُ مَرْكَبَهُ وَمَلْبَسَهُ، وَهَيْئَتَهُ وَعُدَّتَهُ، وَهُوَ خَلِيفَةُ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِمَامُ المُسْلِمِينَ فِي وَقْتِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الدُّوَلِ وَالأُمَمِ تَحْتَ حُكْمِهِ!!

وَلَوْ أَرَادَ ﷺ لَلَبِسَ الْحَرِيرَ، وَمَشَى عَلَى الدِّيبَاجِ، وَرَكِبَ أَصِيلَاتِ الْخَيْلِ، وَلَوْ شَاءَ لَحَمَلَ المَتَاعَ الْكَثِيرَ، وَلَأَحَاطَتْ بِهِ المَرَاكِبُ، وَحَفَّتْ بِهِ المَوَاكِبُ!! وَلَكِنْ أَنَّى لِعُمَرَ أَنْ يَهْتَمَّ بِالْهَيْئَةِ وَالمَظْهَرِ دُونَ الْغَايَةِ وَالمَخْبَرِ!!

وَلَمَّا وَصَلَ الشَّامَ، وَاسْتَقْبَلَهُ قَادَةُ الْجُنْدِ؛ سَارُوا مَعَهُ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فَعَرَضَتْ لَهُ مَخَاضَةُ طِينٍ، فَنَزَلَ عَنْ بَعِيرِهِ، وَنَزَعَ نَعْلَيْهِ فَأَمْسَكَهُمَا بِيَدِهِ، وَخَاضَ المَاءَ وَمَعَهُ بَعِيرُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ: «قَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ صُنْعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ، كَيْفَ لَوْ رَآكَ الْعَدُوُّ هَكَذَا؟! فَصَكَّ عُمَرُ فِي صَدْرِهِ، وَقَالَ: أَوَّهْ!! لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ! إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَذَلَّ النَّاسِ، وَأَحْقَرَ النَّاسِ، وَأَقَلَّ النَّاسِ، فَأَعَزَّكُمُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمُ اللهُ»(٥).

وَوَقَعَ مَا قَالَهُ عُمَرُ ﷺ؛ فَلَقَدْ طَلَبَ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ الْعِزَّ بِغَيْرِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى فَذُلُّوا وَأُهِينُوا، وَانْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُمْ، وَاسْتُبِيحَتْ دِيَارُهُمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى اللُّطْفَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَجْبُرَ مُصَابَ المُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُبَدِّلَ خَوْفَهُمْ أَمْنًا،

---

(٤) أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (١٤٠٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٠٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠) برقم (٣٣٨٤٧)، وأيضًا (٧/ ٩٣) برقم (٣٤٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (٧٨٤٧)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ١٣٠).

وَذُلَّهُمْ عِزًّا، وَضَعْفَهُمْ قُوَّةً، وَقِلَّتَهُمْ كَثْرَةً، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ . .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَفِي ذَلِكَ الْفِتْنَةُ وَالْعَذَابُ، وَالذُّلُّ وَالصَّغَارُ؛ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(٦).

---

(٦) أخرج البخاري بعضه معلقًا في الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح، قبل حديث (٢٧٥٧).

وأخرجه موصولًا بهذا اللفظ أحمد (٥٠١٢)، وأبو داود مختصرًا مقتصرًا على آخره في كتاب الحمام، باب لبس الصوف والشعر (٤٠٣١)، من طريق عثمان بن أبي شيبة ثنا أبو النضر ثنا عبدالرحمن بن ثابت ثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر به.

وأخرجه موصولًا أيضًا ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وتمام في =

. . . .

= فوائده كما في الروض البسام (٨٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٦)، والبيهقي في الشعب (١١٩٩) وابن عبد البر في التمهيد (١١/ ٢٧٦).
وأخرجه مرسلًا من حديث طاووس: ابن المبارك في الجهاد (١٠٥)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٦).
قال شيخ الإسلام بعد سياقه لإسناد أبي داود: «وهذا إسناد جيد فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال هم من رجال الصحيحين، وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي: ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم: هو ثقة، وقال أبو حاتم: هو مستقيم الحديث، وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي: هو ثقة وما علمت أحدًا يذكره بسوء، وقد سمع منه حسان بن عطية، وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث» اهـ من الاقتضاء (١/ ٨٢، ٨٣).
وقال الحافظ ابن حجر: «وأبو منيب لا يعرف اسمه، وفي الإسناد عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه، وله شاهد مرسل بإسناد حسن ... وذكر مرسل طاووس عن النبي ﷺ» اهـ من الفتح (٦/ ٩٨) ونحوه في تغليق التعليق (٣/ ٤٤٦).
وقال الذهبي في السير (١٥/ ٥٠٩): «إسناده صالح» وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٥١١٤) ثم الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١)، وقال الشيخ الألباني بعد أن ساق إسناد أحمد وأبي داود: «وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات غير ابن ثوبان هذا ففيه خلاف، وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ وتغير بأخرة» ثم ذكر الألباني الطرق الأخرى له، ينظر: الإرواء (١٢٦٩).
وضعفه محققو المسند بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط بعد أن أفاضوا في دراسة إسناده (٩/ ١٢٣-١٢٦)، وقال الشيخ جاسم الدوسري في الروض البسام (٣/ ٤٦-٤٨) بعد أن درس إسناده واستعرض رجاله وما قيل فيهم، وذكر طرقه: «فالحديث بمجموع هذا الطرق -باستثناء طريق أنس- حسن أو صحيح» اهـ.
قال المناوى: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي، قال الديلمي: يعني: الغنائم، وكان سهم منها له خاصة، يعني: إن الرمح سبب تحصيل رزقي، قال العامري: يعني: أن معظم رزقه كان من ذلك، وإلا فقد كان يأكل من جهات أخر غير الرمح، كالهدية والهبة وغيرهما. وحكمة ذلك: أنه قدوة للخاص والعام، فجعل بعض رزقه من جهة الاكتساب، وتعاطي =

أَيُّهَا النَّاسُ: قَدْ خَالَفَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَغَشِيَهُمُ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ.. أُهِينَ دِينُهُمْ، وَامْتُهِنَتْ كَرَامَتُهُمْ، وَعَظُمَتْ مَصَائِبُهُمْ، وَكَثُرَ اخْتِلَافُهُمْ، وَاسْتُبِيحَتْ دِيَارُهُمْ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ: اسْتِشْرَافَهَا، وَالْخُضُوعَ لَهَا، وَتَغْيِيرَ أَحْكَامِ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ؛ إِرْضَاءً لِهَذَا، أَوْ كَسْبًا لِذَاكَ.

إِنَّ زَمَنَ الِانْكِسَارِ هَذَا قَدْ أَوْرَثَ ذُلًّا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارَ لَهُ دُعَاتُهُ وَمُسَوِّقُوهُ الَّذِينَ لَا يَخْجَلُونَ مِنْ تَرْوِيجِهِ وَالدِّعَايَةِ لَهُ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَأَنَّهُ الْبِضَاعَةُ الْمَطْلُوبَةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ.

لَقَدْ أَفْرَزَتْ مَوْجَاتُ الذُّلِ هَذِهِ كُتَّابًا وَصَحَفِيِّينَ وَمُحَلِّلِينَ يَسْتَكْثِرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الِاعْتِرَاضَ عَلَى الِاحْتِلَالِ، وَالشِّكَايَةَ مِنَ النِّكَايَةِ، وَيُرِيدُونَ مِنَ

= الأسباب، وإنما قال: تحت ظل رمحي ولم يقل في سنان رمحي، ولا في غيره من السلاح؛ لأن رايات العرب كانت في أطراف الرماح، ولا يكون في إقامة الرماح بالرايات إلا مع النصر، وقد نصر بالرعب فهم من خوف الرمح أتوا تحت ظله؛ ولأنه جعل السنان للجهاد، وهو أكبر الطاعات فجعل له الرزق في ظله، أي: ضمنه، وإن كان لم يقصده، كذا ذكره ابن أبي جمرة، ولا يخفى تكلفه، وجعل الذل أي: الهوان والخسران، والصغار -بالفتح- أي: الضيم على من خالف أمري، فإن الله تعالى خلق خلقه قسمين: علية وسفلة، وجعل عليين مستقرًّا لعليه وأسفل سافلين مستقرًّا لسفله، وجعل أهل طاعته وطاعة رسوله الأعلين في الدارين، وأهل معصيته الأسفلين فيها، والذلة والصغار، وكما أن الذلة مضروبة على مَنْ خالف أمره، فالعز لأهل طاعته ومتابعيه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وعلى قدر متابعته تكون العزة والكفاية والفلاح، ومَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْم فهو منهم، أي: حكمه حكمهم؛ وذلك لأن كل معصية من المعاصي مِيرَاث أمة مِنَ الأُمَمِ التي أهلكها الله؛ فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود، فكل مَنْ لابس من هؤلاء شيئًا فهو منهم، وهكذا ...» اهـ من فيض القدير (٣/ ٢٤).

الضَّحِيَّةِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلْعَدُوِّ الْغَازِي الْمُحْتَلِّ؛ لِيَذْبَحَهُ، وَيُدَنِّسَ عِرْضَهُ، وَيَسْلُبَ مَالَهُ، وَيَعِيثَ فَسَادًا فِي أَرْضِهِ، دُونَ أَنْ يَتَأَوَّهَ أَوْ يَسْتَنْجِدَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَاوِمَ وَيُدَافِعَ!!

بَلْ رَاحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَزْعُمُ تَحَرُّرَ الشُّعُوبِ بِفِعْلِ الْغُزَاةِ، وَيُرَحِّبُ بِاحْتِلَالِهِمْ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ!! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى.

وَمَعَ بَالِغِ الْأَسَفِ فَقَدِ انْغَمَسَ فِي وَحْلِ الذُّلِّ هَذَا بَعْضُ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ، بِإِيجَادِ الْمُسَوِّغَاتِ، وَاخْتِرَاعِ الْمَخَارِجِ، وَلَيِّ أَعْنَاقِ النُّصُوصِ؛ بِهَدَفِ إِبْقَاءِ الْأَمْرِ عَلَى حَالِهِ، وَالرِّضَا بِالْوَاقِعِ، فَلَيْسَ بِالْإِمْكَانِ أَفْضَلُ مِمَّا كَانَ، هَكَذَا يَزْعُمُونَ!!

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ الْأَعْدَاءُ وَالْمُحْتَلُّونَ مِنْ صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى بِاحْتِلَالِ الْبِلَادِ، وَنَشْرِ الْفَسَادِ، وَمُحَاصَرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَضَرْبِهِمْ، وَحَرْقِهِمْ، وَإِبَادَتِهِمْ؛ يَتَحَدَّثُ مَنْ يَتَحَدَّثُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَفْوِهِ عَنِ الْخُصُومِ، وَرَأْفَتِهِ بِالْأَعْدَاءِ، وَكَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى الِانْتِقَامِ حَتَّى يَعْفُوا وَيَصْفَحُوا!!

إِنَّ الَّذِي يُسَامِحُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِانْتِقَامِ، وَالَّذِي يَعْفُو هُوَ مَنْ يَسْتَطِيعُ الرَّدَّ، أَمَّا الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ فَحَدِيثُهُ عَنِ السَّمَاحَةِ وَالْعَفْوِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ تَسْوِيغٍ لِعَجْزِهِ، وَتَسْوِيقٍ لِذُلِّهِ، حَالُهُ حَالُ الْعَرَبِيِّ الْقَائِلِ: «انْجُ سَعْدُ؛ فَقَدْ هَلَكَ سُعَيْدٌ»(٧).

---

(٧) هذا المثل مشهور عند العرب، وقد استشهد به زياد بن أبيه في خطبته البتراء التي هدد فيها أهل العراق كما في البيان والتبيين (٢/ ٦٣)، وتاريخ الطبري (٣/ ١٩٧)، والكامل لابن الأثير (٣/ ٣٠٥).

وقيل: استشهد به الحجاج أيضًا في خطبة له عنيفة ضد أهل العراق، كما في الفائق (٤/ ١٣٠) واللسان (٣/ ٢١٦). =

إِنَّ رَفْعَ الذُّلِّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِوَقْفَةٍ جَادَّةٍ مِنَ الْجَمِيعِ؛ يُحَاسِبُونَ فِيهَا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتُوبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِدِينِهِمْ، وَإِنَّ مُحَاصَرَةَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ فِي الْفَلُّوجَةِ وَفِي فِلَسْطِينَ(٨)، وَضَرْبَ كُلِّ مَنْ يَدِينُ بِالْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، مَا هُوَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُلٍّ ضُرِبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، كَانَ نَتِيجَةً لِلذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ، وَرَفْعُ هَذَا الذُّلِ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، فَلَيْسَ مَنُوطًا بِالْحُكُومَاتِ دُونَ الشُّعُوبِ، وَلَا هُوَ وَاجِبُ الْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَإِنْ كَانَتِ التَّبِعَاتُ وَالْوَاجِبَاتُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْوَظَائِفِ وَالْمَرَاكِزِ؛ وَلَكِنَّهُ وَاجِبُ الْجَمِيعِ.

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ عَاصٍ للَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ أَوْ بَيْتِهِ أَوْ وَظِيفَتِهِ، أَنَّهُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ هَذَا الذُّلِّ الْعَظِيمِ، وَكُلُّ مَنْ قَصَّرَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَانْهَمَكَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ لِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِلَسْطِينَ، وَفِي غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

= وأصله أنه كان لضبة بن أُد ابنان: سعد وسُعيد، فخرجا يطلبان إبلًا لهما، فرجع سعد ولم يرجع سُعيد، فكان ضبة إذا رأى سوادًا تحت الليل قال: سعد أم سُعيد؟
هذا أصل المثل، فأخذ ذلك اللفظ منه، وصار مما يتشاءم به عند العرب -والتشاؤم بمثل هذا لا يجوز-، وهو يضرب مثلًا في العناية بذي الرحم، ويضرب في الاستخبار عن الأمرين الخير والشر أيهما وقع.

(٨) حوصرت مدينة الفلوجة في العراق من قبل القوات الأمريكية حصارًا شديدًا حتى منع إيصال المواد الغذائية إليها، وذلك انتقامًا لمقتل أربعة أمريكيين وصلبهم، وتصوير العدسات ذلك، فكان العقاب الأمريكي عامًّا على كل أهل الفلوجة البالغ عددهم ثلاث مئة ألف نسمة، والطائرات تدك المدينة دكًّا شديدًا، وقد قتلوا كثيرًا من الرجال والأطفال والنساء، ودمروا بالقنابل العنقودية كثيرًا من المنازل،حتى قصفوا المسجد الجامع في المدينة، ولا يزال الحصار والضرب مستمرًّا إلى ساعة كتابة هذه الخطبة، أسأل الله تعالى أن يفرج عن إخواننا في الفلوجة، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ويثبتهم وينصرهم على عدو الإسلام والمسلمين.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَنَاظِرَ الدَّمَارِ وَالْقَتْلِ الَّتِي حَلَّتْ بِالمُسْلِمِينَ يَتَأَثَّرُونَ وَيَبْكُونَ، وَتَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِالِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُونَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يُدِيرُوا الْجِهَازَ عَلَى قَنَاةٍ رِيَاضِيَّةٍ، أَوْ تَرْفِيهِيَّةٍ، فَيَنْسَوْنَ مُصَابَ المُسْلِمِينَ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ لِمَا يَجْرِي لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أَرَادُوا نُصْرَتَهُمْ فَلْيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَلْيَرْجِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ، لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْفَعُ الذُّلَّ عَنْهُمْ، وَالْبَلَاءَ عَنْ إِخْوَانِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَأَصْلِحُوا بُيُوتَكُمْ؛ نُصْرَةً لِإِخْوَانِكُمُ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَكْثِرُوا لَهُمْ مِنَ الدُّعَاءِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ؛ عَسَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَةَ عَبْدٍ مُخْلِصٍ؛ فَيَكْشِفُ بِهَا الْكَرْبَ عَنِ المُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا غَوْثَ المُسْتَغِيثِينَ، وَيَا نَاصِرَ المُسْتَضْعَفِينَ، وَيَا مُجِيبَ دَعْوَةِ المُضْطَرِّينَ؛ أَغِثْ إِخْوَانَنَا فِي الْفَلُّوجَةِ بِالنَّصْرِ المُبِينِ، اللَّهُمَّ ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنْهُمْ، وَفُكَّ حِصَارَهُمْ، وَدَمِّرْ أَعْدَاءَهُمْ.

اللَّهُمَّ أَمِدَّهُمْ بِجُنْدِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَكَ، وَارْزُقْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَامْنَحْهُمْ رِقَابَ أَعْدَائِهِمْ أَعْدَاءِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ انْصُرِ المُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِلَسْطِينَ، وَأَفْغَانِسْتَانَ وَكَشْمِيرَ، وَالشِّيشَانِ وَالْفِلِبِّينِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ، وَيَا كَاسِرَ الْأَكَاسِرَةِ، وَيَا مُذِلَّ الْقَيَاصِرَةِ، اللَّهُمَّ اكْسِرْ شَوْكَةَ صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، وَأَخْرِجْهُمْ مِنْ دِيَارِ المُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

اللَّهُمَّ اقْذِفِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَزَلْزِلِ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، وَاجْعَلْهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، أَنْتَ

مَوْلَانَا وَمَوْلَى المُسْلِمِينَ، لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا، وَلَا تَكِلْ إِخْوَانَنَا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، وَأَنْتَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



الفهرس



مركز البيان للبحوث والدراسات ٢١٤
Al-Bayan Center for Research and Studies

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثا ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء التاسع

المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٩)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٩)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢ _ ٠٥٠٢٢١٩٢٠ _ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ _ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ _ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦

السِّير والأعلام

٣٤٧- خلق آدم عليه السلام ووفاته.

٣٤٨- في قصة موسى وفرعون.

٣٤٩- الكليم عليه السلام (١) الولادة والنشأة والهجرة.

٣٥٠- الكليم عليه السلام (٢) التكليم والرسالة.

٣٥١- من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣٥٢- رحيل النبي صلى الله عليه وسلم (١) منِ ابتداء مرضه إلى وفاته.

٣٥٣- رحيل النبي صلى الله عليه وسلم (٢) الوفاة والدفن والحزن.

٣٥٤- رحيل النبي صلى الله عليه وسلم (٣) وصاياه للأمة قبل موته.

٣٥٥- توقير السلف للنبي صلى الله عليه وسلم (١) من أخبار الصحابة رضي الله عنهم.

٣٥٦- توقير السلف للنبي صلى الله عليه وسلم (٢) من أخبار التابعين والعلماء.

٣٥٧- عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

٣٥٨- حكيم بن حزام رضي الله عنه.

٣٥٩- مقتل الشيخ أحمد ياسين.

٣٦٠- مقتل حاكم العراق.

٣٤٧- خلق آدم عليه السلام ووفاته

٢٩/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩]، غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ، وَخَلْقُهُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ؛ فَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُغِيثُ مُضْطَرًّا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا، لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى هَادِيًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ رَبِّنَا، وَكَيْفَ خَلَقَنَا، وَمَا بِدَايَتُنَا، وَكَيْفَ تَكُون نِهَايَتُنَا، وَمَاذَا يُرِيدُ مِنَّا مَنْ خَلَقَنَا وَكَلَّفَنَا، وَمَا جَزَاؤُنَا إِنْ أَطَعْنَا أَوْ عَصَيْنَا. صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ التَّقْوَى، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ لِلإِسْلَامِ الَّذِي فِيهِ الشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ، وَالْخَيْرُ وَالرَّشَادُ، وَالْجَوَابُ لِكُلِّ سُؤَالٍ، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ هَذَا الْعَامِ الَّذِي مَضَى مِنْ أَعْمَارِنَا، وَاسْتَوْدَعْنَاهُ

أَعْمالَنَا، تَعالَوْا نَتَذاكَرْ أَصْلَ خَلْقِنَا، وَبِدَايَةَ أَصْلِنَا؛ كَيْ نُدْرِكَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعالَى عَلَيْنَا، وَرَحْمَتَهُ بِنَا، وَلِنَعْرِفَ مَصِيرَنَا وَنِهَايَةَ أَمْرِنَا، فَتِلْكَ الْقَضِيَّةُ هِيَ أَعْظَمُ قَضِيَّةٍ يُفَكِّرُ فِيهَا كُلُّ عَاقِلٍ، وَهِيَ أَكْبَرُ مَسْأَلَةٍ حَيَّرَتْ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهُدَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحَادَ عَنْ طَرِيقِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ الْعَظِيمَةِ أُمَمٌ شَتَّى، وَاضْطَرَبَتْ فِيهَا عُقُولٌ عِدَّةٌ، وَحَارَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَاهْتَمَّ بِهَا النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ، وَالطَّوَائِفِ وَالنِّحَلِ؛ فَاخْتَرَعُوا فِيهَا الْأَسَاطِيرَ، وَنَسَجُوا حَوْلَهَا الْخُرَافَاتِ وَالْأَبَاطِيلَ.

إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَطِيرَةٌ . . عَلَيْهَا عِمَادُ الْفَهْمِ كُلِّهِ، وَهِيَ مُرْتَكَزُ الهُدَى أَوِ الضَّلَالِ، وَلَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِمَعْرِفَتِهَا وَحْدَهُ؛ فَهُوَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ. وَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهَا هُوَ الْوَحْيُ الْمُنَزَّلُ مِنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢].

إِنَّهَا قَضِيَّةُ خَلْقِكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ، وَبِدَايَةُ أَصْلِكَ، وَلِمَاذَا خَلَقَكَ اللهُ تَعَالَى؟ وَكَيْفَ قَدِمْتَ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا؟ وَكَيْفَ تَنْتَهِي؟ فَهَلْ تَرَوْنَ يَا عِبَادَ اللَّهِ قَضِيَّةً هِيَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ؟!

وَكَيْفَ لَا تَكُونُ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ أَعْظَمَ الْقَضَايَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ وَقَدِ اخْتَصَمَ فِيهَا المَلأُ الأَعْلَى؟! وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى اخْتِصَامَهُمْ فِي الْقُرْآنِ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٦٧-٧٢].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي حَيَّرَتْ عُقُولَ أَهْلِ الْعُقُولِ، وَضَلَّ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ، جَاءَ تَفْصِيلُهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَوْضَحِ الْعِبَارَاتِ، وَأَسْهَلِ الْأَسَالِيبِ، وَأَجْمَلِ الْقَصَصِ، بَعِيدًا عَنْ سُفْسَطَاتِ الْفَلَاسِفَةِ وَالنُّظَّارِ، وَعَنْ أَسَاطِيرِ الْقُصَّاصِ وَالضُّلَّالِ؛ فَآدَمُ عليه السلام هُوَ أَصْلُ الْبَشَرِ، خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تُرَابٍ، وَأَنْسَلَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْهُ.

أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِأَنْ خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥]، وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] إلى آخر السورة (٣١٦٢) ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).
وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم بيده» أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠٨٤)، وفي عمل اليوم والليلة (٢٢٠)، والآجُرّي في الشريعة (٧٤٩)، والطبري في تاريخه (١/ ٩٨).
وأخرجه من حديث الحارث بن نوفل عن النبي ﷺ: الدارقطني في الصفات (٢٨)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٧).
وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عند: الطبري في تفسيره (١/ ٢٠١).
وعن عمر رضي الله عنه عند: الطبري في تفسيره (٩/ ١١٤).
وعن كعب الأحبار عند: عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٣)، والطبري في تفسيره (١٨/ ١)، وابن المبارك في الزهد (١٤٥٨).
وعن حكيم بن جابر عند: ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٨)، وهناد في الزهد (٤٦). =

وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ؛ تَحِيَّةً وَتَشْرِيفًا ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧٢].

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَى صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ تَفَضُّلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ بِأَنْ أَحْسَنَ صُوَرَهُمْ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وَامْتَنَّ عَلَيْهِ فَرَكَّبَ فِيهِ آلَاتِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ: السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْعَقْلَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ، حَتَّى صَارَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ المَلَائِكَةِ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ تَعَالَى آدَمَ، وَعَلَّمَهَا آدَمُ المَلَائِكَةَ هِيَ أَسْمَاءُ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ المَلَائِكَةُ يَجْهَلُونَهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ فَيَقُولُونَ: «**يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

= وعن ابن عمر ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ بِيَدِهِ الْعَرْشَ وَعَدنَ والقَلَمَ وَآدَمَ، ثُمَّ قَالَ لِكُلِّ شيء: كُنْ فَكَانَ» أخرجه الطبري في تفسيره بسنده صحيح (٢٣/ ١١٩)، وهو وإن كان موقوفًا فله حكم الرفع؛ إذ لا يقال بالرأي، والله أعلم.

(٢) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] (٤٢٠٦) واللفظ له.

وأخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] (٣١٦٢)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

وَكَانَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ عليه السلام أَنْ عَلَّمَهُ حَمْدَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لَمَّا نُفِخَ فِي آدَمَ الرُّوحُ مَارَتْ وَطَارَتْ، فَصَارَتْ فِي رَأْسِهِ فَعَطِسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ اللهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ»** صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٣).

وَعَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى السَّلَامَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ** -نَفَرٌ مِنَ المَلَائِكَةِ جُلُوسٌ- **فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(٤).

ابْتَلَى اللهُ تَعَالَى آدَمَ بِالشَّيْطَانِ فَأَغْوَاهُ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَتَابَ آدَمُ فَتَابَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَعَلَ الِابْتِلَاءَ عَلَيْهِ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعَالَى المِيثَاقَ عَلَى آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا المِيثَاقُ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَخَذَ اللهُ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ** -يَعْنِي: عَرَفَةَ- **فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ**

---

(٣) أخرجه ابن حبان مرفوعًا (٦١٦٥)، وأخرجه موقوفًا: الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وإن كان موقوفًا، فإن إسناده صحيح بمرة، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم (٤/ ٢٦٣).
وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: ابن أبي عاصم في السنة (٢٠٥)، وصححه ابن حبان (٦١٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام (٥٨٧٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١).

ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(٥).

وَهَذَا المِيثَاقُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَخَذَهُ رَبُّنَا عَلَيْنَا مُنْذُ أَنْ خَلَقَ أَصْلَ الْبَشَرِ: أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَنِ الْتَزَمَهُ وَلَمْ يَنْقُضْهُ فَأَطَاعَ رَبَّهُ، وَعَصَى إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَلَهُ النَّعِيمُ الْأَبَدِيُّ المُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ. وَمَنْ نَقَضَهُ فَكَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَطَاعَ إِبْلِيسَ فِيمَا أَرَادَ، فَجَزَاؤُهُ الْعَذَابُ الْخَالِدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ طَبِيعَةِ هَذَا الْبَشَرِ الَّذِي خَلَقَهُ: النِّسْيَانَ وَالْخَطَأَ وَالْجُحُودَ؛ فَأَبُوهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَنْسَى فَنَسُوا، وَأَخْطَأَ فَأَخْطَأُوا، جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟**

---

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٩١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٤)، وقال الهيثمي في الزوائد (٧/ ٢٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير بعد أن أورده في تفسيره (٣/ ٥٨٤-٥٨٥): «وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم -صَاعِقَةٍ- عن حسين بن محمد المروزي به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفًا، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيرِهِ عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جَبْر به، وقال: صحيح». وصحح الحديث الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٤٥٥)، وقال تعليقًا على كلام ابن كثير السابق: «وكأن ابن كثير يريد تعليل المرفوع بالموقوف، وما هذا بعلة، والرفع زيادة من ثقة فهي مقبولة» اهـ.

قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَفِي لَفْظٍ لِأَبِي يَعْلَى: «فَرَأَى آدَمُ فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ»(٦).

مَكَثَ آدَمُ عليه السلام فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَمْكُثَ، يُحِيطُ بِهِ زَوْجُهُ حَوَّاءُ، وَأَوْلَادُهُمَا، يَعْبُدُونَ اللهَ عز وجل وَيُقِيمُونَ دِينَهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَعْدَ أَنْ قَضَى مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ عُمْرٍ اشْتَهَى الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيْ بَنِيَّ، إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ، وَمَعَهُمُ الْفُؤُوسُ، وَالْمَسَاحِي، وَالْمَكَاتِلُ، فَقَالُوا لَهُمْ: يَا بَنِي آدَمَ، مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ؟ -أَوْ مَا تُرِيدُونَ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟- قَالُوا: أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، قَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ. فَجَاءُوا، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ فَلَاذَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكِ عَنِّي فَإِنِّي إِنَّمَا أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَبَضُوهُ، وَغَسَّلُوهُ، وَكَفَّنُوهُ، وَحَنَّطُوهُ، وَحَفَرُوا

---

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: حسن صحيح (٣٠٧٦)، واللفظ له، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٧-٢٨)، وصححه ابن حبان (٦١٧٦)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٦٤)، والرواية الثانية لأبي يعلى في مسنده (٦٣٧٧).

لَهُ، وَأَلْحَدُوا لَهُ، وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلُوا قَبْرَهُ فَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ اللَّبِنَ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْقَبْرِ، ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ» أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الْمُسْنَدِ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ كَثِيرٍ[(٧)].

(٧) أخرجه موقوفًا عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٥/ ١٣٦)، والطيالسي (٥٤٩)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٣)، والبيهقي (٣/ ٤٠٤)، والضياء المقدسي في المختارة (١٢٥٠-١٢٥١)، والدارقطني (٢/ ٧١)، وهذا اللفظ في زيادات المسند.
وأخرجه مرفوعًا عبد الرزاق (٦٠٨٦)، والطيالسي (٥٤٩)، والطبراني في الأوسط (٩٢٥٥)، والدارقطني (٢/ ٧١)، والحاكم من حديث يونس بن عبيد عن الحسن عن عتي عن أبي عن النبي ﷺ وصححه فقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو مِنَ النوع الذي لا يوجد للتابعي إلا الراوي الواحد؛ فإن عتي بن ضمرة السعدي ليس له راو غير الحسن، وعندي أن الشيخين علَّلَاهُ بِعِلّة أخرى وهو أنه روي عن الحسن عن أبي دون ذكر عتي» اهـ وقال الذهبي في التلخيص(١٢٧٥): «رواه هشيم وابن علية عنه، ولم يخرجاه؛ لأن عتي بن ضمرة لم يرو عنه غير الحسن، وله علة» اهـ.
ثم رواه الحاكم من حديث يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن الحسن عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ .. فذكره مرفوعًا، دون ذكر عتي بن ضمرة بين الحسن وأُبي بن كعب رضي الله عنه، ثم قال الحاكم: «هذا لا يعلل حديث يونس بن عبيد؛ فإنه أعرف بحديث الحسن من أهل المدينة ومصر، والله أعلم» ووافقه الذهبي فيما قال (١/ ٣٤٥).
وصححه ابن كثير في البداية والنهاية إلى أبي بن كعب رضي الله عنه (١/ ٩٨)، وقال الهيثمي في الزوائد (٨/ ١٩٩): «رواه عبد الله بن أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عتي بن ضمرة وهو ثقة» اهـ.
قلت: فإن كان موقوفًا فله حكم الرفع؛ إذ لا مجال للرأي فيه، إلا أن يكون من أخبار أهل الكتاب، والله أعلم.
ولا يظهر لي تعارض هذا الحديث مع قصة ابني آدم المذكورة في سورة المائدة، وأن أحدهما لم يوار سَوْءَةَ الآخر، أي: يدفنه؛ لاحتمال أن حادثة دفن آدم عليه السلام بعد حادثة قتل ابن آدم لأخيه، قال ابن عطية في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: ٣١]. «وظاهر هذه الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم؛ ولذلك جهلت سنة المواراة، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحاق عن =

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنِ اشْتِهَاءِ آدَمَ ثِمَارَ الْجَنَّةِ عِنْدَ مَوْتِهِ حَتَّى يَسْهُلَ عَلَيْهِ المَوْتُ، قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «فَحِينَ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى نَقْلَهُ إِلَى الْجَنَّةِ بِالمَوْتِ جَعَلَ فِيهِ اشْتِهَاءَ ثِمَارِهَا تَسْهِيلًا لِلْمَوْتِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُبَالِي بِالتَّعَبِ فِي تَحْصِيلِ المَطْلُوبِ»(٨).

وَلَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ إِلَى السَّمَاءِ رَأَى أَبَاهُ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ ﷺ: «**فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه(٩).

رَحِمَ اللهُ أَبَانَا آدَمَ وَرَضِيَ عَنْهُ، وَجَمَعَنَا بِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ مَعَ بَاقِي النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، وَأَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ بِمَا

= بعض أهل العلم بما في كتب الأوائل» اهـ من المحرر الوجيز (٢/ ٨٠) ومثله في الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٩٤)، وتفسير الثعالبي (١/ ٤٥٨)، وتفسير الجلالين (١٤١)، وتفسير السعدي (٢٢٩).

وقال البغوي في تفسيره: «فلما قتله تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به؛ لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم» ينظر: معالم التنزيل (٢/ ٣٠)، وتفسير البيضاوي (٢/ ٣١٨)، وتفسير الواحدي (١/ ٣١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٢).

وقد خطَّأ الطبري في تاريخه من زعم أن آدم عليه السلام كان أول ميت في الأرض بأدلة عدة، تنظر في تاريخه (١/ ٩٤).

(٨) ينظر: حاشية المسند، ط: مؤسسة الرسالة (٣٥/ ١٦٥).

(٩) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام (٣٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٣).

عَلِمْنَا، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطْبَة الثَّانِيَة

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ فِي إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَاعْتِبَارٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَكُلُّ عَامٍ يَمْضِي يُقَرِّبُنَا مِنْ آجَالِنَا، وَيُنْقِصُ مِنْ دُنْيَانَا، وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَبَرَ بِمَا مَضَى مِنْ عُمُرٍ لِمَا يَبْقَى، وَالشَّقِيُّ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ، وَلَا يَعْمَلُ لِيَوْمِ المَعَادِ، وَمَا أَسْرَعَ مُرُورَ الْأَعْوَامِ! وَمَا أَقَلَّ مَا يَعْتَبِرُ النَّاسُ! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْغَفْلَةِ وَطُولِ الْأَمَلِ، وَنَسْأَلُهُ المُوَافَاةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَكْرِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لِأَبِينَا آدَمَ عليه السلام هُوَ تَكْرِيمٌ لَنَا، وَكَمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا أَصْلَ الْبَشَرِ وَأَبَاهُمْ آدَمَ عليه السلام.

أَوْجَدَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْعَدَمِ، وَرَبَّاهُ بِالنِّعَمِ، وَرَكَّبَ فِيهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْعَقْلَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ، كَمَا عَلَّمَ سُبْحَانَهُ بَنِي آدَمَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِمْ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ لَمْ يَخْلُقْهُمْ لما نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَمَوْجُودٌ قَبْلَهُمْ، وَدَائِمٌ بَعْدَهُمْ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَكَانَ عز وجل قَادِرًا عَلَى أَنْ يَقُولَ لِآدَمَ: كُنْ، فَيَكُونُ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمَهُ، فَخَلَقَهُ بِيَدَيْهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، فَأَيُّ تَكْرِيمٍ حَظِيَ بِهِ آدَمُ عليه السلام مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَحَظِيَتْ بِهِ ذُرِّيَّتُهُ؟! وَأَيُّ شُكْرٍ يَجِبُ عَلَى بَنِي آدَمَ تُجَاهَ خَالِقِهِمْ، وَرَازِقِهِمْ، وَالْمُتَفَضِّلِ عَلَيْهِمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ؟!

وَنِعْمَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا مَنْ آمَنَ بِالْإِسْلَامِ، وَالْتَزَمَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَهِيَ نِعْمَةُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْغَيْبِ الَّذِي مَا حَضَرْنَاهُ، وَلَا عِشْنَاهُ -أَعْنِي: أَصْلَ الْبَشَرِ، وَخَلْقَ آدَمَ وَمَا جَرَى عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى أَنْ مَاتَ، وَمَصِيرَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ- وَتِلْكَ وَاللَّهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ حُرِمَهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

فَأَقْوَامٌ مِنْهُمْ يَأْخُذُونَ هَذَا الْأَصْلَ الْعَظِيمَ، وَتِلْكَ الْقَضِيَّةَ الْخَطِيرَةَ مِنْ كُتُبِهِمُ الَّتِي طَالَتْهَا أَيْدِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، حَتَّى كَانَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ آدَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِصَالِحِي الْبَشَرِ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام؟! بَلْ تَحْوِي طَعْنًا فِي اللَّهِ عز وجل، وَاعْتِدَاءً عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا فِي تَوْرَاةِ الْيَهُودِ الْمُحَرَّفَةِ!!

وَأَقْوَامٌ آخَرُونَ أَضْنَاهُمُ الْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَقَلَّبُوا فِيهَا كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُلْحِدِينَ، وَأَضَاعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَمَا تَوَصَّلُوا إِلَّا إِلَى

الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ، وَالْأَوْهَامِ الْكَاسِدَةِ الَّتِي لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، فَحَكَوْا أَنَّ الْإِنْسَانَ وُجِدَ صُدْفَةً، وَأَنَّهُ مُتَطَوِّرٌ مِنْ طُفَيْلِيٍّ إِلَى حَشَرَةٍ إِلَى حَيَوَانٍ صَغِيرٍ إِلَى أَكْبَرَ مِنْهُ حَتَّى صَارَ قِرْدًا، ثُمَّ إِنْسَانًا سَوِيًّا، وَسَيَظَلُّ فِي تَطَوُّرِهِ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ إِنْسَانًا طَائِرًا عِنْدَهُ قُدْرَاتٌ خَارِقَةٌ!!

وَمَا يُعْرَضُ عَلَى أَطْفَالِنَا فِي بَعْضِ الرُّسُومِ الْمُتَحَرِّكَةِ يَنْبُعُ مِنْ تِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ الْإِلْحَادِيَّةِ الَّتِي تُنْكِرُ وُجُودَ الْخَالِقِ ﷻ(١٠).

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: مَا انْتَشَرَ عِنْدَ دَارِسِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَنِ الْإِنْسَانِ الْبُدَائِيِّ الَّذِي صَوَّرُوهُ بِأَنَّهُ مُتَوَحِّشٌ لَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَسْتُرُ أَكْثَرَ جَسَدِهِ، وَيَحْمِلُ عَصًا غَلِيظَةً، وَيَعِيشُ مَعَ الْوَحْشِ .. إِلَى آخِرِ ذَلِكَ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، فَهَلْ كَانَ أَبُونَا آدَمُ عليه السلام وَأَبْنَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا صَوَّرَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ؟!

إِنَّ أَبَانَا آدَمَ عليه السلام قَدْ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ عَالِمٌ نَبِيٌّ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَعَلَّمَهُ عِلْمًا لَا يَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ لِبَاسًا يُوَارِي جَسَدَهُ، وَعَاشَ عليه السلام عِيشَةَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُكَرَّمِينَ، يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيُعَلِّمُ بَنِيهِ أَحْكَامَ دِينِهِمْ، وَعَلَاقَتَهُمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ.

وَقَدْ عَرَفْنَا فِيمَا مَضَى مِنْ حَدِيثِ قِصَّتِهِ عليه السلام مِنْ بِدَايَةِ خَلْقِهِ إِلَى وَفَاتِهِ مِنْ خِلَالِ الْكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَهَلْ مَا عَرَفْنَاهُ يَتَوَافَقُ مَعَ مَا يَتَنَاقَلُهُ مَنْ يُسَمَّوْنَ بِعُلَمَاءِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْبَاحِثِينَ فِي أَصْلِ الْإِنْسَانِ وَبِدَايَتِهِ وَنِهَايَتِهِ؟!

إِنَّ مَعْرِفَةَ أَصْلِ الْبَشَرِ وَنِهَايَتِهِمْ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَيْنَا؛ فَهَدَانَا لِلْمَصَادِرِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي كَشَفَتْ لَنَا عِلْمَ ذَلِكَ، وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَهَذَا يُوجِبُ عَلَيْنَا شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالتَّمَسُّكَ بِدِينِنَا، وَتَعْظِيمَ

---

(١٠) وذلك مثل برامج الأطفال المنقولة إلى العربية وأصلها أجنبية «سبرمان، باتمان» ونحوها.

نُصُوصِنَا، وَالْأَخْذَ بِهَا، وَبِنَاءَ مَنَاهِجِنَا عَلَيْهَا، وَتَعْلِيمَهَا أَوْلَادَنَا، وَعَدَمَ التَّفْرِيطِ فِيهَا، أَوِ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا، مَهْمَا قَالَ الْمُخَذِّلُونَ، وَأَرْجَفَ الْمُرْجِفُونَ؛ فَلَا حَقَّ يُعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ وَافَقَهُمَا وَلَمْ يُعَارِضْهُمَا، وَمَا عَارَضَهُمَا فَهُوَ الْبَاطِلُ وَالْجَهْلُ وَالضَّلَالُ، فَهَلْ يَسْتَبْدِلُ عَاقِلٌ الْيَقِينَ بِالْأَوْهَامِ، وَالْعِلْمَ بِالْجَهْلِ، وَالْهُدَى بِالضَّلَالِ؟!

لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ طُمِسَتْ بَصِيرَتُهُ، وَزَاغَ قَلْبُهُ، وَعَمِيَ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَخُذُوا مِنْ قِصَّةِ أَبِيكُمْ آدَمَ عليه السلام الْعِظَةَ وَالْعِبْرَةَ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، وَتَزَوَّدُوا مِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَمِنْ شَبَابِكُم لِهَرَمِكُمْ، وَمِنْ صِحَّتِكُمْ لِسَقَمِكُمْ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي سِرَاعًا كَمَا قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَكُمْ، وَمَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا عَمَلُهُمْ كَمَا لَا يَبْقَى لَكُمْ إِلَّا عَمَلُكُمْ، وَقَدْ عَاشَ أَبُوكُمْ آدَمُ عليه السلام أَلْفَ سَنَةٍ(١١)، وَمَضَتْ فَمَضَى، وَسَتَمْضِي أَعْمَارُكُمْ كَمَا مَضَتْ أَعْمَارُ مَنْ كَانُوا قَبْلَكُمْ.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



---

(١١) دليل ذلك ما جاء في بعض روايات حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٦) وفيه: فقال آدم عليه السلام لما جاء ملك الموت لقبضه: «قد عجلت قد كتب لي ألف سنة ... الحديث» وهذه الرواية للترمذي (٣٣٦٨)، وصححها ابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٦٤).

٣٤٨- في قصة موسى وفرعون

٨/ ١/ ١٤١٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ بِيَدِهِ الأَمْرُ، وَمِنْ عِنْدِهِ النَّصْرُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَكْبِتُ أَعْدَاءَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُمْلِي لِلظَّالِمِينَ، وَيُمْهِلُ الطَّاغِينَ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُمْ لَمْ يُفْلِتْهُمْ، إِنَّ أَخْذَه أَلِيمٌ شَدِيدٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَعِدَتْ بِبَعْثِهِ الأُمَمُ، وَعَظُمَتْ بِهِ المِنَنُ، فَكَانَ لِلْبَشَرِيَّةِ أَكْبَرُ نِعْمَةٍ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَجَابُوا الدَّاعِي، فَنَصَرُوا الدِّينَ، وَجَاهَدُوا حَتَّى أَتَاهُمُ الْيَقِينُ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- حَقَّ التَّقْوَى.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى نُورٌ وَهُدًى، وَمَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَنَا، وَخَبَرُ مَا بَعْدَنَا، وَحُكْمُ مَا بَيْنَنَا. عَقِيدَةٌ وَتَوْحِيدٌ، وَأَحْكَامٌ وَتَشْرِيعٌ، وَقَصَصٌ وَأَخْبَارٌ، وَمَوَاعِظُ وَأَذْكَارٌ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وَفِي قِصَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْقَصَصِ، وَمَوْعِظَةٍ مِنْ أَبْلَغِ الْمَوَاعِظِ، تَكَرَّرَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا، مُخْتَصَرَةً وَمُفَصَّلَةً، أَفَاضَتْ سُوَرٌ فِي سَرْدِ أَحْدَاثِهَا، وَاقْتَصَرَتْ سُوَرٌ أُخْرَى عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا، تَحْكِي تِلْكُمُ الْقِصَّةُ مَا جَرَى لِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ طَاغُوتٍ مِنْ طَوَاغِيتِ الأَرْضِ، وَشَيْطَانٍ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ.

إِنَّهَا قِصَّةُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ مَعَ فِرْعَوْنَ -عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَسْتَحِقُّ- فِرْعَوْنُ الَّذِي طَغَى وَتَجَبَّرَ؛ ظَلَمَ الْعِبَادَ، وَكَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ.

فِرْعَوْنُ الَّذِي لَمَّا عَلِمَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَخْبَرَ أَنَّ قَتْلَ مَلِكِ مِصْرَ سَيَكُونُ عَلَى يَدِ وَاحِدٍ مِنْ صُلْبِهِ، أَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلِّهِمْ؛ احْتِرَازًا مِنْ ذَلِكَ[١].

فِرْعَوْنُ الَّذِي كَانَ يُرْسِلُ النِّسَاءَ يَدُرْنَ عَلَى بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَنْ رَأَيْنَ عَلَيْهَا آثَارَ الْحَمْلِ؛ رَصَدْنَ اسْمَهَا حَتَّى يَنْظُرْنَ مَاذَا تَضَعُ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَجَبَ ذَبْحُهُ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ[٢]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فِرْعَوْنُ الَّذِي شُرِّدَ مُوسَى عليه السلام بِسَبَبِهِ، وَاغْتَرَبَ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ، وَذَاقَ أَلَمَ الْجُوعِ وَالْحِرْمَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَوَرَقُ الشَّجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا، فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمَيْهِ -أَيْ: جِلْدُ قَدَمَيْهِ- وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّ بَطْنَهُ لَلَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ»[٣].

وَهَكَذَا يَفْعَلُ الطُّغَاةُ الْجَبَابِرَةُ الْبَرَابِرَةُ بِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ.

فِرْعَوْنُ الَّذِي سُجِّلَ فِي التَّارِيخِ بِصَفَحَاتٍ سَوْدَاءَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ النَّاسَ، وَقَطَعَ الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ، فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[٤]، وَهَكَذَا يُسَجَّلُ فِي التَّارِيخِ كُلُّ جَبَّارٍ ظَالِمٍ بِسُوءِ عَمَلِهِ، حَتَّى يُبْغِضَهُ النَّاسُ وَيَذْكُرُوهُ بِسُوءٍ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: لَمَّا أَرَادَ اللهُ عز وجل أَنْ يُهْلِكَ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِ مُوسَى

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).
(٣) البداية والنهاية (١/ ٢٤٣).
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣).

قَضَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ لَا تَظْهَرَ أَعْرَاضُ الْحَمْلِ وَآثَارُهُ عَلَى أُمِّهِ، حَتَّى وَضَعَتْهُ، وَلَمَّا يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ رَغْمَ الرِّقَابَةِ وَالتَّفْتِيشِ(٥).

ثُمَّ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ وَتُلْقِيَهُ فِي النَّهْرِ، فَفَعَلَتْ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، وَشَفَعَتْ فِيهِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَلَّا يَقْتُلَهُ وَقَالَتْ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ [القصص: ٩]، فَقَضَى اللهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَتَرَبَّى مُوسَى فِي قَصْرِ عَدُوِّهِ.

احْتَاجَ مُوسَى إِلَى الرَّضَاعِ، فَأُحْضِرَتِ المَرَاضِعُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْتَقِمْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأُمِّهِ حَتَّى يُرْجِعَهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ تَوَجَّسَتْ خِيفَةً عَلَيْهِ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٣-١٤].

ثُمَّ خَرَجَ ﷺ مِنَ المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ بَعْدَ مَا قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِسَبَبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ، خَرَجَ يُرَدِّدُ هَذَا الدُّعَاءَ: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

وَسَقَى لِلْفَتَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُرِيدَانِ أَنْ تَسْقِيَا وَلَا تَسْتَطِيعَانِ مُزَاحَمَةَ الرِّجَالِ، وَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، لَكِنَّهُ مُؤْمِنٌ بِرَبِّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقٌ بِوَعْدِهِ سُبْحَانَهُ، يَلْهَجُ بِهَذَا الدُّعَاءِ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَاؤُهُ يُلَاقُونَ هَذَا فِي الدُّنْيَا؛ لِحَقَارَتِهَا، وَقِلَّةِ وَزْنِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

وَبَيْنَمَا مُوسَى عَلَى هَذَا الْحَالِ مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى جَاءَهُ الْفَرَجُ بِمَجِيءِ

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ تَدْعُوهُ لِيَذْهَبَ مَعَهَا إِلَى أَبِيهَا لِيُعْطِيَهُ أُجْرَةَ سَقْيِهِ لَهُمْ، وَسَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَامَهَا وَهِيَ تَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِذَا أَخْطَأَ حَذَفَتْ إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ بِحَصًى حَتَّى يَعْلَمَهُ(٦)؛ وَذَلِكَ عِفَّةً مِنْهُ؛ لِئَلَّا يَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَمْشِي، حَتَّى وَصَلَا إِلَى أَبِيهَا، فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ، وَأَخْبَرَهُ بِخَوْفِهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ، فَأَمَّنَهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَقَالَ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

ثُمَّ اسْتَأْجَرَهُ يَرْعَى الْغَنَمَ ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ أَوْ عَشَرَةً عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ، فَفَعَلَ، وَقَضَى مُوسَى الأَجَلَ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ إِلَى بِلَادِهِ، وَأَثْنَاءَ مَسِيرِهِ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩-٣٠].

كَلَّمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ مُبَاشَرَةً، فَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ لَهُ الآيَاتِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى فِرْعَوْنَ لِيَدْعُوَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ كَفَرَ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الطُّغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَالظَّلَمَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] مُسْتَنْكِرًا، وَعَنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ مُسْتَكْبِرًا ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤-٢٨].

فَادَّعَى فِرْعَوْنُ الرُّبُوبِيَّةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَجَنَحَ إِلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، فَقَالَ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وَخَطَبَ

(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٦).

النَّاسَ فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وَقَالَ مُسْتَهْزِئًا: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وَفِي مُحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ مِنْ مُوسَى ﷺ لِإِقْنَاعِهِ وَإِزَالَةِ كِبْرِيَائِهِ وَتَعْبِيدِهِ لِلَّهِ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ۝٣٠ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

وَلَكِنَّ عَادَةَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ لَمْ تُخْطِئْ فِرْعَوْنَ؛ فَأَعْرَضَ عَنِ الْآيَاتِ، وَاتَّهَمَ مُوسَى بِالسِّحْرِ، وَنَادَى فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا يَبْتَغِي السَّحَرَةَ كُلَّهُمْ لِمُقَارَعَةِ حُجَّةِ مُوسَى ﷺ، وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْبَالِغَةِ لِيَظْهَرَ الْحَقُّ أَمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه: ٥٨-٥٩]، فَالمَوْعِدُ لِلْمُقَارَعَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ هُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ عِنْدَهُمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا وَيَنْظُرُوا.

اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ؛ لِيَنْظُرُوا الْكَاذِبَ مِنَ الصَّادِقِ، قَالَ السَّحَرَةُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۝٦٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، وَإِنَّمَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُلْقُوا أَوَّلًا؛ حَتَّى يَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَسِحْرَهُمْ، ثُمَّ يُلْقِي عَصَاهُ لِيَدْحَضَ حُجَّتَهُمْ، وَيُثْبِتَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ سِحْرًا(٧).

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، عِنْدَ ذَلِكَ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، وَخَشِيَ أَنْ يُفْتَتَنَ النَّاسُ بِعَمَلِ السَّحَرَةِ،

---

(٧) ينظر: شفاء العليل لابن القيم (٢٢٤).

وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْعَصِيبَةِ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

وَلِأَنَّ السَّحَرَةَ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ السِّحْرِ وَمَاهِيَتَهُ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عليه السلام لَيْسَ سِحْرًا، وَإِنَّمَا آيَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِدْقِهِ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى وَصَدَّقُوهُ ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

وَلِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ طَالِبًا لِلْحَقِّ، وَلَا مُتَحَرِّيًا لِلصِّدْقِ؛ فَقَدْ رَمَى السَّحَرَةَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ، وَهَكَذَا أَعْدَاءُ الدِّينِ فِي الْحَاضِرِ وَالْغَابِرِ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَخْذِ إِذْنِهِمْ، وَالْحُصُولِ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ولَكِنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي خَالَطَ قُلُوبَهُمْ، وَسَمَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَقَفَ حَاجِزًا مَتِينًا أَمَامَ هَذِهِ التَّهْدِيدَاتِ، وَقَوَّاهُمْ لِمُوَاجَهَةِ الِابْتِلَاءَاتِ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١].

وَبَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ، وَزُهُوقِ الْبَاطِلِ، وَاشْتِدَادِ الْبَلَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فَحَشَدَ فِرْعَوْنُ جُنُودَهُ وَعَسَاكِرَهُ لِلِّحَاقِ بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْبَطْشِ بِهِمْ.

إِنَّهَا هِجْرَةُ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَالْفِرَارُ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، وَلَكِنَّ الظَّالِمَ يَبْحَثُ عَنْ مَصْرَعِهِ فَأَبَى إِلَّا اللِّحَاقَ بِهِمْ لِاسْتِئْصَالِهِمْ، فَكَانَ الْبَحْرُ حَاجِزًا لِمُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْمَسِيرِ، وَكَانَ مَوْقِفَ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ، لَا يَثْبُتُ

فِيهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، يَتَجَلَّى التَّوَكُّلُ فِيهِ فِي أَحْسَنِ صُوَرِهِ، وَيَظْهَرُ الْيَقِينُ فِي أَبْهَى حُلَلِهِ، فَالْبَحْرُ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ وَرَاءَهُمْ، وَيَكَادُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِمْ، وَبَلَغَ الْخَوْفُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى مَبْلَغَهُ، حَتَّى قَالُوا لِمُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فَأَجَابَهُمْ ﷺ إِجَابَةَ الْمُؤْمِنِ بِرَبِّهِ، الْمُصَدِّقِ بِوَعْدِهِ ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فَتَنْزِلُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَأْتِيهِمُ الْفَرَجُ بَعْدَ طُولِ صَبْرٍ، وَتَزُولُ الشِّدَّةُ، وَيَذْهَبُ الْكَرْبُ، فَتُحَقَّقُ الْمُعْجِزَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَدِ مُوسَى، وَتَحِقُّ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ٦٣-٦٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطبَة الثانِيَة

الْحَمْدُ للَّهِ عَلَا وَقَهَرَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَتَبَ النَّصْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَدَالَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: خَبَرُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ مَلِيءٌ بِالْعِبَرِ، جَدِيرٌ بِالتَّأَمُّلِ، وَالْقُرْآنُ بِعِبَارَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَاقَ كُلَّ عِبَارَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَأُسْلُوبٍ، فَهَلْ يَحْصُلُ مِنَّا الْتِفَاتَةُ

تَأَمُّلٍ وَنَظَرٍ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ، فَنَقْرَأُهَا بِتَدَبُّرٍ فِي سُوَرِ: الْأَعْرَافِ، وَيُونُسَ، وَطه، وَالشُّعَرَاءِ، وَالنَّمْلِ، وَالْقَصَصِ، وَغَافِرٍ، وَالزُّخْرُفِ، وَالنَّازِعَاتِ، فَلَنْ نَجِدَ أَجْمَلَ مِنْ عَرْضِ الْقُرْآنِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: وَشُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ حِينَ نَجَّى مُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَالْكَافِرِينَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي ظَفِرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[(٨)].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه: «**وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»[(٩)].

فَصُومُوهُ رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى؛ تَحْصِيلًا لِلْأَجْرِ، وَشُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى النَّصْرِ، وَصُومُوا التَّاسِعَ مَعَ الْعَاشِرِ؛ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَمُوَافَقَةً لِلسُّنَّةِ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ الْمُسْدَاةِ . .



---

(٨) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٧-٧٩] (٤٤٦٠)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٩) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

٣٤٩- الكليم عليه السلام (١)
الولادة والنشأة والهجرة

٧/ ١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الْحَجّ: ٧٥-٧٦]، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ، عَدْلٌ فِي أَحْكَامِهِ وَعُقُوبَاتِهِ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ، وَجَعَلَهُ إِمَامَ الرُّسُلِ، وَصَرَفَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ شَتْمَ قُرَيْشٍ وَأَذَاهُمْ، قَالَ ﷺ: «**أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ**»[١]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ عَامٍ يَمْضِي إِنَّمَا يَمْضِي مِنْ أَعْمَارِكُمْ، وَأَنَّ كُلَّ عَامٍ يَأْتِي إِنَّمَا يُقَرِّبُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ، فَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُمْ لِآخِرَتِكُمْ، وَفِي حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَتَفَاضَلُ الْبَشَرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقَدْرِ صَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَحْدَهُ ﷻ، وَكُلُّ

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٣٤٠).

مَا فِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَالصَّلَاحِ وَالتُّقَى إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَهُوَ الَّذِي هَدَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ.

وَقَدِ اخْتَصَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْبَشَرِ بِمَنَازِلَ وَمَقَامَاتٍ لَا تُكْتَسَبُ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَحْضُ اصْطِفَاءٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ كَمَا اخْتَصَّ الْأَنْبِيَاءَ بِالنُّبُوَّةِ، وَالرُّسُلَ بِالرِّسَالَةِ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ.

وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ هُمْ قُدْوَةُ الْبَشَرِ، وَهُمْ هِدَايَةُ الْخَلْقِ، وَهُمُ الْوَاسِطَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَيُشَرِّعُ لَهُمْ شَرَائِعَهُ، وَيَهْدِيهِمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ يُبَلِّغُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى رِسَالَاتِهِ، وَيَهْدُونَ النَّاسَ لِشَرِيعَتِهِ، فَوَجَبَ عَلَى الْبَشَرِ تَصْدِيقُهُمْ وَالْإِيمَانُ بِهِمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

وَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أُوذِيَ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَنَالَهُ مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ مَا نَالَهُ، وَابْتُلِيَ بِهِ قَوْمُهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَالْمُؤْمِنُ لَهُ إِيمَانُهُ، وَالْكَافِرُ عَلَيْهِ كُفْرُهُ.

وَمِنْ أَشْهَرِ الرُّسُلِ ذِكْرًا، وَمِنْ أَكْثَرِهِمُ ابْتِلَاءً: كَلِيمُ اللَّهِ تَعَالَى مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَقَدِ ابْتُلِيَ بِأَشْهَرِ طَاغِيَةٍ عَبَّدَ النَّاسَ لِنَفْسِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ ابْتِلَاءُ قَوْمِ مُوسَى بِهَذَا الطَّاغُوتِ قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ كَانَ يُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ، بِسَبَبِ مَا عَلِمَهُ مِنْ أَنَّ زَوَالَ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ سَيَكُونُ عَلَى يَدِ وَاحِدٍ مِمَّنْ يَسْتَضْعِفُهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمْعَنَ فِي قَتْلِ أَبْنَائِهِمْ حَتَّى كَانَ جُنْدُهُ يُحْصُونَ الْحَوَامِلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِقَتْلِ مَنْ يُولَدُ مِنَ الْأَبْنَاءِ، وَاسْتِبْقَاءِ مَنْ يُولَدُ مِنَ الْبَنَاتِ.

عَظُمَ بِذَلِكَ كَرْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاشْتَدَّتْ مِحْنَتُهُمْ، وَكَمْ مِنْ أَبَوَيْنِ بَكَيَا ابْنًا أَوْ أَبْنَاءً لَهُمَا، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا احْتِيَاطًا لِمُلْكِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْقَصَص: ٤].

لَقَدْ كَانَ هَذَا مِنَ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي أُصِيبَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَمِنَّتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ نَجَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِبَعْثَةِ مُوسَى عليه السلام ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٩].

وَكَادَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ تَفْنَى وَهُمُ الْمُسَخَّرُونَ فِي خِدْمَةِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِإِبْقَاءِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَنَةً، وَقَتْلِهِمْ سَنَةً أُخْرَى، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعُتُوِّهِ، وَإِلَّا فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْغُلَامَ الَّذِي يُهَدِّدُ مُلْكَهُ قَدْ يُولَدُ فِي عَامِ الِاسْتِبْقَاءِ(٢).

وَيُقَدِّرُ اللهُ عز وجل أَنْ يُولَدَ هَارُونُ عليه السلام فِي سَنَةِ الِاسْتِبْقَاءِ، وَحَمَلَتْ أُمُّهُ بِمُوسَى عليه السلام فِي سَنَةِ الْقَتْلِ، فَعَظُمَ بِهِ كَرْبُهَا، وَازْدَادَ هَمُّهَا، وَعَزَمَتْ عَلَى إِخْفَاءِ حَمْلِهَا، فَاحْتَاطَتْ حَتَّى آنَ وَضْعُهُ، فَوَضَعَتْهُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْ عُيُونِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى فِي رُوعِهَا أَنْ تُخْفِيَهُ فِي تَابُوتٍ وَتَضَعَهُ فِي النِّيلِ، وَكَانَتْ دَارُهَا عَلَى سَاحِلِهِ.

فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَمْضِيَ قَضَاؤُهُ، وَأَنْ يَنْفُذَ أَمْرُهُ، وَأَنْ يَتَرَبَّى مُوسَى فِي بَيْتِ عَدُوِّهِ؛ وَضَعَتْهُ فِي التَّابُوتِ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي النَّهْرِ، فَمَضَى التَّابُوتُ فِي الْمَاءِ

---

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٧٣)، وتفسير البغوي (١/ ٧٠)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٧٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى[٣] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصَص: ٧]. فَكَانَ هَذَا الْحِفْظُ وَالرِّعَايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَأَكْبَرِ الْبِشَارَاتِ لِأُمِّهِ عليها السلام، وَلَا بِشَارَةَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا حِينَ بُشِّرَتْ بِأَنَّ ابْنَهَا سَيَكُونُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى عليه السلام بِهَذَا الْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ لَمَّا خَاطَبَهُ بِالرِّسَالَةِ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

وَمِنْ عَجِيبِ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ رِعَايَتَهُ سُبْحَانَهُ وَحِفْظَهُ وَعِنَايَتَهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِمُوسَى عليه السلام مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَأُمُّهُ عليها السلام لَمَّا أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ وَفَقَدَتْهُ اشْتَدَّ خَوْفُهَا عَلَيْهِ، وَحَزِنَتْ حُزْنًا شَدِيدًا، وَكَادَتْ أَنْ تَكْشِفَ سِرَّهَا، وَتُظْهِرَ لِعَدُوِّهَا أَمْرَ طِفْلِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَهَا، وَرَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ رِعَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا وَلِوَلَدِهَا عليهما السلام ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْقَصَص: ١٠].

ثُمَّ إِنَّ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ تَدْبِيرِهِ فِي ذَلِكَ: أَنْ أَلْقَى الْمَحَبَّةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، فَمَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ رَغْمًا عَنْهُ؛ لِيَقَعَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ فِي بَيْتِ عَدُوِّهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ لِمُوسَى عليه السلام فِي مَعْرِضِ مِنَّتِهِ عَلَيْهِ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ يَظْفَرَ بِطِفْلِ النِّيلِ أَفْرَادٌ مِنْ بَيْتِ فِرْعَوْنَ فَيَأْتُونَ بِهِ إِلَى زَوْجِهِ، وَكَانَتْ لَا تُنْجِبُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ تَهْيِئَةِ مَكَانٍ لِمُوسَى فِي بَيْتِ

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١)، وأضواء البيان (٤/ ١٠).

فِرْعَوْنَ، وَفِي قَلْبِ زَوْجَتِهِ؛ وَلَرُبَّمَا لَوْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ هَذَا التَّعَلُّقَ.

إِنَّهَا رَأَتْهُ فَأَحَبَّتْهُ فَشَفَعَتْ فِيهِ لَدَى فِرْعَوْنَ وَخَاطَبَتْهُ قَائِلَةً: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [الْقَصَص: ٩] إِنَّهَا تُجَادِلُ عَنْهُ، وَتَشْفَعُ فِيهِ، وَتُحَاوِرُ فِرْعَوْنَ لِأَجْلِهِ، وَهِيَ وَفِرْعَوْنُ لَا يَعْلَمَانِ إِرَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْغُلَامِ، وَأَنَّ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ سَيَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّ مُلْكَ الْفَرَاعِنَةِ سَيَؤُولُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِسَبَبِهِ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ المُحَاوَرَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الْقَصَص: ٩]؛ أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ مَا خُبِّئَ لَهُمْ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي يَتَحَاوَرَانِ فِيهِ.

وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَتْ لَهُ: قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكِ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَلَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللهُ تَعَالَى كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حُرِمَهُ»(٤).

وَقَدِ انْتَفَعَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِمَقُولَتِهَا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إِذْ نَفَعَهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَهَدَاهَا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى يَدَيْهِ، وَضَرَبَ سُبْحَانَهُ المَثَلَ بِإِيمَانِهَا فِي الْقُرْآنِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التَّحْرِيم: ١١].

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمِ يُعَلِّقُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «بِأَنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ»(٥).

---

(٤) هذا جزء من حديث الفتون، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٢٦)، وأبو يعلى (٢٦١٨)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٤).

(٥) البداية والنهاية (٢/ ٣٨).

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْطِقَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَمَا ضَرَّ فِرْعَوْنُ لَوْ سَكَتَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِالسُّوءِ، وَلَكِنْ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ أَصَابَتْهُ سِهَامُهُ، وَنَالَتْهُ أَسْبَابُهُ.

وَكَمْ مِنْ أَبٍ يُقَالُ لَهُ: هَذَا وَلَدُكَ يَنْفَعُكَ غَدًا فِي كِبَرِكَ، فَيَقُولُ: لَا، أَوْ لَا أَحْتَاجُ إِلَى نَفْعِهِمْ، فَيُجْرِي اللهُ تَعَالَى حُكْمَهُ فِيهِمْ عَلَى مَا قَالَ أَبُوهُمْ.

وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى وَعْدَهُ، وَمَكَّنَ لِعَبْدِهِ، وَأَوْفَى لِأُمِّ مُوسَى مَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّ وَلِيدِهَا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فَجَاعَ الرَّضِيعُ وَلَمْ يَلْتَقِمْ ثَدْيًا، وَلَمْ يَقْبَلْ طَعَامًا، وَلَا وَجَدُوا حِيلَةً لِإِرْضَاعِهِ، وَإِسْكَانِ جُوعِهِ، وَإِسْكَاتِ صِيَاحِهِ، وَكَانَ مِنْ قَلَقِ أُمِّهِ عَلَيْهِ أَنْ أَرْسَلَتْ أُخْتَهُ تَلْتَمِسُ خَبَرَهُ، فَرَأَتْهُ يُدَارُ بِهِ عَلَى النِّسَاءِ لَعَلَّهُ يَقْبَلُ إِحْدَاهُنَّ فَيَرْضَعُ مِنْهَا، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِمْ بِبَيْتِهَا وَأُمِّهَا، فَعَادَ الرَّضِيعُ إِلَى حُضْنِ أُمِّهِ، وَالْتَقَمَ ثَدْيَهَا، وَشَبِعَ مِنْ لَبَنِهَا، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١١-١٣].

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ لَمَّا كَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ﴾ [طه: ٤٠].

عَاشَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قُصُورِ فِرْعَوْنَ يَأْكُلُ أَطْيَبَ الطَّعَامِ، وَيَلْبَسُ أَحْسَنَ اللِّبَاسِ، وَيَرْكَبُ أَفْضَلَ الْمَرَاكِبِ، وَيَتَمَتَّعُ بِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَصَدَقَ سُبْحَانَهُ إِذْ خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْفَتَى مَبْلَغَ الرِّجَالِ، وَاسْتَحْكَمَ خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ، وَكَمَّلَ أَرْبَعِينَ

سَنَةً(٦)، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالنُّبُوَّةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الْقَصَص: ١٤]. وَبِذَلِكَ تَمَّتْ مَوْعِدَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِأُمِّ مُوسَى عليه السلام حِينَ قَالَ لَهَا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصَص: ٧].

وَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام أَسْبَابَ الْهِجْرَةِ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ بِسَبَبِ قَتْلِهِ لِلْقِبْطِيِّ الَّذِي اعْتَدَى عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَصَارَ بِسَبَبِهِ مَطْلُوبًا لَدَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٩].

وَلَا يَزَالُ اللهُ تَعَالَى يَحُوطُهُ بِرِعَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ مَكْرِ عَدُوِّهِ وَبَطْشِهِ؛ إِذْ سَخَّرَ لَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ قَتْلِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هِجْرَتِهِ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

هَاجَرَ مُوسَى عليه السلام خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ، وَلَيْسَ مَعَهُ طَعَامٌ وَلَا مَتَاعٌ،

(٦) تفسير البغوي (٣/ ٤٣٨)، وتفسير السعدي (١/ ٦١٣).

وَهَكَذَا الرُّسُلُ ﷺ تُبْتَلَى بِالْجُوعِ وَالشِّدَّةِ، وَالْفِرَاقِ وَالْهِجْرَةِ، كَمَا تُبْتَلَى بِظُلْمِ الظَّالِمِينَ، وَأَذَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «سَارَ مُوسَى عليه السلام مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلَ وَوَرَقَ الشَّجَرِ وَكَانَ حَافِيًا، فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمَيْهِ، وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّ بَطْنَهُ لَلَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ»(٧).

وَلَكِنَّهُ عليه السلام كَانَ قَوِيَّ الْإِيمَانِ، مُتَوَجِّهًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، وَاثِقًا بِهِ، لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَسْأَلُ سِوَاهُ، فَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أَسْبَابَ الرِّعَايَةِ وَالْكِفَايَةِ فِي الْبَلَدِ الَّتِي قَدِمَ عَلَيْهَا، وَسَخَّرَ لَهُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فِي قِصَّةِ الْفَتَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَسْقِيَانِ ذَوْدَهُمَا فَأَعَانَهُمَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ عَمَلِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَزَوَاجِهِ مِنِ ابْنَتِهِ، وَهَكَذَا الرُّسُلُ ﷺ يَكُدُّونَ وَيَكْدَحُونَ، وَيَغْتَرِبُونَ وَيُسْتَأْجَرُونَ؛ لِسَدِّ حَاجَاتِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ**، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: **نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٨).

فَبَذْلُ الْأَسْبَابِ، وَكَسْبُ الْعَيْشِ، وَالتَّعَفُّفُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنْ شِيَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَكَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى عليه السلام أَجَّرَ نَفْسَهُ لِخِدْمَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَرَعْيِ غَنَمِهِ عَقْدًا كَامِلًا مِنْ عُمُرِهِ؛ لِيَتَزَوَّجَ الصَّالِحَةَ ابْنَةَ الصَّالِحِ فَيُعِفَّ نَفْسَهُ وَيُحَصِّنَ فَرْجَهُ، وَكَانَ مَا وَقَعَ لَهُ مِنَ التَّيْسِيرِ فِي ذَلِكَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ الصَّالِحِ،

---

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٨) أخرجه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢١٤٣).

وَتَوَجُّهِ قَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا خَرَجَ مُهَاجِرًا مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [الْقَصص: ٢٢-٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا عَلَى آلَائِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لمَّا أَكْمَلَ مُوسَى عليه السلام أَجلَهُ، وَأَدَّى الْخِدْمَةَ لِوَالِدِ زَوْجِهِ، فَارَقَهُمْ عَائِدًا إِلَى مِصْرَ، وَكَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْوَادِي المُقَدَّسِ طُوًى، وَكَلَّفَهُ سُبْحَانَهُ بِتَبْلِيغِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ رِسَالَاتِهِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَجَرَى لِمُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ مَا جَرَى مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، وَالمُخَاصَمَةِ وَالمُنَاظَرَةِ؛ مِمَّا بُسِطَ خَبَرُهُ فِي سُوَرِ الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ وَطه وَالشُّعَرَاءِ وَالْقَصَصِ.

فَلَمَّا خَصَمَهُمْ مُوسَى عليه السلام بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَأَثْبَتَ صِدْقَهُ بِالمُعْجِزَةِ وَالْبُرْهَانِ، مَا كَانَتْ حِيلَةُ الْعَاجِزِينَ عَنْ إِثْبَاتِ كُفْرِهِمْ وَعُلُوِّهِمْ إِلَّا الْبَطْشَ وَالظُّلْمَ وَالْقُوَّةَ، وَسَعَوْا جَادِّينَ فِي قَتْلِ مُوسَى وَالُمؤمِنِينَ؛ لِيَسْتَمِرُّوا فِي تَعْبِيدِ النَّاسِ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَنَافِذٌ فِي الْخَلْقِ حُكْمُهُ، فَأَنْجَى عليه السلام مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِخَلْقِهِ، وَعِبْرَةً فِي مَصِيرِ الظَّالِمِينَ، يَتَذَكَّرُهَا الْبَشَرُ عَبْرَ الْأَجْيَالِ، وَيَنْتَفِعُ بِهَا قُرَّاءُ الْقُرْآنِ كُلَّمَا رَتَّلُوا وَقَائِعَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَوَقَعَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ حِينَ قَالَ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: ٨].

فَهُمُ الْتَقَطُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَرَبَّوْهُ فِي قُصُورِهِمْ، وَكَانَ تَحْتَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ عَدُوُّهُمْ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّكَايَةِ بِهِمْ، وَأَشَدُّ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمُ اخْتَارُوا أَخْذَ مَا يَكُونُ هَلَاكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَ هَلَاكُهُمْ عَلَى يَدِ غَيْرِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَتَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَبِأَيْدِيهِمْ هُمْ لَا بِغَيْرِهِمْ! ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القَصَص: ٦].

وَهَذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِمُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ تَتَكَرَّرُ فِي الْبَشَرِ؛ فَكَمْ مِنْ سُلْطَانٍ خَسِرَ سُلْطَانَهُ عَلَى يَدِ أَلْصَقِ النَّاسِ بِهِ، وَأَشَدِّهِمْ إِحْسَانًا إِلَيْهِ،

فَكَانَ هَلَاكُهُ وَزَوَالُ مُلْكِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِحَقٍّ أَمْ بِبَاطِلٍ، وَلَكِنَّ تَدْبِيرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ لَطِيفٌ عَجِيبٌ؛ إِذْ يُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ، وَلَا يَنْفَعُ الِاحْتِيَاطُ وَالتَّوَقِّي لِرَدِّ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَهَذَا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَفِرَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا نَحْذَرَ مِنْهُ إِلَّا بِهِ، وَلَا نَتَّقِيَ قَدَرَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَدَرَ، وَيَنْفَعُ فِيمَا نَزَلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلِّقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى قُلُوبَكُمْ، وَفِرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ. وَلَوْ كَانَ الْحَذَرُ رَادًّا لِلْقَدَرِ، وَنَافِعًا لِأَحَدٍ؛ لَنَفَعَ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَتَّلَ وِلْدَانَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَرًا مِنْ هَلَاكِهِ وَزَوَالِ مَمْلَكَتِهِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَلِعَظِيمِ مَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عليهم السلام مِنَ الْأُخُوَّةِ وَالمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى: شَرَعَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ صِيَامَ الْيَوْمِ الَّذِي نُجِّيَ فِيهِ مُوسَى وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، وَأُهْلِكَ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، وَفَرَحًا بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ، رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ ﷺ: **فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٩).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ ﷺ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى دِينَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُحِبُّ مُوَافَقَتَهُمْ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ، فَأَمَرَ ﷺ

---

(٩) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(١٠) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

بِمُخَالَفَتِهِمْ فِي صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَذَلِكَ بِصِيَامِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مَعَهُ، وَلَمَّا قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ ﷺ عَنْ يَوْمِ عَاشُورَاءَ: «إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَ ﷺ: **فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - وَاحْرِصُوا عَلَى صِيَامِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ فِيهِ بِصِيَامِ التَّاسِعِ مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي السَّفَرِ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِفِطْرِ رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «رَمَضَانُ لَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَاشُورَاءُ يَفُوتُ»(١٢).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤).

(١٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ٢١٥).

٣٥٠- الكليم عليه السلام (٢)
التكليم والرسالة

٢٠/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَفِيظِ الْعَلِيمِ؛ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِعِبَادِهِ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، فَاسْتَخْلَفَهُمْ بَعْدَ الِاسْتِضْعَافِ، وَمَكَّنَ لَهُمْ بَعْدَ الِابْتِلَاءِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ فَضْلَهُ وَإِنْعَامَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِدِينِ الْحَقِّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَكْثَرِهِمْ إِخْلَاصًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، اتَّقُوا مَنْ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَيُحْيِيكُمْ وَيُمِيتُكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، وَعَلَيْهِ حِسَابُكُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فِيهَا تَنْبِيهٌ لِلْغَافِلِينَ، وَعِبَرٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَقُدْوَةٌ صَالِحَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ، وَهُمُ الْهَادُونَ النَّاصِحُونَ لَهُمْ، الْحَرِيصُونَ الْمُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَا قَصَّ

اللهُ تَعَالَى أَخْبَارَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ وَأَعَادَ، وَأَمَرَنَا بِالْتِزَامِ هَدْيِهِمْ، وَالتَّأَسِّي بِهِمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وَكَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام هُوَ أَكْثَرُ رُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ، وَقَصَصُهُ هِيَ أَشْهَرُ الْقَصَصِ، وَمَا ذُكِرَتْ قِصَّةُ أَحَدٍ فِي الْقُرْآنِ كَمَا ذُكِرَتْ قِصَّتُهُ فِي وِلَادَتِهِ وَنَشْأَتِهِ، وَابْتِلَائِهِ وَهِجْرَتِهِ، وَنُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَمُنَاظَرَاتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ، وَمُعَالَجَتِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي الْقُرْآنِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى خَلَاصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِ هَذَا الْغُلَامِ مِنْهُمْ، فَنَجَّاهُمْ سُبْحَانَهُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَجَبَرُوتِهِ، وَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَظْهَرَ قُدْرَتَهُ ﷻ فِي أَنْ يَعِيشَ هَذَا الْغُلَامُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، وَيَتَرَبَّى أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَقَدَّرَ هَلَاكَهُ وَزَوَالَ مَمْلَكَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا!

وَلَمَّا بَلَغَ الْفَتَى مَبْلَغَ الرِّجَالِ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى حُكْمًا وَعِلْمًا، وَائْتَمَرَ بِهِ مَلَأُ فِرْعَوْنَ لِيَقْتُلُوهُ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ أَحَدَ الظَّلَمَةِ مِنْهُمْ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِهِمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى مَدْيَنَ، وَالْعَمَلِ فِي رَعْيِ الْغَنَمِ عِنْدَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ لِيُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، فَأَتَمَّ مُوسَى عَمَلَهُ، وَقَضَى أَجَلَهُ، وَاشْتَاقَ إِلَى أَهْلِهِ.

وَمَا أُصِيبَ مُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ، وَنَالَتْهُ الْمَشَقَّةُ، وَتَحَمَّلَ أَعْبَاءَ الْمُطَارَدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْعَمَلِ إِلَّا إِعْدَادًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَكُونَ رَسُولًا إِلَى أَعْتَى الطُّغَاةِ، وَأَقْوَى الْجَبَابِرَةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ حِينَ خَاطَبَهُ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

لَقَدْ أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِلرِّسَالَةِ بِرَعْيِ الْغَنَمِ، وَطُولِ السَّفَرِ، وَشِدَّةِ الْغُرْبَةِ، وَقُوَّةِ السَّاعِدِ، وَصَفَاءِ النَّفْسِ، وَمَعْرِفَتِهِ عَدُوَّهُ.

وَالنُّبُوَّةُ لَهَا أَثْقَالٌ وَمؤُونَةٌ لا يَحْمِلُهَا وَلَا يَسْتَضْلِعُ بِهَا إِلَّا أَهْلُ الْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ؛ لِمَا يَلْقَوْنَ مِنَ النَّاسِ، وَمَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ مِمَّا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ ﷻ[1].

وَأَضْحَى مُوسَى ﷺ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ وَالشِّدَّةِ مُؤَهَّلًا لِلرِّسَالَةِ وَأَعْبَائِهَا وَأَثْقَالِهَا، قَادِرًا عَلَى مُوَاجَهَةِ أَقْوَى الظَّلَمَةِ، وَأَعْتَى الْجَبَابِرَةِ، فَكَانَتِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ، وَكَانَ الِاصْطِفَاءُ وَالتَّكْلِيمُ.

عَادَ مُوسَى ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْهِجْرَةِ الطَّوِيلَةِ مِنْ مَدْيَنَ بِزَوْجِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ حَيْثُ أُمُّهُ وَإِخْوَانُهُ، وَأَثْنَاءَ طَرِيقِهِ، وَفِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، كَالِحَةِ الظُّلْمَةِ، شَدِيدَةِ الْبَرْدِ؛ أَبْصَرَ نَارًا تَأَجَّجُ فِي جَانِبِ الطُّورِ، فَذَهَبَ يَلْتَمِسُ لِأَهْلِهِ نَارًا، فَمَا كَانَتْ نَارًا وَلَكِنْ كَانَ نُورًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، نَالَ بِهِ مُوسَى ﷺ أَعْظَمَ كَرَامَةٍ، وَحَظِيَ بِأَعْلَى مَنْزِلَةٍ؛ إِذْ كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى مُبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، فَحَمَّلَهُ رِسَالَتَهُ، وَأَمَرَهُ بِأَمَانَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ تَشْرِيفٍ! وَمَا أَثْقَلَهُ مِنْ تَكْلِيفٍ! ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْقَصَص: ٢٩، ٣٠].

شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى بِكَلِمَاتِهِ، وَاصْطَفَاهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ، وَأَعْلَى شَأْنَهُ، وَأَخْبَرَهُ فِي هَذَا المَقَامِ الْعَظِيمِ بِأَنَّهُ ﷻ رَبُّهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٣).

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْقَصص: ٣٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى هِيَ أَشْرَفُ الْمَقَامَاتِ، وَأَعْلَى الْوَظَائِفِ؛ وَلِذَا تُذْكَرُ فِي أَجَلِّ الْمَوَاضِعِ وَأَعْلَاهَا.

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَظِيمٍ مُبَارَكٍ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦].

وَفِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨، ٩].

ثُمَّ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ الْآيَاتِ؛ لِيَكُونَ أَثْبَتَ لِكَلَامِهِ، وَأَقْوَى لِحُجَّتِهِ، وَأَدْعَى لِتَصْدِيقِهِ، وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ مِمَّا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِيلُهَا عَنْ عَادَتِهَا الَّتِي عَرَفَهَا مُوسَى إِلَى مَا يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَبْيَنُ فِي الْقُدْرَةِ، وَأَقْوَى فِي الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١].

وَفِي آيَةِ النَّمْلِ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النَّمْل: ١٠].

فَهَذِهِ هِيَ الْمُعْجِزَةُ الْأُولَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي مُقَارَعَةِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، وَسَتَقْضِي عَلَى سِحْرِهِمْ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي إِيمَانِهِمْ، فَمَا أَجَلَّهَا مِنْ مُعْجِزَةٍ! وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ آيَةٍ! وَمَنْ يَقْلِبُ عَصًى لَا حِرَاكَ

فِيهَا إِلَى حَيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ لَا تَخْيِيلَ فِيهَا وَلَا خِدَاعَ إِلَّا مَنْ يَخْلُقُ مِنَ الْعَدَمِ، وَيُحْيِي الْأَمْوَاتَ، وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٤].

وَأَمَّا الْمُعْجِزَةُ الثَّانِيَةُ فَنُورٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مُوسَى فِي يَدِهِ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ وَلَا مَرَضٍ، يُظْهِرُهُ لِمَنْ شَاءَ مَتَى شَاءَ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النَّمْل: ١٢].

إِنَّهَا آيَاتٌ كُبْرَى لَا يُكَذِّبُ بِهَا إِلَّا مُعَانِدٌ، وَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا مُسْتَكْبِرٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مُوسَى ﵇ خَافَ أَنْ يُكَذِّبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ أَخَاهُ هَارُونَ مَعَهُ، وَشَفَعَ لَهُ عِنْدَهُ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى شَفَاعَةَ الْكَلِيمِ، وَبَعَثَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ رَسُولًا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الْقَصَص: ٣٣-٣٥]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى قَالَ مُوسَى ﵇: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩-٣٦].

وَتِلْكَ هِيَ أَعْظَمُ شَفَاعَةٍ عَرَفَهَا الْبَشَرُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفَعُهَا، حِينَ شَفَعَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ بِالرِّسَالَةِ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى شَفَاعَتَهُ فِيهِ، وَبَعَثَهُ رَسُولًا مَعَهُ، وَفِي هَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ ﵉؛ فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ[٢].

---

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَارُونُ أَهْلًا لِلشَّفَاعَةِ لَمَا شَفَعَ فِيهِ مُوسَى عليه السلام.

وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ مُوسَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ ذُو وَجَاهَةٍ؛ إِذْ قَبِلَ سُبْحَانَهُ شَفَاعَتَهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مُوسَى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وَبَلَّغَ مُوسَى وَهَارُونُ عليهما السلام رِسَالَاتِ رَبِّهِمَا، وَكَذَّبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ رَسُولَيْهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَنْجَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الْجُزْءِ الْمُبَارَكِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام عِبَرٌ وَدُرُوسٌ يَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ الْقِصَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَدَبَّرَهَا وَيَنْتَفِعَ بِهَا.

فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى تَوْحِيدُهُ سُبْحَانَهُ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ

الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ، فَمَنْ صَحَّ تَوْحِيدُهُ قُبِلَ عَمَلُهُ، وَمَنْ قُبِلَ عَمَلُهُ نَجا، وَهَكَذَا الصَّلَاةُ إِذْ هِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ فَإِنْ قُبِلَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ رُدَّتْ رُدَّ عَلَيْهِ سَائِرُ عَمَلِهِ؛ وَلمَّا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام أَمَرَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِمَا، وَفَخَامَةِ شَأْنِهِمَا عِنْدَهُ جل جلاله ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

وَفِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم كَانَتْ شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ ثَانِيهَا.

وَتَضَمَّنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام التَّذْكِيرَ بِالسَّاعَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَبَيَانَ أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهَا، أَوِ الْعَمَلِ لَهَا، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَصْرِ! وَوَاجِبٌ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يُطِيعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَّا هَلَكُوا؛ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يُورِدُونَ النَّاسَ المَهَالِكَ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥، ١٦].

وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى فِي إِكْمَالِ مَا لَدَيْهِ مِنْ نَقْصٍ فِي الْعِلْمِ أَوِ الْحُجَّةِ أَوِ الْبَيَانِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ أَدْعَى لِقَبُولِ الْحَقِّ مِنْهُ، وَلِئَلَّا يَتَعَلَّقَ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ بِمَا فِيهِ مِنْ نَقْصٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِجَنَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِكْمَالِ نَقْصِهِ، وَيَسْأَلُهُ الْإِعَانَةَ وَالسَّدَادَ.

وَلَمَّا كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى عليه السلام احْتِبَاسٌ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَصِيحِ الْكَلَامِ(٣)،

(٣) عامة المفسرين على أن سبب عقدة لسان موسى عليه السلام جمرة كوته حين جرَّ لحية فرعون فأراد قتله، فقالت امرأته: إنه طفل لا يدري، فاختبره فرعون بجمرة وتمرة فأخذ الجمرة فلذعت لسانه ونجا من القتل على ما ورد في أخبار بني إسرائيل.

قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «وكانت فيه فيما ذكر عُجمة عن الكلام الذي كان من =

. . . .

= إلقائه الجمرة إلى فيه يوم همّ فرعون بقتله. ثم أسند عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال: عجمة لجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به عنه عقوبة فرعون، حين أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل، فقال: هذا عدو لي، فقالت له: إنه لا يعقل. وأسند نحوه عن ابن أبي نجيح ومجاهد والسدي» (١٨/ ٢٩٩).
وجاء أيضًا في حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفًا عليه، رواه الطبري (١٦/ ١٦٤-١٦٧).
وينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٧١)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٤٢)، وتفسير النسفي (٢/ ٣٦٢)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٨٢) كلهم ذكروا الجمرة التي لذعت لسانه.
وبعض المفسرين ذكر ثقلًا في اللسان ولم يذكر له سببًا كالقاسمي (٧/ ١٢٤) وابن عاشور (١٦/ ٢١١) والسعدي (٥٠٤) والشعراوي (١٥/ ٩٢٥٩).
بينما يرى سيد قطب أن هذا الاحتباس في لسان موسى ينشأ عن ضيق صدره وتوتره، يقول:
«والظاهر من حكاية قوله ﷺ أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده. إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقًا .. وهكذا .. وهي حالة معروفة. فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون. فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون أخيه، ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصًا ولا اعتذارًا عن التكليف. فهارون أفصح لسانًا ومِنْ ثَمَّ هو أهدأ انفعالًا فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان. ولقد دعا موسى ربه -كما ورد في سورة طه- ليحل هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا ..» في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٩).
وقد رد الدكتور صلاح الخالدي كلام جمهور المفسرين في أن سبب عقدة لسان موسى الجمرة، ورد قصة الجمرة والتمرة باعتبار أنها من أخبار بني إسرائيل، وأن حديث الفتون موقوف على ابن عباس ﷺ، وفيه قصة الجمرة والتمرة، وأنه من أخبار بني إسرائيل، وعن ابن عباس أخذ هذه القصة كبار التابعين من المفسرين كابن جبير ومجاهد، وذكر أن =

سَعَى فِي إِكْمَالِ هَذَا النَّقْصِ الَّذِي فِيهِ بِأَنْ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ أَنْ يُرْسِلَ أَخَاهُ مَعَهُ لِيُعِينَهُ عَلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ وَبيَانِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الْقَصَص: ٣٤]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢، ١٣].

وَسَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ، وَيُعِينَهُ عَلَى مُهِمَّتِهِ، وَأَنْ يُطْلِقَ بَعْضَ عُقَدِ لِسَانِهِ؛ لِيَفْهَمُوا مَقَالَهُ، فَقَالَ ﷺ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾

= القرآن يفسر بعضه بعضًا، فآية طه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧] تفسرها آية الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣] فسبب حبس لسانه ضيق صدره وتوتره؛ لأنه ينفعل، وأن هارون أفصح لسانًا؛ لأنه أهدأ منه. ينظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي (٢/ ٢٧٧-٢٨٥).

قلت: ويؤيد ما قرره د. صلاح الخالدي ما ثبت أن موسى شديد الغيرة على محارم الله تعالى، وشديد الغضب حال انتهاكها، ودليل ذلك أنه ألقى ألواح التوراة من شدة الغضب لما عبدت بنو إسرائيل العجل قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ومعلوم أن شدة الغضب تحبس اللسان عن الكلام، فلعل موسى ﷺ خشي أن يقول فرعون كلامًا لا يليق بالله تعالى فيغضب موسى ﷺ غيرة لله تعالى فيحبس لسانه عن الكلام من شدة الغضب، ولا يكاد يتبين قوله.

وهذا التقرير ليس بقاطع بل هو محتمل؛ لأن احتباس لسان موسى ﷺ معروف حتى لدى فرعون؛ فإنه عَيَّره به فحكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. وإذا كان ذلك معروفًا حتى لدى فرعون فقد لا يكون احتباسًا في حال الغضب فقط، بل قد يكون صفة ملازمة له؛ ولذا فالتوقف في ذلك أسلم. والله أعلم.

وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَا سَأَلَ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعِيُّ، وَيَحْصُلُ فَهْمُ مَا يُلْقِي عَلَيْهِمْ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ(٤).

وَمِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِأَيِّ نَقْصٍ فِي دَاعِيَةِ الْحَقِّ؛ لِيَلْمِزُوهُ بِهِ، وَيُنَفِّرُوا النَّاسَ مِنْهُ، وَيَصْرِفُوهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يُعَيِّرُ مُوسَى عليه السلام بِهَذَا النَّقْصِ فِي لِسَانِهِ فَيَقُولُ لِلنَّاسِ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخْرُف: ٥٢].

وَدَاعِيَةُ الْحَقِّ قَدْ يُبْتَلَى بِطَاغِيَةٍ مِنَ الطَّوَاغِيتِ عَبَّدَ النَّاسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ يَخَافُ مِنْ بَطْشِهِ وَجَبَرُوتِهِ الْخَوْفَ الطَّبِيعِيَّ الَّذِي هُوَ مِنْ جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ وَعَادَتِهِ، فَعَلَيْهِ حِينَئِذٍ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي دَعْوَتِهِ، وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِ، وَإِظْهَارِ الْحَقِّ لَهُ، وَمَنْ أَخْلَصَ فِي ذَلِكَ أَعَانَهُ اللهُ تَعَالَى، كَمَا أَعَانَ مُوسَى عليه السلام عَلَى فِرْعَوْنَ وَسَطْوَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَأَوْصَاهُ بِمَا يُذْهِبُ خَوْفَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القَصَص: ٣٢] أَي: اجْعَلْ يَدَكَ عَلَى فُؤَادِكَ يَسْكُنْ خَوْفُكَ، وَيَذْهَبْ رَهَبُكَ(٥).

وَكُلُّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالْأَعْمَالِ مِنْ مُوسَى عليه السلام دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام يَأْخُذُونَ بِأَسْبَابِ النَّصْرِ، وَإِزَالَةِ الْخَوْفِ، وَقُوَّةِ الْقَلْبِ، وَتَبْلِيغِ الْحَقِّ، مَعَ أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذِهِ سُنَّتُهُمُ الَّتِي يَنْبَغِي لِدُعَاةِ الْحَقِّ أَنْ يَلْتَزِمُوهَا.

---

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

(٥) ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ذهاب خوفه من يده لما صارت بيضاء، واختار ابن كثير العموم، ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩)، وروح المعاني (٢٠/ ٧٥).

وَفِي شَفَاعَةِ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ عليه السلام مَشْرُوعِيَّةُ الشَّفَاعَةِ، وَإِيصَالُ النَّفْعِ لِلْقَرَابَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ، مَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّفَاعَةِ إِضْرَارٌ بِأَحَدٍ، أَوْ إِعْطَاءُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَحِرْمَانُ مَنْ يَسْتَحِقُّ، كَمَا هُوَ السَّائِدُ فِي أَكْثَرِ شَفَاعَاتِ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ الدُّرُوسِ وَالْفَوَائِدِ، يَجِدُهَا مَنْ قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِحُضُورِ قَلْبٍ وَتَدَبُّرٍ، وَاسْتَعَانَ بِبَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، فَلَا تَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ هَذَا الْخَيْرَ الْعَظِيمَ؛ فَإِنَّ أَشْرَفَ الْعُلُومِ وَأَجَلَّهَا الْعِلْمُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِأَحْوَالِ مَا قَصَّ عَلَيْنَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ رُسُلِهِ عليهم السلام، فَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَشْغَلْكُمْ عَنْهُ شَاغِلٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٥١- من صفات الرسول ﷺ

١٥/ ٣/ ١٤١٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْإِسْلَامِ يَقْتَرِنُ وَلَا بُدَّ بِالْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ. ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي أَكْرَمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَحَوَّلَ بِهِ الْعَرَبَ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَى الْعِزِّ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَأَبْوَابِهِ إِلَى أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وَقَضَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّسُولُ لِلْبَشَرِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُونَ، وَيَمُوتُ كَمَا يَمُوتُونَ. وَابْتَدَأَ دَعْوَتَهُ فِي قَوْمٍ هُوَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، وَيَتَكَلَّمُ لِسَانَهُمْ، وَيَعْرِفُ عَادَاتِهِمْ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

لَكِنَّهُ كَانَ مَعْرُوفًا فِي قَوْمِهِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ بِحُسْنِ الْأَخْلَاقِ، وَطِيبِ الْأَفْعَالِ، فَلَمَّا

نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ هَذَّبَهُ وَأَدَّبَهُ، فَزَادَتْ أَخْلَاقُهُ وَأَفْعَالُهُ حُسْنًا وَجَمَالًا، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ مِنَ النُّضْرَةِ وَالْهَيْبَةِ المَقْرُونَةِ بِالْحُسْنِ وَالنُّورِ مَا جَعَلَهُ عِنْدَ النَّاسِ مَحْبُوبًا مَهِيبًا، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ»(١).

وَسُئِلَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: «أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِثْلَ القَمَرِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَأَمَّا جَمَالُ الْأَخْلَاقِ وَالمَعَانِي فَكَانَ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي صَدَّقَتْ نُبُوَّتَهُ، وَجَبَذَتْ خَلْقًا كَثِيرًا إِلَى الْإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ، سُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، قَطُّ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأشعث، ثم نقل الترمذي تصحيح البخاري لهذا الحديث (٢٨١١)، وأخرجه الدارمي (٥٧)، والنسائي في الكبرى (٩٦٤٠)، وأبو يعلى (٧٤٧٧)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٠٦) رقم (١٨٤٢)، وأبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي (٢٦٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٥٤٧)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٩٦)، والحاكم وصححه (٤/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٢٠١٥)، وأحمد (٦/ ١٧٤)، والطيالسي (١٥٢٠)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٥٨)، والبيهقي في الشعب (٨٢٩٧)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٦١٤).

وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ»(٤).

وَكَانَ ﷺ آيَةً فِي الْحِلْمِ وَالصَّفْحِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ**

(٤) أخرجه مختصرًا البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٨)، ومسلم في الفضائل: باب كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٢٠١٥) واللفظ بتمامه للترمذي.

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٨).

يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»، قَالَ الْبُخَارِيُّ: «فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَاسًا مِنَ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «**مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَكَانَ ﷺ شَفِيقًا رَحِيمًا، يُدَارِي النَّاسَ، وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِهِمْ . . كَانَ يَقُومُ لِلصَّلَاةِ فَيُرِيدُ أَنْ يُطِيلَهَا، فَيَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ(٨).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «**فِي النَّارِ**»،

---

(٦) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرود والحبرة والشملة (٥٨٠٩)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٨) كما في حديث أبي قتادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**» أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (٧٠٧).

فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَكَانَ ﷺ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَيَاءً، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٠).

وَأَمَّا تَوَاضُعُهُ فَقَدْ بَلَغَ مَبْلَغًا جَعلَ الْغُرَبَاءَ عَنِ المَدِينَةِ لَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ بَيْنِ جُلَسَائِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما قَالَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، قَالَ: فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَجْلِسُ بِجَنْبَتَيْهِ ...»(١١).

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ عَمَلِهِ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ: يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ»(١٢).

---

(٩) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أنَّ مَنْ مَات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة، ولا تنفعه قرابة المقربين (٢٠٣).

(١٠) أخرجه البخاري في المناقب: باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٢)، ومسلم في الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢٠).

(١١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام (٨/ ١٠١)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٣٩)، وصححه الألباني في الإرواء (١/ ٣٣) في ثنايا الحديث عن حديث جبريل الطويل رقم (٣).

(١٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، والترمذي في الشمائل (٣٣٥)، والبغوي في شرح السنة (٣٦٧٦)، وصححه ابن حبان (٥٦٧٥).

وهو عند البخاري في الصحيح من حديث الأسود، قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله- فإذا حضرت =

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيَأْتِي مُرَاعَاةَ الضَّيْفِ»(١٣).

وَكَانَ ﷺ يَكْرَهُ الْإِطْرَاءَ وَالْفَخْرَ وَالتَّبَاهِيَ، وَيَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٤).

وَكَانَ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ يُصْنَعَ بِهِ مَا يُصْنَعُ بِالمُلُوكِ وَالْأَكَابِرِ مِنَ الْقِيَامِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ(١٥).

وَكَانَ لَيِّنَ الْجَانِبِ، حَسَنَ الْعِشْرَةِ، يَأْخُذُ بِيَدِهِ كُلُّ أَحَدٍ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**» فَخَلَا

= الصلاة خرج إلى الصلاة» أخرجه البخاري في الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٧٦).
والرواية الثانية لأحمد (٦/ ١٦٧)، وعبد بن حميد (١٤٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٩)، وابن حبان (٥٦٧٦).

(١٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (١/ ١١٩)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: وهو كما قالا (٥/ ١٥٩) في ثنايا كلامه على حديث رقم (٢١٢٥).

(١٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠)، ومسلم في الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (١٦٩١).

(١٥) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢٧٥٤)، وأحمد (٣/ ١٣٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، وأبو يعلى (٣٧٨٤)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: وإسناده صحيح على شرط مسلم (٣٥٨).

مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا(١٦).

وَلَمْ يَكُنْ تَوَاضُعُهُ ﷺ عَنْ ضَعْفٍ، بَلْ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»(١٧)، وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ»(١٨).

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَانَ كَثِيرَ الْعِبَادَةِ، بَكَّاءً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ عَطَاءٌ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»(١٩).

---

(١٦) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأبو داود في الأدب، باب في الجلوس على الطرقات (٤٨١٩)، وأحمد (٣/ ٢٨٥).

(١٧) أخرجه أحمد (١/ ١٥٦)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (١٥٤)، والبزار (٧٢٢)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٠٤)، وصححه الحاكم (٢/ ١٥٥)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢٥١٥).

(١٨) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٦٦٧).

(١٩) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي (٥٦٨)، وصححه ابن حبان (٦٢٠)، وأورده الألباني بإسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، =

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

= غير يحيى بن زكريا، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه؟ قال: ليس به بأس، هو صالح الحديث (٦٨).

فائدة: ليس في هذا الحديث حجة لمن أجاز قيام الليل كله، كما حرر ذلك الألباني فقال -رحمه الله تعالى-: «ليس فيه ما يدل على أنه ﷺ قام الليل كله، لأنه لم يقع فيه بيان أن النبي ﷺ ابتدأ القيام من بعد العشاء أو قريبًا من ذلك، بل إن قوله: «قام ليلة من الليالي فقال ...» الظاهر أن معناه: قام من نومه ...؛ أي: نام أوله ثم قام، فهو على هذا بمعنى حديثها الآخر: «كان ينام أول الليل، ويحيي آخره ...» أخرجه مسلم (٢/ ١٦٧). وإذا تبين هذا فلا يصح حينئذ الاستدلال بالحديث على مشروعية إحياء الليل كله، كما فعل الشيخ عبد الحي اللكنوي في «إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبد ليس بدعة» قال (ص ١٣): فدل ذلك على أن نفي عائشة قيام الليل كله محمول على غالب أوقاته ﷺ. قلت: يشير بـ«نفي عائشة» إلى حديثها الآخر: «ولم يقم رسول الله ﷺ ليلة يتمها إلى الصباح، ولم يقرأ القرآن في ليلة قط» أخرجه مسلم (٢/ ١٦٩-١٧٠)، وأبو داود (١٣٤٢) واللفظ له. قلت: فهذا نص في النفي المذكور لا يقبل التأويل، وحمله على غالب الأوقات إنما يستقيم لو كان حديث الباب صريحَ الدلالة على أنه ﷺ قام تلك الليلة بتمامها. أما وهو ليس كذلك كما بينا، فالحمل المذكور مردود، ويبقى النفي المذكور سالمًا من التقييد. وبالتالي تبقى دلالته على عدم مشروعية قيام الليل كله قائمة، خلافًا لما ذهب إليه الشيخ عبد الحي في كتابه المذكور. وفيه كثير من المؤاخذات التي لا مجال لذكرها الآن» اهـ سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٤٨، ١٤٩).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَعَظِّمُوا أَمْرَهُ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَحْتَفِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمِيلَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَيَأْتُونَ فِي احْتِفَالَاتِهِمْ بِالْأَعَاجِيبِ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَرَّأَ مِنْ أَهْلِهَا؛ فَعَجَبًا لِهَذَا التَّنَاقُضِ حِينَ تُنْتَهَكُ أَوَامِرُهُ، وَتُرْتَكَبُ نَوَاهِيهِ فِي الِاحْتِفَالِ بِمِيلَادِهِ!

وَلَكِنَّ الْعَجَبَ يَزُولُ حِينَمَا تَعْلَمُ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- أَنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا مَنْ يَزْعُمُونَ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ حُبًّا فِيهِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوهَا لِأَغْرَاضٍ فِي نُفُوسِهِمْ، وَمَنَافِعَ شَخْصِيَّةٍ يَجِدُونَهَا فِي تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، يُشْبِعُونَ بِهَا شَهَوَاتِهِمْ، وَيُحَقِّقُونَ رَغَبَاتِهِمْ، وَلَوْ صَدَقُوا فِي مَحَبَّتِهِمْ لَهُ؛ لَصَدَقُوا فِي مُتَابَعَتِهِمْ إِيَّاهُ. وَالْمُتَابَعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا نَحِيدَ عَنْ سُنَّتِهِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، وَالِاحْتِفَالُ بِمِيلَادِهِ مُخَالِفٌ لِسُنَّتِهِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَيَزْدَادُ الْعَجَبُ حِينَمَا تَرَى فِئَاتٍ مِنَ الْعَلْمَانِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَهْتَمُّونَ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، وَيُشِيدُونَ بِهَا، وَيَكْتُبُونَ عَنْهَا، بَلْ وَيُشَارِكُونَ أَهْلَهَا فِيهَا بِإِقَامَةِ النَّدَوَاتِ، وَإِلْقَاءِ الْمُحَاضَرَاتِ، وَعَقْدِ الْمُؤْتَمَرَاتِ لِإِحْيَاءِ ذِكْرَى مِيلَادِ الْمُصْطَفَى ﷺ، فَمَتَى عَرَفَ الْعَلْمَانِيُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟!

إِنَّهُمْ فِي أَحْزَابِهِمْ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ لَمْ يُظْهِرُوا سِوَى الْعَدَاءِ لِدِينِ

النَّبِيِّ ﷺ، وَلِلْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، يَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَيَنَالُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَدُعَاتِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ شَرِيعَةً يَجِبُ أَنْ تَحْكُمَ النَّاسَ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ مُهَيْمِنًا عَلَى جَمِيعِ المِلَلِ وَالْأَفْكَارِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِسْلَامًا بِالِاسْمِ وَالرَّسْمِ وَالشَّعَائِرِ التَّعَبُّدِيَّةِ فَحَسْبُ. ثُمَّ تَرَاهُمْ يُشَجِّعُونَ مِثْلَ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ المُبْتَدَعَةِ، زَاعِمِينَ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَيْنَ هُمْ مِنْ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟!

إِنَّهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِذَلِكَ لِتَشْوِيهِ الدِّينِ الصَّحِيحِ، وَمَسْخِ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ، كَمَا فَعَلَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَرُهْبَانُ النَّصَارَى بِتَوْرَاتِهِمْ وَإِنْجِيلِهِمْ. فَمُنَافِقُونَا يُشِيدُونَ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ لِكَيْ تَكُونَ أُسًّا مِنْ أُسُسِ الْإِسْلَامِ، وَفِي جَانِبِهَا يُعَطَّلُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ حَتَّى يُقْضَى عَلَى الْإِسْلَامِ. فَهُمْ لَا يَزَالُونَ عَاجِزِينَ عَنْ إِبْعَادِ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ مَا دَامَ صَحِيحًا مَبْثُوثًا بَيْنَ النَّاسِ، فَالدِّينُ الصَّحِيحُ يَجُرُّ النَّاسَ إِلَيْهِ جَرًّا؛ لِأَنَّهُ يُوَافِقُ فِطَرَهُمْ، بَيْنَا يَنْفِرُ النَّاسُ مِنَ الدِّينِ المُحَرَّفِ وَيُفَارِقُونَهُ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِأَدْيَانِهِمْ.

إِنَّ مُرَادَ الْعَلْمَانِيِّينَ بِتَشْجِيعِ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ الْبَاطِلَةِ اسْتِجْلَابُ صُورَةٍ مُزَوَّرَةٍ لِلْإِسْلَامِ؛ لِتَكُونَ مَحَلَّ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ، فَتُشْبِعَ بِشَعَائِرِهَا الْبَاطِلَةِ وَزَخَارِفِهَا المُزَيَّفَةِ تَدَيُّنَ الْعَامَّةِ، فَلَا يُطَالِبُونَ بِتَحْكِيمِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ.

إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، وَالمُنَظِّمِينَ لَهَا مِنْ دَرَاوِيشِ الصُّوفِيَّةِ وَضُلَّالِ المُبْتَدِعَةِ مِنْ أَقَلِّ النَّاسِ فِقْهًا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَضْعَفِهِمْ قُدْرَةً عَلَى إِدَارَةِ شُئُونِ النَّاسِ وَتَوْجِيهِهِمْ، وَأَحْرَصِهِمْ عَلَى تَحْقِيقِ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ. وَهَكَذَا هُمْ يُرِيدُونَ مِنْ جَمَاهِيرِ النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوا هَذِهِ النَّوْعِيَّةَ مِنَ

الْمَحْسُوبِينَ عَلَى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالدِّينِ، حَتَّى يُسَيِّرُوهَا كَيْفَما يُرِيدُونَ لِهَدْمِ الْإِسْلَامِ، وَنَقْضِ عُرَاهُ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكْتُبَ مَقَالَةً فِي دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ مَنْ يُحَارِبُ الْإِسْلَامَ، وَلَا عَجَبَ أَنْ يَنْظِمَ الْحَدَاثِيُّ قَصِيدَةً فِي مَدْحِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِطْرَائِهِ، وَلَا عَجَبَ أَنْ يُلْقِيَ الْعَلْمَانِيُّ الْمُلْحِدُ مُحَاضَرَةً فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ يُحَارِبُ الْإِسْلَامَ جِهَارًا نَهَارًا، وَإِنَّنَا لَنُشَاهِدُ هَذَا التَّنَاقُضَ فِي احْتِفَالَاتِ الْمَوَالِدِ وَأَمْثَالِهَا، وَيَسُوغُ هَذَا التَّنَاقُضُ إِذَا عُلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ تَشْوِيهُ صُورَةِ الْإِسْلَامِ النَّاصِعَةِ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَالطُّقُوسِ الْمُبْتَدَعَةِ الْغَرِيبَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ حُبَّ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَالِاحْتِفَالُ بِالمِيلَادِ لَيْسَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا حُبِّ رَسُولِهِ ﷺ، بَلْ فِيهِ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِمَا.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ؛ فَالدِّينُ الصَّحِيحُ هُوَ فِي الِاتِّبَاعِ لَا فِي الِابْتِدَاعِ، فَمَهْمَا كَانَ إِعْجَابُكَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- بِفِقْرَاتِ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ عَظِيمًا، وَمَهْمَا زَيَّنَهَا لَكَ الْمُبْتَدِعُونَ وَالْعَلْمَانِيُّونَ فَتَذَكَّرْ قَبْلَ الِاغْتِرَارِ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى مَنْهَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ، وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَأَيْنَ هُوَ الْخَيْرُ فِيهَا وَهِيَ تُخَالِفُ فِعْلَ أَفْضَلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَتْقَاهَا لِرَبِّهَا؟! فَاحْذَرُوهَا وَحَذِّرُوا النَّاسَ مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا وَالْمُعْجَبِينَ بِهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..



٣٥٢- رحيل النبي ﷺ (١)
مِن ابتداء مرضه إلى وفاته

٩/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْأَحْيَاءِ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَبِالتَّدْبِيرِ وَالْمُلْكِ، فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَوْ كُتِبَ الْبَقَاءُ فِي الدُّنْيَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لَكَانَ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخُلْدِ فِيهَا ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ فَقَدُوا الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْأَوْلَادَ وَالزَّوْجَاتِ، وَالْإِخْوَانَ وَالْأَخَوَاتِ، وَمَا فُجِعُوا بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَقْدِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْحَذَرِ مِنَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتِهَا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَلَيْسَتْ دَارَ قَرَارٍ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، فَخُذُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَوْلِدُ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْثَتُهُ لِلنَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَهَادِيًا وَمُعَلِّمًا، ثُمَّ هِجْرَتُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبِنَاءُ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ؛ كَانَتْ أَحْدَاثًا هِيَ أَعْظَمُ الْأَحْدَاثِ فِي

تَارِيخِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بَلْ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، ثُمَّ كَانَتِ الْفَاجِعَةُ بِوَفَاتِهِ ﷺ أَكْبَرَ فَاجِعَةٍ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

وَقَبْلَ وَفَاتِهِ ﷺ عَلِمَ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَاقْتِرَابِ رَحِيلِهِ؛ فَوَدَّعَ أَصْحَابَهُ رضي الله عنهم فِي حَجَّتِهِ، وَقَالَ: «**لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»(١)، وَأَلْمَحَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه لَمَّا بَعَثَهُ لِلْيَمَنِ فَجَعَلَ يُوصِيهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ وَصِيَّتِهِ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي**» فَبَكَى مُعَاذٌ جَشَعًا -أَيْ: فَزَعًا- لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣).

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» (١٢٩٧)، وأبو داود في المناسك، باب في رمي الجمار (١٩٧٠)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات، وقال: حسن صحيح (٨٨٦)، والنسائي في مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم (٥/ ٢٧٠)، وابن ماجه في المناسك، باب الوقوف بجمع (٣٠٢٣). وهذا لفظ الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة واللفظ له (٣٩٠٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٩٩١)، وأبو نعيم في معرفة =

وَصَرَّحَ بِهِ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رضي الله عنها فَقَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي**»(٤).

كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ مَرَضٌ شَدِيدٌ أَلَمَّ بِهِ، وَبِدَايَتُهُ سَنَةَ سَبْعٍ فِي فَتْحِ خَيْبَرَ؛ إِذْ سَمَّهُ الْيَهُودُ فِي شَاةٍ قَدَّمُوهَا لَهُ هَدِيَّةً، فَأَكَلَ مِنْهَا(٥)، وَمَا زَالَ أَثَرُ السُّمِّ فِيهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَوَّلُ مَا جَاءَهُ الْوَجَعُ عَلَى إِثْرِ عَوْدَتِهِ مِنْ جَنَازَةِ أَحَدِ الصَّحَابَةِ فِي الْبَقِيعِ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالْبَقِيعِ، وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ! قَالَ: **بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ! قَالَ: مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟**، قُلْتُ: لَكِنِّي أَوْ لَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ بِوَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ»(٦).

= الصحابة (٥٩٧٥)، والبيهقي (١٠/ ٨٦)، وصححه ابن حبان (٦٤٧)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني وقال: إسناده جيد (١٠/ ٢٣١-٢٣٢).

(٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٥٠).

(٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ، أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧)، ومسلم في السلام، باب السم (٢١٩٠).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٨)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته وغسل المرأة زوجها (١٤٦٥)، وصححه ابن حبان (٦٥٨٦)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: إسناد رجاله ثقات (١/ ٩٥).

وَلمَّا أَحسَّ ﷺ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ اسْتَغْفَرَ لِلْأَمْوَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﭬ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَالَ: **يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ** ﭬ **إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، فَانْطَلِقْ مَعِي**. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ المَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلَهَا آخِرُهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى**. قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: **يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي ﷻ وَالجَنَّةِ**. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، قَالَ: **لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي** ﷻ **وَالجَنَّةَ**. ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَبَضَهُ اللهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَمَا لَبِثَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا حَتَّى قُبِضَ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧).

وَكَمَا اسْتَغْفَرَ ﷺ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ اسْتَغْفَرَ كَذَلِكَ لِشُهَدَاءِ أُحُدٍ ﭬ، وَوَدَّعَ الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتَ؛ كَمَا رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﭬ فَقَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: **إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**. قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

---

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٩)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٦/ ٥٥)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢٨١)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٥٧)، وتعقبه الألباني في السلسلة الضعيفة فضعف الحديث وبين وهم الحاكم فيه (٦٤٤٧).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٢)، ومسلم في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٦).

وَكَانَ فِي مَرَضِهِ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ وَيَقُولُ: «**أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟**» حِرْصًا عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي سَكَنَ»، وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ: «**أَيْنَ أَنَا غَدًا**»؛ اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

وَلَمَّا ثَقُلَ ﷺ، وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، بَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَاجْتَمَعْنَ فَاسْتَأْذَنَهُنَّ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ، فَإِنْ رَأَيْتُنَّ أَنْ تَأْذَنَّ لِي فَأَكُونَ عِنْدَ عَائِشَةَ فَعَلْتُنَّ، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ ﷺ بَيْنَ الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما تَخُطُّ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ مِنْ شِدَّةِ مَرَضِهِ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ(١٠).

وَقَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»(١١)، وَهُوَ شِرْيَانٌ مُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ(١٢).

---

(٩) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها (٣٧٧٤)، ومسلم في فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها (٢٤٤٣).

(١٠) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٢)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس، وأن من صلى خلف إمام جالس لعجزه عن القيام لزمه القيام إذا قدر عليه، ونسخ القعود خلف القاعد في حق من قدر على القيام (٤١٨).

(١١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري معلقًا مجزومًا به في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٨)، ووصله الحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٦٠).

وقال الحافظ ابن حجر: «وهذا قد وصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد عن يونس بهذا الإسناد، وقال البزار: تفرد به عنبسة عن يونس، أي: بوصله وإلا فقد رواه موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري لكنه أرسله، وله شاهدان مرسلان أيضًا أخرجهما إبراهيم الحربي في غرائب الحديث له، أحدهما من طريق يزيد بن رومان، والآخر من رواية أبي جعفر الباقر، وللحاكم موصول من حديث أم مبشر قالت: قلت: يا رسول الله، ما تتهم بنفسك فأني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكل بخيبر، وكان ابنها بشر بن البراء بن معرور مات فقال: وأنا لا أتهم غيرها، وهذا أوان انقطاع أبهري» فتح الباري (٨/ ١٣١).

(١٢) قال القاضي عياض: «وَالْأَبْهَر عرق يكتنف الصلب وَالْقلب مُتَّصِل بِهِ، فَإِذا انْقَطع فَلَا =

وَاشْتَدَّتْ حَرَارَةُ جَسَدِهِ ﷺ مِنَ المَرَضِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ قَالَ: «فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدِي فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ!» قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»(١٣).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ تَصِفُ وَجَعَهُ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَآخِرُ صَلَاةٍ أَمَّ النَّاسَ فِيهَا كَانَتْ صَلَاةَ المَغْرِبِ؛ كَمَا رَوَتْ أُمُّ الْفَضْلِ بِنْتُ الْحَارِثِ ﷺ فَقَالَتْ: «خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ فِي مَرَضِهِ، فَصَلَّى المَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالمُرْسَلَاتِ، قَالَتْ: فَمَا صَلَّاهَا بَعْدُ حَتَّى لَقِيَ اللهَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ(١٥).

= حَيَاة لصَاحبه» مشارق الأنوار (١/ ١٠٢)، وينظر الغريب لابن الجوزي (١/ ٩٢).
وقال ابن الأثير: «الأبهر عرق في الظهر، وهما أبهران. وقيل: هما الأكحلان اللذان في الذراعين. وقيل: هو عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة. وقيل: الأبهر عرق منشؤه من الرأس ويمتد إلى القدم، وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن، فالذي في الرأس منه يسمى النأمة، ومنه قولهم: أسكت الله نأمته، أي: أماته، ويمتد إلى الحلق فيسمى فيه الوريد، ويمتد إلى الصدر فيسمى الأبهر، ويمتد إلى الظهر فيسمى الوتين، والفؤاد معلق به، ويمتد إلى الفخذ فيسمى النسا، ويمتد إلى الساق فيسمى الصافن» النهاية (١/ ١٨).

(١٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٤)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة فقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (٤/ ١٨٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٤).

(١٤) أخرجه البخاري في المرضى، باب شدة المرض (٥٦٤٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٠).

(١٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٩)، ومسلم في =

فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعِشَاءُ مَا قَدَرَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ شِدَّةِ مَرَضِهِ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. قَالَتْ: فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. قَالَتْ: فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** فَقُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسْجِدِ، يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عليه السلام لِصَلاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ . . . فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ -قَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ مِنَ الْوَجَعِ- خَرَجَ لِصَلاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٦).

وَاشْتَدَّ بِهِ ﷺ المَرَضُ عَقِبَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، وَظَلَّ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه

= الصلاة، باب القراءة في الصبح (٤٦٢)، وأبو داود في الصلاة، باب قدر القراءة في المغرب (٨١٠)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في القراءة في المغرب (٣٠٨)، والنسائي في الافتتاح، باب القراءة في المغرب بالمرسلات (٢/ ١٦٨)، وابن ماجه في الإقامة، باب القراءة في صلاة المغرب (٨٣١).

(١٦) أخرجه البخاري في الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٨٧)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس (٤١٨).

يُصَلِّي بِالنَّاسِ، وَمَكَثَ فِي مَرَضِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا(١٧). وَكَانَ عِنْدَهُ بِضْعَةُ دَنَانِيرَ، فَسَأَلَ عَنْهَا عَائِشَةَ، فَقَالَتْ رضي الله عنها: هِيَ عِنْدِي، قَالَ: «**تَصَدَّقِي بِهَا**. قَالَتْ: فَشُغِلْتُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ**؟ فَقُلْتُ: هِيَ عِنْدِي، فَقَالَ: **ائْتِنِي بِهَا**. قَالَتْ: فَجِئْتُ بِهَا فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: **مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟! مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟! أَنْفِقِيهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ﷺ: «**ابْعَثِي بِهَا إِلَى عَلِيٍّ**، فَتَصَدَّقَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِهَا»(١٨).

وَفِي آخِرِ لَيْلَةٍ لَهُ فِي الدُّنْيَا -وَهِيَ لَيْلَةُ الاِثْنَيْنِ- أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَدِيدِ الْمَوْتِ -وَهُوَ أَوَّلُهُ- وَانْتَهَى وَقُودُ سِرَاجِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَأَرْسَلَتْ بِمِصْبَاحٍ لَهَا إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا فَقَالَتْ: اهْدِي لَنَا فِي مِصْبَاحِنَا مِنْ عُكَّتِكِ السَّمْنَ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْسَى فِي جَدِيدِ الْمَوْتِ(١٩).

---

(١٧) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٢٣٥)، والأنس الجليل (١/ ٢١٨).
وقال المحب الطبري: «وكانت مدة مرضه اثني عشر يومًا، وقيل: أربعة عشر، وكان مرضه بالصداع» خلاصة سير سيد البشر (١٧٨).
وقال ابن رجب في فتح الباري: «وكانت مدة مرضه فوق عشرة أيام» (٢/ ٥٥٣).
وقال ابن حجر: «واختلف في مدة مرضه؛ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه، ... وقيل: عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح» فتح الباري (٨/ ١٢٩).

(١٨) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٨)، وأحمد (٦/ ٤٩ و١٨٢)، وصححه ابن حبان (٧١٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح (١٠/ ٢٣٩-٢٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٤).

(١٩) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٩)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٩٨) رقم (٥٩٩٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٣/ ١٢٤). وجديد الموت: أوله كما قال الأخفش والمغافص الباهلي. ينظر: اللسان (٣/ ١١٢) وتاج العروس (٧/ ٤٨٢).

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها وَهُوَ يَجِدُ مِنْ كَرْبِ المَوْتِ مَا يَجِدُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها: «وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ! فَقَالَ ﷺ: **لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، المُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٢٠).

وَعَرَفَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ المَوْتَ، وَقَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا، إِنِّي لَأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ عِنْدَ المَوْتِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢١).

وَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ - أَيْ: عِبَارَةٌ عَنِ الْجَمَالِ الْبَارِعِ، وَحُسْنِ الْبَشَرَةِ، وَصَفَاءِ الْوَجْهِ وَاسْتِنَارَتِهِ- ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا، قَالَ: فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَهَمَمْنَا أَنْ نُفْتَتَنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ- وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَرْخَى السِّتْرَ»(٢٢)، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، وَرَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا**

---

(٢٠) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٢٩)، والترمذي في الشمائل (٣٩٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٦٤)، وابن زبر الربعي في وصايا العلماء (٢٨)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن صحيح (١٧٣٨).

(٢١) أخرجه من حديث ابن عباس عن علي رضي الله عنهم: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٧)، وأحمد (١/ ٢٦٣).

(٢٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٦٨٠)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٩).

أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي»(٢٣).

وَغُشِيَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ ﵂، فَجَعَلَتْ عَائِشَةُ تَقْرَأُ عَلَيْهِ الْمُعَوِّذَاتِ وَتَنْفُثُ، وَتَدْعُو لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَأَفَاقَ وَسَمِعَهَا تَدْعُو بِشِفَائِهِ، فَقَالَ ﷺ: «**لَا، بَلْ أَسْأَلُ اللهَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى مَعَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**. فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»(٢٤).

وَدَخَلَ أَخُوهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِهَا، وَمَعَ عَبْدِالرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ، فَأَبَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ، قَالَتْ ﵂: «فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَضَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**. حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ»(٢٥). وَفِي رِوَايَةٍ: «فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ

---

(٢٣) هذه الرواية من حديث عائشة ﵂ عند: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨)، وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وصححها الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠).

(٢٤) أصل الحديث في الصحيحين: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة ﵂ (٢٤٤٤)، وهذا السياق لابن حبان (٦٥٩٠-٦٥٩١-٦٥٩٢).

(٢٥) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**. ثُمَّ قَضَى، وَكَانَتْ رضي الله عنها تَقُولُ: مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي»(٢٦)، قَالَتْ: «فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ المَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»(٢٧)، قَالَتْ: «فَخَرَجَتْ مِنْ فِيهِ نُطْفَةٌ بَارِدَةٌ فَوَقَعَتْ عَلَى ثُغْرَةِ نَحْرِي فَاقْشَعَرَّ لَهَا جِلْدِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ غُشِيَ عَلَيْهِ فَسَجَّيْتُهُ ثَوْبًا»(٢٨)، قَالَتْ: «فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا»(٢٩)، «وَسُجِّيَ ﷺ بِثَوْبٍ حِبَرَةٍ»(٣٠).

وَمَاتَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَأَزْكَى الْبَشَرِيَّةِ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَكَانَتِ الْمُصِيبَةُ بِهِ أَعْظَمَ الْمُصِيبَةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَقَعَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٠] فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْحَمْدُ للَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ اكْتُبْ أَجْرَنَا وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ فِي الْمُصِيبَةِ بِهِ، وَاخْلُفْ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَأَوْرِدْنَا حَوْضَهُ، وَاسْقِنَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ كَأْسًا لَا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَارْزُقْنَا مُرَافَقَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



(٢٦) هذه الرواية من حديث عائشة رضي الله عنها للبخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٨).

(٢٧) هذه الرواية من حديث عائشة رضي الله عنها للبخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٦).

(٢٨) هذه الرواية لأحمد (٦/ ٢١٩)، وإسحاق بن راهويه (١٣٣٣)، وابن سعد (٢/ ٢٦١).

(٢٩) هذه الرواية لأحمد (٦/ ١٢١)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٧/ ٢١٣)، قال ابن كثير في سيرته: «وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة» (٤/ ٤٧٨).

(٣٠) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في الجنائز، باب تسجية الميت (٩٤٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلُطْفِهِ، لَا يَقْضِي قَضَاءً لِمُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: جَمَعَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالشَّهَادَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ بِالسُّمِّ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لِأَنْ أَحْلِفَ تِسْعًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُتِلَ قَتْلًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ شَهِيدًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٣١).

وَالْيَهُودِيَّةُ الَّتِي سَمَّتِ النَّبِيَّ ﷺ مَا فَعَلَتْ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنْ سَادَتِهَا وَكِبَارِ قَوْمِهَا مِنْ رُؤُوسِ الْيَهُودِ؛ حَسَدًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَحَسَدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ بُعِثَ خَاتَمُ الرُّسُلِ مِنْهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**. فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: **إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟** فَقَالُوا: نَعَمْ . . . قَالَ: **هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟** قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟** قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣٢).

وَمَنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَنْ يَتَوَرَّعُوا عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ بِالْمُسْلِمِينَ،

---

(٣١) أخرجه أحمد (١/٤٠٨)، والطبراني في الكبير (١٠/١٠٩) رقم (١٠١١٩)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٦٠).

(٣٢) أخرجه البخاري في الجزية، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يعفى عنهم (٣١٦٩).

وَشَوَاهِدُ ذَلِكَ مَاثِلَةٌ لِلْعِيَانِ فِي فِلَسْطِينَ، فَهُمْ أَعْدَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ شَايَعَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ النَّصَارَى فَهُمْ أَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا، وَإِنْ أَرَادَ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَزَعَمُوا صَدَاقَتَهُمْ وَأُخُوَّتَهُمْ، وَحَسَّنُوا لَدَى الْمُسْلِمِينَ صُورَتَهُمْ؛ فَإِنَّ الْأَحْدَاثَ تَفْضَحُهُمْ، وَضَغَائِنُهُمْ عَلَيْنَا تَبْدُو مِنْهُمْ، وَمَنْ وَالَى النَّبِيَّ ﷺ وَأَحَبَّهُ عَادَى أَعْدَاءَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ وَكَرِهَهُمْ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْغَيْظِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَقَتْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَمُعَادَاتِهِمْ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ؛ إِذْ كَيْفَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنُ مَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُ عليهم السلام.

إِنَّ الْحُزْنَ عَلَى فَقْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّعْبِيرَ عَنْ مَحَبَّتِهِ لَنْ يَكُونَ فِي الِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِهِ أَوْ بَعْثَتِهِ أَوْ إِسْرَائِهِ أَوْ هِجْرَتِهِ، أَوِ اخْتِرَاعِ بِدَعٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَكِنَّ التَّعْبِيرَ الصَّادِقَ عَنْ مَحَبَّتِهِ يَكُونُ فِي مُوَالَاتِهِ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ.

يَكُونُ فِي اقْتِفَاءِ أَثَرِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِهِ، وَالْتِزَامِ هَدْيِهِ، وَلَئِنْ فَقَدْنَا نَبِيَّنَا ﷺ وَلَمْ نَرَهُ، فَإِنَّ سُنَّتَهُ بَيْنَ أَيْدِينَا، فَمَنْ يَلْتَزِمُهَا؟ مَنْ؟ مَحَبَّةً لَهُ وَلِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَمَا أَسْهَلَ ادِّعَاءَ مَحَبَّتِهِ ﷺ! وَلَكِنْ عِنْدَ التَّطْبِيقِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا الْقَلَائِلُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الَّذِينَ يُجَانِبُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى وَإِنِ اشْتَهَتْهُ نُفُوسُهُمْ، وَوَلَغَ فِيهِ غَيْرُهُمْ؛ مَحَبَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَاجْتِنَابًا لِنَهْيِهِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

إِنَّ هَؤُلَاءِ المُحِبِّينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هُمْ مَنْ يَسْأَلُونَ عَنْ سُنَّتِهِ وَيَتَعَلَّمُونَهَا، وَيَدْرُسُونَ حَدِيثَهُ وَيَحْفَظُونَهُ؛ لِيَعْمَلُوا بِهَا، وَلِيُعَلِّمُوهَا غَيْرَهُمْ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى امْتِثَالِهَا.

إِنَّهُمْ مَنْ يُدْمِنُونَ عَلَى قِرَاءَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَسَفَرِهِ وَغَزَوَاتِهِ، وَهَدْيِهِ وَعِبَادَاتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ، فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أُسْرَتِهِ وَمَعَ أَصْحَابِهِ وَمَعَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لِيَتَلَمَّسُوا السُّنَنَ، وَيَقْتَفُوا الْأَثَرَ؛ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَشَوْقِهِمْ إِلَيْهِ، فَلَا يَشْغَلُهُمْ عَنْ سِيرَتِهِ وَأَخْبَارِهِ شَاغِلٌ .. لَا تَسْتَغْنِي قُلُوبُهُمْ عَنْهَا، وَلَا يَسْتَبْدِلُونَ غَيْرَهَا بِهَا.

فَانْظُرُوا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- هَلْ أَنْتُمْ كَذَلِكَ؟ فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَاهُ، وَلْيَسْأَلْهُ الثَّبَاتَ، وَلْيَزْدَدْ خَيْرًا إِلَى خَيْرِهِ، وَمَنْ كَانَ مُقَصِّرًا فَلْيُرَاجِعْ نَفْسَهُ، وَلْيُدْرِكْ مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِهِ، وَلْيُعَوِّضْ مَا مَضَى مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ بِالْتِزَامِ سُنَّتِهِ، وَقِرَاءَةِ سِيرَتِهِ، وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِ، وَسَعِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالشُّرْبِ مِنْ حَوْضِهِ، وَبِمُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ حُجِزَ عَنْ حَوْضِهِ لِتَقْصِيرِهِ وَإِحْدَاثِهِ وَتَبْدِيلِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٣٥٣- رحيل النبي ﷺ (٢)
الوفاة والدفن والحزن

١١/ ٣/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومِ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْأَحْيَاءِ، وَتَفَرَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقَاءِ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن: ٢٧]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا وُتِرَتْ أُمَّتُهُ بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ وَتْرِهَا بِهِ، فَبَكَتْهُ الْقُلُوبُ قَبْلَ الْعُيُونِ، وَفَقَدَهُ أَزْوَاجُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَبِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا، كَمْ مِنْ خَيْرٍ نَالَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ؟! وَكَمْ مِنْ عَذَابٍ رُفِعَ عَنْهُمْ بِاسْتِغْفَارِهِ وَمَسْأَلَتِهِ؟! فَهُوَ أَمَانُهُمْ مَا دَامَ فِيهِمْ، فَلَمَّا قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بَقِيَ فِيهِمْ مَا عَلَّمَهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ مَا فَرِحُوا بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا حَزِنُوا عَلَى شَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِهِمْ لَمَّا فَقَدُوهُ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَوْ كَانَ لَهَا وَزْنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَأَنَالَهَا أَحَبَّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ، وَأَخْلَصَهُمْ لَهُ، النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهَا دَارَ امْتِحَانٍ وَبَلَاءٍ، وَمَهْمَا طَالَ عُمْرُ الْوَاحِدِ فِيهَا فَهُوَ مُفَارِقُهَا إِلَى دَارِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَلَا نَجَاةَ لَهُ إِلَّا بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ تَعَالَى خِيرَةَ خَلْقِهِ وَأَفْضَلَ رُسُلِهِ ﷺ بِذَلِكَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا

لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فَتَزَوَّدُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ، وَمِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى دِينَهُ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَ دِينَهُ لِعِبَادِهِ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ ﷺ مَا كُلِّفَ بِإِبْلَاغِهِ؛ أَذِنَ سُبْحَانَهُ بِقَبْضِ رَسُولِهِ، وَأَعْلَمَهُ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، فَحَجَّ بِالنَّاسِ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، وَعَلَّمَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا**»[(١)]، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ﷺ: «**لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»[(٢)]. وَخَصَّ بَعْضَ أَصْحَابِهِ وَبَعْضَ أَهْلِ بَيْتِهِ فَصَرَّحَ لَهُمْ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَقُرْبِ وَفَاتِهِ، وَعَرَّضَ لِعَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا، فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ ﵁ فَبَكَى، وَفَدَاهُ بِالآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَخَفِيَتْ عَلَى غَيْرِهِ.

كَانَ الْيَهُودُ فِي خَيْبَرَ قَدْ وَضَعُوا لَهُ ﷺ السُّمَّ فِي شَاةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، مُدَّعِينَ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ كَانَ كَذَّابًا ارْتَاحُوا مِنْهُ حَسَبَ زَعْمِهِمْ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ لَمَّا ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَأَثَّرَ فِيهِ ذَلِكَ السُّمُّ، وَلَا يَزَالُ يَجِدُ أَثَرَهُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ؛ بِصُدَاعٍ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْصِبَ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ[(٣)]، وَحُمَّى تَأْخُذُهُ حَتَّى يُفْرِغَ عَلَى نَفْسِهِ سَبْعَ قِرَبٍ يُخَفِّفُهَا[(٤)].

وَاشْتَدَّ بِهِ ﷺ الْمَرَضُ فَثَقُلَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالنَّاسِ، وَوَكَّلَ أَبَا بَكْرٍ ﵁ بِالنِّيَابَةِ

---

(١) رواه من حديث جبير بن مطعم ﵁: أحمد (٤/ ٨٢)، والدارمي واللفظ له (٢٢٧).

(٢) رواه من حديث جابر ﵁: مسلم (١٢٩٧).

(٣) انظر في ذلك: حديث عائشة ﵂ عند البخاري (٦٧٩١)، وحديث ابن عباس ﵄ عند البخاري أيضًا (٨٨٥).

(٤) انظر: حديث عائشة ﵂ عند البخاري (١٩٥).

عَنْهُ. وَآخِرُ صَلَاةٍ أَمَّ النَّاسَ فِيهَا كَانَتْ صَلَاةَ المَغْرِبِ قَرَأَ فِيهَا بِالمُرْسَلَاتِ(٥).

وَفِي آخِرِ لَحَظَاتِهِ خُيِّرَ ﷺ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**» قَالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَبَاتَ ﷺ لَيْلَةَ الِاثْنَيْنِ وَقَدْ بَدَأَهُ المَوْتُ، ورَأَى ذَلِكَ مِنْهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَزَوْجُهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٧)، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَجَدَ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً وَنَشَاطًا، فَأَرْخَى سِتْرَ حُجْرَتِهِ يَنْظُرُ إِلَى أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، فَتَبَسَّمَ فَرِحًا بِمَا رَأَى مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَاجْتِمَاعِ أَمْرِهِمْ، وَتَآلُفِ قُلُوبِهِمْ. وَفَرِحُوا هُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَظَنُّوا أَنَّهُ خَارِجٌ إِلَيْهِمْ، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ فِي الصَّفِّ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْقَى، ثُمَّ أَرْخَى ﷺ السِّتْرَ(٨).

وَلَمَّا اشْتَدَّ الضُّحَى، وَارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ حَضَرَهُ المَوْتُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ عُلْبَةٌ بِهَا مَاءٌ، فَكَانَ يُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ بِالمَاءِ، فَيُدْخِلُ يَدَهُ فِي المَاءِ،

---

(٥) كما في حديث أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها عند: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٩)، ومسلم في الصلاة، باب القراءة في الصبح (٤٦٢)

(٦) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤)

(٧) ينظر خبر ذلك في الخطبة الماضية ص(٧٣).

(٨) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند: البخاري في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٦٨٠)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٩).

فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ»(٩).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَثْقُلُ فِي حِجْرِي، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا بَصَرُهُ قَدْ شَخَصَ وَهُوَ يَقُولُ: «بَلِ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ»، فَقُلْتُ: خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! قَالَتْ: وَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٠).

وَحَوَّلَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْ حِجْرِهَا إِلَى وِسَادَةٍ(١١)، وَسَجَّتْهُ بِثَوْبِ حِبَرَةٍ(١٢)، وَهِيَ مِنْ ثِيَابِ الْيَمَنِ، وَحَزِنَتْ أَشَدَّ الْحُزْنِ، وَبُهِتَتْ بِمَا رَأَتْ.

وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَأَذِنَتْ لَهُمَا، وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الْحِجَابَ، «فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَاغْشْيَاهْ! مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! ثُمَّ قَامَا، فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ قَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا عُمَرُ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! قَالَ: كَذَبْتَ، بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ»(١٣).

وَبَدَأَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ خَبَرَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَاللَّهِ لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا». وَكَانَ النَّاسُ أُمِّيِّينَ

---

(٩) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).

(١٠) رواه أحمد (٦/ ٢٧٤)، وأصله في الصحيحين: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤).

(١١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٤).

(١٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب تسجية الميت (٩٤٢).

(١٣) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ٢١٩)، وإسحاق بن راهويه (١٣٣٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد ثقات (٩/ ٣٣).

لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَهُ فَأَمْسَكَ النَّاسُ(١٤).

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ فِي مَنْزِلِهِ الَّذِي بِالسُّنُحِ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، فَجَاءَ ﵁ عَلَى فَرَسِهِ وَعُمَرُ قَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ يَخْطُبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَائِشَةَ فَرَفَعْتِ الْحِجَابَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَانَبِيَّاهْ! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصَفِيَّاهْ! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَاخَلِيلَاهْ! مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا»(١٦).

خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ ﵁ مِنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ وَعُمَرُ ﵁ يَخْطُبُ فِي النَّاسِ وَيَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى، فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ، يَزْعُمُونَ -أَوْ قَالَ: يَقُولُونَ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ»(١٧).

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١٤) رواه من حديث سالم بن عبيد -وكان من أهل الصفة- ﵁: عبد بن حميد (٣٦٥)، والنسائي في الكبرى (٧١١٩)، والترمذي في الشمائل(٣٩٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٩٩).

(١٥) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٣).

(١٦) رواه من حديث عائشة ﵂ البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» (٣٦٦٧).

(١٧) رواه من حديث أنس ﵁: أحمد (٣/ ١٩٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٢٠).

جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فَنَشَجَ الناس يَبْكُونَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا»(١٩).

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؟! مَا شَعَرْتُ أَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى!!(٢٠).

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا، فَعُقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢١).

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّمَا كَانَتْ عَلَى وُجُوهِنَا أَغْطِيَةٌ فَكُشِفَتْ»(٢٢).

وَانْشَغَلَ النَّاسُ يَوْمَهُمْ ذَاكَ بِمُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه بِالْخِلَافَةِ.

---

(١٨) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٦).

(١٩) رواه البخاري في الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤١).

(٢٠) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٣).

(٢١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

(٢٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٧)، والبزار (١٠٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة (٩/ ٣٨).

فَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ «أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي، أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا أَمْ نُغَسِّلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّوْمَ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لَا يَدْرُونَ مَنْ هُوَ: أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَسَّلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ، يَصُبُّونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ، وَيُدَلِّكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَّلَهُ إِلَّا نِسَاؤُهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢٣].

وَأَمَرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَنْ يُغَسِّلَهُ بَنُو أَبِيهِ[٢٤]؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَغَسَّلَهُ عَلِيٌّ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَشُقْرَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[٢٥].

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «لَمْ يُخْتَلَفْ فِي أَنَّ الَّذِينَ غَسَّلُوهُ عَلِيٌّ وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَاخْتُلِفَ فِي الْعَبَّاسِ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَقُثَمَ بْنِ الْعَبَّاسِ وَشُقْرَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ شَهِدُوا غُسْلَهُ، وَقِيلَ: لَمْ يُغَسِّلْهُ غَيْرُ عَلِيٍّ، وَالْفَضْلُ كَانَ يَصُبُّ الْمَاءَ وَعَلِيٌّ يُغَسِّلُهُ، وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ قَدْ تَنَازَعُوا ذَلِكَ، فَصَاحَ أَبُو بَكْرٍ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، كُلُّ قَوْمٍ أَوْلَى بِجَنَائِزِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَانْطَلَقَ الْأَنْصَارُ إِلَى الْعَبَّاسِ فَكَلَّمُوهُ، فَأَدْخَلَ مَعَهُمْ أَوْسَ بْنَ خَوْلِيٍّ، وَكَانَ الْفَضْلُ وَالْعَبَّاسُ يُقَلِّبَانِهِ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَقُثَمُ يَصُبَّانِ الْمَاءَ عَلَى عَلِيٍّ رحمه الله.

---

(٢٣) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: أبو داود في الجنائز، باب في ستر الميت عند غسله (٣١٤١)، وصححه ابن حبان (٦٦٢٨).

(٢٤) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٤).

(٢٥) رواه عن الشعبي -رحمه الله تعالى-: أبو داود في الجنائز، باب كم يدخل القبر (٣٢٠٩). ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في الكبير (١٠/٣٢٦) رقم (١٠٧٩٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٦٤).

وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ: «أَنَّ الْعَبَّاسَ كَانَ بِالْبَابِ لَمْ يَحْضُرِ الْغُسْلَ يَقُولُ: لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَحْضُرَهُ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أُرَاهُ ﷺ يَسْتَحِيي أَنْ يَرَانِي أَرَاهُ حَاسِرًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِ صَحَابَتِهِ وَأَزْوَاجِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا»اهـ(٢٦).

قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «غَسَّلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنَ المَيِّتِ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَكَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا ﷺ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٢٧).

ثُمَّ كَفَّنُوهُ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سُحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ(٢٨).

وَقَالَ الصَّحَابَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: «يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، أَيُصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ، حَتَّى يَدْخُلَ النَّاسُ. قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، أَيُدْفَنُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَيْنَ؟ قَالَ: فِي المَكَانِ الَّذِي قَبَضَ اللهُ فِيهِ رُوحَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَّا فِي مَكَانٍ طَيِّبٍ»رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ(٢٩).

فَحَفَرُوا لَهُ فِي المَكَانِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَلَحَدَ قَبْرَهُ الَّذِي يَشُقُّ لُحُودَ قُبُورِ الشُّهَدَاءِ رضي الله عنهم(٣٠)، وَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ ﷺ: الْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ وَالْفَضْلُ وَقُثَمُ ابْنَا الْعَبَّاسِ،

---

(٢٦) التمهيد (٢٤/ ٤٠٢).

(٢٧) رواه البزار (٥١٩)، والبيهقي (٤/ ٥٣)، والحاكم، وصححه، وقال: على شرط الشيخين (٣/ ٦١).

(٢٨) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: عند البخاري في الجنائز، باب موت يوم الاثنين (١٣٢١)، ومسلم في الجنائز باب في كفن الميت رقم (٩٤١).

(٢٩) هذا جزء من حديث سالم بن عبيد رضي الله عنه المخرج في حاشية (١٤).

(٣٠) رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن الجارود (٥٤٦)، وصححه ابن حبان (٦٥٩٩).

وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ.

فَلَمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ ﷺ، قَالَ المُغِيرَةُ: «قَدْ بَقِيَ مِنْ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ لَمْ يُصْلِحُوهُ، قَالُوا: فَادْخُلْ فَأَصْلِحْهُ، فَدَخَلَ وَأَدْخَلَ يَدَهُ، فَمَسَّ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: أَهِيلُوا عَلَيَّ التُّرَابَ، فَأَهَالُوا عَلَيْهِ التُّرَابَ، حَتَّى بَلَغَ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَكَانَ يَقُولُ: أَنَا أَحْدَثُكُمْ عَهْدًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٣١).

وَدُفِنَ ﷺ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ(٣٢)، وَرُفِعَ قَبْرُهُ نَحْوًا مِنْ شِبْرٍ(٣٣).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى وَقَدَّر؛ لَا يَقْضِي قَضَاءً لِمُؤْمِنٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى

(٣١) رواه أحمد (٦/ ٨١)، وابن عساكر (٤/ ٢٩٦)، ونقل المزي عن الحاكم جزمه أن قثم بن العباس كان آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ، وهكذا جاء عن ابن عباس، كما في الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٠٣).

(٣٢) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ١١٠).

(٣٣) رواه من حديث جابر رضي الله عنه: البيهقي (٣/ ٤١٠)، وصححه ابن حبان (٦٦٣٥).

كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: كَانَتْ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ حَدَثًا مُهِمًّا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا أَتْبَاعُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ لَمَّا أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِاسْتِحْضَارِ المُصِيبَةِ بِهِ ﷺ عِنْدَ أَيِّ مُصِيبَةٍ تَنْزِلُ بِأَحَدِهِمْ؛ لِيَتَسَلَّى بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ -أَوْ مِنَ المُؤْمِنِينَ- أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ المُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٣٤).

وَأَحَسَّ الصَّحَابَةُ بَعْدَ دَفْنِهِ ﷺ بِعَظِيمِ الْأَسَى، وَالْتَاعَتْ قُلُوبُهُمْ بِفَقْدِهِمْ لَهُ إِمَامًا وَمُعَلِّمًا وَهَادِيًا، فَابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي التُّرَابِ وَرَجَعْتُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: قَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها: «يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ»(٣٥).

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَسٌ رضي الله عنه حَالَهُمْ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ مُهَاجِرًا، ثُمَّ حَالَهُمْ بِوَفَاتِهِ ﷺ فَقَالَ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَقَالَ: مَا نَفَضْنَا عَنْ

---

(٣٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨) وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وضعفه النووي في خلاصة الأحكام (٣١٨٠)، لكن صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠).

(٣٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٦٢)، وأحمد (٣/ ٢٠٤)، والطيالسي (١٣٧٤)، وعبد بن حميد (١٣٦٤)، والدارمي (٨٧)، وأبو يعلى (٣٣٧٩)، وابن حبان (٦٦٢٢).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣٦].

وَرَوَى مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: «أَنَّ حَاضِنَةَ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّ أَيْمَنَ رضي الله عنها بَكَتْ عَقِبَ وَفَاتِهِ، فَقِيلَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ قَدْ أَكْرَمَ اللهُ نَبِيَّهُ فَأَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرَاحَهُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ، كَانَ يَأْتِينَا غَضًّا جَدِيدًا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَقَدِ انْقَطَعَ وَرُفِعَ، فَعَلَيْهِ أَبْكِي، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهَا»[٣٧].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما زَارَاهَا فَبَكَتْ، وَقَالَتْ: «أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣٨].

وَقَدْ وَصَفَ إِمَامُ أَهْلِ السِّيَرِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حَالَ الصَّحَابَةِ عَقِبَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَاشْرَأَبَّتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ كَالْغَنَمِ الْمَطِيرَةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ لِفَقْدِ نَبِيِّهِمْ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه»[٣٩].

وَبَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ لَمَّا دَوَّنُوا أَحْدَاثَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[٤٠]؛ طَلَبًا لِلْأَجْرِ، وَتَطْبِيقًا لِلْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَامْتِثَالًا لِلسُّنَّةِ

---

(٣٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي ﷺ، وقال: حديث غريب صحيح (٣٦١٨) وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣١) وعبد بن حميد (١٢٨٩) وأبو يعلى (٣٢٩٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٣٤).

(٣٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧/ ٢٦٦)

(٣٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (٢٤٥٤).

(٣٩) سيرة ابن هشام (٦/ ٨٨) وسيرة ابن كثير (٤/ ٥٥٤).

وأخرجه عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: ابن الجوزي في المنتظم (٤/ ٧٤).

(٤٠) ينظر: الرحيق المختوم (٤٣١).

=

النَّبَوِيَّةِ. فَنَقُولُ كَمَا قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَمِمَّا يُعَزِّي الْمُؤْمِنَ فِي وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُسَلِّي حُزْنَهُ عَلَيْهِ: مَا رَوَى أَبُو مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤١).

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَجْعَلَ نَبِيَّنَا وَإِمَامَنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا مُحَمَّدًا ﷺ فَرَطًا لَنَا، وَسَلَفًا بَيْنَ أَيْدِينَا، وَمُسْتَقْبِلًا لَنَا بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى حَوْضِهِ لِيَسْقِيَنَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً لَا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَلَئِنْ فَقَدَتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ حَبِيبَهَا وَنَبِيَّهَا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ سُنَّتَهُ الشَّرِيفَةَ، وَهَدْيَهُ الْمُبَارَكَ بَيْنَ أَيْدِينَا، قَدْ حَفِظَهَا اللهُ تَعَالَى لَنَا كَيْمَا نَنْهَلَ مِنْ مَعِينِهَا، وَنَلْتَزِمَ أَحَادِيثَهَا، فَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَحَبَّ سِيرَتَهُ وَسُنَّتَهُ، وَأَحَبَّ مَنْ يَلْتَزِمُهَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَبْغَضَ مَنْ يُبْغِضُهَا أَوْ يَنْتَقِصُهَا أَوْ يَسْخَرُ بِشَيْءٍ مِنْهَا أَوْ يَرُدُّهَا لِرَأْيٍ رَآهُ، أَوْ قَوْلٍ سَمِعَهُ.

وَلَيْسَتْ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِهِ، وَلَا فِي إِنْشَادِ الْقَصَائِدِ الْبِدْعِيَّةِ وَالشِّرْكِيَّةِ فِي إِطْرَائِهِ وَمَدْحِهِ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الَّتِي لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَقَدْ حَذَّرَ مِنْهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ، وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ**

= وكتب أبو بكر كتابًا قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى زياد بن لبيد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن النبي ﷺ توفي، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فانظر ولا قوة إلا بالله أن تقوم قيام مثلك، ويبايع من عندك ... الاكتفاء للكلاعي (٢/ ١٥٩).

(٤١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٢٢٨٨).

فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»(٤٢)، وَقَالَ ﷺ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٤٣)، فَالْتَزِمُوا -عِبَادَ اللَّهِ- سُنَّتَهُ، وَاتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا.

وَصَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا . . .



(٤٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور (١٧١٨).

(٤٣) أخرجه من حديث العرباض بن سارية ﵁: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والدارمي (٩٦)، وصححه ابن حبان (٥).

٣٥٤- رحيل النبي ﷺ (٣) وصاياه للأمة قبل موته

٦/ ٣/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَعْظُمُ المُصِيبَةُ بِالْأَمْوَاتِ عَلَى قَدْرِ الِانْتِفَاعِ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَتَشْتَدُّ رَزِيَّةُ النَّاسِ بِفَقْدِهِمْ بِقَدْرِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُوتُ فَلَا يَفْتَقِدُهُ أَحَدٌ، بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَوْتُهُ رَاحَةً لِلْأَحْيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ؛ كَمَوْتِ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ الَّذِي يَضُرُّ النَّاسَ وَلَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا**

إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ الْفَاجِرَ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَقْدُه ثُلْمَةٌ، وَمَوْتُهُ مَوْتُ أُمَّةٍ؛ كَالْقَادَةِ الْعَادِلِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الرَّبَّانِيِّينَ. وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَامَةُ هَلَاكِ النَّاسِ ذَهَابُ عُلَمَائِهِمْ، وَهُوَ نَقْصُ الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَفِي عَصْرِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ قَالَ مُحَمَّدُ الْبِيكَنْدِيُّ: «لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَزِيدَ فِي عُمْرِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ عُمُرِي لَفَعَلْتُ؛ فَإِنَّ مَوْتِي يَكُونُ مَوْتَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَمَوْتَه ذَهَابُ الْعِلْمِ»(٢).

إِذَا كَانَ هَذَا يُقَالُ فِي حَقِّ مَنْ تَعَلَّمُوا الشَّرِيعَةَ فَبَلَّغُوهَا لِلنَّاسِ، فَمَاذَا يُقَالُ فِي الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ وَمَاذَا يُقَالُ فِي فَقْدِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْصَحُهُمْ لِعِبَادِهِ؟

لَقَدْ كَانَتْ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ، كُلُّ الْمَصَائِبِ وَإِنْ عَظُمَتْ فَهِيَ دُونَهَا، وَكُلُّ الرَّزَايَا مَهْمَا كَانَتْ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَهَا؛ فَأَعْظَمُ خَيْرٍ حُزْنَاهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَعْظَمُ شَرٍّ اجْتَنَبْنَاهُ وَهُوَ الْكُفْرُ كَانَ حَذَرُنَا مِنْهُ بِسَبَبِهِ ﷺ.

نَفَعَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِنَا بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ -بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى- قَدْرَ مَا لَهُ ﷺ عَلَيْنَا، فَكَانَتْ وَفَاتُهُ ﷺ هِيَ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وَهِيَ

---

(١) أخرجه من حديث أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب سكرات الموت (٦١٤٧)، ومسلم في الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (٩٥٠).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٢٤)، وابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٨٨)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٦٠).

أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِبْنَا بِهَا بَعْدَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ عَامًا مِنْ وَفَاتِهِ(٣)، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا مُؤْمِنٌ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

لَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمَ؛ لِيُسَلِّيَ أَصْحَابَهُ ﵃ بِفَقْدِهِ حِينَ دَنَا أَجَلُهُ، وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، وَعَلِمَ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ قَالَتْ: «فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَشَفَ سِتْرًا، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، ورجاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ -أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٤).

وَمِنْ نُصْحِهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ: وَصِيَّتُهُ لَهُمْ بِوَصَايَا عَظِيمَةٍ، وَالْعَادَةُ أَنَّ المَرِيضَ يُشْغَل بِمَرَضِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ مَا شَغَلَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ، وَوَطْأَةِ المَرَضِ، وَاسْتِقْبَالِ المَوْتِ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِلْأُمَّةِ بِمَا يَحْتَاجُونَهُ.

وَمَا وَصَّاهُمْ بِهَذِهِ الْوَصَايَا فِي مَرَضِ مَوْتِهِ إِلَّا لِأَهَمِّيَّتِهَا، أَوْ لِاحْتِمَالِ غَفْلَةِ

---

(٣) على الخطيب أن يراعي فرق السنوات إذا خطب بها أو يحذف هذه الفقرة؛ فإن عدد السنوات هذا صحيح في هذه السنة ١٤٢٩هـ ويتغير بانتهائها.

(٤) أخرجه من حديث عائشة ﵂: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨) وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وضعفه النووي في خلاصة الأحكام (٣١٨٠)، لكن صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠)، وذكر له شواهد في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٠٦).

النَّاسِ عَنْهَا، أَوْ جَهْلِهِمْ بِهَا، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى تَفْرِيطِهِمْ فِيهَا؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ انْتَفَعَ بِهَا أَعْظَمَ النَّفْعِ، فَهِيَ آخِرُ وَصَايَا مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ، وَمِنْ تِلْكُمُ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ: إِحْسَانُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا رَوَى جَابِرٌ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَمِمَّا حُفِظَ مِنْ وَصَايَاهُ فِي مَرَضِهِ ﷺ: أَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَمَرَهُمْ بِتَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي الرُّكُوعِ، وَبِالدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عز وجل، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٦).

وَآخِرُ مَرَّةٍ صَعِدَ فِيهَا الْمِنْبَرَ كَانَتْ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ، أَوْصَى الْأُمَّةَ فِيهَا بِالْأَنْصَارِ رضي الله عنهم؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رضي الله عنهما بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ؛ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ**

(٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بإحسان الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩).

وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَرِشِي وَعَيْبَتِي، أَيْ: خَاصَّتِي وَمَوْضِعَ سِرِّي»(٨).

وَفِي حَدِيثِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِمِلْحَفَةٍ قَدْ عَصَّبَ بِعِصَابَةٍ دَسْمَاءَ، حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ**، فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَأَوْصَى ﷺ بِثَلَاثِ وَصَايَا حَفِظَ رَاوِيهَا اثْنَتَيْنِ وَنَسِيَ الثَّالِثَةَ؛ كَمَا رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولَ: «يَوْمُ الْخَمِيسِ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الْحَصَى، قُلْتُ: يَا ابنِ عَبَّاسٍ، مَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ قَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ فَقَالَ: **«ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ**

---

(٧) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، واللفظ له (٣٥٨٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي تعالى الله عنهم (٢٥١٠).

(٨) غريب الحديث (٢/ ١٣٨)، والنهاية لابن الأثير (٣/ ٣٢٧).
وقال ابن الأثير في موضع آخر: «أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره، واستعار الكرش والعيبة لذلك؛ لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته» النهاية (٤/ ١٦٣).
وقال القاضي عياض في مشارق الأنوار: «أي: جماعتي وموضع ثقتي، والكرش الجماعة من الناس» (١/ ٣٣٩).

(٩) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٩).

كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»، فَتَنَازَعُوا، وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: مَا لَهُ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ، فَقَالَ: «ذَرُونِي؛ فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»، فَأَمَرَهُمْ بِثَلَاثٍ قَالَ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ»، وَالثَّالِثَةُ خَيْرٌ، إِمَّا أَنْ سَكَتَ عنها، وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيتُهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠). وَالنَّاسِي لِلثَّالِثَةِ هُوَ سُلَيْمَانُ الْأَحْوَلُ الرَّاوِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ(١١).

وَأَفَادَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ بِأَنَّهَا الْوَصِيَّةُ بِالْقُرْآنِ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ، أَوْ بِإِنْفَاذِ جَيْشِ أُسَامَةَ، أَوِ النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ وَثَنًا يُعْبَدُ(١٢).

أَمَّا الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ فَجَاءَتْ مَعَ الْوَصِيَّةِ بِالْمَمَالِيكِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ: **الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(١٣).

---

(١٠) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (٢٩٩٧)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(١١) قال الحافظ في الفتح: يحتمل أن يكون القائل ذلك هو سعيد بن جبير، ثم وجدت عند الإسماعيلي التصريح بأن قائل ذلك هو ابن عيينة، وفي مسند الحميدي ومن طريقه أبو نعيم في المستخرج قال سفيان: قال سليمان -أي بن أبي مسلم-: لا أدري أذكر سعيد بن جبير الثالثة فنسيتها أو سكت عنها، وهذا هو الأرجح (٨/ ١٣٥).

(١٢) قال الداودي: الثالثة: الوصية بالقرآن، وبه جزم ابن التين. وقال المهلب: بل هو تجهيز جيش أسامة، وقواه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة قال لهم أبو بكر: إن النبي ﷺ عهد بذلك عند موته، وقال عياض: يحتمل أن تكون هي قوله: «ولا تتخذوا قبري وثنًا» فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود، ويحتمل أن يكون ما وقع في حديث أنس أنها قوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فتح الباري (٨/ ١٣٥).

(١٣) أخرجه ابن ماجه في الوصايا، باب هل وصى رسول الله ﷺ (٢٦٩٧)، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٤-٧٠٩٥)، وأحمد (٣/ ١١٧)، وعبد بن حميد (١٢١٤)، وأبو يعلى (٢٩٣٣)، وصححه ابن حبان (٦٦٠٥)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ١٣٩).

وَهَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ آخِرُ وَصَايَاهُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٤).

وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ مِنْ آخِرِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**، حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ(١٥).

لَقَدْ تَضَمَّنَ مَجْمُوعُ مَا نُقِلَ مِنْ وَصَايَاهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ ﷺ أُمُورًا عِدَّةً:

مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِإِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْعِبَادَاتِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ، وَبَيَانُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ.

وَمِنْهَا مَا لَهُ صِلَةٌ بِالْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ؛ كَوَصِيَّتِهِ بِالْأَنْصَارِ رضي الله عنهم؛ اعْتِرَافًا بِجَمِيلِهِمْ، وَوَفَاءً لَهُمْ عَلَى إِجَابَتِهِمْ دَعْوَتَهُ، وَنُصْرَتِهِمْ لِدِينِهِ.

وَكَذَلِكَ وَصِيَّتُهُ بِالْمَمَالِيكِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْخَدَمُ وَالْعُمَّالُ وَضَعَفَةُ النَّاسِ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِإِجَازَةِ الْوُفُودِ وَإِكْرَامِهِمْ، سَوَاءً كَانُوا مُسْلِمِينَ أَمْ كُفَّارًا(١٦)؛ وَذَلِكَ لِتَأْلِيفِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في حق المملوك (٥١٥٦)، وابن ماجه في الوصايا، باب هل وصى رسول الله ﷺ (٢٦٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (١٥٨)، وأحمد (١/ ٧٨).

(١٥) أخرجه من حديث أم سلمة: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٣١١-٣٢١)، والنسائي في الكبرى (٧١٠٠)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا بجميع رواته (١/ ٥٤٠).

(١٦) ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ٩٤).

لِانْتِفَاعِ الْأُمَّةِ بِهِمْ، أَوْ لِكَفِّ شَرِّهِمْ.

وَكَذَا الْأَمْرُ بِإِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَسُلْطَانٌ يُقِيمُونَ بِهَا دِينَهُمْ، وَيُظْهِرُونَ شَعَائِرَهُمْ؛ كَمَا جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ قَالَ: لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَكَوْنُ الصَّلَاةِ آخِرَ وَصَايَاهُ يَدُلُّ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِهَا، وَعَظِيمِ أَمْرِهَا، وَقَدْ كَرَّرَ ﷺ الْوَصِيَّةَ بِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، فَمَنْ ضَيَّعَهَا أَوْ فَرَّطَ فِيهَا بِتَرْكِهَا أَوْ تَأْخِيرِهَا عَنْ وَقْتِهَا أَوْ تَخَلَّفَ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، أَوْ قَصَّرَ فِي اسْتِكْمَالِ شُرُوطِهَا أَوْ أَرْكَانِهَا أَوْ وَاجِبَاتِهَا؛ فَقَدْ ضَيَّعَ مِنْ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْعِنَايَةُ بِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ كُلِّهَا؛ وَذَلِكَ بِتَعَلُّمِهَا، وَفَهْمِ مَعَانِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا؛ فَإِنَّهُ ﷺ مَا وَصَّى بِهَا إِلَّا لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَعَظِيمِ مَكَانَتِهَا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا حَازَ الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



(١٧) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٤)، والطبراني في الأوسط (١٠٦٦). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع (٥/ ٣٢٥).
وجاء مرسلًا عن الزهري وعن عمر بن عبد العزيزعند: مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٢)، وعنه عبدالرزاق (٩٩٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ التَّعْبِيرَ الْحَقِيقِيَّ عَنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْمُنُ فِي اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَلُزُومِ هَدْيِهِ؛ فَهُوَ أَكْمَلُ الْهَدْيِ وَأَحْسَنُهُ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وَلَقَدْ أَخْطَأَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَنِ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِهِ. وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ تَنْتَشِرُ مَظَاهِرُ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَتُنْقَلُ شَعَائِرُهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ عَبْرَ الْفَضَائِيَّاتِ وَالْإِذَاعَاتِ؛ مِمَّا يُرَسِّخُ هَذِهِ الْبِدْعَةَ الْمُنْكَرَةَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَتَتَضَمَّنُ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتُ إِنْشَادَ الْمَدَائِحِ الَّتِي فِيهَا غُلُوٌّ وَرُبَّما تَضَمَّنَتْ شِرْكًا، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ تَغْلُوَ فِيهِ كَمَا غَلَتِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عليه السلام.

وَمِنَ الْمُوَافَقَاتِ الْعَجِيبَةِ فِي بَابِ الْبِدْعَةِ: أَنَّ النَّصَارَى أَحْدَثُوا الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ الْمَسِيحِ عليه السلام فِي الْمِئَةِ الْمِيلَادِيَّةِ الرَّابِعَةِ، كَمَا أَحْدَثَ بَنُو عُبَيْدٍ الْبَاطِنِيُّونَ الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمِئَةِ الرَّابِعَةِ الْهِجْرِيَّةِ!![١٨].

(١٨) أول احتفال للنصارى بعيد ميلاد المسيح عليه السلام كان عام **٣٣٦**م، ينظر: الموسوعة العربية العالمية (١٦/ ٧١١). وللمزيد عن ذلك وعن رأس السنة وحكمهما، راجع خطبة: عيدا الميلاد ورأس السنة النصرانيين مجلد (٦) رقم الخطبة (٢١٧).

وَالْعَجِيبُ أَيْضًا أَنَّ الْفِرَقَ الصُّوفِيَّةَ وَمَنْ وَافَقَهَا مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ فِي الِاحْتِفَالِ بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ وَمَثِيلَاتِهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوْقِفٌ مُشَرِّفٌ حِينَ اعْتَدَى كَفَرَةُ الْغَرْبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرُسُومِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَفِي أَوَّلِ ظُهُورِ هَذِهِ الرُّسُومِ الْخَبِيثَةِ قَبْلَ سَنَتَيْنِ رَصَدَ بَعْضُ الْمُهْتَمِّينَ أَكْثَرَ الْمَوَاقِعِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا إِدَانَةً وَلَا اسْتِنْكَارًا لِهَذِهِ الرُّسُومِ، وَلَا شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِهَا(١٩)، وَإِلَى الْآنَ لَمْ نَرَ لِلْمُتَصَوِّفَةِ الَّذِينَ يَصِيحُونَ بِمَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَحْتَفِلُونَ بِمَوْلِدِهِ وَهِجْرَتِهِ وَإِسْرَائِهِ جُهْدًا يُذْكَرُ فِي التَّعْرِيفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، أَوْ نُصْرَتِهِ، أَوِ الذَّبِّ عَنْ عِرْضِهِ!! فَهَلِ انْحَصَرَ جُهْدُهُمْ فِي الدِّعَايَةِ لِأَنْفُسِهِمْ بِهَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ الَّتِي يَبْتَزُّونَ بِهَا أَتْبَاعَهُمْ، وَيَخْدَعُونَ بِهَا عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ؟!

إِنَّ الْمِنَّةَ الْعُظْمَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ هِيَ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَتْ بِمَوْلِدِهِ،

---

(١٩) قال الشيخ د.عبد العزيز آل عبد اللطيف: أخبرني صاحبي -وهو من الراصدين مواقع الصوفية على شبكة «الإنترنت»- أنه تصفح قرابة ستين موقعًا للصوفية أثناء نازلة تطاول «الدانمارك» على سيّد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، فلم يرَ للقوم حديثًا، ولم يسمع لهم همسًا في تلك الحادثة التي غدت مَشْغَلة السمع والبصر في جميع الأصقاع؛ ثم تدارك صاحبي قائلًا: اللهمّ إلا أن واحدًا من تلك الستين قد نقل مقالة من أحد المواقع السنية!

وختم هذا الصاحب كلامه قائلًا: هؤلاء الصوفية يعرفون الرسول عند الطمع، ويتخلون عنه عند الفزع.

ولئن كشفت هذه الحقيقة زيف محبة القوم لرسول الله ﷺ، وتهافت دعاويهم العريضة، فهي تبيّن حالة «السُّكْر» الذي أغرقهم، و«الفناء» الذي استحوذ عليهم، فكأن الأمر لا يعنيهم، وكما لو كانوا خارج العالم! ولو كان «السُّكْر» و«الاصطلام» أمرًا ملازمًا لهم لهان الخَطْب؛ فالمجنون معفو عنه، إلا أن هذا السكر سرعان ما يزول عند صوفية الأرزاق، إذا كان في الصحو تحقيق لحظوظهم الشخصية ومطامعهم الدنيوية.اهـ من مجلة البيان، عدد (٢٢٢) ص(٨).

وَبِهَذَا تَنَزَّلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ؛ فَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وَفِي الْقُرْآنِ نَصٌّ عَلَى ذَلِكَ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَفِي آيَةِ الْجُمُعَةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فَالْأَهَمِّيَّةُ الْكُبْرَى هِيَ لِبَعْثَتِهِ ﷺ لَا لِمَوْلِدِهِ؛ لِأَنَّهُ مَكَثَ بَعْدَ مَوْلِدِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَانَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْ حَالِهِمْ شَيْءٌ.

وَمَا كَانَ الْخَيْرُ الْعَظِيمُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمُحَارَبَةُ الشِّرْكِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا أَعْمَى اللهُ تَعَالَى الْمُبْتَدِعَةَ عَنْهُ، فَاحْتَفَلُوا بِالْمَوْلِدِ وَلَيْسَ هُوَ تَارِيخَ التَّغْيِيرِ فِي الْأَرْضِ، وَعَمُوا عَنِ الْبَعْثَةِ وَهِيَ تَارِيخُ التَّغْيِيرِ فِي الْأَرْضِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ رَأْيِهِمْ، وَقِلَّةِ تَوْفِيقِهِمْ!! وَمَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ حَدَثًا فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها(٢٠).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاسْتَمْسِكُوا بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْزَمُوا هَدْيَهُ، وَخُذُوا بِوَصِيَّتِهِ، وَذُبُّوا عَنْ عِرْضِهِ، وَانْصُرُوهُ بِمَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَقْوَاهُ: الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِهِ، وَإِظْهَارُ سُنَّتِهِ الَّتِي أَغَاظَتِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فَسَخِرُوا مِنْهُ وَمِنْ دِينِهِ؛ لِعَجْزِ بَاطِلِهِمْ أَمَامَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِبَهْرَجِ الْمُحْتَفِلِينَ بِالْمَوَالِدِ وَنَحْوِهَا وَلَوْ كَثُرُوا، وَزَيَّنُوا بَاطِلَهُمْ،

(٢٠) أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور (١٧١٨).

وَنَشَرُوهُ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ حَقٌّ وَإِنْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَثُرَ أَنْصَارُهُ، وَالْحَقُّ يُعْرَفُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَيْسَتِ الْكَثْرَةُ دَلِيلًا صَحِيحًا عَلَى الْحَقِّ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٥٥- توقير السلف للنبي ﷺ (١) من أخبار الصحابة ﵃

٢٥/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ اصْطَفَى رُسُلَهُ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الْحَجّ: ٧٥]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ اخْتَارَ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [الْبَيِّنَة: ٨]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اخْتَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، فَهُوَ صَاحِبُ اللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ، وَالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضَّلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي كَثْرَةِ أَتْبَاعِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَقُوَّةِ هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعِ وَضَعْفِهِمْ، وَقَدْ عُرِضَتِ الْأُمَمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ قَالَ ﷺ: **«حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ**

السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ»[(١)] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ؛ وَلِذَلِكَ غَبَطَ مُوسَى عليه السلام نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى كَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ[(٢)].

وَأَفْضَلُ النَّاسِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ هُمْ مَنْ صَحِبُوا رَسُولَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِهِ، مُدَافِعِينَ عَنْهُ، دَاعِينَ إِلَى دِينِهِ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُدْرِكُوا الرَّسُولَ فَآمَنُوا بِهِ أُلْحِقُوا بِهِمْ فِي الْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ بِدَلِيلِ قَولِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبَة: ١٠٠]، وَقَالَتِ الأَنْصَارُ رضي الله عنهم: «يَا رَسُولَ اللَّهِ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَتْبَاعٌ، وَإِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاكَ فَادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ أَتْبَاعَنَا مِنَّا، فَدَعَا بِهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(٣)].

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم أَصْحَابَ أَفْضَلِ نَبِيٍّ ﷺ؛ كَانُوا أَفْضَلَ الأَصْحَابِ، وَخَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَهُمُ السَّابِقُونَ إِلَى الإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ وَالنُّصْرَةِ. صَدَقُوا حِينَ كَثُرَ المُكَذِّبُونَ، وَاتَّبَعُوا إِذْ قَلَّ المُتَّبِعُونَ، وَتَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ هَجْرَ الأَوْطَانِ، وَمُفَارَقَةَ الأَهْلِ وَالْوِلْدَانِ، وَمُعَادَاةَ الْعَشِيرَةِ وَالْخُلَّانِ، وَمَهْمَا

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الطب، باب مَنِ اكْتَوَى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٣٧٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠).

(٢) في حديث الإسراء الطويل من رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «**فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسَلِّمْ عَلَيْهِ، فسَلَّمْتُ عليه، فرد ثُمَّ قال: مرحبًا بالأخِ الصالح، والنَّبِيِّ الصالح، فلما تجاوَزْتُ بَكَى، قيل له: ما يُبْكِيكَ؟ قال: أَبْكِي لأن غلامًا بُعِثَ بَعْدِي يدخل الجنة مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَر ممن يدخلها مِنْ أُمَّتِي**» أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٦٧٤).

(٣) أخرجه من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب أتباع الأنصار (٣٥٧٦)، والطيالسي (٦٧٥)، وأحمد (٤/ ٣٧٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٧٦٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٨٦).

عَمِلَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَلَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَهُمْ، وَلَنْ يَحُوزُوا فَضْلَهُمْ، أَوْ يُدْرِكُوا سَبْقَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَلْحقُونَ بِهِمْ فِي الْفَوْزِ وَالْجَنَّةِ، لَا فِي الْفَضْلِ وَالدَّرَجَةِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤)، وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ»(٥).

إِنَّهُمْ ﵃ أَعْظَمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَأَكْثَرُهُمْ تَضْحِيَةً وَبَذْلًا، فَاسْتَحَقُّوا مَا نَالُوا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَاصْطِفَائِهِ لَهُمْ؛ لِيَكُونُوا أَحْبَابَ خَاتَمِ رُسُلِهِ ﷺ، وَأَخْبَارُهُمْ ﵃ غَزِيرَةٌ فِي تَصْدِيقِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ، وَوَفَائِهِمْ وَفِدَائِهِمْ لَهُ ﷺ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي بَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ يُقَدِّمُ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﵁ قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى قَرَابَتِهِ(٦)، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ الصَّادِقَةِ.

---

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁: البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٣٤٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة ﵃، باب تحريم سب الصحابة ﵃ (٢٥٤٠) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٦٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١٥-٢٠-١٧٢٩-١٧٣٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٧)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاج وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (١/ ٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٦) قال أبو بكر ﵁: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي» أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، ومنقبة فاطمة ﵍ بنت النبي ﷺ (٣٥٠٨).

وَالْفَارُوقُ عُمَرُ ﷺ يُخْبِرُ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّهُ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِهِ(٧). وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ المَحَبَّةِ الْعَظِيمَةِ أَحَبَّ عُمَرُ إِسْلَامَ الْعَبَّاسِ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِإِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ مَعَ أَنَّهُ وَالِدُهُ(٨)؛ لِمَكَانِ الْعَبَّاسِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَسُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «كَانَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَمِنَ المَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَإِ»(٩).

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

إِنَّهُمْ ﷺ قَدَّمُوهُ ﷺ عَلَى آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، حَتَّى هَمَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ أَنْ يَقْتُلَ أَبَاهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ(١١).

---

(٧) عن عبد الله بن هشام ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا مِنْ نفسي، فقال النبي ﷺ: **لَا، وَالَّذِي نفسي بِيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**. فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: **الآن يَا عُمَرُ**» أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧).

(٨) قال عمر ﷺ: «يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أَسْلَمَ، وما ذاك إلا أني قد عَرَفْت أن إسلامك كان أَحَبَّ إِلَى رسول الله مِنْ إسلام الخطاب لو أَسْلَمَ» أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٥/ ٥٩)، والطبري في تاريخه (٢/ ١٥٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١) رقم (٧٢٦٤)، والبيهقي في الدَّلَائِل (٥/ ٣٤)، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالِب العالية (٤٣٠١)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٣٤١).

(٩) الشفاء للقاضي عياض (٢/ ٢٠).

(١٠) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما كان قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(١١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٦٢).

وَلَمَّا اعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ وَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رضي الله عنه دَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ حَفْصَةَ رضي الله عنها مُغْضَبًا، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ، فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ، فَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْبَوَّابِ: يَا رَبَاحُ، اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ، وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا»(١٢).

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ المَحَبَّةُ الْعَظِيمَةُ مِنْهُمْ زَعْمًا كَاذِبًا، أَوْ ظَنًّا مَشْكُوكًا فِيهِ، أَوْ مُجَرَّدَ دَعْوَى لَيْسَ عَلَيْهَا بُرْهَانٌ؛ إِذْ لَمَّا جَدَّ الْجِدُّ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، وَحَضَرَتِ الْمَنَايَا مَيْدَانَ المَعْرَكَةِ تَخْطِفُ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ كَانَتْ أَجْسَادُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فِدَاءً لِنَبِيِّهِمْ ﷺ، وَسُيُوفُهُمْ أَسْبَقَ إِلَى المُشْرِكِينَ مِنْ أَنْ يَصِلَ الْأَذَى لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفِي المَغَازِي مِنْ بَدْرٍ إِلَى حُنَيْنٍ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَبُطُولَاتٌ مَشْهُودَةٌ، تُبَرْهِنُ أَنَّ الْقَوْمَ صَدَقُوا فِي مَحَبَّتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَلَيْسَتْ تِلْكَ المَحَبَّةُ، وَالتَّضْحِيَاتُ فِي سَبِيلِهَا مَوْقُوفَةً عَلَى مُوَاطِنِ الْعِزِّ وَالِانْتِصَارِ؛ بَلْ ظَهَرَتْ حَتَّى فِي حَالِ الْهَزِيمَةِ وَالِانْكِسَارِ، وَاسْأَلُوا غَزْوَةَ أُحُدٍ تُنَبِّئُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَتُخْبِرُكُمْ أَنَّ سَبْعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَحَاطَ بِهِ المُشْرِكُونَ حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»(١٣)، فَكَانَ هَؤُلَاءِ

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: مسلم في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

(١٣) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في الجهاد والسير باب غزوة أحد (١٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٨٦٥١)، وأحمد (٣/ ٢٨٦)، وأبو يعلى (٣٣١٩)، وابن حبان (٤٧١٨)، والبيهقي (٩/ ٤٤)، وأبو عوانة (٦٨٧١).

السَّبْعَةُ هُم مِمَّنْ رَدُّوا الْمُشْرِكِينَ عَنْهُ، حَتَّى جَادُوا بِأَرْوَاحِهِمْ فِدَاءً لَهُ ﷺ.

وَشُلَّتْ يَدُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فِي أُحُدٍ مِنْ شِدَّةِ صُمُودِهِ دِفَاعًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٤).

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنَ النَّبْلِ فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ**، وَيُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ وَأَبُو طَلْحَةَ يَحْمِيهِ وَيَدْرَأُ عَنْهُ الْمُشْرِكِينَ بِالنِّبَالِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ»(١٥).

وَالشَّاعِرُ مِنْهُمْ كَانَ يُدَافِعُ عَنْهُ ﷺ بِالشِّعْرِ كَمَا كَانَ حَسَّانُ رضي الله عنه يَفْعَلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «**اهْجُهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»(١٦).

وَلَمْ تَكُنْ مَحَبَّتُهُ ﷺ حِكْرًا عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، بَلْ كَانَ لِنِسَائِهِمْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حَظٌّ أَوْفَى مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ؛ ابْتِدَاءً بِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حِينَ خَيَّرَهُنَّ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الْبَقَاءِ مَعَهُ ﷺ وَالصَّبْرِ عَلَى شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ الْمُؤْنَةِ، وَشِدَّةِ الْحَالِ، وَبَيْنَ الْفِرَاقِ وَالتَّمَتُّعِ بِطَيِّبَاتِ الدُّنْيَا، فَاخْتَرْنَهُ ﷺ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَالَ: **إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا وَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**. قَالَتْ رضي الله عنها: قَدْ

---

(١٤) كما روى قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- قال: «رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ» أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٣٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٢٨)، وأحمد (١/ ١٦١).

(١٥) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال (١٨١١).

(١٦) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب هجاء المشركين (٥٨٠١)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٦).

أَعْلَمُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ، فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧)، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْضَاهُنَّ، اخْتَرْنَهُ ﷺ عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَلَا عَجَبَ حِينَئِذٍ أَنْ يَمُرَّ شَهْرَانِ كَامِلَانِ لَا تُوقَدُ النَّارُ لِلطَّبْخِ فِي بُيُوتِهِنَّ(١٨)، وَمَا يَجِدْنَ إِلَّا التَّمْرَ وَالْمَاءَ، وَمَا شَبِعْنَ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ(١٩)، وَمَا ضَجِرْنَ وَلَا اشْتَكَيْنَ؛ لِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَرْنَهُ، وَنِعْمَ الِاخْتِيَارُ اخْتِيَارُهُنَّ!!

وَلِلصَّحَابِيَّاتِ الْأُخْرَيَاتِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حَظُّهُنَّ مِنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَزْوَاجِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ؛ كَمَا فَعَلَتْ إِحْدَى الْأَنْصَارِيَّاتِ لَمَّا قُتِلَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا فِي أُحُدٍ، فَمَا سَأَلَتْ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ أَنَسٌ ﵁: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ حَاصَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حَيْصَةً قَالُوا: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، حَتَّى كَثُرَتِ الصَّوَارِخُ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مُتَحَزِّمَةً فَاسْتُقْبِلَتْ بِابْنِهَا وَأَبِيهَا وَزَوْجِهَا وَأَخِيهَا، لَا أَدْرِي أَيُّهُمُ اسْتُقْبِلَتْ بِهِ أَوَّلَ، فَلَمَّا مَرَّتْ عَلَى آخِرِهِمْ قَالَتْ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُوكِ أَخُوكِ زَوْجُكِ ابْنُكِ،

---

(١٧) هذا جزء من الحديث المخرج في حاشية (١٢).

(١٨) جاء ذلك في حديث عائشة ﵂: «إن كنا للنظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ...» الحديث. أخرجه البخاري في الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٢٤٢٨)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

(١٩) كما في حديث عائشة ﵂ قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين ...» أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

وَهِيَ تَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: أَمَامَكِ، حَتَّى دَفَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَتْ بِنَاحِيَةِ ثَوْبِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أُبَالِي إِذْ سَلِمْتَ مِنْ عَطَبٍ»(٢٠).

وَهُمْ رضي الله عنهم مَا أَحَبُّوهُ هَذِهِ المَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ، وَلَوْ أَخْبَرَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْتَادُوا وُقُوعَهُ لَصَدَّقُوا خَبَرَهُ، وَأَوَّلُهُمْ تَصْدِيقًا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه حَتَّى نُعِتَ بِالصِّدِّيقِ عَلَى إِثْرِ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ؛ إِذْ كَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمُوهُ، وَاسْتَهْزَأُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: «هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٢١).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: **بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ،** فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ! فَقَالَ ﷺ: **فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.** وَمَا هُمَا ثَمَّ. **وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ،**

(٢٠) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٣٢)، والطبراني في الأوسط (٧٤٩٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد شعيب ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» (٦/ ١١٥)، وله شاهد مرسل من حديث عكرمة رحمه الله تعالى عن ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٧٤) رقم (٤٢٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر في العجاب: «هذا مرسل رجاله من رجال البخاري» (٢٣٨).

(٢١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: الحاكم وصححه (٣/ ٦٥).

فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي؟ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ! قَالَ ﷺ: **فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**. وَمَا هُمَا ثَمَّ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٢)، وَقَوْلُ الرَّاوِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: وَمَا هُمَا ثَمَّ. أَيْ: لَيْسَا حَاضِرَيْنِ يَوْمَ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَكَانُوا رضي الله عنهم أَسْرَعَ النَّاسِ امْتِثَالًا لِمَا يَقُولُ، رَوَى نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ**. قَالَ نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٣).

اللهُمَّ ارْضَ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَاجْزِهِمْ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَنْ حُسْنِ صُحْبَتِهِمْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَانْتَقِمْ مِمَّنْ شَتَمَهُمْ أَوْ تَنَقَّصَهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ؟

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

---

(٢٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٨٤)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٨).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال (٤٦٢)، والطيالسي (١٨٢٩)، والطبراني في الأوسط (١٠١٨).

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ مِنْ تَوْقِيرِ الصَّحَابَةِ ﭬ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ: أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ الْأَدَبَ بِحَضْرَتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ أَوْ يَفْعَلُونَ الْفِعْلَ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

وَبَلَغَ مِنْ أَدَبِهِمْ مَعَهُ ﷺ أَنَّ الرَّاوِيَ يُشَبِّهُ هُدُوءَهُمْ وَسَكِينَتَهُمْ بِمَنْ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﭬ يَصِفُ حُضُورَهُمْ جِنَازَةً يُجَهَّزُ لَحْدُهَا: «فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَكَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ»(٢٤).

وَلَمْ تَكُنْ سَكِينَتُهُمْ تِلْكَ حَالَ حُضُورِ الْجِنَازَةِ فَحَسْبُ، أَوْ لِمَكَانِ الْقَبْرِ مِنَ الْقَلْبِ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ حَالَهُمْ حَتَّى فِي مَجْلِسِهِمْ مَعَهُ أَثْنَاءَ تَحْدِيثِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، قَالَ أُسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ ﭬ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الرَّخَمَ، مَا يَتَكَلَّمُ مِنَّا مُتَكَلِّمٌ، إِذْ جَاءَهُ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتِنَا فِي كَذَا، أَفْتِنَا فِي كَذَا»(٢٥).

وَإِذَا حَدَّثَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَخَذَتْهُ هَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِجْلَالًا لِحَدِيثِهِ، كَمَا رَوَى عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ فَقَالَ: «مَا أَخْطَأَنِي عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إِلَّا آتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فِيهَا، فَمَا سَمِعْتُهُ بِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَكَسَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَأَيْتُهُ مَحْلُولَ أَزْرَارِ قَمِيصِهِ، قَدِ انْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، وَاغْرَوْرَقَتْ

---

(٢٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، والنسائي في الكبرى (٢١٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وابن المبارك في الزهد (١٢١٩)، وابن منده في الإيمان (١٠٦٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٤)، وصححه الطبري في تهذيب الآثار (٧٢٠)، والحاكم (١/ ٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٥٠).

(٢٥) أخرجه ابن ماجه في الطب، باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٣٤٣٦)، والطيالسي (١٢٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وصححه ابن حبان واللفظ له (٤٨٦).

عَيْنَاهُ، فَقَالَ: أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ أَوْ دُونَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ شِبْهَ ذَلِكَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٢٦).

وَبَلَغَ مِنْ أَدَبِهِمْ مَعَهُ أَنَّهُمْ يَقْرَعُونَ بَابَهُ إِنْ أَرَادُوهُ بِالْأَظَافِيرِ(٢٧)، وَمَا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِحَضْرَتِهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ مِنْهُمْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى خَفْضِ صَوْتِهِ بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْحُجُرَاتِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [**الْحُجُرَات**: ٢] قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ ﷺ: «فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ خَشْيَةَ حُبُوطِ الْعَمَلِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٨)، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: **اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٩).

---

(٢٦) أخرجه مسلم في التمييز (٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٣) رقم (٨٦١٧).

(٢٧) عن أنس بن مالك أن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافير، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، وفي التاريخ الكبير (٧١٥)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٧/ ١٨)، والبيهقي في الشعب (١٥٣٠)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٢٨).

(٢٨) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (٤٥٦٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحجرات (٣٢٦٦)، وأحمد (٤/ ٦).

(٢٩) أخرجه البخاري (٤٥٦٥) واللفظ له، ومسلم في الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ مَأْذُونًا لَهُمْ فِي مُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، وَلَرُبَّمَا وُفِّقَ بَعْضُهُمْ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ كَمَا أَصَابَهُ عُمَرُ رضي الله عنه غَيْرَ مَرَّةٍ، وَمَعَ هَذَا الْإِذْنِ فِي الْمُرَاجَعَةِ لَهُمْ فَإِنَّهُ كَانَ أَشَدَّ شَيْءٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يُرَاجِعَهُ فِي أَمْرٍ ثُمَّ يَكُونَ الْحَقُّ بِخِلَافِهِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِعُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ يُصِيبُ الْحَقَّ كَثِيرًا؛ إِذْ رَاجَعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فَكَانَ الْحَقُّ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ، يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه: «فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ ﷺ: **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأَعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ؛ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا»(٣٠).

وَكَانُوا ﷺ يَتَفَقَّدُونَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَتَأَلَّمُونَ لِآلَامِهِ، وَيَبْذُلُونَ الْغَالِيَ وَالنَّفِيسَ لِأَجْلِهِ، وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ رَأَى جَابِرٌ رضي الله عنه بِالنَّبِيِّ ﷺ الْجُوعَ فَانْكَفَأَ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ: «هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣١).

وَإِذْ ذَاكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَصَبَ بَطْنَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَلَمْ يَذُقْ طَعَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، مِمَّا جَعَلَ جَابِرًا يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ: «رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ،

(٣٠) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأحمد واللفظ له (٤/ ٣٢٥)، وفي رواية البخاري: قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا.

(٣١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٢)، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩).

فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟»[٣٢]، ثُمَّ ضَيَّفَهُ جابِرٌ فَضَيَّفَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ الْخَنْدَقِ كُلَّهُمْ عَلَى وَلِيمَةِ جَابِرٍ، وَطَرَحَ اللهُ تَعَالَى الْبَرَكَةَ فِي طَعَامِهِمْ فَشَبِعُوا.

وَفِي غَزَاةٍ أُخْرَى أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالمَسِيرِ كُلَّ اللَّيْلِ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: «فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ وَأَنَا إِلَى جَنْبِهِ قَالَ: فَنَعَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى تَهَوَّرَ اللَّيْلُ مَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، قَالَ: فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ مَالَ مَيْلَةً هِيَ أَشَدُّ مِنَ المَيْلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ حَتَّى كَادَ يَنْجَفِلُ، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: **مَنْ هَذَا؟** قُلْتُ: أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: **مَتَى كَانَ هَذَا مَسِيرَكَ مِنِّي؟** قُلْتُ: مَا زَالَ هَذَا مَسِيرِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ، قَالَ: **حَفِظَكَ اللهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣٣].

وَرُبَّمَا بَكَى أَحَدُهُمْ لِحَالِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا وَقَعَ مِنْ عُمَرَ رضي الله عنه، يَقُولُ رضي الله عنه: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ -وَهُوَ الْإِهَابُ الَّذِي قَدْ ذَهَبَ شَعْرُهُ وَلَمْ يُدْبَغْ- فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ فَقَالَ: **مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ وَلَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟! قَالَ: **يَا ابْنَ الخَطَّابِ،**

---

(٣٢) مضى تخريجه في الحاشية السابقة (٣١).

(٣٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨١).

أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ(٣٤).

وَمِنْ عَجِيبِ مَا يُرْوَى فِي مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ ﷺ يُقَالُ لَهُ: كَابِسُ بْنُ رَبِيعَةَ، كَانَ يُشْبِهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ، فَأَشْخَصَهُ لِذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَقْطَعَهُ الْمِرْغَابَ(٣٥)، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ قَامَ لَهُ، فَقِيلَ لَهُ: «أَتَقُومُ لِهَذَا الشَّيْخِ وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنِّي رَأَيْتُ فِيهِ مُشَابِهًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنَا أَقُومُ لِذَلِكَ لَا لَهُ»(٣٦)، وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ إِذَا رَآهُ بَكَى، وَقَالَ: «هَذَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٣٧).

هَكَذَا كَانَتْ سِيرَةُ الْقَوْمِ مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ؛ وَلِذَا شَرُفُوا بِصُحْبَتِهِ، وَعَسَى أَنْ نَأْخُذَ الْعِبَرَ مِنْ سِيرَتِهِمْ، وَنَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، وَنَقْتَفِيَ أَثَرَهُمْ، وَنَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا . .

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . . .



(٣٤) هذا جزء من الحديث المخرج في حاشية (١٢)، وهذه الرواية لمسلم وابن حبان (٤١٨٨).

(٣٥) هو نهر في البصرة، كما ذكر ياقوت في معجم البلدان (٥/ ١٠٨)، وابن منظور في اللسان (١/ ٤٢٤) في مادة رغب.

(٣٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦٨/ ١٢٧).

(٣٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٠/ ٣)، وينظر: الإكمال لابن ماكولا (٦/ ٢٠)، وكشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٤٢).

٣٥٦- توقير السلف للنبي ﷺ (٢) من أخبار التابعين والعلماء

١٥/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِالإِسْلَامِ، وَبَعَثَ إِلَيْنَا خَيْرَ الأَنَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ؛ فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَأَبَانَ بِهِ الحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَقُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ عَظِيمٌ، وَفَضْلُهُ عَلَيْهِمْ كَبِيرٌ؛ فَبِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أُخْرِجُوا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ إِلَى أَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَمِنْ مُوجِبَاتِ النَّارِ إِلَى مُوجِبَاتِ الجَنَّةِ.

كَانَ ﷺ رَحِيمًا بِأُمَّتِهِ، حَرِيصًا عَلَيْهِمْ، يَعِزُّ عَلَيْهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ وَلِذَا كَانَ يَتْرُكُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُرِيدُهُ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ فَلَا يُطِيقُونَهُ.

كَانَ ﷺ يَتَأَلَّمُ لِأَلَمِهِمْ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، وَيَفْرَحُ بِهِدَايَتِهِمْ، وَيَخْشَى

عَذَابَهُمْ، وَيَدْعُو لَهُمْ؛ كَمَا رَوَى عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ﵄: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ . . . رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: **يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟** فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ: **يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «نَفَخَ فِي آخِرِ سُجُودِهِ فَقَالَ: **أُفْ أُفْ**، ثُمَّ قَالَ: **رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟! أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟!**»(١).

وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ﵈ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، دَعَوْا رَبَّهُمْ فَاسْتَجَابَ دَعَوَاتِهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَسَائِلَهُمْ، إِلَّا رَسُولَنَا ﷺ فَإِنَّهُ ادَّخَرَ دَعْوَتَهُ شَفَاعَةً لِأُمَّتِهِ فِي مَوْقِفٍ هُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ لِشَفَاعَتِهِ(٢)، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

إِنَّ نَبِيًّا بَلَغَ حِرْصُهُ عَلَيْنَا، وَرَحْمَتُهُ بِنَا هَذَا المَبْلَغَ لَحَرِيٌّ بِنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُصَدِّقَهُ، وَأَنْ نُعَزِّرَهُ وَنُوَقِّرَهُ، وَأَنْ نَتَّبِعَهُ وَنُطِيعَهُ، وَأَنْ نُحِبَّهُ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّتِنَا لِأَنْفُسِنَا وَآبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَهُوَ -بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى- هِدَايَتُنَا وَنَجَاتُنَا، وَهُوَ حَيَاتُنَا وَسَعَادَتُنَا، فَمَا بُعِثَ بِهِ كَانَ غَيْثَ قُلُوبِنَا وَحَيَاتَهَا،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢)، والرواية الثانية لأبي داود في الصلاة، باب من قال يركع ركعتين (١١٩٤)، ومن طريقه البيهقي (٢/ ٢٥٢).

(٢) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**» أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٦٣٠٤)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٨-١٩٩).

وَزَكَاءَ نُفُوسِنَا وَصَفَاءَهَا، وَأَعْظَمُ خَيْرٍ بَلَغَنَا -وَهُوَ الإِيمَانُ- إِنَّمَا بَلَغَنَا عَنْ طَرِيقِهِ، وَأَعْظَمُ شَرٍّ خِفْنَاهُ -وَهُوَ الكُفْرُ- إِنَّمَا جَانَبْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ حَذَّرَنَا مِنْهُ، وَمَنْ مَاتَ مِنَّا عَلَى الإِيمَانِ، وَنَالَ الجَنَّةَ وَالرِّضْوَانَ، فَمَا نَالَ ذَلِكَ إِلَّا بِسَبَبِهِ؛ فَهَلْ تَرَوْنَ لِأَحَدٍ حَقًّا عَلَيْكُمْ -بَعْدَ حَقِّ اللَّهِ ﷻ- أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ أَبِي القَاسِمِ ﷺ، بِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا.

لَقَدْ عَرَفَ السَّلَفُ الصَّالِحُ فَضْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلُوهُ المَنْزِلَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا، آمَنُوا بِهِ وَأَحَبُّوهُ، وَصَدَّقُوهُ وَأَطَاعُوهُ، وَوَقَّرُوهُ وَعَزَّرُوهُ، وَلَمْ يَعْبُدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى مَعَ ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام. وَأَخْبَارُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فِي ذَلِكَ مُسْتَفِيضَةٌ، وَأَخْبَارُ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

يَبْكِي وَاحِدُهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهُ مَحَبَّةً لَهُ وَتَوْقِيرًا وَإِجْلَالًا، قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: عَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ: «كَانَ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ، وَإِجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ»(٣).

وَكَأَنَّ هَذَا الإِجْلَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَانَ سَجِيَّةً عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ، وَعَلِمُوا مَا لَهُ مِنَ الفَضْلِ عَلَيْهِمْ، كَمَا حَدَّثَ بِذَلِكَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ شُيُوخِهِ رَأَى مِنْ حَالِهِمْ مَا رَأَى عِنْدَ ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ، رَوَى مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ، لَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ المُنْكَدِرِ -وَكَانَ سَيِّدَ القُرَّاءِ- لَا نَكَادُ نَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى نَرْحَمَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ -وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ- فَإِذَا

(٣) التمهيد (١/ ٣٤٠)، والتعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي (١/ ٣٨٦).

ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ اصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَمَا رَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ . . . وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ فَيُنْظَرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ نَزَفَ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ جَفَّ لِسَانُهُ فِي فَمِهِ؛ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ -وَكَانَ لَمِنْ أَهْنَإِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ- فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَكَأَنَّهُ مَا عَرَفَكَ وَلَا عَرَفْتَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ -وَكَانَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ- فَإِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى، فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُومَ النَّاسُ وَيَتْرُكُوهُ»[(٤)].

وَهَذَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كَانَ يَبْكِي إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثِ الجِذْعِ الَّذِي بَكَى لَمَّا فَارَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: «يَا عِبَادَ اللَّهِ، الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَيْهِ»[(٥)].

وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَقِرِّ عِنْدَهُمْ -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ-: تَوْقِيرُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ كَتَوْقِيرِ الصَّحَابَةِ ﷺ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، فَلَا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي مَسْجِدِهِ إِجْلَالًا وَتَوْقِيرًا لَهُ ﷺ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا رَفَعَ رَجُلَانِ أَصْوَاتَهُمَا فِي مَسْجِدِهِ ﷺ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه اسْتَنْكَرَ عُمَرُ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ، فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ

(٤) الشفاء للقاضي عياض (٢/ ٤١-٤٢)، وعنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٢٢٧)

(٥) أخرجه أبو يعلى (٢٧٥٦)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٢١٩)، واللالكائي في السنة (١٤٧٣)، والطبراني في الأوسط (١٤٠٨)، وصححه ابن حبان (٦٥٠٧)، والضياء المقدسي في المختارة (١٨٦١).

أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!!»(٦).

بَلْ كَانَ بَعْضُ التَّابِعِينَ يَرَى أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ فِي مَجَالِسِ الحَدِيثِ كَرَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ الحَدِيثَ حَدِيثُهُ، قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كُنَّا عِنْدَ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ فَسَمِعَ لَغَطًا فَقَالَ: مَا هَذَا اللَّغَطُ؟ أَمَا بَلَغَهُمْ أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَرَفْعِ الصَّوْتِ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ؟!»(٧).

وَكَانَ مِنْ تَوْقِيرِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ لَا يُحَدِّثُونَ بِحَدِيثِهِ إِلَّا وَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَهَيْئَةٍ، وَيُرَبُّونَ أَتْبَاعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ الخُزَاعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِيُحَدِّثَ تَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، وَلَبِسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَلَبِسَ قَلَنْسُوَةً، وَمَشَّطَ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أُوَقِّرُ بِهِ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٨).

وَيُحَدِّثُ أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ عَنْ مَجْلِسِ وَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ فِي التَّحْدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُ: «لَا يُتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا يُبْرَى قَلَمٌ، وَلَا يُتَبَسَّمُ، وَلَا يَقُومُ أَحَدٌ قَائِمًا، كَانُوا فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُمْ فِي صَلَاةٍ، فَإِنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ شَيْئًا انْتَعَلَ وَدَخَلَ»(٩).

---

(٦) أخرجه البخاري في المساجد، باب رفع الصوت في المساجد (٤٥٨).

(٧) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٣٢).

(٨) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٠٢)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٧٣١)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (٥٨٥).

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١/ ٢٣٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٢٤)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص١٤٠)، وجاء مثله عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى.

وَمَرَّ الإِمَامُ مَالِكٌ عَلَى أَبِي حَازِمٍ وَهُوَ يُحَدِّثُ فَجَازَهُ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا فَكَرِهْتُ أَنْ آخُذَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَائِمٌ(١٠).

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ يَتَحَدَّثُ فَيَضْحَكُ، فَإِذَا جَاءَ الحَدِيثُ خَشَعَ(١١).

وَجَاءَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي مَرَضِهِ فَجَلَسَ وَحَدَّثَ بِهِ، فَقِيلَ لَهُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: كَرِهْتُ أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ(١٢).

وَسُئِلَ ابْنُ المُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ يَمْشِي، فَقَالَ: «لَيْسَ هَذَا مِنْ تَوْقِيرِ الْعِلْمِ»(١٣).

وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ غَزِيرَةٌ، وَأَحْوَالُهُمْ فِيهِ عَجِيبَةٌ؛ تَوْقِيرًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمًا لِحَدِيثِهِ. وَمِنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ يُرْوَى فِي ذَلِكَ: مَا جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا امْتُحِنَ فِي فِتْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ، وَتَعَاقَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ: المَأْمُونُ وَالمُعْتَصِمُ وَالْوَاثِقُ عَلَى امْتِحَانِهِ وَسَجْنِهِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ لَمْ يُغَيِّرْ وَلَمْ يُبَدِّلْ، وَحُمِلَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إِلَى مَجْلِسِ الْوَاثِقِ مُقَيَّدًا فِي أَغْلَالِهِ، وَنَاظَرَهُمْ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَخَصَمَهُمْ، وَقَطَعَ حُجَّتَهُمْ، وَأَبْطَلَ مَكِيدَتَهُمْ، وَفَتَحَ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِ الْخَلِيفَةِ الْوَاثِقِ فَعَلِمَ صِدْقَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَكَوْنَهُ عَلَى الْحَقِّ، فَأَمَرَ أَنْ يُفَكَّ قَيْدُهُ، فَفُكَّ وَأَخَذَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ،

---

(١٠) أخرجه الترمذي في العلل الصغير (٧٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١٨)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٦٨).

(١١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٣/ ٢٠٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الرواي (٩٨٥).

(١٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٦٩٣)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٧٣)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٥٥).

(١٣) أخرجه البيهقي في المدخل (٦٩٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٩٣).

فَنَازَعَهُ إِيَّاهُ السَّجَّانُ، فَأَمَرَ الْوَاثِقُ أَنْ يُدْفَعَ الْقَيْدُ إِلَى الْإِمَامِ فَدُفِعَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ الْوَاثِقُ عَنْ سَبَبِ أَخْذِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَنْوِي بِهِ أَنْ يُخَاصِمَ بِهِ مَنْ ظَلَمُوهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ، وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: أَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ هَذَا لِمَ قَيَّدَنِي وَرَوَّعَ أَهْلِي وَوَلَدِي وَإِخْوَانِي بِلَا حَقٍّ أَوْجَبَ ذَلِكَ عَلَيَّ؟ وَبَكَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، فَبَكَى الْوَاثِقُ وَبَكَى مَنْ فِي المَجْلِسِ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْوَاثِقُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ مِمَّا نَالَهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ؛ إِكْرَامًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كُنْتَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهِ»(١٤).

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَكَذَا كَانَ حَالُ أَسْلَافِكُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَكِبَارِ الْعُلَمَاءِ المَتْبُوعِينَ، وَالأَئِمَّةِ المَهْدِيِّينَ؛ تَوْقِيرًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمًا لِحَدِيثِهِ، وَأَدَاءً لِحُقُوقِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ تَعِزُّ عَلَى الْحَصْرِ، وَتَسْتَعْصِي عَلَى الْجَمْعِ، مِنْ كَثْرَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا، يَجْمَعُهَا مَعْرِفَتُهُمْ قَدْرَ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِدْرَاكُهُمْ مِنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ إِذْ بَعَثَهُ فِيهِمْ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فَكَانُوا بِتَوْقِيرِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمِ حَدِيثِهِ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ مِنَ المُفْلِحِينَ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى وَوَالِدِينَا وَأَوْلَادَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، وَحَشَرَنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ فِي زُمْرَتِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ ...

---

(١٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٧٨)، وهو في السير للذهبي (١١/ ٣١٥).

الخُطبَة الثانيَة

الحَمْدُ للَّهِ؛ أَمَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَأَرْشَدَ لِلْخَيْرِ وَالْهُدَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَعْطَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَهْدَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْمُجْتَبَى، وَالْعَبْدُ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ مِنْ تَوْقِيرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- لِلنَّبِيِّ ﷺ: تَعْظِيمُهُمْ لِسُنَّتِهِ، وَالْعِنَايَةُ بِهَا، وَتَقْدِيمُهَا عَلَى أَقْوَالِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ مَهْمَا بَلَغَتْ عُلُومُهُمْ، وَعَلَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَمَا مِنْ إِمَامٍ مَتْبُوعٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمَشْهُورَةِ إِلَّا وَيُعْلِنُ فِي أَتْبَاعِهِ وَتَلَامِذَتِهِ أَنَّ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ مَذْهَبُهُ، وَأَنَّ أَيَّ قَوْلٍ لَهُ يُخَالِفُ السُّنَّةَ فَهُوَ يَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كُلُّ حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ قَوْلِي، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوهُ مِنِّي»(١٥)، وَقَالَ أَيْضًا: «إِذَا وَجَدْتُمْ سُنَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خِلَافَ قَوْلِي فَخُذُوا بِالسُّنَّةِ، وَدَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي أَقُولُ بِهَا»(١٦).

وَذَكَرَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حَدِيثًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تَأْخُذُ بِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «أَفِي الْكَنِيسَةِ أَنَا؟! أَوَ تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارًا؟! نَعَمْ أَقُولُ

---

(١٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥١/ ٣٨٩)، وهو في السير (١٠/ ٣٥).

(١٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥١/ ٣٨٩)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١٠٩).

بِهِ، وَكُلُّ مَا بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ بِهِ»(١٧).

وَرَوَى الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ -وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ- فَقَالَ لَهُ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ تَقُولُ بِهِ؟ قَالَ الرَّبِيعُ: فَرَأَيْتُ الشَّافِعِيَّ أَرْعَدَ وَانْتَفَضَ، وَقَالَ: يَا هَذَا، أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي إِذَا رُوِّيتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَلَمْ أَقُلْ بِهِ؟! نَعَمْ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنَيْنِ، عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنَيْنِ»(١٨).

فَمَا زِنَةُ هَذَا الْكَلَامِ المَتِينِ مِنْ هَذَا الْإِمَامِ الْكَبِيرِ عِنْدَ مَنْ يَرُدُّ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِرَأْيٍ رَآهُ، أَوْ هَوًى ابْتَغَاهُ؟!

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَظَّمَ سُنَّتَهُ وَاتَّبَعَ شَرِيعَتَهُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَوَّلَ النُّصُوصَ الْمُحْكَمَةَ الْوَاضِحَةَ؛ لِيُوَافِقَ بِهَا أَهْوَاءَ الْبَشَرِ وَمُرَادَهُمْ؛ لِجَاهٍ يَبْتَغِيهِ، أَوْ مَالٍ يَطْلُبُهُ، أَوْ دُنْيَا يُرِيدُهَا؟ وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَنِ! إِذْ أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُبَدِّلَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى؛ اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ وَهَوَى مَنْ يَطْلُبُ رِضَاهُمْ مِنَ الْبَشَرِ دُونَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَؤُلَاءِ هُمُ المُبَدِّلُونَ المُغَيِّرُونَ الَّذِينَ يُذَادُونَ عَنْ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ يَرِدُهُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَفِيهِمْ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَا عَلَى حَوْضِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي؟! فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي، مَشَوْا عَلَى الْقَهْقَرَى**. قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ نُفْتَنَ»(١٩). وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا**

(١٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٦)، وفي تاريخ أصبهان (٢٢٤)، وابن عساكر (٥١/ ٣٨٧).
(١٨) أخرجه ابن عساكر (٥١/ ٣٨٩).
(١٩) أخرجه من حديث أسماء رضي الله عنها: البخاري في الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (٦٦٤١).

سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ يَسْخَرُونَ مِنْ سُنَّتِهِ، وَيُطَالِبُونَ بِاطِّرَاحِ دِينِهِ، وَيَسْعَوْنَ سَعْيًا حَثِيثًا فِي صَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ إِلَى مَنَاهِجِ مَلَاحِدَةِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ؟ وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي أَهْلِ الصَّحَافَةِ وَالإِعْلَامِ، الَّذِينَ يَحْتَفُونَ بِالزَّنَادِقَةِ وَالمُلْحِدِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَالمُرْتَدِّينَ أَكْثَرَ مِنِ احْتِفَائِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْضُونَ بِأَقْوَالِهِمُ الْكُفْرِيَّةِ عَلَى النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى إِسْلَام حَضَارِيٍّ لِيبْرَالِيٍّ مُتَسَامِحٍ، وَمَا يَدْعُونَ وَاللَّهِ إِلَّا إِلَى إِلْحَادِ الْغَرْبِ وَكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَانْحِلَالِهِمْ!!

وَهَلَ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ هَدْيِهِ فِي الهَيْئَةِ وَاللِّبَاسِ؛ كَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ وَإِكْرَامِ اللِّحى وَإِعْفَائِهَا؟ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْخَرُونَ بِهَذَا الهَدْيِ النَّبَوِيِّ المُبَارَكِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْخَرُونَ مِنَ الأَشْخَاصِ لَا مِنَ الهَدْيِ النَّبَوِيِّ، ثُمَّ نَرَاهُمْ يَحْتَفُونَ بِمَنِ انْتَكَسَ بَعْدَ الاسْتِقَامَةِ، وَزَاغَ بَعْدَ الْهِدَايَةِ، وَنَزَعَ مَظَاهِرَ السُّنَّةِ مِنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ، وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّمُونَهُ، وَيَخْتَصُّونَهُ بِالرِّعَايَةِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَيَفْتَحُونَ لَهُ المَجَالَاتِ الصَّحَفِيَّةِ، وَإِذْ ذَاكَ لَمْ تَكُنْ سُخْرِيَتُهُمْ بِالأَشْخَاصِ وَإِنَّمَا كَانَتْ بِسُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ.

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ حَادَ عَنْ طَرِيقَتِهِ، وَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ فِي شَرِيعَتِهِ، وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَتَرَكَ مِنَ السُّنَّةِ بِقَدْرِ بِدْعَتِهِ، كَمَنْ يُحْيُونَ المَوَالِدَ، وَيَخُصُّونَ بَعْضَ اللَّيَالِي بِفَضْلٍ وَعِبَادَاتٍ لَمْ تَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مِنَ الاحْتِفَاءِ بِلَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ،

---

(٢٠) أخرجه البخاري في الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ (٦٦٤٣)، ومسلم في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٠).

وَتَخْصِيصِ لَيْلَتِهَا بِالْقِيَامِ، وَيَوْمِهَا بِالصِّيَامِ، مُخَالِفِينَ بِذَلِكَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، مُبْتَدِعِينَ فِي دِينِهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؟

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا لِنَبِيِّكُمْ ﷺ حَقَّهُ، وَوَقِّرُوهُ وَعَزِّرُوهُ، وَعَظِّمُوا سُنَّتَهُ، وَاحْفَظُوا لَهُ مَكَانَتَهُ، وَأَنْزِلُوهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، وَلَا غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، وَاقْرَؤُوا سِيرَتَهُ، وَتَزَوَّدُوا مِنْ حَدِيثِهِ، وَأَطِيعُوا أَوَامِرَهُ، وَاجْتَنِبُوا زَوَاجِرَهُ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِذَلِكَ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٥٧- عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

٩/ ٤/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتِيَارُ الْعِبَادِ، وَرَفْعُهُمْ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، وَتَشْرِيفُهُمْ بِأَشْرَفِ الْمُهِمَّاتِ؛ هِبَةٌ يَهَبُهَا اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَهَذَا الِاخْتِيَارُ يَكُونُ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى اصْطَفَى الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبَشَرِ؛ لِعِلْمِهِ عز وجل بِصَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْأَتْبَاعِ أَبَرَّ النَّاسِ وَأَتْقَاهُمْ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ

قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

وَأَعْظَمُ خَيْرٍ فِي الْأُمَّةِ كَانَ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ فِي زَمَنِ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ فِي زَمَنِ أَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ، وَيَتَنَاقَصُ الْخَيْرُ بِتَقَادُمِ الزَّمَنِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ وَاثِلَةَ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَنِي، وَاللَّهِ لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَ مَنْ صَاحَبَنِي**»(٢).

وَمِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ، وَكِبَارِ الْأَصْحَابِ، وَسَادَةِ الْأَنَامِ: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. تَقَدَّمَ إِسْلَامُهُ حَتَّى كَانَ ثَامِنَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٧٩)، وفي فضائل الصحابة (٥٤١)، والطيالسي (٢٤٦)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١١٢) برقم (٨٥٨٣)، والبزار كما في كشف الأستار(١٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، والبغوي في شرح السنة (١٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثوقون» (١/ ١٧٧-١٧٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٦٠٠).
وقد جاء مرفوعًا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أخرجه الخطيب في تاريخه (٤/ ٦٥)، وعنه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٨٠)، ولا يصح مرفوعًا بل هو موضوع، في سنده سليمان بن عمرو بن عبد الله النخعي الكوفي، كذبه أحمد وابن معين وإسحاق بن راهويه وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم، ينظر: تاريخ ابن معين (٢/ ٢٣٢)، والتاريخ الصغير للبخاري (٢/ ٢٦٦)، والضعفاء للعقيلي (٢/ ١٣٤-١٣٥)، والجرح والتعديل (٤/ ١٣٢-١٣٣)، والمجروحين (١/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٥) برقم (٢٠٧)، وفي مسند الشاميين (٧٩٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٧).

ثَمَانِيَةٍ أَسْلَمُوا أَوَّلًا(٣)، وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ(٤)، وَهُوَ أَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ(٥)، كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الْكَعْبَةِ، فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الرَّحْمَنِ(٦)، شَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثَبَتَ فِي أُحُدٍ حَتَّى أُصِيبَ عِشْرِينَ إِصَابَةً بَعْضُهَا فِي رِجْلِهِ؛ فَكَانَ رضي الله عنه مِنْ جَرَّائِهَا أَعْرَجَ(٧).

كَانَ رضي الله عنه مِثَالًا لِلتَّاجِرِ الْمُسْلِمِ الَّذِي يُحْسِنُ الضَّرْبَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيُجِيدُ إِدَارَةَ الْأَمْوَالِ، هَاجَرَ فَقِيرًا لَا مَالَ لَهُ؛ فَمَا تَرَكَ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا! فَتَنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَصَادَرُوا أَمْوَالَهُمْ، وَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ فِرَارًا مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ لَا شَيْءَ مَعَهُمْ.

قَدِمَ ابْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه الْمَدِينَةَ وِلَا مَالَ لَهُ، فَآخَى رَسُولُ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ أَحَدِ النُّقَبَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ(٨).

---

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٦٨)، وفي طبقات ابن سعد من طريق الواقدي أنه رضي الله عنه أسلم قبل أن يدخل النبي ﷺ دار أرقم بن أبي الأرقم (٣/ ٩٢).

(٤) طبقات ابن سعد، ونقله عن الواقدي وابن إسحاق (٢/ ٩٢).

(٥) جاء ذلك في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**» أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٠٩)، وفي الفضائل (٢٧٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (٣٧٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٨١٩٤)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٦)، وصححه ابن حبان (٧٠٠٢).

وجاء أيضًا من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل العشرة رضي الله عنهم (١٣٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٣)، وأحمد (١/ ١٨٧).

(٦) الطبقات (٣/ ٩٢).

(٧) أخرجه عن محمد بن إسحاق: الحاكم (٣/ ٣٠٨)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٨) برقم (٦١).

(٨) الطبقات (٣/ ٩٣)، والسير (١/ ٩١).

وَإِزَاءَ هَذِهِ الْمُؤَاخَاةِ الْعَجِيبَةِ فِي مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا، وَتَنْفِيذِ الصَّحَابَةِ لَهَا؛ يَخْضَعُ التَّارِيخُ، وَيَنْفَدُ مِدَادُ الْأَقْلَامِ، فَمَا عَرَفَ التَّارِيخُ قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا مُؤَاخَاةً كَمُؤَاخَاةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

مُؤَاخَاةٌ صَادِقَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا، وَخَالِصَةٌ لَا رِيَاءَ مَعَهَا، وَلَيْسَتْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ، أَوْ مَصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ. أَظْهَرَ فِيهَا الْأَنْصَارُ الْبَذْلَ وَالْإِيثَارَ، وَقَابَلَهُمْ إِخْوَانُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ بِغِنَى النَّفْسِ وَالِاسْتِعْفَافِ.

وَلَسْتُ أَعْلَمُ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ حَادِثَةً نَزَلَ فِيهَا قَوْمٌ عَلَى آخَرِينَ فَعَرَضُوا عَلَيْهِمْ شَطْرَ أَمْوَالِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُورِهِمْ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

نَعَمْ، قَدْ يُوجَدُ أَفْرَادٌ نُبَلَاءُ، وَرِجَالٌ كُرَمَاءُ، يَكُونُ الْكَرَمُ سَجِيَّتَهُمْ، وَالْإِيثَارُ خُلُقَهُمْ؛ كَمَا كَانَ مِنْ حَاتِمٍ طَيِّئٍ، وَلَكِنَّهُمْ يَظَلُّونَ أَفْرَادًا لَا أُمَّةً.

أَمَّا الْأَنْصَارُ فَهُمْ قَبِيلَتَانِ كَبِيرَتَانِ، اسْتَقْبَلُوا الْمُهَاجِرِينَ خَيْرَ اسْتِقْبَالٍ، وَقَاسَمُوهُمُ الْأَمْوَالَ وَالضِّيَاعَ؛ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَدَاءً لِحَقِّ الْمُؤَاخَاةِ.

وَمَا حَادِثَةُ ابْنِ الرَّبِيعِ مَعَ ابْنِ عَوْفٍ رضي الله عنهما إِلَّا صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ الْإِيثَارِ الْجَمَاعِيِّ، وَمَا عِفَّةُ ابْنِ عَوْفٍ عَنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا مِثَالٌ عَلَى الِاسْتِعْفَافِ الْجَمَاعِيِّ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: «لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ . . » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

---

(٩) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] (١٩٤٣). =

إِيثَارٌ عَجِيبٌ مِنِ ابْنِ الرَّبِيعِ، وَعِفَّةٌ أَعْجَبُ مِنِ ابْنِ عَوْفٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى المَالِ، فَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ سَعْدٍ وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

لَازَمَ ابْنُ عَوْفٍ السُّوقَ حَتَّى جَمَعَ المَالَ الْوَفِيرَ، وَحَازَ الْعِقَارَ الْكَثِيرَ، وَأَدَارَ تِجَارَةً عَظِيمَةً، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «كَانَ مَجْدُودًا فِي التِّجَارَةِ، خَلَّفَ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةَ آلَافِ شَاةٍ، وَمِئَةَ فَرَسٍ، وَكَانَ يَزْرَعُ بِالْجُرْفِ عَلَى عِشْرِينَ نَاضِحًا»(١٠).

وَلَمَّا بَلَغَ مِنَ التِّجَارَةِ وَجَمْعِ المَالِ مَا بَلَغَ؛ مَا قَالَ مَقُولَةَ قَارُونَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وَلَا ظَنَّ كَمَا ظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّهُ وَرِثَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ؛ بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَقَرَّ بِحَقِّهِ فِيهِ، فَأَطْعَمَ بِهِ المِسْكِينَ، وَبَلَّغَ بِهِ ابْنَ السَّبِيلِ، وَأَنْفَقَ فِي الْجِهَادِ، وَسَدَّ حَاجَةَ الْمُحْتَاجِ؛ حَتَّى قَالَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «تَصَدَّقَ ابْنُ عَوْفٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَطْرِ مَالِهِ أَرْبَعَةِ آلَافٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَحَمَلَ عَلَى خَمْسِ مِئَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى خَمْسِ مِئَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ عَامَّةُ مَالِهِ مِنَ التِّجَارَةِ»(١١).

عَلِمَ ابْنُ عَوْفٍ مَا لِأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَقِّ عَلَى المُسْلِمِينَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَعَاهَدَهُنَّ بِمَالِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ الْعَطَايَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ

= وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند: الشافعي في مسنده (١/ ٢٤٦) برقم (١٢١١)، وأحمد (٣/ ١٩٠-٢٠٤-٢٧١)، والبخاري في البيوع (٢٠٤٩)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في مواساة الأخ (١٩٣٣)، والنسائي في النكاح، باب الهدية لمن عرس (٦/ ١٣٧)، وأبي يعلى (٣٧٨١).

(١٠) السير (١/ ٩٢)، وأخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٦)، والحاكم (٣/ ٣٤٩) عن عثمان بن الشريد رحمه الله تعالى، ومعنى مجدودًا، أي: محظوظًا، يكسب ما يحرمه غيره. ينظر: النهاية (٣/ ١٩١)، واللسان (١٢/ ٣٩٣).

(١١) السير (١/ ٩٢).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مِنْ بَعْدِي**»، فَأَوْصَى لَهُنَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِحَدِيقَةٍ قُوِّمَتْ بِأَرْبَعِ مِئَةِ أَلْفٍ(١٢).

وَبَاعَ أَرْضًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَسَمَهَا فِي فُقَرَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، وَفِي المُهَاجِرِينَ، وَفِي أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا أُتِيَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِنَصِيبِهَا مِنْهُ قَالَتْ: «مَنْ أَرْسَلَ بِهَذَا؟ فَقِيلَ لَهَا: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَتْ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **لَا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ بَعْدِي إِلَّا الصَّابِرُونَ، سَقَى اللهُ ابْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَزْوَاجِهِ: «**إِنَّ الَّذِي يَحْنُو عَلَيْكُنَّ بَعْدِي لَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الجَنَّةِ**»(١٤).

---

(١٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال: حسن غريب (٣٧٥٠)، وأبو يعلى (٥٩٢٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١-٣١٢)، واللفظ للحاكم.

(١٣) أخرجه من حديث أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن بن عوف .. أحمد (٦/ ١٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢)، والحاكم وصححه، وقال الذهبي في التلخيص: ليس بمتصل (٣/ ٣١١).

وأخرجه بنحوه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها: أحمد في فضائل الصحابة (١٢٥٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح غريب (٣٧٤٩)، وصححه ابن حبان (٦٩٩٥).

(١٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٩-٣٠٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤١٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٨) برقم (٦٣٦)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائده للهيثمي (٩٧٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١).

قلت: وفي سنده محمد بن إسحاق يرويه عن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين عن عوف بن الحارث عن أم سلمة به، وابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، لكن يشهد له حديث عائشة المذكور قبله.

وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عِيَالًا عَلَيْهِ؛ ثُلُثٌ يُقْرِضُهُمْ مَالَهُ، وَثُلُثٌ يَقْضِي دَيْنَهُمْ، وَيَصِلُ ثُلُثًا[(١٥)].

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ: «بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَعْتَقَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ بَيْتٍ»[(١٦)].

وَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ بِمَالٍ عَظِيمٍ، وَخَيْرٍ وَفِيرٍ؛ فَإِنَّ لَذَّتَهُ تَكْتَمِلُ إِذَا صَاحَبَهَا جَاهٌ وَسُلْطَانٌ، وَكَانَ ذَلِكَ لابْنِ عَوْفٍ، وَلَكِنَّهُ زَهِدَ فِيهِ؛ إِذْ جَعَلَهُ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا طُعِنَ مِنَ السِّتَّةِ أَهْلِ الشُّورَى، فَعَزَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسَهُ مِنَ الْأَمْرِ، وَاخْتَارَ لِلْأُمَّةِ مَنْ أَشَارَ بِهِ أَهْلُ الحَلِّ وَالْعَقْدِ، فَنَهَضَ فِي ذَلِكَ أَتَمَّ نُهُوضٍ عَلَى جَمْعِ الْأُمَّةِ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَلَوْ كَانَ مُحَابِيًا فِي الْخِلَافَةِ لَأَخَذَهَا لِنَفْسِهِ، أَوْ لَوَلَّاهَا ابْنَ عَمِّهِ وَأَقْرَبَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ: سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ[(١٧)].

وَلَمَّا أَشَارَ عَلَيْهِ سَعْدٌ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى نَفْسِهِ -وَهُوَ أَهْلٌ لِلْخِلَافَةِ- قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، إِنَّهُ لَنْ يَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ بَعْدَ عُمَرَ إِلَّا لَامَهُ النَّاسُ»[(١٨)].

جَاءَتْ بِشَارَةُ ابْنِ عَوْفٍ إِلَيْهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ؛ إِذْ مَرِضَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنهما، وَغُشِيَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ: «غُشِيَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي وَجَعِهِ غَشْيَةً، فَظَنُّوا أَنَّهَا قَدْ فَاضَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، حَتَّى قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَجَلَّلُوهُ ثَوْبًا، وَخَرَجَتْ أُمُّ كُلْثُومِ بِنْتُ عُقْبَةَ امْرَأَتُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ تَسْتَعِينُ فِيمَا أُمِرَتْ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَلَبِثُوا سَاعَةً وَهُوَ فِي غَشْيَةٍ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ: اللهُ

(١٥) السير (١/ ٨٨).
(١٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩٩)، وهو في السير (١/ ٩٢).
(١٧) السير (١/ ٨٦).
(١٨) السير (١/ ٨٧).

أكبر، فَكَبَّرَ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَمَنْ يَلِيهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: غُشِيَ عَلَيَّ آنِفًا؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: صَدَقْتُمْ، فَقَالَ: إِنَّهُ انْطَلَقَ بِي فِي غَشْيَتِي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا فِيهِ شِدَّةٌ وَفَظَاظَةٌ، فَقَالَا: انْطَلِقْ نُحَاكِمْكَ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. فَقَالَ: أَرْجِعَاهُ فَإِنَّهُ مِنَ الَّذِينَ كَتَبَ اللهُ لَهُمُ السَّعَادَةَ وَالمَغْفِرَةَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيَتَمَتَّعُ بِهِ بَنُوهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ. فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهْرًا» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وصَحَّحَهُ(١٩)، لَقَدْ أَتَتْهُ بِشَارَتُهُ رضي الله عنه قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَسَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

وَقَدْ غَبَطَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه؛ فَإِنَّهُ قَالَ يَوْمَ وَفَاةِ ابْنِ عَوْفٍ: «اذْهَبْ يَا ابْنَ عَوْفٍ، فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا، وَسَبَقْتَ رَنْقَهَا»(٢٠). أَيْ: كَدَرَهَا.

رَضِيَ اللهُ عَنِ ابْنِ عَوْفٍ وَأَرْضَاهُ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، آمِينْ . .

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

---

(١٩) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١١٢) برقم (٢٠٠٦٥)، والحاكم واللفظ له (٢/ ٢٦٩) و(٣/ ٣٤٧)، وقال في الموضع الأول: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وسكت عنه في الموضع الثاني.
وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده، كما ذكر الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٩٧٦)، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة: رواه إسحاق بن راهويه بسند صحيح (٦٧١٢).

(٢٠) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٥٥-١٢٥٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٨) برقم (٢٦٢)، والحاكم (٣/ ٣٠٨).
وقوله «رنقها» أي: كدرها، فالرنق هو الكدر، يقال: ماء رنق، أي: كدر، ينظر: اللسان (١٠/ ١٢٧).

ﭐتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ نِعَمَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَالْتَزِمُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ سِيرَةُ ابْنِ عَوْفٍ كَسِيرَةِ إِخْوَانِهِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ، وَالتَّضْحِيَةِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى؛ طَلَبًا لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ، وَقَدِ اشْتُهِرَ ابْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه بِأَنَّهُ كَانَ مِنْ تُجَّارِ الصَّحَابَةِ وَأَغْنِيَائِهِمْ، كَمَا اشْتُهِرَ غَيْرُهُ بِأَعْمَالٍ أُخْرَى، وَكَانَ رضي الله عنه يَخَافُ أَشَدَّ الْخَوْفِ مِنْ مَالِهِ(٢١)، رَغْمَ أَنَّ مَالَهُ كَانَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ حَلَالٍ، بَيْدَ أَنَّهُ خَافَ طُولَ الْحِسَابِ؛

(٢١) من أدلة ذلك: ما رواه شقيق بن سلمة -رحمه الله تعالى- فقال: «دخل عبد الرحمن بن عوف على أم سلمة فقال: يا أم المؤمنين، إني أخشى أن أكون قد هلكت، إني من أكثر قريش مالًا، بعت أرضًا بأربعين ألف دينار، فقالت: أنفق يا بني، فإني سمعت =

فَأَنْفَقَ النَّفَقَاتِ الْكَبِيرَةَ فِي الْجِهَادِ، وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ لِذَوِي الْحَاجَاتِ، وَكَفَلَ أُسَرًا كَثِيرَةً، وَلَازَمَهُ خَوْفُهُ مِنْ مَالِهِ حَتَّى كَانَ يُبْكِيهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ.

رَوَى ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ: «أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا، فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ، وَأُرَاهُ قَالَ: وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ، أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٢).

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ ﷺ مِثَالٌ صَالِحٌ، وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِكُلِّ تَاجِرٍ مُسْلِمٍ يَخَافُ تَبِعَةَ الْأَمْوَالِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْحِسَابَ عَلَيْهَا سَيَكُونُ فِي الْكَسْبِ وَالْإِنْفَاقِ؛ فَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يُنَمِّي تِجَارَتَهُ إِلَّا بِالْحَلَالِ، مَعَ الْبُعْدِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ، فَضْلًا عَنِ الْحَرَامِ، ثُمَّ إِذَا حَازَ الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ أَنْفَقَهَا فِي الْحَقِّ، وَكُلَّمَا تَخَفَّفَ صَاحِبُ الْمَالِ مِنْ مَالِهِ فِي الدُّنْيَا بِالْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ؛ كَانَ ذَلِكَ أَخَفَّ لِحِسَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَأَصْحَابَ الْأَمْوَالِ بِوَجْهٍ أَخَصَّ، يُدْخِلُونَ فِي تِجَارَاتِهِمْ مُعَامَلَاتٍ مُحَرَّمَةً، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ تَنْمِيَةِ أَمْوَالِهِمْ بِالْمُشْتَبِهِ وَبِمَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَرَامِ، فِي تَنَافُسٍ مَحْمُومٍ عَلَى زِيَادَةِ الْأَرْبَاحِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْوَسِيلَةِ. وَإِذَا كَانَ ابْنُ عَوْفٍ ﷺ قَدْ خَافَ مِنْ مَالِهِ، وَبَكَى لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَتِجَارَتُهُ حَلَالٌ؛ فَأَوْلَى أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَنْ كَانَ فِي تِجَارَتِهِ حَرَامٌ أَوْ شُبْهَةٌ! فَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ ذَلِكَ،

= رسول الله ﷺ يقول: «إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه ..» أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ٣٧)، والبزار كما في مختصر زوائده للحافظ ابن حجر وصححه (١٨٨٣)، وأبو يعلى (٧٠٠٣).

(٢٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨١٩)، وابن حبان (٧٠١٨).

وَيُطَهِّرَ أَمْوَالَهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَيَتَوَرَّعَ عَنِ الْمُتَشَابِهِ.

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَبْذُلُ الْمَالَ الْوَفِيرَ فِي وُجُوهِ الْحَقِّ كَانَ يُلَاحِظُ أَنَّ هَذَا الْمَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، قَدْ مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ، فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، خِلَافًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ وَاسْتِشَارَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: الشُّحُّ بِالْمَالِ، وَالِاسْتِئْثَارُ بِهِ، وَغِيَابُ الْبَذْلِ وَالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَرَى أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي مَالِهِ!!

وَلَوْ أَنَّ أَثْرِيَاءَ الْمُسْلِمِينَ رَدُّوا بَعْضَ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَأَوْقَفُوا الْأَوْقَافَ لِأَجْلِ ذَلِكَ؛ لَمَا رَأَيْنَا فِي مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الطَّبَقِيَّةَ الْمَذْمُومَةَ، الَّتِي تَجْعَلُ أُنَاسًا فِي مَصَافِّ الثَّرَاءِ الْفَاحِشِ، وَآخَرِينَ لَا يَجِدُونَ بُلْغَةً مِنْ عَيْشٍ كَرِيمٍ!!

وَمَا يَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَحْقَادٍ وَضَغَائِنَ، وَأَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ؛ كَالسَّرِقَةِ وَالِاخْتِلَاسِ وَالتَّسَوُّلِ، لَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ.

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ رضي الله عنه قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ لِكُلِّ ذِي جَاهٍ وَمَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي تَوَاضُعِهِ وَلِينِهِ وَرَأْفَتِهِ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمُعْوِزِينَ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ لَا يُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ عَبِيدِهِ(٢٣)، فَهُوَ يَأْكُلُ مَعَهُمْ، وَلَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ.

---

(٢٣) السير (١/ ٨٩).

تنبيه: جاءت أحاديث عدة مفادها أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يتأخر في دخول الجنة، أو يدخلها حبوًا بسبب تجارته وأمواله الكثيرة، وهذه الأحاديث لا يصح منها شيء، بل هي بين منكر ومنقطع وضعيف، وهي كذلك معارضة للأحاديث الصحيحة التي تثبت فضل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وسابقته في الإسلام، وإنفاقه في الجهاد وغير ذلك.

وإنما نبهت على هذه الأحاديث المنكرة والضعيفة؛ لئلا يغتر بها بعض الخطباء فينقلها =

. . . .

= من كتب الحديث أو الزهد على علاتها، ولا سيما إذا كان يخطب عن الزهد، أو التحذير من فتنة الدنيا، أو فتنة المال، أو نحو هذه الموضوعات.

ومن تلك الأحاديث المنكرة الواردة في ذلك: حديث أنس رضي الله عنه قال: «بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتًا في المدينة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شي، قال: فكانت سبع مئة بعير، قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوًا، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فقال: إن استطعت لأدخلنها قائمًا، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله ﷻ» أخرجه أحمد (٦/ ١١٥)، والبزار (٢٥٨٦)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٩) برقم (٢٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٨).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٨): «رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني، وفيه عمارة بن زاذان ضعفه النسائي والدارقطني، وقد شهد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بدرًا والحديبية، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وصلى خلفه».

قلت: وهو حديث منكر تفرد به عمارة بن زاذان الصيدلاني، قال الإمام أحمد: يروي عن أنس أحاديث مناكير.

وفي معناه أحاديث أخرى عن أبي أمامة وحفصة بنت عمر وعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهم، وكلها أحاديث ضعيفة، وفيها المنكر؛ فلا يجوز الاحتجاج بها، كما أفاد ذلك المحققون من العلماء. ينظر: عدة الصابرين لابن القيم (١٢٨-١٣١)، ومسند الإمام أحمد طبعة دار الرسالة، تحقيق الأرناؤوط وآخرين (٣٦/ ٥٦٥-٥٦٨) برقم (٢٢٢٣٢)، وأيضًا (٤١/ ٣٣٧-٣٣٩) برقم (٢٤٨٤٢) وزوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة تحقيق: الدكتور خلدون الأحدب (٩/ ٣٧١-٣٧٥) برقم (٢١٠٩).

وقال ابن الجوزي بعد أن أورد حديث أنس السابق ذكره: «وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جهلة المتزهِّدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير، ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفًا لأجل ماله كفى ذلك في ذم المال، والحديث لا يصح، وحوشي عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق؛ لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه، ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن ينزه عن الحالين، وقد خلف طلحة ثلاث مئة حمل من الذهب وخلف الزبير وغيره، ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل، وكم قاص يتشوق بمثل هذا الحديث الباطل يحث على =

. . . .

= الفقر ويذم الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح، ويفهمون الأصول» اهـ من الموضوعات (١/ ٣٢٧).

وقد تعقب ابن القيم ابن الجوزي في ذلك فقال في عدة الصابرين(٣١) بعد أن أورد كلام ابن الجوزي: «وقد بالغ في رده هذا الحديث، وتجاوز الحدّ في إدخاله في الأحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الله ﷺ، وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها، ودخول الجنة حبوًا، ورأى ذلك مناقضًا لسبقه ومنزلته التي أعدها الله تعالى له في الجنة، وهذا وهم منه رحمه الله تعالى، وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن في هذين الخبرين أفيجد سبيلًا إلى القدح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمس مئة عام**» قال الترمذي: حديث صحيح، وفي حديث ابن عمر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا**».

ثم ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أحاديث أخرى صحيحة في المعنى، ثم قال: «فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم وهم في السبق متفاوتون؛ فمنهم من يسبق بخمس مئة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عامًا، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في دخول الجنة؛ فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول، وإن تأخروا بعدهم للحساب؛ فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئًا من أمور المسلمين إلى الجنة، فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل قد يكون أقرب الناس إلى الله منزلة ... إلى أن قال: ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودًا له بالجنة، وأما حديث دخوله الجنة زحفًا فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: إنه كذب منكر، وكما قال النسائي: إنه موضوع، ومقامات عبد الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصفاته تقتضي دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفًا» اهـ.

وقد ذكر ابن القيم حديث دخول عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوًا في المنار المنيف، وقال: «قال: شيخنا -يعني ابن تيمية-: لا يصح عن النبي ﷺ» اهـ (٣٠٦). =

وَالتَّوَاضُعُ خُلُقُ المُتَّقِينَ، وَالْكِبْرُ بِالمَالِ، وَالتَّعَالِي بِالْجَاهِ هُوَ صِفَةُ الضُّعَفَاءِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَسْتَخِفُّهُمْ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى، فَيَتَعَالَوْنَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَالْقَوِيُّ مِنَ النَّاسِ مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِيَدِهِ، وَلَمْ تَلِجْ إِلَى قَلْبِهِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ دَخَلَتْ قَلْبَهُ أَفْسَدَتْهُ، وَأَفْسَدَتْ دِينَهُ وَآخِرَتَهُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا مِنْ سِيَرِ الصَّالِحِينَ، وَأَخْبَارِ المُتَّقِينَ عِبْرَةً وَعِظَةً، تَقُودُكُمْ إِلَى الِاقْتِدَاءِ وَالتَّأَسِّي؛ فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



= وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤١-٤٢): «وقد ورد من غير ما وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ يدخل الجنة حبوًا لكثرة ماله، ولا يسلم أجودها من مقال، ولا يبلغ شيء منها بانفراده درجة الحسن، ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» فأنَّى تنقص درجاته في الآخرة أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة؟ فإنه لم يرد هذا في حق غيره، إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق، والله أعلم» اهـ.

٣٥٨- حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١٥/ ٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّها النَّاسُ: لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا طَعَامُهُ الَّذِي يَسُدُّ بِهِ جُوعَهُ، وَلِبَاسُهُ الَّذِي يُوَارِي جَسَدَهُ، وَمَرْكُوبُهُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَدَارُهُ الَّتِي تَكُنُّهُ، وَمَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْلِكُهُ وَلَا يَتَمَوَّنُهُ، وَيَتَمَتَّعُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ كَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ.

وَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا عَمَلُهُ الَّذِي يُجَازَى بِهِ، وَمَآثِرُهُ الَّتِي يَذْكُرُهُ النَّاسُ بِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَآثِرَ خَيْرٍ أَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالَ سُوءٍ ذَكَرُوهُ بِالشَّرِّ.

وَتَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ خَلَّدَ فِي صَفَحَاتِهِ الَّتِي دَوَّنَهَا الْمُؤَرِّخُونَ رِجَالًا أَفْذَاذًا كِرَامًا، كَانُوا رُؤُوسَ قَوْمِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ كَانُوا

رُؤُوسًا فِي الْإِسْلَامِ، وَسَادَةً تُفَاخِرُ بِهِمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَالَ رَأْسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﷺ لمَّا سُئِلَ عَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ: «**خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(١).

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَفْذَاذِ الْعَرَبِ، وَسَادَةِ قُرَيْشٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ فِي الْإِسْلَامِ: الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ الْأَسَدِيُّ الْقُرَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

عَاشَ أَرْبَعًا وَسَبْعِينَ سَنَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَسِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْإِسْلَامِ(٢). وَكَانَ لَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ، وَآرَاءُ مَشْهُورَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي الْإِسْلَامِ.

دَخَلَتْ أُمُّهُ الْكَعْبَةَ وَهِيَ حُبْلَى بِهِ مَعَ نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ وَأَعْجَلَتْهَا الْوِلَادَةُ، فَوَضَعَتْ حَكِيمًا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَلَا يُعْرَفُ أَحَدٌ غَيْرُهُ كَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي الْكَعْبَةِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (٤٦٨٩)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام (٢٣٧٨).

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٥٥)، والذهبي في السير (٣/ ٤٥) أن حكيمًا رضي الله عنه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين أخرى في الإسلام، ونقلوه عن البخاري، وهو في التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ١١) حيث قال رحمه الله تعالى في ترجمته: «حَكِيم بْنُ حِزام، أبو خَالِدٍ، الأَسَدِيّ، هَلَكَ سَنَةَ سِتِّينَ، وَهُوَ ابن عِشْرِينَ ومئة سَنَةٍ. الحِجازيّ، القُرَشِيّ، عَاشَ فِي الجَاهِلِيَّةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَفي الإِسْلام سِتِّينَ سَنَةً. قالهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ» اهـ. وتَعَقَّبه الذهبي فقال: «لم يَعِشْ في الإسلام إلا بضعًا وأربعين سنة». قلت: إن ثبت ما نقله أهل السير أن عمره حين مات مئة وعشرين سنة، فيكون قد عاش في الجاهلية أربعًا وسبعين سنة، وفي الإسلام ستًّا وأربعين سنة؛ لأنه وُلِدَ قَبْلَ عام الفيل بثلاث عشرة سنة، كما ذكر أهل السير، والنبي ﷺ وُلِدَ عام الفيل، وهاجر إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة، فيكون عمر حكيم رضي الله عنه وقت الهجرة ستًّا وستين سنة، وعمره حين أَسْلَم عام الفتح سنة ثمان: أربعًا وسبعين سنة، وعاش إلى سنة أربع وخمسين، وهذه مئة وعشرون سنة.

(٣) المنتظم (٥/ ٢٦٩)، وصفة الصفوة (١/ ٣١٢)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦)، والإصابة (٢/ ٢٧٨).

وَكَانَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ صَدِيقًا لَهُ وَلِآلِ بَيْتِهِ، وَلَمْ يَتَنَكَّرْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ الْبَعْثَةِ، بَلْ بَقِيَ عَلَى صِلَتِهِ وَصَدَاقَتِهِ لَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يُسْلِمِ اتِّبَاعًا لِكُبَرَاءِ قُرَيْشٍ وَسَادَتِهَا(٤).

وَهُوَ الَّذِي اشْتَرَى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه مِنْ سُوقِ عُكَاظٍ، وَأَهْدَاهُ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها، فَلَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ خَدِيجَةَ رضي الله عنها وَهَبَتْهُ زَيْدًا فَأَعْتَقَهُ(٥).

وَلَمَّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ بِسَبَبِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَاصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ، وَمَنَعُوهُمُ الطَّعَامَ، كَانَ حَكِيمٌ رضي الله عنه يُرْسِلُ الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ خُصُومَاتٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَأَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ: أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الشِّعْبِ، وَكَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ تَأْتِيهِ الْعِيرُ تَحْمِلُ الْحِنْطَةَ مِنَ الشَّامِ، فَيُقْبِلُ بِهَا إِلَى الشِّعْبِ، ثُمَّ يَضْرِبُ أَعْجَازَهَا فَتَدْخُل عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحِنْطَةِ»(٦).

وَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ، وَأَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ حَضَرَ حَكِيمٌ بَدْرًا وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يُقَاتِلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَكَّةَ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى كَبِيرِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهَا الْمُطَاعِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبَا الْوَلِيدِ، إِنَّكَ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا الْمُطَاعُ فِيهَا، هَلْ لَكَ إِلَى أَمْرٍ لَا تَزَالُ تُذْكَرُ فِيهِ بِخَيْرٍ إِلَى آخِرِ دَهْرِكَ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا حَكِيمُ؟ قَالَ: تَرْجِعُ بِالنَّاسِ»(٧)، ففَعَلَ، وَلَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ غَلَبَهُمْ عَلَى الْبَقَاءِ

(٤) الإصابة (٢/ ٢٧٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩-٣٠)، والمنتظم (٥/ ٢٧٢).

(٦) المنتظم (٥/ ٢٧١)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٥).

(٧) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٢).

وَالْقِتَالِ، وَكَانَ رَأْيُ حَكِيمٍ أَنَّهُمْ لَنْ يُنْصَرُوا فِي بَدْرٍ[٨]، وَوَقَعَتِ المَعْرَكَةُ، وَهُزِمَ المُشْرِكُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْجَى اللهُ سُبْحَانَهُ حَكِيمًا مِنَ الْقَتْلِ.

وَظَلَّ عَلَى شِرْكِهِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَمَا مَنَعَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ لِكُبَرَاءِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ يَصِلُ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، وَيُهْدِي إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ، يَقُولُ رضي الله عنه: «كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَحَبَّ رَجُلٍ فِي النَّاسِ إِلَيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا تَنَبَّأَ وَخَرَجَ إِلَى المَدِينَةِ شَهِدَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ المَوْسِمَ وَهُوَ كَافِرٌ، فَوَجَدَ حُلَّةً لِذِي يَزَنَ تُبَاعُ، فَاشْتَرَاهَا بِخَمْسِينَ دِينَارًا لِيُهْدِيَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ بِهَا عَلَيْهِ المَدِينَةَ، فَأَرَادَهُ عَلَى قَبْضِهَا هَدِيَّةً فَأَبَى، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ المُغِيرَةِ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّا لَا نَقْبَلُ شَيْئًا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَخَذْنَاهَا بِالثَّمَنِ**»، فَأَعْطَيْتُهُ حِينَ أَبَى عَلَيَّ الْهَدِيَّةَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ وَالْحَاكِمِ: «فَلَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ أَعْطَاهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَرَآهَا حَكِيمٌ عَلَى أُسَامَةَ، فَقَالَ: يَا أُسَامَةُ أَنْتَ تَلْبَسُ حُلَّةَ ذِي يَزَنَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَأَنَا خَيْرٌ مِنْ ذِي يَزَنَ، وَلَأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ، قَالَ حَكِيمٌ: فَانْطَلَقْتُ إِلَى مَكَّةَ أُعَجِّبُهُمْ بِقَوْلِ أُسَامَةَ»[٩].

---

(٨) جاء في بعض السير من رواية محمد بن عمر الأسلمي والبلاذري: «أن قريشًا لما نَزَلَتْ ببدر بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليهم، يقول لهم: ارجعوا؛ فإنه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إليَّ مِنْ أن تلوه مني، وأن أليه من غيركم أحبّ إليَّ من أن أليه منكم. فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصحًا فاقبلوه، فوالله لا تنتصرون عليه بعد ما عرض من النصح، فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم» ينظر: سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٣)، والسيرة الحلبية (٢/ ٣٩٩).

قلت: إرسال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لمفاوضة المشركين في بدر غير مشهور، ولست أعلم أنه في كتب السيرة المعروفة، ومثل هذه السفارة لو وقعت فحقها أن تشتهر وتُعْرَف كما عُرِف ما هو أقل منها، والله أعلم.

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٢-٤٠٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٩٢)، =

شَهِدَ حَكِيمٌ بَدْرًا وَأُحُدًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِ خَيْرًا إِذْ نَجَّاهُ مِنَ الْقَتْلِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَزِمَ بَيْتَهُ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَغَازِيهِمْ حَتَّى أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ يَبْكِي عَلَى تَأَخُّرِ إِسْلامِهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: ما يُبْكِيكَ يَا أَبَهْ؟ قَالَ: خِصَالٌ كُلُّهَا أَبْكَانِي، أَمَّا أَوَّلُهَا: فَبُطْءُ إِسْلَامِي حَتَّى سُبِقْتُ فِي مَوَاطِنَ كُلُّهَا صَالِحَةٌ، وَنَجَوْتُ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ، فَقُلْتُ: لَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ، وَلَا أُوضَعُ مَعَ قُرَيْشٍ مَا بَقِيتُ، فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ، وَيَأْبَى اللهُ أَنْ يَشْرَحَ قَلْبِي لِلْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَقَايَا مِنْ قُرَيْشٍ لَهُمْ أَسْنَانٌ مُسْتَمْسِكِينَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَقْتَدِي بِهِمْ، وَيَا لَيْتَ أَنِّي لَمْ أَقْتَدِ بِهِمْ، فَمَا أَهْلَكَنَا إِلَّا اقْتِدَاؤُنَا بِآبَائِنَا وَكُبَرَائِنَا . . .»(١٠).

فَلَمَّا أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِسْلَامِهِ، وَأَعْطَاهُ مَعَ مَنْ أَعْطَى مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهُ، فَأَعْطَاهُ ﷺ حَتَّى رَضِيَ، ثُمَّ نَصَحَهُ بِالِاسْتِعْفَافِ، يَقُولُ حَكِيمٌ رضي الله عنه: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ

= والطبراني في الكبير (٣/ ١٩٣) برقم (٣٠٩٤)، وأيضًا (٣/ ٢٠٢) برقم (٣١٢٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٤٨٤-٤٨٥)، وذكره الهيثمي في الزوائد، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسنادهما جيِّد، رجاله ثقات» (٤/ ١٥١).

(١٠) المنتظم (٥/ ٢٦٩-٢٧٠).

عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّي» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «فَمَاتَ حَكِيمٌ حِينَ مَاتَ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا»(١١).

لَقَدْ كَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ رضي الله عنه سَيِّدًا مُطَاعًا، كَرِيمًا جَوَادًا، لَهُ مَآثِرُ فِي جَاهِلِيَّتِهِ وَإِسْلَامِهِ، وَكَانَ يَشْتَرِي الظَّهْرَ وَالْأَدَاةَ وَالزَّادَ ثُمَّ لَا يَجِيئُهُ أَحَدٌ يَسْتَحْمِلُه فِي السَّبِيلِ إِلَّا حَمَلَهُ(١٢)، وَقَدْ جَاءَ عَنْهُ أَنَّهُ أَعْتَقَ مِئَةَ رَقَبَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَعْتَقَ مِثْلَهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَحَمَلَ عَلَى مِئَةِ بَعِيرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَحَمَلَ عَلَى مِثْلِهَا فِي الْإِسْلَامِ(١٣)، وَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لَا أَدَعُ شَيْئًا صَنَعْتُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا صَنَعْتُ مِثْلَهُ فِي الْإِسْلَامِ»(١٤)، وَقَدْ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي كَانَ يَعْمَلُهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ صِلَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ، هَلْ لِي فِيهَا أَجْرٌ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ»** أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(١٥).

---

(١١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢)، والنسائي في الزكاة، باب مسألة الرجل في أمر لا بد منه (٥/ ١٠١-١٠٢)، والترمذي في الزهد، باب رقم (٢٩) (٢٤٦٣)، وأحمد (٣/ ٤٠٣). والرواية الثانية لعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٠٢) برقم: (٢٠٠٤١)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٨٨) برقم: (٣٠٧٨) وعزاه الحافظ في الفتح لإسحاق بن راهويه (٣/ ٣٩٥).

(١٢) المنتظم (٥/ ٢٧٢).

(١٣) صفة الصفوة (١/ ٣١٣)، والمنتظم (٥/ ٢٧١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٤٩).

(١٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩).

(١٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب مَنْ تَصَدَّقَ في الشرك ثم أسلم (١٤٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده (١٢٣).

وَكَانَتْ دَارُ النَّدْوَةِ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا حُكَمَاءُ قُرَيْشٍ لِلرَّأْيِ والمَشُورَةِ بِيَدِهِ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَم، فَلَامَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما، وَقَالَ لَهُ: «بِعْتَ مَكْرُمَةَ قُرَيْشٍ؟!» فَقَالَ حَكِيمٌ رضي الله عنه: «ابْنَ أَخِي، ذَهَبَتِ المَكَارِمُ؛ فَلَا كَرَمَ إِلَّا التَّقْوَى، يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي اشْتَرَيْتُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِزِقٍّ مِنْ خَمْرٍ، وَلأَشْتَرِيَنَّ بِهَا دَارًا فِي الْجَنَّةِ، أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى»(١٦)، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهَا كُلِّهِ.

حَجَّ حَكِيمٌ رضي الله عنه، فَأَوْقَفَ مَعَهُ بِعَرَفَةَ مِئَةَ عَبْدٍ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَطْوَاقُهُمْ، فَأَعْتَقَهُمْ لِلَّهِ عز وجل فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، فَضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ وَالدُّعَاءِ يَقُولُونَ: «رَبَّنَا هَذَا عَبْدُكَ قَدْ أَعْتَقَ عَبِيدَهُ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ فَأَعْتِقْنَا»(١٧).

وَأَهْدَى يَوْمَ النَّحْرِ مِئَةَ بَدَنَةٍ مُجَلَّلَةٍ، وَمِئَةَ بَقَرَةٍ، وَأَلْفَ شَاةٍ؛ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى(١٨).

وَكَانَ يَشْفَعُ لِلنَّاسِ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى نَوَائِبِهِمْ، وَيَقْضِي حَوَائِجَهُمْ، وَيَفْرَحُ بِخِدْمَةِ أَصْحَابِ الْحَاجَاتِ، وَيَقُولُ: «مَا أَصْبَحْتُ وَلَيْسَ بِبَابِي صَاحِبُ حَاجَةٍ إِلَّا عَلِمْتُ أَنَّهَا مِنَ المَصَائِبِ الَّتِي أَسْأَلُ اللهَ الأَجْرَ عَلَيْهَا»(١٩).

وَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَدْ كُنْتُ أَخْشَاكَ، وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ»(٢٠).

---

(١٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٨٦) برقم (٣٠٧٢)، وحسنه الهيثمي في الزوائد (٩/ ٣٨٤)، وينظر: المنتظم (٥/ ٢٧١)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦).

(١٧) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٥٦)، وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٤/ ٤٤٢)، والمنتظم (٥/ ٢٧١)، والسير (٣/ ٥٠)، ولطائف المعارف لابن رجب (٤٩٤).

(١٨) السير (٣/ ٥٠)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦).

(١٩) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٤/ ٤٢٤)، والسير (٣/ ٥١).

(٢٠) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٧٧)، وتاريخ الإسلام (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٥١)، وتهذيب الكمال (٧/ ١٩٧).

تُوُفِّيَ ﷺ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَعُمْرُهُ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً(٢١).

اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْهُ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي سِيرَةِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَالْهِدَايَةُ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَهَبُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَالْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ مِنْ بِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَسُمَيَّةَ وَيَاسِرٍ وَعَمَّارٍ سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ فِي قَبَائِلِهِمْ، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ قَادَةِ قُرَيْشٍ وَكُبَرَائِهَا مِمَّنْ كَانُوا رُؤُوسًا فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الْعَرَبِ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ، وَمَصِيرُهُمْ إِلَى النَّارِ عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ.

---

(٢١) المنتظم (٥/ ٢٧٣)، وصفة الصفوة (١/ ٣١٣)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦)، وتاريخ الإسلام (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٥١).

فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ دِينِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَمْ يَرْتَضِ غَيْرَهُ، وَعَلَيْنَا أَنْ لَا نَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ، أَوِ النَّاقِمِينَ عَلَيْهِ مِمَّنْ هُمْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَلَدَيْهِمْ مِنْ عُلُومِ الدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا مَا لَيْسَ لَدَيْنَا، فَصَنَادِيدُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ كَانُوا فِي وَقْتِهِمْ أَشَدَّ قُوَّةً، وَأَعْظَمَ سِيَادَةً، وَلَدَيْهِمْ مِنَ الْخِبْرَةِ وَالمَعْرِفَةِ مَا لَيْسَ لَدَى غَيْرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ صَرَفَهُم عَنِ الْهِدَايَةِ.

لَقَدْ دَلَّتْ سِيرَةُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ الرَّاجِحَ، وَالرَّأْيَ الصَّائِبَ؛ لَا يَكْفِي لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ إِذَا لَمْ يُحَالِفْ صَاحِبَهُ تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ أَسَدُّ رَأْيًا، وَلَا أَرْجَحُ عَقْلًا، وَلَا أَبْلَغُ حِكْمَةً مِنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، حَتَّى إِنَّهُ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ، وَسَدَادِ رَأْيِهِ؛ أُدْخِلَ دَارَ النَّدْوَةِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ قَانُونُهُمْ يَمْنَعُ مَنْ كَانَ دُونَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ دُخُولِهَا(٢٢)، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ عَقْلَ حَكِيمٍ الرَّاجِحَ وَرَأْيَهُ الصَّائِبَ؛ لَمْ يَنْفَعْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِدَايَتِهِ فِي فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَادَ أَنْ يُقْتَلَ عَلَى الشِّرْكِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ إِذْ تَخَبَّطَهُ أَسَدُ الْإِسْلَامِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، وَكَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَهُ سَحَبُوهُ أَرْضًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْ حَمْزَةَ رضي الله عنه، وَلَمْ يَنْسَ حَكِيمٌ هَذَا الْمَوْقِفَ أَبَدًا، وَكَانَ يَبْكِي إِذَا تَذَكَّرَهُ، وَيَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي يَمِينِهِ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ»(٢٣)؛ لِأَنَّهُ أَوْشَكَ عَلَى الْهَلَاكِ، لَوْلَا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَدَارَكَتْهُ؛ فَسَحَبَهُ قَوْمُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ عَلَى الشِّرْكِ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عز وجل عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ عَامَ الْفَتْحِ.

---

(٢٢) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٧٦)، والمنتظم (٥/ ٢٦٩)، والسير (٣/ ٤٩-٥٠).

(٢٣) البداية والنهاية (٨/ ٥٥-٥٦)، والإصابة (٢/ ٢٧٨).

وَالسَّبَبُ الَّذِي مَنَعَ حَكِيمًا مِنَ التَّقَدُّمِ فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى سَبَقَهُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ هُوَ اتِّبَاعُهُ لِلْكُبَرَاءِ وَالسَّادَةِ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ، وَتَقْلِيدُهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ شَيْئًا عَقْلُهُ الرَّاجِحُ، وَلَا رَأْيُهُ الصَّائِبُ؛ لِأَنَّهُ عَطَّلَ عَقْلَهُ بِتَقْلِيدِهِمْ، حَتَّى قَالَ ﷺ: «مَا أَهْلَكَنَا إِلَّا اقْتِدَاؤُنَا بِآبَائِنَا وَكُبَرَائِنَا».

إِنَّ التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى لِقَادَةِ الضَّلَالِ سَبَبٌ يُرْدِي مَنْ قَلَّدَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، فَلَا يَرَى إِلَّا بِأَعْيُنِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا بِآذَانِهِمْ، وَلَا يَعْقِلُ إِلَّا بِعُقُولِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَالضُّلَّالِ إِنَّمَا أَصَرُّوا عَلَى بِدَعِهِمْ وَضَلَالِهِمْ بِسَبَبِ تَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى لِشُيوخِهِمْ وَأَئِمَّتِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ يُمَارِسُونَ فِي بِدَعِهِمْ شَعَائِرَ لَا تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ، وَتَأْبَاهَا الْفِطَرُ، وَيَخْجَلُ بَعْضُ مَنْ يُمَارِسُوهَا، وَرُبَّما أَخْفَوْهَا عَنِ النَّاسِ؛ حَيَاءً مِنْهُمْ، وَخَوْفًا مِنَ التَّعْيِيرِ وَالتَّشْهِيرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَلَوْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّها إِثْمٌ وَضَلَالٌ، وَمَا إِصْرَارُهُمْ عَلَيْها إِلَّا تَقْلِيدًا لِمَشَايِخِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ.

وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ﷺ نَدِمَ عَلَى تَأَخُّرِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَحَاوَلَ التَّكْفِيرَ عَنْ ذَلِكَ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ أَدَّاهَا، وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ بِأَنْ يَعْمَلَ حَالَ إِسْلَامِهِ مَا عَمِلَ فِي جَاهِلِيَّتِهِ مِنْ عِتْقٍ وَصَدَقَةٍ وَصِلَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ فَالْإِسْلَامُ قَدْ زَادَهُ كَرَمًا إِلَى كَرَمِهِ، وَأَخْلَاقًا إِلَى أَخْلَاقِهِ، وَلَمَّا أَرْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الاسْتِعْفَافِ تَرَكَ حَقَّهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ طِيلَةَ سَنَوَاتِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَزَمَنًا مِنْ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَجِيبٌ أَنْ يَغْلِبَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِ حَقٍّ لها لِمَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا النَّبِيَّ ﷺ، وَيَدُومَ عَلَى ذَلِكَ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً(٢٤)، لَوْلَا تَوْفِيقُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، ثُمَّ قُوَّةُ عَزِيمَتِهِ.

إِنَّهَا سِيرَةٌ مِنْ أَعْجَبِ السِّيَرِ، وَفِيهَا دُرُوسٌ مِنْ أَحْسَنِ الدُّرُوسِ، رَضِيَ اللهُ

(٢٤) وذلك أن حكيمًا ﷺ وعد النبي ﷺ لما أعطاه من غنائم حنين، وزاده بعد ما ألح في مسألته، وغزوة حنين كانت سنة ثمان من الهجرة، إلى أن توفي ﷺ سنة أربع وخمسين من الهجرة.

تَعَالَى عَنْ صَاحِبِهَا وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَإِنَّنَا نُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، وَعَلَى بُغْضِ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَالْبَرَاءَةِ مِمَّنْ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.



٣٥٩- مقتل الشيخ أحمد ياسين

٥/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْعِبَادَ مُفَاضَلَتُهُ بَيْنَهُمْ، وَاصْطِفَاؤُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ؛ فَجَعَلَ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْعُلَمَاءَ وَالْمُصْلِحِينَ، وَالْقَادَةَ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَجَعَلَ فِيهِمْ طُلَّابَ الدُّنْيَا وَطُلَّابَ الْآخِرَةِ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَرَاهُ اللهُ تَعَالَى نَسَمَاتِ ذُرِّيَّتِهِ «**فَرَأَى فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ،**

وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى، قَالَ: يَا رَبِّ، أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ، قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(١).

وَأَقْدَارُ الرِّجَالِ تُعْرَفُ بِسِيَرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَتُوزَنُ حَيَاتُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَمُنْجَزَاتِهِمْ، وَكَمْ مِنْ شَرِيفٍ فِي قَوْمِهِ، عَظِيمٍ فِي سُلْطَانِهِ، غَنِيٍّ بِمَالِهِ، قَوِيٍّ بِجَاهِهِ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ فَلَا يَتَحَرَّكُ لِمَوْتِهِ أَحَدٌ، وَيُطْوَى ذِكْرُهُ بِقَبْرِهِ، فَيَكُونُ نَسِيًا مَنْسِيًّا!!

وَكَمْ مِنْ صُعْلُوكٍ فِي قَوْمِهِ، ضَعِيفٍ بَيْنَ أَقْرَانِهِ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى، فَمَيَّزَهُ بِعِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جِهَادٍ أَوْ دَعْوَةٍ، فَطَارَ ذِكْرُهُ فِي الْآفَاقِ، وَتَنَاقَلَتْ سِيرَتَهُ الرُّكْبَانُ، وَحِينَ يَمُوتُ تَتَحَرَّكُ الْقُلُوبُ لِمَوْتِهِ، وَتَسِيلُ الْمَدَامِعُ لِفَقْدِهِ!!

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَغَرْسُ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ لَا يُمْكِنُ لِصَاحِبِ مَالٍ أَنْ يَشْتَرِيَهَا بِمَالِهِ، أَوْ يَنَالَهَا وَجِيهٌ بِجَاهِهِ، أَوْ يَحُوزَهَا سُلْطَانٌ بِسُلْطَانِهِ، وَلَا تَكُونُ بِالظُّهُورِ وَالشُّهْرَةِ، وَلَكِنَّهَا أَمْرٌ عَجِيبٌ يَغْرِسُهُ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ حِيلَةً، وَلَا لَهُ دَفْعًا، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا ذَا قَبُولٍ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: حديث حسن صحيح (٣٠٧٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٦٤)، وهذه الرواية زيادة في الحديث أخرجها أبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا أمر جبرائيل فأحبه وأحبه أهل السماء (٢٦٣٧)، وأحمد (٢/ ٢٦٧).

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ ﷺ؛ فَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ انْعَقَدَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، وَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى ذِكْرِهِمْ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ مَا أَعْطَوُا النَّاسَ نَقِيرًا وَلَا قِطْمِيرًا، وَلَا نَفَعُوهُمْ كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، فَهِيَ مَحَبَّةٌ صَادِقَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا، خَالِصَةٌ لَا رِيَاءَ مَعَهَا، جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ لِعُلَمَاءَ رَبَّانِيِّينَ، وَدُعَاةٍ عَامِلِينَ، وَسَاسَةٍ مُخْلِصِينَ، وَقَادَةٍ وَمُجَاهِدِينَ، لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَنْزِعُوهَا مِنَ الْقُلُوبِ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ.

وَفِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ شَوَاهِدُ تَشْهَدُ لِذَلِكَ، فَكَمْ قَصَدَ الْإِعْلَامُ الْعَالَمِيُّ أَشْخَاصًا لَهُمْ قَبُولٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَحَشَدَ وَسَائِلَهُ ضِدَّهُمْ، وَسَخَّرَ عُمَلَاءَهُ لِتَشْوِيهِ صُورَتِهِمْ، وَالْقَدْحِ فِي سِيرَتِهِمْ، وَنَزْعِ مَحَبَّتِهِمْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، فَمَا زَادَ النَّاسَ إِلَّا حُبًّا لَهُمْ، وَقَنَاعَةً بِهِمْ، وَعَادَ مَكْرُ الْمَاكِرِينَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ تَدْبِيرُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.

كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْأَفْذَاذِ الَّذِينَ حَازُوا الْقُلُوبَ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَحَبَّةِ النَّاسِ بِلَا مَالٍ وَلَا جَاهٍ: قَائِدُ الْمُجَاهِدِينَ فِي فِلَسْطِينَ، الْقَائِدُ الشَّيْخُ يَاسِينُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَسْكَنَهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ. كَانَتْ سِيرَتُهُ أُعْجُوبَةً مِنَ الْعَجَائِبِ، وَأَعْجَبُ مِنْهَا قِيَادَتُهُ وَحُنْكَتُهُ، وَصَبْرُهُ وَثَبَاتُهُ، حَتَّى لَقِيَ اللهَ ﷻ، فَأَحَبَّهُ النَّاسُ حُبًّا شَدِيدًا، فَسَمَّوْا مَوَالِيدَهُمْ بِاسْمِهِ، وَسَأَلُوا اللهَ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُهُمْ مِثْلَهُ.

وُلِدَ فِي بِدَايَاتِ النُّفُوذِ الصِّهْيَوْنِيِّ فِي فِلَسْطِينَ الَّذِي أَعْقَبَهُ الِاحْتِلَالُ وَالدَّمَارُ وَالْإِذْلَالُ، وَذَاقَ الْيُتْمَ وَلَمْ يَبْلُغْ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ(٣).

---

(٣) ولد الشيخ أحمد إسماعيل ياسين في قرية (جورة عسقلان) عام ١٩٣٦م، وتوفي والده وعمره خمس سنوات.

وَاكْتَوَى بِالْهَزِيمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكُبْرَى وَلَمَّا يُنَاهِزِ الْحُلُمَ، وَهِيَ النَّكْبَةُ الَّتِي صَيَّرَتْ لِلْيَهُودِ دَوْلَةً دَاخِلَ فِلَسْطِينَ، وَشَهِدَ الْمَجَازِرَ الْمُرَوِّعَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِبَنِي بَلَدِهِ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ(٤).

وَكَانَ مِنْ آثَارِ تِلْكَ النَّكْبَةِ عَلَيْهِ أَنْ شَرَّدَهُمُ الصَّهَايِنَةُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، فَازْدَادَ وَأُسْرَتُهُ فَقْرًا إِلَى فَقْرِهِمْ، وَجُوعًا إِلَى جُوعِهِمْ؛ حَتَّى كَانَ قُوتُهُمْ مَا يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِ الْجُنُودِ الْعَرَبِ(٥).

وَلَمَّا نَاهَزَ الْحُلُمَ، وَبَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ؛ أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ فِي رَقَبَتِهِ، حَبَسَتْهُ فِي جَسَدِهِ، فَصَارَ رَهِينَ شَلَلٍ تَامٍّ(٦)، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ مَا انْكَسَرَتْ، وَلَا فَتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِ؛ فَوَاصَلَ دِرَاسَتَهُ، وَجَاهَدَ بِلِسَانِهِ، يَخْطُبُ فِي النَّاسِ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ الصَّائِلِ الْمُحْتَلِّ؛ حَتَّى عَلَا نَجْمُهُ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَأَثَّرَ فِي النَّاسِ كَلَامُهُ، فَسَجَنَهُ الصَّهَايِنَةُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَعَذَّبُوهُ وَضَرَبُوهُ وَهُوَ مَشْلُولٌ، فَفَقَدَ أَكْثَرَ بَصَرِهِ، وَمَا بَقِيَ لَهُ إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْ سَمْعِهِ، ثُمَّ تَبِعَ ذَلِكَ أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ فِي تَنَفُّسِهِ وَأَمْعَائِهِ، وَمَا أَقْعَدَهُ ذَلِكَ عَنِ الْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْعَمَلِ وَالْخَطَابَةِ.

وَلَمَّا هُزِمَ الْعَرَبُ فِيمَا سُمِّيَ بِالنَّكْسَةِ(٧)، وَاحْتَلَّ الْيَهُودُ بَقِيَّةَ فِلَسْطِينَ مَا أَيِسَ

---

(٤) هي نكبة عام ١٩٤٨م التي هُزِمَتْ فيها الجيوش العربية، وكان عمر الشيخ آنذاك (١٢ سنة)، وذكر الشيخ أن الجيوش العربية نزعت السلاح من الأهالي بحجة أنه لا ينبغي وجود قوة أخرى غير قوة الجيش، فارتبط مصير السكان بمصير الجيوش العربية، فلما هزمت وقع السكان ضحية هذه الهزيمة، فَعَمِلَ فيهم اليهود المذابح المروعة، قال الشيخ: «ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث».

(٥) المقصود بهم جنود الجيوش العربية، وخاصة الجيش المصري الذي كان مرابطًا قرب قرية الشيخ آنذاك.

(٦) لما بلغ الشيخ السادسة عشرة من عمره أصابته ضربة في رقبته وهو يلعب مع أقرانه، في إحدى فقرات العنق، وذلك عام ١٩٥٢م، ومن جرائها حدث له الشلل التام.

(٧) هي هزيمة عام (١٩٦٧م) التي استحوذت فيها إسرائيل على بقية فلسطين بما في ذلك غزة.

وَلَا انْتَكَسَ، بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ إِصْرَارًا عَلَى جِهَادِ الْيَهُودِ إِلَى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَتَحْرِيضِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ كَلِمَةٍ مِنْ لِسَانِهِ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ حَسَنَاتِ الشَّيْخِ الْكَثِيرَةِ -وَحَيَاتُهُ جُلُّهَا حَسَنَاتٌ وَتَضْحِيَاتٌ- أَنَّهُ عَدَّلَ مَسَارَ الْقَضِيَّةِ، وَوَجَّهَهَا وِجْهَتَهَا الصَّحِيحَةَ، بَعْدَ أَنْ ضَلَّتِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً، كَانَتْ سَبَبًا فِي الْهَزَائِمِ الْمُتَوَالِيَةِ(٨).

لَقَدْ كَانَتْ قَضِيَّةُ فِلَسْطِينَ تُطْرَحُ فِي الْمَحَافِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا قَضِيَّةٌ عَلْمَانِيَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بِالتُّرَابِ وَالْوَطَنِ، وَعَلَى ذَلِكَ اجْتَمَعَتِ الْقُوَى الْفِلَسْطِينِيَّةُ مِنْ وَطَنِيَّةٍ وَيَسَارِيَّةٍ، إِلَى أَنْ قَادَ الشَّيْخُ جُمْهُورًا مِنَ الْأُمَّةِ فِي فِلَسْطِينَ؛ فَصَبَغَ قَضِيَّتَهَا بِالصِّبْغَةِ الصَّحِيحَةِ، وَجَعَلَهَا عَقَائِدِيَّةً إِسْلَامِيَّةً(٩). وَهَذَا مَا أَقَضَّ مَضَاجِعَ الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمُ الْغَرْبِيِّينَ.

كَانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً يُخَاطِبُ الْأُمَّةَ، وَيَكْتُبُ إِلَيْهَا؛ يَسْتَنْهِضُ الْهِمَمَ، وَيَشْحَذُ الْعَزَائِمَ، وَيُلَامِسُ شِغَافَ الْقُلُوبِ، بِخِطَابٍ يَعْلُوهُ نُورُ الْإِسْلَامِ، وَتُزَيِّنُهُ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فِي إِيمَانٍ مَتِينٍ، وَتَوَكُّلٍ عَجِيبٍ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ، لَا تُزَعْزِعُهُ الْأَحْدَاثُ الْمُزَلْزِلَةُ، وَلَا تُرْهِبُهُ قُوَّةُ الْأَعْدَاءِ وَمَا يَمْلِكُونَ مَهْمَا كَانَتْ وَأَيًّا كَانُوا.

كَانَ يَخْطُبُ فِي أَهْلِ فِلَسْطِينَ فَيَقُولُ: «أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا الْمُقَاوَمَةُ وَالْقِتَالُ، لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا الْجِهَادُ وَالِاسْتِشْهَادُ، لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا أَنْ نُقَدِّمَ دِمَاءَنَا

(٨) وذلك بشعارات غير إسلامية وتحت قيادة منظمات كثيرة منها: منظمة فتح، والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، وغيرها.

(٩) أسس الشيخ مع بعض إخوانه وتلاميذه منظمة حماس في قطاع غزة عام ١٩٨٧م تحت اسم (حركة المقاومة الإسلامية)، وكانت المقاومة قبلها تحت منظمات وطنية لا تهتم لأمر الإسلام.

رَخِيصَةً مِنْ أَجْلِ الْإِسْلَامِ . . فَالدُّنْيَا لَا تُعْطَى لِلْقَاعِدِينَ النَّائِمِينَ، الدُّنْيَا تُعْطَى لِلْمُجَاهِدِينَ الْمُقَاتِلِينَ الصَّابِرِينَ، فَلْنَكُنْ كَذَلِكَ، وَالْأَعْمَارُ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فَلِمَاذَا لَا نَخْتَارُ مَوْتَةً شَرِيفَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! لِمَاذَا؟! كُلُّنَا سَنَمُوتُ إِمَّا عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ فِي الطَّائِرَةِ أَوْ فِي الْبَحْرِ أَوْ فِي السَّيَّارَةِ، لِمَاذَا لَا نُقَاتِلُ؟! لِمَاذَا لَا نُجَاهِدُ؟! لِمَاذَا لَا نَبْذُلُ كُلَّ مَا نَمْلِكُ مِنْ أَجْلِ دِينِنَا وَأُمَّتِنَا؟! لمَاذَا لَا نَغْزُو جَمِيعًا؟! الْقَادِرُ بِجِسْمِهِ، وَغَيْرُ الْقَادِرِ بِمَالِهِ، وَلْيَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ انْتِصَارًا لِدِينِ اللَّهِ، وَتَحْرِيرًا لِأَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ . . . »(١٠).

اجْتَمَعَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَرَبَّوْنَ عَلَى خُطَبِهِ وَإِمْلَاءَاتِهِ، شَبَابًا وَكُهُولًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، فَصَارُوا يُوَاجِهُونَ الْعَدُوَّ الْمُدَجَّجَ بِالسِّلَاحِ، وَنُفُوسُهُمْ تَتُوقُ لِلشَّهَادَةِ؛ إِعْلَاءً لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدِفَاعًا عَنْ حُرُمَاتِهِ، فَمَا ضَاعَتْ دِمَاؤُهُمْ هَدَرًا كَمَا كَانَتْ تَضِيعُ مِنْ قَبْلُ تَحْتَ الرَّايَاتِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ، وَصَارُوا يَتَسَابَقُونَ عَلَى الِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ سِبَاقًا عَجِبَ مِنْهُ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ، وَأَرْعَبَ الْيَهُودَ أَيَّمَا رُعْبٍ؛ حَتَّى بَنَوْا جِدَارًا عَظِيمًا يَفْصِلُهُمْ عَنْ أَبْطَالِ الْإِسْلَامِ الْأَشَاوِسِ عَلَّهُ يَحْمِيهِمْ مِنْهُمْ، وَصَدَقَ اللهُ الْقَائِلُ: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤].

إِنَّ الْيَهُودَ مَا بَنَوْا جِدَارَهُمْ، وَلَا اسْتَعَانُوا بِكُلِّ عُمَلَائِهِمْ، وَلَا اسْتَنْجَدُوا بِحُلَفَائِهِمْ أَيَّامَ الشِّعَارَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ الزَّائِفَةِ، وَلَكِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمَّا تَسَلَّمَ قِيَادَةَ الصِّرَاعِ مَنْ يُحْسِنُونَ إِدَارَتَهُ، وَيَحْمِلُونَ فِي رُؤُوسِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَلْهَجُونَ

(١٠) هذا مقطع من خطبة طويلة وجهها الشيخ في بداية رمضان الماضي عام (١٤٢٤هـ) تحت عنوان (رسالة خاصة إلى الأمة).

بِالتَّكْبِيرِ، وَيَتَنَافَسُونَ عَلَى المَوْتِ تَنَافُسَ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْحَيَاةِ، يَقُودُهُمْ فِي ذَلِكَ شَيْخُهُمُ الْكَسِيحُ مِنْ عَلَى كُرْسِيِّهِ المُتَحَرِّكِ؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ للَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

وَبَلَغَ الشَّيْخُ أُمْنِيَّتَهُ، وَهُوَ مُقْعَدٌ كَسِيحٌ، فَجُنِّدَتْ لِأَجْلِهِ طَائِرَاتٌ وَصَوَارِيخُ، مَزَّقَتْ أَشْلَاءَهُ، وَأَسَالَتْ دِمَاءَهُ، عَقِبَ أَدَائِهِ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى(١١)، وَقَدْ أَمْضَى عُمُرًا مَدِيدًا فِي الْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ، سِلَاحُهُ الْإِيمَانُ وَالثَّبَاتُ، وَالصَّبْرُ وَالْيَقِينُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَهُ فِي الشُّهَدَاءِ، وَأَنْ يُخْلِفَ عَلَى المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ هُوَ وَمَنْ قَضَوْا مَعَهُ، وَسَائِرَ قَتْلَى المُسْلِمِينَ، وَاجْمَعْنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ. اللَّهُمَّ وَأَنْزِلْ غَضَبَكَ وَعَذَابَكَ عَلَى صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَاجْعَلْهُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(١١) وذلك عقب صلاة الفجر من يوم الاثنين ١/ ٢/ ١٤٢٥هـ، وكان الشيخ يعلم أن العدو يستهدفه، وقد أدرجه في قائمة اغتيالاته، ومع ذلك ما ترك ما اعتاده من حضور الصلاة في المسجد مع جماعة المسلمين، وهو بفعله هذا لا شك أنه يتحدى العدو، ويظهر عدم مبالاته بقوته وتهديداته، وتلك والله هي قمة التوكل على الله تعالى، واليقين بأن الأعمار بيده سبحانه دون ما سواه.

ومن العجيب أن الشيخ قبل أيام من اغتياله أصيب بأزمة حادة، لزم العناية المركزة في المستشفى، ويحكى أن الأطباء قدَّروا أن حالته الصحية متردية جدًّا، وأنه لن يعيش إلا أيامًا قلائل، وسبحان الله وبحمده! فلعل الله تعالى ما أراد للشيخ أن يموت على فراشه وهو قد أمضى عقودًا في الجهاد، فهيأ له أسباب الاستشهاد؛ إذ نشط من مرضه، فما هو إلا أن خرج إلى المسجد على عادته، فكان ما كان من أمر الله تعالى وقدره، فالحمد لله رب العالمين، ورحم الله تعالى الشيخ، وبلغه منازل الشهداء، إنه جواد كريم.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ مَنَّ عَلَيْنَا بِالْهُدَى، وَفَاضَلَ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالتُّقَى. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي الْبِرِّ وَالتُّقَى، الدَّاعِينَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَ أَمَدُهَا، وَأَزْهَرَتْ خُضْرَتُهَا، وَبَدَتْ زِينَتُهَا؛ فَهِيَ تَزُولُ وَلَا تَبْقَى، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: يُسْتَفَادُ مِنْ سِيرَةِ هَذَا الْمُجَاهِدِ الرَّاحِلِ دُرُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَفَوَائِدُ عِدَّةٌ، يَعْرِفُهَا مَنْ قَرَأَهَا وَتَأَمَّلَهَا.

لَقَدْ أَثْبَتَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ أَنَّ النُّفُوسَ الْكَبِيرَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى الْعِلَلِ وَالْأَوْصَابِ، وَتَتَجَاوَزُ الْمِحَنَ وَالصِّعَابَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَسَلَّحَتْ بِالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ، وَكَانَ لِأَصْحَابِهَا هِمَّةٌ عَالِيَةٌ، وَإِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ، وَإِلَّا فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ كَسِيحٍ مَرِيضٍ، لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ إِلَّا عَقْلُهُ وَلِسَانُهُ، يَقُودُ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ عُزَّلٍ مِنَ السِّلَاحِ، فِي ظُرُوفٍ

عَسْكَرِيَّةٍ صَعْبَةٍ، وَأَمَامَ بَحْرٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْأَصْلِيِّينَ وَالْعُمَلَاءِ وَالْخَوَنَةِ، يَمْلِكُونَ أَقْوَى سِلَاحٍ، وَيَشْتَرُونَ الذِّمَمَ بِالمَالِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ أُمَمُ الْأَرْضِ وَمُنَظَّمَاتُهَا الدَّوْلِيَّةُ، يُسْبِغُونَ عَلَى جَرَائِمِهِمُ الشَّرْعِيَّةَ الدَّوْلِيَّةَ؟ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُودُ جُنْدَهُ فَيُحْسِنُ الْقِيَادَةَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً إِلَى أَنْ قُتِلَ فِي أَرْضِ مَعْرَكَتِهِ.

لَقَدْ عَذَرَهُ اللهُ تَعَالَى، بَلْ وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ الْأَعْذَارُ كُلُّهَا؛ فَالْأَعْمَى لَيْسَ عَلَيْهِ حَرَجٌ، وَهُوَ يُشْبِهُ الْأَعْمَى، وَبَصَرُهُ ضَعِيفٌ، وَالْأَعْرَجُ مَعْذُورٌ وَهُوَ مَشْلُولٌ كَسِيحٌ، وَالمَرِيضُ مَعْذُورٌ وَهُوَ مُصَابٌ بِالْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ.

كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَقْعُدَ مَعَ الْقَاعِدِينَ، وَيُخَذِّلَ مَعَ المُخَذِّلِينَ، أَوْ يَطْلُبَ الْخُرُوجَ مِنْ بَلَدِهِ؛ لِعِلَاجِ مَرَضِهِ، وَكُلُّ الدُّوَلِ تُرَحِّبُ بِهِ، وَتَسْتَضِيفُهُ وَتُعَالِجُهُ؛ وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ أُمَّتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَالَجَ مِحَنَهُ بِصَبْرِهِ، فَغَايَتُهُ أَسْمَى مِنْ جَسَدِهِ، فَضَحَّى بِهِ فِي نَيْلِ مَطْلُوبِهِ، وَتَحْقِيقِ هَدَفِهِ.

لَقَدْ بَلَغَ صَبْرُهُ مَبْلَغًا عَجِيبًا حَتَّى فَاضَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى جُنْدِهِ؛ فَأَخَذُوا عَنْ قَائِدِهِمُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ الَّذِي لَا شِكَايَةَ فِيهِ(١٢)، وَالتَّحَمُّلَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُقَدِّرُ المَصْلَحَةَ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ حَاوَلَ الْيَهُودُ وَعُمَلَاؤُهُمْ أَنْ يَجُرُّوهُ وَجُنْدَهُ إِلَى حَرْبٍ أَهْلِيَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ فَشِلُوا بِسَبَبِ صَبْرِهِ وَصَبْرِ جُنْدِهِ عَلَى ظُلْمِ الْقَرِيبِ، وَاسْتِفْزَازِ الْبَعِيدِ، فَلَقَدْ كَانَ مُسْتَمْسِكًا بِهَدَفِهِ الْأَسْمَى وَهُوَ تَوْجِيهُ سِلَاحِهِ لِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّ المُسْلِمِينَ، وَيَرَى أَنَّ تَحَمُّلَ الظُّلْمِ وَالِاسْتِفْزَازِ أَهْوَنُ مِنَ الدُّخُولِ فِي مَعَارِكَ أُخْرَى لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا إِلَّا الْيَهُودُ.

لَقَدْ عَلَّمَنَا هَذَا الْقَائِدُ الرَّاحِلُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً- أَنَّ الْجَسَدَ

(١٢) ذكر الدكتور عبد العزيز الرنتيسي -حفظه الله تعالى- في مقابلة له أنه تَعَلَّمَ مِنْ شيخه ياسين في سجون إسرائيل؛ حيث اعْتُقِلَا سَوِيًّا: الصبر الجميل الذي لا شكاية معه من ألم المرض، وشدة القهر، ووطأة السجن، كما تعلم منه الانتصار على الضعف.

الْهَزِيلَ إِذَا كَانَ يَمْلِكُ إِرَادَةً قَوِيَّةً فَإِنَّهُ يَنْتَصِرُ عَلَى عَوَامِلِ الضَّعْفِ فِيهِ، وَيَصِلُ إِلَى مَا يُرِيدُ، وَإِلَّا فَكَيْفَ بِرَجُلٍ لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ إِلَّا رَأْسُهُ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْمَرَضُ مَا بَلَغَ، يَعْقِدُ الْعَدُوُّ الْأَقْوَى فِي هَذَا الْعَصْرِ مَجَالِسَهُ الْأَمْنِيَّةَ لِبَحْثِ تَصْفِيَتِهِ، وَيُحَاوِلُ اغْتِيَالَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، ثُمَّ يُجَنِّدُ الطَّائِرَاتِ وَالصَّوَارِيخَ لِمُقْعَدٍ عَلَى كُرْسِيٍّ مُتَحَرِّكٍ، ثُمَّ لَمَّا تَأَكَّدَ نَبَأُ مَقْتَلِهِ طَارُوا بِذَلِكَ فَرَحًا فِي أَكْبَرِ دَوْلَةٍ وَأَقْوَاهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ؟!(١٣).

وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ دَرْسٍ لِأُمَّةٍ قَدِ اسْتَضْعَفَتْ نَفْسَهَا، وَأَحَاطَ بِهَا الْوَهْنُ وَالذُّلُّ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا! حَتَّى اسْتُبِيحَ حِمَاهَا، وَأَسْقَطَ الْعَدُوُّ بَعْضَ دُوَلِهَا، وَعَاثَ فَسَادًا فِي أَرْضِهَا، وَقَدْ رَتَّبَ الدُّوَلَ الْأُخْرَى دَوْلَةً دَوْلَةً عَلَى مَذْبَحِهِ، وَالْكُلُّ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ، وَرُدُودُ الْأَفْعَالِ خَلَتْ حَتَّى مِنَ الْأَقْوَالِ!!

فَأَيْنَ الْأُمَّةُ مِنْ سِيرَةِ هَذَا الْقَائِدِ الْجِهْبِذِ الَّذِي انْتَصَرَ عَلَى كُلِّ عَوَامِلِ الضَّعْفِ فِي نَفْسِهِ، بِإِيمَانِهِ الْعَمِيقِ، وَعَقِيدَتِهِ الرَّاسِخَةِ، وَإِرَادَتِه الْقَوِيَّةِ. وَلِمَ لَا تَفْقَهُ الْأُمَّةُ هَذَا الدَّرْسَ الْعَظِيمَ، فَلَا تَخْنَعُ بِحُجَّةِ الضَّعْفِ، وَقِلَّةِ الْحِيلَةِ، وَلَا تَسْتَكِينُ

(١٣) كانت عناوين نشرات الأخبار في أمريكا تدل على ذلك، نحو قولهم: «مقتل الإرهابي الأول»، وقول قناة (فوكس): «الشيخ ياسين كان من أكثر القادة الدمويين في فلسطين» وعرضت الشبكات الأمريكية تصريح وزير الدفاع الإسرائيلي «شاؤول موفاز» حين قال: «سيداتي سادتي .. قتلنا ابن لادن الفلسطيني».
ولم تستضف شبكات التلفزة الأمريكية أي فلسطيني أو عربي عقب الحدث، وإنما استضافت شخصيات صهيونية كان منهم وزير الزراعة اليهودي «يسرائيل كاتس» الذي خرج يهنئ الجيش الإسرائيلي على قوته الرادعة فقال: «لقد قتلنا ابن لادن الخاص بنا»، وقالت عضوة الكنيست «جيلا فينكيلشتن» في إحدى القنوات الأمريكية: «ياسين يستحق الموت تمامًا مثل الرنتيسي ... وابن لادن، العالم يفهم أنه يجب اجتثاث رأس الإرهاب، وأنا أهنئ بالعملية»، وغير ذلك كثير.

لِعَجْزِهَا، أَوْ تَرْكَنُ لِعَدُوِّهَا؟ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْزِلُ المَعُونَةَ عَلَى قَدْرِ المُؤْنَةِ، وَيُنْزِلُ الصَّبْرَ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ[١٤]، وَإِذَا عَلِمَ سُبْحَانَهُ صِدْقَ الْعِبَادِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِهِ؛ أَعَانَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

وَالثَّبَاتُ عَلَى المَبْدَإِ دَرْسٌ آخَرُ مِنْ دُرُوسِ سِيرَتِهِ، فَلَقَدْ حَاوَلَ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ؛ مُسَاوَمَتَهُ عَلَى مَبَادِئِهِ، وَرَغَّبُوهُ وَرَهَّبُوهُ، وَسَجَنُوهُ وَعَذَّبُوهُ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ فَمَا لَانَتْ عَزِيمَتُهُ، وَلَا تَزَعْزَعَ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَلَا غَيَّرَ مَبْدَأَهُ الَّذِي أَعْلَنَهُ، فَلَمَّا رَأَى الْعَدُوُّ صَلَابَتَهُ، وَاسْتَنْفَذَ كُلَّ طُرُقِ الْإِغْرَاءِ وَالْإِرْهَابِ مَعَهُ؛ قَرَّرَ قَتْلَهُ، فَنَحْسَبُهُ -وَاللهُ حَسِيبُهُ- أَنَّهُ قَدْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى وَهُوَ ثَابِتٌ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي عَلَى مَا أَعْلَنَهُ وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَهُوَ جِهَادُ الْعَدُوِّ الصِّهْيَوْنِيِّ إِلَى أَنْ يَلْقَى اللهَ ﷻ.

وَكَانَ مِنْ عَلَامَةِ الْخَيْرِ لَهُ: أَنَّ قَتْلَهُ كَانَ بَعْدَ فَرِيضَةٍ عَظِيمَةٍ أَدَّاهَا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ﷻ، وَهُوَ مَعْذُورٌ لَوْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ لِشَلَلِهِ وَمَرَضِهِ، وَلَكِنَّ إِيمَانَهُ حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ مَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَكَانَ خَاتِمَةُ عَمَلِهِ تِلْكَ الْفَرِيضَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي مَنْ أَدَّاهَا فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ الشَّيْخُ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَارِنُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- ثَبَاتَ هَذَا الْقَائِدِ الْعَظِيمِ بِحَالِ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ غَيَّرُوا مَبَادِئَهُمْ، وَتَنَكَّرُوا لِدِينِهِمْ، وَانْقَلَبُوا عَلَى ثَوَابِتِهِمْ وَمُسَلَّمَاتِهِمْ بِالنَّقْدِ وَالتَّجْرِيحِ، وَالتَّبَرِّي وَالتَّشْكِيكِ؛ إِرْضَاءً لِأَعْدَائِهِمْ، وَكَسْبًا لِوُدِّهِمْ، وَدَرْءًا

(١٤) جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: القضاعي في مسند الشهاب (٩٩٢)، والبزار كما في الزوائد لابن حجر (١٥٦)، وجاء من حديث أنس رضي الله عنه كما ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٤).

لِشَرِّهِمْ، وَلَنْ يَنكَفُّوا أَوْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ؛ بَلْ هُمْ مَاضُون فِيمَا يَطْلُبُونَ، عَازِمُونَ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاعَ دِينَهُ وَاشْتَرَى الدُّنْيَا، وَحَرَّفَ النُّصُوصَ إِبْقَاءً عَلَى دُنْيَاهُ، وَاللَّهِ لَيَخْسَرَنَّ الدِّينَ وَالدُّنْيَا.

وَدُرُوسُ الشَّيْخِ الرَّاحِلِ كَثِيرَةٌ، وَسِيرَتُهُ عَجِيبَةٌ، وَيَكْفِي فِيهَا أَنَّهُ مَا عُرِفَ فِي الْأُمَّةِ، بَلْ وَلَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ أَنَّ قَائِدًا قَادَهَا وَهُوَ مَشْلُولٌ فَأَحْسَنَ الْقِيَادَةَ، وَأَقَضَّ مَضَاجِعَ الْأَعْدَاءِ، وَغَيَّرَ مُجْرَيَاتِ الصِّرَاعِ؛ فَرَجَحَتْ كِفَّتُهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى عُبَّادِ الْعِجْلِ.

وَكَمَا كَانَتْ سِيرَتُهُ غَرِيبَةً، فَإِنَّ قِيَادَتَهُ ثُمَّ قَتْلَهُ كَانَ أَشَدَّ غَرَابَةً، وَإِلَّا فَمَا يُرْهِبُ الْيَهُودَ مِنْ مُسِنٍّ مَرِيضٍ مَشْلُولٍ؟! وَلِحَادِثَةِ قَتْلِهِ مَا بَعْدَهَا، وَكَمْ مِنْ دَمٍ أَحْيَا اللهُ تَعَالَى بِهِ أُمَّةً كَامِلَةً؟! وَلَرُبَّمَا نَدِمَ الْيَهُودُ عَلَى قَتْلِهِ أَشَدَّ النَّدَمِ؛ لِمَا يُحْيِي اللهُ تَعَالَى بِدَمِهِ مِنْ رِجَالٍ يُكْمِلُونَ مَسِيرَتَهُ، وَيَسِيرُونَ عَلَى خُطَّتِهِ.

وَإِنَّ قَتْلَ الْيَهُودِ لَهُ لَدَلِيلُ رِبْحٍ وَفَوْزٍ لَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى خَسَارَةِ الْيَهُودِ وَإِفْلَاسِهِمْ، وَفَشَلِ سِيَاسَتِهِمْ، وَبِدَايَةِ نِهَايَتِهِمْ، وَنِهَايَةِ حُلَفَائِهِمْ مِنْ عُبَّادِ الصَّلِيبِ، عَجَّلَ اللهُ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ . . .



٣٦٠- مقتل حاكم العراق

١٦/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ العَلِيِّ الأَعْلَى؛ خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ الَّذِي لَا يُنْسَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَسَمَ الدِّينَ بَيْنَ عِبَادِهِ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَسَمَ بَيْنَهُمُ الدُّنْيَا فَيُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَجَعَلَهُ سِرَاجًا مُنِيرًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَضَوْا بِالحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَتْ زَالَتْ، وَمَهْمَا أَزْهَرَتْ أَغْبَرَتْ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ تَجَرَّعَ ذُلَّهَا! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ ذَاقَ فَقْرَهَا! وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ مِنْهَا إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَضَى عِيدُ المُسْلِمِينَ الكَبِيرُ بَعْدَ أَنْ وَقَفَتْ جُمُوعٌ مِنْهُمْ عَلَى صَعِيدِ عَرَفَةَ يُقِيمُونَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُعَظِّمُونَ شَعَائِرَهُ، يُبَاهِي بِهِمْ رَبُّهُمْ ﷻ مَلَائِكَتَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْ شَرَعَ لَهُمْ دِينَهُمْ، وَرَضِيَ مِنْهُمْ عَمَلَهُمْ، فَأَدَّوْا لِلَّهِ تَعَالَى نُسُكَهُمْ، فِي لِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَمَكَانٍ وَاحِدٍ، وَشِعَارٍ وَاحِدٍ.

وَفِي يَوْمِ الْعِيدِ الأَكْبَرِ ذَبَحَ المُسْلِمُونَ ذَبَائِحَهُمْ، وَتَقَرَّبُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِهَدَايَاهُمْ

وَضَحَايَاهُمْ، قَائِلِينَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ»، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ عِبَادَاتٍ! وَمَا أَجَلَّهَا مِنْ شَعَائِرَ! تَأْخُذُ بِالقُلُوبِ، وَتُسِيلُ الدُّمُوعَ؛ فَرَحًا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِالاجْتِمَاعِ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

فَهَنِيئًا لَكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- مَا هُدِيتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَمَا قَامَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ تَعْظِيمِ الشَّعَائِرِ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ، وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِكُمْ.

وَخِلَالَ هَذِهِ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ الَّتِي بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهَا أَفْضَلَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَقَضَى بِأَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَاخْتَصَّهَا بِشَعِيرَتَي الحَجِّ وَالأُضْحِيَةِ. فِي تِلْكُمُ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ كَانَتْ أُمَّةُ النَّصَارَى الضَّالَّةُ تَحْتَفِلُ بِعِيدِ مِيلَادِ المَسِيحِ ﷺ وَعِيدِ رَأْسِ السَّنَةِ المِيلَادِيَّةِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الشَّعَائِرِ الشِّرْكِيَّةِ، وَالمَرَاسِمِ الشَّهْوَانِيَّةِ الَّتِي تُشْبِعُ غَرَائِزَهُمْ وَلَا تُصْلِحُ قُلُوبَهُمْ، وَتُرْضِي شَيْطَانَهُمْ، وَتُسْخِطُ رَبَّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَلَالًا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَبُعْدًا عَنْ مَنَاهِجِ الأَنْبِيَاءِ وَشَرَائِعِهِمْ.

وَقَدْ تَابَعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا جُمْلَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، يَفْرَحُونَ بِأَعْيَادِ الضَّالِّينَ، وَيَشُدُّونَ رِحَالَهُمْ إِلَيْهَا، وَيَبْحَثُونَ عَنْهَا فِي مَظَانِّهَا، يَعُبُّونَ مِنْ شَهَوَاتِهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِزَخَارِفِهَا، وَيُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَا، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَضْجَرُونَ مِنْ أَعْيَادِ المُسْلِمِينَ، فَيُعَطِّلُونَ شَرَائِعَهَا، وَلَا يُعَظِّمُونَ شَعَائِرَهَا، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ بَعْدَ الهُدَى، وَمِنَ الْغَفْلَةِ وَالهَوَى.

وَلَئِنْ شَهِدَتِ الأَيَّامُ المَاضِيَةُ المُبَارَكَةُ فَرَحَ المُسْلِمِينَ بِأَعْيَادِهِمُ الشَّرْعِيَّةِ، وَاحْتَفَلَ فِيهَا النَّصَارَى بِأَعْيَادِهِمُ الْكُفْرِيَّةِ؛ فَإِنَّ الأُمَّةَ الصَّفَوِيَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ قَدْ خَالَفَتْ عُمُومَ المُسْلِمِينَ فِي الْعِيدِ الْكَبِيرِ فَأَخَّرُوهُ عَنِ الْعِيدِ الشَّرْعِيِّ؛ إِمْعَانًا فِي

الْمُخَالَفَةِ، وَقَصْدًا لِتَرْسِيخِ الْبِدْعَةِ، وَخَرْقًا لِإِجْمَاعِ الأُمَّةِ(١)، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى عِيدِ الْمُسْلِمِينَ الأَكْبَرِ فَقَتَلُوا فِيهِ حَاكِمَ الْعِرَاقِ؛ لِيُؤَكِّدُوا لِأَهْلِ السُّنَّةِ حُكْمَهُمْ لِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا حَوْلَهَا، الَّتِي كَانُوا يَحْلُمُونَ بِحُكْمِهَا مُنْذُ الْقَرْنِ السَّابعِ لمَّا أَسْقَطَ أَجْدَادُهُمْ بِخِيَانَةِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيِّ خِلَافَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ تَحْتَ أَقْدَامِ المَغُولِ.

فَعَلُوا ذَلِكَ بِحَاكِمِ الْعِرَاقِ يَوْمَ عِيدِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُرَدِّدُونَ الشِّعَارَاتِ الْبِدْعِيَّةَ الْبَغِيضَةَ الَّتِي تَنِمُّ عَنْ تَعَصُّبِهِمْ لِمَذْهَبِهِمْ الضَّالِّ(٢)، وَتَشِي بِمَدَى حِقْدِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ بُهْتٌ غُدْرٌ، يُظْهِرُونَ الضَّعْفَ وَالْوَدَاعَةَ، حَتَّى إِذَا تَمَكَّنُوا لَمْ يَرْقُبُوا فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَمَا يَفْعَلُونَهُ بِأَبْنَاءِ الْعِرَاقِ مِنَ

(١) وذلك أن الرافضة جعلوا العيد يوم الأحد، وجعلوا السبت الوقوف بعرفة، مخالفين جمهور المسلمين الذين وقفوا بعرفة يوم الجمعة وعيدهم السبت.

(٢) صور أحد من حضروا إعدام صدام حسين وقائع الإعدام، وكان الحضور مُلَثَّمِين، ويهتفون بمقتدى الصدر الزعيم الرافضي العراقي، ويصلون على النبي ﷺ على طريقتهم ونغمتهم التي عرفوا بها. وشهد صدام بشهادة الحق قبل شنْقِه، وكان ثابتًا غير هيَّاب، وما كان الرافضة يودون خروج هذا التسجيل، ولكن الله تعالى فضحهم؛ إذ صرحوا قبل تسرب هذا المشهد المصور للناس تصريحات كاذبة، ففضحهم الله تعالى بتسرب مشهد الإعدام إلى الناس؛ إذ بعد إعدامه قال علي المسعدي الذي صور لقطات الفيديو الشهيرة لإعدام صدام حسين لمجلة النيوزويك الأمريكية: إن آخر ما نطق به صدام حسين قبل إعدامه هو أن العراق بلا صدام لا شيء.

وقال موفق الربيعي: إن صدام حسين كان خائفًا .. وأنه قال له: لا تخف.

وظهر كذب هذين الاثنين عقب تسرب تصوير مشهد الإعدام للناس الذي لم يكن فيه صدام خائفًا، بل كان ثابتًا قويًا، ونطق بالشهادة كاملة، ونطق في المرة الثانية بشهادة الألوهية، وشنقوه أثناء نطقه بالشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة.

وجاء هذا الشريط فضيحة للرافضة، ودعاية لصدام -رحمه الله تعالى-؛ إذ انقلب الشارع الإسلامي إلى متعاطف معه، مترحم عليه، بعد أن كان كثير من الناس كارهين له، وآخرون لا يأبهون لأمره.

التَّعْذِيبِ وَالْحَرْقِ، وَتَشْوِيهِ الْأَجْسَادِ وَتَمْزِيقِهَا لَمْ يَفْعَلْهُ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، كَأَنَّهُمْ بِقَتْلِهِمْ حَاكِمَ الْعِرَاقِ الْأَسِيرَ فِي الْعِيدِ الْكَبِيرِ يُوصِلُونَ رِسَالَةً مُهِمَّةً لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُمْ فِيهَا: أَنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِعِيدِكُمْ، وَنَحْنُ نَأْمُرُ وَنَنْهَى فِي عِرَاقِكُمْ، وَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ تَقِيَّتِنَا، وَأَعْلَنَّا شِعَارَنَا الطَّائِفِيَّ حَالَ قَتْلِنَا زَعِيمًا مِنْ زُعَمَائِكُمْ، وَحَوَّلْنَا الْإِعْلَامَ مِنَ الاهْتِمَامِ بِحَجِّكُمْ إِلَى مَوَاقِعِ إِهَانَتِكُمْ، وَمَوَاضِعِ ذُلِّكُمْ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ وَمَاذَا سَتَفْعَلُونَ؟ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا عَاجِزُونَ.

حَتَّى إِنَّ كَاتِبًا غَرْبِيًّا أَثَّرَ فِيهِ الْمَشْهَدُ وَتَوْقِيتُهُ فَقَالَ: «إِنَّهُ عِنْدَمَا يَظْهَرُ دِكْتَاتُورٌ عُرِفَ بِوَحْشِيَّتِهِ الاسْتِثْنَائِيَّةِ وَهُوَ يَمُوتُ بِطَرِيقَةٍ مُشَرِّفَةٍ، وَبِشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ عَلَى أَيْدِي مَجْمُوعَةٍ مِنَ السَّفَّاحِينَ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْمُقَنَّعِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُهُ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ تَاجَ الشُّهَدَاءِ». إِلَى أَنْ قَالَ: «مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ مَا أَرَادَهُ الْمَالِكِيُّ هُوَ بَعْثُ رِسَالَةٍ مُتَعَمَّدَةٍ إِلَى سُنَّةِ الْعِرَاقِ مُفَادُهَا أَنَّ الشِّيعَةَ هُمُ الْأَسْيَادُ الْآنَ، مِمَّا يُحَوِّلُ الْحُكُومَةَ الْعِرَاقِيَّةَ الْحَالِيَّةَ الَّتِي كَانَ هَدَفُهَا تَوْحِيدَ الْعِرَاقِيِّينَ إِلَى مُجَرَّدِ عِصَابَةٍ طَائِفِيَّةٍ مُصَمِّمَةٍ عَلَى جَعْلِ السُّنَّةِ الْأَقَلِّيَّةَ الَّتِي تَدْفَعُ ثَمَنَ كُلِّ الْقَمْعِ الَّذِي مَارَسَهُ نِظَامُ صَدَّامٍ بِحَقِّ الشِّيعَةِ»(٣).

لَقَدِ الْتَقَتِ الرَّغْبَةُ الْيَمِينِيَّةُ الْإِنْجِيلِيَّةُ مَعَ الْحِقْدِ الصَّفَوِيِّ الْبَاطِنِيِّ، عَلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ هَزِيمَةُ رُوحِ الْمُقَاوَمَةِ عِنْدَ السُّنَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ الْبَدْءُ بِتَشْكِيلِ الْمِنْطَقَةِ، وَكِتَابَةِ تَارِيخٍ يَخُطُّهُ الْمُنْتَصِرُونَ.

إِنَّ مَشْرُوعَ تَرْكِيعِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُطَبَّقَ دُونَ إِجْهَازٍ عَلَى النُّفُوسِ الْمُقَاوِمَةِ لِلظُّلْمِ وَالِاسْتِعْمَارِ وَالتَّغْرِيبِ وَالتَّشْيِيعِ، وَالَّذِي يَحْدُثُ فِي الْعِرَاقِ هُوَ تَجْهِيزٌ لِلْمِنْطَقَةِ بِكَامِلِهَا إِنْ عَلَى مُسْتَوَى الْعُنْفِ وَالْقَتْلِ وَالدَّمَارِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى

(٣) صحيفة ديلي تلغراف البريطانية عن الساحة السياسية عبر الشبكة العالمية.

مُسْتَوَى الْقَاعِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْقَاعِ إِلَّا رَمْيُ رَكَائِزِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى التَّهْيِئَةِ النَّفْسِيَّةِ.

وَاخْتِيَارُ هَذَا الْمَوْعِدِ لِإِعْدَامِ صَدَّامٍ هُوَ آخِرُ بَالُونَاتِ الِاخْتِبَارِ؛ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ التَّخْدِيرَ قَدْ جَرَى فِي شَرَايِينِ أَبْنَاءِ الْمِنْطَقَةِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا يَشْعُرُونَ بِالْأَلَمِ، فَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ!(٤).

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمَا أَنْ وَقَعَ هَذَا الْحَدَثُ الْكَبِيرُ فِي عَالَمِ السِّيَاسَةِ، وَنَقَلَتْ وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ وَقَائِعَ إِعْدَامِ حَاكِمِ الْعِرَاقِ إِلَّا وَتَحَوَّلَ اهْتِمَامُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَثُرَتْ أَقَاوِيلُهُمْ فِيهِ، وَخُصِّصَتْ بَرَامِجُ إِعْلَامِيَّةٌ تَحْكِي سِيرَةَ الزَّعِيمِ الْمَقْتُولِ، وَعُقِدَتْ مُنَاظَرَاتٌ لِأَجْلِهِ، وَسُوِّدَتْ صَفَحَاتٌ فِي حَيَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَضَاعَ الْعَامَّةُ فِي خِضَمِّ هَذَا الِاخْتِلَافِ.

فَطَائِفَةٌ رَأَوْا فِي الزَّعِيمِ الْمَقْتُولِ رَمْزًا مِنْ رُمُوزِ الْأُمَّةِ، وَعَلَمًا مِنْ أَعْلَامِهَا، مُدَافِعًا عَنْ قَضَايَاهَا، حَرِيصًا عَلَى مَصَالِحِهَا، حَامِيًا لِبَيْضَتِهَا، وَمَا قَصَدَهُ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا لِأَنَّهُ أَعْظَمُ خَطَرٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا تَشَفَّى فِيهِ الْفُرْسُ الصَّفَوِيُّونَ وَأَذْنَابُهُمْ إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ السَّدَّ الْمَنِيعَ دُونَ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ.

وَيَرَى هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ إِعْدَامَهُ هُوَ إِعْدَامٌ لِلنِّظَامِ الْعَرَبِيِّ بِرُمَّتِهِ، وَهُوَ رِسَالَةٌ لِكُلِّ مَنْ يَقِفُ حَائِلًا دُونَ الْمَشْرُوعَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ أَوِ الْمَشْرُوعَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الصَّفَوِيَّةِ بِأَنَّهُ سَيَلْقَى نَفْسَ الْمَصِيرِ.

وَبَالَغَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَجَعَلُوهُ شَهِيدَ الْأُمَّةِ الَّذِي لَنْ يَتَوَحَّدَ الْعِرَاقُ بَعْدَهُ، وَلَا خَيْرَ فِي الْأُمَّةِ عَقِبَهُ، وَعَدُّوهُ فِي مَصَافِّ قَادَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظَمَاءِ، وَتَأَلَّى بَعْضُهُمْ عَلَى

---

(٤) من مقالة (أضحية اليمين المحافظ) د.عبدالله بن موسى الطاير، الساحة السياسية.

اللَّهِ تَعَالَى فَحَكَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ وَالجَنَّةِ.

وَفِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَالأُمَّةُ الْعَاجِزَةُ المَظْلُومَةُ تَتَعَلَّقُ بِأَيِّ رَمْزٍ تَرَاهُ قَدْ تَحَدَّى أَعْدَاءَ الأُمَّةِ فِي الْعَلَنِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ حَيْدَةٌ عَنْ مَنْهَجِهَا وَرِسَالَتِهَا، وَفِي زَمَنِ الذُّلِّ تَتَعَلَّقُ الْقُلُوبُ بِمَنْ فِيهِمْ عِزَّةٌ، وَحَالِ انْتِشَارِ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ يُحِبُّ النَّاسُ الشُّجَاعَ فِيهِمْ، وَتُعْمِيهِمْ شَجَاعَتُهُ وَعِزَّتُهُ عَمَّا فِيهِ مِنْ خَلَلٍ وَقُصُورٍ.

فِي مُقَابِلِ هَذَا الْفَرِيقِ فَرِيقٌ آخَرُ لَمْ يَرَوْا فِي حَاكِمِ الْعِرَاقِ إِلَّا خَائِنًا لِأُمَّتِهِ، مُمَالِئًا لِأَعْدَائِهَا، سَفَّاكًا لِدِمَائِهَا، غَشُومًا فِي حُكْمِهَا، قُوَّتُهُ عَلَى شَعْبِهِ لَا عَلَى أَعْدَائِهِ. وَسِيَاسَاتُهُ الخَرْقَاءُ وَتَصَرُّفَاتُهُ الرَّعْنَاءُ جَرَّتِ المِنْطَقَةَ إِلَى وَيْلَاتٍ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا، وَوَطَّنَتْ لِلْصَّلِيبِيِّينَ وَالصَّهَايِنَةِ مَوَاضِعَ أَقْدَامٍ مِنَ الْعَسِيرِ زَحْزَحَتُهَا، وَيَعْزُو هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّاسِ كُلَّ بَلَاءِ الأُمَّةِ إِلَيْهِ، وَيَجْزِمُونَ بِأَنَّهُ الصَّفْحَةُ السَّوْدَاءُ الْوَحِيدَةُ فِي بِلَادِ الرَّافِدَيْنِ، وَلَا يَرَوْنَ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً.

وَيَعُدُّونَ تَغَيُّرَهُ فِي آخِرِ فَتْرَةِ حُكْمِهِ، وَاتِّجَاهَهُ لِبِنَاءِ المَسَاجِدِ، وَتَوْسِيعِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعِنَايَةِ بِالْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ . . يَعُدُّونَ ذَلِكَ انْتِهَازِيَّةً لِجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهِ بَعْدَ ضَجَرِهِمْ مِنَ الحِصَارِ، وَمُسَاوَمَةً مِنْهُ لِلْغَرْبِ، وَاسْتِخْدَامًا مِنْهُ لِلدِّينِ سِلَاحًا يُهَدِّدُهُمْ بِهِ.

كَمَا يَرَوْنَ أَنَّ ثَبَاتَهُ فِي مُحَاكَمَتِهِ، وَاصْطِحَابَهُ مُصْحَفَهُ، وَمُحَافَظَتَهُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي سِجْنِهِ، مَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْبَائِسِ الْيَائِسِ الَّذِي فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ، فَرَكَنَ إِلَى الدِّينِ لِيَخْدَعَ النَّاسَ، وَيَكْسِبَ تَعَاطُفَهُمْ، وَتَأَلَّى بَعْضُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَأَنَّ جَهَنَّمَ مَأْوَاهُ، وَأَنَّ نُطْقَهُ لِشَهَادَةِ الْحَقِّ قَبْلَ مَوْتِهِ لَا يَنْفَعُهُ، وَأَنَّ إِيمَانَهُ كَإِيمَانِ فِرْعَوْنَ حَالَ غَرْغَرَتِهِ(٥).

---

(٥) وللعلم فقد أصدر الشيخ عبد الرحمن البراك -حفظه الله تعالى- بيانًا قرر فيه تكفير صدام =

. . . .

= قال فيه:
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد: فمن المعلوم أن صدام أحد قادة حزب البعث العربي، والمعروف أن حزب البعث يقوم على مبادئ جاهلية وإلحادية، وكان أمين الحزب ميشيل عفلق النصراني، ولم يُعلم أن صدامًا أعلن براءته من حزب البعث بعد احتلال الأمريكان للعراق ولا قبل ذلك.
وأما ما يتظاهر به من الإسلام والنطق بالشهادتين؛ فلا يكفي؛ فإن كثيرًا من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام يتكلمون بالشهادتين ويتمسحون بالإسلام.
وعلى هذا فنفوِّض أمر صدام إلى الله ولا نحكم عليه فيما بينه وبين الله؛ ولا نترحم عليه؛ ولا نصلي عليه لو قُدِّمَ للصلاة عليه؛ لأن كل ما أَظْهَرَهُ لا يدل على انتقاله عما كان عليه، وما اشتهر به من زعامته لحزب البعث والإيمان بمبادئه.
وأما الذين قتلوه فهم الصليبيون والرافضة، وعداواتهم له سياسية، وكذلك يعاديه الرافضة من جهة انتسابه لأهل السنة، وأما اختيار يوم العيد لقتله يظهر أنه مضاهاة لقتل أميرٍ من أمراء دولة بني أمية وهو خالد القسري للجعد بن درهم -إمام المعطلة- حيث قتله يوم عيد الأضحى وقال: ضحوا تقبَّلَ الله ضحاياكم فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليمًا، فنزل من المنبر فذبحه .. والرافضة تُوالي الجهمية المعطّلة، ولهذا اعتنقوا مذهب المعتزلة.
فنحن أهل السنة غير آسفين على قتل صدام، فمثله مثل غيره من الزعماء الذين يحاربون الإسلام ويتشدقون بالإسلام، ويظن النصارى والرافضة أن في قتله مراغمة لأهل السنة، وهم واهمون في ذلك.
وإطاحة الأمريكان بدولة صدام ومعاونة الرافضة لهم، من عقوبة الله للظالمين بالظالمين، وقد يُسلَّط على الشرير مَنْ هو أشرّ منه، ونسأل الله سبحانه أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن ينصر المجاهدين في العراق وفي كل مكان .. اهـ كلامه حفظه الله تعالى.
قلت: ومع تقديري وتوقيري الشديدين للشيخ العلامة الجليل فلا أوافقه في فتواه، ولا أعلم أن أحدًا من أهل العلم وافَقَهُ عَلَيْهَا، وأما فتوى الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- في أزمة الخليج فمختلفة؛ لأنه لم يعلم بتغير الرجل، ولا سمع نطقه بالشهادة قبل موته مباشرة، وكنت قد كتبت خطبة إبان القبض على صدام عنوانها (نهاية طاغية) ورجوت له فيها الهداية قبل موته، وهي مطبوعة في المفيد المجلد (٤) خطبة رقم (١٩٠). وكنت =

. . . .

= وقتها أرى ما يرى الشيخ قبل علمي بتغير الرجل، وتوجهه نحو الدين وأهله، وتركه انحرافاته السابقة، ثم كانت خاتمته الحسنة بثباته ونطقه للشهادتين أكبر دليل على إيمانه إن شاء الله تعالى، ولا أحد ينطق بالشهادة في ذلك الموقف رغبة في الخلق أو رهبة منهم، ولا سيما أن جلاديه من الصفويين يكرهونها منه، ولست أظن أن الله تعالى يوفق عبدًا لنطقها في هذا الموقف العسير، وقلبه لا يؤمن بها، وعمله يخالف مضمونها.

وقد ثبت تغيره -رحمه الله تعالى- من غير وجه، وألف بعض أهل العلم في العراق كتابًا في ذلك قرأته كاملًا، وهو مليء بالحقائق والشواهد على تغير الرجل، بل يجزم أصحاب الكتاب أن تغيره، واتجاهه للدين وأهله هو السبب المباشر لغزو الأمريكان له؛ خشية من خطره عليهم وعلى ربيبتهم إسرائيل.

وأما التعلل بأنه مات على عقيدة حزب البعث؛ فذلك ظن مبني على استصحاب حاله من قبل، ولا يزيل هذا الظن يقين نطقه للشهادتين وختم حياته بها.

ثم إن الشخص قد يكفر بالطاغوت ولا يعلن ذلك لمصلحة تقتضي إخفاء إيمانه كما كان حال مؤمن آل فرعون، وصدام هو رئيس حزب البعث، ولم يبلغ السلطة إلا بواسطته، فليس من الهين أن يعلن كفره به بعد تغيره، وقد ربى الناس على الانتماء إليه ثلاثة عقود، وقد نقل عنه أنه كان يسعى لأسلمة حزب البعث، والقرارات التي فرضها على أعضاء الحزب تؤكد ذلك، كإلزام أفراد الحزب بالصلاة، وحفظ شيء من القرآن وغير ذلك.

فإن قيل: كتمه لإيمانه ظن، وانتماؤه للحزب يقين، واليقين لا يزال بالظن، قيل: وإيمانه بكل مبادئ الحزب مع علمه بها وبموجباتها، ونفي الإكراه والتأويل عنه ظن، واليقين تغيره في آخر حياته، وتوجهه إلى الله تعالى، ومداومته على الصلاة والقرآن بشهادات متواترة، ومشاهدات ظاهرة على شاشات التلفزة، ولا يزال اليقين بالظن.

والرجل قد ينضوي تحت لواء الطاغوت أو حزبه أو منظمته مع عدم إيمانه بكل مبادئه، بل قد يكون انضواؤه لتحقيق مصلحة راجحة، أو دفع مفسدة متأكدة، فهل يكفر بسبب ذلك مع طمأنينة قلبه بالإيمان؟!

وقد ينضوي تحتها ويكون متأولًا لا يرى أن ذلك مناقض لعقيدة التوحيد، أو يكون جاهلًا يعذر بجهله، ومن المعلوم أن الدول الإسلامية كافة قد انضوت تحت المنظمات الدولية بكافة أشكالها؛ لتحقيق مصالح بلدانها، ودفع ضرر المستكبرين عنها، فهل يقال بكفر كل هذه الدول، وكفر كل من يتعامل مع تلك المنظمات الدولية!! =

وَكَمَا أَنَّ فِي حُكْمِ الْفَرِيقِ الأَوَّلِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ فَفِي مَا حَكَاهُ هَؤُلَاءِ أَيضًا حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَبَيْنَ هَذَينِ الرَّأْيَيْنِ المُتَبَايِنَيْنِ آرَاءٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ مُشَرِّقَةٌ وَمُغَرِّبَةٌ، يَضِيعُ كَثِيرٌ مِنَ الحَقِّ فِي ثَنَايَاهَا، وَيَضْرِبُ البَاطِلُ أَوْتَادَهُ فِيهَا.

وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهُ كُلُّ مُسْلِمٍ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُطَالِبُ عَامَّةَ النَّاسِ بِالحُكْمِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَآلَاتِهِمْ؛ لِأَنَّ الحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسُوا مُكَلَّفِينَ بِالخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَحْوَالِ الرِّجَالِ؛ فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِمْ وَجَبَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، وَأَنْ يَتَحَرَّى الْحَقَّ فِيمَا يَقُولُ وَلَوْ كَانَ ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنْ يُخْلِصَ فِي حُكْمِهِ وَقَوْلِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يَبْتَغِي بِذَلِكَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يُرِيدُ نَصْرَ طَائِفَةٍ أَوْ حِزْبٍ، أَوِ النِّكَايَةَ وَالشَّمَاتَةَ بِآخَرِينَ، وَاضِعًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المَائِدَة:٨]، وَقَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٢].

= بل إن المنظمات الإسلامية التي تقوم على الدعوة والإغاثة ونفع المسلمين في أرجاء الأرض تستبق لتسجيل عضويتها في منظمات دولية طاغوتية ظالمة، وتكون تحت مظلتها؛ لتسلم من الملاحقة والحصار والتضييق؛ ولتحفظ لها حقوقها، فهل يقال إن القائمين على هذه المنظمات كفار لإيمانهم بالطاغوت وعدم براءتهم منه؟!

وأيضًا: فصدام من عوام المسلمين، ومن جهلتهم بالعلم الشرعي، ولا علم لديه بأنه يلزمه في توبته الصدع بالكفر بحزب البعث والتبري منه، والذي أراه -والعلم عند الله تعالى- أنه يُصَلّى عليه، ويستغفر له، وترجى له الرحمة.

وأقول أيضًا: لا يجوز الطعن في الشيخ العلامة الجليل بسبب هذه الفتوى؛ لأنه مجتهد ولا يسعه أن يقول إلا ما يدين الله تعالى به، وما نحن -طلبة العلم والدعاة- إلا عيال عليه في العلم، ولن نبلغ مبلغ علمه وعمله وفضله وسابقته، نحسبه كذلك والله تعالى حسيبه، وهو بين أجر وأجرين، واجتهاده حفظه الله تعالى له حظ من الدليل والنظر، وإن لم يوافقه عليه كثير من طلبة العلم، والله أعلم.

لَقَدْ مَرَّتْ بِحَاكِمِ الْعِرَاقِ أَطْوَارٌ وَأَحْوَالٌ جَعَلَتِ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَحْتَارُونَ فِي أَمْرِهِ، فَهُوَ رُبَّانُ حِزْبِ الْبَعْثِ الْكَافِرِ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمُؤْمِنِ بِالعُرُوبَةِ، وَهُوَ فَارِضُهُ عَلَى أَفْرَادِ شَعْبِهِ، وَمَا بَلَغَ الحُكْمَ إِلَّا عَلَى سَيْلٍ مِنَ الدِّمَاءِ، وَأَكْوَامٍ مِنَ الجُثَثِ، ثُمَّ لمَّا حَكَمَ النَّاسَ أَمْعَنَ فِي ظُلْمِهِمْ، وَأَسْكَتَ أَصْوَاتَهُمْ، وَسَارَ سِيرَةَ فِرْعَونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وَكَانَتْ جَرِيمَتُهُ الشَّنْعَاءُ بِخِيَانَتِهِ لِجِيرَانِهِ، وَاجْتِيَاحِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتِحْلَالِ دِمَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، مِمَّا أَوْجَدَ المَعَاذِيرَ لِلدُّوَلِ المُحْتَلَّةِ أَنْ تَضَعَ أَقْدَامَهَا، وَتَنْصِبَ قَوَاعِدَهَا فِي مِنْطَقَةٍ حُرِمَتْ مِنْهَا.

فَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى مِنَ الحَرْبِ وَالحِصَارِ، فَتَغَيَّرَ عَقِبَ ذَلِكَ، وَقَوَّى الدِّينَ وَأَهْلَهُ، وَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا الحُكْمُ عَلَى ظَاهِرِهِ، ثُمَّ ازْدَادَ تَمَسُّكُهُ بِدِينِهِ عَقِبَ أَسْرِهِ، فَمَا فَارَقَهُ مُصْحَفُهُ بِشَهَادَةِ أَعْدَائِهِ قَبْلَ أَصْحَابِهِ، وَظَهَرَ اعْتِزَازُهُ بِدِينِهِ أَثْنَاءَ مُحَاكَمَتِهِ حَتَّى أَحْرَجَ قُضَاةَ الزُّورِ بِثَبَاتِهِ وَعِزَّتِهِ، ثُمَّ كَانَتِ الْخَاتِمَةُ الْحَسَنَةُ بِرَبَاطَةِ جَأْشِهِ -وَالْحَبْلُ عَلَى رَقَبَتِهِ- وَنُطْقِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ قَبْلَ شَنْقِهِ **«وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»**(٦).

وَلمَّا قَتَلَ أُسَامَةُ ﷺ رَجُلًا مِنَ المُشْرِكِينَ بَعْدَ نُطْقِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ أَنْكَرَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَزَعَمَ أُسَامَةُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(٦) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه: أبو داود في الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢) رقم (٢٢١)، والبزار (٢٦٢٦)، وصححه الحاكم (١/ ٥٠٣)، وابن منده في الإيمان (١/ ٢٤٨).

ويشهد له حديث عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»** أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٦).

لِأُسَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

فَنَرْجُو لِحَاكِمِ الْعِرَاقِ بِنُطْقِهِ الشَّهَادَتَيْنِ المَغْفِرَةَ وَالجَنَّةَ، وَلَا نَجْزِمُ لَهُ بِذَلِكَ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَلَا نَجْعَلُ مَاضِيَهُ الْأَسْوَدَ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبُولِ التَّوْبَةِ؛ فَقَدْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَةَ مَنْ هُمْ أَكْثَرُ كُفْرًا وَإِجْرَامًا مِنْهُ، فَنَقَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ كُفَّارٍ فَجَرَةٍ إِلَى مُؤْمِنِينَ بَرَرَةٍ، كَبَعْضِ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ، وَحَارَبُوهُ وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ.

وَقَبِلَ سُبْحَانَهُ تَوْبَةَ مَنْ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ وَهَاجَرَ تَائِبًا إِلَى قَرْيَةٍ مُسْلِمَةٍ، فَقُبِضَتْ رُوحُهُ قَبْلَ بُلُوغِهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَوَسِعَتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَوَلَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ(٨).

وَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لِرَجُلٍ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَمَرَ أَنْ يُحْرَقَ جَسَدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَأَنْ يُنْثَرَ رَمَادُهُ فَتَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، فَلَا يَجْمَعُهُ اللهُ تَعَالَى، فَشَكَّ فِي قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى جَمْعِهِ، وَلَكِنْ مَا حَمَلَهُ عَلَى مَا فَعَلَ إِلَّا خَوْفُهُ مِنْهُ ﷻ، فَغَلَبَ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى شَكَّهُ فِي قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: «**فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ لمَّا جَمَعَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: خَشْيَتَكَ يَا رَبِّ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانُ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مسلم في الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦)، وأبو داود في الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٨٥٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٠٧).

(٨) ينظر خبره في صحيح البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٨٣)، وصحيح مسلم في التوبة، باب توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٤)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

وَلَعَلَّ مَا أَصَابَ حَاكِمَ الْعِرَاقِ مِنْ عَظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَالِابْتِلَاءِ بِخَسَارَةِ عَرْشِهِ، وَقَتْلِ بَنِيهِ وَبَنِيهِمْ، وَتَشْرِيدِ أُسْرَتِهِ، وَسَجْنِهِ وَمُحَاكَمَتِهِ وَقَتْلِهِ، مَعَ تَوْبَتِهِ وَنُطْقِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ . . لَعَلَّ ذَلِكَ مُكَفِّرًا لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ.

وَأَمَّا حُقُوقُ الْعِبَادِ وَدِمَاؤُهُمْ، وَظُلْمُهُ لَهُمْ؛ فَالحُكْمُ فِيهَا لِلْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، وَسَيَقِفُ هُوَ وَخُصُومُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ حَكَمٍ عَدْلٍ لِلْقِصَاصِ، وَاسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

وَالْوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ الَّذِي شَاهَدَ هَذَا المَشْهَدَ أَنْ يَفْرَحَ بِتَوْبَةِ جَبَّارِ الْعِرَاقِ حِينَ تَابَ، وَبِنُطْقِهِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَلَا يَكُونُ كُرْهُهُ لِطُغْيَانِهِ وَأَفْعَالِهِ السَّيِّئَةِ مَانِعًا لَهُ مِنَ الْفَرَحِ بِتَوْبَتِهِ، أَوْ يَتَمَنَّى أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ خُتِمَ لَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ؛ فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ مَحَبَّةُ بَقَاءِ الْكُفْرِ فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَإِرَادَتُهُ مِنْ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى.

وَقَدْ فَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَوْبَةِ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ رَغْمَ أَذَاهُمْ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ ﷺ، وَفَرِحَ ﷺ بِتَوْبَةِ الْغُلَامِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي زَارَهُ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ المَوْتِ، فَدَعَاهُ لِلْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَنقَذَهُ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٠).

وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَفْرَحَ بِإِيمَانِ الْكَافِرِ، وَتَوْبَةِ الْعَاصِي، وَيَتَمَنَّى أَنْ يُخْتَمَ بِالحُسْنَى لِكُلِّ النَّاسِ. كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَخَّى الْعَدْلَ فِي أَحْكَامِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَيَتَجَرَّدَ مِنَ الْهَوَى فِي حُكْمِهِ، وَلَا يَحْكُمَ إِلَّا بِعِلْمٍ، وَلَا يَقُولَ فِي الرِّجَالِ بِالظَّنِّ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن

---

(١٠) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠)، وأبو داود في الجنائز، باب في عيادة الذمي (٣٠٩٥)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٧)، وابن حبان (٢٩٦٠).

قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَخُذُوا مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ أَحْدَاثٍ عِبَرًا؛ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنِ اعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: فِي ضَجَّةِ هَذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ بِمَقْتَلِ زَعِيمٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْعَرَبِ كَانَتْ لَهُ صَوَلَاتٌ وَجَوَلَاتٌ يَهْتَمُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِذَاتِ الْحَدَثِ، وَيَنْشَغِلُونَ بِمُجْرَيَاتِهِ وَتَفَاصِيلِهِ عَنْ دُرُوسِهِ وَعِبَرِهِ، فَيَكُونُ الْحَدَثُ -مَعَ أَهَمِّيَّتِهِ- عَدِيمَ الْفَائِدَةِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ. وَكَمْ مَرَّتْ بِالنَّاسِ مِنْ أَحْدَاثٍ قَلَّ فِي النَّاسِ مَنِ اسْتَفَادَ مِنْهَا، بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَكَثْرَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْمُلْهِيَاتِ؟

وَدُرُوسُ هَذَا الْحَدَثِ الْجَدِيدِ كَثِيرَةٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؛ فَمِمَّا يُسْتَفَادُ مِنْهُ: أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ، وَنِهَايَةَ الظَّالِمِينَ أَلِيمَةٌ، وَلَعَلَّ مَا أَصَابَ حَاكِمَ الْعِرَاقِ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى ظُلْمِهِ أَيَّامَ سَطْوَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَلَرُبَّمَا رَفَعَ مَظْلُومٌ يَدَيْهِ إِلَى رَبِّهِ فِي حَبِيبٍ قَتَلَهُ أَزْلَامُهُ فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَهُ، فَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى.

وَلمَّا نُكِبَ الْبَرَامِكَةُ فِي دَوْلَةِ الرَّشِيدِ الْعَبَّاسِيِّ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِأَبِيهِ -وَهُمْ فِي الْقُيُودِ وَالْحَبْسِ-: يَا أَبَتِ، بَعْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ أَصَارَنَا الدَّهْرُ إِلَى الْقُيُودِ وَلُبْسِ الصُّوفِ وَالْحَبْسِ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بِلَيْلٍ غَفَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ يَغْفُلِ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا(١١).

وَفِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالمُعَاصِرِ عِبَرٌ فِي مَصَارِعِ الظَّالِمِينَ .. تَأَمَّلُوا مَصْرَعَ فِرْعَوْنَ وَأَبِي جَهْلٍ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ وَأَبِي طَاهِرٍ الْقِرْمِطِيِّ، وَفِي التَّارِيخِ المُعَاصِرِ مَاذَا كَانَتْ نِهَايَةُ هِتْلَرَ النَّازِيِّ، وَمُوسُولِينِي الْفَاشِيِّ، وَشَاهْ إِيرَانَ، وَطَاغِيَةِ رُومَانْيَا تشاوشسكُوا، وَطَاغِيَةِ الصِّرْبِ ميليسُوفِتْش، وَغَيْرِهِمْ كَثِيرٌ؟ لَقَدْ طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَظَلَمُوا، ثُمَّ أَذَاقَهُمُ اللهُ تَعَالَى الذُّلَّ فِي الدُّنْيَا.

لَقَدْ زَالُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا، وَيَا وَيْلَهُمْ مِنْ مَظَالِمَ تَنْتَظِرُهُمْ! فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى وِلَايَةً كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً أَلَّا يَغْتَرَّ بِسُلْطَتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَأَنْ يَتَوَخَّى الْعَدْلَ فِي رَعِيَّتِهِ، وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْ سِيَرِ الظَّالِمِينَ وَمَصَارِعِهِمْ أَعْظَمَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ.

وَعَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَلَّا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا؛ فَإِنَّ تَقَلُّبَاتِهَا كَثِيرَةٌ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ ذَاقَ ذُلَّهَا! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَوْجَعَهُ فَقْرُهَا! وَلَقَدْ مَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى حَاكِمِ الْعِرَاقِ ظَهَرَ فِيهَا مَزْهُوًّا أَمَامَ الشَّاشَاتِ، وَالْجُمُوعُ تَحُفُّ بِمَوْكِبِهِ، وَتَطَأُ عَقِبَهُ، وَتَهْتِفُ لَهُ، تَمَنَّى أَثْنَاءَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَكَانَتَهُ، وَحَلَمُوا بِأَمْوَالِهِ وَقُصُورِهِ وَرَفَاهِيَتِهِ، وَلَوْ عَلِمُوا نِهَايَتَهُ لَمَا تَمَنَّى وَاحِدٌ مِنْهُمْ سُلْطَانَهُ، وَلَا غَبَطَهُ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ؛ لِعِلْمِهِ بِالْبُؤْسِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَلَا حَسَدَهُ عَلَى عِزٍّ يَعْقُبُهُ ذُلٌّ؛ وَأَيُّ ذُلٍّ!!

وَقَدْ حُسِدَ قَارُونُ مِنْ قَبْلُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَأَمْوَالِهَا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

---

(١١) أخرجه الخطيب في تاريخه (١٤/ ١٣١).

قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]. وَلَكِنْ مَا أَنْ حَلَّ الْعَذَابُ بِهِ، وَعَلِمُوا عَاقِبَتَهُ حَتَّى نَدِمُوا عَلَى أُمْنِيَّتِهِمْ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ المَالِ وَالنَّعِيمِ كَانَ وَبَالًا عَلَيهِ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

ثُمَّ تَأَمَّلُوا حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يُقَدِّرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مِمَّا يَظُنُّونَهُ شَرًّا لَهُمْ، وَفِيهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ، فَإِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّنَا أَنَّ حَاكِمَ الْعِرَاقِ لَمَّا اكْتَمَلَتْ لَهُ الدُّنْيَا كَانَ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، مُحَارِبًا لِأَوْلِيَائِهِ، مُمَالِئًا لِأَعْدَائِهِ، قَدْ أَسْكَرَتْهُ السُّلْطَةُ عَنْ تَذَكُّرِ رَبِّهِ ﷻ، وَأَغْفَلَهُ المُلْكُ عَنْ مَعْرِفَةِ دِينِهِ، وَلَوْ خُيِّرَ وَقْتَهَا أَنْ يَمُوتَ عَلَى حَالِهِ أَوْ يَفْقِدَ مُلْكَهُ لَاخْتَارَ المَوْتَ.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَضَى عَلَيْهِ مَا لَمْ يَخْتَرْ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ إِذْ كَانَ فِيمَا حَاقَ بِهِ مِنْ عُقُوبَاتٍ وَابْتِلَاءَاتٍ مَعَ الْإِمْدَادِ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَعَدَمِ تَمَكُّنِ أَعْدَائِهِ مِنْ قَتْلِهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ فُرْصَةٌ لِمُرَاجَعَةِ نَفْسِهِ، وَتَفَقُّدِ قَلْبِهِ؛ فَتَغَيَّرَ حَالُهُ فِي الْهَزِيمَةِ وَالْحِصَارِ، ثُمَّ فِي الأَسْرِ وَالذُّلِّ عَنْ حَالِهِ فِي المُلْكِ وَالعِزِّ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يُصَابُ فِي نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ فَيَكُونُ مُصَابُهُ سَبَبًا لِيَقَظَتِهِ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَتَنْبِيهِهِ حَالَ غَفْلَتِهِ، فَيَعُودُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، وَقَدْ كَرِهَ مِنْ قَبْلُ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَقَضَاءَهُ فِيهِ، فَكَانَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ خَيْرًا مِمَّا يَخْتَارُ هُوَ لِنَفْسِهِ، فَاعْرِفُوا حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عُقُوبَاتِهِ وَابْتِلَاءَاتِهِ، وَتَأَمَّلُوا رَحْمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَلُطْفَهُ بِعِبَادِهِ؛ إِذْ يُجْرِي لَهُمُ الخَيْرَ الْعَظِيمَ مِنْ أَبْوَابٍ يَظُنُّهَا الْعِبَادُ شَرًّا مَحْضًا، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا، وَالخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم ..

الفكر والثقافة

٣٦١- تبديل ألفاظ الشريعة (١) تزوير المصطلحات

١٣/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَائِمٌ مَا دَامَ فِي النَّاسِ كُفْرٌ وَإِيمَانٌ، وَبِدْعَةٌ وَسُنَّةٌ؛ فَأَهْلُ الْحَقِّ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ، وَأَهْلُ الْبَاطِلِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ فِي صَرْفِ النَّاسِ إِلَى بَاطِلِهِمْ.

وَالْحَرْبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَدْ تَكُونُ حَرْبًا سِيَاسِيَّةً أَوِ اقْتِصَادِيَّةً أَوْ عَسْكَرِيَّةً، أَوْ ثَقَافِيَّةً فِكْرِيَّةً. وَالْأَخِيرَةُ أَخْطَرُهَا وَأَشَدُّهَا فَتْكًا؛ ذَلِكَ أَنَّ الْحُرُوبَ السِّيَاسِيَّةَ وَالِاقْتِصَادِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ تُوَلِّدُ التَّحَدِّيَ لَدَى الْأُمَمِ، وَتَسْتَنْهِضُ هِمَمَ النَّاسِ

لِلْمُدَافَعَةِ وَالمُقَاوَمَةِ، أَمَّا حُرُوبُ الثَّقَافَةِ وَالْفِكْرِ فَهِيَ تَتَسَلَّلُ إِلَى الْعُقُولِ فَتُتْلِفُهَا، وَإِلَى الْقُلُوبِ فَتُفْسِدُهَا، وَتُدَمِّرُ النَّاسَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

وَمَيَادِينُ الْحُرُوبِ الْفِكْرِيَّةِ كَثِيرَةٌ، وَأَسَالِيبُهَا عَدِيدَةٌ، وَمِنْ أَخْفَاهَا وَأَخْطَرِهَا: تَزْوِيرُ المُصْطَلَحَاتِ، وَتَغْيِيرُ المُسَمَّيَاتِ، وَالْقَذْفُ بِمُصْطَلَحَاتٍ ظَاهِرُهَا حَقٌّ وَبَاطِنُهَا بَاطِلٌ؛ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِهَا، وَبِنَاءِ الْعُقُولِ وَالثَّقَافَاتِ عَلَيْهَا، حَتَّى تَكُونَ أَمْرًا مُسَلَّمًا عِنْدَ النَّاسِ لَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَادِلَ فِيهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرُدَّهُ أَوْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ. وَمِنْ ثَمَّ إِخْضَاعُ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ المُصْطَلَحَاتِ الْحَادِثَةِ، وَتَحْكِيمُهَا فِيهَا؛ لِتُسْتَبْدَلَ أَلْفَاظُ الشَّرِيعَةِ، وَتُعَطَّلَ أَحْكَامُهَا، وَيُبْطَلَ الْعَمَلُ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ تُحَرَّفَ وَتُأَوَّلَ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَارَضُ مَعَ تِلْكَ المُصْطَلَحَاتِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي عُقُولِ أَصْحَابِهَا، وَأَضْحَتْ مِنَ المُسَلَّمَاتِ الَّتِي لَا تُنَاقَشُ.

وَكَانَ الْيَهُودُ -وَلَا يَزَالُونَ- مِنْ أَبْرَعِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْإِضْلَالِ وَالتَّزْوِيرِ، وَتَغْيِيرِ الْأَلْفَاظِ وَالمُصْطَلَحَاتِ؛ لِفَرْضِ بَاطِلِهِمْ، وَإِلْغَاءِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقِّ غَيْرِهِمْ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٤٦]، وَلِذَا خُوطِبُوا فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧١] فَنَهَاهُمْ عَنْ لَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَكِتْمَانِ الْحَقِّ.

«وَلَبْسُهُ بِهِ خَلْطُهُ بِهِ حَتَّى يَلْتَبِسَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ . . . فَإِذَا لَبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَكُونُ قَدْ أَظْهَرَ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ؛ فَالظَّاهِرُ حَقٌّ، وَالْبَاطِنُ بَاطِلٌ»(١).

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩)، والصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنَ التَّلَاعُبِ بِالْمُصْطَلَحَاتِ وَالْمُسَمَّيَاتِ؛ لِإِسْبَاغِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَبْسِهِ بِالْحَقِّ، وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الدَّاءَ سَيَقَعُ فِي النَّاسِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٢].

وَوَقَعَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ؛ إِذْ سَمَّوُا الْخَمْرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَشْرُوبَاتٍ رُوحِيَّةً، وَالرِّبَا فَائِدَةً، وَالرَّقْصَ وَالْخَلَاعَةَ فَنًّا، وَالزِّنَا حُرِّيَّةً جِنْسِيَّةً، وَسَبَّ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبَهُ وَرُسُلَهُ حُرِّيَّةً فِكْرِيَّةً، وَمُحَارَبَةَ الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ وَالْخَيْرِيِّ وَتَجْفِيفَ مَنَابِعِهِمَا مُكَافَحَةَ إِرْهَابٍ، وَرَفْضَ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ حُقُوقَ إِنْسَانٍ، وَهَكَذَا فِي سِلْسِلَةٍ لَا تَكَادُ تَنْتَهِي مِنْ تَزْوِيرِ الْمُصْطَلَحَاتِ، وَتَغْيِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَفَرْضِ هَذَا اللَّبْسِ وَالطَّمْسِ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَوَسَائِلَ مُتَعَدِّدَةٍ.

---

(٢) أخرجه أبو داود في الأشربة، باب في الداذي (٣٦٨٨)، وابن ماجه في الفتن، باب العقوبات (٤٠٢٠)، وأحمد (٥/ ٣٤٢)، وصححه ابن حبان (٦٧٥٨).
وأخرجه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: ابن ماجه في الأشربة، باب الخمر يسمونها بغير اسمها (٣٣٨٤)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة بعبد السلام بن عبد القدوس (٤/ ٤٠)، وقال أبو حاتم: هذا حديث منكر، كما في العلل (١٥٧١).
وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: ابن ماجه في الأشربة، باب الخمر يسمونها بغير اسمها (٣٣٨٥)، وأحمد (٥/ ٣١٨)، وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٣٣)، وقال الحافظ في الفتح: وسنده جيد (١٠/ ٥١).
وأخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: الدارمي (٢١٠٠)، وأبو يعلى (٤٣٩٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ١٦٤) وقال الحافظ في الفتح: بسند لين (١٠/ ٥٢).
وأخرجه عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: النسائي في الأشربة، باب منزلة الخمر (٨/ ٣١٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٧)، والطيالسي (٥٨٦). والظاهر أن الصحابي المبهم هنا هو عبادة بن الصمت رضي الله عنه. وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في الكبير (١١/ ١١٨) رقم (١١٢٢٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٥/ ٥٧).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الطبراني في مسند الشاميين (٤٣٠).

وَقَدْ عَانَى أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُبْتَدِعَةِ؛ إِذْ كَانُوا يُحْدِثُونَ الْمُصْطَلَحَاتِ، أَوْ يَسْتَجْلِبُونَهَا مِنْ ثَقَافَاتٍ أُخْرَى، وَيُلْبِسُونَهَا أَلْبِسَةً شَرْعِيَّةً؛ لِيَجْعَلُوهَا حُجَّةً عَلَى النُّصُوصِ، ثُمَّ يُزَوِّرُونَ الْمُصْطَلَحَاتِ الشَّرْعِيَّةَ لِكَيْلَا تَصْطَدِمَ مَعَهَا، كَمَا فَعَلَ الْفَلَاسِفَةُ وَأَهْلُ الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا لَبْسًا لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ مَعَ كَتْمِ الْحَقِّ لِإِضْلَالِ الْعَامَّةِ، وَالتَّشْوِيشِ عَلَى عَقَائِدِ النَّاسِ وَإِفْسَادِهَا، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي حَكَاهَا اللهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ، وَنَهَاهُمْ عَنْهَا.

وَلِذَا فَإِنَّ إِمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي وَقْتِهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا كَتَبَ رَدَّهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَصَفَهُمْ فِي مُقَدِّمَةِ رَدِّهِ بِقَوْلِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْكِتَابِ، يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ وَفِي اللَّهِ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، يَتَكَلَّمُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يَلْبِسُونَ عَلَيْهِمْ» اهـ(٣).

وَهَذَا الْكَلَامُ الْمُتَشَابِهُ الَّذِي يَخْدَعُونَ بِهِ جُهَّالَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْأَلْفَاظَ الْمُتَشَابِهَةَ الْمُجْمَلَةَ الَّتِي يُعَارِضُونَ بِهَا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتِلْكَ الْأَلْفَاظُ تَكُونُ مَوْجُودَةً مُسْتَعْمَلَةً فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ النَّاسِ لَكِنْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْمَعَانِي الَّتِي قَصَدُوهَا هُمْ بِهَا، فَيَقْصِدُونَ هُمْ بِهَا مَعَانِيَ أُخَرَ فَيَحْصُلُ الِاشْتِبَاهُ وَالْإِجْمَالُ(٤).

وَانْبَرَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِمُوَاجَهَةِ حَمَلَاتِ

(٣) الرد على الزنادقة والجهمية (ص٦)، ونقله عنه ابن تيمية في مواضع كثيرة من كتبه منها: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٦٠)، ودرء التعارض (١/ ١٨ و٢٢٢، و٢/ ٣٠٢، و٥/ ١٦٤)، والنبوات (٥/ ١٦٤).

(٤) درء التعارض (١/ ٢٢٢).

الْمُبْتَدِعَةِ فِي مُحَاوَلَاتِهِمْ إِقْنَاعَ النَّاسِ بِمُصْطَلَحَاتٍ حَادِثَةٍ، وَتَحْكِيمِهَا فِي نُصُوصِ الْوَحْيِ؛ لِإِلْغَاءِ مَعَانِيهَا، وَإِبْطَالِ أَحْكَامِهَا، وَكَانَ لَهُ صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الدَّقِيقِ، وَكُتُبُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مَلْأَى بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْمُهِمِّ، مَعَ التَّأْسِيسِ وَالتَّقْعِيدِ لَهُ.

يَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الَّذِينَ يُعَارِضُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِمَا يُسَمُّونَهُ عَقْلِيَّاتٍ مِنَ الْكَلَامِيَّاتِ وَالْفَلْسَفِيَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِنَّمَا يَبْنُونَ أَمْرَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ مُشْتَبِهَةٍ مُجْمَلَةٍ تَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً، وَيَكُونُ مَا فِيهَا مِنَ الِاشْتِبَاهِ لَفْظًا وَمَعْنًى يُوجِبُ تَنَاوُلَهَا لِحَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَبِمَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ يُقْبَلُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ لِأَجْلِ الِاشْتِبَاهِ وَالِالْتِبَاسِ، ثُمَّ يُعَارِضُونَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ نُصُوصَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مَنْشَأُ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَنَا، وَهُوَ مَنْشَأُ الْبِدَعِ؛ فَإِنَّ الْبِدْعَةَ لَوْ كَانَتْ بَاطِلًا مَحْضًا لَظَهَرَتْ وَبَانَتْ وَمَا قُبِلَتْ، وَلَوْ كَانَتْ حَقًّا مَحْضًا لَا شَوْبَ فِيهِ لَكَانَتْ مُوَافِقَةً لِلسُّنَّةِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ لَا تُنَاقِضُ حَقًّا مَحْضًا لَا بَاطِلَ فِيهِ، وَلَكِنَّ الْبِدْعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ» اهـ(٥).

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُقَرِّرُ وُجُوبَ التَّثَبُّتِ وَالِاسْتِفْصَالِ فِي الْمُصْطَلَحَاتِ قَبْلَ قَبُولِهَا، فَيَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِنَّ الْمُنَاظَرَةَ بِالْأَلْفَاظِ الْمُحْدَثَةِ الْمُجْمَلَةِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِذَا أَثْبَتَهَا أَحَدُ الْمُتَنَاظِرَيْنِ وَنَفَاهَا الْآخَرُ كَانَ كِلَاهُمَا مُخْطِئًا، وَأَكْثَرُ اخْتِلَافِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جِهَةِ اشْتِرَاكِ الْأَسْمَاءِ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَإِذَا رَدَّ النَّاسُ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَالْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ ثَابِتَةٌ فِيهِمَا، وَالْمُحِقُّ يُمْكِنُهُ بَيَانُ مَا يَقُولُهُ مِنَ الْحَقِّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» اهـ(٦).

---

(٥) درء التعارض (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٦) درء التعارض (١/ ٢٣٣).

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَكَلَامِ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ، فَهَذَا يَجِبُ اعْتِبَارُ مَعْنَاهُ، وَتَعْلِيقُ الْحُكْمِ بِهِ؛ فَإِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ بِهِ مَدْحًا اسْتَحَقَّ صَاحِبُهُ الْمَدْحَ، وَإِنْ كَانَ ذَمًّا اسْتَحَقَّ الذَّمَّ، وَإِنْ أَثْبَتَ شَيْئًا وَجَبَ إِثْبَاتُهُ، وَإِنْ نَفَى شَيْئًا وَجَبَ نَفْيُهُ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ حَقٌّ، وَكَلَامَ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ حَقٌّ . . . وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ فَتِلْكَ لَا يَجُوزُ تَعْلِيقُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ عَلَى مَعْنَاهَا إِلَّا أَنْ يَبِينَ أَنَّهُ يُوَافِقُ الشَّرْعَ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تُعَارِضُهَا النُّصُوصُ هِيَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ» اهـ(٧).

وَإِذَا كَانَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدْ عَانَوْا قَدِيمًا مِنْ تَلْبِيسَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَحْرِيفَاتِهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ وَالنِّفَاقِ فِي زَمَنِنَا هَذَا قَدْ عَمِلُوا مَا عَمِلَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَأَخَذُوا عَنْهُمْ كَثِيرًا مِنْ مُصْطَلَحَاتِهِمُ الْمُبْتَدَعَةِ، وَأَحْدَثُوا مُصْطَلَحَاتٍ جَدِيدَةً يَضْرِبُونَ بِهَا الْإِسْلَامَ، وَيَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَلْبِسُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَيُفْسِدُونَ عَقَائِدَهُمْ، وَيُخَرِّبُونَ عُقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ، وَكُلُّ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي ضَلَّ بِهَا مَنْ يُسَمَّوْنَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَلُوكُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَيُسَوِّدُنَّ بِهَا كُتُبَهُمْ وَصُحُفَهُمْ إِنَّمَا أَخَذُوهَا عَنْ نُظَّارِ الْغَرْبِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ، وَسَلَّمُوا لَهُمْ بِهَا عَلَى أَنَّهَا حَقٌّ مَحْضٌ، ثُمَّ حَاكَمُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَيْهَا، فَمَا وَافَقَهَا قَبِلُوهُ، وَمَا عَارَضَهَا رَفَضُوهُ أَوْ تَأَوَّلُوهُ، فَجَعَلُوهَا هِيَ الْأَصْلَ، وَجَعَلُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهَا تَبَعًا، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ مَا أَفْسَدَ كَثِيرًا مِنَ الْعُقُولِ، وَحَرَّفَهَا عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَقْوَالِ الْبَشَرِ وَآرَائِهِمْ، وَتِلْكَ هِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي حَذَّرَنَا مِنْهَا رَبُّنَا

(٧) درء التعارض (١/ ٢٤١).

جَلَّ جَلَالُهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ، وَالْمُوَافَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا إِلَى فَنَاءٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ كَانَتْ حَمْلَةُ تَزْوِيرِ الْمُصْطَلَحَاتِ بِهَذِهِ الْخُطُورَةِ الَّتِي جَعَلَتْ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ يَنْبَرُونَ لَهَا؛ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ مِنْهَا، وَإِبْطَالِ بَاطِلِهَا، وَإِزَالَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ اللَّبْسِ وَالْغُمُوضِ، وَكَشْفِ مَعَانِيهَا لِلنَّاسِ حَتَّى لَا يَغْتَرُّوا بِهَا؛ فَإِنَّهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَشَدُّ خَطَرًا عَلَى النَّاسِ، وَأَمْضَى فَتْكًا بِالْعُقُولِ، وَإِفْسَادًا لِلْقُلُوبِ، وَذَلِكَ مِنْ جِهَاتٍ أَرْبَعٍ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: كَثْرَةُ مَا تُنْتِجُهُ دَوَائِرُ الِاسْتِشْرَاقِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَكَاتِبُ

الِاسْتِخْبَارَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَتَلَقَّفُهَا عَنْهُمْ وُكَلَاؤُهُمْ، وَالْمُسَوِّقُونَ لِبِضَاعَتِهِمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ مُصْطَلَحَاتٌ تُعَارِضُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَتُصَادِمُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَلَازِمُ الْقَوْلِ بِهَا فِيهِ إِبْطَالٌ لِلنُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ، وَتَعْطِيلٌ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ مِثْلِ مُصْطَلَحَاتِ: الْحُرِّيَّةِ، وَالْمُسَاوَاةِ، وَالْحِوَارِ، وَقَبُولِ الْآخَرِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَالتَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وَتَجْدِيدِ الْخِطَابِ الدِّينِيِّ، وَالدَّوْلَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا مُصْطَلَحَاتٌ تُفْرَضُ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ، وَيُرَوَّجُ لَهَا عَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِتُبْنَى عَلَيْهَا عُقُولُ النَّاشِئَةِ وَالشَّبَابِ، وَتُتْلَفُ بِهَا عُقُولُ الْكُهُولِ وَالشُّيُوخِ.

وَالْجِهَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا مُصْطَلَحَاتٌ ظَاهِرُهَا حَقٌّ، وَمَلْمَسُهَا جَمِيلٌ، وَيَرَى أَكْثَرُ النَّاسِ أَنَّ فِيهَا خَلَاصًا لِلْعَالَمِ مِنْ مُشْكِلَاتِ الِاخْتِلَافِ وَالِاحْتِرَابِ وَالِاقْتِتَالِ؛ وَلِذَا سَمِعْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأَلْسُنِ تَلُوكُهَا، وَتَهْتِفُ لَهَا، وَتُنَادِي بِهَا، وَتَدْعُو إِلَيْهَا، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْدَثُوهَا وَرَوَّجُوا لَهَا لَمْ يُرِيدُوا مَا فِيهَا مِنْ مَعَانٍ قَدْ تَكُونُ حَقًّا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مَا فِيهَا مِنْ بَاطِلِهِمْ؛ لِيَجْعَلُوهُ حَكَمًا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مُبْطِلًا لِأَحْكَامِهَا.

وَالْجِهَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ وَالنِّفَاقِ اسْتَطَاعُوا بِمَكْرِهِمْ وَكَثْرَةِ إِلْحَاحِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا تِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْمُبْتَدَعَةَ سَيْفًا مُصْلَتًا عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ، يُرْهِبُونَهُمْ بِهَا، وَيُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ بِسَبَبِهَا، وَيُعَرْقِلُونَهُمْ عَنْ نَشْرِ حَقِّهِمْ، وَهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ. فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَفْرِضُونَ فِيهِ بَاطِلَهُمْ عَلَى النَّاسِ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ؛ فَيَصِمُونَ مَنْ يُعَارِضُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ الْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ،

وَلَا يَقْبَلُونَ الْآخَرَ، وَلَا يَعْرِفُونَ التَّعَايُشَ السِّلْمِيَّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخَوِّفُونَ بِهِ مَنْ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُمْ، أَوْ يَكْشِفُ مُخَطَّطَاتِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةَ.

هَذَا؛ وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مَخْدُوعٍ بِتِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْبَرَّاقَةِ أَنَّ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانٍ جَمِيلَةٍ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكْرٌ عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَلَا حَقَّ لِلضُّعَفَاءِ فِيهِ، وَلَوْ آمَنُوا بِهَا، وَهَتَفُوا لَهَا، وَدَعَوْا إِلَيْهَا؛ فَهَذِهِ الدُّوَلُ الْقَوِيَّةُ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْحِوَارِ، وَتَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَغْزُو فِيهِ بِلَادَهُمْ، فَتَضْرِبُهُمْ وَتَقْتُلُهُمْ وَتَسْتَعْمِرُهُمْ، وَتُدَمِّرُ عُمْرَانَهُمْ، وَتَنْهَبُ ثَرَوَاتِهِمْ وَلَا تُحَاوِرُهُمْ، وَلَا تَرَى لَهُمْ أَيَّ حَقٍّ فِي حِوَارٍ أَوْ حُرِّيَّةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ تَدْعُو إِلَى الْحِوَارِ وَإِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَفِي مَجَالِ حُقُوقِ الْأَطْفَالِ كَانَتْ وَلَا زَالَتِ الْمُنَظَّمَاتُ الدَّوْلِيَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ تَعِيبُ عَلَى دُوَلِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ إِهْدَارَ الطُّفُولَةِ، وَقَتْلَ بَرَاءَتِهَا، وَتُلْقِي الدُّرُوسَ وَالْمَوَاعِظَ فِي ذَلِكَ، وَتَسُنُّ الْقَوَانِينَ الْمُشَدَّدَةَ لِحِفْظِ حُقُوقِ الْأَطْفَالِ، وَضَمَانِ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَتَجْعَلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ مِنْ ضِمْنِ أَوْرَاقِ الضَّغْطِ لِتَحْقِيقِ مَزِيدٍ مِنَ النُّفُوذِ وَالْإِخْضَاعِ لِتِلْكَ الدُّوَلِ الْمُسْتَهْدَفَةِ.

وَلَكِنْ مَا يُنَادُونَ بِهِ مِنْ حَقِّ الطُّفُولَةِ، وَحِفْظِ بَرَاءَتِهَا هُوَ مَقْصُورٌ عَلَى أَطْفَالِهِمْ دُونَ أَطْفَالِ الْعَالَمِينَ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ، وَلَا بَرَاءَةَ فِيهِمْ!!

وَفِي كُلِّ الْأَدْيَانِ وَالْأَعْرَافِ وَالْأَفْكَارِ الْمُعْلَنَةِ، الْحَقِّ مِنْهَا وَالْبَاطِلِ لَا يَسُوغُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْصِدَ طِفْلًا بَرِيئًا بِأَيِّ ضَرَرٍ لِأَيِّ هَدَفٍ كَانَ، وَمُنَظَّمَاتُهُمُ الدَّوْلِيَّةُ تَنُصُّ عَلَى ذَلِكَ، وَتُشَدِّدُ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقَفَ الْعَالَمُ الْغَرْبِيُّ الْمُتَحَضِّرُ بِدُوَلِهِ الْكُبْرَى، وَاتِّحَادِهِ الْأُورُبِّيِّ، وَاسْتَخْدَمَ كُلَّ نُفُوذِهِ، وَأَدَوَاتِ ضَغْطِهِ؛ لِحِمَايَةِ ثُلَّةٍ مِنَ الْمُمَرِّضَاتِ الْمُجْرِمَاتِ قَتَلْنَ بَرَاءَةَ عَشَرَاتِ الْأَطْفَالِ فَحَقَنُوهُمْ بِفَيْرُوسِ الْإِيدْزِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَقَلَّبُ فِي أَوْجَاعِ الْمَرَضِ وَآلَامِهِ، لَا ذَنْبَ لَهُمْ إِلَّا

أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَكُوفِئَ المُجْرِمُونَ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِمْ(٨)، وَبُثَّتِ احْتِفَالَاتُهُمْ عَلَى

(٨) هذا إشارة إلى ما قام به خمس ممرضات بلغاريات وطبيب فلسطيني يعملن في إحدى مستشفيات ليبيا بحقن مئات الأطفال بفيروس الإيدز، عُلم عن أربعمئة وثلاثين طفلًا، منهم خمسون فارقوا الحياه لتلوث دمائهم بهذا الفيروس، وذلك في عام ١٤٢٠ واستمرت محاكمتهم ثماني سنوات، وحكمت عليهم المحكمه بالإعدام، ومع الضغوط الأوربية والأمريكية والدولية ووساطة بعض الدول العربية خفف الحكم إلى السجن المؤبد، ومن ثم اقترحت فرنسا أن ينقل سجنهن من ليبيا إلى بلغاريا، فوافقت ليبيا.
وقبل نزولهم مع الطبيب الفلسطيني من سلم الطائرة في بلغاريا أصدر حاكم بلغاريا عفوًا عنهم، ومنح الطبيب الفلسطيني الجنسية البلغارية، ومن ثم احتجت الحكومة الليبية على ذلك، وما ينفع الاحتجاج وقد أطلقتهم؟! وكوفئ المجرمون على جريمتهم، ونقلت احتفالات استقبالهم في بلغاريا في نشرات الأخبار. والعجيب أن بعض القنوات العربية عبرت عن فرحتها بذلك، وجعلت عنواين الخبر: انتهاء أزمة الممرضات، ونقلت فرحة ذويهن بعودتهن إلى بلغاريا، ولم تنقل معاناة الأطفال الليبيين وأسرهم.
وقد وقفت على مقال مميز للشيخ محمد بن سيف عقب الإفراج عن الممرضات، رأيت إيراده هنا ليستفيد القارئ منه، ويعلم تفاصيل بعض ما جرى في هذه الجريمة المنكرة التي تدمي القلب، والمقال بعنوان: (.... **الضمير الأوربي ذبح أطفالنا**).
سُئل المفكر العظيم ..... عن تفسيره للانهيار الأخلاقي في الغرب، فجحظت عيناه (الجاحظتان أصلًا من شدة الانبهار بالغرب)، وأجاب بدهشةٍ وعَجَب: «أيُّ انهيار أخلاقي؟! ... هذا غلط، الأخلاق ليست هي الجنس ... عندما يدخل الإنسان قصرًا فخمًا أنيقًا فيه كل ما يبعث الانبهار والروعة ثم لا ينظر إلا إلى صندوق الزبالة!!».
ثم أضاف المفكر -ولا زالت عيناه جاحظتين-: «أخلاقهم عالية. الجانب الإنساني عندهم قوي. الجانب الإنساني عندهم رائع إلى أبعد الحدود!» .. «هم ليس عندهم نفاق، لأن ليس عندهم ما يخفونه ... لا يخافون مما يعلنونه حتى يخفوه».
أما مفكر ......، فقد سبق له أن ملأ الدنيا بمعلقات المديح لليبرالية الغربية و«تقدميتها التي تعانق إنسانية الإنسان!».
و........ سبق أن زاد في الغباوة فأعلن أن التسامح المثالي المنشود لا يمكن أن يأتي من جهة الشرق أبدًا، وأعلن أنه سيبقى واقفًا ينتظر أن يتفرغ الغربيون ليشرحوا له دين الإسلام شرحًا «بروتستانتيًّا متسامحًا!». =

. . . .

= هذه المقولات لهذا الثلاثي المستغرب كانت تمر بذاكرتي وأنا أتابع ردة فعل الضمير الغربي وحسه المرهف تجاه جريمة ذاك الطبيب القذر والممرضات البلغاريات التي ارتكبوها بحق أربعمائة وثمانية وثلاثين طفلًا بريئًا، من أجل حفنة دولارات قبضوها لهم من جهة أجنبية.
هم متسامحون!
ليس عندهم نفاق!
الجانب الإنساني عندهم قوي!
تقدميتهم تعانق إنسانية الإنسان!
الجانب الإنساني عندهم رائع إلى أبعد الحدود!
هذا ما اتفقت عليه كلمة شعراء بلاط البيت الأبيض الأمريكي وسيراميك الاتحاد الأوربي.
فما الذي سيقوله الآن أولئك الشعراء الغاوون تعليقًا على هذه الإنسانية الراقية تجاه أطفال ليبيا الأطهار ؟!
أربعمائة وثمانية وثلاثون طفلًا بريئًا جاؤوا للمستشفى طلبًا للدواء، فتُحشا أجسادهم الغضة الطرية الطاهرة بأفتك فيروس ممرض تعرفه البشرية، فيهب الضمير الغربي الإنساني المتسامح مباشرة لا للمطالبة بحقوق أولئك الأطهار، وإنما للدفاع عن قتلتهم المجرمين، بمجرد أن زعم القذافي أن محاكمة ستعاقبهم بالإعدام!
تحركت دول (محور الخير) كلها.
الاتحاد الأوربي يهدد بإعادة النظر في تطبيع علاقاته مع ليبيا إذا نفذت الحكم!
المنظمات الحقوقية تستنكر ... والإعلام يتابع ويحلل ويفسر!
الرئيس الأمريكي يدخل على الخط، ويعلن أن ليبيا إذا نفذت الحكم، فسوف يكون ذلك عقبةً في سبيل خروجها من عزلتها الدولية.
وخلال ذلك كله كان القذافي يرقص على تلك الإيقاعات، ويتفنن في المتاجرة بأرواح أولئك الأطفال الطاهرة، وبعذابات أسرهم المنكوبة.
وبعد ثماني سنوات من المفاوضات التجارية، يقدِّم العقيد للأوربيين عرضه الأخير المتضمن تخفيضات مغرية في قيمة رأس الطفل الليبي. عندها يقنع «الإنسانيون» «المتسامحون» بربحية الصفقة، ثم يوقع الطرفان العقد، ليتنازل العقيد الفذُّ عن عقوبة الإعدام، ولتتحول العقوبة -مؤقتًا- إلى سجن مؤبَّد في سجون بلغاريا وليس ليبيا. وفي =

. . . .

= اليوم نفسه يصل المجرمون إلى بلغاريا فيستقبلهم الرئيس البلغاري بنفسه في المطار، ليعلن من فوره البندَ الثاني من بنود الصفقة، والمتضمن العفو عن المجرمين وإسقاط عقوبة السجن عنهم، فيمضي القتلة مبتسمين مع أهليهم الذين استقبلوهم بالزهور في المطار، وتنتهي القصة، وكأن شيئًا لم يكن!

ثم يأتي دور الرئيس الفرنسي، فيعلن أنه سيتوجه شخصيًّا في اليوم التالي إلى ليبيا لإكمال باقي متعلقات الصفقة. وكانت زوجته قد سبقته إلى هناك للمشاركة في المساومة والمفاوضات قبل التوقيع على العقد. عقد الإنسانية الفريدة!

الإعلام الغربي -بما فيه (قناة العربية)- اجتهد في تغطية فرح البلغار والأوربيين بنهاية الأزمة، متجاهلًا حال الأسر الليبية المفجوعة. بل ربما طُرحت إيحاءات بأن التهمة كلها ملفقة، وأنه لم تكن هناك جريمة أصلًا. مع أن كلَّ عارفٍ بالأمور يدرك أن سيادة العقيد صاحب ثورة الفاتح أعجز من أن يحتجز فأرًا تجري في عروقه الدماء الأوربية ما لم يكن هناك تهمةٌ حقيقيةٌ.

كما أن الأوربيين لديهم من العجرفة والتعالي ما يحول بينهم وبين الدخول في مفاوضات وتنازلات مع سيادة العقيد دون مبرِّرٍ.

السؤال الذي يبرز الآن: هل سيجرؤ شعراء البلاط الغربي بعد هذه الواقعة على الحديث عن «الإنسانية»، و«التسامح» الغربيين؟!

وهل يستطيع أحدٌ منهم أن يذكر لنا من تواريخ الأمم السابقة (المتخلفة) وحشيةً وهمجيةً كهذه التي أهداها لنا الغربيون أصحاب الحضارة الاستثنائية؟!

مذبحة مروِّعةٌ بكل المقاييس، غير أنها مذبحة عصرية حسب الشريعة الغربية الليبرالية الحرة المتسامحة!

مذبحةٍ لم ترتكب بحقِّ جنودٍ في معركةٍ، ولا معارضين سياسيين، ولا «إرهابيين» في تورا بورا، وإنما بحق أطفال في مستشفى!

كما تعاني ابنتي (جود) من أعراض البرد، دخلت الطفلة (هدير) ذات الأربعين يومًا إلى المستشفى الليبي لتعالج التهابًا عاديًّا في الصدر. وبدل أن يُعالجَ صدرها، دسَّتْ الممرضة المتوحشة في وريد رجلها الصغيرة أنبوبًا لتمرير الفيروس القاتل إلى جسدها الندي.

(منى) و(عاشور) أخوان دخلا المستشفى ليعالجا من الحساسية. ثم خرجا يحملان فيروس الإيدز. =

. . . .

= أما (منى) فلا زالت تعاني عذاباتها. وأما (عاشور) فقد توفي بعد أن نقل الفيروس إلى أمه عن طريق الرضاعة.

وملفات القضية تقول: إن هناك ثمانية عشر أمًّا أخريات انتقل لهن الإيدز من أطفالهن عن طريق الرضاعة.

(جمعة رمضان) الذي أعطي حقنة الموت وعمره سنتان، أصبح الآن معاقًا وهو في العاشرة من عمره، ولا زال يعاني من تطورات الفيروس.

(يحيى إدريس) الذي يبلغ الآن سبعة عشر عامًا، يذكر جيدًا ما حدث له تلك الليلة حين كان عمره ثماني سنوات. يقول: كان ذلك في يوم العيد!! كان أكثر الأطباء في إجازة، وفي ظلمة الليل جاءت الممرضة وأخرجت أمي من الغرفة، ثم أحضرت الحقنة!

وتتكرر هذه الصور البشعة أكثر من أربعمائة وثلاثين مرة. والتقارير تقول: إن خمسين طفلًا توفوا إلى الآن، والباقون لا زالوا يعانون آلام الموت البطيء دون جرمٍ ارتكبوه.

وحتى يكتمل القُبح، فإن الممرضات الحقيرات ذكرنَ في التحقيق أنهنّ اخترن الأطفال بالذات لأنهم غير قادرين على الكلام.

فهل هناك «إنسانية» أعظم من هذه يا بليهي؟!

أيُّ قلوبٍ هذه! وأيُّ وحشيةٍ تلبَّستْ أولئك الشياطين!

من كان لديه طفل (ابن أو ابنة، أخ أو أخت) فلينظر إلى براءته وهو يلهو ويلعب ويضحك. ثم ليسرحْ بخاطره متفكرًا: ماذا لو تعرَّض طفلي هذا لمثل تلك الجريمة البشعة؟ عندها سوف يدرك بعض معاناة وآلام مئات الأطفال والأسر في ليبيا. علمًا أن بعض الأطفال المجني عليهم لم يتجاوز عمرهم الثلاثة أشهر، وهم الآن مع أسرهم يعيشون عزلة اجتماعية شديدة بسبب خوف الناس من انتقال العدوى إليهم.

والعجيب أن الإعلام الغربي بضميره الحي، ظل طيلة السنوات التي تلت الجريمة مشغولًا بمعاناة الممرضات مع المحاكم الليبية. وأما الأطفال وأسرهم، فليشربوا من ماء البحر إن لم ترضهم حفنة دولارات ستدفع لهم، ليقتسموها مع قائد ثورة الفاتح!

ماذا لو كان المجني عليهم أطفالًا أوربيين؟

بل ماذا لو كان المجني عليه طفلًا واحدًا يحمل في عروقه دماء الأوربيين الزرقاء؟

بل ماذا لو كان كلبًا أو قطًّا أوروبيًّا تعرض لانتهاك حقوقه؟

في العام ١٤٢٤هـ نشرت الواشنطن بوست خبرًا مفاده أن الأمريكي جيمس أندرو ينتظر =

. . . .

= حكمًا بالسجن المؤبد؛ لأنه قتل كلبًا بطريقة وحشية!
وفي العام الذي يليه نقلت البي بي سي أن محكمة أمريكية حكمت بتعويض مقداره (٤٥٠٠٠) دولار لامرأة، لأن كلب جارتها قتل قطتها.
وفي هلسنكي بفنلندا حكمت محكمة بالغرامة على بائع أسماك؛ لأنه كان يسيء معاملة أسماكه أثناء عرضها للبيع!
وأعجب من هذا كله أن مسلمًا في الثمانينات في بلغاريا نفسها حكم عليه بالسجن خمس سنوات؛ لأنه أجرى عملية ختان لابنه!
واليوم ما يقرب من خمسمائة طفلٍ يُحقن السم القاتل في عروقهم، فلا تتحرك «الإنسانية» الأوربية ولا «العدالة» الأمريكية، ولا يرف لهما جفن. لتبقى حركة الضمير الغربي معلقةً بإنسانية خاصة بعرقهم الأزرق.
الإنسانية الأوربية كلمة تقرأ من اليسار إلى اليمين فقط. أما من اليمين إلى اليسار فلا إنسانية هناك يمكن قراءتها!
أما القذافي فليس أهلًا لأن يشتم؛ إذ ليس في القواميس لغة يمكن أن تنحط لمستواه السافل. وما كنا ننتظر منه أقل من هذه الخيانة.
وأما الطبيب والممرضات فهم من جنس سائر القتلة السفلة والمجرمين الهمجيين الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلًا. لكن ماذا عن حضارة «الإنسانية» و«العدالة» و«حقوق الإنسان»؟!!
أليست هذه الحضارة هي نفسها التي شنقت صدام حسين لأنه قتل (١٤٨) رجلًا في الدجيل بعد أن جرت محاولة لاغتياله هناك؟!!
أليست هذه هي الحضارة التي تصب علينا كلَّ عامٍ تقاريرها عن انتهاكات حقوق الإنسان في بلادنا؟!!
أليست هذه هي الحضارة التي لا زالت تلهج بلعن طالبان وانتهاكاتها لحقوق الإنسان؟!
أليست هذه هي الحضارة التي أشعلت الدنيا غضبًا لهدم أصنام بوذا في باميان؟!
أليست هذه هي الحضارة التي أعلن أحد شياطينها أنها تمثل «نهاية التاريخ» وخاتمة الارتقاء في سلم الإنسانية؟!
أليست هذه هي الحضارة التي باتت تفكر في فرض قوانين وعقوبات لمحاسبة الناس حتى على مشاعر الكراهية؟ =

. . . .

= بالنسبة لي لا جديد في هذه الحادثة سوى دليلٍ آخر يضاف لركام الأدلة على زيف تلك الدعاوى الماكرة وكذبها. وأظن الأمر كذلك بالنسبة للكثيرين.
لكن ماذا عن شعراء البلاط الأمريكي الأوربي؟ هل سيتوقفون عند مثل هذه الحادثة لإعادة النظر في قناعاتهم الساذجة؟!
لست متفائلًا حيال ذلك. فالتجارب تدل على أن هذه النوعية من البشر لن تعتبر، ولن تتحرك فيها شعرة واحدة. بل إن شغفهم بالمدائح (البلاطية) ربما يجعلهم لا يبصرون في هذه القصة كلها سوى جانبٍ واحدٍ، وهو (عناية بلغاريا والدول الغربية بمواطنيها ودفاعها عنهم). وأما سائر جوانب القصة الأليمة فلا أظنهم يتوقفون عندها، ولا يبدو أنها ستغير من قناعاتهم شيئًا إلا أن يشاء الله.
وقد رأينا بعض هؤلاء حين ظهرت فظائع سجن أبي غريب، وضج لها الناس، رأيناهم يتحدثون فقط عن روعة النظام الذي أدى لاكتشاف مثل هذه الممارسات! فمن الواضح أن الغشاوة غطت على أبصارهم، بعد أن ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.
حادثة الأطفال الليبيين ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة. وشعارات إنسانية الحضارة الغربية باتت مكشوفة العورة تمامًا، فهي تغيب دائمًا حين توجد المصالح والدولارات.
وإذا كان الأطفال الليبيون -وبسبب جريمة أوربية- يعانون الآن ويلات الإيدز. فهناك ثمانية وعشرون مليون إفريقي آخر يعانون المرض نفسه. والقيم الغربية «الإنسانية» «الرائعة» لها يدٌ طولى في تعميق هذه المعاناة.
أدوية الإيدز تصنعها في أمريكا شركة (pfizer) وتبيعها بأثمان باهظة تعادل تسعة أضعاف كلفة إنتاجها.
بالمقابل هناك ثلاث دول في العالم (الهند-البرازيل-الأرجنتين) تستطيع تصنيع هذا الدواء وبيعه بثلث السعر الأمريكي. لكن الأمريكيين ظلوا لسنواتٍ يمنعونهم من ذلك بعد أن كبلوهم باتفاقيات منظمة التجارة الدولية. وليذهب الأفارقة إلى مصيرهم المظلم فداءً لقيم الحضارة الغربية الإنسانية الرائعة كما في رواية البليهي!
فما أعظم هذه «الإنسانية»، وما أرقاها؟
هذه «الإنسانية» الفريدة هي التي تحرك قريحة شعراء البلاط، وتهيج مواهبهم لتدبيج الثناء والمديح لمن يتفنن في قتل الشعوب ومص دمائها ودماء أطفالها في سبيل الدولار. ثم يرفع بعد ذلك بكل براءة شعارات «الإنسانية» وقيم «العدالة» و«العالم الحر». =

الْعَالَمِ كُلِّهِ، فِي جَرِيمَةٍ لَسْتُ أَعْلَمُ جَرِيمَةً مُعْلَنَةً فِي حَقِّ الْأَطْفَالِ هِيَ أَبْشَعُ مِنْهَا، فَأَيْنَ هِيَ حُقُوقُ الطُّفُولَةِ الْبَرِيئَةِ وَحِمَايَتُهَا الَّتِي مَا فَتِئُوا يَبْتَزُّونَ غَيْرَهُمْ بِهَا، وَيُعَاقِبُونَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا؟

= حين أسمع أخبار تدخّل «بوش» لمنع معاقبة الممرضات البلغاريات رغم جنايتهن بحق أطفال لا ذنب لهم، أتذكر بكائياته وعباراته التي يكررها دائمًا في خطاباته المنافقة: «إذا ظل الشرق الأوسط، حتى بعد عشرين عامًا من الآن، خاضعًا لسيطرة حكام طغاة ... فإن (أطفالنا وأحفادنا) سيعيشون في عالم يسيطر عليه كابوس الخطر» ... «إذا تراجعنا وسمحنا بوجود حكومات استبدادية ... فسيكون العالم الذي سينمو فيه (أطفالنا) عالمًا عدوانيًا».
انظروا مقدار الشفقة التي يظهرها الفاجر على الأطفال، ثم تذكروا حكمة إبراهيم البليهي حين قال: (هم ليس عندهم نفاق)!!
وإذا كان النفاق يقبح من الضعيف، فهو أقبح وأقبح حين يأتي من القوي.
أذكر قبل سنوات حين هلك الجنرال السفاح (أوغستو بينوشيه) حاكم تشيلي السابق خرج متحدثًا باسم البيت الأبيض يقول: «فترة استبداد أوغوستو بينوشيه شكلت أحد أصعب الفترات في تاريخ هذا البلد (تشيلي)»، ثم قال: «إن قلوبنا تتجه اليوم إلى ضحايا عهده وإلى أسرهم».
هذا ما قاله المتحدث باسم بيت الإنسانية الأبيض، لكن ما لم يقله هو أن بينوشيه وصل للحكم عن طريق انقلاب عسكري مدعوم من الرئيس الأمريكي نيكسون ضد رئيس تشيلي المنتخب. هذا الرئيس المنتخب الذي اختاره شعبه لم يكن «ديكتاتورًا» ولا «إرهابيًا». لكن مشكلته أنه مؤمن بالاشتراكية، وهذا ما اعتبره الأمريكيون جريمةً وكفرًا. فليسقط إذًا الرئيس المنتخب، وليحل مكانه المجرم الطاغية، وليقتل وليخطف وليعذب الآلاف من شعبه. ثم إذا مات بعد سنوات، لا بأس بكلمات أمريكية تتباكي على ضحايا إجرام الجنرال الطاغية!
لاحرج في ذلك كله، فالعالم مليء بالأغبياء الذين سوف يتفهمون موقف العالم الحر، ويكررون ببلاهة: (الغرب ليس عنده نفاق)!
هذه صورة واحدة من ألبوم يحوي المئات من الصور.
والذي يريد الوقوف عليها لا يحتاج للتفتيش في كتب التواريخ.
بل يكفيه فقط أن يتابع الأخبار بعقل واعٍ غير قابل لأن يخدع. وسوف يرى الصورة كاملة أمام عينيه بكل قبحها وبشاعتها. =

إِنَّهَا ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ؛ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ هُنَا مُسْلِمُونَ، وَلَا حَقَّ لِمُسْلِمٍ فِي شَيْءٍ!!

كَانَ اللهُ تَعَالَى فِي عَوْنِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ لَهُمْ إِذْ لَمْ يَنْتَصِرْ لَهُمْ أَحَدٌ؛ فَالْبَشَرُ بَيْنَ ظَالِمٍ وَعَاجِزٍ.

فَمَتَى -يَا عِبَادَ اللَّهِ- يَعِي الْمَخْدُوعُونَ أَنَّ تِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْوَافِدَةَ، وَالشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةَ لَا يُرَادُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْهَا إِلَّا مَا فِيهَا مِنْ بَاطِلٍ؛ لِإِفْسَادِ عَقَائِدِهِمْ، وَإِبْطَالِ شَرِيعَتِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى بَاطِلِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّ مَا فِيهَا مِنْ حَقٍّ فَهُوَ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَلَا نَصِيبَ لِلْمُسْلِمِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢-٣٣].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



= لكن إن كان من شعراء البلاط الغربي فهو يقينًا لن يبصر أمامه إلا صورة جمهورية أفلاطون الفاضلة، وجنة جون لوك الموعودة.

٣٦٢- تبديل ألفاظ الشريعة (٢) مصطلح الآخر

٣/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَوَاسِعِ مَغْفِرَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَتَمَ اللهُ تَعَالَى النُّبُوَّاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَكْمَلَ الدِّينَ بِوَفَاتِهِ، فَمَا فَارَقَ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَّا وَقَدْ كَمُلَ الدِّينُ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ، وَاسْتَقَرَّتِ الشَّرِيعَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُحْكَمَ بِهَا النَّاسُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائِدَة: ٣].

هُوَ دِينُ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ المَصْنُوعَةِ وَالمُحَرَّفَةِ فَهِيَ الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ الَّذِي كَشَفَهُ الْقُرْآنُ، وَحَذَّرَ مِنْهُ، وَأَبْدَأَ فِيهِ وَأَعَادَ، وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْلِمًا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَالتَّسْلِيمِ بِهَا، وَالِانْقِيَادِ لَهَا، وَالْعَمَلِ بِالْآثَارِ النَّاتِجَةِ عَنْهَا.

وَمَنْ شَكَّ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ تَرَدَّدَ فِي قَبُولِهَا، أَوْ ظَنَّ أَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ، أَوْ قَالَ: لَا أَعْلَمُ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَشُكُّ فِي الْإِسْلَامِ، وَيُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يُصَدِّقِ الرَّسُولَ ﷺ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣].

وَلَمَّا كَانَ دِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، كَانَ أَعْدَاؤُهُ هُمْ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَلَا شَكَّ، وَكَانَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْأَفْكَارِ مِنْ سَائِرِ الدِّيَانَاتِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْأَجْنَاسِ أَنْ يُحَارِبُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ حَمَلَةُ الْبَاطِلِ وَحُمَاتُهُ، وَهَذَا الْحَقُّ الْمُتَمَثِّلُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ يَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا بُدَّ مِنْ صَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يُجْذَبُ النَّاسُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ عَرْضِهِ عَلَيْهِمْ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٦].

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مُنْذُ أَنْ جَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِدَعْوَتِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَسَتَظَلُّ الْحَرْبُ قَائِمَةً إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

وَفِي زَمَانِنَا هَذَا وَمَعَ اشْتِدَادِ الْحَمْلَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَالطَّعْنِ فِي رُمُوزِهِ وَشَعَائِرِهِ؛ أَحْدَثَ الْمُبْتَدِعُونَ مُصْطَلَحَاتٍ وَضْعِيَّةً لِتَحُلَّ مَحَلَّ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، الْقَصْدُ مِنْهَا تَمْيِيعُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَضَاءُ عَلَى عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَإِحْلَالُ وَلَاءَاتٍ وَبَرَاءَاتٍ أُخْرَى مَكَانَهَا، تُبْنَى عَلَى عَالَمِ الدُّنْيَا الْمُشَاهَدِ، مَعَ إِلْغَاءِ الْعَالَمِ

الْأُخْرَوِيِّ الْغَيْبِيِّ فِي بِنَاءِ تِلْكَ الْعَلَاقَاتِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَقَصْرِ عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى التَّعَبُّدَاتِ الْمَحْضَةِ الَّتِي لَا شَأْنَ لَهَا بِوَاقِعِ النَّاسِ وَمَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ.

وَمِنْ هُنَا ظَهَرَتْ مُصْطَلَحَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا: التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ، وَالسَّلَامُ الْعَالَمِيُّ، وَالْأُخُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَزَمَالَةُ الْأَدْيَانِ وَتَقَارُبُهَا وَوَحْدَتُهَا، وَإِلْغَاءُ الْأَيْدُلُوجِيَّاتِ، وَمُحَارَبَةُ التَّفْرِقَةِ الْعُنْصُرِيَّةِ عَلَى أَسَاسٍ دِينِيٍّ، وَمَنْعُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ، وَبِنَاءُ الْعَلَاقَاتِ عَلَى أُسُسٍ دُنْيَوِيَّةٍ لَا دِينِيَّةٍ، وَالضَّغْطُ بِهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ الطَّاغُوتِيَّةِ عَلَى الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِتَمْكِينِ الْأَقَلِّيَّاتِ الْبِدْعِيَّةِ وَالْكُفْرِيَّةِ، مِنْ نَصْرَانِيَّةٍ وَبَاطِنِيَّةٍ وَإِلْحَادِيَّةٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَرْحَلَةٍ أُولَى، ثُمَّ تَسْلِيمُهَا فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ -لَوْ نَجَحُوا- زِمَامَ الْأُمُورِ لِتَحْكُمَ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، كَمَا مَكَّنُوا لِبَعْضِ الطَّوَائِفِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ.

وَمِنْ أَشْهَرِ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا عَشَرَاتُ الْمُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ، وَدُبِّجَتْ فِيهَا مِئَاتُ الْكُتُبِ وَالْمَقَالَاتِ، وَامْتَلَأَتْ بِبَحْثِهَا الصُّحُفُ وَالْمَجَلَّاتُ، وَتَنَاوَلَتْهَا بِالْجِدَالِ وَالْمُنَاقَشَةِ الْفَضَائِيَّاتُ وَالْإِذَاعَاتُ: مُصْطَلَحُ الْعَلَاقَةِ مَعَ الْآخَرِ، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ طَارَ فِي الْآفَاقِ، وَانْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَجْرِي عَلَى أَلْسُنِ الْعَوَامِّ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَدْرِي مَنْ هُوَ هَذَا الْآخَرُ؟ وَمَاذَا يُرَادُ مِنَ الْمُسْلِمِ تُجَاهَهُ؟ وَلِمَاذَا ظَهَرَ هَذَا الْمُصْطَلَحُ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ وَمَا هُوَ الْبَيَانُ الشَّرْعِيُّ فِيهِ؟

إِنَّ الْعَقَبَةَ الْكَأْدَاءَ أَمَامَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لِتَغْيِيرِ عَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمِ، وَنَقْلِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْإِلْحَادِ، تَتَمَثَّلُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُوقِنُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَتَطَرَّقُ الشَّكُّ إِلَيْهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَكُلُّ أَخْبَارِهِ أَخْبَارُ

صِدْقٍ وَحَقٍّ، وَإِذَا وَصَفَ الْقُرْآنُ أَقْوَامًا بِوَصْفٍ أَيْقَنَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ فِيهِمْ لَا مَحَالَةَ؛ لِثِقَتِهِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَقِينِهِ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ حَوَتْ آيَاتُ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَفْصِيلَ الْعَلَاقَةِ مَعَ الْآخَرِينَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَمَلَاحِدَةٍ وَمُشْرِكِينَ وَمُنَافِقِينَ، وَكَشَفَتْ حَقَائِقَهُمْ، وَعَرَضَتْ لِتَارِيخِهِمْ، وَبَيَّنَتْ مَوَاقِفَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عليهم السلام.

وَالْمُسْلِمُ يَتَعَبَّدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقِرَاءَةِ تِلْكَ التَّفَاصِيلِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَيَسْتَغْرِقُ جُزْءًا كَثِيرًا مِنْ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ يَسْتَمِعُ إِلَيْهَا مِنْ إِذَاعَتِهِ وَآلَةِ تَسْجِيلِهِ وَإِمَامِ مَسْجِدِهِ، وَهِيَ تُرَسِّخُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ فِي عَقْلِهِ عَنْ مُمَارَسَاتِ وَأَخْلَاقِيَّاتِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَصَرُّفَاتِهِمُ الْمَشِينَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمُعَادَاتِهِمُ الصَّرِيحَةِ لَهُمْ، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا حِيلَةَ لِلْأَعْدَاءِ إِلَّا بِصَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ، وَلَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ كُلِّيَّةً رَغْمَ تَكْثِيفِ وَسَائِلِ الشَّهَوَاتِ وَبَثِّ الشُّبُهَاتِ فِيهِمْ، فَعَمَدُوا قَبْلَ عَامٍ إِلَى فُرْقَانِهِمُ الْمَصْنُوعِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَبَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَحْرِيفِهَا[1]، مَعَ حَذْفِ كُلِّ الْآيَاتِ الْفَاضِحَةِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَنَشَرُوهُ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ لِيَكُونَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ، فَمَا حَفَلَ الْمُسْلِمُونَ بِقُرْآنِهِمْ، وَلَا الْتَفَتُوا إِلَيْهِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةُ ضِمْنَ مُحَاوَلَاتٍ كَثِيرَةٍ لِقَطْعِ الصِّلَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَبَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ بِتَغْيِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَعْلَامًا وَأَوْصَافًا عَلَى الْمُخَالِفِينَ، وَكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْكُفْرِ وَالْكَافِرِينَ، وَالنِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْبِدْعَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ؛ لِيَحُلَّ مَحَلَّهَا: الْمَوْقِفُ

(١) هذا قرآن اخترعه بعض النصارى العرب الموجودين في أمريكا، وكتب بالعربية والإنجليزية، ودمجت ألفاظ وجمل قرآنية ببعض نصوص من الإنجيل المحرف. وقد سبق عرض سوره وبعض آياته وسخافاته في خطبة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فيراجعه من شاء في المجلد (٦) خطبة رقم (٢٢٥).

مِنَ الْآخَرِ، وَالْحِوَارُ مَعَ الْآخَرِ، وَالتَّعَايُشُ مَعَ الْآخَرِ، وَفَهْمُ الْآخَرِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، مَعَ إِبْرَازِ نُصُوصِ التَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ وَالْمُحَاوَرَةِ مَعَهُ، وَإِلْغَاءِ نُصُوصِ مُقَارَعَتِهِ وَجِهَادِهِ وَفَضْحِهِ وَالْإِغْلَاظِ عَلَيْهِ، وَحُجَّةُ مَنْ يَدْعُو إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْجَدِيدِ: وُجُودُ الْمُشْتَرَكَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالتَّرْكِيزُ عَلَيْهَا، مَعَ تَهْوِينِهِمْ مِنْ شَأْنِ الْمُفَارَقَاتِ الدِّينِيَّةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْآخَرِينَ، وَالنَّتِيجَةُ النِّهَائِيَّةُ لِهَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ: إِخْضَاعُ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لِحُكْمِ الطَّاغُوتِ الْمُتَسَلِّطِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ.

إِنَّ هَذَا الْآخَرَ الَّذِي أُرِيدَ لَهُ أَنْ يَكُونَ أَخًا لِلْمُسْلِمِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ قَدْ وُصِفَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٠١]، وَفِي الْمُنَافِقِينَ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [الْمُنَافِقُون: ٤]، فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ اشْتِرَاكَهُ مَعَ الْمُسْلِمِ فِي الْعَيْشِ عَلَى الْأَرْضِ، فَكَذَلِكَ الْحَيَوَانُ يَعِيشُ مَعَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلْ هُوَ أَخُوهُ؟! وَإِنْ كَانَ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ تَكْرِيمَهُ بِالْعَقْلِ، فَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ قَدْ عَطَّلَ عَقْلَهُ وَأَلْغَاهُ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنِ اسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَمْ يَخْضَعْ لِشَرِيعَتِهِ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا يَعْقِلُونَ، وَلَا يَفْقَهُونَ، فَقَالَ عَنِ الْكُفَّارِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧١]، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٦٥]، وَقَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَائِدَةِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ فِي الْحَشْرِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، وَرَمَى ﷻ الْمُنَافِقِينَ بِالْفَسَادِ وَالسَّفَهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣]، وَفِي بَرَاءَةَ: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٧]، وَفِي أُخْرَى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٩٣]، وَفِي سُورَتِهِمْ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُون: ٨].

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْلَغُ فِي شَأْنِ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ قُرِنُوا بِالْحَيَوَانِ، ثُمَّ فَضَّلَ الْقُرْآنُ الْعَجْمَاوَاتِ مِنَ الْحَيَوَانِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي الْفُرْقَانِ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٤]، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ شَرُّ خَلْقِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦].

وَالْبَرِيَّةُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى، فَهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٢٢]، ثُمَّ بَيَّنَ مَنْ هُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٥٥]، وَوَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالنَّجَاسَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التَّوْبَة: ٢٨]، فَهَلْ سَيَرْضَى الْآخَرُ كَافِرًا كَانَ أَمْ مُنَافِقًا أَمْ مُرْتَدًّا بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ فِيهِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا، أَمْ سَيُكَذِّبُ الْمُسْلِمُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَطْرَحُونَهُ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا لِإِرْضَاءِ هَذَا الْآخَرِ؟!

إِنَّ اخْتِرَاعَ مُسَمَّيَاتٍ أُخْرَى لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالْمُرْتَدِّ لَنْ يُغْنِيَ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا،

وَلَنْ يُزِيلَ حَسَدَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَنْ يَدْرَأَ عَدَاوَتَهُمْ عَنْهُمْ، بَلْ سَيَزِيدُهُمْ تَسَلُّطًا إِلَى تَسَلُّطِهِمْ، وَاسْتِكْبَارًا إِلَى اسْتِكْبَارِهِمْ، وَطَمَعًا إِلَى طَمَعِهِمْ فِي تَغْيِيرِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ، إِذَا مَا رَأَوْا فِئَامًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُغَيِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامَهُ لِأَجْلِهِمْ.

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَحَفِظَ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ حُقُوقَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، فَأَهْلُ الْعُقُودِ تُوَفَّى لَهُمْ عُقُودُهُمْ، وَأَهْلُ الذِّمَّةِ وَالْأَمَانِ يُعْطَوْنَ حُقُوقَهُمْ، بَلْ حَتَّى فِي حَالِ الْحَرْبِ مَعَهُمْ يُحْسَنُ إِلَى أَسِيرِهِمْ، وَيُدَاوَى جَرِيحُهُمْ، حَتَّى يَحْكُمَ فِيهِمْ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ حَكَمَ بِقَتْلِهِمْ فَلَا يُعَذَّبُونَ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِمْ، بَلْ تُحْسَنُ قِتْلَتُهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ تَعَدٍّ مِنْهُمْ فَيُفْعَلُ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ بَابِ الْعُقُوبَةِ بِالْمِثْلِ، وَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ. وَيُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيُجَادَلُونَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لَعَلَّهُمْ مِنْ كُفْرِهِمْ يَتُوبُونَ، وَإِلَى رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِ أَخْذًا بِظَاهِرِ حَالِهِ، وَسَرِيرَتُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَيُؤْخَذُ بِهِ عَلَى حَسَبِهِ.

وَالصِّرَاعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ سَيَظَلُّ قَائِمًا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَنْ يُوقِفَهُ تَغْيِيرُ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَاسْتِبْدَالُ الْمُصْطَلَحَاتِ الْوَضْعِيَّةِ بِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الصِّرَاعَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى، وَالْقَوِيُّ فِي هَذَا الصِّرَاعِ سَيُقْصِي الضَّعِيفَ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ؛ كَمَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي التَّارِيخِ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْوَاقِعُ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَالِ الْقُوَّةِ بِالْعَدْلِ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِمْ، فَأَوْلَى لِلْمُسْلِمِينَ التَّمَسُّكُ بِدِينِهِمْ مِنْ إِرْضَاءِ أَعْدَائِهِمْ.

وَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ إِلْغَاءَ هَذَا الصِّرَاعِ الْأَبَدِيِّ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالتَّقْرِيبِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْوَضْعِيَّةِ، بِتَغْيِيرِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلْغَاءِ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَإِحْلَالِ أُخْرَى مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ مَحَلَّهَا، مَا هُمْ إِلَّا مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِطَبِيعَةِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يَعْرِفُونَ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَلَوْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَلَوْ وَطِئَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، وَلَمَّعَهُمْ مُرِيدُوهُمْ فِي إِعْلَامِهِمْ.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ، وَالْإِخْبَارِ بِهِ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَتَمَنَّى إِشْعَالَ الصِّرَاعِ الْحَضَارِيِّ -وَإِنْ كَانَ فِي وَاقِعِ الْحَالِ مُشْتَعِلًا، وَيَزْدَادُ اضْطِرَامًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ- لِأَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْطَلِقُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَقَالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

---

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٨]

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ يُنْهَى عَنْ تَزْيِيفِ الْحَقَائِقِ، وَتَغْيِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّلَاعُبِ بِأَحْكَامِ الدِّينِ؛ لِتَخْدِمَ الْأَفْكَارَ الْوَضْعِيَّةَ الْهَدَّامَةَ، وَتُوَافِقَ الْقُلُوبَ الْمَفْتُونَةَ، وَتُسَايِرَ الْوَاقِعَ الضَّاغِطَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؛ فَهُوَ كَذَلِكَ مَنْهِيٌّ عَنْ تَوْظِيفِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ تَوْظِيفًا خَاطِئًا يَخْدِمُ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، وَيُقْدِمُ عَلَى تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِلَا دَلِيلٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالشُّبْهَةِ، وَرُبَّمَا الِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ.

وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: نَكْثُ الْبَيْعَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمُنَازَعَةُ السُّلْطَانِ فِي سُلْطَانِهِ، وَالْخُرُوجُ الْمُسَلَّحُ عَلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتِهْدَافُ أَمْنِ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِصَادِهِمْ(٣)، وَقَصْدُ الْمَعْصُومِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْفَسَادِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُمَكِّنُ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَا يُسَرُّ بِهِ إِلَّا أَعْدَاءُ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ، وَآثَارُهُ شَنِيعَةٌ مَقِيتَةٌ، وَعَوَاقِبُهُ أَلِيمَةٌ وَخِيمَةٌ، وَهُوَ بَابٌ مِنَ الْفِتْنَةِ عَرِيضٌ، لَا يَلِجُهُ أَحَدٌ ثُمَّ يَسْلَمُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَالتَّارِيخُ مَلِيءٌ بِالْعِبَرِ فِي ذَلِكَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعِصْمَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنْ عُمُومِ الْإِفْسَادِ، فَكَيْفَ بِقَصْدِ التَّخْرِيبِ فِي

(٣) هذه إشارة إلى ما حصل هذا الأسبوع من محاولة بعض المطلوبين أمنيًّا تفجير مصفاة بقيق النفطية، ولكنهم فشلوا بحمد الله تعالى.

بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ، وَمَنْبَعِ الرِّسَالَةِ.

وَمَهْمَا سَوَّغَهُ الْمُسَوِّغُونَ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ الْمُسْتَدِلُّونَ، وَاعْتَذَرَ لَهُ الْمُعْتَذِرُونَ فَهُوَ فِعْلٌ آثِمٌ، وَإِفْسَادٌ ظَاهِرٌ، لَا يَسَعُ مُسْلِمًا إِلَّا أَنْ يَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَسْوِيغِهِ، فَضْلًا عَنِ الْمُوَافَقَةِ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ.

وَلَأَنْ يَصْبِرَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَنْكِيلِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَاحْتِلَالِ بُلْدَانِهِمْ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَنْزِعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَيُفَارِقَ الْجَمَاعَةَ، ثُمَّ يَعِيثَ فَسَادًا وَتَخْرِيبًا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ؟ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ يَقُولُ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٤]، وَعَنِ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٥].

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَهْدِيَ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْبِتَ الْمُفْسِدِينَ. اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ وَالْمُسْلِمِينَ بِسُوءٍ فَاشْغَلْهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



(٤) أخرجه البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام (٦٧٧٤)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٧٠٩).

(٥) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون بعدي أمورًا تنكرونها (٦٦٤٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٩).

٣٦٣- تبديل ألفاظ الشريعة (٣) التعايش السلمي

١٠/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَنَا الْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَصَرَفَتْهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَلَّتْ لَهُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ ﷻ فِي عِبَادِهِ أَنِ ابْتَلَاهُمْ بِالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَجَعَلَهُمْ حِزْبَيْنِ، فَحِزْبٌ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ أَعْدَاءُ الشَّيْطَانِ، وَحِزْبٌ آخَرُ هُمْ أَعْدَاءُ الرَّحْمَنِ، أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ. وَكَلَّفَ سُبْحَانَهُ أَوْلِيَاءَهُ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحَارِبُونَ أَوْلِيَاءَهُ ﷻ.

إِنَّهُمَا فَرِيقَانِ: فَرِيقُ حَقٍّ، وَفَرِيقُ بَاطِلٍ، وَجُنْدَانِ: جُنْدُ الرَّحْمَنِ، وَجُنْدُ الشَّيْطَانِ، هَكَذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى؛ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِلْبَشَرِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: ٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ٨]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٠]، وَفِي آيَةٍ رَابِعَةٍ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَى: ٧].

وَكَانَ ﷻ -وَلَا يَزَالُ- قَادِرًا عَلَى جَعْلِ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَعَلَى هِدَايَتِهِمْ كُلِّهِمْ لِلْإِيمَانِ، وَمُجَانَبَتِهِمْ لِلْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ النَّافِذَةَ، وَحِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ تَأْبَى ذَلِكَ؛ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجْدَة: ١٣]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٥]، وَفِي رَابِعَةٍ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُود: ١١٨، ١١٩].

بَلْ بَيَّنَ ﷻ أَنَّ الْهِدَايَةَ لَهُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ مَهْمَا عَمِلُوا عَلَى هِدَايَةِ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَلَنْ يَهْتَدِيَ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٣].

وَخَاطَبَ رَسُولَهُ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ بِهَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يُونُس: ٩٩، ١٠٠]، وَفِي أُخْرَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الْقَصَص: ٥٦]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الْمَائِدَة: ٤١]، وَفِي رَابِعَةٍ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النَّحْل: ٣٧]، وَفِي خَامِسَةٍ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النَّمْل: ٨١].

وَبِسَبَبِ هَذَا الِاخْتِلَافِ وَالتَّمَايُزِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَانَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالِاحْتِرَابُ وَالْقِتَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٧٦]، وَيُخَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ يُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٠١].

حَقَائِقُ نَاصِعَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ، وَآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مُحْكَمَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ وَبَيَانٍ، نَزَلَتْ مِنْ لَدُنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ يُخْبِرُنَا فِيهَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ طَبِيعَةِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَنَّهُ صِرَاعٌ عَلَى الدِّينِ، لَا عَلَى الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَنَّهُ دَائِمٌ مَا دَامَ عَلَى الْأَرْضِ كُفَّارٌ وَمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَزَالُونَ جَادِّينَ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ لَوِ اسْتَطَاعُوا، وَأَنَّهُمْ مُتَفَانُونَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ، وَمُسْتَمِيتُونَ فِي جَعْلِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ سُفْلَى، وَيَأْبَى اللهُ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يُتِمَّ دِينَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا؛ وَذَلِكَ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَأْيِيدِهِمْ بِجُنْدِهِ، وَدَحْرِ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٧]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢، ٣٣]، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

وَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ قَدْ فَعَلُوا بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا فَعَلُوا مِمَّا قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا خَبَرَهُ فِي الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي هَذَا الزَّمَانِ؟! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ [إبْرَاهِيم: ١٣]،

وَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ قَالُوا لَهُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأَعْرَاف: ٨٨]، وَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام تَآمَرُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النَّمْل: ٥٦].

وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى الشَّرِّ، وَتَوَاصَوْا بِالْبَاطِلِ، وَتَمَالَئُوا عَلَى النَّيْلِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ ابْنُ قَبِيلَتِهِمْ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيهِمْ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإِسْرَاء: ٧٦].

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ الَّذِي قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، مِنْ دَوَامِ عَدَاوَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينِ آمَنُوا، وَأَنَّهَا عَدَاوَةٌ دِينِيَّةٌ لَا دُنْيَوِيَّةٌ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُخْدَعَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَكْبَرِ خُدْعَةٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَهِيَ خُدْعَةُ التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ.

إِنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَنْتَفِيَانِ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ مُحَالًا؛ إِذْ فِي الزَّعْمِ بِإِمْكَانِ اجْتِمَاعِهِمَا وَتَآلُفِهِمَا وَتَعَايُشِهِمَا تَكْذِيبٌ لِمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ دَيْمُومَةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَنَفْيٌ لِتَارِيخٍ طَوِيلٍ مِنْ تَنَازُعِهِمَا وَاحْتِرَابِهِمَا، وَفِي الزَّعْمِ بِانْتِفَائِهِمَا تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَخْبَرَ بِبَقَائِهِمَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَتَعْطِيلٌ لِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ابْتِلَاءِ الْبَشَرِ وَامْتِحَانِهِمْ بِبَقَائِهِمَا.

وَأَمَّا التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَتْبَاعِ الْبَاطِلِ فَغَيْرُ وَاقِعٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، وَلَا هُوَ مُمْكِنٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مَأْمُورُونَ بِنَشْرِ الْحَقِّ وَنَصْرِهِ، وَالْقَضَاءِ بِهِ عَلَى الْبَاطِلِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ مَدْفُوعُونَ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى نَشْرِ بَاطِلِهِمْ وَنَصْرِهِ، وَالْقَضَاءِ بِهِ عَلَى الْحَقِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْضَعَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ لِلْآخَرِ،

وَفِي حَالِ خُضُوعِ أَنْصَارِ أَحَدِهِمَا، وَهَيْمَنَةِ أَنْصَارِ الْآخَرِ يَسُودُ هُدُوءٌ يُسَمِّيهِ الْجَاهِلُونَ تَعَايُشًا سِلْمِيًّا، وَهُوَ خُنُوعٌ وَضَعْفٌ أَصَابَ أَنْصَارَ أَحَدِهِمَا لِحِسَابِ أَنْصَارِ الْآخَرِ.

فَإِنْ كَانَ الضَّعْفُ قَدْ أَصَابَ أَنْصَارَ الْحَقِّ لِحِسَابِ جُنْدِ الْبَاطِلِ كُفَّارًا كَانُوا أَمْ مُبْتَدِعَةً ضُلَّالًا؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ وَالْخَوْفَ يَسُودُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي سَادَ فِيهَا الْبَاطِلُ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ بَرِيئَةٌ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ وَجُنْدِهِ؛ كَمَا حَصَلَ فِي أَزْمَانِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَالِاجْتِيَاحِ التَّتَرِيِّ، ثُمَّ الِاسْتِعْمَارِ بِشِقَّيْهِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَكَمَا وَقَعَ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ الْبَاطِنِيِّينَ لَمَّا تَمَكَّنُوا فِي بَعْضِ دِيَارِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَكَمَا يَقَعُ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتِ الْغَلَبَةُ فِيهِ لِصَهَايِنَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ.

بَلْ إِنَّ التَّارِيخَ يُثْبِتُ أَنَّ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فِي حُرُوبٍ عَقَائِدِيَّةٍ شَرْقِيَّةٍ وَغَرْبِيَّةٍ خَلَّفَتْ دُمُوعًا وَدَمَارًا، وَأَفْنَتْ بَشَرًا كَثِيرًا.

وَأَمَّا إِنْ كَانَتِ الدَّائِرَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ فَإِنَّ الْعَدْلَ وَالْأَمْنَ يَسُودُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي سَادَ الْحَقُّ فِيهَا؛ كَمَا وَقَعَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا فَتَحُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَحَكَمُوا بَيْنَ الْعِبَادِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَالرَّحْمَةُ، وَبِشَهَادَةِ الْكُفَّارِ مِنَ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَاللَّاتِينِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَيَّامَ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَ أَعْدَلَ فِيهِمْ وَأَرْحَمَ بِهِمْ مِنْ حُكْمِ مُلُوكِهِمْ وَأَبَاطِرَتِهِمْ، وَمَا نَعِمَتْ كَثِيرٌ مِنْ شُعُوبِهِمْ بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ إِلَّا لَمَّا تَفَيَّأَتْ ظِلَالَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَفْرَادِهِمْ يَهْرُبُونَ مِنْ ظُلْمِ مُلُوكِهِمْ إِلَى عَدْلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَدُونَ الْمُكَذِّبِينَ وَالْمُشَكِّكِينَ فِي ذَلِكَ كَمٌّ كَبِيرٌ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ، وَشَهَادَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ.

إِنَّ مُصْطَلَحَ التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بَلْ فِيهِمَا مَا يُنَاقِضُهُ وَيُبْطِلُهُ، وَلَا وَقَعَ عَمَلِيًّا فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَلَا الْمُعَاصِرِ، وَإِنَّمَا تَمَّ سَكُّ هَذَا الْمُصْطَلَحِ فِي أَرْوِقَةِ السِّيَاسَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ صُدِّرَ لِلْمُسْلِمِينَ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً[1] عَقِبَ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ فِي حَرْبِ الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ إِدْخَالِ النِّفْطِ سِلَاحًا فِي الْحَرْبِ؛ فَاخْتَرَعَ الصَّهَايِنَةُ هَذَا الشِّعَارَ وَرَفَعُوهُ لِتَخْفِيفِ الضَّغْطِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، فَحَصَلَ لَهُمْ مَا أَرَادُوا[2]، ثُمَّ صَارَ سِلَاحًا يَسْتَخْدِمُونَهُ إِذَا رَأَوْا أَنَّ الْمَعَارِكَ لَيْسَتْ فِي صَالِحِهِمْ.

وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ تَمَّ تَطْوِيرُ هَذَا الْمُصْطَلَحِ الْحَادِثِ، وَتَحَوَّلَ إِلَى دَعْوَةٍ فِكْرِيَّةٍ، لَهَا امْتِدَادٌ عَقَدِيٌّ يَسْعَى بِجِدٍّ لِنَشْرِ الْإِلْحَادِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ بِالسَّمَاحِ لِلْمُرْتَدِّينَ بِإِظْهَارِ رِدَّتِهِمْ، وَتَمْكِينِ الْمُنَصِّرِينَ مِنَ الْعَمَلِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَضَاءِ عَلَى عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَادِّعَاءِ أَنَّ الْحَقَّ خَفِيٌّ، وَأَنَّ الْأَدْيَانَ قَدْ فَرَّقَتِ الْبَشَرَ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ إِلَّا قَبُولُ أَهْلِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، بَلْ إِخْضَاعُ الْحَقِّ لِبَاطِلِهِمُ الْإِلْحَادِيِّ، وَكُلُّ هَذَا الضَّلَالِ يَجْرِي تَرْوِيجُهُ وَنَشْرُهُ، وَالدِّعَايَةُ لَهُ تَحْتَ مُسَمَّى: «التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ» الَّذِي مَا رَأَيْنَاهُ إِلَّا قَيْدًا قُيِّدَ بِهِ أَهْلُ الْحَقِّ عَنْ نَشْرِ حَقِّهِمْ، وَالْمُطَالَبَةِ بِمَا يَجِبُ لَهُمْ، وَرَدِّ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَكَانَ هَذَا الشِّعَارُ عَوْنًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فِي نَشْرِ بَاطِلِهِمْ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اغْتَصَبُوهُ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَحُقُوقِهِمْ؛ لِيَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي ظِلِّهِ، وَيَخْدَعُوا بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْطَلِقُونَ إِلَى ظُلْمٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ الِاسْتِعْدَادِ الْجَيِّدِ، وَتَخْدِيرِ

---

(١) على الخطيب أن ينتبه للتاريخ، ويحسب السنوات بما يوافق سنته التي هو فيها؛ لأن عدد السنوات هذا صحيح هذه السنة ١٤٢٧هـ.

(٢) ينظر: تسامح الغرب لعبد اللطيف الحسين (٣٨-٥٣)، والحوار العربي الأوربي، أحمد صوتي الدجاني (١)، والتعايش السلمي لهيو كتسكل (٣).

المُسْلِمِينَ، وَهَكَذَا رَأَيْنَا فِيمَا عِشْنَا مِنْ سَنَوَاتٍ مَاضِيَةٍ.

إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَمَرَ بِالتَّعَامُلِ مَعَ المُخَالِفِينَ كُلٌّ بِحَسَبِ فِعْلِهِ وَجَرِيرَتِهِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا بَخْسٍ وَلَا تَعدٍّ؛ فَالمُحَارِبُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ لَهُمُ الْحَرْبُ وَالْقِتَالُ بِمَا يَدْفَعُ شَرَّهُمْ، وَيُزِيلُ خَطَرَهُمْ، وَيَكْسِرُ شَوْكَتَهُمْ. وَأَمَّا المُسَالِمُونَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْأَمَانَ، وَقَدْ قَبِلُوا بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَهُمُ الْحِمَايَةُ وَالذِّمَّةُ وَالْأَمَانُ، تُوَفَّى لَهُمْ عُهُودُهُمْ، وَتُبْذَلُ لَهُمْ حُقُوقُهُمْ، لَا يَظْلِمُونَ وَلَا يُظْلَمُونَ، مَعَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَالْبِرِّ فِيهِمْ، وَتَأْلِيفِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ لَعَلَّهُمْ يُسْلِمُونَ.

وَأَمَّا المُنَافِقُونَ فَإِنْ أَظْهَرُوا رِدَّتَهُمْ عُومِلُوا مُعَامَلَةَ المُرْتَدِّينَ، وَإِنْ أَخْفَوْهَا عُومِلُوا مُعَامَلَةَ المُسْلِمِينَ، وَوُكِلَتْ سَرَائِرُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ مُصْطَلَحَاتٌ مَائِعَةٌ، وَلَا شِعَارَاتٌ بَرَّاقَةٌ خَادِعَةٌ، وَلَا يَحْتَاجُ المُسْلِمُونَ لِمَنْ يُكْمِلُ لَهُمْ نَقْصًا فِي دِينِهِمْ، أَوْ يَدُلُّهُمْ عَلَى خَيْرٍ أَغْفَلَتْهُ نُصُوصُهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا قَبَضَ رَسُولَهُ ﷺ إِلَّا وَقَدْ أَكْمَلَ دِينَهُ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ ﷺ هَذَا الدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَلَا تُخْدَعُوا بِشِعَارَاتِ أَعْدَائِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا كَلَّفَ الْعِبَادَ أَنْ يُغَيِّرُوا الْوَاقِعَ وَهُمْ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُمْ بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَمْ يَكْتَفِ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِقُوَّتِهِمُ الْمَادِّيَّةِ فِي حَرْبِهِمْ لِأَهْلِ الْحَقِّ، بَلْ عَمَدُوا إِلَى التَّزْوِيرِ وَالْخِدَاعِ بِالْقَذْفِ بِهَذِهِ الشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ لِيَتَلَقَّفَهَا الْمَخْدُوعُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَيَظُنُّوا أَنَّ الْخَلَاصَ سَيَكُونُ بِهَا، فَيَثِقُونَ فِيهَا أَعْظَمَ مِنْ ثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ تَمَسُّكِهِمْ بِدِينِهِمْ، وَيُنَافِحُونَ عَنْهَا أَشَدَّ مِنْ مُنَافَحَتِهِمْ عَنْ حُقُوقِهِمْ، ثُمَّ مَا يَلْبَثُونَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَتَبَيَّنُوا أَنَّهَا كَانَتْ شِعَارَاتٍ كَاذِبَةً، وَأَمَانِيَ خَادِعَةً، قَذَفَ بِهَا الْأَعْدَاءُ إِلَيْهِمْ لِيَخْدَعُوهُمْ لَيْسَ غَيرَ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا عَلِمُوا وَلَكِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ فِيهَا أَمَلَ الْمَرِيضِ الْهَالِكِ فِي الْمُسَكِّنَاتِ الَّتِي تُسَكِّنُ أَلَمَهُ وَلَا تُزِيلُ مَرَضَهُ، بَلْ رُبَّمَا زَادَتْهُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِهِ.

إِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَدْعُونَ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ وَهُمْ لَا يَزَالُونَ جَادِّينَ فِي إِنْتَاجِ الْأَسْلِحَةِ الْمُدَمِّرَةِ، وَافْتِعَالِ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ، وَزِيَادَةِ مِيزَانِيَّاتِ التَّسَلُّحِ، وَإِجْرَاءِ التَّجَارِبِ النَّوَوِيَّةِ، وَالسَّعْيِ فِي نَزْعِ أَسْلِحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمُرَاقَبَتِهِمْ وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانُوا يَنْوُونَ التَّعَايُشَ السِّلْمِيَّ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَلِأَيِّ حَرْبٍ هَذَا السِّلَاحُ كُلُّهُ؟!

إِنَّهُمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَدْعُونَ فِيهِ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ يَقْتُلُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيُدَمِّرُونَ بُلْدَانَهُمْ بِوَحْشِيَّةٍ بَالِغَةٍ، وَهَمَجِيَّةٍ لَا يَتَخَيَّلُهَا إِنْسَانٌ، وَيُلْقُونَ

قَنَابِلَهُمُ المُدَمِّرَةَ الَّتِي لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مُقَاتِلٍ وَغَيْرِ مُقَاتِلٍ، وَرَأَيْنَا صُوَرًا مِنْ تَعَايُشِهِمُ السِّلْمِيِّ فِيمَا أَقَامُوهُ مِنْ حُرُوبٍ وَغَزْوٍ لِبُلْدَانِ المُسْلِمِينَ، وَنَقَلَتْ عَدَسَاتُهُمْ قَبْلَ أَيَّام صُوَرًا لِأَطْفَالٍ يَهُودٍ يَكْتُبُونَ عَلَى صَوَارِيخِهِمْ وَقَنَابِلِهِمْ رَسَائِلَ لِأَطْفَالِ لِبْنَانَ يَقُولُونَ فِيهَا: «مُوتُوا مَعَ كُلِّ الْحُبِّ، مُوتُوا بِسَلَامٍ».

وَفِي رِسَالَةٍ أُخْرَى كَتَبَتْ صَبِيَّةٌ يَهُودِيَّةٌ: «صَدِيقِي اللُّبْنَانِيَّ: وَاثِقَةٌ جِدًّا أَنَّكَ سَوْفَ تَسْمَعُ رِسَالَتِي قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَهَا؛ فَهِيَ قَوِيَّةٌ إِلَى حَدِّ الشَّلَلِ، وَمُدَوِّيَةٌ إِلَى حَدِّ التَّمَزُّقِ، أَشْتَاقُ إِلَيْكَ كَثِيرًا، كُنْ بِالْقَبْرِ»(٣)، وَصَدَقَتْ هَذِهِ الصَّبِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ فِيمَا كَتَبَتْ؛ إِذْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْقَنَابِلُ عَلَى أَهْلِ قَانَا فِي لِبْنَانَ، فَأَوْرَدَتْ كَثِيرًا مِنْ أَطْفَالِهِمْ مَقَابِرَهُمْ(٤).

وَمِنْ صُوَرِ تَعَايُشِهِمُ السِّلْمِيِّ مَعَنَا أَنَّ مَجْلِسَ حَاخَامَاتِهِمْ فِي فِلَسْطِينَ المُحْتَلَّةِ قَدْ دَعَا الْحُكُومَةَ الْيَهُودِيَّةَ إِلَى إِصْدَارِ الْأَوَامِرِ بِقَتْلِ المَدَنِيِّينَ فِي لِبْنَانَ وَغَزَّةَ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ التَّوْرَاةَ تُجِيزُ قَتْلَ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ فِي زَمَنِ الْحَرْبِ(٥).

وَأَمَّا أَذْنَابُهُمْ مِنْ بَنِي جِنْسِنَا فَكَمْ مَلَئُوا الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ دَاعِينَ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وَنَبْذِ الْعَصَبِيَّةِ لِلدِّينِ، ثُمَّ مَا رَأَيْنَاهُمْ يَتَعَايَشُونَ هُمْ سِلْمِيًّا مَعَ مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ؛ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ المُحَارِبِينَ لَهُمْ، يَسْخَرُونَ مِنْ دِينِهِمْ، وَيُحَرِّضُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَيْهِمْ، وَيَدُلُّونَ عَلَى عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ، وَلَا يَقْبَلُونَ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤَدْلَجًا لِخِدْمَةِ الْأَعْدَاءِ مِثْلَهُمْ، حَتَّى سُمُّوا

(٣) بثت هذه الرسائل في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية، وعرضت صور الصبايا اليهوديات وهن يكتبن هذه الرسائل على الصواريخ والقذائف.

(٤) هذا إشارة إلى المذبحة التي قضى فيها جمع كثير من أهل قانا أكثرهم أطفال ونساء جراء القصف الإسرائيلي عليهم.

(٥) نشر هذه الفتوى مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية على الشبكة العالمية.

بِالمَارِينْزِ الْعَرَبِ مِنْ شِدَّةِ تَفَانِيهِمْ فِي حَرْبِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ، وَخِدْمَتِهِمْ لِأَعْدَائِهِمْ، فَيَا لَهُ مِنْ تَعَايُشٍ سِلْمِيٍّ نَطَقُوا بِهِ، وَدَعَوْا غَيْرَهُمْ إِلَيْهِ! وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ظُلْمِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

تِلْكُم يَا عِبَادَ اللَّهِ حَقِيقَةُ هَذِهِ الدَّعَاوَى الَّتِي لَا يُصَدِّقُهَا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مُسْكَةَ عَقْلٍ، فَضْلًا عَنْ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ يَرَى أَنَّ الْأَحْدَاثَ تُكَذِّبُهَا، وَيَرَى أَنَّ تِلْكَ الشِّعَارَاتِ أَضْحَتْ مِنْ أَسْلِحَةِ الْأَعْدَاءِ يَسْتَخْرِجُونَهَا مَتَى أَرَادُوا الْمُنَاوَرَةَ وَالْخِدَاعَ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا يُلْدَغُ مُؤْمِنٌ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، وَقَدْ لُدِغَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ جُحُورِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ، فَمَتَى يَسْتَفِيقُونَ؟!

وَلَا خَلَاصَ لِأَهْلِ الْحَقِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَاسْتِضْعَافِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لَهُمْ إِلَّا بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَتَعْظِيمِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَنَبْذِ كُلِّ مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَهَا أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ قَائِلُهُ، مَعَ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٦٤- القلم الطيب والقلم الخبيث

٨/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٢-٤] أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالشَّرْعِ، فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا شَرْعَ يُوصِلُ إِلَى رِضَاهُ إِلَّا شَرْعُهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعْرَاف: ٥٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، مَنْ أَطَاعَهُ نُجِّيَ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَمَنْ عَصَاهُ فَإِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ فِتَنُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَغَرِقَ فِي لُجَجِهَا مَنْ غَرِقَ، وَعَصَمَ اللهُ تَعَالَى مَنْ عَصَمَ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِلُزُومِ التَّقْوَى ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَتِ الْبَعْثَةُ النَّبَوِيَّةُ مِيلَادًا جَدِيدًا لِأُمَّةٍ جَدِيدَةٍ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى لَهَا الْخَيْرِيَّةَ عَلَى كُلِّ الْأُمَمِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَاخْتَصَّهَا بِأَحْسَنِ كُتُبِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ رُسُلِهِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٤].

نَعَمْ وَاللَّهِ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَتِهِ ﷺ فِي ضَلَالِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ الَّذِي أَوْرَثَهُمُ الذُّلَّ وَالضَّعْفَ وَالتَّفَرُّقَ، وَسَوَّغَ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ.

إِنَّهَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا تَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ وَلَا الْحِسَابَ إِلَّا نُزَّاعٌ مِنْهُمْ كَانُوا يَقْرَأُونَ لَهُمْ وَيَكْتُبُونَ وَيَحْسُبُونَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِهَا ﷺ الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ، وَجَاءَ ذِكْرُ الْقَلَمِ فِي أَوَّلِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ؛ مِمَّا يَشِي بِأَهَمِّيَّةِ الْقَلَمِ وَشَرَفِهِ وَمَكَانَتِهِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَ الْبَشَرَ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى الْقَلَمِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْقَلَمُ وَسِيلَةَ التَّعْلِيمِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ وَزَادَ مِنْ شَرَفِهِ وَعُلُوِّهِ إِقْسَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ عَلَى الْوَحْيِ الْمَكْتُوبِ ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [الْقَلَم: ١، ٢]، وَالْقَلَمُ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ لِيُكْتَبَ بِهِ الْقَدَرُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الصوم، باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب» (١٨١٤)، ومسلم في الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٠٨٠).

(٢) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ن) وقال: حسن غريب (٣٣١٩)، والطيالسي (٥٧٧)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٤٤)، والبزار (٢٦٨٧)، واللالكائي في السنة (٣٥٧)، وابن وهب في القدر (٢٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود. =

وَكَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْقَلَمَ خُلِقَ أَوَّلًا لِكِتَابَةِ المَقَادِيرِ فَقَدْ بَيَّنَ ﷺ تَارِيخَ الْقَلَمِ فِي الْبَشَرِ، وَذَكَرَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ ﷺ عَنْ إِدْرِيسَ عليه السلام: «**وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ**»(٣).

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ مَقَادِيرُ الْعَامِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٤]، وَبِالْقَلَمِ يُكْتَبُ مَصِيرُ الْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رضي الله عنه يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ**»(٤).

وَبِالْقَلَمِ يَكْتُبُ المَلَائِكَةُ أَقْوَالَ المُكَلَّفِينَ وَأَفْعَالَهُمْ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]؛ أَيْ: بِكِتَابَةِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانْفِطَار: ١٠-١٢].

وَبِالْقَلَمِ يَكْتُبُ النَّاسُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى كِتَابَتِهِ مِمَّا تَنْتَظِمُ بِهِ مَصَالِحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَشْرَفُهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدِ اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كُتَّابًا يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ، وَقَصَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ ﷺ: «**لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ**

= وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا عند: الضياء المقدسي في المختارة (٣٦٠-٣٦١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨) رقم (١٢٥٠٠).
كما جاء موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما عند: ابن أبي شيبة (٧/ ٢٥٩)، والحاكم (٢/ ٤٩٢)، وقد مضى عرض الخلاف في أول المخلوقات في مجلد (١) خطبة رقم (١) بداية الخلق والتكليف، حاشية (٤).

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطيالسي (٤٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧) رقم (٧٨٧١)، وصححه ابن حبان (٣٦١).

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفيه خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٤)، وأحمد (٤/ ٦).

كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

ثُمَّ رَخَّصَ لَهُمْ فِي كِتَابَةِ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَقَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ حَتَّى ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَرُبَّمَا قَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدٌ مِنَ الْوُفُودِ فَعَلَّمَهُمْ سُنَّةً مِنَ السُّنَنِ، وَبَلَّغَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ فَيَطْلُبُ بَعْضُهُمْ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ ذَلِكَ، فَيَقُولُ ﷺ: «**اكْتُبُوا لِأَبِي فُلَانٍ**»(٧).

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِمَّا يَجْرِي أَجْرُهُ لِلْمُسْلِمِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَأَعْظَمُ وَسِيلَةٍ لِحِفْظِ هَذَا الْعِلْمِ الْمُنْتَفَعِ بِهِ: كِتَابَتُهُ، وَانْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ مَا خَطَّتْهُ أَقْلَامُ أَسْلَافِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْكُمْ تُدْرِكُوا قِيمَةَ الْقَلَمِ وَالْكِتَابَةِ.

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ وَأَيَّامُهُمْ، وَتُدَوَّنُ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ

---

(٥) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: مسلم في الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٣٠٠٤)، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢)، والدارمي (٤٥٠)، وأبو يعلى (١٢٨٨).

(٦) أخرجه أبو داود في العلم، باب كتاب العلم (٣٦٤٦)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، والدارمي (٥٠١) والطبراني في الكبير (١٣/ ٤٢٢) رقم (١٤٢٦٤)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ١٠٤-١٠٥).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب كتابة العلم (١١٢)، ومسلم في الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها ... (١٣٥٥)، وهذا الرجل المبهم هو أبو شاه، وهو من أهل اليمن كما جاء في الروايات الأخرى للبخاري، وكذلك سُمِّي في رواية مسلم.

وَأَخْبَارُهُمْ، وَتُحفَظُ تَجَارِبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، وَمَا وَصَلَتِ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ تَنَوُّعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، وَتَقَدُّمِ الْعُمْرَانِ وَالصِّنَاعَاتِ إِلَّا بِمَا دُوِّنَ مِنْ تَجَارِبِ السَّابِقِينَ وَأَبْحَاثِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَخَيَّلَ حَالُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِلَا قَلَمٍ وَعِلْمٍ وَكِتَابَةٍ، إِلَّا كَحَالِ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ شَيْئًا.

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ عُقُودُ النَّاسِ وَشُرُوطُهُمْ فِي السِّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَفِي التِّجَارَةِ وَالْبَيْعِ، وَفِي الْقَرْضِ وَالرَّهْنِ وَالدَّيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، وَفِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «**اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا**»(٨)، «**هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قُرَيْشًا**»(٩)، وَدَعَا ﷺ مُلُوكَ الْعَالَمِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِكُتُبٍ كَتَبَهَا وَأَرْسَلَهَا إِلَيْهِمْ.

وَبَلَغَ مِنْ عِنَايَتِهِ ﷺ بِالْقَلَمِ أَنَّهُ جَعَلَ فِدَاءَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِدَاءَ نَفْسِهِ بِالمَالِ مِنْ أَسْرَى الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ أَنْ يُعَلِّمَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَشَرَةً مِنْ غِلْمَانِ المَدِينَةِ الْكِتَابَةَ، فَكَثُرَتِ الْكِتَابَةُ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه: «عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَةَ وَالْقُرْآنَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

---

(٨) أخرجه من حديث البراء رضي الله عنه في حديث طويل في قصة الحديبية: البخاري في المغازي، باب عمرة القضاء (٤٠٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبيه واللفظ له (١٧٨٣).

(٩) أخرجه من حديث على رضي الله عنه في حديث طويل في قصة مقاتلة علي رضي الله عنه للخوارج: أحمد (١/ ٨٦)، وأبو يعلى (٤٧٤)، والبيهقي (٨/ ١٨٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٦٦)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (٦/ ١٣٧).

(١٠) أخرجه أبو داود في الإجارة، باب في كسب المعلم (٣٤١٦)، وابن ماجه في التجارات، باب الأجرة على تعلم القرآن (٢١٥٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٤١)، وأحمد (٥/ ٣١٥)، وصححه الحاكم (٢/ ١٢٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٣٠٤-٣٠٦)، والبيهقي (٦/ ١٢٥)، وضعفه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الهداية، وذكر له شاهدًا آخر من حديث أبي رضي الله عنه (٢/ ١٨٨)، لكن صححه الألباني في صحيحي أبي داود وابن ماجه.

وَرَخَّصَ ﷺ لِلنِّسَاءِ فِي تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١١).

وَالْكَلِمَةُ الْمَنْطُوقَةُ وَالْمَكْتُوبَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي مَعَاشِهِمْ أَوْ مَعَادِهِمْ، وَتِلْكَ هِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِمَّا يَضُرُّ النَّاسَ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ.

وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، كَمَا أَنَّ الْكَلِمَةَ الْخَبِيثَةَ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى مَثَلًا فِي الْقُرْآنِ؛ لِيُسَارِعَ النَّاسُ إِلَى طَيِّبِ الْكَلِمِ، وَيُجَانِبُوا خَبِيثَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ

(١١) أخرجه أبو داود في الطب، باب ما جاء في الرقى (٣٨٨٧)، وأحمد (٣٧٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣١٧٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢١٨٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١٣) رقم (٧٩٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٦)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٦٣)، وأخرجه عبد الرزاق بلاغًا من حديث الزهري رحمه الله تعالى (١٩٧٦٨).

وقد جاء ما يعارض هذا الحديث وهو ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لاتسكنوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور» أخرجه الحاكم وصححه وتعقَّبَهُ الذَّهَبِي فقال: بل هو موضوع، وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب (٢/ ٤٣٠)، واستنكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٦٩).

وعبد الوهاب هو ابن الضحاك، قال أبو حاتم: كان يكذب. الجرح والتعديل (٦/ ٧٤)، وجاء من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن لا يصح شيء منها، والحديث منكر في متنه فكيف يرد فيه: لا تسكنوهن الغرف، والنبي ﷺ أسكن نساءه الغرف، وقد أفاض محمد شمس الحق آبادي في رد ذلك في عون المعبود (١٠/ ٢١٧)، وأفرد رسالة بعنوان: (عقود الجمان في جواز تعليم الكتابه للنسوان).

مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

وَإِنَّمَا يُعْرَفُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيثِ مَنْطُوقًا كَانَ أَمْ مَكْتُوبًا بِعَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ اعْتِبَارٍ لِقَائِلِهِ وَمَصْدَرِهِ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ الَّذِي يُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وَمَا كَانَ مُعَارِضًا لَهُمَا فَهُوَ الْكَلَامُ الْخَبِيثُ، وَلَا يَصْدُرُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ وَطَيِّبَةٍ، كَمَا أَنَّ مَصْدَرَ الْكَلَامِ الْخَبِيثِ كُلُّ خَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النُّور: ٢٦] قَالَ جُمْهُورُ السَّلَفِ: الْكَلِمَاتُ الْخَبِيثَةُ لِلْخَبِيثِينَ، وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِهِمْ: الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الْخَبِيثَةُ لِلْخَبِيثِينَ(١٢).

---

(١٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٤٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. أخرجه الطبري (١٨/ ١٠٦-١٠٧). وروى الطبري مثله عن مجاهد وابن نجيح والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء رحمة الله تعالى عليهم. ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٠٨).

وقيل: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء،، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبيات من النساء. قاله ابن زيد فيما رواه الطبري (١٨/ ١٠٨). ورجح الطبري القول الأول؛ لأن الآيات في سياق حادثة الإفك، ومقولتهم الخبيثة في عائشة رضي الله عنها، ورجحه القرطبي بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]؛ أي: عائشة وصفوان رضي الله عنهما مبرؤون مما يقول الخبيثون والخبيثات فيهم. ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢١١).

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشه رضي الله عنها من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾» (٣/ ٢٧٩).

وَالْكَذِبُ مِنْ أَخْبَثِ الْكَلَامِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَتَرْوِيجِ الْبَاطِلِ، وَغِشِّ النَّاسِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْكَذِبُ يَبْلُغُ الْآفَاقَ عَبْرَ صَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ، أَوْ قَنَاةٍ مَعْرُوضَةٍ، أَوْ إِذَاعَةٍ مَسْمُوعَةٍ؛ ازْدَادَ خُبْثًا إِلَى خُبْثِهِ. وَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الْقَائِمِينَ عَلَى وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَصْنَافِ الْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ، فَإِنَّهُمْ يُرَوِّجُونَ لِكُلِّ فِكْرٍ وَمَنْهَجٍ وَسُلُوكٍ خَبِيثٍ، وَيَمْتَهِنُونَ الْكَذِبَ الْمَفْضُوحَ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَحْتَرِمُونَ عُقُولَ الْمُتَلَقِّينَ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْجَلُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ، وَقَدْ دَأَبَ عَوَامُّ النَّاسِ عَلَى وَصْفِ مَا يُشَكِّكُونَ فِي صِحَّتِهِ بِأَنَّهُ كَلَامُ جَرَائِدَ، أَوْ كَلَامُ إِعْلَامٍ.

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خُطُورَةِ هَذَا الْمَسْلَكِ الْخَبِيثِ، وَبَيَّنَ «**أَنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٣).

وَرَأَى ﷺ مِنْ أَصْنَافِ الْمُعَذَّبِينَ: كَذَّابًا يَبْلُغُ كَذِبُهُ الْآفَاقَ، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْهُ، فَقَالَ عليه السلام: «**أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٤).

وَالْمُسْلِمُ كَمَا هُوَ مَأْمُورٌ بِمُجَانَبَةِ كُلِّ خَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَهُوَ كَذَلِكَ مَأْمُورٌ بِمُجَانَبَةِ الْخَبِيثِ مِنَ الْكَلَامِ سَمَاعًا مِنْ قَنَاةٍ أَوْ إِذَاعَةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ مِنْ صَحِيفَةٍ أَوْ مَجَلَّةٍ أَوْ رِوَايَةٍ أَوْ كِتَابٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ الْخَبِيثَ يُفْسِدُ قَلْبَهُ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ طَيِّبِ الْكَلَامِ.

وَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ مَأْمُورًا بِاجْتِنَابِ اللَّغْوِ مَنْطُوقًا كَانَ أَمْ مَكْتُوبًا وَهُوَ فِي الشَّرِّ

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦١١٢)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(١٤) أخرجه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث طويل في رؤيا النبي ﷺ: البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٢٠).

وَالْإِفْسَادِ أَخَفُّ مِنَ الْخَبِيثِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِخَبِيثِ الْمَنْطُوقِ وَالْمَكْتُوبِ، وَمِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ يَكُونُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ مَصَادِرِهِ وَوَسَائِلِهِ الَّتِي ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ أَشَدَّ ابْتِلَاءٍ.

وَجَاءَ النَّهْيُ عَنْ حُضُورِ الْمَجَالِسِ الَّتِي يُخَاضُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى جَهْلًا أَوِ اسْتِكْبَارًا، وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَهْلَهَا ظَالِمِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

بَلْ جَاءَ أَنَّ مَنْ جَالَسَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَمْ يَكْتُبْ أَوْ يَقُلْ شَيْئًا ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٠] فَكَمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَقْتَنِي مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ وَفَضَائِيَّاتٍ قَدْ كَرَّسَتْ مُهِمَّتَهَا لِلِاسْتِهْزَاءِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّلَاعُبِ بِشَرِيعَتِهِ، وَإِخْضَاعِهَا لِآرَاءِ الْبَشَرِ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا عِنْدَ مَنْ يَقْتَنِيهَا!!

بَلْ يَضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ، وَيَنَامُ مِلْءَ جَفْنِهِ، وَكَأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَعْنِيهِ، وَلِسَانُ حَالِهِ أَنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا يَحْمِيهِ، وَقَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ لِمَا يُكْتَبُ وَيُنْطَقُ مِنْ خَبِيثِ الْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنِ اسْتِحْكَامِ الْغَفْلَةِ، وَتَمَكُّنِ الْهَوَى، وَذَهَابِ الْغَيْرَةِ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ أَنَارَ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ، وَجَعَلَ مِنْ عِبَادِهِ هُدَاةً مُهْتَدِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، أَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا رَافِعَةُ النِّعَمِ، جَالِبَةُ النِّقَمِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْكِتَابَةُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قَلَمٍ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا كَانَ قَلَمُهُ مَصْدَرَ ضَرَرٍ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ فَبِئْسَ الْقَلَمُ، وَبِئْسَ صَاحِبُهُ، وَكَسْرُهُ خَيْرٌ مِنْ بَقَائِهِ.

إِنَّ الْكِتَابَةَ أَضْحَتْ حِرْفَةً فِي هَذَا الزَّمَنِ، وَكُلُّ صَاحِبِ فِكْرٍ وَمَبْدَإٍ يُنَافِحُ عَنْ فِكْرِهِ وَمَبْدَئِهِ بِقَلَمِهِ، وَمِنَ الْكُتَّابِ مَنْ يَتَأَكَّلُ بِكِتَابَتِهِ فَيَنْتَقِلُ مِنْ أَقْصَى الشَّمَالِ إِلَى أَقْصَى الْيَمِينِ، وَيُثْنِي الْيَوْمَ عَلَى مَنْ كَانَ يَشْتُمُ بِالْأَمْسِ؛ لِأَنَّهُ يَكْتُبُ لِمَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ، أَوْ يَدُورُ مَعَ الْقَوِيِّ حَيْثُ كَانَ، وَكَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ كَانُوا أَيَّامَ الْمَارْكِسِيَّةِ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَاءِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْإِمْبِرْيَالِيَّةِ، وَبَعْدَ أُفُولِ الشُّيُوعِيَّةِ انْتَقَلُوا

بِكُلِّ صَفَاقَةٍ وَوَضَاعَةٍ إِلَى اللِّيبْرَالِيَّةِ يَتَسَوَّلُونَ عَلَى أَبْوَابِهَا، وَيَخْطُبُونَ وُدَّ أَصْحَابِهَا، حَتَّى صَارُوا أَشَدَّ إِمبِرْيَالِيَّةً مِنْ أَهْلِهَا.

وَمِنْ أَصْحَابِ الْأَقْلَامِ مَنْ يَتَأَكَّلُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْغَرَائِزِ، فَيَتَقَيَّأُ انْحِرَافَاتِهِ وَشُذُوذَاتِهِ الْجِنْسِيَّةَ عَلَى أَوْرَاقِهِ؛ لِيُشَكِّلَ مِنْهَا رِوَايَةً تُغْوِي الْقَارِئِينَ وَالْقَارِئَاتِ، وَتَسْتَهْوِي الْمُرَاهِقِينَ وَالْمُرَاهِقَاتِ، وَإِذَا مَا أَرَادَ شُهْرَةً وَاسِعَةً، وَرَوَاجًا لِرِوَايَتِهِ، وَحِمَايَةً لَهُ وَلَهَا فِي الدَّوَائِرِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ وَالصَّلِيبِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُضَمِّنَ رِوَايَتَهُ سُخْرِيَةً بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَعَلَى قَدْرِ سُخْرِيَتِهِ بِمُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَنَالُ نَصِيبَهُ مِنَ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، وَيَحْصُدُ الْجَوَائِزَ وَالْهِبَاتِ وَالْأَوْسِمَةَ، وَلَرُبَّمَا بَلَغَ بِذَلِكَ جَائِزَةَ نُوبِلَ لِلْأَدَبِ، كَمَا حَازَهَا الْكَاتِبُ الْهَالِكُ نَجِيب مَحْفُوظ عَلَى رِوَايَتِهِ الَّتِي سَخِرَ فِيهَا بِكُلِّ مُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَنَ فِي نِهَايَتِهَا مَوْتَ الْإِلَهِ لِصَالِحِ الْمَادِّيَّةِ، فِي رَمْزِيَّةٍ جَبَانَةٍ، وَإِلْحَادٍ صَارِخٍ، وَزَنْدَقَةٍ ظَاهِرَةٍ، تَعَالَى اللهُ عَنْ إِلْحَادِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا(١٥).

إِنَّ هَذَا الْكَاتِبَ الْهَالِكَ الَّذِي امْتَلَأَتِ الصُّحُفُ بِالْكِتَابَةِ عَنْهُ، وَأَفْرَدَتْ لِسِيرَتِهِ وَغَوَايَتِهِ صَفَحَاتٍ كَامِلَةً(١٦) لَا تُفْرَدُ لِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، بَلْ وَلَا لِلزُّعَمَاءِ، مَا هُوَ فِي

---

(١٥) وهي رواية «أولاد حارتنا» التي صور فيها الدنيا بالحارة، وأولادها هم البشر والملائكه والشياطين، وجعل الجبلاوي المتسلط في روايته على البقية رمزًا لله تعالى، وقاسم رمزًا للنبي ﷺ، وجبل رمزًا لموسى ﷺ، ورفاعة رمزًا لعيسى ﷺ، وعرفة رمزًا للعلم الذي يقتل الجبلاوي.

(١٦) أكثر الصحف أفردت بين ثلاث وأربع صفحات كاملة، وبعضها ملونة عن هذا الروائي الهالك، وخلعوا عليه ألقابًا، ووصفوه بأوصاف لم يحظ بعشرها كبار العلماء ولا الزعماء ولا كبار الأطباء والمهندسين. هذا في يوم الخميس المنصرم، ويتوقع أن يستمر هذا التطبيل عدة أيام أخرى، كما أن القنوات الفضائية العربية قد خصته ببرامج طويلة عن حياته وأقواله ورواياته، وعرضت أقوال أقرانه وتلامذته والمعجبين به، فيها تلبيس عجيب وخداع لعامة الناس.

وَاقِعِ الْأَمْرِ إِلَّا خَبِيثٌ يَحْمِلُ قَلَمًا خَبِيثًا، سَطَّرَ بِهِ فِكْرَهُ الْخَبِيثَ، فَهُوَ حَامِلُ هَمِّ إِحْيَاءِ الْفِكْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَهُوَ الدَّاعِي إِلَى الْفِكْرِ الاشْتِرَاكِيِّ، وَيَكْفِيهِ سَبْقًا فِي الْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ أَنَّهُ التِّلْمِيذُ الْوَفِيُّ لِلنَّصْرَانِيِّ الْقِبْطِيِّ سَلَامَة مُوسَى الْحَاقِدِ عَلَى كُلِّ شَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِي كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى نَقْلِ مِصْرَ مِنْ إِسْلَامِهَا إِلَى الْفِرْعَوْنِيَّةِ(١٧).

إِنَّ هَذَا الرِّوَائِيَّ الْهَالِكَ لَمْ يَخْرُجْ فِي جُلِّ رِوَايَاتِهِ عَنْ أَصْلَيْنِ عَاشَ حَيَاتَهُ مِنْ

(١٧) يقول نجيب محفوظ: كان سلامة موسى هو الراعي والمربي الأدبي لي، نشر لي وأنا بعد في الثانوي، ثم في الجامعة عشرات المقالات وكتابًا مترجمًا وأول رواياتي، إنه أستاذي العظيم. ينظر: نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان، ديب علي حسن (ص: ٣٠).
ويقول أيضًا: كان لسلامة موسى أثر قوي في تفكيري؛ فقد وجَّهَني إلى شيئين مهمين هما: العلم والاشتراكية، ومنذ دخلا مخّي لم يخرجا منه إلى الآن. ينظر: نجيب محفوظ يتذكر، لجمال الغيطاني (ص: ٨٨).
قلت: والاشتراكيون يريدون بالعلم: المادة التي يلزم منها إنكار الغيب بما فيه إنكار الرب جل في علاه.
ويقول أستاذه سلامة موسى: إذا خرج الدين من دائرة علاقة الإنسان بالكون، وأخذ مقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك، فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به. ينظر: مؤلفاته الكاملة (١/ ٢٣).
ويقول أيضًا: الرابطة الدينية وقاحة؛ فإننا أبناء القرن العشرين أكبر مِنْ أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا. المؤلفات الكاملة (١/ ٦٦١).
يريد بذلك الوصول إلى أن فكرة الدين والإيمان بالرب جل جلاله سيقضي عليها العِلْم المادي، حتى يصبح الناس ملاحِدَة على شاكلته وشاكلة أساتذته الماديين الملحدين، تعالى الله سبحانه وتقدَّسَ عن إفْكِهِ وزَعْمِهِ، وسيبقى لعدو الله تعالى مايسوؤه مِنْ بقاء الدين وعُلُوِّه وانْدِحَارِ الإلحاد وسفوله. ينظر في روايته الإلحادية: دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا، عبدالله المهنا، دار عالم الكتب. وجوانيات الرموز المستعارة لكبار أولاد حارتنا، د. عبد العظيم المعطني، والطريق إلى نوبل عبر حارة نجيب محفوظ د.محمد يحيى ومعتز شكري، ومجلة البيان، الأعداد (١٠٩-١١٠-١٢٩).

أَجْلِهِمَا، وَكَرَّسَ قَلَمَهُ فِي خِدْمَتِهِمَا: وَهُمَا الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِلْحَادِ بِاسْمِ الْعِلْمِ فِي مُقَابِلِ الدِّينِ، وَنَشْرُ الْإِبَاحِيَّةِ وَالشُّذُوذِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ.

قَابَلَهُ أَحَدُ الْمُعْجَبِينَ بِهِ فَقَالَ لَهُ: مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ تَمِيلُ إِلَى الْفِكْرِ الْمَارْكِسِيِّ؛ فَالْمَارْكِسِيُّونَ فِي رِوَايَاتِكَ هُمُ الْأَبْطَالُ الشُّهَدَاءُ، وَحَامِلُو الزُّهُورِ الْحَمْرَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُضِيئُونَ الْحَيَاةَ بِنُورِ الْأَمَلِ فِي الظُّلُمَاتِ ... فَرَدَّ عَلَيْهِ الرِّوَائِيُّ الْهَالِكُ: لَقَدْ شَخَّصْتَنِي فَأَجَدْتَ التَّشْخِيصَ(١٨).

وَقَامَ أَحَدُ مُرِيدِيهِ وَالْمُعْجَبِينَ بِهِ وَبِرِوَايَاتِهِ بِقِرَاءَتِهَا وَسَبْرِ مَوَادِّهَا، فَعَرَفَ الْقَاسِمَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهَا، وَأَعْلَنَ نَتِيجَةَ ذَلِكَ فَقَالَ: حَفَلَتْ رِوَايَاتُهُ بِحَشْدٍ هَائِلٍ مِنَ الْبَغَايَا وَالرَّاقِصَاتِ وَالْقَوَّادِينَ وَالدَّيُّوثِينَ وَاللُّصُوصِ وَالنَّشَّالِينَ وَالْفُتُوَّاتِ وَصَانِعِي الْعَاهَاتِ وَالْمُرْتَشِينَ وَالْمُلْحِدِينَ(١٩).

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ يَزْعُمُ أَنَّ الْغَرْبِيِّينَ حَلُّوا الْمُشْكِلَةَ الْجِنْسِيَّةَ بِنَشْرِ الْإِبَاحِيَّةِ، وَأَنَّ هَذَا الْحَلَّ فِي نَظَرِهِ نَاجِعٌ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَقُولُ: أَمَّا عَنْ حَلِّ الْمُشْكِلَةِ الْجِنْسِيَّةِ فِي مُجْتَمَعِنَا فَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهُ، وَلَا أَنْتَ تَكْتُبُهُ! وَلَكِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: «أُورُوبَّا تَمَكَّنَتْ مِنْ حَلِّ الْمُشْكِلَةِ الْجِنْسِيَّةِ بِطَرِيقَتِهَا الْخَاصَّةِ، تَجِدُ أَنَّ الْبِنْتَ عُمْرُهَا خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا تَلْتَقِي فِي حُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ مَعَ أَيِّ شَابٍّ، لَا مُشْكِلَةَ جِنْسِيَّةٍ، وَلَا مُشْكِلَةَ عَفَافٍ وَلَا بَكَارَةٍ، وَحَتَّى إِذَا أَثْمَرَتِ الْعَلَاقَةُ طِفْلًا، فَالطِّفْلُ يَذْهَبُ إِلَى الدَّوْلَةِ كَيْ تُرَبِّيَهِ إِذَا كَانَتْ أُمُّهُ لَا تُرِيدُ»(٢٠).

وَهَكَذَا يُرِيدُ لِبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُنَّ بَغَايَا وَفَاسِقَاتٍ كَمَا كَانَ نِسَاءُ الْغَرْبِ.

---

(١٨) قائل ذلك هو خليل عبد الكريم، كما نقله أنور الجندي في كتابه: كتاب العصر (٢٠١).

(١٩) المصدر السابق (٢٠١).

(٢٠) نجيب محفوظ بين الالحاد والإيمان، ديب علي حسين (ص: ١٤٤).

لَقَدْ مَضَى هَذَا الْهَالِكُ إِلَى رَبٍّ عَدْلٍ سَيُحَاسِبُهُ عَلَى مَا خَطَّ بِقَلَمِهِ وَلَا يَظْلِمُهُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْجَرِيمَةَ كُلَّ الْجَرِيمَةِ، وَالتَّزْوِيرَ كُلَّ التَّزْوِيرِ مَا يُمَارِسُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْإِعْلَامِيِّينَ وَالصَّحَفِيِّينَ مِنْ تَضْلِيلِ الْعُقُولِ، وَمُمَارَسَةِ الْكَذِبِ عَلَى الْمَكْشُوفِ بِالْإِشَادَةِ بِهَذَا الْهَالِكِ، مَعَ إِخْفَاءِ حَقِيقَةِ فِكْرِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ النَّاسِ، بَلْ وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، وَالنَّيْلِ مِمَّنْ يَفْضَحُونَهُ.

وَسِيلَتُهُمْ فِي ذَلِكَ: الْكَذِبُ وَالتَّزْوِيرُ، فَأَيْنَ احْتِرَامُ الْعُقُولِ؟! بَلْ أَيْنَ احْتِرَامُ زَبَائِنِهِمْ مِنْ قُرَّاءِ صُحُفِهِمْ؟! أَفَلَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّجَاعَةِ قَدْرٌ يُظْهِرُونَ بِهِ حَقِيقَةَ فِكْرِهِ لِقُرَّائِهِمْ، ثُمَّ يَخْتَارُ الْقُرَّاءُ بَيْنَ دِينِهِمْ وَبَيْنَ رِوَائِيِّهِمُ الْهَالِكِ؟!

لَقَدْ كَذَبُوا ثُمَّ كَذَبُوا، وَدَافَعُوا عَنْ إِلْحَادِهِ وَزَنْدَقَتِهِ، وَوَصَفُوهُ بِالرَّاحِلِ الْكَبِيرِ، وَبِالْقَامَةِ الشَّامِخَةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَقَلُوا كَمًّا كَبِيرًا مِنْ أَقْوَالِ زُمَلَائِهِ وَتَلَامِذَتِهِ وَمُرِيدِيهِ، وَلَمْ يَنْقُلُوا شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِ مَنْ أَبَانُوا حَقِيقَةَ فِكْرِهِ، بَلْ هَاجَمُوهُمْ وَوَصَفُوهُمْ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، فَأَيْنَ هِيَ الْمَوْضُوعِيَّةُ الَّتِي يَتَشَدَّقُونَ بِهَا؟ وَأَيْنَ هِيَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى قَبُولِ الْآخَرِ وَاحْتِرَامِ الْآرَاءِ الْأُخْرَى؟

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ مِنْ وَصْفِ بَعْضِ الصُّحُفِ لِرِوَائِيِّهِمْ بِأَنَّهُ مُتَدَيِّنٌ، فَيَا لِضَحَالَةِ عُقُولِهِمْ! وَيَا لَسَخَافَةِ أَقْلَامِهِمْ! وَلَوْ خَرَجَ صَاحِبُهُمْ مِنْ قَبْرِهِ لَوَبَّخَهُمْ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُفَاخِرُ بِحَرْبِهِ لِلدِّينِ، فَكَيْفَ يَصِفُونَهُ بِالْمُتَدَيِّنِ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى، وَنَسْأَلُهُ الْهُدَى وَالتُّقَى.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إِنَّ هَذَا الرِّوَائِيَّ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَى رُبُوبِيَّتِكَ وَعَلَى مَلَائِكَتِكَ وَكُتُبِكَ وَرُسُلِكَ، وَسَخِرَ بِشَعَائِرِ دِينِكَ، اللَّهُمَّ فَعَامِلْهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ فَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ.

اللَّهُمَّ مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُ فَاحْشُرْهُ مَعَهُ، وَمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ

حَالَهُ فَتُبْ عَلَيْهِ مِنْ زَلَّتِهِ، وَأَنِرْ بَصِيرَتَهُ، وَخُذْ بِيَدِهِ لِلْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

اللَّهُمَّ وَاهْدِ ضَالَّ المُسْلِمِينَ، وَأَصْلِحْ أَحْوَالَهُمْ، وَأَمِّنْهُمْ فِي أَوْطَانِهِمْ، وَاكْفِهِمْ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ. وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



٣٦٥- الحرب على اللغة العربية

٤/٣/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ الْأُمِّيِّينَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا وَاجْتَبَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا وَأَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ بِالرُّسُلِ، وَابْتَلَى الرُّسُلَ بِعِبَادِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَلَّمَهُ رَبُّهُ ﷻ فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهُ، وَأَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، آتَاهُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ، وَأَعْطَاهُ مَعَاقِدَ الْبَيَانِ، وَبَعَثَهُ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ وَأَحْيَانِكُمْ، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ شَعَائِرُهَا وَمَنَاسِكُهَا الَّتِي تَنْسُكُهَا، وَتَتَمَسَّكُ بِهَا، وَتَدْعُو إِلَيْهَا، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [الْمَائِدَة: ٤٨]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الْحَجّ: ٦٧].

وَلِسَانُ الْقَوْمِ هُوَ وَسِيلَةُ الْخِطَابِ بَيْنَهُمْ، وَلُغَتُهُمْ هِيَ وِعَاءُ مَنْسَكِهِمْ وَشَعِيرَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَكُلُّ قَوْمٍ يُفَاخِرُونَ بِلِسَانِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى لُغَتِهِمْ.

وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّةِ الْعَرَبِ بِأَفْصَحِ لِسَانٍ، وَأَقْوَى بَيَانٍ، ثُمَّ كَانَ تَاجَ ذَلِكَ وَتَتِمَّتَهُ بَعْثَةُ أَفْصَحِ الْبَشَرِ ﷺ مِنْهُمْ، وَنُزُولُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِلِسَانِهِمْ، ﴿وَإِنَّهُ

لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢-١٩٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَحُفِظَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، حَتَّى قِيلَ: لَوْلَا الْقُرْآنُ مَا كَانَتْ عَرَبِيَّةٌ(٢). ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجْر: ٩].

وَلَمْ تُحْفَظْ سَائِرُ لُغَاتِ الْبَشَرِ، بَلْ كَانَتْ عَبْرَ الْعُصُورِ تَنْدَثِرُ وَتَتَبَدَّلُ وَتَتَغَيَّرُ، وَبَقِيَتْ عَرَبِيَّةُ الْيَوْمِ هِيَ عَرَبِيَّةُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ.

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ شِعَارُ الدِّينِ وَوِعَاؤُهُ، وَالْقُرْآنُ لَا يُقْرَأُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ إِلَّا بِهَا، وَكُلُّ النُّصُوصِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا فَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا مُرَادُهَا قِرَاءَتُهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ تَعَلُّمُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ دَائِرًا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ؛ فَمَا لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِهِ، كَقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْرَأَهَا الْأَعْجَمِيُّ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ، وَلَا تُغْنِيهِ تَرْجَمَتُهَا أَوْ فَهْمُ مَعَانِيهَا شَيْئًا، وَلَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ إِلَّا بِهَا.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ؛ فَإِنَّ فَهْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، ثُمَّ مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْأَعْيَانِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ»(٣).

وَلِأَجْلِ هَذَا كَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَكَانَ الْمِسَاسُ بِهَا، أَوِ احْتِقَارُهَا

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (٢٩٧٧)، ومسلم في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).

(٢) فصول في فقه اللغة العربية، لرمضان عبد التواب (٩٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٧).

احْتِقَارًا لِلدِّينِ، وَلِلْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلُ بِهَا، وَمُحَارَبَتُهَا مُحَارَبَةٌ لِلدِّينِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِهَا دَعْوَةٌ ضِدَّ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ»(٤). وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الْأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ»(٥).

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ مَنْزِلَةَ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ أَعْدَاءَ الْمِلَّةِ كَرَّسُوا حَرْبَهُمْ لَهَا، وَسَلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِتَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا، وَسَنُّوا أَقْلَامَهُمْ لِنَقْدِهَا وَعَيْبِهَا؛ لِأَنَّهَا لِسَانُ الْقُرْآنِ وَبَيَانُهُ، وَلِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا وِعَاءُ الْإِسْلَامِ وَشِعَارُهُ، فَتَنْفِيرُ النَّاسِ مِنْهَا، وَصَرْفُهُمْ عَنْهَا، مَا هُوَ إِلَّا صَرْفٌ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

لَقَدِ اشْتَدَّتْ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ حَرْبُهُمْ، وَتَنَوَّعَتْ أَسَالِيبُهُمْ وَوَسَائِلُهُمْ، وَمَا وَهَنَتْ عَزِيمَتُهُمْ، وَلَا يَئِسُوا مِنْ تَحْقِيقِ مُرَادِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مُحَاوَلَاتِهِمُ الْبَائِسَةِ ادِّعَاؤُهُمْ صُعُوبَةَ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى إِصْلَاحِهَا وَالتَّعْدِيلِ عَلَيْهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا إِلَى إِلْغَاءِ الْإِعْرَابِ وَتَسْكِينِ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا إِلَى تَدْمِيرِ

---

(٤) الاقتضاء (٢٠٧)، ولم أقف عليه مسندًا بهذا اللفظ، لكن جاء عَنْ أبي رجاء مُحمد بْن سيف قَالَ: سَأَلْتُ الحسن عَن مصحف ينقط بالعربية، قَالَ: لا بأس به، أوَمَا بلغك عَن كتاب عُمَر أنه كتب: تعلموا العربية وتفقهوا في الدين وأحسنوا عبارة الرؤيا؟ أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٣١٤).
وقال عمر رضي الله عنه: «تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة» أخرجه البخاري في الكنى (٦٣٣)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٣٩٩)، والبيهقي في الشعب (١٦٧٦).
وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن. أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦).

(٥) الاقتضاء (٢٠٣).

قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ فِي ذَلِكَ: إِنَّ سَبَبَ تَرَاجُعِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ تَمَسُّكُهَا بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّنْوِينِ(٦).

وَسَخِرَ أَحَدُهُمْ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعَا إِلَى تَرْكِهَا فِي مَقَالَةٍ عَنْوَنَهَا بِقَوْلِهِ: «هَذَا الصَّرْفُ وَهَذَا النَّحْوُ. أَمَا لِهَذَا اللَّيْلِ مِنْ آخِرٍ؟!»(٧).

وَآخَرُونَ مِنْهُمْ رَكَّزُوا هُجُومَهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ، وَدَعَوْا إِلَى كِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَقْنَعَهُمْ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِهَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ، وَأَلَّفُوا كُتُبًا فِي ذَلِكَ، وَقَامُوا بِتَجَارِبَ وَمُحَاوَلَاتٍ اسْتَجْلَبُوهَا مِنْ فِعْلِ التُّرْكِ لَمَّا كَتَبُوا اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ بِالْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ(٨).

وَكَانَتْ أَكْبَرَ مُحَاوَلَةٍ لِإِلْغَاءِ لُغَةِ الْقُرْآنِ دَعْوَةُ بَعْضِهِمْ إِلَى اللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ بَدِيلًا عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَنَشِطَ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَأَذْنَابُ الْمُسْتَعْمِرِينَ لِإِنْجَاحِ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، وَفِي الْقَرْنِ الْمَاضِي بَذَلُوا جُهُودًا مُضْنِيَةً فِي هَذَا السَّبِيلِ الْمُظْلِمِ، وَتَفَرَّغَ بَعْضُ الْأُورُبِّيِّينَ لِدِرَاسَةِ لَهَجَاتِ مُدُنِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَأَلَّفُوا كُتُبًا فِيهَا، وَوَضَعُوا -بِزَعْمِهِمْ- قَوَاعِدَ لَهَا، وَدَعَا أَحَدُهُمْ إِلَى أَنْ تَكُونَ اللَّهْجَةُ الْعَامِّيَّةُ هِيَ اللُّغَةَ الْوَحِيدَةَ لِلْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، وَأَلْقَى مُسْتَشْرِقٌ مُحَاضَرَةً قَالَ فِيهَا بِكُلِّ صَفَاقَةٍ وَوَقَاحَةٍ: إِنَّ مَا يُعِيقُ الْمِصْرِيِّينَ عَنِ الِاخْتِرَاعِ هُوَ كِتَابَتُهُمْ بِالْفُصْحَى!

---

(٦) هو «لطفي السيد» الذي يسمونه أستاذ الجيل، ينظر: الاتجاهات الوطنية، محمد محمد حسين (٢/ ٣٦٩).

(٧) قائل ذلك هو «أنيس فريحة» خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، وهذا المقال نشره في مجلة أبحاث عام ١٩٥٥م وكله سخرية من اللغة العربية، ينظر: لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق؟ إسماعيل الكيلاني (٣٣٣).

(٨) هو «عبد العزيز فهمي» عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وبدلًا من دفاعه عن الحرف العربي يحاربه. ينظر: الاتجاهات الوطنية (٢/ ٣٦٥).

وَأَعْلَنَ فِي آخِرِ مُحَاضَرَتِهِ عَنْ مُسَابَقَةٍ لِلْخَطَابَةِ بِالْعَامِّيَّةِ، وَمَنْ تَكُونُ خُطْبَتُهُ جَيِّدَةً نَاجِحَةً فَلَهُ مُكَافَأَةٌ مُجْزِيَةٌ(٩).

وَتَوَّجَ هَذَا الضَّلَالَ وَالِانْحِرَافَ قِبْطِيٌّ شُيُوعِيٌّ، حِينَ كَتَبَ كِتَابًا دَعَا فِيهِ إِلَى كَسْرِ رَقَبَةِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِلَى الْكِتَابَةِ بِالْعَامِّيَّةِ(١٠).

وَتَعَدَّى هَذَا الْعُدْوَانُ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، فَكَرَّسَ أَحَدُ الْمُنْحَرِفِينَ وَقْتَهُ فِي ضَبْطِ أَحْوَالِ الْعَامِّيَّةِ فِي لِبْنَانَ، وَتَقْيِيدِ شَوَارِدِهَا؛ لِاسْتِخْدَامِهَا فِي كِتَابَةِ الْعُلُومِ، وَادَّعَى أَنَّهُ وَجَدَ أَسْبَابَ التَّخَلُّفِ فِي التَّمَسُّكِ بِالْفُصْحَى، ثُمَّ وَرِثَ ابْنُهُ عَنْهُ ضَلَالَهُ، فَأَكْمَلَ مَسِيرَةَ أَبِيهِ الضَّالَّةَ، وَزَعَمَ الِابْنُ بَعْدَ أَبِيهِ أَنَّ اخْتِلَافَ لُغَةِ الْحَدِيثِ عَنْ لُغَةِ الْكِتَابَةِ هُوَ أَهَمُّ أَسْبَابِ تَخَلُّفِهِمْ! ثُمَّ قَالَ: وَلِي أَمَلٌ بِأَنْ أَرَى الْجَرَائِدَ الْعَرَبِيَّةَ وَقَدْ غَيَّرَتْ لُغَتَهَا، وَهَذَا أَعُدُّهُ أَعْظَمَ خُطْوَةٍ نَحْوَ النَّجَاحِ، وَهُوَ غَايَةُ أَمَلِي(١١). وَتَمَنَّى أَحَدُ مَوَارِنَةِ الشَّامِ أَنْ يَرَى عَمَلًا عَسْكَرِيًّا سِيَاسِيًّا يَفْرِضُ اللُّغَةَ الْعَامِّيَّةَ عَلَى النَّاسِ(١٢).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَيَّبَ أَمَلَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَبَقِيَ لَهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ قُوَّةِ لُغَةِ الضَّادِ وَمَتَانَتِهَا، وَحَاجَةِ الْعَرَبِ إِلَيْهَا.

وَلَيْسَ الْعِرَاقُ بَعِيدًا عَنِ الشَّامِ، إِذْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ دَعْوَةُ إِلْغَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعْوَى

---

(٩) هو مهندس الري في مصر إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر «وليام كولكس»، قال ذلك في محاضرة ألقاها عام ١٨٩٣م بعنوان: (لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟).

(١٠) هو «لويس عوض». ينظر: الهجمة على اللغة العربية، إبراهيم بن سعد الحقيل، مجلة البيان عدد (١٤٧) ص(٤٦).

(١١) هو الماروني اللبناني «عيسى إسكندر المعلوف». ينظر كلامه في: لماذا يزيفون التاريخ (٣٢٦).

(١٢) قائل ذلك هو «أنيس فريحة». ينظر كلامه في: لماذا يزيفون التاريخ؟ (٣٣٣).

أَنَّهَا سَبَبُ التَّخَلُّفِ، فَهَذَا شَاعِرٌ عِرَاقِيٌّ يَقُولُ: فَتَّشْتُ طَوِيلًا عَنِ انْحِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ أَجِدْ غَيْرَ سَبَبَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: حِجَابُ الْمَرْأَةِ، وَالثَّانِي: هُوَ كَوْنُ الْمُسْلِمِينَ -وَلَا سِيَّمَا الْعَرَبُ مِنْهُمْ- يَكْتُبُونَ بِلُغَةٍ غَيْرِ الَّتِي يَحْكُونَهَا(١٣).

وَفِي الْقَرْنِ الْفَائِتِ تَزَامَنَ فِي دُوَلِ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ مَعَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْعَامِّيَّةِ إِصْدَارُ جَرَائِدَ وَمَجَلَّاتٍ وَكُتُبٍ بِاللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَتَّى بَلَغَتْ سَبْعَ عَشْرَةَ جَرِيدَةً وَمَجَلَّةً عَامِّيَّةً(١٤)، غَيْرَ عَشَرَاتٍ مِنْ قَصَصِ الْأَطْفَالِ وَالنَّاشِئَةِ تُكْتَبُ بِاللَّهَجَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ؛ لِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ لُغَةِ الْقُرْآنِ(١٥).

وَتَسَابَقَ الْمُسْتَشْرِقُونَ عَلَى إِصْدَارِ عَشَرَاتِ الدِّرَاسَاتِ وَالْكُتُبِ عَنِ اللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ، وَأُصُولِهَا، وَمُحَاوَلَةِ وَضْعِ الْقَوَاعِدِ لَهَا؛ وَكُلُّهَا مُحَاوَلَاتٌ فَشِلَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَمَامَ عَظَمَةِ لُغَةِ الضَّادِ، وَهَلَكَ أَصْحَابُهَا، وَهَلَكَتْ مَشَارِيعُهُمُ التَّخْرِيبِيَّةُ.

وَلَمَّا اخْتُرِعَتِ الْإِذَاعَةُ وَالتَّلْفَزَةُ نَشِطَتْ هَذِهِ الدَّعَوَاتُ الْآثِمَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَبَنَّى الدَّعْوَةَ إِلَيْهَا تَلَامِذَةُ الْمُفْسِدِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَدَعَوْا فِي حِوَارَاتٍ وَبَرَامِجَ إِلَى إِمَاتَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَاسْتِبْدَالِ غَيْرِهَا بِهَا، وَسَخَّرُوا الْمَشَاهِدَ التَّمْثِيلِيَّةَ وَالْمَسْرَحِيَّةَ الْهَزْلِيَّةَ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، فَصَوَّرُوا مُدَرِّسِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي أَشْكَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ فِي صُوَرِ الْبُلْهِ وَالْمَعَاتِيهِ وَالدَّرَاوِيشِ، وَجَعَلُوهُمْ أُضْحُوكَةً لِلْمُشَاهِدِينَ وَالْمُسْتَمِعِينَ، وَمَا مِنْ نَقِيصَةٍ إِلَّا أَلْصَقُوهَا بِهِمْ، وَلَا مَحْمَدَةٍ إِلَّا نَفَوْهَا عَنْهُمْ،

---

(١٣) تيارات مسمومة ونظريات هدامة، أنور الجندي (١٩٦).

(١٤) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي (١٢٧).

(١٥) وقد رأيت جملة منها في بعض زياراتي لمصر، منها ما هو في المكتبات العامة ومكتبات الجامعات للاطلاع، ومنها ما هو معروض للبيع في سوق الأزبكية.

فَوَصَمُوهُمْ بِالْغِشِّ وَالْكَذِبِ وَالِاسْتِغْلَالِ وَالْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفِ وَالْجُبْنِ؛ لِيَنْقَدِحَ فِي ذِهْنِ الْمُسْتَمِعِ وَالْمُشَاهِدِ أَنَّ هَيْئَتَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِمَّا يُدَرِّسُونَ مِنْ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَلَاغَتِهَا وَنَحْوِهَا وَصَرْفِهَا، فَيَنْصَرِفُ النَّاسُ عَنْهُمْ وَعَنِ الْمَوَادِّ الَّتِي يُدَرِّسُونَهَا، وَتُلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ كَرَاهِيَتُهَا.

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُهِينَةِ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا مُعَلِّمِي الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ يُصَوِّرُونَ مُدَرِّسِي اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي أَحْسَنِ هَيْئَةٍ وَأَبْهَى حُلَّةٍ، وَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ مَا أَكْثَرُهُ كَذِبٌ وَتَزْيِيفٌ؛ لِيَسْتَقِرَّ فِي ذِهْنِ الْمُشَاهِدِ وَالْمُسْتَمِعِ أَنَّ هَيْئَتَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَثَقَافَتَهُمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي يُدَرِّسُونَهَا؛ فَيُحِبُّهُمُ النَّاسُ، وَيَتَمَنَّوْنَ لِأَوْلَادِهِمْ مَا لَهُمْ.

وَهُنَاكَ عَشَرَاتُ الْمَشَاهِدِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَالْمَسْرَحِيَّةِ الْمَحْفُوظَةِ شَاهِدَةٌ عَلَى هَذَا التَّزْيِيفِ وَالْإِضْلَالِ لِلنَّاسِ، وَهَكَذَا تُصَاغُ الْعُقُولُ عَبْرَ الْإِعْلَامِ، وَيُطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَتُزَيَّفُ الْحَقَائِقُ، وَتُزَوَّرُ الْمَعْلُومَاتُ بِمَا يُوَافِقُ رَغَبَاتِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَأَذْنَابِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ كُلُّ هَذَا الْإِضْلَالِ قَدْ وَقَعَ فِي الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّ الْمَغْرِبَ الْعَرَبِيَّ قَدْ نَالَ حَظَّهُ الْوَافِرَ مِنْ حَرْبٍ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَعَلَى مَنْ بَلَّغَ قُرْآنَهَا وَدِينَهَا؛ إِذْ أَصْبَحَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ لُغَةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَجَاءَ فِي تَقْرِيرٍ أَعَدَّتْهُ لَجْنَةُ الْعَمَلِ الْمَغَارِبِيَّةُ الْفَرَنْسِيَّةُ: إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ هُوَ التَّقْلِيلُ مِنْ أَهَمِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَصَرْفُ النَّاسِ عَنْهَا، بِإِحْيَاءِ اللَّهَجَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَاللُّغَاتِ الْعَامِّيَّةِ فِي شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ(١٦).

(١٦) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن الميداني (٣٧٦).

وَبَلَغَ مِن اسْتِمَاتَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ بِفَرَنْسِيَّتِهِمْ أَنَّهُمُ اخْتَرَعُوا قَوَاعِدَ لِلُّغَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ، وَأَقْنَعُوا كَثِيرًا مِنَ المَغَارِبَةِ أَنَّ أُصُولَهُمْ بَرْبَرِيَّةٌ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبِذُوا الْعَرَبَ وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّ الْعَرَبِ ﷺ، وَأَنْ يُحْيُوا ثَقَافَتَهُمْ وَلُغَتَهُمْ، وَيَعْتَزُّوا بِأَصْلِهِمْ بَدَلَ انْتِمَائِهِمْ لِأُمَّةِ الْعَرَبِ.

يَقُولُ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ: شَعَرَ الْمُسْتَعْمِرُ بِاسْتِحَالَةِ اقْتِلَاعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَرْضِ الْجَزَائِرِ وَغَرْسِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مَكَانَهَا، فَلَجَؤُوا إِلَى وَسِيلَةٍ مُسَاعِدَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ الْإِيحَاءُ لِأَكْبَرِ عَدَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْجَزَائِرِ بِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ لُغَةً أَصْلِيَّةً فِي الْجَزَائِرِ، وَإِنَّمَا اللُّغَةُ الْأَصْلِيَّةُ لِسُكَّانِ الْجَزَائِرِ هِيَ اللُّغَةُ الْبَرْبَرِيَّةُ لُغَةُ الْأَمَازِيغِ، وَقَدْ تَطَوَّعَ الْفَرَنْسِيُّونَ لِوَضْعِ أَبْجَدِيَّةٍ لَهَا كَيْمَا يُمْكِنُ كِتَابَتُهَا(١٧).

وَفَرَنْسَا تَقُومُ بِمَعُونَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ مَجَّانِيَّةٍ بِإِرْسَالِ مُدَرِّسِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَإِغْرَاقِ الْأَسْوَاقِ المَغْرِبِيَّةِ بِالْكُتُبِ وَالْأَفْلَامِ الْفَرَنْسِيَّةِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْبَرَامِجِ التِّلِفِزْيُونِيَّةِ؛ وَأُوقِفَ مَشْرُوعُ التَّعْرِيبِ فِي الْبُلْدَانِ المَغْرِبِيَّةِ بِحُجَّةِ أَنَّ التَّعْرِيبَ أَدَّى لِلْأُصُولِيَّةِ وَالتَّطَرُّفِ!

وَوَقَفَ أَحَدُ المُسَوِّقِينَ مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ لِلُّغَةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ خَطِيبًا فِي أَتْبَاعِهِ يَقُولُ: إِذَا كَانَ الْعَرَبُ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ قَدْ وَصَلُوا فَوْقَ النِّيَاقِ إِلَى المَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ، فَأَنَا سَأَكُونُ مَعَهُمْ رَفِيقًا وَأُعِيدُهُمْ عَلَى مَتْنِ «الْبُوينْغ» إِلَى بِلَادِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ(١٨).

---

(١٧) القائل هو الكاتب والمترجم السوري «شحادة الخوري». ينظر: الهجمة على اللغة العربية، مجلة البيان عدد (١٤٧) ص(٤٦).

(١٨) الأمازيغ بين تآمر الحكم والهيمنة الفرنكفوانية، حسن الرشيدي، مجلة البيان، عدد (١٦٤)، ص(٧٨).

وَمَا عَلِمَ هَذَا الْجَاهِلُ الْمَخْبُولُ الْمَرْذُولُ أَنَّ أَجْدَادَهُ الْبَرْبَرَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- هُمْ مَنْ فَتَحُوا الْأَنْدَلُسَ، وَهُمْ مَنْ عَلَّمُوا أَهْلَهَا الْعَرَبِيَّةَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِقِيَادَةِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ الْأَمَازِيغِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ عَبَرَ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ عَبْرَ مَضِيقٍ سُمِّيَ بِاسْمِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّمُ الطُّلَّابُ الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ مَتْنَ الْآجُرُومِيَّةِ فِي مَبَادِئِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيَدِينُونَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ لِمُؤَلِّفِهِ، وَيَتَرَحَّمُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ قِرَاءَةِ جُزْءٍ مِنْ مَتْنِهِ، وَهُوَ مَغْرِبِيٌّ أَمَازِيغِيٌّ بَرَعَ فِي النَّحْوِ، فَكَتَبَ فِيهِ هَذَا الْمَتْنَ الْمُخْتَصَرَ الْمُفِيدَ، فَكَانَ مَرْجِعًا لِطُلَّابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَرْضِهِ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً(١٩).

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ كَتَبُوا فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ وَعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تَكُنْ أُصُولُهُمْ عَرَبِيَّةً، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ اللُّغَةِ وَمَغَالِيقَهَا، فَبَرَعُوا فِيهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ أُصُولُهُمْ عَرَبِيَّةً، فَاسْتَقْرَؤُوا كَلَامَ الْعَرَبِ وَشِعْرَهُمْ، وَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ وَقَانُونَهَا، فَجَمَعَهُمُ الْإِسْلَامُ مِنْ شَتَّى الْأَجْنَاسِ وَالْأَعْرَاقِ، فَاتَّحَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَانْحَازُوا عَنْ لُغَاتِهِمُ الْأَعْجَمِيَّةِ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، فَتَعَلَّمُوهَا دِيَانَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَاسْتَعْذَبُوهَا تَدَبُّرًا لِكِتَابِهِ سُبْحَانَهُ، فَرَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى فَهْمَهَا وَتَقْعِيدَهَا.

ثُمَّ نَبَتَتْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ نَبْتَةٌ عَاقَّةٌ سَيِّئَةٌ تُنَادِي بِالرُّجُوعِ إِلَى عَصَبِيَّاتِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتُطَالِبُ بِنَبْذِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لُغَةِ الْقُرْآنِ الَّذِي آمَنُوا بِهِ، وَأَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَجْدَادَهُمْ؛ فَنَقَلَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْقِيَادَةِ وَالسِّيَادَةِ.

كَمَا نَبَتَ فِي الْعَرَبِ نَبْتَةٌ سَيِّئَةٌ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى نَبْذِ لُغَتِهِمْ وَاسْتِبْدَالِ اللُّغَاتِ

---

(١٩) وهو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي أبو عبد الله، المتوفى سنة ٧٢٣هـ.

الْأَجْنَبِيَّةِ بِهَا، بِحُجَّةِ أَنَّهَا لُغَاتُ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ.

وَلَنْ يَكِلَّ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ دَحْضِ الْحَقِّ بِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى مُبْطِلٌ كَيْدَهُمْ، وَمُحْبِطٌ عَمَلَهُمْ، وَمُظْهِرٌ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

فَاسْتَمْسِكُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا مَكَانَةَ لُغَتِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ عِزِّكُمْ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تُفَرِّطُوا فِيهَا! فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهَا: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمْ تَكُنِ الدُّوَلُ الْخَلِيجِيَّةُ بَعِيدَةً عَنِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَأَذْنَابِهِمْ فِي حَرْبِهِمْ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ إِذْ سَلَّطُوا عَلَيْهَا اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ، وَمَكَّنُوا لَهَا لِتُزَاحِمَ

الْعَرَبِيَّةَ فِي الْمَدَارِسِ وَالمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ، وَمَا فَرْضُ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَى طُلَّابِ التَّعْلِيمِ الْعَامِّ إِلَّا خُطْوَةٌ فِي هَذَا الْمَشْرُوعِ التَّدْمِيرِيِّ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ كَانَتِ الْكَارِثَةُ الْكُبْرَى بِالسَّمَاحِ لِلْمَدَارِسِ الْأَهْلِيَّةِ أَنْ تَضَعَ مِنْهَاجَهَا، وَتُدَرِّسَ طُلَّابَهَا بِاللُّغَةِ الَّتِي تَخْتَارُهَا؛ لِتَتَوَزَّعَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ الْمَدَارِسُ الْأَهْلِيَّةُ عَلَى لُغَاتِ الْعَالَمِ، وَيُصْبِحَ مُجْتَمَعُنَا مَجْمَعًا لِتِلْكَ اللُّغَاتِ، وَانْتِمَاءُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَائِهِ وَوَلَاؤُهُ لِأَهْلِ اللُّغَةِ الَّتِي أَضْحَتْ لُغَتَهُ التَّعْلِيمِيَّةَ الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ دَرَسَهَا فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دِرَاسَتِهِ.

إِنَّ لِلُّغَةِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي تَرْسِيخِ الْوَلَاءِ، وَتَكْرِيسِ الِانْتِمَاءِ، وَالْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَأْلَفُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَمَنْ تَتَبَّعَ أَحْوَالَ الْمُسَافِرِينَ فِي مَحَطَّاتِ سَفَرِهِمْ ثَبَتَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ.

وَالْمُغْتَرِبُونَ لِلدِّرَاسَةِ أَوْ لِلْعَمَلِ أَوْ لِلْعِلَاجِ تُؤَلِّفُهُمُ اللُّغَةُ، وَتَجْمَعُهُمْ بُلْدَانُهُمْ، فَكُلُّ أَهْلِ بَلَدٍ لَهُمْ رَابِطَةٌ تُوَحِّدُهُمْ، وَمُسْتَقَرٌّ يَجْمَعُهُمْ، وَأَقْوَى دَافِعٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَوْنُ لَهَجَاتِهِمْ وَاحِدَةً.

وَكُلُّ دَوْلَةٍ غَرْبِيَّةٍ نَرَاهَا تَسْتَمِيتُ فِي نَشْرِ لُغَاتِهَا فِي أَدْغَالِ أَفْرِيقِيَّةَ، وَفِي الْبُلْدَانِ الْفَقِيرَةِ، وَتَبْذُلُ أَمْوَالًا طَائِلَةً فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَالسِّبَاقُ بَيْنَ الدُّوَلِ الْغَرْبِيَّةِ عَلَى أَشُدِّهِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ. فَلِمَاذَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَنْشُدُونَ مِنْ أَفْرَادٍ يُعَلِّمُونَهُمْ لُغَتَهُمْ وَهُمْ مُتَخَلِّفُونَ عَنْ حَضَارَتِهِمْ بِمِئَاتِ السِّنِينَ؟!

إِنَّهُمْ يَنْشُدُونَ وَلَاءَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ انْتِمَاءَهُمْ، وَيُدْرِكُونَ أَنَّ تَبْدِيلَ أَلْسُنِ هَذِهِ الشُّعُوبِ إِلَى لِسَانِهِمْ يُكَرِّسُ تَبَعِيَّتَهُمْ لَهُمْ، وَالدُّوَلُ الْمُسْتَعْمِرَةُ مِنْ أَوَّلِ مَا تَقُومُ بِهِ إِذَا احْتَلَّتْ بَلَدًا أَنْ تَضَعَ لِلُغَتِهَا مَوْضِعَ قَدَمٍ فِيهِ.

يَقُولُ الرَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «مَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذُلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ

إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ، وَمِنْ هَذَا يَفْرِضُ الْأَجْنَبِيُّ الْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا، وَيَسْتَلْحِقُهُمْ مِنْ نَاحِيَتِهَا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ:

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سَجْنًا مُؤَبَّدًا.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَالْحُكْمُ عَلَى مَاضِيهِمْ بِالْقَتْلِ مَحْوًا وَنِسْيَانًا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا، فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ»[٢٠].

وَالرَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حِينَ يَكْتُبُ هَذَا الْكَلَامَ فَإِنَّهُ قَدْ عَاصَرَ الِاسْتِعْمَارَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى مَا يَفْعَلُ الْغُزَاةُ مِنْ طَمْسٍ لِلُغَةِ مَنْ يَسْتَعْمِرُهُمْ وَإِحْلَالِ لُغَتِهِ مَكَانَهَا.

إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ أَخْرَجُوا عِبْرِيَّتَهُمْ مِنْ قَبْرِهَا، وَأَحْيَوْا مَوَاتَهَا، وَجَعَلُوهَا اللِّسَانَ الْوَحِيدَ بَيْنَهُمْ، وَارْتَضَوْهَا لُغَةَ التَّدْرِيسِ لِطُلَّابِهِمْ، حَتَّى فِي الْمَوَادِّ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّجْرِيبِيَّةِ لَا يُدَرِّسُونَهَا لِأَوْلَادِهِمْ إِلَّا بِالْعِبْرِيَّةِ.

وَالْيَابَانِيُّونَ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنَ التَّقَدُّمِ مَا بَلَغُوا حَافَظُوا عَلَى لُغَتِهِمْ، وَجَعَلُوهَا لُغَةَ الْعِلْمِ فِي بِلَادِهِمْ، وَتَرْجَمُوا كُتُبَ الْغَرْبِيِّينَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَفْرِضُوا اللُّغَاتِ الْغَرْبِيَّةَ عَلَى طُلَّابِهِمْ.

وَهَكَذَا فَعَلَ الْكُورِيُّونَ، وَهُمْ فِي الصِّنَاعَةِ وَالتِّقْنِيَّاتِ مَا تَعْلَمُونَ، وَأَمَّا الصِّينِيُّونَ فَأَمْرُهُمْ عَجَبٌ؛ إِذْ مَا يَصْدُرُ الْيَوْمَ كِتَابٌ عِلْمِيٌّ فِي الْغَرْبِ إِلَّا وَيَنْبَرِي لَهُ الْمُتَرْجِمُونَ لِيُطْبَعَ مِنَ الْغَدِ بِاللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي رَضِيَتْ لِطُلَّابِهَا أَنْ تُزَاحِمَهُمُ اللُّغَاتُ الْأَجْنَبِيَّةُ فِي

---

(٢٠) وحي القلم (٣/ ٢٧).

مَدَارِسِهِمْ، فَتُفْسِدَ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَذْوَاقَهُمْ، فَمَا رَأَيْنَاهَا تَقَدَّمَتْ بِهَذِهِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَقَدْ عَاشَتْ فِي هَذَا الضَّلَالِ عُقُودًا كَثِيرَةً، بَلْ هِيَ تَرْسُفُ فِي أَغْلَالِ التَّخَلُّفِ وَالضَّعْفِ وَالتَّبَعِيَّةِ لِلْغَيْرِ!

أَيَغَارُ الْيَهُودُ وَأَهْلُ الصِّينِ وَالْيَابَانِ وَكُورْيَا عَلَى لُغَاتِهِمْ، وَيُحَافِظُونَ عَلَى أَلْسُنِ طُلَّابِهِمْ، مَعَ أَنَّ لُغَاتِهِمْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ لُغَةِ الْقُرْآنِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَجُمَلِهَا وَبَلَاغَتِهَا، وَاسْتِيفَائِهَا لِحَاجَاتِ الْعَصْرِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِ؛ وَيَتَنَكَّرُ الْعَرَبُ لِلُغَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ بِهَا، فَيُزَاحِمُونَهَا بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِحُجَّةِ التَّقَدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ، وَاسْتِيفَاءِ حَاجَاتِ الْعَصْرِ؟!

كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْبِلَادَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي زَاحَمَتْ عَرَبِيَّتَهَا بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ مَا أَفْلَحَتْ وَلَا تَقَدَّمَتْ؟ وَيَرَوْنَ أَنَّ الْبِلَادَ الْوَثَنِيَّةَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي الشَّرْقِ قَدْ حَافَظَتْ عَلَى لِسَانِهَا، وَطَوَّعَتِ الْعُلُومَ لِلُغَاتِهَا، وَمَا ضَرَّهَا ذَلِكَ؟!

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا يَكُونُ أَنْ يَدْعُوَ الدَّاعُونَ إِلَى الْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ، وَالِانْتِمَاءِ الْوَطَنِيِّ، ثُمَّ تُفْرَضَ عَلَيهِمِ اللُّغَاتُ الْأَجْنَبِيَّةُ، وَيُمَكَّنَ لَهَا فِي بِلَادِهِمْ؛ لِتَحُلَّ مَحَلَّ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ وِعَاءُ الْوَلَاءِ وَالِانْتِمَاءِ، فَكَيْفَ يَنْتَمِي قَوْمٌ لِبِلَادٍ رَضِيَتْ أَنْ تُزَاحِمَ لُغَتَهَا لُغَاتٌ أَجْنَبِيَّةٌ؟!

وَمَنْ تَعَلَّمَ مُنْذُ صِغَرِهِ لُغَةً حَتَّى أَضْحَتْ لُغَتَهُ الْأُولَى فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ جُذُورَهَا وَثَقَافَتَهَا وَتَارِيخَ أَهْلِهَا، فَيَنْتَمِي إِلَيْهِمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بِلَادِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ نَشَئُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَلْسُنِ الْغَرْبِ وَلُغَاتِهِمْ كَانَ وَلَاؤُهُمْ إِلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِنْ وَلَائِهِمْ لِأُمَّتِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا فَضْلَ لُغَتِكُمْ، وَمَكَانَتَهَا مِنْ دِينِكُمْ، وَقَوِّمُوا بِهَا أَلْسُنَ أَوْلَادِكُمْ؛ فَإِنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَلُغَةُ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يَعْتَنُونَ

بِهَا، وَيُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ فِيهَا. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ»[٢١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٢١) فتاوى ابن تيمية (٣٢/ ٢٥٥).

٣٦٦- تفضيل الرجال على النساء

١/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ خَالِقِ الخَلْقِ، وَمَالِكِ المُلْكِ، وَمُدبِّرِ الأَمْرِ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُشْكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كُلُّ الخَلْقِ طَوْعُ أَمْرِهِ، خَاضِعُونَ لِحُكْمِهِ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى العَالَمِينَ، فَجَعَلَهُ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنَ العِلْمِ وَالهُدَى، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا نَجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فَوْزَ فِي الآخِرَةِ إِلَّا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَطَاعَةِ رُسُلِهِ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ: أَنْ جَعَلَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فِي الأَرْضِ شَطْرَيْنِ؛ فَشَطْرٌ ذُكُورٌ، وَالشَّطْرُ الآخَرُ إِنَاثٌ، مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَحَيَوَانٍ وَطَيْرٍ وَحَشَرَاتٍ وَنَبَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .. بَلْ جَاءَ فِي القُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ

السُّنَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ وَذَلِكَ القَانُونَ الإِلَهِيَّ عَامٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩](١).

---

(١) روى الطبري عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال: «الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والإنس والجنّ» (٢٢/ ٤٣٩).
وقال البغوي: «صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد» (٧/ ٣٧٩).
وقال ابن كثير: «أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات، جن وإنس، ذكور وإناث، والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له» تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٤).
وقال الراغب في المفردات: «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فتنبيه أنّ الأشياء كلّها مركّبة من جوهر وعرض، ومادّة وصورة، وأن لا شيء يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعًا، وأنه لا بدّ له من صانع تنبيهًا أنه تعالى هو الفرد، وقوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فبيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج من حيث إنّ له ضدًّا، أو مثلًا ما، أو تركيبًا ما، بل لا ينفكّ بوجه من تركيب، وإنما ذكر هاهنا زوجين تنبيهًا أنّ الشيء - وإن لم يكن له ضدّ، ولا مثل- فإنه لا ينفكّ من تركيب جوهر وعرض، وذلك زوجان» المفردات (٣٨٥).
وقال الشيخ عطية سالم في تكملة الأضواء: «ثبت علميًّا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة، فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات، والذرة لها نواة ومحيط، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر، حتى في أدق عالم الصناعة؛ كالكهرباء؛ فإنها من سالب وموجب، وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان، حتى الماء الذي كان يظن به البساطة؛ فهو زوج وشفع من عنصرين: أوكسجين وهيدروجين، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة -أي: الغليان- ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء، وهكذا. =

وَهَذَا التَّقْسِيمُ هُوَ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ ﷻ وَوَحْدَانِيَّتِهِ؛ وَلِذَا جَاءَ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ فِي مَعْرِضِ الرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦]، كَمَا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى البَعْثِ وَالنُّشُورِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩]، وَمِنْ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ يَكُونُ التَّنَاسُلُ وَالتَّكَاثُرُ عَبْرَ الِاتِّصَالِ وَالتَّزَاوُجِ، وَفِي مَا يَخُصُّ بَنِي آدَمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالأَصْلُ فِي هَذَا الخَلْقِ الرَّجُلُ، ثُمَّ خُلِقَتِ الأُنْثَى مِنْهُ كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وَفِي آيَةِ الأَعْرَافِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فَهَذَا البَيَانُ العَظِيمُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ يُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ وُجِدَ الْبَشَرُ .. وَيَكْشِفُ عَنِ الأَصْلِ الَّذِي تَنَاسَلُوا مِنْهُ. وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ بَدَهِيَّةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ هُمْ يَتَلَقَّوْنَهَا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُبَاشَرَةً صِغَارًا وَكِبَارًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، وَهِيَ مِنَ الْوُضُوحِ بِمَا لَا يُحِيجُ الْمُتَلَقِّينَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى تَفْسِيرِهَا أَوْ مُرَاجَعَةِ أَحَدٍ

= ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب، فلم يبق في الكون شيء قط فردًا وترًا بذاته، إلا ما نص عليه الحديث: «إن الله وِتْر يُحِبّ الوِتْرَ»، ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغن بذاته عن غيره، والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فصفاته كلها وتر؛ كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت .. إلخ. بخلاف المخلوق، وقلنا: المستغني بذاته عن غيره؛ لأن كل مخلوق شفع، فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني؛ ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك» (٨/ ٥٢٢).

فِي فَهْمِهَا، وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: فَلِمَاذَا إِذن تُذْكَرُ فِي هَذَا الوَقْتِ، وَيَتِمُّ التَّأْكِيدُ عَلَيْهَا بِسَرْدِ الآيَاتِ فِي إِثْبَاتِهَا؟

إِنَّنَا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- فِي زَمَنٍ صَارَتْ فِيهِ الحَقَائِقُ أَوْهَامًا، وَأَضْحَتِ الثَّوَابِتُ ظُنُونًا، وَقُلِبَ الحَقُّ إلى بَاطِلٍ؛ بِسَبَبِ الدِّعَايَاتِ الإِعْلَامِيَّةِ الْكَاذِبَةِ، المُؤَيَّدَةِ بِالقُوَى الإِلْحَادِيَّةِ الظَّالِمَةِ المُسْتَكْبِرَةِ الَّتِي تَفْرِضُ رُؤْيَتَهَا الإِلْحادِيَّةَ الشَّاذَّةَ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْبَشَرِ عَلَى كَافَّةِ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ. وَمَعَ كَثْرَةِ الطَّرْقِ الإِعْلَامِيِّ، وَالضُّغُوطِ الاقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالتَّخْوِيفِ بِالقُوَّةِ العَسْكَرِيَّةِ تَتَغَيَّرُ كَثِيرٌ مِنَ القَنَاعَاتِ تَأَثُّرًا بِتِلْكَ الأُطْرُوحَاتِ الآثِمَةِ، أَوْ مُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ الضَّاغِطِ عَلَى الإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ.

إِنَّ النُّصُوصَ القُرْآنِيَّةَ -الآنِفَ ذِكْرُهَا- تُقَرِّرُ أَنَّ الأَصْلَ فِي الوُجُودِ البَشَرِيِّ هُوَ الجِنْسُ الذَّكَرِيُّ، وَمِنْ ثَمَّ خُلِقَتِ المَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، فَالرَّجُلُ أَصْلُ المَرْأَةِ، وَالمَرْأَةُ فَرْعٌ عَنْهُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالفَرْعُ لَا يَكُونُ مِثْلَ الأَصْلِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْهُ.

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ الَّتِي قُرِّرَتْ فِي القُرْآنُ لَا تُرْضِي المَلَاحِدَةَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ادِّعَائِهِمُ القَاضِي بِالمُسَاوَاةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ؛ حَتَّى بَلَغُوا مَا بَلَغُوا فِي إِلْحَادِهِمْ بِزَعْمِهِمْ إِلْغَاءَ تَقْسِيمِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ الجِنْسَ البَشَرِيَّ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَإِبَاحَةَ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِرْجَالِ النِّسَاءِ وَتَأْنِيثِ الرِّجَالِ، وَاكْتِفَاءِ الرِّجَالِ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الهَوَى وَالرَّدَى، وَالتَّعَدِّي عَلَى رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الأَعْلَى.

إِنَّ اللهَ ﷻ هُوَ خَالِقُ الخَلْقِ، وَمُقَسِّمُ الْبَشَرِ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَهُوَ الَّذِي يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ أَفْرَادًا؛ كَالأَنْبِيَاءِ، وَقَبَائِلَ؛ كَقُرَيْشٍ، وَجِنْسًا؛

كَالْعَرَبِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِلَّا لَكَانَ مُنَازِعًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ وَحُكْمِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وَقَدْ خَلَقَ جَلَّ فِي عُلَاهُ جِنْسَ الرِّجَالِ، وَخَلَقَ جِنْسَ النِّسَاءِ مِنْ ضِلْعِ أَوَّلِ رَجُلٍ خَلَقَهُ، وَفَضَّلَ الرِّجَالَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ وَلَا نُبُوَّةَ فِي النِّسَاءِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

وَالوِلَايَةُ العَامَّةُ، وَالنِّيَابَةُ عَنْهَا، كَالْقَضَاءِ وَالْوَزَارَةِ وَغَيْرِهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَلَا يُعْرَفُ خِلَافُ ذَلِكَ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا شُذُوذًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، اجْتَرَّهُ بَعْضُ المَفْتُونِينَ بِالْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ؛ لِيَجْعَلُوهُ حُجَّةً عَلَى النُّصُوصِ الوَاضِحَةِ؛ وَقَدْ قَالَ المُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»(٢).

وَالمَرْأَةُ لَا تَمْلِكُ وِلَايَتَهَا عَلَى نَفْسِهَا فِي النِّكَاحِ فَلَا تُنْكَحُ إِلَّا بِوَلِيِّها فَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ يَخُصُّهَا، فَكَيْفَ إِذَنْ بِوِلَايَتِهَا عَلَى غَيْرِهَا؟!

وَطَلَاقُهَا لَيْسَ بِيَدِهَا، بَلْ هُوَ فِي يَدِ مَنْ يَمْلِكُ عِصْمَتَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا، وَأَوْلَادُهَا فِي تَسْمِيَتِهِمْ لَا يُنْسَبُونَ إِلَى قَبِيلَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الحَامِلَ وَالمُرْضِعَ وَالحَاضِنَ؛ وَلَوْ كَانَتْ بِنْتَ الأَشْرَفِينَ، وَكَانَ زَوْجُهَا ابْنَ الأَرْذَلِينَ؛ بَلْ يُنْسَبُونَ إِلَى أَبِيهِمْ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا فَاجِرًا، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا وَلَوْ لَمْ يُؤَدِّ حُقُوقَهَا عَلَيْهِ.

---

(٢) أخرجه من حديث أبي بكرة ﷺ: البخاري في المغازي، باب في كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤١٦٣)، والترمذي في الفتن، باب (٧٥) (٢٢٦٢)، والنسائي في آداب القضاة، باب النهي عن استعمال النساء في الحكم (٨/ ٢٢٧)، وأحمد (٥/ ٥٠).

وَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فِي المِيرَاثِ، وَشَهَادَةُ الرَّجُلِ عَنْ شَهَادَةِ امْرَأَتَيْنِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ من الآية [البقرة: ٢٨٢].

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النِّسَاءَ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ(٣)، وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ فِي الرِّجَالِ.

وَاطَّلَعَ ﷺ فِي النَّارِ قَالَ: «**فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤)، وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرِّجَالِ.

وَالمَوْلُودُ الذَّكَرُ يُعَقُّ عَنْهُ بِشَاتَيْنِ، وَالأُنْثَى بِشَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَدِيَةُ المَرْأَةِ نِصْفُ دِيَةِ الرَّجُلِ.

وَالمَرْأَةُ قَدْ وُضِعَ عَنْهَا الجِهَادُ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا وَشِدَّةِ عَاطِفَتِهَا، وَغَايَةُ جِهَادِهَا الحَجُّ وَالعُمْرَةُ. وَالجُمَعُ وَالجَمَاعَاتُ وَالنِّدَاءُ لِلصَّلَاةِ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ.

وَالرَّجُلُ يُسَافِرُ مَتَى شَاءَ، وَأَمَّا المَرْأَةُ فَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٥).

---

(٣) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: البخاري في الحيض، باب ترك الحائض للصوم (٢٩٨).
وأخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الكسوف، باب طول السجود في الكسوف (١٠٠٤)، ومسلم في الكسوف، باب ما عرف عن النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).
وجاء من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عند: البخاري (٤٩٠٢).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في تقصير الصلاة، باب في كم تقصر الصلاة (١٠٣٨)، ومسلم في الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٨).

وَالمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، وَالرَّجُلُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْبَنَاتُ ابْتِلَاءٌ يَبْتَلِي اللهُ تَعَالَى بِهِ مَنْ شَاءَ مِنَ الآبَاءِ؛ لِضَعْفِهِنَّ وَحَاجَتِهِنَّ لِمَنْ يَقُومُ بِشُؤُونِهِنَّ؛ وَلِذَلِكَ رُتِّبَ عَلَى رِعَايَتِهِنَّ مِنَ الْأُجُورِ لِلْآبَاءِ مَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَى رِعَايَةِ الذُّكُورِ مِنَ الأَوْلَادِ؛ كَمَا رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»[٦]، فَجَعَلَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ جُمْلَةِ مَا يُبْتَلَى بِهِ الآبَاءُ، وَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي حَقِّ الأَبْنَاءِ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»[٧].

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ**، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ القَوْمِ: وَثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَثِنْتَيْنِ**» رَوَاهُ اَلبُخَارِيُّ فِي الأَدَبِ المُفْرَدِ[٨].

وَالزَّوْجُ قَائِمٌ عَلَى زَوْجَتِهِ لَا خُرُوجَ لَهَا عَنْ أَمْرِهِ، إِلَّا إِذَا أَمَرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا أَرْضَتِ المَرْأَةُ زَوْجَهَا فَقَدْ أَرْضَتْ رَبَّهَا، وَإِذَا أَغْضَبَتْهُ أَغْضَبَتْ رَبَّهَا، وَمِنْ أَسْبَابِ دُخُولِهَا الجَنَّةَ: طَاعَتُهَا لِزَوْجِهَا.

---

(٦) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (١٣٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

(٧) أخرجه مسلم في الكتاب والباب السابقين (٢٦٣١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨).
وجاء بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٨٤٢٥)، والبيهقي في الشعب (٨٦٧٨).
وجاء بنحوه عن أنس رضي الله عنه عند: أحمد (١٢٥٩٣)، وأبي يعلى (٣٤٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٥).

وَهَذَا القِيَامُ الَّذِي اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ الرِّجَالَ دُونَ النِّسَاءِ بَيَّنَ القُرْآنُ أَنَّ عِلَّتَهُ تَفْضِيلُ جِنْسِ الرِّجَالِ عَلَى جِنْسِ النِّسَاءِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء: ٣٤](٩)، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى

(٩) قال البغوي: «أي: مسلطون على تأديبهن، والقَوَّام والقَيِّمُ بمعنى واحد، والقوَّام أبْلَغ، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: فَضَّلَ الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالشهادة، لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أن الرجل ينكح أربعًا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدية، وقيل: بالنبوة» تفسير البغوي (٢/ ٢٠٧).
وقال الزمخشري: «يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا. وسموا قوّاما لذلك. والضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ للرجال والنساء جميعًا، يعنى: إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال، على بعض وهم النساء. وفيه دليل على أنّ الولاية إنما تُسْتَحَقّ بالفضل، لا بالتغلب والاستطالة والقهر. وقد ذكروا في فضل الرجال: العقل، والحزم، والعزم، والقوّة، والكتابة في الغالب، والفروسية، والرمي، وأنّ منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والاعتكاف، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة، والشهادة في الحدود، والقصاص، وزيادة السهم، والتعصيب في الميراث، والحمالة، والقسامة، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، وهم أصحاب اللحى والعمائم» تفسير الزمخشري (١/ ٥٠٥).
وقال السعدي: «أي: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع. وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلَد الذي ليس للنساء مثله. وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء. =

ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ؛ وَقَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ فَلَهُ مُرَاجَعَتُهَا بِلَا اخْتِيَارِهَا مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨][١٠]، وَقَدْ أَقَرَّ اللهُ ﷻ مَقُولَةَ امْرَأَةِ عِمْرَانَ حِينَ رُزِقَتْ

= ولعل هذا سر قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾، وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة. فعُلِمَ مِنْ هذا كلِّهِ أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به. ووظيفتها: القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ تَوَكَّلَ على الله كفاه ما أَهَمَّه من أمر دينه ودنياه» تفسير السعدي (١٧٧).

(١٠) قال أبو بكر بن العربي: «هذا نص في أنه مُفَضَّل عَلَيْهَا مُقَدَّم في حقوق النكاح فوقها، لكن الدرجة هاهنا مجملة غير مبين ما المراد بها منها؟ وإنما أخذت من أدلة أخرى سوى هذه الآية، وأعلم الله تعالى النِّسَاء هاهنا أن الرجال فوقهن، ثم بين على لسان رسوله ذلك. وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الدرجة على أقوال كثيرة؛ فقيل: هو الميراث، وقيل: هو الجهاد، وقيل: هو اللحية؛ فطوبى لعبد أمسك عَمَّا لا يعلم، وخصوصًا في كتاب الله العظيم.

ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها. لكن الآية لم تأت لبيان درجة مطلقة حتى يتصرف فيها بتعديد فضائل الرجال على النساء؛ فتعين أن يطلب ذلك بالحق في تقدمهن في النكاح؛ فوجدناها على سبعة أوجه:

الأول: وجوب الطاعة، وهو حق عام.

الثاني: حق الخدمة، وهو حق خاص، وله تفصيل، بيانه في مسائل الفروع.

الثالث: حجر التصرف إلا بإذنه.

الرابع: أن تقدم طاعته على طاعة الله تعالى في النوافل، فلا تصوم إلا بإذنه، ولا تحج إلا معه.

الخامس: بذل الصداق.

السادس: إدرار الإنفاق. =

. . . .

= السابع: جواز الأدب له فيها» أحكام القرآن (١/ ٢٥٦-٢٥٧).
ونقل القرطبي كلام ابن العربي السابق ثم قال: «وعلى الجملة فدرجة تقتضي التفضيل، وتشعر بأن حق الزوج عليها أوجب من حقها عليه، ولهذا قال ﷺ: «**ولو أَمَرْتُ أحَدًا بالسجُودِ لِغَيْرِ الله لأَمَرْتُ المرأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**». وقال ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق، أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. قال ابن عطية: وهذا قول حسن بارع. قال الماوردي: يحتمل أنها في حقوق النكاح، له رفع العقد دونها، ويلزمها إجابته إلى الفراش، ولا يلزمه إجابتها. قلت: ومن هذا قوله ﷺ: «**أيما امْرَأةٍ دَعَاهَا زوجُهَا إلى فِرَاشِهِ فأَبَتْ عَلَيْهِ لَعَنَتْهَا الملائِكَةُ حتَّى تُصْبِحَ**»» تفسير القرطبي (٣/ ١٢٥).
وللرازي كلام جيد في ذلك، قال: «واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية:
أما الصفات الحقيقية: فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين: إلى العلم، وإلى القدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وإن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، وفي الأنكحة عند الشافعي ﷺ، وزيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث، وفي تحمل الدية في القتل والخطأ، وفي القسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء.
والسبب الثاني: لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعني: الرجل أفضل من المرأة؛ لأنه يعطيها المهر وينفق عليها» تفسير الرازي (١٠/ ٧١).
واستدل الرازي بآية المواريث على فضل الرجال على النساء ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ . . . ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: ١٢] فقال: في الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء؛ لأنه تعالى حيث ذكر الرجال في هذه الآية ذكرهم على سبيل المخاطبة، وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل المغايبة، وأيضًا: خاطب الله الرجال في هذه الآية سبع مرات، وذكر النساء فيها على سبيل الغيبة أقل من ذلك، وهذا يدل على تفضيل الرجال على النساء، وما أحسن ما راعى هذه الدقيقة؛ لأنه تعالى فَضَّلَ الرجال على النساء في النصيب، ونَبَّهَ بهذه الدقيقة على مَزِيد فَضْلِهِمْ عَلَيْهِنَّ» تفسير الرازي (٩/ ٥٢١).

بِمَرْيَمَ عليها السلام، وَقَلَّلَتْ مِنْ شَأْنِ الأُنْثَى إِزَاءَ الذَّكَرِ، وَأَنْزَلَ اللهُ هَذَا الإِخْبَارَ مِنْهَا قُرْآنًا يُتْلَى مَا دَامَتِ الدُّنْيَا: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦](١١).

---

(١١) قال الطبري: «﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدْس والقيام بخدمة الكنيسة؛ لما يعتريها من الحيض والنفاس. ثم نقل الطبري بسنده عن قتادة قال: كانت المرأة لا يستطاع أن يصنع بها ذلك، يعني: أن تحرر للكنيسة، فتجعل فيها، تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى، فعند ذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾» تفسير الطبري (٦/ ٣٣٤-٣٣٥)

وقال ابن عطية: «وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها، وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد» المحرر الوجيز (١/ ٤٣٢).

وقال الزمخشري: «﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وما أرادت إلى هذا القول؟

قلت: قالته تحسرًا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا، ولذلك نذرته محررًا للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيمًا لموضوعها، وتجهيلًا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما عُلِّق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا، فلذلك تحسَّرَت، وفي قراءة ابن عباس: (واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتِ) على خطاب الله تعالى لها، أي: إنك لا تعْلَمِين قدْرَ هذا الموهوب، وما علم الله مِنْ عِظَمِ شأنه وعُلُوِّ قدره، وقرىء (وضعت) بمعنى: ولَعَلَّ لله تعالى فيه سرًّا وحكمة، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر؛ تسلية لنفسها» الكشاف (١/ ٣٨٤).

وذكر الرازي قولين في الآية:

«الأول: أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه:

أحدها: أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث.

والثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى؛ لمكان الحيض، وسائر عوارض النسوان.

والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى؛ فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة.

والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. =

. . . .

= والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى.
فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.
والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت: الذكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه» تفسير الرازي (٨/ ٢٠٤).
وقال أبو السعود: «أي: ليس الذكرُ الذي كانت تطلُبه وتتخيل فيه كمالًا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأنثى التي وُهِبتْ لها؛ فإن دائرةَ علمِها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيه من جلائل الأمور، هذا على القراءتين الأُولَيَيْن، وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه: وليس الذكر كهذه الأنثى في الفضيلة، بل أدنى منها، وأما على التفسير الأول لها فمعناه: تأكيدُ الاعتذارُ ببيان أن الذكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزية وصلاحيةِ خدمة المتعبّدات؛ فإنهن بمعزل من ذلك، فاللامُ للجنس» تفسير أبي السعود (٢/ ٢٨-٢٩).
وقال السعدي: «كأن في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجَبَرَ الله قلبها، وتقَبَّلَ الله نَذْرَهَا، وصارت هذه الأنثى أَكْمَلَ وأَتَمَّ مِنْ كثير من الذكور، بل مِنْ أَكْثَرِهِمْ، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحْصُلُ بالذكر، ولهذا قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلًا» تفسير السعدي (٩٦٦).
وحاصل كلام المفسرين المنقول:
الأول: تفضيل جنس الذكورة على الأنوثة، وأن امرأة عمران عليها السلام رغبت في ذكر؛ لأنه الأفضل والأكمل لنذرها، والناذر يطلب الكمال فيما ينذر، فلما وضعتها أنثى تحسرت لفوات هذا الكمال.
الثاني: أن فيه ترجيح هذه الأنثى بخصوصها على الذكر الذي تطلبه، فهي أفضل من كثير من الذكور، وما وقع بعد ذلك لمريم عليها السلام من قنوتها وعبادتها وحملها بالمسيح عليه السلام بلا وطء دليل على أن هذا هو المعنى المقصود.
الثالث: بعض المفسرين نحا إلى أن الآية لا تدل على فاضل ومفضول، وإنما تدل على =

أَفَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ المُحْكَمَةِ الَّتِي يَجِبُ الوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَالتَّحَاكُمُ إِلَيْهَا؛ يَأْتِي أَفَّاكُونَ مُنَافِقُونَ، أَوْ أَغْرَارٌ جَاهِلُونَ؛ أَوْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ لِيَقُولُوا لَنَا: إِنَّ الذَّكَرَ كَالْأُنْثَى وَلَا فَرْقَ؟! وَيُصَدِّقُهُمْ مُسْلِمُونَ خَاضِعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَهُ،

= أن نذر امرأة عمران لا يمكن أن يتحقق إلا بذَكَر، فلما وضعت أنثى فاتها الوفاء بنذرها؛ لعدم صلاحية الأنثى للمهمة التي نَذَرَتِ المولود لأجلها.

هذا موجز كلام المفسرين مما نقلته وما وقفت عليه مما لم أنقله خشية الإطالة، ولم أقف على من استدل بهذه الآية على تفضيل جنس النساء على جنس الرجال، كيف؟ وصريح القرآن يدل على خلاف ذلك في آيات كثيرة، ويدل على تفضيل جنس الرجال على النساء، كما في الآيات المذكورة في صلب الخطبة، وقال تعالى عن امرأتي نوح ولوط ﷺ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التَّحريم: ١٠] فجعل سبحانه الزوجة تحت الزوج، فلا تكون مساوية له فضلًا عن أن تكون أفضل منه من جهة جنسه وجنسها، وقد خلقت المرأة مِنَ الرجل، فهي جزء منه، ولا يكون الجزء أفضل من الأصل ولا مساويًا له، والأدلة في ذلك كثيرة.

هذا فيما يتعلق بجنس الذكورة والأنوثة، لكن في آحاد النساء مَنْ هُنَّ أفضل من كثير من الرجال، وأسد رأيًا، وأكمل عقلًا، ومؤمنة واحدة أفضل من كل الكفار من الرجال.

وما دعاني لكتابة هذا أنني اطلعت في زمن العجائب هذا على مقولة لامرأة استدلت بمقولة امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] على تفضيل النساء على الرجال، وذلك في الملتقى النسائي المفتوح الذي عُقِدَ هذه الأيام في جدَّة لمناقشة وضع المرأة السعودية، فقالت رئيسة جمعية الإيمان الخيرية، ورئيسة لجنة الأسرة في منظمة حقوق الإنسان «الجوهرة العنقري» ما نصه: «إن مفهوم الآية القرآنية في سورة آل عمران ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ يعني: أن الأنثى أفضل من الرجل، فليس الرجل مثل المرأة» ووافقتها في هذا الخطأ الدكتورة «وفاء عز» بقولها: «من المعروف في قواعد البلاغة أن هناك المشبه والمشبه به، فهنا امرأة عمران تخبر ربها بأنها وضعت أنثى وليس الذكر كالأنثى، فالأفضلية للأنثى، مثلما نقول: الرجل ليس كالأسد، فالأسد هنا هو الأفضل» ونشر كلامهما في الصحف التي غطت وقائع الملتقى، ينظر: صحيفة الشرق الأوسط: ١٤٢٦/٣/١٨.

وهذا التقرير الذي ادعته المشاركتان في الملتقى شذوذ من القول، مصادم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يقل به أحد من أهل التفسير قديمًا وحديثًا -فيما وقفت عليه من كتبهم- والنصوص المذكورة في الخطبة تدل على خطأ هذه الفهم للآية الكريمة.

وَيَجِدُونَ فِيهِ هَذِهِ المُفَاضَلَةَ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، وَالفُرُوقَاتِ الكَثِيرَةَ بَيْنَهُمَا، أَهُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الخَلْقَ وَدَبَّرَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ شَرَائِعَ تَتَنَاسَبُ وَسُنَنَهُ الكَوْنِيَّةَ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ، فَمَنِ انْحَرَفَ عَنْهَا فَهُوَ يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ نَشَرَ انْحِرَافَهُ فِي النَّاسِ جَنَى عَلَيْهِمْ؟! فَإِنْ كَانَ الِانْحِرَافُ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُقَنَّنُ عَالَمِيًّا، وَيُفْرَضُ عَلَى الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ، فَوَيْلٌ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَلِمَنْ حَرَّفَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِتُوَائِمَ إِلْحَادَهُمْ، وَيْلٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عُقُوبَاتٍ عَاجِلَةٍ ظَهَرَ بَعْضُهَا فِي أَمْرَاضٍ فَتَّاكَةٍ، وَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ مُوجِبَاتِ سَخَطِهِ، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الإِسْلَامِ إِلَى المَمَاتِ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ قَضِيَّةَ تَفْضِيلِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ فِي الْجُمْلَةِ، هِيَ قَضِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ شَرْعًا، لَا يُجَادِلُ فِيهَا إِلَّا مُكَابِرٌ يُمَارِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مُجَازِفٌ بِتَكْذِيبِ آيِ الْقُرْآنِ، وَرَدِّ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَلَا يَمْنَعُ مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ أَنْ يُوجَدَ مِنْ آحَادِ النِّسَاءِ مَنْ هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ، بَلْ إِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الطَّائِعَةَ لِرَبِّهَا الْمُحْصِنَةَ لِفَرْجِهَا هِيَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنَ الكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَهَذَا التَّفْضِيلُ لِجِنْسِ الرِّجَالِ عَلَى جِنْسِ النِّسَاءِ يَجِبُ أَنْ يَرْضَى بِهِ كِلَا الْجِنْسَيْنِ؛ لِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَالْمُشَاقَّةُ فِيهِ مُشَاقَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ، وَمَنِ اعْتَرَضَ عَلَى ذَلِكَ فَيَلْزَمُهُ الِاعْتِرَاضُ عَلَى اصْطِفَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى سَائِرِ الرِّجَالِ وَهُمْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ؛ لِيَكُونَ فِي عِدَادِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَالنُّبُوَّةُ لَا تُكْتَسَبُ، بَلْ هِيَ اصْطِفَاءٌ وَاخْتِيَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

بَلْ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَتَمَنَّى مَنْزِلَةَ الرَّجُلِ أَوْ عَمَلَهُ، وَلَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﵂: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ المِيرَاثِ؟ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢][١٢].

(١٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٦٢٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النساء (٣٠٢٢)، وقال: هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلًا أن أم سلمة قالت: ... فذكره، وأحمد (٦/ ٣٢٢)، وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٦)، والطبري في تفسيره (٨/ ٢٦٢)، وأبو يعلى (٦٩٥٩)، والحاكم وصححه، وقال: على =

فَإِذَا نُهِيَ عَنْ مُجَرَّدِ تَمَنِّي أَحَدِ الجِنْسَيْنِ مَنْزِلَةَ الجِنْسِ الْآخَرِ فَكَيْفَ إِذًا بِمَنْ يُنَازِعُ اللهَ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَرُدُّ حُكْمَهُ، وَيَنْفِي حِكْمَتَهُ؛ بِتَقْرِيرِ المُسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ؛ مُوَافَقَةً لِأَهْلِ الْإِلْحَادِ فِي إِلْحَادِهِمْ؟!

وَأَيُّ إِسْلَامٍ يَدَّعِيهِ مَنْ تَلَطَّخَ بِهَذَا الْإِثْمِ المُبِينِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَصِيحُونَ بِذَلِكَ، وَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ مَغَبَّةَ مَا يَفْعَلُونَ! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الهِدَايَةَ وَالْعِصْمَةَ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: احْتَفَلَ المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بِالْيَوْمِ الْعَالَمِيِّ لِلْمَرْأَةِ(١٣)، وَتَنَادَوْا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، وَرَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا مُطَالِبِينَ بِرَفْعِ وِصَايَةِ الرِّجَالِ عَنِ النِّسَاءِ فِي الْبِلَادِ المُسْلِمَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنْشُرُ فِيهِ صُحُفُهُمُ الفَاجِرَةُ إِحْصَائِيَّاتٍ مُخِيفَةً عَنْ وَاقِعِ الأُسْرَةِ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ بَعْدَ رَفْعِ وِصَايَةِ الرَّجُلِ عَنْهَا، وَإِحْصَائِيَّاتٍ أُخْرَى عَنْ تَزَايُدِ العُنْفِ الأُسَرِيِّ لَدَيْهِمْ، وَفِي بِلَادِ التَّنْوِيرِ الْحَدِيثِ، وَثَوْرَةِ الحُرِّيَّةِ المُعَاصِرَةِ تُفِيدُ تَقَارِيرُهُمْ أَنَّ رِجَالَهُمُ المُتَحَرِّرِينَ يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمُ المُتَحَرِّرَاتِ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ(١٤)، فَأَيُّ حَيَاةٍ يَعِيشُونَهَا؟ وَأَيُّ اسْتِقْرَارٍ أُسَرِيٍّ يَهْنَؤُونَ بِهِ؟ كَمَا تُفِيدُ

= شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٠٥)، وصَحَّحَهُ الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري، وأثبت في كلام طويل أن الحديث متصل، وأن مجاهدًا رواه عن أم سلمة مباشرة (٨/ ٢٦٢-٢٦٣).

ويُنْظَر حول هذا المعنى كلام نفيس للشيخ العلامة بكر أبي زيد في رسالته المتينة «حراسة الفضيلة» طبع مكتبة السنة في مصر (١٧-١٩).

(١٣) كان يوم الثلاثاء ٢٧/ ١/ ١٤٢٦هـ.

(١٤) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة بثت شبكة التلفزة الفرنسية التي تسمى بلاد النور والعطور برامج مخصصة لحملة ضخمة ضد ما يسمونه (العنف الزوجي)، بعد تزايد ضرب رجالهم لنسائهم ضربًا مبرحًا، يُحْدِث عاهات وتوسيمًا في الوجه، ويصل أحيانًا إلى حد القتل، وذكرت تقاريرهم أنه في فرنسا تموت ست نساء كل شهر نتيجة ضرب أزواجهم لهُنَّ، وتموت في فرنسا ست نساء كل شهر نتيجة العنف الذي يَحْدُثُ في البيوت. =

تَقَارِيرُهُمْ بِأَنَّ الْفَقْرَ قَدْ تَأَنَّثَ بِنِسْبَةِ الثُّلُثَيْنِ، أَيْ: أَنَّ سَبْعِينَ فِي المِائَةِ مِنَ الْفَقْرِ فِي الْعَالَمِ هُوَ مِنْ نَصِيبِ النِّسَاءِ(١٥)، وَهَذَا لَيْسَ بِمُسْتَغْرَبٍ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ حَقَّ المَعْرِفَةِ

= وتشير آخر إحصائية رسمية إلى أن وَاحِدَة من كل عشر نساء تتعَرَّض للعنف الزوجي. وتتراوح أشكال العنف ما بين الضغوط النفسية والاعتداءات الجَسَدِيَّةِ والاغتصاب أو غيره من ممارسات مهينة للمرأة. وتستند هذه الإحصائية إلى أولئك اللَّوَاتِي يتقدمن بشكاوى فقط، ولا تشمل النساء اللواتي يفضلن الصمت والإذعان للواقع.
ودفعت هذه المشكلة -التي من النادر أن يتحدث عنها الفرنسيون علنًا- مخرجين شابين هما فرنسوا راب وفليسي دوتيرتر إلى التبرع بعمل سلسلة من اللقطات التلفزيونية المعبرة عن معاناة النساء المضروبات. واستغرق عمل هذه الأفلام القصيرة جدًّا سنة من الجهد، ووافقت جميع القنوات العاملة في فرنسا على بثها اعتبارًا مِنْ هذا الأسبوع في حملة وطنية ضد العنف الزوجي. ولجأ المخرجان إلى أسلوب الصدمة للتعبير عن عمق معاناة الزوجات المضروبات. وتضمنت الأفلام لقطات قوية لنساء يختبئن تحت قطع الأثاث هربًا من اللطمات، أو لنساء ينتهين في أدراج المشرحة بسبب ضربة من زوج هائج أو سكير أو مُدْمِن على المخدرات. وتسعى تشريعات جديدة في فرنسا إلى حماية النساء من عنف الأزواج.
ولم تكن مراكز الشرطة تأخذ بكثير من الاهتمام البلاغات التي تتقدم بها النساء ضد شركائهن، رغم وجود تقارير طبية تؤكد وقائع تعرضهن للعنف الجسدي. لكن الإجراءات الجديدة بدأت تتيح إحالة الزوج إلى المحكمة إذا ثَبَتَ أنه تسبب لزوجة بضرر يُعِيقها عن العمل لأربعة أيام. وتشير تقارير معهد الطب الشرعي في باريس إلى أن ٦٥٪ من النساء اللواتي تعَرَّضْن للقتل خلال العقد الأخير من القرن العشرين مِتْنَ على يَد الزوج أو الصديق. صحيفة الشرق الأوسط، الاثنين ٢٧ محرم ١٤٢٦ هـ ٧ مارس ٢٠٠٥ العدد (٩٥٩٦).

(١٥) في مقالة للصحفية ثريا الشهري بعنوان (يوم المرأة لم يتغير شيء للأسف) تعترف بما يحصل للمرأة من امتهان وأذى في الدول الديمقراطية، وهي من الداعيات لتحرير المرأة وفي جزء من مقالتها تقول: فلا يخطئنا القول إذا اعترفنا بأن العولمة بسوقها الاقتصادي العالمي قد استوعبت المرأة في جميع مراحلها العمرية، إلّا أنها في الوقت ذاته قد همّشت من مكانتها، ورسمت لها تخطيطًا آخر جرها بقوة مغناطيسية نحو الأسواق الاستهلاكية. فبينما استطاعت النساء من خلال تكامل السوق العالمية أن يحصلن على أماكن عمل أوسع من الرجال نسبيًّا، نكتشف أنهن خسرن أجرًا ونوعية. ففي بلد يتوقع له أن ينافس على قطبية العالم في السنوات القادمة، وهو الصين، نجد أن جنوبه المتفوق على شماله =

طَبِيعَةَ الرَّجُلِ وَطَبِيعَةَ المَرْأَةِ، وَمَا كَانَ الْبَشَرُ يَحْسُبُونَ إِحْصَائِيَّاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْفَرْدِيَّةِ الْغَرِيبَةِ إِلَّا لَمَّا فَصَلُوا المَرْأَةَ عَنِ الرَّجُلِ فِي تَكْوِينِ الأُسْرَةِ ثُمَّ هَا هُمْ يَشْتَكُونَ الأَرْقَامَ المُرْعِبَةَ الَّتِي تُثْبِتُ فَقْرَ النِّسَاءِ لِصَالِحِ الرِّجَالِ.

فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَرَبُّوا عَلَيْهِ أَبْنَاءَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَأَخْبِرُوهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْوَافِدَةَ الآثِمَةَ لَا يُبْطِلُهَا إِلَّا التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، وَقَنَاعَةُ المُسْلِمِينَ بِهَا رِجَالًا وَنِسَاءً؛ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى كُلِّ نَاعِقٍ وَنَاعِقَةٍ، وَمُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ

= في معادلة مقلوبة، تشتغل فيه أكثر من مليوني امرأة في معامل مشبعة بمواد كيماوية خطرة وعلى ماكينات قديمة، وبساعات عمل إضافية إلزامية، ترتفع فيها نسبة الحرائق والتسمم من دون أية حماية أو ضمان صحي، فإذا نطقت المغبونة واحتجت ضد الظروف التعسفية كما حدث مع عاملات النسيج في نهاية عام ١٩٩٦ في كمبوديا، هددت ثلاثون شركة في هونغ كونغ وماليزيا وتايوان، بالانسحاب الفوري من البلاد، ما لم تحمِ الحكومة استثماراتها.

ثم هل لنا أن ننسى أن هذا العصر الكارثي على النساء قد بعث معه عبوديتهن من رقادها والمتمثلة هذه المرة في مهنة الخادمات، فإحصائيات العالم الليبرالي تُقَرِّرُ أن أربعة ملايين فلبينية امْتَهَنَّ الخدمة خارج الوطن، ناهيك من البولونيات اللاتي يهاجرن للعمل في مواسم الصيف، ليرغمن فيما بعد على عمل من نوع آخر يتعامل مع أجسادهن وحدها، بل وربما تباع الواحدة منهن إلى أية جهة طالبة، والكلام عن مافيات تجارة النساء عابرة للقارات، وهو جزء منظم لجريمة ترتبط بتجارة المخدرات والسيارات، فأي امتهان أبشع؟!

باختصار، مع العولمة تدمر الضمان والنسيج الاجتماعي، وقضى على ما بقي للأنثى من أوقات فراغ كانت ملكًا لها ولأسرتها، ثم تركها تبحث عن هوية ثقافية غير هويتها، عدا عمَّا ولّده لديها من قلق متزايد حاصر إحساسها بالاستقرار، الذي هو أهم عنصر في حياتها. فإذا عرفنا أن الفقر قد تأنث نتيجة إحصائية تقول إن ٧٠% من مجموع فقراء العالم هم من النساء، ومع هذا فإنهن يعولن ٣٥% من مجموع الأسر في العالم، فلا تستمروا معشر الرجال في ترديد: ماذا يردن النساء؟

صحيفة الشرق الأوسط، الاثنين ٢٧ محرم ١٤٢٦ هـ ٧ مارس ٢٠٠٥ العدد (٩٥٩٦).

كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْطِيلَ شَرِيعَتِهِ، وَاسْتِبْدَالَ المَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ بِهَا. تِلْكَ المَنَاهِجَ الَّتِي مَا أَنْتَجَتْ فِي بِلَادِ الكَافِرِينَ إِلَّا هَدْمَ أُسَرِهِمْ، وَتَدْمِيرَ بُيُوتِهِمْ، وَضَيَاعَ نِسَائِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٦٧- تحرير المرأة

٥/ ٨/ ١٤١٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَبْدَعَهُ، وَسَنَّ الدِّينَ وَشَرَعَهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، لَمْ يَزَلْ عَلَى الْخَلْقِ مُسْتَعْلِيًا، وَبِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ مُتَّصِفًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا وَجْهُهُ، وَلَا يَدُومُ إِلَّا مُلْكُهُ، وَالمَصِيرُ إِلَى حُكْمِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَمُلَ نَسَبًا وَأَصْلًا، وَزَانَ خَلْقًا وَخُلُقًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ فَتَحُوا فِي الْإِسْلَامِ أَقْطَارًا، وَدَكُّوا لِلْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ حُصُونًا، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَتِلْكَ وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْإِسْلَامُ دِينٌ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَرَتَّبَ المَسْئُولِيَّاتِ عَلَى كُلٍّ بِحَسَبِهِ، وَالْأُسْرَةُ فِي الْإِسْلَامِ مَحَلُّ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ ابْتِدَاءً بِمَعَايِيرِ اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ، وَانْتِهَاءً بِتَنْشِئَةِ الْجِيلِ نَشْأَةً صَالِحَةً.

وَأَحْكَامُ المَرْأَةِ وَوَاجِبَاتُ الزَّوْجَةِ وَحُقُوقُهَا اسْتَحْوَذَتْ عَلَى أَبْوَابٍ مِنَ الْفِقْهِ كَامِلَةٍ، وَاسْتَغْرَقَتْ أَحْكَامًا مِنَ الشَّرْعِ كَثِيرَةً، فَالنِّسَاءُ فِي الْإِسْلَامِ شَقَائِقُ الرِّجَالِ، وَالمُسْلِمَةُ فِي ظِلِّ دِينِهَا لَيْسَتْ سِلْعَةً تُبَاعُ وَتُشْتَرَى، وَلَا هِيَ عَشِيقَةُ مِزَاجٍ وَهَوًى، وَإِنَّمَا هِيَ نِصْفُ المُجْتَمَعِ، وَقِيَامُ النِّصْفِ الْآخَرِ عَلَى يَدَيْهَا؛ فَهِيَ المُجْتَمَعُ كُلُّهُ، لَهَا حُقُوقُهَا، وَعَلَيْهَا مَسْئُولِيَّتُهَا.

الْعَالِمُ وَالْقَائِدُ، وَالمُفَكِّرُ وَالصَّانِعُ، وَالطَّبِيبُ وَالمُعَلِّمُ، وَالمُنْتِجُونَ مِنْ أَبْنَاءِ

المُجْتَمَعِ، هَلْ وُجِدُوا مِنْ غَيْرِ نِسَاءٍ؟! وَهَلْ تَرَبَّوْا إِلَّا عَلَى أَيْدِي النِّسَاءِ؟

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ تَوَالَتِ الْحَمَلَاتُ الْيَهُودِيَّةُ وَالصَّلِيبِيَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَلَقَدْ نَعِقَ النَّاعِقُونَ بِشِعَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ؛ لِهَدْمِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَتَقْوِيضِ دَعَائِمِ الْفَضِيلَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَمَلِ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْحُقُوقِ، وَالتَّثْقِيفِ الْجِنْسِيِّ.

وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الَّتِي لَا يَزَالُ الْغَرْبُ وَعُمَلَاؤُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ يَصِيحُونَ بِهَا طَاغُوتٌ يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ.

خَدَعُوا بِهِ جَمَاهِيرَ الْأُمَّةِ، وَلَبَّسُوا بِهِ عَلَى جُهَّالِ الْمُسْلِمِينَ وَضُعَفَائِهِمْ، وَهُوَ شِعَارٌ اخْتَرَعَهُ الْيَهُودُ؛ لِيَخْتَرِقُوا بِهِ الشُّعُوبَ، وَلَقَدْ قَالَ قَائِلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «كُنَّا قَدِيمًا أَوَّلَ مَنْ صَاحَ فِي النَّاسِ بِالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ، إِنَّ صَيْحَتَنَا بِالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ قَدْ جَلَبَتْ إِلَى صُفُوفِنَا فِرَقًا كَامِلَةً مِنْ زَوَايَا الْعَالَمِ الْأَرْبَعِ عَنْ طَرِيقِ وُكَلَائِنَا الْمُغَفَّلِينَ، وَقَدْ حَمَلَتْ هَذِهِ الْفِرَقُ أَلْوِيَتَنَا فِي نَشْوَةٍ. إِنَّ الطَّبَقَاتِ الْمُتَعَلِّمَةَ سَتَخْتَالُ زَهْوًا أَمَامَ أَنْفُسِهَا بِعِلْمِهَا، وَسَتَأْخُذُ جُزَافًا فِي مُزَاوَلَةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي حَصَّلَتْهَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي قَدَّمَهُ إِلَيْهَا وُكَلَاؤُنَا؛ رَغْبَةً فِي تَرْبِيَةِ عُقُولِهَا حَسَبَ الِاتِّجَاهِ الَّذِي تَوَخَّيْنَاهُ. سَوْفَ نَقُولُ: حَقُّ الْحُرِّيَّةِ وَوَاجِبُ الْمُسَاوَاةِ، وَبِهَا سَنَمْسِكُ الثَّوْرَ مِنْ قَرْنَيْهِ» اهـ[1].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الْمَزْعُومَةُ هِيَ الْحُرِّيَّةُ فِي التَّمَرُّدِ عَلَى الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، حُرِّيَّةٌ فِي تَمَرُّدِ الْبَنَاتِ عَلَى وَاجِبِ الْوَالِدَيْنِ فِي حِفْظِهِنَّ، وَحُرِّيَّةٌ فِي تَمَرُّدِ الزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا، وَحُرِّيَّةٌ فِي إِسْقَاطِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ فِي مَهَاوِي الرَّذِيلَةِ وَالْفَاحِشَةِ، هَذَا هُوَ مَفْهُومُ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الْأَعْدَاءِ مِنْ صَهَايِنَةٍ

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة (٦٥٠).

وَصَلِيبِيِّينَ، لَكِنْ لَمْ تَكُنِ الْحُرِّيَّةُ مَضْمُونَةً لِلْبَنَاتِ الْمُسْلِمَاتِ اللَّائِي يَرْتَدِينَ الْحِجَابَ، بَلْ طُرِدْنَ مِنْ مَدَارِسِهِنَّ، فَأَيْنَ هُوَ حَقُّ الْحُرِّيَّةِ؟ وَلَمْ تَكُنِ الْحُرِّيَّةُ الْمَزْعُومَةُ مَضْمُونَةً لِلنِّسَاءِ الْمُسْتَمْسِكَاتِ بِدِينِهِنَّ، الدَّاعِيَاتِ إِلَيْهِ، بَلْ حُورِبْنَ بِشَتَّى الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، وَاتُّهِمْنَ بِالْعَمَالَةِ أَوِ التَّخَلُّفِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ هَدْمًا لِلْمُجْتَمَعَاتِ شُيُوعُ الْفَاحِشَةِ، وَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ عَبْرَ وَسَائِلِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ يَسْعَوْنَ بِقُوَّةٍ فِي ذَلِكَ، فَعَقِبَ عُهُودِ الِاسْتِعْمَارِ أَلْقَى الْمُسْتَعْمِرُونَ فِي غَزْوِهِمُ الثَّقَافِيِّ بِثِقَلٍ كَبِيرٍ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَجَعَلُوا الْمَرْأَةَ الَّتِي تُنَادِي بِالتَّحَرُّرِ وَنَبْذِ الْحِجَابِ بَطَلَةً مِنْ أَبْطَالِ الْحُرِّيَّةِ، وَرَمْزًا مِنْ رُمُوزِ التَّقَدُّمِ وَالثَّقَافَةِ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِ التَّحَرُّرِ، كَيْفَ جَاءَتِ النِّسَاءُ الْمُتَحَرِّرَاتُ وَوَقَفْنَ أَمَامَ الْمُسْتَعْمِرِ، وَأَلْقَيْنَ الْحِجَابَ، وَأَحْرَقْنَهُ بِالنَّارِ، وَوَطِئْنَهُ بِالْأَقْدَامِ، وَهُنَّ يَهْتِفْنَ بِالْحُرِّيَّةِ، وَالْمُسْتَعْمِرُ يُصَفِّقُ لَهُنَّ بِحَرَارَةٍ، وَيَرْسُمُ عَلَى شَفَتِهِ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا، ثُمَّ يُدِيرُ مِدْفَعَهُ وَأَسْلِحَتَهُ وَيُعِيدُهَا إِلَى بِلَادِهِ، فَيَحْصُلُ الِاسْتِقْلَالُ، فَإِذَا النَّاسُ يُصَابُونَ بِدَهْشَةٍ، حِينَمَا يُعْلَنُ أَنَّ تِلْكَ النِّسَاءَ الْمُتَحَرِّرَاتِ طَرَدْنَ الْمُسْتَعْمِرَ فَيَجِبُ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَحْذُونَ حَذْوَهُنَّ، وَيُنْسَى جِهَادُ شَعْبٍ كَامِلٍ، وَلَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ وَقْتَهَا أَنَّ الْمُسْتَعْمِرَ لَمْ يَخْرُجْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَصَّبَ أَفْرَاخَهُ أُمَنَاءَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ.

وَتَبْدَأُ بَعْدَهَا السِّينِمَا وَفَنُّ التَّمْثِيلِ الَّذِي مَا بَدَأَ فِي الْعَرَبِ إِلَّا بِعَنَاصِرَ يَهُودِيَّةٍ، أَوْ تَرَبَّتْ فِي أَحْضَانِ الْيَهُودِ، فَيَزْدَهِرُ سُوقُهُ، فَتَنْتَشِرُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَفْلَامُ وَالْمُسَلْسَلَاتُ وَالْمَسْرَحِيَّاتُ الْهَابِطَةُ، يُحِيطُ بِهَا زَخَمٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقَصَصِ وَالْمَجَلَّاتِ، وَصُحُفِ الْفَنِّ وَأَهْلِهِ، أَخْبَارُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ، لِبَاسُهُمْ وَأَكْلُهُمْ وَشَرَابُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا شَيْئًا مُهِمًّا فِي الْمُجْتَمَعِ، فَهُمْ يُجَاهِدُونَ بِفَنِّهِمْ،

وَالْعَدُوُّ يَخافُهُمْ، فَتَأَمَّلُوا .. كَيْفَ تُزَوَّرُ الْحقَائِقُ، وَتُقْلَبُ المَوَازِينُ، فَيُصْبِحُ سَقَطُ المَتَاعِ، وَشُذَّاذُ النَّاسِ، وَعَالَةُ المُجْتَمَعِ عُظَمَاءَ الْأُمَّةِ، وَرُوَّادًا يُسَجِّلُهُمُ التَّارِيخُ، وَلَا يَزَالُونَ يَصِيحُونَ بِكُلِّ صَفَاقَةٍ أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْعَيْشَ بِدُونِهِمْ، وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى إِنْتَاجِهِمْ فِي فَنِّهِمُ المَزْعُومِ لَوَجَدْتَ أَنَّ أَكْثَرَهُ مُسَلَّطٌ لِإِفْسَادِ المَرْأَةِ وَالنَّاشِئَةِ.

أَفْلَامُهُمْ وَمُسَلْسَلَاتُهُمْ فِيهَا مُحَارَبَةُ التَّعَدُّدِ، فَيُصَوَّرُ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْوِي تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ عَلَى أَنَّهُ مُجْرِمٌ، وَإِذَا فَعَلَ مَا نَوَى صُوِّرَتْ حَيَاتُهُ بِأَنَّهَا عَذَابٌ دَائِمٌ، وَجَحِيمٌ مُسْتَمِرٌّ، عَلَى نِسَائِهِ وَأَوْلَادِهِ وَنَفْسِهِ، وَأَنَّ الْعِلَاجَ فِي الطَّلَاقِ.

وَفِي إِنْتَاجِ الْفَنِّ لَا يُشْرَعُ التَّعَدُّدُ أَبَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَتِ الزَّوْجَةُ الْأُولَى لَا تُنْجِبُ، فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْإِنْجَابِ وَجَبَ طَلَاقُ الْأُولَى قَبْلَ الدُّخُولِ بِالثَّانِيَةِ، هَذَا مَا يُنْتِجُهُ الْفَنُّ وَأَهْلُهُ وَيَقْذِفُونَ بِهِ بُيُوتَنَا. وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْأَصْلَ تَعَدُّدُ النِّسَاءِ، إِلَّا إِذَا خِيفَ مِنَ المَيْلِ.

وَفِي إِنْتَاجِ الْفَنِّ إِذَا طُلِّقَتِ المَرْأَةُ حَرُمَ عَلَيْهَا الزَّوَاجُ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ لَا تَنْجَحُ زَوْجَةً! وَأَمَّا إِذَا مَاتَ زَوْجُهَا فَمِنَ الْخِيَانَةِ الْعُظْمَى لِحَقِّهِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ! وَرَضِيَ اللهُ عَنْ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ؛ إِذْ كَانَتِ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ إِذَا تَرَمَّلَتْ تَزَوَّجَتْ، فَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ تَزَوَّجَهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمَّا مَاتَ تَزَوَّجَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَبَعْدَهُ تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَجْمَعِينَ(٢).

---

(٢) قيل: أسلمت قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر بها زوجها جعفر الطيار إلى الحبشة، فولدت له هناك: عبد الله، ومحمدًا، وعونًا. فلما هاجرت معه إلى المدينة سنة سبع، واستشهد يوم مؤتة، تزوج بها أبو بكر الصديق، فولدت له محمدًا وقت الإحرام، فحجت حجة الوداع، ثم توفي الصديق، فغسلته، وتزوج بها علي بن أبي طالب. سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٣).
=

وَأَمَّا المُسَاوَاةُ فِي الْحُقُوقِ وَالمُسَاوَاةُ فِي الْعَمَلِ، فَشِعَارٌ يُرْفَعُ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، وَيُذْكَرُ فِي كُلِّ مَجَالٍ، يُظْهِرُونَ الشَّفَقَةَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ أَنَّ نِصْفَهَا يَقْبَعُ فِي المَنْزِلِ وَلَا يَعْمَلُ، وَيُحِيلُونَ تَأَخُّرَ الْأُمَّةِ، وَتَخَلُّفَهَا المَادِّيَّ، وَضَعْفَهَا الِاقْتِصَادِيَّ عَلَى عَدَمِ مُشَارَكَةِ المَرْأَةِ لِلرَّجُلِ فِي الْعَمَلِ، وَأَمَّا بَاطِنُهُمْ فَيَنْضَحُ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ . . يَزْعُمُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ المَرْأَةَ فِي المُجْتَمَعَاتِ المُتَحَضِّرَةِ لَا تَزَالُ تَصْرُخُ وَتَسْتَجْدِي مَنْ يُرْجِعُهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، وَيُعِيدُهَا إِلَى مُهِمَّتِهَا الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ ﷻ لَهَا.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنَّ أُولَئِكَ المُتَحَرِّرِينَ يَحْشُدُونَ جَمِيعَ النُّصُوصِ وَالْقَصَصِ الَّتِي فِيهَا أَنَّ المَرْأَةَ عَمِلَتْ وَخَرَجَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تُنْتِجُ وَتُدَاوِي الْجَرْحَى، وَتَسْقِي المَاءَ، وَتُتَاجِرُ فِي السُّوقِ، وَلَا يُمَيِّزُونَ صَحِيحَهَا مِنْ سَقِيمِهَا، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ التَّارِيخِيَّةِ، وَيَتَغَافَلُونَ عَنْ هَيْئَةِ المَرْأَةِ وَلُبْسِهَا حَالَ خُرُوجِهَا إِذَا احْتَاجَتْ لِلْخُرُوجِ، هَلْ كَانَتْ سَافِرَةً مُتَبَرِّجَةً؟ وَهَلْ كَانَتْ مُتَبَذِّلَةً لِلرِّجَالِ؟ وَهَلْ شَارَكَتِ الرِّجَالَ فِي أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَخْتَصُّونَ بِهَا؟ وَهَلْ خَالَطَتْهُمْ فِي مَحِلَّاتِهِمْ؟ كَلَّا، وَلَوْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا.

أَيْنَ هُمْ مِنْ نُصُوصِ الْحِجَابِ وَالْعَفَافِ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؟ وَهَلْ طَبَّقَ هَذِهِ النُّصُوصَ النِّسَاءُ المُتَحَرِّرَاتُ المُتَبَذِّلَاتُ فِي عَصْرِنَا؟!

= قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وأخرج ابن السّكن بسند صحيح، عن الشعبي، قال: تزوّج عليّ أسماء بنت عميس، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها عليّ: اقضي بينهما. فقالت: ما رأيت شابًّا خيرًا من جعفر، ولا كهلًا خيرًا من أبي بكر، فقال لها عليّ: فما أبقيت لنا؟!» الإصابة (٨/ ١٦).

وَأَمَّا تَمَسُّكُ المُسْلِمَاتِ بِالْحِجَابِ فَهُوَ أَمْرٌ أَزْعَجَهُمْ جِدًّا، فَلَا زَالُوا يَسْخَرُونَ مِنْ تِلْكَ المَرْأَةِ المُتَحَجِّبَةِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَمَقَالٍ، فَيَعْرِضُونَ فِي مُسَلْسَلَاتِهِمْ وَأَفْلَامِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمُ المَرْأَةَ الَّتِي غَطَّتْ شَعْرَهَا وَجَلَسَتْ فِي مُصَلَّاهَا، وَأَخْفَتْ كَثِيرًا مِنْ زِينَتِهَا وَإِنْ كَانَ وَجْهُهَا بَادِيًا ... يَعْرِضُونَهَا فِي حَالَةٍ مِنَ الْغَبَاءِ وَالدَّرْوَشَةِ وَالْجَهْلِ وَعَدَمِ الْإِدْرَاكِ؟ فَهِيَ عِنْدَهُمْ لَا تَهْتَمُّ بِعَمَلِهَا وَلَا بِبَيْتِهَا، بَلْ هِيَ مَشْغُولَةٌ بِعِبَادَتِهَا وَمُصَلَّاهَا، وَلَا يُهِمُّهَا أَمْرُ أَوْلَادِهَا وَتَرْبِيَتُهُمْ، وَيُرْجِعُونَ ذَلِكَ إِلَى تَزَمُّتِهَا بِالْحِجَابِ، فَهَلِ المُحَجَّبَاتُ مِنَ المُسْلِمَاتِ الطَّاهِرَاتِ كَذَلِكَ؟! أَلَا سَاءَ مَا يَصِفُونَ! كَيْفَ وَفِي المُنْتَقِبَاتِ وَالمُحَجَّبَاتِ مَنْ يَحْمِلْنَ أَعْلَى المُؤَهِّلَاتِ، وَيَدْرُسْنَ أَدَقَّ التَّخَصُّصَاتِ، وَقَدْ بَرَعْنَ فِي ذَلِكَ بِمَا لَا يُنْكِرُهُ مُنْصِفٌ.

فَمَاذَا يُرِيدُ الْأَعْدَاءُ مِنَ المَرْأَةِ حِينَمَا يُنَفِّرُونَ مِنَ التَّعَدُّدِ، وَيُسَهِّلُونَ أَسْبَابَ الطَّلَاقِ، وَيَضَعُونَ الْعَرَاقِيلَ أَمَامَ الزَّوَاجِ، وَيَفْتَحُونَ أَبْوَابَ الِاخْتِلَاطِ؟

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِفْسَادَ الْبَيْتِ المُسْلِمِ، وَالمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ؛ فَالمَرْأَةُ عَمَلُهَا أَهَمُّ مِنَ الزَّوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، وَإِذَا حَدَثَ ذَلِكَ فَعَزَفَ النِّسَاءُ عَنِ الزَّوَاجِ لِأَجْلِ الْعَمَلِ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسَيْنِ أَنْ يُشْبِعَ رَغْبَتَهُ الْجِنْسِيَّةَ خَارِجَ الْإِطَارِ المَشْرُوعِ، وَحِينَذَاكَ سَيَرْفَعُونَ شِعَارَ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ، وَإِبَاحَةِ الْفَاحِشَةِ، وَالنَّتِيجَةُ فَسَادُ الْأُسْرَةِ، وَكَثْرَةُ اللُّقَطَاءِ، وَانْتِشَارُ الْفَوَاحِشِ، وَتَدْمِيرُ الْأُمَّةِ، أَبْطَلَ اللهُ كَيْدَهُمْ، وَأَحْبَطَ عَمَلَهُمْ.

اللَّهُمَّ احْفَظْنَا مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، وَحَرْبِ الْفُجَّارِ، وَاسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَأَمِّنْ رَوْعَاتِنَا، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى كَمَا أَمَرَ، وَاحْذَرُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: إِنَّ نَجَاحَ الْمُجْتَمَعِ وَنُهُوضَ الْأُمَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِحِفْظِ شَبَابِهَا وَنَاشِئَتِهَا مِنَ الِانْحِرَافِ، وَحِفْظُ الشَّبَابِ وَالنَّاشِئَةِ مَرْهُونٌ بِحِفْظِ نِسَاءِ الْأُمَّةِ، فَالْمَرْأَةُ هِيَ الْمُرَبِّيَةُ فِي الْمَنْزِلِ، وَإِذَا حُفِظَتِ الْبِنْتُ فَلَنْ يَجِدَ الشَّابُّ مَا يُفْتَتَنُ بِهِ فَتَسْتَقِيمُ وَيَسْتَقِيمُ.

وَإِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الْمُسْتَمْسِكَةَ بِدِينِهَا وَطُهْرِهَا لَا زَالَتْ بِحِجَابِهَا تَقْهَرُ الْأَعْدَاءَ قَهْرًا يَفُوقُ قُوَّةَ السِّلَاحِ، وَخِدَاعَ السِّيَاسَةِ، وَلَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مَرْجِعُهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا.

أَخَذَ الْمُسْتَعْمِرُونَ عَدَدًا مِنْ بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ لِتَرْبِيَتِهِنَّ وَتَعْلِيمِهِنَّ، ثُمَّ إِرْجَاعِهِنَّ رَائِدَاتٍ فِي بِلَادِهِنَّ، وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنَ التَّلْوِيثِ الْفِكْرِيِّ، وَالْمَسْخِ الْأَخْلَاقِيِّ، كَانَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ يُخْفِينَ تَمَسُّكَهُنَّ بِدِينِهِنَّ، وَيُجَارِينَ الْوَضْعَ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِنَّ، وَفِي حَفْلِ التَّخْرِيجِ وَأَمَامَ جَمْهَرَةٍ مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ أُولَئِكَ الْفَتَيَاتِ سَافِرَاتٍ مُتَبَرِّجَاتٍ، وَكَانَ الْأَسْيَادُ وَالْمُرَبُّونَ يَنْتَظِرُونَ هَذِهِ اللَّحْظَةَ الْحَاسِمَةَ بِغِبْطَةٍ بَالِغَةٍ؛ لِيُبَرْهِنُوا نَجَاحَهُمْ فِي إِفْسَادِ الشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ، فَإِذَا بِالْفَتَيَاتِ يُفَاجِئْنَ الْحُضُورَ بِالْخُرُوجِ مُتَحَجِّبَاتٍ مُحْتَشِمَاتٍ، فَيُصَابُ الْمُسْتَعْمِرُونَ

بِالصَّدْمَةِ، وَيَقُولُ كَبِيرُهُمْ: وَمَاذَا أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْقُرْآنُ أَقْوَى مِنَّا؟!(٣).

إِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ كَانَتْ بِدِينِهَا تُوَجِّهُ صَفَعَاتٍ مُوجِعَةً لِوُجُوهِ الْأَعْدَاءِ وَالْمُسْتَعْمِرِينَ، وَهَا هِيَ الْمَرْأَةُ مِنْ جَدِيدٍ تَعُودُ لِرَبِّهَا، وَتَتَزَيَّا بِحِجَابِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْعَالَمِ، مَعَ مَا تُوَاجِهُهُ مِنْ ضُغُوطٍ وَمُضَايَقَاتٍ، وَلَكِنَّهَا لَا تَزَالُ أَبِيَّةً قَوِيَّةً، لَا يُهِمُّهَا أَنْ تُفْصَلَ مِنْ مَدْرَسَتِهَا أَوْ جَامِعَتِهَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ حِجَابِهَا وَفِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَلْتَفِتُ الْمُمَثِّلَاتُ وَالْمُغَنِّيَاتُ إِلَى انْتِقَادَاتِ أَهْلِ الْعَفَنِ الْفَنِّيِّ إِذَا هِيَ خَرَجَتْ مِنْ جَحِيمِهِمْ وَعَادَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى أَصْبَحَ الْحِجَابُ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- ظَاهِرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى فِي دُوَلِ الِانْحِلَالِ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ غُرْبَةِ الْحِجَابِ فِي أَوْسَاطِ النِّسَاءِ.

وَصَارَتْ تَوْبَةُ نِسَاءِ الْفَنِّ اللَّاتِي قَضَيْنَ فِيهِ سَنَوَاتٍ طِوَالًا أَمْرًا مَلْحُوظًا، عَادَ كَثِيرٌ مِنْهُنَّ إِلَى رَبِّهِنَّ رَغْمَ أُنُوفِ الْمُفْسِدِينَ، فَتَنَفَّسَتِ الْأَحْقَادُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَبَدَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَرُجُوعُ النَّاسِ إِلَى رَبِّهِمْ أَثَارَ حَنَقَهُمْ وَغَضَبَهُمْ، فَسَوَّدُوا الصُّحُفَ،

(٣) في ذكرى مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر وقف الحاكم الفرنسي في الجزائر يقول: (يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ... ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم) مجلة المنار ٩/ ١١/ ١٩٦٢.

وبعد ذلك بسنوات قلائل: قامت فرنسا -من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر- بتجربة عملية، فتم انتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، ولقَّنَتْهُنّ الثقافة الفرنسية، وعلمتهن اللغة الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تمامًا. وبعد أحد عشر عامًا من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة، دُعِيَ إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون .. ولما ابتدأت الحفلة فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري .. فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عامًا؟! أجاب (لاكوست) وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟! جريدة الأيام عدد ٧٧٨٠ - بتاريخ ٦ كانون الأول ١٩٦٢. عن عودة الحجاب (١/ ٢٨٩).

وَكَتَبُوا الْمَقَالَاتِ مُعْلِنِينَ حَرْبًا لَا هَوَادَةَ فِيهَا عَلَى التَّائِبِينَ الْآيِبِينَ وَالتَّائِبَاتِ الْآيِبَاتِ، أَلَا كَسَرَ اللهُ تَعَالَى أَقْلَامَهُمْ، وَشَلَّ أَرْكَانَهُمْ، وَأَخْرَسَ أَلْسِنَتَهُمْ، وَسَوَّدَ صَحَائِفَهُمْ، وَنَكَّسَ رَايَاتِهِمُ النِّفَاقِيَّةَ.

وَرَغْمَ الِانْتِقَادَاتِ الشَّدِيدَةِ لِلتَّائِبِينَ وَالتَّائِبَاتِ، وَالْحَرْبِ الْإِعْلَامِيَّةِ الشَّرِسَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ظَاهِرَةَ الصَّحْوَةِ وَالتَّوْبَةِ تَزْدَادُ نُمُوًّا وَقُوَّةً.

وَكَمْ هُوَ جَمِيلٌ كَلَامُ رَجُلٍ غَرْبِيٍّ أَسْلَمَ وَوَصَفَ حَالَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الصَّابِرَةِ عَلَى دِينِهَا، الْمُتَأَبِّيَةِ عَلَى التَّغْرِيبِ رَغْمَ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ إِهَانَةٍ وَإِيذَاءٍ، قَالَ: فَكُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ صَبْرِهَا وَجَلَدِهَا، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ أَدْرَكْتُ أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاحْفَظُوا عَوْرَاتِكُمْ.

اللهَ اللهَ فِي نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ، احْفَظُوهُنَّ، وَلَا يَكُنِ التَّرَفُ سَبَبًا فِي إِهْمَالِهِنَّ وَضَيَاعِهِنَّ، فَالْغَيْرَةُ عَلَى الْعِرْضِ مَحْمُودَةٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ، وَالدَّيُّوثُ هُوَ الَّذِي يُقِرُّ الْخَبَثَ فِي أَهْلِهِ، وَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ، وَمُقَدِّمَاتُ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ: التَّبَرُّجُ وَالسُّفُورُ، وَعَدَمُ الْحَذَرِ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَلَوْ كَانَ سَائِقًا أَوْ خَادِمًا، وَالِاخْتِلَاطُ بِالرِّجَالِ فِي الْأَسْوَاقِ وَغَيْرِهَا. فَكُلُّهَا مُقَدِّمَاتٌ لِذَهَابِ الْحَيَاءِ، وَانْتِزَاعِ الْخَجَلِ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِالْحَيَاءِ.

أَدَامَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمَاتِ السَّتْرَ وَالْعَفَافَ، وَحَفِظَهُنَّ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٣٦٨- مؤتمر المرأة في بكين

١٣/ ٤/ ١٤١٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الرَّجُلَ وَالمَرْأَةَ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ جَنَاحَانِ لَا تَقُومُ الحَيَاةُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَّا بِهِمَا، وَلَا تُنْتِجُ أُسْرَةٌ صَالِحَةٌ إِلَّا بِالمُوَاءَمَةِ بَيْنَهُمَا؛ فَالْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ المَرْأَةِ هِيَ الْحِكْمَةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا الرَّجُلُ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَعَلَّقَ ﷻ سَعَادَةَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ بِأَدَاءِ هَذِهِ المُهِمَّةِ الْجَلِيلَةِ، وَجَعَلَ التَّعَاسَةَ وَالشَّقَاءَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْهَا ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وَالْإِسْلَامُ فِي تَعَالِيمِهِ لَمْ يَجْعَلْ عَلَاقَةَ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ عَلَاقَةَ صِرَاعٍ وَمُنَافَسَةٍ، يُثْبِتُ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وُجُودَهُ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِ، وَيَفْرِضُ آرَاءَهُ دُونَهُ، بَلْ بَيَّنَ الْإِسْلَامُ عَلَاقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسَيْنِ بِالْآخَرِ؛ فَالزَّوْجَانِ فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ

لِكُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ حُقُوقُهُ وَعَلَيْهِ وَاجِبَاتُهُ، وَلِلْأَوْلَادِ حُقُوقٌ أُخْرَى، وَالْقَرَابَةُ لَهُمْ حُقُوقُهُمْ.

وَحَقُّ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَتَزَيَّا بِالْحِجَابِ، وَتَتَخَلَّقَ بِالْحَيَاءِ، وَلَا تَفْتِنَ الرِّجَالَ. وَحَقُّ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ لَا تَمْتَدَّ عَيْنُهُ إِلَى غَيْرِ مَحَارِمِهِ، وَلَا يَبْحَثَ عَنْ سِوَى أَهْلِهِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى الْمَرْأَةِ الْعِنَايَةُ بِالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ وَالْبَيْتِ، وَزَوْجُهَا يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ لِيُوَفِّرَ الْغِذَاءَ وَاللِّبَاسَ وَالْمَسْكَنَ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وَهَكَذَا تَكُونُ الْأُسْرَةُ سَوِيَّةً تَسِيرُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ صِرَاعٌ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ عَلَى تَقْرِيرِ الْمَصِيرِ، أَوْ فَرْضِ الْحُقُوقِ، فَذَلِكَ مُنْتَظِمٌ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ؛ حَيْثُ خَاطَبَ اللهُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَإِذَا خَاطَبَ الشَّرْعُ الرِّجَالَ دَخَلَ النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْخِطَابِ، إِلَّا فِيمَا يَخُصُّهُمْ.

مُنَاسَبَةُ هَذَا الْحَدِيثِ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مَا تَسْمَعُونَ بِهِ مِنْ مُؤْتَمَرِ الْمَرْأَةِ الَّذِي يُعْقَدُ فِي بِكِينَ، وَلَيْسَ الْحَدِيثُ عَنْ بُنُودِهِ وَوَثِيقَتِهِ الْمَلِيئَةِ بِالشُّذُوذِ وَالْفَسَادِ، وَالظُّلْمِ لِلْمَرْأَةِ وَلِلطِّفْلِ وَالْأُسْرَةِ؛ فَذَلِكَ أَمْرٌ ظَهَرَ لِلنَّاسِ، وَتَحَدَّثَ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَكِنَّ الْجَدِيرَ بِالتَّأَمُّلِ هُوَ ذَلِكُمُ الضَّجِيجُ الَّذِي يُثِيرُهُ الْغَرْبُ وَأَذْنَابُهُمُ الْعَلْمَانِيُّونَ حَوْلَ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهَا كَمَا يَزْعُمُونَ.

يَقُولُونَ: نُرِيدُ تَحْرِيرَهَا مِنْ قُيُودِ الدِّينِ الَّذِي يُعِيقُ انْطِلَاقَهَا مِنَ الْمَنْزِلِ، وَمُنَافَسَتَهَا لِلرِّجَالِ فِي الْأَعْمَالِ وَالسِّيَاسَةِ؛ لِكَيْ تَتَبَوَّأَ مَكَانَةً عَالِيَةً، وَتُحْفَظَ كَرَامَتُهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةِ الَّتِي يَلُوحُونَ بِهَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ، وَالْمُسَاوَاةِ، وَحَقِّ التَّعْلِيمِ، وَحَقِّ الْعَمَلِ، وَحَقِّ السِّيَاسَةِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْغَرْبَ

وَمِنْ وَرَائِهِمْ أَذْنَابُهُمْ مِنَ الْعَلْمَانِيِّينَ الْعَرَبِ حِينَمَا يَهْتِفُونَ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ عَنْهُمُ الْعَدْلُ، بَلْ هُمْ أَهْلُ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى الْغَيْرِ.

كَمْ نَاصَرَتْ تِرَسَانَةُ الْغَرْبِ الْعَسْكَرِيَّةُ الظُّلْمَ وَالْعُدْوَانَ؟ وَقَدْ خَلَتْ أَقْلَامُ الْعَلْمَانِيِّينَ وَأَلْسِنَتُهُمْ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ! هَذَا مُؤْتَمَرُهُمْ لَمْ يَتَعَرَّضْ مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ لِحُقُوقِ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ نِسَاءِ الْبُوسْنَةِ الْمُغْتَصَبَاتِ، وَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ حُقُوقِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي كَشْمِيرَ، وَالشِّيشَانِ، وَفِلَسْطِينَ، وَالْفِلِبِّينِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَنْكُوبَةِ مِمَّنْ يُوَاجِهْنَ أَبْشَعَ صُوَرِ الْإِهَانَةِ وَالِاحْتِقَارِ وَالِاغْتِصَابِ.

لَمْ يَتَنَاوَلْ مُؤْتَمَرُهُمُ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الَّتِي قُتِلَ زَوْجُهَا، وَسُرِقَ أَطْفَالُهَا، وَأُخْرِجَتْ مِنْ دَارِهَا، وَبِيعَتْ إِلَى تُجَّارِ الْبِغَاءِ فِي سُوقِ الرَّقِيقِ الْأُورُبِّيَّةِ! هَلْ يُوجَدُ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الظُّلْمِ، أَمْ أَنَّ الْمُسْلِمَةَ لَيْسَ لَهَا حُقُوقٌ؟! أَيْنَ هُمُ الْعَرَبُ الْمُتَحَرِّرُونَ؟ فَلْيَنْطِقُوا وَلْيَكْتُبُوا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْمُؤْتَمَرَاتِ هُوَ إِفْسَادُ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ.

وَإِلْصَاقُ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ قَدِ انْكَشَفَ عُوَارُهُ، وَظَهَرَ لِجَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ زُورُهُ، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ مُفَكِّرِي الْغَرْبِ يَعْلَمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْمَقُولَةَ الْقَدِيمَةَ مَا هِيَ إِلَّا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ؛ فَالَّذِينَ عَايَشُوا الْمُسْلِمِينَ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ يُدْرِكُونَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ تَتَبَوَّأُ فِي الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يُطَبِّقُ الْإِسْلَامَ مَكَانَةً عَالِيَةً، مَكَانَةً حَفِظَتْ لَهَا كَرَامَتَهَا وَآدَمِيَّتَهَا، وَصَانَتْ عَفَافَهَا.

لَمْ يَعْتَبِرِ الْإِسْلَامُ الْمَرْأَةَ جُرْثُومَةً خَبِيثَةً، أَوْ سَبَبًا لِلْخَطِيئَةِ الْأُولَى كَمَا اعْتَبَرَتْهَا الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ، بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ يُقَرِّرُ الْحَقِيقَةَ الْمُهِمَّةَ الَّتِي تُزِيلُ الْإِهَانَةَ عَنِ

المَرْأَةِ، وَقَدْ وَصَمَتْهَا بِهَا الْأَدْيَانُ الْمُحَرَّفَةُ. إِنَّ الْإِسْلَامَ يُثْبِتُ أَنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنَ الرَّجُلِ، وَأَنَّ خَلْقَ الْمَرْأَةِ كَانَ نِعْمَةً يَنْبَغِي أَنْ يَحْمَدَ الرِّجَالُ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وَالمَرْأَةُ مِثْلُ الرَّجُلِ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ؛ تَتَنَاوَلُهَا الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ تُحْمَدُ إِذَا اسْتَجَابَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُذَمُّ إِنْ تَنَكَّبَتِ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وَالتَّنَاصُرُ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَالْقِيَامُ بِالْأَعْبَاءِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، يَشْمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وَإِيذَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ هُوَ مِثْلُ إِيذَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، يَمْقُتُ اللهُ تَعَالَى صَاحِبَهُ، وَيَسْتَوْجِبُ عُقُوبَتَهُ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

كُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ وَغَيْرِهَا تُظْهِرُ بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ أَنَّ الْإِسْلَامَ حَمَّلَ الْمَرْأَةَ الْمَسْئُولِيَّةَ كَمَا حَمَّلَهَا الرَّجُلَ، لَكِنَّهُ اسْتَثْنَى الْمَرْأَةَ مِنْ بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي فِي صَالِحِهَا أَنْ تُسْتَثْنَى مِنْهَا.

يُرِيدُ قَوْمُنَا الْمُتَحَرِّرُونَ مِنْ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ عِنْدَنَا كَمَا هِيَ فِي الْغَرْبِ، لَيْسَتْ ذَاتَ مَسْئُولِيَّةٍ وَلَا مَنْزِلٍ، وَلَا زَوْجٍ وَلَا أَوْلَادٍ، تُقَدِّسُ الْعَمَلَ، وَتَدُورُ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الرِّجَالِ، يَلَغُونَ فِيهَا كَمَا تَلَغُ الْكِلَابُ الْمَسْعُورَةُ فِي فَرِيسَتِهَا.

يُرِيدُونَهَا أَنْ تكُونَ مُسْتَنْقَعًا لِلْقَاذُورَاتِ، وَمَصْرِفًا لِلشَّهَوَاتِ، فَهُمْ -قَاتَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى- يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ حفظ حَقَّ الْمَرْأَةِ، وَحَفِظَهَا مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُخْفُونَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ؛ لِأَنَّ شَهَوَاتِهِمْ تَأْبَى إِظْهَارَهَا، وَهَا هُوَ الْمُجْتَمَعُ الْغَرْبِيُّ الْمُنْحَلُّ يَغْرقُ فِي الْإِثْمِ، وَيَجْنِي ثَمَنَ الْفَاحِشَةِ .. أَوْبِئَةً وَجَرَائِمَ وَمُشْكِلَاتٍ، سَبَبُهَا الْأَعْظَمُ احْتِرَافُ كَثِيرٍ مِنْ نِسَائِهِمُ الْبِغَاءَ، وَإِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ بِلَا ضَوَابِطَ إِلَّا التَّرَاضِي بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، حَتَّى قَالَتْ عَجُوزٌ أَيرْلَنْدِيَّةٌ ثَمَانِينِيَّةٌ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى التَّفَكُّكِ الْأُسَرِيِّ بِسَبَبِ الْفَسَادِ الْمُسْتَشْرِي: إِنَّنِي أَعِيشُ وَحِيدَةً .. أَوْلَادِي وَأَحْفَادِي يَعِيشُونَ فِي مُونْتِرْيَال، أَتَلَقَّى مِنْهُمُ الرَّسَائِلَ بِانْتِظَامٍ، وَأَشْعُرُ أَنَّ عَمَلِيَّةَ تَنَاوُلِ الرَّسَائِلِ بَاتَتْ (مِيكَانِيكِيَّةً)؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ مِنَ الْوُدِّ الْحَقِيقِيِّ ...، هَذَا لَيْسَ ذَنْبَهُمْ ..، أَعُودُ سِتِّينَ عَامًا إِلَى الْوَرَاءِ، عِنْدَمَا كَانَتْ حَيَاتُنَا أَشْبَهَ بِالْمِهْرَجَانِ الدَّائِمِ، الْآنَ تَبَدَّلَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَبْدُو أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَسِيرُونَ (فِي جَنَازَةٍ هُمُ الْأَمْوَاتُ فِيهَا)[١].

وَذَكَرَتْ تَقَارِيرُهُمْ أَنَّ سَبَبَ ارْتِفَاعِ مُعَدَّلِ جَرِيمَةِ النِّسَاءِ: هُوَ أَنَّ الْمَرْأَةَ مُنِحَتْ حُقُوقًا مُتَسَاوِيَةً مَعَ الرَّجُلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ شَجَّعَهَا عَلَى ارْتِكَابِ نَفْسِ الْجَرَائِمِ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الرِّجَالُ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ مِثْلَهُمْ.

إِنَّ عُقَلَاءَ الْغَرْبِ وَمُفَكِّرِيهِمْ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ يَصِيحُونَ بِقُوَّةٍ لِإِرْجَاعِ الْمَرْأَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى مَنْزِلِهَا، ذَكَرَتْ بَاحِثَةٌ مِنْهُمُ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي تَعِيشُهَا الْمَرْأَةُ فِي بِلَادِهِمْ فَقَالَتْ: إِنَّ الْمَرْأَةَ السُّوِيدِيَّةَ فَجْأَةً اكْتَشَفَتْ أَنَّهَا اشْتَرَتْ وَهْمًا هَائِلًا -تَقْصِدُ الْحُرِّيَّةَ- بِثَمَنٍ مُفْزِعٍ هُوَ سَعَادَتُهَا الْحَقِيقِيَّةُ[٢]، فَهِيَ تُرِيدُ الْآنَ أَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ

(١) من واقع الحضارة الغربية، أبو البراء عبد العزيز بن محمد، مجلة البيان، عدد (٤١) ص(٣٧).

(٢) قائلة ذلك هي القاضية السويدية: بريجيت أوف هاهر.

مُعْظَمِ حُرِّيَّتِهَا فِي سَبِيلِ كُلِّ سَعَادَتِهَا.

أَلَمْ يَقْرَأْ دُعَاةُ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ هَذَا الْكَلَامَ الصَّادِرَ مِنْ نَفْسِ الْبِلَادِ المُتَحَرِّرَةِ؟ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ نِسَاءَ الْغَرْبِ تُمَزِّقُهُنَّ مَأْسَاةٌ مُؤْلِمَةٌ؟ فَهُنَّ يَحْمِلْنَ عَلَى أَكْتَافِهِنَّ ظُلْمَ الرِّجَالِ وَصُعُوبَةَ الْحَيَاةِ .. يَحْمِلْنَ عَلَى أَكْتَافِهِنَّ أَطْفَالًا حُرِمُوا حَنَانَ الْأُبُوَّةِ، لَا تَزَالُ المَرْأَةُ تَحْمِلُ فِي أَحْشَائِهَا طِفْلًا لَا تَدْرِي مَنْ هُوَ أَبُوهُ. المَرْأَةُ فِي عَالَمِ التَّحْرِيرِ لَمْ تَخْسَرِ الْحَيَاةَ فَقَطْ، بَلْ خَسِرَهَا النَّاسُ وَالمُجْتَمَعُ، خَسِرَتِ المُجْتَمَعَاتُ فِيهَا المُرَبِّيَةَ الْكَبِيرَةَ لِلْأَجْيَالِ الضَّائِعَةِ.

خَسِرَ الْغَرْبُ صَانِعَةَ الْحَنَانِ فِي مُجْتَمَعٍ سَادَتْ فِيهِ المَادَّةُ، خَسِرُوا الزَّوْجَةَ الْكَرِيمَةَ، وَالشَّرِيكَةَ الْفَاضِلَةَ المُحَافِظَةَ؛ فَقَدْ شُغِلَتِ المَرْأَةُ بِالْعَمَلِ وَتَحْصِيلِ المَتَاعِ الرَّخِيصِ.

هَا هِيَ المَرْأَةُ فِي المُجْتَمَعَاتِ المُتَحَرِّرَةِ تُطَالِبُ بِمَنْعِ اسْتِغْلَالِ جَسَدِهَا وَمَفَاتِنِهَا فِي الدِّعَايَاتِ التِّجَارِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ أَفْجَرَ المُمَثِّلَاتِ وَالرَّاقِصَاتِ بَدَأْنَ يَشْعُرْنَ بِسُقُوطِ المَرْأَةِ أَمَامَ قَدَمَيِ الرَّجُلِ وَنَفْسِيَّتِهِ الْجَشِعَةِ فِي ظِلِّ الْحُرِّيَّةِ المَزْعُومَةِ.

وَلَعَلَّكُمْ قَرَأْتُمْ ذَلِكُمُ الْخَبَرَ عَنْ مُمَثِّلَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ كَانَتْ تُمَثِّلُ مَشْهَدًا قَذِرًا أَمَامَ الْكَامِيرَا، فَثَارَتْ ثَوْرَةً عَارِمَةً، وَصَاحَتْ فِي وَجْهِ المُمَثِّلِ وَالمُخْرِجِ، وَكَالَتْ لَهُمْ سَيْلًا مِنَ الشَّتَائِمِ المُقْذِعَةِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَنْتُمُ الرِّجَالُ، لَا تُرِيدُونَ مِنَّا النِّسَاءِ إِلَّا أَجْسَادَنَا؛ حَتَّى تُصْبِحُوا مِنْ أَصْحَابِ المَلَايِينِ عَلَى حِسَابِنَا، ثُمَّ انْفَجَرَتْ بَاكِيَةً.

لَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ فِطْرَةُ هَذِهِ المَرْأَةِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْحَيَاةِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تَغْرَقُ فِيهَا، اسْتَيْقَظَتْ لِتُقَدِّمَ الدَّلِيلَ الْقَاطِعَ عَلَى المَأْسَاةِ الْكُبْرَى الَّتِي تَعِيشُهَا المَرْأَةُ الَّتِي قَالُوا: إِنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ وَمُتَحَضِّرَةٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَرَاهَا قَوْمُنَا

بِلَادَ التَّحَضُّرِ وَالتَّطَوُّرِ. هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُحَاوِلُ الْمُنَافِقُونَ إِخْفَاءَهَا.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَجَعَلَ تَدْبِيرَهُمْ تَدْمِيرَهُمْ، وَأَرَاهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ وَاجَهَتِ الشُّعُوبُ الْإِسْلَامِيَّةُ أَنْوَاعًا مِنَ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ، وَالتَّسَلُّطِ الْعَسْكَرِيِّ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ هَدَفًا مُهِمًّا لِلْغَازِي، وَنَجَحَ ذَلِكَ الْغَزْوُ حِينًا، وَفَشِلَ أَحْيَانًا أُخْرَى، فَالْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ يَتَجَاذَبُهَا طَرَفَانِ: تَعَالِيمُ دِينِهَا وَمَبَادِئِهَا وَأَخْلَاقِهَا الْمَصْحُوبَةِ بِالْفَقْرِ وَالْقَهْرِ وَالتَّسَلُّطِ مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ؛ فَلَا تَزَالُ تُتَّهَمُ بِأَنَّهَا رَجْعِيَّةٌ، وَأَنَّ دِينَهَا سَبَبُ فَقْرِهَا.

وَطَرَفٌ آخَرُ مُفْسِدٌ يَجْبِذُهَا إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ زَهْرَةُ الدُّنْيَا، وَمُكَافَأَةُ الْمُسْتَعْمِرِ، وَمُغْرِيَاتُ الْغُزَاةِ، بِاسْمِ الْفَنِّ وَالثَّقَافَةِ وَالْحُرِّيَّةِ. تُعْطَى الْأَوْسِمَةَ، وَتُمْنَحُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَائِزَ، وَتُزَيِّنُ أَغْلِفَةَ الْمَجَلَّاتِ، وَتُعْرَضُ فِي الدِّعَايَاتِ نَظِيرَ تَخَلِّيهَا عَنْ دِينِهَا، وَقَتْلِ حَيَائِهَا، فَانْزَلَقَ نِسَاءٌ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الرَّدِيئَةِ، وَحَقَّقْنَ مُرَادَ

الْمُسْتَعْمِرِينَ، وَتَحَلَّى أُخْرَيَاتٌ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ عَلَى شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، وَسَيْلِ الاتِّهَامَاتِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ أَلْسُنِ الشَّانِئِينَ، وَأَقْلَامِ الْمُنَافِقِينَ. صَبَرْنَ مِنْ أَجْلِ دِينِهِنَّ وَأَخْلَاقِهِنَّ، ثُمَّ فِي عَصْرِنَا هَذَا تَنَبَّهَ كَثِيرٌ مِمَّنِ انْزَلَقْنَ فِي الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْآسِنَةِ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ إِلَى أَنَّهُنَّ كُنَّ يَسِرْنَ فِي طَرِيقِ الْخَطِيئَةِ، فَعُدْنَ إِلَى دِينِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ، حَتَّى فِي الْبِلَادِ الَّتِي رَسَخَتْ فِيهَا الْعَلْمَانِيَّةُ وَدَعْوَى تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ.

وَلَكِنَّ الْمُلْفِتَ لِلنَّظَرِ، وَالْجَدِيرَ بِالتَّأَمُّلِ هُوَ أَنَّ ذَلِكُمُ النَّجَاحَ وَالْفَشَلَ الَّذِي يَدُورُ الْغُزَاةُ فِي فَلَكِهِ لَهُ سَبَبٌ مُهِمٌّ فِي كِلَا الْجَانِبَيْنِ؛ فَسَبَبُ نَجَاحِهِمْ وُجُودُ الْقَابِلِيَّةِ لِلْفَسَادِ وَالتَّحَرُّرِ مِنْ قُيُودِ الدِّينِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَسْتَعْمِرُونَهَا. وَسَبَبُ الْفَشَلِ يَكُونُ بِإِصْرَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَإِصْرَارِ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى حِجَابِهِنَّ وَعَفَافِهِنَّ.

فَإِذَا لَمْ تُوجَدِ الْقَابِلِيَّةُ لِلاسْتِعْمَارِ وَالْإِفْسَادِ لَدَى الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْغَازِي بِقَنَوَاتِهِ وَمُغْرِيَاتِهِ، وَلَا بِدُورِ أَزْيَائِهِ وَمَجَلَّاتِهِ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَرْأَةَ، وَيُفْسِدَ دِينَهَا، وَيُذْهِبَ أَخْلَاقَهَا. كَمَا لَنْ يَسْتَطِيعَ الْمُسْتَعْمِرُ بِدَبَّابَتِهِ وَبُنْدُقِيَّتِهِ أَنْ يَنْزِعَ حِجَابَ الْمَرْأَةِ بِالْقُوَّةِ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَسُنَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ.

وَلَكِنْ مَتَى تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِقَبُولِ مَا عِنْدَ الْمُسْتَعْمِرِينَ الْمُفْسِدِينَ؟ وَمَتَى لَا تُوجَدُ؟

لَا تُوجَدُ حِينَمَا يَكُونُ عِنْدَ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَصَانَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَتَدَيُّنٌ صَادِقٌ، وَاتِّبَاعٌ صَحِيحٌ، وَابْتِعَادٌ عَنِ الْمُغْرِيَاتِ.

لَا تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِلْفَسَادِ حِينَمَا تُدْرِكُ الْمَرْأَةُ أَنَّ فَوْزَهَا وَسَعَادَتَهَا هِيَ فِي دِينِهَا، وَأَنَّ عَدُوَّهَا يُرِيدُ إِخْرَاجَهَا مِنْهُ.

لَا تُوجَدُ حِينَمَا يَأْبَى الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ أَيَّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ التَّبَعِيَّةِ وَالتَّقْلِيدِ،

وَمَشْرُوعَاتِ الْإِفْسَادِ وَالتَّغْرِيبِ، وَيَرْفُضُ أَسَالِيبَ الْعَلْمَانِيِّينَ فِي الْإِفْسَادِ، وَيَعُدُّهُمْ جُرْثُومَةً تَضُرُّ الْمُجْتَمَعَ وَالْأُسْرَةَ، وَأَنَّ أَفْكَارَهُمْ وَأُطْرُوحَاتِهِمْ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُلْقَى فِي النُّفَايَاتِ.

وَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِلْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَنَجَاحِ خُطَطِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَالتَّغْرِيبِيِّينَ إِذَا أُشْرِبَتِ الْأُمَّةُ حُبَّ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَالتَّبَعِيَّةِ الْبَغِيضَةِ، وَالْحُرِّيَّةِ بِمَفَاهِيمِهَا الْغَرْبِيَّةِ.

وَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ إِذَا غَفَلَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ دِينِهَا، وَتَغَافَلَ عَنْهَا وَلِيُّهَا، وَأَصْبَحَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي أَيْدِي النِّسَاءِ، وَتَمَكَّنَ أَرْبَابُ الْفَسَادِ وَالتَّغْرِيبِ مِنْ نَشْرِ غَيِّهِمْ وَفَسَادِهِمْ.

وَسَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَمَا تُقْبِلُ الْبُيُوتُ عَلَى الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ، وَتَكْثُرُ أَعْدَادُ الْمُسَافِرِينَ بِاسْمِ السِّيَاحَةِ لِلْبِلَادِ الْكَافِرَةِ، وَيَكْثُرُ ابْتِعَاثُ الْجِنْسَيْنِ لِلدِّرَاسَةِ بِلَا حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ.

سَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَمَا تُضَيَّقُ سُبُلُ الزَّوَاجِ، وَيُغَالَى فِي الْمُهُورِ، وَيُصْبِحُ عَمَلُ الْمَرْأَةِ ضَرُورَةً تُقَدَّمُ عَلَى الْبَيْتِ وَالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ.

سَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَما يُكْسَى عَمَلُ الْمَرْأَةِ بِالصِّبْغَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَتُخْدَعُ بِأَنَّهَا الْمُنْتِجَةُ وَالْمُدَبِّرَةُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ، وَتَتَوَلَّى الْعِمَامَةُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَاللِّحْيَةُ الْمُتَأَكِّلَةُ بِالدِّينِ عَمَلِيَّةَ إِقْنَاعِهَا بِتَزْوِيرِ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَإِبَاحَةِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنَ الِاخْتِلَاطِ وَالْخَلْوَةِ وَالتَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ.

سَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِإِفْسَادِ الْمَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ حِينَ يَخْدَعُونَ النَّاسَ بِالْكَلَامِ الْمُنَمَّقِ، وَالْعِبَارَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَالشِّعَارَاتِ الرَّنَّانَةِ الزَّائِفَةِ الَّتِي خَدَعُوا بِهَا الْمَرْأَةَ الْمُتَحَرِّرَةَ الْمِسْكِينَةَ فِي شَتَّى بِقَاعِ الْعَالَمِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ لَا يَحْسُدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ الْأُسَرِيَّةِ السَّوِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْمُسْلِمُونَ، فَهَلْ نُفْسِدُهَا بِأَيْدِينَا؟!

إِنَّ التَّحَدِّيَ الَّذِي نُوَاجِهُهُ كَبِيرٌ لَا يَسَعُنَا التَّغَافُلُ عَنْهُ، أَوِ التَّقْلِيلُ مِنْ خَطَرِهِ وَشَرِّهِ.

يَجِبُ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا، وَأُفْسِدَتْ أَخْلَاقُهَا قَادَتِ الْمُجْتَمَعَ كُلَّهُ إِلَى بُؤَرِ الدَّمَارِ وَالْهَلَاكِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا يَخْدِشُ الْحَيَاءَ، وَيُخِلُّ بِالْأَخْلَاقِ، فَصَلَاحُ النِّسَاءِ هُوَ صَلَاحُ الْأَوْلَادِ، وَالْأَوْلَادُ هُمْ عِمَادُ الْأُمَّةِ وَمُسْتَقْبَلُهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٣٦٩- منتدى المرأة والألفية

٢١/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لَهُ الْحِكْمَةُ الْعَظِيمَةُ فِيمَا شَرَعَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِيمَا حَكَمَ، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَهَدَى الْعِبَادَ أَجْمَعِينَ ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى؛ فَقَدْ هَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ. وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ مُؤْمِنِينَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنِ الدِّينِ الْقَوِيمِ إِلَى سُبُلِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ؛ اسْتَيْقَظَ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا وَهُوَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ؟** -يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ- **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الآخِرَةِ**»(١)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ فَإِنَّ الْفِتَنَ تَتْرَى، وَلَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى، وَالنَّجَاةُ يُدْرِكُهَا الْعَبْدُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَظِيمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَنْ كَرَّمَهُمْ عَلَى سَائِرِ

(١) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: البخاري في الفتن، باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه (٦٦٥٨).

الْحَيَوَانِ بِالْعُقُولِ، وَفَتَحَ لَهُمْ بِعُقُولِهِمْ كَثِيرًا مِنْ مَغَالِيقِ الْعُلُومِ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨]. وَالْعَقْلُ مَأْخُوذٌ مِنْ عِقَالِ الْإِبِلِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِمَّا لَا يَحْسُنُ بِهِ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، فَأَنْتَ عَاقِلٌ»(٢).

وَالْعَقْلُ حِجْرٌ يَحْجُرُ الْعَاقِلَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الْفَجْر: ٥] أَيْ: لِذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ»(٣).

فَالْعَقْلُ إِذَن قَيْدٌ يُقَيِّدُ صَاحِبَهُ، يَهْتَدِي فِي هَذَا التَّقْيِيدِ بِشَرْعٍ مُنَزَّلٍ، أَوْ بِعُرْفٍ سَادَ فِي النَّاسِ، وَمَنْ رَفَضَ هَذَا الْقَيْدَ فَهُوَ يُرِيدُ إِلْغَاءَ الْعَقْلِ لِصَالِحِ الشَّهْوَةِ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ إِلَّا النُّطْقَ بِكَلَامٍ مَفْهُومٍ.

وَالْعَقْلُ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَلَا كُلِّ نَافِعٍ وَضَارٍّ؛ وَلِذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الشَّرَائِعَ لِتُكْمِلَ مَا فِي الْعَقْلِ مِنْ نَقْصٍ، وَتَسُدَّ مَا فِيهِ مِنْ عَجْزٍ عَنْ إِدْرَاكِ ذَلِكَ؛ فَكَانَتِ الشَّرِيعَةُ نِعْمَةً أُخْرَى يَهْتَدِي بِهَا الْعِبَادُ لِتَحْصِيلِ مَصَالِحِهِمُ الْعَاجِلِ مِنْهَا وَالْآجِلِ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْبَشَرِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَاهِبُ الْعُقُولِ، وَمُنْزِلُ الشَّرَائِعِ، فَمَصْدَرُ الْعَقْلِ وَالشَّرِيعَةِ وَاحِدٌ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا، وَإِذَا وَقَعَ التَّعَارُضُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ فَهُوَ لِخَلَلٍ فِي عُقُولِهِمْ وَطَرَائِقِ تَفْكِيرِهِمْ، أَوْ فِي مَا نُسِبَ إِلَى الشَّرِيعَةِ

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العقل وفضله (٣٥)، وابن عساكر في تاريخه (٢٦/ ٢٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٨).

وَلَيْسَ مِنْهَا. وَشَرْعُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَاكِمُ، وَالْعَقْلُ تَبَعٌ لِذَلِكَ، وَلَا يُقْضَى بِالْعَقْلِ عَلَى الشَّرْعِ؛ لِقُصُورِ الْعَقْلِ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِشُمُولِ الشَّرِيعَةِ كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٥]، هَذَا فِي شَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام، وَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ كَامِلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنْ أَوَّلِ الزَّمَانِ إِلَى آخِرِهِ، وَفِي خُصُوصِ الْقُرْآنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحْل: ٨٩].

وَمَنْ عَارَضَ ذَلِكَ فَهُوَ مُصَادِمٌ لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ، مُسْتَنْكِفٌ عَنْ عِبَادَةِ مَوْلَاهُ، وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى الْهَوَى إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٣].

وَمِنْ صُوَرِ اتِّخَاذِ الْهَوَى إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى: مُعَارَضَةُ الشَّرِيعَةِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ بِأَفْكَارِ الْبَشَرِ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، وَتَقْدِيمِ أَقْوَالِهِمْ عَلَى أَقْوَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَقْوَالِ رَسُولِهِ ﷺ، وَقَدِ اسْتَشْرَى ذَلِكَ فِي الْبَشَرِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجَالَاتِ بَعْدَ انْتِشَارِ مَوْجَاتِ الْإِلْحَادِ وَإِنْكَارِ الْغَيْبِ فِي دُوَلِ الْغَرْبِ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ شَرِّهِ دُوَلُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا سِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِشُؤُونِ الْأُسْرَةِ وَالْمَرْأَةِ؛ فَقَدْ أَجْلَبَ الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ وَالْجَاهِلُونَ فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمَرْأَةِ يُرِيدُونَ تَغْيِيرَهَا، وَيَرْفَعُونَ عَقِيرَتَهُمْ بِتَبْدِيلِهَا، مُدَّعِينَ أَنَّهُمْ يُحَطِّمُونَ الْأَغْلَالَ الَّتِي غَلَّتْهَا، وَيَرْفَعُونَ وِصَايَةَ الرَّجُلِ عَنْهَا؛ لِيَنْقُلُوهَا لَوِ اسْتَطَاعُوا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عِبَادَةِ الْمَبَادِئِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ.

إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ قَدْ كَثُرَ الْقَوْلُ فِيهَا، وَسُوِّدَتْ فِيهَا أُلُوفُ الْكُتُبِ وَالمَقَالَاتِ، وَأَفْرَدَتْهَا بِالْبَحْثِ وَالنِّقَاشِ مِئَاتُ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ، وَتَنَاظَرَ فِيهَا الْمُتَنَاظِرُونَ، وَاخْتَصَمَ مِنْ أَجْلِهَا المُخْتَصِمُونَ، وَعُقِدَتْ لِبَحْثِهَا المُؤْتَمَرَاتُ، وَشُكِّلَتْ لَهَا عَشَرَاتُ اللِّجَانِ وَالْجَمْعِيَّاتِ، وَالْبَشَرُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ وَزِيَادَةٍ وَهُمْ يَدُوكُونَ فِيهَا، وَيُنَاقِشُونَ تَفَاصِيلَهَا، وَتَاللَّهِ لَهِيَ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لَوْلَا الضَّلَالُ وَالْهَوَى، وَالتَّقْلِيدُ عَلَى غَيْرِ هُدًى.

إِنَّ الْقَضِيَّةَ بِكُلِّ يُسْرٍ وَاخْتِصَارٍ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الذَّكَرَ، وَمِنَ الذَّكَرِ خَلَقَ الْأُنْثَى، وَجَعَلَهُمَا سُبْحَانَهُ جِنْسَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي التَّرْكِيبِ الْبَدَنِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالنَّفْسِيِّ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النَّجم: ٤٥، ٤٦]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القِيَامة: ٣٦-٣٩]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ اخْتِلَافَ كُلِّ جِنْسٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، فَسَمَّى أَحَدَهُمَا ذَكَرًا، وَسَمَّى الْآخَرَ أُنْثَى، وَلَوْ كَانَا وَاحِدًا لَمَا سَمَّاهُمَا زَوْجَيْنِ، وَلَمَا أَفْرَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَصْفٍ يَخْتَصُّ بِهِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ مِنْهُمَا يُكَمِّلُ الْجِنْسَ الْآخَرَ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، وَلَا تَكْتَمِلُ سَعَادَتُهُ إِلَّا بِهِ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، وَلَوْ كَانَا مُتَمَاثِلَيْنِ لَمَا احْتَاجَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، وَلَجَازَ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ عَنْ زَوْجِهِ.

بَلْ إِنَّ مِنْ دَلَائِلِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى زَوْجِهِ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ٤٩]، فَلَا أَحَدَ

صَمَدًا يَحْتَاجُ الْخَلْقُ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى هَذَا التَّفْرِيقِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى مِنَ النَّصِّ عَلَى ذَلِكَ صَرَاحَةً فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ إِذْ حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٦]، وَأَقَرَّهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَقُولَتِهَا تِلْكَ، وَلَمْ يُنْكِرْهَا مِنْهَا، أَوْ يُعَقِّبْ عَلَيْهَا.

وَجَاءَتْ شَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ مُوَافِقَةً لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْوَحْيُ وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَالْحِسُّ؛ فَثَمَّةَ أَحْكَامٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْجِنْسَانِ، وَهِيَ أَغْلَبُ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامٌ يَخْتَصُّ بِهَا جِنْسٌ دُونَ الْآخَرِ، كَاخْتِصَاصِ الرِّجَالِ بِالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَاخْتِصَاصِ النِّسَاءِ بِالرَّضَاعَةِ وَالْحَضَانَةِ، وَلَمْ يُسَوِّ اللهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ وَالنَّفَقَةِ وَلَا فِي الْوِلَايَةِ وَالْقِوَامَةِ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٨]، وَالرَّجُلُ يُنْفِقُ عَلَى الْمَرْأَةِ أُمًّا كَانَتْ أَمْ زَوْجَةً أَمْ بِنْتًا، وَلَوْ كَانَ أَفْقَرَ النَّاسِ وَهِيَ أَغْنَاهُمْ.

وَلُغَاتُ الْبَشَرِ عَلَى اخْتِلَافِ بُلْدَانِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مُنْذُ الْقِدَمِ قَدْ مَيَّزَتِ الذَّكَرَ عَنِ الْأُنْثَى، وَخَصَّتْ كُلَّ جِنْسٍ مِنْهُمَا بِخَصَائِصَ فِي التَّسْمِيَةِ وَالْخِطَابِ وَالضَّمِيرِ وَالنِّدَاءِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ عَاشَ الْبَشَرُ قُرُونًا تِبَاعًا، إِلَى أَنْ جَاءَ مَلَاحِدَةُ هَذَا الْعَصْرِ بِبِدْعَةِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَلَوْ كَانَ قُرْآنًا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ الْخَالِقِ ﷻ، أَوْ كَانَ حُكْمًا مِمَّنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ هَذَا الضَّلَالِ عَلَى كُلِّ الْبَشَرِ بِالْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ، وَأَعَانَهُمْ بَعْضُ

المُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ بِتَسْوِيقِ هَذَا الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَالدِّعَايَةِ الْفَجَّةِ لَهُ، وَمُخَادَعَةِ المَغْرُورِينَ بِهِ، وَإِرْهَابِ كُلِّ مَنْ يُعَارِضُهُ أَوْ يَنْتَقِدُهُ أَوْ يُنَاقِشُهُ، وَتَهْدِيدِهِ بِقُوَّةِ الْأَعْدَاءِ.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ جِنْسِ النِّسَاءِ وَجِنْسِ الرِّجَالِ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا وَلَوْ كَانَ مَصْدَرُ هَذَا التَّمْيِيزِ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، يَلْزَمُهُمْ أَنْ يُلْحِدُوا، وَيُنْكِرُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، عَلَى غِرَارِ مَا يَدِينُ بِهِ مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا نَظَرِيَّةَ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ؛ إِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الْخَالِقَ جَلَّ وَعَلَا، وَيَجْعَلُونَ الْحَيَاةَ مَادَّةً أَوْجَدَتْهَا الصُّدْفَةُ، أَوْ أَفْرَزَتْهَا الطَّبِيعَةُ.

فَإِنْ كَانَ الْمُسَوِّقُونَ لِهَذِهِ الْبِدْعَةِ النَّكْرَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَلْيَخْضَعُوا إِذَنْ لِشَرِيعَتِهِ، وَلْيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ، وَلْيَقْبَلُوا تَمْيِيزَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ الْمُتَقَرِّرِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ الصَّانِعَ أَدْرَى بِصَنْعَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَالْخَالِقُ كَذَلِكَ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ مِنْهُمْ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١٧]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلْك: ١٤].

فَإِنْ أَبَوْا إِلَّا عُلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا، وَأَصَرُّوا عَلَى خَطَئِهِمْ وَضَلَالِهِمْ؛ فَلْيَخْلُقُوا خَلْقًا آخَرَ غَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَعْبَثُوا فِيهِ مَا شَاءُوا، وَلْيَجْعَلُوهُ جِنْسَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ لَا تَمَايُزَ بَيْنَهُمَا، أَمَا وَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، فَلْيَدَعُوا الْخَلْقَ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَجْعَلُ لِلذَّكَرِ مَا لَهُ، وَلِلْأُنْثَى مَا لَهَا، فَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَلْيَتْرُكُوا لِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَمَا لَهُمْ وَلِأُنَاسٍ قَدِ ارْتَضَوْا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، وَلْيَبْحَثُوا لَهُمْ عَنْ بِلَادٍ أُخْرَى غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِيُسَوِّقُوا إِلْحَادَهُمْ

فِيهَا ؛ كَفَى اللهُ تَعَالَى الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ شَرَّهُمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَذَاقَهُمْ ذُلَّ الدُّنْيَا قَبْلَ خِزْيِ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

آمَنَّا بِاللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَرَضِينَا بِهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَبِشَرِيعَتِهِ مَنْهَجًا وَإِمَامًا، وَلْيَقُلْ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى دِينِنَا إِلَى المَمَاتِ، وَأَنْ نَلْقَاهُ غَيْرَ مُغَيِّرِينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤]، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٦، ٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ قَضَى بِالْحَقِّ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَأْنُ الْمَرْأَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَبِيرٌ، وَقَدْ أَكْرَمَهَا اللهُ ﷻ بِمَا كَلَّفَهَا بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا مِنْ حُقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ تُجَاهَ زَوْجِهَا وَأُسْرَتِهَا وَأُمَّتِهَا، وَحَفِظَ لَهَا حَقَّهَا، وَصَانَ لَهَا كَرَامَتَهَا وَعِفَّتَهَا بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّ مَرْضَى الْقُلُوبِ يَأْبَوْنَ إِلَّا إِهَانَتَهَا بِمُزَاحَمَتِهَا لِلرِّجَالِ، وَالصِّدَامِ مَعَهُمْ صِدَامًا تَخْسَرُ فِيهِ نَفْسَهَا وَدِينَهَا وَبَيْتَهَا وَزَوْجَهَا وَوَلَدَهَا، وَيَخْسَرُهَا الْمُجْتَمَعُ أُمًّا حَانِيَةً، وَزَوْجَةً فَاضِلَةً، وَبِنْتًا غَافِلَةً مُحْصَنَةً.

لَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ مِنْ دُعَاةِ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ يُرَاهِنُونَ عَلَى نَجَاحِ الْمَرْأَةِ إِنْ تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا وَعَفَافِهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ دِينَهَا وَأَخْلَاقَهَا أَغْلَالٌ قَدْ غَلَّتْهَا عَنِ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ، وَيَجْعَلُونَ مَثَلَهَا الْأَعْلَى فِي ذَلِكَ عَرَايَا بَنِي الْأَصْفَرِ اللَّائِي ابْتُذِلْنَ أَعْظَمَ ابْتِذَالٍ، ثُمَّ أُلْقِينَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ كَمَا يُلْقَى الْمَتَاعُ الْقَدِيمُ؛ لِتُوَاجِهَ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ صَخَبَ الْحَيَاةِ وَمُشْكِلَاتِهَا وَحْدَهَا، فَلَا أَبَ يَحْنُو عَلَيْهَا، وَلَا زَوْجَ يَرْعَاهَا وَيَصُونُهَا، وَلَا وَلَدَ يَرْحَمُ شَيْبَتَهَا إِنْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.

فَلَمَّا خَسِرَ رِهَانُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ بِقُدْرَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ دِينِهَا وَحِجَابِهَا وَبَيْنَ دِرَاسَتِهَا وَعَمَلِهَا، وَأَبْدَعَتْ فِي ذَلِكَ أَيَّمَا إِبْدَاعٍ، وَحَازَتْ شَهَادَاتٍ عُلْيَا، وَأَثْبَتَتْ عَمَلِيًّا أَنَّ الْمَرْأَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ وَاجِبَاتِ دِينِهَا وَمُتَطَلَّبَاتِ دِرَاسَتِهَا وَعَمَلِهَا، إِذَا تَمَّ فَصْلُهَا كُلِّيًّا عَنْ مَجَالَاتِ الرِّجَالِ وَأَعْمَالِهِمْ

وَمَدَارِسِهِمْ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ الْمُبَارَكَةُ أُنْمُوذَجًا يُحْتَذَى فِي ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا فِي تَعْلِيمِ الْبَنَاتِ، فَلَمَّا نَجَحَتْ فِي ذَلِكَ، وَأَغَاظَتِ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ؛ رَاحَ الْأَبَالِسَةُ مِنْهُمْ يُضَيِّقُونَ مَجَالَاتِ عَمَلِ الْمَرْأَةِ الْمُنْفَصِلِ عَنِ الرِّجَالِ، وَيُوَسِّعُونَ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ، وَلَا يَقْبَلُونَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، وَمَنْ تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا -رَغْمَ مَا يَفْعَلُونَ- تَتِمُّ مُضَايَقَتُهَا، وَالتَّسَلُّطُ عَلَيْهَا لِتَتْرُكَ عَمَلَهَا؛ لِأَنَّ مَنْظَرَهَا يُزْعِجُهُمْ، وَيَجْعَلُ أُخْرَيَاتٍ يَقْتَدِينَ بِهَا.

يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَصِيحُونَ بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ مُطَالِبِينَ بِمَجَالَاتٍ أَكْثَرَ لِعَمَلِ الْمَرْأَةِ، وَلَقَدْ بَانَ لِلنَّاسِ مَاذَا يُرِيدُونَ، وَعُرِفَ مَاذَا يَقْصِدُونَ؟!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَجَالَاتٍ أَوْسَعَ لِلِاخْتِلَاطِ وَالْخَلْوَةِ، وَنَشْرِ السُّوءِ وَالرَّذِيلَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْعَفَافِ وَالْفَضِيلَةِ، وَإِزَاحَةِ الْقُيُودِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تُقَيِّدُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَتُعِيقُهُمْ عَنْ تَنْفِيذِ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّخْرِيبِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا زُورًا وَبُهْتَانًا بِالْمَشْرُوعَاتِ التَّقَدُّمِيَّةِ، وَحُجَّتُهُمُ الَّتِي مَلَّ النَّاسُ تَكْرَارَهَا: أَنَّ الْعَالَمَ سَبَقَنَا وَلَا زِلْنَا نَتَأَخَّرُ، وَلَا تَقَدُّمَ فِي مَفْهُومِهِمْ إِلَّا بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَلَقَدْ حَرَمُوا نِسَاءً كَثِيرَاتٍ مِنَ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَجِدْنَ إِلَّا مَجَالَاتٍ مُلَوَّثَةً بِالِاخْتِلَاطِ وَالسُّفُورِ.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي ثَبَتَ فِيهِ لِلْعَالَمِ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ مَا خَلَّفَهُ اخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ مِنْ مُشْكِلَاتٍ لَا عِلَاجَ لَهَا إِلَّا بِالْفَصْلِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، لَا يَزَالُ كَثِيرٌ مِمَّنْ هُمْ فِي غَيِّهِمْ يَعْمَهُونَ يُصِرُّونَ عَلَى الْمُكَابَرَةِ وَالْإِفْسَادِ؛ فَفِي أَمْرِيكَا الَّتِي يَحْتَذُونَهَا فِي التَّقَدُّمِ وَالْقُوَّةِ وَالصِّنَاعَةِ صَرَّحَ رَئِيسُهَا بُوشْ بِلُزُومِ فَصْلِ الطُّلَّابِ عَنِ الطَّالِبَاتِ فِي الدِّرَاسَةِ، بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ التَّرْبَوِيَّةُ أَنَّ اخْتِلَاطَ الْجِنْسَيْنِ أَدَّى إِلَى ضَعْفِ التَّحْصِيلِ فِي الدِّرَاسَةِ.

وَفِي دُوَلِ الاِتِّحَادِ الْأُورُبِّيِّ صَدَرَتْ دِرَاسَاتٌ مَيْدَانِيَّةٌ وَأَبْحَاثٌ جَادَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ أَعْظَمَ وَبَالٍ مُنِيَتْ بِهِ الْحَضَارَةُ الْمُعَاصِرَةُ هُوَ اخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

وَفِي الشَّرْقِ الْوَثَنِيِّ عَمِلُوا عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الْحَافِلَاتِ وَالْقِطَارَاتِ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ شِكَايَةِ النِّسَاءِ مِنْ تَحَرُّشِ الرِّجَالِ بِهِنَّ.

كُلُّ هَذَا -وَغَيْرُهُ كَثِيرٌ- يُثْبِتُ مَا تَنْعَمُ بِهِ بِلَادُنَا -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ بِالْفَصْلِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ فِي الدِّرَاسَةِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّ فِئَامًا مِنْ بَنِي قَوْمِنَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَفْكَارٍ قَدِيمَةٍ مُتَخَلِّفَةٍ تَلَقَّوْهَا قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً، فَاسْتَقَرَّتْ فِي عُقُولِهِمْ، وَتَغَيَّرَ الْعَالَمُ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ عُقُولُهُمْ بَعْدُ، بَلْ شَابُوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَسَفَاهَتِهِمْ، وَلَا حِيلَةَ فِي سَفَهِ الشَّيْخِ؛ إِذْ لَا حُلُمَ بَعْدَهُ!

وَحِينَ تُعْقَدُ الْمُؤْتَمَرَاتُ وَالْمُنْتَدَيَاتُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي تُعْنَى بِشَأْنِ الْمَرْأَةِ(٤) لَا يُرَشِّحُونَ لَهَا مَنْ يُمَثِّلُ نِسَاءَ الْمُجْتَمَعِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُتَعَلِّمَاتِ الْمُهَذَّبَاتِ، وَإِنَّمَا يَعْمِدُونَ إِلَى عَجَائِزَ لِيبْرَالِيَّاتٍ أَضَعْنَ أَعْمَارَهُنَّ فِي الْأَفْكَارِ الضَّائِعَةِ، وَشَرِبْنَ مِنَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْآسِنَةِ حَتَّى ثَمِلْنَ، وَلَا يَعْرِفْنَ عَنْ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ، فَيُطَالِبْنَ بِمَا يُعَارِضُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْفُضُهُ الْكَثْرَةُ الْكَاثِرَةُ مِنْ نِسَاءِ وَرِجَالِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَشْتَكِي فِيهِ هَذِهِ الْفَصِيلَةُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ تَأَخُّرِ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَعَدَمِ قَبُولِ الْآخَرِ، وَهُمْ وَهُنَّ لَا يُحَاوِرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَلَا يَقْبَلُونَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، فَأَيُّ حِوَارٍ يَدْعُونَ إِلَيْهِ؟! وَأَيُّ آخَرَ يَقْبَلُونَهُ؟!

إِنَّهُمْ فِئَةٌ قَلِيلَةٌ فِي النَّاسِ لَا تُمَثِّلُ إِلَّا نَفْسَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يُرِيدُونَ خَرْقَ سَفِينَةِ

---

(٤) ومن ذلك: منتدى المرأة والألفية الذي عقد هذا الأسبوع في الرياض من ١٥-١٧ ذي القعدة ١٤٢٦هـ.

المُجْتَمَعِ، وَإِغْرَاقَهُ فِي لُجَجٍ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةِ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا، وَمَا الْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي سَبَقَتْ إِلَى إِفْسَادِ المَرْأَةِ وَتَحْرِيرِهَا مِنْ قُيُودِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ إِلَّا أَمْثِلَةٌ شَاهِدَةٌ عَلَى مَا يُرِيدُ هَؤُلَاءِ المُفْسِدُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ أَنْ يُوصِلُوا مُجْتَمَعَنَا وَنِسَاءَنَا إِلَيْهِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ فَضْحِ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَكَشْفِ عَوْرَاتِهِمْ، وَتَحْذِيرِ المُسْلِمِينَ مِنْ خَطَرِ أَفْكَارِهِمْ وَأُطْرُوحَاتِهِمْ، مَعَ تَحْصِينِ نِسَاءِ المُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ مِنْ أَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ الَّتِي يُزَوِّرُونَهَا بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَيُرَوِّجُونَهَا بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ تَنْطَلِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُمْ، وَحَقِيقَةَ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ فَسَادٍ وَانْحِلَالٍ، وَلَا أَجِدُ وَصْفًا أَدَقَّ فِيهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ: دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَ المُسْلِمِينَ شُرُورَهُمْ، وَأَنْ يُحْبِطَ كَيْدَهُمْ، وَأَنْ يُرِيَهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ تَمَسُّكِ المُسْلِمِينَ رِجَالًا وَنِسَاءً، وَفَتَيَاتٍ وَفِتْيَانًا بِتَعَالِيمِ دِينِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



٣٧٠- نقض دعوى حرية الرأي

١٩/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَحَاطَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِحُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الْقَصَص: ٦٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ امْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْقَصَص: ٧٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَقَضَى بِهَيْمَنَةِ دِينِهِ عَلَى كُلِّ الْأَفْكَارِ وَالْمِلَلِ، وَالْآرَاءِ وَالنِّحَلِ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائِدَة: ٤٨]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَنْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا؛ أَخْلَصُوا لِرَبِّهِمْ، وَاتَّبَعُوا نَبِيَّهُمْ، وَنَصَرُوا دِينَهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِتَنُهُ، وَاشْتَدَّتْ مِحَنُهُ، وَازْدَادَتْ غُرْبَةُ الدِّينِ وَأَهْلِهِ فِيهِ، فَتَمَسَّكُوا بِدِينِكُمْ وَلَوْ تَفَلَّتَ النَّاسُ مِنْهُ، وَالْزَمُوا هَدْيَ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَلَوْ أَحْدَثُوا فِيهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَحْتَكِمُ الْبَشَرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِلَى مَا يَرْتَضُونَهُ مِنْ شَرِيعَةٍ أَوْ عُرْفٍ أَوْ قَانُونٍ؛ فَأَتْبَاعُ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لَا يَرْضَوْنَ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ

حَكَمًا بَيْنَهُمْ، فَهِيَ قَانُونُهُمْ وَنِظَامُهُمْ، يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِهَا، وَيَلْتَزِمُونَ قُيُودَهَا.

وَأَهْلُ الشَّرَائِعِ المُحَرَّفَةِ أَوِ المُبَدَّلَةِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِيمَا ارْتَضَوْهُ مِنْ شَرَائِعِهِمْ، وَالمَلَاحِدَةُ لَهُمْ قَانُونٌ يَلْتَزِمُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، بَلْ إِنَّ جَهَلَةَ النَّاسِ مِنْ أَعْرَابِ الصَّحْرَاءِ، وَمَنْ يَعِيشُونَ فِي الْأَدْغَالِ، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَاتِ وَالمَعَارِفِ لَهُمْ أَعْرَافُهُمْ وَأَنْظِمَتُهُمْ الَّتِي يُنَظِّمُونَ بِهَا شُئُونَهُمْ، وَيَعْرِفُ أَفْرَادُهُمْ بِوَاسِطَتِهَا حُقُوقَهُمْ، وَلَا يُوجِدُ بَشَرٌ مَهْمَا كَانُوا لَيْسَ لَهُمْ نِظَامٌ وَلَا قَانُونٌ يَلْتَزِمُونَهُ.

وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ لِلْعُبُودِيَّةِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِخَالِقِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ يُسَمَّى حُرِّيَّةً مُطْلَقَةً، لَا فِي الْأَفْعَالِ وَلَا فِي الْأَقْوَالِ، خِلَافًا لِمَا يَزْعُمُهُ الزَّاعِمُونَ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ وُلِدَ حُرًّا بِلَا قُيُودٍ عَلَيْهِ، فَلَهُ أَنْ يَدِينَ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنْ يُفَكِّرَ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنْ يَقُولَ وَيَفْعَلَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبَ وَيَنْشُرَ مَا شَاءَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا دَعَاوَى عَرِيضَةٌ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِي وَاقِعِ الْبَشَرِ، لَا فِي زَمَانِنَا هَذَا وَلَا قَبْلَهُ، وَلَا فِي دُوَلِ الشَّرْقِ وَلَا فِي دُوَلِ الْغَرْبِ، بَلِ المَوْجُودُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفِي كُلِّ الدُّوَلِ وَعِنْدَ كُلِّ الْبَشَرِ أَنْظِمَةٌ وَقَوَانِينُ تَضْبِطُ أَقْوَالَ النَّاسِ وَأَفْعَالَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ فِي أَيِّ جُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَنْشُرَ مَا يَشَاءُ. هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ المُشَاهَدُ.

وَفِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، لِلْعَبْدِ حُدُودٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ تَجَاوُزُهَا، وَإِلَّا حُوسِبَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلَاق: ١].

وَفِي الْإِسْلَامِ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَكْتُبَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَنْشُرَ مَا يَشَاءُ؛ فَقَدْ يَقُولُ كَلِمَةً أَوْ يَكْتُبُهَا أَوْ يَنْشُرُهَا فَيَكْفُرُ بِهَا، وَيَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ بِسَبَبِهَا، وَقَدْ يَقُولُ السُّوءَ فِي شَخْصٍ فَيُجْلَدُ حَدًّا أَوْ تَعْزِيرًا. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَسُبَّ اللهَ تَعَالَى أَوْ رَسُولَهُ ﷺ أَوْ دِينَ الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْذِفَ بِالسُّوءِ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِلَّا عُوقِبَ، هَكَذَا يُؤَاخَذُ الْإِنْسَانُ بِمَا يَقُولُ وَبِمَا يَكْتُبُ، مُسْلِمًا كَانَ أَمْ كَافِرًا.

وَالرَّأْيُ أَوِ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْإِنْسَانَ حُرٌّ فِيهَا قَدْ تُودِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى النَّارِ، وَتَسْتَجْلِبُ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ أَوْ رَأْيٍ قَالَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**» مُتَفَقٌ عَلَيهِ. وَفِي لَفْظٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: «**يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ**»[1].

وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَكُفُّوا أَلْسِنَتَهُمْ عَمَّا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْكَلَامِ، قَالَ لَهُ مُعَاذٌ رضي الله عنه: «وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦١١٢-٦١١٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨)، والترمذي في الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٤)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٠).

(٢) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه: الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة وقال: حديث حسن صحيح (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، والطيالسي (٥٦٠)، وعبد بن حميد (١١٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٧٣) رقم =

وَفِي كُلِّ قَوَانِينِ الْبَشَرِ الْوَضْعِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ ضَوَابِطُ لِمَا يُقَالُ وَمَا يُكْتَبُ وَمَا يُنْشَرُ، وَعُقُوبَاتٌ لِتَجَاوُزِ هَذِهِ الضَّوَابِطِ، خِلَافًا لِمَا يَزْعُمُهُ دُعَاةُ الْحُرِّيَّةِ بِأَثْوَابِهَا الْغَرْبِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلِذَا قَرَنُوا فِي تَعْرِيفَاتِهِمْ لِلْحُرِّيَّةِ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَجَعَلُوا حُرِّيَّةَ الشَّخْصِ تَنْتَهِي عِنْدَ حُرِّيَّةِ الآخَرِ، وَجَعَلُوا مِنْ ضِمْنِ الْأَذَى الْمَمْنُوعِ فِي بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ: الْأَذِيَّةَ بِالْقَوْلِ أَوِ الْكِتَابَةِ؛ كَالْكَذِبِ عَلَى الْأَشْخَاصِ، أَوِ النَّمِيمَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ نَشْرِ إِشَاعَةٍ مُغْرِضَةٍ تَضُرُّ بِبَعْضِهِمْ، وَقَوَانِينُهُمْ تُعَاقِبُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا غَيْرَ مَسْئُولَةٍ، وَلَا يُجِيزُونَهَا بِدَعْوَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ أَوْ حُرِّيَّةِ الْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ. وَكَمْ سَمِعْنَا مِنْ قَضَايَا رُفِعَتْ عَلَى أَقْوَامٍ تُسَمَّى دَعَاوَى التَّشْهِيرِ.

وَلَوْ صَاحَ بِالنَّاسِ إِنْسَانٌ فِي أَكْبَرِ بِلَادِ الدُّنْيَا حُرِّيَّةً أَنَّ حَرِيقًا قَدِ اشْتَعَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، أَوْ أَنَّ قُنْبُلَةً قَدْ وُضِعَتْ فِي طَائِرَتِهِمْ، وَكَانَ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا لِلْكَذِبِ لَعُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْأَذَى لِلنَّاسِ وَتَرْوِيعِهِمْ، وَالْإِزْعَاجِ لِلسُّلْطَاتِ الْمَسْئُولَةِ، وَلَا تَشْفَعُ دَعْوَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، أَوْ مَحَبَّةِ الْمِزَاحِ لِصَاحِبِهَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْتَدِ عَلَى أَحَدٍ لَا بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ.

وَكُلُّ دَوْلَةٍ فِيهَا مِنَ الْقَوَانِينِ مَا يُجَرِّمُ إِفْشَاءَ الْأَسْرَارِ لِلدُّوَلِ الْأُخْرَى، وَقَدْ

= (١٣٧)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٤٤٧).

وأعله الحافظ ابن رجب بعلتين:

الأولى: أنه من رواية أبي وائل -رحمه الله تعالى- عن معاذ رضي الله عنه ولم يثبت سماعه منه، وإن أدركه بالسن مع اختلاف بلديهما.

الثانية: أنه يرويه حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ رضي الله عنه. قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه حديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه. قال ابن رجب: رواية شهر عن معاذ مرسلة يقينًا، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه. جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٩).

تَصِلُ عُقُوبَةُ ذَلِكَ إِلَى الْقَتْلِ، مَعَ أَنَّ مُفْشِيَ الْأَسْرَارِ لَمْ يَتَجَاوَزْ إِلَّا أَنْ قَالَ قَوْلًا، أَوْ كَتَبَ كِتَابًا نَبَذَهُ إِلَى مَنْ يَنْتَفِعُ مِنْهُمْ.

وَلَوْ شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى قَضِيَّةٍ ثُمَّ اتَّضَحَ كَذِبُهُ فِي شَهَادَتِهِ لَعَاقَبَتْهُ كُلُّ قَوَانِينِ الْقَضَاءِ فِي الْأَرْضِ، شَرْعِيَّةً كَانَتْ أَمْ وَضْعِيَّةً، مَعَ أَنَّهُ بِشَاهَدَتِهِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ إِطَارِ الْقَوْلِ، وَبَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ مُولَعًا بِشَهَادَةِ الزُّورِ، أَوْ يَتَأَكَّلُ بِهَا، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّ شَهَادَةَ الزُّورِ تَجُوزُ مِنْ بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ(٣).

وَفِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ تُمْنَعُ الْكُتُبُ، وَتُحْجَبُ المَقَالَاتُ، وَتُقَيَّدُ حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَالْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ إِذَا خَالَفَتْ سِيَاسَةَ الْمُهَيْمِنِينَ عَلَى الْأَحْزَابِ الْمُتَنَفِّذَةِ، أَوْ كَانَ فِيهَا فَضْحٌ لِمُمَارَسَاتِهِمْ، أَوْ تَجْيِيشٌ لِلْجَمَاهِيرِ ضِدَّهُمْ، أَوْ كَانَ فِيهَا مَا يُعَكِّرُ عَلَى مَشَارِيعِهِمُ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ.

وَفِي الدَّوْلَةِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْأُولَى فِي الْعَالَمِ مَنَعُوا كِتَابَ الْخَدِيعَةِ الْكُبْرَى(٤)؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَشْكِيكٍ فِيمَا يُعْرَفُ بِأَحْدَاثِ سِبْتَمْبِرَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ رَأْيًا رَآهُ صَاحِبُهُ، وَحَلَّلَ الْحَدَثَ بِمُوجَبِ رَأْيِهِ.

وَلَمَّا وَقَفَتِ الصَّحَفِيَّةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ رِيتْشِلْ كُورِي أَمَامَ بِلْدُوزَرٍ يَهُودِيٍّ فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهَا لِمَنْعِ سَائِقِهِ مِنْ تَدْمِيرِ مَنْزِلٍ فِلَسْطِينِيٍّ، فَدَهَسَهَا الْبِلْدُوزَرُ عَنْ عَمْدٍ ثُمَّ عَادَ إِلَى

(٣) ينظر: سخافة التعلل بحرية التعبير، د. شيخ جعفر إدريس، مجلة البيان، عدد (٢٢٣) ص(٣٢).

(٤) كتاب الخديعة الكبرى ألفه الصحفي الفرنسي، تيري ميسان، وفكرته تقوم على أن أحداث سبتمبر صنعتها أمريكا وخدعت العالم بها؛ لتمرير سياسات معينة، وتبرير غزوها للدول الأخرى، وذكر عددًا من الأدلة على ذلك، وأيد كلامه في مقابلة تلفزيونية إلى أن الإدارة الأمريكية منعت محاكمة جادة في هذه العملية وخلفياتها، وأن عائلات الضحايا التي استلمت تعويضًا طلب منهم أن يوقعوا على وثيقة يتنازلون فيها عن حقوقهم في رفع دعوى أمام محكمة أمريكية جنائية أو مدنية. وكتابه المذكور ممنوع من البيع في أمريكا.

الْخَلْفِ لِيَدْهَسَهَا مَرَّةً أُخْرَى، لمَّا فَعلَتْ ذَلِكَ وَفَقَدَتْ حَيَاتَهَا -ثَمنًا لِمَوْقِفِهَا الشُّجَاعِ- تَفَاعَلَتْ مَعَهَا زَمِيلَةٌ لَهَا، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْمَلَ مَسْرَحِيَّةً بِاسْمِهَا، فَمُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ فِي بِلَادِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي يَؤُمُّهَا دُعَاةُ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَنَا، وَهَذَا الْمَنْعُ الَّذِي يُعَدُّ اغْتِيَالًا لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، عَلَّقَ عَلَيْهِ أَشْهَرُ الصَّحَفِيِّينَ الْإِنْجِلِيزِ سَاخِرًا وَهُوَ يَقُولُ: كَانَتْ شَجَاعَةُ رِيتْشِلْ مِنَ النَّوْعِ الْخَطَإِ، وَكَانَتْ تُدَافِعُ عَنْ حُرِّيَّةِ الشَّعْبِ الْخَطَإِ(٥).

وَبَاحِثَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ نَصْرَانِيَّةٌ دَرَسَتْ كُتُبَ الشَّيْخِ الْمُجَدِّدِ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وَخَلَصَتْ فِي مُقَابَلَةٍ لَهَا إِلَى أَنَّ كُتُبَ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِمَا يَجْرِي فِي الْأَرْضِ مِنْ عُنْفٍ وَإِرْهَابٍ، خِلَافًا لِمَا يُرَوِّجُهُ زَنَادِقَةُ الْعَصْرِ، فَاتُّهِمَتْ بِأَنَّهَا وَهَّابِيَّةٌ وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، وَلَمْ تَشْفَعْ لَهَا حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ، وَكَوْنُهَا بَاحِثَةً مُتَجَرِّدَةً فِي ذَلِكَ(٦).

---

(٥) قائل ذلك هو الصحفي البريطاني المشهور (روبرت فيسك) وهو الذي كتب عن قصة صاحبة المسرحية الممنوعة وهي بعنوان (اسمي ريتشل كوري)، ومنتجة المسرحية (رويال كورت)، وذكر في نفس مقالته: أن صديقه (انتوني لونسستن) وهو صحفي وأكاديمي يهودي استرالي قد تم التضييق عليه بسبب كتاب له عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.
وذكر أنه وصلته رسالة من الإسرائيلية الأمريكية (باربارة جولة شيدر) ذكرت فيها أنها تتعرض لهجوم شديد بسبب أنها اختارت عنوانًا عربيًّا لروايتها عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وعنوان روايتها (النكبة: الصراع الفلسطيني الإسرائيلي).
وذكر فيسك في مقالته أن له مقالة عن حرب لبنان سحبت من النشر، واعتذر منه الناشر بأنه لا يقوى على نشرها خوفًا من الملاحقة القضائية، ثم ختم مقالته بعد أن أورد الأمثلة السابقة من كبت حرية الرأي والبحث بقوله: علي أن أتذكر أن درجة الإهانة والتهديدات المباشرة التي يتعرض لها أي شخص يجرؤ على انتقاد إسرائيل قد ارتفعت إلى حدٍّ كبير، إن محاولة إجبار الصحافة على إطاعة قوانين وقواعد إسرائيل أصبحت دولية وتتنامى باستمرار. اهـ من الإندبندنت. ومنقول إلى صحيفة الوطن، الجمعة ١٧/ ٢/ ١٤٢٧هـ.

(٦) هي الدكتورة ناتانا دي لونج، ورسالتها الدكتوراه في الشيخ محمد بن عبد الوهاب =

وَلَنْ يَجِدَ أَيُّ سَائِحٍ أَوْ بَاحِثٍ فِي كُلِّ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَيَّ كِتَابٍ يُشَكِّكُ فِي المَحَارِقِ النَّازِيَّةِ لِلْيَهُودِ، أَوْ يُقَلِّلُ مِنْ خَسَائِرِهَا، أَوْ يُوجِدُ مُسَوِّغَاتٍ لَهَا، وَلَوْ سَوَّلَتْ لِكَاتِبٍ غَرْبِيٍّ نَفْسُهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ حَقِيقَةِ ذَلِكَ، وَيَنْشُرَهُ عَلَى النَّاسِ لَكَانَ مَصِيرُهُ المُحَاكَمَةَ وَالسَّجْنَ، وَلَحُوسِبَتْ دَارُ النَّشْرِ الَّتِي تَنْشُرُ لَهُ، وَلَسُحِبَ كِتَابُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ تَحْتَ دَعْوَى مُعَادَاةِ السَّامِيَّةِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْرُجُ عَنْ مُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْبَحْثِ. وَقَدْ أُوذِيَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالمُؤَرِّخِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ الْغَرْبِيِّينَ.

وَفِي الْبِلَادِ الْأُولَى فِي الْحُرِّيَّةِ فُصِلَتْ مُؤَرِّخَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ مِنْ مَجْلِسِ النُّوَّابِ لِمُجَرَّدِ أَنَّهَا قَالَتْ: وِجْهَةُ نَظَرِ النَّازِيِّينَ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ عَدَمِ شَعْبِيَّتِهَا لَا تَزَالُ وِجْهَةَ نَظَرٍ، وَلَا تَأْخُذُ حَقَّهَا فِي التَّعْبِيرِ(٧).

وَفِي كَنَدَا حَكَمَ قَاضٍ عَلَى امْرَأَةٍ بِالسِّجْنِ مَدَى الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا ذَبَحَتْ زَوْجَهَا بِسِكِّينٍ، ثُمَّ عَلَّقَ عَلَى بَشَاعَةِ جَرِيمَتِهَا بِقَوْلِهِ: لَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ المَرْأَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ عُنْفًا مِنَ الرَّجُلِ، حَتَّى النَّازِيُّ لَمْ يُعَذِّبْ ضَحَايَاهُ الْيَهُودَ قَبْلَ قَتْلِهِمْ. فَثَارَتْ ثَوْرَةُ الْجَمْعِيَّاتِ النِّسْوِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ عَلَيْهِ حَتَّى أَفْقَدَتْهُ مَنْصِبَهُ، بِسَبَبِ هَذَا التَّعْلِيقِ

= -رحمه الله تعالى-، وقد قرأت أهم كتب الشيخ ومنها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وكثيرًا من فتاواه ورسائله، وخلصت إلى أن ابن تيمية وابن عبد الوهاب وسيد قطب -رحمهم الله تعالى- لا تحوي كتبهم أي مواد متطرفة أو تدعو إلى العنف، وقد ذكرت ذلك في مقابلة لها مع صحيفة الشرق الأوسط في ١/ ١٢/ ١٤٢٧هـ أثناء زيارتها للمملكة، ثم علمت من أحد الإخوة الفضلاء أن اللوبي الصهيوني تحرك ضدها في أمريكا بسبب هذه المقابلة، وأنها أوذيت وهددت حتى همت بالاعتذار عما قالت، لولا أنها استشارت من أوصاها بأن لا تتعجل في الاعتذار.

(٧) انظر: حرية التعبير في الغرب .. الحقيقة والوهم، د. أحمد محمد الدغشي، مجلة البيان عدد (٢٢٢) ص(٦٠) وقد ذكر أمثلة كثيرة جدًّا على انتهاكات الغربيين لحرية الرأي والنشر، فيحسن الرجوع إليه لمن يهمه الموضوع.

الْبَسِيطِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ رَأْيًا رَآهُ(٨).

وَحُوسِبَ أُسْتَاذٌ جَامِعِيٌّ فِي فَرَنْسَا؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ الْأَرْمَنُ قَدْ تَعَرَّضُوا لِإِبَادَةٍ جَمَاعِيَّةٍ عَلَى أَيْدِي الْقُوَّاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْفَائِتِ(٩).

وَكَمْ مِنْ كُتُبٍ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ صُودِرَتْ، وَمَقَالَاتٍ حُجِبَتْ، وَمَسْرَحِيَّاتٍ أُلْغِيَتْ! وَكَمْ مِنْ كُتَّابٍ حُوسِبُوا وَسُجِنُوا عَلَى قَضَايَا فِكْرِيَّةٍ، وَآرَاءٍ رَأَوْهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَعَلَّقَ ذَلِكَ بِالْيَهُودِ وَتَارِيخِهِمْ!

وَقَدْ بَانَ بِهَذِهِ الْحَوَادِثِ - وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ - أَنَّهُ لَا يُوجَدُ حُرِّيَّةٌ مُطْلَقَةٌ فِي الْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ وَالرَّأْيِ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْغَرْبِ قَدْ يُجَرَّمُ وَيُعَاقَبُ عَلَى رَأْيٍ رَآهُ، أَوْ كِتَابٍ أَصْدَرَهُ، أَوْ مَقَالٍ نَشَرَهُ، أَوْ قَوْلٍ أَذَاعَهُ إِذَا خَالَفَ قَوَانِينَهُمْ، أَوْ أَزْعَجَ الْمُتَنَفِّذِينَ فِي بِلَادِهِمْ.

وَالْمُسَوِّقُونَ لِبِضَاعَتِهِمُ الرَّدِيئَةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يُرَدِّدُونَ خَلْفَهُمْ كَالْبُلْهِ وَالمَعَاتِيهِ مَا يُلْقُونَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ دُرُوسِ الْحُرِّيَّةِ، دُونَ نَظَرٍ أَوْ مُنَاقَشَةٍ أَوْ سُؤَالٍ عَمَّا يَنْتَهِكُونَهُ هُمْ مِنْ حُرِّيَّاتِ الرَّأْيِ وَالنَّشْرِ، إِذَا لَمْ تَتَوَافَقْ مَعَ أَهْوَائِهِمْ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ حَجْمُ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَمُثَقَّفُونَ، وَيَنْتَفِخُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَلْقَابِهِمُ الَّتِي لَا تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ الْحَقَائِقِ، وَهُمْ يَسْتَوْرِدُونَ أَسْوَأَ الْبَضَائِعِ الْغَرْبِيَّةِ؛ لِيَفْرِضُوهَا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِالِاسْتِبْدَادِ وَالْكَذِبِ وَالتَّخْوِيفِ.

حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَكَيْدِهِمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

(٨) تنظر قصة ذلك في المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ اصْطَفَانَا مِنْ عِبَادِهِ مُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَمِ الْعَالَمِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا اصْطَفَانَا وَاجْتَبَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا وَأَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَعْتَقِدُ الْمُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، لَهُ الْأَمْرُ وَلَهُ الْحُكْمُ فِي خَلْقِهِ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَأَمَّا الْبَشَرُ فَهُمْ عَبِيدٌ مَخْلُوقُونَ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حُدُودٌ يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُجَاوِزُونَهَا فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَلَكِنَّ الزَّنَادِقَةَ يَرْفُضُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِنْسَانَ مَرْكَزَ الْكَوْنِ وَالْمُتَصَرِّفَ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، وَتِلْكَ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، ثُمَّ تَلَقَّفَهَا عَنْهُمْ مَلَاحِدَةُ الْعَرَبِ؛ لِيُبِيحُوا لِلْإِنْسَانِ بِهَا فِعْلَ مَا يَشَاءُ، وَقَوْلَ مَا يَشَاءُ، وَاعْتِقَادَ مَا يَشَاءُ، وَأَيُّ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ أَوْ عُرْفِيَّةٍ عَلَى ذَلِكَ فَهِيَ مَرْفُوضَةٌ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ؛ لِأَنَّهَا تُعَارِضُ الْحُرِّيَّةَ الْمُقَرَّرَةَ عِنْدَهُمْ، الْمَبْنِيَّةَ عَلَى فِكْرَةِ تَأْلِيهِ الْإِنْسَانِ، وَكَوْنِهِ مَرْكَزَ الْكَوْنِ.

إِنَّهُمْ يَصِيحُونَ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ وَعَلَى حُكُومَاتِهِمْ يُطَالِبُونَهُمْ بِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَتَحْطِيمِ الْقُيُودِ الرِّقَابِيَّةِ عَلَى مَا يَنْشُرُونَهُ مِنْ قَيْحِ أَفْكَارِهِمْ، وَرَدْغَةِ شَهَوَاتِهِمْ؛ سَوَاءٌ كَانَتْ قُيُودًا دِينِيَّةً أَمْ سِيَاسِيَّةً أَمْ أَخْلَاقِيَّةً، مُسْتَشْهِدِينَ بِدَسَاتِيرِ الْغَرْبِ وَمُنَظَّمَاتِهِ الْحُقُوقِيَّةِ، وَكَأَنَّهَا الْحَقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ بَانَ لَنَا أَنَّ

حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ وَالنَّشْرِ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ لَا تَخْلُو مِنِ انْتِقَائِيَّةٍ ظَالِمَةٍ، وَلَيْسَتْ مُطْلَقَةً مِنْ كُلِّ الْقُيُودِ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ الَّذِينَ ابْتُلِيَتْ بِهِمْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ يُمَارِسُونَ مَا هُوَ أَبْشَعُ مِنِ انْتِقَائِيَّةِ الْغَرْبِ، فَلَا يَسْمَحُونَ لِأَحَدٍ بِانْتِقَادِهِمْ وَلَا مُنَاقَشَةِ أَفْكَارِهِمْ، وَلَا مَنْعِ خَبَالِهِمْ، وَيَفْرِضُونَ فِكْرَهُمُ الْخَبِيثَ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ بِأَشَدِّ جَرَائِمِ التَّزْوِيرِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَالْإِقْصَائِيَّةِ وَالْإِرْهَابِ.

إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ فِي بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَالتَّشْهِيرَ بِهِمْ، وَبَثَّ الشَّائِعَاتِ الْمُغْرِضَةِ ضِدَّهُمْ، وَهُمْ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُشَهِّرُونَ بِهِمْ، وَيَخْتَلِقُونَ الْإِشَاعَاتِ عَلَيْهِمْ.

وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبِيحُونَ فِي بَابِ الْحُرِّيَّاتِ أَذِيَّةَ الْغَيْرِ وَلَوْ بِالرَّأْيِ، وَأَيُّ أَذَى أَعْظَمُ مِنْ أَذِيَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدْ رَوَّجُوا لِكُتُبِ إِنْكَارِهِ، وَزَعْمِ مَوْتِهِ وَالِانْتِصَارِ عَلَيْهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ إِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَآذَوُا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ عليهم السلام فَفَسَحُوا لِكُتُبِ السُّخْرِيَةِ بِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ، وَآذَوُا الْمُؤْمِنِينَ فِي شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ فَمَلَئُوا مَعْرِضَهُمْ بِكُتُبِ الطَّعْنِ فِيهَا وَانْتِقَاصِهَا وَرَدِّهَا وَتَكْذِيبِهَا وَتَحْرِيفِهَا[١٠].

نَاهِيكُمْ عَنْ رِوَايَاتِ الْإِثْمِ وَالْفُجُورِ، وَكُتُبِ الْعُهْرِ وَالشُّذُوذِ، وَدَوَاوِينِ الْفِسْقِ وَالْمُجُونِ لِأَشْهَرِ زَنَادِقَةِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، تُعْرَضُ لِلْمُرَاهِقِينَ وَالْمُرَاهِقَاتِ، وَالنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَكَأَنَّهُمْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمُ الْفَاسِدَةَ فِي قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا

(١٠) هذا إشارة إلى المعرض الدولي للكتاب الذي نظمته وزارة الإعلام في مركز المعارض في الرياض، ولم يكن فيه رقابة على كتب الفجور والإلحاد والشهوات حتى بيعت فيه كتب وروايات ممنوعة في معرض القاهرة الذي هو أكثر المعارض انفتاحًا.

أَنَّهُمْ شَهْوَانِيُّونَ مُنْحَرِفُونَ لَا يُطْفِئُ سُعَارَهُمْ إِلَّا كُتُبُهُمْ وَدَوَاوِينُهُمْ وَرِوَايَاتُهُمُ الْمُنْحَلَّةُ الْهَابِطَةُ؛ فَأَيُّ إِهَانَةٍ أَهَانُوهَا لِجُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ؟! وَأَيُّ جَرِيمَةٍ اقْتَرَفُوهَا فِي حَقِّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ بِاسْمِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ؟! وَأَيُّ اسْتِبْدَادٍ أَعْظَمُ مِنِ اسْتِبْدَادِهِمْ حِينَ فَرَضُوا حُرِّيَّةً غَرْبِيَّةً شَوْهَاءَ عَرْجَاءَ مُعَارِضَةً لِلْإِسْلَامِ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَرْضَوْنَ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ بَدِيلًا؟! وَأَيُّ إِرْهَابٍ فِكْرِيٍّ أَشَدُّ مِنْ إِرْهَابِهِمْ حِينَ صَادَرُوا حُرِّيَّةَ النَّاسِ فِي الرَّأْيِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَلْزَمُوهُمْ بِرُؤَاهُمُ الضَّيِّقَةِ، وَهُمُ الْأَقَلِّيَّةُ الْمُتَنَكِّرَةُ لِدِينِهَا وَوَطَنِهَا وَأُمَّتِهَا؟! عَامَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

إِنَّهُمْ بِاسْمِ حُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ قَدْ رَوَّجُوا لِلْكُتُبِ وَالرِّوَايَاتِ وَالدَّوَاوِينِ الَّتِي تَطْعَنُ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، وَتَسْخَرُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُكَذِّبُ كُتُبَهُ وَشَرْعَهُ، وَتُبِيحُ الْفَوَاحِشَ بِأَنْوَاعِهَا.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ الشَّهْوَانِيِّينَ يُعَظِّمُونَ الْبَشَرَ أَشَدَّ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -هَذَا إِذَا كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ-، وَيُظْهِرُونَ احْتِرَامَهُمْ لِلْإِنْسَانِ كَإِنْسَانٍ أَكْثَرَ مِنِ احْتِرَامِهِمْ لِلْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالصَّحَابَةِ وَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ شَتِيمَةَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَا الْكَذِبَ عَلَيْهِمْ، وَلَا السُّخْرِيَةَ بِهِمْ، وَلَا بَثَّ الشَّائِعَاتِ الْمُغْرِضَةِ عَنْهُمْ، وَلَوْ مِنْ بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَلَكِنَّهُمْ يُجِيزُونَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ عليهم السلام، وَيُجِيزُونَ الطَّعْنَ فِي خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَلَفِهَا الصَّالِحِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالثَّوَابِتِ وَالْمُسَلَّمَاتِ، وَيُسَفِّهُونَ النُّبُواتِ وَالدِّيَانَاتِ، وَيُدَمِّرُونَ الْفِطْرَةَ وَالْأَخْلَاقَ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ اسْتِحْقَاقِهَا لِلسَّبِّ؛ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللهَ تَعَالَى ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ

عِلْمٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٠٨]؛ فَكَيْفَ إِذًا بِإِجَازَةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَسُبُّ اللهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبَهُ وَرُسُلَهُ؛ لِتَأْخُذَ مَوَاقِعَهَا فِي بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَكْتَبَاتِهِمْ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالضَّلَالِ، وَنَسْأَلُهُ الْهُدَى وَالرَّشَادَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا قَالُوا وَمِمَّا فَعَلُوا وَمِمَّا نَشَرُوا، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْزَلْتَ عَذَابًا بِسَبَبِ مَا فَعَلُوا فَخُصَّهُمْ بِهِ وَلَا تَجْعَلْهُ عَامًّا عَلَى عِبَادِكَ.

اللَّهُمَّ احْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَفَسَادِ الْمُفْسِدِينَ، وَتَرَبُّصِ الْمُتَرَبِّصِينَ، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ.



٣٧١- الحرب الدينية والحرب القومية

١٢/ ١/ ١٤١٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْفِتَنَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَتَلَاحَقُ، تُصِيبُ أَقْوَامًا فَيَنْحَرِفُونَ، وَيُثَبِّتُ اللهُ تَعَالَى أَقْوَامًا فَلَا يَتَزَعْزَعُونَ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ: إِطْبَاقُ المِلَلِ شَتَّى عَلَى حَرْبِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ هُمْ يَرْسُفُونَ فِي أَغْلَالِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ فِي الدِّينِ، وَالْخَلَلِ فِي التَّوْحِيدِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الشَّرِيعَةِ، مِمَّا يَجْعَلُهُمْ مَطْمَعًا لِلطَّامِعِينَ، وَهَدَفًا لِلْحَاقِدِينَ، وَمَرْمًى لِلْمُتَرَبِّصِينَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِصْدَاقًا لِلْخَبَرِ النَّبَوِيِّ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُنَا ﷺ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، حِينَمَا قَالَ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ

اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَلَقَدْ نُزِعَتْ مَهَابَةُ المُسْلِمِينَ مِنْ قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ، وَمَعَ كَثْرَتِهِمْ فَهُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَأَحَبُّوا الدُّنْيَا وَتَنَافَسُوهَا، بَلْ تَقَاتَلُوا عَلَيْهَا، وَكَرِهُوا المَوْتَ فَعَطَّلُوا الْجِهَادَ، وَرَاحُوا يُعَلِّقُونَ ضَعْفَهُمْ وَعَجْزَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَجَعَلُوا حَرْبَهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ حَرْبًا سِيَاسِيَّةً أَوِ اقْتِصَادِيَّةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالدِّينِ، وَوَاللَّهِ مَا ذُلُّوا إِلَا بَعْدَ أَنْ أَبْعَدُوا الدِّينَ عَنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ الْعَدُوُّ يَنْطَلِقُ فِيهَا مِنْ أُصُولٍ دِينِيَّةٍ بِخَلْفِيَّاتٍ تَارِيخِيَّةٍ.

إِنَّ مَحْضَ الْحَقِيقَةِ فِي صِرَاعِنَا مَعَ الْيَهُودِ وَأَعْوَانِهِمْ كَفَانَا الْقُرْآنُ مُؤْنَةَ اسْتِكْنَاهِهَا؛ حَيْثُ رَاحَتْ سِيَاقَاتُهُ تُكَرِّسُ المُفَاصَلَةَ الْعَقَدِيَّةَ، نَعَمْ، المُفَاصَلَةُ الْعَقَدِيَّةُ لَيْسَ غَيْرُ، وَتَمْنَحُنَا آيَاتُهُ بُعْدًا صَحِيحًا فِي فَهْمِ الْعَقْلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ضِمْنَ رُؤًى مُسْتَقْبَلِيَّةٍ(٢). ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْقُرْآنِيَّةُ أَنَّ الصِّرَاعَ صِرَاعُ عَقَائِدَ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ سُحِبُوا إِلَى المَعْرَكَةِ الْحَرْبِيَّةِ وَالسِّلْمِيَّةِ بِفَصْلٍ تَامٍّ عَنِ الدِّينِ، وَبِالتَّنَادِي عَلَى الْقَوْمِيَّةِ، وَنَجَحَ

---

(١) أخرجه من حديث ثوبان ﷺ: أبو داود في الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٢٤)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة من طريقين، ثم قال: فالحديث بمجموع الطريقين صحيح عندي (٩٥٨).

(٢) في موسم الجفاف يجتث نخلنا وينمو غرقدهم، خالد بن صالح السيف، مجلة البيان، عدد (٤٩) ص(٥٤).

الْيَهُودُ فِي هَذَا الْبَتْرِ، وَصَرَّحُوا بِهَذَا النَّجَاحِ قَبْلَ عِشْرِينَ عَامًا مِنَ الْيَوْمِ؛ حَيْثُ جَاءَ فِي إِحْدَى صُحُفِهِمُ الْمَشْهُورَةِ: «إِنَّ عَلَى وَسَائِلِ إِعْلَامِنَا أَنْ لَا تَنْسَى حَقِيقَةً هَامَّةً هِيَ جُزْءٌ مِنِ اسْتَرَاتِيجِيَّةِ إِسْرَائِيلَ فِي حَرْبِهَا مَعَ الْعَرَبِ، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّنَا قَدْ نَجَحْنَا بِجُهُودِنَا وَجُهُودِ أَصْدِقَائِنَا فِي إِبْعَادِ الْإِسْلَامِ عَنْ مَعْرَكَتِنَا مَعَ الْعَرَبِ طَوَالَ ثَلَاثِينَ عَامًا، وَيَجِبُ أَنْ يَبْقَى الْإِسْلَامُ بَعِيدًا عَنِ الْمَعْرَكَةِ إِلَى الْأَبَدِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ أَلَّا نَغْفُلَ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ تَنْفِيذِ خُطَّتِنَا فِي مَنْعِ اسْتِيقَاظِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِأَيِّ شَكْلٍ وَبِأَيِّ أُسْلُوبٍ . . .» اهـ(٣).

وَإِذَنْ فَإِنَّ أَخْطَرَ شَيْءٍ يَخْشَاهُ الْيَهُودُ أَنْ تَتَحَوَّلَ حَرْبُهُمْ مَعَ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبٍ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَقَدْ سَاوَرَهُمُ الْقَلَقُ مِنْ ذَلِكَ حِينَمَا قَالَ مَسْئُولٌ مِنْهُمْ: «إِنَّ الَّذِي يُثِيرُ قَلَقَنَا هُوَ أَنَّ مَوَاقِفَ الْعَرَبِ دَاخِلَ إِسْرَائِيلَ بَدَأَتْ تَتَحَوَّلُ مِنْ مَوَاقِفَ مَبْنِيَّةٍ عَلَى قَاعِدَةٍ قَوْمِيَّةٍ إِلَى مَوَاقِفَ تَسْتَنِدُ إِلَى قَوَاعِدَ دِينِيَّةٍ» اهـ(٤).

إِنَّ الْيَهُودَ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْكَنْعَانِيَّةِ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَقَدْ نَجَحُوا نَجَاحًا مُدْهِشًا فِي ذَلِكَ، حَيْثُ كَانَ مَسْئُولٌ قَوْمِيٌّ عَرَبِيٌّ يَصِيحُ بِجَمَاهِيرَ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ دِينِيَّةً قُبَيْلَ الْهَزِيمَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ نَكْسَةً، فَيَقُولُ: دَعُونَا مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَصَلَاحِ الدِّينِ، لَا تُثِيرُوهَا حَرْبًا دِينِيَّةً(٥). وَكَانَتْ كَوْكَبُهُمْ تَصْدَعُ مُغَنِّيَةً، فِي وَقْتٍ

(٣) صحيفة: يديعوت أحرنوت، بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٧٨م عن الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه، للدكتور يوسف القرضاوي (٢٢١).

(٤) كما في صحيفة هآرتس اليهودية في ٢ شباط ١٩٧٩م، عن الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه (٢٢٥).

(٥) ينظر كتاب: رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر، ليوسف العظم (٦٣).

كَانَ الدَّمُ الْعَرَبِيُّ يَسِيلُ بِغَزَارَةٍ، وَقُوَّاتُهُ تَنْدَحِرُ عَلَى أَيْدِي الْيَهُودِ[٦].

وَلَا زَالَتِ الصَّفَعَاتُ تَتَتَابَعُ عَلَى الْوَجْهِ الْعَرَبِيِّ، وَالتَّغَطْرُسُ الْيَهُودِيُّ يَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَيَنْتَشِي وَهُوَ يُمْسِكُ بِزِمَامِ الْمُبَادَرَةِ، وَيَفْرِضُ قُوَّتَهُ وَإِرَادَتَهُ. نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نُذَكِّرَ بِشِعَارِ قَادَةِ الْيَهُودِ أَيَّامَ حَرْبِهِمْ لِلْقَوْمِيِّينَ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ يَقُولُ: أَنَا أُحَارِبُ إِذَنْ أَنَا مَوْجُودٌ، أَنَا أُسَالِمُ إِذَنْ أَنَا أُخَالِفُ شَرِيعَةَ التَّلْمُودِ[٧]. كَانَ هَذَا شِعَارَ قَادَتِهِمْ آنَذَاكَ.

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَحْتَفِلُ الْيَهُودُ بِمُرُورِ خَمْسِينَ عَامًا عَلَى إِعْلَانِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ، تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمَسْخُ الَّتِي زَرَعَتْهَا أَحْقَادُ الْغَرْبِ، بَيْنَمَا تَعَاهَدَتْهَا بِالرَّيِّ وَالنَّمَاءِ أَخْطَاءُ الْعَرَبِ.

فَمَا كَانَتْ إِسْرَائِيلُ لِتَبْقَى وَتَعْلُوَ، أَوْ لِتُوجَدَ أَصْلًا لَوْلَا سِلْسِلَةٌ مِنْ أَخْطَاءٍ تَتَرَادَفُ، وَخَطَايَا تَتَرَاكَمُ، وَلَوْلَا تَعَمُّدُ الْعَرَبِ أَنْ يُفْرِغُوا هَذَا الصِّرَاعَ مِنْ مُحْتَوَاهُ الِاعْتِقَادِيِّ وَخَلْفِيَّتِهِ الدِّينِيَّةِ مِنْ جَانِبِنَا، فِي مُقَابِلِ تَعَمُّدِ الْيَهُودِ أَنْ يَصْبُغُوا حَرْبَهُمْ بِالصِّبْغَةِ الْعَقَائِدِيَّةِ فِي كُلِّ جُزْئِيَّاتِهِ، فَاسْمُ الدَّوْلَةِ (إِسْرَائِيلُ)، وَرَمْزُهَا (نَجْمَةُ دَاوُدَ)، وَدُسْتُورُهَا (التَّوْرَاةُ وَالتَّلْمُودُ)، وَشِعَارُهَا (أَرْضُ الْمِيعَادِ)، وَحُلْمُهَا التَّارِيخِيُّ (إِعَادَةُ بِنَاءِ هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ فِي أُورْشَلِيمَ الْقُدْسِ)، فَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا عَقِيدَةٌ وَدِينٌ، أَمَّا بَنُو قَوْمِنَا فَتَحْتَ الرَّايَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ قَدْ جَدُّوا وَاجْتَهَدُوا فِي إِبْعَادِ الْإِسْلَامِ عَنِ الْمَعْرَكَةِ، وَإِقْصَاءِ الْقُرْآنِ عَنْ تَوْجِيهِهَا، وَتَنْحِيَةِ الْعَقِيدَةِ الْحَقَّةِ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ، فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ نَكْسَةً مِنْ بَعْدِ نَكْسَةٍ، وَذُلًّا تَبِعَهُ ذُلٌّ[٨].

---

(٦) المصدر السابق (٧٨).

(٧) اليهود وتذكرة قبل أن نفقد الذاكرة، للدكتور رمضان حافظ (١٨٥).

(٨) بتصرف من: الصراع العربي الإسرائيلي تحت الرايات العلمانية خمسون عامًا من الفشل، عبد العزيز كامل، مجلة البيان عدد (١١٥) ص(٦٨).

إِنَّ الْخَمْسِينَ عَامًا المَاضِيَةَ مِنَ الصِّرَاعِ بِجَمِيعِ فُصُولِهَا وَمَسْرَحِيَّاتِهَا، وَفِي كُلِّ مَرَاحِلِهَا فِي حَرْبِهَا وَسِلْمِهَا، وَاتِّفَاقَاتِهَا وَمُعَاهَدَاتِهَا لَتَدُلُّ عَلَى تَفَوُّقِ المَشْرُوعِ الْيَهُودِيِّ التَّوْرَاتِيِّ التَّلْمُودِيِّ، وَفَشَلِ المَشْرُوعِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ الْعَلْمَانِيِّ، فَحَقَّ لِلْيَهُودِ أَنْ يَحْتَفِلُوا بِتَدْنِيسِ الْبُقْعَةِ المُبَارَكَةِ خَمْسِينَ عَامًا، وَإِقَامَةِ دَوْلَتِهِمُ الَّتِي مَا عَرَفَتْ إِلَّا المَدَّ وَالتَّوَسُّعَ، وَالْقَتْلَ وَالدَّمَارَ خِلَالَ الْخَمْسِينَ عَامًا المَاضِيَةَ، تَحْتَ وَابِلِ قَذَائِفِ الْعَرَبِ الْكَلَامِيَّةِ، وَقَنَابِلِهِمُ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي كَانَ مِنْهَا: الْقِتَالُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنَ الدَّمِ، وَتَحْرِيرُ كُلِّ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالنِّضَالُ لِتَحْرِيرِ كُلِّ حَبَّةٍ مِنَ الرَّمْلِ، وَأَبْوَاقُهُمُ الَّتِي كَانَتْ تُزَمْجِرُ وَتَعِدُ بِإِلْقَاءِ إِسْرَائِيلَ فِي الْبَحْرِ، هَذِهِ الشِّعَارَاتُ الَّتِي مَا حَرَّرَتْ أَرْضًا، وَلَا أَعَادَتْ حَقًّا، وَلَا صَانَتْ عِرْضًا.

وَبَعْدَ خَمْسِينَ عَامًا مِنَ الصِّرَاعِ يُطْرَحُ هَذَا السُّؤَالُ: هَلْ حَقًّا ضَاعَتِ الْقُدْسُ بِلَا رَجْعَةٍ كَمَا يُرَوِّجُ الْغَرْبُ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْعَلْمَانِيُّونَ؟!

كَلَّا وَاللَّهِ! لَنْ يَسْتَمِرَّ ضَيَاعُهَا، فَرَغْمَ مَظَاهِرِ الْقَتَامَةِ وَالْعَتَامَةِ الَّتِي تُوحِي بِهَا مَشَاهِدُ الْحَاضِرِ المَهْزُومِ، وَالمُسْتَقْبَلِ الْغَامِضِ المَأْزُومِ، وَرَغْمَ تَكَدُّسِ مَعَالِمِ الْفَشَلِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ فِي ظِلِّ الْعَلْمَانِيَّةِ المُتَسَلِّطَةِ المُنْهَزِمَةِ، رَغْمَ كُلِّ هَذَا فَإِنَّنَا -مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ- نَرَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا، وَنَصْرًا عَظِيمًا، تَوَهَّجَتْ أَنْوَارُهُ، لِتَكْشِفَ عَنْ رَايَاتِ أَمَلٍ تَخْفِقُ فِي سَمَاءِ مَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، لَيْسَ هَذَا تَحَدُّثًا مِنْ مُنْطَلَقِ السِّيَاسَةِ الْقَاصِرَةِ، وَلَا مِنْ مُنْطَلَقِ خُرَافَةٍ ذَاهِلَةٍ، وَلَا هُوَ مِنْ مُعْطَيَاتِ الْوَاقِعِ المَرِيرِ الْيَائِسِ، وَلَكِنَّهَا رُوحٌ مِنَ الْأَمَلِ الدَّافِعِ لِلْعَمَلِ الَّذِي تَغْرِسُهُ فِينَا -أَهْلَ الْإِسْلَامِ- حَقَائِقُ الْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ، وَهِدَايَاتُ السُّنَّةِ الْخَاتَمَةِ، نَعَمْ! لَنْ تَضِيعَ الْقُدْسُ؛ لِأَنَّ الَّذِي أَكْرَمَهَا بِسَكَنِ الْأَنْبِيَاءِ لَنْ يُدِيمَهَا سَكَنًا لِقَتَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ(٩).

---

(٩) لا لن تضيع القدس، عبد العزيز كامل، مجلة البيان عدد (١١٣) ص(٩٣).

وَإِنَّا -مَعْشَرَ المُؤْمِنِينَ- لَنَسْتَبْشِرُ دَائِمًا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»(١٠).

وَبِهَذَا الْحَدِيثِ نُمَزِّقُ غِشَاءَ التَّشَاؤُمِ، وَنُحَرِّقُ أَسْبَالَ الْهَزِيمَةِ، وَنُتْلِفُ أَعِمَّةَ الْجُبْنِ وَالْهَوَانِ، كُلُّ ذَلِكَ نَسْتَدْعِيهِ بِأَسْبَابِ التَّمْكِينِ، وَأَدَوَاتِ النَّصْرِ عَلَى امْتِدَادِ أَجْيَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَوْمَهَا يَنْضَمُّ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ مَعَ المُسْلِمِ لِقِتَالِ الْيَهُودِ المُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْغَرْقَدَ وَحْدَهُ؛ حَيْثُ يُحَالِفُ الْيَهُودَ فَلَا يُخْبِرُ عَنْهُمْ خِيَانَةً وَغَدْرًا، فَأَيُّ سَلَامٍ مَعَ أَقْوَامٍ هَذِهِ طِبَاعُ شَجَرِهِمْ؟! هَلْ يَسْلَمُونَ مِنَ الْخِيَانَةِ وَمَا سَلِمَ مِنْهَا غَرْقَدُهُمْ؟!

إِنَّ إِرْهَاصَاتِ قُرْبِ هَذَا الْوَعْدِ النَّبَوِيِّ تَتَكَاثَرُ وَتَتَوَارَدُ؛ حَيْثُ سَخَّرَ اللهُ ﷻ الْيَهُودَ لِزِرَاعَةِ الْغَرْقَدِ حَوْلَ المُسْتَوْطَنَاتِ الَّتِي أَقَامُوهَا عَلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ عَلَى هَيْئَةِ أَسْوَارٍ نَبَاتِيَّةٍ مَانِعَةٍ؛ لِأَنَّ لَهُ أَشْوَاكًا قَوِيَّةً حَادَّةً(١١) تَحْمِي الْيَهُودَ، وَتُؤَمِّنُ جُبْنَهُمْ، وَتُهَدِّئُ رَوْعَهُمْ.

فَالْوَعْدُ قَرِيبٌ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عَوْدَةٍ صَادِقَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَحِينَهَا يَكُونُ النَّصْرُ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ ..

---

(١٠) أخرجه البخاري في الجهاد، باب قتل اليهود (٧٥١٦)، ومسلم في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١١) الموسوعة في علوم الطبيعة، إدوار غالب (٢٠٣)، عن: مجلة البيان عدد (٤٩) ص(٥٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنَ الانْحِطَاطِ الْعَرَبِيِّ، وَالتَّزْوِيرِ الإِعْلَامِيِّ الَّذِي يَحْجُبُ نَصْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَجْعَلُ الْيَهُودَ وَأَعْوَانَهُمْ فِي غَايَةِ التَّمَكُّنِ وَالْقُوَّةِ: طَرْحَ الدِّينِ، وَالتَّنَادِيَ على الْقَوْمِيَّةِ الْبَغِيضَةِ، وَالتَّعَصُّبَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، حِينَمَا يُفْجَعُ الإِعْلَامُ الْعَرَبِيُّ بِهَلَاكِ شَاعِرِ الإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ، وَأَدِيبِ الْجِنْسِ وَالإِبَاحِيَّةِ(١٢)، فَتُسَوَّدُ صَحَائِفُهُمُ السُّودُ بِبُكَائِهِ وَرِثَائِهِ، وَخَلْعِ الأَلْقَابِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِ، وَإِخْفَاءِ حَقِيقَتِهِ؛ إِمْعَانًا فِي تَسْطِيحِ عَقْلِ الْقَارِئِ وَالْمُشَاهِدِ، وَإِيغَالًا فِي التَّضْلِيلِ وَالْخِدَاعِ.

لَقَدْ رَضَعَ هَذَا الشَّاعِرُ الْهَالِكُ لَبَنَ الاسْتِعْمَارِ حَتَّى ارْتَوَى فَلَمْ يَعُدْ يُعْجِبُه إِلَّا لَبَنُهُ، وَلَمْ يَعُدْ يَتَذَوَّقُ إِلَّا فُنُونَهُ، وَلَمْ يَعُدْ يُغْرِيهِ إِلَّا أَفْكَارُهُ وَمَذَاهِبُهُ فِي الْحَيَاةِ(١٣) الَّتِي أُسِّسَتْ عَلَى الْكُفْرِ وَالإِلْحَادِ.

كَانَ مِنْ أَمْرِهِ قَرِيبًا أَنَّهُ انْبَهَرَ بِعَمَلِيَّةِ الاسْتِنْسَاخِ الشَّهِيرَةِ، فَسَجَّلَ بِرِيشَتِهِ الإِلْحَادِيَّةِ مَقَالَةً يَحَادُّ اللهَ تَعَالَى فِيهَا؛ حَيْثُ قَالَ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى وَعَامَلَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ: وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ بَدَءُوا بِتَحَدِّي السَّمَاءِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الإِنْسَانَ لَمْ يَعُدْ لَهُ رَبٌّ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَرْكَعُ فِي مِحْرَابِهِ، وَيُصَلِّي لَهُ، وَيَطْلُبُ رِضَاهُ وَغُفْرَانَهُ؛

---

(١٢) هو الشاعر نزار قباني، قد توفي في يوم الجمعة الموافق ١٤١٩/١/٥هـ، وقد طبل له الإعلام العربي، خاصة الصحافة والفضائيات.

(١٣) ينظر: الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د. أحمد بسام ساعي (١١٣-١١٤).

لِأَنَّ الْمُخْتَبَرَاتِ الْعِلْمِيَّةَ أَخَذَتْ مَكَانَ الرَّبِّ . . . إِلَى أَنْ قَالَ: كَانَ أَسْهَلَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ قَالَبًا وَاحِدًا لِصِنَاعَةِ الْبَشَرِ مِثْلَمَا تَفْعَلُ مَصَانِعُ الْبَلَاطِ وَالْقَرَامِيدِ وَالْأَحْذِيَةِ وَالمَلَابِسِ الْجَاهِزَةِ!!(١٤). تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَتَأَمَّلُوا اسْتِهْزَاءَهُ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ يَقِيسُهَا بِصِنَاعَةِ الْأَحْذِيَةِ وَالمَلَابِسِ الْجَاهِزَةِ.

كَانَ رَافِضًا لِلْعَرَبِيَّةِ، سَاخِرًا مِنْهَا يُسَمِّيهَا اللُّغَةَ الْمُتَعَجْرِفَةَ(١٥). كَمَا كَانَ يُصَرِّحُ بِرَفْضِهِ لِكُلِّ مَا هُوَ شَرْعِيٌّ وَيَقُولُ: أَنَا ضِدُّ الشَّرْعِيَّةِ بِكُلِّ صُوَرِهَا(١٦)، وَأَمَّا إِسْهَامُهُ الْكَبِيرُ فِي هَدْمِ الْأُسْرَةِ وَامْتِهَانِ الْمَرْأَةِ، فَإِنَّهُ سَخَّرَ قَلَمَهُ لِذَلِكَ مُعْظَمَ حَيَاتِهِ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَقُولَتُهُ الْكُفْرِيَّةُ: لَوْ كُنْتُ حَاكِمًا لَأَلْغَيْتُ مُؤَسَّسَةَ الزَّوَاجِ، وَخَتَمْتُ أَبْوَابَهَا بِالشَّمْعِ الْأَحْمَرِ!(١٧). وَقَوْلُهُ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى: الْعُرْيُ أَكْثَرُ حِشْمَةً مِنَ التَّسَتُّرِ(١٨).

وَيَنْقِمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَدَمَ قَبُولِهِمْ تَهَتُّكَهُ وَاسْتِخْفَافَهُ فَيَقُولُ: شُعَرَاءُ الْغَزَلِ الْحِسِّيِّ فِي أُورُبَّا وَكُتَّابُ الرِّوَايَاتِ الْمَسْرَحِيَّةِ لَا يَخُوضُونَ حَرْبًا صَلِيبِيَّةً مَعَ مُجْتَمَعِهِمْ كَمَا يَخُوضُهَا الْكُتَّابُ الْعَرَبُ(١٩).

وَهُوَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْمَرْأَةِ لَا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِالْجَسَدِ عَلَى نَحْوٍ عَنِيفٍ مِنَ الْإِيغَالِ فِي مَفَاهِيمِ الِاشْتِهَاءِ وَالِافْتِتَانِ؛ إِذْ يَعْتَبِرُ الْجِنْسَ هُوَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا، يَلْعَنُ فِي شِعْرِهِ

(١٤) نشر مقالته في جريدة الحياة يوم ٥/ ١١/ ١٤١٧هـ.

(١٥) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (٤/ ٥٦٦).

(١٦) المصدر السابق (٤/ ٥٦٦)، وينظر: دراسات في الأدب العربي الحديث، د. مصطفى هدارة (١٣٥).

(١٧) الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي (١٦٨).

(١٨) المصدر السابق (١٦٨).

(١٩) قصتي مع الشعر، لنزار قباني (١٣٤)، ودراسات في الأدب العربي الحديث (١٤١).

الْمَرْأَةَ، وَيَثُورُ عَلَيْهَا، وَيَرْفُضُ الالْتِزَامَ بِمُجْتَمَعِهِ وَقِيَمِهِ، وَيَسْخَرُ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَدْعُو إِلَى لَوْنٍ مِنَ الْفَوْضَى وَالإِبَاحِيَّةِ[٢٠].

وَالْوَاقِعُ أَنَّ شَاعِرَهُمُ الَّذِي احْتَفَوْا بِهِ وَبَالَغُوا فِي تَأْبِينِهِ وَرِثَائِهِ مَا هُوَ إِلَّا نَبْتٌ أَجْنَبِيٌّ مَسْمُومٌ، يُحَاوِلُ أَنْ يُسَوِّقَ بِشِعْرِهِ عَنِ الْمَرْأَةِ جُمْلَةً مِنَ الْمَفَاهِيمِ الْفَاسِدَةِ الْمُنْحَلَّةِ الَّتِي يَطْمَعُ النُّفُوذُ الْغَرْبِيُّ أَنْ تَنْتَشِرَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَتُصْبِحَ مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ عِنْدَ الشَّبَابِ الْجَدِيدِ، حِينَمَا يُشَرِّحُ جَسَدَ الْمَرْأَةِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَفْقَ شَرِيعَةِ الْغَابِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ كَانَ مَادَّةَ مَوَائِدِ السُّكَارَى وَالْمَخْمُورِينَ وَاللَّاهِينَ وَالْعَابِثِينَ[٢١].

فَأَيْنَ هِيَ الْمَوْضُوعِيَّةُ فِي التَّنَاوُلِ الإِعْلَامِيِّ الْمَحَلِّيِّ وَالْعَرَبِيِّ، وَالصِّدْقُ فِي الْمَعْلُومَةِ، وَأَمَانَةُ الْكَلِمَةِ؟ يَا تُرَى هَلْ يَرْضَى مُسْلِمٌ تَلْمِيعَهُ لَوْ سَمِعَ زَنْدَقَتَهُ وَإِلْحَادَهُ؟!

كَلَّا! وَلَكِنْ تَأْبَى بَعْضُ الْأَقْلَامِ وَالْأَصْوَاتِ إِلَّا تَسْطِيحَ عَقْلِ الْقَارِئِ وَالسَّامِعِ، وَمُمَارَسَةَ أَقْبَحِ صُوَرِ التَّضْلِيلِ وَالْخِدَاعِ بِرَفْعِ شَأْنِ الْكَفَرَةِ وَالزَّنَادِقَةِ وَالْمُرْتَدِّينَ، وَتَجَاهُلِ أَعْلَامِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُجَاهِدِينَ، بَلْ وَالنَّيْلُ مِنْهُمْ عَلَى غِرَارِ فِعْلِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ.

هَلَكَ شَاعِرُهُمُ الزِّنْدِيقُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ، إِلَّا عِنْدَ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ وَالشَّهْوَانِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ، لَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَلَا عَفَا عَنْهُ، وَلَا غَفَرَ لَهُ . .

اللَّهُمَّ إِنَّ شَاعِرَهُمُ الْهَالِكَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْكَ وَعَلى شَرِيعَتِكَ فَعَامِلْهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ

---

(٢٠) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج (٤/ ٥٦٦).

(٢١) كما يعترف بذلك في كتابه: قصتي مع الشعر؛ حيث ذكر أن قصيدته (نهداك) كان الطلبة العراقيون يسكرون عليها على ضفاف دجلة. واللبنانيون كانوا يمزمزونها على موائد العرق في زحلة. ينظر: قصتي مع الشعر (٩٥)، ودراسات في الأدب العربي الحديث (١٤٧).

فِي قَبْرِهِ، وَعِنْدَ نَشْرِهِ وَحَشْرِهِ، اللَّهُمَّ مَنْ أَحَبَّهُ وَرَثَاهُ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُ فَاحْشُرْهُ مَعَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَوْ رَثَاهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْزُقْهُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَاهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْفَظْ بِلَادَنَا مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَسِهَامِ الْحَاقِدِينَ، وَاحْفَظْ عُقُولَنَا مِنَ التَّضْلِيلِ، وَقُلُوبَنَا مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



القضايا الإسلامية

٣٧٢- الاعتداء على المسجد الأقصى.

٣٧٣- طبيعة الصراع على بيت المقدس.

٣٧٤- كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله.

٣٧٥- ولتعلن علوًّا كبيرًا.

٣٧٦- بين التجمع اليهودي والتفرق العربي.

٣٧٧- علاقة النصارى بالمسلمين.

٣٧٨- حقوق الأسرى في الإسلام.

٣٧٩- مأساة البوسنة (١).

٣٨٠- مأساة البوسنة (٢).

٣٨١- الشرق الإسلامي بين المشروع الروماني والطمع الفارسي.

٣٨٢- الدولة الصفوية (١) نشأتها، عقيدتها، جرائمها.

٣٨٣- الدولة الصفوية (٢) اختطاف قضية فلسطين.

٣٧٢- الاعتداء على المسجد الأقصى

٢٨/ ١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيِّ الأَعْلَى؛ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَضَى بِأَنْ يَكُونَ مَوْطِنَ أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ، نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، وَأَوْجَبَ عَلَى الْبَشَرِ تَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ، وَقَضَى بِأَنْ يَكُونَ دِينُهُ ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، بِطَائِفَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَقَامُوا الدِّينَ، وَنَصَرُوا الشَّرِيعَةَ، وَصَانُوا المُقَدَّسَاتِ، وَعَظَّمُوا الْحُرُمَاتِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَقَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا، وَعَظُمَتْ آثَامُنَا؛ فَكَانَتْ سَبَبَ ذُلِّنَا، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْنَا، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى مُقَدَّسَاتِنَا، وَأَذِيَّتِهِمْ لِإِخْوَانِنَا، فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذُنُوبِكُمْ؛ كَشْفًا لِغُمَّتِكُمْ، وَنَصْرًا لِأُمَّتِكُمْ، وَرَفْعًا لِذُلِّكُمْ، وَجَلْبًا لِنَصْرِ رَبِّكُمْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَيْدَةُ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِلتَّخَبُّطِ وَالضَّيَاعِ، وَتَعْطِيلُ شَرِيعَتِهِ عُنْوَانُ الْفَشَلِ وَالنِّزَاعِ. وَالْعَرَبُ أُمَّةٌ مَا اجْتَمَعَتْ إِلَّا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يُفَرِّقُهَا إِلَّا تَرْكُهُ، وَلَا حُلُولَ لِمُشْكِلَاتِهَا إِلَّا بِشَرِيعَتِهِ. وَلَقَدْ كَانَ كَافِيًا لِلْأُمَّةِ مَا تَجَرَّعَتْهُ خِلَالَ الْعُقُودِ المَاضِيَةِ مِنْ تَجَارِبَ مُخْزِيَةٍ مُرَّةٍ، وَاسْتِجْلَابِ حُلُولٍ

مُسْتَوْرَدَةٍ مَا زَادَتِ المُسْلِمِينَ إِلَّا ضَعْفًا وَذُلًّا وَتَفرُّقًا.

وَقَضِيَّةُ المَسْجِدِ الأَقْصَى هِيَ الْقَضِيَّةُ الْفَاضِحَةُ الَّتِي فَضَحَتْ عَجْزَ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَنْ حَلِّهَا، وَأَبَانَتْ عَنْ ذُلِّهِمْ وَهَوَانِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ؛ إِذْ ظَلُّوا نِصْفَ قَرْنٍ وَزِيَادَةً أُلْعُوبَةً بَيْنَ الدُّوَلِ الْكُبْرَى، وَالمُنَظَّمَاتِ الْأُمَمِيَّةِ، يَتَقَاذَفُونَ قَضِيَّتَهُمْ كَمَا يَتَقَاذَفُ الصِّبْيَانُ كُرَتَهُمْ!!

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَضِجُّ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ، وَتُحَذِّرُ دُوَلُهُ وَمُنَظَّمَاتُهُ مِنْ مَسَاسِ الْيَهُودِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَدْ بَدَأَتْ جَرَّافَاتُهُمْ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي مُحِيطِهِ؛ إِذْ يَشْهَدُ جِسْرُ بَابِ المَغَارِبَةِ الْقَرِيبِ مِنْ حَائِطِ الْبُرَاقِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى المُبَارَكِ عَمَلِيَّاتِ هَدْمٍ وَتَغْيِيرٍ، وَيُذْكَرُ أَنَّ الْهَدَفَ الْحَقِيقِيَّ مِنْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ هُوَ بِنَاءُ كَنِيسٍ دَاخِلَ الْحَائِطِ الْغَرْبِيِّ لِلْمَسْجِدِ، بِمَا يَعْنِي تَحْوِيلَ مَسْجِدِ الْبُرَاقِ إِلَى كَنِيسٍ لِلْمُصَلِّيَاتِ الْيَهُودِيَّاتِ.

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الِاعْتِدَاءَ الْأَوَّلَ عَلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ إِذْ سَبَقَهُ اعْتِدَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ مُنْذُ الِاحْتِلَالِ، هَدَفُهَا النِّهَائِيُّ: هَدْمُ مَسْجِدِ المُسْلِمِينَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَصَلَّى فِيهِ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَتَحْوِيلُهُ إِلَى هَيْكَلٍ يَهُودِيٍّ يُبْنَى عَلَى الشَّعَائِرِ الشِّرْكِيَّةِ، وَالنُّبُوءَاتِ الْخُرَافِيَّةِ.

وَالدَّوْلَةُ الْيَهُودِيَّةُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ مَا زُرِعَتْ فِي فِلَسْطِينَ إِلَّا لِأَجْلِ هَذَا الْهَدَفِ الَّذِي يَلْتَقِي عَلَيْهِ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ مَعَ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَأُذِيبَتْ فِي سَبِيلِهِ الْخِلَافَاتُ التَّارِيخِيَّةُ، وَالنِّزَاعَاتُ الدِّينِيَّةُ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ الضَّالَّتَيْنِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

إِنَّ الْأَرْضَ المُبَارَكَةَ فِي الشَّامِ الَّتِي بُورِكَتْ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى لَهَا تَارِيخٌ طَوِيلٌ مِنَ النِّزَاعِ حَوْلَ هَذِهِ الْبُقْعَةِ، تَقَاتَلَتْ لِأَجْلِهِ جُيُوشٌ، وَفَنِيَتْ فِي سَبِيلِهِ أُمَمٌ، وَتَنَازَعَ عَلَيْهِ أُمَّةُ الْحَقِّ وَأُمَمُ الْبَاطِلِ مُنْذُ فَتْحِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَالمَلَاحِمُ الْكُبْرَى

فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَتَكُونُ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَفِي أَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

لَقَدْ كَانَتْ حَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَإِمَامَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِعْلَانًا بِأَحَقِّيَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ؛ لِأَنَّ دِينَهُمْ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَالْأَرْضُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام أَحَقَّ بِهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَعْدَاءُ الْأَنْبِيَاءِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام قَدْ أَقَرُّوا لَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَصَلَّوْا خَلْفَهُ، وَأُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ لَوْ بُعِثَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١، ٨٢].

فَوَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنْ تَوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْفِسْقِ، فَهَلْ يَسْتَحِقُّ أَهْلُ الْفِسْقِ أَنْ يَبْقَوْا فِي الْبِلَادِ الَّتِي بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى؟!

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ سَعَى الْمُسْلِمُونَ فِي السَّنَوَاتِ الْأُولَى مِنَ الْخِلَافَةِ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ رِجْسِ عَبَدَةِ الصَّلِيبِ وَشِرْكِهِمْ، وَسُيِّرَتِ الْجُيُوشُ لِلشَّامِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه، حَتَّى سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، فَسَافَرَ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ لِاسْتِلَامِ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَلَمْ يُنِبْ عَنْهُ أَحَدًا فِي هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْجَلِيلَةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مِيزَةِ هَذَا الْفَتْحِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْفُتُوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكَثِيرَةِ(١).

لَقَدْ فُتِحَتْ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه سُورِيَّةُ وَهِيَ عَاصِمَةُ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، وَأَكْبَرُ دَوْلَةٍ فِي الْأَرْضِ آنَذَاكَ، وَمَا سَارَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهَا لِاسْتِلَامِهَا رَغْمَ أَهَمِّيَّتِهَا آنَذَاكَ،

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٢).

وَفُتِحَتِ المَدَائِنُ عَاصِمَةُ الْفُرْسِ الَّتِي شُهِرَتْ بِالْحَضَارَةِ وَالْعُمْرَانِ، وَامْتَلَأَتْ بِالْأَمْوَالِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَا سَارَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهَا بَلْ نُقِلَتْ نَفَائِسُهَا وَكُنُوزُهَا إِلَيْهِ فِي المَدِينَةِ، وَفُتِحَتْ بِلَادٌ كَثِيرَةٌ مَا خَرَجَ إِلَيْهَا الْخَلِيفَةُ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، وَصَلَّى فِيهَا، وَعَادَ بَعْدَ أَنِ اسْتَلَمَهَا وَأَدْخَلَهَا فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلَمَّا انْتَزَعَ الصَّلِيبِيُّونَ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ مَا هَنِئَ المُسْلِمُونَ بِعَيْشٍ حَتَّى أَعَادُوهَا عَلَى يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ مَا يُقَارِبُ تِسْعِينَ سَنَةً مِن احْتِلَالِهَا[٢].

وَظَلَّتِ الْأَرْضُ المُقَدَّسَةُ مُسْتَقَرًّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ جَاوَرُوا فِي أَرْضِهَا، وَمَوْئِلًا لِلْمُسْلِمِينَ يَشُدُّونَ رِحَالَهُمْ إِلَيْهَا لِزِيَارَةِ مَسْجِدِهَا، وَإِذْ ذَاكَ كَانَتْ أَعْيُنُ أَهْلِ الْكِتَابِ تَرْمُقُهَا، يُرِيدُونَ الِانْقِضَاضَ عَلَيْهَا، وَسَلْبَهَا وَالِاسْتِيطَانَ فِيهَا، فَسَيَّرُوا الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةَ تِلْوَ الْحَمَلَاتِ لِاحْتِلَالِهَا وَلَكِنَّهُمْ فَشِلُوا.

وَفِي الْقَرْنِ المَاضِي بَلَغَ ضَعْفُ المُسْلِمِينَ وَتَفَرُّقُهُمْ مَدَاهُ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَشَكَّلَتْ فِيهِ المُؤَسَّسَةُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، وَأَخَذَتْ تُطَالِبُ بِعَوْدَةِ الْيَهُودِ إِلَى الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ لِإِحْيَاءِ النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ المُحَرَّفَةِ، وَتَآزَرَتْ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ الْخَبِيثِ الصِّهْيَوْنِيَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ مَعَ الصَّهْيُونِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، وَرُفِعَ الْخِلَافُ الدِّينِيُّ التَّارِيخِيُّ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى لِمُوَاجَهَةِ المُسْلِمِينَ، وَانْتِزَاعِ الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ مِنْهُمْ، وَتَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ؛ إِذْ دَخَلَتْ جَحَافِلُ المُسْتَعْمِرِينَ مِنْ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى بِلَادَ الشَّامِ، وَأَخْضَعَتِ الْأَرْضَ المُقَدَّسَةَ لِانْتِدَابِهَا، وَأَبَى قَائِدُهُمْ إِلَّا أَنْ يُفْصِحَ عَنِ الْهَدَفِ الدِّينِيِّ الصِّهْيَونِيِّ لِهَذَا الِاسْتِعْمَارِ حِينَ قَالَ: «الْآنَ

---

(٢) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، وخطبة: معركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

انْتَهَتِ الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ»[٣]. وَوَقَفَ جِنِرَالٌ آخَرُ عَلَى قَبْرِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وَضَرَبَ الضَّرِيحَ بِسَيْفِهِ قَائِلًا: «أَنَا مِنْ أَحْفَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، فَأَيْنَ أَحْفَادُكَ يَا صَلَاحَ الدِّينِ؟!»[٤].

وَدَخَلَتِ الْأُمَّةُ النَّجِسَةُ الْأَرْضَ الطَّاهِرَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى لَا يَزَالُ تَحْتَ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَشْعَلَتِ الْحُرُوبَ تِلْوَ الْحُرُوبِ عَلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ حَتَّى كَانَتِ النَّكْسَةُ الَّتِي هُزِمَتْ فِيهَا جُيُوشُ الْعَرَبِ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى تَحْتَ حُكْمِ الصَّهَاينَةِ وَسَيْطَرَتِهِمْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرِحَ الْيَهُودُ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَهَتَفُوا بِثَارَاتِ خَيْبَرَ، وَنَادَوْا بِاسْتِعَادَةِ يَثْرِبَ، وَأَنْشَدُوا نَشِيدًا مَزَّقَ أَكْبَادَ أَصْحَابِ الْغَيْرَةِ وَالنَّخْوَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانُوا يَرْتَجِزُونَ قَائِلِينَ: «مُحَمَّدٌ مَاتْ وَخَلَّفَ بَنَاتْ» يُرَدِّدُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ[٥].

وَلَكِنْ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ الْمَقَادِسَةُ مُحَافِظِينَ عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى رَغْمَ خُضُوعِهِ لِحُكْمِ الْيَهُودِ وَسُلْطَانِهِمْ، يَفْدُونَهُ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَتَنَاوَبُونَ عَلَى حِرَاسَتِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَيُرَمِّمُونَ مَا تَلِفَ مِنْ أَجْزَائِهِ، وَلَا تَزَالُ أَعْيُنُ الصَّهَاينَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى هَدْمِ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ، وَبِنَاءِ هَيْكَلِهِمْ مَكَانَهُ، وَلَكِنَّهُمْ يَجُسُّونَ نَبْضَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ، وَيُحَاوِلُونَ إِمَاتَةَ شُعُورِهِمْ تُجَاهَ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ، بِأَعْمَالِ الْحَفْرِ وَالْهَدْمِ لِحَرِيمِهِ وَشَوَارِعِهِ وَجُسُورِهِ، وَتَسْلِيطِ مُتَعَصِّبَتِهِمْ عَلَى الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ بِالْحَرْقِ وَالْهَدْمِ وَالتَّفْجِيرِ لِبَعْضِ أَجْزَائِهِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ.

وَفِي مَا يُسَمَّى بِالنَّكْبَةِ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَإِبَّانَ إِعْلَانِ الْيَهُودِ عَنْ قِيَامِ

---

(٣) حركة التجديد في القرن السادس الهجري، محمد بن حامد الناصر، مجلة الجندي المسلم، عدد (١١٠).

(٤) الحروب الصليبية، أحمد شلبي (١٨).

(٥) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، محمد عبد الغني النواوي (٥٠٥).

دَوْلَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَجَعْلِ الْقُدْسِ عَاصِمَةً لَهَا؛ حَاوَلَ الْأَنْجَاسُ هَدْمَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ قُوَّاتُهُمْ خَمْسًا وَخَمْسِينَ قُنْبُلَةً، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى سَلَّمَ.

وَفِي مَا يُسَمَّى بِالنَّكْسَةِ قَبْلَ مَا يُقَارِبُ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَصَفَ الْيَهُودُ الْمَسْجِدَ الْمُبَارَكَ بِمَدَافِعِ الْهَاوِنِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى حَفِظَهُ.

وَعَقِبَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ أَقْدَمَ السَّائِحُ الْيَهُودِيُّ مَايْكِلُ دِينِيسْ عَلَى إِحْرَاقِ مِنْبَرِ صَلَاحِ الدِّينِ وَأَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَتَبَاطَأَ الْمُحْتَلُّونَ فِي إِخْمَادِ النِّيرَانِ، وَأَعَاقُوا جُهُودَ الْمَقَادِسَةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَبُّوا لِإِخْمَادِهَا فَتَضَرَّرَ الْمَسْجِدُ بِذَلِكَ(٦).

أَمَّا مُخَطَّطَاتُ نَسْفِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَالْمُنَظَّمَاتُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ الَّتِي أُنْشِئَتْ لِهَدْمِ الْمَسْجِدِ وَبِنَاءِ الْهَيْكَلِ تَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ مُنَظَّمَةً، وَالْمُحَاوَلَاتُ الْفَرْدِيَّةُ وَالْجَمَاعِيَّةُ الْعُدْوَانِيَّةُ عَلَى الْمَسْجِدِ بِاحْتِلَالِهِ أَوْ حَرْقِهِ أَوْ تَفْجِيرِهِ أَوْ إِرْهَابِ الْمُصَلِّينَ فِيهِ تُعَدُّ بِمِئَاتِ الْمُحَاوَلَاتِ، وَمَا عَمَلِيَّاتُ الْهَدْمِ فِي حَرِيمِ الْمَسْجِدِ وَشَوَارِعِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْ تِلْكَ الْمُحَاوَلَاتِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي لَمْ يَمَلَّ الْيَهُودُ مِنْ تَكْرَارِهَا، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى النَّجَاحِ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

---

(٦) مايكل دينيس يهودي أسترالي ينتمي إلى «كنيسة الرب» التي تؤمن بنبوءات التوراة القاضية بأن المسيح ﷺ سينزل بعد بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وتواطؤ السلطات اليهودية معه ثابت من وجهين:
الأول: أنه حاول قبل عام من فعلته الشنيعة حرق المسجد الأقصى لكنه اكتشف، وتسترت عليه سلطات اليهود ليقوم بما عزم عليه بعد سنة.
الثاني: تعمدت سلطات اليهود قطع المياه عن منطقة المسجد الأقصى قبل نشوب الحريق وأثناءه، وتأخير سيارات الإطفاء في القدس عن الوصول إليه وإعاقتها. لكن المسلمين هبوا لإطفاء الحريق إلى أن قدمت سيارات إطفاء من الخليل ورام الله فتم إخماد الحريق بعد أن ألحق الحريق بالمسجد أضرارًا جسيمة.

وَقِصَّةُ هَدْمِ المَسْجِدِ الْأَقْصَى المُبَارَكِ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ تَرْتَبِطُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِثَالُوثٍ خَطِيرٍ يُقْنِعُهُمْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بِالِاقْتِرَابِ كَثِيرًا مِنْ مُخَطَّطِهِمُ الْإِجْرَامِيِّ لِتَحْقِيقِ النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ، وَأَوَّلُ أَرْكَانِ هَذَا الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي تَسَلُّطِ قُوَى الِاسْتِكْبَارِ الْعَالَمِيِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَبُلْدَانِهِمْ، وَدَعْمِهَا الْمُطْلَقِ لِلْمَشْرُوعَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ، مَعَ عَجْزِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ إِيقَافِ ذَلِكَ، وَإِشْغَالِهَا بِنَفْسِهَا عَنْ مُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَسَاجِدِهِمْ.

وَثَانِي أَرْكَانِ هَذَا الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي انْتِشَارِ المَدَارِسِ وَالمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي تَنْفُخُ نَارَ الْأَحْقَادِ فِي قُلُوبِ الشَّبِيبَةِ الْيَهُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقُدْسِهِمْ، وَتُقَوِّي عَزَائِمَهُمْ عَلَى بِنَاءِ الْهَيْكَلِ مَكَانَ المَسْجِدِ، وَأَنَّهُ لَا قِيمَةَ لِدَوْلَتِهِمْ بِدُونِ الْقُدْسِ، وَلَا قِيمَةَ لِلْقُدْسِ بِدُونِ الْهَيْكَلِ، وَتُخَرِّجُ هذه المَعَاهِدُ وَالمَدَارِسُ الْآلَافَ مِنَ الطَّلَبَةِ، وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالْهَيْكَلِ، وَتَتَسَمَّى بِهِ.

وَثَالِثُ أَرْكَانِ الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ الَّتِي أَحْيَاهَا الْبُرُتِسْتَانَتُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَأَزَالُوا بِسَبَبِهَا الْعَدَاءَ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ. وَلِإِيمَانِهِمُ المُطْلَقِ بِتِلْكَ الْخُرَافَاتِ، وَسَعْيِهِمُ الْحَثِيثِ لِتَحْقِيقِهَا وَطَّنُوا الْيَهُودَ فِي الْأَرْضِ المُبَارَكَةِ؛ لِيَكُونُوا وَسِيلَةً لِنُزُولِ المُخْلِصِ، وَمِنْ ثَمَّ إِبَادَةُ المُسْلِمِينَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ فِي هِرْمِجْدُونَ حَسَبَ مُعْتَقَدَاتِهِمْ.

لَقَدْ تَحَوَّلَ اعْتِقَادُ الْيَهُودِ فِي الْهَيْكَلِ مِنْ مُجَرَّدِ حُلْمٍ يَرَوْنَ ضَرُورَتَهُ لِحُكْمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى عَقِيدَةٍ يَعْتَقِدُونَ بِمُوجَبِهَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ يُحِيطُ بِالْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ وَخَارِجِهَا إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ تَبَاطُئِهِمْ فِي هَدْمِ المَسْجِدِ وَبِنَاءِ الْهَيْكَلِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ زَالَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ مِنْ تَفْجِيرِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ لَهُمْ، وَمِنْ إِخْلَاءِ مُسْتَوْطَنَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا المَعْنَى يَرَى الْحَاخَامُ مُرْدَخَايُ الْيَاهُو: أَنَّ بَقَاءَ جَبَلِ الْهَيْكَلِ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يُضْعِفُ وَبِشَكْلٍ مُسْتَمِرٍّ إِمْكَانِيَّةَ "إِسْرَائِيلَ" فِي التَّعَاطِي وَالتَّعَامُلِ مَعَ مُشْكِلَاتِهَا وَالضُّغُوطِ النَّازِلَةِ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ المَشَاكِلُ أَوِ الضُّغُوطُ مَحَلِّيَّةً أَوْ خَارِجِيَّةً(٧).

وَهَذَا التَّحَوُّلُ فِي الْقَنَاعَاتِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْيَهُودِ يُشَكِّلُ أَكْبَرَ خَطَرٍ عَلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي تَارِيخِهِ كُلِّهِ؛ إِذْ مَا عَادَتِ المَسْأَلَةُ مُتَعَلِّقَةً بِنُبُوءَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ يَنْتَظِرُونَهَا، وَيَسْعَوْنَ خُطْوَةً خُطْوَةً لِتَحْقِيقِهَا. بَلْ أَضْحَى هَدْمُ المَسْجِدِ وَبِنَاءُ الْهَيْكَلِ سَبَبًا لِلْقَضَاءِ عَلَى مَشَاكِلِهِمْ، وَبُطْؤُهُمْ فِي ذَلِكَ هُوَ مَا يُسَبِّبُ كُلَّ المُشْكِلَاتِ لَهُمْ، وَيَسْعَى أَئِمَّتُهُمْ لِإِقْنَاعِ عَوَامِّهِمْ بِعَقِيدَتِهِمْ تِلْكَ.

حَمَى اللهُ تَعَالَى المَسْجِدَ الْأَقْصَى وَالْأَرْضَ المُبَارَكَةَ، وَسَائِرَ مَسَاجِدِ المُسْلِمِينَ وَمُقَدَّسَاتِهِمْ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ خَائِبِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ وَلَا نَكْفُرُهُ، وَنَخْلَعُ مَنْ يَفْجُرُهُ، هُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ

(٧) المسجد الأقصى في خطر، مقال منشور في منتدى صوت الأمة العربية على الشبكة العالمية.

لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ وَبَلَاءٍ وَعَذَابٍ، وَمَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ؛ فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: يَطِيبُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ تَوْصِيفُ الصِّرَاعِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ عَلَى أَنَّهُ صِرَاعُ أَرْضٍ وَمَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ فَحَسْبُ، وَيَتَشَنَّجُونَ حِينَ يَنْبَرِي بَعْضُ المُسْلِمِينَ لِبَيَانِ الْخَلْفِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ لِهَذَا الصِّرَاعِ الطَّوِيلِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ قَدْ نَبَذُوا دِينَهُمْ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا، وَيُحَلِّلُونَ الْأَحْدَاثَ تَحْلِيلًا مَادِّيًّا بَحْتًا، بَلْ حَتَّى التَّارِيخُ أَسْقَطُوا عَلَيْهِ تَحْلِيلَاتِهِمُ المَادِّيَّةَ فَأَفْسَدُوهُ وَزَوَّرُوهُ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ المُفَكِّرِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ نَبَذُوا دِينَهُمْ مِثْلَهُمْ، وَأَنَّ مُعْتَقَدَاتِهِمْ لَا تُسَيِّرُ كَثِيرًا مِنْ سِيَاسَاتِهِمْ، وَلَا تُبْنَى عَلَيْهَا اسْتِرَاتِيجِيَّاتُهُمْ، وَنَظْرَتُهُمُ الْقَاصِرَةُ هِيَ الَّتِي أَوْرَدَتِ الْأُمَّةَ المَهَالِكَ، وَأَوْصَلَتْهَا إِلَى هَذَا الذُّلِّ الْعَظِيمِ، وَضَيَّعَتْ أَكْثَرَ قَضَايَاهَا، فَلَا حَفِظُوا لِلْمُسْلِمِينَ دُنْيَاهُمْ كَمَا يَعِدُونَ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ وَمُقَدَّسَاتِهِمْ.

وَكَثِيرًا مَا سَمِعْنَاهُمْ وَقَرَأْنَا لَهُمْ يَصِيحُونَ بِالمُسْلِمِينَ زَاعِمِينَ أَنَّ زُعَمَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلْمَانِيُّونَ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّ النُّبُوءَاتِ الدِّينِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ أَيَّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ، وَلَا تَرْسُمُ سِيَاسَاتِهِمْ.

وَلِتَعْلَمُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْيَهُودَ مَا غَرَسُوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَّا لِأَهْدَافٍ دِينِيَّةٍ تَوْرَاتِيَّةٍ اجْتَمَعَ عَلَى الِاعْتِقَادِ بِهَا صَهَاينَةُ النَّصَارَى الْإِنْجِيلِيُّونَ مَعَ صَهَاينَةِ الْيَهُودِ

التَّوْرَاتِيِّينَ، وَإِلَّا فَإِنَّ المُشْكِلَةَ الْيَهُودِيَّةَ لَمَّا تَفَاقَمَتْ فِي أُورُبَّا إِبَّانَ الثَّوْرَتَيْنِ الصِّنَاعِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ، وَطَالَبَ كِبَارُ الْيَهُودِ بِدَوْلَةٍ لَهُمْ، اقْتُرِحَتْ عِدَّةُ دُوَلٍ لَمْ تَكُنْ فِلَسْطِينُ ضِمْنَهَا، فَاقْتُرِحَتْ مُوزَمْبِيقُ ثُمَّ الْكُونْغُو، كَمَا اقْتُرِحَتِ الْأَرْجَنْتِينُ وَقُبْرُصُ وَسَيْنَاءُ ثُمَّ أُوغَنْدَا(٨)، وَلَكِنَّ هَذِهِ الدُّوَلَ رُفِضَتْ مِنْ مُهَنْدِسِي الصِّهْيَوْنِيَّةِ مَوْطِنًا لِلْيَهُودِ؛ لِأَنَّ الْعَقَائِدَ الْأُصُولِيَّةَ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةَ مَعَ الْعَقَائِدِ الْيَهُودِيَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ لَا تَلْتَقِي فِيهَا، فَاخْتِيرَتْ فِلَسْطِينُ؛ لِأَنَّهَا مَجْمَعُ عَقَائِدِهِمْ، وَمُنْتَهَى آمَالِهِمْ.

وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ هِرْتِزِلْ مُؤَسِّسَ الْحَرَكَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ المُعَاصِرَةِ الَّذِي يُجْمِعُ الْعَلْمَانِيُّونَ الْعَرَبُ عَلَى أَنَّهُ عَلْمَانِيٌّ صِرْفٌ، وَلَا يُؤْمِنُ بِالْخُرَافَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ مَا دَفَعَهُ لِتَأْسِيسِ حَرَكَتِهِ تِلْكَ إِلَّا رُؤْيَا دِينِيَّةٌ رَآهَا فِي مَنَامِهِ، وَقَدْ سَجَّلَ ذَلِكَ فِي يَوْمِيَّاتِهِ؛ فَهَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، أَمْ أَنَّهُمْ يُخَدِّرُونَ المُسْلِمِينَ وَيَخْدَعُونَهُمْ بِإِبْعَادِ الدِّينِ عَنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ.

يَقُولُ هِرْتِزِلْ فِي مُذَكِّرَاتِهِ عَنْ رُؤْيَا رَآهَا: «ظَهَرَ لِيَ المَسِيحُ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ مُسِنٍّ فِي مَظْهَرِ الْعَظَمَةِ وَالْوَقَارِ، فَطَوَّقَنِي بِذِرَاعَيْهِ، وَحَمَلَنِي بَعِيدًا عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ ... وَالْتَقَيْنَا عَلَى إِحْدَى تِلْكَ الْغُيُومِ الْقُزَحِيَّةِ بِصُورَةِ مُوسَى، فَالْتَفَتَ المَسِيحُ إِلَى مُوسَى مُخَاطِبًا إِيَّاهُ: مِنْ أَجْلِ هَذَا الصَّبِيِّ كُنْتُ أُصَلِّي، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ لِي: اذْهَبْ وَأَعْلِنْ لِلْيَهُودِ بِأَنَّنِي سَوْفَ آتِي عَمَّا قَرِيبٍ لِأَجْتَرِحَ المُعْجِزَاتِ الْكَبِيرَةَ، وَأُسْدِيَ الْأَعْمَالَ الْعَظِيمَةَ لِشَعْبِي وَلِلْعَالَمِ»(٩).

وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ عَقِيدَةَ «المَسِيحِ المُنْتَظَرِ» مِحْوَرٌ يَدُورُ حَوْلَهُ المُسَلْسَلُ التَّارِيخِيُّ الْيَهُودِيُّ الْقَدِيمُ وَالمُعَاصِرُ، وَهِيَ عَقِيدَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَ بِأَنَّهَا فِكْرَةٌ عَلْمَانِيَّةٌ!

---

(٨) فلسطين مسلمة د. علي جريشة، بحث منشور على الشبكة العالمية.

(٩) دولة اليهود بين العجز والإعجاز، د. عبدالعزيز كامل، مجلة البيان، عدد (١١٨) ص(٦٦).

وَفِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ يَوْمِيَّاتِهِ نَجِدُ هِرْتِزِلْ يَتَحَدَّثُ عَنِ «الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ» الَّتِي اتَّخَذَهَا عُنْوَانًا لِرِوَايَةٍ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى كِتَابَتِهَا، وَهِيَ الَّتِي قَرَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُتَرْجِمَهَا إِلَى بَرْنَامَجٍ عَمَلِيٍّ، تَمَثَّلَ هَذَا الْبَرْنَامَجُ فِي قِيَامِ دَوْلَةِ الْيَهُودِ فِي الْأَرْضِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ(١٠).

ثُمَّ تَوَسَّعَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ حَتَّى ابْتَلَعَتِ الْقُدْسَ، وَرَزَحَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى تَحْتَ حُكْمِهَا، وَلَا يَزَالُ الصَّهَايِنَةُ طَامِعِينَ فِي تَوْسِيعِهَا؛ لِتَشْمَلَ كُلَّ الدُّوَلِ الَّتِي بَيْنَ النِّيلِ وَالْفُرَاتِ، وَلَنْ يَتَحَقَّقَ ذَلِكَ لَهُمْ إِلَّا بِبِنَاءِ الْهَيْكَلِ عَلَى أَنْقَاضِ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ.

وَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ -لَا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى- فَإِنَّهُ عَارٌ وَأَيُّ عَارٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْجَزُوا عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَلَوْ نَجَحَ الصَّهَايِنَةُ فَلَنْ يُوقِفَهُمْ عَنْ بَاقِي أَطْمَاعِهِمْ أَيُّ شَيْءٍ؛ فَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِنْ أَرَادُوا حِفْظَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَصِيَانَةَ مُقَدَّسَاتِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ أَنْ يَسْعَوْا بِكُلِّ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ لِإِفْشَالِ مُخَطَّطَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ؛ فَهِيَ لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَتْ لِأَهْلِ فِلَسْطِينَ وَحْدَهُمْ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِنْ تَخَلَّوْا عَنْ إِخْوَانِهِمُ الْيَوْمَ فَسَتَقِفُ غَدًا جَحَافِلُ الْمُسْتَعْمِرِينَ عَلَى أَطْرَافِ بُلْدَانِهِمْ، وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ أَنْ يَقُولُوا حِينَذَاكَ: أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الْأَبْيَضُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَانْصُرُوا إِخْوَانَكُمْ، وَحَافِظُوا عَلَى مُقَدَّسَاتِكُمْ، وَاعْلَمُوا مَا يَحِيكُ لَكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ يَرُدَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...

---

(١٠) المصدر السابق.

٣٧٣- طبيعة الصراع على بيت المقدس

٢٠/ ١١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ خَلَقَ الْبَشَرَ فَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَهْلَ حَقٍّ وَأَهْلَ بَاطِلٍ، وَقَضَى بِبَقَاءِ الصِّرَاعِ بَيْنَهُمَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَلَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ؛ ابْتِلَاءً مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ مَنِّهِ وَوَاسِعِ فَضْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَقْضِي قَضَاءً لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السَّخَطُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ، وَقَضَى بِهَيْمَنَةِ شَرِيعَتِهِ عَلَى الشَّرَائِعِ كُلِّهَا؛ فَلَا حَقَّ يُوصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبُعْدُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائِدَة: ٤٨] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ كُرُبَاتٍ وَشَدَائِدَ لَا ثَبَاتَ فِيهَا، وَلَا مَخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَقُوَّةِ الْيَقِينِ بِهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ السِّيَادَةَ وَالرِّيَادَةَ لِمَنْ يَدِينُ بِدِينِهِ وَيُقِيمُ شَرِيعَتَهُ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِجِنْسِهِ وَلَوْنِهِ وَلِسَانِهِ وَمَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ أَقْوَى مِنَ الْبَاطِلِ -وَإِنْ طَغَى أَهْلُهُ وَظَلَمُوا- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأَنْبِيَاء: ١٨]، وَأَهْلُ الْحَقِّ غَالِبُونَ وَلَوْ كَانُوا قِلَّةً مُسْتَضَامِينَ مُسْتَضْعَفِينَ؛ لِأَنَّهُمْ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٧٣].

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ قَدْ فَضَّلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَانُوا قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، بِمَا آتَاهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدُّخَان: ٣٢]. وَإِذَا أُطْلِقَ «إِسْرَائِيلُ» فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ(١)، جَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) ذكر الرازي -رحمه الله تعالى-: «اتفاق المفسرين على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويقولون إن معنى إسرائيل عبد الله لأن (إسرا) في لغتهم هو العبد و(إيل) هو الله، وكذلك جبريل هو عبد الله، وميكائيل عبد الله. قال القفال: قيل: إن (إسرا) بالعبرانية في معنى إنسان، فكأنه قيل: رجل الله» التفسير الكبير (٣/ ٢٨).
وذكر فيه ابن كثير -رحمه الله تعالى- حديثًا مسندًا فقال: «فإسرائيل هو يعقوب، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال: حَدَّثَنِي عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟ قالوا: اللهم نعم، فقال النبي ﷺ: اللهم اشْهَد» تفسير ابن كثير (١/ ٨٣).
قلت: هو حديث طويل اخْتَصَره ابن كثير، وأخرجه الطيالسي (٢٧٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٣)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٣٣)، والطبري في تفسيره (١/ ٤٣١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٦) رقم (١٣٠١٢)، وغيرهم من طرق لا تخلو من ضعف عن ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّف الهيثمي طريق الطبراني في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥١-٣١٦).
=

مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَانَ مَوْطِنُهُمْ بَيْتَ المَقْدِسِ بَعْدَ أَنِ اتَّخَذَهُ جَدُّهُمُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام

= قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «وكان يعقوب يدعى إسرائيل بمعنى: عبد الله وصفوته من خلقه و(إيل) هو الله، و(إسرا) هو العبد؛ كما قيل: جبريل، بمعنى: عبد الله، ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوله: إن إسرائيل كقولك عبد الله» تفسير الطبري (١/ ٢٤٨).

ونقل القرطبي في تفسيره (١/ ٣٣٠) عن ابن الجوزي قوله: «وليس في الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة ذكره في كتاب (فهوم الآثار) له، ثم قال القرطبي: قلت: وقد قيل في المسيح: إنه اسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سماه الله روحًا، وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين، ذكره الجوهري في الصحاح، وذكر البيهقي في دلائل النبوة عن الخليل بن أحمد خمسة من الأنبياء ذوي اسمين: محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل صلى الله عليهم وسلم. قلت (القرطبي): ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة بيانها في مواضعها، وإسرائيل اسم أعجمي؛ ولذلك لم ينصرف، وهو في موضع خفض بالإضافة، وفيه سبع لغات:

١- إسرائيل وهي لغة القرآن.

٢- وإسرائيل بمَدَّة مهموزة مختلسة حكاها شنبوذ عن ورش.

٣- وإسرايل بمَدَّة بعد الياء من غير همز، وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر.

٤- وقرأ الحسن والزهري بغير همز ولا مد.

٥- وإسرائل بغير ياء بهمزة مكسورة.

٦- وإسراءل بهمزة مفتوحة.

٧- وتميم يقولون إسرائين بالنون.

ومعنى إسرائيل:

١- عبد الله قال ابن عباس رضي الله عنهما: إسرا بالعبرانية هو عبد وإيل هو الله.

٢- وقيل: إسرا هو صفوة الله وإيل هو الله.

٣- وقيل إسرا من الشد فكأن إسرائيل الذي شده الله وأتقن خلقه، ذكره المهدوي.

٤- وقال السهيلي: سمي إسرائيل؛ لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى، فسمي إسرائيل، أي: أسرى إلى الله، ونحو هذا، فيكون بعض الاسم عبرانيًا وبعضه موافقًا للعرب، والله أعلم. اهـ من تفسير القرطبي (١/ ٣٣٠-٣٣١)، وينظر: زاد المسير (١/ ٧٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ٣٠٧)، والدر المنثور (١/ ١٥٣).

مَوْضِعًا يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى فِيهِ، إِلَى أَنْ جَرَى عَلَى يُوسُفَ مَا جَرَى عَلَيْهِ مِنَ الْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ، ثُمَّ الرِّفْعَةِ وَالتَّمْكِينِ، فَهَاجَرَ يَعْقُوبُ بِبَنِيهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مِصْرَ؛ كَمَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ عليه السلام ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُفَ: ٩٩]، وَمَكَثُوا فِيهَا أَرْبَعَةَ قُرُونٍ وَزِيَادَةً.

كَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ الْوَثَنِيُّونَ يَحْكُمُونَ بَيْتَ المَقْدِسِ وَيُسَمَّوْنَ الْعَمَالِقَةَ وَالْجَبَّارِينَ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ عليه السلام، وَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام، وَفَرَضَ فِيهَا الْجِهَادَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ(٢)، فَأُمِرُوا بِقِيَادَةِ مُوسَى عليه السلام أَنْ يُطَهِّرُوا بَيْتَ المَقْدِسِ

(٢) كان من سنة الله تعالى في المكذبين من عباده أن يهلكهم بعذاب من السماء، كما جرت هذه السنة على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وهامان وقارون وجندهم، فلما شرع الله تعالى الجهاد في شريعة موسى عليه السلام أمسك عذابه عنهم، وجعله بأيدي المؤمنين بالجهاد الشرعي الذي هو باق إلى آخر الزمان، حين يجاهد عيسى عليه السلام والعصبة المؤمنة معه المسيح الدجال ومن معه من اليهود، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، وتضافرت فيه أقوال المفسرين والعلماء:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، وفيما أنزل الله تعالى على موسى الجهاد بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

٢- ذكر الله تعالى قصة نوح عليه السلام في سورة (المؤمنون) وذكر القرون المهلكة بعده في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ثم ذكر سبحانه إرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه، وقال سبحانه عنهم: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فهذا يدل على أن نزول التوراة كان بعد هلاك فرعون وجنده، وفي التوراة شرع الجهاد. =

. . . .

= ٣- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ من الْأَنْبِيَاءِ، فقال لِقَوْمِه: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وهو يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا ولم يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، ولا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ وهو يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا من الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أو قَرِيبًا من ذلك، فقال لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وأنا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ -يَعْنِي: النَّارَ- لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فقال: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي من كل قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أو ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فجاؤوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ من الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ الله لنا الْغَنَائِمَ؛ رأى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لنا» أخرجه البخاري (٢٩٥٦)، ومسلم (١٧٤٧).

وهذا النبي المبهم هنا هو يوشع بن نون ﷺ كما جاء مُعينًا في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشَّمْسَ لم تُحْبَسْ على بَشَرٍ إلا لِيُوشَعَ ليالي سَارَ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ» أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥). وكانت هذه الحادثة بعد وفاة موسى ﷺ.

٤- ما قص الله تعالى علينا في سورة البقرة من خبر المعركة بين طالوت وجالوت، وقتل داود لجالوت، وداود ﷺ من أنبياء بني إسرائيل، وهو بعد موسى ﷺ.

٥- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ما أهلك الله قومًا ولا قرنًا ولا أمة، ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣] أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢/ ٤٤٢).

وجاء مرفوعًا وموقوفًا، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح (٧/ ٨٨)، وقال الألباني بعد أن ساق قول الهيثمي: وأقول: كلاهما صحيح، ولا مخالفة بينهما، فمن الواضح أن الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع فيما يتعلق بالتفسير، حتى ولو لم يرد مرفوعًا، فكيف وقد صح مرفوعًا أيضًا؟! سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٥٨).

ومن أقوال المفسرين على قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. =

. . . .

= ١- قال ابن عطية -رحمه الله تعالى-: «وقالت فرقة: إن الآية مضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم، فلم تعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مُسِخَتْ قردة فيما رُوي» المحرر الوجيز (٤/ ٢٨٩).

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «قال موسى ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، إلى قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وليس المراد بالآيات هنا كتابًا منزلًا؛ فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت، وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون، وخلص ببني إسرائيل، فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ [القصص: ٤٣]، ولكن تكذيبهم بآياته إنكارهم أن تكون آية من الله وقولهم إنها سحر» اهـ من النبوات (١٦٧-١٦٨).

٣- وقال في موضع آخر: «والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم بلاء كما قيل للنبي: «أي الناس أشد بلاء؟ قال: **الأنبياء ثم الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَل فالأمثل، يُبْتَلى الرجلُ عَلَى حسب دِينِهِ؛ فإنْ كان في دينه صَلَابة زِيدَ فِي بَلَائِه، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّفَ عنه، ولا يَزَال البلاء بالمؤمِنِ حَتَّى يمْشِيَ علي الأرض وليس عليه خطيئة**». ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك، حتى إنه قيل: لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وقوم شعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين، ولما كان موسى أفضل من هؤلاء، وكذلك محمد، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [القصص: ٤٨] إلى قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩]، وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين، وشريعة محمد أكمل؛ فلهذا كان الجهاد في أمته =

. . . .

= أعظم منه في غيرهم، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى للمنافقين: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]» اهـ من قاعدة في المحبة ١٥٠-١٥١.

٤- وقال أيضًا: «إن الله ﷻ كانت سنته قبل إنزال التوراة إذا كُذِّبَ نَبِيٌّ من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بِعَذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغَرَقِ، وقوم هود بالرِّيحِ الصَّرْصَرِ، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فلما أنزل التوراة أمر أهل الكتاب بالجهاد، فمنهم من نكل ومنهم من أطاع، وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]» الجواب الصحيح ٥/ ١٠٠-١٠١.

٥- وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوَّه فرعون وقومه بالغرق في الْيَمّ، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ﴾ [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان» اهـ تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢).

٦- وقال في موضع آخر: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة =

. . . .

= بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقَّة: ٩-١٠]» تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩١).

٧- وقال السعدي -رحمه الله تعالى-: «مرَّ عليَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد موسى ونزول التوراة رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات -يقصد آيات سورة المؤمنين المذكورة آنفًا- مع الآيات التي في سورة القصص تبيَّن لي وجهه. أما هذه الآيات -آيات سورة (المؤمنون)- فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص فهي صريحة جدًّا؛ فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد: نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [يونس: ٧٤، ٧٥] الآيات، والله أعلم» اهـ تفسير السعدي (٥٥٢).

فائدة: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- أن جهاد الكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه:

أحدها: أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم؛ لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله.

الثاني: أن ذلك أنفع للكفار أيضًا؛ فإنهم قد يؤمنون من الخوف، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضًا، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة: وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من معنى كون محمد ما أرسل إلا رحمة للعالمين؛ فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه، حتى =

مِنْ وَثَنِيَّةِ الْكَنْعَانِيِّينَ؛ فَامْتَنَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَالُوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المَائِدَة: ٢٢]، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالتِّيهِ عَلَى عِصْيَانِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَى مَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ. تُوُفِّيَ فِيهَا هَارُونُ ثُمَّ مُوسَى عليهما السلام.

وَنَشَأَ جِيلٌ جَدِيدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقْوَى إِيمَانًا، وَأَصْلَبَ عُودًا، وَأَمْضَى عَزِيمَةً، فَقَادَهُمْ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ عليه السلام إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ فَفَتَحَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ، وَطُهِّرَتِ الْأَرْضُ المُبَارَكَةُ مِنْ شِرْكِ الْكَنْعَانِيِّينَ الْوَثَنِيِّينَ. وَعَمَرَهَا أَتْبَاعُ مُوسَى بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَنْ دَبَّ الشِّرْكُ وَالْعِصْيَانُ فِي بَعْضِهِمْ؛ فَكَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوَحِّدُونَ، كَمَا كَانَ فِيهِمْ مُشْرِكُونَ.

فَلَمَّا كَثُرَ الْعِصْيَانُ فِيهِمْ سَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةَ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ، فَاحْتَلُّوا بَيْتَ المَقْدِسِ، وَنَكَّلُوا بِهِمْ، فَضَاعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَتَفَرَّقُوا، فَعَمَدُوا إِلَى نَبِيٍّ لَهُمْ؛ لِيُنَصِّبَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا يَسُوسُهُمْ، وَيُعِيدُ مَمْلَكَةَ الْقُدْسِ لَهُمْ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِمْ طَالُوتُ. فَكَانَتِ المَعْرَكَةُ الْعَظِيمَةُ المَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي انْتَصَرَ فِيهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى الْوَثَنِيِّينَ، وَبَرَزَ فِيهَا دَاوُدُ عليه السلام حِينَ قَتَلَ جَالُوتَ، ثُمَّ آلَ المُلْكُ إِلَيْهِ بَعْدَ طَالُوتَ، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَى النُّبُوَّةَ، فَافْتَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ، وَسُمِّيَتْ مَدِينَةَ دَاوُدَ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ لِلَّهِ تَعَالَى مَسْجِدًا، سَمَّاهُ الْيَهُودُ: بَيْتَ الرَّبِّ، أَوِ الْهَيْكَلَ[٣]،

= المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره؛ ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال، وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال: «**لا، استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له**».

الثالث: أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله، وأكثر لهم، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك. قاعدة في المحبة (١٥٢-١٥٣).

(٣) كتب د. عبد العزيز كامل -حفظه الله تعالى- مقالة نفيسة بعنوان (بناء الهيكل الثالث ... سباق مع الزمن) في البيان عدد (١٣٥) ص(٧٨) جاء فيها: =

. . . .

= الهيكل تسمية قديمة للمكان المختار للعبادة قبل الإسلام، والهيكل الذي كان موجودًا في الأرض المقدسة يمثل مراحل المسجد الأقصى فيما قبل الرسالة المحمدية، وقد صح أنه ثاني مسجد وضع في الأرض، فقد بناه إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة، وكان الهيكل في القدس قبلة لكل أنبياء بني إسرائيل طيلة عهودهم، واستمر المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس زمانًا، حتى تحولت قبلة المسلمين إلى الكعبة، ولكن حادثة الإسراء كانت إيذانًا بانتقال أرض القبلة الأولى إلى إرث الأمة الإسلامية؛ لأنها أرض مقدسة لا يصلح أن تبقى تحت أيدي أهل الملل الكفرية والعبادات الشركية؛ ولهذا كانت أرض بيت المقدس في مقدمة الأراضي التي اتجهت إليها جهود الفتح، بدءًا من غزوة تبوك، حتى تم فتحها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن اليهود كانوا يتبادلون طوال أزمنة الشتات تحية يقولون فيها: (غدًا نلتقي في أورشليم)! وبعد أن وصلوا إلى أورشليم أو (القدس) واستولوا على حائط (البراق) الذي يسمونه حائط (المبكى)، ابتدع لهم حاخاماتهم دعاءً يرددونه في كل صلاة أمام الحائط، وهو عبارة عن قَسَم وعهد على إعادة بناء الهيكل، ويدعون على أنفسهم باكين بأن تلتصق ألسنتهم في حلوقهم إذا هم نسوه! وأول من ردد ذلك الدعاء والتزم هذا التعهد هم القادة العسكريون عندما دخلوا القدس عام ١٩٦٧م، ووقتها لم يتقدم (موشيه دايان) وزير الدفاع لدخول المدينة المقدسة إلا وراء الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي (شلومو غورين)!، أما (إسحاق رابين) رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي آنذاك والذي تحول بعد إلى (ركن من أركان السلام)، فقد كتب في مذكراته يصف حرارة لحظات دخول القدس والاقتراب من مكان الهيكل فيقول: «كان صبرنا قصيرًا .. كان يجب أن لا نضيع الفرصة التاريخية، كنا كلما اقتربنا من حائط المبكى ازداد الانفعال .. حائط المبكى الذي يميز إسرائيل، لقد كنت أحلم دومًا بأن أكون شريكًا .. ليس فقط في تحقيق قيام إسرائيل، وإنما في العودة للقدس، وإعادة أرض حائط المبكى إلى السيطرة اليهودية .. والآن عندما تحقق هذا الحلم، تعجبت: كيف أصبح هذا ملك يدي؟! وشعرت بأنني لن أصل إلى مثل هذا السمو طيلة حياتي)! ينظر: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، لإسماعيل كيلاني، ص٣٥.

ولكن .. هل اليهود وحدهم، أو النصارى معهم فقط المعنيون بإعادة بناء الهيكل؟! .. لا، إن هناك جماهير غفيرة من المغفلين أولي الديانات والثقافات المختلفة، ينجح اليهود في استدراجهم للعمل لحسابهم تحت مظلة الأندية الماسونية العالمية، تلك الماسونية التي =

وَتُوُفِّيَ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ، فَخَلَفَهُ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ ﷺ، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَى الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ، فَابْتَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى هَيْئَةٍ عَظِيمَةٍ تَلِيقُ بِمُلْكِهِ وَمُلْكِ أَبِيهِ ﷺ(٤).

= عرّفها المستشرق الهولندي (دوزي) بأنها: جمهور كبير من مذاهب مختلفة، يعملون لغاية واحدة هي: إعادة بناء الهيكل الذي هو رمز إسرائيل. ينظر: الماسونية في العراء، محمد على الزعبي، ص١٦٣.

ويستوي في ذلك ماسون الغرب وماسون العرب، فقد جاء في النشرة الماسونية الصادرة في نيويورك عام ١٩٠١م: «إن الماسونية الأوروبية ستشيد بناءً حيث يعبد إله إسرائيل إلى الأبد» ينظر: جذور البلاء، لعبد الله التل، ص١٢٧.

ويقول إدريس راغب، وهو من أبرز الماسونيين العرب: «إن الاعتقاد بوجوب إقامة الهيكل يقوّي إيماننا بالوعود المذكورة في الكتاب» ينظر: الماسونية في العراء، ص١٠٥.

(٤) جاء في السنة النبوية أن سليمان ﷺ هو باني بيت المقدس في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ سُلَيْمَانَ بن دَاوُدَ ﷺ لمَّا بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ ﷻ خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ ﷻ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ من بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ ﷻ حين فَرَغَ من بِنَاءِ المَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ إلا الصَّلَاةُ فيه أَنْ يُخْرِجَهُ من خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»** أخرجه النسائي(٢/ ٣٤)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٢/ ١٧٦)، وصححه ابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣) والحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وعند أهل الكتاب أن يعقوب ﷺ هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث -يريد حديث أبي ذر في بناء المسجدين الحرام والأقصى- فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل ﷺ بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم ﷺ لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ... الآيات، وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود ﷺ لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالًا ثلاثًا ..... فالمراد من ذلك -والله أعلم- أنه جدَّد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه، وهذا القول لم يُوَافَقْ عَلَيْه ولا سُبِقَ إليه» البداية والنهاية (١/ ١٦٢).

وقال في موضع آخر: «ولما عاد -أي: سليمان ﷺ- أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء =

. . . .

= محكمًا، وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجدًا إسرائيل ﷺ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: مسجد بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود ﷺ أزيد من ألف سنة. دع أربعين سنة» البداية والنهاية (٢/ ٢٦).

تنبيه: أشار الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨): إلى حديث يفيد أن داود ابتدأ في بناء البيت فأكمله سليمان، فقال الحافظ: وفي الطبراني من حديث رافع بن عميرة أن داود ﷺ ابتدأ ببناء بيت المقدس ثم أوحى الله إليه: إني لأقضي بناءه على يد سليمان وفي الحديث قصة. اهـ.

قلت: هو حديث رَافِعِ بن عُمَيْرٍ قال: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**قال اللهُ ﷻ لِدَاوُدَ ﷺ: ابن لي بَيْتًا في الأَرْضِ، فبَنَى دَاوُدُ بَيْتًا لِنَفْسِهِ قبل الْبَيْتِ الذي أُمِرَ بِهِ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه: يا دَاوُدُ نَصَبْتَ بَيْتَكَ قبل بَيْتِي، قال: يا رَبِّ هَكَذَا قُلْتَ فِيمَا قَضَيْتَ: من مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ في بناءِ المَسْجِدِ، فلما تَمَّ السُّورُ سَقَطَ ثُلُثَاهُ فَشَكَا ذلك إلى الله ﷻ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه أَنَّهُ لا يَصْلُحُ أَنْ تَبْنِيَ لي بَيْتًا، قال: أَيْ رَبِّ وَلِمَ ؟قال: لِمَا جَرَتْ على يَدَيْكَ مِنَ الدِّمَاءِ، قال: أَيْ رَبِّ أَوَ لم يَكُنْ في هَوَاكَ وَمَحَبَّتِكَ؟ قال: بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي وأنا أَرْحَمُهُمْ، فَشَقَّ ذلك عليه، فَأَوْحَى اللهُ إليه: لا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَأَقْضِي بناءَهُ على يَدَيِ ابْنِكَ سُلَيْمَانَ، فلمَّا مَاتَ دَاوُدُ أَخَذَ سُلَيْمَانُ في بنائِهِ، فلمَّا تَمَّ قَرَّبَ الْقَرَابِينَ وَذَبَحَ الذَّبَائِحَ، وَجَمَعَ بني إِسْرَائِيلَ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه: قد أَرَى سُرُورًا بِبُنْيانِ بَيْتِي فَسَلْنِي أُعْطِكَ، قال: أَسْأَلُكَ ثَلاثَ خِصَالٍ: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَكَ، وَمُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ من بَعْدِي، وَمَنْ أتى هذا الْبَيْتَ لا يُرِيدُ إِلا الصَّلاةَ فيه خَرَجَ من ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. قال رسول الله ﷺ: أَمَّا اثْنَتَيْنِ فَقَدْ أُعْطِيهُمَا، وأنا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قد أُعْطِيَ الثَّالِثَةَ**» رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٢٤) رقم (٤٤٧٧)، وفي مسند الشاميين (٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٦-٢٤٧)، وابن حبان في المجروحين (١٠٠٥).

وهذا الحديث منكر سندًا ومتنًا، أما السند فهو من رواية محمد بن أيوب بن سويد الرملي وهو وَضَّاع، قال ابن حبان في المجروحين: يروي عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه.اهـ(٢/ ٢٩٩) وقال الحافظ ابن حجر: «ضعفه الدارقطني، وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه، قال أبو زرعة: رأيته قد أدخل في =

وَظَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فِي المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ عَلَى وَفْقِ شَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَعَ تَقَادُمِ الْعَهْدِ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَتَحَلَّلُونَ مِنْ شَرَائِعِ أَنْبِيَائِهِمْ شَيْئًا شَيْئًا، فَيَبْعَثُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْبِيَاءَ يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ، فَرُبَّمَا صَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِمْ أَوْ آذَوْهُمْ أَوْ قَتَلُوهُمْ، فَيُسَلِّطُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ كَمَا سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْفَرَاعِنَةَ وَالْبَابِلِيِّينَ، وَنَتَجَ عَنْ

= كتب أبيه أشياء موضوعة، قلت: من ذلك حديث: لما بنى داود المسجد فسقط، فقيل له إنه لا تصلح أن تتولى بناءه، قال: لم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء، قال: أولم يكن في هواك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي أرحمهم .. الحديث بطوله. انتهى. وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة» اهـ من لسان الميزان (٥/ ٨٧)

وساق الهيثمي حديثه هذا ثم قال: «رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن أيوب بن سويد الرملي، وهو متهم بالوضع» مجمع الزوائد (٤/ ٨).

وأما نكارة المتن فقوله: «فلما تم السور سقط ثلثاه، فشكا ذلك إلى الله عز وجل أنه لا يصلح أن يبني لي بيتًا، قال رب: لم؟ قال: لما جرت على يديك من الدماء، قال: أي رب أو لم يكن ذاك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم».

ونكارته من وجهين:

الأول: أن ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال كالجهاد في سبيل الله تعالى لا يكون سببًا في العقوبة، وليس محل ذم الشرع، بل صاحبه محمود، وقد أمر الله عز وجل بجهاد الكفار، والإغلاظ عليهم، والإثخان فيهم، ولا يُظن بنبي الله تعالى داود عليه السلام إلا أنه قتل من يستحق القتل من الكفار، وهذا مصرح به في هذا الحديث الموضوع، فكيف يكون سبب عقوبة داود بحرمانه من بناء بيت المقدس، والله تعالى قد أمره بذلك وأحبه منه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الثاني: أن قوله: «ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم» معارض لما ثبت في القرآن والسنة مِنْ أَنَّ رَحْمَةَ الله تعالى لا ينالها إلا الموحدون بخلاف المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ذَلِكَ هَدْمُ المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ، وَخُرِّبَتْ مَدِينَةُ الْقُدْسِ فِي السَّبْيِ الْبَابِلِيِّ، ثُمَّ أُعِيدَ بِنَاؤُهَا وَبِنَاءُ الْهَيْكَلِ لَمَّا انْتَصَرَ الْفُرْسُ عَلَى الْبَابِلِيِّينَ.

وَاسْتَقَرَّ الْحُكْمُ بَعْدَ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ لِلرُّومَانِ عَلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فَاسْتَرْضَوْا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمَادَوْا فِي الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عليهما السلام، وَكَانَ زَكَرِيَّا رَئِيسَ المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ الَّذِي كَفَلَ مَرْيَمَ عليها السلام المَنْذُورَةَ لِخِدْمَةِ الْهَيْكَلِ، وَمِنْ مَرْيَمَ جَاءَ المَسِيحُ عِيسَى عليه السلام بِلَا أَبٍ بِمُعْجِزَةٍ رَبَّانِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ.

وَبَلَغَ مِنْ فَسَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ -كَمَا فِي أَخْبَارِ كُتُبِهِمْ- أَنَّهُمْ قَتَلُوا زَكَرِيَّا، ثُمَّ قَتَلُوا وَلَدَهُ يَحْيَى عليهما السلام؛ لِأَنَّهُ رَفَضَ الْفُتْيَا لَهُمْ بِجَوَازِ الْبِغَاءِ لِأَحَدِ مُلُوكِهِمْ، وَرَمَوْا مَرْيَمَ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ.

وَلَمَّا بُعِثَ فِيهِمْ عِيسَى عليه السلام انْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ آمَنَ بِعِيسَى -وَهُمُ الْأَقَلُّ وَالْأَضْعَفُ- وَهُمُ النَّصَارَى، وَفَرِيقٍ كَفَرَ بِهِ -وَهُمُ الْأَكْثَرُ وَالْأَقْوَى- وَهُمُ الْيَهُودُ، فَوَعَظَهُمْ عِيسَى وَذَكَّرَهُمْ، وَكَانَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ قَدْ بَلَغَتِ المُنْتَهَى فِي الْفَسَادِ وَالِانْحِطَاطِ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ جَعَلُوا مَسْجِدَ دَاوُدَ مَلْهًى لَهُمْ، وَسُوقًا لِلْمُرَابِينَ مِنْهُمْ، فَحَذَّرَهُمْ عِيسَى عليه السلام مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى(٥).

وَانْتَشَرَتْ دَعْوَةُ عِيسَى عليه السلام وَمَوَاعِظُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَأَثَّرُوا بِهِ، فَخَافَ المُتَنَفِّذُونَ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى نُفُوذِهِمْ مِنْ دَعْوَتِهِ،

(٥) جاء في إنجيل متى أن عيسى عليه السلام دخل الهيكل، وأخرج جميع الذين يشترون ويبيعون فيه، وقلب عليهم موائد الصيارفة ثم قال: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» متى (٢١/١٢-١٣)، ولما استيأس عليه السلام منهم حذرهم من أن الهيكل سوف يهدم، فقال لهم: «الحق أقول لكم: إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض» إنجيل متى (٢٤/٢)، وقد وقع ما حذرهم منه عيسى عليه السلام.

وَحَكَمَتِ المَجَامِعُ الدِّينِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ بِقَتْلِ عِيسَى عليه السلام، وَأَغْرَوُا الْحَاكِمَ الرُّومَانِيَّ بِذَلِكَ، وَفَرَّ عِيسَى عليه السلام وَمَنْ مَعَهُ بِدِينِهِمْ، وَقِيلَ: سُمِّيَ المَسِيحَ لِسِيَاحَتِهِ فِي الْأَرْضِ، وَكَثْرَةِ تَنَقُّلِهِ؛ خَوْفًا مِنَ الْيَهُودِ، إِلَى أَنْ عَثَرُوا عَلَيْهِ فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ(٦).

---

(٦) اختلف العلماء في تسميته بالمسيح على أقوال:
١- مسيح فعيل بمعنى الفاعل، مثل عليم وعالم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي عيسى عليه السلام مسيحًا؛ لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ.
٢- أنه من فعيل، صرف من مَفعول إلى فعيل، وإنما هو ممسوح، يعني مسحه الله فطهَّره من الذنوب؛ ولذلك قال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى الكذاب، وبه سمي الدجال، والحرف من الأضداد.
٣- وقال آخرون: مسح بالبركة.
٤-وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن.
٥- وقيل: مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل.
٦- وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له، وسمي الدجال مسيحًا؛ لأنه كان ممسوح إحدى العينين.
٧- وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة.
٨- وقيل: لأن الجمال مسحه، أي: أصابه وظهر عليه.
٩- وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، ومسخه؛ أي: خلقه خلقًا ملعونًا قبيحًا.
١٠- وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحًا، فعرب كما عرب موشى بموسى، وأما الدجال فسمى مسيحًا؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقد قيل في الدجال: مسيح بكسر الميم وشد السين، وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة، وبعضهم يقول: مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف. والأول أشهر وعليه الأكثر، سُمِّيَ به؛ لأنه يسيح في الأرض؛ أي: يطوفها ويدخل جميع بلدانها، إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول.
=

وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ رَفْعِ عِيسَى ﷺ، وَأَذِيَّةِ أَتْبَاعِهِ بِأَيْدِي الْيَهُودِ؛ سُلِّطَ الْيَهُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَحَاوَلُوا التَّمَرُّدَ عَلَى الْحَاكِمِ الرُّومَانِيِّ، فَاسْتَبَاحَهُمْ، وَسَبَى كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى رُومَا، وَأَحْرَقَ المَدِينَةَ المُقَدَّسَةَ، وَهُدِمَ الْهَيْكَلُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، وَتَحَقَّقَتْ فِيهِمْ نُبُوءَةُ عِيسَى ﷺ فَلَمْ يُبْقِ الرُّومَانُ فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، وَانْتَهَى أَمْرُ الْيَهُودِ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، وَتَفَرَّقُوا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ، وَانْتَقَلَتْ أَحَقِّيَّةُ المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّصَارَى؛ لِشِرْكِ الْيَهُودِ وَتَوْحِيدِ النَّصَارَى.

وَلَكِنَّ أَتْبَاعَ عِيسَى ﷺ -وَهُمُ النَّصَارَى- مَا لَبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى بَدَأَ الِانْحِرَافُ يَدِبُّ فِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى التَّوْحِيدِ مِنْهُمْ إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ؛ إِذْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ مِنْ رَفْعِ المَسِيحِ ﷺ أَعْلَنَ حَاكِمُ الرُّومِ «قُسْطَنْطِينُ» عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ عَقِيدَةً مُوَحَّدَةً لِلنَّصَارَى، وَدَخَلَتِ الْأُمَّةُ الرُّومَانِيَّةُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ المُحَرَّفَةِ، وَهَرَبَ المُوَحِّدُونَ مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَى ﷺ فِي الْبَرَارِي وَالْأَدْغَالِ؛ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّثْلِيثِ. وَابْتُنِيَتِ الْكَنَائِسُ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ وَغَيْرِهَا عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الشِّرْكِيَّةِ، وَأُقِيمَتْ فِيهَا التَّمَاثِيلُ، وَصُوِّرَتْ فِيهَا التَّصَاوِيرُ الَّتِي تُنَاقِضُ دِينَ المَسِيحِ ﷺ. وَظَلَّ مَسْجِدُ دَاوُدَ ﷺ سُورًا خَالِيًا لَا بِنَاءَ فِيهِ.

وَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَسْرَى بِهِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَأَمَّ فِيهِ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ إِيذَانًا بِانْتِقَالِ الْحَقِّ فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ مِنَ النَّصَارَى إِلَى المُسْلِمِينَ.

= ١١- أن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به، فعلى هذا يكون عيسى بدلًا من المسيح من البدل الذي هو هو، وعيسى اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف، وإن جعلته عربيًّا لم ينصرف في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث ويكون مشتقًّا من عاسه يعوسه: إذا ساسه وقام عليه. ينظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٧٠)، وتفسير البغوي (١/ ٣٠١-٣٠٢)، وتفسير القرطبي (٤/ ٨٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦٤).

وَتَمَّ ذَلِكَ فِي فُتُوحِ الشَّامِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي رَحَلَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهُ مِنْ كِبَارِ النَّصَارَى، وَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ الْمُقَدَّسَةُ وَمَسْجِدُهَا -مَسْجِدُ دَاوُدَ عليه السلام- فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ، وَشُرِعَ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى مَسْجِدِهَا كَمَا شُرِعَ لِحَرَمَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَلَا حَقَّ فِيهَا لِغَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا مِنْ حَقِّ مَنْ يُقِيمُ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا دِينَ حَقًّا بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَانْحَرَفُوا عَنْ شَرَائِعِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى بِأَنْبِيَائِهِمْ عليهم السلام مِنْهُمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِلْيَهُودِ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَفِي شَأْنِ عِيسَى عليه السلام قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

وَعِيسَى عليه السلام حِينَ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يُقَاتِلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِهَا(٩).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَنْصَارِهِ، وَأَنْ يَكْبِتَ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . .



---

(٧) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم، حين قدم المدينة (٣٩٤٣)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥).

(٩) ينظر: خطبة نزول عيسى عليه السلام مجلد (٤)، خطبة رقم (١٩٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ مَسْجِدًا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوجَدَ الْيَهُودُ وَمِنْ بَعْدِ مَا وُجِدُوا؛ فَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام هُوَ أَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ مَسْجِدًا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٦٧].

وَلَيْسَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ -يَهُودًا كَانُوا أَوْ نَصَارَى- عَلَاقَةٌ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَّا فِي الْفَتَرَاتِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُسْلِمِينَ مَعَ أَنْبِيَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ عليهم السلام، أَمَّا بَعْدَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَشَتْمِهِمْ إِيَّاهُ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ فَقَدِ انْبَتَّتْ عَلَاقَتُهُمْ بِهَذَا الْمَسْجِدِ الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى إِرْثِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

وَلَكِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي هَذَا الزَّمَنِ لَا يُسَلِّمُونَ بِذَلِكَ، وَيُحَارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ؛ إِذْ يَعْتَقِدُ الْيَهُودُ أَنَّ بِنَاءَ الْهَيْكَلِ الثَّالِثِ سَيُخْرِجُ مَلِكًا مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ عليه السلام يَحْكُمُونَ بِهِ الْعَالَمَ، وَيَقْتُلُونَ غَيْرَ الْيَهُودِ، كَمَا يَعْتَقِدُ النَّصَارَى أَنَّ نُزُولَ الْمَسِيحِ سَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَتْبَاعَهُ، وَيَقْتُلُونَ بِهِ غَيْرَ النَّصَارَى؛ فَالصِّرَاعُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ هُوَ صِرَاعٌ دِينِيٌّ عَقَائِدِيٌّ، يَعْتَقِدُ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا حُكْمَ الْعَالَمِ إِلَّا بَعْدَ بِنَاءِ الْهَيْكَلِ فِيهِ؛ وَلِذَا فَلَنْ يَتَنَازَلُوا عَنْهُ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ.

وَأَمَّا المَلَاحِدَةُ وَالْعَلْمَانِيُّونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَيَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْعَقَائِدَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي تُحَرِّكُ صَهَايِنَتَهُمْ فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ لِإِقْنَاعِ شُعُوبِهِمْ وَتَحْرِيكِهِمْ نَحْوَ اسْتِعْمَارِ مِنْطَقَةِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ، وَبَسْطِ نُفُوذِهِمْ فِيهَا؛ لِتَحْقِيقِ مَكَاسِبَ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ بِهَذِهِ المُعْتَقَدَاتِ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْأَهْدَافَ الصِّهْيَوْنِيَّةَ الدِّينِيَّةَ وَالْأَهْدَافَ الْعَلْمَانِيَّةَ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدِ الْتَقَتْ عَلَى هَذِهِ الْبُقْعَةِ المُبَارَكَةِ، وَاتَّفَقَتْ عَلَى لُزُومِ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ مُسَوِّغَاتُهُ وَمَشَارِيعُهُ فَإِنَّهُ يَدْعَمُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ وَيُؤَيِّدُهُ، بِخِلَافِ المُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْعَلْمَانِيِّينَ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ التَّخَلِّيَ عَنِ الْأَرْضِ المُبَارَكَةِ، وَبَيْعَهَا وَمَسْجِدِهَا لِلْأَعْدَاءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ؛ بَلْ بِلَا ثَمَنٍ، وَيُحَارِبُونَ مَنْ لَا يُوَافِقُهُمْ فِي خِيَانَتِهِمْ بِلَا هَوَادَةٍ.

إِنَّ الْأَرْضَ المُبَارَكَةَ هِيَ أَرْضُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَسْجِدُهَا أُقِيمَ لِتَوْحِيدِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ -كَائِنًا مَنْ كَانَ- أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا لِلْأَعْدَاءِ؛ فَهِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَمَانَةٌ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، وَلَنْ تُحَرَّرَ مِنْ رِجْسِ الْيَهُودِ إِلَّا بِالْتِزَامِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي الَّتِي هِيَ سَبَبُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ المَضْرُوبَيْنِ عَلَى المُسْلِمِينَ.

إِنَّ الْأَرْضَ المُبَارَكَةَ بِمَسْجِدِهَا المُقَدَّسِ لَنْ تُحَرِّرَهَا مُؤْتَمَرَاتٌ تُقَامُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، يَعْقِدُهَا مَنْ سَعَّرُوا الْحُرُوبَ لِإِشْبَاعِ نَزَوَاتِهِمْ؛ فَاسْتَعْمَرُوا الْبُلْدَانَ، وَخَرَّبُوا الْعُمْرَانَ، وَنَهَبُوا الثَّرَوَاتِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ، هُمُ الْخَصْمُ فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ وَهُمُ الْحَكَمُ، وَهُمْ مَنْ يُمْلُونَ الِاتِّفَاقِيَّاتِ، وَيَشْتَرِطُونَ الشُّرُوطَ، وَيَفْرِضُونَ إِرَادَتَهُمُ الظَّالِمَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، مَا يَعْقِدُونَ مُؤْتَمَرَاتِهِمْ إِلَّا طَمَعًا فِي تَنَازُلَاتٍ جَدِيدَةٍ، وَلَنْ يَكُونَ حَظُّ المُسْلِمِينَ مِنَ

مُؤْتَمَرِهِمُ الْأَخِيرِ إِلَّا كَحَظِّهِمْ مِنِ اتِّفَاقَاتِ مَدْرِيدَ وَأُسْلُو وَغَيْرِهَا مِنْ مُؤْتَمَرَاتِ الْأَعْدَاءِ.

لَنْ يَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا إِلَّا تَكْرِيسَ الِاحْتِلَالِ، وَمُكَافَأَةَ الظَّلَمَةِ، وَجَلْدَ الضَّحِيَّةِ، وَتَشْرِيعَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا أَمَلَ فِيهِمْ وَلَا فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا الْأَمَلُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ فِي رِجَالٍ مُؤْمِنِينَ مُرَابِطِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، قَدْ تَحَمَّلُوا عَنِ الْأُمَّةِ كُلِّهَا مَسْئُولِيَّةَ الدِّفَاعِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، فَفَدَوْهُ بِدِمَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، مَا وَهَنَتْ لَهُمْ عَزِيمَةٌ، وَلَا لَانَتْ لَهُمْ عَرِيكَةٌ، جَوَّعَهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى مَا اخْتَارُوا فَصَبَرُوا وَمَا ضَجِرُوا .. هَدَمَ الْيَهُودُ دِيَارَهُمْ، وَأَتْلَفُوا زُرُوعَهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، وَهُمْ صَابِرُونَ صَامِدُونَ مُرَابِطُونَ، فَلَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَقُّ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بِأَنْ يُفَرِّجَ اللهُ تَعَالَى كُرْبَتَهُمْ، وَيُقَوِّيَ عَزِيمَتَهُمْ، وَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيُحَرِّرَ الْأَقْصَى عَلَى أَيْدِيهِمْ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٣٧٤- كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله

٢٤/٧/١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ تَفَرَّدَ بِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَبِالْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ، لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَاهُ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَأَشَدَّهُمْ ثِقَةً فِيهِ، وَأَكْثَرَهُمْ تَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقًا بِمَوْعُودِهِ، حَاصَرَهُ الْمُشْرِكُونَ فَمَا تَزَعْزَعَ يَقِينُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَجْمَعَ النَّاسُ حَرْبَهُ فَمَا رَدَّهُ ذَلِكَ عَنْ تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَفِي هِجْرَتِهِ وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى بَابِ الْغَارِ حَتَّى قَالَ صَاحِبُهُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[1]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْتَصِمُوا بِهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ضَعْفٍ وَهَوَانٍ، وَتَفَرُّقٍ وَاخْتِلَافٍ أَيْقَنَ بِأَنَّ عِلَلَهُمْ كَثِيرَةٌ، وَأَدْوَاءَهُمْ خَطِيرَةٌ، وَقَدْ شَمِلَتْ مَجَالَاتٍ

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨١).

كَثِيرَةً؛ فَفِيهِمْ مِنَ الْعِلَلِ السِّيَاسِيَّةِ مَا جَعَلَهُمْ مُسْتَضَامِينَ مُسْتَضْعَفِينَ، يَسْتَجْدُونَ غَيْرَهُمُ لِلْوُقُوفِ مَعَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ الْحِمَايَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يُشْعِلُونَ الْحُرُوبَ فِي أَرَاضِيهِمْ وَيُوقِفُونَهَا مَتَى أَرَادُوا، وَلَا مَشُورَةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، بَلْ وَيُصْدِرُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَرَارَاتِ مَا يُضْعِفُهُمْ، وَيَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشُّرُوطِ مَا يُذِلُّهُمْ وَيُهِينُهُمْ.

وَفِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاءِ الِاقْتِصَادِيَّةِ مَا جَعَلَ أَكْثَرَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ، يَشْتَرُونَ خُبْزَهُمْ بِبَيْعِ سِيَادَتِهِمْ، وَيُهْدِرُونَ كَرَامَتَهُمْ فِي سَبِيلِ بَقَائِهِمْ، وَقَدْ غَلَّتْهُمُ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ بِالْمُسَاعَدَاتِ وَالْقُرُوضِ الرِّبَوِيَّةِ. وَثَرَوَاتُهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَلَيْسَتْ لَهُمْ، وَلَا يَسْمَحُ أَعْدَاؤُهُمْ لَهُمْ بِالْعِتْقِ مِنْ رِقِّهِ وَأَسْرِهِ، حَتَّى إِذَا مَا أَرَادَ الْعَدُوُّ افْتِرَاسَ بَلَدٍ مُسْلِمٍ، وَهَبَّتِ الدُّوَلُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِنَجْدَتِهِ أَوِ الْإِنْكَارِ عَلَى عَدُوِّهِ؛ رَفَعَ الْأَصْدِقَاءُ الْأَعْدَاءُ أَوْرَاقَ الْمُسَاعَدَاتِ وَالْقُرُوضِ فِي وَجْهِهَا، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى حِرَاكٍ مَعَهَا، وَأَعْلَى نِسْبَةُ فَقْرٍ عَالَمِيَّةٍ هِيَ فِي بَعْضِ دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَفِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْإِعْلَامِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ مَا أَفْقَدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ شَخْصِيَّتَهُمْ، وَأَذَابَهُمْ فِي الْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَمَنْ رَأَى أَكْثَرَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ عَلِمَ أَنَّهَا لَا تُمَثِّلُ شَخْصِيَّةَ الْأُمَّةِ، وَلَا تُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِهَا، وَلَا تَسْعَى لِنَشْرِ دِينِهَا وَثَقَافَتِهَا، بَلْ هِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ حَرْبًا عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ وَقِيَمِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، فِي مُقَابِلِ الدِّعَايَةِ الْفَجَّةِ وَالتَّرْوِيجِ الْفَاضِحِ لِلْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَالسُّلُوكِيَّاتِ الْمُنْحَطَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ، عَنْ طَرِيقِ اسْتِنْسَاخٍ كَامِلٍ لِبَرَامِجِ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ وَفُسَّاقِهِمْ.

وَفِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ مَا يَجْعَلُ ثِقَةَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ فِي أَعْدَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ثِقَتِهِمْ فِي إِخْوَانِهِمْ، وَالْخِيَانَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا قَضِيَّةُ

فِلَسْطِينَ مِثَالٌ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ؛ سَوَاءٌ فِي عُهُودِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَةِ، أَمْ فِي مَرَاحِلِ التَّفَاوُضِ وَالسَّلَامِ وَالْمُنَاقَشَةِ، الَّتِي وَقَّعَهَا الْأَعْدَاءُ مَعَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى حِدَةٍ؛ لِيَزِيدَهُمْ ضَعْفًا إِلَى ضَعْفِهِمْ، وَتَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهِمْ.

وَمَعَ هَذِهِ الْعِلَلِ الْمُهْلِكَةِ، وَتِلْكَ الْآفَاتِ الْمُرْدِيَةِ، يَأْتِي الْمُنَافِقُونَ بِهِمَّتِهِمْ وَمُهِمَّتِهِمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالتَّخْذِيلِ وَالْإِرْجَافِ، وَالْوَعِيدِ وَالتَّخْوِيفِ -إِنْ أَصَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَمْ يَحِيدُوا عَنْ قُرْآنِهِمْ- زَاعِمِينَ أَنَّ بَلَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَانْكِسَارَهُمْ وَتَخَلُّفَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ الْمَوْرُوثَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ الزَّمَنَ، مُؤَكِّدِينَ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ الْأُخْرَى مَا تَقَدَّمَتْ وَعَزَّتْ وَانْتَصَرَتْ إِلَّا لَمَّا نَبَذَتْ مَوْرُوثَاتِهَا وَرَاءَهَا ظِهْرِيًّا، فَزَادَ هَؤُلَاءِ الْمَخَذِّلُونَ وَالْمُرْجِفُونَ فِي ضَعْفِ الْأُمَّةِ وَتَمَزُّقِهَا وَتَقَهْقُرِهَا.

إِنَّهَا أَدْوَاءٌ عَظِيمَةٌ، وَفِتَنٌ كَبِيرَةٌ، أَصَابَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَقَاتِلِهِمْ، وَطَاشَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ، فَتَغَيَّرَتْ قَنَاعَاتُهُمْ، وَتَبَدَّلَتْ مَوَاقِفُهُمْ، وَصَارُوا أَبْوَاقًا لِلْأَعْدَاءِ بَدَلَ الدِّفَاعِ عَنْ حُقُوقِهِمْ، وَدِعَايَةً لِلْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ بَدَلَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِمْ.

وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ تَحَوُّلَاتٍ كَثِيرَةً مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى النِّفَاقِ، وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى التَّفَلُّتِ مِنْهَا . .

بَلْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا ذَوِي دَعْوَةٍ وَحِجًا قَدْ نَقَلُوا أَحَادِيثَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْمَذَاهِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْإِخَاءِ الْبَشَرِيِّ، وَانْتَقَلُوا فِي اسْتِدْلَالَاتِهِمْ مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ إِلَى أَقْوَالِ الْمُفَكِّرِينَ الْغَرْبِيِّينَ.

وَأَصَابَتْ هَذِهِ الْأَدْوَاءُ الْمُهْلِكَةُ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ بِالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ؛ لِأَنَّهُمْ

يَرَوْنَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى قَنَاعَتِهِ بِدِينِهِ كُلِّهِ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا نُزَّاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالصَّالِحِينَ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ مِمَنْ رَبَطَ اللهُ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِهِمْ وَثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

إِنَّ النَّاسَ فِي حَالِ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ يَثْبُتُونَ، وَلَكِنْ إِذَا تَعَاظَمَتِ الْفِتَنُ، وَاسْتَحْكَمَتِ الْمِحَنُ، وَازْدَادَتِ الشُّرُورُ، وَتَسَلَّطَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَلَا يَثْبُتُ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ، وَيَوْمَ ارْتَدَّ الْمُرْتَدُّونَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَثْبُتْ إِلَّا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ؓ، فَثَبَّتَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ بِثَبَاتِهِ ؓ، وَيَوْمَ قَالَتِ الْمُبْتَدِعَةُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَامْتَحَنُوا النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ عَلَى كَثْرَةِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؛ فَرَفَعَ اللهُ تَعَالَى بِثَبَاتِهِ الْمِحْنَةَ، وَنَصَرَ السُّنَّةَ.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِزَاءَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُتَرَدِّيَةِ، وَالْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى اسْتِحْضَارِ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ أُوذِيَ ﷺ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُهُ ﵃، وَهُجِّرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ قُوَى الشَّرِّ وَالطُّغْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمَا رَأَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ مُتَنَازِلًا أَوْ مُبَدِّلًا، وَلَا يَائِسًا مُحْبَطًا؛ بَلْ تَحْكِي سِيرَتُهُ ﷺ أَنَّهُ فِي حَالِ الْمِحَنِ وَالْفِتَنِ، وَاشْتِدَادِ الْكَرْبِ، وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَعَلَى دَعْوَتِهِ، يَكُونُ أَشَدَّ ثَبَاتًا وَعَزْمًا، وَأَكْثَرَ تَفَاؤُلًا وَاسْتِبْشَارًا، وَقَدْ زَخَرَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ بِأَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ شَكَا الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﵃ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالُوا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ ﷺ: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ**

لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

لَقَدْ حَثَّهُمْ ﷺ عَلَى الثَّبَاتِ، وَحَكَى لَهُمْ أَخْبَارَ الثَّابِتِينَ مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنَّصْرِ رَغْمَ حَالَةِ الضَّعْفِ الَّتِي يَعِيشُونَهَا.

وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَنَقَضَتْ يَهُودُ مِنْ دَاخِلِ الْمَدِينَةِ عَهْدَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَعَظُمَتِ الْمِحْنَةُ، وَيَكْفِي فِي وَصْفِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ وَاثِقًا بِرَبِّهِ، مُوقِنًا بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الشِّدَّةِ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِالْكُنُوزِ وَالْفُتُوحِ وَالنَّصْرِ؛ كَمَا رَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِيهِ حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فِيهِ الْمِعْوَلُ، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ، وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ الْآنَ**، ثُمَّ ضَرَبَ ثَالِثَةً وَقَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، فَقَطَعَ الْحَجَرُ، وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ**

---

(٢) أخرجه من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٦).

الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣].

إِنَّهُ لَمَوْقِفٌ عَظِيمٌ، وَتَثْبِيتٌ عَجِيبٌ، يَعِدُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَمْنِ وَهُمْ فِي شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِكُنُوزِ الْأُمَمِ وَهُمْ فِي عَوَزٍ وَجُوعٍ وَمَخْمَصَةٍ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ فَتْحَ الْمُدُنِ الْكُبْرَى فِي وَقْتِهِ وَهُمْ مُحَاصَرُونَ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُدُنِ الَّتِي بَشَّرَ بِفَتْحِهَا أَمْيَالٌ وَأَمْيَالٌ . .

إِنَّهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالثِّقَةُ بِهِ، وَتَصْدِيقُ وَعْدِهِ . .

إِنَّهُ ثَبَاتٌ لَا تُزَعْزِعُهُ الْمِحَنُ، وَلَا تَمِيدُ بِهِ الْفِتَنُ، بَلْ تَزِيدُهُ شِدَّةً وَصَلَابَةً فِي الْحَقِّ، وَإِصْرَارًا عَلَى تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى . . فَثَبَتَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، وَفَرِحُوا بِهَذَا الْفَأْلِ وَهَذِهِ الْبِشَارَةِ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا مَا قَالُوا، وَخَذَّلُوا وَأَرْجَفُوا، وَذَهَبُوا خَاسِئِينَ مَذْمُومِينَ، وَكَذَبُوا وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَجَاءَ الْأَمْنُ بَعْدَ الْخَوْفِ، وَالْغِنَى بَعْدَ الْعَوَزِ، وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ وَطَافُوا بِالْبَيْتِ، وَدُحِرَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَفُتِحَتِ الْمُدُنُ الَّتِي بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِهَا، وَجُلِبَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ كُنُوزُهَا، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنْطَاعٌ عَلَيْهَا الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ؛ مِنْ ذَهَبٍ وَيَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ وَلُؤْلُؤٍ يَتَلَأْلَأُ، فَقَالَ رضي الله عنه: «أَيْنَ سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ، فَأُتِيَ بِهِ أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ دَقِيقَهُمَا، فَأَعْطَاهُ عُمَرُ سُوَارَيْ كِسْرَى، فَقَالَ: الْبَسْهُمَا، فَفَعَلَ، فَقَالَ: قُلِ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا مِنْ

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٨)، وأحمد (٤/ ٣٠٣)، وأبو يعلي (١٦٨٥)، والروياني في مسنده (٤١٠)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧).

كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيًّا مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ»(٤).

إِنَّ حَالَكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذَا الزَّمَنِ كَحَالِ أَسْلَافِكُمْ مِنْ قَبْلُ؛ فِتْنَةً وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً، وَإِنْ تَفَاوَتَ ذَلِكَ بَيْنَ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، وَشَدِيدٍ وَأَشَدَّ، وَسَيَكُونُ فِي الْأُمَّةِ مُنَافِقُونَ كَمَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ، وَسَيَكُونُ فِي الْمُسْلِمِينَ سَمَّاعُونَ لِأَرَاجِيفِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ، وَتَخْوِيفِهِمْ بِالْكَافِرِينَ كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ، وَسَيَثْبُتُ رِجَالٌ فِي عَصْرِنَا هَذَا رَغْمَ شِدَّةِ الْبَلَاءِ، وَعِظَمِ الْكَرْبِ، قَدِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَثِقَةً بِنَصْرِهِ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ؛ فَإِنْ أَدْرَكُوا وَقْتَ النَّصْرِ فَازُوا بِالْحُسْنَيَيْنِ: حَسَنَةِ الدُّنْيَا وَحَسَنَةِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ قُبِضُوا قَبْلَ ذَلِكَ لَقُوا رَبَّهُمْ ثَابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ، مُسْتَمْسِكِينَ بِشَرِيعَتِهِمْ، فَكُونُوا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مِنْهُمْ، وَاسْأَلُوهُ أَنْ يَنْظِمَكُمْ فِيهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٦/ ٣٥٧)، وفي معرفة السنن والآثار (٤٠١٤) عن الشافعي رحمه الله تعالى، وهو في الأم (٤/ ١٥٧)، وفي مختصر المزني (١/ ١٥٣).

أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مُنْذُ أَنِ ابْتَلَى اللهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِيطَانِ الْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ، وَمِنْطَقَةُ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَمْ تَهْنَأْ بِعَيْشٍ، وَلَا نَعِمَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ بِأَمْنٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الِاحْتِلَالَ الِاسْتِيطَانِيَّ هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ الِاحْتِلَالِ، وَلَا يُكْتَبُ لَهُ النَّجَاحُ إِلَّا بِإِبَادَةٍ شَامِلَةٍ لِأَهْلِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ، وَتَهْجِيرِ مَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ -كَمَا فَعَلَ الْكَاثُولِيكُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ وَالْبُرُوتِسْتَانْتُ بِالْهُنُودِ الْحُمْرِ فِي أَمْرِيكَا(٥)-، وَلَمْ يَنْجَحِ الْيَهُودُ فِي هَذَا الْمَسْعَى الْآثِمِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ ثُمَّ بِثَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَتَمَسُّكِهِمْ بِحَقِّهِمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَزَادَ مِنْ مُشْكِلَةِ الِاسْتِيطَانِ الْيَهُودِيِّ أَنَّهُمْ مُحَاطُونَ بِأَعْدَائِهِمْ، وَقَدْ لَعِبَ بِهِمْ مَنْ وَطَّنُوهُمْ فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَزَرَعُوهُمْ فِي وَسَطِ أَعْدَائِهِمْ؛ وَلَا بَقَاءَ لِلْيَهُودِ إِلَّا بِافْتِعَالِ الْحُرُوبِ فِي الْمِنْطَقَةِ، وَهَذَا دَأْبُهُمْ مُنْذُ أَنِ احْتَلُّوا الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ، وَيُصَرِّحُ سَاسَتُهُمْ بِذَلِكَ فَرَئِيسُهُمُ الْهَالِكُ بِيجِنْ يَقُولُ: «نَحْنُ نُحَارِبُ، فَنَحْنُ إِذَنْ نَكُونُ».

وَمِنْ سِيَاسَتِهِمُ الْمُعْلَنَةِ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ يُشْعِلُوا حَرْبًا جَدِيدَةً، وَقَدْ يُقَلِّصُونَ الْمُدَّةَ إِذَا دَعَتْهُمُ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَفِي هَذَا يَقُولُ شَامِيرُ: «يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا فِي كُلِّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مَرَّةً أَنْ نُجْلِسَ الْعَرَبَ عَلَى كُرْسِيِّ

---

(٥) ينظر في أفعال الكاثوليك بالمسلمين في الأندلس: دولة الإسلام في الأندلس، عبد الله عنان، المجلد الأخير منه، ففيه وثائق ومعلومات ثرية عن ذلك. وينظر في أفعال البروتستات بالهنود الحمر: حق التضحية بالآخر، منير العكش، ففيه توثيق لكثير من المذابح والإبادات.

طَبِيبِ الْأَسْنَانِ؛ كَيْ نَقْلَعَ أَسْنَانَهُمُ الَّتِي نَبَتَتْ حَتَّى لَا يَعَضُّونَا بِهَا»[٦].

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْقُرْآنُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ بِالْفَسَادِ، وَيُشْعِلُونَ الْحُرُوبَ، وَكَانَ مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ لَا يَعْدُو قَوْلَ الْقُرْآنِ فِيهِمْ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المَائِدَة: ٦٤].

فَقِطَارُ السَّلَامِ لَا يَرْكَبُهُ الْيَهُودُ إِلَّا لِلْوُصُولِ عَبْرَ مَحَطَّاتِهِ إِلَى مَيْدَانِ الْحَرْبِ؛ وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ لِمَنْ رَاقَبَ أَحْوَالَ الْقَوْمِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُطْفِئُ نَارَ الْحُرُوبِ الَّتِي يَفْتَعِلُونَهَا، وَيَرُدُّ كَيْدَهُمْ وَكَيْدَ حُلَفَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ.

وَمِنَ الْمُبَشِّرَاتِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ إِطْفَاءَ نِيرَانِ حُرُوبِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ وَخُسْرَانِهِمْ، وَمُشْعِرٌ بِنِهَايَةِ أَمْرِهِمْ، وَاضْمِحْلَالِ دَوْلَتِهِمْ، وَهَذَا مَا يُنْذِرُ بِهِ مُؤَرِّخُوهُمْ وَمُحَلِّلُوهُمْ بَعْدَ فَشَلِهِمْ فِي عُدْوَانِهِمْ عَلَى لِبْنَانَ[٧]؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْفَأَ نَارَ حَرْبِهِمْ، وَكَسَرَ شَوْكَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَاسِئِينَ خَاسِرِينَ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يُخْدَعُوا بِيَهُودَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ، وَبِمُبَادَرَاتِهِمْ وَمَشَارِيعِهِمُ الَّتِي تُرِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الِاسْتِسْلَامَ الْكَامِلَ لَهُمْ، وَجَعْلَ مَفَاتِيحِ الْمِنْطَقَةِ بِأَيْدِيهِمْ، فَهُمْ قَوْمٌ غُدُرٌ بُهْتٌ لَا يُوقِفُهُمْ عَنْ أَطْمَاعِهِمْ، وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ إِلَّا الْقُوَّةُ، وَلَا قُوَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا نَصْرَ لَهُمْ إِلَّا بِنَصْرِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

---

(٦) حمَّى سنة ٢٠٠٠ .. عود على بدء، الألفية الثالثة وتفاعلاتها الخطرة، عبد العزيز كامل، مجلة البيان، عدد (١٥٧) ص(٧٨).

(٧) ظهر مصطلح جديد في إسرائيل (المؤرخون الجدد) وهو يطلق على مجموعة من الباحثين لهم كتابات كثيرة تنذر بزوال الدولة العبرية، وتحكي بأن ذلك وشيك.

فَانْصُرُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ.

اعْمَلُوا بِشَرِيعَتِهِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَرَاقِبُوا اللهَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَلَا تُرَاقِبُوا خَلْقًا مِثْلَكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِإِقَامَةِ فَرَائِضِ دِينِكُمْ، وَمُجَانَبَةِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ رَبُّكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَوَاهِلَكُمْ، وَتَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّاتِ الَّتِي عَلَيْكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِالثِّقَةِ بِهِ وَبِدِينِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، وَأَنَّ مَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا حَقَّ فِيهِ.

انْصُرُوهُ بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَكَثْرَةِ الِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ نَصَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَلَنْ تَقِفَ قُوَّةٌ مَهْمَا بَلَغَتْ أَمَامَكُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَعَكُمْ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى رَبِّكُمْ . . .



٣٧٥- ولتعلن علوًّا كبيرًا

٢٥/ ٦/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اتَّصَفَ بِالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، وَتَفَرَّدَ بِالْجَبَرُوتِ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»(١)، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَتَبَ الْبَلَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ تَكْفِيرًا لِسَيِّئَاتِهِمْ، وَرَفْعًا لِدَرَجَاتِهِمْ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٣٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَجَعَلَهُ عَبْدًا شَكُورًا، وَلَمَّا تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ وَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَدَعَاهُ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»(٢) صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ الْعُدَّةُ لِلْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٤].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠)، وأبو داود واللفظ له في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى: البخاري في الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٣)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو وباب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو (١٧٤٢).

أَيُّهَا النَّاسُ: الْعُلُوُّ عَلَى النَّاسِ، وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ، هُوَ حَصِيلَةُ قَنَاعَاتٍ عَقْلِيَّةٍ، وَاعْتِقَادَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ بِالتَّمَيُّزِ وَالتَّفَوُّقِ، تَقُودُ إِلَى الْكِبْرِ، ثُمَّ إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ؛ وَلِذَا جَاءَ الْإِسْلَامُ بِحَسْمِ هَذِهِ المَادَّةِ الْفَاسِدَةِ، وَاسْتِئْصَالِهَا مِنْ نُفُوسِ الْبَشَرِ، وَذَلِكَ بِبَيَانِ أَنَّ أَصْلَ الْبَشَرِ وَجِنْسَهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَّ التَّفَاضُلَ بَيْنَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الْحُجُرَات: ١٣].

وَمَا كَانَ هَذَا النِّدَاءُ الْعَظِيمُ، وَالْبَيَانُ الْكَبِيرُ الَّذِي جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَّا حِمَايَةً لِلْبَشَرِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ أَنْ يَسْرِيَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَفْتِكَ بِأَخْلَاقِهِمْ، فَيَنْتِجَ عَنْهُ الْفَسَادُ وَالدَّمَارُ، وَاسْتِسْهَالُ قَتْلِ النَّاسِ، وَاسْتِرْخَاصُ الدِّمَاءِ، وَتَسْوِيغُ كُلِّ أَشْكَالِ الْحُرُوبِ وَالدَّمَارِ، كَمَا وَقَعَ كَثِيرًا -وَلَا يَزَالُ يَقَعُ- بِأَيْدِي الصَّهَايِنَةِ الْإِنْجِيلِيِّينَ، وَالصَّهَايِنَةِ التَّوْرَاتِيِّينَ؛ فَقَتْلُ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ أَوْ أَسْرُهُ يُقِيمُ الدُّنْيَا وَلَا يُقْعِدُهَا، وَقَتْلُ مِئَاتٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَسْرُ آلَافٍ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَمَلْءُ السُّجُونِ بِهِمْ، وَتَدْمِيرُ بُلْدَانٍ، وَتَشْرِيدُ أُمَمٍ، وَتَيْتِيمُ أَطْفَالٍ، وَتَرْمِيلُ نِسَاءٍ لَا يُحَرِّكُ سَاكِنًا، بَلْ هُوَ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ، وَدِفَاعٌ عَنِ النَّفْسِ، مَا دَامَ هَذَا الدَّمَارُ عَلَى غَيْرِ جِنْسِهِمْ وَعِرْقِهِمْ.

إِنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ أَبْدَتْ وَأَعَادَتْ فِي صِفَةِ الْكِبْرِ الذَّمِيمَةِ، وَبَيَّنَتْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْآثَامِ، وَطَرِيقٌ إِلَى رَفْضِ الْحَقِّ، وَنَصْرِ الْبَاطِلِ، وَغَمْطِ النَّاسِ؛ وَاللهُ ﷻ قَالَ لِإِبْلِيسَ الطَّرِيدِ اللَّعِينِ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ كِبْرِهِ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣]، فَعَامَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِنَقِيضِ مَا أَرَادَ مِنَ الْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ الصَّغَارَ أَبَدًا، وَالصَّغَارُ أَشَدُّ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨].

إِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ لَا يَنَالُ إِلَّا الْهَوَانَ وَالصَّغَارَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ[3] الَّذِي حَكَمَ عَلَى مَنْ رَفَضُوا الْحَقَّ، وَجَادَلُوا فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وَبَيَّنَ ﷻ أَنَّ أَهْلَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ مَصْرُوفُونَ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةِ، وَعَنْ فَهْمِ سُنَنِهِ الْكَوْنِيَّةِ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ إِلَّا بِهِ إِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ لَمَوْجُودَةٌ فِي قُوَى الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ وَسَوَّغَهُ لَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْجَاهِلِينَ.

وَلِقَبَاحَةِ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمَا يَخْلُفُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الرَّدِيئَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ؛ تَعَوَّذَ مُوسَى عليه السلام مِنْ أَهْلِهِ، وَقَدْ رَأَى فَتْكَهُ بِقَلْبِ فِرْعَوْنَ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ قَدِ اصْطَفَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَهَا عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. وَذَكَّرَهُمْ نَبِيُّهُمْ مُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وَلَكِنَّ كُفَّارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَدَّلُوا دِينَ مُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهم السلام، ثُمَّ قَتَلُوا

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ١٠).

يَحْيَى وَزَكَرِيَّا ﵉ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ، ثُمَّ كَذَّبُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا ﵉، وَوَضَعُوا السُّمَّ لِأَفْضَلِ الْبَشَرِ، وَخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ، فَمَاتَ مُتَأَثِّرًا بِسُمِّهِمْ، وَحَاوَلُوا قَتْلَ عِيسَى ﵇، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَجَّاهُ مِنْهُمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَسَيُنْزِلُهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِقِتَالِهِمْ عَلَى دِينِ خَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

إِنَّ أَفْعَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقَبِيحَةَ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ، وَاحْتِقَارِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ وَظُلْمِهِمْ، وَبَطَرِ الْحَقِّ، وَغَمْطِ النَّاسِ مَا كَانَ إِلَّا بِسَبَبِ كِبْرٍ وَعُلُوٍّ امْتَلَأَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَاسْوَدَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَفَسَدَتْ بِهِ أَخْلَاقُهُمْ، فَلَا يَرَوْنَ الْحَقَّ إِلَّا فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا عَجَبَ حِينَئِذٍ أَنْ نَرَى الْيَهُودَ يَعْتَدُونَ عَلَى الدُّوَلِ(٤)، وَيُبِيدُونَ الْبَشَرَ، وَلَا يَذَرُونَ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، وَلَا عَجَبَ أَيْضًا أَنْ يُؤَيِّدَهُمْ فِي عُلُوِّهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَيُبَارِكَهُ لَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى الْإِنْجِيلِيِّينَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ بِظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ إِنَّمَا يُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَحَسْبُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَشْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ وَاحِدٌ، وَثَقَافَةَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ تَرِدُهُمْ مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ؛ مِنْ تَوْرَاةٍ مُحَرَّفَةٍ، وَتَلْمُودٍ مُؤَلَّفٍ، جَعَلَ لَهُمْ مِيزَاتٍ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ، وَمَنَحَهُمُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا مِلْكًا لَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهَا وَبِأَهْلِهَا مَا يَشَاءُونَ، مُبَارَكِينَ مِنَ الرَّبِّ ﷻ، هَكَذَا يَعْتَقِدُونَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْتَقِدُونَ؛ تَعَالَى اللهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ عَنْ إِفْكِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَعَامَلَهُمْ سُبْحَانَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

وَعُلُوُّهُمُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ لَا يُخْفُونَهُ هُمْ عَنِ النَّاسِ، بَلْ يُظْهِرُونَهُ

(٤) هذا إشارة إلى الحرب الشرسة التي أشعلتها إسرائيل ضد الفلسطينيين لما فازت حماس في الانتخابات، ثم بعد أسابيع ضد لبنان زاعمة القضاء على حزب الله الرافضي الذي خطف أفراده جنديين إسرائيليين، ولا تزال دولة اليهود تقصف المرافق الحيوية في لبنان، وتدمر كل شيء حتى الجسور والعمران، بدعوى القضاء على الحزب الرافضي الذي هو في مأمن من اليهود والصليبيين!! وزعمت أمريكا أن ذلك دفاع عن النفس.

وَيُعْلِنُونَهُ، وَيُفَاخِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فِي عُنْصُرِيَّةٍ بَغِيضَةٍ، وَاحْتِقَارٍ لِغَيْرِهِمْ مَمْقُوتٍ.

وَدُونَكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- بَعْضًا مِنْ أَقْوَالِهِمْ؛ لِتَعْرِفُوا مَدَى عُلُوِّهِمْ، وَتَفْهَمُوا لِمَ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي سَادَ فِيهِ رُعَاةُ الْبَقَرِ، وَأَكَلَةُ الْخِنْزِيرِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ عَصْرُ التَّحَضُّرِ وَالرُّقِيِّ الْبَشَرِيِّ، يَقُولُ كَبِيرُ الصَّهَايِنَةِ التَّوْرَاتِيِّينَ فِي وَقْتِهِ، رَئِيسُهُمُ ابْنُ جُورْيُونْ عَقِبَ انْتِهَاءِ عَمَلِيَّاتِ الْعُدْوَانِ الثُّلَاثِيِّ عَلَى مِصْرَ مُخَاطِبًا جُنْدَهُ: «لَقَدْ أَرْجَعْتُمُونَا إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُعْطِينَا فِيهِ الْقَانُونَ، وَفِيهِ كَلَّفَنَا الرَّبُّ بِأَنْ نَكُونَ شَعْبًا مُخْتَارًا»(٥).

وَيَقُولُ آخَرُ مِنْهُمْ: «سَيَسُودُ شَعْبُنَا الْيَهُودِيُّ كُلَّ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى. إِنَّ إِسْرَائِيلَ هَذِهِ هِيَ الْأُمَّةُ الْعُلْيَا الَّتِي تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّوَسُّعِ، وَأَنْ تُصْبِحَ سَيِّدَةَ الْعَالَمِ دُونَ النَّظَرِ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ إِلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَلِّفَ هَذِهِ الشُّعُوبَ الْأَدْنَى مَقَامًا؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْعُلْيَا وَحْدَهَا فَقَطْ هِيَ زَهْرَةُ الْبَشَرِيَّةِ وَذِرْوَتُهَا، وَمَا خُلِقَتِ الْأُمَمُ الْأُخْرَى جَمِيعًا إِلَّا لِتَخْدِمَ هَذِهِ النُّخْبَةَ»(٦).

وَيَخْطُبُ أَحَدُهُمْ فِيهِمْ فَيَقُولُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ آخَرَ عَلَى الْخَطَإِ، وَأَنْتَ الْيَهُودِيُّ وَحْدَكَ عَلَى الصَّوَابِ، لَا تُوجَدُ إِلاَّ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْعَالَمِ وَهِيَ بِكَامِلِهَا مِلْكُكَ أَنْتَ». ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ التَّوْرَاةَ وَالسَّيْفَ أُنْزِلَا مِنَ السَّمَاءِ مَعًا»(٧). مُشِيرًا إِلَى

---

(٥) قال ذلك في رسالة وجهها للجيش اليهودي في ٧/ تشرين الثاني ١٩٥٦م، ينظر محتوى التعاليم الدينية اليهودية، النزعة العدوانية، بحث منشور في موقع المركز الفلسطيني للإعلام على الشبكة العالمية.

(٦) القائل هو اليهودي آشيز جنز برج، ينظر: المذهب العسكري الإسرائيلي، هيثم الكيلاني، مركز الأبحاث بيروت ١٩٦٩م ص(٢٥).

(٧) القائل هو: الصهيوني المتعصب زئيف فلاديمير جابوتنسكي، كما في الشخصية اليهودية راهنا والحل القرآني، منشور في الشبكة العالمية.

الْعَقِيدَةِ وَالْقُوَّةِ الْمُعْتَمِدَةِ عَلَى السَّيْفِ وَالسِّلَاحِ.

وَيَقُولُ أَحَدُ حَاخَامَاتِهِمْ: «إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَبَيْنَ غَيْرِ الْيَهُودِيِّ كَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّوحِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَشَرِ؛ فَشَعْبُ إِسْرَائِيلَ صَفْوَةُ الشُّعُوبِ؛ إِذْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَرْوَاحُ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى مَخْلُوقَةٌ مِنَ النَّجَاسَاتِ الثَّلَاثِ»(٨). تَعَالَى اللهُ عَنْ إِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَلَا تَعْجَبُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مِنْ أَفْعَالِهِمُ الَّتِي تُنْقَلُ إِلَيْكُمْ هَذِهِ الْأَيَّامَ لَحْظَةً بِلَحْظَةٍ فِي فِلَسْطِينَ وَلِبْنَانَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ غَيْرَهُمْ إِلَّا بِحَسَبِ مَقُولَاتِهِمْ وَقَنَاعَاتِهِمْ تِلْكَ.

وَلَا تَعْجَبُوا أَيْضًا مِنْ سُكُوتِ مُخْتَلَفِ طَوَائِفِ النَّصَارَى الْغَرْبِيِّينَ مِمَّنْ يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَوَضْعِ حَدٍّ لِجَرَائِمِهِمْ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ كُفَّارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَوْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عليه السلام، وَعَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَلَسَوْفَ يُقَاتِلُهُمْ مَعَ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَكْسِرُ صَلِيبَهُمْ، وَيَقْتُلُ خِنْزِيرَهُمْ.

وَأَمَّا أُمَّةُ الْعَرَبِ فَقَدْ ضَيَّعُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَكَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَذُلُّوا وَهَانُوا، وَاسْتُبِيحُوا شَرَّ اسْتِبَاحَةٍ؛ إِذْ أَدَارَ الْمَعَارِكَ الْأُولَى مَعَ الْيَهُودِ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ لِدِينِهِمْ، وَتَنَكَّرُوا لِكِتَابِ رَبِّهِمْ، وَرَفَعُوا شِعَارَاتِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مُقَابِلِ الْقَوْمِيَّةِ الطُّورَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فَنَقَلُوا الْمَعْرَكَةَ مِنْ مَيْدَانِهَا الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ إِلَى جَاهِلِيَّةٍ عَمْيَاءَ، وَعَصَبِيَّةٍ خَرْقَاءَ، وَرَكِبُوا مَا رَكِبَ الْيَهُودُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الدَّمِ وَالْعِرْقِ، فَضُرِبُوا فِي النَّكْبَةِ، ثُمَّ قُضِيَ عَلَيْهِمْ فِي النَّكْسَةِ، فَأَعْلَنُوا

(٨) القائل هو الحاخام سنيؤرسن أحد قيادي منظمة حاباد الصهيونية الدينية، عن المصدر السابق.

الِاسْتِسْلَامَ، وَاسْتَجْدَوُا السَّلَامَ مِنَ الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمْ فِي الْغَرْبِ، وَوَعَدُوا شُعُوبَهُمْ إِنْ قَبِلُوا الِاسْتِسْلَامَ بِأَحْلَامٍ وَرْدِيَّةٍ، وَجَنَّةِ شَرْقٍ أَوْسَطِيَّةٍ، عَبْرَ السَّلَامِ الْبَارِدِ ثُمَّ الدَّافِئِ ثُمَّ سَلَامِ الشُّجْعَانِ؛ لِيُعْلِنَ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَمِينُ الْمُنَظَّمَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَوْتِ عَمَلِيَّةِ السَّلَامِ وَانْتِهَائِهَا بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً(٩) مِنَ التَّخَبُّطِ وَالضَّيَاعِ، وَالتَّعَلُّقِ بِالْأَوْهَامِ، وَإِحْسَانِ الظَّنِّ بِالْأَعْدَاءِ، فَيَا لَلْفَضِيحَةِ الَّتِي دَوَّنَهَا التَّارِيخُ بِمِدَادِ الْخِزْيِ وَالْعَارِ فِي هَذَا الزَّمَانِ!

وَكَيْفَ يَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَخْدُوعُونَ أَنَّ الَّذِينَ صَنَعُوا لِلْيَهُودِ دَوْلَةً فِي عُقْرِ دِيَارِنَا، وَمَكَّنُوهُمْ مِنَ التَّفَوُّقِ عَلَى مَجْمُوعِ قُوَّاتِنَا وَجُيُوشِنَا يُمْكِنُ لَهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ يَقِفُوا مَعَنَا ضِدَّ الْيَهُودِ، أَوْ يُمَكِّنُونَا مِنْ صَدِّهِمْ أَوْ إِضْعَافِهِمْ؟! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وَالْعَجِيبُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَرَبِ لَا يَزَالُونَ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ لَا حَلَّ لِلْأَزْمَةِ مَعَ الْيَهُودِ إِلَّا بِكَسْبِ صَدَاقَةِ أَصْدِقَاءِ الْيَهُودِ، وَالْمُرَاهَنَةِ عَلَى الضُّغُوطِ، الَّتِي تُمَارِسُهَا ضِدَّهُمُ الدُّوَلُ الْكُبْرَى وَالْمُنَظَّمَاتُ الدَّوْلِيَّةُ، وَهَذَا وَهْمٌ آخَرُ؛ فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

وَقَدْ أَزَالَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ كَثِيرًا مِنَ الْأَوْهَامِ، وَأَثْبَتَتْ مَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ مِنْ

(٩) وذلك منذ أول سلام للعرب مع اليهود على يد مصر في كامب ديفد الأولى، ووقعه أنور السادات مع مناحيم بيجن، بإشراف الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، وقد أعلن عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية قبل أسبوع حين قصفت إسرائيل لبنان بأن عملية السلام قد ماتت، وأن الصهاينة كانوا يخدعون العرب.

حَقِيقَةِ الْأَعْدَاءِ، وَلَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَالثِّقَةِ بِهِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَنَبْذِ كُلِّ الْأَسْبَابِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي مَا زَادَتِ الْأُمَّةَ إِلَّا ضَعْفًا وَوَهْنًا، وَزَادَتِ الْأَعْدَاءَ تَسَلُّطًا وَبَغْيًا، وَقَطْعِ كُلِّ الْحِبَالِ إِلَّا حَبْلَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ حَبْلُ النَّصْرِ وَالْعِزِّ وَالتَّمْكِينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧]. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّساء: ١٣٩].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَنْصَارِ دِينِهِ، وَمِنْ أَهْلِ عِزَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ.

اللَّهُمَّ يَا غَوْثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَيَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ وَمَنْ حَالَفَهُمْ، وَأَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي لِبْنَانَ وَفِي فِلَسْطِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ، وَيَا كَاسِرَ الْأَكَاسِرَةِ، وَيَا مُذِلَّ الْقَيَاصِرَةِ، أَنْزِلِ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ وَالْعَذَابَ عَلَى الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمْ، وَاجْعَلْهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، أَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَأَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَالنَّصِيرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



الخُطبَة الثَّانِيَة

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللَّهِ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى -وَقَضَاؤُهُ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ- بِأَنَّ ذِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَوَانَهُمْ دَائِمٌ مَعَهُمْ، مُلَازِمٌ لَهُمْ، أَيْنَمَا كَانُوا، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ عَاشُوا، إِلَّا بِحَبْلَيْنِ اثْنَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا: حَبْلٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِدُخُولِهِمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا دَخَلَ فِيهِ سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ﷺ، أَوْ بِدُخُولِهِمْ تَحْتَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ بِعُقُودِ أَمَانٍ أَوْ ذِمَّةٍ.

وَأَمَّا الْحَبْلُ الثَّانِي فَهُوَ حَبْلُ الْقُوَى النَّافِذَةِ مِنَ الْبَشَرِ، وَهُوَ حَبْلُ النَّاسِ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٢].

وَمَنْ قَرَأَ تَارِيخَ الْيَهُودِ طِيلَةَ عُهُودِهِمُ الَّتِي أَعْقَبَتْ عَهْدَ الِاصْطِفَاءِ يَجِدُ أَنَّهُمْ مَا خَرَجُوا عَمَّا قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ إِلَّا بِهَذَيْنَ الْحَبْلَيْنِ؛ فَفِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ دَخَلُوا تَحْتَ حِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ حَتَّى سَقَطَتْ خِلَافَةُ بَنِي عُثْمَانَ، فَانْحَازَ الْيَهُودُ إِلَى قُوَى الِاسْتِعْمَارِ يَتَعَلَّقُونَ بِحَبْلِهَا، وَيَسْتَمِدُّونَ الْقُوَّةَ مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَرِدَ الْيَهُودُ بِقُوَّةٍ وَحْدَهُمْ، وَلَا أَنْ يُوَاجِهُوا غَيْرَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ حِبَالٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ تَمُدُّهُمْ بِالْمَعُونَةِ وَالْقُوَّةِ، هَذَا هُوَ قَدَرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَحُكْمُهُ فِيهِمْ؛ جَرَّاءَ عُلُوِّهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ.

ثُمَّ قَضَى ﷻ فِيهِمْ بِالْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ إِنْ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَهِيَ أَرْضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ مَرَّتَيْنِ، وَأَنَّ عُلُوَّهُمْ

سَيَزْدَادُ، وَأَنَّ تَسْلِيطَ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ يَسْتَبِيحُهُمْ يَكُونُ فِي أَوْجِ عُلُوِّهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ عَادَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ عِبَادِهِ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ دَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِمْ، قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَوَقَعَتْ فِي تَارِيخِهِمْ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٤-٨].

إِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ظَاهِرٌ، وَحُكْمَهُ فِيهِمْ وَاضِحٌ، وَسُنَّتَهُ فِيهِمْ ثَابِتَةٌ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أَيْ: إِنْ عُدْتُمْ إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ عُدْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ، وَقَدْ عَادُوا إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ، فَسَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْبَابِلِيِّينَ، فَخَرَّبُوا عُمْرَانَهُمْ، وَأَبَادُوا خَضْرَاءَهُمْ. ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَلَّطَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ فِي غَزَوَاتِ النَّضِيرِ وَقَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَخَيْبَرَ، فَكَانُوا بَيْنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَبَيْنَ الطَّرْدِ وَالْجَلَاءِ، ثُمَّ عَادُوا لِلْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ أُمَّةَ الْأَلْمَانِ النَّازِيَّةَ، فَطَارَدُوهُمْ وَعَذَّبُوهُمْ وَحَرَّقُوهُمْ.

وَبَعْدَ تَوْطِينِهِمْ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ زَادَ عُلُوُّهُمْ، وَاسْتَفْحَلَ فَسَادُهُمْ، وَأَمَدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ وَحُلَفَاؤُهُمْ وَالمُسَارِعُونَ فِيهِمْ بِحِبَالِهِمْ؛ لِيَعْلُوا عُلُوًّا كَبِيرًا، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا، وَلَسَوْفَ يَحِقُّ عَلَيْهِمْ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُدْرِكُهُمْ سُنَّتُهُ الْأَبَدِيَّةُ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، وَسُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ إِرَادَةِ الْبَشَرِ، وَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ غَالِبَةٌ لِأَسْلِحَتِهِمْ

وَأَسْلِحَةِ مَنْ يَصِلُونَهُمْ بِحِبَالِهِمْ، وَمَا نَفَعَ أَجْدَادَهُمْ مِنْ قَبْلُ مَا تَوَثَّقُوا بِهِ مِنْ حِبَالِ الْبَشَرِ، وَقَطَعَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ حَبْلٍ مَمْدُودٍ إِلَيْهِمْ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر: ٤٣].

وَكُلَّمَا زَادَ عُلُوُّهُمْ، وَاسْتَفْحَلَ فَسَادُهُمْ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُرْبِ عَذَابِهِمْ، وَدُنُوِّ هَلَاكِهِمْ، عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَعُلُوِّهِمْ وَفَسَادِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَانْصُرُوا إِخْوَانَكُمْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ الدُّعَاءُ الْخَالِصُ الصَّادِقُ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣٧٦- بين التجمع اليهودي والتفرق العربي

١٩/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيِّ الأَعْلَى؛ كَتَبَ الْعِزَّ وَالنَّصْرَ لِمَنْ حَكَّمَ شَرْعَهُ، وَضَرَبَ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَاهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٠، ٢١]. أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى الْعِبَادَ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ، وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالمَعْصِيَةِ وَالطَّاعَةِ، وَجَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا أَنْصَارًا وَدُعَاةً يَدْعُونَ إِلَيْهِمَا؛ فَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٣٥]، ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيَهْدِيَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبْصِرَ بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَقَامُوا الْعَدْلَ، وَرَفَعُوا الظُّلْمَ، وَنَشَرُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَكَّمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِشَرِيعَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ التَّقْوَى؛ فَلَا رَافِعَ لِلذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَلَا مُنْجِيَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا تُنَالُ رَحْمَتُهُ، وَيُنَجَّى مِنْ عَذَابِهِ، وَيَتَنَزَّلُ نَصْرُهُ بِتَقْوَاهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، حَقِيرِهَا وَجَلِيلِهَا.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ بِدِينٍ جَمَعَ شَتَاتَهَا، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهَا،

وَأَزَالَ أَسْبَابَ فُرْقَتِهَا، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِ أَبْنَائِهَا ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

فَتَآخَى فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْحَبَشِيُّ بِلَالٌ، وَالرُّومَانِيُّ صُهَيْبٌ، وَالْفَارِسِيُّ سَلْمَانُ، مَعَ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ، وَاجْتَمَعَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَقَدْ فَرَّقَتْهَا الْجَاهِلِيَّةُ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، وَأَفْنَتْ أَبْنَاءَهَا حُرُوبٌ سُعِّرَتْ فِي سَبِيلِ فَرَسٍ سَبَقَتْ، أَوْ نَاقَةٍ عُقِرَتْ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، يُتِّمَ بِسَبَبِهَا أَطْفَالٌ، وَرُمِّلَتْ نِسَاءٌ، وَأُزْهِقَتْ أَرْوَاحٌ.

لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِرَابِطَةٍ هِيَ أَقْوَى مِنْ رَابِطَةِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ، وَالتُّرَابِ وَالْوَطَنِ، وَالْجِنْسِ وَالْعِرْقِ، وَاللِّسَانِ وَاللُّغَةِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

وَمَثَّلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ الَّذِي إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَأَلَّمتْ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ الْأُخْرَى بِسَبَبِهِ(٢)، وَقَطَعَ ﷺ كُلَّ طَرِيقٍ لِلنُّعَرَاتِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ،

---

(١) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر (٢٧٥١)، وأحمد (٢/ ٢١٥)، وابن الجارود (١٠٧٣).
وأخرجه بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه في الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢٦٨٣).

(٢) وذلك في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثَلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتعَاطُفِهِمْ مثل الجسَدِ إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحمَّى**» أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

فَأَعْلَنَ فِي أَصْحَابِهِ قَائِلًا: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ»(٣).

وَلَمَّا عَيَّرَ رَجُلٌ رَجُلًا بِنَسَبِهِ أَغْلَظَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(٤).

وَلَمَّا تَفَاخَرَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ بِأَيَّامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَانْتَخَوْا بِهَا غَضِبَ ﷺ وَقَالَ: «أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ»(٥).

وَكُلُّ هَذَا النَّكِيرِ لِأَيِّ عَصَبِيَّةٍ إِلَّا عَصَبِيَّةَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَتَّحِدَ الْأُمَّةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَكُونَ أَقْوَى لَهَا، وَأَجْمَعَ لِأَمْرِهَا، وَأَمْضَى لِعَزْمِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ سَبَبًا لِلْفَشَلِ وَالْهَزِيمَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣].

وَفِي قَضِيَّةِ فِلَسْطِينَ الَّتِي تُعَدُّ أَطْوَلَ قَضِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرَ قَضَايَاهُمْ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، باب فضل الشام واليمن، وقال: حسن غريب (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣).

(٤) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣)، ومسلم في الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

(٥) أخرجه من حديث زيد بن أسلم -رحمه الله تعالى-: الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣-٢٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ (٢/ ٢٧٨).

تَعْقِيدًا، وَظَهَرَ فَشَلُ المُسْلِمِينَ فِي حَسْمِهَا حَرْبًا، كَمَا فَشِلُوا فِي حَلِّهَا سِلْمًا؛ نَجِدُ أَنَّ أَعْظَمَ سَبَبٍ لِهَذَا الْفَشَلِ: التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ الَّذِي نَتَجَ عَنْ إِلْغَاءِ الرَّابِطَةِ الدِّينِيَّةِ وَإِحْلَالِ الرَّوَابِطِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ، وَنُقِلَتْ بِسَبَبِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ مَيْدَانِهَا الشَّرْعِيِّ إِلَى مَيَادِينِ الْجَاهِلِيَّةِ.

لَقَدْ فَتَحَ الْعَرَبِيُّ الْقُرَشِيُّ المُسْلِمُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ بَيْتَ المَقْدِسِ، وَاسْتَلَمَهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّصَارَى، وَكَانَ فِي جَيْشِهِ رُومَانٌ وَفُرْسٌ وَأَحْبَاشٌ مُسْلِمُونَ، كَمَا كَانَ فِي جَيْشِهِ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ المُخْتَلِفَةِ لَا يَنْتَخُونَ إِلَّا بِالْإِسْلَامِ، وَلَا يَعْرِفُونَ رَابِطَةً غَيْرَ رَابِطَةِ الْإِيمَانِ(٦).

وَلَمَّا احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي وَقْتٍ ضَعُفَ فِيهِ المُسْلِمُونَ وَاخْتَلَفُوا وَتَفَرَّقُوا أَعَادَهَا إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ تِسْعِينَ سَنَةً مِنَ الِاحْتِلَالِ صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيُّ الْكُرْدِيُّ المُسْلِمُ(٧)، وَكَانَ جَيْشُهُ أَخْلَاطًا مِنَ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ وَالْكُرْدِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، لَا يَجْمَعُهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ، فَلَمْ يَنْسُبُوا هَذِهِ المَنْقَبَةَ الْعَظِيمَةَ لِجِنْسٍ دُونَ جِنْسٍ، وَلَا اسْتَعْلَى بِهَا عِرْقٌ عَلَى عِرْقٍ، بَلْ كَانَتْ مَنْقَبَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِكَوْنِهِمْ مُسْلِمِينَ وَكَفَى.

وَلَمَّا ضَعُفَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْقَرْنِ المَاضِي، وَطَمِعَ فِي ضَعْفِهَا شَيَاطِينُ الْغَرْبِ مِنْ أَحْفَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَأَبْنَاءِ الصَّهَايِنَةِ، وَرَأَوْا أَنَّ الْفُرْصَةَ مُوَاتِيَةٌ لِتَوْطِينِ الْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ تَمَسَّكَ بِهَا السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ التُّرْكِيُّ عَبْدُ الْحَمِيدِ الثَّانِي، وَأَصْدَرَ الْقَرَارَاتِ تِلْوَ الْقَرَارَاتِ لِلْحِفَاظِ عَلَيْهَا، وَمَنَعَ الْيَهُودَ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَيْهَا.

وَرَغْمَ مَا كَانَتْ تُعَانِي مِنْهُ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ مِنَ الضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ، وَانْهِيَارِ

(٦) ينظر خبر هذا الفتح في خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس مجلد (٣)، خطبة رقم (١٤٢).

(٧) ينظر خبر ذلك في خطبتي: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، ومعركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

الِاقْتِصَادِ، وَتَرَاكُمِ الدُّيُونِ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ الْعُثْمَانِيَّ التُّرْكِيَّ لَمْ يَبِعْ فِلَسْطِينَ الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لِلْيَهُودِ، وَقَدْ حَاوَلَ كُبَرَاءُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ؛ لِإِغْرَائِهِ بِذَلِكَ، وَقَابَلَهُ كَبِيرُ الصَّهَايِنَةِ آنَذَاكَ هِرْتِزِلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِشِرَاءِ فِلَسْطِينَ مِنَ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ رَفَضَ ذَلِكَ، وَكَاتَبُوهُ فِيهَا كَثِيرًا فَلَمْ يَفْلَحُوا. وَأَرَادَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنْ يُيَئِّسَهُمْ مِنْ طَمَعِهِمْ فِيهِ، فَأَرْسَلَ رَئِيسَ وُزَرَائِهِ إِلَيْهِمْ بِرِسَالَةٍ يَقُولُ فِيهَا: «انْصَحُوا الدُّكْتُورَ هِرْتِزِلْ بِأَلَّا يَتَّخِذَ خُطُوَاتٍ جِدِّيَّةً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ شِبْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مِلْكَ يَمِينِي، بَلْ مِلْكَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي جَاهَدَتْ فِي سَبِيلِهَا، وَرَوَتْهَا بِدِمَائِهَا؛ فَلْيَحْتَفِظِ الْيَهُودُ بِمَلَايِينِهِمْ، وَإِذَا مُزِّقَتْ دَوْلَةُ الْخِلَافَةِ يَوْمًا فَإِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْخُذُوا فِلَسْطِينَ بِلَا ثَمَنٍ، أَمَّا وَأَنَا حَيٌّ فَإِنَّ عَمَلَ الْمِبْضَعِ فِي بَدَنِي لَأَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَى أَرْضَ فِلَسْطِينَ قَدْ بُتِرَتْ مِنَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَكُونُ. إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْمُوَافَقَةَ عَلَى تَشْرِيحِ أَجْسَادِنَا وَنَحْنُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ»(٨).

لَقَدْ حَافَظَ السُّلْطَانُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَلَيْهَا مِنْ مُنْطَلَقٍ إِسْلَامِيٍّ، لَا مِنْ مُنْطَلَقٍ قَوْمِيٍّ أَوْ وَطَنِيٍّ أَوْ عِرْقِيٍّ، وَإِلَّا لَبَاعَهَا لِلْيَهُودِ، وَسَلِمَتْ لَهُ دَوْلَتُهُ التُّرْكِيَّةُ، وَلْيَلْقَ الْعَرَبُ مَصِيرَهُمْ مَعَ الْيَهُودِ. وَمَا ظَفِرَ الْيَهُودُ بِفِلَسْطِينَ إِلَّا عَلَى أَنْقَاضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَمِلَتْ جَمْعِيَّاتُهُمْ عَمَلَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَفَرَّقَتْهُمْ وَمَزَّقَتْهُمْ، وَأَبْدَلَتِ انْتِمَاءَهُمْ إِلَى الْقَوْمِيَّاتِ الْعِرْقِيَّةِ بَدَلَ انْتِمَائِهِمْ إِلَى دِينِهِمْ، فَاسْتَبْدَلَ مَلَاحِدَةُ التُّرْكِ بِدِينِهِمْ الْقَوْمِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ الطُّورَانِيَّةَ، وَاسْتَبْدَلَ مَلَاحِدَةُ

(٨) ينظر: مذكرات السلطان عبد الحميد (٣٤)، وصحوة الرجل المريض د. موفق بن المرجه (٢٢٤-٢٢٥)، وينظر: تاريخ الدوله العثمانيه يلماز اوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سليمان (٢/ ١٥٧-١٥٩)، وانهيار الدولة العثمانية (١٩٠-١٩٥).

الْعَرَبِ بِدِينِهِمُ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ، فَقُسِّمَتِ الْأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ إِلَى عَرَبٍ وَتُرْكٍ، ثُمَّ إِلَى قَوْمِيَّاتٍ أُخْرَى مُتَفَرِّقَةٍ، وَقُسِّمَتْ بُلْدَانُهُمْ إِلَى دُوَلٍ شَتَّى، فَفَرَّقَتْهُمُ الْعَصَبِيَّاتُ الْجَاهِلِيَّةُ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْإِسْلَامُ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي زَادُوا التَّفَرُّقَ تَفَرُّقًا بِاخْتِلَافِهِمْ فِي التَّحَالُفِ مَعَ الْقُوَّتَيْنِ الْعُظْمَيَيْنِ؛ فَدُوَلٌ مِنْهُمْ أَعْلَنَتْ وَلَاءَهَا لِلْمُعَسْكَرِ الْإِلْحَادِيِّ الشُّيُوعِيِّ الشَّرْقِيِّ، وَدُوَلٌ أُخْرَى انْضَمَّتْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ الْإِلْحَادِيِّ اللِّيبْرَالِيِّ الْغَرْبِيِّ، وَاشْتَدَّتِ الْعَدَاوَاتُ بَيْنَهُمْ فِي سَبِيلِ تِلْكَ التَّحَالُفَاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي صَالِحِهِمْ، وَسُعِّرَتْ حُرُوبٌ فِي بُلْدَانِهِمْ تَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَتُدَمِّرُ عُمْرَانَهُمْ، وَتُهْلِكُ شُعُوبَهُمْ، لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ نَصْرٌ، وَهَزِيمَتُهَا عَلَيْهِمْ، فَنَصْرُهُمْ فِيهَا لِلدُّوَلِ الْعُظْمَى الَّتِي تُحَرِّكُهُمْ.

ثُمَّ لَمَّا اسْتَفَاقُوا بَعْدَ خَسَارَتِهِمُ الْعَدِيدَ مِنَ الْحُرُوبِ مَعَ الْيَهُودِ، وَانْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَبَدَلَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى رَابِطَةِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ تَجَرَّعُوا غُصَصَ التَّفَرُّقِ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً؛ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى تَفَرُّقٍ جَدِيدٍ بِاسْمِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْقُطْرِيَّةِ، وَصَارَ دُعَاةُ الْقَوْمِيَّةِ بِالْأَمْسِ يَلْعَنُونَهَا الْيَوْمَ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ رِفَاقِ الْأَمْسِ، وَيَهْزَءُونَ بِشِعَارَاتِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى الِانْكِفَاءِ عَلَى الْأَوْطَانِ، وَعَدَمِ الِاهْتِمَامِ بِالْآخَرِينَ مَهْمَا كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَيْنَا، وَلَوْ كَانُوا إِخْوَةً لَنَا.

وَفِي مَرَاحِلِ هَذَا التَّحَوُّلِ مِنَ الْأُمَّةِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَنْضَوِي تَحْتَ لِوَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَى دُوَيْلَاتٍ وَجَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، بَيْنَهَا مِنَ التَّنَاحُرِ وَالْعَدَاوَاتِ أَشَدُّ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْدَائِهَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، نَجِدُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ الْمَرْكَزِيَّةَ وَهِيَ قَضِيَّةُ فِلَسْطِينَ انْتَقَلَتْ إِلَى مَرَاحِلِ التَّفَرُّقِ هَذِهِ، وَتَأَثَّرَتْ بِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْهَا؛ فَانْتَقَلَتْ فِي أَوَّلِ مَرْحَلَةٍ مِنْ كَوْنِهَا قَضِيَّةً إِسْلَامِيَّةً، جَاءَتْ نُصُوصٌ شَرْعِيَّةٌ فِي فَضْلِهَا وَفَضْلِ

مَسْجِدِهَا إِلَى قَضِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ لَا دَخْلَ لِغَيْرِ الْعَرَبِ فِيهَا؛ فَأُدْخِلَ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ وَيَهُودِهِمْ وَمَلَاحِدَتِهِمْ، وَأُخْرِجَ الْمُسْلِمُونَ غَيْرُ الْعَرَبِ مِنْهَا، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْعَرَبِ وَأَقْوَى، فَضَعُفَ حَظُّ الْعَرَبِ فِيهَا، وَلَمْ يَخْجَلُوا حِينَ أَخْرَجُوا أَعَاجِمَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا وَهُمْ يَقْرَأُونَ فِي التَّارِيخِ أَنَّ كُرْدِيًّا أَعَادَهَا إِلَيْهِمْ مِنْ بَرَاثِنِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَأَنَّ تُرْكِيًّا خَسِرَ سُلْطَانَهُ وَلَمْ يَتَنَازَلْ عَنْهَا، وَمُزِّقَتْ دَوْلَتُهُ بِسَبَبِهَا، ثُمَّ لَمَّا انْفَرَدَ الْعَرَبُ بِقَضِيَّتِهِمْ أَضَاعُوهَا.

وَمَا مَضَتْ سَنَوَاتٌ قَلَائِلُ إِلَّا وَدَخَلَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَرْحَلَةَ الثَّانِيَةَ مِنَ التَّفَرُّقِ، فَانْتَقَلَتْ مِنْ كَوْنِهَا قَضِيَّةً عَرَبِيَّةً تُهِمُّ كُلَّ عَرَبِيٍّ إِلَى قَضِيَّةٍ قُطْرِيَّةٍ وَطَنِيَّةٍ، شَأْنُهَا لِأَهْلِهَا وَلِلْمُجَاوِرِينَ لَهَا مِنْ دُوَلِ الطَّوْقِ، وَلَا عَلَاقَةَ لِبَقِيَّةِ الْعَرَبِ بِهَا.

ثُمَّ دَخَلَتِ الْقَضِيَّةُ مَرْحَلَةَ التَّفَرُّقِ الثَّالِثَةَ، فَأَضْحَتْ قَضِيَّةً فِلَسْطِينِيَّةً لَا شَأْنَ لِأَحَدٍ بِهَا إِلَّا أَهْلُهَا، وَانْفَرَدَتْ دُوَلُ الطَّوْقِ بِصُلْحٍ وَاتِّفَاقَاتٍ مَعَ الْعَدُوِّ الْغَاصِبِ؛ لِيَتْرُكُوا إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ وَالْعُرُوبَةِ يُوَاجِهُونَ عَدُوَّهُمْ وَحْدَهُمْ. وَلَرُبَّمَا أَعَانَ بَعْضُهُمُ الْيَهُودَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ بَابِ الْمَصْلَحَةِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي اسْتَقَرَّ الْعَرَبُ فِي آخِرِ تَفَرُّقٍ لَهُمْ عَلَيْهَا، مُلْغِينَ كُلَّ الرَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ.

بَلْ تَجْرِي مُحَاوَلَاتٌ حَثِيثَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَأَعْوَانِهِمْ لِمَشْرُوعِ تَفَرُّقٍ رَابِعٍ بَيْنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَإِشْعَالِ الْحُرُوبِ وَالْفِتْنَةِ بَيْنَ فَصَائِلِهِمْ وَأَحْزَابِهِمْ؛ لِيُفْنِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَسْتَرِيحَ الْيَهُودُ مِنْ حَرْبِهِمْ مَعَهُمْ.

وَأَمْرَاضُ التَّفَرُّقِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى حَلَّتِ الْأَثَرَةُ مَحَلَّ الْإِيثَارِ، وَسَادَ حُبُّ الذَّاتِ فِي النَّاسِ، وَاسْتَعْلَتِ الْمَصَالِحُ الشَّخْصِيَّةُ الْآنِيَةُ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ لَيْسَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ بِمَنْأًى عَنْهَا؛ فَهِيَ أَوْبِئَةٌ انْتَشَرَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ لَمَّا

اسْتَبْدَلُوا بِرَابِطَةِ الدِّينِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ وَقَوَّتْهُمُ الرَّوَابِطَ الْجَاهِلِيَّةَ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ وَأَضْعَفَتْهُمْ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الأَعْدَاءَ الصَّهَايِنَةَ وَالصَّلِيبِيِّينَ لَمْ يُرْضِهِمْ بَعْدُ مَا فِي المُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَيُرِيدُونَ تَقْسِيمَ المُقَسَّمِ، وَتَجْزِئَةَ المُجَزَّإِ، بِإِثَارَةِ النُّعَرَاتِ الْعِرْقِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ لِيُقَسِّمُوهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ أُخْرَى، وَيُعْلِنُونَ ذَلِكَ عَلَى المَلَإِ، وَيَنْشُرُونَهُ فِي وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ، وَمَا حَرَّكَ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي المُسْلِمِينَ، وَلَا دَفَعَهُمْ لِلْإِحْسَاسِ بِالْخَطَرِ عَلَى دُوَلِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ جَمْعِ أَمْرِهِمْ، وَتَوْحِيدِ صَفِّهِمْ، وَمُقَاوَمَةِ تِلْكَ المَشَارِيعِ التَّوَسُّعِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ.

وَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ نَرَى الصَّهَايِنَةَ يَجْمَعُونَ فِي فِلَسْطِينَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَبْنَاءِ الْيَهُودِ عَلَى اخْتِلَافِ بُلْدَانِهِمْ وَأَعْرَاقِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، فَفِيهِمْ مَنْ أَتَوْا بِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِ الْبُورْصَاتِ الْعَالَمِيَّةِ فِي الدُّوَلِ المُتَقَدِّمَةِ، وَفِيهِمْ مَنْ أَتَوْا بِهِمْ مِنْ جِبَالِ الْيَمَنِ وَأَدْغَالِ أَفْرِيقِيَّةَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ هَذَا التَّبَايُنُ بَيْنَهُمْ مِنْ أَنْ تَجْمَعَهُمُ الرَّابِطَةُ الْيَهُودِيَّةُ، حَتَّى جَمَعُوهُمْ فِي دَوْلَتِهِمُ النَّشَازِ مِمَّا يَزِيدُ عَلَى سِتِّينَ دَوْلَةً فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ.

فَوَاعَجَبًا لِأَهْلِ الْحَقِّ وَهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى حَقِّهِمْ، وَوَاعَجَبًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ وَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى المُشْتَكَى مِنْ أَهْلِ الذِّلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ وَقَدْ صَارُوا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَهْلَ عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ! وَمِنْ أَهْلِ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ وَقَدْ فَرَّطُوا فِي أَسْبَابِ عِزَّتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المَائِدَة: ٥٤-٥٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ نَاصِرِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُذِلِّ أَعْدَائِهِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ مَا فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالضَّعْفِ وَالْهَوَانِ لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِنَصْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَصْرُهُ سُبْحَانَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَنْطَلِقُ الْيَهُودُ فِي مَذَابِحِهِمْ ضِدَّ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ مُنْطَلَقَاتٍ دِينِيَّةٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَلَا يَرَى الْيَهُودُ فَرْقًا بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ وَغَيْرِ الْمُقَاتِلِينَ، وَلَا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ؛ فَالْجَمِيعُ هَدَفٌ لِمَذَابِحِهِمُ التَّوْرَاتِيَّةِ التَّلْمُودِيَّةِ، بَلْ إِنَّ فِي عَقَائِدِهِمُ الْمُحَرَّفَةِ أَنَّهُمْ إِذَا سَيْطَرُوا عَلَى الْأَرْضِ أَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ، وَأَبَادُوا النَّصَارَى مَعَهُمْ، وَأَبَادُوا كُلَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ مُقَرَّرَةٌ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي

يَتَعَبَّدُونَ بِهَا، وَيَصْدُرُونَ عَنْهَا، وَتَرْسُمُ سِيَاسَتَهُمْ مَعَ الْآخَرِينَ وَيُعْلِنُ بِهَا حَاخَامَاتُهُمْ عَلَى الْمَلَإِ دُونَ خَوْفٍ وَلَا وَجَلٍ، يَقُولُ الْحَاخَامُ أَبْرَاهَامُ شَابِير فِي رِسَالَةٍ وَجَّهَهَا لِلشَّبِيبَةِ الْيَهُودِ: «نُرِيدُ شَبَابًا يَهُودِيًّا قَوِيًّا أَوْ شَدِيدًا، نُرِيدُ شَبَابًا يَهُودِيًّا يُدْرِكُ أَنَّ رِسَالَتَهُ الْوَحِيدَةَ هِيَ تَطْهِيرُ الْأَرْضِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مُنَازَعَتَنَا فِي أَرْضِ الْمِيعَادِ، يَجِبُ أَنْ تُثْبِتُوا لَهُمْ أَنَّكُمْ قَادِرُونَ عَلَى اجْتِثَاثِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ، يَجِبُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ كَمَا يَتِمُّ التَّخَلُّصُ مِنَ الْمِيكْرُوبَاتِ وَالْجَرَاثِيم»(٩).

وَيُصَرِّحُونَ بِأَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ وَالْتِزَامَ تَعَالِيمِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالْعَمَلَ بِهِ هُوَ الْعَقَبَةُ الْكَأْدَاءُ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَشَارِيعِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ الْإِجْرَامِيَّةِ، يَقُولُ الْحَاخَامُ الشَّرْقِيُّ الْأَكْبَرُ لِإِسْرَائِيلَ مُرْدَخَايُ إِلْيَاهُو: «لَنَا أَعْدَاءٌ كَثِيرُونَ، وَهُنَاكَ مَنْ يَتَرَبَّصُ بِنَا وَيَنْتَظِرُ الْفُرْصَةَ لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْنَا، وَهَؤُلَاءِ بِإِمْكَانِنَا عَبْرَ الْإِجْرَاءَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ أَنْ نُوَاجِهَهُمْ، لَكِنْ مَا لَا نَسْتَطِيعُ مُوَاجَهَتَهُ هُوَ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ (قُرْآنًا) هَذَا عَدُوُّنَا الْأَوْحَدُ، هَذَا الْعَدُوُّ لَا تَسْتَطِيعُ وَسَائِلُنَا الْعَسْكَرِيَّةُ مُوَاجَهَتَهُ»(١٠).

وَيَقُولُ الْحَاخَامُ إِسْحَاقُ بِيرِيتِسْ: «إِذَا اسْتَمَرَّ ارْتِفَاعُ الْأَذَانِ الَّذِي يَدْعُو الْمُسْلِمِينَ لِلصَّلَاةِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْقَاهِرَةِ وَعَمَّانَ وَالرِّبَاطِ فَلَا تَتَحَدَّثُوا عَنِ السَّلَامِ»(١١).

إِذَنْ؛ فَالْمُرَادُ هُوَ إِبْعَادُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ مَصْدَرِ قُوَّتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ،

---

(٩) نقلًا عن مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية على الشبكة العنكبوتية.

(١٠) المصدر السابق، وفيه أن هذا الحاخام خاطب به مجموعة من الشبان الذين يلتحقون بالجيش اليهودي.

(١١) المصدر السابق، وهذا الحاخام قال ذلك في خطبة أمام مجندين يهود.

وَسَلْخُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ حَتَّى لَا يُنَادَى بِالْأَذَانِ فِيهِمْ، هَذَا مَا يُرِيدُهُ الْيَهُودُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ نُصُوصِهِمْ، وَهَذَا مَا يَقُومُ بِهِ وُكَلَاءُ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَجْفِيفِ مَنَابِعِ التَّدَيُّنِ، وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَالسَّعْيِ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ بِاسْمِ مُحَارَبَةِ التَّطَرُّفِ وَالْإِرْهَابِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَوُكَلَائِهِمْ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ مِنْ أَدبِيَّاتِ الْيَهُودِ، وَمُقْتَضَيَاتِ عَقَائِدِهِمْ: عَدَمَ التَّوَرُّعِ عَنْ قَتْلِ وُكَلَائِهِمْ، وَالنَّاشِرِينَ لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَالمُسَوِّقِينَ لِمَبَادِئِهِمْ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ أَهْدَافِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْتَقِرُونَ عِرْقَهُمْ وَجِنْسَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا ذَوِي خِدْمَةٍ لَهُمْ، وَفِي حَرْبِ ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِينَ وُزِّعَ عَلَى قُوَّاتِهِمُ الَّتِي تَخُوضُ الْحَرْبَ كِتَابًا يَتَضَمَّنُ تَعْلِيمَاتٍ لِجُنْدِهِمْ قَالُوا فِيهِ: «يَنْبَغِي عَدَمُ الثِّقَةِ بِالْعَرَبِيِّ فِي أَيِّ ظَرْفٍ مِنَ الظُّرُوفِ، حَتَّى وَإِنْ أَعْطَى انْطِبَاعًا بِأَنَّهُ مُتَمَدِّنٌ، فَفِي الْحَرْبِ يُسْمَحُ لِقُوَّاتِنَا وَهِيَ تُهَاجِمُ الْعَدُوَّ، بَلْ إِنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِقَتْلِ حَتَّى المَدَنِيِّينَ الطَّيِّبِينَ؛ أَيِ: المَدَنِيِّينَ الَّذِينَ يَبْدُونَ طَيِّبِينَ فِي الظَّاهِرِ»(١٢).

تِلْكَ عَقَائِدُهُمُ الَّتِي يَنْطَلِقُونَ مِنْهَا فِي قَتْلِ إِخْوَانِنَا فِي فِلَسْطِينَ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ وَرَأَيْتُمُ المَذَابِحَ الَّتِي قَامُوا بِهَا هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا فِيهَا بَيْنَ طِفْلٍ وَلَا امْرَأَةٍ وَلَا شَيْخٍ مُسِنٍّ، وَقَدْ عَجِزَ الْعَرَبُ عَنْ فِعْلِ شَيْءٍ كَمَا يَعْجِزُونَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ(١٣).

إِنَّهُ لَا مَخْرَجَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَى أَسْبَابِ تَفَرُّقِهِمْ، وَلَنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَّا دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا لَمْ يَجْتَمِعِ

---

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) هذا إشارة إلى المجازر التي ارتكبها اليهود في حق إخواننا في بيت حانون وما حولها، ولا يزال اليهود يحاصرونهم إلى ساعة كتابة هذه الخطبة، فرَّجَ الله تعالى عن إخواننا ونصرهم على إخوان القردة والخنازير.

الْعَرَبُ فِي تَارِيخِهِمْ، وَلَمْ يَنَالُوا الْعِزَّةَ وَالسِّيَادَةَ إِلَّا بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَانْضِوَاءِ الْعَرَبِ تَحْتَ لِوَاءِ الْإِسْلَامِ، وَلَنْ يَتِمَّ لِلْمُسْلِمِينَ اجْتِمَاعٌ وَتَتَّحِدَ كَلِمَتُهُمْ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ.

يَجِبُ عَلَى أَهْلِ السِّيَاسَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَطَايَاهُمُ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يَبْنُونَ بِهَا الْعَلَاقَاتِ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْبُرْجُمَاتِيَّةِ النَّفْعِيَّةِ بَعِيدًا عَنِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَالْمَبَادِئِ وَالْقِيَمِ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الِاقْتِصَادِ أَنْ يَتُوبُوا مِنْ خَطَايَا الرِّبَا وَالْغِشِّ وَالِاحْتِكَارِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُحَرَّمَةِ.

وَيَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِعْلَامِ أَنْ يَتُوبُوا مِنْ خَطَايَا تَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَالْكَذِبِ عَلَى النَّاسِ، وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي صَرْفِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ.

وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ عَاصٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتُوبَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ؛ طَلَبًا لِنَصْرِ رَبِّهِ، وَجَلْبًا لِعِزَّةِ أُمَّتِهِ، وَلْيَشْعُرْ أَنَّ ذَنْبَهُ كَانَ سَبَبًا فِي تَسَلُّطِ الْيَهُودِ عَلَى إِخْوَانِهِ فِي فِلَسْطِينَ، وَهُوَ سَبَبٌ لِتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَإِنْ أَحَسَّ كُلُّ مُسْلِمٍ بِهَذَا الْإِحْسَاسِ، وَسَيْطَرَ عَلَيْهِ هَذَا الشُّعُورُ، نَجَوْا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَبِعَةِ الذُّنُوبِ، وَمِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَتَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٧٧- علاقة النصارى بالمسلمين

٢٩/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ أَنَارَ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، فَهُوَ خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا، وَهُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ لِلْهُدَى مَنْ شَاءَ لَهُ السَّعَادَةَ، وَضَلَّ عَنْ دِينِهِ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، وَأَوْجَبَ عَلَى مَنْ أَدْرَكَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ تَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١].

صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ، فَتِلْكَ وَصِيَّةُ آبَائِكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ إِلَيْكُمْ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: بَعَثَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عليه السلام إِلَى أُمَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُصَدِّقًا لِدِينِ مُوسَى عليه السلام، وَمُبَشِّرًا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَانْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِيَالَ دَعْوَتِهِ عليه السلام إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ آمَنَ بِهِ وَهُمُ النَّصَارَى، وَفَرِيقٍ كَفَرَ بِهِ وَهُمُ الْيَهُودُ

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ﴾ [الصَّف: ١٤].

ثُمَّ إِنَّ الْكُفَّارَ بِدِينِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْغَلُوا صَدْرَ الْحَاكِمِ الرُّومَانِيِّ عَلَيْهِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ يُنَازِعُهُ الْمُلْكَ، فَصَدَرَ حُكْمُ مَلِكِ الرُّومَانِ فِي فِلَسْطِينَ بِقَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاخْتَفَى هُوَ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ جُنْدِ الرُّومَانِ، وَوَشَى بِهِ أَحَدُ أَصْحَابِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِ، فَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى شِبْهَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى هَذَا الْوَاشِي فَقُتِلَ وَصُلِبَ، وَرَفَعَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى إِلَيْهِ، وَاشْتَدَّ الْأَذَى عَلَى أَتْبَاعِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَطُورِدُوا وَعُذِّبُوا وَسُجِنُوا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَظَلَّ الْبَاقُونَ عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَالَغُوا فِي تَكْذِيبِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَلَطَّخَتْ يَدَاهُ بِتَعْذِيبِ أَتْبَاعِهِ زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَظْهَرَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَظَاهَرَ بِنَدَمِهِ عَلَى مَا فَعَلَ بِأَتْبَاعِهِ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ عِنْدَ النَّصَارَى، وَعَلَا شَأْنُهُ، أَدْخَلَ كَثِيرًا مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، وَدَعَا إِلَى عَقِيدَةِ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بِزَعْمِ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ حَلَّ فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ بِالتَّثْلِيثِ، وَبِعِبَادَةِ الصَّلِيبِ، فَحَرَّفَ هَذَا الْيَهُودِيُّ النَّصْرَانِيَّةَ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ، وَقَاوَمَ أَفْكَارَهُ بَعْضُ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّصَارَى، لَكِنْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ تَمَكَّنَتِ الْوَثَنِيَّةُ مِنْ دِينِ النَّصَارَى الَّتِي تَوَلَّى كِبْرَ إِحْدَاثِهَا وَنَشْرِهَا الْيَهُودِيُّ بُولَسُ الَّذِي يُسَمَّى فِي الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ شَاؤُولَ(١).

---

(١) ينظر في تخريب بولس (شاؤول اليهودي) عقائد النصرانية وإدخال الشرك والتثليث فيها، وإباحة الخمر والخنزير، ومنع الختان وغير ذلك من تبديل الشرائع:
١- الجواب الصحيح لابن تيمية.
٢- اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس، منشورات دار الاتحاد، بيروت.
=

وَلِأَنَّ عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، وَهِيَ عَقِيدَةٌ تَتَعَارَضُ مَعَ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ؛ فَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَبِيرًا فِيهَا، وَجَمَعُوا فِيهَا بَيْنَ نَقِيضَيْنِ فَقَالُوا: تَثْلِيثٌ فِي وَحْدَانِيَّةٍ أَوْ وَحْدَانِيَّةٌ فِي تَثْلِيثٍ، وَلِذَا قِيلَ: لَا يَسْتَطِيعُ نَصْرَانِيَّانِ أَنْ يَتَّفِقَا عَلَى مَعْنًى مُحَدَّدٍ لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ لَا يَخْتَلِفَانِ فِيهِ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ زَعْمَ بَابَا الْفَاتِيكَانِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

= ٣- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
٤- بولس وتأثيره في المسيحية، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير غير منشور، وهيب أحمد البكري، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.
٥- النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد أحمد الحاج، دمشق، دار القلم.
٦- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزت دروزة، القاهرة، المكتبة العصرية.
٧- انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح، أحمد زكي، الرياض، مكتبة الشقري.
٨- المسيحية،أحمد شلبي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
٩- موقف بولس من تعاليم عيسى ﵇، عماد الدين عبد الله الشنطي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن.
١٠- اليهودي شاوول (بولس) الطرسوسي وأثره في العقائد الوثنية النصرانية، محمد أحمد ملكاوي، الرياض، دار الإسراء.
١١- أثر اليهودية في تحريف الفكر الديني، بولس وعبد الله بن سبأ أنموذجًا، هاني علي البلوي، رسالة ماجستير في العقيدة غير منشورة، الجامعة الأردنية.
١٢- المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس، نبيل نيقولا، وهو كان نصرانيًّا واهتدى للإسلام، ط٢٠٠٧، بدون بيانات طبع.
١٣- بولس وتحريف المسيحية، هيم ماكبي، ترجمة: سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
١٤- نصرانية عيسى ومسيحية بولس، صلاح العجماوي، طبع في مصر لحساب المؤلف ١٤٠٩هـ.

مُنْقَطِعَةٌ عَنِ الْعَقْلِ(٢) إِنَّمَا هُوَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ وَصْفٌ لِعَقِيدَتِهِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْتَنِقُهَا، وَيَضْحَكُ هُوَ وَرُهْبَانُهُ بِهَا عَلَى الشُّعُوبِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي أَضَلُّوهَا، وَإِلَّا فَأَيُّ عَقْلٍ فِي زَعْمِهِمْ بِحُلُولِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِيسَى ﷺ، ثُمَّ قَوْلِهِمْ بِبُنُوَّتِهِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ ﷻ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟!

وَأَيُّ عَقْلٍ وَمَنْطِقٍ فِي عَقِيدَةٍ تَجْعَلُ الْإِلَهَ ثَلَاثَةً: الْأَبَ وَالِابْنَ وَرُوحَ الْقُدُسِ، فَمَنْ يَعْبُدُونَ وَمَنْ يَدْعُونَ، وَعِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى أَيِّ الثَّلَاثَةِ يَلْجَأُونَ؟!

وَأَيُّ عَقْلٍ وَمَنْطِقٍ فِي الْخَلْطِ بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، ثُمَّ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا، بَلْ وَالْعَجْزِ عَنْ إِفْهَامِ أَتْبَاعِهِمْ مَبَادِئَ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي تَجْمَعُ النَّقَائِضَ؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُنْفِقُهُ الْمُنَصِّرُونَ مِنْ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَمَا يَبْذُلُونَهُ مِنْ جُهُودٍ جَبَّارَةٍ فِي سَبِيلِ إِقْنَاعِ النَّاسِ بِعَقِيدَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِقْنَاعَهُمْ بِهَا، وَجُلُّ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ جَرْيًا خَلْفَ مَنَافِعَ مَادِّيَّةٍ، وَلَيْسَ قَنَاعَةً بِدِينِ الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَى.

ثُمَّ إِنَّ النَّصَارَى بَعْدَ هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي أُدْخِلَ فِي عَقِيدَتِهِمُ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ مَا فِي عِيسَى ﷺ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالْخِلَافِ عَلَى اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، فَانْقَسَمَ النَّصَارَى بِسَبَبِهِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ: الْكَاثُولِيكِ وَالْأَرْثُذُوكْسِ، فَكَانَ الْكَاثُولِيكُ هُمْ نَصَارَى الْغَرْبِ وَعَاصِمَتُهُمْ رُومِيَّةُ، وَكَانَ الْأَرْثُذُوكْسُ هُمْ نَصَارَى الشَّرْقِ وَعَاصِمَتُهُمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ.

وَلَمَّا أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرِيَّةَ بِبَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ ﷺ

---

(٢) ألقى بابا الفاتيكان بنديكت السادس محاضرة في جامعة ريتسبون الألمانية ادعى فيها أن المشيئة في الإسلام منقطعة عن العقل، وأن إرادة الله تعالى لا تخضع لمحاكمة العقل أو المنطق، واتهم النبي ﷺ بأنه لم يأت إلا بأشياء شريرة، وانتقد الجهاد في الإسلام.

انْقَسَمَ النَّصَارَى تِجَاهَ دَعْوَتِهِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ: فَطَائِفَةٌ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَعَرَفُوا أَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، قَدْ بَشَّرَتْ بِهِ كُتُبُهُمْ، وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: صُهَيْبٌ الرُّومِيُّ، وَتَمِيمٌ الدَّارِيُّ، وَالنَّجَاشِيُّ الْحَبَشِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَفِيهِمْ وَأَمْثَالُهُمْ مِمَّنْ آمَنُوا بِنَبِيِّهِمْ ثُمَّ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لمَّا بُعِثَ نَزَلَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَمْدَحُهُمْ، وَتُثْنِي عَلَيْهِمْ، وَتُبَيِّنُ عَظِيمَ ثَوَابِهِمْ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ . .**»، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «**وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى مِنَ النَّصَارَى لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ خَضَعُوا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ، وَصَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَدَفَعُوا الْجِزْيَةَ، فَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَمِنْ هَذَا الْفَرِيقِ: نَصَارَى نَجْرَانَ، وَنَصَارَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ.

وَفَرِيقٌ آخَرُ لَمْ يَخْضَعُوا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ، وَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِقِتَالِهِمْ، وَأَرْسَلَ السَّرَايَا إِلَيْهِمْ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ: نَصَارَى مُؤْتَةَ، وَنَصَارَى تَبُوكَ.

وَأَوَّلُ مُوَاجَهَةٍ قِتَالِيَّةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى كَانَتْ فِي مُؤْتَةَ، ثُمَّ عَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُوَاجَهَتِهِمْ فِي تَبُوكَ، لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْ قِتَالًا، ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب (٢٨٤٩)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ جميع الملل بملته (١٥٤).

النَّبِيِّ ﷺ سَارَتِ الْجُيُوشُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَفَتَحَتْ كَثِيرًا مِنْ بِلَادِ النَّصَارَى، وَأَخْضَعَتْهَا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ، وَرَفَعَتْ عَنْ أَهْلِهَا عَسْفَ الرُّهْبَانِ، وَتَسَلُّطَ الْقَيَاصِرَةِ، وَاعْتَرَفَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ النَّصَارَى بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أَرْحَمَ بِهِمْ مِنْ سَاسَتِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ، وَأَنَّ أَكْثَرَ الشُّعُوبِ النَّصْرَانِيَّةِ إِنَّمَا دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ طَوَاعِيَةً لِمَا رَأَوْهُ مِنْ عَدْلِ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ، وَرَحْمَتِهِمْ بِهِمْ. يَقُولُ الْمُؤَرِّخُ النَّصْرَانِيُّ جُوسْتَافْ لِبُونْ: وَمَا كَانَتِ انْتِصَارَاتُ الْعَرَبِ لِتُعْمِيَ أَبْصَارَهُمْ لِأَوَّلِ أَمْرِهِمْ، وَتَحْمِلَهُمْ عَلَى الْإِفْرَاطِ الْمَأْلُوفِ عِنْدَ الْفَاتِحِينَ فِي الْعَادَةِ، وَلَا اشْتَدُّوا فِي إِرْهَاقِ الْمَغْلُوبِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ، وَلَا فَرَضُوا عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ دِينَهُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي كَانُوا يُرِيدُونَ بَثَّهُ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ، وَلَوْ عَمِلُوا ذَلِكَ لَأَهَاجُوا عَلَيْهِمْ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الَّتِي لَمْ تَخْضَعْ لَهُمْ، فَاتَّقَوْا حَقَّ التُّقَاةِ هَذِهِ التَّهْلُكَةَ الَّتِي لَمْ يَنْجُ مِنْهَا الصَّلِيبِيُّونَ الَّذِينَ دَخَلُوا الشَّامَ فِي الْقُرُونِ اللَّاحِقَةِ، بَلْ رَأَيْنَاهُمْ حَيْثُ دَخَلُوا فِي الشَّامِ وَمِصْرَ وَأَسْبَانْيَا يُعَامِلُونَ الشُّعُوبَ بِمُنْتَهَى الرِّفْقِ، تَارِكِينَ لَهُمْ أَنْظِمَتَهُمْ وَأَوْضَاعَهُمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ، غَيْرَ ضَارِبِينَ عَلَيْهِمْ فِي مُقَابِلِ السَّلَامِ الَّذِي ضَمِنُوهُ هُمْ إِلَّا جِزْيَةً ضَئِيلَةً كَانَتْ عَلَى الْأَغْلَبِ أَقَلَّ مِنَ الضَّرَائِبِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا مِنْ قَبْلُ، وَمَا عَرَفَتِ الشُّعُوبُ فَاتِحًا بَلَغَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْمُسَامَحَةِ، وَلَا دِينًا حَوَى فِي مَطَاوِيهِ هَذِهِ الرِّقَّةَ وَاللُّطْفَ(٤).

وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ وَصْفَ الْبَابَا الضَّالِّ لِلْإِسْلَامِ بِالدَّمَوِيَّةِ، وَبِأَنَّهُ إِنَّمَا انْتَشَرَ بِحَدِّ السَّيْفِ(٥) هُوَ مِنَ الْكَذِبِ الْمَكْشُوفِ الَّذِي يُحَاوِلُ فِيهِ أَئِمَّةُ النَّصَارَى

---

(٤) الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي (١/ ١٤٤).

(٥) استشهد البابا بحوار بين إمبراطور بيزنطة ومثقف فارسي، فقال الإمبراطور: أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، لن تجد فيه إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين الذي يبشر به بحد السيف. =

الْمُحَرِّفُونَ صَرْفَ النَّاسِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْأَوْصَافُ الَّتِي أَطْلَقَهَا إِنَّمَا هِيَ أَوْصَافُ دِينِهِ الْمُحَرَّفِ، وَأَوْصَافُ حَمَلَتِهِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

إِنَّ الْأُمَّةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ الَّتِي يَتَزَعَّمُ دِينَهَا الْمُحَرَّفَ بَابَاهُمُ الْمُنْحَرِفُ هِيَ أَسْوَأُ أُمَمِ النَّصَارَى، وَأَكْثَرُهَا دَمَوِيَّةً فِي التَّارِيخِ، بَلْ لَا يُبَالِغُ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَمُرَّ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ أُمَّةٌ سَفَكَتْ مِنَ الدِّمَاءِ، وَمَزَّقَتْ مِنَ الْأَشْلَاءِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَاثُولِيكِ، وَرَغْمَ فَدَاحَةِ مَا عَمِلَهُ التَّتَارُ الْهَمَجِيُّونَ بِالْمُسْلِمِينَ إِبَّانَ إِسْقَاطِهِمُ الْخِلَافَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ فَإِنَّ مَا فَعَلَهُ الْكَاثُولِيكُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ وَفِي إِسْقَاطِ الْأَنْدَلُسِ كَانَ أَشَدَّ وَأَنْكَى مِمَّا فَعَلَهُ الْمَغُولُ فِي بَغْدَادَ، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أُمَّةً عَانَى الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا الْوَيْلَاتِ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ كَمَا عَانَوْا مِنَ الْيَهُودِ وَالْكَاثُولِيكِ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ شَهْرِ شَعْبَانَ مِنْ عَامِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ دَخَلَتْ جَحَافِلُ الصَّلِيبِيِّينَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى فَفَعَلُوا بِالْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَأَنْقُلُ لَكُمْ شَهَادَةَ مُؤَرِّخَيْنِ صَلِيبِيَّيْنِ حَضَرَا تِلْكَ النَّازِلَةَ، وَسَجَّلَا مَا شَاهَدَا بِكُلِّ فَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ، يَقُولُ الْمُؤَرِّخُ الصَّلِيبِيُّ فُوشِيه الشَّارْتَرِيُّ: «وَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ مَوْجُودًا هُنَاكَ لَغَاصَتْ قَدَمَاكَ حَتَّى الْعَقِبَيْنِ فِي دِمَاءِ الْمَذْبُوحِينَ، تُرَى مَاذَا أَقُولُ؟ لَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَلَمْ يَنْجُ حَتَّى

= والحق أن الإسلام انتشر بالدعوة والمعاملة الحسنة، وأن السيف كان لإخضاع الدول للانصياع لحكم المسلمين لا لإجبار الأفراد على الدخول في الإسلام، ولذا عاش أهل العهد والذمة في الإسلام آمنين وهم باقون على أديانهم. ولا تثريب على الإسلام في إخضاع الدول لسلطانه؛ وذلك لأن كل الدول المنتصرة تخضع الدول المهزومة لسلطانها، فكيف إذا كان الإسلام أعدل من حكومات الدول الساقطة تحت حكمه من ملوكها ورهبانها في حكم رعاياهم.

النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ . . . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْقُرُونَ بُطُونَ الْمُسْلِمِينَ بَحْثًا عَنْ ذَهَبٍ فِيهَا، وَأَنَّهُمْ جَمَعُوا فِي أَزِقَّةِ بَيْتِ المَقْدِسِ أَكْوَامًا مِنْ جُثَثِ الْمُسْلِمِينَ وَأَحْرَقُوهَا»(٦).

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الصَّلِيبِيُّ رِيمُون الْأَجْوِيلَرِيُّ بِأَنَّ جُنُودَهُمْ كَانُوا يُعَذِّبُونَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يَقْذِفُونَهُمْ فِي النَّارِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، يَقُولُ: «وَكَانَتْ أَكْوَامُ الرُّؤُوسِ وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ تَسْتَرْعِي النَّظَرَ فِي شَوَارِعِ المَدِينَةِ، وَكَانَ المَرْءُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِصُعُوبَةٍ بَيْنَ جُثَثِ الرِّجَالِ وَالْخُيُولِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ كَانَتْ أُمُورًا صَغِيرَةً إِذَا قُورِنَتْ بِمَا جَرَى فِي مَعْبَدِ سُلَيْمَانَ، تَرَى مَا الَّذِي حَدَثَ هُنَاكَ؟ إِذَا ذُكِرَتِ الْحَقِيقَةُ فَإِنَّهَا سَتَتَعَدَّى قُدْرَتَكُمْ عَلَى التَّصْدِيقِ، وَلِذَا يَكْفِي أَنْ أَقُولَ: إِنَّهُ فِي مَعْبَدِ سُلَيْمَانَ كَانَ الرِّجَالُ يَخُوضُونَ فِي الدِّمَاءِ حَتَّى رُكَبِهِمْ وَحِزَامِ رِكَابِهِمْ»(٧).

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الْغَرْبِيُّ دِيُورَانْتُ «أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يُقْتَلْنَ طَعْنًا بِالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ، وَالْأَطْفَالُ الرُّضَّعُ يُخْتَطَفُونَ بِأَرْجُلِهِمْ مِنْ أَثْدَاءِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُقْذَفُ بِهِمْ مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ، أَوْ تُهَشَّمُ رُؤُوسُهُمْ بِدَقِّهَا بِالْعُمُدِ»(٨).

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّورَةِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا الْكَاثُولِيكُ فَإِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا افْتَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ عَفَا عَنِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَسَمَحَ لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا بِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ آمِنِينَ لَا يَمَسُّهُمْ أَحَدٌ بِسُوءٍ(٩)، فَهَلْ كَانَتِ

(٦) أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس فوشيه الشارتري (١١٥- ١٢٨)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، قاسم عبده قاسم (٢٥٤-٢٥٥).

(٧) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ريمون الأجويلري، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف (٢٤٦-٢٤٧)، والحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق (٢٦٧-٢٦٩) وللمزيد من النقول في ذلك تراجع خطبة: مذابح الصليبيين في القدس مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٦).

(٨) قصة الحضارة (١٥/ ٢٥).

(٩) ينظر خطبتي: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، ومعركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

الدَّمَوِيَّةُ وَالْعُنْفُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا يَزْعُمُ الْبَابَا وَأَتْبَاعُهُ، أَمْ هِيَ فِي دِينِ الْكَاثُولِيكِ الْمُشْرِكِينَ؟!

وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَنَّ المَرْجِعِيَّةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ فِي هَذَا الزَّمَنِ -وَهِيَ الْفَاتِيكَانُ- قَدِ اعْتَذَرَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَمَّا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُمْ بِأَهْلِ بَيْتِ المَقْدِسِ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى، بَلْ إِنَّ بَابَا الْفَاتِيكَانِ الْهَالِكَ يُوحَنَّا بُولُس الثَّانِي لَمَّا زَارَ الشَّامَ قَبْلَ سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَذِرَ لِأَهْلِهَا مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُ بِأَجْدَادِهِمْ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ يَحْمِلُونَ ذَاتَ الْعَقْلِيَّةِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي حَمَلَهَا أَجْدَادُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَلَوِ اسْتَطَاعُوا لَأَبَادُوا المُسْلِمِينَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ مُقَرَّرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٢٠]، ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٦٩]، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائِدَة: ٣]. حَمَى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَأَدَارَ دَوَائِرَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ

وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: الْحَمْلَةُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي يَشُنُّهَا أَئِمَّةُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ مُسْتَنْكَرَةً، وَهَذَا دَأْبُهُمْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهِيَ حَمْلَةٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ تُصَاحِبُ الْحَمَلَاتِ السِّيَاسِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ الرَّامِيَةَ إِلَى احْتِلَالِ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ وَتَقْسِيمِهَا، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهَا، وَإِشْغَالِ المُسْلِمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ نَشْرِ دِينِهِمْ.

كَمَا تُصَاحِبُهَا حَمَلَاتُ الْإِفْسَادِ المُنَظَّمِ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ المُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَتَوَلَّى كِبْرَهَا، وَيَحْمِلُ وِزْرَهَا المُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ وَإِذَاعَاتِهِمْ، وَصُحُفِهِمْ وَمَجَلَّاتِهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُومُ بِنَفْسِ الدَّوْرِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنْ كَانَ كَبِيرُ النَّصَارَى قَدِ اعْتَدَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَا قَالَ -عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَسْتَحِقُّ- فَإِنَّ جَمْعًا مِنْ أَبْنَاءِ المُسْلِمِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ شَرِيعَتِهِ، وَيَهْزَأُونَ بِشَعَائِرِهَا، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى نَبْذِهَا وَتَرْكِهَا.

وَفِي كُلِّ سَنَةٍ يُخَصِّصُونَ رَمَضَانَ الْكَرِيمَ بِجُمْلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ السُّخْرِيَةِ بِشَعَائِرِ دِينِ النَّبِيِّ ﷺ كَإِكْرَامِ اللِّحَى، وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَسُنَّةِ السِّوَاكِ، وَحِجَابِ المَرْأَةِ، وَتَحْرِيمِ الْخَلْوَةِ بِهَا أَوْ سَفَرِهَا بِلَا مَحْرَمٍ، كَمَا يَسْخَرُونَ بِشَعِيرَةِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، فِي مَشَاهِدَ هَزْلِيَّةٍ يُفْطِرُ عَلَيْهَا الصَّائِمُونَ، بَلْ وَيَسْخَرُونَ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَأَلْسِنَتِهِمْ وَلَهَجَاتِهِمْ، وَيُصَوِّرُونَهُمْ فِي صُوَرِ الدَّرَاوِيشِ وَالمُغَفَّلِينَ، وَيَزْعُمُونَ هُمْ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ أَنَّهُمْ يَنْتَهِجُونَ النَّقْدَ الْبَنَّاءَ

الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِلإِصْلَاحِ، وَأَنَّ عَمَلَهُمْ هُوَ خِدْمَةٌ لِلْوَطَنِيَّةِ الَّتِي يَتَشَدَّقُونَ بِهَا، ثُمَّ مَعَ زَعْمِهِمْ هَذَا مَا رَأَيْنَاهُمْ يَنْتَقِدُونَ المُفْسِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، فِي عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَشَعَائِرِهِمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَتَقَزَّزُ مِنْهَا الْأَسْوِيَاءُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ، وَلَا رَأَيْنَاهُمْ يَنْقُدُونَ مَشَارِيعَ المُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوَجُّهَاتِ المَشْبُوهَةِ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِالْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَيَنْشُرُونَ الْفَسَادَ، وَيَكِيدُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَعْظَمَ الْكَيْدِ!!

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَغْضَبُونَ إِذَا انْتَهَكَ عِلْجٌ كَافِرٌ دِينَهُمْ، أَوْ سَخِرَ بِنَبِيِّهِمْ، وَلَكِنْ لَا يَغْضَبُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِذَا صَدَرَ ذَلِكَ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؟! إِلَّا أَنَّ المُنَافِقَ وَالمُنْحَرِفَ أَشَدُّ خَطَرًا مِنَ الْكَافِرِ الَّذِي قَدْ عُرِفَ حِقْدُهُ، وَاتُّقِيَ خَطَرُهُ.

إِنَّ حُضُورَ المَجَالِسِ الَّتِي يُسْخَرُ فِيهَا بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مُشَارَكَةٌ مِمَّنْ حَضَرَهَا فِي تِلْكَ السُّخْرِيَةِ، وَلَوْ كَانَتِ السُّخْرِيَةُ بِشَعِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ قَدْ لَا يَهْتَمُّ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يُشَاهِدُ مِثْلَ تِلْكَ المَشَاهِدِ عَبْرَ الشَّاشَاتِ مُتَفَكِّهًا بِهَا، غَيْرَ مُنْكِرٍ لَهَا؛ فَإِنَّهُ مُشَارِكٌ لِأَهْلِ السُّخْرِيَةِ فِي سُخْرِيَتِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، كَيْفَ؟ وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِمُجَانَبَةِ مِثْلِ تِلْكَ المَجَالِسِ المَشْؤُومَةِ الَّتِي يُسْخَرُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فَسَمَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى ظَالِمِينَ، وَنَهَى عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ، وَأَمَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، مِمَّا يُوجِبُ عَلَى المُسْلِمِ الْإِعْرَاضَ عَنْ تِلْكَ الشَّاشَاتِ الَّتِي تَبُثُّ مُشَاهِدَ السُّخْرِيَةِ بِشَيْءٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ.

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَمَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَهَا فَهُوَ مِثْلُ

الْمُسْتَهْزِئِ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٠]. يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «أَيْ إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمُ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ»(١٠).

وَأَيُّ إِقْرَارٍ أَعْظَمُ مِنَ التَّفَكُّهِ وَالضَّحِكِ أَثْنَاءَ السُّخْرِيَةِ بِشَيْءٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؟ بَلْ حَتَّى السُّخْرِيَةُ بِالنَّاسِ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْضُرَ مَجَالِسَهَا إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ، وَمَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ سَبِيلًا لِلْإِصْلَاحِ، وَلَا عَرَفَ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ ذَلِكَ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّهُ عَمَى الْبَصَائِرِ، وَاسْتِحْكَامُ الْأَهْوَاءِ، وَاسْتِعْلَانُ الْفَسَادِ وَالنِّفَاقِ.

وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ قَضَاءُ أَوْقَاتِهِ فِي تِلْكَ الْمَشَاهِدِ الْهَازِلَةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْفَرَحِ بِرَمَضَانَ الْفَرَحُ بِهَا، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ يَفْرَحُ بِالْمَعْصِيَةِ فِي رَمَضَانَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْخِذْلَانِ، وَنَسْأَلُهُ تعالى أَنْ يَكُفَّ السُّفَهَاءَ وَالْمُنَافِقِينَ عَنْ غَيِّهِمْ، وَأَنَّ يُبْطِلَ سَعْيَهُمْ، وَيَرُدَّ عَلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُبَلِّغَنَا هَذَا الشَّهْرَ الْعَظِيمَ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(١٠) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٧-٥٦٨).

٣٧٨- حقوق الأسرى في الإسلام

١٨/ ٣/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ تَتَعَامَلُ مَعَ غَيْرِهَا بِحَسَبِ دِينِهَا وَمَنْهَجِهَا، وَمَبَادِئِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَلَهَا مَصَادِرُهَا الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا، وَتَصْدُرُ عَنْهَا، وَعِنْدَ التَّحَاكُمِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا.

وَالْأُمَّةُ الْقَوِيَّةُ هِيَ الَّتِي لَا يَسْتَخِفُّهَا فَرَحٌ بِنَصْرٍ، وَلَا يَحِيدُ بِهَا عَنْ مَبَادِئِهَا غُرُورٌ بِقُوَّةٍ. فَإِنْ ضَعُفَتْ أَمَامَ غُرُورِ الْقُوَّةِ فَهِيَ أُمَّةٌ ضَعِيفَةٌ وَلَوْ مَلَكَتْ سِلَاحَ الْأَرْضِ كُلَّهُ.

وَأُمَّةُ الْإِسْلَامِ مَا حَكَمَتْ مُعْظَمَ الْأَرْضِ فِي سَابِقِ عَهْدِهَا لِقُوَّةٍ مَادِّيَّةٍ تَمْتَلِكُهَا،

أَوْ كَثْرَةٍ فِي عَدَدِ أَفْرَادِهَا، أَوْ لِأَنَّ لَدَيْهَا سِلَاحًا فَاتِكًا لَا يَحُوزُهُ غَيْرُهَا، وَلَا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا لِأَنَّهُ فُرِضَ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ.

وَإِنَّمَا دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ، وَدَانَتْ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَمِ؛ لِأَنَّهُ رَحْمَةٌ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا الْعِبَادَ، فَأَنْقَذَهُمْ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَوْضَارِ الشِّرْكِ، وَوَجَدُوا فِيهِ مِنَ المَبَادِئِ وَالْقِيَمِ، وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ مَا لَمْ يَجِدُوهُ فِي غَيْرِهِ.

مَبَادِئُ وَقِيَمٌ قَرَّرَتْهَا الشَّرِيعَةُ فِي تَعَامُلِ الْإِنْسَانِ مَعَ إِخْوَانِهِ، وَفِي مُعَامَلَتِهِ لِأَعْدَائِهِ، وَلِلْحَرْبِ أَخْلَاقٌ كَمَا لِلسِّلْمِ أَخْلَاقٌ، وَلِلْأَعْدَاءِ حُقُوقٌ كَمَا لِلْإِخْوَانِ حُقُوقٌ، لَا تُصَادَرُ تِلْكَ الْحُقُوقُ لِعَجْزِ أَصْحَابِهَا عَنِ اسْتِيفَائِهَا، أَوِ المُطَالَبَةِ بِهَا؛ لِضَعْفٍ أَوْ هَزِيمَةٍ؛ فَهِيَ حُقُوقٌ ثَابِتَةٌ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، يُؤَدِّيهَا المُسْلِمُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَطَلَبًا لِرِضَاهُ.

وَالحُرُوبُ فِي الْإِسْلَامِ لَها أَهْدَافُهَا النَّبِيلَةُ، وَغَايَاتُهَا الشَّرِيفَةُ، تَرْتَفِعُ عَنِ المَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَتَسْمُو فَوْقَ الْأَهْدَافِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَأَهْدَافُهَا تَحْرِيرُ النَّاسِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَغَايَاتُهَا إِخْضَاعُ الْبَشَرِيَّةِ لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ لَا عَدْلَ إِلَّا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ حِكَمِ الجِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ.

وَهَذِهِ المَعَارِكُ وَالمُوَاجَهَاتُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَائِهِ تُخَلِّفُ مَا تُخَلِّفُ مِنْ قَتْلَى وَجَرْحَى وَأَسْرَى؛ فَالْقَتِيلُ يُدْفَنُ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِ، وَالْأَسِيرُ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِمَامُ بَيْنَ المَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالْقَتْلِ وَالِاسْتِرْقَاقِ حَسَبَ المَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَوَفْقَ ضَوَابِطَ جَاءَتْ بِهَا النُّصُوصُ(١).

(١) أما المن والفداء فَدَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. قال الحافظ ابن كثير في =

. . . .

= تفسيره: «يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أهلكتموهم قتلًا ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه» اهـ (٤/ ٢٦٥) عند تفسير الآية (٤) من سورة محمد.

وأما قتل الأسير فدل عليه قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وهذه الآية فيها عتاب للنبي ﷺ عقب غزوة بدر على الإكثار من الأسرى في أول الإسلام، وتبين أن الأولى الإثخان في المشركين.

وليس في الآيتين ناسخ ومنسوخ كما توهمه البعض، بل فيهما تفصيل حال المسلمين، فإذا كانوا في ضعف وقلة، فالواجب الإثخان في المشركين؛ حفاظًا على الدين، وإذا كان فيهم كثرة وقوة فلهم المن والفداء.

وصح عن النبي ﷺ أنه بكى لما قبل الفداء في بدر، ونزلت آية الأنفال تعاتبه، فسأله عمر عن بكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» رواه أحمد (١/ ٣٠-٣١)، ومسلم (١٧٦٣).

وقد صح في السنة النبوية أن النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط وهو من أسرى بدر في طريق رجوعهم من بدر إلى المدينة، كما في سنن أبي داود (٢٦٨٦)، وسنن البيهقي (٩/ ٦٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١١/ ٤٠٦)، والأوسط (٢٩٤٩)، والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥٦٥)، ومصنف عبد الرزاق (٩٣٩٤)، وقد جاء من حديث ابن عباس وحديث ابن مسعود ﷺ، وصحح الحاكم حديث ابن مسعود وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٣٥)، وقال الهيثمي عن رواية الطبراني لحديث ابن عباس ﷺ: «ورجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٦/ ٨٩).

وأما الاسترقاق فوقع كثيرًا في السنة، ومن ذلك: سبيه ﷺ لبني المصطلق كما في المسند (٦/ ٢٧٧)، وسنن أبي داود (٣٩٣١)، وصحيح ابن حبان (٤٠٥٤). =

وَمَا دَامَ أَسِيرًا فَلَهُ حُقُوقٌ عَلَى الْجَيْشِ يَأْثَمُ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّقْصِيرِ فِيهَا، وَمِنْ رَحْمَةِ الشَّرِيعَةِ بِالْأَسِيرِ الْكَافِرِ: أَنَّهُ قُرِنَ فِي الْقُرْآنِ بِالْيَتِيمِ الْمُسْلِمِ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

أَيُّ شَرِيعَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ؟! كَافِرٌ مُحَارِبٌ، رَفَعَ سِلَاحَهُ يُرِيدُ اسْتِئْصَالَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ فِي الأَسْرِ كَانَتْ لَهُ حُقُوقٌ عَلَى مَنْ حَارَبَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يُقْضَى فِي شَأْنِهِ، وَيُثْنِي اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ أَطْعَمَهُ كَمَا يُثْنِي عَلَى مَنْ أَطْعَمَ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ، وَيُرَتِّبُ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا عَظِيمًا.

وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَسْرَى فِي أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَسْرَى غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَعَمِلَ الصَّحَابَةُ ﷺ بِوَصِيَّتِهِ، وَضَرَبُوا مَثَلًا عَظِيمًا فِي الِامْتِثَالِ وَالطَّاعَةِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسِيرِ؛ حَتَّى قَدَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

= وسبيه لهوازن كما في سنن النسائي (٦/ ٢٦٢)، ومسند أحمد (٢/ ١٨٤).
وسبيه عليه الصلاة والسلام لخولان ولمضر كما في مسند أبي يعلى (٦١٠٨)، وسنن البيهقي (٩/ ٧٥)، وصححه الحاكم والذهبي (٢/ ٢٣٥).
وفداء الأسرى قد يكون بالمال، وقد يكون باستئجارهم للعمل عند المسلمين حتى يبلغ عملهم قيمة فدائهم، كما حصل في غزوة بدر؛ حيث كان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف درهم؛ كما في حديث ابن عباس ﷺ عند الطبراني في الكبير (١١/ ٤٠٦)، والأوسط (٣٠٠٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٢٨).
وأما العمل لمن لم يجد فداءً حتى يوفي عمله ما عليه من الفداء فقد جاء في حديث ابن عباس ﷺ قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة» أخرجه أحمد (١/ ٢٤٧)، والبيهقي (٦/ ١٢٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ١٥٢).
قال ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٦٥): «ثبت عنه ﷺ في الأسرى أنه قتل بعضهم، ومَنَّ عَلَى بعض، وفادى بعضهم بمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، واسترق بعضهم، ولكن المعروف أنه لم يسترق رجلًا بالغًا» اهـ.

قَالَ أَبُو عَزِيزِ بْنُ عُمَيْرٍ: «كُنْتُ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا**»، وَكُنْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ أَكَلُوا التَّمْرَ وَأَطْعَمُونِي الْخُبْزَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَا يَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا فَأَسْتَحِيي، فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فَيَرُدُّهَا عَلَيَّ مَا يَمَسُّهَا»(٢).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى بِالْأَسِيرِ فَيَدْفَعُهُ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ لَهُ: أَحْسِنْ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ عِنْدَهُ الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ، فَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفْسِهِ»(٣).

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَسِيرِ لِبَاسٌ، أَوْ تَمَزَّقَ ثَوْبُهُ فِي الْمَعْرَكَةِ؛ فَإِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كِسْوَتَهُ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أُتِيَ الْعَبَّاسُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَإِذَا أَرَادَ الْأَسِيرُ الْإِسْلَامَ قُبِلَ مِنْهُ؛ بَلْ يُرَغَّبُ فِي ذَلِكَ، وَيُحَسَّنُ الْإِسْلَامُ لَهُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وَلَكِنَّهُ لَا يُكْرَه عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٣) برقم (٩٧٧)، وفي الصغير (٤٠٩)، وحسنه الهيثمي في الزوائد (٦/ ٨٦)، والرواية الثانية لابن هشام في السيرة (٣/ ١٩٥)، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٩).

(٣) روح المعاني للألوسي (٢٩/ ١٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الكسوة للأسارى (٣٠٠٨).

وَمَنْ قُضِيَ بِقَتْلِهِ مِنَ الْأَسْرَى لِغَدْرِهِ، أَوْ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ لِلْخَوْفِ مِنْهُ، أَوْ لِلْإِثْخَانِ فِي الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَذَّبُ، وَلَا يُمَثَّلُ بِهِ، وَلَا يُحْبَسُ عَنْهُ الطَّعَامُ أَوِ المَاءُ، بَلْ يُطْعَمُ وَيُسْقَى حَتَّى يُؤْذَنَ بِقَتْلِهِ(٥).

وَلَا يُعَذَّبُ الْأَسِيرُ لِانْتِزَاعِ المَعْلُومَاتِ مِنْهُ، سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «أَيُعَذَّبُ الْأَسِيرُ إِنْ رُجِيَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَةِ الْعَدُوِّ؟ فَقَالَ: مَا سَمِعْتُ بِذَلِكَ»(٦).

وَكَانَ الْخُلُقُ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحَابَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَقَادَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرِ الْأَزْمَانِ وَالْأَمْصَارِ هُوَ الْعَفْوَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ، وَتَغْلِيبَ جَانِبِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعَدُوِّ بَعْدَ الظَّفَرِ بِهِ عَلَى جَانِبِ الِانْتِقَامِ وَالتَّشَفِّي.

وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْرَى بِطَوْعٍ وَاخْتِيَارٍ، وَعَنْ قَنَاعَةٍ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ دِينُ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ -سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ- كَانَ مُحَارِبًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، صَادًّا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَكَادَ أَنْ يَقْتُلَ رَسُولَهُ لَوْلَا حِمَايَةُ عَمِّهِ عَامِرِ بْنِ سَلَمَةَ لِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْعُهُ مِنْ قَتْلِهِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا إِلَى نَجْدٍ فَأَسَرُوا ثُمَامَةَ،

(٥) قال الإمام محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى-: «وإن رأى الإمام قتل الأسارى فينبغي له ألا يعذبهم بالعطش والجوع، لكنه يقتلهم قتلًا كريمًا، يعني: أنه لا ينبغي أن يمثل بهم، فقد نهي رسول الله ﷺ عن المثلة ولو بالكلب العقور، وقال عليه الصلاة والسلام في بني قريظة بعد ما احترق النهار في يوم صائف: لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح، قَيِّلُوهم حتى يبردوا، فَقَيَّلُوهم حتى أبردوا، ثم راحوا ببقيتهم فقتلوهم، وقد كان أمر رسول الله ﷺ بأحمال التمر فنشرت بين أيديهم، فكانوا يَكْدُمُونَهَا كَدْمَ الحُمُر» اهـ من السير الكبير (٣/ ٣٤١). وينظر المغازي للواقدي (٢/ ١٥) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ١٢).

(٦) التاج والإكليل في شرح مختصر خليل (٤/ ٥٤٨).

فَرَبَطُوهُ فِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ: إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ مُحَاوَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَأَطْلَقُوهُ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِليَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[٧].

وَأَعْظَمُ عَفْوٍ عَنِ الْأَسْرَى فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ: عَفْوُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا تَمَكَّنَ مِنْ قَوْمٍ حَارَبُوهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَلَدِهِ، وَآذَوْا أَتْبَاعَهُ، وَصَدُّوا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَمَالَئُوا عَلَيْهِ النَّاسَ، ثُمَّ لَمَّا تَمَكَّن مِنْهُمْ قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[٨].

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه لَمَّا طُعِنَ وَهُوَ يُصَلِّي قَالَ: «لَا تَعْجَلُوا عَلَى قَاتِلِي» ظَنَّ أَنَّهُمْ حَبَسُوهُ، فَلَمَّا أُخْبِرَ أَنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ اسْتَرْجَعَ، فَلَمَّا أَعْلَمُوهُ أَنَّهُ المَجُوسِيُّ كَبَّرَ[٩].

---

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤٣٧٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (١٧٦٤)، وأحمد (٢/ ٤٥٢).

(٨) سيرة ابن هشام (٥/ ٧٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٠١)، وزاد المعاد (٣/ ٤٠٧- ٤٠٨)، ونقله الشافعي عن أبي يوسف كما في سنن البيهقي (٩/ ١١٨).

(٩) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٧٩).

وَهَذَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا غَدَرَ بِهِ الْخَارِجِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَطْعِمُوهُ وَاسْقُوهُ، وَأَحْسِنُوا أَسَارَهُ، فَإِنْ عِشْتُ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي أَعْفُو إِنْ شِئْتُ، وَإِنْ شِئْتُ اسْتَقَدْتُ، وَإِنْ مِتُّ فَقَتَلْتُمُوهُ فَلَا تُمَثِّلُوا بِهِ»(١٠).

وَقَدْ ضَرَبَ قَادَةُ الْمُسْلِمِينَ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسْرَى، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ؛ فَصَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا أَسَرَ جَمِيعَ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي مَوْقِعَةِ حِطِّينَ أَكْرَمَهُمْ وَسَقَاهُمْ، وَقَرَّبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَلِكَ أَرْنَاطَ؛ لِأَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَقَضَ الْعَهْدَ، وَاعْتَدَى عَلَى قَافِلَةِ حُجَّاجٍ وَقَتَلَهُمْ، وَهُوَ يَقُولُ: ادْعُوا مُحَمَّدًا يَنْصُرْكُمْ. فَلَمَّا رَأَى بَقِيَّةُ الْمُلُوكِ قَتْلَ أَرْنَاطَ خَافُوا أَنْ يَصِيرَ مَصِيرُهُمْ مَصِيرَهُ، فَأَمَّنَهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِغَدْرِ أَرْنَاطَ، وَقَالَ لَهُمْ:

---

(١٠) أخرجه الشافعي في مسنده (١٤٧٦)، والبيهقي (٨/ ٥٦، ١٨٣) من حديث جعفر بن محمد عن أبيه.

وأخرجه الحاكم عن الشعبي قال: «لما ضرب ابن ملجم عليًّا تلك الضربة أوصى به علي فقال: قد ضربني فأحسنوا إليه، وألينوا له فراشه، فإن أعش فهضم أو قصاص، وإن أمت فعالجوه فإني مخاصمه عند ربي ﷻ» وسكت عنه الذهبي في التلخيص (٣/ ١٤٤).

وقد جاء ما يخالف ذلك في مسند الإمام أحمد (١/ ٩٢-٩٣) من حديث شريك بن عبد الله النخعي عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى حكيم بن سعد قال: «لما ضرب ابن ملجم عليًّا الضربة، قال علي: افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله، فقال: اقتلوه ثم حرقوه»، وهذا الحديث ضعيف لضعف شريك وعمران. قال الحافظ في التقريب (٢٨٠٢): «شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي بواسط ثم الكوفة أبو عبد الله صدوق يخطئ كثيرًا، تغَيَّر حفظُهُ منذ ولي القضاء بالكوفة ...» اهـ.

وقال أيضًا (٥١٩٣): «عمران بن ظبيان الكوفي ضعيف ورُمِيَ بالتَّشَيُّع» اهـ.

ولو سلم بصحة هذه الرواية فإنها لا تعارض الرواية السابقة، فيكون الإحسان إليه حال أسره إلى أن يقضى في أمره بالقتل ثم التحريق إلا إذا قيل: إن التحريق مثلة، وقد جاء النهي عنها، وبكل حال فالحديث ضعيف.

«لَمْ تَجْرِ عَادَةُ المُلُوكِ أَنْ يَقْتُلُوا المُلُوكَ» ثُمَّ أَطْلَقَ سَرَاحَهُمْ[(١١)].

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مَوْقِعَةِ حِطِّينَ فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَيْتَ المَقْدِسِ، وَقَبِلَ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ فِدَاءً يَسِيرًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِدَاءَ نَفْسِهِ فَدَى هُوَ عَنْهُ، وَفَعَلَ قَادَتُهُ مِثْلَ فِعْلِهِ.

وَفِي فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ أَمَّنَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ أَهْلَهَا مَعَ أَنَّهُ فَتَحَهَا عَنْوَةً، وَعَفَا عَنْهُمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُمْ فِدَاءً، وَلَا عَاقَبَهُمْ عَلَى حَرْبِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ[(١٢)].

وَالتَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ زَاخِرٌ بِالْحَوَادِثِ الَّتِي أَحْسَنَ فِيهَا المُسْلِمُونَ إِلَى أَسْرَاهُمْ، وَعَفَوْا عَنْ أَعْدَائِهِمْ بَعْدَ مَقْدِرَتِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ عَمَلًا بِنُصُوصِ شَرِيعَتِهِمْ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَنَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.



الخُطبَةُ الثّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

---

(١١) ينظر: النوادر السلطانية للقاضي ابن شداد (١٣٠-١٣١)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٨٥)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٠-٣١).

(١٢) ينظر: محمد الفاتح، للدكتور سالم الرشيدي (١٤٣-١٤٦).

وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: بَعْدَ نَشْأَةِ مَا يُسَمَّى بِالدُّوَلِ المَدَنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ فِي أُورُبَّةَ، وَعَقِبَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ، وَالمَجَازِرِ المُرَوِّعَةِ فِي الْغَرْبِ، وُضِعَتِ الْقَوَانِينُ الدَّوْلِيَّةُ، وَالِاتِّفَاقِيَّاتُ الَّتِي تُعْنَى بِشُؤُونِ الْحُرُوبِ، وَكَانَ مِنْ ضِمْنِ مَا وَضَعُوا: مُعَاهَدَاتُ حُقُوقِ الْأَسْرَى وَمَنْ يُسَمَّوْنَ بِالمَدَنِيِّينَ، وَأَكْثَرُهَا بُنُودٌ جَيِّدَةٌ فِي حَقِّ الْأَسِيرِ(١٣)، جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَبِمَا يَفُوقُهَا قَبْلَ مَا يَزِيدُ عَلَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ وَضْعِهِمْ لِاتِّفَاقِيَّاتِهِمْ وَمُعَاهَدَاتِهِمْ، وَطَبَّقَ المُسْلِمُونَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَسْرَى، وَلَكِنَّ الْغَرْبَ الْحَدِيثَ، وَعَلَى رَأْسِهِ دَوْلَةُ الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّهَا رَاعِيَةُ الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَتُفَاخِرُ بِكَوْنِهَا حَافِظَةَ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يُطَبِّقُوا فِي حُرُوبِهِمْ مَا وَضَعُوا مِنَ اتِّفَاقِيَّاتٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَسْرَى وَاللَّاجِئِينَ، بَلْ كَانَتْ هَذِهِ الِاتِّفَاقِيَّاتُ حِبْرًا عَلَى وَرَقٍ، تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ عِنْدَ أَوَّلِ نَشْوَةٍ بِالنَّصْرِ وَالْقُوَّةِ.

إِنَّهُمْ فَعَلُوا بِأَسْرَى الْعِرَاقِ مَا لَا تُصَدِّقُهُ الْأَبْصَارُ وَهِيَ تُشَاهِدُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَسْمَاعُ لَوْ وُصِفَ لَهَا، وتَنْخَلِعُ مِنْ هَوْلِهِ الْأَفْئِدَةُ، وَلَا يَرْضَاهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رَحْمَةٍ أَوْ قِيَمٍ أَوْ أَخْلَاقٍ.

لَقَدْ عَذَّبُوا أَسْرَاهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَأَذَلُّوهُمْ ذُلًّا عَظِيمًا، سَحَقُوا كَرَامَتَهُمْ،

---

(١٣) اعتمدت وعرضت للتوقيع والتصديق والانضمام من قبل المؤتمر الدبلوماسي لوضع اتفاقيات دولية لحماية ضحايا الحروب المعقود في جنيف خلال الفترة من ٢١ نيسان/ أبريل، إلى ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩. تاريخ بدء النفاذ: ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠ وفقًا لأحكام المادة ١٣٨.

وَأَهَانُوا أَعْرَاضَهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا لَا تَفْعَلُهُ الْوَحْشُ مِنَ الْحَيَوَانِ بِعَدُوِّهَا، فَهَلْ مَرَّ عَلَى أَبْصَارِكُمْ، أَوْ سَمِعْتُمْ بِآذَانِكُمْ أَنَّ وَحْشًا أَذَلَّ عَدُوَّهُ بِالتَّبَوُّلِ عَلَيْهِ، أَوْ بِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ فِيهِ، أَوْ إِجْبَارِهِ عَلَى أَنْ يَفْعَلَهَا فِي أَخِيهِ؟!

إِنَّهَا مَأْسَاةُ قِيَمٍ حَضَارِيَّةٍ، وَإِنَّهُ لَعَارٌ عَلَى كُلِّ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي نُقِلَتْ إِلَيْهَا فُصُولُ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ.

آلَافُ الصُّوَرِ لِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ كُوِّمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَهُمْ عُرَاةٌ، وَوُضِعَ الْقَيْدُ فِي رِقَابِ بَعْضِهِمْ، وَتَمَّ جَرُّهُمْ كَمَا تُجَرُّ الْكِلَابُ، وَوَسَائِلُ أُخْرَى مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْإِهَانَةِ وَقَعَتْ وَلَا زَالَتْ تَقَعُ فِي عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ، وَمَدِينَةِ السَّلَامِ، لَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الصُّوَرَ قَدْ سُرِّبَتْ إِلَى وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مَا كَانَ أَحَدٌ يُصَدِّقُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا بِالْحَيَوَانِ، فَضْلًا عَنْ فِعْلِهِ بِالْإِنْسَانِ(١٤).

إِنَّهَا أَخْلَاقُ رُعَاةِ الْبَقَرِ الَّذِينَ أَسَّسُوا عَالَمَهُمْ عَلَى بَحْرٍ مِنْ دِمَاءِ وَدُمُوعِ الْهُنُودِ الْحُمْرِ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مِنْ سَلْخِ رُؤُوسِهِمْ، وَاغْتِصَابِ نِسَائِهِمْ، وَالتَّسْلِيَةِ بِأَطْفَالِهِمْ، وَإِهَانَةِ رِجَالِهِمْ مَا يَفْعَلُونَهُ الْآنَ بِالْعِرَاقِ.

إِنَّهُمْ يَنْطَلِقُونَ فِي ذَلِكَ مِنْ مُنْطَلَقَاتٍ عُنْصُرِيَّةٍ بَغِيضَةٍ، تُعْلِي مِنْ شَأْنِ عِرْقِهِمْ عَلَى سَائِرِ الْأَجْنَاسِ، زَادَتْهَا أَحْقَادٌ دَفِينَةٌ غَذَّتْهَا الصِّهْيَوْنِيَّةُ بِاعْتِقَادَاتٍ بَاطِلَةٍ.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ انْتِقَامَ الرَّبِّ مِنَ الْأُمَّةِ الْبَابِلِيَّةِ جَزَاءَ مَا فَعَلَهُ قُدَمَاؤُهُمْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

لَقَدْ سَقَطَتِ الشِّعَارَاتُ الزَّائِفَةُ الَّتِي تَلْتَمِسُ الْأَعْذَارَ لِشَنِّ الْحُرُوبِ، وَاجْتِيَاحِ الْمُدُنِ، وَبَانَتْ أَخْلَاقُ الْقَوْمِ وَقِيَمُهُمْ، فَمَاذَا سَتَكُونُ أَقْوَالُ دُعَاةِ الْحُرِّيَّةِ، وَمَنْ

---

(١٤) هذا إشارة لما فعله الأمريكان بأسراهم العراقيين في سجن أبو غريب في بغداد، وقد كتب عنه كتب ومقالات كثيرة.

بَشَّرُوا بِفُتُوحِ رُعَاةِ الْبَقَرِ، وَنَشْرِهِمُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؟!! فَهَا هِيَ صُورَةٌ بَشِعَةٌ مِنْ صُوَرِ تَحْرِيرِهِمْ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ، زَعَمُوا!

إِنَّ مِنَ الْمُفَارَقَاتِ الْعَجِيبَةِ أَنَّ مَدِينَةَ السَّلَامِ الَّتِي تُغْتَصَبُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَيُمَارَسُ عَلَى أَبْنَائِهَا أَبْشَعُ صُوَرِ الْإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ قَدْ سَيَّرَتْ فِيمَا مَضَى مِنَ التَّارِيخِ جَيْشًا جَرَّارًا؛ لِأَنَّ امْرَأَةً مُسْلِمَةً وَقَعَتْ فِي الْأَسْرِ فَأُهِينَتْ وَاسْتَنْجَدَتْ بِالْمُعْتَصِمِ فَأَنْجَدَهَا مِنْ بَغْدَادَ، وَهَا هِيَ ذَاتُ الْمَدِينَةِ تُهَانُ وَيُهَانُ أَبْنَاؤُهَا أَشَدَّ الْإِهَانَةِ.

إِنَّ الْآدَمِيَّ إِذَا تَجَرَّدَ مِنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ قِيَمٌ تَرْدَعُهُ، وَتَضْبِطُ سُلُوكَهُ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ ضَرَاوَةً مِنَ الْحَيَوَانِ، وَأَكْثَرَ إِفْسَادًا مِنَ الْوَحْشِ، وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ قَدْ أَصَمُّوا الْآذَانَ بِالْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ قَدْ بَانَ لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ أَنَّهُمْ أَحَطُّ سُلُوكًا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَأَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْوَحْشِ، فَهَلْ يَعْقِلُ ذَلِكَ مَنْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى مَبَادِئِهِمْ؟!

كَانَ اللهُ فِي عَوْنِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُفَرِّجَ كُرْبَتَهُمْ، وَيَكْبِتَ عَدُوَّهُمْ، وَيُهِينَ مَنْ أَهَانَهُمْ، وَيُذِلَّ مَنْ أَذَلَّهُمْ، وَيُؤْذِيَ مَنْ آذَاهُمْ.

اللَّهُمَّ ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفَرِّجْ هُمُومَهُمْ، وَنَفِّسْ كُرُوبَهُمْ، وَانْتَقِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



٣٧٩- مأساة البوسنة (١)

١٤/ ٧/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ لَاقَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ الْكَيْدَ الْعَظِيمَ، وَالْمَكْرَ الْكُبَّارَ، وَالتَّسَلُّطَ وَالظُّلْمَ وَالِاسْتِبْدَادَ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ دِيَانَاتِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ أَوْ أَهْلَ جُحُودٍ وَإِلْحَادٍ، وَمَا خَلَتِ الْأَرْضُ -فِي زَمَنِ الِانْحِطَاطِ وَالْبُعْدِ عَنِ الدِّينِ- يَوْمًا مِنْ دَمٍ مُسْلِمٍ يُسْفَكُ، أَوْ عِرْضٍ يُنْتَهَكُ، أَوْ مَالٍ يُنْهَبُ، حَتَّى سَجَّلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ أَيَّامَ الِاسْتِعْمَارِ أَبْشَعَ الْجَرَائِمِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، مِمَّا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ قَادَةَ الِاسْتِعْمَارِ كَانُوا حَاقِدِينَ أَشَدَّ الْحِقْدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

وَلَمَّا عَجَزَ الْأَعْدَاءُ عَنْ تَحْوِيلِ مَسَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى غَيْرِ دِينِهِمْ عَسْكَرِيًّا، لَجَئُوا إِلَى الْغَزْوِ الثَّقَافِيِّ وَالْفِكْرِيِّ، كَانُوا يُقَدِّمُونَ دِينَهُمْ وَمُعْتَقَدَهُمْ مَعَ رَغِيفِ الْخُبْزِ،

وَجُرْعَةِ الدَّوَاءِ، وَقِطْعَةِ الْكِسَاءِ، بِاسْمِ الْمُسَاعَدَاتِ وَالمَعُونَاتِ؛ لِيُنَشِّئُوا أَجْيَالًا عَلَى مَا يُرِيدُونَ، حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَصِفُ تِلْكَ النَّقْلَةَ فِي الِاسْتِعْمَارِ: «جَاءُوا إِلَيْنَا يَحْمِلُونَ الْبُنْدُقِيَّةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَأَمْطَرُونَا بِالرَّصَاصِ ثُمَّ غَمَّمُوا أَعْيُنَنَا وَوَضَعُوا أَيْدِينَا عَلَى المَحَارِيثِ نُقَلِّبُ لَهُمُ الْأَرْضَ وَنَزْرَعُهَا، وَبَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ فَتَحْنَا أَعْيُنَنَا لِنَجِدَ بِأَيْدِينَا الْإِنْجِيلَ وَبِأَيْدِيهِمُ الْأَرْضَ وَالثَّرْوَةَ، وَكُنَّا قَدْ نَسِينَا اسْتِعْمَالَ السِّلَاحِ، فَنَحْنُ الْيَوْمَ نُقَلِّبُ الْإِنْجِيلَ وَنَتَقَلَّبُ فِي المَجَاعَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ»(١).

هَذَا الْكَلَامُ عَقِيبَ عُهُودِ الِاسْتِعْمَارِ وَالْغَزْوِ الْعَسْكَرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَلَكِنْ بَعْدَ مُدَّةٍ عَادَتِ الشُّعُوبُ إِلَى فِطْرَتِهَا، وَأَبَتْ إِلَّا دِينَهَا، وَلَا تَرَى عَنْهُ مَحِيصًا، فَنَمَا الْإِسْلَامُ مِنْ جَدِيدٍ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَطَالَبُوا بِالْإِسْلَامِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، فَأَحْبَطَ اللهُ تَعَالَى كَيْدَ الْأَعْدَاءِ.

نَعَمْ، لَقَدْ فَشِلَ الِاسْتِعْمَارُ وَالْغَزْوُ الْعَسْكَرِيُّ الْقَدِيمُ فِي إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ، كَمَا فَشِلَ الْغَزْوُ الثَّقَافِيُّ الْحَدِيثُ، فَعَادَ التَّسَلُّطُ الْعَسْكَرِيُّ مِنْ جَدِيدٍ فِي بِلَادٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَثِيرَةٍ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي الشِّيشَانِ عَلَى أَبْوَابِ الِاغْتِيَالِ، وَالْبُوسْنَةُ تُمْضِي ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ عِجَافٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالْقَهْرِ وَالِاسْتِعْبَادِ، يُنَفِّسُ عَنْ حِقْدِ الْعُصُورِ المَاضِيَةِ، وَيُظْهِرُ الْوَجْهَ الْحَقِيقِيَّ لِلْغَرْبِ الْمُتَحَضِّرِ.

أَعْلَمُ أَنَّكُمْ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مَلِلْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِ الْبُوسْنَةِ مِنْ شَرِّ مَا يُتْلَى وَيُعْرَضُ مِنْ مَآسٍ وَجُرُوحٍ، وَلَكِنْ فِي هَذَا الزَّمَنِ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ بُدٌّ مِمَّا لَا يُحِبُّ، وَلَوْ نَطَقَ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ فِي الْبُوسْنَةِ لَقَالَ مَا لَا يُرِيدُ.

---

(١) نحن والإعلام الغربي، د.محمد بن حامد الأحمري، مجلة البيان، عدد (٥٥) ص(٤)، والكاتب نقل ذلك عن أحد أدباء كينيا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: مَأْسَاةُ الْبُوسْنَةِ لَا يُدْرَى أَهِيَ فِي بِرَكِ الدِّمَاءِ الْمُهْدَرَةِ، أَمْ فِي الْأَشْلَاءِ الْمُقَطَّعَةِ، أَمْ فِي الْأَعْرَاضِ الْمُنْتَهَكَةِ؟ أَهِيَ فِي الْأُسَرِ الْمُشَرَّدَةِ، أَمْ فِي الْمَسَاجِدِ وَالدُّورِ الْمُهْدَمَةِ؟

أَهِيَ فِي الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ، أَمْ فِي الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، أَمْ فِي الصَّقِيعِ وَالْمَرَضِ؟

هَلْ هِيَ فِي ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ أَهْلِهِ وَعِرْضِهِ، وَقَدِ اشْتَاقَ إِلَى أَوْلَادِهِ، فِي الْمُعْتَقَلِ بُتِرَتْ سَاقُهُ، أَوْ قُطِعَتْ يَدُهُ، أَوْ سُمِلَتْ عَيْنُهُ، أَوْ مُثِّلَ بِجَسَدِهِ؟

هَلِ الْمَأْسَاةُ فِي تِلْكَ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ أَحْشَاؤُهَا بِطِفْلٍ صِرْبِيٍّ عَلَى رَغْمِ أَنْفِهَا، أَمْ فِي أُمِّهَا تِلْكَ الْعَجُوزُ الْمُسِنَّةُ الَّتِي لَا تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ، لَكِنَّهَا تَحْتَمِي مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ خَلْفَ جُثَثِ أَبْنَائِهَا الْقَتْلَى، أَمِ الْمَأْسَاةُ فِي ذَلِكَ الطِّفْلِ الَّذِي لَا يَهْدَأُ عَنِ الْعَوِيلِ، يُرِيدُ الْحَلِيبَ مِنْ أُمِّهِ، وَالْحِمَايَةَ مِنْ أَبِيهِ، فَإِذَا هُوَ يُخْرَجُ مِنَ الْبُوسْنَةِ لِيُعْرَضَ لِلْبَيْعِ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَخَوَاتِهِ فِي سُوقِ الرَّقِيقِ، فِي الْغَرْبِ الْمُتَحَضِّرِ؟!

نَعَمْ، لَقَدْ بِيعَ بَنَاتُ الْمُسْلِمِينَ هُنَالِكَ إِلَى تُجَّارِ الْبِغَاءِ يَسْتَدِرُّونَ الْأَرْبَاحَ بِأَعْرَاضِ الْمُسْلِمَاتِ مُكْرَهَاتٍ مُهَانَاتٍ، يَعْجَزُ اللِّسَانُ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا، وَلَكِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الْمُدْمِيَةُ!!

لِمَاذَا يَكُونُ الِاغْتِصَابُ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْلِحَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْعَدُوُّ فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ؟! اغْتِصَابُ الْمُسْلِمَاتِ سِمَةٌ بَارِزَةٌ فِي كُلِّ حَرْبٍ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ أَيًّا كَانَ ذَلِكَ الْعَدُوُّ، يَا تُرَى لِمَاذَا تُغْتَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الْبَشِعَةِ؟! لِمَاذَا لَمْ يُحْسِنُوا الذِّبْحَةَ إِذَا ذَبَحُوا؟!

وَالْأَدْهَى مِنْ هَذَا وَالْأَمَرُّ أَنَّ حَوَادِثَ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الصِّرْبُ فِي

مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ تُصَوَّرُ فِي إِعْلَامِ الصِّرْبِ عَلَى أَنَّهَا فِي الْكَنِيسَةِ، حَدَثَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ النَّصَارَى، فَيَصِيرُ الظَّالِمُ مَظْلُومًا، وَالْقَاتِلُ مَقْتُولًا؛ إِضْرَامًا لِنَارِ الْحِقْدِ فِي قُلُوبِ النَّصَارَى، وَتَسْوِيغًا لِمَذَابِحِهِمْ وَانْتِهَاكَاتِهِمْ فِي الْمُسْلِمِينَ!!

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا حَرْبًا دِينِيَّةً عَقَائِدِيَّةً صَلِيبِيَّةً، لَا حَرْبًا أَهْلِيَّةً وَلَا وَطَنِيَّةً كَمَا يَحْلُو لِلْعَلْمَانِيِّينَ الْعَرَبِ أَنْ يُسَمُّوهَا، اسْتَمِعُوا إِلَى أَقْوَالِ الصَّلِيبِيِّينَ، فَمُشْكِلَتُنَا -نَحْنُ الْعَرَبَ- أَنَّ فَرِيقًا مِنْ مُدَّعِي الثَّقَافَةِ وَالمَعْرِفَةِ عِنْدَنَا لَا يُصَدِّقُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا كَلَامَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ عَدُوِّنَا مِمَّا يَضْطَرُّنَا إِلَى نَقْلِ كَلَامِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُصَدِّقَ قَوْمُنَا بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ الْأَبَدِيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ.

جَرِيحٌ صِرْبِيٌّ يَقُولُ: إِنَّ سَبَبَ هَذِهِ الْحَرْبِ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ إِقَامَةَ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي بِلَادِنَا[٢]، وَصِرْبِيٌّ آخَرُ يُمْسِكُ بِمِدْفَعِيَّتِهِ يَرْشُقُ بِهَا مَنَاطِقَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ يَقُولُ لِلْإِخْبَارِيِّينَ: الَّذِي تُحَاوِلُ الْحُكُومَةُ الْبُوسْنِيَّةُ عَمَلَهُ هُوَ إِقَامَةُ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي أُورُبَّا، نَحْنُ الصِّربَ نُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ نِهَايَةُ حَضَارَةٍ»[٣].

هَذَا عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ، أَمَّا عَلَى مُسْتَوَى التَّقَارِيرِ، فَتَقْرِيرُ مُرَاسِلِ إِحْدَى الشَّبَكَاتِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِخْبَارِيَّةِ يَقُولُ: إِنَّ أَكْثَرَ الصِّرْبِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقِتَالَ فِي الْبُوسْنَةِ

---

(٢) نقل ذلك عنه مراسل شبكة (اي. بي. سي) الأمريكية والتر رودجرز، أخبار العالم الليلة، اي بي سي ١٤ أغسطس ١٩٩٢م، عن: دماء ودموع البوسنة: على من تعرض الصور؟ د. أحمد بن راشد بن سعيد، مجلة البيان عدد (٥٥) ص(٥٨).

(٣) قائل ذلك هو القائد العسكري الصربي لاليجا توما كوفاش، قاله لمراسلة شبكة (اي. بي. سي) شيلا ماكفيكار، أخبار العالم الليلة، أوائل يوليه ١٩٩٢م. عن المصدر السابق.

أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِمَنْعِ انْتِشَارِ الْإِسْلامِ فِي أُورُبَّا(٤).

إِنَّ شِعَارَ الصِّرْبِ فِي حَرْبِهِمْ هُوَ: الدَّوْلَةُ الْوَاحِدَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الصِّرْبِيِّينَ، وَإِلَّا سَتُصْبِحُ الْبَلْقَانُ مَقْبَرَةً كَبِيرَةً(٥). وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْبَلْقَانُ مَقْبَرَةً لِلْمُسْلِمِينَ!

لَقَدْ عَانَى إِخْوَانُنَا فِي الْبُوسْنَةِ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ الَّتِي أَعْقَبَهَا حُكْمٌ شِيُوعِيٌّ ظَالِمٌ قَاهِرٌ، ثُمَّ هَا هِيَ الْحَرْبُ الصَّلِيبِيَّةُ تَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ، حَتَّى وَصَفَتْ صَحَافَةُ الْغَرْبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُوسْنَةِ بِأَنَّهُمْ (الْفِلَسْطِينِيُّونَ الْجُدُدُ لِأُورُبَّا)(٦).

إِنَّ الْغَرْبَ الْمُتَحَضِّرَ بِإِنْسَانِيَّتِهِ وَدِيمُقْرَاطِيَّتِهِ يُقَدِّمُ لَنَا فِلَسْطِينَ ثَانِيَةً، وَهُوَ يَدُقُّ آخِرَ الْمَسَامِيرِ فِي نَعْشِ فِلَسْطِينَ الْأُولَى الَّتِي اغْتِيلَتْ وَبُكِيَتْ، وَهَا هِيَ فِلَسْطِينُ الْجَدِيدَةُ تُغْتَالُ وَلَسَوْفَ تُبْكَى، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَنَا اللهُ ﷻ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ فَضِيحَةُ الْقِيَمِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي كَارِثَةِ الْبُوسْنَةِ

---

(٤) قائل ذلك مراسل شبكة (اي. بي. سي) الأمريكية والتر رودجرز، عن المصدر السابق.

(٥) البوسنة والهرسك .. محنة شعب ومأساة أمة، د. يوسف الصغيّر، مجلة البيان، عدد (٥٣) ص(٦٠).

(٦) حيث تقاسم الصرب والكروات أرضهم. نسبتهم ٤٥ في المائة من سكان البلاد، لكنهم يسيطرون الآن على ٥ في المائة منها فقط كما في صحيفة الايكونومست، ١ أغسطس ١٩٩٢م .. الصرب يقولون: فليذهب المسلمون إلى الجحيم. أكثرهم -كما تقول كاتبة الغارديان ماغي أوكين- في جحيم فعلًا، إما في معسكرات اعتقال مكتظة، أو في قطارات إلى استقبال بارد في أوروبا كما ذكرت الغارديان، ١٠ أغسطس ١٩٩٢م. مليون وثلاثمائة ألف شخص أخرجوا من البوسنة معظمهم من المسلمين كما ذكرت نيوزويك، ١٠ أغسطس ١٩٩٢م .. في الحادي عشر من أغسطس أعلن الصرب بوقاحة (وهم واثقون بوقوف إخوانهم الغربيين معهم) أنهم سيطردون ٢٨٠٠٠ مسلم، وأن على الأمم المتحدة أن تبحث لهم عن مكان يأوون إليه. ينظر: دماء ودموع البوسنة، على من تعرض الصور؟ مجلة البيان عدد (٥٥) ص(٥٨).

أَوْضَحَ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ، فَأَيْنَ عَرَبُنَا المُغْتَرِبُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ التَّقَدُّمَ وَالْحَضَارَةَ كَمَا هِيَ فِي الْغَرْبِ؟! فَلْيَنْظُرُوا إِلَى أَخْلَاقِ الْقَوْمِ وَحَضَارَتِهِمْ وَمَبَادِئِهِمْ عَلَى أَرْضِ الْبُوسْنَةِ، فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. أُولَئِكَ المُتَحَضِّرُونَ الْبِيضُ وَالشُّعُوبُ الرَّاقِيَةُ الَّتِي تَصِيحُ بِحُقُوقِ الإِنْسَانِ، وَتَتَأَوَّهُ لِانْتِهَاكِ حُقُوقِ الحَيَوَانِ، تَرَى أُمَّةً تَعِيشُ مَحْرَقَةً إِنْسَانِيَّةً مُكْتَمِلَةَ الْفُصُولِ، فَمَا بَالُهُمْ لَا يَنْطِقُونَ، فَهَلْ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْحَرْبَ هُنَالِكَ حَرْبٌ دِينِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ صَلِيبِيَّةٌ؟ وَمَاذَا لَوْ كَانَ الْبَشَرُ المَحْرُوقُونَ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ؟

قَالَتْ صَحَفِيَّةٌ غَرْبِيَّةٌ: «إِنَّ الْغَرْبَ مَا كَانَ لِيَتَّخِذَ هَذَا المَوْقِفَ اللَّامُبَالِيًّا لَوْ كَانَ ضَحَايَا المَجْزَرَةِ مِنَ النَّصَارَى، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ إِذَنْ لَانْتَفَضَ الْعَالَمُ الْغَرْبِيُّ، وَتَحَرَّكَ الضَّمِيرُ الْعَالَمِيُّ، وَتُرْجِمَ ذَلِكَ إِلَى تَحَرُّكٍ سِيَاسِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ وَعَسْكَرِيٍّ، بَدَلًا مِنْ حَالَةِ النُّعَاسِ الثَّقِيلِ الَّتِي يَغِطُّ فِيهَا المُجْتَمَعُ الدَّوْلِيُّ»(٧).

وَأَمَّا المَسْئُولُ الْعَسْكَرِيُّ فِي دَوْلَةٍ صَاحِبَةِ قَرَارٍ ضِدَّ الْبُوسْنَةِ فَيُعَلِّلُ عَدَمَ التَّدَخُّلِ بِقَوْلِهِ: «كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُبَرِّرَ لِعَوَائِلِ الْجُنُودِ أَنَّ أَبْنَاءَهُمْ لَمْ يَمُوتُوا فِي سَبِيلِ المَمْلَكَةِ وَالْوَطَنِ، بَلْ لِمَنْعِ الصِّرْبِ مِنْ قَتْلِ المُسْلِمِينَ»(٨).

هَذَا كَانَ قَبْلَ التَّدَخُّلِ الدَّوْلِيِّ، وَأَمَّا بَعْدَهُ، فَازْدَادَتِ الْكَارِثَةُ تَفَاقُمًا، وَهَذَا مِيزَانُهُمْ، وَتِلْكَ نَظْرَتُهُمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!

وَلَنْ يُوقِفَ ظُلْمَهُمْ وَقَهْرَهُمْ إِلَّا الجِهَادُ .. الْجِهَادُ الَّذِي يَخَافُهُ الْأَعْدَاءُ،

(٧) قائلة ذلك هي لاسلي غليب في النيويورك تايمز، ينظر: جذور الصراع: الصليب الأرثوذكسي، الغرب المتحضر، المسلمون «الهمج»! د. عبد الله عمر سلطان، مجلة البيان، عدد (٥٨) ص(٧٨).

(٨) هو وزير الدفاع البريطاني: الآن كلارك، عن المقال السابق، مجلة البيان، عدد (٥٨) ص(٧٨).

وَتَحْيَا بِهِ الْأُمَّةُ، وَيُسْتَعادُ بِهِ المَجْدُ، وَيُسْتَرَدُّ بِهِ الْحَقُّ .. الْجِهادُ الَّذِي يُوقِفُ الظَّالِمِينَ، وَيُخْرِجُ المُغْتَصِبِينَ.

لَنْ يُزِيلَ المَأْسَاةَ انْتِظَارُ قَرَارَاتِ الْأَعْدَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ، فَذَلِكَ رُكُونٌ إِلَيْهِمْ وَزِيَادَةٌ فِي الْخِذْلَانِ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨-١٠].

وَعِنْدَمَا أُعْلِنَ الْجِهادُ فِي الْبُوسْنَةِ؛ هَابَ الْأَعْدَاءُ، وَتَقَدَّمَ المُسْلِمُونَ، فَلَمْ يُعْجِبْ ذَلِكَ أَصْحَابَ الْقَرَارَاتِ الدَّوْلِيَّةِ؛ فَفَاحَ عَفَنُ المُؤَامَرَةِ، وَانْتُهِكَتِ المَنَاطِقُ الْآمِنَةُ، وَزُوِّدَ الْعَدُوُّ بِالسِّلَاحِ وَالمَتَاعِ، فِي حِينِ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنَ المُسْلِمِينَ بِاسْمِ الهَيْئَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَالمَنَاطِقِ الْآمِنَةِ، فَيُدْفَعُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَلَا زَالَ المُسْلِمُونَ تَحْتَ الحِصَارِ المُحْكَمِ؛ قُصِفُوا قَصْفًا عَنِيفًا، وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، أَعَانَهُمُ اللهُ وَفَكَّ حِصَارَهُمْ! لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَالمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ غَائِبَةٌ، وَمَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مَعَهُ فَاللهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ فُكَّ حِصَارَهُمْ، وَانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالصِّرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ، اللَّهُمَّ خَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ وَشَتِّتْ شَمْلَهُمْ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ وَرِجْزَكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ

أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٨].



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَاصِرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَمَلَاذِ الْمُضْطَهَدِينَ، وَأَمْنِ الْخَائِفِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَبْتَلِي أَقْوَامًا بِالسَّرَّاءِ وَآخَرِينَ بِالضَّرَّاءِ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي إِخْوَانِكُمُ الْمَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِحْنَةَ الْبُوسْنَةِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِحْنَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. عَارٌ يُسَجِّلُهُ التَّارِيخُ فِي سِجِلِّ صَفَحَاتِنَا وَجِيلِنَا، تَسْتَاءُ مِنْهُ الْأَجْيَالُ الْقَادِمَةُ كُلَّمَا قَلَّبَتْ صَفَحَاتِ تَارِيخِنَا، وَقَرَأَتْ عَنْ هُزَالِنَا وَضَعْفِنَا وَتَخَلِّينَا عَنْ إِخْوَانِنَا، كَمَا نَسْتَاءُ كُلَّمَا طَالَعْنَا هُزَالَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ الْقَضِيَّةَ وَكَأَنَّهَا قَضِيَّتُنَا، بَلْ هِيَ قَضِيَّتُنَا! نَعِيشُهَا بِأَحَاسِيسِنَا وَوِجْدَانِنَا، بِقُلُوبِنَا وَأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا، لَا نَغْفُلُ عَنْهَا وَلَا نَنْسَاهَا، كَيْفَ نَنْسَاهَا وَفِيهَا مُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ يُفْتَنُونَ؟!

يَا مُسْلِمُ، يَا مُؤْمِنُ، فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَعِيشُ مَعَ الْقَضِيَّةِ قَلْبًا وَقَالَبًا، حَتَّى وَلَوْ

كَانَ بَعِيدًا فَقَلْبُهُ قَرِيبٌ مِنْهَا، يُحِسُّ كَأَنَّ الْقَضِيَّةَ تَعْنِيهِ وَحْدَهُ وَلَا تَعْنِي أَحَدًا غَيْرَهُ، فَيَدْفَعُهُ ذَلِكَ إِلَى الدَّعْمِ بِالمَالِ، وَرَفْعِ الْيَدَيْنِ بِالدُّعَاءِ، لَا يَفْتُرُ وَلَا يَغْفُلُ وَلَا يَنْسَى، وَلَا يَكِلُّ وَلَا يَمَلُّ، لَا يَزَالُ يَحُثُّ النَّاسَ حَوْلَهُ عَلَى مُنَاصَرَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ. فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَنْ يَسْمَعُ عَنْهُمْ خَبَرًا مُفْزِعًا، أَوْ يَرَى مَشْهَدًا مُرَوِّعًا، فَيَكْتَفِي بِالْحَوْقَلَةِ وَالِاسْتِرْجَاعِ، ثُمَّ يَنْسَى بَعْدَ بُرْهَةٍ، وَكَأَنَّهُ أَعْطَى المَوْضُوعَ حَقَّهُ وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ.

فَرْقٌ بَيْنَ أُنَاسٍ هُمُومُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَيْنَ آخَرِينَ هُمُومُهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ؛ إِشْبَاعًا لِلشَّهَوَاتِ، وَتَلْبِيَةً لِلرَّغَبَاتِ، لَا يُهِمُّهُمْ قَتْلُ الشُّعُوبِ المُسْلِمَةِ، وَلَا جُرُوحُ الْأُمَّةِ المُتَفَتِّقَةِ.

يَجِبُ إِحْيَاءُ الشُّعُورِ بِالْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الرَّابِطَةُ إِيمَانِيَّةً لَا وَطَنِيَّةً، وَلَا إِقْلِيمِيَّةً، فَأَمْرُ المُسْلِمِ الْبَعِيدِ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ أَمْرِ الْفَاجِرِ الْقَرِيبِ.

إِنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، وَالْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ لَيْسَتْ نُصُوصًا لِلْقِرَاءَةِ وَالْحِفْظِ فَحَسْبُ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِلْمُفَاخَرَةِ وَالمُبَاهَاةِ أَمَامَ الْآخَرِينَ بِدِينِنَا، وَأَنَّهُ يُحَقِّقُ التَّرَاحُمَ وَالتَّكَافُلَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا، وَلَكِنَّ المُهِمَّ هُوَ الْعَمَلُ.

يَجِبُ أَنْ تُتَرْجَمَ هَذِهِ النُّصُوصُ إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ مَحْسُوسٍ؛ مِنْ نُصْرَةِ الضَّعِيفِ، وَنَجْدَةِ المَلْهُوفِ، وَبَذْلِ الْغَالِي وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ الْأُخُوَّةِ، وَتَقْوِيَةِ الرَّابِطَةِ.

إِنَّ النَّصَارَى فِي أُورُبَّا يَجْمَعُونَ التَّبَرُّعَاتِ لِإِخْوَانِهِمُ الصِّرْبِ تَحْتَ شِعَارِ: ضِدَّ دُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي أُورُبَّا، قَائِلِينَ: ادْفَعْ دُولَارًا أَقْتُلْ لَكَ بِهِ مُسْلِمًا! فَمَاذَا سَيَفْعَلُ

المُسْلِمُونَ لإِخْوَانِهِمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ كَلَبُ الْعَدُوِّ، وَشِدَّةُ الْبَرْدِ، وَجَوْرُ النِّظَامِ، وَنَقْصُ المُؤْنَةِ، وَقِلَّةُ ذَاتِ الْيَدِ، وَخِيَانَةُ الْعَالَمِ.

يَحْتَاجُونَ إِلَى مَالٍ يُذَلِّلُ الصِّعَابَ، وَيُخَفِّفُ آلامَ السِّيَاطِ، فَهَلْ نَهَبُ لَهُمُ المَالَ، وَهُمْ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالمَنِّ عَلَيْنَا. نِعْمَتَانِ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِمَا عَلَيْنَا: وَفْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِينَا، وَوُجُودُ جِهَةٍ يُصْرَفُ فِيهَا يَصْدُقُ عَلَيْهَا أَنَّ هَذَا المَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمُسْلِمُونَ كَثِيرُونَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وَقَدْ يُوجَدُ المَالُ، لَكِنْ لَا يُوجَدُ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، هَا وَقَدِ اجْتَمَعَ الْأَمْرَانِ عِنْدَنَا، فَهَلْ نَحْنُ أَهْلٌ لِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ؟

أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

احْذَرُوا الشُّحَّ وَالْبُخْلَ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فَجُودُوا جَادَ اللهُ عَلَيْكُمْ، وَتَصَدَّقُوا فَإِنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ، وَلَا تَغْفُلُوا عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ، فَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ، وَتَحَرُّوا أَوْقَاتَ الْإِجَابَةِ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يَطَّلِعُ عَلَى صِدْقِكُمْ وَإِخْلَاصِكُمْ؛ فَيُنْزِلُ نَصْرَهُ، وَيَكْبِتُ عَدُوَّهُ.

بَارَكَ اللهُ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأَعْمَارِكُمْ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ المُسْدَاةِ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٨٠- مأساة البوسنة (٢)

١/ ٣/ ١٤١٦هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا مَلِيئَةٌ بِالمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ، وَفِي طَيَّاتِهَا الْعِبَرُ وَالدُّرُوسُ، فَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنٍ فَاحِصَةٍ إِلَيْهَا، وَاسْتَشَفَّ الدُّرُوسَ مِنْهَا؛ اجْتَنَبَ أَسْبَابَهَا؛ فَلَمْ تَتَكَرَّرْ مَعَهُ. وَمَنْ كَانَتْ تُصِيبُهُ فَيَتَأَوَّهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَاعْتِبَارٍ فَسَوْفَ يَنْتَكِسُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ، وَيَمْشِي إِلَى الْكَوَارِثِ بِرِجْلَيْهِ، وَيَعْمَلُ أَسْبَابَهَا، ثُمَّ يَلُومُ الْآخَرِينَ عَلَيْهَا.

وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَا فَرْقَ فِيهَا بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ؛ إِذْ إِنَّ الْأُمَّةَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْرَادِ، وَأَزْمَةُ الْبُوسْنَةِ كَارِثَةٌ مِنَ الْكَوَارِثِ الَّتِي لَا تَزَالُ الْأُمَّةُ بِأَفْرَادِهَا وَدُوَلِهَا وَمُقَدَّرَاتِهَا لَا تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِيهَا، كَمَا هِيَ لَمْ تُحْسِنْ مِنْ قَبْلُ التَّصَرُّفَ فِي مَثِيلَاتِهَا.

خَسِرَتِ الْأُمَّةُ فِلَسْطِينَ وَانْتَصَرَتْ عَلَى الْوَرَقِ، وَهَا هِيَ تَخْسَرُ الْبُوسْنَةَ وَتَنْتَصِرُ

فِي المَحَافِلِ وَالمَحَاكِمِ الدَّوْلِيَّةِ؛ إِذِ اعْتَرَفَ النَّصَارَى المُحَكَّمُونَ فِي قَضِيَّةِ الْبُوسْنَةِ بِأَنَّ الصِّرْبَ مُعْتَدُونَ، وَأَنَّهُمْ مُجْرِمُو حَرْبٍ، وَكَانَ نَصْرًا عَظِيمًا لِلْمَخْدُوعِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ، لَكِنْ مَا هِيَ فَائِدَتُهُ؟! إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ لَا تَزَالُ تُحْتَلُّ، وَالشُّعُوبُ تُشَرَّدُ، وَالْأَبْرِيَاءُ يُقَتَّلُونَ، وَالنِّسَاءُ تُغْتَصَبُ، حَتَّى أَصْبَحَ المُسْلِمُونَ فِي الْبُوسْنَةِ يُثِيرُونَ شَفَقَةَ أَبْنَاءِ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى، وَكَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُسْلِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيُخَلِّصُونَهُمْ مِنْ كَلَبِ عَدُوِّهِمْ، وَظُلْمِ الْعَالَمِ لَهُمْ.

اسْتَنْكَرَ فِئَاتٌ مِنَ الْكُفَّارِ الْأَعْمَالَ الْبَشِعَةَ الَّتِي يُمَارِسُهَا الصِّرْبُ ضِدَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ، حَتَّى قَالَ أَحَدُ كِبَارِ مُؤَسِّسِي قَوَانِينِهِمْ: «إِنَّ المَسِيحِيِّينَ فِي عَصْرِنَا يُقْدِمُونَ فِي حُرُوبِهِمْ عَلَى أَعْمَالٍ تَسْتَحِيي مِنْهَا الْوُحُوشُ أَنْفُسُهَا»(١).

وَلَكِنْ مَاذَا عَنِ المُسْلِمِينَ؟ هَلْ تَحَرَّكُوا لِنَجْدَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَتَرَكُوا أَحَادِيثَ الْآمَالِ وَالْأَحْلَامِ؟

كَلَّا! إِنَّ الصَّمْتَ يُخَيِّمُ عَلَيْهِمْ، وَالسُّكُونَ وَالْهُدُوءَ النَّابِعَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ يَلُفُّهُمْ، فَمَا عَسَى تِلْكَ المَنَاظِرُ وَالْفَوَاجِعُ أَنْ تُحَرِّكَ أُمَّةً فَقَدَتِ الشُّعُورَ بِمَصَائِبِ أَبْنَائِهَا، وَمَاتَ إِحْسَاسُهَا، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: سَوْفَ يُدَوِّنُ التَّارِيخُ شَنَاعَةَ هَذِهِ المَذَابِحِ، وَيُدَوِّنُ مَعَهَا شَنَاعَةَ قَوْمٍ شُغِلُوا بِدُنْيَاهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمْ. سَيُسَجِّلُ التَّارِيخُ عَدَمَ مُبَالَاتِهِمْ بِرَابِطَةِ الدِّينِ، وَسَوْفَ يَذْكُرُ رَدِيءَ أَفْعَالِهِمْ وَاهْتِمَامَاتِهِمْ؛ يَتَنَعَّمُونَ بَيْنَمَا إِخْوَانُهُمْ يُحَرَّقُونَ،

---

(١) قائل ذلك هو: هوكو خروتيوس (ت ١٦٤٥م ١٠٥٠هـ) وهو أبو القانون الدولي الحديث، ينظر: نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، كمال السعيد حبيب، مجلة البيان، عدد (٩٠) ص(٩٢).

مُتْرَفُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَعِيشُونَ الْبُؤْسَ وَالْحِرْمَانَ.

سَيَذْكُرُ التَّارِيخُ أَنَّ عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرْسِكِ يُسْحَقُونَ وَيُشَرَّدُونَ عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ إِخْوَانِهِمْ، وَمَا تَحَرَّكُوا، وَلَا اهْتَزُّوا.

لَقَدْ مَرَّ بِالْمُسْلِمِينَ مَذَابِحُ عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ، فَالتَّتَرُ ذَبَحُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَالنَّصَارَى فِي الْأَنْدَلُسِ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ. وَحِينَمَا نَقْرَأُ وَنَسْمَعُ عَنْ تِلْكَ الْفَتَرَاتِ الْمُظْلِمَةِ مِنْ تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ نَقُولُ: وَأَيْنَ هُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الْأَقْطَارِ الْأُخْرَى؟ وَكُنَّا وَلَا نَزَالُ نَلُومُ السَّالِفِينَ مِنَّا عَلَى خِذْلَانِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ، وَنَعُدُّ ذَلِكَ عَارًا لَحِقَ بِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهَا هِيَ الْأَحْدَاثُ تَتَكَرَّرُ بِصُورَةٍ أَبْشَعَ وَأَقْذَرَ، مَعَ أَنَّ سَالِفِينَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ بَعِيدِينَ عَنْ مَوَاقِعِ إِخْوَانِهِمْ، وَأَخْبَارُهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ نُعْفِهِمْ مِنْ مَسْئُولِيَّتِهِمْ، وَلَمْ يَعْتَذِرِ التَّارِيخُ لَهُمْ، فَمَا هُوَ عُذْرُنَا وَنَحْنُ نُشَاهِدُ بِالصُّورَةِ الْحَيَّةِ وَالنَّقْلِ الْمُبَاشِرِ فُصُولًا مِنَ الْمَذَابِحِ وَالْجَرَائِمِ، وَنَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ عَوِيلَ الْأَطْفَالِ، وَصُرَاخَ الثَّكَالَى، وَاسْتِجْدَاءَاتِ الْمُشَرَّدِينَ، وَشَكَاوَى الْمَنْكُوبِينَ، ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ؟

نَقْفِلُ الشَّاشَةَ، وَنُدِيرُ الْمِذْيَاعَ، وَنُوَلِّي الْقَضِيَّةَ ظُهُورَنَا، مُقْبِلِينَ عَلَى لَذِيذِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، مُهْتَمِّينَ بِمَا سَنَعْمَلُ فِي الْغَدِ وَبَعْدَ الْغَدِ، مِمَّا يُوَفِّرُ كَمًّا أَكْبَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذَّاتِ، مُعْرِضِينَ عَنْ إِخْوَانِنَا وَقَضِيَّتِهِمْ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا، وَكَأَنَّنَا نَعِيشُ فِي كَوْكَبٍ آخَرَ، أَوْ كَأَنَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ لَيْسُوا عَلَى دِينِنَا، وَرُبَّمَا كَانَ مُعِدُّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ خَادِمًا نَصْرَانِيًّا أَوْ خَادِمَةً نَصْرَانِيَّةً عَلَى نَفْسِ دِينِ الصِّرْبِ وَمَذْهَبِهِمْ، وَيَحْمِلُ عَصَبِيَّتَهُمْ وَحِقْدَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْكُلُ طَعَامَنَا، وَيَشْرَبُ شَرَابَنَا، وَيُشَاهِدُ مَذَابِحَ إِخْوَانِنَا، وَيَتَشَفَّى فِينَا فِي دِيَارِنَا، يَا لَلْعَارِ وَالذِّلَّةِ!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مَا يَجْرِي فِي الْبُوسْنَةِ خَطِيرٌ جِدًّا، لَكِنَّ الْأَخْطَرَ مِنْهُ إِعْرَاضُنَا عَنِ الْحَدَثِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْنِينَا، وَلَيْسَتْ مُصِيبَةُ الْمَذَابِحِ بِأَعْظَمَ مِنْ مُصِيبَةِ ذَبْحِ الْإِحْسَاسِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ، وَفِي الْبُوسْنَةِ ذُبِحَ الْآلَافُ مِنْ أَبْنَائِهَا، وَذُبِحَ مَعَهُمْ إِحْسَاسُ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا ذُبِحَ الْإِحْسَاسُ فَلَنْ يَتَحَرَّكَ النَّاسُ، وَلَوْ كَانَ الْعَدُوُّ فِي أَطْرَافِ بِلَادِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي يَزِيدُ طُغْيَانَ الْأَعْدَاءِ، وَيَجْعَلُ الصِّرْبَ فِي مَأْمَنٍ مِنْ غَضْبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ الصِّرْبَ، وَمَعَهُمْ هَيْئَةُ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ وَدُوَلُ الْكُفْرِ كَافَّةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا أَيَّ عَمَلٍ يَحْسُبُونَ رَدَّةَ فِعْلِ مِئَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَكَانُوا يُقْدِمُونَ عَلَى هَذَا التَّوَاطُؤِ الرَّهِيبِ، وَتِلْكَ الْأَعْمَالِ الشَّنِيعَةِ؟!

أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ أَنَّنَا خُدِّرْنَا، وَذُبِحَ إِحْسَاسُنَا، وَفَقَدْنَا صَوَابَنَا، ثُمَّ إِذْ بِنَا نَلُومُ عَدُوَّنَا، سُبْحَانَ اللَّهِ! هَلْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ سَيُنَاصِرُونَ قَضَايَاهُمْ حَتَّى يَسْتَجْدُوهُمْ، أَوْ يُحَرِّرُونَ مَا اغْتُصِبَ مِنْ أَرَاضِيهِمْ حَتَّى يَلُوذُوا بِهِمْ؟!

إِنَّ مِنَ الْقَبِيحِ جِدًّا أَنْ نَلُومَ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى تَنْفِيذِ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَالْحُرُوبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى قُرُونٍ وَعُقُودٍ، وَمِنَ الْقَبِيحِ أَيْضًا أَنْ نَجْعَلَ الْمَسْئُولِيَّةَ عَلَى دُوَلِ النَّصَارَى الْعُظْمَى الَّتِي تَرَى فِي إِذْلَالِ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبًا دِينِيًّا مُقَدَّسًا، وَتَجْعَلُ مِنْ دِمَاءِ الْبُوسْنِيِّينَ قَرَابِينَ تُقَدِّمُهَا لِلصَّلِيبِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا يَزَالُ فِينَا -نَحْنُ الْعَرَبَ- قَوْمٌ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَرْبَ فِي الْبُوسْنَةِ لَيْسَتْ حَرْبًا دِينِيَّةً، بَلْ حَرْبٌ وَطَنِيَّةٌ عِرْقِيَّةٌ، وَالنَّصَارَى لَيْسُوا مُتَوَاطِئِينَ مَعَ الصِّرْبِ، فَهَلْ مَنْ يَقُولُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ يَعِيشُونَ عَلَى الْأَرْضِ أَمْ أَيْنَ يَعِيشُونَ؟! تَصْرِيحَاتُ الصِّرْبِ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْغَرْبُ بِوُجُوبِ الْقَضَاءِ عَلَى أَيَّةِ بَوَادِرَ لِقِيَامِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي أُورُبَّا، هَلْ سَمِعَهَا قَوْمُنَا هَؤُلَاءِ؟

وَالْعُهُودُ الَّتِي نُقِضَتْ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ، تَحْتَ مَظَلَّاتِهِمُ الدَّوْلِيَّةِ، تَمَاشِيًا مَعَ مَا

قَالَهُ كَبِيرٌ مِنْ بَابَاوَتِهِمْ: إِنَّ الْغَدْرَ إِثْمٌ، وَلَكِنَّ الْوَفَاءَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَكْبَرُ إِثْمًا[٢].

هَذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ . . دِينٌ وَعَقِيدَةٌ، فَمَتَى يُدْرِكُ قَوْمُنَا ذَلِكَ؟

وَآخَرُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ مُسْلِمُونَ بِالِاسْمِ، وَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الِالْتِزَامُ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ!

وَمَا عَلِمَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ نَحْنُ لَا هُمْ، ضَرَبَتِ الشُّيُوعِيَّةُ سِتَارَهَا الْحَدِيدِيَّ عَلَيْهِمْ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ لَمَّا سَقَطَتْ تَسَلَّطَ النَّصَارَى الْحَاقِدُونَ، وَمَا أَدَّيْنَا وَاجِبَنَا نَحْوَهُمْ فِي التَّعْلِيمِ وَالْإِرْشَادِ، وَالَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَيْهِمْ مِنْ إِخْوَانِنَا لَيَحْكُونَ عَنْ سُرْعَةِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِأَوَامِرِ الدِّينِ، وَتَعَطُّشِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الْمَزِيدِ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ الْحَنِيفِ، وَيَكْفِي فِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يُعْلِنُونَ إِسْلَامَهُمْ رَغْمَ الْحَدِيدِ وَالنَّارِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى رِقَابِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، وَرَغْمَ تَشْرِيدِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ، لَقَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْكَرْبِ وَالشِّدَّةِ مَا لَوْ أَصَابَ جُمُوعًا مِنْ إِخْوَانِنَا الْعَرَبِ لَارْتَدُّوا عَنْ إِسْلَامِهِمْ.

وَظَهَرَ فِينَا مَنْ يَقُولُ: نَخْشَى أَنْ نُنَاصِرَهُمْ فَيُعِيدُوا لَنَا ذِكْرَى الْأَفْغَانِ، فِي التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ إِلَى حَدِّ الِاقْتِتَالِ!

وَكَمْ فِي هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ مِنْ تَخْذِيلٍ وَإِرْجَافٍ وَتَخَلٍّ عَنْهُمْ! وَكَمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ جَرِيمَةٍ وَدَعْمٍ لِلصِّرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ! وَكَمْ فِيهِ مِنْ مِنَّةٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَذًى فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ!!

إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْطَلِقُ فِي مُنَاصَرَتِهِ لِإِخْوَانِهِ الْمَقْهُورِينَ الْمَظْلُومِينَ، وَفِي بَذْلِهِ وَدُعَائِهِ مِنْ ثَوَابِتَ إِيمَانِيَّةٍ، وَقَوَاعِدَ شَرْعِيَّةٍ؛ فَهُوَ يُنَاصِرُ إِخْوَانَهُ لَا لِأَجْلِ حُقُوقِ

(٢) قائل ذلك هو: البابا أربانوس السادس، ينظر: نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، كمال السعيد حبيب، مجلة البيان، عدد (٩٠) ص(٩٢).

الْإِنْسَانِ، أَوْ لِإِرْضَاءِ الرَّأْيِ الْعَالَمِيِّ، وَلَا نُصْرَةً لِطَائِفَةٍ أَوْ حِزْبٍ فِي عَصَبِيَّاتٍ ضَيِّقَةٍ، بَلْ هُوَ يُنَاصِرُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمُنَاصَرَةَ عِبَادَةٌ وَطَاعَةٌ، يُؤَدِّي التَّقْصِيرُ فِيهَا إِلَى ارْتِكَابِ مُحَرَّمٍ، وَتَعْطِيلِ فَرِيضَةٍ. يُؤْمِنُ بِأَنَّ التَّقْصِيرَ فِيهَا يَخْتَلُّ مَعَهُ رُكْنُ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسَاسَاتِ الدِّينِ الْعِظَامِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْفُلُونَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْقَضِيَّةِ مِنْ جَوَانِبَ أُخْرَى لَيْسَتْ شَرْعِيَّةً، وَالْجَانِبُ الشَّرْعِيُّ هُوَ أَنَّ الْمُسْلِمَ حِينَمَا يُنَاصِرُ إِخْوَانَهُ الَّذِينَ يُضْطَهَدُونَ فِي دِينِهِمْ إِنَّمَا يُنَاصِرُ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَالْمُسْلِمُونَ نَاصَرُوا الْأَفْغَانَ إِلَى أَنْ طَرَدُوا الْمُعْتَدِي، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسُوا مُكَلَّفِينَ بِمَا حَدَثَ مِنْ شِقَاقٍ وَاخْتِلَافٍ وَاقْتِتَالٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَدَّمُوا لَنْ يَضِيعَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقِفُوا مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْبُوسْنَةِ؛ انْتِصَارًا لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَنْ يُكَلَّفُوا بِمَا يَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ يَدٌ.

أَرَأَيْتُمْ -يَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- كَيْفَ أَنَّنَا نُجَادِلُ وَنُنَاقِشُ، وَإِخْوَانُنَا تَسِيلُ دِمَاؤُهُمْ، وَتَسْقُطُ أَشْلَاؤُهُمْ، وَتُمَزَّقُ أَجْسَادُهُمْ، وَيُيَتَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَتُنْتَهَكُ أَعْرَاضُهُمْ، وَتُخَرَّبُ دِيَارُهُمْ؟!

بَعْدَ هَذَا، أَلَيْسَ مِنَّا مَنْ يَعِيشُ عِيشَةَ عَدِيمِ الْإِحْسَاسِ، لَا نَكْتَرِثُ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ إِخْوَانِنَا، كَأَنَّ دُنْيَانَا لَا تَمْتَلِئُ بِالْكَوَارِثِ وَالْأَرْزَاءِ وَالْمَصَائِبِ، وَكَأَنَّ أُمَّتَنَا لَا تُقِيمُ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهَا مَآتِمَ الْحُزْنِ عَلَى الضَّحَايَا وَالْمُشَرَّدِينَ، فَاللَّهُمَّ غُفْرَانَكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ، نَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، نَسْأَلُكَ بِأَنْ تَرْفَعَ الْبَلَاءَ عَنْ إِخْوَانِنَا فِي الْبُوسْنَةِ،

اللَّهُمَّ اكْشِفْ ضُرَّهُمْ، وَأَزِلْ كُرْبَتَهُمْ. اللَّهُمَّ انْصُرْهُمْ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. اللَّهُمَّ أَيِّدْهُمْ بِتَأْيِيدِكَ، وَأَنْزِلْ مَعَهُمْ مَلَائِكَتَكَ. اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالصِّرْبِ الظَّالِمِينَ، وَمَنْ أَعَانَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ أَذِقْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلْوَانًا، وَجَرِّعْهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ كِيزَانًا. اللَّهُمَّ أَقِرَّ أَعْيُنَنَا فِيهِمْ، وَأَرِنَا فِيهِمْ عَجَائِبَ قُدْرَتِكَ. اللَّهُمَّ أَوْقِفْ زَحْفَهُمْ، وَنَكِّسْ رَايَتَهُمْ، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ. اللَّهُمَّ كُنْ لِلْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى وَالْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُشَرَّدِينَ. اللَّهُمَّ سُدَّ جُوعَهُمْ، وَارْوِ عَطَشَهُمْ، وَاسْتُرْ عَوْرَاتِهِمْ، وَاحْفَظْ أَعْرَاضَهُمْ، وَآمِنْ خَوْفَهُمْ، وَرُدَّهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَهْلِهِمْ سَالِمِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَنْتَ حَسْبُنَا وَحَسْبُهُمْ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اسْتَجِبْ يَا كَرِيمُ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي إِخْوَانِكُمُ الَّذِينَ يُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: بَلَغَ مِنْ وَقَاحَةِ أَعْدَائِنَا، وَأَمْنِهِمْ مِنْ غَضْبَتِنَا، أَنَّ مَسْئُولَهُمُ الدَّوْلِيَّ حِينَمَا أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَاذَاتِ الْآمِنَةَ سَتَسْقُطُ الْوَاحِدَةُ تِلْوَ الْأُخْرَى، وَأَنَّ قُوَّاتِهِمْ لَا تَسْتَطِيعُ إِزَاءَ ذَلِكَ عَمَلَ أَيِّ شَيْءٍ، قِيلَ لَهُ: فَمَا رَأْيُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ

يَجِبُ عَلَى الضَّحَايَا ضَبْطُ النَّفْسِ!

مَا هَذِهِ الْوَقَاحَةُ؟! أَيْ: عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَتَحَرَّكُوا، وَأَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلذَّبْحِ وَالْقَتْلِ، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَ إِلَّا لِيَقِينِهِ أَنَّهُ لَا أَحَدَ سَيُؤَدِّبُهُ أَوْ يُحَاسِبُهُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ، فَالمُؤَامَرَةُ قَدْ وُزِّعَتْ أَدْوَارُهَا فِي هَذَا الضَّعْفِ الشَّدِيدِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ الِاسْتِسْلَامَ وَالْخُنُوعَ، فَنَحْنُ أُمَّةٌ نَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّنَا عَلَى الْحَقِّ المُبِينِ، وَأَنَّ عَدُوَّنَا عَلَى الْبَاطِلِ وَهُوَ مُدْحُوضٌ، وَأَعْدَاؤُنَا النَّصَارَى لَا زَالُوا يَرْفَعُونَ شِعَارًا ضِدَّ دُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي أُورُبَّا، وَيَجْمَعُونَ التَّبَرُّعَاتِ لِإِخْوَانِهِمُ الصِّرْبِ تَحْتَ لَافِتَاتٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا: ادْفَعْ دُولَارًا أَقْتُلْ لَكَ بِهِ مُسْلِمًا!

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الدُّولَارُ المَدْفُوعُ جَاءَ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ وَثَرَوَاتِهِمْ عَبْرَ الْعَمَالَةِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَمَتَى نَعْقِلُ وَنُدْرِكُ أَنَّ الْأَعْدَاءَ أَعْدَاءٌ، وَلَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ؟ وَمَتَى نَشْعُرُ بِمُصَابِ إِخْوَانِنَا؟

وَمَعَ أَنَّ دُوَلَ الصَّلِيبِ الْعُظْمَى تَقِفُ بِجَانِبِ الصِّرْبِ أَوْ عَلَى الْحِيَادِ، فَإِنَّ أَفْرَادَهُمْ أَحَسُّوا بِمَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَأَخَذُوا يَجْمَعُونَ المَعُونَاتِ تَحْتَ رَايَاتِ الصَّلِيبِ؛ لِسَحْقِ الْأُمَّةِ المُسْلِمَةِ فِي أُورُبَّا، أَلَسْنَا أَحَقَّ بِذَلِكَ وَأَوْلَى مِنْهُمْ؟!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ نُؤَدِّيَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَلَنْ يَتَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ يُحِسَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنَّهُ وَحْدَهُ المَسْئُولُ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ مَسْئُولًا، فَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ؟

وَلَنَا فِي سَلَفِنَا الصَّالِحِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَذَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ المَرْوَزِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ اشْتَهَى لَحْمًا، فَقَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ لَا يَأْكُلَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْفَاتِحِينَ لِبِلَادِ الرُّومِ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْكُلْ لَحْمًا حَتَّى فُتِحَتِ

الرُّومُ، فَدَخَلَهَا فَأَكَلَهُ مِنَ المَغَانِمِ، وَقَدْ رَابَطَ رَحِمَهُ اللهُ بِطَرْطُوسَ إِلَى أَنْ مَاتَ[٣].

وَعَمُّورِيَّةُ فُتِحَتْ بِصَرْخَةِ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، حِينَمَا اسْتَنْجَدَتْ بِالمُعْتَصِمِ، فَسَمِعَ هَذِهِ الصَّرْخَةَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الرُّومِ، فَقَطَعَ المَسَافَاتِ الطَّوِيلَةَ حَتَّى بَلَّغَهَا المُعْتَصِمَ، وَلَمْ يَقُلْ: وَمَاذَا أَفْعَلُ وَحْدِي؟! فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّرْخَةُ، وَذَلِكَ الْبَلَاغُ مِنَ الرَّجُلِ سَبَبًا فِي جَيْشٍ جَرَّارٍ أَوَّلُهُ عِنْدَ الرُّومِ وَآخِرُهُ عِنْدَ المُسْلِمِينَ.

مَاذَا عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي عِنْدَهُ عَمَالَةٌ مِنْ عُبَّادِ الصَّلِيبِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُمْ، وَيَسْتَبْدِلَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ؛ نَجْدَةً لِإِخْوَانِهِ، وَإِرْغَامًا لِلْكُفَّارِ؟

وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يُقَدَّمُ لِإِخْوَانِنَا المُسْتَضْعَفِينَ فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرْسِكِ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ لَهُمْ، وَتَحَرِّي أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ؛ فَذَلِكَ مِمَّا نُطِيقُ، فَمَا بَالُنَا نَغْفُلُ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ؟! مَعَ بَذْلِ المَالِ لَهُمْ حَسَبَ الْقُدْرَةِ وَالطَّاقَةِ.

وَيَجِبُ عَلَى أَفْرَادِ الْبَيْتِ المُسْلِمِ أَنْ يَعِيشُوا قَضِيَّةَ إِخْوَانِهِمْ، فَرَبُّ الْأُسْرَةِ يُذَكِّرُ نِسَاءَهُ وَأَوْلَادَهُ بِهَا، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى مُؤَازَرَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَإِذَا وَعَى أَفْرَادُ الْأُمَّةِ ذَلِكَ، وَفَهِمُوا دَوْرَهُمْ، وَأَدَّوْا وَاجِبَهُمْ تَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْتَلِي المُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ بِهَذِهِ الْقَضَايَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَاللهُ تَعَالَى لَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ حَتَّى يُنَزِّلَ نَصْرَهُ، وَلَكِنَّهُ الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ لَنَا، فَهَلْ نَجْتَازُهُ بِحُسْنِ عَمَلٍ وَاخْتِيَارٍ؟ ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وَإِنَّ مَنْ ضَاقَتْ نَفْسُهُ، وَتَحَسَّرَ قَلْبُهُ عَلَى مَا يُفْعَلُ بِإِخْوَانِهِ فَلَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ، وَلَمْ يَرْقَأْ لَهُ دَمْعٌ، وَلَمْ يَهْنَأْ بِطَعَامٍ فَإِنَّهُ مَأْجُورٌ عَلَى هَذَا الْهَمِّ وَالْإِحْسَاسِ، وَمَنْ مَدَّ يَدَهُ بِالمَالِ وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ فَهُوَ مَأْجُورٌ كَذَلِكَ. وَالمُهِمُّ أَنْ لَا تَمُوتَ الْقَضِيَّةُ فِي

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ٣٤٨).

قُلُوبِنَا وَفِي بُيُوتِنَا وَأَسْوَاقِنَا وَأَعْمَالِنَا. وَالْفَرَجُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنَّصْرُ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا حُقُوقَ إِخْوَانِكُمْ؛ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْشِفَ الضُّرَّ، وَيُزِيلَ الْكَرْبَ، وَيَسْتَجِيبَ الدُّعَاءَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٣٨١- الشرق الإسلامي
بين المشروع الروماني والطمع الفارسي

٣/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرَّعْد: ٢]، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا وَأَوْلَانَا، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا وَآوَانَا، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَمْ يَقْدُرْهُ الْخَلْقُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا عَبَدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ مَهْمَا بَلَغُوا مُفْتَقِرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَحِينٍ، وَإِذَا اشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، فَلَا فَرَجَ وَلَا مَخْرَجَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونُس: ٣١، ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً بِدِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَةُ وَالْعَدْلُ، ثُمَّ كَانَتِ النِّعْمَةُ الْخَاصَّةُ لِمَنْ أَسْلَمَ دِينَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ الْحَقَّ

مِنْ رَبِّهِ، وَجَانَبَ الْبَاطِلَ بِأَدْيَانِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَذَاهِبِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، فَانْخَلَعَ مِنْ أَدْرَانِ الْوَثَنِيَّةِ، وَمِنْ أَوْضَارِ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ، وَسَلِمَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْإِحْدَاثِ وَالْبِدْعَةِ، فَكَانَ إِسْلَامُهُ نَقِيًّا صَافِيًا كَمَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى وَارْتَضَاهُ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ لَا يُدْرِكُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِظَمَهَا وَقَدْرَهَا، فَلَا يَشْكُرُونَ الْمُنْعِمَ عَلَيْنَا بِهَا ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ١٧].

إِنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَرُ، وَلَا أُمَّةً تُعْرَفُ فَتُهَابُ، وَلَمْ يَحْسِبِ الْآخَرُونَ لَهَا أَيَّ حِسَابٍ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبَائِلَ مُتَفَرِّقَةً، وَعَشَائِرَ مُتَنَاحِرَةً، يُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي سَبِيلِ نَاقَةٍ عُقِرَتْ، أَوْ خَيْلٍ سُبِقَتْ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، وَكَانَتِ السِّيَادَةُ لِلْفُرْسِ وَالرُّومِ.

لَقَدْ كَانَتِ الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُتَاخِمَةُ لِبِلَادِ الْفُرْسِ أَوْ لِبِلَادِ الرُّومِ تَابِعَةً لِإِحْدَى هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ آنَذَاكَ؛ فَمُلُوكُهُمْ يُعَيَّنُونَ بِقَرَارَاتٍ مِنْ قُصُورِ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقَيَاصِرَةِ، وَأَبْنَاؤُهُمْ يُرْمَى بِهِمْ بَيْنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ لِصُنْعِ أَمْجَادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ لِمُلُوكِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ، فَاصْطَنَعَ الْفُرْسُ قَبِيلَةَ لَخْمٍ وَمَنَحُوا رُؤَسَاءَهَا لَقَبَ «الْمُلُوكِ» فَكَانَ مِنْهُمْ مُلُوكُ الْمَنَاذِرَةِ[1]، وَاصْطَنَعَ الرُّومُ قَبِيلَةَ تَنُوخَ وَمَنَحُوا رُؤَسَاءَهَا أَيْضًا لَقَبَ «الْمُلُوكِ» فَكَانَ مِنْهُمْ مُلُوكُ غَسَّانَ[2]، وَكَمْ أُهْرِيقَتْ مِنْ دِمَاءٍ لِأَبْنَاءِ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ وَأَحْلَافِهِمَا فِي سَبِيلِ عَرْشَيْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ.

وَالْحَرْبُ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ قَدِيمَةٌ قِدَمَ دَوْلَتَيْهِمَا، تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِلْفُرْسِ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِلرُّومَانِ. وَالْفُرْسُ أَسْبَقُ فِي الدَّوْلَةِ وَالْقُوَّةِ مِنَ الرُّومَانِ.

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ١٩٢)، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٠٩) وما بعدها.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣٣) وما بعدها.

وَلمَّا سُبِيَ الْيَهُودُ بِأَيْدِي الْبَابِلِيِّينَ وَنُقِلُوا إِلَى الْعِرَاقِ أَعَادَهُمْ إِمْبَرَاطُورُ فَارِسَ قُورَشُ الْإِخْمِينِيُّ إِلَى فِلَسْطِينَ(٣) قَبْلَ مِيلَادِ المَسِيحِ عليه السلام بِخَمْسَةِ قُرُونٍ وَزِيَادَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ تَقَارُبٍ تَارِيخِيٍّ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيَهُودِ.

وَقَبْلَ الْمِيلَادِ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَزِيَادَةٍ قَامَتْ لِلرُّومَانِ دَوْلَةٌ وَثَنِيَّةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى يَدِ الْإِسْكَنْدَرِ المَقْدُونِيِّ(٤) الَّذِي يَعُدُّهُ الْأُورُبِّيُّونَ أَعْظَمَ قَائِدٍ رُومَانِيٍّ فِي التَّارِيخِ، فَقَضَى عَلَى دَوْلَةِ الْفُرْسِ، وَضَمَّهَا إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَلَكِنَّ الْفُرْسَ أَعَادُوا دَوْلَتَهُمْ بَعْدَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَقَوِيَتْ دَوْلَتُهُمْ بَعْدَ قُرُونٍ خَمْسَةٍ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ، وَظَلَّتِ الْحُرُوبُ وَالثَّارَاتُ مُشْتَعِلَةً بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ قُرُونًا تِبَاعًا، وَكَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ مِنْ حَطَبِ حُرُوبِهِمْ.

وَبَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ شَنَّ كِسْرَى الْفُرْسِ إِبْرُوِيزَ حَرْبًا ضَرُوسًا عَلَى الرُّومِ اسْتَوْلَى فِيهَا عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَسَلَبَ الرُّومَانَ صَلِيبَهُمُ الْأَكْبَرَ، وَنَقَلَهُ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى المَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ.

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ هِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١-٦]؛ أَيْ: غَلَبَهُمُ الْفُرْسُ، وَسَيُغْلَبُ الْفُرْسُ عَلَى أَيْدِي الرُّومَانِ بِوَعْدٍ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ وَوَقَعَ ذَلِكَ؛ إِذْ تَوَلَّى هِرَقْلُ عَرْشَ الْقَيَاصِرَةِ فَشَنَّ حَرْبًا ضَرُوسًا عَلَى

(٣) ينظر: المنتظم (١/ ٤١٠) وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ١٢٦-١٣٦)، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلي (١/ ١٥١) وما بعدها.

(٤) تنظر أخباره في: تاريخ الطبري (١/ ٣٣٥)، والمنتظم (١/ ٣٣٥)، والكامل (١/ ٢١٤) وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٢٠).

الْفُرْسِ اسْتَرَدَّ بِهَا الشَّامَ وَمِصْرَ، وَهَاجَمَ الْفُرْسَ فِي بِلَادِهِمْ، وَكَسَرَ قُوَّتَهُمْ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَفَرَضَ الْجِزْيَةَ عَلَيْهِمْ(٥).

وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ لِيَبْدَأَ عَهْدٌ جَدِيدٌ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِ بِلَادِ الْفُرْسِ وَبِلَادِ الرُّومِ، فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦)، وَفِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى**»(٧).

وَبَشَّرَ ﷺ أَوَّلَ جَيْشٍ مُسْلِمٍ يَغْزُو الرُّومَ فَقَالَ ﷺ: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٨).

وَأَخْبَرَ عَنِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى قَصْرِ كِسْرَى فَقَالَ ﷺ: «**عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَقِبَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ آنَذَاكَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ كِسْرَى

---

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٧) تفسير أول سورة الروم.

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أبواب الخمس، باب قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم» (٢٩٥٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر رجل بقبر رجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٨).
وجاء من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه عند: البخاري (٢٩٥٣)، ومسلم (٢٩١٩).

(٧) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الفاتحة (٢٩٥٣).

(٨) أخرجه من حديث أم حرام رضي الله عنها: البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم (٢٧٦٦).

(٩) أخرجه من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٢).

وَقَيْصَرُ؛ فَأَمَّا كِسْرَى فَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَاسْتَكْبَرَ ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمَهُ؛ لِمَا قَامَ فِي قُلُوبِ الْفُرْسِ مِنِ احْتِقَارِ الْعَرَبِ، وَالْإِزْرَاءِ بِهِمْ، فَمَزَّقَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُمَزِّقَ اللهُ مُلْكَهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ(١٠).

وَأَمَّا قَيْصَرُ الرُّومِ فَقَدْ مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى الْقُدْسِ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى لَمَّا نَصَرَهُ عَلَى الْفُرْسِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ طَلَبَ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ يَسْأَلُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ الْمَسْؤُولُ أَبَا سُفْيَانَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَجَرَتِ الْمُحَاوَرَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي أَعْلَنَ فِيهَا هِرَقْلُ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ: «وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ»(١١)، وَكَادَ هِرَقْلُ أَنْ يُسْلِمَ؛ لَوْلَا خَوْفُهُ عَلَى مُلْكِهِ. فَخَسِرَ الْإِسْلَامَ، وَمَا بَقِيَ لَهُ الْمُلْكُ.

وَبَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَفَاةِ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، وَفِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ عُمَرَ رضي الله عنه كَسَرَ الْمُسْلِمُونَ الرُّومَ فِي وَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ، وَفَتَحُوا الشَّامَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بِقِيَادَةِ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ رضي الله عنهما، وَوَدَّعَ هِرَقْلُ سُورِيَّةَ وَدَاعًا لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ(١٢).

ثُمَّ كَسَرَ الْمُسْلِمُونَ الْفُرْسَ فِي الْقَادِسِيَّةِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، وَتَتَبَّعَهُمْ سَعْدٌ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْمَدَائِنَ عَاصِمَةَ الْفُرْسِ،

---

(١٠) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: البخاري في المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤١٦٢).

(١١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة لقاء هرقل أبي سفيان رضي الله عنه عند: البخاري في الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله (٢٧٨٢).

(١٢) ينظر: فتوح البلدان للبلاذري (١٤٢)، والبداية والنهاية (٧/ ٥٣)، والكامل (٢/ ٣٤١-٣٤٢)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ٥٧٤).

وَأَخْضَعَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ سَعْدٌ قَصْرَ كِسْرَى الْأَبْيَضَ الَّذِي بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِهِ، وَصَلَّى سَعْدٌ رضي الله عنه فِي إِيوَانِهِ(١٣). ثُمَّ قَضَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَجَمُّعَاتِ الْفُرْسِ فِي نَهَاوَنْدَ بِقِيَادَةِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ(١٤).

وَهَكَذَا انْتَهَتِ الدَّوْلَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ آنَذَاكَ؛ فَارِسُ وَالرُّومُ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا شُعُوبُ هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَقِيَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ تَحْتَ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ، ثُمَّ أَسْلَمَ أَكْثَرُهُمْ لَمَّا عَرَفُوا الْإِسْلَامَ، وَرَأَوْا عَدْلَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ، وَرَحْمَتَهُمْ بِهِمْ، حَتَّى كَانُوا أَرْحَمَ بِهِمْ مَنْ سَاسَتِهِمُ الَّذِينَ حَكَمُوهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَبَعْضُهُمْ هَاجَرُوا إِلَى بِلَادٍ لَمْ يَصِلْهَا الْإِسْلَامُ، وَبَعْضُهُمْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ الْكُفْرَ، وَعَمِلَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْبَاطِنِيُّونَ عَلَى زَعْزَعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَاخِلِهِمْ بِبَثِّ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمْ، وَنَشْرِ الْأَرَاجِيفِ فِيهِمْ.

وَذَاتَ يَوْمٍ ظَهَرَ الْحِقْدُ الْفَارِسِيُّ الْمَجُوسِيُّ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي فُتِحَتْ فَارِسُ فِي خِلَافَتِهِ؛ إِذْ طَعَنَهُ غُلَامٌ مَجُوسِيٌّ كَانَ يَمْسَحُ عَلَى رُؤُوسِ الصِّبْيَانِ الْفُرْسِ وَيَقُولُ: أَكَلَتِ الْعَرَبُ كَبِدِي، أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي(١٥)، فَغَدَرَ بِالْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَمَّنُوهُ، وَقَتَلَ خَلِيفَتَهُمْ وَهُوَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ قَتَلَ نَفْسَهُ.

وَبَعْدَهَا بِسَنَوَاتٍ قَلَائِلَ أَظْهَرَ ابْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقُ نِقْمَتَهُ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَأَتْبَعَهَا بِادِّعَاءِ التَّشَيُّعِ لِآلِ الْبَيْتِ، حَتَّى عَلَا كَعْبُهُ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ،

---

(١٣) ينظر تفصيل ذلك في: الكامل (٢/ ٢٩٤-٣٣٤)، والبداية والنهاية (٧/ ٣٧-٦٩).

(١٤) ينظر: الكامل (٢/ ٤١٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٠٦).

(١٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٣٠)، وقد سبق الخبر وتخريجه في مجلد (٤) خطبة رقم (١٥٤).

وَزَادَ أَتْبَاعُهُ، فَسَارَ عَلَى رَأْسِ فِتْنَةٍ قَتَلُوا فِيهَا الْخَلِيفَةَ عُثْمَانَ ﷺ(١٦)، وَمِنْ ثَمَّ فَرَّقُوا الْأُمَّةَ، وَقَسَّمُوهَا إِلَى طَوَائِفَ وَمَذَاهِبَ، وَاسْتَحْسَنَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُرْسِ التَّمَذْهُبَ بِالمَذَاهِبِ السَّبَئِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَدَّعِي التَّشَيُّعَ لِآلِ الْبَيْتِ؛ بُغْضًا لِلْعَرَبِ، وَمُخَالَفَةً لَهُمْ، لَا مَحَبَّةً لِآلِ الْبَيْتِ، وَتَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ دَهْمَاءِ الْعَرَبِ وَجُهَّالِهِمْ، وَعَادَتِ الْعُنْصُرِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ لِأَهْلِهَا مِنْ جَدِيدٍ، رَغْمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَلْغَى الْعُنْصُرِيَّاتِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ المَذَاهِبُ الْبَاطِنِيَّةُ قَدِ اسْتَمَدَّتْ أَكْثَرَ عَقَائِدِهَا مِنْ عَقَائِدِ الْيَهُودِ وَمَبَادِئِهِمْ، وَكَانَ هَذَا هُوَ التَّقَارُبُ الثَّانِي بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيَهُودِ(١٧).

---

(١٦) ينظر: خمس خطب متوالية في: فتنة مقتل عثمان ﷺ في المجلد (٦) خطب رقم (٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤).

(١٧) أوجه التشابه بين المذاهب الباطنية ودين اليهود كثيرة جدًّا، وأبرزُ الباطنيين وأقواهم وأكثرهم في هذا العصر الإمامية الاثنا عشرية، وقد شابهت اليهود في كثير من دينها.
روى عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه قال الشعبي: يا مالك، لو أردت أن أطأ رقابهم عبيدًا، ويملؤوا بيتي ذهبًا على أن أكذب لهم على علي، ولكن والله لا أكذب عليه أبدًا، يا مالك إني درست الأهواء فلم أر قومًا أحمق من الخشبية، ولو كانوا من الدواب كانوا حمرًا، ولو كانوا من الطير كانوا رخمًا، ثم قال: أحذركم الأهواء المضلة وشرها الرافضة؛ وذلك أن منهم يهودًا يغمصون الإسلام ليتجاوز بضلالتهم كما يغمص طويس بن شاول ملك اليهود والنصرانية ليتجاوز ضلالتهم، ثم قال: لم يدخلوا في الإسلام رغبة عنه، ولا رهبة من الله ﷻ، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم، قد حرقهم علي بن أبي طالب بالنار، ونفاهم في البلدان، منهم عبد الله بن سبإ، نفاه إلى إسباط وعبد الله بن يسار نفاه إلى حازه وأبو الكروس، وآية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب. وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل سبب من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي، وينادي مناد من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة، والحديث عن رسول الله ﷺ: «**لا تزال أمَّتِي على الفطرة ما لم** =

. . . .

= يؤخروا صلاة المغرب حتى تشْتَبِك النجوم». واليهود تزول عن القبلة شيئًا، وكذلك الرافضة. واليهود تنود في الصلاة وكذلك الرافضة، ومر رسول الله ﷺ برجل قد سدل ثوبه فغمصه عليه، واليهود يستحلون دم كل مسلم وكذلك الرافضة. واليهود لا يرون على النساء عدة وكذلك الرافضة. واليهود لا يرون الطلاق الثلاث شيئًا وكذلك الرافضة. واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفوا القرآن. واليهود يبغضون جبريل ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة يقولون غلط بالوحي إلى محمد ﷺ. رواه الخلال في السنة (٧٩١)، واللالكائي في السنة (٢٨٢٣).

وعلق شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- على هذا الأثر تعليقًا متينًا مليئًا بالعلم والفائدة والتحقيق فقال: «هذا الأثر قد روي عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضًا، وبعضها يزيد على بعض. لكن عبد الرحمن بن مالك بن مغول ضعيف، وذم الشعبي لهم ثابت من طرق أخرى، لكن لفظ الرافضة إنما ظهر لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين في خلافة هشام، وقصة زيد بن علي بن الحسين كانت بعد العشرين ومائة، سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين ومائة في أواخر خلافة هشام. قال أبو حاتم البستي: قتل زيد بن علي بن الحسين بالكوفة سنة اثنتين وعشرين ومائة، وصلب على خشبة، وكان من أفاضل أهل البيت وعلمائهم، وكانت الشيعة تنتحله. قلت: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية؛ فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم، فقال لهم: رفضتموني، فسموا رافضة؛ لرفضهم إياه، وسُمّي مَنْ لم يَرْفُضْه من الشيعة زيديًّا؛ لانتسابهم إليه. ولما صلب كانت العباد تأتي إلى خشبته بالليل فيتعبدون عندها، والشعبي توفي في أوائل خلافة هشام أو آخر خلافة يزيد بن عبد الملك أخيه سنة خمس ومائة أو قريبًا من ذلك، فلم يكن لفظ الرافضة معروفًا إذ ذاك. وبهذا وغيره يعرف كذب لفظ الأحاديث المرفوعة التي فيها لفظ الرافضة، ولكن كانوا يسمون بغير ذلك الاسم كما كانوا يسمون الخشبية؛ لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم، فقاتلوا بالخشب؛ ولهذا جاء في بعض الروايات عن الشعبي قال: ما رأيت أحمق من الخشبية. فيكون المعبِّر عنهم بلفظ الرافضة ذكره بالمعنى، مع ضعف عبد الرحمن، ومع أن الظاهر أن هذا الكلام إنما هو نظم عبد الرحمن بن مالك بن مغول وتأليفه، وقد سمع طرفًا منه عن الشعبي، وسواء كان هو ألفه أو نظمه لما رآه من أمور الشيعة في زمانه، ولما سمعه عنهم أو لما سمع من أقوال أهل العلم فيهم أو بعضه أو مجموع الأمرين أو بعضه =

وَبَلَغَ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْبَاطِنِيِّينَ وَحِقْدِهِمْ أَنَّهُمْ مَالَئُوا أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ؛ فَالْعُبَيْدِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ سَلَّمُوا رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ لِلصَّلِيبِيِّينَ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ سُيُوفِ الصَّلِيبِيِّينَ إِلَّا حَاكِمُ بَيْتِ المَقْدِسِ مِنْ قِبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِهِ؛ إِذْ خَرَجُوا مِنَ الْقُدْسِ سَالِمِينَ بِأَعْيُنِ الصَّلِيبِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلُوا كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِخْوَانُهُمُ الْقَرَامِطَةُ المَجُوسُ هُمُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْحُجَّاجَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، وَرَدَمُوا بِجُثَثِهِمْ بِئْرَ زَمْزَمَ، وَاقْتَلَعُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَأَخَذُوهُ مَعَهُمْ، وَخَطَبَ رَأْسُهُمْ أَبُو طَاهِرٍ الْقِرْمِطِيُّ المَجُوسِيُّ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ مُدَّعِيًا الرُّبُوبِيَّةَ، مُسْتَهْزِئًا بِسُورَةِ الْفِيلِ، سَائِلًا عَنِ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ، عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ مَا يَسْتَحِقُّ(١٨).

= لهذا وبعضه لهذا، فهذا الكلام معروف بالدليل لا يحتاج إلى نقل وإسناد وقول القائل: إن الرافضة تفعل كذا وكذا المراد به بعض الرافضة كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] لم يقل ذلك كل يهودي بل قاله بعضهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] المراد به جنس الناس، وإلا فمعلوم أن القائل لهم غير الجامع وغير المخاطبين المجموع لهم، وما ذكره موجود في الرافضة، وفيهم أضعاف ما ذكر مثل: تحريم بعضهم للحم الأوز والجمل مشابهة لليهود، ومثل جمعهم بين الصلاتين دائمًا، فلا يصلون إلا في ثلاثة أوقات؛ مشابهة لليهود، ومثل قولهم: إنه لا يقع الطلاق إلا بإشهاد على الزوج، مشابهة لليهود، ومثل تنجيسهم لأبدان غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب وتحريمهم لذبائحهم، وتنجيس ما يصيب ذلك من المياه والمائعات، وغسل الآنية التي يأكل منها غيرهم؛ مشابهة للسامرة الذين هم شر اليهود؛ ولهذا يجعلهم الناس في المسلمين كالسامرة في اليهود، ومثل استعمالهم التقية وإظهار خلاف ما يبطنون من العداوة مشابهة لليهود، ونظائر ذلك كثير» منهاج السنة النبوية (١/ ٣٤-٣٨) وسأورد بعد حواشي الخطبة، دراسة مختصرة رصينة للدكتور طه الدليمي رصد فيها أوجهًا للتشابه بين الرافضة واليهود.

(١٨) البداية والنهاية (١١/ ١٦٠)، والعبر في خبر من غبر (٢/ ١٧٣)، والكامل (٧/ ٥٣)، وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٤٧٢)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٢٢٥).

وَنَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ وَالمُؤَيِّدُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ سَهَّلَا لِلتَّتَرِ غَزْوَ بَغْدَادَ وَالْقَضَاءَ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي مُؤَامَرَةٍ قَذِرَةٍ حَفِظَهَا التَّارِيخُ لِلْبَاطِنِيِّينَ(١٩).

---

(١٩) وفي أحداث سنة ٦٥٤ قال المقريزي: «وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك» السلوك (١/ ٤٩٠-٤٩١).
وقال ابن كثير: «وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال؛ وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء» البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٢).
وقال أبو المحاسن بن تغري: «وكان الوزير ابن العلقميّ مع ذلك يصانع التّتار فى الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلمّا استخلف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خليًّا من الرأى والتدبير، فأشار عليه ابن العلقميّ المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند، وأنّه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند ففعل الخليفة ذلك! قلت: وكلمة الشيخ مطاعة! ثم إنّ الوزير بعد ذلك كاتب التّتار وأطمعهم فى البلاد سرًّا، وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهَّل عليهم فتح العراق وأخذ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد فوعدوه بذلك، وتأهّبوا لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤًا صاحب الموصل فى تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سرًّا وحذّره، ثم هيّأ لهم الآلات والإقامات. وكان الوزير ابن العلقميّ المذكور ليس لأحد معه كلام فى تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصّل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره للخليفة، وعمّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التّتار بذلك غاية النّتاج وأخذ أمر الخليفة والمسلمين فى إدبار! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل حذّر الخليفة وحرّك عزمه، والخليفة لا يتحرّك ولا يستيقظ! فلمّا تحقّق الخليفة حركة التّتار نحوه سيّر إليهم شرف الدين بن محيي الدين ابن الجوزى رسولًا يعدهم بأموال عظيمة، ثم سيّر مائة =

وَالصَّفَوِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ اسْتَعَانُوا بِأَعْدَائِهِمُ الرُّومَانِ ضِدَّ خِلَافَةِ بَنِي عُثْمَانَ، وَكَانُوا مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي حَالَتْ دُونَ فَتْحِ الْعُثْمَانِيِّينَ لِأُورُبَّةَ الْغَرْبِيَّةِ؛ إِذْ وَقَفَتْ جُيُوشُ بَنِي عُثْمَانَ عَلَى أَبْوَابِ فِيينَّا بِسَبَبِهِمْ[٢٠]. وَلِلْفُرْسِ الْمَجُوسِ

= رجل إلى الدّربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر؛ لأنّ الأكراد الذين كانوا هناك دلّوا التّتار عليهم، فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين. ثم ركب هولاكو بن تولي خان بن كز خان فى جيوشه من المغل والتّتار وقصدوا العراق، وكان على مقدّمته الأمير بايجونوين، وفى جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة ومن عسكر بركة خان ابن عمّ هولاكو» النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٧/ ٤٨-٤٩).

وقال السيوطي: «ولم يتم للوزير ما أراد، وذاق من التتار الذل والهوان، ولم تطل أيامه بعد ذلك» تاريخ الخلفاء (٤٧٢).

وقال مؤرخ الشيعة الميرزا محمد باقر الخونساري في كتابه (روضات الجنات) الطبعة الثانية ص٥٧٨، في ترجمة نصير الدين الطوسي: «ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو خان ابن تولي خان بن جنكز خان من عظماء سلاطين التتارية وأتراك المغول، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، وقطع دابر سلسلة البغي والفساد، وإخماد ثائرة الجور والإلباس بإبادة دائرة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع الطغام إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار ومحل الأشقياء الأشرار» اهـ.

والطوائف الباطنية اليوم ليس بينهم وبين اليهود والنصارى عداء حقيقي، وهم يتفقون جميعًا على أهل السنة، وإن كانت شعارات الروافض تظهر العداء لإسرائيل وأمريكا، لكن الواقع يكذب هذه الشعارات الجوفاء، وبعض قادة اليهود يعترفون بذلك، يقول شارون في مذكراته: توسعنا في كلامنا عن علاقات المسيحيين بسائر الطوائف الأخرى، لا سيّما الشيعة والدروز شخصيًا طلبت منهم توثيق الروابط مع هاتين الأقليتين، حتى إنني اقترحت إعطاء قسم من الأسلحة التي منحتها إسرائيل ولو كبادرة رمزية إلى الشيعة الذين يعانون هم أيضًا مشاكل خطيرة مع منظمة التحرير الفلسطينية، ومن دون الدخول في أي تفاصيل، لم أرَ يومًا في الشيعة أعداء إسرائيل على المدى البعيد. مذكرات شارون (٥٨٣-٥٨٤) الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ترجمة أنطوان عبيد، مكتبة بيسان، بيروت.

(٢٠) ينظر: أزمة الخليج الرابعة، هل تعيد الصراع بين الفرس والروم، د. عبدالعزيز كامل، مجلة البيان عدد (٢٢٦) ص(٦٤).

وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْبَاطِنِيِّينَ الْعَرَبِ صَوَلَاتٌ وَجَوَلَاتٌ وَخِيَانَاتٌ أَيَّامَ الِاسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ لِبِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَلَا زَالَ كَيْدُهُمْ وَمَكْرُهُمْ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَظَهَرَ لِكُلِّ النَّاسِ فِي الْحَمْلَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الْجَدِيدَةِ دَوْرُ الْفُرْسِ فِي إِسْقَاطِ الْعِرَاقِ وَبِلَادِ الْأَفْغَانِ تَحْتَ أَقْدَامِ الِاحْتِلَالِ، وَمُفَاخَرَتُهُمْ بِذَلِكَ وَإِعْلَانُهُ عَلَى الْمَلَإِ دُونَ حَيَاءٍ وَلَا مُوَارَبَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ عَمِلُوا مِنَ الْجَرَائِمِ الْبَشِعَةِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مَا هَابَ الْمُحْتَلُّ الصَّائِلُ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَهُ؛ فَهَذِهِ حَالُ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا الرُّومَانُ فَقَدْ سَيَّرُوا لِلْمَشْرِقِ الْمُسْلِمِ خِلَالَ مِئَتَيْ سَنَةٍ ثَمَانِيَ حَمَلَاتٍ صَلِيبِيَّةٍ كُبْرَى، وَقَضَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَأَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، وَنَصَّرُوا مَنْ سَلِمَ مِنَ الْإِبَادَةِ وَالتَّهْجِيرِ. وَعَقِبَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ انْتَهَبُوا أَمْصَارَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَسَّمُوهَا بَيْنَهُمْ فِيمَا عُرِفَ بِالِاسْتِعْمَارِ وَالِانْتِدَابِ الْأَجْنَبِيِّ، وَمَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَّا وَقَدْ سَيْطَرُوا عَلَيْهَا سِيَاسِيًّا وَعَسْكَرِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا، وَلَا زَالَ هَذَا دَأْبَهُمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

تِلْكَ كَانَتْ أَبْرَزَ الْعَنَاوِينِ فِي عَلَاقَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْفُرْسِ وَبِالرُّومِ، وَأَهَمُّ الْمَلَامِحِ مِنْ تَارِيخِ الصِّرَاعِ الرُّومَانِيِّ الْفَارِسِيِّ الَّذِي يُوشِكُ أَنْ يَنْدَلِعَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى أَرَاضِي الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَكُونَ حَطَبُهُ بِلَادَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَأَبْنَاءَهُمْ وَمُقَدَّرَاتِهِمْ، كَمَا كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ حَطَبًا لِحُرُوبِ فَارِسَ وَالرُّومِ.

حَفِظَ اللهُ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَأَدَارَ الدَّائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الخُطبَة الثّانِيَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوا نِعَمَهُ وَلَا تَكْفُرُوهُ ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥، ٦٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَفِي كُلِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ أَبْرَارٌ وَفُجَّارٌ، وَأَخْيَارٌ وَأَشْرَارٌ، وَكَمَا كَانَ فِي الْعَرَبِ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ كَانَ فِي الْفُرْسِ وَفِي الرُّومِ كُفَّارٌ كَكُفَّارِ الْعَرَبِ، وَكَمَا كَانَ فِي الْعَرَبِ مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ كَانَ فِي الْفُرْسِ وَالرُّومِ مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ، يَتَقَدَّمُهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ وَالصَّلَاحِ: سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ؛ اللَّذَانِ سَبَقَا إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ، وَقَبْلَ ذِلَّةِ الرُّومِ وَفَارِسَ؛ فَرَضِيَ اللهُ عَنْ سَلْمَانَ وَعَنْ صُهَيْبٍ.

بَيْدَ أَنَّ الدَّوْلَةَ الْفَارِسِيَّةَ الْمُسْتَقْوِيَةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ قَدَّمَتْ عَصَبِيَّتَهَا لِعِرْقِهَا عَلَى إِسْلَامِهَا، وَلَا زَالَتْ تُفَاخِرُ بِفَارِسِيَّتِهَا عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَتَسْعَى جَاهِدَةً لِإِعَادَةِ الْأَمْجَادِ الْفَارِسِيَّةِ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، وَيَكْفِي فِيهِمْ أَنَّهُمْ يُفَاخِرُونَ بِالمَجُوسِيِّ الَّذِي قَتَلَ عُمَرَ رضي الله عنه، وَيَعُدُّونَهُ مِنْ شُهَدَائِهِمْ، وَهُوَ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَسْجُدْ سَجْدَةً وَاحِدَةً لِلَّهِ تَعَالَى![٢١].

---

(٢١) جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لما علم أن قاتله الغلام المجوسي قال: «الحمد لله الذي لم يجعله رجلًا من المسلمين يحاجني بسجدة سجدها لله يوم القيامة» رواه ابن سعد (٣/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٠)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٤٣٥)

وَلَا زَالُوا يُزْرُونَ بِالصَّحَابَةِ ﷺ وَيُكَفِّرُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَأَشُدُّ مَا تَكُونُ نِقْمَتُهُمْ عَلَى عُمَرَ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ(٢٢)؛ لِأَنَّ فَتْحَ فَارِسَ، وَإِطْفَاءَ النَّارِ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا أَجْدَادُهُمْ إِنَّمَا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بِقِيَادَةِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ وَعَنْ سَعْدٍ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ تَوَارَدَتْ أَخْبَارُ مَذَابِحَ جَمَاعِيَّةٍ فِي الْعِرَاقِ لِكُلِّ مَنْ كَانَ اسْمُهُ عُمَرَ؛ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ زِنْدِيقًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا صَالِحًا(٢٣).

وَإِذَا كَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقُودًا لِحُرُوبِ فَارِسَ وَالرُّومِ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ قَدْ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْأَحْدَاثِ الْمُعَاصِرَةِ؛ إِذْ أَضْحَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مَوْقِعَ تَصَارُعٍ وَتَنَافُسٍ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَالرُّومَانِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ اخْتَارُوا الْمَذَاهِبَ الْبَاطِنِيَّةَ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرَبِ، وَانْضَوَوْا تَحْتَ لِوَاءِ الْأُمَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَكَانَ وَلَاؤُهُمْ لَهَا أَعْظَمَ مِنْ وَلَائِهِمْ لِدُوَلِهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَذْهَبَ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ يَقُومُ عَلَى الْعُنْصُرِيَّةِ لِلْعِرْقِ وَالْجِنْسِ، فَلَا مَكَانَ لَهُمْ فِيهِ، وَمَهْمَا قَدَّمُوا لِلْفُرْسِ فَلَنْ يَحْظَوْا عِنْدَهُمْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ أُصُولَهُمْ لَيْسَتْ فَارِسِيَّةً، إِنْ هُمْ إِلَّا أُجَرَاءُ وَعُمَّالٌ يُنَفِّذُونَ الْمُخَطَّطَاتِ الْفَارِسِيَّةَ فَحَسْبُ، ثُمَّ يُلْفَظُونَ كَمَا لُفِظَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ الْمُنْضَوِيَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ تَحْتَ اللِّوَاءِ الْفَارِسِيِّ. بَلْ إِنَّ فِي عَقَائِدِ الْفُرْسِ الْجُدُدِ أَنَّهُمْ مَتَى تَمَكَّنُوا أَبَادُوا غَيْرَ جِنْسِهِمْ مِمَّنْ هُمْ يَدِينُونَ

---

(٢٢) ذكر لي أحد الإخوة أنه شاهد فيلمًا على قناة إيرانية، مثلوا فيها دور سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتعرى من ثيابه في تصوير بشع لا يليق بمؤمن، فكيف بصحابي جليل كسعد رضي الله عنه؟!

(٢٣) وبعد هذه الخطبة بسنوات كتبت مقالة بعنوان: (إيران واسمي عمر وعائشة) وهو منشور في مواقع كثيرة من الشبكة العالمية، وفيه ما يدمي القلب.

بِدِينِهِمْ، وَيَتَمَذْهَبُونَ بِمَذْهَبِهِمُ الْبَاطِنِيِّ؛ فَاتِّبَاعُ الْمَذْهَبِ لَا يُلْغِي الْعَصَبِيَّةَ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْعِرْقُ عَرَبِيًّا، وَالْعِرْقُ عِنْدَهُمْ فَوْقَ الدِّينِ.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ اخْتَارُوا التَّرْوِيجَ وَالتَّمْكِينَ لِلْمَشَارِيعِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ مَا يُسَمَّى بِالشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ أَوِ الْجَدِيدِ، أَنَّهُمْ مُجَرَّدُ عُمَّالٍ وَخَدَمٍ يَجْرِي اسْتِخْدَامُهُمْ وَانْتِعَالُهُمْ ثُمَّ اسْتِبْدَالُهُمْ، وَلَيْسُوا أَكْثَرَ مِنْ غَسَاسِنَةٍ جُدُدٍ عِنْدَ رُومَانٍ جُدُدٍ، وَلَا يَزَالُ الرُّومَانُ يَحْتَقِرُونَهُمْ أَبَدَ الدَّهْرِ.

وَمَا أَضْحَتْ بِلَادُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَمُقَدَّرَاتُهُمْ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، وَمَيْدَانًا لِتَنَافُسٍ جَدِيدٍ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي أَوْرَثَتِ الْمُسْلِمِينَ ذُلًّا وَصَغَارًا وَتَفَرُّقًا حَتَّى هَانُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ.. عَصَوُا اللهَ تَعَالَى فَذَلُّوا وَهَانُوا، وَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فَضَعُفُوا وَاسْتَكَانُوا، وَلَا يَزَالُونَ مُتَرَبِّصِينَ يَنْتَظِرُونَ مَا تُسْفِرُ عَنْهُ هَذِهِ الْحُرُوبُ الْمُشْتَعِلَةُ الَّتِي تَطْحَنُ بِلَادَهُمْ، وَتَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَتُخَرِّبُ عُمْرَانَهُمْ، وَثَمَرَاتُهَا لِغَيْرِهِمْ، وَعَلْقَمُهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا الِانْتِظَارُ وَالتَّرَبُّصُ فَهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ لَا عَلَى الْفِعْلِ، وَلَا عَلَى رَدِّ الْفِعْلِ، وَلَا عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَلَا مَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِزَالَةِ أَسْبَابِ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ.

وَكُلُّ مَا يَجْرِي نَحْنُ مَسْئُولُونَ عَنْهُ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ أَمَامَ التَّارِيخِ بِذُنُوبِنَا وَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ لَعَلَّكُمْ تُحْفَظُونَ وَتُنْصَرُونَ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٨٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ...(٢٤).

---

(٢٤) هذه دراسة متينة رصد فيها الدكتور طه الديلمي أوجه الشبه بين الروافض واليهود:

. . . .

= **عقيدة دينية أم عقدة نفسية؟**

الدكتور: طه حامد الدليمي

خمس عقائد مشتركة:

مما يلفت الانتباه عند النظر في حديث القرآن الكريم عن اليهود جملة آيات في موضع واحد منه تطرقت إلى ذكر خمس عقائد من عقائدهم، وقد تصدرت بالتيئيس من إيمانهم بسبب وجودها عندهم. هذه العقائد الخمسة موجودة بنصها عند الشيعة! يقول تعالى:

١- ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. وفي الآية الحديث عن عقيدة التحريف المشتركة بين اليهود والشيعة.

٢- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]. وفيها عقيدة (التقية) المحرفة عند الطرفين .﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

٣- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. وغالب الشيعة -وفي مقدمتهم علماؤهم- جهلة بما في الكتاب، لا يعلمون عنه ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. وحوزاتهم ليس فيها درس للقرآن! ولا من منهاجهم حفظ جزء واحد منه! ويبقى الطالب يدرس أكثر من عشر سنين لا يمسك بيده في حجرة الدرس المصحف يومًا من الأيام! ونادرًا ما سمعت معممًا شيعيًّا يتلو آيات من القرآن إلا ويخطئ فيها! وقد حرفوا معانيه وطوعوها لأمانيهم وظنونهم؛ فهم أولى العالمين بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

٤- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وهذا ما يفعله علماء الشيعة بلا استثناء.

٥- ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]. بل إن الشيعة سبقوا اليهود في هذه! فاليهود سلموا بأن النار ستمسهم أيامًا معدودة. أما الشيعة فيعتقدون أن النار لن تمسهم قط مهما عملوا من ذنوب، وارتكبوا من فواحش واجترحوا من معاص!! والمعروف أن عقائد الشيعة وطقوسهم تتطور مع الزمن، فلا يأتي عليهم زمان إلا والذي بعده شر منه. فلعلهم طوروا هذه العقيدة بعد أن أخذوها عن اليهود. =

. . . .

= **سلسلة من العقائد والطقوس المتشابهة:**

وهذه بعض العقائد والطقوس المشتركة بين اليهود والشيعة:

اليهود	الشيعة
١- تعطيل العقل والتسليم للحاخام: أوجبت اليهود تصديق الحاخام حتى لو قال بأن يدك اليسرى هي اليمنى! جاء في التلمود: (اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء وزيادة فإذا قال لك الحاخام: إن يدك اليمني هي اليسرى وبالعكس فصدق ولا تجادله). الكنز المرصود في تعاليم التلمود، يوسف نصر الله، ص٤٦.	**١- تعطيل العقل والتسليم للفقيه أو الإمام:** وكذلك قالت الشيعة بوجوب تصديق الإمام حتى لو قال بأن الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار! فقد ادعوا أن جعفر بن محمد سئل: يا ابن رسول الله إن الرجل يُعرف بالكذب يأتينا بالحديث عنكم أنرده؟ قال: يقول لكم: إن جعفر بن محمد يقول: الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار؟ قالوا: ما يبلغ هذا الحد. فقال: إن قال لك: إن جعفر بن محمد يقول: الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار فلا تكذبه؛ فإنك أن كذبته إنما كذبت جعفر بن محمد. بصائر الدرجات، ص١٥٤.
٢- الحاخامات يعلمون الملائكة الدين: يزعم اليهود أن الحاخامات (الربانيين) يعلمون أهل السماء. جاء في التلمود: (أن الربانيين يعلمون أهل السماء). همجية التعاليم الصهيونية ص٢٥. بل قالت اليهود بأن الله يستشير الحاخامات في حلول أي مشكلة معضلة. جاء في التلمود: (إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد معضلة لا يمكن حلها في السماء). الكنز المرصود، ص٤٦	**٢- الأئمة يعلمون الملائكة الدين:** ويزعم الشيعة أن أئمتهم هم الذين علموا الملائكة التوحيد. جاء في رواية طويلة فيما افتروه على النبي ﷺ أنه قال لعلي: (... ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نورًا واستعظموا أمورنا فسبحنا لتعلم الملائكة أنا مخلوقون، وأنه منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة لتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا ... فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده). علل الشرائع، ص٥.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣- الشريعة كلام الحاخامات: يتمسك اليهود في جميع أنحاء العالم بتعاليم التلمود، ويعتبرونه كتابًا منزلًا؛ إذ يرون أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة على طور سيناء مدونة. ولكنه أعطاه التلمود مشافهة. ولا يكتفي اليهود بهذا، بل يضعون التلمود في منزلة أسمى من التوراة والتلمود من ستة آلاف صفحة. جاء في التلمود: (يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة أي التوراة). الكنز المرصود، ص٤٥. بل جاء فيه: (من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت دون من احتقر أقوال التوراة. ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى).	**٣- الشريعة كلام الأئمة أو المراجع:** يقول الخميني دجال الشيعة: (إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن لا تخص جيلًا خاصًا، وإنما هي تعاليم للجميع في كل عصر ومصر إلى يوم القيامة). الحكومة الإسلامية ١١٢. قارن هذا القول بما ينسبه الكليني كذبًا إلى جعفر الصادق أنه قال: (ما جاء به علي (ع) آخذ به وما نهى عنه أنتهي عنه. المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله). أصول الكافي: ١/ ١٩٦.
٤- الرد على الحاخام كالرد على الله: يعتقد اليهود بأن من جادل حاخامه كمن جادل الله. جاء في التلمود: (من يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ؛ وكأنه جادل العزة الإلهية) الكنز المرصود، ٤٦.	**٤- الرد على الإمام أو الفقيه كالرد على الله:** ويعتقد الشيعة العقيدة نفسها في الإمام بأن الراد على أئمتهم كالراد على الله. يقول محمد رضا المظفر: (إن أمرهم أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته و... ولا يجوز الرد عليهم، والراد عليه كالراد على رسول الله، والراد على رسول الله كالراد على الله تعالى) عقائد الإمامية، ص١٠٦.

. . . .

	وكذلك الأمر بالنسبة للفقهاء (الحاخامات) يقول محمد رضا المظفر وغيره: (عقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط أنه نائب عام للإمام (ع) في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والراد عليه راد على الإمام، والراد على الإمام راد على الله وهو على حد الشرك بالله) عقائد الشيعة لمحمد رضا المظفر ص٩.
اليهود	**الشيعة**
٥- اتخاذ العلماء أربابًا من دون الله: قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وذلك بأن أنزلوا كلامهم منزلة كلام الله أو أشد. أحلوا لهم وحرموا عليه فأطاعوهم حتى لو كان في خلاف طاعة الله.	**٥- اتخاذ العلماء أربابًا من دون الله:** وكذلك يفعل الشيعة بعلمائهم حذو القذة بالقذة. وما أسلفناه في الفقرة السابقة أوضح شاهد.

. . . .

اليهود	الشيعة
٦- الحاخامات أعلى مرتبة من الأنبياء: يدعي اليهود أن حاخاماتهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام. جاء في التلمود: (اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء لأن أقوالهم هي قول الله الحي) الكنز المرصود، ص٤٦.	**٦- الأئمة أعلى مرتبة من الأنبياء:** ويدعي الشيعة أن أئمتهم أفضل من الأنبياء والرسل والملائكة المقربين عليهم السلام. يقول الحر العاملي: (الأئمة الاثنا عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين والملائكة وغيرهم). الفصول المهمة ص١٥٢. ويقول حاخام إيران الأكبر الخميني: (إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون. وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لم يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل ووردَ عنهم عليهم السلام: إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل). الحكومة الإسلامية، ص٥٢.
٧- عصمة الحاخام: يعتقد اليهود بعصمة حاخاماتهم. يقول الحاخام روسكي أحد كتبة التلمود، معلقًا على خلاف وقع بين حاخامين: (إن الحاخامين المذكورين قالا الحق؛ لأن الله جعل الحاخامات معصومين من الخطأ) الكنز المرصود، ص٤٧.	**٧- عصمة (الإمام):** ويعتقد الشيعة بعصمة أئمتهم. وهذا أمر أطبقوا عليه جميعًا، ولا يحتاج إلى شواهد. يقول محمد رضا الظفر: (ونعتقد أن الأمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا) عقائد الإمامية ص١٠٤.

. . . .

اليهود	الشيعة
٨- عقيدة الرجعة: وقد ذكرها ابن سبأ اليهودي الفارسي يوم قال للذي نعى عليًّا رضي الله عنه: (كذبت! لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلًا لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، ولا يموت حتى يملك الأرض).	**٨- عقيدة الرجعة:** وهذه العقيدة موجودة عند الشيعة بنصها. وقد ألفوا فيها مؤلفات مستقلة. ومن رواياتهم فيها: عن أمير المؤمنين (ع) قال: أنا قسيم الله بين الجنة والنار لا يدخلها الداخل إلا على حد قسمي ... وإني لصاحب الكرات ودولة الدول. الكافي ١/ ١٩٨. قال في الحاشية: أي: الرجعات إلى الدنيا.
٩- عقيدة البداء: جاء في التوراة أن الله قد بدا له أنّ شعبه المختار شرد في الأرض، فحزن كثيرًا وأخذ يبكي وينوح!!	**٩- عقيدة البداء:** والعقيدة نفسها يرددها الشيعة. ورووا في فضلها الكثير، منه: عن أبي عبد الله: قال: لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه. الكافي: ١/ ١٤٨.
١٠- شتم عيسى عليه السلام: زعم اليهود بأن عيسى عليه السلام يعذب أشد العذاب في لجات الجحيم، جاء في التلمود (أن يسوع الناصري موجود بين القار والنار) الكنز المرصود، ص١٠١.	**١٠- شتم الصحابة رضي الله عنهم:** وزعم الشيعة أن الخلفاء الراشدين يعذبون بتابوت في نار جهنم، يتعوذ أهل النار من حره: يروي القمي في تفسير (قل أعوذ برب الفلق) قال: الفلق جب في نار جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حره. فسأل الله من شدة حره أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم. قال: وفي ذلك الجب صندوق من نار جهنم يتعوذ أهل الجب من حر ذلك التابوت الصندوق، وهو التابوت، وفي

. . . .

	ذلك التابوت ستة من الأولين وستة من الآخرين. فأما الستة التي من الأولين فابن آدم الذي قتل أخاه، ونمرود إبراهيم الذي ألقى إبراهيم في النار، وفرعون موسى، والسامري الذي اتخذ العجل، والذي هود اليهود، والذي نصر النصارى. وأما الستة التي من الآخرين فهم الأول والثاني والثالث والرابع وصاحب الخوارج وابن ملجم لعنهم الله) تفسير القمي، ٢/ ٤٩٩.
١١- رمي السيدة مريم بالفاحشة: رمى اليهود لعنهم الله مريم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالفاحشة مع تبرئة الله لها. جاء في التلمود: (إن يسوع الناصري موجود بين القار والنار. وقد أتت به أمه من العسكري (باندار) عن طريق الخطيئة). المصدر السابق.	**١١- رمي السيدة عائشة بالفاحشة:** ورمى الشيعة لعنهم الله عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالفاحشة مع تبرئة الله لها. فبلغ الحقد في نفوس هؤلاء الشيعة أن يتهموا عائشة في عرضها. فهذا الكليني صاحب تلمودهم الكافي يصمها في عرضها ودينها وعفتها لعنه الله. يدَّعي هذا اللعين أن الحسن قال لأخيه الحسين: (واعلم أن سيصيبني من الحميراء ما يعلم الناس من صنيعها وعداوتها لله ولرسوله صلى الله عليه وآله). وأن الحسين بن علي قال لها: (قديمًا هتكت أنت وأبوك حجاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدخلتِ بيته من لا يحب رسول الله ﷺ قربه). وأنه قال: (وقد أدخلت أنت بيت رسول الله ﷺ الرجال بغير أذنه) الكافي، ٢/ ٢٤٠-٢٤١. ورمي عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالبهتان الذي يهتز له عرش الرحمن شائع في كتب الشيعة.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٢- شعب الله المختار: يدعي اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم خاصة الله من بين كل الشعوب. وهي قضية معروفة مسلّمة.	**١٢- شعب الله المختار:** ويدعي الرافضة أنهم شيعة الله وخاصة الله وصفوته من خلقه: فعن جعفر بن محمد أنه قال: (نحن خيرة الله من خلقه وشيعتنا خيرة الله من أمة نبيه) أمالي الطوسي ص٧٦. ويسمون أهل السنة (عامة)، وهم الخاصة.
١٣- اليهود مخلوقون من ذات الله: يزعم اليهود أن أرواحهم -دون باقي الأرواح- مخلوقة من الله تعالى. فقد جاء في التلمود: (تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود.	**١٣- الشيعة مخلوقون من ذات الله:** ويدّعي الشيعة أن أرواحهم مخلوقة من نور الله تعالى، ولم يجعل الله ذلك لأحد غيرهم إلاللأنبياء: يروي الكليني في تلمودهم الكافي عن أبي عبدالله أنه قال: (إن الله خلقنا من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة تحت العرش فأسكن ذلك النور فيه، فكنا خلقًا وبشرًا نورانيين لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيبًا. وخلق شيعتنا من طينتنا وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل ذلك الطينة، ولم يجعل لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيبًا إلا للأنبياء. ولذلك صرنا نحن وهم الناس وسائر الناس همج للنار وإلى النار) الكافي ١/ ٣٨٩. ورووا عن الصادق أنه قال: (خلقنا الله من نور عظمته، وصنعنا برحمته، وخلق أرواحكم منا) الاختصاص، ص٢١٦.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٤- اليهود أفضل من الملائكة: يعتقد اليهود أنهم أفضل من الملائكة. جاء في التلمود: (الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. فإذا ضرب أممي إسرائيليًّا فكأنة ضرب العزة الإلهية ويستحق الموت) إسرائيل والتلمود ٨٠.	**١٤- الشيعة أفضل من الملائكة:** ويعتقد الشيعة أيضًا أنهم أفضل من الملائكة. رووا عن أبي عبد الله أنه قال: (أنتم للجنة والجنة لكم أسماؤكم الصالحون والمصلحون وأنتم أهل الرضا عن الله برضاه عنكم، والملائكة إخوانكم في الخير إذا اجتهدوا) صفات الشيعة وفضائل الشيعة، ص٥٣.
١٥- اليهود هم الناس وغيرهم حيوانات: يدعي اليهود أنهم هم الناس، أما غيرهم فليسوا ناسًا من الناس، وإنما خلقهم الله على هذه الصورة لخدمة اليهود. جاء في التلمود: (خلق الله الأجنبي على هيئة إنسان ليكون لائقًا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم) إسرائيل والتلمود، ص٦٩. وجاء في التلمود: (الأمم الخارجة عن اليهود ليست فقط كلابًا بل حمير أيضًا) الكنز المرصود، ص٦٨. وجاء في تفضيلهم الحيوانات على باقي الأمم: (إن الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرح له أيضًا أن يعطيهم لحمًا، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم) المصدر السابق، ص٦٨.	**١٥- الشيعة هم الناس وغيرهم حيوانات:** ويعتقد الشيعة كذلك أنهم والأئمة هم الناس، أما ما عداهم فليسوا ناسًا من الناس، بل أنجس من الكلب. وهذا ما نصت عليه رواياتهم وعلماؤهم. ففي رواية عن أبي عبد الله أنه قال: (الشيعة هم الناس وغيرهم الله أعلم بهم ماهم؟) تفسير العياشي، ص٤٠. وعن أبي بصير قال: (حججت مع أبي عبد الله، فلما كنا في الطواف قلت له: جعلت فداك يا ابن رسول الله يغفر الله لهذا الخلق؟ فقال يا أبا بصير: إن أكثر من ترى قردة وخنازير، قال: قلت له: أرنيهم؟ قال: فتكلم بكلمات ثم أمرَّ يده على بصري فرأيتهم قردة وخنازير، فهالني ذلك، ثم أمرَّ يده على بصري فرأيتهم كما كانوا في المرة

. . . .

	الأولى) بصائر الدرجات للصفار، ص٢٦٠. ويروي الطوسي عن محمد بن الحنفية أنه كان يحدث عن أبيه أنه قال: (ما خلق الله ﷻ شيئًا أشر من الكلب، والناصب أشر منه) أمالي الطوسي ٢٧٩، وبحار الأنوار ٢٧/ ٢٢١.
١٦- الجنة لليهود فقط وما عدا ففي النار: يدعي اليهود أنه لايدخل الجنة إلا اليهود وغيرهم ليس لهم غير النار. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وجاء في التلمود: (هذه الجنة اللذيذة لا يدخلها إلا اليهود، أما الباقون فيزجون في النار) همجية التعاليم الصهيونية ص٥٥. وفي نص آخر: (النعيم مأوى أرواح اليهود ولايدخل الجنة إلا اليهود، أما الجحيم فمأوى الكفار من المسيحيين والمسلمين فلا نصيب لهم فيه سوى البكاء؛ لما فيه من الظلام والعفونة والطين) الكنز المرصود، ص٦٢.	**١٦- الجنة للشيعة فقط وما عدا ففي النار:** ويدعي الشيعة كذلك أنهم وحدهم سيدخلون الجنة، أما أعداؤهم فيدخلون النار. فعن علي أنه قال: (سيؤتى بالرجل من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن جاز الولاية والتقية ... إلخ، ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة من النواصب فيقال: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النواصب النار) تفسير فرات ١١٣. وفي رواية عن أبي عبد الله جاء في آخرها: (والله لا يدخل النار منكم اثنان، لا والله ولا واحد) الكافي ٨/ ٧٨. وعنه أنه قال: (أن الله خلق المؤمن من طينة الجنة، وخلق الناصب من طينة النار) بصائر الدرجات، ص٣٦.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٧- اليهود في الجنة مهما فعلوا: يدعي اليهود أنهم لا يدخلون النار وإن كانوا مذنبين. جاء في التلمود: (إن النار لا سلطان لها على مذنبي بني إسرائيل، ولا سلطان لها على تلامذة الحكماء) ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه، ص٧٩.	**١٧- الشيعة في الجنة مهما فعلوا:** ويدعي الشيعة أيضًا الدعوى نفسها أن لا يدخل النار منهم أحد. روى البحراني أن النبي ﷺ قال لعلي: (جئت أبشرك. اعلم أن في هذه الساعة نزل عليّ جبريل وقال: الحق يقرئك السلام يقول: بشر عليًّا أن شيعته الطائع والعاصي من أهل الجنة). الكشكول ١/ ١٥٣. والروايات فيه كثيرة. منها: عن أبي عبد الله (ع) قال: ... وإن الله ليستحيي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة. أصول الكافي ١/ ٣٧٦.
١٨- نجاسة غير اليهود: يعتقد اليهود بنجاسة مخالفيهم مطلقًا، وأن النجاسة لازمة لأصل خلقهم. يقول أحد كتبة التلمود: (لماذا الغويم -غير اليهود- نجسون؟ لأنهم يأكلون أطعمة رديئة وحيوانات تزحف على بطنها) فضائح التلمود، ص٩٠. وفيه أيضًا: (محرمة الأشياء التالية الخاصة بالغويم: الحليب الذي يستدره الغويم من البقرة في غياب اليهودي، ومحرم أيضًا خبزهم) المصدر السابق، ص١١٤.	**١٨- نجاسة غير الشيعة:** ويعتقد الشيعة بنجاسة مخالفيهم مطلقًا، لا سيما أهل السنة، ويغسلون الإناء الذي يأكلون فيه، أو يتلفونه. وأن النجاسة لازمة لأصل خلقهم. فعن خالد القلانسي قال: قلت لأبي عبد الله: ألاقي الذمي فيصافحني، قال: امسحها بالتراب وبالحائط. قلت: فالناصب، قال: اغسلها) الأصول من الكافي ٢/ ٦٥٠. ويقول الخميني حاخام الشيعة الأكبر: (وأما النواصب والخوارج لعنهم الله فهما نجسان من غير توقف) تحرير الوسيلة ١/ ١٠٧.

. . . .

الشيعة	اليهود
١٩- لولا الشيعة لانعدمت البركة من الأرض: ويعتقد الشيعة أنه لولاهم لم يخلق الله هذا الكون، ولولاهم ما أنعم الله على أهل الأرض. فعن أبي عبد الله أنه قال: (لولا ما في الأرض منكم ما رأيت بعين عشبًا أبدًا. والله لولا ما في الأرض منكم ما أنعم على أهل خلافكم، ولا أصابوا الطيبات) الكافي ٨/ ٢١٢.	**١٩- لولا اليهود لانعدمت البركة من الأرض:** يعتقد اليهود أنه لولا اليهود لم يخلق الله هذا الكون، ولولاهم لانعدمت البركة من الأرض. جاء في التلمود: (لولم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود، ص٦٩.
٢٠- كل ما في الأرض للشيعة: ويزعم الشيعة أن كل ما في هذه الأرض هو ملك للأئمة، وقد منحوه لهم، وإن امتلك أحد من غير الشيعة شيئًا فإنه حرام عليه، وإذا قام القائم فسوف يسترده منه. ونسبوا ذلك للأئمة؛ فقد رووا عن أبي عبد الله أنه قال: (إن الأرض كلها لنا، وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون .. وأما ما كان في أيدي غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا، فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صغرة) الكافي ١/ ٤٠٨. وعن أبي عبد الله (ع) قال: ما كان لنا فهو لشيعتنا، وليس لعدونا منه شيء إلا ما غصب عليه، وإن ولينا لفي أوسع مما بين ذه إلى ذه، يعني ما بين السماء والأرض. أصول الكافي ١/ ٥٤٤.	**٢٠- كل ما في الأرض لليهود:** يزعم اليهود أن كل ما في هذه الأرض هو ملك لهم، ولا يحق لغير اليهود أن يمتلك شيئًا منه. وأنه يجوز لليهودي أن يسترد الأملاك بأي وسيلة إذا امتلكها غير اليهودي. ففي التلمود: (الحقيقة المقررة عند الربانيين أنه يمكن لليهودي أن يأخذ أي شيء يخص المسيحيين أيًا كان السبب حتى بالاحتيال، ولا يمكن أن يعتبر هذا العمل لصوصية؛ لأنه (أي اليهودي) لم يأخذ سوى ما يخصه هو) فضح التلمود، ص١٣١. وفيه أيضًا: (جميع ما يخص الغويم هو كالصحراء يستطيع أن يدعي أنها ملكه أول من يسرع متوليًا عليها) المصدر السابق. ويقول أحد أحبارهم:(إن ممتلكات النصراني بالنظر إلى اليهودي هي ممتلكات لا مالك لها مثل رمال البحار. وأول يهودي يستولي عليها عنوة يكون مالكها الأصيل) همجية التعاليم الصهيونية، ص٧٧.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢١- استحلال مال غير اليهودي: وبناء على ما سبق استحلوا سرقة أو أخذ مال الغير. وهذا ما قاله الله عنهم في كتابه حين قال: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].	**٢١- استحلال مال غير الشيعي:** وكذلك الشيعة، وللسبب نفسه يستحلون أخذ مال الآخر بأي وسيلة كانت. (خذ مال الناصب حيثما وجدته وادفع إلينا الخمس) تهذيب الأحكام للطوسي ١/ ٣٨٤، ووسائل الشيعة للحر العاملي ٦/ ٣٤٠. وشيعة اليوم على هذه العقيدة. يقول الخميني عند حديثه عن (الخمس) في كتابه تحرير الوسيلة: (والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتنم منهم وتعلق الخمس، بل الظاهر جواز أخذ ماله أين وجد وبأي نحو كان، ووجوب إخراج الخمس) تحرير الوسيلة ١/ ٢١٨. والخوئي منهاج الصالحين ١/ ٣٢٥.
٢٢- استحلال دم غير اليهود: جاء في التلمود: (اقتل الصالح من غير اليهود. ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدًا من الأجانب من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، بل عليه أن يسدها بحجر) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود ص٧٢.	**٢٢- استحلال دم غير الشيعة:** أما موقف الشيعة من دماء المسلمين فهم يستبيحون دماء المسلمين وأموالهم، خاصة أهل السنة (النواصب، بتعبيرهم). بل قد جاءت الروايات في كتبهم بالحث على قتل أهل السنة وأخذ أموالهم أينما وجدوا. وهذه واحدة من كبائرهم: عن ابن فرقد قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما تقول في قتل الناصب؟ قال: حلال الدم، ولكن أتقي عليك، فإن قدرت أن

. . . .

	تقلب عليه حائطًا أو تغرقه في البحر فافعل. قال: ما تقول في ماله؟ قال: خذ ما قدرت عليه) بحار الأنوار للمجلسي، ٢٧/ ٢٣١.
٢٣- التعامل بالربا: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]. وفي التلمود: (أمرنا الله بأخذ الربا من الذمي، وأن لا نقرضه شيئًا إلا تحت هذا الشرط وبدون ذلك نكون ساعدناه) الكنز المرصود في تعاليم التلمود، ص٨٠. وفي التلمود أيضًا: (غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا) المرجع السابق ٨٠.	**٢٣- التعامل بالربا:** والأمر نفسه جاء في المصادر المعتمدة عند الشيعة. ففيما نسبوه زورًا وبهتانًا إلى جعفر الصادق أنه قال: (ليس بين المسلم وبين الذمي ربا ولابين المرأة وبين زوجها ربا) من لايحضره الفقيه ٣/ ١٨٠. ويقول حاخام إيران: (وأما ما اغتنم منهم بالسرقة والغيلة وكذا بالربا والدعوى الباطلة فالأحوط إخراج الخمس فيها من حيث كونها غنيمة) تحرير الوسيلة ١/ ٢٥١.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٤- ضربت عليهم الذلة والمسكنة: قال الله تعالى مخبرًا عن اليهود: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]. ويقول جل في علاه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ولذلك يستعمل اليهود مع خصومهم تقية الشيعة كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].	٢٤- ضربت عليهم الذلة والمسكنة: مما يثبت انتماء الشيعة لليهود هوضرب الله ﷻ عليهم الذلة والمسكنة؛ وهذه هي العلة التي من أجلها تجد الشيعة يستخدمون النفاق باسم التقية، وهي خلق اليهود كما أخبر الله عنهم في أكثر من مناسبة في كتابه، وهكذا تجدهم على مر العصور والأزمان يتقلبون في الذلة والمسكنة والهوان. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الشيعة: (وليس لهم عقل ولا نقل ولا دين صحيح ولا دنيا منصورة) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٨٠. ويؤيده قول محمد رضا المظفر: (ومن المعلوم أن الأمامية وأئمتهم لاقوا من ضروب المحن وصنوف الضيق على حرياتهم في جميع العهود ما لم تلقه أية طائفة أو أمة أخرى) عقائد الأمامية، ص١٢٣؛ فلهذا كانت الذلة والمسكنة التي ضربها الله على اليهود سببًا رئيسًا ودافعًا قويًا لاتباعهم أسلوب النفاق والتقية مع مخالفيهم واللف والدوران والتذلل والخضوع لهم. وهذا عقاب من الله ﷻ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٥- التقية: وهذه من جنس سابقتها. جاء في التلمود: (مصرح لليهودي أن يجامل الأجنبي ظاهرًا ليتقي شره على أن يضمر له الشر والأذى) عبدالله التل، جذور البلاء ص٨٠. وفي نص آخر: (إن النفاق جائز وإن الإنسان - أي: اليهودي- يمكنه أن يكون مؤدبًا مع الكافرين ويدعي محبتهم كاذبًا) الكنز المرصود، ص٧٠.	**٢٥- التقية:** وهذه هي عقيدة الشيعة، رووا كاذبين عن أبي عبد الله أنه قال: (خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية) الكافي ٢/ ١٧٥. وعن أبي عبد الله (ع) قال: (إن تسعة أعشار الدين في التقية .. ولا دين لمن لا تقية له) الكافي ٢/ ٢١٧.
٢٦- التلاعب بالعبارات والألفاظ: قال تعالى عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]. وجاء في التلمود: (إن أحد حاخاماتهم كان يسلم على غير اليهودي بقوله: السلام معك، وإنما كان يوجه نيته إلى أستاذه وليس إلى غير اليهودي) الكنز المرصود في تعاليم التلمود، ص١٧. وكانوا يسلمون على المسلمين بقولهم: السام عليكم.	**٢٦- التلاعب بالعبارات والألفاظ:** ومن أساليب الشيعة تلاعبهم بالعبارات والألفاظ في النفاق وتحريف الكلم عن مواضعه. روى النباطي في الصراط المستقيم يقول: (سلم اليأس المعدل على قوم فلم يردوا فقال: لعلكم تظنون فيّ ما قيل من الرفض، إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا من أبغض واحدًا منهم فهو كافر، فردوا بذلك ودعوا له) وعنى بالواحد عليًّا. الصراط المستقيم لمستحقي التقديم، ص٣/ ٧٣. ويقول: (لقي الطاقي خارجيًّا فقال: لا أفارقك أو تتبرأ من علي. فقال: أنا من علي ومن عثمان بريء. ويعني بذلك أنه من أصحاب علي. ومن عثمان بريء) المصدر السابق.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٧- استخدام الرموز للطعن: يستعمل اليهود الرموز في كتبهم لمن أرادوا الطعن فيه حتى لا يفتضح أمرهم. فيرمز اليهود لعيسى عليه السلام بعدة رموز منها (جيشو). ويرمزون إليه بـ(ذلك الرجل) و(النجار) و(ابن الحطاب). فضح التلمود، ص٥٦.	**٢٧- استخدام الرموز للطعن:** ويرمز الشيعة في كتبهم للخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين -رضي الله عنهم أجمعين- برموز تشبهًا برموز اليهود: فيرمزون لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (بالجبت والطاغوت) و(صنمي قريش) و(زريقوحبتر) و(فرعون وهامان) و(العجل والسامري) و(الأول والثاني) و(فلان وفلان) وغيرها من الرموز. ويرمزون لعثمان رضي الله عنه بـ(نعثل) و(الثالث). ويرمزون لعائشة رضي الله عنها (بأم الشرور) و(صاحبة الجمل) و(عسكر بن هوسر). ويرمزون لمعاوية رضي الله عنه بـ(الرابع) . . . وهكذا.
٢٨- تحريف الكتاب: قال تعالى عن اليهود: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].	**٢٨- تحريف الكتاب:** وهو صنعة الشيعة أيضًا. فبالإضافة إلى دعواهم الكاذبة التي أجمع عليها علماؤهم في تحريف القرآن الكريم، تجرأوا فحرفوا بعض آيات الكتاب! فعن أبي عبد الله (ع) قال: إن القرآن الذي جاء به جبريل (ع) إلى محمد (ص) سبعة عشر ألف آية. الكافي ١/ ٦٣٤. وعن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قال: إيانا عنى خاصة: أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا: (فإن خفتم تنازعًا في

. . . .

	أمر فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم) كذا نزلت. فكيف يأمر الله ﷻ بطاعة ولاة الأمر ويرخص في منازعتهم؟ إنما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) الكافي ١/ ٢٧٦. وكتب المخذول حسين الطبرسي صاحب أحد الكتب الثمانية المعتمدة في المذهب كتابه (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب)!!!
٢٩- استحلال محاش النساء: اليهود يجيزون نكاح المرأة من دبرها. جاء في التلمود أن امرأة حضرت إلى الحاخام وشكت له أن زوجها يأتيها على خلاف العادة، فأجابها: (لا يمكنني أن أمنعه عن هذه المسألة يا ابنتي لأن الشرع قدمك قوتًا لزوجك) الكنز المرصود، ص٩٧. وذكر أيضًا: (أنه مصرح لليهودي أن يفعل ذلك بزوجته) المصدر السابق، ص٩٧.	**٢٩- استحلال محاش النساء:** وكذلك الشيعة يجوزون نكاح المرأة من دبرها. فعن عبد الله بن يعفور قال: سألت أبا عبدالله عن الرجل يأتي المرأة في دبرها؟ قال: لا بأس إذا رضيت. الاستبصار ٣/ ٣٤٣. وفتاوى علمائهم في ذلك معروفة مشهورة. جاء في (رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الأولى ص٣٠٠): مسألة سادسة وخمسون (حلية الوطء دبرًا وقبلًا): مباح للزوج أن يطأ زوجته في كل واحد من مخرجيها. وليس في ذلك شيء من الحظر والكراهة.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٠- إيقاد الحروب بين الأمم: ذكر الله تعالى في كتابه أن ديدن اليهود إثارة الفتن وإيقاد الحروب بين الأمم والشعوب. كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].	**٣٠- إيقاد الحروب بين الأمم:** وهذا هو شأن الشيعة على الدوام. وكما فعل اليهود مع الرسول ﷺ في المدينة، حين كانوا يحرضون الكفار على غزو المسلمين، كذلك كان الشيعة -وإيران من ورائهم- يفعلون على مر التاريخ. ومن أشهر شنائعهم تحريض المغول على غزو بغداد قديمًا، وتحريض أمريكا وحلف الصليب على غزو بغداد حديثًا. وهذا شأن كل ضعيف وسط مجموع لا يحس بالانتماء إليهم؛ لعله يحصل على فرصة وسط الفتنة والخراب، أو ينتقم من مواطنيه الذين يحقد عليهم. كما قيل: (الهر يفرح بعزا «مأتم» أهله).
٣١- خيانة الأوطان: من المعروف عن اليهود أنهم يشعرون بالضياع وعدم الانتماء إلى أي وطن يسكنونه؛ فهم دائمًا يتآمرون على أوطانهم، وهذا أحد أسباب نكباتهم المستمرة على أيدي الشعوب.	**٣١- خيانة الأوطان:** وكذلك الشيعة، ليس لهم من ولاء لأوطانهم؛ لأنهم لا يشعرون بالانتماء إليها. إنما ولاؤهم وشعورهم معلق بإيران؛ ولذلك هم دائمو التواطؤ مع الأجنبي ضد أوطانهم، إنهم الخطر الأكبر على أي بلد يكونون فيه، والعراق اليوم خير شاهد ومثال، ولكن الأمر كما قيل: ما أكثر العبر وأقل المعتبرين!

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٢- التركيز على الفتن في عرض تاريخنا : ويتشابه اليهود والشيعة حتى في طرحهم لمواد التاريخ الإسلامي! ففي كتاب «التعليم في (إسرائيل)» للدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف: أمّا دراسة الإمبراطورية الفارسية فيجري التركيز على «كورش» وتصريحه لليهود بالعودة إلى (إسرائيل) ثم بناء الهيكل الثاني. وفي منهاج التاريخ للصف السادس يتكوّن التاريخ الإسلامي ٥٦% من مقرّر التاريخ، لكن يتمّ التركيز في هذا المنهاج على الخلافات في التاريخ الإسلامي بين علي ومعاوية، والخلافات بين الفرق الدينية والصراع بين الأمويين والعباسيين. كما يفرد المنهاج فصلًا لما يسمّيه بالجهود اليهودية في الحضارة الإسلامية، مثل التعاون بين اليهود وبين العرب في المجالات السياسية والثقافية، ولا سيّما في الأندلس وفي مصر الفاطمية، والأمويين.	**٣٢- التركيز على الفتن في عرض تاريخنا :** والمنهج نفسه يسير عليه الشيعة في تناولهم لموضوعات التاريخ! فهم متشبهون حتى في هذه، لا يذكرون إلا أحداث الخلافات والفتن - مع التزوير والحذف والإضافة - التي وقعت بين علي ومعاوية وغيره من الصحابة، معركة الجمل، صفين، الطف، مقتل الحسين، موسى الكاظم، اجترار ما أسموه زورًا بـ(اضطهاد الأئمة). الصراع الأموي - العباسي ... إلخ. وكأن تاريخ الأمة الزاهر ليس سوى صراع ودسائس وظلم واضطهاد واقتتال! أين الحديث عن حضارة العرب وعدل المسلمين؟ أين الجهاد الإسلامي المشرف، ووقعات المسلمين العظيمة نشرًا للرسالة، ودفعًا للغزاة ودفاعًا عن حياض الأمة؟ أين بدر والقادسية واليرموك ونهاوند وحطين وعين جالوت؟ أين شواهد عظمة الإسلام في حضارة الأندلس التي ينعم العالم اليوم بإنجازات الحضارة الحديثة التي هي امتداد لحضارة الأمويين وإنجازاتها في الأندلس؟ أين ..؟ أين ..؟! لا شيء!

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٣- دعوى المظلومية (معاداة السامية): استند اليهود في ترويج فكرتهم على مبدإ المظلومية لليهود بسبب تعرضهم للاضطهاد في أوروبا، وأرجعوا السبب لا إلى جذوره الموضوعية، وإنما أرجعوه إلى ما أسموه بـ(معاداة السامية). وهكذا بنى اليهود كيانهم في فلسطين تحت ذريعة المظلومية.	**٣٣- دعوى المظلومية (معاداة أهل البيت)** والشيعة يستندون إلى الأساس نفسه، فيروجون فكرتهم بطرح مبدإ المظلومية في العراق وغيره، وتعرضهم للظلم منذ أكثر من١٤٠٠ عام في بلاد العرب. وأرجعوا السبب لا إلى جذوره الموضوعية، وإنما أرجعوه إلى ما أسموه بـ(معاداة أهل البيت). وهكذا جلب الشيعة الغزاة الأمريكان إلى العراق، واستعطفوا العالم تحت ذريعة المظلومية وأسطورة الأغلبية المضطهدة؟!
٣٤- الاعتماد على العصابات والمليشيات: اعتمد اليهود في تنفيذ مشروعهم على العصابات الصهيونية الممثلة بالأحزاب والحركات الصهيونية (الهاغانا) و(الاشتيرن) وغيرها التي ارتكبت المجازر الرهيبة بحق الشعب العربي الفلسطيني؛ لإخضاعهم وتهجيرهم من أرضهم ليقطنوا الخيام.	**٣٤- الاعتماد على العصابات والمليشيات:** والشيعة تمارس في العراق اليوم النهج والأسلوب الصهيوني نفسه. وذلك من خلال مليشيات جيش الدجال بقيادة مقتدى، والمجلس المسمى بـ(الأعلى) وعصابته قوات غدر، وحزب الدعوة، والجلبي، وتكوين فرق القتل والموت والخطف والاغتيال والتصفيات والتطهير المذهبي في كافة مناطق العراق، وتدعم قوات الاحتلال الأمريكي بتدمير مدن سنية كاملة وتهجيرهم منها، واللجوء إلى الخيام.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٥- اعتماد الدعاية والإعلام: اليهود يجيدون فن الإذاعة والإشاعة والإعلام ونشر الأخبار، وفن التشكي والتظلم والنياحة والبكاء، وما يتبع ذلك من التزوير والكذب والتحريف. وبذلك نشروا أفكارهم، وحشدوا العالم إلى جانب قضيتهم.	**٣٥- اعتماد الدعاية والإعلام:** والشيعة كذلك يجيدون فن الإذاعة والإشاعة والإعلام ونشر الأخبار، وفن التشكي والتظلم والنياحة والبكاء، وما يتبع ذلك من التزوير والكذب والتحريف. وبذلك نشروا أفكارهم، وحشدوا العالم إلى جانب قضيتهم.

٣٨٢- الدولة الصفوية (١)
نشأتها، عقيدتها، جرائمها

٢٣/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ وَدَبَّرَهُمْ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَابْتَلَاهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِخَطَايَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَقَصَّ عَلَيْنَا فِيهِ أَخْبَارَ الْغَابِرِينَ؛ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف: ١١١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَى اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَكَتَبَ بَقَاءَ دَعْوَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٠]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَأَحْسِنُوا عَمَلَكُمْ؛ فَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَكُمْ، إِنَّمَا خَلَقَكُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [المُلْك: ١-٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: دِينُ اللَّهِ تَعَالَى وَاحِدٌ، وَهُوَ الْحَقُّ وَالنُّورُ وَالْهُدَى، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى رِضْوَانِهِ وَالْجَنَّةِ، وَأَدْيَانُ الشَّيْطَانِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ وَالظُّلُمَاتُ، وَهِيَ مَا عَدَا الْحَقَّ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ عليهم السلام؛ وَلِذَا جَاءَ صِرَاطُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مُفْرَدًا، كَمَا جَاءَ النُّورُ مُفْرَدًا، وَجَاءَتِ الظُّلُمَاتُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَمَا جُمِعَتْ سُبُلُ الْبَاطِلِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: **هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا**، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: **هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١).

وَهَكَذَا طَوَالَ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كَانَتِ الرُّسُلُ عليهم السلام يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ تَحْرِفُهُمْ عَنْ ذَلِكَ السَّبِيلِ إِلَى سُبُلٍ أُخْرَى تَكُونُ سَبَبًا فِي ضَلَالِهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ، وَلَا تَكَادُ تُحْصَى الدِّيَانَاتُ وَالْأَفْكَارُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي دَانَ -وَلَا يَزَالُ يَدِينُ- بِهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ.

وَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام دَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِدِينِ الْحَقِّ، ثُمَّ غَيَّرُوا الدِّينَ بَعْدَهُ، وَحَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى عليه السلام مُصَدِّقًا لِدِينِ مُوسَى عليه السلام، وَمُبَشِّرًا بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَدَانَ الْحَوَارِيُّونَ وَأَتْبَاعُهُمْ بِدِينِ الْحَقِّ، حَتَّى أَدْخَلَ شَاؤُولُ الْيَهُودِيُّ الشِّرْكَ فِي عَقِيدَةِ النَّصَارَى(٢)، وَنَقَلَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٥)، والبزار (١٧١٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٨)، والشيخ أحمد شاكر (٤٤٣٧).

(٢) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: علاقة النصارى بالمسلمين، خطبة رقم (٣٧٧) من هذا المجلد.

وَالْهُدَى إِلَى التَّثْلِيثِ وَالضَّلَالِ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ مُصَدِّقًا لِرِسَالَاتِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَخَاتَمًا لِلنُّبُوَّةِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَقَضَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يَبْقَى دِينُهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَأَمَّا أُمَّتُهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُهْدَى لِدِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَضِلُّ إِلَى أَدْيَانٍ أُخْرَى.

وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِ ﷺ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، مُلْتَزِمًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُهْتَدِيًا بِهَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنِ انْحَرَفَ إِلَى بِدْعَةٍ مُكَفِّرَةٍ أَوْ مُفَسِّقَةٍ، فَأَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ.

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَهْبَطَ الْأَبَوَيْنِ عليهما السلام مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَلَّفَهُمَا وَذُرِّيَّتَهُمَا بِالدِّينِ أَقْسَمَ إِبْلِيسُ بِعِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَيَصْرِفَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَنْ دِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى.

وَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمَ الرُّسُلِ قَضَى اللهُ ﷻ بِبَقَاءِ دِينِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَسَلَامَتِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]، وَأَمَّا أَفْرَادُ الْأُمَّةِ فَلَيْسُوا مَعْصُومِينَ مِنَ الْحَيْدَةِ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ إِدْخَالِ شَيْءٍ فِيهِ لَيْسَ مِنْهُ، أَوْ إِخْرَاجِ مَا هُوَ مِنْهُ، فَيَضِلُّ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَنْ يَضِلُّ، وَيَبْقَى عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ، وَهَكَذَا الْحَالُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

وَمُحَاوَلَاتُ تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ، وَإِدْخَالِ عَقَائِدَ وَأَفْكَارٍ فِيهِ لَيْسَتْ مِنْهُ؛ بَدَأَتْ مُبَكِّرَةً فِي آخِرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقُ أَنْ يَقُومَ فِي الْإِسْلَامِ بِذَاتِ الدَّوْرِ الَّذِي قَامَ بِهِ سَلَفُهُ شَاؤُولُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، فَأَحْدَثَ ابْنُ سَبَإٍ وَأَتْبَاعُهُ الْخُرُوجَ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه(٣)، وَاسْتَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالْغُلُوِّ فِي

(٣) انظر تفصيل ذلك في خطب: فتنة مقتل عثمان مجلد (٦)، خطب رقم (٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤).

آلِ الْبَيْتِ، وَزَعَمُوا التَّشَيُّعَ لَهُمْ، فَأَظْهَرُوا مَحَبَّتَهُمْ، ثُمَّ غَالَوْا فِي عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَادَّعَوُا الْعِصْمَةَ لَهُ، ثُمَّ زَعَمُوا النُّبُوَّةَ فِيهِ، حَتَّى وَصَلَ بِهِمْ غُلُوُّهُمْ إِلَى خَلْعِ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ رضي الله عنهم، مَعَ طَعْنِهِمْ فِي بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَسَبِّهِمْ لِلْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ رضي الله عنهم، وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ.

ثُمَّ لَمَّا بَذَرَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بَذْرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَقَوْهَا بِالْأَكَاذِيبِ وَالشَّائِعَاتِ، وَغَذَّوْهَا بِالضَّغَائِنِ وَالْأَحْقَادِ، وَأَوْقَعُوا الْخُصُومَةَ بَيْنَهُمْ كَانُوا هُمْ أَوَّلَ مَنْ تَخَلَّى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رضي الله عنهم، وَخَانُوهُمْ أَعْظَمَ خِيَانَةٍ، حَتَّى قُتِلَ الْحُسَيْنُ رضي الله عنه ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بِسَبَبِ خِيَانَةِ مَنْ زَعَمُوا التَّشَيُّعَ لَهُ، وَجَعَلَ أُولَئِكَ الْخَوَنَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ مَقْتَلِهِ يَوْمَ مَنَاحَةٍ وَلَطْمٍ وَبُكَاءٍ، وَإِحْيَاءٍ لِلضَّغَائِنِ، وَسَبٍّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

ثُمَّ انْشَطَرُوا فِي ضَلَالِهِمْ إِلَى مَذَاهِبَ عِدَّةٍ، وَفِرَقٍ كَثِيرَةٍ، يَلْعَنُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَزْعُمُ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهَا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهَا دُونَ غَيْرِهَا، فَجَمَعَتْهُمْ بِدْعَةُ الْغُلُوِّ فِي آلِ الْبَيْتِ، ثُمَّ فَرَّقَتْهُمْ تِلْكَ الْبِدْعَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْرَجَتْهُمْ بِدْعَتُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ قُرْبُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبُعْدُهُمْ عَنْهُ بِحَسَبِ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ.

وَمِنْ أَكْبَرِ فِرَقِهِمْ: الْإِمَامِيَّةُ الِاثْنَا عَشْرِيَّةَ، وَقَدْ قَامَتْ لَهُمْ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهِجْرِيِّ دَوْلَةٌ شَرِسَةٌ خَبِيثَةٌ، عَظُمَ بَلَاءُ الْمُسْلِمِينَ بِهَا، هِيَ الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ الَّتِي شَيَّعَتْ إِيرَانَ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، فَرَفَعَتْ بِبَطْشِهَا وَظُلْمِهَا نِسْبَةَ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّةَ فِيهَا مِنْ (١٠ ٪) إِلَى (٦٥ ٪)[٤].

(٤) يقول الباحث الألماني جرهارد كونسلمان: «كانت حدود المنطقة التي يعيش فيها الشيعة =

وَقَبْلَ ذَلِكَ سَعَى ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ إِلَى بِنَاءِ دَوْلَةٍ لَهُمْ فِي بَغْدَادَ عَلَى أَنْقَاضِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بَعْدَ خِيَانَتِهِ لَهَا، وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ فَمَاتَ كَمَدًا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى(٥).

وَتَعَاقَبَتِ الدُّوَلُ المَغُولِيَّةُ وَغَيْرُهَا عَلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ، وَكَانَتْ دُوَلًا سُنِّيَّةً فِيهَا جَهْلٌ وَتَصَوُّفٌ، لَكِنَّهَا سَالِمَةٌ مِنْ بِدْعَةِ التَّشَيُّعِ، كَانَ آخِرُهَا دَوْلَةً لِلتُّرْكُمَانِ، زَالَتْ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ عَلَى يَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَيْدَرَ الصَّفَوِيِّ؛ نِسْبَةً إِلَى جَدِّهِ صَفِيِّ الدِّينِ الْأَرْدَبِيلِيِّ الَّذِي كَانَ وَاعِظًا صُوفِيًّا، عَاشَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ(٦)، وَمَا زَالَ أَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ يَمِيلُونَ لِلتَّشَيُّعِ حَتَّى اعْتَنَقُوا المَذْهَبَ الْإِمَامِيَّ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّ(٧).

= تقتصر على بلاد الرافدين، أما أهل بلاد فارس فكانوا من السنة، ونضرب لذلك مثلًا: ففي تبريز تلك المدينة التي تم تتويج إسماعيل الصفوي فيها كان يعيش ٣٠٠ ألف نسمة، كان أهل الشيعة يمثلون عشرين ألف نسمة فقط منهم ... فأجبر إسماعيل الصفوي رعيته على تغيير معتقداتهم» سطوع نجم الشيعة، جرهارد كونسلمان، ترجمة محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الأولى ١٤١٢هـ، علمًا أن هذا الكاتب الألماني متحيز للروافض، وهم يشيدون به وبكتاباته. وينظر أيضًا: الأتراك العثمانيون وحضارتهم، للمستشرق كارل بركلمان، تعريب د. نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الأولى، ١٩٤٩م ص(١٢٣).

ويقول المؤرخ الإيراني الصفوي عباس إقبال: «يعد الشاه إسماعيل بلا شبهة أحد أرشد وأكبر ملوك إيران، ومع أنه تخطى جادة الإنصاف والمروءة في تحميل مذهب التشيع على شعب إيران، وكان أغلبهم حتى ذلك الوقت من السنة، سفك دماء كثير من الأبرياء بقسوة إلا أن سياسته في هذا السبيل إيجاد الوحدة المذهبية في إيران، وجعل المذهب الشيعي رسميًا ... إلخ» تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، تعريب د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر، القاهرة ١٩٨٩م ص(٦٤٦-٦٤٧).

(٥) ينظر تفصيل ذلك في خطبتي: اجتياح المغول لبغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٩)، وسقوط بغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٣).

(٦) ينظر: سمط النجوم العوالي لعبد الملك بن حسين المكي (٤/ ٨٢)، وهو منسوب إلى بلدة أردبيل في جنوب آذربيجان، وكان له تكية اشتهرت شهرة كبيرة في وقته. ينظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا (١/ ٢٠١) وتاريخ إيران بعد الإسلام، لعباس إقبال (٦٣٨).

(٧) أول من اعتنق المذهب الإمامي الاثني عشري من أحفاد صفي الدين الأردبيلي حفيد =

فَلَمَّا آلَ الْأَمْرُ إِلَى حَفِيدِهِ الشَّاهْ إِسْمَاعِيلَ مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ حَارَبَ بِالْمُتَصَوِّفَةِ وَالشِّيعَةِ التُّرْكُمَانِ دَوْلَتَهُمُ السُّنِّيَّةَ فَقَضَى عَلَيْهَا، فَكَانَ أَوَّلَ حَاكِمٍ لِلدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ، وَذَلِكَ عَامَ سَبْعَةٍ وَتِسْعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ(٨)، وَاتَّخَذَ مَدِينَةَ تَبْرِيزَ الْإِيرَانِيَّةَ عَاصِمَةً لِدَوْلَتِهِ، وَأَوَّلَ مَا حَكَمَ أَعْلَنَ أَنَّ مَذْهَبَ دَوْلَتِهِ الْإِمَامِيَّةُ الِاثْنَا عَشْرِيَّةَ، وَأَنَّهُ سَيُعَمِّمُهُ فِي جَمِيعِ بِلَادِ إِيرَانَ، وَعِنْدَمَا نُصِحَ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ إِيرَانَ هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: إِنَّنِي لَا أَخَافُ مِنْ أَحَدٍ . . فَإِنْ تَنْطِقِ الرَّعِيَّةُ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فَسَوْفَ أَمْتَشِقُ الْحُسَامَ، وَلَنْ أَتْرُكَ أَحَدًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ(٩).

ثُمَّ صَكَّ عُمْلَةً لِلْبِلَادِ كَاتِبًا عَلَيْهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيٌّ وَلِيُّ اللَّهِ»، ثُمَّ كَتَبَ اسْمَهُ. وَأَمَرَ الْخُطَبَاءَ فِي الْمَسَاجِدِ بِسَبِّ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

= حفيده جنيد بن إبراهيم بن سلطان خوجه بن صدر الدين موسى بن صفي الدين إسحاق الأردبيلي، وكان جنيد الشيخ الخامس للطريقة الصوفية التي أسسها جده صفي الدين، وصار يدعو أتباعه إلى المذهب الإمامي الاثني عشري، وتبعه عشرات الألوف من التركمان الجهلة، وقد قتل جنيد هذا عام ٨٦١هـ. ينظر: تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠١-٢٠٢). وكان جنيد يرمي إلى تأسيس عصبية مذهبية مرتبطة به، وهو الممهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة بنشاطه القوي في تشييع التركمان. ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١م (١/ ٢٢-٢٣). وعن استغلال جنيد لبسطاء الناس وتشييعهم، وادعاء الكرامات، ونشاطه في هذا السبيل، وإيمان أتباعه به مطلقًا حتى كانوا يظنون بعد مقتله أنه حي. ينظر: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر، د.مصطفى كامل الشيبي، مكتبة النهضة، بغداد، الأولى ١٣٨٦هـ (٤٠٢-٤٠٥).

(٨) ينظر: الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي، جعفر المهاجر، دار الروضة، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ ص(٢٢)، وعودة الصفويين، عبد العزيز المحمود، مكتبة الإمام البخاري، مصر، الأولى ١٤٢٨هـ ص(١٠) ومجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الصادرة عن جامعة البصرة، وهي مجلة فيها بحوث نفيسة، عدد (٢٠) ص(٦٨-٦٩).

(٩) عودة الصفويين (١٠).

الثَّلَاثَةِ ﷺ، مَعَ المُبَالَغَةِ فِي تَقْدِيسِ الْأَئِمَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ(١٠).

وَقَدْ عَانَى أَهْلُ السُّنَّةِ فِي إِيرَانَ مِنْ ظُلْمِهِ مُعَانَاةً هَائِلَةً، وَأُجْبِرُوا عَلَى اعْتِنَاقِ المَذْهَبِ الْإِمَامِيِّ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ مِلْيُونُ إِنْسَانٍ سُنِّيٍّ فِي بِضْعِ سَنَوَاتٍ بِشَهَادَةِ مُؤَرِّخٍ شِيعِيٍّ(١١).

وَظَلَّ يَجْتَاحُ بِلَادَ المُسْلِمِينَ حَتَّى انْتَزَعَ بَغْدَادَ بَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ مِنْ قِيَامِ دَوْلَتِهِ، وَكَانَ انْتِزَاعُهُ لَهَا أَيْضًا بِخِيَانَةٍ وَمُمَالَأَةٍ مِنْ شِيعَتِهَا آنَذَاكَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهَدْمِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ وَقَتْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى مَقَابِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَنَبَشَ قُبُورَ المَوْتَى وَأَحْرَقَ عِظَامَهُمْ. وَبَدَأَ يُعَذِّبُ أَهْلَ السُّنَّةِ سُوءَ الْعَذَابِ ثُمَّ يَقْتُلُهُمْ، وَنَبَشَ قَبْرَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-. وَقَتَلَ كُلَّ مَنْ يَنْتَسِبُ لِذُرِّيَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ فِي بَغْدَادَ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ مِنْ نَسَبِهِ(١٢).

وَقَدْ أَرَّخَ الشِّيعَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ حَتَّى قَالَ ابْنُ شَدْقَمَ الرَّافِضِيُّ يَحْكِي سِيرَتَهُ: «فَتَحَ بَغْدَادَ وَفَعَلَ بِأَهْلِهَا النَّوَاصِبَ ذَوِي الْعِنَادِ مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ قَطُّ فِي سَائِرِ الدُّهُورِ بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى نَبَشَ مَوْتَاهُمْ مِنَ الْقُبُورِ»(١٣).

---

(١٠) الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، د. بدر الدين الخصوصي، بحث في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد (٤٤) ص(١٤٤) الشاه عباس الكبير بديع محمد جمعة (ص١٠).

(١١) هو علي الوردي في كتابه: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق (١/ ٤٣) ونقله عن ريجارد كوك في كتابه: بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط في بغداد عام ١٩٦٢م (١/ ٣١٣)، وأقره الوردي ولم يتعقبه. وينظر أيضًا: الحروب العثمانية الفارسية، د. محمد عبد اللطيف هريدي، دار الصحوة، القاهرة، الأولى ١٤٠٨هـ ص(٤٤).

(١٢) عودة الصفويين (٢٠-٢١).

(١٣) المصدر السابق (٢١) وعزاه لتحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار، لضامن بن شدقم الحسيني، وقد اختصره يوسف جمل الليل وطبع عام ١٤٢٦هـ بواسطة مكتبة التوبة ومكتبة المعرفة.

وَقَدْ فَرَّ كَثِيرٌ مِنْ سُنَّةِ بَغْدَادَ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ، وَحَكَوْا لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مَا فَعَلَ الصَّفَوِيُّونَ بِبَغْدَادَ وَأَهْلِهَا، وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ الْمَذَابِحِ الْعَظِيمَةِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، فَاجْتَمَعَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ سِلِيمُ الْأَوَّلُ فِي عَامِ عِشْرِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ بِرِجَالِ دَوْلَتِهِ وَعُلَمَائِهَا، وَقَرَّرُوا أَنَّ الدَّوْلَةَ الصَّفَوِيَّةَ تُمَثِّلُ خَطَرًا عَلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ عَلَى السُّلْطَانِ جِهَادَهَا، وَإِيقَافَ ظُلْمِهَا وَتَنْكِيلِهَا بِالْمُسْلِمِينَ، فَحَاوَلَ السُّلْطَانُ مُفَاوَضَةَ الصَّفَوِيِّ إِسْمَاعِيلَ فَلَمَّا لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، سَارَ إِلَيْهِ بِجَيْشٍ يَقُودُهُ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ قِوَامُهُ مِائَةُ أَلْفٍ، وَجَيْشُ الصَّفَوِيِّ مِائَةُ أَلْفٍ أَيْضًا، فَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي صَحْرَاءِ جَالْدِيرَانَ، فَهَزَمَهُ السُّلْطَانُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ وَقُتِلَ أَكْثَرُ جُنْدِهِ، فَقَضَى عَلَى حُكْمِهِ فِي الْعِرَاقِ بَعْدَ أَنْ حَكَمَهَا بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ سِتَّ سَنَوَاتٍ(١٤).

فَمَا كَانَ مِنَ الصَّفَوِيِّ الْخَبِيثِ وَقَدْ أَحَسَّ بِالضَّعْفِ إِلَّا أَنْ كَاتَبَ قَائِدَ الْبُرْتُغَالِ الصَّلِيبِيِّينَ يَطْلُبُ نَجْدَتَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَضِيقَ هُرْمُزَ وَفِلَسْطِينَ، فَكَتَبَ لَهُ قَائِدُ الصَّلِيبِيِّينَ رِسَالَةً قَالَ لَهُ فِيهَا: إِنِّي أُقَدِّرُ لَكَ احْتِرَامَكَ لِلْمَسِيحِيِّينَ فِي بِلَادِكَ، وَأَعْرِضُ عَلَيْكَ الْأُسْطُولَ وَالْجُنْدَ وَالْأَسْلِحَةَ لِاسْتِخْدَامِهَا ضِدَّ قِلَاعِ التُّرْكِ فِي

(١٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، المستر ستيفن لونكريك (٣٥) عن عودة الصفويين (٢٢-٢٤) وينظر في معركة جالديران: الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد (٤٤) ص(١٤٦)، والأتراك العثمانيون وحضارتهم (٥٦٧-٥٦٨)، والعلاقات العراقية الإيرانية خلال خمسة قرون، سعد الأنصاري (٢٣ و٣٨)، وذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحروب، محمد بهجة الأثري، مجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة ١٤٠١هـ (١٤٢-١٤٥) وتاريخ إيران، د. فاروق عمر، ود. مرتضى النقيب، ط ١٩٨٩م جامعة بغداد. ودراسات في تاريخ الشرق الإسلامي الحديث، شفيق العياري، ط: جامعة القاهرة ١٤١٥هـ والفكر الشيعي والنزعات الصوفية (٤١٠).

الْهِنْدِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ أَوْ تُهَاجِمَ مَكَّةَ فَسَتَجِدُنِي بِجَانِبِكَ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، أَمَامَ جَدَّةَ أَوْ فِي عَدَنَ أَوْ فِي الْبَحْرِينِ أَوِ الْقَطِيفِ أَوِ الْبَصْرَةِ، وَسَيَجِدُنِي الشَّاهُ بِجَانِبِهِ عَلَى امْتِدَادِ السَّاحِلِ الْفَارِسِيِّ، وَسَأُنَفِّذُ لَهُ كُلَّ مَا يُرِيدُ(١٥).

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى خَذَلَهُمْ؛ إِذِ اسْتَطَاعَ الْعُثْمَانِيُّونَ إِفْشَالَ مُخَطَّطِهِمْ، وَظَلُّوا يَتَتَبَّعُونَهُمْ سُلْطَانًا بَعْدَ سُلْطَانٍ حَتَّى بَعْدَ هَلَاكِ الصَّفَوِيِّ إِسْمَاعِيلَ وَتَوَلِّي أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى قُضِيَ عَلَى دَوْلَتِهِمْ نِهَائِيًّا بَعْدَ قَرْنَيْنِ وَنِصْفٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ.

هَذَا مُلَخَّصُ مَا يَتَعَلَّقُ بِدَوْلَتِهِمْ، وَأَمَّا مُؤَسِّسُهَا الصَّفَوِيُّ إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِيِّ وَالْغُلُوِّ وَالتَّكْفِيرِ وَبَيْنَ الدَّمَوِيَّةِ وَالتَّنْكِيلِ، وَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ أَحَدُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعِرَاقِيِّينَ أَنَّهُ أَكْثَرَ الْقَتْلَ، وَقَتَلَ مَلِكَ «شِرْوَانَ»، وَأَمَرَ أَنْ يُوضَعَ فِي قِدْرٍ كَبِيرٍ وَيُطْبَخَ، وَأَمَرَ جُنْدَهُ بِأَكْلِهِ فَفَعَلُوا، وَكَانَ لَا يَتَوَجَّهُ لِبِلَادٍ إِلَّا فَعَلَ أَشْيَاءَ يَنْدَى لَهَا الْجَبِينُ مِنْ قَتْلٍ وَنَهْبٍ(١٦).

وَكَانَ مِنْ دَمَوِيَّتِهِ أَنَّهُ يَنْبُشُ قُبُورَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ السُّنَّةِ، وَيَحْرِقُ عِظَامَهُمْ، وَكَانَ إِذَا قَتَلَ أَمِيرًا مِنَ الْأُمَرَاءِ أَبَاحَ زَوْجَتَهُ وَأَمْوَالَهُ لِمَنْ يَخْتَارُ(١٧).

وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى تَعَصُّبِهِ وَهَمَجِيَّتِهِ أَنَّهُ دَعَا أُمَّهُ لِلتَّشَيُّعِ وَكَانَتْ سُنِّيَّةً حَنَفِيَّةً، فَأَبَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهَا فَقُتِلَتْ رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى(١٨)، وَبَلَغَ مِنْ طُغْيَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ

---

(١٥) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د زكريا إبراهيم بيومي (٦٣) ط عالم المعرفة ١٤١١هـ.

(١٦) ينظر: عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، إبراهيم صبغة الله الحيدري، ط مكتبة مدبولي، القاهرة، الثانية ١٩٩٩م (١١٠) وذكر فيه أن إسماعيل ادعى بعد ذلك الربوبية، وكان جنوده يسجدون له.

(١٧) المصدر السابق (١١١).

(١٨) تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا وذكر أن اسمها حليمة بغيم (١/ ٢٠٢)، ويتفق معه على ذلك عباس العزاوي في كتابه: العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد الحديثة، الأولى ١٣٥٤هـ (٣/ ٢٧٠). =

أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ جُنْدَهُ بِالسُّجُودِ فَيَسْجُدُونَ لَهُ(١٩).

وَذَكَرَ أَحَدُ كِبَارِ مَذْهَبِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ الصَّفَوِيَّ كَانَ مُمَالِئًا لِلْإِنْجِلِيزِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَكَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَةَ مَعَ قَادَتِهِمْ وَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّنِي أُفَضِّلُ حِذَاءَ مَسِيحِيٍّ عَلَى أَكْبَرِ رِجَالَاتِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ»(٢٠).

وَأَكْثَرُ المَرَاسِمِ الشَّاذَّةِ، وَالطُّقُوسِ الْغَرِيبَةِ، وَالمُمَارَسَاتِ المُقَزِّزَةِ فِي المُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ لَدَى المَذْهَبِ الِاثْنَيْ عَشْرِيِّ إِنَّمَا هِيَ مِنْ إِحْدَاثِ هَذَا الْخَبِيثِ الضَّالِّ، وَظَلَّ أَتْبَاعُهُ يُمَارِسُونَهَا وَيَتَنَاقَلُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا يَتَّسِعُ هَذَا المَقَامُ المُخْتَصَرُ لِعَرْضِ مَا أَحْدَثَهُ لَهُمْ مِنْ ضَلَالٍ عَلَى ضَلَالِهِمْ

= وذكر د. عبد العزيز سليمان نوار في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث (١/ ٢٣) أن والدة إسماعيل هي ابنة السلطان حسن الطويل سلطان ديار بكر، ويتفق معه على ذلك: سعد الأنصاري في كتابه العلاقات العراقية الإيرانية خلال خمسة قرون (٣٧)، ويتفق معه أيضًا: د. كامل الشيبي في كتابه: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري ص(٤٠٦) ونقل في الحاشية ذلك عن: مخطوط سلسلة النسب الصفوية، ورقة (٤٧ب) ومخطوط تاريخ شاه إسماعيل، ورقة (١٣أ) وأخبار الدول ص(٣٤٤) وتاريخ العراق بين احتلالين (٣/ ٣٢٨) ويتفق معهم كذلك شاهين مكاريوس، إلا أنه ذكر أنها أخت حسن وليست ابنته، رغم أن شاهين متحيز ضد الدولة العثمانية لصالح الصفويين، ينظر كتابه: تاريخ إيران، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٤٢٤هـ ص(١٤٨)، وعلى هذا الرأي فيترجح أن تكون سنية؛ لأن حسن الطويل ينحدر من القبائل التركمانية التي كانت تحكم ديار بكر وما حولها، وهم على مذهب أهل السنة.
بينما ذكر عباس إقبال أن أمه من أسرة الأمراء اليونان واسمها مارتا أو علمشاه خاتون أو بكي آغا ولم يتكلم عن دينها ولا علاقتها مع ابنها، ينظر: تاريخ إيران بعد الإسلام (٦٤٠) وقريب منه ما ذكره بركلمان في كتابه: الأتراك العثمانيون وحضارتهم (١٢٠).

(١٩) ينظر حاشية (١٦).

(٢٠) ينظر كتاب: أمير كبير لعلي أكبر هاشمي رفسنجاني (٢٤٨) عن مقال: نعم .. إنهم صفويون، سميرة رجب، منشور في الشبكة العالمية.

حَتَّى إِنَّ عُقَلَاءَ مَذْهَبِهِمْ لَا يَرْضَوْنَ كَثِيرًا مِنْ طُقُوسِهِمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا تُسِيءُ لِمَذْهَبِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي عَافَانَا مِمَّا ابْتَلَاهُمْ بِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا هَدَانَا إِلَيهِ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَةُ وَالْعَدْلُ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: تَتَلَاحَقُ الِابْتِلَاءَاتُ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَتَتَوَالَى أَحْزَانُهَا، وَتَكْثُرُ مَصَائِبُهَا؛ فَمِنْ فِلَسْطِينَ إِلَى أَفْغَانِسْتَانَ، وَمِنْ كَشْمِيرَ إِلَى الشِّيشَانِ، وَمِنَ الْفِلِبِّينِ إِلَى الصُّومَالِ، وَمِنْ هُنَا وَهُنَاكَ إِلَى الْعِرَاقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعِرَاقُ؟! تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي دَخَلَتْ حَظِيرَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ فَجْرِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ حَاضِرَةَ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَمْسَةَ قُرُونٍ وَزِيَادَةً.

تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي خَرَّجَتْ أَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ، وَإِمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَحْمَدَ

ابْنَ حَنْبَلٍ فِي كَوْكَبَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَالْقَادَةِ وَالْمُجَاهِدِينَ، قَدِ احْتَلَّهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ عُبَّادُ المَسِيحِ عليه السلام، ثُمَّ سَلَّمُوهَا لِلْمُتَعَصِّبَةِ مِنْ عُبَّادِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه، وَإِنَّهُ لَعَارٌ خُطَّ فِي تَارِيخِ تِلْكَ الْحِقْبَةِ يَلْحَقُ كُلَّ مُسْلِمٍ عَاصَرَ تِلْكَ الْجَرِيمَةَ النَّكْرَاءَ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَجَبَرَ اللهُ مُصَابَ المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعَظِيمَةِ.

لَقَدْ كُلِمَتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَكَانٍ، وَمَشَارِيطُ الِاسْتِعْمَارِ الصِّهْيَوْنِيِّ تَعْمَلُ فِي تَمْزِيقِ الْأُمَّةِ، وَتَقْسِيمِ الدُّوَلِ، وَالصَّفَوِيُّونَ الْحَاقِدُونَ الطَّامِحُونَ يَعِيثُونَ فَسَادًا فِي بِلَادِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَتَطَلُّعَاتُهُمْ تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَأَتْبَاعُهُمْ فِي الدُّوَلِ الْأُخْرَى المُجَاوِرَةِ لِلْعِرَاقِ يَسْتَعْجِلُونَ اسْتِبَاحَةَ دُوَلِهِمْ كَمَا اسْتُبِيحَتْ مَدِينَةُ المَنْصُورِ وَالرَّشِيدِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَابْنِ حَنْبَلٍ.

وَكُلَّمَا بَدَا أَمَلٌ فِي عَافِيَةِ الْأُمَّةِ أَصَابَتْهَا دَاهِيَةٌ ظَنَّ مَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَا عَافِيَةَ تُرْجَى، وَلَا نَصْرَ يُؤَمَّلُ، وَالمُؤْمِنُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَثِقُ بِوَعْدِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَادَ الْبَلَاءُ اقْتَرَبَ الْفَرَجُ، وَإِذَا اشْتَدَّتِ الظُّلْمَةُ انْبَلَجَ الْفَجْرُ، وَالْعُسْرُ يُعْقِبُهُ الْيُسْرُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وَأَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا المُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ -بَعْدَ تَفْرِيطِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ- رُكُونُهُمْ إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْوُثُوقُ بِهِمْ، وَجَعْلُ مَصِيرِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَالِاغْتِرَارُ بِالشِّعَارَاتِ المُضَلِّلَةِ الَّتِي خَدَّرَتِ المُسْلِمِينَ، وَأَقْعَدَتْهُمْ عَنْ إِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ؛ كَالشِّعَارَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَحِوَارَاتِ الْأَدْيَانِ، وَتَقَارُبِ المَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْوُعُودِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَمَانِي الْخَادِعَةِ بِانْتِهَاءِ عُصُورِ الْحُرُوبِ وَالِاعْتِدَاءَاتِ وَالنِّزَاعَاتِ الْهَمَجِيَّةِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى السِّلْمِ الْعَالَمِيِّ، وَالْوِفَاقِ الْبَشَرِيِّ، وَحُقُوقِ الْجِوَارِ؛ حَتَّى غَلُّوا أَيْدِيَ المُسْلِمِينَ عَنِ

التَّصْنِيعِ وَالتَّسْلِيحِ وَالتَّجْنِيدِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ الْإِنْجِيلِيُّونَ وَالصَّهَايِنَةُ عَلَى تَحْقِيقِ نُبُوءَاتِهِمُ الْخُرَافِيَّةِ، وَيَسْعَى الصَّفَوِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ لِإِعَادَةِ أَمْجَادِ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَامْتِلَاكِ الْقُنْبُلَةِ النَّوَوِيَّةِ.

وَمَا أَنْ طَابَتْ لَهُمْ كَعْكَةُ الْعِرَاقِ فَإِنَّ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامُوا بِهِ إِحْرَاقُ سِجِلَّاتِ الدَّوْلَةِ فِي مُخَطَّطٍ شَيْطَانِيٍّ رَهِيبٍ؛ لِتَغْيِيرِ التَّرْكِيبَةِ السُّكَّانِيَّةِ، وَالْعَزْمِ عَلَى إِفْرَاغِ الْعِرَاقِ مِنَ السُّنَّةِ بِالْقَتْلِ وَالتَّهْجِيرِ؛ وَلِإِحْلَالِ الْبَاطِنِيَّةِ مَكَانَهُمْ، ثُمَّ عَمِلُوا بِهَذَا الْمُخَطَّطِ لَمَّا تَمَكَّنُوا، وَأَحْيَوْا مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُمُ الصَّفَوِيُّونَ مِنْ قَبْلُ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِيرَانَ، وَيَعِدُونَ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْمَذَابِحِ وَالتَّقْتِيلِ(٢١).

وَقَدْ أَعْلَنَ الْمُتَنَفِّذُونَ مِنْهُمْ فِي الْعِرَاقِ عَنْ مَشْرُوعِهِمُ الْبِدْعِيِّ الْبَغِيضِ، حِينَ ظَهَرَ كَبِيرٌ مِنْ شَيَاطِينِهِمْ عَلَى فَضَائِيَّةٍ مِنْ فَضَائِيَّاتِهِمْ يَقُولُ: إِنَّ الشِّيعَةَ ظُلِمُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَآنَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا حَقَّهُمْ(٢٢). مُذَكِّرًا بِمَقُولَةِ خُمَيْنِيِّهِمُ الْهَالِكِ حِينَ

---

(٢١) وقد أصدرت منظمة العفو الدولية بيانها الصحفي رقم (١٠٤) في ٢٨ أبريل ٢٠٠٣، وذكرت فيه أن عددًا لا يحصى من الوثائق تعرضت للحرق والإتلاف، وفي تقرير لموقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) عن سكان العراق ذكر أن الكثير من العرب السنة خرجوا خارج العراق، وأن هناك عراقيين شيعة ممن طردهم صدام إلى إيران بتهمة التعبئة الإيرانية في الحرب العراقية الإيرانية قد عادوا.

وثمة تقارير تشير إلى أن هناك عشرات الآلاف من الإيرانيين قد دخلوا العراق خلال الشهور الأولى من عام ٢٠٠٤م، وتم تجنيسهم بالجنسية العراقية مما يزيد في ثقل الشيعة، ونقل التقرير عن خليل الديلمي في لقاء مع شبكة البصرة أن هناك حوالي مليونين ونصف إيراني دخلوا إلى العراق، وتم قيدهم في جداول الانتخابات على أنهم عراقيون، خاصة بعد حرق كافة أوراق السجل المدني العراقي، وذكر التقرير أن إحراق السجلات المدنية عقب دخول القوات الأمريكية للعراق جعل مسألة الإحصائيات غير ممكنة. اهـ.

(٢٢) القائل هو علي الدباغ الناطق باسم جواد المالكي من حزب الدعوة الإسلامي الشيعي. ينظر: عودة الصفويين (٥١-٥٢).

قَالَ: «السُّنَّةُ حَكَمُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَآنَ لِلشِّيعَةِ أَنْ يَحْكُمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ»(٢٣).

وَهَكَذَا يُغَيَّرُ التَّارِيخُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُفْرَضُ تَارِيخٌ جَدِيدٌ، يَخُطُّهُ الصَّفَوِيُّونَ الْجُدُدُ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ، كَمَا غُيِّرَ تَارِيخُ إِيرَانَ بِمَذَابِحِ الصَّفَوِيِّينَ الْقُدَمَاءِ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ مَنْ يَرْضَى، وَيَأْبَاهُ مَنْ يَأْبَى! فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الثَّقَافَةَ وَالمَعْرِفَةَ، وَيُصَدَّرُونَ فِي الْإِعْلَامِ وَالصِّحَافَةِ عَلَى أَنَّهُمْ مُفَكِّرُو الْأُمَّةِ وَمُحَلِّلُوهَا، وَهُمْ لَا يَرَوْنَ أَبْعَدَ مِنْ أُنُوفِهِمْ.

الْعَجَبُ مِنْهُمْ حِينَ كَانُوا يُخَدِّرُونَ الْأُمَّةَ، وَيَتَّهِمُونَ كُلَّ نَاصِحٍ وَمُحَذِّرٍ مِنَ الْخَطَرِ الْبَاطِنِيِّ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ لِلْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ، ثُمَّ إِذَا أَتْبَاعُ المَذَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ يَصْفَعُونَهُمْ فِي لِبْنَانَ وَالْعِرَاقِ، وَيَسْتَأْسِدُونَ فِي الدُّوَلِ الْأُخْرَى مُحْتَمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الَّتِي بَلَغَ مِنْ تَعَصُّبِ حُكَّامِهَا لِلْفُرْسِ اشْتِرَاطُ دُسْتُورِهِمْ أَنْ يَكُونَ حَاكِمُ جُمْهُورِيَّتِهِمْ فَارِسِيًّا(٢٤)، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ مُتَمَذْهِبًا بِمَذْهَبِهِمُ الْبَاطِنِيِّ. بَلْ إِنَّ كُلَّ المَرْجِعِيَّاتِ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّةَ فِي الْعَالَمِ لَا بُدَّ أَنْ تَخْضَعَ لِرَأْسٍ فَارِسِيٍّ، أَوْ يَكُونَ مِنْ أُصُولٍ فَارِسِيَّةٍ، وَمَا أَشَدَّ حُمْقَ مَنْ يُجَنِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ الْفُرْسِ، وَهُمْ يَرَوْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ لِفَارِسِيَّتِهِمْ!!

---

(٢٣) المصدر السابق (٥٢).

(٢٤) في المادة (١١٥) من الدستور المتعلقة برئيس الجمهورية جاء في الفقرة الأولى منها ما يلي: أن يكون رئيس الجمهورية إيراني الأصل ويحمل الجنسية الإيرانية؛ أي: أن يكون من أبوين إيرانيين، وهذا يعني أن الفارسي فقط يحق له أن يصبح رئيسًا للجمهورية؛ حيث بات عرفًا أن الإيراني هو الفارسي، والدستور الإيراني يؤكد ذلك في مادته (١٥) عندما ينص على أن تكون اللغة والكتابة الرسمية والمشتركة هي الفارسية، وإلا لماذا توجب الفقرة المذكورة الأصل والجنسية دون أن تكتفي بالجنسية فقط.

وَلَمَّا أُسْقِطَ فِي أَيْدِي مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَمُثَقَّفُونَ إِزَاءَ مَا يَرَوْنَهُ مِنْ طَائِفِيَّةٍ بَغِيضَةٍ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، لَمْ يَجِدُوا مِشْجَبًا يُعَلِّقُونَ عَلَيْهِ فَشَلَ تَحْلِيلَاتِهِمْ، وَخَطَلَ رَأْيِهِمْ، وَضَعْفَ عُقُولِهِمْ إِلَّا جَلْدَ الْعَرَبِ مِنْ جَدِيدٍ، وَادِّعَاءَ عَصَبِيَّتِهِمْ لِعُرُوبَتِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَالزَّعْمَ بِأَنَّ دَمَ كُلَيْبٍ لَا يَزَالُ سَاخِنًا[٢٥]، وَأَنَّ قَمِيصَ عُثْمَانَ ظَلَّ مَرْفُوعًا، فِي تَعَامٍ عَنِ

---

(٢٥) كتب تركي الحمد مقالًا في الشرق الأوسط بعنوان: وما زال دم كليب ساخنًا، وذكر فيه أن وقائع إعدام صدام حسين يعكس واقعًا وتاريخًا مليئًا بالعنف والدم مبعثه مبدأ الثأر بين قبائل وعشائر وأحزاب العرب، منذ وجدوا حتى هذه اللحظة، مما يدعو إلى القول: إن ساعة الزمن واقفة عند لحظة لا تتجاوزها في التاريخ العربي، تتغير الأشكال والمضمون واحد. ثم عمم هذه الظاهرة في العراق على كل العرب وذكر حادثة جساس وكليب، ثم حادثة عمرو بن كلثوم مع عمرو بن هند، ثم حادثة الجمل وصفين؛ ليجعل كل ذلك في سياق واحد وهو دموية العرب ثم خلص إلى ما يريد تقريره بقوله: ما يجري في العراق، بل وما يجري في لبنان والسودان والجزائر والصومال وغيرها مما يحمله الرحم العربي، هو نتيجة ثقافة متحجرة تأبي أن تتغير، أو يؤبى عليها أن تتغير، فهي ذاتية الإنتاج بشكل غريب، محمية بحراس أشداء، حتى أن دينًا مثل الإسلام لم يستطع أن يروضها إلا لفترة وجيزة، ثم استوعبته هي، وتحولنا إلى طوائف ومذاهب وعصبيات وقبائل وعشائر وعادات وتقاليد، وقتل الجميعُ الجميعَ دفاعًا عن الإسلام، بينما هي السلطة والثروة والعصبية والجهل من يقف وراء كل ذلك، البعض يفعل ذلك عن وعي وعلم، والبعض عن جهل وعقل لا يعرف إلا التعصب سبيلًا. صحيفة الشرق الأوسط، الأحد ١٨/ ١٢/ ١٤٢٧هـ عدد (١٠٢٦٧).

وكلامه ينطوي على مغالطات وخلط كثير، وبيان ذلك ما يلي:

١- اتهم العرب بأنهم متحجرون ودمويون، ولم يستثن من ذلك حتى عصر صدر الإسلام، وتخصيص ذلك بالعرب مغالطة مفضوحة، فكل حروب العرب من فجرهم إلى وقتنا لم يقتل فيها عشر ما قتل في الحرب العالمية الثانية التي كان أسيادها وربانها وحطبها الغرب المعجب به، ناهيك عن مذابح لينين ثم ستالين، وقد كان الدكتور تركي يومًا على مذهبهما وداعية لهما قبل أن يكفر بهم بعد سقوط الشيوعية، ويتحول من أقصى اليسار إلى أقصى =

الْوَاقِعِ، وَتَزْوِيرٍ لِلْحَقَائِقِ، وَتَضْلِيلٍ لِلْعَامَّةِ.

وَأَيْنَ دَمُ كُلَيْبٍ، وَقَمِيصُ عُثْمَانَ مِنْ دُوَلٍ إِسْلَامِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ قَامَتْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَعَلَى مَدَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، نَعِمَتْ فِيهَا بِسَلَامٍ كُلُّ الطَّوَائِفِ وَالمَذَاهِبِ، بَلْ حَتَّى الْكُفَّارُ الْأَصْلِيُّونَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَجِدُوا ظُلْمًا وَلَا بَخْسًا، وَإِنْ وُجِدَ حَاكِمٌ ظَالِمٌ مُسْتَبِدٌّ طَالَ ظُلْمُهُ الْجَمِيعَ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فِي ظُلْمِهِ عَلَى أَسَاسٍ مَذْهَبِيٍّ أَوْ عِرْقِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ.

وَكَمْ فِي دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ طَوَائِفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمَذَاهِبَ

= اليمين، وينضم إلى إمبريالية الليبراليين، ويكون جنديًّا ملتزمًا في صفوفها، وأيضًا: كم هي مذابح هتلر وموسوليني وجارزياني وتشاوشيكو وغيرهم من الغربيين والشرقيين.

٢- أليس المسلمون هم الذين أوقفوا ظلم القياصرة والأكاسرة في الشام والعراق وبلاد فارس ثم في الأندلس، حتى احتمى بهم اليهود من بطش النصارى، واحتمى بهم الأرثوذكس من بطش الكاثوليك، ومن قرأ عن الحملة الصليبية الرابعة التي وطئ فيها الكاثوليك بيزنطة، واستباحوا البيزنطيين ونكلوا بهم، وأهانوا دينهم، ثم قرأ عن فتح محمد بن مراد العثماني للقسطنطينية وتأمينه لأهلها عرف الفرق بين المسلمين الذين يسخر بهم الحمد وبين معبودات الحمد من الأوثان الغربية، وقد شهد أكبر عالم اجتماعي للمسلمين بالعدل والرحمة في حروبهم وفتوحهم، وهو جوستاف لوبون.

٣- هل يجهل الحمد أن الذي يحكم العراق الآن هم الفرس، فلماذا يجعل الدموية نتاجًا عربيًّا وهو يراه الآن بأيدٍ فارسية، وهم يقيمون هذه المذابح انتقامًا من العرب والمسلمين، وتعصبًا لفارسيتهم وملك أكاسرتهم، وقد كان الحمد يشيد بهم المرة بعد المرة في كثير من مقالاته، ويرى أنهم مظلومون في دولهم الخليجية، والسؤال هنا: هل حكام الخليج فعلوا بالروافض والفرس ما فعلته إيران بأهل السنة وعرب الأحواز؟ وهل فعلوا ما يفعله الصفويون الآن في العراق من تقطيع بالمناشير وخرق الرؤوس بالدريلات، وحرق أهل السنة وهم أحياء، والإبادات الجماعية لهم؟!

لكنه الهيام بالغرب والفرس وكراهية الإسلام والمسلمين توصل إلى هذا الحد من العمى أو التعامي حتى يُجلد العرب السنة من كتاب المارينز الليبرالية، في الوقت الذي يُذبحون فيه على أيدي رعاة البقر وسدنة النار.

مُخْتَلِفَةٍ، وَأَقَلِّيَّاتٍ مُتَبَايِنَةٍ؛ فَهَلْ فَعَلَتْ بِهِمْ دُوَلُهُمُ السُّنِّيَّةُ مَا يَفْعَلُهُ الصَّفَوِيُّونَ الْجُدُدُ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْعِرَاقِ؟ وَمَاذَا سَيَفْعَلُ الصَّفَوِيُّونَ بِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ لَوْ حَكَمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ كَمَا يَطْمَحُونَ وَيُؤَمِّلُونَ؟!

أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَخَذَلَهُمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ.

وَلَعَلَّ فِي هَذِهِ النَّوَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْوَقَائِعِ الْمُتَسَارِعَةِ، عِبْرَةً لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَعْرِفُوا أَعْدَاءَهُمْ مِنْ أَصْدِقَائِهِمْ، وَيُمَيِّزُوا بَيْنَ النَّاصِحِينَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخِيَانَةِ وَالْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ.

وَلَعَلَّ فِيهَا مَوْعِظَةً لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُصْلِحُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيَلْجَأُوا إِلَى رَبِّهِمْ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدِهِ، وَعَافِيَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَتَسْدِيدِهِ وَتَثْبِيتِهِ، فِي وَقْتٍ وَقَعُوا فِيهِ بَيْنَ فَكَّيِ الْمَشَارِيعِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ، وَالطُّمُوحَاتِ الصَّفَوِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ! ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٨٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٣٨٣- الدولة الصفوية (٢) اختطاف قضية فلسطين

١/ ٧/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالسُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ؛ لِيُظْهِرَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى هُدَاهُ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَطَايَاهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بِالنُّورِ وَالْهُدَى، فَلَا طَرِيقَ يُوصِلُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَنَّتِهِ إِلَّا طَرِيقُهُ؛ فَمَنْ سَارَ عَلَى هَدْيِهِ وَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهَا هَلَكَ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَتَرَضَّى عَنْهُمْ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الْبَاطِنِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ. وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ التَّابِعِينَ لِلصَّحَابَةِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ النَّجَاةَ فِي التَّقْوَى ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: يُحِيطُ بِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْكَوَارِثِ

الْمُتَوَقَّعَةِ مَا لَا دَافِعَ لَهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَتُحَاصِرُ الْمُسْلِمِينَ فِتَنٌ عَظِيمَةٌ لَا عَاصِمَ مِنْهَا إِلَّا التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْتِزَامُ هَدْيِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَمُدَافَعَةُ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ بِكَافَّةِ السُّبُلِ الْمُتَاحَةِ.

لَقَدْ تَكَالَبَ الْأَعْدَاءُ عَلَى الْإِسْلَامِ لِمَحْوِهِ وَتَغْيِيرِهِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ أَوْ إِبَادَتِهِمْ، وَاسْتِبَاحَةِ بُلْدَانِهِمْ، وَإِسْقَاطِ مَمَالِكِهِمْ، وَتَقْسِيمِ دُوَلِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَى قُوَّتِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ الْمُكْتَسَبَةِ مِنْ دِينِهِمْ، كَمَا قَضَوْا عَلَى قُوَّتِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، فَأَضْحَى الْمُسْلِمُونَ تَابِعِينَ لِلْأُمَمِ الْقَاهِرَةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهَا، وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْ قَرَارَاتِهَا، مُنْذُ أَنْ وَطِئَ الِاسْتِعْمَارُ الْحَدِيثُ أَرْضَهُمْ، وَاسْتَوْلَى عَلَى قُدْسِهِمْ فَسَلَّمَهَا لِلْيَهُودِ.

وَظَلَّتْ قَضِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ تَتَقَاذَفُهَا الْأَيْدِي، وَتُخْتَرَعُ لَهَا الشِّعَارَاتُ، وَيَرْتَزِقُ بِهَا الْمُرْتَزِقَةُ، فَأُسْقِطَتْ حُكُومَاتٌ بِسَبَبِهَا، وَقَامَتْ دُوَلٌ تَدَّعِي تَحْرِيرَهَا، وَارْتَفَعَتِ الشِّعَارَاتُ الْقَوْمِيَّةُ الْعَلْمَانِيَّةُ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَفْدِيهَا بِدَمِهَا، وَلَكِنَّ زُعَمَاءَ الْقَوْمِيَّةِ سَحَقُوا الْقَضِيَّةَ فِي سَبِيلِ تَثْبِيتِ زَعَامَتِهِمْ، وَتَقْوِيَةِ أَحْزَابِهِمْ.

وَكَانَ مِنْ أَخْطَرِ مَنِ اسْتَغَلُّوا هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لِتَمْرِيرِ مَذَاهِبِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَتَقْوِيَةِ نُفُوذِهِمْ، وَحَشْدِ الْجَمَاهِيرِ الْمُتَعَطِّشَةِ خَلْفَهُمْ: الْفِرَقُ الْبَاطِنِيَّةُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي مَا عُرِفَ لَهَا عَمَلٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِلَّا خِيَانَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَطَعْنُهُمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ، وَمُظَاهَرَةُ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ الْمُتَاجَرَةُ بِقَضَايَاهُمْ.

وَلَمَّا قَامَتِ الثَّوْرَةُ الْخُمَيْنِيَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ فِي بِلَادِ فَارِسَ، كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُتَعَطِّشِينَ لِمَنْ يَرْفَعُ رَايَةَ الْإِسْلَامِ فِي تَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ، بَعْدَ الانْكِسَارَاتِ الْقَوْمِيَّةِ، فَاخْتَطَفَ الصَّفَوِيُّونَ الْخُمَيْنِيُّونَ قَضِيَّةَ فِلَسْطِينَ بِالشِّعَارَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالتَّصْرِيحَاتِ

الْمُخَادِعَةِ، وَكَانَ شِعَارُ الثَّوْرَةِ آنَذَاكَ: «الْيَوْمَ طِهْرَانُ وَغَدًا الْقُدْسُ»[١].

وَلَكِنَّ هَذَا الشِّعَارَ كَانَ مَشْرُوطًا بِتَحْرِيرِ طَرِيقِ كَرْبَلَاءَ أَوَّلًا، فَكَانَتِ الْحَرْبُ الْعِرَاقِيَّةُ الْإِيرَانِيَّةُ الَّتِي عَجَزَ الْبَاطِنِيُّونَ بِهَا الْوُصُولَ إِلَى كَرْبَلَاءَ، وَكَانَتِ الشِّعَارَاتُ الثَّوْرِيَّةُ الرَّنَّانَةُ ضِدَّ الْغَرْبِ وَالْيَهُودِ وَالشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ تَصْدُرُ آنَذَاكَ مِنْ طِهْرَانَ؛ لِتَأْخُذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُحْبَطِ الْعَاجِزِ؛ لِيَظْهَرَ أَثْنَاءَهَا فَضِيحَةُ (إِيرَان جِيت)[٢] الَّتِي انْكَشَفَ فِيهَا أَنَّ أَسْلِحَةَ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ وَإِسْرَائِيلَ

---

(١) وهذا الشعار وأمثاله من الشعارات جعلت الأمة من مشرقها إلى مغربها إبان الثورة الخمينية تقف وراء هذا الدعي الأفاك، في غياب تام لأهل الحق عن قيادة الأمة.

(٢) هي فضيحة التعاون الأمريكي الإسرائيلي الإيراني ضد العراق ودول الخليج أيام حرب الخليج الأولى، ووقتها كانت إيران في حالة عداء شديد مع إسرائيل وأمريكا في العلن، ولكن في السر كانت إسرائيل وأمريكا تزودان إيران بالأسلحة ضد العراق ودول الخليج.
فكانت الأسلحة وقطع الغيار تشحن من أمريكا عبر إسرائيل إلى طهران، وتبين أن الشيخ صادق طبطبائي كان حلقة الوسط بين إيران وإسرائيل من خلال علاقته المتميزة مع يوسف عازر الذي كانت له علاقة بأجهزة المخابرات الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي.
وفي مقابلة مع جريدة (الهيرلد تريديون) الأمريكية في ٢٤-٨-١٩٨١م اعترف الرئيس الإيراني السابق أبو الحسن بني صدر أنه أحيط علمًا بوجود هذه العلاقة بين إيران وإسرائيل، وأنه لم يكن يستطيع أن يواجه التيار الديني هناك والذي كان متورطًا في التنسيق والتعاون الإيراني الإسرائيلي.
وفي ٣ حزيران ١٩٨٢ اعترف مناحيم بيجن بأن إسرائيل كانت تمد إيران بالسلاح، وعلل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي أسباب ذلك المد العسكري الإسرائيلي إلى إيران بأن من شأن ذلك إضعاف العراق.
ثم أفادت مجلة (ميدل إيست) البريطانية في عددها تشرين الثاني ١٩٨٢ أن مباحثات تجري بين إيران وإسرائيل بشأن عقد صفقة تبيع فيها إيران النفط إلى إسرائيل، في مقابل إعطاء إسرائيل أسلحة إلى إيران بمبلغ مائة مليون دولار كانت قد صادرتها من الفلسطينيين بجنوب لبنان.
وذكرت المجلة السويدية (تي تي) في ١٨ آذار ١٩٨٤ ومجلة (الأوبذيفر) في عددها =

كَانَتْ تَتَدَفَّقُ سِرًّا عَلَى طِهْرَانَ فِي حَرْبِهَا مَعَ الْعِرَاقِ، وَبَانَ أَنَّ الْهَدَفَ الْفَارِسِيَّ الْبَاطِنِيَّ لَيْسَ الْقُدْسَ، وَإِنَّمَا بَغْدَادُ وَالْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ، فَعَجَزُوا عَنْ تَحْقِيقِ مُرَادِهِمْ آنَذَاكَ؛ لِيَأْتِيَ الْمُسْتَعْمِرُ الصَّلِيبِيُّ الصِّهْيَوْنِيُّ بِجَحَافِلِهِ فَيَطَأُ بَغْدَادَ وَيُسَلِّمُهَا لِلْعَمَائِمِ الْبَاطِنِيَّةِ بِلَا قِتَالٍ، وَيَعْهَدُ إِلَيْهَا بِمُهِمَّةِ إِبَادَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَتَهْجِيرِهِمْ، وَيَتِمُّ إِفْرَاغُ بَغْدَادَ مِنْ أَهْلِهَا بِالْقَتْلِ وَالْحَرْقِ وَالتَّعْذِيبِ وَالتَّهْجِيرِ؛ لِتَكُونَ خَالِصَةً لِلصَّفَوِيِّينَ، وَمَنِ اسْتَوْلَى عَلَى بَغْدَادَ مَلَكَ كُلَّ الْعِرَاقِ، وَقَدْ مَلَكَهَا الصَّفَوِيُّونَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!

وَلَا زَالَتِ الشِّعَارَاتُ الْمُعَادِيَةُ لِلْيَهُودِ وَالشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ هِيَ الشِّعَارَاتُ، وَالْمُؤْتَمَرَاتُ بِتَحْرِيرِ الْقُدْسِ تُقَامُ دَوْرِيًّا فِي إِيرَانَ.

ثُمَّ يَظْهَرُ شَيْطَانٌ بَاطِنِيٌّ آخَرُ فِي لِبْنَانَ يُعْلِنُ النِّكَايَةَ بِالْيَهُودِ، وَيَعِدُ بِتَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يُحَرِّرَ بَيْرُوتَ مِنْ عُمَلَاءِ الْيَهُودِ -يُرِيدُ بِذَلِكَ أَهْلَ السُّنَّةِ- وَيُشْعِلُ حَرْبًا مَعَ الصَّهَايِنَةِ كَانَتْ خِلَالَهَا صَوَارِيخُ حِزْبِ الشَّيْطَانِ تُنْصَبُ عَلَى قُرَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَبُيُوتِهِمْ قَسْرًا لِتَدُكَّهَا طَائِرَاتُ الصَّهَايِنَةِ فَتَتْرُكَهَا خَرَابًا[٣].

وَأَثْنَاءَ الْحَرْبِ وَبَعْدَهَا وَإِلَى الْيَوْمِ تُنْقَلُ عَبْرَ الْإِذَاعَاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ الْخُطَبُ الرَّنَّانَةُ لِأَصْحَابِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ، وَيُشَادُ بِالْبُطُولَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الْمُصْطَنَعَةِ الَّتِي يَتَحَدَّى فِيهَا حُكَّامُ طِهْرَانَ، وَأَمِينُ حِزْبِ الشَّيْطَانِ فِي لِبْنَانَ الصَّهَايِنَةَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ

= بتاريخ ٧-٤-١٩٨٤ ذكرت عقد صفقة أسلحه إسرائيلية إلى إيران، قالت المجلة الأخيرة: إنها بلغت أربعة مليارات دولار. فهل كانت إسرائيل لترضى بشحن السلاح إلى إيران لو كانت إيران تشكل أدنى خطر على الوجود اليهودي؟! وهل كانت أمريكا ستعطي السلاح إلى إيران لو أن إيران تمثل الخطر الإسلامي الحقيقي الذي تهابه أمريكا وروسيا وغيرهما؟!

(٣) نشر ذلك في الموقع الإخباري (مفكرة الإسلام) على الشبكة العالمية، عن طريق مراسلين له في لبنان.

مِنْ دُوَلِ الْغَرْبِ الْكُبْرَى، وَيَتَأَثَّرُ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ التَّائِهُ بِتِلْكَ الْخُطَبِ الثَّوْرِيَّةِ الْحَمَاسِيَّةِ، وَالْأَفْعَالِ الْعَنْتَرِيَّةِ الَّتِي يُبْدِيهَا الْبَاطِنِيُّونَ فِي بَيْرُوتَ وَطِهْرَانَ تِجَاهَ قَضَايَاهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، حَتَّى كَثُرَ الْقَوْلُ: إِنَّ تَحْرِيرَ فِلَسْطِينَ سَيَكُونُ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ فِي إِيرَانَ وَلِبْنَانَ، بَعْدَ الْيَأْسِ مِنَ الزَّعَامَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ بَيْتَ الطَّاعَةِ الْغَرْبِيِّ، فَهَلْ حَقًّا سَيَنْصُرُ الْبَاطِنِيُّونَ قَضَايَا الْمُسْلِمِينَ؟ وَمَا مَكَانَةُ بَيْتِ المَقْدِسِ عِنْدَهُمْ؟

فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ عِنْدَ الْإِمَامِيَّةِ أَنَّ المَسْجِدَ الْأَقْصَى فِي السَّمَاءِ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الصَّافِي لِلْكَاشَانِي عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، قَالَ: «ذَاكَ فِي السَّمَاءِ، إِلَيْهِ أُسْرِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ». وَجَاءَ مِثْلُهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُمِّيِّ مَنْسُوبًا إِلَى الْبَاقِرِ(٤).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ المَسْجِدَ الْأَقْصَى الَّذِي أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قُدْسِيَّتِهِ لَا قِيمَةَ لَهُ عِنْدَهُمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ كُلَّ فَضْلٍ جَاءَ فِيهِ فَإِنَّهُ مِنْ صُنْعِ بَنِي أُمَيَّةَ؛ كَمَا أَسْنَدَ المَجْلِسِيُّ -وَهُوَ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّتِهِمْ- إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ ﵁ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ المَسَاجِدِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ، فَقَالَ: «المَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَمَسْجِدُ الرَّسُولِ ﷺ، قُلْتُ: وَالمَسْجِدُ الْأَقْصَى جُعِلْتُ فِدَاكَ؟ قَالَ: ذَاكَ فِي السَّمَاءِ، إِلَيْهِ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بَيْتُ المَقْدِسِ، فَقَالَ: مَسْجِدُ الْكُوفَةِ أَفْضَلُ مِنْهُ»(٥).

---

(٤) تفسير الصافي لمحسن الفيض الكاشاني (١/ ٦٦٩-٦٧٠).
قال عباس القمي: والمشهور على أن المسجد الأقصى هو بيت المقدس، ولكن يظهر من الأحاديث الكثيرة، أن المراد منه هو البيت المعمور الذي يقع في السماء الرابعة، وهو أبعد المساجد. منتهى الآمال في تاريخ النبي والآل (٧٠).

(٥) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (٢٢/ ٩٠).

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ الْخَبِيثِ حَرَّفُوا حَدِيثَ شَدِّ الرِّحَالِ إِلَى الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ، فَجَعَلُوهُ هَكَذَا: «لَا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَسْجِدِ الْكُوفَةِ»(٦).

ثُمَّ إِنَّهُمْ نَسَجُوا شَبَكَةً هَائِلَةً مِنَ الْأَكَاذِيبِ وَالتُّرَّهَاتِ فِي فَضْلِ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ جَعَلَتْهُ عِنْدَ أَتْبَاعِهِمْ أَعْظَمَ مِنَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ؛ لِإِضْفَاءِ قُدْسِيَّةٍ عَلَى كَرْبَلَاءَ وَمَا حَوْلَهَا(٧).

---

(٦) الخصال، لأبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي الشهير بالصدوق (١٣٧) ووسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي محمد بن الحسن (٥/ ٢٥٧).

(٧) ومن ذلك أحاديث عندهم تجعلها أفضل من مكة، وأنها أفضل أرض في الجنة:
١- ما افتروه على أبي جعفر قال: (خلق الله كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل أن يخلق الله الخلق مقدسة مباركة ولا تزال كذلك. وفي رواية ثانية زيادة: حتى يجعلها الله أفضل أرض في الجنة، وأفضل منزل ومسكن يسكن الله فيه أولياءه في الجنة) تهذيب الأحكام لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٦/ ٧٢)، وكامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه القمي (٤٥٠-٤٥١).
٢- ما افتروه على علي بن الحسين أنه قال: (اتخذ الله أرض كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يخلق أرض الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام، وأنها إذا بدل الله الأرضين رفعها الله كما هي برمتها نورانية صافية فجعلت في أفضل روض من رياض الجنة، وأفضل مسكن في الجنة لا يسكنها إلا النبيون والمرسلون. أو قال: أولو العزم من الرسل، وأنها لتزهر من رياض الجنة كما يزهر الكوكب الدري من بين الكواكب لأهل الأرض، يغشى نورها نور أبصار أهل الجنة جميعًا، وهي تنادي أنا أرض الله المقدسة، والطينة المباركة التي تضمنت سيد الشهداء وشباب أهل الجنة) وسائل الشيعة للحر العاملي (١٠/ ٤٠٣).
٣- ما افتروه على أبي عبد الله الصادق (أن أرض الكعبة قالت: من مثلي وقد بُنِيَ بيت الله على ظهري، يأتيني الناس من كل فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها كفي وقري، ما فَضْلُ ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غمست في البحر، فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا من ضمنته كربلاء لما خلقتك، ولا خلقت الذي افتخرت به، فقري واستقري وكوني ذنبًا متواضعًا ذليلًا مهينًا =

فَإِذَا كَانَ مُعْتَقَدُهُمْ فِي المَسْجِدِ الأَقْصَى أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا قِيمَةَ لِلْمَوْجُودِ فِي الْأَرْضِ، فَلِمَاذَا إِذَنْ يَعْقِدُونَ الْمُؤْتَمَرَاتِ لِلْأَقْصَى، وَيَلُوكُونَ قَضِيَّةَ الْقُدْسِ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَوْلَا مُتَاجَرَتُهُمْ بِهَا!!

وَأَمَّا مَنْزِلَةُ أَهْلِ فِلَسْطِينَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيِّينَ فَلَا قِيمَةَ لَهُمْ بِدُونِ تَشْيِيعٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، كَمَا جَاءَ فِي مُقَابَلَةٍ نَشَرَتْهَا صَحِيفَةُ (عَصْرُ إِيرَانَ) مَعَ آيَةِ اللَّهِ خَرَّازِي، وَهُوَ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالمُحَافِظِينَ قَالَ فِيهَا: «إِذَا أَرَدْنَا دَعْمَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّ فِلَسْطِينَ سَتَكُونُ سَائِرَةً عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ إِذَنْ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ وَفِلَسْطِينَ؟!»[٨]. وَقَبْلَهُ قَالَ الْخُمَيْنِيُّ الْهَالِكُ: «كُلُّ سِيَاسَتِنَا لَا قِيمَةَ لَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَنَا يَدٌ فِي الْقَضِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ»[٩].

وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ التَّشَيُّعَ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ انْتَشَرَ انْتِشَارًا كَبِيرًا فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالمَغْرِبِ، وَغَزَا مِصْرَ، وَدَخَلَ إِلَى فِلَسْطِينَ؛ إِذْ يُوجَدُ بِهَا ثَلَاثُ جَمْعِيَّاتٍ بَاطِنِيَّةٍ تَتَوَلَّى صَرْفَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى التَّشَيُّعِ، وَأَعْجَبُ مِنْ

= غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلّا مسختك وهويت بك في نار جهنم) وسائل الشيعة (١٠/ ٤٠٣).

٤- ما افتروه على أبي عبد الله الصادق قال: (شاطئُ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراتُ، والبقعة المباركة هي كربلاء) التهذيب للطوسي (٦/ ٣٨).

٥- ما افتروه على علي بن الحسين، في قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قال: «خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء، فوضعته في موضع قبر الحسين عليه السلام، ثم رجعت من ليلتها) التهذيب للطوسي (٦/ ٧٣).

(٨) نشرت في يوم الأحد ٢ مارس ٢٠٠٨م، ينظر: فلسطين في المشروع الإيراني، صباح الموسوي، صحيفة دنيا الوطن الفلسطينية، الإلكترونية ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٨م.

(٩) المرتكزات الديموغرافية والاجتماعية والثقافية في المشروع الإيراني، د.غازي التوبة، صحيفة نور سورية الإلكترونية.

ذَلِكَ وُجُودُ جَمْعِيَّاتٍ فِي عُمْقِ إِسْرَائِيلَ تَتَوَلَّى مُهِمَّةَ تَشْيِيعِ عَرَبِ ثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ تَحْتَ سَمْعِ الصَّهَايِنَةِ وَبَصَرِهِمُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِيرَانَ وَحِزْبَ الشَّيْطَانِ فِي لِبْنَانَ أَعْدَى أَعْدَائِهِمْ(١٠).

وَالسِّفَارَاتُ الْإِيرَانِيَّةُ فِي كُلِّ بِلَادِ الْأَرْضِ جَامِعَاتٌ وَمَعَاهِدُ لِنَشْرِ التَّشَيُّعِ، وَطَبْعِ الْكُتُبِ الْبِدْعِيَّةِ(١١)، وَلَا يَمَسُّهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُحَاصَرُ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتُجَفَّفُ مَنَابِعُهَا فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ، وَتُقْفَلُ الْجَمْعِيَّاتُ الْخَيْرِيَّةُ، وَيُحَارَبُ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَعْوَى مُحَارَبَةِ الْإِرْهَابِ

(١٠) نشرت جريدة السياسة الكويتية تقريرًا في جزئين عن التشيع داخل إسرائيل، ذكرت فيه أن بعض مراكز الإحصاء في إسرائيل قدرت أن عدد الشيعة الرسميين داخل إسرائيل -أي في عرب ٤٨- (٦٠٠ شيعي) يعلنون تشيعهم، هذا غير من يخفونه أو لا يظهرون شعائرهم. ونقلت عن بعض المصادر الإسرائيلية أن عدد الشيعة ربما يصل إلى عشرة آلاف. ووضع الباحث اليهودي بيرتس حاييم أورليد -وهو أستاذ في علم الديانات المقارن- تقريرًا ذكر فيه أن تزايد الشيعة قد يخلق دولة أخرى شيعية داخل إسرائيل. ينظر: جريدة السياسة، عددي (١٣٦٩٦-١٣٦٩٧) السبت والأحد ٣ و٤/ ١٢/ ١٤٢٧هـ.

(١١) في إيطاليا مثلًا يصلي أعضاء من السفارة الإيرانية صلاة الجمعة في أحد مساجد السنة، ويصطادون المسلمين الإيطاليين -ولا سيما الجدد- ويدعونهم للغداء، ويعطونهم حقيبة فيها جملة كتب للتعرف بالإسلام على المذهب الشيعي مترجمة باللغة الإيطالية، وفي داخل السفارة نادي للمسلمين الجدد فيه أنشطة رياضية وترفيهية ودعوية، وتضم مكتبة مترجمة إلى الإيطالية فيها أمهات كتب الشيعة، في حين أن أهل السنة يعانون مع المسلمين الجدد لندرة الكتب السنية باللغة الإيطالية، وقد شكا إلي عدد من مديري المراكز الإسلامية هذه المشكلة، وأن الإيرانيين يختطفون المسلمين الجدد من مساجد أهل السنة، بسبب أنه لا يوجد كتب لديهم باللغة الإيطالية، وأنهم اضطروا لطرد أعضاء السفارة الإيرانية، ومنعهم من الصلاة معهم يوم الجمعة.

وهذا في بلد واحد وقفت عليه بنفسي فكيف إذن بسائر البلاد الأجنبية التي تندر الكتب السنية المترجمة بلغة أهلها، والله المستعان.

وَتَجْفِيفِ مَنَابِعِهِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْغَرْبَ يُدْرِجُ إِيرَانَ وَفُرُوعَهَا ضِمْنَ قَائِمَةِ الْإِرْهَابِ، وَمِحْوَرِ الشَّرِّ، فَلِمَاذَا إِذَنْ يَسْمَحُ لَهَا بِنَشْرِ التَّشَيُّعِ، وَلَا يُثَرِّبُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ؟! حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الزَّعَامَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَلْمَانِيَّةِ رَصَدَتِ اسْتِخْبَارَاتُهَا قُوَّةَ التَّشَيُّعِ فِي بِلَادِهَا، وَأَحَسَّتْ بِخَطَرِ التَّغَلْغُلِ الْبَاطِنِيِّ فِي أَوْسَاطِ شَعْبِهَا، فَأَرَادَتْ تَحْجِيمَهُ وَتَقْلِيلَهُ وَالتَّحْذِيرَ مِنْهُ، فَكَانَ الْغَرْبُ بِالمِرْصَادِ لِكُلِّ مُحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ لِإِيقَافِ تَمَدُّدِ التَّشَيُّعِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ(١٢)، وَمَنْ بَيَّنَ حَقَائِقَ ذَلِكَ، أَوْ حَذَّرَ مِنْهُ اتُّهِمَ بِالطَّائِفِيَّةِ، وَالتَّحْرِيضِ عَلَى الْفِتْنَةِ، وَمَعُونَةِ الْعَدُوِّ عَلَى الْإِخْوَةِ، فَمَا مَصْلَحَةُ الصَّهَاينَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ مِنْ نَشْرِ التَّشَيُّعِ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ، مَعَ قَمْعِهِمْ لِدُعَاةِ السُّنَّةِ؟ وَمَا نَوْعُ الْعَدَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ؟

إِنَّ مَنْ قَرَأَ عَنْ مَشْرُوعِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ الَّذِي تُرِيدُ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ تَعْمِيمَهُ عَلَى دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ نَجَحَ فِي الْعِرَاقِ، وَمُلَخَّصُهُ إِشْعَالُ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ الطَّائِفِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَالْقَبَلِيَّةِ فِي الدُّوَلِ الْمُسْتَهْدَفَةِ، مَعَ عِلْمِهِ بِنِسْبَةِ الشِّيعَةِ الْإِمَامِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ؛ أَدْرَكَ المَنَافِعَ الْعَظِيمَةَ لِلْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةِ فِي نَشْرِ التَّشَيُّعِ وَتَجْفِيفِ مَنَابِعِ الدَّعْوَةِ السُّنِّيَّةِ وَمُحَارَبَةِ أَهْلِهَا؛ فَنِسْبَةُ الرَّافِضَةِ الْإِمَامِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَا تَصِلُ إِلَى عَشَرَةٍ فِي المِئَةِ عَلَى أَكْثَرِ التَّقْدِيرَاتِ، فِي مُقَابِلِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ فِي المِئَةِ مِنَ السُّنَّةِ، وَهَذَا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ لَا يَكْفِي لِتَعْمِيمِ مَشْرُوعِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ زَرْعِ التَّشَيُّعِ فِي كُلِّ بَلَدٍ إِسْلَامِيٍّ خَالٍ مِنْهُ، وَتَقْوِيَةِ الْخَلَايَا الْبَاطِنِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَقَلِّيَّاتٌ مِنْهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ لَهُمْ

(١٢) كانت مصر خالية من التشيع تمامًا، فكونت فيها إيران بأموالها بؤرًا شيعية عن طريق الطرق الصوفية، ودعمتهم بالأموال، حتى رأينا وسمعنا من يشتم الصحابة رضي الله عنهم، ويقذف الصديقة عائشة رضي الله عنها من أرض الكنانة، ولا يؤاخذ بذلك.

شَوْكَةٌ وَقُوَّةٌ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ سُلِّطُوا عَلَى دُوَلِهِمْ، وَتَنَاحَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَكَانَتِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةُ الَّتِي يَقْطِفُ الْمُسْتَعْمِرُ الصِّهْيَوْنِيُّ الصَّلِيبِيُّ ثِمَارَهَا، وَالحُوثِيُّونَ فِي الْيَمَنِ مِثَالٌ حَيٌّ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْعَدَاءِ بَيْنَ الصَّهَايِنَةِ وَإِيرَانَ فَعَدَاءٌ حَقِيقِيٌّ، وَلَكِنَّهُ عَدَاءُ مَصَالِحَ وَلَيْسَ عَدَاءَ عَقَائِدَ، وَالدَّوْلَةُ الْبَاطِنِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ تَتَقَارَبُ كَثِيرًا فِي تَارِيخِهَا وَمَوَاقِفِهَا وَعَقَائِدِهَا مَعَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، وَهِيَ فِي سِيَاسَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ نَفْعِيَّةٌ بُرْجَمَاتِيَّةٌ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْغَرْبِيَّةِ. وَالْغَرْبُ الِاسْتِعْمَارِيُّ قَدْ رَسَمَ لِلدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ حُدُودًا لَا تَتَجَاوَزُهَا، فَإِنْ تَجَاوَزَتْهَا ضُرِبَتْ ضَرْبَةَ تَأْدِيبٍ لِإِرْجَاعِهَا إِلَى حُدُودِهَا، وَلَيْسَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي ضَرْبِ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ ضَرْبَةً تُنْهِي وُجُودَهُمْ، أَوْ تُضَعْضِعُ كِيَانَهُمْ، أَوْ تُقَسِّمُ دَوْلَتَهُمْ، وَإِلَّا لَفَقَدَ مَشْرُوعُ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ أَهَمَّ رُكْنٍ فِيهِ.

بَيْدَ أَنَّ عَدَاوَةَ الْأُمَّتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُمَثِّلُ حَقِيقَةَ دِينِهَا وَمَنْهَجِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَدَاوَةٌ حَقِيقِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ دَائِمَةٌ، مُنْذُ أَنْ قَوَّضَ الْمُسْلِمُونَ دَوْلَتَيْ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَهِيَ الَّتِي يَجِبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ، وَتَقْسِيمُ دُوَلِهَا، وَتَجْفِيفُ مَنَابِعِ دَعْوَتِهَا، وَمُحَاصَرَةُ انْتِشَارِهَا، وَمُلَاحَقَةُ دُعَاتِهَا بِدَعَاوَى الْإِرْهَابِ وَالتَّطَرُّفِ.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَشْعَلَ الْفِتْنَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَحَمَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدِ اسْتَطَاعَ الْبَاطِنِيُّونَ وَبِخُبْثٍ بَالِغٍ أَنْ يُصَوِّرُوا لِجُمْهُورِ الْأُمَّةِ أَنَّ مَنْ عَارَضَ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ، أَوْ فَضَحَ مُخَطَّطَاتِهِمُ الإِجْرَامِيَةَ، أَوْ حَذَّرَ مِنَ الْغُرُورِ بِهِمْ فَهُوَ مِنْ عُمَلَاءِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ؛ فَكَانَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْيِ هَذِهِ التُّهَمِ أَنْ يَقِفَ الْمُسْلِمُ الْبَائِسُ خَلْفَ أَصْحَابِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ يَهْتِفُ لَهَا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا إِنْ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ غَدًا سَامَتْهُ سُوءَ الْعَذَابِ، كَمَا فَعَلَتْ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْعِرَاقِ.

وَالْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ أَنَّ الْمَشَارِيعَ الْفَارِسِيَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ فِي الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَيْسَتْ أَقَلَّ خَطَرًا مِنَ الْمَشَارِيعِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَأَنَّ الْعَمَائِمَ الْبِدْعِيَّةَ لَنْ تَكُونَ أَرْحَمَ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقُبَّعَاتِ الْيَهُودِيَّةِ أَوْ الْخُوذَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَكُلُّهُمْ خَطَرٌ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَجَمِيعُهُمْ أَعْدَاءٌ دَائِمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمُحَاوَلَةُ التَّقَارُبُ مَعَهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الْخَيَالِ وَالْأَحْلَامِ؛ إِذْ إِنَّ صَهَايِنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعِدُونَنَا بِمَسِيحِهِمْ لِيَقُودَهُمْ فِي قَتْلِنَا وَتَعْذِيبِنَا، وَبَاطِنِيَّةُ فَارِسَ يُهَدِّدُونَنَا بِمَهْدِيِّهِمْ لِيَقْتُلَنَا وَيُعَذِّبَنَا.

إِنَّنَا لَسْنَا مِنْ دُعَاةِ الْحُرُوبِ الْفَوْضَوِيَّةِ؛ فَفِي الْمُسْلِمِينَ مَا يَكْفِيهِمْ مِنَ التَّمَزُّقِ وَالتَّفَرُّقِ، وَلَكِنَّ الْغَرْبَ يُرِيدُهَا لِتَحْقِيقِ مَشْرُوعَاتِهِ عَبْرَ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ، وَأَدَاتُهُ الرَّئِيسَةُ فِي ذَلِكَ أَصْحَابُ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ الَّذِينَ أَثْبَتُوا بِجَدَارَةٍ وَاسْتِحْقَاقٍ أَنَّ

عَدَاءَهُمْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَشَدُّ مِنْ عَدَائِهِمْ لِأَيِّ مِلَّةٍ أُخْرَى، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٣).

إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ قَدْ حَكَمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، فَمَا أَبَادُوا الْبَاطِنِيِّينَ وَقَدْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمَّا حَكَمَ إِسْمَاعِيلُ الصَّفَوِيُّ بِلَادَ فَارِسَ شَيَّعَ أَهْلَهَا بِالسَّيْفِ، وَقَتَلَ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيهَا(١٤)، وَفِي طِهْرَانَ يَنْعَمُ أَتْبَاعُ كُلِّ المِلَلِ بِإِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ، وَبِنَاءِ مَعَابِدِهِمْ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ فِيهَا لَا مَسْجِدَ لَهُمْ.

وَلَمَّا سُلِّمَتْ بَغْدَادُ لِلصَّفَوِيِّينَ نَكَّلُوا بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِيهَا، وَتَوَلَّتْ فِرَقُ المَوْتِ عَمَلِيَّاتِ إِبَادَتِهِمْ وَتَهْجِيرِهِمْ حَتَّى أَفْرَغُوهَا مِنْهُمْ.

وَفِي لِبْنَانَ لَنْ يَقِرَّ لِعَمَائِمِهِمْ قَرَارٌ، وَلَنْ يَهْدَأَ لَهُمْ بَالٌ حَتَّى يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا فَيُهَجِّرُوا أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْهَا؛ لِتَكُونَ خَالِصَةً لِأَهْلِ بِدْعَتِهِمْ، وَمَا التَّحَرُّشَاتُ الْأَخِيرَةُ بِأَحْيَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا بِدَايَاتٌ لِذَلِكَ، وَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَقْرَءُونَ التَّارِيخَ، وَلَا يَعْرِفُونَ عَقَائِدَ الْقَوْمِ فِينَا، وَلَا يَرَوْنَ الْوَاقِعَ كَمَا هُوَ، وَإِنَّمَا يَرَوْنَهُ كَمَا يَصُوغُهُ الْأَعْدَاءُ لَهُمْ، وَلَنْ يُصَدِّقَ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْأُمَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ لَا يَقِلُّ خَطَرُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأُمَّتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ حَتَّى يَخْرِقَ أَصْحَابُ الْعَمَائِمِ رَأْسَهُ، وَيَنْتَهِكُوا عِرْضَهُ، وَيُهَجِّرُوهُ مِنْ بَلَدِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الطَّاغِيَةُ المُحَنَّطُ شَارُونُ فِي مُذَكِّرَاتِهِ: أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَاشَتْ خَمْسَ

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٦١٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٢٩٩٨).

(١٤) ينظر الخطبة التي قبل هذه: الدولة الصفوية (١) خطبة رقم (٣٨٢) من هذا المجلد.

سَنَوَاتٍ مِنَ السَّلَامِ فِي ظِلِّ حِمَايَةِ حِزْبِ اللَّهِ لِلْحُدُودِ الْجَنُوبِيَّةِ اللُّبْنَانِيَّةِ؛ حَيْثُ مَنَعَ الْحِزْبُ أَيَّ وُجُودٍ سُنِّيٍّ مُقَاوِمٍ مِنَ النَّفَاذِ إِلَى حُدُودِ الْجَلِيلِ الْأَعْلَى شَمَالَ إِسْرَائِيلَ، فَمَتَى يَعِي الْمَخْدُوعُونَ حَقِيقَةَ الْقَوْمِ؟!

وَصَدَقَ رَسُولُ الْهُدَى ﷺ حِينَ قَالَ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَقَدْ صَدَّقَ أَكْثَرُ النَّاسِ حُكَّامَ طِهْرَانَ، وَعَمَائِمَ الْبِدْعَةِ فِي لِبْنَانَ، وَعَمُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَّبُوا التَّارِيخَ وَالْوَاقِعَ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا النَّاصِحِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ . . .



(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٣٦)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر (٧٨٩٩)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨٨٧).

وأخرجه بنحوه من حديث أنس ﷺ: الطبراني في الأوسط (٣٢٥٨)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وسنده جيد. فتح الباري (١٣/ ٨٤).

علامات الساعة وأخبار القيامة

٣٨٤- الأشراط الصغرى للساعة (١) انتشار الفحش والفاحشة والتعري.

٣٨٥- الأشراط الصغرى للساعة (٢) كثرة القتل.

٣٨٦- الأشراط الصغرى للساعة (٣) الزلازل والخسف والقذف والمسخ.

٣٨٧- الأشراط الصغرى للساعة (٤) كثرة المال وفشو التجارة.

٣٨٨- الأشراط الصغرى للساعة (٥) تقارب الزمان.

٣٨٩- جنة الخلد (١) الأسماء والأوصاف.

٣٩٠- جنة الخلد (٢) الدرجات والمنازل.

٣٩١- نار الآخرة (١) أسماؤها وأوصافها.

٣٩٢- نار الآخرة (٢) أبوابها ودركاتها وخزنتها.

٣٩٣- نار الآخرة (٣) أشجارها وأوديتها وجبالها.

٣٨٤- الأشراط الصغرى للساعة (١) انتشار الفحش والفاحشة والتعري

١٤/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِۦ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَ اقْتِرَابِ الزَّمَانِ مِنْ نِهَايَتِهِ، وَدُنُوِّ السَّاعَةِ مِنْ قِيَامَتِهَا؛ تَتَنَوَّعُ الْفِتَنُ وَتَكْثُرُ، وَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى تَجِيءَ الْفِتْنَةُ الْعَظِيمَةُ فَيَخَافُهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَقَعُ فِيهَا مَنْ يَقَعُ، ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا فَتُنْسِيهِمُ الْأُولَى، وَيَنْشَغِلُونَ بِالثَّانِيَةِ عَنْهَا، وَلَرُبَّمَا تَمَنَّوُا الْأُولَى مِنْ هَوْلِ الثَّانِيَةِ، وَهَكَذَا .. حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِقِيَامِ السَّاعَةِ.

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَأَعْلَامِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنَ الْفِتَنِ

الْعَظِيمَةِ، وَالمَصَائِبِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَنْزِلُ بِأَهْلِ الإِسْلَامِ؛ فَوَقَعَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ المَعْصُومُ ﷺ.

وَمِنْ ذَلِكَ: خَبَرُهُ ﷺ عَنِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ، وَعَنْ كَثْرَةِ الْفُحْشِ وَالْفَاحِشَةِ، وَالإِعْلَانِ بِهَا. قَالَ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المَائِلَةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[1]، وَقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الصِّنْفَ بِالْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ؛ لِأَنَّهُنَّ يَلْبَسْنَ الثِّيَابَ، وَمَعَ هَذَا فَهُنَّ عَارِيَاتٌ؛ فَثِيَابُهُنَّ لَا تَسْتُرُهُنَّ؛ لِرِقَّتِهَا وَشَفَافِيَتِهَا وَضِيقِهَا، وَكَثْرَةِ الْفَتَحَاتِ فِيهَا الَّتِي تُظْهِرُ كَثِيرًا مِنْ أَجَسَادِهِنَّ.

وَهَذَا اللِّبَاسُ المَوْصُوفُ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا تَلْبَسُهُ المَرْأَةُ لِإِظْهَارِ زِينَتِهَا وَمَفَاتِنِهَا لِلرِّجَالِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ انْتِشَارُ الزِّنَا؛ لِأَنَّ المَرْأَةَ إِذَا تَزَيَّنَتْ لِغَيْرِ حَلِيلِهَا طَمِعَ فِيهَا الرِّجَالُ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهَا.

وَإِذَا كَثُرَ هَذَا اللِّبَاسُ فِي النِّسَاءِ اسْتَتْبَعَهُ كَثْرَةُ الزِّنَا فِي النَّاسِ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْثَرَ مِنْ حَدِيثٍ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ: كَثْرَةَ الزِّنَا، وَشُيُوعَ الْفَاحِشَةِ، بَلْ وَاسْتِحْلَالَ ذَلِكَ، وَكَثْرَةَ الشَّرِّ، وَقِلَّةَ الْخَيْرِ، حَتَّى إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى الْأَشْرَارِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2]. وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّهُ يَكْثُرُ فِيهِمُ الزِّنَا وَالْفَوَاحِشُ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨)، وأبو يعلى (٦٦٩٠)، وابن حبان (٧٤٦١)، والبيهقي (٢/ ٢٣٤)، والطبراني في الأوسط (١٨١١).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

وَيُجَامِعُ الرِّجَالُ النِّسَاءَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كَمَا تَفْعَلُ الْحَمِيرُ(٣).

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﵄ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ**»(٤).

لَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ نِسَاءٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ، وَعَنْ كَثْرَةِ الزِّنَا وَالْجَهْرِ بِهِ، وَانْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ، وَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْإِمَامَ النَّوَوِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا عَلَّقَ عَلَى حَدِيثِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ وَقَعَ ذَلِكَ فِي زَمَانِهِ، فَقَالَ: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ؛ فَقَدْ وَقَعَ هَذَانِ الصِّنْفَانِ، وَهُمَا مَوْجُودَانِ»(٥).

وَالنَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَاشَ فِي المِئَةِ السَّابِعَةِ، أَيْ: قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ قُرُونٍ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يُوجَدُ إِعْلَامٌ، وَلَا صَحَافَةٌ، وَلَا مَجَلَّاتٌ، وَلَا مِذْيَاعٌ، وَلَا تِلْفَازٌ، وَلَا فَضَائِيَّاتٌ، وَلَا شَبَكَةٌ عَالَمِيَّةٌ، وَلَا كَامِيرَاتُ تَصْوِيرٍ، وَلَا دُورٌ لِلْأَزْيَاءِ، وَلَا مَسْرَحٌ لِلتَّعَرِّي، وَلَا صِنَاعَةٌ لِلْأَفْلَامِ، وَلَا عَرْضٌ لِلْمَشَاهِدِ الْجِنْسِيَّةِ عَلَى مَلَايِينِ الْمُشَاهِدِينَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا نَعْلَمُهُ وَمِمَّا نَجْهَلُهُ، وَلَا يَزَالُ الشَّرُّ فِي اتِّسَاعٍ، وَالْفَاحِشَةُ فِي انْتِشَارٍ، فَمَاذَا سَيَقُولُ هَذَا الْإِمَامُ لَوْ رَأَى مَا يَحْدُثُ الْآنَ عَلَى الْأَرْضِ؟!

لَقَدِ انْتَشَرَتِ الْفَاحِشَةُ انْتِشَارًا مُخِيفًا فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسَبَبِ النَّظْرَةِ المَادِّيَّةِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِلْمَرْأَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ؛ فَالْأَفْكَارُ الْعَلْمَانِيَّةُ المَادِّيَّةُ الَّتِي شُيِّدَتْ عَلَيْهَا حَضَارَةُ الْغَرْبِ، وَمِنْ ثَمَّ صَدَّرَتْهَا لِلْعَالَمِ كُلِّهِ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ٩٣).

(٤) أخرجه في حديث طويل: أحمد (٢/ ١٩٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٧٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٥١٤).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥٦).

عَلَى أَنَّهَا مَتَاعٌ يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ النَّاسُ حُظُوظَهُمْ مِنْهَا، بَعِيدًا عَنْ أَيِّ قُيُودٍ أَوْ مُحَرَّمَاتٍ أَوْ مَمْنُوعَاتٍ، سَوَاءً كَانَتْ دِينِيَّةً أَمْ أَخْلَاقِيَّةً أَمْ عُرْفِيَّةً، فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ فَهُوَ مُبَاحٌ، وَغَيْرُ المُبَاحِ هُوَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَقَاعِدَتُهُمْ فِي ذَلِكَ هِيَ قَاعِدَةُ أَسْلَافِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَنْبَعَ اللَّذَّةِ، وَزِينَةَ الدُّنْيَا، وَلَا تَكْتَمِلُ سَعَادَةُ الرَّجُلِ إِلَّا بِهَا؛ فَإِنَّ النَّظْرَةَ المَادِّيَّةَ جَعَلَتْهَا فِي مُقَدِّمَةِ مَا يُعْتَنَى بِهِ فِي الْمَجَالِ الْمَادِّيِّ، فَحَطَّمَتْ كُلَّ الْقُيُودِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا الْبَشَرُ، وَتَنَاقَلُوهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأَكَّدَتْهَا رِسَالَاتُ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ: وُجُوبِ السَّتْرِ وَالْعَفَافِ، وَتَحْرِيمِ التَّعَرِّي وَالزِّنَا، فَكَانَتِ الصِّنَاعَاتُ الْإِعْلَامِيَّةُ فِي أَغْلَبِهَا لِلتَّرْفِيهِ وَالْإِثَارَةِ، وَالتَّرْفِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنِسَاءٍ يَنْزِعْنَ لِبَاسَهُنَّ، وَيُبْدِينَ مَفَاتِنَهُنَّ.

وَلَوْ جُمِعَتْ كُلُّ الْبَرَامِجِ الْمُفِيدَةِ: الصِّحِّيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ، وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، فِي كُلِّ وَسَائِلِ إِعْلَامِ الْبَشَرِ مِنْ صَحَافَةٍ، وَإِذَاعَاتٍ، وَفَضَائِيَّاتٍ، وَمَوَاقِعَ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَقُورِنَتْ بِالْبَرَامِجِ السَّاقِطَةِ الضَّارَّةِ الَّتِي تُسَمَّى بَرَامِجَ التَّرْفِيهِ وَالْإِثَارَةِ لَمَا حَنِثَ الْحَالِفُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى أَنَّ الْمُفِيدَ النَّافِعَ الَّذِي يُنَمِّي الْعُقُولَ، وَيَبْنِي الْأُمَمَ، لَا يَبْلُغُ أَمَامَ الْبَرَامِجِ الْمُدَمِّرَةِ عُشْرَ الْعُشْرِ.

فَكَمْ يُنْتِجُونَ مِنْ أَفْلَامٍ وَمُسَلْسَلَاتٍ؟! وَلَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مَشَاهِدَ غَرَامِيَّةٍ، وَقَصَصٍ عَاطِفِيَّةٍ، وَشَهَوَاتٍ مُحَرَّمَةٍ، وَنِسَاءٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ!!

وَكَمْ يَعْرِضُونَ مِنْ أَغَانٍ مُصَوَّرَةٍ تَسْتَحِي بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا أَبِي جَهْلٍ أَنْ تُشَاهِدَهَا؟! وَكَمْ مِنْ مَجَلَّاتٍ فِيهَا صُوَرٌ لِنِسَاءٍ شِبْهِ عَرَايَا؟!

وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا يَغْزُو الْبُيُوتَ عَبْرَ الْفَضَائِيَّاتِ، وَيُشَاهِدُهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْمُرَاهِقُونَ وَالْمُرَاهِقَاتُ، بَلْ وَحَتَّى الْأَطْفَالُ، فَكَيْفَ سَيَكُونُ حَالُ الْأَجْيَالِ الْحَاضِرَةِ وَالْقَادِمَةِ؟! وَكَيْفَ سَتَكُونُ أَخْلَاقُهُمْ، وَغَيْرَتُهُمْ عَلَى مَحَارِمِهِمْ، وَعَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

إِنَّهُ تَدْمِيرٌ عَظِيمٌ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَلِلْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي كِفَّةٍ، وَفِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى مَا يُعْرَضُ مِنْ صِنَاعَةِ الْجِنْسِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَشُذُوذَاتِهِ وَغَرَائِبِهِ، مِنْ زِنًا وَسِحَاقٍ وَعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، يَصِلُ إِلَى الْمُرَاهِقِ وَالْمُرَاهِقَةِ فِي غُرْفَتِهِمَا بِأَيْسَرِ الطُّرُقِ، وَأَقَلِّ الْمُؤْنَةِ، عَنْ طَرِيقِ الْأَطْبَاقِ الْفَضَائِيَّةِ، أَوِ الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فَمَا أَعْظَمَ الشَّرَّ! وَمَا أَكْثَرَ طُرُقَهُ وَأَبْوَابَهُ!!

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَقَدْ رَأَيْنَا النِّسَاءَ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ، الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا الزَّمَنَ الَّذِي انْتَشَرَ فِيهِ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ، وَظَهَرَ الزِّنَا، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَا، حَتَّى صَارَ يُنْقَلُ إِلَى كُلِّ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ عَبْرَ الْقَنَوَاتِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِبَاحِيَّةِ.

وَإِنْ سَلِمَتْ بَعْضُ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَنَوَاتِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِبَاحِيَّةِ بِسَبَبِ الرِّقَابَةِ الصَّارِمَةِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، فَإِنَّهَا لَنْ تَسْلَمَ مِنْ مَشَاهِدِ النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ فِي أَفْلَامِهِنَّ، وَمُسَلْسَلَاتِهِنَّ، وَأَغَانِيهِنَّ الْمُصَوَّرَةِ، وَلَنْ تَسْلَمَ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ فِيهَا مَا فِيهَا مِنْ صُوَرِهِنَّ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَنِسَاءَنَا وَأَوْلَادَنَا وَبُيُوتَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِصَلَاحِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ، وَصَلَاحِ النِّيَّاتِ وَالذُّرِّيَّاتِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا وَالْمُسْلِمِينَ الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَلَا عَاصِمَ مِنَ الْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ، وَالمِحَنِ الْمُتَلَاحِقَةِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَالْزَمُوا شَرِيعَتَهُ وَلَوْ ضَلَّ عَنْهَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ فَإِنَّ النَّجَاةَ فِيهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ كَانَتِ النَّظْرَةُ المَادِّيَّةُ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ -وَخَاصَّةً الْغَرْبِيِّينَ مِنْهُمْ- هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ التُّجَّارَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ يُتَاجِرُونَ بِالمَرْأَةِ -فِي لِبَاسِهَا، وَصَوْتِهَا، وَحَرَكَاتِهَا، وَعُرْيِهَا- هَذِهِ التِّجَارَةَ الرَّدِيئَةَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ انْتِشَارِ الْفَوَاحِشِ وَالمُوبِقَاتِ وَالشُّذُوذِ، وَبَلَغَكُمْ ذَلِكَ بِالمُشَاهَدَةِ أَوِ

السَّمَاعِ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ مُلَّاكَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ(٦)، وَصُنَّاعَ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ مِنْ تُجَّارِ الْمُسْلِمِينَ؛ يَسِيرُونَ سِيرَةَ الْغَرْبِيِّينَ المَادِّيِّينَ فِي هَذَا المَجَالِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ المُسْلِمِينَ يُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ؟! أَهُوَ الرِّبْحُ المَادِّيُّ فَحَسْبُ؟! وَهُمْ يَجِدُونَ الرِّبْحَ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى لَيْسَ فِيهَا هَذِهِ المُوبِقَاتُ!! أَمْ تُرَى أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانَ أَصْلُ تِجَارَاتِهِمْ بِالْحَرَامِ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِإِنْشَاءِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ وَالْبَرَامِجِ المُحَرَّمَةِ؛ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إِلَى إِثْمِهِمْ، وَيَحْمِلُوا أَوْزَارَ غَيْرِهِمْ مِنْ هَذَا الْبَشَرِ الْكَثِيرِ الَّذِينَ فُتِنُوا بِقَنَوَاتِهِمْ وَبَرَامِجِهِمْ، فَيَكُونُ حِسَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَظِيمًا كَبِيرًا، ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ المُسْلِمِينَ -هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَصْلَحَهُمْ- قَدِ اسْتَنْسَخُوا بَرَامِجَ غَرْبِيَّةً بِكَامِلِ تَفَاصِيلِهَا وَمَشَاهِدِهَا، وَنَقَلُوهَا إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَفَتَنُوا بِهَا الشَّبَابَ وَالْفَتَيَاتِ، بَرَامِجَ يَخْسَرُونَ عَلَيْهَا الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ، وَهِيَ سَامِجَةٌ تَافِهَةٌ، فِيهَا اخْتِلَاطٌ وَمُيُوعَةٌ، وَكَسْرٌ لِحَيَاءِ الْفَتَيَاتِ وَالْفِتْيَانِ، وَدَعْوَةٌ لِلْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ، وَتَحْرِيضٌ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى الدِّينِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَافِ، وَرَفْضٌ لِنِظَامِ الْأُسْرَةِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ وِصَايَةِ الْآبَاءِ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَقِوَامَةِ الْأَزْوَاجِ عَلَى الزَّوْجَاتِ(٧).

---

(٦) وذلك مثل مجموعة (إم بي سي)، ومجموعة (إي آر تي) وقناة (ال بي سي) ومجموعة الأوربت، وروتانا كليب، وغيرها، وملاكها مسلمون، وأكثرهم سعوديون.

(٧) انتشرت هذه الظاهرة في القنوات الفضائية، فصارت تستجلب برامج غربية بكامل =

فَإِذَا كَانَ مُلَّاكُ الْبَرَامِجِ الْغَرْبِيَّةِ قَدِ اخْتَارُوا هَذِهِ الطَّرِيقَ؛ لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى نَظْرَتِهِمُ المَادِّيَّةِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي تَغْيِيبٍ كَامِلٍ لِلْآخِرَةِ، فَمَا الَّذِي يَجْعَلُ تُجَّارَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يَنْقُلُونَ هَذِهِ الْبَرَامِجَ التَّافِهَةَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا وَانْحِرَافَاتِهَا إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيُفْسِدُوا بِهَا نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ؟! أَهُوَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَى عَلَى غَيْرِ هُدًى؟!

وَإِذَا كَانَ الْمُشَاهِدُ الْغَرْبِيُّ المِسْكِينُ قَدْ أُلْغِيَ الْعَالَمُ الْغَيْبِيُّ الْأُخْرَوِيُّ مِنْ تَفْكِيرِهِ وَثَقَافَتِهِ، فَعَاشَ انْتِكَاسَةً نَفْسِيَّةً خَطِيرَةً، وَأَزْمَةً فِطْرِيَّةً حَادَّةً؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، فَقُلِبَتْ فِطْرَتُهُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَلَا عَجَبَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى الْمُسَكِّنَاتِ وَالْمُهَدِّئَاتِ الْفَضَائِيَّةِ التَّرْفِيهِيَّةِ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا لِمَلْءِ الْفَرَاغِ الَّذِي خَلَّفَهُ إِنْكَارُ الْغَيْبِ، وَلَنْ يَمْتَلِئَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ. إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَا الَّذِي دَهَى كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى اسْتَقْبَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ الْفَاسِدَةِ بِالتَّهْلِيلِ وَالتِّرْحَابِ، وَفَتَحُوا لَهَا بُيُوتَهُمْ، وَأَسْلَمُوا لَهَا أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَهِيَ تَتَوَلَّى تَدْمِيرَ دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَغَيْرَتِهِمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ؟!

بَلْ قَدْ يَجْلِسُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ الَّذِي بِيَدِهِ الْعِصْمَةُ وَالْقِوَامَةُ أَمَامَ الشَّاشَةِ مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ، وَيَرَوْنَ جَمِيعًا مَا يَخْدِشُ الْحَيَاءَ، وَيُدَمِّرُ الْأَخْلَاقَ، وَيَلْحَظُ تَغَيُّرَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْفَاسِدَةِ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ، يَضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ، وَيَنَامُ مِلْءَ جَفْنِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقَلَّ الْغَيْرَةَ!!

= تفاصيلها وعريها، وتطبقها في تلك القنوات العربية مثل برنامج (ستار أكاديمي)، وبرنامج (الزواج عبر الشاشة)، وبرنامج (الرئيس) الذي تبنته قناة (إم بي سي)، وتقرر إقامته في البحرين فسارت مظاهرات ضده، فقرروا نقله منها، وغيره من البرامج الخليعة التي يجمعون فيها فتيان وفتيات من أقطار مختلفة؛ ليعيشوا في منزل واحد مدة معينة يأكلون سويًّا ويتراقصون، ويلعبون ... إلخ.

وَكَثِيرٌ مِمَّا يُعْرَضُ مِنْ بَرَامِجَ سَاقِطَةٍ قَدْ رَضِيَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَاللَّهِ لَا يَرْضَى بِهَا أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْضَوْهَا لِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ! فَهَلْ كَثْرَةُ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْمُفْسِدَةِ، وَتَنَوُّعُهَا فِي الْهُبُوطِ وَالِانْحِلَالِيَّةِ؛ قَدْ قَلَّلَتْ إِحْسَاسَ النَّاسِ، وَأَمَاتَتْ غَيْرَتَهُمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

لَقَدْ فَطِنَ كَثِيرٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْغَرْبِ وَمُثَقَّفِيهِ لِمَا لِهَذِهِ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ مِنْ تَدْمِيرٍ، وَوَضَعُوا فِيهَا الْأَبْحَاثَ وَالدِّرَاسَاتِ، وَحَذَّرُوا النَّاسَ مِنْ شَرِّهَا وَإِثْمِهَا، وَأَنْقُلُ بَعْضَ كَلَامِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَلَنْ أَنْقُلَ عَنْ مُثَقَّفٍ أَوْ عَالِمٍ مُسْلِمٍ؛ لِكَيْلَا يُقَالَ: هَذِهِ ثَقَافَةُ الْمُتَخَلِّفِينَ؛ أَوْ هَذَا فِكْرُ الْمُؤَامَرَةِ! فَمَا أَنْقُلُهُ هِيَ أَقْوَالُ بَاحِثِي وَمُثَقَّفِي صُنَّاعِ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ!

يَقُولُ أَحَدُهُمْ: «إِذَا كَانَ السِّجْنُ هُوَ جَامِعَةَ الْجَرِيمَةِ، فَإِنَّ التِّلِفِزْيُونَ هُوَ الْمَدْرَسَةُ الْإِعْدَادِيَّةُ لِانْحِرَافِ الْأَحْدَاثِ»(٨).

وَيَقُولُ آخَرُ: «رُبَّمَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ ضِدَّ الْهَنْدَسَةِ الْوِرَاثِيَّةِ، وَالْقَنَابِلِ النِّيُوتْرُونِيَّةِ، وَلَكِنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: لَا لِلتِّلِفِزْيُونِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُلْقِيَ بِأَجْهِزَتِنَا فِي مَقْلَبِ الزِّبَالَةِ؛ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ»(٩).

وَيَقُولُ بَاحِثٌ غَرْبِيٌّ ثَالِثٌ: «إِنِّي أُطَمْئِنُ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَ لِلتَّخَلِّي عَنْ تِلْكَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَخْسَرُوا شَيْئًا ذَا بَالٍ»(١٠).

---

(٨) القائل هو الدكتور ستيفن بانا حبيب بجامعة كولومبيا، انظر: الإعلام الإذاعي والتلفزيون (٢٣)، عن دراسات إعلامية، ماذا تعرف عن: العجل الفضي؟ محمد بن أحمد إسماعيل، أعدها للنشر: إسلام دعدوشة، مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧١).

(٩) ينظر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون (٣٤٦) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٨).

(١٠) القائل هو جيري ماندر، ينظر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون (١١-١٢) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٩).

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ مُسْلِمًا زَارَ أُسْتَاذًا جَامِعِيًّا نَصْرَانِيًّا، كَانَ صَدِيقًا لَهُ، فَلَمْ يَرَ فِي مَنْزِلِهِ أَيَّ تِلْفَازٍ وَلَا طَبَقٍ فَضَائِيٍّ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَنَا مَجْنُونٌ حَتَّى آتِيَ إِلَى بَيْتِي بِمَنْ يُشَارِكُنِي فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِي؟!»(١١).

تِلْكَ هِيَ أَقْوَالُ الْبَاحِثِينَ الْغَرْبِيِّينَ فِي هَذَا الشَّأْنِ الْخَطِيرِ، وَإِنَّنِي عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبُيُوتِ أَصْبَحَتْ أَسِيرَةً لِلشَّاشَاتِ وَالْأَطْبَاقِ الْفَضَائِيَّةِ، بِحَيْثُ لَا تَسْتَغْنِي عَنْهَا كَمَا لَا تَسْتَغْنِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَقُومَ أَرْبَابُهَا بِعَمَلِيَّةِ تَرْشِيدٍ لِمَا يُشَاهِدُهُ أَوْلَادُهُمْ، مَعَ تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَزَرْعِ الرِّقَابَةِ الذَّاتِيَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِأَضْرَارِ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْمُفْسِدَةِ، إِلَى أَنْ يَتِمَّ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذِهِ الْأَطْبَاقِ الْمُدَمِّرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِلَّا ضَاعَتْ أَخْلَاقُ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ!

وَالتِّقْنِيَةُ النَّافِعَةُ لَا يُمْكِنُ رَفْضُهَا، لَكِنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى مَعَاوِلَ لِلْهَدْمِ وَالتَّدْمِيرِ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِخْدَامِهَا، فَهَذَا مَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَلَا يَرْضَاهُ الْمُؤْمِنُونَ، بَلْ وَلَا يَرْضَاهُ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْفَظُوا بُيُوتَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الشَّرِّ وَالتَّدْمِيرِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(١٢).

---

(١١) ذكر ذلك الكاتب مروان كجك في كتابه: الأسرة أمام الفيديو والتلفزيون (٢٧١-٢٧٢) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٩).

(١٢) تنبيه: بعد كتابتي هذه الخطبة بأيام وقفت على إنكار عدد من العلماء لهذه البرامج، حين سئلوا عنها:

أولًا: سئل الشيخ العلّامة عبد العزيز الرَّاجِحِي، فقال السائل: فضيلة الشيخ عبد العزيز بن =

. . . .

= عبد الله الراجحي حفظه الله ورعاه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: بثت إحدى القنوات الفضائية العربية برنامجًا بعنوان (ستار أكاديمي) وملخص فكرته: أنهم أنشأوا مدرسة لتعليم الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل، ويأتون بمجموعة من البنات والشباب الذكور، ويعيشون في هذا المبنى سويًّا، ويدرسون، ويأكلون ويشربون، وينامون في نفس المبنى، وتقوم القناة ببث كل ما يدور في هذا المبنى من حيث تعلمهم الرقص والغناء، وتفاصيل حياتهم ومزاحهم ولعبهم، واختلاطهم مع بعضهم البعض، وما يتم فيه من تقبيل وضم، وكل مقدمات الجماع، ويشاهد هذه الأمور الملايين من الناس عبر هذه القناة. ومما بث فيه على سبيل المثال: مشهد لأحد الشباب وهو يمارس مع إحدى الفتيات ما يكون بين الرجل وزوجته ما عدا الجماع، وهي لا تلبس إلا ما يستر سؤتها المغلظة، ومشهد آخر لإحدى الفتيات وهي تلبس ملابسها الداخلية في غرفة مخصصة لتغيير الملابس، ثم في نهاية الأسبوع تقوم القناة بعمل حفلة غنائية صاخبة، وفيها رقص وتمثيل، يقوم به هؤلاء الشباب والبنات مع بعض المغنيين والمغنيات، وبعد ذلك يرشح المشاهدون من أفضل شاب أو شابة من هؤلاء الطلبة، والذي لا يفوز بالتصويت يستبعد من هذه المدرسة، وللعلم يا فضيلة الشيخ بلغت الاتصالات والتصويت من السعودية وَحْدَها أحد عشر مليون اتصال، وقد ظهر أثر هذا البرنامج على سلوك الطلاب والطالبات في المدارس والبيوت، وكثرت الشكوى من المعلمين والمعلمات؛ حيث يظل الطلاب والطالبات الساعات الطوال يتابعون هذا البرنامج الذي يهيج الغرائز، ويقتل الفضيلة؛ فظهر فسادها على دينهم ودنياهم، والله المستعان. السؤال يا فضيلة الشيخ: ما حكم مشاهدة هذا البرنامج؟ وما نصيحتك لأولياء الأمور وأرباب الأسر الذين يُدخلون مثل هذه القنوات إلى بيوتهم؟ وما دور الأئمة والخطباء والدعاة والموجهين والمُرَبِّين في تخفيف الشر الحاصل من مثل هذه البرامج؟ وما حكم تمويل هذه البرامج بالمال أو الدعاية التجارية فيها؟ أفيدونا أفادكم الله، ونفع بكم الإسلام والمسلمين.

فأجاب حفظه الله تعالى:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أما بعد: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، فإجابة لسؤالكم عما تبثّه إحدى القنوات الفضائية العربية من البرنامج الذي بعنوان (ستار أكاديمي)، واشتماله على إنشاء مدرسة لتعليم الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل، وإتيانهم بمجموعة من البنات =

. . . .

= والشباب الذكور، ويعيشون في هذا المبنى سويًّا، ويدرسون ويأكلون ويشربون وينامون في نفس المبنى، وأن القناة تقوم ببثٍّ كل ما يدور في هذا المبنى مِنْ تَفَاصيل حياتهم ومزاحهم ولعبهم وتعلمهم الرَّقْص والغناء، وما يتم مِنْ تَقْبيل وضَم ومقدمات الجماع، ويشاهد هذه الأمور الملايين من الناس عبر هذه القناة، وعليه نفيدكم أن مشاهدة هذا البرنامج مُحَرَّم لا يجوز؛ لأن فيه هدمًا للأخلاق الإسلامية، وقضاءً على الحشمة والكرامة. وهؤلاء الذين يقومون على هذا البرنامج فسّاق قليلو الديانة والإيمان، وما يأخذونه من المال سُحْت حرام، وكسْبٌ خبيث، وأكل للمال بالباطل، وهو زادهم إلى النار والعياذ بالله إن لم يتوبوا من هذه الأعمال الخبيثة، وهؤلاء لا يَتَوَرَّعُون عن أكل الحرام والقضاء على أخلاق المسلمين وفضائلهم وحشمتهم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، فهؤلاء تَشَبَّهُوا بِالْكَفَرَةِ؛ حَيْثُ إنهم يحرصون على كسب المال ولا يُبَالُون مِنْ حلال أو من حرام، فإن استحلوا ذلك فَهُم كفار والعياذ بالله، وإن لم يستحلوا ذلك فهم عصاة فسقة. ولا شك أن القائمين على هذا البرنامج فَسَقَة؛ حيث يقرون المنكر، ويكشفون عورات المسلمين، ويخرجون النساء شبه عاريات لفتنة الشباب وغيرهم، ونشر الرذيلة؛ ففي هذا البرنامج مصائب وبلايا عظيمة، ونصيحتي لأولياء الأمور وأرباب الأسر الذين يُدخلون مثل هذه القنوات إلى بيوتهم الَّتِي تَجُرّ عليهم الدمار والهلاك أن يتوبوا إلى الله وأن يقلعوا عن ذلك، ويُطَهِّرُوا بُيُوتَهُم من هذه الرذائل والبَلَايا، فكيف ترضى لأسرتك التعرُّض لمثل هذه الفتن وَهِيَ أمانة عندك ستسأل عنها يوم القيامة؛ فعن عبد الله بن عمر ﭬ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُول عن رَعِيَّتِه؛ فالإمام رَاعٍ وهو مسؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ في أهله رَاعٍ وهو مَسْؤُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأة في بيت زَوْجِهَا رَاعِيَة وَهِيَ مَسْؤُولَة عَنْ رَعِيَّتِها**».

أما من يمول هذه البرامج بالمال أو بالدعاية التجارية فيها فإنه يجب مقاطعتهم؛ حتى يمتنعوا عن الباطل والحرام، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] وهؤلاء مسؤولون عن إضاعة هذا المال لنشر الرذيلة بين المسلمين.

وعلى الأئمة والخطباء والدعاة والموجهين والمربين أن يقوموا بدورهم في توعية الناس =

. . . .

= وتحذيرهم مما يضر بدينهم ودنياهم، ومنها: مشاهدة هذا البرنامج وغيره من البرامج السيئة التي تَقْضِي عَلَى العِفَّة والفضيلة والحِشْمَةِ والْكَرَامَةِ، وعليهم أن يُذَكِّرُوا الناس بالله وبِوُقُوفِهِمْ بين يديه للحساب، وأن الله يحاسب الإنسان عما يعمله بجوارحه؛ عينه وأذنه وفؤاده ويده ورجله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله أن يكفي المسلمين شَرَّهُمْ وَأَنْ يردهم إلى الصواب، وأن يعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

كتبه: عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

١٤٢٥/١/٢٥

* * *

ثانيًا: سئل الشيخ العلامة عبد الرحمن البراك، فقال السائل:

كثر الكلام هذه الأيام عن ما يعرض في بعض وسائل الإعلام والقنوات الفضائية خاصة مثل برنامج (ستار أكاديمي في قناة LBC وبرنامج (Big Brother) في قناة MBC وبرنامج (على الهوا سوا) في قناة ART وبرنامج (تحدي الخوف) في قناة MBC، وتقوم فكرة هذه البرامج على اجتماع الشباب بالشابّات في معهد إعداد الفنانين -كما يسمونه- بغرض الدراسة، وعرض حياتهم اليومية كاملة ومباشرة على مدى أربع وعشرين ساعة على القنوات الفضائية، وما فيه من الاختلاط والأمور المنافية للعفة والحياء، مثل: الخلوة والتقبيل والضَّمّ، وأيضًا ما تقوم به قناة روتانا والتي من أعمالها إصدار (فيديو كليب) لمغنين ومغنيات مع عرض صور فاضحة للنساء على أشكال وهيئات مختلفة، الغرض منه تسويق بضاعتهم عن طريق إثارة الغرائز.

- ما حكم مشاهدة هذه البرامج وما شابهها؟

- ما حكم توفير وسائل مشاهدة هذه الوسائل في المنزل أو الاستراحات أو غيرها؟ وما الخطر المترتب في الدنيا والآخرة على مَنْ وَفَّرَهَا وَشَاهَدَهَا؟

- ما حكم الدعاية لمثل هذه البرامج والترويج لها في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى؟

- كلمة توجيهية للأمة الإسلامية وتحذير لها من مثل هذه الوسائل.

وهل يدخل في مسمى «الديوث» من وضع مثل هذه القنوات في المنزل؟ =

. . . .

= **فأجاب الشيخ حفظه الله تعالى:**

الحمد لله .. إن من دواعي العجب والدهشة أن يُسأل عن حكم هذه البرامج وما تشتمل عليه من المنكرات وعن مشاهدتها والدعاية لها؛ فإنه لا يخفى على من عنده أدنى بصيرة وبقية من عقل ودين وفطرة سليمة قبح هذه البرامج وعظم ضررها؛ لأنها من أظهر المنكرات، ومن يستحلها فإنه معاند للشريعة أو مكذب لها، وهو إذن بهذا الاستحلال كافر. لذا أقول:

إن مشاهدة هذه البرامج المشتملة على ما ذُكر، من أنواع المنكرات والدعاية لها، وتوفير وسائلها في البيوت والاستراحات والمقاهي وغيرها، وتوفير خطوط الاتصال للمشاهدين مع القنوات التي تبث هذه البرامج .. كل ذلك حرام؛ لأنه نشر للفساد في مجتمعات المسلمين، وإفساد لها، ونشر للزنا بين الشباب والشابات، ودعوة لهم إلى الفواحش. وكل ما ينفق في هذا السبيل أو يكتسب من المال، فهو من الإنفاق في الحرام، ومن الكسب الحرام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وبهذا يعلم أن المؤسسين لهذه القنوات والمموّلين لها والمعدّين لهذه البرامج والقائمين بها والمنفذين، كلّهم من المفسدين في الأرض، الجناة على الدين وكرامة الأمة وأعراضها، وعلى كل المشاركين في هذه القنوات والبرامج مثل آثام من أفسدوهم من =

. . . .

= المشاهدين والمتصلين لإبداء الإعجاب والترشيح، كما قال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إلى ضلالة فعليه مثل آثام مَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَيْرِ أن ينْقص مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**».
وليعلم الذين يقصدون جمع الأموال بهذه الطريقة أنهم متعرضون لعقوبة الله في الدنيا والآخرة، ولمحق ما جمعوا. فيجب على الجميع التوبة إلى الله قبل فوات الأوان، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].
كما يجب على ولاة أمر الأمة أن يكفّوا الشر عنها ويسدّوا منافذه، ويجب على ولاة أمر الأسر أن يأخذوا على أيديهم ويحموهم مما حرم الله عليهم .. فالكل مسئول عما ائتمنه الله عليه، كما قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مَسْؤول عَنْ رعيته**» الحديث. (أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ﷺ).
لا يخفى أن تهيئة الوسائل لهذه المشاهد في البيوت، ثم السكوت عن إنكار مشاهدتها ومتابعتها نوع من الرضا بالخنا، فليتق الله كل مسلم، وليحذر عقوبة الله، كما وصى الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].
نسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين، ويصلح ولاة أمرهم، ويرد كيد أعدائهم، إنه تعالى على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أملاه: عبد الرحمن بن ناصر البراك

٢٨/ ١/ ١٤٢٥هـ

* * *

ثم بعد ذلك بأيام أصدرت اللجنة الدائمة بيانًا في ذلك، هذا نصه:
هذا البيان صدر في تاريخ ٨/ ٢/ ١٤٢٥هـ برقم **٢٢٨٩٥** من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

(بيان في التحذير من برنامج «ستار أكاديمي» وما شابهه من البرامج)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على الاستفتاءات الواردة إليها من عدد من الغيورين عن البرنامج الذي تبثه بعض القنوات الفضائية العربية المسمى «**ستار أكاديمي**»، وما شابهه من البرامج، وبعد دراسة الموضوع رأت اللجنة تحريم بث هذه البرامج ومشاهدتها وتمويلها، والمشاركة فيها والاتصال عليها للتصويت أو لإظهار =

. . . .

= الإعجاب بها؛ وذلك لما اشتملت عليه تلك البرامج من استباحة للمحرمات المجتمع على تحريمها والمجاهرة بها؛ ففي الحديث قال ﷺ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ والمَعَازِفَ**»، رواه البخاري من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ، وعنه أنه قال: «**كُلّ أمَّتِي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِين، وإنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَل الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فَيَقُولُ: عَمِلْتُ البَارِحَة كَذا وكذَا، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سَتْرَ اللهِ عَنْهُ**» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ. وأيّ مجاهرة بالمُحَرَّمَات والفواحش تَفُوق ما تبُثّه هذه البرامج التي اشتملت على جملة من المنكرات العظيمة، من أهمها:

أولًا: الاختلاط بين الجنسين من الذكور والإناث، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفي الحديث عنه ﷺ: «**لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا**»، رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب. فكيف بهذه البرامج التي تقوم فكرتها الرئيسة على خلط الجنسين من الذكور والإناث وإزالة الحواجز فيما بينهم، مع ما عليه الإناث من التبرّج والسفور وإظهار للمفاتن مما يسبب الشر والبلاء؟! وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ... [النور: ٣١].

ثانيًا: الدعوة الصريحة للفاحشة ووسائلها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ثالثًا: الدعوة إلى إماتة الحياء وقتل الغيرة في قلوب المسلمين بإلْفِ مشاهدة هذه المناظر المخزية التي تهيج الغرائز وتبعد عن الأخلاق والفضائل، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**إن مما أدْرَكَ النَّاسُ من كَلام النبوَّةِ الأولى إذا لم تستَحِي فاصْنَعْ ما شِئْت**» رواه البخاري من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، وعنه ﷺ أنه قال: «**الإيمان بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، والحَيَاء شُعْبَة مِنَ الإيمانِ**» متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ وعنه ﷺ أيضًا: «**أتَعْجَبُونَ من غَيْرَةِ سَعْدٍ، لَأَنا أغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**» رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

ولا يكفي في ذلك -أيها المسلم- أن تترك المشاركة في هذه البرامج والنظر إليها، بل يجب عليك النصح والتذكير لمن تعلم أنه يشارك فيها بأي وجه من الوجوه؛ لما في ذلك من التعاون على البر والتقوى، والتناهي عن الإثم والعدوان. كما تدعو اللجنة التجار المموليين لهذه البرامج أن يتقوا الله تعالى فيما منَّ الله عليهم من نعمة الأموال؛ =

. . . .

= فلا يستخدموها فيما يُدَمِّر شباب الأمة، ويَهْدِمُ شعائر الدين، ويخدم أعداء الإسلام؛ فإن ذلك من كفران النعم، وهو سبب في زوالها.

ولا يخفى أن هذه البرامج وأمثالها هي من أسباب جلب المصائب والبلايا على الإسلام والمسلمين، يقول الله ﷻ: «**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**» [الشُّورى: ٣٠]. وفي الصحيحين من حديث زينب ؓ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا اللهُ، وَيْلٌ للعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**»، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصَّالحون؟ قال: «**نعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخبَثُ**».

نسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يَعْصِمَنَا وسائر المسلمين مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ ما ظَهَرَ منها وما بطن، وأن لا يؤاخذنا بما فَعَلَ السفهاء منا، وأن يُرِيَنَا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ

عضو/ صالح بن فوزان الفوزان — عضو/ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان

عضو/ عبد الله بن محمد المطلق

عضو/ عبد الله بن علي الركبان — عضو/ أحمد بن علي المباركي

٣٨٥- الأشراط الصغرى للساعة (٢) كثرة القتل

١٢/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ ﷻ خَلْقَ الْبَشَرِ، وَاسْتِخْلَافَهُمْ فِي الْأَرْضِ، أَخْبَرَ مَلَائِكَتَهُ بِذَلِكَ، فَظَنَّ المَلَائِكَةُ ﵈ أَنَّ هَذَا المَخْلُوقَ المُسْتَخْلَفَ سَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ، وَسَيُكْثِرُ الْقَتْلَ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَّ المَلَائِكَةُ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وَالمَلَائِكَةُ لَا يَعْلَمُونَ

الْغَيْبَ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الْمَخْلُوقَ الْمُسْتَخْلَفَ سَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ طَبِيعَةِ خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ ذَا شَهْوَةٍ. وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْفَسَادِ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا(١).

(١) ذكر الطاهر ابن عاشور أن الملائكة عليهم السلام تفرّسوا ذلك في بني آدم، وردّ ما قاله بعض المفسرين من احتمال اطلاع الملائكة على اللوح المحفوظ، أو قياس فعلهم على فعل أمة تَقَدَّمَت وانقرضت، أو قياسهم على الوحوش المفترسة الموجودة في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام كما في سفر التكوين من التوراة. التحرير والتنوير (١/ ٤٠٣).
قلت: لعل الملائكة علموا ذلك من طبيعة البشر الشهوانية، وكون آدم خُلِقَ أجوف، كما عرف إبليس ذلك، ودليل ذلك ما رواه مسلم (٢٦١١)، وأحمد (٣/ ١٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صَوَّرَ الله آدم في الجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شاءَ الله أن يَتْرُكَهُ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلمَّا رآه أجْوَف عَرَفَ أنه خلق خلقًا لا يتمالك**».
قال القرطبي في المفهم (٦/ ٥٩٦): «يعني أن الله تعالى لما صَوَّرَ طينة آدم وشكلها بشكله على ما سبق في علمه، فلما رآها إبليس طاف بها، أي: دار حولها، وجعل ينظر في كيفيتها وأمْرِها، فلما رآها ذات جوف وقَعَ له أنها مفتقرة إلى ما يسد جوفها، وأنها لا تتمالك عند تحصيل ما تحتاج إليه من أغراضها وشهواتها، فكان الأمر على ما وقع» اهـ.
ولم أقف على من استدل بهذا الحديث من المفسرين على هذه المعنى الذي ذكرته. وقد يرد عليه أن الله تعالى أعلم ملائكته بذلك قبل تصوير آدم، وهذا الإيراد لا يسلم به؛ لأن الآية ليس فيها ما يدل على ذلك، وحديث أنس السالف ذكره أفاد أمرين مهمين:
الأول: أن آدم عليه السلام لما صوره الله تعالى مكث مدة مجندلًا لم تنفخ فيه الروح، وفيها طاف به إبليس، ولا يُعلم مقدار هذه المدة.
الثاني: أن إبليس استدل على ضعف آدم بتجويفه الذي يحتاج معه إلى شهوات الطعام والشراب، فتسلط عليه من قبل شهوة الأكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عنها.
وإذا كان إبليس قد وصل إلى آدم وهو مجندل قبل نفخ الروح فيه، وطاف به، وهو أقل منزلة من الملائكة، فليس ثمة مانع أن يكون الملائكة رأوا آدم كذلك، وعرفوا أنه أجوف يحتاج إلى ملء جوفه بالشهوات، فلما أخبرهم الله تعالى بأنه سيجعل في الأرض خليفة وقع لهم أنه هذا المصور الذي لم ينفخ الله تعالى الروح فيه، واستدلوا بذلك على أن الفساد في الأرض وسفك الدماء سيقع منه أو من ذريته، والله تعالى أعلم.

وَأَوَّلُ دَمٍ سُفِكَ فِي الْأَرْضِ دَمُ ابنِ آدَمَ الَّذِي قَتَلَهُ أَخُوهُ، فَبَاءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ مَنْ قُتِلَ بَعْدَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ إِثْمِ الْقَاتِلِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ فِي بَنِي آدَمَ.

وَإِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ مِنْ نِهَايَتِهِ تَسَارَعَتِ الْأَيَّامُ، وَتَوَالَتِ الْأَحْدَاثُ، وَعَظُمَتِ الْفِتَنُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي النَّاسِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَعَنِ الْفِتَنِ وَأَنْوَاعِهَا، وَبَيَّنَ المَخْرَجَ مِنْهَا، وَأَمَرَ بِالْبُعْدِ عَنْهَا، يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ ذَلِكَ، وَيُبَيِّنُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلْخُلُوصِ وَالنَّجَاةِ.

وَمِمَّا أَخْبَرَ عَنْهُ ﷺ: مَا يَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَأَمَارَاتِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: كَثْرَةُ الْقَتْلِ فِي الْبَشَرِ، كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الهَرْجُ**»، قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ، الْقَتْلُ**»(٢).

وَأَصْلُ الهَرْجِ: الْكَثْرَةُ فِي الشَّيْءِ حَتَّى لَا يَتَمَيَّزَ(٣)، فَتَكُونُ الْكَثْرَةُ فِي الْقَتْلِ فَاحِشَةً لَا تَمْيِيزَ فِيهَا بَيْنَ المُقَاتِلِ وَغَيْرِ المُقَاتِلِ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَسُمِّيَ الْقَتْلُ بِالْهَرْجِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِسَبَبِ اخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ صَرَاحَةً مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي**

---

(٢) أخرجه البخاري في الفتن، باب ظهور الفتن (٧٠٦١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨).

(٣) ينظر: اللسان، مادة هرج (٢/ ٣٨٩)، والنهاية لابن الأثير (٥/ ٢٥٦).

الْقَاتِلُ فِيمَا قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَا قُتِلَ» فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»(٤).

وَالْقَتْلُ يَكُونُ بِالْحَقِّ كَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَحِمَايَةِ الثُّغُورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَيْسَ مُرَادًا مِنَ الْأَحَادِيثِ، أَوْ يَكُونُ بِالْبَاطِلِ كَالِاخْتِلَافِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنِ الْأَهْوَاءِ، وَإِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَيَكُونُ مُنْتَهَاهُ رَفْعَ السِّلَاحِ وَالِاقْتِتَالَ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي أَفَادَتْ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْقَتْلِ يَكْثُرُ قُرْبَ السَّاعَةِ.

وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ وَانْشَقَّتْ إِلَى صَفَّيْنِ يَقْتَتِلَانِ، ثُمَّ صَارَ الْقَتْلُ فِي ازْدِيَادٍ، وَكُلُّ زَمَانٍ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ، وَكَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَاسْتُسْهِلَ أَمْرُ الْقَتْلِ، فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْخِلَافِ يَسْعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَتْلِ صَاحِبِهِ دُونَمَا حَرَجٍ، فَيُؤَدِّي خِلَافُهُمْ وَخِصَامُهُمْ إِلَى قَتْلِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، أَوْ يُشَارِكُهُمْ فِي قِتَالِهِمْ مَنْ لَا يَفْهَمُ قَضِيَّتَهُمْ؛ إِمَّا عَصَبِيَّةً أَوْ تَقْلِيدًا أَعْمَى عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَمِنْ هُنَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «**لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَا قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَا قُتِلَ**».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ الْأَهْوَاءَ تَغْلِبُ، وَالْهَرْجُ وَالْقَتْلُ يَكْثُرُ، وَيُسْتَسْهَلُ، حَتَّى لَا يُبَالَى بِهِ، فَيَكُونُ قَتْلُ الْمُسْلِمِ عِنْدَ قَاتِلِهِ كَقَتْلِ نَمْلَةٍ»(٥).

إِنَّ فَارُوقَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ بَابًا دُونَ الْفِتَنِ وَالْأَهْوَاءِ، وَبِقَتْلِهِ كُسِرَ الْبَابُ، فَدَخَلَ عَلَى الْأُمَّةِ شَرٌّ كَثِيرٌ، وَفِتَنٌ مُتَلَاحِقَةٌ مُتَلَاطِمَةٌ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا -أَيِ: الْفِتَنَ-

---

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٨).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢١٥).

بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ»، قَالَ حُذَيْفَةُ: «لَا، بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ»(٦).

وَقَالَ رَجُلٌ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا سُلَيْمَانَ اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّ الْفِتَنَ قَدْ ظَهَرَتْ، قَالَ: أَمَّا وابْنَ الخَطَّابِ حَيٌّ فَلَا، إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَهُ، فَيَنْظُرُ الرَّجُلُ فَيُفَكِّرُ هَلْ يَجِدُ مَكَانًا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِمَكَانِهِ الَّذِي هُوَ به مِنَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ، فَلَا يَجِدُ، فَتِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، فَنعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكَنَا وَإِيَّاكُمْ تِلْكَ الْأَيَّامُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ(٧).

وَكَثْرَةُ الْقَتْلِ تَنْشَأُ عَنِ الِاخْتِلَافِ، وَالْأَهْوَاءُ سَبَبُ الِاخْتِلَافِ، وَتَنْتَشِرُ الْأَهْوَاءُ إِذَا سَادَ الْجَهْلُ فِي النَّاسِ وَقَلَّ الْعِلْمُ، وَضَعُفَ الْعَمَلُ؛ وَجَاءَتْ هَذِهِ المَعَانِي فِي أَحَادِيثِ كَثْرَةِ الْهَرْجِ.

وَقَدْ عَلَّقَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى الْحَدِيثِ، فَقَالَ: «وَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْأَشْرَاطَ عِيَانًا وَأَدْرَكْنَاهَا، فَقَدْ نَقَصَ الْعِلْمُ، وَظَهَرَ الْجَهْلُ، وَأُلْقِيَ بِالشُّحِّ فِي الْقُلُوبِ، وَعَمَّتِ الْفِتَنُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ»(٨)، وَهُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ عَاشَ فِي الْقَرْنِ الخَامِسِ، ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَنِصْفٍ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَالْوَاقِعُ أَنَّ الصِّفَاتِ المَذْكُورَةَ وُجِدَتْ مَبَادِيهَا مِنْ عَهْدِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ صَارَتْ تَكْثُرُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ دُونَ بَعْضٍ، وَالَّذِي يَعْقُبُهُ قِيَامُ السَّاعَةِ اسْتِحْكَامُ ذَلِكَ . . . وَقَدْ

---

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٢١٨).

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠)، والطبراني في الكبير (٤/ ١١٦) برقم (٣٨٤١)، وفي الأوسط (٨٤٧٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ١٧).

(٨) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٣).

مَضَى مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابنُ بَطَّال مَا قَالَ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَالصِّفَاتُ المَذْكُورَةُ فِي ازْدِيَادٍ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، لَكِنْ يَقِلُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيَكْثُرُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَكُلَّمَا مَضَتْ طَبَقَةٌ ظَهَرَ النَّقْصُ الْكَثِيرُ فِي الَّتِي تَلِيهَا»(٩).

وَتَكْثُرُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الأَمْرُ، وَيَفْشُو الْهَرْجُ، حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ، وَيَتَمَنَّى الْمُؤْمِنُ المَوْتَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ عَالِمًا يُقْتَدَى بِهِ، وَرَأْسًا فِي النَّاسِ يُنْظَرُ إِلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَإِنَّمَا يَقَعُ تَغَبُّطُ أَهْلِ الْقُبُورِ وَتَمَنِّي المَوْتِ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ عِنْدَ انْتِشَارِ الْفِتَنِ؛ خَوْفًا مِنْ ذَهَابِ الدِّينِ بِغَلَبَةِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَظُهُورِ المَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَضَعْفِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ(١١).

وَأَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَاصَرَ شَيْئًا مِنَ الْفِتَنِ، وَرَأَى كَثْرَةَ الاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَغَلَبَةَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى الَّذِي اسْتَتْبَعَهُ كَثْرَةُ الْقَتْلِ، حَتَّى تَمَنَّى المَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ، فَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ: «عُدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ فَسَنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ اشْفِ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تُرْجِعْهَا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ يَا أَبَا سَلَمَةَ أَنْ تَمُوتَ فَمُتْ»، فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّا لَنُحِبُّ الْحَيَاةَ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْعُلَمَاءِ زَمَانٌ المَوْتُ أَحَبُّ إِلَى أَحَدِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ الأَحْمَرِ، لَيَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْرَ

---

(٩) فتح الباري (١٣/ ١٩).

(١٠) أخرجه البخاري في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٧١١٥)، واللفظ له، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(١١) ذكر ذلك ابن بطال (١٠/ ٥٨)، ونقله عنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٨١).

أَخِيهِ فَيَقُولُ: لَيْتَنِي مَكَانَهُ» قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٢).

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَمُرَّ الْجِنَازَةُ فِي السُّوقِ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَيَرَاهَا الرَّجُلُ، فَيَهُزَّ رَأْسَهُ، فَيَقُولَ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَ هَذَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّامِتِ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ ذَلِك لَمِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ؟ قَالَ: أَجَلْ»(١٣).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يُحْسِنَ خَوَاتِيمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

(١٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٣٧)، والخطابي في العزلة (٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٤)، والداني في الفتن (١٧٩ و٢٣٢)، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم (٤/ ٥١٨)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن أبي الدنيا في المحتضرين، وصححه (٧/ ٤٤٣).

(١٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨١).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ، فَلَا تَعْصُوهُ، فَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: هَذِهِ الْفِتَنُ الَّتِي وَقَعَتْ مُنْذُ أَوَاخِرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا، قَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَحَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنْهَا، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي مُوَاجَهَتِهَا، رَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَكَانَ مِنْ فِقْهِ الصَّحَابَةِ وَعِلْمِهِمْ، وَوَرَعِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ أَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَجَانَبُوا الْفِتَنَ، وَاعْتَزَلُوا أَهْلَهَا، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ ضَحَّى بِنَفْسِهِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا، أَوْ أَنْ يَكُونَ هُوَ سَبَبًا لَهَا. قَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(١٥).

وَعُثْمَانُ رضي الله عنه مَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا امْتِثَالًا لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا قَالَ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ قَالَ: «**كُنْ كَابْنِ آدَمَ**»(١٦).

---

(١٤) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ» (٧٠٦٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥).

(١٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٠).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الفتن، باب تكون فتن القاعد فيها خير =

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟**» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**تَعَفَّفْ**».

= من القائم (٧٠٨١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦).

والحديث الثاني أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: أحمد (١/ ١٨٥)، وأبو يعلى (٧٥٠)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، وحسنه (٢١٩٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٤٤٦-١٦٠٩).

قال الحافظ في الفتح: «وفيه التحذير من الفتنة، والحث على اجتناب الدخول فيها، وأن شرها يكون بحسب التعلق بها، والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلم المحق من المبطل، قال الطبري: اختلف السلف، فحمل ذلك بعضهم على العموم، وهم من قعد عن الدخول في القتال بين المسلمين مطلقًا؛ كسعد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي بكرة في آخرين، وتمسكوا بالظواهر المذكورة وغيرها، ثم اختلف هؤلاء فقالت طائفة بلزوم البيوت، وقالت طائفة: بل بالتحول عن بلد الفتن أصلًا، ثم اختلفوا؛ فمنهم من قال: إذا هجم عليه شيء من ذلك يكف يده ولو قتل، ومنهم مَنْ قال: بل يدافع عن نفسه وعن ماله وعن أهله، وهو معذور إن قَتَل أو قُتِلَ، وقال آخرون: إذا بغت طائفة على الإمام، فامتنعت من الواجب عليها، ونصبت الحرب، وجب قتالها، وكذلك لو تحاربت طائفتان وجب على كل قادر الأخذ على يد المخطئ، ونصر المصيب، وهذا قول الجمهور، وفَصَّلَ آخرون فقالوا: كل قتال وقع بين طائفتين من المسلمين حيث لا إمام للجماعة، فالقتال حينئذ ممنوع، وتنزل الأحاديث التي في هذا الباب وغيره على ذلك، وهو قول الأوزاعي. قال الطبري: والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها. وذهب آخرون إلى أن الأحاديث وردت في حق أناس مخصوصين، وأن النهي مخصوص بمن خوطب بذلك، وقيل: إن أحاديث النهي مخصوصة بآخر الزمان؛ حيث يحصل التحقق أن المقاتلة إنما هي في طلب الملك، وقد وقع في حديث ابن مسعود الذي أشرت إليه: «قلت: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: **أيام الهرج**، قلت: متى؟ قال: **حين لا يأمن الرجل جليسه**» اهـ (١٣/ ٣٤-٣٥)

قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ حتى يَكُونَ الْبَيْتُ بِالْعَبْدِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟» قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «اصْبِرْ، يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ -مَوْضِعٌ بِالمَدِينَةِ- مِنَ الدِّمَاءِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ، وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ». قَالَ: فَإِنْ لَمْ أُتْرَكْ؟ قَالَ: «فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُ، فَكُنْ فِيهِمْ» قَالَ: فَآخُذُ سِلَاحِي؟ قَالَ: «إِذَنْ تُشَارِكَهُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَرُوعَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَرْفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ حَتَّى يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

تِلْكَ هِيَ وَصِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِمَنْ أَدْرَكَ زَمَنَ الْفِتَنِ، وَرَأَى كَثْرَةَ الْقَتْلِ فِي النَّاسِ، مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ كَانَ مِنَ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَالَفَهَا أَصَابَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ بِقَدْرِ مُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا الْفِتَنَ، وَجَانِبُوا سُبُلَهَا وَأَهْلَهَا، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . .



(١٧) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٢٩)، والطيالسي (٤٥٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١)، وابن ماجه في الفتن، باب التَّثَبُّت في الفتنة (٣٩٥٨)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٢٠)، وصححه ابن حبان (٥٩٦٠)، والحاكم، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٢/ ١٦٩).

٣٨٦- الأشراط الصغرى للساعة (٣) الزلازل والخسف والقذف والمسخ

١٦/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ إِيمَانِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ: إِيمَانُهُ بِالْغَيْبِ، وَمِنَ الْبَرَاهِينِ عَلَى كُفْرِهِ: كُفْرُهُ بِالْغَيْبِ، أَوْ شَكُّهُ فِيهِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ غَيْبٍ مَضَى وَانْتَهَى؛ كَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْغَابِرَةِ، وَأَخْبَرَ ﷺ عَمَّا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ حَتَّى إِنَّهُ ﷺ خَطَبَ فِي أَصْحَابِهِ يَوْمًا كَامِلًا مِنْ طُلُوعِ شَمْسِهِ إِلَى غُرُوبِهَا يُخْبِرُهُمْ بِمَا سَيَقَعُ، لَمْ يَقْطَعْ خُطْبَتَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ: صَلَوَاتِ الظُّهْرِ

وَالْعَصْرِ وَالمَغْرِبِ، قَالَ الرَّاوِي: «فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُهُ، فَأَعْرِفُهُ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ»(٢).

وَكُلُّ مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَخْبَارِ المُسْتَقْبَلِ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، فَإِنْ أَدْرَكَ المُؤْمِنُ وُقُوعَ بَعْضِ مَا أَخْبَرَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ زَادَهُ ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَإِنْ قَضَى قَبْلَ ذَلِكَ لَقِيَ اللهَ ﷻ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْغَيْبِ.

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَخْبَرَ عَنْ وُقُوعِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ مِنْ كَثْرَةِ الزَّلَازِلِ وَالصَّوَاعِقِ، وَحُدُوثِ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالمَسْخِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: ذُنُوبُ الْعِبَادِ، وَمُجَاهَرَتُهُمْ بِهَا، وَتَعْطِيلُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّمَا تَقَادَمَ عَهْدُ النُّبُوَّةِ ازْدَادَ شَرُّهُمْ، وَقَلَّ خَيْرُهُمْ، وَلَا يَأْتِي عَلَيْهِمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه من حديث عمرو بن أخطب رضي الله عنه: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٨٣)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨) برقم (٤٦)، وابن حبان (٦٦٣٨)، والحاكم (٤/ ٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] (٦٢٣٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) واللفظ للبخاري.

(٣) عن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ» أخرجه البخاري في الفتن، باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه (٦٦٥٧).

فَأَمَّا كَثْرَةُ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَجَاءَ فِيهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَالزَّلَازِلُ تَقَعُ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ فِي بِلَادٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَجْزَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ، كَمَا دُوِّنَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ: شُمُولُ الزَّلَازِلِ وَدَوَامُهَا(٥).

وَيَكُونُ ذَلِكَ قُرْبَ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَثُرَتِ الزَّلَازِلُ وَانْتَشَرَتْ عُلِمَ أَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، وَيَسْبِقُ ذَلِكَ مَوْتٌ كَثِيرٌ فِي النَّاسِ؛ إِمَّا بِالْحُرُوبِ أَوِ الْأَوْبِئَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ السَّكُونِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مُوتَانٌ شَدِيدٌ، وَبَعْدَهُ سَنَوَاتُ الزَّلَازِلِ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

---

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات (٩٨٩).

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٤)، وأبو يعلى (٦٨٦١)، والدارمي (٥٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٦١)، والطبراني في الكبير (٧/ ٥١) برقم (٦٣٥٦)، وصححه ابن حبان (٦٧٧٧) والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: الخبر من غرائب الصحاح (٤/ ٤٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٦): «ورجاله ثقات».
والموتان على وزن البطلان: هو الموت الكثير الوقوع، ينظر: النهاية (٣/ ٣٧٠)، واللسان (٢/ ٩٣).
وذكر الحافظ أنه بضم الميم وسكون الواو، ثم ذكر أنه بالضم لغة تميم، وغيرهم يفتحونها، ويقال للبليد: «مَوْتان القلب» بفتح الميم والسكون، ثم نقل الحافظ عن ابن الجوزي قوله: «يغلط بعض المحدثين فيقول: مَوَتان بفتح الميم والواو، وإنما ذاك اسم الأرض التي لم تحيى بالزرع والإصلاح»، ثم ذكر الحافظ أنه ورد في رواية ابن السكن: «ثم موتتان» بلفظ التثنية، قال: «وحينئذ فهو بفتح الميم» اهـ من الفتح (٦/ ٢٧٨).

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ تِلْكَ الزَّلَازِلَ الَّتِي أَخْبَرَتِ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُونُ بَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَحُكْمِهِ بِالْإِسْلَامِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اعْدُدْ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِتًّا: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ**» وَقُعَاصُ الْغَنَمِ هُوَ دَاءٌ يُفْنِيهَا(٧).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، فَقَالَ: «**يَا ابْنَ حَوَالَةَ، إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتِ الْأَرْضَ المُقَدَّسَةَ، فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ(٨).

وَيَقْتَرِنُ مَعَ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: كَثْرَةُ الصَّوَاعِقِ أَيْضًا؛ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ فَيَقُولُ: مَنْ صُعِقَ تِلْكُمُ الْغَدَاةَ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ**»(٩).

---

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥)، والبخاري في الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥)، وابن منده في الإيمان (١٠٠٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٨٨-٩٣٤)، والبيهقي (٩/ ٢٢٣)، واستدركه الحاكم مطولًا (٤/ ٤٦٩)، وقال: لم يخرجاه بهذه السياقة.

والقُعاص -بضم القاف-: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت، قاله أبو عبيد كما في الغريب لابن الجوزي (٢/ ٢٥٦)، وينظر: النهاية (٤/ ٨٨).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة (٢٥٣٥)، وأبو يعلى (٦٨٦٧)، والبيهقي (٩/ ١٦٩)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠١٩)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣٨-٢٣٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي(٤/ ٤٧١).

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٦٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٧٩٥)، =

وَأَمَّا الْخَسْفُ وَالمَسْخُ وَالْقَذْفُ، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنْهَا، قَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ وُقُوعِهَا مُجْتَمِعَةً فِي أَحَادِيثَ عِدَّةٍ، مِنْهَا: مَا رَوَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ**، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا ظَهَرَ الخَبَثُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٠).

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَسْخٌ وَخَسْفٌ وَقَذْفٌ**»(١١).

= وأبو الشيخ في العظمة (٧٨٧)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي: عمارة ثقة لم يخرجوا له (٤/ ٤٩١)
قلت: عمارة هو ابن مهران المعولي أبو سعيد البصري، قال الحافظ: لا بأس به، التقريب (١٣٥)، وفي سنده محمد بن مصعب القرقسائي، صدوق كثير الغلط كما في التقريب (٣١٩)، وضعفه به الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩).

(١٠) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الخسف (٢١٨٥)، وأبو يعلى (٤٦٩٣)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن عمر تكلم فيه يحيى بن سعيد من قبل حفظه» اهـ.
وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند: ابن ماجه (٤٠٦١)، والحاكم وقال: إن كان أبو الزبير سمع من عبد الله بن عمر فإنه صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي: على شرط مسلم (٤/ ٢٩٢).
وجاء عن أبي سعيد وسهل بن سعد وأبي هريرة وغيرهم رضي الله عنهم، والحديث الذي يليه شاهد له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٥٦).

(١١) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الخسوف (٤٠٥٩)، وأعله البوصيري في مصباح الزجاجة بالانقطاع بين سيار أبي الحكم وطارق بن شهاب (٤/ ١٩٨)، وتعقبه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٧) بقوله بعد ذكر إعلال البوصيري: «وليس بشيء؛ لأنه بناه على أن سيارًا هذا هو أبو الحكم، وليس به، نعم كان بشير بن سليمان الراوي عن سيار يقول فيه أحيانًا: سيار أبو الحكم، وهو وهم منه، كما قال أحمد وغيره، وهو في هذا الحديث لم يهم كما ترى، ولو وهم لبين وهمه، فلا يُعَلُّ بالانقطاع كما هو ظاهر، ثم إن للحديث =

وَالْخَسْفُ هُوَ: سُؤُوخُ الْأَرْضِ بِمَا عَلَيْهَا، يُقَالُ: خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ خَسْفًا؛ أَيْ: غَابَ بِهِ فِيهَا، وَمِنْهُ مَا وَقَعَ لِقَارُونَ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١](١٢).

وَالْقَذْفُ هُوَ: الرَّمْيُ مِنَ السَّمَاءِ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ، كَمَا حَصَلَ لِقَوْمِ لُوطٍ وَجَيْشِ أَبْرَهَةَ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤-٥].

وَالمَسْخُ هُوَ: تَغَيُّرُ الْهَيْئَةِ وَالصُّورَةِ إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى(١٣)، كَمَا مُسِخَ عُصَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الثَّلَاثَةِ: الْخَسْفِ، وَالمَسْخِ، وَالْقَذْفِ؛ تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ لَا نُدْرِكَهَا.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ هَذَا الْخَسْفَ يُصِيبُ قَبَائِلَ كَامِلَةً فَتَبْتَلِعُهُمُ

= شواهد كثيرة تشهد لصحته عن عائشة، وعمران بن حصين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وسعيد بن راشد» اهـ.
ثم ساق الألباني -رحمه الله تعالى- هذه الشواهد، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٣١٧٦)، لكن صححه الألباني بشواهده المذكورة في صحيح الجامع (٢٨٥٦).

(١٢) ينظر: لسان العرب (٣/ ٢٧) مادة «سوخ».

(١٣) قال في القاموس: مسخه كمنعه: حَوَّلَ صورته إلى أخرى أقبح (١/ ٣٣٢)، وقال المُناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (١/ ٦٥٥): «المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل نادرًا وهو مسخ الخلق، ومسخ يحصل في كل زمن وهو مسخ الخُلق؛ وذلك أن يصير الإنسان متخلقًا بخلق ذميم من أخلاق الحيوان» وينظر: اللسان (٣/ ٥٥) مادة «مسخ».
وذهب بعض أهل التفسير إلى أن مسخ بني إسرائيل كان مسخًا لقلوبهم، لكن الصواب أنه مسخ حقيقي لصورهم، كما هو ظاهر الآية القرآنية، وهو قول جماهير أهل التفسير، فلا يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ أَوَّلَهُ، والله أعلم.

الْأَرْضُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ صَحَّارٍ الْعَبْدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْسَفَ بِقَبَائِلَ، فَيُقَالُ: مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟**» قَالَ: فَعَرَفْتُ حِينَ قَالَ قَبَائِلَ، أَنَّهَا الْعَرَبُ؛ لِأَنَّ الْعَجَمَ تُنْسَبُ إِلَى قُرَاهَا. رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٤).

وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ قُرْبِ السَّاعَةِ: الْخَسْفَ بِجَيْشٍ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِقَوْمٍ قَدْ خُسِفَ فِيهِمْ هَهُنَا قَرِيبًا فَقَدْ أَظَلَّتِ السَّاعَةُ**»(١٥).

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ يَكُونُ قَاصِدًا مَكَّةَ عَقِبَ ظُهُورِ الْمَهْدِيِّ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَنْتَهِي الْبُعُوثُ عَنْ غَزْوِ بَيْتِ اللَّهِ ﷻ حَتَّى يُخْسَفَ بِجَيْشٍ مِنْهُمْ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٦).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَغْزُو**

---

(١٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣-٥/ ٣١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٩)، وأبو يعلى (٦٨٣٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ٧٣) برقم (٧٤٠٤)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٣٤٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٥٢)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٤٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩): «ورجاله ثقات».

(١٥) أخرجه من حديث بُقَيْرَةَ الهِلَالية امرأة القعقاع بن أبي حدرد رضي الله عنهما: أحمد (٦/ ٣٧٨-٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٠٣) برقم (٥٢٢-٥٢٣)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٨/ ٩)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٧٠١)، ثم الألباني في صحيح الجامع (٦١٨).

وأخرجه من حديث مليكة بنت عمرو الأنصارية رضي الله عنها: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٨٠).

(١٦) أخرجه النسائي في مناسك الحج، باب حرمة الحرم (٥/ ٢٠٦)، والفاكهي في أخبار مكة (٧٥٣)، وتمام الرازي في فوائده (٧٠١)، والحاكم وقال: صحيح غريب ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤/ ٤٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٤)، وفي السلسلة الصحيحة (٢٤٣٢).

جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ، قَالَ: «نَعَمْ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالمَجْبُورُ وابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»(١٧).

نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ مِنْ تَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِهِ، وَمِنْ جَمِيعِ سَخَطِهِ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَأَنْ لَا يُعَذِّبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ سُفَهَاؤُنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ..

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

(١٧) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٢٠١٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٤).

﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَعْرِفَةُ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، دُونَ التَّكَلُّفِ فِي تَنْزِيلِهَا عَلَى الْوَاقِعِ؛ يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ بِرَبِّهِ، وَيُثَبِّتُ قَلْبَهُ فِي أَحْوَالِ الْفِتَنِ، وَيَجْعَلُهُ عَلَى حَذَرٍ دَائِمٍ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الطَّاعَةِ، أَوِ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، مَعَ تَعَلُّقِهِ الدَّائِمِ بِاللَّهِ ﷻ مَحَبَّةً وَرَجَاءً، وَخَشْيَةً وَخَوْفًا.

وَكَثْرَةُ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَحُصُولُ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْمَسْخِ؛ إِنَّمَا هُوَ عَذَابٌ أَوِ ابْتِلَاءٌ لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَتَخْوِيفٌ لِبَقِيَّتِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

وَالْوَعِيدُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يُخَوِّفُ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُجَاهَرَةِ بِالْمَعَاصِي، وَضَعْفِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا هُوَ فَهْمُ الصَّحَابَةِ ﭫ لِوُقُوعِ ذَلِكَ؛ أَلَا تَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﭬ حِينَ زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ فِي خِلَافَتِهِ قَالَ: «يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ: مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ! وَاللَّهِ لَئِنْ عَادَتْ لَأُخْرِجَنَّ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ»(١٨)، فَخَشِيَ ﭬ أَنْ تُصِيبَهُ الْعُقُوبَةُ مَعَهُمْ، كَمَا قِيلَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ، وَيَبْعَثُ اللهُ الصَّالِحِينَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»(١٩).

بَلْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ بِأَنَّ الْخَسْفَ وَالْقَذْفَ وَالْمَسْخَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ التَّلَبُّسِ بِالْبِدَعِ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي، وَلَا سِيَّمَا كَبَائِرَ الذُّنُوبِ.

أَمَّا الْبِدَعُ فَجَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي مَسْخٌ وَقَذْفٌ وَهُوَ**

---

(١٨) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٧٣١) وابن المنذر في الأوسط (٢٨٥٢).

(١٩) ينظر: عمدة القاري للعيني (٧/ ٥٧).

فِي الزِّنْدِيقِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢٠).

وَكَمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ زَنَادِقَةٍ يَرْفُضُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ ﷻ، وَيَسْعَوْنَ فِي فَسَادِ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَيُجَاهِرُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ المُجَاهَرَةِ.

وَكَمْ فِي النَّاسِ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ، أَوْ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، أَوْ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى كُفْرِهِ وَمَعْصِيَتِهِ؟!

وَأَمَّا كَبَائِرُ الذُّنُوبِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ**»، قَالَ رَجُلٌ: مَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الخُمُورُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(٢١).

وَقَالَ ﷺ: «**يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُضْرَبُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالمَعَازِفِ وَالْقَيْنَاتِ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢٢).

---

(٢٠) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر ﵄: أحمد (٢/ ١٣٦)، واللالكائي في السنة (١١٣٥)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» (٧/ ٢٠٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٦٢٠٨).

(٢١) أخرجه من حديث عمران بن حصين ﵁: الترمذي في الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، وقال الترمذي: وقد روي هذا الحديث عن الأعمش عن عبدالرحمن بن سابط عن النبي ﷺ مرسلًا، وهذا حديث غريب (٢٢١٢)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٨٧٢٥)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٥٩٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٧٣)، وفي السلسلة الصحيحة (٢٢٠٣).
وأخرجه من حديث سهل بن سعد ﵁: عبد بن حميد (٤٥٢).

(٢٢) أخرجه مختصرًا أحمد (٥/ ٤٣٢)، وأبو داود في الأشربة، باب في الدَّاذِيِّ (٣٦٨٨).
وأخرجه بتمامه: ابن ماجه في الفتن، باب العقوبات (٤٠٢٠)، والبيهقي (٨/ ٢٩٥)، وصححه ابن حبان واللفظ له (٦٧٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥٤)، وفي الصحيحة (٩٠-٩١) من حديث أبي مالك الأشعري ﵁.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ انْتَشَرَتِ الْخُمُورُ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ، وَسُمِّيَتْ بِأَسْمَاءٍ شَتَّى، وَأُبِيحَتْ فِي أَكْثَرِ دُوَلِ الْإِسْلَامِ، مِمَّا يُنذِرُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

وَأَمَّا المَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ؛ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى كُلِّ الْبُيوتِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، بَلْ إِنَّ قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً تَعْمَلُ طِيلَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَلَى بَثِّ صُوَرِ الْقَيْنَاتِ المُغَنِّيَاتِ، وَهُنَّ فِي غَايَةِ التَّخَلُّعِ وَالِابْتِذَالِ؛ لِتَحْرِيكِ الشَّهَوَاتِ، وَإِفْسَادِ النَّاسِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالمَسْخِ، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَ اللهُ تَعَالَى الْعِبَادَ، وَيَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَتَقْوَى شَعِيرَةُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَتُسْدَى النَّصِيحَةُ لِأَهْلِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ المُفْسِدَةِ، وَمَنْ يَقُومُ عَلَيْهَا، وَمَنْ يُمَوِّلُهَا، وَمَنْ يَدْعَمُهَا بِالدِّعَايَةِ فِيهَا مِنْ تُجَّارِ المُسْلِمِينَ، وَكُلُّ أُولَئِكَ شُرَكَاءُ فِي هَذَا الْجُرْمِ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ . . وَمَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَلَازِلَ وَخَسْفٍ وَعُقُوبَاتٍ فَهُمْ مِنْ أَسْبَابِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى غَيُورٌ، وَغَيْرَتُهُ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُهُ، وَهَؤُلَاءِ -هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى- لَمْ يَنْتَهِكُوهَا فَحَسْبُ، بَلْ جَاهَرُوا بِانْتِهَاكِهَا، وَنَشَرُوهَا فِي النَّاسِ، وَزَيَّنُوا لَهُمُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ أَمْوَالٍ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٣٨٧- الأشراط الصغرى للساعة (٤)
كثرة المال وفشو التجارة

٢٤/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَارَقَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ يَوْمَ فَارَقَهَا وَقَدْ عَلَّمَهُمْ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ لِيُبَادِرُوا إِلَيْهِ، وَبِمَا يَضُرُّهُمْ لِيَحْذَرُوا مِنْهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مِنَ الأُمُورِ الْعِظَامِ، وَالحَوَادِثِ الكِبَارِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥) رقم (١٦٤٧)، وفي إسناد =

وَمِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِهِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: كَثْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ تَقَارُبِ الأَسْوَاقِ، وَالتَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ، وَالتَّفَاخُرِ بِالأَمْوَالِ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ ﷺ بِالصَّدَقَةِ، مَا دَامَ المُتَصَدِّقُ يَجِدُ حَاجَةً فِي النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ تُسَدَّ حَاجَتُهُمْ فَلا يَجِدُ المُتَصَدِّقُ لَهَا مَوْضِعًا؛ رَوَى حَارِثَةُ بْنُ وَهْبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**تَصَدَّقُوا؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، يَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٢].

وَسَبَبُ ذَلِكَ: فَيْضُ المَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَهَذَا يَقَعُ قُرْبَ السَّاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ، فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لا أَرَبَ لِي**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

وَأُمَّةُ العَرَبِ كَانَتْ فِي جَاهِلِيَّتِهَا لا تَعْرِفُ الأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ، وَلا الحَيَاةَ الفَارِهَةَ، وَلَا المُدُنَ الْعَامِرَةَ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةٌ بَسِيطَةٌ فِيهَا خُشُونَةٌ وَشِدَّةٌ، وَلَمَّا قَدِمَ رَبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه عَلَى رُسْتُمَ يُفَاوِضُهُ، وَأُعْجِبَ رُسْتُمُ بِكَلامِهِ، وَانْتَقَدَهُ قَوْمُهُ عَلَى إِعْجَابِهِ بِهِ، وَقَالُوا: أَمَا تَرَى إِلَى ثِيَابِهِ؟ قَالَ رُسْتُمُ: وَيْحَكُمْ! لا تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَابِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى الرَّأْيِ وَالكَلامِ وَالسِّيرَةِ؛ إِنَّ العَرَبَ تَسْتَخِفُّ

= أحمد مجاهيل لكن له شواهد، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الكبير، وقال: ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة، وفي إسناد أحمد من لم يسم (٨/ ٢٦٤)، ورجح الدارقطني في العلل إرساله (١١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٥)، والنسائي في الزكاة، باب الشفاعة في الصدقة (٥/ ٧٧)، وأبو يعلى (١٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٦)، ومسلم في الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها (١٥٧١).

بِاللِّبَاسِ وَالمَأْكَلِ، وَتَصُونُ الأَحْسَابَ، لَيْسُوا مِثْلَكُمْ!

فَلَمَّا جَاءَ اللهُ تَعَالَى بِالإِسْلامِ بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّةَ العَرَبِ بِاتِّسَاعِ المُلْكِ، وَكَثْرَةِ المَالِ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مُلْكِ مُلُوكِ الْأَرْضِ آنَذَاكَ؛ كَمَا رَوَى ثَوْبَانُ ﷺ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ مُعْجِزَاتٌ ظَاهِرَةٌ، وَقَدْ وَقَعَتْ كُلُّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ بِهَا ﷺ، وَالمُرَادُ بِالْكَنْزَيْنِ: الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَهُمَا كَنْزَا كِسْرَى وَقَيْصَرَ مَلِكَيِ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ».

وَمِنْ نَتَائِجِ هَذَا المُلْكِ الْعَظِيمِ وَالأَمْوَالِ المُتَكَاثِرَةِ: حُصُولُ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ؛ إِذْ إِنَّ الجُوعَ وَالخَوْفَ قَرِينَانِ، كَمَا أَنَّ الشِّبَعَ وَالأَمْنَ صِنْوَانٌ، وَالنَّاسُ يَعْدُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِسَبَبِ المَالِ فِي الْغَالِبِ؛ وَلِذَا بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِالْأَمْنِ مَعَ المَالِ؛ كَمَا رَوَى عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ﷺ فَقَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلَانِ؛ أَحَدُهُمَا يَشْكُو الْعَيْلَةَ، وَالآخَرُ يَشْكُو قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا قَطْعُ السَّبِيلِ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى تَخْرُجَ الْعِيرُ إِلَى مَكَّةَ بِغَيْرِ خَفِيرٍ، وَأَمَّا الْعَيْلَةُ؛ فَإِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَطُوفَ أَحَدُكُمْ بِصَدَقَتِهِ لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ قَالَ عَدِيٌّ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ،

---

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم من بعض (٢٨٨٦)، وأبو داود في الفتن والملاحم، باب الفتن ودلائلها (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨).

فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟** قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ** -أَي: المَرْأَةَ فِي الهَوْدَجِ- **تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ**. قَالَ عَدِيٌّ: قُلْتُ - فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي-: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ وَكَانُوا قُطَّاعَ طَرِيقٍ. **وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**، قَالَ عَدِيٌّ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟! قَالَ ﷺ: **كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ** . . . قَالَ عَدِيٌّ ﷺ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٥].

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ عَلَى أَحْوَالٍ ثَلَاثَةٍ تَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ[٦]:

أَوَّلُهَا: كَثْرَةُ المَالِ فَقَطْ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَلِذَا خَاطَبَهُمْ ﷺ فَقَالَ: «**يَكْثُرُ المَالُ فِيكُمْ**».

ثُمَّ يَفِيضُ المَالُ مِنْ كَثْرَتِهِ؛ بِحَيْثُ يَحْصُلُ اسْتِغْنَاءٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ عَنْ أَخْذِ مَالِ غَيْرِهِ، وَهِيَ الحَالُ الثَّانِيَةُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ ﷺ وَأَوَّلِ عَصْرِ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَتَبْلُغُ الكِفَايَةُ وَالقَنَاعَةُ فِي النَّاسِ أَنْ يَهْتَمَّ صَاحِبُ الصَّدَقَةِ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ؛ وَذَلِكَ يَنْطَبِقُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كَمَا رَوَى البَيْهَقِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ أُسَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قَالَ: «إِنَّمَا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، أَلَا وَاللَّهِ مَا مَاتَ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلَ يَأْتِينَا

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٠).

(٦) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨٧-٨٨).

بِالمَالِ الْعَظِيمِ، فَيَقُولُ: اجْعَلُوا هَذَا حَيْثُ تَرَوْنَ فِي الْفُقَرَاءِ؛ فَمَا يَبْرَحُ حَتَّى يَرْجِعَ بِمَالِهِ يَتَذَكَّرُ مَنْ يَضَعُهُ فِيهِ فَلَا يَجِدُهُ، قَدْ أَغْنَى عُمَرُ النَّاسَ»(٧).

وَالحَالَةُ الثَّالِثَةُ: تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَعْدَ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام؛ إِذْ يَفِيضُ المَالُ، وَيَسْتَغْنِي النَّاسُ، فَلا يَجِدُ المُتَصَدِّقُ مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، فَيَعْرِضُ صَدَقَتَهُ عَلَى مَنْ لا يَسْتَحِقُّهَا، فَيَأْبَى أَخْذَهَا، وَيَقُولُ: لا حَاجَةَ لِي فِي مَالِكَ!

فَهَذِهِ المَرَاحِلُ الثَّلَاثُ وَقَعَ مِنْهَا اثْنَتَانِ، وَبَقِيَتِ الثَّالِثَةُ، تَقَعُ فِي عَهْدِ المَسِيحِ عليه السلام، وَيَتَخَلَّلُ هَذِهِ المَرَاحِلَ الثَّلَاثَ طَمَعٌ يَقَعُ فِي النَّاسِ، وَجَشَعٌ يَسْتَبِدُّ بِهِمْ، وَشُحٌّ يَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ؛ فَلَا يَشْبَعُ غَنِيُّهُمْ، وَلَا يَرْضَى مَسْتُورُهُمْ، وَلا يَصْبِرُ فَقِيرُهُمْ، وَيَطْلُبُ النَّاسُ المَزِيدَ عَلَى كِفَايَتِهِمْ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْكَسْبِ وَالِادِّخَارِ بِكُلِّ الطُّرُقِ، حَتَّى مَنْ أُعْطِيَ مِنْهُمْ عَطَاءً جَزْلًا لَا يَقْنَعُ بِمَا أُعْطِيَ بِسَبَبِ طَمَعِهِ، وَقَدْ عَدَّ النَّبِيُّ ﷺ سِتًّا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَذَكَرَ مِنْهَا: «**اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٨).

وَاتِّسَاعُ الدُّنْيَا لِلنَّاسِ، وَكَثْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِيهِمْ؛ يَصِلُ بِهِمْ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّبَاهِي وَالمُفَاخَرَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِهِ فِي أُمَّتِهِ؛ فَأَخْبَرَ عَنِ التَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ؛ كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ**

---

(٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤٩٣)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٣٤)، وابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ١٩٥)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٤٤٤)، وراوي الأثر هو عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله تعالى.

(٨) أخرجه من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه: البخاري في الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥)، وابن ماجه في الفتن، باب أشراط الساعة (٤٠٤٢)، وأحمد (٦/ ٢٧).

أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ قَالَ ﷺ: «**وَرَأَيْتَ أَصْحَابَ الشَّاءِ تَطَاوَلُوا بِالْبُنْيَانِ، وَرَأَيْتَ الحُفَاةَ الْجِيَاعَ الْعَالَةَ كَانُوا رُؤُوسَ النَّاسِ، فَذَلِكَ مِنْ مَعَالِمِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا**، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ أَصْحَابُ الشَّاءِ وَالْحُفَاةُ الْجِيَاعُ الْعَالَةُ؟ قَالَ: **الْعَرَبُ**»(٩).

قَالَ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «المَقْصُودُ: الإِخْبَارُ عَنْ تبَدُّلِ الحَالِ بِأَنْ يَسْتَوْلِيَ أَهْلُ البَادِيَةِ عَلَى الأَمْرِ، وَيَتَمَلَّكُوا الْبِلَادَ بِالْقَهْرِ؛ فَتَكْثُرَ أَمْوَالُهُمْ، وَتَنْصرِفَ هِمَمُهُمْ إِلَى تَشْيِيدِ البُنْيَانِ وَالتَّفَاخُرِ بِهِ، وَقَدْ شَاهَدْنَا ذَلِكَ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ!»(١٠).

وَالقُرْطُبِيُّ يَحْكِي عَنْ زَمَانِهِ، وَقَدْ مَاتَ فِي المِئَةِ السَّابِعَةِ؛ فَكَيْفَ لَوْ رَأَى كَثْرَةَ الأَمْوَالِ فِي هَذَا العَصْرِ، وَتَفَاخُرَ النَّاسِ بِالبُنْيَانِ، حَتَّى إِنَّ العَرَبَ فَاقُوا فِي التَّفَاخُرِ بِهِ سَائِرَ الأُمَمِ؟!

وَالتَّطَاوُلُ فِي البُنْيَانِ لَهُ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ: مِنْ تَشْيِيدِ الأَبْرَاجِ العَالِيَةِ -وَمَا أَكْثَرَهَا فِي هَذَا العَصْرِ!- إِلَى التَّنَافُسِ فِي اتِّسَاعِ الدُّورِ وَالقُصُورِ، وَتَنْوِيعِ أَثَاثِهَا وَمَتَاعِهَا، إِلَى تَعَدُّدِ المَسَاكِنِ وَالبُيُوتِ لِلْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ وَكَثْرَتِهَا؛ فَبُيُوتٌ فِي المُدُنِ، وَأُخْرَى فِي القُرَى، وَثَالِثَةٌ فِي المَزَارِعِ، وَرَابِعَةٌ فِي مَكَّةَ، وَخَامِسَةٌ فِي البِلادِ الَّتِي يَصْطَافُ فِيهَا، فِي سِلْسِلَةٍ لا تَنْتَهِي مِنَ التَّوَسُّعِ وَالتَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ.

---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ... (٥٠)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩).

والرواية الثانية لأحمد من حديث ابن عباس ﷺ (١/ ٣١٩).

(١٠) المفهم (١/ ٦٤)، وعنه ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٣).

بَلْ إِنَّ التَّطَاوُلَ فِي البُنْيَانِ يَتَعَدَّى المَسَاكِنَ إِلَى المَسَاجِدِ؛ فَيَتَبَاهَى النَّاسُ بِبِنَائِهَا وَزَخْرَفَتِهَا وَتَزْوِيقِهَا، حَتَّى مَنْ يُقَصِّرُ فِي الصَّلاةِ مِنْ أَثْرِيَائِهِمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِلْمُبَاهَاةِ!

وَلَرُبَّمَا بُنِيَتْ بُيُوتُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْوَالٍ مُحَرَّمَةٍ! كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرِّبَا وَالغِشِّ، وَالاحْتِكَارِ وَالغِنَاءِ، وَالتَّمْثِيلِ وَالرَّقْصِ؛ فَبَعْضُهُمْ يَبْتَنِي مَسَاجِدَ مِنْ كَسْبِهِ الخَبِيثِ؛ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى العَافِيَةَ وَالسَّلامَةَ، وَذَلِكَ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِي قَالَ ﷺ: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ**»(١١). وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «يَتَبَاهَوْنَ بِهَا، ثُمَّ لا يَعْمُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا»(١٢)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى»(١٣).

وَلَمَّا أَمَرَ عُمَرُ رضي الله عنه بِتَجْدِيدِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلْبَنَّاءِ: «**أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ المَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ، فَتَفْتِنَ النَّاسَ**»(١٤).

---

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٩)، والنسائي في المساجد، باب المباهاة في المساجد (١/ ٢٥٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب تشييد المساجد (٧٣٩)، وأحمد (٣/ ١٣٤)، وأبو يعلى (٢٧٩٨)، والدارمي (١٤٠٨)، وصححه ابن خزيمة (١٣٢٢)، وابن حبان (١٦١٣)، والضياء في المختارة (٢٢٣٥).

(١٢) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد (١/ ١٧١)، ووصله أبو يعلى (٢٨١٧)، وابن خزيمة (١٣٢١).

(١٣) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد (١/ ١٧١)، ووصله موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما: أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٧٤)، وأبو يعلى (٢٤٥٤)، وصححه ابن حبان (١٦١٥).

(١٤) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به (١/ ١٧١).

قَالَ ابنُ بَطَّال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ فِي بُنْيَانِ المَسْجِدِ الْقَصْدُ، وَتَرْكُ الْغُلُوِّ فِي تَحْسِينِهِ؛ فَقَدْ كَانَ عُمَرُ مَعَ كَثْرَةِ الْفُتُوحِ فِي أَيَّامِهِ، وَسَعَةِ المَالِ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَيِّرِ المَسْجِدَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا احْتَاجَ إِلَى تَجْدِيدِهِ؛ لِأَنَّ جَرِيدَ النَّخْلِ كَانَ قَدْ نُخِرَ فِي أَيَّامِهِ، ثُمَّ كَانَ عُثْمَانُ وَالمَالُ فِي زَمَانِهِ أَكْثَرُ، فَحَسَّنَهُ بِمَا لا يَقْتَضِي الزَّخْرَفَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِ، وَأَوَّلُ مَنْ زَخْرَفَ المَسَاجِدَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَسَكَتَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ إِنْكَارِ ذَلِكَ؛ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ، وَرَخَّصَ فِي ذَلِكَ بَعْضُهُمْ» اهـ(١٥).

وَيَسْتَتْبِعُ كَثْرَةَ الأَمْوَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ: اتِّسَاعُ التِّجَارَةِ وَتَنَوُّعُهَا، وَكَثْرَةُ الأَسْوَاقِ وَتَقَارُبُهَا، مَعَ تَعَدُّدِ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ فِي خِدْمَةِ المَالِ وَتَنْمِيَتِهِ؛ وَلِذَا جَاءَ الرَّبْطُ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ بَيْنَ كَثْرَةِ المَالِ وَبَيْنَ كَثْرَةِ القَلَمِ فِي النَّاسِ؛ كِنَايَةً عَنِ العُلُومِ وَالمَعَارِفِ؛ كَمَا رَوَى الطَّيَالِسِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ، وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ**»(١٦).

وَيُحَدِّثُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ وَقْتٍ أَدْرَكَهُ كَانَتِ التِّجَارَةُ فِيهِ قَلِيلَةً كَمَا كَانَتِ الْكِتَابَةُ قَلِيلَةً، فَيَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ وَإِنَّمَا يُقَالُ: تَاجِرُ بَنِي فُلَانٍ، وَكَاتِبُ بَنِي فُلَانٍ، مَا يَكُونُ فِي الْحَيِّ إِلَّا التَّاجِرُ الْوَاحِدُ وَالْكَاتِبُ الْوَاحِدُ»، قَالَ الحَسَنُ: «وَاللَّهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي

(١٥) فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٤٠).

(١٦) أخرجه الطيالسي (١١٧١)، والنسائي في الكبرى (٦٠٤٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٦٤).

الْحَيَّ الْعَظِيمَ فَمَا يَجِدُ بِهِ كَاتِبًا» رَوَاهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ(١٧).

وَقَدْ أَدْرَكَ كِبَارُ السِّنِّ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ اتِّسَاعِ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، فَالحَمْدُ للَّهِ كَثِيرًا عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لا تُحْصَى.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَقَارُبَ الزَّمَانِ، وَتَقَارُبَ الأَسْوَاقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي هَذَا الزَّمَنِ؛ إِذِ المَسَافَاتُ تَقَارَبَتْ مَعَ سُرْعَةِ المُوَاصَلاتِ، وَتَقَارَبَ الزَّمَانُ مَعَ تَطَوُّرِ الاتِّصَالاتِ، وَالأَسْوَاقُ تَقَارَبَتْ حِسًّا وَمَعْنًى؛ فَفِي أَكْثَرِ المُدُنِ تَكْثُرُ الأَسْوَاقُ وَتَتَقَارَبُ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ وَاتِّسَاعٍ مَا دَامَ النَّاسُ يَشْتَرُونَ وَيَسْتَهْلِكُونَ، وَسَبَبُ ذَلِكَ كَثْرَةُ الأَمْوَالِ فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَعَ تَقَارُبِ الزَّمَنِ، وَسُرْعَةِ الاتِّصَالِ أَضْحَى التُّجَّارُ يَتَبَادَلُونَ التِّجَارَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ أَوْ مَكَاتِبِهِمْ مَعَ تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ المَسَافَاتِ، وَاخْتِلافِ البُلْدَانِ.

وَتَبْلُغُ التِّجَارَةُ فِي فُشُوِّهَا مَبْلَغًا يَتَقَحَّمُهَا النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ، فَيَضْرِبْنَ فِي الأَرْضِ، وَيُسَافِرْنَ بِلَا مَحْرَمٍ، وَيُزَاحِمْنَ الرِّجَالَ، مَعَ أَنَّ إِدَارَةَ التِّجَارَةِ فِي الأَصْلِ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُمُ الضَّارِبُونَ فِي الأَرْضِ، السَّاعُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ بِالرِّزْقِ؛ رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ، حَتَّى تُعِينَ المَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ(١٨).

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ مُشَارَكَةِ المَرْأَةِ فِي التِّجَارَةِ، وَإِدَارَتِهَا لَهَا: خُرُوجُهَا مِنَ

(١٧) التمهيد لابن عبد البر (١٧/ ٢٩٧)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ١٥٤).

(١٨) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩)، والطحاوي في شرح المشكل (٤/ ٢٦٣)، وصححه الحاكم (٤/ ١١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح (٧/ ٣٢٩).

المَنْزِلِ لِلدِّرَاسَةِ ثُمَّ لِلْعَمَلِ، وَاتِّسَاعُ المَالِ فِي يَدِهَا؛ فَصَارَتْ نِدًّا لِلرَّجُلِ فِي ذَلِكَ، وَوَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تِلْكُمُ الأَشْرَاطِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ، وَدُنُوِّ الْقِيَامَةِ؛ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْوَفَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا الْخَطِيئَةَ وَالزَّلَّةَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلا تَعْصُوهُ؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّا سَيَقَعُ بَعْدَهُ مِنْ كَثْرَةِ المَالِ فِي النَّاسِ، خَافَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا وَالتَّقْصِيرَ فِي حَقِّ الآخِرَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ زِينَتِهَا وَزَهْرَتِهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا إِلَى زَوَالٍ، وَحَثَّهُمْ عَلَى التَّنَافُسِ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُقَرِّبُهُمْ مِنَ الآخِرَةِ؛ نُصْحًا لَهُمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ؛ يَرْوِي عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى المَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي**

وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٩).

وَلَمَّا قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِجِزْيَةِ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، سَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَقَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟**»، **قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

وَمَنْ رَأَى حَالَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَعَ الأَمْوَالِ وَتَنْمِيَتِهَا، وَأَعْمَالِهِمْ فِيهَا، وَقَارَنَهُ بِضَعْفِ سَعْيِهِمْ لِلآخِرَةِ، وَتَقْصِيرِهِمْ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَيْقَنَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَخَلُّوا بِوَصَايَا نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَنَّ مَا خَافَهُ عَلَيْهِمْ وَقَعُوا فِيهِ؛ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَحُبِّ الشَّهَوَاتِ الْعَاجِلَةِ، مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ كَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ بِبَذْلِ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ بِلَا مُبَالَغَةٍ فِي الْأَخْذِ بِهَا، وَلَا خَوْفٍ مِنَ الْفَقْرِ، وَمَهْمَا عَمِلُوا وَخَافُوا وَخَطَّطُوا فَلَنْ يَنَالُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُمْ، وَقَدْ حَضَّهُمُ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ عَلَى الْعَمَلِ لِأُخْرَاهُمْ؛ رَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، لَا يَسْتَبْطِئَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ؛ إِنَّ جِبْرِيلَ** ﷺ

---

(١٩) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠١).

(٢٠) أخرجه من حديث عمرو بن عوف ﷺ: البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

أَلْقَى فِي رُوعِي: أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنِ اسْتَبْطَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ، فَلَا يَطْلُبْهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ فَضْلُهُ بِمَعْصِيَةٍ»(٢١).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٢١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والحاكم (٢/ ٥)، وابن مردويه في أماليه (٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (١٧٠٠).

وأخرجه بنحوه من حديث جابر ﷺ: ابن ماجه في التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، وابن الجارود (٥٥٦)، والطبراني في الأوسط (٣١٠٩)، والبيهقي (٥/ ٢٦٤)، والحاكم وصححه (٤/ ٣٦١)، قال البوصيري: «هذا إسناد ضعيف، الوليد بن مسلم وابن جريج وأبو الزبير كل منهم كان يدلس، وقد رووه بالعنعنة، لكن لم ينفرد ابن ماجه بإخراجه من هذا الوجه، فقد رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد بن سلم ثنا حرملة بن يحيى ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن المنكدر عن جابر بإسناده ومتنه، رواه أيضًا عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف عن الوليد بن شجاع عن ابن وهب فذكر نحوه، وله شاهد من حديث حذيفة رواه البزار في مسنده» اهـ مصباح الزجاجة (٣/ ٨).

٣٨٨- الأشراط الصغرى للساعة (٥) تقارب الزمان

٢٥/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالمَكَانَ، وَيُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ؛ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَهُوَ مَانِحُهُ، وَلَا مِنْ بَلَاءٍ إِلَّا وَهُوَ كَاشِفُهُ؛ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْحَمُ النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَأَنْصَحُهُمْ لِلْأُمَّةِ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا وَلِمَنْ قَبْلَنَا؛ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا دَارَ عَمَلٍ وَابْتِلَاءٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ

الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ، وَمَهْمَا طَالَ عُمُرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ مُفَارِقُهَا بِالْمَوْتِ، وَلَنْ يَجِدَ فِي أُخْرَاهُ إِلَّا مَا عَمِلَ فِي دُنْيَاهُ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا؛ بِسَمَائِهَا وَأَرْضِهَا، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا وَأَنْجُمِهَا زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ؛ ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٤]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الْقِيَامَة: ٧-١٣].

وَالدُّنْيَا تَنْتَهِي، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّفُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٨].

وَالْمُؤْمِنُونَ يَخْشَوْنَ السَّاعَةَ، وَيَخَافُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِإِيمَانِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَيَعْمَلُونَ صَالِحًا فِي الدُّنْيَا لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، مَعَ وَجَلِهِمْ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَيَسْخَرُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْتَعْجِلُونَ قِيَامَ السَّاعَةِ؛ لِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الْمُتَّقِينَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٤٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشُّورَى: ١٧، ١٨].

وَالْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ يُوَبَّخُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى شَكِّهِمْ فِي قِيَامِهَا، وَإِنْكَارِهِمُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٣٢].

وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ وَإِنِ اسْتَبْعَدَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَرِيبَةٌ وَإِنِ اسْتَبْطَؤُوا زَمَنَهَا؛ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النَّحل: ٧٧].

وَلِلسَّاعَةِ أَمَارَاتٌ تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِهَا، وَمِنْ عَلَامَاتِهَا مَا وَقَعَ وَانْتَهَى، وَمِنْهَا مَا وَقَعَ وَلَا يَزَالُ يَقَعُ وَهُوَ فِي ازْدِيَادٍ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَقَعْ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ؛ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾ [مُحَمَّد: ١٨].

وَمِنْ فَوَائِدِ الْعِلْمِ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَحْذِيرُ النَّاسِ وَتَذْكِيرُهُمْ؛ لِئَلَّا يَنْغَمِسُوا فِي مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَيَنْسَوْا مَا يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ وَالْحِسَابِ، وَهُوَ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لَهُ بِمَا يُنْجِيهِمْ؛ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [الْقَمَر: ٤٦].

كَمَا أَنَّ إِخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أُمُورٍ لَمْ تَقَعْ زَمَنَ بَعْثَتِهِ، ثُمَّ وَقَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَشَاهَدَهَا النَّاسُ، لَمِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالْعِلْمِ بِإِخْبَارِهِ بِهَا، ثُمَّ رُؤْيَتِهَا عِيَانًا لَمِمَّا يَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَيَقِينًا إِلَى يَقِينِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى دِينِهِمْ، وَصَبْرًا عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ لِذَلِكَ نِهَايَةً، وَأَنَّ الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ سَيَكُونُ عِنْدَ حَكَمٍ عَدْلٍ، لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا: تَقَارُبُ الزَّمَانِ، وَسُرْعَةُ مُرُورِ الْأَيَّامِ، وَقِلَّةُ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ؛ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ؛ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ...**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات (٩٨٩)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن (١٥٧).

وَتَقَارُبُ الزَّمَانِ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، قَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَقَارُبُ مَا بَيْنَ المُدُنِ وَالْأَقَالِيمِ وَالدُّوَلِ، وَسُرْعَةُ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِمَا يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ مِنْ صُنْعِ السَّيَّارَاتِ وَالطَّائِرَاتِ وَنَحْوِهَا، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ قَبْلَهَا يَقْسِمُونَ أَسْفَارَهُمْ عَلَى مَرَاحِلَ وَأَيَّامٍ، وَيَمْكُثُونَ فِي الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ أَشْهُرًا وَأَعْوَامًا، وَكَانَتِ الْقَوَافِلُ تَسِيرُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَإِفْرِيقِيَّةَ، وَأَقَاصِي آسِيَةَ، إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِلْحَجِّ، فَتَمْكُثُ أَشْهُرًا، وَرُبَّمَا أَعْوَامًا قَبْلَ بُلُوغِ مَكَّةَ، وَلَا تَبْلُغُهَا إِلَّا وَقَدْ مَاتَ كَثِيرٌ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي الطَّرِيقِ مِنْ مَشَقَّتِهِ وَمَخَاطِرِهِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَبْلُغُونَ مَكَّةَ لَا يَعُودُونَ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِمَا رَأَوْا مِنَ الْأَهْوَالِ فِي رِحْلَةِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا، وَمَنْ كَتَبُوا عَنْ رَحَلَاتِهِمْ إِلَى الْحَجِّ ذَكَرُوا عَجَائِبَ فِي ذَلِكَ.

أَمَّا الْآنَ، فَيَفِدُ الْحُجَّاجُ إِلَى مَكَّةَ مِنَ أَقَاصِي الْأَرْضِ، فَلَا يَمْكُثُونَ فِي الْجَوِّ إِلَّا سَاعَاتٍ مَعْدُودَةً، وَإِذَا هُمْ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَهَذَا مِنْ تَقَارُبِ الْبُلْدَانِ، وَهُوَ مِنْ مَعَانِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ.

وَكَانَ النَّاسُ إِذَا غَابَ غَائِبُهُمْ فِي رِحْلَةِ حَجٍّ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، لَا يَصِلُهُمْ خَبَرُهُ إِلَّا بَعْدَ أَشْهُرٍ أَوْ سَنَوَاتٍ بِكِتَابٍ يَبْعَثُهُ إِلَيْهِمْ، أَوْ مَنْ رَآهُ يُخْبِرُ عَنْهُ، وَلَا وَسَائِلَ لِلِاتِّصَالِ غَيْرُ ذَلِكَ؛ حَتَّى عَقَدَ الْفُقَهَاءُ أَبْوَابًا فِي الْفِقْهِ لِلْغَائِبِ وَأَحْكَامِهِ إِذَا انْقَطَعَتْ عَنْ أَهْلِهِ أَخْبَارُهُ.

أَمَّا الْآنَ، فَيَتَّصِلُ بِهِمْ، وَيَتَّصِلُونَ بِهِ مَتَى مَا أَرَادُوا، فَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ، وَيَعْرِفُونَ أَحْوَالَهُ، وَإِنْ شَاؤُوا رَأَوْهُ عِيَانًا وَهُوَ يُكَلِّمُهُمْ، وَمَا عَادَ لِلْبَرِيدِ وَالرَّسَائِلِ قِيمَةٌ تُذْكَرُ أَمَامَ هَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ فِي وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ، حَتَّى إِنَّ الْأَجْهِزَةَ الْحَدِيثَةَ تُظْهِرُ صُورَةَ الْمُتَّصِلِ، وَتَدُلُّ عَلَى مَكَانِهِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ تَقَارُبِ الزَّمَنِ، فَوَقَعَ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمِنْ مَعَانِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ: سُرْعَةُ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، فَمَا تُشْرِقُ شَمْسُ يَوْمٍ إِلَّا وَتَغْرُبُ، وَلَا يَهُلُّ شَهْرٌ إِلَّا وَيُدْبِرُ، وَلَا تَبْتَدِئُ سَنَةٌ إِلَّا وَتَنْقَضِي سَرِيعًا، قَدْ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْأَعْمَارِ.

لَقَدْ أَدْرَكَ النَّاسُ أَزْمِنَةً قَرِيبَةً، كَانُوا يُنْجِزُونَ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ أَعْمَالًا كَثِيرَةً، يَعْجِزُونَ الْيَوْمَ عَنْ إِنْجَازِهَا فِي أُسْبُوعٍ كَامِلٍ، وَكَانَتْ أَرْزَاقُ النَّاسِ قَلِيلَةً جِدًّا، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَكْفِيهِمْ، وَيَتَصَدَّقُونَ مِنْهَا وَيَدَّخِرُونَ، فَلَمَّا اتَّسَعَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُمْ سُبُلُ الْمُوَاصَلَاتِ وَالِاتِّصَالَاتِ، وَتَتَابَعَتِ النِّعَمُ عَلَيْهِمْ، نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ أَوْقَاتِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي خَلَّفَهُ أَسْلَافُنَا، عَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَارَكَ فِي أَوْقَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانَ مَا كَتَبُوا مِنْ صَفَحَاتٍ يَزِيدُ عَلَى أَيَّامِ حَيَاتِهِمْ مُنْذُ وِلَادَتِهِمْ إِلَى وَفَاتِهِمْ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ شُرَّاحَ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ أَخْبَرُوا أَنَّ تَقَارُبَ الزَّمَانِ، وَقِلَّةَ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ قَدْ وَقَعَ فِي أَزْمَانِهِمْ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ يَتَّسِعُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ اشْتَدَّتْ قِلَّةُ الْبَرَكَةِ؛ حَتَّى يَكُونُوا أَقَلَّ بَرَكَةً مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ؛ وَسَبَبُ ذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَاصِي وَالْإِعْلَانُ بِهَا.

وَهَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ تَقَارُبِ الزَّمَانِ بِقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِيهِ، قَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ؛ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونُ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ أَوِ الْخُوصَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢).

---

(٢) أخرجه أحمد (٢/٥٣٧)، وأبو يعلى (٦٦٨٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٦٨٤٢)، وصححه ابن حبان (٦٨٤٢)، والألباني في تعليقه على ابن حبان (٦٨٠٣).

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ الْأَنْدَلُسِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِتَقَارُبِ الزَّمَانِ قِصَرَهُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ**»، وَعَلَى هَذَا، فَالْقِصَرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حِسِّيًّا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَوِيًّا:

أَمَّا الْحِسِّيُّ، فَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ وَلَعَلَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَمَّا المَعْنَوِيُّ، فَلَهُ مُدَّةٌ مُنْذُ ظَهَرَ يَعْرِفُ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ وَمَنْ لَهُ فِطْنَةٌ مِنْ أَهْلِ السَّبَبِ الدُّنْيَوِيِّ، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ لَا يَقْدِرُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الْعَمَلِ قَدْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَشْكُونَ ذَلِكَ وَلَا يَدْرُونَ الْعِلَّةَ فِيهِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ لِظُهُورِ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ، وَأَشَدُّ ذَلِكَ الْأَقْوَاتُ؛ فَفِيهَا مِنَ الْحَرَامِ المَحْضِ وَمِنَ الشُّبَهِ مَا لَا يَخْفَى؛ حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَتَوَقَّفُ فِي شَيْءٍ، وَمَهْمَا قَدَرَ عَلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ هَجَمَ عَلَيْهِ وَلَا يُبَالِي، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْبَرَكَةَ فِي الزَّمَانِ وَفِي الرِّزْقِ وَفِي النَّبْتِ، إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، وَالشَّاهِدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى[٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي أَوْقَاتِنَا وَأَعْمَارِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَرْزَاقِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مُبَارَكِينَ أَيْنَمَا كُنَّا؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَشَرَعَ لَهُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَحْسِنُوا اسْتِقْبَالَ شَهْرِكُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النَّجْم: ٣٩-٤١]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِمَّا نُشَاهِدُهُ وَنُحِسُّهُ قِلَّةَ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ، رَغْمَ قُرْبِ المَسَافَاتِ، وَكَثْرَةِ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ وَالمُوَاصَلَاتِ، وَهَذَا مِصْدَاقٌ لِلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ.

إِنَّ النَّاسَ فِي زَمَنِنَا هَذَا مَشْغُولُونَ دَائِمًا، وَلَا يُنْتِجُونَ شَيْئًا، وَيَلْهَثُونَ بِاسْتِمْرَارٍ، وَلَا يُنْجِزُونَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَوَصَلَ أَهْلُ الْقُبُورِ قُبُورَهُمْ، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا آمَالٌ وَطُمُوحَاتٌ، وَأَعْمَالٌ وَمَشْرُوعَاتٌ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا المَوْتُ، فَفَارَقُوا الدُّنْيَا وَلَمْ تَنْتَهِ مَشَاغِلُهُمْ وَآمَالُهُمْ.

وَفِي زَمَنِ ثَوْرَةِ الْمُوَاصَلَاتِ وَالِاتِّصَالَاتِ الَّتِي قَرَّبَتِ الْبَعِيدَ، وَاخْتَصَرَتِ الزَّمَانَ وَالمَكَانَ؛ فَإِنَّ الْأَرْحَامَ تُقْطَعُ، وَيَتَهَاجَرُ الْجِيرَانُ، وَيَمْكُثُ الْقَرِيبُ عَنْ

قَرِيبِهِ -وَهُوَ فِي مَدِينَتِهِ- زَمَنًا طَوِيلًا يَتَعَدَّى أَشْهُرًا، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ السَّنَةَ، وَقَدْ يَمْرَضُ وَلَا يَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَشْغُولٌ عَنِ الْآخَرِ، وَلَا نَتَائِجَ تُذْكَرُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأَشْغَالِ.

وَبِمَا أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَارَبُ، وَيَزْدَادُ تَقَارُبُهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ حَتَّى تَمْضِيَ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَلَا يُحِسَّ النَّاسُ بِهَا، وَمَشَاغِلُ النَّاسِ وَطُمُوحَاتُهُمْ تَتَجَاوَزُ أَعْمَارَهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ . . . بَمَا أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْعَاقِلَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُرَتِّبُ أَعْمَالَهُ؛ فَيُقَدِّمُ الْأَهَمَّ مِنْهَا عَلَى المُهِمِّ، وَالْفَاضِلَ عَلَى المَفْضُولِ، وَمَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِذَا مَا تَعَارَضَ عَمَلُ الدُّنْيَا مَعَ عَمَلِ الْآخِرَةِ، قُدِّمَ عَمَلُ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَبْقَى.

وَإِذَا تَزَاحَمَتِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ عَلَيْهِ، قَدَّمَ الْفَرَائِضَ عَلَى النَّوَافِلِ، وَالْوَاجِبَاتِ عَلَى المَنْدُوبَاتِ، وَقَدَّمَ مَا كَانَ نَفْعُهُ مُتَعَدِّيًا عَلَى مَا كَانَ نَفْعُهُ قَاصِرًا، وَإِذَا مَا أَدْرَكَ أَزْمِنَةً فَاضِلَةً، كَالْجُمُعَةِ وَرَمَضَانَ، وَعَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، خَصَّهَا بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ؛ لِفَضِيلَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا، وَأَهْلُ التِّجَارَةِ يَخُصُّونَ مَوَاسِمَهُمْ بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ طُلَّابُ الدُّنْيَا أَكْثَرَ حَصَافَةً وَاهْتِبَالًا لِلْفُرَصِ مِنْ طُلَّابِ الْآخِرَةِ.

إِنَّ أَعْمَارَنَا -وَإِنْ طَالَتْ- فَلَنْ تَسْتَوْعِبَ آمَالَنَا وَطُمُوحَاتِنَا وَمَشْرُوعَاتِنَا الَّتِي تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ مَعَ نَقْصِ أَعْمَارِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَيْنَا، وَمِنَ الْخَسَارَةِ الْعَظِيمَةِ أَنِ يَمضِيَ عُمْرُ أَحدِنَا وَقَدْ فُرِّقَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَشُتِّتَ شَمْلُهُ، وَقَسَا قَلْبُهُ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَعِدُ نَفْسَهُ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ حَبِيسَةَ أَمَانِيهِ وَوُعُودِهِ، وَلَا تَحْظَى بِشَيْءٍ مِنْ وَقْتِهِ وَعُمُرِهِ، حَتَّى يُوَسَّدَ فِي قَبْرِهِ.

إِنَّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- تَسْتَقْبِلُونَ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْآخِرَةِ، وَسَيَحْظَى مَنْ أَدْرَكَهُ

مِنْكُمْ بِعَطِيَّةٍ مِنْ عَطَايَا رَبِّكُمْ ﷻ فَحَرَامٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ حَرَامٌ أَنْ يُفَرِّطَ فِيهِ، وَلَا يُولِيَهُ عِنَايَتَهُ وَاهْتِمَامَهُ؛ مَوْسِمٌ مَنْ أَدْرَكَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَهُوَ مَحْرُومٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٥).

وَقَدْ عَوَّدَنَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ فِيمَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَاتٍ بِإِفْسَادِ صِيَامِ الصَّائِمِينَ، وَقِيَامِ الْقَائِمِينَ، وَإِذْهَابِ وَقَارِ رَمَضَانَ بِمَا يَعْرِضُونَهُ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ؛ مِنْ إِثْمٍ وَقِمَارٍ، وَفُجُورٍ وَسُخْرِيَةٍ بِالنَّاسِ، وَاسْتِهْزَاءٍ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَفْضٍ لِشَرِيعَتِهِ، وَتَعَدٍّ عَلَى حُدُودِهِ، وَتَمَرُّدٍ عَلَى أَحْكَامِهِ، وَقَبْلَ أَشْهُرٍ مِنْ رَمَضَانَ وَهُمْ يَسْتَبِقُونَ لِجَرِّ الصَّائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ إِلَى فَضَائِيَّاتِهِمُ الْآثِمَةِ، بِمَا يَعْرِضُونَهُ مِنْ دِعَايَاتٍ لِبَرَامِجِهِمُ الْفَاجِرَةِ.

فَيَا لَخَسَارَةِ مَنْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَوَافَقَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ، وَقَضَى رَمَضَانَ مُتَنَقِّلًا بَيْنَ بَرَامِجِهِمْ، وَشَهِدَ مَشَاهِدَ الزُّورِ مَعَهُمْ! وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(٦).

---

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنف رجل» وقال: حسن غريب (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٩٠٨).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأدب المفرد برقم (٦٤٦)، والبزار (٣١٦٩)، وصححه ابن خزيمة (١٨٨٨)، وابن حبان (٩٠٧).
وأخرجه من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه: ابن حبان (٤٠٩).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم (١٩٠٣).

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُبَشِّرُونَ بِهِ المُسْلِمِينَ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ لَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ، وَأَكْبَرِ الزُّورِ، وَإِنَّ مِنْ أَقَلِّ دَرَجَاتِ إِنْكَارِ هَذَا الْجَهْلِ وَالزُّورِ مُجَانَبَةَ مَجَالِسِهِ، وَحِفْظَ الْبُيُوتِ وَالْأُسَرِ مِنْ شَرِّهِ وَبَلَائِهِ؛ حِفْظًا لِصِيَامِهِمْ مِمَّا يُخَرِّقُهُ، وَلِقُلُوبِهِمْ مِمَّا يُفْسِدُهَا، وَشُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى إِدْرَاكِ رَمَضَانَ.

اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا إِلَى رَمَضَانَ، وَسَلِّمْهُ لَنَا، وَتَسَلَّمْهُ مِنَّا مُتَقَبَّلًا، وَوَفِّقْنَا فِيهِ لِلْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيكَ، آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



٣٨٩- جنة الخلد (١)
الأسماء والأوصاف

٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى بِنُزُولِ الْغَيْثِ، فَارْتَوَتِ الْأَرْضُ بِالمَاءِ، فَأَنْبَتَتْ عُشْبَهَا، وَاكْتَسَتْ بِخُضْرَتِهَا، وَطَابَ رِيحُهَا؛ فَإِنَّ كُلَّ حَيٍّ لَا يَمَلُّ النَّظَرَ إِلَيْهَا، وَالِاسْتِمْتَاعَ بِهَا.

وَإِذَا قُدِّرَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَرَى بِلَادًا قَدِ اخْضَرَّتْ أَرْضُهَا، وَجَرَتْ أَنْهَارُهَا، وَأَزْهَرَتْ أَشْجَارُهَا، وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُهَا، وَطَابَ هَوَاؤُهَا؛ فَإِنَّهُ يَأْنَسُ فِيهَا، وَيَتَمَنَّى عَدَمَ مُفَارَقَتِهَا.

وَإِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ بُسْتَانًا كَثُرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَوَفَّرَ مَاؤُهُ، وَرُتِّبَ بُنْيَانُهُ، وَدَنَتْ ثِمَارُهُ؛ فَإِنَّهُ يُطِيلُ الْمُكْثَ فِيهِ، وَيُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي نَوَاحِيهِ.

وَإِذَا حَضَرَ إِنْسَانٌ شُرُوقَ الشَّمْسِ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ، وَرَأَى أَشِعَّتَهَا تَتَخَلَّلُ أَشْجَارَهَا، أَوْ حَضَرَ غُرُوبَ الشَّمْسِ فِي بَحْرٍ أَوْ بُحَيْرَةٍ، وَأَبْصَرَ قُرْصَهَا يَسْقُطُ فِيهَا؛ فَلَنْ يَجِدَ مَنْظَرًا أَجْمَلَ مِنْهُ، وَلَنْ يَعْثُرَ عَلَى صُورَةٍ تُقَرِّبُ صُورَتَهُ.

وَإِذَا دَخَلَ قَصْرًا مُنِيفًا قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ حَدَائِقُ غَنَّاءُ، يَخْتَلِطُ فِيهَا خَرِيرُ الْمَاءِ بِحَفِيفِ الْأَشْجَارِ، وَبِدَاخِلِهِ مِنَ التُّحَفِ وَالنَّوَادِرِ، وَالْأَثَاثِ وَالْمَتَاعِ، وَالزِّينَةِ وَالزَّخَارِفِ مَا لَا يُوصَفُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى مِلْكَهُ وَسُكْنَاهُ.

كُلُّ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ نَرَى شَيْئًا يَسِيرًا مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنْ بَسَاتِينِ الْأَرْضِ وَبِحَارِهَا، وَأَنْهَارِهَا وَقُصُورِهَا، وَمَا فِيهَا؛ أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُهُ، وَمَا لَمْ نَرَهُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا رَأَيْنَاهُ! هَذَا عَدَا مَا فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ، وَأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَالْمَتَاعِ، مِمَّا لَا يُوصَفُ مِنْ كَثْرَتِهِ وَتَنَوُّعِهِ.

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ الْمُتَّقِينَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا رَأَيْنَاهُ وَمَا لَمْ نَرَهُ، وَمَا سَمِعْنَا عَنْهُ وَمَا لَمْ نَسْمَعْ، وَمَا وُصِفَ لَنَا وَمَا لَمْ يُوصَفْ لَنَا، مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهُ[(١)]، وَخِمَارٌ قَصِيرٌ عَلَى رَأْسِ الْحُورِ الْعِينِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَلَوِ اطَّلَعَتْ وَاحِدَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْهَا رِيحًا وَجَمَالًا[(٢)]، ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**» أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨).

(٢) كما في حديث أنس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**لروحة في سبيل الله أو غدوة** =

اسْتَحَقَّتِ اسْمَ الْجَنَّةِ حَتَّى صَارَ عَلَمًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا مَكْسُوَّةٌ بِالْخُضْرَةِ، مَسْتُورَةٌ بِالْأَشْجَارِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْجَنَّةِ إِلَّا بُسْتَانٌ كَثُرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَنَوَّعَتْ ثِمَارُهُ، وَجَرَى مَاؤُهُ(٣).

وَأَعْظَمُ جَنَّةٍ فِي الْأَرْضِ لَيْسَتْ تُسَاوِي عُودًا بِالنِّسْبَةِ لِجَنَّةِ الْخُلْدِ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦].

فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا يُوصَفُ كَثْرَةً وَتَنَوُّعًا وَلَذَّةً؛ وَلِذَلِكَ أُضِيفَ النَّعِيمُ إِلَيْهَا فَقِيلَ: جَنَّاتُ النَّعِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]، وَسَأَلَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام رَبَّهُ عز وجل فَقَالَ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

يَأْوِي إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَيَتَبَوَّأُونَ مِنْهَا مَنْزِلًا، وَتَكُونُ لَهُمْ مَقَامًا وَنُزُلًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازعات: ٤٠، ٤١]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

هِيَ دَارُ الْخُلْدِ، وَجَنَّةُ الْخُلْدِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا، وَلَا يَرْتَحِلُونَ إِلَى غَيْرِهَا أَبَدًا(٤): ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَيْ: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، بَلْ هُوَ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ مُسْتَقِرٌّ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

= خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد -يعني: سوطه- خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٦٤٣).

(٣) ينظر: حادي الأرواح (١٣٨).

(٤) ينظر: حادي الأرواح (١٤١).

وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالمَتَاعِ مِمَّا يَتَنَعَّمُ بِهِ أَهْلُهَا دَائِمٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، كَامِلٌ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ أَهْلِهَا.

يَفْرَحُ أَهْلُهَا بِخُلُودِهِمْ فِيهَا، وَيَلْهَجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ قَائِلِينَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَلَا دَارَ بَعْدَهَا، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ دَخَلَهَا إِلَّا التَّمَتُّعُ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

يَحْيَوْنَ فِيهَا حَيَاةً خَالِدَةً فَلَا يَمُوتُونَ، وَلَا يَمْرَضُونَ، وَلَا يَهْرَمُونَ، وَيَنْعَمُونَ فَلَا يَبْأَسُونَ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ زَوْجَاتِهِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَزِينَتِهَا وَبَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بَدَأَ ﷺ بِعَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَ لَهَا: «**إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ، ثُمَّ خَيَّرَهَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**، فَقَالَتْ رضي الله عنها: فِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانُ(٥).

هِيَ دَارُ السَّلَامِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الرَّحْمَنُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن

(٥) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في التفسير، باب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] (٤٥٠٨)، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٥).

﴿يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فَمَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ، وَسَلَكَ صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ؛ فَهُوَ المُسْتَحِقُّ لَهَا: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦، ١٢٧].

وَهَلْ دَارٌ تَسْتَحِقُّ اسْمَ السَّلَامِ غَيْرُهَا، وَهِيَ دَارُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: السَّلَامُ؟! ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فَهِيَ دَارُ السَّلَامِ؛ لِأَنَّهَا دَارُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ سَلَّمَهَا اللهُ ﷻ مِنْ كُلِّ الْآفَاتِ وَالمَكْرُوهَاتِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ خَزَنَتَهَا مِنَ المَلَائِكَةِ يُبَشِّرُونَ أَهْلَهَا بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ، وَيَسْتَقْبِلُونَهُمْ بِالسَّلَامِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وَهِيَ كَذَلِكَ سَالِمَةٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالتَّأْثِيمِ، وَمِنْ كُلِّ كَلَامٍ قَبِيحٍ، وَيَسْلَمُ أَهْلُهَا مِنْ سَمَاعِ مَا لَا يَسُرُّهُمْ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ؛ لِأَنَّ السَّلَامَةَ قَدْ كُتِبَتْ لَهُمْ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وَيَكْفِيهِمْ سَلَامًا بُشْرَى رَبِّهِمْ لَهُمْ بِالسَّلَامِ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨](٦).

وَهِيَ دَارٌ حَسَنَةٌ، قَدْ زَيَّنَهَا الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَجَعَلَهَا مَوْئِلًا لِعِبَادِهِ، وَمُسْتَقَرًّا لِأَحْبَابِهِ؛ فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تُسَمَّى بِالْحُسْنَى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

---

(٦) ينظر: حادي الأرواح (١٤٠).

[يونس: ٢٦]، وَقَدْ جاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ما يُفِيدُ أَنَّ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيادَةَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ[٧].

مَنْ دَخَلَهَا فَهُوَ آمِنٌ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَلَا يَنَالُهُ أَيُّ سُوءٍ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥٢]، فَأَهْلُهَا آمِنُونَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، آمِنُونَ مِنْ نَقْصِ النَّعِيمِ فِيهَا، آمِنُونَ مِنْ أَيِّ كَدَرٍ أَوْ تَنْغِيصٍ، آمِنُونَ مِنَ المَوْتِ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدُّخان: ٥٦]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

وَقَدْ وُصِفَ إِدْخَالُهُمْ لِلْجَنَّةِ بِالْإِكْرَامِ؛ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْإِكْرَامِ: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، قَالَ السَّمْعَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «فَالمَدْخَلُ -بِفَتْحِ الْمِيمِ-: الْجَنَّةُ، وَالمُدْخَلُ -بِضَمِّهَا-: الْإِدْخَالُ، يَعْنِي إِدْخَالًا كَرِيمًا»[٨]؛ وَذَلِكَ إِرْضَاءً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا؛ كَمَا قَالَ

---

(٧) جاء في صحيح مسلم (٢٩٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخِلْنَا الجنة، وتنجنا من النَّار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شَيْئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم** ﷻ، **ثم تلا هذه الآية** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]». وجاء عن الصحابة رضي الله عنهم أقوال كثيرة متواترة تفيد هذا المعنى، وهي وإن كانت موقوفة فلها حكم الرفع؛ لأنها إخبار عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، وقد ذكر الحفاظ هذه الآثار في الرد على منكري الرؤية من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة، ينظر: السنة لعبد الله بن أحمد (٥١-٥٢)، والرد على الجهمية للدارمي (٣٠٣-٣٠٤)، والشريعة للآجري (٢٥٧)، والسنة لابن أبي عاصم (٤٧٣)، والرؤية للدارقطني (٥٦-٢١٠-٢١٣-٢٢٤)، والسنة للالكائي (٧٧٨-٧٧٩-٧٨٣-٧٨٤-٧٨٥-٧٨٧).

(٨) تفسير السمعاني (١/ ٤٢١).

سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩](٩).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا وَأَحِبَّاءَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا لَنَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، نَحْمَدُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِنَيْلِ غُفْرَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ يَوْمَ لِقَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٩) ينظر: المفردات (١/ ١٦٦).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَنَافِسُوا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَسَابِقُوا إِلَى المَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِأَهْلِ التَّقْوَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

هِيَ دَارُهُمْ وَمَحِلَّتُهُمْ، وَمَكَانُ إِقَامَتِهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠، ٣١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْجَنَّةُ اسْمٌ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَا حَوَتْهُ مِنَ الْبَسَاتِينِ وَالمَسَاكِنِ وَالْقُصُورِ(١٠)، وَهِيَ جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى!! دَلِيلُ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: «أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ -أَيْ: لَا يُعْرَفُ رَامِيهِ- فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ. قَالَ ﷺ: **يَا أُمَّ حَارِثَةَ: إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوسَ الْأَعْلَى**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ فِي جَنَّةٍ**»(١١).

لِكُلِّ وَاحِدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّتَانِ، وَالمُؤْمِنُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ فَلَهُ جَنَّتَانِ عَالِيَتَانِ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٤٦]، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَلَهُ جَنَّتَانِ دُونَ الْأُولَيَيْنِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٦٢]، قَالَ الْعُلَمَاءُ: «وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُ جَنَّتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ امْتَثَلَ

(١٠) ينظر: حادي الأرواح (١٤٨).

(١١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٦٥٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٤)، وأحمد (٣/ ٢٦٠)، واللفظ للبخاري، والرواية الثانية لأحمد (٣/ ٢٨٣).

أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ؛ فَجَنَّةٌ جَزَاءُ أَدَاءِ الْأَوَامِرِ، وَجَنَّةٌ جَزَاءُ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ»(١٢).

وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»(١٣).

إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا لَيُدْهَشُ حِينَ يَرَى ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً، وَالنَّاسُ يُخَزِّنُونَ هَذَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ فِي آمَنِ مَكَانٍ عِنْدَهُمْ، وَأَقْوَى حِرْزٍ لَدَيْهِمْ، وَهَذَانِ الْمَعْدِنَانِ جَرَتْ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ عَلَيْهِمَا!! وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ: «**يُحْسَرُ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ، فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ ثَمَنِيَّةَ شَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، يَسْتَبِقُ النَّاسُ عَلَيْهِمَا، وَيَبْذُلُونَ نُفُوسَهُمْ مِنْ أَجْلِهِمَا، فَمَا الظَّنُّ بِجَنَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ، كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَجَنَّةٍ أُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ، وَكُلُّ مَا فِيهَا مِنْ فِضَّةٍ؟! وَلَيْسَ ذَهَبَ الدُّنْيَا أَوْ فِضَّتَهَا،

---

(١٢) ينظر: حادي الأرواح (١٤٩-١٥١).

(١٣) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٦٢] (٤٥٩٧)، ومسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ (١٨٠)، واللفظ لمسلم، ولفظ البخاري مثله، إلا أنه قال: «رداء الكبر».

(١٤) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الفتن، باب خروج النار (٦٨٠٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

وأخرجه مسلم من حديث أبي كعب ﷺ واللفظ له (٢٨٩٥).

اللَّذَيْنِ يَشُوبُهُمَا مَا يَشُوبُهُمَا مِنْ كَدَرِ المَعَادِنِ، وَغِشِّ الصَّاغَةِ، وَلَكِنَّهُمَا ذَهَبُ الْجَنَّةِ وَفِضَّتُهَا.

فَمَنِ ابْتَغَى ذَلِكَ، وَأَرَادَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ فَعَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَالْبُعْدِ عَنِ المُحَرَّمَاتِ.

يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ إِذَا رَأَى مَنْظَرًا أَعْجَبَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَذَكَّرَ مَنَاظِرَ الْجَنَّةِ. لِيَتَذَكَّرْ بَسَاتِينَهَا وَأَشْجَارَهَا وَأَنْهَارَهَا. لِيَتَذَكَّرْ قُصُورَهَا وَأَثَاثَهَا وَحُورَهَا. لِيَتَذَكَّرْ طِيبَ طَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَرِيحِهَا. لِيَتَذَكَّرْ أَنَّ فِيهَا قُصُورًا مُشَيَّدَةً مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؛ فَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ.

فَإِذَا شَرِبَ مَاءً عَذْبًا، أَوْ رَأَى نَهْرًا يَجْرِي، أَوْ سَيْلًا يَتَدَفَّقُ، أَوَ سَمَاءً تُمْطِرُ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَنْهَارًا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنَّ فِيهَا قُصُورًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

وَكُلُّ نَعِيمٍ يَتَنَعَّمُهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا فَفِي الْجَنَّةِ مَا هُوَ أَطْيَبُ مِنْهُ وَأَبْقَى وَأَكْمَلُ لَذَّةً وَنَعِيمًا؛ فَأَعِدُّوا لَهَا -عِبَادَ اللَّهِ- عُدَّتَهَا، وَاعْمَلُوا بِعَمَلِ أَهْلِهَا، وَسَارِعُوا إِلَيْهَا، وَسَابِقُوا النَّاسَ عَلَيْهَا، وَنَافِسُوهُمْ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ الْفَوْزَ وَالسَّعَادَةَ فِي ذَلِكَ، وَلَا فَوْزَ يَعْدِلُهُ، وَلَا سَعَادَةَ مِثْلُهُ؛ فَمَنْ غُلِبَ عَلَيْهَا فَهُوَ المَغْلُوبُ، وَمَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ المَحْرُومُ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نُغْلَبَ عَلَيْهَا، أَوْ نُحْجَبَ عَنْهَا، أَوْ نُحْرَمَ نَعِيمَهَا.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

٣٩٠- جنة الخلد (٢)
الدرجات والمنازل

١٧/ ٥/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَجَعَلَ الآخِرَةَ دَارَ الجَزَاءِ وَالقَرَارِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ فَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا فِي الجَنَّةِ، وَفَرِيقًا فِي السَّعِيرِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَاحِبُ اللِّوَاءِ المَعْقُودِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، والحَوْضِ المَوْرُودِ، مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى لَهُ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ عَرَفُوا قَدْرَ الدُّنْيَا فَمَا حَفَلُوا بِهَا، وَعَلِمُوا قَدْرَ الجَنَّةِ فَسَعَوْا لَهَا، وَعَمِلُوا بِعَمَلِ أَهْلِهَا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ البِضَاعَةُ لِلدَّارِ الآخِرَةِ، وَجَزَاؤُهَا الجَنَّةُ ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا ذُكِرَتِ الجَنَّةُ تَحَرَّكَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِينَ؛ طَمَعًا فِيهَا، وَشَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَهِجَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ اسْتِعْظَامًا لِوَصْفِهَا، وَدُعَاءً بِبُلُوغِهَا، لَا يَرَوْنَ نَعِيمًا فِي الدُّنْيَا -مَهْمَا بَلَغَ- يُدَانِي نَعِيمَ الجَنَّةِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشَابِهَهُ أَوْ يُمَاثِلَهُ.

قَدْ عَلِمُوا أَنَّهَا جَزَاءُ الإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَآمَنُوا، وَاجْتَهَدُوا فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنْهَا، وَلَمْ يَتَّكِلُوا عَلَى عَمَلِهِمْ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ مَهْمَا كَانَتْ لَا تَفِي نِعْمَةً

وَاحِدَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الغَزِيرَةِ عَلَيْهِمْ، يَلْهَجُونَ بِسُؤَالِ رَبِّهِمْ قَائِلِينَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

وَالحَدِيثُ عَنِ الجَنَّةِ حَدِيثٌ طَوِيلٌ لَا يَنْتَهِي؛ لِأَنَّهَا دَارُ الرَّحْمَنِ، وَخَزَائِنُ الرَّحْمَنِ لَا تَنْفَدُ، وَعَطَايَاهُ لَا تَنْقَطِعُ: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

مَا بَلَغَهَا أَهْلُوهَا إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ، وَإِحْسَانِهِ وَمِنَّتِهِ، نَجَّاهُمْ رَبُّهُمُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ تِلْوَ النِّعْمَةِ؛ فَأَنْعَمَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القَبْضَتَيْنِ فَكَانُوا فِي قَبْضَةِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَكَانَ غَيْرُهُمْ فِي قَبْضَةِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى لَمَّا تَخَلَّقُوا فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ فَكُتِبُوا فِي السُّعَدَاءِ وَكُتِبَ غَيْرُهُمْ فِي الأَشْقِيَاءِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتُوا كُتِبُوا فِي دِيوَانِ أَهْلِ الجَنَّةِ: **«اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»**(١).

ثُمَّ يُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَخْذِ كُتُبِهِمُ الَّتِي هِيَ صُكُوكُ الجَنَّةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ

(١) قطعة من حديث البراء بن عازب الطويل، أخرجه أبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وهناد في الزهد (٣٣٩)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٢١)، وابن منده في الإيمان (١٠٦٤)، قال المنذري في الترغيب: حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح (٤/ ١٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]، جَعَلَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: وَالجَنَّةُ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤].

دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، يَرَى الأَدْنَى مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ الأَعْلَى فَوْقَهُ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ- كَمَا يَرْفَعُ أَحَدُنَا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيَرَى قَمَرَهَا وَأَنْجُمَهَا؛ رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ.** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: **بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»(٢).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ فِي الجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَدَرَجَاتُهَا لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا

---

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٨٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٨٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣٠).

مِائَةُ دَرَجَةٍ يَخْتَصُّونَ بِهَا: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٤)، وَجَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ: «**أَنَّ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ**»(٥).

وَلَمَّا اسْتُشْهِدَ حَارِثَةُ بنُ سُرَاقَةَ رضي الله عنه فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ أَتَتْ أُمُّهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ! فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ؛ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦).

وَالفِرْدَوْسُ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مَنَازِلِ الجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ جُمْلَةً مِنْ أَوْصَافِ المُؤْمِنِينَ، فَأَعْقَبَهَا بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا»(٧).

---

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (٦٩٨٧).

(٥) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣١٦).

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٦٥٤).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٦).

وجاء مرفوعًا من حديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٧/ ٢١٣) رقم (٦٨٨٦)، ولا يصح مرفوعًا.

وَأَعْلَى مَنَازِلِ الفِرْدَوْسِ: مَنْزِلَةُ الْوَسِيلَةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرٍو ﵄ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

إِنَّ أَعْلَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الرُّسُلِ؛كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَفِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا جَاوَزَ مُوسَى قَالَ مُوسَى ﵇: «**رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ تَرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدًا**»(٩)، ثُمَّ عَلَا النَّبِيُّ ﷺ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ حَتَّى جَاوَزَ سِدْرَةَ المُنْتَهَى؛ فَكَانَ ﷺ أَحَقَّ الخَلْقِ بِمَنْزِلَةِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى المَنَازِلِ فِي الجَنَّةِ.

قَالَ ابنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَسُمِّيَتْ دَرَجَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْوَسِيلَةَ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الدَّرَجَاتِ إِلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَهِيَ أَقْرَبُ الدَّرَجَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَصْلُ اشْتِقَاقِ لَفْظِ (الوَسِيلَةِ) مِنَ الْقُرْبِ . . . وَمَعْنَى الْوَسِيلَةِ مِنَ الْوَصْلَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ أَفْضَلَ الجَنَّةِ وَأَشْرَفَهَا وَأَعْظَمَهَا نُورًا . . . قَالَ الْفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: أَتَدْرُونَ لِمَ حَسُنَتِ الجَنَّةُ؟ لِأَنَّ عَرْشَ رَبِّ العَالَمِينَ

---

(٨) أخرجه مسلم في الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة (٣٨٤).

(٩) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح (١٠٥)، وذكره ابن حجر بلفظ مقارب له فقال: وفي رواية شريك عن أنس «لم أظن أحدًا يرفع علي» فتح الباري (٧/ ٢١١). ولم أقف عليه في شيء من الكتب المسندة.

سَقْفُهَا . . .[١٠]، وَلَمَّا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَعْظَمَ الْخَلْقِ عُبُودِيَّةً لِرَبِّهِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً، وَأَعْظَمَهُمْ لَهُ مَحَبَّةً؛ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ أَقْرَبَ المَنَازِلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَسْأَلُوهَا لَهُ؛ لِيَنَالُوا بِهَذَا الدُّعَاءِ زُلْفَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَزِيَادَةَ الإِيمَانِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَهَا لَهُ بِأَسْبَابٍ مِنْهَا: دُعَاءُ أُمَّتِهِ لَهُ بِهَا بِمَا نَالُوهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ»[١١] اهـ.

وَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَاتَّبَعَ هَدْيَهُ، وَلَزِمَ سُنَّتَهُ، وَأَطَاعَ أَمْرَهُ، وَاجْتَنَبَ نَهْيَهُ؛ حُشِرَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَهُ، وَلَا يُحْجَبُ عَنْهُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَنْزِلَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ؛ كَمَا رَوَى الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ ﵇ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩][١٢].

---

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢٠)، والخطيب في تاريخه (٩/ ٣١٢).

(١١) حادي الأرواح (٥٧).

(١٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٧)، والصغير (٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٠).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عمران العابدي وهو ثقة (٧/ ٧) وقال ابن حجر: رجاله موثقون. العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٩١٤)، وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه عن عائشة ... فذكره (٢/ ٥٨٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ وَإِحْسَانِهِ أَنْ يُبَلِّغَنَا مَنَازِلَهُمْ، وَيَرْفَعَنَا إِلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَحْشُرَنَا مَعَهُمْ، وَوَالِدِينَا وَوَالِدِيهِمْ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ ثَوَابَ ذَلِكَ الجَنَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً فِي الجَنَّةِ الرُّسُلُ وَالنَّبِيُّونَ، ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ، وَمِنَ الصِّدِّيقِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ ﵁، جَاءَ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

ثُمَّ بَعْدَ الصِّدِّيقِينَ الشُّهَدَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ. وَمَنْ رَافَقَهُمْ؛ فَنِعْمَ الرَّفِيقُ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَنْزِلَتُهُ كَمَنَازِلِهِمْ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وَأَمَّا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً فَهَلْ تَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا، وَحَكَمَ الأَرْضَ كُلَّهَا؛ فَإِنَّ مُلْكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً أَعْظَمُ مِنْ مُلْكِهِ، وَصَدَقَ

اللهُ العَظِيمُ العَلِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠].

رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ المَلِكُ.** قَالَ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٣).

وَرَوَى المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم**

(١٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٢٠٢)، ومسلم في الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا (١٨٦).

مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ . . الآيَةَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٤).

وبَيْنَ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الجَنَّةِ وَأَدْنَاهَا مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَةٌ أَعْظَمُ مِنْ تَفَاوُتِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

أَلَا فَشَمِّرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- عَنْ سَوَاعِدِ الجِدِّ فِي تَحْصِيلِ أَعْلَى دَرَجَاتِهَا، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَيْهَا أَقْوَامٌ هُمْ أَقَلُّ مِنْكُمْ فِي دَرَجَاتِ الدُّنْيَا، بَلِ اغْلِبُوهُمْ عَلَيْهَا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَذِكْرٍ، وَصَدَقَاتٍ، وَأَمْرٍ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيٍ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِرٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةٍ لِلْأَرْحَامِ، وَنَفْعٍ لِلنَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ، مَعَ اجْتِنَابِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُوبِقَاتِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَلَغَ المَنَازِلَ الْعَالِيَةَ فِي الجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ.

وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِالجِدِّ وَالْعَمَلِ، كَمَا تُنَالُ بِالْحَسَبِ وَالنَّسَبِ، وَتُتَاحُ فُرَصُهَا لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ غَيْرُ مَضْمُونَةٍ؛ فَقَدْ يَحُوزُهَا المَرْءُ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِهَا لِمَرَضٍ أَوْ عِلَّةٍ، وَهُوَ زَائِلٌ عَنْهَا لَا مَحَالَةَ . . . إِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنَازِلَ الجَنَّةِ مُتَاحَةٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، وَهِيَ الدَّارُ المَضْمُونَةُ فِي بَقَائِهَا، وَلَذَّةُ مَنْ بَلَغَهَا بِهَا لَذَّةٌ لَا تَعْدِلُهَا كُلُّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يُوصِّلُ إِلَيْهَا إِلَّا الإِيمَانُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا حَسَبٌ وَلَا نَسَبٌ؛ عَدْلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ عِبَادِهِ، وَمَا نَفَعَ امْرَأَتَيْ نُوحٍ وَلُوطٍ أَنَّ زَوْجَيْهِمَا نَبِيَّانِ، وَلَا أَوْصَلَتْ أَبَا طَالِبٍ الجَنَّةَ عُمُومَتُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَنْجَى ابنَ نُوحٍ عليه السلام أَنَّ أَبَاهُ كَانَ نَبِيًّا.

وَكُلُّ عَامِلٍ يَجِدُ مَا عَمِلَ؛ فَاسْتَوْدِعُوا الخَيْرَ صَحَائِفَ أَعْمَالِكُمْ تَجِدُوهُ غَدًا

(١٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٩).

مُحْضَرًا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣٩١- نار الآخرة (١)
أسماؤها وأوصافها

٦/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، وَحَمَّلَهُمْ أَمَانَةً عَجَزَ عَنْ حَمْلِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فَمَنْ أَدَّى هَذِهِ الْأَمَانَةَ الْعَظِيمَةَ كَانَ فِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ أَبَدًا، وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لَهُ الْعَذَابُ الْخَالِدُ أَبَدًا.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، ﴿فَمَن

ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].

وَشِدَّةُ الْحَرِّ فِي الدُّنْيَا تُذَكِّرُ الْعَبْدَ بِشِدَّةِ الْحَرِّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ، تَذَكَّرَ أَنَّ هَذِهِ الشَّمْسَ سَتَكُونُ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ مِيلٍ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَشْنَعُ، وَأَكْثَرُ هَوْلًا وَأَفْظَعُ، وَأَشَدُّ خَوْفًا وَأَفْجَعُ: نَارُ جَهَنَّمَ أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، جَاءَ وَصْفُهَا بِمَا يُخَوِّفُ الْعِبَادَ مِنْهَا، وَيُحَفِّزُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ؛ اتِّقَاءً لَهَا، وَبُعْدًا عَنْهَا وَعَمَّا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وَالنَّارُ يَعْرِفُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، بَلِ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ تَكْتَمِلْ عُقُولُهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا، وَيَخَافُونَ لَهَبَهَا، والمجَانِينُ الَّذِينَ سُلِبَتْ عُقُولُهُمْ يَحُسُّونَهَا، وَيَعْرِفُونَ حَرَارَتَهَا فَلَا يَقْرَبُونَهَا، وَالْحَيَوَانَاتُ الَّتِي لَا عُقُولَ لَهَا تَفِرُّ مِنْهَا عِنْدَ اشْتِعَالِهَا!!

فَإِذَا كَانَ كُلُّ حَيٍّ فِي الدُّنْيَا يَهْرُبُ مِنْ نَارِهَا؛ فَمَا بَالُ أَكْثَرِ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عُقُولًا يَعْقِلُونَ بِهَا النَّارَ، وَأَبْصَارًا يُشَاهِدُونَ لَهَبَهَا وَشِدَّةَ حَرْقِهَا؛ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا تُورِدُهُمْ نَارَ الْآخِرَةِ؟! وَمَا نَارُ الدُّنْيَا إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْهَا، حَتَّى اخْتُصَّتْ نَارُ الْآخِرَةِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- بِأَسْمَاءٍ مَا سُمِّيَتْ بِهَا نَارُ الدُّنْيَا، وَوُصِفَتْ بِأَوْصَافٍ لَمْ تُوصَفْ بِهَا النَّارُ الَّتِي نُشَاهِدُهَا وَنَحُسُّهَا.

فَنَارُ الْآخِرَةِ بَعِيدٌ قَعْرُهَا، شَدِيدَةٌ ظُلْمَتُهَا؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ جَهَنَّمَ، مِنَ الْجُهْمَةِ،

وَهِيَ أَوَّلُ مَآخِيرِ اللَّيْلِ؛ لِاشْتِدَادِ ظُلْمَتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وقال النبي ﷺ: «**إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

وَشِدَّةُ ظُلْمَتِهَا ثَابِتَةٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «أَتَرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هَذِهِ؟ لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ» وَالْقَارُ: الزِّفْتُ. رَوَاهُ مَالِكٌ(٣).

وَأَمَّا شِدَّةُ انْحِدَارِهَا، وَبُعْدُ قَعْرِهَا، فَجَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩-١١]. وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رُوحَ الْكَافِرِ إِذَا قُبِضَتْ يُذْهَبُ بِهَا إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ(٤)، أَيْ: مُسْتَقَرُّهُ

---

(١) قال في اللسان (١٢/ ١١١) مادة: (جهم): «الجَهْمَةُ والجُهْمَةُ أول مآخير الليل، وقيل: هي بقية سواد من آخره»، وقال أيضًا (١٢/ ١١٢) في مادة (جهنم): «الجهِنَّام: القعْر البعيد، وبئر جهنم بعيدة القعر، وبه سميت جهنم لبعد قعرها ..»، ثم نقل عن الأزهري قولان لعلماء اللغة في أصلها:
الأول: قول يونس بن حبيب وأكثر النحويين أنها أعجمية لا تُجْرَى للتعريف والعُجْمَة.
الثاني: قول آخرين: جَهَنّم عَربِيّ، سُمِّيَتْ نار الآخرة بها؛ لبُعْدِ قعْرِهَا، وإنما لم تُجْرَ لِثِقَلِ التَّعْرِيفِ وثِقَلِ التَّأْنِيث» اهـ من اللسان.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر(٥١٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر(٦١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وجاء عن ابن عمر وأبي ذر وأبي سعيد ﷺ.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٤)، وذكر ابن عبد البر في الاستذكار: «أن هذا الحديث موقوف على أبي هريرة ومعناه مرفوع؛ لأنه لا يدرك مثله بالرأي، ولا يكون إلا توقيفًا» اهـ.

(٤) ثبت ذلك في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، في قصة احتضار المؤمن واحتضار الكافر، وفيه: «فيقولون: دعوه؛ فإنه كان في غم في الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ =

الْهَاوِيَةُ، وَالْهَاوِيَةُ كُلُّ مَهْوَاةٍ لَا يُدْرَكُ قَعْرُهَا(٥).

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»(٦).

وَكَوْنُهَا -أَجَارَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- فِي مَهْوَاةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ مِنْ حَرِّهَا، وَمَعَ شِدَّةِ حَرِّهَا فَهِيَ نَارٌ تُوقَدُ عَلَى نَارٍ؛ لِيَتَضَاعَفَ حَرُّهَا، وَيَزْدَادَ عَذَابُ أَهْلِهَا ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧]. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْجَحِيمِ؛ لِأَنَّ مَكَانَهَا شَدِيدُ الْحَرَارَةِ؛ وَلِأَنَّهَا نَارٌ تُوقَدُ عَلَى نَارٍ(٧) ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ

= قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية ...» أخرجه النسائي في الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٤/ ٨)، وصححه ابن حبان (٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٥٠٤).
وجاء أيضًا عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ عند: ابن المبارك في الزهد (٤٤٣)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٢٩-١٣٠) برقم (٣٨٨٧-٣٨٨٩) وإسناده ضعيف.

(٥) قال الجوهري كما في مختار الصحاح (١/ ٢٩٣) «هاوية: اسم من أسماء النار وهي معرفة بغير ألف ولام، قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي: مستقره النار» اهـ.
وفي اللسان (١٥/ ٣٧٥) مادة (هوى): «فأمه هاوية، أي: مَسْكَنُهُ جهنم ومستقره النار، ونقل عن الفراء قول بعضهم: هذا دعاء عليه، كما تقول: هوت أمه، فهي هاوية، أي: تأكله، وقال بعضهم: أمه هاوية: صارت هاوية، مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لا مأوى له غيرها أمًّا له، وقيل: المعنى: أم رأسه تهوي في النار ... والهاوية: كل مهواة لا يُدْرَك قعرها» اهـ.

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٧١)، وأبو يعلى (٦١٧٩)، وابن حبان (٧٤٦٩).

(٧) قال في العين (٣/ ٨٧): «الجحيم: النار الشديدة التأجج والالتهاب».
وقال في اللسان (١٢/ ٨٤): «وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّفات: ٩٧]، ونقل عن ابن سيده: الجحيم النار =

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]، وَجَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَأْنِ رَمَضَانَ أَنَّهُ تُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ(٨).

وَلِبُعْدِ قَعْرِهَا، وَشِدَّةِ حَرِّهَا؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي أَهْلَهَا إِيذَاءً شَدِيدًا، وَيُحِسُّونَ أَلَمَهَا وَشِدَّتَهَا، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: سُمِّيَتِ النَّارُ سَقَرًا؛ لِأَنَّهَا تُذِيبُ الْأَجْسَامَ وَالْأَرْوَاحَ، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨](٩).

وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدّثر: ٢٦-٣٠].

وَهِيَ كَذَلِكَ شَدِيدَةُ الاشْتِعَالِ وَالِاتِّقَادِ وَالِارْتِفَاعِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالسَّعِيرِ(١٠) ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].

وَمِنْ شِدَّةِ لَهَبِهَا أَنَّهَا تَلَظَّى، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾

= الشديدة التأجج، كما أججوا نار إبراهيم النبي على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فهي تجحم جحومًا، أي: توقد توقدًا» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٢٤١): «وأصله ما اشتد لهبه من النيران» اهـ.

(٨) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٢/ ٢٣٠)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٧٣)، والنسائي في الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه (٤/ ١٢٩)، وعبد بن حميد (١٤٢٩).

(٩) وسقر غير منصرف؛ لأنه معرفة وأعجمي، وقيل: بل هو عربي، من: سقرته الشمس، أي: أذابته وأصابه منها ساقور، ومن قال: إنه عربي قال: منعه الإجراء؛ لأنه معرفة مؤنث، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدّثر: ٢٨] ينظر: اللسان (٤/ ٣٧٢).

(١٠) السَّعِيرُ هِيَ: النار، وقيل: لَهَبُهَا، والسُّعَارُ والسُّعْرُ: حَرُّهَا، وَالمِسْعَرُ والمِسْعَارُ: مَا سُعِرَتْ بِهِ، وَسَعَّرْتُ النَّارَ؛ أَيْ: هَيَّجْتُهَا وَأَلْهَبْتُهَا، ينظر: اللسان (٤/ ٣٦٥)، ومختار الصحاح (١/ ١٢٦) مادة (سعر).

[الليل: ١٤، ١٥]؛ أَيْ: تَتَوَهَّجُ وَتَتَوَقَّدُ وَتَلْتَهِبُ، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٥-١٨].

وَاللَّظَى: اللَّهَبُ الْخَالِصُ، يَنْزِعُ الْأَعْضَاءَ وَجِلْدَةَ الرَّأْسِ مِنْ شِدَّةِ تَلَظِّيهِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنْهَا(١١).

وَمِنْ أَوْصَافِهَا: أَنَّ بَعْضَهَا يَحْطِمُ بَعْضًا، وَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَهِيَ كَذَلِكَ تَحْطِمُ مَنْ كَانَ فِيهَا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ٥-٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَمِنْ شِدَّةِ حَرِّهَا وَلَهِيبِهَا، وَعَظِيمِ مَا فِيهَا؛ اشْتَكَتْ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: «**رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لها بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الحرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ(١٣).

وَنَارُ الْآخِرَةِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- تُسَعَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ كَمَا دَلَّ عَلَى

---

(١١) في اللسان: (١٥/ ٢٤٨): «أن اللظى: النار، وقيل: اللَّهَبُ الخَالِصُ، وهو غير مصروف لِلْعَلَمِيَّة والتأنيث، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنها أشدُّ النيران، والْتِظَاءُ النار: الْتِهَابُهَا، وتَلَظِّيهَا: تَلَهُّبُهَا» اهـ.

والشَّوى في قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦] هي: اليدان والرجلان، وقيل: اليدان والرِّجْلان والرَّأس من الآدميين وكل ما ليس مقْتَلًا، وقال بعضهم: الشَّوى: جَمَاعَة الأطراف، ينظر: اللسان (١٤/ ٤٤٨) مادة (شوا).

(١٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂ في قصة صلاته ﷺ يوم خسفت الشمس: البخاري في أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة (١١٥٤)، ومسلم في الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١).

(١٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥١٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٧).

ذَلِكَ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ . . .**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٤)]، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**فَإِذَ انْتَصَفَ النَّهَارُ فَأَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تُسَعَّرُ جَهَنَّمُ، وَشِدَّةُ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**»[(١٥)].

وَأَعْمَالُ بَنِي آدَمَ السَّيِّئَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَإِتْيَانِ الْكَبَائِرِ، وَمُقَارَفَةِ المَعَاصِي؛ سَبَبٌ لِتَسْعِيرِهَا؛ كَمَا نُقِلَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: «يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللَّهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ»[(١٦)].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ تَسْعِيرَ جَهَنَّمَ حَيْثُ سُعِّرَتْ إِنَّمَا سُعِّرَتْ بِخَطَايَا بَنِي آدَمَ الَّتِي تَقْتَضِي غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَزْدَادُ جَهَنَّمُ حِينَئِذٍ تَلَهُّبًا وَتَسَعُّرًا، وَهَذَا كَمَا أَنَّ بِنَاءَ دُورِ الْجَنَّةِ وَغَرْسَ الْأَشْجَارِ يَحْصُلُ بِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ الصَّالِحَةِ مِنَ الذِّكْرِ وَغَيْرِهِ . . . فَكَذَلِكَ جَهَنَّمُ تُسَعَّرُ وَتَزْدَادُ آلَاتُ الْعَذَابِ فِيهَا بِكَثْرَةِ ذُنُوبِ بَنِي آدَمَ وَخَطَايَاهُمْ، وَغَضَبِ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ»[(١٧)].

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ أَهْلِهَا، وَمِنْ أَيِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَيْهَا، وَنَسْأَلُ اللهَ

---

(١٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة (٨٣٢)، وأحمد (٤/ ١١١)، والبيهقي (٢/ ٤٥٤)، والطبراني في الأحاديث الطوال (١١).

(١٥) أخرجه أبو يعلى (٦٥٨١)، والبيهقي (٣/ ٣٠٢)، وصححه ابن خزيمة (١٢٧٥)، وابن حبان (١٥٥٠).

(١٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٩)، والتخويف من النار لابن رجب (٧٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(١٧) التخويف من النار (٧٦).

تَعَالَى أَنْ يُجِيرَنَا وَوَالِدِينَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَوْ جُمِعَتْ نَارُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُوقِدَهَا، وَوُضِعَ فِيهَا؛ لَما كَانَتْ إِلَّا جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ**

حَرِّهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِغَيْرِ الشَّيْخَيْنِ: **«نَارُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ»**(١٨).

قَالَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ: «لَوْ جُمِعَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنَ النَّارِ الَّتِي يُوقِدُهَا بَنُو آدَمَ لَكَانَتْ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ جَهَنَّمَ المَذْكُورَةِ، وَبَيَانُهُ: أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ حَطَبُ الدُّنْيَا فَأُوقِدَ كُلُّهُ حَتَّى صَارَ نَارًا، لَكَانَ الْجُزْءُ الْوَاحِدُ مِنْ أَجْزَاءِ نَارِ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا أَشَدَّ مِنْ حَرِّ الدُّنْيَا، كَمَا بَيَّنَهُ آخِرُ الْحَدِيثِ»(١٩).

وَهَذَا الْوَصْفُ لَهَا وَلِحَرِّهَا وَعَذَابِهَا يَسْتَوْجِبُ خَوْفَ الْعِبَادِ مِنْهَا، وَالْعَمَلَ الدَّؤُوبَ لِتَوَقِّيهَا، وَمُجَانَبَةَ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَيْهَا.

وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ النَّارَ يَوْمَ كَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: **«فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ مِنْهَا»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٠)، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ قَالَ: «... **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ»**(٢١).

---

(١٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٣)، واللفظ الآخر أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٠٠)، وصححه ابن حبان (٧٤٦٣).

(١٩) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ١٨٧).

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٠٤)، ومالك في الموطأ (١/ ١٨٦).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢-١٥٤)، ومسلم في الصلاة، في باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما (٤٢٦)، والنسائي في السهو، باب النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة (٣/ ٨٣).

إِنَّ الْحَرَّ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ فِي شِدَّةِ الصَّيْفِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَسَائِلِ الِاسْتِظْلَالِ وَالتَّبْرِيدِ، وَمَا يَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ، مَعَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ التَّدْفِئَةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُذَكِّرًا لِلْمُؤْمِنِ بِحَرِّ النَّارِ وَزَمْهَرِيرِهَا؛ فَيَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا؛ وَيَسْأَلُهُ الْوِقَايَةَ مِنْ عَذَابِهَا، فَتِلْكَ هِيَ صِفَةُ أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(٢٢).

وَالْبُكَاءُ خَوْفًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ هُوَ الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ بُكَاءٌ مِنْ خَشْيَةِ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَخَطِهِ، وَالنَّارُ هِيَ عَذَابُ اللَّهِ، يُعَذِّبُ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ(٢٣).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا بِأَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .

---

(٢٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، وقال: حسن صحيح (١٦٣٣)، والنسائي في الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٦/ ١٢)، وأحمد (٢/ ٥٠٥)، والطيالسي (٢٤٤٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٨٨).

(٢٣) التخويف من النار، لابن رجب (٤١).

٣٩٢- نار الآخرة (٢)
أبوابها ودركاتها وخزنتها

٨/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ بِحِكْمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَسْتَعِينُ بِهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ عَمَلٍ وَابْتِلَاءٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَدْرَكُوا ضَعَةَ الدُّنْيَا فَمَا شُغِلُوا بِهَا، وَعَرَفُوا مِقْدَارَ الْآخِرَةِ فَفَرَّغُوا نُفُوسَهُمْ لَهَا، وَمَعَ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَكَثْرَةِ عَمَلِهِمْ، خَافُوا عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَأْمَنُوا مَكْرَهُ.

فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطُّور: ٧]، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوهُ(١)، وَكَانَ فِي

---

(١) قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي حدثنا موسى بن داود عن صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ (والطور)، حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق فنزل عن حماره، واستند إلى حائط فمكث مَلِيًّا، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه. تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

وَجْهِهِ ﷺ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ[٢].

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ يَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ لِحْيَتُهُ، وَقَالَ: لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ[٣]. وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ إِلَّا بِتَقْوَاهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٠ - ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَدِيثُ عَنِ النَّارِ وَأَوْصَافِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ حَدِيثٌ يُفْزِعُ الْقُلُوبَ الْحَيَّةَ، وَيُحَرِّكُ النُّفُوسَ الْمُؤْمِنَةَ، وَيُحَفِّزُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَاجْتِنَابِ السَّيِّئَاتِ؛ اتِّقَاءً لَهَا وَلِمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا.

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَعِي مَا يَقْرَأُ لَا بُدَّ أَنْ يَضْطَرِبَ قَلْبُهُ، وَيَخَافَ عِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافٍ وَأَهْوَالٍ، وَالْحَدِيثُ عَنْهَا لَا تَكْفِي فِيهِ السَّاعَةُ وَالسَّاعَتَانِ، وَلَا تَفِيهِ حَقَّهُ الْمَوْعِظَةُ وَالْمَوْعِظَتَانِ، كَيْفَ وَهُوَ حَدِيثٌ عَنْ دَارٍ

---

(٢) أخرجه عن عبد الله بن عيسى: أحمد في فضائل الصحابة (٣١٨)، والفاكهي في أخبار مكة (١٥٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المتمنين (٧٢)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠).

وجاء أيضًا عن ابن مسعود ﷺ مثله عند ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٢) رقم (٨٥٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٣).

وعن مطرف بن عبد الله -رحمه الله تعالى- عند: ابن أبي الدنيا في المتمنين (١٤٠)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٤١).

أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلْأَشْقِيَاءِ مِنْ خَلْقِهِ، أَعْدَاءِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ؟!

وَحَسْبُنَا طَرَفٌ مِنْهُ يُوقِظُ الْقُلُوبَ النَّائِمَةَ، وَيُنَبِّهُ النُّفُوسَ الْغَافِلَةَ، وَهُوَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَلَنْ يَتَّعِظَ وَلَوْ عُرِضَتْ لَهُ أَحْوَالُ المُعَذَّبِينَ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ!! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِ وَمَآلِهِ. مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو جَهْلٍ حِينَ سَمِعَ أَنَّ عَدَدَ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ تِسْعَةَ عَشَرَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٠] قَالَ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ! أَسْمَعُ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُ أَنَّ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمُ الدُّهْمُ -أَي: الشُّجْعَانُ- أَفَيَعْجَزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِوَاحِدٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ قَالَ أَبُو الْأَشَدِّ أُسَيْدُ بْنُ كَلَدَةَ الْجُمَحِيُّ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ عَشَرَةً عَلَى ظَهْرِي، وَسَبْعَةً عَلَى بَطْنِي، فَاكْفُونِي أَنْتُمُ اثْنَيْنِ(٤).

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَمْشِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ فَأَدْفَعُ عَشَرَةً بِمَنْكِبِي الْأَيْمَنِ، وَتِسْعَةً بِمَنْكِبِي الْأَيْسَرِ فِي النَّارِ، وَنَمْضِي فَنَدْخُلُ الْجَنَّةَ(٥). فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] لَا رِجَالًا آدَمِيِّينَ؛ فَمَنْ ذَا يَغْلِبُ المَلَائِكَةَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] أَيْ: قِلَّتَهُمْ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] أَيْ: ضَلَالَةً لَهُمْ حَتَّى قَالُوا مَا قَالُوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١]؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] يَعْنِي: مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَزْدَادُونَ تَصْدِيقًا بِمُحَمَّدٍ ﷺ

---

(٤) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٥٩)، وعزاه الثعلبي (١٠/ ٧٤)، والبغوي (٤/ ٤١٧) لقتادة والضحاك. وذكر السيوطي في الدر المنثور آثارًا عدة بنحوه (٨/ ٣٣٣).

(٥) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧) ونحوه في بحر العلوم (٣/ ٤٩٤)، وزاد المسير (٨/ ٤٠٨).

إِذَا وَجَدُوا مَا قَالَهُ مُوَافِقًا لِمَا فِي كُتُبِهِمْ(٦).

وَالْفِتْنَةُ إِنَّمَا كَانَتْ بِذِكْرِ عَدَدِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ اغْتَرَّ الْكُفَّارُ بِقِلَّتِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمْ مُدَافَعَتُهُمْ وَمُمَانَعَتُهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُمْكِنُ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ مُقَاوَمَتُهُ(٧).

وَلَمَّا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَمَا لِمُحَمَّدٍ أَعْوَانٌ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ؟ كَانَ الْجَوَابُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١](٨)، وَهُوَ جَوَابٌ لِكُلِّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، وَسَاحِرٍ عَنِيدٍ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ!

وَخَزَنَةُ جَهَنَّمَ هُمُ الزَّبَانِيَةُ الَّذِينَ تَحَدَّى جِبْرِيلُ عليه السلام بِهِمْ أَبَا جَهْلٍ حِينَ فَاخَرَ بِكَثْرَةِ أَعْوَانِهِ وَقُوَّتِهِمْ؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ أَنْ تُصَلِّيَ يَا مُحَمَّدُ؟! لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا أَحَدٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العَلَق: ١٧ - ١٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ(٩).

---

(٦) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧).

(٧) التخويف من النار لابن رجب (١٦٠).

(٨) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧).

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣١)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقال: حديث حسن غريب صحيح (٣٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٤٢) رقم (١١٩٥٠) والأوسط (٨٣٩٨)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٥٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٣٠).
وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه عند: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار باب قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (٢٧٩٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٦٢٠٧). =

وَالزَّبَانِيَةُ هُمُ المَلَائِكَةُ الْغِلَاظُ الشِّدَادُ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ أَهْلَ النَّارِ إِلَيْهَا بِشِدَّةٍ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «هُمُ الشُّرَطُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ»(١٠)، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ هَذَا الِاسْمَ عَلَى مَنِ اشْتَدَّ بَطْشُهُ، وَهُمْ يَبْطِشُونَ بِأَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ الْبَطْشِ.

وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ شِدَّتِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

وَمَالِكٌ عليه السلام هُوَ كَبِيرُهُمْ، وَهُوَ خَازِنُ النَّارِ، وَقَدْ رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي رُؤْيَاهُ المَشْهُورَةِ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، وَفِيهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا** ... فَلَمَّا سَأَلَ عَنْهُ جِبْرِيلَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ: **وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١١).

وَجَاءَ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهِ، فَلَمْ يَرَهُ يَضْحَكُ، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ: «**مَا لِي لَمْ آتِ عَلَى أَهْلِ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَّبُوا بِي وَضَحِكُوا إِلَيَّ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِي وَلَمْ يَضْحَكْ إِلَيَّ؟ قَالَ: ذَاكَ**

= والزبانية: الذين يزبنون الناس؛ أي: يدفعونهم ... وسمي بذلك بعض الملائكة؛ لدفعهم أهل النار إليها، .... ثم نقل عن الفراء قوله: وهم يعملون بالأيدي والأرجل فهم أقوى، وعن الزجاج: الزبانية الغلاظ الشداد، واحدهم زِبْنية، وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، ثم نقل عن الأخفش قوله: قال بعضهم: واحد زبانية: زبانيّ، وقال بعضهم: زابن، وقال بعضهم: زِبْنية .. ثم قال: والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذي لا واحد له مثل: أبابيل. اهـ من اللسان (١٣/ ١٩٤) مادة (زبن).

(١٠) ينظر: تحفة الأحوذي (٩/ ١٩٦).

(١١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٢٠)، والنسائي في الكبرى (٧٦٥٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٧)، وأحمد (٥/ ٨)، وابن حبان (٦٥٥).

مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ لَمْ يَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَ، وَلَوْ ضَحِكَ لِأَحَدٍ لَضَحِكَ إِلَيْكَ»(١٢).

وَمَعَ تَعْذِيبِهِمْ أَجْسَادَ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يُنْزِلُونَ بِهِمْ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ الْمَعْنَوِيِّ، فَيُقَرِّعُونَهُمْ وَيُوَبِّخُونَهُمْ وَيُذَكِّرُونَهُمْ سُخْرِيَتَهُمْ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِهِمْ حِينَمَا يَسُوقُونَهُمْ إِلَى النَّارِ(١٣): ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وَيَفْعَلُونَهُ بِهِمْ حِينَ يُلْقُونَهُمْ فِي النَّارِ وَهُمْ يَبْكُونَ وَيَصْطَرِخُونَ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلْك: ٨-١١].

وَيَفْعَلُونَهُ بِهِمْ حِينَمَا يَطْلُبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وَيَخُصُّونَ مَالِكًا عليه السلام بِالنِّدَاءِ يَطْلُبُونَ شَفَاعَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ جل جلاله؛ لِيُمِيتَهُمْ وَيُرِيحَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ وَالنَّكَالِ؛ إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ الْمَوْتَ وَلَا يَجِدُونَهُ:

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧-٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للنسائي وابن مردويه (٥/ ١٨٥-١٨٨)، وعزاه الحافظ في الفتح لابن أبي حاتم وابن عائذ (٧/ ٢١٧).

(١٣) ينظر: اليوم الآخرة في القرآن العظيم والسنة المطهرة، للشيخ عبد المحسن بن زبن المطيري (٤٣٥-٤٣٦).

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٧] يا لَحسْرَتِهِمْ وَبُؤْسِهِمْ حِينَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُمْ مَاكِثُونَ فِي النَّارِ أَبَدًا!!

وَلَمْ يُجِبْهُمْ مَالِكٌ فَوْرَ سُؤَالِهِمْ شَفَاعَتَهُ؛ بَلْ مَكَثَ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما(١٤).

نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ النَّارِ وَمِنْ أَهْلِهَا، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُجَنِّبَنَا عَمَلَ أَهْلِهَا، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفُرْقَان: ٦٥، ٦٦].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المُدَّثِّر: ٢٧-٣١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا،

---

(١٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٦)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٦).

وقال الأعمش -رحمه الله تعالى-: «نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام» أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلنَّارِ أَبْوَابٌ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الْحِجْر: ٤٣، ٤٤]، فَكُلُّ مُعَذَّبٍ مِنْهُمْ يَنَالُ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعَذَابِ.

إِذَا سِيقُوا إِلَيْهَا وَقُذِفُوا فِيهَا غُلِّقَتْ أَبْوَابُهَا عَلَيْهِمْ، فَيَزْدَادُ عَذَابُهُمْ عَذَابًا، وَلَا يَرْجُونَ نَجَاةً وَلَا خَلَاصًا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [الْبَلَد: ١٩، ٢٠]. ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الْهُمزَة: ٤-٩].

يُحِيطُ بِأَهْلِهَا بِنَاءٌ عَظِيمٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَهْلُهَا تَجَاوُزَهُ أَوْ تَخَطِّيَهُ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الْكَهْف: ٢٩][١٥].

---

(١٥) قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: «... السرادق واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار، وكل بيت من كرسف فهو سرادق، والكرسف القطن ... ثم قال: ويطلق أيضًا في اللغة على الحجرة التي حول الفسطاط. وأما المراد بالسرادق في الآية الكريمة ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد، وهو إحداق النار بهم من كل جانب ... إلى أن قال: فمعنى الآية الكريمة أن النار محيطة بهم من كل جانب ..» اهـ من أضواء البيان (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

تكُونُ دَرَكَاتُهُمْ فِيهَا بِحَسَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ فَالمُنَافِقُونَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٦).

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الدَّرْكَيْنِ دَرَكَاتٌ وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَةٌ لِأَهْلِهَا نَسْأَلُ اللهَ النَّجَاةَ مِنْهَا، يَكُونُ عَذَابُ بَعْضِهِمْ أَشَدَّ مِنْ بَعْضٍ؛ فَمَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ وَحَارَبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَشَدُّ عَذَابًا مِمَّنْ كَفَرَ وَلَمْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [**النَّحل**: ٨٨].

وَفِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ اسْتِكْبَارًا وَصَدًّا عَنِ الْحَقِّ وَأَذِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [**غافِر**: ٤٦].

وَالْكُفَّارُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ

(١٦) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٩٤) ومسلم في الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣) واللفظ له، ولفظ البخاري: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل والقمقم**». وجاء نحوه عن أبي سعيد وابن عباس رضي الله عنهم.
قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «(والمرجل) بكسر الميم وفتح الجيم: الإناء الذي يغلي فيه الماء وغيره، (والقُمْقُم) بضم القافين وسكون الميم الأولى: معروف، وهو الذي يسخن فيه الماء. قال ابن الأثير: كذا وقع كما يغلي المرجل بالقمقم، وفيه نظر. ووقع في نسخة: «كما يغلي المرجل والقمقم». وهذا أوضح إن ساعدته الرواية. انتهى. ويحتمل أن تكون الباء بمعنى مع، وقيل: القمقم هو البسر، كانوا يغلونه على النار استعجالًا لنضجه فإن ثبت هذا زال الإشكال» فتح الباري (٤/ ١٩٧).

فَكَتَمُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَحَارَبُوهُ، وَآمَنُوا بِمَا اشْتَهَوْا مِنْ كُتُبِهِمْ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهَا، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِيمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٨٥].

وَعَذَابُ أَبِي طَالِبٍ لَيْسَ كَعَذَابِ أَبِي لَهَبٍ؛ لِأَنَّ أَبَا لَهَبٍ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ، وَأَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحْمِيهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧).

---

(١٧) أخرجه البخاري في الأدب، باب كنية المشرك (٥٨٥٥)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢٠٩).

وهذا الحديث وما جاء في معناه من إثبات أن أبا طالب قد مات على الشرك، وأنه من أهل النار إلا أن العذاب يخفف عنه بشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام .. فيه رد على من ادعى إسلامه من الروافض والصوفية والعصرانيين، متمسكين في ذلك ببعض الروايات الواهية، معرضين عن الأحاديث الصحيحة التي اتفق شيخا أهل الحديث البخاري ومسلم على صحتها، وخرجاها في صحيحهما اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى.

وقد دحض الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- هذه الدعوى في ترجمته لأبي طالب في القسم الرابع من الإصابة، وهو القسم الذي خصه بمن ذكر في الصحابة على سبيل الوهم والغلط، وليس من الصحابة، ومنهم أبو طالب، فقال رحمه الله تعالى: وذكر جمع من الرافضة أنه مات مسلمًا، وتمسكوا بما نسب إليه من قوله

ودعوتني وعلمت أنّك صادق ... ولقد صدقت فكنت قبل أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البريّة دينا

قال ابن عساكر في صدر ترجمته: قيل: إنه أسلم، ولا يصحّ إسلامه ..

ولقد وقفت على تصنيف لبعض الشيعة أثبت فيه إسلام أبي طالب، منها:

١- ما أخرجه من طريق يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن العباس بن =

. . . .

= عبد الله بن سعيد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: لما أتى رسول الله ﷺ أبا طالب في مرضه قال له: «**يا عمّ، قل: لا إله إلّا الله، كلمة أستحلّ بها لك الشّفاعة يوم القيامة**» قال: يا ابن أخي، والله لولا أن تكون سبة علي وعلى أهلي من بعدي يرون أني قُلْتُها جزعًا عند الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. فلما ثقل أبو طالب رؤي يحرّك شفتيه، فأصغى إليه العباس فسمع قوله، فرفع رأسه عنه، فقال: قد قال والله الكلمة التي سأله عنها.

٢- ومن طريق إسحاق بن عيسى الهاشميّ، عن أبيه: سمعت المهاجر مولى بني نفيل يقول: سمعت أبا رافع يقول: سمعت أبا طالب يقول: سمعت ابن أخي محمد بن عبد الله يقول: «إنّ ربّه بعثه بصلة الأرحام، وأن يعبد الله وحده، لا يعبد معه غيره»، ومحمد الصدوق الأمين.

٣- ومن طريق ابن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن أبي عامر الهوزني أنّ رسول الله ﷺ خرج معارضًا جنازة أبي طالب، وهو يقول: «وصلتك رحم».

٤- ومن طريق عبد الله بن ضميرة، عن أبيه، عن علي أنه لما أسلم قال له أبو طالب: الزم ابن عمك.

٥- ومن طريق أبي عبيدة معمر بن المثنى، عن رؤبة بن العجاج، عن أبيه، عن عمران بن حصين أن أبا طالب قال لجعفر بن أبي طالب لما أسلم: قبل جناح ابن عمك، فصلى جعفر مع النبي ﷺ.

٦- ومن طريق محمّد بن زكريّا الغلابيّ، عن العباس بن بكار، عن أبي بكر الهذلي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: جاء أبو بكر بأبي قحافة، وهو شيخ قد عمي، فقال رسول الله ﷺ: ألا تركت الشيخ حتى آتيه. قال: أردت أن يأجره الله، والّذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك.

وأسانيد هذه الأحاديث واهية، وليس المراد بقوله في الحديث الأخير إثبات إسلام أبي طالب، فقد أخرج عمر بن شبة في كتاب مكة، وأبو يعلى، وأبو بشر سمويه في فوائده، كلهم من طريق محمّد بن سلمة، عن هشام بن حسان، عن محمّد بن سيرين، عن أنس في قصة إسلام أبي قحافة، قال: فلما مدّ يده يبايعه بكى أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» قال: لأن تكون يد عمك مكان يده ويسلم ويقرّ الله عينك أحبّ إليّ من أن =

. . . .

= يكون. وسنده صحيح. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وعلى تقدير ثبوتها فقد عارضها ما هو أصحّ منها.

أما الأول: ففي الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**يا عمّ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**». فقال له أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب، فلم يزالا به حتى قال آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك**». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: **١١٣**] الآية. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فهذا هو الصحيح برد الرواية التي ذكرها ابن إسحاق؛ إذ لو كان قال كلمة التوحيد ما نهى الله تعالى نبيّه عن الاستغفار له.

وهذا الجواب أولى من قول من أجاب بأن العباس ما أدّى هذه الشهادة وهو مسلم، وإنما ذكرها قبل أن يسلم، فلا يعتد بها، وقد أجاب الرافضيّ المذكور عن قوله: وهو على ملة عبد المطلب، بأن عبد المطلب مات على الإسلام، واستدل بأثر مقطوع عن جعفر الصادق، وسأذكره بعد، ولا حجة فيه، لانقطاعه وضعف رجاله.

وأما الثاني: وفيه شهادة أبي طالب بتصديق النبي ﷺ، فالجواب عنه وعما ورد من شعر أبي طالب في ذلك أنه نظير ما حكى الله تعالى عن كفار قريش: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فكان كفرهم عنادًا، ومنشؤه من الأنفة والكبر، وإلى ذلك أشار أبو طالب بقوله: لولا أن تعيّرني قريش.

وأما الثالث: وهو أثر الهوزنيّ فهو مرسل، ومع ذلك فليس في قوله: «وصلتك رحم» ما يدلّ على إسلامه، بل فيه ما يدلّ على عدمه، وهو معارضته لجنازته، ولو كان أسلم لمشى معه وصلّى عليه.

وقد ورد ما هو أصحّ منه، وهو ما أخرجه أبو داود والنّسائيّ، وصححه ابن خزيمة من طريق ناجية بن كعب، عن علي، قال: لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الضال قد مات. فقال لي: «اذهب فواره، ولا تحدّثني شيئًا حتّى تأتيني». ففعلت ثم جئت فدعا لي بدعوات.

وقد أخرجه الرّافضيّ المذكور من وجه آخر عن ناجية بن كعب، عن علي بدون قوله: الضال.

وأما الرابع والخامس: وهو أمر أبي طالب ولديه باتباعه فتركه ذلك هو من جملة العناد، =

. . . .

= وهو أيضًا من حسن نصرته له وذبه عنه ومعاداته قومه بسببه.
وأما قول أبي بكر: فمراده: لأنا كنت أشدّ فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، أي لو أسلم. ويبين ذلك:
ما أخرجه أبو قرّة موسى بن طارق، عن موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: جاء أبو بكر بأبي قحافة يقوده يوم فتح مكة، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تركت الشّيخ حتّى نأتيه؟**» قال أبو بكر: أردت أن يأجره الله، والّذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبي طالب لو كان أسلم مني بأبي.
وذكر ابن إسحاق أنّ عمر لما عارض العباس في أبي سفيان لما أقبل به ليلة الفتح، فقال له العباس: لو كان من بني عدي ما أحببت أن يقتل. فقال عمر: إنا بإسلامك إذا أسلمت أفرح مني بإسلام الخطاب، يعني: لو كان أسلم.
ثم ذكر الرّافضيّ من طريق راشد الحماني، قال: سئل أبو عبد الله -يعني: جعفر بن محمّد الصادق- من أهل الجنة؟ فقال: الأنبياء في الجنة، والصالحون في الجنة، والأسباط في الجنة، وأجل العالمين مجدًا محمّد ﷺ، يقدم آدم فمن بعده من آبائه، وهذه الأصناف يحدثون به، ويحشر عبد المطلب به نور الأنبياء، وجمال الملوك، ويحشر أبو طالب في زمرته، فإذا ساروا بحضرة الحساب وتبوّأ أهل الجنة منازلهم، ودحر أهل النار ارتفع شهاب عظيم لا يشكّ من رآه أنه غيم من النار، فيحضر كلّ من عرف ربّه من جميع الملل، ولم يعرف نبيه، ومن حشر أمة وحده، والشيخ الفاني، والطفل، فيقال لهم: إن الجبّار تبارك وتعالى يأمركم أن تدخلوا هذه النار، فكلّ من اقتحمها خلص إلى أعلى الجنان، ومن كع عنها غشيته. أخرجه عن أبي بشر أحمد بن إبراهيم بن يعلى بن أسد، عن أبي صالح الحمادي، عن أبيه، عن جده: سمعت راشدًا الحماني ... فذكره.
وهذه سلسلة شيعية غلاة في رفضهم، والحديث الأخير ورد من عدة طرق في حق الشيخ الهرم ومن مات في الفترة، ومن ولد أكمه أعمى أصم، ومن ولد مجنونًا، أو طرأ عليه الجنون قبل أن يبلغ، ونحو ذلك، وأن كلًّا منهم يدلي بحجة ويقول: لو عقلت أو ذكرت لآمنت، فترفع لهم نار، ويقال لهم: ادخلوها، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن امتنع أدخلها كرها.
هذا معنى ما ورد من ذلك، وقد جمعت طرقه في جزء مفرد، ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعًا فينجو، لكن ورد في أبي طالب ما يدفع =

. . . .

= ذلك، وهو ما تقدم من آية براءة، وما ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للنّبيّ ﷺ: ما أغنيت عن عمّك أبي طالب! فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال: **«هو في ضحضاح من النّار، ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل»**.

فهذا شأن من مات على الكفر، فلو كان مات على التوحيد لنجا من النار أصلًا. والأحاديث الصحيحة، والأخبار المتكاثرة طافحة بذلك، وقد فخر المنصور على محمّد بن عبد الله بن الحسن لما خرج بالمدينة وكاتبه المكاتبات المشهورة، ومنها في كتاب المنصور: وقد بعث النبي ﷺ وله أربعة أعمام، فآمن به اثنان أحدهما أبي، وكفر به اثنان أحدهما أبوك.

ومن شعر عبد الله بن المعتز يخاطب الفاطميين:

وأنتم بنو بنته دوننا ... ونحن بنو عمّه المسلم

وأخرج الرّافضيّ أيضًا في تصنيفه قصة وفاة أبي طالب من طريق علي بن محمّد بن متيم: سمعت أبي يقول: سمعت جدي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: تبع أبو طالب عبد المطلب في كل أحواله حتى خرج من الدنيا وهو على ملّته، وأوصاني أن أدفنه في قبره، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: اذهب فواره. وأتيته لما أنزل به فغسلته وكفنته، وحملته إلى الحجون فنبشت عن قبر عبد المطلب، فوجدته متوجهًا إلى القبلة فدفنته معه.

قال متيم: ما عبد عليٌّ ولا أحد من آبائه إلا الله إلى أن ماتوا. أخرجه عن أبي بشر المتقدم ذكره عن أبي بردة السلمي، عن الحسن بن ما شاء الله، عن أبيه، عن علي بن محمّد بن متيم. وهذه سلسلة شيعية من الغلاة في الرّفض، فلا يُفْرَح به، وقد عارضه ما هو أصح منه مما تقدم فهو المعتمد.

ثم استدل الرافضيّ بقول الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال: وقد عزّره أبو طالب بما اشتهر وعلم، ونابذ قريشًا وعاداهم بسببه مما لا يدفعه أحد من نقلة الأخبار، فيكون من المفلحين. انتهى.

وهذا مبلغهم من العلم، وإنا نسلم أنه نصره وبالغ في ذلك، لكنه لم يتبع النّور الّذي أنزل معه، وهو الكتاب العزيز الداعي إلى التوحيد، ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما رتب عليه من الصفات كلها. =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْخَلْقَ لَنْ يُطِيقُوا عَذَابَ الْخَالِقِ مَهْمَا كَانَتْ قِلَّتُهُ، وَالْوَاحِدُ مِنْ بَنِي آدَمَ لَا يُطِيقُ حَمْلَ جَمْرَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ لَهُ بِنَارِ الْآخِرَةِ؟! أَجَارَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

وَالنَّجَاةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى تَكُونُ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، تَكُونُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَاتِّبَاعِهَا بِالنَّوَافِلِ، وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ جَعَلَهُ اللهُ سَبَبًا لِدُخُولِ النَّارِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا عَذَابَهُ؛ فَإِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= ثم استدرك ابن حجر على الرافضي بعض ما فاته من روايات إسلام أبي طالب، وبين أنها روايات واهية لا تقوم بها حجة، ولا تدفع الروايات الصحيحة التي تدل على أن أبا طالب مات على الشرك. اهـ انتهى بطوله من الإصابة (٧/ ١٩٨-٢٠٣).

٣٩٣- نار الآخرة (٣)
أشجارها وأوديتها وجبالها

٢٨/ ٧/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ بِحِكْمَتِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَعْطَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ دَلَائِلُهُ فِي خَلْقِهِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَبَرْهَنَتْ آيَاتُهُ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ؛ فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا عَرَفَ اللهَ تَعَالَى بَشَرٌ كَمَعْرِفَتِهِ، وَلَا خَشِيَهُ كَخَشْيَتِهِ، كَانَ يَقُومُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُنَاجِي رَبَّهُ؛ مَحَبَّةً لَهُ، وَشَوْقًا إِلَيْهِ، وَرَجَاءً لِرَحْمَتِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ فَإِنَّ ثَوَابَهُ جَزِيلٌ، وَإِنَّ عَذَابَهُ شَدِيدٌ، ثَوَابُهُ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَعَذَابُهُ نَارٌ تَلَظَّى، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١٥، ١٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ وَالتَّفْكِيرِ أَنْ يَنْظُرَ فِي خَلْقِهِ وَوُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْحِكْمَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَفَكَّرَ فِي مَآلِهِ وَمَصِيرِهِ، وَيَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِمَّا يَجْرِي أَمَامَهُ، فَهُوَ يَرَى فِيمَا يَرَى أَنَّ النَّاسَ يُغَادِرُونَ الدُّنْيَا إِلَى دَارٍ أُخْرَى، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا عَلَا قَدْرُهُ، وَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتَ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ مُخَلَّدًا فِي الدُّنْيَا لَكَانَتِ الرُّسُلُ أَوْلَى

النَّاسِ بِالْخُلُودِ فِيهَا ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

وَالمَوْتُ وَإِنْ كَانَ مَخُوفًا عِنْدَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهُ هَيِّنٌ إِذَا كَانَ مَا بَعْدَهُ هَيِّنًا، وَعَسِيرٌ إِنْ كَانَ مَا بَعْدَهُ عَسِيرًا.

إِنَّ الَّذِي بَعْدَ المَوْتِ حِسَابٌ وَجَزَاءٌ عَلَى مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئًا فَعَلَيْهِ.

إِنَّ بَعْدَ المَوْتِ نَعِيمًا أَوْ عَذَابًا، سَعَادَةً أَوْ شَقَاءً، جَنَّةً أَوْ نَارًا، وَإِذَا أَحَسَّ النَّاسُ حَرَارَةَ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا فَوَاجِبٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا حَرَارَةَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. تِلْكُمُ النَّارُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى جَزَاءً لِلْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَلِلْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ، وَلِلْمُنَافِقِينَ عَلَى نِفَاقِهِمْ، يُعَذَّبُونَ فِيهَا أَبَدًا؛ فَلَا رَاحَةَ وَلَا تَخْفِيفَ وَلَا مَوْتَ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٤-٧٨]. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المَائِدَة: ٣٧].

وَذِكْرُ النَّارِ نَغَّصَ عَلَى المُؤْمِنِينَ عَيْشَهُمْ؛ خَوْفًا مِنْهَا وَمِمَّا فِيهَا، وَفَرَقًا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، أَعَاذَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

وَالْحَدِيثُ عَنْهَا يَطُولُ؛ فَهِيَ دَارُ أَكْثَرِ المُكَلَّفِينَ، وَفِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَلَا يُطِيقُهُ الْحَصْرُ. فَفِيهَا أَشْجَارٌ مِنْ نَارٍ، وَأَوْدِيَةٌ مِنْ نَارٍ، وَجِبَالٌ مِنْ نَارٍ.

أَمَّا أَشْجَارُهَا فَأَشْجَارٌ مِنْ نَارٍ، وَثِمَارُهَا نَارٌ، وَظِلُّهَا نَارٌ، أَشْهَرُهَا ذِكْرًا شَجَرَةُ

الزَّقُّومِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ كَانَ ذِكْرُهَا فِتْنَةً لأَبِي جَهْلٍ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ؛ حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا رَأَى، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ مُسْتَهْزِئًا: «يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

وَفِي الْقُرْآنِ ذَكَرَ اللهُ ﷻ مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ قَارَنَ ذَلِكَ بِمَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ؛ لِيَتَّعِظَ قُرَّاءُ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ، وَيُقَارِنُوا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَيَعْرِفُوا الْبَوْنَ الْكَبِيرَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ: حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصَّافَّات: ٦٢-٦٥].

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَانَ فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، وَمَوْطِنَ تَكْذِيبٍ وَإِنْكَارٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ النَّارَ فِي الدُّنْيَا تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَكَذَّبُوا أَنْ يَكُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ شَجَرٌ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ فَافْتُتِنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَقَالُوا: صَاحِبُكُمْ يُنَبِّئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ: غُذِّيَتْ مِنَ النَّارِ وَمِنْهَا خُلِقَتْ»(٢).

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس ﭫ: النسائي في الكبرى (١١٤٨٤)، وأحمد (١/ ٣٧٤)، وأبو يعلى (٢٧٢٠)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٢٤)، والضياء في المختارة (٣١٥)، وصححه ابن كثير (٣/ ١٦) والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٣٥٤٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٨١)، والطبري في تفسيره (١٥/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢١٦).

وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَهَا يَغْلِي فِي بُطُونِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ طَعَامًا غَيْرَهَا ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الدُّخَان: ٤٣-٤٥].

يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي تَغْلِي نَارًا حَتَّى تَمْتَلِئَ بُطُونُهُمْ بِهَا، فَيَكُونُ لَهُمْ مَعَ عَذَابِهِمْ لِظَاهِرِ أَبْدَانِهِمْ عَذَابٌ آخَرُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَبُطُونِهِمْ؛ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ النَّجَاةَ مِنْ مَآلِهِمْ ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصَّافَّات: ٦٦، ٦٧]، وَفِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٥١-٥٦].

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الْأَرْضِ لَفَسَدَتْ**» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ(٣).

وَفِي النَّارِ أَوْدِيَةٌ مِنْ نَارٍ يُعَذَّبُونَ فِيهَا؛ مِنْ أَشْهَرِهَا ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ وَادِي وَيْلٍ، وَقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُكَذِّبِينَ وَالسَّاهِينَ عَنْ صَلَاتِهِمْ، وَكُلَّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، وَكُلَّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ وَيْلًا وَادٍ فِي جَهَنَّمَ(٤).

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الترمذي في صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، وقال: حسن صحيح (٢٥٨٥)، وابن ماجه في الزهد: باب صفة النار، (٤٣٢٥)، والطيالسي (٢٦٤٣)، وأحمد (١/ ٣٠٠-٣٠١)، والنسائي في الكبرى (١١٠٠٤) وصححه ابن حبان (٧٤٧٠) والحاكم، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٢٩٤ و٤٥١).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٣٧٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٣)، وتفسير البغوي (١/ ٨٨). =

وَمِنْ أَوْدِيَتِهَا المَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: وَادِي الْغَيِّ الَّذِي تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُضَيِّعِينَ لِلصَّلَاةِ، الْمُتَّبِعِينَ الشَّهَوَاتِ ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٩].

وَقَدْ جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ الْغَيَّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ مُنْتِنُ الرِّيحِ(٥)، وَهِيَ أَوْدِيَةٌ سَحِيقَةٌ يُقْذَفُ فِيهَا أَهْلُ النَّارِ قَذْفًا.

وَفِي النَّارِ جِبَالٌ مِنْ نَارٍ جَاءَ لَهَا ذِكْرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ تَوَعَّدَ ﷻ بِبَعْضِهَا الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ لَمَّا كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ، وَادَّعَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ سِحْرٌ يُؤْثَرُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ مُتَوَعِّدًا إِيَّاهُ: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [الْمُدَّثِّر: ١٧] جَاءَ عَنِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّهُ جَبَلٌ فِي النَّارِ مِنْ نَارٍ يُكَلَّفُ أَهْلُهَا بِصُعُودِهِ(٦)؛ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْهُمْ.

وَنَارُ جَهَنَّمَ نَارٌ سَحِيقَةٌ عَمِيقَةٌ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: **تَدْرُونَ مَا هَذَا؟** قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

وَهِيَ تَتَّسِعُ لِخَلْقٍ كَثِيرٍ لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ

= وجاء مرفوعًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٥٧)، وابن المبارك في الزهد (٣٣٤) وهو ضعيف لأنه من رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٥) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٢١٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٤٠)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٣).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٥٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٨٣)، وتفسير البغوي (٤/ ٤١٥)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٣). وقد جاء فيه أحاديث مرفوعة لكنها لا تصح.

(٧) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤).

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مَعَ ضَخَامَةِ حَجْمِهِمَا يُلْقَيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا فَلَا يَمْلَآنِهَا؛ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ**»(٨).

وَأَكْثَرُ الْمُكَلَّفِينَ فِي النَّارِ، فَوَاحِدٌ مِنْ أَلْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَبَقِيَّتُهُمْ فِي النَّارِ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أُرَاهُ قَالَ:- تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ** ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الْحَجّ: ٢]» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ.** فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: **ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ.** فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: **شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ.** فَكَبَّرْنَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

وَلَا تَمْتَلِئُ النَّارُ مَهْمَا أُلْقِيَ فِيهَا؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ

---

(٨) أخرج الرواية الأولى: البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٠٢٨). وأخرج الثانية: ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١٠١)، والطحاوي في المشكل (١/ ١٧٠)، ومسدد كما في إتحاف الخيرة المهرة (١٣٥٧).

(٩) أخرجه البخاري في الرقاق، باب قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] (٦١٦٥)، ومسلم في الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٢٢٢).

ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣]. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**»رواهُ الشَّيْخَانِ(١٠)

وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ! قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا؛ فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**»(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا مَا يُسْخِطُهُ، وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ.



(١٠) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٦٩٤٩)، ومسلم في الجنة وصفتها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٨).

(١١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: ٣٠] (٤٥٦٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَهُ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ الْبَشَرِ، الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ فِي الْمَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاقْتَفَى الْأَثَرَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣١-١٣٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ يُحِسُّ حَرَّ الدُّنْيَا، وَيُبْصِرُ نَارَهَا، وَيَرَى آثَارَهَا، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ حَرِّهَا أَوْ جَمْرِهَا، وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَلَّا يَنْسَى نَارَ الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَفِرَّ مِنْهَا أَشَدَّ مِنْ فِرَارِهِ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا؛ فَمَا نَارُ الدُّنْيَا إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**. قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٢).

وَمَنْ خَسِرَ فِي الْآخِرَةِ فَلَا أَمَلَ فِي رِبْحِهِ أَبَدًا، بَلْ هُوَ فِي خُسْرَانٍ أَبَدِيٍّ، وَعَذَابٍ دَائِمٍ، فَوَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَهُ!

---

(١٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم (٢٨٤٣).

يَصِيحُ فِي النَّارِ مَعَ الصَّائِحِينَ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ١٠٧]، فَيُجَابُونَ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ١٠٨].

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «إِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكًا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾. قَالَ: هَانَتْ دَعْوَتُهُمْ وَاللَّهِ عَلَى مَالِكٍ وَرَبِّ مَالِكٍ، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ قَالَ: فَيَسْكُتُ عَنْهُمْ قَدْرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا نَبَسَ الْقَوْمُ بَعْدَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. قَالَ: فَشُبِّهَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِأَصْوَاتِ الْحَمِيرِ، أَوَّلُهَا زَفِيرٌ وَآخِرُهَا شَهِيقٌ»(١٣).

وَتَكُونُ طَامَّتُهُمُ الْكُبْرَى حِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَذَابَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ، وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْهُ وَلَوْ بِالمَوْتِ الَّذِي كَانُوا يَكْرَهُونَهُ فِي الدُّنْيَا!

رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجَاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ. قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

---

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥٠٩).

(١٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

فَحَذَارِ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالِاغْتِرَارِ بِهَا؛ فَإِنَّمَا أَرْدَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ غَفْلَتُهُمْ وَغُرُورُهُمْ، وَتَزَوَّدُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاسْتَجِيرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ النَّارِ، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عَذَابِهَا، فَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْأَلُ رَبَّهُ ﷻ الْوِقَايَةَ مِنْهَا، وَيُكْثِرُ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ ﵁ فَقَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: عَنْ قَتَادَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سَأَلَ أَنَسًا ﵁ فَقَالَ: أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ يَدْعُو بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ؟ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**». قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ[١٥].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



(١٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ (٦٠٢٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (٢٦٩٠).

الفهرس

مركز البيان للبحوث والدراسات
Al-Bayan Center for Research and Studies

المفيد في خطب الجمعة والعيد

"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف
د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء العاشر

المجموعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١٠)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج١٠)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢_ ٠٥٠٢٢١٩٢٠_ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦_ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥_ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦

الكشــافات



١- كشـاف الموضـوعات

المجلد السادس

هدي الكتاب والسنة

العبادات

المجلد السابع

رمضان والحج

التربية والآداب

المجلد الثامن

المحرمات

المغازي والتاريخ

المواعظ والرقائق

المجلد التاسع

السير والأعلام

الفكر والثقافة

القضايا الإسلامية

علامات الساعة وأخبار القيامة



٢- كشـــاف الأحــاديث

أولاً: الأحاديث المذكورة بنصها:

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
اهجهم وجبريل معك	٩/ ١١٠
اهدي لنا في مصباحنا من عكتك السمن فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت	٩/ ٧٢
أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم	٩/ ٣٨٧
أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله	٨/ ٢١٦-٢٢٧-٣٣٦-٣٣٧
أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء	٩/ ٤١١
أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وسعد في الجنة	٩/ ١٣٣
أتاكم رمضان شهر مبارك	٧/ ٢٤
أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان	٧/ ٣٧٦
أترونها حمراء كناركم هذه، لهي أسود من القار، والقار الزفت	٩/ ٥٩٧
أتموا الركوع والسجود	٦/ ٥٥٥-٥٥٦
أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها	٨/ ١٦٠
أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل	٧/ ٢٠٨
أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني	٦/ ٤١٠
أخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا	٩/ ٥٤٢
أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان	٩/ ١١-١٢
أخذ حفنة من الحصباء واستقبل بها قريشا وقال شاهت الوجوه	٨/ ٢١٦-٢١٧
أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا	٨/ ٦٧
إدريس أول من خط بالقلم	٩/ ٢٢٧
إذ اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جنهم	٩/ ٥٩٧
إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه	٨/ ٥١٩
إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً فأحببه	٩/ ١٥٨
إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا	٦/ ٢٤٨

الحـــــــديث	رقم الجزء والصفحة
إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا	٨/ ٥٧
إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإنه بركة	٧/ ٢٦
إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا وغربت الشمس	٨/ ٤٦٥
إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون	٦/ ٥٩٨
إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة	٦/ ٦٠١
إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم	٨/ ٢١٥
إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد	٨/ ٥٩٦
إذا توضأ أحدكم فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى المسجد فلا يشبكن يديه	٦/ ٦٠٠
إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة	٧/ ١٣
إذا حاك في صدرك شيء فدعه	٨/ ٧٦
إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم	٧/ ٦٢٣
إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه	٧/ ٥٢٢
إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين	٦/ ٥٩٩-٦٠٠
إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم	٩/ ٥٨٠
إذا دخلت أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنان	٧/ ١٤
إذا دعيتم إلى كراع فأجيبوا	٧/ ٣٥٣-٣٥٤
إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد	٦/ ٦٠٢-٦٠٣
إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي	٦/ ٢٥٠، ٧/ ٢٣٢-٢٣٥-٢٥٥
إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان	٧/ ٣٤
إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم	٧/ ٥٥٦
إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنها لا تصيب ذاكراً	٨/ ٣٩٤
إذا سمعتم الرعد فسبحوا ولاتكبروا	٨/ ٣٩٤

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
إذا سمعتم المؤذن يؤذن فقولوا مثل ما يقول	٩/ ٥٨٩
إذا سمعتم بقوم قد خسف فيهم ههنا قريباً فقد أظلت الساعة	٩/ ٥٤٧
إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة	٨/ ٨٤-١٠٧
إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم	٦/ ٢٤٨
إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع	٨/ ٥٨٠
إذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان	٨/ ٥٨٣
إذا قرأ بن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي	٦/ ٥٦٣
إذا قضى أحدكم صلاته في مسجده فليجعل لبيته نصيبا	٦/ ٦٠١
إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة	٦/ ٦٢٨
إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم	٦/ ٨٣
إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة	٧/ ٢١٢-٤٣٥
إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده	٩/ ٤٤٤
أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة	٨/ ٣٧٣
أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش	٨/ ٣٧٢
أرأيت إن قتلت اليوم أطأ بعرجتي هذه الجنة	٨/ ٢٩١-٢٩٢
أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة	٨/ ٢٩٣
أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له	٦/ ٥٦٥
أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر	٧/ ٦٠٦
أربع لا تجوز في الضحايا	٧/ ٢٣١
أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا	٦/ ٣٥٦
أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا	٧/ ٩٢
أربعون يومًا يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة	٨/ ٤٥٥

الحديث	رقم الجزء والصفحة
أفلا أكون عبدا شكورا	٦/ ٥٥٣
أفلا أكون عبدا شكورا	٧/ ٧٠
أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا	٩/ ١٧٩
إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة	٧/ ٣٤٥
أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجَهْدِ	٧/ ٤٩٣-٤٩٤
أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر	٧/ ١٠٤
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	٦/ ٥٦٠
أقيموا الركوع والسجود	٦/ ٥٥٦
أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر	٩/ ٥٤
أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين	٨/ ٩
ألا أخبرك بأفضل أو أكثر من ذكرك الليل مع النهار والنهار مع الليل	٨/ ٤٣١
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة	٧/ ٤١١-٤١٢
ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر صوم ثلاثة أيام من كل شهر	٧/ ٦٢
ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله	٧/ ٦٩
ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا	٦/ ٥٤٤-٥٨٢-٥٨٣
ألا اشهدوا أن دمها هدر	٦/ ١٥٠-١٥١
ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان	٦/ ١٩
ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا	٦/ ٤٠٨
ألا إن كلكم مناج ربه فلا يؤذين بعضكم بعضا	٦/ ٦٠٠
ألا أنبئكم بخياركم؟ خياركم أطولكم أعمارا	٧/ ٢٠١-٢٠٢
ألا أنبئكم بشراركم؟ فقال: الثرثارون المتشدقون	٦/ ٨٧
ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه	٦/ ٣٧-٣٨-١٦٣

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة

الحديث	رقم الجزء والصفحة
إن الرسول ﷺ عهد إلي عهدا	٦/ ٢٣٣
إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض	٧/ ٢٣٧-٢٣٨
إن السحور بركة أعطاكموها الله عز وجل فلا تدعوها	٧/ ٢٦
إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس	٨/ ٤٥٤، ٩/ ٣٤٧
إن الشيطان واضع خطمه على قلب بن آدم فإن ذكر الله خنس	٦/ ٤٩٠
إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله	٨/ ٥٣٥
إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة	٦/ ١٩٥
إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه	٨/ ٥٨٢
إن العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله	٩/ ٩٣-٩٤
أن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزلّ بها إلى النار	٩/ ٢٣٢
أن العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب	٩/ ٣٠٩
إن القبر أول منزل من منازل الآخرة	٨/ ٥٨٩
إن القوم خرجوا من مكة على كل صعب وذلول	٨/ ٢٦٠-٢٦١
إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا	٨/ ١٣٧
إن الله إذا أراد رحمة أمة قبض نبيها قبلها	٩/ ٩٠
إن الله تبارك وتعالى يبتلي عبده بما أعطاه	٨/ ٥٣٨
إن الله تعالى حجب التوبة عن صاحب كل بدعة	٦/ ٣٤٧-٣٤٨
إن الله تعالى يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان	٦/ ٣٤٠
إن الله تعالى يقول: إن عبدا صححت له جسمه	٧/ ٢٢٨
إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان	٦/ ٣٤٠
إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض	٧/ ٥٣٩
إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها	٩/ ٥٥٥

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة

الحديث	رقم الجزء والصفحة
إني رسول الله، ولست عاصيه وهو ناصري	٨/ ٣٦٢- ٩/ ١١٥
إني سائلك ومغلظ في المسألة فلا تجدن في نفسك	٦/ ٥١٧
إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين وإن آدم لمجندل في طينته	٧/ ٢٧٥
إني فرطكم وأنا شهيد عليكم إني والله لأنظر إلى حوضي الآن	٩/ ٥٦١-٥٦٢
إني كنت قد أعلمتها ثم نسيتها	٦/ ٦١٤
إني لا أستطيع أن أدور بينكن فإن رأيتن أن تأذنَّ لي فأكون عند عائشة فعلتن	٩/ ٦٩
إني لا أقول إلا حقا	٦/ ٥٢٦
إني لأدخل في الصلاة وإني أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي	٧/ ٣٤٠
إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة	٩/ ٥٩٢
إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي	٩/ ٥٦
إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي ثم أرفعها لآكلها	٨/ ٦١-٧٧
إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة	٧/ ٣٢٤-٣٣٦
إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال: أبو لهب: تبا لك سائر اليوم	٧/ ٢٦٣
إني نهيت أن اقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فأما الركوع فعظموا فيه	٦/ ٥٥٨-٥٦١
إني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا	٩/ ٧٣
أني وجدت تمرة ساقطة فأكلتها، ثم تذكرت تمرا كان عندنا	٨/ ٦١-٦٢-٧٨
إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك	٦/ ٥٤٠
أُهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة	٧/ ٤٩٥-٤٩٦
أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير	٧/ ٣٩٠
أوصى ابن عوف للبدريين فوجدوا مئة بدري فأعطى كل واحد منهم أربع مئة دينار	٨/ ٤٥
أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي	٩/ ٩٦-٩٧

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا	٩/ ٢١٢
أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا	٧/ ٣٣٧
أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين	٨/ ٣٥
بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة	٦/ ٦٣٨
بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره	٧/ ٣٨٩-٣٩٠، ٩/ ٢١٤
البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب	٨/ ٧٧
بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة	٦/ ٥٨٧
بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي	٨/ ٤٧٠
بعثت بجوامع الكلم	٦/ ٨٠، ٩/ ١٤٢
بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له	٨/ ٦٠١
بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا	٧/ ٣٢٣
بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً	٦/ ٤٩٤-٤٩٥
بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا	٦/ ١٧٣
بني الإسلام على خمس	٦/ ٦٣٦
بئس العشيرة كنتم لنبيكم	٨/ ٢١٨
بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف	٩/ ٥٤٥
بين يدي الساعة مُوتَانٌ شديد، وبعده سنوات الزلازل	٩/ ٥٤٣
بينا النبي ﷺ قائم يوم الجمعة إذ قدمت عير إلى المدينة	٦/ ٦٢٥
بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة	٩/ ٥٥٥-٥٥٦
بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها فقالت: إنا لم نخلق لهذا	٩/ ١١٢-١١٣
بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح	٦/ ٤٧٥
بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه	٧/ ٥٦١

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
جهادكن الحج	٧/ ٢٢٧
حب الدنيا رأس كل خطيئة	٦/ ٢٤٥-٢٤٧
حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء	٧/ ١٠١
حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة	٦/ ٥٦٢-٥٦٣
حتى رفع لي سواد عظيم قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى	٩/ ١٠٥-١٠٦
حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول	٨/ ٤٤١
الحج جهاد كل ضعيف	٧/ ٢٢٧
الحج عرفة، من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد أدرك	٧/ ٢٢٥
الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه	٧/ ٢٢٦-٢٢٧
حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض	٧/ ٣٤٤
حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك	٨/ ٢٣٦
حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب	٩/ ٣٤٤
حفظك الله بما حفظت به نبيه	٩/ ١١٧
حقت محبتي على المتزاورين في وحقت محبتي على المتباذلين في	٨/ ٥٢٧
الحلف منفقه للسلعة، ممحقة للبركة	٧/ ٢٢
الحمد لله الذي أنقذه من النار	٧/ ٣٢٥-٣٢٦، ٩/ ١٨٠
الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم	٧/ ٤٩٢
الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة	٦/ ٤٨٩
الحمد لله الذي يطعِم ولا يطعَم ، منَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا	٧/ ٧١
حمل أمامة بنت زينب فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها	٧/ ٣٣٩
حي على الطهور المبارك والبركة من الله	٧/ ١٨

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
رب لم أظن أن ترفع علي أحدا	٩/ ٥٨٩
رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه	٨/ ٥٨٥-٥٨٦
رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها	٨/ ٣٦٠
الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له	٦/ ٥٦٤
رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج نفسه	٧/ ١١٤
رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته	٧/ ١١٢-١١٣
رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر	٦/ ١٢٣
الرعد مَلَكٌ من الملائكة مُوكَّلٌ بالسحاب معه مَخَارِيْقُ من نار	٨/ ٣٩٠-٣٩١
رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له	٧/ ٤٨، ٩/ ٥٧٣
ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها	٨/ ٥٤٨
رمقت رسول الله ﷺ عشرين مرة يقرأ في الركعتين بعد المغرب	٦/ ٤٦٨
الريح من روح الله عز وجل تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب	٨/ ٣٩٣-٤١٦-٤١٧
زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع	٦/ ٤٠٩
زوجت أختا لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها	٧/ ٥٢٣
سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟	٥٩٢-٥٩٣
سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن؟	٦/ ٢٦٠، ٩/ ٢٩٥
سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة	٦/ ٥٥٨
سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة	٧/ ٣٤٧
سبحان ربي ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة	٨/ ٤٣٢
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي	٦/ ٥٥٨، ٨/ ٣٧٢-٤٨٤
سبع يجري للعبد أجرهن من بعد موته وهو في قبره	٨/ ٥٨٧
سبعة يظلهم الله في ظله	٦/ ٥٤٤، ٨/ ٥١٤

الحديث	رقم الجزء والصفحة
فلما خرجت نفسه لم أجد ريحا قط أطيب منها	٩/ ٧٥
فلما خلصت فإذا موسى، قال هذا موسى فسلم عليه	٩/ ١٠٦
فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت	٨/ ١٧٢-١٧٣
فلما فتح علونا السماء الدنيا	٩/ ١٥
فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام	٨/ ٣٣٩
فليسوا هم في الجنة بأشوق منهم إلى يوم الجمعة	٦/ ٦١٥
فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها	٨/ ٥١٦
فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف	٦/ ٣٨٣
فمن أنكر بريء ومن كره سلم ولكن من رضي وتابع	٦/ ٥٠٧
فمن كره فقد بريء ومن أنكر فقد سلم	٧/ ٣٨٩، ٨/ ٥٦٨
فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك	٨/ ١١٠-١١١
فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب	٦/ ١٧٤
فوالله ما الفقر أخشى عليكم	٦/ ٢٤٤
في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون	٧/ ١٤
في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده	٩/ ٧٤-٧٥-٨٢
في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف	٩/ ٥٥٠
فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي	٦/ ١٨
قال الله تبارك وتعالى وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في	٨/ ٥٢٦-٥٢٧
قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر	٨/ ٤٠٠
قال الله تعالى: أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم، فرجف	٨/ ٤٢١
قال الله تعالى: أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئا، أنا الذي أعيدها	٨/ ٤٢١
قال الله تعالى: قد فعلت	٧/ ٢١٣

الحـــــــديث	رقم الجزء والصفحة
قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم	٧/ ٢٥٩
قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت	٧/ ١٦٦
قلب الشيخ شاب على حب اثنتين	٦/ ٤٤١، ٧/ ١٣٠-٢٠٦
قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث	٨/ ٢٤٧
قولي اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني	٧/ ٧٩
قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض	٨/ ٢١٧-٢٣٧-٢٤٨
قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي بن سلول	٧/ ٤٢٣
كان آخر كلام رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم	٩/ ٩٩
كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان	٩/ ١٠٠
كان إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله	٧/ ٨٥، ٨/ ٢٣١-٢٥٤-٢٧٧
كان إذا رأى مَخِيْلَةَ الرعد والبرق يتمعَّرُ وجهه حتى يعلم أرحمة هي أم عذاب	٨/ ٣٩٢
كان إذا رأى ناشئا في أفق من آفاق السماء ترك عمله	٨/ ٣٩٣
كان أكثر دعاء النبي ﷺ اللهم ربنا أتنا في الدنيا حسنة	٩/ ٦٣٠
كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار	٩/ ٣٦٦-٣٦٧
كان الله ولم يكن شيء قبله	٨/ ٤٥٨
كان المسجد مسقوفا على جذوع النخل	٧/ ٣٤٣
كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير	٦/ ٢٦٩-٣٠٧- ٥٠٤-٥٠٥
كان الناس يفيضون من عرفات وكان الحمس يفيضون من المزدلفة	٧/ ٢٦٢
كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه	٦/ ٤١١
كان النبي ﷺ إذا صعد أكمة أو نشزا قال: اللهم لك الشرف على كل شرف	٧/ ٦٢٦
كان النبي ﷺ إذا عمل عملاً أثبته	٧/ ٢٠٨
كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين	٧/ ٦٣٢

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
كُنَّا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلةٍ برجلها	٨/ ٥٤٥
كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل	٧/ ٦٣١
كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندري ما حجة الوداع	٧/ ٢٤٦
كنا نخرج زكاة الفطر صاعا من طعام	٧/ ١٣٧
كنا يوم الحديبية ألفا وأربع مئة فبايعناه	٨/ ٣٦٠
كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته بُرَحاء شديدة	٦/ ٤١١
كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية	٩/ ٥٦
كنت مع النبي ﷺ في سفر فلما قدمنا المدينة قال لي: ادخل المسجد فصل ركعتين	٧/ ٦٣٢
كنت نائما في المسجد على خميصة لي	٧/ ٣٤٤
كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في حلة	٦/ ٢٤٩
كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله	٨/ ٢٩٧
كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله	٨/ ٣٠١
لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله	٦/ ٤٦٣، ٨/ ٣٨٠
لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد	٧/ ٥٦
لا أُلْفِين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء	٨/ ٩٦
لا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته	٨/ ١٠٢
لا إله إلا الله العليم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم	٨/ ٣٦٩
لا إله إلا الله إن للموت سكرات	٩/ ٧٤-٨٢
لا إله إلا الله ماذا أنزل الليلة من الفتنة	٧/ ١٠٧
لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير	٧/ ٢٦٣
لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب	٧/ ٤٠٣

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد	٩/ ٥٥٩
لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر	٩/ ٥٦٩
لا تقوم الساعة حتى يُخسف بقبائل، فيقال: من بقي من بني فلان	٩/ ٥٤٧
لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود	٨/ ٢٨٦
لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون	٩/ ٣٢٤
لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل	٩/ ٥٤٣-٥٦٧
لا تقوم الساعة حتى يكثر الفحش والتفاحش	٩/ ٥١٥
لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهِمَّ ربَ المال من يقبل صدقته	٩/ ٥٥٤
لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه	٩/ ٥٣٦
لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه	٩/ ٢٢٧-٢٢٨
لا تلعنها فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه	٨/ ٤١٧
لا تنتهي البعوث عن غزو بيت الله عز وجل، حتى يخسف بجيش منهم	٩/ ٥٤٧
لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن	٧/ ٥٢١
لا حرج، لا حرج، إلا على رجل اقترض عرض رجل مسلم وهو ظالم	٧/ ٢٤٩
لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن	٧/ ١١٣-٥٣٥، ٨/ ٤٠
لا كرب على أبيك بعد اليوم، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحدا	٩/ ٧٣
لا نبي بعدي	٦/ ١٨٤
لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك	٦/ ١٣٩
لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك	٩/ ١٠٨
لا وجدت، إنما بنيت المساجد لما بنيت له	٦/ ٦٠٢
لا يا بنت أبي بكر ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق	٧/ ١٢٠-١٢١

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم	٧/ ٥٥٨
لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم	٩/ ٥٤٢
لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به البأس	٨/ ٧٦
لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير	٨/ ٥٢٥
لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به	٧/ ٢١٢
لا يتوضأ أحد فيحسن وضوءه ويسبغه	٦/ ٥٨٧
لا يجعلن أحدكم للشيطان من نفسه جزءا	٦/ ٦٠٦
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث	٦/ ٢٠٧
لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم	٨/ ١٠٣
لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث	٧/ ٥٩-٦٠-٤١٨
لا يَحِنَّ عليكن من بعدي إلا الصابرون	٨/ ٤٤
لا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون، سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة	٩/ ١٣٦
لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم	٧/ ٥٨٠، ٨/ ١٦٠
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	٧/ ٥٠٤-٥٥٤
لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد	٨/ ٣٦١
لا يزال العبد آمناً من عذاب الله ما استغفر الله	٨/ ٤٨٦
لا يزال العبد في صلاة ما دام في مصلاه	٨/ ٥٠٧
لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا	٧/ ٣٠١
لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما	٦/ ٢٧٢، ٨/ ٤٤٤-٤٩٩
لا يزال المؤمن مُعْنقًا صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا، فإذا أصاب دمًا حرامًا بلَّح	٨/ ١١
لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا	٧/ ٥٢٨
لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين	٦/ ٤٤١، ٧/ ٢٠٦

الحـــــــــديث	رقم الجزء والصفحة

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
من صام رمضان فشهر بعشرة أشهر	٧/ ٢١٩
من صام عاشوراء غفر الله له سنة	٦/ ٣٣١
من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل	٦/ ٥٨٤
من صلى لله أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان	٦/ ٥٤٤
من صلى ليلة النصف من شعبان مائة ركعة	٦/ ٣٤٤
من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء	٨/ ٥٢٠
من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين	٨/ ١١٨
من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب	٦/ ٨٨-٨٩، ٨/ ٥٥٣
من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه	٧/ ٥١٧، ٩/ ٢٦١
من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلا في الجنة	٦/ ٥٨٨-٥٩٤
من غسل يوم الجمعة واغتسل ثم بكر وابتكر	٦/ ٥٨٥-٦٠٩
من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها	٧/ ٣٤٢
من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين الأحبة	٧/ ٣٤١
من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله	٧/ ٨
من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد	٨/ ٣٢
من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين	٧/ ١١٦
من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه	٧/ ٣٧-١١٥
من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه	٧/ ٣٧-١١٥، ٨/ ٢٣١
من قتل دون ماله فهو شهيد	٨/ ٤٠
من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة	٦/ ١٨٩
من قتل مؤمنًا متعمدًا فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً	٨/ ١١-٤٤٥
من قتله بطنه لم يعذب في قبره	٨/ ٥٨٦

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
والشاة إن رحمتها رحمك الله	٧/ ٣٤١
والله إني لأحبك في الله	٨/ ٥٣٠
والله إني لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة	٨/ ٢٩١
والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة	٨/ ٤٧٩-٤٨٤
والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ	٦/ ١٧٤
والله ما أعمر رسول الله ﷺ عائشة في ذي الحجة إلا ليقطع بذلك أمر أهل الشرك	٧/ ٢٦١
والله يا بن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة	٨/ ٥٦١
والله يا هزال، لو كنت سترته بثوبك لكان خيرا لك	٧/ ٤٧٦
وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض	٨/ ١٧٢
وإن يك ما قلت حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين	٩/ ٤٤٥
وإنما استحق المؤمن جنتين؛ لأنه امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه	٩/ ٥٨٢
وددنا أن موسى كان صبر	٦/ ١٢٢
ورأيتَ أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان ورأيت الحفاة الجياع العالة	٩/ ٥٥٨
وصلتك رحم	٩/ ٦١٥
وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب... وإياكم ومحدثات الأمور	٩/ ٩١
وقوع كثير من الناس في الفتنة بالمال والدنيا	٩/ ٥٦٣-٥٦٤
وكان صنما من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون	٧/ ٣٧٦
وكان في مرضه يدور على نسائه ويقول: أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا	٩/ ٦٩
وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة	٦/ ٥٨٤
ولستَ تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها	٨/ ١٥٧
ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة	٧/ ١١

الحـــــــديث	رقم الجزء والصفحة
يا سعد إياك أن تجيء يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء	٨/ ١٠١
يا صاحب رسول الله أيصلى على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم	٩/ ٨٦
يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي	٩/ ٥٩
يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوانُ انقطاعِ أَبْهَرِي	٩/ ٦٩
يا عائشة ما فعلت تلك الذهب؟	٩/ ٧٢
يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب	٦/ ١٢٣، ٨/ ٤١٦
يا عبد الله، ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟	٧/ ٦٠٦
يا عثمان لعل الله يقمصك قميصا	٦/ ٢٣٣
يا عدي ما أفرك أن يقال لا إله إلا الله	٧/ ٣١١
يا عقبة بن عامر، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت	٦/ ٤٧٦-٤٧٧
يا عقبة، لا تنسهن، ولا تبت ليلة حتى تقرأهن	٦/ ٤٦٧
يا علي، لأن يدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس	٨/ ٥٤٨
يا عم هل تعرف أبا جهل	٦/ ١٤٩-١٥٠، ٨/ ٢٤٩-٢٥٠
يا عم، قل لا إله إلا الله كلمة أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة	٩/ ٦١٥
يا عمرو، نِعِمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح	٨/ ٣٦
يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله	٨/ ٢٧٣-٢٧٤
يا كعب بن عجرة، إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به	٨/ ٦٥-٨٤
يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك	٦/ ٥١٧-٥١٨
يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن	٧/ ٩
يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع	٨/ ٣٨١-٤٢٠-٤٤١-٤٤٢
يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم	٧/ ٤٨٥
يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا	٩/ ٦٦

ثانيًا: الأحاديث المشار إليها:

الحـــــديث	رقم الجزء والصفحة
الإشارة إلى حديث: أن غزوة بدر كانت في السابع عشر من رمضان	٨/ ٢١٢
الإشارة إلى حديث: عدد الصحابة رضي الله عنهم في غزوة بدر	٨/ ٢١٢
الإشارة إلى حديث: رمي قتلى بدر من المشركين في القليب	٨/ ٢١٨
الإشارة إلى حديث: مقتل أبي عبيدة والده في بدر	٨/ ٢٢٨-٢٢٩
الإشارة إلى حديث: انسحاب المنافقين من الجيش يوم أحد	٨/ ٢٨٤
الإشارة إلى حديث: الإفك	٨/ ٢٨٤
الإشارة إلى حديث: إجازة سمرة بن جندب في أحد وهو صبي	٨/ ٢٩١
الإشارة إلى حديث: تغسيل الملائكة لحنظلة بن عامر	٨/ ٢٩٤
الإشارة إلى حديث: استشهاد عمرو بن أُقيش في أحد بعد إسلامه	٨/ ٢٩٥
الإشارة إلى حديث: انحناء أبي دجانة على النبي ﷺ يقيه النبال في أحد	٨/ ٢٩٧
الإشارة إلى حديث معاهدة النبي ﷺ اليهود بالمدينة	٨/ ٣٤٥
الإشارة إلى حديث: أن النبي ﷺ نحر جملا لأبي جهل غنمه يوم بدر	٨/ ٣٦٥
الإشارة إلى حديث: سعة العرش والكرسي	٨/ ٣٧٠
الإشارة إلى حديث: الصلاة على المتسحرين	٨/ ٥٠٨
الإشارة إلى حديث: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	٨/ ٥٤٧
الإشارة إلى حديث: هل رأى أحد منكم من رؤيا فيقص عليه	٨/ ٥٨٥، ٩/ ٢٣٢
الإشارة إلى حديث التعوذ بالله تعالى من الفقر والقلة والذلة	٨/ ٥٩٦
الإشارة إلى حديث: أبي هريرة رضي الله عنه في الشفاعة	٩/ ٩
الإشارة إلى حديث: كفن النبي ﷺ	٩/ ٨٦
الإشارة إلى حديث: قبر النبي ﷺ	٩/ ٨٦
الإشارة إلى حديث: دفنه ليلة الأربعاء	٩/ ٨٧
الإشارة إلى حديث: رفع قبره نحو شبر	٩/ ٨٧

الحديث	رقم الجزء والصفحة
الإشارة إلى حديث: عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لما أراد قتل والده	٩/ ١٠٨
الإشارة إلى حديث: إن الله ينزل المعونة على قدر المؤنة والصبر على قدر البلاء	٩/ ١٦٧
الإشارة إلى حديث: النساء ناقصات عقل ودين	٩/ ٢٦٠
الإشارة إلى حديث: أكثر أهل النار النساء	٩/ ٢٦٠
الإشارة إلى حديث: نهي المرأة عن السفر بدون محرم	٩/ ٢٦٠
الإشارة إلى حديث: قتل عقبة بن أبي معيط	٩/ ٤١١
الإشارة إلى حديث: استرقاق بني المصطلق وهوازن وخولان	٩/ ٤١١-٤١٢
الإشارة إلى حديث: فداء الأسرى بالمال	٩/ ٤١٢
الإشارة إلى حديث: فداء الأسرى بالعمل عند المسلمين	٩/ ٤١٢
الإشارة إلى حديث: تمزيق كسرى كتاب النبي ﷺ ودعاء النبي ﷺ عليه	٩/ ٤٤٥
الإشارة إلى حديث: غلق أبواب الجحيم في رمضان	٩/ ٥٩٩



٣- كشاف الآثار ومقولات العلماء

أولاً: الأثر وقول العالم بنصه:

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
اشتهي ما لا يكون: مكانا لا يكون فيه أحد من الناس (أحمد بن حنبل)	٦/ ٤٢٩
اعتبروا ما أقول لكم: والله إن كانت العرب أصابت بقتلها عثمان لتحتلبن به لبنا (حذيفة بن اليمان)	٦/ ٢٦٩
اقسم على من لي عليه حق أن يكف يده (عثمان بن عفان)	٦/ ٢٢٩
انفتق في الإسلام فتق لا يرتقه جبل (حذيفة بن اليمان)	٦/ ٢٦٩
الإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه (ابن تيمية)	٧/ ١٤٩
أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء (أم أيمن)	٩/ ٩٨
أتدرون لم حسنت الجنة؟ لأن عرش رب العالمين سقفها (الفضيل بن عياض)	٩/ ٥٨٩
أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال: نعم (حبيب بن زيد الأنصاري)	٦/ ٢٠٣
إثبات الثواب في الخطى في الرجوع كما يثبت في الذهاب (العلماء)	٦/ ٥٨٥
أجر ليلة النصف من شعبان كأجر ليلة القدر (زياد النميري)	٦/ ٣٤١
أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر (محمد بن سحنون)	٦/ ١٥٣
أجمع المسلمون على أن من سب الله أو سب رسوله ﷺ...أنه كافر (إسحاق بن راهويه)	٦/ ١٥٣
أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر (القاضي عياض)	٧/ ٣٧٣
أجمع عقلاء كل أمةٍ على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم (إبراهيم الحربي)	٦/ ٤٥٦
أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل (ابن المنذر)	٦/ ١٥٣
أجمعت الأمة على قتل متنقصه وسابه (القاضي عياض)	٦/ ١٥٣
أجمعوا على أن لا زكاة على الجنين في بطن أمه (ابن المنذر)	٧/ ١٢٥
أجمعوا على عصمة الأنبياء في كل ما يتعلق بالتبليغ (الشنقيطي)	٧/ ٣٧٣
أجمعوا على قتال مانعي الزكاة (ابن قدامة)	٦/ ٦٤٠

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
أفي الكنيسة أنا؟! أو ترى على وسطي زُنَّارًا؟!............(الشافعي)	٦/ ٤٠
أكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء (الطبري)	٦/ ١١٣
أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقاتكم (الحسن البصري)	٨/ ٤٩٦
أكنَّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس (عمر بن الخطاب)	٩/ ٥٥٩
﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى (ابن المبارك)	٨/ ٤٨٧
ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون (أبو الدرداء)	٨/ ٤٢٥
ألا من كان يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات (أبو بكر الصديق)	٩/ ٨٣-٨٤
إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله؟ (يحيى بن معاذ)	٦/ ١١٦
أما بلغهم أن رفع الصوت عند الحديث عن رسول الله ﷺ... (السختياني)	٩/ ١٢٣
أما سب الرسول والطعن في الدين ونحو ذلك فهو مما يضر المسلمين (ابن تيمية)	٦/ ١٥٤
أما علمتم أن لله عبادا أصمتهم خشية الله تعالى (ابن عباس)	٨/ ٣٨٢-٣٨٣
أما وابن الخطاب حي فلا، إنما تكون بعده (خالد بن الوليد)	٩/ ٥٣٥
أما والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني (عثمان بن عفان)	٦/ ٢٤٢
أمانان كانا على عهد الرسول ﷺ رفع أحدهما وبقي الآخر (أبو موسى الأشعري)	٨/ ٤٨٥

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
أُمروا بالزكاة والإحسان في مكة (ابن تيمية)	٦/ ٦٣٨
أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا (بلال بن رباح)	٨/ ٢٧٢
أن ابن مسعود لما أتى الحبشة أخذ في شيء فأعطى دينارين فخلي سبيله (القاسم)	٨/ ٩٠
إن إتمام التقوى أن يتقى الله العبد في مثقال ذرة (أبو الدرداء)	٨/ ٧٨
أن أحد الأمراء سأل وزيره عن قوله تعالى (كل يوم هو في شأن)	٦/ ٤٠٠
إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد (عمر بن الخطاب)	٦/ ٢٣٩
إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل............ (سفيان الثوري)	٦/ ٣٩
أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ (فاصدع بما يؤمر) فسجد (أبو عبيد)	٦/ ٤١٨
أن الأعمال تشرف بثمراتها (العز بن عبد السلام)	٦/ ٤٩٩
أن البرق مخاريق من نار بأيدي الملائكة يزجرون بها السحاب (عدد من السلف)	٨/ ٣٩١
إن البقر والمعز لا تنتطح في قتل الخليفة ولكن ينتطح فيه الرجال بالسلاح (عبد الله ابن سلام)	٦/ ٢١٥
إن الرجل ليستخير الله تعالى فيختار له، فيسخط على ربه (ابن عمر)	٨/ ٥٤٢
إن الرجل ليُشرف على الأمر من التجارة أو الإمارة (ابن مسعود)	٨/ ٥٤١
إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم (قتادة)	٨/ ٤٩٢
إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة (ابن المديني)	٧/ ٤٥٣
إن الله تبارك وتعالى بقسطه وحلمه جعل الرَوْح والفرح في اليقين والرضا (ابن مسعود)	٨/ ٥٣٨
إن الله جعل في هذه الأمة أمانين (ابن عباس)	٨/ ٤٨٦
إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم (ابن مسعود)	٨/ ٦٦

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
إني رجل ذو مال ولا يولد لي...فقال: عليك بالاستغفار (الحسن بن علي)	٨/ ٤٩٥
إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها (ابن عمر)	٨/ ٧٨
إني لأرجو أن يَبَر الله آخِرَ قسمهِ كما بَرَّ أوله (سعيد بن المسيب)	٨/ ٢٩٤
إني لأرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضاناً (أبو عبد الرحمن السلمي)	٧/ ٢٠٦
إني لأرى الشيء أكرهه فما يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن أبتلى بمثله (النخعي)	٧/ ٥١٠
أوقر به حديث رسول الله ﷺ (مالك)	٩/ ١٢٣
أول الفتن قتل عثمان (حذيفة بن اليمان)	٦/ ٢١٢
أول ما تفقدون من دينكم الأمانة (ابن مسعود)	٨/ ١٠٨
أول من جَمَّع بنا في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ (كعب بن مالك)	٦/ ٦١٨
﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ يعمركم ستين سنة (ابن عباس)	٧/ ٢٠٣
أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثا فلم أقل به (الشافعي)	٩/ ١٢٧
إياكم أن توطأ أعقابكم (النخعي)	٦/ ٤٢٨
إياكم والغلو: عام فيجمع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال (ابن تيمية)	٧/ ٢٥٠
الأيام المعلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق (ابن عباس)	٧/ ٢٥٣
أين سراقة بن جُعْشُم؟ فأُتي به أشعرَ الذراعين دقيقَهما فأعطاه عمر سواري كسرى	٩/ ٣٦٨
أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر	٨/ ٣٠٥
باب ذكر فرح الرب تعالى بمشي عبده إلى المسجد متوضياً (ابن خزيمة)	٦/ ٥٨٦
باب من لم يقبل الهدية لعلة (البخاري)	٨/ ١١٢

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافا (ابن قدامة)	٦/ ٣٠٠
تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة (عمر بن الخطاب)	٩/ ٢٤٣
تعلموا العربية فإنها من دينكم (عمر بن الخطاب)	٩/ ٢٤٣
تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن (أبي بن كعب)	٩/ ٢٤٣
التقى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس	٨/ ٤٨٧
﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى (الضحاك)	٨/ ٣٨٠
التكبير مشروع في المواضع الكبار (ابن تيمية)	٦/ ٥٤١-٥٤٢
تلا سعد بن أبي وقاص في قتلة عثمان قول الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾	٦/ ٢١٦
تلك الأصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير (قتيبة بن مسلم)	٨/ ٤٧٨
الثرثار هو كثير الكلام تكلفا (النووي)	٦/ ٨٧-٨٨
جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ (الإمام أحمد)	٩/ ١٢٥
جمّع أهل المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة (ابن سيرين)	٦/ ٦١٩
جمع في هذا الحديث (خير الدعاء عرفة) بين أفضل الدعاء وأفضل الثناء (ابن تيمية)	٧/ ٢٢٤
جميع من سب النبي ﷺ أو عابه ... يقتل (القاضي عياض)	٦/ ١٥٣
الجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان (ابن القيم)	٧/ ٤٥٥-٤٥٦
حديث مسير عمر إلى الشام ووصف مركبه وملبسه	٨/ ٦٠٠
الحسد أول ذنب ارْتُكِبَ في السماء وأول ذنب وقع في الأرض (سفيان ابن عيينة)	٧/ ٥٢٨

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
الحسد داء الجسد (ابن المعتز)	٧/ ٥٣٢
الحسد هو تمنِّي زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت نعمة دين أو دنيا (النووي)	٧/ ٥٢٨
الحمد لله الذي لم يجعله رجلا من المسلمين يحاجني بسجدة.. (عمر)	٩/ ٤٥٣
الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال (ابن عباس)	٩/ ٢٣١
الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال (ابن زيد)	٩/ ٢٣١
خرجت حديثا واحدا عن النبي ﷺ من مئتي طريق (حمزة الكناني)	٦/ ٤٣١
الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه من الله (الحسن البصري)	٩/ ١٢٢
خصال كلها أبكاني، أما أولها فبُطْء إسلامي حتى سُبِقْت (حكيم بن حزام)	٩/ ١٤٩
الخلق كله فلق (ابن القيم)	٦/ ٤٨٣
خير الثوب بقاؤه ونقاؤه وكونه ملبوسا للضرورة والحاجة (شراح الحديث)	٧/ ٤٦٨
خير المسجد المقام ثم ميامن المسجد (عبد الله بن عمرو)	٦/ ٦٠٧-٦٠٨
دع الصلاة فإنها ما تجب عليك (أبو الوفاء بن عقيل)	٨/ ٥٧٤
الدهر عند الله تعالى يومان (سفيان بن عيينة)	٦/ ٤٠٠
ذاك رجل يرى السيف على أمة محمد ﷺ (سفيان الثوري)	٧/ ٣٩١-٣٩٢
ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضى بالقدر والإخلاص في التوكل..(أبو الدرداء)	٨/ ٥٣٤
ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (قتادة)	٩/ ٦

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
الذي أراه أن صلاة العيد فرض عين (ابن عثيمين)	٧/ ١٤٢
الذين قتلوا عثمان أو ألبوا عليه قُتلوا (الذهبي)	٦/ ٢٢٧
رأى ابن مسعود قوما من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال: هؤلاء من الذين ذكر الله ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾	٦/ ٥٥٠
رأيت سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهدا ومن رأينا من فقهاء الناس يقولون في أيام العشر: الله أكبر الله أكبر... (يزيد بن أبي زياد)	٧/ ٢٣٠
رأيت محمد بن سيرين يحدث بأحاديث الناس...فإذا جاء الحديث كلح وتقبض (مهدي بن ميمون)	٨/ ٣٨٥
رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد (قيس بن أبي حازم)	٩/ ١١٠
رأيت يد طلحة شلاَّء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد (قيس بن أبي حازم)	٨/ ٢٩٥-٢٩٦
ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فأعتقنا	٩/ ١٥١
رجحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان (ابن تيمية)	٧/ ١٤١
رد ابن تيمية وابن القيم أحاديث دخول ابن عوف رضي الله عنه الجنة حبوا	٩/ ١٤٣-١٤٤
الرشوة تسفه الحليم وتعمي عين الحكيم (كعب الأحبار)	٨/ ٨٨
الرضا بالطاعة من رعونات النفس (ابن القيم)	٧/ ٢١٦
الرضا عزيز ولكن الصبر مُعَوّل المؤمن (الحسن البصري)	٨/ ٥٣٩
الرعد الملك، والبرق ضربة السحاب بمخراق من حديد (علي بن أبي طالب)	٨/ ٣٩١
الرعد ملك والبرق مِخْراقٌ من حديد (علي بن أبي طالب)	٨/ ٣٩١
رمضان له عدة من أيام أخر وعاشوراء يفوت (الزهري)	٩/ ٤٠

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
ريح الصبا أُرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى كفأت قدورهم (مجاهد)	٨/ ٣٣٨
الزبانية هم الشرط في كلام العرب (قال قتادة)	٩/ ٦٠٩
الزكاة تتضمن الطهارة؛ فإن فيها معنى ترك السيئات (ابن تيمية)	٦/ ٦٥١
الزكاة من الزكاء والنماء والزيادة (ابن قتيبة)	٦/ ٦٤٧
الزم ابن عمك (أبو طالب لابنه علي)	٩/ ٦١٥
الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب (مالك)	٦/ ٣٠١
سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل (ابن عباس)	٩/ ٢٢-٣٦
﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ جبل في النار من نار يكلف أهلها بصعوده (ابن عباس وأبو سعيد)	٩/ ٦٢٥
سألت عطاء بن أبي رباح عن النشرة فكره نشرة الأطباء (ابن جريج)	٦/ ٢٩٨
سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته (عبد الله بن الزبير)	٨/ ٣٩٤
سبيل الله عام يقع على كل عمل خالص (ابن الأثير)	٦/ ٦٢٧
سبيل الله عند الإطلاق إنما ينصرف إلى الجهاد (ابن قدامة)	٦/ ٦٢٧
ستير: أي انه ساتر يستر على عباده (البيهقي)	٧/ ٤٦٢-٤٦٣
ستير: تارك لحب القبائح ساتر للعيوب والفضائح (المناوي)	٧/ ٤٦٣
سلط الله تعالى عليهم الريح فكفأت قدورهم، ونزعت خيامهم (مجاهد)	٨/ ٤١٣
سلمني لرمضان: أي: لا يصيبني ما يحول بيني وبين صومه (ابن الأثير)	٧/ ٢٠٧-٢٠٨
سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحَرَجَة (معاذ بن عمرو بن الجموح)	٨/ ٢٥٠
سمي العقل حجرا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به (ابن كثير)	٩/ ٢٩٦
سمي عيسى عليه السلام مسيحا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ (ابن عباس)	٩/ ٣٥٧

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
سنة الفجر تجري مَجْرَى بداية العمل، والوتر خاتمته (ابن تيمية)	٦/ ٤٦٩
سنة الفطر ثلاث: المشي إلى المصلى والأكل قبل الخروج والاغتسال (ابن المسيب)	٧/ ١٤٣
سيعلمون عاقبة لهوهم بالتكاثر (الحسن ومقاتل)	٦/ ٤٣٣
سئل ابن المبارك عن حديث وهو يمشي فقال: ليس هذا من توقير العلم	٩/ ١٢٤
سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الشبهة فقال: هو الشيء بين الحلال والحرام	٨/ ٨٠
شأن القصص المفتتحة بـ (واتل عليهم) أن يقصد منها وعظ المشركين (ابن عاشور)	٦/ ١٢١
شبه المفتخرين بآبائهم الذين ماتوا في الجاهلية بالجِعْلان (القاري)	٧/ ٥٤٣-٥٤٤
شبه عليه الصلاة والسلام سقوط الفتن وكثرتها بسقوط القطر (العلماء)	٦/ ٢٦١
شد يديك به فإن أمه ذات متاع (مصعب بن عمير)	٨/ ٢٢١
الشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن (القرطبي)	٨/ ١٥٧
شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح ثم وقف (عمرو بن ميمون)	٧/ ٢٦٢-٢٦٣
الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سَهَا وغفل وسوس (ابن عباس)	٨/ ٥٧٢
صلاة العيد إنما تقام في المدن والقرى (ابن باز)	٧/ ١٤٥
صلاة العيد فرض كفاية عند كثير من أهل العلم (ابن باز)	٧/ ١٤٢
صلاة العيد من أعاظم شعائر الإسلام الظاهرة (ابن القيم)	٧/ ١٤٢
صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة (أبو العالية)	٧/ ٤٩
صلاة الله على النبي ﷺ معناها: اللهم اثن عليه في الملأ الأعلى (ابن عثيمين)	٧/ ٥٠

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
	٦/ ٦٢٤
فالقرآن والسنة ينهيان عن تفسيق المسلم وتكفيره ببيان لا إشكال فيه (ابن عبد البر)	٦/ ١٩٥-١٩٦
فالمَدخل الجنة، والمُدخل الإدخال، يعني إدخالاً كريماً (السمعاني)	٩/ ٥٨٠
فأما طول الأمل فينسي الآخرة وأما اتباع الهوى فَيَصُدُّ (علي بن أبي طالب)	٦/ ٤٩٧
فإن كان كفرا فقد أجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها (الشنقيطي)	٧/ ٣٧٧
فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر (أنس بن مالك)	٦/ ١٤٠
فإني أذكر الله تعالى وأهلل وأسبح وأستغفر فإن الملائكة تقول: اللهم اغفر له (سعيد ابن المسيب)	٨/ ٥٠٧
الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها (قتادة)	٩/ ٥٨٨
فرعون هو أول من صلب الناس وقطع الأيدي والأرجل من خلاف (ابن عباس)	٩/ ٢٢
الفسحةُ في الدين سَعَةُ الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتلُ ضاقت (ابن العربي)	٨/ ١٠
الفقه في الدين: إسباغ الوضوء، وقلة إهراق الماء (محمد بن عجلان)	٨/ ٥٧٦
فلعن المسلم العين حرام وأشد منه رميه بالكفر (ابن ناصر الدين الدمشقي)	٦/ ١٩٧-١٩٨
فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه (الزهري)	٨/ ٣٦٦
فمن تعصب لأهل بلدته أو مذهبه ... كانت فيه شعبة من الجاهلية (ابن تيمية)	٧/ ٥٥١

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
فو الله إن صلى القوم جميعا فإن قلوبهم لمختلفة (الحسن البصري)	٦/ ٢٧٠
فوالذي نفسي بيده لكأنما كانت على وجوهنا أغطية فكشفت (ابن عمر)	٩/ ٨٤
فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال (الأنصار)	٨/ ٢٠٦
في المحن والبلايا... معرفة عز الربوبية (العز بن عبد السلام)	٦/ ٢٢٣
في قول الخليل ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لم يذكر عملا غير الصلاة (محمد بن نصر)	٦/ ٥٧١
في قوله (الله أكبر) بيان عظمته فإن الكبرياء تتضمن العظمة (ابن تيمية)	٧/ ٣١٢
في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لم تترك هذه الآية خيرا إلا دلت عليه (الحسن)	٦/ ٨١
في قوله تعالى ﴿إنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: كلاما عظيما (ابن عباس)	٦/ ٤٠٩
في قوله تعالى ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد بعد وعيد (الحسن البصري)	٦/ ٤٣٣
في قوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين (السعدي)	٦/ ٢٠٤
في قوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم (ابن كثير)	٦/ ٢٠٤
في قوله تعالى ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين (القرطبي)	٦/ ١٢١
في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ... ﴾ كفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته (القاضي عياض)	٦/ ١٣٧
في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ القول والفعل المحرم (السعدي)	

الأثـــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
البنان مثل وسم النار (الربيع بن أنس)	٨/ ٢٢٧
كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف (طلحة بن عبدالله)	٨/ ٤٥
كان -أي يونس- كثير الصلاة في الرخاء فنجاه الله تعالى بذلك (قتادة)	٦/ ٥٧٧-٥٧٨
كان بعض السلف إذا مرَّ بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين	٧/ ٤٣٤
كان بعض الصحابة ظن أن الخمر حرمت على العامة (ابن تيمية)	٦/ ٢٠٦-٢٠٧
كان رئيس الخطباء في القرن الخامس يعرض أحاديث الخطبة على البغدادي	٦/ ٤٣
كان عليه الصلاة والسلام يلبس ما وجده (القاضي عياض)	٧/ ٣٥١
كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء	٩/ ٦٠٥-٦٠٦
كان فيكم أمانان مضت إحداهما وبقيت الأخرى (أبو هريرة)	٨/ ٤٨٥-٤٨٦
كان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه (جعفر بن محمد)	٩/ ١٢١
كان محمد بن المنكدر لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا كان يبكي (مالك)	٨/ ٣٨٥
كان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك فإذا جاء الحديث خشع	٩/ ١٢٤
كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة (الزهري)	٧/ ٤٥٨
كان والله أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا (علي بن أبي طالب)	٩/ ١٠٨
كان يذكر النبي ﷺ فيُنظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم (عبد الرحمن بن القاسم)	٩/ ١٢٢
كان يقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر (القرطبي)	٦/ ٥٤٢
كانت الهدية في زمن رسول الله هدية، واليوم رشوة (عمر بن عبد العزيز)	٨/ ١١٢

الأثـــر	رقم الجزء والصفحة
كانت صلاة الليل فريضة (البغوي)	٧/ ٩٩
كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة (مطر الوراق)	٦/ ٥٥٠
كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان (معلى بن الفضل)	٧/ ٢١٦
كانوا يعطون صدقة الفطر حتى يعطوا عن الحبل (أبو قلابة)	٧/ ١٢٥
كانوا يقولون: موت العلم ثلمة في الإسلام (الحسن البصري)	٧/ ٤٥٨
كتموا الناس أمر محمد ﷺ ونبوته وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة (الطبري)	٨/ ٨٥
كرهت أن أحدث عن رسول الله وأنا مضطجع (عن سعيد بن المسيب)	٩/ ١٢٤
الكفو: هو المماثل والمساوي (ابن القيم)	٦/ ٤٦٤
كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا (ابن مسعود)	٧/ ٤٣٣
كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي وإن لم تسمعوه مني (الإمام الشافعي)	٩/ ١٢٦
كل كمال وخير في الموجودات فهو مستفاد من خير الله تعالى وكماله (ابن القيم)	٧/ ١٩
كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه ثم هو على ثلاثة أقسام (الخطابي)	٨/ ٧٦
كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل (أحمد بن حنبل)	٦/ ١٥٣-١٥٤
كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثا مثل هذا رأيت عليه القتل (أحمد بن حنبل)	٦/ ١٥٣
كل يوم له إلى العبيد بر جديد (أبو سليمان الداراني)	٦/ ٣٩٩
كلما بلغني عن النبي ﷺ قلت به (الإمام الشافعي)	٩/ ١٢٦

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــــــر	رقم الجزء والصفحة
	٧/ ٢٠٧
اللهم لا تُخْرِج نَفْسي حتى تَقَرَّ عيني من بني قريظة (سعد بن معاذ)	٨/ ٣٤٦
لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه (عائشة)	٩/ ٨٥
لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير (عثمان بن عفان)	٩/ ٦٠٦
لو تدبرّ الناس هذه السورة لوسعتهم (الشافعي)	٦/ ٤٤٨
لو رأيت رجلا يرضع شاة في الطريق فسخرت منه خفت أن لا أموت حتى أرضعها (أبو موسى الأشعري)	٧/ ٥١٠
لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلبا (ابن مسعود)	٧/ ٥٠٩
لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف (إبراهيم بن أدهم)	٧/ ٢١٥
لو فكَّر الناس كلُهم في هذه السورة لكفتهم (الشافعي)	٦/ ٤٤٨
لو قدرتُ أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت (البيكندي)	٩/ ٩٤
لو كان قتل عثمان هدى لاحتلبت به الأمة لبنا (أبو موسى الأشعري)	٦/ ٢١٦
لو كان للذنوب ريح ما استطاع أحد منكم أن يدنو مني (محمد بن واسع)	٧/ ٤٠
لو كان للمنافقين أذناب لضاقت بكم الطرق (مالك بن دينار)	٦/ ٣٧١
لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما وأمسكت الأخرى (مطرف بن عبد الله)	٦/ ٢٧٣
لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى... (الفضيل بن عياض)	٨/ ٥٥١
لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله (عمر)	٩/ ١٢٣

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثـــــر

رقم الجزء والصفحة

الأثــــــر	رقم الجزء والصفحة
ما عالجت شيئا أشد علي من الورع (يونس بن عبيد)	٨/ ٧٩
ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم (سعيد بن جبير)	٧/ ٤٥٩
ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة (سعيد بن المسيب)	٦/ ٥٤٧
ما فاتته التكبيرة الأولى قط (بشر بن منصور)	٦/ ٥٤٨
ما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه (عمرو بن العاص)	٩/ ١٠٨
﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ لا ترون لله تعالى عظمة (مجاهد)	٨/ ٣٨٠
﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ ما لكم لا ترون لله تعالى عظمة (ابن عباس)	٨/ ٣٧٢
﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ ما لكم لا تعظمون الله تعالى حق عظمة (سعيد بن جبير)	٨/ ٣٨٠
﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ ما لكم لا تعلمون لله تعالى عظمة (ابن عباس)	٨/ ٣٨٠
ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولا (بعض السلف)	٦/ ٢٣١
ما مررت بآية من كتاب الله تعالى لا أعرفها إلا أحزنني (عمرو بن مرة)	٦/ ٥٢٧
ما من إنسان إلا والشيطان متبطن فقار ظهره (خالد بن معدان)	٨/ ٥٧٢-٥٧٣
ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه (ابن مسعود)	٨/ ٤٦٧
مات أعلم الناس وأحلم الناس ولقد أصيبت به هذه الأمة (جابر بن عبد الله)	٧/ ٤٥٨
مات اليوم حبر هذه الأمة ولعل الله يجعل في ابن عباس منه خلفا (أبو هريرة)	٧/ ٤٥٧
مات حكيم حين مات وإنه لمن أكثر قريش مالا (عروة بن الزبير)	٩/ ١٥٠

الأثــــر	رقم الجزء والصفحة
مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة (ابن حجر)	٦/ ٤٩٩
المسجد خلف المقام وعن يمين الإمام (عبد الله بن عمرو)	٦/ ٦٠٨
المسيح أصله بالعبرانية مشيحا بالسين فعرب كما عرب موشى بموسى (أبو عبيد)	٩/ ٣٥٧
المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمي الدجال (النخعي)	٩/ ٣٥٧
المسيح خلقه خلقا حسنا مباركا والمسيخ خلقه خلقا ملعونا قبيحا (أبو الهيثم)	٩/ ٣٥٧
مشيت مع زيد بن ثابت إلى المسجد فقارب بين الخطى (أنس بن مالك)	٦/ ٥٨٤-٥٩٧
معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص (ابن الجوزي)	٦/ ١٢٥
كلام الإمام مالك في الرجاء عند موته	٧/ ٧٨
مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى (ابن سماعة التيمي)	٦/ ٥٤٨
الملائكة خير للمسلمين من ابن الكواء (أصحاب ابن مسعود)	٨/ ٥٠٣
الملك يزجر السحاب بالمخاريق يسوقه إلى حيث يريد الله عز وجل (أحد السلف)	٨/ ٣٩١
من أساء سرا فليتب سرا ومن أساء علانية فليتب علانية (ميمون بن مهران)	٧/ ٤٧٤
من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعًا (سعيد بن جبير)	٨/ ٩
من أقام في أرضنا فليكثر من الاستغفار فإن مع الاستغفار القطار (أعرابي)	٨/ ٤٩٦
من البدع المحرمة الانحناء عند اللقاء بهيئة الركوع (ابن علان)	٦/ ٥٦٤
من الحب في الله حب أولياء الله وهم الأنقياء العلماء الفضلاء (ابن عبد البر)	٨/ ٥٣١
من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة (ابن عباس)	٧/ ٣٢٦
من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره (ابن عباس)	٨/ ٣٨١

الأثر	رقم الجزء والصفحة
والذي لا ريب فيه أنه ﷺ كان معصوما قبل الوحي وبعده (الذهبي)	٧/ ٣٧٧
والذي نجاني يوم بدر (حكيم بن حزام)	٩/ ١٥١
والذي نجاني يوم بدر (عكرمة بن أبي جهل)	٨/ ٢٧٧
والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي (أبو بكر)	٩/ ١٠٧
والذي نفسي بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الأرض لفسدت	٩/ ٦٢٤
والذي نفسي بيده، إن الشيطان لازم بالقلب ما يستطيع صاحبه أن يذكر الله تعالى (أبو الجوزاء)	٨/ ٥٧٢
والله إن كان الرجل ليأتي الحي العظيم فما يجد به كاتبا (الحسن البصري)	٩/ ٥٦٠-٥٦١
والله لا أدع شيئًا صنعته في الجاهلية إلا صَنَعْتُ مِثْلَه في الإسلام (حكيم بن حزام)	٩/ ١٥٠
والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله (علي بن أبي طالب)	٨/ ٣٠٦
والله لأنا خير من ذي يزن، ولأبي خير من أبيه (أسامة بن زيد)	٩/ ١٤٨
والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها (عبد الله بن الزبير)	٧/ ٤٢٨-٤٢٩
والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزلها حتى تلاها أبو بكر (ابن عباس)	٩/ ٨٤
والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها (بلال بن رباح)	٦/ ٢٠٣
والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب (ابن عباس)	٩/ ٦٠٨
والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناس من أهل المدينة...فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته (سعيد بن المسيب)	٨/ ٥٦٦

الأثــــــر	رقم الجزء والصفحة
والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا (قتادة)	٧/ ١٣٥
والله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه (عمر)	٦/ ٤٢٧
والله ما هو إلا أَنْ سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (عمر بن الخطاب)	٩/ ٨٤
والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف (ابن حجر)	٧/ ٤٣٧
وأما تسميته ذلك دعوى الجاهلية فهو كراهة منه لذلك (النووي)	٧/ ٥٤٥
وإنها لفي كتاب الله تعالى؟! ما شعرت إنها في كتاب الله تعالى! (عمر بن الخطاب)	٩/ ٨٤
وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله تعالى الملائكة (مطرف بن عبد الله)	٨/ ٥٠٣
وحدثتك أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر (حذيفة بن اليمان)	٩/ ٥٣٤-٥٣٥
وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة (ابن تيمية)	٦/ ٦٤٠
وقد أجمع العلماء ... على أن كل مسلم صدر منه سب الرسول أو تنقيصه وجب قتله ويحكم بكفره و ردته عن دين الإسلام (ابن تيمية)	٦/ ١٥٣
وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد (ابن القيم)	٧/ ٤٣٥-٤٣٦
وكان أول من دخل عليه -عثمان- الدار محمد بن أبي بكر (ابن كثير)	٦/ ٢٤١-٢٤٢
وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا في طاعة (الخطابي)	٨/ ٣٨٣
﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه عظمة تامة (القرطبي)	٧/ ٣١٠
وكل علم أطلق في القرآن أو في السنة فإنما يراد به علم الكتاب والسنة (ابن حجر)	

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
	٧/ ٤٣٧
ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عُذرا إلا صرفَ الهمة للتحذير من هذا المصنف -يعني كشاف الزمخشري المعتزلي (ابن المُنَيِّر)	٧/ ٤٥٦
ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر (ابن القيم)	٧/ ٥٧٤
ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته (ابن كثير)	٦/ ٢٠٣
وليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة (ابن تيمية)	٦/ ١٩٦
﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ﴾ تعظيمها: استسمانها واستعظامها (ابن عباس)	٧/ ٢٣١
وهل ينتفع من هذا إلا بريحه (عمر بن عبد العزيز)	٨/ ١٠٤
ويل واد في جهنم (السلف)	٩/ ٦٢٤
يا ابن أخي ارفع إزارك فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك (عمر بن الخطاب)	٧/ ٥٦٣
يا ابن أخي ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي (عثمان بن عفان)	٦/ ٢٤١
يا أهل المدينة: ما أسرع ما أحدثتم؛ والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم (عمر ابن الخطاب)	٩/ ٥٤٩
يا بني، لو كنت رضًا لاستعملتك يعني: ابن أبي حذيفة (عثمان بن عفان)	٦/ ٢٤٢
يا بني، يقال: إن للوضوء شيطانًا يُقَال له: الولهان (أحمد بن حنبل)	٨/ ٥٧٥-٥٧٦
يا خليل الرحمن، ترفع قوائم البيت وأنت مشفق أن لا يقبل منك (وهيب بن الورد)	٦/ ١١٦
يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك (وهيب بن	

الأثـــــر	رقم الجزء والصفحة
يواري سوءاتكم: أي يستر عوراتكم عن أعينكم (الطبري)	٧/ ٤٦٣
يواري سوءاتكم: هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة (القرطبي)	٧/ ٤٦٣
يوشك أن تمر الجنازة في السوق على الجماعة فيراها الرجل...(أبو ذر)	٩/ ٥٣٧
يوم قُتل عثمانُ نفرت القلوب منافرها (زيد بن صوحان)	٦/ ٢١٤
اليوم هلكت العرب، قالها لما قتل عثمان (عبد الله بن سلام)	٦/ ٢٦٩

ثانيا: الإشارة إلى الأثر أو قول العالم:



٤- كشاف المقولات المهمة

أولا: أقوال قادة المسلمين:

ثانيًا: أقوال المشركين:

ثالثًا: أقوال المنافقين:

رابعًا: أقوال اليهود والنصارى:

سادسًا: أقوال الباطنيين وما قيل فيهم:

سابعًا: أقوال المنحرفين:

ثامنًا: أقوال مفكرين غربيين:

تاسعًا: أقوال في المرأة:

إن الاعتداءات الجنسية بأشكالها المختلفة منتشرة انتشارًا سريعًا في أمريكا وأوربا ...وهي القاعدة وليست الاستثناء بالنسبة للمرأة العاملة في أي نوع من الأعمال تمارسه مع الرجال (لين فارلي) ٨/ ١٦٣

إن المرأة السويدية اكتشفت أنها اشترت وهما هائلا بثمن مفزع (بريجيت أوف) ٩/ ٢٨٩

إن مضايقة الرئيس لمرؤوسيه أمر قد خرج عن دورة المياه ، أي خرج عن السرية وصار علنا (مجلة نيوزويك الأمريكية) ٨/ ١٦٣

أنصحكم بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، امنعوا الاختلاط (هيليان ستانبري) ٧/ ٥٧٥

إنني أعيش وحيدة. أولادي وأحفادي يعيشون في مونتريال (عجوز إيرلندية) ٩/ ٢٨٩

إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال ٧/ ٥٧٦

على قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا (الليدي كوك) ٧/ ٥٧٦



٥- الكشــاف التفصــيلي

المجلد السادس

التمهيد

٤- تكميل موضوع الإشارة في الخطبة :

٥- استدلال الخطيب بالقرآن:

الخطب

العقيدة

٢٠٤- حقوق النبي ﷺ علينا (٢) وجوب نصرته:

٢١٣- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٤) الشبهات وردها:

نقموا على عثمان رضي الله عنه أمورا أجابهم عنها، وهي:

٢٢٦- ألهاكم التكاثر (١):

٢٤٢- عيد الأسبوع (٢) فضل صلاة الجمعة:

المجلد السابع

٢٤٧- رمضان والإيمان:

٢٤٨- رمضان والمغفرة:

٢٤٩- رمضان وسلامة القلوب:

٢٨٣- العلم والتعليم (٣) العلماء الربانيون أمان الأمة:

٢٨٤- ستر الله تعالى:

٢٨٨- من حقوق البنات على آبائهن:

٢٨٩- الحسد.. أثره وعلاجه:

٢٩٠- العصبية الجاهلية:

٢٩١- الكبر والخيلاء:

٢٩٢- اختلاط النساء بالرجال (١) الحكم والأدلة:

المجلد الثامن

٣٠٠- الإنسان والمال (٢) رأي في تجارة الأسهم:

٣٠١- الإنسان والمال (٣) شؤم الكسب الخبيث:

٣١٢- الهجرة النبوية:

٣١٣- الغزو في رمضان (١):

٣٣١- إعصار جونو:

٣٣٢- حدثان كبيران:

٣٣٣- حقيقة الزمن (١) الزمن من خلق الله تعالى:

٣٣٩- الحب في الله تعالى (١):

٣٤٠- الحب في الله تعالى (٢):

المجلد التاسع

السير والأعلام

٣٤٧- خلق آدم عليه السلام ووفاته:

٣٥٩- مقتل الشيخ أحمد ياسين:

٣٦٠- مقتل حاكم العراق:

٣٩٢- نار الآخرة (٢) أبوابها ودركاتها وخزنتها:

٣٩٣- نار الآخرة (٣) أشجارها وأوديتها وجبالها:



٦- كشاف الفوائد والمسائل

أولا: الفوائد الحديثية:

حديث: وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم، قال الترمذي حسن صحيح، وصححه الحاكم، لكن أعله ابن رجب ٩/ ٣٠٩-٣١٠

حديث رافع بن عمير: أن الله تعالى قال لداود: ابن لي بيتا....الخ، حديث منكر وبيان وجه نكارته ٩/ ٣٥٤-٣٥٥

تعارض حديثين في موقف علي رضي الله عنه من ابن ملجم، والأصح أنه أوصى به خيرا إلى أن ينظر في أمره إن عاش، وأما الأمر بتحريقه فضعيف ٩/ ٤١٦

حديث ابن مسعود: بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف، أعله البوصيري بالانقطاع، فتعقبه الألباني وصححه ٩/ ٥٤٥-٥٤٦

حديث: لقد تركنا محمد ﷺ وما طائر يقلب جناحيه... رجح الدارقطني إرساله ٩/ ٥٥٣-٥٥٤

ثانيًا: المسائل والبحوث:

في الإشارة بالأصبع حال الدعاء على المنبر حديث حصين بن عبد الرحمن: رأيت بشرا بن مروان يوم الجمعة يرفع يديه... فسر رفع اليدين بالإشارة الطيبي وشرف الحق آبادي، والصواب أنه الرفع حال الدعاء وهو المنهي عنه، وإثبات ذلك بالروايات ٦/ ١٣-١٩

حكم قراءة القرآن في الخطبة، إيراد أحاديث في ذلك، وأقوال الفقهاء، والتعقب على من منع ختم الخطبة الأولى بآية يستعيذ قبلها ٦/ ٥٩-٦٣

حديث قراءة النبي ﷺ سورة (ق) على المنبر تحقيق القول في مسائل منها: هل تلزم هذه السورة (ق) عينها؟ وهل كان يكتفي بقراءتها عن الوعظ والتذكير؟ وهل كان يقرؤها كاملة في كل خطبة أم يقرأ بعضها، فحفظت كل السورة في عدد من الخطب؟ أقوال العلماء في ذلك ٦/ ٦٤-٦٦

في حديث: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه، في معنى (كفتاه) أقوال كثيرة ساق الحافظ ابن حجر منها سبعة، واحتمل إرادتها جميعا، ورجح ابن القيم أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه ٦/ ٧٦-٧٧

إذا قرأ في الخطبة آية فيها سجدة: السجود على المنبر وعدمه، الأحاديث في ذلك، وأقوال

ثالثًا: اللغة والغريب:

رابعًا: الأوائل:



٧- كشاف خطب المناسبات

أولا: بداية العام ونهايته:

ثانيا: صيام عاشوراء:

ثالثا: بدعة الاحتفال بالمولد النبوي:

رابعًا: بدع رجب وشعبان:

خامسًا: استقبال رمضان:

سادسًا: رمضان:

سابعًا: ما بعد رمضان:

ثامنًا: فتن التفرق والاختلاف والتكفير والتفجير:

تاسعا: شدة الحر:

عاشرا: نزول المطر وجمال الجو:

حادي عشر: النوازل الربانية الكونية:

ثاني عشر: الإجازة:

ثالث عشر: بداية العام الدراسي:



٨- كشاف الخطب مرتبة حسب التاريخ

الترتيب اسم الخطبة	الجزء والصفحة	تاريخها
٣١٢- الهجرة النبوية	٨/ ٢٠٣	١٢/ ١/ ١٤١٤هـ
٣٤٤-وسوسة الشيطان للإنسان	٨/ ٥٦٩	١١/ ٧/ ١٤١٤هـ
٣١٣-الغزو في رمضان (١)	٨/ ٢١١	١٥/ ٩/ ١٤١٤هـ
٢٦٤-العشر والحج والأضحية	٧/ ٢٢١	٣/ ١٢/ ١٤١٤هـ
٣٤٨- في قصة موسى وفرعون	٩/ ٢١	٨/ ١/ ١٤١٥هـ
٢٨٩- الحسد.. أثره وعلاجه	٧/ ٥٢٧	٢٣/ ٥/ ١٤١٥هـ
٣٧٩- مأساة البوسنة (١)	٩/ ٤٢١	١٤/ ٧/ ١٤١٥هـ
٣٦٧- تحرير المرأة	٩/ ٢٧٥	٥/ ٨/ ١٤١٥هـ
٣١٤- الغزو في رمضان (٢)	٨/ ٢٢٣	١٨/ ٩/ ١٤١٥هـ
٢٥٥-في ختام رمضان مفلحون وغافلون	٧/ ١١٩	٢٥/ ٩/ ١٤١٥هـ
٣٤٥- في القبر عذاب ونعيم	٨/ ٥٧٩	٣٠/ ١٠/ ١٤١٥هـ
٣٨٠- مأساة البوسنة (٢)	٩/ ٤٣١	١/ ٣/ ١٤١٦هـ
٣٥١- من صفات الرسول	٩/ ٥٣	١٥/ ٣/ ١٤١٦هـ
٣٦٨- مؤتمر المرأة في بكين	٩/ ٢٨٥	١٣/ ٤/ ١٤١٦هـ
٣١٩- إجلاء بني قينقاع	٨/ ٢٧٩	١٩/ ١٠/ ١٤١٦هـ
٢٩١- الكبر والخيلاء	٧/ ٥٥٣	١١/ ١/ ١٤١٧هـ
٣٢٨-تعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره	٨/ ٣٧٩	٦/ ٦/ ١٤١٧هـ
٣٧١- الحرب الدينية والحرب القومية	٩/ ٣١٩	١٢/ ١/ ١٤١٩هـ
٣٥٨-حكيم بن حزام رضي الله عنه	٩/ ١٤٥	١٥/ ٢/ ١٤٢٤هـ
٣٢٦-صلح الحديبية بين الصلح والفتح	٨/ ٣٥٧	٢٤/ ١١/ ١٤٢٤هـ

